كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

حققه وعلق عليه
إبراهيم الزيبق

الجزء الأول

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

١

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ _ ٣١٩٠٣٩ _ ٦٠٣٢٤٣
ص.ب: ١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت - لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112-319039-603243
P.O. Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة ©١٩٩٧م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكِّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبـه ثقتي

يعد كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة من أهم الكتب وأشهرها التي أرخت لدولتي نور الدين وصلاح الدين، وما تخللهما من حروب مع الصليبيين، وقد امتاز هذا الكتاب بمنهج واضح، وحسن استخدام للموارد، فأبو شامة بحسه التاريخي المرهف ساق مقتبساته بانسجام جعلها تبدو وكأنها قطعة واحدة من أسلوبه.

وبرأيي أن الذي جعل كتاب الروضتين ينبض بسحر التاريخ هو موقف مؤلفه الفكري الواضح، والذي تجلى من خلال اختياره لعنوانه «كتاب الروضتين»، فأبو شامة الذي كاد يدرك عصر صلاح الدين[1] عاش في فترة مضطربة، يتقاتل فيها الإخوة باستماتة على الحكم، رأى في دولتي نور الدين وصلاح الدين روضتين في صحراء هذه الفوضى المترامية، بل أحس ــ وهو المفجوع بعصره ــ كأن ثمة شبهاً بين عمر بن الخطاب وعمر بنِ عبد العزيز وبين نور الدين وصلاح الدينِ، فتحمس لإنشاء هذا الكتاب، مستجيباً لنداء ظامىء إلى العدل والاستقرار، مخاطباً ملوك عصره وكل عصر: لن أكتب لكم عن العمرين فقد بَعُدَ زمانهما، وتشعرون بعجز عن التشبه بهما، حسناً، هاكم سيرة ملكين من عصركم، وهما من بعض ملوك دهركم، ولن تعجزوا عن التشبه بهما.

فأبو شامة لم يكتب تاريخه ليقدمه إلى السلطان طمعاً في نوال أو ثناء، بل كتبه منهجاً في الإدارة العملية من خلال حكم ملكين عادلين، ومن ثم جاء كتابه بهذا الاتساق الرائع والبناء المحكم، وبلغةٍ يفهمها الخاص والعام ــ على حد تعبيره ــ وفي أكبر جوامع دمشق ــ الجامع الأموي ــ راح يقرؤه الناس.

وكما انطلق أبو شامة في تأليف كتابه من موقف فكري واضح ننطلق نحن من الموقف ذاته في إخراج الكتاب إخراجاً علمياً دقيقاً.

---

(١) بين وفاة صلاح الدين وولادة أبي شامة عشر سنوات.

ففي صراعنا مع الصهيونية الآن تكتسب الكتب التي تحدثنا عن الحروب الصليبية أهمية خاصة، للتشابه الواضح بين الصليبيين والصهيونيين. . .

إننا نقدم للباحثين نصوصاً عن تلك الفترة يمكن أن يطمئنوا إلى صحتها، من أجل أن تقوم دراستهم على أسس سليمة علمياً، فالذين لا يؤمنون بمقولة: «التاريخ يعيد نفسه» يستبعدون الاستفادة من تاريخنا في صراعنا الآن مع الصهيونية. وبرأيي أن التاريخ لا يعيد نفسه تماماً، فلكل عصر ظروفه وأحواله، ولكن ثمة ثوابت ومتغيرات في كل عصر، ثوابت نلتقي فيها مع العصور الأخرى، ومتغيرات ننأى بها عن العصور الأخرى أيضاً، فإذا استطعنا إدراك الثوابت التي مكنت أجدادنا من الانتصار على الصليبيين نكون قد وضعنا قدمنا على أول طريق التحرير. . .

إن الصهيونيين أنفسهم يدركون هذا التشابه بين احتلالهم لأرضنا واحتلال الصليبيين لها من قبل، ويقومون بدراسة موقف أجدادنا ويحللونه من جذوره كي يتفادوا نهاية كنهاية حطين وما بعد حطين، وثمة فِرَقُ عمل كاملة في الجامعة العبرية تتخصص في هذا الموضوع[١]. . .

فلم لا نستفيد نحن من تاريخنا في إدراك هذه الثوابت كي نصنع حطين أخرى؟. .

طبعتا الكتاب

هذا الكتاب الهام والمشهور تم طبعه منذ مئة وإحدى وعشرين سنة هجرية في مطبعة وادي النيل بمصر (١٨٧١ م ــ ١٢٨٨ هـ) عن نسخة خطية فرغ من نسخها سنة (٧٣٤ هـ)[٢].

هذه الطبعة ــ على ما فيها من أوهام وتحريفات وتصحيفات ــ ظلت عمدة الباحثين في تاريخ تلك الفترة حتى نشر الدكتور محمد حلمي محمد أحمد من مصر سنة (١٩٥٦ م) القسم الأول من الجزء الأول، ثم نشر سنة (١٩٦٢ م) القسم الثاني من الجزء الأول. وتوقف منذ ذلك التاريخ إصدار تتمة الكتاب، وتراوحت استفادة الباحثين بين الطبعة القديمة ونشرة الدكتور محمد حلمي الناقصة. بل ظن بعض الباحثين أن نشرة الدكتور محمد حلمي هي الكتاب تاماً.

هكذا بقي الكتاب موزعاً بين جزئه الأول المحقق، وجزئه الثاني الذي هو بحاجة إلى تحقيق.

---

(١) انظر «من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس» للدكتور شاكر مصطفى مجلة «تاريخ العرب والعالم» العددان: ١٠٥ ــ ١٠٦ (١٩٨٧).

(٢) هي نسخة القاهرة لم نتمكن ــ رغم محاولتنا ــ من الوقوف عليها.

وهذا الجزء الأول المحقق والذي نشره الدكتور محمد حلمي أسوأ من طبعة وادي النيل، فعدا التصحيفات والتحريفات التي وقع بها في قراءته للنص، وقع بخطأ أفدح ـ كانت طبعة وادي النيل بنجوة منه ـ وهو شرحه لبعض المفردات وتعريفه ببعض الأماكن مجانباً الصواب فيما يشرح.

ولم أتتبع هذا الضرب من أخطائه في تحقيقي للجزء الأول، وحسبي أن أشير إلى نموذجين منه هنا[١]:

يقول محمد بن نصر القيسراني في قصيدة له:

وعسكرك الذي استولى مسيحاً على ما بين فامية وسيح

يقول المحقق في الحاشية: «سيح اسم ماء، وسيح الغمر، وسيح النعامة وسيح البردان مواضع باليمامة. معجم البلدان: ٥/ ١٩٢. أي أن ملكه امتد واتسع وشمل ما بين هاتين المنطقتين»[٢].

هكذا ببساطة مذهلة يقرر أمراً تاريخياً، مبنياً على خطأ في قراءته، وهو أن ملك نور الدين امتد من أفامية حتى اليمامة في الجزيرة العربية ـ وهي مسافة شاسعة، ومتى؟ قبل سنة (٥٤٨ هـ) لأن القيسراني الشاعر توفي في هذه السنة.

والبيت على الصحيح هو:

وعسكرك الذي استولى مشيحاً على ما بين فامية وشيح

مشيحاً: يعني مُجِدًّا. وشيح: قرية كانت تعد قديماً في أعمال أنطاكية[٣].

أي أن جيش نور الدين استولى مُجِدًّا على ما بين فامية وشيح؛ هذه القرية القريبة من أنطاكية.

أو كقوله تعليقاً على خبر نور الدين: «وأقام بحلب أياماً بحيث جدد ما ذهب له من اليزك...»:

اليزك: لفظ فارسي معناه طلائع الجيش. السلوك ١/ ١٠٥ حاشية ٣، Dozy[٤].

وما أدري كيف يجدد نور الدين طلائع الجيش ولم يفقد منه إلا النفر اليسير؟

(١) وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٣٩ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٢) انظر كتاب الروضتين ق ١/ج ١/ ١٥٥ من نشرة الدكتور محمد حلمي.

(٣) انظر «الأعلاق الخطيرة»: ج ١/ق ١/ ١٢٦، وص ٢١١ من هذا الجزء.

(٤) انظر كتاب الروضتين: ق ١/ج ١/ ١٤٣ من نشرة الدكتور محمد حلمي.

والصواب هو «البرك» بفتح الراء وسكونها، وهو المتاع والثقل والسلاح[١].

هذا النوع من الأوهام يشعر القارىء بحق أن المحقق غريب عن النص، غريب عن روحه وأماكنه وحوادثه[٢].

تجزئة الكتاب

قسم أبو شامة كتاب الروضتين إلى جزأين:

يبدأ الجزء الأول من مقدمة الكتاب وينتهي في آخر حوادث سنة (٥٧٣ هـ).

ويبدأ الجزء الثاني من سنة (٥٧٤ هـ) حتى آخر حوادث سنة (٥٩٧ هـ) وبه يتم الكتاب.

وقد ارتأيت تسهيلاً لإخراج الكتاب أن أجزئه إلى أربعة أجزاء:

١ ــ الجزء الأول يبدأ من أول الكتاب وينتهي سنة (٥٦٠ هـ).

٢ ــ الجزء الثاني يبدأ من سنة (٥٦١ هـ) وينتهي سنة (٥٧٣ هـ).

٣ ــ الجزء الثالث يبدأ من سنة (٥٧٤ هـ) وينتهي سنة (٥٨٣ هـ).

٤ ــ الجزء الرابع يبدأ من سنة (٥٨٤ هـ) وينتهي سنة (٥٩٧ هـ) وبه يتم الكتاب[٣].

وصف المخطوطات

اعتمدت في تحقيق الجزء الأول ــ حسب تجزئة المؤلف ــ على ثلاث نسخ خطية[٤].

١ ــ نسخة كوبنهاجن، ورقمها

وهي أقدم نسخ الكتاب، نقلت عن نسخة بخط المؤلف، وقوبلت بالأصل الذي

---

(١) انظر أيضاً «تكملة المعاجم العربية» (الترجمة العربية): ١/ ٣٠٤، و «الخزانة الشرقية» لحبيب الزيات: ٤/ ١٦٩ ــ ١٧٠، وص ١٩٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر نقد الدكتور صلاح الدين المنجد للقسم الأول من الجزء الأول من الكتاب في مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد الخامس، الجزء الأول: ١٥١ ــ ١٥٤.

(٣) ثم ألحق أبو شامة به مذيلاً سماه «المذيل على الروضتين» ذكر فيه ما فاته ذكره ابتداء من سنة (٥٩٠ هـ) ــ وهي السنة التي تلت وفاة صلاح الدين ــ حتى سنة (٦٦٥ هـ) ــ وهي سنة وفاته ــ وقد اتبع فيه نظام الحوليات كذلك، وسنصدره بإثر كتابنا هذا إن شاء الله تعالى.

(٤) أرجأت الحديث عن وصف بقية المخطوطات التي اعتمدتها في تحقيق الجزء الثاني ــ حسب تجزئة المؤلف ــ إلى مكانه في مقدمة الجزء الثالث، إن شاء الله تعالى.

نقلت منه. إذ جاء في آخر الجزء الأول: «آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى...».

وقد كتب في هامشها: بلغ مقابلة بأصله.

«ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ست وسبعين وست مئة...».

أي: بعد وفاة المؤلف بأحد عشر عاماً.

ويبدو أن ناسخها قد قابلها أيضاً على نسخة أخرى منقولة عن أصل المؤلف بخطه ومقروءة عليه، وهي نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي[1]، كما ذكر الناسخ في الحاشية التي سترد ص ٤٣٠ تعليق رقم (٥).

وهذه النسخة تقع في (٢١٩) ورقة، لم يعرف ناسخها، وخطها مقروء، ولم تخل ـ على جودتها ـ من عيب، إذ بها خَرْمان، الأول يقع في ثلاث ورقات يبدأ من ص (٣٠/أ) وينتهي في ص (٣٢/ب) والثاني يقع في ورقتين، يبدأ من ص (٢١٢/أ)، وينتهي ص (٢١٤/أ)، وقد استعيض عنهما بأوراق مكتوبة بخط حديث[2].

وقد جعلتها أصلاً لي في التحقيق، فإياها أعني حين أقول: في الأصل. ما عدا الأوراق المخرومة، فنسخة (ل) كانت أصلاً في تحقيقها.

٢ ـ نسخة بودليان بأكسفورد، ورقمها

وهي نسخة جيدة، مكتوبة بخط نسخي مضبوط، تقع في (٢٥٠) ورقة، أرجح أنها مكتوبة في القرن الثامن الهجري، وفي هامشها استدراكات تدل على أنها مقابلة على نسخة أخرى، وعلى صفحة العنوان تملك يعود تاريخه إلى سنة (٨٠٨ هـ)، فيها خرم في آخرها يقع في ورقة واحدة، ذهب بآخر خبر الجزء الأول وباسم الناسخ وتاريخ النسخ[3]، وعلى الصفحة الأخيرة ترجمة لأبي شامة مكتوبة بخط متأخر.

وقد رمزت لها بالحرف (ل).

---

(١) وعلى نسخة يوسف هذه اعتمدنا في تحقيق الجزء الثاني ـ حسب تجزئة المؤلف ـ وسيأتي وصفها في مقدمة الجزء الثالث.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٢٦، وحاشيتنا رقم ١ ص ١٣٤ من هذا الجزء. وحاشيتنا رقم ٩ ص ٤٥١ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٤٨١ من الجزء الثاني.

٣ ـ نسخة ميونخ ورقمها ٤٠٤ :

وهي نسخة جيدة، مكتوبة بخط مقروء، تقع في (٣٨٣) ورقة، وأرجح أنها كتبت في القرن العاشر في هامشها استدراكات تدل على أنها مقابلة على نسخة أخرى، على صفحة العنوان مطالعة يعود تاريخها إلى سنة (١٠٨١ هـ) وفي الصفحة الأخيرة طُمِسَ تاريخ نسخها، تختلف هذه النسخة عن نسختي الأصل و (ل) بأنها تتم في أثناء حوادث سنة (٥٧٣ هـ)، وبينها وبين تتمة الجزء ورقتان تقريباً[١].

وقد رمزت لها بالحرف (م).

وهذه النسخة ـ على تأخرها ـ كثيراً ما هدتني إلى الصواب فيما ضنت به عليَّ نسختا الأصل و (ل).

منهج التحقيق

١ ـ اعتمدت نسخة كوبنهاجن أصلاً في التحقيق كما ذكرت، واتكأت فيما عرض لها من تصحيف أو تحريف على نسختي (ل) و (م)، وغالباً ما كنت أثبت في المتن ما اتفقت عليه نسختان إن استقام المعنى.

وأثبت في الهامش فروق قراءات النسخ، حتى تلك الفروق الطفيفة ـ على قلتها ـ خوفاً من أن يكون ما تركت أملك في المعنى مما أثبت.

٢ ـ وثقت الأخبار من مواردها التي ألمع إليها المؤلف، والتي أمكنني الوقوف عليها، ونبهت على بعض ما وقع فيها من تصحيف وتحريف لا يحسن السكوت عنه، أو خطأ في تعليق محقق حتى لا يظن أني أوافقه فيما ذهب إليه.

٣ ـ ما ورد في الكتاب من الأعلام عرفت بهم على النحو التالي:

(أ) إذا ذكر العلم مرات قليلة عرفت به على نحو يكشف صلته بما يحيط به من خبر، وحددت أهم التواريخ في حياته، وأهم صفاته، ثم أحلت على أهم المصادر التي ذكرت ترجمته.

(ب) إذا كان العلم كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوق اسمه إشارة إلى أن له ترجمة وافية في كشاف الأعلام[٢].

---

(١) انظر ص ٤٦٨ من الجزء الثاني.

(٢) هذه الكشافات ستكون كتاباً مستقلاً، أوطىء فيه لدراسة ذلك العصر من نواحيه كافة، أرجو أن ييسِّره الله لي.

(ج) لم أعرف بالأعلام الذين يدور عليهم موضوع الكتاب.

(د) ما عرف به المؤلف من الأعلام اكتفيت بما ذكره عنهم، مع الإحالة على أهم المصادر التي ترجمت لهم.

٤ ــ ما ورد في الكتاب من الأماكن عرفت بها على النحو التالي:

(أ) إذا ذكر المكان مرات قليلة عرفت به على نحو يبين موقعه القديم، ثم موقعه الحالي، مع عزو ذلك إلى المصادر التي استقيت منها المعلومات.

(ب) إذا كان اسم المكان كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوق اسمه إشارة إلى أن له تعريفاً وافياً في كشاف الأماكن.

(ج) لم أعرف بالأماكن المشهورة.

٥ ــ ما ورد في الكتاب من مصطلحات ــ وأعني بالمصطلح كل ما يخص ذلك العَصر من أسماء السلاح والوظائف وما يتبعهما من ألقاب ــ عرفت بها على النحو التالي:

(أ) إذا ذكر المصطلح مرات قليلة شرحت معناه بإيجاز مع الإحالة على المصادر التي استقيت منها الشرح.

(ب) إذا كان المصطلح كثير الدوران في الكتاب اكتفيت بوضع نجمة فوقه إشارة إلى أن له شرحاً وافياً في كشاف المصطلحات.

٦ ــ خرجت ما ورد في الكتاب من شعر من دواوين الشعراء التي استطعت الوقوف عليها، وقربت معانيه بشرح ما غُمَّ من مفرداته بالاعتماد على كتب اللغة، خاصة «لسان العرب» وثمة أبيات ــ لا سيما في شعر ابنِ منير ــ بقيت مشكلة لم أهتد إلى ضبطها، تركتها كما هي عسى أن تسفر لي يوماً عن وجهها، فأستدركها في آخر الكتاب، ووراء غموضها منهج أبي شامة في اختياره للشعر، فإنه ــ وهو المؤرخ ــ لم يكن يثبت منه إلا ما له دلالة تاريخية تعينه على تصوير حادثة ما، مما أخَلَّ بترتيب الأبيات، وجعل بعضها مقطوع المعنى عما سبقه، إضافة إلى ما قد يعتري الناسخ من سبق نظر في أثناء أدى إلى تلفيق أبيات من صدور وأعجاز مختلفة.

وللقاضي الفاضل والعماد الكاتب كتب ورسائل أغربا في بعض كلماتها، لم ألتزم بشرحها خوفاً من إثقال الحواشي، واكتفيتُ بضبطها ليهتدي إلى معناها من يبحث عنها.

٧ ــ لم أتتبع ما وقع في مطبوعتي الروضتين من أوهام وتصحيف وتحريف ــ وهو كثير ــ إذ لم أجد فائدة في تشتيت ذهن القارىء بذكر ما تعثر الآخرون بقراءته.

٨ ــ صنعتُ فهرساً شاملاً للكتاب يضم فهرسة الأعلام والأماكن والمصطلحات والشعر والوقائع والحوادث.

٩ ــ أرجأت الدراسة عن حياة أبي شامة ومؤلفاته إلى حين الانتهاء من تحقيق الكتاب،

وسأدرجها في مقدمة «المذيل على الروضتين»، إن شاء الله تعالى.

١٠ ــ أبقيت لغة الوثائق والرسائل والحوارات على حالها دون تغيير ــ كما تركها أبو شامة من قبل ــ وإن كان فيها تساهل لغوي أو نحوي، لأنها تمثل أسلوب ذلك العصر من بعض جوانبه.

١١ ــ أثبت في الهامش أرقام صفحات طبعة وادي النيل لاشتهارها، ولتسهيل الرجوع إلى طبعتنا لمن كانت عنده تلك الطبعة.

وقد تكرَّم علي أستاذي العلامة أحمد راتب النفاخ، ملاذنا في حل المعضلات، فقرأ معظم ما ورد في هذا الجزء من الشعر، فبصَّرني بما أشكل علي، وأقام مناده، فله مني أعمق الشكر وأجزله، والله يتولى عني حُسْن جزائه[١].

وبعد..

أرجو أن أكون قد وفقت في إخراج الكتاب محققاً تحقيقاً علمياً، يرضى عنه الباحثون، وحسبي أني بذلت غاية جهدي، وإن كان جهدي دون أملي.

والله أسأل أن يوفقني لما يحب ويرضى، ويجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم. هو وليِّي في الدنيا والآخرة ﴿فنِعْمَ المَوْلَى ونِعْمَ النَّصير﴾.

إبراهيم الزيبق

دمشق في

٢٨ جمادى الآخرة ١٤٠٩ هـ.

٤ شباط ١٩٨٩ م.

---

(١) وقد اختاره الله تعالى إلى جواره وهو يتلو الزهراوين صباح يوم الجمعة ١١ شعبان ١٤١٢ هـ، الموافق لـ ١٤ شباط ١٩٩٢ م، ونحن أحوج ما نكون إليه، فقد كان جبل علم راسخ، ما رآه أحد إلا ذكر أبا عمرو بن العلاء، وابن جني، وأبا علي الفارسي.. دقة وفهماً وعمقاً وأصالة، وبمثله قيل: قد نزل الناس بموته درجة، فرحمك الله أبا عبد الله.. وأكرم مثواك.

بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي الا بالله رب العالمين
الحمد لله الذي بلطفه تصلح الاعمال وبكرمه وجوده تدرك الامال وعلى وفق مشيئته تصدر
الافعال وبارادته تتغير الاحوال واليه المصير والمرجع والمال سبحانه هو الدائم
بلا زوال المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ذو
العرش والمعارج والطول والاكرام والجلال نحمده على ما اسبغ من الانعام
والافضال وهيأه من الاحسان والنوال حمدا لا توازنه الجبال ملء السموات
والارض على كل حال ونصلي على رسوله ونبيه وخيرته من خلقه وصفيه وخليله
ووليه وحبيبه المفضال سيدنا النبي التهامي محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ
والعلم الراسخ والفضل السابغ والكمال والجمال صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين
والانبيا والمرسلين وعترتهم الطاهرين ما افل كوكب وطلع هلال وعلى ال محمد وصحبه
خير صحب واكرم ال وعلى تابعيهم باحسان وجميع الاوليا والابدال وعفا عن المقصرين
من امته لولا الكسل والملال وحشرنا في زمرته متمسكين بشرعته معتدين بسنته
مغتبطين بما ضرب من الامثال مرحومين تحت لوائه في جملة اوليائه يوم لا بيع فيه ولا خلال
اما بعد فانه [illegible] من عمري ومعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية واقتناص
الفرائد الادبية عن لي ان اصرف [illegible] في علم التاريخ بعضه فانه [illegible] العلم
[illegible] احدا [illegible] من مضى من كل عالم فقيه امام من الائمة الا ويحكى عنه اخبار من
سلف [illegible] جمة منهم امامنا ابو عبد الله الشافعي رضي الله عنه قال مصعب الزبيري
ما رايت احدا اعلم بايام الناس من الشافعي ويروى عنه انه اقام على تعلم ايام الناس والادب
عشرين سنة وقال ما اردت بذلك الا الاستعانة على الفقه قلت والله لقد عظم
[illegible] من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من اخبار
الامم السالفة واخبار القرون الخالية بما فيه عبرة لاولي الابصار [illegible]
[illegible] قال الله تعالى وهو اصدق القائلين وكلا نقص عليك من انبا
الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين وقال
[illegible] ولقد جاءهم من الانبا ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر وحدث
النبي صلى الله عليه وسلم بحديث ام زرع وغيره مما جرى في الجاهلية [illegible]

الصفحة الأولى من نسخة كوبنهاجن

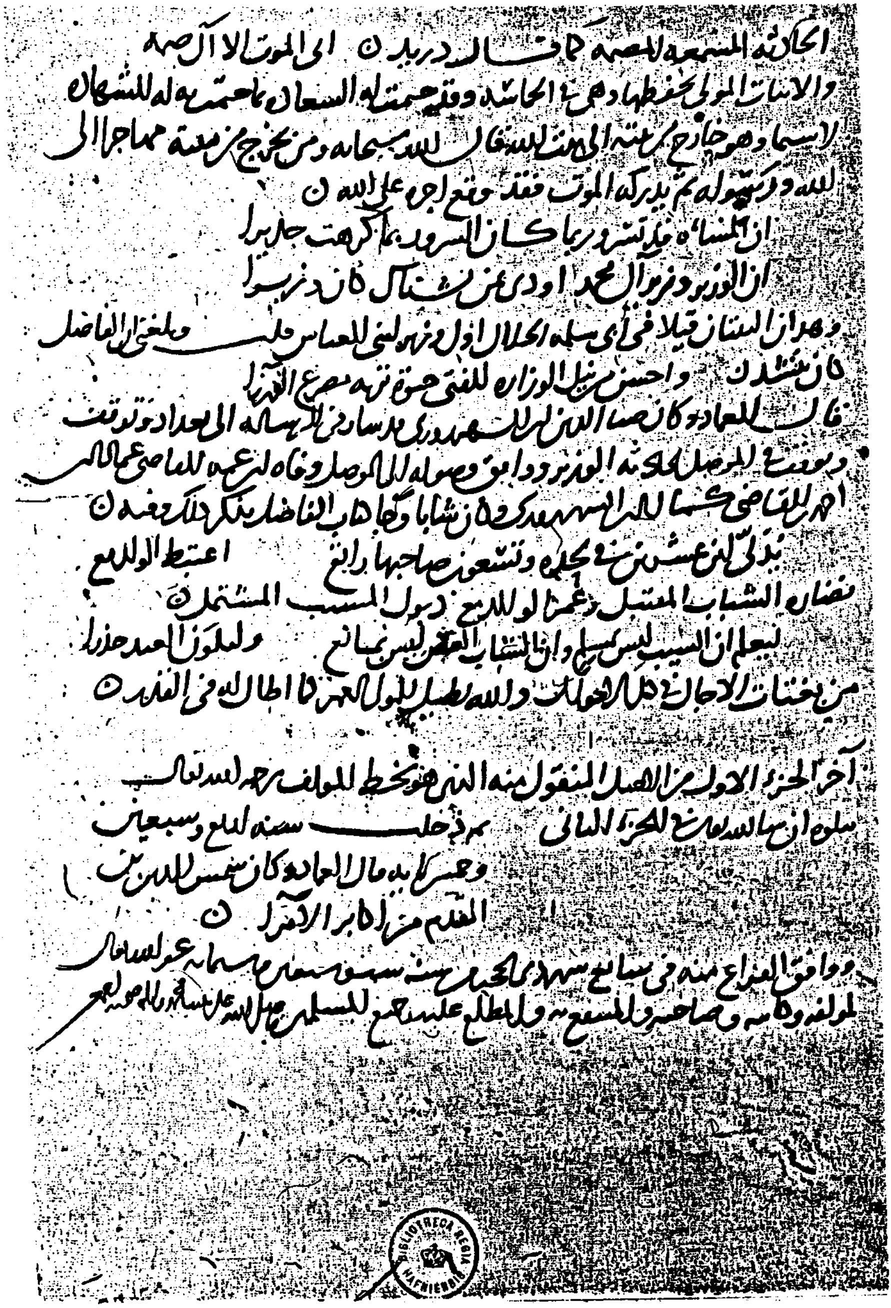
الحادثة المسرعة للصحة كما قال ابن دريد ن الى الموت الا آل صحه
والانات المولى لحفظها دهي في الحادثة وقتي حميتا له السعادة ما حكمته له للشهادة
لا سيما وهو خارج من بيته الى الموت للشهادة لله سبحانه ومن يخرج من بيته مهاجرا الى
الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع اجره على الله ن
ان المساءة قد تسر وربما كان السرور بما كرهت جديرا
ان الوزير وزير آل محمد اودى فمن يشناك كان وزيرا
وهذان البيتان قيلا في ابي سلمة الخلال اول وزير لبني العباس قلت وبلغني ان الفاضل
كان ينشد ن واحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريه مصرع الوزراء
قال العماد وكان ضياء الدين ابن الشهرزوري قد سار في الرسالة الى بغداد وتوقف
وتوقع بالموصل لحادثة الوزير وابن وصوله الى الموصل وجاءه نعي عمه القاضي عم الالـ
احمد القاضي كمال الدين الشهرزوري وكان شابا وكان اب الفاضل ينكر ذلك وقعه ن
بدلي ابن عشرين في تحليه وتسعون صاحبها رائع اعتبط الولدع
نضارة الشباب المقبل وعمر لو للابح ذبول المشيب المستقبل ن
ليعلم ان الشيب ليس بسبيل وان الشباب الغض ليس بمانع ولملون اعمد حذرا
من بغتات الآجال في كل الاعمال والله يطيل للول العمر كما اطال الله في العمر ن
آخر الجزء الاول من الاصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى
يتلوه ان شاء الله تعالى في الجزء الثاني ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين
وخمسمائة بدء مال العماد وكان شمس الدين بن
المقدم من اكابر الامراء ن
ووافق الفراغ منه في سابع شهر ... سنة ... عفر الله تعالى
لمؤلفه وكاتبه ولصاحبه والمستمع ولمطالع علىه وجميع المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

الصفحة الأخيرة من نسخة كوبنهاجن

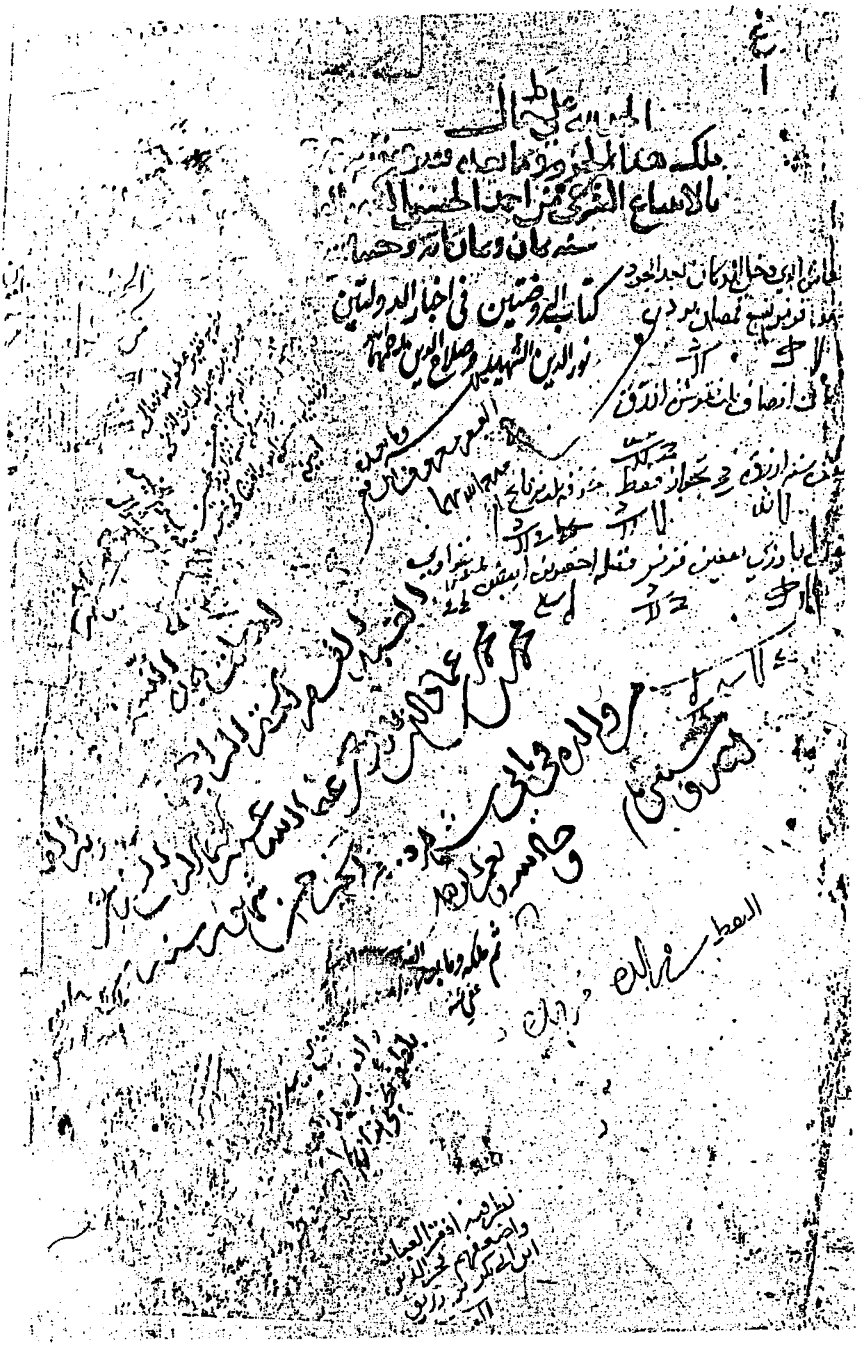

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
نور الدين الشهيد وصلاح الدين

صفحة الغلاف من نسخة بودليان

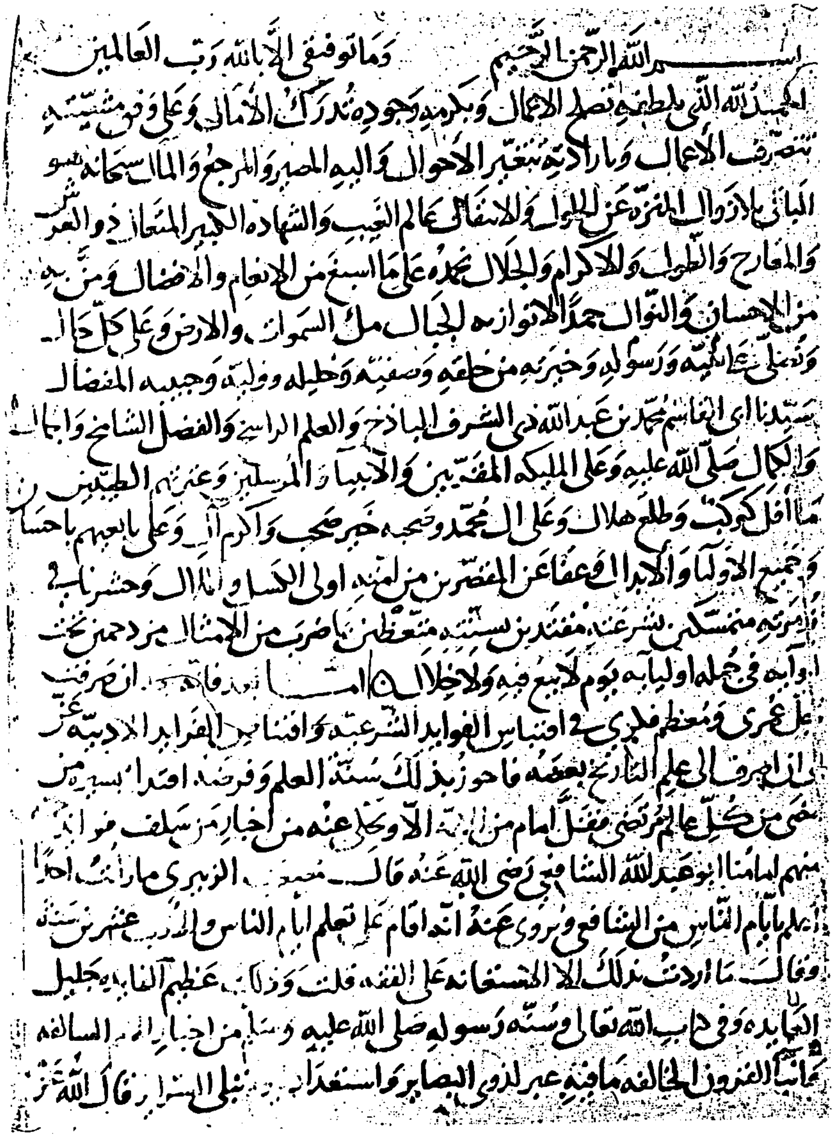
بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله رب العالمين

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال وبكرمه وجوده تدرك الآمال وعلى وفق مشيئته
تتصرف الأعمال وبإرادته تتغير الأحوال وإليه المصير والمرجع والمآل سبحانه هو
الباقي بلا زوال المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ذو العرش
والمعارج والطول والإكرام والجلال نحمده على ما أسبغ من الإنعام والإفضال ومن به
من الإحسان والنوال حمداً لا توازنه الجبال ملء السموات والأرض وعلى كل حال
ونصلي على نبيه ورسوله وخيرته من خلقه وصفيه وخليله ووليه وحبيبه المفضال
سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ والعلم الراسخ والفضل الشامخ والجمال
والكمال صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين وعترته الطيبين
ما أفل كوكب وطلع هلال وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل وعلى تابعيهم بإحسان
وجميع الأولياء والأبدال وعفا عن المقصرين من أمته أولي الإساءة والإهمال وحشرنا في
زمرته متمسكين بشرعه مقتدين بسنته متعظين بما ضرب من الأمثال [illegible]
[illegible] في حمله ولوائه يوم لا بيع فيه ولا خلال أما [illegible] إن صرفت
[illegible] عمري ومعظم دهري في اقتباس الفوائد الشرعية واقتناص الفرائد الأدبية عن
[illegible] إلى علم التاريخ بعضه ما حوزته لك سنة العلم وفرضه اقتدى بسير من
مضى من كل عالم مرتضى وفاضل إمام من [illegible] الأوحد عنه من أخبار من سلف [illegible]
منهم إمامنا أبو عبد الله الشافعي رضي الله عنه قال [illegible] الزبيري ما رأيت أحداً
أعلم بأيام الناس من الشافعي ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة
وقال ما أردت بذلك إلا الاستعانة على الفقه قلت وذلك [illegible] عظيم الفائدة جليل
العائدة وفي كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من أخبار الأمم السالفة
[illegible] القرون الخالفة ما فيه عبر لذوي البصائر واستعداد [illegible] تبلى السرائر قال الله [illegible]

الصفحة الأولى من نسخة بودليان

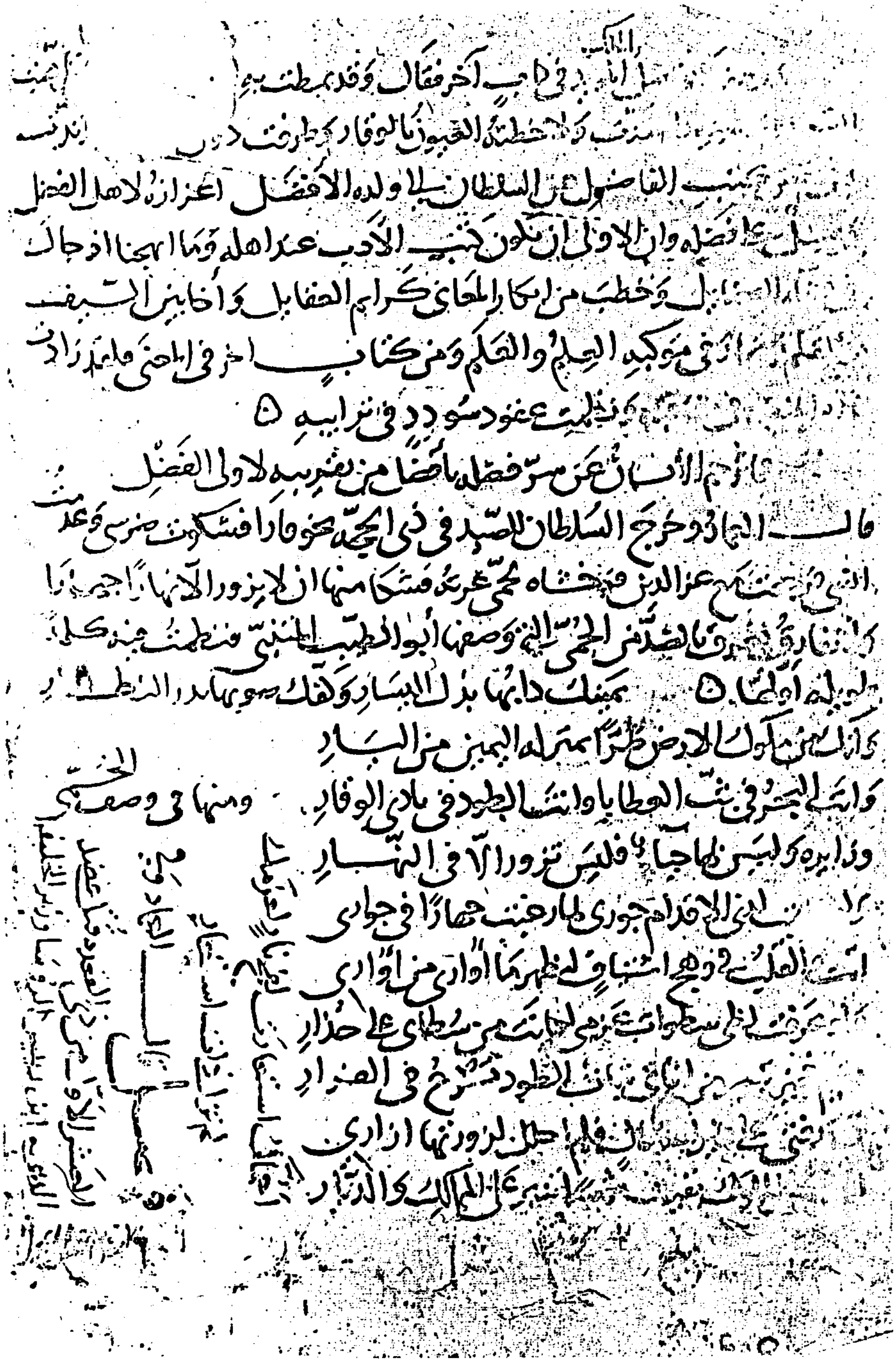
[illegible] في باب آخر فقال وقد بسطت به
[illegible] الخطبة القبول بالوفا [illegible]
[illegible] من كتب الفاضل من السلطان بيلا ولده الأفضل اعزازا لاهل الفضل
[illegible] فضله وان الاولى ان تكون كتب الأدب عند اهله وما ابهجنا او جاك
[illegible] خطب من ابكار المعاني كرائم العقائل وأخاير [illegible]
[illegible] في موكب العلم والقلم ومن كتاب آخر في المعنى [illegible]
[illegible] عقود سؤدد في ترابه
[illegible] عن سر فضله ما اضاع من [illegible] لاولي الفضل
قال العماد وخرج السلطان للصيد في ذي الحجة [illegible]
[illegible] عز الدين فرخشاه [illegible] ان لا يزور الا نهارا [illegible]
[illegible] من الحمى التي وصفها أبو الطيب المتنبي [illegible]
[illegible] يمينك دائبا بذل اليسار [illegible]
[illegible] ملوك الارض طرا [illegible] اليمين من اليسار
وانك البحر في بث العطايا وانت الطود في [illegible] الوقار ومنها في وصف الحمى
وزائرة وليس لها حياء فليس تزور الا في النهار
[illegible] الاقدام جوري [illegible] نهارا في جواري
[illegible] اشتياق [illegible] ما اداري من اواري
[illegible] سطوات [illegible] على حذار
[illegible] في الفرار
[illegible] فلم احلل لزورتها ازاري
[illegible] على الممالك كالدثار

الصفحة الأخيرة من نسخة بودليان

المجلد الاول من تاريخ الروضتين في اخبار الدولتين
للشيخ الامام العلامه المشهور بابي شامه رحمه
روضتين
المجلد الاول
في اخبار الدولتين
والصلاحية
عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم
الشافعي

صفحة الغلاف من نسخة ميونخ

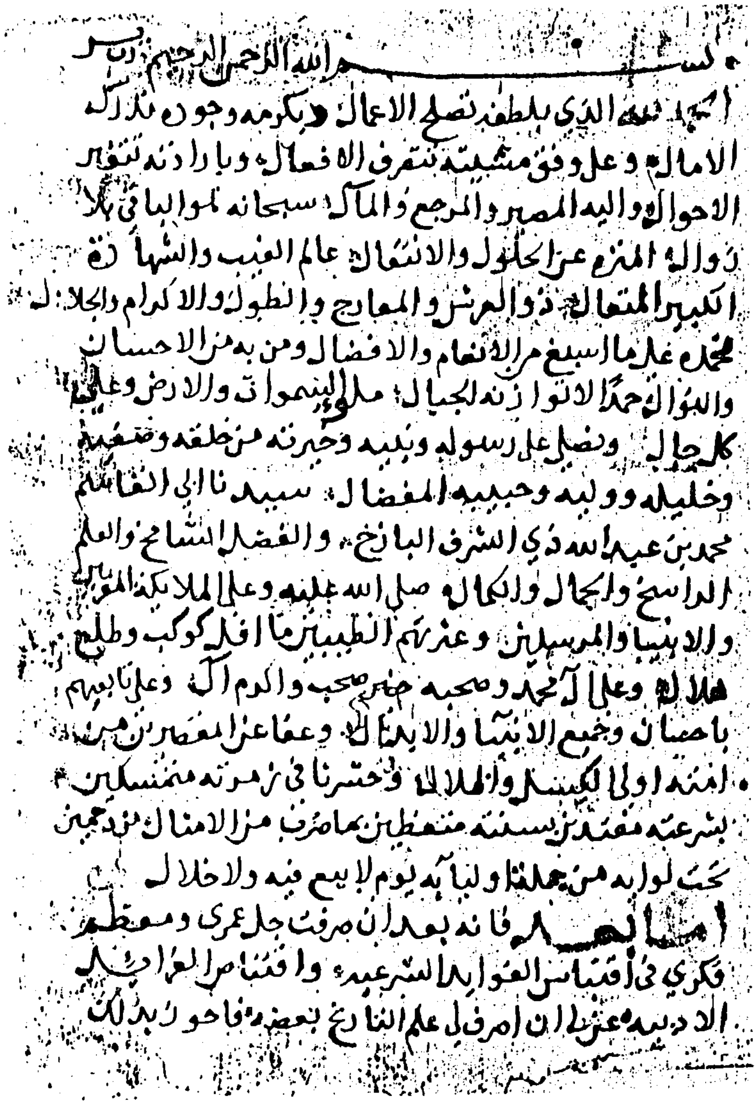

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر
الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تدرك
الآمال، وعلى وفق مشيئته تتصرف الأفعال، وبإرادته تتحول
الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا
زوال، المنزه عن الحلول والانتقال، عالم الغيب والشهادة
الكبير المتعال، ذو العرش والمعارج والطول والإكرام والجلال، له
الحمد على ما أسبغ من الإنعام والإفضال، ومنّ به من الإحسان
والنوال، حمداً لا توازنه الجبال، ملء السموات والأرض وعلى
كل حال. ونصلي على رسوله ونبيه وخيرته من خلقه وصفيه
وخليله ووليه وحبيبه المفضال، سيدنا أبي القاسم
محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ، والفضل الشامخ، والعلم
الراسخ والجمال والكمال، صلى الله عليه وعلى الملائكة المقربين
والأنبياء والمرسلين، وعنهم الطيبين ما أفل كوكب وطلع
هلال، وعلى آل محمد وصحبه خير صحب وأكرم آل، وعلى تابعيهم
بإحسان وجميع الأئمة والأبدال، وعفا عن المقصرين من
أمته أولي الكسل والملال، وحشرنا في زمرته متمسكين
بشريعته مقتدين بسنته متعظين بما ضرب من الأمثال، مندرجين
تحت لوائه من جملة أوليائه يوم لا بيع فيه ولا خلال.
أما بعد فإنه بعد أن صرفت جل عمري ومعظم
فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد
الأدبية، عنّ لي أن أصرف إلى علم التاريخ بعضه فأحوز بذلك

الصفحة الأولى من نسخة ميونخ

بنو الروم مثل قد لبس المجد له وانت لها كانوا بها البطين ٭
أخفت الشرك حتى الذعر منهم يري قبل الولادة في الجنين ٭
ويوم الرملة المرهوب باسا تركت الشرك منزعج القطين ٭
وكنت بعسكر الاسلام كهفا اوى منه الى حصن حصين ٭
وقد عرف الفرنج سطاك لما وا وا اثارها عين اليقين ٭
وانت تذب دون الدين تحمي حماه اوان ولى كل دون ٭

قال ــــــ وامتن السلطان بعد ذلك بافاضة الجوده وتفريق الموجوده وافتقاد الناس بالنقود والسنايا الصادقة الوعوده وجبر الكسيره وفك الاسيره وتوفير العدده وتكثير المدده وتعويض ما وقف من الدواب ٭ فنسلوا ما نابهم ٭ ولم ياسوا على مالها

تم الجزء الاول من كتاب الروضتين
في اخبار الدولتين ويتلوه ان شاء الله تعالى
في الجزء الثاني قال ــــ ابن ابي طي ـ

والحمد لله وحده وصلواته
على محمد واله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا
دايما ابدا

End

الصفحة الأخيرة من نسخة ميونخ

/ بسم الله الرحمن الرحيم ٢/١

وما توفيقي إلاَّ بالله رب العالمين

الحمدُ لله الذي بلطفه تصلُح الأعمال، وبكرمِهِ وجُوده تُدْرَكُ الآمال، وعلى وَفْقِ مشيئته تتصرف الأفعال، وبإرادته تتغيَّر الأحوال، وإليه المصير والمرجع والمآل، سبحانه هو الباقي بلا زوال، المنزَّه عن الحلول والانتقال، عالم الغيبِ والشَّهادة الكبيرُ المتعال، ذو العرش والمعارج والطَّوْل[1] والإكرام والجلال؛ نحمَدُه على ما أسبغَ مِنَ الإنعام والإفضال، ومَنَّ به من الإحسان والنَّوال، حمداً لا تُوازنه الجبالُ، مِلْءَ السَّموات والأرض وعلى كلِّ حال، ونصلِّي على رسوله ونبيِّه وخيرته مِن خَلْقه وصفيِّه وخليله ووليِّهِ وحبيبه المِفْضَال؛ سيدِنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشَّرف الباذخ، والعِلْم الراسخ، والفضل الشامخ، والجمال والكمال؛ صلَّى الله عليه وعلى الملائكة المقرَّبين، والأنبياء والمرسلين، وعِتْرتهم الطَّيِّبين، ما أَفَلَ كوكبٌ وطلَعَ هلال، وعلى آل محمدٍ وصحبه خيرِ صحبٍ وأكرمِ آل، وعلى تابعيهم بإحسان وجميع الأولياءِ والأبدال، وعفا عن المقصِّرين من أمّته أُولي الكسل والمَلَال، وحَشَرَنا في زمرته، متمسِّكين بشِرْعته، مقتدين بسُنَّته، مُتَّعِظين[2] بما ضَرَبَ مِنَ الأمثال، مزدحمين تحتَ لوائه، في جُمْلة أوليائه، يومَ لا بيعٌ فيه ولا خِلال﴾

---

(١) الطول: القدرة. «اللسان» (طول).

(٢) في الأصل: مغتبطين، والمثبت من (ل) و(م).

أما بعد، فإنه بعد أَنْ صرفت جُلَّ عُمري ومُعظم فكري في اقتباس الفوائد الشرعية، واقتناص الفرائد الأدبية، عَنَّ لي أن أصرفَ إلى علم التاريخ بعضَه، فأحوز بذلك سُنَّةَ العلم وفرضَه؛ اقتداء بسيرة مَنْ مضى، مِنْ كلِّ عالمٍ مُرْتَضَى. فَقَلَّ إمامٌ مِنَ الأئمة إلا ويُحكى عنه من أخبار مَنْ سَلَف فوائدُ جمَّة؛ منهم إمامُنا أبو عبد الله الشَّافعي، رضي الله عنه. قال مُصْعَب الزُّبيري: ما رأيتُ أحداً أعلمَ بأيام النَّاس مِنَ الشافعي. ويُروى عنه أنه أقام على تعلُّم أيام الناس والأدب عشرين سنةً، وقال: ما أردتُ بذلك إلا الاستعانة على الفِقْه.

قلتُ: وذلك عظيمُ الفائدة، جليل العائدة. وفي كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ مِنْ أخبار الأمم السالفة، وأنباء القرون الخالفة ما فيه عبرٌ لذوي البصائر، واستعدادٌ ليوم تُبْلَى السَّرائر. قال الله عزَّ وجلَّ وهو أصدقُ القائلين: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلمُؤْمِنِينَ﴾(1). وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي(2) النُّذُرُ﴾(3).

وحدَّث النبيُّ ﷺ بحديثِ أُمِّ زَرْع(4)، وغيرِهِ مما جرى في الجاهلية،
٣/١ والأيام الإسرائيلية. وحكى عجائبَ ما رآه ليلة أُسري به وعرج، وقال: «حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حَرَج»(5). وفي «صحيح مسلم» عن سِمَاك بنِ

(1) سورة هود: ١٢٠.
(2) كذا في النسخ الخطية، والرسم العثماني بحذف الياء.
(3) سورة القمر: الآيتان ٤، ٥.
(4) حديث أم زرع هو ما قالته إحدى عشرة امرأة في أزواجهن، انظر الحديث في «صحيح البخاري» كتاب النكاح، باب حسن المعاشرة مع الأهل. وقد أفرد القاضي عياض شرحاً له سماه «بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد» طبع في المغرب سنة ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م بتحقيق صلاح الدين الإدلبي ورفاقه.
(5) الحديث في «صحيح البخاري» باب ما ذكر عن بني إسرائيل، و«سنن الترمذي» أبواب العلم، باب ما جاء في الحديث عن بني إسرائيل، و«المسند» لابن حنبل: ٤٦/٣.

حَرْب قال: قلتُ لجابر بن سَمُرَة: أكنتَ تجالسُ رسولَ الله ﷺ؟ قال: نعم، كثيراً؛ كان لا يقوم من مُصَلّاه الذي صلّى فيه الصُّبْح أو الغَدَاة حتى تطلُعَ الشمس، فإذا طلَعَتْ قام، وكانوا يتحدَّثونَ فيأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسَّمُ[1]، ﷺ.

وفي «سنن أبي داود» عن عبد الله بن عمرو[2]، رضي الله عنهما، قال: كان نبيُّ الله ﷺ يحدِّثنا عن بني إسرائيل حتى يُصبح، ما يقوم إلا إلى عُظْمِ صلاةٍ[3].

قلتُ: ولم يزل الصَّحابة والتابعون فَمَنْ بعدهم يتفاوضون في حديث مَنْ مضى، ويتذاكرون ما سبقَهُمْ من الأخبار وانقضى، ويستنشدون الأشعار، ويتطلَّبون الآثارَ والأخبار؛ وذلك بَيِّنٌ من أفعالهم لمن اطَّلع على أحوالهم، وهم السَّادة القُدْوة، فلنا بهم أُسوة. فاعْتَنَيْتُ بذلك وتصفَّحْته، وبحثْتُ عنه مدَّةً وتَطَلَّبْتُه[4]، فوقفتُ ـ والحمد لله ـ على جُمْلة كبيرة من أحوال المتقدِّمين والمتأخرين؛ من الأنبياء والمرسلين، والصَّحابة والتابعين، والخلفاء والسَّلاطين، والفقهاء والمحدِّثين، والأولياء والصَّالحين، والشُّعراء والنَّحْويين، وأصناف الخَلْق الباقين. ورأيتُ أن المطَّلع على أخبار المتقدِّمين كأنه قد عاصرَهُمْ أجمعين، وأنه عندما يفكِّر في أحوالهم أو يَذْكُرُهم كأنه مُشَاهِدُهم ومحاضِرُهُم؛ فهو قائمٌ له مقام طولِ الحياة، وإن كان متعجِّل الوفاة. قال

---

(1) «صحيح مسلم»: ١/٤٦٣، رقم الحديث (٦٧٠) وفيه «يصلي» بدل «صلى».
(2) في الأصل و (ل) عمر، وهو تصحيف، وهو في (م) على الصواب.
(3) كتاب العلم، باب الحديث عن بني إسرائيل رقم الحديث (٣٦٦٣). وعظم الشيء: أكبره؛ كأنه أراد لا يقوم إلا إلى الفريضة. «النهاية»: ٣/٢٦٠.
(4) وقع في الأصل: وبحثت عنه مدة كشفه وتَطْلِبَتِه. والمثبت من (ل) و (م).

نُعيم بن حَمَّاد: كان عبدُ الله بنُ المبارك[1] يكثر الجلوسَ في بيته، فقيل له: ألا تستوحش؟ قال: كيف أستوحش وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه! وفي روايةٍ قال: قيل لابن المبارك: يا أبا عبد الرحمن، تكثر القعودَ في البيت وحدَك! فقال: أنا وَحْدي؟! أنا مع النبي ﷺ وأصحابه ـ يعني النظرَ في الحديث. وفي رواية أخرى: وأنا مع النبي ﷺ وأصحابه والتابعين لهم بإحسان!

قلتُ: وقد أُنشدتُ لبعضِ الفُضَلاء:

كتابٌ أطالعُهُ مُؤْنِسٌ   أحبُّ إليَّ مِنَ الآنِسَهْ
وأدْرُسُه فيريني القرونَ   حُضُوراً وأَعْظُمُهُمْ دارِسَهْ

وقد اختار الله سبحانه لنا أن نكون آخرَ الأُمم، وأطلعنا على أنباء مَنْ تَقَدَّم، لنتَّعظَ بما جرى على القرون الخالية ﴿وتَعِيهَا أُذُنٌ وَاعِيَة﴾ ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَة﴾[2] ولنقتديَ بمن تقدَّمنا من الأنبياء، والأئمة الصُّلحاء، ونرجو بتوفيق الله عَزَّ وجل أن نجتمع بمن يدخل الجنة منهم، ونذاكرهم بما نُقِلَ إلينا عنهم، وذلك على رَغْمِ أنف من عَدِمَ الأدب، ولم يكن له في هذا العلم أَرَب، بل أقام على غَيِّهِ وأكبَّ، والمرء مع من أحبّ.

هذا، وإن الجاهلَ بعلم التاريخ راكبٌ عمياءَ، خابطٌ خَبْطَ عَشْواء؛ ينسُبُ إلى مَنْ تقدَّم أخبارَ من تأخر، ويعكس ذلك ولا يتدَبَّر، وإن رُدَّ عليه وَهْمُه لا يتأثر، وإن ذُكِّر فلجهله لا يتذكَّر؛ لا يفرِّق بين صحابي وتابعي، وحنفي ومالكي وشافعي، ولا بين خليفةٍ وأمير، وسُلْطان ووزير؛ ولا يعرف من سيرة نبيه ﷺ أكثر من أنه نبيٌّ مُرْسَل، فكيف له بمعرفة أصحابه وذلك الصَّدر

---

(١) كان من كبار الحفاظ، مجاهداً عاقلاً، وهو أول من صنف كتاباً في الجهاد، توفي سنة (١٨١هـ) منصرفاً من غزو الروم. انظر ترجمته في «الحلية»: ٨/١٦٢ ـ ١٩٠، و«الرسالة المستطرفة»: ٤٨.

(٢) سورة الحاقة: الآيتان ١٢، ٨.

الأوَّل! الذين بذكرهم ترتاح النفوس، ويذهب البُوس. ولقد رأيتُ مجلساً جَمَعَ ثلاثةَ عشرَ مدرِّساً، وفيهم قاضي القضاة لذلك الزمان، وغيره من الأعيان، فجرى بينهم ــ وأنا أسمع ــ ذِكْرُ مَنْ تحرُمُ عليه الصَّدقة؛ وهم ذوو القربى المذكورون في القرآن، فقال جميعُهُمْ: بنو هاشم وبنو عبد المطَّلب. وَعَدلوا بأجمعهم في ذلك عما يجب. فتعجَّبْتُ من جهلهم؛ حيث لم يفرقوا بين عبد المطَّلب والمطَّلب، ولم يهتدوا إلى أن المطَّلب هو عمُّ عبد المطلب، وأن عبد المطلب هو ابن هاشم، فما أحقهم بلوم ِ كلِّ لائم، إذ هذا أصلٌ من أصول الشريعة قد أهملوه، وبابٌ من أبواب العلم جهلوه، وَلَزِمَ مِنْ قولهم إخراج بني المطَّلب من هذه الفضيلة. فابتغيت إلى الله تعالى الوسيلة، وأَنِفْتُ لنفسي من ذلك المقام، فأخذتها بعلم أخبار الأنام، وتصحيح نسبتها، وإيضاح محجَّتها؛ فإنَّ كثيراً ممن يحفظ شيئاً من الوقائع يفوته معرفة نسبتها إلى أربابها، وإنْ نَسَبَها خَلَّط فيها وصَرَفَها عن أصحابها. وهو بابٌ واسِعٌ غزير الفوائد، صعب المصادر والموارد، زَلَّتْ فيه قَدَمُ كثيرٍ من نَقَلَةِ الأخبار ورواة الآثار.

ثم أردتُ أَنْ أجمعَ من هذا العلم كتاباً يكون حاوياً لما حَصَّلْتُه، وأتقنُ فيه ما خَبِرْتُهُ، فَعَمَدْتُ إلى أكبر كتابٍ وُضِعَ في هذا الفن على طريقة المحدِّثين، وهو «تاريخ مدينة دمشق حماها الله عَزَّ وجل»؛ الذي صنَّفَه الحافظ الثقة أبو القاسم عليُّ بنُ الحسن العَسَاكري[1] رحمه الله، وهو ثماني

(١) لم أر فيمن ترجم لابن عساكر من نسبه هذه النسبة، وقد اشتهر بابن عساكر مع أنه لم يعرف أحد من أجداده بهذا الاسم. قال أبو شامة: وإنما هي تسمية لعلها جاءتهم من قبل أمهات بعضهم. انظر «المذيل على الروضتين» ترجمة فخر الدين ابن عساكر، في وفيات سنة ٦٢٠ هـ و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٢١٥، وقد تبنى مجمع اللغة العربية بدمشق طبع هذا السفر العظيم، وأخرج منه حتى الآن عدة مجلدات، وطبعت دار الفكر بدمشق مختصره لابن منظور.

مئة جُزء في ثمانين مجلداً، فاختصرته، وهذبته، وزدته فوائدَ من كتبٍ أخرى جليلة، وأتقنته، ووقَفَ عليه العلماءُ، وسمعه الشيوخ والفضلاء، ومرَّ بي فيه من الملوك المتأخرين، ترجمةُ الملك العادل نور الدين؛ فأطربني ما رأيتُ من
١/٤ آثاره، وسمعت من أخباره، مع تأخُّر زمانه، وتغيّر خِلاّنه. ثم وقفتُ بعد ذلك في غير هذا الكتاب على سيرة سَيِّد الملوك بعده، الملكِ الناصر صلاح الدين، فوجدتُهما في المتأخّرين، كالعُمَرَيْن ــ رضي الله عنهما ــ في المتقدِّمين؛ فإنَّ كل ثانٍ من الفريقين حذا حَذْوَ من تَقدَّمه في العَدْل والجهاد، واجتهد في إعزاز دين الله أيّ اجتهاد. وهما ملِكا بلدتنا، وسُلْطانا خُطَّتنا، خَصَّنا الله تعالى بهما، فوجَبَ علينا القيامُ بذكر فَضْلِهما. فعزمتُ على إفراد ذكر دولتيهما بتصنيف، يتضمن التقريظ لهما والتعريف، فلعلَّه يقف عليه من الملوك، مَنْ يسلك في ولايته ذلك السلوك، فلا أُبعد أنهما حُجَّةٌ من الله على الملوك المتأخرين، وذكرى منه سبحانه فإنَّ الذكرى تنفع المؤمنين. فإنهم قد يستبعدون من أنفسهم طريقةَ الخلفاء الراشدين، ومن حذا حَذْوَهُمْ من الأئمة السَّابقين، ويقولون: نحن في الزمن الأخير، وما لأولئك من نظير. فكان فيما قَدَّر الله سبحانه من سيرة هذين الملكين إلزام الحُجَّة عليهم بمن هو في عصرهم، من بعض ملوك دهرهم، فلن يَعْجِزَ عن التشبُّه بهما أحد، إنْ وفَّقَ الله تعالى الكريمُ وسدَّد. وأخذتُ ذلك من قول أبي صالح شُعيب بن حَرْب المَدَائني رحمه الله ــ وكان أحدَ السادة الأكابر في الحِفْظ والدين ــ قال: إني لأحسب يجاء بسفيان الثَّوْري يومَ القيامة حُجَّةً من الله تعالى على هذا الخَلْق؛ يُقال لهم: إن لم تدركوا نبيكم فقد أدركتم سفيان، ألا اقتديتم به؟! وهكذا أقول: هذانِ حُجَّةٌ على المتأخرين من الملوك والسلاطين. فَلِلَّهِ دَرُّهُما مِنْ مَلِكَيْنِ تعاقبا على حُسْنِ السيرة، وجميل السريرة، وهما حنفي وشافعيّ، شفى الله بهما كلَّ عِيّ، وظهرت بهما من خالقهما العناية، فتقاربا[1] حتى في

(١) في الأصل: متقاربان، والمثبت من (ل) و(م).

العُمر ومدَّة الولاية، وهذه نكتة قَلَّ من فَطِن لها ونبَّه عليها، ولطيفةٌ هداني الله بتوفيقه إليها؛ وذلك أن نور الدين رحمه الله، ولد سنة إحدى عشرة وخمس مئة[1]، وتوفي سنة تسع وستين[2]، ووُلد صلاح[الدين][3] رحمه الله سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة[4]، وتوفي سنة تسع وثمانين[5]. فكان نور الدين أسنّ من صلاح الدين بسنةٍ واحدة وبعض أخرى، وكلاهما لم يستكمل ستين سنة، فانظر كيف اتفق [أن][6] بين وفاتيهما عشرين سنة، وبين مولديهما إحدى وعشرين سنة. وملك نور الدين دمشق سنة تسعٍ وأربعين، وملَكها صلاح الدين سنة سبعين، فبقيت دمشق في المملكة النورية عشرين سنة، وفي المملكة الصلاحية تسع عشرة[7] سنة، تُمحى فيها السيئة وتُكْتَب الحسنة؛ وهذا من عجيب ما اتفق في العمر ومدّة الولاية ببلدةٍ معينة لملكين متعاقبين، مع قُرب الشبه بينهما في سيرتيهما، والفضل للمتقدِّم؛ فكأن زيادة مدة نور الدين كالتنبيه على زيادة فضله، والإرشاد إلى عظم محلِّه، فإنه أصل ذلك الخير كله، مهَّدَ الأمور بعَدله وجهاده، وهيبته في جميع بلاده، مع شدة الفتق، واتساع الخرق. وفَتَح من البلاد، ما استعين به على مداومة الجهاد، فهان على مَن بعده على الحقيقة، سلوكُ تلك الطريقة، لكن صلاح [الدين][8] أكثرُ جِهاداً، وأعم بلاداً، صبرَ وصابر، ورابط وثابر،

---

(1) في هامش الأصل: سنة ٥١١.
(2) تحتها في الأصل: ٦٩.
(3) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(4) في هامش الأصل: سنة ٥٣٢.
(5) تحتها في الأصل: ٨٩.
(6) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(7) في الأصل: تسعة عشر، وفي (ل) تسعة عشرة، وكلاهما وهم، والمثبت من (م).
(8) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وذَخَـر [اللّـه][1] له من الفتوح أنفَسه، وهو فتـح الأرض المقدسة. فرضي الله عنهما فما أحقهما بقول الشّاعر:

كــم تَــرَكَ الأوَّلُ لــلآخــر[2]

وألبسَ الله هـاتيكَ العِـظامَ، وإن بَلِين تحتَ الثـرى عفواً وغُفـرانـا
سقَى ثـرًى أُودِعُوه رحمـةً مـلأَتْ مثـوى قبورِهِمُ رَوْحـاً وَرَيْحانـا[3]

وقد سبقني إلى تدوين مآثرهما جماعةٌ من العلماء، والأكابر الفضلاء. فذكر الحافظ الثقة أبو القاسم علي بن الحسن الدِّمَشْقي في «تاريخـه»[4] ترجمةً حسنة لنور الـدين محمود بن زَنْكي رحمـه الله، ولأجله تمَّم ذلك الكتاب، وذكر اسمه في خطبته.

وذكر الرئيس أبو يعلى حمزة بـن أسد التميمي في «مذيـل التاريخ الدّمشقي»[5] قطعةً صالحة من أوائل الدولة النورية إلى سنة خمس وخمسين

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م). وعلى هامش الأصل: أي حفظ.

(٢) هذا عجز بيت، صدره: «يقول من تقرع أسماعه»، وهو لأبي تمام في «ديوانه»: ١٦١/٢.

(٣) فـي هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذان البيتان من قصيدة لأسامة بن منقذ، يأتي بعضها في أخبار سنة اثنتين وخمسين، قالها في مرثية رهطه لما هلكوا بشيزر عام الزلازل المتتابعة، والله أعلم».
قلت: هما في «ديوانه»: ٣٠٩ مـع اختلاف في ترتيب البيتين، وانظر ص ٣٣٦ من هذا الجزء.

(٤) يعني «تاريخ دمشق»، انظر حاشيتنا رقم ١، ص ٢٥، من هذا الجزء.

(٥) وقف فيه عند حوادث سنة (٥٥٥ هـ) لأنها سنة وفاته، نشره المستشرق أمدروز وطبع في بيروت سنة ١٩٠٨ م بمطبعة الآباء اليسوعيين، وأعاد نشره الدكتور سهيل زكار، وطبعـه فـي دمشـق سنـة ١٩٨٣ م. انظـر «وفيـات الأعيـان»: ١٤٤/٧، و «معجم المطبوعات»: ٢١٩.

وخمس مئة[1].

وصنَّف الشيخ الفاضل عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن [محمد بن][2] عبد الكريم الجَزَرِي ــ عُرف بابن الأثير ــ مجلَّدةً في الأيام الأتابكية كلها[3]، وما جرى فيها، وفيه شيء من أخبار الدولة الصَّلاحية لتعلق إحدى الدولتين بالأخرى لكونها متفرِّعة عنها[4].

وصنّف القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المَوْصلي ــ عُرِف بابن شَدَّاد ــ قاضي حلب مجلَّدة في الأيام الصَّلاحية، وساق ما تيسَّر فيها من الفتوح، واستفتح كتابه بشرح مناقب صلاح الدين رحمه الله تعالى[5].

وصنَّف الإمام العالم عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد بن حامد الأصفهاني كتابين كلاهما مسجوعٌ متقن بالألفاظ الفصيحة والمعاني الصحيحة؛ أحدهما «الفتح القدسي»[6]، اقتصر فيه على فتوح صلاح الدين

---

(١) في هامش الأصل: «حاشية، فيبقى من مدة سلطنته رحمه الله تعالى تسع وعشرون سنة، والله سبحانه أعلم».
قلت: ما أدري كيف تستقيم هذه الحاشية، ومدة سلطنة نور الدين ثمانية وعشرون سنة، فيبقى من مدة سلطنته حتى وفاته أربع عشرة سنة.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/٣٥٣ ــ ٣٥٤.

(٣) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: مع نور الدين.

(٤) سماه «التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل» حققه عبد القادر أحمد طليمات، وطبع في القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م.

(٥) سمى ابن شداد كتابه بـ«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» طبع الكتاب غير مرة، آخرها بتحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، وطبع في القاهرة ١٩٦٤م، وقد ترجم أبو شامة لابن شداد في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٢ هـ). وهو من شيوخه.

(٦) طبع في ليدن سنة ١٨٨٨م، ثم طبع في القاهرة غير مرة، ثم حققه وشرحه محمد محمود صبح: نشرته الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة، بلا تاريخ، وكان العماد =

وسيرته، فاستفتحه بسنة ثلاث وثمانين وخمس مئة. والثاني «البرق الشَّامي»(١)، ذكر فيه الوقائع والحوادث من الغزوات والفتوحات وغيرهما مما وقع من سنة وروده دمشق، وهي سنة اثنتين وستين وخمس مئة إلى سنة
٥/١ وفاة صلاح الدين، وهي سنة تسع وثمانين، فاشتمل على قطعةٍ كبيرة من أخبار أواخر الدَّولة النوريّة. إلا أن(٢) العماد في كتابيه طويلُ النَّفَس في السَّجْع والوصف، يُمِلُّ الناظر فيه، ويُذْهِلُ طالبَ معرفة الوقائع عما سبق من القول وينسيه، فحذفتُ تلك الأسجاع إلا قليلاً منها، استحسَنْتُها في مواضعها، ولم تك خارجةً عن الغرض المقصود من التعريف بالحوادث والوقائع، نحو ما ستراه في أخبار فتح بيت المقدس شرفه الله تعالى، وانتزعت المقصود من الأخبار، من [بين](٣) تلك الرسائل الطِّوال، والأسجاع المفضية إلى المَلال، وأردت أن يفهم الكلامَ الخاصُّ والعام. واخترت من

= قد سمى كتابه «الفتح القدسي» وعرضه على القاضي الفاضل، فقال له: سمه «الفتح القسي في الفتح القدسي، فقد فتح الله عليك فيه بفصاحة قس وبلاغته»، لكن الفيروزآبادي الذي اختصره سماه «الفيح القسي في الفتح القدسي». انظر «الفتح القسي»: ٥٧ ــ ٥٨، و«معجم المؤرخين الدمشقيين»: ٦٠.

(١) في سبعة مجلدات، وقد فقد الكتاب ما عدا المجلدين الثالث والخامس، فهما في مكتبة بودليان بأكسفورد برقم Marsh 425, Bruce 11، وطبع المجلد الثالث في عمان سنة ١٩٨٧ بتحقيق الدكتور مصطفى الحياري، وطبع المجلد الخامس بتحقيق رمضان ششن في استانبول ١٩٧٩ م، ثم أعاد تحقيقه الدكتور فالح صالح حسين، وطبع في عمان سنة ١٩٨٧، وقد اختصر الكتاب الفتح بن علي البنداري في مجلدين سماه «سنا البرق الشامي» طبع المجلد الأول منه، وهو يحوي حوادث سنوات (٥٦٣ هـ ــ ٥٨٣ هـ) حقق الدكتور رمضان ششن منه جزءاً حتى حوادث سنة (٥٧٦ هـ) وطبع في دار الكتاب الجديد ــ بيروت، سنة ١٩٧١، ثم نشرته كاملاً الدكتورة فتحية النبراوي، وطبع في القاهرة سنة ١٩٧٩، وهي نشرة سقيمة تعوزها الأناة والدقة. أما المجلد الثاني والذي يحوي حوادث سنة (٥٨٤ هـ ــ ٥٩٧ هـ) فلم يصلنا بعد.

(٢) في الأصل: لأن، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

تلك الأشعار الكثيرة قليلاً ممَّا يتعلق بالقَصَص وشرح الحال، وما فيه نكتة غريبة، وفائدة لطيفة.

ووقفت على مجلَّدات من «الرسائل الفاضلية»[(١)]، وعلى جُملةٍ من الأشعار العمادية مما ذكره في «ديوانه» دون «بَرْقه»[(٢)]، وعلى كتبٍ أُخر[(٣)] من دواوين وغيرها، فالتقطتُ منها أشياء مما يتعلَّق بالدولتين أو بإحداهما، وبعضه سمعته من أفواه الرِّجال الثقات، ومن المدركين لتلك الأوقات. فاختصرت جميعَ ما في ذلك من أخبار الدولتين، وما حدَث في مُدَّتهما من وفاة خليفةٍ أو وزير، أو أمير كبير، أو ذي قَدْر خطير، وغير ذلك. فجاء مجموعاً لطيفاً، وكتاباً ظريفاً، يصلُح لمطالعة الملوك والأكابر، من ذوي المآثر والمفاخر. وسميته «كتاب الرَّوضتين في أخبار الدولتين». ولله دَرُّ حبيب بن أوس حيث يقول:

ثُمَّ انقضَتْ تلك السِّنُونُ وأهلُها   فكأنَّها وكأنَّهم أَحْلامُ[(٤)]

فصل

*أما الدولة النورية فَسُلطانها الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين أَتابك وهو أبو سعيد[(٥)] زَنْكي بن قسيم الدَّوْلة آق سُنْقُر

---

(١) نسبة إلى القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي، أخباره مبثوثة في أثناء الكتاب، وسترد ترجمته في ٤/ ٤٧٢، وانظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٥٨ ــ ١٦٣.

(٢) أي «البرق الشامي».

(٣) من هذه الكتب «السيرة الصلاحية» لابن أبي طي، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من الجزء الثاني، وص ١٥٦ من هذا الجزء.

(٤) البيت في «ديوانه» بشرح الخطيب التبريزي: ٣/ ١٥٢.

(٥) وكذلك كناه العظيمي فيما نقله عنه ابن العديم في «بغية الطلب» ٨/ ٣٨٤٦ وابن

التركي. ويلقب زَنْكي أيضاً بلقب والده قَسِيم الدولة، ويقال لنور الدين ابن القسيم وسنتكلّم على أخبار أسلافه عند بسط أوصافه، وقدمتُ من إجمال أحواله ما يُستدلُّ به على أفعاله:

ذكر الحافظ أبو القاسم في «تاريخه» أنه وُلد سنة إحدى عشرة وخمس مئة، وأن جدَّه آق سُنْقُر وَلِيَ حلب وغيرها من بلاد الشام، ونشأ أبوه زَنْكي بالعراق، ثم ولي ديار المَوْصِل والبلاد الشامية، وظهرت كفايتُه في مقابلة العدوِّ عند نزوله على شَيْزَر* حتى رجع خائباً، وفتح الرُّها*، والمَعَرَّة*، وكَفْر طاب*، وغيرَها من الحصُون الشاميّة، واستنقذَها من أيدي الكُفَّار. فلما انقضى أجلُه قام ابنُه نور الدين مقامَه، وذلك سنة إحدى وأربعين وخمس مئة. ثم قصد نور الدين حلب فملَكَها وخرَج غازياً في أعمال تل باشر*، فافتتح حصوناً كثيرة من جُملتها قلعة عَزَاز*، ومَرْعَش*، وتل خالد*، وكَسَر إبرنس أَنْطَاكية، وقتلَه وثلاثة آلاف فرنجي معه، وأظهر بحلب السُّنَّة وغيَّر البِدْعة التي كانت لهم في التأذين، وقمع بها الرافضة، وبنى بها المدارس، ووقَفَ الأوقاف، وأظهر العدل وحاصَر دمشق مرتين وفتحها في الثالثة فضبط أمورَها وحصَّن سُورها وبنى بها المدارس والمساجد وأصلح طُرقَها، ووسَّع أسواقها، ومنعَ مِن أَخْذ ما كان يؤخذ منهم من المغارم بدار البِطِّيخ*، وسوق الغنم، والكيالة، وغيرِها. وعاقب على شُرب الخمر، واستنقَذ من العدو ثَغْر بانياس* والمُنَيْطِرَة* وغيرهما وكان في الحرب ثابتَ القَدَم، حسن الرَّمي، صَلِيب[1] الضَّرْب، يَقْدُم أصحابَه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله تعالى أن يحشره من بُطون السِّباع وحواصِل الطير ووقَفَ رحمه الله تعالى وقُوفاً على المرضى ومُعَلِّمي الخط والقرآن وساكني الحرمين. وأقطعَ

عساكر في «تاريخ دمشق» (خ) س: ١٦/ ١٤٧ ب، وكنى ابن خلكان آق سنقر بأبي سعيد، وعماد الدين بأبي الجود، وفي «بغية الطلب» ٨/ ٣٨٤٥ كنى ابن العديم عماد الدين بأبي المظفر. انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٤١، ٢/ ٣٢٧.

(١) شديد. «القاموس المحيط» (صلب).

أمراء العرب لئلا يتعرَّضوا للحُجّاج، وأمر بإكمال سُور المدينة[1] واستخراج العَيْن التي بأُحُد، وبنى الرُّبُط* والجُسور والخانات*، وجدَّد كثيراً من قُنيِّ السَّبيل. وكذا [صنع][2] في غير دمشق من البلاد التي ملَكها. ووقَفَ كُتُباً كثيرة، وحَصَل في أسره جماعةٌ من أمراء الفرنـج، وكسر الرُّوم والأرمن والفرنـج على حارِم*، وكان عِدَّتُهم ثلاثين ألفاً، ثم فتـح حارم، وأخذ أكثر قرى أنطاكية، ثم فتـح الدِّيار المِصْرية وكان العدوُّ قد أشرف على أَخْذها، ثم أظهر بها السُّنَّة وانقمعت البِدْعة. وكان حسنَ الخطِّ، كثير المطالعة للكتب الدينية، متَّبعاً للآثار النبويَّة، مُوَاظباً على الصلوات في الجماعات، عـاكفاً على تـلاوة القرآن، حريصاً على فعل الخير، عفيفَ البطن والفرج، مقتصِداً في الإنفاق، متحرِّياً في المطاعم والملابس، لم تُسمـع منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضَجَره، وأشهى ما إليه كلمةُ حقٍّ يسمَعُها أو إرشاد إلى سُنَّةٍ يتبَعُها[3].

وقال أبو الحسن ابن الأثير: قد طالعتُ تواريـخ الملوك المتقدِّمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الرَّاشدين وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسنَ سيرةً من الملك العادِل نور الدين، ولا أكثر تحرِّياً للعدل والإنصاف منهُ. قد قَصَرَ ليلَه ونهاره على عدلٍ ينشرُه، وجهادٍ يتجهَّز له، وَمَظْلمة يُزيلُها، وعبادةٍ يقوم بها، وإحسانٍ يُوليه، وإنعامٍ يُسْديه. ونحن نذكر ما نعلمُ[4] به محلَّه في أمر دنياه وأُخراه، فلو كان في أُمَّة لافتخرَتْ به، فكيف بيتُ واحد؟

أما زهده وعبادَتُه وعِلْمه فإنَّه كان مـع سَعَة ملكه، وكثرة ذخائر بلاده وأموالها، لا يأكل ولا يَلْبَسُ ولا يتصرَّف فيما يخصُّه إلا مِنْ مِلْك كان له قد اشتراه ٦/١

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣١٦ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) انظر «تاريـخ ابن عساكر» (خ) س: ١٤٧/١٦ ب ـ ١٤٨ ب.
(٤) في الأصل مهملة، والمثبت من (ل) و(م)، وفي «الباهر»: ١٦٣ «تعلم».

مِن سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المُرصدة لمصالـح المسلمين؛ أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحلُّ له من ذلك، فأخذ ما أفتوه بحِلِّه، ولم يتعدَّه إلى غيره البتّةَ، ولم يلبس قط ما حَرَّمه الشَّرع من حريرٍ أو ذهبٍ أو فِضَّةٍ. ومنـع من شُرب الخمر وبيعها في جميـع بلاده، ومن إدخالها إلى بلدٍ ما، وكان يَحُدُّ شاربَها الحدَّ الشرعي، كُلُّ الناس عنده فيه سواء.

حدثني صديقٌ لنا بدمشق كان رضيـعَ الخاتون ابنة معين الدِّين[١]؛ زوجة نور الدين[٢]، ووزيرَها، قال: كان نور الدين إذا جاء إليها يجلس في المكان المختصِّ به، وتقوم في خِدْمته لا تتقدَّم إليه إلا أن يأذن في أخذ ثيابه عنه، ثم تعتزل عنه إلى المكان الذي يختصُّ بهـا، ويتفرَّد[٣] هو، تارةً يطالـعُ رِقاع أصحاب الأشغال، أو في مطالعة كتابٍ أتاه ويجيب عنهما. وكان يصلي فيطيل الصَّلاةَ، وله أورادٌ في النهار، فإذا جاء الليل وصَلَّى العِشاء ونام، يستيقظ نصف الليل، ويقوم إلى الوضوء والصلاة إلى بُكْرة، فيظهر للركوب ويشتغِلُ بمهامِّ الدولة. قال: وإنها قلَّت عليها[٤] النفقة، ولم يكفها ما كان قرَّره[٥] لها، فأرسلتني إليه أطلب منه زيادة في وظيفتها. فلما قلتُ له ذلك تنكَّرَ واحمرَّ وجهه، ثم قال: من أين أُعطيها؟ أما يكفيها مالُها! والله لا أخوضُ نارَ جهنم في هواها. إن كانت تظن أن الذي بيدي من الأموال هي لي فبئس الظن، إنما هي أموال المسلمين مُرَصَّدَةٌ[٦] لمصالحهم، ومُعَدَّة لفتقٍ إن كان

(١) هو معين الدين أنر، توفي سنة (٥٤٤هـ). انظر أخباره مبثوثة في أثناء هذا الجزء، وانظر ص ٢٢٢، منه.

(٢) تزوجها نور الدين سنة (٥٤١هـ)، ثم بعد وفاته تزوجها صلاح الدين سنة (٥٧٢هـ). وتوفيت سنة (٥٨١ هـ). انظر ص ١٨٠ من هذا الجزء و ٢/ ٤٣١، و ٣/ ٢٤٣ من هذا الكتاب.

(٣) في (ل) و(م) ينفرد.

(٤) تحت هذه الكلمة في الأصل بخط دقيق «الزوجة».

(٥) تحت هذه الكلمة في الأصل بخط دقيق «نور الدين».

(٦) الضبط من الأصل.

من عدوِّ الإسلام، وأنا خازنُهم عليها فلا أخونهم فيها. ثم قال: لي بمدينة حمص ثلاثة[1] دكاكين ملكاً وقد وهبتُها إياها فلتأخذها. قال: وكان يحصل منها قدرٌ قليل[2].

قال ابن الأثير: وكان رحمه الله، لا يفعل فعلاً إلا بنيّة حسنة. كان بالجزيرة رجل من الصَّالحين[3]، كثير العبادة والورع، شديدُ الانقطاع عن الناس، وكان نور الدين يكاتبه ويراسله ويرجع إلى قوله، ويعتقد فيه اعتقاداً حسناً. فبلغه أن نور الدين يُدْمِنُ اللعبَ بالكرة، فكتب إليه يقول: ما كنتُ أظنك تلهو وتلعب وتعذِّبُ الخيلَ لغير فائدة دينية. فكتب إليه نور الدين بخطِّ يده يقول: والله ما يحملني على اللعب بالكرة اللهو والبَطَرُ، إنما نحن في ثَغْرٍ، العدوُّ قريبٌ منا، وبينما نحن جلوس إذ يقع صوت فنركب في الطلب. ولا يمكننا أيضاً ملازمة الجهاد ليلاً ونهاراً، شتاءً وصيفاً، إذْ لا بد من الراحة للجند، ومتى تركنا الخيل على مرابطها صارت جَماماً[4] لا قُدرة لها على إدمان السير في الطلب، ولا معرفة لها [أيضاً][5] بسرعة الانعطاف في الكرِّ والفرّ في المعركة، فنحن نركبها ونروضها بهذا اللعب، فيذهب جَمَامها وتتعوَّد سُرعَة الانعطاف، والطاعة لراكبها في الحرب. فهذا والله الذي بعثني[6] على اللعب بالكرة[7].

---

(١) في الأصل: ثلاث، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) انظر «الباهر»: ١٦٣ ـ ١٦٤.
(٣) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: اسم هذا الشيخ محمد بن العوام، مسجده يلاصق الباب الجديد المعروف قديماً بباب النوبية، والله أعلم».
(٤) الجمام: الراحة، وجم الفرس يجم جماً وجماماً وأجم: ترك فلم يركب، فعفا من تعبه وذهب إعياؤه. «اللسان» (جمم).
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) في (م) و«الباهر» يبعثني.
(٧) «الباهر»: ١٦٤ ـ ١٦٥.

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذا الملك المعدوم النظير، الذي يقل في أصحاب الزوايا المنقطعين إلى العبادة مثله، فإن من يجيء إلى اللعب يَفْعَلُه بنيَّةٍ صالحة حتى يصير من أعظم العبادات وأكبر القُرُبات يقل في العالم مثله، وفيه دليل على أنه كان لا يفعل شيئاً إلا بنيَّة صالحة، وهذه أفعال العلماء الصالحين العاملين[١].

قال: وحُكي لي عنه أنَّه حُمل إليه من مصر عِمامة من القَصَب الرفيع مُذْهبة، فلم يحضرها عنده، فَوُصِفَتْ له فلم يلتفت إليها. وبينا هم معه في حديثها، وإذا قد جاءه رجل صوفيّ، فأمر بها له، فقيل له: إنها لا تصلُح لهذا الرجل، ولو أُعطي غيرها كان أنفع له. فقال: أعطوها له، فإني أرجو أن أُعَوَّض عنها في الآخرة. فسُلِّمت إليه، فسار بها إلى بغداد، فباعها بست مئة دينار أميري أو سبع مئة دينار[٢].

قلت: قرأتُ في حاشية هذا المكان[٣] من كتاب [ابن][٤] الأثير بخط ابن المُعْطَى إياها قال: أعطاها لشيخ الصُّوفية عماد الدين أبي الفتح بن حَمُّويه[٥] بغير طلب ولا رغبة، فبعثها إلى هَمَذَان، فبيعت بألف دينار.

قال ابنُ الأثير: وحكى لنا الأمير بهاء الدين عليُّ بن السُّكَّري[٦] ــ وكان خصيصاً بخدمة نور الدين، قد صحبه من الصِّبا وأنس به، وله معه انبساط،

---

(١) في (م) العالمين، وانظر «الباهر»: ١٦٥.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في الأصل: الكتاب، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٥) هو شيخ الشيوخ عمر بن علي بن محمد بن حمويه، من جوين، ناحية في نيسابور، قدم دمشق سنة (٥٦٤ هـ)، فولاه نور الدين خوانق الشام، وكان يحبه ويحترمه، توفي سنة (٥٧٧ هـ)، وله أربع وستون سنة. انظر «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٧ هـ) و«العبر» للذهبي ٤/ ٢٣٢، وص ٢٦٤ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٦) في «الباهر» الشكري.

قال: كنت معه يوماً في الميدان بالرُّها* والشمس في ظهورنا، فكلما سرنا تقدَّمَنا الظِّل، فلما عُدنا صار الظل وراء ظهورنا، فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه، وقال لي: أتدري لأي شيء أُجري فرسي وألتفتُ ورائي؟ قلت: لا. قال: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا؛ تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها[1].

قلتُ: رضي الله عن ملكٍ يفكر في مثل هذا. وقد أُنشدتُ بيتين في هذا المعنى:

مَثَلُ الرِّزْقِ الذي تطلبُه ... مَثَلُ الظِّلِّ الذي يمشي مَعَكْ
أنتَ لا تدركُهُ متَّبِعاً ... فإذا ولَّيتَ عنه تَبِعَكْ

قال ابن الأثير: وكان ــ يعني نورَ الدين ــ رحمه الله، يصلِّي كثيراً من الليل، ويدعو ويستغفر ويقرأ، ولا يزال كذلك إلى أن يركب.

جَمَع الشَّجاعة والخشوع لربِّه ... ما أحسنَ المحرابَ[2] في المحرابِ[3]

قال: وكان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، ليس عنده تعصُّب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء. وسمع الحديث وأسمعه طلباً للأجر، وعلى الحقيقة فهو الذي جدَّد للملوك اتِّباع سُنَّة العَدْل والإنصاف، وتَرْك المحرَّمات من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك؛ فإنهم ٧/١
كانوا قبله كالجاهلية: هَمُّ[4] أحدهم بطنُه وفرجه، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً، حتى جاء الله بدولته فوقف مع أوامر الشرع ونواهيه، وألزم بذلك أتباعه وذويه، فاقتدى به غيره منهم، واستحيوا أن يظهر عنهم ما كانوا يفعلونه «ومَنْ سَنَّ سُنَّة حسنةً كان له أَجْرُها وأجر مَن عَمِلَ بها إلى يوم القيامة»[5].

---

(١) «الباهر»: ١٦٥ وانظر عن الأمير علي أيضاً ص ١٨٦، ١٩٢ منه.

(٢) رجل محراب: شديد الحرب، شجاع. «القاموس المحيط» (حرب).

(٣) «الباهر»: ١٦٥.

(٤) في (ل) و(م): همة.

(٥) هو حديث للنَّبيِّ ﷺ ورد بألفاظ مختلفة، انظر تخريجه في «صحيح ابن حبان»، برقم (٣٣٠٨) تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط.

قال: فإن قال قائل: كيف يوصف بالزهد من له الممالك الفسيحة، وتجبى إليه الأموال الكثيرة؟ فليذكر نبيَّ الله سليمان بن داود عليهما السلام مع ملكه وهو سيِّد الزَّاهدين في زمانه. ونبيُّنا ﷺ قد حكم على حضرموت واليمن والحجاز وجميع جزيرة العرب من حدود الشَّام إلى العراق، وهو على الحقيقة سَيِّد الزاهدين. قال: وإنما الزهد خلوُّ القلب من محبة الدنيا لا خلوّ اليد عنها[1].

قال: وأما عدله فإنه كان أحسن الملوك سيرةً وأعدلهم حكماً؛ فمن عدله أنه لم يترك في بلدٍ من بلاده ضريبةً ولا مَكْساً ولا عُشْراً، بل أطلقها رحمه الله جميعها في بلاد الشام، والجزيرة جميعها، والمَوْصل وأعمالها، وديار مصر وغيرها مما حكم عليه. وكان المَكْس في مصر يؤخذ من كل مئة دينار خمسة وأربعون ديناراً، [فأطلقها و][2] هذا لم تتسع له نفس غيره. وكان يتحرَّى العدل وينصفُ المظلوم من الظَّالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء. وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه، ولا يكل ذلك إلى حاجبٍ ولا أمير. فلا جَرَمَ سار ذكره في شرق الأرض وغَرْبها[3].

قال: ومن عدله أنه كان يُعظِّم الشريعة المطهرة ويقف عند أحكامها ويقول: نحن شِحَنٌ[4] لها نُمضي أوامرها. فمن اتباعه [أحكامها][5] أنه كان يلعب بدمشق بالكرة، فرأى إنساناً يحدِّث آخر ويومىء بيده إليه، فأرسل إليه يسأله عن حاله. فقال: لي مع الملك العادل حكومة، وهذا غلام القاضي

(1) «الباهر»: ١٦٦.
(2) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «الباهر».
(3) «الباهر»: ١٦٦.
(4) جمع شحنة، انظر معناها في كشاف المصطلحات.
(5) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

ليحضره إلى مجلس الحُكْم يحاكمني على المِلْك الفلاني. فعاد إليه ولم يتجاسر يعرِّفه ما قال ذلك الرجل، وعاد يَكْتُمُه، فلم يقبل منه غير الحق، فذكر له قوله، فألقى الجُوكان* من يده، وخرج من الميدان، وسار إلى القاضي، وهو حينئذٍ كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[١]، وأرسل إلى القاضي يقول له: إنني قد جئت محاكماً، فاسلك [معي مثل][٢] ما تسلكه مع غيري. فلما حضر ساوى خصمه وخاصمه وحاكمه، فلم يثبت عليه حقٌّ، وثبتَ المِلك لنور الدّين، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر: هل ثبتَ له عندي حق؟ قالوا: لا. فقال: اشهدوا أنني قد وهبت له هذا المِلك الذي قد حاكمني عليه، وهو له دوني، وقد كنت أعلم أن لا حقّ له عندي، وإنما حضرتُ معه لئلا يظن بي أني ظلمتُه، فحيث ظهر أن الحقَّ لي وهبتُه له.

قال ابن الأثير: وهذا غاية العدل والإنصاف، بل غاية الإحسان، وهي درجة وراء العدل. فرحم الله هذه النفس الزكية الطاهرة، المنقادة إلى الحق، الواقفة معه[٣].

قلت: وهذا مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الأزمنة وتفرق الكلمة، وإلا فقد انقاد إلى المضي إلى مجلس الحُكْم جماعةٌ من المتقدِّمين مثل عمر وعلي ومعاوية رضي الله عنهم، ثم حُكي نحو ذلك عن أبي جعفر المنصور. وقد نقلنا ذلك كله في «التاريخ الكبير»[٤]، وفيه عن عبد الله بن

---

(١) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٢/٤٢٦

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) «الباهر»: ١٦٦ ــ ١٦٧.

(٤) التاريخ الكبير هو التاريخ الذي اختصره أبو شامة وهذبه وزاد فيه من تاريخ ابن عساكر، وهو في خمسة عشر مجلداً، وله أيضاً مختصر أصغر منه في خمسة مجلدات، انظر ترجمة أبي شامة في «المذيل على الروضتين» حين يعدد مؤلفاته. منه جزء في برلين ٩٧٨٢ وباريس أول ٢١٣٧، انظر «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية) ٦/١٦. وص ٢٥ من هذا الجزء.

طاهر[1] قريبٌ من هذا، لكنه أحضر الحاكم عنده ولم يمضِ إليه. وقد بلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى استُدْعيَ مرة أخرى بحلب إلى مجلس الحكم بنفسه أو نائبه؛ فدخل حاجبه عليه متعجِّباً، وأعلمه أن رسول الحاكم بالباب، فأنكر عليه تعجُّبه، وقام رحمه الله مسرعاً، ووجد في أثناء طريقه ما مَنَعه من العبور من حَفْر جُبٍّ بعض الحشوش واستخراج ما فيه، فوكّل مِن ثَمَّ وكيلاً، وأشهد عليه شاهدين بالتوكيل ورجع.

قال ابن الأثير: ومن عدله أنه لم [يكن][2] يعاقب العقوبة التي يعاقب بها الملوك في هذه الأعصار على الظِّنة والتُّهَمَة، بل يطلب الشهود على المُتهم، فإن قامت البيِّنة الشرعية عاقبه العقوبةَ الشرعية من غيرِ تَعَدٍّ. فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته مع شدَّة السياسة والمبالغة في العقوبة والأخذ بالظِّنة، وأَمِنت بلاده مع سَعَتها، وقلَّ المفسدون ببركة العَدْل، واتباع الشرع المُطَهَّر[3].

قال: وحكى لي من أثق به أنه دخل يوماً إلى خزانة المال، فرأى فيها مالاً أنكره، فسأل عنه، فقيل: إن القاضي كمال الدين أرسله، وهو من جهة كذا. فقال: إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء. وأمر بردِّه وإعادته إلى كمال الدين ليردّه على صاحبه. فأرسله متولي الخزانة إلى كمال الدين، فردَّه إلى الخزانة وقال: إذا سأل الملك العادلُ عنه فقولوا له

(١) كان من أشهر الولاة في العصر العباسي، ولي إمرة الشام مدة، وولّاه المأمون خراسان، وظهرت فيها كفايته، توفي سنة (٢٣٠هـ)، وقصة عبد الله بن طاهر مع خصمه في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٢٢٢/٩ ب ـ ٢٢٣ أ، وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٨٣/٣ ـ ٨٩، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ كالطبري والكامل وغيرهما.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) «الباهر»: ١٦٧.

عني: إنه له. فدخل نور الدين الخزانة مرةً أخرى، [فرآه][1]، فأنكر على النُّوَّاب، وقال: ألم أقل لكم: يُعاد هذا المال على أصحابه؟! فذكروا له قولَ كمال الدين، فردَّه إليه وقال للرسول: قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا، وأما أنا فرقبتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمةَ عليه بين يدي الله تعالى، يُعاد قولاً واحداً[2].

قال: ومن عدله أيضاً بعد موته ــ وهو من أعجب ما يُحكى ــ أن إنساناً كان بدمشق غريباً، استوطنها وأقام بها لِما رأى من عدل نور الدين رحمه الله. فلما توفي تعدَّى بعضُ الأجناد على هذا الرجل، فشكاه، فلم يُنصف. فنزل
١/٨ من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شقَّ ثوبه ويقول: يا نور الدين، لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا، أين عدلك! وقصد تربة نور الدين، ومعه من الخَلق ما لا يُحصى، وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر إلى صلاح الدين وقيل له: احفظ البلد والرعيَّة وإلّا خرج عن يدك. فأرسل إلى ذلك الرجل ــ وهو عند تربة نور الدين يبكي والناس معه ــ فطيَّب قلبه ووهبَه شيئاً وأنصفَه، فبكى أشدَّ من الأول. فقال له صلاح الدين: لِمَ تبكي؟ قال: أبكي على سلطانٍ عَدَل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين: هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدلٍ فمنه تعلَّمناه[3].

قلتُ: ومن عدله أن بنى دار العَدْل*. قال ابنُ الأثير: كان نور الدين رحمه الله أول من بنى داراً للكشف، وسمَّاها دار العدل. وكان سببُ بنائها أنه لما طال مقامه بدمشق، وأقام بها أمراؤه ــ وفيهم أسد الدين شِيركُوه، وهو أكبر أميرٍ معه، وقد عَظُمَ شأنه وعلا مكانه، حتى صار كأنه شريك في

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م).
(٢) «الباهر»: ١٦٧.
(٣) المصدر السابق.

الملك ـ واقتنوا الأملاك وأكثروا، وتعدَّى كل واحد منهم على من يجاوره في قرية أو غيرها، فكثرت الشكاوى إلى كمال الدين، فأنصف بعضهم من بعض، ولم يُقدم على الإنصاف من أسد الدين شِيركُوه، فأنهى الحالَ إلى نور الدين، فأمر حينئذٍ ببناء دار العدل*، فلما سمع أسدُ الدين بذلك أحضَرَ نوابه جميعهم، وقال لهم: اعلموا أن نور الدين ما أمر ببناء هذه الدار إلا بسببي وحدي؛ وإلا فمن هو الذي يمتنعُ على كمال الدين؟ ووالله لئن أُحضرت إلى دار العدل بسبب أحدكم لأصلبنَّه، فامضوا إلى كل من بينكم وبينه منازعة في مِلك، فافصلوا الحال معه، وأرضوه بأي طريق[1] أمكن، ولو أتى ذلك على جميع ما بيدي. فقالوا له: إن الناس إذا علموا هذا اشتطُّوا في الطلب. فقال: خروج أملاكي عن يدي أسهلُ عليَّ من أن يراني نور الدين بعين أني ظالم، أو يُساوي بيني وبين آحاد العامة في الحكومة. فخرج أصحابه من عنده وفعلوا ما أمرهم، وأرضوا خصماءهم، وأشهدوا عليهم. فلما فرغت دارُ العدل جلس نور الدين فيها لفصل الحكومات، وكان يجلس في الأسبوع يومين وعنده القاضي والفقهاء، وبقي كذلك مدة فلم يحضُر عنده أحد يشكو من أسد الدين. فقال نور الدين لكمال الدين: ما أرى أحداً يشكو من شِيركُوه. فعرَّفه الحال، فسجَدَ شكراً لله تعالى، وقال: الحمد لله الذي أصحابُنا ينصفونَ من أنفسهم قبل حضورهم عندنا[2].

قال ابن الأثير: فانظر إلى هذه المَعْدِلَة ما أحسنَها، وإلى هذه الهيبة ما أعظَمَها، وإلى هذه السياسة ما أسَدَّها[3]، هذا مع أنه كان لا يريق دماً، ولا يُبالغ في عقوبة، وإنما كان يفعل هذا صدقُه في عدله وحسنُ نيته[4].

قال: وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه أصبرُ

(١) في (ل) و(م) و«الباهر»: شيء.
(٢) «الباهر»: ١٦٨.
(٣) في «الباهر»: ما أشدها، وهي تصحيف.
(٤) «الباهر»: ١٦٨.

الناس في الحرب وأحسنُهم مكيدةً ورأياً، وأجودهم معرفةً بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يُضرب المثل في ذلك. سمعت جمعاً كثيراً من الناس لا أُحصيهم أنهم لم يروا على ظهر الفرس أحسنَ منه، كأنه خُلِقَ عليه لا يتحرَّك ولا يتزلزل. وكان من أحسن الناس لعباً بالكرة وأقدرهم عليها؛ لم يُرَ جُوكانه* يعلو على رأسه. وكان ربما ضرب الكرة ويُجري الفرس ويتناولها بيده من الهواء، ويرميها إلى آخر الميدان. وكانت يده لا تُرَى والجُوكان فيها، بل تكون في كُمِّ قَبائه استهانةً باللعب. وكان إذا حضَرَ الحرب أخذ قوسين وتَرْكَشَيْن*، وباشر القتال بنفسه، وكان يقول: طالما تعرَّضت للشهادة فلم أدركها. سمعه يوماً الإمام قطب الدين النَّيْسَابوري[1] الفقيه الشافعي وهو يقول ذلك فقال له: بالله لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين فإنك عمادُهم، ولئن أُصبتَ ــ والعياذ بالله ــ في معركة لا يبقى من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف وأُخذت البلاد. فقال: يا قطب الدين، ومن محمود حتى يقالَ له هذا؟! قبلي من حَفِظَ البلاد والإسلام؛ ذلك الله الذي لا إله إلا هو[2].

قال: وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخِدَاع مع الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ وأكثر ما ملَكه من بلادهم به. ومن جيِّد الرأي ما سلكه مع مليح بن ليون* ملك الأَرْمن صاحب الدروب، فإنه ما زال يخدعه [ويستميله][3]، حتى جعله في خدمته سَفَراً وحضراً، وكان يقاتل به الإفرنج، وكان يقول: إنما حملني على استمالته أن بلاده حصينة وعسِرة[4] المسلك،

---

(١) قدم دمشق سنة (٥٤٠ هـ)، ووعظ بها، ثم عاد إلى دمشق سنة (٥٦٨ هـ). توفي سنة (٥٧٨ هـ)، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ٥/ ١٩٦ ــ ١٩٧، و «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ١٠٦ ــ ١٠٩ وانظر ص ٢٦٣ من الجزء الثاني.

(٢) «الباهر»: ١٦٨ ــ ١٦٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (ل) و (م): وعرة.

وقلاعه منيعة وليس لنا إليها طريق، وهو يخرج منها إذا أراد فينال من بلاد الإسلام، فإذا طُلِبَ انحجَرَ فيها فلا يُقدر عليه، فلما رأيتُ الحال هكذا بذلت له شيئاً من الإقطاع على سبيل التألُّف حتى أجابَ إلى طاعتنا وخِدْمتنا وساعدَنا على الفرنـج.

قال: وحيث توفي نور الدين رحمه الله وسلك غيرُه [غيـرَ][1] هذا الطريق مَلَكَ المتولي الأرمن بعد مليـح كثيراً من بلاد الإسلام وحصونهم، وصار منه ضرر عظيم، وخرقٌ واسـع لا يُمكن رقعه[2].

قال: ومن أحسن الآراء ما كان يفعله مـع أجناده؛ فإنه كان إذا توفي أحدهم، وخلَّف ولداً أقر الإقطاع عليه، فإن كان الولد كبيراً استبدَّ بنفسه، وإن كان صغيراً رتَّب معه رجلاً عاقلاً يثق إليه، فيتولى أمره إلى أن يكبر. فكان الأجناد يقولون: هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها،
٩/١ وكان ذلك سبَباً[3] عظيماً من الأسباب الموجبة للصبر في المشاهد والحروب. وكان أيضاً يثبت أسماءَ أجنادِ كلِّ أميرٍ في ديوانه وسلاحَهم؛ خوفاً من حرص بعض الأمراء وشُحِّه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العُدَد، ويقول: نحن كل وقت في النَّفير، فإذا لم يكن أجناد كافة الأمراء كاملي العَدَد والعُدد دخل الوَهْن على الإسلام. قال: ولقد صدق رضي الله عنه فيما قال، وأصاب فيما فعل، فلقد رأينا ما خافه عِياناً[4].

قال: وأما ما فعله في بلاد الإسلام من المصالـح مما يعود إلى حفظها وحفظ المسلمين فكثيرٌ عظيم؛ من ذلك أنه بنى أسوار مدن الشَّام جميعها

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل)، وفي (م) «وسلك من بعده غير هذا الطريق».
(٢) «الباهر»: ١٦٩.
(٣) في الأصل: شيئاً، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) «الباهر»: ١٦٩.

وقلاعها، فمنها حلب، وحماة، وحمص، ودمشق، وبارين*، وشَيْزَر*، ومَنْبِج*، وغيرها من القلاع والحصون، وحصَّنها وأحكم بناءها، وأخرج عليها من الأموال ما لا تسمحُ به النفوس. وبنى أيضاً المدارس بحلب، وحماة، ودمشق، وغيرها للشَّافعية والحنفية. وبنى الجوامع في جميع البلاد، فجامعُه في المَوْصل إليه النهاية في الحُسْن والإتقان[1]، ومن أحسن ما عمل فيه أنه فوَّض أمر عمارته والخرج عليه إلى الشيخ عمر المَلَّاء[2] رحمه الله؛ وهو رجل من الصالحين، فقيل له: إن هذا لا يصلح لمثل هذا العمل. فقال: إذا ولَّيت العمل بعضَ أصحابي من الأجناد والكُتَّاب أعلم أنه يَظلم في بعض الأوقات، ولا يفي الجامعُ بظُلْم رجل مسلم، وإذا ولَّيت هذا الشيخَ غلب على ظني أنه لا يظلم، فإذا ظَلَمَ كان الإثم عليه لا عليَّ. قال: وهذا هو الفِقْه في الخلاص من الظلم. وبنى أيضاً بمدينة حماة جامعاً على نهر العاصي من أحسن الجوامع وأنزهها، وجدَّد في غيرها من عمارة الجوامع ما كان قد تهدم؛ إما بزَلْزلة أو غيرها، وبنى البيمارَسْتانات في البلاد؛ ومن أعظمِها البيمارَسْتان* الذي بناه بدمشق، فإنه عظيم كثير الخرج جداً. بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غنيٍّ وفقير[3].

قلت: وقد وقفتُ على كتاب وَقْفه فلم أره مشعراً بذلك، وإنما هذا كلامٌ شاع على ألسنة العامة، ليَقع ما قدَّره الله تعالى من مزاحمة الأغنياء للفقراء فيه، والله المستعان. وإنما صرَّح بأن ما يعزُّ وجوده من الأدوية الكبار

---

(١) يقع في محلة حمام المنقوشة، وتسمى أيضاً باسمه محلة الجامع الكبير. وقد هدم هذا الجامع سنة ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦، وشيد من جديد على أسلوب هندسي رائع، وبقيت مئذنته القديمة، وهي مرتفعة ارتفاعاً يلفت الأنظار، لكنها غير مستقيمة. انظر «العراق قديماً وحديثاً» لعبد الرزاق الحسني، ص ٢٢٠. و «تاريخ الموصل» للديوه جي: ١/ ٣٣٥.

(٢) هو عمر بن محمد بن خضر الإربلي الموصلي، أبو حفص، معين الدين، يعرف بعمر المَلَّاء، لأنه كان يملأ تنانير الجص بأجرة يتقوت بها، له «وسيلة المتعبدين في سيرة سيد المرسلين»، توفي سنة (٥٧٠ هـ) وسيرد ذكره في ٢/ ١٦٥، ١٧١، ٣/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ من هذا الكتاب. انظر «الأعلام» للزركلي: ٥/ ٦٠ ـ ٦١.

(٣) «الباهر»: ١٧٠.

وغيرها لا يُمنع منه من احتاج إليه من الأغنياء والفقراء. فخصَّ ذلك بذلك، فلا ينبغي أن يتعدَّى إلى غيره، لا سيما وقد صرَّح قبل ذلك بأنه وَقْفٌ على الفقراء والمنقطعين، وقال بعد ذلك: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي. ورُوي[1] أن نور الدين رحمه الله، شرب من شراب البيمارَسْتَان فيه، وذلك موافق لقوله في كتاب الوقف: من جاء إليه مستوصفاً لمرضه أُعطي[1]، والله أعلم.

وبلغني[2] في أصل بنائه نادرة، وهي أن نور الدين رحمه الله وقع في أسره بعضُ أكابر الملوك من الفرنج، خذلهم الله تعالى، فقطع على نفسه في فدائه مالاً عظيماً، فشاور نورُ الدين أمراءه، فكلٌّ أشار بعدم إطلاقه لما كان فيه من الضرر على المسلمين، ومال نور الدين إلى الفداء بعدما استخار الله تعالى، فأطلقه ليلاً لئلا يعلم أصحابه، وتسلَّم المال، فلما بلغ الفرنجي مأمنه مات، وبلغ نور الدين خبره، فأعلم أصحابه، فتعجبوا من لطف الله تعالى بالمسلمين؛ حيث جمع لهم الحُسْنَيَيْن، وهما الفداء وموت ذلك اللعين. فبنى نور الدين رحمه الله بذلك المال هذا البيمارَسْتان، ومنعَ المال الأمراء؛ لأنه لم يكن عن إرادتهم كان.

وقال ابن الأثير: وبنى أيضاً الخانات* في الطرق، فأَمِنَ الناس وحُفِظَتْ أموالُهم، وباتوا في الشتاء في كِنٍّ[3] من البرد والمطر. وبنى أيضاً الأبراج على الطُّرُق بين المسلمين والفرنج، وجعل فيها من يحفظها ومعهم الطيور الهوادي، فإذا رأَوْا من العدوِّ أحداً أرسلوا الطيور، فأخذ الناس حِذْرهم، واحتاطوا لأنفسهم، فلم يبلغ العدو منهم غرضاً؛ وكان هذا من ألطف الفِكَر وأكثرها نفعاً[4].

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (ل).

(٢) أي «أبو شامة».

(٣) أي في ستر. «اللسان» (كنن).

(٤) «الباهر»: ١٧١.

قال: وبنى الرُّبُط* والخانقاهات* في جميع البلاد للصُّوفية، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وأَدَرَّ عليهم الإِدْرارات الصالحة، وكان يُحْضِرُ مشايخَهُم عنده، ويقرِّبُهُمْ، ويدنيهم ويبسطهم، ويتواضع لهم، وإذا أقبل أحدهم إليه يقوم له مُذْ تقع عينه عليه، ويعتنقه ويجلسُهُ معه على سَجَّادته، ويُقبلُ عليه بحديثه. وكذلك كان أيضاً يفعل بالعلماء من التعظيم والتوقير والاحترام، ويجمعهم عند البحث والنَّظَر؛ فقصدوه من البلاد الشَّاسعة، من خُرَاسان وغيرها. وبالجملة كان أهل الدين عنده في أعلى محل وأعظمه، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك، وكانوا يقعون عنده فيهم فينهاهم، وإذا نقلوا عن إنسانٍ عيباً يقول: ومن المعصوم؟! وإنما الكامل من تُعدُّ ذنوبه[١].

قال: وبلغني أن بعض أكابر الأمراء حسد قُطْب الدين النَّيْسَابوري[٢]؛ الفقيه الشافعي، وكان قد استقدَمه من خُرَاسان، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه، فحسده ذلك الأمير، فنال منه يوماً عند نور الدين. فقال له: يا هذا، إن صَحَّ ما تقول فله حسنةٌ تغفر كل زَلَّةٍ تذكرها؛ وهي العلم والدين. وأما أنت وأصحابك، ففيكم أضعاف ما ذكرت، وليست لكم حسنة تغفرها، ولو عَقَلْتَ لشغلك عَيْبُك عن غيرك، وأنا أحتمل سيئاتكم مع عدم حسناتكم، أفلا أحمل سيئةَ هذا ــ إن صحَّتْ ــ مع وجود حسنته! على أنني والله لا أصدِّقك فيما تقول، وإن عدتَ ذكرته أو غيره بسوء لأؤدِّبَنَّك، فكُفَّ عنه.

قال ابن الأثير: هذا والله هو الإحسان والفعل الذي ينبغي أن يكتب ١٠/١
على العيون بماء الذهب[٣].

وبنى بدمشق أيضاً دار الحديث*، ووقَفَ عليها وعلى مَنْ بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ١٧١ ــ ١٧٢.

علمنا. وبنى أيضاً في كثير من بلاده مكاتبَ للأيتام، وأجرى عليهم وعلى معلِّميهم الجرايات الوافرة. وبنى أيضاً مساجد كثيرة، ووقف عليها وعلى من يقرأ بها القرآن.

قال: وهذا فعلٌ لم يُسبق إليه. بلغني من عارفٍ بأعمال الشام أن وقوفَ نور الدين في وقتنا هذا ـ وهو سنة ثمانٍ وست مئة ـ كل شهر تسعة آلاف دينار صورية[1]، ليس فيها مِلْك غير صحيح شرعي ظاهراً وباطناً، فإنه وقف ما انتقل إليه ووزَنَ ثمنه[2]، أو ما غلب عليه من بلاد الفرنج وصار سهمَه[3].

قال: وأما هيبته[4] ووقاره فإليه النهاية فيهما. ولقد كان، كما قيل: «شديد في غير عُنْفٍ، رقيق في غير ضَعْف». واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غايةٍ لا مزيدَ عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخِدْمة، الصغير منهم والكبير، ولم يجلس عنده أمير من غير أن يأمره بالجلوس إلا نجم الدين أيوب والد صلاح الدين يوسف، وأما من عداه، كأسد الدين شِيركُوه، ومجد الدِّين بن الداية، وغيرهما، فإنهم كانوا إذا حضروا عنده يقفون قياماً إلى أن يأمرهم بالقعود. وكان مع هذه العظمة وهذا الناموس القائم إذا دخل عليه الفقيه أو الصُّوفي أو الفقير يقوم له، ويمشي بين يديه، ويجلسه إلى جانبه كأنه أقربُ الناس إليه. وكان إذا أعطى أحدَهم شيئاً يقول: إنَّ هؤلاء لهم في بيت المال حقٌّ، فإذا قَنِعُوا منا ببعضه فلهم المِنَّةُ علينا. وكان مجلسه كما رُوي في صفة مجلس رسول الله ﷺ مجلس حلم وحياء لا تُؤْبَنُ فيه الحُرَمُ[5]. وهكذا كان مجلسُه لا يذكر فيه إلا

---

(١) انظر حاشيتنا رقم (٥) ص ٣٢٨ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: وورث ثمنه، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) «الباهر»: ١٧٢.
(٤) في الأصل: هيئته، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) أي لا يُذْكَرْنَ بقبيح. «النهاية»: ١/١٧.

العلم والدين وأحوال الصالحين، والمشاورة في أمر الجهاد، وقصد بلاد العدو، ولا يتعدَّى هذا. بلغني أن الحافظ ابنَ عساكر الدِّمَشْقي، رضي الله عنه، حضر مجلس صلاح الدين يوسف لما ملك دمشق، فرأى فيه من اللَّغَط وسوء الأدب من الجلوس فيه ما لا حَدَّ عليه، فشرع يحدِّث صلاحَ الدين كما كان يحدِّث نور الدين، فلم يتمكن من القول لكثرة الاختلاف من المتحدِّثين وقلة استماعهم، فقام وبقي مُدَّة لا يحضُر المجلس الصلاحيّ، وتكرَّر من صلاح الدين الطلب له، فحضَر، فعاتبه صلاح الدين يوسف على انقطاعه، فقال: نزَّهتُ نفسي عن مجلسك، فإنني رأيته كبعض مجالس السُّوقة؛ لا يُسْتَمع إلى قائل، ولا يُرَدُّ جواب متكلِّم، وقد كنا بالأمس نحضُر مجلسَ نور الدين، فكنا ــ كما قيل ــ كأنما على رؤوسنا الطَّير، تعلونا الهيبةُ والوقار، فإذا تكلَّم أنصتنا، وإذا تكلَّمْنا استمعَ لنا. فتقدَّم صلاحُ الدِّين إلى أصحابه أنه لا يكونُ منهم ما جَرَت به عادتهم إذا حضر الحافظ.

قال ابن الأثير: فهكذا كانت أحوالُه جميعها رحمه الله مضبوطةً محفوظة(١).

وأما حِفْظ أُصول الدِّيانات، فإنه كان مراعياً لها لا يهملها، ولا يُمكِّن أحداً من الناس من إظهار ما يخالف الحقّ، ومتى أقدم مُقدمٌ على ذلك أدَّبه بما يناسب بِدْعته. وكان يبالغ في ذلك ويقول: نحن نحفظ الطُّرق من لِصٍّ وقاطع طريق، والأذى الحاصل منهما قريب، أفلا نحفظُ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل(٢)!

قال: وحُكي أن إنساناً بدمشق يُعرف بيوسف بن آدم، كان يُظهر

---

(١) «الباهر»: ١٧٢ ــ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق.

الزُّهد والنُّسُك وقد كَثُرَ أتباعُه، أظهر شيئاً من التشبيه، فبلغ خبره نور الدين، فأحضره وأركبه حماراً، وأمر بصفعه. فطيف به في البلاد جميعه ونودي عليه: هذا جزاء مَنْ أظهر في الدين البِدَع. ثم نفاه من دمشق، فقصدَ حَرَّان*، وأقام بها إلى أن مات.

قال: ويسوق الله القِصَار الأعمار إلى البلاد الوَخِمة[1].

قلت: وذكر العماد الكاتب في أول كتابه «البرق الشَّامي» أنه قَدِمَ دمشق في شعبان سنة اثنتين وستين وخمس مئة في دولة الملك نور الدين محمود بن زَنْكي، وأخذ في وصفه بكلامه المسجوع فقال: كان ملك بلاد الشَّام ومالكها، والذي بيده ممالكها، الملك العادل نور الدين، أعفّ الملوك وأتقاهم، وأثقبهم رأياً وأنقاهم، وأعدلهم وأعبدهم، وأزهدهم وأجهدهم، وأظهرهم وأطهرهم، وأقواهم وأقدرهم؛ وأصلحهم عملاً، وأنجحهم أملاً، وأرجحهم رأياً، وأوضحهم آياً، وأصدقهم قولاً، وأقصدهم طولاً، وكان عصره فاضلاً، ونصره واصلاً، وحكمه عادلاً، وفضله شاملاً، وزمانه طيباً، وإحسانه صيِّباً، والقلوب بمهابته ومحبته ممتلية، والنفوس بعاطفته وعارفته متملية، وأموره مقتبلة، وأوامره ممتثلة، وجدّه منزَّه عن الهَزْل، ونوَّابه في أمن من العَزْل، ودولته مأمولة مأمونة، وروضته مصوبة[2] مصونة، والرياسة كاملة، والسياسة شاملة، والزيادة زائدة، والسعادة مساعدة، والعيشة ناضرة، والشيعة ناصرة، والإنصاف صافٍ، والإسعاف عاف، وأزر الدين قويّ، وظمأ الإسلام رَوِيّ، وزَنْد النُّجْح وَرِيّ، والشرع مشروع، والحكم مسموع، والعدل مُولّى والظلم معزول، والتوحيد منصور والشِّرك مخذول، وللتُّقى شروق، وما للفسوق سوق، وهو الذي أعاد رونق الإسلام إلى بلاد الشام، وقد غلب

(١) المصدر السابق.

(٢) أي مُمْطَرَة، من الصوب: نزول المطر. انظر «اللسان» (صوب).

الكفر، وبلغ الضُّر، فاستفتح معاقلها، واستخلص عقائلها، وأشاع بها شعار ١١/١
الشرع في جميع الحل والعقد، والإبرام والنقض، والبسط والقبض، والوضع والرفع. وكانت للفرنج في أيام غيره على بلاد الإسلام بالشام قطائع فقطعها، وعفّى رسومها ومنعها، ونصره الله عليهم مراراً حتى أسر ملوكهم، وبدَّدَ سلوكهم، وصان الثغور منهم، وحماها عنهم. وأحيا معالم الدين الدوارس، وبنى للأئمة المدارس، وأنشأ الخانقاهات* للصُّوفية، وكثَّرها في كل بلد وكَثَّر وقوفَها، وقرَّر معروفها، وأدنى للوافدين من جِنان جنابه قطوفها، وأجَدَّ الأسوار والخنادق، وأنمى المرافق، وحمى الحقائق[٣]، وأمر في الطرقات ببناء الرُّبُط* والخانات*، وضافت ضيوف الفضائل، وفاضت فيوض الأفاضل، وهو الذي فتح مصر وأعمالها، وأنشأ دولتها ورجالها[٢].

ثم ذكر العماد في أثناء حوادث سنة تسع وستين ــ وهي السنة التي توفي فيها نور الدين ــ قال: وفي هذه السنة أكثر نور الدين من الأوقاف والصَّدقات وعمارة المساجد المهجورة، وتعفية آثار الآثام، وإسقاط كل ما يدخل في شبهة الحرام، فما أبقى سوى الجزية والخرَاج، وما تحصل من قسمة الغَلَّات على قويم المنهاج. قال: وأمرني بكِتْبَةِ مناشير لجميع أهل البلاد، فكتبتُ أكثر من ألف منشور، وحَسَبْنا ما تصدَّق به على الفقراء في تلك الأشهر فزاد على ثلاثين ألف دينار. وكانت عادته في الصَّدَقة أن يُحضر جماعةً من أماثل البلد من كلِّ محلة، ويسألهم عمن يعرفون في جوارهم

---

(١) مفردها حقيقة، وهي ما يحق عليه أن يحميه، وكانت العرب تقول: فلان يسوق الوسيقة، وينسل الوديقة، ويحمي الحقيقة. الوسيقة: الطريدة من الإبل، ويَنْسُلُ: يُسرع، والوديقة: شدة الحر. يُقال هذا للرجل المُشَمِّر القوي، أي ينسِلُ نَسَلاناً في وقت الحر نصف النهار. انظر «اللسان» (حقق) و (ودق).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٥٥ ــ ٥٦، و«الباهر»: ١٧٤ ــ ١٧٥.

[من][1] أهل الحاجة، ثم يصرف إليهم صدقاتهم. وكان برسم نفقة الخاص * في كل شهرٍ من جزية أهل الذِّمة مبْلغ ألفي قرطيس*، يصرفه في كسوته ونفقته وحوائجه المهمة، حتى أُجرة خَيَّاطه، وجامكية* طباخه، ويستفضل منه ما يتصدَّق به في آخر الشهر. وأما ما كان يُهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم، فإنه كان لا يتصرَّف في شيء منه، لا قليلٌ ولا كثير، بل إذا اجتمع يخرجه إلى مجلس القاضي يحصِّل ثمنه، ويصرف في عمارة المساجد المهجورة. وتقدَّم بإحصاء ما في محالّ دمشق[2]، فأناف على مئة مسجد، فأمر بعمارة ذلك كله، وعَيَّن له وقوفاً.

قال: ولو اشتغلت بذكر وقوفه وصدقاته في كل بلد لطال الكتاب، ولم يبلغ[3] إلى أمد. ومُشاهدة أبنيته الدالَّة على خلوص نيته تغني عن خبرها بالعِيان، ويكفي أسوار البُلْدان [فضلاً][4] عن الرُّبُط* والمدارس على اختلاف المذاهب واختلاف المواهب، وفي شرح طَوْلِه طُول، وعمله لله ذلك مبرور مقبول. وواظب على عقد مجالس الوعَّاظ، ونصب الكرسي لهم في القلعة للإنذار والاتعاظ، وأكبرهم الفقيه قطب الدين النَّيْسَابوري[5]، وهو مشغوف ببركة أنفاسه، واغتنام كلامه واقتباسه. ووفد من بغداد ابن الشيخ أبي النجيب الأكبر[6]، وبسط له في كل أسبوع المنبر، وشاقه وعظُه، وراقه معناه ولفظه. وكذلك وفد إليه من أصبهان الفقيه شرف الدين عبد المؤمن بن

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) أي من المساجد المهجورة، انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٤٤.

(٣) في (ل) و(م)، أبلغ.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، و(ل) والمثبت من (م)، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٤٤.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٦) هو أبو الرضا عبد الرحيم بن عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، قدم دمشق قاصداً زيارة بيت المقدس، فتوفي بها سنة (٥٦٧هـ). انظر «التكملة» للمنذري: ٢/٢٧٧، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/٦٥. =

شَوْرُوَه[1]، وما أيمنَ تلك الأيام، وأبركَ تلك الشَّتْوة[2].

قال[3]: ولما أسقط نور الدين الجهات المحظورة، والشبه المحذورة، عزل الشِّحَن، وصرف عن الرعية بصرفهم المحن، وقال للقاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري: انظر أنت في ذلك، واحمل أمور الناس على الشريعة.

قال: ولم يكن لمال المواريث الحَشْرية[4] حاصل، ولا لديوانه طائل، فجعل نور الدين ثُلُث ما يحصل فيه لكمال الدين الحاكم، فوفَّرَه نوابه

= أما أبوه أبو النجيب فهو عبد القاهر بن عبد الله السهروردي، من أئمة الشافعية والصوفية في بغداد، قدم دمشق سنة (٥٥٨ هـ) قاصداً زيارة بيت المقدس، فلم تتفق له الزيارة لانفساخ الهدنة مع الصليبيين، فأقام في دمشق مدة يسيرة التقى خلالها بنور الدين، فأكرمه واحترمه، وسمع منه ابن عساكر، وترجم له في «تاريخه» (خ س: ١٠/ ٢٠٩ ب، توفي في بغداد سنة (٥٦٣ هـ). انظر «تاريخ إربل»: ق ١/ ١٠٧، و «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٧٥، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ١٧٣.

وعبد القاهر هذا هو عم شهاب الدين عمر بن محمد صاحب كتاب «عوارف المعارف» المطبوع غير مرة، وقد نسب خطأً في طبعة بيروت ١٩٦٦ م إلى أبي النجيب عبد القاهر. انظر «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٤٦ ـ ٤٤٨، وترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٢ هـ).

(١) في هامش الأصل: «حاشية»، قال المؤلف: هو عبد المؤمن بن هبة الله بن حمزة الأصبهاني الحنفي، ولقبه شوروه؛ بشين معجمة مفتوحة، وراء ساكنة بين واوين مفتوحتين، وآخرها هاء، والله أعلم».

قلت: قدم دمشق سنة (٥٦٩هـ)، ولعله صاحب كتاب «أطباق الذهب» وهو في الوعظ والنصيحة، طبع الكتاب غير مرة، إحداها في مصر سنة (١٣٢٤هـ). انظر «الجواهر المضية»٢/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨، و «كشف الظنون»:١/ ١١٦، و «معجم المطبوعات» ١٣٠٠.

(٢) أحب نور الدين أن يقضي الشتاء في دمشق، وكان قد سار إلى شمالي حلب لقتال قلج أرسلان، وذلك سنة (٥٦٨هـ)، انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٩.

(٣) في هامش الأصل: «بلغ مقابلة بأصله».

(٤) أي المحشورة، وهي المجموعة، انظر «المصباح المنير»: (حشر). أي الأموال التي توفي عنها صاحبها وليس له وارث، تكون لبيت المال كما هو مقرر في كتب الفقه. وانظر «صبح الأعشى» ٣/ ٤٦٠.

وكثَّروه، وما كان نور الدين يحاسب القاضي على شيء من الوقوف، ويقول: أنا قلدته على أن يتصرَّفَ بالمعروف. وما فضل من مصارفها وشروط واقفها يأمره بصرفه في بناء الأسوار وحفظ الثغور، وكانت دولته نافذة الأوامر منتظمة الأمور.

قلتُ: وحكى الشيخ أبو البركات الحسن بن محمد بن [الحسن بن] هبة الله(١) أنه حضر مع عمه الحافظ أبي القاسم رحمه الله، مجلس نور الدين لسماع شيء من الحديث، فمرَّ في أثناء الحديث أن النبيَّ ﷺ خرج متقلِّداً سيفاً، فاستفاد نور الدين أمراً لم يكن يعرفه وقال: كان رسول الله ﷺ يتقلد السيف! يشير إلى التعجب من عادة الجند، إذ هُم على خلاف ذلك يربطونه بأوساطهم. قال: فلما كان من الغد مررنا تحت القلعة والنَّاس مجتمعون ينتظرون ركوب السلطان، فوقفنا ننظر إليه معهم، فخرج نور الدين رحمه الله من القلعة وهو متقلدٌ السيف وجميع عسكره كذلك. فرحمة الله على هذا الملك الذي لم يفرط في الاقتداء بالنبي ﷺ بمثل هذه الحالة، بل لما بلغته رجع بنفسه وردَّ جنده عن عوائدهم، اتباعاً لما بلغه عن نبيّه ﷺ، فما الظن بغير ذلك من السنن.

ولقد بلغني أنه أمر بإسقاط ألقابه في الدعاء على المنابر، ورأى له وزيره موفق الدين خالد بن القَيْسَراني الشَّاعر* في منامه أنه يغسل ثيابه، وقصَّ ذلك عليه. ففكر ساعة، ثم أمره بكتابة إسقاط المكوس، وقال: هذا تفسير منامك. وكان في تهجده يقول: ارحمِ العَشَّار المكَّاس. وبعد أن أبطل ذلك استجعل من الناس في حِلٍّ وقال: والله ما أخرجناها إلا في جهاد عدوِّ الإسلام. يعتذر بذلك إليهم عن أخذها منهم.

---

(١) هو زين الأمناء ابن عساكر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٧ هـ)، وما بين حاصرتين منه.

وعلى الجملة كان نور الدين رحمه الله تعالى فرداً في زمانه من بين سائر الملوك(١)، ولو لم يكن إلا استماعه للموعظة وانقياده لها، وإن اشتملت ١٢/١
على ألفاظ قد أُغلظ له فيها. قرأتُ في «تاريخ إرْبِل(٢)» لشرف الدين بن المُسْتَوْفي رحمه الله: قال المنتجب الواعظ ـ هو أبو عثمان المنتجب بن أبي محمد البحتري الواسطي، ورد إربل، ووعظ بها، وكان له قبول عظيم، وسافر إلى نور الدين محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر إلى الشام بسبب الغزاة، وأنفذ له نور الدين جملةً من مال فلم يقبلها وردَّها عليه. أنشدني له يحيى بن محمد بن صدقة قصيدةً عملها في نور الدين، وحلف أنه سمعها من لفظه ـ:

مثِّلْ وقوفَك أيها المغرور يومَ القيامةِ والسماءُ تمورُ
إن قيلَ نور الدين رحت مسلَّماً فاحذر بأن(٣) تبقى ومالَكَ نورُ
أَنَهَيْتَ عن شُرْبِ الخمور وأنت من كأسِ المظالم طافحٌ مخمورُ
عطَّلْتَ كاساتِ المُدَام تعفُّفاً وعليكَ كاساتُ الحرامِ تدورُ
ماذا تقولُ إذا نُقلت إلى البِلى فَرْداً وجاءك مُنْكَرٌ ونكيرُ
وتَعَلَّقَتْ فيك الخصومُ وأنت في يومِ الحساب مُسَحَّبٌ مجرورُ
وتَفَرَّقَتْ عنك الجنودُ وأنت في ضيق اللُّحود مُوَسَّدٌ مقبورُ

---

(١) في (م) سقط يبدأ من هنا، وينتهي حتى «ونقلت من خط الصاحب..».
(٢) هو في أربع مجلدات كما ذكر ابن خلكان في ترجمته، طبع منه الجزء الثاني في بغداد سنة ١٩٨٠م بتحقيق سامي الصقار، والمجلد الرابع في شستربتي (٤٠٩٨) كما ذكر الزركلي في ترجمته، وابن المستوفي: هو المبارك بن أحمد بن المبارك، شرف الدين اللخمي الإربلي، كان عالماً بالحديث واللغة والأدب والتاريخ، تولى استيفاء الديوان بإربل ثم الوزارة، ثم تحول عنها حين استولى عليها التتار سنة (٦٣٤هـ) توفي في الموصل سنة (٦٣٧هـ)، وهو من شيوخ المنذري وابن خلكان وياقوت الحموي. انظر «التكملة» للمنذري: ٥٢٢/٣، و«معجم البلدان»: ١٣٨/١، و«وفيات الأعيان»: ١٤٧/٤ ـ ١٥٢، و«الأعلام» للزركلي: ٢٦٩/٥.
(٣) في الأصل: وإن، والمثبت من (ل).

وَوَدِدْتَ أنـك مـا وَلِيْتَ ولايـةً يـومـاً ولا قـال الأنـامُ: أميـرُ
وبقِيْتَ بعـد العـزِّ رَهْنَ حُفيـرةٍ في عـالم الموتى وأنتَ حقيـرُ
وَحُشِـرْتَ عُـريانـاً حزينـاً بـاكيـاً قَلِقـاً ومالَـكَ في الأنام مُجيـرُ
أَرَضِيْتَ أَنْ تحيـا وقَلْبُـك دارسٌ عافي الخراب وجسمُـك المعمورُ
أرضيت أن يحظى سواكَ بقُرْبِهِ أبـداً وأنـت مُـبَعَّـدٌ مـهـجـورُ
مهِّـدْ لنفسـك حُجَّـةً تنجو بهـا يـومَ الـمَعـاد لـعلَّكَ الـمَعْـذُورُ

قلتُ: ولعل هذه الأبيات كانت من أقوى الأسباب المحرِّكة إلى إبطال تلك المظالم، والخلاص من تلك المآثم، رضي الله عن الواعظ والمتعظ بسببه، ووفَّق من رام الاقتداء به[1].

ونقلت من خَطِّ الصَّاحب* العالم كمال الدين أبـي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن أبي جَرَادة[2] في كتاب «تاريخ حلب[3]» الذي صنفه،

(١) إلى هنا ينتهي السقط في (م).

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٦٠ هـ). وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٢ من هذا الجزء.

(٣) هو «بغية الطلب في تاريخ حلب» في أخبار ملوكها وابتداء عمارتها، ومن كان بها من العلماء، ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتاب، رتبه على حروف المعجم، وبلغ حوالي أربعين مجلداً، لم يصلنا منه سوى عشرة مجلدات موجودة في مكتبات استانبول: واحد في مكتبة أيا صوفيا برقم (٣٠٣٦)، وثمانية في مكتبة أحمد الثالث برقم (٢٩٢٥)، ومجلد في مكتبة فيض الله برقم (١٤٠٤)، ومنه أجزاء مفردة في باريس أول برقم (٢١٣٨)، والمتحف البريطاني أول برقم (١٢٩٠)، ومنه انتزع ابن العديم كتابه «زبدة الحلب من تاريخ حلب» ورتبه على السنين، نشره المعهد الفرنسي في دمشق في ثلاثة أجزاء ما بين سنة ١٩٥١م ــ ١٩٦٨م بتحقيق الدكتور سامي الدهان. ثم نشر د. سهيل زكار هذه المجلدات العشرة في دمشق سنة (١٩٨٨)، وترجمة نور الدين فيه مما فقد من الكتاب.

انظر «مقدمة زبدة الحلب»: ١/٥٠ ــ ٥٧، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية): ٦/٧٥ ــ ٧٦.

وسمعتُ من لفظه، أن نور الدين رحمه الله كان مع أبيه بحلب، فلما حاصر أبوه قلعة جَعْبر*، وقُتِلَ عليها، قصد حلب وصَعِدَ قلعتها، وملكها في شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، وأحسن إلى الرَّعية، وبثَّ العدل، ورفع الجَوْر، وأبطل البدع، واشتغل بالغزو، وفتح قلاعاً كثيرة من عمل حلب كانت بيد الفرنج، وحدَّث بحلب ودمشق عن جماعةٍ من العلماء أجازوا له، منهم: أبو [محمد][1] عبد الله بن رفاعة بن غدير السَّعْدي المِصْري. روى عنه جماعةٌ من شيوخنا مثل أبي الفضل أحمد[2]، وأبي البركات الحسن[3]، وأبي منصور عبد الرحمن بن أبي عبد الله محمد بن الحسن بن هبة الله الشَّافعي[4].

قال: ووقفتُ على رُقعة بخطِّ الوزير خالد بن محمد بن نصر بن القَيْسَرَاني* كتبها إلى نور الدين، وجوابها من نور الدين على رأس الورقة وبين السطور؛ فنقلتُ جميع ما فيها من خطيهما. قال: وكان رحمه الله كتب رقعةً يطلب من ابن القَيْسَرَاني أن يكتب له صورة ما يُدعى له به على المنابر حتى لا يقول الخطيب ما ليس فيه، ويصونه عن الكذب وعما هو مخالف لحاله. ونسخة الورقة بخطِّ خالد: أعلى الله قدر المولى في الدارين، وبلَّغه آماله في نفسه وذُرِّيَّته، وختم له بخير في العاجلة والآجلة، بمنِّه وجوده، وفضله وحمده. وقف المملوك على الرُّقعة، وتضاعف دعاؤه

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م)، وكان أبو محمد قاضياً بالجيزة فقيهاً، ماهراً بالفرائض، ثم ترك القضاء، واشتغل بالعبادة حتى وفاته سنة (٥٦١هـ). انظر ترجمته في «طبقات الشافعية» للسبكي: ١٢٤/٧.

(٢) هو تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن الحسن من بني عساكر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٠ هـ).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٤) هو فخر الدين ابن عساكر، كان شيخ الشافعية بالشام، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٠ هـ).

وابتهاله إلى الله تعالى بأن يرضى عنه وعن والديه، وأن يسهِّلَ له السلوك إلى رضاه، والقُرْب منه والفوز عنده، إنه على كل شيء قدير. وقد رأى المملوك ما يعرضه على العلم الأشرف، زاده [الله][1] شرفاً، وهو أن يذكر الخطيب على المنبر إذا أراد الدعاء للمولى: اللهم أصلح عبدَك الفقير إلى رحمتك، الخاضع لهيبتك، المُعْتَصِم بقوَّتك، المجاهد في سبيلك، المرابط لأعداء دينك، أبا القاسم محمود بن زَنْكي بن آق سُنْقُر، ناصرَ أمير المؤمنين. فإن هذا جميعه لا يدخله كذبٌ ولا تزيُّد؛ والرأي أعلى وأسمى إن شاء الله تعالى. فكتب نور الدين على رأس الرُّقعة بخطه ما هذا صورته: مقصودي ألاَّ يُكذب على المنبر، أنا بخلافِ كل ما يقال، أفرح بما لا أعمل، قلة عقل عظيم! الذي كتبتَ جيد هو، اكتب به نسخ حتى نسيِّره إلى جميع البلاد. وكتب في آخر الرقعة: ثم يبدؤوا بالدعاء: اللهم أره الحقَّ حقاً، اللهم أسعده، اللهم
١٣/١ انصره، اللهم وفِقْه؛ من هذا الجنس.

قال: وحدثني والدي[2] قال: استدعانا نور الدين أنا وعمُّك أبو غانم[3] وشرف الدين بن أبـي عَصْرُون[4] إلى الميدان الأخضر[5]* وأشهدَنا عليه بوقف حوانيت على سور حِمْص. فلما شهدنا عليه التفتَ إلينا وقال: بالله انظروا أي شيء علمتموه من أبواب البِرِّ والخير، دلُّونا عليه، وأشركونا في الثواب. فقال

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) هو أحمد بن هبة الله بن أبي غانم ابن أبي جرادة، أبو الحسن، ابن العديم، ولد سنة (٥٤٢ هـ)، كان يخطب بالقلعة في حلب أيام نور الدين، تولى القضاء سنة (٥٧٥ هـ) حتى عزل سنة (٥٧٨ هـ) زمن صلاح الدين لأنه حنفي المذهب، والدولة شافعية، توفي سنة (٦١٣ هـ) انظر «معجم الأدباء»: ١٦/ ٣٥ ـ ٣٦.

(٣) هو محمد بن هبة الله بن أبـي غانم، ولد سنة (٥٤٠هـ)، كان يخطب بجامع حلب، توفي سنة (٦٢٨هـ). انظر «معجم الأدباء»: ١٦/ ٣٤ ـ ٣٥، و«الجواهر المضية»: ٣/ ٣٨٧. وفيه ولادته سنة (٥٤٦هـ).

(٤) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد توفي سنة (٥٨٥ هـ) وسترد ترجمته في ٤/ ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٥) في حلب.

شرف الدين بن أبـي عَصْرُون: والله ما ترك المولى شيئاً من أبواب البر إلا وقد فعله، ولم يترك لأحدٍ بعده فعل خير إلا وقد سبقَه إليه.

وقال: قال لي والدي: دخل في أيام نور الدين إلى حلب تاجرٌ موسر، فمات بها، وخلَّف بها ولداً صغيراً ومالاً كثيراً. فكتب بعضُ مَـنْ بحلب إلى نور الدين يذكر له أن قد مات ها هنا رجل تاجرٌ موسر، وخلَّف عشرين ألف دينار أو فوقها، وله ولد عمره عشر سنين. وحسَّن له أن يرفـع المال إلى الخزانة إلى أن يكبر الصَّغير، ويُرضى منه بشيء، ويمسك الباقي للخزانة. فكتب على رُقْعته: أما الميت فرحمه الله، وأما الولد فأنشأه الله، وأما المال فثمَّره الله، وأما الساعي فلعنه الله. وبلغتني هذه الحكاية عن غير نور الدين أيضاً.

وحدثني الحاج عمر بن سُنْقُر عتيق شاذبخت النُّوري قال: سمعت الطَّواشي* شاذبخت الخادم[1] يحكي لنا قال: كنت يوماً أنا وسُنْقُرجا واقفَيْنِ على رأس نور الدين وقد صلى المغرب، وجلس وهو مفكّـر فكـراً عظيماً، وجعل ينكث بأصبعه في الأرض. فتعجَّبنا من فكره وقلنا: تُرى في أي شيء يفكر، في عائلته أو في وفاء دينه؟ فكأنه فَطِنَ بنا، فرفـع رأسه فقال: ما تقولان؟ فقلنا: ما قلنا شيئاً. فقال: بحياتي قولا لي. فقلنا: عجبنا من إفراط مولانا في الفكر، وقلنا: يفكر في عائلته أو في نفسه. فقال: والله إنني أفكر في والٍ ولّيتُهُ أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بذلك. فبالله عليكم ــ وإلاّ فخبزي* عليكم حرام ــ لا تريان قِصَّة ترفـع إليَّ، أو تعلمان مظلمة إلا وأعلماني بها، وارفعاها إليّ.

وسمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين أبا المحاسن يوسف بن رافـع بن

(١) هو جمال الدين شاذبخت الهندي، كان نائباً عن نور الدين في قلعة حلب، سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٢ من الجزء الثاني.

تميم[1] قال: كان نور الدين ينفّذ كل سنة في شهر رمضان يطلب من الشيخ عمر المَلاَّء[2] شيئاً يفطر عليه، فكان ينفذ إليه الأكياس فيها الفتيت والرقاق وغير ذلك، فكان نور الدين يفطر عليه. وكان إذا قَدِمَ المَوْصل لا يأكل إلا من طعام الشيخ عمر المَلاَّء. قال: وكان نور الدين لما صارتْ له المَوْصِل قد أمر كُمُشْتِكِين؛ شِحْنة* المَوْصِل ألا يعمل شيئاً إلا بالشَّرْع إذا أمره القاضي به، وألا يعمل القاضي والنواب كلهم شيئاً إلا بأمر الشيخ عمر المَلاَّء. قال: فكان لا يُعمل بالسياسة، وبطلت الشحنكية*. فجاء أكابر الدَّوْلة وقالوا لكمشتكين: قد كَثُرَ الدُّعَّار وأربابُ الفساد، ولا يجيء من هذا شيء إلا بالقتل والصَّلْب، فلو كتبتَ إلى نور الدين وقلتَ له في ذلك. فقال لهم: أنا لا أكتبُ إليه في هذا المعنى، ولا أجسر على ذلك، فقولوا للشيخ عمر يكتب إليه. فحضروا عنده، وذكروا له ذلك، فكتبَ إلى نور الدين وقال له: إن الدُّعَّار والمفسدين وقُطَّاع الطريق قد كثروا، ويُحتاج إلى نوع سياسة، فمثل هذا لا يجيء إلا بقتل وصلب وضرب، وإذا أُخذ مالُ إنسانٍ في البرية مَنْ يشهد له؟ قال: فقلب نور الدين كتابه، وكتب على ظهره: إن الله تعالى خلق الخَلْقَ وهو أعلم بمصلحتهم، وشرع لهم شريعةً، وهو أعلم بما يُصلحهم، وإن مصلحتهم تحصل فيما شَرَعه على وجه الكمال فيها، ولو علم أن على الشريعة زيادة في المصلحة لشرعه، فما لنا حاجةٌ إلى زيادةٍ على ما شَرَعه الله تعالى[3]. قال: فجمع الشيخ عمر المَلاَّء أهلَ المَوْصِل، وأقرأهم الكتاب وقال: انظروا في كتاب الزَّاهد إلى الملك وكتاب الملك إلى الزاهد!

---

(1) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٩ من هذا الجزء.

(2) انظر حاشيتنا رقم ٢، ص ٤٥، من هذا الجزء.

(3) في هامش (م) بخط مغاير «قلت: ويشبه هذا ما ذكره ابن الجوزي في «سيرة عمر بن عبد العزيز» رضي الله عنه، قال: عن يحيى بن يحيى الغساني قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، فوجدتها من أكثر البلاد سرقاً ونهباً، فكتبت إلى عمر بن عبد العزيز =

وسمعت صقر المُعَدِّل(١) يقول: سمعت مقلَّداً ــ يعني الدَّوْلعي ــ يقول: لما مات الحافظ المُرادي(٢)، وكُنَّا جماعة الفقهاء قسمين: العرب والأكراد، فمنا من مال إلى المذهب، وأردنا أن نستدعي الشيخ شرف الدين بن أبـي عَصْـرُون، وكان بالمَوْصِل، ومنا من مال إلى علم النظر والخلاف، وأراد أن نستدعي القُطْبَ النَّيْسَابـوري، وكان قد جاء وزار البيت المقدَّس، ثم عاد إلى بلاد العَجَم، فوقـع بيننـا كـلامٌ بسبب ذلك، ووقعت فتنةٌ بين الفقهاء. فسمـع نور الدين بذلك فاستدعى جماعةَ الفقهاء إلى القلعة بحلب، وخرج إليهم مجدُ الدِّين ــ يعني ابنَ الدَّاية ــ عن لسانه وقال: نحن ما أردنا ببناءِ المدارس إلا نَشْرَ العلم، ودحض البدع من هذه البلدة وإظهار الدين، وهذا الذي جرى بينكم لا يحسنُ ولا يليق، وقد قال المولى نور الدين: نحن نرضي الطَّائفتين، ونستدعي شرفَ الدين بن أبـي عَصْرُون، وقطبَ الدين النَّيْسَابوري. فاستدعـاهما جميعـاً، وولَّى مدرسـة ابن أبـي عصـرون لشرفِ الدين، ومدرسة النَّفَّري* لقُطْب الدين.

[قال](٣): وعلقتُ أيضاً من خَطِّ فقيهٍ كان معيداً* بالنِّظَامية* يقال

= أعلمه حال البلد، وأسأله: آخذ الناس بالظنة، وأضربهم على التهمة أو آخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إلي أن آخذ الناس بالبينة وما عليه السنة؛ فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله. قال يحيـى: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت أصلـح البلاد، وأقلها سرقاً ونهباً».

قلت: انظر «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن الجوزي: ٩٧.

(١) هو صقر بن يحيى، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، في وفيات سنة (٦٥٣ هـ).

(٢) هو علي بن سليمان بن أحمد المرادي، القرطبي الشافعي، فقيه محدث، كان رفيق ابن عساكر في رحلته، قدم دمشق في حدود سنة (٥٤٠هـ) فنزل على الحافظ ابن عساكر، فسر بقدومه لما كان معه من مسموعاته، ندب للتدريس في حماة، ثم في حلب، وتوفي فيها سنة (٥٤٤هـ)، انظر «سير أعـلام النبلاء»: ٢٠/١٨٧ ــ ١٨٩، و«طبقـات الشافعية» للسبكي: ٧/٢٢٤ ــ ٢٢٥.

(٣) ما بين حاصِرتين من (ل) و (م).

لـه: أبـو الفتـح بَنْجيـر بـن أبـي الحسـن [بـن][1] بَنْجيـر الأَشْتَـرِي[2] ـ وكـان وردَ دمشـق، وجمـع لنـور الـديـن سيرة مختصرة ـ قال: كان نور الدين يقعد في الأسبوع أربعة أيام أو خمسة أيام في دار العَدْل* للنظر في أمور الرَّعية وكشف الظُّلامة، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً ولا زيادة ترجعُ إلى خزانته، وإنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة
١٤/١ الله، وطلباً للثواب والزُّلْفَى في الآخرة، ويأمر بحضور العلماء والفقهاء، ويأمر بإزالة الحاجب والبَوَّاب حتى يصل إليه الضعيف والفقير، والقوي والغني، ويكلِّمهم بأحسن الكلام، ويستفهم منهم بأبلغ النظام، حتى لا يطمع الغني في دفع الفقير بالمال، ولا القوي في دفع الضعيف بالقال. ويحضر في مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول إلى خصمها ولا المكالمة معه، فيأمر بمساواته لها، فتغلب خصمها طمعاً في عدله، ويَعْجزُ الخصم عن دفعها خوفاً من عدله، فيظهر الحقُّ عنده فَيُجْري الله على لسانه ما هو موافقٌ للشَّريعة، ويسأل العلماءَ والفقهاء عما يُشكل عليه من الأمور الغامضة، فلا يجري في مجلسه إلا محضُ الشَّريعة.

قال: وأما زمانه فهو مصروفٌ إلى مصالح النَّاس، [و][3] النظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم. وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام، وتأسيس قاعدة الدين من بناء الرُّبُط* والمدارس والمساجد حتى إن بلاد الشَّام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقراً للعلماء والفقهاء والصُّوفية، لصَرْف همته إلى بناء المدارس والرُّبُط وترتيب أمورهم، والنَّاس آمنون على أموالهم

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل و(ل): بنجه، في الموضعين، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وهو بنجير بن علي، أخذ عن الإمام أبي الفتح عبد الملك بن عبد الله الكَرُوخي الهروي المتوفى سنة (٥٤٨ هـ)، توفي بنجير سنة (٥٧٩ هـ)، انظر «توضيح المشتبه»: ١/ ٢٣٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٧٥.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وأنفسهم، ولو لم يكن من هذه الخصال إلا ما علم منه وشاع أنه إذا وعد وفى، وإذا أَوْعَدَ عفا، وإذا تحدَّث بشيء يقف عليه ولا يخالف قوله، ولا يرجع عن لفظه ومنطقه لكفى. ولا يجري في مجلسه الفسق والفجور، والشتم والغيبة، والقدح في الناس والكلام في أعراضهم، كما يجري في مجالس سائر الملوك؛ ولا يطمع في أخذ أموال الناس، ولا يرضى بأن يأخذ أحدٌ من أموال الشريعة شيئاً بغير حق.

قال: وبلغنا بأخبار التواتر عن جماعةٍ يُعتمد على قولهم أنه أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه، ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام شرائطها وأركانها، وركوعها وسجودها.

قال: وبلغنا عن جماعةٍ من الصُّوفية الذين يُعتمد على أقوالهم ممن دخلوا ديار القُدْس للزيارة حكايةً عن الكفار أنهم يقولون: ابن القسيم له مع الله سِرٌّ؛ فإنه ما يظفر علينا بكثرة جُنْده وعسكره، وإنما يظفر علينا بالدُّعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله ويدعو، والله سبحانه وتعالى يستجيب دعاءه ويعطيه سُؤْله، وما يردُّ يده خائبة، فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه.

قال: وحدّثنا الشَّيخ داود المَقْدِسي، خادم قبر شُعَيْب، على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام، قال: حضرتُ في دار العَدْل* في شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وخمسين، فقام رجلٌ وادَّعى على نور الدين الملك العادل أن أباه أخذ من ماله شيئاً بغير حق، قال: وأنا مطالبٌ لك بذلك. فقال نور الدين: أنا ما أعلم ذلك، فإن كان لك بينة تشهد بذلك فهاتها، وأنا أردُّ إليك ما يخصني، فإني ما ورثت جميع ماله، كان هناك وارث غيري. فمضى الرجل ليُحْضِر البيِّنَة، فقلت في نفسي: هذا هو العدل. قال: وحضر رجل زاهد فيه سمةُ الخير معروف بالسَّداد والصَّلاح، فسألت عنه، فقالوا: أخو

الشيخ أبي البَيَان[1]. وكان قد أُودِعَ عند أخيه أبي البيان وديعة، وقد توفي، فادعى المودِع على هذا الشيخ أنه يعلم بالوديعة، وطالبه بالرَّدِّ عليه، فأنكر هذا الرجل علمه بالوديعة، فأوجب عليه القاضي كمال الدين حُكْمَ الشَّرع أن يحلف أنه لا علم له بهذه الوديعة، فحلف على ذلك، فجعل المودِع يشنِّعُ عليه [و][2] يقول: إنه حلف كاذباً. ويتكلم في عرضه، ويقول في حقه من التنمُّس[3] وغيره. فحضر عند الملك العادل شاكياً منه وذاكراً سيرته وطريقته، ومَنِ الذي يقدر أن يقول في حقي هذا. ويتعرَّض بالتماسه من الملك العادل التقدُّم بإحضاره والإنكار عليه فيما يقول في حقه. فلما فرغ من الكلام، ورمى ما كان في جَعْبته من دعوى الحقيقة والطريقة، وكان حاصله التماس الإنكار عليه. فقال الملك العادل: أليس أن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُم الجاهِلُونَ قالوا سَلَاماً﴾[4]؟ فإذا كان [هو][5] يجهل عليك ويقول في حقك بالجهل ما لا يجوز، فيجب عليك ألا تعمل معه مثل معاملته فتكونَ مثله، فكأنك قابلت الإساءة بالإساءة، ومن حقك أن تقابل الإساءة بالإحسان. فقلت في نفسي: الحقُّ ما قال الملك العادل، إمّا قرأ هذا في كتب التفاسير فثبت في قلبه، أو أجراه الله على لسانه وأنطقه به.

قال: وحضر جماعة من التجار، وشكوا أن القراطيس* كان ستونَ منها بدينار، فصار سبعةٌ وستون بدينار، وتزيد وتنقص، فيخسرون. فسأل الملكُ العادل عن كيفية الحال، فذكروا أن عقد المعاملة على اسم الدينار، ولا يرى الدينار في الوسط، وإنما يعدُّون القراطيس بالسعر، تارةً ستين بدينار، وتارةً

---

(١) أبو البيان هو نبا بن محمد بن محفوظ القرشي، المعروف بابن الحوراني، صديق الشيخ رسلان الدمشقي، سترد ترجمته ص ٣٣٠ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) أي النميمة، الاحتيال، انظر «تاج العروس» (نمس).

(٤) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

سبعة وستين بدينار، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين أن يضرب
الدينار باسمه، وتكون المعاملة بالدَّنانير الملكية، وتبطل القراطيس بالكليَّة.
فسكت ساعة وقال: إذا ضربتُ الدينار وأبطلت المعاملة بالقراطيس فكأنّي
خَرَّبت بيوت الرعية، فإن كل واحد من السُّوقة عنده عشرة آلاف وعشرون ألف
قرطاس، أيش يعمل به، فيكون سبباً لخراب بيته. قال: فأي شفقة تكون
أعظم من هذا على الرعية!

قال: وحَضرَ صبيٌّ وبكى عند الملك العادل، وذكر أن أباه محبوسٌ
على أُجرة حُجْرة من حُجَر الوقف. فسأل عن حاله. فقالوا: هذا الصبـي ابن ١/١٥
الشيـخ أبـي سعد الصُّوفي؛ وهو رجلٌ زاهد قاعد في حجرة الوقف، وليس له
قدرة على الأُجرة، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمـع عليه أجرة سنة. قال
الملك العادل: كم أجرة السنة؟ فقالوا: مئة وخمسون قرطاساً*. وذكروا سيرته
وطريقته وفقره. فَرَقَّ له وأنعم عليه وقال: نحن نعطيه كل سنة هذا القدر
ليصرفه إلى الأجرة ويقعد فيها. وتقدَّم بذلك، وبإخراجه من الحبس، فوصل
إلى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الإنعام كان في حقه.

أخبـرنا افتخـار الدين عبـد المطلب بـن الفضـل بن عبد المـطلب
الهـاشمي[1] قال: كـان عند القـاضي تاج الـدين عبد الغفـور بن لقمان
الكَرْدَري[2] قاضي حلب غلام قد جعله لمجلس الحكم يُدعى سويداً يُحْضِر

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٦ هـ).
(٢) في الأصل: الكردي، وهو تصحيف. والمثبت من (ل) و(م). وهو من أئمة الحنفية، أصله من كردر ــ وزن جعفر ــ وهي ناحية من نواحي خوارزم أو ما يتاخمها من نواحي الترك، تولى قضاء حلب لنور الدين، ودرَّس بها في مدرسة الحدادين، وله عدة تصانيف في المذهب، توفي سنة (٥٦٢هـ).
انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٤٥٠، و«الجواهر المضية»: ٢/ ٤٤٣ ــ ٤٤٤، و«الفوائد البهية»: ٩٨ ــ ٩٩، و«كشف الظنون»: ١١٤، ٣٤٦، ٥٦٢، و«إيضاح المكنون»: ١/ ٤٢٥، وفي كليهما «عبد الغفار» وهو تحريف.

الخصوم إلى مجلس الحكم. فحضر بعضُ التجار، وادَّعى أن له على نور الدين دعوى. فقال الكَرْدَري[1] لسويد المذكور: امضِ إلى نور الدين وادعه إلى مجلس الحكم، وعرِّفْه أنه حضر شخصٌ يطلب حضورَه. وكان نور الدين في الميدان، فجاء سويد إلى باب الميدان، فخرج إسماعيل الخِزَنْدار* فوجده، فتقدَّم سويد إليه وقال: قد سيرني تاج الدين القاضي ـ وذكر أنه حضر تاجر، وذكر أن له دعوى على المولى نور الدين ـ وقد أنفذني تاج الدين وقال لي كذا وكذا. فضحك إسماعيل الخِزَنْدار، ودخل على نور الدين ضاحكاً وقال له مستهزئاً: يقوم المولى [فقال: إلى أين؟ فقال: قد حضر سويد غلام تاج الدين الكَرْدَري وقال: إن تاج الدين أرسله يطلب المولى][2] إلى مجلس الحكم! فأنكر نور الدين على إسماعيل استهزاءه وقال: تستهزىء بطلبي إلى مجلس الحكم! وقال نور الدين: يُحضر فرسي حتى نركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[3]. ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة، فاستدعى سويداً وقال له: امضِ إلى القاضي تاج الدِّين، وسلِّم عليه وقل له: إني جئتُ إلى ها هنا امتثالاً لأمر الشَّرْع، وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقَّة وفيها الأطيان؛ وهذا وكيلي يسمع الدعوى، وإن توجَّهَتْ عليَّ يمين أحضر إن شاء الله. قال: فحضر الوكيل وسمع الدعوى، وتوجهت اليمين، فقال الكَرْدَري[1]: قد توجهت اليمين فليحضر. فلما بلغ نور الدين ذلك، وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر، وأصلح الأمر فيما بينه وبينه وأرضاه.

---

(١) في الأصل: الكردي، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) سورة النور: الآية ٥١.

سمعتُ قاضي القضاة بهاء الدين يقول: حكى لي السلطان الملك النَّاصر صلاح الدين قال: أرسلني الملك العادل نور الدين إلى عمي أسد الدين شِيركُوه ـ وكان لا يفعل شيئاً إلا بمشورته ـ فقال: امضِ وقل لأسد الدين: قد خطر في بالي أن أبطل هذه الضمانات بأسرها والمؤن والمكوس. وَخُذْ رأيه في ذلك. قال: فجئت إليه وأنهيت إليه ما قال لي. فقال: امض وقل له: يا مولانا إذا فعلتَ ذلك فالأجناد الذين أرزاقهم على هذه الجهات من أين تعطيهم، وتحتاج إليهم للغَزَاة وخروج العساكر؟ فقال السلطان صلاح الدين: فقلت لعمي: هذا أمرٌ قد ألهمه الله إياه، فساعِدْه عليه. فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فعدت إلى نور الدين، فأنهيت إليه ما قال لي عمي، فقال: امض إليه [وقل له](١): إذا كنا نغزو من هذه الجهات نتركها ونقعد ولا نخرج. قال: فعدتُ إلى عمي وقلت له ما قال. فقال: قل له: إن تركوك تقعد فجيد هو. فراجعته في ألا يثبِّطَه عن(٢) ذلك، فصاح فيَّ وقال: امض إليه وقل له ما أقول لك. قال: فجئت إليه وقلت له ذلك، فترك ذلك مُدَّة، ثم أمضى ما كان عَزَمَ عليه.

قال لي صقر بن يحيى(٣): بلغني أن موفق الدين خالداً* رأى في النوم كأنَّ نور الدين دفع إليه ثيابه ليغسلها، فقص منامه على نور الدين، فتمعَّر(٤) وجه نور الدين، فخجل موفق الدين، وبقي أياماً على غاية من الخجل، فاستدعاه يوماً نور الدين وقال: تعال، قد آن لك أن تغسل ثيابي، اقعد واكتب بإطلاق المؤن والمكوس والأعشار، واكتب للمسلمين: إنني قد رفعتُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل: «في» والمثبت من (ل) و(م).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١، ص ٦١، من هذا الجزء.

(٤) أي تغير وعلته صفرة. «اللسان» (معر).

عنكم ما رفعه الله عنكم، وأثبتُّ عليكم ما أثبته الله تعالى عليكم. قال: فكتبَ موفق الدين توقيعاً(١).

سمعت خليفة بن سليمان بن خليفة الفقيه(٢) يقول: سمعت أبي يقول: لما كسر نور الدين؛ يعني كسرة البقيعة، تكلَّم البرهان البَلْخي(٣) فقال: أتريدون أن تُنْصَروا وفي عسكركم الخمور والطُّبول والزمور! كلا. وكلاماً مع هذا(٤). فلما سمعه نور الدين قام، ونزع عنه ثيابه تلك، وعاهد الله تعالى على التوبة، وشرع في إبطال المكوس، إلى أن خرج في نوبة حارم* وكسر الإفرنج.

وسمعت صديقنا شمس الدين إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النُّوري ـ وكان أبوه أحد مماليك نور الدين وعتيقه ـ يقول: سمعت والدي يقول: كان نور الدين محمود رحمه الله يَلْبَس في الليل مِسْحاً*، ويقوم يصلِّي فيه قطعة من الليل. قال: وكان يرفع يديه إلى السماء ويبكي ويتضرع ويقول: ارحمِ العَشَّار المكَّاس.

---

(١) في هامش الأصل: «حاشية، قال الكاتب: وقفت أنا على هذا التوقيع بخط موفق الدين ورأيته». قلت: سلف هذا الخبر ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٢) ولد بحلب سنة (٥٥٣هـ) على أحد الأقوال، وهو شيخ ابن العديم، وتلميذ أبي بكر بن مسعود الكاساني صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» (ط)، توفي خليفة في حلب سنة (٦٣٨هـ)، انظر «الجواهر المضية»: ٢/ ١٧٦ و «الفوائد البهية»: ٧١.

(٣) سترد ترجمته ص ٢٩٢، من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: مع هذا، مكررة، وفي هامشه: «حاشية، قال المؤلف: لم تكن هذه كسرة البقيعة، فإنها كانت سنة ثمان وخمسين على ما يأتي، ومات البلخي قبلها بعشر سنين، وإنما هذه كسرة أخرى متقدمة ستأتي في أخبار سنة ثلاث وأربعين، وكان البلخي تلك السنة بحلب ينشر السنة بها على ما ذكرناه في ترجمته في «التاريخ»، فتكلم بهذا الكلام، والله أعلم».

قلت: كُسر نور الدين في يغرا ثم انتصر بعد، وذلك سنة (٥٤٣هـ). انظر ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

قال لي قاضي القضاة بهاء الدين: سيَّر نور الدين إلى بغداد كتاباً يُعلم الخليفة بما أطلق وبمقدار ما أطلق، ويسأله أن يتقدَّم إلى الوعاظ بأن يستجعلوا[1] من التُّجَّار ومن جميع المسلمين له في حلٍّ مما كان قد وصل إليه؛ يعني من أموالهم، فتقدَّم بذلك، وجعل الوعاظ على المنابر ينادون بذلك.

١٦/١ حدثني رضي الدين أبو سالم عبد المنعم بن المنذر أن نور الدِّين حين خرج لأخذ شَيْزَر* خرج أبو غانم بن المنذر صحبَته، فأمره نور الدين رحمه الله بكتابة منشور بإطلاق المظالم بحلب ودمشق وحمص وحَـرَّان* وسِنْجار* والرَّحْبة* وعَزَاز* وتل باشر* وعِدَاد العرب، فكتب عنه توقيعاً نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما تَقَرَّبَ به إلى الله سبحانه وتعالى[2] صافحاً وأطلقه مسامحاً لمن عَلِمَ ضعفه من الرعايا، رعاهم الله، لضعفهم عن عمارة ما أخربته أيدي الكُفَّار، أبادهم الله تعالى، عند استيلائهم على البلاد، وظهور كلمتهم في العباد، رأفةً بالمسلمين المثاغرين[3]، ولطفاً بالضعفاء المرابطين، الذين خَصَّهم الله سبحانه بفضيلة الجهاد، واستمحَنَهُمْ بمجاورة أهل العناد اختباراً لصبرهم، وإعظاماً لأجرهم، فصبروا احتساباً، وأجزل الله لهم أجراً وثواباً ﴿إنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بغيرِ حِسَاب﴾[4] وأعاد عليهم ما اغتُصبوا عليه من أملاكهم التي أفاء الله عليهم بها من الفتوح العُمَرِيَّة، وأقرها في الدولة الإسلامية بعدما طرأ عليها من الظَّلَمة المتقدِّمين، واسترجعه بسيفه من الكَفَرة الملاعين، فطمس عنهم بذلك معالم الجَوْر،

---

(١) في الأصل: يستحلوا، والمثبت من (ل) و (م)، وقد وردت هذه اللفظة ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: تعالى سبحانه، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) أي سكان الثغور.

(٤) سورة الزمر: الآية ١٠.

وهدم أركان التعدِّي، وأقر الحق مقرَّه. لقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالها﴾(١)، ﴿واللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾(٢). ثم لما أعانه الله بعونه وأَيَّدَه بنصره، وقمع به عادية الكُفْر، وأظهر بهمته شعائر الإسلام، وأظفره بالفئة الطَّاغية، وأمكنه من ملوكها الباغية، فجعلهم بين قتيلٍ غير مُقَاد، وهاربٍ ممنوع الرُّقاد، ﴿وَآخَرِينَ مُقَرَّنِين فِي الأَصْفَادِ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمسِكْ بِغَيْرِ حِسَاب، وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾(٣). عَلِمَ أَنَّ الدُّنيا فانية، فاستخدمها للآخرة الباقية، واستبقى مُلْكَه الزَّائل بأن قدَّمه أمامه، وجعله ذُخْراً للمَعَاد، فالتقوى مادة دارَّة إذا انقطعت الموادّ، وجادَّةٌ واضحة حين تلتبس الجواد ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله﴾(٤). فصفح لكافَّةِ المسافرين وجميع المسلمين بالضَّرائب والمكوس، وأسقطها من دواوينه، وحَرَّمها على كل متطاولٍ إليها، ومتهافتٍ عليها، تجنباً لإثمها، واكتساباً لثوابها، فكان مبلغ ما سامح به وأطلقه وأنفذ الأمر فيه ـ اتباعاً لكتاب الله وسنة نبيِّه [محمد](٥) ﷺ ـ في كل سنة من العين مئة ألف وستةً وخمسين(٦) ألف دينار، جهة ذلك: حلب خمسون ألفَ دينار، عَزَاز* ـ عن مكس جدَّدته الفرنج، خذلهم الله، على المسافرين ـ عشرة آلاف دينار، تل باشر* أحد وعشرون ألف دينار، المعرة* ثلاثة آلاف دينار، دمشق المحروسة ـ لمَّا استنجد به أهلها واستصرخ مَنْ فيها خوفاً على أنفسهم وأموالهم من استيلاء العدوِّ، وضعفهم عن مقاومة ما كان يؤخذ منهم في كل

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٦٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٦٢.
(٣) سورة ص: الآيات ٣٨ ـ ٤٠.
(٤) سورة الانفطار: الآية ١٩.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) في الأصل، و(ل) خمسون، والمثبت من (م).

سنة، وهو رسم يسمُّونه الفسة[1] ـ عشرون ألف دينار، حِمْص ستة وعشرون ألف دينار، حَرَّان* خمسة آلاف دينار، سِنْجار* ألف دينار، الرَّحبة* عشرة آلاف دينار، عِدَاد العرب عشرة آلاف دينار. وما وقفه وتصدَّق به وأجراه في سُبُل الخيرات ووجوه البِرِّ والصَّدَقات تقدير ثمنه مئتا ألف دينار، وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون ألف دينار؛ من ذلك ما وقَفَه على المدارس الحنفية والشَّافعية والمالكية والحنبلية وأئمَّتها ومدرِّسيها وفُقَهائها، وما وقفه على آدُر[2] الصُّوفية والرُّبُط* والجسور والبيمـارَسْتانات والجوامـع والمساجد والأسوار، وما وقفه على السبيل[3] في طريق الحجاز، وما وقفه على فَكَاك الأسرى، وتعليم الأيتام، ومقرِّ الغُرَباء وفقراء المسلمين، وما وقفه على الأشراف العلويين والعَبَّاسيين، وما ملَّكه لجماعةٍ من الأولياء والغُزَاة والمجاهدين. هذا جميعه سوى ما أنعم به على أهل الثُّغور حَرَسها الله تعالى من أملاكهم التي تقدَّم ذكرُها، فإنَّه يضاهي هذا المبلـغ وزيادةً عليه، جعل ذلك ذريعةً عند الله تعالى وتقرُّباً إليه، مضافاً إلى ما أنفقه في الغَزَاة والجهاد، واستئصال شَأْفة الكُفْر والعناد، من خزانتـه المعمورة، وأمـواله المـوروثة المذخورة، طلباً لما عند الله ﴿واللَّهُ عِنْدَه حُسْنُ الثَّواب﴾[4] فالواجب على كلِّ إمامٍ عادل وسلطان قادر أن يَمُدَّه ويَوَدَّه، ويشدَّ عَضُـدَه، ويقـوِّي عزمه، وينفِّذَ حكمه، وعلى كل مسلمٍ أن يواصلَه بالدُّعاء، آناء اللَّيل وأطرافَ النهار، وكتب خادم دولته وغَذِيُّ نعمته عبد الرحمن بن عبد المنعم بن رضوان بن عبد الواحد بن محمد بن المنذر الحلبي، غفر الله له ورحمه ورضي عنه، إلى كل من يصل إليه من أئمة الدين وفقهاء المسلمين، وأصحاب الزوايا

(١) كلمة عامية تعود إلى ذلك العصر، وسيرد خبر إبطالها في دمشق ص ٢٢٣ من هذا الجزء.

(٢) جمع دار، على القلب، انظر «اللسان» (دور).

(٣) في (م) السبل.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩٥.

المتعبِّدين، وكافَّةِ التجار والمسافرين، أحسن الله توفيقهم، وسدَّد إلى أغراض الخير تفويقَهُمْ، ليُشعروا بذلك من حضرهم من التُّجَّار، والمتردِّدين إليهم من السُّفَّار، ليعرفوا قَدْرَ ما أنعم الله به عليه وعليهم ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾[(١)]، ويمدُّوه بأدعيتهم ويبرؤوا ذمته مما سبق من أَخْذِ مؤنتهم، فإنه لم يصرف ذلك إلا في وجه بِرٍّ، وتجهيزِ جيشٍ، ومعونة مجاهد، وردع كافرٍ ومعاند، فهم شركاؤه في الثَّواب.

١٧/١ قال لي رضي الدين أبو سالم بن المنذر: فلما وقَفَ نور الدين على قوله: ويبرؤوا ذمته مما سبق. استحسن ذلك كثيراً، ووعدَه بإقطاعٍ حسن، واتفق موته بعد ذلك[(٢)].

قلت: ونقلت من خَطِّ الشيخ الأمين أبي القاسم عبد الرحمن بن الحسين بن الخَضِر بن الحسين بن عَبْدَان الأَزْدي الدِّمَشْقي[(٣)]: وقف المولى نور الدين بُستان الميدان سوى الغيضة التي من قبليِّه بعد عمارته وإصلاح ما يحتاج إليه على تطييب المساجد التي يأتي ذكرها، وهي: جامع دمشق المحروسة*، جامع قلعة دمشق*، مدرسة الحنفية التي جدَّدها نور الدين[(٤)]، مسجد ابن عطية داخل باب الجابية*، مسجد ابن لبيد بالفسقار*، مسجد سوق الرَّمَّاحين*، المسجد المُعَلَّق بسوق الصَّاغة*، مسجد دار البطيخ[(٥)] المعلَّق*، مسجد العَبَّاسي بسوق الأحد*، مسجد جدَّده نور الدين جوار بيعة

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٢) في هامش الأصل: «حاشية: إلى هنا انتهى ما نقله المؤلف من خط ابن العديم، والله أعلم». قلت: انظر ص ٥٦ من هذا الجزء، وفيها بداية ما نقله.

(٣) ولد سنة (٥٢٠هـ)، وتوفي بدمشق سنة (٥٨٤هـ)، انظر «التكملة» للمنذري: ١/٩٣ ـ ٩٤، وفيه: «أبو الحسين»، و«تلخيص مجمع الآداب»: ج ٤/ ق ١/١٩٥ ـ ١٩٦، وفيه: «أبو عبد الرحمن»، ولم يسمه.

(٤) انظر في كشاف الأماكن ما كتب عن المدرسة النورية الصغرى.

(٥) في الأصل و(م): بطيخ، والمثبت من (ل).

اليهود*، جامع الصَّالحين بجبل قاسيون*. يبتاع بذلك طيب وعود ويُفَرَّق على هذه الأماكن: النصف للجامع بدمشق، والنصف الثاني ينقسم على أحد عشر جزءاً، جزءان للمدرسة، وتسعة أجزاء لتسعة المساجد الباقية، لكل مسجد جزءٌ واحد، تطيب هذه الأماكن في الأوقات الشريفة، ومواسم الاجتماعات، وليالي شهر رمضان والأعياد، وأيام الجمع وقت عقد الجمعة في الجوامع، وليالي الجمعة والخميس والاثنين.

ونقلت من خطه أيضاً أن نور الدين رحمه الله تعالى حضر عنده بقلعة دمشق* يوم الخميس تاسع عشر صَفَر سنة أربع وخمسين وخمس مئة القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القُرَشي(١)، والفقهاء: الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، والخطيب عز الدين أبو البركات بن عبد(٢)، والإمام عز الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن

---

(١) ولد سنة (٥٠٧هـ)، تولى قضاء دمشق، ثم استعفى منه سنة (٥٥٥هـ) فأعفي، فخرج إلى مكة حاجاً، وعاد إلى بغداد في صفر سنة (٥٦٣هـ) فأقام بها يحدث، حتى توفي سنة (٥٦٤هـ)، ودفن في مقبرة الإمام أحمد بن حنبل. وهو والد أبي المعالي محمد بن علي المعروف بابن الزكي، صاحب أول خطبة جمعة في بيت المقدس بعد فتحها. انظر «وفيات الأعيان»: ٢٣٦/٤، و«سير أعلام النبلاء»: ٥١٩/٢٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٣٥/٧، و«قضاة الشافعية» للنعيمي: ٤٦ المنشور في قضاة دمشق لابن طولون. وانظر ص ٣٨٨، من هذا الجزء.

(٢) هو الخضر بن شبل بن الحسين، المعروف بابن عبد، ولد سنة (٤٨٦هـ) ودرَّس الفقه وأفتى سنة (٥١٨هـ)، وكان سديد الفتوى، درس بالزاوية الغزالية في الجامع الأموي، وتولى الخطبة فيه، ودرس بالمدرسة المجاهدية الجوانية (مسجد السادات جانب باب العمارة الجوانية الآن)، ووقف له نور الدين مدرسته التي تلي باب الفرج (سميت بعد بالعمادية وقد درست). سمع منه القاسم بن عساكر، ولزم درسه مرة، وعلق عنه من مسائل الخلاف، توفي سنة (٥٦٢هـ). انظر «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ٣٢٥/٥ أ (وترجمته فيه من زيادات القاسم على تاريخ أبيه)، و«مرآة الزمان»: ١٦٨/٨ ــ ١٦٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٥٩٢/٢٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨٣/٧، وسيرد له ذكر في ١٧/٢ من هذا الكتاب، وانظر «تهذيب ابن بدران»: ١٦٢/٥.

الماسح[1] الشَّافعيون، وشرف الدين أبو القاسم عبد الوهَّاب بن عيسى المالكي[2]، وشرف الإسلام نجم بن عبد الوهَّاب الحنبلي[3]، ورضي الدين أبو غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد التميمي؛ رئيس دمشق[4]، ونظام الدين أبو الكرام المحسن بن أبي المضاء؛ متولي الوزارة بدمشق، والأعيان من شهود العدالة بدمشق، وهم: عبد الصمد بن تميم، وعبد الواحد بن هلال، والصَّائن أبو الحسين، وغيرهم. فسألهم نور الدين عن المضاف إلى أوقاف المسجد الجامع بدمشق من المصالح التي ليست وقفاً عليه، وأن يُظهر كل واحد منهم ما يعلمه من ذلك ليعمل به، ويقع الاعتماد عليه، وقال لهم: ليس يجوز لأحدٍ منكم أن يعلم من ذلك شيئاً إلا ويذكره،

(١) أحد أئمة المذهب، ولد سنة (٤٨٨هـ)، كان فرضياً نحوياً، وله حلقة كبيرة بالجامع الأموي للإقراء والفقه والنحو، توفي سنة (٥٦٢هـ). والماسح: هو الذي يتصدى لقياس أرض الزراعة، انظر: «إنباه الرواة»: ٢/٢٤١ ــ ٢٤٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٤٦٧ ــ ٤٦٨، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/٢١٤، وانظر «صبح الأعشى»: ٥/٤٦٦.

(٢) أصله من المغرب، قدم دمشق وهو شاب سنة (٥٣٥هـ) وكان يختلف إلى مدرسة الفقيه أبي البركات بن عبد، ثم اعتنى به الأمير معين الدين أنر، فدرس في الجامع الأموي تحت قبة النسر، سمع من الحافظ ابن عساكر، رمم له نور الدين داراً بحجر الذهب (محلة كانت قريبة من البيمارستان النوري، تسمى اليوم الحريقة) توفي سنة (٥٥٤هـ) انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٠/٣٠٦ب. قلت: هي المدرسة النورية المالكية.

(٣) ولد سنة (٤٩٨هـ)، كان شيخ الحنابلة بالشام في وقته، أفتى ودرَّس وهو ابن نيف وعشرين سنة، ما حابى في دين الله أحداً، ولم يل ولاية من جهة السلطان، وكان الشيخ الموفق وأخوه أبو عمر ابني قدامة إذا أشكل عليهما شيء سألاه، توفي سنة (٥٨٦هـ)، ودفن بسفح قاسيون. وشرف الإسلام هو لقب والده عبد الوهاب بن عبد الواحد، المتوفى سنة (٥٣٦هـ). انظر «التكملة» للمنذري: ١/١٣٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١٠٣، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ١/٣٦٨ ــ ٣٦٩.

(٤) رُدَّت إليه رياسة دمشق سنة (٥٤٨هـ) بعد قتل الوزير حيدرة، انظر ص ٢٩١ من هذا الجزء.

ولا ينكر شيئاً مما يقوله غيره إلا وينكره، والسَّاكت منكم مُصَـدِّقٌ للناطق ومصوِّب لقوله، وليس العمل إلا على ما تتفقون عليه وتشهدونَ به، وعلى هذا كان الصَّحابة رضي الله عنهم، يجتمعون ويتشاورون في مصالـح المسلمين.

فكل من الحاضرين شكره على ما قصده، وأثنى عليه، ودعا له بالبقاء، ثم أمر نور الدين متولي أوقاف الجـامـع والمساجـد والبيمارَسْتـان، وقُنِيّ السَّبيل وما يجري مـع ذلك أن يَقْرَأ عليه بمحضرٍ من المذكورين ضريبة الأوقاف موضعاً موضعاً ليفرد ما يعلمون أنه للمصالـح دون الوَقْف. فافتتـح بالسُّوق المستجد تحت المئذنة الغربية جوار البيمارَسْتَان[1]، فقال الصائن وابن تميم وابن هـلال: هذا السـوق بكمالـه لمصالـح المسلمين، وليس من وقفِ الجامـع؛ لأنه أُحدث في طريق المسلمين، وقد صرف في الجامـع من أجوره أوفى مما غرم على عمارته من وقفه. فصدَّقهم الحاضرون على ما شهدوا به، ومبلـغ ذلك خمس وعشرون عضادة. ثم عَيَّنَ للمصالـح أيضاً ما في زيادة الجامـع القبلية، وزيادة باب البريد* في الصف القبلي والشَّـامي[2] من العضائد والحوانيت والحُجَر التي طباقها وطباق الطريق بحضرتها، وجميـع بيوت الخضراء* من قبلة الجامـع، والفرن المستجدّ بها، ودار الخيـل* والمساكن والحوانيت المجاورة لدار الخيل، وحانوت في الخَوَّاصين* في الصف الغربـي، واثنا عشر حانوتاً[3] متلاصقات في الصف الشرقي تعرف بالمعتصميات، ونصف حانوت والفرجة المستجدَّة بحضرة دار الوكالة* إلى سوق علي* وعدتها ثلاثة عشر حانوتاً، ومصطبة وثلاثة حوانيت في الصف

---

(١) النوري، انظره في كشاف الأماكن.

(٢) قال عبد القادر بن بدران في «تهذيب تاريخ ابن عساكر»: ٢١٩/١ «اصطلح المتقدمون على تسمية الجهة الشمالية بالشامية هرباً من أن يطلقوا على أهلها أنهم من أهل الشمال».

(٣) الحانوت يذكر ويؤنث. انظر «اللسان» (حنت).

الشامي من سوق علي بلصق الفرجة من شرقها، وحانوت بالفسقار* في الصف القبلي يعرف بسكنى ثعلب الفُقَّاعي[1]، وحوانيت اللَّبادين*، والتي بحضرة الفَـوَّارة*، وتحـت اللَّبادين، وقيسارية* العقيقي بسوق الأحد* وتعرف بدار الشجرة، وحانوتان في الصف الشرقي بحضرة فندق الزيت من غرب دَرْب التَّمَّارين*، وحانوت بقنطرة الشَّمَّاعين* في الصف الشَّامي بحضرة البياطرة*، وقطعة جوار المأمونية* من غربها، والعضائد التي في الصف الشامي من سوق الأحد، وهي خمسة عشر عضادة، وستة أسهم من طاحونة السقيفة. وذلك كلُّه بعضه ميراثٌ عن بني أمية كالخضراء ودار الخيل، وبعضه اشْتُري بمالِ الوقف والمصالـح، وبعضه أُخذ ممن باد أهله الموقوف عليهم ولم يكن له مال، وبعضه أُحدث في الطريق. قال: فلما شهدوا بصحة جميـع ما ذكر، وأن منافـع ذلك وأجوره جارية في المصالـح قال نور الدين: إن أهمَّ المصالـح سَدُّ ثغور المسلمين، وبناء السور المحيط بدمشق والـقِـلِّ[2] والخندق لصيانـة المسلمين وحريمهم وأمـوالهم. فصوَّبـوا ما أشـار إليه،
١٨/١ وشكروه. ثم سألهم عن فواضل الأوقاف، هل يجوز صرفها في عمارة الأسوار وعمل الخندق للمصلحة المتوجهة للمسلمين؟ فأفتى شرف الدين عبد الوَهَّاب المـالكي بجواز ذلـك، ومنهم من روّى في مهلة النـظر، وقـال الشيخ شرف الدين بن أبـي عَصْرُون الشَّـافعي: لا يجوز أن يُصْرَفَ وقفُ مسجدٍ إلى غيره، ولا وقف مُعَيَّن إلى جهةٍ غير تلك الجهة، وإذا لم يكن بدٌّ من ذلك فليس طريقه إلا أن يقترضه مَنْ إليه الأمر في بيت مال المسلمين فيصرفه في

---

(١) نسبة إلى عمل الفقاع وبيعه؛ وهو شراب يتخذ من الشعير، سمي به لما يعلوه من الزبد. «اللسان» (فقـع) و«اللباب»: ٢/٢١٩.

(٢) القِلِ: الحائط القصير، انظر «القاموس المحيط» (قلل). وفي (م): الفصيل: وهو أيضاً حائط قصير دون الحصن أو دون سور البلد. «القاموس المحيط» (فصل).

المصالح، ويكون القضاء واجباً من بيت المال. فوافقه الأئمة الحاضرون معه على ذلك. ثم سأل ابنُ أبي عصرون نورَ الدين: هل أُنفق شيء قبل اليوم على سور دمشق وعلى بناء الكَلَّاسة* من شامِ الجامع، وعلى إنشاء السقف المقرنص تحت النسر[1] بالجامع، وعلى الرَّصَاص المعمول على سطح الرواق الشَّامي من الجامع، وسائر العمارات المتعلِّقة بالجامع المعمور بغير إذن مولانا؟ وهل كان[2] إلا مبلغاً للأمر العالي في عمل ذلك؟ فقال نورُ الدين: لم تُنْفِقْ ذلك ولا شيء منه إلا بإذني، وأنا أمرتُ به وبفتح المشهدين[3]* من غربي الجامع المعمور اللذين كانا مخزنين، وكنتَ مبلغاً عني ومؤدياً أمري[4].

قلت: هذا مختصرُ المحضر الذي كتب فيه صورة ما جرى في ذلك المجلس، وهو مشتملٌ على فوائد حسنة، وتأكيد لما نُقِلَ من سيرة هذا الملك في وقوفه مع أوامر الشريعة. وفي ذلك المحضر خطوط الجماعة الحاضرين. وصورة ما كتبه المالكي المفتي: حضرتُ المجلس المذكور ــ عمره الله وَزَيَّنه بالعدل أبداً ما عاش صاحبه ــ وشهدت على ما تضمَّنه من المشورة المباركة، وما نسب إلى الجماعة الشهادة به من المواضع المشهورة كما نسب إليهم، وقد أخلَّ بذكر دار الحجارة، وقد ذكروها في المصالح، وما نسب إليَّ من الفتوى فقد كنتُ قَيَّدْته بالحاجة وفراغِ بيت المال، أو ضعفه عن القيام بما يحتاج إليه المسلمون ومهمَّاتهم الدينية، كتبه عبد الوَهَّاب بن عيسى بن محمد المالكي.

---

(١) أي تحت قبة النسر. انظر كشاف الأماكن.

(٢) أي ابن أبي عصرون.

(٣) في الأصل: المشهد، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) كان ابن أبي عصرون متولياً نظر الأوقاف، وقد اتهم في أمانته، فهو هنا يدفع عن نفسه هذه التهمة، انظر «منامات الوهراني» ص ٦٧ ــ ٧١، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٥٨ من هذا الجزء.

فصـــل

وقد مُدح نور الدين رحمـه الله بأشعارٍ كثيرة، وأوصافه فوقَ ما مُدِحَ به. وكان في أول دولته شاعرا زمانهما أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير، وأبو الحسين[1] أحمد بن منير[2]، ولهما فيه أشعار فائقة ستأتي جملةٌ منها في مواضعها. وقد رأيتُ أن أُقدِّم منها شيئاً هنا.

قرأتُ في «ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَراني»: كتب إلى نور الدين: سلام الله وحنانه، ورأفته وامتنانه، وروحه وريحانـه، على مَنْ عصم ثغر العواصم، وخصم بحجَّته الدَّهر المخاصم، وألجم بهيبته العائب والواصم، الذي انتضى في سبيل الله سيوفَ الجهاد، وارتضى بعز سلطانه شعار العُبَّاد والزُّهَّاد، واهتدى إلى طاعة اللَّه وليس غير الله من هاد، ومن أصبحت أطراف البلاد أوساطاً لمملكته، ومعاقل الكفار في عقال مَلَكته[3]، ومركز الشكر مراكز أعلامه وألويته، ومن عادت به ثغور الشام ضاحكة عن ثغور النَّصْر، وممالك الإسلام متوَّجة بتيجان الفخر، وصعاب الأمور منقادة إليه بأَزِمَّة القهر، ومن رأى الحِكَمَ دارسة فبنى مدارسها، والهممَ يابسة فسقى منابتها ومغارسها، والمنابر شامسة[4] فأمكن من صَهَوَاتها فوارسَها؛ ومن عمر رَبْـعَ[5] السُّنن بعدما عفا، وأنقذ من الفتن مَنْ كان منها على شفى، ومن نشر أعلام الفضل، وأنشر بعد الوفاة أيَّام العَدْل، ومن أنار بوجهه الإيمان، وأخذ النَّاسُ به من الزمان توقيـع الأمان.

---

(١) في الأصل و(ل) أبو الحسن، والمثبت من (م).

(٢) سترد ترجمتها في وفيات سنة (٥٤٨هـ)، ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

(٣) أي عبيده. «اللسان» (ملك).

(٤) أي جامحة. «اللسان» (شمس).

(٥) الربـع، المنزل والدار والوطن. «اللسان» (ربـع).

ذو الجِهَـادَيْنِ مِنْ عـدوٍّ ونَفْسٍ ... فهـو طـول الحيـاةِ في هَيْجـاءِ
أيهـا المـالـكُ الـذي ألـزم النَّا ... سَ سلوكَ المـحجَّـة البيضـاءِ
قـد فَضَحْتَ الملوكَ بالعَـدْلِ لَمَّـا ... سِـرْتَ في الناس سيـرةَ الخُلَفـاءِ
قاسماً ما مَلَكْتَ في النَّاس حتى ... لـقسـمت التُّقَـى على الأتـقيـاءِ
شيم الصَّـالحين في جُنَنٍ[1] التُّـر ... ك وكم من سكيـنـةٍ في قَبـاءِ
أنتَ حيناً تقـاس بـالأسـد الـوَرْ ... دِ وحيـنـاً تُـعَـدُّ فـي الأولـيـاءِ
صـاغَك الله من صميم المعـالي ... حيـث لا نـسبـة سـوى الآلاءِ
وكـأَنَّ القَبـاء منـكَ لمـا ضمَّ (م) مِنَ الـطُّهْـرِ مَسْجـدُ بقُبـاءِ[2]
أنـت إلَّا تكـنْ نبيـاً فـمـا فـا ... تَـك إلَّا[3] خـلائـقُ الأنـبيـاء
رأفـةٌ فـي شـهـامـةٍ وعـفـافٌ ... في اقتـدارٍ وسَـطْوَةٌ فـي حيـاء
وجـمـالٌ ممـنـطقٌ بـجـلالٍ ... وكـمـالٌ مُـتَـوَّجٌ بـبـهـاءِ
وإذا ما الملوكُ خافت سهام الذَّ (م) مٍّ زَرَّتْ عـليـك درع الثَّـنـاءِ
عَجِبَ النَّاس منك أنك في الحر ... بِ شهـابُ الكتيبـة الشَّهْبَـاءِ
وَكـأَنَّ السيوفَ من عَـزْمِكَ المـا ... ضي أفادتْ ما عندها من مَضَـاء ١٩/١
وَلَعَمْرِي لـو استطاع فَـدَاك الـ ... ـقـومُ بـالأمَّـهـات والآبـاءِ

وله فيه:

لِلَّهِ عَـزْمُـكَ أي سيـفٍ وَغَـى ... طُبِعَـتْ مضـارِبُـه عـلى القَهْـرِ
مـا زُفَّتِ الحـربُ العَـوَانُ[4] بـه ... إلا انـجلتْ عـن مَعْقِـلٍ بِكْـرِ

---

(١) مفردها جُنَّة، وهي الدرع. «اللسان» (جنن).
(٢) قباء: قرية على ميلين من المدينة المنورة على يسار القاصد إلى مكة، فيها مسجد التقوى بناه الصحابة المهاجرون ومن نزل إليهم من الأنصار قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، فلما قدم عليه السلام قباء صلى بهم فيه. انظر «معجم البلدان»: ٣٠٢/٤.
(٣) في هامش الأصل و(ل): «حاشية: إلا: أي قسماً».
(٤) الحرب العوان: التي كان قبلها حرب. انظر «اللسان» (عون).

هل وَجْهُ نور الدين غير سنىً صَدَعَ الدُّجى عن خَجْلَةِ البَدْرِ
ملكٌ مهابتُه طليعتُه أبداً أمامَ جيوشِهِ تَسْري
كم فَلَّ كيدَهم بصاعقةٍ شَغَلَتْ قلوبَهُمُ عن الفِكْرِ
تركتْ حصونَهُمُ سجونَهُمُ فالقومُ قبل الأسر في أَسْرِ
عَصَمَ العَواصِمَ فهي ضاحكةٌ تجلو الظُّبى ثَغْراً على الثَّغْرِ
وإذا سرايا خَيْلِهِ قَفَلَتْ نَهَضَتْ سرايا الخوفِ والذُّعْرِ
ورمى القِلاعَ بمثلِ جَنْدَلها حتى استكانَ الصَّخْرُ بالصَّخْرِ
يا سائلي عن نَهْجِ سيرتِهِ هل غيرُ مَفْرِقِ هَامة الفَجْرِ
عَدْلٌ حقيقٌ مَنْ تأمَّلَه أن يُحْيِيَ العُمَرَيْن بالذِّكْرِ
وشهامةٌ في الله خالصةٌ عَقَدَتْ عليه تمائمَ الأَجْرِ
ونَدَى يدٍ ما ضَرَّ واردَها ألَّا يبيتَ مجاورَ البَحْرِ
هذا المخيِّم في ذُرا حَلَبٍ وثناؤه أبداً على ظَهْرِ

وله [فيه](١) وقد وصف داره:

دار تَغَارُ الشَّمْسُ في أفقها من حُسْنها والشمسُ مِغْيارُ(٢)
يزأَرُ فيها ضَيْغَمٌ ما لَه غير سيوف الهندِ أَظْفارُ
تمسي وتُضْحي وهو جارٌ لها والله ذو العَرْشِ له جارُ
لسيفه الباترِ من دَهْره الـ ـجائرِ ما يَهْوَى ويختارُ
قد ملأ الأسفارَ من ذِكْره نَشْرٌ له في الرَّوْضِ إسفارُ
حَمْدٌ يَضُوعُ الجوُّ من طيبه كأنما راويهِ عَطَّارُ
إنْ خَطَرَتْ في قلبه خطرةٌ أجابها ماضٍ وخَطَّار(٣)

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) أي شديدة الغيرة. «اللسان» (غير).
(٣) الرمح. «اللسان» (خطر).

وإن دعا داعيه يومَ الوغى ... سيوفه لبَتّه أقدارُ
كأنما صارمه مُرسَلٌ ... له من التأييد أنصارُ
يا مالك الدُّنيا ولكنَّها ... دنيا لها في الدين آثارُ
ويا جواداً ما لآلائه ... غيرَ فضاء الحمد مِضْمارُ

وله فيه:

تداركَ ملَّةَ العربيِّ ذَبًّا ... إلى أنْ عَدَّه منه مَعَدُّ
وحَلَّ ذُرىٰ العَوَاصِم وهي نُهْبَى ... فأجلى الشِّرْكَ حتى ليس ضِدُّ
ثنى يدَه عن الدُّنيا عفافاً ... ومال بها عن الأموال زُهْدُ
رأى حَطَّ المكوس عنِ الرَّعايا ... فأهدَرَ قَبْلُ ما أنشاه بَعْدُ
ومدَّ لها رِوَاقَ العَدْلِ شِرْعاً ... وقد طُوِيَ الرِّواقُ ومن يَمُدُّ
وبات وعند باب العَرْشِ منها ... لدولتِهِ دعاءٌ لا يُرَدُّ

وله فيه:

مَلِكٌ أشبه الملائكَ فَضْلاً ... وشبيه بمالِكِ الأمرِ جُنْدُهْ ٢٠/١
عَمَّ إحسانُه فأصبحَ يُتْلى ... شكرُهُ في الورى ويُدْرَسُ حَمْدُهْ
فَسَقَى الله ذِكْرَه أينما حلَّ (م) ولا فاتَه مِنَ النَّصْرِ رِفْدُهْ

وله:

ضحكت تباشيرُ الصَّباح كأنَّها ... قَسَماتُ نور الدين خير النَّاسِ
المشترِي العُقْبَى بأنْفَسِ قيمةٍ ... والبائع الدُّنيا بغير مِكاسِ
وسرى دعاءُ الخَلْقِ يحرس نَفْسَه ... إن الدُّعاء يُعَدُّ في الحُرَّاسِ
راضَ الخطوب الصُّمَّ بعد جماحها ... وألانَ من قلبِ الزَّمان القاسي
وأعاد نورَ الحقِّ في مِشْكاته ... وأقام وَزْنَ العَدْلِ بالقِسْطاسِ
واختار مجدَ الدِّين[1] سائسَ مُلْكه ... فحمى الرِّياسة منه طودٌ راسي

---

(١) على هامش الأصل: «يعني ابن الداية».

فهو الخبيرُ بكلِّ داء مُعْضِلٍ(١) يأسو جراحَ زماننا ويواسي
وأذلَّ سُلْطان النِّفاق بعزَّة خضعت لها الآساد في الأخياس(٢)
وَعَرَتْه أقرانُ الخُطوبِ فَصَدَّها ألوى(٣) يمارسُها أشدَّ مِرَاسِ
ولو آنَّ فَيْضَ النِّيل فائض نَيْلِهِ لم تفتقر مِصْرُ إلى مِقْياسِ
سكَّنْتَ شَغْبَ الدَّهر بعد تخمُّطٍ(٤) وأَلَنْتَ مِنْ عِطْفيه بعد شِماسِ
وفتحتَ بابَ الحظِّ بعد رِتاجه وأَذِنْتَ للأطماع بعد الياسِ
حتى منحتَ الخلقَ كلَّ مَسَرَّةٍ فالنَّاسُ في عُرْسٍ من الأعراسِ

ولـه:

سام الشَّآم ويا لها من صَفْقَةٍ لولاه ما عنَّتْ(٥) على يد سائمِ
وَلَشَمَّرَتْ عنها الثُّغور وأصبحتْ فيها العواصم وهي غيرُ عواصمِ
تلك التي جَمَحَتْ على مَنْ راضَها ودعوْتَ فانقادَتْ بغير شكائمِ(٦)
وإذا سعادتك احتَبَتْ في دولةٍ قامَ الزَّمانُ لها مقامَ الخادمِ
حصِّنْ بلادك هيبةً لا رهبةً فالدِّرْع من عُدَدِ الشجاع الحازمِ
هيهاتَ يَطْمَعُ في محلِّكَ طامعٌ طال البناءُ على يمين الهادمِ
كلَّفْتَ هِمَّتَكَ السُّمُوَّ فحلَّقَتْ فكأنما هي دعوةٌ في ظالمِ
وأظن أَنَّ النَّاس لما لم يَرَوْا عَدْلاً كعدلك أَرْجَفُوا بالقائمِ(٧)

---

(١) في الأصل: معظل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) مفردها خيس: موضع الأسد، وتأتي أيضاً بمعنى المجتمع من كل شجر. «اللسان» (خيس).
(٣) أي الشديد الخصومة. «اللسان» (لوى).
(٤) أي بعد اضطراب. انظر «اللسان» (خمط).
(٥) في «خريدة القصر» ما أعيت.
(٦) مفردها شكيمة وهي في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس. انظر «اللسان» (شكم).
(٧) القائم هو المهدي المنتظر، والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١١٢ ــ ١١٤.

ولـــه:

قـلتَ بـقــولِ الـلَّهِ لا خــائـفـاً ... مَـعْ حَكَمِ القرآن حُكْمَ القِرانْ(١)

لا رَاقِبَ الـنَّـجْـم ولا ســائــلاً ... مــا فعــل السَّـعْــدَانِ والنَّـيــران

بـل غِـرْتَ لـلإسـلام حتى لقـد ... دانَ لــه مــن بـالـطَّواغيـت دان

رُعْـتَ(٢) نــواميس نــواقـيـسـهـا ... بجَـلْبَـةِ(٣) الآذان وقــتَ الأَذَانْ(٣)

تمحـو تصـاويـر الـدُّمَى عن يـدٍ ... تبني المحاريبَ خلالَ المَجَـانْ(٤)

هــذا وكـم أنشــأْتَ مـن مِنْبَـرٍ ... فــارسُــه فــارسُ سِحْــرِ البيــانْ

مَنْ نــال بـالإخــلاص مـا نِلْتَـه ... كــان مـن الله مكينَ الـمكــانْ

يا شائمـاً بالشَّـام صَوْبَ الحيا(٥) ... ودانـيــاً مــن كــلِّ قــاصٍ ودانْ

هــذي سُجُـوف الملك مـرفـوعةً ... عـن مـلكٍ أخبــاره كــالـعِيَــانْ

أوضـح سُبْـلَ(٦) العَــدْلِ مُفْتَنَّـةً ... فـللبــرايــا بــالـدُّعــاء افتنــانْ

أَلْـغَى حـقــوقــاً كلُّهــا بــاطــلٌ ... إلى ضمــانٍ حطّ مـال الضَّمــانْ ٢١/١

عــطفـاً ورِفْقــاً بــالـرَّعـايـا وإن ... أصـبـح تــأديبَ مـلوكِ الـزَّمــانْ

كـم بيـنَ مَنْ نــامَ عـلى نشــوةٍ ... وسـاهـدٍ في صهــوةٍ من حِصـانْ

فـي كــلِّ يــومٍ يبتني سيـفُــه ... بــبـلـدةٍ بِـكْــرٍ وأُخــرى عَـوَانْ

وقرأتُ في ديوان أحمد بن منير الطَّرابُلُسي من قصائدَ يمدح بها نور الدين رحمه الله تعالى:

---

(١) القران هو كسوف الشمس بواسطة قرص القمر، وله معانٍ عند المنجمين.

(٢) في (ل): رغت.

(٣) سكنت اللام لضرورة الشعر.

(٤) مفردها مجن، وهو الترس، «اللسان» (جنن).

(٥) في الأصل: الجياد، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) سكنت الباء للضرورة.

يــا محيـي العَـدْل ويــا مُنْشِـرَهُ   من بين أطباقِ البِلَى وقـد هَمَـدْ
وركــنَ الأسـلام الــذي وَطَّــده   طــالَ وأرسى العِزَّ فيــه وَوَطَـدْ
وشــارِعَ المعــروفِ إذ لا شفــةٌ   تجنحُ للقَــوْل ولا تشمخُ يَـدْ
محــوتَ مـا أثبتَــهُ الجَـوْرُ مضى   عـليــه إخــلادُ اللَّيــالي فَخَلَدْ
مِنْ كُـلِّ مكَّـاسٍ يــظَلُّ قـاعــداً   لِمَـا يسوءُ المسلمينَ بــالرَّصَـدْ
كــانتْ لأرجـاسِ اليهــودِ دولــةٌ   أزالهــا منك الهَصُــور ذو اللِّبَـدْ
الملك العــادل لفظُ طــابـقَ الــ   ـــمعنى وفي الوَصْفِ مُعَارٌ(١) مُسْتَرَدْ
خَيْرُ النُّعوت ما جرى الوصفُ على   صفحته جَرْيَ النَّسيم في الوَمَدْ(٢)
عَــدْلٌ جنيتَ اليــومَ حُلْوَ رَيْعِــهِ   وسوفَ يُجنى لك أحلى منه غَدْ
لا زالَ لـلإسـلامِ منك عُـدَّةٌ   تـقيـمُ مـنــه كـلَّ زَيْـغٍ(٣) وَأَوَدْ
النَّاسُ [أنتَ](٤) والملوك شَرَط(٥)   تُـعَـدُّ ليثـاً ويُـعَــدُّونَ نَـقَـدْ(٦)
مـثلكَ لا يـسخــو بــه زمــانُــهُ   وَمِثْلَ مـا أُوتيتَ لم يُؤْتَ أَحَدْ

ولــه:

أيــا نــورَ دِيْــنٍ خَــبـا نــورُه   وَمُــذْ شاعَ عَــدْلُكَ فيــه اتَّقَدْ
رآكَ الـصَّليـبُ صليـبَ القنــاة   أمينَ العِثَــار متيـنَ الـعَـمَــدْ
تــهـمُّ فــتـسـلُبــه مــا اقـتـنـى   وَتَــذْأى(٧) فَتُشْكِلُه مــا احْـتَشَــدْ
زَبَنْتَهُمُ(٨) أمسِ عـنِ صَـرْخَـدٍ*   ففـضُّــوا كــأَنَّ نَـعَــامــاً شَــرَدْ

(١) في الأصل: معاد، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ندى يجيء من البحر في شدة الحر وسكون الريح. انظر «اللسان» (ومد).

(٣) في (ل): زوغ.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) الشَّرَط: الدون من الناس. «اللسان» (شرط).

(٦) النقد: جنس من الغنم قصار الأرجل، قباح الوجوه، يقال: هو أذل من النقد. انظر «اللسان» (نقد).

(٧) ذأى يذأى: مَرَّ مراً خفيفاً سريعاً. «اللسان» (ذأي).

(٨) أي دفعتهم: «اللسان» (زبن).

ويومَ العُرَيْمَةِ[1] أقبلتهم ... عُراماً تثعلَبَ منه الأَسَدْ
جَنَبْتَ[2] مليكَهُمُ في الصِّفَاد[3] ... وعفوكَ عنه أعَمُّ الصَّفَدْ[4]
وقَبْلُ أَزَرْتَهُمُ في الرُّها* ... موازق مَزَّقْنَ جُرْدَ الجَرَدْ
بقيتَ ترقِّعُ خَرْقَ الزَّمانِ ... قياماً لأبنائه إن قَعَدْ
تثقِّفُ من زيغه ما التَوَى ... وتصِلحُ من طبعِهِ ما فَسَدْ

وله:

أيا ملكَ الدُّنيا الحُلاحِل[5] والذي ... له الأرضُ دارٌ والبريَّة أَعْبُدُ
وليستْ بدعوى لا يقوم دليلُها ... ولكنَّه الحقُّ الذي ليس يُجْحَدُ
أخو غَزَوَاتٍ كالعقُودِ تناسَقَتْ ... تَحُلُّ بأجيادِ الجياد وتُعْقَدُ
لسانٌ بِذِكْرِ الله يكْسُو نهارَه ... بهاءً وجَفْنٌ في الدُّجى ليس يَرْقُدُ
وَبذْلٌ وعَدْلٌ أغرقا وتألَّقا ... فلا الوِرْدُ مثمودٌ[6] ولا البابُ مُوْصَدُ
مَرامٌ سمائيٌّ وحَزْمٌ مُسَدَّدٌ ... ورأيٌ شِهابيٌّ وعَزْمٌ مُؤَيَّدُ

وله:

أبداً تَنَكَّبُ عن ضلالٍ سادراً ... بثقوب زَنْدِكَ أو تدلُّ على هُدَى
سُدْتَ الكُهولَ مِنَ الملوكِ مراهِقاً ... وشأوت[7] شِيبَهُمُ البوازِلَ[8] أَمْرَدا

---

(١) انظر ص ١٩٥ وما بعدها من هذا الجزء.
(٢) جنب الأسير: قاده إلى جنبه. «اللسان» (جنب).
(٣) ما يوثق به الأسير من قد وقيد وغل. «اللسان» (صفد).
(٤) الصفد: العطاء. «اللسان» (صفد).
(٥) السيد في عشيرته، الشجاع الركين في مجلسه. «اللسان» (حلل).
(٦) قليل. «اللسان» (ثمد).
(٧) سبقتهم. «اللسان» (شأي).
(٨) البوازل: الطاعنون في السن. من بزل البعير: إذا استكمل الثامنة وطعن في التاسعة، وليس بعد البازل سن تسمى. انظر «اللسان» (بزل).

٢٢/١ إنْ شَيَّدوا صَرْحاً[١] أنافَ منارةً | أو أَسْجَدُوا للكأس جَدَّد مَسْجِدا
وإذا استهزَّتْهُمْ قلائدُ مَعْبَدٍ[٢] | هَزَّتْهُ موعِظَةٌ فَعرَّفَ[٣] مَعْبَدا
قسماً لشَامَ الشَّامُ منك مُهَنَّداً | أرضاه مشهوراً وراعَ مُقَلَّدا
وَتَمسَّك الإسلامُ منكَ بعروةٍ | اللهُ أَبْرَمَ حبلَها فاسْتَحْصَدا[٤]
أشفى فكنتَ شفاءه من حادثٍ | غاداه عارِضُه مُرَدًّى بالرَّدى
كنتَ الصَّباحَ لليلِهِ لمَّا دَجا | والغَيْثَ[٥] كفَّ لظاه حين توقَّدا
للهِ يومٌ أطلعتكَ به النَّوَى | تجتابُ[٦] من مُهَجِ الأصافر[٧] مِجْسَدًا[٨]
نشوانُ غنَّتْكَ الظُّبى مفلولةً | وأمالَ عِطْفَيْكَ الوِشَاحُ[٩] مُقَصَّدا[١٠]
في مَعْرَكٍ ما قام بأُسُك دُونَه | إلا أقامَ المشركينَ وأَقْعَدَا
ولكَمْ مَكَرٍّ قُمْتَ فيه مُعلِّماً | أَرْضى إلهكَ والمسيحَ وأَحْمَدا
يوم العُرَيمة والخطيم وحارمٍ* | وشِعاب باسوطا* وهاب* وصَرْخَدا*
لا يَعْدَمِ الأشراكُ حدَّك إنه | ماسُلَّ فيهم حاكماً إلا اعتدى

---

(١) أي قصراً. «اللسان» (صرح).
(٢) هو معبد بن وهب، أبو عباد المدني، من أكبر المغنين في العصر الأموي، توفي سنة (١٢٦هـ). انظر أخباره في «الأغاني» طبعة دار الكتب: ١/٣٦ ـ ٥٩ و«تاريخ الإسلام» للذهبي: ٥/١٦٥.
(٣) في (ل) تعرف.
(٤) استحكم، ومنه: حبل محصد: أي محكم مفتول. «اللسان» (حصد) وقد صحفت الكلمة في الأصل و(ل) إلى «فاستصحدا»، والمثبت من (م).
(٥) في الأصل و(ل) الغوث، والمثبت من (م).
(٦) تقطع. «اللسان» (جوب).
(٧) يعني الصليبيين، وكان العرب يسمون الروم بني الأصفر. انظر «اللسان» (صفر).
(٨) القميص الذي يلي البدن. «اللسان» (جسد).
(٩) في الأصل و(م) الوشيح، وهو تصحيف، والمثبت من (ل). والوشاح: السيف، القوس. انظر «اللسان» (وشح).
(١٠) مستوٍ بين غير مشرف ولا ناقص. انظر «اللسان» (قصد).

أَهمَدْتَهُمْ مِنْ بعد ما ملؤوا الملا[١] زَجَلًا[٢] فهل كانتْ سيوفُكَ مُرْقِدا[٣]؟
طَلَعَتْ نجومُ الحقِّ مِنْ آفاقِها وأعادها كَرُّ العُصُورِ كما بَدَا
وهوى الصَّليبُ وحزبُه وتبختر الْـ إسلامُ مِنْ بعد التَّسافُفِ أغيدا
سَبْقَ المجلِّي للخَطيِّ فَرَفْعُهُ نَسَقٌ بثُمَّ وقد رُفِعَتْ بالابتدا

وله:

محمودُ المُرْبي على أسلافه إن زاد في حَسَبِ الحسيب نِجارُ
مَلِكٌ إذا تُلِيَتْ مآثرُ قومِهِ كَسَدَ اللَّطيم[٤] وهُجِّنَ[٥] النُّوَّارُ[٦]
ملأ الفِرَنْجَةَ جَوْرُ سيفكِ فيهمُ فلهم[٧] على سِيْفِ[٨] المحيط جُؤَارُ
يوماً يُزيرك جونَ عِرْقة* معلماً جونٌ له خَلْفَ الدُّروبِ أُوارُ
ويجرُّ في الأُرْدُنِّ فَضْلَةَ ذَيْلِهِ نَقْعٌ بأكناف الأرنط[٩] مُثارُ
إما يبيحُ حريمَ أنطاكيَّةٍ أو يَفْجَأُ الدَّارومَ* منكَ دمارُ
عفى جِهادُكَ رَسْمَ كلِّ مَخُوفَةٍ وعَفَتْ بصفوةِ عَدْلِكَ الأَكْدَارُ
ومحا المظالمَ منكَ نظرةُ راحمٍ لله في خَطَراتِهِ[١٠] أسرارُ
غَضْبانُ للإسلامِ مالَ عمودُه فَلِنُورِه مِمَّا عَراه نِوَارُ

---

(١) الفلاة. «اللسان» (ملا).
(٢) أي صوتاً. انظر «اللسان» (زجل).
(٣) المُرْقِد: شيء يُشرب فينوم من شربه ويرقده. «اللسان» (رقد).
(٤) المسك. «اللسان» (لطم).
(٥) قُبِّحَ. «اللسان» (هجن).
(٦) كالنُّور، وهو الزهر. انظر «اللسان» (نور).
(٧) في (م) فله، وهو وهم.
(٨) الساحل. «اللسان» (سيف).
(٩) في هامش الأصل و(ل) «حاشية: الأرنط: النهر المسمى بالعاصي».
(١٠) في (م) خطواته.

وَجَذَمْتَ[١] كلَّ يدٍ تسورُ[٢] على يدٍ … فَأَحَلْتَ ذاك السُّور وهــو سِوَارُ
لم يبقَ مـاكسُ مُسْلمٍ سِلَعاً ولا … سـاعٍ لـمـظْلَمَـةٍ ولا عـشَّـارُ
هَمَدُوا كما هَمَدَتْ ثمودُ وقادهم … لخَسَـارهم ممَّـا أتـوه قُـدَارُ[٣]
العـارُ في الـدُّنيا شَقُـوْا بلباسه … ولبـاسُهُمْ يـومَ الحِسَـابِ النَّـارُ
كم سيـرةٍ أَحْيَيْتَهَـا عُـمَـرِيَـةٍ … رُفِعَتْ لهـا في الخافِقَيْنِ مَنَـارُ
ونـوافـلٍ صَيَّـرْتَـهُـنَّ لـوازمـاً … بـأقلِّهـا تُسْتَـعْبَـدُ الأحـرارُ
لا زلتَ تقفـو الصَّـالحين مُسَـابقاً … لـهُمُ وتَـطْلُـعُ خَـلْفَـكَ الأبـرارُ
نفس السِّيادَة زُهْدُ مثلكَ في الذي … فيـه تَفَـانَـتْ[٤] يَعْـرُبٌ ونـزارُ
ومتَّى ادَّعى مـا تـدَّعيـه محكَّمٌ[٥] … أَوْهَى مَعَـاقِـدَ[٦] دِينـه دينـارُ
للهِ مـا ظَفِرَتْ[٧] بـه منـك المُنَى … وتـكَنَّـفَتْ مـن رُكْنـكَ الأسـتـارُ
وسقَى الغَمـامُ ثـرى أبيك فـإنَّـه … أزكى ثـرًى قَطَرَتْ عليـه قِطَارُ[٨]
٢٣/١ شَهِدَتْ نَضَارةُ عُودكَ الغضِّ الجنى … أَنَّ الذي اسْتُخْلِصْتَ منه نُضَارُ[٩]
أمـا نهـارُكَ فَهْـوَ لَيْـلُ مجـاهـدٍ … واللَّيـل مِنْ طـولِ القيـامِ نَهَـارُ
فلذلـكَ النَّصْـرِ العـزيـزِ أدِلَّـةٌ … أنَّى[١٠] اتَّجهْتَ وللفُتُوحِ أَمَارُ[١١]

---

(١) قطعت. «اللسان» (جذم).
(٢) أي تثور. «اللسان» (سور).
(٣) هو قدار بن سالف الذي يقال له: أحمر ثمود، عاقر ناقة صالح عليه السلام. «اللسان» (قدر).
(٤) في (م) تفاتن.
(٥) المحكم: الشيخ المجرب المنسوب إلى الحكمة. «اللسان» (حكم).
(٦) مفردها معقد، وهو موضع العقد من الحبل. انظر «اللسان» (عقد).
(٧) في (م) ظهرت، وهو تحريف.
(٨) القطار، جمع قطر، وهو المطر. «اللسان» (قطر).
(٩) النضار: الخالص من كل شيء. وهو أيضاً اسم الذهب. انظر «اللسان» (نضر).
(١٠) في الأصل: كيف، وعلى هامشه «أنَّى» في نسخة، وهي رواية (ل) و(م).
(١١) علامة. «اللسان» (أمر).

وله أيضاً فيه رحمه الله تعالى:

رأينـا الملوكَ وقـد ساجلوك ... تمنّـوا منـونـاً وغـرُّوا غُـرورا
أبى لـكَ أنْ يُـدْرِكُـوهـا أَبٌ ... يَـزِيْـرُ فَيُنْسِي الأُسُـودَ الـزَّئيـرا
وَجَـدٌّ إذا جَـدَّ يـوم الـرِّهـا ... نِ أبقى لـتـاليـه جَـدّاً عَـثُـورا
تَصُبُّ عَـصـاك على مَـنْ عصا ... ك يـومـاً عبوسـاً بها قَمْطَرِيـرا[1]
لقـد أَلْبَسَ الشّـامَ هـذا الإباءُ ... لَبُـوسـاً من الأَمْنِ لَـيْـنـاً وثيـرا
تَـدارَكْـتَ أَرْمـاقَـهُ[2] والقلوبُ ... نـوافِـرُ[3] أَنْ تستجنَّ الصُّـدُورا
أَقَـمْتَ جـثـاثـاً وكـانت جُـثـيً ... وشِـيْـدَتْ قُصُـوراً وكـانت قُبُـورا
وكم لـكَ من غَضْبَـةٍ لـلهُـدَى ... تميتُ الهـوى وتَجُبُّ[4] الـذُّكُـورا
إذا قَـطَّبَ الـبـأْسُ كـانت ردى ... وإن ضَحِـكَ العفو عـادَتْ نُشُورا
كَمُلْتَ فَـوَفَّيْتَ عينَ الكمـال ... تُبيـد السِّنين وتُـفْـني العُـصُـورا
وجـادَ لـنـا بـكَ رَبٌّ بـرا ... كَ لـلكُفْـر نـاراً ولـلدِّيـن نُـورا
إذا مـا خُدِمْتَ فمولى كـريمـاً[5] ... وإمّـا عَـبَـدْتَ فعبـداً شَكُـورا
أمـامَ المحاريبِ بَـرّاً حَصُوراً[6] ... وتحتَ الحـروبِ هِـزَبْـراً هَصُـورا
تبـاركَ من شـادَ هـذي الخـلا ... ل في ظِلَّة الملك طَـوْداً وقـورا
وأَلَّـف في مَعْقِـد التّـاج مـنـ ... ـك سطواً سعيراً وعفـواً نَمِيْرا[7]

---

(١) يوم قمطرير: مقبض ما بين العينين لشدته، وقيل: إذا كان شديداً غليظاً. «اللسان» (قمطر).
(٢) مفردها رمق: وهو بقية الحياة. «اللسان» (رمق).
(٣) في (م) توافر، وهو تصحيف.
(٤) تقطع. «اللسان» (جبب).
(٥) في (م) عظيماً، ومثلها على هامش (ل) رواية أخرى.
(٦) الحصور: الذي لا إربة له في النساء. انظر «اللسان» (حصر).
(٧) على هامش الأصل: «بلغ مقابلة بأصله».

وله :

عَقَلَ الحقُّ أَلْسُنَ المُدَّعِيْنا — أنتَ خَيْرُ الملوكِ دُنْيا ودينا
وأَسَدُّ الأنامِ قولاً وأفعا — لاً ونَفْساً ونيَّةً ويقينَا
أنتَ أَسْنَاهُمُ إباءً وأبا — وأمرأُ حياً وأمرعُ حينا
بَسَطَ الرِّزْقَ في البسيطةِ كَفًّا — ك فكلتا يديك تُلْفَى يمينا
فَيَدٌ تحسِمُ النَّوائبَ عَنَّا — وَيَدٌ تَقْسِمُ الرَّغائبَ فينا
أيُّها البحرُ لو تساجِلُكَ الأبـ — حُرُ عامت في ساحِلَيْكَ سفينا
ولكانَ المحيطُ منها(١) مُحَاطاً — مِثْلَ نونِ الهجاءِ أوخِيلَ نونا
مَشْرَعاً مُتْرعاً ومنًّا مُهَنًّا — ورِبَاعاً فِيْحاً وكفًّا لَبُونا
ومُحَيًّا طَلْقاً ومالاً طليقاً — وانتهاجاً قَصْداً وحَبْلاً متينا
بين ذَبٍّ يميت عادِيَةَ الشِّر — ك وَهَبٍّ يحيا به المسلمونا
تتبدَّى(٢) مِنَ الفُتُوح ألوفاً — أنتَ أعلى من أَنْ تَعُدَّ(٣) المئينا
كلما اجْتَبْتَ(٤) ثوبَ نَصْرٍ عزيزٍ — من مَرامٍ أَقْبَلْتَ فتحاً مبينا
صَرَفَ الله عنك صَرْفَ زمانٍ — أنتَ عَلَّمْتَ صَرْفَه أَنْ يَهُونا
يابنَ مَنْ طَبَّقَ البسيطةَ آثا — راً وعَلَّ المُنَابذيه الأُجونا(٥)
وغَدَتْ حُصْنُه(٦) على سَرْج هذا الدِّ — (م) ين من شِكَّةِ(٧) الأعادي حُصُونا(٨)
كم تعالى صهيلُها في رُبا الشّا — م فأعلى خَلْفَ الخليجِ الرَّنينا

---

(١) في (م) منا.
(٢) في (ل) و(م) تتسنا، لعلها من السناء: أي الرفعة. انظر «اللسان» (سنا).
(٣) في الأصل مهملة، وفي (ل) نعد، والمثبت من (م).
(٤) أي لبست. «اللسان» (جوب).
(٥) الماء المتغير الطعم واللون. «اللسان» (أجن).
(٦) بسكون الصاد لضرورة الشعر.
(٧) الشكة: السلاح. «اللسان» (شكك).
(٨) في الأصل: حصوراً، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

كان صِنْوَ الرَّشيد أبقاك للحِكْـ ـمَةِ والبَأْسِ بعده(١) المأمونا
سَمِعَ الله فيك دَعْوَةَ سَكْنٍ(٢) أَوطنوا من حِماك حِصْناً حصينا ٢٤/١
عَرَقَتْهُم(٣) مُدَى(٤) الخُطوبِ فأحييـ ـتَ رُفاتاً مِنَ التُّرابِ دفينا
لَبِسُوا عَدْلَك المدبَّجَ فاختا لوا بناتٍ في وَشْيِهِ وبنينا
سَهِرَتْ عينُك الكَلُوءُ وناموا تحتَ أكنافِ رعيها آمنينا

قلتُ: فهذا أُنموذج من أشعار هذين الفحلين فيه، مع أنَّهما ماتا في سنة ثمان وأربعين وخمس مئة، قبل أن يفتحَ نورُ الدين دمشق، وبقي نور الدين حياً بعدهما إحدى وعشرين سنة يترقَّى كل عام في ازدياد، من جهادٍ واجتهاد، ولو كانا أدركا ذلك لأتيا في وصفه بعجائب [المدائح](٥) مع أنه قد تولَّى ذلك غيرهما ممن لم يبلغ شأوهما.

ولأبي المجد المُسْلم بن الخَضِر بن [المسلم بن] قُسَيم الحَمَوي(٦) من قصيدةٍ فيه:

تبدو الشجاعةُ من طلاقة وجهِهِ كالرُّمحِ دَلَّ على القَساوةِ لينُهُ

(١) في (م) من بعده، وبه يختل الوزن.
(٢) جمع ساكن، يعني: رعاياه. «اللسان» (سكن).
(٣) من عرقت العظم وتعرقته إذا أخذتَ اللحم عنه بأسنانك نهشاً. وفي (ل) عزقتهم، بمعنى قتلتهم. انظر «اللسان» (عرق، عزق).
(٤) مفردها مدية وهي السكين والشفرة. «اللسان» (مدي).
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) شاعر من طبقة القيسراني وابن منير، مدح عماد الدين زنكي، وابنه نور الدين، مات شاباً سنة نيف وأربعين وخمس مئة، ولم تحدَّد سنة وفاته، وما ذكره الصفدي من أنه توفي سنة (٥٤١ هـ) وهم، إذ إنَّ العماد ساق له قصيدةً يمدح فيها معين الدين أنر، وذلك سنة (٥٤٢ هـ). انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/ ٢٣٢ أ ـ ٢٣٣ ب. وما بين حاصرتين منه. و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٣٣ ـ ٤٨٠.

[و][1] وراء يقظته أناةُ مجرِّبٍ ... لله سطوةُ بأسِهِ وسكُونُهُ
هذا الذي في الله صَحَّ جهادُه ... هذا الذي بالله صَحَّ يقينُهُ
هذا الذي بَخِلَ الزَّمان بمثلِهِ ... والمُشْمَخِرُّ إلى العُلا عِرْنِينُهُ
مَلَكَ الورى مَلِكٌ أغرُّ متوَّجٌ ... لا غَدْرُه يُخشى ولا تلوينُهُ
إن حَلَّ فالشرفُ التليدُ أنيسُهُ ... أو سار فالظَّفَرُ الطَّريفُ قرينُه
فالدَّهْرُ خاذل مَنْ أرادَ عِنَادَه ... أبداً وجَبَّارُ السَّماءِ مُعِيْنُهُ
والدِّينُ يشهدُ إنه لَمُعِزُّهُ ... والشِّرْكُ يعلمُ إنَّه لمهينُهُ
ما زال يُقْسِمُ أن يبدِّدَ شملَه ... والله يكْرَهُ أَنْ تمينَ يمينُهُ
فَتَحَ الرُّها* بالأمسِ فانفتحتْ له ... أبوابُ ملكٍ لا يُذال مصونُه[2]

وممادحُ[3] نور الدين رحمه الله كثيرة[4].

وذكر الحافظ أبو القاسم أنه كان قليلَ الابتهاج بالشِّعْر[5]. ومات حادي عشر شوال سنةَ تسعٍ وستين وخمس مئة، ودُفِنَ بقلعة دمشق*، ثم نقل إلى قُبَّته بمدرستِهِ[6] جوار الخَوَّاصين*.

قلتُ: وقد جُرِّب استجابة الدُّعاء عند قبره. وهذا ذِكْرُ طرفٍ من مناقبه جُملة، ونحن بعد ذلك نأتي بأخباره وأخبار سلفه مفصَّلة مرتبة، وما جرى في زمانهم على سبيل الاختصار، إن شاء الله تعالى.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) القصيدة بتمامها في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/٢٣٣ أ ـ ٢٣٣ ب، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٤٧٤ ـ ٤٧٥.
(٣) في الأصل: ومداح، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) في الأصل: كثيرة رحمه الله تعالى، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/١٤٩ أ
(٦) هي المدرسة النورية الكبرى، انظرها في كشاف الأماكن.

فصل

أصلُ البيت الأتابكي هو قسيم الدَّولة آق سُنْقُر؛ جدُّ نور الدين، رحمه الله، فنذكره وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولده زَنْكي وما تمَّ في أيامه، ثم نذكر ولدَه محمود بن زَنْكي، ثم نذكر ما بعدَه وهي الدَّوْلة الصَّلاحيَّة الأيوبيّة وما تمَّ في أيامها فنقول:

كان آق سُنْقُر تركياً من أصحاب السُّلْطان ركن الدين(1) مَلِكْشَاه بن أَلْب أَرْسلان ــ وهو عَمُّ دُقَاق بن تُتُش(2) بن ألب أرسلان الذي كان سُلْطانَ دمشق، وقبره بقُبَّة الطواويس* بها، بَنَتْها(3) والمشهدَ والدتُه(4) ــ وكان السُّلطان مَلِكْشاه من جُملة الملوك السَّلْجوقية المتغلِّبين على البلاد بعد بني بُوَيه بالعراق، فكانَ قسيمُ الدولة من أصحابه وأترابه، وممن رُبـي معه في صغره، واستمرَّ في صحبته إلى حين كبره. فلما أفضتِ السلطنة إليه بعد أبيه جعلَه من أعيان أمرائه و[من](5) أخصِّ أوليائه، واعتمد عليه في مهمَّاته، وزاد قدره علواً إلى أن صار يتقيه مثل نِظَام الملك الوزير، مع تحكمه على السلطان وتمكُّنه من المملكة. فأشار نظامُ الملك على السلطان أن يولي آق سُنْقُر مدينةَ حلب

---

(1) لم يشتهر بهذا اللقب كما ذكر ابن الأثير، والمعروف أنه جلال الدين، وسمي عهده بالعهد الجلالي. وقد تلقب أيضاً بركن الدين ابنه السلطان بركيارق.
انظر «الباهر»: ٤، و«وفيات الأعيان»: ٥/٢٨٣، و«سير أعلام النبلاء»: ١٩/٥٤. وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ التي تتحدث عن فترته. وانظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٣٣٣.

(2) ولي دمشق بعد مقتل والده تتش سنة (٤٨٨ هـ)، وتوفي سنة (٤٩٧ هـ)، وهو أخو رضوان ملك حلب. انظر أخباره في «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي: ٢١٢ ــ ٢٣٣.

(3) في الأصل و(ل): بنته، والمثبت من (م).

(4) هي صفوة الملك، وكانت امرأة حازمة، توفيت سنة (٥١٣ هـ)، قال ابن القلانسي: ودفنت عند ولدها في القبة التي بنتها على القلعة المطلة على الميدان الأخضر. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١.

(5) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).

وأعمالها؛ وأراد بذلك أن يبعدَه عن خدمة السلطان، ويتخذ عنده بذلك يداً.

قال ابن الأثير: ومن الدّليل على علوِّ مرتبته تلقُّبُه[1] قسيم الدولة، وكانتِ الألقاب حينئذٍ مصونةً لا تعطى إلا لمستحقِّيها[2].

وفي سنة سبع وسبعين وأربع مئة سيَّر السُّلطان مَلِكْشَاه الوزيرَ فخر الدولة بن جَهِير؛ وزير الخليفة[3] إلى ديار بكر ليتملَّكها، وسيَّر عميدَ الدولة بن فخر الدولة بن جَهِير ـ وكان زوجَ ابنة نظام الملك ـ إلى المَوْصل، وسير معه جيشاً عظيماً، وجعل المقدَّم على الجيش قسيمَ الدولة آق سُنْقُر. فساروا نحو الموصل، ولقيهم في الطريق الأمير أُرْتُق التُّركماني[4] ـ جد ملوك الحصن* ومارِدِين* ـ فاستصحبوه معهم، فحصروا المَوْصل، وصالحوا من بها وتسلَّموها، وسار صاحبُها إلى السُّلْطان فردَّها عليه، وكانت يومئذٍ لأحد أمراء بني عُقَيْل، وهو شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران العُقَيْلي ـ وكان ملكه من السِّنْدية بالعراق على نهر عيسى إلى مَنْبِج وما بينهما من البلاد الفُرَاتية كهِيت والأَنبار وغيرها، وملك المَوْصل وديار بكر والجزيرة بأسرها،
١/٢٥ وملك مدينةَ حلب، وكان عادلاً حسنَ السِّيرة عظيم السياسة ـ واتَّفق أن وَقَعَ بينه وبين صاحب أنطاكية*؛ وذلك أن أنطاكية كان الرُّوم قد استولوا عليها سنة ثمانٍ وخمسين وثلاث[5] مئة، ولم يزالوا بها إلى هذه السنة، ففتحها

---

(١) في (م) تلقيبه.

(٢) في الأصل و(ل): لمستحقها، والمثبت من (م) و«الباهر».

(٣) كان وزيراً للقائم ولابنه المقتدي بأمر الله، ثم عزل عنها، فخرج سنة (٤٧٦هـ) إلى السلطان ملكشاه باستدعائه إياه، فعقد له على ديار بكر. انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ٧٥ وما بعدها، و«الكامل» لابن الأثير: ١٠/١٢٩ وما بعدها و«وفيات الأعيان»: ٥/١٢٨.

(٤) توفي سنة (٤٨٤هـ) انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ١/١٩١، وما كتبه عنه الدكتور عماد الدين خليل في «الإمارات الأرتقية»: ٥٧ ـ ٦٨.

(٥) في «الكامل» لابن الأثير: ٨/٦٠٣ ذكر استيلاء الروم عليها سنة (٣٥٩هـ) في المحرم، وهو المشهور، وما ذكره ياقوت في «معجم البلدان»: ١/٢٦٩ من أن الاستيلاء عليها سنة (٣٥٣هـ) هو وهم.

سليمان بن قُتُلْمِش؛ وهو جدُّ الملك غياث الدين كِيخُسْرو[1] صاحب قُونية* وغيرها. وكان لشرفِ الدولة صاحبِ حلب على صاحب أنطاكية الرُّومي جزية يأخذها كلَّ سنة، فانقطعت عنه بسبب أَخْذ سليمان البلد، فأرسل شرف الدولة يطلب منه ما كان يأخذه من الرُّوم ويهدِّده. فقال: أنا في طاعتك، وهذا الفتح بسعادتك، والخُطْبة والسِّكَّة لك[2]، ولستُ بكافرٍ حتى أُعطيك ما كنتَ تأخذه من الرُّوم. فلجَّ شرف الدولة في طلب المال، فالتقيا، فقُتِلَ شرفُ الدولة، وانهزم عسكره، وسار سليمان إلى حلب فحصَرها، وسار إليها من دمشق تاجُ الدَّوْلة تُتُش بن ألب أرسلان أخو السلطان مَلِكْشَاه. فالتقى عسكر تُتُش وسليمان، فقُتِلَ سليمان وانهزم عسكره، وملك تُتُش مدينةَ حلب دون القلعة، فأرسل أهلُ القلعة إلى مَلِكْشَاه ليسلِّموها إليه، وهو يومئذٍ بالرُّها* ــ وكان سببُ مسيره إليها أن ابن عُطَيْر[3] النُّميري كان قد باعها من الرُّوم بعشرين ألف دينار وسلَّمها [إليهم][4]، فدخلوها، وأخربوا المساجد، وأجلوا المسلمين عنها. فسار مَلِكْشَاه إليها في هذه السنة فحصرها وفتحها وأقطعها للأمير بُزَان ــ فلما أتاه رُسُل [أهل][5] قلعة حلب بالتَّسْليم سار إليهم، فلما بلغ

---

(١) ولي سنة (٥٨٨هـ)، ثم خلعه أخوه ركن الدين سليمان سنة (٥٩٢هـ) ثم عاد إلى الحكم سنة (٦٠١هـ) وبقي فيه حتى قتل سنة (٦٠٧هـ). انظر «الكامل» ١٢/٨٧ ــ ٩٠، و«صبح الأعشى»: ٥/٣٦٠، و«الدول الإسلامية»: ١/٣٢٣، و«معجم الأسرات الحاكمة»: ٢١٥ ــ ٢١٦.

(٢) يعني لملكشاه، وهو يخاطب بذلك شرف الدولة لأنه في طاعة السلطان. انظر «الكامل» لابن الأثير ١٠/١٣٩ ــ ١٤٠.

(٣) في الأصل: عطية، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م). وقد ذكر ابن الأثير تسلم ابن عطير الرُّها في حوادث سنة (٤١٦هـ) بعد قتل والده عطير، ثم سلمها للروم سنة (٤٢٩هـ)، وأورد ابن الأثير اسمه «ابن وثاب» ولعله تحريف. انظر «الكامل»: ٩/٣٤٧ ــ ٣٤٨، ٤٦٠.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

مسيره إلى أخيه تاج الدولة رحل عن حلبَ إلى دمشق، ووصل السلطانُ إلى حلب، وبالقلعة سالم بن [مالك بن][1] بَدْران العُقَيْلي؛ وهو ابنُ عَمٍّ شرف الدولة، فسلَّمها إلى السلطان بعد قتال، وأعطاه السلطان عوضاً عنها قلعة جَعْبر*، وكان قد ملكها في هذه السَّفْرة من صاحبها جَعْبَر النُّميري، وكان شيخاً كبيراً أعمى، فبقيت بيد سالمٍ وأولاده إلى أن أخذَها منهم الملك العادل نور الدين كما سيأتي[2].

فلما ملك السُّلطان حلب أرسل إليه الأمير نصر بنُ علي بن المقلَّد بن مُنْقذ الكِنَاني؛ صاحب شَيْزَر*، ودخل في طاعته، وسلَّم إليه اللاَّذقية، وفامية*، وكفرطاب*.

ثم إن نظامَ المُلْك أشار على السلطان بتسليم حلب وأعمالها، وحماة ومنبج* واللاذقية وما معها إلى قسيم الدولة آق سُنْقُر، فأقطعه الجميع، وبقيت في يده إلى أن قتل سنة سبعٍ وثمانين وأربع مئة كما سيأتي[3]. وأقطع السلطان مدينة أنطاكية للأمير ياغي سغان[4].

ولما استقرَّ قسيمُ الدولة في الشام ظهرت كفايتُه وحمايته وهيبته في جميع بلاده. ثم إنَّ السلطان استدعاه إلى العراق، فقَدِمَ إليه[5] في تجمُّلٍ عظيم لم يكن في عسكر السلطان من يقاربه، فاستحسن ذلك منه، وعَظُمَ محلُّه عنده، ثم أمره بالعود إلى حلب، فعاد إليها.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وفي (م) سالم بن مالك بدران، والمثبت من (ل).
(٢) انظر ص ٤١ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٣) انظر ص ١٠٢، من هذا الجزء.
(٤) كذا في النسخ الخطية أينما مَرَّ، والمشهور في كتب التاريخ ياغي سيان، وانظر «زبدة الحلب»: ٢/٦٥٤ حاشية رقم (١).
(٥) وذلك سنة (٤٨٤هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/١٩٩.

فلما مات السلطان مَلِكْشَاه سَيَّر قسيم الدولة جيشاً إلى تَكْرِيت* فملكها.

وفي سنة إحدى وثمانين[1] قصد قسيم الدولة شَيْزَر* فنهبها وعاد إلى حلب.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين اجتمع قسيمُ الدولة وبُزان وحصروا مدينة حِمْص فملكوها، ومضى ابنُ ملاعب[2] إلى مصر.

وفي سنة أربعٍ وثمانين ملك قسيم الدولة حصن فامية* من الشَّام، وملك الرَّحبة*.

فصل

وفي عاشر رمضان سنة خمسٍ وثمانين قُتِلَ الوزير نظام الملك أبو علي الحسن[3] بن علي بن إسحاق، قتله صبيٌّ دَيْلَمي بعد الإفطار وقد تفرَّق عن طعامه الفقهاء والأمراء والفقراء وغيرُهم من أصناف الناس، وحمل في مِحَفَّةٍ* لِنِقْرِسٍ[4] كان به إلى خيمة الحَرَم، فلقيه صبيٌّ ديلمي مستغيثاً به، فقرَّبه منه ليسمع شكواه فقتله، وقُتِلَ الصبيُّ أيضاً. فَعَدِمَتْ الدنيا واحدَها الذي لم تر مثله. وكان تلك الليلة قد حكى له بعض الصالحين أنه رأى

---

(١) يعني وأربع مئة.

(٢) على هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هو خلف بن ملاعب الأشهبي، قتل ليلاً في سنة تسع وتسعين وأربع مئة، وكان قبيح السيرة والاعتقاد، والله أعلم». قلت: انظر «الكامل»: ١٠/٤٠٨ ـ ٤١٠، و «بغية الطلب»: ٧/ ٣٣٥٤.

(٣) في (م) الحسين، وهو تصحيف.

(٤) مرض مؤلم يحدث في مفاصل القدم، وفي إبهامها أكثر، وهو ما كان يسمى داء الملوك. «المعجم الوسيط»: ٢/٩٥٤.

النبيَّ ﷺ في المنام كأنه أتاه وأخذه من محفته فتبعه. فاستبشر نظام الملك بذلك، وأظهر السرور به وقال: هذا أبغي وإياه أطلب.

وبلغ من الدنيا مبلغاً عظيماً لم ينله غيره. وكان عالماً فقيهاً ديِّناً خيِّراً متواضعاً عادلاً، يحبُّ أهلَ الدين ويكرمهم ويجزل صِلاتهم. وكان أقربَ الناس منه وأحبهم إليه العلماء، وكان يناظرهم في المحافل، ويبحث عن غوامض المسائل، لأنه اشتغل بالفقه في حال حداثته مُدَّة.

وأما صدقاته ووقوفه فلا حدَّ عليها، ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد [من شيء][1] منها، حتى جزيرة ابن عمر* - التي هي في زاوية من الأرض لا يُؤْبه لها - بني فيها مدرسة كبيرة حسنة، وهي التي تعرف الآن بمدرسة رضي الدين. وأعماله الحسنة وصنائعه الجميلة مذكورة في التواريخ، لم يسبقه من كان قبله، ولا أدركه من كان بعده.

وكان من جملة عباداته أنه لم يُحدث إلا توضأ، ولا توضأ إلا صلَّى. وكان يقرأ القرآن حفظاً، ويحافظ على أوقات الصلوات محافظةً لا يتقدَّمُه فيها المتفرِّغون للعبادة، حتى إنه كان إذا غَفَلَ المؤذن أمره بالأذان، وإذا سمع الأذان أمسك عن كل ما هو فيه، واشتغل بإجابته ثم بالصلاة.

وكان قد وزر للسُّلْطان عضد الدولة أَلْب أرسلان والد مَلِكْشَاه قبل أن يلي السَّلْطنة، في حياة عمه السُّلْطان طُغْرُلْبَك[2]؛ أول الملوك السلجوقية ببغداد. فلما توفي طُغْرُلْبَك سعى نظام الملك في أخذ السلطنة لصاحبه أَلْب أرسلان، وقام المقام الذي تعجز عنه الجيوش الكثيرة، واستقرَّتْ السلطنة له، وبقي معه إلى أن توفي، ثم وزر بعده لولده السلطان مَلِكْشَاه إلى أن قتل.
٢٦/١ وكان قد تحكَّم عليه إلى حد لا يقدر السلطان على خلافه؛ لكثرة مماليكه

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل: طغر لبكين أينما مر، والمثبت من (ل) و(م) وهو المشهور.

ومحبَّة العساكر له والأمراء، وميل العامَّة والخاصَّة إليه لحُسْن سيرته وعَدْله. هذا كلام أبي الحسن بن الأثير[1].

وقرأت في كتاب «المعارف المتأخرة» - ويسمَّى «عنوان السِّيَر» - لمحمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهَمَذاني[2] قال: وزر نظامُ الملك أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطُّوسي للسُّلْطان أَلْب أرسلان ولولده السلطان مَلِكْشَاه أربعاً وثلاثين سنة[3]، وقُتِلَ بالقرب[4] من نهاوَنْد* وعمره ستٌّ وسبعون سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً؛ اغتاله أحد الباطنية وقد فرغ من فطوره. قال: وقيل: إن السلطان مَلِكْشَاه ولَّف عليه مَنْ قتله لأنه سئم طول عمره، ومات بعده بشهر وخمسة أيام. وقد تقدَّم نظام الملك في الدنيا التقدُّمَ العظيم، وأفضل على الخلق الإفضال الكثير، وعَمَّ النـاسَ بمعروفه، وبنى المدارس لأصحاب الشَّافعي رضي الله عنه، ووقف عليهم الوقوف، وزاد في الحلم والدِّين على مَنْ تقدَّمه من الوزراء، ولم يبلغ أحدٌ منهم منزلته في جميع أموره، وعبر جيحون* فوقَّعَ على العامل بأنطاكية* بما يُصرف إلى الملَّاحين، وملك من الغِلْمان الأتراك ألوفاً، وكان جمهور العساكر وشجعانهم وفتَّاكه من مماليكه.

---

(١) انظر «الباهر»: ٩ - ١٠.

(٢) من كبار المؤرخين، وهو من شيوخ الحافظ ابن عساكر، طبع له «الذيل على تاريخ الطبري» باسم «تكملة تاريخ الطبري» الجزء الأول منه بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، بلا تاريخ ضمن «ذيول تاريخ الطبري». توفي سنة (٥٢١هـ) انظر «المنتظم» ١٠/٨.

(٣) هذا، لأن نظام الملك وزر للسلطان ألب أرسلان قبل أن يتولى السلطنة، وأما وزارته منذ توليه السلطنة سنة (٤٥٥ هـ) وحتى مقتل نظام الملك، فهي نحو ثلاثين سنة وهو ما نقله ابن العديم عن الهمذاني من أنه وزر تسعاً وعشرين سنة، انظر «بغية الطلب» ٥/٢٤٩٩.

(٤) في قرية يقال لها سحنة، وهي إلى الشمال الغربي من نهاوند، ولا تزال تعرف بهذا الاسم إلى اليوم، انظر «وفيات الأعيان»: ٢/١٣٠ مع تعليق المحقق.

قلتُ: وأنشد أبو سعد السَّمْعاني في «ذيل تاريخ بغداد» قال: أنشدني عمي الإمام أبو القاسم أحمد بن منصور السَّمْعاني[1] غير مَرَّةٍ من لفظه للأمير شبل الدَّوْلة؛ يعني مقاتلَ بنَ عطية بن مقاتل البكري[2]:

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ثمينةً[3] صاغها الرحمنُ مِن شَرَفِ
عَزَّتْ ولم تعرفِ الأيامُ قيمتَها فردَّها غَيْرَةً منه إلى الصَّدَفِ

فصل

عاش السلطان مَلِكْشاه بعد نظام الملك خمسةً وثلاثين يوماً، ومات في منتصف شوال سنة خمسٍ وثمانين[4]، وعمره ثمانيةٌ وثلاثون عاماً ونصف عام. وكانت مملكته قد اتَّسعت [اتساعاً][5] عظيماً، وخُطب له من حدود الصّين إلى الداروم* من أرض الشَّام، وأطاعه اليمن والحجاز. وكان يأخذ الخرَاج من ملك القُسْطنطينية، وأطاعه صاحب طِرَاز* وأسبيجاب* وكاشْغَر* وبلاسغون* وغيرها من الممالك البعيدة، ومَلَكَ سَمَرْقَنْد وجميعَ ما وراء النَّهر[6]. ثم إن صاحب كاشغر عصى عليه، فسار السلطان إليه، فلما قارب كاشغَر هرب صاحبُها منه، فسار في طلبه، ولم يزل حتى ظفر [به][7] وأحسن

(١) توفي سنة (٥٣٤هـ)، انظر ترجمته في «الأنساب»: ٧/١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) في الأصل: التكريتي، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م)، وهو من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كان نظام الملك قد زوجه ابنته، توفي في حدود سنة (٥٠٥هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٢/١٣٠، ٥/٢٥٧ ـ ٢٦٠، و«النجوم الزاهرة»: ٥/٢٠٤.

(٣) في «الكامل» لابن الأثير: ١٠/٢٠٦ يتيمة، وهي الأشبه، وفي «وفيات الأعيان» و«النجوم الزاهرة»: نفيسة، وانظر ما كتبه السبكي في «طبقات الشافعية»: ٤/٣٠٩ ـ ٣٢٨ في ترجمة نظام الملك.

(٤) وأربع مئة.

(٥) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل.

(٦) كان ذلك في سنة (٤٨٢هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/١٧١ وما بعدها.

(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

إليه، واستصحبه معه إلى أصفهان، وعمل السُّلْطان من الخيرات وأبواب البرِّ كثيراً؛ منها ما أصلحه وعمله من المصانع بطريق مكة، وحَفَر من الآبار، وبنى مدرسةً عند قبر الإمام أبي حنيفة رحمة الله عليه، وبنى الجامع الذي بظاهر بغداد عند دار السلطنة، وهو الذي بنى منارة القرون في طرف البر مما يلي الكوفة بمكان يُعرف بالسبعي، وبنى مثلها بسَمَرْقَنْد أيضاً. قيل: إنه خرج سنةً من الكوفة لتوديع الحجيج، فجاوز العُذَيْب[1] وبلغ السبعية بقرب الواقِصَة[2]، وبنى هناك منارةً نُزِّل في أثنائها قرون الظبي وحوافر الحُمُر الوحشية التي اصطادها في طريقه.

وبعد موته تنازع ابناه: بَكْيارُق[3] ومحمد، ودامت الحروب بينهما نحو ثنتي عشرة سنة إلى أن توفي بَكْيارُق، واستقرت السلطنة لمحمد. وفي مُدَّة تلك الحروب ظهرت الفرنجُ بالسَّاحل، وملكوا أنطاكية* أولاً، ثم غيرها من البلاد. وكان السُّلطان قد أقطع أخاه تُتُش تاج الدولة مدينةَ دمشق وأعمالها وما جاورها كطبرية والبيت المقدس، فلما توفي مَلِكْشاه طَمِعَ تاجُ الدولة في السلطنة، فسار إلى حلب وبها قسيم الدولة فصالحه[4]، وراسل بوزان[5]؛ صاحبَ حرَّان*، وياغي سغان صاحب أنطاكية*، فسارا معه نحو الرَّحبة* ونَصِيبين* فأخذهما، وراسل صاحب المَوْصل إبراهيم بن قُريش بن

(١) واد لبني تميم، من منازل حاجِّ الكوفة بين القادسية والمغيثية. انظر «معجم البلدان»: ٩٢/٤.

(٢) منزل بطريق مكة بعد الفرعاء نحو مكة. انظر «معجم البلدان»: ٣٥٤/٥.

(٣) كذا في النسخ الخطية أينما مَرَّ، وفي «وفيات الأعيان»: ٢٦٨/١ بَرْكْيارُوق: بفتح الباء الموحدة وسكون الراء والكاف، وفتح الياء المثناة من تحتها، وبعد الألف راء مضمومة، وواو ساكنة وقاف.

(٤) أي أن قسيم الدولة صالح تتش لما علم أنه لا يطيق دفعه عن حلب. انظر «الكامل»: ٢٢٠/١٠.

(٥) يرد أحياناً دون واو، وكلاهما صحيح، وأثبتناه بالواو أينما مَرَّ.

بدران يأمره بالخطبة له، وأن يعطيه طريقاً إلى بغداد، فامتنع، فالتقيا، فَهُزِمَ صاحبُ المَوْصل. وقُتِلَ وأخذت بلاده. وسار إلى مَيَّافارِقين*، فملكها وسائر ديار بكر. ثم سار إلى أَذْرَبِيجان*، فالتقى هو وابن أخيه بَرْكيارُق بن مَلِكْشاه، فانتقل قسيمُ الدولة وبوزان إلى بَرْكيارُق، فرجع تاجُ الدولة إلى الشَّام، ورجعا إلى بلادهما بأمرِ بَرْكيارُق ليمنعا تاجَ الدولة عن البلاد إن قصدها. فجمع تاجُ الدولة العساكر، وسار عن دمشق نحو حلب، فاجتمع قسيمُ الدولة وبوزان وأمدَّهما السلطان ركن الدين بَرْكيارُق بالأمير كربوقا ـ وهو الذي صار فيما بعد صاحب المَوْصل ـ فالتقوا بالقرب من تَلِّ السُّلطان، وبينه وبين حلب نحوٌ من ستة فراسخ، فانهزم جيشُ قسيمِ الدولة وأُخذ أسيراً، فقتله تاجُ الدولة صبراً[1]. ودخل بوزان وكربوقا حلبَ، فحصرهما تاجُ الدولة حتى فتحها، وأخذهما أسيرين. وأرسل إلى حَرَّان* والرُّها* ـ وكانتا لبوزان ـ فامتنع مَنْ بهما من التسليم، فقَتَلَ بوزان وأنفذ رأسه وتسلَّم البلدين. وأما كربوقا فإنه سجنه بحِمْص، فلم يزل إلى أن أخرجه الملك رِضْوان بعد قتلِ أبيه تاج الدولة.

قال ابن الأثير: وكان قسيمُ الدولة أحسنَ الناس سياسةً لرعيته، وحفظاً لهم، وكانت بلاده بين عَدْلٍ عام ورُخْص شامل وأمنٍ واسع، وكان قد شَرَطَ
١/٢٧ على أهل كلِّ قرية في بلاده متى أُخذ عند أحدهم قَفَل أو أحدٌ من الناس غَرِمَ أهلُها جميعَ ما يؤخذ من الأموال من قليلٍ وكثير، فكانت السَّيَّارة إذا بلغت قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا آمنين، وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا؛ فأَمِنَتْ الطرق وتحدَّث الرُّكْبان بحُسْن سيرته[2].

وفي المحرَّم من سنة سبع وثمانين وأربع مئة توفي الخليفة المقتدي

---

(١) وذلك سنة (٤٨٧ هـ)، انظر ما سلف ص ٩٦ من هذا الجزء.

(٢) «الباهر»: ١٥.

بأمر الله فجأةً، وهو أبو القاسم عبد الله ابن الأمير محمد بن القائم بأمر الله، وعمره تسعٌ[1] وثلاثون سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام، وكانت خلافته تسع عشرة[2] سنة وخمسة أشهر[3]، وأُمُّه تركية[4]. وبويع من بعده ولده المستظهر بالله أبو العباس أحمد. ويلقب محمد بن القائم والد المقتدي بالله الذَّخيرة، مات في حياة أبيه فلم يل الخلافة.

ذكر أخبار زَنْكي

والد نور الدين رحمهما الله تعالى على طريق الاختصار في فصول إلى حين وفاته. ثم نذكر أخبارَ نور الدين على ترتيب السنين.

لما قُتِلَ قسيمُ الدولة آق سُنْقُر لم يخلِّف من الأولاد غير واحدٍ وهو عماد الدين زَنْكي؛ والد نور الدين، وكان حينئذٍ صبياً له من العمر نحو عشر سنين، فاجتمع عليه مماليكُ والده وأصحابه، وفيهم زين الدين علي[5]، وهو صبيٌّ أيضاً. ثم إن الأمير كربوقا خلص من السجن بعد قتل تاج الدولة[6] سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وتوجَّه إلى حَرَّان* وقد اجتمع معه عسكرٌ صالح فملكها، ثم سار إلى نَصِيبين* فملكها، ثم إلى المَوْصل فملكها، وأزال[7] عنها عليَّ بن شرف الدولة العُقَيلي، وسار نحو مارِدِين* فملكها، وعَظُمَ شأنه وهو في طاعة ركن الدولة بَكْيارُق.

فلما ملك البلاد أحضر مماليك قسيم الدولة آق سُنْقُر، وأمرهم بإحضار

---

(1) في «الكامل»: ١٠/ ٢٣٠، ثمان.

(2) في الأصل و(م) تسعة عشر، وهو وهم، والمثبت من (ل).

(3) ولي في (١٣) شعبان سنة (٤٦٧هـ). انظر «الكامل»: ١٠/ ٩٤.

(4) في «الكامل»: ١٠/ ٢٣٠: وأمه أم ولد أرمنية تسمى أرجوان.

(5) هو زين الدين علي بن بكتكين، صاحب إربل، ووالد مظفر الدين كوكبوري، توفي سنة (٥٦٣ هـ)، وأخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد بعضها في ٢/ ٣٨.

(6) قتل تاج الدولة سنة (٤٨٨هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/ ٢٤٤، وما بعدها.

(7) في الأصل و(ل): وزال، والمثبت من (م).

عماد الدين زَنْكي وقال: هو ابن أخي وأنا أَوْلى الناس بتربيته. فأحضروه عنده[1]، فأقطعهم الإقطاعات السَّنية، وجمعهم على عماد الدين زَنْكي، واستعان بهم في حروبه، وكانوا من الشجاعة في أعلى درجاتها. فلم يزالوا معه، فتوجه بهم إلى آمِد*، وصاحبها من أُمراء التركمان، فاستنجد بمعين الدين سُقْمان بن أُرْتُق جَدِّ صاحب الحصن*، فكسرهم قِوَام الدولة كربوقا، وهو أول مصافٍّ حضره زَنْكي بعد قتل والده[2]. ولم يزل [مـع][3] كربوقا إلى أن توفي سنة أربـع وتسعين وأربـع مئة[4]. وملك بعده موسى التركماني[5] فلم تطل مدته وقُتِلَ. وملك المَوْصل شمس الدولة جكرمش[6]؛ وهو أيضاً من مماليك السلطان مَلِكْشاه، فأخذ زَنْكي فقرَّبه وأحبه واتخذه ولداً لمعرفته بمكانة والده، فبقي معه إلى أن قتل سنة خمس مئة ـ فلا جَرَمَ أن زَنْكي رعى هذا لجكرمش لَمَّا ملك المَوْصل وغيرَها من البلاد، فإنه أخذ ولده ناصر الدين كوري، فأكرمه وقدَّمه وأقطعه إقطاعاً كثيراً، وجعل منزلته أعلى المنازل عنده، واتخذه صهراً ـ ثم ملك المَوْصل بعد جكرمش جاولي سقاوه، فاتصل به عماد الـدين زَنْكي ـ وقد كَبُـرَ وظهرت عليـه أمارات السَّعـادة والشهامة ـ ولم يزل معه حتى عصى على السُّلْطان محمد. وكان جاولي قد عبر إلى الشَّام ليملكه من الملك فخر الملك رِضْوان، فأرسل السلطان إلى

---

(١) في الأصل: عندهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الكامل»: ١٠/ ٣٩٠ وما بعدها، و«الباهر»: ١٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) في «الكامل»: ١٠/ ٣٤١ ذكرت وفاته في حوادث سنة (٤٩٥ هـ).

(٥) كان نائباً عن كربوقا بحصن كيفا، فراسله أعيان الموصل ليسلموها إليه، فسار إليها فقتل سنقرجة ـ وكان كربوقا قد عهد إليه بالموصل ـ ثم قُتل موسى التركماني في السنة نفسها. انظر «الكامل»: ١٠/٣٤٢ ـ ٣٤٣.

(٦) كان صاحب جزيرة ابن عمر، تسلم الموصل صلحاً بعد قتل موسى التركماني بيد غلمان قوام الدين كربوقا. انظر «الكامل»: ١٠/٣٤٣.

المَوْصل الأمير مودوداً، وأقطعه إياها سنة اثنتين وخمس مئة. فلما اتصل الخبر بجاولي فارقه زَنْكي وغيرُه من الأمراء. فلما استقرَّ مودود بالمَوْصل، واتصل به زنكي أكرمه، وشَهِدَ معه حروبه، فسار مودود إلى الغَزَاة بالشام، ففتح في طريقه قلاعاً لهم من شبختان ـ كانت للفرنج ـ وقتل من كان بها منهم. ثم سار إلى الرُّها* فحصرها ولم يفتحها، فرحل وعبر الفرات، فحصر تل باشر* خمسة وأربعين يوماً، ثم سار إلى معرَّة النُّعْمان* فحصَرَها، ثم حضر عنده أتابك* طُغْتِكِين[1]، صاحب دمشق، فسار إلى طبرية*، وحاصروها وقاتلوها قتالاً شديداً، وظهر من أتابك زَنْكي شجاعةٌ لم يُسمع بمثلها؛ منها أنه كان في نفرٍ وقد خرج الفرنج من البلد، فحمل عليهم هو ومن معه، وهو يظن أنهم يتبعونه، فتخلَّفوا عنه، وتقدَّم وحده وقد انهزم مَنْ بظاهر البلد من الفرنج فدخلوا البلد، ووصل رمحه إلى الباب فأثَّر فيه وقاتلهم عليه، وبقي ينتظر وصولَ من كان معه، فحيث لم ير أحداً حمى نفسه وعاد سالماً، فعجب الناس من إقدامه أولاً ومن سلامته آخراً.

ثم التقى الجمعان[2] فَهُزِمَ الفرنج، لعنهم الله، ووصلوا إلى مضيقٍ دون طبرية*، فاحتموا به، وجاءتهم نجدة، فأَذِنَ الأميرُ مودود للعسكر في الرجوع إلى بلادهم والاجتماع إليه في الربيع. فلما تفرَّقوا دخل دمشق وأقام بها، فخرج يوماً يصلِّي الجمعة، فلما صلاها وخرج إلى صحن الجامع ويده بيد طُغْتِكِين وثب عليه إنسانٌ فضربه بسكينٍ معه، فجرحه أربع جراحات ـ وكان صائماً ـ فَحُمِلَ إلى دار طُغْتِكِين، واجتهَدَ به ليفطِرَ فلم يفعل، وقال:

---

(١) في الأصل: طغرلبكين أينما مَرَّ، وإخاله تصحيفاً، والمثبت من (ل) و(م)، وهو المشهور في كتب التاريخ، ويرسم أيضاً طغدكين ـ بالدال ـ وهو صحيح، والضبط من «وفيات الأعيان»: ٢/٥٢٥.

(٢) في سنة (٥٠٧هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/٤٩٥، وما بعدها، و«ذيل تاريخ دمشق»: ١٨٥ وما بعدها.

لا لقيتُ الله إلا صائماً، فإنني ميتٌ لا محالة سواء أفطرتُ أو صمتُ. وتوفي في بقيَّة يومه رحمه الله.

فقيل: إن الباطنية بالشَّام خافوه فقتلوه، وقيل: بل خافه طُغْتِكِين فوضع عليه من يقتله. وكان خَيِّراً عادلاً حَسَنَ السيرة.

١/ ٢٨ قال ابن الأثير: فحدَّثني والدي رحمه الله، قال: كتَبَ ملك الفرنـج إلى طُغْتِكِين: إن أمةً قتلت عميدَها يومَ عيدها في بيت معبودها لحقيقٌ على الله أن يبيدَها[١].

فلما قُتِلَ الأمير مودود أقطـع السُّلْطانُ البلاد؛ المَوْصل وغيرها، للأمير جيوش بك، وسيَّر معه ولده الملك مسعود إلى المَوْصل. ثم إنه جَهَّزَ آق سُنْقُر البُرْسُقي في العساكر، وسيَّره إلى قتال الفرنـج، وكتب إلى عساكر المَوصل وغيرها يأمرهم بالمسير معه، فساروا وفيهم عماد الدين زَنْكي؛ وكان يعرف في عساكر العجم بزَنْكي[٢] الشَّامي. فسار البُرْسُقي إلى الرُّها* في خمسة عشر ألف فارس، فحصرها وقاتل مَنْ بها من الفرنـج والأرمن، وضاقت الميرة عن العسكر، فرحل إلى سُمَيْسَاط*؛ وهي أيضاً للفرنـج، فأخرب بلدها وبلد سَرُوج*، وعاد إلى شبختان فأخرب ما فيه للفرنـج. وأبلى زَنْكي في هذه المواقف كلها بلاءً حسناً، ثم عادت العساكر تتحدَّث بما فعله، وعاد البُرْسُقي إلى بغداد، وأقام زَنْكي بالمَوْصل مـع الملك مسعود والأمير جيوش بك إلى سنة أربـع عشرة وخمس مئة[٣]، وقد علا قدرُه وظهر اسمه.

---

(١) «الباهر»: ١٩، و«الكامل»: ١٠/ ٤٩٧، وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٢) في الأصل: زنكي، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) في النسـخ الخطية: إلى سنة أربـع وعشرين وخمس مئة، وهو وهـم والمثبت من «الباهر»: ٢٠، وانظر ص ١١١ من هذا الجزء.

فصــــل

وفي سنة إحدى عشـرة وخمس مئة ولـد الملك العادل نـور الدين محمود بن زَنْكي رحمـه الله تعالى.

وفيها غرقت سِنْجَار* من سَيْلِ المطر، وهلك منها خَلْق كثير، ومن أعجب ما يحكى أن السيل حمل مهداً فيه طفل، فَعَلِقَ المهد في شجرة، ونقص الماء، فسَلِمَ ذلك الطفل، وغرق غيره من الماهرين بالسِّباحة.

وفيها أيضاً زلزلت إربِل* وغيرها من البلاد المجاورة لها زلزلةً عظيمة.

وفيها في الرابـع والعشرين من ذي الحِجَّة توفي السُّلطان غياث الدين محمد بن مَلِكْشاه وعمره سبعٌ وثلاثون سنة وأربعة أشهر وستة أيام. وأول ما خُطب له ببغداد في ذي الحِجَّة سنة اثنتين وتسعين وأربـع مئة، وقُطعت خطبته عِدَّة مرار[١]، ولقـي مـن المشاقّ والأخطار ما لم يلقه أحد إلى أن توفي أخوه بَكْيارُق[٢]، فحينئذ استقرت له السَّلْطنة، وصفت[٣] له، ودانت البلاد وأصحاب الأطراف لطاعته، وكان اجتماعُ الناس عليه بعد موت أخيه اثنتي عشرة[٤] سنة وستة أشهر.

وكان عادلاً حسنَ السيرةِ شجاعاً، وأطلق المكوس والضَّـرائب في جميـع البلاد. ومن عَدْله أنه اشترى عِدَّة مماليك من بعض التُّجَّار، وأمر أن يوفى الثمن من عامل خُوزِسْتان*، فأوصل إليه البعضَ ومطل بالباقي، فحضر

---

(١) في الأصل: عدة مراراً، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) توفي بكيارق سنة (٤٩٨هـ)، انظر «الكامل»: ١٠/ ٣٨٠.

(٣) في الأصل: صفت له السلطنة، واستقرت له، والمثبت من (ل) و(م) و«الباهر»: ٢١.

(٤) في الأصل: اثنتي عشر سنة، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

التاجر مجلس الحُكْم، وأخذ غلامَ الحاكم، ووقف بطريق السلطان، واستغاث إليه، فأمر من يستعلم حالهَ، فعاد الحاجب وأعلم السُّلْطان حاله، فَعَظُمَ عليه، وضاق صدره، وأمر في الحال أن يُحْضَرَ عامل خُوزِسْتان ويُلْزَمَ بمال التَّاجر. ثم إنه ندم على تأخره عن مجلس الحكم، وكان يقول كثيراً: لقد ندمت على تركي حضور مجلس الحُكْم، ولو فعلتُه لاقتدى بي غيري، ولم يمتنع أحدٌ عن أداء الحق.

قال ابن الأثير: وهذه الفضيلة ذخرها الله تعالى لهذا البيت الأتابكي؛ فإن الملك العادل نورَ الدين محمود بن زَنْكي فعل ما ندم السلطان محمد على تركه[١] ـ وقد تقدَّمَ ذلك[٢] ـ ولما علم الأمراء وغيرهم من خُلُق السلطان محبةَ العدل وأداء الحق وكراهية الظلم، ومعاقبة من يفعله اقتدوا به، فأَمِنَ الناس وظهر العدل[٣].

وولي بعد السلطان محمد ولدُه محمود[٤]، وعمره يومئذٍ أربع عشرة[٥] سنة، فقام بالسَّلْطنة، وجرى بينه وبين عمه سنجر[٦] حربٌ انهزم فيها محمود، وعاد إلى عمه بغير عهدٍ[٧] فأكرمه وأقطعه من البلاد من حَدِّ خُرَاسان* إلى الداروم* بأقصى الشَّام؛ وهي من الممالك: هَمَذَان وأصبهان وبلد الجبال

(١) في الأصل: فعل ما ندم عليه السلطان محمد على تركه، وهي عبارة مضطربة، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر «الباهر»: ٢١.

(٢) انظر ص ٣٩ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ٢١.

(٤) في (م): ابن ابنه، وهو وهم.

(٥) في (م): أربعة عشر، وهو وهم.

(٦) توفي سنة (٥٥٢هـ)، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ لتلك الفترة، انظر «الكامل»: ١٠/٢٢٢، وسيرد ذكره ص ٣٥٩ من هذا الجزء.

(٧) في «الكامل»: ١٠/٥٥٣ أن محموداً سار إلى عمه سنجر بعد المصالحة بينهما، وجَعله ولي عهده.

جميعه[١]، وبلاد فارس وكرمان* وخُوزِسْتان* والعراق وأَذْرَبِيجان* وأرمينية* وديار بكر وبلاد الموصل والجزيرة وديار مُضَر وديار ربيعة والشَّام وبلد الرُّوم الذي بيد [أولاد][٢] قليج أرسلان وما بين هذه الممالك من البلاد.

قال ابن الأثير: ورأيتُ منشورَه بذلك[٣].

وفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمس مئة توفي الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين أبو العَبَّاس أحمد بن المقتدي بأمر الله، وكان عمره إحدى وأربعين سنة وستة أشهر وستة أيام. وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وأحدَ عشر يوماً.

ومضى في أيامه ثلاث سلاطين خُطِبَ لهم ببغداد من السَّلْجوقية؛ وهم أخو مَلِكْشاه تاج الدولة تُتُش، وركن الدَّوْلة بَكْيارُق بن مَلِكْشاه، وأخوه غياث الدِّين محمد بن مَلِكْشاه.

وكان المستظهر رحمه الله كريمَ الأخلاق، ليِّنَ الجانب، مشكورَ المساعي، يحبُّ العلم والعلماء، وصنِّفت له التَّصَانيف الكثيرة في الفِقْه والأصول وغيرهما، وكان يسارع إلى أعمال البر والمثوبات، حسنَ الخَطِّ، جيدَ التوقيعات، ولما توفي صلى عليه ولدُه المسترشد بالله، ودُفن في حُجْرة كانت له يألفها.

---

(١) في هامش الأصل: وبلاد مضر، صح، ثم ضرب عليها.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل) والمثبت من (م). والكلام مصروف إلى زمن ابن الأثير، وقليج أرسلان هو ابن مسعود عز الدين، توفي سنة (٥٨٨هـ)، وكان قبل وفاته قد فرق بلاده على أولاده، ثم ندم، انظر «الكامل»: ١٢/٨٧ وما بعدها. و «الدول الإسلامية»: ٣١٤. وسيرد ذكره ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) «الباهر»: ٢١.

وفي أيامه توفي جماعةٌ من العلماء؛ ففي شعبان سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة توفي قاضي القضاة أبو بكر محمد بن المُظَفَّر الشَّامي[١]. وفي ذي القَعْدَة منها توفي القاضي عبد السلام بن محمد القَزْويني المُعْتزلي[٢]،
مصنِّف «حدائق ذات بهجة»[٣] في تفسير القرآن يزيد على ثلاث مئة مجلد. ٢٩/١
قال ابن الأثير: رأيتُ منه تفسير الفاتحة في مجلَّدٍ كبير[٤]. وفي ذي الحِجَّة منها توفي الإمام أبو نَصْر الحُمَيْدِي[٥] مصنِّف «الجمع بين الصحيحين»[٦]. وفي شوال سنة إحدى وتسعين توفي الكامل نقيب النقباء طِرَاد بن محمد الزَّيْنَبي، وله نحو تسعين سنة[٧] وفي سنة اثنتين وخمس مئة توفي أبو زكريا

---

(١) ولد في حماة سنة (٤٠٠هـ)، ورحل إلى بغداد سنة (٤٢٠هـ)، وولي القضاء بها سنة (٤٧٨هـ)، وهو من أئمة الشافعية، لم يأخذ على القضاء رزقاً، وكان يسوي بين الوضيع والشريف في الحكم، ويقيم جاه الشرع، فكان هذا سبب انقلاب الأكابر عنه، وكان ورعاً زاهداً على حدة فيه. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٨٥/١٩، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٢٠٢/٤.

(٢) ولد سنة (٣٩٣هـ)، وكان من أئمة المعتزلة في عصره، انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦٣/١٠ ب، و «سير أعلام النبلاء»: ٦١٦/١٨ ــ ٦٢٠، وفيه مصادر ترجمته، وفي «الكامل»: ٢٥٣/١٠ ولد سنة (٤١١هـ) وهو وهم، وفي «طبقات المفسرين» للسيوطي: ١٩ توفي (٤٨٣هـ) وهو وهم أيضاً تابعه عليه الداودي في «طبقات المفسرين»: ٣٠٢/١.

(٣) العنوان مقتبس من الآية الكريمة: ﴿أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون﴾ (سورة النمل: الآية ٦٠).

(٤) قول ابن الأثير ليس في (م).

(٥) هو محمد بن فتوح بن عبد الله، تلميذ ابن حزم الأندلسي، ولد قبل سنة (٤٢٠هـ)، واستوطن بغداد، وتوفي بها، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٢٠/١٩ ــ ١٢٧، و «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي ٤٠٨/٣ ــ ٤١٣ بتحقيقي.

(٦) لم يطبع بعد.

(٧) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٧/١٩ ــ ٣٩.

التِّبـريزي اللُّغَـوي[1]. وفي [ذي][2] الحِجَّة منها توفي أبو الفوارس الحسين بن علي الخازن؛ صاحب الخطِّ الحسن المشهور[3]. وفي سنة خمس وخمس مئة توفي الإمام أبو حامد الغزالي. وفي سنة سبع وخمس مئة توفي الإمام أبو بكر محمد بـن أحمد الشَّاشي الفقيه[4]، رحمهم الله أجمعين.

فصـــل

لما ولي السلطان محمود السلطنة أقر أخاه مسعوداً على المَوْصل مـع أتابكه جيـوش بـك، فبقي مطيعاً لأخيه إلى سنة أربـع عشرة وخمس مئة، فحسَّن له[5] الخروج عن طاعته وطَلَبِ السلطنة، فأظهر العصيان وخَطَبَ للملك مسعود بالسَّلْطنة. وكان زَنْكي يشير بطاعة السلطان وتَرْك الخلاف عليه، ويحذِّرهم عاقبة العصيان، فلم ينفـع. فالتقى الأخوان في عسكريهما فهزَمَ عسكرَ مسعود، وأسر جمـاعةً من الأمـراء والأعيان، منهم الأُستـاذ أبو إسماعيل الحسين بن إسماعيل الطُّغْرائي[6]؛ وزير مسعود[7] فقتله السُّلْطان

(١) هو يحيى بن علي؛ شارح حماسة أبي تمام، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٢٦٩ ـ ٢٧١.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) وقيل توفي سنة (٤٩٩هـ)، انظر ترجمته في «الكامل»: ١٠/٤١٥، ٤٧٤، و«وفيات الأعيان»: ٢/١٩١.

(٤) ولد سنة (٤٢٩هـ)، انتهت إليه رياسة المذهب الشافعي. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٣٩٣ ـ ٣٩٤.

(٥) أي جيوش بك بتحريض من دبيس بن صدقة. انظر «الكامل»: ١٠/٥٦٢.

(٦) هذه النسبة إلى من يكتب الطُّغْرى، وهي الطرة التي تكتب في أعلى الكتب فوق البسملة بالقلم الغليظ، ومضمونها نعوت الملك الذي صدر الكتاب عنه، وهي لفظة أعجمية. «وفيات الأعيان»: ٢/١٩٠.

(٧) استوزره سنة (٥١٣هـ). انظر «الكامل»: ١٠/٥٦٣.

محمود وقال: قد صحَّ عندي فساد اعتقاده ودينه. وكان قد جاوز ستين سنة، وكان حسنَ الكتابة جيد الشعر(١).

قلت: وقيل: إنه قُتِلَ سنة ثلاث عشرة أو أربع عشرة أو ثماني عشرة وخمس مئة. وقيل: إنَّ الذي قتلَه هو السُّلْطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشاه. ذكر ذلك كلَّه أبو سعد السَّمْعاني في «تاريخه»(٢) وسمَّاه الحسين بن علي بن عبد الصمد الدَّيْلَمي، وأنشد له أشعاراً حساناً، منها:

إذا ما(٣) لم تكن مَلْكاً مطاعاً ... فكن عبداً لمالِكِه مُطِيعا
وإنْ لم تَمْلُكِ الدُّنيا جميعاً ... كما تَهْوَاه فاتركْها جميعا
هما سببان(٤) مِنْ مُلْكٍ وَنُسْكٍ ... ينيلانِ الفتى الشَّرَفَ الرَّفيعا
وَمَنْ يقنعْ مِنَ الدُّنيا بشيءٍ ... سِوَى هذين يَحْيَ بها وَضِيعا(٥)

ثم استأْمَنَ مسعودٌ وأتابكه جيوش بك، فأَمَّنهما السُّلْطان، وأخذ المَوْصل منهما، فأقطعها آق سُنْقُر البُرْسُقي مع أعمالها، كالجزيرة وسِنْجار* ونَصِيبين* وغيرها في صفر سنة خمس عشرة، وسيره إليها، وأمره بحفظ عماد الدين زَنْكي وتقديمه والوقوف عند إشارته، ففعلَ البُرْسُقي ذلك وزاد

---

(١) «الباهر»: ٢٣، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٩/٤٥٤، ومقدمة «الغيث المسجم» للصفدي، وهو صاحب لامية العجم المشهورة، شرحها الصفدي بكتاب «الغيث المسجم في شرح لامية العجم» طبع غير مرة، آخرها في دار الكتب العلمية ببيروت سنة (١٩٧٥م)، وله «ديوان» مطبوع في مطبعة الجوائب بالقسطنطينية سنة (١٣٠٠هـ).

(٢) هو «ذيل تاريخ بغداد»، وهو من الكتب التي لم تصلنا، منه مختصرات. انظر «تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان: ٦/٦٣ ــ ٦٤.

(٣) في (ل) و(م) إذا لم تكن، وهو وهم.

(٤) في الأصل غير معجمة، وفي (م) والديوان: سيان، والمثبت من (ل).

(٥) الأبيات في «ديوانه»: ٦٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

عليه؛ لمكان زَنْكي من العقل والشجاعة وتقدُّم والده في الأيام الرُّكْنية[1]. وكانت سيرة مَلِكْشاه عندهم كالشَّريعة المُتَّبعة، فأعظَمُ النَّاسِ عندهم أكثرُهم اتباعاً لسيرته.

وفي سنة ست عشرة وخمس مئة أقطع أتابك* زَنْكي مدينةَ واسط وشحنكية* البصرة، وظهر من كفايته في البلدين ما لم يظنه أحد، فازداد شأنه عِظَماً. وهاب الأميرُ دُبَيْس بن صَدَقة الأسدي صاحبُ الحِلَّة* ناحيتَه، وجَرَتْ بينَه وبين البُرْسُقي حروبٌ ومواقفات، وهمَّ دُبَيْس بقصد بغداد، فسار البُرْسُقي إليه[2]، وتبعه الخليفة[2] المسترشد بالله بنفسه، فانهزمَ عسكر دُبيس، وقتل منهم وأُسر خَلْق[3] كثير، وكان[3] لعماد الدين زَنْكي أثرٌ حسنٌ في هذه الوقعة أيضاً بين يدي الخليفة، وذلك[4] في أول المحرَّم سنة[4] سبع عشرة. وأما دُبَيْس فإنه لما انهزم لحق بالملك طغرل بن السُّلْطان محمد، وصار معه من خواصِّ أصحابه، وكان عاصياً على أخيه السُّلْطان محمود.

وأمر السلطان محمود[5] البُرْسُقيَّ أن يرجع إلى المَوْصل، فعاد واستدعى زَنْكي[6] من البصرة ليسيرَ معه إلى المَوْصل، فقال زَنْكي لأصحابه: قد ضَجِرْنا مما نحن فيه، كل يومٍ قد ملك البلاد أمير، ونؤمر بالتصرُّف على اختياره وإرادته، ثم تارة بالعراق وتارة بالمَوْصل وتارة بالجزيرة وتارة بالشَّام. فسار مِنَ البصرة إلى السُّلْطان محمود فأقام عنده، وكان يقف

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٣ من هذا الجزء.

(٢ ــ ٢) ما بينهما خرم في (ل).

(٣ ــ ٣) ما بينهما خرم في (ل).

(٤ ــ ٤) ما بينهما خرم في (ل).

(٥) في الأصل: محمد، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في (ل) و(م): بزنكي.

إلى جانب تخت* السُّلْطان عن يمينه لا يتقدَّم عليه أحد، وهو مقام والده قسيم الدولة من قبله، وبقي لولده[1] من بعده.

ثم أتى السلطانَ الخبرُ أن العرب قد اجتمعت ونهبتِ البصرة، فأمر زَنْكي بالمسير إليها، وأقطعه إياها لِمَا بلغه عنه من الحماية لها في العام الماضي وقت اختلاف العساكرِ والحروب، ففعل ذلك، فعظُمَ عند السُّلْطان وزاد محلُّه[2]. وكان قد جرى بين يرنقش الزكوي شِحْنة* بغداد وبين الخليفة المسترشد بالله نُفْرَة، فتهدَّده المسترشد، فسار عن بغداد إلى السلطان في رجب سنة تسع عشرة[3] شاكياً من المسترشد[4]، وحذَّر السلطان جانبه، وأعلمه[4] أنه قد جمع العساكر عازماً على منعه من العراق[5]. فسارَ السُّلْطان إلى بغداد، وجرى[5] بينه وبين المسترشد حروبٌ ووقائع، ثم اصطلحا وعادا إلى ما كانا عليه، وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر ربيع الآخر، ونظر فيمن يصلح أن يلي شحنكية* بغداد والعراق يأمن معه من الخليفة ويضبط الأمور. فولَّى ذلك زَنْكي مضافاً إلى ما بيده من الإقطاع، وسار السُّلْطان عن بغداد.

١/٣٠ وفي سنة عشرين وخمس مئة قُتِلَ آق سُنْقُر البُرْسُقي بالجامع العتيق بالمَوْصل بعد الصلاة يوم الجمعة؛ ثار به من الباطنية ما يزيد على عشرة أنفس، فقتل بيده منهم ثلاثة، وقُتِلَ رحمه الله. وكان عادلاً[6] ليِّنَ الأخلاق[6] حَسَنَ العشرة، وكان يصلِّي كل ليلة صلاةً كثيرة، ولا يستعين في وضوئه

---

(١) في (م): لعقبه.

(٢) في (م): وزاد محله عنده.

(٣) في «الكامل»: ١٠/٦٣٥ سنة عشرين.

(٤ ــ ٤) ما بينهما خرم في (ل).

(٥ ــ ٥) ما بينهما خرم في (ل).

(٦ ــ ٦) ما بينهما خرم في (ل).

بأحد[1]. فقرَّر السلطان[1] ولدَه عز الدين مسعوداً على ما كان لأبيه من الأعمال؛ وهي المَوْصل وديار الجزيرة وحلب وحماة وجزيرة ابن عمر* وغيرها. وكان شاباً عاقلاً، فضبط البلاد، ولم تطل أيامه، وتوفي سنة إحدى وعشرين، وولي الأمر بعده أخوه الصَّغير، وقام بتدبير دولتيهما الأمير جاولي؛ وهو مملوك تركي من مماليك أبيهما، فجرت الأمور على أحسن نِظام.

فصـــل
في ولاية زَنْكي المَوْصل وغيرها من البلاد التي كانت بيد البُرْسُقي

وذلك في شهر رمضان من سنة إحدى وعشرين؛ وسبب ذلك أن عِزَّ الدين بن البُرْسُقي لما توفي، وقام بالبلاد بعده أخوه الصغير، وتولى أمره جاولي أرسل إلى السلطان محمود [يطلب][2] أن يقرَّ البلاد عليه؛ وكان المُرْسَل بذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشَّهْرُزُوي[3]، وصلاح الدين محمد الياغبساني[4]. فحضرا بغداد ليخاطبا السلطان في ذلك، وكانا[5] يخافان جاولي، ولا يرضيان بطاعته والتصرف بحكمه. وكان بين

(١ ـ ١) ما بينهما خرم في (ل).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) هو علي بن القاسم بن المظفر، توفي سنة (٥٣٢هـ)، سيرد ذكر وفاته ص ١٢٦ من هذا الجزء.

(٤) في (م) الياغيساني، كان أمير حاجب البرسقي، ولي حماة ثم حمص، وأخباره مبثوثة في أثناء هذا الجزء، توفي سنة (٥٥٢هـ)، انظر «الكامل»: ٦٤٣/١٠، وص (١٢٥، ١٦٨، ٣٠٢، ٣٦٠) من هذا الجزء.

(٥) في الأصل و(ل)، وكان، والمثبت من (م).

الصلاح وبين نصير الدين جَقَر[1] مصاهرة، فأشار عليهما أن يطلبا البلاد لعماد الدين زَنْكي، ففعلا وقالا للوزير: قد علمتَ أنت والسلطان أن بلاد الجزيرة والشَّام قد استولى الإفرنج على أكثرِها، وتمكَّنوا منها، وقويت شوكتُهُمْ، وكان البُرْسُقي يكفُّ بعضَ عاديتهم، فمنذ قتل ازداد طمعُهم، وهذا ولده طفل صغير، ولا بدَّ للبلاد من شَهْمٍ شجاع يذبُّ عنها، ويحمي حوزَتها، وقد أنهينا الحال إليكم لئلا يجري خلل أو وَهْن على الإسلام والمسلمين، فنحصل نحن بالإثم من الله تعالى[2]، واللوم من السلطان. فأنهى[2] الوزير ذلك إلى السلطان فأعجبه وقال: مَنْ تريان يصلُح لهذه[3] البلاد؟ فذكرا جماعةً فيهم[3] عماد الدين زَنْكي، وعظَّما محلَّه أكثرَ من غيره. فأجاب السُّلْطان إلى توليته لما علم من شهامته وكفايته، فولي البلاد جميعها، وكتبَ منشوره بها، وسار من بغداد إلى البوازيج* ليملكها ويتقوَّى بها ويجعلها ظهره إن منعه جاولي عن البلاد. فلما استولى عليها، سار عنها إلى الموصل، فخرج جاولي إلى لقائه، وعاد في خدمته إلى الموصل، فسَيَّره[4] إلى الرَّحبة* وأعمالها، وأقام [هو][5] بالمَوْصل يصلحُ أمورَها ويقرر قواعدها. فولَّى نصيرَ الدين دُزْدَارية* قلعة المَوْصل، وفوَّض إليه أمرَ الولاية جميعها، وجعل الدُزْدارية في البلاد جميعها له، وجعل الصَّلاح محمد الياغبساني أمير حاجب* الدولة، وجعل بهاءَ الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتحه من البلاد، ووفى لهم بما وعدهم. وكان بهاء الدين أعظمَ النَّاس عنده منزلة وأكرمهم عليه، وأكثرهم انبساطاً معه وقرباً منه، ورتَّب الأمور على أحسن نظامٍ وأحكم قاعدة.

---

(١) جَقَر بن يعقوب، أعظم أصحاب زنكي منزلة، قتل سنة (٥٣٩هـ)، ويقال: جغر بالغين المعجمة. انظر «وفيات الأعيان»: ١/٣٦٤ ـ ٣٦٦، و«الباهر»: ٣٤، وص ١٤٩ من من هذا الجزء.

(٢ ـ ٢) ما بينهما خرم في (ل).

(٣ ـ ٣) ما بينهما خرم في (ل).

(٤) في الأصل: فسير، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وكان الفرنـج قد اتسعت بلادُهم، وكَثُرَتْ أجنادُهم، وعَظُمَتْ هيبتُهم، وزادت صولتهم، وامتدَّت إلى بلاد المسلمين أيديهم، وضَعُفَ أهلُها عن كفِّ عاديهم[1]، وتتابعت غزواتهم، وساموا المسلمين سوءَ العذاب، واستطار في البلاد شرر شرِّهم، وامتدَّت مملكتُهم من ناحية مارِدِين* وشبختان إلى عريش مصر لم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحماة وحِمْص ودمشق. وكانت سراياهم تبلـغ من ديار بكر إلى آمِد* ومن ديار الجزيرة إلى نَصِيبين* ورأس عين*.

أما أهل الرَّقَّة* وحَرَّان* فقد كانوا معهم في ذُلٍّ وهوان، وانقطعت الطُّرق إلى دمشق إلا على الرَّحْبة* والبر. ثم زاد الأمر وعَظُمَ الشر، حتى جعلوا على أهل كل بلد جاورهم خَراجاً وإتاوةً، يأخذونها منهم ليكّفوا أذيَّتهم عنهم. ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا إلى مدينة دمشق، واستعرضوا الرقيق ممن أُخذ من الرُّوم والأرمن وسائر بلاد النَّصْرانية، وخيَّروهم بين المقام عند أربابهم والعود إلى أوطانهم، فمن اختار المقام تركوه، ومن آثر العود إلى أهله أخذوه، وناهيك بهذه الحالة ذلة للمسلمين وصغاراً.

وأما أهل حلب فإن الفرنـج أخذوا منها[2] مناصفة أعمالها حتى في الرَّحا التي على باب الجِنَان*، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة.

وأما باقي بلاد الشَّام فكان حال أهلها أشد من حال هذين البلدين. فلما نظر الله سبحانه إلى بلاد المسلمين ولاها[3] عماد الدين زَنْكي، فغزا الفرنـج في عُقْر ديارهم، وأخذ للموحِّدين منهم بثارهم، واستنقذ منهم حصوناً[4]

---

(١) في (ل) عاديتهم.

(٢) في (م): منهم.

(٣) في الأصل، و(ل): وولاها، والمثبت من (م).

(٤) في (م): حصونهم.

ومعاقل. وسيأتي تفصيل ذلك وما فتحه من البلاد الإسلامية هو وابنه من بعده إن شاء الله تعالى.

فصـــل

ثم شرع زَنْكي رحمه الله في أَخْذ البلاد؛ فافتتـح جزيرة ابن عمر*، ثم مدينة إِرْبِل* في رمضان سنة اثنتين وعشرين، ثم عاد إلى المَوْصل. وسار في جُمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين إلى سِنْجـار*، فتسلمها، وسيَّـر منها الشَّحَن* إلى الخابور، فملكه، ثم قصد الرَّحْبة* فملكت قسراً، ثم افتتح نَصِيبين* وسار إلى حَرَّان*. وكانت الرُّها* وسَرُوج* وغيرهما من ديار الجزيرة للفرنـج ــ لعنهم الله ــ وأهل حَرَّان معهم في ضيقٍ عظيم؛ فراسلوا زَنْكي
١/٣١ بالطاعة، واستحثوه على الوصول إليهم ففعل، وهادن الفرنـج مُدَّة يسيرة يعلم أنه يفرغ فيها من الاستيلاء على ما بقي له من البلاد الشَّامية والجزرية[1]. وكان أهم الأشياء عنده عبور الفرات، ومُلك مدينة حلب وغيرها من البلاد الشَّاميـة. فلما عبر الفرات ملك مدينة مَنْبِج* وحصن بزاعة*، وحاصر حلب، ثم فتحت له فرتَّب أمورها، وسار عنها إلى حماة فملكها[2]، وقبض على صاحب حمص وحصرها، وذلك سنة ثلاثٍ وعشرين.

وفي سنة أربـع وعشرين اتفق صاحب آمِد* مـع صاحب حصن كَيْفا* وغيرهما من الملوك، وجمعوا عساكر نحو عشرين ألفاً وقصـدوا زَنْكي، فلقيهم، فهزمهم وملك سَرْجة* ودارا*. ثم صمم على الجهاد، فنازل حصن الأثارب*، وكان أضرَّ شيءٍ على أهل حلب، فجمـع الفرنـج جمعاً عظيماً،

---

(١) في الأصل: والجزيرة، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «الكامل»: ١٠/٦٥٨ ـ ٦٥٩، وفي «ذيل تاريخ دمشق» سنة (٥٢٤هـ) وسيرد الخبر بعد أسطر.

فهزمهم وقتلهم مقتلة عظيمة، بقيت عظام القتلى بتلك الأرض مُدَّة طويلة. ثم رجع إلى الحصن فملكه عَنْوَةً، فأخربه ومحا أثره، وأزال من تلك الأرض ضرره. ثم رحل إلى حصن حارِم* فحصره، فأنفذ من لم يحضر المعركة من الفرنج ومن نجا منها يسألون الصلح، ويبذلون له المناصفة على ولاية حارم، فأجابهم إلى ذلك؛ لأن عسكره كان قد كثرت فيهم[1] الجراحات والقتل فأراد أن يستريحوا ويريحوا، فهادنهم وعاد عنهم وقد أيقن المسلمون بالشَّام بالأمن وحلول النصر، وسُيِّرت البشائر إلى البلاد بذلك.

وفيها استولى زَنْكي على مدينة حماة وما فيها، وكان فيها بهاء الدين سونج بن تاج الملوك بوري، فأخذه ورجالَه، ثم طلب في إطلاقهم خمسين ألف دينار، فاتفق حضور دُبَيْس بن صدقة بن مَزْيَد أمير العراق بدمشق منهزماً، فطلبه زَنْكي، وأطلق من كان عنده من سونج وأصحابه[2]. ذكر ذلك الرئيس أبو يعلى[3].

وفي سنة خمس وعشرين وخمس مئة توفي السلطان محمود بهَمذَان*، وكان عمره نحو ثماني وعشرين سنة، وكانت ولايته ما يقارب أربع عشرة سنة، وكان حليماً كريماً عاقلاً عادلاً كثير الاحتمال. وطلب السلطنة بعد وفاته ابنُه داود بن محمود، وأخواه[4]: مسعود وسَلْجُوق شاه ابنا محمد، وعمهما سنجر بن مَلِكْشَاه ومعه طغرل ابن السلطان محمد. فجرت بينهم حروبٌ واختلافات كثيرة ظفر فيها سنجر، وخطب لابن أخيه طغرل بالسلطنة في همذان وأصفهان* والرَّي* وسائر بلاد الجبل.

---

(١) في (ل) و(م): فيه.

(٢) وذلك سنة (٥٢٥هـ) انظر «الكامل»: ١٠/٦٦٨ ـ ٦٦٩.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق» نشرة د. زكار: ٣٦١ ـ ٣٦٢، ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٤) في الأصل: وأخوه، والمثبت من (ل) و(م).

وفي سنة سبع وعشرين سار الخليفة المسترشد بنفسه إلى المَوْصل في ثلاثين ألف فارس، فحاصرها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى بغداد ولم يبلغ غرضاً.

وفي سنة تسع وعشرين[1] استولى زَنْكي على سائر قلاع الحُميدية وولاياتهم؛ ومنها قلعة العَقْر* وقلعة شوش*، وحاصر مدينة آمِد* ثم مدينة دمشق.

وفيها توفيت[2] والدته بالمَوْصل.

وفي المحرَّم سنة تسع وعشرين توفي السلطان طغرل بن محمد بن مَلِكْشَاه، فخرج السُّلْطان مسعود والتقى هو والخليفة المسترشد في عسكرين عظيمين عاشر رمضان، فهزم عسكرَ الخليفة، وقبضَ عليه وعلى خواصِّه[3]، وأنفذ السلطان شِحْنة* إلى بغداد فقبض جميع أملاك الخليفة، وهجم جماعةٌ من الباطنية على المسترشد وهو في الخيمة فقتلوه. وكتب السُّلْطان إلى شِحْنة بغداد يأمره بالبيعة لابنه أبي جعفر المنصور بن المسترشد، فبايعه في السادس والعشرين من ذي القَعْدة، ولقب بالرَّاشد.

وكان عمر المسترشد ثلاثاً وأربعين سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، وكانت خلافته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر. وكان شهماً شجاعاً، مقداماً فصيحاً، وتمكن في خلافته تمكناً عظيماً لم يره أحد ممن تقدَّمه من الخلفاء من عهد المنتصر بالله إلى خلافته، إلا أنْ يكون المعتضد والمكتفي، لأن المماليك كانوا قديماً يخلعون الخلفاء ويحكمون عليهم، ولم يزالوا كذلك إلى مُلْك

(١) في «الكامل»: ١١/١٤: في سنة (٥٢٨هـ)، ومثله في «الباهر»: ٤٨.
(٢) في الأصل و(ل) توفت، والمثبت من (م).
(٣) في (م): وقبض عليه خواصه، وهو وهم.

الدَّيْلم واستيلائهم على العراق، فزالت هيبة الخلافة بالمرة إلى انقراض دولة الدَّيْلم[1].

فلما ملك السَّلْجقية جدَّدوا من هيبة الخلافة ما كان قد درس، لا سيما في وزارة نظام المُلْك، فإنه أعاد الناموس والهيبة إلى أحسن حالاتها، إلا أن الحكم والشِّحَن* بالعراق كان إلى السُّلْطان، وكذلك العمداء وضُمَّان البلاد، ولم يكن للخلفاء إلا إقطاع يأخذون دَخْله.

وأما المسترشد فإنه استبدَّ بالعراق بعد السلطان محمود، ولم يكن للسلطان [محمود][2] معه في كثير من الأوقات سوى الخطبة، واجتمعت عليه العساكر، وقاد الجيوش وباشر الحروب.

وفي سنة ثلاثين وخمس مئة سار الرَّاشد إلى المَوْصل صحبة زَنْكي ملتجئاً إليه؛ وذلك أن جماعة حسنوا له الخروج من بغداد لمحاربة السلطان مسعود، فأجابهم إلى ذلك، وظهر منه تنقل في الأحوال وتلوُّن في الآراء، وقبض على جماعة من أعيان أصحابه وخافه الباقون، وتقدَّم السلطان مسعود، وحصر بغداد، واستظهر عليها. فخرج الراشد ملتجئاً إلى زَنْكي، فسار به إلى المَوْصل، ودخل مسعود بغداد، وأمر بخلع الرَّاشد ومبايعة عمه أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، ففعل ذلك، ولقب المقتفي لأمر الله.

وأما الرَّاشد فإن السلطان سنجر أرسل إلى أتابك* يأمره بإخراجه عن بلده، فسار إلى أَذْرَبيجان* ثم إلى هَمَذَان*، فاجتمع إليه مُلوك وعساكر كثيرة، وسار السلطان إليهم[3]، فتصافوا، فانهزم الرَّاشد، وقصد أصبهان، ١/٣٢

(١) في (م): العراق، وهو تحريف.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) في (م): عليهم، وهو وهم.

فقتله الباطنية(١) بها في السَّابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة، ودُفِنَ بأصبهان*.

وفي سنة اثنتين وثلاثين أيضاً تزوَّج زَنْكي بالخاتون صفوة الملك زمرد ابنة الأمير جاولي أم شمس الملوك إسماعيل، وإخوتـه* بني تاج الملوك بوري بن [ظهير الدين](٢) طُغْتِكِين أتابك؛ وهي أُخت الملك دُقاق لأمه(٣) ــ وإليها يُنْسب مسجد خاتون* الذي هو مدرسة لأصحاب أبـي حنيفة بأعلى الشَّرَف القبلي* بأرض دمشق بأرض صنعاء(٤) ــ وتسلَّم قلعة حمص.

فــصــل
في جهاد زَنْكي للفرنـج

لما كان في سنة اثنتين وثلاثين خرج ملك الرُّوم(٥) من القُسْطَنْطينية ومعه خَلْقٌ عظيم لا يحصون كثرةً من الروم والفرنـج وغيـرهـم من أنواع النصارى، فقصد الشَّام، فخافه النَّاس خوفاً عظيماً.

وكان زَنْكي مشغولاً بما تقدَّم ذِكْرُه لا يمكنه مفارقة المَوْصل، فقصد ملك الروم مدينة بزاعة* وحصرها ــ وهي على مرحلة من حلب ــ وفتحها عَنْوَةً، وقتل المقاتلة وسبى الذرية في شعبان. ثم سار عنها إلى شَيْزَر* ــ وهي

(١) في «المنتظم»: ١٠/٧٦ ثلاثة أقوال في سبب موته، أحدها أنه سقي السم، والثاني أنه قتله قوم من الفراشين، والثالث: قتله الباطنية كما ذكر.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م)..
(٣) توفيت زمرد خاتون سنة (٥٥٧هـ)، انظر «العبر» للذهبي: ٤/١٦٢.
(٤) صنعاء: قرية كانت بين المزة ودمشق، نزلها قوم من اليمانية في أول الفتـح الإسلامي فسموها باسم عاصمتهم وهي اليوم تقـع مكان الجامعة السورية ــ كلية الحقوق، وما حولها. انظر «معجم البلدان»: ٣/٤٢٩، و«غوطة دمشق»: ٢٣٧، ومنازل القبائل العربية حول دمشق. للدكتور صلاح الدين المنجد. مجلة مجمـع اللغة العربية بدمشق مـج ٣٠/٦٦.
(٥) هو يوحنا كومنين، تولى ما بين (٥١٢هـ ــ ٥٣٨هـ). انظر «تاريـخ الحروب الصليبية» لرنسيمان ٢/٣٣٢ وما بعدها.

حصن منيع على مرحلة من [مدينة][١] حماة ــ فحصرها منتصف شعبان، ونصب عليها ثمانية عشر منجنيقاً[٢]. وأرسل صاحبها أبو العساكر سُلْطان بن [علي بن مقلَّد بن نصر بن][٣] مُنْقذ إلى زَنْكي يستنجده، فنزل على حماة، فكان يركب كل يوم في عساكره، ويسير إلى شَيْزَر بحيث يراه ملك الروم، ويرسل السَّرايا يتخطَّف من يخرج من عساكرهم للميرة[٤] والنَّهْب، ثم يعود آخر النهار. وكان الروم والإفرنج قد نزلوا على شرقي شَيْزَر، فأرسل إليهم زَنْكي يقول لهم: إنكم قد تحصنتم بهذه الجبال، فاخرجوا عنها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرتم أخذتم شَيْزَر وغيرها، وإن ظفرت بكم أرحت المسلمين من شَرِّكم. ولم يكن له بهم قوة لكثرتهم، وإنما كان يفعل هذا ترهيباً لهم. فأشار الفرنج على ملك الرُّوم بلقائه وقتاله، وهوَّنوا أمره، فقال لهم الملك: أتظنون أن معه من العساكر ما ترون وله البلاد الكثيرة! وإنما هو يريكم قلة من معه لتطمعوا وتصحروا له، فحينئذٍ ترون من كثرة عسكره ما يعجزكم.

وكان أتابك زَنْكي مع هذا يُراسل فرنج الشَّام، ويحذِّرهم ملك الرُّوم، ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصناً واحداً أخذ البلاد التي بأيديهم منهم. وكان يراسل ملكَ الروم يتهدَّده ويوهمه أن الفرنج معه. فاستشعر كلُّ واحدٍ من الفرنج والروم من صاحبه، فرحل ملكُ الروم عنها في رمضان، وكان مقامه عليها أربعة وعشرين يوماً، وترك المجانيق* وآلات الحصار بحالها، فسار زَنْكي خلفهم فظفر بطائفة منهم في ساقة العسكر، فغنم منهم وقتل وأسر، وأخذ جميع ما خلَّفوه ورفعه إلى قلعة حلب ﴿وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[٥].

وكان المسلمون بالشام قد اشتدَّ خوفُهم، وعلموا أن الرُّوم إن ملكوا

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر «الاعتبار» طبعة حتي: ١١٣، وطبعة السامرائي: ١٣٣ ــ ١٣٥.

(٣) ما بين حاصرتين مثبت من «الباهر»: ٥٥.

(٤) في (م) للمسير، وهو تصحيف.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٥.

حصن شَيْزَر* لا يبقى لمسلم معهم مقام، لا سيما [مدينة][1] حماة لقربها.

ولما يسَّر الله تعالى هذا الفتح مدح الشعراءُ الشهيد أتابك فأكثروا، منهم أبو المجد المسلم بن الخضر بن المسلم بن قسيم [التَّنُوخي][2] الحَمَوي، له قصيدة، قد ذكرتُها في ترجمته في «التاريخ»[3]، أولها:

بعزمك أيها الملكُ العظيمُ ... تَذِلُّ لك الصِّعابُ وتستقيمُ
ألم تَرَ أنَّ كلبَ الرُّومِ لمَّا ... تَبَيَّنَ أنه[4] الملكُ الرَّحيمُ
فجاء يطبِّق الفلواتِ خيلاً ... كأنَّ الجَحْفَلَ اللَّيْلُ البهيمُ
وقد نَزَلَ الزَّمانُ على رضاه ... فكان لِخَطْبِهِ الخَطْبُ الجسيمُ
فحين رَمَيْتَه بك في خميسٍ ... تيقَّنَ أنَّ ذلك لا يدُومُ
وأبصر في المفاضة منك جيشاً ... فأحرَنَ[5] لا يسيرُ ولا يُقيمُ
كأنَّك في العَجَاج شهابُ نورٍ ... توقَّدَ وهو شَيْطانٌ رجيمُ
أراد بقاءَ مهجته فولَّى ... وليس سوى الحِمَام له حميمُ
يؤمِّلُ أن تجودَ بها عليه ... وأنت بها وبالدُّنيا كريمُ
أَيَلْتَمِسُ الفرنجُ لديكَ عَفْواً ... وأنتَ بِقَطْعِ دابرها زَعيمُ
وكم جَرَّعْتَها غُصَصَ المَنَايا ... بيومٍ فيه يَكْتَهِلُ الفَطِيمُ
ولمَّا أنْ طلبْتَهُمُ تَمنَّى الْـ ... ـمنيَّة جُوسَلِينَهُمُ[6] اللَّئيمُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) يعني مختصره لابن عساكر، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩١ من هذا الجزء.

(٤) في أصل «الخريدة» يوافق ما في نسخنا، أبدلها المحقق من مطبوع الروضتين طبعة وادي النيل بـ«أنك» ١/ ٣٢. وهي تحريف، والرحيم لقب يوحنا، إذ أطلق عليه رعاياه Kaloioannes وتعني الصالح، وبهذا عرف عند ابن القلانسي «كياليانى» (ط. د. زكار). ص ٤٠٦ وانظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان ٢/ ٣٣٢.

(٥) في الأصل و(م): فأحزن، وهو تصحيف، والمثبت من (ل).

(٦) هو صاحب الرُّها Joscelin II، انظره في كشاف الأعلام.

أقام يطوِّف الآفاقَ حيناً وأنتَ على معاقله مقيمُ
فسار وما يُعادله مليكٌ وعاد وما يُعادله سقيمُ
إذا خَطَرَتْ سيوفُكَ في نفوسٍ فأوَّل ما تفارِقُها الجسومُ(١)

وله أيضاً من قصيدةٍ يمدح بها صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي التوتان صاحبَ حماة(٢): ١/ ٣٣

وما جاء كلبُ الرُّومِ إلا ليحتوي حماة وما يسطو على الأسدِ الكَلْبُ
أرادَ بها أَنْ يملكَ الشَّامَ عَنْوَةً وقد غُلبت عنه الضَّراغمة الغُلْبُ
وما ذَمَّ فيها العيش حتى صَدَمْتَه فمال جناحُ الجيشِ وانكسرَ القَلْبُ
فولَّى وأطرافُ الرِّماح كأنَّها نجومٌ عليه بالمنيَّة تَنْصَبُّ

ولابن منيرٍ من قصيدة في مدح أتابك زَنْكي رحمه الله، سيأتي [بعضها](٣) عند ذكر فتحه لمدينة الرُّها* إن شاء الله تعالى:

وما يومُ كَلْبِ الرُّومِ إلا أخو الذي أَزَحْتَ به ما في الجَنَاجِنِ(٤) من تَبْلِ(٥)
أتاك بمثل الرَّملِ(٦) حشداً وإنه ليفضل(٧) أضعافاً كثيراً عن الرَّمْلِ
فقاتَلْتَهُ باللهِ ثُمَّ بِعَزْمَةٍ تَعِلُّ(٨) قلوبَ العاشقينَ بما يسلي

---

(١) القصيدة بتمامها مع اختلاف في بعض الألفاظ، وفي ترتيب بعض الأبيات في «تاريخ ابن عساكر» (خ) س: ١٦/ ٢٣٢ ب ـ ٢٣٣ أ، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٧٠ ـ ٤٧٢.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١١٥ من هذا الجزء.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وانظر ص ١٤٥ من هذا الجزء.
(٤) على هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: الجناجن، بجيمين ونونين: عظام الصدر والله أعلم». قلت: وقيل: رؤوس الأضلاع. انظر «اللسان» (جنن).
(٥) التبل: العداوة والحقد، والزحل. «اللسان» (تبل).
(٦) في الأصل و(ل) الروم، والمثبت من (م)، وهو الأشبه.
(٧) في (م) ليضعف.
(٨) في الأصل: تصل، وفي (م) تصك، والمثبت من (ل) وهو الأشبه.

تـوهَّمَ أَنَّ الشَّامَ مـرعىً ومـا درى بأَنَّكَ أَمْضَى منه في الشَّزْرِ والسَّحل[١]
فــطارَ وخيــر المغنـميــن ذَمَــاؤه إذا رُدَّ عنـه مغنم المال والأهـلِ

قال ابن الأثير: ومن عجيب ما يُحكى في هذه الحادثة أن الخبر لما وصل بقصد الرُّوم شَيْزَر* قال الأمير مرشد بن علي؛ أخو صاحبها، وهو ينسخ مصحفاً، فرفعه بيده وقال: اللهم بحق مَنْ أنزلته عليه إن قضيتَ بمجيء الروم فاقبضني إليك. فتوفي بعد أيام، ونزل الروم بعد وفاته[٢].

ولما عاد الرُّومُ إلى بلادهم نزل أتابك إلى حصن عِرْقة*؛ وهو من أعمال طرابُلُس، فحصره وفتحه عَنوة، ونهب ما فيه وأسر مَن به من الفرنـج وأخربه، وعاد سالماً غانماً.

وفيها ملك قلعة دارا* من حسام الدين تمرتاش.

وفيها توفي[٣] / [ل /٣٣أ] بهاء الدين علي بن القاسم الشَّهْرُزُوري؛ قاضي الممالك الأتابكية، وكان أعظم الناس منزلة عنده[٤].

وفيها ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب بِتَكْرِيت*.

---

(١) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: الشزر: إحكام الفتل وإبرامه، والسحل دون ذلك، أي أمضى منه في الأمور الكبار والصغار. والذماء: بقية الروح في المذبوح، والله أعلم».

(٢) «الباهر»: ٥٧.

(٣) من هنا يبدأ خرم في الأصل يقع في ثلاث ورقات ينتهي بنهاية صفحة [٣٢/ ب] كتب بخط متأخر، استدركناه من نسخة (ل) و(م)، وسنشير في المتن إلى رقم ورقة (ل) إضافة إلى رقم الأصل في الهامش.

(٥) دفن في صفين، وهو عم القاضي كمال الدين المتوفى سنة (٥٧٢هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ٢/ ٣٢٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٢٢٨. وص ١١٦ من هذا الجزء.

فصـــل
في فتـح شَهْرُزُور[1]* وبَعْلَبَك وحِصَار دمشق

قال ابن الأثير: كانت شَهْرُزُور وأعمالها وما يجاورها من البلاد والجبال في يد قفجاق بـن أرسلان تاش التركماني، وكان مالكها[2] نافذَ الحكم على قاصي التركمان ودانيهم، يرون طاعته فرضاً حتماً؛ فتحامى الملوك قصدَ ولايته، ولم يتعرَّضوا لها لحصانتها، فَعَظُمَ شأنُه وازداد جَمْعُه.

فلما كان سنة أربـع وثلاثين بلـغ الشهيد أتابك* عنه ما اقتضى أن يقصد بلادَه؛ فهزم عسكره، وملك بلاد شَهْرُزور* وغيرها، فأضافها إلى بلاده، وأصلـح أحوال أهلها، وخفَّفَ عنهم ما كانوا يلقونه من التركمان. وعاد إلى الموصل عازماً على المسير إلى الشَّام؛ فإنه كان لا يرى المقام، بل لا يزال ظاعناً؛ إمّا لردِّ عدوٍّ يقصده، وإمّا لقصد بلاد عدوّ، وإمّا لغزو الفرنـج وسدّ الثغور. وكانت مياثر[3] السُّروج آثر عنده من وثير المهاد، والسّهر في حراسة المملكة أحبّ إليه من عرض الوساد، وأصوات السلاح ألذّ في مسمعه من الغناء، لا يجد لذلك كلِّه عناء.

وفي هذه السنة ــ وهي سنة أربـع وثلاثين ــ ولد تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي[4].

وفيها سار الشهيد في جنوده بعد ملك شَهْرُزور* إلى مدينة دمشق،

---

(١) في «معجم البلدان»: ٣/٣٧٥ بفتـح الراء، وفي «وفيات الأعيان»: ٤/٧٠ بضمها، وعليه أغلب المصادر.

(٢) في (م): مالكاً لها.

(٣) مفردها مِيْثَرة: وهي فراش صغير يحشىٰ بقطن أو صوف يجعل تحت السرج.

(٤) هو ابن أخ السلطان صلاح الدين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد ذكر وفاته في ٤/ ٢٩٠، كان والده شاهنشاه قد قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة (٥٤٣ هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٥٢. وص ١٩٧ ــ ١٩٨ من هذا الجزء.

فحصرها، وصاحبها حينئذٍ جمال الدين محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وكان محكوماً [عليه][1]، والغالب على أمره معين الدين أُنَر؛ مملوك جده طُغْتِكِين. وكان أتابك قد أمر كمال الدّين أبا الفضل بن الشَّهْـرُزُوري بمكاتبةِ جماعةٍ من مقـدَّمي أحداثهـا[2] وزناطـرتهـا[3] واستمـالتهم وإطمـاعهم في الـرغـائب والصلات. ففعل ذلك، فأجابه منهم خلق كثير إلى تسليم البلد، وخرجوا متفرِّقين إلى كمال الدين، وجدَّد عليهم العُهود، وتواعدوا يوماً يزحف فيه الشَّهيد إلى البلد لِيفْتحوا له الباب ويسلِّموا البلد إليه. فأعلم [ل ٣٣/ب] كمال الدين الشهيد أتابك بذلك، فقال: لا أرى هذا رأياً؛ فإنَّ البلد ضيّق الطُّرُق والشَّوارع، ومتى دخل العسكر إليه لا يتمكّنون من القتال فيه لضيقه، وربما كثُر المقاتلون لنا فنعجز عن مقاومتهم؛ لأنّهم يقاتلون على الأرض والسطوحات، وإذا دخلنا البلد اضطررنا إلى التفرُّق لضيق المسالك، فيطمع فينا أهلُه. وعاد / عن ذلك العزم بحزمه وحذره. [٣٠/ب]

ومن العجب أن محمد بن بُوري صاحب دمشق توفي وأتابك يحصره، فضبط أُنَر الأمور وساس البلد، فلم يتغيّر بالنّاس حال، وأرسل إلى بَعْلَبَكّ، فأحضر ولدَه مجير الدين أبق بن محمد بن بوري، ورتَّبه في الملك مكان أبيه، فمشى الحال بتمكين[4] معين الدين أُنَر وحسن تدبيره. وهذا مجير الدين أبق هو الذي منه أخذ نور الدين بن زَنْكي دمشق كما سيأتي[5].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في (ل) والمثبت من (م) و«الباهر»: ٥٨.

(٢) الأحداث هم القوى الشعبية التي تعبر عن الإرادة الذاتية للمدينة تجاه الحكام. انظر عن أصلها كتاب «الحركات الشعبية وزعماؤها في دمشق في العهد الفاطمي» للدكتور شاكر مصطفى.

(٣) هم السكان المولعون بتحريك الفتن والقلاقل. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٦٠٧/١.

(٤) في (م): بتمكن.

(٥) انظر ص ٣٠١ ــ ٣٠٧ من هذا الجزء.

ولما دخل مجير الدين دمشق أقطع بَعْلَبَكّ مُعين الدين أُنَر، فأرسل
إليها نائبه وتسلمها. فلما علم الشهيد ذلك سار إلى بعلبك، وحصرها عِدَّة ٣٤/١
شهور، فملكها عَنْوَةً، وترك بها نجمَ الدين أيوب، والد صلاح الدين دُزْداراً*،
وعزم على العَوْد عنها إلى دمشق، فجاءته رسل صاحبها ببذل الطاعة
والخطبة، فأجابه إلى ذلك، وعاد عن قصد دمشق، وقد خُطب له فيها، وصار
أصحابها في طاعته وتحت حكمه(١).

قال يحيى بن أبي طيّ الحلبي: واتّفق أن الأمراء لمَّا نزلوا من بَعْلَبَك أفسدوا ذخائرها، فقبض عليهم أتابك زَنْكي، وقتل بعضَهم وصلبهم، وكان ولّى قتلهم صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني. فحكى أنه أُحضر إليه في جملة الأمراء شيخ مليح الشيبة، ومعه ولدٌ له أَمْرَد كأنه فلقة قمر، فقال الشيخ لصلاح الدين: سألتك بحياة المولى أتابك إلا صلبتني قبل ولدي لئلا أراه يعالج سكرات الموت. وبكى، وكان نجم الدين أيّوب واقفاً، فرحم الشيخ وبكى، وسأل صلاحَ الدين في إطلاقه فقال: ما أفعل خوفاً من المولى أتابك. فذهب نجم الدين إلى أتابك، وسأله في الشَّيخ وولده، وقصَّ عليه ما قاله، فأذن بإطلاقه وإطلاق من بقي من الجماعة، ووهبه نصف بَعْلَبَك.

وقيل: إنَّ نجم الدين ورد على أتابك وهو قد ملك بعلبك، فسأله في الأمراء فأطلقهم له، وولّاه بعلبك، وكتب له ثُلُثها ملكاً، واستقرَّ فيها هو وأهلُه، ولم يزل بها إلى أيام نور الدين محمود بن زَنْكي، فأخرجَه منها على ما سنذكره(٢).

(١) انظر «الباهر»: ٥٧ ــ ٥٩، وليس ثمت ذكر للخطبة له في دمشق عند القلانسي في «ذيل تاريخ دمشق» طبعة زكار: ٤٢٤ ــ ٤٢٨، و«الكامل»: ١١/٧٣ ــ ٧٥، أما حصار دمشق فكان بعد فتح بعلبك كما في المصدرين السابقين. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٢٢ ــ ٤٢٣، و«الكامل»: ١١/٦٨.
(٢) انظر ص ٣١٨ من هذا الجزء.

ثم إن أتابك بعد ملكه بعلبك سار إلى دمشق، فنزل البقاع، فوردت
[ل٣٤/أ] هدية صاحب دمشق، وطلب العود، ويعطيه خمسين ألف / دينار، ويعطيه حمص. فأشار نجم الدين على زَنْكي بقبول ذلك، وقال: هذا مال كثير، وقد حصل بلا تعب وبلد كبير بلا عناء، ودمشق بلدٌ عظيم، وقد أَلِفَ أهله هذا البيت وتمرَّنوا على سياستهم، وقد بلغتهم الأحوال التي جرت ببعلبك.
[٣١/أ] / فامتنع زَنْكي من قبول ما أشار به، ففاته ذلك ولم يظفر بغرضه.

فصل

ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة، وهي سنة أربع وثلاثين[(١)]، إلى بلاد الفرنج، فأغار عليها، واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه، فلقيهم بالقرب من حصن بارِين*، وهو للفرنج، فصبر الفريقان صبراً لم يُسمع بمثله إلا ما يُحكى عن ليلة الهرير[(٢)]، ونصر الله المسلمين، وهرب ملوكُ الفرنج وفُرسانهم، فدخلوا حصن بارِين، وفيهم ملك القُدْس؛ لأنه كان أقرب حصونهم، وأسلموا عدَّتهم وعتادهم، وكثر فيهم الجراح. ثم سار الشهيد إلى حصن بارِين، فحصره حصراً شديداً، فراسلوه في طلب الأمان لِيَسْلَموا ويُسَلِّموا الحصن، فأبى إلا أخذَهم قهراً. فبلغه أنّ مَنْ بالسَّاحل من الفرنج قد ساروا إلى الرُّوم والفرنج يستنجدونهم، ويُنْهُون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر؛ فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل، ومَنْ بالحصن لا يعلمون شيئاً[(٣)] من ذلك لقوّة الحصر عليهم. فأعادوا مراسلته في طلب الأمان،

---

(١) في «ذيل تاريخ دمشق» طبعة زكار: ٤٠٧ ـ ٤٠٨، و«الكامل»: ١١/٥١ ـ ٥٢ تسلم زنكي حصن بارين سنة (٥٣١هـ) وهو الأصح.

(٢) تطلق ليلة الهرير على إحدى ليالي صفين، وإحدى ليالي القادسية، وقد بلغ بهما القتال أشده. انظر «ثمار القلوب»: ٦٣٧، و«الكامل» لابن الأثير: ٢/٤٧٩ ـ ٤٨٥.

(٣) في (م): بشيء.

فأجابهم وتسلّم الحصن، وساروا، فلقيتهم أمداد النصارى[1]، فسألوهم عن حالهم، فأخبروهم بتسليم الحصن، فلاموهم وقالوا: عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين! فحلفوا لهم إنّا لم نعلم بوصولكم، ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حُصرنا وإلى الآن، فلما عميت الأخبار عنا ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا، فَحَقَنّا دماءنا بتسليم الحصن[2].

قال ابن الأثير: وكان حصن بارِين* من أضرِّ بلاد الفرنج على المسلمين، فإن أهله كانوا قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها، وتقطَّعت السُّبُل، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم. وفي مُدَّة مقامه على حصن بارِين سيّر جنده إلى المعرة* وكفرطاب* وتلك الولاية جميعها، فاستولى عليها وملكها، وهي بلاد كثيرة وقرايا عظيمة[3].

قلت: وقد قال القَيْسَراني يذكر هزيمةَ الفرنج ويمدح زَنْكي قصيدةً أولها:

حَذار مِنّا، وأنّى ينفعُ الحذر ... وَهْيَ الصَّوارم لا تُبقي ولا تَذَرُ
وأين تنجو ملوكُ الشِّرْك من ملكٍ ... مِنْ خَيْلِهِ النَّصْرُ، لا بل جُنْدُه القَدَرُ
/ سلُّوا سيوفاً كأغماد السُّيوفِ بها ... صالوا فما غَمَدُوا نَصْلاً[4] ولا شَهَروا [ن ٣٤/ ب]
/ حتى إذا ما عمادُ الدِّين أرْهَقَهُمْ ... في مأزق مِنْ سَنَاه يَبْرُقُ البَصَرُ [٣١/ب]
وَلَّوْا تضيقُ بهم ذَرْعاً مسالكُهم ... والموتُ لا ملجأٌ منه ولا وَزَرُ
وفي المسافة من دون النَّجاة بهم ... طُولٌ وإنْ كان في أقطارها قِصَرُ
وأصبحَ الدِّين لا عيناً ولا أثراً ... يخافُ والكُفْرُ لا عينٌ ولا أَثَرُ

---

(١) في (م) النصرانية.
(٢) انظر «الباهر»: ٥٩ ـ ٦١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) في (ل) أيضاً، والمثبت من (م).

فلَا تَخفْ بعدَها الإفرنج قاطبةً ... فالقومُ إن نفروا أَلْوَى بهم نَفَرُ
إن قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبوا ... أو طاردوا طُرِدوا أو حاصروا حُصِروا
وطالما استفحلَ الْخَطْبُ البهيمُ بهم ... حتّى أتى مَلِكٌ آراؤه غُرَرُ
والسَّيْفُ مُفْترِعُ أبكارَ أنفسهم ... ومِنْ هنالك قيل[1] الصَّارِمُ الذَّكَرُ
لا فارَقَتْ ظِلَّ محيي العَدْل لامعةً ... كالصُّبْح تطوي من الأعداء ما نَشَرُوا
٣٥/١ ولَا انثنى النَّصْرُ عن أنصار دَوْلته ... بحيثُ كان وإن كانوا به نُصِرُوا
حتّى تعودَ ثُغورُ الشَّام ضاحكةً ... كأنما حَلَّ في أكنافها عُمَرُ

وقال ابنُ منير:

فَدَتْكَ الملوكُ وأيّامُها ... ودان[2] لنقضك إبرامُها
وزلّت لِعَيْنِك أَقْدَامُها ... وزَالَ لبطشك إقْدَامُها
ولو لم تُسلِّم إليكَ القلوبُ ... هواها لما صحَّ إسلامُها
أيَا محيي العَدْل لَمَّا نعاهُ ... أيامَى البرايا وأيتامُها
ومُسْتَنْقِذَ الدِّين من أُمَّةٍ ... أذال المحاريب أصنامها
دَلَفْتَ لها تقْتفيك الأسُو ... دُ والبيض والسُّمر آجامُها
جَزَرْتَ[3] جزيرتَها بالسُّيو ... فِ حتى تشاءمها شامُها
وصارت عواريَّ أكنافِهِ ... متى شئت أَرْخَصَ مُسْتامُها

قال ابن الأثير: ولما وصل الرُّوم والفرنج إلى الشَّام، ورأوا الأمر قد فات، أرادوا جَبْرَ مُصيبتهم بمنازلة بعض بلادِ المسلمين، فنازلوا حلب وحَصَرُوها، فلم يَرَ الشّهيد أن يخاطر بالمسلمين ويلقاهم، لأنهم كانوا في جمع عظيم. فانحاز عنهم، ونزل قريباً منهم، يمنع عنهم الميرة، ويحفظُ أطرافَ

(١) في (م) قتل، وفي (ل) قبل، وكلاهما تصحيف. والصواب ما أثبتناه.
(٢) في (م): وكان.
(٣) قطعت. «اللسان» (جزر).

البلاد من انتشار العدوّ/فيها، والإغارة عليها. وأرسل القاضيَ كمال الدين بن [٣٢/أ] الشهرزوري إلى السُّلطان مسعود ينهي إليه حال البلاد[1] وكثرة العدوّ، / [ل ٣٥/ أ] ويطلب منه النّجدة وإرسال العساكر. فقال له كمال الدين: أخاف [ل ٣٥/ أ] أن تخرجَ البلادُ من أيدينا، ويجعل السلطانُ هذا حُجَّة ويُنفّذ العساكر، فإذا توسّطوا البلادَ ملكوها. فقال الشّهيد: إن هذا العدوَّ قد طمع في البلاد، وإنْ أخَذَ حلب لم يبقَ بالشَّام إسلام، وعلى كل حال فالمسلمون أَوْلى بها من الكُفَّار. قال: فلمَّا وصلتُ إلى بغداد وأديت الرسالة، وعدني السلطان بإنفاذ العساكر، ثم أهمل ذلك ولم يتحرَّك فيه بشيء، وكُتُبُ الشَّهيد إليَّ متّصلةٌ يحثني على المبادرة بإنفاذ العساكر، وأنا أخاطبُ فلا أُزادُ على الوعد[2]. قال: فلما رأيت قِلَّة اهتمام السلطان بهذا الأمر العظيم أحضرتُ فلاناً ــ وهو فقيه كان ينوب عنه في القضاء ــ فقلتُ: خذ هذه الدنانير وفرقها في جماعة من أوباش بغداد والأعاجم، وإذا كان يوم الجمعة، وصَعِدَ الخطيب المنبر بجامع القصر قاموا، وأنت معهم، واستغاثوا بصوتٍ واحد: وَا إِسْلاماه! وَادِينَ مُحمَّدَاه! ويخرجون من الجامع ويقصدون دار السلطنة مستغيثين. ثم وضعت إنساناً آخر يفعل مثل ذلك في جامع السلطان. فلما كانت الجمعة وصعِد الخطيب المنبر، قام ذلك الفقيه وشق ثوبه وألقى عِمامته عن رأسه، وصاح، وتبعه أولئك النَّفر بالصّياح والبكاء، فلم يبق بالجامع إلاّ مَن قام يبكي، وبطلت الجمعة، وسار الناس كلُّهم إلى دار السلطان. وقد فعل أولئك الذين بجامع السلطان مثلهم، فاجتمع أهلُ بغداد وكلُّ من بالعسكر عند دار السلطان، يبكون ويصرخون ويستغيثون، وخرج الأمر عن الضّبط، وخاف السلطان في داره وقال: ما الخبر؟ فقيل له: إن الناس قد ثاروا حيث لم ترسل

(١) في (ل): ينهي إليه الحال، والمثبت من (م).

(٢) في (م): الوعيد، وهو تحريف..

[٣٣/أ] العساكر إلى الغَزَاة. فقال(١): / أحضروا ابن الشَّهْرُزُوري. قال: فحضرت عنده وأنا خائف منه، إلَّا أنّني قد عزمت على صِدْقه وقول الحق. فلما دخلت عليه قال: يا قاضي، ما هذه الفتنة؟ فقلت: إن الناس قد فعلوا هذا خوفاً من الفتنة والشر، ولا شك أن السلطان ما يعلمُ كم بينه وبين العدو، وإنما بينكم نحو أسبوع، ولئن أخذوا حلب انحدروا إليك في الفرات وفي البر، وليس بينكم بلد يمنعهم(٢) عن بغداد. وعظَّمْتُ الأمر عليه حتى جعلته كأنه ينظر إليهم فقال: اردُدْ هؤلاء العامة عنا، وخُذْ من العساكر ما شئتَ، وسِرْ بهم والأَمداد تلحقك. قال: فخرجت إلى العامة ومن انضم إليهم(٣)، وعرَّفتهم الحال، وأمرتهم بالعود، فعادوا وتفرَّقوا. وانتخبتُ من عسكره عشرة آلاف فارس(٤)، وكتبت إلى الشَّهيد أُعرِّفُه الخبر، وأنّه لم يبق غيرُ المسير، وأُجدِّدُ استئذانه في ذلك. فأمرني بتسييرهم والحثِّ على ذلك، فعَبَرتِ العساكر الجانبَ الغربي، فبينما نحن نتجهز للحركة وَإذَا قد وصل نجَّابٌ من الشّهيد يخبر أن الرُّومَ والفرنج قد رحلوا عن حلب خائبين، لم ينالوا منها غرضاً، ويأمرني بترك استصحاب العساكر. فلما خوطب السلطان في ذلك أصرَّ على إنفاذ العساكر إلى الجهاد وقصد بلاد الفرنج وأخذها؛ وكان قصده أن تطأ
١/٣٦ عساكره البلاد بهذه الحجة فيملكها. قال: فلم أزل أتوصَّل مع الوزير وأكابر الدولة حتّى أَعدْتُ العساكر إلى الجانب الشرقي، وسرت إلى الشَّهيد(٥).

---

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في نسخة الأصل، ومن ثم نعود إلى أصلنا في التحقيق. انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٢٦ من هذا الجزء.

(٢) في (م): يمنعكم، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: معهم، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في «الباهر»: «عشرين ألف فارس».

(٥) انظر «الباهر»: ٦٢ ـ ٦٣، وفي «الكامل»: ١١/٥٨ ـ ٥٩، وذكر الخبر في حوادث سنة (٥٣١هـ). انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٣٠ من هذا الجزء.

قال ابن الأثير: فانظر[1] إلى هذا الرجل الذي هو خير من عشرة آلاف فارس ــ يعني كمالَ الدين ــ رحم الله الشهيد، فلقد كان ذا هِمَّة عالية، ورغبة في الرجال ذوي الرأي والعقل، يرغبهم ويخطبهم من البلاد، ويُوفِّر لهم العطاء. حكى لي والدي قال: قيل للشهيد: إنَ هذا كمال الدِّين يحصل له في كل سنة منك ما يزيد على عشرة آلاف دينار أميرية، وغيره يقنع منك بخمس مئة دينار. فقال لهم: بهذا العقل والرَّأي تدبِّرون دولتي! إن كمال الدين يقلُّ له هذا القدر، وغيره يكثُر له خمس مئة دينار! فإنّ شغلاً واحداً يقوم فيه كمال الدين خيرٌ من مئة ألف دينار. وكان كما قال رحمه الله تعالى[2].

فصل

قال: وفي سنة سبع وثلاثين [وخمس مئة][3] سار الشهيد إلى بلد الهكَّارِية*، وكان بيد الأكراد، وقد أكثروا في البلاد الفساد، إلا أن نصير الدين جَقَر نائب السلطان الشهيد بالمَوْصل كان قد ملك كثيراً من بلادهم. فلما بلغها الشهيد حصر قلعة الشعباني؛ وهي من أعظم قلاعهم وأحصنها، فملكها وأخربها، وأمر ببناء قلعة العِمَادية* عوضاً عنها[4]. وكانت هذه العمادية حصناً كبيراً عظيماً فأخربه الأكراد لعجزهم عن حفظه لكبره. فلما

---

(١) في (ل) و(م): فانظروا.

(٢) «الباهر»: ٦٣.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) في إحدى نسخ «الكامل»: ٩١/١١، ١٥ أنه أقام قلعة العمادية على أنقاض قلعة آشب، وهو ما ذكره أيضاً ياقوت في «معجم البلدان»: ١٤٩/٤، ولم يذكر ياقوت قلعة الشعباني في كتابه. وفي ذكر ابن الأثير لهذا الخبر اضطراب سببه عدم معرفته كما صرح، فتارة يقول هي قلعة جلاب، ثم يقول هي قلعة آشب، ولم يعرف تماماً تاريخ فتحها، وقد ذكرها أيضاً في حوادث سنة (٥٢٨هـ). انظر «الكامل»: ١٤/١١ ــ ١٦.

ملك أتابك الشهيد البلاد التي لهم قال: إذا عجز الأكراد عن هذا الحصن فأنا بحول الله لا أعجز عنه. فأمر ببنائه، وكان رحمه الله ذا عزم ونفاذ أمرٍ، فَبُني وسماه القلعة العمادية، نسبةً[1] إلى لقبه [عماد الدين][2].

وفي هذه السنة خُطب لأتابك بآمِد*، وكان قد أرسل إلى صاحبها يطلب منه الانفصال عن موافقة ركن الدولة داود صاحب الحصن، والانتماء إلى خدمته والخطبة له، فأجابه إلى ذلك[3].

وفيها [ملك الشَّهيد مدينة عانة*][4].

وفيها حصر مدينة حمص مرة أخرى وفتحها في شوال، وقصد ولاية دمشق فشتى بها.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين عزم السلطان مسعود[5] على قصد المَوْصل بعساكره، وكان قد وقع بينه وبين الشهيد وحشة[6]. فترددت الرسل بينهما حتى استقرتِ الحال على مئة ألف دينار إمامية يحملها الشهيد إلى السُّلْطان، وطلب أن يحضر الشهيد في خدمته، فامتنع، واعتذر باشتغاله بالفرنج، فعذره وشَرَطَ عليه فتح الرُّها*. وكان من أعظم الأسباب في تأخر السلطان عن قصد الموصل أنه قيل له إن تلك[7] البلاد لا يقدر على حفظها من

---

(١) في (ل): ونسبَةُ.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في «الكامل»: ١١/٨٨ كان ذلك سنة (٥٣٦هـ).

(٤) في هامش الأصل «حصر مدينة عانة» صح: وما بين حاصرتين مثبت من (ل) و(م) وفي «الكامل»: ١١/٩٦ أورد ابن الأثير الخبر في حوادث سنة (٥٣٨هـ)، وانظر «الباهر»: ٦٤.

(٥) في الأصل: محمود، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) في الأصل: وحشية، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٧) في (ل) ملك، وهو تصحيف.

الفرنـج غير أتابك عماد الدين؛ فإنها[1] قد وليها قبله مثل جاولي سقاوه، ومودود، وجيوش بك، والبُرْسُقي، وغيرهم من الأكابر[2]، وكان السلاطين يُمِدّونهم بالعساكر الكثيرة ولا يقدرون على حفظها، ولا يزال الفرنـج يأخذون منها البلد بعد البلد إلى أن وليها أتابك. فلم يُمدّه أحد من السلاطين بفارسٍ واحد ولا بمال، ومـع هذا فقد فتـح من بلاد العدو عدة حصون وولايات، وهزمهم غير مرة، واستضعفهم، وعز الإسلام به.

ومن الأسباب المانعة له أيضاً أن الشهيد كان لا يزال ولـده الأكبر سيف الدين غازي في خدمة السلطان مسعود بأمر والده، وكان السلطان يحبه ويُقرِّبه، ويعتمد عليه ويثق به، فأرسل إليه الشهيد يأمره بالهرب والمجيء إلى المَوْصل، وأرسل إلى نائبه بالمَوْصل يأمره أن يمنعه من دخول الموصل ومن المسير إليه أيضاً. ففعل ذلك، وقال له: ترسل إلى والدك تستأذنه في الذي تفعله. فأرسل إليه، فعاد الجواب: إنني لا أريدك مهما السلطان ساخط عليك. وألزمه بالعود إليه، فعاد ومعه رسولٌ إلى السلطان يقول له: إنني لمّا بلغني أن ولدي فارق الخدمـة بغير إذن لم أجتمـع بـه ورَدَدْتُه إلى بابك. فحلَّ هذا عند السلطان محلاً كبيراً، وأجاب إلى ما أراد الشهيد.

ولما استقر المال [حمل][3] منه نحو عشرين ألف دينار. ثم إن الأمور تقلبت وعاد أصحاب الأطراف خرجوا على السلطان، فاحتاج إلى مداراة الشهيد، فأطلقَ[4] له الباقي استمالة له[5].

---

(١) في الأصل: فإنه، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (م) الأمراء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وفي (ل) وحمل، والمثبت من (م).

(٤) في (ل) و(م): وأطلق.

(٥) انظر «الباهر»: ٦٥ ــ ٦٦، و«الكامل»: ١١/٩٣ ــ ٩٤.

وفي هذه السنة سار الشهيد إلى ديار بكر ففتح عِدَّة بلاد منها طَنْزَة*، وإسْعِرد*، وملك مدينة المعدِن* الذي يعمل منه النحاس من أرمينية، ومدينة حِيْزَان*، وأخذ من أعمال مارِدين* عدة مواضع، ورتَّب أمور الجميع، وملك مدينة حاني*، وحاصر آمِد*(١)، وأرسل عسكراً إلى مدينة عانة*، فملكها له، وقد تقدَّم ذكرها في السنة قبلها.

فصـــل

في فتح الشهيد الرُّها* في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمس مئة. وكانت لجوسلين*، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم، والمقدَّم على رجالهم وفرسانهم. وكان مدة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً، وأعادها إلى حكم الإسلام. وهذه الرُّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً، وهي إحدى(٢) الكراسيّ عندهم، فأشرفها(٣) البيت المقدس، ثم أنطاكية*، ثم رومية وقُسْطنطينية والرُّها.

وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرُّها شرٌّ عظيم، وملكوا من نواحي مارِدين* إلى الفرات على طريق شبختان(٤) عدة حصون كسَرُوج*، والبِيْرَة*، وجُملين، والمُوَزَّر*. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمِد* من ديار بكر، ومارِدين*، ونَصِيبين*، ورأس عين*، والرَّقَّة*. وأما حَرَّان* فكانت معهم في الخزي
٣٧/١ كل يوم قد صبَّحوها بالغارة. فلما رأى الشهيد الحال هكذا أَنِفَ منهم، وعلم أنه لا ينال منها غرضاً ما دام جوسلين بها. فأخذ في إعمال الحيل والخداع، لعل

(١) انظر «الباهر»: ٦٦، و«الكامل»: ٩٤/١١.
(٢) في (ل) و(م) أحد.
(٣) في (ل) وأشرفها.
(٤) في الأصل: سنجار، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر «الباهر»: ٦٧.

جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع، فتشاغل عنها بقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام كحاني* وجبل جور وآمِد*؛ فكان يقاتل مَنْ بها قتالاً فيه إبقاء، وهو يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء[1]، فهو يخطبها وعلى غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم. ووكَّل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ظَنَّ أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرُّها إلى بلاده الشَّاميّة، ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرُّها.

ثم وصف ابنُ الأثير الجيشَ وأنشد:

بجيشٍ جاش بالفُرْسان حتى	ظننتُ البرَّ بحراً من سلاحِ
وألسنةٍ من العَذبات حُمْرٍ	تخاطبنا بأفواه الرِّياحِ
وأروعَ جيشُه ليلٌ بهيم	وغُرَّتهُ عمود للصباحِ
صَفوحٌ عند قُدْرته ولكن	قليلُ الصفح ما بين الصِّفاحِ
فكان ثباتُه للقلب قلباً	وهيبته جناحاً للجناحِ

وألَحَّ الشهيد في حصارها، فملكها عَنْوَةً، فاستَباحها، ونكس صلبانها، وأباد قُسُوسها ورُهبانها، وقتل شجعانها وفرسانها، وملأ الناس أيديهم من النَّهْب والسَّبي، ثم إنه دخل البلد فراقه، فأَنِفَ لمثله من الخراب، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فَرُدُّوا عن آخرهم، لم يُفْقَد منهم إلا الشّاذّ والنّادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً. ثم رتَّبَ البلد وأصلح من شأنه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا، كَسَرُوج* وغيرها، وأخْلَى

(١) أي يظهر أخذ الرغوة وهو يحسو اللبن، وهو مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد غيره، انظر «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري: ٢/٤١٢ ـ ٤١٣، و«اللسان» (رغا).

ديار الجزيرة من معرَّة الفرنـج وشرهم، وأصبـح أهلها بعد الخوف آمنين، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره، وطاب بها نَشْره، وشهده خَلْقٌ كثير من الصالحين والأولياء.

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة أعرف صلاحهم أنَّهم رَأَوْا يوم فتـح الرُّها الشّيـخ أبا عبد الله بن علي بن مهران الفقيه الشافعي؛ وكان من العلماء العاملين، والزّاهدين في الدّنيا، المنقطعين عنها، وله الكرامات الظاهرة. ذكروا عنه أنّه غاب عنهم في زاويته يومه ذلك، ثم خرج عليهم وهو مُسْتَبْشِرٌ مسرور، عنده من الارتياح ما لم يروه أبداً، فلما قعد معهم(١) قال: حدثني بعض إخواننا أن أتابك زَنْكي فتـح مدينة الرُّها، وأنّه شهد معه فتحها يومنا هذا. ثم قال: ما يضرُّك يا زَنْكي ما فعلتَ بعد اليوم. يُردّد هذا القول مراراً، فضبطوا ذلك اليوم فكان يوم الفتـح. ثم إن نفراً من الأجناد حضروا عند هذا الشَّيـخ وقالوا [له](٢): منذُ رأيناك على السّور تكبّر أيقنّا بالفتـح. وهو ينكر حضوره، وهم يقسمون أنهم رأوه عياناً(٣).

قال: وحكى لي بعضُ العلماء بالأخبار والأنساب؛ وهو أعلم من رأيت بها، قال: كان ملك جزيرة صِقِلِّية* من الفرنـج لما فتحت الرُّها، وكان بها بعض الصَّالحين من المغاربة المسلمين، وكان الملك يُحضره ويكرمـه، ويرجـع إلى قوله، ويقدِّمه على مَن عنده من الرهبان والقسيسين. فلما كان الوقتُ الذي فُتحت فيه الرُّها سيّر هذا ملكُ الإفرنـج جيشاً في البحر إلى إفريقية فنهبوا وأغاروا وأسروا، وجاءت الأخبار إلى الملك وهو جالسٌ وعنده هذا العالم المغربـي وقد نَعَس وهو شبيه النائم، فأيقظه الملك وقال: يا فقيه،

---

(١) في الأصل: عندهم، والمثبت من (ل) و(م) و«الباهر»: ٧٠.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) انظر «الباهر»: ٧٠.

قد فعل أصحابنا بالمسلمين كيت وكيت، أين كان محمد عن نصرهم[1]؟ فقال له: كان قد حضر فتح الرُّها. فتضاحك مَنْ عنده من الفرنج، فقال لهم الملك: لا تضحكوا، فوالله ما قال عن غير علم. واشتد هذا على الملك، فلم يمض غيرُ قليلٍ حتّى أتاهم الخبر بفتحها على المسلمين، فأنساهم شدةُ هذا الوهن رخاءَ ذلك الخبر؛ لعلوِّ منزلة الرُّها عند النَّصرانية[2].

قال: وحكى لي أيضاً غيرُ واحد ممن أثق إليهم[3]، أن رجلاً من الصالحين قال: رأيتُ الشَّهيد بعد قتله في المنام في أحسن حال، فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. قلت[4]: بماذا؟ قال: بفتح الرُّها[5].

قلتُ: وهنأه القَيْسَراني عند فتح الرُّها بقصيدةٍ أولها:

هو السَّيْفُ لا يُغْنيك إلا جِلادُهُ ... وهل طوَّق الأملاكَ إلا نِجادُهُ

وعن ثَغْر هذا النَّصْرِ فلتأخذِ الظُّبى ... سناها وإن فاتَ العيونَ اتقادُه

سمت قُبَّة[6] الإسلام فخراً بطَوْله ... ولم يكُ يسمو الدِّينُ لولا عِمادُهُ

وذاد قسيمُ الدَّولة ابنُ قسيمِها ... عنِ الله ما لا يُسْتَطَاعُ ذيادُهُ

لِيَهْنِ بني الإيمان أمنٌ ترفَّعَتْ ... رواسيه عِزًّا واطمأنَّ مِهادُهُ

38/1 وفتحٌ حديثٌ في السماع حَدِيْثُه ... شهيٌّ إلى يوم المَعادِ مُعادُه

أراحَ قلوباً طِرْنَ من[7] وُكُناتِها[8] ... عليها فوافى كلَّ صدر فؤادُهُ

لقد كان في فتح الرُّهاء دلالةٌ ... على غير ما عند العُلُوج اعتقادُهُ

(1) في (ل): نصرتهم.
(2) «الباهر»: 70.
(3) كذا في النسخ الخطية، والصواب «بهم».
(4) في (م): فقلت.
(5) «الباهر»: 70.
(6) في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: 1/155 «قبلة».
(7) في (ل) و(م): عن.
(8) مفردها وَكْن، وهو عش الطائر في جبل أو جدار. انظر «اللسان» (وكن).

يُـرَجُّـون ميـلاد ابن مـريمَ نُصـرةً ... ولم يُغْنِ عند القوم عنهم[1] ولادُه

مدينةُ إفْكٍ منذ خمسين[2] حِجَّـةً ... يفـلُّ حديـدَ الهـنـد عنهـا حـدادُهُ

تفوتُ مدى الأبصـار حتى لوَ انَّها ... تـرقَّتْ إليه خـانَ طَرْفـاً سـوادُهُ[3]

وجـامحـةً عَـزَّ الملوكَ قِيـادُهـا ... إلى أَنْ ثنـاهـا مَنْ يعِـزُّ قِيـادُهُ

فـأوسعَهـا حـرَّ القِـرَاعِ مُؤَيَّـدٌ ... بصيـرٌ بتمـريـن الألـدِّ لِـدَادُهُ

كـأَنَّ سنـا لَمْـعِ الأسنَّةِ حَـوْلَـه ... شَـرَارٌ ولكنْ في يـديـه زِنـادُهُ

فأضْرَمها نـارَيْن: حَرْبـاً وخَـدْعـةً ... فمـا راعَ إلاّ سـورُهـا وانْهـدادُهُ

فصدَّت صُدُودَ البِكْرِ عند افْتضاضها ... وهيهات كان السيفُ حتماً سِفاده[4]

فيـا ظَفَـراً عمَّ البـلادَ صـلاحُـه ... بمن كـان قـد عمَّ البلادَ فسادُهُ

فـلا مُـطْلَقٌ إلا وَشُـدَّ وثَـاقُـه ... ولا مُـوثَـقٌ إلاّ وحُـلَّ صِـفـادُهُ

ولا مِـنْـبَـرٌ إلا تـرنَّح عُـودُه ... ولا مُـصْـحَـفٌ إلا أنـار مِـدَادُهُ

فـإن يثكل الإبـرنـز فيهـا حيـاتـه ... وإلا فَقُـلْ للنَّجْمِ كيف سُهـادُهُ

وباتت سرايا القمص تقمص[5] دونَها ... كمـا يتنـزَّى عن حـريقٍ جـرادُهُ

إلى أينَ يا أسرى الضَّلالةِ بعـدهـا ... لقـد ذَلَّ غـاويكُم وعَـزَّ رشـادُهُ

رُوَيْـدَكُـمُ لا مـانـعٌ من مُـظَفَّـرٍ ... يعـانِدُ أسبـابَ القضـاءِ عِنـادُهُ

مُصيبُ سهام الرأي لـو أنَّ عَزْمَـهُ ... رمى سَدَّ ذي القَرْنين أصمى سَدادُهُ

وقـل لملوك الكُفْرِ تُسلِمُ بعـدهـا ... مـمـالـكَـهـا إن البـلادَ بـلادُهُ

كذا عن طريق الصُّبْحِ أيتُها الدُّجى ... فيـا طالمـا غـالَ الظلامَ امتـدادُهُ

---

(١) في الأصل و (م) عنه، وهو تصحيف، والمثبت من (ل). وقد سقط سور المدينة عشية عيد الميلاد. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ٣٨٠ (الترجمة العربية).

(٢) في الأصل و (ل) خمسون، والمثبت من (م).

(٣) في (ل) سهاده.

(٤) في (ل) نفاده.

(٥) أي تثب. انظر «اللسان» (قمص).

ومن كـان أملاكُ السَّمـواتِ جنَدَه | فـأيةُ أرضٍ لم تـرضهـا[1] جيـادُهُ
ولله[2] عـزمٌ ماءُ سَيْحـان[3] وِرْدُهُ | وروضـة قُسْـطَنْطِيْنَـةٍ مُستـراده[4]

وله من قصيدةٍ هنّأ بها القاضي كمال الدين بن الشَّهْـرُزُوْري أَوَّلُها:

هـي جنـة المأوى فهل مِنْ خاطب.

يقول فيها:

إن الصَّفَائـح يومَ صافحت الرُّهـا | عطفت عليها كل أَشْوسَ[5] ناكبِ
فتـح الفُتـوح مبشِّـراً بتـمـامـه | كـالفَجْرِ في صَـدْرِ النَّهـار الآيبِ
لله أيَّـة وقـفـةٍ[6] بَـدْرِيَّـةٍ | نُصـرت صحابتهـا بأيمنِ صـاحبِ
ظفـرٌ كمـال الـدّين كنتَ لقـاحَـه | كم ناهضٍ بالحرب غيرِ مُحَاربِ
وأمـدَّكم جيشُ المـلائـك نُصـرةً | بكتـائب محفـوفـةٍ[7] بكـتـائب
جنبوا الدَّبورَ[8] وقُدْتُمُ ريحَ الصَّبا | جنـدُ النُّبوة هَـلْ لهـا من غـالبِ

---

(١) في «الخريدة»: تطأها.
(٢) في (ل): فلله.
(٣) سيحان: نهر كبير بالثغر من نواحي المصيصة، وهو نهر أذنة بين أنطاكية والروم، يمر بأذنة ثم ينفصل عنها نحو ستة أميال، فيصب في بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط). «معجم البلدان»: ٣/٢٩٣.
(٤) أي مكان ارتياده. «معجم متن اللغة»: ٢/٦٧٦. وبعض أبيات القصيدة في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ١/١٥٤ ــ ١٥٥.
(٥) الجريء على القتال، الشديد. انظر «اللسان» (شوس).
(٦) كذا في النسخ الخطية، ولعلها وقعة.
(٧) في (م) محثوثة.
(٨) هي ريح تهب من نحو المغرب، والصبا تقابلها من ناحية المشرق. انظر «اللسان» (دبر).

أترى الرُّها [الوَرْهاء](١) يوم تمنَّعَتْ ... ظَنَّتْ وجوبَ السورِ(٢) سَوْرَةَ لاعبِ
لا أين يا أسرى(٣) المهالك بعدَها ... ضاقَ الفضاءُ على نجاةِ الهارب
شدًّا إلى أرضِ الفرنجة بعدَها ... إن الدُّروبَ على الطّريق اللاَّحب
أفغرَّكم والثّارُ رهنُ دمائكم ... ما كان من إطراق لَحْظ الطَّالبِ
وإذا رأيت اللّيث يَجْمَعُ نفسَه ... دونَ الفريسة فهو عينُ الواثبِ

٣٩/١ وقال ابن منير:

صفاتُ مجدِكَ لفظٌ جلَّ معناه ... فلا استردَّ الذي أعْطاكهُ اللهُ(٤)
يا صارماً بيمينِ الله قائِمُهُ ... وفي أعالي أعادي اللّهِ حَدَّاه
أَصْبَحْتَ دُون ملوك الأرض مُنفرداً ... بلا شبيهٍ إذِ الأَملاكُ أشْباه
فداك من حاولَتْ مسعاك هِمَّتُهُ ... جهلاً وقصَّرَ عن مسعاكَ مسعاه
قُلْ للأعادي ألاَ موتوا به كمداً ... فاللَّهُ خيَّبكُم واللَّهُ أعطاه
مَلْكٌ تنامُ عن الفحشاءِ هِمَّتُهُ ... تُقًى وتَسهرُ للمعروفِ عَيْنَاه
ما زال يَسْمُكُ(٥) والأيامُ(٦) تخدُمه ... فيما ابتلاه وتُدْني ما توخَّاه
حتى تعالتْ عن الشِّعْرَى(٧) مشاعِرُهُ ... قَدْراً وجاوزتِ الجوزاءَ نَعْلاه
وقد روى النَّاسُ أخْبارَ الكرام مَضَوْا ... وأين مِمَّا رَوَوْه ما رأيناه
أين الخلائف عن فتحٍ أُتيح له ... مظلِّلٍ أُفُقَ الدُّنيا جناحاه

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). والورهاء: الخرقاء. «اللسان» (وره).
(٢) أي سقوط السور. انظر «اللسان» (وجب).
(٣) في (م) ما أسرى.
(٤) هذا البيت ليس في (ل).
(٥) أي يرتفع. «اللسان» (سمك).
(٦) في (م) الأقدار.
(٧) الشعرى: كوكب نير يطلع بعد الجوزاء. انظر «اللسان» (شعر).

عليٰ[1] المنابر من أنبائه[2] أَرَجٌ   مقطوبةٌ بفتيق المِسْك ريَّاه
فتحٌ أعادَ على الإسلام بهجَتَهُ   فافترَّ مبسمُه واهتزَّ عِطْفَاه
يُهْدَى بمعتصمٍ بالله فتكته   حَدِيْثُها نَسَخَ الماضي وأنساه
إنَّ الرُّها غير عمُّوريةٍ[3] وكذا   مَنْ رامها ليس مَغْزَاهُ كمغزاه
أخت الكواكب عِزًّا ما بغَى أحدٌ   من الملوكِ لها وَقْماً[4] فواتاه
حتّى دَلَفْتَ لها بالعَزْم يشحذُه   رأيٌ يبيتُ فُوَيْقَ النَّجْمِ مسراه
مشمِّراً وبنو الإسلام في شُغُلٍ   عن بَدْءِ غَرْسٍ لهم أثْمارُ عقباه
يا مُحيي العَدْلِ إذ قامت نَوَادِبُه   وعامرَ الجُودِ لماحٍّ[5] معناه
يا نعمةَ الله يستصْفي المزيد بها   للشّاكرين ويستقني صفاياه
أبقاكَ للدِّين والدُّنيا تحوطُهما   من لمْ يُتوِّجْكَ هذا التَّاجَ إلا هو

ولابن منير أيضاً من قصيدةٍ تقدَّم بعضُها، [وهي][6]:

أيَا ملِكاً ألقى على الشِّرْك كلكلاً   أناخَ على أُماته[7] كَلْكَلُ الثُّكْلِ
جمعتَ إلى فَتْحِ الرُّها سَدَّ بابِه[8]   بِجَمْعِكَ بينَ النَّهْبِ والأَسْر والقَتْلِ
هو الفَتْحُ أنسى كلَّ فتحٍ حديثُه   وتوَّجَ مَسْطُورَ الرِّواية والنَّقْلِ

(١) في (ل) و(م) علا، وكلاهما صحيح في المعنى.
(٢) في (ل) آرائه.
(٣) مدينة مشهورة فتحها المعتصم العباسي سنة (٢٢٣هـ). انظر «الكامل»: ٦/٤٨٠ - ٤٨٨.
(٤) أي ذلاً. انظر «اللسان» (وقم).
(٥) محٌّ: خَلَق، دَرَس. «اللسان» (محح).
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م)، وانظر ص (١٢٥ - ١٢٦) من هذا الجزء.
(٧) مفردها أم، والجمع أمات وأمهات. وقال بعضهم: الأمهات فيمن يعقل، والأمات بغير هاء فيمن لا يعقل. انظر «اللسان» (أمم).
(٨) أي سد باب الشرك.

فَضَضْتَ به نقشَ الخواتمِ(١) بعدَه جُزيتَ جزاءَ الصِّدْقِ عن خاتَمِ الرُّسْلِ
تجـردت لـلإسـلام دُون ملوكـه تُبَتِّكُ(٢) أسبابَ المـذَلَّةِ والخَـذْلِ
أخو الحَرْبِ غَذَّتْهُ القراع مفطَّمـاً يشوبُ بإقدامِ الفتى حُنْكَةَ الكَهْلِ

وله من قصيدة أخرى:

بعمـاد الدِّينِ أضحت عُـروة الدِّ (م) ين معصوبـاً(٣) بِهـا الفتْحُ المبينْ
واستـزادت بقسيم الـدَّوْلـة الْـ ـقسم من إدْحاض كيدِ المارقينْ
مـلكٌ أسْهَـر عيـنـاً لم يـزل همُّهـا تَشْريـدَ هَمِّ الـرَّاقِـدينْ
لا خَلتْ من كَحَل النَّصْرِ فقـد فقـأت غيـظاً عيـونَ الحاسِـدينْ
كـلُّ يـومٍ مَـرَّ مِـنْ أيـامـه فهـو عيـدٌ عـائـدٌ للمسلميـنْ
لـو جرى الإنصافُ في أوصافـه كـان أولاهـا أميـرَ المؤمنيـنْ
مـا روى الرّاوُون بـل ما سطَّروا مثـل ما خَـطَّتْ له أيـدي السنينْ
إذْ أنـاخَ الشِّـرْكُ في أكنـافـه بـمئي ألـفٍ تـلاهـا(٤) بـمئيـنْ
١/٤٠ وقعـةٌ طـاحَتْ بكلبِ الـرُّوم من قـطعه التِّين إلى قَـطْـعِ الوَتينْ(٥)
إن حمت مصـرٌ فقـد قـامَ لهـا واضـحُ البـرهان أن الصِّين صينْ
والرُّها لو لم تكن [إلاّ](٦) الرُّهـا لَكَفتْ حَسْمـاً لشـكِّ المُمْتـرين
دَرَجَ الـدَّهْـرُ عليهـا مُعْصِـراً(٧) لم تـدنَّس(٨) بمـرام الـلاّمسين(٩)

(١) في (م) المخاتم.
(٢) بتك: قطع الشيء من أصله. «اللسان» (بتك).
(٣) في الأصل معصوماً، وهو تصحيف. والمثبت من (ل) و(م).
(٤) في (م) ثناها، ومثلها على هامش الأصل في رواية أخرى للبيت.
(٥) عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. «اللسان» (وتن).
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٧) المعصر: التي بلغت عصر شبابها وأدركت، ويقال: هي التي قاربت الحيض. انظر «اللسان» (عصر).
(٨) في الأصل: يدنس، والمثبت من (ل) و(م).
(٩) في الأصل: اللائمين، والمثبت من (ل) و(م): واللامسين، مفردها لامس، من اللمس وهو كناية عن الجماع. انظر «اللسان» (لمس). وهذا البيت ورد في الأصل قبل بيت «والرها لو لم تكن. . .» وما أثبتناه من (ل) و(م).

هَمَّ قسطنطين أن يَفْرَعَها … ومضى لم يَحْوِ منها قِسْطَ طِينْ

ولكم مِنْ مَلِكٍ حاولها … فتحلَّى[1] الحَيْنَ[2] وسماً في الجبين

هي أختُ النجْمِ إلاّ أنّها … منه كالنجْمِ لرأي المُبْصرين

مُنِيَتْ منه بليثٍ قائدٍ … بعِرَانِ[3] الذُّلِّ آسادُ العَرينْ

زارها يزأَرُ في أُسْدِ وغًى … تُبْدِلُ الأُسْد من الزأر الأنينْ

صولجوا البيضَ[4] بضَرْبِ نَثَر الْـ … ـهامَ في ساحاتها نَثْرَ الكُرينْ[5]

يَا لَهَا هِمَّةُ ثَغْرٍ أضحكَتْ … من بني القُلْفِ[6] ثغورَ الشّامتين

بَرْنَسَتْ رأسَ برنس[7] ذِلَّةً … بعدما جاسَتْ حوايا جوسلينْ[8]

وَسَرُوج* مُذْ وعت أسراجه … فَرَّقَتْ جُمَّاعها عنها عِضينْ[9]

تلك أقفال رماها الله من … عزمه الماضي بخيرِ الفاتحينْ

شامَ منه الشَّامُ برْقاً ودْقُه[10] … مؤمنُ الخوفِ مخيفُ الآمنينْ

كم كنيسٍ كُنِسَتْ آرامُها[11] … منه بعد الرَّوْح[12] في ظل السَّفينْ

---

(١) في (م) فتجلى.

(٢) الهلاك. انظر «اللسان» (حين).

(٣) العران: خشبة تُجعل في وترة أنف البعير، وهو ما بين المنخرين. «اللسان» (عرن).

(٤) أي جعلوا السيوف صوالجة، مفردها: صولجان.

(٥) مفردها كُرَة: وهي التي يلعب بها بالصولجان. «معجم متن اللغة»: ٥/٥٩.
وانظر «الجوكان» في كشاف المصطلحات.

(٦) أي الذين لم يختنوا، ويعني الصليبيين. انظر «اللسان» (قلف).

(٧) هو أمير أنطاكية في ذلك الوقت ريموند فوتو Raymond of poitou.

(٨) هو جوسلين الثاني Joscelin II.

(٩) أي مفرَّقين، من عضيت الشيء إذا فرقته. انظر «اللسان» (عضه).

(١٠) مطره. «اللسان» (ودق).

(١١) مفردها: رِئم وهو الخالص من الظباء، وقيل: هو ولد الظبي والجمع أرآم، وقلبوا فقالوا آرام، والأنثى رئمة. انظر «اللسان» (رأم).

(١٢) الرَّوْح: السرور والفرح. «اللسان» (روح).

دَنَـتِ الآجـالُ مِـن آجـالِـهـا فـأحَلَّتْهـا القـطـا بعـدَ القَـطِينْ
ومـنـارٍ يُـجْـتَـلى صُـلْـبـانُـهُ بين بِيْضٍ تتبـارى في الـبُـرين
قَـرعَـتْـه البيضُ حتى بـدَّلَـتْ قـرعـةَ النَّـاقـوسِ تثـويبَ الأذينْ
بـالقَسيميَّات[١] مقسـوماً لهـا الـدَّ (م) هر في عَلْكِ لُجَيْنٍ[٢] أو لَجِيْنٍ[٣]
سَلْ بها حَـرَّان* كم حَرَّى سَقَتْ بَـرداً يـوم رَدَتْ مـن مـارِدِينْ*
سُمِطَتْ[٤] أمسِ سُمَيْسَاطُ* بها نَـظْمَ جيشٍ مُبْهِجٍ للنَّـاظـرينْ
وغـداً يُلْقى على القُـدْس لهـا كَلْكَـلٌ يَدْرُسُهـا دَرْسَ الـدَّرِينْ[٥]
هِمَّـةٌ تُمْسي وتـضحي عَـزْمَـةٌ ليس حِصْنٌ إنْ نَحَتْهُ[٦] بِحَصِينْ
قُـلْ لـقـومٍ غَـرَّهُـمْ إمـهـالُـه ستـذوقـونَ شَـذَاه بعـدَ حـينْ
إنَّـه المـوتُ الَّـذي يُـدْرِكُ مَنْ فَـرَّ مـنـه فشـجـاً لـلغـافـلينْ
وهـو يُحيي مُـمْسكي عُـرْوتـه إنَّهـا حَبْـلٌ لِـمَنْ تـابَ متـينْ
مَنْ يُطع ينجُ[٧] ومنْ يَعْصِ يَكُنْ مِـنْ غَـدَاةٍ عِـبْـرةً لـلآخَـريـنْ
بـكَ يا شمسَ المعـالي رُدَّتِ الرُّ (م) وحُ في الْمَيْتَيْن من دُنْيـا ودِيـنْ
أقـسم الـجَـدُّ بـأن تبقى لـكي تملكَ الأرضَ يميـنـاً لا يميـنْ[٨]

(١) لعل مفردها قسامي، وهو الفرس الذي أقرح من جانب، وهو من جانب آخر رباع، يعني الذي استكمل أسنانه، وهو بعد في الرابعة. انظر «اللسان» (ربع)، «تاج العروس»: (قسم).
(٢) اللجين: الفضة. «اللسان» (لجن).
(٣) اللجين: ورق الشجر يخبط، ثم يخلط بدقيق أو شعير فيعلف. «اللسان» (لجن).
(٤) أي علقت على السمط: وهو خيط النظم. «اللسان» (سمط).
(٥) في هامش (ل): هو حطام المرعى. قلت: قال الجوهري: الدرين: حطام المرعى إذا قَدُمَ، وهو ما بلي من الحشيش. انظر «اللسان» و«الصحاح» (درن).
(٦) أي إن قصدته. «اللسان» (نحا).
(٧) في (ل) ينجح.
(٨) أي لا يكذب. «اللسان» (مين).

وتُفيض العَدْلَ في أقطارها ... مُنْسياً مُؤْلِمَ عَسْفِ الجائرينْ
لا تَزَلْ دارُك كيف انتقلَت ... كعبةً محفوفةً بالطّائفينْ
كل يومٍ يتحلّى جِيْدُها ... من نظيمِ المَدْحِ بالدُّرِّ الثَّمينْ
كلّما أُخلص فيها دَعْوَةٌ ... لكَ قالتْ أَلْسُنُ الخَلْقِ أَمِينْ(١)

فصل

لما فرغ الشَّهيد من أخذ الرّها* وإصلاح حالها والاستيلاء على ما وراءها من البلاد والولايات سار إلى قلعة البِيرة*؛ وهي حصنٌ حصين مطلٌ على الفُرَات، وهو لجوسلين* أيضاً، فحَصَره، وضايقه، فأتاه الخبرُ بقتل نائبه بالمَوْصل والبلاد الشَّرْقية نصير الدِّين جَقَر(٢) بن يعقوب، فرحل عنها خوفاً من أن يحدث بعده في البلاد فتقٌ يحتاج إلى المسير إليها. فلما رحل عنها سيَّر إليها حُسام الدين تمرتاش بن إيلغازي؛ صاحب مارِدِين* عسكراً، فسلَّمها الفرنج إليهم خوفاً من الشهيد أن يعود إليهم فيأخذها.

٤١/١ وكان قتل النَّصير في ذي القَعْدة سنة تسع وثلاثين؛ وسببُه أن الملك أَلْب أرسلان المعروف بالخَفَاجي ولد السلطان محمود بن محمد كان عند الشهيد، وهو أتابكه ومربيه، وكان هو يظهر للخلفاء وللسلطان مسعود وأصحاب الأطراف أنّ البلاد التي بيده للملك ألب أرسلان، وأنه نائبه فيها، وكان إذا أرسل رسولاً أو أجابَ عن رسالةٍ فإنما يقول: قال الملك كذا وكذا.

---

(١) يقال: آمين، وأمين. «اللسان» (أمن).

(٢) في هامش الأصل. «حاشية، قال المؤلف: رأيته بخط من فهم هذه الأسماء الأعجمية. جغر: بفتح الجيم وكسر الغين المعجمة في عدة مواضع، والله أعلم».
قلت: لعله يقصد العماد الكاتب، فهو يكتبه بالغين المعجمة، انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٨ ــ ١٨٩.

وكان ينتظر وفاة السلطان مسعود ليجمع العساكر باسمه، ويخرج الأموال ويطلب السَّلْطنة، فعاجلته المنيَّة قبل ذلك. وكان هذا الملك بالمَوْصل هذه السنة، وبها نصير الدِّين ــ وهو ينزلُ إليه كلَّ يوم يخدِمُه ويقف عنده ساعة ثم يعود ــ فحسَّن المفسدون للملك قتله، وقالوا له: إنك إن قتلتَه ملكت المَوْصل وغيرها، ويعجز أتابك أن يقيم بين يديك، ولا يجتمع معه فارسان[1] عليك. فوقع هذا في نفسه وظنه صحيحاً، فلمّا دخل نصير الدين إليه على عادته وَثَبَ عليه جماعةٌ في خدمة الملك فقتلوه، وألقوا رأسه إلى أصحابه، ظنًّا منهم أن أصحابه إذا رأوا رأسه تفرَّقوا، ويملك الملك البلاد. وكان الأمرُ بخلاف ما ظَنُّوا؛ فإن أصحابه وأصحاب أتابك الذين معه لمّا رأوا رأسه قاتلوا مَنْ بالدَّار مع الملك، واجتمع معهم الخلق الكثير، وكانت دولة الشهيد مملوءة بالرِّجال الأجلاد ذوي الرأي والتجربة، فلم يتغيَّر عليه بهذا الفتق شيء. وكان في جملة من حضر القاضي تاج الدين يحيى بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري[2]؛ أخو كمال الدين، فدخل إلى السلطان وخدَعه حتى أصعده إلى القلعة وهو يُحسِّن له الصُّعود إليها، وحينئذٍ يستقرُّ له ملك البلد. فلما صَعِدَ القلعة سجنوه بها، وقُتل الغِلْمان الذين قتلوا النَّصير، وأَرسلوا إلى أتابك يعرِّفونه الحال؛ فسكن جأشه، واطمأنَّ قلبه، وأرسل زين الدين علي بنَ بُكْتِكِين[3] والياً على قلعة المَوْصل ــ وكان كثيرَ الثقة به والاعتماد عليه ــ فسلك بالنَّاس غير الطَّريق التي سلكها النَّصير، وسهَّل الأمر؛ فاطمأن الناس وأمنوا، وازدادت البلاد معه عمارة. ولمّا رأى الشَّهيد

---

(١) في (م) فرسان، وهو تصحيف.

(٢) كان بارعاً في الفقه، ولد سنة (٤٩٥هـ) وتوفي على الصحيح سنة (٥٥٦هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٢٤٥/٤، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٣٣٣/٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣٤٠/٢ ــ ٣٤٢، وفيه توفي سنة (٥٦٦هـ) والتاريخ الأول نقله ابن خلكان عن «الخريدة».

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.

صلاحَ أمر المَوْصل سار إلى حلب فجهَّزَ منها جيشاً إلى قلعة شَيْزَر*، وبينها وبين حماة نحو أربعة فراسخ، فحصَرَها.

قلت[1]: كذا وقع في كتاب ابن الأثير[2]، وقد وَهِمَ في قوله ألب أرسلان المعروف بالخفاجي، فالخفاجي غير ألب أرسلان على ما ذكره العماد الكاتب في كتاب «السَّلْجوقية»[3]، فإنه قال: كان مع زَنْكي ملكان من أولاد السُّلْطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه، أحدهُما يسمَّى ألب أرسلان وهو في مَعْقلٍ من معاقل سِنْجار*، والآخر يسمّى فَرُّخشاه ويعرف بالخفاجي الملك[4]، وهو بالمَوْصل، وكان هذا الملك مُسَلَّماً إلى الأمير دُبَيْس بن صَدَقة، فانتزعه منه زَنْكي في حربٍ جرت، فكانت زوجة زنكي خاتُون السُّكْمانيَّة تربيه حتى بلغ، وكان النُّصير يقبضُ عنانه، ويبسط فيه لسانه، ويقول: إنْ عقَل وإلا عقَّلْتُه، وإن نقل طبعه وإلا نقَّلْته. فدبَّر في قتله مع أصحابه، فقطعوه في دهليز داره لمّا دخل للسَّلام على الملك. ثم أصعد القاضي تاجُ الدين الملكَ إلى القلعة فلم يُرَ له أثر، والتقط مماليكه. ثم عطف زنكي على الملك الآخر ألب أرسلان فاستخرجَه من معقِله، وعُني بتفاصيل أمره وجُمَله، وضَرَبَ له نوبتيَّة ونوباً، ورتَّبَ له في حالتي ركوبه وجلوسه رُتَباً، وأُغري بتولّي إكرامه وتوخّيه، وغرضُه خفاءُ ما جرى مِنْ هلاكِ أخيه. ثم ذكر قصة موت زنكي[5] على قلعة جَعْبر* كما سيأتي[1].

وفي سنة أربعين وخمس مئة أرسل أتابك[6] إلى زين الدين علي يأمره

(١ ــ ١) ما بينهما ليس في (م).

(٢) انظر «الباهر»: ٧١، و«الكامل»: ١٠٦/١١.

(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٨ ــ ١٨٩.

(٤) في المصدر السابق: ويعرف بالملك الخفاجي.

(٥) انظر المصدر السابق: ١٨٩ ــ ١٩١، وص ١٥٤ من هذا الجزء.

(٦) في (م): أتابك زنكي.

بإرسال عسكر إلى حصن فَنَك يحصره، فسيَّر خلقاً كثيراً من الفرسان والرَّجالة، فأقاموا عليه يحصُرونه إلى أن أتاهم الخبرُ بقتل الشهيد أتابك. وهذا الحصن[1] هو مجاور جزيرة ابن عمر*، وهو للأكراد البَشْنَويّة، وله معهم مُدَّة طويلة، يقولون نحو ثلاث مئة سنة، وهو من أمنع الحصون، مُطلٌّ على دِجْلَة، وله سَرَبٌ إلى عين ماء لا يمكن أن يحال بين أهله وبينها.

قلت: وفي هذه السنة أنشد ابن منير بالرَّقَّة* عماد الدين زَنْكي، يهنّئه بالعافية من مرض عَرَض له في يده ورجله قصيدةً أوَّلها:

يا بَدْرُ لا أَفْلٌ ولا مُحَاقُ[2] ... ولا يَرِمْ[3] مشرقكَ الإشراقُ
بالدِّين والدُّنيا الذي تشكو وهل ... يهتزُّ فَرْعٌ لم يُقِمْه ساقُ
لن تُورِق القُضْب ويجري ماؤُها ... فيها إذا ما التاثتِ الأعراقُ
إن الرَّعايا ما سَلِمْتَ في حمىً ... لِلْخَطْب عن طُرُوقِهِ إطراقُ
غَرَسْتَ بالعَدْلِ لهم خمائلاً ... ترتع في حديقِها الحِذَاقُ
يا هضبةَ الدِّينِ التي عاذَ بها ... فعادَ لَا بغْتٌ وَلَا إرْهاقُ
لو لم تَحُطْهُ راجِلاً وقافلاً ... أصبح لا شامٌ ولا عِراقُ
عمادُ دينٍ مُذْ أقام زيغَهُ ... حيٌّ وماتَ الشِّرْكُ والنِّفاقُ
يا محيي العَدْلِ الذي في ظلّه ... تسربَلَتْ زينتَها الآفاقُ ١/٤٢
يَفديك مَنْ لَانَ مِهادُ جنبه ... لَمَّا نبا بجنبكَ الإقلاقُ
من بِشَبَا سيفك[4] أَنْبَطْتَ[5] له الـ ... ـعذْبَ وماءُ عَيْشِه زُعاقُ[6]

---

(١) بينهما نحو فرسخين كما في «معجم البلدان»: ٤/٢٧٨.
(٢) في (م) لا أفق ولا محال، وهو وهم.
(٣) أي لا يبرح. «اللسان» (ريم).
(٤) أي بحدِّ سيفك. «اللسان» (شبا).
(٥) أي استخرجت. انظر «اللسان» (نبط).
(٦) ماء زعاق: مر غليظ لا يطاق شربه من أجوجته. «اللسان» (زعق).

تجرَّع السَّمَّ ولَوْ لَم تحمه بحدِّه لَعزهُ الدِّرْياقُ[1]
ملوك أطرافٍ حمى أطرافها عزمُك هذا اللاّحقُ السَّبّاقُ
لوْ لَم ترق ماءً كرى العين لَمَا ساغَتْ بأفواههم الأرْياقُ[2]
شققتَ مِن دونهم مَوْجَ الرَّدى وَشَقَّ أكبادَهُمُ الشِّقاقُ
أُقسم لو كلَّفْتهم أن يسمعوا حديثَ أيّامك ما أطاقوا
لمَّا اشتكيت دبَّ في أهوائِهم توجّسٌ للسَّمع واسْتِراق
تطاولوا لا عدمت آمالُهم قصراً ولا جانبها الإخفاقُ
توهَّمُوها غَسَقاً ثم انجلَتْ والصَّفوُ مِن مشربهم غَسَّاقُ[3]
لئن ألَمَّ ألَمٌ بِقدمٍ خَدُّ السُّها[4] لنعلها طراقُ
أوكان مدَّ يَدَهُ إلى يدٍ تجري بها الآجالُ والأرْزاقُ
فالنَّصل يُعْلَى صَدَأً وتحته حدُّ حسام وسناً رَقْرَاقُ
رمَى الصَّليبَ بصليب الرَّأي عن زوراءَ أوْفَى[5] نَزْعَها الإغراقُ
وَنَوْمُ مَنْ خلف الخليج سَهَرٌ والعيش في فرنجةٍ سياقُ[6]
ماتوا فلا همسٌ ولا إشارة خوف هموس زأره إزهاقُ
لا سَلَبَتْ منك اللَّيالي ما كست ولا عَرا[7] جِدَّتَك الإخلاقُ

(١) لغة في الترياق، فارسي معرب، وهو ما يستعمل لدفع السم من الأدوية والمعاجين. انظر «اللسان» (ترق، درق).
(٢) مفردها ريق، وهو اللعاب. انظر «اللسان» (ريق).
(٣) الغساق: ما يسيل من صديد أهل النار وغُسالتهم. «اللسان» (غسق).
(٤) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. «اللسان» (سها).
(٥) في النسخ الخطية «أوهى»، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه.
(٦) نزع الروح عند الموت. «اللسان» (سوق).
(٧) في الأصل و (ل) عرت، والمثبت من (م).

فــصــل
في وفاة زَنْكي رحمه الله

قال ابن الأثير: كانت قلعة جَعْبَر* قد سلَّمها السلطان مَلِكْشَاه إلى الأمير سالم بن مالك العُقَيْلي لما ملك قسيم الدَّولة مدينة حلب[١]، فلم تزل بيده ويد أولاده إلى سنة إحدى وأربعين. فسار الشّهيد إليها فحصرها، وكان الباعث له على حصرها وحَصْرِ فَنَك* ألا يبقى في وسط بلاده ما هو لغيره وإن قلَّ، لِلْحَزْم الذي كان عنده والاحتياط، وأقام عليه يحصره بنفسه إلى أن مضى من شهر ربيع[٢] خمس ليالٍ. فبينا هو نائمٌ دخل عليه نَفَرٌ من مماليكه فقتلوه غيلةً ولم يجهزوا عليه، وهربوا من ليلتهم إلى القلعة، ولم يشعر أصحابه بقتله. فلما صَعِدَ أولئك النفر إلى القلعة صاح مَنْ بها إلى العسكر يُعلمهم بقتله، فبادر أصحابه إليه، فأدركه أوائلهم[٣] وبه رمق. ثم ختم الله بالشَّهادة أعماله:

لاقى الحِمام ولم أكن مُستيقناً ... أنَّ الحِمام سيُبْتَلَى بحِمامِ

فأضحى وقد خانه الأمل، وأدركه الأجل، وتخلَّى عنه العبيد والخول، فأيّ نجم للإسلام أفل، وأي ناصرٍ للإيمان رحل، وأيّ بحر ندىً نضب، وأيّ بدر مكارم غرب، وأي أسدٍ افترس، ولم يُنْجِه قُلَّة[٤] حصن ولا صهوة فرس. فكم أجهدَ نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدَّبها[٥] في حفظه وحراسته، فأتاه مبيدُ الأمم، ومُفْنيها في الحَدَث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق

(١) انظر ص ٩٦ من هذا الجزء.
(٢) الآخر.
(٣) في (ل) أوائله، وهو وهم.
(٤) القلة: أعلى الجبل، وقلة كل شيء أعلاه. «اللسان» (قلل).
(٥) في «الباهر»: أذابها.

مقهوراً، وبعد وثير المضاجع في التّراب مُعفَّراً مقبوراً، رهينَ جَدَثٍ لا ينفعه إلّا ما قدَّم، قد طويت صحيفة عمله فهو موثوقٌ في صورة مستسلم. ثم دُفن بصفّين عند أصحاب عليٍّ أمير المؤمنين رضي الله عنه[1].

قلتُ[2]: وذكر العماد الكاتب في كتاب «السَّلْجوقية»، قال: قصد زَنْكي حصار قلعة جَعْبَر* فنازلها، وكان إذا نام ينام حوله عدَّة من خُدَّامه الصِّباح، وهو يحبهم ويَحْبُوهم ولكنه مع الوفاء منهم يجفوهم، وهم أَبْناء الفحول القروم، من الترك والأرمن والرُّوم. وكان من دأبه أنّه إذا نقم على كبيرٍ أرداه وأقصاه، واستبقى ولده عنده وخصاه. فنام ليلة موته وهو سكران، فشرع الخُدَّام في اللّعب فزجرهم، وزبرهم وتوعَّدهم، فخافوا من سطوته. فلما نام ركبه كبيرهم، واسمه يرنقش، فذبحه، وخرج ومعه خاتمه، فركب فرسَ النَّوْبَةَ مُوهِماً أنّه يمضي في مُهمّ، وهو لا يُرتاب به لأنه خاصّ زَنْكي. فأتى الخادمُ أهل القلعة فأخبرهم[3]. وذكر الحديث[2].

قلت: ثم نقل إلى الرَّقَّة فَدُفن بها، وقبره الآن فيها.

قال ابن الأثير: وكان حسنَ الصُّورة أسمر، مليحَ العينين، قد وَخَطه الشيب، طويلاً وليس بالطويل البائن، وخلَّف من الأولاد: سيف الدين غازياً، وهو الذي وَلِي بعده، ونور الدّين محموداً الملك العادل، وقُطْب الدّين ٤٣/١
مودوداً؛ وهو أبو الملوك بالمَوْصل، ونُصرة الدين أمير أميران، وبنتاً، فانقرض عقب سيف الدّين من الذكور والإناث، ونور الدّين من الذكور، ولم يبق الملكُ إلّا في عقب قطب الدّين. ولقد أنجب رحمه الله؛ فإن أولاده الملوك لم يكن مثلهم[4].

---

(١) انظر «الباهر»: ٧٣ ــ ٧٦.

(٢ ــ ٢) ما بينهما ليس في (م).

(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٠.

(٤) «الباهر»: ٧٦.

قلت: ومن عجيب ما حُكي أنه لما اشتدَّ حصار قلعة جَعْبَر* جاء في الليل ابنُ حسَّان المنبجي، ووقف تحت القلعة، ونادى صاحبها، فأجابه، فقال له: هذا المولى أتابك صاحب البلاد، وقد نزل عليك بعساكر الدنيا وأنت بلا وزرٍ ولا معين، وأنا أرى أن أدخل في قضيَّتك وآخذ لك من المولى أتابك مكاناً عوض هذا المكان، وإن لم تفعل فأي شيء تنْتَظر؟! فقال له صاحب القلعة: أنتظر الذي انتظر أبوك. وكان بَلَك بن بَهْرام صاحب حلب قد نزل على أبيه حسان وحاصره في منبج أشدَّ حصار[1]، ونصب عليه عدة مجانيق، وقال يوماً لحسان، وقد أحرقه بحجارة المنجنيق: أي شيء تنتظر، ما تسلم الحصن؟! فقال له حسّان: أنتظر سهماً من سهام الله. فلما كان من الغد بَيْنا[2] بلك يرتب المنجنيق إذ أصابه سَهْمُ غَرْبٍ[3] وقع في لَبَّته فخرّ ميتاً، ولم يكن [من][4] جسده شيء ظاهر إلاّ ذلك المكان؛ لأنه كان قد لبس الدِّرع ولم يَزُرَّها على صدره. فلما سمع ابنُ حسان ذلك من مقالة صاحب قلعة جَعْبَر رجع عنه. وفي تلك الليلة قُتل أتابك، فكان هذا من الاتّفاقات العجيبة والعِبَر الغَريبة[5]. ذكر ذلك يحيى بنُ أبي طيّ في كتاب «السِّيرة الصلاحية»[6].

---

(١) كان ذلك سنة (٥١٨هـ). انظر «الكامل»: ١٠/٦١٩، وبلك من أشهر الأراتقة الذين حكموا حلب بعد عمه إيلغازي.

(٢) في الأصل: جاء، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) أي لا يعرف راميه. «اللسان» (غرب).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) أورد القصة أيضاً ابن الأثير في كتابيه: «الباهر» ٧٤، و«الكامل»: ١١/١٠٩ ـ ١١٠، وفيهما أن حسان هو صاحب الرسالة لا ابنه. وهو ما أورده أيضاً الفارقي في تاريخه. انظر ص (٢٨٥) الحاشية رقم (١) من «ذيل تاريخ دمشق» ط آمدروز.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من الجزء الثاني.

فـصـل
في ذكر بعض سيرة الشهيد أتابك زَنْكي

وكانت[1] من أحسن سير الملوك وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور[2]، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدّي على الضعيف.

قال ابنُ الأثير: حدَّثني والدي قال: قدم الشهيد[3] أتابك زنكي[3] إلينا بجزيرة ابن عمر* في بعض السنين، وكان زمن الشتاء، فنزل بالقلعة، ونزل العسكر في الخيام. وكان في جُمْلة أمرائه الأمير عزّ الدين أبو بكر الدُّبيسي ــ وهو من أكابر أمرائه، ومن ذوي الرأي عنده ــ فدخل الدُّبيسي البلدَ ونزل بدار إنسان يهودي وأخرجه منها، فاستغاث اليهودي إلى الشَّهيد وهو راكب، فسأل عن حاله فأُخبر به، وكان الشهيد واقفاً والدُّبيسي إلى جانبه ليس فوقه أحد، فلما سمع أتابك الخبر نظر إلى الدُّبيسي نظر مُغْضَب ولم يكلِّمْه كلمة واحدة، فتأخَّر القهقَرى، ودخل البلد، فأخرج خيامه وأمر بنصبها، ولم تكن الأرض تحتمل وضع الخيام عليها لكثرة الوحل والطِّين. قال: فلقد رأيتُ الفَرَّاشين وهم ينقلون الطين لينصبوا خيمته، فلما رأوا كثرته جعلوا على الأرض تبناً ليقيموها، ونصبوا الخيام، وخرج إليها من ساعته[4].

قال: وكان ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ويقول: مهما كانت البلاد لنا فأيّ حاجة لكم إلى الأملاك، فإن الاقطاعات تُغني عنها، وإن خرجت البلاد عن أيدينا فإن الأملاك تذهب معها، ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرَّعية وتعدُّوا عليهم وغصَبوهم أملاكهم[5].

ثم ذكر ما تجدَّد في أيامه من عمارة البلاد، لا سيما بالمَوْصل؛ وذلك

---

(١) في الأصل و (ل) وكان، والمثبت من (م).

(٢) في الأصل و (ل) وضبط الأمور، والمثبت من (م).

(٣ ــ ٣) ما بينهما ليس في (ل) و (م).

(٤) «الباهر»: ٧٦ ــ ٧٧.

(٥) «الباهر»: ٧٧.

لحُسن سيرته، فكان يقصده الناس ويتخذون بلاده دار إقامة. وهو الذي أمر ببناء دور المملكة بالموصل، ولم يكن بها للسلطان غير الدَّار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان. ثم رفع سورَها وعمق خندقها. وهو الذي فتح الباب العمادي وإليه ينسب(١).

قال: وكانت المَوْصل أقلَّ بلاد الله فاكهةً، وكان الذي يبيع الفواكه يكون عنده مقراض يقصُّ به العنب لِقلَّته إذا أراد أن يزنه، فلما عُمرت البلاد عُملت البساتين بظاهر الموصل وفي ولايتها(٢).

قال: ومن حُسْن آرائه أنه كان شديد العناية بأخبار الأطراف وما يجري لأصحابها حتى في خلواتهم، ولا سيَّما دَرْكاه* السُّلْطان، وكان يغرم على ذلك المال الجزيل، فكان يطالع ويُكتب إليه بكل ما يفعله السلطان في ليله ونهاره؛ من حرب وسلم، وهَزْل وجِدّ، وغير ذلك، فكان يصل إليه كلّ يوم من عيونه عدَّة قاصدين(٣). وكان مع اشتغاله بالأمور الكبار من أمور الدَّوْلة لا يهمل الاطلاع على الصغير، وكان يقول: إذا لم يُعرف الصغيرُ ليُمنع صار كبيراً(٤).

وكان لا يُمكِّن رسولَ ملكٍ يعبر في بلاده بغير أمره، وإذا استأذنه رسولٌ في العبور في بلاده أذن له، وأرسل إليه من يُسيِّره، ولا يتركه يجتمع بأحدٍ من الرَّعية ولا غيرهم؛ فكان الرسول يدخل بلاده ويخرج منها ولا يعلم(٥) من أحوالها شيئاً البتة(٦).

---

(١) انظر «الباهر»: ٧٧ ــ ٧٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) في الأصل: عدة كتب، والمثبت من (ل) و (م)، والقاصد: هو الذي يحمل الرسائل في مهمات رسمية. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/ ٣٥٥.

(٤) «الباهر»: ٧٨.

(٥) في (ل) و(م): ولم يعلم.

(٦) «الباهر»: ٤٧.

وكـان يتعهّـد أصحـابـه ويمتحنهـم، سلّـم يـومـاً خُشْكنَـانكـة[1] إلـى طِشْت دارٍ* له، وقال: احفظ هذه. فبقي نحو سنةٍ لا تفارقه الخُشْكنَانكة خوفاً أن يطلبها منه. فلما كان بعد ذلك قال له: أين الخُشْكنَانكة؟ فأخرجها من[2] منديلٍ وقدَّمها بين يديه، فاستحسن ذلك منه وقال: مثلك ينبغي أن يكون مستحفظاً لحصن. وأمر له بدُزْدَارية* قلعة كَوَاشَى*، فبقي فيها إلى أن قُتل أتابك[3].

وكان لا يُمكِّن أحداً مِنْ خَدَمِهِ من مفارقة بلاده و[كان][4] يقول: إن البلاد كبستانٍ عليه سياج، فمن هو خارج السِّياج يهابُ الدُّخول، فإذا خرج منها من يدلُّ على عورتها ويُطمع العدو فيها زالت الهيبة وتطرَّق الخصوم إليها[5].

قال: ومن صائب رأيه وجيده أن سيَّر طائفةً من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارُق[6] إلى الشَّام، وأسكنهم بولاية حلب، وأمرهم بجهاد الفرنج، ١/ ٤٤
ومَلَّكهم كلَّ ما استنقذوه من البلاد التي للفرنج، وجعله ملكاً لهم، فكانوا يُغَادون الفرنج بالقتال ويُرَاوحونهم، وأخذوا كثيراً من السَّواد وسدُّوا ذلك الثغر العظيم. ولم يزل جميع ما فتحوه في أيديهم إلى نحو سنة ست مئة[7].

قال: ومن آرائه أنه لما اجتمع له الأموال الكثيرة أَوْدَعَ بعضَها بالمَوْصل، وبعضها بسِنْجار*، وبعضها بحلب، وقال: إن جرى على بعض

---

(١) نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق، ويكون على هيئة الهلال. انظر «المعرب»: ١٣٤ ودوزي: ١/ ٣٧٣.
(٢) في (ل) و(م): في.
(٣) «الباهر»: ٧٩.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٥) «الباهر»: ٧٩.
(٦) الضبط من الأصل.
(٧) «الباهر»: ٨٠.

هذه الجهات خرق أو حيل بيني وبينه استعنتُ على سَدِّ الخرق بالمال في غيره[1].

قال: وأما شجاعته وإقدامه فإليه النِّهاية فيهما، وبه كان تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جُملةً؛ أن ولايته أحدَقَ بها الأعداء والمنازعون من كل جانب: الخليفة المسترشد، والسلطان مسعود، وأصحاب أرمينية وأعمالها؛ بيت سُكْمان، وركن الدولة داود صاحب حصن كَيْفا*، وابن عمه صاحب مارِدِين*، ثم الفرنج، ثم [صاحب][2] دمشق. وكان ينتصفُ منهم ويغزو كُلًّا منهم في عُقْر داره، ويفتح من بلادهم، ما عدا السُّلْطان مسعود فإنه كان لا يباشر قصده، بل كان يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه، فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته، فيصير كالحاكم على الجميع، وكلٌّ يداريه ويخضع له، ويطلب منه ما تستقر القواعد على يده[3].

قال: وأما غَيْرَتُه فكانت شديدةً ولا سيما على نساء الأجناد، فإن التعرُّض إليهنَّ كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلَّما يقيمون عند أهليهم، فإن نحن لم نمنع من التعرُّض إلى حُرَمهم هلكن وفَسَدْن[4].

قلتُ: وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي سعيد الخُدْري، وذكر حديثَ رجم النبي ﷺ ماعِزاً، قال: ثم قام رسول الله ﷺ خطيباً قال:

---

(١) «الباهر»: ٨٠.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٣) انظر «الباهر»: ٨٠ ـ ٨١.

(٤) الباهر»: ٨٤.

«أَوَكُلَّما انْطَلَقْنا غُزَاةً في سَبيل الله تَخَلَّفَ رَجُلٌ في عِيالنا له نَبِيبٌ كَنَبِيبِ التَّيْسِ [1]، عَلَيَّ أَنْ لا أُوتى بِرَجُلٍ فَعَلَ ذَلِكَ إِلَّا نَكَّلْتُ بِه[2]».

قال ابنُ الأثير: وكان قد أقام بقلعة الجزيرة دُزْداراً* اسمه نور الدين حسن البربطي، وكان من خواصِّه وأقربِ النَّاس إليه، وكان غير مرضي السيرة، فبلغه [عنه][3] أنه يتعـرَّض للحُرَم، فـأمر حـاجبه صـلاح الدين الياغبساني أن يسير مُجِداً ويدخل الجزيرة، فإذا دخلها أخذ البربطي وقطع ذكره، وقلـع عينيه، عقوبةً لنظره بهما إلى الحُرمِ، ثم يصلبه. فسار الصَّلاح مُجداً، فلم يشعر البربطي إلا وقد وصل إلى البلد، فخرج إلى لقائه، فأكرمه الصَّلاح، ودخل معه البلد، وقال له: المولى أتابك يُسلِّم عليك ويريد أن يُعليَ قدرك، ويرفـع منزلتك، ويسلِّمَ إليك قلعة حلب، ويولِّيك جميـع البلاد الشَّامية لتكون هناك مثل نصير الدين، فتجهَّز وتحدر مالك في الماء إلى المَوْصل، وتسير إلى خدمته. ففرح ذلك المسكين فلم يترك له قليلاً ولا كثيراً إلا نقله إلى السُّفن ليحدرها إلى المَوْصل في دِجْلة. فحين فرغ من جميـع ذلك أخـذه الصَّلاح، وأمضى فيه ما أُمر به، وأخذ جميـع ماله. فلم يتجاسر بعده أحد على سلوك شيء من أفعاله[4].

قال: وأما صدقاته فقد كان يتصدَّق كل جُمُعة بمئة دينار أميري[5] ظاهراً، ويتصدَّق فيما عداه من الأيام سراً مـع من يثق به. وركب يوماً فعثرت به دابَّتُه فكاد يسقط عنها، فاستدعى أميراً كان معه فقال له كلاماً لم يفهمه ولم

---

(١) النبيب: صوت التيس عند السفاد. انظر «اللسان» (نبب).
(٢) انظر «صحيح مسلم»: كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى: ٣/١٣٢٠ ـ ١٣٢١، رقم الحديث (١٦٩٤).
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) «الباهر»: ٨٤.
(٥) في (ل): أميرية.

يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد عنه إلى بيته وودَّع أهله عازماً على الهرب، فقالت له زوجته: ما ذنبك وما حملك على هذا الهرب؟ فذكر لها الحال، فقالت له: إن نصير الدين له بك عناية، فاذكر له قصَّتك، وافعل ما يأمرك به. فقال: أخاف أن يمنعني من الهرب فأهلِك. فلم تزل زوجته تراجعه وتُقَوِّي عزمه، فعرَّف النصير حاله، فضحك منه وقال له: خذ هذه الصُّرَّة الدَّنانير واحملها إليه فهي التي أراد. فقال: اللهَ اللهَ في دمي ونفسي. فقال: لا بأس عليك فإنه ما أراد غير هذه الصُّرَّة. فحملها إليه، فحين رآه قال: أمعك شيء؟ قال: نعم. فأمره أن يتصدَّق به. فلمّا فرغ من الصَّدَقة قصد النَّصير وشكره، وقال: من أين علمت أنه أراد الصُّرَّة؟ فقال له: إنه يتصدق هذا اليوم بمثل هذا القدر، [و][1] يرسِلُ إلي يأخذه من الليل، وفي يومنا هذا لم يأخذه، ثم بلغني أنَّ دابَّته عثرت به حتى كاد يسْقُط على[2] الأرض، وأرسلك إلي، فعلمتُ أنه ذكر الصَّدقة[3].

قال: وحُكي لي من شدَّة هيبته ما هو أشدُّ من هذا. قال والدي: خرج يوماً الشَّهيد من قلعة الجزيرة من باب السِّرِّ خلوة وملاَّح له نائم، فأيقظه بعضُ الجاندارية* وقال له: اقعد. فحين رأى الشَّهيد سقط إلى الأرض [فحرَّكوه][4] فوجدوه ميتاً[5].

قال: وكان الشهيد قليل التلوُّن والتنقُّل، بطيء الملل والتغير، شديد العزم[6]، لم يتغيّر على أحدٍ من أصحابه مُذْ مَلَكَ إلى أن قُتل إلّا بذنب

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (م)، والمثبت من (ل).
(٢) في (ل) و (م): إلى.
(٣) انظر «الباهر»: ٨١ ـ ٨٢.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) «الباهر»: ٨٢.
(٦) في (ل): الحزم.

يُوجب التّغيُّر، والأُمراء والمقدَّمون الذين كانوا معه أولاً هُم الذين بقوا أخيراً، مَنْ سَلِمَ منهم من الموت؛ فلهذا كانوا ينصحونه ويبذلون نفوسهم له. وكان الإنسان إذا قدم عسكره لم يكن غريباً: إن كان جندياً اشتمل عليه الأجنادُ وأضافوه، وإن كان صاحب ديوان قصد أهل الديوان، وإن كان عالماً قصد القضاة بني الشَّهْرُزُوري، فيُحسنون إليه ويؤنسون غُربته فيعود كأنه آهل. ٤٥/١
وسبب ذلك جميعه أنه كان يخطب الرِّجال ذوي الهمم العليَّة، والآراء الصائبة، والأنفس الأبية، ويوسِّع عليهم في الأرزاق، فيسهل عليهم فعل الجميل واصطناع المعروف[1].

قلت: وما أحسنَ ما وصفه به أحمد بن منير من قوله في قصيدة:

في ذَرَا[2] مَلْك هو الدَّهـ ... ـرُ عطاءً واسْتِلابا
مَن له كفٌّ تبذُّ الـ ... ـغيث سحًّا وانسكابا
فاتحٌ في كلِّ وجهٍ ... أَمَّهُ للنَّصْر بابا
تَرْجُف الدُّنيا إذا حَرَّ (م) ... كَ للسَّير الرِّكابا
وتخِرُّ المُشْمَخِرَّا ... تُ[3] اختلالاً واضطرابا
وترى الأعداءَ من هَيْـ ... ـبَتِهِ تأوي الشِّعابا
وإذا ما لَفَحَتْهم[4] ... نارُه صارُوا كبابا
يا عمادَ الدِّين لا زِلْـ ... ـتَ على الدِّين سحابا
جاعلاً مِن دونه سَيْـ ... ـفَكَ إنْ رِيع حِجابا

---

(١) انظر «الباهر»: ٨٢ ـ ٨٣.
(٢) في (م): دار، وهو تصحيف. والذَّرا: الكنف والستر، «معجم متن اللغة» ٢/٤٩٦.
(٣) أي الجبال العالية. انظر «اللسان» (شمخر).
(٤) في (م): لفحته، وهو تصحيف.

فـالبسِ الـنَّـعـمـاء فـي الأمـ ـنِ الـذي طِـبْـتَ وطـابـا
واصـفُ عـيـشـاً إنَّ أعـدا ءك قـد صـارُوا تُـرابـا

وقال العماد الكاتب: استولى زَنْكي على الشَّام من سنة اثنتين وعشرين إلى أن قتل في سنة إحدى وأربعين. وهو الذي فتح الرُّها* عَنْوَةً، واحتلَّ بها من السعادة ذروة، فتسنَّى بفتح الرُّها للمسلمين، جَوْسُ بلاد جوسلين، وعادَ جميعُها إلى الإسلام في عهد ولد زنكي نور الدين، وصارت عقودُ الفرنج من ذلك الحين تنفسخ، وأمورُها تنتسخ، ومعاقلها تفرع، وعقائلُها تُفْتَرع[1].

وقال الرئيس أبو يعلى التميمي: كانت الأعمال بعد قتل زنكي قد اضطربت، والمسالك قد اختلت، بعد الهيبة المشهورة، والأمنة المشكورة، وانطلقت أيدي التركمان والحراميَّة في الإفساد في الأطراف[2]، والعيث في سائر النَّواحي والأكناف؛ ونظمتُ في صفة هذا الحال أبياتاً من قصيدة:

كـذاكَ عمـاد الدِّين زَنْكي تنافَرَتْ سعـادَتُـهُ عَنْـهُ وخَـرَّتْ دعـائِمُـهْ
وكم بيتِ مالٍ من نُضَارٍ[3] وجَوْهَرٍ وأنـواعِ دِيبـاجٍ حَـوَتْهـا مخـاتمُـهْ
وأضحت بأعلى كلِّ حِصْنٍ مصونةً يُحـامي[4] عليها جُنْـدُه وخـوادِمُـهْ
ومنْ صافناتِ الخيلِ كلُّ مُطَهَّمٍ يَـرُوعُ الأعـادي حَلْيُـه وبَـرَاجِمُـهْ
فلو رامتِ الكُتَّابُ وصفَ شِياتها بأقلامهـا مَا أدْرك الْـوصفَ ناظِمُـهْ

---

(١) «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٨٧.

(٢) في الأصل و(ل): في فساد الأطراف، والمثبت من (م)، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٦.

(٣) النضار: اسم الذهب والفضة، وقد غلب على الذهب. «اللسان» (نضر).

(٤) في (م): يحاوي، وهو تصحيف.

وكم معقلٍ قد رامَهُ بِسيُوفِه   وشامِخِ حِصْنٍ لم تَفُتْه غَنائِمُهْ

ودانَتْ وُلَاةُ الأرضِ فيها لأمره   وقد أَمَّنَتْهُمْ[1] كُتُبُه وخواتِمُهْ

وأَمَّن مَنْ في كُلِّ قُطْرٍ بِهَيْبَةٍ   يُراعُ بها أعرابُه وأعاجِمُهْ

وظالم قومٍ حين يُذْكَرُ عَدْلُه   فقد زالَ عنهم ظُلْمُه وخصائِمُهْ

وأصبحَ سُلْطانَ البلادِ بسيفه   وليس له فيها نظيرٌ يُزاحِمُهْ

وزادَ على الأملاكِ بَأْساً وسطوةً   ولم يبق في الأملاك مَلْكٌ يقاوِمُهْ

فلما تناهى مُلْكُهُ وجلالُه   وراعتْ وُلَاةَ الأرضِ منه لوائِمُهْ

أتاهُ قضاءٌ لا تُرَدُّ سهامُه   فلم تُنْجِه أموالُه ومغَانِمُهْ

وأدركه للحين فيها حِمامُه   وحامتْ عليه بالمَنُون حوائِمُهْ

وأضحى على ظَهْرِ الفراشِ مُجدَّلاً   صريعاً تولَّى ذَبْحَهُ فيه خادِمُهْ

وقد كان في الجيش اللُّهام[2] مَبِيْتُهُ   ومِنْ حَوْله أبطالُه وصوارِمُهْ

وسُمْرُ العوالي حَوْلَهُ بأكُفِّهم   تذُود الرَّدى عنه وقد نام نائمُهْ

ومِن دونِ هذا عُصْبةٌ قد ترتَّبَتْ   بأَسْهُمِها يُرْدَى مِن الطَّير حائِمُهْ ١/٤٦

وكم رامَ في الأيام راحةَ سِرِّه   وهِمَّتُه تعلو وتقوى شكائِمُهْ

وكم مَسْلكٍ للسَّفْر أمَّن سُبْلَه   ومسرحِ حَيٍّ أن تُراعَ سوائمه

وكم ثَغْرِ إسلامٍ حماه[3] بسيفه   من الرُّوم لما أدْرَكَتْهُ مراجِمُهْ

فمن ذا الذي يأتي بهيْبة مثلِه   وتنفُذُ في أقصى البلادِ مراسِمُهْ

فلو رُقيت في كلِّ مِصْرٍ بذكرِه   أراقِمُهُ ذلَّتْ هناك أراقِمُهْ[4]

فمن ذا الذي ينجو من الدَّهْرِ سالماً   إذا ما أتاه الأمر والله حاتِمُهْ

---

(١) في الأصل: أمنته، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) أي الكثير، كأنه يلتهم كل شيء. انظر «اللسان» (لهم).

(٣) في الأصل و(ل): حواه، والمثبت من (م).

(٤) الأرقم من الحيات الذي فيه سواد وبياض، وهو من أخبث الحيات وأطلبها للناس. انظر «اللسان» (رقم).

ومَن رام صَفْواً في الحياة فما يرى له صَفْوَ عَيْشٍ والحِمَامُ يُحاوِمُهْ
فإيَّاك لا(١) تغبِطْ مليكاً بمُلْكِه وَدَعْهُ فإنَّ الدَّهْرَ لا شكَّ قاصِمُهْ
وقل للذي يَبْني الحصونَ لِحِفظه رُوَيْدَكَ ما تَبْني فَدَهْرُكَ هادِمُهْ
وفي مثلِ هذا عِبْرَةٌ ومواعظٌ بِها يَتَناسى المرءُ ما هو عازِمُهْ(٢)

قال: وفي ثامن عشر جُمادى الآخرة من السَّنة وصل الخادم يرنقش القاتل لعماد الدين زَنْكي، وانفصل من قلعة جَعْبَر* لخوف صاحبها من طلبه منه، فوصل دمشق متيقناً أنه قد أمن بها، ومدلاً بما فعله، وظنًّا منه أنَّ الحال على ما توهَّمه، فَقُبِضَ عليه، وأُنْفِذ إلى حلب صُحبةَ من حفظه وأوصله إليها، فأقام بها أياماً، ثم حُمل إلى المَوْصل وذُكر أنه قتل بها(٣).

قلت: وللحكيم أبي الحَكَم المغربي(٤) قصيدةً في مرثية الشَّهيد عماد الدين زَنْكي رحمه الله، منها:

---

(١) في الأصل: أن، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) انظر القصيدة بتمامها في «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٨.
(٤) هو عبيد الله بن المظفر بن عبد الله الباهلي الحكيم أندلسي الأصل، عالم بالطب والهندسة، يغلب عليه المجون، اشتهر ببغداد، وخدم السلطان محمود بن ملكشاه، وأنشأ له في معسكره مارستاناً ينقل على أربعين جملاً، توفي في دمشق سنة (٥٤٩هـ) له ديوان سماه «نهج الوضاعة لأولي الخلاعة» لم يصلنا. انظر ترجمته في «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة: ٦١٤ ـ ٦٢٧، و«خريدة القصر»: ق٤/ج١/٣٦٩ ـ ٣٨٢، و«وفيات الأعيان»: ٣/١٢٣ ـ ١٢٥، و«نفح الطيب»: ٢/٦٣٧ ـ ٦٣٩، و«تاريخ الأدب العربي» لبروكلمان (الترجمة العربية): ٥/١٢٩ وابنه محمد أفضل الدولة أبو المجد كان طبيب نور الدين، وتولى البيمارستان النوري، وشرح ديوان أبيه، توفي سنة (٥٧٠هـ) أو ما قبلها. انظر ترجمته في «طبقات الأطباء»: ٦٢٨، و«الوافي بالوفيات»: ٣/٣٣٠ ـ ٣٣١، و«نفح الطيب»: ٢/٦٣٨.

عينُ لا تذخري الدموعَ وبَكِّي واستهلِّي دماً[1] على فَقْدِ زَنْكي
لم يَهَب شخصَه الرَّدى بعد أنْ كا نتْ له هيبةٌ على كل تُرْكي
خيرُ مَلْكٍ ذي هيبةٍ وبهاءٍ وعظيمٍ بين الأنامِ بُزُرْكِ[2]
يَهَبُ المالَ والجيادَ لمن يمـ (م) ـمَهُ مادحاً بغير تلَكِّي
إنَّ داراً تمدُّنا بالرَّزايا هي عندي أحقُّ دارٍ بِتَرْكِ
فاسْكُبوا فوقَ قبره ماءَ وَرْدٍ وانضَحُوهُ بِزَعْفرانٍ وَمِسْكِ
أيُّ[3] فتكٍ جرى له في الأعادي بعد ما استفتحَ الرُّها* أيُّ فَتْكِ
كلُّ خَطْبٍ أَتَتْ به نُوَبُ الدَّهـ ـر يسيرٌ في جَنْبِ مَصْرعِ زَنْكي
بعد ما كاد أنْ تدينَ له الرُّو مُ ويَحْوي البلاد مِن غير شكٍّ[3]

فصل

فيما جرى بعد زَنْكي من تفرُّقِ أصحابه وتَملُّك ولَدَيْه غازي ومحمود

قال الرئيس أبو يعلى: توجَّه الملك ولد السُّلْطان، المقيم كان معه، فيمن صحبه وانضمَّ إليه إلى ناحية المَوْصل، ومعه سيف الدين غازي بن عماد الدين أتابك، وامتنع عليهم الوالي بالموصل علي كوجك[4] أياماً إلى حين تقرَّرت الحال بينهم. ثم فتح الباب، ودخل ولدُه، واستقام له الأمر، وانتصب منصبه. وعاد الأمير سيف الدولة سوار وصلاح الدين ـ يعني

(1) في (م) دمعاً، وهو تحريف.
(2) كلمة فارسية تعني: الكبير، العظيم. «قاموس الفارسية»: ١٠٣.
(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في (ل)، وانظر الأبيات في «خريدة القصر»: ق ٤/ ج ١/٣٧٨ ـ ٣٧٩.
(4) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء. وفي «وفيات الأعيان»: ٤/١١٤ «وكان قصيراً، ولهذا قيل له كجك وهو لفظ أعجمي معناه بالعربي صغير، أي صغير القدر».

محمدَ بنَ أيوب الياغبساني ــ في تلك الحال إلى ناحية حلب، ومعهما الأمير نور الدين محمود بـن زَنْكي، وحصل بها، وشرع في جمـع العساكر وإنفاق المـال فيها، واستقـام له الأمـر وسكنت الـدَّهمـاء. وفَصـل عنـه الأميـر صلاح الدين، وحصل بحماة ولايته على سبيل الاستيحاش والخوف على نفسه من أمرٍ يُدَبَّر عليه(١).

وقال الحافظ أبو القاسم: لما راهقَ نور الدين لزم خدمةَ والده إلى أن انتهت مُدَّته على قلعة جَعْبر*، وسيَّر في صبيحة الأحد الملك ألب أرسلان بن السُّلطان محمود إلى المَوْصل مـع جماعةٍ من أكابر دولة أبيه، وقال لهم: إن وصل أخي سيف الدين غازي إلى المَوْصل فهي له وأنتم في خدمته، وإن تأخر فأنا أقرر أمورَ الشَّام وأتوجَّه إليكم. ثم قصد حلب، ودخل قلعتها يوم الاثنين سابـع ربيـع الآخر، ورتَّبَ النُّوَّاب في القلعة والمدينة(٢).

وقال ابن أبـي طيِّ الحلبـي: لما اتَّصل قتل أتابك بأسد الدين شِيركُوه ركب من سـاعته وقصـد خيمة نـور الـدين وقـال لـه: أعلم أن الـوزيـر جمـال الدين(٣) قــد أخـذ عسكـر الموصـل وعزم(٤) على تقـديم أخيك سيف الدين وقصدُه [إلى](٥) المَوْصِل، وقد انضوى إليه جُلُّ العسكر، وقد أَنفذ إليَّ جمال الدين وأرادني على اللحاق به فلم أُعرِّج عليه(٦)، وقد رأيتُ أن
١/٤٧ أصيِّـرَك إلى حلب، وتجعلَهـا كـرسي مُلكـك، وتجتمـع في خــدمتـك عساكر الشَّام، وأنا أعلم أن الأمر يصير جميعُه إليك لأن ملك الشام يحصل

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٥ ــ ٢٨٦.
(٢) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٤٧/١٦ ب.
(٣) توفي سنة (٥٥٩ هـ) سترد ترجمته مفصلة في ص ٤٢٠ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) في (م) وعوَّل.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) في (ل) إليه.

بحلب، ومن ملك حلب استظهر على بلاد الشَّرْق. فركب وأمر أن يُنادَى في الليل في عساكر الشَّام بالاجتماع، فاجتمعوا وساروا في خدمة نور الدين إلى حلب، ودخلوها سابع ربيع الأول[1]. ولما دخلوا حلب جاء أسدُ الدين إلى تحت القلعة ونادى واليها، وأصعد نور الدين إليها، وقرر أمره ومشى أحواله، فكان نور الدين يرى له ذلك، وأسد الدين يمتُّ بأنه كان السَّبب في توليته.

[و] قال ابن الأثير: لما قُتل أتابك الشَّهيد ركب الملك ألب أرسلان بن السُّلْطان محمود ــ وكان مع الشهيد ــ واجتمعت العساكر عليه وخدموه، فأرسل جمال الدين الوزير إلى الصَّلاح يقول له: المصلحة أن نترك ما كان بيننا وراء ظهورنا، ونسلكَ طريقاً نبقي به الملك في أولادِ صاحبنا، ونُعمر بيته جزاءً لإحسانه إلينا، فإن الملك قد طمع في البلاد، واجتمعت عليه العساكر، ولئن لم نتلافَ هذا الأمر في أوله ونتداركْه في بدايته[3] ليَتَّسِعَنَّ الخرقُ ولا يمكن رقعُه. فأجابه الصلاح إلى ذلك، وحلف كل واحدٍ منهما لصاحبه. فركب الجمال إلى الملك فخدمه، وضمن له فتح البلاد وأطمعه فيها، ومعه الصلاح، وقالا له: إنَّ أتابك كان نائباً عنك في البلاد، وباسمك كُنَّا نُطيعُه. فقبل قولهما، وظنَّه حقاً، وقرَّبهما طمعاً أن يكونا عوناً له على تحصيل غرضه. وأرسلا إلى زين الدين بالمَوْصِل يُعرفانه قتل الشهيد، ويأمرانه بالإرسال إلى سيف الدين غازي ــ وهو ولد عماد الدين زَنْكي الأكبر ــ وإحضاره إلى المَوْصل، وكان بشَهْرُزُور*، وهي إقطاعُه من أبيه. ففعل زين الدين ذلك وكان نور الدين محمود بن الشهيد قد سار لما قُتل والده إلى حلب فملكها، وذلك بإشارة أسد الدين شِيركُوه عليه بذلك، وقال الجمال

(١) كذا ذكر ابن أبي طي، وقد مَرَّ في خبر ابن عساكر أنه دخلها سابع ربيع الآخر، وهو الصحيح.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (م) بلاده، وهو تحريف.

للملك: إنَّ من الرأي أن تُسَيِّرَ الصلاح إلى مملوكك نور الدين بحلب يدَبِّر أمره ـ وكانت حماة إقطاعَ الصلاح ـ فأمره فسار[1]، وبقي الجمال وحده مع الملك، فأخذه وقصد الرَّقَّة*. فاشتغل بشرب الخمر والخلوة بالنِّساء، وأراد أن يُعطي الأمراء شيئاً فمنعه خوفاً من أن تميل قلوبهم إليه، وقال: لهم الإقطاع الجزيل[2] والنِّعَم الوافرةُ. وشرع الجمال يستميل العسكر ويُحلِّف الأمراء لسيف الدين بن أتابك الشهيد واحداً بعد واحد، وكلُّ من حلف يأمره بالمسير إلى الموصل هارباً من الملك. وأقام بالملك في الرَّقَّة عِدَّة أيام، ثم سار به إلى ماكِسين* فتركه بها عدَّة أيام أيضاً، قد اشتغل بلذَّاته عن طلب الملك، ثم سار [به][3] نحو سِنْجار*. وكان سيفُ الدين غازي قد دخل المَوْصِل واستقرَّ بها، فقوِي حينئذٍ جَنانُ جمال الدين، ووصل هو والملك إلى سِنْجار، فأرسل إلى دُزْدَارها* وقال له: لا تُسلِّم البلد ولا تُمكِّن أحداً من دخوله، ولكن أرسلْ إلى الملك وقل له: إنَّا تبع المَوْصِل، فمتى دخلتَ الموصل سلَّمتُ إليك [البلد][4]. ففعل الدُّزدار ذلك. فقال الجمال للملك: المصلحة أنَّا نسير إلى الموصل، فإنَّ مملوكك غازي إذا سمع بقربنا منه خرج إلى الخدمة، فحينئذ نقبضُ عليه ونتسلَّم البلاد. فساروا عن سِنْجار، وكثُر رحيل العسكر إلى الموصل هاربين من الملك، فبقي في قِلَّة من العسكر، فساروا إلى مدينة بَلَد*، وعبر الملك دِجْلة من هناك، فلما عبرها دخل الجمال الموصل، وأرسل الأمير عز الدين أبا بكر الدُّبَيْسي في عسكرٍ إلى الملك[5]، وهو في نفر يسير، فأخذه وأدخله الموصل، فكان آخرَ العهد به. واستقرَّ أمر سيف الدين،

---

(١) في الأصل: وسار، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في (ل) الإقطاعات الجزيلة.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٥) في الأصل و(ل) إلى الملك في عسكر، والمثبت من (م).

وأقرَّ زين الدِّين على ما كان عليه من ولاية المَوْصل، وجعل الجمال وزيرَه. وأرسلوا إلى السلطان مسعود فاستحلفوه لسيف الدين، فحلف له وأقرَّه على البلاد، وأرسل له الخِلَع. وكان هذا سيف الدين قد لازم خدمة السلطان مسعود في أيام أبيه سفراً وحضراً، وكان السلطان يحبه كثيراً ويأنس به ويبسطه. فلما خُوطب في اليمين وتقرير البلاد لم يتوقَّف[1].

قال ابن الأثير: فانظروا[2] إلى فعل جمال الدين وحُسْن عهده وكمال مروءته ورعايته لحقوق مخدومه، وهذا المقامُ الذي ثبت فيه يعجز عنه عشرة آلاف فارس، ولقد قلل من قال: [من][3] النَّاس ألفٌ منهم كواحد. وهو معذور لأنه لم ير مثل جمال الدين[4].

قال: ولما استقرَّ سيفُ الدين في الملك أطاعه جميعُ البلاد ما عدا ما كان بديار بكر: كالمعدِن* وحِيْزَان* وإسْعِرد* وغير ذلك، فإن المجاورين لها تغلَّبوا عليها[5].

قال: ولما فرغ سيف الدين من إصلاح أمر السلطنة وتحليفه[6] وتقرير أمر البلاد عَبَر إلى الشام لينظر في تلك النَّواحي، ويقرِّر القاعدة بينه وبين أخيه نور الدين، وهو بحلب، وقد تأخَّر عن الحضور عند أخيه وخافه، فلم يزل يراسلُه ويستميله، فكلَّما طلب نورُ الدين شيئاً أجابه إليه استمالةً لقلبه. واستقرَّت الحالُ بينهما على أن يجتمعا خارج العسكر السَّيفي، ومع كل

(١) انظر «الباهر»: ٨٤ ــ ٨٦.
(٢) في (م) فانظر.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٤) «الباهر»: ٨٦.
(٥) المصدر السابق.
(٦) أي تحليف السلطان مسعود.

واحدٍ [منهما](١) خمس مئة فارس، فلما(٢) كان يوم الميعاد بينهما سار نور الدين من حلب في خمس مئة فارس(٢)، وسار سيف الدين من معسكره في خمسة فوارس، فلم يعرف نور الدين أخاه سيف الدين حتى قرب منه، فحينَ رآه عرفه، فترجَّل له، وقبَّل الأرض بين يديه، وأمر أصحابه بالعَوْد عنه فعادوا. وقعد سيف الدين ونور الدين بعد أن اعتنقا وبكيا، فقال له سيف الدين: لِمَ امتنعتَ من المجيء إليَّ، أكنت تخافني على نفسك؟ والله

١/٤٨ ما خطر ببالي ما تنكره، فلمن أريد البلاد، ومع من أعيش، وبمن أعتضد إذا فعلت السوء مع أخي وأحبِّ الناس إليَّ؟ فاطمأنَّ نور الدين وسكن رَوْعُه، وعاد إلى حلب فتجهَّز، وعاد بعسكره إلى خدمة أخيه سيف الدين، فأمره سيف الدين بالعَوْد وترك عسكره عنده، وقال: لا غرض لي في مقامك عندي، وإنما غرضي أن يعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوءَ بنا يكف عنه. فلم يرجع نور الدين ولزمه إلى أن قضيا ما كانا عليه، وعاد كل واحد منهما إلى بلده(٣).

قلت: ومن قصيدة لابن منير في نور الدين:

أيا خيرَ الملوكِ أباً وجَدًّا ... وأنقعهم(٤) حياً لغليلِ صادِ
علَوْا وغلَوْا وقال الناسُ فيهم ... شواردَ من ثُناءٍ أو أُحادِ
وما اقتسَموا وما عمدوا(٥) بناهم ... بمنصبك القَسيميِّ العِمادي(٦)

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ل).
(٣) انظر «الباهر»: ٨٧ ـ ٨٨.
(٤) أي أرواهم. انظر «اللسان» (نقع).
(٥) في (ل) و(م): ولا عمدوا.
(٦) في (م) هذا البيت هو أول الأبيات.

وهل حلبٌ سوى نَفْس شَعَاعٍ تقَسَّمها[1] التَّمادي والتَّعادي
نفى ابنُ عماد دين الله عنها[2] الشـ (م) ـكاةَ فأصبحَتْ ذاتَ العمادِ
تَبَخْتَرُ في كُسَا عَدْلٍ وبَذْلٍ مُدَبَّجَةِ التَّهائم والنِّجادِ
وفي محرابها داودُ منه يهذِّبُ حكمه آياتِ صادِ
تجاوزتَ النجومَ فأينَ تبغي تَرَقَّ فلا خلوتَ من ازديادِ

فصل
فيما جرى بعد وفاة زَنْكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين

قال ابن أبي طي: في سابع يومٍ من استقرار نور الدين بحلب اتصل خبر مقتل أتابك بصاحب أنطاكية البيمند[3]، فخرج ليومه في عساكر أنطاكية، وقسم عسكره قسمين: قسماً نفَّذه إلى جهة حماة، وقسماً أغار به على جهة حلب، وعاث في بلادها ــ وكان الناس آمنين ــ فقتل وسبى عالماً عظيماً، وتمادى حتى وصل إلى صلدى ونهبها. ووصل الخبرُ إلى حلب، فخرج أسد الدين شِيركُوه فيمن كان بحلب من العساكر، وجدَّ في السير، ففاتَهُ الفرنج، وأدرك جماعةً من الرَّجَّالة يسوقون الأسرى فقتلهم، وَاستنقذ كثيراً مما كانت الفرنجُ أخذته، وسار مُجنّباً عن طريق الفرنج إلى أن شنَّ الغارة على بلد أَرْتاح*، واستاق جميع ما كان للفرنج فيه، وعاد إلى حلب مظفَّراً.

---

(١) في (م) تقاسمها.
(٢) في الأصل و(ل): «نفى ابن عماد الدين عنها»، والمثبت من (م)، وبه يستقيم الوزن.
(٣) وهم ابن أبي طي في تسمية صاحب أنطاكية يومئذ إذ هو ريموند فوتو Raymond of poitou لا بوهيمند Bohemond.
انظر «تاريخ الحروب الصليبية» ستيفن رنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٣٨٦ ــ ٣٨٧.

وقال ابن الأثير: لما قُتل الشَّهيد سار مجير الدِّين صاحب دمشق في عسكر إلى بَعْلَبَكَّ وحاصرهم، وبها نجم الدِّين أيوب والد السُّلْطان صلاح الدين، فسلَّمها إليه، وأخذ منه مالاً، وملَّكه قرايا من أعمال دمشق، وانتقل أيوب إلى دمشق وأقام بها[1].

وقال ابنُ أبي طَيِّ: اشتدَّ صاحب دمشق في القتال، وصبرَ نجم الدين أيوب أحسن صبر، فاتفق أن الماء ـ لما شاء الله ـ من حصن بَعْلَبَك غار حتى لم يبق منه شيء، فصار أهل القلعة يستمدُّون من البلد، فلما ملك البلد منع من يريد الماء من القلعة، فاشتدَّ الأمر، فطلبوا الأمان والمصالحة، فاستخلف صاحبُ دمشق نجمَ الدين، وأقرَّ له الثُّلُث الذي كان أتابك قد جعله له فيها، وأقرهُ فيها. ولما بلغ ذلك نور الدين خاف أن يَفْسُدَ عليه أسد الدين إلى صاحب دمشق لحصول أخيه نجم الدين عنده، ومالَ نور الدين إلى مجد الدين أبي بكر بن الدَّاية حتى ولّاهُ جميعَ أموره وجميع مملكته، فشقَّ ذلك على أسد الدين.

قال الرَّئيس أبو يعلى: لما اتصل خبر موت زَنْكي بمعين الدين أُنَر شرع في التأهُّب والاستعداد لقصد بَعْلَبَك، وانتهاز الفرصة فيها بآلات الحرب والمنجنيقات. فنزل عليها وضايقها، ولم يمض إلا أيام قلائل حتى قل الماء فيها قِلَّةً دعتهم إلى النزول على حكمه. وكان الوالي بها ذا حزمٍ وعقل ومعرفةٍ بالأمور، فاشترط ما قام له به من إقطاعٍ وغيره، وسلَّم البلد والقلعة إليه، ووفى له بما قرَّر الأمر عليه، وتسلَّم ما فيه من غَلَّة وآلةٍ في أيامٍ من جُمادى الأولى من السنة. وراسل[2] معين الدين الوالي بحمص، وتقرَّرت بينه وبينه مُهادنة ومُوادعةٌ يعودان بصلاح الأحوال وعمارة الأعمال. ووقعت

---

(١) انظر «الكامل»: ١١/ ١١٨. وص ٤٠٥ من هذا الجزء.
(٢) في (م)، وأرسل، وهو تصحيف.

المراسلة فيما بينه وبين صلاح الدِّين بحماة، وتقرَّر بينهما مثل ذلك. ثم انكفأ بعد ذلك إلى البلد عقيب فراغه من بَعْلَبَك، وترتيب من رَتَّبه لحفظها والإقامة فيها(١).

قال: ووردت الأخبار في أيامٍ من جُمادى الآخرة من السنة بأن ابن جوسلين* جمع الإفرنج من كلِّ ناحية، وقصد مدينة الرُّها*، على غفلةٍ، بموافقة من النصارى المقيمين فيها، فدخلها واستولى عليها، وقَتل مَنْ فيها مِنَ المسلمين. فنهض نور الدين صاحب حلب في عسكره ومن انضاف إليه من التركمان وغيرهم في زُهاء عشرة آلاف فارس، ووقفت الدَّوابُّ في الطرقات من شدَّة السَّير، ووافوا البلد وقد حصل ابن جوسلين وأصحابه فيه، فهجموا عليهم ووقع السَّيف فيهم. وقُتِل من أرمن الرُّها والنَّصارى من قُتل، وانهزم إلى بُرْجٍ يقال له برج الماء، فحصل فيه ابن جوسلين في تقدير عشرين فارساً من وجوه أصحابه، وأحدق بهم المسلمون، وشرعوا في النَّقْب عليهم ٤٩/١
حتى تَعَرْقب البرج، فانهزم ابن جوسلين في الخفية من أصحابه، وأُخذ الباقون، ومحَقَ السَّيفُ كلَّ من ظُفر به من نصارى الرُّها، واستُخلص من كان فيه أسيراً من المسلمين، ونُهب منها شيء كثير من المال والأثاث والسَّبي، وانكفأ المسلمون بالغنائم إلى حلب وسائر الأطراف(٢).

قال ابن الأثير: لما قُتل زَنْكي كان جوسلين* الفرنجي الذي كان صاحب الرُّها في ولايته غرب الفرات في تل باشر* وما جاورها، فراسل أهلَ الرُّها ــ وكان عامَّتُهم من الأرمن ــ وواعدهم يوماً يصل إليهم فيه، فأجابوه إلى ذلك، فسار في عساكره إليها وملكها، وامتنعت عليه القلعة بمن فيها من المسلمين، فقاتلهم وجَدَّ في قتالهم، فبلغ الخبر نور الدين، وهو يومئذٍ

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٧ ــ ٢٨٨.
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٨.

بحلب، فسار إليها بعسكره، فهرب جوسلين، ودخل نور الدين مدينة الرُّها، ونهبها وسبى أهلها. وفي هذه الدفعة نُهبت وخُرِّبت وخَلَت من أهلها، ولم يبق منهم بها إلا القليل. ووصل خبر الفرنج إلى سيف الدين غازي بالموصل، فجهَّز العساكر إلى الرُّها، فوصلت وقد ملكها نور الدين، فبقيت بيده، ولم يعارضه فيها أخوه سيف الدين(١).

قال: ومن عجيب ما جرى أنَّ نور الدين أرسل من غنائمها إلى الأمراء، وأرسل إلى زين الدين علي جملة من الجواري، فحُملن إلى داره ودخل لينظر إليهنَّ، فخرج وقد اغتسل وهو يضحك، فسُئل عن ذلك فقال: لما فتحنا الرُّها مع الشهيد كان في جملة ما غنمتُ جارية مالت نفسي إليها، فعزمت على أن أبيت معها، فسمعت منادي الشهيد وهو يأمر بإعادة السَّبي والغنائم، وكان مهيباً مخوفاً، فلم أجسر على إتيانها وأطلقتها. فلما كان الآن أرسل إليَّ نور الدين سهمي من الغنيمة وفيه تلك الجارية، فوطئتها خوفاً من العود(٢).

قلت: وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير المَوْصِل، ذكر فيها فتح الرُّها؛ أولها:

أمَا آنَ أن يَزْهَقَ الباطِلُ ... وأن يُنْجِزَ العِدَةَ الماطِلُ
إلى كم يُغِبُّ ملوكَ الضَّلا ... لِ سيفٌ بأعناقها كافِلُ
فلا تَحْفِلَنَّ بصَوْلِ الذئاب ... وقد زأَرَ الأَسَدُ الباسلُ
وهل يمنعُ الدِّين إلا فتى ... يَصُولُ انتقاماً فيستاصلُ
أبا جعفرٍ أَشْرَقَتْ دولةٌ ... أضاءَ لها بَدْرُكَ الكامِلُ
فإمَّا نُصِبْتَ لرفعِ اسمِها ... فإنَّكما الفِعلُ والفاعِلُ

(١) انظر «الباهر»: ٨٦ ــ ٨٧.
(٢) انظر «الباهر»: ٨٧.

لِيَهْنِـكَ مـا أفـرجَ النَّصْـر عنـه ... ومـا نـالـه الـملكُ الـعـادِلُ
فقـل للحِقَاق[1] الطَّريقَ الطَّريقَ ... فقـد دَلَفَ المُقْـرَمُ[2] البـازِلُ
وجـاهَـد فـي الله حقَّ الـجهـا ... دِ مُـحتسِبٌ بـالـعُـلا قـافِـلُ
وهـل يَمْنـعُ السُّـورُ من طـالـعٍ ... يُـشـايِـعُـه الـقَـدَرُ الـنَّـازِلُ
فـإنْ يـكُ فتحُ الـرُّهـا لُجَّـةً ... فسـاحِلُها القُـدْسُ والسَّـاحِـلُ
فهـل عَلِمَتْ عِلْمَ تـلك الـدِّيـا ... رِ أن الـمُـقِـيـمَ بـهـا راحِـلُ
أرى القُمْصَ*[3] يأمُل فَوْتَ الرِّماح ... ولا بُـدَّ أنْ تُضْـرَبَ الشَّـائِـلُ[4]
يُـقـوِّي مـعـاقـلَه جـاهِـداً ... وهـلْ عـاقـلٌ بعـدَهـا عـاقِـلُ
وكيف بِضَبْطِ بـواقي الجهـات ... لمن فـاتَ حِسْبَتَـهُ الحـاصِـلُ[5]

ولابن منير من قصيدةٍ في نور الدين:

مَـلِكٌ مـا أذلَّ بـالـفـتـح أرضـاً ... قطُّ إلا أعـزَّهـا إغـلاقُـهْ
والوهَى[6] في الرُّهاءِ* أزجى إليها ... عـارضـاً شَيَّبَ الـدُّجى إبـراقُـهْ
جـأَرَتْ جـارةً إلـيـه فـحـلَّـى ... عُـطَّلاً من أعناقهـا إعنـاقـه[7]
تلك بِكْـرُ الفُتـوحِ فـالشَّـام منهـا ... شـامُـهُ والعِـراقُ بَعْـدُ عِـراقُـهْ
أين كان الملوكُ عن وَجْهِها الطَّلْـ ... ـقِ يُـريـنـا إضـاءةً إطـلاقُـهْ

---

(١) مفردها حِقّ: وهو من أولاد الإبل الذي بلغ أن يركب ويحمل عليه. انظر «اللسان» (حقق).
(٢) هو البعير المكرم الذي لا يحمل عليه ولا يذلل، ويسمى السيد الرئيس من الرجال المقرم لعظم شأنه وكرمه. انظر «اللسان» (قرم).
(٣) في «الخريدة»: القس.
(٤) في «خريدة القصر» السابل، وهو تصحيف.
(٥) القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٠٨ ـ ١١١.
(٦) في (م) الرها، وهو تصحيف.
(٧) ضرب من السير. «اللسان» (عنق).

سُنَّةٌ سنَّها أبوه بكلب الرُّ (م) ومِ لما أظلَّه إرْهَاقُهْ
خافقاً قلبُه إلى أملٍ عا جَلَه دون نَيْلِه إخْفاقُهْ
١/٥٠ قسمت راية المواضي القسيميـ (م) ـات وابتزَّ من لَهَاهُ عراقه
وكذا أنت يا بْنَه ما عدا من خُلْقه فيك خَصْلَةً خَلَّاقُهْ
وكفى البَحْرَ أنَّه ابنُ سحابٍ ما وَنَى سَحُّه ولا إصْعَاقُهْ
لم يَمُتْ من سَدَدْتَ ثُلْمَتَه يا مَنْ على الدِّين كظُّه إشْفَاقُهْ
رهبة لم تدَعْ على الأرضِ قلباً خَلْفَ صَدْرٍ يَنْشَقُّ عنه شِقَاقُهْ
كلما طنَّ ذكْرُها منه في السَّمْـ ـعِ تَكَمَّى[1] في النَّافِقاء[2] نفاقُهْ
وجهادٍ عن حوزة الدين لم يأ لُ له ركضه ولا إنفاقُهْ

وله فيه من قصيدةٍ أخرى:

بنورِ الدين روَّضَ كلُّ مَحْلٍ من الدُّنيا وجُدِّدَ كلُّ بالِ
أقام على ثَنية كلِّ خوفٍ سُهاداً بات يكلأُ كُلَّ كالِ
وصوَّبَ عدلُه في كلِّ أَوْبٍ فعوَّضَ عاطلاً منه بحالِ
ينكِّسُ رايُهُ[3] رايَ المحامي ويَقْتُلُ خوفُه قبلَ القِتالِ
لقد أحصدتَ للإسلام عِزًّا يفوت سَنامُهُ يدَ كلِّ قالِ
وأصبحتِ العواصمُ مُلْحَفاتٍ عِصَاماً[4] غيرَ منتكثِ الحبالِ

---

(١) على هامش الأصل: «حاشية: أي تغطى».
(٢) النافقاء: جحر الضب واليربوع. «اللسان» (نفق).
(٣) الراي: مفردها راية، العلم. انظر «اللسان» (ريا).
(٤) العصام: الحبل يُعصم به الشيء. «معجم متن اللغة»: ١٢٤/٤.

فَصْــــل

وقفت على توقيـع كُتب في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين عن خليفة مصـر يومئـذٍ، وهو الملقب بـالحافظ[1]، وعليـه علامتـه: الحمد لله رب العالمين:

إلى القاضي الأشرف أبـي المجد علي بن الحسن بن الحسين بن أحمد البَيْسَاني ــ وهو والد القاضي الفاضل[2]، وكان يومئذٍ متولّي القضاء والحُكْم بمدينة عَسْقلان ــ يقول فيه: انتهى إلى حضرة أمير المؤمنين أن قوماً من أهل ثَغْرِ عَسْقلان، حماه الله، قد صاروا يؤدُّون توقيعاتٍ بقبول أقوالهم من غير تزكيةٍ من شهوده المعروفين بالتزكية لهم، مـع كونهم غير مستوجبين للشهادة ولا مستحقين لسماع القول. أنكر أمير المؤمنين ذلك من فعلهم، وخرج عالي أمره بأن لا يُسمـع قولُ شاهدٍ، وَلَا مَنْ تقدّم لِخَطَابةٍ ولا لصلاة بالنـاس، ولا لتلاوةٍ في موضـع شريف، إلا من زكّاه أعيانُ شهود الثغر المحروس، وهم فلان وفلان؛ فَعَدَّ ثمانية أنفس: عبد السَّاتر بن عبد الرحمن، عبد العزيز بن مفضل، علي بـن قريش، أحمد بن حسن، أحمد بن علي، عبد الرحمن بن محسن، أسامة بن عبد الصمد، علي بن عبد الله.

قلت: وهذا من أحسن ما يؤرَّخ عن أيام تلك الدولة المباينة للشريعة، على ما سيأتي إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أبو الميمون عبد المجيد بن محمد بن المستنصر بالله، ولد سنة (٤٦٧هـ)، وولي الخلافة سنة (٥٢٤هـ)، وتوفي سنة (٥٤٤هـ) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٩٩ ــ ٢٠٢.

(٢) توفي سنة (٥٤٦هـ) بالقاهرة، ودفن بسفـح المقطم، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٧/٢٢٠ ــ ٢٢١، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣١ من هذا الجزء.

وقـال الرئيـس أبو يعلى: وفي شوال من سنة إحدى وأربعين تردَّدت المراسلات بين نور الدين ومعين الدين أُنَر إلى أن استقرَّت الحال بينهما على أجمل صفةٍ وأحسن قضيـة، وانعقدت الـوُصلة بين نور الـدين وبين ابنة معين الدين، وتأكَّدت الأمور على ما اقترح كلٌّ منهما، وكتب كتاب العقد في دمشق بمحضر من رسل نور الدين في الثالث والعشرين من شَوَّال، وشُرع في تحصيل الجهاز، وعند الفراغ منه توجَّهت الرُّسل عائدةً إلى حلب، وفي صحبتهم ابنة معين الدين ومن في جملتها من خواصِّ الأصحاب، في النصف من ذي القعدة[1].

قال: وتوجَّه معين الدين إلى ناحية صَرْخَد* وبُصْرى* بالخيل والرَّجْلِ وآلات الحرب، ونزل على صَرْخَد*، وبها المعروف بالتونتاش غلام أمين الدَّوْلة كُمُشْتِكين الأتابكي الذي كان واليها أولاً[2].

قلت: هو الذي تنسب إليه المدرسة الأمينية* قبلي الجامـع بدمشق.

قال: وكانت نفس ألتونتاش قد حدَّثته بجهله أنه يقاوم من يكون مستولياً على دمشق، وأن الإفرنـج يعينونه على مراده، وكان قد خرج من حصن صَرْخَد إلى ناحية الفرنـج للاستنصار بهم وتقرير أحوال الفساد معهم، فحال معين الدين بينه وبين العود إلى أحد الحصنين. وراسل نورَ الدين في إنجاده على الكفرة فأجابه، وكان مبرِّزاً بظاهر حلب في عسكره، فثنى إليه الأعِنَّة وأغذَّ المسير، فوصل دمشق في السَّابـع والعشرين من ذي الحجة، فأقام أياماً يسيرة[3].

(١) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٢٨٩، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤ من هذا الجزء.

(٢) خوطب أمين الدولة بالأتابكية سنة (٥٣٠هـ)، وتوفي سنة (٥٤١هـ)، وكان أميراً جليلاً، انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٢٥٣، و«مختصر تنبيه الطالب»: ٣٣.

(٣) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٢٨٩.

ودخلت سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة

فتوجَّه نور الدين نحو صَرْخَد*، ولم يُشاهد أحسنُ من عسكره، وهيئته وعُدَّته، ووفور عِدَّته. واجتمع العسكران، وأرسل مَنْ بصَرْخَد إليهما يلتمسون الأمان والمهلة أياماً وتسلُّم المكان، وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم. وقضى الله تعالى وصول
٥١/١ من أخبر بتجمُّعِ الفرنج واحتشادهم، ونهوضهم في فارسهم وراجلهم، مجدِّين السير إلى ناحية بُصرى*، وعليها فرقة وافرةٌ من العسكر محاصرةً لها. فنهض العسكر في الحال إلى ناحية بُصْرى فسبقوا الفرنج إليها، فحالوا بينهم وبينها. ووقعت العين على العين فانهزم الكُفَّار، وَوَلَّوْا الأدبار، وتسلَّم معين الدين بُصْرى، وعاد إلى صَرْخَد فتسلَّمها، وعاد العسكران إلى دمشق فوصلاها يوم الأحد السَّابع والعشرين من المحرَّم. وفي هذا الوقت وصل ألتونتاش ــ الذي خرج من صَرْخَد إلى الفرنج بجهله وسخافة عقله ــ إلى دمشق من بلاد الفرنج من غير أمان، ولا تقرير واستئذان، توهُّماً منه أنه يُكرم ويُصطنع بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام. فاعتقل في الحال، وطالبه أخوه خُطْلخ بما جناه عليه من سَمْل عينيه، وعُقد لهما مجلس حضره الفقهاء والقضاة وأوجبوا عليه القِصاص، فَسُمِل كما سَمَل أخاه، وأُطلق إلى دار له بدمشق، فأقام بها(١).

قلت: وقد ذكر ابنُ منير وقعة بُصْرى هذه وغيرها من الوقعات التي يأتي ذكرها في قصيدة قد تقدَّم بعضها(٢) منها:

أيَّ شأوٍ أدركتَ يا نورَ دينِ الـ ـله أعيا على الملوكِ لحاقُهْ

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٨٩ ــ ٢٩٠.

(٢) انظر ص ١٧٧ من هذا الجزء.

نَطَقَ الحاسدونَ بالعَجْزِ عن مَلْـ ـكٍ محلىً بـالنَّيِّـرات نِـطَاقُـهْ
غَضَّ أبـصـارَهُمْ لـحـاقُ جَـوَادٍ ليس إلا إلى المعـالي سِبَـاقُـهْ
سَلْ بصيراً كم أَعْتَقَتْ يومَ بُصْرى من إسارِ الموتِ الزُّؤام عِتَاقُـهْ[1]
كم عُـرَامٍ على العُـرَيمـة* شَبَّتْ ضـاقَ منـه على الصَّليبِ خِنَـاقُـهْ
ولـكم هَـبْـوَةٍ بهـاب* وأُخْـتَـيْـ ـها لها صَكَّتِ الأسارى رِبَاقُهْ[2]
بَسَطَ الـذُّلَّ فـوقَ بسـطة بـاسـو طـا* ولكن طواه عنــه ارتفـاقُـهْ

وفي هذه السنة ولد بِبَعْلَبَكَّ الملكُ العادل سيف الدين أبـو بكر بن أيوب، وقيل في سنة فتـح زَنْكي الرُّها*.

قـال أبو يعلى: وفي ليلة الجمعة الثالث من ربيـع الأول توفي الفقيه شيـخ الإسـلام أبو الفتـح نصـرُ الله بن محمد بن عبـد القـوي المِصِّيصي بدمشق، وكان بقية الأئمة الفقهاء المفتين على مذهب الشَّافعي، ولم يخلِّف بعده[3] مثله.

قـال: وفي جُمادى الآخـرة تقرَّرت ولايـة حِصْن صَرْخَـد* للأميـر مجاهد الدين بُزان بن مامين[4] على مبلـغ من المال والغَلَّة، وشروط وأيمان دخل فيها وقام بها، واستبشر أهلُ تلك الناحية به لما هو عليه من حُبِّ الخير والصلاح، والتديُّنِ والعفاف[5].

---

(١) مفردها عتيق، وهو الفرس الكريم. انظر «اللسان (عتق). وفي (ل): أعتاقه.
(٢) الرباق: مفردها ربق، حبل فيه عدة عُرى تُشَدُّ به الغنم. انظر «اللسان» (ربق).
(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٥ ـ ٢٩٦. وقد ولد باللاذقية سنة (٤٤٨هـ)، وكان متجنباً أبواب السلاطين، انظر ترجمته في «تبيين كذب المفتري»: ٣٣٠، و«المنتظم»: ١٠/١٢٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/١١٨ ـ ١١٩، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/٣٢٠ ـ ٣٢١.
(٤) ستر‌د ترجمته ص ٣٨٧ من هذا الجزء.
(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٦.

قال: وفي الحادي والعشرين من شوال، وهو مستهل نيسان أظلم الجو، ونزل غيث ساكن، ثم أظلمت الأرض في وقت العصر ظلاماً شديداً بحيث كان ذلك كالغَدِرة(١) بين العشاءين، وبقيت السماء في عين الناظر إليها كصفرة الوَرْس(٢)، وكذلك الجبال وأشجار الغوطة، وكل ما يُنظر إليه من حيوانٍ وجماد ونبات. ثم جاء في أثر ذلك من الرَّعد القاصف، والبرق الخاطف، والهدَّات المزعجة، والرَّجفات المُفْزِعة، ما ارتاع لها الشِّيْبُ والشُّبَّان، فكيف الولدان والنسوان؟! وقلقت لذلك الخيول في مرابطها، وبقي الأمر على هذه الحال إلى وقت العشاء الآخرة، ثم سكن بقدرة الله تعالى، وأصبح على الأرض والأشجار وسائر النبات غبارٌ في رقة الهواء، بين البياض والغُبْرة(٣).

قال ابن الأثير: وفي سنة اثنتين وأربعين فتح نور الدين أَرْتاح* بالسَّيف، وحصن باراة*، وبصرفوث(٤)، وكَفْر لاثا*. وكان الفرنج قد طمعوا وظنوا أنهم بعد قتل الشهيد يستردُّون ما أخذ منهم، فلما رأَوْا من نور الدين هذا الجِدَّ علموا أَنَّ ما أمَّلوه بعيد(٥).

(١) ليلة غدرة: شديدة الظلمة تحبس الناس في منازلهم وكنهم فيغدَرون أي يتخلفون انظر «اللسان» (غدر).
(٢) نبات مثل نبات السمسم لونه أصفر. انظر «اللسان» (ورس).
(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٦ ـ ٢٩٧.
(٤) كذا في النسخ الخطية، وقد مرَّت «بَسَرْفُوث» انظرها في كشاف الأماكن.
(٥) «الكامل»: ١١/١٢٢.

فصـــل
في نزول الفرنـج على دمشق ورجوعهم وقد خذلهم الله تعالى عنها

قال الرئيس أبو يعلى: وفي هذه السنة تواصلت الأخبار من ناحية القُسْطنطينية وبلاد الفرنـج والرُّوم وما والاها بظهور ملوك الإفرنـج من بلادهم؛ منهم الألمان(١) والفُنش(٢)، وجماعةٌ من كبارهم في العدد الذي لا يُحصر، لقصد بلاد الإسلام بعد أن نادوا في سائر بلادهم ومعاقلهم: النَّفيرَ النَّفيرَ إليها، والإسراع نحوها. وخلَّوْا بلادهم وأعمالهم خالية شاغرة من حُماتها والحفظة لها. ثم استصحبوا من(٣) ذخائرهم وأموالهم وعُددهم الشيء الكثير الذي لا يحصى، بحيث يقال: إن عِدَّتهم ألف ألف من الرَّجَّالة والفرسان، ويقال أكثر من ذلك. وغلبوا على أعمال قُسْطنطينية، واحتاج ملكها إلى الدُّخول في مُدَاراتهم ومسالمتهم، والنُّزول على أحكامهم. وحين شاع خبرهم واشتهر أمرهم، شرعت ولاة الأعمال المصاقبة لهم، والأطراف الإسلامية القريبة منهم في التأهُّب للمدافعة لهم، والاحتشاد على المجاهدة فيهم، وقصدوا منافذهم ودروب معابرهم، لكي يمنعوهم من العُبور والنفوذ إلى بلاد الإسلام، وواصلوا شنَّ الغارات على أطرافهم، واستحرَّ القتل فيهم والفتك
٥٢/١ بهم إلى أن هلك منهم العددُ الكثير، وحلَّ بهم من عدم القوت والعُلوفات والمِيَر وغلاء السعر ـ إذا وجدوه ـ ما أفنى الكثير منهم بالجوع والمرض،

---

(١) استعملت كلمة الألمان هنا علماً على الامبراطور كنراد الثالث، Conrad III انظره في كشاف الأعلام.

(٢) هو Bertrand, son of Alphonso Jourdain برتراند بن ألفنسو جوردان، كونت تولوز، وهو ابن غير شرعي له. وسيرد خبره ص ١٩٦ من هذا الجزء. وانظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان «الترجمة العربية»: ٤٥٢/٢.

(٣) ليست في (م).

ولم تزل أخبارهم تتواصل بهلاكهم، وفناء أعدادهم إلى أواخر سنة اثنتين وأربعين(١)، بحيث سكنت النفوس بعض السكون.

ودخلت سنة ثلاث وأربعين

وتواترت(١) الأخبار بوصول مراكب الفرنـج وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية: صور وعكا، واجتماعهم مـع من بها من الفرنـج. ويقال: إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع وصل تقدير من مئة ألف، وقصدوا البيت المقدَّس، فقَضَوْا حجَّهم، وعاد من عاد منهم إلى بلادهم في البحر، وقد هلك منهم بالموت والمرض الخلقُ العظيم، وهلك من ملوكهم من هلك، وبقي الألمان(٢) أكبر ملوكهم ومن هو دونه. واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الإسلامية، إلى أن استقرَّت الحال على منازلتهم دمشق، وبلـغ ذلك معين الدين، فاستعدَّ لحربهم، فجاؤوا في تقدير خمسين ألفاً، ودنَوْا من البلد، وقصدوا المنزلة المعروفة بنزول العساكر(٣) فيهـا، فصادفوا الماء مقطوعاً، فقصدوا ناحية المِزَّة* فخيَّموا عليها لقربها(٤) من الماء، وزحفوا إلى البلد بخيلهم ورَجْلهم، ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت سادس ربيـع الأوَّل، ونشبت الحربُ بيـن الفريقيـن، واجتمـع عليهم من الأعمال الأجناد والأتراك والفُتَّاك وأحداث* البلد والمطوِّعة والغُزاة الجمَّ

(١ ــ ١) ما بينهما ليس في (م). وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٧، وهذه الحملة هي ما يطلق عليه المؤرخون الغربيون الحملة الصليبية الثانية.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) ذكر وليم الصوري أنهم نزلوا على داريا، وهي المقصودة هنا، إذ أن الجيوش المهاجمة لدمشق غالباً ما كانت تأتي عن طريق داريا.
انظر «الحروب الصليبية» لـوليـم الصـوري ٣/٣٠٨ ــ ٣٠٩ (ترجمـة د. حسـن حبشي.).

(٤) في الأصل و(ل): لقربهم، والمثبت من (م).

الغفير، واستظهر الكُفَّار على المسلمين بكثرة الأعداد، وغلبوا على الماء، وانتشروا في البساتين، وخيَّموا فيها، وقَربوا من البلد، وحصلوا منه بمكان لم يتمكَّن أحدٌ من العساكر قديماً وحديثاً منه، واستُشهد في هذا اليوم الفقيه الإمام يوسف الفِنْدَلاوي المالكي(١)، رحمه الله، قريبَ الرَّبوة* على الماء؛ لوقوفه في وجوههم، وترك الرجوع عنهم؛ اتَّبع أوامر الله تعالى في كتابه الكريم وقال: بعنا واشترى(٢)، وكذلك عبد الرحمن الحَلْحُولي الزَّاهد(٣)، رحمه الله، جرى أمره هذا المجرى(٤).

قلت: وذكر الأمير أسامة بن مُنْقذ في «كتاب الاعتبار» أن ملك الألمان الفرنجي لما وصل إلى الشَّام اجتمع إليه كلُّ من بالشام من الإفرنج، وقصد

---

(١) أصله من المغرب، قدم دمشق حاجاً، فسكن بانياس مدة، وكان خطيباً بها، ثم انتقل إلى دمشق فاستوطنها، ودرس بها مذهب الإمام مالك، وحدث بالموطأ وكتاب التلخيص لأبي الحسن القابسي، علق عنه ابن عساكر أحاديث يسيرة.
انظر ترجمته في «تاريخ ابن عساكر» اختصار أبي شامة (خ) ق ٤١ ب ـ ٤٢ أ. (نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق) و«معجم البلدان»: ٤/٢٧٧ ـ ٢٧٨، و«وفيات الأعيان»: ٢/٤٥٢، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٠٩ ـ ٢١٠، وص١٩١ من هذا الجزء، له رسالة صغيرة نشرها الأستاذ جواد المرابط باسم «فتوى الفندلاوي» في بيروت سنة (١٩٦٦م).

(٢) يريد قوله تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة...﴾، سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) في الأصل و(ل) الحلحول، والمثبت من (م)، وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الحلحولي، نسبة إلى قرية في الخليل، ولد بحلب، وسار في الآفاق، وكان آخر أمره أنه انقطع بمسجد في ظاهر دمشق حتى قتل شهيداً رحمه الله. انظر «معجم البلدان»: ٢/٢٩٠، و«توضيح المشتبه» ٢/٣٨٠ تحقيق أخي وصديقي الأستاذ محمد نعيم العرقسوسي. وانظر ص ١٩٢ من هذا الجزء.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

دمشق، فخرج عسكرها [وأهلها][1] لقتالهم، وفي جملتهم الفقيه الفِنْدلاوي المالكي، والشيخ الزاهد عبد الرحمن الحَلْحُولي ــ رحمهما الله، وكانا من خيار المسلمين ــ فلما قاربوهم قال الفقيه: [يا][2] عبد الرحمن، أما هؤلاء الرُّوم؟ قال: بلى. قال: فإلى[3] متى نحن وقوف؟ قال: سر على اسم الله. فتقدَّما فقاتلا حتى قُتلا في مكان واحد، رحمهما الله [تعالى][4].

ثم قال أبو يعلى: وشرعوا في قطع الأشجار والتَّحصُّن بها، وهدُّوا الفطائر[5]، وباتوا تلك الليلة على هذه الحال، وقد لحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والرَّوْع بما عاينوه، ما ضعفت به القلوب وحَرِجَتْ معه الصدور، وباكروا الظُّهور إليهم في غد ذلك اليوم؛ وهو الأحد تاليه، وزحفوا إليهم، ووقع الطراد بينهم، واستظهر المسلمون عليهم، وأكثروا القتل والجراح فيهم، وأبلى الأمير معين الدين في حربهم بلاء حسناً، وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يُشاهد في غيره، بحيث لا يني في جهادهم،

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل، وإلى، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) ما بين حاصرتين من (م)، وانظر «الاعتبار»: ١١٧.
(٥) الفطائر هي جدران ترابية تفصل ما بين بساتين غوطة دمشق، ولعلها سميت كذلك لأن التراب كان يُدَكُّ بين دفين كبيرين من خشب مثبتين بعوارض خشبية، فكان إذا نشف الطين رفع منه دفا الخشب والعوارض، فيتخلف عن هذه العوارض فتحات، هذه الجدران كان يكمن خلفها الدمشقيون، ومن خلال فتحاتها كانوا يطعنون برماحهم كل من يحاول العبور من الصليبيين، ويطلق الآن على الجدار منها اسم الدَّكّ. وقد وردت في أصل «ذيل تاريخ دمشق» مثل أصلنا على الصحيح، لم يعرفها آمدروز، ووضع بدلاً منها كلمة من عنده هي «القناطر»، وحذا حذوه الدكتور سهيل زكار في نشرته للكتاب ووضع كلمة من عنده هي «الحظائر» وكلاهما جانب الصواب. انظر «وقفية الجامع الأموي» (خ) فقد وردت فيه غير مرة، منها حين يتحدث عن بستان بالشاغور يقول: ويحيط به فطائر، وانظر «الحروب الصليبية» لوليم الصوري ٣/ ٣١٠ ــ ٣١٢ (ترجمة د. حسن حبشي) ففيه أيضاً وصف لها. وص ١٩٢ من هذا الجزء.

ولا ينثني عن ذيادهم[1]. ولم تزل رحا الحرب دائرةً بينهم، وخيل الكفار محجمة عن الحملة المعروفة لهم، حتى تتهيأ الفرصة لهم، إلى أن مالت الشمس إلى الغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كلٌّ منهم إلى مكانه، وبات الجند بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم. وكانت المكاتبات قد نفِّذت إلى ولاة الأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، وجعلت خيل التركمان تتواصل، ورجَّالة الأطراف تتتابع. وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم، وزال عنهم رَوْعهم، وثبتوا بإزائهم، وأطلقوا فيهم السهام ونبل الجرخ[2]، بحيث يقع في مخيَّمهم في راجل أو فارس، أو فرس أو جمل. ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع وغيرها رجَّالة كثيرة من الرُماة، فزادت بهم العِدَّة، وتضاعفت العُدَّة. وانفصل كل فريق إلى مستقرِّه في هذا اليوم، وباكروهم من غده يوم الثلاثاء وأحاطوا بهم في مخيمهم، وقد تحصَّنوا بأشجار البساتين وأفسدوها رشقاً بالنُّشَّاب، وحذْفاً بالأحجار، وقد أحجموا عن البروز وخافوا وفشلوا، ولم يظهر منهم أحد، وظُنَّ أنهم يعملون مكيدة أو يدبِّرون حيلة، ولم يظهر منهم إلا النَّفر اليسير من الخيل والرَّجْل على سبيل المطاردة والمناوشة، خوفاً من المهاجمة إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً. وليس يدنو منهم أحد إلا صُرع برِشْقة أو طعنة. وطمع فيهم نفر كثير من رَجَّالة الأحداث والضِّياع، وجعلوا يقصدونهم في المسالك وقد أمنوا، فيقتلون من ظفروا به ويُحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها. وحصل من رؤوسهم العدد الكثير. وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالمسارعة إلى جهادهم واستئصال

---

(١) في الأصل و(ل) ديارهم، والمثبت من (م).

(٢) آلة حربية تستعمل لرمي السهام والحجارة والنفط المشتعل. والقائم على تشغيلها يسمى جرخي. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ١/١٨٢.

شأفتهم، فأيقنوا بالهلاك والبوار، وحُلول الدمار، وأعملوا الآراء بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حصلوا فيها[1] غير الرَّحيل، فرحلوا سَحَر يوم الأربعاء التالي مفلولين. وحين عرف المسلمون ذلك برزوا ١/٥٣ إليهم في بكرة هذا اليوم، وسارعوا في آثارهم بالسهام، بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدَّوابِّ العدد الكثير. ووجدوا في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم وخيولهم ما لا عَدَدَ له ولا حَصْر يلحقه، بحيث لها أراييح من جيفتهم تكاد تَصْرع في الجو. وكانوا قد أحرقوا الرَّبوة* والقُبَّة الممدودية في تلك الليلة. واستبشر الناس بهذه النعمة التي أسبغها الله عليهم، وأكثروا من الشُّكر له تعالى على ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدَّة. فلله الحمد على ذلك والشكر. واتفق عقيب هذه الرَّحمة اجتماع معين الدين مع نور الدين عند قُرْبه[2] من دمشق للإنجاد لها[3].

وقال ابن الأثير: خرج ملك الألمان* من بلاد الفرنج في جيوش كبيرة[4] عظيمة لا تحصى كثرةً من الفرنج إلى بلاد الشَّام، فاتفق هو ومَنْ بساحل الشام من الفرنج فاجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها، ولا يشكُّ ملك الألمان إلا أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره. قال: وهذا النوع من الفرنج هو أكثرهم عدداً وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثر عَدَداً وعُدَداً، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً. فلما حاصروا دمشق، وبها صاحبها مجير الدين آبَق بن محمد بن بُوري بن طُغْتِكِين، وليس له من الأمر شيء، وإنما كان الأمر إلى مملوك جده طُغْتِكِين؛ وهو معين الدين أُنَر، فهو كان الحاكم والمدبِّر للبلد والعسكر، وكان عاقلاً ديناً خيِّراً حسنَ السيرة،

(١) في الأصل: بها، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في (م) قرية.
(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٢٩٨ ــ ٣٠٠.
(٤) ليست في (ل) و(م).

فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم. وكان فيمن خرج الشيخ الفقيه حجة الدين أبو الحجاج يوسف بن ذوناس[1] المَغْرِبي الفِنْدَلاوي شيخ المالكية بدمشق ـ وكان شيخاً كبيراً، زاهداً عابداً ـ خرج راجلاً، فرآه معينُ الدين، فقصده وسلَّم عليه وقال له: يا شيخ، أنت معذور، ونحن نكفيك، وليس بك قوَّة على القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نُقيلهُ ولا نَسْتَقيله. يعني قولَ الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...﴾ الآية[2]. وتقدَّم فقاتل الفرنج حتى قُتِلَ، رحمه الله، عند النَّيْرَب* شهيداً. وقوي أمر الفرنج، وتقدَّموا فنزلوا بالميدان الأخضر*، وضعُفَ أهل البلد عن رَدِّهم عنه. وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين[3] يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويُعلمه شدَّة الأمر. فجمع سيف الدين عساكره، وسار مُجدّاً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يُطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوَّابي وأصحابي وكانت الهزيمة ـ والعياذ بالله ـ علينا، لا يسلم منا أحدٌ لبُعْد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن أردتم أن ألقاهم وأقاتلهم فتسلِّم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النُّصرة لنا على الفرنج، أنني لا آخذ دمشق ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدوُّ عنها، وأعود إلى بلادي. فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج[4]. فأرسل سيف الدين إلى الفرنج

(١) كذا في الأصل و(ل) وفي (م) دوناس ـ بالدال المهملة، ومثله في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٠٩، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٨٦ من هذا الجزء.

(٢) سورة التوبة: الآية ١١١.

(٣) سيف الدين غازي أخو نور الدين، صاحب الموصل.

(٤) في الأصل: الفرج، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).

الغـرباء يتهـدَّدهم ويعلمهم[1] أنه على قصـدهم إن لم يرحلوا. وأرسـل معين الدين إليهم أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلَّمت البلد إليه، وحينئذٍ لا تطمعون في السَّلامة منه. وأرسل إلى فرنـج الشام يخوِّفهم من أولئك الفرنـج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين؛ إن ملك هؤلاء الفرنـج الغرباء دمشق لا يُبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلَّمتُ أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه من البيت المقدَّس. وبذل لهم أن يسلِّم إليهم بانياس* إن رحَّلُوا ملك الألمان عن دمشق. فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان، وخوَّفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابـع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالسَّاحل. فأجابهم إلى الرَّحيل عن دمشق، فرحل ورحل فرنـج الساحل، وتسلموا حصن بانياس* من معين الدين وبقي معهم حتى فتحه نور الدين [محمود][2]، رحمه الله، كما سنذكره[3].

قلتُ: وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر، رحمه الله، في «تاريخه» أن الفقيه الفِنْدَلاوي رُؤي في المنام، فقيل له: أين أنت؟ قال: في جنـات عَـدْن على سُرُرٍ متقابلين[4].

وقبره الآن يُزار بمقابر الباب الصَّغير* من ناحية حائط المُصَلَّى، وعليه بلاطة كبيرة منقورة فيها شرح حاله.

---

(١) في الأصل: ويعلمه، وهو وهم، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) كان فتحه سنة (٥٦٠ هـ) انظر ص ٤٣٧ و ٤٤٠ من هذا الجزء.
(٤) «تاريـخ دمشق» لابن عساكر، اختصار أبـي شامة (خ) ق ٤١ ب (نسخة مصورة في مجمـع اللغة العربية بدمشق).

وأما(١) عبد الرحمن الحَلْحُولي فقبره في بستان الشَّعْباني في جهة شرقه(٢)، وهو البُسْتان المحاذي لمسجد شعبان المعروف الآن بمسجد طالوت. وكان مُقامه في حياته في ذلك المكان، رحمه الله(١).

وقرأتُ قصيدةً في شعر أبي الحَكَم الأنْدَلُسي(٣) شَرَحَ فيها هذه القصَّة، منها:

بشطَّيْ نهر داريًّا* أمورٌ ما تواتينا
وأقوام رأَوْا سَفْكَ الدِّ (م) ما في جِلِّقٍ دينا
أتانا مئتا ألفٍ عديداً أو يزيدونا
فبعضهمُ مِنَ أنْدَلُسٍ وبعضٌ(٤) من فِلَسْطينا
ومن عكَّا ومن صُورٍ ومن صَيْدا وتِبْنِينا* ١/٥٤
إذا أبصرتَهُمْ أبْصَرْ تَ أقواماً مجانينا
ولكنْ حرَّقوا في عا جلِ الحال البساتينا
وجازوا المَرْجَ والتعديـ لَ أيضاً والميادينا
تخالهمُ ـ وقد ركبوا فطائرها(٥) ـ حراذينا
وبين خيامهم ضمُّوا الـ خنازر والقرابينا
ورايات وصُلْباناً على مسجدِ خاتونا*

(١) ـ (١) ما بينهما ليس في (م).

(٢) ما زال قبر الحلحولي موجوداً، وهو بالقرب من جسر النحاس في حي الأكراد. انظر موقع القبر في خريطة الصالحية التي وضعها الأستاذ الشيخ أحمد محمد دهمان. وانظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٢/٨٦، وحاشية بدران في «تهذيب ابن عساكر»: ١/٢٢٧ و«ثمار المقاصد»: ١٣٠ حاشية المحقق رقم (٥).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٦ من هذا الجزء.

(٤) في (ل) وبعضهم.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٨٧ من هذا الجزء.

وقُـلْنـا إذْ رأيـنـاهُـمْ ... لـعـلَّ اللَّهَ يـكـفـيـنـا
سَمَـا لهُـم مُعينٌ[1] قـد ... أعـانَ الـخَـلْقَ والـدِّيـنـا
وفـتـيـانٌ تـخـالـهـمُ ... لـدى الهيجـا شَيـاطِينـا
فـولَّـوْا يـطلبـونَ الـمـرْ ... جَ من شـرقيِّ جِسْـرِينـا*
ولـكـنْ غـادروا إلـيـا ... سَ تحت التُّرْبِ مدفونا
وشـيـخـاً فِـنْـدَلاويـاً ... فقيهـاً يعضُـدُ الـدِّينـا
وفـتـيـانـاً تـفـانَـوْا من ... دمـشقَ نـحـو سَبْعينـا
ومـنـهـم مئتـا عِـلْجٍ ... وخيـلٍ نحـو تـسعينـا
وبـاقـيـهـم إلـى الآنَ ... مِـنَ الـقـتْـلِ يـفـرُّونـا

وللعرقلة حسَّان[2] في مدح مجير الدين صاحب دمشق حينئذٍ قصيدة ذكر فيها هؤلاء الفرنج، أوَّلها:

عَـرِّجْ على نَجْـدٍ لعلَّكَ مُنْجِـدي ... بنسيمِها، وبذكرِ سُعْدى مُسْعِدي

[يقول فيها][3]:

مَنْ قـاتـلَ الإفـرنـجَ ديناً غيـرهُ ... والخيلُ مِثْلُ السَّيْلِ عند المَشْهَدِ
ردَّ الأمـانَ بكلِّ نَـدْبٍ[4] بـاسـلٍ ... وَمِنَ الجيـادِ بكُـلِّ نَهْـدٍ أَجْـرَدِ
ومِنَ السُّيوفِ بكلِّ عَضْبٍ أبيضٍ ... ومِنَ العَجَـاجِ بكـلِّ نَقْـعٍ أسودِ
حتى لـوى الإسلامَ تحتَ لـوائه ... وغدا بِحمْدٍ مِنْ شريعةِ أحمـدِ[5]

---

(١) في (ل) معين الدين، وبه ينكسر الوزن.
(٢) هو أبو الندى حسان بن نمير الكلبي، شاعر خليع من سكان دمشق، ولد سنة (٤٨٦هـ) وتوفي سنة (٥٦٧هـ) ديوانه مطبوع بتحقيق أحمد الجندي ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٧٠م). انظر: «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٧٨ ـ ٢٢٩.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) رجل ندب: خفيف في الحاجة، نجيب. انظر «اللسان» (ندب).
(٥) انظر القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٢٥ ـ ٢٦.

وقرأت في ديوان محمد بن نَصْر القَيْسَراني قصيدةً في مدح تاج الملوك بُوري جدِّ مجير الدين، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاثٍ وعشرين وخمس مئة، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين.

أول القصيدة:

الحقُّ مبتهجٌ والسَّيْفُ مُبْتَسِمُ ... ومالُ أعداء فخر الدين(١) مُقْتَسَمُ

يقول فيها:

قُدْتَ الجيادَ وحصَّنْتَ البلادَ وأمَّـ(م) ... ـنْتَ العبادَ فأنت الحِلُّ والحَرَمُ

وجئت بالخيل من أقصى مرابِطِها ... معاقد الحزم في أوساطها الحُزُمُ

حتى إذا ما أحاط المشركونَ بنا ... كاللَّيْلِ يلتهم الدُّنيا له ظُلَمُ

وأقبلوا لا مِنَ الإقبالِ في عددٍ ... يؤود حاسبَهُ الإعياءُ والسَّأَمُ

أجريتَ بحراً من الماذِيِّ(٢) معتكراً ... أمواجه بأواسي(٣) البأس تَلْتَطِمُ

وسُسْتَ جُنْدَك والرَّحمن يكلؤه ... سياسةً ما يُعَفِّي إثرها نَدَمُ

وقفتَ في الجيش والأعلام خافقةً ... بالنَّصْرِ كلُّ قناةٍ فوقَها عَلَمُ

يحوطك اللَّهُ صوناً عن عيونهم ... والله يَعْصِمُ مَنْ بالله(٤) يَعْتَصِمُ

حتى إذا بَدَتِ الآراءُ ضاحكةً ... وأقبلَتْ أَوْجُهُ الإقبالِ تَبْتَسِمُ

أَتْبَعْتَ جِنَّ سراياهم مُضمَّرَةً ... فيها نجومٌ إذا جدَّ الوغى رَجَمُوا

---

(١) في (ل) مجير الدين، وهو تحريف، ويستفاد أنه لقب بوري.

(٢) الماذي: السلاح كله من الحديد، ويقال: الماذي خالص الحديد وجيده. انظر «اللسان» (مذي).

(٣) مفردها آسية، وهي الدعامة والسارية. انظر «اللسان» (أسا).

(٤) في (م) بالناس، وهو وهم.

والنَّصْـرُ دانٍ وخيـل الله مقبلةٌ ... تـرجو الشَّهـادةَ في الهيجا وتَغْتَنِمُ
صابَ الغمامُ عليهم والسِّهـامُ معاً ... فمـا دَرَوْا أيُّمـا الهَطَّالـة الـدِّيَمُ
سَـرَوْا لينتهبُوا الأعمـار فـانْتُهِبـوا ... قتـلاً ويَغْتَنِمـوا الأمـوالَ فـاغْتُنِمُـوا
وأقبلت خـيلُنـا تَـرْدِي بـخيـلهم ... مجنـوبَةً وعلى أرمـاحنـا القِمَمُ[1]
وأدْبـرَ المَلِكُ الطَّاغي يُـزَعْـزِعُـه ... حَـرُّ الأسِنَّة وَهْـوَ البـارِدُ الشَّبِمُ[2]
وَافَـوْا[3] دمشقَ وظنُّوا أنَّهـا جِـدَةٌ ... ففـارقـوهـا وفي أيـديهم العَـدَمُ
وأيقنـوا مـع ضيـاءِ الصُّبْحِ أنَّهُمُ ... إنْ لم يَزُولُوا سِـرَاعاً زالَتِ الخِيَمُ
فغـادروا أكثـر القُـربـانِ وانْجفَلُوا ... وخلَّفُوا أكبرَ[4] الصُّلْبـانِ وانهزَمُـوا
وحاولُوا المسجدَ الأدنى فما عَبَرَتْ ... عن مَسْجِدِ القَدَمِ * الأقصى لهم قَدَمُ[5]
مُسْتَسلِمين لأيْـدِي المُسْلمين وقد ... أغـرى القَنَا بتمـادي خَطْفِهِمْ نَهَمُ
لا يملكُ الجسمُ دَفْعاً عن مَقَاتله ... كـأنه حين يغشـاهُ[6] الرَّدى صَنَمُ ١/ ٥٥

فصـــل

قال ابن الأثير: لما رحل الفرنـجُ عن دمشق سار معين الدين أُنَر إلى بَعْلَبَكَّ، وأرسل إلى نور الدين، وهو مع أخيه سيف الدين، يسأله أن يحضُرَ عنده، فاجتمعا، فوصل إليهما كتاب القُمْص* صاحب طرابُلُس يشير عليهما

(١) مفردها قمة: رأس الإنسان. انظر «اللسان» (قمم).
(٢) في (ل): الشيم.
(٣) في (م): راموا.
(٤) في (ل) أكثر.
(٥) في (ل) و (م) هذا البيت يرد آخر الأبيات المذكورة.
(٦) في (ل) يرداه.

بقصد حصن العُرَيْمة* وأَخْذه[1] ممن فيه من الفرنـج. وكان سبب ذلك أن ولد الفُنش[2] صاحب جزيرة صِقِلِّية* خرج مـع ملك الألمان إلى الشَّام، وتغلَّب على العُرَيمة وأخـذها مـن القُمْص، وأظهر أنه يريد أخذ طرابلس منه أيضاً ـ وجدُّ هذا الذي ملك العُريمة[1] هو الذي غزا إفريقية وفتـح مدينة طرابلس الغرب ـ فلما استولى هذا على العُرَيمة* كاتَبَ القَوْمص نورَ الدين ومعين الدين في قصده، فسارا إليه مُجدَّيْن، فصبَّحاه، وكتبا إلى سيف الدين يستنجدانه ويطلبان منه المدد، فأمدَّهما. فحصروا الحصن وبه ابن الفُنش، ونقَّبوا السُّور، فأذعن الفرنـجُ واستسلموا، وألقوا بأيديهم. فملك المسلمون الحصن، وأخذوا كُلَّ مَنْ به من رجل وصبي وامرأة، وفيهم ابن الفُنش، وأخربوا الحصن، وعادوا إلى سيف الدين[3].

وافتتـح نور الدين أيضاً باسوطا* وهاب*.

وقال الرئيس أبو يعلى: قُتل أكثر من كان فيه ـ يعني [في][4] حصن العُرَيمة ـ وأسروا وأخذوا ولد الملك وأمه، ونُهب ما فيه من العُدد والخيول والأثاث[5]. وعاد عسكر سيف الدين إلى مُخيمه بحمص، ونور الدين عاد إلى حلب ومعه ولدُ الملك وأمه ومن أُسر معهما[6]، وانكفأ معين الدين إلى دمشق[7].

(١ ـ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ٩٠، وفيه: حصن العزيمة ـ بالزاي ـ وهو تصحيف.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) الأثاث ليست في (ل).

(٦) بقي برتراند في الأسـر إحدى عشرة سنة، حتى أطلقه نور الدين سنة (٥٥٤هـ) لقاء معاهدته مـع الامبراطور البيزنطي مانويل. انظر ص ٣٨٥ مـن هذا الجزء. و «تاريـخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٤٦٢ ـ ٤٦٣، ٥٧٤.

(٧) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

قال: ووردت الأخبار في رجب من ناحية حلب بأن نور الدين صاحبها كان قد توجَّه في عسكره إلى ناحية الأعمال الإفرنجية، وقصد فامية*، وظفر بعِدَّة من الحصون والمعاقل الإفرنجية، وبعُدَّة وافرةٍ من الإفـرنـج، وأن صاحب أنطاكية جمعَ الفرنـج وقصده على حين غفلة منه، فَنَال من عسكره وأثقاله وكُراعه[١] ما أوْجَبَتْه الأقدار النازلة، وانهزم بنفسه وعسكره، وعاد إلى حلب سالماً في عسكره لم يفقد منه إلا النفر اليسير، بعد قتل جماعةٍ وافرة من الإفرنـج. وأقام بحلب أياماً بحيث جَدَّد ما ذهب له من البَرَك[٢]، وما يحتاج إليه من آلات العسكر، وعاد إلى منزله، وقيل: لم يَعُد[٣].

وذكر ابن أبـي طيّ أن أسدَ الدين لما كان في نفسه على نور الدين من تقديم ابن الدَّاية عليه لم ينصـح يومئذٍ، وهي وقعةَ يَغْرا*[٤]، ومَرَّ به نور الدين فقال له: ما هذا الوقوف والغفلة في مثل هذا الوقت والمسلمون قد انكسروا؟! فقـال: يا خُـوند*، أيش ننفـع نحن؟ إنمـا ينفـع مجد الـدين أبـو بكـر، فهو صاحب الأمر. فاستدرك نور الدين ذلك، وطيَّب قلب أسد الدين بعد ذلك، وألزم مجد الدين أن يعرف لأسد الدين حقَّه، وأصلـح بينهما[٥].

قال: وقُتل في هذه الكسرة شاهِنْشَاه بن أيوب، أخو الملك النَّاصر، وقيل في كسرة البقيعة[٦].

---

(١) الكراع: السلاح، وقيل: الخيل والسلاح. «اللسان» (كرع).

(٢) ويقال: البَرْك ــ بسكون الراء ــ وهو المتاع والثَّقَل والكراع والسلاح. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية): ١/٣٠٤، و«الخزانة الشرقية»: ٤/١٦٩ ــ ١٧٠، وفي «ذيل تاريخ دمشق»: ٤٧٠ (ط. د. زكار) أصله يوافق أصلنا، ولكن المحقق عدَّه مصحفاً، وأثبت من عنده «اليزك» وتعني طلائع الجيش، وهو وهم منه.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٢ ــ ٣٠٣. (٤) انظر «الكامل»: ١١/١٣٤.

(٥) انظر سبب جفوة أسد الدين من نور الدين ص ١٧٤ من هذا الجزء.

(٦) ذكر ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: ٢/٤٥٢ أنه قتل على أبواب دمشق حين حاصرها الفرنج سنة (٥٤٣ هـ)، وانظر عن كسرة البقيعة ص ٣٩٧ من هذا الجزء.

قلت: وهو والد عز الدين فَرُّخْشاه، وتقي الدين عمر، والست عذرا المنسوب إليها المدرسة العذراوية* داخل باب النَّصْر* بدمشق، وقبره الآن بالتُّربة النَّجمية* جوار المدرسة الحُسَامية* بمقبرة العوينة* ظاهر دمشق، رحمهم الله تعالى.

قلت: ولابن منير من قصيدةٍ تقدَّمت[1] اعتذاراً عما جرى في هذه الغزاة قال:

لـم يَشِنْـهُ من ماء يغراء* أَن فرَّ[2] (م) الأشاباتُ[3] ذادَ عنها انـذلاقُـهْ
كان فيها ليثَ العرينِ حمى الأشْـ ـبَالَ منه غضبانُ كالنَّارِ ماقُـهْ[4]
وشبيـه النبيّ يـوم حُنَيْـنٍ إذ تـلافى أدواءَهُمْ دِرْيَـاقُـهُ[5]
وهي الحَرْبُ فحلُها يُحْسِنُ الكرَّ (م) ة إنْ عَضَّ بـأسُهـا لا نِيـاقُـهْ

وقال ابنُ الأثير: وفي سنة ثلاث وأربعين أيضاً سار نور الدين إلى يَغْرى[6]*، وقد اجتمع بها الفرنج في قَضِّهم وقضيضهم، وقد عزموا على قصد بلاد الإسلام، فالتقى بهم هنالك، واقتتلوا أشدَّ قتال، ثم أنزل [الله][7]

---

(١) انظر ص (١٧٧، ١٨١ ـ ١٨٢) من هذا الجزء.
(٢) في (م): لم يشنه من ماء يغراس إذ فرَّ.
(٣) الأخلاط من الناس، يقال: أوباش من الناس، وأوشاب من الناس. انظر «اللسان» (أشب).
(٤) مخففة من مأق، وهي مؤخر العين. «اللسان» (مأق).
(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٣ من هذا الجزء.
(٦) في الأصل و (ل) بصرى، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وانظر «الباهر»: ٩١، فما في أصله يوافق ما في (م) أبدلها المحقق «بصرى»!، وهذا التحريف تظاهر عليه أيضاً طبعتا الروضتين، وهو من الأوهام التي توقع من يؤرخ لنور الدين بخطأ تاريخي جسيم. وانظر «الكامل»: ١١/ ١٣٤.
(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

نصرَه على المسلمين، وانهزَم الفرنج، وكانوا بين قتيلٍ وأسير، وفي هذه الوقعة يقول القَيْسَراني من قصيدةٍ أولها:

يا ليتَ أنَّ الصَّدَّ[1] مَصْدُودُ ... أوْ لاَ فليتَ النَّوْمَ مَرْدُودُ
إلى متى تُعْرِضُ عن مُغْرَمٍ ... في خَدِّه للدَّمْعِ أُخْدُودُ
قالوا عيونُ البيضِ بيضُ الظُّبى ... قلتُ ولكنْ هذه سُودُ
يُخافُ منها وهْي في جَفْنِها ... والسَّيْفُ يُخْشى وَهْوَ مَغْمُودُ

ثم خرج إلى المدح فقال:

وكيف لا نُثْني على عَيْشِنا الـ ... ـمحمودِ والسُّلْطانُ محمودُ
فليشكرِ الناسُ ظلالَ المنى ... إنَّ رِواقَ العدْلِ ممدودُ
ونَيِّراتُ المُلْكِ وهَّاجةٌ ... وطالعُ الدَّولةِ مَسْعُودُ ١/٥٦
وصارمُ الإسلامِ لا ينثني ... إلا وشِلْوُ الكُفْرِ مَقْدُودُ
مناقبٌ لم تك[2] موجودةً ... إلا ونورُ الدين موجودُ
مُظَفَّرٌ في دِرْعِهِ ضَيْغَمٌ ... عليه تاجُ المُلْكِ مَعْقُودُ
نالَ المعالي حاكماً مالكاً ... فَهْوَ سليمانُ وداودُ
تَرْتَشِفُ الأفواه أَسْيَافَهُ ... إنَّ رُضابَ العِزِّ مَوْرُودُ
وكم له مِنْ وَقْعَةٍ يومُها ... عند ملوكِ الشِّرْكِ مَشْهُودُ
والقوم إما مُرْهَقٌ صُرْعَةٌ ... أو مُوثَقٌ بالقِدِّ مَشْدُودُ
حتى إذا عادوا إلى مِثْلِها ... قالتْ لهم هَيْبَتُهُ عُودُوا
طالِبُ بثأرٍ ضَمِنَتْه الظُّبى ... فكلُّ ما تَضْمَنُ مَرْدُودُ
والكَرُّ والفَرُّ سِجالُ الوغى ... فطاردٌ طَوْراً ومَطْرُودُ

---

(١) في الأصل و(ل) الصدود، وهو مخل في وزن البيت، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل و(ل) تكن، وبها لا يستقيم الوزن، والمثبت من (م).

وإنَّما الإفرنجُ مِنْ بَغْيِها عادٌ[١] وقد عادَ لها هُودُ
قد حَصْحَصَ الحقُّ فما جاحدٌ في قلبه بَأْسُكَ مجحودُ
فكلُّ مِصْرٍ بكَ مُسْتَفْتَحٌ وكُلُّ ثَغْرٍ بك مَسْدُودُ

وقال أيضاً قصيدةً في نور الدين، وأنشده إياها بظاهر حلب، وقد كسر الإفرنج على يَغْرا* وهزمهم إلى حِصْن حارِم*، وقد كانت الفرنجُ هزمت المسلمين أولاً بهذا الموضع، أولها:

تفي بضمانِها البِيْضُ الحِدَادُ وتَقْضي دَيْنَها السُّمْرُ الصِّعَادُ[٢]
وَتُدْرِكُ ثارَها مِنْ كلِّ باغٍ فوارسُ من عَزَائمها الجِلادُ
ويَغْشى حَوْمَةَ الهَيْجا هُمامٌ تَشُدُّ بِضَبْعِهِ[٣] السَّبْعُ الشِّدادُ
أظَنُّوا أنَّ نارَ الحَرْبِ تخبو ونورُ الدين في يَدِهِ الزِّنادُ!
وَجُنْدٌ كالصُّقُورِ على صُقُورٍ إذا انقضُّوا على الأبطالِ صادُوا
إذا أَخْفوا مَكِيْدَتَهُمْ أخافُوا وإنْ أَبْدَوْا عَدَاوَتَهُمْ أبادُوا
وَنُصْرَةَ دولةٍ حاميتَ عنها وهَلْ تَخْشىٰ وأنتَ لها عِمادُ
وإنْ نُتْلِ القوافي ما تَلَتْهُ بإنِّب* ما يُؤَبِّنُها سِنَادُ[٤]
جَرَتْ بالنَّصْرِ أقلامُ العوالي وليس سوى النَّجِيعِ[٥] لها مِدَادُ
وطالتْ أرؤُسُ الأعلاجِ خِصْباً فنادى السَّيْفُ: قد وَقَعَ الحَصَادُ
أحطتَ بهم فكانَ القَتْلُ صبراً ولا طَعْنٌ هناكَ ولا طِرَادُ
ولِلإبرنز[٦] فوقَ الرُّمْحِ رأسٌ تَوَسَّدَ والسِّنانُ له وِسَادُ

(١) في الأصل و (ل): عادوا، وهو تحريف، والمثبت من (م).
(٢) أي القنا المستويات اللواتي لا يحتجن إلى تثقيف. انظر «اللسان» (صعد).
(٣) الضبع: وسط العضد. انظر «اللسان» (عضد).
(٤) أي ما يعيبها سناد، والسناد على أنواع وهو من عيوب القوافي. انظر «الوافي في العروض والقوافي» للتبريزي: ٢٤٤ ــ ٢٤٨.
(٥) الدم. «اللسان» (نجع).
(٦) هو ريموند، صاحب أنطاكية، انظر ص ٢٠٤، ٢٠٧ من هذا الجزء.

تـرجَّـل للسَّـلامِ[1] ففرَّسـوه[2] وليس سـوى القَنَـاةِ لـه جَـوَادُ
غَـضِيضُ المُقْلَتيـن ولا نُـعـاسٌ وغـائِـرُهـا ولـيس بـه سُـهـادُ
فَسِرْ وَاسْتَوْعِبِ الدُّنيا فتـوحـاً فـلا هَـضْـبٌ هـنـاك ولا وِهـادُ
وزُرْ ببني الـوغى مثوى حبيب[3] فمـا عن بـابِ مسلمـةٍ[4] ذيادُ
ولا في بـاب فارس[5] غيـر ثكلى بفـارسهـا يضيء بهـا الحِـدَادُ
أأنـطاكـيَّـة تـحـمـي ذَرَاهـا وقـد دانتْ لِسَـطْوَتِـكَ البـلادُ
وأذعنتِ الممـالـكُ واستجـابـتْ مُـلَبِّـيَـةً لِـدَعْـوَتِـكَ الـعِـبَـادُ

قلت: ووقعة إنِّب* هذه كانت عظيمةً، وقد كَثُرَ ذكر الشعراء لها، وسيأتي ذكرها قريباً[6].

فـصـل

٥٧/١

قال أبو يعلى التَّميمي: وفي رجب من هذه السنة ورد الخبر من ناحية حلب بأنَّ صاحبها نور الدين بن أتابك أمر بإبطال «حيَّ على خير العمل» في أواخر تأذين الغَدَاة، والتظاهر بسبِّ الصَّحابة، وأنكر ذلك إنكاراً شديداً،

---

(١) في (ل) للإسلام، وهو وهم ولا يستقيم به الوزن.
(٢) كأنه أراد: جعلوه فارساً.
(٣) هو حبيب النجار، كان قبره يزار بأنطاكية، يقال إنه نزلت فيه الآية الكريمة ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى...﴾. انظر «معجم البلدان»: ٢٦٩/١.
(٤) في «معجم البلدان»: ٢٦٩/١، باب مسلم، وكان مسلم بن عبد الله قد قتل عليه.
(٥) أحد أبواب أنطاكية. انظر «المصدر السابق».
(٦) انظر ص ٢٠٦ من هذا الجزء.

وساعدَه على ذلك جماعةٌ من السُّنَّة بحلب، وعَظُمَ هذا الأمر على الإسماعيلية وأهل التشيُّع، وضاقت له صدورُهم، وهاجوا [له][1] وماجوا، ثم سكنوا وأحجموا، للخوف من السطوة النوريَّة المشهورة، والهيبة المحذورة[2].

قلت: وأنشده ابن منير في شهر رمضان:

فِـدَاكَ مَـنْ صـامَ ومن أفـطرا ... وَمَـنْ سعـى سَعْـيَـك أو قَـصَّـرا
ومـا الـورى أهـلاً فَتُفْـدَى بهم ... وهـل يـوازي عَـرَضٌ جَـوْهَـرا
عَـدْلٌ تـسـاوَى تحتَ أكنـافِـهِ ... مَـطَافِلُ العينِ[3] وأُسْـدُ الشَّرى[4]
يـا نـورَ ديـنِ الله كـم حـادثٍ ... دَجَا وأَسْفَـرْتَ لـه فـانْسَـرى[5]
وكم حِمىً لِلشِّـرْكِ لا يهتـدي الـ ... ـوَهْـمُ لـه غـادَرْتَـه مَـجْـزَرَا
يـا مَلِك العصـر الـذي صَـدْرُه ... أفسـحُ من أقـطارِهـا مَـصْـدَرا
وابْـنَ الـذي طـاول أفـلاكَـهـا ... فلم يجـد مِنْ فـوقه مَـظْهَـرا[6]
منـاقبُ تـكسِـرُ كِـسْـرى كمـا ... تَقْصُـرُ[7] عن إدراكهـا قَـيْصـرا
مـا عـامَ في أوصـافِهـا شـاعـرٌ ... إلا رأى أوصـافـهـا أَشْـعَـرا
لله أصـلٌ أنـت فَـرْعٌ لـه ... مـا أطيبَ المجنى ومـا أَطْهَـرا[8]
مـا حلبُ البيضـاء مُـذْ صُنْتَهـا ... إلا حَـرَامٌ مـثـل أُمِّ الـقُـرَى

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠١.
(٣) أولاد بقر الوحش. انظر «اللسان» (طفل)، (عين). وفي الأصل و (ل) تطافل، والمثبت من (م).
(٤) الشرى: موضع تنسب إليه الأسد. انظر «اللسان» (شري).
(٥) أي انكشف. انظر «اللسان» (سرا).
(٦) أي مَصْعَداً. انظر «اللسان» (ظهر).
(٧) في الأصل: يقصر، وفي (ل) مهملة، والمثبت من (م).
(٨) في (م) ما أنضرا، وهي رواية أخرى في نسخة الأصل.

شيَّدْتَ في معمورِ أرجائها لكلِّ باغي عُمْرَةٍ مَشْعَرا
فأصبحَ الشَّادي إذا ثوَّبَ الـ ـدَّاعي[1] له هلَّلَ أو كبَّرا
لا عَدِمَ الإسلامُ مَنْ كفُّه كهفٌ لِمَنْ أُرهق أو أُحصِرا
كأنّما ساحتُه جَنَّةٌ أجرت بها راحتُه كَوْثَرا
تَصَرَّمَ الشهرُ الذي كنتَ في أوقاتِهِ مِنْ قَدْره أَشْهَرا
جِهادُ ليلٍ في نهارٍ فَفُزْ إذْ كنتَ فيه الأصْبرَ الأشكرا
أصدقُ ما يرشفُه سامعٌ ما هزَّ من أوصافِكَ المِنْبَرا
أبقاكَ للدُّنيا وللدِّين مَنْ خَلَّاك في ليلهما نَيِّرا[2]
حتى ترى عيسى[3] من القُدْسِ قد لجا إلى سيفِك مُسْتَنْصِرا

قال أبو يعلى: وفي رجب أُذِنَ لمن يتعاطى الوعظ بالتكلُّم في الجامع المعمور بدمشق على جاري العادة والرَّسم، فبدا من اختلافهم في أحوالهم وأغراضهم، والخوض في قضايا لا حاجة إليها من المذاهب، ما أوجب صرفهم عن هذه الحال وإبطال الوعظ، لما يتوجَّه معه من الفساد، وطمع سفهاء الأوغاد، وذلك في آخر شعبان منها[4].

قال: وكَثُرَ فسادُ الفرنج المقيمين بصور وعكّا والثغور السَّاحلية في الأعمال الدمشقية بعد رحيلهم عن دمشق، فأغار معين الدين على أعمالهم، وخَيَّم في ناحية حوران بالعسكر، وكاتبَ العرب، واستدعى جماعةً وافرةً من

(١) ثوَّب الداعي تثويباً: إذا أعاد مرة بعد أخرى، ومنه: تثويب المؤذن إذا نادى بالأذان للناس إلى الصلاة، ثم نادى بعد التأذين فقال: الصلاة رحمكم الله. يدعو إليها عوداً بعد بدء. انظر «اللسان» (ثوب).
(٢) في هامش (م): في نسخة «جلاك في ليلهما نيرا».
(٣) في هامش الأصل و (ل): «حاشية، قال المؤلف: يعني أتباع عيسى، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، نحو قوله تعالى: ﴿واسأل القرية﴾ والله أعلم.
(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠١.

التركمان، وأطلق أيديهم في نهبهم والفتك بهم، فلم يزل على النِّكاية فيهم والمضايقة لهم إلى أن ألجأهم إلى طلب المصالحة(١).

ودخلت سنة أربع وأربعين [وخمس مئة](٢)

فجدِّدت المهادنة في المحرَّم مُدَّة سنتين، وأنفذ نورُ الدين إلى معين الدين يعلمه أن صاحب أنطاكية* قد جمع إفرنج بلاده، وظهر يطلب بهم الإفساد في الأعمال الحلبية، وأنه قد بَرَزَ في عسكره إلى ظاهر حلب للقائه، والحاجة ماسَّة إلى معاضدته. فندب معينُ الدين مجاهدَ الدين بُزان بن مامين(٣) في فريق وافر من العسكر الدمشقي للمصير(٤) إلى جهته، وبذل المجهود في طاعته ومناصحته(٤)، وبقي معين الدين في باقي العسكر بناحية حَوْرَان(٥).

قال: وفي صفر من السنة وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى، وله الحمد، [من الظهور](٦) على حشد الإفرنج المخذول، ولم يفلت منهم إلا من خبَّر ببوارهم وتعجيل دمارهم؛ وذلك أن نور الدين اجتمع
١/٥٨ له من العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسَّواد، فنهض بهم إلى الفرنج في الموضع المعروف بإنِّب*، وهم في نحو أربع مئة فارس وألف راجل، فقتلوهم وغنموهم، ووُجد اللعين البرنس(٧) مقدَّمهم صريعاً بين حُماته

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٣ ـ ٣٠٤.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٢ من هذا الجزء.
(٤ ـ ٤) ما بينهما ساقط من (م).
(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٧) انظر ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

وأبطاله، فعرف وقُطـع رأسُه وحُمل إلى نور الدين. وكان هذا اللعين من أبطال الفرنـج المشهورين بالفروسية وشدَّة البأس، وقوة الحِيَل وعظم الخلقة، مـع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة، والتَّناهي في الشَّر، وذلك يوم الأربعاء الحادي والعشرين من صفر. ثم نزل نور الدين في العسكـر على باب أنطاكية*، وقد خلَت من حُماتها، والذَّابِّين عنها، ولم يبق فيها غير أهلها مـع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم. وتردَّدت المرسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وإيمانهم وصيانة أموالهم، فوقـع الاحتجاجُ منهم بأن هذا أمرٌ لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من النَّاصر لهم، والمعين على من يقصدهم. وحملوا ما أمكنهم من التُّحف والمال، واستمهلوا فأُمهلوا. ثم رتَّب نور الدين بعض العسكر للإقامة عليها، والمنـع لمن يصل إليها، ونهض في باقية العسكر إلى ناحية أفامية*، وقد كان رتَّب الأمير صلاح الدين[1] في فريق وافر من العسكر لمنازلتها ومضايقتها، فالتمسوا الأمان، فأُومِّنوا على أنفسهم، وسلَّموا البلد في ثامن عشر ربيـع الأول، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية*، وقد انتهى إليه الخبر بنهوض الفرنـج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لإنجاد من بها، فاقتضت الحال مهادنة مَن في أنطاكية[2] وموادعتهم، وتقـريـر أن يكون ما قرُب من الأعمال الحلبيَّة له، وما قرُب من أنطاكية[2] لهم، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل وغيرها المغانم الجمَّة. وفصَـل عنـه الأمير مجاهد الدين بُزان في العسكر الدمشقي، وقد كان له في هذه الوقعة ولمن في جملته البلاء المشهور والذِّكر المشكور، لما هو موصوفٌ به من الشَّهامة والبسالة، وإصابة الرأي، والمعرفـة بمواقف الحروب[3].

(١) انظر ص ٣٦٠ من هذا الجزء. (٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤ ــ ٣٠٦، وط. د. زكار: ٤٧٣ ــ ٤٧٥.

وقال ابن أبي طيّ: حمل أسد الدين على حامل صليب الفرنج فقتله، وقَتَلَ[1] البرنس صاحب أنطاكية وجماعة من وجوه عسكره، ولم يُقتل من المسلمين من يؤبه له، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى. وكان لأسد الدين في هذه الحرب اليدُ البيضاء، ومدحه بها بعضُ الشعراء الحلبيين [بقصيدةٍ][2] يقول فيها:

إنْ كانَ آلُ فرنجٍ أدركوا فَلَحاً[3] ... في يوم يَغْرا* ونالوا مُنْيَةَ الظَّفَرِ
ففي الخَطيم خَطَمْتَ الكُفْرَ مُنْصَلِتاً ... أبا المُظَفَّرِ بالصَّمْصَامة الذَّكَرِ
نالوا بيغرا نِهاباً وانْتَهبْتَ لنا ... على الخطيمِ نفوسَ المعشر الأَشِرِ
واستقودوا الخيلَ عُرْياً[4] واستَقَدْتَ لنا ... قَوامِص[5] الكُفْرِ في ذُلٍّ وفي صَغَرَ

قال: وحصل لأسد الدين من هذه الكسرة سلاحٌ كثير، وعدة[6] أسارى وخيول كثيرة[6]، فأنفذ لأخيه نجم الدين منها شيئاً.

وفي هذه السنة عَظُمَ أمر أسد الدين.

وقال ابن الأثير: سار نور الدين إلى حصن حارِم*، وهو للفرنج، فحَصَرَه وخرَّب رَبَضَه، ونهب سواده، ثم رحل عنه إلى حصن إنِّب* فحصره، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية*، وساروا إليه ليُرَحِّلُوه عن إنِّب فلم يرحل، بل لقيهم وتصافَّ الفريقان، واقتتلوا، وصبروا، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصَّبر في الحرب على حداثة سِنِّه ما تعجَّب منه

---

(١) الضبط من (ل).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٣) أي فوزاً. انظر «اللسان» (فلح).
(٤) أي لا سروج عليها، انظر «اللسان» (عرا).
(٥) مفردها قومص، قمص. انظرها في كشاف المصطلحات.
(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

الناس[١]، وأجلت الحربُ عن هزيمة الفرنـج، وقَتَلَ المسلمون منهم خلقاً كثيراً، وفيمن قُتِلَ البرنس صاحب أنطاكية، وكان عاتياً من عُتاة الفرنـج، وذوي التقدم فيهم والملك. ولما قتل البرنس خلَّف ابنـاً صغيراً، وهـو بيمند[٢]، فبقي مـع أُمّه[٣] بأنطاكية، فتزوجت أمه بإبرنس آخر[٤]، وأقام معها بأنطاكية يدبِّرُ الجيش ويقودهم ويقاتل بهم إلى أن يكبر بيمند. ثم إن نور الدين غزا بلد الفرنـج غزوة أخرى، وهزمهم، وقتل فيهم وأسر، وكان في الأسرى البرنس الثاني زوج أم بيمند. فلما أَسَره تملَّك بيمند أنطاكية بلد أبيه، وتمكَّن منه، وبقي بها إلى أن أسره نور الدين بحارم* سنة تسـعٍ وخمسين وخمس مئة، على ما نذكره[٥] إن شاء الله تعالى. وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتـح وقتل البرنس. وممَّن قال فيه القَيْسَراني الشاعر من قصيدةٍ أنشده إياها بجسر الحديد*، الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية، أولها[٦]:

هـذي العزائـمُ لا ما تدَّعي القضبُ[٧] … وذي المكـارمُ لا ما قـالتِ الكُتُبُ
وهـذه الهِمَمُ اللاتي متى خَـطَبَتْ … تعثَّـرَتْ خَلْفَها الأشعـارُ والخُطَبُ
صافحتَ يا ابنَ عمادِ الدين ذُرْوَتَها … بـراحـةٍ للمسـاعي دونهـا تَعَبُ
مـا زال جَـدُّكَ يبني كـلَّ شـاهقـةٍ … حتى ابتنى قُبَّـةً أوتـادُهـا الشُّهُبُ

---

(١) كان عمر نور الدين وقتئذٍ ثلاثاً وثلاثين سنة، إذ ولد سنة (٥١١هـ) انظر ص ١٠٧ مـن هذا الجزء.
(٢) هو Bohemond III، انظره في كشاف الأعلام.
(٣) هي Constanca، انظرها في كشاف الأعلام.
(٤) هو Rignald of chatillon. المعروف عند المؤرخين أيضاً بأرناط. انظره في كشاف الأعلام.
(٥) انظر ص ٤١٥ من هذا الجزء.
(٦) انظر «الباهر»: ٩٩ ــ ١٠٠، وقد أورد ابن الأثير أبياتاً من القصيدة.
(٧) مفردها القضيب: السيف اللطيف الدقيق. «اللسان» (قضب).

لله عَزْمُكَ ما أمضى وهمُّكَ ما ... أقصى(١) اتِّساعاً بما ضاقت به الحِقَبُ

٥٩/١ يا ساهدَ(٢) الطَّرْفِ والأجفانُ هاجعةٌ ... وثابتَ القَلْبِ والأحشاءُ تَضْطَرِبُ

أَغْرَتْ سيوفَك بالإفرنجِ راجفةٌ ... فؤادُ روميَّة الكُبْرى لها يَجِبُ

ضربتَ كَبْشَهُمُ منها بقاصمةٍ ... أودى بها الصُّلْبُ وانحطَّتْ بها الصُّلُبُ

قُلْ للطُّغاة وإنْ صَمَّتْ مسامِعُها ... قولاً لِصُمِّ القَنا في ذِكْره أَرَبُ

ما يوم إنِّب* والأيامُ دائلةٌ ... من يوم يغرا* بعيدٌ لا ولا كَثَبُ

أَغَرَّكُمْ خَدْعة الآمالِ ظَنُّكُمْ ... كم أسلمَ الجَهْلُ ظناً غرَّهُ الكَذِبُ

غَضِبْتَ للدين حتى لم يَفُتْك رضىً ... وكان دينُ الهُدَى مَرْضَاتُه الغضَبُ

طهَّرْتَ أرضَ الأعادي من دمائِهِمُ ... طهارةً كلُّ سَيْفٍ عندها جُنُبُ

حتَّى استطارَ شرارَ الزَّنْدِ قادحهُ ... فالحَرْبُ تُضْرَمُ والآجالُ تُحْتَطَبُ

والخيلُ مِنْ تحت قَتْلاها تَقِرّ(٣) لها ... قوائمٌ خانَهُنَّ الرَّكْضُ والخَبَبُ

والنَّقْعُ فوقَ صِقَال البيض مُنْعَقِدٌ ... كما اسْتَقَلَّ(٤) دُخانٌ تحتَه لَهَبُ

والسَّيْفُ هامَ على هامٍ بمعركةٍ ... لا البَيْضُ(٥) ذو ذمَّة فيها ولا اليَلَبُ(٦)

والنَّبْلُ كالوَبْلِ(٧) هطَّالٌ وليس له ... سوى القِسِيِّ وأيدٍ فوقَها سُحُبُ

وللظُّبى ظفرٌ حُلْوٌ مذاقتُه ... كأنَّما الضَّرْبُ فيما بينهم ضَرَبُ(٨)

---

(١) في (ل) ما أقضى، وهو تصحيف.

(٢) تقرأ أيضاً في (م): يا ساهر.

(٣) أى تسكن، تستقر، انظر «اللسان» (قرر).

(٤) أي ارتفع. انظر «اللسان» (قلل).

(٥) مفردها بيضة، وهي الخوذة. «المعجم الوسيط»: ٧٨/١.

(٦) اليلب: الدروع. انظر «اللسان» (يلب).

(٧) الوبل: المطر الشديد، الضخم القطر. «اللسان» (وبل).

(٨) الضرب ـ بالتحريك ـ العسل الأبيض الغليظ، وقيل: عسل البر. انظر «اللسان» (ضرب).

ولـلأسِنَّـةِ عمـا في صُـدُورِهُمْ مصـادرٌ أقلوبٌ تـلكَ أم قُلُبُ[١]
خانُوا فخانَتْ[٢] رِماحُ الطَّعْنِ أيديَهُمْ فاستسلموا وهي لا نَبْعٌ[٣] ولا غَرَبُ[٤]
كـذاك مَنْ لم يـوقِّ الله مُهْجَتَـه لاقَى العِدَى والقَنَا في كفِّه قَصَبُ
كـانت سيـوفُهُمْ أوحى حتـوفِهُمُ يـا رُبَّ حائنةٍ[٥] منجَـاتُهـا العَـطَبُ
حتى الطوارقُ كانت من طوارقهم ثارتْ عليهم بها من تحتها النُّوبُ
أجسـادُهُمْ في ثيابٍ من دمائِهِمُ مسلوبـةً وكـأنَّ القـومَ مـا سُلبـوا
أنبـاءُ ملحمـةٍ لـو أنهـا ذُكـرت فيمـا مضى نَسِيَتْ أيامَهـا العَرَبُ
من كان يغزو بلادَ الشِّرْكِ مُكْتَسِباً من الملوك فنـورُ الـدين مُحْتَسِبُ
ذو غُـرَّةٍ ما سَمَتْ واللَّيْـلُ مُعْتَكِـرٌ إلّا تَمَزَّقَ عن شَمْسِ الضُّحى الحُجُبُ
أفعالُه كـاسْمِه[٦] في كـلِّ حادثـةٍ وَوَجْهُـهُ نـائبٌ عن وَصْفِهِ اللَّقَبُ
في كلِّ يوم لفكـري من وقائعـه شُغْـلٌ فكلُّ مـديحي فيه مُقْتَضَبُ
مَنْ باتتِ الأُسْدُ أسرى في سلاسله هل يأسر الغُلْبَ[٧] إلا من له الغَلَبُ
فملَّكُـوا سَلَبَ الإبـرنـز[٨] قـاتلَه وَهَـلْ لـه غَيْـرَ أَنْطَاكِيَّـةٍ سَلَبُ
مَنْ للشَّقي بمـا لاقَتْ فـوارِسُـهُ وإن يسـايرهـا من تحتـه قَتَبُ
عَجِبْتُ للصَّعْـدة[٩] السَّمراءِ مُثْمِرَةً بـرأسـه إن إثمـار القَنَـا عَجَبُ

---

(١) مفردها قليب، وهو البئر. «اللسان» (قلب).
(٢) في (م) خافوا فخافت.
(٣) النبع: شجر من أشجار الجبال تتخذ منه القِسِي. «اللسان» (نبع).
(٤) ضرب من الشجر. «اللسان» (غرب).
(٥) الحائنة: النازلة ذات الحين. «اللسان» (حين).
(٦) في (م): في اسمه، وهو وهم.
(٧) مفردها أغلب، وغُلْب: وهو الأسد. انظر «اللسان» (غلب).
(٨) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.
(٩) الصعدة: القناة. «اللسان» (صعد).

سمـا عليهـا سمـوَّ المـاءِ أَرْهَقَـهُ ... أُنبـوبةٌ في صَعُـودٍ أصلُهـا صَبَبُ
مـا فارَقَتْ عَـذَباتُ التَّـاجِ مَفْـرِقَـهُ ... إلا وهـامتـهُ تـاجٌ ولا عَـذَبُ
إذا القنـاةُ ابْتَغَتْ في رأسـه نَفَقـاً ... بدا لِثَعْلَبِهَا[1] مِنْ نحـره سَرَبُ[2]
كنـا نَعُـدُّ حِمى أطـرافِنـا ظَفَـراً ... فملَّكْتَـكَ الظُّبى مـا ليس يُحْتَسَبُ
عمت فُتـوحُكَ بـالعَدْوى مَعَـاقِلَها ... كـأَنَّ تسليمَ هـذا عنـد ذا جَـرَبُ
لم يبقَ منهم سوى نَبْضٍ بلا رَمَقٍ ... كما التَوَى بعدَ رأس الحَيَّةِ الذَّنَبُ
فانْهَضْ إلى المسجدِ الأقصى بذي لَجَبٍ ... يوليك أقصى المُنَى فالقُدْسُ مُرْتَقِبُ
وائذَنْ لموجكَ في تطهيرِ ساحِلِه ... فـإنَّمـا أنتَ بحـرٌ لُجُّـه لَجَبُ
٦٠/١ يـا مَنْ أعادَ ثُغـورَ الشَّام ضـاحكةً ... من الظُّبى عن ثُغورٍ زانها[3] الشَّنَبُ[4]
مـا زِلْتَ تُلْحِقُ عاصيهـا بـطائعهـا ... حتّى أقمت وأنـطاكيَّـة حَلَبُ
حَلَلْتَ مِنْ عَقْلهـا أيدي معـاقِلهـا ... فـاسْتَجْفَلَتْ وإلى ميثاقِـكَ الهَرَبُ
وأَيْقَنَتْ أَنَّهـا تتلو[5] مـراكِـزَهـا ... وكيفَ يثبتُ بيتٌ مَـا لَـهُ طُنُبُ[6]
أجْرَيْتَ من ثُغر[7] الأعْنَاق أَنْفُسَها ... جريَ الجفونِ امتراها[8] بارحٌ[9] حَصِبُ[10]

---

(١) الثعلب: طرف الرمح الداخل في جُبَّة السنان، «اللسان» (ثعلب).
(٢) في (ل) شرب، وهو وهم. والسرب: بيت تحت الأرض، وجحر الثعلب. «اللسان» (سرب).
(٣) في (م): زارها، وهو تحريف.
(٤) الشنب: هو ــ على أحد الأقوال ــ صفاء الأسنان ونقاؤها. انظر «اللسان» (شنب).
(٥) تخذل، تترك. انظر «اللسان» (تلا).
(٦) حبل طويل يشد به البيت، وقيل: هو الوتر. «اللسان» (طنب).
(٧) مفردها ثُغْرة، وهي نقرة النحر فوق الصدر. انظر «اللسان» (ثغر).
(٨) استخرجها واستدرها. «اللسان» (مرا).
(٩) الريح الحارة في الصيف. «اللسان» (برح).
(١٠) ذو حصباء. انظر «اللسان» (حصب).

وما رَكَزْتَ القَنَا إلا ومنك على   جسرِ الحديد* هِزَبْرٌ غِيلُه[1] أَشِبُ[2]
فاسعدْ بما نِلْتَهُ من كلِّ صالحةٍ   يأوي إلى جنَّة المأوى لها حَسَبُ
إلا تكن أحدَ الأَبدال في فلك الـ   ـتَّقْوى فلا يُتمارى[3] أَنَّك القُطُبُ
فلو تُنَاسِبُ أملاكَ السَّماءِ بها   لكانَ بينَكُما من عِفَّةٍ نَسَبُ
هذا وهل كان في الإسلامِ مكرمةٌ   إلّا شَهِدْتَ وعُبَّادُ الهوى غَيَبُ[4]

وله فيه من قصيدةٍ أُخرى:

ألَا لله دَرُّكَ أيُّ دُرٍّ[5]   صريحٍ جاءَ بالكَرَمِ الصَّريحِ
وَعَسْكَرُكَ الذي استولى مُشِيْحاً[6]   على ما بين فامية* وشِيْحٍ[7]
ووقعتك التي نَبَتِ العوالي   صوادِرَ عن قتيلٍ أوجريحِ
بإنَّب* يومَ أَبْرَزَتِ المَذَاكي[8]   من النَّقْعِ الغَزَالَةَ[9] في مُسوحِ
غداة كأنما العاصي* احمراراً   من الدَّمِ عبرة الجَفْنِ القريحِ
وقد وافاك بالإبرنز[10] حَتْفٌ   أُتيح له من القَدَرِ المُتيحِ
قتلتَ أشحَّهم بالنفس إذْ لا   يجودُ بنفسه غيرُ الشحيحِ

---

(١) الغيل ــ بالكسر ــ الأجمة، وموضع الأسد غيل، والجمع غيول، انظر «اللسان» (غيل).
(٢) ملتف. انظر «اللسان» (أشب).
(٣) لا يشك. انظر «اللسان» (مرا).
(٤) مفردها غائب. «اللسان» (غيب).
(٥) الضبط من (م).
(٦) مجدًّا. انظر «اللسان» (شيح).
(٧) شيح: قرية كانت تعد قديماً في أعمال أنطاكية، يقال لها شيح الحديد. انظر «الأعلاق الخطيرة»: ج ١/ق ١/١٢٦.
(٨) الخيل. انظر «اللسان» (ذكا).
(٩) الشمس. «اللسان» (غزل).
(١٠) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

مـلأتَ بهم ضـرائِحَهُمْ فـأمْسَـوا	وليسَ سوى القَشَاعمِ من ضَريحِ
وَعُــدْتَ إلى ذَرَا حلب حـميـداً	سُمــوَّ البَـدْرِ من بعــد الجُنُوحِ
فـإنْ حَلِيَتْ بغُـرَّتـك الليـالـي	فـكم لِسَنَـاكَ مـن زمن مـليحِ
رُوَيْـدَكَ تسكن الهيجا فـوَاقـاً[١]	بحيث تـريـح من تَعَبِ المريـحِ
فــأنتَ وإنْ أَرَحْتَ الخيـلَ وقتـاً	فهمُّـك غيـرُ هَمِّ الـمُسْتـريـحِ

وقال أحمد بن منير يمدحه ويذكر ظفره بالبرنس وأصحابه وحمـل رأسه إلى حلب، وأنشده إياها أيضاً بجسر الحديد*:

أقوى[٢] الضَّلالُ وأَقْفَرتْ عَرَصَـاتُهُ	وعــلا الهُـدَى وتبلَّجت قسمـاتُـهُ
وانـتـاشَ[٣] دينَ محمـدٍ محمـودُه	من بعـد مـا عُلَّتْ دمـاً عَبـراتُــهُ
رَدَّتْ على الإسـلامِ عَصْرَ شَبـابِهِ	وَثَبـاتُــه مِنْ دونـه وثَـبـاتُــه
أرسـى قــواعِــدَه ومَــدَّ عِـمــادَه	صُعُــداً وشيَّـدَ سُـورَهُ سـوراتُـه
وأعـادَ وجه الحقِّ أبيضَ نـاصعـاً	إصْــلاَتـه[٤] وصِـلاَتُـه وصَـلاَتُـه
لمَّــا تـواكـل حِـزْبُــهُ وتخـاذلَتْ	أنصــارُه وتقــاصَـرتْ خُـطُواتُــهُ
رُفِعَتْ لنـور الـدِّين نـارُ عـزيمـةٍ	رَجَعَتْ لهـا عن طَبْعِهـا ظُلمـاتُـه
مَلِكٌ مجــالسُ لهـوه شَــدَّاتــه[٥]	ومُشُـوقُهُ بين الصفوف شَذَاتـه[٦]
يُغْــرَى بحشحشـة اليــراعِ بَنَـانُـهُ	إنْ لـذ حَشْحَشَةَ الكؤوس لِـذَاتُـهُ
ويـروقُـه ثَغْـرُ العِـدَى قــان دمـاً	لا الثَّغْـر يَعْبَـقُ في لَمـاه لثاتُـه

---

(١) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت، جعلوه ظرفاً على السعة. انظر «اللسان» (فوق).
(٢) افتقر، ومنه: أقوت الدار، إذا خلت من أهلها. انظر «اللسان» (قوا).
(٣) استدركه واستنقذه، وتناوله، وأخذه من مهواته. انظر «اللسان» (نوش).
(٤) تجريده للسيف من غمده، وهو هنا كناية عن الحرب. انظر «اللسان» (صلت).
(٥) حملاته في الحرب. انظر «اللسان» (شدد).
(٦) أي شدته وجرأته. «اللسان» (شذا).

فَصَبُوحُه خَمْرُ الطُّلى(١) وغَبُوقُه ... نُطَفُ النُّفوسِ تُديرُها نشواتُهُ
فَتْحٌ تعمَّمَتِ السماءُ بفخرِه ... وَهَفَتْ على أغصانِها عَذَباتُهُ
سَبَغَتْ على الإسلامِ بيض حُجُوله ... واختالَ في أوضاحها جبهاتُهُ
وانهلَّ فوقَ الأبطحين غمامُهُ ... وَسَرَتْ إلى سَكْنيهما(٢) نَفَحاتُهُ ١/٦١
لله بُلْجَةُ(٣) ليلةٍ مَخِضَتْ به ... واليوم دَبَّجَ وَشْيَه ساعاتُهُ
حَطَّ القوامِصَ* فيه بعد قِماصها(٤) ... ضربٌ يُصَلْصِلُ في الطُّلى صعقاتُهُ
نَبَذُوا السِّلاحَ لِضَيْغَمٍ عاداتُه ... فَرْسُ الفوارسِ(٥) والقَنا غاباتُهُ
لمجرِّبٍ عُمريَّةٍ غضباتُه ... لله، مُعْتَصِمِيَّةٍ غَزَواتُهُ
تجنا لضيقِ صِفَادِه(٦) أسراؤه ... وتُفيضُ ماءَ شُؤُونِها(٧) نغماتُهُ
بين الجبالِ خواضعاً أعناقُها ... كالذَّوْدِ(٨) نابت عن بُراه(٩) حُدَاتُهُ
نَشَرَتْ على حلب عقودُ بُنودِهم ... حُلَلَ الرَّبيع تناسَقَتْ زهراتُهُ
رَوْضٌ جناه لها مَكَرُّ جيادِهِ ... واسْتَوْأَرَتْ حَمَّالَةً حَمَلاتُهُ

---

(١) مفردها طُلاة: وهي العنق. «اللسان» (طلي).

(٢) أي سكانهما، انظر «اللسان» (سكن).

(٣) البلجة: آخر الليل عند انصداع الفجر. «اللسان» (بلج).

(٤) وثبها. «اللسان» (قمص).

(٥) أي قتل الفوارس. والأصل في الفرس دق العنق، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً. انظر «اللسان» (فرس).

(٦) الصفاد: ما يوثق به الأسير من قد وقيد وغل. «اللسان» (صفد).

(٧) مفردها شأن: مجرى الدمع إلى العين، والدموع تخرج من الشؤون. «اللسان» (شأن).

(٨) القطيع من الإبل الثلاث إلى التسع. «اللسان» (ذود).

(٩) الحلقة في أنف البعير. «اللسان» (بري).

متساندينَ على الرِّجال كما انتشى شَـرْبٌ[1] أَمالَتْ هـامَه قهـواتُـهُ[2]
لم تُنْبتِ الآجـامُ قبـل رِمـاحِـهِ[3] شَجَـراً أُصـولُ فُـروعِهِ ثَمَـرَاتُـهُ
فَلْيَحْمَـدِ الإسلامُ مـا جُدِحَتْ لـه شَـرَبَـاتُ غَـرْسٍ هذه مجنـاتُـهُ
وسقى صدَى ذاك الحيا صَوْبُ[4] الحيا خَيْـرُ الثَّـرى مـا كنتَ أنت نبـاتُـهُ
نَصَبَ السَّريرَ ومـالَ عنه ومُهِّـدَتْ لِمَقَـرِّ مَنْصبـك السَّـرِيِّ سَرَاتُـهُ
مـا ضَـرَّ هـذا البدر وهــو محلِّقٌ أن الكـواكبَ في الـذُّرَا ضَـرَّاتُـهُ
في كـلِّ يـومٍ تستـطيـل قنـاتُـهُ فـوق السَّمـاء وتعتلي دَرَجَـاتُـهُ
وتـظل تَرْقُمُ[5] في الضُّحى آثـارَه مَجْـداً وألسنـةُ الـزَّمـانِ رُوَاتُـهُ
أين الأُلى ملؤوا الطُّروسَ زخارفاً عن نَـزْفِ بحـرٍ هـذه قَـطَرَاتُـهُ
عَـذَقُوا بـأعناق العـواطِـلِ مـا لـه مـن جَـوْهَـرٍ فَـأَتَتْهُمُ فَـذَّاتُـهُ
لـو فَصَّلُـوا سِمْطاً ببعضٍ فتـوحه سَخِرَتْ بما افتعلوا لـه[6] فعلاتُـه
يمسي قَنـانيـه[7] بنـاتُ قُيـونـه[8] فوقَ القوانسِ[9] والقَنَا قَيْنَاتُهُ[10]

---

(١) اسم لجمع شارب. «اللسان» (شرب).

(٢) القهوة: الخمر. «اللسان» (قها).

(٣) في (م) رماحهم، وهو تصحيف.

(٤) الصوب: نزول المطر. «اللسان» (صوب).

(٥) رقم الكتاب يرقمه رقماً أعجمه وبينه. «اللسان» (رقم).

(٦) في (ل) لهم، وهو تصحيف.

(٧) مفردها قنينة، من الزجاج الذي يجعل الشراب فيه. «اللسان» (قنن).

(٨) مفردها: القين، وهو الحداد. «اللسان» (قين).

(٩) مفردها قونس: أعلى البيضة من الحديد. «اللسان» (قنس).

(١٠) مفردها قينة، وهي الأمة غنت أم لم تغن، وكثيراً ما يطلق على المغنية في الإماء. «اللسان» (قين).

صَلَتانُ من دون الملوك تقرُّها حركاتُهُ وتُنِيمُها يقظاتُهُ
قَعَدَتْ بهم عن خطوه هِمَّاتهم وَسَمَتْ به[1] عن قَطْوهم[2] هِمَّاتُه
سَكَنُوا مسجَّفةَ الحِجَال[3] وأَسْكَنَتْ زجل الرِّجال مع السها[4] عَزماتُهُ
لو لاح للطائي غُرَّة فتحِهِ باءتْ بحملِ تأوّهٍ باءاتُهُ[5]
أو هَبَّ للطَّبريِّ طِيْبُ نسيمه لاحْتَشَّ من تاريخه حشواتُه
صَدَمَ الصَّليبَ على صلابةِ عُوده فتفرَّقَتْ أيدي سبا خَشَباتُهُ
وسقى البرنس وقد تبَرْنَسَ ذِلَّةً بالرُّوج[6] مُمْقِرَ[7] ما جَنَتْ غَدَراتُهُ
فانقاد في خَطْمِ المنيَّة أَنْفُهُ يومَ الخَطِيمِ وأَقْصَرتْ نَزَواتُهُ
ومضى يُؤَنِّبُ تحت إنِّب* هِمَّةً أَمْسَتْ زوافِرَ غَيِّها زَفَراتُهُ
أسدٌ تبوَّأَ كالغريف[8] فجأتَهُ فتبوَّأَتْ طَرَفَ السِّنانِ شَوَاتُهُ[9]
دونَ النُّجومِ مغمَّضاً ولطالما أَغْضَتْ وقد كرَّت لها لحظاتُهُ
فجلوته تبكي الأصادق[10] تحته بدمٍ إذا ضَحِكَتْ له شُمَّاتُهُ

---

(١) في الأصل: بهم، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) القطو: المشي بثقل. انظر «اللسان» (قطا).
(٣) السجف: الستر، والحجال: مفردها حجلة، وهو بيت كالقبة يستر بالثياب، وكانت الحجلة تتخذ للعروس أيضاً. انظر «اللسان» (سجف) (حجل).
(٤) كويكب صغير، خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. «اللسان» (سها).
(٥) إشارة إلى قصيدة أبي تمام البائية المشهورة:
السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
(٦) كورة من كور حلب المشهورة، في غربيها. «معجم البلدان»: ٧٦/٣.
(٧) الشديد المرارة. «اللسان» (مقر).
(٨) الغريف: الشجر الملتف. «اللسان» (غرف).
(٩) الشواة: جلدة الرأس. «اللسان» (شوا).
(١٠) جمع صديق. انظر «اللسان» (صدق).

تمشي القناةُ برأسه وهو الذي ... نظمتْ مدارَ النَّيِّرينِ قَناتُهُ

لو عانقَ العَيُّوقَ[1] يومَ رَفَعْتَه ... لأراك[2] شاهدَ خَفْضِه إخْباتُهُ[3]

ما انقادَ قبلَك أنفُه بِخزامةٍ[4] ... كلا ولا همَّت لها هَدراتُهُ

طَيَّان[5] خلف السَّرْحِ[6] طال زئيرُه ... نَطَقَتْ سطاك له فطال صُماتُه[7]

١/٦٢ لما بدا مسودُّ رأيك فوقه ... مبيضُّ نَصْرِك، نُكِسَتْ راياتُه

ورأى سيوفَكَ كالصَّوالج طاوَحَتْ ... مِثْلَ الكُرينِ[8] فقلَّصت كُرَّاتُهُ

ولَّى وقد شَرِبَتْ ظُباكَ كُماتَه ... تحت العَجاجِ وأَسْلَمَتْه حُماتُه

ترك الكنائسَ والكِناسَ لناهبٍ ... بالبِيضِ ينهبُ ما حواه عُفَاتُه

لغلاب أروع لا يُميتُ عِدَاتِه ... داءُ المِطال ولا تعيش عُدَاتُه

للوحشِ ملقىً بالعرا يقتاتُه ... ما كانَ قَبْلُ بصيده يقتاتُه

اليومَ ملَّكك القِراعُ قلاعَه ... متسنِّماً ما استَشْرَفَتْ شرفاتُه

وغداً تُحِلُّ لك الحلائلَ أسهمٌ ... متوزِّعاتٌ بينهن بناتُهُ

أَوْطَأْتَ أطرافَ السَّنابك هامَه ... فتقاذَفَتْ بعنيقها قذفاته

---

(١) العيوق: كوكب أحمر مضيء بحيال الثريا في ناحية الشمال، ويطلع قبل الجوزاء، سمي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا. «اللسان» (عوق).

(٢) في الأصل و (ل) لأزال، والمثبت من (م).

(٣) الإخبات: الخشوع والتواضع . انظر «اللسان» (خبت).

(٤) الخزامة: حلقة من شعر تجعل في وترة أنف البعير، يشد بها الزمام. انظر «اللسان» (خزم).

(٥) الطيان: الجائع. «اللسان» (طوي).

(٦) السرح: الماشية. انظر «اللسان» (سرح).

(٧) سكوته، «اللسان» (صمت).

(٨) جمع كرة، وهي التي تضرب بالصولجان. انظر «اللسان» (كرا)، وانظر كشاف المصطلحات «الجوكان».

لا زال هـذا الملك يشمخُ شأنُـه | أبداً وتُكْفَتُ في الحضيضِ شناتُهُ
ما أخطأتـكَ يـدُ الـزَّمـان فـدونَـه | من شـاء فلتسـرعْ إليـه هَنَـاتُـه
أنت الـذي تحلي الحيـاةَ حيـاتُـه | وتُهِبُّ أرواحَ الـقصيـدِ هِبَـاتُـهُ

فصل

قال ابن الأثير: وفيها[1] سار نور الدين إلى حصن أفامية* ـ وهو للفرنـج أيضاً، وبينه وبين مدينة حماة مرحلة، وهو حِصْنٌ منيـع على تلٍّ مرتفـع عالٍ من أحصن القلاع وأمنعها ـ وكان من به من الفرنـج يغيرون على أعمال حماة وشَيْزَر* وينهبونها، فأهل تلك الأعمال معهم تحت الذلِّ والصَّغار. فسار نور الدين إليه، وحصره وضيَّق عليه، ومنـع من به القرار ليلاً ونهاراً، وتابـع عليهم القتال ليمنعوا الاستـراحة، فـاجتمعت الفرنـج من سـائر بـلادها، وسـاروا نحـوه ليزحزحُوه عنها، فلم يصلوا إليه إلا وقد ملك الحصن وملأه ذخائر؛ من طعامٍ ومال، وسلاح ورجال، وجميـع ما يحتاج إليه. فلما بلغه قرب الفرنـج سار نحوهم، فحين رأَوْا جدَّه في لقائهم رجعـوا واجتمعوا ببلادهم، وكان قُصَاراهم أن صالحوه على ما أخذ. ومدَحَه الشعراء وأكثروا؛ منهم أبو الحسين أحمد بن مُنير، قال[2]:

أسنى الممـالك مـا أَطَلْتَ منارَهـا | وجعلتَ مُـرْهَفَةَ الشِّفـارِ دِثارها[3]
وأحقُّ مَنْ ملك البـلادَ وأهـلَهـا | رَؤُفٌ[4] تكنَّفَ عَـدْلُـه أقـطـارَهـا
من عمٍّ[5] سام الخافقين وحـامها | مننـاً وزاد هـوىً فخصَّ نِـزارَهـا

(١) أي سنة أربـع وأربعين وخمس مئة.
(٢) انظر «الباهر»: ١٠٠ ـ ١٠١، وأورد ابن الأثير خمسة أبيات من القصيدة.
(٣) في (ل) و (م) دسارها.
(٤) على وزن فَعُل، وهي لغة. انظر «اللسان» (رأف).
(٥) في الأصل و (ل) عام، والمثبت من (م).

مُضَـرِيَّـة طُبعت مضـارِبُـه وإن ... عَـدَّتْـهُ ذروة فـارسٍ أُسْـوارَهـا[1]
آل[2] الـرعيَّـة وهي تجهـلُ آلهـا ... وتعـافُ نُـطْفَتَهـا[3] وتكـرَهُ دارهـا
فـأقرَّ ضجعتَهـا وأنبت نَيَّهـا[4] ... وأسـاغ جُـرْعتهـا وأثبت زارهـا[5]
مَلِكٌ أبـوه سمـا لهـا فسمـا بهـا ... وأجـارهـا فَعَلَتْ سُهيْلاً جـارَهـا
نَهَجَ السَّبيلَ له فأوضعَ[6] خلفه[7] ... وشـدا لـه يُمْنُ العُـلا فـأنـارَهـا
أَنَشَـرْتَ يـا محمـودُ مِلَّةَ أحمدٍ ... مِنْ بعـدِ ما شَمَـلَ البِلَى أبشارَهـا
إن جَانَأَتْ[8] عَدَلَ السِّنانُ قَـوامَها ... أو نأنأتْ[9] كـان الحُسامُ جِبـارَها
عُقِلَتْ مع العُصْمِ العواصمِ مُذْ غَدَتْ ... هـذي العزائمُ أسـرَهـا وإسـارَهـا
وتكفَّلَتْ لـك ضُمَّـرٌ أنـضَيتَهـا ... في صـونهـا أن تستردَّ ضِمـارَهـا
كـلأتْ هوامِلُهـا[10] ورَدَّ مطارهـا ... مـا أريشَتْـهُ وثـقَّفتْ آطـارهـا
كم حـاولتْ من كَفَّتيهـا غِـرَّةً ... غُلُبُ الأسـودِ فقلَّمتْ أظفـارَهـا
أنَّى وحامي سَرْحِها مَنْ لو سمت ... للفُلْكِ بَسْطَتُه أحـال مـدارَهـا
في كلِّ يومٍ من فتـوحك سـورةٌ ... للدِّين يحمـلُ سِفْـرُه أسفـارَهـا
ومطيلة قِصْرِ المنابرِ إنْ غـدا الـ ... ـخطباءُ تنثرُ فوقَهـا تِقْصارَهـا[11]

---

(١) الأسوار: قائد الفُرْس، انظر «اللسان» (سور).
(٢) أي ساسها وأحسن سياستها. انظر «اللسان» (أول).
(٣) الماء الصافي. انظر «اللسان» (نطف).
(٤) على هامش الأصل، و(ل): النيّ: الشحم.
(٥) أي جماعتها. انظر «اللسان» (زور).
(٦) أي عدا خلفه. انظر «اللسان» (وضع).
(٧) في (ل) خلقه، وهو تصحيف.
(٨) أي مالت. «المعجم الوسيط»: ١٣٨/١.
(٩) أي ضعفت وعجزت. «اللسان» (نأنأ).
(١٠) أي المهملة، ومنه إبل هوامل: أي مسيبة لا راعي لها. انظر «اللسان» (همل).
(١١) القلادة للزومها قصرة العنق. انظر «اللسان» (قصر).

هِمَمٌ تـحجَّلَتِ المـلوكُ وراءهـا		بـدمِ العِثَارِ ومـا اقتفَتْ آثـارَهـا
وعـزائمٌ تستـوئِـرُ(1) الآسـادَ عن		نَهْشِ الفـرائسِ إن أحسَّ أُوارَها ١/٦٣
أبـداً تقصّر طـول مشـرفـة الـذُّرا		بـالمشرفيَّـة، أو تـطيـل قِصـارَهـا
فغـرَت أفـاميـةُ* فمـاً فهتَمْتَـهُ		كوبار(2) أجناها الإران(3) بـوارَها
أرهفتَ رأيك فوق رايك(4) تحتها		فحططتَ من شَعَفَاتِها(5) أعفَارَها(6)
أدركتَ ثأرَكَ في البُغاة وكنتَ يا		مختـارَ أمـةِ أحمـدٍ مختـارَهـا
عـاريَّةُ الـزَّمن المعيرِ سما لها		منكَ المغير فـاستردَّ معـارَهـا
زأَر الهِـزَبْـرُ فقيَّـدَتْ عـانـاتِهـا(7)		عصب(8) الضُّلال وأسلمت أعيارَها
ضـاءت نجومُـك فـوقَهـا ولـربَّمـا		بـاتتْ تنـافثهـا النجـومُ سِـرارَهـا
أمست مـع الشِّعْرى العبورِ وأصبحت		شعـراء تستفلي الفحولُ شِـوَارَهـا
ولكم فَرَعْت(9) بمقرباتك(10) مثلها		تلعـاً، وقلَّدْتَ الكُمـاةَ عِـذَارَهـا
حتى إذا اشتملَتْكَ أشرَقَ سـورُها		عِـزًّا، وحـلاَّهـا سناكَ سـوارَهـا
خَـرَّ الصَّليبُ وقد عَلَتْ نغماتُها		واستَـوْبَلَتْ صلواتـهُ تكـرارَهـا
لمـا وعـاهَـا سمعُ أنـطاكيَّـةٍ		سَـرَتِ الـوقـار وكشَّفَتْ أستـارَهـا

---

(1) في الأصل و(ل): تستوئز: تفزع، والمثبت من (م). ومنه: وأر الرجلَ فزَّعه، وذعره. «اللسان» (وأر).
(2) وبار: أرض كانت لعاد. انظر «اللسان» (وبر) وفي (م) كبوار.
(3) البطر. «اللسان» (أرن).
(4) مفردها: راية: العلم. «معجم متن اللغة»: ٢/٦٨٩.
(5) مفردها شعفة، وهي رأس الجبل. «اللسان» (شعف).
(6) مفردها عفر: ظاهر التراب. «اللسان» (عفر).
(7) مفردها: عانة: القطيع من حمر الوحش. «اللسان» (عون).
(8) في الأصل و(ل) عصر، والمثبت من (م).
(9) في الأصل مهملة، وفي (ل) قرعت، و(م) فزعت، ولعل الصواب ما أثبتناه.
(10) الخيل التي تكون قريبة مُعَدَّة، مفردها: المقربة. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/٥٢٢.

فاليومَ أَضْحَتْ تستذمُّ مجيرَها ... من جَوْره وغداً تذمُّ جوارَها
عَلِمَتْ بأنْ ستذوق جُرْعةَ أختِها ... إن زرَّ أطواق القباء وزارَها
ماضٍ إذا قَرَعَ الرِّكابَ لبلدةٍ ... أَلْقَتْ له قبلَ القِراعِ إزارَها
وإذا مجانقُه ركَعْنَ لصعبةِ الـ ... ـملقاةِ أسجد كالجدير جِدارَها
ملأَ البلادَ مواهباً ومَهَابَةً ... حتَّى استرقَّتْ آيُهُ أحرارَها
يذكي العيونَ إذا أقامَ لعونها ... أبداً، ويفضي[1] بالظُّبى أبكارَها
أومىٰ إلى رِمَمِ النَّدَى فأعاشها ... وهمَى[2] لسابقةِ المُنى فأزارها
نبويُّ تشبيه الفتوح كأنَّما ... أنصارُه رجعت له أنصارَها
أحيا لِصَرْحِ سلامها سَلْمانَها ... وأماس تحت عمارها عَمَّارَها
إن سار سار وقد تقدَّم جيشَه ... رَجْفٌ يقصِّع في اللّها ذُعَّارَها
أو حَلَّ حَلَّ حُبا القُرومِ بهيبةٍ ... سَلَبَ البُدُورَ بِدارِها أبدارَها
وإذا الملوكُ تنافسوا درج العُلا ... أَرْبَى بنفسٍ أفْرَعَتْهُ خِيارَها
ونُهًى إذا هِيْضَتْ تدلُّ بخيرها ... وسُطًى تُذلُّ إذا عَنَتْ جَبَّارَها
تُهدَى لمحمودِ السَّجايا كاسمه ... لو لزَّ فاعله بها لأبارَها
الفاعلُ الفعلات يَنْظِمُ في الدُّجى ... بين النُّجوم حسودُها أسمارَها
ساعٍ سعى والسَّابقات وراءه ... عَنَقاً فعصفر منتماه عثارَها
كالمَضْرَحيِّ إذا يُصَرْصِرُ رابئاً ... خَرِسَ البُغاث وهاجَرَتْ أوكارَها
عُرِفَتْ لنورِ الدين نورُ وقائعٍ ... تغشى إذا اكتحلَتْ به أبصارَها
مشهورة سعطت وقد حاولتها الـ ... ـأقدار عجزاً أن تَشُقَّ غُبارَها
لله وجهك والوجوه كأنَّما ... حَطَّت بها أوقار هِيت* قارَها

---

(١) في الأصل مهملة، وفي (ل) يقضي، والمثبت من (م).

(٢) في (م) وسما.

والبيض تخنِس في الصُّدور صدورها هَبْراً وتكتحل الشفور شفارَها
والخيل تدلجُ تحت أرشيةِ القَنا جَذْبَ المواتحِ عاورت[1] آبارَها
فبقيتَ تستجلي الفتوحَ عرائساً متملِّياً صدرَ العُلا وصدارَها
في دولةٍ للنَّصْرِ فوقَ لوائِها زُبُرٌ تنمِّقُ في الطُّلَى[2] أسطارَها
فالدِّين مَوْمَاةٌ[3] رَفَعْتَ بها الصُّوى وحديقةٌ ضَمِنَتْ يداك إبارَها ١/ ٦٤

وله فيه من قصيدة أخرى:

خَنَسَ الثَّعالبُ حين زمجرَ مصحر ملأ البلادَ هماهماً وزئيرا
تركُوا مشاجرةَ الرِّماحِ لحاذقٍ جَعَلَتْ مخافَتُه القُصورَ قُبورا
لربيبِ حَرْبٍ لم تزل فَعَلاتُهُ كالرَّاءِ يلزمُ لَفْظَها التَّكْريرا
أسدٌ إذا ما عاد من ظفرٍ بمفْـ ـترسٍ أحدَّ لمثلِهِ أُظْفُورا
يتناذر[4] الأعداءُ منه سطوةً ملء الزَّمان تغيُّظاً وزَفيرا
عرفوا لنورِ الدين وقعَ وقائعٍ وفَّى بها الإسلامَ أمسِ نُذُورا
أبداً يظافرك القضاءُ على الذي تبغي فترجعُ ظافراً منصورا
قوَّضْتَ بالنَّقْع[5] الظهائر[6] ظلمة وقفلتَ فاشتعلَ الدياجِرُ نورا
وعلى العواصمِ من دفاعكِ عاصِمٌ يُنْسي الرَّشيدَ وينشرُ المنصورا

---

(١) في (ل) و (م) غاورت.
(٢) مفردها طلاة: العنق. انظر «اللسان» (طلي).
(٣) الموماة: المفازة الواسعة الملساء، وقيل: هي الفلاة التي لا ماء بها ولا أنيس بها. «اللسان» (موم).
(٤) أي يخوف بعضهم بعضاً. انظر «اللسان» (نذر).
(٥) في الأصل و (ل) فالنقع، والمثبت من (م).
(٦) مفردها ظهيرة، وهي الهاجرة. انظر «اللسان» (ظهر).

فصـــل
في وفاة معين الدين أُنَر بدمشق
وما كان من الرئيس ابن الصُّوفي[1] في هذه السَّنة

قال أبو يعلى التَّميمي: فصل معين الدين من عسكره بحَوْرَان ووصل إلى دمشق في أواخر ربيع الأول[2]، لأمر أوجب ذلك ودعا إليه، وأمعن في الأكل، فلحقه عقيب ذلك انطلاق تمادى به، وحمله اجتهاده فيما يدبِّره على العود إلى عسكره بناحية حوران وهو على هذه الصفة من الانطلاق، وقد زاد به وضعفت قوَّته، وتولَّد معه مرضٌ في الكبد، فأوجب الحال عوده إلى دمشق في مِحَفَّة* لمداواته، فوصل وقضى نحبه في ليلة الثالث والعشرين من ربيع الآخر، ودفن في إيوان الدار الأتابكية التي كان يسكنها، ثم نُقل بعد ذلك إلى المدرسة[3] التي عمرها[4].

قلت: قبره في قُبَّةٍ بمقابر العوينة* شمالي دار بطيخ* الآن، واسمه مكتوبٌ على بابها، فلعلهُ نُقل من ثَمَّ إليها. وفيه يقول الأمير مؤيَّد الدولة أسامة بن منقذ، وكتب إليه من مصر لما لقي الفرنج في أرض [بُصرى*][5] وصَرْخَد* مع نور الدين ــ وقد تقدَّم ذلك[6] ــ كتب إليه قصيدةً يقول فيها:

كُلَّ يومٍ فَتْحٌ مبينٌ ونَصْرُ … واعتلاءٌ على الأعادي وَقَهْرُ
صَدَقَ النَّعْتُ فيكَ، أنت معين الد (م) ين إن النُّعوت فَأْلٌ وَزَجْرُ

---

(١) هو مؤيد الدولة المسيب، سترد أخباره ص ٢٨٩، ٣٠١ من هذا الجزء. وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣.

(٢) في النسخ الخطية: الآخر، وهو سبق قلم، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٦.

(٣) هي المدرسة المعينية، انظرها في كشاف الأماكن.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٦.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) انظر ص ١٨٠ ــ ١٨١ من هذا الجزء.

أنتَ سيفُ الإِسلامِ حقّاً، فلا فَلَّ[١] (م) غِـرَارَيْـكَ[٢] أيهـا السَّيْفُ دَهْـرُ
لم تَـزَلْ تُضْمِرُ الجِهـادَ مُسِـرًّا ثـم أعلنـتَ حيـن أَمْكَـنَ جَـهْـرُ
كـلُّ ذخـرِ الملوكِ يَفْنَى وذخـرا كَ همـا الباقيـانِ: أجرٌ وشُكْـرُ[٣]

قـال: وفي يوم الجمعـة تاسـع رجب قرىء المنشور المنشأ عن مجير الدين بعد الصَّلاة على المنبر بإبطال الفسة[٤] المستخرجة من الرَّعية، وإزالة حكمها وتعفية رسمها، وإبطال دار الضَّرْب؛ فكثر دعاء الناس له وشُكْرُهم[٥].

قال: واستوحش الرئيس مؤيَّد الدولة من مجير الدين استيحاشاً أوجب جَمْعَ من أمكنه من سفهاء الأحداث والغوغاء، وحَمَلة السلاح من الجهلة العوام، وترتيبهم حول داره ودار أخيه زين الدولة حَيْدَرة[٦]، للاحتماء بهم من مكروهٍ يَتمُّ عليهما، وذلك في ثالث عشر[٧] رجب. ووقعت المراسلات من مجير الدين بما يُسَكِّنهما ويطيِّب أنفسهما، فما وثقا بذلك، وجدًّا في الجمع والاحتشاد من العوام وبعض الأجناد، وأثـارا الفتنـة، فقصدوا باب السجن وكسروا أغلاقه وأطلقوا من فيه، واستنفرُوا جماعةً من أهـل الشَّاغـور[٨]

---

(١) في الأصل و(ل): فلا كَلَّ، والمثبت من (م) و«الديوان».
(٢) الغراران: شفرتا السيف. «اللسان» (غرر).
(٣) انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٧٠.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧١ من هذا الجزء.
(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧.
(٦) قتل سنة (٥٤٨هـ) انظر ص ٢٩٠ ـ ٢٩١ من هذا الجزء، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٢٤٢.
(٧) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧ «وذلك في يوم الأربعاء الثالث وعشرين من رجب».
(٨) الشاغور، محلة بالباب الصغير جنوبي دمشق، خارج السور، ولأهلها حتى الآن صيت ذائع في أعمال الفتوة. انظر «معجم البلدان»: ٣/٣١٠.

وغيرهم، وقصدوا الباب الشرقي* وفعلوا مثل ذلك، وحصلوا في جَمْعٍ كثير، وامتلأت بهم الأزقَّة والدُّروب. فحين عرف مجير الدين وأصحابه هذه الصورة اجتمعوا في القلعة بالسلاح الشَّاك[1]، وأخرج ما في خزائنه من السلاح والعُدد، وفُرِّقت على العسكرية، وعزموا على الزَّحف على جمع الأوباش، والإيقاع بهم، والنكاية فيهم، فسأل جماعةٌ من المقدَّمين التمهُّل في هذا الأمر وترك العجلة، بحيث تحقن الدماء ويسلم البلد من النهب والحريق، وألحُّوا عليه إلى أن أجاب سؤالهم.

ووقعت المراسلة والتلطُّف في إصلاح ذات البين، فاشترط الرئيس وأخوه شروطاً أُجيبا إلى بعضها وأُعرض عن بعضٍ، بحيث يكون ملازماً لداره، ويكون ولده وولد أخيه في الخدمة في الديوان، ولا يركب إلى القلعة إلا مُستدعًى إليها، وتقرَّرت الحال على ذلك، وسكنت الدَّهْماء. ثم حدث
١/٦٥ بعد هذا التقرير عود الحال إلى ما كانت عليه من العناد وإثارة الفساد، وجَمَعَ الجمع الكثير من الأجناد والمقدَّمين والرَّعاع والفلاحين، واتفقوا على الزحف إلى القلعة وحَصْرِ من بها، وطلَبَ من عيَّن [عليه][2] من الأعداء الأعيان[3] في أواخر رجب، ونشبت الحربُ بين الفريقين، وجُرح وقُتل بينهم نَفَرٌ يسير، وعاد كلُّ فريقٍ منهم إلى مكانه. ووافق ذلك هروب السَّلَّار* زين الدين إسماعيل الشِّحْنة* وأخيه إلى ناحية بَعْلَبَك، ولم تزل الفتنة ثائرة والمحاربة متصلة إلى أن اقتضت الصُّورة إبعاد من التمس إبعاده من خواصٍ مجير الدين، وسكنت الفتنة وأُطلقت أيدي النَّهَّابة في دار السَّلَّارَيْن[4]

---

(١) أي بالسلاح التام. انظر «اللسان» (شكك).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧. من الأعداء والأعيان.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨ «وأطلقت أيدي النهابة في دور السلار زين الدين وأخيه».

وأصحابهما، وعمهما النهب والخراب[١]. ودعت الضرورة إلى تطييب نفس الرئيس وأخيه والخلع عليهما، وإعادة الرئيس إلى الوزارة والرِّياسة، بحيث لا يكون له في ذلك معترض ولا مشارك[٢].

قلت: وفي هذه الفتنة يقول العرقلة[٣]:

ذَرِ الأتراكَ والعَربا ... وكُنْ في حزب مَنْ غَلَبا
بجِلِّقَ أصبحتْ فتنٌ ... تجرُّ الوَيْلَ والحَرَبا[٤]
لئن تمَّت فوا أسفا ... ولم تَخْرَبْ فوا عَجَبا[٥]

وقال في الرئيس لما زحف إلى القلعة:

زِدْ عُلُوًّا في المجدِ ياابن عليٍّ ... هكذا مَنْ أرادَ أَنْ يَتَعالى
قد حَوَى الدين يا مؤيِّدَهُ مِنْـ ... ـكَ هِزَبْراً وديمةً وهلالا
وغدت جِلِّقٌ تناديك[٦] عُجباً ... هكذا هكذا وإلا فلا لا[٧]
جُبْتَها[٨] في الظلام خيلاً ورَجْلاً ... وحميتَ النُّفوس والأموالا
لن[٩] تبالي [من][١٠] بعدها بعدوٍّ ... إنما ذاك كان قَطْعاً فزالا[١١]

(١) في (ل) و(م): والإخراب.
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٧ ـ ٣٠٨.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من هذا الجزء.
(٤) في (ل) و(م): والخربا.
(٥) الأبيات في «ديوانه»: ١٣.
(٦) في الأصل و(ل) لناديك، والمثبت من (م) و«الديوان».
(٧) هذا عجز بيت للمتنبي مضمن في القصيدة، وصدره: «ذي المعالي فَلْيَعْلُوَنْ من تعالى». انظر «ديوانه» بشرح العكبري: ٣/١٣٤.
(٨) في «الديوان»: ٨٣ «جتتها».
(٩) في (م): لم، وفي «الديوان»: ما تبالي.
(١٠) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(١١) في (م) وزالا، ومثله في «الديوان». والقطع: تأثير الكواكب أو النجوم على الأشخاص، انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/٣٧٥.

قـد بلغتَ المُـرَاد من كـلِّ ضـدٍّ وَكَفَى اللَّهُ المُـؤْمِنِيـنَ القِتَـالا[1]

قـال أبو يعلى التَّميمي: وفيهـا ورد الخبر من نـاحية مصـر بوفـاة المستخلف[2] بهـا الملقَّب بالحـافظ، واسمـه عبـد المجيـد بن الأميـر[3] [أبـي القاسم] بن المستنصر في خامس جُمادى الآخرة، وولي الأمر بعده ولدُه الأصغر أبو منصور إسماعيل، ولقِّب بالظَّافر[4]، وولي الوزارة أمير الجيوش أبو الفتـح بن مصال[5] المغربـي[6].

---

(١) عجز البيت فيه تضمين من سورة الأحزاب: الآية ٢٥، وانظر الأبيات في «ديوانه»: ٨٣.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق» ٣٠٨ «بوفاة صاحبها الإمام الحافظ...» استبدل أبو شامة بصاحبها لفظة المستخلف، وذلك لموقفه المخالف للدولة العبيدية وقد ألف عنها كتاباً سماه «كشف ما كان عليه بنو عبيد» وهو من كتبه المفقودة. انظر ص ١٧٩ من هذا الجزء. وسيرد الحديث عن العبيديين في حوادث سنة (٥٦٧ هـ) ص ١٨٩ وما بعدها من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

(٣) في الأصل و (م): الآمر، وهو تحريف والمثبت من (ل)، إذ أن الحافظ ابن عم الآمر، وليس ابنه، وما بين حاصرتين من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٨، وانظر ترجمة الحافظ في «وفيات الأعيان»: ٣/٢٣٥ ـ ٢٣٧، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٩٩ ـ ٢٠٢.

(٤) قتـل سنة (٥٤٩هـ) انـظر ص ٣٠٩ مـن هـذا الجزء، و«سير أعـلام النبلاء»: ١٥/٢٠٢ ـ ٢٠٤.

(٥) ولي ابن مصال الوزارة نحو خمسين يوماً، ثم قتله ابن السلار. انظر «الكـامل»: ١١/١٤٢، و«وفيـات الأعيـان»: ٣/٤١٦ ـ ٤١٧، و«سـير أعـلام النبـلاء»: ١٥/٢٠٣ وص ٢٥٨ من هذا الجزء.

(٦) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٨.

فصـــل
في وفاة سيف الدين غازي بن زَنْكي صاحب المَوْصِل وهو أخو نور الدين الأكبر

قال ابن الأثير: كان أتابك الشهيد ـ يعني زَنْكي ـ ملَك دارا*، وبقيت بيده إلى أن قُتل، فأخذها صاحب مارِدِين*، ثم سار إليها سيف الدين بن الشهيد في سنة أربع وأربعين(١)، فحاصرها وملكها، واستولى على كثيرٍ من بلد مارِدِين بسببها، ثم حصر مارِدِين عازماً على أن يدخل ديار بكر ويستعيد ما أُخِذَ من البلاد بعد قتل والده، فتفرَّق العسكر في بلدها ينهبون [ويخربون](٢). فقال صاحب مارِدِين: كنا نشكو من أتابك وأين أيامه؟ فلقد كانت أعياداً! قد حَصَرَنا غير مرة فلم يتعدَّ هو وعسكره حاصل السُّلْطان، ولا أخذوا كفّاً من التبن بغير ثمن:

رُبَّ دهرٍ بكيت منه فلمَّا صِرْتُ في غيره بكيتُ عليه

ثم إنه راسل سيف الدين وصالحه على ما أراد وزوَّجه ابنته الخاتون، ورحل سيف الدين عن ماردين وعاد إلى المَوْصل، وجُهِّزت خاتون وسُيِّرت إليه، فوصلت إلى الموصل وهو مريضٌ، فتوفِّي ولم يدخل بها، وذلك في أواخر جمادى الآخرة، وكان عمره نحو أربعين سنةً.

وكان من أحسن الناس صورةً، ودُفن بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصِل، وخلَّف ولداً ذكراً، أخذه نور الدين محمود عمه فرباه فأحسن تربيته، وزوَّجه ابنة عمه قُطْب الدين مودود، فلم تطل أيامه، وأدركه أجله في عنفوان شبابه، فتوفي، وانقرض عقب سيف الدين.

---

(١) في «الكامل»: ١٢٣/١١ ذكر ابن الأثير هذه الحوادث سنة (٥٤٢هـ).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

وكان كريماً شجاعاً ذا عزم وحَزم.

وهو أوَّل من حُمِل على رأسه سَنْجَق[١] من أصحاب الأطراف، فإنه لم يكن فيهم من يفعلُه لأجل السلاطين السلجوقية، وهو أوَّل من أمر عسكره ألا يركب أحدُهم إلا والسيف في وسطه[٢]، فلمَّا أمر هو بذلك اقتدى به غيره من أصحاب الأطراف.

وبنى بالموصل المدرسة الأتابكية العتيقة؛ وهي من أحسن المدارس وأوسعها، وجعلها وقفاً على الفقهاء الشَّافعية والحنفية نصفين. وبنى رباط الصُّوفية بالموصل [أيضاً][٣]، وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليهما الوقوفَ الكثيرة.

وكان كريماً؛ قصدَه شهاب الدين حَيْصَ بَيْصَ[٤]، وامتدحه بقصيدته المشهورة وهي من جيد شعره، فأجازه عنها ألف دينار أميري سوى الإقامة والتعهُّد مدَّة مُقَامه، وسوى الخلع والثياب[٥].

(١) السنجق: لفظ تركي معناه: الرمح، والمراد هنا العلم الذي هو الراية، إلا أنه لما كانت الراية إنما تجعل في أعلى الرمح عُبِّر بالرمح نفسه عنها، وحامله يسمى السنجقدار. انظر «صبح الأعشى»: ٤٥٨/٥.

(٢) ثم عاد نور الدين رحمه الله إلى تقلد السيف، اتباعاً للسنة. انظر ص ٥٤ من هذا الجزء.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) هو أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي التميمي، وإنما قيل له حيص بيص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد، فقال: ما للناس في حيص بيص. فبقي عليه هذا اللقب. ومعنى هاتين الكلمتين: الشدة والاختلاط.
وهو شاعر مشهور من أهل بغداد، نشأ فقيهاً، وغلب عليه الأدب والشعر، وكان يلبس زي عرب البادية، ولا ينطق إلا بالعربية الفصحى، توفي ببغداد سنة (٥٧٤هـ) له «ديوان شعر» طبع في ثلاثة أجزاء بتحقيق مكي السيد جاسم وشاكر هادي شكر، نشرته وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية ١٩٧٤م، وله ترجمة ضافية مع مقتطفات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/٢٠٢ ـ ٣٦٦، وانظر «وفيات الأعيان»: ٣٦٢/٢ ـ ٣٦٥.

(٥) انظر «الباهر»: ٩٠ ـ ٩٤.

قلت: أول تلك القصيدة:

إلَامَ يراك المَجْدُ في زِيِّ شاعر[1]

يقول في آخرها:

أتابكُ إن سُمِّيتَ في المَهْدِ غازياً   فسابقةٌ معدودةٌ في البشائرِ
وَفَيتَ بها والدِّين قد مال رَوْقُه   وصدَّقتها والكُفْرُ بادي الشَّعائرِ[2]

وعزَّى أبو الحسين أحمدُ بن منير نورَ الدِّين بأخيه بقصيدة تقدَّم بعضُها[3]، أولُها:

* هو الجدُّ بَزَّ التمام البدورا *

يقول فيها:

شَوًّى[4] كل ما جَنَتِ الحادثا   تُ ما كنتَ ظلًّا علينا قريرا   ٦٦/١
أسأن وأحسن عكن الهلال   وملأننا منك بدراً منيرا
إذا ثَبَجَ البحر أخطأنه   فلا غَرْوَ أنْ ينتشفن الغديرا
وأَصْغِر بفقداننا الذاهبيـ   ـن ما عشت تأتال ملكاً كبيرا
وما أغمد الدَّهْرُ ذاك الحُسا   مَ ما سلّ حدَّاك عَضْباً بَتُورا
قسيمُ عُلاك ونِعْمَ القسِيمُ   أخٌ ساف نَزْراً وأعطى كثيرا
وكان نظيركَ غارَ الزَّما   نُ من أنْ يرى لك فيه نظيرا
فَدَتْك نفوسٌ بك اسْتَوْطَنَتْ   من الأمْن نوراً وقد كُنَّ بُورا
بقيت مُعزًّا من الهالكين   تُوقَّى الرَّدى وتوفَّى الأجُورا
وغيرك يمهد بسط العزاء   ويولي المُسَلِّين[5] سمعاً وَقُورا

---

(١) وعجزه: وقد نَحَلَتْ شوقاً فروعُ المنابر.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/ ٢٥٧ ــ ٢٥٨. و«ديوانه»: ٢/ ٣١٦ ــ ٣٢٢.

(٣) انظر ص ٢٢١ من هذا الجزء.

(٤) في هامش الأصل: «أي هين». قلت: انظر «اللسان» (شوا).

(٥) في (م) المسلمين، وهو وهم.

ومــا نــقص الــدَّهــرُ أعــدادكم إذا شـفَّ قــطراً وأبقـى بُـحُـورا
ولــو أنصفَ المجـدُ مــوتــاكــم لَخَطَّ لهم في السَّمــاء الـقُبُــورا
حيــاتُــك أحيت رَميمَ الــرَّجــاء وأمْـطَتْ من الجود ظهـراً ظهيـرا

وللقَيْسَراني قصيدةٌ منها:

ما أَطْرَقَ الجوُّ حتى أشرقَ الأُفُقُ إن أُغْمِدَ السَّيْفُ فالصَّمصام يأتلقُ
دون الأسى منك نورَ الدِّين في حلبٍ مُملَّكٌ ينجلي عن وجهــه الغَسَقُ
كنتَ الشقيقَ الشفيقَ الغيب حين ثوى أراق ماءَ الكَرَى من جفنك الأرَقُ
تلقى الأسى من لباس الصَّبر في جُنَنٍ(١) حصينـةٍ تحتهـا الأحشـاءُ تحتـرقُ
ومدَّةُ الأجلِ المحتومِ إن خَفِيَتْ فــإنَّ أيـامنــا من دونهــا طُـرُقُ
وإنمـا نحن في مضمـارِ حَلْبتهــا خيلٌ إلى غـايــة الأعمـار تَسْتبِقُ
شــأوٌ إذا ابتـدرَ الأقــوامُ غـايتَــه كــان المؤخَّر فيهـا من لـه السَّبقُ
إن كان صِنْوك هذا قد ثوى فذوى ففي مغـارسـك الأثمــارُ والـوَرَقُ
أو(٢) أصبحت بعدَه الأهواءُ نـافرةً أيــدي سبــا فعلى عليــاك تَتَّفِقُ
مــا غابَ مَنْ غابَ عن آفاقِ مطلعه إلاَّ لِـيفْـتــرَّ عَـنْ أنــوارِكَ الأفُـقُ
مـا دام شمسُـكَ فينــا غيـر آفلةٍ فــالــدِّين منتــظِمٌ والمُلْكُ مُتَّسِقُ

---

(١) مفردها جُنَّة، وهي الدرع. «اللسان» (جنن).
(٢) في الأصل: إن، والمثبت من (ل) و (م).

فصـــل

قال ابن الأثير: ولما توفي سيف الدين غازي كان أخوه قطب الدين مودودِ بالمَوْصِل، فاتَّفقت كلمة جمال الدين(١) وزين الدين(٢) على توليته وتمليكه طلباً للسلامة منه، فإنه كان لَيِّنَ الجانب، حسنَ الأخلاق، كثير الحلم، كريمَ الطباع(٣). فأحضروه من داره وحلَّفوه لهم وحلَفوا له، ونزل بدار المملكة، وحلف له الأمراء والأجناد، واستقرَّ في الملك، وأطاعه جميع ما كان لأخيه سيف الدين، لأن المرجع كان في جميع المملكة إلى جمال الدين وزين الدين. ولما ملك واستقرَّ في الملك تزوَّج امرأة أخيه التي مات ولم يدخل بها، الخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش صاحب مارِدين* فولدت لقطب الدين أولاده الذين ملكوا الموصل بعده، على ما سنذكره، ولم يملكها من أولاد قُطْب الدين أحدٌ غير أولادها(٤).

قال: وكانت هذه الخاتون يحلُّ لها أن تضَعَ خِمارها عند خمسة عشر ملكاً من آبائها، وأجدادها، وإخوتها، وبني إخوتها، وأزواجها، وأولادها، وأولاد أولادها.

ثم ذكرهم ابن الأثير في كتابه وسمَّاهم(٥)، وذكر أنها أشبهت في ذلك فاطمة بنت عبد الملك بن مروان، زوج عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه؛ كان لها أن تضع خمارها عند ثلاثة عشر خليفة، وهم: مِنْ معاوية رضي الله

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٦٨ من هذا الجزء.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل و(ل): لين، والمثبت من (م).
(٤) «الباهر»: ٩٤.
(٥) انظر «الباهر»: ٩٤ ـ ٩٥.

عنه إلى آخر خلفاء بني أمية، سوى آخرهم؛ وهو مروان بن محمد، فإنه ابن عم لها ليس بمحرم، والباقون محارم لها، وما تم له ذلك إلا بعد ذكره أن أمها عاتكة بنت يزيد بن معاوية؛ فمعاوية جدُّ أمها، ويزيد جدُّها لأمها، ومعاوية بن يزيد خالها، ومروان جدُّها لأبيها، وعبد الملك أبوها، والوليد
٦٧/١ وسليمان وهشام ويزيد إخوتها، وعمر بن عبد العزيز زوجها، والوليد بن يزيد ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد أولاد أخوَيْها، وهؤلاء كلُّهم خلفاء وعدَّتهم ثلاثة عشر.

قلت: وهذا كله مبنيٌّ على أصلٍ فيه خلل، وهو أن فاطمة بنت عبد الملك ليست أمُّها عاتكة بنت يزيد بن معاوية، بل أمها امرأة مخزوميّة[1]، على ما بيَّناه في ترجمتها في «تاريخ دمشق»[2]. ولكن الصَّواب في ذلك أن يقال: كان لفاطمة أن تضع خمارها عند عشرة من الخلفاء، وهم: مروان بن الحكم ونسله سوى مروان بن محمد، وأما عاتكة فالجميع محرم لها سوى عمر بن عبد العزيز ومروان بن محمد، بقي اثنا عشر خليفة كلهم محارمُ لها: معاوية جدُّها، ويزيد أبوها، ومعاوية بن يزيد أخوها، ومروان حموها، وعبد الملك زوجها، والوليد وسليمان وهشام أولاد زوجها، ويزيد بن عبد الملك ابنها، والوليد بن يزيد ابن ابنها، ويزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد ابنا ابن زوجها. ولو أضيف إلى ذلك الملوك من محارم عاتكة أو فاطمة كالإخوة والأعمام والأخوال وبني الإخوة لتضاعف العدد، كخالد بن يزيد بن معاوية أخي عاتكة، وعبد العزيز بن مروان عم فاطمة، ومسلمة وعبد الله ابني عبد الملك هما أخوا فاطمة وربيبا عاتكة، وعمر بن الوليد بن عبد الملك، وغيرهم. وذلك ظاهر لمن عرف أنساب بني أمية.

---

(١) هي أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة. انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (تراجم النساء): ٢٩١.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩ من هذا الجزء.

وما ذكره(١) ابن الأثير من أمر بنت حُسام الدين، فسِتُّ الشَّام بنت أيّوب أكثر منها محارم من الملوك، يجتمع لها من ذلك أكثر من ثلاثين ملكاً من إخوتها الأربعة: المعظم، وصلاح الدين، والعادل، وسيف الإسلام، ومن أولادهم وأولاد أولادهم، وأولاد أخيها الأكبر شاهنشاه بن أيوب تقي الدين، وذريته أصحاب حماة، وفرخشاه وابنه الأمجد صاحب بَعْلَبَك(١).

فصـــل

قال ابن الأثير: ولما ملك قُطْب الدين المَوْصِل والبلاد الجزريَّة كان أخوه نور الدين بحلب ـ وهو أكبر من قطب الدين ـ فكاتبه بعضُ الأمراء وطلبوه إليهم، منهم [الأمير](٢) المقدَّم والد شمس الدين بن المقدَّم(٣)، وهو حينئذٍ دُزْدار* سِنْجار*. فسار نور الدين جريدةً(٤) في سبعين فارساً من أكابر دولته، منهم أسد الدين شِيركُوه، ومجد الدين أبو بكر بن الدَّاية، وغيرهما. فوصلوا إلى ماكِسِين* في ستة أنفس في يوم شديد المطر وعليهم اللَّبابيد، فلم يعرفهم الذين بالباب، وأرسلوا إلى الشِّحنة* وأخبروه بوصول نفرٍ من الأجناد وكأنهم تُركمان، فلم يستتم القاصد كلامه حتى وصل نور الدين، فحين رآه الشِّحنة قبَّل يده، وخرج عن الدَّار، فنزلها نور الدين حتى لحق به أصحابه. وسار مجدًّا إلى سِنْجار فوصلها وليس معه إلا نفرٌ يسير، فنزل بظاهر

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(م)، والمثبت من (ل).
(٣) أصبح ابن المقدم شمس الدين محمد بن عبد الملك، من كبار أمراء الدولتين النورية والصلاحية، وسترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وانظر خبر مقتله ص ٤٢٣ وما بعدها من الجزء الثالث.
(٤) أي لم يكن معه رجَّالة. انظر «اللسان» (جرد).

البلد وألقى نفسه على محفورةٍ صغيرة من شدَّة تَعبه، وأرسل إلى المقدَّم بالقلعة يُعرِّفه وصوله، وكان المقدَّم قد استُدعي من الموصل لأن خبره مع نور الدين بلغ من بها، فأرسلوا إليه، فتوقَّف عدة أيام، فلم يصل نور الدين، فسار إلى الموصل وترك ابنه شمس الدين بسِنْجار، وقال له: أنا أتأخَّر في الطريق، فإن وصل نور الدين فأرسل من يعلمني، فلما فارق سِنْجار وصل نور الدين، فلما علم شمس الدين بوصوله أرسل قاصداً إلى أبيه بالخبر وأنهى الحال إلى نور الدين، فخاف فوات الأمر. ووصل القاصد الذي سيَّره ابن المقدم إلى أبيه فأدركه بتلٍّ يعفر*، فعاد إلى سِنْجار وسَلَّمها إلى نور الدين، وكاتَبَ فخر الدين قرا أرسلان بن داود صاحب الحصن(١) يستنجده، وبَذَلَ له قلعة الهيثم، فسار إليه بجنده. فلما سمع قطب الدين الخبر جمع عساكره وسار عن المَوْصِل نحو سِنْجار، ومعه الجمَال والزَّين، ونزلوا بتلٍّ يعفر، وأرسلوا إلى نور الدين ينكرون عليه إقدامه وأخذه ما ليس له، ويهدِّدوه بقصده وإخراجه من البلاد قهراً إن لم يرجع اختياراً. فأعاد الجواب: إنني أنا الأكبر، وأنا أحقُّ أن أدبِّر أمر أخي منكم، وما جئت إلا لما تتابعت إليَّ كتب الأمراء يذكرون كراهيتَهم لولايتكم عليهم ـ يعني [ولاية](٢) الجمال والزَّين ـ فخِفت أن يحملهم الغيظ والأنَفَة على أن يُخرجوا البلاد من أيدينا، فأما تهدُّدكم إيّاي بالقتال فأنا ما أقاتلكم إلا بجندكم. وكان قد هرب إليه جماعةٌ من أجنادهم، فخافوا أن يلقَوْه لئلا يخامر عليهم باقي العسكر، ودخل الأمراء في الصُّلح، وأشار به جمال الدين الوزير وقال: نحن نُظهر للسلطان والخليفة أننا تبع نور الدين، ونور الدين يظهر للفرنج أنه يحكمنا ويتهدَّدهم بنا، فإن كاشفناه وحاربناه فإن ظفر بنا طمع فينا السلطان، وإن

(١) أي حصن كيفا. انظره في كشاف الأماكن.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

ظفرنا به طمع فيه[1] الفرنجُ، ولنا بالشَّام حمص وقد صار له عندنا سِنْجار، فهذه أنفعُ لنا من تلك، وتلك أنفع له من هذه، والرأي أن نسلِّم إليه حمص ونأخذ سِنْجار، وهو في ثغر بإزاء الفرنج ويتعيَّن مساعدته. فاتفق الجماعةُ على هذا الرأي، وسار جمال الدين إلى نور الدين، وأبرم معه الأمر، وتسلَّم حمص وسَلَّم سِنْجار إلى أخيه، وعاد نور الدين وأخذ ما كان بسِنْجار من المال. ولما تسلَّم قُطْب الدين سِنْجار أقطعها لزين الدِّين، لأن حمص كانت لأخيه يَنَال وهو مقيمٌ بها. واتفقت كلمتهم واتحدَتْ آراؤهم، وكلٌّ واحدٍ منهما لا يصدُر إلا عن أمر أخيه. وطلب نور الدين أن يكون الجمال عنده، فقال له الجمال: أنت عندك من الكفاية ما تستغني به عن وزيرٍ ومُشير، وليس عندك من الأعداء مثل ما عند أخيك، لأنَّ عدوَّك كافرٌ فالنَّاس يدفعونه ديانة، وأعداء ٦٨/١
أخيك مسلمون فيحتاج من يقوم بدفعهم، وإذا كنتُ عند أخيك فالنَّفع إليك عائد، وأريد من بلادك مثل ما لي من بلاد أخيك معونةً على كثرة خرجي. فأجابه إلى ذلك، فقال له جمال الدين: أنت عليك خرجٌ كثير لأجل الكُفَّار فيجب مساعدتك، وأنا أقنع منك بعشرة آلاف دينار كل سنة. فأمر له بها. فكان نائب جمال الدين يقبضها كل سنة ويشتري بها أسرى من الفرنج ويطلقهم[2].

قلت: وقرأت في «ديوان القَيْسراني»: وقال في نور الدين عند قدومه، وقد استولى على سِنْجار* وأعمال الرحبة والفرات، وذلك في منتصف ذي القعدة سنة أربع وأربعين وخمس مئة:

هذا الذي وَلَدتْ له الأفكارُ ... وتمخَّضَتْ فألاً به الأشعارُ
وجَرَتْ له خيل النُّهى في حَلْبَةٍ ... وردت وصفو ضميرها المِضْمارُ

(١) في الأصل و(ل) «فينا»، والمثبت من (م).
(٢) انظر «الباهر»: ٩٥ ــ ٩٧.

وأتت به نُذرُ القوافي بُرهةً إنّ القوافي وحيها إنذارُ
حكَمَتْ لسيفكِ بالممالكِ عَنْوَةً حكماً لَعمري ما عليه غُبارُ
يأيها الملك المقلُّ نِجادَهُ بَرٌّ يَدِينُ بِهَدْيه الأبرارُ
يا ابن السيوفِ وهل فَخَرْتَ بنسبةٍ إلا سما بك قائمٌ[1] وغِرارُ[2]
فارَقْتَ دارَ المُلْكِ غير مُفارِقٍ لكَ من عُلاك بكلِّ أرضٍ دارُ
في عسكرٍ تخفي كواكبُ ليله نَقْعاً فيطلِعُها القَنا الخطّارُ
جرَّارُ أذيالِ العَجاجِ وراءه وأمامَهُ بل جَحْفَلٌ جَرَّارُ
تُدْني لكَ الغاياتِ أكبرُ هِمَّةٍ نوريَّةٍ هِمَمُ الملوكِ كِبارُ
حتى ملأْتَ الخافقينِ مهابةً دانت لعُظْمِ[3] نِظامِها الأقطارُ
وَمَلَكْتَ سِنْجاراً* وما من بلدةٍ إلا تَمَنَّى أنَّها سِنْجارُ
وَبَسَطْتَ بالأموالِ كفًّا طالما طالَتْ بها الآمالُ وَهْيَ قِصارُ
وَجَرَتْ بأمدادِ الجيادِ شِعابُها جَريَ السُّيولِ وما عداك قَرارُ[4]
وَثَنى الفُراتُ إلى يديكَ عِنانه والبَحْرُ ما اتَّصَلَتْ به الأنهارُ
وَمَلَكْتَ رَحبة مالك* فتبرَّجَتْ منها لِعَيْنِك كاعِبٌ مِعْطارُ
جاءتْكَ في حُللِ الرَّبيعِ وحَلْيها قَبْلَ الربيع شقائقٌ وَبَهارُ[5]
نَثَرَتْ عليكَ هوى القلوبِ محبةً وتَوَدُّ لو أنَّ النُّجُومَ نِثَارُ
فأقمت كالشَّمسِ المُنيرةِ إنْ نأتْ عن أُفْقِها فَلَها به أقْمارُ
مَنْ كان نورَ الدين ثُمَّ أجنَّه ليلُ السُّرى حَفَّتْ به الأنوارُ
تَدْعو البلادَ إليكَ ألسنةُ الظُّبى فتُجيبكَ الأنجادُ والأغوارُ

---

(١) القائم: مقبض السيف. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٦٨٥.
(٢) الغرار: حد السيف. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٢٨١.
(٣) في (م): لعقد.
(٤) في (ل) و(م): وما سواك قرار.
(٥) البهار: نبت طيب الريح. ينبت أيام الربيع. انظر «اللسان» (بهر).

حتى عَمَدْتَ الدِّينَ يا ابنَ عمادِه ... بقَنـاً أسِنَّتُها عليه مَنَارُ
وقَفَلْتَ من أسفار جدِّك قادماً ... كالصُّبْحِ نَمَّ بثغره الإسْفَارُ
يغشى البصائرَ نورُ وجهكَ بعدما اغـ ... ـتركَتْ على قَسَماته الأبصارُ
حتَّى عَمَرْتَ بكلِّ قلبٍ صدرَهُ ... حين الصُّدور مِن القلوب قِفارُ
إن تُمسِ في حَلَبٍ رياحك غضَّة ... فلَها بأنطاكيَّةٍ إعصارُ
وَغَدَتْ جيادُك بالشَّآم مقيمةً ... ولها بأطرافِ الدُّروبِ مُغارُ
هِمَمٌ سَبَقْتَ بها إلى مُهَجِ العِدَى ... صَرْفَ الرَّدى ومسيرُه إحْضَارُ(١)
وأرى صباحَ القمص* كان خديعةً ... فطغى وجَارَ وليس ثَمَّ وِجَارُ(٢)
سأل الصنيعة غير محقوقٍ بها ... والخَتْرُ(٣) يهدِمُ ما بنى الخَتَّارُ(٤)
حتى إذا ما غبتَ أقدَمَ عائثاً ... إقدامَ من لم يَدْنُ منه قَرارُ
أمضى السَّلاح على عدوِّك بغيُهُ ... بالغدرِ يُطْعَنُ في الوغى الغَدَّارُ
فاحْسِمْ عنادَ ذوي العنادِ بجحفلٍ ... كالليلِ فيه من الصَّفيح نَهارُ ٦٩/١
جُنْدٌ على جُرْدٍ أمام صدورها ... صَدْرٌ عليه من اليقين صِدَارُ
قد بايعَ الإخلاص بيعة نُصْرَةٍ ... ولكل هادي أمةٍ أنصارُ
مَلِكٌ له مِنْ عدلِه ووفائه ... جيشٌ به تُسْتَفْتَحُ الأمصارُ
وإذا الملوكُ تثاقلَتْ عن غايةٍ ... وأرادَها خَفَّت به الأقدارُ
وإذا انتضَتْهُ إلى الثغورِ عزيمةٌ ... قامت مقام جنودِه الأخبارُ

ولابن منير من قصيدةٍ فيه:

ترنَّح مِعْطَفُ الزَّوْرَاءِ(٥) لما ... دعاك لزَوْرِ سِنْجَارٍ* لمامُ

---

(١) الإحضار: العَدْو. انظر «اللسان» (حضر).

(٢) الوجار: سَرَب الضبع والأسد ونحوه، أي بيته. انظر «اللسان» (وجر).

(٣) في الأصل، و(ل) الخير، والمثبت من (م) والختر: الفساد.

(٤) الختار: الغدار، «اللسان» (ختر).

(٥) هي بغداد. انظر «معجم البلدان» ٣/١٥٦، و«القاموس المحيط»: (زور).

وزلــزلتَ الصَّـعيــدَ وراءَ مِـصْــرٍ غــداةَ عَلَتْكَ في قَـطَنا[1] الخيـامُ
رجــاءُ هَــزٍّ تِيـك وتلك خــوفٌ ولــو قــد شئتَ ضمَّهمــا قِـرامُ[2]
بعيشـك يـا مبيـدَ الخيـلِ ركضــاً خَمــامٌ هنّ تـحتـك أم جِـمَــامُ

وقال ابن منير أيضاً يهنئه بتسلُّمِ قلعة حمص من يَنَال[3]، وأنشده في القلعة القصيدة، أولها:

أَرِحْـهــا فهـي أزلامُ الـمعــالـي لهنَّ إلى الـوغى توقٌ[4] المغـالي
أمــا ومقيـلهـن[5] بـكــل نَـقْـعٍ يقـوِّضُ بـالهُـدَى عُمْـرَ الضَّــلالِ
وأيُّ سيـوفـك الحمــر الحـواشي منــزَّلــة متــى دُعِـيَــتْ نَــزَالِ
مَـواضٍ إن سُللن سلكن جزمـاً نفـاه من الـطُّلى[6] لفظ اعتـلالِ
لقد غلت[7] الصَّليب بِحَرٍّ حَرْبٍ يُـشيـب أُوارُهــا لِمـمَ الـلَّيــالـي
وشمتَ لنصـرِ هذا الـدين بـأسـاً تحــرّم منه كــل حمىً حــلالِ

ومنها[8]:

وقــائـع أتــرعـت في كــلِّ فـجٍّ وقـائعَ[9] جوُّهـا دامي العَزَالي[10]
تســائــل حمص عن منسيٍّ دين تقـاضـاه لــك الحِجـج الخَـوَالي
فــواتَتْ وهي أُختُ النَّجْمِ بُعـداً ووعــداً صِيـغَ من مَطْلٍ مِـطَالِ

(١) قرية تقع جنوبي غرب دمشق، وهي تبعد عنها (٢٧) كيلومتراً. انظر «التقسيمات الإدارية»: ٣٤.
(٢) القرام: الستر الرقيق. انظر «اللسان» (قرم).
(٣) هو أخو زين الدين علي كما مَرَّ. انظر ص ٢٣٥ من هذا الجزء.
(٤) في النسخ الخطية «ترق»، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ٦٩ والمغالي: مفردها المغلاة، وهو سهم يغلى به أي ترفع به اليد حتى يتجاوز المقدار أو يقارب ذلك. انظر «اللسان» (غلا)، و «معجم متن اللغة» ٤/ ٣٢٠ ــ ٣٢١.
(٥) في (ل) ومغيلهنّ. (٦) الأعناق. «اللسان» (طلي). (٧) في (م) غلبت.
(٨) ليس في (ل)، وهي في (م) بعد بيت «وقائع أترعت...».
(٩) مفردها وقيعة: وهي نقرة في متن حجر في الجبل أو في السهل يستنقع فيها الماء، يقال: أعذب من ماء الوقيعة. انظر «اللسان» و «أساس البلاغة» (وقع).
(١٠) مفردها العزلاء: مصب الماء من الراوية والقربة. انظر «اللسان» (عزل).

تشامَخَ أنفُها عِزًّا وشدَّت	على أن لا تنال يدا يَنالِ(1)
فما زالَتْ رُقاك تجدُّ نقضاً	لما تثنيه من مِرَرِ الحِبَالِ
إلى أن أطلقَ الحسناءَ كَرْهاً	وآل إلى ملاوحة المآلي(2)
يصدُّ الوجه عن شمّاء أَلْقَتْ	يداً لأشمَّ ذي باعٍ طوالِ
شغلت بها يمينك والمواضي	تكفَّلُ أنَّ مِصْراً للشِّمالِ
إذا فَتَحَ القتالُ عليك أرضاً	أباحك أختها لاَ عَنْ قتالِ

فصل

قال الرئيس أبو يعلى: اتصل الخبر بنور الدين بإفساد الفرنج في الأعمال الحَوْرَانيَّة بالنَّهب والسَّبي، فعَزَمَ على التأهُّب لقصدهم، وكتب إلى مَنْ بدمشق يعلمهم ما عَزَمَ عليه من الجهاد، ويستدعي [منهم](3) المعونة على ذلك بألف فارس تَصِلُ إليه مع مُقدَّم يُعوَّل عليه ــ وقد كانوا(4) عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدةً على من يقصدهم من عساكر المسلمين ــ فاحتُجَّ عليه وغولِطَ. فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يَبُوس*، وبعض العسكرية بيعفور*. فلما قرب من دمشق وعرف من بها خبرَه ولم يعلموا أين قصده، وقد كانوا راسلوا(5) الإفرنج بخبره، وقرَّروا معهم الإنجادَ عليه، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عَسْقلان لعمارة غَزَّة، ووصلت أوائلهم إلى بانياس*. وعرف نور الدين خبرهم فلم يحفل بهم، وقال: لا أنحرف عن جهادهم. وهو مع ذلك كافٌّ أيدي أصحابه عن العيث والإفساد في الضِّياع، وأمر بإحسان الرَّأي في

(1) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٣٨ من هذا الجزء.
(2) مفردها مئلاة: خرقة تمسكها المرأة عند النوح. «اللسان» (ألا).
(3) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(4) أي حكام دمشق.
(5) في الأصل: أرسلوا، والمثبت من (ل) و (م).

الفلاحين والتخفيف عنهم، والدُّعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها، وسائر البلاد وأطرافها. وكان الغيثُ قد انحبس عن حَوْرَان والمرج والغوطة، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمَحْل واشتداد الأمر. فلما وصل نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحِجَّة، وأقام إلى مثله، فروَّى الآكام والوهاد، وجرت الأودية، وزادت الأنهار،
١/ ٧٠ وامتلأت بِرَكُ حَوْران، ودارت أَرْحِيَتُها[١]، وعاد ما صَوَّح[٢] من النَّبات والزَّرْع غضًّا طرياً، وجدَّ الناس بالدعاء لنور الدين وقالوا: هذا ببركته وحُسْن مَعْدلته وسيرته. ثم رحل من منزله بالأعوج*، ونزل بجسر الخشب المعروف بمنازل العساكر[٣] في السادس والعشرين من ذي الحجة، وأرسل إلى مجير الدين والرَّئيس، وقال: إنني ما قصدتُ بنزولي هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حَوْران والعربان بأن الفلاحين أُخذت أموالهم وسُبيت[٤] نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج، وعَدِمَ النَّاصر لهم، ولا يسعني ــ مع ما أعطاني الله، وله الحمد، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين، وكثرة المال والرِّجال ــ أن أقعُدَ عنهم ولا أنتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبِّ عنها، والتقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبَذْلِكُم لهم أموال الضُّعفاء والمساكين من الرعية ظُلْماً لهم وتعدِّياً عليهم، وهذا ما لا يُرْضي الله تعالى، ولا أحداً من المسلمين، ولا بدَّ من المعونة بألف فارس مُزاحِي العلَّة، تُجرَّدُ مع من يوثَقُ بشجاعته من المقدَّمين،

---

(١) مفردها رحى، وهي التي يطحن بها. انظر «اللسان» (رحا).

(٢) أي ما يبس. انظر «اللسان» (صوح).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٨٥ من هذا الجزء.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٩ وشتت، وهو تصحيف.

لتخليص ثَغْر عَسْقلان وغَزَّة[١]. قال: فكان الجواب عن هذه الرسالة: ليس بيننا وبينك إلا السَّيْف، وسيُوافينا من الإفرنـج ما يُعينُنا على دفعك إن قصدتنا ونزلتَ علينا. فلما عاد الرَّسولُ بهذا الجواب ووقف عليه، أكثر التعجُّبَ منه والإنكار له، وعزم على الزَّحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم، فأرسل الله من الأمطار وتدارُكها ودوامها ما منعه من ذلك[٢].

ودخلت سنة خمس وأربعين [وخمس مئة][٣]

ففي مستهلِّ المحرَّم تقرَّر الصُّلْح بين نور الـدين وأرباب دمشق، والسببُ في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إن أقام على حربها والمضايقة لها، بعدما اتَّصَل به [من][٤] أخبارٍ دعته إلى ذلك. واتفق أنهم بذلوا له الطَّاعة وإقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسُّلْطان، وكذا السِّكَّة، ووقعت الأيمان على ذلك. وخلـع نورُ الدين على مجير الدين خِلْعة كاملةً بالطَّوق، وأعاده مكرَّماً محترماً، وخطب له على منبر دمشق يوم الجمعة رابـع عشر محرَّم. ثم استدعى الرئيس إلى المخيَّم، وخلـع عليه خلعةً كاملة أيضاً وأعاده إلى البلد، وخرج إليه جماعةٌ من الأجناد والخواصِّ إلى المخيم، واختلطوا به، ووصل مَن استماحه من الـطُّلاب والقَرَأة[٥] والضعفاء، بحيث ما خاب قاصدُه، ولا أكدى سائلـه، ورحل عن مخيَّمه عائداً إلى حلب بعد إحكام ما قرَّر، وتكميل ما دبَّر.

---

(١) في «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٩، وغيره، وهو تصحيف.

(٢) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للتوضيـح.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) مفردها قارىء. انظر «معجم متن اللغة»: ٥١٩/٤، وفي «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣١٠ «الفقراء» وهو تحريف.

قلت: وفي ذلك يقول القَيْسَراني:

لك اللهُ إن حاربتَ فالنَّصْرُ والفَتْحُ وإن شئتَ صُلْحاً عُدَّ من حَزْمك الصُّلْحُ
وهل أنتَ إلا السَّيْفُ في كلِّ حالةٍ فطَوْراً له حدٌّ وطوراً له صَفْحُ
سقيت الرُّدَينيَّات(١) حتى رَدَدْتَها تَرَنَّحُ من سُكْرٍ فخلِّ القَنا تصحو(٢)
وما كان كفُّ العَزْمِ إلا إشارةً إلى الحَزْمِ لولم يغضبِ السيفُ والرُّمْحُ
وقد عَلِمَ الأعداءُ مُذْ بِتَّ جانحاً إلى السِّلْمِ ما تنوي بذاك وما تنحوا
إذا ما دمشقُ ملَّكتك عِنانَها تيقَّنَ مَن في إيليا(٣) أنَّه الذَّبحُ
متى التف نَقْعُ الجحْفلين على الهدى فلا مَهْمَهٌ يحوي الضَّلالَ ولا سَفْحُ
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً فقولا لليل الإفك قد طَلَعَ الصُّبْحُ
تَرَكْتَ قلوبَ الشِّرْكِ تشكو جراحَها فلا زالت الشكوى ولا اندمَلَ الجُرْحُ
صَبَرْتَ فكان الصَّبْرُ خيرَ مغبَّةٍ فسيقَ إليك المُلْكُ يسعى به النُّجْحُ
كأن القَنَا تجلو له وَجْه أمره ولو أُمهلتْ بلقيس ما غرَّها الصَّرْحُ
بدولتكَ الغَرَّاء أصبحَ ضدُّها بهيماً ولولا الحُسْنُ ما عُرِفَ القُبْحُ
وكم مِنْ قريحِ القَلْبِ لو باتَ وارداً مواردَ هذا العَدْلِ ما مَسَّه قَرْحُ
سخا بك هذا الدَّهْرُ جُوداً على الورى على أنه ما زال في طبعه شُحُّ
وقد كان يمحو رَسْمَ كلِّ فضيلةٍ ونحن نَراه اليومَ يُثْبِتُ ما يَمْحُو
بك ابتهج الألباب وابتهج الحِجَا وأثمرتِ الآدابُ واطَّرَدَ المَدْحُ
ولاذت بك التَّقوى وعاذت بك العُلا ودانت لك الدُّنيا وعَزَّ بك السَّرْحُ
فلا قَلْبَ إلا قد تَمَلَّكَتَهُ هوىً ولا صَدْرَ إلا قد جَلاه لك النُّصْحُ
٧١/١ وما الجودُ في الأملاكِ إلا تجارةٌ فمن فاته حَمْدُ الورى فاته الرِّبْحُ
ولم أختصرْ ما قلتُ إلّا لأنني أعبِّرُ عما لا يقومُ به الشَّرْحُ

---

(١) هي الرماح، منسوبة إلى ردينة، امرأة في الجاهلية كانت تسويها. انظر «تاج العروس» (ردن).
(٢) في (م): تصحُ.
(٣) اسم مدينة بيت المقدس. انظر «معجم البلدان»: ١/٢٩٣.

فــصــل
في فَتـح عَزَاز*

قال أبو يعلى: وورد الخبر في الخامس من المحرَّم من ناحية حلب بأن عسكرها من التركمان ظفر بابن جُوسلين* صاحب عَزَاز وأصحابه، وحصلوا في قبضة الأسر في قلعة حلب، فَسَرَّ هذا الفتحُ كافَّة الناس، وتوجَّه نور الدين في عسكره إلى عَزَاز، ونزل عليها، وضايقها وواظب قتالها، إلى أن سَهَّل الله تعالى ملكها بالأمان، وهي على غايةٍ من المَنَعة والحصانة والرِّفْعة. فلما تسلَّمها رتَّب فيها من ثقاته من وثق به، ورحل عنها ظافراً مسروراً عائداً إلى حلب في أيام من شهر ربيع الأول[1].

قلت: وذكر ابن منير فتح عَزَاز وغيرها وأمر دمشق في قصيدةٍ أولها:

فَـدَتْـكَ الـقُـلُوبُ بـألـبـابـهـا ... وَسـاحُ الـمـلوك بـأربـابـهـا
كـتـائبُ تَـرْمي جنـودَ الـصَّليـ ... ـبِ منهـا بتقـطـيعِ أصـلابـهـا
إذا مـا انثَنَتْ من قِـرَاع الكُمـاة ... كَسَتْ وفـدَهـا وَشْيَ أسـلابِهـا
تَبَـرْنَسَ منهـا البـرنس الثِّيـاب ... وحَـلَّبـه وَقْـعُ أحـلابِـهـا
عَشِيَّـةَ غـصَّـت عـلى إنِّـب* ... نـفـوس النصـارى بغصَّـابهـا
وقـام لأحـمـد مـحـمـودُهـا ... بـجـدع مـوارن[2] أحـزابـهـا
تـجلَّى لـهـا حَيْـدَرِيّ المـصـا ... ع أغـلـب مُـودٍ بـغـلَّابـهـا
مـورِّث أركـاسـهـا مـن أبٍ ... أكـولِ الـفـوارس شَـرَّابـهـا
هـمـامٌ إذا اعْصَـوْصَبَتْ نَـبْـوة ... دهـاهـا بهـاشـمِ أعصـابِهـا

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠.
(٢) مفردها المارن: وهو الأنف، أو طرفه، أو ما لان منه منحدراً. «معجم متن اللغة»: ٢٨٦/٥.

مضى وجَنَى لـك حُلْوَ الشهـا ... دِ ممَّـا تمـطَّقَ من صـابهـا
وأوصى بهـا لـك من بعـد مـا ... تـجـرَّعَ ممـقـرَ(١) أوصـابِهـا
وأقـسـمَ جَـدُّك ألا يـليـق(٢) ... بِـغـيـرك مـلبس أثـوابِهـا
صَبَحْـتَ دمشـق بمشقِ الجيـاد ... زبـورَ الـوغى بين أحـدابهـا
وأَصْـلَتَّ رأيـك قبـل الحسـام ... فـخـمَّـدَ جـمـرةَ أجـلابـهـا
فـأعـطتـك مـا لـم تَـنَـلْهُ يـدٌ ... وفـازَتْ رُقـاك بـأصـحـابهـا
وأنـت تصـرّف فضـل الـزِّمـا ... م مِن حمص ياخيرَ(٣) رُكَّابها
تخـونهـا الجَـوْرُ فـاسْتَـدْرَكَتْ ... بِـعـدلـك أغبـار ظـبـظابـهـا
وفـاجأت قُـورُسَ* بالشـائلات(٤) ... تَـمُـجُّ الـقَـنـا سُـمَّ أذنـابـهـا
فمـا رِمت حتى رَمَـت بِيْضُهـا ... إلـيـك أزمـة ضـرابـهـا
وعَـزَّت عَـزَازُ* فـأذلَـلْتَـهـا ... بـمجـرٍ(٥) مـضيـقٍ لأسـهـابهـا
بـأشـمخ من أنـفـهـا منكـبـاً ... وأكـثـر مـن عَـدِّ تـورابـهـا(٦)
دلـفـت لـعيـطاء أم الـنّجـو ... م في الأمـر إيـطاءَ أتـرابهـا
وعـذراءُ مُـذْ عَمـرت مـا اهتـدت ... ظنـون اللّيـالـي لإخْـرَابهـا
تـفـرّعـتـهـا بـفـروع الـوشـيـ ... ـج(٧) مثـمـرةً هـام أوشـابـهـا
وعـوجٍ إذا أنبضـت أغـمضـت ... ذُكـاءُ لإرسـال نُـشَّـابـهـا
ومحـدودبـات تـطيـر(٨) الخطوب ... مـلاقط الـسُـنِ خُـطَّابـهـا

---

(١) أي مُرّ، «معجم متن اللغة»: ٣٢٧/٥.
(٢) في الأصل، و (ل) أن يليق، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل و (ل): تأخير وفي (م) بأخير، والصواب ما أثبتناه.
(٤) العقارب، وشولة العقرب شوكتها التي تضرب بها. انظر «اللسان» (شول).
(٥) الجيش العظيم. انظر «اللسان» (مجر).
(٦) أي ترابها. «معجم متن اللغة»: ٣٨٩/١.
(٧) الوشيج: شجر الرماح. «معجم متن اللغة»: ٧٥٨/٥.
(٨) في (ل): كطير.

تصوّب عُقْبان رَيْبِ المَنُون ... متى زَبَنَتها[1] بأعقابها
وما ركَعَتْ حَوْلَ شمٍّ الهِضا ... بِ إلا سَجَدْنَ لأنصابها
فلاذَتْ بمعْتَصمٍ بالكتابِ ... وَهوبِ الممالك سلَّابها
بمعتصميٍّ النَّدى والهُدَى ... هموس[2] السُّرى غير هَيَّابها
محلَّى المحلِّ بوصفِ الفُتُوحِ ... ووصف التَّهاني وأربابها ٧٢/١
وتعجز مُدَّاحه أن تحيطَ ... بآدابه فُلْكُ آدابها
بدائعُ لو رُدَّ دهرٌ رمين ... بنات حبيب بأحبابها
وأين ابنُ أوسٍ[3] وأبياته[4] ... من اللَّاءِ أَوْدَتْ بحسَّابها
من اللاء عاد عتيقٌ[5] لها ... وَرَدَّ عليها ابنُ خَطَّابها
فأيَّامه من حبورٍ تكادُ ... يطيرُ بها فَرْطُ إعجابها
لك الفَضْلُ إنْ راسلَتْكَ الجياد ... وقامت أدلَّة أنجابها
إذا اعتسفَتْ هِمَمُ الجائرين ... أتيتَ السِّيادةَ من بابها
أبوك أبوها وأنت ابنها الـ ... ـعريقُ ودمية محرابها
أقول لمؤجره بالغرور ... تَمَطَّتْ هواها فأَهْوى بها
حَذَارِ فعندَ ابتسامِ الغيو ... ثِ يُخْشَى صواعق[6] ألهابها
ولا تُخْدَعُوا بافترار اللُّيو ... ثِ فالنار في بَرْدِ أنيابها

---

(١) أي دفعتها. «معجم متن اللغة»: ٣/١٤.
(٢) الهموس: السيار بالليل. «معجم متن اللغة»: ٥/٦٦٣.
(٣) إشارة إلى أبي تمام حبيب بن أوس، الشاعر المشهور.
(٤) في الأصل و(ل) آياته، والمثبت من (م).
(٥) هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه. انظر «الإصابة» ت (٤٨٠٨).
(٦) في (ل) صواقع، وهي رواية أخرى في الأصل.

فــصــل
في صفة أسر جُوسلين*

قال ابن الأثير: سار نور الدين(١) إلى بلاد جوسلين وهي القلاع التي شمالي حلب، منها تل باشر*، وعين تاب*، وعَزاز*، وغيرها من الحصون. فجمع جوسلين الفرنج فارسهم وراجلهم، ولقوا نور الدين، وكانت بينهم حربٌ شديدة أجلت عن انهزام المسلمين، وظفر الفرنج، وأخذ جوسلين سلاح دار(٢) كان لنور الدين أسيراً، وأخذ ما معه من السِّلاح فأنفذَه إلى السُّلْطان مسعود بن قليج أرسلان السَّلْجُوقي(٣) صاحب قُونية وأقصرا وغيرهما من تلك الأعمال ـ وكان نور الدين قد تزوَّج ابنته ـ وأرسل مع السلاح إليه يقول: قد أنفذت لك سلاح صهرك، وسيأتيك بعد هذا غيره. فَعَظُمت هذه الحادثة على نور الدين، وأعمل الحيلة على جوسلين، وعلم أنه إن هو جمع العساكر الإسلامية لقصده جمع جوسلين الفرنج وحذر وامتنع. فأحضر نور الدين جماعة من التركمان، وبذل لهم الرَّغائب من الإقطاع والأموال إن هم ظفروا بجوسلين، إما قتلاً وإما أسراً. فاتَّفق أن جوسلين خرج في عسكره، وأغار(٤) على طائفةٍ من التركمان فنهب وسبى، فاستحسن من السَّبي امرأةً منهم، فخلا معها تحت شجرةٍ، فعاجله التركمان، فركب فرسه ليقاتلهم

---

(١) أورد ابن الأثير هذه الحوادث في «كامله» سنة (٥٤٦هـ)، وفي «الباهر» بياض، أتمه محققه من «الكامل».

(٢) هو لقب على الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير، ويتولى أمر السلاح خاناه، وهو لقب مركب من لفظين، أحدهما عربي وهو السلاح، والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك، ويكون المعنى «ممسك السلاح»، انظر «صبح الأعشى»: ٤٦٢/٥.

(٣) ركن الدين، تولى السلطنة ما بين سنة (٥١٠ ـ ٥٥١هـ) انظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٢١٥.

(٤) في «الباهر» و«الكامل» المطبوعين أنه خرج متصيداً متنزهاً في نفر يسير، فظفرت به طائفة من التركمان.

فأخذوه أسيراً، فصانعهم على مالٍ بذله لهم، فرغبوا فيه وأجابوه إلى ذلك، وأخفوا أمره عن نور الدين[1]. فأرسل جوسلين في إحضار المال، فأتى بعضُ التركمان إلى نائب نور الدين بحلب فأعلمه الحال، فسيَّر معه عسكراً أخذوا جوسلين من التركمان قهراً، وكان نور الدين[1] حينئذٍ بحمص. وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج، شديدَ العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدَّم على الفرنج في حروبهم لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدَّة عداوته للملة الإسلامية، وقسوة قلبه على أهلها. وأصيبت النصرانية كافَّة بأسره، وعظمت المصيبة[2] عليهم بفقده، وخلت بلادهم من حاميها، وثغورهم[2] من حافظها، وسهل أمرهم على المسلمين بعده. وكان كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد. طالما صالحه نورُ الدين وهادنه، فإذا أَمِنَ جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر، فلقيه غَدْرُه، وحاق به مكره، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾[3]. فلما أُسر تيسَّر فتح كثيرٍ من بلادهم وقلاعهم، فمنها عين تاب*، وعَزَاز*، وقُورُس*، والرَّاوَنْدَان*، وحصن البارة*، وتل خالد*، وكَفْر لاثا*، وكفر سود[4]، وحصن بَسَرْفُوث* بجبل بني عُليم، ودُلُوك*، ومَرْعَش*، ونهر الجوز، وبرج الرَّصاص*.

قال: وكان نور الدين، رحمه الله، إذا فتح حصناً لا يرحل عنه حتى يملأه رجالاً وذخائر تكفيه عشر سنين، خوفاً من نُصْرةٍ تتجدَّدُ للفرنج على المسلمين، فتكون الحصون مستعدَّة غير محتاجة إلى شيء. وقال الشعراء في

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) سورة فاطر: الآية ٤٣.

(٤) في «معجم البلدان»: ٤٦٩/٤ كفرسوت ــ بالتاء المثناة ــ انظرها في كشاف الأماكن.

هذه الحادثة فأكثروا؛ منهم القَيْسَراني. قال يمدَح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها، ويذكر قتل البرنز وأسر جوسلين وأخذ بلاده[1]:

دعـا ما ادَّعى مَن غرَّه النَّهْي والأَمْرُ ... فما الملك إلَّا ما حباكَ به القَهْرُ
وَمَنْ ثَنَتِ الـدُّنيا إليـه عِنَانهـا ... تصرَّف فيما شاء عن إذنه الـدَّهْرُ
وَمَنْ راهنَ الأقدار في صَهْوَة العُلا ... فلن تُدْركَ الشِّعْرى[2] مَدَاه ولا الشِّعْرُ
إذا الجدُّ أمسى دونَ غايته المُنَى ... فماذا عسى أن يَبْلُغَ النَّظْمُ والنَّثْرُ
وَلِمْ لا يلي أسنى الممالكِ مالكٌ ... زعيمٌ بجيشٍ من طلائعه النَّصْرُ
لِيَهْنِ دمشقاً أن كُرسيَّ مُلْكِها ... حُبي[3] منك صَدْراً أضاق عن هَمِّه الصَّدْرُ
73/1 وأنك نورَ الدين مُذ زُرْتَ أَرْضَها ... سَمَتْ بك حتى انحطَّ عن نَسْرِها النَّسْرُ
خَطَبْتَ فلم يَحْجُبْكَ عنها وَلِيُّها ... وَخَطْبُ العُلا بالسَّيفِ ما دونَه سِتْرُ
جلاها لك الإقبال حُوريَّة السَّنا ... عليها من الفِرْدَوْسِ أَرْدِيَةٌ خُضْرُ
خَلُوبٌ أكَنَّتْ من هواكَ مَحبَّةً ... نَمَتْ فانتمَتْ جَهْراً وسِرُّ الهوى جَهْرُ
فَسُقْتَ إليها الأمنَ والعَدْل نِحْلَةً ... فأَمْسَتْ ولا أسرٌ تخافُ ولا إصْرُ[4]
فإنْ صافَحَتْ يُمْناك من بَعْدِ هَجْرِها ... فأحلى التَّلاقي ما تَقَدَّمه هَجْرُ
وهل هي إلّا كالحَصَانِ تَمَنَّعَتْ ... دلالاً وإن عَزَّ الحيا وغلا المَهْرُ
ولكنْ إذا ما قستَها بصَدَاقِها ... فليسَ له قَدْرٌ وليسَ لها قَدْرُ
هي الثَّغْر أمسى بالكراديسِ عابساً ... وأصبح عن باب الفَراديس* يَفْتَرُّ
على أَنَّها لو لم تُجبْكَ إنابةً ... لأَرْهَقها من بأسِكَ الخَوْفُ والذُّعْرُ
فإما وَقَفْت الخيل ناقعة الصَّدى ... على بَرَدى من فوقها الوَرَقُ النَّضْرُ

(1) انظر «الباهر»: 101 - 103، و«الكامل»: 11/154 - 156، واكتفى ابن الأثير بذكر أبيات من القصيدة.
(2) كوكب نير «اللسان» (شعر).
(3) الضبط من (ل).
(4) العهد الثقيل. انظر «اللسان» (أصر).

فمنْ بَعْدِ ما أَوْردتَها حَوْمَةَ الوغى   وأَصْدَرْتَها والبيضُ من عَلَقٍ حُمْرُ
وجلَّلْتَهـا نَقْعـاً أضـاعَ شِيَـاتهـا   فلا شُهْبُها شُهْبٌ ولا شُقْرُها شُقْرُ
علا(١) النَّهْرُ لما كاثَرَ القَصَبُ القَنَا   مكـاثرةً في كـلِّ نَحْـرٍ لهـا نَحْـرُ
وقـد شَرِقَتْ أجـرافه بـدم العِدَى   إلى أن جرى العاصي وضَحْضَاحُه غَمْرُ
صَـدَعْتَهُمْ صَدْعَ الـزُّجاجـة لا يَـدٌ   لجـابرِهـا مـا كـلُّ كَسْـرٍ لـه جَبْـرُ
فلا ينتحل من بعدها الفَخْرَ دائلٌ   فَمَنْ بارَزَ الإبرنـز كانَ لـه الفَخْرُ
ومن بَـزَّ أنـطاكيـة من مليكهـا   أطـاعَتْـهُ ألحـاظُ المُؤَلَّلةِ الخُـزْرُ
أخو اللَّيث لولا غَـدْرُه نزعت بـه   إلى الذِّئبِ إنَّ الذئبَ شِيْمَتُه الغَدْرُ
أتى رأسُـه ركضـاً وغُـودر شِلْوُه   وليس سوى عافي النُّسورِ له قَبْـرُ
وقـد كان في استبقـائه لـك مِنَّـةٌ   هي الفَتْكُ لولم تَغْضَبِ البيضُ والسُّمْرُ
كما أَهْدَتِ الأقدارُ للقمصِ(٢) أَسْرَهُ   وأَسْعَدُ قِرْنٍ مَن حواه لك الأَسْـرُ
طغَى وبغَى عـدواً على غُلوائـه   فـأوبقـه الكُفْـرانِ عَـدواه والكُفْـرُ
وأَلْقَتْ بـأيـديهـا إليـكَ حُصُـونُـه   ولو لم تُجِبْ طَوْعاً لجاء بها القَسْرُ
وَأَمْسَتْ عَزَازُ* كاسمهـا بك عِـزَّةً   تَشُقُّ على النَّسْرَيْن لو أَنَّها الوَكْـرُ
فَسِـرْ وَامْلأِ الـدُّنيا ضيـاءً وَبَهْجَـةً   فبالأُفُقِ الدَّاجي إلى ذا السَّنا فَقْرُ
كـأني بهـذا العَزْمِ لا فُـلَّ حَـدُّه   وأقصاه بالأقصى وقـد قُضِيَ الأَمْرُ
وقد أصبـحَ البيتُ المُقَدَّسُ طاهراً   وليسَ سوى جاري الدِّماءِ له طُهْرُ

---

(١) في النسخ الخطية: على.

(٢) هو ابن جوسلين كما في تقديم القصيدة، وقد وهم الدكتور شكري فيصل في تعليقه على البيت حين قال: «لعله يريد القمص صاحب طرابلس، وكان ممن أسره نور الدين». والمعروف أن أسر القمص صاحب طرابلس كان سنة (٥٥٩هـ) كما يحيلنا هو نفسه على مصدر تلك السنة، ونعلم أن القيسراني توفي سنة (٥٤٨هـ)، فهل يتكلم القيسراني عن حادثة وقعت بعد وفاته بنحـو إحـدى عشرة سنـة! انظر «خـريدة القصـر» قسم شعراء الشام: ١/١٥٨.

وقد أدَّتِ البيضُ الحِدَادُ فروضَها فلا عُهْدَةٌ في عُنْقِ سَيْفٍ ولا نَذْرُ
وصَلَّتْ بمعراج النبيِّ صَوَارِمٌ مساجدها شَفْعٌ وساجِدُها وِتْرُ
وإن تتيمَّمْ ساحل البَحْرِ مالكاً فلا عجبٌ أن يملكَ السَّاحِلَ البَحْرُ
سَلَلْتَ سُيُوفاً أثْكَلَتْ كُلَّ بَلْدَةٍ بصاحِبها حتى تَخوَّفَك البَدْرُ
إذا سارَ نورُ الدين في عَزَماته فقولا لِلَيلِ الإفك قد طَلَعَ الفَجْرُ
ولو لم يَسِرْ في عسكرٍ من جنوده لكانَ له مِنْ نَفْسِه عَسْكَرٌ مَجْرُ(١)
مَليكٌ سَمَتْ شُمُّ المنابر بِاسمه كما زُهيت تِيهاً به الأنْجُمُ الزُّهْرُ
فيا كعبةً ما زال في عَرَصَاتها مواسمُ حجٍّ لا يروِّعها النَّفْرُ
خَلَعْتَ على الأيامِ من حُلل العُلى ملابسَ من أعلامها الحَمْدُ والشُّكْرُ
٧٤/١ وَتَوَّجْتَ ثَغْرَ الشَّامِ منك جلالةً تمنَّتْ لها بغدادُ لو أنَّها ثَغْرُ
فلا تَفْتَخِرْ مِصْرُ علينا بنيلِها فيُمناكَ نيلُ كلِّ مِصْرٍ بها مِصْرُ
رَدَدْتَ الجهادَ الصعبَ سهلاً سبيلُه وياطالما أمسى وَمَسْلَكُه وَعْرُ
وَأَطْمَعْتَ في الإفرنجِ مَنْ كان بَأْسُه تخوَّف أن يعتادَه منهم فِكْرُ
وأقحمت جُرْدَ الخيلِ أعلى حصونها ولولاكَ لم تهجم على كافرٍ كَفْرُ
ومن يَدَّعي في قتلِكَ(٢) الشِّرْك شركةً إذا لم يكن عند القوافي له ذِكْرُ
هي القانتاتُ الحافِظاتُ فروجَها فشاهِدُها عَدْلٌ ورائقها(٣) سِحْرُ
ولو لم يكن في فَضْلِها وكمالها سِوَى أنها من بعد عُمْرِ الفتى عمرُ(٤)

وله من قصيدةٍ يصف فيها وقائعه، أولها:

أما وخيالٍ زار ممن أحبُّه لقد هاج من ذكراه ما لا أغبُّه

---

(١) الجيش العظيم. انظر «اللسان» (مجر).

(٢) في (م) مثلك، وهو تصحيف.

(٣) في (م) ورايتها، وهو تحريف.

(٤) انظر أبياتاً من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٥٧ ـ ١٥٩.

إذا ما صبا قَلْبُ المحبِّ إلى الصبا ذكـرتُ نسيماً بـالثُّغـور مَهَبُّـهُ
فيـا نَفَحاتِ الشَّـام رِفْقاً بمهجـةٍ يُحامي عليها مُـدْنَفُ القَلْبِ صَبُّه
فـلا تسأَلـنَّ الصَّـبَّ أيـن فـؤادُه فـإنَّ فؤادَ المرءِ مَعْ مَنْ يحبُّـه
وفي شُعب الأكوار مَن هو عـالمٌ غداةَ اسْتَطَارَ البـرق مَن طار لُبُّه
يشيم ثغـور المُـزْن تهمي كـأنَّها سَنَا بِشْرِ نـورِ الدين تنهـلُّ سُحْبُه
إذا ما سما في مُبْهَمِ الخَطْبِ وجهُه تمـزَّق عن بَـدْرِ الـدُّجُنَّـة حُجْبُـه
تـولَّـد بين الغَيْثِ واللَّيْثِ والتُّقى منـافسـةٌ أي الـثـلاثـة تِـرْبُـهُ
يعدُّ مضاءً في الظُّبـى، لا، وضربُه بها قلل الأعداء ما السَّيف ضَرْبُـهُ
مكين الحِجا راضَ(١) الزمانَ بنفسه إلى الآن حتى لانَ وانقـاد صَعْبُهُ
حمى قُبَّة الإِسلام بالخيل فاغْتَدَتْ وأوتـادهـا جُـرد الـطعـان وقُبُّـه
فكم هبـوةٍ أوقعن بالكُفْـرِ تحتهـا فمـا انقشعتْ إلا وللذُّلِّ جَـنْبُـه
كيوم الرُّها* الورهاء والهَامُ يـانـعٌ مليٌّ بـرعي الهنـدُوَاني خصبُـه
وشهبـاء هاجتهـا وغى صَرْخَـدِيَّـةٌ ثناها وليـلُ الحَرْبِ تنقضُّ شُهْبُـهُ
وعـارِمَ يومـاً بالعُـريمة* فـاغتـدَتْ كـوادي ثمودٍ إذْ رغـا فيـه سَقْبُـهُ
وعاصَى على العاصي بأرْعَنَ خاطبٍ دم الإِفك حتى أنكـحَ النَّصْلَ خطبُه
بـانِّب* لمـا أكسب المـال وانثنى بصـاحِبِ أنـطاكيةٍ* وهـو كَسْبُـهُ
غداة هوى شـطرين للسَّيفِ رأسُه وللرُّمْـحِ حتى تـوَّجَ الرأسَ قَلْبُـهُ
على حين للخطـيِّ فيه عـواملٌ يعـاقبـه خَفْضُ الحُسَـام ونَصْبُهُ
وقـائعُ محموديَّـةُ النَّصْرِ لم يـزل غريباً بها عن مَوْطِنِ السَّيْفِ غربُه
يقـومُ مقـامَ الجيشِ فيهـا وعيـدُه وتفعـلُ أفعـالَ الكتـائبِ كُتْبُـهُ
وحين انتضَتْـهُ عـزمـةٌ مِن قـرابـةٍ مضى وهو نَصْلٌ والممـالكُ قـربه
إلى أن دَعَتْـهُ ربَّـهـا كـلُّ بَلْدَةٍ فليس من الأمصـارِ مـا لا يـربُّـهُ

---

(١) في الأصل و (ل) أرضى، والمثبت من (م)، وهي رواية نسخة في هامش الأصل.

ولما نزا بالقُمص* عُجْبُ هَوَى به ... على أُمِّ رأس البغي(١) والغَدْرِ عُجْبُهُ
فأصبح في الحجلين ينكر خطوه ... بعيد على الرجلين في السَّعي قربُه
تُعاقبه البُشْرى بأَخْذِ حُصُونِهِ ... فيا عانياً ضرب البشائر ضَربُه
تناجي عزاز* باسمه تلَّ باشرٍ* ... فيلعنُهُ(٢) لَعْنُ الصَّريحِ وسبُّهُ
فإن يكن المقهورُ من ثُلَّ عَرْشُه ... فهذا عمودُ الكُفْرِ قد طاحَ طُنْبُه
75/1 فَقُلْ لملوكِ الخافقين نصيحةً ... كذا عن طريقِ اللَّيث تزار غُلْبُهُ
وخَلُّوا عن الآفاقِ فالشَّرْقُ شَرْقُهُ ... بحكم الرُّدَيْنِيَّات(٣) والغَرْبُ غَرْبُهُ
ولا يعتصم بالدَّرْبِ طاغٍ على القَنَا ... فإنَّ القَنَا في ثُغْرَةِ النَّحْرِ دَرْبُهُ
رحيبُ فضاءِ الحِلْمِ عن ذات قُدْرَةٍ ... إذا ضاقَ من صَدْرِ المملك رَحْبُهُ
عفوٌّ عن الجاني يكادُ الذي جنى ... يكرُّ به شوقاً إلى العفو ذنبُهُ
أمُتَّخِذَ الإخلاص لله جُنَّةً ... ومن يَعْتَصِمْ باللهِ فاللهُ حَسْبُهُ
أبوكَ استردَّ الشَّامَ بالسَّيْفِ عَنْوَةً ... وللرُّوم بَأْسٌ طالما غالَ خَطْبُهُ
إذا ذبَّ عن أضغاثِ دنياه مالكٌ ... فأنتَ الذي عن حَوزةِ الدين ذَبُّهُ
رأيتَ اتِّباعَ الحقِّ خيراً مَغَبَّةً ... فأفرجتَ عن رأي يسرُّك غبُّهُ
وأوضحتَ ما بين الفريقين سُنَّةً(٤) ... بها عَرَفَ المربوبُ مَنْ هو رَبُّهُ
وَبَيَّنْتَ ما قد كانَ من كان يبتغي ... دليلاً بأن الله مَن أنتَ حِزْبُهُ

وقال ابنُ منير يمدح نور الدين بظاهر حمص:

هيهاتَ يعصمُ من أردتَ حِذارُ ... أنَّى ومن أوهاقك(٥) الأقدارُ

---

(١) في (ل) على رأس أم البغي، وهو وهم من الناسخ.

(٢) في (م) فلعنه.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٤٢ من هذا الجزء.

(٤) في (ل) مُنَّة.

(٥) مفردها وهق: حبل تشد به الإبل لئلا تند. انظر «اللسان» (وهق).

ومنهـــا:

طَلَعَتْ عليك بجوسلين* ذريعة لا سَحْلَ أنشاها ولا إمرارُ

وسعادةٍ ما زلتَ تمري خلفها فيشفُّ وَهْوَ الناتقُ المِدْرَارُ

فأرتك ما يُجني الوفيَّ وفاؤه وأرته كيف يُحيَّن الغَدَّارُ

عودُ أمرّ على أبارك طَلْعُهُ فأُحيل ذاك البر وهو بَوَارُ

ما زلتَ تُنْعِمُ وهو[1] يكفُرُ عاتياً والله يَهْدِمُ ما بنى الكُفَّارُ

حتى أتاحَ لقومِهِ ما جرَّه لثمود من عَقْرِ الفصيلِ قُدَارُ[2]

أسرى فأصبح في براثن آسرٍ ما زال يُدْمي ظفرَه الأظفارُ

سامٍ كَقَرْنِ الشمسِ يَقْبِسُ نورَه وتُغَضُّ دون محلِّه الأبصارُ

يَهَبُ التلاد من البلاد وما حَوَتْ إنَّ السَّماحة للبحارِ بحارُ

يقظانُ يخشى الله في خلواته لا مُترفٌ لاهٍ ولا جَبَّارُ

نَصَبَ المَرَاقِبَ[3] للعواقِب ناظراً فيها كذلك تربأ الأبرارُ

لا كالَّذين تعجَّلوا حَسَواتِها وتقلَّسوها بعد وهي خُسَارُ

دَرَجُوا وأدرج في ملفِّ رُفاتهم سوأى تُساءُ لِذِكْرِها الآثارُ

والمَرْءُ من يُطوى فيَنْشُرُ طَيَّه ما أَوْدَعَتْهُ صُدُورَها الأخيارُ

قُلْ للأُلى ناموا على نأماته ما كلُّ هَبَّةِ بارحٍ إعْصَارُ

لا تأمنوا في الله بطشة ثائرٍ لله مِلْءُ سَرِيره أسرارُ

صافٍ إذا كَدِرَ المعادنُ عادلٌ إن حافَ حُكَّامُ الملوكِ وجارُوا

أعلى أبوه له النّجاد وشِيد في صهواتها ممَّا ابتناه مَنَارُ

محمودُ المحمودُ آثاراً إذا نُظِمَتْ على جِيْدِ الدُّجى الأسمارُ

---

(١) في هامش الأصل: في نسخة ثم.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٨ من هذا الجزء.

(٣) مفردها المرقب والمرقبة: مكان الرقيب المشرف يرتفع عليه. «معجم متن اللغة»: ٢/٦٢٨.

دانَتْ لـه الأيامُ صـاغِرةً كمـا   دانـت لـه في ظِلِّه الأمصـارُ[1]

وله من أخرى، أولها:

* ما الملك إلا ما حواهُ نجادُه *

يقول فيها:

وتـديـن حُسَّـدُه لـمحـكـم آيـه   والفَضْـلُ ما شَهِـدَتْ بـه حُسَّـادُه
شمسٌ إذا ما الحربُ زُرَّ جيوبها   حَـلَّ الـمعـاقِـدَ كَـرُّه وطِـرَادُه
ألـوى ألدُّ حمى الشريعة جُهـده   وأذلَّ نـاصيـةَ الضَّـلالِ جِهـادُهُ
صَعَقَ البِـرِنْسَ* وقد تـلألَأ بَـرْقُـهُ   وأطـارَ سـاكنَ جَـأْشِـهِ إرْعـادُهُ
ولَّى وقـد سُلَّت فَسَلَّتْ ضغنـه   زبـر تـلقـى فـودهـن فـؤادُه ٧٦/١
مـستلئمـاً مـستسلمـاً لا عـدَّةٌ   رَدَّ الـمُنَى عنـه ولا اسْتِعْـدَادُه
ولجـوسلين* احتثَّهنَّ فـأصبحت   نُـهْبَى لـهـنَّ بـلادُه وتِـلادُه
جاءت به بعـد الشماسِ عـوابسٌ   قـودٌ يلين لـعُنـقـهـنَّ قـيـادُه
وتصيَّـدَتْـهُ لـك السُّعـود وقلَّمـا   ينجو[2] بخيرٍ من أردتَ[3] مصاده
دانى لـه[4] قينـاه أدهم كـلَّمـا   غـنَّـاه طـارَ شمـاتـةً عُـوَّادُه
سَلَبَتْ عَـزَاز* عـزاءه وبِقُـورُس*   محجـوبـةً فُـرِشَتْ لـه أقتـادُه
وبتـلِّ خـالـد* يوم تَـلَّ جبينَهـا   خَـلَطَ الثَّـرى بجبينِـهِ إخـلادُه
وغـداً يبـاشرُ تـلَّ بـاشرَ* قَلْبُـه   بـأحـرِّ مـا حَمَـلَ القلوبَ عـداده
منَّتْ[5] أمـانيَـهُ بشـائـرُك التي   عـادَتْ لـهـنَّ مـآتـمـاً أعيـادُهُ
وحبوتَ[6] مُلْكَك من نظيمِ ثُغُوره   حَـلْيـاً تَتَـايَـه تـحتَـه أجيـادُه

---

(١) انظر «الباهر»: ١٠٤ فقد أورد ابن الأثير بعض أبياتها، ونسبها إلى بعض الشاميين.
(٢) في النسخ الخطية «ينجي».
(٣) في (م) أرعت.
(٤) في (ل) وأناله.
(٥) أي قطعت. «القاموس المحيط» (منَّ).
(٦) في الأصل: حبون، والمثبت من (ل) و(م).

لا يَخْدَعَنْك فإنَّما إصلاحُ مَنْ يُخشى انتشاطُ خِناقِه إفسادُه
أنزِلْهُ حيثُ قَضَتْ له غَدَراتُه وأحلَّه طُغيانُه وعِنادُه
في حيثُ لا يأوي له[1] سَجَّانه حَنَقاً[2] ويَكْشِطُ جِلْدَه جلَّادُه
وَثَنٌ هَدَمْتَ بني الضَّلال بهَدْمِه وغَدَتْ عبادَك عَنْوَةً عُبَّادُه
فَتَكَتْ به آياتُ مَنْ لِمُحمَّدٍ ولِدِينه إبداؤه وعِوَادُه[3]
لو[4] أنشطَ البلدُ الحرام تواءمت تُثْني عليه تلاعُه ووِهادُه
وَلَوَ آنَّ مِنْبَرَه أطاق تكلُّماً نَطَقَتْ بباهرِ فَضْله أعوادُه
نامَ الخليفةُ واستطار لذَبِّه عن سُدَّتيه واسْتُطير رُقَادُه
رَجَعَتْ لك العِزَّ القديمَ سيوفُه ما زانَ رونقَ مائها أغمادُه
من بعد ما نَعَقَ الصَّليبُ لحزبه ورأيت زَرْعَ الملكِ حانَ حَصادُه
أنّى تُميلُ الحادثاتُ رِواقَهُ بهبوبها وابنُ العمادِ عِمادُه

فصل

قال ابنُ الأثير: ولما سار نور الدين إلى قلاع جُوسلين* ملك بعضاً وبقي بعض[5]، فاجتمعت الفرنجُ، فالتقوا مع نور الدين بدُلُوك*، فهزمهم، واستولى على دُلُوك وغيرها، ففيها يقول أحمد بن مُنير قصيدةً، منها[6]:

هي الخَيْلُ خَيْرُ عَتَادِ الكريـ ـم يحضر للهمِّ إحضارَها

---

(١) أي لا يرحم له. انظر «اللسان» (أوا).
(٢) في (ل) حتفاً.
(٣) الضبط من (ل).
(٤) في الأصل أو، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) في النسخ الخطية: بعضاً.
(٦) انظر «الباهر»: ١٠٤ ــ ١٠٥، وقد أورد ابن الأثير بعض أبيات القصيدة، ونسبها إلى بعض الشعراء الشاميين.

ضَـغَمْـتَ فـأدْرَدْتَ[1] أفـواهَهَـا وسِـرْتَ فـقـلَّمْـتَ أظْـفَـارَهـا
إلامَ ولـم تُـبْـقِ مـمـا غَـزَوْتَ قُـلُوبـاً تـكـابِـدُ إذعـارهـا
أمـا فـي مُـفَـصَّـل آي الْـقِـرا عِ أن تَـضَـعَ الحـربُ أوزارَهـا
عـسى أنْ يُـحمَّ لـهـذا الحـمـا مِ أنْ يـتـوكَّـرَ أوكـارَهـا
ومـا يـومُ مـن غـلتـه واحـدُ فـتـودعَـه الـلُّسْـنُ أشـعـارَهـا
وأيـنَ الـمَـقَـاولُ مـمَّـا فَـعَلْتَ ولـو شَفَـعَ[2] القَـطْرُ إكثـارَهـا
فكم أجْلَبَتْ[3] خَلْفَكَ الجافخاتُ[4] فَـصَلْـصَـل فـخـرُكَ فـخَّـارَهـا
أعَـدْتَ بِـعَصْـرِكَ هـذا الأنـيقِ فـتـوحَ الـنـبيِّ وأعـصـارَهـا
وكـان مُـهَـاجِـرُهـا تـابعيـك وأنـصـارُ رأيـك أنـصـارَهـا
فـجـدَّدت إسـلام سَـلْمـانـهـا وعـمَّـرَ جـدُّك عَـمَّـارَهـا
ومـا يـوم إنِّـب* إلا كـتـيـ ـكَ بل طالَ بالبَوْعِ أشبارَهـا
وأيـامـك الـغـرُّ مـن بـعـده تُـعـيـد إلـى الـطي أغـرارَهـا
77/1 ولـمـا هببتَ ببُصْـرى* سـمكـتَ بـأهـبـاء خَـيْـلِكَ أبـصـارَهـا
ويـومٌ على الجـون جـون السـرا ة عَـزَّ فَـسَـعَّـطَهـا عـارهـا
صـدمت عُـرَيْمَتَهـا* صـدمـةً أذابـتْ مع الـمـاء أحجـارَهـا
وفي تـلٍّ بـاشـر* بـاشـرتَهُـمْ بـزحـفٍ تـسـوَّرَ أسـوارَهـا
وإنْ دالـكـتـهـم دُلُـوك* فـقـد شـددت فَـصَـدَّقْـتَ أخـبـارَهـا
وشـبَّ الـتَّـدَامـرُ حتى طلعتَ عـليـهـا فـولَّـتْـكَ أدبـارَهـا
مـشـاهِـدُ مشـهـورَةٌ نَـمْـنَـمَـتْ على صفحةِ الـدَّهْـرِ أسطارَهـا
يـلـذُّ الأغـانـي تـرجـيـعُـهـا ويـستـسفـر الـسَّفْـرُ أسفـارَهـا

(١) في الأصل: فأدررت، وفي (م): فأرددت، والمثبت من (ل).
(٢) في (ل) أشفع.
(٣) في الأصل: أجفلت، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) المفاخرات بكبر. انظر «اللسان» (جفخ).

بنيتَ لوفدِ المنى كعبةً تجيْرُ المعلِّقَ أستارَها
ومُلِّكْتَ والأرض مغبرَّة تكادُ تُحَدِّثُ أخبارَهَا
فما زِلتَ تَدْجُنُ حتى محوتَ دُجاها وشَعْشَعْتَ أنوارَها
وَصَلْتَ فأَعْزَزْتَ مسكينَها وَصُلْتَ فأَذْلَلْتَ جَبَّارها
وصغتَ حُلًى من عُلاً أَحْكَمَتْ على عُنقِ الدَّهْرِ أَزْرارَها

قال أبو يعلى [التميمي][(١)]: وفي رجب وردت الأخبار من ناحية نور الدين بظفره بعسكر الإفرنج النازلين بإزائه قريباً من تلِّ باشر*، وعظيم النكاية فيهم والفتك بهم، وامتلأت الأيدي من غنائمهم وسبيهم، واستولى على حصن خالد* الذي كان مُضايقَه ومنازلَه[(٢)].

قال: وفي أيام من المحرَّم وصل جماعةٌ من حُجَّاج العراق وخُراسان المأخوذين في طريق الحج عند عودهم بجماعةٍ[(٣)] من كفَّار العُربان، وحكوا مصيبةً ما نزل مثلها بأحدٍ في السنين الخالية، ولا يكونُ أبشع منها. وذُكر أنه كان في هذا الحاج من وجوه خُراسان وتُنَّائها[(٤)]، وفقهائها وعلمائها، وقضاتها، وخواتين أمراء العساكر السُّلْطانية والحُرَم العدد الكثير، والأموال الجمَّة، والأمتعة الوافرة، فأُخذ جميع ذلك وقُتل الأكثر، وسَلِمَ الأقل، وهتكت النساء وسُلبن، وهلك من هلك بالجوع والعطش، فضاقت الصُّدور لهذه النازلة، فَكُسيَ العاري منهم وأُطلق لهم ما استعانوا به على عودهم إلى أوطانهم من أصحاب المروءة بدمشق[(٥)]. ﴿ذَلِكَ تقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم﴾.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١ ــ ٣١٢.
(٣) في «ذيل تاريخ دمشق» لجماعة، وهو تصحيف.
(٤) أي من أهلها المقيمين فيها، انظر «اللسان» و«أساس البلاغة» (تنأ).
(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٠.

قال: وكان مجاهد الدين بُزَان قد توجَّه إلى حصنه صَرْخَد* لتفقُّدِ أحواله، فعرضت [بعده][١] نُفْرَةٌ بين مجير الدين والرئيس بسعايات أصحاب الأغراض والفساد، واقتضت الحالُ استدعاء مجاهد الدين لإصلاح الحال، فوصل وتَمَّ ذلك بوساطته على شرط إبعاد الحاجب يوسف؛ صاحب مجير الدين عن البلد مع أصحابه، وتوجَّهوا ولم يعرض لشيء من أموالهم، وقصد بَعْلَبَكَّ فأكرمه واليها[٢].

قال: ووردت الأخبار من مصر بالخُلْف المستمرِّ بين وزيرها ابن مَصَال وبين الأمير المُظَفَّر ابن السَّلَّار[٣]، ووقوع الحرب وسفك الدِّماء إلى أن أسفرتِ الحالُ عن قتل ابن مصال الوزير، وانتصاب ابن السَّلَّار موضعه في الوزارة[٤].

قال: وفي سابع عشر رجب توفي القاضي بهاء الدين عبد الملك بن الفقيه عبد الوهَّاب الحنبلي[٥]، وكان إماماً فاضلاً، مناظراً مستقلاً، مفتياً على مذهب الإمامين أحمد وأبي حنيفة بحكم ما كان عليه عند إقامته بخراسان لطلب العلم والتقدُّم، وكان يعرف اللِّسان الفارسي مع العربي، وهو حَسَنُ الحديث في الجدِّ والهزل، وكان له يومٌ مشهود، ودُفن في جوار أبيه وجدِّه في مقابر الشُّهداء[٦].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٢٦ وص ٢٩٢ من هذا الجزء.
(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.
(٥) سلفت ترجمة أخيه نجم في حاشيتنا رقم ٣ ص ٧٤ من هذا الجزء. وذكرنا ثمة مصادر ترجمة أبيه عبد الوهاب.
(٦) من مقابر الباب الصغير، جنوبي دمشق، انظر «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/٢١٩.

قال: وتوفي عقيب وفاته الشريف القاضي النقيب أبو الحسين[1] فخر الدولة ابن أبي الجن، وتفجَّع الناس عليه لخيريته وشرف بيته[2].

ودخلت سنة ست وأربعين [وخمس مئة][3]

ففيها حاصر نور الدين رحمه الله دمشق لمعاضدةِ أهلها الفرنج واستنصارهم بهم، ومدَحه ابنُ منير بقصيدةٍ يحرِّضُه فيها عليهم، وكتبها إليه من حماة وهو محاصر دمشق، وقد تخلَّف عن الخدمة لمرضٍ عَرَضَ له، منها:

أخليفةَ الله الذي ضَمِنَتْ له ... تصديقَ واصفِه سَراةُ المِنْبَرِ
لا المستطيل بمصر ظلَّ قُصُوره ... والمستطال إليه شُقَّة صَرْصَرِ
يا نورَ دين الله وابنَ عمادِه ... والكوثَرَ بن الكوثر بن الكَوْثَرِ
صفِّر بحدِّ السَّيْفِ دار أشائبٍ ... عَقَلُوا جيادَكَ عن بناتِ الأَصْفَرِ
هُم شَيَّدُوا صَرْحَ النِّفاقِ وأوقَدُوا ... ناراً تُحَشُّ[4] بهم غداً في المَحْشَرِ ٧٨/١
أذكوا بجِلِّق حَرَّها واستشعرت ... لفحاتُها بين الصَّفا والمَشْعَرِ
شَرِّدْ بهم مَنْ[5] خَلْفَهم مُسْتَنْجداً ... ما ظَاهَرَ الكُفَّارَ مَنْ لم يَكْفُرِ
لا تَعْفُ بل شَقَّ الهُدَى نَفْسَ الذي ادَّ ... (م) رَعَ الضَّلالَ على أغرَّ مُشَهَّرِ
قَلِّدْه ما أهدَى عليٌّ لِمِرْحَبٍ[6] ... فلقد تهكَّمَ في الخِداعِ الخَيْبَرِي

---

(١) في الأصل: أبو الحسن، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) أي توقد. «اللسان» (حشش).

(٥) في (ل) شردتهم، وهو تصحيف، وفيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿فَشَرِّدْ بهم مَنْ خلفهم لعلهم يذكَّرون﴾ سورة الأنفال: الآية ٥٧.

(٦) مِرْحَب هو اليهودي الذي قتله الإمام علي بن أبي طالب في خيبر سنة (٧هـ)، وقيل: إن الذي قتله محمد بن مسلمة، وهو لا يصح. انظر «سيرة ابن هشام»: ٣٤٧/٣، و«الكامل»: ٢١٩/٢، و«تاج العروس»: (رحب).

مـا الغِشُّ ممن أُمُّـه نصـرانـةٌ ... لم تختتن كـالغِشِّ من مُتَنَصِّـرِ
أَذْكَتْ لنا هذي العـزائمُ لا خَبَتْ ... مـا غـارَ من سُنَنِ الملوكِ الغُبَّـرِ
إثقـابُ آراء المُعِـزِّ(١)، وخَفْقُ را ... ياتِ العزيز(٢) ويَقْظَةُ المُسْتَنْصِرِ(٣)
شَمِّـرْ فقـد مَـدَّت إليـك رِقـابَهـا ... لا يُـدْرِكُ الغـايـاتِ غَيْـرُ مُشَمِّـرِ
أَوَلَسْتَ من مـلأ البَسِيْـطَةَ عَـدْلُـه ... واجْتَثَّ(٤) بالمَعْرُوفِ أَنْفَ المُنْكَرِ
حَدَبُ الأَبِ البَرِّ الكبيرِ، ورأفةُ الْـ ... أمِّ الحَفِيَّـةِ بـاليتيمِ الأَصْغَـرِ
يا هضبةَ الإسلامِ من يُعْصِمْ بها ... يُؤمن وَمَنْ يتـولَّ عنهـا يَكْـفُـرِ
كانوا على صَلْبِ الصَّليب سرادقاً ... أنْـبَـتْ بـنـيَّـتـه بـكـلِّ مُـذَكَّـرِ
آثـارُهم نجسٌ أذالَ المسجِدَ الْـ ... أقصى فَصُنْ مـا دنَّسُـوه وَطَهِّـرِ
حارَ(٥) الخليل ومَنْ بغـزَّة هاشمٍ ... بِلُهـامـك(٦) المُتَـدَمشِقِ المُتَمَصِّـرِ
بعَرَمْرَمٍ صَلَمَتْ وعـاوِعُه(٧) عُـرَى ... أسمـاعِ جَيْحُونٍ* وسيْفِ البَرْبَرِ
يفترُّ عن ملكِ الملوك مُنَحِّلِ الْـ ... أنْـواء بـل سَعْـدِ السُّعود الأَكْبَـرِ
عن طاعِنِ الفرسانِ غيرَ مكـذِّبٍ ... وَمُتَمِّمِ الإحسـانِ غَيْـرَ مُكَـدِّرِ
بَدْرُ الجَحَافِلِ والمحافلِ فارسُ الْـ ... آسادِ في غابِ الوشيـجِ(٨) الأَسْمَرِ
مَلِكٌ تساوى النَّاسُ في أوصـافه ... عُـذِرَ المُقِلُّ وبـانَ عَجْـزُ المُكْثِرِ
يـا أيهـا المَلِكُ المُنَـادِي جُـودُه ... في سـائر الآفـاقِ هل مِنْ مُعْسِـرِ
إنَّ القصـائِدَ أَصبحَتْ أبكـارُهـا ... في ظـلِّ مُلْكِكَ غـاليـاتِ الأَمْهُرِ

---

(١) هو المعز لدين الله الفاطمي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٥٩ ــ ١٦٧.
(٢) هو العزيز بالله نزار بن مَعَد. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٦٧ ــ ١٧٣.
(٣) هو المستنصر بالله معد بن علي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/١٨٦ ــ ١٩٦.
(٤) في الأصل واجتب، والمثبت من (ل) و(م)، ولكل وجه.
(٥) في (ل) و(م) جار.
(٦) اللُّهام: الجيش الكثير؛ كأنه يلتهم كل شيء. «اللسان» (لهم).
(٧) أي جلبته. انظر «اللسان» (وعع).
(٨) الوشيج: شجر الرماح. «معجم متن اللغة»: ٥/٧٥٨.

إنْ كنتَ أحييتَ ابنَ حمدانٍ[1] لها[2] ... فأنا الذي غَبَّرْتُ في وجه السَّرِي[3]
ولأنْتَ أَكْـرَمُ من أُنـاسٍ نـوَّهـوا ... باسم ابن أوسٍ[4] واستَخَصُّوا البحتري
ذلَّتْ لـدولتِـكَ الـرِّقـابُ ولا تَـزلْ ... إنْ تَغْـزُ تَغْنَمْ أو تُقَاتِـلْ تَـظْفَـرِ

وكتب إليه من حماةَ أيضاً، وهو محاصر دمشق، قصيدةً ينال فيها من صاحبها، منها:

أبـوكَ أَبٌ لـو كـان للناس كُلِّهم ... أبـاً ورضوا وَطْءَ النُّجومِ لَفُنِّدُوا
وما ماتَ حتى [سَدَّ][5] ثُلْمةَ مُلْكِه ... بـك اللَّهُ تَرْمي مـا رماه فَتُصْرِدُ
صَدَمْتَ ابن ذي اللُّغْدَين فانحلَّ عَقْدُه ... وكـالسِّلْكِ قد أمسى يُحَـلُّ ويُعْقَدُ
يُقلِّبُ خَلْفَ السَّجْفِ عيناً سَخِيْنَةً ... ويبكي بـأُخرى ذات شَتْرٍ وَيَسْهَدُ
ولا غَـزْوَ قـد أبقى أبـوه وجَـدُّه ... لـه كلَّ يـومٍ ثَـوْبَ عَجْزٍ يجدَّدُ
فيـا راكبـاً إمَّـا عَـرَضْتَ فبَـلِّغَنْ ... بيـوتاً على جَيْرُون* بالـذُّل تُعْمَدُ
وَقُـلْ لمبيرِ الـدِّينِ وَهْـوَ مُجِيْـرُه ... بـزعمٍ لـه وَجْهُ الحقيقـةِ أَرْبَـدُ
حَمَلْتَ الصَّليبَ بـاغيـاً وَنَبـذْتَـهُ ... وثغْـرَاكَ مـوطـوسٌ ببـابٍ وأَدْرَدُ
وحـارَبْتَ حزبَ الله واللَّهُ نـاصِـرٌ ... لنـاصـره ودينُ أحـمـدَ أَحْـمَـدُ
تَنَصَّـرْتَ حينـاً والبـلاءُ مـوكَّـلٌ ... ولا بُـدَّ من يـومٍ بـه تتهـوَّدُ
وأُقْسِمُ مـا ذاقَ اليهـودُ بـإيليـا ... ومَـوْضِعُهـا من بختنَصَّـرَ أسـوَدُ
كبعضِ الذي جُرِّعْتَـهُ فَسَرَطْتَـهُ[6] ... وأُيِّـدَ فيـه من عمـاكَ المُؤَيَّـدُ ١/٧٩

---

(١) هو سيف الدولة الحمداني علي بن عبد الله بن حمدان. انظر أخباره في «يتيمة الدهر»: ١/١١ ـ ٢٦.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «بها».

(٣) هو الشاعر السري الرفاء المتوفى سنة (٣٦٢هـ)، وكان من شعراء سيف الدولة. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٢/٣٥٩ ـ ٣٦٢.

(٤) هو أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، الشاعر المشهور.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) أي بلعته. «اللسان» (سرط).

ولايتُـهُ عَـزْلٌ إليـكَ مُـوَجَّـهُ وتصحيفُـه قَتْـلٌ عليـكَ مُـؤَبَّـدُ
رمــاكَ ببــاقِــلّا دمشق فلم تكن سوى بَقْلَةٍ حمقاءَ بالحُمْقِ تُحْصَدُ
وجــالَـدْتَ جَـلّاداً وأنتَ مُؤَنَّثٌ تَـذَكَّـرْتَ والجـلّادُ أَدْهى وأَجْلَدُ
تــطاوَلْتَ لا نفسٌ تسمَّى ولا أَبٌ وراءَك زحفـاً إنمـا أنتَ مُقْعَـدُ
أمسعاةَ نورِ الدين تبغي ودونها الْـ أسِنَّة تبر والعـوامِلُ(١) تَعْضُـدُ
بمحمـودِ المحمود سيفـاً وساعـداً حملت(٢) لقد ناجتك صماءُ مُؤْيِدُ(٣)
وهل يستوي سارٍ تأسَّدَ طاويـاً(٤) ونشــوان يُعْلى معصمـاً ويـؤيـدُ
تَنَصَّـرْتَ أمَّا بـل تمجَّسْت والـداً وعمَّـا فعِـرْقُ الكُفْـرِ فيـك مـردَّدُ
تخذتَ بني الصُّوفي أسـراً وأُسرةً لكي يُصْلحوا ما في يديك فَأَفْسَدُوا
لَعَمْري لَنِعْمَ العبدُ أنتَ تجيعه الـ ـموالي وتُـوليـه هَـوَانـاً فَيَحْمَـدُ
إليكم بني العلّات عن مُتَشاوسٍ له الشَّام مرقا(٥) والعراقُ مُرَقَّدُ(٦)
وما مِصْرُ إلا بعضُ أمصارِه التي إلى أمــره تسعى قِمــاءً وتَحْفِـدُ
أنيبـوا إليــه فَهْــوَ أَرْحَـمُ قــادرٍ له الصَّفْحُ دينٌ واقبلوا النُّصْحَ تَرْشُدوا
ولا تَــرْشِفُـوا نَفْثَ المُؤَيَّـدِ إنــه عن الخيرِ يزوي أو إلى المَيْنِ يَسْنُدُ
وفــرُّوا إلى مـولاكُمُ والـذي لـه عليكم أيادٍ وَسْمُهـا ليس يُجْحَـدُ
ولا تَـكْـفُـروه إنَّـمـا أنـتُـمُ لـه ومنـه ويـوم عنـد حـورانَ يَشْهَـدُ
غداةَ على الجَوْلان* جَوْلٌ وللظُّبى رُعودٌ فريصُ الموتِ منهنَّ تُرْعَـدُ
ولمـا اكفَهَـرَّ اليوم واربَـدَّ وجهُـهُ وعــوَّذ مــرهــون وفــرَّ مـزبّـدُ

---

(١) مفردها عامل وهو صدر الرمح. «اللسان» (عمل).

(٢) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «جهلت».

(٣) الصماء: الداهية الشديدة، والمؤيد: كمؤمن: الأمر العظيم، والداهية. «القاموس المحيط» (صمم، آد).

(٤) في (م) طوياً.

(٥) في الأصل و(ل) مرفا، والمثبت من (م).

(٦) في الأصل و(ل) مرفد، والمثبت من (م).

وأيقنَ مَنْ بين السَّدير وجاسِمٍ[1] بأنَّ الحرارَ السُّودَ بالجُرْد تجردُ
رَدَتهم على بُصْرى* وصَرْخَدَ* خَيْلُه وقد أبصرتْ بصرى رَداها وصَرْخَدُ
وطاروا تهزُّ المُرْهِفَات طُلاهم[2] كما انصاعَ من أُسْدٍ نَعَام مُشَرَّدُ
وليلةَ ألقى الشرك بالمَرْجِ بَرْكَهُ ومارِجُ نيرانِ الوغى يتوقَّدُ
رمى وأخوه مَغْرِبَ الشَّمْسِ دُونكم بمشرقها غضبان يَعْدُو وَيُسْئِدُ[3]
فَمُذْ وَرَدَتْ ماءَ الأرنط[4] مُغِذَّةً أثارَتْ بثَوْرا[5] غُلَّة ليسَ تَبْرُدُ
أيا سيفُ شامَتْهُ يد الملك صارماً فيهمد[6] إذ يسري ويسري[7] فَيُمْهِدُ
دمشقَ دمشقَ إنما القُدْسُ سَرْحَةٌ ومركَزُها صَرْحٌ عليها ممرَّدُ
حَمُوها لكي يحموا وقد بلغَ المدَى بهم أجلُ حَتْمٌ وعُمْرُ محدَّدُ
متى أنا راءٍ طائرَ الفَتْحِ صادِحاً يُرَفْرِفُ في أرجائها ويُغَرِّدُ

وله من قصيدة أخرى:

نَذْرُكَ بالغُوطتين قد ضَمِنَتْ رَبْوَتُها* ريعه وَمُقْرَاها*
أطلِعْ لها الشَّمْسَ من جبينكَ لم يَرْجُ سِوَاها في النَّوْمِ جَفْناها
فالخَيْلُ صور إلى تساهم سَهْـ ـمَيْها* وملهًى في بيت لهياها*
دولة مَنْ دانَتْ البِلادُ له وعَمَّها ظِلُّه فأَغْناها
لَا بِسِواها تليقُ بهجتها ولا سواه تبغي رعاياها

(١) قرية في حوران بينها وبين دمشق (٥٠) كيلومتراً، منها أبو تمام الشاعر المشهور، انظر «معجم البلدان»: ٢/٩٤، و«التقسيمات الإدارية»: ٩٨٩.
(٢) الأعناق «القاموس المحيط» (طلي).
(٣) أي يمشي. انظر «اللسان» (سأد).
(٤) هو نهر العاصي.
(٥) ثورا: أحد فروع نهر بردى.
(٦) في (ل): فيمهد.
(٧) في الأصل: فيهمد، والمثبت من (ل) و(م).

قال أبو يعلى: وفي عاشر المحرَّم نزلت أوائل عسكر نور الدين على أرض عذراء* من عمل دمشق وما والاها، وفي الغد قصد فريقٌ وافر منهم ناحية السَّهْم* والنَّيْرَب*؛ وكَمَنُوا عند الجبل لعسكر دمشق، فلما خرج[1] منها إليهم أسرع النَّذير إليهم فحذَّرهم وقد ظهر الكمين، فانهزموا إلى البلد. وفي
١/ ٨٠ الغد نزل نور الدين بعسكره على عيون فاسريا* بين عذراء ودُومة*، وامتدُّوا إلى تلك الجهات، ونزلوا من الغد في أراضي حجِّيرا* وراوية* في الخلق الكثير والجم الغفير، وانبثَّت أيدي المفسدين من العسكر الدمشقي والأوباش، من أهل العيث والفساد في زروع النَّاس فحصدوها، وفي الثمار فأفنوها، بلا مانع ولا دافع، وتحرَّك السعر وانقطعت السَّابلة، ووقع التأهُّب للحصار، ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد يقول: أنا ما أوثر إلَّا صلاحُ أمر المسلمين، وجهاد المشركين، وخلاص من في أيديهم من الأسارى، فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد، فذلك المراد. فلم يَعُدِ الجوابُ إليه بما يرضاه، فنزل في أرض مسجد القدم* وما والاه من الشَّرق والغرب. وبلغ منتهى الخيم إلى المسجد الجديد قبليٍّ البلد.

قلتُ: هو الذي يُسمَّى في زماننا بمقبرة المعتمد؛ بين مسجد القدم ومسجد[2] فلوس*.

قال: وهذا منزلٌ ما نزله أحدٌ من مقدَّمي العساكر فيما سلَف من السِّنين، وأهمل الزَّحف إلى البلد إشفاقاً من قتل النُّفوس. ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لإنجاد أهل دمشق، فضاقت صدورُ أهل الصَّلاح، وزادَ إنكارهم لمثل هذه الأحوال المنكرة، والمناوشات في كلِّ يوم

(١) في الأصل: خرجوا، ثم رسم فوقها حرف الجيم كأنه تصحيح لها، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م) مسجد طوس، وهو تحريف.

مُتَّصلة من غير مزاحفةٍ ولا محاربة. فلم يزل ذلك إلى ثالث عشر صفر، فرحل العسكر النُّوري من هذه المنزلة، ونزل في أراضي فـذايا* وحلقبلتين[1] والخامسين[2] المصاقبة للبلد، وما عُرف في قديم الزمان من أقدَمَ على الدنوِّ منها. ثم رحل في العشرين من صَفَر إلى ناحية دَاريًّا* لتواصل الإرجاف بقرب عساكر الإفرنـج من البلد لقوَّة عزمه على لقائهم. وصـار العسكـرُ النُّوري في عددٍ لا يُحصى، وفي كلِّ يوم يزداد بمـا يتواصـل من الجهات وطـوائفِ التركمان، ونور الدين مـع هذه الحال لا يأذن لأحدٍ من عسكره في التسرُّع إلى قتـال أحدٍ من المسلمين، وكـانوا ـ يعني أهـلَ البلد ـ يحملهم الجهلُ والغرور، على التسرُّع والظهور، ولا يعودون إلا خاسرين مفلولين[3]. وأقام على هذه الصُّورة، ثم رحل إلى ناحية الأَعْوَج* لقُرب عسكر الإفرنـج وعَزْمهم على قصده، واقتضى رأيه الرَّحيلَ إلى [ناحية][4] الزَّبَدَاني* استجراراً لهم، وأفرق من عسكره فريقاً يناهز أربعة آلافِ فارس مـع جماعةٍ من المقدَّمين ليكونوا في أعمال حَوْرَان مـع العـرب لقصد الإفـرنـج ولقائهم، وتـرقباً لوصولهم، وخروج العسكر الدمشقي إليهم، واجتماعهم بهم، ثم يقاطـع عليهم. واتفق أن عسكر الإفرنـج رحل[5] عقيب رحيله إلى الأعوج*، ونزل به في ثالث ربيـع الأوَّل، ودخل منهم خَلْقٌ كثير إلى البلد لقضاء حوائجهم،

---

(١) هكذا رسمت في النسخ الخطية، وقرأها كرد علي في «غوطة دمشق»: ٢٣٩ حلفبلتا نقلاً عن ابن القلانسي في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٣. وحلفبلتا: قرية داثرة كانت قرب قبر الست زينب جنوبي دمشق. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٩٠، و «غوطة دمشق»: ٢٢٨، ولم أجد في المراجـع التي بين يدي قرية برسم حلقبلتين، فلعلها هي.

(٢) قرأها كرد علي في «غوطة دمشق»: ٢٣٩ «الخامس»، وقرأها الخامسين في «مجلة المجمـع العلمي»: ١٦/ ١٦١.

(٣) في النسـخ الخطية «مغلولين»، والمثبت من «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣١٤.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٥) في «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣١٤ وصل.

وخرج مجير الـدين ومؤَيِّدُه في خـواصِّهما، وجمـاعةٌ وافـرة من الرَّعيـة، واجتمعا[1] بملكهم وخواصِّه، وما صادفا عنده شيئاً مما هجس في النُّفوس من كثرة ولا قوة، وتقرَّر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بُصْرى* لتملُّكه واستغلال أعماله. ثم رحل عسكر الإفرنـج إلى رأس الماء، ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي إليهم؛ لعجزهم واختلافهم، وقصَدَ من كان بحَوْران من العسكر النُّوري، ومن انضاف إليهم من العرب في خَلْقٍ كثير ناحية الإفرنـج للإيقاع بهم والنكاية فيهم، والتجأ عسكر الإفـرنـج إلى لَجَاة حـوران[2] للاعتصام بها، ونُمِيَ الخبرُ إلى نور الدين، فرحل ونزل على عين الجرِّ من البقاع، عائداً إلى دمشق، وطالباً قصد الفرنـج والعسكر الدمشقي. وكان الإفرنـج حين اجتمعوا مـع العسكر الدمشقي قد قصدوا بُصْرى* لمضايقتها ومحاربتها فلم يتهيأ ذلك لهم، وظهر إليهم سُرخاك[3] واليها في رجاله، وعادوا عنها خاسرين، وانكفأ عسكر الفرنـج إلى أعماله، وراسلوا مجير الدين ومؤَيِّدَه يلتمسون باقي القطيعة المبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق، وقالوا: لولا نحن نَدفعه ما رحل عنكم[4].

قال أبو يعلى: وفي هذه الأيام ورد الخبر بوصول الأسطول المِصْري إلى ثغور السَّاحل في غايةٍ من القُوَّة، وكثرة من العِدَّة والعُدَّة، وذُكِرَ أن عدَّة مراكبه سبعون مركباً حربية مشحنة بالرِّجال، ولم يخرج مثله في السنين الخالية، وقد أُنفق عليه فيما حُكي وقرُب ثلاث مئة ألف دينار. وقَرُبَ من يافا من ثغور الفرنـج، فقتلوا وأسروا وأحرقوا ما ظفروا به، واستولوا على عدَّةٍ وافرة من

(١) في الأصل: واجتمعوا، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) اللجاة: اسم للحرة السوداء التي بها. انظر «معجم البلدان»: ١٣/٥.

(٣) قتل سنة (٥٥٢هـ) انظر ص ٣٦٠ من هذا الجزء.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٢ ـ ٣١٤.

مراكب الرُّوم والإفرنـج، ثم قصدوا ثغر عكًّا، ففعلوا فيه مثل ذلك، وحصل في أيديهم عدَّة وافرة من المراكب الحربية الفرنجية، وقتلوا مـن حُجَّـاجهم وغيرهم خلقاً عظيماً، وقصدوا ثغر صيدا وبيروت وطرابلس، وفعلوا في الكُلِّ مثل ذلك، ووعد نور الدين بمسيره إلى ناحية الأسطول المذكور لإعانته على تدويـخ الفرنجيَّة، فاتَّفق اشتغاله بأمر دمشق وعوده إليها لمضايقتها، وحدَّث نفسه بملكها لعلمه بضعفها، وميل الأجناد والرَّعية إليه، وإشارتهم لولايته وعدله[١].

قال: وذُكر أن نور الدين أمر بعرض عسكره فبلـغ كمال ثلاثين ألفاً مقاتلةً، ثم رحل ونزل بالدلهميَّة من عمل البقاع، ثم نزل بأرض كَوْكَبا غربـي دارَيَّا*، ثم نزل بأرض داريـا إلى جسر الخشب، ونودي في البلد بخروج الأجناد والأحداث إليه، فلم يظهر منهم إلا اليسير ممن كان يخرج أولاً، ثم تقدَّم ونزل القطيعة[٢] وما والاها، ودنا منها بحيث قرب من البلد، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحفٍ ولا شدٍّ في محاربة، تحرُّجاً من قتل
٨١/١ المسلمين، وقال: لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً، وأنا أُرفِّهُهُم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين[٣].

قال: وورد الخبر إلى نور الدين بتسلُّم نائبه الأمير حَسَّان[٤] المَنْبِجي مدينة تل باشر* بالأمان في الخامس والعشرين من ربيـع الأول، وورد مـع

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٥.
(٢) قرية دائرة، كانت قرب ميدان الحصا، جنوبـي دمشق. انظر «غوطة دمشق»: ٢٣٥، ٢٤٢.
(٣) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣١٥.
(٤) في النسـخ الخطية: حسن، وهو تحريف، وسيرد الاسم على الصـواب ص ٣٠٨ من هذا الجزء، وفيه أن حسان تسلم تل باشر بعد فتـح نور الدين لدمشق، وهو أيضاً ما ذكره ابن العديم في «زبدة الحلب»: ٢/٣٠٣.

المبشرٌ جماعةً من أعيان تل باشر لتقرير الأحوال. وتردَّدت المراسلات في عقد الصُّلْح مع أهل دمشق على شروطٍ واقتراحات، وتردَّد فيها الفقيه بُرْهان الدين علي البَلْخي[1] والأمير أسد الدين شِيركُوه، وأخوه نجم الدين أيوب، وتقارب الأمر في ذلك إلى أن استقرت الحال على قَبول الشروط المقترحة، ووقعت الأيمان من الجهتين على ذلك والرِّضا به في عاشر ربيع الآخر. ثم رحل نور الدين من الغد طالباً ناحية بُصْرى* للنزول عليها، والتمس من دمشق ما تدعو إليه الحاجة من آلات الحرب؛ لأنَّ سُرْخاك[2] كان شاع خلافه وعصيانُه، ومال إلى الفرنج فاعتضدَ بهم، فأنكر نور الدين ذلك عليه، وأنهض إليه فريقاً وافراً من عسكره[3].

قلتُ: ولابن منير في نور الدين يذكر وقعة الجَوْلان وغيرها قصيدة، أوَّلها:

ما بَرَقَتْ بيضُكَ في غمامها ... إلا وغِيْثَ الدين لابتسامها

يقول فيها:

محمود المحمود جِدًّا وَجَداً ... أرخص جلد الأرض حكم عامها
مَلْكٌ أزالَ الرُّومَ عن صُلْبانها ... دفاعُهُ وكَبَّ من أصنامها
جَال على الجَوْلان أمس جَوْلةً ... صفَّرت الأُدْحيَّ[4] من نعامها[5]
والجون قد جرَّعها أُجونه ... وَفَلَّ مشحوذاً من اعتزامِها
وشدَّ في القِد له مليكها ... قودَ عَتُودِ القَوْط[6] في شِبَامها

(١) انظر ص ٢٩٢ من هذا الجزء.
(٢) الضبط من (ل).
(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٥ ــ ٣١٦.
(٤) الموضع الذي تبيض فيه النعامة. «اللسان» (دحا).
(٥) في (ل) ثعامها، وهو تصحيف.
(٦) في (ل) عنود القنوط، وهو تصحيف، والمثبت من الأصل و(م) والعتود: من أولاد المَعَز، والقوط: القطيع اليسير من الغنم. انظر اللسان» (عتد، قوط).

وفي الرُّها* صابَتْ له سحابةٌ صاروا جفاءً خَفَّ في التطامها
وهَبَّ في هاب* له عواصِفٌ تجهَّمتها الهِفُّ(١) من جَهامها
وكَفَرلاثا* لاث في جبينها لَثْمُ ظُبَى أتت على لثامها
وقائِعُ يرفضُّ تحت وَقْعها نَظْمُ الثُّريا في فضا مصامها
فساعةُ البيضِ إذا عدَّدها سوطُ عذابٍ صُبَّ في أيامها
وَاعجباً لِعُصب الشِّرْك التي لم يَعْصِبِ الرُّشْدُ على أحلامها
حكمةٌ استواؤها في غيِّها في نَقْضِ ما أُحْصِدَ(٢) من إبرامها
مُظَفَّرُ الرَّاياتِ والرَّأي إذا الـ ـحَرْبُ مَشَتْ تَعْثُر في خِطَامها
عَدَتْ به حَدَّ العَلاءِ هِمَمٌ هنَّ النُّجومُ أو نواصي هامها
جلَّت له الدُنيا حُلى(٣) زِبْرِجها عَفْواً فلم يلو(٤) على حُطامها
رأتْهُ وهو اللَّيثُ يَدْمي ظُفْرُهُ أنفَذَ في المُشْكِلِ من حُكَّامها
فتوَّجَتْه العِزَّ في مرتبةٍ تمنطقَ الجوزاءَ في نِظَامها
غضبانُ للإسلامِ لا يغيظه اسْـ تسلامُها للقَسْرِ(٥) من إسلامها
خطٌّ على مِثْلِ أبٍ طاعَتْ له الـ آفاقُ واسْتَشْرَفَ لاغتنامها
تصرُّفُ(٦) الدُّنيا على إيثاره(٧) عِراقَها مُسْتَرْدِفاً بشامِها
لو لم تكن دون مِنًى فاتَ المُنَى وأُقْعِدَ الفائزَ من قُوَّامها
وامتكَّ ماءَ مكَّةٍ رواضعٌ يقصُر باعُ الدَّهْرِ عن فِطَامها
وصارَ كالجمر الجِمَارُ وخلا من أهلِهِ الأشرف من مقامها
حَمَيْتَها لا زِلت تَرْقَى في حمًى من مُؤْلمِ الأرداء أو لِمَامها

(١) الهِفُّ: السحاب الرقيق لا ماء فيه. «اللسان» (هفف).
(٢) في (ل) ما أحسد، وهو تحريف، وأحصد: أي فُتل بإحكام. انظر «اللسان» (حصد).
(٣) في الأصل، و(ل) على، والمثبت من (م).
(٤) في الأصل: تلو، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) في (م) للنفس.
(٦) في (م) فصرف.
(٧) كذا في النسخ الخطية، ولعلها آثاره.

تُلبس بيتَ الله وَشْيَ يَمَنٍ ... يقرأ آياتِك من أعلامها
فإنَّما الدِّين رحىً قُطْبُتَها ... وبازلٌ مُكِّنْتَ من زِمامها
أَمَّتْ بنا الآمالُ منكَ كعبةً ... سلم اللَّيالي آية استسلامها
٨٢/١ وأرشفتنا بك ثَغْرَ نِعْمَةٍ ... لا نسألُ اللَّهَ سِوَى دَوَامِها

وقال أيضاً يمدحه:

بجدِّك أصحب الجدُّ الحَزُونُ ... وأطْلَعَ فَجْرَه الفَتْحُ المبينُ
وفي كَنَفَيْكَ سُولمت اللَّيالي ... وفارقَ طَبْعَهُ الزَّمَنُ الخَؤُونُ
ومنكَ تعلَّم القَطْعَ المواضي ... وقد زَبَنَتْ بها الحَرْبُ الزَّبونُ
وأنتَ السَّيْفُ لم تَمْسَسْهُ نارٌ ... ولا شَحَذَتْ مضارِبَه القُيُونُ[1]
ترَقْرقُ فوقَ صَفْحَتِهِ الأماني ... وتقطُرُ من غِرَاريه[2] المَنُونُ
وقبلَكَ ما سَمِعْتُ بذي فَقَارٍ ... يبيرُ الفَقْرَ كانَ ولا يكونُ
ولا غيثٍ سماوته سريرٌ ... ولا ليث وسادته عَرِينُ
ولا قَمَر له الهَيْجَاءُ هالٌ ... ولا تاج له الدُّنيا جبينُ
جُبِلْتَ ندًى وعَفْواً وانتقاماً ... وماءُ كلُّ مجبولٍ وطينُ
وملكك عمَّمَ الأقطار قَطْراً ... فأَمْرَعَتِ الأواعثُ والحُزُونُ
تَلألأُ تحتَهُ غُرَرُ اللَّيالي ... إذ[3] الأيامُ عند سِوَاك جُونُ
وأنتَ أقمتَ للجَدْوى مناراً ... يبينُ لشائميه ولا يبينُ
وعندكَ مَشْرَبُ النُّعْمَى زُلالٌ ... إذا عنفت[4] مشارِبَها الأُجونُ
تحكِّمُ في عَطَائك كُلَّ عاطٍ ... وقد شِيْدَتْ مِن المَنْعِ الحُصُونُ
لقد أشعَرْتَ دينَ الله عِزًّا ... تتيه له المَشَاعر والحجون

---

(١) مفردها القين: الحداد. «اللسان» (قين).
(٢) شفرتا السيف. «اللسان» (غرر).
(٣) في الأصل إذا، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) في (م) عيفت.

وقامَ بِنَصْرِهِ والنَّاسُ فوضى ... قويٌّ منك في الجُلّى أَمِينُ
رجعت ملوكهم وهم خيوفٌ[١] ... أسيرٌ في صفادِكَ أو كنين
فَبرْنَسْتَ البِرِنسَ لقاعِ خَسْفٍ ... وجُرِّعَ مُرَّ جوسك جوسلينُ
إذا ما الفِعْلُ عُلَّ تلاه حَذْفٌ ... يتاحُ لمنتهاهُ أو سكُونُ
غنوا حتى غزوتهم فغنى الـ ... ـصَّدَى في أرضهم خفَّ القطينُ
وَكَمْ عَبَرَ الصَّليبُ بهم صليباً ... فردّته قَناكَ وفيه لينُ
وما خَطَرْتَ بدار الشِّرْكِ إلا ... هوى النَّاقوسُ وارْتَفعَ الأَذِينُ
ملأْتَ عِظَامَ ساحِهُم عظاماً ... فكلُّ ملاً لقوكَ به جرين
بإنِّبَ* والقَنَا تجري نجيعاً ... كأنَّ عيونَ أكعُبِها عُيونُ
وبين جِرار صَرْخَد* ذُبْنَ حَرًّا ... له في كلِّ خَبْخَبَةٍ[٢] كمينُ
وفئن من العُرَيْمة* في عُرَام ... له في جُونها الأقصى وجونُ
وكم حَرَمٍ بحارِمَ* غادَرْتَهُ ... ودارته لمنسفها دَرِينُ
وفي شعراء قُورُس* صُغْنَ شِعْراً ... تُدارُ على غِرَارَيه اللُّحون
وقائعُ صِرْنَ في صنعاء* طيراً ... يوقعها على عَدنٍ عدونُ
نماكَ أبٌ إذا عُدَّ انتساباً ... تراقى مُصْعِداً والنَّاسُ دونُ
شِمالاً كان أملاكُ البَرَايا ... وقد قِيْسُوا به وهو اليمينُ
قضى وقضاؤه في الأرض حَتْمٌ[٣] ... وطاعةُ أهلها لبنيه دِيْنُ
لهذا اليوم تُنتخب القوافي ... ويذخر نفسه الدُّرُّ المَصُونُ
ونحنُ أحقُّ منك بأن نُهَنَّا ... إذا قَرَّتْ برؤيَتِك العُيونُ
سَلِمْتَ لنا فإنَّا كُلُّ صَعْبٍ ... نوازنه بأن تبقى يَهُونُ ٨٣/١
ترابطنا بِعَقْوَتِك التَّهاني ... وتغبِطُنا بدولتك القُرونُ

---

(١) كذا في (ل) و (م)، وفي الأصل مهملة، ولعلها خنوف، من خنف البعير: إذا لوى أنفه من الزمام. انظر «القاموس المحيط»: (خنف).
(٢) الخبخبة: شجر، ومنه: بقيع الخبخبة بالمدينة، لأنه كان منبتها. «القاموس المحيط»(خبخب).
(٣) في (ل) فصار قضاؤه في الأرض حتم (كذا).

فصـــل
في باقي حوادث هذه السَّنة

قال أبو يعلى: وورد الخبر من ناحية ديار مِصْر بأنَّ أهل دِمْياط حَدَثَ فيهم فَنَاءٌ ما عُهِدَ مثلُه في حديث ولا قديم، بحيث أُحصي المفقودُ منهم في سنة خمس وأربعين سبعة آلاف شخص، وفي سنة ستٍّ وأربعين مثلهم، فصار الجميع أربعةَ عشر ألفاً، وخلت دور كثيرة من أهلها، وبقيت مغلقةً لا ساكن فيها ولا طالب لها[١].

قال: وفي ثاني جُمادى الآخرة توفي القاضي السَّديد الخطيب أبو الحسين بن أبي الحديد[٢] خطيب دمشق، وكان خطيباً بليغاً صيِّتاً[٣] عفيفاً، ولم يكن له من يقوم مقامَه في منصبه سوى أبي الحسن الفَضْل؛ ولد ولده، وهو حدَث[٤] السِّن، فَنُصِبَ مكانَه وخَطَب وصلَّى بالناس، واستمرَّ الأمر له ومضى فيه[٥].

قال: ووردت الحكاياتُ بحدوثِ زلزلةٍ وافت الليلة الثالثة عشرة من جُمادى الآخرة اهتزَّت الأرضُ لها ثلاث رجفات في أعمال بُصرى* وحَوْران وما والاها من سائر الجهات، وهدَّمت عدةً وافرة من حيطان المنازل بِبُصْرى وغيرها، ثم سكنت بقُدْرة مَنْ حرَّكها سبحانه وتعالى[٦].

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٦.
(٢) في «مرآة الزمان» ٨/١٢٨ ـ ١٢٩ عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسن بن الحسين. وقال سبط ابن الجوزي في ترجمته: «وكانوا ــ بيت أبي حديد ــ يتوارثون نعل النبي ﷺ، وقد انقرضوا فلم يبق منهم أحد».
(٣) أي شديد الصوت. انظر «الصحاح» (صوت). وفي (م) صيناً.
(٤) كذا في الأصول الخطية، وفي «مرآة الزمان» ٨/ ١٢٩ نقلاً عن ابن القلانسي «حديث السن»، وهو الصحيح. قال الجوهري: ورجل حدث، أي شاب، فإن ذكرت السن قلت حديث السن. «الصحاح» (حدث).
(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٦. (٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧.

قال: وفي ثاني عشر رجب توجَّه مجيرُ الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصِّه، ووصل إليها، ودخل على نور الدين صاحبها فأكرمَهُ، وبالغ في الفعل الجميل في حقِّه وقرَّر معه تقريرات اقترحها عليه بعد أن بذل له الطاعةَ وحُسْنَ النِّيابة عنه في دمشق، ورجع إلى دمشق مسروراً في سادس شعبان[1].

قلتُ: وفي ذلك يقول القَيْسَراني:

وَفَتْ لك الدُّنيا بميعادِها ... باذِلَةً أفلاذَ أكبادِها
وَأَوْفَدَتْ غرَّ سلاطينها ... عليك في بُهْمة[2] أنجادِها
تبغي سناءً أَقْصَدَتْ قَصْدَه ... طائعةً طاعة[3] أجنادِها
خاضعةً تعتدُّ أعمارَها ... يوم التَّلاقي يوم ميلادِها
شامَتْ دمشقُ بك بَرْقَ العُلا ... فَأَرْسَلَتْ أَصْدَقَ رُوَّادِها
رأتْكَ نورَ الدين نارَ[4] الهُدَى ... قد أَشْرَقَ الأُفقُ بإيقادِها
فيمَّمَتْ منكَ حيا مُزْنَةٍ ... بيض الأيادي ورد ورَّادِها
فاسأَلْ مجيرَ الدين عن خُبْرِه ... أورَدَها محمودَ إيرادِها
تبوَّأَتْ من عِزِّها قُبَّةً ... سُمْرُ القَنَا أطنابُ أوتادِها
تنافسَ النَّاسُ على دَوْلَةٍ ... فُتَّ بها أعينَ حُسَّادِها
يغدُو المُعادِي كالمُوَالي لها ... فَوالِها إنْ شِئْتَ أو عادِها
يا ملكاً تُزهى بأسمائِه ... منابرُ تسمو بأَعْوَادِها
وتأخذُ الأسماعُ أوصافَهُ ... عن جُمَعِ الدُّنيا وأعيادِها

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧.
(٢) في (ل) نهم.
(٣) في (م) طائع.
(٤) في (م) نور.

كَمْ للمعالي فيك مِن رَغْبَةٍ   تَفْنَى الأماني دُونَ تَعْدَادِها
لك المساعي الغُرُّ يا جامعاً   مِنْ طَرَفَيْها بين أَضْدَادِها
تَغْشَى الوغى أفرسَ فُرْسانِها   وفي التُّقى أزْهَدُ زُهَّادِها
فأنتَ نُسْكاً غيثُ أَبْدَالها   وأنتَ فَتْكاً ليثُ آسادِها
في أُمَّةٍ أنتَ حِمَى دِينها   حيناً وحيناً شَمْسُ عُبَّادِها
يطوي بك العُمْرُ إلى غايةٍ   حَسْبُكَ تقوى الله مِن زادِها
هذا وَكم مِنْ سُنَّةٍ بِدْعةٍ   أعْدَمْتَها من بَعْدِ إيجادِها
مآثرٌ لو عَدِمَتْ راوياً   تكفَّل النَّظْمُ بإسنادِها

قال أبو يعلى: وفي أواخر شعبان أغار بعضُ التُّركمان على ظاهر بانياس*، فخرج إليهم واليها من الإفرنج في أصحابه، وظهر التُّركمان عليهم فقتلوا وأسروا. وفي رمضان قصد بعض الفرنج ناحيةً من البِقاع وأغاروا، فأنهضَ إليهم والي بَعْلَبَكّ رجَّالة[1]. فلحِقُوهم وقد أرسل الله عليهم من الثُّلوج المتداركة ما ثبَّطهم؛ فاستخْلَصوا منهم الغنيمة[2].

قلتُ: والي بعلبك هذا هو نجم الدين أيوب؛ والد صلاح الدين يوسف.

قال ابن أبي طي: في سنة ستٍّ وأربعين أغار التركمانُ على بانياس*،
١/ ٨٤ فخرج أهل بانياس من الفرنج، ليستنقذوا[3] ما أخذوه، فعاد التُّركمان عليهم فكسروهم ونهبوهم، واتَّصل ذلك بصاحب دمشق، فأغضَبَهُ فعل التركمان لِمَكان الهُدْنة المنعقدة بينه وبين الفرنج[4]، فأنفذ عسكراً إلى التركمان

(١) الضبط من (ل).
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٧ ـ ٣١٨.
(٣) في الأصل و (ل): استنقذوا، والمثبت من (م).
(٤) أبرمت الهدنة بين الصليبيين والأمير معين الدين أنر بعد فشل حصار دمشق في الحملة الصليبية الثانية. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٠٤.

استعاد منهم ما أخذوه، واتصل خبر التركمان بالفرنـج فجيَّشوا وخرجوا في جيشٍ عظيم، وشَنُّوا الغارة على البقاع والنَّاس غافلون، فامتلأت أيديهم من الغَنائم والأسارى، واتَّصل خبر غارة الفرنـج بنجم الدين أيوب وهو في بعلبكَّ وعنده جماعةٌ من عسكر دمشق وأصحابه، فقدَّم عليهم ولده شمس الدولة[1]، فخرج وأوقـع بالفرنـج، واتَّفـق أنـه كان قد أصاب الفرنـج ثَلْجٌ عظيم هلك به أكثرهم، وجاء شمس الدولة وهم متورِّطون، فَقَتَل فيهم مقْتَلةً عظيمة، وخلَّص من كان مـع الفرنـج من الأسارى.

قال: وفي هذه السَّنة فارق صلاحُ الدين والده، وصار إلى خدمة عَمِّه أسد الدين بحلب، فقدَّمه بين يدي نور الدين، فقبله وأقطعه إقطاعاً حسناً.

قال أبو يَعْلى: وفي ثاني شوال، وهو الثَّاني[2] من شباط، وافت قُبيل الظُّهْر زلزلةٌ اهتزَّت لها الأرض ثلاث هَزَّات هائلة، وتحرَّكت الدُّورُ والجُدران، ثم سكنت[3].

قلتُ: وفي هذه السنة، في غُرَّة جُمادى الأولى، كتب أحمد بنُ منير من حماة إلى نور الدين قصيدةً يهنِّئه بوصول الخِلَـع إليه من بغداد من عند الخليفة، على يد الشَّيـخ شرف الدين بـن أبـي عَصْـرون، ويـصف الفرس الأصفر، الأسود القوائم والمعارف، والسَّيْف العربـي، أوَّلها:

لِعَـلائـك التَّـأييـدُ والتـأميـلُ ... ولمُلكـك التـأبيـد والتَّكْميـلُ
أبـداً تَهُمُّ وتـقـتـفي فـتنـالُ مـا ... عَـزَّ الـوَرَى إدراكُـه وتُـنـيـلُ
إمـا كتـابٌ يستقـلُّ بـه الكتـا ... ئبُ أو رسـولٌ للنَّجـاحِ رَسِيْـلُ

(١) هو تورانشاه، وهو أسن من أخيه صلاح الدين، وسترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، توفي في الإسكندرية سنة (٥٧٦ هـ) ثم نقل إلى دمشق، ودفن في المدرسة الشامية. انظر ٣/ ٦٤ ــ ٦٥ من هذا الكتاب.

(٢) في (م) الثالث، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.

لـك من أبي سعد[1] زعيم سعـادة ... فَمَنْ تفـاءلَ فيـكَ ليس يفيـلُ
نِعْمَ الـحُسَـامُ جَـلَوْتَـه وبلوتَـهُ ... يُـرْضيـك حين يصـلُّ ثم يصـولُ
سَهْمٌ تعـوَّد في الِكنـانـة عـوده ... ويقصِّـرُ المـطلوب وهـو طـويـلُ
سددته[2] فمضى وقـرطسَ صادراً ... كـالنَّجْمِ لا وَهْـلٌ وَلاَ تهـليـلُ
فثنى القلوبَ إلى ولائـك حُـوَّلٌ ... منـه بما يجني رضـاك كفيـلُ
وأقـامَ يَنْشُـرُ في العِراقِ ودِجْلَةٍ ... آيـاً تـأوَّلـهـا لمـصـر الـنِّيـلُ
وكسـاك مِنْ رأيِ الخليفـة جنَّـة ... لا النقص[3] يُوهيها[4] ولا التَّقليلُ
كنتَ الشَّريفَ أفضتُ في تشريفه ... مـاءً عـليـه من سَنـاكَ دليـلُ
ألِيُـوسف لمـا طلعت مُقـرطقـاً ... طَمَثَتْ حَصَـانٌ واستخَـفَّ أبيـلُ
أم عن سليمـان يفـرِّج ضـاحكـاً ... سُجف الـرِّواقِ وضعضـع الكيُّولُ
وممـلَّكٍ في السَّرج أمْ ملكٍ سطت ... لـبهـائـه عـقـلٌ وتـاه عـقـولُ
وَبَرَزْتَ في لُبْسِ الخِلافة كالهـلا ... لِ جلاه في حُلَلِ الدُّجى التَّهْليلُ
خِلَـعٌ خَلعْن على القلوب مَسَـرَّةً ... سَدِكاً بهـا[5] التعـظيمُ والتَّبْجيـلُ
نثرت نُضَـاراً جـامـداً أعـلامها ... وتـكـادُ تجـري رِقَّـةً وتـسيـلُ
لقَضَى لها أنْ لاَ عديـلَ لِفَخْرِها ... رَبُّ بَـرَاك فما[6] تـلاكَ عَـدِيْـلُ
أنتَ المهنـد مُنذُ سلَّتْـهُ العُـلا ... لم يخـلُ مِن مُهجٍ عليه تسيـلُ
مُـذْ هـزَّ قـائمَـهُ الإمـامُ تـألَّقت ... غـررٌ شُـدخن لمُلكـه وحجـولُ
والَـيْت دولـتـه فتِهـتَ بِـدَوْلَـةٍ ... مُـتكـلِّل بصـعيـدِهـا الإكـليـلُ

(١) هي كنية ابن أبي عصرون. انظر «وفيات الأعيان» ٣/ ٥٣.
(٢) في (ل) صدرته.
(٣) في (م) النقض.
(٤) في (ل) و(م) يوهنها.
(٥) في الأصل: سدكانها، وفي (ل) سدكاتها، والمثبت من (م). وسدكاً بها أي مولع بها. انظر «اللسان» (سدك).
(٦) في (م) فلا.

وَنَصــرْتَــهُ فحَــلاك أبيضَ دُوْنَــه ... صَــرْف الزَّمـان إذا استكلَّ كليـلُ
قُــلِّدتَــه وَكِــلاكُـمـا مُـتَـلَهْـذِمٌ ... عَضْبٌ فَـزانَ المغمـد المَسْلُولُ
وحبا رِكابُك حين قر بِـزحفه الْـ ... ـقرآنُ واستخْـذَى لـهُ الإنجيلُ
بأَقـبَّ أصفر مُشْرِفَ الهادي له الـ ... ـتَّحْجيـل لـونٌ واللّمـا تحجيـلُ
قَسَمَ الدُّجى بين الغدائرِ والشَّوى ... واعْتـامَ رَوْنَقَـه الأصيـلَ أصيـلُ
وتقـاسمَ الـرَّأُوه تـحتـك أنَّـه ... حيزوم[1] صـرَّف عِـطْفَه جبـريـلُ ١/٨٥
يختـال في حبـك الْحُليِّ مخيَّلاً ... أنَّ الـشَّـوامخ للبـدورِ خيـولُ
مُرْخَى الذَّوائبِ كـالعروسِ يـزينُه ... طَـرْفٌ بـأطرافِ الـرِّماحِ كحيـلُ
تتصـاعق النعـرات تحتَ لَبَـانِـه ... إن شَبَّ زفْـرٌ وَاستجشَّ صَهِيْـلُ
لم يَحْبُ مِثْلَكَ مِثْلَه مُهْـدٍ ولم ... يُشْـلَلْ على بَـرْقٍ سـواه شليـلُ

وأنشده في هذه السنة أيضاً بحمص قصيدةً، منها:

الـدَّهْـرُ أنتَ ودارُك الـدُّنيا وَمَن ... في العَـدِّ بعدُ مؤمِّـل وحَسُـودُ
وأزِمَّـةُ الأقدار طَـوْعُ يديـك والْـ ... أيّـامُ جُـنْـدُك والأنـامُ عَـبـيـدُ
فُتَّ الوَرى وعَقَدْتَ ناصيةَ المدى ... بِمُـذَمَّرٍ[2] الشِّعْرى فأين تـريد؟!
تـالٍ أباك فهـل سليمـان يـرى ... في الـدَّست مَـهَّـدَ مُلْكَـه داودُ
جَلَّى وسُدْتَ مصلِّياً لا يُرفـع الـ ... ـمَعْـدُومُ ما لم يَشْفَـعِ الموجودُ
لَمْ يُختـرم جدٌّ نمـاك ولا أَبٌ ... إن النَّبـاهَـةَ في الخليفِ خلودُ
شَمَخَتْ منارُك في اليَفَاع وأُمُّها ... من لم يَسُدْ فَأَرَتْه كيفَ يسودُ
وهَبَبْتَ لـلإسلامِ وهـو مُصَوِّحٌ ... فـاهْتَـزَّ أهضـابٌ وَرَقَّ نـجـودُ
وفثـأت جمـرةَ صـالميه بِصَيْلَمٍ ... يَضَـع الأَجِنَّـةَ يومُهـا المَشْهُـودُ
خَـطَمْتَهُمْ فوقَ الخطيمِ* لوافحٌ ... نـفس الأريـن لـوأرهـنّ بـرودُ
ورُمُوا على الجَوْلان منك بِجَوْلةٍ ... تـوئيدهـا نسر الضَّـلال وئيدُ

---

(١) حيزوم: فرس جبريل عليه السلام. «القاموس المحيط» (حزم).
(٢) مذمر: القفا. «القاموس المحيط» (ذمر).

وَلَحَا عِظَامَهُمُ بِعِرْقَةَ* عارقٌ ... ما زلتَ تمخض جوَّه فتجودُ
وشللْت بالرُّوج(١) السُّروج وفوقها ... زَرْعٌ تحصِّدُه(٢) الرِّماحُ حَصِيْدُ
وعلى عَزازَ* عَنَوْا وثَلَّ عُروشَهُمْ ... ملكٌ مقيَّدُ مَنْ عَصَاه مقيدُ
وَبِتَلِّ باشِرَ* باشُروك فعافسوا ... أُهُبَ الأساود حَشْوهنّ أُسودُ
أَوْدَوْا كما أَوْدى بِعادٍ غَيُّها ... وعقوا كما اسْتَغْوَى الفَصِيْلَ ثَمُودُ
إنْ آلموا عقراً فإنك صالحٌ ... أو آلموا غَدْراً فإنَّك هُودُ
وزعْتَهُمْ فبكل مَهْبِطِ تَلْعَةٍ(٣) ... خدٌّ به من وازعٍ أخدُودُ
وَعَصَبْتَهُمْ بعصائبٍ مِلْءِ الملا ... شَتَّى وإنْ خلَّ البسالة عُودُ
آثارها محمودةٌ وإثارها ... مَشْهُودَةٌ(٤) وَشِعَارُها محمودُ
لَبِستْ من اسمك في الكَرِيهة ملبساً(٥) ... يَبْلَى جديدُ الدَّهْرِ وهو جديدُ
وقصيرة الآجال طَوَّلَ باعها ... بوعٌ يسامي هامَها وقُدودُ
مطرورةُ الأسلاب مُذْ هَزَّعْتَها ... تاه الهُدَى وتبختَرَ التَّوحيدُ
أَشْرَعْتَها فعلى شريعةِ أحمدٍ ... مِما جَنَتْهُ بوارقٌ وعُقودُ
ولكم نَثَرْتَ نظيمها في مَوْقفٍ ... تغريد صالي حَرِّه التَّغريدُ
يجلو سناك ظلامَهُ ويحُلُّ ما ... عَقَدَتْ قناهُ لواؤك المعقودُ
في هبوةٍ زحم السماء رواقُها ... والأرض تَرْجُف(٦) تحتَهُ وتَميدُ
ضَرَبَتْ مُخَيِّمَهَا فكان كُماتُها ... أوتادَهُ القُصوى وأنْتَ عَمودُ
في كلِّ يومٍ من فتوحك صادحٌ ... هزِجُ الغِناء وطائرٌ غِرِّيدُ
تهدي لغانةِ كأسِهِ فَرْغانةٌ ... وتسيغ زبدة ما شداه زبيدُ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢١٥ من هذا الجزء.
(٢) في (ل) و(م) لمحصده.
(٣) في (م) قلعة.
(٤) في (م) مشهورة.
(٥) في (م) ميسماً، وفي (ل) مبسماً.
(٦) في الأصل: تزحف، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

فغِرار سَيْفِك لـلأحـابشِ محبسٌ | ومُثـار نَقعِـك للصَّعيـد صَعِيـدُ
لا تَعْـدَمَــنْ هــذا المقلَّـدَ أمــة | مُلقــىً إليــه لــرعيهــا الإقليــدُ ٨٦/١
الْـورد قَــرٌّ والـمســارحُ رَحْبَــةٌ | والـرِّفْـد مـدٌّ والـظِّلال مـديـدُ
والعيش أبلـجُ مشرق القَسَماتِ والْـ | أشْجـار غــرٌّ والأصـائِـل غِيْـدُ
والمُلْك ممـدودُ الرِّواق منـوَّرُ الْـ | آفـاق وضَّـاءُ الـمُنَى محسـودُ
في دولـةٍ مُـذْ هَبَّ نَشْــرُ رَبيعها | نُشِــر الـرُّفـاتُ وأثمرَ الجُلْمُـودُ
مـحـمـودَةُ الآثـارِ مـحـمـوديَّـة | كـلُّ المـواسمِ عنـدَهـا تَعييـدُ

وقال يهنئه بليلة الميلاد، ويصف النَّازلين في الجبل من قلعة حلب قصيدةً منها:

هُنيت زورَيْ ذَرَاك صـومك والْـ | ـميلاد جاءا والسَّعْدَ(١) في نَسَقِ
فـذاك بَـخَّلْتَ فيـه كـل نـدٍ | وذاك أخـملتَ فيـه كُـلَّ تـقي
وَجْهٌ كصَدْرِ الحُسَامِ تَصْبُو له الْـ | ـعَيْنُ وينقـدُّ الـقلب مِنْ فَـرَقِ
ومُـقْـلَةٌ شَـوْقُـهـا لـيَـقْـظَتِـهـا | شَـوْقُ لـحُسَّـادِهـا إلـى الأَرَقِ
ومُــرْتَقًى تَـعْجَـبُ الـسَّـمـاءُ لــه | إذا استـطالَتْ إليـه: كيف رَقِي؟
تَــوَّجْتَ شهبـاءَهـا بمُشْـرِفَـةٍ | مُشـرِفـةٍ شُهْبُهـا على الأُفُـقِ
جــوٌّ تهـاوى(٢) مِنـه كـواكبُـه | طَـرْفَـةَ طَـرْفٍ رُجـومَ مُستَـرِقِ
فَــوارسٌ تُـذْهِـلُ الفـوارسَ أن | تهـافتت من أرشـاقهـا الـرشق
من راكضٍ في الهواء أهوى من الْـ | ـفـتح مجـرٍّ مـن تحتـه لبق
شـاوٍ من الحضر لـو تحاولَـهُ الْـ | ـخُضـر لـزلَّتْ عن موطىءٍ زَلَقِ
يقـول مَن دينه الفـروسـة: مـا | لاقـك إلا ضَـرْبٌ مــن الأَلَـقِ
بَـدائعٌ تَغْبِطُ السَّـمـاءُ بهـا الْـ | أرْضَ وتُذكي الإشفاق في الشَّفَقِ

---

(١) في الأصل: والعيد، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في الأصل و(ل) تهادى، والمثبت من (م).

فـي دولـةٍ جَـمَّـعَـتْ إيـالـتـهـا ... من بـدَّدَ الحُسْنَ كـل مُفْتـرق
تُـزَرُّ أطـواقُـهـا عـلـى مـلِكٍ ... مـكـتـفـلٍ رِزْقَ كُـلِّ مُـرْتَـزِقِ
محمـودُ اسمـاً وَمِيسمـاً ونـدًى ... واعـتـصـب الـدَّمَّ كـل مـرْتَفِـقِ
طَـبَّقَ طـوفـانُـه فـلسـتَ تـرى ... إلاّ مـغيثـاً مشـفٍ عـلـى غَـرَقِ
يـا بحرُ لَا خُلُق تـدَّعي شَبَهاً ... فـاتَ المدى مـا حَويتَ من خُلُقِ
مـلـكـك هـذا الـذي تـمـلأه ... صِبَـاه يجـري والـدَّهْـرُ في طَلَق

ثم دخلت سنة سبع وأربعين [وخمس مئة][1]

قال أبو يعلى: وورد الخبر في المحرَّم بنزول نور الدين على حِصْن أَنْطَرْسُوس* في عسكره، وافتتاحه وقتل من كان فيه من الإفرنج، وطلب الباقون الأمانَ على النُّفوس، فأُجيبوا إلى ذلك، ورتَّب فيه الحَفَظَة، وعاد عنـه، وملَك عِدَّةً من الحُصُـون بـالسَّبْي والسَّيف والإخـراب والإحـراق والأمان[2].

قال: وورد أيضاً ظَفَرُ رجال عَسْقلان بالإفرنـج المجاورين لهم بغَزَّة، بحيث هلك منهم العددُ الكثير، وانهزمَ الباقون[3].

قلتُ: وقرأت في ديوان ابنِ منير يمدح نور الدين ويهنِّئُه بفتح أَنْطَرَسُوس* ويحمور* وعوده عنهما قصيدةً، منها:

أبـداً تُبـاشِـرُ وَجْهَ غَـزْوِك ضاحكـاً ... وتـؤوبُ منـه مُـؤَيَّـداً منصـوراً
تُـدْني لك الأمـلَ البعيدَ سَـوَاهِمُ ... مُـحِقَـتْ أَهِـلَّتُـهـا وَكُـنَّ بُـدُورا
مثـل السِّهام لـو ابتغى ذو أربـعٍ ... في الجـوِّ مُـطَّلَبـاً لكُنَّ طيـورا

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٨.
(٣) المصدر السابق.

نَبَذَتْ علائقها بحمصَ وأعلقت[1] … سِحْراً بمعرق عرقه الأظْفورا
وعَدوْن صافيثاء لاح شوارها … قد أتْلَعَتْ عُنقاً إليك مُشِيرا
القَلْبُ أنتَ فإن تعامى عن هُدًى … عُضْوٌ أهَابَ بِه فعاد بَصِيرا
عَرَفُوا مكانَك والظَّهيرة بينهم … يَفْري بياضُ أديمها دَيْجُورا
أين الذُّبالُ من الغزالةِ أَشْرَقتْ … وجهاً وطَبَّقَتِ البسيطةَ نُورا ١/٨٧
غضبانُ أَقْسَمَ لا يَشيم حُسامه … والأرضُ تحمل في الكُفور كَفُورا
غَسَلَ العواصِمَ أمسِ من أدرانهم … واليوم رَدَّ به السَّواحل بُورا
لم يُبْقِ بين الحَوْلَتَين وآمِدٍ* … وتراً لِمُضْطغنٍ ولاَ مَوْتُورا
أخلَى ديارَ الشِّرْكِ من أوثانها … حتى غدا ثالوثُهن نَكِيرا[2]
رَفَعَ القُصورَ على نَضائدِ هامِهِم … من بَعد ما جَعَلَ القُصورَ قُبورا
بشواجِبِ الألْياط تقطو في الظّلا … مِ قطاً وتهوي في الصَّباح نُسُورا
غادَرْتَ أَنْطَرْسُوس* كالطِّرْسِ امَّحى … رَسْماً وحمَّر دِرْعُها يحمورا*
وهي الزِّناد لفتنةٍ كانت على الْـ … إسلامِ أحكم كسرةٍ إكسيرا
هَتَمَتْ طرابلساً فأصبح ثَغْرُها الْـ … بَسَّامُ من عِزِّ الثُّغور ثَغِيرا
إقليدُها كانتْ وقد أنطَيْتَه[3] … واسأل به مِمَّنْ دهَتْه خَبيرا
إن الأُلى أمِنوا وقاعك بعدها … غُرُّوا وقد ركبوا الأغرّ غرورا
ألقِ العصا فيمن أطاع ومَنْ عصى … منهم ودمر أرْضَهُمْ تَدْمِيرا
لَا يُلهِهِم أنْ قد مَنَنْتَ وشُنَّها … شعواء تُصْلي الكافرينَ سَعِيرا
باكِرْ بركز قناً تُنَسِّفُ أُسَّها … والخيلَ صَوِّرْ كي تُزيرك صُورا
وتُريك لامعةَ التَّريك[4] بساحةِ الْـ … أقْصى مُطَهِّرةً لها تَطْهيرا
أوَلَسْتَ من قومٍ إذا هزُّوا القَنَا … فتلوا معاصمهم لها تَسْويرا

---

(١) في (م) وأغلقت.
(٣) أنطى: لغة في أعطى. انظر «اللسان» (نطا).
(٢) وهذا البيت وما بعده خلا البيت الأخير ساقط من (م).
(٤) بيضة الحديد للرأس. انظر «اللسان» (ترك).

وإذا هُم خَطَبوا اليَراعَ عَزيزةً ساقوا الشِّفار على المهار مهورا
ألقى قسيماهم إليك أزِمَّةَ الْـ ـمُلك المطل على السُّها تأثيرا
ضَحِكَتْ لك الأيامُ واكتأب العِدَى قلقاً فجئتَ مُبَشِّراً ونَذِيرا
لا مُلك إلا مُلكُ محمود الذي تَخِذَ الكِتابَ مُظاهِراً ووزيرا
تمشي وراءَ حُدُودِه أحكامُه تأتمُّهنَّ فَيُحْكِمُ التَّقْديرا
يَقْظانُ يَنْشر عَدْلَه في دولةٍ جاءت لِمَطْويِّ السَّماحِ نُشورا
خَلَفَ الخلائفَ قائماً عنهم بما عَيُّوا به ألْوى ألدَّ غيُورا
البرَّ والمعصومَ والمهديَّ والـ ـمأمونَ والسَّفَّاحَ والمنصورا
نُشِروا به فعهودُهُمْ وعهادهم يَمْتَحْنَ تحتَ لوائِهِ مَنْشُورا

وأنشده بحلب في هذه السَّنة قصيدةً، أَوَّلُها:

المجدُ ما ادَّرَعَتْ ثَراكَ هضابُه وَتَثَقَّفَتْكَ شعوبُه وشِعَابُهُ
مَلْكٌ تكنَّفَ دينَ أحمدَ كِنَّه فأضاءَ نيِّرُهُ وصابَ شهابُه
فالعَدْلُ حيثُ تصرَّفَتْ أحكامُه والأمنُ حيثُ تَصَرَّمَتْ أَسْرَابُهُ
متهلِّلٌ والموتُ في نَبَراتِهِ يُرْجَى ويُرْهَبُ خوفُه وعقابُه
عَقَدَ اللِّواءَ وسار يَقْدُمُهُ وما حلَّتْ عقودَ تَميمِها[(١)] أترابُهُ
أَسدٌ فرائِسُهُ الفوارس والظُّبَى أظفارُه والسَّمْهَرِيَّةُ غابُهُ
طَبَعَ الحديدَ فكانَ منه جَنانُه وسِنَانُه وإهابُه وثِيابُهُ
وَيَهَشُّ إنْ كَبَتِ الوجوهَ كأنَّما أعداؤه تحتَ الوغى أَحْبَابُهُ
نُشِرَتْ بمحمودٍ شريعةُ أحمدٍ وأرى الصَّحابةَ ما احتذاه صِحَابُهُ
١/٨٨ ما غاب أَصْلَعُ هاشم[(٢)] فيها ولا الـ ـفاروقُ باء[(٣)] بخطبه خَطَّابُهُ

---

(١) مفردها تميمة، وهي عوذة تعلق على الإنسان. انظر «اللسان» (تمم).
(٢) هو الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، فقد ورد في صفته «أصلع ليس في رأسه شعر إلا من خلفه». انظر «الرياض النضرة» للمحب الطبري: ٢/١٥٦.
(٣) في (م) ناء.

أبنـاءُ قَيلة قـائمـون بِنَصْـرِه | إنْ أجلبت من قـاسطٍ أحـزابُـهُ
صَبَحـوا مُحلَّقـة البِـرْنِس بحـالقٍ | حرش الضباب من القلوب ضبابُهُ
مـا زالَ يَغْلِبُ من بَغـاه ضـلالُـهُ | حتى أُتيـح من الهُـدَى غـلاَّبُـهُ
مُلْقىً بوحش[1] الأصرمين تَـزيَّلَتْ | آرابُـهُ[2] وتـزايـلَتْ آلابُـه
دون الأُرنط[3] سخت به نجداتُـه | ونـجـاده وقِـرابـه وقُـرابُـهُ
سَلَبَتْـهُ دُرَّةَ تـاجـه يَـدُ ضَيْغَمٍ | لم تنْجـه من بَأْسِـهِ أَسـلابُـهُ
وأتته تجلب جُـوسلين* جنـائبٌ | هَبَّتْ فَقَـلَّ إلى القِتـال هبـابـه
أَسَـرَتْـهُ لا مَنَعَـتْ سُـرَاه وغَـرَّه | بـالقـاعِ إنْ رامَ الـورودَ سَـرَابُـهُ
يمشي فَتُسْمِعُـهُ قعـاقعُ قَيْـدِه | هَـزَجاً تقيءُ دمـاً لـه أنـدابُـهُ
لا تـلّ بـاشِـرِه* ولا كيسـونـه[4] | صَـدَّتْ منًى[5] عنه ولا عنتابُـه*
ضَمِنَتْ شقـاوتـه سعـادَةُ صـافحٍ | غَـطَّى على إعنـاتـه إعتـابـه
مـا زال يَغْدِرُ ثم يغـدر قـادراً | حتّى أتـاه بجـامحٍ أصحـابُـهُ
قَصْرُ الأماني أن يُمَلِّىء عصرك الـ | إسلامُ مضروبـاً عليه[6] حِجَابُـه
مَجْـرٌ يجـرُّ إلى الغنـائمِ قُبُّـهُ | وحمىً يُـزارُ على الفتوحِ قِبَابُـه

وأنشده بحلب أيضاً في شوال من هذه السنة قصيدةً، منها[7]:

لـقـد أوطـأتَ ديـنَ الله عِـزًّا | أديمُ الـشِّـعـريَـيْـنِ لـه رَغـامُ
دعـاك وقـد تنـاوَشَتِ الـرَّزايـا | لـه أُهبـاً يـوزعهـا الـعُـذَامُ[8]

---

(١) كذا في النسخ الخطية، ولعل الصواب «لوحش».
(٢) مفردها الإرب: وهو العضو. «اللسان» (أرب).
(٣) هو نهر العاصي.
(٤) كذا في النسخ الخطية، ولعلها كيسوم. انظرها في كشاف الأماكن.
(٥) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: المنا: القدر، والله أعلم».
(٦) في (م) عليك.
(٧) في الأصل: أولها، والمثبت من (ل) و(م).
(٨) في الأصل و(ل) يودّعها، والمثبت من (م). ولعل الصواب: توزعها العُرَامُ.

فَقُمْتَ بنصره والنَّاسُ فوضى | فئام[1] ذمَّ ما اقترفت فئامُ
جَذَبْتَ بضبعه من قَعْر يَمٍّ | له من فوق مَقْسَمِهِ التِطَامُ
صببتَ على الصَّليب صليبَ بأسٍ | قواه تحت كَلْكَلِهِ حُطَامُ
وَمِلْتَ على معاقِلهم فَخرَّت | وِلاءً مِثْلَ ما انتقضَ النِّظَامُ
بصَرْخَد* والخطيم* وفي عَزَاز* | وقائِع هَزَّ مَشْهَدَها الأنامُ
ولو لم تَعْتَرِقْ وتشم لأمسى | وأصبح لا عِرَاق ولا شآمُ[2]
ويوم بالعُرَيْمة* كان حَتْفاً | على الإشراك أمْقَرَهُ العُرَامُ
لقُوك كأنَّ ما سلُّوه شيحُ | وما اعتقلوه من خَوَرٍ ثُمامُ
وهابَ* وقُورُسٍ* وبكَفْرلاثا* | ذممتَ وأنتَ للجُلَّى ذِمامُ
صَدَمْتَهُمُ بأرعنَ مُرجحِنّ | كأنَّ مَطَارَ أنْسُره غَمَامُ
وأيَّةُ لَيْلَةٍ لم تُلْفَ فيها | لهم طَيْفاً يَروعُ به مَنَامُ
بنورِ الدين أُنشر كلُّ عَدْلٍ | تعفَّتْ في الثَّرَى منه الرِّمامُ
وعاد الحقُّ بعد كلال حَدٍّ | حمىً من أن تُراعَ له سَوام
تألَّقَ عَدْلُه وذَكَتْ سُطَاه | فَلَا حَيْفٌ يُخافُ ولا اهْتِضَامُ
بقاؤك خيرُ ما يرجوه راجٍ | وأنْقَعُ ما يُبَلُّ به أُوام

---

(١) في (م) قيام، وهو تحريف.
(٢) هذا البيت في (ل) و(م) يأتي بعد «جذبت بضبعه...».

فصـــل

وفي هذه السَّنة ولد لنور الدين بحمص ابنٌ سماه أحمد، وهنَّأه به ابن مُنير في بعض قصائده، ثم توفِّي بدمشق، وقبره خَلْفَ قبر معاوية رضي الله عنه داخل[1] الحظيرة في مقابر الباب الصَّغير*. وقصيدة ابن منير قد تقدَّم بعضُها في أوَّل الكتاب[2]، ومنها في ذكر المولود:

تـوالـتِ الأعـيـادُ لا زلْـتَ لـهـا ... تُبلي ديـابيج[3] البقـاء وتُجِـدْ

الفِـطْرُ والميلادُ والمـولـود لـو ... قـابلَه بَـدْرُ التَّـمـامِ لَـسَجَـدْ ١/٨٩

ثـلاثـةٌ تُـعْـرِبُ عـن ثـلاثـةٍ ... لمثلها يذخر[4] حمداً من حَمِـدْ

فَـتْـحٌ مبـيـنٌ وطـلابٌ مُـدْرك ... ودولـة مـا تـنـتـهـي إلـى أَمَـدْ

وله من أخرى:

وجئتَ بـأحمـدٍ فمـلأتَ حَمْـداً ... مـوارِدَ كـان معـدنُهـا عِـذابـا

تهلَّل وَجْـهُ مُلْكِـكَ يَـوْمَ أَهْـدَتْ ... قَـوابِلُه لـكَ المَلِكَ اللُّبـابـا[5]

شَبِيْهُـكَ لا يُغـادرُ منـك شيئـاً ... سَنـاً وحَيـاً وبَـذْلاً واستـلابـا

قـسيـمُ الحَـمْـدِ إلا أَن حَـرْفـاً ... من اسمِـكَ زادَ للمعنى منـابـا

ألَا لله يـومٌ فُـرَّ عـنـه ... ورَكْبٌ نَصَّ بـالبُشْـرى الـرِّكـابـا

قال أبو يعلى: في أواخر صفر توجَّه مجير الدين في العسكر ومعه مؤيد الدين الوزير إلى ناحية حصن بُصْرى*، ونزل عليه محاصراً لِسُرْخاك[6] واليه لمخالفته وجَوْرِه، وأراد مجير الدين المصير إلى حصن صَرْخَد*

---

(١) في الأصل و(ل): إذا دخل، والمثبت من (م).

(٢) انظر ص (٨٤ ــ ٨٥) من هذا الجزء.

(٣) مفردها: ديباج، وتجمع على دبابيج أيضاً. انظر «القاموس المحيط» (دبج).

(٤) في الأصل يذكر، وفي (ل) نذكر، والمثبت من (م).

(٥) اللباب، بالضم: الخالص من كل شيء. «اللسان» (لبب).

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٦٦ من هذا الجزء.

لمشاهدته، فاستأذن مجاهدَ الدين واليه في ذلك، فقال له: هذا المكان بحكمك، وأنا فيه والٍ من قِبَلِك. وأنفذ إلى ولده سيف الدين محمد النَّائب فيه بإعداد ما يحتاج إليه، وتلقِّي مجير الدين بما يجب له. فخرج إليه في أصحابه ومعه المفاتيح، وأخلى الحِصْنَ من الرِّجال، ودخل إليه في خواصِّه، وَسُرَّ بذلك، وتعجَّب من فعل مجاهد الدين، وشكَرهُ على ذلك، وعاد إلى مُخيَّمه على بُصرى* وحاربها عِدَّة أيام إلى أن استقرَّ الصُّلْح والدخول فيما أراد، وعاد إلى دمشق[1].

قال: وفي شوَّال تُوفي الأمير سعد الدولة أبو عبد الله محمد بن المحسن بن الملحي، ودفن في مقابر الكهف[2]، وكان فيه أدبٌ وافر وكتابة حسنةٌ ونَظْم جيد. وتقدَّم والده في حلب في التدبير والسِّياسة وعَرْض الأجناد.

قال ابن الأثير: وفيها توفي السُّلْطان مسعود بن محمد بن مَلِكْشاه بهمَذَان، وعهد إلى ابن أخيه مَلِكْشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل. وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه، ولم يمهله غير قليل حتى قبضَ عليه[3]، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود[4]، وهو بخُوزستان، يستدعيه إليه ليخطب له بالسَّلطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو وجهه من منازع من السَّلْجُوقية، وحينئذٍ يطلب السَّلْطنة لنفسه. فلما كاتب محمداً أجابه إلى الحضور عنده، وسار إليه وهو بهَمَذان، واجتمع

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٩.

(٢) مقابر الكهف: في الصالحية من دمشق، فوق المدرسة الجهاركسية، والكهف يقع غربي مغارة الدم. انظر «القلائد الجوهرية»: ١/٥٥.

(٣) ثم هرب من سجنه واستقر بخوزستان ملكاً، وتوفي سنة (٥٥٥هـ). انظر «دولة آل سلجوق»: ٢١١، و«الكامل»: ١١/٢٦٣.

(٤) توفي سنة (٥٥٤هـ). انظر «الكامل»: ١١/٢٥٠ ــ ٢٥١.

به، وخدمه[1] خاصّبك خدمةً عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد، وألقى رأسه إلى أصحابه، فتفرَّقوا، واستقرَّ محمد وثبتت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها. وكان قتل خاصبك سنة ثمانٍ وأربعين، وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب. وكان ابتداء أمره أنَّه كان من بعض أولاد التّركمان، فخدم السُّلْطان، فمال إليه وقدَّمه حتى فاق سائر الأمراء، واستولى على أكثر البلاد، وهو كان السبب في أكثر الحوادث الشَّاغلة للسُّلْطان مسعود، فإن الأمراء الأكابر كانوا يأنفون من اتِّباعه لما كان يُقابلهم به من الهوان والاحتشام عليهم[2].

وذكر[3] الوزير يحيى بن هُبيرة[4] في كتاب «الإفصاح»[5] أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحابُ مسعود وأساؤوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتَّفق الرَّأي على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله ﷺ على رِعْل وذَكْوان[6] شهراً. فابتدأ هو والخليفة سِرًّا، كلٌّ واحد في موضعه يدعو سَحَراً، من ليلة تسع وعشرين من جُمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمس مئة، واستمرَّ الأمر على ذلك كلَّ ليلةٍ، فلمَّا كان ليلة تسع وعشرين من جمادى الآخرة، كان موت مسعود على سريره، لم يَزِدْ عن الشهر

---

(١) في (ل) وخدم، وهو تحريف.

(٢) «الباهر»: ١٠٥ ــ ١٠٦، وانظر «الكامل»: ١١/١٦٠ ــ ١٦٣، و«تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٠٨ ــ ٢١٣.

(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).

(٤) سترد ترجمته ص ٤٤٠ ــ ٤٤١ من هذا الجزء.

(٥) هو الإفصاح عن معاني الصحاح، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٦) قبيلتان من بني سُلَيم، أجابتا عامر بن الطفيل إلى قتل القراء الدعاة الذين بعثهم رسول الله ﷺ لأهل نجد سنة (٤هـ)، وهم قتلى بئر معونة. انظر «صحيح البخاري» كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة، و«صحيح مسلم» كتاب المساجد باب استحباب القنوت، و«سيرة ابن هشام»: ١٩٣/٣ ــ ١٩٩.

يوماً ولا نقص[1] يوماً. ووصل القُصَّادُ بذلك من هَمَذَان إلى بغداد في ستة أيام، فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الدَّاعين. قال: وكان الشَّيخُ محمد بن يحيى[2] يقول: لا أدلّ على وجود موجود أعظم من أنْ يُدْعى فيجيب.

ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وأربعين [وخمس مئة][3]

ففيها أخذت الفرنج، خذلهم الله تعالى، عَسْقَلان، وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله سنة ثلاث وثمانين كما سيأتي إن شاء الله تعالى[4].

قال الرئيس أبو يعلى التَّميمي: وتواصلت الأخبارُ من ناحية نور الدين بقوَّة عزمه على جمع العساكر والتُركمان، من سائر الأعمال والبلدان، للغزو في أحزاب الشِّرْك والطغيان، ولِنُصرة أهل عَسْقلان على الإفرنج النَّازلين
١/٩٠ عليها، وقد ضايقوها بالزَّحف إليها بالبرج المخذول، وهم في الجمع الكثير. واقْتَضت الحال تَوَجُّه مجير الدين صاحب دمشق إلى نور الدين في جمهور عسكره للتعاضُدِ على الجهاد في ثالث عشر محرَّم، واجتمع معه في ناحية الشمال، وقد ملك نور الدين الحِصْنَ المعروف بإفليس[5] بالسَّيف، وهو في

---

(١) في الأصل: ولا ينقص، والمثبت من (ل).

(٢) هو محمد بن يحيى بن علي بن مسلم الزبيدي الواعظ، ولد سنة (٤٦٠هـ) في زبيد، ودخل بغداد سنة (٥٠٩هـ) وتوفي سنة (٥٥٥هـ) وكان إماماً عابداً قدوة، يقول الحق وإن كان مراً، وهو من شيوخ ابن هبيرة. انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٩٧/١٠ ـ ١٩٨، وفيه ولد سنة (٤٨٠هـ) و«وفيات الأعيان»: ٢٤٣/٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٣١٦/٢٠ ـ ٣١٩، و«ذيل طبقات الحنابلة»: ٢٥١/١.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) ٣٢٦/٣ من هذا الكتاب.

(٥) على الطريق من معرة النعمان إلى حلب.

غاية المَنَعة والحصانة، وقتل من كان فيه من الإفرنج والأرمن، وحصل للعسكر من المال والسَّبْي الشيء الكثير، ونهضوا طالبين ثغر بانياس*، ونزلوا عليه في آخر صفر وقد خلا من حُماته، وتسهَّلَتْ أسباب ملكته. وقد تواصلت استغاثةُ أهل عَسْقلان واستنصارهم بنور الدين، فقضى الله تعالى بالخُلْف بينهم والقتل، وهم في تقدير عشرة آلاف فارس وراجل، فأجفلوا عنها من غير طارقٍ من الإفرنج طرقهم، ولا عسكر رهقهم، ونزلوا على المنزل المعروف بالأعوج*، وعزموا على مُعاودة النُّزول على بانياس* وأخذها، ثم أحجموا عن ذلك من غير سببٍ ولا موجب، وتفرَّقوا، وعاد مجير الدين إلى دمشق ودخلها سالماً في نفسه وجملته حادي عشر ربيع الأوَّل، وعاد نور الدين إلى حِمْص، ونزل بها في عسكره.

ووردت الأخبار بوصول أسطول مصر إلى عَسْقلان، فقويت نفوسُ من بها بالمال والرِّجال والغِلال، وظفروا بعُدَّة وافرة من مراكب الفرنج في البحر، وهم على حالهم في محاصرتها ومضايقتها، والزَّحف بالبرج إليها[1]. واستمرَّ ذلك إلى أن تيسَّرت لهم أسبابُ الهجوم عليها من بعض جوانب سورها، فهدموه، وهجموا البلد، وقتل من الفريقين الخلق الكثير، وألجأت الضَّرورة والغَلَبة إلى طلب الأمان، فأُجيبوا إليه، وخرج من أمكنهُ الخروج في البر والبحر إلى ناحية مِصْر وغيرها. وقيل إن في هذا الثغر المفتتح من العُدَد الحربية والأموال والميرة والغلال ما لا يُحصر فيذكر. ولمَّا شاع هذا الخبرُ في الأقطار ساء سماعُه، وضاقت الصُّدور، وتضاعفت الأفكار بحدوث مثله، فسبحان من لا يُرَدُّ نافذ قضائه، ولا يُدفع محتوم أمره عند نفوذه ومضائه[2].

قال: وعرض بين الرَّئيس ابن الصُّوفي وبين أخويه عزِّ الدولة وزَيْنها

(١) في الأصل: إليهم، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٠ ــ ٣٢٢.

مشاحنات ومشاجرات، اقتضت المساعاة إلى مجير الدين في جمادى الأولى، فأنفذ مجيرُ الدين إلى الرئيس يستدعيه للإصلاح بينهم في القلعة، فامتنع من ذلك، وجلس في داره، وَهَمَّ بالتحصُّن عنه بأحدَاث* البلد والغوغاء، وآلت الحالُ إلى تمكُّن زين الدولة منه بمعاونة مجير الدين عليه، وتقرَّر بينهما إخراج الرئيس من البلد وجماعة إلى حصن صَرْخَد* مع مجاهد الدين بزُان واليه بعد أن قرَّر له بقاء داره وبُسْتانه وما يخصُّه ويخصُّ أصحابه. وتقلَّد أخوه زين الدولة[1] مكانه، وأمر ونهى، ونفَّذ الأشغال على عادته في العجز والتَّقصير، وسوء الأفعال، والتماس الرشا على أقل الأعمال. ورأى مجير الدين عقيب ذلك التَّوصُّل إلى بَعْلَبَكَّ لتطييب نفس واليها عطاء الخادم، واستصحابه معه إلى دمشق لينوبَ عنه في تدبير الأُمور؛ وعاد وهو معه. واستشعر مجاهد الدين بُزَان أن نيَّة مجير الدين قد تغيَّرت فيه، فاستوحشَ من عَوْده إلى البلد بغير يمين يحلف له بها على أمانِه في نفسه، فوعد بالإجابة، فعاد إلى داره بدمشق[2]. ثم هَجَسَ في خاطره من مجير الدين وأصحابه ما أوحشه منهم، فدعاه ذلك إلى الخروج من البلد سرًّا طالباً صَرْخَد، فحين عَرَفَ خبره أنهضَ في طلبه وقُصَّ أثره، فأدرك وقد قَرُبَ من صَرْخَد*، فقبض عليه، وأُعيد إلى القلعة بدمشق، واعتُقل [بها][3] اعتقالاً جميلاً.

ثم تجدَّد من الرَّئيس الوزير حيدرة المقدَّم ذكره[4] أشياء ظهرت عنه، مع ما في نفس الملك مجير الدين منه ومن أخيه المسيَّب من المعرفة بالسعي

---

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١ زين الدين، وهو تحريف، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٤٢ وص ٢٢٣ من هذا الجزء.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢١.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٤) هو زين الدولة نفسه.

والفساد ما اقتضت الحال استدعاءه إلى القلعة على حين غفلة عن القضاء النَّازل به، لسوء أفعاله، وقبح ظلمه، وخُبْثه. ثم عَدَلَ به الجانْدَارِية* إلى الحمَّام بالقلعة مستهلّ ذي القَعْدة، وضُربت عنقُه صبراً، وأخرج رأسُه، ونُصب على حافَةِ الخندق، ثم طيف به، والناس يلعنونه ويصفون أنواع ظلمه، وتفنُّنه في الفساد، ومقاسمة اللُّصوص وقُطَّاع الطريق على أموال الناس المستباحة، بتقديره[1] وتدبيره وحمايته، وكثر السُّرور بمصرعه، وابتُهج به[2]. ثم زحفت العامَّة والغوغاء ومن كان من أعوانه على الفساد من أهل العيث إلى منازله وخزائنه، ومخازن غَلَّاته، وأثاثه وذخائره، فانتهبوا منها ما لا يُحصى، وغلبوا أعوان السُّلْطان وجنده عليها بالكثرة، فلم يحصل للسلطان من ذلك إلا النَّزْر اليسير. ورُدَّ أمر الرِّياسة والنَّظر في البلد إلى الرئيس رضي الدين أبي غالب عبد المنعم بن محمد بن أسد [بن علي][3] التَّميمي في اليوم المقدَّم ذكره، فطاف في البلد مع أقاربه وأهله، وسكنت الدَّهْماء، وبولغ في إخراب منازل الظَّالم ونَقْل أخشابها[4].

قال: وكان عطاء الخادم قد استبدَّ بتدبير الأمور، ومدَّ يده في الظُّلم، وأطلق لسانه بالهُجْر[5]، وأفرط في الاحتجاب، وقصَّر في قضاء الأشغال، فتقدَّم مجير الدين باعتقاله وتقييده، والاستيلاء على ما في داره، ومطالبته بتسليم بعلبكَّ وما فيها من مالٍ وغلال، ثم ضربت عنقه، ونهبت العوام والغوغاءُ بيوتَ أسبابه وأصحابه[6].

---

(١) في (ل) بتقريره، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٥.
(٢) في (م) وابتهج بالراحة منه، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٥.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٧٤ من هذا الجزء. وانظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦.
(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٤ ـ ٣٢٥.
(٥) الهجر: القبيح من الكلام. «اللسان» (هجر).
(٦) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦.

قال: وورد الخبر من ناحية مصر بأن العادل المعروف بابن السَّلَّار، الذي كانت رتبتُه قد عَلَتْ، ومنزلته في الوزارة قد تمكَّنت، كان لزوجته ولدٌ يُعرف بالأمير عبَّاس[1] قد قدَّمه، واعتمد عليه في الأعمال، ولعبَّاس هذا[2] ولدٌ[3] قدَّمه الوزير، وأنعم عليه، وأذِنَ له في الدُّخول بغير إذن إليه فدخل عليه وهو نائم في فرشته، فقطع رأسه، وحصل عباس في منصب العادل[4]، ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره[5].

قلت: هو أبو الحسن علي بن السَّلار[6] وزير خليفة مصر، وهو الذي بنى مدرسة الشَّافعية بالإسكندرية للحافظ أبي طاهر السِّلَفي[7]، رحمه الله. وكان قتله في سادس المحرَّم بمواطأةٍ من الخليفة الملقب بالظَّافر بن الحافظ.

١/٩١ قال: وفيها في آخر شعبان توفي الفقيه برهان الدين أبو الحسن علي البَلْخي[8] رئيس الحنفية، ودُفن في مقابر الباب الصغير* المجاورة لقبور الشُّهداء. وكان من التفقُّه على مذهبه ما هو مشهور شائع، مع الورع

---

(١) ترجم له أبو شامة في ص ٣١٤ من هذا الجزء، وكان عباس قد قدم مصر من المغرب مع أبيه وأمه سنة (٥٠٩هـ) ونزلوا الإسكندرية، فلما توفي أبوه، تزوج والي الإسكندرية وقتئذٍ العادل بن السلار بأمه. انظر «الكامل»: ١٤٢/١١، و«وفيات الأعيان»: ٤١٨/٣.

(٢) في الأصل: ولهذا عباس، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) هو نصر بن عباس.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣١٩ ـ ٣٢٠.

(٥) انظر ص ٣١٠ من هذا الجزء.

(٦) كان والده السلار في طائفة عسكر سقمان بن أرتق صاحب القدس، ضمه الأفضل أمير الجيوش إليه بعد استيلائه على القدس سنة (٤٨٩هـ). انظر «الكامل»: ٢٨٢/١٠ ـ ٢٨٣، و«وفيات الأعيان»: ٤١٨/٣.

(٧) توفي سنة (٥٧٦ هـ) انظر ص ٥٤ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٨) هو علي بن الحسن بن محمد، له ترجمة في «مرآة الزمان»: ١٣٤/٨ ـ ١٣٥، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٧٦/٢٠، و«الجواهر المضية» ٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٢.

والدين، والعفاف والتَّصوُّن، وحفظ ناموس العلم، والتَّواضع، والتودُّدِ إلى الناس على طريقةٍ مرضية، وسجيَّة محمودة[1].

قال: وورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الأديب أبي الحسين أحمد بن مُنير الشَّاعر[2] في جمادى الآخرة. ووصل في ثاني عشر شعبان إلى دمشق الأديب الشَّاعر أبو عبد الله محمد بن نَصْر بن صغير القَيْسَراني[3] من حلب، باستدعاء مجير الدين له، ومات بعد عشرة أيام، في الثاني والعشرين من شعبان[4].

قلت: هما شاعرا الشَّام في وقتهما، وقد شبَّهُهما العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة»[5] بالفَرَزْدق وجرير، وكذلك كان اتفق موتهما في سنة واحدة، ومات جرير بعد الفرزدق بقليل، وقد سبق من شعرهما في مدح نور الدين رحمه الله قصائد حسنة، وسيأتي غير ذلك في موضعه لغرضٍ سنذكره.

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٣.

(٢) ولد سنة (٤٧٣هـ)، له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ١/ ٧٦ ـ ٩٥، وانظر ترجمته في «بغية الطلب» ٣/ ١١٥٤ ـ ١١٦٤ ـ وفيه ولادته ٤٩٣، وهو خطأ ـ و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤. وقد جمع شعره كل من الدكتور سعود محمود عبد الجابر، وطبع في الكويت سنة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م. والدكتور عمر عبد السلام تدمري، وطبع في بيروت سنة ١٩٨٦ م. وهاتان الطبعتان ـ فيما اعتمداه من كتاب الروضتين ـ مشحونتان بالأخطاء والتحريفات لم أشر إليهما في الهامش لكثرتهما، والذي يقارن بين شعر ابن منير في كتابنا هذا وشعره فيما جمعه الدكتوران يجد الفرق واضحاً.

(٣) له ترجمة وافية ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٩٦ ـ ١٦٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦، ولمحمد أنيس جرار كتاب «محمد بن نصر القيسراني، حياته وشعره» طبع في عمان سنة (١٩٧٤م)، وفي مجمع اللغة العربية بدمشق نسخة مصورة عن قطعة من ديوانه محفوظة في دار الكتب المصرية.

(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٢.

(٥) انظر «الخريدة» قسم شعراء الشام: ١/ ٧٩.

ومما قاله ابن منير من قصيدةٍ له:

أَيـا سيفاً أعزَّ الـدين منه الـ ـغِـرارُ العَضْبُ والنَّـوْم الغِـرارُ
مَـلأْتَ جوانـحَ الأقـطارِ رَجْفـاً كـأَنَّ الأرضَ خـامَـرَهـا دُوارُ
عـلاك حُلًى على الدُّنيـا فتاجٌ بِمَفْـرِقـهـا وفي يـدهـا سِـوارُ
أضاءَتْ شمسُ عَدْلك في دُجاهـا فـكـلُّ زمـانِ سـاكِنِهـا نَهَـارُ
تُحـرِّق مَنْ عَصَـاك وأنتَ مـاءٌ وتُغـرق مَنْ رَجـاك وأنـتَ نـارُ
ألَا لِـلَّهِ وجهـك والـمـنـايـا مـكـلَّحـة ولـلـبـيض افْـتِـرَارُ
هتكْتَ حِجـابَـهُ والنَّصْـرُ غَيْبٌ ولـلـهـبـوات طَـيٌّ وانـتـشـارُ
بِـطَعْـنٍ لـلقُـلُوبِ بـه انـتـظامٌ وضَـرْبٍ لـلرُّؤوس بـه انْـتِثَـارُ
تـبـادره كـأَنَّ الـمـوتَ غُـنْـمٌ ومـا مـن عـادةِ البَـذْرِ البـدَارُ
أَنخْتَ على الصَّليبِ مطاً صليباً بـه من صَـكِّ مبـركـه[1] هـدارُ
بمشـرفـةِ المَنَـاكب مقـربـاتٍ لهنَّ بـمتـن كـلِّ وغى حِـصَـارُ
جَنَيْـنَ[2] بـإنِّب* أنبَ العَنَاصي[3] وإضْـنَ ولـلقَـنَـا منـهـا ثِـمـارُ
وفي هـابٍ* أَهَبْتَ بهـا فجـاءت كما أجلى من الكشم[4] الصِّوَارُ[5]
وكم في فَجٍّ حـارِمَ* من حريمٍ عَفَتْـهُ فـلا جـديـر ولا جِـدَارُ
وأنـطاكيَّـةُ* اسْتَنَّـتْ إلـيـهـا فـأَجْفَـلَ خَيْـطُهـا[6] ولـه عِـرَارُ[7]
وصَبَّحَ في عَـزَازَ* بـهـا عـزازٌ فـأمسى وهـو وَعْثٌ أو خَبَـارُ[8]
يَشُقُّ بهـا دُجى الغَمَـراتِ عَسْفـاً جَـوَادٌ لا يُـشَـقُّ لـه غُـبَـارُ

(١) في (م) مبرمه. (٢) في (ل) جنبن.

(٣) الأنّب: فاكهة هندية. والعناصي، مفردها عنصوة: القليل المتفرق من النبت. انظر «معجم متن اللغة»: ١/٢١٠، ٤/٢٢١.

(٤) الكشم: اسم للفهد. «اللسان» (كشم).

(٥) القطيع من البقر. «اللسان» (صور).

(٦) في الأصل: خبطها. والخيط: جماعة النعام. «اللسان» (خيط).

(٧) صوت ذكر النعام. انظر «اللسان» (عرر).

(٨) الخبار: ما استرخى من الأرض وتحفر. «اللسان» (خبر).

وله من أخرى:

وما يومُ الفرنجة مِنْكَ فَذٌّ ... فتحصر عدَّهُ خططُ الحسابِ
أجاشَ الأربعاءَ لهم خميساً ... بعيدَ الغَوْرِ مُلْتَطِمِ العُبابِ
وأحكم بالخطيم* لهم خطاماً ... أَمَرَّ بريمُهُ مُرَّ الضِّرابِ
مَشَوْا متساندينَ إلى صَلِيْبٍ ... تبرقع هبوة الصُّمِّ الصِّلابِ
تَلُفُّهمُ المنايا في الثَّنايا ... وتفجؤهم شَعوبُ[1] من الشعاب
أطاشَتْ سَهْمَ[2] كَبْشِهُمُ* هَنَاةٌ ... فكنتَ ذُبابَ[3] طائشةِ الذباب
حللتَ التَّاجَ عنه وحَلَّ تاجاً ... مكانَ العِقْدِ من عقد الكعَاب 92/1
أنافَ على العِقاب فكان أشهى ... وأبهى منه في ظلِّ العُقابِ
فأَشْرَفَ وهو عن شَرَفٍ معوقٌ ... وأصعد وهو[4] غايةُ الآنصبابِ
تكاشِره الشَّوامِتُ وهو مُغْضٍ ... ثَناه مَناه عن رَجْعِ الجوابِ
بعيداً من قراعٍ وافتراع ... يؤوبُ له إلى يومِ المآبِ
وكم سوطٍ بخيلك أقبلوه الـ ... ـصُّدور فكان سوطاً من عذابِ
تَركْتَهُمُ بأرضِ الشَّام شاماً ... لِظُفرٍ تتَّقيه أو لِنَابِ
هَتَكْتَ حِجابَه والشَّمْسُ وَسْنَى ... بشمسٍ لا تُوارى بالحجابِ
بأبيض من حَبيك الهند صافٍ ... مَصُون المتن مبتذل الذِّباب
له سمةُ الشُّيوخ صفاءَ شيب ... وفي خَطَراته نَزَقُ الشَّبابِ
ألا يا ناظِرَ الدُّنيا بعينٍ ... أرته علانَها خُدْعَ السَّرابِ
تَبطَّنَها فطلَّقَها ثلاثاً ... على عزِّ التملُّق والخلابِ
فلا يأوي إلى رأي شَعاعٍ ... ولا يثني إلى أملٍ خَرابِ
تَرفَّعَ عن محاورة[5] الأماني ... وحلَّقَ عن محاضرة التَّصابي

---

(١) الشعوب: المنية. «القاموس المحيط» (شعب).

(٢) في (م) رأس.

(٣) الذباب: حد السيف. «القاموس المحيط» (ذب).

(٤) في (ل) و (م) هي.

(٥) في (ل) و (م) مجاورة.

صلاةُ اللهِ كلَّ ذُرورِ شمسٍ ... على مَثْوَى أبيك من التُّرابِ
فقد أَلْقَى إلى الإسلامِ عَضْباً ... يطبِّق في النَّوائب غير نابي
تجيشُ له رَوَاسٍ كالرَّواسي ... تُمَدُّ لها جِفانٌ كالجوابي

وله من أخرى:

مُظَفَّرُ العَزْمِ ممدودُ الرِّواق على ... معالمِ الدِّين يرفيها ويبنيها
رَدَّ الكنائس كُنْساً للهُدى فخَبت ... نارُ الضَّلال ووارَتْها أثافيها
وأَوْرَدَ العلم عَدًّا من إيالته ... فاستَنَّ وافْتَنَّ عبًّا في صَوافيها
وَبَثَّ للشِّرْكِ أشراكاً فما دَرَجَتْ ... طريدةٌ منه إلا اسْتَوْهَقَتْ فيها
يا بَدْرُ مُذْ أَشْرَقَتْ في الدَّسْتِ غُرَّتُه ... غِيثَ الرَّعيةُ واخْضَلَّتْ مَراعيها
أقامَ أحمدُ من محمودِها عَلَماً ... به استقامَ على البيضاء ساريها
محيي شريعتِهِ من بعدِ ما انْهَدَمَتْ[1] ... واسْتَعْجَمَتْ بعد إفصاحٍ معانيها
شابَتْ مواهبه فيها مهَابَتُه ... حتى استقرَّت على سَمْتٍ سَوَاريها

وله من أخرى:

عَزَّتْ سيوفُك فالعِراقُ عِراقُها ... والشَّام غير مدافعاتٍ شامُهَا
إن أُغمدت حَلَّ العزائِمَ حلُّها ... أو جُرِّدَتْ حَرَم الكَرَى إحرامُها
شَجِيَتْ عِدَاك بها فلا إشراقُها ... بمفازَةٍ منها ولا إعتامُها
سربت فصبَّحها بها يقظانُها ... هَدَأَتْ فمسَّتها بها أحلامُها
كالماءِ إلا أنَّ في رَشَفاته ... ناراً حُشاشاتُ النُّفوسِ ضِرامُها
خفَّتْ على أيمانكم أوزانُها ... يومَ الوغى واسْتَثْقَلَتْها هامُها
حتى أَحَلْنَ الشَّام شاماً صَرْصَرَتْ ... فيه جَنَادِبُها وصدَّح هامُها
وَرَحَضْنَ أدْرانَ الجزيرةِ بعدما ... غُمِرَتْ بها وهداتها وإكامُها

---

(١) في (م): ما هدمت، وفي هامشها: ما همدت.

شَطْراً أَبَرْت ومثله أنْظرته   وَقْعِ الخطوبِ تَكُرُّها أيامُها
بالخابطاتِ الغابَ تَزْأَرُ أُسْدُه   والمجفلي الحي اللِّقاح صيامُها
أورَدْتَها أجماتِ أنطاكيَّةٍ   عَنقاً وقد شَبَّ الصدا إجمامُها
تلقى المَشافِرَ في مراشِفَ كُلَّما   بَرَدَتْ بها الأكبادُ زادَ هيامُها ٩٣/١
فَغَدَتْ وقد عَزَّ السراح سراحُها   وتوزَّعت في كُنْسها آرامُها
ومشى الضَّلال القَهْقَرى واستأصل الـ   آذان مِن رَجْعِ الأذانِ صِلامُها
وغداً يخلِّلُها الخليلُ سواحباً   عَذَباً يُمِرُّ لها العِذابَ غمامُها
غَضَباً لدين الله حصَّ جناحه   بغياً وأدمى صفحتيه لِدامُها
فالآنَ رَدَّ النورَ فيه نورُه   وانجابَ من تلك الهَنَاتِ ظَلامُها
محمودُ المحمود إقداماً إذا   خامَ الكماةُ وَزُلْزِلَتْ أقدامُها
الفارجُ الكُرَبِ العِظامِ تضاجمت   أشداقُها وفَرَى القلوبَ ضِغامُها

وله من أخرى:

أما الرَّعايا فإنَّها رَشَفَتْ   لديك نُعمىً عَذْباً ثناياها
سَلَكْتَ نَهْجَ العَدْلِ القويمِ بها   فأحمدت دينها ودُنياها
وكم أُميتت خَوْفاً فأمَّنها   متالفَ الخَوْفِ خَوْفُك اللهَ
لله أقطارك التي قطرت   لها مُناها إلى مَنَاياها
أَنَّبَ في إِنَّب* فوارسها   تردى فتردي أولاك أُخْرَاها
أَشْجَتْ لهاة البِرنْس هبوتها   وكم عتا عاتياً فأَشْجَاهَا
وجُوسلين* استساغ نطفتها   فاحتلب الذُّلَّ تحتَ مَغْذَاها
رَدَّتْهُ صِفْراً من كلِّ ما مَلَكَتْ   يَداهُ أيدٍ ما ضَلَّ مَسْرَاها
جويسُ جاسَتْك أَوْجُهٌ لا رأَتْ   بُؤساً وجادَ الحيا مُحَيَّاها
في سرية لو تكون فارِسَها   يومئذٍ ما انْبَعَثَ أَشْقَاها
لا زالَ ظِلُّ النَّعْماء عن ملكٍ   ما الشَّمْسُ كفؤاً له إذا باهى

والله جــازيــه عـــن مــعــبَّــدةٍ   أعــزَّهــا اللهُ مُــذْ تــولاهــا
محمــودُ الــمعــتلي إلــى فلك الــ   ــحَــمْــدِ وثيــراً لــه ولايــاهــا
أعــطاكه جَــدُّك المتــوَّج بــالــ   جِــدِّ ونــفسُ الله مَــغْــزَاهــا
نفسٌ عَــزُوفٌ عن الخنــا طبعت   نَــزَّهــهــا اللهُ يــومَ سَــوَّاهــا
أنــتَ الــذي سَــلَّم الأنــامُ لــه   يُمْنَى طبــاقِ الــعُــلا ويُسْــراهــا
وأنــتَ مــولى الــمُلوكِ قــاطبــةً   من كان فَنَّا خُسْــرو شاهنشــاها[1]
والشِّعْــر هــذا لا قــول أحمــده   أوَّه بــديــلٌ مــن قَــوْلَتي واهــا

وله من أخرى:

يا ابن الذي لم يَأْلُ في نجدةٍ[2] الـ   إســلام إدلاجــاً وتَــهْــجــيــرا
تــكنَّفَ الشَّــام وقــد شــامَ بَــر   قَ الخــوفِ إنجــاداً وتــغــويــرا
وكَفَّ كَلْبَ الــرُّومِ من بعد أَنْ   أَنْــشَــبَــهُ نــابــاً وأُظْــفُــورا
فــأهــلُه رِقُّــك إن أنــصــفــوا   رقًّــا بــحــدِّ السَّــيْــفِ مَسْــطُورا
بَدْرٌ هوى واسْتَخْلَفَ الشَّمْسَ في   دَسْــتِــك إشــراقــاً وتــأثــيــرا

وله من أخرى:

مــلكٌ كســا الإســلامَ من ذَبِّــه   بُــرْداً بِتَــدبيــج الــظُّبى مُعْلَمــا
مَن أصبح الشَّــامُ بــه شــامــةً   يَــقْــطُرُ مــن قَــتْــلِ عِــدَاه دَمــا
لــو لــم يقــم مُنْصلتــاً دُوْنَــهُ   لم تَلْقَ فــي أقــطارِهــا مُسْلِمــا ١/٩٤

---

(١) هو عضد الدولة فناخسرو بن الحسن بن بويه، وهو أول من لقب بالشاهنشاه وتعني: ملك الملوك. انظر «السلوك» للمقريزي: ج ١/ق ٢٨/١، و«الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار» للدكتور حسن الباشا: ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢) في (م) نصرة.

وله يمدحه بعد مصالحة صاحب حماة واهتمامه بالعرس وعَوْده إلى حلب:

الدَّهْرُ ما رُضْتَهُ بالجُودِ والباسِ ... مُقَسَّمٌ بين أغراسٍ وأعراسِ
فتح يعاقبه فَتْحٌ ومُطَّلبٌ ... داني المنال ومُلكٌ ثابتٌ راسي
نَصْراً ببُصرى* وصفحاً عن حماةَ لقد ... أَحْسَنْتَ للدَّاء حَسْماً أيها الآسي
يا ابنَ الذي عَنَتِ الدُّنيا لِدَوْلته ... من فاطميٍّ أعزَّته وعَبَّاسي

وله فيه:

غَدَا الدينُ باسمِكَ سامي العَلَمْ ... أمينَ العمادِ مكينَ القَدَمْ
لذلك لُقِّبْتَ نوراً له ... وقد أغطَشَ الظُّلْمُ فيه الظُّلَمْ
أضاءَتْ بِعَدْلِكَ آفاقُه ... وفَضَّتْ عُرَى الدِّين لما ادْلَهَمْ
ولم تمشِ زَهْواً[1] لِنَصر الرُّها* ... ومثلُكَ أدركَ لمَّا عَزَمْ
ويومَ بسوطا* بَسَطْتَ الحِمام ... على الهضب من رُكْنها فانْهَدَمْ
وبُصرى* وصَرْخَد* لو لم تثر ... دِراكاً لكانا رَدِيفَيْ إرَمْ
ومُذْ فضَّ جيشك في الغوطتيـ ... ـنِ فضَّ الصَّليب له ما نَظَمْ
وفي كَفْرلاثا* وهابَ* حَلَلْـ ... ـتَ عَقْدَ البرنس* ببيض خُذُمْ[2]
معوَّدَةٍ أنها لا تُسَلُّ (م) ... إلا مقمقمةً للقِمَم
ويومَ بَسَرْفُود* جَرَّعْتَهُمْ ... أُجاجاً أغصَّهُمُ واصطَلَمْ
وفوقَ العُرَيمة* غشَّاهم ... عُرَامُ جيوشك سيلَ العَرِمْ
وأبتَ بكلبِهُمُ في الكُبُولِ ... مباح الحريم مُذَالَ[3] الحُرَمْ
وبارتهم* آذَنَتْ أنَّها ... أبارَتْهُمُ فليَبُوؤوا بِذَمْ

(١) في (ل) رهقاً.
(٢) في (م) حزم.
(٣) في (ل) مذل.

بنَوْها وأعلَوْا ولم يعلموا   بما خَطَّ في اللَّوْحِ منك القَلَمْ
وأنك خارِمُ ما أَحْكَمُوه   ومِنْ دِيننا راقِعُ ما انْخَرَمْ
تَرْفَعُ من بعدِ خَفْضٍ هُدىً   وتخفض من بعد رَفْعٍ صَنَمْ
سَمَكْتَ المدارِسَ فوقَ النُّجوم   فكم مَنْجَمٍ تحتَها قد نَجَمْ
وعاشَ الحنيفيُّ والشَّافعي   بما شِدْتَ منها وكانا رِمَمْ
وإن لم تكن هاشميَّ الأُصول   فإنك فَرْعُ الهِزَبْرِ الهَشِمْ
ومن يدَّعي في العُلا ما ادَّعَيْتَ   وأنت ابنُ من عزَّ لمَّا احْتَكَمْ
وأُقْسِمُ ما غابَ مَيْتٌ سَقَتْ   مغارِسَه عينُ هذي الشِّيم

قلت: وقصائد ابن منير في مدح نور الدين كثيرة، ونَفَسه فيها طويل، ولم يبق بعد موت القَيْسَراني وابن منير فحل من الشعراء يصف مناقب نور الدين كما ينبغي إلا ابن أسعد المَوْصلي(١)، وسيأتي شيءٌ من شعره، إلى أن قدم العماد الكاتبُ الشَّام في سنة اثنتين وستين، فتسلَّم هذا الأمر، وعَبَّر عن أوصاف نور الدين ومناقبه وغَزَواته بأحسن العبارات وأتمِّها نظماً ونثراً، وسيأتي كُلُّ ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة توفي صاحب مَارِدِين* حسام الدين تمرتاش، ووليها بعده نجم الدين ألبي بن تمرتاش ابن أُرْتُق.

قلت: وقد مدحه القَيْسَراني والعَرْقَلة(٢) وغيرهما من الشعراء.

---

(١) سيرد ذكره في ص ٤٠٢ من هذا الجزء.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من هذا الجزء.

ثم دخلت سنة تسعٍ وأربعين [وخمس مئة][1]

قال ابن الأثير: ففيها ملك نور الدين [مدينة][2] دمشق، وأخذها من صاحبها مجير الدين أبق بن محمد، وكان الذي حمل نور الدين على الجد في ملكها أن الفرنج ملكوا في السَّنة الخالية عَسْقلان؛ وهي مدينة فِلَسْطين حُسْناً وحَصَانةً. ولما كانوا يحصرونها كان نور الدين يتلهَّفُ ولا يقدرُ على إزعاجهم عنها؛ لأن دمشق في طريقه وليس له على غيرها مَعْبَر، لاعتراض بلاد الإفرنج في الوسط. وقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين، وتابعوا الغارة على أعماله، وأكثروا القتل بها والنَّهْبَ ١/٩٥
والسَّبْي، وزاد الأمر بالمسلمين بها إلى أن جعل الفرنج على أهل المدينة قطيعة كل سنة، وكان رسولهم يجيء إلى دمشق ويجبيها من أهل البلد. ثم اشتد البلاء على أهلها حين أرسل الفرنج، واستعرضوا عبيدهم وإماءهم الذين نُهبوا من سائر بلاد النَّصرانية، وخيَّروهم بين المقام عند مواليهم والعود إلى أوطانهم، فمن أحب المقام تركوه، ومن أحبَّ وطنه سار إليه. وزالت طاعةُ مجير الدين عن أهل البلد إلى أن حصروه في القلعة مع إنسان منهم كان يقال له مُؤَيَّد الدين بن الصُّوفي، فلما كانت الأمور بها هكذا خاف أهلها وأشفقوا من العدو، فجأروا[3] إلى الله تعالى، ودعَوْه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم، وأذن في خلاصهم مما هم فيه على يد أحبِّ عباده إليه، وأحسنهم طريقةً، وأمثلهم سيرة، وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود، فحَسَّنَ له السعي في ملك البلدة وألقاه في رُوعه. فلما خطر له ذلك

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٣) أي رفعوا صوتهم بالدعاء مع تضرع واستغاثة. انظر «اللسان» (جأر).

أفكر فيه، فعلم أنه إن رام ملكه بالقوة والحصار تعذَّر عليه، لأن صاحبه متى رأى شيئاً من ذلك راسل الفرنج واستعان بهم واستمالهم[١].

قلت: وكان قد سبق له سوابق قد تقدَّم ذكر شيء منها[٢]، ولذلك قال العَرْقَلَة يمدح أتابكه معين الدين أُنَر من قصيدة:

يظنُّ صلاحُ الدين فرسانَ جِلَّقٍ ... كفرسانِهِ ما الأسد مثلَ الثَّعالبِ
غداً تطلع الشَّام الفرنج بفيلقٍ ... مُعوَّدةٍ أبطالُهُ للمصائبِ
رجالٌ إذا قام الصَّليبُ تَصَلَّبَتْ ... رماحُهُمُ في كل ماشٍ وراكبِ
لها اللَّيْلُ نَقْعُ[٣] والأَسِنَّةُ أنجمٌ ... فما غيرُ أبطالٍ وغيرُ جنائبِ[٤]

وصلاح الدين هذا المذكور ليس هو يوسف بن أيوب المشهور، فإن ذلك حينئذٍ لم يكن ملكاً يقود الجيوش، وإنما هذا صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني صاحب حماة؛ أحد أصحاب زَنْكي، وقد تقدَّم ذكره مراراً[٥]، وكأنه كان في مقدِّمة الجيش النُّوري لما قصد دمشق في المرتين الأُوْلَيين، أو في إحداهما، أو في زمن حصار زَنْكي لها، والله أعلم.

قال ابن الأثير: وكان أبغض الأشياء إلى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق، لأنه كان يأخذ حصونهم ومعاقلهم وليست له دمشق، فكيف إذا أخذها وقوي بها؟ وانضاف إلى ذلك كراهيته لِسفك دماء المسلمين، فإن الدَّم كان عنده عظيماً، لما كان قد جُبِلَ عليه من الرأفة والرَّحمة والعَدْل. فلما رأى الحال هكذا عمد[٦] إلى إعمال الحيلة، فراسل مجير الدين صاحبها

(١) انظر «الباهر»: ١٠٦ ـ ١٠٧.
(٢) انظر ص ٢٦٤ ـ ٢٦٦ من هذا الجزء.
(٣) في (م) لها النقع ليل.
(٤) الأبيات في «ديوان عرقلة الكلبي»: ٦٠.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١١٥ من هذا الجزء.
(٦) في (م) عدل، ومثله في «الباهر»: ١٠٧.

واستماله، وواصلَه بالهدايا، وأظهر له المودَّة حتى وثق إليه، ثم صار يكاتبه في بعض الأوقات ويقول له: إن فلاناً ـ ويذكر بعض الأمراء الذين لمجير الدين ـ قد كاتبني في المخامرة عليك، فاحْذَرْه. فتارةً يأخذ إقطاع أحدهم، وتارةً يقبض عليه. فلما خَلَتْ دمشق من الأمراء، قدَّم أميراً كان عنده يُسمَّى عطاء بن حفاظ السلمي الخادم، وكان شهماً شجاعاً، وفوَّض إليه أمر دولته، وكان نور الدين لا يتمكَّن من دمشق معه. فقبض عليه مجير الدين وقتله[1]، فقال له عند قتله: إنَّ الحيلة قد تمَّت عليك فلا تقتلني، فإنه سيظهر لك ما أقول. فلم يصغ إلى قوله، وقتله[2].

قلت: وفي بعض قصائد ابنُ منير ما يدلُّ على أن عطاءً هذا كان له مع نور الدين في دمشق حديث، فإنه قال:

ودمشق في دمشق رجال سلم ... لحُور نسائهم منهم نساءُ
هي الفِرْدَوْسُ أصبحَ وهو عافٍ ... من العافي ومن خالٍ خَلاءُ
جِنَانٌ تعرفُ الجَنَّاتِ فيها ... ولا رأيٌ هناك ولا رُواءُ
لأسمح صعبها ودَنَتْ قصاها ... وأمكنكَ اقتيادُ وامتطاءُ
ويا نِعْمَ العطاءُ عطاءُ رَبٍّ ... توسَّطَهُ فأَنْشطَهُ عطاءُ
تفاءل باسمه فالفأل وَعْدٌ ... يكون على ظُبَاك به الوفاءُ
هو السَّبب الذي شَزَرَتْ قواه ... وهذَّبه لخدمتك الصَّفَاءُ
وسَيْفٌ إن تَشِمه تَشِم حُساماً ... وإنْ تُغْمِدْ فنارٌ بل ذُكاءُ
جنَّته لك السَّعادةُ قطف رأي ... لنقب الخادِعِيك به هِناءُ[3]

ويجوز أنه لم يكن لعطاء في ذلك حديثٌ، وإنما هذه الأبيات أو ما في معناها كانت سبب قتله لمَّا بلغ مجير الدين ذلك. وعطاء هذا هو الذي يُنْسب

---

(١) مَرَّ أنه قتل سنة (٥٤٨هـ) انظر ص ٢٩١ من هذا الجزء.

(٢) «الباهر»: ١٠٧.

(٣) الهِناء: القَطِران. «القاموس المحيط» (هنأ).

إليه مسجد عطاء خارج الباب الشَّرْقي* بدمشق[1]، وجورة عطاء[2] ببيت
٩٦/١ أبيات*؛ وهي أرضٌ فيها أخشابٌ كبار من الحور تُرَبَّـى أوتاداً[3] لجامـع دمشق، وهي وَقْفٌ عليه. وقد مدحه العَرْقَلَة وغيرُه من الشُّعراء.

قال ابنُ الأثير: فلما قُتل عطاءٌ قوي طمـعُ نور الدين في دمشق، فراسل أحداث* البلد وزناطرته* واستمالهم، فأجابوه إلى تسليم البلد، فسار إليهم وحاصرهم عشرة أيام. فكاتب مجير الدين الفرنـج، وبذل لهم الأموال وقلعة بَعْلَبَكَّ إن رحَّلوا نور الدين عنه. فإلى أن اجتمعوا، وجاؤوا بلغهم أخذ نور الدين دمشق، فعـادوا بخُفَّيْ حُنين. وأما نور الديـن فإنـه لما حاصرهم وضيَّق على من به، ثار الأحداثُ الذين كاتبهم نور الدين، وسلَّموا إليه البلد من الباب الشَّرْقي*، فدخله بالأمان عاشر صفر، وحصر مجيرَ الدين في القلعة، وراسله وبذل له الإقطاع الكثير، من جُملته مدينة حمص، فأجاب إلى تسليم القلعة، وسار إلى حمص[4].

وقال ابن أبـي طي: أنفذ نور الدين أسدَ الدين شِيركُوه رسولاً إلى صاحب دمشق، فخرج في تجمُّلٍ عظيمٍ ومعه ألف فارس، فَعَظُمَ على مجير الدين ذلك وقال: ما هذه رسالة، هذه مكيدة. ولم يتجاسر على الخروج إلى لقائه ولا أحدٌ من أمراء دمشق، فاستوحش أسد الدين، ونزل بمرج القصب، وأغلظ لصاحب دمشق في المقال، وأنفذ إلى نور الدين يُعرِّفه بما جرى عليه. فسار نور الدين في عساكره، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وكانت الحرب في عاشر صفر، وتولَّى أسد الدين القتال، وأبلى الجهد، فكسر عساكرَ دمشق إلى

---

(١) في قرية الخامسين، وهي من القرى الداثرة. انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر: ٨١/٢، «ثمار المقاصد»: ١٠٨، وانظر حاشيتنا رقـم ٢ ص ٢٦٥ مـن هذا الجزء.

(٢) انظر «غوطة دمشق»: ٢٢٨.

(٣) في الأصل و (ل) أوتاراً، والمثبت من (م). وكانت هذه الأوتاد تستخدم من أجل قبة النَّسْر في جامع دمشق. انظر «المذيل على الروضتين» حوادث سنة (٦١٣ هـ).

(٤) «الباهر»: ١٠٧.

الأسوار من قبليِّ البلد، ولم يكن أحدٌ من المقاتلة على السُّور من ذلك الجانب، لأن نور الدين كان من شرقِيِّها، وجُلُّ العسكر مقابلُه، ورأى من كان مـع نور الدين من الجَانْدَارِية* والحلبيين خُلُوَّ السُّور من المقاتلة، فتسرَّعوا إلى السُّور، وتعلَّقوا به، وحصلوا في الحال على الأسوار، ويقال: إن امرأةً كانت على السُّور، فدلَّت حبلاً فصعدوا فيه، وصار على السُّور جماعة، ونصبوا السلالم، وصَعِدَ جماعةٌ أُخرى، ونصبـوا علماً، وصـاحوا بشعـار نور الدين، فوقـع على أهل البلد الخِذْلان، وكُسِرَ بابُ البلد، ودخلت الخَيَّالة منه، وملك نور الدين دمشق. وكان لأسد الدين اليد الطُّولى في فتحها، فولَّاه نور الدين أمرها، وردَّ إليه جميـع أحوالها. وفي هذه السنة أقطعه نور الدين الرَّحْبة*.

وقال الرَّئيس أبو يعلى: في العشر الثاني من المحرَّم وصل الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً من نور الدين إلى ظاهر دمشق، وخَيَّم بناحية القَصَب من المرج في عسكرٍ يناهز الألف، فأنكر ذلك، ووقـع الاستيحاش منه، وإهمال الخروج إليه لتلقِّيه والاختلاط به، وتكرَّرت المراسلات فيما اقتضته الحال، ولم تُسْفر عن سَدَاد ولا نيل مُرَاد، وغلا سعر الأقوات لانقطاع الواصلين بالغَلَّات. ووصل نور الدين بعسكره إلى شِيركُوه ثالث صفر، وخيَّم بعيون الفاسريا* عند دُومَة*، ورحل في الغد، ونزل بيت الآبار* من الغوطة، وزحف إلى البلد من شرقيِّه، وزحف إليه من عسكره وأحداثه الخلق الكثير، ووقـع الطِّرَادُ بينهم، ثم عاد كل من الفريقين إلى مكانه، ثم زحف يوماً بعد يومٍ، وتأكد الزَّحف يوم الأحد عاشر صفر، وظهر إليه العسكر الدمشقي، فاندفـع بين أيديهم حتى قربوا من سور باب كَيْسان* والدَّباغة من قبليِّ البلد، وليس على السُّور أحد من العسكرية والبلدية لسوء تدبير صاحب الأمر، غير نفرٍ يسير لا يُؤبه لهم، فتسرَّع بعضُ الرَّجَّالة إلى السُّور، وعليه امرأة يهودية، فأرسلت إليه حبلاً، فصَعِدَ فيه، وحصل على السُّور، ولم يشعر به أحد، وتبعه

من تبعه، وأطلعوا علماً نصبوه على السُّور، وصاحوا: نور الدين يا منصور. وامتنع الأجناد والرَّعية من الممانعة لما هم عليه من المحبّة لنور الدين وعدله، وحُسْن ذكره. وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشَّرْقي*، فكسر أغلاقه وفتحه، فدخل منه العسكر، وسعَوْا في الطُّرقات، ولم يقف أحد بين أيديهم. وفُتح باب توما* أيضاً ودخل [الناس][1] منه، ثم دخل نور الدين وخواصُّه، وسُرَّ كافَّة الناس من الأجناد والعسكرية، لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار والخوف من منازلة الفرنج الكُفَّار. وكان مجير الدين لما أحسَّ بالغَلَبة والقهر قد انهزم في خواصه إلى القلعة وأنفذ إليه، وأُومن على نفسه وماله، وخرج إلى نور الدين، فطيَّب نفسه ووعدَه الجميل. ودخل نور الدين القلعة في يوم الأحد المقدَّم ذكره، وأمر بالمناداة بالأمان للرَّعيَّة، والمنع من انتهاب شيء من دُورهم، وتسرَّع قومٌ من الرَّعاع والأوباش إلى سوق علي* وغيره، فعاثوا ونهبوا، وأنفذ نور الدين إلى أهل البلد بما طيَّب نفوسهم، وأزال نفرتَهُمْ. وأخرج مجير الدين ما كان له في دوره بالقلعة والخزائن من المال والآلات والأثاث على كثرته إلى الدَّار الأتابكية؛ دار جَدِّه، وأقام أياماً، ثم تقدَّم إليه بالمسير إلى حمص في خواصِّه ومَن أراد الكون معه من أسبابه وأتباعه، بعد أن كتب له المنشور بإقطاعه عِدَّة ضياع بأعمال حمص، برسمه ورسم جُنْده، وتوجَّه إلى حمص على القضيَّة المقرَّرة. ثم أحضر نور الدين غد ذلك اليوم أماثل الرَّعيَّة من القُضَاة والفقهاء والتُّجَّار، وخوطبوا بما زاد في إيناسهم وسرور نفوسهم، وحُسن النظر لهم بما يعود بصلاح أحوالهم وتحقيق آمالهم، فأكثروا الدُّعاء له، والثَّناء عليه، والشكر لله تعالى على ما أصاره[2] إليه. ثم تلا ذلك إبطال حقوق دار البطِّيخ*،

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق» ما أصاروه، وهو وهم.

وسوق البقل، وضمان الأنهار، وأنشأ بذلك المنشور، وقرىء على المنبر بعد صلاة الجمعة، فاستبشر النَّاسُ بصلاحِ الحال، وأعلن الناس برفع الدعاء إلى الله تعالى بدوام أيامه، ونُصْرة أعلامه(١). ٩٧/١

وقال ابن الأثير: لما استقلَّ(٢) نور الدين في البلد عمل مع أهله مكرُمة عظيمة، وأظهر فيهم عدلاً(٣) عامّاً.

قلت: قد تقدَّم ذكره في أوَّل الكتاب(٤)، وسيأتي منه أشياء مفرَّقة فيما بعد.

قال: وألقى الإسلامُ جِرَانه(٥) بدمشق، وثبتت أوتاده، وأيقن الكُفَّار بالبوار، ووهنوا واستكانوا، وصار جميع ما بالشَّام من البلاد الإسلامية بيد نور الدين. وأما مجير الدين فإنه أقام بحمص، وراسل أهل دمشق في إثارة الفتنة، فانتهى الأمر إلى نور الدين، فخاف أن يحدث ما يشقُّ تلافيه، بل ربما تعذَّر، لا سيما مع مجاورة الإفرنج، فأخذ حمص من مجير الدين وعَوَّضه عنها مدينة بالِس*، فلم يرضها، وسار عن الشَّام إلى العراق، فأقام ببغداد وابتنى داراً تجاور المدرسة النِّظاميَّة*، وتوفي(٦) بها(٧).

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٦ ــ ٣٢٩.

(٢) في «الباهر»: استقر.

(٣) «الباهر»: ١٠٧.

(٤) انظر ص (٣٨ ــ ٤٢) من هذا الجزء.

(٥) أي ثبت واستقر. انظر «أساس البلاغة» و«اللسان» (جرن).

(٦) وذلك سنة (٥٦٤ هـ). وكان ولي دمشق وهو حدث سنة (٥٣٤ هـ) كما مرَّ ص ١٢٨ من هذا الجزء. انظر ترجمته في «مرآة الزمان»: ٨/ ١٧٢، و «وفيات الأعيان»: ٥/ ١٨٨ ــ ١٨٩، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٦٥ ــ ٣٦٦. و «العبر» للذهبي ٤/ ١٨٥ ــ ١٨٦، و «الوافي بالوفيات» ٦/ ١٨٨. وفي «تاريخ الفارقي» أنه كان مقيماً في بغداد سنة (٥٧٢ هـ) انظر الحاشية رقم (١) ص (٣٢٨) من «ذيل تاريخ دمشق».

(٧) انظر «الباهر»: ١٠٧ ــ ١٠٨.

قال: ولما ملك نور الدين دمشق خافه الفرنج كافَّةً، وعلموا أنه لا يقعد عن غزو بلادهم، والمبادرة إلى قتالهم، فراسله كل كند وقمص وتقرَّبوا إليه. ثم إن مَنْ بتلِّ باشر* راسلوه وبذلوا له تسليمها إليه، فأرسل إلى الأمير حَسَّان المَنْبِجي؛ وهو من أكابر أمراء نور الدين، وإقطاعه مَنْبِج*، فأمره أن يتسلَّمها منهم. فسار إليها، وتسلَّمها[1]، وحصَّنها، ورفع إليها ذخائر كثيرة[2].

فصل

قال الرَّئيس أبو يعلى: وقد كان مجاهد الدين بُزان أُطلق يوم الفتح من الاعتقال[3]، وأعيد إلى داره. ووصل الرئيس مُؤيَّد الدين المسيَّب إلى دمشق مع ولده النَّائب عنه في صَرْخَد* إلى داره، مُعوِّلاً على لزومها، وتَرْك التعرُّض لشيءٍ من التصرُّفات والأعمال. فبدَا منه من الأسباب المُعْرِبة عن إضمار الفساد، والعدول إلى خلاف مناهج السَّدَاد والرَّشاد، ما كان داعياً إلى فساد النِّيَّة فيه. وكان في إحدى رجليه فتح قد طال به ونسيه[4]، ثم لحقه مرض وانطلاق متدارك أفرط عليه، وأسقط قوَّته، مع فهاق مُتَّصل[5] وقُلاع في فيه زائد، فقضى نحبه في رابع ربيع الأوَّل، ودُفن في داره، واستبشرَ الناسُ بهلاكه، والرَّاحة من سوء أفعاله[6].

---

(١) مَرَّ أنه تسلمها سنة (٥٤٦هـ) ونور الدين يحاصر دمشق. انظر ص ٢٦٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر «الكامل»: ١١/١٩٩، والخبر غير موجود في «الباهر».

(٣) انظر ما تقدم من خبر اعتقاله ص ٢٩٠ من هذا الجزء.

(٤) كذا في النسخ الخطية، وفي «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٩ «ونسر» أي نقض. انظر «معجم متن اللغة»: ٥/٤٤٧.

(٥) أي نزيف دائم. انظر «اللسان» (فهق).

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٩.

قال: ووردت الأخبار بقتل خليفة مصر الملقب بالظّافر بن الحافظ[1]، وأقيم ولده عيسى مُقامه، وهو صغير يناهز ثلاث سنين، ولقّبوه بالفائز[2]، وعباسٌ الوزير[3]. ثم ورد الخبر بأن الأمير فارس المسلمين[4] طلائع بنُ رزِّيك[5] ــ وهو من أكابر الأمراء المقدَّمين، والشجعان المذكورين ــ لما انتهى إليه الخبر ــ وهو غائب عن مصر ــ قلق لذلك وامتعض، وجمع واحتشد، وقصد العودَ إلى مصر. فلما عرف عَبّاسٌ بما جمع خاف الغَلَبة، فتأهَّبَ للهرب في خواصِّه وأسبابه وحُرَمه، وما تهيأ من ماله، وسار مُغِذًّا، فلما قَرُبَ من أعمال عَسْقَلان وغزَّة خرج إليه جماعةٌ من خيّالة الإفرنج، فاغترَّ بكثرة من معه وقلَّة من قصده، فلما حملوا عليه فشل أصحابه وأعانوا عليه، وانهزموا أقبح هزيمة، هو وابنه الصَّغير[6]، وأُسر ابنه الكبير الذي قتل العادلَ بن السَّلار، مع ولده وحُرَمه، وماله وكُرَاعه[7]، وحصلوا في أيدي الفرنج، ومن هرب لقي من الجوع والعطش شِدَّة، ومات العدد الكثير من النَّاس والدَّوابِّ، ووصل في أثر هروبهم فارس المسلمين، ووضع السيف فيمن ظفر به من أصحاب عباس، وانتصب في الوزارة وتدبير الأمور موضعه، ووصل إلى دمشق منهم من نجّاه الهرب على أشنع صفةٍ من العَدَم والعُرْي في آخر ربيع الآخر[8].

(1) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٦ من هذا الجزء.
(2) توفي سنة (٥٥٥هـ) انظر ص ٣٨٩ من هذا الجزء، وله ترجمة في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/٢٠٥ ــ ٢٠٧.
(3) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٩٢ من هذا الجزء.
(4) في النسخ الخطية: فارس الدين، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٠، وسيأتي على الصواب بعد عدة أسطر. وانظر «الاعتبار»: ٤٥.
(5) سترد ترجمته ص ٣٩٠ من هذا الجزء، وأخباره مبثوثة في أثنائه.
(6) سيرد أن عباساً وابنه قتلا في المعركة. انظر ص ٣١٤ من هذا الجزء.
(7) الكراع: اسم يجمع البغال والخيول والجمال. وقيل: الخيل والسلاح. انظر «اللسان» (كرع)، و«صبح الأعشىٰ»: ٤٧٨/٣.
(8) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٢٩ ــ ٣٣٠.

قلت: وفي ذلك يقول عُمارة اليمني(١) من قصيدةٍ له:

لكم يـابني رُزِّيـك لا زال ظِلُّكم مواطِنُ، سُحْبُ الموتِ فيها مواطِرُ
سَلَلْتُمْ على عَبَّاس بيضَ صوارمٍ قهـرتم بها سُلْطانَـه وهو قـاهِـرُ

وذكر الأمير أُسامة بن مُنقذ في «كتاب الاعتبار» أن نصر بنَ عباس لما قَتَل ابن السَّلَّار وتوزَّر أبوه عَبَّاس كان نصر يُعاشر الخليفة الظَّافر ويخالطه، وعبَّاس كارهٌ لذلك مستوحش من ابنه، لعلمه بمذهب القَوْم وضَرْبِ بعض النَّاس ببعضٍ حتى يفنوهم. وشرَعَ الظَّافر مـع ابن عباس في حمله على أبيه(٢)، ومواصلته بالعطايا الكثيرة، ففاتحني في ذلك، فنهيتُه، فأطلـعَ والدَه على الأمر، فاستماله أبوه ولطف به، وقرَّر معه قتلَ الظَّافر، وكانا يخرجان متنكِّرين، وهما تِرْبان سنُّهما واحد. فدعاه إلى داره، ورتَّب من أصحابه معه في جانب الدَّار نفراً، ثم لما استقرَّ به المجلس خرجوا عليه فقتلوه، وذلك سَلْـخ محرَّم سنة تسـع وأربعين وخمس مئة، ورماه(٣) في جُبِّ الـدار. وأصبـح عباس جاء إلى القصر ضحوة نهارٍ للسَّلام، [فجلس](٤) في مجلس الوزارة ينتظر جلوس الظَّافر، فلما تجاوز وقت جلوسه استدعى زِمام القصر(٥)

(١) سيرد الحديث عنه في ٢/ ٢٨٢ وما بعدها. من هذا الكتاب..

(٢) كان الظافر يرمي إلى قتل عباس، وأن يصير ولده نصر في الوزارة مكانه. انظر «الاعتبار»: ٤٢.

(٣) في (م) وزره، أي حمله. يقال: وزر يزر: إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة. انظر «اللسان» (وزر).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) قال القلقشندي: «وظيفة زمام القصور بمثابة زمام الدور في زماننا». وزمام دار تعني الخـادم الموكل بحفظ الحريم. ولفظ «زمام» أصلها زنان ومعناه: النساء، ودار: ممسك، فيكون المعنى: ممسك النساء، بمعنى الموكل بحفظ الحريم، إلا أن العامة والخاصة قلبوا النونين فيه بميمين وأصبح يطلق لقب زمام دار على الذي يتحدث على باب ستارة السلطان أو الأمير من الخدام الخصيان، وهذه الوظيفة هي إحدى وظائف خدام الخليفة =

وقال: ما لمولانا ما جلس للسَّلام؟ فتبلَّد[1] الأُستاذ في الجواب، فصاح عليه وقال: مالك لا تجاوبني؟ قال: يا مولاي، مولانا ما ندري أين هو. قال: مثلُ مولانا يضيع! ارجع واكشف الحال. فمضى ورجع، فقال: ما وجدنا مولانا. فقال[2]: يبقى النَّاس بلا خليفة! ادخل إلى الموالي إخوته يخرجُ منهم واحدٌ لنبايعه. فمضى[3] وعاد، وقال: الموالي يقولون لك: ما لَنا في الأمر شيء، والدُنا عزله عنا، وجعله في الظَّافر، والأمر لولده بعده. قال[4]: أخرجوه حتى نبايعه[5]. ٩٨/١

قال: وعَبَّاسٌ قد قتل الظَّافر، وعزم على أن يقول لإخوته أنتم قتلتموه، ويقتلهم. فخرج ولدُ الظافر، ولعلَّ عمره خمس سنين، يحمله الأُستاذ، فأخـذه عَبَّاس فحمله وبكى، وبكى النَّاس، ثم دخل به إلى مجلس أبيه، وهو حامله، وفيه أولاد الحافظ[6].

قال ابن منقذ: ونحن في الرِّواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجلٍ من المِصْريين، فما راعنا إلَّا قومٌ قد خرجوا من المجلس مجتمعين إلى القاعة، فإذا السُّيوف تختلف على إنسانٍ، فقلت لغُلامٍ لي أَرْمَنِيّ: أبصر من هذا المقتول. فمضى وعاد [وقال][7]: ما هؤلاء مسلمين! هذا مولاي أبو

= من الأستاذين المحنكين ـ أي الذين يدورون عمائهم على أحناكهم ـ وهم من أجل الخدام، وأقربهم إلى الخليفة وأخصهم به. انظر «صبح الأعشى»: ٤٨١/٣، ٤٨٤ ـ ٤٨٥، ٤٥٩/٥ ـ ٤٦٠.

(١) في (م) فتبلَّه.
(٢) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: عباس.
(٣) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: زمام.
(٤) في الأصل تحت هذه الكلمة بخط دقيق: عباس.
(٥) انظر «الاعتبار»: ٤١ ـ ٤٤.
(٦) المصدر السابق.
(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

الأمانة جبريل بن الحافظ قد قتلوه، وواحدٌ قد شقَّ بطنَهُ يجذب مصارينَهُ. ثم خرج عباس وهو آخذ برأس الأمير يوسف تحت إبطه وفي رأسه ضربةُ سيف، والدَّم يفور منها، وأبو البقاء ابن أخيهم مع ابنه نصر، ثم أدخلوهما خزانة في القصر فقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجرَّد قال: وكان ذلك اليوم من أشدِّ الأيام التي جرت علي، لأني رأيت من الفساد والبغي ما ينكره الله سبحانه وجميعُ خلقه(١).

وذكر الأمير أسامة بن منقذ في «ديوانه»(٢) قال: كان لعبَّاس أربع مئة جمل تحمل أثقاله، ومئتا بغل، ومئتا جنيب(٣)، فلما أراد الخروج من مصر يوم الجمعة رابع [عشر](٤) ربيع الأول سنة تسعٍ وأربعين وخمس مئة، وقد قام عليه أهل مصر وعسكريَّتُها؛ فارسُهُمْ وراجلُهم، تقدم بشدِّ خيله وبغاله وجماله ليتحمَّل ويخرج، فلما صار الجميع على باب داره، وقد ملأت ذلك الفضاء إلى قصر السُّلْطان إلى الإيوان، خرج غلامٌ يقال له عنبر كان على أشغاله، وغلمانُه كلُّهم تحت يده، فقال للجمَّالين والخَرْبَنْدية(٥) والرِّكابية(٦): روحُوا إلى بيوتكم وسيِّبوا الدَّوابَّ. ففعلوا ذلك، وانحاز هو إلى المصريين

---

(١) انظر «الاعتبار»: ٤١ ـ ٤٤.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ولم أجد الخبر في «ديوانه» المطبوع، والخبر في «الاعتبار»، مع اختلاف في الإيراد.

(٣) جمعها جنائب، وهي الخيول التي تسير وراء السلطان أو الأمير في الحروب استعداداً لاحتمال الحاجة إليها. انظر «تكملة المعاجم العربية». دوزي: ١/٢٩٦.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) هم المكارون، مفردها المكاري: الذي يكري دابته، أي يؤجرها. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي ١/٣٥٧، و«معجم متن اللغة»: ٥/٥٩.

(٦) هم الذين يحملون السلاح حول الخليفة عند ركوبه. انظر «التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: ١٦١.

يقاتله معهم. وكان ما جرى من تهميل[1] الدواب لُطفاً من الله تعالى به، فإنها سَدَّت الطريق بينَه وبين المصريين، ومنعتهم من الوصول إليه، وهم في خلقٍ كثير، ونحن في قلة ما نبلغُ خمسين رجلاً، وغلمان عباس ـ مماليكه ـ في ألف ومئتي غلام بالخيول الجياد والسِّلاح التَّام، وثماني مئة فارس من الأتراك، خرجوا كلهم من باب النَّصْر، ووقفوا في الفضاء الذي بينه وبين رأس الطَّابية فراراً من القتال. فشرع المصريون في نهب الخيل والجمال والبغال، فلما فتحوا طريقهم إليه خرج عبَّاس من باب النصر، وجاؤوا في إثره حتى أقفلوا الباب وعادوا إلى نهب دوره. وكان عباس قد أحضر من العرب نحواً من ثلاثة آلاف فارس يَتَقوَّى بهم على المصريين، واستحلفهم، ووهبهم هباتٍ عظيمة. فلما خرج من باب مصر غدروا به وقاتلوه أشدَّ قتال ستة أيام، يقاتلهم من الفجر إلى الليل، فإذا نزل أمهلوه إلى نصف اللَّيل، ثم يركبون ويهدُّون خيلهم على جانب النَّاس، ويصيحون صيحةً واحدة، فتجفل الخيلُ وتقطع، ويخرج إليهم منها ما فيه مُنَّة وقوة فيأخذونه، فكان ذلك سببُ هلاك خيله، وتمكُّنِ الإفرنج منه، واشتغاله عن سلوك طريق لا يقصدُ الفرنج إليه[2].

قال: ودامت الحرب بينه وبينهم من يوم الجمعه ضُحى نهار إلى آخر يوم الخميس، ثم جاؤوا إليه وأخذوا منه حَسَباً[3] على أموالهم وأنفسهم

---

(١) في الأصل: تمهيد، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م). أي تركها مهملة، انظر «الاعتبار»: ٤٨.

(٢) انظر «الاعتبار»: ٤٧ ـ ٤٨.

(٣) في «الاعتبار»: ٥٠ «ولما أراد العرب الذين يقاتلونا الرجوع عنا جاؤونا يطلبون حسبنا إذا عدنا». قلت: لعلها بمعنى الأمان لهم.

وبيوتهم ظناً منهم أن له عودةً إليهم، وانصرفوا عنه وهم أكثر من ثلاثة آلاف فارس. ويوم الأحد صبَّحهم الإفرنج وقد هلك الناس من الجوع والعطش، وماتت خيلهم، فقتلوا عباساً وابنه الأوسط[1]، وأسروا ابنَه الأكبر[2]، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا نساء عباس وخزائنه، وأسروا أولاداً له صِغاراً وانصرفوا[3].

قلتُ: عباس هذا هو عباس بن أبي الفتوح بن تميم بن المعز بن باديس الحِمْيَري، ويلقب بالأفضل رُكن الدين، ويكنى بأبي الفَضْل، ورأيتُ علامته في الكتب أيام وزارته: «الحمد لله وبه أثق». وفيه يقول أسامة بن منقذ:

لقد عَمَّ جودُ الأَفْضَل السَّيِّدِ الوَرَى   وأغنى غَناءَ الغَيْثِ حيثُ يَصُوبُ[4]

ومن أبيات لابن أسعد[5] فيه لما قَتَلَ الظَّافر[6]:

وأَنْفَقَ من إنعامهم في هلاكهم   وأَظْهَرَ ما قد كانَ عنه يُنافِقُ[7]
ومدَّ يداً هم طوَّلوها إليهم   وحلَّتْ بأهل القَصْر منه البوائقُ
سقى رَبَّه كأسَ المنايا وما انقضى   له الشَّهْرُ إلا وهو للكأسِ ذَائِق[8]

---

(١) في «الاعتبار»: ٥٠ حسام الملك.

(٢) هو نصر بن عباس، ناصر الدين، وقد بعثه الفرنج في قفص من الحديد إلى أخت الظافر، وذلك سنة (٥٥٠هـ) فقُطعت يده، وضُرب بالمقارع، وقص لحمه، ثم صلب فمات، فبقي معلقاً شهوراً ثم أحرق. انظر «وفيات الأعيان» ٣/٤٩٣، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/٢٠٧.

(٣) انظر «الاعتبار»: ٥٠.

(٤) البيت في «ديوانه»: ١٦٢.

(٥) انظر ص ٤٠٢ من هذا الجزء.

(٦) في هامش الأصل: «حاشية: أبيات ابن أسعد هذه من قصيدة مَدْحِ الصالح بن رزيك، أولها «أيرجع عصر بالجزيرة رائقُ».

(٧) هذا البيت هو في «الخريدة» صدر بيت وعجز بيت آخر:

ولما رأى عباس للغدر مذهباً   وأظهر ما قد كان عنه ينافق
وأنفق من إنعامهم في هلاكهم   جزاء به عمري خليق ولائق

(٨) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤، وهي في «تكملة ديوانه» مستدركة من المصدر المذكور.

وكان عبَّاس قد تخيَّل من أُسامة عند خروجه من مصر، لما يعلمه بينه وبين الملك الصَّالح من المودَّة والمصافاة، فأحضره واستحلفه أنه لا ينفصل عنه، ثم لم يقنعه ذلك حتى نفَّذ من أستاذيٍّ داره* من يدخل على حُرَمه إلى داره، فأخذ أهله وأولاده، فتركهم عند أهله وأولاده، وقال له: قد حملتُ ثقلهم عنك، لهم أسوة بوالدة ناصر الدين ـ يعني ولده ناصر الدين ـ 99/1
وبإخوانه. فلما خرجوا، ونُهبت دورُهم ودوابُّهم عَجَزَ عن حمل من يخصُّه، فأعادهم أسامة من بِلْبيس*، ونفَّذ إلى الملك الصَّالح يقول له: قد نفَّذت أهلي وأولادي إليك، وأنت وليُّ ما تراه فيهم. فأنزلهم في دارٍ، وأجرى عليهم الجاري الواسع، وأحسن إليهم غاية الإحسان. وكان يكاتبه في الرُّجوع إلى مصر، وهو يتلطَّف الأمر معه قصداً لخلاص أهله وأولاده، فلما عرف ذلك منه نسبه إلى وحشة قلبه من القصور، ونفوره من المصريين. فنفَّذ إليه يقول له: تصل إلى مكَّة في الموسم، ويلقاك رسولي إليها يسلِّم إليك مدينة أُسوان، وأنفذ إليك أهلك، وأمدّك بالأموال، وهي ـ كما علمت ـ الثَّغْر بيننا وبين السُّودان، وما يسُدُّ ذلك الثغر مثلك. وأكثر من الوعد، وذكر رغبته في قُرْبه، ورعايته ما بينه وبينه من قديم الصُّحبة. فاستأذن أُسامة في ذلك الملك العادل نور الدين، وكان في خدمته. فقال: يا فلان، ما تساوي الحياة الشتات والرُّجوع إلى الأخطار والبعد عن الأوطان. ومنعه من ذلك بإحسانه، ووعده أن يستخلص أهله. فكتب أسامة إلى الملك الصَّالح يعتذر ويسأله تسيير أهله. وتردَّدت بينهما مكاتبات، وأشعار مُتَّصلات، إلى أن سيَّرَهم، وهم نيِّفٌ وخمسون نسمة، في الإكرام والاحترام إلى آخر ولايته. وذكر أن أهل القصور والأمراء أنكروا تسييرهم، وقالوا: يكون أهله رهائن عندنا لنأمن ما يكون منه. ووصله بعضُ أصحابه من دمشق، وهو بالعسكر النُّوري بحلب، فأخبره أن من كان له بمصر من الأهل والأولاد والأصحاب وصلوا، وأن المركب انكسر بهم في ساحل عكا، ونهب الفرنج كل ما فيه، ولم يصلوا إلى دمشق إلا

بأنفسهم، وأن متملِّك الإفرنج أعطاهم خمس مئة دينار أصلحوا منها حالهم، واكتَروْا ظَهْراً إلى دمشق[1]، فقال أسامة:

إلـى الله أشكو فُرْقةً دَمِيَتْ لها ... جُفُوني وأذْكَتْ بالهُمومِ ضَميري
تمادَتْ إلى أنْ لاذَتِ النَّفْسُ بالمنى ... وطـارَتْ بها الأشـواقُ كلَّ مَـطيـرِ
فلمـا قضى اللَّهُ اللقـاءَ تعـرَّضَتْ ... مسـاءةُ دهْري في طريقِ سُروري[2]

فصـــل

قال أبو يعلى: وفي آخر ربيع الأوَّل وصل الأمير مجد الدين أبو بكر [محمد][3] نائب نور الدين في حلب إلى دمشق عقيب عوده من الحج، وأقام أياماً وعاد إلى منصبه في حلب وتدبير أعمالها.

قلت: هذا هو ابن الدَّاية، وكان نور الدين كثير الاعتماد عليه وعلى أخوته، وسيتكرَّر ذكرهم في هذا الكتاب، ومجد الدين أكبر أُخوتـه، وقد مدحه الشعراء. قال القَيْسَرَاني من بعض ما قاله فيه:

دعوا ما مضى مِنْ قَبْلِ هذا لما بَعْدُ ... فأُقْسِمُ لولا المجدُ ما عُرِفَ المَجْدُ
كـريمٌ سَمَتْ أوصـافُـه لِعُفـاتـه[4] ... قـرائن كـل اثنين[5] بينهمـا عِقْـدُ
محيَّـاه والبُشْـرى ويُمنـاه والنَّـدى ... ونجـواه والدُّنيـا وتقواه والـزُّهْدُ[6]

(١) انظر «الاعتبار»: ٤٦، ٤٩ ـ ٥١، ٥٦ ـ ٥٨.
(٢) الأبيات في «ديوانه»: ٧٦.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) العفاة: الأضياف وطلاب المعروف. «اللسان» (عفا).
(٥) في الأصل: اثنتين، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) في (م) ونجواه والتقوى ودنياه والزهد.

ففي قربه الزُّلْفى وفي وَعْدِه الغِنَى وفي نَيْله الحُسْنى وفي رأيه الرُّشْدُ
إذا وَجْهُ نورِ الدين قابل مَجْدَه فَقُلْ في كمالِ البَدْرِ قابلَه[1] السَّعْدُ

وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[2]، وولي الحرمين ولدُه قاسم بن هاشم[3]؛ وهو الذي أرسل عُمارة اليمني [الفقيه][4] الشَّاعر إلى الديار المِصْرية، وسيأتي ذكره[5].

قال أبو يعلى: وفي ثامن جُمادى الأولى ورد الخبر من ناحية مِصْر بأن عدَّةً وافرة من مراكب الفرنـج من صِقِلِّية وصلت إلى مدينة تِنِّيس* على حين غَفْلَةٍ من أهلها، فهجمت عليها، وقتلت وأسرت، وسَبَتْ ونهبت، وعادت بالغنائم بعد ثلاثة أيام، وتركتها صِفْراً. وبعد ذلك عاد من كان هرب منها في البحر بعد الحادثة، ومن سَلِمَ واختفى، وضاقت الصُّدور عند استماع هذا الخبر المكروه[6].

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة القاضي فخر الدين أبـي منصور محمد بن عبد الصَّمد بن الطَّرَسُوسي، وكان ذا هِمَّةٍ ماضية، ويقظة

---

(١) في (م) قارنه.
(٢) ولي هاشم بعد أبيه سنة (٥٢٧هـ)، وفي سنة (٥٣٩هـ) حدثت فتنة في الموسم بينه وبين أمير الحاج، نهب فيها أصحاب هاشم الحجاجَ وهم في المسجد يطوفون ويصلون. انظر «النكت العصرية»: ٣١ ــ ٣٢، و«الكامل»: ١١/١٠٣، و«العقد الثمين»: ٧/٣٦١ ــ ٣٦٢ و«سمط النجوم العوالي»: ٤/٢٠٤، و«خلاصة الكلام»: ٢٠، وضبط «فليته» من «تاج العروس» (فلت).
(٣) قتل سنة (٥٥٦هـ). انظر «العقد الثمين»: ٧/٣٢ ــ ٣٦ و«سمط النجوم العوالي»: ٤/٢٠٤، وفي «خلاصة الكلام»: ٢٠ قتل سنة (٥٥٧هـ).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) انظر ص ٣٢٢ من هذا الجزء. وص ٣٠٠ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.
(٦) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣١.

[مضيئة] ومروءة ظاهرة في داره وولدِه، ومن يلمُّ به من غريبٍ ووافد، وقد نفذ أمره وتصرُّفه في أعمال حلب في الأيام النُّورية، وأثَّر في الوقوف أثراً حسناً توفَّر به ارتفاعها(١)، ثم اعتزل عن ذلك أجمل اعتزال(٢).

ثم دخلت سنة خمسين [وخمس مئة](٣)

ففيها تسلَّم نور الدين بَعْلَبَكَّ من واليها ضحَّاك، وذكر ابنُ الأثير أن ذلك كان في سنة اثنتين وخمسين، وقال: كان ضحَّاك البِقاعي ينوبُ ببعلبك عن صاحب دمشق، فلما ملك نور الدين دمشق امتنع بها، ولم يمكن نور الدين محاصرتها لقربه من الفرنج، فلطَّف الحال معه إلى ذلك الوقت، فملكها، واستولى عليها(٤).

وقال ابنُ أبي طي: لما فتح نور الدين دمشق اتَّصل ذلك بنجم الدين أيوب، فكاتبَ نور الدين في تسليم بعلبك، فأنفذ إليه وتسلَّمها منه، وألحقه بأصحابه. قال: ورأيتُ بعض المؤرِّخين قد ذكر أن مجير الدين صاحب دمشق أنزل نجم الدين من القلعة وجعله في البلد، وولَّى القلعة رجلاً يقال له ضحَّاك. فلما ملك نور الدين دمشق خرج إلى بعلبك واستنزل منها
١/١٠٠ ضَحَّاكاً، وتوسَّط أسد الدين [في](٥) أمر أخيه نجم الدين مع نور الدين، فأقطعه إقطاعاً وسيَّره إلى دمشق، فأقام فيها، وردَّ نظر دمشق إليه، وولَّى ولده

---

(١) أي إيرادها، انظر «معجم متن اللغة»: ٢/٦٢١.
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣١، وما بين حاصرتين منه، وانظر «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء»: ٤/٢٢٧ ـ ٢٢٨.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) انظر «الكامل»: ١١/٢٢٨.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من مطبوع الروضتين طبعة وادي النيل: ١/١٠٠.

تُورانشاه شِحْنَكية* دمشق، فساسها أحسن سياسة، ولم يزل بها إلى أن توفي، [فولى][1] صلاح الدين شِحْنَكيَّة دمشق.

قلت: هذا وهم. تُورانشاه هو الملك المُعَظَّم شمس الدولة[2] الذي فتح اليمن في أيام أخيه صلاح الدين، فكيف يقول إنه مات قبل أن يلي صلاح الدين شِحْنَكية* دمشق؟ وأما كونه ولي الشِحْنكية بدمشق قبل صلاح الدين فهذا قريب، وقد رأيتُ ما يؤكده. قرأتُ في «ديوان العَرْقَلَة»: وقال يهنئه[3] بالشحنكية بدمشق وهو في دار عمه أسد الدين شِيركوه ابن شاذي:

قلتُ لحُسَّادك زيدوا في الحَسَدْ　　قد سكَنَ الدارَ وقد حاز البَلَدْ
لا تعجبوا إنْ حَلَّ دارَ عَمِّه　　أما تَحُلُّ الشمسُ في بُرْجِ الأَسَدْ[4]

وقال في صلاح الدين لما ولي الشحنكية:

لصوصَ الشَّامِ توبوا من ذنوب　　تكفِّرها العقوبةُ والصِّفادُ
لئن كان الفَسَادُ لكم صلاحاً　　فمولاي الصَّلاح لكم فَسَادُ[5]

وله فيه:

رُوَيْدَكُمُ يالصوصَ الشَّآم　　فإني لكمْ ناصحٌ في مقالي
وإياكُمُ وسميَّ النَّبيّ (م) يوسفَ ربِّ الحِجَا والجمالِ
فذاك مقطِّعُ أيدي النِّساء　　وهذا مُقَطِّعُ أيدي الرِّجالِ[6]

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٧٥ من هذا الجزء. ومعنى تورانشاه: ملك الشرق. انظر «وفيات الأعيان»: ١/٣٠٩.
(٣) أي يهنىء شمس الدولة تورانشاه.
(٤) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٣٦.
(٥) «ديوان عرقلة»: ٣٥ ـ ٣٦.
(٦) «ديوان عرقلة»: ٨٧.

قال ابن أبي طي: وولي صلاح الدين شِحْنَكِيَّة* دمشق والديوان، فأقام فيه أياماً، ثم تركه وصار إلى حلب لأجل واقعةٍ جرت بينه وبين صاحب الديوان أبي سالم بن هَمَّام(١). فأنفذ نور الدين وأخذ ابن هَمَّام وحلَقَ لحيته، وطيف به في دمشق.

قلتُ: وابن هَمَّام هذا هو الذي ذكره الشنباشي(٢) في قصيدته وأشار إلى حَلْقِ لحيته بقوله:

كـأبي سـالم بن هَمَّـامِ لمـا قـامَ للنُّصْحِ عـاد يمشي مُلَثَّمْ

ثم قال ابن أبي طي: واستخصَّ نورُ الدين صلاحَ الدين وألحقه بخواصِّه، فكان لا يفارقه في سَفَرٍ ولا حضر، وكان يفوق الناس جميعاً في لعب الكرة، وكان نور الدين يحبُّ لعب الكرة(٣).

قال أبو يعلى: ونزل نور الدين بعسكره بالأعمال المختصَّة بالملك قليج أرسلان بن الملك مسعـود بن [قليج أرسلان بن] سليمان بن قتلمش(٤) ملك قُونية* وما والاها، فملك عِدَّةً من قلاعها وحصونها بالسَّيْف والأمان، وكان الملك قليج أرسلان وأخواه ذو النون ودولات مشتغلين بمحاربة أولاد

---

(١) أبو سالم بن همَّام الحلبي، ولي مشارفة الديوان بدمشق بعناية أسد الدين شيركوه نائب دمشق وقتئذٍ، فظهرت منه جنايات وسعايات فقبض عليه، واعتقل، ثم خرج أمر نور الدين سنة (٥٥١هـ) بالكشف عن سعاياته، فحلقت لحيته، وأركب حماراً مقلوباً، وخلفه من يعلوه بالدرة، ثم طيف به في أسواق دمشق بعد سخام وجهه، ونودي عليه: هذا جزاء كل خائن ونمام. ثم نفي إلى حلب. انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٦، وانظر عن وظيفة مشارفة الديوان «قوانين الدواوين»: ٣٠٢ ـ ٣٠٣، و«نهاية الأرب»: ٣٠٤/٨.

(٢) لم أهتد إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.

(٣) هي ما كان يسمى وقتئذٍ بالجوكان. انظرها في كشاف المصطلحات.

(٤) توفي سنة (٥٨٨هـ) وكان قد وزع بلاده على أولاده سنة (٥٨٦هـ) فارتكب بذلك سياسة خاطئة كانت سبباً في تفكك وحدة الحكم لأول مرة. انظر «الكامل»: ٨٧/١٢ ـ ٨٩، وما بين حاصرتين منه، و «الدول الإسلامية»: ٣١٤/١ وسيرد خبر وفاته ص ٣٤٩ =

الدانشمند[١]، ونُصروا عليهم في وقعةٍ كانت بأقصرا* في شعبان. فلما عاد قليج أرسلان، وعرف ما كان من نور الدين في بلاده عَظُمَ عليه هذا الأمر واستبشعه مع ما بينهما من الموادعة والمهادنة والصهر، وراسله بالمعاتبة[٢] والإنكار، والوعيد والتهديد، فأجابه نور الدين بحُسْنِ الاعتذار وجميل المقال، وبقي الأمر بينها مستمراً على هذه الحال[٣]، وعاد نور الدين من حلب إلى دمشق[٤].

قال: وولي الأسطول المصري مقدَّمٌ شديد البأس، بصير بأشغال البحر، فاختار جماعةً من رجال البحر يتكلَّمون بلسان الفرنج، وألبسهم ثيابَهم، ونهضَ بهم في عدَّة من المراكب الأسطولية، وأقلع في البحر لكشف الأماكن والمكامن، والمسالك المعروفة بمراكب الروم وتعرُّف أحوالها، ثم قصد ميناء صور، وقد ذُكر له أنَّ فيه شَخْتورة[٥] روميَّة [كبيرة][٦] فيها رجالٌ كثير، ومال وافر، فهجم عليها وملكها، وقَتَلَ من فيها، واستولى على ما حوته، وأقام ثلاثة أيام، ثم أحرقها وعاد عنها في البحر، فظفر بمراكب حُجَّاج الفرنج، فقتل وانتهب وأسر، وعاد إلى مصر بالغنائم والأسرى[٧].

قلتُ: وفي هذه السَّنة ورد أمر الخليفة ببغداد ـ وهو المقتفي ـ إلى

= من الجزء الرابع.

(١) الدانشمنديون حكموا في الأناضول. انظر عن دولتهم باختصار كتاب «الدول الإسلامية»: ١/٣٢٨ ـ ٣٣١.

(٢) في النسخ الخطية: بالمكاتبة، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق.

(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٢.

(٥) هي سفينة تجارية كبيرة، ويقال شختورة أيضاً للسفينة الصغيرة التي بسار واحد أو بمجدافين. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ١/٧٣٣.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل وفي (ل): كبيرة رومية، والمثبت من (م).

(٧) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٢.

أمير الحرمين قاسم بن هاشم[1]، يأمره أن يركِّبَ على باب الكعبة المكرَّمة بابَ ساج[2] جديداً قد ألبس جميع خشبه فضَّة وطُلي بذهب، وأن يأخُذَ أمير الحرمين حلية الباب القديم لنفسه، ويسيِّرَ إليه خشب الباب القديم مجرَّداً ليجعله تابوتاً يدفن فيه عند موته. ذكر ذلك الفقيه عُمارة الشَّاعر وقال: سألني أمير الحرمين أن أبيع له الفِضَّة التي أخذها من الباب في اليمن، ومبلغ وزنها خمسة عشر ألف دِرْهم، فتوجَّهتُ إلى زَبيد وعدن من مكة في صفر سنة إحدى وخمسين، وحججتُ في الموسم منها، فدفعتُ لأمير الحرمين ماله، وألزمني الترسُّل عنه إلى مصر، يعني مرة ثانية، بسبب جنايةٍ جناها خَدَمُه على حاج مصر والشَّام[3].

ثم دخلت سنة إحدى وخمسين [وخمس مئة][4]

قال ابن الأثير: فيها حاصر نور الدِّين قلعة حارِم*، وهي حصن غربيّ
١٠١/١ حَلَب بالقُرْب من أنطاكية، وضيَّق على أهلها؛ وهي من أمنع الحصون وأحصنها في نحور المسلمين فاجتمعت الفرنج، من قَرُبَ منها ومن بَعُدَ، وساروا نحوه لمنعه، وكان بالحصن شيطانٌ من شياطين الفرنج يرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يعرفهم قوَّتهم، وأنهم قادرون على حفظ الحصن والذبِّ عنه، بما عندهم من العَدد والعُدد وحصانة القلعة، ويشير عليهم بالمطاولة وترك اللقاء، وقال لهم: إن لقيتموه هزمكم وأخذ حارِم* وغيرها، وإن حفظتم أنفسكم منه أطقنا الامتناع عليه. فَفَعلوا ما أشار به عليهم، وراسلوا نورَ الدين في الصُّلْح على أن يعطوه حصَّة من أعمال حارِم، فأبى أن

(١) سلف ذكره ص ٣١٧ من هذا الجزء.
(٢) الساج: الخشب الذي يجلب من الهند. انظر «اللسان» (سوج).
(٣) انظر «النكت العصرية»: ٤١ ــ ٤٢.
(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

يجيبهم إلا على مناصفة الولاية، فأجابوه إلى ذلك، فصالحهم وعاد. وفي ذلك يقول بعض الشعراء من قصيدةٍ. فذكر أبياتاً[١] من قصيدةٍ لابن مُنير. وقد سبق أن ابن منير توفي سنة ثمان وأربعين[٢]. فإمَّا أن يكون ابن مُنير قال هذا الشعر في غير هذه الغَزَاة، وإما أن تكون هذه الغزاة في غير هذه السنة.

وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه ويهنئه بالعود من غَزَاة حارِم:

ما فَوْقَ شَأْوِكَ في العُلا مزدادُ ... فعلامَ يُقلقُ عَزْمَكَ الإجهادُ
هِمَمٌ ضَرَبْنَ على السَّماء سُرَادِقاً ... فالشُّهْبُ أطنابٌ لها وعِمَادُ
أنتَ الذي خَطَبَتْ له حُسَّادُه ... والفَضْلُ ما اعْتَرَفَتْ به الحُسَّادُ
قامَ الدَّليلُ وسلَّم الخَصْمُ اليَلَنْـ ... ـدَدُ[٣] وانجلى للآثر الإسْنَادُ
زهَرت لدولتك البلادُ فَرَوْحُها ... أرِجُ المهبِّ ودَوْحُها ميَّادُ
أحيا ربيعُ العَدْلِ مَيْتَ رُبوعها ... فالبَرْضُ[٤] لُجٌّ والهشيمُ مَرَادُ[٥]
فالعيش إلا في جنابك ميتة ... والنَّوم إلا في حِمَاك سُهادُ
وإذا العِدَى زرعوا النِّفاق وأحصدوا ... كيداً فَعَزْمُكَ ناقضٌ حَصَّادُ
بالمُقْرَبات[٦] كأنَّ فوقَ مُتُونها ... جِنَّ الملا وكأنَّها أَطْوَادُ
تذأى ومن وحي الكُماةِ صفورُها ... فالزَّجْرُ قَيْدٌ والنِّدَا قَيَّادُ
سُحْبٌ إذا سَحَبَتْ بأرضٍ ذَيْلَها ... فالحَزْن سَهْلٌ والهِضَابُ وهادُ

(١) انظر «الباهر»: ١٠٩ ـ ١١٠، و«الكامل»: ١١/٢٠٨ ـ ٢٠٩.
(٢) انظر ص ٢٩٣ من هذا الجزء.
(٣) اليلندد: الشديد الخصومة. «اللسان» (لدد).
(٤) البرض: الماء القليل. انظر «اللسان» (برض).
(٥) أي موضع ارتياد. انظر «اللسان» (ورد).
(٦) الخيل التي تكون قريبة معدة، التي ضمرت للركوب، مفردها: المقربة. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/٥٢٢.

يهدي النَّواظر في دُجُنَّةِ نَقْعِها ... بَـدْرٌ بسـرجِـك نَيِّـرٌ وقَّـادُ[1]

أَلْبَسْتَ دِيْنَ محمـدٍ يـانـورَه ... عِـزًّا لـه فَـوْقَ السُّهـا[2] إسـآد[3]

مـا زلت تَسْمُكُـه[4] بميَّـاد القَنا ... حتـى تشـقَّـف عـودُه الـمُـنْـآدُ

لم يبق مُذ أَرْهَفْتَ[5] عَزْمَك دونَه ... عَـدَدٌ[6] يُرَاعُ بـه ولا استِعْـدَادُ

إن المَنَـابـرَ لـو تُـطيقُ تكلُّمـاً ... حَمِـدَتْك عن خُـطبائها الأَعْـوادُ

ولئن حَمَتْ مِنْـكَ الأعـادي مُهلةً ... فَلَهُمْ إلى المَرْعَى الـوبـيِّ معاد

وَلَكَمْ لَكُمْ في أرضهم من مَشْهَدٍ ... قـامتْ بـه لِـظُبـاكمُ الأَشْهـادُ

مُلقٍ بـأطـرافِ الفـرنجـة كَلْكَـلاً ... طَـرَفـاه ضَـرْبٌ صادِقٌ وجِـلادُ

حاموا فلما عايَنُـوا خَوْضَ الـرَّدى ... حـاموا بـرائشِ كَيْـدِهم أو كـادُوا

ورجـا البرنس* وقـد تبـرنس ذِلَّـةً ... حـرماً بحـارِم* والمصاد مَصَـادُ

ضَجَّتْ ثعـالبُه فـأَخْـرَسَ جَـرْسَها ... بيضٌ تنـاسب في الحديـدِ جِـداد

وَسَـواعِـدٌ ضَـرَبَتْ بهنَّ وبـالقَنَـا ... مـن دونِ مِـلَّةِ أحـمـدَ الأسـدادُ

يُـرْكَـزْنَ في حَلَبٍ ومن أفنـانها ... تـجـني فـواكِـهَ أمِنـهـا بَغْـدَادُ

يـا مَنْ إذا عَصَفَتْ زعازِعُ بـأسـه ... خَمَدَتْ جحيمُ الشِّرْكِ فَهْيَ رَمَـادُ

عجبـاً لقومٍ حـاولوك وحـاولـوا[7] ... عَـوداً فـواتـاهـم إليـه مُـرَادُ

ورَأَوْا لـواءَ النَّصر فـوْقَك خـافِقاً ... فـأقـامَ منهم في الضُّلوعِ فُـؤادُ

---

(١) هذا البيت والذي قبله ساقط من (م).

(٢) كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى. انظر «اللسان» (سها).

(٣) الإسآد: سير الليـل. انظر «اللسان» (سأد).

(٤) في الأصل: تسكمه، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) في (م) راهقت.

(٦) في (م) عدداً، وهو وهم.

(٧) في (ل) وجاولوا.

من مُنْكِرٌ أن ينسِفَ السَّيلُ الزُّبىٰ[1] وأبـوه ذاك الـعـارِضُ الـمـدَّادُ
أو أن يعيدَ الشَّمْسَ كاسِفَـةَ السَّنا نـارٌ لهـا ذاك الشِّـهـابِ زِنـادُ
١٠٢/١ لا ينفـعُ الآباء ما سمكوا من الْـ ـعـلْيـاءِ حتَّـى تـرفـعَ الأولادُ
ملكٌ يُقَيِّـدُ[2] خـوفُـه ورجـاؤه ولـقلَّمـا تـتـضافـر[3] الأَضْدَادُ

وقال يهنئه بالنَّصر يوم حارِم* قصيدةً أولُها:

* لملكَ ما نشاءُ[4] من الدَّوامِ *

[يقول فيها][5]:

حَظِيْتَ من المعالي بالمعاني ولاذَ النَّـاسُ بَعْدَكَ بـالأسـامي
عـزيـز المُنْتَمى عـالي المـراقي بعيـد المُـرْتَمى غـالي المسـامي
فمـا أحـدٌ إلى العليـاء يُـدْلي بِمَحْـتِـدِك الـقسيميِّ القسـامي
أبـوك الـمُعْتَلي قـممَ الأعـادي إذا اسْتَعَـرَتْ مـذامـرةُ القُمـامِ
زكـا عِرْقُ العِـراقِ وقـد تكنَّى بـه وأطـال من شَمَـمِ الشَّـآمِ
وجـدُّك جَـدَّ حتى قـال قَـوْمٌ على الفَلَكِ ابتنى عَمَـدَ الخيامِ
فَـخَـرت فـفُـتَّ آبـاءً عِـظَامـاً إذا فَخَـرَ المُنَـافِـرُ بـالعِـظَامِ[6]
وقـفنـا والـنَّـواظِـرُ مسـجـدات وروح الـعِـزِّ داريُّ الـخِـتـامِ
أسـاطِرَ كـالـزَّبُـورِ مفصَّـلات كـأنَّـا مِـن صـلاةٍ في نِـظَامِ
لـدى ملكٍ سَجَـايـاه سِجَـالٌ تَـعَـاقَبُ بين عَـفْـوٍ وانتقـامِ

---

(١) مفردها الزُّبْية: الرابية التي يعلوها الماء. انظر «اللسان» (زبي).
(٢) في (م) تقيد.
(٣) في الأصل: تتظافر، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) في (م) تشاء.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) أي بالموتى.

فـأَهْـلَلْنَـا لـسـالِـفَـتَـيْ هِـلالٍ ... وكـفَّـرنْـا لـضـاحـكـتـي حُـسَـامِ
ذَهِلْنَـا والسِّماطُ يُخـالُ سِمْـطاً ... وقـد سَجَـدَ المقـاوِلُ للسَّـلامِ
هـلِ الدَّسْتُ استقـلَّ بليثِ غابٍ ... أم الفَلكُ ارْتَـدَى بَـدْرَ التَّمـامِ
كـريمٌ أكْثَـرَتْ يـدُه أيادي الـ ... ـعُفـاة[1] وقلَّلَتْ عَـدَدَ الكِـرَامِ
وخيـرُ سمـاعـه ضَـرْبُ مُـدَامٌ ... إذا طَـربَ الملوكُ إلى المُـدَامِ
تـطيـر بـه إلى العليـاء نَفْسٌ ... غَـروبٌ[2] عن مـلاءمـة المَـلَامِ
سقَى اللَّهُ العَـوامِـل من جبـالٍ ... شققـن النَّقْـع عن نَقْـعِ الأُوام
فكَمْ أنْـتَجْـتَ من أمَـلٍ عقيمٍ ... بـهـا وحَسَمْتَ مـن داءٍ عُقَـامِ
بـإنِّب* والـرِّعـال كـأنَّ ثـولاً ... تـطاوَحَ تـحتَ عيـر من إيام[3]
وأيدي الخيل تَـذْرَعُ لُجَّ[4] بحرٍ ... من الـدَّم مـزبـد الثَّجَّيْن طامي
مقـامٌ كنتَ قُـطْبَ رحـاه أرجى ... مـقـامٍ بيـن زَمْـزَمَ والـمَـقَـامِ
أَحلْتَ الـدينَ فيـه وكـان هِمًّا[5] ... عـزيـز القـوم مُعْتَـدِل القَـوَامِ
رميتَـهُـمُ بـأرعـن مـرجـحـنّ ... أبـارَهُـمُ وكـنـتَ أبـرَّ رامـي
وفي شجـراء حـارِمَ* شـاجـرتهم ... سـواهمُ كـالسهـام بكـالسِّهـامِ
نـظائـر[6] حمِّمت لهم حِمـامـاً ... تـطايـر تحتـه مثـل الحَـمَـامِ
فلو قـد مُثِّلَ الإسـلامُ شخصـاً ... لـرشَّف مـا وطئت من السِّلام[7]
حمـاه وقـد تنـاعسَ كُـلُّ راعٍ ... وقـامَ وقـد تقـاعَسَ كُـلُّ حـامِ
فـأكْذَبَ مُـدَّعين هَفُـوا وغـرُّوا ... بـأنَّ الأرضَ تـخـلو مـن إمـامِ

(١) العفاة: طلاب المعروف. «اللسان» (عفا).
(٢) في (م) عزوف.
(٣) الرعال: مفردها رعلة، وهي الخيل. والثول: جماعة النحل. العير: الحمار الوحشي. وإيام: الدخان.
(٤) في الأصل: ثبج، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) الهمّ: الشيخ الفاني. «القاموس المحيط» (همم).
(٦) في الأصل: مهملة، وفي (م) تطاير، والمثبت من (ل).
(٧) الأحجار «القاموس المحيط» (سلم).

أولي الأبصار كم هذا التعاشي ... عن النُّورِ المبين بل التَّعامي
عن القمرِ الذي يجلوه ظِلُّ الْـ ... ـعواصمِ في ضيا اللَّيلِ التِّهامي
هو المهديُّ لا مَنْ ضلَّ فيه ... كثير واستخفَّ سوى[1] هشامِ
وقائمُ عصرِنا لا ما تمنَّى ... به من صَوْغِ أَضْغاثِ المَنامِ
بنور الدين أُنشر كلُّ حقٍّ ... أُطيلَ ثواؤه تحت الرِّجامِ
وطالت قُبَّةُ الإسلامِ حتَّى اسـ ... ـتوت بين الفوارس والنَّعامِ
تطابقَ لاسمِه لَفْظٌ ومعنًى ... أحلَّاه الطِّباق على الأنامِ
جرى قُدَّامه ابنُ سُبُكْتِكِين[2] ... وقبلَ الوَبْلِ هَيْنَمَةُ الرِّهامِ ١٠٣/١
وكان من النجوم بحيث تومي ... إليه من غيابات التكامي
وجئت فصارَ أشمخ ما بناه ... لما شَيَّدْتَ ألطا من رُغامِ
أطاعك إذْ أَطَعْتَ الله جَدٌّ ... رَكِبْتَ به الزَّمانَ بلا زمامِ[3]
ألا يا رُبَّما اتفق الأسامي ... وفاضل بينها دَرَجُ التَّسامي
جنى شرفاً من استغواه حَتْفٌ ... إليك وكم حياةٍ من حِمَامِ
ترشفك الكُماةُ وأنتَ موتٌ ... كأنَّك من طِعانٍ في طَعامِ

---

(١) في (م) هوى.

(٢) هو محمود بن سبكتكين. فاتح الهند، وأحد كبار القادة، امتدت سلطنته من أقاصي الهند إلى نيسابور، وكانت عاصمته غزنة. توفي سنة (٤٢١هـ)، وأخباره مشهورة مبثوثة في كتب التاريخ. انظر «وفيات الأعيان»: ١٧٥/٥ ـ ١٨١.

(٣) هذا البيت في (ل) و(م) يرد آخر الأبيات.

فصــــل

قال الرَّئيس أبو يعلى: توجَّه نورُ الدين إلى ناحيـة حلب في بعض عسكره في الرَّابـع والعشرين من صفر عند انتهاء خبر الفرنـج إليه بعيثهم في أعمال حلب وإفسادهم، وصادفه في طريقه المبشِّرُ بظفر عسكره الحلبـي بالإفرنـج المفسدين على حارِم*، وقَتْلِ جماعة منهم وأسرهم، ووصل مـع المبشِّر عِدَّةٌ وافرة من رؤوس الإفرنـج المذكورين، وطيف بها في دمشق[١].

قال: وعاد نور الدين إلى دمشق في رمضان سالماً بعد تهذيب حلب وأعمالها، وتفقُّد أحوالها، واستقرَّت الموادعة بينه وبين ولد السُّلطان مسعود[٢] صاحب قُونية*، وزال ما كان حدَث بينهما[٣].

وفي شوال تقرَّرت الموادعة والمُهادنة بينه وبين ملك الإفرنـج[٤] مُدَّة سنة كاملة، أولها شعبان، وأن المقاطعة المحمولة إليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صوريَّة[٥]، وكتبت المواصفة بذلك بعد تأكيدها بالأيمـان والمواثيق المشدَّدة[٦].

قال: وفي العشر الأخير من ذي الحجة غدر الإفرنـج، ونقضوا ما كان استقرَّ من الموادعة والمهادنة بحكم وصول عدَّة وافرة من الفرنـج في البحر،

---

(١) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٣٣.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من هذا الجزء.

(٣) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٣٦.

(٤) هو Baldwin III، انظره في كشاف الأعلام.

(٥) أي على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولس. انظر «صبح الأعشى»: ٣/٤٤١.

(٦) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٣٦.

وقوَّة شوكتهم بهم، ونهضوا إلى ناحية الشعراء المجاورة لبانياس*، وقد اجتمع فيها من جشارات[1] خيول العسكرية والرَّعية وعوامل فلاحي الضِّياع، ومواشي الجَلاَّبين[2] والعرب والفلاحين الشيء الكثير الذي لا يحصى فيذكر، للحاجة إلى الرَّعي بها والسكون إلى الهُدْنة المستقرَّة، ووقع للمندوبين بحفظها تقصير، فانتهزوا الفُرْصة، واستاقوا جميعَ ما وجدوه، وأفقروا أهله منه، مع من أسروه من تركمان وغيرهم، وعادوا ظافرين غانمين آثمين. والله عادلٌ في حكمه، يتولى المكافأة لهم، والإدالة منهم[3].

وقد فعل سبحانه ذلك على ما سيأتي في حوادث السَّنة الآتية[4].

[قلت][5] وفي هذه السنة توفي القاضي أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن قادُوس؛ كاتب الإنشاء بالحضرة المصرية، وأصله من دِمْياط، ذكره العمادُ الكاتب في «الخريدة»[6]، وأثنى عليه. ومن شعره في رجل كان يكثر التكبير في أول[7] الصَّلاة:

وَفَاتِرِ النِّيَّةِ عِنِّينِها ... مَعْ كَثْرَةِ الرِّعْدَةِ والهِزَّهْ
مُكَبِّرٌ سبعينَ في مرَّةٍ ... كأنَّهُ صلَّى على حَمْزَهْ[8]

---

(1) مفردها جشار، وهو مكان رعي الماشية وغيرها. انظر «صبح الأعشى»: ١١/١٧١، و«التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: ٨٥، و«تكملة المعاجم العربية» لدوزي ١/١٩٥ وفي «تاج العروس» (جشر): الجشر: إخراج الدواب للرعي، وقد جشرها يجشرها جشراً.

(2) أي تجار الماشية الذين يجلبونها ويبيعونها. انظر «اللسان» (جلب).

(3) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٧.

(4) انظر ص ٣٤٠ من هذا الجزء.

(5) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م). وهذا الخبر يأتي في نسخة (م) بعد خبر وفاة أبي البيان.

(6) انظر «خريدة القصر»: قسم شعراء مصر: ١/٢٢٦ ـ ٢٣٤.

(7) في الأصل: آخر الصلاة، وفي (ل) سقطت الكلمتان، والمثبت من (م)، وفي «الخريدة» كان يكبر كثيراً في الصلاة.

(8) «خريدة القصر»: قسم شعراء مصر: ١/٢٢٦.

وله في صفة كتاب:

مِدَادُه في الطِّرْسِ لمَّا بدا قَبَّلَهُ الصَّبُّ ومن يَزْهَدُ
كأنَّما قد حلَّ فيه اللَّمَى[1] أو ذابَ فيه الحَجَرُ الأَسْوَدُ[2]

وبلغني أن القاضي الفاضل كان يعظِّمه كثيراً ويُسَمِّيه ذا البلاغتين، وهو أحد من اشتغل الفاضل عليه، وكان لا يتمكَّن من اقتباس فوائده غالباً إلا في ركوبه من القَصْر إلى منزله بمصر، ومن منزله إلى القصر، فَيُسَايره الفاضل ويجاريه في فنون الكتابة والأدب والشعر.

قال[3]: وفي يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوَّل من السنة توفي الفقيه الزَّاهد أبو البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحَوْرَاني[4]، وكان حسنَ الطريقة مذ نشأ صبياً[5] إلى أن قضى، متديناً تقياً، عفيفاً سخياً، مُحباً للعلم والأدب، والمطالعة للغة العرب. وكان له عند خروج سريره لقبره في مقابر باب الصغير* المجاورة لقبور الصَّحابة من الشُّهداء، رضي الله عنهم، يومٌ مشهود، من كثرةِ المتأسِّفين له والمثنين عليه[6].

قلت: وفي هذه السنة والتي بعدها كثرت الزَّلازل بالشَّام.

قال أبو يعلى: في ليلة الثَّاني والعشرين من شعبان[7] وافت زلزلةٌ

---

(١) اللمى: سمرة الشفتين واللثات، يستحسن «اللسان» (لما).

(٢) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٣٠.

(٣) أبو يعلى.

(٤) له ترجمة في «مرآة الزمان»: ٨/ ١٣٩، و«معجم الأدباء»: ١٩/ ٢١٣ ـ ٢١٤، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٣١٨ ـ ٣٢٠، و«مختصر تنبيه الطالب»: ١٦٠ ـ ١٦١، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٦٤ من هذا الجزء.

(٥) في (م) صيناً، والمثبت من الأصل و(ل)، وفي «ذيل تاريخ دمشق» صيتاً، وهي تصحيف.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٣.

(٧) في النسخ الخطية: ربيع الأول والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٤.

هائلة، وجاءت قبلها وبعدها مثلها في النهار وفي الليل، ثم جاء بعد ذلك ثلاثٌ دونهنَّ، بحيث أُحصين ستَّ مرَّات. وفي ليلة الخامس والعشرين منه جاءت زلزلة ارتاع النَّاس منها في أول النهار وآخره، وتواصلت الأخبار من ناحية حلب وحماة بانهدام مواضع كثيرة، وانهدام بُرْج من أبراج أفامية* بهذه ١٠٤/١
الزَّلازل المباركة[١]. وذكر أن الذي أُحصي[٢] عددُه منها تقدير الأربعين، وما عُرف مثل ذلك في السِّنين الماضية، والأعصار الخالية. وفي التاسع والعشرين من الشهر بعينه وافت زلزلة آخر النهار، وبالليل ثانيةٌ في آخره، وفي أول شهر رمضان زلزلةٌ مروِّعة، وثانية، وثالثة، وفي ثالث رمضان ثلاث زلازل، وأخرى وقت الظهر، وأُخرى هائلة أيقظت النِّيام، وروَّعت القلوب انتصاف الليل. وفي ليلة نصف رمضان زلزلةٌ هائلة أعظم مما سبق، وعند الصَّباح أُخرى، وفي الليلة التي تليها زلزلتان أوَّلها وآخرها، وفي اليوم الذي بعد يومها، وفي ليلة الثالث والعشرين زلزلة مزعجة. وفي ثاني[٣] شوال زلزلة أعظم مما تقدَّم، وفي سابعه، وسادس عشره[٤]، وفي اليوم الذي جاء بعده أربع زلازل، وليلة الثاني والعشرين منه. ودفع الله تعالى عن دمشق وضواحيها ما خاف أهلها من توالي ذلك وتتابعه، برأفته بهم، ورحمته لهم، فله الحمد والشكر. لكن وردت الأخبارُ من ناحية حلب بكثرة ذلك فيها، وانهدام مساكنها. وأما شَيْزَر* فإنَّ الكثير من مساكنها انهدم على سُكَّانه بحيث قتل منهم العدد الكثير. وأما كَفْر طاب* فهرب أهلُها منها خوفاً على

---

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي أصل «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٥، فغيَّرها محققه إلى «الهائلة»، وما أدري ما وجه وصف هذه الزلازل بالمباركة، إلا أن يكون لما ألحقته بالفرنجة من أضرار أيضاً، والله أعلم.

(٢) في الأصل: وذكر أنه أحصي، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م) ثالث.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٥ الثالث عشر منه.

أرواحهم. وأما حماة فكانت كذلك. وأما باقي الأعمال الشَّامية فما عُرف ما حدث فيها من هذه القُدْرة الباهرة[١].

ثم دخلت سنة اثنتين وخمسين [وخمس مئة][٢]

ففي ليلة تاسع عشر صفر وافت زلزلةٌ عظيمةٌ، وتلاها أخرى، وكذا في ليلة العشرين واليوم بعدها، وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال[٣] بعظيم تأثير هذه الزلازل[٤].

وفي ليلة الخامس والعشرين من جُمادى الأُولى وافت أربعُ زلازل، وضجَّ الناس بالتَّهليل والتسبيح والتقديس، وفي ليلة رابع جمادى الآخرة وافت زلزلتان. وتواصلت الأخبار من ناحية الشمال بأنَّ هذه الزلازل أثَّرت في حلب تأثيراً أزعج أهلها وأقلقهم، وكذا في حمص، وهدمت مواضع فيها، وفي حماة وكَفْر طاب* وأفامية*، وهدمت ما كان بُني من مهدوم الزلازل الأُول، وحُكِي أن تيماء* أثرت فيها هذه الزلازل تأثيراً مهولاً[٥].

وفي رابع رجب نهاراً وافت بدمشق زلزلةٌ عظيمة لم يُر مثلُها فيما تقدَّم، ودامت رجفاتها حتى خاف الناس على أنفسهم ومنازلهم، وهربوا من الدُّور والحوانيت والسَّقائف، وانزعجوا، وأثرت في مواضع كثيرة، ورمت من فصِّ الجامع الشيء الكثير الذي يعجز عن إعادة مثله، ثم وافت عقيبها زلزلة في الحال، ثم سكنتا بقدرة من حَرَّكهما. ثم تبع ذلك في أول ليلة اليوم

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٤ ــ ٣٣٦.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٣) في النسخ الخطية: الشام، والمثبت من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٧.
(٤) المصدر السابق.
(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٢ ــ ٣٤٣.

المذكور زلزلة، وفي وسطه زلزلة، وفي آخره زلزلة، وفي ليلة الجمعة ثامن رجب زلزلة مهولة أزعجت الناس، وتلاها في النصف منها ثانية، وعند انبلاج الصبح ثالثة، وكذلك في ليلة السبت، وليلة الأحد، وليلة الاثنين، وتتابعت بعد ذلك بما يطول به الشرح. ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويرعب النفوسَ ذِكْرُه، بحيث انهدمت حماة وقلعتها، وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشيوخ والشبان، والأطفال والنِّسوان، وهم العدد الكثير والجمّ الغفير، بحيث لم يسلم منهم إلا القليل اليسير. وأما شَيْزَر* فإن رَبَضَها سَلِمَ إلا ما كان خرب أولاً، وأما حِصْنُها المشهور فإنه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن مُنْقذ[1] ومن تبعه إلا اليسير ممن كان خارجاً. وأما حمص فإن أهلها كانوا قد اختلفوا منها إلى ظاهرها فسلموا، وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها. وأما حلب فهُدمت بعضُ دورها، وخرج أهلها منها إلى ظاهر البلد، وكفر طاب* وأفامية* وما والاها ودنا منها وبعُدَ عنها من الحصون والمعاقل إلى جَبْلة* وجُبَيْل* [فأثرت بها الآثار المستبشعة]، وأتلفت سَلَمْيَة* وما اتصل بها إلى ناحية الرَّحبة* وما جاورها، ولو لم يدرك العبادَ والبلاد رحمةُ الله تعالى ولطفه ورأفته لكان الخَطْبُ أفظع[2].

وقد نَظَم في ذلك من قال:

رَوَّعَتْنا زلازلٌ حادثاتٌ ... بقضاءٍ قَضَاهُ ربُّ السَّماءِ
هَدَمَتْ حِصْنَ شَيْزَرٍ وحماةً ... أَهْلَكَتْ أهلَهُ بسوء القضاءِ
وبلاداً كثيرةً وحُصُوناً ... وثغوراً مُوَثَّقات البِناءِ
فإذا ما رَنَتْ عيونٌ إليها ... أَجْرَتِ الدَّمعَ عِنْدَها بالدِّماءِ

(١) هو الأمير ناصر الدين محمد بن سلطان. انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٤٨، وسيرد ذكره ص ٣٥٧ من هذا الجزء.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣ ـ ٣٤٤، وما بين حاصرتين منه.

وإذا ما قضى من الله أمرٌ سابقٌ في عباده بالمَضاءِ
حار قَلْبُ اللَّبيبِ فيه ومَنْ كا نَ له فِطْنَةٌ وحُسْنُ ذكاءِ
وتراه مسبِّحاً باكيَ العيـ ـنِ مَرُوعاً من سخطة وبلاءِ
جَلَّ ربي في ملكه وتعالى عن مقال الجُهَّال والسُّفهاءِ[1]

١/١٠٥ قال: وأما أهل دمشق، فلما وافتهم الزلزلة في ليلة الاثنين التَّاسع والعشرين من رجب ارتاع النَّاس من هولها، وأجفلوا من منازلهم والمسقَّف إلى الجامع والأماكن الخالية من البنيان خوفاً على أنفسهم، ووافت بعد ذلك أخرى، فَفُتِحَ البَلَدُ وخرج الناس إلى ظاهره والبساتين والصحراء، وأقاموا عِدَّة ليال وأيامٍ على الخوف والجزع، يسبِّحون ويهلِّلون، ويرغبون إلى خالقهم ورازقهم في اللُّطْفِ بهم والعفو عنهم[2].

قال: وفي الرَّابع والعشرين من رمضان وافت دمشق زلزلة روَّعت الناس وأزعجتهم، لما وقع في نفوسهم مما قد جرى على بلاد الشَّام من تتابع الزَّلازل فيها. ووافت الأخبار من ناحية حلب بأنَّ هذه الزلزلة جاءت فيها هائلة فقلقلت من دورها وجُدْرانها العدد الكثير، وأنها كانت بحماة أعظم مما كانت في غيرها، وأنها هدمت ما كان عُمر فيها من بيوت يلتجأ إليها، وأنها دامت فيها أياماً كثيرة في كلِّ يوم عدَّة وافرة من الرَّجفات الهائلة، يتبعها صيحات مختلفات تُوفي على أصوات الرُّعود القاصفة المزعجة، فسبحان من له الحكم والأمر. وتلا ذلك ردفات[3] متوالية أخف من غيرهنَّ. فلما كان ليلة السبت العاشر من شوال وافت زلزلة هائلة بعد صلاة عشاء الآخرة، أزعجت وأقلقت، وتلاها في إثرها هزَّة خفيفةٌ. وكذا ليلة العاشر من ذي القعدة، وفي غدها

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٤.
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٥.
(٣) في (ل) رجفات، ومثلها في «ذيل تاريخ دمشق».

زلازل، وليلة الثالث والعشرين، والخامس والعشرين منه أيضاً زلازل، نفر النَّاسُ من هولها إلى الجامع والأماكن المنكشفة، وضجُّوا بالتكبير والتهليل، والتَّسبيح والدُّعاء، والتضرُّع إلى الله تعالى. وفي يوم الجمعة، انسلاخَ ذي القعدة، وافت زلزلة رجفت لها الأرض، وانزعج لها الناس[1].

قال ابن الأثير: في سنة اثنتين وخمسين كان بالشَّام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة متتابعة أخربت البلاد وأهلكت العباد، وكان أشدُّها بمدينة حماة وحصن شَيْزَر*، فإنهما خربا بمرَّة، وكذا ما جاورهما كحصن بارين* والمعرَّة*، وغيرهما من البلاد والقرايا. وهلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصيه إلا الله تعالى، وتهدَّمت الأسوار والدُّور والقلاع، ولولا أنَّ الله تعالى منَّ على المسلمين بنور الدين، جمع [العساكر] وحفظ البلاد، وإلا كان دخلها الفرنج بغير حصار ولا قتال[2].

قال: ولقد بلغني من كثرة الهَلْكَى أنَّ بعض المعلِّمين بحماة ذكر أنه فارق المكتب لِمُهِمّ، فجاءت الزلزلة فأخربت الدُّور، وسقط المكتب على الصبيان جميعهم، قال المعلمُ: فلم يأتِ أحدٌ يسأل عن صبيٍّ كان له في المكتب[3].

قلتُ: وقرأت في ديوان الأمير الفاضل مُؤَيِّد الدولة أُسامة بن مُرشد بن مُنْقذ: وقال في الزلازل التي أهلكت كثيراً من أهل الشام، وكان ابتداؤها في شهر الله رجب سنة إحدى وخمسين وخمس مئة، وهلك بها من هلك من الخَلْقِ، فكان نحواً من عشرة آلاف نسمة، قال: وكتب هذا المكتوب والزلازلُ إلى الآن تتعاهد البلاد:

---

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٢) «الباهر»: ١١٠، وما بين حاصرتين منه.
(٣) المصدر السابق.

نِمْنَا عن الموتِ والمعادِ وأصـ ـبحنا نَظَنُّ اليقينَ أحلاما
فحرَّكتنا هذي الزَّلازلُ أي[1] تيقَّظُوا كم ينامُ مَنْ ناما[2]

وقال أيضاً:

أيها الغافلونَ عن سَكْرَةِ المو تِ وإذْ لا يسوغُ في الحَلْقِ ريقُ
كم إلى كم هذا التَّشاغل والغفْـ لة حار السَّاري وضلَّ الطريقُ
إنما هَزَّتِ الزلازلُ هذي الـ أرْضَ بالغافلين كي يَسْتَفِيقُوا[3]

وقال في الزَّلازل أيضاً، وقد سكن الناس بعد الدُّور والنُّزْهة في أكواخٍ عملوها بالأخشاب لئلا تهدّها الزلازل:

يا أرحم الرَّاحمين ارْحَمْ عبادك من هذي الزَّلازل فهي الهُلْك والعَطَبُ
ماجت بهم أرضُهُمْ حتى كأنَّهُمُ رُكَّابُ بحرٍ مع الأنفاس تَضْطَرِبُ
فنصفُهم هَلَكُوا فيها ونصفهمُ لمصرع السَّلَفِ الماضين يَرْتَقِبُ
تعوَّضوا من مشيدات المنازل بالـ أكواخِ فهي قبورٌ سَقْفُها خَشَبُ
كأنَّها سُفُنٌ قد أقبلتْ وهُم فيها فلا ملجأٌ منها ولا هَرَبُ[4]

وقال يرثي أهلَه الذين هلكوا بالزلازل بحصن شَيْزَر* قصيدةً منها[5]:

ما اسْتَدْرَجَ الموتُ قومي في هلاكهمُ ولا تخرَّمهم[6] مثنىً وَوُحْدَانا
فكنتُ أصبرُ عنهم صَبْرَ مُحْتَسِبٍ وأحملُ الخَطْبَ فيهم عَزَّ أَوْهانا

---

(١) في «الديوان»: أن.

(٢) البيتان في «ديوانه»: ٢٩٠.

(٣) الأبيات في «ديوانه»: ٢٨٧.

(٤) لم أجد الأبيات في «ديوانه» المطبوع.

(٥) في هامش الأصل: «حاشية: هذه القصيدة التي تقدم منها في أول الكتاب بيتان تمثل بهما المؤلف بالخطبة عند ذكر نور الدين وصلاح الدين رحمهما الله تعالى».
قلت: انظر ص ٢٨ من هذا الجزء.

(٦) اقتطعهم واستأصلهم. «اللسان» (خرم).

وأَقْتَدِي بالـوَرَى قَبْلي فكم فَقَدُوا ... أخاً وكم فـارقُـوا أَهْـلاً وجيـرانـا
لكنَّ سَقْبَ(١) المنايا وسطَ جمعهمُ ... رَغَـا فخرُّوا على الأذقـان إذعانـا
وفـاجَـأَتْهُمْ من الأيَّـام قـارعـةٌ ... سقتهمُ بكؤوس المـوتِ ذَيْفَانـا(٢)
ماتوا جميعاً كَرَجْـعِ الطَّرْفِ وانقرضوا ... هـل ما تـرى تاركٌ للعين إنسـانـا
أعْـزِزْ عليَّ بهم من معشـرٍ صُبُـرٍ ... على الحفيظة إنْ ذو لُوثـةٍ(٣) لانا
لم يتركِ الدَّهْرُ لي من بَعْدِ فَقْدِهِمُ ... قلبـاً أُجَشِّمُـه صَبْـراً وسُـلْوانـا
فـلو رَأَوْنـي لقالوا مـاتَ أَسْعَدُنـا ... وعـاشَ للهَمِّ والأحـزانِ أَشْقَـانـا ١٠٦/١
لم يتركِ الموتُ منهم من يخبِّرني ... عنهم فَيُـوضِـحُ مـا قـالـوه تِبْيَـانـا
بادُوا جميعاً وما شادُوا فـوا عَجباً ... للخَـطْـبِ أهلكَ عُمَّـاراً وعُمْـرانـا
هـذي قصـورُهُم أَمْسَتْ قبـورَهُمُ ... كذاك كانـوا بها مِنْ قَبْـلُ سُكَّانا
ويحَ الزَّلازلِ أَفْنَتْ مَعْشَرِي فإذا ... ذكرتُهم خِلْتُني في القومِ سَكْرانا
لا ألتقي الدَّهْرَ من بعد الزَّلازلِ ما ... حييتُ إلَّا كسيرَ القَلْبِ حَيْـرَانـا
أَخْنَتْ على مَعْشَرِي الأَدْنَيْنَ فاصْطَلَمَتْ ... منهم كهـولاً وشُبَّـانـا وولْـدانـا
لم يَحْمِهم حِصْنُهم منها ولا رَهِبَتْ ... بـأسـاً تنـاذَره الأقـرانُ أزمـانـا
إنْ أَقْفَرتْ شَيْزَرٌ* منهم فهم جعلوا ... منيـعَ أسوارِها بِيضـاً وخِرْصـانا(٤)
هُمُ حَمَوْهَا فلو شاهَدْتَهـا(٥) وهمُ ... بهـا لشاهَـدْتَ آسـاداً وخَفَّـانـا(٦)
تراهمُ في الوَغَى أُسداً ويومَ ندًى ... غَيْثاً مُغيثاً(٧) وفي الظَّلْماء رُهْبانا
بنـو أبـي وبنـو عَمِّي دَمي دَمُهُمْ ... وإن أَرَوْنـي مُنـاواةً وشَـنْـآنـا

---

(١) السقب: ولد الناقة. «اللسان» (سقب).
(٢) السم القاتل: «اللسان» (ذيف).
(٣) رجل ذو لوثة: بطيء متمكث ذو ضعف. «اللسان» (لوث).
(٤) مفردها خرص، وهو سنان الرمح. «اللسان» (خرص).
(٥) في الأصل: شاهدتهم، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) اسم مأسدة. انظر «اللسان» (خفن).
(٧) في «الديوان»: هتوتاً.

يُطَيِّبُ النَّفْسَ عنهم أَنَّهم رَحَلُوا وخلَّفوني على الآثار عَجْلانا[1]

وكتبَ إليه الصَّالح بن رُزِّيك قصيدةً يعزِّيه عن أهله، منها:

بأبي شَخْصُك الذي لا يغيبُ عن عِياني فهْو البعيدُ القريبُ
يا أَخِلَّايَ بالشَّآمِ لئن غِبْـ ـتُم فَشَوْقي إليكُمُ لا يغيبُ
غَصَبَتْنا الأيامُ قُربَكُم مِنَّـ (م) ـا ولا بدَّ أن تُردَّ الغُصُوبُ
كَرِهَ الشَّامُ أهلَه فهو محقو قٌ بألَّا يُقيمَ فيه لَبيبُ
إن تجلَّتْ عنه الحروبُ قليلاً خَلَفَتْها زَلازِلٌ وخُطوبُ
رَقَصَتْ أَرْضُه عشِيَّةَ غَنَّى الرَّ (م) ـعْدُ في الجوِّ والكريمُ طَروبُ
وَتَثَنَّت حِيْطانُه إذْ أمالَتْـ ـها شَمالٌ بِزَمْرِها وجَنُوبُ
لا هُبُوبٌ لنائمٍ من أمانيـ ـه وللعاصفاتِ فيها هُبُوبُ
وأرى البَرْقَ شامتاً ضاحِكَ السِّنِّ (م) وللجوِّ بالغمامِ قُطُوبُ
ذكَرُوا أنَّهُ تَذُوبُ به السُّحْـ ـبُ فما للصُّخور أيضاً تَذُوبُ
أَبِذَنْبٍ أصابها قَدَرُ اللَّـ ـه فللأرضِ كالأنامِ ذُنوبُ
إنَّ ظَنِّي والظَّنُّ مِثْلُ سهامِ الرَّ (م) ـمي منها المُخْطِي ومنها المُصِيْبُ
إنَّ هذا لأنْ غدَتْ ساحةُ القُدْ سِ وما للإسلامِ فيها نَصِيْبُ
منزلُ الوحي قبلَ بعث رَسُولِ اللَّـ (م) ـه فهو المحجوجُ والمحجوبُ
نَزَلَتْ وَسْطَه الخنازيرُ والخَمْـ ـرُ وبارَى النَّاقوسَ فيه الصَّليبُ
لو رآه المسيحُ لم يَرْضَ فعلاً ذَكَرُوا أَنَّه له مَنْسُوبُ
١٠٧/١ أبعدُ النَّاسِ عن عبادةِ رَبِّ النَّـ (م) ـاس قَوْمٌ إلههُمْ مَصْلُوبُ

---

(١) العجلان: الثاكل الواله. انظر «تاج العروس»: (عجل). والقصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٣٠٦ ـ ٣٠٩.

لَهْفَ نفسي على ديارٍ من السُّكـ (م) ـانِ أَقْوَتْ [1] فليس فيها عَـرِيبُ[2]
فاحْتَسِبْ ما أصابَ قَوْمَك مجدَ الدِّ (م) ين واصبـر فـالحـادثـاتُ ضُـروبُ
إن تَـخَـصَّـصْـكُـمُ نـوائبُ مـا زا لت لكم دون من سِواكم تَنُوبُ
فكـذاك القنـاةُ يُكْسَـرُ يـومَ الـرَّ (م) وْعِ منها صَدْرٌ وتبقى الكُعوبُ[3]

وقرأت في «ديوان العرقلة»: كان المولى صلاح الدين يوسف بن أيوب مـع عبيدٍ غلامِ المولى ـ وكان عبيد هذا موصوفاً بالثِّقَل ـ في بيت بمدينة حماة يوم الزلزلة، فوقعت المدينة بأسرها سوى ذلك البيت الذي هُما فيه. فقال العرقلة:

قُـلْ لصلاحِ الـدِّين ربِّ النَّدَى بـلِّـغ[4] عُـبـيـداً كـلَّ مـا أمَّـلَهْ
بـثِـقْـلِـهِ لـمَّـا تـصـاحـبـتُـمـا سَـلَّمك الله مِـنَ الـزَّلْـزلَـهْ[5]

وقـرأت[6] فـي بعـض كتـب أبـي الحسيـن الـرَّازي[7] عـن شيـوخـه أنـه وقـع بدمشق في ذي القَعْدة سنة خمس وأربعين ومئتين زلازل عظيمة حُكي عنها نحوٌ مما مضى ذكره وأكثر، نسأل الله تمام العافية[6].

---

(١) أقفرت وخلت. «اللسان» (قوا).

(٢) أحد. «اللسان» (عرب).

(٣) في (م) كعوب. والقصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٧، ١٥٣، ١٦٤، ٢٩٦.

(٤) في (م) نوِّلْ.

(٥) البيتان في «ديوان عرقلة الكلبي»: ٨٨، استدركهما محققه من كتابنا هذا.

(٦ ـ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

(٧) هو محمد بن عبد الله بن جعفر بن عبد الله بن الجنيد ـ والد تمام الرَّازي المحدث المشهور ـ أصله من الري، واستوطن دمشق، وكان من كبار المحدثين، له مصنفات، منها: تسمية كُتَّاب أمراء دمشق، وتسمية أمراء دمشق في أيام بني العباس، ومؤلفاته لم تصلنا، وهي من موارد ابن عساكر في «تاريخه»، توفي سنة (٣٤٧ هـ)، انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي ٣/ ٩١ ـ ٩٢ و «معجم المؤرخين الدمشقيين»: ١٧ ـ ١٨.

فصل

قال الرَّئيس أبو يعلى: في ثالث عشر ربيع الأول توجَّه نور الدين إلى ناحية بَعْلَبَك لتفقُّد أحوالها وتقرير أمر المستحفظين لها، وتواصلت الأخبار إليه من ناحية حمص وحماة بإغارة الفرنج الملاعين على تلك الأعمال(١).

وفي خامس عشر ربيع الأول ورد المُبَشِّر من العسكر المنصور برأس الماء(٢) بأنَّ نصرة الدين أمير أميران(٣) لما انتهى إليه خبر الفرنج أنهم قد أنهضوا سريَّة وافرة العدد إلى ناحية بانياس* لتقويتها، أسرع النهضة إليهم، وعِدَّتهم سبع مئة فارسٍ سوى الرَّجَّالة، فأدركهم قبل الوصول إلى بانياس وقد خرج إليهم من كان فيها من حُماتها، فأوقع بهم، وقد كان كمن لهم في مواضع كُمناء من شجعان الأتراك، واندفع المسلمون بين أيديهم في أول المجال، وظهر عليهم الكمناء، فأنزل الله نصره على المسلمين، بحيث لم ينجُ منهم إلاَّ القليل، وصاروا بأجمعهم بين قتيلٍ وجريح، ومسلوب وأسير، وحصل في أيدي المسلمين من خيولهم وسلاحهم وأموالهم وأسراهم ورؤوس قتلاهم ما لا يحدُّ كثرةً، ومحقت السُّيوف عامَّة رجَّالتهم من الإفرنج ومسلمي جبل عاملة(٤) المضافين إليهم، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى والعُدد إلى دمشق، وطيف بهم، وقد اجتمع لمشاهدتهم الخلق، وكان يوماً مشهوداً. وأُنفذ إلى نور الدين إلى بَعْلَبَكَّ جماعةٌ من أسرى المشركين، فأمر بضرب أعناقهم صبراً(٥).

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨.

(٢) في حوران، شمالي درعا.

(٣) في النسخ الخطية: ناصر الدين، وهو تحريف، وهو الأخ الأصغر لنور الدين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب. انظر ص ١٥٥ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: عالة، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و(م).

(٥) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨ ــ ٣٣٩.

قال: وتبع هذا الفتح ورود البُشْرى الثَّانية من أسد الدين باجتماع العدد الكثير إليه من شجعان التركمان، وأنَّه قد ظفر من المشركين بسريَّة وافرة ظهرت في معاقلهم من ناحية الشمال، فانهزمت، وتخطَّف التركمان منهم من ظفروا به[1].

قال: ووصل أسد الدين إلى بعلبك في العسكر من مقدمي التركمان وأبطالهم للجهاد، وهم في العدد الكثير والجمِّ الغفير، واجتمعوا بنور الدين، وتقرَّرت الحال على قصد بلاد المشركين لتدويخها، والابتداء بالنُّزول على بانياس*، وقدِمَ نور الدين دمشق في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرة ويتوجَّه. وأمر بالنداء بدمشق في الغُزاة والمجاهدين، فتبعه من الأحداث* والمُطَّوِّعة والفقهاء والصُّوفية [و][2] المتدينين خَلْقٌ كثير، وخرج يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول[3].

وفي سابع ربيع الآخر، عقيب نزول نور الدين على بانياس* ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب، سقط بدمشق الطائر من العسكر المنصور بظاهر بانياس، يتضمَّن كتابه الإعلام بورود المُبَشِّر من معسكر أسد الدين بناحية هُونين[4] في التركمان والعرب بأن الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ أنهضوا سريَّةً من أعيان مُقدَّميهم وأبطالهم تزيد على مئة فارس سوى أتباعهم، لكبس المذكورين، ظناً منهم بأنهم في قُلٍّ[5]، ولم يعلموا أنهم في ألوف، فلما دنَوْا منهم وثبوا إليهم كاللُّيوث إلى فرائسها، فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٩.

(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ١/ ١٠٧، و«ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) بلد في جبال عاملة. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٤٢٠.

(٥) أي قلة. «اللسان» (قلل).

والسلب، ولم يبق منهم إلاَّ اليسير، ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعُددهم من الخيول المنتخبة، والطَّوارق[١]، والقُنْطاريات[٢] إلى دمشق، وطيف بهم فيه يوم الاثنين تالي اليوم المذكور[٣].

قال: وتلا هذه الموهبة المتجدِّدة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس* في يوم الثلاثاء تلو المذكور، يذكر افتتاح مدينة بانياس بالسَّيْفِ قَهْراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب وإطلاق النار فيه، وسقُوط البُرْج المنقوب وهجوم الرِّجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونَهْب ما حواه، وانهزام من سَلِمَ إلى القلعة وانحصارهم بها، وأنَّ أخْذهم بمشيئة الله تعالى لا يبطىء، والله يسهِّله ويعجله[٤].

قال: واتَّفق بعد ذلك أن الفرنج تجمَّعوا من معاقلهم عازمين على استنقاذ الهنفري[٧] صاحب بانياس* ومن معه من أصحابه المحصورين بقلعة بانياس، وقد أشرفوا على الهلاك، وبادروا وبالغوا في السؤال لنور الدين الأمان، ويسلِّمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين، فلم يجبهم إلى ما سألوا ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الإفرنج في جمعه من ١/١٠٨
الفارس والرَّاجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العَسْكَرَيْن؛ النَّازل على بانياس* لحصارها، والنَّازل على الطَّريق لمنع الواصل إليها، اقتضت السِّياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها، واستخلصوا من كان فيها، وحين

(١) مفردها طارقة. وهي الترس. «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/٤١.
(٢) مفردها قنطارة، وهي الرمح. «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٢/٤١٣.
(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠.
(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٠ ـ ٣٤١.
(٥) هو Humphry، انظره في كشاف الأعلام.

شاهدوا ما عمَّ بانياس من إخراب سورها ومنازل سُكَّانها يئسوا من عمارتها بعد خرابها[١].

قال: وفي تاسع جُمادى الأولى سقطت الأطيار بالكتب من المعسكر النُّوري تتضمن الإعلام بأن الملك العادل نور الدين ـ أعز الله نصره ـ لما عرف أنَّ معسكر الكفرة الإفرنج على الملَّاحة؛ بين طبريَّة وبانياس، نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب، وجَدَّ في السير، فلما شارفهم وهم غارُّون، وشاهدوا راياته قد أظلَّتهم، بادروا بلبس السِّلاح والركوب، وافترقوا أربع فرق، وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجَّل الملك نور الدين، فترجَّلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسِّهام وخِرْصان الرِّماح[٢]، حتى تزلزلت بهم الأقدام، ودهمهم البوار والحِمام، فأنزل الله تعالى نصره على المسلمين، وتمكَّنوا من فرسانهم قتلاً وأسراً، واستأصلت السُّيوفُ الرَّجَّالة، وهم العدد الكثير، فلم يفلت منهم غير عشرة نفر، وقيل إن ملكهم[٣] لعنه الله فيهم، وقيل إنه في جُمْلة القتلى، ولم يعرف له خبر[٤]، ولم يُفقد من عسكر الإسلام سوى رجلين أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله إلى رحمة الله تعالى، والآخر غريب لا يُعرف، وكل منهما مضى شهيداً، مثاباً مأجوراً، رحمهما الله. وامتلأت أيدي العساكر من خيولهم وعُددهم، وكُراعهم[٥] وأثاث سوادهم، وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بآلاتها المشهورة، وكان فتحاً مبيناً، ونصراً عزيزاً. ووصلت

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤١.
(٢) مفردها خرص، وهو سنان الرمح. «اللسان» (خرص).
(٣) هو Baldwin III، انظره في كشاف الأعلام.
(٤) أفلت بأعجوبة إلى صفد. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٥٥٣.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٣٠٩ من هذا الجزء.

الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق يوم الأحد تالي يوم الفتح، وقد رَتَّبوا على كلِّ جملٍ فارسين من أبطالهم ومعهما رايةٌ من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عِدَّة، والمقدَّمون منهم وولاة المعاقل والأعمال كل واحد منهم على فرسٍ، وعليه الزَّرَدية(١) والخوذة، وفي يده راية، والرَّجالة كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يُحصى لهم عدد، من الشُّيوخ والشبان، والنساء والصبيان، لمشاهدة ما منح الله ـ تعالى ذِكْرُه ـ كافَّةَ المسلمين من هذا النصر المبين، وأكثروا شكر الله تعالى، والدعاء لنور الدين المحامي عنهم، والرَّامي دونهم، والثناء على مكارمه، والوصف لمحاسنه(٢).

ونُظم في ذلك أبيات في هذا المعنى:

مـا رأينـا فيمـا تقـدَّم يـومـاً ... كـامـلَ الحُسْنِ غـايـةً في البهـاءِ
مِثْلَ يـومِ الفـرنج حين عَلَتْهُمْ ... ذِلَّـةُ الأسْـرِ والبـلا والفَنَـاءِ(٣)
وبـرايـاتهمْ على العِيسِ زُفُّـوا ... بـيـن ذُلٍّ وحَـسْـرَةٍ وعَـنَـاءِ
بـعـد عِـزٍّ لهـم وهـيـبـةِ ذِكْـرٍ ... في مصـاف الحـروب والهَيْجـاءِ
هكـذا هكـذا هـلاكُ الأعـادي ... عـنـد شنِّ الإغـارة الشَّعْـوَاءِ
شؤم أَخْـذِ الجشار(٤) كـان وَبـالاً ... عَمَّهُمْ في صَبـاحهـم والمسـاءِ
نقضـوا هُـدْنـةَ الصَّلاحِ بجهـلٍ ... بَعْـدَ تـأكيـدِهـا بحُسْنِ الـوَفـاءِ
فلقـوا بَغْيهم بمـا كـانَ منهم(٥) ... مـن فسـادٍ بـجهـلهـم واعْـتِـدَاءِ

---

(١) درع مزخرف «تكملة المعاجم العربية»: ١/٥٨٥.
(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤١ ـ ٣٤٢.
(٣) في المصدر السابق: والشقاء.
(٤) انظر ص ٣٢٩ من هذا الجزء.
(٥) في «ذيل تاريخ دمشق» فيه، وهو تصحيف.

لا حمى الله شَمْلَهُمْ من شَتَاتٍ   بِمَواضٍ تفوقُ حَدَّ المَضَاءِ
فجزاء الكَفورِ قَتْلٌ وأَسْرٌ   وجَزاء الشَّكُورِ خَيْرُ الجَزَاءِ
ولِرَبِّ العِبادِ حَمْدٌ وشُكْرٌ   دائمٌ مَعْ تواصلِ النَّعْماءِ[1]

قال: وشرع نور الدين في قصد أعمالهم لتملُّكها وتدويخها، والله المعين والموفِّق[2].

وقال ابن أبي طي: في سنة اثنتين وخمسين أغارت الفرنج على بلد حمص وحماة، وأفسدوا، وأكثروا العيث، واتَّصل ذلك بنور الدين فأَنْهَدَ إليهم عسكراً كثيفاً، فأوقع بهم وهزمهم إلى أرض بانياس*، وخرج نور الدين حتى نزل على بانياس وحاصرها أشدَّ حصار، حتى افتتحها في الثَّامن والعشرين من ربيع الأول، وأَخَذَ جميع ما كان للفرنج فيها، وأنفذ الغنيمة والأسارى مع أسد الدين إلى دمشق، وأنفذ معه مقدار ألف رأس، واتصل ذلك بالفرنج، فأنهضت إلى معارضة أسد الدين قطعةً من خَيَّالتها، واتَّصل هذا بأسد الدين وقد دهمته الفرنج، فلبس لأُمَتَه[3]، وتقدَّم في جماعةٍ من مماليكه بين يدي العسكر، وأمر الرِّجال بلقاء الفرنج، وناجزهم الحرب، فلم يتماسكوا بين يديه، ورجعوا على أدبارهم، وتبعهم مقدار فرسَخين يقتل ويأسر، وغَنِمَ منهم غنيمةً حسنة، وعاد إلى أصحابه ظافراً، وتوجَّه في وجهته مُؤَيَّداً. ١٠٩/١

(١) الأبيات ما عدا البيت الأول في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) اللأمة: الدرع، وقيل: السلاح، وإنما سمي لأمة لأنها تلائم الجسد وتلازمه. انظر «اللسان» (لأم).

فصل

قال الرَّئيس أبو يعلى: وفي العشر الثَّاني من جُمادى الآخرة تواصلت الأخبار بوصول ولد السُّلْطان مسعود(١) في خَلْق كثير للنُّزول على أنطاكية، وأوجبت الصُّورة تقرير المهادنة بين نور الدين وملك الإفرنج، وتكرَّرت المراسلات بينهما والاقتراحات والمشاجرات، بحيث فسد الأمر ولم يستقرَّ على مصلحة، ووصل نور الدين إلى مقرِّ عزه في بعض عسكره، وأقَرَّ باقيه ومقدَّميه مع العرب بإزاء أعمال المشركين(٢).

قال: وفي ثالث رجب توجَّه نور الدين إلى ناحية حلب وأعمالها لتجديد مشاهدتها، والنَّظر في حمايتها عندما عاث المشركون فيها، وقربت عساكر الملك ابن مسعود منها(٣).

ثم قال بعد ذلك: قد تقدَّم من ذكر نور الدين ونهوضه في عساكره من دمشق إلى بلاد الشام عند انتهاء الخبر إليه بتجمع أحزاب الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ وقَصْدِهم لها، وطمعهم [فيها](٤) ـ بحكم ما حدث من الزلازل والرَّجفات المتتابعة لها، وما هدمت من الحصون والقلاع والمنازل في أعمالها وثغورها ـ لحمايتها والذبِّ عنها، وإيناس من سَلِمَ من أهل حمص وشَيْزَر*، وكفَرْطاب*، وحماة وغيرها، بحيث اجتمع إليهم العدد الكثير والجمُّ الغفير، من رجال المعاقل والأعمال والتركمان، وخَيَّم بهم بإزاء جَمْعِ الفرنج

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من هذا الجزء. وفي أصل «ذيل تاريخ دمشق» يوافق نسخنا، استعاض المحقق عنه بالسلطان محمود، وهو وهم منه، خلط فيه ما بين سلاجقة العراق، وسلاجقة الروم.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣.

(٣) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٣.

(٤) ما بين حاصرتين من «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٨.

بالقُرْب من أنطاكية، وحصرهم بحيث لم يقدر فارسٌ منهم على الإقدام على الفساد، فلما مضت أيام من شهر رمضان عرض لنور الدين ابتداء مرض حادٍّ، فلما اشتدَّ به، وخاف منه على نفسه، استدعى أخاه نصرة الدين أمير أميران، وأسد الدين شِيْرِكُوه، وأعيان الأمراء والمقدَّمين، وأوصى إليهم ما اقتضاه رأيه واستصوبه، وقرَّر معهم كَوْنَ أخيه نُصْرة الدين القائم في منصبه من بعده، والسَّادّ لثُلمة فقده، لاشتهاره بالشهامة وشدَّة البأس، ويكون مقيماً بحلب، ويكون أسد الدين في دمشق في نيابة نصرة الدين، واستحلف الجماعة على هذه القاعدة. فلما تقرَّرت اشتدَّ به المرض، فتوجَّه في مِحَفَّةٍ* إلى حلب وحصل في قلعتها، وتوجَّه أسد الدين إلى دمشق لحفظ أعمالها من فساد الإفرنج. وتواصلت الأراجيف بنور الدين، فقلقت النفوس، وانزعجت القلوب، فتفرَّقت جموعُ المسلمين، واضطربت الأعمال، وطمع الفرنج فقصدوا مدينة شَيْزَر*، وهجموها وحصلوا فيها، فقتلوا وأسروا ونهبوا. وتجمَّعَ من عِدَّة جهات خَلْقٌ كثير من رجال الإسماعيليَّة وغيرهم، وظهروا عليهم، فقتلوا منهم وأخرجوهم من شَيْزَر. واتفق وصول نصرة الدين إلى حلب فأغلق والي القلعة مجد الدين[1] في وجهه الأبواب، وعصى عليه، فثارت أحداثُ حلب، وقالوا: هذا صاحبنا وملكنا بعد أخيه. فزحفوا في السِّلاح إلى باب البلد، وكسروا أغلاقه، ودخل نصرة الدين في أصحابه، وحصل في البلد، وقامت الأحداث على والي القلعة باللَّوْم والإنكار والوعيد، واقترحوا على نصرة الدين اقتراحات من جُمْلتها إعادة رسمهم في التأذين «حيَّ على خَيْرِ العَمَل، محمدٌ وعليٌّ خَيْرُ البَشَر»، فأجابهم إلى ما رغبوا فيه، وأحسنَ القولَ لهم والوعد، ونزل في داره وأنفذَ والي القلعة إليه وإلى الحلبيين يقول: مولانا نور الدين حَيٌّ في نفسه وما كان إلى ما فُعل حاجة. فقيل: الذَّنب في ذلك للوالي. وصَعِدَ إلى القلعة من شاهد نور الدين حيًّا

---

(١) هو مجد الدين ابن الداية.

يفهم ما يقول وما يقال له. فأنكر ما جرى وقال: [أنا][1] أصفحُ للأحداث عن هذا الخطل، ولا أؤاخذهم بالزَّلل، وما طلبوا إلَّا صلاحَ حال أخي ووليِّ عهدي من بعدي. وشاعت الأخبار وانتشرت البشائر في الأقطار بعافيته، فأَنِسَتِ القلوب بعد الاستيحاش، وابتهجت النفوس بعد القلق والانزعاج، وتزايدت العافية، وصُرفت الهمم إلى مكاتبات المقدَّمين، بالعَوْد إلى جهاد الملاعين. وكان نصرة الدين قد ولي مدينة حَرَّان* وما أضيف إليها، وتوجَّه نحوها. ولما تناصرت الأخبار بالبشائر إلى أسد الدين بدمشق بعافية نور الدين واعتزامه على استدعاء العساكر الإسلامية للجهاد، سارع بالنهوض من دمشق إلى حلب، ووصل إليها في خيله، واجتمع بنور الدين فأكرم لُقياه، وشكر مَسْعاه، وشرعوا في حماية الأعمال من شَرِّ عُصَب الكفر والضَّلال[2].

قال: ونظمتُ هذه الأبيات في هذا المعنى:

لقد حَسُنَتْ صِفَاتُك يا زماني ... وَفُزْتُ بما رَجَوْتُ من الأماني
فكم أصبحتُ مُرْتاعاً لخوفٍ[3] ... فبُدِّلْتَ المخافةَ بالأمانِ
وجاءتنا أراجيفُ بِمَلْكٍ ... عظيمِ الشَّأْنِ مسعودِ الزَّمانِ
فَرَوَّعَتَ القلوب من البرايا ... وصارَ شُجَاعُها مِثْلَ الجَبَانِ
وثارَتْ فِتْنَةٌ يُخشى أذاها ... على الإسلام في قاصٍ ودانِ
ووافى بعد ذاك بشيرُ صِدْقٍ ... بعافيةِ المليك مع التَّهاني
فولَّى الخوفُ منهدمَ المباني ... وعاد الأمنُ معمورَ المغاني[4]

1/110 قال ابنُ أبي طي: وفي هذه السنة كانت الزلزلة التي هدمت شَيْزَر*،

(1) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(2) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: 348 ـ 350.
(3) في «ذيل تاريخ دمشق»: 350 مرعوباً مخوفاً.
(4) الأبيات في المصدر السابق.

فخرج نور الدين وأخذها من بني مُنْقذ، وسلَّمها إلى مجد الدين ابن الدَّاية، وسار إلى سَرْمِين*، لأنه بلغه حركة الفرنـج، فاعترضَهُ هناك مرض أشفى منه، فأحضر شِيركُوه، وأوصاه بالعساكر، وأن يكون الأمر بعده لأخيه نُصْرة الدين أمير أميران. فسار أسد الدين إلى دمشق، وأقام بمرج الصُّفَّر* خوفاً أن يتحرك الفرنـج إلى جهة دمشق أو غيرها، ولم يزل هناك حتى تعافى نور الدين فعاد إلى خدمته، مهنئاً له بالعافية. وكان أخوه نصرة الدين قد حاصر قلعة حلب في مُدَّة مرض نور الدين، فلما أفاق نور الدين من مرضه سَيَّره إلى حَرَّان*، وجعل وليَّ عهده أخاه قُطْب الدين صاحب المَوْصل.

قال: وكان مجد الدين طمـع في الملك لنفسه، فتحزَّم لأمره، وتقرَّب إلى الناس، وجعل له أصحاب أخبار، وشَحَن الطُّرقات والسُّبُل بالرِّجال بتفتيش الخارجين من حلب وغيرها والدَّاخلين إليها.

قلت: ولابنِ مُنير تهنئة لنور الدين بالعافية من مرضٍ غير هذا:

يـا شمسُ لا كَسْفٌ ولا تَكْـدَارُ ... ولا خَـلَتْ مـن نُـورِكَ الأنـوارُ
البَـدْرُ مَنْقُـوصٌ وأنتَ كـامـلٌ ... لـك الـسَّرايـا ولـه الـسَّرَارُ
بـرؤك لـلإسـلام مـن أدوائـه ... بُـرْءٌ وفـي أعـدائـه بَـوارُ
مـا أنت إلا السَّيْفُ صَدَّ صـدأً ... عـن مَتْنِـهِ مَضْـرَبُـه البَتَّـارُ
لو كان محمـولاً أذىً عن مُنْفِسٍ ... لَـحَـمَـلَتْـهُ دُوْنَـك الأبْـصَـارُ
ولو فَدَتْ أرضٌ سمـاءً ساقت الـ ... ـملوكَ في فـدائِـكَ الأمْـصـارُ
أنتَ غيـاثُ مَحْلهم إنْ أجـدبـوا ... وخـيـرهُـم إن ذُكـر الـخِـيَـارُ
وفي سـريـر الملك منهـا ملكٌ ... لله فـي سَـرَّائـه[1] أسـرارُ

(١) في (م) أسراره.

خَيْـرُ ملوكِ الأرضِ جَـدًّا وأبـاً ... إن هَـزَّ عِـطْفَي مـاجـدٍ نِجَـارُ
مَـدَّ عـلى الـدِّيـن رِوَاقَ دَوْلـةٍ ... تـنـازعت أسـمـارَهـا السُّمَّـارُ
عـلَّتْ بـنـايـاه وحَـلَّتْ يـدَه ... فـهي عـليـه السُّـور والسِّـوارُ
محمـودُ المحمـودُ عصـرُ ملكه ... فـلِلْحَيـا مِـن مُـزْنِـهِ اعْتِـصـارُ
يـا نـورَ ديـنٍ أَظْلَمَـتْ آفـاقُـه ... لَـوْ لَـمْ تـبـلَّج هـذه الآثـارُ
لله أيَّـامُـك مـا تـخـطُّه ... بـالمِسْـك من إسفـارِهـا الأَسْفـارُ
سَلِمْتَ لـلإسـلامِ تـرعى سَرْحَهُ ... إذا وَنَـى رُعـاتُـه وجـارُوا
شكـوتَ فـالـدُّنيـا على سُكَّـانها ... قـرارةٌ جـانَـبَـهـا الـقَـرَارُ
كادَتْ تموتُ الأرضُ من إشفـاقِها ... لـولا شـفـاءٌ رَدَّهـا تُـمـارُ
زرَّتْ عليـك التُّـرك جَيْبَ نسب ... يـحـسُـدُهـا بِـزِّيـه نـزارُ
لا عَـدِمت منـك الأمـاني رَبَّهـا[1] ... معـطىً من الإقبـالِ مـا يختـارُ
مـا سمـح الـدَّهْـرُ بـأن تبقى لنـا ... فـكـلُّ جُـرْحٍ مَسَّـنـا جُـبَـارُ

وله من قصيدة أخرى:

لا نُـؤَدِّي لأنْـعُـمِ الله شُـكْـرا ... بـكَ يـا أعـظَمَ البريَّـةَ قَـدْرا
زَوْرُ عَـشْـرٍ وافـى لإقـلاعِ داءٍ ... جعـلا المنة الممنَّـاة[2] عَشْـرا
أَمَّ مَـغْـنـاك ضـامِـنـاً أنَّ أيَّـا ... مَكَ تُفني الأحقابَ عَصْراً فعصرا
في محـلٍّ لـه السِّمـاكـانِ سمـكٌ ... وجـدود لهـا المـجـرَّة مجـرى
أيهـا العـادِلُ المُـظَفَّـر لا قَصَّـ ... ـتْ شَبا الدَّهـر من شباتـك ظُفْرا (م)
جَعَـلَ الله مـا استهـلَّ من الأَشْـ ... ـهرِ ينهـلُّ في مغـازيـك نَصْـرا
أبـداً ينشـر التَّهـاني على سـا ... حَاتِك الزَّهْرُ في المـواسمِ نَشْرا

---

(١) في الأصل و(م) ربها، والمثبت من (ل).

(٢) في (ل) المهناة.

أنتَ أسرى الملوكِ نَفساً وقِنساً[1] وإلى أَسْرِهِمْ من الطَّيفِ أَسْرَى ١١١/١
مَلِكٌ عنـدَه الـمشـاربُ تُسْتـمـ ـرَى وأخلاف الجود تُمرى فتُفْرَى
فَـلَكَ الله مِـنْ مـثـمِّـرِ بَـذْر يصطفي صالحاً ويحصُد أَجْرا
عش لمُلكٍ أصبحتَ في الدَّسْت منه فوق كسرى عَـدْلاً وشَعْباً وكَسْـرا
تفـطر الـطَّيِّـبات للفـطر فطـراً وتعمُّ الأعـداء في النَّحْـرِ نَحْـرا
يقتني مـن كُسَـاك أنفس ملبـو سٍ ويُقْنيـك منه أطـولَ عُمْـرا
أنت تُملي ونحنُ ننـظمُ مـا تَنْـ ـثُرهُ الغُـرُّ مِنْ مسـاعيك نَثْـرا
صَـرَفَ الله عنـك عيـنَ زمـانٍ بـك صارَتْ بعدَ الإِصابة عَبْرَى
وتـوالَتْ لـكَ الفُتـوحُ إلى أنْ تمـلأَ الخـافقيـن نَهْيـاً وأمـرا
كلمـا أَنْهَجتْ[2] مـلابسُ نُعمى وتـمـلَّيْـتَـهُـنَّ جـدَّدْتَ أُخـرى

وقال القَيْسَراني من قصيدة:

أشرق البهو[3] يـا جبينَ الهـلالِ فـحـلاه لـوجهـك الـمُتَـلالي
عن ليـالٍ حَجَبْنَ عنَّـا سَنَـاهـا إنـمـا غيبـةُ الهـلالِ ليـالي
لم يكن مـا ألمَّ بالجسمِ شَكْوى فـتُهـنَّـا لِـوافـدِ[4] الإقبـالِ
لا ولا كـان زائـراً مـن سَقَـامٍ إنمـا كـان طـائفـاً من خَيَـالِ
وعكـةٌ أَقْلَعتْ[5] وأنتَ صحيحٌ ويـصُـحُّ الـنَّـسيـمُ بـالإعـتـلالِ
أومَـا هـذه الـسمـاء سَـرار الـ ـبَـدْرِ فيها على طريقِ الكمـالِ
نعمـةُ الله لا يخصُّ بهـا الـخـا لـقُ إلا من كـان منـه بِبَـالِ
ولـبـاسٌ من الـمَثُـوبـةِ والـغُفْـ ـرانِ أُلْبِسْـتَ ضـافيَ الأذيـالِ
فـهنيئـاً لـك البـقـاء وإن كـا ن هنـاءً يخصُّ فيـه المعـالي

---

(١) في (ل) «حاشية: القنس: الأصل». قلت: انظر «اللسان» (قنس).
(٢) أي بليت. انظر «اللسان» (نهج).
(٣) كذا في النسخ الخطية، وفي طبعة وادي النيل: ١/١١١ البدر.
(٤) في (م) لنافد.
(٥) في (م) أقلقت. وأقلعت عنه الحمّى: تركته. «القاموس المحيط» (قلع).

والتُّقى والنَّدى ومَقْرَبَـة[1] الخيْـ ـل وبيض الظُّبى وسُمْر العوالي
والخِـلالُ التي إذا مـا تخلَّت[2] صَدَرَتْ منك عن كريمِ الخِلالِ
إنْ وَقَتْـكَ النُّفـوس مـا تتوقَّى فحقيقٌ فـدا المُوالي[3] المـوالي
أوتحصَّنْتَ في شعـارٍ من التَّقْـ ـوَى فما زلتَ منه في سِرْبالِ
فشفـى الله مَنْ أجـلُّ دوائَـيْـ ـه صريحُ الدُّعـاءِ والإبتهـالِ
مَلِكٌ أبْـدَلَ المخـافـةَ بـالأمْـ ـنِ وأضحى يُعَـدُّ في الأبْـدَالِ
وهْـو تـاجُ الملوكِ فـالملك العا طل حَالٍ به على كُلِّ حالِ
وإذا النَّيِّـران غـابـا فنـورُ الـدِّ (م) ين شَمْسٌ فَجْـرِيَّـةُ الآصـالِ
قـد أرت وجهك العُـلاَ ما يـريهـا وهـي مـرآةُ صـالـحِ الأعمـالِ
وقضى الله أنَّ نجمَـك في الأنـ ـجُم سـامٍ وأن جَـدَّك عـالِ
كـل يـوم هـذا المحيا محيىٌّ بـالتهـاني على يـد الإقبـالِ

فـصـل
في ذكر حِصْن شَيْزَر* ووِلاية بني مُنْقِذ

قال ابنُ الأثير: وهو حصن قريب من حماة، بينهما نحو نصف نهار، وهو من أمنـع القلاع وأحصنها، على حجرٍ عالٍ، له طريق منقور في طرف الجبل، وقد قُطـع الطريق في وسطه، وجُعل عليه جسر من خشب، فإذا قُطـع ذلك الخشب[4] تعذَّر الصُّعود إليه. وكان لآل مُنْقِذ الكنانيين يتوارثونه من أيام

---

(١) أي التي تكون قريبة معدة، ضمرت للركوب. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/٥٢٢ وفي (م) مقودة.
(٢) في الأصل و(ل) تحلت، والمثبت من (م).
(٣) الضبط من الأصل.
(٤) في «الباهر»: ١١٠ الجسر.

صالح بن مِرْدَاس[1] إلى أن انتهى الأمر إلى الأمير أبي المرهف نصر بن علي بن المُقَلَّد بن نصر بن منقذ بن نصر بن هاشم، بعد أبيه أبي الحسن علي[2]، فبقي به مدة طويلة إلى أن مات بِشَيْزَر* سنة إحدى وتسعين وأربع مئة، وكان شجاعاً كريماً، صوَّاماً قوَّاماً. فلما حضره الموتُ استخلف أخاه الأمير أبا سلامة مرشد بن علي؛ وهو والد أُسامة، فقال: والله لا وليتها، ولَأخرُجَنَّ من الدُّنيا كما دخلتُها. وكان عالماً بالقرآن والأدب، كثيرَ الصَّلاح، ١١٢/١
فولَّاها أخاه أبا العساكر سُلْطان بن علي، وكان أصغر منه، فاصطحبا أجمل صحبةٍ مُدَّة من الزمان، فولد أبو سلامة مرشد عِدَّة أولاد ذكور، فكبروا وسادوا؛ منهم عِزُّ الدولة أبو الحسن علي[3]، ومُؤَيَّد الدولة أسامة بن مُرْشد، وغيرهما، ولم يولد لأخيه سلطان ولد ذكر إلى أن كَبِرَ فجاءه أولاد، فحسدَ أخاه على ذلك، فكان كلما رأى صِغَر أولاده وكِبَر أولاد أخيه وسيادتهم ساءه ذلك وخافهم على أولاده، وسعى المفسدون بينهما، فغيَّروا كلًّا منهما على أخيه، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شعراً يعاتبه على أشياء بلغته عنه، فأجابه بأبياتٍ جيدة في معناها، وكلُّهم كان أديباً شاعراً، فمنها:

ظَلُومٌ أَبَتْ في الظُّلْمِ إلا تماديا وفي الصَّـدِّ والهِجْران إلَّا تناهيا

---

(١) استولى على حلب سنة (٤١٤هـ) على الأرجح، وقتل سنة (٤٢٠هـ) انظر «الكامل»: ٢٢٧/٩ ــ ٢٣١، و«وفيات الأعيان»: ٤٨٧/٢ ــ ٤٨٨، و«زبدة الحلب»: ٢٢٧/١ ــ ٢٣٢.

(٢) سديد الملك، وهو أول من ملك قلعة شيزر من بني منقذ وذلك سنة (٤٧٤هـ)، وكانت بيد الروم، وتوفي سنة (٤٧٥هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٤٠٩/٣ ــ ٤١٠.

(٣) قتل شهيداً في غزة سنة (٥٤٥هـ) له كتاب في التاريخ مفقود هو «البداية والنهاية» نشر منه شذراتٍ الدكتور إحسان عباس في «شذرات من كتب مفقودة في التاريخ»: ١٢٥. انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ٥٤٨/١ ــ ٥٥١، و«معجم الأدباء»: ٢١٤/٥ ــ ٢٢٠، و«الوافي بالوفيات»: ١٩١/٢٢ ــ ١٩٢، وفيه أنه استشهد بعسقلان سنة (٥٤٦هـ).

شَكَتْ هَجْرَنا في ذاك والذَّنْبُ ذَنْبُها فيا عجباً من ظالمٍ جاءَ شاكيا
وطاوَعَتِ الواشين فيَّ وطالما عَصَيْتُ عذُولاً في هَوَاها وواشِيا
ومالَ بها تِيْهُ الجمال إلى القِلى وهيهاتَ أن أمسي لها الدَّهْرَ قاليا
ولا ناسياً ما أَوْدَعَتْ من عُهودِها وإنْ هي أَبْدَتْ جفوةً وتَنَاسيا
ولما أتاني من قريضِك جَوْهَرٌ جَمَعْتَ المعالي فيه لي والمعانيا
وكنتُ هَجَرْتُ الشِّعْرَ حيناً لأنه تَوَلّى بِرغمي حين وَلَّى شبابيا
وأيـنَ من السِّتين لَفظٌ مُفوَّفٌ إذا رُمْتُ أَدْنى القَوْلِ منه عَصَانيا
وقلتُ أخي يرعى بنيَّ وأُسرتي ويحفظ عَهْدي فيهمُ وذِماميا
ويجزيهمُ ما لَمْ أكلِّفه فِعْلَه لنفسي فقد أَعْدَدْتُه من تُراثيا
فَمَالَكَ لما أن حنى(1) الدَّهْرُ صَعْدتي(2) وثَلَّمَ مني صارِماً كان ماضيا
تنكَّرْتَ حتى صارَ بِرُّك قَسْوَةً وقُرْبُكَ منّي جفوةً وتنائيا
فأصبحتُ صِفْر الكفِّ مما رجوتُه كذا(3) اليَأْسُ قد عفَّى سبيلَ رجائيا
على أنني ما حُلْتُ عما عَهِدْتَه ولا غَيَّرَتْ هذي السّنونُ وِدَادِيا
فلا غَرْوَ عند الحادثات فإنَّني أراكَ يميني والأنامَ شِماليا
تهنَّ بها عذراء لو قُرنت بها نجومُ السَّماءِ لم تُعَدَّ دراريا
تحلَّتْ بِدُرٍّ من صفاتِك زانَها كما زانَ منظومُ اللآلي الغوانيا
وعش بانياً لِلجُود ما كان واهناً مُشيداً من الإحسانِ ما كان واهيا(4)

---

(1) في (م) حمى، وهو تصحيف.

(2) الصَّعْدة: القناة المستوية، يشبه بها القامة المستقيمة. انظر «اللسان» (صعد).

(3) كذا في النسخ الخطية، وفي «الباهر»: أرى، ومثله في «تاريخ دمشق» لابن عساكر، و «الخريدة»، و«معجم الأدباء».

(4) انظر «الباهر»: ١١٠ ــ ١١١، والقصيدة في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/١٦٨/أ مع اختلاف في بعض الألفاظ، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٥٦٠ ــ ٥٦١، و«معجم الأدباء»: ٥/٢٢٨ ــ ٢٣٠.

قال: وكان الأمر فيه في حياة الأمير مرشد بعض الستر، فلما مات سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، قلب أخوه لأولاده ظهر المجنِّ، وبادأهم بما يسوؤهم، وتمادتِ الأيام بينهم إلى أن قَوِي عليهم، فأخرجهم من شَيْزَر. وكان أعظم الأسباب في إخراجهم[1] ما حُدِّثتُ به عن مُؤَيِّد الدولة أُسامة بن مرشد قال: كنتُ من الشجاعة والإقدام على ما قد علمه الناس، فبَيْنَا أنا بشَيْزَر وإذا قد أتاني إنسان فأخبرني أن بِدجْلة، يقاربُها، أسداً ضارياً، فركبتُ فرسي وأخذت سيفي وسرت إليه لأقتله، ولم أُعلم أحداً من النَّاس لئلا أُمنع من ذلك، فلما قربت من الأسد نزلتُ عن فرسي وربطته، ومشيت نحوه، فلما رآني قصدني ووثب، فضربتُه بالسيف على رأسه فانفلق، ثم أجهزتُ عليه، وأخذت رأسه في مخلاة فرسي وعدتُ إلى شَيْزَر، ودخلتُ على والدتي وألقيت الرأس بين يديها، وحدثتها الحال. فقالت: يا بني، تجهَّز للخروج من شَيْزَر، فوالله لا يُمكِّنك عَمُّك من المقام، ولا أحداً من إخوتك، وأنتم على هذه الحال من الإقدام والجُرْأة. فلما كان الغدُ أمر عمي بإخراجنا من عنده، وألزمنا به إلزاماً لا مُهلة فيه، فتفرَّقنا في البلاد. فقصدوا الملك العادل نور الدين[2]، وشكَوْا إليه ما لقوه من عمهم، فلم يمكنه قصده ولا الأخذ بثأرهم وإعادتهم إلى أوطانهم، لاشتغاله بجهاد الفرنـج، ولخوفه من أن يسلِّم شَيْزر

(١) في ٢/ ٤٣٢ من هذا الكتاب ذكر العماد أن خروجهم كان سنة (٥٢٤ هـ)، وهو وهم منه، لأن خروجهم كان ـ كما ذكر ـ بعد وفاة مرشد أبي أسامة، ووفاته سنة (٥٣١ هـ).

(٢) رواية ابن الأثير هذه غير دقيقة، لأن أسامة حين خرج هذه المرة وهي سنة (٥٣٢ هـ) قصد دمشق وأقام بها ثماني سنين، ثم رحل منها إلى مصر سنة (٥٣٩ هـ) ولم يكن نور الدين قد ملك بعد، وقد اتصل به بعد عوده من مصر سنة (٥٤٩ هـ) كما سلف ص ٣١٥ وانظر «الاعتبار» ط: حتي: ٤ ـ ٦، وط: قاسم السامرائي: ٢٧ ـ ٢٩ و «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٢/ ٣٥٢/ أ.

إلى الفرنـج، وبقي في نفسه. وتوفي الأمير سلطان وولي بعده أولاده، فبلـغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنـج، فاشتدَّ ما في نفسه وهو ينتظر الفرصة، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحدٌ كان بالحصن، فبادر إليها وملكها، وأضافها إلى بلاده، وعمرها وأسوارها، وأعادها كأن لم تخرب، وكذلك أيضاً
١/١١٣ فعل بمدينة حماة، وكل ما خرب بالشَّام بهذه الزلزلة، فعادت البلاد كأحسن ما كانت[١].

قلتُ: وسيأتي ذكر أسامة بن مرشد في أخبار سنة اثنتين وسبعين[٢]؛ وهي السَّنة التي قدم فيها دمشق من بلاد الشرق، وذلك أنه لما خرج من شَيْزر استوطن دمشق، ثم فارقها إلى الديار المصرية، وكتب إلى معين الدين أُنَر؛ أتابك صاحب دمشق يعاتبه في أسباب المفارقة قصيدةً أولها:

وَلُـوا فلمَّا رَجَـوْنا عَـدْلَهُمْ ظَلَمـوا ... فليتَهُمْ حَكَمُـوا فينـا بمـا عَلِمـوا
مـا مَـرَّ يومـاً بفكـري مـا يَـريبهُمُ ... ولا سَعَتْ بـي إلى ما ساءهم قَدَمُ
ولا أضعتُ لهم عَهْداً ولا اطَّلَعَتْ ... على ودائعِهم في صَـدْريَ التُّهَمُ
فَلَيتَ شِعْري بمَ استوجبتُ هَجْرَهمُ ... ملُّوا فَصَـدُّهُمُ عن وَصْليَ السَّأَمُ
حَفِظْتُ ما ضَيَّعُوا أَغْضَيْتُ حين جَنَوْا ... وفَيْتُ إذ غَدَرُوا واصلتُ إذْ صَرَمُوا
حُرِمْتُ ما كنتُ أرجـو من وِدادِهُمُ ... ما الرِّزْقُ إلا الذي تجري به القِسَمُ
وبَعْدُ لو قيلَ لي ماذا تحبُّ ومـا ... تختارُ[٣] من زينةِ الدُّنيا لقلتُ هُمُ
لهم[٤] مجال الكَرَى من مُقْلَتيَّ ومن ... قلبـي محلُّ المُنَى جارُوا أو اجْتَرَمُوا[٥]
تبـدَّلـوا بـي ولا أبغي بهم بَـدَلاً ... حَسْبـي همُ أنصفوا في الحُكْمِ أو ظَلَمُوا

(١) انظر «الباهر»: ١١٢.
(٢) انظر ٢/ ٤٣٢ من هذا الكتاب.
(٣) في «الديوان»: وما مناك.
(٤) في «الديوان»: هم.
(٥) أذنبوا، انظر «اللسان» (جرم).

بلِّـغ أميري معين الدين مأْلُكَةً[١] من نــازحِ الــدَّارِ لكنْ ودُّه أَمَمُ
وَقُلْ له أنتَ خَيْرُ التُّرك فَضَّلَكَ الـ ـحيـاءُ والدِّين والإِقْـدَامُ والكَـرَمُ
هــلاَّ أَنِفْتَ حَيــاءً أو محــافــظةً من فِعْلٍ ما أَنْكَرَتْهُ العُرْبُ والعَجَمُ
أَسْلَمْتَنَــا وسيـوفُ الهِنْــدِ مُغْمَـدَةٌ ولم يُـرَوَّ سِنـانَ السَّمْهَـرِيِّ[٢] دَمُ
وكنتُ أَحْسَبُ من والاكَ في حَرَمٍ لا يعتــريـــه بــه شَيْبٌ ولا هَــرَمُ
وما طُمانُ بـأَوْلى من أُسامـةَ بالـ ـوفـاءِ لكنْ جَرَى بـالكائنِ القَلَمُ
هَبْنَــا جَنَيْنـا ذُنُــوبـاً لا يكفِّـرُهـا عُذْرٌ فماذا جَنَى الأطفـالُ والحُرَمُ
ألقيتَهُمْ في رضا[٣] الإفرنـج متَّبعاً رضا عِدىً يُسْخِطُ الرحمنَ فِعْلُهُمُ
جَـرِّبْهُمْ مِثْـلَ تجـريبي لتَخْبُـرَهُمْ فللرِّجَــال إذا مــا جُـرِّبـوا قِيَـمُ

وهي طويلة[٤]. وطُمان المذكور خادم تركيٌّ كان لأتابك* ملك الأمراء زَنْكي بن آق سُنْقُر، هرب من خدمته إلى دمشق، فطلبه ولـجَّ فيه، فاشتمل عليه مُعين الدين للجنسيَّة وحماه، فلمَّا لـجَّ فيه سَيَّره إلى العرب، وقام له بما يحتاجه إلى أن رَدَّه لخدمته بدمشق.

وبقي أسامة بمصر إلى أن خرج منها مـع عَبَّاس ـ كما سبق ذكره[٥] ـ وأسر الفرنـج أخاه نجم الدولة محمد بن مُرْشد، وطلب من ابن عمه ناصر الدين محمد بن سُلْطان، صاحب شَيْزَر*، الإعانة في فكاكه فلم يفعل. قال: وادَّخر الله سبحانه أجر خلاصه وحُسْنَ ذكره للملك العادل نور الدين، رحمه

---

(١) رسالة. «اللسان» (ألك).
(٢) الرمـح الصليب العود. «اللسان» (سمهر).
(٣) في «الديوان»: يد.
(٤) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٤٠ ـ ٤١، ١٤٦ ـ ١٤٨، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٥٣٤ ـ ٥٣٧.
(٥) انظر ص (٣١٠ ـ ٣١٦) من هذا الجزء.

الله تعالى، فوهبه فارساً من مقدَّمي الدَّاوِيَّة* يقال له المشطوب، قد بذل الإفرنـج فيه عشرة آلاف دينار، فاستخلص به أخاه من الأسر(١).

وبلـغ أسامة أن القاضي كمال الدين ابن الشَّهْرُزُوري(٢) أنشدَ نورَ الدين:

مُـلْكُ بنـي مُـنْـقِـذٍ تـولَّـى   وكـان فـوقَ السِّمـاك سُـمْكُـهْ
فَـاعْـتَـبِـرُوا وانْـظُروا وقُـولـوا   سبحـانَ مَـنْ لا يَـزُول مُـلْكُـهْ

والمعروف مُلك بني بَرْمَك، فغيَّره المنشد لمَّا تمثَّل به في غرضه، فأجازهما أسامة بهذه الأبيات:

وكــلُّ مُــلْكٍ إلــى زَوالٍ   لا يـعـتـري ذا الـيـقـيـن شَـكُّـهْ
إنْ لم يَـزُلْ بـانتـقـالِ حـالٍ   أزال ذا الـمُـلْك عـنـه هُـلْكُـهْ
والله ربُّ الـعِـبـادِ بـاقٍ   وهـالِـكٌ نِـدُّه وشِـرْكُـهْ
فَـقُـلْ لـمـن يَـظْلِمُ الـبَـرَايـا   غَـرَّك إمـهـالُـه وتَـرْكُـهْ
تـنسـى ذنـوبـاً عليـك تُحْصى   يـحـصـرهـا نَـقْـدُه وحـكُّـهْ
كـم نـاسـكٍ نُـسْـكُـه ريـاءٌ   أوبـقَـهُ فـي الـمـعـاد نُـسْـكُـهْ
فـاحْـذَرْ فـمـا يختفي عـليـهِ   مِـنْ عبدهِ صِـدْقُـهُ وإفْكُـهْ (٣) ١/١١٤

وما أحسنَ ما قال أسامة في كِبَرِه:

مـع الثَّمانين عاثَ الضَّعْفُ في جَلَدي   وساءني ضَعْفُ رِجْلي واضطرابُ يَدَي
إذا كتبتُ فخـطِّي جِدُّ مضـطرب   كخطِّ مُـرْتَعِشِ الكفَّين مُـرْتَعِـدِ
فاعجبْ لِضَعْفِ يدي عن حَمْلِها قلماً   مِنْ بَعْدِ حَطْمِ القَنا في لَبَّةِ الأَسَدِ

---

(١) انظر «الاعتبار»: ٥٠، و«ديوان أسامة»: ١٤٩.

(٢) سترد ترجمته في ٢/٤٢٦ من هذا الكتاب.

(٣) لم أجد الأبيات في «ديوانه».

وإنْ مَشَيْتُ وفي كَفِّي العصا ثَقُلَتْ رِجلي كأني أَخُوضُ الوَحْلَ في الجَلَدِ
فَقُــلْ لمن يتمنَّى طـول مُــدَّتــه هذي عواقبُ طُولِ العُمْرِ والمُدَدِ[١]

فــصــل
في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين

قال الرئيس أبو يعلى: تناصَرَتِ الأخبارُ بظهور أمير المؤمنين المقتفي على عسكر السلطان المخالف لأمره ومن انضمَّ إليه من عسكر الموصل وغيره، بحيث قتل منهم العدد الكثير، ورحلوا عن بغداد مفرَّقين مفلولين خاسرين، بعد المضايقة والتَّناهي في المحاصرة والمصابرة[٢].

قال: ووردت الأخبار في أوائل رجب بوفاة السُّلْطان غياث [الدنياو][٣] الدين أبـي الحارث سنجر بن أبـي الفتـح بن ألب أرسلان، سلطان خُرَاسان، عقيب خلاصه من الشِّدَّة التي وقـع فيها، والأسر الذي حصل فيه[٤]، وكان يحبُّ العدل والإنصاف للرعايا، حسن السيرة، جميل الفعل، وقد عَلَتْ سِنُّه وطال عمره[٥]. وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من هذه السَّنة إلى نور الدين بالتشوُّق إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعـاله، وإعلامه ما منَّ الله عليه به من خلاصه من الشِّدَّة التي وقـع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك التركمان، بحيلةٍ دَبَّرها، وسياسةٍ

(١) الأبيـات في «الاعتبار»: ١٨٢، مـع اختـلاف في اللفظ، و«سير أعـلام النبلاء»: ١٦٧/٢١.
(٢) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٤٣.
(٣) ما بين حاصرتين من (م).
(٤) كان ذلك سنة (٥٤٨هـ)، انظر «الكامل»: ١٧٦/١١، وما بعدها.
(٥) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٤٥، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٣٦٢/٢٠ — ٣٦٥.

أحكمها وقرَّرها، بحيث عاد إلى منصبه من السَّلْطنة المشهورة، واجتماع العساكر المتفرِّقة عنه إليه(١).

قال: وفي شهر رمضان ورد الخبر من ناحية حلب بوفاة الشيخ مخلِّص الدين أبي البركات عبد القاهر بن علي بن أبي جَرَادة الحلبي، وهو الأمين على خزائن مال نور الدين، وكان كاتباً بليغاً، حسنَ البلاغة نظماً ونثراً، مُسْتَحْسَنَ الفنون من التَّذهيب البديع، وحُسْنِ الخَطِّ المحرَّر على الأُصول القديمة المستظرفة، مع صفاء الذهن وتوقُّد الفِطْنة والذَّكاء(٢).

وقال: وفي رابع [عشر](٣) شوَّال ورد الخبر من ناحية بُصرى* بأن واليها فخر الدين سُرخاك(٤) قُتل غيلة بموافقةٍ من أعيان خاصَّته، وكان فيه إفراط في التحرُّز واستعمال التيقُّظِ، ولكنَّ القضاء لا يُغالب ولا يدافع(٥).

قال: وفي أوائل ذي القَعْدة ورد الخبر من حمص بوفاة واليها الأمير الملقَّب بصلاح الدين(٦) وكان في أيام شبيبته قد حظي في خدمة عماد الدين زَنْكي، وتقدَّم عنده بالمناصحة وسَدَاد التدبير، وحُسْنِ السِّفارة وصواب الرأي، ولما عَلَتْ سِنُّه ضَعُفَ عن ركوب الخيل، وألجأته الضَّرورة إلى الحمل في المحفَّة* لتقرير الأحوال، والنَّظر في الأعمال، ولم ينقص من حسه

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٣٨، وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٢/٤٢٧ ـ ٤٢٨، و«سير أعلام النبلاء»: ٢/٣٦٢ ـ ٣٦٥.

(٢) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٥، وله ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢١٩ ـ ٢٢٣، وفيه منتخبات من شعره، وذكر أنه توفي بعد سنة خمس وخمسين، وانظر «معجم الأدباء»: ١٦/١٦ ـ ١٩.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٦ سرخال، وهو تصحيف. والضبط من الأصل.

(٥) انظر المصدر السابق، وقد سلفت بعض أخباره في ص (٢٦٦، ٢٦٨) من هذا الجزء.

(٦) هو صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني، مرت أخباره في أثناء هذا الجزء.

وفهمه ما يُنكر عليه إلى حين وفاته، وخلفه من بعده أولادُه في منصبه وولايته[١].

قال: وورد إلى دمشق إمام من أئمة [فقهاء][٢] بَلْـخ في عنفوان شبابه وغضارة عوده، ما رأيتُ أفصحَ من لسانه ببلاغتَيْه العربية والفارسية، ولا أسرعَ من جوابه ببراعته، ولا أطيش منه قلماً في كتابته: أبو الحياة محمد بن أبـي القاسم بن عمر السُّلَمي[٣]، ووعظ في جامع دمشق عِدَّة أيام، والنَّاس يستحسنون وعظه، ويستظرفون فنَّه، وسلاطة لسانه، وسرعة جوابه، وحِدَّة خاطره، وصفاء حِسِّه[٤].

قال ابنُ الأثير: وفيها في ذي الحِجَّة توفي الأمير عز الدين أبو بكر الدّبيسي صاحب جزيرة ابن عُمر، وكان من أكابر الأمراء، يأخذ نفسه مأخذ الملوك، وكان عاقلاً حازماً، ذا رأي وكيد ومكر، وملك الجزيرة قُطْب الدين مودود بن زَنْكي، صاحب المَوْصِل، أخو نور الدين[٥].

ثم دخلت سنةُ ثلاث وخمسين [وخمس مئة][٦]

قال الرئيس أبو يعلى: في أوائل المحرَّم تناصرت الأخبار من ناحية الفرنـج المقيمين بالشَّام ـ خذلهم الله تعالى ـ بمضايقتهم لحصن حارم

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٧.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) الضبط من (ل).
(٤) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٥) انظر «الباهر» ١١٢ ـ ١١٣. وقد سلف ذكر الدبيسي ص ١٥٧ من هذا الجزء.
(٦) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

ومواظبتهم على رميه بحجارة المجانيق[1] إلى أن ضعف ومُلك بالسيف، وتزايد طمعهم في شنِّ الغارات في الأعمال الشَّامية، وإطلاق الأيدي في العيث والفساد في معاقلها وضياعها، بحكم تفرُّق العساكر الإسلامية، والخُلْف الواقع بينهم باشتغال نور الدين بعقابيل المرض العارض له، ولله المشيئة التي لا تُدافع والأقضيةُ التي لا تُمانع[2].

وقال: وفي صفر ورد الخبر والمُبَشِّر بنزول نور الدين من حلب للتوجُّه إلى دمشق، واتَّفق للكفرة الملاعين تواتر الطمع في شنِّ الغارات على أعمال حَوْران والإقليم، وإطلاق أيدي الفساد والعيث والإحراق والإخراب في الضياع، والنَّهب والسَّبي والأسر، وقَصْد داريا* والنزول عليها في انسلاخ
١/١١٥ صفر، وإحراق منازلها وجامعها، والتَّناهي في إخرابها، وظهر إليهم العسكريَّة والأحداث، وهموا بقصدهم والإسراع إلى لقائهم وكفِّهم، فمنعوا من ذلك بعد أن قربوا منهم، وحين شاهد الكُفَّار ــ خذلهم الله تعالى ــ كثرة العدد الظاهر إليهم رحلوا في آخر النهار المذكور إلى ناحية الإقليم. ووصل نور الدين إلى دمشق، وحصل في قلعته سادس ربيع الأول، سالماً في نفسه وجملته ولُقي بأحسن زِيٍّ وترتيب وتجمُّلٍ، واستبشر العالم بمقدمه المسعود، وابتهجوا، وبالغوا في شكر الله تعالى على سلامته وعافيته، والدُّعاء له بدوام أيامه، وشرعَ في تدبير أمر الأجناد، والتأهُّب للجهاد[3].

قال: وفي أوائل ربيع الأول ورد الخبر من ناحية مصر بخروج فريق

---

(١) في (م) المناجيق، ومثله في «ذيل تاريخ دمشق»، وكلاهما صحيح، مفردها منجنيق، وهو من أسلحة الحصار، يقذف به الأحجار واللهب. انظر «صبح الأعشى»: ٢/١٣٦ ــ ١٣٧.

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٠ ــ ٣٥١.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٠ ــ ٣٥١.

وافر من عسكرها إلى غَزَّة وعَسْقلان، وأغاروا على أعمالها، وخرجَ إليهم من كان بهما من الفرنـج الملاعين، فأظهر الله تعالى المسلمين عليهم قتلاً وأسراً، بحيث لم يفلت منهم إلا اليسير، وغنموا ما ظفروا به وعادوا سالمين ظافرين. وقيل: إن مقدَّم الغُزاة في البحر ظفر بعدَّة من مراكب المشركين وهي مشحونة بالفرنـج، فقتل وأسر منهم العددَ الكثير، وحاز من أموالهم وعُدَدهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى، وعاد ظافراً غانماً(١).

قلتُ: وأرسل إلى مُؤَيِّد الدولة أُسامة بن منقذ من مصر وزيرُها الملك الصَّالـح أبو الغارات طلائـع بن رُزِّيك قصيدةً يشرحُ فيها حال هذه الغَزاة، ويحرِّض فيها نور الدين على قتال المشركين، ويذكره بما مَنَّ الله تعالى عليه من العافية والسَّلامة من تلك المرْضَة المقدَّم ذِكْرُها(٢). وكان كثيراً ما يكاتبُه طالباً منه إعلام نور الدين بالغَزَاة لحثِّه عليها، وأوَّل هذه القصيدة:

ألا هكذا في اللهِ تمضي العزائمُ ... وتُنْضى(٣) لدى الحَرْبِ السُّيوفُ الصَّوارِمُ
وتُستنزل الأَعداءُ من طَـوْدِ عزِّهم ... وليسَ سوى سُمْر الرِّماحِ سلالمُ
وتُغْزَى جيوشُ الكُفرِ في عُقرِ دارِها ... ويـوطـا حِمـاهـا والأنـوف رَوَاغِمُ
وَيُـوفي الكِرامُ النَّـاذرون بِنَـذْرِهم ... وإن بُـذِلَتْ فيها النُّفـوسُ الكرائِمُ
نَذَرْنا مَسِيرَ الجيشِ في صَفَرٍ فما ... مضى نِصْفُه حتَّى انْثَنى وهو غانمُ
بعثناه من مِصْرٍ إلى الشَّامِ قاطعاً ... مفـاوِزَ وَخْدُ العِيس فيهن دائِمُ(٤)
فمـا هالَـه بُعْـدُ الـدِّيارِ ولا ثنى ... عـزيمتَه جُهْـدُ الظَّمـا والسَّمائمُ(٥)

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١.
(٢) انظر ص ٣٤٧ من هذا الجزء.
(٣) في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٢٠ تمضي. ونضا السيف من غمده وانتضاه: إذا أخرجه. «اللسان» (نضا).
(٤) أي إسراع الإبل فيهن دائم. انظر «معجم متن اللغة»: ٧٢٢/٥.
(٥) مفردها سموم، وهي الريح الحارة. «اللسان» (سمم).

يهجِّر والعُصْفُورُ في قَعْرِ وكره ... ويَسْرِي إلى الأعداءِ واللَّيْلُ[١] نائمُ
تُبَاري خيولاً ما تزالُ كأنَّها ... إذا ما هي انقضَّتْ نُسورٌ قَشَاعِمُ[٢]
يسيرُ بها ضِرْغامُ[٣] في كلِّ مأزِقٍ ... وما يَصْحَبُ الضِّرْغامَ إلا الضَّرَاغِمُ
وَرُفْقَتُهُ عينُ الزَّمانِ وحاتِمٌ ... ويحيى وإنْ لاقى المنيَّةَ حاتِمُ[٤]
وواجَهَهُمْ جمعُ الفرنجِ بحملةٍ ... تَهُونُ على الشُّجعان فيها الهزائمُ
فلقَّوْهُمُ زُرْقَ الأَسِنَّةِ وانْطوَوْا ... عليهم فلم يرجعْ[٥] من الكُفْر ناجِمُ
وما زالتِ الحربُ العَوَانُ[٦] أشدُّها ... إذا ما تلاقى العَسْكَرُ المتضاجمُ[٧]
يُشَبِّهُهُمْ من لاحَ جَمْعُهُمُ له ... بلُجَّةِ بحْرٍ مَوْجُها متَلاطِمُ
وعادوا إلى سَلِّ السُّيوفِ فَقُطِّعَتْ ... رؤوسٌ وحُزَّتْ للفرنجِ غَلاصِمُ[٨]
فلم يَنْجُ منهم يوم ذاكَ مُخَبِّرٌ ... ولا قيل هذا وحدَه اليومَ سالمُ
نُقَتِّلُهُمْ بالرَّأْي طوراً وتارةً ... تدوسُهُمُ منا المَذَاكي[٩] الصَّلادِمُ[١٠]
فقولوا لنورِ الدين لا فُلَّ حَدُّه ... ولا حَكَمَتْ فيه اللَّيالي الغواشمُ

---

(١) في «ديوان أسامة»: والنجم.

(٢) مفردها قشعم، وهو من النسور المسن الضخم. انظر «اللسان» (قشعم).

(٣) هو ضرغام بن عامر بن سوار، تولى وزارة مصر سنة (٥٥٨هـ) وقتل سنة (٥٥٩هـ) وسيرد ذكره في حوادثها. انظر «الكامل»: ٢٩٠ ـ ٢٩١، ٢٩٨ ـ ٢٩٩، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٤٠، و«النكت العصرية»: ٣٥ وص ٤٠٧ وما بعدها من هذا الجزء..

(٤) عين الزمان، وحاتم، ويحيى، أسماء قواد في الجيش الفاطمي.

(٥) في «ديوان أسامة» ينجم.

(٦) الحرب العوان: التي قوتل فيها مرة بعد مرة. انظر «اللسان» (عون).

(٧) أي المختلف. وفي «ديوان أسامة» المتصادم.

(٨) مفردها الغلصمة: اللحم الذي بين الرأس والعنق. «اللسان» (غلصم).

(٩) المذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد انتهاء قروحها سنة أو سنتان وذلك استتمام القوة، وقروحها: أي انتهاء أسنانها، وإنما تنتهي في خمس سنين. انظر «اللسان» (ذكا، قرح).

(١٠) مفردها: الصِّلْدِم والصُّلادم، وهو الشديد الحافر، وقيل: القوي الشديد من الحافر. «اللسان» (صلدم).

تجهَّزْ إلى أرضِ العدوِّ ولاتَهِن وتُظهرْ فتوراً إن مَضَتْ منك حارِمُ*
فما مِثْلُها تُبدي احتفالاً به ولا تُعَضُّ عليها للملوكِ الأباهمُ
فعندَك من ألطاف رَبِّك ما به عَلِمْنا يقيناً أنَّه بك راحِمُ
أعادكَ حيًّا بعد أن زَعَمَ الورى بأنك قد لاقيت ما الله حاتِمُ
بوقْتٍ أصابَ الأرضَ ما قد أصابَها وحلَّتْ بها تلك الدَّواهي العظائمُ
وخَيَّمَ جيشُ الكفر في أرضِ شَيْزَرٍ* فَسِيقَتْ سبايا واستُحِلَّت محارِمُ
وقد كانَ تاريخ الشآم وهُلكُه ومن يحتويه أنَّه لك عادِمُ ١/١١٦
فَقُمْ واشكرِ الله الكريمَ بنهضةٍ إليهمْ فَشُكْرُ اللهِ للخَلْقِ لازِمُ
فنحنُ على ما قد عَهِدْتَ نَرُوعُهُمْ ونَحْلِفُ جَهداً أنَّنا لا نسالمُ
وغاراتُنا ليستْ تَفَتَّرُ عنهمُ وليس يُنَجِّي القومَ منَّا الهزائمُ
فأسطولُنا أضعافُ ما كان سائراً إليهمْ فلا حِصْنٌ لهمْ منه عاصمُ
ونرجو بأنْ نجتاحَ باقِيَهُمْ بهِ وتُحوى الأسارى منهمُ والغَنَائمُ[١]

وكتب إليه أيضاً:

يا سَيِّداً يسمو بهمَّـ (م) ـته إلى الرُّتَبِ العَلِيَّهْ
فينالُ منها حين يُحْـ ـرَمُ غَيْرُه أوفى مَزِيَّهْ
أنتَ الصَّديقُ وإن بَعُدْ تَ وصاحبُ الشِّيَمِ الرَّضِيَّهْ
نُنْبيك[٢] أنَّ جيوشَنا فَعَلَتْ فِعالَ الجاهِلِيَّهْ
سارَتْ إلى الأعداءِ من أبطالِها مثنا سَرِيَّهْ
فتُغيرُ هذي بُكْرَةً وتُعاوِدُ الأُخرى عَشِيَّهْ
فالويلُ منها للفرنـ ـجِ فقد لقوا جَهْدَ البَلِيَّهْ

---

(١) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٢٠ ــ ٢٢٤، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٣٥ ــ ١٤٢.
(٢) في «ديوان طلائع بن رزيك»: ١٧٣ يهنيك، وهو تحريف.

جـاءَتْ رؤوسـهـمُ تـلو ... حُ على رؤوس السَّمْهَرِيَّهْ[1]
وقلائعٌ[2] قد قُسِّمَتْ ... بين الجنودِ على السَّوِيَّهْ
وخلائقٌ. كَثُرَتْ من الـ ... أسرى تقادُ إلى المَنِيَّهْ
فانهضْ فقد أنبيتُ مجـ ... ـدَ الدِّين بالحال الجَلِيَّهْ
والممْ بنورِ الدِّين وآعْـ ... ـلِمْهُ بهاتيك القَضِيَّهْ
فهْو الذي ما زال يخـ ... ـلص منه أفعالاً وَنِيَّهْ
ويبيدُ جَمْعَ الكُفْرِ بالْـ ... ـبيضِ الرِّقاقِ المَشْرَفِيَّهْ[3]
فعساه ينهضُ نهضةً ... يفني بها تلك البَقِيَّهْ
إمَّا لنُصْرَةِ دِيْنِهِ ... أو مُلْكِه أو للحَمِيَّهْ[4]

وكتب إليه أيضاً:

أيها المُنْقِذِي[5] لأنتَ على البُعْـ ... ـدِ صديقٌ لنا ونِعْمَ الصَّديقُ
ليس فيما نأتيه من بِرٍّ أفعا ... لك للطالب الحقُوقِ عُقوقُ[6]
فلهذا نرى مواصلة الكُتـ ... ـبِ تباعاً إليك مما يَليقُ
ونُناجيك بالمهمَّاتِ إذْ أنْـ ... ـتَ بإلقائها إليك خَلِيْقُ

(١) السمهري: الرمح الصليب العود. «اللسان» (سمهر).
(٢) هي الخيل المجنوبة، ففي «النكت العصرية»: ٤٦ «وخيلهم قلائع مجنوبة»، وفي «ديوان طلائع»: بدائع، وهي تحريف.
(٣) السيوف المشرفية منسوبة إلى المشارف، وهي قرى من أرض اليمن. انظر «اللسان» (شرف).
(٤) الأبيات في «ديوان طلائع بن رزيك»: ١٧٣، وأشار جامعه في هامشه أن الأبيات في «ديوان أسامة بن منقذ»، ولم أجدها في المطبوع منه.
(٥) نسبة إلى منقذ، وهو أحد أجداد أسامة.
(٦) هذا البيت والذي يليه وردا في نسخة الأصل في آخر القصيدة. وأثبتناهما بما يتناسب مع نسختي (ل) و (م) و «الديوان».

وأهمُّ المُهِمِّ[1] أمْـرُ جِهـادِ الْـ ـكُفْـرِ فـاسمعْ فعنـدنـا التَّحْقيقُ
واصَلَتْهُمْ مِنّـا السَّرايـا فـأشجـا هُـمْ بُكُـورٌ منّـا لهـم وطُـروقُ
وأبـاحَتْ[2] دِيارَهُمْ فـأبـادَ الـ ـقـومَ قَـتْـلٌ مـلازِمٌ وحـريـقُ
وانتـظرنـا بِـزَحْفِنـا بُـرءَ نـور الدِّ (م) يـن علمـاً مِنّـا بـأنْ سيُـفِيـقُ
وهُـو الآنَ فـي أمـانٍ من الـلـ ـه ومـا يعتـريـه أمـرٌ يَعُـوقُ
مـا لهذا المُهِمِّ مثلُك مجدَ الدِّ (م) ين فـانهضْ بـه فـأنـتَ حقيـقُ
قُـلْ لـه لا عَـداه رأيٌ ولازا لَ لـديـه لكـلِّ خَيْـرٍ طـريقُ
أنتَ في حَسْمِ داء طاغية الكُفْـ (م) ـار ذاك المـرجـوُّ والمـرْمُـوقُ
فـاغْتَنِمْ بـالجهـادِ أجرَك كي يلـ ـقى[3] رفيقاً له ونِعْمَ الرَّفِيْقُ[4]

فأجابه أُسامة بقصيدةٍ منها: ١١٧/١

يا أميرَ الجُيوشِ ما زال لـلإسـ ـلامِ والـدين منـك رُكْنٌ وثيقُ
أَسْمَعَـتْ دعـوةُ الجهـادِ فلبّـا هـا مليكٌ بـالمَكْرُمـاتِ خَلِيقُ
مَـلِكٌ عـادِلٌ أنـارَ بـه الـدِّيـ ـنُ فَعَمَّ الإسلامَ منه الشُّـروقُ
مـا لهُ عن جهاده الكُفْـرَ والعَدْ لِ وفعْلِ الخيرات شُغْلٌ يَعُوقَ
هـو مِثْلُ الحُسَامِ صَدْرٌ صقيـلٌ لـيِّنٌ مَسُّـه[5] وحَـدٌّ ذليـقُ[6]
ذو أنـاةٍ يخـالهـا الغِـرُّ إهمـا لاً وفيهـا حَتْفُ الأعادي المُحيقُ
فـاسْلَمَا لـلإسلامِ كَهْفَيْنِ مـا طرَّ (م) زَ ثـوبَ الـظلام بَـرْقٌ خفـوقُ[7]

---

(١) في «الديوان» الأمور.
(٢) في الأصل: فأباحت، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) في «ديوان أسامة»: تُلفى.
(٤) القصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٣٦، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٠٣.
(٥) في (ل) متنه.
(٦) حاد «اللسان» (ذلق).
(٧) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٣٦ ـ ١٣٧، ١٨٨ ـ ١٨٩.

وكتب الصَّالح إليه أيضاً:

قُلْ لابنِ مُنْقِذٍ الذي ... [قد][1] حاز في الفَضْلِ الكَمالا
فلِذَاك قد أضحى الأنا ... مُ على مكارِمِه[2] عِيالا
كم قد بعثنا نحوكَ الْـ ... أشْعارَ مُسْرِعَةً عِجالا
وصَدَدْتَ عنها حين را ... مَتْ من محاسِنِكَ الوِصَالا
هلَّا بَذَلْتَ لنا مقا ... لًا حينَ لم تَبْذُلْ فِعالا
مع أنَّنا نُوليكَ صَبْـ ... ـراً في المودَّةِ واحتمالا
ونبثُّكَ الأخبارَ إن ... أضحت قِصاراً أو طِوَالا
سارَتْ سَرَايانا لِقَصْـ ... ـدِ الشَّام تَعْتَسِفُ الرِّمالا
تُزْجي إلى الأعداءِ جُرْ ... دَ الخيلِ أتباعاً تَوالى
تمضي خِفَافاً للمُغا ... رِ[3] بها وتَأْتينا ثِقالا
حتى لقد رامَ الأعا ... دي من ديارِهُمُ ارتحالا
وعلى الوُعَيْرة[4] مَعْشَرٌ ... لم يعهدُوا فيها القِتالا
لما نَأَتْ عمَّن يحفُّ (م) ... بها يميناً أو شِمالا
نَهَضَتْ إليها خَيْلُنا ... من مِصْرَ تحتمِلُ الرِّجالا
والبيضَ لامعةً وبيـ ... ـضَ الهندِ والأَسَلَ النِّهالا
فَغَدَتْ كأَنْ لم يعهدُوا ... في أرضِها حَيًّا حِلالا[5]
هذا وفي تَلِّ العجو ... ل[6] مَلأْنَ بالقَتْلى التِّلالا[7]

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٢) في «ديوان أسامة»: فضائله.

(٣) المغار: الإغارة. «اللسان» (غور).

(٤) حصن قرب وادي موسى، قبلي بيت المقدس. «معجم البلدان»: ٥/٣٤٦، ٣٨٠.

(٥) الحلال: جمع بيوت الناس، واحدتها: حلة. «اللسان» (حلل).

(٦) في الأصل و (ل): العجال، والمثبت من (م). ومثلها «ديوان أسامة».

(٧) في (م) القلالا. مفردها قُلَّة، وهي أعلى الجبل. «اللسان» (قلل).

إذ مَرَّ مُرِّي* ليس يلْـ   ـوي نحو رُفْقَتِهِ اشْتِغالا
واشْتَاقَ عَسْكَرُنا لـه   أهلًا يحبُّهُمُ ومالا
وسَرِيَّةُ ابنِ فُريجِ الطَّـ (م)   ـائيِّ طالَ بها وَصَالا
سارَتْ إلى أرض الخليـ   ـلِ فلم تَدَعْ فيها خِلالا
فلو آنَّ نورَ الدِّين يجـ   ـعَلُ فعْلَنا فيهم مِثالا
وَيُسَيِّرُ الأجنادَ جَهْـ   ـراً كي يُنازِلَهم نِزالا
ووفى[1] لنا ولأهل دَوْ   لته بما قد كان قالا
لرأيتَ للإفرنجِ طُرًّا (م)   في معاقِلها اعتقالا
وتجهَّزوا للسَّيْرِ نَحْـ   ـوَ الغَرْبِ أو قَصَدُوا الشَّمالا
وإذا أبى إلَّا اطِّرا   حاً للنَّصِيْحَةِ واعْتِزَالا
عُذْنا بتسليمِ الأمو   رِ لحُكْمِ خالقِنا تَعالى[2]

فأجابه ابنُ منقذ بقصيدةٍ منها: ١١٨/١

يا أَشْرَفَ الوزراءِ أخـ   ـلاقاً وأكْرَمَهُمْ فَعالا
نَبَّهْتَ عبداً طالما   نَبَّهْتَهُ قدَراً وحالا
وَعَتَبْتَهُ فَأَنَلْتَهُ   فخراً ومجداً لن يُنالا
لكن ذاك العَتْبَ يُشـ   ـعِلُ في جوانحه اشتعالا
أسفاً لجَدٍّ مالَ عنـ   ـه إلى مساءته ومَالا
أما السَّرايا حين تر   جعُ بعد خِفَّتِها ثِقالا[3]
فكذاكَ عاد وفودُ با   بِك مثقلين ثناً[4] ومالا

(١) في «الديوان» ويفي.
(٢) القصيدة في «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢١٣ ـ ٢١٥، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٢٤ ـ ١٢٦.
(٣) هذا البيت والذي يليه ساقطان من (م).
(٤) في «الديوان» نثاً.

وَمَسِيْرُها في كلِّ أَرْ ... ضٍ تبتغي فيها المجالا
فكذاك فَضْلُكَ مثلُ عَدْ ... لِكَ في الدُّنا سارا وجَالا
فاسلَمْ لنا حتى نرى[1] ... لكَ في بني الدُّنيا مِثالا
واشْدُدْ يَدَيْكَ بودِّ نو ... رِ الدين والقَ به الرِّجالا
فهو المحامي عن بلا ... دِ الشَّامِ جمعاً أَنْ تُذَالا[2]
ومُبِيْدُ أملاكِ الفِرَنْـ ... ـجِ وجَمْعَهُمْ حالاً فحالا
مَلِكٌ يتيه الدَّهْرُ والدُّ (م) ... نيا بِدَوْلَتِهِ اخْتِيالا
جَمَعَ الخِلالَ الصَّالحا ... تِ فلم يَدَعْ منها خِلالا
فإذا بدا للنَّاظِريـ ... ـنَ رَأَتْ عيونُهُمُ الكَمالا
فبقيتُما للمُسْلميـ ... ـنَ حِمًى وللدُّنيا جَمالا[3]

وكتبَ إليه الصَّالح في القصيدة المقدَّم ذِكْرُها[4] في الزلازل:

وَلَعَمْري إن المُناصِحَ في الديـ ... ـنِ[5] على الله أجرُه مَحْسُوبُ
وجهادُ العدوِّ بالفِعلِ والقَوْ ... لِ على كلِّ مُسْلمٍ مَكْتُوبُ
ولكَ الرُّتبةُ العَلِيَّةُ في الأمـ ... ـرَيْن مُذْ كنتَ إذ تَشُبُّ الحروبُ
أنتَ فيها الشُّجاع مَا لَكَ في الطَّعْـ ... ـنِ ولا في الضِّرابِ يوماً ضريبُ
وإذا ما حَرَّضْتَ فالشَّاعر المُفْـ ... ـلِقُ فيما تقوله والخطيبُ
وإذا ما أَشَرْتَ فالحَزْمُ لا يُنْـ ... ـكِرُ أنَّ التَّدْبيرَ منك مُصِيْبُ
لك رأيٌ يقظانُ[6] إن ضَعُفَ الرَّأْ ... يُ على حاملي الصَّليبِ صَليبُ

---

(١) في (ل) ترى.
(٢) أي تهان. انظر «اللسان» (ذيل).
(٣) «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢١٥ ــ ٢١٧.
(٤) انظر ص ٣٣٨ ــ ٣٣٩ من هذا الجزء.
(٥) في «ديوان أسامة» للدين.
(٦) في «ديوان أسامة»: مذ قطُّ.

فانهض الآن مُسْرِعاً فبأمثا ... لِك مازَال يُدْرَكُ المَطْلُوبُ
ألْقِ منَّا[1] رسالةً عند نور الدِّ(م) ... ين ما في إلقائها ما يُريبُ
قُلْ له دامَ مُلْكُه وعليه ... مِنْ لباسِ الإقبال بُردٌ قَشِيْبُ
أيها العادِلُ الذي هو للدِّيـ ... ـنِ شبابٌ وللحُروبِ شَبِيبُ[2]
والذي لم يزل قديماً عن الإسـ ... ـلامِ بالعَزْمِ منه تُجْلَى الكُروبُ
وغداً منه للفرنج إذا لاَ ... قُوه يومٌ من الزَّمان عصيبُ
إنْ يَرُمْ نَزْفَ حِقْدِهم فِلْأَشطا ... نِ[3] قناهُ في كلِّ قَلْبٍ قَلِيْبُ
غَيْرُنا مَنْ يقولُ ما ليس يُمضيـ ... ـه بفعلٍ وغَيْرُكَ المَكْذُوبُ
قد كَتَبْنَا إليكَ ما وَضَحَ الآ ... نَ[4] بماذا عنِ الكتابِ تجيبُ
قَصْدُنا أن يكونَ مِنَّا ومنكم ... أجلٌ في مسيرِنا مَضْرُوبُ
فَلَدينا من العساكرِ ماضا ... قَ بأدناهُمُ الفَضاءُ الرَّحِيْبُ
وعلينا أَنْ يَسْتَهِلَّ على الشَّا ... مِ مكانَ الغيوثِ مالٌ صَبِيْبُ 119/1
أَوْ تَراها مِثْلَ العَروسِ ثَرَاها ... كلُّه من دَمِ العِدَى مَخْضُوبُ
لِطَنِيْنِ السُّيوفِ في فَلَقِ الصُّبْـ ... ـحِ على هامِ أهلِها تَطْرِيْبُ
ولجمعِ الحشودِ من كلِّ حِصْنٍ ... سَلَبٌ مُهْمَلٌ لهم ونُهوبُ

---

(1) في «ديوان أسامة»: وألق عنا.

(2) هو شبيب بن يزيد الشيباني، أحد كبار ثوار الخوارج، خرج في خلافة عبد الملك بن مروان، وكان مشهوراً بقوته وشجاعته، كان يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد. غرق سنة (٧٧هـ) على أحد الأقوال. انظر أخباره في «الكامل»: ٣٩٣/٤ وما بعدها، و«وفيات الأعيان»: ٤٥٤/٢ ـ ٤٥٨، و«البيان والتبيين»: ١٢٨/١ ـ ١٢٩.

(3) مفردها شطن، وهو الحبل الطويل، الشديد الفتل يستقى به، وتشد به الخيل. «اللسان» (شطن).

(4) في «ديوان أسامة» فأوضح لنا الآن.

وبحـــولِ الإلــه ذاكَ ومَنْ غـا   لَـبَ ربي فـإنَّـه مَـغْـلُوبُ[1]

وكتب إليه أيضاً:

أيهـا السَّـائِرُ المجدُّ إلى الشَّـا   مِ تَبـارَى[2] رِكـابُـه والخيـولُ
خُـذْعلى بلدةٍ بها دارُ مجد الدِّ   (م) يـن لاَ رِيـع رَبْعُهـا المـأهـولُ
وتـعـرَّفْ أخبـارَه وَاقْـرِه منّـ   (م) ـا سلاماً فيه العِتابُ يجـولُ
قُلْ له أنتَ نِعْمَ ذُخْرُ الصَّديقِ الـ   ـيـومَ لكنَّـك الصَّـديقُ المَلُولُ
مـا ظَنّنا بـأنَّ حـالـكَ في القُـرْ   بِ ولا البُعْـدِ بـالمـلال يَحُـولُ
لا كِتـابٌ ولا جـوابٌ ولا قَـوْ   لٌ بـه لـليقيـنِ منـا حُـصُـولُ
غَيْـرَ أَنَّا نُـواصِلُ الكُتْبَ إذ قصَّـ   (م) ـرَ منك البَرُّ الكريمُ الـوَصُـولُ
ذاكـرينَ الفَتْـحَ الـذي فتح اللَّـ   ـهُ علينـا فالفَضْـلُ[3] منه جميـلُ
جـاءنا بعـد مـا ذكـرنـاه في كُتْـ   ـبٍ أتـاكـم بهـنَّ منـا رَسُـولُ
أن بعضَ الأسطُولِ نالَ من الإفـ   ـرنـجِ مـا لا يَنـالُـه التَّأمِيـلُ
سـارَ في قِلَّةٍ ومـا زالَ بـالـلَّـ   ـه وصِـدْقِ النِّيَّاتِ يَنْمي القليـلُ
وبقـايـا الأسـطول ليسَ لـه بَعْـ   ـدُ إلى جانبِ[4] الشَّآمِ وُصُـولُ
فحـوى من عكّـا وأَنْطَرْسوس[5]   عـدَّةً لم يُحِطْ بهـا التَّحْصِيـلُ
جَمْـعَ دِيْوِيَّةٍ[6] بهمْ كـانتِ الإفـ   ـرنـجُ تَسْطُو على الورى وتَصُولُ
قِيْـدَ في وَسْطِهم مُقَـدَّمُهُمْ مُهْـ   ـدَى[7] إلينـا وجِيْـدُه مَغْلُولُ

---

(١) انـظر «ديوان أسـامة بن منقـذ»: ١٦٥ ـ ١٦٦، و«ديوان طـلائع بن رزيـك»: ٦٣ ـ ٦٥.

(٢) في (م): تبارك.

(٣) في «ديوان أسامة»: فالصنع.

(٤) في «ديوان أسامة»: ساحل.

(٥) في «ديوان أسامة»: انطرطوس، وكلاهما صحيح. انظرها في كشاف الأماكن.

(٦) هم الداوية، انظر كشاف المصطلحات.

(٧) في (م) و«ديوان أسامة»: يهدى.

بعدَ مَثْوى جماعةٍ هلكوا بالسَّـ (م) ـيفِ منهـا الغـريقُ والمَفْلُولُ[1]
هـذه نـعـمـةُ الإلـه وتـعـديـ ـدُ أيـادي الإلـه شيءٌ يَـطُول
أَبْلِغَنْ قـولَنـا إلى الملك العـا دلِ فهـو المرجُـوُّ والمَـأْمـولُ
قُلْ له كم تُماطِلُ الدَّيْنَ في الكُفَّـ (م) ـارِ فاحْذَرْ أن يغضبَ المَمْطُولُ
سِرْ إلى القُدْسِ واحْتَسِبْ ذاك في اللَّـ ـهِ فبالسَّيرِ منك يُشْفَى الغليـلُ
وإذا مـا أبـطا مَسِيْـرُكَ فـاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنا ونِعْمَ الـوكيـلُ[2]

فأجابه أسامة بقصيدة منها:

يا أميرَ الجُيوشِ يا أَعْدَلَ الحُكَّـ (م) ـامِ في فِعْلِهِ وفيمـا يقـولُ
أنتَ حلَّيْتَ بالمكارمِ أهلَ الـ ـعَصْـرِ حتَّى تَعَرَّفَ المَجْهُـولُ
وَقَسَمْتَ الفرنجَ بالغَزْوِ شَطْرَيْـ ـنِ فهـذا عـانٍ وهـذا قَتِيْـلُ
بـالـغَ العَبْدُ في النِّيابةِ والتَّحْـ ـريضِ وهـو المُفَـوَّه المَقْبُـولُ
فـرأى من عَزِيْمَةِ الغَزْوِ مـا كا دَتْ لـه الأَرْضُ والجبالُ تميـلُ
وإذا عـاقَتِ المقـاديـرُ فـاللَّـ ـهُ إذاً حَسْبُنَا ونِعْمَ الـوكيـلُ[3]

وكتب الصَّالح إليه جواباً قصيدته الطائية التي أولها:

هي البَدْرُ لكنَّ الثّريا لها قُـرْطُ ومِنْ أَنْجم الجَوْزاء في نَحْرِها سِمْطُ

ثم قال بعد وصف السُّيوف:

ذَخَرْنـا سُـطاهـا للفـرنج لأنَّهـا بهم دونَ أهلِ الأرضِ أَجْدَرُ أن تَسْطُو

---

(١) في (م) و«ديوان أسامة»: والمقتول.
(٢) انظر «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٤٠، ٢١٧ ــ ٢١٨، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ١٢٨ ــ ١٣٠.
(٣) في «ديوان أسامة»: ١٤٠ ــ ١٤١ أبيات من القصيدة، لم يرد فيه مما عندنا إلا البيت الأول.

١٢٠/١ وقد كاتبوا في الصُّلْح لكنْ جَوابُهُمْ بحضرتنا ما تُنْبِتُ الخَطُّ(١) لا الخَطُّ
سُطُورُ خُيولٍ لا تُغِبُّ ديـارَهُمْ لها بالمواضِي والقَنَا الشَّكْلُ والنَّقْطُ
إذا أَرْسَلَتْ فَرْعاً(٢) من النَّقْـعِ فاحماً أثيثاً(٣) فَأَسْنَـانُ الرِّمـاحِ لها مُشْطُ
رَدَدْنَـا به ابن الفُنْشِ عنَّـا وإنمـا يُثَبِّتُـه في سَـرْجِـه الشَّـدُّ والـرَّبْطُ
فَقُولوا لنور الدين ليس لجائفِ الـ ـجِرَاحاتِ(٤) إلا الكيُّ في الطِّبِّ والبَطُّ(٥)
وحَسْمُ أُصولِ الدَّاءِ أَوْلَى بعاقلٍ لبيبٍ إذا اسْتَوْلَى على المُدْنَفِ الخِلْطُ(٦)
فَـدَعْ عنك ميـلاً للفرنـج وهُـدْنَةً بها أبداً يُخْطي سِوَاهُمْ ولم يُخْطُوا
تـأَمَّلْ فكم شَـرْطٍ شَـرَطْتَ عليهمُ قديماً وكم غَدْرٍ به نُقِضَ الشَّـرْطُ
وشَمِّـرْ فـإنَّـا قـد أَعنَّـا بكـلِّ مـا سألتَ وجَهَّزْنا الجيوشَ ولن يُبْطُوا(٧)

قال العماد في كتاب «الخريدة»: الصَّالـح أبو الغارات طلائـع بن رُزِّيك سلطان مصر في زمان الفائز، وأول زمان العاضد، ملك مصر، واستولى على أمر صاحب القصر، ونفق في زمانه النَّظْم والنثر، وقرَّب الفضلاء، واتخذهم جُلَساء، ورحل إليه ذوو الرَّجاء، وأفاضَ على الدَّاني والقاصي العطاء. وله قصائدُ كثيرةٌ مستحسنة نفَّذها إلى الشَّام، يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام، وما يُصَدِّق أحدٌ أن ذلك شعره؛ لجودته، وإحكام مباني حكمته، وأقسام معاني

---

(١) الخط: أرض ينسب إليها الرماح الخطية في البحرين. انظر «اللسان» (خطط).
(٢) الفرع: الشعر التام. «اللسان» (فرع).
(٣) شعر أثيث: غزير طويل. «اللسان» (أثث).
(٤) الجائفة: الطعنة التي تنفذ إلى الجوف. «اللسان» (جوف).
(٥) بَطُّ الجرح: شقه. انظر «اللسان» (بطط).
(٦) رجل خِلْط: مخالط العقل. انظر «اللسان» (خلط).
(٧) القصيدة بتمامها في «ديوان أسامة بن منقذ»: ١٧٥ ــ ١٧٨، و«ديوان طلائع بن رزيك»: ٨٤ ــ ٨٧، ومنها مختارات في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٧٦/١ ــ ١٧٧.

بلاغته، فيقال: إن المهذَّب ابن الزُّبير[1] كان ينظم له، وأن الجليس بن الجبَّاب[2] كان يُعينه، وله ديوان كبير[3] وإحسان كثير[4].

ولما جلسْ في دَسْت الوزارة نظم هذه الأبيات بديهةً:

انْظُرْ إلى ذي الدَّار كم ... قد حَلَّ ساحتَها وَزِيرُ
ولَكَمْ تبخترَ آمناً ... وَسْطَ الصُّفوفِ بها أميرُ
ذَهَبُوا فلا والله ما ... يبقى الصَّغيرُ ولا الكبيرُ
ولِمِثْلِ ما صاروا إليـ ... ـهِ من الفَناءِ غداً نَصِيرُ[5]

فصل

قال أبو يعلى: ورد الخبر في خامس عشر ربيع الأول من ناحية حلب بحدوث زلزلةٍ رَوَّعَتْ أهلها وأزعجتهم، وزعزعت مواضع من مساكنها، ثم سكنت بقدرة محرِّكها سبحانه وتعالى. وفي ليلة الخامس والعشرين من ربيع الأول وافت زلزلة في دمشق روَّعت وأقلقت، ثم سكنت[6].

---

(١) هو أبو محمد الحسن بن علي بن الزبير، توفي سنة (٥٦١ هـ)، وسيرد ذكره في ٢/ ٢٥ من هذا الكتاب. عند ذكر أخيه القاضي الرشيد أحمد بن علي بن الزبير.

(٢) توفي سنة (٥٦١ هـ)، وسترد ترجمته في ٢/ ٦ من هذا الكتاب.

(٣) يبدو أن ديوانه فُقِدَ، وقد جمع شعره الدكتور أحمد أحمد بدوي، وطبعه في مصر سنة (١٩٥٨م)، ثم استدرك عليه محمد هادي الأميني، وطبع ديوانه في النجف سنة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م) وعلى هذه الطبعة كانت إحالاتنا فيما ورد من شعره.

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٧٣ ــ ١٧٤.

(٥) الأبيات في المصدر السابق، والقصيدة بتمامها في «ديوان طلائع بن رزيك»: ٧٦ ــ ٧٨.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١.

وفي التاسع من ربيع الآخر بَرَزَ نور الدين من دمشق إلى جسر الخشب* في العسكر المنصور بآلات الحرب لجهاد الكفرة. وقد كان أسد الدين قبل ذلك عند وصوله فيمن جمعَه من فرسان التركمان، أغار بهم على أعمال صيدا وما قَرُبَ منها، فغنموا أحسن غنيمة وأوفرها، وخرج إليهم من كان بها من خيَّالة الفرنج ورجَّالتها، وقد كمنوا لهم فغنموهم، وقُتل أكثرهم وأُسر الباقون، وفيهم(١) ولد المقدَّم المتولي حصن حارِم*، وعادوا سالمين(١) بالأسرى ورؤوس القتلى والغنيمة، ولم يصب منهم غير فارسٍ واحد(٢).

قال: وفي أوائل شهر تموز الموافق لأول جُمادى الآخرة من السَّنة وافى في البقاع مطر هَطَّال بحيث حدَث منه سيلٌ أحمر كما جَرَتْ به العادة في تنبوك(٣) الشتاء، ووصل إلى برَدَى، ووصل إلى دمشق، وكَثُرَ التعجب من آثار قُدْرة الله تعالى بحدوث مثل ذلك في هذا الوقت(٤).

قال: وفي ليلة الثالث والعشرين من رجب وافت زلزلة عند تأذين الغداة، ثم أُخرى في الليلة بعدها وقت صلاة الغَدَاة. وورد(٥) الخبر من العسكر بأن الفرنج تجمَّعوا وزحفوا إلى العسكر المنصور، وأن المولى نور الدين نهض في الحال في العسكر، والتقى الجمعان، واتُّفق أن عسكر الإسلام حدَث فيه فشل لبعض المقدَّمين، فاندفعوا وتفرَّقوا بعد الاجتماع، وبقي نور الدين ثابتاً مكانَه في عِدَّة يسيرة من شجعان غِلْمانه وأبطال خواصِّه

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥١ ــ ٣٥٢.

(٣) في اللغة: انتبك: ارتفع، فلعل المعنى في ارتفاع الشتاء، أي في شدته. انظر «معجم متن اللغة»: ٥/٣٨٨.

(٤) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٢.

(٥) في الأصل: ووصل، والمثبت من (ل) و(م).

في وجوه الفرنج، وأطلقوا فيهم السِّهام، فقتلوا منهم ومن خيولهم العدد الكثير، ثم ولُّوا منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من عسكر الإسلام، ونجَّى الله ــ وله الحمد ــ نور الدين من بأسهم بمعونة الله تعالى، وشدَّة بأسه، وثبات جأشه، ومشهور شجاعته، وعاد إلى مخيَّمه سالماً في جماعته، ولامَ من كان السبب في اندفاعه بين يدي الفرنج، وتفرَّق جمع الفرنج إلى أعمالهم، وراسل ملكهم لنور الدين في طلب الصُّلح والمهادنة وحرص على ذلك، وتردَّدَتْ بين الفريقين مراسلات، ولم يستقرَّ بينهما حال، وعاد نور الدين إلى دمشق سالماً[1].

قلت: وذكر أبو الفتح بَنْجير بن أبي الحسن بن بَنْجير الأشتري[2]؛ المعيد ــ كان ــ بالمدرسة النِّظامية*، في سيرة مختصرة جَمَعها لنور الدين، ١/١٢١
وقد تقدَّم شيءٌ منها، رحمهما الله قال: وبلغنا أنَّ نور الدين خرج إلى الجهاد في سنة ستٍّ[3] وخمسين وخمس مئة، فقضى الله بانهزام عسكر المسلمين، وبقي الملك العادل مع شرذمة قليلة، وطائفةٍ يسيرة، واقفاً على تلٍّ يقال له تل حبيش، وقد قرب عسكر الكُفَّار بحيث اختلط رجَّالة المسلمين مع رجَّالة الكُفَّار، فوقف الملك العادل بحذائهم مولِّياً وجهه إلى قبلة الدُّعاء، حاضراً بجميع قلبه، مناجياً رَبَّه بسرِّه يقول: يا رَبَّ العباد، أنا العبد الضَّعيف، ملَّكْتني هذه الولاية وأعطيتني هذه النِّيابة، عمرتُ بلادك، ونصحتُ عبادك، وأمرتُهُمْ بما أمرتني به، ونهيتُهم عما نهيتني عنه، فرفعت المنكرات من بينهم، وأظهرتُ شعار دينك في بلادهم، وقد انهزمَ المسلمون، وأنا لا أقدر على دفع هؤلاء الكفار أعداء دينك ونبيِّك محمد ﷺ، ولا أملك إلا نفسي هذه، وقد سَلَّمتها إليهم ذاباً عن دينك وناصراً لنبيِّك. فاستجابَ الله

(١) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٢.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦٢ من هذا الجزء.
(٣) كذا قال بنجير، وقد وهم، والصواب سنة ثلاث وخمسين كما ساقه أبو شامة في حوادثها.

تعالى دعاءه، وأوقع في قلوبهم الرُّعب، وأرسل عليهم الخذلان، فوقفوا مواضعهم وما جسروا على الإقدام عليه، وظنُّوا أنَّ الملك العادل عمل عليهم الحيلة، وأنَّ عسكر المسلمين في الكمين، فإن أقدموا عليه تخرج عساكر المسلمين من الكمين فلا ينفلت منهم أحد. فوقفوا وما أقدموا عليه.

قال: ولولا ذلك الإلهام[1] من الله تعالى لكانوا قد استأسروا المسلمين، وما كان ينفلت واحد من المسلمين، فوقف عسكر الكفار وبرز اثنان منهم يجولان بين الصَّفَّين يطلُبان البراز من المسلمين، فأمر الملك العادل بِخُطْلُخ الزَّاهد[2]؛ مولى الشَّهيد بالخروج إليهما، فخرج، وجال بينهما ساعة، وحمل على واحدٍ منهما فقتله، ثم جال ساعة وعمل حيلة وخدعَهُ، ورجع إلى قريب صفِّ الكُفَّار، وحمل على الآخر فقتله، ورجع إلى الصف.

قال: وحدَّثنا الشيخ داود المَقْدِسي خادم قبر شعيب، على نبينا وعليه السَّلام، قال: كان أعطاني مَلِكُ القدس بغلة كنتُ راكباً عليها ـ يعني في ذلك اليوم ـ واقفاً مع الملك العادل، فلما وصل الكُفَّار وقربوا منا شمَّت بغلتي رائحة خيل الكفار، فصهلت تطلبُ خيلهم، فسمعوا صهيل بغلتي، فقالوا: هذا داود راكب على البغلة مع نور الدين واقف، ولو لا الحيلة والكمين من المسلمين لما وقفوا مع هذه الشِّرْذِمة القليلة، والطَّائفة اليسيرة. فتحقق ذلك في قلوبهم، فوقفوا وما جسروا على الإقدام عليه قال: فترجَّل كلُّ من كان مع الملك العادل وتشفَّعوا إليه، وباسوا الأرضَ بين يديه، وقالوا: أيها الملك أنت بجميع المسلمين في هذا الموضع وفي هذا الإقليم، فإن جرى ـ والعياذ بالله ـ وَهْنٌ وضَعْفٌ من استيلاء الكُفَّار على المسلمين مِن الذي يقدر على تداركه؟ قال: وحلَف هذا الشيخ داود أنهم أخذوا بعنان

(١) في الأصل و (ل): إلهام، والمثبت من (م).

(٢) سيرد ذكره في حوادث سنة (٥٦٥ هـ) حين استولى الفرنج على حصن عكار، وكان له. انظر ١٤١/٢ من هذا الكتاب.

فرسه كرهاً، ورحلوا من ذلك الموضـع، وما كان في عزم الملك العادل أن يرحل من ذلك الموضـع. فلما عرف الكفار ذلك، وأنه ما كان عليهم حيلة ولا كمين، ندموا على ذلك ندامةً عظيمة.

قال: وكان قبل هذه الوقعة بسنة كسَر الملكُ العـادل الكُفَّـارَ وقتل منهم مقتلةً عظيمة وأسر منهم خلقاً كثيراً، على ما حكي عن صـلاح الدين[1] صاحب حمص أنه قال: قد جاز التركمان علينا، فحصَل في الجريدة[2] ألف أسير مـع التركمان. هذا ما جاز على بلد حمص وحده، وكان قد انفلت ملك القُدْس، ودخل إلى قليعة؛ فلما جَنَّ عليه اللَّيل خرج من القلعة ومضى.

فصـــل

قال أبو يعلى: وفي رجب تجمَّـع قومٌ من السُّفهاء العوام، وعزموا على التَّحريض لنور الدين على إعادة ما كان أَبْطَلَ وسامـحَ به أهل دمشق من رسوم دار البطيـخ* وعرصة البقل والأنهار، وصانهم من إعنات شرار الضُّمَّان وحوالة الأجناد*. وكرَّروا لسخف عقولهم الخطاب، وضمنوا القيامَ بعشرة آلاف دينار بيض، وكتبوا بذلك حتى أُجيبوا إلى ما راموا، وشرعوا في فرضها على أرباب الأملاك من المقدَّمين والأعيان والرَّعايا، فما اهتدوا إلى صواب، ولا نجـح لهم قصدٌ في خطاب ولا جواب، وعسفوا النَّاس بجهلهم بحيث تألموا وأكثروا الضَّجيـج والاستغاثة إلى نور الدين، فصرف همَّه إلى النَّظر في هذا الأمر، فنتجت له السعادةُ وإيثارُ العدل في الرَّعية الإعادة إلى ما كان عليه، فأمر في عاشر رمضان بإعادة الرسوم المعادة إلى ما كانت عليه، من إماتتها وتعفية أثر ضُمَّانها، وأضاف إلى ذلك تبرُّعاً من نفسه، إبطال ضمان الهريسة والجُبْن

(١) انظر ترجمته ص ٣٦٠ من هذا الجزء.
(٢) الجريدة: العسكر الخيالة لا رجَّالة فيهم. انظر «اللسان» (جرد).

واللَّبن، ورَسَمَ بكتابة منشورٍ يُقرأ على كافَّة الناس بإبطال هذه الرُّسوم جميعها وتعفية ذكرها، فبالـغ العالم عند ذلك في مواصلة الأدعية والثَّناء عليه، والنَّشْر لمحاسنه[١].

قال: وفي الحادي والعشرين من رمضان وصـل الحاجب محمـود المُسْتَرْشِدي من ناحية مصر بجواب ما تحمَّله من المراسلات من الملك الصَّالـح متولي أمرها، ومعه رسول من مقدَّمي أمرائها، ومعه المال المنفذ برسم الخزانة النُّورية، وأنواع الأثواب المصرية، والجياد العربية. وكانت فرقةٌ من الإفرنـج ــ خذلهم الله ــ قد ضربوا لهم في المعابر، فأظفر الله بهم، فلم يفلت منهم إلا القليل النَّزْر. ثم تلا ذلك ورود الخبر من العسكر المصري بظفره بجملةٍ وافرة من الفرنـج تناهز أربـع مئة فارس، وتزيد على ذلك في ناحية العريش من الجفار، بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلبُ[٢]. ١/١٢٢

قال: وقد كانت الأخبار تناصرت من ناحية القُسْطنطينية في ذي الحِجَّة ببروز ملك الرُّوم[٣] منها بالعدد الكثير لقصد الأعمال والمعاقل الإسلامية، ووصوله إلى مروج الدِّيباج[٤] وتخييمه فيها، وبَثّ سراياه للإغارة على أعمال أنطاكية وما والاها، وأن قوماً من التركمان ظفروا بجماعة منهم، هذا بعد أن افتتـح من أعمال لاوين ــ ملك الأرمن ــ عِدَّة من حصونه ومعاقله. ولما عرف نور الدين هذا شرع في مكاتبة ولاة الأعمال والمعاقل بإعلامهم ما حدَث من الروم، وبعثهم[٥] على استعمال التيقُّظ، والتأَهُّب للجهاد فيهم، والاستعداد للنكاية بمن يظهر منهم[٦].

(١) انظر «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٥٢ ــ ٣٥٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) هو الأمبراطور Manuel، انظر كشاف الأعلام.
(٤) واد بين الجبال، بينه وبين المصيصة عشرة أميال. انظر «معجم البلدان»: ١٠١/٥.
(٥) في (م) ويحثّهم.
(٦) «ذيل تاريـخ دمشق»: ٣٥٤.

قال ابن الأثير: وفي سنة ثلاث وخمسين سار الملك محمد بن السلطان محمود، فحصر بغداد، وبها الخليفة المقتفي لأمر الله، ومعه وزيره عون الدين بن هُبَيْرة(١)، فكاتَبَ أصحاب الأطراف فتحرَّكوا، ووصل الخبر إلى الملك محمد بأن أخاه مَلِكْشاه قصد هَمَذَان، ودخلها في عسكر كبير ونهبها، وأخذ نساء الأمراء الذين معه(٢) وأولادهم، فاختلط العسكر وتفرَّقوا، وعاد محمد نحو هَمَذَان، وخرج أهل بغداد فنهبوا أواخر العسكر المنقطعين، وشعَّثوا دار السُّلْطان(٣).

قلتُ: وفي هذه السنة توفي أبو الوقت عبد الأوَّل المحدِّث المنفرد بعلوِّ رواية كتاب «الجامع الصَّحيح» للبخاري، رحمه الله تعالى(٤).

ثم دخلت سنة أربع وخمسين [وخمس مئة](٥)

قال أبو يعلى: في أول يوم منها وافت زلزلةٌ عظيمة ضحى نهاره، وتلاها ثنتان دونها(٦).

---

(١) سترد ترجمته ص ٤٤٠ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: كان معه، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «الباهر»: ١١٣ ـ ١١٤.

(٤) هو عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم، السجزي، الهروي، الماليني، سماه أبوه محمداً، فغيره شيخه عبد الله الأنصاري إلى عبد الأول، وكناه بأبي الوقت، وقال له: الصوفي ابن وقته. ولد عبد الأول سنة (٤٥٨هـ)، وقدم بغداد سنة (٥٥٢هـ) وقد انتهى إليه علو الإسناد، وتوفي فيها عن خمس وتسعين سنة. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٣٠٣ ـ ٣١١، وقد ذكر فيه الإمام الذهبي قصة رحلته ماشياً وهو دون العاشرة من هراة إلى بوشنج مع والده طلباً للحديث الشريف.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٤.

وكان قد عرض لنور الدين مرضٌ تزايد به بحيث أضعفَ قوَّته، ووقع الإرجاف به من حُسَّاد دولته، والمُفْسدين من عوام رعيته، وارتاعت الرَّعايا وأعيان[1] الأجناد، وضاقت صدور قُطَّان الثغور والبلاد خوفاً عليه، وإشفاقاً من سوءٍ يصل إليه، لا سيما مع أخبار الرُّوم والفرنج، ولما أحسَّ من نفسه بالضَّعف تقدَّم إلى خواصِّ أصحابه وقال لهم: إنني قد عزمتُ على وصيَّةٍ إليكم بما قد وقع في نفسي، فكونوا لها سامعين مطيعين، وبشروطها عاملين. إني مشفق على الرَّعايا وكافَّة المسلمين ممن يكون بعدي من الولاة الجاهلين، والظَّلَمة الجائرين، فإن أخي نُصْرة الدين أعرفُ من أخلاقه وسوء أفعاله ما لا أرتضي معه بتوليته أمراً من أمور المسلمين، وقد وقع اختياري على أخي الأمير قُطْب الدين مودود؛ متولِّي المَوْصِل، لما يرجعُ إليه من عقلٍ وسَدَاد، ودين وصحة اعتقاد. فحلفوا له، وأنفذ رُسَلَه إلى أخيه بإعلامه صورة الحال ليكون لها مستعداً. ثم تفضَّل الله تعالى بإبلاله من المرض وتزايد القوَّة في النفس والحس[2]، وجلس للدخول إليه والسَّلام عليه. وكان الأمير مجد الدين النائب في حلب قد رَتَّبَ في الطرقات من يحفظ السَّالكين فيها، فظفر المقيمُ في مَنْبِج* برجلٍ حمَّال من أهل دمشق ومعه كتب، فأنفذ بها إلى مجد الدين متولِّي حلب، فلما وقف عليها أمر بصلب متحمِّلها، وأنفذها في الحال إلى نور الدين، فوجدها من أمين الدين زين الحاج أبي القاسم؛ متولي ديوانه، ومن عز الدين والي القلعة مملوكه، ومن محمد بن جفري أحد حُجَّابه، إلى أخيه نُصْرة الدين أمير أميران صاحب حَرَّان* بإعلامه بوقوع اليأس من أخيه، ويحضونه على المبادرة والإسراع إلى دمشق لِتُسَلَّم إليه. فلما عرف نور الدين ذلك عرض الكتب على أربابها فاعترفوا بها، فأمر باعتقالهم، وكان رابعهم سعد الدين

---

(١) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٥ وأعوان.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق»: والجسم.

عثمان، وكان قد خاف فهرب قبل ذلك بيومين. وورد في الحال كتاب صاحب قلعة جَعْبَر* يخبر بقطع نُصْرة الدين الفرات مُجِدًّا إلى دمشق، فأنهضَ أسدَ الدين في العسكر المنصور لردِّه ومنعه من الوصول، فاتَّصل به خبرُ عوده إلى مقرِّه عند معرفته بعافية أخيه، فعاد أسدُ الدين إلى دمشق، ووصلت رُسُلُ الملك العادل من ناحية المَوْصِل بجواب ما تحمَّلوه إلى أخيه قطب الدين، وفارقوه وقد برز في عسكره، متوجِّهاً إلى ناحية دمشق، فلما فصل عن المَوْصل اتصل به خبر عافيته، فأقام بحيث هو، وأنفذ وزيره جمالَ الدين أبا جعفر محمد بن علي[1] لكشف الحال، فوصل إلى دمشق يوم السبت الثامن من صفر في أحسن زِيٍّ وأبهى تجمُّلٍ، وخرج إلى لقائه الخَلْقُ الكثير[2].

قال: وهذا الوزير قد ألهمه الله [تعالى][3] من جميل الأفعال وحميد الخلال[4]، وكرم النفس، وإنفاق أمواله في أبواب البِرِّ والصِّلات، والصدقات، ومستحسن الآثار في مدينة الرسول عليه السَّلام، ومكَّة ذات الحرم، والبيت المعظَّم، شرَّفه الله تعالى، ما قد شاع ذكره، وتضاعف عليه حمدُه وشُكْره. واجتمع مع نور الدين وجرى بينهما من المفاوضات والتقريرات ما انتهى إلى عوده إلى جهته بعد الإكرام له، وتوفيته حقَّه من الاحترام، وأَصْحَبَهُ برسم قطب الدين أخيه وخواصِّه من الملاطفة ما اقتضته الحال الحاضرة، وتوجَّه معه الأمير أسد الدين[5].

وقال ابن أبي طي: لما وصل الوزير جمال الدين إلى حلب[6] تلقَّاه

---

(١) سترد ترجمته ص ٤٢٠ من هذا الجزء.
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٥ ـ ٣٥٦.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: الأخلاق.
(٥) المصدر السابق: ٣٥٦.
(٦) في (ل) كتب فوقها بخط دقيق: صح.

موكب نور الدين، وفيه وجوه الدولة وكبراء المدينة، وأنزل في دار ابن الصوفي، وأُكرم غاية الإكرام، وأُعيد إلى صاحبه شاكراً عن نور الدين،
١/١٢٣ وسَيَّر معه الأمير أسد الدين شِيركُوه رسولاً إلى قطب الدين بالشُّكْر له والثناء عليه، وأنفذت معه هدايا سَنِيَّة، فسار وعاد إلى حلب مُكرَّماً، فوجد نور الدين عازماً على الخروج إلى دمشق لما بلغه من إفساد الفرنج في بلد حَوْرَان، فسار في صحابته، ووصل نور الدين إلى دمشق، فأمر الناسَ بالتجهُّز لقتال الفرنج، ثم أنهض[١] أسدَ الدين في قطعةٍ من العسكر للإغارة على بلد صيدا، فسار وسار معه أخوه نجم الدين أيوب وأولاده، ولم يشعر الفرنج إلا وهو قد عاث في بلد صيدا وقتل وأسرَ عالماً عظيماً، وغنم غنيمةً جليلة، وعاد فاجتمع بنور الدين على جسر الخشب.

قلتُ: وهذا هو ما تقدَّم ذكره بعد المرضة الأولى[٢] وكأن ابن أبي طي جعل المرضتين واحدةً بحلب، وأبو يعلى ذكر أن الأولى بحلب والثانية بدمشق، وهو الأصح، والله أعلم.

فصـــل

قال أبو يعلى: كان قد وصل من ملك الرُّوم رسولٌ من معسكره ومعه هدية أتحف بها الملك العادل من أثواب ديباج وغير ذلك، وجميل خطاب وفعال[٣]، وقوبل بمثل ذلك. وحكى عن ملك الفرنج ـ خذله الله ـ أن المصالحة بينه وبين ملك الروم تقرَّرت؛ والمهادنة انعقدت، والله يردُّ بأس كل

---

(١) في (ل) و(م) أنهد، وكلاهما بمعنى. انظر «اللسان» (نهد).
(٢) انظر ص ٣٤٧ من هذا الجزء.
(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٦، وبغال، وهو تصحيف.

واحدٍ منهما إلى نحره، ويذيقه عاقبة غدره ومكره[١].

قال: ووردت أخبار من ناحية ملك الرُّوم باعتزامه على أنطاكية وقصد المعاقل الإسلامية، فبادر نور الدين بالتوجُّه إلى البلاد الشَّامية لإيناس أهلها من استيحاشهم من شَرِّ الرُّوم والإفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فسار في العسكر صوب حمص وحماة وشَيْزَر*[٢].

قال: وفي ثالث ربيع الأول[٣] وافت زلزلة هائلة ماجت أربع موجات وأيقظت النِّيام وأزعجت اليقظى، وخاف كلُّ ذي مسكن مضطربٍ على نفسه وعلى مسكنه[٤].

قال: وفي تاسع جمادى الأولى هَبَّتْ ريح عاصفٌ شديدة أقامت يومها وليلتها، فأتلفت أكثر الثِّمار، صيفيَّها وشتويَّها، وأفسدت بعض الأشجار، ثم وافت آخر الليل زلزلة هائلة ماجت موجتين أزعجت وأقلقت[٥].

قال: وتجدَّدَتْ المهادنة المؤكدة لنور الدين مع ملك الروم، بعد تكرر المراسلات والاقتراحات في التقريرات، وأُجيب ملك الرُّوم إلى ما التمسه من إطلاق مقدَّمي الإفرنج المقيمين في حبس نور الدين، فأنفذهم بأسرهم[٦]. وقابل ملكُ الروم هذا الفضل بما يُضاهيه من الإتحاف بأثواب الدِّيباج الفاخرة، المختلفة الأجناس، الوافرة العدد، ومن الجوهر النفيس، وخيمة من الدِّيباج لها قيمة وافرة، وما استحسن من الخيول الجبلية. ثم رحل عقيب ذلك

---

(١) «ذيل تاريخ دمشق» ٣٥٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٧ في ليلة الأحد الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) انظر ص ١٩٦ من هذا الجزء.

في عساكره من منزله عائداً إلى بلاده مشكوراً محموداً ـ ولم يؤذ أحداً من المسلمين ـ في العشر الأوسط من جُمادى الأولى، فاطمأنَّتِ القلوب بعد انزعاجها وقلقها[١].

قال: وورد بعد ذلك الخبر بأن نور الدين صنع لأخيه قُطْب الدين ولعسكره ولمن ورد معه من المقدَّمين والولاة وأصحابهم، الواردين لجهاد الروم والإفرنج سِماطاً عظيماً هائلاً تناهى فيه، وفَرَّق من الحُصُن العربية والخيول والبغال العددَ الكثير، ومن الخِلَع من أنواع الدِّيباج المختلف وغيره، والتخوت الذهب الشيء الكثير الزائد على الكثرة، وكان يوماً مشهوداً في الحُسْن والتجمُّلِ. واتفق أن جماعةً من غرباء التركمان وجدوا من النَّاس غفلة باشتغالهم بالسِّماط وانتهابه، فغاروا على العرب من بني سامة[٢] وغيرهم، واستاقوا مواشيهم فلما ورد الخبر بذلك أنهض نور الدين في أثرهم فريقاً وافراً من العسكر، فأدركوهم واستخلصوا منهم جميعَ ما أخذوه، وأُعيد إلى أربابه[٣].

قال: وتقـرَّرَ الرأي النُّوري على التوجه إلى مدينة حَرَّان* لمنازلتها واستعادتها من يد أخيه نُصْرة الدين حسبما رآه في ذلك من الصَّلاح، فرحل في عسكره أول جمادى الآخرة فلما نزل عليها وأحاط بها وقعت المراسلات إلى أن تقرَّر الحال على أمانٍ[٤] من بها، وسلِّمت في يوم السبت الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، وقُرِّرت أحوالها، وأُحسن النظر في أحوال

(١) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٢) في «ذيل تاريخ دمشق»: أسامة، وهو تصحيف، وسامة هو ابن لؤي بن غالب، أحد أجداد العرب. انظر «جمهرة أنساب العرب»: ١٧٣، وما بعدها.

(٣) انظر «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨.

(٤) في «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨ إيمان، وهو تصحيف.

أهلها، وسلَّمها للأمير زين الدين [عليّ][1] على سبيل الإقطاع، وفوَّضَ إليه تدبير أُمورها[2].

ثم دخلت سنة خمس وخمسين [وخمس مئة][3]

قال الرئيس أبو يعلى: في صفر توفي الأمير مجاهد الـدين بُزَان بن مامين؛ أحد مقدَّمي أمراء الأكراد، وهو من ذوي الوجاهة في الدولة، موصوفٌ بالشجاعة والبسالة والسَّمَاحة، مواظبٌ على بث الصِّلات والصَّدقـات في المساكين والضعفاء والفقراء، مـع الزمان في كلِّ عصر ينقضي وأوان، جميل المحيَّا، حسن البِشْر في اللِّقاء. وحمل من داره بباب الفراديس* إلى الجامـع للصَّلاة، ثم إلى المدرسة المشهورة باسمه[4]، فدفن فيها في اليوم، ولم يخلُ من باكٍ عليه، ومُؤبِّن له، ومتأسِّف على فقـده؛ لجميل أفعـاله وحميـد خلاله[5].

قلتُ: وله أوقاف على أبواب[6] البر منه المدرستان المنسوبتان إليه، إحداهما التي دفن فيها، وهي لزيق باب الفراديس المجدَّد، والأُخرى قبالة

---

(١) ما بين حاصرتين من (ل)، وانظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.
(٢) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٨.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) هي المدرسة المجاهدية البرانية، وتسمى الآن مسجد السادات المجاهدية، يقـع في سوق العمارة الجوانية على باب العمارة، وهو ما كان يسمى بباب الفراديس قديماً. انظر «ثمار المقاصد»: ٢٢٣، و«منادمة الأطلال»: ١٤٧ ـ ١٤٨.
(٥) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٩، وقد سلفت بعض أخباره في أثناء هذا الجزء.
(٦) في الأصل: وجوه، وكتب فوقها بخط دقيق: أبواب، وكأنه تصحيح لها، وهو المثبت في (ل) و (م).

١٢٤/١ [باب][١] دار سيف الغربي، في صف مدرسة نور الدين[٢] رحمه الله تعالى. وله وقفٌ على من يقرأ السُّبع كلَّ يوم بمقصورة الخَضِر بجامع دمشق؛ وغير ذلك. وقد مدحه العَرْقَلَةُ[٣] وغيره.

قال أبو يعلى: وفي مستهلِّ صفر رفع القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى بن علي القُرَشي[٤]؛ قاضي دمشق، إلى الملك العادل نور الدين رقعةً يسأله فيها الإعفاء من القضاء، والاستبدال به، فأجاب سؤاله، وولى قضاء دمشق القاضي كمال الدين ابن الشَّهْرُزوري[٥]؛ وهو المشهور بالتقدُّم ووفور العلم، وصفاء الفهم، والمعرفة بقوانين الأحكام، وشروط استعمال الإنصاف والعدل والنَّزاهة، وتجنُّب الهوى والظلم. واستقام له الأمر على ما يهواه ويؤثره ويرضاه، على أن القضاء من بعض أدواته، واستقر أن يكون النائبَ عنه عند اشتغاله ولدُه[٦].

قلت: ولكمال الدين رحمه الله تعالى الصَّدقة الجارية بعده على الفقراء كل يوم جمعة وإليه ينسب الشُّبَّاك الكمالي بجامع دمشق من الغرب، وهو الذي حكمت فيه القضاة مُدَّة، ويصلُّون فيه الجمعة في زماننا.

وإلى ههنا انتهى ما نقلناه من كتاب الرئيس أبي يعلى التَّميمي، فإنه آخر كتابه. وفي هذه السنة توفي رحمه الله تعالى[٧].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وسيرد ذكره دار سيف ص ٤١٥ من هذا الجزء.
(٢) هي المدرسة المجاهدية الجوانية، انظر كشاف الأماكن.
(٣) انظر «ديوان عرقلة الكلبي» ٧٨ ـ ٨٠، وغيرها.
(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ٧٣ من هذا الجزء.
(٥) سترد ترجمته ٢/٤٢٦ من هذا الكتاب.
(٦) «ذيل تاريخ دمشق»: ٣٥٩ ـ ٣٦٠.
(٧) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٨ من هذا الجزء.

قال ابن الأثير: وفي سنة خمس وخمسين توفي أمير المؤمنين المقتفي بن المستظهر، ومولده سنة تسع وثمانين وأربع مئة، وكانت خلافته أربعاً وعشرين سنة وشهرين، وبويع ولده أبو المُظَفَّر يوسف، ولقِّب المستنجد بالله. فأقَرَّ ابنَ هُبيرة[1] على وزارته[2].

قال: وفيها حَجَّ زين الدين عليٌّ وأحسن إلى النَّاس في طريق مكَّة، وأكثر الصدقات، فلما وصل بغداد أكرمه المستنجد بالله، فلما لبس الخِلْعة كانت طويلة، وكان قصيراً جداً، فمدَّ يده إلى كمراته[3] وأخرج ما شَدَّ به وسطه، وقصَّر الجُبَّة، فنظر المستنجد إليه واستحسن ذلك منه، وقال لمن عنده: مثل هذا يكون الأمير والجندي لا مثلكم.

قلت: وفي هذه السنة توفي المستخلف بمصر، الملقَّب بالفائز بن الظافر بن الحافظ، وولي بعده ابن عمه العاضد بن يوسف بن الحافظ؛ وهو آخر خلفاء مصر. ووصل من الصَّالح بن رُزِّيك كتاب إلى ابن منقذ أسامة بذلك، فكتب إليه:

هناءً بنعمى قَلَّ عن قَدْرِها الشُّكْرُ ... وصبراً لِرُزْءٍ لا يقومُ به الصَّبْرُ
مضى الفائز الطُّهر الإمام وقام بالْـ ... إمامة فينا بعدَه العاضِدُ الطُّهْرُ
إماما هُدًى، لله في نَقْلِ ذا إلى ... كرامته وفي إقامةِ ذا سِرُّ
فعش أبداً واسلم لهم يا كفيلهم ... تدافعُ عنهم كلَّ حادثةٍ تَعْرُو[4]

---

(١) في هامش (ل): «حاشية: وكان الوزير ابن هبيرة رجلاً عالماً، صار صاحب قول في مذهب الإمام أبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله».

(٢) انظر «الباهر»: ١١٤.

(٣) كمرات جمع، مفردها كمر كلمة فارسية تعني الحزام، وكان زين الدين يشد على وسطه كل ما يحتاج إليه. انظر «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» لدوزي (الترجمة العربية): ٣١٣ ـ ٣١٤، و«مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» المجلد ٥٠/ ٤٨٨ و٢/ ٤٠ من هذا الكتاب.

(٤) لم أجد الأبيات في المطبوع من «ديوان أسامة».

ثم دخلت سنة ست وخمسين [وخمس مئة][1]

قال ابن أبـي طَيّ[2]: في هذه السنة حَـجَّ أسد الدين من الشَّام، وخرج في تجمُّلٍ[3] عظيمٍ وشارة رائعة، واستصحب معه من الأزواد والكُسَى أشياء عظيمة ويقال: إنه كان معه ألف نفس يجري عليهم الطعام والشراب. وحَـجَّ علي كوجك المعروف بزين الدين من العراق، وحَـجَّ ملهم[4] أخو ضِرْغام وزير مصر، فكان الموسم[5] بهؤلاء الثلاثة كثيرَ الخير، واستغنى بسببهم أهلُ الحجاز، وعاد أسد الدين سالماً، وخرج نور الدين إلى لقائه، وكان يوم وروده يوماً عظيماً.

وقال أيضاً: فيها قُتل الصَّالـح بـن رُزِّيك بمصر[6]، وكان سبب قتله أن عَمَّة العاضد عملت على قتله، ونفَّذَت الأموال إلى الأمراء، فبلـغ ذلك الصَّالـح، فاستعاد الأموال، واحتاط على عمة العاضد. قال: وإنما كرهَتْهُ عمة العاضد لاستيلائه على الأمور والدولة، وحِفْظِهِ للأموال، وقَتَلَ الصَّالـحُ بسببها جماعةً من الأمراء ونكبهم، وتمكَّن من الدولة تمكناً حسناً. ثم إن عمة العاضد عادت وأحكمت الحيلة عليه، وبذلت لقومٍ من السُّودان مالاً جزيلاً

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) في (م) الحلبي.

(٣) في الأصل: محمل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في الأصل: معه، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٦٤ من هذا الجزء، وممن حج أيضاً في هذا العام الأمير أسامة بن منقذ. انظر ص ٣٩٦ من هذا الجزء وص ٨٤ من الجزء الثاني.

(٥) في الأصل: الموكب، وعلى هامشه: الموسم، وكأنه تصحيح له، وهو المثبت في (ل) و (م).

(٦) سلفت بعض أخباره وأشعاره، وفي «كتاب «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» لعمارة اليمني أخبار وافية عنه، وله ترجمة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١٧٣/١ ــ ١٨٥، و«وفيات الأعيان»: ٥٢٦/٢ ــ ٥٣٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٣٩٧/٢٠ ــ ٣٩٩، وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٧٥ من هذا الجزء.

حتى أوقعوا به الفعل: جلسوا له في بيت في دهليز القصر مختفين فيه، فلما كان يوم تاسع عشر رمضان ركب إلى القصر ودخله، وسلَّم على العاضد، وخرج من عنده، فخرج عليه الجماعة، ووقعت الصَّيحة، فعثر الصَّالح بأذياله، فطعنه أحدُهم بالسَّيف في ظاهر رقبته، فقطع أحد عمودي الرَّقبة، وحُمل إلى باب القصر، وأُصيب ولده رُزِّيك في كتفه. ولما حصل الصَّالح في داره أوصى ولده رُزِّيك، ومات بعد ساعة من ذلك اليوم.

قال العماد: وانكسفت شمس الفضائل، ورَخُصَ سعر الشعر، وانخفض عَلَم العِلْم، وضاق فضاء الفضل، وعَمَّ رُزْءُ ابن رُزِّيك، وملك صَرْفُ الدَّهر ذلك المليك، فلم تزل مصر بعده منجوسة الحظ، منحوسة الجَدّ[1]، منكوسة الرَّاية، معكوسة الآية، إلى أن ملكها يوسفها الثاني[2]، وجعلها مغاني المعاني، وأنشر رميمها، وعطَّر نسيمها، وتسلَّم قصرها، والتزم خصرها[3]. قال زين الدين الواعظ[4]: عمل فارسُ المسلمين؛ أخو الصَّالح دعوةً في شعبان من السنة التي قتل فيها، فعمل هذه الأبيات وسلَّمها إلي:

١٢٥/١ أنستُ بكمْ دهراً فلما ظعنتُمُ اسْـ ـتَقَـرَّتْ بقلبي وحشةٌ للتفـرُّقِ

ومنها:

وأعجب شيءٍ أنني يـوم بَيْنِكُـمْ بقيتُ وقلبي بين جنبيَّ مـا بقي
أرى البُعْـدَ مـا بيني وبين أحبَّتي كَبُعْدِ المدى ما بين غَرْبٍ وَمَشْرِقِ

---

(١) كذا أعجمت الكلمتان في (ل) و(م)، وفي «الخريدة»، قرأها المحقق منحوسة الحظ، ثم غير الكلمة الثانية من عنده إلى «منسوخة الجد» مخالفاً أصله من دون نص يؤيده.

(٢) يعني صلاح الدين يوسف بن أيوب.

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٧٤ ـ ١٧٥.

(٤) هو علي بن إبراهيم بن نجا، أبو الحسن، المعروف بابن نُجَيَّة، واعظ مشهور، دمشقي، توفي سنة (٥٩٩ هـ) بمصر، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في سنة وفاته. وهو الذي نَمَّ على عمارة اليمني وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة، فشنقهم صلاح الدين كما سيمر في ٢/ ٢٨٢، وانظر ٣/ ٢١٣، ٣٨٠.

ألا جدِّدي يا نفسُ وجداً وحسرةً فهـذا فِـراقٌ بعـده ليسَ نلتـقي

قال: فلم يبق بعدها لهم اجتماع في مسرَّة، وقُتل في شهر رمضان[1].

قلت: ولعُمارة اليمني ولغيره في الصالح مدائح ومراثٍ جليلة، وقد أثنى عليه كثيراً في كتاب «الوزراء المصرية» وقال: لم يكن مجلس أُنسه ينقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم الشرعية والأدبية، وفي مذاكرة وقائع الحروب مع أمراء دولته. قال: وكان مرتاضاً، قد شَمَّ أطراف المعارف، وتميَّز عن أجلاف الملوك، وكان شاعراً يحبُّ الأدب وأهله، يُكرم جليسه، ويبسُط أنيسه، ولكنه كان مفرط العصبيَّة في مذهب الإمامية، وكان مرتاضاً حصيفاً قد لقي في ولايته فقهاء السُّنَّة وسمع كلامهم[2].

قال: ودخلتُ عليه قبل أن يموت بثلاث ليال، وفي يده قرطاس قد كتبَ فيه بيتين من شعره عملهما في تلك السَّاعة، وهما:

نحنُ في غَفْلَةٍ ونومٍ وللمو تِ عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ
قد رحلنا إلى الحِمام سنيناً ليت شِعْرِي متى يكونُ الحِمامُ[3]

قال: ومن عجيب الاتِّفاق أني أنشدتُ ابنه مجد الإسلام في دار سعيد السُّعداء، ليلة السَّادس عشر من شهر رمضان، أو السَّابع عشر، قصيدة أقول فيها:

أبوك الذي تسطو الليالي بحدِّه وأنت يمينٌ إن سطا وشِمالُ
لِرُتْبَتُهُ العُظمى وإن طالَ عُمْرُه إليكَ مصيرٌ واجبٌ ومآلُ
تخالسك اللَّحْظُ المصونُ ودونَها حجابٌ شريفٌ لا انقضى وحِجالُ

---

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٨٤.
(٢) انظر «النكت العصرية»: ٤٥، ٤٨.
(٣) «النكت العصرية»: ٤٨ ــ ٤٩.

قال: فانتقل المُلْك بعد ثلاثٍ[1] إليه.

قال: ومما رثيته به ـ وإن [كان][2] كثيراً ـ قولي:

أفي أهل ذا النَّادي عليمٌ أسائِلُهْ ... فإني لما بي ذاهبُ اللُّبِّ[3] ذاهِلُهْ
سمعتُ حديثاً أَحْسُدُ الصُّمَّ عنده ... ويَذْهَلُ واعِيه ويَخْرَسُ قائِلُهْ
فقد رابني مِنْ شاهدِ الحال أنني ... أرى الدَّسْتَ منصوباً وما فيه كافِلُهْ
وأني أرى فوقَ الوجوه كآبةً ... تدُلُّ على أَنَّ الوجوه ثواكِلُهْ
دعوني فما هذا بوقتِ بكائه ... سيأتيكُمُ طَلُّ البكاءِ ووابِلُهْ
ولِمْ لا نبكِّيه ونندُبُ فَقْدَهُ ... وأولادُنا أيتامُهُ وأرامِلُهْ
فياليت شِعْري بعد حُسْن فَعَاله ... وقد غاب عَنَّا ما بنا الدَّهْرُ فاعِلُهْ
أَيُكْرَمُ مثوى ضيفكم وغريبكم ... فيسكن أم تُطْوى ببينٍ مراحِلُهْ[4]

وله من أخرى يرثيه ويذكر ولاية ابنه:

طَمَعُ المرءِ في الحياةِ غُرورُ ... وطويلُ الآمالِ فيها قصيرُ

ومنها:

ولكم قَدَّرَ الفتى فأَتَتْهُ ... نُوَبٌ لم يُحِطْ بها التَّقْديرُ
فَضَّ ختمَ الحياةِ عنك حِمامٌ ... لا يراعي إذناً ولا يستشيرُ
ما تخطَّى إلى جلالِكَ إلا ... قَدَرٌ أمرُه علينا قديرُ
يا أميرَ الجيوشِ هل لك عِلْمٌ ... أَنَّ حَرَّ الأسى علينا أميرُ
إنَّ قبراً حَلَلْتَهُ لَغَنِيٌّ ... إنَّ دهراً فارَقْتَهُ لفقيرُ
انطوى ذلك البِساطُ وعَهْدي ... وهو بالعِلْمِ والنَّدَى مَعْمُورُ

---

(١) «النكت العصرية»: ٤٩.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و(ل)، والمثبت من (م).

(٣) في (م) القلب.

(٤) «النكت العصرية»: ٥٠.

لا تـظنّ الأنـام أنـك مَـيْـتٌ لـم يَـمُـتْ مَـنْ ثـنـاؤه مَـنْـشُـورُ
إنْ مضى كـافـلٌ فهـذا كفيـلٌ أو وزيـرٌ يـغِـبْ فـهـذا وزيـرُ
دولـة صـالـحـيَّـةٌ خَـلفـتْـهـا دولـةٌ عـادلـيَّـة لا تـجـورُ
أَعْـقبَ الـدَّهْـرُ بؤسَـه بنـعيمٍ رُبَّ حُـزْنٍ في الطَّيِّ منه سـرورُ
١٢٦/١ مـا شَكـوْنـا كَسْـرَ النَّـوائب حتى قيل في الحالِ كَسْـرُكُـمْ مجبورُ
نَصَـرَ النَّـاصـر العُـلا بـالعـوالي وَلَنِعْـمَ المـولـى ونِعْـمَ النَّصِيْـرُ

وقال أيضاً يرثيه، ويذكر الظَّفَر بقاتليه، ويصف نقل تابوته إلى مشهده بالقَرافة، قصيدة طويلة، منها:

قد كنت أشرَقُ من ثِمَادِ مدامعي أسفـاً فكيفَ وقـد طَمَى التَّيَّـارُ
عَمَّ الورى يوم الخميس وخَصَّني خَـطْبٌ بأَنْفِ الـدَّهْـرِ منه صَغَارُ
مـا أوحشَ الدُّنيـا غـديَّةَ فـارَقَتْ قُـطْبـاً رحى الـدُّنيـا عليـه تُـدَارُ
خَـربَتْ ربوعُ المكـرمات لـواحـدٍ عَمَـرَتْ بـه الأجـداثُ وهي قِفارُ
نَعْشُ الجـدودِ العـاثـراتِ مُشَيَّـعٌ عَشِيَتْ بـرؤيـةِ نَعْشِـهِ الأَبصـارُ
نعشٌ تَـوَدُّ بناتُ نَعْشٍ لـو غَدَتْ ونـظامُـهـا أسفـاً عـلـيـه نِـثَـارُ
شَخَـصَ الأنـامُ إليه تحتَ جِنازةٍ خُفِضَتْ لـرفعةِ قَـدْرِهـا الأقـدارُ
سـارَ الإمـامُ أمـامَهـا فَعَلِمْتُ أَنْ قـد شَيَّعَتْهـا الخمسـةُ الأبـرارُ
ومشى الملوكُ بهـا حُفاةً بعـد مـا حَـفَّتْ مـلائكـةٌ بهـا أطـهـارُ
فكـأنَّهـا تـابـوتُ مـوسى أُودِعَتْ فـي جـانبيـه سكيـنـةٌ ووَقـارُ
لكنَّـه مـا ضَمَّ غيـرَ بقيَّـةِ الـ إسلامِ وهْـو الصَّـالح المختـارُ
أَقْـطَنْتَـهُ دارَ الـوِزارةِ ريثـمـا بُنيت لنقلتـه الـكـريمـةِ دارُ
وتغـايـرَ الهَـرَمـان والحرمـانِ في تـابـوتـه وعلى الكـريمِ يُغـارُ
آثـرتَ مِصْراً منه بالشَّـرف الذي حَسَـدَتْ قـرافَتَهـا لـه الأمصـارُ
وَجَـعَلْتَهـا أمنـاً بـه ومثـابـةً تـرجـو مثـابـةَ قَصْـدِهـا الـزُّوَّارُ

قــد قلتُ إذ نقلوه نقلةَ ظاعنٍ … نَــزَحَــتْ بــه دارٌ وشَطَّ مــزارُ
مـا كـان إلا السَّيفَ جَـدَّد غِمْـدَه … بسـواه وهْــو الصَّـارمُ الـبَتَّـارُ
والبَـدْرَ فـارق بُـرْجَـه متبـدِّلاً … بُـرْجـاً بـه تـتشَعْشَعُ الأنـوارُ
والـغيثَ رَوَّى بَلْدَةً ثـم انتحـى … أُخـرى فَنَـوْءُ سَحـابِـه مِـدْرَارُ
يـا مُسْبِـلَ الأستـار دون جلالـه … مـاذا الـذي رُفِعَتْ لـه الأستـارُ
مـالي أرى الـزُّوَّارَ بعـد مهابـةٍ … فـوضـى ولا إذنٌ ولا استئـمـارُ
غَضِبَ الإلـه على رجالٍ أقـدَموا … جهـلاً عليـك وآخـرينَ أشـاروا
لا تعجبا لِقُـدَارِ نـاقـةِ صـالـحٍ … فلكـلِّ دَهْـرٍ نـاقـةٌ(١) وقُـدَارُ(٢)
واخجلتـا للبِيضِ كيف تـطاوَلَتْ … سَفَهـاً بأيـدي السُّودِ وهي قِصارُ
واحَسْـرتـا كيف انفَـرَدْتَ لأَعْبُدٍ … وعبيـدُكَ الـسَّـاداتُ والأَحْـرارُ
رَصَدُوك في ضيقِ المجالِ بحيثُ لا الـ … ـخَـطِّيُّ مـتَّـسـعٌ ولا الـخَـطَّارُ
مـا كانَ أقصـر باعهم عن مثلها … لـو كنتَ متـروكـاً ومـا تختـارُ
ولقـد ثَبَتَّ ثبـاتَ مُقْتَـدِرٍ علـى … خِـذْلانهم لـو سـاعَـدَ المقـدارُ
وتعثَّـرَتْ أقـدامُهُمْ بـك هـيبـةً … لـو لم يكن لك بـالـذُّيول عِثَارُ
أُحْلِلْتَ دارَ كـرامـةٍ لا تنقضي … أبـداً وحَـلَّ بقـاتليـك بَـوَارُ
يا ليتَ عَيْنكَ شـاهَدَتْ أحـوالَهم … من بعدِها ورأَتْ إلى مـا صاروا
وَقَـعَ القِصاصُ بهم وليسوا مَقْنعاً … يُـرْضي وأينَ من السَّمـاء غُبـارُ
ضـاقَتْ بهم سَعَةُ الفِجَاج وربما … نـامَ الـعـدوُّ ولا يـنـامُ الـثَّـارُ
وتـوهَّـمـوا أن الـفِـرارَ مـطيَّـةٌ … تنجي وأينَ مـن القَـضَـاءِ فِـرارُ
طاروا فمدَّ أبـو الشجاع لصيدِهم … شَـرَكَ الـرَّدَى فكـأَنَّهم مـا طـاروا ١٢٧/١
فتهنَّ بـالأجـرِ الجـزيـل ومِيْتَـةٍ … دَرَجَـتْ عليهـا قَبْـلَكَ الأخيـارُ

---

(١) في هامش الأصل و (ل) خ صالح، وهي رواية (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٨ من هذا الجزء.

مـات الـوصيُّ بهـا وحمـزةُ عمُّـه وابنُ البتـولِ وجعفـرُ الـطَّيَّـارُ
نِلْتَ السَّعـادَةَ والشَّهـادَةَ والعُـلا حيًّـا ومَـيْـتـاً إنَّ ذا لَـفَـخـارُ
ولقــد أَقَـرَّ العينَ بـعـدَكَ أروعٌ لــولاه لم يـكُ للعُــلا اسْتِقْـرَارُ
النَّـاصِرُ الهـادي الـذي حَسَنـاتُـهُ عـن سيِّئـاتِ زمـانـنـا أعــذَارُ
لمَّـا استقـامَ لحفظِ أُمَّــةِ أحمـدٍ عُمـرت بـه الأوطـانُ والأوطـارُ[1]

ثــم دخـلـت سنة سبـع وخمسين [وخمس مئة][2]

قال ابن الأثير: فيها جمـع نور الدين العساكر بحلب، وسار إلى قلعة حارم* وحصرها، وجَدَّ في قتالها، فامتنعت عليه؛ لحصانتها وكثرة من بها من فرسان الفرنـج وشُجعانهم، واجتمـع الفرنـج من سائر البلاد، وساروا نحوه ليرحِّلوه عنها، فلما قاربوه طلب منهم المصافَّ، فلم يجيبـوه إلى ذلك، وراسلوه وتلطَّفوا الحال معه، فعاد إلى بلاده. وممن كان معه في هذه الغَزَاة الأمير مُـؤَيَّد الدولة أسامة بن مُرْشد بن مُنْقذ، وكان من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها، فلما عاد إلى حلب دخل إلى مسجد سيرين، وكان قد دخله في العام الماضي سائراً إلى الحج؛ فلما دخله عامئذٍ كتب على حائطه:

لك الحمدُ يا مولاي كم لك مِنَّةٍ عليَّ وفَضْلٍ لا يحيطُ به شُكْـري
نَزَلْتُ بهذا المسجـد العامَ قـافلاً من الغَزْوِ موفورَ النَّصيبِ من الأَجْرِ
ومنه رَحَلْتُ[3] العِيس في عاميَ الذي مضى نحوبيت الله ذي الرُّكن والحِجْرِ[4]
فأدَّيْتُ مَفْروضي وأسقطتُ ثقل ما تحمَّلْتُ من وِزْرِ الشَّبيبة عن ظَهْري[5]

---

(١) وردت بعض أبيات من القصيدة في «النكت العصرية»: ٦٣ ـ ٦٥. مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٣) في (م) دخلت.
(٤) في (م) مضى نحو بيت الله والركن والحجر.
(٥) انظر «الباهر»: ١١٦.

قلتُ: أذكرني هذا ما كتبه أسامة أيضاً بمدينة صور وقد دخل دار ابن أبي عقيل فرآها وقد تهدَّمت وتغيَّرت زخرفتها، فكتب على لوحٍ من رُخام:

احذرْ من الدُّنيا ولا تغترّ بالعُمْرِ القصيرِ
وانظرْ إلى آثارِ مَنْ صَرَعَتْهُ منَّا بالغُرورِ
عمروا وشادوا ماترا هُ من المنازلِ والقُصُورِ
وتحوَّلوا من بعد سُكـ ناها إلى سُكْنى القُبُورِ[1]

قلت[2]: ابنُ أبي عقيل هذا هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن عياض بن أبي عقيل صاحب صور، ويلقَّب عين الدَّولة، مات سنة خمسٍ وستين وأربع مئة، واستولى على صور ابنه النَّفيس[2].

ثم دخلت سنة ثمانٍ وخمسين [وخمس مئة][3]

قال ابن الأثير: فيها جمع نور الدين عساكره ودخل بلاد الفرنج، فنزل بالبقيعة تحت حصن الأكراد*، وهو للفرنج، عازماً على دخول بلادهم ومنازلة طرابلس، فبينما النَّاس في بعض الأيام في خيامهم وسط النهار، لم يرعهم إلا ظهور صُلْبان الفرنج من وراء الجبل الذي عليه الحصن فكبسوهم، فأراد المسلمون دفعهم فلم يطيقوا، فانهزموا، ووضع الفرنج السيف، وأكثروا القتل والأسر، وقصدوا خيمة الملك العادل، فخرج من ظهر خيمته عجلاً بغير قَبَاء، فركب فرساً هناك للنوبة، ولسرعته ركبه وفي رِجْله شِبْحة[4]، فنزل

(١) «ديوان أسامة بن منقذ»: ٢٨١.
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) هي التي تربط بها يد الفرس إلى رجله من لباد ونحوه. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي: ٧١٩/١، و«معجم متن اللغة»: ٢٦٦/٣.

إنسانٌ من الأكراد فقطعها، فنجا نور الدين وقُتل الكردي، فسأل نور الدين عن مخلَّفي ذلك الكردي، فأحسن إليهم جزاءً لفعله، وكان أكثر القتل في السُّوقة والغِلْمان.

وسار نور الدين إلى مدينة حمص، فأقام بظاهرها، وأحضر منها ما فيها من الخيام، ونصبها على بحيرة قَدَس* على فرسخٍ من حمص، وبينها وبين مكان الوقعة أربعة فراسخ، وكان النَّاس يظنون أنه لا يقف دون حلب، وكان رحمه الله تعالى أشجع من ذلك وأقوى عزماً. ولما نزل على بحيرة قَدَس اجتمع إليه كلُّ من نجا من المعركة، فقال له بعض أصحابه: ليس من الرأي أن تقيم ههنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا ونحن على هذه الحال. فوبَّخه وأسكته، وقال: إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم قلُّوا أو كثروا، ووالله لا أستظلُّ بجدار حتى آخذ بثأر الإسلام وثأري. ثم إنه
١٢٨/١ أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والدَّواب والأسلحة والخيام، وسائر ما يحتاج إليه الجُنْد، فأكثر، وفرَّق ذلك جميعه على من سَلِمَ، وأما من قُتل[١] فإنه أقرَّ إقطاعه على أولاده، فإن لم يكن له ولد فعلى بعض أهله. فعاد العسكر كأنَّه لم يُفقد منه أحد.

وأما الفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة؛ لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم مقام نور الدين عندها قالوا: إنه لم يفعل هذا إلا وعنده من القوَّة أن يمنعنا.

وكان نور الدين رحمه الله تعالى قد أكثر الخرج إلى أن قَسَمَ في يوم واحد مئتي ألف دينار، سوى غيرها من الدوابِّ والخيام والسِّلاح وغير ذلك. وتقدَّم إلى ديوانه أن يحضروا الجند، ويسألوا كل واحد منهم عن الذي أُخذ منه، فكلُّ من ذكر شيئاً أعطوه عوضه، فحضر بعض الجند، وادَّعى شيئاً كثيراً

(١) في «الباهر»: وأما من قتل أو أسر.

علم بعضُ النواب كذبه فيما ادَّعاه لمعرفتهم بحاله، فأرسلوا إلى نور الدين يُنهون إليه القضية، ويستأذنونه في تحليف الجندي على ما ادَّعاه. فأعاد الجواب: لا تكدِّروا عطاءنا، فإني أرجو الثواب والأجر على قليله وكثيره. وقال له أصحابه: إن لك في بلادك إدراراتٍ كثيرةً وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والصُّوفية والقُرَّاء، فلو استعنت بها الآن لكان أمثل. فغضب من هذا وقال: والله[١] إني لا أرجو النصر إلا بأولئك، «فإنما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم»[٢]. كيف أقطع صِلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهامٍ لا تخطىء، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وتصيب! ثم هؤلاء القوم لهم نصيبٌ في بيت المال أصرفه إليهم، كيف أعطيه غيرهم؟ فسكتوا. ثم إن الفرنج أرسلوا إلى نور الدين في المهادنة فلم يجبهم إليها[٣]، فتركوا عند الحصن من يحميه، وعادوا إلى بلادهم وتفرَّقوا[٤].

قلتُ: وفي هذه الحادثة تحت حصن الأكراد* يقول أبو الفرج

---

(١) في (ل) إني والله.

(٢) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذا حديث حسن صحيح، أورده الترمذي عن أبي الدرداء، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: أبغوني في ضعفائكم، فإنما ترزقون أو تنصرون بضعفائكم. وأخرج النسائي من حديث سعد عن النبي ﷺ قال: إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها: بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم. وفي «صحيح البخاري» عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم. والله أعلم».

قلت: حديث أبي الدرداء عند الترمذي في «جامعه» (١٧٠٢)، وحديث سعد عند النسائي في «المجتبى» (٣١٧٨) وعند البخاري في «صحيحه» (٢٨٩٦).

(٣) إليها: ليست في (م).

(٤) انظر «الباهر»: ١١٦ ــ ١١٨.

عبد الله بن أسعد[1] المَوْصلي نزيل حمص، من جُملة قصيدة فائقة يمدح بها نور الدين رحمه الله[2] تعالى، أوَّلها:

ظُبى المواضي وأطرافُ القَنَا الذُّبُلِ ... ضوامِنٌ لك ما حازوه من نَفَلِ[3]
وكافِلٌ لك كافٍ ما تحاوِلُه ... عِزٌّ وعزمٌ وبأسٌ غير مُنْتَحَلِ[4]
وما يَعِيبُكَ ما حازوه[5] من سَلَبٍ ... بالخَتْلِ قد تُؤسر[6] الآسادُ بالحِيَلِ
وإنَّما أَخْلَدُوا جُبْناً إلى خُدَعٍ ... إذْ لم يكن لهمُ بالجيشِ من قِبَلِ
واستيقظوا وأرادَ اللَّهُ غفلتَكُمْ ... لِيَنْفُذَ القَدَرُ المحتومُ في الأَزَلِ
حتى أتوكم ولا الماذيُّ[7] من أَمَمٍ ... ولا الظُّبى كَثَبٌ من مُرْهَقٍ عَجِلِ
قَناً لَقًى وقِسِيٌّ غيرُ مُوتَرَةٍ ... والخيلُ عازبة تَرْعَى مع الهَمَلِ[8]
ما يصنَعُ اللَّيثُ لا نابٌ ولا ظُفُرٌ ... بما حوالَيْهِ من عُفْرٍ ومن وُعُلِ
هلاَّ وقد رَكِبَ الأُسْدُ الصُّقُورَ وقد ... سلُّوا الظُّبى تحتَ غاباتٍ من الأَسَلِ
وإنَّما هُمْ أضاعوا حَزْمَهُمْ ثِقَةً ... بِجَمْعِهِمْ ولَكَمْ من واثقٍ خَجِلِ
بني الأَصافِرِ[9] ما نِلْتُم بمكْرِكُمُ ... والمَكْرُ في كلِّ إنسانٍ أَخُو الفَشَلِ
وما رَجَعْتُم بأَسْرى خابَ سَعْيُكُمُ ... غيرَ الأراذِلِ[10] والأتباعِ والسُّفَلِ

---

(١) في الأصل أبو الفرج أبو عبيد الله، وفي (ل) عبيد الله، والمثبت من (م) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٠٢ من هذا الجزء.

(٢) في (م) رحمهما الله.

(٣) في (ل) ثَقَل.

(٤) في (ل) و(م) منتقل، وعلى هامش (ل) خ منتحل.

(٥) في «الديوان» و«الخريدة»: ما نالوه.

(٦) في «الديوان» و«الخريدة» توتر.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٤ من هذا الجزء.

(٨) في «الخريدة» الحمل.

(٩) في «الديوان»: بني الأصيفر.

(١٠) في «الديوان» الأصاغر.

سَلَبْتُمُ الجُرْدَ مُعْراةً[1] بلا لُجُمٍ ... والسُّمْرَ مَرْكُوزةً والبيضَ في الخِلَلِ
هل آخذُ الخيلِ قد أَرْدَى فوارِسَها ... مثالُ آخذِها في الشَّكْلِ والطُّوَلِ
أم سالِبُ الرُّمْحِ مركوزاً كسالبه ... والحربُ دائرةٌ من كفِّ مُعْتَقِلِ
جيشٌ أصابَتْهُمُ عَيْنُ الكمالِ وما ... يَخْلُو من العين إلَّا غيرُ مُكْتَمِلِ
لهم بيومِ حُنَيْنٍ أُسوةٌ وهمُ ... خَيْرُ الأنامِ وفيهم خاتَمُ الرُّسُلِ
سَيَقْتَضِيكمْ بِضَرْبٍ عند أَهْوَنِهِ ... البيضُ كالبيضِ والأَدْرَاعُ كالحُلَلِ
مَلْكٌ بعيدٌ من الأَدْناسِ ذو كَلَفٍ ... بالصِّدْقِ في القولِ والإخلاصِ في العَمَلِ

ومنها:

فالسُّمْرُ[2] ما أصبحَتْ والشَّمْسُ ما أَفَلَتْ ... والسَّيفُ ما فُلَّ والأَطْوادُ لم تَزُلِ
كَمْ قد تجلَّتْ بنورِ الدين من ظُلَمٍ ... للظُّلْمِ وإنجابَ للإضلالِ من ظُلَلِ
قُلْ لِلْمولِّين كُفُّوا الطَّرْفَ من جُبُنٍ ... عند اللِّقاءِ وغضُّوا الطَّرْفَ من خَجَلِ
طَلَبْتُمُ السَّهْلَ تَبْغُونَ النجاةَ ولو ... لُذْتُمْ بمَلْكِكُمُ لُذْتُمْ إلى جَبَلِ
أَسْلَمْتُمُوه وَوَلَّيتُمْ فَسَلَّمَكُمْ[3] ... بِثَبْتَةٍ لو[4] بَغَاها الطَّوْدُ لم يَنَلِ ١٢٩/١
فقامَ فَرْداً وقد ولَّتْ جَحافِلُه ... فكانَ من نَفْسِهِ في جَحْفَلٍ زَجِلِ
في مَشْهَدٍ لو لُيوثُ الغِيلِ تَشْهَدُهُ ... خرَّتْ لأذقانِها من شِدَّةِ الوَهَلِ[5]
وَسْطَ العِدَى وحدَه ثَبْتَ الجَنانِ وقد ... طارَتْ قلوبٌ على بُعْدٍ من الوَجَلِ[6]
يَعُودُ عنهم رُوَيْداً غيرَ مُكْتَرِثٍ ... بهم وقد كَرَّ فيهم غيرَ مُحْتَفِلِ
يَزْدَادُ قُدْماً إليهم من تيَقُّنِهِ ... أَنَّ التَّأَخُّرَ لا يَحْمِي[7] من الأَجَلِ

---

(١) في (م) أعراء.
(٢) في «الخريدة» فالشمس، وإخالها تصحيفاً.
(٣) في الأصل و(ل) فاسلمكم، والمثبت من (م) و«الديوان» و «الخريدة».
(٤) في (م) أو.
(٥) في «الديوان» الوجل.
(٦) في «الديوان» الوهل.
(٧) في (ل) لا ينجي.

ما كان أَقـربهم من أَسْرِ أَبْعَـدِكُمْ ... لو أَنَّهم لم يكونوا منه[1] في شُغُلِ
ثبـاتُهُ في صُـدُورِ الخيل أَنْقَـذَكُمْ ... لا تَحْسِبوا وَثَبَاتِ الضُّمَّـر الذُّلُـلِ
ما كل حينٍ تُصابُ الأُسْدُ غـافلةً ... ولايُصيبُ الشَّديدَالبَطْشِ ذوالشَّلَلِ[2]
والله عَـوْنُـك فيمـا أنتَ مُـزْمِعُـهُ ... كمـا أعـانـك في أَيَّـامِكَ الأُوَلِ
كم قد ملكتَ لهم مُلْكاً بلا عِوَضٍ ... وحُـزْت من بَلَدٍ منهـا بـلا بَـدَلِ
وكـــم سَقَيْتَ العَوَالي من طُلَى مَلِكٍ ... وكم قَرَيْتَ العَوَافي من قَرا بَطَلِ
لَا نكَّبَتْ سَهْمَكَ الأقدارُ عن غَرَضٍ ... ولا ثَنَتْ يدَكَ الأيامُ عن أَمَـلِ[3]

قلت: حاول ابن أسعد في هذه القصيدة ما حاوله المتنبي في قوله:

غيري بأكثر هذا النَّاس ينخدعُ ــ القصيدة[4]

فإنَّ كل واحد منهما اعتذر عن أصحابه ومدحهم وهم المنهزمون، وقد أحسنا معاً، عفا الله عنهما.

وعبد الله بن أسعد[5] هذا فقيه فاضل وشاعر مُفْلِق، كان مدرِّساً بحمص يعرف بابن الدَّهَّان، وله ترجمة في «تاريخ دمشق»[6]. وقد ذكره العماد

---

(١) في «الديوان»: عنه.
(٢) فـي هامش نسخة (ل): لو قال:
بعض الأحايين تلقى الأسد غافلة ... وقد يصيب القويَّ البطش ذو الشلل.
لكان أقرب إلى المراد. نبه عليه محمد البُصروي.
(٣) القصيدة بتمامها في «ديوان ابن الدهان»: ٧٠ ــ ٧٧، و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢٨٩ ــ ٢٩٢، و«تاريـخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٨/٥٢٠/أ ــ ٥٢١/أ.
(٤) انظر «ديوان المتنبي» بشرح أبي البقاء العكبري: ٢/٢٢١ ــ ٢٣٤.
(٥) في الأصل: عبيد الله بن أسعد، وفي (ل) عبيد بن أسعد، والمثبت من (م) وهو ما ذكرته مصادر ترجمته.
(٦) انظر «تاريـخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ٨/٥٢٠/أ ــ ٥٢١/ب.

الكاتب في «خريدته»(١)، فأحسن ذكره وأكثر الثناء على علمه وشعره، وسيأتي ذكره أيضاً في هذا الكتاب في أخبار سنة سبعين، وست وسبعين، وثمان وسبعين، إن شاء الله تعالى(٢).

وفي هذه السنة ـ أعني سنةَ ثمانٍ وخمسين ـ توفي عبد المؤمن بن علي؛ خليفة المهدي محمد بن تُومَرْت؛ صاحب المغرب، وولي بعده ابنُه يوسف(٣).

ثم دخلت سنة تسع وخمسين [وخمس مئة](٤)

ففيها سار أسد الدين شِيركُوه بن شاذي إلى مصر المرَّة الأولى؛ وهو من أكابر الأمراء الذين في الخدمة النُّورية، عازماً على ملك الديار المصرية واستضافتها إلى المملكة النورية.

وكان أسد الدين وأخوه نجم الدين أيوب ـ وهو الأكبر ـ ابنا شاذي، من بلد دُوِيْن؛ وهي بلدةٌ من آخر بلاد أَذْرَبِيجَان مما يلي الرُّوم، وأصلهما من الأكراد الرَّوَادِية(٥)؛ وهذا القبيل من أشرف(٦) الأكراد، وقدما العراق، وخدما

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٩٤، وانظر ترجمته أيضاً في «وفيات الأعيان»: ٣/ ٥٧ ـ ٦١، و«سير أعلام النبلاء» ٢١/ ١٧٦ ـ ١٧٧، وقد حقق ديوانه، وأعد تكملته عبد الله الجبوري، وطبع في بغداد سنة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م. وكانت وفاة ابن أسعد سنة (٥٨١ هـ) على أصح الأقوال كما سيأتي ٣/ ٢٤٧ من هذا الكتاب.

(٢) انظر ٢/ ٣٥٥، ٣/ ٥٧، ١١١، ٢٤٧ من هذا الكتاب.

(٣) انظر عن ابن تومرت وعبد المؤمن بن علي، ويوسف بن علي كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»: ١٧٨ وما بعدها.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٥) بطن من الهَذَبانية، وهي قبيلة كبيرة من الأكراد. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٣٩.

(٦) في (ل) و(م) هو أشرف.

مجاهد الدينِ بِهْرُوز الخادم[1]، وهو شِحنة* العراق، فرأى من نجم الدين عقلاً ورأياً وحُسْنَ سيرةٍ فجعله دُزْدَاراً* بتَكْرِيت*، وهي لـه، فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين.

فلما انهزم أتابك زَنْكي الشهيد؛ والد نور الدين، بالعراق من قراجة السَّاقي؛ وهو أتابك داود بن السُّلْطان محمود[2]، وذلك زمن المسترشد بالله، سنة ستٍّ وعشرين وخمس مئة، وصل إلى تَكْرِيت، فخدَمهُ نجم الدين أيوب، وأقام له السفن، فعبر دِجْلَة هناك، وتبعَهُ أصحابـه، فأحسن نجم الـدين صُحْبتهم وسيَّرهم. ثم إن أسد الدين قتل إنساناً نصرانياً بِتَكْرِيت* لملاحاةٍ جَرَت بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليه وإلى أخيه نجم الدين، فأخرجهما من تَكْريت[3].

وقيل: إن أيوب كان يحسن الرِّماية، فرمى شخصاً من مماليك بِهْرُوز بسهمٍ فقتله، فخشي على نفسه، فتوجَّه نحو الشام وخدم مـع زَنْكي. وقيل:

---

(1) في هامش الأصل «حاشية، قال المؤلف: في «تاريخ ابن الدبيثي» بهروز بن عبد الله أبو الحسن، الخادم الأبيض الملقب مجاهد الدين، مولى السلطان غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقي، ولي الإمارة بالعراق نيفاً وثلاثين سنة، وبنى رباطاً للصوفية على دجلة عند سوق المدرسة النظامية، ورباطاً آخر للخدم أعلى البلد، وعمر النهروان، وأجرى فيه الماء بعد أن كان قد خرب سنين، وكان حسن السيرة، توفي ببغداد في رجب سنة أربعين وخمس مئة، ودفن برباط الخدم الذي أنشاه بعد أن صُلِّيَ عليه بجامـع السلطان بظاهر البلد، والله أعلم». قلت: انظر «المختصر المحتاج إليه من تاريـخ الدبيثي»: ١/ ٢٦٥ وبهروز: بكسر الباء الموحدة وسكون الهاء، وضم الراء، وسكون الواو وبعدها زاي، وهو لفظ أعجمي، معناه: يوم جيـد على التقديم والتأخير على عادة كلام العجم. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٤٢، وانظر ٢/ ٢٥٢ من هذا الكتاب.

(2) في «الكامل»: ١٠/ ٦٧٥، أن قراجة الساقي هو أتابك الملك سلجوقشاه ابن السلطان محمد.

(3) انظر «الباهر»: ١١٩.

لما قَتَلَ أسدُ الدين شيركُوه النَّصْراني ــ وكان عزيزاً عند بِهْرُوز ــ هرب إلى المَوْصِل، والتحق أيوب به. وسنوضح هذه القضية إن شاء الله تعالى عند ذكر وفاة أيوب في أخبار سنة ثمانٍ وستين[1].

ثم إن أيوب وشِيركُوه قصدا أتابك الشهيد فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وصارا من جُمْلة جُنْده. فلما فتح حصن بَعْلَبَك جعل نجم الدين دُزْداراً* فيه. فلما قُتل الشهيد حَصر عسكرُ دمشق نجمَ الدين، فأرسل إلى سيف الدين غازي ــ وقد قام بالملك بعد والده ــ يُنْهي الحال إليه، فلم يتفرَّغ لبعلبك، وضاق الأمر على من بها، وخاف نجمُ الدين أن تؤخذ عَنْوَةً ويناله أذًى، فأرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأُجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه، وسَلَّم القلعة، ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع[2] والتقدُّم، وصار عنده من أكابر الأمراء[3].

واتصل أخوه أسد الدين شِيركُوه بالخدمة النُّورية بعد قتل الشَّهيد ــ وكان يخدمه في أيام والده ــ فقرَّبه نور الدين وأقطعه، ورأى منه في حروبه ومشاهده آثاراً يعجزُ عنها غيرُه لشجاعته وجُرْأته، فزاده إقطاعاً وقرباً حتى ١/ ١٣٠ صارت له حمص والرَّحبة* وغيرهما؛ وجعله مقدَّم عسكره.

فلما تعلَّقت الهمة النُّورية بملك دمشق أمر أسدَ الدين، فراسل أخاه نجم الدين ــ وهو بها ــ في ذلك، وطلب منه المساعدة على فتحها، فأجاب إلى ما يُرادُ منه، وطلب هو وأسد الدين من نور الدين كثيراً من الإقطاع والأملاك ببلد دمشق وغيرها، فبذل لهما ما طلبا منه، وحلف لهما عليه، ووفى لهما لمَّا ملكها، وصارا عنده في أعلى المنازل، لاسيَّما نجم الدين، فإن

(١) انظر ٢/ ٢٥٢ من هذا الكتاب.

(٢) في (م) بما حلف عليه له من الإقطاع.

(٣) انظر ص ١٧٤ من هذا الجزء.

جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين إلا أن يأمرهم أو أحدهم بذلك، إلاَّ نجم الدين، فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يُؤمر بذلك.

فلما كان سنة تسعٍ وخمسين عزم[1] نور الدين على إرسال العساكر إلى مصر، ولم[2] ير لهذا الأمر الكبير أقوم ولا أشجع من أسد الدين، فَسَيَّره[3].

وكان سببُ ذلك أن شاوَرَ بن مُجير أبا شجاع السَّعْدي[4]، وهو الملقَّب أمير الجيوش الذي يقول فيه عُمارة من جُمْلَة قصيدة:

ضَجِرَ الحديدُ من الحديد وشاوَرٌ ... في نَصْرِ آلِ محمدٍ لم يَضْجَرِ
حلَفَ الزَّمان ليأتينَّ بمثله ... حَنِثَتْ يمينُك يا زَمانُ فَكَفِّرِ[5]

وهو وزير الملقَّب بالعاضد لدين الله آخر المستخلفين[6] بمصر، كان قد وصل إلى دمشق في سنة ثمانٍ وخمسين [في][7] سادس ربيع الأول، إلى نور الدين مستنجداً به على من أخذَ منه منصبَه قهراً.

وكانت عادة المصريين أنه إذا غلب شخصٌ صاحبَ المنصب وعجز صاحبُ المنصب عن دفعه، وعرفوا عجزه، وقَّعوا للقاهر منهم ورتَّبوه ومكَّنوه، فإن قوَّتهم إنما كانت تكون بعسكر وزيرهم، وهو الملقَّب عندهم بالسُّلْطان، وما كانوا يرون المكاشفة[8]، وأغراضهم مستتبَّة وقواعدهم مستقرَّة من أول زمانهم على هذا المثال.

وكان شاوَرُ قد غلب على الوزارة، وانتزعها من بني رُزِّيك، وقَتَل

(١) في (م) وعزم.
(٢) في (م) لم.
(٣) انظر «الباهر»: ١١٩ ــ ١٢٠.
(٤) انظر نسبه في «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٣٩.
(٥) انظر «النكت العصرية»: ٧٣.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٢٦ من هذا الجزء.
(٧) ما بين حاصرتين من (ل).
(٨) في الأصل و(ل) الكاشفة، والمثبت من (م). وانظر «النوادر السلطانية»: ٣٦.

العادلَ بن الصَّالح بن رُزِّيك الذي وزر بعد أبيه، [واسمُه][1] رُزِّيك، ويلقب بالنَّاصر أيضاً، وهو الذي استحضر القاضي الفاضل عبد الرحيم بن علي من الإسكندرية، واستخدمه بحضرته وبين يديه في ديوان الجيش، على ما ذكره عُمارة اليمني في كتاب «الوزراء المصرية». وقال: غرس منه للدولة، بل للملَّة، شجرةً مباركة متزايدة النماء، أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها في السَّماء[2].

ثم خرج على شاور نائب الباب، وهو أمير يقال له ضِرْغام بن سِوَار ويلقب[3] بالمنصور، فجمع له جموعاً كثيرة لم يكن له بها قِبَل، فغلبه وأخرجَهُ من القاهرة وقَتَلَ ولدَه طيئاً، واستولى على الوزارة.

فرحل شاوَر إلى الشَّام قاصداً خدمة نور الدين، مستصرخاً به ومستنصراً، فأحسن لقاءه وأكرم مثواه، فطلب منه إرسال العساكر إلى مصر ليعودَ إليها، ويكون له فيها حصَّة ـ ذكرها له ـ ويتصرَّف على أمره ونَهْيه واختياره. ونور الدين يُقدِّم في ذلك رجلاً ويؤخِّر أُخرى، تارةً تحملُه رعاية قصد شاور وطلب الزِّيادة في الملك والتقوِّي على الفرنج، وتارةً يمنعه خطرُ الطَّريق وكون الفرنج فيه، إلا أن يوغلوا في البَرِّ فيتعرَّضُوا لخطرٍ آخر مع الخوف من الفرنج أيضاً. ثم استخار الله تعالى، وأمر أسد الدين بالتجهُّزِ للمسير معه قضاءً لحق الوافد المستصرخ، وجساً للبلاد، وتطلعاً على أحوالها. وكان هوى أسد الدين في ذلك، وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يُبالي بمخافة. فتجهَّزَ وسار مع شاوَر في جُمادى الآخرة[4] من سنة تسعٍ وخمسين. هكذا ذكر ابنُ الأثير، والعماد الكاتب[5]. وقال القاضي

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) «النكت العصرية»: ٥٤.

(٣) في (م) وتلقب.

(٤) عند ابن الأثير والعماد الكاتب: جمادى الأولى.

(٥) انظر «الباهر»: ١٢٠ ـ ١٢١، و«الكامل»: ١١/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩، «وسنا البرق الشامي» ١/ ٦٠.

ابن شدَّاد: كان ذلك سنة ثمانٍ وخمسين[1]، والقول في ذلك قولهما، فقد بَيَّنا أنَّ قدوم شاور إلى الشام كان في سنة ثمان وخمسين، وإرسالَ نور الدين العسكر كان في جمادى سنة تسع وخمسين.

قالوا: وأمر نورُ الدين أسدَ الدين بإعادة شاور إلى منصبه والانتقام ممن نازعه في الوزارة. وساروا جميعاً، وسار معهم نور الدين إلى أطراف بلاد الإسلام مما يلي الفرنج بعساكره لِيَشْغَلَهُمْ عن التعرُّض لأسد الدين، فكان قصارى الفرنج حفظ بلادهم من نور الدين. ووصل أسدُ الدين سالماً إلى مصر هو ومن معه، فهرب المنازع لشاوَر في الوزارة، وقُتل، وطيف برأسه، وعاد شاور وزيراً وتمكَّن من منصبه[2].

وكان عُمارة قد مدح ضِرْغاماً بقصيدةٍ منها:

وأحقُّ من وَزَرَ الخلافةَ مَنْ نشا ... في حَضْرَةِ الإكرامِ والإجلالِ
واختصَّ بالخُلَفاءِ وانكشَفَتْ له ... أسرارُها بقرائنِ الأحوالِ
وتصرَّفَ الوزراءُ عن آرائه ... كتصرُّفِ الأسماءِ بالأفْعالِ[3]

قال عُمارة: ولما جازوا برأسه على الخليج، وكنت أسكنُ صَفَّ الخليج بالقاهرة، قلتُ ارتجالاً:

أرى حَنَكَ الوزارة صار سيفاً ... يَجُذُّ بحدِّه صِيد الرِّقابِ
كأنَّك رائدُ البلوى وإلا ... بشيرٌ بالمنيَّةِ والمُصابِ[4]

١٣١/١ ولعُمارة اليمني من قصيدةٍ مدح بها شاور، وذكر وزارتيه:

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٦.
(٢) انظر «الباهر»: ١٢١، و«الكامل»: ١١/٢٩٩.
(٣) «النكت العصرية»: ٧٦.
(٤) «النكت العصرية»: ٧٧.

فَنُصرتَ[1] في الأولى بضربٍ[2] زَلْزَلَ الـ ... أقدامَ وهْي شَديدةُ الإقدامِ
ونُصرتَ في الأخرى بضربٍ صادقٍ ... أضحى يطيرُ به غُرابُ الهَامِ[3]
أدركت ثأراً وارتجعتَ وزارةً ... نزعاً بِسَيْفِكَ من يَدَيْ ضِرْغامِ[4]

وكان ضِرْغامُ أولاً من أصحاب شاور وأتباعه، وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله من قصيدةٍ له:

كانت وزارتُك القديمةُ مَشْرَعاً ... صَفْواً ولكنْ كُدِّرَتْ غُدْرَانُها
غَصَبَتْ رجالٌ تاجَه وسريره ... مِنْ بَعْدِ ما سَجَدَتْ له تِيْجانُها[5]

وله من قصيدةٍ أُخرى في شاور:

وزيرٌ تَمَنَّتْهُ الوزارةُ أولاً ... وثانيةً عفواً بغير طِلابِ
فخانته في الأُولى بطانةُ ودِّه ... وربَّ حبيبٍ في قميصِ حُبابِ[6]
وجاءته تبغي الصُّلْح ثانيَ مَرَّةٍ ... فلم يرضَ إلا بعد ضَرْبِ رِقابِ

ولم يُغلب وزيرٌ لهم وعاد غير شاور. وكان مدة أخذ الوزارة منه إلى أن عادت إليه تسعة أشهر سواء، وهي مُدَّة الحمل. نَصَّ عُمارة على ذلك، وقال: قُتل ولدُه طيّ يوم الجمعة الثامن[7] والعشرين من رمضان، وجاز رأسُه على رُمْحٍ تحت الطِّيقان، والنِّساء يولولن بالصُّراخ، وكان فيهن واحدةٌ تحفظ قولي في الصَّالح:

---

(١) في الأصل و(م): ونصرت، والمثبت من (ل).
(٢) في «النكت العصرية» برعب.
(٣) في هامش الأصل: بلغ.
(٤) «النكت العصرية»: ٨٩.
(٥) «النكت العصرية»: ٨٤.
(٦) الحباب: الحية، والحباب: شيطان. انظر «اللسان» (حبب).
(٧) في (م) الثاني، وهو تحريف.

أيُنْسَى وفي العينينِ صورةُ وَجْهِهِ الـ ـكريمِ وعَهْدُ الإنتقالِ قَرِيْبُ

فما زالت تكرِّره[1] حتى رأت رأس ضِرْغام[2].

قال: وأدرك شاور ثأره في يوم الجمعة الثامن والعشرين من جُمادى الآخرة، فيكون بينهما تسعة أشهر[3].

قال: وقلتُ في ذلك:

وَنَزَعْتَ مُلْكَكَ مِنْ رجالٍ نازَعُوا ... فيه وكُنْتَ به أَحَقَّ وأَقْعَدا
جَذبوا رِدَاءك غاصبين فلم تَزَلْ ... حتى كَسَوْتَ القَوْمَ أرديةَ الرَّدَى
وبردْتَ قَلْبَكَ من حَرارة حُرْقَةٍ ... أَمَرتْ نسيمَ اللَّيلِ ألاّ يَبْرَدا[4]
تاريخُ هذا[5] نِلْتَهُ في مِثْله ... يوماً بيومٍ عبرةً لمن اهتدى
حَملتْ به الأيامُ تسعةَ أَشْهُرٍ ... حتى جَعَلْنَ له جُمادى مَوْلدا[6]

وله فيه أيضاً في ذلك:

لله درُّك موتوراً أَقَضَّ به ... دَسْتٌ وسَرْجٌ[7] وأجفانٌ ومُضْطَجَعُ
ما غِبتَ إلا يسيراً ثم لُحْتَ لنا ... والثَّأْرُ مُسْتَدْرَكٌ والمُلكُ مُرْتَجَعُ
قَضيَّة لم يَنَلْ منها ابنُ ذي يَزَنٍ ... إلا كما نِلْتَ والآثارُ تُتَّبَعُ
فافَخَرْ على الحيِّ من قَيْسٍ ومن يَمَنٍ ... أبا شُجاعٍ فليسَ الحقُّ يَنْدَفِعُ[8]

(١) في الأصل: مكررة، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) «النكت العصرية»: ١٢٩.
(٣) «النكت العصرية»: ٨١.
(٤) في (م) تبردا.
(٥) في «النكت» تأريخ دين.
(٦) «النكت العصرية»: ٨١.
(٧) في الأصل سرج ودست، والمثبت من (ل) و(م) و«النكت العصرية».
(٨) «النكت العصرية»: ٨٥.

قال ابن الأثير: وأقام أسد الدين بظاهر القاهرة، وغدر به شاور، وعاد عما كان قَـرَّره لنور الدين من البلاد المصرية، ولأسد الدين أيضاً. وأرسل إليه يأمره بالعود إلى الشَّام، فأَنِف أسدُ الدين من هذه الحال، وأعاد الجواب يطلب ما كان استقرَّ، فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسل نوَّابه فتسلَّموا مدينـة بِلْبِيـس* ، وحكم على البلاد الشَّرْقية، فأرسل شاور إلى الفرنـج يستمدُّهم ويخوِّفهم من نور الدين إن ملَك مصر. وكان الفرنـج قد أيقنوا بالهلاك إنْ ملَكها نور الدين، فهم خائفون. فلما أرسل شاوَر إليهم يستنجدهم ويطلبُ منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فَرَجٌ لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته، والمبادرة إلى نُصْرته، وطمِعُوا في ملك ديار مصر. وكان قد بذل لهم مالاً على المسير إليه، فتجهَّزوا وساروا. فلما بلـغ نور الدين خَبَرُ تجهُّزهم للمسير[1] سار بعساكره في أطراف بلاده مما يلي الإفرنـج ليمتنعوا من المسير، فلم يمتنعوا؛ لعلمهم أن الخطر في مُقامهم إذا ملَك أسدُ الدين مصر أشد من الخطر في مسيرهم. فتركوا في بلادهم من يحفظها، وسار ملكُ القُدْس[2] في الباقين إلى مصر. وكان قد وصل إلى السَّاحل جمـعٌ كثير من الفرنـج في البحر لزيارة البيت المقدَّس، فاستعانَ بهم ملك الإفرنـج، فأعانوه، وسار بعضُهم معه، وأقام بعض في البلاد يحفَظُها.

فلما قارب الفرنـجُ مصر فارقَها أسدُ الدين وقصد مدينة بِلْبيس، وأقام ١٣٢/١ بها هو وعسكره وجعلها ظهراً يتحصَّن به، فـاجتمعت العساكـر المصريـة والفرنجية، ونازلوا أسدَ الدين بمدينة بِلْبيس، وحصروه بها ثلاثة أشهر، وقد امتنـع أسدُ الدين بها وسورُهـا من طين، قصير جـداً، وليس له خنـدق

---

(١) في (ل) إليه.

(٢) هو الملك Amalric وتسميه المراجع أيضاً: أموري أو عموري أو مري. انظر كشاف الأعلام.

ولا فصيل[1] يحميها، وهو يُغاديهم القتال ويراوحهم، فلم يبلغوا منه غرضاً، ولا نالوا منه شيئاً، فبينا هم كذلك إذ أتاهم الخبرُ بهزيمة الفرنج بحارِم*، وملك نور الدين الحصن، ومسيره إلى بانياس*. فحينئذ سُقط في أيديهم، وأرادوا العودَ إلى البلاد[2] ليحفظوها، ولعلهم يدركون بانياس قبل أخذها، فلم يُدْركوها إلا وقد ملكها، على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى[3]. وراسلوا أسد الدين في الصُّلْح، والعود إلى الشَّام، ومفارقة مصر، وتسليم ما بيده منها إلى المصريين، فأجابهم إلى ذلك، لأنه لم يعلم بما فعله نور الدين بالفرنج في السَّاحل[4].

قال ابنُ الأثير: فحدَّثني من رأى أسد الدين حين خرج من بِلْبيس*، قال: رأيته وقد أخرج أصحابه بين يديه، وبقي في آخرهم وبيده لَتٌّ[5] من حديدٍ يحمي ساقتهم، والمسلمون والفرنج ينظرون قال: فأتاه فرنجي من الفرنج الغرباء فقال له: أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المسلمون والفرنج وقد أحاطوا بك وبأصحابك، فلا يبقى لك معهم بقية! فقال شِيركُوه: يا ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما لم تر مثلَه، كنتُ والله أضع سيفي، فلا أُقتَل حتى أقتُل رجالاً، وحينئذ يقصدُهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني أبطالهم، فيملك بلادَهم، ويُفْني من بقي منهم، ووالله لو أطاعني هؤلاء - يعني أصحابَه - لخرجتُ إليكم أولَ يوم، لكنهم امتنعوا، فَصَلَّب الفرنجي على وجهه وقال: كنا نعجب من فرنج هذه الديار ومبالغتهم في

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٦ من هذا الجزء.
(٢) في (م) بلادهم.
(٣) انظر ص ٤٣٧ من هذا الجزء.
(٤) انظر «الباهر»: ١٢١ - ١٢٢، و«الكامل»: ١١/٢٩٩ - ٣٠٠.
(٥) الفأس العظيمة، وهي فارسية معربة. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٤١.

صفتك وخوفهم منك، والآن فقد عذرناهم. ثم رجع عنه، وسار شِيركُوه إلى الشَّام وعاد سالماً[1].

وقال العماد الكاتب: وصل شاوَر إلى نور الدين ملتجئاً، فألفاه على عدوه معدياً مشكياً، وسيَّر معه أسد الدين على قرارٍ عَيَّنه، وأمرٍ بَيَّنه، وبُغيةٍ يدركها، وخطَّةٍ يملكها، ومَحجَّةٍ واضحة في الملك يسلكها. فمضى معه ونَصَرَه، وأصفَى له مَشْرَعَه، واستردَّ له موضعَهُ، وأظهره بعلوِّه، وأظفره بعدوِّه، فلما باد خصمه، بدا وصمه، وغدر بعهده، وأخلف في وعده. وكان قد رَاسل الفرنج وهَدَاهم في حرب الإسلام، فوصلوا، فتحصَّن شِيركُوه ومن معه بمدينة بِلْبيس*، فحاصَره شاور بجنود مصر والفرنج ثلاثة أشهر، من مستهلِّ رمضان إلى ذي الحِجَّة، فبذلوا له قطيعةً فانصرف عنهم، وعاد إلى الشَّام وفي قلبه من شرِّ شاور الإحن، وكيف تمَّت بغدره تلك المِحَن[2].

قلتُ: وقد أشار إلى ذلك عُمارة في قوله في مدح شاورَ، وذكر الإفرنج، فقال:

وأنقذتَ من مصرٍ عدوًّا بمثله فلله من ظُفْرٍ فَلَلْتَ ونابِ
صَدَمْتَ جُموعَ الكُفْرِ والشَّامِ صَدْمَةً أقمتَ بها للقومِ سوقَ ضِرابِ
وقد جَرَّدَتْ أجنادُ مِصْرَ عزائماً مضارِبُها في الصَّخْرِ غير نوابي
تولَّوا عن الإفرنج فادحَ ثقلِها ودارَتْ رَحَاها منهمُ بهِضابِ
أقامَتْ دروعُ الجُنْدِ تسعينَ ليلةً ثياباً لهم ما بُدِّلَتْ بثيابِ
وهم بين مطروحٍ هناك وطارحٍ وبين مُصِيْبٍ خصمَه ومُصَابِ

وقال القاضي ابن شداد: سار أسد الدين إلى مصر، واستصحب معه

(١) انظر «الباهر»: ١٢٢، و«الكامل»: ١١/٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦٠ ـ ٦١، ٦٢.

ابنُ أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وجعله مُقَدَّم عسكره وصاحب رأيه، وكان لا يفصل أمراً ولا يقرِّر حالاً إلا بمشورته ورأيه، لما لاح له منه من آثار الإقبال والسعادة، والفكرة الصَّحيحة، واقترانِ النصر بحركاته وسكناته. فساروا حتى وصلوا مصر، وشاور معهم، وكان لوصولهم إلى مصر وَقْعٌ عظيم، وخافه أهلُ مصر، ونَصَرَ شاور على خصمه، وأعاده إلى منصبه ومرتبته، وقرَّر قواعِدَه، وشاهد البلاد وعرف أحوالها، وعلم أنها بلاد بغير رجال، تمشي الأمور فيها بمجردَّ الإيهام والمحال.

وكان ابتداءُ رحيله عنها متوجِّهاً إلى الشَّام في السابع من ذي الحجة، فأقام بالشام مُدَبِّراً لأمره، مفكراً في كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية، محدِّثاً بذلك نفسه، مقرِّراً لقواعد ذلك مع نور الدين إلى سنة اثنتين وستين[1].

قلتُ: ولِفعل شاور ما فَعَل مع أسد الدين وصفَه الشعراءُ بالغدر، ووقعوا فيه قبل قتله وبعده، على ما سنذكره، وبقي متخوِّفاً من أسد الدين. فقال عَرْقَلة الكلبي من جُملة قصيدةٍ له:

وهَلْ هَمَّ يوماً شِيرَكُوه[2] بجِلَّقٍ ... إلى الصَّيدِ إلا ارتاعَ في مِصْرَ شاوَرُ
هو المَلِكُ المنصورُ والأَسَدُ الذي ... شذا ذِكْرِهِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ سائِرُ[3]

في ذي الحِجَّة من هذه السنة احترقت جيرون* بعد رجوعِ أسد الدين إلى دمشق، فقال العَرْقَلَة يمدحه ويذكر ذلك:

جارَ صَرْفُ الرَّدى على جَيْرونِ ... وسقَى أهلَها كؤوسَ المَنُونِ

---

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٣٦ ــ ٣٧، والنص مضطرب لتقديم وتأخير فيه، لم يتنبه له المحقق.
(٢) بتحريك الراء لضرورة الشعر.
(٣) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٥٢.

أصبحَتْ جَنَّـةً وأَمْسَتْ جحيمـاً   تـتـلظّى بـكـلِّ قَلْبٍ حـزيـنِ ١٣٣/١
كيف لا تُـذْرَفُ الـدُّمـوع عليهـا   وَهْي في الشَّـامِ نزهـةٌ للعيـونِ
حَبَّـذا حِصْنُهـا الحصينُ لقـد كـا   ن جمـالاً لكـلِّ حِصْنٍ حَصِينِ
أيُّ سيفٍ سـطا على دارِ سَيْـفٍ   وزَبُـونٍ أتـى بـحَـرْبٍ زَبُـونِ
خِلْتُ نيـرانَهـا وكـلَّ ظـلامٍ   نـارَ لـيلى تلوحُ لـلمـجنـونِ
كم غنيٍّ اليمينِ أمسى فقيـراً   وفـقيـرٍ أمسـى غـنـيَّ اليـميـنِ
كـلَّ حينٍ لهـا حـريقٌ جـديـدٌ   ليتَ شِعْـرِي ماذا لهـا بعـد حينِ
كـلُّ هـذا البـلاء عـاقبـة الفِسْـ   ـقِ وشُـرْبِ الخمـورِ والتَّلْحِينِ
ولـقـد رَدَّهـا بـعـزمٍ وحَـزْمٍ   أسـدُ الـدين غـايـةُ المسكين[(١)]
وحمى الجامعَ المقدَّسَ والمشْـ   ـهَـدَ من جمرهـا بمـاءٍ معينِ
مَـلِكٌ فِعْـلُه بِـدَلْـجَـةَ[(٢)] والـبـا   ب فَـعـالَ الإمـام في صِفِّينِ[(٣)]

فصـــل
في فَتْـحِ حارِم*

قال العماد الكاتب: وفي تلك السنة ـ يعني سنةَ تسعٍ وخمسين ـ اغتنم نور الدين خُلُوَّ الشَّام من الفرنـج وقصَدَهم، واجتمعوا على حارِم، فضرَبَ معهم المصافَّ، فرزقه الله تعالى الانتقام منهم، فأسرهم، وقتلهم،

(١) في الأصل: المسلمين، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) قرية بصعيد مصر من غربـي النيل في الجبل بعيدة عن الشاطىء. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤٦٠.
(٣) انظر «ديوان عرقلة»: ١٠٥ ـ ١٠٦، والقصيدة مستدركة فيه من كتابنا هذا.

ووقـع في الإسار إبرنس أنطاكية[1]، وقومص طرابلس[2]، وابنُ لجوسلين، ودُوك الرُّوم[3]، وذلك في رمضان[4].

وقال في «الخريدة»: كانت نوبة البقيعة نوبةً عظيمة على المسلمين، وأَفْلَتَ نورُ الدين في قُلٍّ[5] من عسكره، ثم كسر الإفرنـج بعد ثلاثة أشهر على حارم، وقُتل في معركة واحدة منهم عشرون ألفاً، وأُسر من نجا، وأخذ القومص والإبرنس والدوقس وجميـع ملوكهم، وكان منحاً عظيماً، وفتحاً مبيناً[6].

قال ابن الأثير: والسَّبب في هذا الفتـح أن نور الدين لما عاد منهزماً، على ما سبق[7]، من غزوة ناحية حصن الأكراد*، أقبل على الجد والاجتهاد، والاستعداد للجهاد، والأخذ بثاره، وغزو العدوِّ في عُقْر داره، وليرتق ذلك الفَتْق، ويمحو سِمَةَ الوَهْن، ويعيد رونق الملك. فراسل أخاه قُطْبَ الدين بالمَوْصِل، وفخر الدين قرا أرسلان بالحصن[8] ونجم الدين ألبـي بمارِدِين*، وغيرهم من أصحاب الأطراف.

---

(١) هو Bohemond III بوهمند الثالث. انظر كشاف الأعلام.

(٢) هو Raymond III ريموند الثالث. انظر كشاف الأعلام وص ٣٥١ من الجزء الثاني.

(٣) هو القائد البيزنطي قسطنطين كولومان. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٥٩٧. وقد أطلق سنة (٥٦٩ هـ) انظر ٢/٢٧٦ من هذا الكتاب.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦١ ـ ٦٢.

(٥) أي قلة. انظر «اللسان» (قلل). وفي طبعة وادي النيل ١/١٣٣: في أقل من عشرة من عسكره، وهي زيادة مقحمة ليست في نسخنا الخطية، وما أدري كيف أثبتها د. محمد حلمي في نشرته للكتاب، وهي لا توجد في الأصل الذي اعتمد عليه! وهذه الزيادة أربكت د. شكري فيصل في تحقيقه لنص «الخريدة».

(٦) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٢٨٨، ٢٩٠.

(٧) انظر ص ٣٩٧ من هذا الجزء.

(٨) أي حصن كيفا. انظر كشاف الأماكن.

أما قطب الدين أتابك فإنه جمع عساكره وسار مجداً، وعلى مقدِّمة عسكره زين الدين نائبه.

وأما فخر الدين قرا أرسلان فإنه بلغني عنه أنه قال له خواصُّه: على أيِّ شيء عزمت؟ فقال: على القعود، فإن نور الدين قد تحشَّف من كثرة الصَّوْمِ والصلاة، فهو يلقي نفسَه والناس معه في المهالك. وكلُّهم وافقه على ذلك. فلما كان الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهُّز للغزاة، فقال له أولئك: ما عدا مما بدا! فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدَّها! فقال: إن نور الدين قد سلك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي، وأخرجوا البلاد عن يدي، فإنه كاتب زُهَّادها وعُبَّادها والمنقطعين عن الدنيا، يذكر لهم ما لقي المسلمون من الفرنج، وما نالهم من القتل والأسر والنَّهب، ويستمدُّ منهم الدُّعاء، ويطلبُ منهم أن يحثُّوا المسلمين على الغَزَاة، فقد قعد كلُّ واحدٍ من أولئك ومعه[١] أتباعه وأصحابه وهم يقرؤون كُتُبَ نور الدين[١] ويبكون، ويلعنونني ويدعون عليَّ، فلا بدَّ من إجابة دعوته. ثم تجهَّز أيضاً وسار إلى نور الدين بنفسه.

وأما نجم الدين ألبي فإنه سيَّر عسكراً. فلما اجتمعت العساكر سار نحو حارِم*، فنزل عليها وحصرها، وبلغ الخبر إلى من بقي من الفرنج بالسَّاحل لم يسر إلى مصر، فحشدوا وجاؤوا، ومقدَّم الفرنج البرنس صاحب أنطاكية*، والقمص صاحب طرابلس* وأعمالها، وابن جوسلين وهو من مشاهير الفرنج وأبطالها، والدُّوك معهم وهو رئيس الرُّوم ومقدَّمُها، وجمعوا من الرَّاجل ما لا يقع عليه الإحصاء، قد ملؤوا الأرض وحجَبُوا بِقَسْطلهم[٢] السماءَ، فحرَّض نور الدين أصحابه، وفرَّق نفائس الأموال على شُجعان الرجال. فلما قاربه الفرنج رحل عن حارم إلى أرْتاح[٣]، وهو إلى لقائهم مرتاح، وإنما رحل طمعا أن يتبعوه، ويتمكن منهم

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) القسطل: الغبار الساطع. انظر «اللسان» (قسطل).

(٣) حصن منيع كان من أعمال حلب. انظر «معجم البلدان»: ١/ ١٤٠ ــ ١٤١.

إذا لقوه. فساروا حتى نزلوا علم عِمٍّ[1]، وهو على الحقيقة تصحيف ما لقوه من الغَمِّ، ثم تيقَّنوا أنهم لا طاقة لهم بقتاله، ولا قدرة لهم على نزاله، فعادوا إلى حارم وقد حرمتهم كلَّ خير، وتبعهم نور الدين.

فلما تقاربوا اصطفُّوا للقتال، وبدأت الفرنج بالحملة على ميمنة المسلمين، وبها عسكر حلب وفخر الدين، فبدَّدوا نظامهم، وزلزلوا أقدامهم، وولُّوا الأدبار، وتبعهم الفرنج. وكانت تلك الفَرَّة من الميمنة عن اتفاق ورأي دَبَّروه، ومكرٍ بالعدوِّ مكروه، وهو أن يبعدوا عن راجلهم، فيميل عليهم من
١/ ١٣٤ بقي من المُسْلِمِين، ويضعُوا فيهم السيوف، ويرغموا منهم الأنوف، فإذا عاد فرسانهم من أثر المنهزمين لم يلقوا راجلاً يلجؤون إليه، ويعود المنهزمون في آثارهم، وتأخذهم سيوف الله من بين أيديهم ومن خلفهم. فكان الأمر على ما دَبَّروا؛ فإن الفرنج لما تبعوا المنهزمين عطف زين الدين في عسكر المَوْصِل على راجلهم، فأفناهم قتلاً وأسراً، وعادت خيَّالتهم ولم يُمْعنوا في الطلب، خوفاً على راجلهم من العطب، فصادَفوا راجلهم على الصَّعيد معفَّرين، وبدمائهم مضرَّجين؛ فَسُقِط في أيديهم، ورأوا أَنَّهم قَدْ ضلُّوا، وخضعت رقابُهم وذلُّوا. فلما رجعوا عطف المنهزمون أعنَّتهم، وعادوا، فبقي العدو في الوسط وقد أحدق بهم المسلمون من كلِّ جانب، فحينئذٍ حمي الوطيس، وباشر الحربَ المرؤوس والرئيس، وقاتل الفرنج قتال من يرجو بإقدامه النجاة، وحاربوا حرب من أيس من الحياة. وانقضَّت العساكر الإسلامية عليهم انقضاض الصُّقور على بُغَاث الطُّيور، فمزَّقوهم بَدَداً، وجعلوهم قِدَداً، فألقى الفرنج بأيديهم إلى الإسار، وعجزوا عن الهزيمة والفرار، وأكثر المسلمون فيهم القتل، وزادت عدة القتلى على عشرة آلاف.

---

(١) قرية بين حلب وأنطاكية، انظر «معجم البلدان»: ٤/ ١٥٧.

وأما الأسرى فلم يحصوا كثرةً، ويكفيك دليلاً على كثرتهم أن ملوكهم أُسروا، وهم الذين من قبل ذُكروا[١].

وسار نور الدين بعد الكسرة إلى حارم، فملكها في الحادي والعشرين من رمضان، وأشار أصحابه عليه بالمسير إلى أنطاكية ليملكها، لخلوِّها ممن يحميها ويدفع عنها، فلم يفعل. وقال: أما المدينة فأمرها سهل، وأما القلعة التي لها فهي منيعة لا تؤخذ إلا بعد طول حصار، وإذا ضيقنا عليهم أرسلوا إلى صاحب القُسْطنطينية وسلَّموها إليه، ومجاورة بيمند[٢] أحبُّ إليَّ من مجاورة ملك الرُّوم.

وبثَّ سراياه في تلك الأعمال والولايات فنهبوا وسبوا، وأوغلوا في البلاد حتى بلغوا اللاذقية والسّويداء[٣] وغير ذلك، وعادوا سالمين. ثم إن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمالٍ جزيل أخذه منه، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم[٤].

وقال الحافظ أبو القاسم: كَسَرَ نورُ الدين الرُّوم والأرمن والفرنج على حارِم*، وكان عدَّتهم ثلاثين ألفاً. قال: ووقع بيمنت في أسره في نوبة حارم، وباعه نفسه بمالٍ عظيم أنفقَهُ في الجهاد[٥].

قلت: وبلغني أن نور الدين رحمه الله تعالى لما التقى الجمعان، أو قُبيله، انفرد تحت تل حارم، وسجد لربه عز وجل، ومرَّغ وجهه وتضرَّع، وقال: يا رب، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك، وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك،

---

(١) انظر ص ٤١٦ من هذا الجزء.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤١٦ من هذا الجزء.
(٣) كذا في النسخ الخطية، ولعلها السويدية، مدينة فوق اللاذقية على الساحل السوري.
(٤) «الباهر»: ١٢٢ ــ ١٢٥، و«الكامل»: ٣٠١/١١ ــ ٣٠٤.
(٥) انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٤٧/١٦ ب.

فانصر أولياءك على أعدائك، أيش فضول محمود في الوسط؟ يشير إلى أنك يا رب إن نَصَرْتَ المسلمين فدينَك نصرت، فلا تمنعهم النصر بسبب محمود إن كان غير مستحقٍّ للنصر.

وبلغني أنه قال: اللهم، انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَن هو محمود الكلب حتى يُنصر! وجرى بسبب ذلك منام حسن نذكره في أخبار سنة خمسٍ وستين عند رحيل الفرنج عن دِمْياط بعد نزولهم عليها[1]، وهذا فتح عظيم ونصر عزيز أنعم الله به على نور الدين والمسلمين، مع أن جيشه عامئذٍ كان منه طائفة كبيرة بمصر مع شِيركُوه كما سبق، وهذا من عجيبِ ما وقع واتفق.

فصـــل

في ذكر وزير المَوْصِل جمال الدين، الجَوَاد الممدَّح، ووفاته في هذه السنة رحمه الله [تعالى][2].

وقد ذكره العماد الكاتب في مواضع من مصنَّفاته، وأثنى عليه ثناء عظيماً حسناً. فمما ذكره في كتابه الموسوم «بنُصرة الفَترة وعُصرة الفِطرة، في أخبار الوزراء السَّلْجوقية»[3] أن قال: ذكرُ جمال الدين أبي جعفر محمد بن علي بن أبي منصور. كان والده من أصفهان يدعى الكامل علي؛ وهو صاحب[4] الوزير شمس المُلك بن نِظام الملك، وكان أبوه أبو منصور

(١) انظر ٢/ ١٤٣ من هذا الكتاب.
(٢) ما بين حاصرتين من (ل).
(٣) اختصره الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، وسماه «تاريخ دولة آل سلجوق» طبع المختصر غير مرة. ونحن نحيل في توثيق هذه الأخبار على طبعة دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية (١٩٧٨م).
(٤) في (م) حاجب، ومثله في «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣.

فَهَّاداً في عهد السُّلْطان مَلِكْشاه بن ألب أرسلان، وابنه الكامل(١) أديبٌ لبيب، وزادت أيامه في السمو [وأيامنه في النمو](٢) حتى تنافس في استخدامه الملوك والوزراء، واستضاءت برأيه في الحوادث الآراء. وقد كان زوَّجَ بنتاً له ببعض أولاد أخوال العزيز ـ يعني عم العماد الكاتب ـ قال: فاشتمل لذلك العزيز رحمه الله تعالى على ولده جمال الدين أبـي جعفر محمد، وخرَّجه في الأدب ودرَّجه في الرُّتَب، فأول ما رتَّبه في ديوان العَرْض السُّلْطاني المحمودي، وغلب في تحليته [ذكر](٣) الأبلج، فنعتَه الأتراك بالأبلج، واستقام في نجابته على المنهج. واتفق أنه لما تولى زَنْكي بن آق سُنْقُر الشَّام تزوج بامرأة الأمير كُنْدُغْدي(٤) وولدها خاصْبَك(٥) بن كُنْدُغدي؛ من أمراء الدولة وأبناء المملكة، وهو يسير معها، فرتَّبه العزيز لخاصْبَك وزيراً، فسار في الصحبة، وكان مقبل الوجاهة، مقبول الفكاهة، شهي الهشاشة، بهي البشاشة؛ فتوفرت مُنى زَنْكي على منادمته، وقَصَرَ صباحه ومساءه على مساهمته، وعوَّل عليه في آخر عمره في إشراف ديوانه، وزاد المال وزان الحال بتمكينه ومكانه، فلم يظهر لجمال الدين في زمان زَنْكي جُود، ولا عُرف له موجود، فإنه كان يقتنع بأقواته، وتزجية أوقاته، ويرفع جميع ما يُحَصَّل له إلى خزانة زَنْكي استبقاءً لجاهه، واستعلاءً به على أشباهه، فمكَّنه زَنْكي من أصحاب ديوانه، فمنهم من استضرَّ بإساءته، ومنهم من انتفع بإحسانه.

ولما قُتل زَنْكي صار للدولة الأتابكية ملاذاً، وللبيت الآق سُنْقُري معاذاً،

---

(١) في «دولة آل سلجوق»: وابنه الكامل نجيب.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) الضبط من الأصل و(م).
(٥) الضبط من الأصل.

١٣٥/١ واستوزره الأمير غازي بن زنكي، وآزره علي كوجك على وزارته، وحلف له على مظاهرته ومظافرته.

وجرى بين جمال الدين الوزير، وبين زين الدين علي كوجك، وبين سيف الدين غازي التعاقد على التعاضد، والتعاهد على التساعد، وتولى جمال الدين وزارة المَوْصِل واستولى، فعاش بنداه الجود، وعشا إلى ناديه الوفود، وعادت به المَوْصِل قِبْلة الإقبال، وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سُعوده، وسارت في الآفاق صنائع جوده، وعَمَّر الحرمين الشريفين، وشمل بالبِرِّ أهلهما، وجمع بالأمن شملهما، وأجرى بحر السماح، ونادى: حيَّ على الفلاح، فصاحت بأفضاله ألفاظُ الفِصاح، وأتوا إليه من كلِّ فجٍّ عميق، وقُصد من كل بلد سحيق، وقصده العظماء، ومدحه الشعراء.

وممن وفد إليه أبو الفوارس سعد بن محمد [بن][1] الصيفي، المعروف بحيصَ بيص[2]. قال: وأنشدني لنفسه فيه قصيدة أولها:

يـا لَلصَّـوارِمِ والـرِّمـاحِ الـذُّبَّـلِ ... نَصْـراً ومن أنجـدتمـا لم يُخْـذَلِ
لـو شئتُمـا ومشيئـةٌ بـمشيئـةٍ ... جادَ الـزمـانُ وبـالعُلا لم يَبْخَـلِ
فاقْني فخارك يـا مُجاشـعُ واعلمي ... أني لكم من هِمَّتي في جَحفَـلِ
أنـا فـارسُ اليـومينِ يـوم مقـالـةٍ ... ووغىً أصولُ بصارمي وبمِقْوَلي[3]
ظَلَمَتْ فضـائِليَ المَقـاوِلُ مثلَما ... ظَلَمَتْ جمالَ الدينِ مأوى العُيَّلِ
مَـدَحُوه كي يحـووا مناقبَ نَفْسِـهِ ... فطَمَتْ فسالَتْ بالمدائحِ من عَلِ
فأتيتُ أبذلُ ما استطعتُ ومن يُـرِدْ ... نَقْلَ الخِضَمِّ إلى المزادةِ يَخْجَـلِ
شَمْسٌ من الإحسانِ عَمَّ ضياؤهـا ... بـل آيـةٌ جـاءت بحُجَّـةِ مُرْسَـلِ

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٨ من هذا الجزء.
(٣) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٣ ــ ١٩٤.

يُعْطي الجزيلَ لسائلي معروفه ... ويجودُ بالنُّعمى إذا لم يُسألِ
وتزيدُه شوسُ الخُطوبِ طلاقةً ... فيكون أبسمَ ما يُرَى في المُعْضِلِ
ثَقُلَتْ به الأعناقُ من مِنَنِ النَّدى ... فالهامُ مُطْرِقةٌ لذاك المُثْقِلِ
فإذا تلاقى النَّاسُ كان حديثُهم ... عن كلِّ جَفْنٍ بالحجالة مُسْدَلِ
أُسراء معروف الوزير فكلُّهم ... عافٍ تراه مُطْلَقاً كَمُكَبَّلِ
من سمْرَقندَ[1] إلى تِهامةَ شاهدٌ ... فَضْلَ الجمالِ على الحَيا المُتَهَلِّلِ
السُّحْبُ تُمْطِرُ ما تُظِلُّ وجُودُه ... يَسْري ودارُ مُقامه بالمَوْصِلِ
وتَقَرُّ عينُ محمدٍ بمحمدٍ ... مُحيي دَريسَيْ عِلْمِهِ[2] والمَنْزِلِ
معمارُ مَرْقَدِه وحافظُ دينه ... ومعينُ أمَّتِه بجودٍ مُسْبِلِ
جَعَلَ المدينةَ مِصْرَ ريفٍ[3] آهِلاً ... نشوانَ يمرح بالنعيمِ المُخْضلِ
فكأنَّها[4] بالخِصب من قُربانه ... بَلَدٌ على شَطِّ الفُراتِ السَّلْسَلِ
فلو آنه في عَصْرِهِ نَزَلَتْ له ... في مَدْحِهِ سُوَرُ الكتابِ المُنْزَلِ
عَبْدٌ أخٌ في ضيفه وَوِدادِه ... لا يستحيلُ وسيِّدٌ في المَحْفِلِ
خِرْقٌ يُناطُ قميصُهُ ورداؤه ... بُعباب زَخَّار وهَضْبَةِ يَذْبُلِ[5]

وقال العماد [الكاتب][6]. وكنت أنا في ذلك العهد متفقهاً ببغداد، واتفق حضوري بالمَوْصِل [في ذي القعدة][7] سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة، فحضرتُ عند جمال الدين بالجامع في جُمْعتين، وتكلَّمْتُ عنده مع الفقهاء في مسألتين. ومما مدحته به قصيدة، أوَّلها:

---

(١) سكنت الميم لضرورة الشعر. (٢) في «خريدة القصر»: شرعه.
(٣) في الأصل و (ل): ربعاً، والمثبت من (م) وهو يوافق ما في «الخريدة».
(٤) في الأصل و(ل) فكأنما، والمثبت من (م).
(٥) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٢/٣٠١ ـ ٣٠٣. وفي «ديوانه» ٢/٣١٠ ـ ٣١٥.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٧) ما بين حاصرتين من (م).

أظنُّهـمُ وقـد عَـزَمُـوا ارتحـالا ... ثَـنـوا عَنَّـا جَـمـالا لا جِـمـالا
سَـرَوْا والصُّبْـح مُبْيَضُّ الحـواشي ... فلمـا حالَ عَهْـدُ الـوَصْـلِ حـالا
هم اعتـادوا المَـلاَل فكيفَ ملُّوا ... وِصَـالَـهُـمُ ومـا ملُّوا الـمَـلالا
أحـادي عِيْسِـهم بـاللَّهِ رِفْـقـاً ... فـإنَّ الـسَّيْـرَ أورثـهـا الكَـلالا
وعُـجْ نحـو الأراك بهـا فـإنـي ... أراه لاجـتـمـاعِ الـشَّـمْـلِ فـالا
سقى صَـوْبُ الحَيَا تَلَعاتِ نجدٍ ... وحيًّـا بـالحمى تـلك التِّـلالا
١٣٦/١ أخـلائي وهـل في النَّـاسِ خِـلٌّ ... بـه أُخْـلـي مـن الأحـزانِ بـالا
لئن لم أشفِ صدري من حَسُودي ... ولـم أُذقِ الـعِـدَى داءً عُـضَـالا
فـلا أَدْرَكْـتُ مـن أدبـي مُـرَاداً ... ولا صـادَفْتُ من حَسَبي مَنَـالا
ولا وَخَـدَتْ إلـيكـم بـي جِمـال[1] ... ولا والـيـتُ مـولانـا الـجَـمـالا
هـو المُغْني إذا مـا المرءُ أَقْـوَى ... هو المُنْجي إذا ما الخَـطْبُ هالا
وقـائـلةٍ أفـي الـدُّنـيـا كـريـمٌ ... سـواه فقلت لا وأبـي العُـلا لا
أطَلْتَ على الـورى كَرَمـاً وفَخْـراً ... كـذلـك من حَـوَى هـذين طـالا
وحُـزْتَ المجدَ عن كَسْبٍ وإرثٍ ... فيـا صَدْرَ الـورى حُزْتَ الكمالا
خُصِصت بكـلِّ مَنْقَبَـةٍ وفَضْـلٍ ... تعـالى من حَباكَ بـه تعالى[2]

قلت: وقد أكثر الشعراء في مدحه، منهم العرقلة، له من قصيدة:

[يهـوى تجنِّيـه والصُّـدودَ كمـا ... يهوى المعالي محمدُ بنُ علي[3]]
جـمـالُ دينِ الإلـه خيـرُ فتـىً ... لـلـرِّزْقِ أقـلامُـهُ ولـلأَجَـلِ
مُعْـطي القُرى والقِـرى لقاصـدِه ... من غيـر مَنٍّ والخيـلِ والخَـوَلِ
مِـثْـلُ فتـوحِ الـفـاروق نـائِـلُهُ ... شَرْقاً وغَرْباً في السَّهْـلِ والجَبَلِ

(١) في الأصل: جمالاً، وفي (ل) ولا وخدت بي إليكم جمال، والمثبت من (م).
(٢) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م). وفي «الديوان» أهوى.

من قـال لم يَحْـوِ ذا ويسكن ذي أصبحَ ممـا يقـولُ في خَجَـلِ
محمـدٌ خـاتَمُ الكِـرامِ كـمـا سميُّهُ كـانَ خـاتَمَ الـرُّسُـلِ[1]

وفيه يقول أحمد بن منير من قصيدةٍ:

كسـا الحَرَمينِ لِبْسَـة عَبْدِ شَمْسٍ وهـاشم غُـرَّتي نسـلِ الخليـلِ
ولِـلْبلدِ الأمـينِ أجـدَّ أمـنـاً تكنَّـف مِثْلَه جَـدَث الـرَّسُـولِ
عَشَيْتُم يـا ولاةَ الأمـرِ عـمَّـا أتيـحَ لـه مِنَ الأثـرِ الجميـلِ
وطـارَ لهـا وأشفقتـم فشـدَّ الـ ـسيدين على عُرىَ المَجْدِ الأَثِيْلِ
بيـوتٌ بـالْحجـازِ مقـدَّسـاتٌ رمـاها الـدَّهْرُ بـالخَطْبِ الجليلِ
وكـانَ أذالَهُنَّ فـصـابَ صـونـاً لـمن آوتْـه مـن ولـد البَـتُـول
مـآثـرُ بـاقيـاتٌ يـوم يُجْنَى الـ ـمقال ويُجتنى[2] طيبُ المقيلِ
وكم للمَـوْصِـلِ الحـدبـاء ممـا تُـنيـل يـداه مـن ريفٍ ونـيـل
بَـرُود الصَّفْح مَلْتَهِبُ الحَـوَاشي مَهِيْبُ البَطْشِ فـرَّاسُ الـدخـول

ولأبـي المجد [بن][3] قسيم الحَمَوي فيه من قصيدة:

أغرّ تبصرُ منـه النَّاسَ في رَجُـلٍ واللَّيْثَ في بَشَرٍ والبَدْرَ في غَضَنِ[4]
سمـا بهمَّتـه في المَكْـرُمـاتِ إلى عليـاءَ تَقْصُـرُ عنها هِمَّـةُ الـزَّمَنِ
يلقاكَ واضـحَ ليلِ الفِكْرِ راجـحَ نيـ ـلِ الكفِّ طاهرَ ذيل السِّرِّ والعَلَنِ
ماضي العزيمةِ ميمونُ النقيبة، رئـ ـبال الكتيبةِ عَيْنُ القـائلِ اللَّسِنِ
إذا تـكلَّم واسْـتَـجْليـتَ غُـرَّتـه في مَحْفِلٍ رُحت حالي العين والأُذُنِ

(١) انظر «ديوان عرقلة الكلبي»: ٨٥ ــ ٨٧ مع اختلاف في ترتيب الأبيات.
(٢) في (م) ويشترى.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م)، وانظر حاشيتنا رقـم ٦ ص ٩١ مـن هذا الجزء.
(٤) الغضن: الدرع. انظر «اللسان» (غضن).

كـأَنَّ فـي الدَّسْتِ منه حين تنظره   شمسَ النهار وصَوْبَ العارِضِ الهَتِنِ

قال ابن الأثير: وفي شعبان من هذه السنة، وهي سنة تسعٍ وخمسين وخمس مئة، توفي الوزير جمال الدين محمد بن علي بن أبي منصور الأصفهاني، وكان قد خدَمَ الشهيد، فولاه نَصِيبين*، وظهرت كفايتُه، فأضاف إليه الرَّحبة*، فأبان عن كفايةٍ وعِفَّة، وكان من خواصِّه فجعله مشرف مملكته كلِّها، وحكَّمه تحكيماً لا مزيد عليه، حتى كان وزير الشهيد والحاكم في بلاده ضياء الدين بن الكَفَرْتُوثي[1] يحكي عن جمال الدين قال: كان يدخل إلى
١٣٧/١ الشهيد أتابك قبلي ويخرجُ بعدي. ولم يزل كذلك إلى أن قُتِلَ الشهيد، ثم وزر لولَدَيْ الشهيد سيف الدين ثم قُطْب الدين، وكان بينه وبين زين الدين علي كوجك عهودٌ ومواثيق على المُصَافاة والاتفاق، وكان أصحاب زين الدين يكرهونَه ويقعون فيه عند زين الدِّين، فنهاهم.

وكانت المَوْصِل في أيامه ملجأً لكل ملهوف، ومأمناً لكلِّ خائف، فسعى به الحُسَّاد إلى قطب الدين حتى أوغروا صدره عليه وقالوا له: إنه يأخذ أموالك فيتصدَّق بها[2]. فلم يمكنه أن يغيِّر عليه شيئاً بسبب اتفاقه مع زين الدين، فوضع على زين الدين من غيَّره عن مصافاته ومؤاخاته، فقبض عليه قطب الدين وحبسه بقلعة المَوْصِل، ثم ندم زين الدين على الموافقة على قبضه لأن خواصَّ قطب الدين وأصحابه كانوا يخافون جمال الدين، فلما قُبض تبسَّطوا في الأمر والنهي على خلاف غرض زين الدين[3]. فبقي جمالُ الدين في الحبس نحواً من سنة، ثم مرض، ومضى لسبيله عظيم القدر والخَطَر،

---

(١) نسبة إلى كفرتوثا: قرية من أعمال الجزيرة، قرب ماردين. انظر «معجم البلدان»: ٤/٤٦٨، و«اللباب»: ٣/٤٥.

(٢) في «الباهر»: فيتصرف بها.

(٣) «الباهر»: ١١٨ ــ ١١٩.

كريم الوِرْدِ والصَّدَر، عديم النظير، في سَعَة نفسٍ، لم يُرْوَ في كتب الأولين أن أحداً من الوزراء اتسعت نفسه ومروءته لما اتسعت له نفس جمال الدين، فلقد كان عظيم الفتوة كامل المروَّة[1].

قال ابن الأثير: حكى لي جماعة عن الشيخ أبي القاسم الصُّوفي ـ وهو رجلٌ من الصَّالحين كان يتولى خدمة جمال الدين في محبسه ـ قال: لم يزل الجمال[2] مشغولاً بأمر آخرته مُدَّة حبسه، وكان يقول: كنتُ أخشى أن أُنقل من الدَّسْت إلى القبر. قال: فلما مرض قال لي بعضَ الأيام: يا أبا القاسم، إذا جاء طائر أبيض إلى الدار فعرِّفْني. فقلت في نفسي: قد اختَلط الرجل. فلما كان الغد أكثرَ السؤالَ عن ذلك الطائر، وإذا طائر أبيض لم أر مثله قد سقط، فقلتُ له: جاء الطائر. فاستبشر، ثم قال: جاء الحق. وأقبل على الشهادة وذِكر الله تعالى، وتُوفي. فلما توفى طار ذلك الطائر. قال: فعلمت أنه رأى شيئاً في معناه.

ودفن بالمَوْصل نحو سنة، وكان قد قال للشيخ أبي القاسم: إن بيني وبين أسد الدين شِيركُوه عهداً؛ من مات منا قبل صاحبه حمله الحيُّ إلى المدينة ـ على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام ـ فدفنَه بها في التُّرْبة التي عملتها، فإن أنا مُتُّ فامضِ إليه وذكِّره. فلما توفي سار الشيخ أبو القاسم إلى أسد الدين في هذا المعنى، فأعطاه مالاً صالحاً ليحمِلَه به إلى مكة والمدينة، وأمر أنْ يحجَّ معه جماعةٌ من الصوفية ومن يقرأ بين يدي تابوته عند النُّزول والرَّحيل، وقدوم مدينة تكون في الطريق، وينادون في البلاد: الصلاة على فلان. ففعلوا ذلك، فكان يُصَلِّي عليه في كل مدينة خلقٌ كثير، فلما كان في الحِلَّة* اجتمع النَّاس للصلاةِ عليه، فإذا شابٌّ قد ارتفع على موضع عالٍ، ونادى بأعلى صوته:

(1) «الباهر»: ١٢٧.
(2) في (ل) جمال الدين.

سَرَى نَعْشُه فوقَ الرِّقـابِ وطالمـا سَرَى بِرُّه(١) فـوقَ الرِّكـابِ ونائِلُهْ
يَمُـرُّ على الـوادي فتُثني رمـالُـه عليه وفي النَّادي فتبكي أرامِلُهْ(٢)

فلم يُرَ باكياً أكثر من ذلك اليوم، ثم وصلوا به إلى مكة فطافوا به حول الكعبة، وصلُّوا عليه بالحَرَم، وحملوه إلى المدينة فصلُّوا عليه أيضاً، ودفنُوه بالرِّباط الذي أنشأه بها، وبينه وبين قبر النبـي ﷺ خمسة عشر ذراعاً(٣).

قلت: كذا قال ابن الأثير، وقد(٤) رأيت المكان(٤) ولعله أراد الحائط الشرقي من مسجد النبـي ﷺ لا نفسَ القبر الشريف(٥)، زاده الله شرفاً وصلى على ساكنه(٥).

ثم قال: كان جمال الدين رحمه الله أسخى الناس وأكثرهم عطاء وبذلاً للمال، رحيماً بالنَّاس، متعطفاً عليهم، عادلاً فيهم، فمن أعماله الحسنة أنه جدَّد

---

(١) في (م) جوده، ومثله في «الباهر».
(٢) فـي هامش الأصل «حاشية» قال المؤلف: وجرى نحو هذا للوزير أبـي الفضـل جعفر بن الفضل بن الفرات، المعروف بابن حِنْزَابة، كان أبوه وزيراً للمقتدر، ووزر هو لكافور الإخشيدي بمصر، ومات بها سنة إحدى وتسعين وثلاث مئة، وحمل منها إلى الحرمين، فخرجت الأشراف من مكة والمدينة، فحجوا به وردوه إلى المدينة في الدار التي كان أعدها لذلك جوار مسجد النبـي ﷺ، وكان مكرماً لأهل العلم، وله معروف كثير. ذكرت ما جاء عنه في ذلك في ترجمته في «تاريـخ دمشق»، رحمه الله. فجرى للوزير أبـي جعفر ما كان قد جرى للوزير جعفر، رحمها الله تعالى. وبلغني أن الحيص بيص الشاعر [لما] رأى نعش الوزير جمال الدين، وأُنشد البيتان، ارتجل هو بيتين:

سَـرَى نَعْشُه فـوقَ الـرِّقـابِ وإنَّـه لَأجدَرُ من يَسْري عليها ومَنْ يَرْقَى
فـما عـنـقٌ إلا لــه فيــه مِنَّــةٌ تـلازِمُهُ كـالـطَّوْقِ في عُنُقِ الـوَرْقـا

قلت: ما بين حاصرتين زيادة من عندنا يقتضيها السياق.
(٣) «الباهر»: ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٤ ـ ٤) ما بينهما ساقط من (م).
(٥ ـ ٥) ما بينهما ساقط من (م).

بناء مسجد الخَيْف بمِنى، وغرم عليه أموالاً عظيمة، وبنى الحجر بجانب الكعبة ورأيت اسمه عليه، ثم غُيِّر وبُني غيره سنة ست وسبعين وخمس مئة، وزخرف الكعبة بالذهب والنُّقْرة[1]، فكل ما فيها من ذلك فهو عمله إلى سنة تسع وست مئة. ولما أراد ذلك أرسل إلى الإمام المقتفي لأمر الله هدية جليلة حتى أذن [له][2] فيه، وأرسل إلى أمير مكة عيسى بن [أبي] هاشم[3] خِلَعاً سنية وهدية كثيرة حتى مكّنه منه. وعمر أيضاً المسجد الذي على جبل عرفات، وعمل الدرج التي يُصْعَدُ فيها إليه، وكان النَّاس يلقون شدةً في صعودهم، وعمل بعرفات مصانع للماء، وأجرى الماء إليها من نَعْمان[4] في طريق معمولة تحت الجبل مبنيَّة بالكلس، فغرم على ذلك مالاً كثيراً. وكان يعطي أهل نَعْمان كُلَّ سنة مالاً كثيراً ليتركوا الماء يجري إلى المصانع أيام مقام الحُجَّاج بعرفات، فكان الناس يجدون به راحةً عظيمة[5].

قال: ومن أعظم الأعمال التي عملها نفعاً أنه بنى سوراً على مدينة النبي عليه السلام[6]، فإنها كانت بغير سور ينهبها الأعراب، وكان أهلها في ضَنْكٍ وضُرٍّ معهم. رأيت بالمدينة إنساناً يصلي الجمعة، فلما فرغ ترحَّم على جمال الدين ودعا له، فسألناه عن سبب ذلك، فقال: يجب على كل من

(١) الفضة. انظر «قاموس الفارسية»: ٧٤٧، و«معجم متن اللغة»: ٥/٥٢٧.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) وهو عيسى بن فليتة، وجده الأعلى أبو هاشم محمد بن جعفر، تولى مكة بعد قتل ابن أخيه قاسم بن هاشم، وذلك سنة (٥٥٦هـ) وبقي أميراً عليها حتى توفي سنة (٥٧٠هـ). انظر «العقد الثمين»: ٦/٤٦٥ ـ ٤٧٠، و«خلاصة الكلام»: ٢٠ ـ ٢١، وما بين حاصرتين من «الباهر»: ١٢٨، وانظر حاشيتنا رقم ٣، ص ٣١٧ من هذا الجزء.

(٤) واد بين مكة والطائف، على ليلتين من عرفات، انظر «معجم البلدان» ٥/٢٩٣.

(٥) «الباهر»: ١٢٨.

(٦) في (ل) و(م) صلى الله عليه وسلم. وقد أكمله من بعده نور الدين، انظر ص ٣٣ من هذا الجزء.

بالمدينة أن يدعوَ له، لأنَّا كُنَّا في ضرٍّ وضيق ونكد عيشٍ مع العرب، لا يتركون لأحدنا(1) ما يواريه ويشبع جَوْعته، فبنى علينا سوراً احتمينا به ممن يريدنا بسوء، فاستغنينا؛ فكيف لا ندعو له(2)! ١٣٨/١

قال: وكان الخطيبُ بالمدينة يقول في خطبته: اللهم صُنْ حريم من صان حرم نبيك بالسُّور، محمد بن علي بن أبي منصور. قال: فلو لم يكن له إلا هذه المكرمة لكفاه فخراً، فكيف وقد كانت صدقاته تجوب شرق الأرض وغربها! وسمعتُ عن مُتولِّي ديوان صدقاته التي يخرجها على باب داره للفقراء، سوى الإدرارات والتعهُّدات، قال: كان [له](3) كل يوم مئة دينار أميرية يتصدَّق بها على باب داره(4).

قال: ومن أبنيته العجيبة التي لم ير الناسُ مثلها الجسر الذي بناه على دِجْلة عند جزيرة ابن عمر* بالحجر المنحوت والحديد والرَّصاص والكِلْس، إلا أنه لم يفرغ لأنه قُبض قبل فراغه. وبنى أيضاً جسراً على نهر الأريار عند الجزيرة أيضاً. وبنى الرُّبط بالمَوْصِل، وسِنْجار*، ونَصِيبين*، وغيرها، وقصده الناس من أقطارِ الأرض. ويكفيه أن صدر الدين الخُجَنْدي(5)؛ رئيس

---

(1) في الأصل: لأحد، والمثبت من (ل) و(م).
(2) «الباهر»: ١٢٨.
(3) ما بين حاصرتين من (ل) و(م).
(4) «الباهر»: ١٢٨ ــ ١٢٩.
(5) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: لما رجع الخجندي من عنده مدحه بأبيات، منها:

جئت إلى بابك فرداً وقد رجعتُ من نعماك في قافِلَهْ»

ثم أتبعها الناسخ بالحاشية التالية: «ليس في أصل الشيخ المؤلف رحمه الله تعالى الذي نقلت منه هذه النسخة الذي هو بخطه غير هذه الحاشية الصغيرة، وهذه الحاشية التي أذكرها ــ إن شاء الله تعالى ــ وجدتها في نسخة الشيخ مجد الدين يوسف بن محمد =

أصحاب الشَّافعي، رضي الله عنه، بأصبهان، وابن الكافي قاضي قضاة هَمَذَان، قصداه، فأخرج عليهما مالاً جزيلاً، وكذلك غيرهما من الصُّدُور والعلماء ومشايخ الصُّوفية، وصارت المَوْصِلُ في أيامه مقصداً وملجأً(١).

وكان أحبَّ الأشياء إليه إخراجُ المال في الصَّدَقات، وكان يضيِّق على نفسه وبيته ليتصدَّق. حكى لي والدي قال: كنتُ يوماً عنده وقد أُحضر بين

= الكاتب، وهي منقولة من أصل المؤلف الذي بخطه ومقروءة عليه، وأظن المؤلف سها عن إثباتها في نسخته، وهي: قال العماد في «كتاب السلجوقية»: لما نهد بوزابة من فارس ومعه الملكان محمد بن محمد [كذا] وملكشاه ابنا محمود بن ملكشاه؛ يعني لأخذ السلطنة من عمهما مسعود بن محمد بن ملكشاه، فلما قرب من أصفهان تلقاه صدر الدين الخجندي، وفتح له أبوابها، فدخل دار مملكتها، وأجلس الملكين على السرير الألب أرسلاني، ثم خرج بهما على سمت همذان. فذكر الحديث في كسره وقتله، ثم بعث إلى أصفهان ـ يعني السلطان مسعود ـ بالإيقاع بمن خرج على السلطان، فخرج منها ـ يعني الخجندي ـ وزحف العوام إلى المدينة فأحرقوها، ونهبوا دار كتبها، وتشتت بنو الخجندي، فقصد صدر الدين محمد وأخوه جمال الدين محمود الموصل، فأوردهما جمال الدين الوزير من إنعامه وإكرامه المنهل المنهل، ومضى جمال الدين إلى الحج، وأقام صدر الدين، وبحر جود الوزير له متلاطم اللجج، ثم انصرف عنه مملوء الحقائب، محبوًّا بالمواهب، فعمل في جمال الدين الوزير أبياتاً من جملتها:

جئت إلى بابك فرداً وقد رجعت من نعماك في قافله

ووصل إلى أصفهان، فتوفر أهلها على خدمته، وافترضوا إقامة حرمته، وعاد أخوه جمال الدين من الحج، وسار مع قافلة همذان، ثم وصل الخبر بأن السلطان ـ يعني مسعوداً ـ قد رضي عنه وعن أخيه، وأعاد إليهما الرياسة بأصفهان.

هذه الحاشية كلها نقلتها على صورتها من النسخة المذكورة وذلك بعد فراغي من نقل هذه النسخة من أصل الشيخ المؤلف الذي بخطه، ولله الحمد، وصلاته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه. ا هـ». قلت: انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ٢٠١ ـ ٢٠٣، وترجمة صدر الدين الخجندي محمد بن عبد اللطيف في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧، وفيه توفي سنة (٥٥٢ هـ).

(٥٥٢هـ).

(١) «الباهر»: ١٢٨ ـ ١٢٩.

يديه قُنْدُز[1]، ليُعمل على وبر ليلبسه بخمسة دنانير، فقال: هذا الثمن كثير، اشتروا لي قُنْدُزاً بدينارين وتصدَّقوا بثلاثة دنانير. قال: فراجعناه غيرَ مَرَّة فلم يفعل[2].

قال: وحكى لي من أثق إليه من العدول بالمَوْصِل أن الأقوات تعذَّرت في بعض السنين بها وغَلَت الأسعار، وكان بالمَوْصِل رجل من الصَّالحين يقال له الشيخ عمر المَلَّاء[3]، فأحضره جمال الدين وسلَّم إليه مالاً، وقال له: تخرج هذا المال على مستحقه، وكلما فرغ أرسلْ إليَّ لأنفذ غيره، فلم تمضِ إلا أيام يسيرة حتى فرغ ذلك المال لكثرة المحتاجين، فأنفذ له شيئاً آخر ففني، ثم أرسل يطلب ما يخرجه، فقال جمال الدين للرسول: والله ما عندي شيء، ولكن خذ هذه المحافر التي في داري فبيعوها وتصدَّقوا بثمنها إلى أن يأتينا شيء آخر فنرسله إلى الشيخ عمر. فبيعت المحافر وتصدَّقوا بثمنها وعرَّفوه ذلك، فلم يكن عنده ما يرسله، فأعطاه ثيابه التي كان يلبسها مع العِمامة التي كانت على رأسه، وأرسل الجميع، وقال للرسول: قل للشيخ لا يمتنع من الطلب فهذه أيام مواساة. فلما وصلت الثياب إلى الشيخ عمر بكى وباعها وتصدَّق بثمنها[4].

قال: وحكى لي بعضُ الصُّوفية ممن كان يصحب الشيخ عمر النَّسَائي؛ شيخ الشيوخ[5] بالمَوْصِل قال: أحضرني الشيخ فقال لي: انطلق

---

(١) هو القندس، ثعلب الماء، تتخذ من جلده فراء فاخرة يلبسها السلاطين. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٢) «الباهر»: ١٢٩.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٥ من هذا الجزء.

(٤) «الباهر»: ١٢٩.

(٥) شيخ الشيوخ، لقب يطلق على متولي الإشراف على رجال الطرق الصوفية. انظر «الألقاب الإسلامية» للدكتور حسن الباشا: ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

إلى مسجد الوزير، وهو بظاهر الموصل، واقعد هناك، فإذا أتاك شيء فاحفظه إلى أن أحضر عندك. ففعلت، وإذا قد أقبل جمع كثير من الحمَّالين يحملون أحمالاً من النَّصافي والخام، وإذا قد جاء نائبُ جمال الدين مع الشيخ ومعهما قماشٌ كثير، وثمانية عشر ألف دينار، وعِدَّة كثيرة من الجمال. فقال لي: تأخذ هذه الأحمال، وتسير إلى الرَّحبة*، فتوصل هذه الرِّزْمة وهذا الكتاب إلى متوليها فلان، فإذا أحضر لك فلاناً العربي، فتوصل إليه هذه الرِّزْمة الأخرى وهذا الكتاب وتسير معه، فإذا أوصلك إلى فلان العربي، فتوصل إليه هذه الرزمة وهذا الكتاب؛ وهكذا إلى المدينة على ساكنها السَّلام، توصِّل إلى وكيلي فلان هذه الأحمال وهذه الكسوات والمال الذي عليه اسم المدينة ليخرجها بمقتضى هذه الجريدة، ثم تأخذ الباقي الذي عليه اسم مكة وتسير إليها فيتصدَّق به وكيلي بها بموجب الجريدة الأخرى. قال: فسرنا كذلك إلى وادي القُرى، فرأينا به نحو مئة جمل تحمل الطعام إلى المدينة وقد منعهم خوفُ الطريق، فلما رأونا ساروا معنا إليها، فوصلناها والحنطة بها كل صاعين بدينار مصري، والصاع خمسة عشر رطلاً بالبغدادي، فلما رأوا الطعام والمال اشتروا كل سبعة آصع بدينار. فانقلبت المدينة بالدُّعاء له. ثم سرنا إلى مكة ففعلنا ما أَمَرَنا[1].

قال: وحكى لي والدي قال: رأيتُ جمال الدين وقد حضر عنده رجلٌ فقيه قبل أن يصير وزيراً، فطلب منه شيئاً، وتردَّد إليه عِدَّة أيام، ثم انقطع، فسأل عنه، فقيل: إنه سافر. فشقَّ ذلك عليه، ثم قال: هكذا تنصرف الأحرار عن دور الكلاب. ورَدَّد ذلك غير مرة، ثم سأل عنه فقيل: إنه سار نحو مارِدين*. فأرسل إليه خِلْعَةً ونفقة إلى مارِدين[2].

---

(١) «الباهر»: ١٢٩ ــ ١٣٠.
(٢) «الباهر»: ١٣٠.

قال: ولو رُمتُ شرحَ مفردات أعماله لأطلتُ وأضجرت، وهي ظاهرة لا تحتاج إلى بيان، فلهذا تركنا أكثرها[١].

[قلت][٢]: وقد ذكره الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» فقال: اجتمعت بجمال الدين في الموصل[٣] سنة خمس وخمسين وخمس مئة، وأنا متوجِّه إلى الحج، وكانت بيني وبينه مودة قديمة وعشرة ومؤانسة، فعرض عليَّ الدخول إلى دارٍ في الموصل، فامتنعت، ونزلتُ بخيمتي على الشط، فكان مدة مقامي [كل][٤] يوم يركب يجوز على الجسر نحو نِينَوَى[٥]، وأتابك قد ركب إلى المَيْدَان، وينفذ إلي يقول: اركب، فأنا واقف أنتظرك. فأركب فأسير أنا وهو فنتحدث. فوجدتُ يوماً منه خلوة من أصحابي، فقلتُ له: في نفسي شيء يتردَّدُ من حيث اجتمعنا أشتهي أن أقوله لك، وما يتفق [لي][٦] خلوة، وقد خلونا السَّاعة. قال: قل. قلت: أقول [لك][٧] ما قاله الشَّريف الرضي:

١٣٩/١ ما ناصَحَتْك خفايا الودِّ من أحدٍ ما لم يُصِبْك بمكروهٍ من العَذَلِ
مودَّتي لك تأبى أن تُسامحني بأن أراكَ على شيءٍ مِنَ الزَّللِ

وقد بسطتَ يدَكَ في إنفاق المال في الصَّدقات ووجوه البرّ والمعروف، والسلاطين ما يحتملون إخراج المال، ولا تصبر نفوسهم عليه، ولو أنَّ الإنسان يخرجه من ميراثه، وهذا الذي أهلك البرامكة، فانظر لنفسك كيف

---

(١) في الأصل و(ل) تركناها، والمثبت من (م)، وانظر «الباهر»: ١٣٠.
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) في (ل) و (م): الموصلي.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٥) قرية بالموصل، وتسمى قرية يونس بن متى. انظر «معجم البلدان»: ٣٣٩/٥.
(٦) ما بين حاصرتين من (ل) و(م).
(٧) ما بين حاصرتين من (م).

المخرج مما قد دخلت فيه. فأطرق ساعة وقال: جزاكَ الله خيراً، لكن الأمر قد عَبَر عما تخافه. ففارقتُه وسرت إلى الحجاز، وعدت من مكة على طريق الشَّام، ونُكب جمال الدين ومات في الحبس[1].

قلت: ولعلم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[2] في هذا الوزير الجَوَاد لما نكب:

ما حَطَّ قَدْرَكَ من أوجِ العُلا القَدَرُ ... كـلا ولا غَيَّـرَتْ أفعالَـكَ الغِيَـرُ
أنت الذي عَمَّ أهلَ الأرضِ نائِلُه ... ولم يَنَـلْ شـأْوَه في سُؤْدَدٍ بَشَـرُ
سارَتْ صِفَاتُك في الآفاقِ واتَّضَحَتْ ... وصدَّقَ السَّمْـعُ عنها ما رأى البَصَرُ
فاصبرْ لِصَرْفِ زمانٍ قـد مُنِيْتَ به ... فآخِرُ الصَّبْرِ يا طـودَ النُّهى الظَّفَـرُ
فما تَرَى أحداً في الخَلْقِ يَسْلَمُ مِنْ ... صـروفِ دَهْـرٍ لـه في أهله غِيَـرُ
سَعَـوْا بقصدِكَ سِـرًّا واستتبَّ لهم ... ولـو سَعَوْا نحـوه جَهْراً لمـا قَـدَرُوا
لولا الأماني التي تحيا النُّفُوسُ بها ... لمتُّ من لَوْعةٍ في القَلْبِ تَسْتَعِرُ[3]

ومنها في ذِكْر الشيـخ عمر المَلَّاء:

وأَصْدَقُ النَّاسِ في حِفْظِ العُهُودِ إذا ... مَيَّزْتَ بالفِكْـرِ أحوالَ الـوَرَى عُمَرُ
الـزَّاهِـدُ العـابـد البَـرُّ التقيُّ ومن ... يـزورهُ ويقـوِّي أزرَه الخَضِـرُ[4]

(١) النص في القسم المفقود من كتاب الاعتبار، استدركه محققه من كتابنا هذا. انظر «الاعتبار»: ٢١ ــ ٢٢. طبعة د. السَّامرائي.

(٢) نسبة إلى شاتان، قلعة بديار بكر، ولد سنة (٥١٠هـ)، وتوفي سنة (٥٧٩هـ) وكان فقيهاً أديباً شاعراً، انظر ترجمة في «خريدة القصر»: قسم شعراء الشام: ٢/٣٦١ ــ ٣٨٤، و«وفيات الأعيان»: ٢/١١٣ ــ ١١٤، وفيه توفي سنة (٥٩٩هـ) وهو وهم. و«المختصر المحتاج إليه»: ١/٢٧٩ ــ ٢٨٠. وانظر ص ٤٥٧ من الجزء الثاني.

(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٣٧٢.

(٤) المصدر السابق: ٢/٣٧٣. وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من هذا الجزء.

وقال العَرْقلة يرثي جمال الدين الوزير والصَّالـح بن رُزِّيك:

لا خَيْـرَ في الـدُّنيـا ولا أهلِهـا بعـد جمـالِ الـدِّين والصَّـالـحِ
بَـحْـرانِ لـولا دَمْـعُ بـاكيـهمـا مـا كانَ مـاءُ البَحْـرِ بـالمـالـحِ[1]

قال ابن الأثير: وقال والدي: كنت أرى من الوزير جمال الدين في الأيام الشَّهيدية من الكفاية والنظر في صغير الأمور وكبيرها، والمحاققة فيها، ما يدلُّ على تمكُّنه من الكفاية[2]. فلما وصل الأمر إلى الملك قطب الدين مودود بن أتابك الشَّهيد، وجمالُ الدين وزيرُه حينئذٍ، وقد تمكَّن زين الدين عليٌّ بن بُكْتِكِين في الدولة تمكناً عظيماً، وتقدَّم عند قطب الدين جماعةٌ من أصحابه، فكان جمال الدين مـع تمكُّنه وعلوِّ محلِّه يهمل بعض الأمور، قال: فقلت له يوماً: أين تلك الكفاية التي كنا نراها منك في الأيام[3] الشهيدية؟ ما أرى الآن منها شيئاً! فقال لي: والآن ما عندي كفاية؟ فقلت: ما هذا العمل من ذلك بشيء. فقال: أنت صبي غِرٌّ، ليست الكفاية عبارة عن فعل واحد في كل زمان، إنما الكفاية أن يسلك الإنسان في كل زمان ما يناسِبُهُ، ذلك الوقت كان لنا صاحبٌ[4] متمكن قوي العزم، لا يتجاسر أحد على الاعتراض عليه، ولا يَتَلَـوَّن بأقـوال أصحابه، فحفظناه، فكان مـا أفعله هو الكفـاية. وأما الآن فلنا سُلْطان غير متمكن، وهو محكـومٌ عليه، فهـذا الذي أفعله هو الكفاية[5].

(١) البيتان ليسا في «ديوانه».
(٢) في الأصل و(ل) الكفاة، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل: أيام، والمثبت من (ل) و(م).
(٤) أي عماد الدين زنكي.
(٥) «الباهر»: ٨٢ ـ ٨٣.

ثم دخلت سنة ستين وخمس مئة

قال ابن الأثير: فيها فتح نور الدين قلعة بانياس* من الفرنج. وكان قد سار إليها بعد عوده من فتح حارِم*، وأَذِنَ لعسكر المَوْصِل وديار بكر بالعود إلى بلادهم، وأظهر أنه يريد طبريَّة، فجعل من بقي من الفرنج همهم حفظها وتقويتها. فسار نور الدين مجدًّا إلى بانياس لعلمه بقلَّة من فيها من الحماة الممانعين عنها، ونازلها، وضيَّق عليها وقاتلها. وكان في جُملة عسكره أخوه نُصْرة الدين أمير أميران، فأصابه سَهْمٌ أذهب إحدى عينيه، فلما رآه نور الدين قال له: لو كُشف لك عن الأجر الذي أُعِدَّ لك لتمنيتَ أن تذهب الأخرى.

[قلت: وفي نصرة الدين هذا يقول أحمد بن منير من قصيدة له:

يا نُصْرَةَ الدِّين الذي عَزْمُهُ — منهُ تُرَجَّى نصرةُ الدِّينِ
وابن الذي زَلْزَلَ من خَوْفِهِ — ما بين أغماتٍ إلى الصِّين

قال ابن الأثير][1]: وجدَّ في حصارِها، وسمع الفرنجُ بذلك فجمعوا [له][2]، فلم تتكامل عدتهم حتى فتحه الله تعالى. على أن الفرنج كانوا قد ضعفوا بقتل رجالهم بحارم* وأسرهم، فملك القلعة وملأها ذخائر وعُدة، ورجالاً عِدة.

وعاد نور الدين إلى دمشق وفي يده خاتمٌ بِفَصٍّ ياقوت من أحسن الجوهر[3]، فسَقط من يده في شَعْراء بانياس* ــ وهي كثيرةُ الأشجار ملتفة الأغصان ــ فلما أبعد من المكان الذي ضاع فيه الفَصُّ عَلِمَ به، فأعاد بعضَ أصحابه في طلبه ودَلَّهم على مكانه، وقال: أظنه هناك ضاع. فعادوا إليه ١٤٠/١

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، و(ل)، والمثبت من (م). قلت: أغمات، قرب مراكش في المغرب. انظر «معجم البلدان»: ١/٢٢٥.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) في (ل) الجواهر.

فوجدوه، فقال بعض الشعراء الشّاميين، وأظنُّه أحمد بن منير، من جملة قصيدة يمدحُه بها ويهنئه بهذه الغَزَاة وعود الفَصِّ الياقوت:

إن يمْتَر الشُّكَّاك فيك فإنَّك الـ ... مهديُّ مطفيءُ جَمْرَةِ الدَّجَّالِ
فلعودةِ الجَبَلِ الذي أضللته ... بالأمسِ بين غياطلٍ[1] وجبالِ
مسترجعاً لك بالسَّعادةِ آيةً ... رَدَّتْ مطال الفال غير مُطَالِ
لم يُعْطَها إلا سليمانٌ وقد ... نِلْتَ الرِّفاءَ بموشكِ الإعجالِ
زجرٌ جَرَى لسرير مُلْكِك أنه ... كسريره عن كُلِّ جَذْرٍ عالِ
فلو البِحَارُ السَّبْعَةُ اسْتَهْوَيْنَهُ ... وأَمَرْتَهُنَّ قَذَفْنَهُ في الحالِ[2]

قلت: هذه الأبيات لابن منير بلا شك، ولكن في غير هذه الغَزَاة؛ فإن ابن منير قد سبق أنه توفي سنة ثمان وأربعين[3]،وفَتْحُ بانياس*كما تراه في سنة ستين وقد قرأتُ في ديوان ابن منير: وقال يمدحه، يعني نور الدين، ويهنئه بالعود من غزاة وضياع فَصِّ ياقوت جبل من يده لاشتغاله بالصيد، شِرَاه ألف ومئة دينار. وفي نسخة: وَوِجْدان خاتمٍ ضاع منه في الصَّيد قيمته ألف ومئة دينار، وأنشده إياها بقلعة حمص. فذكر القصيدة، وأولها:

* يوماك يوم ندًى ويوم نِزال *

يقول فيها:

أَخْرَسْتَ شِقْشِقَةَ الضَّلالِ وقُدْتَه ... قودَ الذَّلولِ أطاعَ بعد صِيال
ورميتَ دارَ المشركين بصَيْلَمٍ ... ألقحتَ فيها الحَرْبَ بعد حِيالِ
وسَعَرْتَ بين تريبهم وترابهم ... ذُعْراً يُشيبُ نواصيَ الأطفالِ
فوق الخطيم وقد خَطَمْتَ زَعِيمَهُمْ ... ضَرْباً سوابِقُهُ بغير توالي

(١) مفردها غيطلة، وهي اجتماع الشجر والتفافه. انظر «اللسان» (غطل).

(٢) انظر «الباهر»: ١٣٠ ـ ١٣١، و«الكامل»: ١١/٣٠٤ ـ ٣٠٥.

(٣) انظر ص ٢٩٣ من هذا الجزء.

ضَرْباً ملأَتْ فرنجةً من حرِّه ... رُهْباً به سَيْفُ الصَّقالب صالي

وبفَجٍّ حارمَ أحرمتْ لقراعهم ... هيمٌ أحلن النوم غير حَلالِ

عَجَموا على الجسر الحديد حديدَها ... نبعاً يعاذِمُهُ أُديرِدُ صَالِ

زلزلْتَ أرضَهُمْ بوقعِ صواعقٍ ... أعطيننا أمناً من الزِّلزالِ

في مأزِقٍ شَمَّرْتَ ذيلك تحتَهُ ... والنَّصْرُ فوقَك مُسْبِلُ الأذيالِ

في دولةٍ غَرَّاءَ محموديَّةٍ ... سَحَبَتْ رداءَ الحَمْدِ غير مُذَالِ

تُنسي الفتوحُ بها الفتوحَ، وتجتنى ... زُهرُ المقال بباهرِ الأفعالِ

لَبِسَتْ بنورِ الدِّين نور حدائق ... ثمراتُهنَّ غرائبُ الأفضالِ

ملكٌ تحجَّب في السرير بزأرةٍ ... زرَّتْ حواشيها على رئبالِ

تنجابُ عن ذي لبدتين شَذَاتُه ... في بُرْدَتي بَدَلٍ من الأبدالِ

رَفَعَ الرِّواقَ بروقِ أنطاكيَّةٍ ... فرمى الخليجَ بمرهق البَلْبالِ

بَدْرٌ لأربعَ عَشْرَةَ اقتبسَ السَّنا ... من خمسَ عَشْرَةَ سورة الأنفالِ

فوزُ المآل أخاضه ماءَ الطُّلى ... وسواه يُقعده احتيازُ المالِ

متقسِّمٌ بين القسيمين العُلا ... عن عمٍّ عمٍّ أو مخايل خالِ

لا زِلْتَ تطلُعُ من ثنايا جَحْفَلٍ ... يقفو لواءك كاللوى المِنْهالِ

تغزو فَتَنْهَبُ أو تؤوبُ فَتُنْهِبُ الـ ... ـعافين سَلْبَ قناً وكَسْبَ نِصَالِ

لك أن تطلَّ على الكواكبِ راقياً ... ولحاسديك بُكاً على الأطلالِ

ومما يناسِبُ هذه السعادة في وِجْدانِ الخاتم بعد وقوعه في مظنة الهلاك والضياع ما بلغني أن موسى الهادي لما ولي الخلافة سأل عن خاتمٍ عظيم القيمة كان لأبيه المهدي، فبلغه أن أخاه الرَّشيد أخذه، فطلبه منه فامتنع، فألحَّ عليه فيه، فحنق الرشيد ومَرَّ على جسر بغداد فرماه في دِجْلَة. فلما مات الهادي وولي الرشيد الخلافة أتى ذلك المكان بعينه ومعه خاتم من رصاص فرماه ثَمَّ، وأمر الغَطَّاسين أن يلتمسوه، ففعلوا، فاستخرجوا الخاتم الأوَّل، فعُد ذلك من سعادة الرشيد وبقاء ملكه.

قال ابن الأثير: ولما فتح نور الدِّين حِصْنَ بانياس* كان ولد معين الدِّين
١٤١/١ أُنَر الذي سَلَّم بانياس إلى الإفرنج قائماً على رأسه، فالتفتَ إليه وقال له: للناس بهذا الفتحِ فرحة واحدة، ولك فرحتان. فقال: كيف ذلك؟ قال: لأن الله تعالى اليوم برَّد جلدة والدك من [نار][1] جهنم[2].

وقد تقدَّم أنه كان صانع بها عن دمشق لما نزل الفرنج عليها[3].

وفيها[4] توفي[5] وزير بغداد عون الدين أبو المُظَفَّر يحيى بن محمد بن هُبَيْرة الشَّيْبَاني، من بني ذُهْل بن شَيْبَان بن ثَعْلَبَة بن الحِصْن. وكان عالماً ديناً مدبراً حنبليَّ المذهب، وزر للمقتفي ثم للمستنجد بعده، وله عدة مصنفات، منها: «الإفصاح في شرح الأحاديث الصحاح»[6]. وكان يجمع في مجلسه أفاضل الوقت من أعيان المذاهب الأربعة والنحاة وغيرهم، ويجري بحضرتهم فوائد كثيرة. توفي وهو ساجد في صلاة الصبح من يوم الأحد ثالث

(١) ما بين حاصرتين من (م). (٢) انظر «الباهر»: ١٣١.
(٣) كان ذلك سنة (٥٤٣هـ) انظر ص ١٩١ من هذا الجزء.
(٤) خبر وفاة ابن هبيرة ساقط من (م).
(٥) في «المنتظم»: ٢١٦/١٠ مات مسموماً.
(٦) هو شرح للجمع بين الصحيحين لأبي عبد الله الحميدي الأندلسي، المتوفى سنة (٤٨٨ هـ)، طبع باسم الإفصاح عن معاني الصحاح، طبعت قطعة منه، فيها شرح حديث «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»، نشرها الطباخ في حلب سنة (١٩٢٨ م)، طبع الجزء الأول منه، وهو شرح مسانيد العشرة المشهود لهم بالجنة، بتحقيق الدكتور فؤاد عبد المنعم أحمد سنة (١٩٨٦ م) انظر ترجمة الوزير ابن هبيرة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ٩٦/٢ ـ ١٠٠ و «المنتظم»: ١٠/ ٢١٤ ـ ٢١٧، و «مرآة الزمان»: ٨/ ١٥٩، وما بعدها و «وفيات الأعيان»: ٦/ ٢٣٠ ـ ٢٤٤، و «الفخري في الآداب السلطانية» ٣١٢ ـ ٣١٥ (ط. دار صادر) و «سير أعلام النبلاء»: ٤٢٦/٢٠ ـ ٤٣٢، و «ذيل طبقات الحنابلة» ١/ ٢٥١ ـ ٢٨٩، و «المنهج الأحمد» ٢/ ٣٣٢ ـ ٣٦٢، و «المقصد الأرشد» ٣/ ١٠٥ ـ ١١٠. وقد صنف ابن المارستانية كتاباً في سيرته، لم يصلنا انظر ٢/ ٢٠٠ من هذا الكتاب، وقد ذكرت ولادته في أغلب المصادر سنة تسع وتسعين وأربع مئة، والأصح ما هو مثبت، انظر «وفيات الأعيان» ٦/ ٢٤٢.

عشر جُمادى الأولى سنة ستين وخمس مئة. ورئيت له منامات حسنة، ومدحه جماعة من الفضلاء. ومولده في ربيـع الآخر سنة سبـعٍ وتسعين وأربـع مئة بقرية من أعمال دُجَيْل تعرف بالدُّور[1]، وهو الذي محا رسوم سلاطين العجم من العراق وأجلاهم عن خطتها بحسن تدبيره. ومن كلامه لبعض من كان يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العُصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في الإسلام، وأوْلى الأمور ستر العيوب.

[نجز الجزء الأول من كتاب الروضتين،
ويليه الجزء الثاني
ويبدأ بحوادث سنة (٥٦١)]

---

(١) من نواحي بغداد. انظر «معجم البلدان»: ٢/٤٤٣، ٤٨١.

المحتــوىٰ

مقدمة المحقق ٥
خطبة المؤلف ومقدمته ٢١
فصل / الدولة النورية ٣١
زهد نور الدين وعبادته وعلمه ٣٣
عدل نور الدين ٣٨
شجاعة نور الدين وحسن رأيه ٤٣
ما فعله نور الدين من المصالح ٤٤
هيبة نور الدين ووقاره ٤٨
حفظ نور الدين أصول الديانات، ومحاربته للبدع ٤٩
أوقاف نور الدين وصدقاته ٥١
نظر نور الدين في أمور الرعية ٦٢
إبطال نور الدين للمكوس ٦٧
فصل / أشعار في مدح نور الدين ٧٨
فصل / أصل البيت الأتابكي قسيم الدولة آق سنقر جد
نور الدين، وذكر ما تمَّ في أيامه ٩٣
فصل / مقتل الوزير نظام الملك ٩٧
فصل / وفاة السلطان ملكشاه ١٠٠
بداية ظهور الفرنج ١٠١
مقتل قسيم الدولة آق سنقر ١٠٢
ذكر أخبار زنكي ١٠٣
مقتل مودود أمير الموصل ١٠٥
فصل / ولادة نور الدين ١٠٧
وفاة السلطان محمد بن ملكشاه ١٠٧
ولاية السلطان محمود بن محمد ١٠٨

وفاة الخليفة المستظهر بالله ١٠٩
فصل / خروج مسعود على أخيه السلطان محمود ١١١
ولاية آق سنقر البرسقي الموصل ١١٢
ولاية زنكي مدينة واسط وشحنكية البصرة ١١٣
ولاية زنكي شحنكية بغداد ١١٤
فصل / ولاية زنكي الموصل ١١٥
ما استولى عليه الفرنج من البلاد، وحال المسلمين وقتئذٍ ١١٧
فصل / في فتوح عماد الدين زنكي ١١٨
وفاة السلطان محمود بن محمد ١١٩
وفاة السلطان طغرل بن محمد ١٢٠
مقتل الخليفة المسترشد بالله ١٢٠
خلافة الراشد بالله ١٢٠
خلافة المقتفي لأمر الله ١٢١
مقتل الخليفة الراشد بالله ١٢١
زواج زنكي بالخاتون صفوة الملك ١٢٢
فصل / في جهاد زنكي للفرنج ١٢٢
محاصرة امبراطور الروم شيزر ورجوعه عنها ١٢٢
وفاة الأمير مرشد بن علي والد أسامة بن منقذ ١٢٦
فتح زنكي حصن عرقة وقلعة دارا ١٢٦
وفاة القاضي بهاء الدين الشهرزوري ١٢٦
ولادة صلاح الدين يوسف بن أيوب ١٢٦
فصل / فتح زنكي شهرزور وبعلبك وحصاره دمشق ١٢٧
ولادة تقي الدين عمر بن شاهنشاه ١٢٧
وفاة محمد بن بوري صاحب دمشق ١٢٨
ولاية مجير الدين أبق بن محمد دمشق ١٢٨
فصل / فتح زنكي حصن بارين والمعرة وكفر طاب ١٣٠
حصار الفرنج حلب ورجوعهم عنها ١٣١
فصل / فتح زنكي قلاع الأكراد ١٣٥
فتح زنكي حمص ١٣٦
مسير زنكي إلى ديار بكر وفتح عدة بلاد منها ١٣٨
فصل / فتح مدينة الرها ١٣٨

فصل / مقتل جقر نائب الموصل ١٤٩
فصل / وفاة زنكي ١٥٤
فصل / ذكر بعض سيرة زنكي ١٥٧
فصل / فيما جرى بعد زنكي من تفرق أصحابه وتملك ولديه غازي ومحمود ١٦٧
فصل / فيما جرى بعد وفاة زنكي من صاحب دمشق والإفرنج المخذولين ١٧٣
فصل / توقيع كتب عن الحافظ لدين الله ١٧٩
عقد الصلح بين نور الدين ومعين الدين أُنَر، وزواج نور الدين من ابنته ١٨٠
استنصار التونتاش والي صرخد وبصرى بالفرنج وتوجه معين الدين ونور الدين إليه ١٨٠
حوادث سنة اثنتين وأربعين وخمس مئة ١٨١
تسلم معين الدين بصرى وصرخد وانهزام الإفرنج ١٨١
اعتقال التونتاش في دمشق، وسمل عينيه اقتصاصاً ١٨١
ولادة العادل أبي بكر بن أيوب ١٨٢
وفاة الفقيه الشافعي أبي الفتح نصر الله بن محمد المصيصي بدمشق ١٨٢
ولاية الأمير بزان حصن صرخد ١٨٢
فتح نور الدين حصن أرتاح وباراة وبسرفوث وكفرلاثا ١٨٣
فصل / في نزول الفرنج على دمشق ورجوعهم عنها ١٨٤
حوادث سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة ١٨٥
استشهاد الفندلاوي والحلحولي ١٨٦
فتح نور الدين حصن العريمة ١٩٥
فتح نور الدين باسوطا وهاب ١٩٦
وقعة يغرا بين نور الدين والفرنج ١٩٧
حوادث سنة أربع وأربعين وخمس مئة ٢٠٤
وقعة إنب بين نور الدين والفرنج وتسمى أيضاً وقعة الخطيم ٢٠٤
فصل / فتح نور الدين حصن أفامية ٢١٧
فصل / وفاة معين الدين أنر بدمشق وما كان من الرئيس ابن الصوفي ٢٢٢
فصل / وفاة غازي بن زنكي صاحب الموصل ٢٢٧

فصل / ولاية قطب الدين مودود بن زنكي الموصل ٢٣١
فصل / مسير نور الدين إلى سنجار، وصلحه مع مودود، وتسلمه حمص ٢٣٣
فصل / تحالف حكام دمشق مع الفرنج، ومحاصرة نور الدين دمشق ٢٤١
حوادث سنة خمس وأربعين وخمس مئة ٢٤١
عقد الصلح بين نور الدين وحكام دمشق ورفع حصاره عن دمشق ٢٤١
فصل / فتح نور الدين عزاز ٢٤٣
فصل / أسر جوسلين ٢٤٦
فصل / استيلاء نور الدين على دلوك ٢٥٥
استيلاء نور الدين على حصن خالد ٢٥٧
وقوع نفرة بين مجير الدين صاحب دمشق والرئيس ابن الصوفي ٢٥٨
مقتل الوزير ابن مصال في مصر، وتسلم العادل بن السلار الوزارة ٢٥٨
وفاة القاضي بهاء الدين بن عبد الوهاب الحنبلي ٢٥٨
وفاة الشريف فخر الدولة بن أبي الجن ٢٥٩
حوادث سنة ست وأربعين وخمس مئة ٢٥٩
حصار نور الدين دمشق لمعاضدة حكامها للفرنج ٢٥٩
فصل / في باقي حوادث هذه السنة حدوث فناء في دمياط ٢٧٢
وفاة القاضي ابن أبي الحديد خطيب دمشق ٢٧٢
حدوث زلزلة في أعمال بصرى وحوران ٢٧٢
توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب، واجتماعه بنور الدين ٢٧٣
إغارة التركمان على ظاهر حصن بانياس ٢٧٤
إغارة الفرنج على ناحية من البقاع ٢٧٤
مفارقة صلاح الدين لوالده، وانضمامه إلى عمه أسد الدين في حلب ٢٧٥
حدوث زلزلة في دمشق ٢٧٥
وصول الخلع من الخليفة إلى نور الدين ٢٧٥
حوادث سنة سبع وأربعين وخمس مئة ٢٨٠
فتح نور الدين حصن أنطرسوس ويحمور ٢٨٠
ولادة ابنٍ لنور الدين ووفاته ٢٨٥
توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حصن بصرى ٢٨٥
وفاة الأمير سعد الدولة ٢٨٦
وفاة السلطان مسعود بن محمد ٢٨٦
ولاية السلطان محمد بن محمود، ومقتل خاصبك ٢٨٦

حوادث سنة ثمان وأربعين وخمس مئة ٢٨٨
سقوط عسقلان بيد الفرنج ٢٨٨
وقوع نزاع بين الرئيس ابن الصوفي وأخويه ومقتل الوزير حيدرة ٢٨٩
قدوم عطاء الخادم من بعلبك نائباً عن مجير الدين في دمشق ٢٩٠
سجن بزان صاحب صرخد في قلعة دمشق ٢٩٠
ولاية رضي الدين التميمي رياسة دمشق ٢٩١
مقتل عطاء الخادم ٢٩١
مقتل العادل بن السلار وزير مصر ٢٩٢
وفاة الفقيه برهان الدين البلخي ٢٩٢
وفاة الشاعر ابن منير الطرابلسي ٢٩٣
وفاة الشاعر القيسراني ٢٩٣
وفاة حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وولاية ابنه نجم الدين ألبي ٣٠٠
حوادث سنة تسع وأربعين وخمس مئة ٣٠١
فتح نور الدين دمشق ٣٠١
تولي أسد الدين شيركوه أمور دمشق بعد فتحها ٣٠٥
خروج مجير الدين صاحب دمشق إلى حمص ثم إلى بالس، ومسيره إلى العراق ووفاته ببغداد ٣٠٦
إطلاق بزان من الاعتقال ٣٠٨
وفاة الرئيس مؤيد الدين المسيب بن الصوفي ٣٠٨
مقتل الخليفة الظافر بن الحافظ ٣٠٩
قدوم طلائع بن رزيك إلى القاهرة، وهرب عباس الوزير منها ٣٠٩
مقتل عباس الوزير بيد الإفرنج ٣١٤
التحاق أسامة بن منقذ بنور الدين، ووصول أهله من مصر ٣١٥
فصل / وصول الأمير مجد الدين ابن الداية إلى دمشق عقيب عوده من الحج ٣١٦
وفاة هاشم بن فليتة أمير الحرمين ٣١٧
هجوم الفرنج على مدينة تنيس ٣١٧
وفاة القاضي فخر الدين الطرسوسي بحلب ٣١٧
حوادث سنة خمسين وخمس مئة ٣١٨
تسلم نور الدين بعلبك ٣١٨
ولاية تورانشاه بن أيوب شحنكية دمشق ٣١٩
ولاية صلاح الدين يوسف بن أيوب شحنكية دمشق ٣١٩

التحاق صلاح الدين بنور الدين في حلب ٣٢٠
امتلاك نور الدين عدة قلاع من أعمال قليج أرسلان ٣٢٠
هجوم الأسطول المصري على ميناء صور ٣٢١
طلب المقتفي من أمير الحرمين أن يركب للكعبة المكرمة باباً جديداً ٣٢٢
حوادث سنة إحدى وخمسين وخمس مئة ٣٢٢
محاصرة نور الدين قلعة حارم ٣٢٢
فصل / توجه نور الدين إلى حلب وظفر العسكر الحلبي بالفرنج ٣٢٨
عودة نور الدين إلى دمشق ٣٢٨
الهدنة بين نور الدين والفرنج ٣٢٨
نقض الفرنج للهدنة ٣٢٨
وفاة القاضي محمود بن إسماعيل بن قادوس، كاتب الإنشاء بمصر ٣٢٩
وفاة الزاهد أبي البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحوراني ٣٣٠
حدوث الزلازل في الشام ٣٣٠
حوادث سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة ٣٣٢
حدوث الزلازل في الشام ٣٣٢
فصل / توجه نور الدين إلى ناحية بعلبك لتفقد أحوالها ٣٤٠
انتصار أمير أميران أخي نور الدين على الفرنج قرب بانياس ٣٤٠
ظفر أسد الدين شيركوه بسرية من الفرنج ٣٤١
وصول أسد الدين شيركوه إلى بعلبك للجهاد، واجتماعه بنور الدين ٣٤١
محاصرة نور الدين بانياس، وانتصار أسد الدين شيركوه على سرية من الفرنج ٣٤١
فتح نور الدين مدينة بانياس ٣٤٢
انتصار نور الدين على الفرنج في الملاحة بين طبرية وبانياس ٣٤٣
فصل / توجه نور الدين إلى حلب، وقرب الملك ابن مسعود منها ٣٤٦
ابتداء مرض نور الدين وهو مخيم قرب أنطاكية ٣٤٧
تعيين نور الدين أخاه أمير أميران ولياً لعهده ٣٤٧
شفاء نور الدين، وتوجه أمير أميران إلى حرّان ٣٤٨
عزل أمير أميران من ولاية العهد، وتعيين نور الدين أخاه قطب الدين بدلاً عنه ٣٤٩
فصل / ذكر حصن شيزر وولاية بني منقذ ٣٥٢
سبب خروج أسامة بن منقذ وإخوته من شيزر ٣٥٥

فصل / في بواقي حوادث سنة اثنتين وخمسين ٣٥٩
انتصار المقتفي على عسكر السلطان ٣٥٩
وفاة السلطان سنجر بن ملكشاه ٣٥٩
وفاة الشيخ مخلص الدين عبد القاهر بن عيسى ابن أبي جرادة الحلبي، أمين خزائن مال نور الدين ٣٦٠
مقتل فخر الدين سرخاك والي بصرى ٣٦٠
وفاة الأمير صلاح الدين محمد بن أيوب الياغبساني والي حمص ٣٦٠
ورود الإمام أبي الحياة محمد بن أبي القاسم السلمي من بلخ ووعظه في جامع دمشق ٣٦١
وفاة الأمير عز الدين أبي بكر الدبيسي صاحب جزيرة ابن عمر ٣٦١
حوادث سنة ثلاث وخمسين وخمس مئة ٣٦١
استيلاء الفرنج على حصن حارم ٣٦١
عيث الفرنج بحوران، وقصدهم داريا، وتوجه نور الدين من حلب إلى دمشق للجهاد بعد شفائه من المرض العارض له ٣٦٢
هجوم عسكر مصر على غزة وعسقلان ورجوعهم ظافرين غانمين ٣٦٢
حدوث زلزلة في حلب ودمشق ٣٧٥
إغارة أسد الدين شيركوه على أعمال صيدا ٣٧٦
انهزام المسلمين أمام الفرنج ٣٧٦
فصل / مطالبة بعض سفهاء العوام بإرجاع المكوس والرسوم، ثم إبطال نور الدين لها ثانية ٣٧٩
انتصار العسكر المصري على الفرنج ٣٨٠
مهاجمة امبراطور الروم مانويل أعمال أنطاكية وما والاها ٣٨٠
محاصرة السلطان محمد بن محمود بغداد ٣٨١
وفاة المحدث أبي الوقت عبد الأول بن عيسى ٣٨١
حوادث سنة أربع وخمسين وخمس مئة ٣٨١
حدوث زلزلة في دمشق ٣٨١
مرض نور الدين في دمشق وإبلاله منه ٣٨٢
فصل / وصول رسول امبراطور الروم إلى نور الدين ٣٨٤
مسير نور الدين إلى حمص وحماة وشيزر لقرب امبراطور الروم من أنطاكية واعتزامه قصد المعاقل الإسلامية ٣٨٥
حدوث زلزلة في دمشق ٣٨٥

الهدنة بين نور الدين وامبراطور الروم ٣٨٥
صنع نور الدين سماطاً لأخيه ولمن معه من العساكر.............. ٣٨٦
تسلم نور الدين حران، واستعادتها من أمير أميران ٣٨٦
حوادث سنة خمس وخمسين وخمس مئة ٣٨٧
وفاة الأمير مجاهد الدين بزان بن مامين ٣٨٧
استعفاء القاضي زكي الدين القرشي من قضاء دمشق، وتولية كمال الدين بن الشهرزوري ٣٨٨
وفاة المقتفي وولاية ابنه المستنجد ٣٨٩
وفاة الفائز بن الظافر وولاية ابن عمه العاضد ٣٨٩
حوادث سنة ست وخمسين وخمس مئة...................... ٣٩٠
خروج أسد الدين شيركوه إلى الحج ٣٩٠
مقتل الصالح بن رزيك ٣٩٠
حوادث سنة سبع وخمسين وخمس مئة ٣٩٦
هزيمة نور الدين تحت حصن الأكراد ٣٩٧
حوادث سنة تسع وخمسين وخمس مئة ٤٠٣
مجيء شاور وزير مصر إلى نور الدين مستنجداً وإرسال شيركوه إلى مصر المرة الأولى ورجوعه عنها، وذكر بداية أمره وأمر أخيه نجم الدين أيوب ٤٠٣
حريق محلة جيرون في دمشق.......................... ٤١٤
فصل / فتح نور الدين حارم ٤١٥
فصل / ذكر وزير الموصل جمال الدين ووفاته ٤٢٠
حوادث سنة ستين وخمس مئة ٤٣٧
فتح نور الدين قلعة بانياس ٤٣٧
وفاة الوزير ابن هبيرة ٤٤٠

كتاب الرّوضتين
في
أخبار الدّولتين
النّوريّة والصّلاحيّة

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي

المعروف بأبي شامة

(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

حقّقه وعلّق عليه

إبراهيم الزّيبق

الجزء الثّاني

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة ©١٩٩٧م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكلٍ من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكِّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة

شارع حبيب أبي شهلا

بناء المسكن

تلفاكس: (٩٦١١)

٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣

ص.ب: ١١٧٤٦٠

برقياً: بيوشران

بيروت ـ لبنان

Al-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT

LEBANON

Telefax: (9611)

815112 - 319039 - 603243

P.O. Box: 117460

E-mail:

Resalah@cyberia.net.lb

Web Location:

Http://www.resalah.com

ثم[1] دخلت سنة إحدى وستين [وخمس مئة][2]

ففيها توفي فتح الدين بن أسد الدين شِيرکُوه؛ أخو ناصر الدين، وقبره بالمقبرة النجميَّة* إلى جانب قبر ابن عمه شاهِنْشاه بن أيوب[3] في قُبَّةٍ فيها أربعة قبور، هما الأوسطان منها.

وفي هذه الأخوين، ناصر الدين وفتح الدين، يقول العرقلة حَسَّان:

لله شِبْــلا أَسَــدٍ خــادِرٍ[4] ... مــا فيهمــا جُبْــنٌ ولا شُــحُّ
مــا أقبــلا إلا وقــال الــورى ... قــد «جَـاءَ نَصْـرُ اللَّـهِ وَالْفَتْـحُ»[5]

وفيها سار نور الدين أيضاً إلى حصن المُنَيْطرة[6]، وهو للفرنج، ولم يحشد له ولا جمع عساكره، إنما سار إليه على غِرَّة من الفرنج، وعلم أنه إن جمع العساكر حذروا وجمعوا، فانتهز الفُرْصَة، وسار إلى المُنَيْطرة وحصرها، وجَدَّ في قتالها، وأخذها عَنْوَةً وقهراً، وقتل من بها، وسبى،

---

(١) في هامش (م): آخر الجزء الأول، قلت: كأن تجزئة هذه النسخة توافق تجزئتنا للكتاب، انظر ص١٠ من مقدمة الجزء الأول.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) انظر ص ١٩٧ ــ ١٩٨ من الجزء الأول.

(٤) أسد خادر: مقيم في عرينه. «اللسان» (خدر).

(٥) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٢٠. و«خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٩٣ ــ ١٩٤.

(٦) قرب طرابلس. انظر «معجم البلدان»: ٥/٢١٧.

وغنم غنيمة [كثيرة][1] لأَمْن مَنْ به[2]، فأخذتهم خيلُ الله بغتةً وهم لا يشعرون، ولم يقدر الفرنج على أن يجتمعوا لِدَفْعه إلا وقد ملكه. ولو علموا أنه جريدة لأسرعوا، وإنما ظنُّوا أن نور الدين في جمع كثير، فلما ملكه تفرَّقوا وأيسوا منه.

هذا قول ابن الأثير[3]، وذكر[4] القاضي ابن شداد[4] أن ذلك كان في سنة اثنتين وستين كما سيأتي[5]، والله أعلم.

وفيها توفي الجليسُ بن الجَبَّاب[6] بمصر. قال العماد في «الخريدة»: القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الجَبَّاب الأغلبي السَّعْدي التَّميمي؛ جليس صاحب مصر، فضله مشهور، وشِعْرُه مأثور، وكان أوحد عصره في مِصْره نظماً ونثراً، ترسُّلاً وشعراً، ومات بها في سنة إحدى وستين، وقد أناف على السبعين. أنشدني له الأمير نجم الدين بن مَصَال[7] من قصيدةٍ [يقول فيها]:

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م) بها.
(٣) «الباهر»: ١٣١.
(٤) ما بينهما ساقط من (ل).
(٥) «النوادر السلطانية»: ٣٨، وانظر ص ١٦ من هذا الجزء.
(٦) في «خريدة القصر» الحباب ــ بالحاء المهملة ــ وفي (م) الجبار، والمثبت من الأصل و (ل)، وهو ضبط ابن خلكان أيضا. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢٢٣، و «فوات الوفيات»: ٢/ ٣٣٢، وانظر ص ٢١١ من هذا الجزء.
(٧) سيرد التعريف به ص ٣٨٦ من هذا الجزء، وقد توفي سنة (٥٧٤ هـ) انظر ج ٣/ ١٥ من هذا الكتاب، وعن أبيه انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٢٦، وص ٢٥٨ من الجزء الأول.

ومن عَجَبٍ أَنَّ السيوفَ لديهمُ تحيضُ دماءً والسُّيوفُ ذكورُ
وأَعْجَبُ مِنْ ذا أَنَّها في أَكُفِّهِمْ تأَجَّجُ ناراً والأَكُفُّ بُحورُ[1]

قال: وأنشدني له الشَّريف إدريس الإدريسي[2] قصيدةً سيَّرها إلى الصَّالح بن رُزِّيك[3] قَبْلَ وزارته، يحرِّضه على إدراك ثأر الظافر، وكان عباس وزيرهم قتَلَه وقتل أخويه يوسف وجبريل[4]، يقول فيها:

أصادِقُهُمْ قولاً وغيباً ومَشْهَداً نَحَوْهم على عمدٍ بفعل أعادي[5]
فأين بنو رُزِّيك عنها ونصرُهُمْ وما لهُمُ من مَنْعَةٍ وذِيادِ
تدارَكْ من الإيمان قَبْلَ دُثورِهِ حُشَاشَةَ نَفْسٍ آذنَتْ بنفادِ
فلو عايَنَتْ عيناكَ بالقَصْرِ يومهمْ ومَصْرَعَهُمْ لم تَكْتَحِلْ بِرُقادِ

---

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٨٩ ــ ١٩٠، وما بين حاصرتين منه.
(٢) هو أبو الحسن، إدريس بن الحسن بن علي بن عيسىٰ، الإدريسي، الحسني، الإسكندراني ــ وفي نسبه نزاع ــ ولد في مصر سنة (٥٤٥ هـ)، ودخل حلب مراراً، أولها سنة (٥٥٩ هـ)، ثم سكن بها إلى حين وفاته سنة (٦١٠ هـ)، وقيل سنة (٦١١ هـ)، وكان فاضلاً أديباً، شاعراً مجيداً، عالماً بأيام العرب، قيماً بالتاريخ والأخبار، راوية للدواوين والأشعار، له مصنفات في الأنساب والتواريخ لم تصلنا بعد، سمع من الحافظ ابن عساكر وابنه القاسم، ومن القاضي الفاضل، وروى عنه العماد الكاتب والقاضي ابن الخشاب، والشريف أبو المحاسن عبد الله بن محمد الهاشمي، وابن أبي طي. وقد طعن في نسبه الشريف النسابة محمد بن أسعد المعروف بابن الجواني في قصة طويلة ذكرها ابن العديم. انظر ترجمته في «بغية الطلب» ٣/ ١٣٢٤ ــ ١٣٣٣، وانظر ص ٩٦، ٩٩ من هذا الجزء.
(٣) سلفت ترجمته ص ٣٩٠ من الجزء الأول.
(٤) انظر عن مقتل الظافر ص ٣٠٩ وما بعدها من الجزء الأول.
(٥) هذا البيت ليس في «الخريدة».

فَمَـزِّقْ جمـوعَ المـارِقيـنَ فـإنَّهـا		بقـايـا زُرُوعٍ آذَنَـتْ بحصـادِ[1]

وله [فيه][2] من أخرى في هذه الحادثة:

ولمـا تَـرَامـى البَـرْبَـرِيُّ بجهلـه		إلـى فَتْكَـةٍ مـا رامَهـا قَـطُّ رائِـمُ
رَكِبْـتَ إليـه مَتْـنَ عَـزْمَتِـكَ التـي		بـأمثـالهـا تُلْقَـى الخطـوبُ العظـائـمُ
أَعَـدْتَ إليهـم مُلْكَهُـمْ بعـد مـا لـوى		بـه غـاصِـبٌ حَـقَّ الإمـامـة ظـالـمُ[3]

وأنفذ إليه في المعنى:

أَعَدْتَ إلـى جِسْمِ الوِزَارة رُوْحَهَا		وما كان يُرْجى بَعْثُها وَنُشورُها
١/١٤٢ أَقـامَـتْ زَمـانـاً عنـد غَيْـرك طـامثـاً		فهذا الأوان[4] قَرْؤُها وطُهورُها[5]
مـن العَـدْلِ أن يجتـابهـا[6] مُسْتَحِقُّهـا		ويخلَعَهـا مـردودةً مُسْتَعِيـرُهـا
إذا مَلَكَ الحسناءَ مَنْ لَيسَ كُفْأها[7]		أشـارَ عليـه بـالطَّـلاق مشيـرُهـا[8]

وله يشكو طبيباً:

وأَصْـلُ بَلِيَّتـي مَـنْ قـد غَـزَانـي		مـن السُّقْـمِ المُلِـحِّ بِعَسْكَـرَيْـنِ
طبيـبٌ طِبُّـهُ كغُـرابِ بَيْـنٍ		يُفَـرِّقُ بيـنَ عـافيتـي وبينـي

---

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٠.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٠ ـ ١٩١.
(٤) في هامش الأصل: خ الزمان؛ أي في نسخة أخرى، ومثله في «ديوان صردر»: ٦١.
(٥) في (م): فهذا أوانٌ قرَّ فيها طهورها.
(٦) أي يلبسها، وفي «خريدة القصر»: يحيا بها، وفي «ديوان صردر» من الحق أن يُحبى بها، وكلاهما تصحيف.
(٧) في (م) و «الخريدة» إذا خطب، وفي «الخريدة»: أهلها.
(٨) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٣.

أتى الحُمَّى وقد شاخت وباخَتْ فَرَدَّ لها الشبابَ بِنُسْخَتَيْنِ
ودَبَّرَها بتَدْبيرٍ لطيفٍ حكاه عن سِنانٍ[1] أو حُنينِ[2]
وكانتْ نوبةً في كلِّ يومٍ فَصَيَّرها بحِذْقٍ نَوْبَتَيْنِ[3]

قلت: الأبيات الرَّائية تمثل بها الجليسُ، وهي لِصُرَّدُرّ[4]، قرأتها في «ديوانه»، وهي من قصيدةٍ مدح بها وزير الخليفة ببغداد فخر الدولة أبا نصر محمد بن محمد بن جَهير[5]، ويهنئه بعوده إلى الوزارة، وأول القصيدة:

لجاجةُ قَلْبٍ ما يُفيق غُرورُها وحاجةُ نَفْسٍ ليس يُقضى يَسِيْرُها

وهي طويلة يقول فيها متغزلاً[6]:

وقَفْنا صُفُوفاً في الدِّيارِ كأنَّها صحائفُ ملقاةٌ ونحن سُطُورُها
يقولُ خليلي والظِّباء سوانحٌ أهذي التي تهوى؟ فقلتُ نَظِيْرُها
وقد قُلْتما لي ليس في الأرضِ جَنَّةٌ أما هذه فوقَ الرَّكائبِ حُورُها؟

---

(١) هو سنان بن ثابت بن قرة، طبيب مشهور، توفي سنة (٣٣١ هـ). انظر ترجمته في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: ٣٠٠ ــ ٣٠٤.

(٢) هو حنين بن إسحاق، طبيب مشهور، توفي سنة (٢٦٤ هـ). انظر ترجمته في «عيون الأنباء»: ٢٥٧ ــ ٢٧٤، و «وفيات الأعيان»: ٢/ ٢١٧ ــ ٢١٨، وفيه أنه توفي سنة (٢٦٠ هـ).

(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٩٢ ــ ١٩٣.

(٤) هو علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي، أحد نجباء شعراء عصره، جمع بين جودة السبك وحسن المعنى، وإنما قيل له صردر لأن أباه كان يلقب «صربعر» لشحه، فلما نبغ ولده المذكور وأجاد في شعره قيل له: صردر، توفي سنة (٤٦٥ هـ)، له ترجمة في «المنتظم»: ٨/ ٢٨٠ ــ ٢٨٢، و «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٨٥ ــ ٣٨٦، و «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤.

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٩٤ من الجزء الأول.

(٦) في (ل) في غزلها.

أراكَ الحِمى قُلْ لي بأيِّ وسيلةٍ   وَصَلْتَ إلى أَنْ صادَقَتْكَ ثُغُورُها!
وما لي بها عِلْمٌ فهل أنت عالِمٌ   أَأَفْواهُهُا أَوْلَى بها أم نُحورُها
على رِسْلِكُمْ في الهَجْر[1] إنَّا عصابةٌ   إذا ظَفِرَتْ في الحُبِّ عَفَّ ضَميرُها

ويقول في مديحها:

فقل للَّيالي كيفَ شِئْتِ تَقَلَّبي   ففي يد عَبْلِ السَّاعِدَيْنِ أمورُها
أمانيُّ في نَفْسِ الوِزَارَةِ بُلِّغتْ   به كُنْهَها حتى استحقَّتْ نذورُها
لوَتْ وَجْهَها عن كلِّ طالبِ مُتْعةٍ   إلى خاطبٍ حِلٍّ عليه سُفُورُها
إذا مَثَلَ الأقوام دون عَرينه   تساوى به ذو طَيْشِها ووقورُها
تكاد لِما قد أُلبِستْ مِنْ سكينةٍ   تَرِفُّ على تلك الرؤوس طيورُها[2]

ثم دخلت سنة اثنتين وستين [وخمس مئة][3]

ففيها عاد أسد الدين إلى مصر تاسع ربيع الآخر، وقد كان بعد رجوعه من مصر لا يزالُ يحدِّث نفسه بقصدها ومعاودتها، حريصاً على الدُّخول إليها، يتحدَّث به مع كل من يثق إليه. وكان مما يهيِّجه على العود زيادة حقده على شاوَر وما عمل معه. فلما كان هذه السنة تجهَّز وسار إليها، وسير نور الدين معه جماعة من الأمراء وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب.
وفي ذلك يقول العرقلة:

أقول والأتراكُ قد أَزْمَعَتْ   مِصْرَ إلى حَرْبِ الأعاريبِ

---

(١) في «الديوان»: الحب.
(٢) القصيدة بتمامها في «ديوان صردر»: ٥٦ ـ ٦٢، طبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م، وتعليق أبي شامة كله ساقط من (م).
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

رَبِّ كما ملَّكْتها يوسف الصِّـ ـدِّيقَ من أولادِ يعقوبِ
مَلِّكَها[1] في عَصْرِنا يوسفَ الصَّـ ـادِقَ من أولادِ أيوبِ
من لم يَزَلْ ضرَّابَ هامِ العِدَى حقًّا وضرَّابَ العَرَاقِيْبِ[2]

ثم إن أسد الدين جَدَّ في السير على البرّ، وترك بلاد الإفرنج عن يمينه، فوصل إلى الديار المصرية وقصد إطْفِيْح*، وعبر النِّيل عندها إلى الجانب الغربي، ونزل بالجيزة[3] مقابل مصر، وتصرَّف في البلاد الغربية، وأقام بها نَيِّفاً وخمسين يوماً.

وكان شاور لما بلغه مجيء أسد الدين قد راسل الفرنج يستغيث بهم ويستصرخهم، فأتوه على الصَّعْب والذَّلُول، فتارةً يحثهم طمعهم في ملك مصر على الجدِّ والتشمير، وتارةً يحدوهم خوفهم من أن يملكها العسكر النُّوري على الإسراع في المسير، فالرجاء يقودهم والخوف يسوقهم. فلما وصلوا إلى مصر عبروا إلى الجانب الغربي. وكان أسد الدين والعسكر النُّوري قد ساروا إلى الصَّعيد فبلغوا مكاناً يُعرفُ بالبابَيْن، وسارت العساكر
المصرية والفرنج وراءهم، فأدركوهم[4] به في الخامس والعشرين من ١٤٣/١
جُمادى الأولى. وكان قد أرسل إليهم جواسيس، فعادوا وأخبروه بكثرة عَدَدهم وعُددهم، وجدِّهم في طلبه، فعزم على لقائهم وقتالهم[5]، وأن تحكم السيوف بينه وبينهم. إلا أنه خاف من أصحابه أن تضعف نفوسهم عن

---

(١) في (م): يملكها وقد حُرِّك آخر فعل الأمر لضرورة الشعر.
(٢) «ديوان عرقلة الكلبي»: ١٢ ــ ١٣.
(٣) في الأصل: الجزيرة، والمثبت من (ل) و (م)، وانظر ص ١٨ من هذا الجزء.
(٤) في (م) فأدركهم، وفي «الباهر»: ١٣٢ فأدركوه.
(٥) في الأصل و(ل): قتالهم ولقائهم، والمثبت من (م) و «الباهر».

الثَّبات في هذا المقام الخطر[1] الذي عطبهم فيه أقرب من السَّلامة؛ لقلة عددهم وبُعْدهم عن بلادهم، فاستشارهم، فكلُّهم أشار عليه بعُبُور النِّيل إلى الجانب الشَّرْقي والعَوْد إلى الشَّام، وقالوا له: إن نحن انهزمنا ــ وهو الذي لا شك فيه ــ فإلى أين نلتجىء وبمن نحتمي، وكل من في هذه الديار من جندي وعامي وفلاح عدوٌّ لنا، ويَوَدُّون لو شربوا دماءنا؟! وحُقَّ[2] لعسكرٍ عدتهم ألفا فارس قد بَعُدُوا عن ديارِهم ونأىٰ[3] ناصرهم أن يرتاع من لقاء عشرات ألوف، مع أن كل أهل البلاد عدوٌّ لهم[4]. فلما قالوا ذلك قام إنسان من المماليك النُّورية يقال له شرف الدين بُزْغُش[5] ــ وكان من الشجاعة بالمكان المشهور[6] ــ وقال: من يخاف القتل والجراح والأَسْر فلا يخدم الملوك، بل يكون فلاحاً أو مع النساء في بيته، والله لئن عُدْتُم إلى الملك العادل من غير غَلَبَةٍ وبلاءٍ تُعذرون فيه ليأخذنَّ إقطاعاتكم وليعودَنَّ عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا، ويقول لكم: أتأخذون أموالَ المسلمين وتفرُّون عن عدوهم، وتسلِّمون مثل هذه الديار المصرية يتصرَّف فيها الكُفَّار؟! قال أسد الدين: هذا رأيي وبه أعمل. ووافقهما صلاحُ الدين يوسف بن أيوب، ثم كثر الموافقون لهم على القتال، فاجتمعت الكلمة على اللقاء، فأقام بمكانه حتى أدركه المصريون والفرنج وهو على تعبئة، وقد

(١) في (ل) و (م): الخطير.

(٢) في (م) ويحق.

(٣) في الأصل و(ل) وقلّ، والمثبت من (م) والباهر. .

(٤) في الأصل: عدوهم، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) استشهد بعد على الكرك سنة (٥٧٩ هـ) كما سيأتي ٣/ ١٩٦، وكان ممن أرسله نور الدين مع أسد الدين لفتح مصر سنة (٥٦٤ هـ)، انظر ص ٥٠ من هذا الجزء. وقد استأنسنا في ضبط اسمه بـ «تبصير المنتبه»: ٤/ ١٤٨٩.

(٦) في الأصل و(ل): وكان بالشجاعة من المكان المشهور، وفي (م) وكان بالشجاعة بالمكان المشهور. والمثبت من طبعة وادي النيل، و «الباهر»: ١٣٣.

جعل الأثقال في القلب يتكثَّر بها، ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكانٍ آخر فينهبها أهل البلاد.

ثم إنه جعل صلاح الدين ابن أخيه في القلب، وقال له ولمن معه: إن الفرنج والمصريين يظنون أنني في القلب فهم يجعلون[1] جَمْرتهم بإزائه وحملتهم عليه، فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم، واندفعوا بين أيديهم، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم. واختار من شجعان أصحابه جمعاً يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم، ووقف بهم في الميمنة. فلما تقابل الطائفتان فعل الفرنج ما ذكره أسد الدين، وحملوا على القلب ظناً منهم أنه فيه، فقاتلهم مَنْ به قتالاً يسيراً، ثم انهزموا بين أيديهم، فتبعوهم. فحمل حينئذٍ أسد الدين فيمن معه على من تخلَّف من الفرنج الذين حملوا على القلب ـ من المسلمين والفرنج ـ فهزمهم[2]، ووضعَ السَّيف فيهم فأثخن، وأكثر القتل والأسر، وانهزم الباقون. فلما عاد الفرنج من أثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بَلْقعاً ليس بها منهم ديَّار، فانهزموا أيضاً، وكان هذا من أعجب ما يؤرَّخ: أن ألفي فارس تهزم عساكر مصر وفرنج السَّاحل[3].

ثم سار أسد الدين إلى ثغر الإسكندرية، وجبى ما في طريقها من القرايا والسَّواد من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلَّمها من غير قتال؛ سلَّمها أهلها إليه، فاستناب بها صلاح الدِّين ابن أخيه، وعاد إلى الصَّعيد وتملَّكه، وجبى أمواله، وأقام به حتى صام رمضان.

---

(١) في الأصل: فيجعلون، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل و(ل): فحينئذٍ حمل أسد الدين فيمن معه على من تخلف عن الفرنج الذين حملوا على القلب من المسلمين فهزموهم. والمثبت من (م).

(٣) انظر «الباهر»: ١٣٢ ـ ١٣٣.

وأما المصريون والفرنج فإنهم عادوا إلى القاهرة وجمعوا أصحابهم، وأقاموا عوض من قُتل منهم، واستكثروا، وحشدوا، وساروا إلى الإسكندرية ـ وبها صلاح الدين ـ في عسكرٍ يمنعونها منهم، وقد أعانهم أهلها خوفاً من الفرنج، فاشتدَّ الحصار وقَلَّ الطعام بالبلد، فصبر أهله على ذلك.

ثم إن أسد الدين سار من الصعيد نحوهم، وكان شاور قد أفسد بعض من معه من التركمان، ووصله رسل المصريين والفرنج يطلبون الصُّلْح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر، ولا يتسلَّمون منها قرية واحدة، وأن الإسكندرية تعاد إلى المصريين. فأجابوا إلى ذلك واصطلحوا، وعاد إلى الشام، فوصل دمشق ثامن عشر ذي القعدة، وتسلم المصريون الإسكندرية في النصف من شوّال.

وأما الفرنج فإنهم استقرَّ بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شِحْنة*، وتكون أبوابها بيد فرسانهم ليمتنع الملك العادل من إنفاذ عسكرٍ إليهم، ويكون للفرنج من دَخْلِ مصر كل سنة مئة ألف دينار. هذا كله يجري بين الفرنج وشاور، وأما العاضد صاحب مصر فليس إليه من الأمر شيء، ولا يعلمُ بشيء من ذلك؛ قد حكم عليه شاور وحجَبَهُ. وعاد الفرنج إلى بلادهم، وتركوا جماعةً من فرسانهم ومشاهير أعيانهم بمصر والقاهرة على القاعدة المذكورة.

ثم إن الكامل شجاع بن شاور راسل نور الدين مع شهاب الدين محمود الحارمي ـ وهو من أكابر أمراء الملك العادل، وهو خال صلاح الدين يوسف ـ ينهي محبته وولاءه، ويسأله أن يأمر بإصلاح الحال وجَمْعِ

الكلمة بمصر على طاعته، ويجمع كلمة الإسلام، وبَذَل مالاً يحمله كل سنة. فأجابه إلى ذلك، وحملوا إلى نور الدين مالاً جزيلاً. فبقي الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها، فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار سنة أربعٍ وستين[١].

قال القاضي أبو المحاسن: ذِكْر عَوْدِ أسد الدين إلى مصر في المرة[٢] الثانية، وهي المعروفة بوقعة البابَيْن. لم يزل أسد الدين يتحدَّث بذلك بين ١/ ١٤٤
الناس حتى بلغ شاور ذلك، وداخله الخوف على البلاد من الأتراك، وعلم أن أسد الدين قد طمع في البلاد، وأنه لا بُدَّ له من قَصْدِها. فكاتب الفرنج، وقرَّر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد ويمكنونه فيها تمكيناً كلياً، ويعينونه على استئصال أعدائه، بحيث يستقر قدمه فيها. وبلغ ذلك نورَ الدين وأسد الدين، فاشتدَّ خوفهما على مصر أن يملكها الكُفَّار فيستولوا على البلاد كلها. فتجهَّز أسد الدين، وأنفذ نور الدين معه العسكر، وألزم صلاح الدين رحمه الله بالمسير معه على كراهيةٍ منه لذلك، وذلك في أثناء ربيع الأول. وكان وصولهم إلى البلاد المصرية مقارناً لوصول الفرنج إليها، واتفق شاور مع الفرنج على أسد الدين، والمصريون بأسرهم، وجرى بينهم حروبٌ كثيرة ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن الديار المصرية، وانفصل أسد الدين.

وكان سببُ عود الفرنج أن نور الدين، قَدَّس الله روحه، جَرَّد العساكر إلى بلاد الإفرنج وأخذ المُنَيْطِرة[٣]، وعلم الفرنج ذلك، فخافوا على بلادهم وعادوا. وكان سبب عود أسد الدين ضعفَ عسكره بسبب مواقعة الفرنج

---

(١) انظر «الباهر»: ١٣٣ ــ ١٣٤، وص ٤٦ وما بعدها من هذا الجزء.

(٢) في (م) الدفعة.

(٣) انظر ص ٥ من هذا الجزء.

والمصريين، وما عانوه من الشَّدائد وعاينوه من الأهوال. وما عاد حتى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلُّهم عن مصر، وعاد إلى الشام في بقية السَّنة، وقد انضمَّ إلى قوة الطمع في البلاد شِدَّةُ الخوف عليها من الفرنج، لعلمه بأنهم قد كشفوها كما كشفها، وعرفوها من الوجه الذي عرفها. فأقام بالشام على مضض وقلبه مقلقل، والقضاء يجرُّه إلى شيء قد قُدِّرَ لغيره وهو لا يشعر بذلك[1].

قال: وفى أثناء سنة اثنتين وستين ملك نور الدين قلعة المُنَيْطرة بعد مسير أسد الدين في رجب[2]، وخرَّب قلعة أكاف بالبرية.

وفي رمضان منها اجتمع نور الدين وأخوه قطب الدين وزين الدين بحماة للغَزَاة، وساروا إلى بلاد الفرنج، فخرَّبوا هُونِين* في شوال منها.

وفي ذي القعدة منها كان عود أسد الدين من مصر.

وفيه مات قرا أرسلان[3] بديار بكر[4].

فصــل

وفي شعبان من هذه السنة قَدِمَ دمشق عماد الدين الكاتب أبو حامد محمد بن محمد الأَصْفَهاني، مصنِّف كتابي الفَتْح والبرق[5]، فأنزله قاضي

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٧ ــ ٣٨.

(٢) انظر ص ٥ من هذا الجزء.

(٣) ولي حصن كيفا وديار بكر سنة (٥٣٩ هـ)، انظر «الكامل»: ١١/٣٢٩ ــ ٣٣٠، و «ومعجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٤.

(٤) «النوادر السلطانية»: ٣٨.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٦ و١ ص ٢٩، ٣٠ من الجزء الأول.

القضاة كمال الدين أبو الفَضْل محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوْرِي بالمدرسة النُّورية الشَّافعية عند حمام القُصَير[1] بباب الفرَج*، المنسوبة الآن إلى العماد[2]. وإنما نسبت إليه لأن نور الدين رحمه الله تعالى ولاه إياها[3] في رجب سنة سبع وستين بعد الشَّيخ الفقيه ابن عبد[4].

وكان العماد له معرفة بنجم الدين أيوب وأسد الدين شِيركُوه ابني شاذي من تكْريت*؛ بسبب أن عمَّه العزيز أحمد بن حامد[5] اعتقله السُّلْطان محمود بن محمد بن مَلِكْشاه بقلعة تكْرِيت، ونجم الدين أيوب إذ ذاك واليها، فانتسجت المودَّة بينهم من هناك. فلما سمع نجم الدين بوصوله، بكَّر إلى منزله لتبجيله، وكان شِيركُوه وصلاح الدين حينئذٍ بمصر، فمدح العمادُ نجمَ الدين أيوب بقصيدةٍ منها، أولها:

يومُ النَّوى ليس من عُمْري بمحسوبِ ... ولا الفِراقُ إلى عَيْشِي بمنسوبِ

(١) في (ل) القصر، وهو تصحيف. انظر «تاريخ ابن عساكر»: ٢/ ٧٦. وانظر ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩، ٤٣٩ من هذا الجزء.

(٢) المدرسة العمادية، انظرها في كشاف الأماكن.

(٣) في الأصل و (ل) ولاها إياه، والمثبت من (م).

(٤) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٢ ص ٧٣ من الجزء الأول.

(٥) ولد سنة (٤٧٢ هـ) بأصفهان، وكان رئيساً كبير القدر، ولي مناصب رفيعة في الدولة السلجوقية، وكان في آخر أمره متولي الخزانة للسلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، وسبب القبض عليه أن السلطان سنجر طالب السلطان محموداً بأنواع التحف والغرائب التي أخرجها مع جهاز ابنته، وذلك بعد وفاتها، فخاف السلطان محمود من أحمد بن حامد أن يشهد بما وصل في صحبتها ـ وكان مطلعاً عليه ـ فقبض عليه ببغداد، وسيره إلى تكريت، فحبس في قلعتها، ثم قتل سنة (٥٢٧ هـ)، وكان نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه قد دافعا عنه وتشفعا فيه، فلم يستجب لهما. انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ١٨٩، وانظر تفصيل الخبر في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٥٦ ـ ٥٧، و «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٤٢ ـ ١٤٣، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٥ ـ ١٥٦.

ما اخترتُ بُعْدَكَ لكنَّ الزَّمان أتى ... كَرْهاً بما ليسَ يا محبوبُ محبوبي
أرجو إيابي إليكم ظافراً[1] عَجِلاً ... فقد ظَفِرْتُ بنجمِ الدِّين أيوبِ
موفَّقُ الرأي ماضي العَزْمِ مُرْتَفِعٌ ... على الأعاجم مَجْداً والأعاريبِ
أحبَّك الله إذ لازَمْتَ نَجْدَتَه[2] ... على جبينٍ بتاجِ الملك مَعْصُوبِ[3]
أخوك وابنكَ صِدْقاً منهما اعتصما ... بالله والنَّصْرُ وَعْدٌ غيرُ مَكْذُوبِ
هما همامانِ في يَوْمَيْ وغًى وقِرًى ... تعوَّدا ضَرْبَ هامٍ أو عَرَاقيبِ
غداً يَشُبَّان في الكُفَّارِ نار وَغًى ... بِلَفْحِها يُصْبِحُ الشُّبَّان كالشِّيبِ
بمُلك مِصْرَ ونَصْرِ المؤمنين غداً ... تحظَى النُّفوسُ بتأنيس وتَطْييبِ
ويستقرُّ بمصرٍ يوسفٌ وبه ... تَقَرُّ بعد التَّنائي عَيْنُ يَعْقُوبِ[4]
ويلتقي يوسفٌ فيها بإخوتِهِ ... والله يجمَعُهُم مِنْ غَيْرِ تَثْرِيبِ[5]

وكان إنشاده هذه القصيدة في آخر شوَّال سنة اثنتين وستين، وتمَّ ملكهم مصر بعد سنيتن [قال][6]: فنظمتُ ما في الغيبِ تقديره.

قال: وكان أسد الدين قد جمع وسار إلى مصر في الرَّمْل في النِّصف من ربيع الأول، ووصل في سادس ربيع الآخر إلى إطْفِيح* وعبر منها إلى الجانب الغَرْبي، وأناخ بالجِيزة محاذاة مصر، فأقام عليها نيفاً وخمسين يوماً. واستعان شاور بالفرنج ورتَّبوا لهم سوقاً بالقاهرة، وعبروا بهم من البلاد

(١) في هامش الأصل: خ غانماً، وهي رواية (ل) و (م).
(٢) في (م) سجدته، وفي «معجم الأدباء» نصرته.
(٣) تحتها في الأصل: محجوب.
(٤) فوقها في (ل): أيوب.
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٥٥ ــ ٦٠، وانظر بعض أبيات القصيدة في «معجم الأدباء»: ١٩/ ١٣.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

الشَّرْقية[1] إلى الغرب، وعلم أسد الدين فسار أمامهم، فالتقوا بموضع يُعرف ١٤٥/١
بالبابَيْن، فكسرهم أسد الدين وأصحابه، وقتلوا من الفرنج وممن تبعهم من المصريين ألوفاً، وحصل منهم في الإسار سبعون فارساً من بارونيَّتهم. فلما تمت لهم هذه الكسرة رحلوا إلى الإسكندرية، فوجدوا مساعدة أهلها فدخلوها. ثم قال أسد الدين: أنا لا يمكنني أن أحصرَ نفسي. فأخذ العسكر وسار به إلى بلاد الصَّعيد فاستولى عليها، وجبى خَراجَها. وأقام صلاح الدين بالإسكندرية، فسار إليه شاوَر والفرنج، فحاصروه أربعة أشهر، وصَدَقَ أهلُ الإسكندرية القتال مع صلاح الدين، وقوي أسد الدين بِقُوص*، واستنهض لقصد القوم العموم والخصوص. فسمع الفرنجُ أنه جاء يقصدهم، فرحلوا عن الحصار. وكان شاور قد استمال جماعةً من التركمان الذين مع أسد الدين بالذَّهب، فلما راسلوه في المهادنة أجاب، وطلب منهم عِوَضَ ما غَرِمَهُ، فبذلوا له خمسين ألف دينار، فخرجوا من الإسكندرية في النِّصف من شوال، ووصلوا إلى دمشق ثامن عشر ذي القَعْدة، وعادوا إلى الخدمة النُّورية.

فاجتمع العمادُ بأسد الدين، وأنشده هذه القصيدة[2]:

بَلَغْتَ بالجدِّ مالا يبلُغُ البَشَرُ ... ونِلْتَ ما عَجَزَتْ عن نَيْلِهِ القُدَرُ
مَنْ يَهْتَدِي للذي أنتَ اهتديتَ له ... ومَنْ له مِثْلَ ما أَثَّرْتَهُ أَثَرُ
أَسِرتَ أم بِسُراكَ الأرضُ قد طُوِيَتْ ... فأنتَ إسكندرٌ في السَّيْرِ أم خَضِرُ
أَوْرَدْتَ خيلاً بأقصى النِّيلِ صادِرَةً ... عن الفُراتِ يقاضي وِرْدَها الصَّدَرُ
تناقَلَتْ ذِكْرَكَ الدُّنيا فليسَ لها ... إلا حديثُكَ ما بين الوَرَى سَمَرُ

---

(١) في (م) الغربية، وهو تحريف.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٢ ــ ٦٥، وفيه أربعة أبيات من القصيدة.

فأنتَ مَنْ زانَتِ الإسلامَ[1] سِيْرَتُهُ ... وزادَ فوقَ الذي جاءت به السِّيَرُ
لو في زمانِ رسولِ الله كنتَ أتَتْ ... في هذه السِّيْرَةِ المحمودةِ السُّوَرُ
أَصْبَحْتَ بالعَدْلِ والإقدام مُنْفَرِداً ... فقل لنا: أعليٌّ أنتَ أم عُمَرُ
إسكندرٌ ذكروا أخبارَ حِكْمَتِه ... ونحنُ فيكَ رأينا كُلَّ ما ذَكَرُوا
ورُسْتُمٌ خَبَّرُونا عن شجاعَتِه ... وصارَ فيكَ عِياناً ذلكَ الخَبَرُ
إفْخَرْ فإنَّ ملوكَ الأرضِ أذهلَهم ... ما قد فَعَلْتَ فكلٌّ فيك مُفْتكِرُ
سَهِرْتَ إذْ رَقَدُوا بل هِجْتَ إذ[2] سَكَنُوا ... وَصُلْتَ إذ جَبُنُوا بل طُلْتَ إذ قَصُروا
يَسْتَعْظِمونَ الذي أَدْرَكْتَهُ عَجباً ... وذاك في جَنْبِ ما نرجوه مُحْتَقَرُ
قضى القضاءُ بما نرجوه عن كَثَبٍ ... حَتْماً ووافقكَ التَّوفيقُ والقَدَرُ
شَكَتْ خيولُكَ إدمانَ السُّرى وشكت ... من فَلِّها البيضُ بل من حَطْمِها السُّمُرُ[3]
يَسَّرْتَ فَتْحَ بلادٍ كان أَيْسَرُها ... لغيرِ رأيِك قُفْلاً فَتْحُهُ عَسِرُ
قَرَنْتَ بالحَزْمِ منك العَزْمَ فاتَّسَقَتْ ... مآربٌ لك عنها أَسْفَرَ السَّفَرُ
وَمَنْ يكونُ بنورِ الدين مُهْتَدِياً ... في أَمْرِهِ كيفَ لا يقوى له المِرَرُ
يرى برأيك ما في المُلْكِ يُبْرِمُه ... فأنتَ منه بحيث السَّمْعُ والبَصَرُ
لقد بَغَتْ فئةُ الإفرنجِ فانْتَصَفَتْ ... منها بإقدامك الهِنْدِيَّةُ البُتُرُ
غَرَسْتَ في أرض مِصْرٍ من جُسُومِهِمُ ... أشجارَ خَطٍّ[4] لها من هامهم ثَمَرُ
وسالَ بحرُ نجيعٍ[5] في مقام وغًى ... به الحديدُ غَمَامٌ والدَّمُ المَطَرُ
أنهرتَ[6] منهم دماءً بالصَّعيد جَرَى ... منها إلى النِّيْلِ في واديهمُ نَهَرُ

---

(١) في طبعة وادي النيل ١/ ١٤٥: الأيام.
(٢) في الأصل: إن، والمثبت من (ل) و(م).
(٣) البيض: السيوف، والسمر: الرماح.
(٤) الخط: تنسب إليها الرماح الخطية، في نواحي البحرين وعُمان.
(٥) النجيع: الدم. «اللسان» (نجع).
(٦) أي أسلت. «اللسان» (نهر).

رأوا إليكَ عبورَ النِّيل إذ عَدِمُوا	نَصْراً فما عَبَرُوا حتى قد اعْتَبرُوا
تحتَ الصَّوارِمِ هامُ المشركين كما	تحتَ الصَّوالج يوماً خفَّتِ الأُكَرُ[1]
أَفْنَتْ سيوفُك من لاقَتْ فإنْ[2] تركت	قوماً فَهُمْ نَفَرٌ[3] من قبلها نَفَرُوا
لم يَنْجُ إلا الذي عافَتْهُ من خَبَثٍ	وَحْشُ الفلا وهو للمَحْذُورِ مُنْتَظِرُ
والسَّاكنونَ القصورَ القاهريةَ قد	نادَى القُصُورُ عليهم أنهم قُهِرُوا
وشاورٌ شاوروه في مكايِدِهِمْ	فكادَه الكيدُ لما خانَهُ الحَذَرُ
كانوا من الرُّعبِ موتى في جُلُودِهم	وحينَ أَمَّنْتَهُمْ من خَوْفِهِمْ نُشِرُوا ١٤٦/١
وإنَّ من شِيركُوه الشِّرْكَ مُنْخَزِلٌ	والكُفْرَ مُنْخَذِلٌ والدِّينَ مُنْتَصِرُ
عَوِّل على فئةٍ عند اللِّقاء وَفَتْ	وَعَدٍّ عن تركمانٍ قَبْلَه غَدَرُوا
وكيفَ يُخْذَلُ جيشٌ أنتَ مالِكُهُ	والقائدانِ له التأييدُ والظَّفَرُ
أجابَ فيك إلٰه الخلق دَعْوَةَ مَنْ	يطيبُ باللَّيْلِ من أنفاسِهِ السَّحَرُ

قال العماد: [و][4] اتصلت بيني وبين صلاح الدين ابن أخيه مودَّة، تمت لي بها على الزمان عُدَّة؛ ولم يزل يستهديني نظمي ونثري، ويشعرني أنه يميلُ إلى شِعْري. فأول ماخدمتُه به هذه الكلمة[5]:

كيفَ قُلْتُمْ بِمُقْلَتَيْهِ فُتُورُ	وأراها بلا فُتُورٍ تَجُورُ

ومنها:

---

(١) مفردها أكرة: الكرة، وهي لغة، «اللسان» (أكر) و «معجم متن اللغة»: ١/ ١٩٠، وانظر «الجوكان» في كشاف المصطلحات.

(٢) في (م) وإن.

(٣) في (م) نفروا، وهو تصحيف.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) انظر «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ٣٤ ـ ٤٠ . و«سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٥ ـ ٦٦، وأورد فيه خمسة أبيات من القصيدة.

مستجيـــزٌ جَـــوْري وإنِّـــيَ منـــه يـا ابـنَ أيـوبَ يـوسفٍ مستجيرُ
فَضْلُـــهُ فـــي يـــدِ الـــزَّمـــانِ سِـــوَارٌ مِثْلَمـــا رَايُـــهُ علـــى المُلْـــكِ سُـــورُ
كـــرمٌ ســـابـــغٌ وجُـــودٌ عميـــمٌ ونـــدًى ســـائِـــغٌ وفَضْـــلٌ غـــزيـــرُ
أنـــتَ مَـــنْ لـــم يَـــزَلْ يَحِـــنُّ إليـــه وهـــو فـــي المَهْـــدِ سَـــرْجُـــه والسَّـــريـــرُ
مـــن دَم الغـــادريـــنَ غـــادَرْتَ بـــالأمـــ ـــسِ صعيـــدَ الصَّعيـــدِ وهْـــو غـــديـــرُ
ولكـــلٍّ لمَّـــا(١) تطـــاولـــتَ فيهـــمْ أمـــلٌ قـــاصِـــرٌ وعُمْـــرٌ قَصيـــرُ
لاذَ بـــالنِّيـــلِ شـــاوَرٌ مِثْـــلَ فِـــرْعَـــوْ نَ فـــذلَّ الـــلاجـــي وعَـــزَّ العَبُـــورُ
شـــاركَ المشـــركيـــنَ بغيـــاً وقِـــدْمـــاً شـــارَكَتْهَـــا قُـــرَيظَـــةٌ والنَّضِيـــرُ
والـــذي يـــدَّعـــي الإمـــامـــةَ بـــالقـــا هِـــرةِ ارتـــاعَ إنَّـــهُ مَقْهُـــورُ
وغـــدا المَلْـــكُ خـــائفـــاً مـــن سُطـــاكـــم ذا ارتعـــادٍ كـــأنَّـــهُ مَقْـــرُورُ
وبنـــو الهنفـــري(٢) هـــانـــوا ففـــرُّوا ومِـــنَ الأُسْـــدِ كـــلُّ كَلْـــبٍ فَـــرُورُ
إنّمـــا كـــان للكـــلابِ عُـــواءٌ حيـــثُ مـــا كـــان لـــلأســـودِ زَئِيـــرُ
وفِليـــبٌ(٣) عنـــدَ الفِـــرارِ سليـــبٌ فَهْـــو بـــالـــرُّعْـــبِ مُطْلَـــقٌ مـــأسُـــورُ
لـــم يبقُـــوا ســـوى الأصـــاغـــرِ للسبـــ ـــيِ فـــودُّوا أن الكبيـــرَ صغيـــرُ
وَحَمَيْـــتَ الإسكنـــدريـــةَ عَنْهُـــمْ ورَحَـــى حَـــرْبِهِـــمْ عليهـــم تَـــدُورُ
حـــاصَـــرُوهـــا ومـــا الـــذي بـــانَ مـــن ذَبِّـ (م) ـــكَ عنهـــا وحِفْظُهـــا مَحْصُـــورُ
كحِصَـــارِ الأحـــزاب طَيْبَـــةَ قِـــدْمـــاً ونبـــيُّ الهُـــدَى بهـــا مَنْصُـــورُ
فـــاشكـــرِ اللَّـــهَ حيـــنَ أولاكَ نَصْـــراً فهْـــو نِعْـــمَ المَـــوْلـــى ونِعْـــمَ النَّصِيْـــرُ
ولكَـــمْ أَرْجَـــفَ الأعـــادي فَقُلْنـــا مـــا لِمـــا تَـــذْكُـــرونَـــهُ تَـــأْثِيـــرُ
وَرَقَبْنـــا كـــالعيـــدِ عَـــوْدَكَ فـــاليـــو مَ بـــه لـــلأنـــامِ عِيْـــدٌ كبيـــرُ

---

(١) في الأصل: ما، والمثبت من (ل)، و (م).
(٢) سيرد ذكره ص ١٥٠ من هذا الجزء.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٦ من هذا الجزء.

عـادَ مـن مِصْـرَ يـوسـفٌ وإلـى يعـ ـقـوبَ بـالتهنئـاتِ جـاءَ البَشِيْـرُ
فـلأيـوبَ[1] مـن إيـابِ صـلاحِ الـدِّ (م) يـن يـومٌ بـه تـوفَّـى النُّـذُورُ
ولكُـمْ عَـوْدَةٌ إلـى مِصْـرَ بـالنَّصْـ ـرِ علـى ذكـرهـا تمـرُّ العصـورُ
فـاسْتَـردُّوا حَـقَّ الإمـامـةِ ممـن خـانَ فيهـا فـإنَّـه مُسْتَعِيْـرُ
وافْتَرعهـا بِكْـراً لهـا [أَبَـدَ][2] الـدَّهْـ ـرِ رَوَاحٌ فـي مَـدْحِكُـمْ وبُكُـورُ
أنـا سَيَّـرْتُ طـالـعَ العَـزْم منـي وإلـى قَصْـدِكَ انتهـى التَّسْيِيـرُ
وأرى خـاطـري لِمَـدْحِـكَ إلْفـاً إنمـا يـألـفُ الخطيـرَ الخطيـرُ

وهي [و][3] التي قبلها طويلتان جداً. فانتظمت معرفةُ العماد بصلاح الدين، وكان له مساعداً عند نور الدين.

وقرأت في «ديوان العرقلة»: وقال يمدح أسد الدين شِيركُوه، وقد أخذ الشَّقيف، ورحل طالباً حِصْناً يقال له العُراق[4]:

رَحَلْـتَ مـن الشَّقِيـفِ إلـى العُـراق بعـزم كـالمهنَّـدَةِ الـرِّقـاقِ ١٤٧/١
ونَكَّسْـتَ الأعـادي منـه قَهْـراً ومَجْـدُكَ فـي ذُرَا الجَـوْزَاءِ راقِ[5]
بجـأشِـك لا بِجَيْشِـكَ نِلْـتَ هـذا وبـالتَّـوفيـقِ لا بـالاتِّفـاقِ
فـداؤكَ مَـنْ مَضَـى بـالحِصْنِ قبلـي إلـى دارِ الخُلُـودِ مـن الـرِّفـاقِ
ومـا نخشـى علـى الإسـلام بُـؤْسـاً إذا هَلَـكَ الجميـعُ وأنـتَ بـاقـي
أشـاوِرُ[6] كَـمْ تُشـاوِرُ كـلَّ خِـبٍّ وتَنْفُـقُ عِنْـدَ مِثْلِـكَ بـالنِّفَـاقِ

---

(١) في (م) فلا يؤوب، وهو تصحيف.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) الضبط من (ل).
(٥) في الأصل و (ل) باقي، والمثبت من (م).
(٦) في الأصل: شاور كم، والمثبت من (ل) و (م).

أَتَصْبِــرُ إن أتتــك بحــارُ خَيْــلٍ وقِـدْمـاً مـا صَبَـرْتَ على السَّـواقـي
متــى رَفَعَــتْ لــك السُّــودانُ رَأْســاً وقــد خــلاَّهُــمُ مِثْـلَ الــزِّقــاقِ
وَعَيْشِــكَ مــا لــه مــن مِصْــرَ بُــدٌّ ومِــنْ عنــدي ثــلاثــاً بــالطَّــلاقِ
هــو الأَسَــدُ الــذي مــا زال حتــى بنــى مَجْـداً علـى السَّبْـعِ الطِّبـاقِ (١)

فصل

قال ابن الأثير: وفي هذه السَّنة أرسل نور الدين إلى أخيه قطب الدين يطلبُ أن يعبُرَ الفُرَات إليه بعساكره، فتجهَّز وسار هو وزين الدين في العساكر الكثيرة، فاجتمعوا بنور الدين على حمص، فدخل بالعساكر الإسلامية بلادَ الفرنج، واجتاز على حِصْن الأكراد*، فأغاروا ونهبوا وأسروا، وقصدوا عِرْقَة*، ونزلوا عليها وحَصَرُوها، وحصروا جَبَلَة* وأخربوها. وتوجَّهَتْ عساكرُ المسلمين يميناً وشمالاً تغير وتخرب البلاد، وفتح العُرَيمة* وصافيثا*. وعاد إلى حمص، فصام بها شهر رمضان. ثم سار إلى بانياس* وقصد قلعة هُونِين*، وهي للفرنج أيضاً، من قلاعهم المنيعة، فانهزم الفرنجُ عنها وأحرقوها، فقصدَها نور الدين فوصلها من الغد، وخرَّب سورَها جميعَهُ، وأراد الدخول إلى بيروت فتجدَّد في العسكر خُلْفٌ أوجب التفرُّق، فعاد. وسار قطب الدين إلى المَوْصل وأقطعه مدينة الرَّقَّة، فأخذها في طريقه (٢).

قال: وفي هذه السنة عصى الأميرُ غازي بن حَسَّان المَنْبِجي صاحب مَنْبِج* على نور الدين، وهو كان أقطعَه إياها، فأرسل إليه نور الدين عسكراً

(١) الأبيات في «ديوان عرقلة الكلبي»: ٦٨ ــ ٦٩، وهي مستدركة فيه من كتابنا هذا.
(٢) انظر «الكامل»: ١١/ ٣٢٧ ــ ٣٢٨، ولم يورده ابن الأثير في «الباهر».

حَصَروه بها، وأخذها منه، وأقطعها أخاه قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وكان عاقلاً خَيِّراً، حَسَن السِّيرة، فبقي بها إلى أن أخذها منه صلاح الدين سنة اثنتين وسبعين كما سيأتي[1].

وفي هذه السنة توفي القاضي الرَّشيد أحمد بن علي بن الزُّبير صاحب كتاب «الجنان»[2].

قال العماد في «الخريدة»: كان ذا علم غزير وفضل كثير، قتله شاوَر صبراً في سنة اثنتين وستين[3]، ونُسب إليه أنه شارك أسد الدين شِيركُوه في قَصْده[4].

وأخوه المهذب أبو محمد[5] الحسن بن علي بن الزُّبير أشعر منه وتوفي قبله بسنة[6]، ولم يكن في زمانه أشعر منه أحدٌ، وله شِعْرٌ كثير، منه قصيدةٌ غَرَّاء في مدح الصالح بن رُزِّيك، وذكر فيها نور الدين، أولها:

---

(١) «الباهر»: ١٣٤ ــ ١٣٥، و «الكامل»: ١١/ ٣٢٩، وانظر ص ٤٠٥ من هذا الجزء، فقد نقل أبو شامة خبر أخذ صلاح الدين لها في حوادث سنة (٥٧١ هـ).

(٢) هو «جِنان الجَنَان ورياض الأذهان» ذيل به على «يتيمة الدهر»، وذكر فيه جماعة من مشاهير الشعراء، ولم يصلنا بعد، وكان في أربع مجلدات. انظر ترجمته في «معجم الأدباء»: ٤/ ٥١ ــ ٦٦، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٦٠ ــ ١٦٤، و «الطالع السعيد»: ٩٨ ــ ١٠٢.

(٣) في «السيل والذيل» للعماد أنه قتل سنة (٥٦٣ هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ١٦١.

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٠ ــ ٢٠١.

(٥) في النسخ الخطية: أبو علي، وهو تحريف، والمثبت من مصادر ترجمته: «الخريدة» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٤ ــ ٢٢٥، و«معجم الأدباء»: ٩/ ٤٧ ــ ٧٠، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٦١، و «فوات الوفيات»: ١/ ٣٣٣ ــ ٣٣٤، و «الطالع السعيد»: ١٩٤ ــ ٢٠٣. وانظر ص ٣٠٢ من هذا الجزء.

(٦) أي سنة (٥٦١ هـ).

أَعلمْتَ حينَ تَجَاوَر الحَيَّان ... أَنَّ القُلُوبَ مواقدُ النِّيرانِ
يا كاسِرَ(1) الأصنام قُمْ فانهضْ بنا ... حتى تصيرَ مُكَسِّرَ الصُّلْبانِ
فالشَّامُ مُلْكُكَ قد وَرِثْتَ بلادَه(2) ... عن قَوْمِكَ الماضينَ من غَسَّانِ
وإذا شَكَكْتَ بأنَّها أوطانُهُمْ ... قِدْماً فَسَلْ عن حارِثِ(3) الجَوْلانِ
أو رُمْتَ أن تتلو محاسنَ ذِكْرِهِمْ ... فاسْنُدْ روايتَها إلى حَسَّانِ(4)
ما زُلْزِلَتْ أرضُ العِدَى بل ذاك ما ... بقلوبِ أهليها من الخَفَقَانِ
وأقولُ إنَّ حُصُونَهُمْ سَجَدَتْ لما ... أُوتيتَ من مُلْكٍ ومن سُلْطانِ
ولقد بَعَثْتَ إلى الفرنجِ كتائباً ... كالأُسْدِ حين تصول في خَفّان(5)
لَبِسُوا الدُّروعَ ولم نَخَلْ مِنْ قبلهم ... أَنَّ البحارَ تَحُلُّ في غُدْرانِ
عَجَّلْتَ في تلِّ العَجُول قِرَاهُمُ ... ـ وهُمُ لك الضِّيفان ـ بالذِّيفان(6)
وَثَلَلْتَ في يومِ العريشِ عُروشَهُمْ ... بشَبَا ضِرابٍ صادقٍ وطِعَانِ
أَلْجَأْتَهُمْ للبَحْرِ لمَّا أنْ جَرَى ... مِنْهُ ومِنْ دَمِهِمْ معاً بَحْرَانِ
ولقد أتى الأُسطولُ حينَ غزا بما ... لم يأتِ في حينٍ من الأحيانِ
وأَعَدْتَ رُسْلَ ابنِ القسيمِ(7) إليه في ... شعبانَ كي يتلاءمَ الشَّعْبانِ
والفالُ يشهدُ في اسمه أنْ سوفَ يَغْـ ... ـدُو الشَّامُ وهو عليكما قِسْمَانِ /١٤٨
ورآك(8) من بعد الشَّهيدِ أباً له ... وجَعَلْتَهُ من أقربِ الإخوانِ

(١) في (م) يا داثر.
(٢) في «الخريدة»: تراثه.
(٣) في (ل) و (م) و «الخريدة»: حادث، وهو تصحيف. وحارث الجولان: قرية من قرى حوران. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٠٥.
(٤) هو حسان بن ثابت، الصحابي الجليل والشاعر المشهور.
(٥) خفان: مأسدة. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٣١٠.
(٦) الذيفان: السم الناقع. «اللسان» (ذيف).
(٧) هو نور الدين، وقسيم الدولة لقب أبيه وجده. انظر ص ٣١ من الجزء الأول.
(٨) في «خريدة القصر»: وأراك.

وهو الذي ما زالَ يفعلُ في العِدَى ... ما لم يكُنْ لِيُعَدَّ في الإمكانِ
قَتَلَ البرنسَ[1] ومَنْ عساه أعانه ... لمَّا عَسَا[2] في البَغْي والعُدْوانِ
وأرى البَريَّةَ حين عادَ برأسه ... مُرَّ الجَنَى يبدو على المُرَّانِ[3]
وتعجَّبوا من زُرْقَةٍ في طَرْفِه ... وكأنَّ فوقَ الرُّمْح نَصْلاً ثاني
عَجَباً لِجُودِ يَدَيْهِ إذْ يبني العُلا ... والسَّيْلُ يَهْدِمُ ثابتَ الأركانِ
قَلَّدْتَ أعناقَ البَريَّة كلَّها ... مِنَناً تحمَّل ثِقْلَها الثَّقَلانِ
حتى تَساوى النَّاسُ فيكَ وأصبحَ الـ ... ـقاصي بمنزلةِ القَرِيْبِ الدَّاني[4]

وفي هذه السنة ذكر القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري للسُّلْطان نور الدين رحمه الله تعالى حال العماد الكاتب وعَرَّفه به، وعرضَ عليه قصيدةً له في مدحه، مطلعها[5]:

لو حُفِظَتْ يومَ النَّوى عهودُها ... ما مُطلت بوَصْلِكُمْ وعودُها

ومنها:

وإنَّما يَحْمَدُ عَيْشي[6] بَلْدَةً[7] ... مالكُها بعَدْلِه محمودُها
مُؤَيَّدٌ أموره بعَزْمَةٍ ... من السَّموات العُلا تأييدُها
آثارُه حميدةٌ وإنما ... للمَرْءِ من آثاره حميدُها
إنَّ الورَى بحبِّه وبُغْضِه ... يُعْرَفُ من شَقِيِّها سعيدُها

(١) انظر ص ٢٠٤ وما بعدها من الجزء الأول.
(٢) عسا: بمعنى عتا، انظر «اللسان» (عسا).
(٣) المُرَّان: الرماح الصلبة اللَّدْنة. «اللسان» (مر).
(٤) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٠٩ ـ ٢١٢.
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٦ ـ ٦٧، وقد أورد فيه خمسة أبيات من القصيدة.
(٦) في الأصل: عيش، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).
(٧) في طبعة وادي النيل ١/ ١٤٨ «محمد يحمد عيش بلدة». قلت: ويعني بمحمدٍ نفسه.

قـد جـاءكـم نـورٌ مِـنَ الله فَمَـنْ ... بِـه اهتـدَى فـإنّـه رشيـدُهـا
جـلا ظـلامَ الظُّلْـمِ نـورُ الـديـن عـن ... أرض الشَّـآم[1] فلـه تحميـدُهـا
إنَّ الـرَّعـايـا منـه فـي رعـايـةٍ ... ونعمـةٍ مُسْتَـوجَـبٌ مـزيـدُهـا
لنـومِهـا يَسْهَـرُ بـل لأمنِهـا ... يخـاف بَـل لخِصْبها يجـودُهـا[2]
بـالـدِّيـنِ والملـك لـه قيـامُـه ... وللمـلـوك عنهمـا قُعُـودُهـا
وَدَأْبُـهُ ثَلْـمُ ثُغُـورِ الكُفْـرِ لا ... لَثْـمُ ثُغُـورِ نـاقـعٌ بـرودُهـا
قـد أَسْبَـغَ اللَّـهُ لنـا بِعَـدْلِـهِ ... ظِـلالَ أمـنٍ وارفٌ مَـدِيْـدُهـا
غـدا ملـوكُ الـرُّومِ فـي دَوْلَتِـهِ ... وَهُـمْ علـى رَغْمهـمُ عَبيـدُهـا
لمـا أَبَـتْ هـامـاتُهـم سجـودَهـا ... لله أضحـى للظُّبَـى سُجُـودُهـا
إنْ فـارَقَـتْ سيـوفُـهُ غُمـودَهـا ... فـإنَّ هـامـاتِهِـمُ غُمُـودُهـا
كـم مُغْلَقَـاتٍ مـن حُصُـونٍ عَـزْمُـه ... مِفْتـاحُهـا وسَيْفُـهُ إقليـدُهـا
قـد وَدَّتِ الفـرنـجُ لـو فـرَّتْ نَجَـتْ ... منـك ولكـنْ رَوْعُهـا مبيـدُهـا
قَهَـرْتَهـا حتـى لـودَّ حيُّهـا ... مـن ذِلَّـةٍ لـو أنَّـه فقيـدُهـا
أمـاتَهـا رُعْبُـكَ فـي حُصُـونِهـا ... كـأنَّمـا حُصُـونُهـا لُحُـودُهـا
وإنَّ مِصْـراً لـك تَعْنُـو بعـدَمـا ... لسيفِـكَ العَضْـبِ عَنَـا صَعِيْـدُهـا
والمِلَّـةُ الغَـرَّاءُ خـالٍ بـالُهـا ... عـالٍ سَنَـاهـا بـكَ حـالٍ جِيْـدُهـا
مُفْتَـرَّةٌ ثغـورُهـا ممنـوعـةٌ ... ثُغُـورُهـا محفـوظـةٌ حـدودُهـا
وإنْ بغـى جـالـوتُهـا ضـلالـةً ... فـأنـتَ فـي إهـلاكِـهِ داودُهـا
يـا ابـنَ قسيـمِ الـدولـة المَلْـك الـذي ... خـرَّتْ لـه مِـنَ المُلُـوكِ صِيْـدُهـا
دَعِ العِـدَى بغيظهـا فـإنَّمـا ... تـذيـبُ أكبـادَ العِـدَى حُقُـودُهـا
يـا دولـةً نـوريـةً أَمْـنُ الـورى ... وخِصْبُهـا وَجـودُهـا وُجـودُهـا

(١) تشبع كسرة الميم لاستقامة الوزن.

(٢) في الأصل: من بخصبها يجودها، والمثبت من (ل) و (م).

١٤٩/١ ما مَثَلُ الدُّنيا لمن يَجمعُها بالحِرْصِ إلا قَزَّةٌ ودُودُها
أنتَ الذي تَرْفُضُها عن قُدْرَةٍ فلا يشوبُ زُهْدَه زهيدُها
فابقَ لنا يا ملكاً بقاؤه في كلِّ عامٍ للرَّعايا عِيْدُها
في نعمةٍ جديدةٍ سُعُودُها[١] ودولةٍ سعيدةٍ جُدُودُها

وهي طويلة. فرتَّبه نور الدين في ديوانه منشئاً لاستقبال سنة ثلاث وستين[٢].

قال: ووجدتُ على الأيام منه الإعزاز والتمكين.

قلت: وذلك بعد أن استعفى أبو اليُسْر شا كر بن عبد الله[٣] من الخدمة في كتابة الإنشاء وقعد في بيته. كذا ذكر العماد في «الخريدة».

وقال: تولى ديوان الإنشاء بالشَّام سنين كثيرة، وله مقاصد حَسَنة في الكتب، وهو حميد السيرة، جميل السَّريرة[٤].

وفيها توفي الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السَّمْعاني المَرْوَزِي رحمه الله تعالى[٥].

---

(١) في (م) سعيدها.

(٢) من هنا حتى قوله ص ٣٠: وخمس مئة. ساقط من (م).

(٣) هو من بيت أبي العلاء المعري، الشاعر المشهور، ولد في شيزر سنة (٤٩٦ هـ)، وتولى كتابة الإنشاء لعماد الدين زنكي، ثم من بعده لابنه نور الدين، توفي بدمشق سنة (٥٨١ هـ). انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥ ــ ٣٧، و «معجم الأدباء»: ٣/ ١١٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٤٥، و «الوافي بالوفيات»: ١٦/ ٨٥ ــ ٨٧، و «فوات الوفيات»: ٢/ ٩٦، و «تعريف القدماء بأبي العلاء» (الإنصاف والتحري) لابن العديم: ٥٠٤ ــ ٥٠٥.

(٤) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٧.

(٥) صاحب كتاب «الأنساب»، وهو مطبوع مشهور متداول، ولد بمرو سنة (٥٠٦ هـ)، له مؤلفات كثيرة، وكان إماماً كبيراً في الحديث. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٤٥٦ ــ ٤٦٥.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين [وخمس مئة][1]

فذكر العماد أنَّ نور الدين رحل إلى حمص، ثم مضى إلى حَماة، ثم شتَّى بقلعة حلب ومعه الأسد والصَّلاح. ونزل العماد بمدرسة ابن العَجَمي[2]، وكتب إلى صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد عَثَرَ فرسه في المَيْدَان وهو يلعب بالكُرَة[3] مع نور الدين رحمه الله تعالى:

لا تُنْكِرَنَّ لسابحٍ عَثَرَتْ به ... قَدَمٌ وقد حَمَلَ الخِضَمَّ الزَّاخِرا
ألقى على السُّلْطان طِرْفُك[4] طَرْفَهُ ... فهوى هنالك للسَّلام مُبادِرا
سَبَقَ الرِّياحَ بجريه وكَفَفْتَهُ ... عنها فليسَ على خِلافِك قادِرا
ضَعُفَتْ قواه إذ تذكَّرَ أنه ... في السَّرْج منك يُقِلُّ ليثاً خادِرا
ومتى تُطيق الرِّيحُ طوداً شامخاً ... أو يستطيعُ البَرْقُ جَوْناً ماطِرا
فاعذرْ سقوطَ البَرْقِ عند مَسيره ... فالبَرْقُ يَسْقُطُ حينَ يَخْطَفُ سائرا
وأَقِلْ جوادَكَ عَثْرَةً نَدَرَتْ له ... إن الجوادَ لَمَن يُقيلُ العاثِرا[5]
وتوقَّ من عينِ الحسودِ وشَرِّها ... لا كان ناظِرُها بسوءٍ ناظِرا
واسلَمْ لنورِ الدين سُلْطانِ الورى ... في الحادثات مُعاضِداً ومؤازِرا
وإذا صلاحُ الدين دامَ لأهله ... لم يحذروا للدَّهْرِ صَرْفاً ضائراً

---

(١) ما بين حاصرتين من (م)، وعلى هامش الأصل: بلغ مقابلة بأصله.
(٢) هي المدرسة الزجاجية، انظرها في كشاف الأماكن. وانظر «البرق الشامي»: ١/ ٦٧ ــ ٦٨.
(٣) انظر الجوكان في كشاف المصطلحات.
(٤) الطِّرْف من الخيل: العتيق الكريم. «معجم متن اللغة» ٣/ ٦٠٠.
(٥) هذا البيت ساقط من (م).

وجرت بين العماد[1] وبين الإمام شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون مكاتبات، كتب إليه العماد:

أيا شَرَفَ الدِّين إن الشتا ... بكافاتِه[2] كفَّ آفاتِه
وكفُّك من كَرَم كافُها[3] ... لقد كُفِلَتْ لي بكافاتِه
وإنك مِنْ عُرْفِه[4] شكرُنا ... غدا عاجزاً عن مكافاته

قال: فكتب إليَّ شرف الدين في جوابها:

إذا ما الشتاءُ وأمطارُه ... عن الخيرِ حابسةٌ رادِعَهْ
فكافاتُهُ الستُّ أُعْطِيتَها ... وحوشيتَ من كافه[5] الرَّابعَهْ[6]
وكفُّ المهابة والإحتشام ... لكفِّيَ عن بِرِّه مانِعَهْ
وَهِمَّةُ كُلِّ كريم النِّجار ... بميسورِ أحبابه قانِعَهْ
ونفسيَ في بسط عُذْري إليه ... جُعِلْتُ الفِدَاءَ له طامِعَهْ
وشوقي إلى قُرْبِه زائدٌ ... ومَعْذرتي إن جفا واسِعَهْ[7]

---

(١) في الأصل: العماد الدين، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) إشارة إلى بيتي الشاعر أبي الحسن محمد بن عبد الله بن محمد، المعروف بابن سكرة الهاشمي البغدادي، وهو شاعر مشهور، معروف بمجونه، توفي سنة (٣٨٥ هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٤١٢ ــ ٤١٣. وانظر بعض أشعاره في «يتيمة الدهر»: ٣/ ٣ ــ ٢٥، وانظر المقامة الكرَجية «الخامسة والعشرين» للحريري، فقد بناها على هذين البيتين.

(٣) في (م) وكرمك من كف كافها.

(٤) العُرف: الجود «اللسان» (عرف).

(٥) في (م): كافها.

(٦) في الأصل و (ل): السابعة، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وهي رواية في هامش (ل).

(٧) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥٣ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

[قال][1]: فكتبتُ إليه في جوابها:

أيا من لـه هِمَّـةٌ فـي العُـلا ... لِـذُرْوتهـا أبـداً فـارِعَـهْ
ومَـنْ كَفُّـهُ[2] دِيمـةٌ مـا تـزا ... لُ بـالعُـرْفِ هـاميـةٌ هـامِعَـهْ
وللفَضْـل فـي سـوق أفضـالـه ... بضـائـعُ نـافِقَـةٌ نـافِعَـهْ
وهل كابنِ عَصْرونَ في عَصْرِنا ... إمـامٌ أدِلَّتُـهُ قـاطِعَـهْ
فَحَبْـرٌ[3] فـوائِـدُه جَمَّـةٌ ... وبحـرٌ مـوارِدُه واسِعَـهْ ١٥٠/١
أيـا شَـرَفَ الـدِّيـنِ شَـرَّفْتَنـي ... بـإهـداءِ رائقـةٍ رائِعَـهْ
أَطَعْـتُ أوامـرَكَ السَّـاميـات ... ومـا بَـرِحَـتْ هِمَّتـي طـائِعَـهْ[4]
أرى كـلَّ جـارحـةٍ لـي تـودُّ (م) ... لـو أنَّهـا أُذُنٌ سـامِعَـهْ[5]
وأمـا الشِّتـاءُ وكـافـاتُـهُ ... وكفُّـكَ عـن كـافـه الـرَّابِعَـهْ
فنفسـي مُنَـزَّهَـةٌ بـالعفـا ... فِ عنهـا وفـي غيـرِهـا طـامِعَـهْ
ومـاذا[6] تُطيـقُ إذا لـم تكـن ... بميسـورِ سيـدِنـا قـانِعَـهْ

وهي أكثر من هذا.

قال: وكان ابن حَسَّان[7] صاحب مَنْبِج* قد ساءت أفعاله، فبعث إليه[8] نور الدين مَنْ حاصره وانتزعها منه، ثم توجَّه نور الدين إليها لتهذيب

---

(١) ما بين حاصرتين من (م)

(٢) في (ل): يفتر.

(٣) في (م): بحبر.

(٤) في (م): سامعة، وكأنها سبق نظر في البيت التالي.

(٥) البيت ساقط من (م).

(٦) في (م): ومَنْ ذا.

(٧) هو الأمير غازي بن حسان، انظر ص ٢٤ من هذا الجزء.

(٨) في (م) إلى، وهو تصحيف.

أحوالها[1]، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها:

بُشْرَى الممالك فَتْحُ قَلْعَةِ مَنبج فلْيَهْنِ هذا النَّصْرُ كلَّ متوَّجِ
أُعطيتَ هذا الفَتْحَ مِفْتاحاً به في الملك يَفْتَحُ كلَّ بابٍ مُرْتَجِ
وافى يُبَشِّرُ بالفُتُوحِ وراءه فانهضْ إليها بالجيوش وعَرِّجِ
أبشِرْ فبيتُ القُدْسِ يتلو مَنبِجاً ولَمَنْبِجٌ لسواه كالأُنْموذَجِ
ما أعجزَتْكَ الشُّهْبُ في أبراجها طلباً فكيفَ خوارِجٌ في أَبْرُجِ
ولَقَدْرُ مَنْ يعصيك أحقر أن يَرَى أَثَرَ العُبُوس بوجهِكَ المُتبَلِّجِ
لكن تهذِّبُ[2] مَنْ عَصَاكَ سياسةً في ضِمْنِها تقويمُ كلِّ مُعَوَّجِ
فانْهَدْ إلى البيتِ المُقَدَّس غازياً[3] وعلى طَرَابُلُسٍ ونابُلُسٍ عُجِ
قد[4] سِرْتَ في الإِسلام أَحْسَنَ سِيْرَةٍ مأثورةٍ وسَلَكْتَ أَوْضَحَ مَنْهَجِ
وجميع ما استقريتَ من سُنَنِ الهُدَى جدَّدْتَ منه كلَّ رسمٍ مُنْهَجِ[5]

قال العماد: وسار نور الدين من مَنْبِجَ* إلى قلعة نجم[6]، وعَبَرَ الفُرَات إلى الرُّها*، وكان بها يَنَال صاحب مَنْبِج، وهو سديد الرأي رشيد المنهج، فنقله إليها مُقْطعاً وواليا[7]. وأقام نور الدين بقلعة الرُّها

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٦٩.
(٢) في الأصل: يهذب، والمثبت من (م)، وفي (ل) مهملة.
(٣) في الأصل: عازماً، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في الأصل: مذ. والمثبت من (ل) و(م).
(٥) المنهج: خلق، بال. «اللسان» (نهج).
(٦) قلعة حصينة مطلة على الفرات، بين منبج وحران، عندها جسر يعبر عليه، وهي المعروفة بجسر منبج، وكانت القوافل تعبر على هذا الجسر من حران إلى الشام، وبين القلعة ومنبج أربعة فراسخ. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٣٩١.
(٧) ثم أخذها منه السلطان صلاح الدين سنة (٥٧١ هـ) كما سيأتي، انظر ص ٤٠٥ من هذا الجزء.

مُدَّة، فمدحه العماد بقصيدة، وتحجَّب له صلاح الدين في عَرْضها[1]، وهي:

أَدْرَكْتَ من أمر الزَّمان المُشْتَهَى … وَبَلَغْتَ من نَيْلِ الأماني المُنْتَهَى
وبقِيْتَ[2] في كَنَفِ السَّلامة آمناً … متكرِّماً بالطَّبْعِ لا متكرِّها
لا زِلْتَ نورَ الدين في فَلَكِ الهُدَى … ذا غُرَّةٍ للعالمينَ بها البَهَا
يا محييَ العَدْلِ الذي في ظِلِّه … مِن عَدْله رَعَتِ الأسودُ مع المَهَا
محمودٌ المحمودُ مَنْ أيامُه … لبهائها ضَحِكَ الزَّمانُ وقَهْقَها
مَولى الورى مُولي النَّدَى مُعْلي الهُدَى … مُرْدي العِدَى مُسْدي الجَدَا مُعْطي اللُّها[3]
آراؤه بصوابِها مَقْرونةٌ … وبمقتضاها دائرٌ فَلَكُ النُّهَى[4]
متلبِّسٌ بحصافَةٍ وحَصَانةٍ … متقدِّسٌ عن شَوْبِ مكرٍ أو دَهَا
يا مَنْ أطاعَ اللَّهَ في خَلَواته … متأوِّباً مِنْ خَوْفِهِ مُتَأَوِّهَا
أبداً تقدِّمُ في المعاشِ لوجهه … عملاً يُبَيِّضُ في المَعَادِ الأَوْجُها
كلُّ الأمورِ وَهَى وأمرُكَ مُبْرَمٌ … مُسْتَحْكِمٌ لا نَقْضَ فيه ولا وها
ما صينَ عنك الصِّينُ لَوْ حاولتها … والمشرقانِ فكيفَ مَنْبِجُ والرُّها
ما للملوكِ لدى ظهوركِ رَوْنَقٌ … وإذا بدَتْ شَمْسُ الضُّحى خِفِيَ السُّها[5]
إنَّ الملوكَ لَهَوْا وإنك مَنْ غدا … وبماله والمُلْكِ منه ما لَهَا

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ٦٩، وقد أورد من القصيدة بيتين.

(٢) في (م): وبلغت.

(٣) الجدا واللُّها كلاهما بمعنى العطية، انظر «اللسان» (جدا، لها).

(٤) النُّهى: العقل. «اللسان» (نهي).

(٥) السها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، يمتحن الناس به أبصارهم. «اللسان» (سها)، وهذا البيت والذي قبله في «سنا البرق الشامي»: ٧٠.

شَرِهَتْ نفوسُهُمُ إلى دنياهمُ ... وأبى لِنَفسِك زُهْدُها أن تَشْرَها
ما نمتَ عن خَيْرٍ ولم يكُ نائماً ... مَنْ لا يزالُ على الجميل مُنبِّها
أَخْمَلْتَ ذِكْرَ الجاهلينَ ولم تَزَلْ ... مَلِكاً بذِكْرِ العالمين مُنَوَّها ١٥١/١
ورأيتَ إرعاءَ الرَّعايا واجباً ... تُغني فقيراً أو تجيرُ مُدَلَّها
لرضاهمُ متحفِّظاً ولحالهمْ ... مُتَفَقِّداً ولِدِينِهِمْ مُتَفَقِّها
وبما به أَمَرَ الإلَهُ أَمَرْتَهُمْ ... من طاعةٍ ونَهَيْتَهُمْ عَمَّا نَهى
عن رحمةٍ لصغيرهم لم تَشْتَغِلْ ... عن رَأْفَةٍ لكبيرهم لن تُشْدَها[١]
باليأس[٢] عندك آمِلٌ لم يُمتحن ... بالرَّدِّ دونَكَ سائلٌ لن يُجْبَها[٣]
أَتْعَبْتَ نَفْسَكَ كي تنالَ رفاهةً ... مَنْ ليسَ يتعبُ لا يعيش مرفَّها
فُقْتَ الملوكَ سماحةً وحماسةً ... حتى عَدِمْنا فيهمُ لكَ مُشْبِها
ولك الفَخارُ على الجميعِ فدونَهُمْ ... أصبحتَ عن كلِّ العيوبِ مُنَزَّها
وأراكَ تحلُمُ حينَ تُصْبِحُ ساخِطاً ... ويكادُ غيرُكَ ساخِطاً[٤] أن يَسْفَها

قلت: رحم الله العماد، فقد نظم أوصافَ نور الدين الجليلة بأحسن لفظٍ وأرقِّه، وهذا البيت الأخير مُؤكِّدٌ لما نقلناه في أول الكتاب من قول الحافظ أبي القاسم رحمه الله تعالى في وصف نور الدين رحمه الله تعالى، إنه لم تُسْمع[٥] منه كلمة فحشٍ في رضاه ولا في ضجره[٦]، وقلَّ من الملوك من له حظٌّ من هذه الأوصاف الفاضلة والنعوت الكاملة.

(١) أي لن تشغل. انظر «اللسان» (شده).
(٢) في الأصل: بالناس، وهو تصحيف، وفي (ل): مهملة، والمثبت من (م).
(٣) أي لن تردَّ حاجته، وتستقبله بما يكره. «اللسان» (جبه).
(٤) في هامش (ل): لعله راضياً، فتأمل. قلت: هو الأشبه بالصواب.
(٥) في الأصل و(ل): يستمع، والمثبت من (م).
(٦) في الأصل: في رضاه ولا في ضجره كلمة فحش، والمثبت من (ل) و (م)، وانظر ص ٣٣ من الجزء الأول.

قال العماد: ثم عاد نور الدين إلى حلب في شهر رجب، وضُرِبَتْ خيمتُه في رأس المَيْدان الأخضر*.

قال: وكان مولعاً بضرب الكُرة*، وربما دَخَلَ الظَّلامُ فلعب بها بالشُّموع في الليلة المُسْفرة، ويركب صلاح الدين مذكراً[1] كل بُكْرة، وهو عارفٌ بآدابها في الخدمة، وشروطها المعتَبرة. وأقطعه في تلك السنة ضيعتين إحداهما من ضياع حلب، والأُخرى من ضياع كفر طاب[2]*.

قال: وكتبتُ إليه في طلب كَنْبُوش[3]:

أَصْبَحَتْ بغلتي تشكّى[4] من العُرْ ... ي وأَسْـرَاجُهـا بـلا كَنْبُـوشِ

قلتُ: كُفِّي فَخَيْرُ يومَيْكِ[5] عندي ... أنْ تفـوزي بـالتِّبْـنِ أو بـالحشيـشِ

وافـرحـي ليلـة الشَّعيـرِ كمـا يَفْـ ... ـرَحُ قَـوْمٌ بليلـةِ المـاشـوشِ[6]

لـو تبصَّـرْتِ حـالتـي لَتَصَبَّـرْ ... تِ فـإيـاكِ عِنْـدَهـا أن تَطِيْشـي

---

(١) المُذَكَّر من الخيل: الشديد القوي.

(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٠.

(٣) الكنبوش: وهو ما يُستر به مؤخر ظهر الفرس وكَفَلُه، وهو تارة يكون من الذهب المزركش، وتارة يكون من الفضة الملبسة بالذهب، وبه يركب الملوك والأمراء، وتارة يكون من الصوف المرقوم، وبه يركب القضاة وأهل العلم. انظر «صبح الأعشى»: ٢/ ١٢٩، و «معجم متن اللغة»: ٥/ ١٠٧.

(٤) في الأصل: تشكو، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في الأصل: يومك، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) الماشوش، لفظة دخيلة عراقية، وليلة الماشوش، هي ليلة تختلط فيها النساء بالرجال، فلا يرد أحد يده عن شيء، ولا يرد أحد أحداً عن شيء. انظر «مجلة المشرق» الجزء الثالث من السنة السادسة والثلاثين سنة ١٩٣٨ من ص ٣٩٧ ــ ٤٠٠ و «الديارات» للشابشتي: ٦٠ ــ ٦١، و «مجلة لغة العرب»: السنة الثامنة: ٣٦٨ ــ ٣٧٣.

أَوَمـا مـات فـي الشِّتـاءِ مـن البَرْ ... دِ ومـن فَـرْطِ جُـوعـه إكـديشـي[1]
فثقـي واسْكُنـي بجـودِ صلاحِ الـدِّ (م) ... يـنِ غَـرْسِ الملـوكِ مَلْـكِ الجيـوشِ
فَهْـو يجلـوكِ للعيـونِ بِكَنْبُـو ... شٍ جـديـدٍ مُسْتَحْسَـنٍ مَنْقُـوشِ
كـم عـدوٍّ مـن بـأسـه فـي عِثـارٍ ... وولـيٍّ بجـودِه مَنْعُـوشِ
والمـوالـي علـى الأَسِـرَّةِ والأعـ ... ـداءُ تحـتَ الهـوانِ فَـوْقَ النُّعـوشِ

قال: وأقطع أسدَ الدين حمص وأعمالها، فسار إليها، فسدَّ ثغورها، وضبطَ أمورها، وحمى جُمهورَها. وكان نور الدين قد جَدَّد سُورها وحَصَّن دُورها، وبلي الفرنجُ منه بالمغاور المراوغ، ذي البأس الدامغ. وسأله نورالدين في السُّلُوِّ عن حُبِّ مصر، وقال: قد تعبتَ مرتين واجتهدت، ولم يحصل لك ما طلبت، وقد أذعنوا بالطاعة، وشفعوا السؤالَ بالشفاعة، وسمحوا بكل ما يدخل تحت الاستطاعة[2].

قلت: وأنشد العمادُ أسدَ الدين في رجب من هذه السنة:

دُمْـتَ فـي المُلْـكِ آمـراً ذا نفـاذِ ... أسـدَ الـديـن شِيـركُـوه بـنَ شـاذي
يـا كـريمـاً عـن كـلِّ شَـرٍّ بطيئـاً ... وإلـى الخيـرِ دائـمُ الإغـذاذِ
ومـلاذُ الإِسـلام أنـتَ[3] فـلا زلـ ... ـتَ لأهـلِ الإِسـلام خَيْـرَ مـلاذِ

---

(١) نوع من الخيل غير العراب، تجلب من بلاد الترك والروم، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشي، وهي البراذين، وكانت تعرف من ذلك الزمن بالأكاديش. انظر «صبح الأعشى»: ٢/ ١٧.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٠ ــ ٧١.
(٣) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٥١ «إن كهف الاسلام أنت».

في نُفُوسِ الكُفَّارِ[1] رُعْبُكَ قد حَلَّ (م) بصَـــدْعِ الأكبــادِ والأفــلاذِ
لــم تَــدَعْ بــالظُّبى رؤوسـاً وأصنـا مـاً مـن المشـركيـن غَيْـرَ جُـذَاذِ
أنـتَ مَـنْ نـازل الـدَّعِيَّيْـنَ فـي مِصْـ ـرَ لنصـر الإمـامِ فـي بَغْـذَاذِ
١٥٢/١ وبــلادُ الإِســلام أنقــذْتَهــا أنــ ـتَ مــن الشِّـرْكِ أيمـا إنقـاذِ

فصـــل

في وفاة زين الدِّين؛ والد مُظَفَّر الدين[2] صاحب إِرْبِل*

قال ابن الأثير وغيره: في سنة ثلاثٍ وستين سار زين الدين علي بنُ بُكْتِكِين[3]، نائب أتابك قطب الدين، عن المَوْصل إلى إِرْبِل، وسَلَّم جميع ما كان بيده من البلاد والقلاع إلى قُطْب الدين ما عدا إربل، فإنها كانت له من أتابك زَنْكي رحمه الله تعالى. فمن ذلك سِنْجار* وحرَّان* وقلعة عَقْر الحُمَيدية*، وقلاع الهكَّارية* جميعها. وكان نائبه بِتَكْريت* الأمير تبر، فأرسل إليه ليسلِّمها، فقال: إن المولى أتابك لا يقيم بتكريت، ولا بُدَّ له من نائبٍ فيها، وأنا أكون ذلك النائب، فليس له مثلي، فما أمكن محاققته لأجل مجاورة بغداد. وأما شَهْرُزُوْر* فكان بها الأمير بُوزان، فقال مثله أيضاً، فأُقِرَّت بيده، فكانا في طاعة قطب الدين.

---

(١) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٥١ «وبقلب الكفار».

(٢) والد مظفر الدين.. غير موجودة في (ل)، ومظفر الدين، أمير مشهور، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسيرد اسمه ص ٤٠ من هذا الجزء، توفي سنة (٦٣٠ هـ) وسيرد ذكره في «المذيل على الروضتين» في حوادثها.

(٣) الضبط من «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٢١.

وسببُ فراق زين الدين أنه أصابه عمى وصمم، وأقام بإربِل إلى أن توفي بها في ذي الحِجَّة من هذه السنة[1]، وكان قد استولى عليه الهَرَمُ وضَعُفَت قوته.

وكان خيِّراً عادلاً حسن السيرة، جواداً، محافظاً على حُسْن العهد وأداءِ الأمانة، قليلَ الغدر بل عديمه. وكان إذا وعد بشيء لا بُدَّ له من أن يفعله وإن كان فعله خطيراً. وكان حاله من أعجب الأحوال بينما يبدو منه ما يدلُّ على سلامة صدره وغفلته حتى يبدو منه ما يدُلُّ على إفراط الذكاء وغلبة الدهاء. بلغني أنه أتاه بعض أصحابه بذَنَبِ فَرَسٍ ذكر أنه نَفَقَ له، فأمر[2] له بفرس، فأخذ ذلك الذنب أيضاً غيرُه من الأجناد وأحضره وذكر أنه نفق[2] له دابة، فأمر له بفرس، وتداول ذلك الذنب اثنا عشر رجلاً كلهم يأخذ فرساً. فلما أحضره آخرهم قال لهم: أما تَستحيُون مني كما أستحيي منكم؟ قد أحضر هذا عندي اثنا عشر رجلاً[3] وأنا أتغافل لئلا يخجل أحدكم، أتظنون أنني لا أعرفه؟ بلى والله، وإنما أردتُ أن يصلكم عطائي بغير مَنٍّ ولا تكدير، فلم تتركوني!

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ في قَوْمِهِ   لكنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابي[4]

---

(١) في «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٤ أنه توفي ليلة الأحد حادي عشر ذي القعدة، والمثبت عندنا قول ابن شداد في «النوادر السلطانية»: ٣٩، ولم يعين ابن الأثير شهر وفاته لا في «كامله» ولا في «الباهر».

(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) في(ل) كلهم، وإخالها مقحمة على النص.

(٤) البيت لأبي تمام وهو في «ديوانه» بشرح الخطيب التبريزي: ١/ ٨٧، وانظر الخبر في «الباهر»: ١٣٥، و «الكامل» ١١/ ٣٣١ ـ ٣٣٢، و «النوادر السلطانية»: ٣٩، و «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٤.

قال: وكان يعطي كثيراً ويخلع عظيماً، وكان له البلاد الكثيرة، فلم يخلِّف شيئاً بل أنفذه جميعه[1] في العطايا والإنعام على النَّاس، وكان يلبس الغليظ، ويشدُّ على وسطه [كلّ][2] ما يحتاج إليه من سكّين ودِرَفش[3] ومطرقة ومسلَّة وخيوط ودسترك[4] وغير ذلك. وكان أشجعَ النَّاس، ميمون النقيبة، لم تنهزم له راية. وكان يقوم المقام الخطير فَيَسْلَمُ منه بحسن نيته، وكان تركياً أسمر اللَّون، خفيف العارضين، قصيراً جداً. وبنى مدارس وربُطاً* بالمَوْصِل وغيرها. وبلغني أنَّه مدحه الحَيْص بَيْص[5]، فلمَّا أراد الإنشاد قال له: أنا لا أدري ما تقول، لكنْ أعلم أنّك تريد شيئاً. وأمر له بخمس مئة دينار، وأعطاه فرساً وخِلَعاً وثياباً، يكون مجموع ذلك ألف دينار. قال: ومكارمه كثيرة[6].

ولما توفي بإرْبِل كان الحاكم بها خادِمَهُ مجاهد الدِّين قايماز[7]، وهو المتولِّي لأمورها[8]. وولي بعد زين الدين ولدُه مظفَّر كُوكُبُوري[9] مُدَّة، ثم

---

(١) في (م): جميعاً.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) سيخ مدبب من الحديد، في أسفله يد خشبية، يستعمل لثقب الجلد لإدخال الإبرة حين حياكة الأحذية، وهي كلمة فارسية. «قاموس الفارسية»: ٢٤٢.

(٤) دستر: كلمة فارسية تعني منشار و(ك) للتصغير. دسترك: منشار صغير. انظر «قاموس الفارسية»: ٢٥٠.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٢٨ من الجزء الأول.

(٦) «الباهر»: ١٣٥ ــ ١٣٦.

(٧) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٤ هـ)، وسيرد شيء من أخباره ص ٤٥٣ ــ ٤٥٤ من هذا الجزء.

(٨) ولي أمورها سنة (٥٥٩ هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٨٢.

(٩) في الأصل و (ل): كوكبري، والمثبت من(م)، والضبط من «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٢١، وقال: هو اسم تركي معناه بالعربي ذئب أزرق.

فارقها لِخُلْفٍ كان بينه وبين مجاهد الدين قايماز، وجَرَتْ أمورٌ يطول ذكرها[١].

ولما فارق زين الدين الموصل استناب أتابك قطب الدين بقلعة الموصل بعده مملوكه فخرَ الدين عبد المسيح، فسلك غير طريق زين الدين، فكرهه الناس وذمُّوه ولم تَطُلْ أيّامُه، وسيجيء ذكر عزله في أخبار سنة ستٍّ وستين إن شاء الله تعالى[٢].

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمس مئة

ففي أولها ملك نور الدين رحمه الله تعالى قلعة جَعْبر*، وأخذَها من صاحبها شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العُقَيلي من آل عُقَيْل من بني المسيَّب[٣]، وكانت بيده ويد آبائه من قبله من أيام السُّلطان مَلِكْشاه، وقد تقدَّم ذكر ذلك[٤]. وهي من أمنع الحصون وأحسنها، مطلَّة على الفرات لا يُطْمَعُ فيها بحصار؛ وقد أعجز جماعةً من الملوك أخذُها منه، وقُتِلَ عليها عماد الدين زَنْكي والد نور الدين.

[ثم][٥] اتَّفق أن[٦] خرج صاحبها منها يوماً يتصيَّدُ، فصاده بنو كلب، فأخذوه أسيراً وأوثقُوه، وحملوه إلى نور الدين، فتقَرَّبُوا به إليه، وذلك في

(١) انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ١١٤ ــ ١١٥.
(٢) انظر «الباهر»: ١٣٦، وانظر ص ١٦٧ وما بعدها من هذا الجزء.
(٣) انظر عن بني عقيل «معجم الأنساب» لزامباور: ٢٠٥ ــ ٢٠٦، وذكر بعض أخبارهم ابن خلكان في «وفياته»: ٥/ ٢٦٠ ــ ٢٦٩.
(٤) انظر ص ٩٦ من الجزء الأول.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) في الأصل: أنه، والمثبت من (ل) و (م).

رجب مِنْ سنة ثلاث وستِّين، فحبسه بحلب وأحسن إليه، ورغَّبه في الإقطاع والمال ليسلِّم إليه القلعة فلم يفعل، فعدل به نور الدين إلى الشِّدَّة والعنف وتهدَّده، فلم يفعل أيضاً، فسيَّر إليها عسكراً مقدَّمه الأمير فخر الدين مسعود بن أبي علي الزَّعْفَراني[1]، فحصرها مدة، فلم يظفر منها بشيء، فأمدَّهم بعسكر آخر، وجعل على الجميع الأمير مجد الدين أبا بكر المعروف بابن الدَّاية ـ وهو أكبر أمراء نور الدين ورضيعه ووالي معاقله ـ فأقام عليها وطاف حواليها فلم ير له في فتحها مجالاً، ورأى أخذها بالحصر متعذِّراً محالاً، فسلك مع صاحبها طريق اللِّين، وأشار عليه بأخذ العِوَض من نور الدين، ولم يزل يتوسَّط معه حتى أذعن على أن يُعطى سَرُوج* وأعمالها والملُّوحة[2] التي في عمل حلب، وباب بُزاعة[3] وعشرين ألف دينار معجَّلة، فأخذ جميع ما شرطه مكرهاً في صورة مختار. قال ابن الأثير: وهذا إقطاعٌ عظيم جداً لكنه لا حِصْنَ [له] فيه[4].

١٥٣/١ وتسلَّم مجد الدين قلعة جعبر، وصَعِدَ إليها منتصف المحرَّم، ووصل كتابه إلى نور الدين بحلب، فسار إليها، وصعد القلعة في العشرين من

(١) انظر حاشيتنا رقم (٣) ص ٣٥١ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل و (ل): الملاحة، وهي تحريف، والمثبت من (م)، وهي قرية كبيرة من قرى حلب. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ١٩٥، و «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٢، و «زبدة الحلب»: ٢/ ٦٨٩.

(٣) في الأصل و (ل): والباب وبزاعة، وهما بلدتان، الأولى تقع في طرف وادي بطنان من أعمال حلب، وتعرف بباب بزاعة، والثانية تقع في وادي بطنان بين منبج وحلب. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٣٠٣، ٤٠٩. و«بغية الطلب» ١/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ والمثبت من (م)، وهو يوافق ما ورد في «الباهر» و «الكامل» لابن الأثير. وفي «زبدة الحلب»: ٢/ ٦٨٩، و« بزاعا»، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٢.

(٤) «الباهر»: ١٣٧، و «الكامل»: ١١/ ٣٣٥، وما بين حاصرتين من (ل)، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧١ ـ ٧٣.

المحرم، ثم سلَّمها نور الدين إلى مجد الدين ابن الدَّاية، فولاها أخاه شمس الدين علياً. وكان هذا آخر أمر[1] بني مالك، ولكل أمر آخر[2]، ولكل ولاية نهاية، يُؤْتي الله المُلْكَ من يشاء، وينزِعُهُ ممن يشاء[3].

قال ابن الأثير: بلغني أنه قيل لشهاب الدين: أيُّما أحبُّ إليك وأحسن مقاماً، أَسَرُوج والشَّام أم القلعة؟ فقال: هذا أكثر مالاً، والعِزُّ بالقلعة فارقناه[4].

قال العماد: وأنشدتُ نور الدين بقلعة جَعْبر قصيدةً، أولها[5]:

إِسلَمْ لبكْرِ الفُتُوحِ مُفْتَرِعاً[6] | ودُمْ لمُلْكِ البلادِ مُنْتَزِعا
فإنَّ أَوْلى الورى بها مَلِكٌ | غدا بعبء الخُطُوبِ مُضْطَلِعا
إنْ ضاقَ أمرٌ فغيرُ هِمَّتِه | لِكَشْفِ ضيقِ الأمورِ لن يَسَعا
يا محيي العَدْلِ بعد مِيْتَتِه | ورافعَ الحقِّ بعدما اتضعا
ونورَ دينِ الهُدَى الذي قَمَعَ الشِّـ (م) | ـركَ، وعفَّى الضَّلال والبِدَعا
أنتَ سليمانُ في العَفَافِ وفي الْـ | ـمُلْكِ وتحكي بِزُهْدِكَ الْيَسَعا
حُزْتَ التُّقى والحياء والكرم الـ | ـمَحْضَ وحُسْنَ اليقينِ والوَرَعا
أَسْقَطْتَ أقساطَ ما وَجَدْتَ من الـ | ـمَكْسِ بعدلٍ والقاسِطُ[7] ارتدعا[8]

---

(١) في (ل): أمراء.
(٢) في (ل) و (م): أمد.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٣، و «الباهر»: ١٣٧.
(٤) «الباهر»: ١٣٧، و «الكامل»: ١١/ ٣٣٥.
(٥) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٣ أورد أربعة أبيات من القصيدة.
(٦) في الأصل و (م) مقترعاً، والمثبت من (ل).
(٧) القاسط: الجائر، الظالم، أما المقسط فهو العادل. انظر «اللسان» (قسط).
(٨) في (م): ارتعدا، وهو تحريف.

ولم[1] تَدَعْ في ابتغاء مصلحة الدّ(م) ... ين لنا باقياً ولَنْ تَدعا

وكلُّ ما في الملوك مُفْتَرقٌ ... من المعالي[2] لمُلكك اجْتَمعا[3]

همَّتُكَ الرُّبْط* والمدارس تبْـ ... ـنيها ثواباً وتَهْدِمُ البِيَعا

ما زلت ذا فِطْنَةٍ مُؤَيَّدة ... على غُيُوبِ الأسرار مُطَّلِعا

ببأسك البِيض[4] والطُّلى[5] اصْطَحَبَتْ ... بِعَذْلك الذئبُ والطَّلا[6] رتعَا

كم صائدٍ لم يقع[7] له قَنَصٌ ... في شَرَكٍ وهْو فيه قد وقعَا

ومالكٌ حين رُمْتَ قَلْعَتَهُ ... غدا مطيعاً للأمر مُتَّبِعا

عنَا خُشُوعاً لربِّ مملكةٍ ... لغير ربِّ السَّماءِ ما خَشَعَا

كان مقيماً منها على الفَلَكِ الْـ ... أعلى شِهاباً بنوره سَطَعَا

لكنَّما الشُّهْبُ ما تنيرُ إذا ... لاحَ عمودُ الصَّباح فانْصَدَعا

يَدْفَعُها[8] طائعاً إليك وكم ... عنها إباءً بجَهْدِه دَفَعَا

هي التي في عُلُوِّها زُحَلٌ[9] ... كرَّ على وِرْدها وما كَرَعَا

وهْي التي قاربت عُطَارِدَ في الْـ ... أُفْقِ فَلاحاً والفَرْقَدَيْنِ معا

كأنَّ منها السُّها[10] إذا استرق السَّـ (م) ... ـمعَ أتاها في خُفْيَةٍ ودعا

---

(١) في (م): ولن.

(٢) في (م): المعاني.

(٣) هذا البيت والذي يليه وردا في (م) بعد البيت السابع «حزت التقى..».

(٤) البيض: السيوف، مفردها: أبيض. انظر «اللسان» (بيض).

(٥) الطلى: الأعناق، مفردها: الطلاة. «اللسان» (طلي).

(٦) الطلا: ولد الظبية. انظر «اللسان» (طلي).

(٧) في (ل): يقطع، وهو تحريف.

(٨) في (م): يرافعها.

(٩) في الأصل: رجل، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).

(١٠) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٤ من هذا الجزء.

هضبــةُ عــزٍّ لــولاك مــا ارتُقيــت ... وطَــوْدُ مُلْــكٍ لــولاك مــا فُــرِعــا

مــا قَبِلَــتْ فــي ارتقــاء ذُروتهــا ... مــن مَلِــكٍ لا رُقــىً ولا خُــدَعَــا

عَـزَّتْ على المالـك الشَّهيدِ وأعْـ ... ـطتــك قِيــاداً مــا زال مُمْتنعــا

لــلأبِ لــو حَــلَّ خَطْبُهــا لغدا ... محــرَّمــاً لابنــه ومــا شُــرِعَــا

لا زلـت محمـودُ فـي أمـورك محـ ... ـمـوداً بثـوب الإقبـال مُـدَّرِعـا

وفي سابع عشر صفر من هذه السنة توفي بهاء الدين عمر أخو مجد الدين ابن الدَّاية، وفيه وفي إخوته يقول العماد الكاتب من قصيدة:

أنتــمْ لمحمــودٍ كــآلِ محمــدٍ ... متصـادفي[١] الأفعـال والأسمـاءِ

يتلــو أبــا بكــر عَلَــى حسنــاتــه ... عمــرُ الممــدَّحُ فــي سنــاً وسنــاءِ

ويليــه عثمــانُ المــرجَّــى للعُــلا ... وعلــيٌّ المــأمــولُ فــي الــلأواءِ

ويقبِّـلُ الحسـنَ الممجَّـدَ مجـدُهُـم ... فهــمُ ذُوو الإِحســانِ والنَّعْمــاءِ ١٥٤/١

فَرَعَتْ بمجد[٢] الدين إخوتُهُ الذُّرى ... دونَ الــورى فــي المجــدِ والعليــاءِ

مـن سـابـق كـرمـاً وشمـس سيـادةٍ[٣] ... شــرفــاً وبــدر دُجُنَّــةٍ وبهــاءِ

سُـرُجُ الهـدى سُحُـب النَّـدى شُهُـب النُّهـى ... أسْـدُ الحـروبِ ضـراغِـمُ الهيجـاءِ

يريد[٤] سابق الدين عثمان، وشمس الدين عليّاً، وبدر الدين حسناً، وبهاء الدين عمر، ومجد الدين الأكبر، فهم خمسة، رحمهم الله تعالى[٤].

---

(١) في (ل) و (م): متصادقي، وهو تصحيف، وصادفه: قابله، وافقه. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٤٣٣.

(٢) في الأصل و (ل): لمجد الدين، والمثبت من (م).

(٣) في (ل): سادة، وهو تصحيف.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

فصــل

وفي هذه السنة فُتحت[١] الديار المصرية؛ سار إليها أسد الدين مرة ثالثة[٢]، فهزم العدوَّ، وقتل شاوراً، وولِيَ الوزارة مكانه، ثم مات، فوليها صلاح الدين.

وسبب ذلك أن الفرنج كانوا في النوبتين الأُوَلَيَيْن اللتين استعان بهم شاور فيهما على أسد الدين شِيركُوه قد خَبَروا الدِّيار المصرية، واطَّلعوا على عوراتها، فطمعوا فيها، ونقضوا ما كان استقرَّ بينهم وبين المصريين وأسد الدين من القواعد. فجمعوا وحشدوا، وقالوا: ما بمصر من يصدُّنا، وإذا أردناها فمن يردُّنا؟! ثم قالوا: نور الدين في البلاد الشمالية والجهة الفُراتية، وعسكر الشام متفرِّق كل منهم في بلده، حافظ لما في يده، ونحن ننهض إلى مصر، ولا نطيل بها الحصر، فإنه ليس لها مَعْقِل، ولا لأهلها [منَّا][٣] موئل، وإلى أن تجتمع عساكر الشَّام، [نكون][٤] قد حصلنا على المَرَام، وقوينا بتملك الدِّيار المِصْرية على سائر بلاد الإِسلام. فتوجهوا إليها سائرين، ونحوها ثائرين، وأظهروا أنهم على قصد حمص، وشايعهم على قصد مصر جماعةٌ من أهلها كابن الخياط وابن قَرْجَلَّة[٥]، وغيرهما من أعداء شاور[٦].

---

(١) في (م): لما فتحت.

(٢) في الأصل: ثالث مرة، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ١٥٤.

(٥) سيرد ذكرهما ص ١٠٣ من هذا الجزء، وقد أقام ابن قرجلة بعد عند الفرنج. انظر ص ٢٨٩ من هذا الجزء، وقد أورد أخبارهما عمارة اليمني في كتابه «النكت العصرية». انظر مثلاً ص ٣٥، ٦٩، ٧٨، ٣١٩، ٣٤٨.

(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ٧٣ ــ ٧٤.

وكان الفرنج قد جعلوا لهم شِحْنة* بمصر والقاهرة، وسكن فرسانهم أبواب البلدين، والمفاتيح معهم، على ما سبق ذكره[1]، وتحكموا تحكماً كثيراً، فطمعوا في البلاد، وأرسلوا إلى ملكهم مُرِّي* ــ ولم يكن مَلَكَ الفرنج مُذْ خرجوا إلى الشَّام مثله شجاعة ومكراً ودهاءً ــ يستدعونه ليملك البلاد، وأعلموه خلوها من ممانعٍ عنها، وسهَّلوا أمرها عليه، فلم يجبهم إلى المسير. واجتمع فرسان الفرنج وذوُو الرأي والتقدم، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها، فقال لهم: الرأي عندي ألاَّ نقصدها فإنها طُعْمة لنا، وأموالها تُساقُ إلينا، نتقوَّى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإنَّ صاحبها وعساكره، وعامة أهل بلاده وفلاحيه، لا يسلمونها إلينا ويقاتلوننا دونها، ويحملهم الخوفُ منا على تسليمها إلى نور الدين، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشَّام. فلم يصغوا إلى قوله وقالوا: إن مصر لا حافظ لها ولا مانع، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهِّزَ العساكر ويسيِّرَهم إلينا نكون نحن قد ملكناها وفرغنا من أمرها، وحينئذٍ يتمنى نور الدين منا السَّلامة فلا يقدر عليها. وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها، فأجابهم إلى ذلك على كرهٍ شديد، وتجهَّزوا، وأظهروا أنهم على قصد الشام، وخاصة مدينة حمص، وتوجهوا[2] من عَسْقلان في النصف من المحرَّم، ووصلوا أول يوم من صَفَر إلى بِلْبيس* ونازلوها، وحَصَروها فملكوها قهراً ونهبوها، وسبَوْا أهلها، وأقاموا بها خمسة أيام، ثم أناخوا على القاهرة وحَصَرُوها عاشر صفر[2]، فخاف الناس منهم أن يفعلوا بهم مثل فعلهم بأهل بِلْبيس، فحملهم

(١) انظر ص ١٤ من هذا الجزء.

(٢ ــ ٢) ما بينهما اقتباس من البرق الشامي، انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٤.

[منهم][1]] على الامتناع، فحفظوا البلد وقاتلوا دونه، وبذلوا جُهدهم [في حف]ظه. ولو أنَّ الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بِلْبيس لملكوا مصر والقاهرة سُرعةً، ولكن الله تعالى حَسَّن لهم ذلك ﴿ليقضيَ اللَّهُ أمراً كان مَفْعُولاً﴾[2]. وكان شاور أمر بإحراق مدينة مصر تاسع صفر، قبل نزول الفرنج عليهم بيوم واحد، خوفاً [عليها][3] من الفرنج، فبقيت النار فيها تحرقها أربعة وخمسين يوماً إلى خامس ربيع الآخر.

ثم ضاق الحصار وخيف البَوَار، وعرف شاور أنه يضعف عن الحماية، فشرع في تمحُّل الحيل، وأرسل إلى ملك الإفرنج يذكر له مودَّته ومحبَّته القديمة، وأنَّ هواه معه، وتخوُّفَه من نور الدين والعاضد، وإنما المسلمون لا يوافقونه على التسليم إليه، ويشير [عليه][4] بالصُّلْح وأخْذِ مالٍ لئلا تسلَّم البلاد إلى نور الدين. فأجابه إلى الصلح على أخذ ألف دينار مصرية، يعجل البعض ويؤخر البعض، واستقرَّت القاعدة على ذلك. ورأى الفرنج أن البلاد امتنعت عليهم، وربما سُلِّمت إلى نور الدين، فأجابوا كارهين، وقالوا: نأخذ المال نتقوَّى به، ونكثر من الرجال، ثم نعود إلى البلاد بقوة لا نبالي معها بنور الدين ولا غيره. ﴿ومَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[5]. فعجَّل لهم شاور مئة ألف دينار، وسألهم الرَّحيل عن البلد ليجمع لهم المال، فرحلوا قريباً.

وكان خليفة مصر العاضد عقيب حريق مصر أرسل إلى نور الدين

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) ما بين حاصرتين من (ل).
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٥٤.

يستغيث به ويعرِّفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك لِتُنْقِذَهُنَّ من الفرنج. فقام نور الدين لذلك وقعد، وشرع في تجهيز العساكر إلى مصر. ١/١٥٥
ولما صالح شاوَر الفرنجَ على ذلك المال عاود العاضدُ مراسلةَ نور الدين وإعلامَهُ بما لقي المسلمون من الفرنج، وبذل له ثلث بلاد مصر، وأن يكون أسد الدين شِيركُوه مقيماً عنده في عسكر، وإقطاعهم عليه خارجاً عن الثلث [الذي][1] لنور الدين. هذا قول ابنِ الأثير[2].

وقال العماد: عجَّل شاور لملك الفرنج بمئة ألف دينار حيلة وخِداعاً، وإرغاباً[3] له وإطماعاً، وواصل بكتبه إلى نور الدين مستصرخاً مستنفراً، وبما ناب الإسلام[4] من الكُفْرِ مخبراً، ويقول: إن لم تبادر ذهبت البلاد. وسيَّر الكتب مسوَّدة بِمِدادها، كاسية لباس حِدَادها، وفي طيها ذوائب مجزوزة، [وعصائب محزوزة][5]، ظُنَّ أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عَرَاهم من بليَّة الحصر، وأرسلها تباعاً، وأردف بها نجَّابين سِرَاعاً، وأقام منتظراً، ودام متحيِّراً، وعامل الفرنج بالمِطال، يَنْقُدُهم [في][6] كلِّ حين مالاً، ويطلب منهم إمهالاً، وما زال يعطيهم ويَسْتَمْهِلهُم، حتى أتى الغوث بعساكر نور الدين رحمه الله تعالى[7].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «الباهر»: ١٣٧ ــ ١٣٩، و «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٤.
(٣) في الأصل و (م): إرغاماً، والمثبت من (ل).
(٤) في الأصل: المسلمين، ثم كتب فوقها الإسلام، وهي الأصح، والمثبتة في (ل) و (م).
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٤ ـ ٧٥.

فصــل

فيما فعله نور الدين

كان نور الدين لما أتاه الرسل أولاً من العاضد قد أرسل إلى أسد الدين يستدعيه من حمص ــ وهي إقطاعه ــ فلما خرج القاصد* من حلب لقي أسد الدين قد وصلها، وكان سبب وصوله أن كُتُبَ المِصْريين أيضاً وصلته في هذا الأمر، فبقي مسلوب القرار، مغلوب الاصطبار، لأنه كان قد طمع في بلاد مصر، فخاف خروجها من يده، وأن يستولي عليها الكُفْر. فساق في ليلة واحدة من حمص إلى حلب، واجتمع بنور الدين ساعةَ وصوله، فتعجَّب نور الدين من ذلك وتفاءل به وسرَّه، وأمره بالتجهز إلى مصر والسرعة في ذلك، وأعطاه مئتي ألف دينار سوى الثياب والدواب والآلات والأسلحة، وحكَّمه في العساكر والخزائن، فاختار من العسكر ألفي فارس، وأخذ المال، وجمع من التركمان ستة آلاف فارس. وكان في مُدَّة حشده للتركمان[1]، سار نور الدين لتسلُّم قلعة جَعْبر*، ثم سار هو ونور الدين إلى دمشق، ورحلا في جميع العساكر إلى رأس الماء*، وأعطى نور الدين كلَّ فارسٍ من العسكر الذين مع أسد الدين عشرين ديناراً معونةً لهم على الطريق غير محسوبة من القرار الذي له، وأضاف إلى أسد الدين جماعةً من الأمراء والمماليك، منهم مملوكه عز الدين جُرْدِيك[2]، وغرس الدين[3] قليج، وشرف الدين بُزْغُش[4]،

---

(١) في الأصل: حشد التركمان، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته في ٤/ ٤٤٢ من هذا الكتاب، و «مذيله». في وفيات سنة (٥٩٤ هـ). وانظر ص ٣٤٧ ــ ٣٤٨ من هذا الجزء.

(٣) في «الباهر» و «الكامل»: عز الدين، وهو تحريف.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٢ من هذا الجزء.

وناصح الدين خمارتكين، وعين الدولة [بن] الياروقي[١]، وقطب الدين يَنَال بن حَسَّان المَنْبِجي[٢]، وغيرهم. ورحلوا على قَصْدِ مِصْر، مستنزلين من الله تعالى النَّصْر، وذلك منتصف ربيع الأول[٣].

وخيَّم نور الدين فيمن أقام معه برأس الماء، وأقام ينتظر ورود المبشِّرات، فوصل المُبَشِّر برحيل الفرنج عن القاهرة عائدين إلى بلادهم لما سمعوا بوصول عسكر نور الدين، وسبَّ الملكُ كلَّ من أشار عليه بقصد مصر، وأمر نور الدين بضرب البشائر في سائر بلاده، وبثَّ رسلَه إلى الآفاق بذلك[٤].

وقال القاضي أبو المحاسن: لقد قال لي السلطان، يعني صلاحَ الدين: كنت أكرهَ النَّاس للخروج في هذه الدفعة، وما خرجتُ مع عمي باختياري. قال: وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٥].

وقال ابن الأثير: أحبَّ نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه[٦]، حُكي لي عنه أنه قال: لما وَرَدَتْ الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه

---

(١) في الأصل: البارقي ـ بالباء الموحدة ـ وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م): وهو ممن رفض مبايعة صلاح الدين وزيراً بعد وفاة عمه أسد الدين، وقد توفي سنة (٥٦٤ هـ). انظر ٦٩، ٧١، ١١٤، ١٣٨ من هذا الجزء. وما بين حاصرتين من (ل).

(٢) سترد أخباره ص ٣٤٦، ٤٠٥ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ١٣٩.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٧، و «الباهر»: ١٣٩.

(٥) «النوادر السلطانية»: ٣٩، وسورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٦) «الباهر»: ١٣٩.

مستصرخين ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عَمِّك أسد الدين بحمص مع رسولي[١] إليه يأمره بالحضور، وتحثُّه أنتَ على الإسراع، فما يحتمل الأمر التأخير. قال: ففعلت، فلما فارقنا[٢] حلب على [ميل][٣] منها لقيناه قادماً في هذا المعنى، فقال [له][٤] نور الدين: تجهَّزْ للمسير. فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً، وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرتَ أنت عن المسير[٥] إلى مصر فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج، ولا يبقى معهم مقام بالشَّام وغيره. قال: فالتفتَ إليَّ عمي أسد الدين وقال: تجهَّزْ يا يوسف، قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين! فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرتُ إليها، فلقد قاسيتُ بالإسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً. فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي، فترسم له. فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس، ثم جمع أسد الدين العساكر من التركمان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بُدَّ من مسيرك مع عمك. فشكوت إليه الضائقة وقلَّة الدواب وما أحتاج إليه، فأعطاني ما تجهزتُ به، وكأنما أُساق إلى الموت. وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته، فسرتُ معه. فلما استقرَّ أمره وتوفي، أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه[٦].

---

(١) في الأصل و (ل): رسولٍ، والمثبت من (م).

(٢) في الأصل: فارقت، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في الأصل: المصير، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) «الباهر»: ١٤١.

قلت: وحَرَّضه أيضاً حسان العَرْقَلة[1] بأبياتٍ من شعره من جملة قصيدة مدحه بها، قال:

وَهَـلْ أخشـى مـن الأنـواءِ بُخْـلاً   إذا مـا يـوسـفٌ بـالمـالِ جـادا
فتـىً للـدِّيـن لـم يَبْـرَحْ صـلاحـاً   ولـلأعـداءِ لـم يَبْـرَحْ فسـادا ١٥٦/١
لئـن أعطـاه نـورُ الـديـنِ حِصْنـاً   فـإنَّ الله يعطيـه البِـلادا
إلـى كـم ذا التَّـوانـي فـي دمشـقٍ   وقـد جـاءتكُـمُ مِصْـرٌ تَهـادى
عـروسٌ بَعْلُهـا أسـدٌ هِـزَبْـرٌ   يصيـدُ المعتـديـنَ ولـن يُصَـادا
ألا يـا مَعْشَـرَ الأجنـادِ سيـروا   وراء لـوائـه تلقَـوْا رشـادا
فمـا كـلُّ امـرىءٍ صَلَّـى مـع النَّـا   سِ مـأمـومـاً كمـن صَلَّـى فُـرَادىٰ[2]

فلما سافر صلاحُ الدين إلى مصر عبر العرقلة على داره، فوجدها مغلقة، فقال:

عَبَرْتُ على دار الصَّلاح وقد خَلَتْ   من القمر[3] الوضَّاح والمَنْهَلِ[4] العَذْبِ
فـوالله لـولا سُـرْعَـةٌ مِثْـلُ عَـزْمِـهِ   لغـرَّقهـا طـرفـي وأحـرقَهـا قلبـي[5]

ودار صلاح الدين هي التي وقفها رباطاً للصُّوفية بحارة قطامش جوار قيسارِيَّة القصاع، وإليها يجري الماء من حمام نور الدين رحمه الله. فقضى الله ما قضى من رحيل الفرنج، وتملك صلاح الدين على ما سيأتي[6].

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من الجزء الأول،

(٢) القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٣٠ ــ ٣٢ مع اختلاف في بعض الألفاظ، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ١٩٩ ــ ٢٠٠.

(٣) في الأصل: الذهب، وكتب فوقها القمر، وهي تصحيح لها.

(٤) في (م): المورد.

(٥) البيتان في «ديوانه»: ١٤.

(٦) انظر ص ٦٨ وما بعدها من هذا الجزء.

وللأمير الفاضل أسامة بن منقذ في صلاح الدين من قصيدةٍ، أوَّلها:

* سَلِّمْ على مِصْرَ لا ربعٍ بذي سَلَمِ *

يقول فيها:

النَّاصر الملكُ الموفي بذمَّتِهِ ... وَمَنْ ندى كفِّه يُغْني عن الدِّيَم
وَمَنْ إذا جرَّد البِيضَ الصَّوارِمَ في الـ ... ـهيجاءِ أغمدَها في البَيْضِ والقِمَم[1]
وَمَنْ حَوى المُلك من بعد الطماعة في انـ ... ـتزاعه بِشَبا الهندية الحُذُم[2]
وَرَدَّ طاغيةَ الإفرنج يحسبُ ما ... رجاه مِن مُلك مصرَ كان في الحُلُم
ولَّى وراحتُهُ صِفْرٌ وقد مُلِئَتْ ... بعد الطماعة من يأس[3] ومن نَدَمِ
يُصَعِّدون على ما فاتهم نَفَساً ... لو لافَحَ البَحْرَ أضحى المَوْجُ كالحُمَم
وفي السَّلامة لولا جَهْلُهُمْ ظَفَرٌ ... لمن أراد نزالَ الأُسْدِ في الأُجُم
وهم أُسُودُ الشَّرى لكنْ أذلَّهُمُ ... مَلْكٌ لديه الأُسودُ الغُلْبُ كالغَنَمِ[4]

وله من قصيدة أخرى:

أقمتَ عَمُودَ الدينِ حين أمالَهُ ... لطاغي الفرنج الغُتْمِ[5] طاغي بني سعْدِ[6]

(١) البيض الأولى: السيوف، مفردها: أبيض، والثانية مفردها: بيضة وهي الخوذة. والقمم، مفردها: قمة وهي أعلى الرأس، انظر «اللسان» (بيض، قمم) و «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٧١.

٥) من الحذم: القطع. انظر «اللسان» (حذم).

(٢) من الحذم: القطع. انظر «اللسان» (حذم).

(٣) في الأصل: بأس، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.

(٥) الغتمة: عجمة في المنطق، مفردها: أغتم وغتمي، وجمعها: غتم. «اللسان» (غتم).

(٦) إشارة إلى شاور، فإن نسبه يرجع إلى سعد بن بكر بن هوازن. «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٣٩.

وَجَاهَدْتَ حِزْبَ الكُفْرِ حتى رَدَدْتَهُمْ	خـزايـا عليهـم خيبـةُ الـذُّلِّ والـرَّدِّ
أفـدتَ بمـا قَـدَّمْـتَ مُلْكـاً مُخَلَّـداً	وذِكْـراً مـدى الأيـام يُقْـرَنُ بـالحَمْـدِ
وذِكْرُك في الآفاقِ يَسْرِي كأنَّه الصَّـ (م) ـبـاحُ لـه نَشْـرُ الأُلُـوَّةِ[1] والنَّـدِّ[2]

ولأبي الحسن بن الذَّرَوي[3] فيه من قصيدة يذكر فيها ملك الفرنج مُرِّي*:

ولكـم أَشَمْـتَ الـرُّومَ أشـأمَ بـارقٍ	أَضْحَـتْ ميـاه نُفُـوسِهـا مـن قَطْـرِهِ
وافـاكَ بَحْـرُ دُرُوعِهـا عـن مَـدِّه	ومضـى وقـد حَكَمَـتْ ظُبـاك بِجَـزْرِه
وَلَقِيْـتَ «مُـرِّيّـا» وطَعْـمُ حيـاتِـهِ	حُلْـوٌ فبـدَّلَـه القِتـالُ بِمُـرِّهِ
فـاعقـدْ إليـه الـرأيَ فـي عَـذَبِ القَنـا	واحلـلْ بهـا عَجِـلاً معـاقِـدَ مَكْـرِهِ
واطْـرِدْه مـن وَكْـرِ الشَّـآم فـإنَّـه	قـد طـارَ منـك بخـافـقٍ مـن ذُعْـرِهِ

فصـــل

في القبض على شاور وقتله

وصل أسد الدين القاهرة سابع[4] ربيع الآخر، واجتمع بالعاضد خليفة مصر، فخلع عليه وأكرمه، وأُجريت عليه وعلى عساكره الجراياتُ الكثيرة والإقامات الوافرة، ولم يمكن شاور المنع من ذلك لأنه رأى العساكر كثيرة

---

(١) الألوة: العود الذي يتبخر به. «اللسان» (ألا).

(٢) الأبيات ليست في «ديوان» المطبوع.

(٣) سترد ترجمته، ص ١٠١ من الجزء الثالث.

(٤) كتب فوقها في الأصل: رابع، وهي رواية في نسخة أخرى، ومثلها في (م).

بظاهر البلد، ورأى هوى العاضد معهم من داخله، فلم يتجاسر على إظهار ما في نفسه، فكتمه، وهو يماطل أسد الدين في تقرير ما كان بذل له من المال والإقطاع للعساكر، وإفراد ثلث البلاد لنور الدين، وهو يركب كل يوم إلى أسد الدين ويسير معه، ويعده ويمنِّيه ﴿وَمَا يَعِدُهُم الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[1].

ثم إنه عَزَم على أن يعمل دعوة لأسد الدين ومن معه من الأُمراء، ويقبضُ عليهم، فنهاه ابنه الكامل وقال له: والله لئن عَزَمْتَ على هذا الأمر لأُعرِّفَنَّ أسد الدين. فقال له أبوه: والله لئن لم أفعل[2] لنقتلَنَّ جميعاً. فقال: ١/١٥٧
صدقتَ، ولأَنْ نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خيرٌ من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فليس بينك وبين عود الفرنج إلا أن يسمعوا بالقبض على شِركُوه، وحينئذٍ لو مشى العاضد إلى نور الدين لم يرسل فارساً واحداً، ويملكون البلاد. فترك ما كان عزم عليه، فلما رأى العسكر النُّوري المَطْلَ من شاور اتفق صلاح الدين يوسف وعز الدين جُرْديك وغيرهما على قتل شاور، وأعلموا أسد الدين بذلك، فنهاهم، فقالوا: إنا ليس لنا في البلاد شيء مهما هذا على حاله. فأنكر ذلك. واتفق أن أسد الدين سار[3] بعض الأيام إلى زيارة قبر الشَّافعي، رضي الله عنه، وقصد شاور عسكرَه على عادته للاجتماع به، فلقيه صلاح الدين وعز الدين جُرْديك، ومعهما جمعٌ من العسكر، فخدموه وأعلموه أن أسدَ الدين في الزيارة، فقال: نمضي إليه. فسار وهما معه قليلاً، ثم ساوَرُوه وألقوه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٠.
(٢) في الأصل: نفعل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): واتفق أن بعض الأيام سار أسد الدين.

أسيراً، ولم يمكنهم قتله بغير أمر أسد الدين، فسجنوه في خيمةٍ وتوكلوا بحفظه. فعلم أسد الدين الحال فعاد مسرعاً، ولم يمكنه إلا إتمام ماعملوه. وأرسل العاضد لدين الله؛ صاحب مصر، في الوقت إلى أسد الدين يطلب منه رأس شاور، ويحثُّه على قتله، وتابع الرُّسُلَ بذلك. فقتل شاور في يومه، وهو سابع عشر ربيع الآخر، وحمل رأسه إلى القصر، ودخل أسد الدين إلى القاهرة، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خاف منه على نفسه، فقال لهم: أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاور. فقصدها الناس ينهبونها، فتفرَّقوا عنه، هذا قول ابنِ الأثير[1].

وقال ابن شَدَّاد: أقام أسد الدين بها يتردَّد إليه شاور في الأحيان، وكان وَعَدَهم بمالٍ في مقابلة ما خسروه من النفقة فلم يوصل إليهم شيئاً، وعلقت مخاليبُ الأسد في البلاد، وعلم أن الفرنج متى وجدوا فرصةً أخذوا البلاد، وأن تردُّدهم إليها في كل وقت لا يفيد، وأن شاور يلعب بهم تارةً وبالإفرنج أخرى، وملاَّكها قد كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلموا أنه لا سبيل إلى الاستيلاء[2] على البلاد مع بقاء شاور، فأجمعوا أمرهم على قَبْضِه إذا خرج إليهم، وكانوا هم يتردَّدون إلى خدمته دون أسد الدين، وهو يخرج في الأحيان إلى أسد الدين يجتمع به. وكان يركب على قاعدة وزرائهم بالطبل والبوق والعَلَم، فلم يتجاسر على قبضه منهم[3] إلاّ السُّلْطان نفسه ــ يعني صلاح الدين ــ وذلك أنه لما سار إليهم تلقَّاه راكباً وسار إلى جانبه وأخذ بتلابيبه، وأمر العسكر أن خذوا على أصحابه، ففرُّوا ونهبهم

(١) «الباهر»: ١٣٩ ــ ١٤٠.
(٢) في الأصل: للاستيلاء، وفي (ل): على الاستيلاء، والمثبت من (م).
(٣) في (م): من الجماعة.

العسكر، وقُبض [على] شاور وأنزل إلى خيمة مفردة. وفي الحال جاء التوقيع من المصريين على يد خادم خاص يقول: لا بُدَّ من رأسه. جرياً على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة مَن قويَ منهم على صاحبه، فحزَّتْ رقبته وأُنفذ رأسه إليهم(١).

وقال العماد: ودخل أسد الدين في الرابع(٢) من شهر ربيع الآخر الإيوان، وخُلع عليه ولقي الإحسان، وتردَّد شاور إلى أسد الدين وتودَّد، وتجدَّد بينهما من الوداد ما تأكَّد، وأقام للعسكر الضيافات الكثيرة، والأطعمة الواسعة، والحلاوات والميرة. فقال صلاح الدين: هذا أمرٌ يطول، ومسألة فرضها يَعُول، ومعنا هذا العسكر الثقيل، وإقامته بالإقامة يَقْصُرُ عنها الأمد(٣) الطَّويل، ولا أمر(٤) لنا مع استيلاء شاور، لا سيما إذا راوغ وغاور(٥)، فَنَفَّذ أسد الدين الفقيه عيسى(٦) إلى شاور يشير عليه بالاحتراس(٧)، وقال له: أخشى عليك مَن عندي من النَّاس. فلم يكترث بمقاله، وركب على سبيل انبساطه واسترساله، فاعترضه صلاح الدين في الأمراء النورية وهو راكب

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٩ ـ ٤٠، وما بين حاصرتين منه.

(٢) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٧ التاسع.

(٣) في (م): المدى.

(٤) ولا أمر، ساقطة من (م).

(٥) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٨ غادر، وهي تصحيف.

(٦) هو ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، أمير كبير مشهور، وفقيه مجاهد، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٤/ ١٠٩ ـ ١١٠، وهو الذي سعى في تمكين صلاح الدين في وزارة مصر، كما سيرد ص ٧١ من هذا الجزء، ونسبة «الهكاري» ترجع إلى قبيلة من الأكراد لهم معاقل وحصون وقرى من بلاد الموصل من جهتها الشرقية. «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٤٥.

(٧) في الأصل: الاحتراز، والمثبت من (ل) و (م).

على عادته في هيئته الوزيرية، فبغته وشحته[1]، وقبضة وأثبته، ووكل به في خيمةٍ ضربها له، وحاول إمهاله، فجاء من القصر من يطلب رأسه، ويعجل من العمر يأسه، وجاء الرسول بعد الرسول، وأَبَوْا أن يرجعوا إلا بنُجح السُّول، فَحُمَّ حِمامه، وحُمل إلى القصر هامُه[2].

قلت: وبلغني أن الذي باشر حَزَّ رقبة شاور هو عز الدين جُرْديك، وكان صلاح الدين لما لقيه في أصحابه سار بجنبه وأراد إفراده عن العسكر، فالتمس منه المسابقة بفَرسيْهما، فأجابه، ووافقهما في ذلك جُرْديك، وكان ذلك عن أمرٍ قد تقرَّر؛ فحرَّكوا خيلهم، فلما بَعُدوا عن العسكر ووقفوا قبض صلاح الدين وجُرْديك على شاور، وأُدخل الخيمة.

وقد كثر هجاء شاور بغدره ومكره حتى قال عَرْقَلة:

لقد فازَ بالمُلكِ العقيم خليفةٌ ... له شِيركُوهُ العاضديُّ وزيرُ
كأنَّ ابنَ شاذي والصَّلاحَ وسيفَهُ ... عليٌّ لديه شَبَّرٌ وشَبِيرُ[3]
هو الأسدُ الضاري الذي جَلَّ خَطْبُهُ ... وشاوَرُ كلبٌ للرِّجالِ عَقُورُ
بغى وطغى حتى لقد قال قائلٌ[4] ... على مِثْلِها كانَ اللعينُ يَدُورُ
فلا رَحِمَ الرحمنُ تُرْبَةَ قَبْرِهِ ... ولا زال فيها مُنْكَرٌ ونكيرُ[5]

---

(١) كأنها بمعنى: جَرَّه على الأرض.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٧ ــ ٧٨.
(٣) شبر وشبير: اسمان للحسن والحسين ولدي الإمام علي رضي الله عنهم. «اللسان» (شبر).
(٤) في هامش (ل): صحبه، وهي رواية في نسخة أخرى، ومثلها في (م).
(٥) الأبيات في «ديوانه»: ٥٢، وهي مستدركة فيه من كتابنا.

١٥٨/١ وقال أيضاً:

قُلْ لأميرِ المؤمنين الذي مِصْرٌ حَماه وعليٌّ أبوهُ
نَصَّ على شاوَرَ فِرْعَونُها وَنَصَّ موساها على شِيرِكُوه[١]

وقد وصف الفقيه الشَّاعر أبو حمزة[٢] عمارة اليمني في كتاب «الوزراء المصرية» الذي صنفه حالَ شاور في وزارته الأولى[٣]، ثم قال: وزارة شاور الثانية، فيها تكشَّفَتْ صفحاته، وأحرقت لفحاتُه، وأغرقت نفحاته، وغَضَّه الدَّهْرُ وعَضَّه، وأوجعه الثُّكْلُ وأَمَضَّه، وبان غَمْرُه وثِمادُه[٤]، وجمره ورماده، ولم يجفَّ من الأنكاد لبدُه[٥]، ولا صفا من الأقذاء وِرْدُه، وما هو إلاّ أن تسلَّمها بالرَّاحة، وسُلِّمت له الهمومُ عوضاً عن الرَّاحة. وفي أول ليلةٍ دخل القاهرة ارتحل أسد الدين طالباً بِلْبيس*، فأقام بها، ثم عاد إلى القاهرة، فكسر النَّاسَ يوم التاج وأُسر أخوه صُبْح[٦]، وأصيبَ على بابِ القَنْطَرة بحجرٍ كاد يموت منه، وتعقَّب ذلك بنقل[٧] القتال على القاهرة حتى دُخِلَتْ من الثغرة، ثم تبع هذا مجيء الفرنج، وعمل البُرْج، وحصار

(١) البيتان في «ديوانه»: ١٠٨، وهما مستدركان فيه من كتابنا، وفيه اعتماداً على طبعة وادي النيل: ١٥٨/١ «إن أمير المؤمنين الذي..»

(٢) ورد في بعض تراجمه «أبو محمد» انظر منتخبات لعمارة اليمني في سيرته وفي أخبار زمانه ومعاصريه، المنشور ضمن «تكملة ديوانه» بعناية هرتويغ دربرغ المطبوع في مدينة شالون سنة ١٩٠٢ م، وسيرد التعريف به ص ٢٩٧ وما بعدها من هذا الجزء.

(٣) انظر «النكت العصرية»: ٦٧ وما بعدها.

(٤) الغمر: الماء الكثير، والثماد: الماء القليل. «القاموس المحيط»: (غمر، ثمد).

(٥) يقال: فلان لا يجف لبده: إذا لم يزل يتردد. (أساس البلاغة) (لبد).

(٦) صبح هو أخو شاور، ذكر بعض أخباره عمارة اليمني في كتابه «النكت العصرية»: ١٣٤ وما بعدها.

(٧) في «النكت العصرية»: ٧٨ تثقيل.

بِلْبيس*، ثم تلا ذلك قيام يحيى بن الخِياط[١] طالباً للوزارة، ثم تلا ذلك نفاقُ لواتَه ومن ضامَّها من قيس، وخروج أخيه نجم وابنه سليمان[٢] وجماعة من غلمانه[٣] لحربهم ثم خروج ابنه الكامل في بقية العسكر. وفي أثناء هذه المدة قبضُه على الأثير بن جَلَب راغب وقتله، وأسر معالي بن فُريج ثم قَتْله. واتَّصل إليه الخبرُ من قدوم أسد الدين إلى إطْفِيح* بأم النَّوائب [الكُبَر][٤]، ووافق مجيءَ الغُزِّ قدومُ الفرنج ناصرين للدولة، وتوجَّهوا من مصر في البر الشَّرْقي تابعين للغُزِّ. ثم لاحت الفرصة للفرنج فعادوا إلى مصر واقترحوا من المال، ما تنقطع دونه[٥] الآمال، وخيموا على ساحل المقسم، وأظهروا رجوعَهم إلى الشَّام، فتجهَّز الكامل للمسير صحبة الإفرنج. حدثني القاضي الأجل الفاضل عبد الرحيم[٦] بن علي البَيْسَاني، قال: أنا أذكر وقد خلونا في خيمةٍ وليس معنا أحد، إنما هو شاور وابنه الكامل وأخوه نجم، فعزم الكامل على النهوض مع الفرنج، وعزم نجم على التغريب إلى سليم وما وراءها، وقال شاور: لكن لا أبرَحُ أقاتل بمن صَفَا معي حتى أموت. فنحن في ذلك حتى وصل إلينا الدَّاعي ابن[٧] عبد القوي وصنيعة المُلك جوهر وعزٌّ [الأستاذ][٨] وقد التزموا المال، وتفرَّع على هذا الأصل مقام الغُزِّ بالجِيزة،

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.

(٢) في (ل): سلمان، وهو تصحيف، انظر بعض أخبار نجم وسليمان في «النكت العصرية»: ١٣٥ ــ ١٣٨ وما بعدهما.

(٣) في الأصل و(ل): غلمانهم، والمثبت من (م) وهو يوافق ما في «النكت العصرية».

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في الأصل: منه، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) في الأصل و (ل) عبد الرحمن، وهو تحريف، والمثبت من (م)، وانظر ص ٦٥ من هذا الجزء.

(٧) في الأصل و (ل): أن، والمثبت من (م).

(٨) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «النكت العصرية»: ٨٠.

ونوبة البابَين، وحصار الإسكندرية، وانصراف الغُزّ راجعين، والفرنج بعدهم. فما هو إلاّ أن توهَّم شاور أنَّ الدهر قد نام وغفا، وصفح عن عادته[١] معه وعفا، وإذا الأيام لا تخطب إلا زواله وفَوْته، ولا تريد إلا انتقاله وموته. فكان من قدوم الفرنج إلى بِلْبيس* وقَتْلِ من فيها وأسرهم بأسرهم ما أوجب حريق مصر، ومكاتبة الأجل نور الدين بن القَسِيم، وإنجاده كلمةَ الإسلام بأسد الدين ومن معه من المسلمين الذين قُلْتُ فيهم وقد ربط الإفرنج الطريقَ عليهم:

أَخَـذْتُـمْ علـى الإِفـرنـجِ كـلَّ ثَنِيَّـةٍ وقُلْتُمْ لأيدي الخيل مُرِّي على مُرّي
لئـن نصبـوا فـي البَـرِّ جسـراً فـإنَّكـم عبرتمْ ببحرٍ من حديدٍ على الجسرِ[٢]

قلت: وهذان البيتان من قصيدةٍ له ستأتي[٣]. ومُرِّي [هذا][٤] هو اسم ملك الإفرنج.

قال عمارة: فقضى قدوم الغُزّ برحيل الفرنج عن الدِّيار[٥] المصرية، ولم يلبث شاور أن مات قتيلاً بعد قدوم الغزّ بثمانية عشر يوماً. وهذه السنوات التي وزر فيها شاور وزارته الثانية كثيرة الوقائع والنوازل، وفيها ما هو عليه أكثر مما هو له[٦].

قال: ولم يربِّ أحدٌ رجالَ الدولة مثل ما رباهم الصَّالح بن رُزِّيك، ولا

(١) في (م): عبادته، وهو تحريف.
(٢) «النكت العصرية»: ٧٨ ــ ٨٠، ٢٧٠ مع اختلاف في ترتيب البيتين.
(٣) انظر ص ٧٨ ــ ٧٩ من هذا الجزء.
(٤) ما بين حاصرتين من (م).
(٥) في (م): البلاد.
(٦) «النكت العصرية»: ٨٠ ــ ٨١.

أفنى أعيانهم مثل ضِرْغام ــ وكانت وزارته تسعة أشهر مُدَّة حمل الجنين ــ ولا أتلف أموالهم مثل آل شاور، وشاور هو الذي أطمع الغزّ والإفرنج في الدولة حتى انتقلت عن أهلها[١].

ولما عاد من حصار الإسكندرية أكثر من سَفْكِ الدِّماء بغير حق؛ كان يأمر بضرب الرِّقاب بين يديه في قاعة البُسْتان من دار الوزارة، ثم تسحبُ القتلى إلى خارج الدار[٢].

وقال الحافظ أبو القاسم: لما خيفَ من شَرِّ شاور ومكره، لما عُرِفَ من غَدْره وخَتْره[٣] واتَّضح الأمر في ذلك واستبان، تمارضَ الأسدُ ليقتنصَ الثُّعْلُبان، فجاءه قاصداً لعيادته، جارياً في خدمته على عادته؛ فوثب جُرْديك وبُزْغُش، موليا نور الدين، فقتلا شاوراً، وأراحا العباد والبلاد من شَرِّه وما شاورا، وكان ذلك برأي صلاح الدين، فإنه أول من تولَّى القبضَ عليه، ومدَّ يده الكريمة بالمكروه إليه، وصفا الأمر لأسد الدين وَمُلِّك، وخلع عليه الخِلَع وحُنِّك[٤]، واستولى أصحابُه على البلاد، وجرت أموره على السَّداد، وظهر منه حميد السيرة، وظهرت كلمةُ [أهل][٥] السُّنَّة[٦].

---

(١) انظر «النكت العصرية»: ٨٧.
(٢) «النكت العصرية»: ٨٨.
(٣) الختر: شبيه بالغدر والخديعة، وقيل: هو الخديعة بعينها، وقيل: هو أسوأ الغدر وأقبحه. «اللسان» (ختر).
(٤) أي أديرت العمامة من تحت حنكه. «تاج العروس» (حنك).
(٥) ما بين حاصرتين من (م).
(٦) «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ج ١٦/١٤٨ ب في ترجمة نور الدين، والعبارة فيه مضطربة لسقط فيها.

فصـــل
في وزارة أسد الدين

وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه إلى القَصْر، أنفذ إلى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها، وسار ودخل القصر، وترتَّب وزيراً، ولقب بالملك
١٥٩/١ المنصور أمير الجيوش، وقصد دار الوزارة فنزلها، وهي التي كان بها شاور فمَن قبله من الوزراء، فلم ير فيها ما يقعد عليه، واستقرَّ في الأمر ولم يبق له فيه منازع ولا مناوىء، وولَّى الأعمالَ من يثق إليه، واستبدَّ بالولاية، فأقطع البلاد العساكر التي قدمت معه، وصلاح الدين مباشر للأمور مُقَرِّر لها، وزمام الأمر والنهي مفوَّض إليه لمكان كفايته ودرايته، وحُسْن تأتيه وسياسته[(١)].

قال العماد: وكُتِبَ لأسد الدين منشورٌ من القصر، بسيط الشُّرْح طويل الطَّي والنَّشْر، كتب العاضدُ في طُرَّته بخطه، ولا شك أنه بإملاء كاتبه[(٢)]: هذا عَهْدٌ لا عَهْدَ لوزير بمثله، وتقلد أمانة رآك أمير المؤمنين أهلاً لحمله، والحُجَّة عليك عند الله بما أوضحه لك من مراشد سُبُله، فَخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بقوَّة، واسحَبْ ذيلَ الفَخَار بأن اعْتَزَتْ خدمتك إلى بُنوَّة النُّبوَّة، واتخذه للفوز سبيلا[(٣)] ﴿وَلاَ تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُم اللَّهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً﴾[(٤)].

---

(١) «الباهر»: ١٤٠.
(٢) في (ل) و (م): كُتَّابه.
(٣) في (م): واتخذ أمير المؤمنين للفوز سبيلاً. وانظر «صبح الأعشى»: ٤٠٦/٩ ـ ٤٠٧.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩١.

ونسخة المنشور: «من عبد الله ووليه أبي محمد العاضد لدين الله أمير المؤمنين، إلى السيد الأجل، الملك المنصور، سلطان الجيوش، ولي الأئمة، مجير الأمة، أسد الدين، كافل قضاة المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين، أبي الحارث شِيركُوه العاضدي، عَضَدَ الله به الدين، وأمتع بطول بقائه أمير المؤمنين، وأدام قدرته، وأعلى كلمته، سلام عليك، فإنه يحمد إليك الله[1] الذي لا إلَه إلاّ هو، ويسأله أن يُصلّي على محمدٍ خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلى آله الطّاهرين، والأئمة المهديين، وسلّم تسليماً»[2].

ثم ذكر باقي المنشور، وهو مشتملٌ على كلام طويل، وحشوٍ غير قليل، على عادة الكُتّاب المتأخرين الذين تراهم بالألفاظ الكثيرة عن المعنى اليسير معبِّرين، والبلاغة عكس ذلك. قال النبيُّ ﷺ: «بُعثت بجوامع الكَلِم واختُصر لي الكلام اختصاراً»[3].

ولما استقلَّ أسدُ الدين بالوزارة طلب من القصر كاتبَ إنشاء، فأرسل إليه بالقاضي الفاضل عبد الرحيم بن [علي][4] البَيْسَاني، وكان أبوه من أهل بَيْسان* الشَّام. ثم ولي قضاء عَسْقَلان، وخرج الفاضل إلى الديار المصرية فولي كاتباً بالإسكندرية على باب السِّدرة، ثم إنه اتصل بالكامل بن شاور

---

(١) في الأصل: الله إليك، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٩ ـ ٨٠، والنص منشور بتمامه في «صبح الأعشى»: ١٠/ ٨٠ ـ ٩٠.

(٣) أخرج الحديث بهذا اللفظ من حديث عمر بن الخطاب البيهقي في «شعب الإيمان»، (١٤٣٦) وفي إسناده علي بن زيد بن جُدْعان، وهو ضعيف، وأصل الحديث في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، ولفظه: «بعثت بجوامع الكلم» أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) (٦).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من ص ٦١ من هذا الجزء، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣١ من الجزء الأول.

فاستكتبه وزاحم به كُتَّابَ القَصْرِ، فثقل عليهم أمرُه، فلما طَلَبَ أسدُ الدين كاتباً أُرسِلَ به إليه، وظنَّ رؤساء ديوان المكاتبات أن هذا أمر لا يتم، وأن أسد الدين سيُقتل كما قُتِلَ من كان قبله، فأرسلوا بالفاضل إليه وقالوا: لعله يُقتل معه فنخلص من مزاحمته لنا. فكان من أمره ما كان، واستمرَّ في الدولة، ولم يزدد [في][1] كل يوم إلا تقدُّماً، بصدقه ودينه وحُسْنِ رأيه، رحمه الله.

وأنفذ العماد قصيدةً طويلة تهنئة لأسدِ الدين، أوَّلُها:

بالجِدِّ أَدْرَكْتَ ما أَدْرَكْتَ لا اللَّعِبِ ... كم راحةٍ جُنِيَتْ مِنْ دَوْحَةِ التَّعَبِ
يا شِيرِكُوهُ بن شاذي المَلْكُ دعوةَ مَن ... نادى فعرَّف خيرَ ابنٍ بخيرِ أبِ
جرى الملوكُ وما حازوا بركضِهِمُ ... من المدى في العُلا ما حُزْتَ بالخَبَبِ
تَمَلَّ من مُلْكِ مِصْرٍ رُتْبَةً قَصُرَتْ ... عنها الملوكُ فطالت سائرَ الرُّتَبِ
فَتَحْتَ مِصْرَ وأرجو أنْ تصيرَ بها ... مُيَسَّراً فَتْحَ بيتِ القُدْسِ عن كَثَبِ
قد أمْكَنَتْ أسدَ الدينِ الفريسةُ من ... فَتْحِ البلاد فبادِرْ نحوها وَثِبِ
أنت الذي هو فَرْدٌ من بسالته ... والدِّينُ من عَزْمِهِ في جَحْفَلٍ لَجِبِ
في حَلْقِ ذي الشِّرْكِ من عدوى سُطَاكَ شَجاً ... والقَلْبُ في شَجَنٍ والنَّفْسُ في شَجَبِ[2]
زارت بني الأصفر البيضُ[3] التي لقيتْ ... حُمْرَ المنايا بها مرفوعةَ الحُجُبِ
وإنها نقَدٌ[4] من خَلْفِها أسدٌ ... أرى سلامَتَها مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ
لقد رَفَعْنا إلى الرَّحمن أيدينا ... في شُكْرِنا ما به الإسلامُ منك حُبي

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) الشجب: الهمُّ والحزن. «اللسان» (شجب).
(٣) في (ل): الأبيض، وهو تصحيف.
(٤) النقد، مفردها النقدة: الصغيرة من الغنم. «اللسان» (نقد).

شكا إليك بنو الإسلامِ يُتْمَهُمُ … فَقُمْتَ فيهم مقامَ الوالدِ الحَدِبِ
في كلِّ دارٍ من الإفرنج نادبةٌ … بما دهاهُمْ فقد باتوا على نَدَبِ
من شَرِّ شاور أنقذْتَ العِبَادَ فكم … وكم قضيتَ لحزبِ الله من أَرَبِ
هو الذي أَطْمَعَ الإفرنجَ في بلد الـ … إسلام حتى سعَوْا للقَصْدِ والطَّلَبِ
وإنَّ ذلك عندَ اللَّهِ مُحْتَسَبٌ … في الحَشْرِ من أَفْضَلِ الطَّاعاتِ والقُرَبِ
أذلَّه [الملك][1] المنصورُ مُنْتَصِراً … لما دعا الشِّرْكُ: هذا قد تعزَّزَ بي
وما غَضِبْتَ لدينِ الله مُنْتقِماً … إلا لِنَيْلِ رِضَا الرَّحْمنِ بالغَضَبِ
وأنتَ مَنْ وَقَعَتْ في الكُفْرِ هَيْبَتُهُ … وفي ذويه وقوعَ النَّارِ في الحَطَبِ
وحين سِرْتَ إلى الكُفَّارِ فانهزموا … نُصِرْتَ نَصْرَ رَسُولِ اللَّهِ بالرُّعُبِ[2] ١/ ١٦٠
يا محيي الأمة الهادي بدعوته … للرُّشْدِ كلَّ غَوِيٍّ منهمُ وغبي
لمَّا سَعَيْتَ لوجهِ الله مُرْتَقِباً … ثوابَهُ نِلْتَ عفواً كلَّ مُرْتَقَبِ
أَعَدْتَ نِقْمَةَ مصرٍ نِعْمَةً فَغَدَتْ … تقول: كم نُكَتٍ لله في النُّكَبِ
أركبتَ رأسَ سِنانٍ رأسَ ظالمها … عَدْلاً وكنتَ لوِزْرٍ غيرَ مُرْتَكِبِ
رُدَّ الخلافةَ عباسيةً ودَعِ الدَّ (م) … عِيَّ فيها يصادفْ شَرَّ مُنْقَلَبِ
لا تَقْطَعَنْ ذَنَبَ الأفعى وترسِلَه … والحَزْمُ عنديَ قَطْعُ الرَّأْسِ كالذَّنَبِ[3]

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري (٢٩٧٧) ومسلم (٥٢٣). «نصرت بالرعب» قلت: كان أعداء النبي ﷺ قد أوقع الله في قلوبهم الخوف منه، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر، هابوه وفزعوا منه. انظر «اللسان» (رعب).

(٣) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٧٩ ثلاثة أبيات من القصيدة، وانظر «مفرج الكروب»: ١/ ١٦٥ ــ ١٦٧. وهذا البيت الأخير فيه تضمين من قول الشاعر أبي أذينة ابن عم الأسود بن المنذر بن النعمان:

لا تقطعَنْ ذَنَبَ الأفعى وترسلها … إن كنتَ شهماً فأتبعْ رأسها الذنبا

انظر «المختصر في أخبار البشر» ١/ ٧١.

وقال العماد في «الخريدة»: أنشدني الحافظ أبو القاسم لنفسه، وقد أعفى الملك العادل نور الدين ــ قدَّس الله روحه ــ أهلَ دمشق من المطالبة بالخشب، فورد الخبر باستيلاء عسكره على مصر، فكتب إليه يهنيه:

لما سَمَحْتَ لأهلِ الشَّامِ بالخَشَبِ   عُوِّضْتَ مِصْرَ بما فيها من النَّشَبِ
وإنْ بَـذَلْـتَ لِفَتْـحِ القُـدْسِ مُحْتَسِباً   للأَجْرِ جُوزيت أجراً[1] غير مُحْتَسَبِ
والأَجْـرُ فـي ذاك عنـدَ اللَّـهِ مُـرْتَقبٌ   فيمـا يُثِيـبُ عليـه خيـرُ مُـرْتَقِـبِ
والـذِّكْـرُ بـالخيـرِ بيـن النَّـاسِ تَكْسِبُـهِ   خيـرٌ مـن الفِضَّـةِ البيضـاءِ والـذَّهَـبِ
وَلَسْـتَ تُعْـذَرُ فـي تَـرْكِ الجهـادِ وقـد   أَصْبَحْتَ تملِكُ من مصرٍ إلى حَلَبِ
وصاحِبُ المَوْصِلِ الفيحاءِ مُمْتَثِلٌ   لمـا تـريـدُ فبـادِرْ فجـأَةَ النُّـوَبِ
فـأَحْـزَمُ النَّـاسِ مـن قَـوَّى عَـزِيْمَتَـهُ   حتـى ينـالَ بهـا العـالـي مـن الـرُّتَـبِ
فـالجِـدُّ والجَـدُّ مقـرونـانِ فـي قَـرَنٍ   والحَزْمُ في العَزْمِ والإِدْرَاكُ بالطَّلَبِ
فَطَهِّـرِ المسجـدَ الأقصـى وحـوْزَتَـهُ   من النَّجاساتِ والإِشراكِ والصُّلُبِ
عسـاكَ تَظْفَـرُ فـي الـدُّنيـا بِحُسْـنِ ثنـاً   وفـي القيـامـةِ تَلْقَـى خَيْـرَ مُنْقَلَـبِ[2]

فصـــل
في وفاة أسد الدين
وولاية ابن أخيه صلاح الدين مكانه

توفي أسد الدين فجأة يوم السبت الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة من هذه السنة[3]، فكانت وزارته شهرين وخمسة أيام.

وقال ابن شداد: كان أسد الدين كثير الأكل، شديد المواظبة على

---

(١) في (م): خيراً.
(٢) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٧٧ مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٣) سنة (٥٦٤ هـ).

تناول اللحوم الغليظة، تتواتر عليه التُّخَم والخوانيق وينجو منها بعد معاناة شِدَّة عظيمة، فأخذه مرض شديد، واعتراه خانوق عظيم، فقتله رحمه الله تعالى، وفُوِّض الأمر بعده إلى صلاح الدين، واستقرَّت القواعد واستتبت الأحوال على أحسن نظام. وبَذَلَ الأموال، وملك الرِّجال، وهانَتْ عنده الدُّنيا فملكها، وشكر نِعْمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر، وأعرض عن أسباب اللَّهو، وتقمَّص بلباس الجِدِّ والاجتهاد، وما عاد عنه، ولا ازداد إلا جِدًّا، إلى أن توفاه الله تعالى إلى رحمته. ولقد سمعتُ منه ــ رحمه الله ــ يقول: لما يَسَّرَ الله لي الدِّيار المصرية علمتُ أنه أراد فَتْحَ السَّاحل، لأنه أوقع ذلك في نفسي. ومن حين استتب له الأمر ما زال يشنُّ الغارات على الفرنج إلى الكَرَك* والشَّوْبَك* وبلادهما، وغشي الناس من سحائب الإفضال والنِّعَم ما لم يُؤَرَّخ عن غير تلك الأيام. هذا كلُّه وهو وزير متابع للقوم، لكنه مُقوٍّ لمذهب[1] السُّنَّة، غارسٌ في البلاد أهل العلم والفِقْه والتصوف والدين، والناس يهرعون إليه من كل صوب، ويَفِدون إليه من كل جانب، وهو رحمه الله، لا يخيِّبُ قاصداً، ولا يعدم وافداً. ولما عَرَفَ نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حِمْصَ من نوَّاب أسد الدين، وذلك في رجب من هذه السنة[2].

وقال ابن الأثير: أما كيفية ولاية صلاح الدين؛ فإن جماعةً من الأُمراء النُّورِيَّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدُّمَ على العساكر وولاية الوزارة، منهم الأمير عين الدولة الياروقي[3]، وقطب الدين خُسْرو بن تُلَيل[4] ــ وهو ابنُ

(١) في الأصل و (ل): مذهب، والمثبت من (م).
(٢) «النوادر السلطانية: ٤٠ ــ ٤١.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.
(٤) الضبط من (ل). وسيرد ذكره ص ١٤٢ من هذا الجزء.

أخي أبي الهيجاء[1] الهَذَباني[2] الذي كان صاحب إربل* ـ ومنه سيف الدين علي بن أحمد الهَكَّاري[3] ـ وجَدُّه كان صاحب قلاع الهَكَّارية* ـ ومنهم شهاب الدين محمود الحارِمي[4] ـ وهو خال صلاح الدين ـ وكل من هؤلاء قد خطبها، وقد جمع ليغالب عليها، فأرسل الخليفة العاضد إلى صلاح الدين، فأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خِلَع الوزارة، ويوليه الأمر بعد عمه.

١٦١/١ وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين، فإنه ظنَّ أنه إذا ولي صلاح الدين وليس له عسكر ولا رجال، كان في ولايته بحكمه [و][5] لا يجسر على المخالفة، وأنه يضع على العسكر الشَّامي من يستميلهم إليه، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه، وعنده من العساكر الشَّامية من يحميها من الفرنج ونور الدين. فامتنع صلاح الدين وضَعُفَتْ نفسه عن هذا المقام، فَأُلْزِمَ به وأخِذَ كارهاً «إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجَنَّةِ بالسَّلاسل»[6] فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة

---

(١) هو أبو الهيجاء السمين، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وكان من كبار الأمراء الأكراد، لقب بالسمين لكبر بطنه. وانظر «المذيل على الروضتين» حوادث سنة ٥٩٣، ٥٩٤ هـ.

(٢) نسبة إلى الهذبانية، قبيلة كبيرة من الأكراد، وهي القبيلة التي ينتسب إليها أيضاً السلطان صلاح الدين. انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٣٩.

(٣) هو المعروف بالمشطوب، أمير كبير، سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وترجمته ٤/ ٣٤٨.

(٤) ولي بَعْدُ حماة، وتوفي فيها سنة (٥٧٣ هـ). انظر ص ٣٨٦، ٤٧٠ ـ ٤٧٢ من هذا الجزء.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٦) في هامش (ل): تأمل. قلت: وهذا الحديث أخرجه البخاري (٣٠١٠) في الجهاد، باب الأسارى في السلاسل، من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عجب الله من =

الوزارة: الجُبَّة والعِمامة وغيرهما، ولقِّبَ الملك النَّاصر، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها، ولم يلتفت إليه أحدٌ من أولئك الأُمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه.

وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكَّاري[1] معه، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه، وقال له: إنَّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تُلَيل، فمال إلى صلاح الدين، ثم قصد شهاب الدين الحارمي، وقال له: إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك، وقد استقام الأمر له، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه فلا يصل إليك. ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلَّفه له. ثم عدل إلى قطب الدين وقال له: إن صلاح الدين قد أطاعه النَّاس ولم يبق غيرك وغير اليارُوقي، فعلى كل حال يجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصلَه من الأكراد، فلا يخرج الأمر عنه إلى الأتراك. ووعده وزاد في إقطاعه، فأطاع صلاح الدين أيضاً. وعَدَلَ إلى عين الدولة الياروقي ـ وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً ـ فلم تنفعه رُقاه ولا نفذ فيه سحره، وقال: أنا لا أخدم يوسف أبداً وعاد إلى نور الدين ومعه غيره، فأنكر عليهم فِرَاقَهُ وقد فات الأمر ﴿لِيَقْضِي الله أمراً كان مفْعُولاً﴾[2] وثبت[3] قدم صلاح الدين ورَسَخَ ملكه، وهو نائبٌ عن الملك العادل نور الدين، والخطبة لنور الدين في البلاد كلِّها، ولا يتصرَّفُون إلا عن أمره.

= قوم يدخلون الجنة في السلاسل». وأخرجه أبو داود في «سننه» كتاب الجهاد ـ باب في الأسير يوثق (٢٦٧٧) والإمام أحمد في «مسنده»: ٢/٣٠٢ بلفظ «عجب ربنا عز وجل من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل».

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٣) كذا في النسخ الخطية، والصواب: ثبتت.

وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأَسْفَهْسِلار* ويكتب علامته* في الكتب تعظيماً أن يكتب اسمه، ولا يفرده في كتاب بل [يكتب][1] الأمير الأَسْفَهْسِلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا.

واستمال صلاح الدين قلوب الناس، وبذل[2] لهم الأموال[2] مما كان أسد الدين قد جمعه، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه، فلم يمكنه منعه. فمال النَّاس إليه وأحبُّوه، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه، وضَعُفَ أمر العاضد، وكان كالباحث عن حَتْفِه بظِلْفه.

وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل[3] إليه إخوته، فلم يجبه إلى ذلك، وقال: أخاف أن يخالف أحد منهم عليك فتفسد البلاد. ثم إن الفرنج اجتمعوا ليسيروا إلى مصر، فسَيَّر نور الدين العساكر، وفيهم إخوة صلاح الدين، منهم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ــ وهو أكبر من صلاح الدين ــ فلما أراد أن يسير قال له: إن كنتَ تسير إلى مصر وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعد فلا تَسِرْ، فإنك تفسد البلاد، وأُحضرك حينئذٍ وأعاقبك بما تستحقُّه، وإن كنت تنظر إليه أنه صاحب مصر وقائمٌ فيها مقامي، وتخدمه بنفسك كما تخدمني، فسر إليه واشْدُدْ أزره، وساعده على ما هو بصدده، فقال: أفعل معه من الخدمة والطَّاعة ما يصل إليك إن شاء الله تعالى. فكان كما قال[4].

وقال العماد: لما فُرغ بعد ثلاثة أيام من التعزية بأسد الدين اختلفت

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في (م): يسير.
(٤) «الباهر»: ١٤١ ــ ١٤٣.

آراؤهم واختلطت أهواؤهم، وكاد الشَّمْل لا ينتظم، والخلل لا يلتئم. فاجتمع الأُمراء النُّورِيَّة على كلمةٍ واحدة، وأيدٍ متساعدة، وعقدوا لصلاح الدين الرأي والرَّاية، وأخلصوا له الولاء والولاية، وقالوا: هذا مقام عمه، ونحن بحكمه. وألزموا صاحب القصر بتوليته[١]، ونادت السعادة بتلبيته، وشرع في ترتيب الملك وتربيته، وفضَّ ختوم الخزائن، وأنضَّ رسومَ المزائن، وسلَّط الجُودَ على الموجود، وبسط الوفور للوفود، وفَرَّق ما جمعه أسد الدين في حياته. وأنارت على منار العُلا إياة[٢] آياته، ورأى أولياءه تحت ألويته وراياته، وأحبُّوه، وما زالت محبته غالبة على مهابته، وهو يبالغ في تقريبهم كأنَّهم ذوو قرابته، وما زاده الملك ترفُّعاً، وما أفاده[٣] إلا تأصلاً في السَّماح وتفرُّعاً، وضمَّ من أمر المملكة ما كان منشوراً، وكتب له العاضد صاحبُ القصر منشوراً[٤]، وهو بالمثال الكريم الفاضلي الذي هو السِّحْر الحلال، والعذب الزُّلال[٥].

ثم أورده العماد، وهو شبيه بمنشور عمه أسد الدين[٦]، وجرى [القلم][٧] فيه بما خَطَّ له القلم في الأزل من وَصْفِ جهاده وسِلْمه. ففي ذلك المنشور: «والجهاد أنتَ رضيع دَرِّه، وناشئة حَجْره، وظهور الخيل

---

(١) في الأصل: والتزموا لصاحب القصر بتوليته، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل: مهملة، وفي (ل): إناة، وهو تصحيف، والمثبت من (م). وإياة آياته: ضوؤها وشعاعها، منه: إياة الشمس: ضوؤها وشعاعها. انظر «اللسان» (أيا).

(٣) في الأصل: وما زاده، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) منشوراً، ساقطة من (م).

(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨١.

(٦) في (ل): بمنشور أسد الدين عمه. وفي (م): أسد الدين، ساقطة.

(٧) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

مواطِنُك، وظلال الخيام مساكنك، وفي ظلمات قساطله[1] تُجلى محاسنك، وفي أعقاب نوازله تُتْلَى مناقبك. فشمِّرْ له عن ساق من القَنَا، وخُضْ فيه بحراً من الظُّبى، واحْلُلْ في عُقَدِ كلمة الله وثيقات الحُبى، وأَسِلِ الوهاد بدم العِدَى، وارفع بروؤسهم الرُّبا، حتى يأتيَ الله بالفتح الذي يرجو أمير المؤمنين أن يكون مَذْخُوراً لأيامك، وشهوداً لك يوم مقامك»[2].

وفي طُرَّته بالخط العاضدي، ولم يذكره العماد في كتابه: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحُجَّته عند الله سبحانه عليك، فأوفِ بعهدك ويمينك، وَخُذْ كتاب أمير المؤمنين بيمينك، ولمن مضى بجدِّنا رسول الله ﷺ أحسن أُسوة، ولِمن بقي[3] بثقته[4] بنا أعظم سَلْوة[5] ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[6]. /١٦٢

يعني بمن مضى أسد الدين، وبمن بقي صلاح الدين.

ثم قال العماد: وهذا آخِرُ منشورٍ طُويت به تلك الدولة[7] وخُتمت، وتبدَّدَت عقودها وما انتظمت.

ووصلَتْ كُتُبُ صلاح الدين إلينا إلى الشَّام، بما تسنَّى له من المَرَام، ولمن يقصده بالاستدعاء والاستبطاء، ولمن تأخَّر[8] عنه بالخِلع والعطاء.

---

(١) القسطل: الغبار الساطع. «اللسان» (قسطل).
(٢) انظر «صبح الأعشى»: ١٠/ ٩٧، مع اختلاف في اللفظ.
(٣) في الأصل و(ل): تبقى، والمثبت من (م).
(٤) في الأصل: لثقته، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) انظر «صبح الأعشى»: ٩/ ٤٠٧، مع اختلاف في اللفظ.
(٦) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٧) في (م): الدواة، وهو تحريف.
(٨) في (م): يتأخر.

وترددت الكتب الصَّلاحية بذكر الأشواق، وشكوى الفِراق، وشرح الاستيحاش، وبَرْحِ القلوب العِطاش، فإنَّ أصحابنا وإن ملكوا، ونالوا مقاصدهم وأدركوا، حصلوا بين أُمَّةٍ لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألفونها، ورأوا وجوهاً هناك بهم عابسة، وأعيناً للمكايد متيقظة، وعن الودِّ ناعسة، فإن أجناد مصر كانوا في الدين مخالفين، وعلى عقيدتهم معاقدين محالفين.

وكتب صلاح الدين إلى بعض أصدقائه كتاباً، أوله:

أيها الغائبون عنّي وإنْ كنـ ... ـتمْ لقلبي بِذِكْرِكُمْ جيرانا
إنني مُذْ فَقَدْتُكُمْ لأَراكم ... بعيونِ الضَّميرِ عندي عِيانا

فسألني المكتوب إليه أن أكتب جوابه، فقلتُ:

أَيُّها الظَّاعنون عني وقلبي ... معهم لا يفارِقُ[1] الأَظْعانا
مَلَكُوا مِصْرَ مِثْلَ قَلبي وفي هـ ... ـذا و [في][2] تلك أصبحوا سُكَّانا
فاعْدِلُوا فيهما فإنَّكُمُ اليَوْ ... مَ مَلَكْتُمْ عليهما سُلْطانا
لا تَرُوعوا بالهَجْرِ قَلْبَ مُحبٍّ ... أَوْرَثَتْهُ رَوْعاتُه الخَفَقانا
حَبَّذا مَعْهَدٌ قَضَيْنا به العَيْـ ... ـشَ فَكُنَّا بِرَبْعِه جِيْرانا
إذ وَجَدْنا من الحوادثِ أمناً ... وأَخَذْنا من الخُطُوبِ أَمانا
وَرَتَعْنا من المُنَى في رياضٍ ... وسَكَنَّا من المغاني جِنَانا

وبعد، فإنَّ وفود الهناء، وأمداد الدُّعاء، متواصلةٌ على الولاء، صادرة عن محض الولاء، إلى عالي[3] جنابه المأنوس، ومنيع كَنَفِه المحروس،

---

(١) في (م): ما يفارق.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).

(٣) في الأصل: غاية، والمثبت من (ل) و (م).

فليهنِه الظَّفَران: بالملك وبالعَدُوِّ، وفَرْع هضبات المجد والعُلُوِّ، وكيف لا يكون النَّصْر مساوقاً لدينٍ هو صلاحُه، والتأييد مرافقاً لعَزْمٍ به نجاحه وفلاحه:

فالشَّام يَغْبِطُ مِصْراً مُذْ حَلَلْتَ بها كما الفُرَاتُ عليكم تحسُدُ النِّيلا
نِلْتُمْ من المُلْكِ عَفْواً ما الملوكُ به عُنُـوا قـديمـاً ورامُـوهُ فمـا نِيْـلا

قال العماد: ورثيتُ أسدَ الدين بقصيدةٍ خدمت بها نور الدين، وعَزَّيت بها أخاه نجم الدين، منها:

تَضَعْضَعَ في هذا المُصَابِ المُبَاغِتِ من الدِّين لولا نورُه كلُّ ثابتِ
فـأيَّـامُ نـورِ الـديـنِ دامَـتْ منيـرةً لنـا خَلَـفٌ مـن كـلِّ مُـودٍ وفـائـت[1]

[ومنها][2]:

فمـا بـالُنـا نُبْـدِي التَّصـامُـمَ غَفْلَـةً وداعي المنايا ناطِقٌ غيرُ صامتِ
نُـؤَمِّـلُ فـي دارِ الفَنَـاءِ بقـاءنـا ونـرجـو مـن الـدُّنيـا صداقـةَ مـاقِـتِ
وما النَّاسُ إلاّ كالغُصُونِ يَدُ الرَّدى تقـرِّبُ منهـا كـلَّ عُـودٍ لنـاحِـتِ[3]
لقـد أبلَغَـتْ رُسْـلُ المنـايـا وأَسْمَعَـتْ ولكنَّهـا لـم تحـظَ منـا بنـاصِـتِ

[ومنها][4]:

فلهفـي علـى تلـك الشَّمـائـلِ إنهـا لقد كَرُمَتْ في الحُسْنِ عن نَعْتِ ناعتِ

---

(١) في الأصل: ونايت، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ما بين حاصرتين مثبت من (ل).
(٣) في الأصل: لناجت، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) ما بين حاصرتين مثبت من (ل).

وله من أُخرى عزَّى بها أخاه نجم الدين أيوب، وولده[1] ناصر الدين محمداً:

مـا بَعْـدَ يَـوْمِـكَ للمعنَّـى المُـدْنَـفِ ... غيـرُ العَـويـلِ وَحَسْـرَةِ المُتَـأَسِّـفِ
ما أجرأ الحَدَثان كيف سطا على الـ ... ـلأسدِ المَخوفِ سُطاً ولم يتخوَّفِ
مـن ذا رأى الأسـدَ الهصـورَ فـريسـةً ... أم أبصـر الصُّبْـحَ المنيـرَ وقـد خَفِـي
مــن ثــابــتٌ دونَ الكُمـاةِ سـواه إنْ ... زَلَّـتْ بهـم أقـدامُهُـمْ فـي المَـوْقِـفِ
مـا كـان أسنَـى البَـدْرَ لـو لـم يَسْتَتِـرْ ... ما كان أبهى الشمسَ لولم تَكْسِفِ
مـا كنـتُ أخشـى أن تُلِـمَّ مُلِمَّـةٌ[2] ... يـومـاً وأنـت لِكَـرْبهـا لـم تَكْشِـفِ
أيـام عُمْـرك لـم تَـزَلْ مقسـومـةً ... لله بيـــنَ تعبُّـــدٍ وتَعَـــرُّفِ ١٦٣/١
متهجـــداً لعبـــادةٍ أو تـــاليـــاً ... مـن آيـةٍ أو نـاظـراً فـي مُصْحَـفِ
فُجِـعَ النَّـدى والبـأسُ منـك بحـاتـمٍ ... وبحيـدَرٍ والحِلْـمُ منـك بـأَحْنَـفِ
بـالمُلْـكِ فُـزْتَ وحُـزْتَـه عـن قُـدْرَةٍ ... ومضيـتَ عنـه بسِيْـرَةِ المُتَعَفِّـفِ
ووُصفـتَ يـا أسـداً لـديـنِ محمـدٍ ... مـدحـاً بمـا مَلِـكٌ بـه لـم يُـوصَـفِ
وَقَفَـوْتَ آثـارَ الشـريعـةِ كُلِّهـا ... وقـد اهتـدى مَـن للشَّـريعـة يقتفـي
[أأنِفْـتَ مـن دُنْيـاك حيـنَ عَـرَفْتَهـا ... فَلَوَيْتَ وَجْهَ العارِفِ المُسْتَنْكِفِ][3]

ومنها:

يـا نـاصِـرَ الـديـن اسْتَعِـذْ بتصبُّـرٍ ... مُـذْنٍ إلـى مَـرْضَـاةِ رَبٍّ مُـزْلِـفِ
وتعــزَّ نجــمَ الــديــنِ عنــه مهنّــأً ... أبـدَ الـزَّمـانِ بمُلْـك مِصْـرَ ويُـوسُـفِ
لا نستطيـعُ سـوى الـدُّعـاءِ فكلُّنـا ... إلا بمـا فـي الـوُسْـعِ غيـرُ مُكَلَّـفِ

---

(١) في (م): في ولده، وهو خطأ.
(٢) في (م): يلم ملامة.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

ولعمارة اليمني في صلاح الدين مدائح، منها قوله:

لكَ الحَسَبُ الباقي على عَقِبِ الدَّهرِ ... بل الشَّرَفُ الرَّاقي إلى قِمَّةِ النَّسْرِ
كذا فليكن سعي الملوكِ إذا سَعَتْ ... بها الهِمَمُ العُلْيا إلى شَرَفِ الذِّكْرِ
نَهَضْتُمْ بأعباءِ الوزارةِ نَهْضَةً ... أَقَلْتُمْ بها الأقدام من زَلَّةِ العَثْرِ
كَشَفْتُمْ عن الإقليمِ غُمَّتَهُ كما ... كَشَفْتُمْ بأنوارِ الغِنى ظُلْمَةَ الفَقْرِ
حَمَيْتُمْ من الإفرنج سِرْبَ خلافةٍ ... جَرَيْتُمْ لها مُجْرى الأمانِ من الذُّعْرِ
ولما استغاثَ ابنُ النبيِّ بِنَصْرِكُمْ ... ودائرةُ الأنصارِ أَضْيَقُ من شِبْرِ
جَلَبْتُمْ إليه النَّصْرَ أَوْساً وخَزْرَجاً ... وما اشتُقَّتِ الأنصارُ إلاّ مِنَ النَّصْرِ
كتائبُ في جَيْرونَ* منها أواخِرٌ ... وأوَّلُها بالنِّيْلِ من شاطِئَيْ مِصْرِ
طَلَعْتُمْ فأَطْلَعْتُمْ كواكبَ نُصْرَةٍ ... أضاءَتْ وكان الدِّينُ ليلاً بلا فَجْرِ
وآبَتْ إليكُمْ يا ابنَ أيوبَ دولةٌ ... تُراسِلُكُمْ في كلِّ يومٍ مع السَّفْرِ
حمى اللَّهُ فيكُمْ عَزْمَةً أسديَّةً ... فَكَكْتُمْ بها الإسلامَ مِنْ رِبْقَةِ الأَسْرِ
أَخَذْتُمْ على الإفرنجِ كُلَّ ثنيَّةٍ ... وقُلْتُمْ لأيدي الخيلِ مُرِّي على مُرِّي*
لئن نَصَبوا في البَرِّ جِسْراً فإنَّكُم ... عَبَرْتُم بِبَحْرٍ من حديدٍ على الجِسْرِ
طريقٌ تقارَعْتُمْ عليها مع العِدَى ... فَفُزْتُم بها والصَّخْرُ يُقْرَعُ بالصَّخْرِ
وأَزْعَجَهُ مِنْ مِصْرَ خَوْفٌ يلزُّهُ ... كما لُزَّ مهزومٌ من اللَّيلِ بالفَجْرِ
وكم وقعةٍ عذراء لما اقْتَضَضْتَها ... بسيفِكَ لم تَتْرُكْ لغيرِكَ من عُذْرِ
وأيديكُمُ بالبأسِ كاسِرَةُ العِدَى ... ولكنَّها بالجودِ جابرةُ الكَسْرِ
أبوكَ الذي أضحى ذخيرةَ مَجْدِكُمْ ... وأنتَ له خيرُ النَّفائسِ والذُّخْرِ
ومن كنتَ معروفاً له فاستفزَّهُ ... بمثلكَ تِيهٌ فهو في أَوْسَعِ العُذْرِ
فكيفَ أبٌ أصبحتَ نارَ زِنادِهِ ... وإلاّ كَنُورِ البَدْرِ من سَنَهِ البَدْرِ
توقِّره وسطَ النَّدِيِّ[1] كرامةً ... وتحمِلُ عنه ما يَؤُودُ من الوِقْرِ

(١) الندي: مجلس القوم نهاراً. «اللسان» (ندي).

وتَخْلُفُه حَرْباً وسِلْماً خلافةً ... تُؤَلِّفُ أَضْداداً من الماءِ والجمْرِ
وكم قُمْتَ في بأسٍ وجودٍ ورُتْبَةٍ ... بما سرَّه في الخَطْبِ والدَّسْتِ والثَّغرِ
ولو أَنْطَقَ اللَّهُ الجمادات لم تَقُمْ ... لِنِعْمَتِكُمْ بالمُسْتَحِقِّ من الشُّكْرِ
يَدٌ لا يقوم المسلمونَ بِشُكْرِها ... لكم آلَ أيوبِ إلى آخرِ الدَّهْرِ
بِكُمْ أمَّنَ الرَّحمنُ أعظمَ يَثْرِب ... وأَمَّنَ أركانَ البَنِيَّةِ[1] والحِجْرِ
ولو رَجَعَتْ مِصْرٌ إلى الكُفْرِ لانطوى ... بساطُ الهُدَى من ساحةِ البَرِّ والبَحْرِ ١/ ١٦٤
ولكنْ شَدَدْتُمْ أَزْرَه بوزَارةٍ ... غدا لَفْظُها يُشْتَقُّ من شِدَّةِ الأَزْرِ
فهُنِّيتُمُ فَتْحاً تقدَّمَ جُلُّه ... وبَشَّرَ أَنَّ الكلَّ يتلُو على الإِثْرِ
وما بَقِيَتْ في الشِّرْكِ إلاّ بقيةٌ ... تَتِمَّتُها في ذِمَّةِ البيضِ والسُّمْرِ
وعندَ تَمامِ المُلْكِ آتي مهنئاً ... ومُلْتَمِساً أَجْرَ الكَهانةِ والزَّجْرِ[2]
ولولا اعتقادي أَنَّ مَدْحَكَ قُرْبَةٌ ... أرجِّي بها نَيْلَ المثوبةِ والأَجْرِ
لما قُلْتُ شِعْراً بعد إعفاء خاطري ... ولي سَنَواتٌ منذُ تُبْتُ عن الشِّعْرِ
فأَوْصِ بيَ الأيامَ خيراً فإنّها ... مُصَرَّفةٌ بالنَّهْي منك وبالأمْرِ
وجائزتي تسهيلُ إذني عليكم ... وملقاكُمُ لي بالطَّلاقةِ والبِشْرِ[3]

وقال أيضاً من قصيدةٍ:

يا شبيه الصِّدِّيقِ عَدْلاً وَحُسْنا ... وسَمِيًّا حَكَاه معنىً ومغنى
هذه مِصْرُ يوسفٍ حَلَّ فيها ... يوسُفٌ مالكاً وما حَلَّ سِجْنا
أنتَ حرَّمتَ أنْ يُثَلَّثَ فيها ... بِسوى اللَّهِ وحدَه أو يُثَنَّى

---

(١) البنية: الكعبة لشرفها، إذ هي أشرف مبني. «اللسان» (بني).
(٢) الزجر: ضرب من الكهانة. انظر «اللسان» (زجر).
(٣) انظر أبياتاً من هذه القصيدة في «المختار من ديوان عمارة اليمني» المنشور في آخر «النكت العصرية»: ٢٧٠ ـ ٢٧١.

إنَّمـا المُلْـكُ والـوِزَارَةُ جِسْـمٌ   أنـتَ رُوحٌ فيـه وفـي اللَّفْـظِ معنـى[1]

وقال أيضاً من قصيدةٍ:

مُلْكُ صلاحِ الدين لا قُوِّضَتْ   أطنـابُـهُ مُلْـكُ التُّقـى والصَّـلاحْ
سِيـرةُ عَـدْلٍ حَسَّنَـتْ عنـدنـا   ما كانَ من وَجْهِ اللَّيالي القِباحْ
سـافَـرَ فـي الـدُّنيـا وأقطـارِهـا   ذِكْـرٌ غـدا عنـهُ جميـلاً وراحْ
قُـلْ لابـنِ أيـوبٍ وكـمْ نـاصـحٍ   أنفـعُ ممـن هـو شـاكـي السِّـلاحْ
حـاربْ علـى مِثْـلِ نجـومِ السَّمـا   فمُلـكُ مِصْـرٍ مـا عليـه اصْطِـلاحْ
قـولا لمـن فـي عَـزْمِـهِ فتـرةٌ   ارجـعْ إلـى الجِـدِّ وخَـلِّ المُـزَاحْ
فـالقُـدْسُ قـد أذَّن إغـلاقُـهُ   علـى يَـدَي يـوسـفَ بـالانفتـاحْ[2]

وقال أيضاً من قصيدةٍ:

ونُبْتَ بِمِصْرَ عن سَمِيِّكَ يُوسُفٍ   كما نابَ عن سَكْبِ الحَيا واكِفٌ سَكْبُ
حذوتَ على سَجْلَيْ نَدَاه وَهَدْيِهِ   وإن كنـتَ لا سِجْـنٌ حـواكَ ولا جُـبُّ
ووافَقْتَهُ في الصَّفْحِ عن كلِّ مُذْنِبٍ   فما منك تَثْرِيْبٌ وإنْ عَظُمَ الخَطْبُ

وللحكيم عبد المنعم الجِلْياني[3] من قصيدةٍ طويلة:

---

(١) انظر القصيدة بتمامها في «تكملة ديوان عمارة»: ٤٠٧ ــ ٤٠٨.

(٢) انظر مختارات من هذه القصيدة في «المختار من ديوان عمارة اليمني»: ١٩٢ ــ ١٩٣.

(٣) في (م) الجيلاني، وهو تحريف، وهو عبد المنعم بن عمر بن عبد الله بن حسَّان، الجلياني الغَسَّاني الأندلسي، طبيب شاعر، أديب متصوف، كان يقال له «حكيم الزمان»، من أهل جليانة، وهي حصن من أعمال وادي آش بالأندلس، انتقل إلى دمشق، وأقام فيها، وكان السلطان صلاح الدين يجله ويحترمه، وله فيه مدائح كثيرة، أشهرها «المدبجات» والتي تسمى «منادح الممادح وروضة المآثر والمفاخر في خصائص الملك الناصر». منه نسخة في دار الكتب الظاهرية بدمشق تحت رقم ٣٢٩٨، وشعره حسن السبك، وفيه جودة، ولد سنة (٥٣١ هـ) وتوفي بدمشق سنة =

أبو المُظَفَّر مأوى كلِّ مُضْطَهَدٍ[1] بحلمِـه ونَـدَاه يُضْـرَبُ المَثَـلُ
مهمـا يَمِـلْ جـائِـرٌ أو عـائِـثٌ عَمِـهٌ فعنـد عَـدْلِ صـلاحِ الـدِّيـن يَعْتَـدِلُ
أحيـا بـه اللّـهُ مِصْـراً فهـي نـاشِـرة[2] وافتكَّهـا مـن عـدوٍّ مـا بـه قِبَـلُ
كـم للفـرنـج بهـا وِرْداً ومنتَجعـاً ونـارُهُـمْ حـولَهـا تـذكُـو وتَشْتَعِـلُ
فـأطفـأ النَّـاصِـرُ المنصـورُ جَـذْوَتَهُـمْ وأَدْبَـرُوا بقلـوبٍ شَهْمُهـا وَجِـلُ
مَلْـك تقلَّـد سِلْـكَ الملـكِ[3] مُنْتَظِمـاً وقـال للمـال: هـذا منـك لـي بَـدَلُ
فَفَـرَّقَ المـالَ جَمْعـاً للقلـوبِ بـه وحَسْبُـهُ فيهـمُ إدراك مـا سـألُـوا
إنَّ الملـوكَ الـذيـن امتـدَّ أمـرهُـمُ لم يَخْزُنُوا المالَ بل مهما حوَوْا بَذَلُوا
كـذا السِّيـاسـةُ فـالأجنـادُ لـو عَلِمـوا بُخْلَ المليك وجاءَتْ شِدَّةٌ خَذَلوا[4]

فصـــل

هذا الذي ذكرناه من قِصَّة شاور وما جرى بسببه في الدِّيار المصرية إلى

= (٦٠٢ هـ) وقيل سنة (٦٠٣ هـ).

انظر ترجمته في «معجم البلدان»: ٢/ ١٥٧، و«عيون الأنباء في طبقات الأطباء»: ٦٣٠ ـ ٦٣٥، «والغصون اليانعة» لابن سعيد: ١٠٤ ـ وقد تداخلت فيه ترجمته مع ترجمة أبي الحكم الباهلي الوارد ذكره ص ١٦٦ من الجزء الأول ـ و «الذيل والتكملة» للمراكشي: السفر الخامس، القسم الأول: ٥٧ ـ ٥٨ وفيه أنه نزل بالقاهرة، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٧٦ ـ ٤٧٧، و «الوافي بالوفيات»: ٢/ ٤٠٧، و «نفح الطيب»: ٢/ ٦١٤، ٦٣٥ ـ ٦٣٧، ٤/ ٣٢٩، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٩/ ٢٣٦ ـ ٢٣٩، ١٠/ ٣١٧، ٢٠/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠، وانظر فهرس مخطوطات الظاهرية قسم التصوف: ١/ ٤٦ ـ ٤٧، وقسم الأدب: ٢/ ٢٩٨ ـ ٣٠١.

(١) في (ل): مضطيد، وهي تصحيف.

(٢) في الأصل: ناشزة، وهي تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (م): المجد.

(٤) في (م): جذلوا. قلت: وسيأتي بعض أبياتها ص ١٥٣ من هذا الجزء.

١٦٥/١ أن تمَّت وزارة صلاح الدين قد وجدته مبسوطاً مشتملاً على زياداتٍ وفوائد في كتابٍ ليحيى بن أبي طي الحلبي في «السِّيرة الصَّلاحية»[1]، فأحببتُ ذكره مختصراً.

ذكر أنَّ الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك؛ وزير الدِّيار المصرية، لما

(١) يحيى بن حميدة بن ظافر بن علي، الغساني، الحلبي، الشهير بابن أبي طي، مؤرخ، شيعي، ولد سنة (٥٧٥ هـ)، واشتغل بصنعة النجارة مع أبيه زمناً، ثم تركها، وحفظ القرآن، ومال إلى طلب العلم، ثم انتقل إلى تعليم الصبيان، وإقراء القرآن إلى سنة (٥٩٧ هـ)، ثم اختص بتعليم ابنٍ لأحد الوزراء إلى سنة (٦٠٠ هـ)، ثم ترفع عن التعليم ولزم منزله وطلب مشايخ الأدب، فقرأ عليهم ودرس، ثم أقبل على نظم الشعر، ومدح الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، وارتفعت منزلته عنده، وولاه نقابة الفتيان سنة (٦٠٩ هـ)، ثم أحب التصنيف، فصنف كتباً في التاريخ وتفسير القرآن الكريم والفقه والأصول، من كتبه التاريخية التاريخ الأكبر المسمى «معادن الذهب في تاريخ حلب» جمع فيه أخبار الملوك والعلماء وأخبار الشام، وابتدأ فيه من أول الفتوح إلى سنة (٥٨٩ هـ). وله أيضاً «سلك النظام في أخبار الشام» و «كنز الموحدين في سيرة صلاح الدين» وهو الذي اختصر منه أبو شامة هذا الفصل، ولم يصلنا أي من كتبه التاريخية بعد، وفي مكتبة الاسكوريال كتاب ينسب له عنوانه «المنتخب في شرح لامية العرب» قال فيه العلامة الشنقيطي: «هو شرح لا نظير له»، توفي ابن أبي طي سنة (٦٢٧ هـ) وقيل سنة (٦٣٠ هـ).

انظر ترجمته في «لسان الميزان»: ٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤ ـ وفيه ينقل عن ياقوت، وترجمته ساقطة من «معجمه» المطبوع ـ و «كشف الظنون» ٢/ ١٥٢٠، و «أعيان الشيعة»: ١٠/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧، و «إعلام النبلاء»: ٤/ ٣٥٣ ـ ٣٥٤، و «التاريخ العربي والمؤرخون» للدكتور شاكر مصطفى: ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٥ وقد مرَّ ذكر ابن أبي طي مراراً في أثناء هذا الكتاب، أرجأت الحديث عنه إلى هنا.

وفي مجلة الكتاب (المصرية) المجلد ٦/ ٤٧٦ ـ ٤٧٨ تعقيب عنه للعلامة مصطفى جواد ذكر فيه أن ابن شهراسوب وهو زوج أخت ابن أبي طي توفي سنة (٥٥٨ هـ) وهو وهم، صوابه سنة (٥٨٨ هـ) ، انظر «الوافي بالوفيات»: ٤/ ١٦٤.

قُتل في رمضان سنة سِتٍّ وخمسين[١]، بتدبير عمة العاضد عليه، أوصى عند موته ابنَه رُزِّيك بشاور، وقال له: لا تزلزله من ولايته، فإنه أسلم لك [ولملكك][٢]، ويقال: إنه أنشد أبياتاً، منها:

فـإذا تبـدَّد شَمْـلُ عِقْـدكمـا ... لا تأمَنَا مـن شـاور السَّعْدِي

وكان شاور متولي قُوص* والصَّعيد الأعلى؛ فلما دُفن الصَّالح استوزر ابنه رُزِّيك ولقب بالعادل. ولما استقرَّت أحواله أرسل إلى عمَّة العاضد فخنقها، واجتمع إلى رُزِّيك أولادُ عمته، ومن جُملتهم عز الدين حسام، وأشاروا عليه بعزل شاور، فامتنع، ثم ألحُّوا عليه، فأجاب. وبلغ شاور فجاهر بالعصيان، وجمع العربان وأهل الصَّعيد وسار[٣] إلى القاهرة، وخرج إليه جماعةٌ من أمرائها كانوا كاتبوه، فخرج رُزِّيك تحت الليل، فَضَلَّ الطريق وتاه، فوقع عند إطْفِيح*، وثَمَّ بيوت عرب، فقبضوا عليه، وحُمل إلى شاور وقد دخل القاهرة وتسلَّمها، وأُخرجت إليه خلع الوزارة، وتَمَّ أمرُهُ.

ولما حصل رُزِّيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به، ونادى عليه: هذا جزاء من لا يراعي الجميل. وكان للصَّالح إليه إحسان، وتفرَّق آل رُزِّيك في البلاد، ونجا حسام الذي كان سبب هلاك بني رُزِّيك بأموال، وصار إلى حماة، فأقام بها واشترى القُرى، ولم يزل بها إلى أن مات. وكان في خروجه أودع عند الفرنج سبعينَ ألف دينار، فوفَوْا له وردُّوها عليه، ثم أراد تقي الدين[٤] أخذها منه، فقال: من العجب أنَّ الفرنج تفي لي بردِّها وتأخذها أنت مني. فكفَّ عنه.

---

(١) انظر ص ٣٩٠ من الجزء الأول.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) في الأصل: وصار، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) هو تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ابن أخي السلطان صلاح الدين، صاحب حماة، =

قال: وتمكَّن شاور، وكان له ثلاثة أولاد: طيّ، والكامل، وسليمان، فتبسَّطوا على الناس، وتعاظموا، فمَجَّتهم الأنفس.

وكان مُلْهَم وأخوه ضِرْغام من صَنائع الصَّالح بن رُزِّيك، فلما شاهدا ميل النَّاس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رُزِّيك بن الصَّالح، وهو في السجن، والعمل له في إعادته إلى الوزارة، واتصل ذلك بطيّ بن شاور، فدخل على أبيه وقال له: أنت غافل، ومُلْهَم وضِرْغام يفسدان أمرك، وقد شرعا في أمر رُزِّيك، واستحلفا له جماعة من الأُمراء، ولا يمكن تلافي حالك إلا بقتل رُزِّيك. فقال له شاور: إنَّ الصَّالح أولاني جميلاً، وبسببه حللتُ هذا المحل. فتركه ولده طيّ، ودخل على رُزِّيك فقتله في سجنه، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته؛ ونُمي الخبر إلى ضِرْغام وأخيه مُلْهَم فثارا وأثارا من استحلفاه من الأُمراء، وزحفَا بالعساكر [إلى شاور](1)، فانهزمَ وخرجَ من باب القاهرة، وهرب إلى الشَّام، وأدرك ضرغام ولديه طيئاً وسليمان فقتلهما، وأَسَرَ الكامل، فأخذه مُلْهَم واعتقله عنده، وأراد ضِرْغام قتله فمنعه منه مُلْهَم، وحَفِظَ له جميلاً كان قد فعله معه.

واستقرَّ أمر ضِرْغام في الوِزَارة، وخُلِعَ عليه، ولقِّب بالملك المنصور. ولما استقرَّ به الأمر بلغه أن جماعةً من الأُمراء حسدوه واستصغروه وكاتبوا شاور ــ وكان صار إلى الشَّام ــ فأخذ في إعمال الحيلة عليهم، وأحضرهم إلى دار الوزارة ليلاً، فقتلهم جميعاً، ولم يتعرَّض لأموالهم ولا لمنازلهم. وقيل: إنه قتل منهم سبعين أميراً، ويقال: إنه جعلهم في توابيت [و](2) كتب

= تولاها سنة (٥٨٢ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٢٧ من الجزء الأول.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

على كلِّ تابوتٍ اسمَ صاحبه، فكان ذلك أكبر الأسباب في هلاكه، وخروج دولة المصريين [عن يد أصحابها][1] لأنه أضعفَ عسكر مصر بقتل الأمراء.

وأما شاور فإنه لما خرج من القاهرة سار على وجهه حتى وصل إلى دمشق بعد تحقُّقِهِ قتل ولديه. ولما وصل إلى بُصْرى* اتصل خبره بنور الدين، فندب جماعة إلى تلقِّيه، وأنزله في جَوْسَق[2] الميدان الأخضر*، وأحسن ضيافته وإكرامه. ثم بعد سبعة أيام من مقدمه أحضر نور الدين ابن الصُّوفي[3] وجماعة من وجوه الدِّمَشْقيين وقال لهم: اخرجوا إلى هذا الرجل، وسلِّموا عليه، وعرِّفوه أعذارنا في التقصير في حَقِّه، وسَلُوه فيما قَدِمَ، وما حاجتُهُ، فإن كان ورد علينا مختاراً للإقامة أفردنا له من جهاتنا ما يكفيه ويقوم بأرَبه وأَوَده، وتكون عوناً له على زمانه، وإن كان ورد لغير ذلك فيفصح عن حاجته. فخرج الجماعة [إليه][4] بالرِّسالة، فشكر إحسان نور الدين، وسكتَ عما وراء ذلك. فسأله القوم الجواب، فقال: إذا لم يبيَّت الرأي جاء فطيراً. فعاد القوم إلى نور الدين، وَعرَّفوه ما دار بينهم وبينه، فأمر بالعَوْد إليه من غدِ ذلك اليوم، فعادوا، وطلبوا الجواب، فسكت أيضاً

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٥.

(٢) الجوسق: القصر، فارسي معرب. انظر «المعرب» للجواليقي: ٩٦، و «اللسان» (جسق).

(٣) في (ل) و (م): لابن الصوفي. وبنو الصوفي كانوا رؤساء دمشق، من أشهرهم الوزير زين الدولة حيدرة، ومؤيد الدين المسيب، قتل زين الدولة سنة (٥٤٨ هـ)، ومات مؤيد الدين سنة (٥٤٩ هـ) ولعل المقصود منهم في هذا الخبر هو عز الدولة. انظر ص ٢٨٩ ـ ٢٩١، ٣٠٨ من الجزء الأول.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

وأطال، ثم قال: إن رأى نورُ الدين ــ أطال الله بقاءه ــ الاجتماع بي، فله علوُّ الرأي. فعرَّفوا نور الدين بمقالته، فأجاب نور الدين إلى أن يكون الاجتماع على ظَهْرٍ بالميدان الأخضر*. وركب نور الدين من الغد في وجوه دَوْلَته وخواصِّ مملكته في أحسن زِيٍّ وأكمل شارة[1]. فلما دخل الميدان ركب شاور من الجَوْسَق، والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط، ولم يترجَّل أحدٌ منهما لصاحبه. ثم سارا من موضع اجتماعهما، وهو نصف الميدان، إلى آخره، ثم انفصلا من هناك، وعاد نور الدين إلى قلعة دمشق، وأخذ من وقته ذلك في جمع العساكر.

١٦٦/١ وأما ضِرْغام فإنه حين استقرَّ به الأمر أنشأ كتاباً إلى نور الدين، على يد علم الملك ابن النَّحَّاس[2]، يُظْهر فيه الطَّاعة ويعرِّض بخِذْلان شاور، فأظهر نور الدين لعلم الملك القَبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن، وأجاب عن الكتاب، وانفصل علم الملك عن دمشق. فلما كان بظاهر الكَرَك* أخذه فيليب بن الرفيق الفرنجي[3]، وحصل على جميع ما كان معه، وانهزَم علم

---

(١) وأكمل شارة، ساقطة من (ل).

(٢) هو علم الملك، أبو فراس يحيى بن جعفر بن عبد الجليل، الحميري المصري، من أمراء الدولة المصرية، ثم خدم السلطان صلاح الدين، وقدم معه الشام في خدمة تقي الدين، أورد له العماد نتفا من أشعاره، وقال ابن الفوطي: كان جده يعرف بالقائد مصطنع الدولة، ويعرف بابن النحاس، ولم يكن في أجداده من كان نحاساً، إنما ابتاع داراً بالإسكندرية من رجل يعرف بابن النحاس، فلما سكن الدار قيل له ابن النحاس، وهو من ولد تميم بن المعز الصنهاجي، توفي سنة (٥٨٩ هـ). انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ٢/ ١٢١ ــ ١٢٣، و «تلخيص مجمع الآداب» لابن الفوطي: ج ٤ ق ١/ ٦٣٠ ــ ٦٣١.

(٣) هو فيليب ميللي، وكان إقطاعه شرقي الأردن، ثم أصبح مقدم الدَّاوية، ثم استعفى وغدا سفيراً للملك أملريك في القسطنطينية. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» =

الملك بنفسه، وتوجَّه إلى السَّاحل، وسار إلى مصر.

وفي هذه الأيام أنفذ نور الدين، واستحضر أسد الدين شِيركُوه من إقطاعه من الرَّحبة*، وكان نور الدين قد تيمَّن بأسد الدين، وَتبَرك بميمون نقيبته، لأنه لم يرسله في أمرٍ إلا نجح، ولم يولجه في مضيقٍ إلا انفتح. ولما حضر أسد الدين إلى دمشق أخلاه نور الدين، وتحدَّث معه بأشياء في أمر مصر، وأمرَه بالاستعداد، وكان نور الدين قد أزاح عِلَّة العسكر الذي يريد يسيره[1] إلى مصر، فخرج من يومه.

وكان شاور قد أطمع نور الدين في أموال مصر، ورغَّبه في ملكها، وأنه إذا ملكها كان من قِبَلِه فيها.

ولما بلغ شاور استتبابُ أمر العسكر سأل عن المقدَّم عليه، فقيل له أسد الدين شِيركُوه، فلم يطب له ذلك، لأنه ظَنَّ أن التقدمة تكون له، فلما زُوحم[2] بهذا العود سُقِطَ في يده، وَفُتَّ في عَضُده، ولم يجد بُدًّا من المسير، فخرج واجتمع بأسدِ الدين، وسارا جميعاً حتى وصلوا[3] أطرافَ البلاد المصرية، ونزلوا على تلٍّ في الحوْف[4] قريبٍ من بِلْبِيس* يُعْرف بتل بسطة، وضربوا خيامهم هناك.

= لرنسيمان «الترجمة العربية»: ٢/ ٥٤٠، ٥٨٠، ٦٣١. وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٥١ من هذا الجزء.

(١) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٦ تسييره.

(٢) في الأصل: زحم، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م): وصلا.

(٤) جميع ريف بلبيس يسمونه الحوف. انظر «تاج العروس» (حوف). وقال ياقوت: الحوف بمصر حوفان: الشرقي والغربي، وهما متصلان، أول الشرقي من جهة الشام، وآخر الغربي قرب دمياط، يشتملان على بلدان وقرى كثيرة. «معجم البلدان»: ٢/ ٣٢٢.

ولما اتصل بضِرْغام خبرُ ورود شاور وأسد الدين بالعساكر الشَّامية جمع أمراء مصر واستشارهم، فأشار شمس الخلافة محمد بن مختار بأن تجتمع العساكر وتَخرج جريدة، وتَلقى العساكر الشَّامية بصَدْر* ــ وهو على يومين من القاهرة ــ فإنهم لا يثبتون، لكونهم خرجوا من البرية ضعفاء، ولمكان قِلَّة الماء عليهم، لأن المسافر إلى مصر يحمل الماء من أَيْلَة* مسيرةَ ثلاثة أيام. فلم يَرَوْا ذلك، واختاروا أن [يلقوهم][1] على بِلْبيس*. فأمر ضِرْغام الأمراء بالخروج، فخرجوا في أحسن زِيٍّ وأكمل عُدَّة، والمقدَّم عليهم ناصر الدين مُلْهَم؛ أخو ضِرْغام، وجاؤوا حتى أحاطوا بالتل الذي كان أسد الدين نازلاً عليه.

ولما عاين أسد الدين كثرة العساكر، وأنهم قد ملكوا عليهم الجهات، وسدُّوا منافذ الطُّرقات، قال لشاور: يا هذا[2]، لقد أرهقتنا وغَرَّرتنا، وقلتَ إنه ليس بمصر عساكر، فجئنا في هذه الشرذمة! فقال له شاور: لا يهولنَّك ما تشاهد من كثرة الجموع، فأكثرها الحاكة والفلاحون الذين يجمعهم الطَّبْلُ وتفرقهم العصا، فما ظنُّك بهم إذا حمي الوطيس وكَلِبَتْ الحرب! وأما الأمراء فإن كتبهم عندي وعهودهم معي، وسترى ذلك إذا لقيناهم[3]. ثم قال: أريد أن تأمر العساكر بالاستعداد والركوب[4]، ففعل، ونهاهم شاور عن القتال.

ووقف الفريقان مصطفين من غير حرب إلى أن حمي النهار، والتهبَ الحديدُ على أجساد الرِّجال، فضرب أكثرُ أهل مصر الخيم الصِّغار، وخلعوا

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: ما هذا، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): وسنقرىء ذلك لك إذا لقيناهم.
(٤) في الأصل: للوثوب، وهي ساقطة في (ل)، والمثبت من (م).

السِّلاح، ونزلوا عن الخيول، وجلسوا في الظلِّ. فأمر شاور الناس بالحملة، فكان أسعد أهل مصر من ركب فرسه، وأطلق عِنانه وولّى منهزماً. وتركوا خيمهم وأموالهم ليس لها حافظ، فاحتوى عليها أصحابُ أسد الدين، وأُسر شمس الخلافة وجماعة من أمراء المصريين، ولم يمكن شاور[(١)] من تقييدهم والاحتياط عليهم فهربوا. وساق أسد الدين وشاور[(١)] في إثر النَّاس، ونزلوا على القاهرة وقاتلوها أياماً، وراسل شاور العاضد في إصلاح الحال، وأن يأذن له في الدخول إلى القاهرة، فأذن له.

وكان ضِرْغام صار[(٢)] إلى تحت القصر وقال: أريد أمير المؤمنين يُكلِّمني لأسأله عما أفعل. فلم يجبه أحد، فذهب على وجهه منهزماً، وخرج من باب زُوَيْلَة*، والعامة تلعنه وتصيح عليه، فالتحقه رجلٌ من أهل الشَّام ليقتله، فقال له ضِرْغام: أوصلني إلى أسد الدين ولك مُناك. فلم يقبل منه، وحمل عليه فطعنه، فأرداه، ونزل إليه، واحتزَّ رأسه وحمله إلى أسد الدين، وأعلمه بما جرى بينهما، فصَعُبَ على أسد الدين وأوجعه ضرباً، وأراد قتله، فشفع فيه شاور. ودخل شاور القاهرة وقتل مُلْهماً أخا ضِرْغام عند بركة الفيل، وخرج ابنه الكامل من دار مُلْهَم، وكان معتقلاً فيها، وخرج معه القاضي الفاضل وكان أيضاً معتقلاً فيها معه.

واستقام أمر شاور في الوزارة، وأقام أسد الدين على المَقْس* ينتظر أمر شاور فيما ضَمِنَ لنور الدين، وأرسل إليه يقول له: قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضَجِرَ العسكر من الحَرِّ والغبار. فأرسل إليه شاور ثلاثين ألف دينار وقال: ترحل الآن في أمن الله تعالى ودَعَتِهِ[(٣)]. فلما سمع أسد الدين

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) في (م): سار.

(٣) في (ل) و (م): وفي دعته.

ذلك أرسل إليه: إنَّ نور الدين أوصاني عند انفصالي عنه، إذا ملك شاور تكون مقيماً عنده، ويكون لك ثلث مُغَلِّ البلاد، والثلث الآخر لشاور وللعسكر، والثلث الآخر لصاحب القصر يصرفه في مصالحه. فقال شاور: أنا ما قرَّرْتُ شيئاً مما تقول، أنا طلبتُ نجدةً من نور الدين، فإذا انقضى شغلي عادوا إلى الشَّام، وقد سيرتُ إليكم نفقةً فخذوها وانصرفوا، وأنا أنفصل[1] مع نورِ الدين. فقال أسد الدين: أنا لا يمكنني مخالفة نور الدين، ولا أقدر على الانصراف إلا بإمضاء أمره. فأمر شاور بإغلاق باب[2]
١٦٧/١ القاهرة، وأخذ في الاستعداد للحصار، واستعدَّ أسد الدين أيضاً، وسيَّر صلاحَ الدين في قطعةٍ من الجيش[3] إلى بِلْبِيس* لجمع الغِلال والأتبان[4] والأحطاب وما تدعو الحاجة إليه، ويكون جميع ذلك في بِلْبيس ذَخيرة، وأخذ في قتال القاهرة.

وكاتب شاور ملك الفرنج مُرِّي* يستنجده ويقول له: إن شِيركُوه طلع معي نجدةً على ضِرْغام، فلما حصلوا في البلاد طمعوا فيها، ومتى ملكوها مضافةً إلى بلاد الشام لم يكن لك[5] معهم عيشٌ ولا قرار. وضَمِنَ له في كل مرحلةٍ يرحلها إلى ديار مصر ألف دينار، وقرر شيئاً لقضيم دوابهم وشيئاً لاسبتاريته*. فخرج مُرِّي من عَسْقلان في جموعه إلى فاقُوس* في سبع

(١) في الأصل: أتصرف، ثم ضرب عليها، وكتب: أنفصل، وهي بمعناها، ومثبتة في (ل) و (م). وقد استعملت بمعنى قريب منه في ذلك العصر أيضاً. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الطبعة الفرنسية): ٢/ ٢٧١.
(٢) في (م): أبواب.
(٣) في الأصل: الخدم، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) الأتبان جمع، مفردها تبنة، وهي ما تهشم من سيقان القمح والشعير بعد درسه تعلفه الماشية. وتجمع أيضاً على تبن. انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٨٧، و«المعجم الوسيط» ١/ ٨٢.
(٥) في الأصل: لكم، والمثبت من (ل) و (م).

وعشرين مرحلة، وقبض عنها سبعة وعشرين ألف دينار.

ولما تحقَّق أسدُ الدين قُرْبَ الفرنج من[1] القاهرة أجفل عنها إلى بِلْبِيس، وانضاف إليه من أهلها الكنانيَّة. وخرج شاور في عساكر مصر واجتمع بالفرنج، وجاء حتى خيَّم على بِلْبيس، وأحاط بها محاصراً لأسد الدين، يباكر الحرب ويُرَاوحها، وأقاموا على ذلك مدة ثمانية أشهر.

وانقطعت أخبارُ مصر ومن بها عن نور الدين، وكان اتصل بنور الدين ـ وهو بدمشق ـ خبرُ مسير الفرنج إلى ديار مصر وغدر شاور؛ فكاتَبَ الأطراف بقدوم العساكر، فَقَدِمَ عليه عساكر الشَّرق جميعها، واجتمعوا بأرض حلب، فنزل بهم مجد الدين ابن الدَّاية ـ وكان نائب نور الدين بحلب ـ وسار إلى جهة حارِم*، ونزل على أَرْتاح*، وخرج نور الدين من دمشق، وشنَّ الغارة على السَّاحل، وقتل وأسر عالماً عظيماً، ثم قصد جهة حلب، وجعل طريقه حصن الأكراد*، فلما حصل بأرضه شنَّ الغارة فيها، وغنم غنيمةً عظيمة، ونزل في مَرْجه، فخرج إليه الفرنج الإخوة من حِصْن الأكراد، وهجموا عسكره، وقتلوا جماعةً من المسلمين، وكان عسكر نور الدين غافلاً فلم يتماسكِ النَّاس، وساروا على وجوههم.

وسار نور الدين إلى أن اجتمع بعساكره على أَرْتاح، وكان أخوه نُصْرة الدين مع الفرنج[2]، فلما عاين أعلام نور الدين لم يتماسك أن حمل بجميع

(١) في الأصل: إلى، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انفرد ابن أبي طي بهذا الخبر، وقد سلف أن نصرة الدين كان والياً على حران، وقد أخذها منه نور الدين سنة (٥٥٤ هـ) بعد نفرة بينهما، ثم ذُكِرَ أنه كان مع أخيه على حصار بانياس سنة (٥٦٠ هـ)، وقد أصابه سهم ذهب بإحدى عينيه، ثم سيذكر ابن أبي طي والعماد أن صلاح الدين أخذه رهينة أثناء حصاره حلب سنة (٥٧١ هـ) فيكون الذهبي قد وهم في ذكره في «العبر» ٤/ ١٦٩ في وفيات سنة (٥٦٠ هـ). انظر =

أصحابه قاصداً أخاه نور الدين، فلما قَرُب منه نزل، وقَبَّل الأرض بين يديه، فلم يلتفت عليه[1]، فتمَّ على وجهه. واصطفَّ الناس للحرب، فحملت الفرنجُ فكسرت الميسرة، ثم عادت، فوجدت راجلها جميعه قد قتل، والخيل قد أطبقت عليهم، فنزلوا عن الخيول وألقوا أسلحتهم وأذعنوا بالأمان، فأُخذوا جميعاً قبضاً بالأيدي.

وسار إلى حارِم* ففتحها، وأراد النُّزول على أنطاكية، فلم يتمكَّن لِشُغْلِ قلبه بمن في مصر من المسلمين، فانحرف قاصداً لدمشق، ونزل على بانياس*، فافْتَتَحها، وأغار على بلد طبريَّة، وجمع أعلام الفرنج وشِعافهم[2] وجعلها في عَيْبَة[3] وسلَّمها إلى نَجّاب، وقال له: أريد أن تُعمل الحيلة في الدُّخول إلى بِلْبِيس، وتخبر أسد الدين بما فتح الله على المسلمين، وتعطيه هذه الأعلام والشِّعاف، وتأمره بنشرها على أسوار[4] بِلْبيس*، فإنَّ ذلك مما يفتُّ في أعضاد الكُفَّار، ويدخل الوَهْن عليهم. ففعل ذلك، فلما رأى الفرنج الأعلام والشِّعاف قلقُوا لذلك وخافوا على بلادهم؛ وسألوا شاور الإذن في الانفصال. فانزعج شاور لذلك، وخاف من عاقبة الأمر، وسألهم التَّمهُّل أياماً، وجمع أمراءه للمشورة، فأشاروا عليه بمصالحة أسد الدين، وتكفَّل إتمام الصلح له الأمير شمسُ الخلافة، فأنفذه إليه، فَتَمَّ الصُّلْح على يديه، على أن يحمل شاور إلى أسد الدين ثلاثين ألف دينار أخرى.

= ص ٣٤٧ ــ ٣٤٩، ٣٨٢، ٣٨٦، ٤٣٧ من الجزء الأول وص ٤١٣ ــ ٤١٤ من هذا الجزء.

(١) كذا في النسخ الخطية، وفي طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٧: إليه، وهو الوجه.

(٢) مفردها الشَّعَفة، وهي الخصلة من الشعر. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٣٣٤.

(٣) في (م): غيبة، وهو تصحيف. والعيبة: ما يجعل فيه الثياب كالحقيبة. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٢٣٤.

(٤) في الأصل: في أسواق، والمثبت من (ل) و (م).

وحُكي أن شاور أرسل إلى أسد الدين، وهو محصور ببِلْبِيس*، يقول له: اعلم أنني [قد][(١)] أبقيت عليك ولم أمكِّن الفرنج منك لأنهم كانوا قادرين عليك، وإنما فعلت ذلك لأمرين: أحدهما أني ما أختار أن أكسر جاه المسلمين وأُقوِّيَ الفرنج عليهم، والثاني أني خِفت أن الفرنج إذا فتحوا بِلْبِيس طمعوا فيها، وقالوا: هذه لنا؛ لأنا فتحناها بسيوفنا. وما من [يومٍ][(٢)] كان يمضي[(٣)] إلا وأنا أُنفذ إلى أكابر الفرنج الجملة من المال، وأسألهم أن يكسروا هِمَّةَ الملك عن الزَّحف.

قال: وأقام أسد الدين بظاهر بِلْبِيس ثلاثة أيام، ورحلت الفرنج إلى جهة السَّاحل، وسار أسد الدين قاصداً الشام، وجعل مسيره على البرِّية.

واتَّفق أن البرنس أرناط[(٤)] صاحب الكَرَك* والشَّوْبَك* تأوَّل ليمينه التي حلفها لأسد الدين، وقال: أنا حلفتُ أني ما ألحق أسد الدين ولا عسكره في البر، وأنا أريد ألحقه في البحر[(٥)]. وركب في البحر[(٥)]، وصار في يومٍ واحد إلى عَسْقلان، وخرج منها إلى الكَرَك والشَّوْبَك، وجمع عسكره المقيم هناك، وقعد مرتقباً خروج أسد الدين من البرية ليوقع به، وعلم أسد الدين بمكيدة أرناط بالحَدْس والتَّخمين، فسلك طريقاً مِنْ خلف المكان الذي كان

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل زيادة: بمصر، وهي ليست في (ل) و (م).

(٤) Renaud de chatillon انظره في كشاف الأعلام. وهذا الخبر لا يصح، لأن أرناط كان وقتئذٍ أسيراً في سجن نور الدين، فقد أسر سنة (٥٥٦ هـ)، ولم يطلق إلا في سنة (٥٧١ هـ)، انظر ص ٤٠٠ من هذا الجزء، و «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان ٢/ ٥٧٧.

(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (ل) و (م).

فيه أرْنَاط، : شَقَّ إلى الغَوْر* وخرج من[1] البَلْقاء*، وسلَّمه الله تعالى منه. ودخل دمشق، واجتمع بنور الدين [وأخبره بالأحوال، وأعلمه بضعف ديار مصر، ورغَّبه فيها، وشوَّقه إلى ملكها، فرغب [فيها] نور الدين][2] وأمره بتجنيد[3] الأجناد واستخدام الرجال.

وأما شاور فإنه بعد رحيل أسد الدين والفرنج إلى بلادهم عاد إلى القاهرة، ولم يكن له هِمَّة إلا تَتَبُّع مَنْ علم أن بينه وبين أسد الدين معرفة أو صُحْبة. وكان اسْتَفْسَد جماعةً من عسكر أسد الدين منهم خشترين الكُرْدِي[4]، وأقطعه شَطَنَوْف[5]، وقتل شاور جماعةً من أهل مصر، وشرَّد آخرين.

ثم توجَّه أسد الدين في ربيع الأول سنة اثنتين وستين قاصداً الديار
١/١٦٨ المصرية[6]، وكتم أخباره، فما راع شاور إلا وُرُود كتاب مُرِّي* ملك الفرنج، يعرِّفه فيه أن أسد الدين قد فصل عن دمشق بعساكره قاصداً ديار مصر. فطلب شاور منه إعادة النَّجْدة، والمقرَّر من المال يصلُ إليه على ما

---

(١) في (ل): إلى.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م) و [فيها] مستدركة من طبعة وادي النيل: ١/ ١٦٧.

(٣) في (ل): بتجريد.

(٤) ولاه بعد صلاح الدين بزاعا سنة (٥٧١ هـ) انظر ص ٤٠٥ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل: شنطوف، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م) وهو ضبط ياقوت أيضاً ـ وفي (القاموس المحيط) شَطَنُوف ـ وهو بلد من نواحي كورة الغربية، عنده يفترق النيل فرقتين: فرقة تمضي شرقياً إلى تنيس، وفرقة تمضي غربياً إلى رشيد، وهو على فرسخين من القاهرة. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٤٤، و «القاموس المحيط» (شطف).

(٦) في (ل) و (م): الديار مصر.

كان يصل إليه في العام الماضي. فسار مُرِّي في عساكر الفرنج إلى مصر على جانب البحر، وكان أسد الدين سائراً في البر، فسبقه الفرنجُ ونزلوا على ظاهر بِلْبيس*، وخرج شاور بعساكر مصر، واجتمع بالملك، وقعدوا جميعاً في انتظار أسد الدين.

وعلم أسد الدين باجتماع الفرنج بشاور على بِلْبيس، فنكَّب عن طريقهم وأَمَّ الجبل، وخرج على إطْفِيح*، وهي في[1] الجنوب من مصر، وشنَّ الغارة هناك، واتصل بشاور خبرُه، فسار في عساكره، والفرنج في صحبته، يقفُو أثره. واتصل بأسد الدين ذلك فاندفع بين أيديهم حتى بلغ شَرُونَةَ[2] من صعيد مِصْر، وتحيَّل[3] في مراكب ركبها، وعدَّى إلى البرِّ الغربي. ولما استكمل تعديته أدرك شاور [بعضَ][4] ساقته ومنقطعي عسكريته، فأَوْقَع بهم. وأحضر شاور أيضاً مراكب، وقطع النِّيل في أثر أسد الدين بجميع جيوشه وجيوش الفرنج، وسار أسد الدين إلى الجِيْزة، وخيَّم بها مقدار خمسين يوماً، واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريين والطلحيين والقُرَشيين، فأنفذ أسد الدين إلى شاور يقول له: أنا أحلفُ لك بالله الذي لا إلّه إلاّ هو، وبكل يمين يثق بها المسلم من أخيه، أنني لا أقيم ببلاد مصر ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكِّن أحداً من التعرُّض إليها، ومن عارضك فيها كنت معك إلْباً عليه، وما أُؤمِّل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن هذا العدو قد حَصَل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة، وخلاصُه

(١) في الأصل: ودخل الجنوب.. والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (م): بشرونة، وهو تصحيف. وشرونة شرقي النيل. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٤٠.

(٣) في (م): وتخيل، وهي تصحيف.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

عسير، وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهزَ فيه الفُرْصة التي قد أمكنت، والغنيمة التي قد أُكْثِبَتْ، فنستأصل شأفته ونخمد نائرته[1]، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً.

فلما صار الرسول إلى شاور، وأدَّى إليه الرسالة أمر به فَقُتِلَ، وقال: ما هؤلاء الفرنج، هؤلاء الفَرَج! ثم أعلم الفرنج بما أَرْسَلَ به إليه أسد الدين، وأعلمهم بما أجابه[2]، وجدَّد لهم أيماناً وثقوا بها، وبلغ ذلك أسد الدين، فأكل يديه أَسَفاً على مخالفة شاور له في هذا الرأي، وقال[3]: لعنهُ الله، لو أطاعني لم يبق بالشَّام أحدٌ من هؤلاء الفرنج! ونزل شاور في اللُّوق* والمقسم*، وأمر بعمل الجسر بين الجِيزة والجزيرة، وأمر بالمراكب فَشُحِنَتْ بالرجال، وأمرهم أن يجيئوا من خلف عسكر أسد الدين.

ولما رأى أسد الدين ذلك كتب إلى أهل الإسكندرية يستنجد بهم على شاور لأجل إدخاله الفرنج إلى دار[4] الإسلام، وتضييعه أموال بيت مال المسلمين فيهم. فقاموا معه، وأمَّروا عليهم نجم الدين بن مَصَال ــ وهو ابنُ أحد وزراء المِصْريين[5] ــ وكان لجأ إلى الإسكندرية مستخفياً، فظهر في هذه الفتنة.

حدثني الإدريسي الشريف[6]، نزيل حلب، قال: كنتُ بالإسكندرية يومئذٍ فكتب معي ابن مصال كتاباً إلى أسد الدين، وقال لي: قل له إني

---

(١) في الأصل و (م): ناريته، والمثبت من (ل).

(٢) في (م): أجابهم.

(٣) في الأصل و (ل) زيادة: له، والمثبت من (م).

(٤) في (م): بلاد.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من هذا الجزء.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٧ من هذا الجزء.

أخبرك أن السلاح واصل. وكان أنفذ لأسد الدين خزانة من السلاح، قال: فسبقتُها[1] بيومين، وحضرتُ بين يدي أسد الدين، وأعطيته الكتب، وشافهته برسالة[2] ابن مَصال في معنى السلاح والآلات، ثم وَصَلَتْ الخزانة بعد يومين مع ابن أخت الفقيه[3] ابن عَوْف. قال: وبقينا على الجِيزة يومين، فوصل إلينا رسول ابن مُدافع يخبر أسد الدين بقرب شاور منه، ويأمره بالنَّجاة، فترك أسدُ الدين الخيام والمطابخ وما يثقل حمله، وسار سيراً حثيثاً حتى قارب دَلْجَة*، فأمر أسد الدين بنهبها فَنُهِبَتْ. ونزل النَّاس لتعشية الدواب فلم يُستتمَّ عليقها حتى أمر أسد الدين الناس بالرَّحيل، وأوقدت المشاعل ليلاً وسرنا، فإذا الجاووش* ينادي في النَّاس بالرُّجوع، وعاد أسد الدين إلى دَلْجة فنزل عليها، ونزل شاور على الأُشْمونين*. وأمر أسد الدين الناس أن يقفوا على تعبئة، فأصبحوا على ذلك والتقوا، فَقُتِلَ من أصحاب أسد الدين جماعة كثيرة[4] وانهزموا. وكان أسد الدين قد فَرَّق أصحابه فريقين[5]: فريقاً معه وفريقاً جعله مع صلاح الدين، وأنفذه ليأتي من خلف عسكر شاور، فدخل الضعف من هذا الطريق. ثم إن أصحاب أسد الدين تجمعوا وتماسكوا، وعلموا أنه لا منجىً[6] لهم إلاّ الصَّبر، فتحالفوا على

---

(١) في (م): فسبقتهما.

(٢) في الأصل: بمقالة، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: الأمير، والمثبت من (ل) و (م). وابن عوف: هو إسماعيل بن مكي بن إسماعيل بن عيسى بن عوف، شيخ المالكية في عصره، ولد سنة (٤٨٥ هـ) سمع منه السلطان صلاح الدين الموطأ، توفي بالإسكندرية سنة (٥٨١ هـ). انظر ص ٨٨ وما بعدها من الجزء الثالث، وترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٢٢ ــ ١٢٣.

(٤) في الأصل: كبيرة، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) في الأصل: فرقتين، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) في الأصل: لا ملجأ، والمثبت من (ل) و (م).

الموت وحملوا، وطلع صلاح الدين من ورائهم. فلم تزل الحربُ قائمةً إلى الليل، فولَّت عساكر الإفرنج والمصريين الأدبار، وكاد[1] مُرِّي* ملك الإفرنج يؤسر، وصار شاور ومن سَلِمَ معه إلى مُنْيَة ابن خَصِيب*، وسار أسد الدين على الفيُّوم إلى الإسكندرية فدخلها، ونزل القصر، وجعل فيه محبس الفرنج الذين أسرهم، وكان فيها ابن الزُّبير[2] متولياً ديوانها، فحمل إلى أسد الدين الأموال، وقوَّاه بالسِّلاح. وخاف أسد الدين أن يقصده شاور والفرنج فيحصروه، فربما تأذَّى بالحصار، فأمر صلاح الدين بالمقام بالإسكندرية وترك عنده جماعةً من العسكر، وَمَنْ به مرضٌ أو جراح أو ضعف، واستحلف له وجوه الإسكندرية وأوصاهم به، ورحل في أقوياء عسكره قاصداً إلى الصَّعيد. ونزل الفرنج وشاور على الإسكندرية وحاصروها مُدَّة ثلاثة أشهر بأشد القتال، وبذل أهلها في نُصْرة الملك النَّاصر أموالهم وأنفسهم، وقُتِلَ منهم جماعة عظيمة.

١٦٩/١ ولما صار أسد الدين بالصَّعيد حَصَّل من تلك البلاد أموالاً عظيمة، ولم يزل هناك حتى صام شهر رمضان. واتصل به اشتدادُ الأمر على الإسكندرية، فرحل من قُوص* إلى جهتها، واتَّبعه جماعةٌ كثيرة من العُرْبان وأهل تلك البلاد. وبلغ ذلك شاور فرحل هو والفرنج، واضطرَّ إلى الصُّلْح[3]، وضجرت الفرنج أيضاً، فتوسَّط ملك الفرنج في ذلك، فتقرَّر أمر الصلح على أن شاور يحمل إلى أسد الدين جميع ما غَرِمَهُ في هذه السَّفْرة، ويعطي الفرنج ثلاثين ألف دينار، ويعود كل منهم إلى بلاده. وطلب صلاح

(١) في (م): وكان، وهو تصحيف.

(٢) سلف ذكره ص ٢٥ من هذا الجزء.

(٣) في (م): واضطر أسد الدين إلى الصلح.

الدين من ملك الفرنج مراكبَ يحمل فيها الضعفاء من أصحابه، فأنفذ له عِدَّة مراكب.

قال الإدريسي: كنتُ في جُمْلة من خرج في المراكب، فلما وصلنا إلى ميناء عكّا أخذنا واعتقلنا في معصرة القصب إلى أن وصل الملك مُرِّي* فأَطْلَقَنا، فخرجنا إلى دمشق.

وخرج صلاح الدين من الإسكندرية بعد أن استحلف شاوَرَ لأهلها وألا يعرض لهم بسوءٍ، واجتمع بعمِّه أسد الدين.

ثم أنفذ شاور وقبض على ابن مَصَال وجماعة ممن أعان صلاح الدين، وضيَّق عليهم، وتتبَّعَ أهل الإسكندرية. واتصل ذلك بصلاح الدين، فاجتمع بملك الفرنج وقال له: إن شاور نقض الأيمان. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنه قبض على من لجأ إلينا. فقال: ليس له ذلك. وأنفذ إلى شاور وقال له: إن الأَيمان جرت على ألا تعرض لأحدٍ من أهل مصر ولا أهل الإسكندرية. وألزمه يميناً أخرى في ألا يعرض لأحدٍ ممن لجأ إلى أسد الدين أو صلاح الدين.

ولما شاهد من التجأ إلى الأسد والصَّلاح فساد تلك الأحوال خافوا من شاور، فأخذوا في الرَّحيل إلى الشَّام. واتصل[1] ذلك بشاور، فخرج بنفسه وجَمَعَ جميع من عَزَمَ على الرِّحلة إلى الشام[1]، وحلف لهم على الإحسان إليهم وحماية أنفسهم وأموالهم، فمنهم من سكن إلى أيمانه، ومنهم من لم يسكن ورحل.

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

وألهم الله تعالى أسد الدين أن الفرنج ربما خطر لهم[1] في مصر خاطر فقصدتها، فراسل الملك مُرِّي وقال له: قد سأل أهل مصر يمين الملك ألا يدخُلَ إليهم ولا يتعرَّض لهم. فامتنع الملك، ثم أجاب خوفاً أن يتحقق أسد الدين وشاور أنه ربما قصد ديار مصر، فربما اجتمعا عليه، فلم يجد بُدًّا من اليمين فحلف وحلف أصحابه، وخرج أسد الدين من مصر وفي قلبه الداء الدَّوي منها، لأنه شاهدها وشاهد مُغَلاَّتها، فوجدها أمراً عظيماً. فأخذ نور الدين في تهوين أمر مصر عليه، وأقطعه حِمْص وأعمالها.

وحدثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني غير واحد أن شاور كاتب نور الدين في ذلك، وضَمِنَ له أن يحمل في كلِّ سنة عن ديار مصر مالاً مصانعةً.

ولما بلغ شاور أن نور الدين صَرَفَ هِمَّةَ أسد الدين عن ذكر مصر والتعرُّض لها أنفذ رسولاً بهدية سنية، وأصحبه كتاباً حسناً، أوله: «ورد كتابٌ استدعى شكري وحَمْدي، واستخلص من الصَّفاء ما عندي، واستفرغ في الثناء على مُرْسله جَهْدي، فكأنما اسْتُمْلَتْ معانيه مما عندي، واشتملت على حقائق قصدي؛ وسررتُ للإسلام وأهله، والدين الذي وعد الله أن يظهره على الدين كلِّه، بأن[2] يكون مثلُه ملكاً من ملوكه، يُرجع إليه في عَقْده وحَلِّه، وتشير الأصابع وتُعقد الخناصر على عُلُوِّ محَلِّه. والله يزيده بمكانه[3] تثبيتاً وقوَّة، ويحقِّق على يديه مخايل النصر المَرْجُوَّة، فما أسعد[4]

(١) في (م): لها.
(٢) في الأصل: وأن، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل: بمكا، ثم ضرب عليها، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في الأصل: خرم بمقدار كلمة رسمت بخط مغاير (والقد) ولا معنى لها، والمثبت من (ل) و (م).

رأساً دلَّ على نُصْرَةِ الكلمة، ودعا إلى سبيل الفئة المُسْلِمة، ووفر على مصالح الأُمة قلوبَ رعاياها المنقسمة. وأنا متمم من هذا الأمر ما صدرَ مني، وباقٍ منه على ما نُقِلَ عني، لا أتغير عن المصلحة فيه، ولا يخالفُ ما أظهره منه لما أخفيه، ولا أستكثر كثيراً أصلُ إليه، وأتوصل به لما سبق للملك العادل من حقوقٍ استوجب شُكرَها قولاً وفِعْلاً، ونُصْرةٍ كانت في هجير الخُطُوب بَرْداً وظِلاً، وأَنْعُمٍ لا تزال آياتها بألْسُن الحمد تُتْلى وتملى، ولَعَمْري لقد بنى بها فخراً، وارتفع على الأملاك قَدْراً وذِكْراً، ووجب أن يستتمَّها فلا يصل إلى موارِدها الكَدَر، ويحوطَها فلا تتطرَّق إلى جوانبها الغِيَر. ووراء هذه المكاتبة من اهتمامي ما لا يعوقه عائق إلا انتظام العقد على الأمور المألوفة، وتمام التوثقة باليمين المنصوصة الموصوفة، مع أن قوله كيمينه، وكتابَهُ كصفحة يمينه، والثقة به واقعة على كل حال، والمحبة له توجب الاحتراس على الوداد من تطرُّقِ أسباب الاختلال».

قال: وفي سنة أربع وستين طمع مُرِّي* ملك الفرنج في مصر، وعوَّلَ على الدُّخول إليها والاستيلاء عليها، وذلك لما انكشف له من عُوارها، وظهر له من ضعف من بقي فيها. فجمع إليه ملوك الفرنج وكبراء الدَّاويَّة* والاسبتاريَّة*، وتشاوروا[1]، فَجَرَتْ بينهم في ذلك خطوب، ثم أجابوه إلى الخروج معه إلى الدِّيار المصرية. فأحضر وزيره وأمره بإقطاع بلاد مصر لخيَّالته، وفرَّقَ قُراها على أجناده. وكان ــ لعنه الله ــ لما دخل ديار مصر قد أقام من أصحابه من كتَبَ له أسماء قرى مصر جميعها[2]، وتعرَّف له خبر ارتفاعها[3]. ثم سار حتى نزل الدَّاروم*، فقامت قيامة شاور لما بلغه الخبر،

(١) وتشاوروا، ساقطة من (ل).

(٢) في (ل): أسماء القرى جميعها.

(٣) أي دخلها وإيرادها.

وانتخب أميراً من أمرائه، يقال له بدران، وسَيَّره إلى لقاء مُرِّي يسأله عن السَّبب في قصده. فاجتمع به وسأله، فتلكأ [عليه][١]، ثم استلان جانبه،
وضَمِنَ له رَضِيخة[٢] على أن يورِّيَ عنهم، ولا يكشف لشاور حالهم. ١٧٠/١
ويقال: إن الملك أقطعه ثلاث عشرة قرية على أن يتمِّمَ على المصريين الحيلة، ويُعلم شاور أنه إنما قصد مِصرَ[٣] للخدمة، ففعل ذلك بدران.

ولما سمع ذلك شاور أشفق منه، وأحضر الأميرَ شمسَ الخلافة محمد بن مختار وقال له: كأن بدران قد غَشَّني ولم ينصحني، وأنا فواثقٌ بك، فأريد[٤] تخرج وتكشف لي حال الفرنج. فسار شمس الخلافة إلى مُرِّي ــ وكان بينهما مؤانسة ــ فلما دخل على الملك قال له: مرحباً بشمس الخلافة، فقال: مرحباً بالملك الغَدَّار، وإلا ما الذي أقدمك إلينا[٥]؟ قال: اتصل بي أنَّ الفقيه عيسى[٦] يزوِّج أُخت الكامل بن شاور من صلاح الدين يوسف بن أيوب، ويزوِّج الكامل أُخت صلاح الدين، فقلنا هذا عملٌ علينا. فقال له شمسُ الخلافة: ليس لهذا صحة، ولو فُعل ذلك لم يكن فيه نَقْضٌ للعهد. فقال له الملك: الصَّحيح أن قوماً من وراء البحر انتهوا إلينا وغَلَبُونا على رأينا[٧]، وخرجوا طامعين في بلادكم، فخفنا من ذلك، فخرجنا لنتوسَّط الأمر بينكم وبينهم. فقال شمس الخلافة: فأي شيء قد طلبوا؟ قال:

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) الرضيخة: العطية، «اللسان» (رضخ).
(٣) في (م): ديار مصر.
(٤) في (م): فأريدك.
(٥) في (م): علينا.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء.
(٧) في (ل) و (م): آرائنا.

ألفي ألف دينار. فقال: مكانكم حتى أصلَ إلى شاور، وأبلغه مقالكم وأعودُ بالجواب. فقال له ملك الفرنج: فنحن ننزل على بِلْبِيس* إلى أن تعود.

قال: وحُكي أن ملك الفرنج لما وصل إلى الدَّاروم كتب إلى شاور يقول له: إني قد قصدتُ الخدمة على ما قرَّرْتَه لي من العطاء في كل عام. فأجابه شاور: إن الذي قَرَّرته لك إنما جعلتُه متى احتجتُ إليك، أو إذا[1] قَدِمَ عليَّ عدو، فأما مع خُلُوٍّ بالي من الأعداء فلا حاجة بي إليك ولا لك عندي مُقَرَّر. فأجابه مُرِّي* أنه لا بدَّ من حضوري وأخذي المقرَّر. فعلم شاور أنه قد غدر بالعهد ونَقَضَ الأيمان، وأنه قد طمع في البلاد. فأخذ في تجنيد الأجناد، وحشد العساكر إلى القاهرة، وأنفذ إلى بِلْبيس قطعةً من الجيش وميرة وعُدَّة.

ثم إن ملك الفرنج سار خلف رسول شاور لا يلوي[2] على قولٍ حتى خَيَّم على بِلْبِيس في صفر، وكان معه جماعة من المصريين منهم علم الملك بن النَّحَّاس[3]، وابن الخياط يحيى، وابن قَرْجَلَّة[4]. وأرسل إلى ابن طي[5] بن شاور ــ وكان ببِلْبيس ــ وقال له: أين ننزل؟ قال: على أَسِنَّة الرِّماح. وقال له: أتحسب أن بِلْبِيس جُبْنَةً تأكلها؟ فأرسل إليه مُرِّي: نعم هي جبنة والقاهرة زُبْدة. ثم قاتل بِلْبيس ليلاً ونهاراً حتى افتتحها بالسَّيف، وقتل

---

(١) في الأصل: وإذا، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل و (ل): ولا يلوي، والمثبت من (م).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٨٦ من هذا الجزء.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.

(٥) في (ل) وطبعتي الروضتين: وأرسل إلى طي بسقوط «ابن»، وهو تحريف، وقد مَرَّ أن طيئاً قتل سنة (٥٥٩ هـ)، انظر ص ٤٠٧ من الجزء الأول، وص ٨٤، ١٠٨ من هذا الجزء.

من أهلها خلقاً عظيماً، وخرَّب أكثرها، وحرَّق جُلَّ آدُرها[١]، ثم أُخرج الأسارى إلى ظاهر البلد، وحُشروا في مكانٍ واحد، وحمل في وسطهم برمحه ففرَّقهم فرقتين، فأخذ الفرقة التي كانت عن يمينه لنفسه، وأطلق الفرقة التي كانت عن يساره لعسكره، وقال لفرقته: قد أطلقتكم شكراً لله تعالى على ما أولاني من فتح بلاد مصر، فإني قد ملكتها بلا شك. ووقف إلى أن عدَّى أكثرهم النيل إلى جهة مُنْية حمل[٢]، وأخذ العسكر نصيبهم من الأسارى فاقتسموهم، وبقي أهل بِلْبِيس الذين أسروا أكثر من أربعين سنة في أسر الفرنج، وهلك أكثرهم في أيديهم، وأفلت منهم اليسير؛ لأن الملك النَّاصر رحمه الله تعالى لما ملك ديار مصر وقف مُغَلَّ بِلْبِيس على كثرته على فَكَاك الأسرى منهم، وسامحَ أهل بلبِيس بِخَرَاجهم إلى آخر أيامه.

ولما اتصل بشاور ما جرى على أهل بِلْبيس من القَتْلِ والأسر، وأن الفرنج شحنوها بالرِّجال والعُدد، وجعلوها لهم ظهراً، أشفق من ذلك وطلب الإذن على العاضد، فلما اجتمع به بكى بين يديه وقال: اعلم أنَّ البلاد قد ملكت علينا، ولم يبق إلا أن تكتب إلى نور الدين، وتشرح له ما جرى، وتطلب نُصْرَتَه ومعونتَهُ. فكتب جميع ذلك، وأرسل شاور طَيَّ تلك الكتب كتباً، وسخَّم أعاليها بالمِدَاد.

قال: وحدَّثني شمسُ الخلافة موسى بن شمس الخلافة محمد بن مختار قال: إنما كتب هذا الكتاب برأي أبي شمس الخلافة، لأنه لما رجع من عند مُرِّي*، لعنه الله، بعد أخذِ بِلْبيس* اجتمع بالكامل بن شاور وقال له: عندي أمر لا يمكنني أن أُفضي به إليك إلاّ بعد أن تحلف لي أنك لا

---

(١) آدر: جمع دار، على القلب. «اللسان» (دور).

(٢) منية حمل: قرية بالشرقية تابعة لمركز بِلْبِيس. انظر «الخطط التوفيقية»: ١٦/ ٦٢.

تطلع أباك عليه. فلما حلف له [قال][1]: إن أباك قد وطَّنَ نفسه على المُصَابرة، وآخر أمره يُسلِّم البلاد إلى الفرنج ولا يكاتب نور الدين، وهذا عين الفساد، فاصعد أنت إلى العاضد، وألزمه أن يكتبَ إلى نور الدين، فليس لهذا الأمر غيره. فَصَعِدَ الكامل وكتب الكتاب. فلما وصل إلى نور الدين انزعج انزعاجاً عظيماً، وأنفذ أسدَ الدين، وكان ذلك من مُناه، وأرسل الفقيه عيسى الهكّاري إلى مصر برسالةٍ ظاهرة إلى شاور يعلمه أن العساكر واصلة، وبرسالةٍ سِرِّية إلى العاضد، وأمره أن يستحلفه على أشياء عيَّنها، وأن يكتم ذلك من شاور.

وأما الفرنج فساروا إلى جهة مصر، وأمر[2] شاور بإحراق مصر وأنذر أهلها، فخرج الناس منها على وجوههم، وهجُّوا في بلاد مصر[2]، وبلغ أجرة الجمل إلى القاهرة ثلاثين ديناراً، وترك النَّاس أكثر أموالهم فنهبت. وأُحرقت مِصْر في تاسع صفر[3]، وأقامت النَّار تعمل فيها أربعةً وخمسين يوماً.

ثم إن الفرنج ـ لعنهم الله ـ نزلوا في بركة الحَبَش[4]، وانبثَّتْ خيولهم في الأطراف، وتخطَّفوا من ظفروا به. فأنفذ شاور شمسَ الخلافة إلى مُرِّي* ـ لعنه الله ـ فلما دخل عليه سأله أن يخرج معه إلى باب الخيمة ١٧١/١

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (ل).
(٣) في (ل): رجب، وهو تحريف، انظر ص ٤٨ من هذا الجزء.
(٤) هي في وهدة من الأرض واسعة، مشرفة على النيل خلف القرافة، وهي من أجل متنزهات مصر، كانت تعرف ببركة المعافر وبركة حِمْيَر، رآها ياقوت وقال: وليست ببركة ماء، وإنما شبهت بها، وربما امتلأت بالماء وقت زيادة النيل، انظر «معجم البلدان»: ١/ ٤٠١ ـ ٤٠٢.

ففعل، فأراه شمس الخلافة جهة مصر وقال له: أترى دخاناً في السَّماء؟ قال: نعم. قال: هذا دخان مصر، وما أتيتك إلا وقد أُحْرِقَتْ بعشرين ألف قارورة نفط، وفُرِّقت فيها عشرة آلاف مَشْعَل، وما بقي فيها ما يؤمَّل بقاؤه ونفعه؛ فخلِّ الآن عنك مدافعتي ومخاتلتي، وكوني كلما قلت لك انزل في مكان تعدَّيت[1] إلى غيره، وما بقي لك إلا أن تنزل بالقاهرة[2]. فقال: هو كما تقول[3]، ولا بُدَّ من نزول القاهرة، ومعي فرنجٌ[4] من وراء البحر قد طمعوا في أخذها. ثم رحل فنزل على القاهرة مما يلي باب البرقية* نزولاً قارب به البلد حتى صارت سهام الجرخ* تقع في خِيَمه، فقاتلوا البلد أياماً.

فلما تيقَّن شاور الضَّعف عدل إلى طريق المخادعة والمخاتلة، والمغاورة والمُدافَعة، إلى أن تصل عساكر الشام. فأنفذ شمس الخلافة إلى مُرِّي ــ لعنه الله تعالى ــ برسالةٍ طويلة فتَلَ بها في غاربه[5] ودار من حواليه، وفي ضمنها: «إن هذا بلد عظيم كبير[6]، وفيه خَلْقٌ كثير، ولا يمكن تسليمه البتة ولا أخذه إلا بعد أن يقتل من الفريقين عالمٌ عظيم، وما تعلم أنت ولا أنا لمن الدائرة. والرأي أن تحقن دماء أصحابك ودماء أصحابي، وتحصِّل

(١) في (ل): تقدمت.
(٢) في الأصل: القاهرة، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): هو ما تقول.
(٤) في (م): فرنجي.
(٥) في المثل: فتل في ذروته وغاربه: يضرب في الخدع والمماكرة، أصله أن يكون البعير صعباً شرساً، لا يعطي رأسه الرجل، فيحك الرجل سنامه وغاربه (كاهله؛ ما بين السنام والعنق) ويفتل الوبر فيهما بأصابعه، يؤنسه بذلك ويخدعه حتى يستمكن منه، فيخطمه، انظر «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري: ٢/ ١٧٩ ــ ١٨٠.
(٦) كبير، ساقطة من (ل) و (م).

شيئاً[1] أدفعه لك [فيحصل لك][2] عفواً». فاستقرَّت المصالحة[3] على أربع مئة ألف دينار، وقيل ألفي ألف دينار، يُعَجَّل له منها مئة ألف دينار. فأجاب مُرِّي إلى[4] ذلك، وانعقدت الهُدْنة، وحلف مُرِّي، ورحل إلى بركة الحَبَش، وحمل شاور إليه مئة ألف دينار في عِدَّة دفعات سوَّف فيها الأوقات، ثم أخذ يمطله في الباقي[5] انتظاراً لقدومِ العساكر، ويوهم أنه يجمع لهم الأموال. فلم يشعر الفرنج إلا بهجوم عسكر الشَّام عليهم، فلما رأوهم رحلوا إلى بِلْبيس، ونزل أسد الدين بالمقس*. ثم رحل ملك الفرنج ونزل على فاقوس*، واتبعه أسد الدين ونزل على بِلْبيس*.

وكان لما اتصل بشاور وصول أسد الدين إلى صَدْر* أنفذ شمس الخلافة إلى ملك الفرنج يستطلق له منه[6] بعضَ المال، فصار إليه واجتمع به، وقال: قد قلَّ علينا المال. فقال ملك الإفرنج: اطلب منه ما شئتَ. قال: أشتهي أن تَهَب لي النصف. قال: قد فعلتُ. فقال شمس الخلافة: ما بلغني أنَّ ملكاً في مثل حالك وقُدْرَتك علينا وهب مثل هذه الهبة لقوم هم في مثل حالنا! فقال ملك الإفرنج: أنا أعلم أنك رجلٌ عاقل، وأن شاور ملك، وأنكما ما سألتماني أن أهبكما هذا المال العظيم[7] إلاَّ لأمرٍ قد حدث. فقال له: صدقت، هذا أسد الدين قد وصل إلى صَدْر نُصرةً لنا، وما بقي لك

(١) في الأصل: شيء، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (ل) و (م): المصانعة.
(٤) في الأصل: على، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في (ل) و (م): بالباقي.
(٦) منه، ساقطة من (م).
(٧) العظيم، ساقطة من (م).

مُقام، وشاور يقول لك: أرى أن ترحل، ونحن باقون على الهدنة، فإنه أوفق لك ولنا، وإذا حصل هذا الرجل عندنا أرضيناه من هذا المال بشيء، وحملنا الباقي إليك متى قدرنا، وإن نحن أخرجنا في رضاهم[1] أكثر من هذا المال عُدْنا عليك بما يبقى علينا من المقدار. فقال ملكُ الفرنج: أنا راضٍ بذلك، وإن بقي عليَّ شيء حملته إليكم. وعوَّل على الرَّحيل. فقال له: بعد أن تطلق ابن طيّ[2] بن شاور وجميع من في عسكرك من الأسارى، ولا تأخذ من بِلْبيس بعد انصرافك شيئاً. فأجابه إلى جميع ذلك.

ولما رحلتِ الفرنجُ عن القاهرة نزل أسد الدين بأرضٍ يقال لها اللُّوق*، وأخرج إليه شاور الإقامات الحسنة والخدم الكثيرة، ولما اجتمعا قال شاور لأسد الدين: قد رأيت من الرأي أن أخرج أنا وأنت وندرك الفرنج ونوقع بهم. فقال أسد الدين: هذا كان رأيي والفرنج على البَرِّ الغربي وليس لهم وَزَر، وأما الآن فلا؛ لأنهم على البَرِّ المتَّصل ببلادهم، ونحن فقد خرجنا من البَرِّ في أسوأ حال من الضعف والتعب، وقد كفانا الله شرَّهم، ونحن إلى الرَّاحة والاستجمام أحوج.

ولما نزل أسد الدين باللُّوق أرسل إليه العاضد هديةً عظيمة، وخِلَعاً كثيرة، وأخرج إلى خدمته أكابر أصحابه. ثم إنه خرج إليه في الليل سِرًّا متنكراً، واجتمع به في خيمته، وأفضى إليه بأمورٍ[3] كثيرة، منها قتل شاور، ثم عاد إلى قصره. وكان شاور قد رأى ليلةَ نزل[4] أسد الدين على القاهرة

(١) في (ل): رضاكم، وهو تصحيف.
(٢) في الأصل: ابن أبي طي، والمثبت من (ل) و (م)، وفي طبعة وادي النيل: ١/ ١٧١ «طي بن شاور» وانظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٠٣ من هذا الجزء.
(٣) في (م): بأشياء.
(٤) في (ل): نزول.

كأنَّه دخل دار الوِزَارة، فوجد على سرير مُلْكِه رجلاً، وبين يديه دواة الوزارة، وهو يوقع منها بأقلامه، فسأل عنه، فقيل: هذا محمد رسولُ الله ﷺ.

ولما حَصَل أسد الدين بالدِّيار المصرية وانفصل عنها الفرنج أمنتِ البلاد، وتراجع النَّاس إلى بيوتهم، وأخذوا في إصلاح ما شعَّثَهُ الفرنج وأفسدوه، وتقاطر الناس إلى خدمة أسد الدين، فتلقَّاهم بالرُّحب والسَّعَة، وأحسن إليهم.

وأما شاور فإنه أخذ في التودُّد إلى أسد الدين، والتقرُّب إلى[1] قلبه بجميع ما وجد السَّبيل إليه، وأقام له ولعسكره الميرة الكثيرة والنفقات الغزيرة[2]، حتى استحوذ على قلبه، ونوى تَبْقِيَتَهُ في مُلْكه، وصفا له قلبه حتى أنفذ إليه سِرًّا: احْرُسْ نفسك من عساكر الشَّام.

وأما عسكر الشَّام فإنهم لما رأوا طِيبَ بلاد مصر وكثرة خيرها وسَعَة أموالها تاقت أنفسهم إلى الإقامة بها، واختاروا سُكْناها، ورغبوا فيها رغبةً عظيمة؛ فقوي طمع أسد الدين في الاستيلاء عليها والاستبداد بملكها. ثم علم[3] أنه لا يتم له ذلك وشاور باقٍ[4] فيها، فأخذ في إعمال الحيلة عليه.
١٧٢/١ وكان العاضد قد تقدَّم إليه بقتله، فجمع أصحابه وشاورهم في أمر شاور، وقال لهم: قد عَلِمْتُم رغبتي في هذه البلاد، ومحبتي لها وحرصي عليها، لا سيما وقد تحقَّقْتُ أن عند الفرنج منها ما عندي، وعلمتُ أنهم قد كشفوا

(١) في (م): من.
(٢) في (ل): الكثيرة.
(٣) في (م): ثم إنه علم.
(٤) في الأصل: باقي، والمثبت من (ل) و (م).

عَوْرَتَها، وعلموا مسالك رُقْعتها، وتيقَّنت أني متى خرجتُ منها عادوا إليها واحتوَوْا عليها؛ وهي معظم دار الإسلام وحَلُوبة بيت مالهم، وقد قوي عندي أن أثب عليها قبل وثوبهم، وأملكها قبل مملكتهم، وأتخلص من شاور الذي يلعب بنا وبهم، ويغرّنا ويغرّهم، ويضرِّب بيننا وبينهم[١]، وقد ضيَّع أموال هذه البلاد في غير وجهها، وقوَّى بها الفرنج علينا، وما كلُّ وقتٍ ندرك الفرنج، ونسبقهم إلى هذه البلاد التي قد قَلَّ[٢] رجالها وهلكت أبطالها. فتنخَّلت الآراء بين الأمراء أنه[٣] لا يتم لهم أمر إلا بعد القبض على شاور، وتفرَّقوا على إيقاع القبض به.

وكان شاور يركب في الأبَّهة العظيمة، والجلالة الجسيمة، والعُدَّة الحسنة، والآلة الجميلة، على عادتهم الأولى. وكان من جُملة قواعدهم أن الوزير إذا ركب حُمل في موكبه الطَّبْلُ والبوقُ، وكان شاور قليلَ الركوب، فجعل الأمراء يترصَّدونه. ورأى أسد الدين قبل قبض شاور بليلة كأنَّ شاور داخل إليه إلى داره، وناوله سيفَهُ وعِمامَتَهُ، فتأوله أسد الدين بالقبض عليه وأَخْذِ منصبه.

ثم إن شاور ركب يوماً في أبهَّته وجلالته[٤]، فلما عاينه الأُمراء هابوه وأحجموا عنه، وكان يوماً عظيم الضَّباب، وكان خروج شاور من باب القنطرة* للسَّلام على أسد الدين. فتقدَّم صلاح الدين، فسلَّم عليه ودخل في موكبه، ثم سايره، ثم مدَّ يده إلى تلابيبه وصاح عليه فَرَجَّله[٥]. ولما رأى

(١) يضرِّب بيننا وبينهم: أي يغري ويحرِّض. انظر «معجم متن اللغة» ٣/ ٥٤٠.
(٢) في (م): قلَّت.
(٣) في الأصل: أنهم، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في (ل): أبهة وجلالة.
(٥) في الأصل: فزجره، والمثبت من (ل) و (م).

ذلك عسكر الشَّام قويت عزماتهم، ووقعوا في عسكر شاور، فنهبوا ما كان مع رجاله[1]، وقتلوا منهم جماعة، وحمل الملك الناصر شاور راجلاً إلى خيمة لطيفة وأراد قتله، فلم يمكنه قتله دون مشاورة أسد الدين. وفي الحال ورد على أسد الدين توقيعٌ من العاضد على يد خادمٍ يأمره فيه بقتل شاور، فأنفذ التوقيع إلى صلاح الدين فقتله في الحال، وأنفذ رأسه إلى القصر. وبلغ الكامل بن شاور قتل أبيه، فهرب إلى القصر، وخلع العاضد على أسد الدين، وقلَّده الوزارة، وأنفذ إليه طبقَ فِضَّةٍ فيه رأس الكامل بن شاور ورؤوس أولاد إخوته.

ولما خرج منشور الوزارة إلى أسد الدين أمر بقراءته على رؤوس الأشهاد، وفرح به غاية الفرح، وأعيدت قراءته عليه عِدَّة دفعات استحساناً لمعانيه، واستظرافاً لما أودع من بدائع[2] الكلام فيه.

قال: ولما اتصل بنور الدين فَتْحُ الدِّيار المصرية فرح بذلك فرحاً شديداً، وواصل[3] الحمد والثناء على الله تعالى إذ كان في زمنه وعلى يده، وأمر بضرب البشائر في جميع ولايته، وتزيين جميع بلاده، وجلس للهناء بذلك، وأنشده الشعراء في فتحها عِدَّة أشعار. غير أنه لما اتصل به أن أسد الدين وَزَر للعاضد، واستبدَّ بالأمر في ذلك الصُّقع أمضَّه ذلك وأقلقه، وظهرت في مخايل قسماته وفلتات كلماته الكراهية، وأخذ في الفكرة في أمره، وسهر له ليالي، وأفضى بسرِّه إلى مجد الدين ابن الدَّاية. حدَّثني جماعة عن شمس الدين علي ابن الدَّاية، أخي مجد الدين، وحدَّثني الموفق

---

(١) في الأصل: مع شاور، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (ل) و(م): بديع.
(٣) في (م): وأوصل: وهو تصحيف.

محمود بن النَّحَّاس الفقيه [الحنفي][1] الحلبي[2] وقد جرى ذكر فتح مصر وأنَّ نور الدين ابتهج به، فقال: والله ما ابتهج به، ولقد كان ودُّه ألا يفتح وألا يصير أسَد الدين وصلاح الدين إلى ما صارا إليه. ولقد ظهرت الكراهية منه لذلك في ألفاظه ووجهه. ولقد أعمل الحيلة في إفساد أمر أسد الدين وصلاح الدين فما تهيأ له، لا سيما يوم بلغه حصول صلاح الدين على خزائن مصر، فإنه أقام ثلاثة أيام لا يقدر أحدٌ أن يراه، واهتمَّ لذلك حتى أفضى[3] عليه الهمُّ. ولو لم يكن الفتح إليه منسوباً، وعليه فَضْلُه محسوباً، لما صبر على ما جرى[4]، ولا أغضى للملك النَّاصر على القَذَى. ولقد كاتب العاضد عِدَّة دفعات في أمر الأسد والصَّلاح، فلم يحصل له فيهما نجاح، وكثيراً ما يوجد في كتب[5] نور الدين إلى العاضد التعريض بإنفاذ أسد الدين، ولو

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) هو محمود بن هبة الله بن طارق بن النحاس، فقيه حنفي، درَّس في حلب بالمدرستين الشاذبختيه الجوانية والبرانية، وكان شاذبخت قد بنى هاتين المدرستين، ولما كملت المدرسة الجوانية (معروفة الآن بجامع الشيخ معروف) ولاه تدريس المدرستين، وبقي فيها حتى وفاته سنة (٦٠٢ هـ).

أما شاذبخت، الخادم الهندي، فقد كان نائباً عن نور الدين في قلعة حلب، واستمر بها مدة ولاية الملك الصالح، فلما توفي سنة (٥٧٧ هـ) حفظ شاذبخت حلب حتى قدمها عز الدين بن قطب الدين مودود، وقد مَرَّ ذكره ص ٥٩ من الجزء الأول، وانظر ص ٣٢٨، ٣٣٠ من هذا الجزء. وص ٧٧ من الجزء الثالث وانظر «الباهر»: ١٨٢، و«زبدة الحلب»: ٣/ ٩. و«الجواهر المضية»: ٣/ ٤٥٣، و«إعلام النبلاء» للطباخ: ٤/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢، و«الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب»: ٧٢ ـ ٧٣.

(٣) في (م): قضى.

(٤) في (م): لما جرى.

(٥) في (م): رسائل.

أمكنه المجاهرة[1] بالقول لقال.

فمن بعض مكاتباته: «وقد افتقر العبد إلى بعثته، وأعوز عسكرَه يُمْن نقيبته، واشتد حزب الضَّلال على المسلمين لغيبته، لأنه ما يزال يرمي شياطين الضَّلال بشهابه الثَّاقب، ويُصْمي مقيل[2] الشِّرْك بسهمه النافذ[3] الصَّائب».

قلتُ: لعل نور الدين رحمه الله تعالى إنما أقلقه من ذلك كون أسد الدين وزر للعاضد، فخاف من ميله إلى القوم وإلى مذهبهم، وأن يفسد جنده عليه بذلك السَّبب. هذا إن صحَّ ما نقلهُ ابن أبي طيّ، والله أعلم.

قال: وكان أسد الدين لما ولي الوزارة لم يغيِّر على أحدٍ شيئاً، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم، إلى أن انقضت أيامه، وفنيت أعوامه.

وكان قَرَماً؛ يحبُّ أكل اللَّحْم ويواظب عليه ليلاً ونهاراً، فتواترت عليه التُّخَم، واتصلت به مَرضاته، إلى أن ظهرت بحلقه خوانيق كان فيها تلافه. ويقال: إنه أكل في ذلك اليوم مَضِيرة[4] ودخل الحَمَّام، فلما خرج منها أصابه الخُنَّاق.

---

(١) في (م): المجاهدة، وهو تحريف.

(٢) في (ل): مقتل، وهو تصحيف، والمقيل: الموضع: ومنه شعر ابن رواحة:

اليوم نضربكم على تنزيله ... ضرباً يُزيل الهام عن مقيله

ومن المجاز قولهم: طعنته في مقيل حقده: في صدره. انظر «اللسان» و«أساس البلاغة»: (قيل).

(٣) النافذ، ساقطة من (ل).

(٤) المضيرة: لحم يطبخ باللبن حتى ينضج، وهي ما نسميها في دمشق «الشاكرية». انظر «اللسان» (مضر)، و«معجم متن اللغة»: ٥/ ٣١٠.

قال: وكان شجاعاً، بارعاً، قوياً، جَلْداً في ذات الله، شديداً على الكُفَّار وطأته، عظيمةً في ذات الله صولتُه، عفيفاً دَيِّناً، كثير الخير. وكان يحبُّ أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حَدِباً على أهله وأقاربه، وكان فيه
١/ ١٧٣ إمساك، وخلَّف مالاً كثيراً، وخلَّف من الخيل والدَّواب والجمال شيئاً كثيراً، وخلف جماعة من الغِلْمان، خمس مئة مملوك؛ وهم الأسدية.

وهو كان مشيِّد قواعد الدولة الشَّاذية والمملكة النَّاصرية، وكان ابتداء أمره يخدم مع صاحب تَكْريت* على إقطاعٍ مبلغه تسع مئة دينار(١)، وتنقَّل إلى أن ملك الديار المصريَّة. وعقد له العزاء بالقاهرة ثلاثة أيام.

قلت: وإليه تُنْسَبُ المدرسة الأسدية* بالشَّرف القبلي* ظاهر دمشق، وهي المُطِلَّةُ على المَيْدَان الأخضر*؛ وهي على الطَّائفتين الشَّافعية والحنفية، والخانقاه الأسدية* داخل باب الجابية* بدرب الهاشميين*.

قال ابنُ أبي طيّ: وساعة وفاته وقع الاختلاف فيمن يُولَّى الوزارة بين العسكر الشَّامي، ومالت الأسدية إلى صلاح الدين. وفي تلك الساعة أنفذ العاضد وسأل عمن يصلح للوزارة، فأُرشد من جماعةٍ من الأمراء إلى شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، فأنفذ إليه وأحضره، وخاطبه في تولي الوزارة، فامتنع من ذلك، وأشار بولاية الملك النَّاصر. وكان الحارِميُّ أولاً قد رغب في الوزارة وتحدَّث فيها، وحصَّل ما يحتاجه، فلما رأى مزاحمة عين الدولة اليارُوقي(٢) وغيره عليها خاف أن يشتغل بطلبها فتفوته، وربما فاتت صلاح الدين، فأشار به لأنها إذا كانت في ابن أخته كانت في

---

(١) انظر ص ٤٠٣ وما بعدها من الجزء الأول.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

بيته[1].

وكان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقعٍ، وأعجبه عقله وسَدَادُ رأيه، وشجاعته، وإقدامه على شاوِر في موكبه، وأنه قتله [حين][2] جاءه أمره، ولم يتريَّث ولا توقَّف. فسارع إلى تقليده الوزارة، وما خرج شهاب الدين الحارمي من حضرة العاضد إلا وخِلَع الوزارة قد سبقت إلى الملك النّاصر.

وكانت خِلْعة الوزارة عِمامة بيضاء تِنِّيسي[3] بطرز ذهب، وثوب دَبيقي[4] بطراز[5] ذهب، وجُبَّة تحتها سقلاطون[6] بطرازي ذهب، وطَيْلَسان دبيقي بطراز دقيق ذهب، وعقد جوهر قيمتُهُ عشرة آلاف دينار، وسيف مُحَلًّى بجوهرٍ قيمته خمسة آلاف دينار، وفرس حِجْر[7] صفراء من مراكب العاضد قيمتها ثمانية آلاف دينار لم يكن بالدِّيار المصرية أسبق منها، وطوق، وتخت وَسرفسار[8] ذهب مجوهر، وفي رقبة الحِجْر[9] مشدَّة بيضاء، وفي رأسها

(١) انظر ص ٦٩ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) نسبة إلى تنيس، وهي جزيرة بين الفرما ودمياط. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٥١، وكان فيها دار الطِّراز. «صبح الأعشى»: ٣/ ٤٧٦.

(٤) نسبة إلى دبقا، من قرى مصر، قرب تنيس، وهي مشهورة بثيابها. «معجم البلدان»: ٢/ ٤٣٧.

(٥) في (ل) و(م): بطرازي.

(٦) ضرب من القماش الحريري، المطرز بالذهب، والنوع الذي يصنع ببغداد له شهرة واسعة «تكملة المعاجم» لدوزي (الطبعة الفرنسية): ١/ ٦٦٣.

(٧) في الأصل و(م) حجرة، والمثبت من (ل)، والحجر: الفرس الأنثى تتخذ للنسل، لم يدخلوا فيه الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. «اللسان» (حجر).

(٨) كلمة فارسية مركبة من كلمتين: سر: رأس، وفسار: لجام، انظر «قاموس الفارسية»: ٣٥٨.

(٩) في (م) الحجرة.

مئتا حَبَّة جوهر، وفي أربع قوائم الفرس أربع عقود جوهر، وقصبة ذهب في رأسها طلعة مجوهرة، وفي رأسها مشدَّة بيضاء بأعلام ذهب، ومع الخِلْعة عدة بقج[1]، وعِدّة من الخيل، وأشياء أُخَر، ومنشور الوزارة ملفوف في ثوب أطلس أبيض.

وكان ذلك يوم الاثنين الخامس والعشرين من جُمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمس مئة [وقرىء المنشور][2] بين يدي الملك النَّاصر يوم جلوسه في دار الوزارة، وحضر جميعُ أرباب الدَّولتين المِصْرية والشَّامية، وكان يوماً عظيماً.

وخَلَعَ السُّلْطان على جماعة الأُمراء والكبراء، ووجوه البلد، وأرباب دولة العاضد[3]، وعمَّ الناسَ جميعهم بالهبات والصِّلات.

ولما استقرَّتْ قدمه في الوزارة والرياسة قام في الرعية بشريعة السياسة، ونظَم بحُسْن تدبيره من الدولة بَدَدَها، وجرى في مناهج العدل على جَدَدِها، وحَيْعَلَ إلى جُوده وفَضْله، ونادى إلى رِفْده وبذله، وكاتب الأطرافَ بما صار إليه من السُّلْطان، وسَرَّ قلوبَ الأصدقاء والأحباب بما حصل عليه من شريفِ الرُّتبة والمكان، واستدعى إلى حَوْزته الأصحاب والأهل، وروَّى بسَيْح كرمه مَنْ بَعُدَ منه وقَرُبَ من أهل الفَضْل، وتاب من[4] الخمر، وعدل

---

(١) مفردها بقجة، وهي من الفارسية «بغجة» بضم الباء: قطعة قماش مربعة، وهي ما يتخذ منها صُرَّة. انظر «الكلمات الدخيلة على العربية الأصيلة» للدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي: ١٠، و«شفاء الغليل»، للخفاجي: ٤٨.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٣) في (م) الدولة العاضدية.

(٤) في الأصل: عن، والمثبت من (ل) و(م).

عن اللهو، وتيقظ للتدبير، وسها عن السهو، وتقمَّص بلباس الدين، وحفظ ناموس الشَّرْع المبين، وشمر عن ساقِ الجدِّ والاجتهاد، وأفاض على الناس من كرمه وَجُود جوده شآبيب فضله النَّائب عن العِهاد[1]، وورد عليه القُصَّاد والزُّوَّار، وأُمَّ بنفائس الخُطَب وجواهر الأشعار.

حدَّثني بعضُ الأمراء قال: أقبل العاضد على السلطان الملك الناصر، وأحبَّه محبَّةً عظيمة، وبلغ من محبته له أنه كان يدخل إليه إلى القصر راكباً، فإذا حصل عنده أقام معه في قصره اليوم والعشرة لا يُعلم أين مقرُّه.

قال: ولما استولى الملك النَّاصر على الوزارة، ومال إليه العاضد، وحكَّمه في ماله وبلاده، حسده[2] من كان معه بالديار المصرية من الأمراء الشَّامية، كابن ياروق وجُرْديك وجماعة من غِلْمان نور الدين. ثم إنهم فارقوه وصاروا إلى الشَّام.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدّثني جماعةٌ من أصحاب نور الدين أن نور الدين لما اتصل به وفاة أسد الدين ووزارة صلاح الدين، وما قد انعقد له من المحبّة في قلوب الرَّعايا أعظمَ ذلك وأكبره، وتأفَّفَ منه وأنكره، وقال: كيف أقدَمَ صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمري! وكتب في ذلك عِدَّة كتب، فلم يلتفت الملك الناصر إلى قوله، إلاّ أنَّه لم يخرج عن طاعته وأمره، وأنه ما فارق قبول رأيه وإشارته. وأمر نور الدين مَنْ بالشَّام من أهل صلاح الدين وأصحابه بالخروج إليه، وطلب منه حساب مصر وما صار إليه. وكان كثيراً ما يقول: ملك ابن أيوب!

---

(١) العهاد جمع، مفرده: العهد، وهو أول المطر الوسمي. «اللسان» (عهد).
(٢) في الأصل و(ل): وحسده، والمثبت من (م).

قلت: هذا كلُّه مما تقتضيه الطِّباع البشرية والجِبِلَّة الآدمية. وقد أجرى الله سبحانه وتعالى العادة بذلك، إلاَّ من عَصَم الله، ومن أنصف عذَر، ومن عَرَفَ صَبَرَ. والذي أنكره نور الدين إفراطُ صلاح الدين في تفرقة الأموال،
١/ ١٧٤ واستبدادُه بذلك من غير مشاورته. هذا مع أن ابن أبي طيّ مُتَّهمٌ فيما ينسبُهُ إلى نور الدين مما لا يليق به، فإنَّ نور الدين رحمه الله تعالى كان قد أَذَلَّ الشيعة بحلب، وأبطل شعارهم وقوّى أهلَ السُّنَّة[١]، وكان والدُ ابن أبي طيّ من رؤوس الشِّيعة، فنفاه من حلب. وقد ذكر ذلك كله ابن أبي طيّ في كتابه[٢] مفرَّقاً في مواضع، فلهذا هو في هذا الكتاب الذي له كثير الحمل على نور الدين رحمه الله تعالى، فلا يُقبل منه ما ينسبه إليه مما لا يليق به. والله أعلم.

قال: ولما ملك الملك النَّاصر مِصْرَ انتزع نور الدين حمص والرَّحبة* من ناصر الدين بن أسد الدين، وفَرَّق عُمَّاله وأعطاه تل باشر*، ثم أخذها منه. ولقد كان يتألَّم لملك الملك النَّاصر. ويقال إنه لما مَرِضَ قال: ما أخطأتُ إلا في إنفاذي أسد الدين إلى مصر بعد علمي برغبته فيها، وما يحزنني شيء كعلمي بما ينال أهلي من يوسف بن أيوب. ثم التفت إلى أصحابه فقال: إذا أنا متُّ فصِيروا بابني إسماعيل إلى حلب لأنه لا يبقي عليه غيرها.

قال ابن أبي طيّ: ولقد كان يبلغ الملك[٣] النَّاصر من أقوال نور الدين وأقوال أصحابه أشياء تؤلمه وتمضُّه، غير أنّه يلقاها بصدر رحب، وخُلُق

---

(١) انظر ص ٢٠١ ــ ٢٠٢ من الجزء الأول.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٨٢ من هذا الجزء.

(٣) في (م): السلطان الملك.

عَذْب. حدَّثني أبي عن ابن قاضي الدِّهليز ـ وكان من خواصِّ الملك النَّاصر ـ قال: جرى يوماً بين يدي السلطان ذكر نور الدين، فأكثر الترحُّمَ عليه، ثم قال: والله لقد صبرتُ منه على مثل حَزِّ المُدَى ووخز الإبر، وما قدر أحدٌ من أصحابه أن يجد عليَّ ما يعتدُّه ذنباً، ولقد اجتهد هو بنفسه أيضاً أن يجد لي هفوة يعتدُّها عليَّ فلم يقدر. ولقد كان يعتمد في مخاطباتي ومراسلاتي الأشياء التي لا يُصبر على مثلها لعلِّي أتضرَّر[1] أو أَتَغَيَّر، فيكون ذلك وسيلةً له إلى منابذتي، فما أبلغته أربه يوماً قط.

قلت: وقد وقفت على كتابٍ بخط نور الدين [رحمه الله][2] يشكر فيه من صلاح الدين رحمه الله تعالى، وذلك ضِدّ ما قاله ابنُ أبي طيّ. كتب نور الدين ذلك الكتاب إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرُون رحمه الله وهو بحلب ليولِّيه[3] قضاء مصر. صورته: «حسبي الله وكفى. وفَّق الله الشيخ الإمام شرف الدين إلى طاعته وختم له بخير. غير خافٍ عن الشيخ ما أنا عليه وفيه، وكل غرضي ومقصودي في مصالح المسلمين، وما يقرِّبني إلى الله، والله وليُّ التوفيق، والمطَّلع على نيَّتي. وأنت تعلم[4] نيتي كما قال عزَّ من قائل: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتَابِ﴾[5] أنت تعلم أن مصر اليوم قد لزمَنا النَّظر فيها، فهي من الفتوحات الكبار، التي جعلها الله تعالى دار إسلام[6] بعدما كانت دار كفر ونفاق، فلله المِنَّة والحمد. إلاَّ أنَّ المقدَّم على كل شيء أمور

(١) في (م): أتصور، وهو تصحيف.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، واالمثبت من (ل) و(م).
(٣) في الأصل و(ل) لتوليه، وفي (ل): مهملة، والمثبت من طبعة وادي النيل: ١/ ١٧٤.
(٤) في النسخ الخطية: وأنت هم تعلم، بزيادة: هم، ولم يتبين لي وجهها.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٤٣.
(٦) في (ل) و(م): الله تعالى جعلها دار إسلام.

الدين التي هي الأصل، وبها النَّجاة، وأنت تعلم أن مصر وإقليمها ما هي قليلة، وهي خالية من أمور الشرع؛ وما تُدخر الدُّموع إلاّ للشَّدائد، وأنا ما كنت أسْخَى ولا أشتهي مفارقتك. والآن فقد تعين عليك وعليَّ أيضاً أن ننظر[1] إلى مصالحها، وما لنا أحدٌ اليوم لها إلا أنت، ولا أقدر أُولِّي أمورَها وأقلِّدها إلا لك حتى تبرأ ذمتي عند الله. فيجب عليك ــ وفقك الله ــ أن تشمِّر عن ساقِ الاجتهاد وتتولَّى قضاءها، وتعمل ما تعلم أنه يقرِّبك إلى الله. وقد برئت ذمتي، وأنت تجاوب الله. فإذا كنت أنت هناك وولدك أبو المعالي ــ وفقه الله ــ فيطيب قلبي وتبرأ ذمتي. وقد كتبتُ هذا بخطي حتى لا تبقى عليَّ حُجَّة. تصلُ أنت وولدك إلى عندي حتى أسيِّرَكُمْ إلى مصر والسَّلام، بموافقة صاحبي واتفاقٍ منه صلاح الدين ــ وفقه الله ــ فأنا منه شاكر كثير كثير، جزاه الله خيراً وأبقاه، ففي بقاء الصَّالحين والأخيار صلاحٌ عظيم، ومنفعة لأهل الإسلام، الله تعالى يكثر من الأخيار وأعوان خير، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل. وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلَّم تسليماً».

قال ابنُ أبي طيّ: وأبطل صلاح الدين من المكُوس والمظالم ما يستخرج بديوان صناعة مصر مئة ألف دينار، وما يستخرج بالأعمال القبلية والبحرية مئة ألف دينار، فسامح بجميع ذلك، وأمر بكتابة سجلٍّ به من ديوان الإنشاء، وأُنفذ إلى سائر أعمال مصر يُقرأ على المنابر، وعُرِضَ عليه سياقة جرائد الدَّواوين في جهات المستخدمين والمعاملين لعدة سنين متقدِّمة، آخرها سنة أربع وستين وخمس مئة، فكان مبلغه ينيف عن ألف ألف دينار وألفي ألف إِرْدَب* غلة، فسامح بجميع ذلك، وأبطله من الدَّواوين، وأسقطه

(١) في (م): انتظر، وهو تصحيف.

من المعاملين(١). وأُنهي إليه ما يُستأدى من الحُجَّاج بالحجاز المحروس من المكوس، فأنكره وأكبره، وعَوَّض عنه بعِدَّة ضياع؛ فأغاثَ أهل الحجاز بما أوسعهم من العين والغلة أشياء يطول شَرْحُها.

قلت: وسيأتي كل ذلك في موضعه. ونسخةُ منشور إسقاط المكوس في أخبار سنة سبع وستين(٢)، وذلك بإشارة نور الدين رحمه الله، وفي أيامه.

فصـــل

ذكر العماد في ديوانه قصيدةً مدح بها نور الدين يهنئه بملك مصر، ولم يذكرها في كتاب البرق، منها:

بمُلـك مِصْـرَ أُهنِّـي مـالِـكَ الأُمَـم ... فاسْعَدْ وأَبْشِرْ بنَصْرِ الله عن أَمَمِ
أَضْحى بِعَدْلِكَ شَمْلُ المُلْكِ مُلْتئماً ... وهـل بِعَـدْلِـكَ شَمْـلٌ(٣) غيـرُ مُلْتَئِـم
يـا فـاعِـلَ الخيـرِ عَـنْ طَبْـع بـلا كَلَـفٍ ... ومُولِيَ العُرْف(٤) عن خُلُقٍ بلا سَأَمِ
ووامقـاً ثَلْـمَ ثَغْـرِ الكُفْـرِ يُعْجِبُـهُ ... لا لَثْمَ ثَغْرٍ شتيتٍ(٥) واضحٍ(٦) شَبِمِ(٧) ١/ ١٧٥
لله دَرُّكَ نُـورَ الـديـن مِـنْ مَلِـكٍ ... بـالعَـزْمِ مُفْتَتِـح بـالنَّصْـرِ مُخْتَتِـمِ
آثـارُ عَـزْمِـكَ فـي الإِسـلامِ واضحـةٌ ... وسِـــرُّه لـــك بـــادٍ غَيْـرُ مُكْتَتَـمِ

---

(١) في (ل) و(م): عن.
(٢) انظر ص ٢٣٢ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل و(ل): شيء، والمثبت من (م).
(٤) العُرْف: الجود. «اللسان» (عرف).
(٥) ثغر شتيت: مفرق مفلج. «اللسان» (شتت).
(٦) الواضح: الأبيض ليس الشديد البياض، «معجم متن اللغة»: ٥/ ٧٧٠.
(٧) الشبم: البارد. «اللسان» (شبم).

بمـا مِـنَ العَـدْلِ والإحسـان تَنْشُـرُه ... تخـافُ رَبَّـكَ خَـوْفَ المُـذْنِـب الأَثِـمِ
أَوْرَدْتَ مِصْـرَ خُيُـولَ النَّصْـرِ عـادمـةً ... ثنـيَ الأَعِنَّـةِ إقـدامـاً علـى اللُّجُـمِ
فَـأَقْبَلَـتْ فـي سَحَـابٍ مـن ذوابلهـا[^1] ... وقُضْبُهـا[^2] بـدمـاءِ الهَـامِ مُنْسَجِـمِ
تمكَّـنَ الـرُّعْـبُ فـي قَلْـبِ العـدوِّ بهـا ... تمكُّـنَ النَّـارِ بـالإحـراقِ فـي الفَحَـمِ
سَـرَتْ لتقطَـعَ مـا للكُفْـرِ مـن سَبَـبٍ ... واهٍ وتـوصِـلَ مـا للـدِّيـنِ مـن رَحِـمِ
مُسْتَسْهلاتٍ وعورَ الطُّرْق في طَلَبِ الـ ... ـعَلْياء مقتحماتٍ أصعبَ القُحَمِ[^3]
وجـاعِـلاتٍ مـن الإفـرنـج غِلَّهـم ... والقيدَ في موضع الأطواق والحُزُمِ
لقـد شَفَـتْ غُلَّـةَ الإسـلامِ وانتقَمَـتْ ... مـنَ العـدوِّ بحـدِّ الصَّـارمِ الخَـذِمِ[^4]
أعـانهـا الله فـي إطفـاءِ جَمْـرِ أذًى ... مـن شَرِّ شـاوَرَ فـي الإسـلامِ مُضْطَرِمِ
وأَصْبَحَـتْ بـك مِصْـرٌ بعـد خِيفَتِهـا ... لـلأمـنِ والعِـزِّ والإقبـالِ كـالحَـرَمِ
والسُّنَّـةُ اتَّسَقَـتْ والبِـدْعَـةُ انمحقَـتْ ... وعـاودت دولـةُ الإحسـانِ والكَـرَمِ
ملـوكُهـا لـك صـاروا أَعْبُـداً وغـدا ... بهـا عبيـدُك مُـلاَّكـاً[^5] ذوي حُـرَمِ
أَنْبـتَ عنـك بهـا قَـرْمـاً[^6] ينـوبُ بهـا ... في البَأْس عن عنترٍ في الجُودِ عن هَرِمِ[^7]
لـلّـه دَرُّكَ نـورَالـديـن مـن مَلِـكٍ ... عَـدْلٍ لحفـظِ أمـورِ الـديـنِ مُلْتَـزِمِ

---

[^1]: الذوابل الرماح. «أساس البلاغة» (ذبل).
[^2]: مفردها قضيب: وهو السيف اللطيف الدقيق. «اللسان» (قضب).
[^3]: القحم: الأمور العظام الشاقة، واحدتها: قحمة. «اللسان» (قحم).
[^4]: الخذم: القاطع. «اللسان» (خذم).
[^5]: في الأصل: أماكاً، وفي (ل): أملاكاً، والمثبت من (م).
[^6]: القرم من الرجال: السيد المعظم. «اللسان» (قرم).
[^7]: هو هرم بن سنان، ممدوح زهير بن أبي سلمى، وكان من أجواد العرب في الجاهلية، يضرب بجوده المثل، يقال: أجود من هرم. انظر «مجمع الأمثال» للميداني: ١/١٢٧.

كانت ولايةُ مِصْرٍ قبل عِزَّتها بكشف دَوْلَتِها لحماً على وَضَمِ[1]

فالنِّيلُ مُلْتَطِمٌ جارٍ على خَجَلٍ جاراً لبحرِ نَوالٍ منكَ مُلْتَطِمِ

أُغْزُ الفرنجَ فهذا وقتُ غزوهِمُ واخْطِمْ جموعَهُمُ بالذَّابلِ[2] الحَطِمِ

وَطَهِّرِ القُدْسَ من رِجْسِ الصَّليبِ وَثِبْ على البُغَاثِ وُثوبَ الأَجْدَلِ[3] القَطِمِ[4]

فمُلْكُ مِصْرَ ومُلْكُ الشَّامِ قد نُظِما في عِقْدِ عِزٍّ مِنَ الإسلامِ مُنْتَظِمِ

محمودٌ المَلِكُ الغازي يَسُوسُهُما بالفَضْلِ والعَدْلِ والإفضالِ والنِّعَمِ

بالشُّكْرِ كلُّ لِسانٍ ناطقٌ أبداً محمودٌ المَلْكُ محمودٌ[5] بكلِّ فَمِ

فأَشْكِ[6] مِصْرَ وأَظْهِرْ عِزَّ سُنَّتِها كم تحتفي[7] وإلى كم تشتكي وَكَمِ

ولِعلم الدين الشَّاتاني[8] في نور الدين:

ما نال شأوَك في المعالي سِنْجَرٌ[9] كلا ولا كِسْرى ولا الإسكندرُ

يا خيْرَ مَنْ رَكِبَ الجيادَ وخاضَ في لُجَجِ المنايا والأَسِنَّةُ تَقْطُرُ

---

(١) الوضم: كل شيء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية (حصيرة) يوقى به من الأرض، ومن المجاز: هو لحم على وضم، للذليل، كأنه في ضعفه مثل ذلك اللحم لا يمتنع من أحد. انظر «اللسان» و«أساس البلاغة»: (وضم).

(٢) في (م) الذُّبَّل.

(٣) الأجدل: الصقر. «اللسان» (جدل).

(٤) القطم: الصقر المشتهي اللحم. «اللسان» (قطم).

(٥) في الأصل: المحمود، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) أي أَزِلْ عنها ما تشكو منه، انظر «اللسان» «شكا».

(٧) في (م): تختفي، والمثبت من الأصل و(ل).

(٨) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣٥ من الجزء الأول.

(٩) هو سنجر بن ملكشاه، وهو من كبار سلاطين السلاجقة. اتسع ملكه، وحكم قريباً من ستين سنة. توفي سنة (٥٥٢ هـ) انظر ص ٣٥٩ من الجزء الأول.

هل حازَ غَيْرُكَ مُلْكَ مِصْرَ وصار من ... أتباعِـهِ مَـنْ جَـدُّه المُسْتَنْصِـرُ(١)
والمستـضـي بـالله(٢) مُعْتَـدٌّ بـه ... ويجَـدِّه وبحـدِّه مُسْتَظْهِـرُ
أو سَـدَّ بـالشَّـام الثغـورَ محـامياً ... للـدِّيـن حتـى عـادَ عنهـا قَيْصَـرُ
يبكـي فيـروي الأرضَ فيضُ دموعِـه ... والجـوُّ مـن أنفـاسـه يَتَسَعَّـرُ
أوَمـا أبـوكَ بسيفـه فَتَـحَ الـرُّهـا* ... والأُسْـدُ تَقْتَنِـصُ الكُمـاةَ وَتَـزْأَرُ
هـابَتْ ملـوكُ الأرضِ بـأسَ كُماتِها ... فتقـاعـدوا عـن قَصْـدِهـا وتـأخَّـروا
مـا ضَـرَّه طـيُّ المنيـة ذاتَـه ... وصفـاتُـه بيـنَ البـريَّـةِ تُنْشَـرُ
فَلَكُـمْ علـى كـلِّ الملـوكِ مـزيـةٌ ... لـوقـائـعٍ مَشْهُـورةٍ لا تُنْكَـرُ
وإذا عَـدَدْنـا لـلأنـامِ منـاقبـاً ... فعليـك قَبْـلَ الكُـلِّ تُثْنـى الخِنْصِـرُ
١٧٦/١ في الرأي قَيْسٌ في السَّماحة حاتِمٌ ... فـي النُّطْـقِ قُسٌّ فـي البَسَالـة حَيْـدَرُ
دانَـتْ لـك الـدُّنيـا وأنـت تعـافُهـا ... وسِـوَاكَ فـي آمـالـه يتعثَّـرُ
من ذا يَصُون الصِّينَ عنك وأنتَ مَنْ ... أُسْـدُ الشَّـرى منه تخـافُ وتَحْـذَرُ(٣)

قال العماد: وأنفذ صلاح الدين من مصر خِلَعاً لجماعةٍ من الأعيان، وأنفذ للعماد عِمامة ملبوسة، فكتب إليه قصائد في هذا المعنى، منها:

يا صلاحَ الدِّين الذي أصلح الفا ... سِدَ بالعَدْلِ(٤) من خُطُوبِ الزَّمانِ
أنـتَ أَجْـرَيْـتَ نِيْـلَ مِصْـرَ إلـى الشَّـا ... م نَـوَالاً أم سـالَ نيـلٌ ثـانـي!

(١) خليفة فاطمي، ولي سنة (٤٢٧ هـ) حتى وفاته سنة (٤٨٧ هـ) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٨٦ ــ ١٩٦، وقد أخطأ الدكتور شكري فيصل حين توهم أن المراد بالمستنصر الخليفة العباسي، فراح يتمحل لاستقامة المعنى وجوهاً غريبة. انظر حاشيته رقم ٣ ص ٣٧٧ من «خريدة القصر» قسم شعراء الشام الجزء الثاني.
(٢) خليفة عباسي، ولي سنة (٥٦٦ هـ) حتى وفاته سنة (٥٧٥ هـ) وسترد ترجمته في وفياتها ٣/ ٥٠.
(٣) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٧٧ ــ ٣٧٩.
(٤) بالعدل، ساقطة من (م).

وعلى نيلها لكفَّيك فضلٌ ... فهما بالنُّضار جاريتانِ
وَصَلَتْ أُعطياتُك الغُرُّ غُزْراً ... فتلقَّت آمالنا بالتَّهاني
خِلَعٌ راقتِ العيونَ وراعت ... وعلا وَصْفُها عنِ الإمكانِ
مُذْهباتٌ كأنَّها خِلَعُ الرِّضْـ ... ـوانِ قد أُهْدِيَتْ لأهلِ الجِنَانِ
مُشْرقاتٌ بِطُرْزِها الذَّهبيا ... تِ الحِسانِ الرَّفيعةِ الأَثمانِ
فالعِماماتُ كالغماماتِ والطُّر ... ز بروقٌ كثيرةُ اللَّمَعانِ
والموالي بها من التِّيه والفَخْـ ... ـرِ على الدَّهْرِ ساحِبُو الأَرْدَانِ
كيف خُصَّ العماد بالأَدْوَن المُخْـ ... ـلَق من دونِ عُصْبَةِ الدِّيوانِ
أخليقٌ مَنْ نَسْجُهُ لكَ في المَدْ ... حِ جديدٌ بأمْهَنِ الخُلْقانِ
وكذا عادةُ اللَّيالي تخصُّ الـ ... ـفاضلَ المُسْتَحِقَّ بالحِرْمانِ
لم تَزَلْ سارياتُ[1] جُودِكَ بالشَّا ... مِ لديه غزيرةَ التَّهْتَانِ
فإذا لم تَزِدْه مِصْرُ كمالاً ... في المُنَى فاحْمِه مِنَ النُّقْصانِ

وكتب إلى فخرالدين أخي صلاح الدين[2] قصيدةً، منها:

عَبْدُك شمسَ الدَّولةِ المُرتَجى ... مُنْتَظِرٌ تَشْرِيفَكَ المُذْهَبا
واعْتِبْ صلاحَ الدِّين في حالتي ... عساه بالإصلاحِ أَنْ يُعتبَا
عَرِّفْه ما تَمَّ فإنِّي أرى[3] ... من فَضْلِه للفَضْلِ أن يَغْضَبا
وكيفَ يرضى ذاك بعضَ الرِّضا ... وَمَجْدُه يأباه كلَّ الإِبا

---

(١) في الأصل و (ل): سائرات، والمثبت من (م)، والساريات: مفردها سارية، وهي السحابة التي تسري ليلاً.
(٢) هو شمس الدولة تورانشاه، أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته في وفيات سنة (٥٧٦ هـ) ٣/ ٦٣، وانظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٣٠٦.
(٣) أرى: ساقطة من (م).

وقُلْ لـه: جـاءتـه مَلْبُـوسَـةً   تخلَّفَـتْ مِـن تبَّـعٍ فـي سَبـا
عِمـامَـةٌ رَقَّـتْ ورثَّـتْ فمـا   نَشَـرْتُهـا إلاّ وطـارت هَبَـا

قال: فوصل من صلاح الدين عِمامةٌ مُذْهبة، وكتَبَ يعتذر عن العمامة التي قبلها. وكتب إلى سعد الدين كُمُشْتِكِين ليستعير لسانه في الاعتذار إلى العماد: فإني أستقلُّ لمرامه إرم ذات العماد. فكتب العماد:

أما العِمادُ فقد تضاعَفَ شُكْرُهُ   نُعْماك شُكْرَ الرَّوْض نُعمى الصَّيِّبِ
لِعِمـامَـةٍ ذَهَبِيَّـةٍ كغَمـامَـةٍ   يبدو بها بَـرْقُ الطِّـراز المَغْـرِبـي
مـا كـان أحسـنَ حـالَـهُ لـو أنَّـهُ   شُفِعَـتْ عِمـامَتُـه بِثَـوْبٍ مُـذْهَـبِ

قال: وكتب إليه:

أُهَنِّـي المَلِـكَ النَّـاصِـ   ـرَ بـالمُلْـكِ وبـالنَّصْـرِ
ومـا مَهَّـدَ مـن بُنْيَـا   نِ ديـنِ الحـقِّ فـي مِصْـرِ
ومـا أَسْـدَاه مـن بِـرٍّ   بـلا عَـدٍّ ولا حَصْـرِ
ومـا أَحْيـاه مـن عَـدْلٍ   ومـا خَفَّـفَ مـن إِصْـرِ
وإعـلاء سنـا السُّنَّـ   ـةِ فـي بُحْبُـوحَـةِ القَصْـرِ(١)
قـد استـولـى علـى مِصْـرٍ   بحـقٍّ يـوسـفُ العَصْـرِ
وأحيـا سُنَّـةَ الإحسـا   نِ فـي البَـدْوِ وفـي الحَضْـرِ

وكتب إليه الأمير أسامة بن منقذ من قصيدةٍ:

١/١٧٧ ديارَ الهوى حيًّا معالِمَكِ القَطْرُ   وجادَكِ جُودُ النَّاصِرِ الغَدِقُ الهَمْرُ

---

(١) بحبوحة القصر: وسطه. انظر «اللسان» (بحح).

بـه رَجَعَـتْ فـي عُنْفُـوان شبـابهـا ... وَنُصْرَتِها من بعدِ ما هَرِمَتْ مِصْرُ
وكـم خـاطـبٍ رَدَّتْـهُ لـم يـكُ كفأهـا ... إلى أَنْ أتـاهـا خـاطِـبٌ سَيْفُـهُ المَهْـرُ
حماها حِمى اللَّيْث العرينَ وصَانَها ... كما صان عَيْناً من مُلِمِّ القَذَى شُفْرُ[1]
وكـان بهـا بَحْـرٌ أُجـاجٌ فـأصْبَحَـتْ ... ومن جُوده العَذْبِ النميرِ بها بَحْرُ[2]

وله فيه من أخرى:

فما أنتَ إلاّ الشَّمْسُ لولاك لم تَزَلْ ... على مِصْرَ ظلماءُ الضَّلالةِ سَرْمَدَا
وكـان بهـا طُغْيـان فِـرْعـونَ لـم يَـزَل ... كمـا كـان لمَّـا أَنْ طغـى وتَمَـرَّدا
فبصَّـرْتَهُـمْ بَعْـدَ الغَـوَايـة والعَمـى ... وأَرْشَدْتَهُمْ بعد الضَّلال إلى الهُدَى[3]

وله فيه من أخرى:

قُلْ للملوك: تَزَحْزَحُوا عن ذُرْوَة الـ ... ـعلياءِ للملـكِ الهُمَـام النَّـاصِـرِ
يعطـي الأُلــوف ويلتقيهـا بـاسمـاً ... طَلْقَ المحيا فـي القنا المُتَشاجِرِ[4]

وقرأت في ديوان العَرْقَلة[5]: وقال في المولى الملك النَّاصر وقد أنفذ له من ديار مصر ذهباً ولغيره سلاماً:

صـلاحَ الـدِّيـن قـد أَصْلَحْـتَ دُنيـا ... شقـيٍّ لـم يَبِـتْ إلاّ حـريصـا
أتـى منـك السَّـلامُ[6] لنـا عمـومـاً ... وجُـودُك جـاءنـي وَحْـدي خُصـوصـا

---

(١) الشفر، بالضم: شفر العين، وهو ما نبت عليه الشعر، وأصل نبت الشعر في الجفن، وليس الشفر من الشعر في شيء. «اللسان» (شفر).
(٢) الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.
(٣) الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.
(٤) البيتان ليسا في «ديوانه» المطبوع.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من الجزء الأول.
(٦) في طبعة وادي النيل: ١/ ١٧٧، «وأرسلت السلام».

فكنتَ كيوسُفَ الصِّدِّيقِ لمَّا تلقَّى منه يَعْقُوبُ القَمِيْصَا[1]

وكان العرقلة من جُملة المتردِّدين إلى صلاح الدين أيام كونه بدمشق، فلما سار إلى مصر وعده أنه متى ملكها أعطاه ألف دينار. فلما تَمَّ أمرُه بمصر كتب إليه العَرْقَلة قصيدةً منها:

إليكَ صلاحَ الدِّينِ مولاي أشتكي زماناً على الحُرِّ الكريمِ يجورُ
تُرى أُبْصِرُ الألفَ التي كنتَ وَاعِدي بها في يدي قبل الممات تصيرُ
وَهَيْهات والإفرنجُ بيني وبينكم سياجٌ قتيلٌ دونه وأسيرُ
ومن عَجَبِ الأيام أنكَ ذو غِنًى بِمِصْرَ ومثلي بالشَّآم فقيرُ[2]

وقال أيضاً:

قُلْ للصَّلاح مُعيني عند إعساري يا ألفَ مولايَ أين الألفُ دينار
أخشى من الأَسْرِ إن حاولتُ أَرْضَكُمُ وما تفي جَنَّةُ الفِرْدَوْس بالنَّارِ
فَجُدْ بها عاضِدِيَّاتٍ[3] مُسَطَّرَةً من بعض ما خلَّف الطَّاغي أبو الطَّارِي[4]

---

(١) «ديوان عرقلة الكلبي»: ٥٧، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢١١.

(٢) «ديوان عرقلة»: ٥٠، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) العاضديات: دنانير منسوبة إلى الخليفة الفاطمي العاضد، ضربها بالقاهرة سنة (٥٦٤ هـ)، انظر كتاب «النقود» ٧١ ـ ٧٢، تأليف حسين عبد الرحمن، طبع بالقاهرة بلا تاريخ.

(٤) في أصول «الخريدة» يوافق ما في نسختنا الخطية، ولكن محققه الدكتور شكري فيصل استبدلها بـ «أبو العار» مستفيداً مما ورد في «فوات الوفيات»: ١/ ٣١٣، وفيه «أخو العار». وتابعه في ذلك محقق «ديوان عرقلة»، وسيرد مقتل الطاري بن شاور ص ١٣٧ من هذا الجزء.

حُمْراً كأسيافِكُم غُرّاً[1] كخيلكُمُ عُتْقاً ثقالاً كأعدائي وأطماري[2]

يعني بالطاغي شاور، وله ابن اسمه الطاري.

وأنفذ له من مصر عشرين ديناراً[3] فقال:

يا مالكاً[4] ما برِحَتْ كَفُّه تجودُ بالمالِ على كَفِّي
أفلحَ بالعِشْرين من لم يَزَلْ في رأس عشرين مِنَ الكَهْفِ
يا ألف مولاي ولكنَّها محسوبةٌ من جُمْلَةِ الألفِ[5]

وذكر العماد في «الخريدة» أن العرقلة قصدَ صلاح الدين إلى مِصْر، فأعطاه ذلك، وأخذ له من إخوته مثله، فعاد إلى دمشق وهو مسرور مجبور، وكان ذلك ختام حياته، ودنا أجل وفاته، ومات بدمشق في سنة ست، أو سبع وستين وخمس مئة[6].

قلت: وفي ديوانه ما يدلُّ على قدومه مصر، فإن فيه: وقال، وكتبها على حَمَّامٍ عمَّرها المولى الملك الناصر بديار مصر:

يا داخلَ الحَمَّام هُنِّيْتَها دائرةً كالفَلَكِ الدَّائرِ
تأمَّلِ الجنَّةَ قد زُخْرِفَتْ وَعُمِّرَتْ[7] للملكِ النَّاصرِ
كأنَّما فَيْضُ أنابيبها نَدَاه للوارِدِ والصَّادرِ[8]

---

(١) في (ل) و (م): غبراً.

(٢) انظر «ديوان عرقلة»: ٤٩ ـ ٥٠، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٧٨ ـ ١٧٩.

(٣) في «الديوان»: عشرين ألف دينار، وهو وهم.

(٤) في (ل) و (م): يا ملكاً.

(٥) «ديوان عرقلة»: ٦٤.

(٦) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/١٧٨ ـ ١٨٠.

(٧) في (م): وعجلت.

(٨) «ديوان عرقلة»: ٥٢ ـ ٥٣.

١٧٨/١

فصــل

في قتل المُؤْتَمن بالخرقانية[(١)]، ووقعة السُّودان[(٢)] بين القصرين، وغير ذلك

قال العماد: وشرع صلاح الدين في نقص إقطاع المصريين، فقطع منهم الدَّابر من أجل مَن معه من العساكر. وكان بالقصر خَصِيٌّ يدعى مؤتمن الخلافة، متحكِّم في القَصْر، فأجمع هو ومن معه على أن يُكاتبوا الفرنج ويقبضوا على[(٣)] الأسدية والصَّلاحية، لأن صلاح الدين يخرج إلى الفرنج بمن معه، فيؤخذ مَن بقي مِن أصحابه بالقاهرة ويُتبع من ورائه، فتكون عليهم الدائرة. فكاتبوا الفرنج، واتفق أن رجلاً من التركمان عبر بالبئر البيضاء[(٤)] فرأى مع إنسان ذي خُلْقان[(٥)] نعلين جديدين ليس بهما أثر مشي،

---

(١) قرية صغيرة من مديرية القليوبية على الشط الشرقي للنيل في الشمال الغربي لقرية أبي القبيط، وكانت تسمى في العصر الفاطمي الخاقانية، انظر «مفرج الكروب» ١/١٧٦.

(٢) كانت أم المستنصر سوداء، فأحبت الاستكثار من جنسها، فاشترت السودان من كل مكان، ومن ثم كانت السبب في كثرة العبيد السود بمصر. انظر «خطط المقريزي»: ٢/١٣٨.

(٣) في هذه الورقة يبتدىء خرم في الأصل أعلى الصفحة يذهب ببضع كلمات، استدركت بخط متأخر، وكان أصلنا في تحقيقها نسختي (ل) و (م).

(٤) بئر البيضاء: كانت مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون زمن القلقشندي، وهو على الطريق بين القاهرة وغزة، وقد حقق محمد رمزي موقعها، فقال: وبالبحث عن موقعها تبين لي أن مكانها اليوم عزبة أبي حبيب الواقعة في حوض البيضاء بأراضي ناحية الزوامل بمركز بلبيس، ولا يزال اسم البيضاء المنسوب إليه هذه البئر يطلق على الحوض المذكور، انظر «صبح الأعشى»: ١٤/٣٧٦، و «النجوم الزاهرة»: ٨/٤٤.

(٥) الخلق، محرَّكة: البالي، للمذكر والمؤنث، جمعها خلقان، «القاموس المحيط»: (خلق).

فأنكرهما، فأخذهما، وجاء بهما إلى صلاح الدين، ففتقهما، فوجد مكاتبة الفرنج فيهما من أهل القَصْر، يرجون بحركتهم حصول النصر. فأخذ الكتاب وقال: دلُّوني على كاتب هذا الخَطِّ. فدلُّوه على يهودي من الرَّهْط، فلما أحضروه ليسألوه، ويعاقبوه على خَطِّه ويقابلوه، نطق بالشَّهادة قبل كلامه، ودخل في عِصْمة إسلامه، ثم اعترف بما جناه، وشيَّدَه من الأمر وبناه، وأن الآمر به مؤتمن الخلافة، وأنه بريء من هذه الآفة. فحسَّن السُّلْطان إسلامه، وثَبَّت اعتصامه، وعرف استسلامه، ورأى إخفاء هذا السر واكتتامه.

واستشعر الخَصِيّ العَصِيُّ، وخَشِيَ أن تَشُقَّه على شَقٍّ العصا العِصِيُّ، فما صار يخرج من القصر مخافة، وإذا خرج[1] لم يبعد مسافة، وصلاح الدين عليه مُغْضَب وعنه مُغْضٍ، لا يأمر فيه ببسط ولا قَبْض، إلى أن استرسل واستبسل، وظن أن ما نسله من الشَّرِّ العقيم نَصَل. وكان له قصرٌ في قرية يقال لها الخرقانية لخُرقه، ورقع ما يتَّسع عليه من خَرْقه، وهو بقرب قَلْيوب*، فخلا فيه يوماً للذَّته، ولم يدر أنه يوم ذِلَّته، وانقضاء ساعاته بانقضاء دولته، فأنهضَ إليه صلاح الدين من أخذ رأسه، ونزع مَنْ جاء به لباسه، وذلك يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة أربع؛ فورد موارده مِن رَداه على أدون مَشْرع[2].

قال: ولما قُتِل غار السُّودان وثاروا، وكانوا أكثر من خمسين ألفاً. وكانوا إذا قاموا على وزيرٍ قتلوه، واجتاحوه وأذلُّوه، واستباحوه واستحلُّوه،

---

(١) في (م): وإذا خاف، وهو تحريف.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٢ ــ ٨٣.

فحسبوا أنَّ كلَّ بيضاء شَحْمة، وأنَّ كُلَّ سوداء فَحْمة[١]. فثار أصحابُ صلاح الدين إلى الهَيجاء، ومقدَّمهم الأمير أبو الهيجاء[٢]. واتصلت الحرب بين القصرين[٣]، وأحاطت بهم العسكرية من الجانبين، ودام الشَّرُّ يومين، حتى أَحَسَّ الأساحم بالحَيْن، وكلما لجؤوا إلى محلَّة أحرقوها عليهم، وحوَوْا ما حواليهم، وأُخرجوا إلى الجِيزة، وأُذِلُّوا بالنفي عن منازلهم العزيزة، وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة، فما خلص السُّودان بعدها من الشِّدَّة، ولم يجدوا إلى الخلاص سبيلاً و ﴿أينما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلوا تَقْتِيلا﴾[٤].

وكانت لهم على باب زُوَيلة* محلة تسمى المنصورة[٥]، وكانت بهم المعمَّرة المعمورة، فأُتي بنيانها من القواعد فأصبحت خاوية، ثم حرثها بعضُ الأمراء واتخذها بُسْتاناً، فهي الآن جَنَّة لها ساقية.

قال: وكان قد وصل إلى صلاح الدين قبيل[٦] هذه النوبة أخوه الأكبر فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أنفذه إليه نور الدين من دمشق يشدُّ أزره بمصر، لما سمع بحركة الفرنج وأهل القصر، فوصل القاهرة في ثالث ذي القعدة.

---

(١) في المثل: ما كل بيضاء شحمة ولا كل سوداء تمرة، يضرب في اختلاف أخلاق الناس وطباعهم، انظر «المستقصى في أمثال العرب»: ٢/ ٣٢٨ ــ ٣٢٩، و «مجمع الأمثال»: ٢/ ١٥٦.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من هذا الجزء.

(٣) انظر ما كتبه المقريزي عن هذه الواقعة في «خططه»: ٣/ ٢ ــ ٤، ففيه تفصيل وافٍ.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٦١، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٣ ــ ٨٤.

(٥) انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٢٩ ــ ٣٠.

(٦) في (ل) و (م): قبل.

قال [ابن أبي طيّ][1]: وباشر بنفسه وقعة السُّودان هذه، وكان له فيها أثرٌ عظيم. ومن عجيب ما اتفق أنَّ العاضد كان يتطلع[2] من المنظرة، ويعاين الحرب بين القصرين، فقيل: إنه أمر مَنْ بالقصر أن يقذفوا العساكر الشَّامية بالنُّشَّاب والحجارة، ففعلوا. وقيل: إن ذلك كان عن غير اختياره. فأمر[3] شمس الدَّولة الزرَّاقين بإحراق[4] منظرة العاضد، فهمَّ أحدُ الزراقين بذلك، وإذا باب المنظرة قد فُتِحَ وخرج منه زعيمُ الخلافة وقال[5]: أمير المؤمنين يُسَلِّم على شمس الدولة[6] ويقول: دونكم العبيد[7] الكلاب، أخرجوهم من بلادكم. وكانت العبيد مشتدَّة الأنفس بأنَّ العاضد راضٍ بفعالهم[8]، فلما سمعوا ذلك فَتَّ في أعضادهم، فجبُنُوا وتخاذلوا وأدبروا.

ومما كتبه العماد على لسان غيره إلى صلاح الدين قصيدةً، منها:

بالملكِ النَّاصِرِ استنارَتْ ... في عَصْرِنا أَوْجُهُ الفَضائِلْ
عليَّ مِنْ حَقِّهِ فُروضٌ ... شُكْراً لما جادَ من نَوافِلْ
يوسفُ مِصْرَ الذي إليه ... تَشُدُّ آمالُنا الرَّواحِلْ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل و (ل)، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: يطلع، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (م): فأمن، وهو تصحيف.
(٤) في (م): وأحرق.
(٥) في (م): وذلك، وهو تحريف.
(٦) في (م): يسلم عليكم.
(٧) في (م): والعبيد.
(٨) في (م): من أفعالهم.

أَجْـرَيْـتَ نِيْلَيْـنِ فـي ثَـرَاهـا ... نيـلَ نجيـعٍ(1) ونِيْـلَ نَـائِـلْ

ومـا نَفَيْـتَ السُّـودَانَ حتـى ... حُكِّمَـتِ البِيْـضُ فـي المقـاتِـلْ

صَيَّـرْتَ رَحْـبَ الفَضَـاءِ(2) ضيْقـاً ... عليهـمُ كِفَّـةً لحـابِـلْ(3)

وكُـلُّ راءٍ(4) منهـمْ كَـرَاءِ ... وأَرْضُ مِصْـرٍ كـلامُ وَاصِـلْ(5)

١٧٩/١ وقـد خَلَـتْ منهـمُ المغـانـي ... وأَقْفَـرَتْ مِنْهُـمُ المَنَـازِلْ

ومـا أُصيبـوا إلا بِطَـلٍّ ... فكيـفَ لـو أُمْطِـرُوا بِـوَابِـلْ

والسُّـود بـالبِيْـضِ قـد أُبيحـوا ... فهْـي نَـوَازٍ بهـم نَـوَازِلْ

مُـؤْتَمِـنُ القَـوْمِ خـانَ حتـى ... غَـالَتْـهُ(6) مـن شَـرِّهِ غَـوَائِـلْ

---

(1) النجيع: الدم، «اللسان» (نجع).

(2) في (م): الفناء.

(3) الكفة: حبالة الصائد تجعل كالطوق تصاد بها الظباء. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٨٥.

(4) في (م): امرىء، وهو تحريف.

(5) كان واصل بن عطاء، رأس المعتزلة، ألثغ في الراء، فكان يخلص كلامه من الراء، ولا يفطن لذلك لاقتداره وسهولة ألفاظه، انظر «البيان والتبيين»: ١/ ١٤ ــ ٢٢، و «الكامل» للمبرد: ٣/ ١١١٢ ــ ١١١٣ و «وفيات الأعيان»: ٦/ ٧ ــ ١١، وفيه توفي سنة (١٨١ هـ)، وهو تحريف، صوابه سنة (١٣١ هـ)، و «طبقات المعتزلة»: ٢٨ ــ ٣٥، قلت: في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: هذان البيتان اللذان أولهما: وما نفيت السودان، وكل راء منهم كراءٍ، فيهما زحاف، وذلك أنه استعمل مفعولن في وضع فاعلن، لأن هذا الوزن هو مسدس البسيط المخلع، ومنه:

أصبحت والشيب قد علاني

تقطيعه:

مستفعلن فاعلن فعولن

واستعمله العماد في هذين البيتين مخبوناً:

مستفعلن مفعولن فعولن

والله أعلم». قلت: وكذلك البيتان اللذان أولهما: وما أصيبوا، فقدِّس القدس، فيهما زحاف، فقد استعمل العماد «مفعولن» في وضع «فاعلن».

(6) في (ل): عاليه، وهو تصحيف.

عـامَلَكُـمْ بـالخَنـا فـأَضْحـى   وَرأسُـهُ فَـوْقَ رَأسِ عَـامِـلْ[1]
يـا مُخْجِـلَ البَحْـرِ بـالأيـادي   قـد آن [أن][2] تَفْتَـحَ السَّـوَاحِـلْ
فقــدِّسِ القُــدْسَ مــن خِبَـاثِ   أرجــاسِ كُفْــرٍ غُتْــمٍ[3] أراذِلْ

قال العماد: ومما مدحت به صلاح الدين في ذلك التاريخ تهنئةً له بالملك وتعزية بعمه:

أيا يوسفَ الإحسان والحسن خيرَ مَنْ   حَوَى الفَضْلَ والإفضالَ والنَّهْيَ والأمرا
وَمَـنْ للهُـدَى وَجْـهُ النَّجـاحِ بـرأيـهِ   تجلَّـى وثَغْـرُ الثَّغْـرِ مِـنْ عَـزْمِـهِ افْتَـرَّا
حمـى حَـوْزَةَ الـدِّيـنِ الحنيـفِ بحَـوْزِهِ   من الخالقِ الحُسْنى ومن خَلْقِه الشُّكْرا
أبــوه أبــى إلا العَــلاءَ وعَمُّــهُ   بمعـروفـهِ عَـمَّ الـوَرَى البَـدْوَ والحَضْـرَا
وطـالَ الملـوكَ شِيـركُـوه بِطَـوْلـهِ   وما شاركُوه في العُلا فَحَوى الفَخْرا
بنـو الأَصْفَـرِ الإفـرنـجِ لاقَـوا بِبِيْضِـهِ   وسُمْـرِ عَـوَاليـهِ منـايـاهُـمُ حَمْـرا
وما ابيضَّ يَوْمُ النَّصْرِ واخضرَّ رَوْضُهُ   من الخِضْبِ حتى اسودَّ بالنَّقْعِ واغبرَّا
رأى النَّصْرَ في تَقْوى الإلٰه وكُلُّ من   تقــوَّى بتقــوى الله لا يَعْـدَمُ النَّصْـرا
ولمــا رأى الــدُّنيــا بعيــنِ مَـلالـةٍ   أغذَّ من الأولى مسيراً[4] إلى الأُخرى
وقـامَ صـلاحُ الـديـن بـالملـك كـافـلاً   وكيف ترى شَمْسَ الضُّحى تَخْلُفُ البَدْرا
ولما صَبَتْ مِصْرٌ إلى عَصْرِ يوسفٍ   أعـاد إليهـا اللَّـهُ يُـوسُـفَ والعَصْـرا
فـأَجْـرَى بهـا مـن راحَتَيْـهِ بِجُـودِهِ   بحـاراً فسمَّـاهـا الـوَرَى أنْمُـلاً عَشْـرا

---

(١) العامل: صدر الرمح، «اللسان» (عمل).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) غُتْم جمع، مفردها: الغتمة وهي عجمة في المنطق. «اللسان» (غتم).
(٤) في (م): المسير.

هـزمتـم جنـودَ المُشْـرِكيـن بِـرُعْبكـم … فلـم يَلْبَثُـوا خَـوْفـاً ولـم يمكُثُـوا ذُعْـرا
وفـرَّقتُـمُ مـن حَـوْلِ مِصْـرَ جمـوعَهُـمْ … بكسـرٍ وعـاد الكَسْـرُ مـن أهلِهـا جَبْـرا
وآمنتـمُ[1] فيهـا الـرَّعـايـا بِعَـدْلِكُـمْ … وأطفـأتُـمُ مـن شَـرٍّ شـاورهـا الجمْـرا
بسفـك دمٍ حُطْتُـمْ دمـاءً كثيـرة … وحُزْتُمْ بما أبدَيْتُمُ الحَمْدَ والأَجْرا[2]
ومـا يـرتـوي الإسـلامُ حتـى تغـادروا … لكـم مـن دمـاءِ الغـادريـنَ بهـا غُـدْرا
فصُبُّوا على الإفرنج سَوْطَ عَذَابها … بـأن تقسمـوا مـا بينهـا القَتْـلَ والأَسْـرَا
ولا تهملوا البيتَ المُقَدَّس واعزمـوا … على فَتْحِهِ غازيـن وافترعوا البِكْرا
تـديمـون بـالمعـروف طيِّب ذِكْـرِكُـمْ … وما المُلْكُ إلاّ أَنْ تديموا لكُمْ ذِكْرا
وإنَّ الـذي أثـرى مـن المـال مُقْتِـرٌ … وإن يُفْنِـهِ فـي كَسْـبِ محمـدةٍ أثـرى

قال: وكَثُرَتْ كُتُبُ صلاحِ الدين إلى أصدقائه مبشِّرة بطيب أنبائه، فمنها كتاب ضمَّنَه هذا البيت:

مـا كنـتُ بـالمَنْظُـورِ أَقْنَـعُ مِنكُـمُ … ولقـد رَضِيْـتُ اليـومَ بالمَسْمُوعِ[3]

فقلتُ في جوابه[4] أبياتاً، منها:

يـا هَـلْ لسـالِـفِ عيْشتـي بفِنـائكـمْ … مِـنْ عَـوْدَةٍ محمـودةٍ وَرُجُـوعِ
قـد غِبْتُـمُ عـن نـاظـري مـا آذَنَـتْ … للقَلْـبِ شمْـسٌ مَـرَّةً بِطُلُـوعِ
كنتُ المشَفَّعَ في المطالب عندكـم … فَغَـدَوْتُ أطلـبُ طَيْفَكُـمْ بشَفيـعِ
أصبحـتُ أقنـع بـالسَّلامِ على النَّوَى … وبِقُـرْبِكُـمْ كَـمْ بِـتُّ غيـرَ قَنُـوعِ

---

(١) في (م): وآمنت.
(٢) في (ل): والشكرا.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٥.
(٤) في (ل): جوابها.

قال: ووصل أيضاً منه كتاب ضمنَهُ هذا البيت:

وأنثر دُرَّ الدَّمْعِ من قَبْلُ أبيضا ... وقد حال مُذْ بِنْتُم فأصبحَ ياقوتا[1] ١/ ١٨٠

فنظمتُ في جوابه أبياتاً، منها:

هنيئاً لِمصْرٍ حَوْزَ يوسفَ مُلْكَهَا ... بأمرٍ من الرَّحمن قد كانَ مَوْقوتا
وما كان فيها قتلُ يوسفَ شاوراً ... يماثِلُ إلا قَتْلَ داودَ جَالوتا
وقلتُ لقلبي أَبْشِرِ اليَوْمَ بالمُنَى ... فقد نِلْتَ ما أَمَّلْتَ بل حُزْتَ ما شِيْتَا

قال: وفي هذه السنة قتل العاضدُ بالقصر ابني شاور الكامل وأخاه ــ يعني الطَّاري[2] ــ يوم الاثنين الرَّابع من جُمادى الآخرة؛ وذلك أنه لما قُتل شاور عاذوا بالقصر، فكأنما نزلوا في القبر، فلو أنهم جاؤوا إلى أسد الدين سَلِموا، وامتنعوا وعُصموا[3]، فإنه ساءه قتل شاور، وإن كان أَمِنَ بقتله ما حاذر[4].

قلت: الكامل هو شجاع بن شاور، وكان له اخوان [أحدهما][5] طيّ تَقَدَّم ذِكْر قتل ضِرْغام له[6]، والآخر الطَّارِي. قال الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن أبي السرور الرَّوحي[7] في «تاريخه»[8]: أُخذ ابنا شاور، شجاع

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٥.
(٢) انظر ص ١٢٨ ــ ١٢٩ من هذا الجزء.
(٣) وعصموا، ساقطة من (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٥.
(٥) ما بين حاصرتين من (م).
(٦) انظر ص ٤٠٧، ٤٠٩ من الجزء الأول، وص ٨٤ من هذا الجزء.
(٧) الروحي، ساقطة من (ل)، وقد تصحفت في طبعتي «الإعلان بالتوبيخ» إلى السروجي. انظر نشرة القدسي: ٩٥، ونشرة روزنتال ص ٥٤٦.
(٨) هو «بلغة الظرفاء في ذكرىٰ تواريخ الخلفاء»، طبع بمصر سنة ١٣٢٧ هـ/ ١٩٠٩ م.

الملقَّب بالكامل، والطَّاري الملقَّب بالمعظَّم، وأخوه الملقّب بفارس المسلمين، فقتلوا ودير برؤوسهم[1].

قال: ولما وَلي صلاح الدين ساس الرَّعية، وأظهر لهم من العَدْل ما لم يعلموه، فاجتمع أهلُ البلاد وكرهوه، فأوقع براجلهم، وأخرجهم من القاهرة إخراجاً عنيفاً، وأخرج بعد ذلك فارسهم وشتَّت شملهم[2]. ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[3].

قال[4]: ولما كانت سنة ست وستِّين رَفَعَ جميعَ المكُوس صادِرَها ووارِدَها، جليلَها وحقيرَها، وغزا بلاد الشام غزوتين[5].

قال ابنُ شداد: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي ياروق الذي تُنْسَبُ إليه اليارُوقية[6]، يعني المحلَّة التي بظاهر حلب[7].

قال غيره: وفيها احترقَ جامع حلب وأسواق البَزِّ، وأخذ نور الدين في عمارته آخر السَّنة.

---

(١) انظر «بلغة الظرفاء في ذكرى تواريخ الخلفاء»: ٨٣ وفيه «طي» بدل «الطاري» وهو تحريف.

(٢) «بلغة الظرفاء»: ٨٤.

(٣) سورة النمل، الآية: ٥٢.

(٤) قال، ساقطة من (م).

(٥) «بلغة الظرفاء»: ٨٤.

(٦) «النوادر السلطانية»: ٣٩.

(٧) انظر «معجم البلدان»: ٥/ ٤٢٥، و «وفيات الأعيان»: ٦/ ١١٧، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

ثم دخلت سنة خمسٍ وستين وخمس مئة [1]

ففي أول صفر منها نزل الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ على دِمْياط من الدِّيار المصرية.

قال ابن الأثير: كان فرنج السَّاحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك، فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصِقِلِّية يستمدُّونهم ويُعَرِّفونهم ما تجدَّد من ملك مصر، وأنهم خائفون على البيت المقدَّس من المسلمين، وأرسلوا جماعةً من القُسوس والرُّهبان يحرِّضون النَّاس على الحركة، فأمدُّوهم بالمال والرِّجال والسِّلاح، واتَّعدوا على النزول على دِمْياط، ظنًّا منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر. فلما نازلوها حصروها، وضيَّقوا على مَنْ بها، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النِّيل، وحشر فيها كُلَّ من عنده، وأمدَّهم بالمال والسِّلاح والذَّخائر، وتابع رُسُلَه إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف، وأنه إن تخلَّف عن دِمْياط ملكها الفرنج، وإن سار إليها خلفه المصريون في مخلَّفيه ومخلَّفي عسكره بالسُّوء، وخرجوا من طاعته، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه. فجهَّز إليه نور الدين العساكر أرسالاً، كلما تجهَّزت طائفة أرسلها، فسارت إليه يتلو بعضها بعضاً. ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر، فدخل بلاد الإفرنج فنهبها، وأغار عليها واستباحها، ووصلت الغارات إلى ما لم تكن[2] تبلغه لخلُوِّ البلاد من[3] ممانع.

---

(١) وخمس مئة، ساقطة من (ل).

(٢) في الأصل و (ل): يكن، والمثبت من (م).

(٣) في الأصل و (ل): عن، والمثبت من (م).

فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ودخول[1] نور الدين بلادها[2]، ونهبها وإخرابها، رجعوا خائبين ولم يظفروا بشيء؛ وهذا موضع المثل: ذهبت النَّعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين[3]! فوصلوا إلى بلادهم فرأوها[4] خاويةً على عُروشها.

وكان مُدَّة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تُحصى، حُكِي لي عنه أنه قال: ما رأيتُ أكرم من العاضد؛ أرسل إليَّ مدة مُقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مِصْرية سوى الثِّياب وغيرها[5].

قال القاضي ابن شَدَّاد: لما علم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تَمَّ للسُّلْطان من استقامة الأمر في الديار المصرية، علموا أنه يملك بلادهم، ويخرب ديارهم، ويقلع آثارهم لما حدث له من القُوَّة والملك. فاجتمع الفرنج والرُّوم جميعاً، وحدَّثوا نفوسهم بقصد الديار المِصْرية، والاستيلاء عليها ومُلْكِها، ورأَوْا قصد دِمْياط لتمكُّن القاصد لها من البرّ والبحر، ولعلمهم أنها إن حصلت لهم حصل لهم مَغْرِسُ قدم يأوون إليه. فاسْتَصْحَبُوا المنجنيقات* والدبابات* والجروخ* وآلات الحصار، وغير ذلك، ولما سمع الفرنج [بالشَّام][6] ذلك اشتدَّ أمرهم، فسرقوا حصن

(١) في (م): ودخلوا، وهو تصحيف.
(٢) في (م): بلادهم.
(٣) وهو مثل يضرب في سوء التدبير، انظر «الحيوان» للجاحظ: ٤/٣٢٣، ٣٩٨، وقد ورد فيه «إن النعامة ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها»، وانظر «معجم الأمثال» للميداني: ٢/٥٧، و «المستقصى»: ٢/٢١٨ ــ ٢١٩.
(٤) في (م): فوجدوها.
(٥) «الباهر»: ١٤٣ ــ ١٤٤، و «الكامل»: ١١/٣٥١ ــ ٣٥٢.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

عَكَّار[1] من المسلمين، وأسروا صاحبها، وكان مملوكاً لنور الدين يُسمى خُطْلُخ[2] العلمدار*، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي رجب منها توفي العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه، وكان صاحب بَعْلَبَكّ وتدمر.

ولما رأى نور الدين ظهور الفرنج، وبلغه[3] نزولهم على دمياط قَصَدَ شغل قلوبهم، فنزل على الكَرَك* محاصراً لها في شعبان من هذه السنة، فقصده فرنج السَّاحل، فرحل عنها، وقصد لقاءهم، فلم يقفوا له.

١٨١/١ ثم بلغه وفاة مجد الدين ابن الدَّاية [بحلب][4] في رمضان، فاشتغل قلبه [لأنه][5] كان صاحبَ أمره، فعاد يطلب الشام، فبلغه خبر الزلزلة بحلب التي خَرَّبت كثيراً من البلاد، وكانت في ثاني عشر شوال من السَّنة المذكورة وهو بعَشْتَرا*. فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه قطب الدين بالمَوْصِل، وكانت وفاته في الثاني والعشرين من ذي الحِجَّة، وبلغه الخبر وهو بتل باشِر*، فسار من ليلته طالباً بلاد المَوْصِل.

ولما علم صلاح الدين شِدَّة قصد العدوِّ دِمْياط أنفذ إلى البلد، وأودعه من الرِّجال والأبطال والفرسان والميرة وآلات السِّلاح[6] ما أمِنَ معه عليه، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر والآلات، وإزعاج العدوِّ عنهم إن نزل

---

(١) في مطبوع «النوادر السلطانية»: ٤٢، عكا، وهو تحريف.

(٢) سلف ذكره ص ٣٧٨ من الجزء الأول.

(٣) وبلغه، ساقطة من (ل).

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) ما بين حاصرتين ساقطة في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) في (ل): والآلات والسلاح.

عليهم، وبالغ في العطايا والهبات. وكان وزيراً متحكِّماً لا يُرَدُّ أمره في شيء. ثم نزل الفرنج عليها في التاريخ المذكور، واشتدَّ زحفهم عليها وقتالهم لها، وهو رحمه الله تعالى يشنُّ الغارات عليهم من خارج، والعسكر يقاتلهم من داخل، ونَصْرُ الله للمسلمين يؤيِّدهم[1]، وحُسْنُ قَصْده في نُصْرة دين الله يسعدهم وينجدهم، حتى بان لهم الخُسْران، وظهر على الكُفْر الإيمانُ، ورأوا أنهم ينجون برؤوسهم، ويَسْلَمون بنفوسهم، فرحلوا خائبين خاسرين، فَحُرِقَتْ مجانيقهم، ونهبت آلاتُهم، وقُتِلَ منهم خَلْقٌ عظيم، وسَلِمَ البلد بحمد الله ومَنِّه[2].

وقال العماد: أقام صلاح الدين بالقاهرة في دار ملكه، ومدار فلكه، يُنهض إليها المدد بعد المدد، ويرسل إليها العُدَد بعد العَدَد، ويسهر ليله، ولا يقيل نهاره، وقد أخلص لله سِرَّه وجهاره، ولا ينام ولا ينيم، وعنده من ذلك المُقْعِد المقيم. وسبق تقي الدين ابن أخي السُّلْطان إلى دِمْياط فدخلها، وكذا خاله شهاب الدين محمود فنزلها. واتصلَ الحصار، وتواصل الأنصار، ودَبَّ في الفرنج الفَناء، وهَبَّ عليهم البلاء، فرحلوا عنها في الحادي والعشرين من ربيع الأول، بالذل الأكمل، والصَّغَار الأشمل.

وكان لما وصل الخبر إلى نور الدين بوصولهم، واجتماعهم على دِمْياط ونزولهم، اغتمَّ واهتمَّ، واستَصْعَبَ المُلِمَّ، وأنهض من عنده عسكراً ثقيلاً مقدَّمه الأمير قطب الدين خُسْرو الهَذَباني[3]، وكان مقداماً مقدَّماً، وهُماماً مُعْلماً، وأمره أن يسير بالعسكر، ويخوض بهم بحر العَجَاج الأكدر،

---

(١) في مطبوع «النوادر السلطانية»: يؤذيهم، وهو تصحيف شنيع.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٤١ ـ ٤٣.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٦٩ من هذا الجزء.

فوصل في النصف من ربيع الأوَّل قبل رحيل الفرنج بأسبوع، فوقع [رَوْعُه][1] من الكفر في كُلِّ رُوع[2].

قُلت[3]: وبلغني من شِدَّة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نَزَلَ الفرنج على دِمْياط أنه قرىء عليه[4] جُزْء من حديثٍ كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم، فطلَبَ منه بعضُ طلبة الحديث أن يتبَسَّم لتتم السلسلة، على ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك وقال: إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون مُحاصَرون بالفرنج.

وبلغني أن إماماً لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط في منامه النبيَّ ﷺ وقال له: أَعْلِمْ نورَ الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط في هذه الليلة، فقال: يا رسول الله، ربما لا يصدِّقني، فاذكر لي علامةً يعرفها. فقال: قل له بعلامةِ ما سجدت على تَلِّ حارِم* وقلتَ: يا رب انصر دينك ولا تنصر محموداً، مَنْ هو محمود الكلب حتى يُنْصر[5]! قال: فانتبهت ونزلت إلى المسجد، وكان [من][6] عادة نور الدين أنه ينزل إليه بغَلَس، ولا يزال يتركَّع فيه حتى يصلِّي الصبح، قال: فتعرَّضْتُ له، فسألني عن أمري، فأخبرته بالمنام، وذكرت له العلامة، إلا أنني لم أذكر لفظة الكلب، فقال نور الدين رحمه الله تعالى: اذكر العلامة كلَّها. وألحَّ علي في ذلك، فقلتها،

---

(١) روعه، ساقطة من الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٦ ــ ٨٧.

(٣) في الأصل: قال، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (م): قرىء بين يديه.

(٥) في (ل): تنصر.

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

فبكى رحمه الله وصدَّق الرؤيا، وأُرِّخت تلك الليلة فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك في تلك الليلة.

فصـــل

أرسل نور الدين كتاباً إلى العاضد صاحب القصر[١] يهنيه برحيل الفرنج عن[٢] ثغر دِمْياط، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك في مصر خوفاً منهم[٣]، والاقتصار على صلاح الدين[٤] وألزامه وخواصِّه، فكتب إليه نور الدين يمدَحُ الأتراك، ويُعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات* الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم، ولولاهم لزاد طمعهم في الدِّيار المصرية، ولحصلوا[٥] منها على الأُمْنِيَّة، فلعل الله تعالى أن ييسِّرَ فتح المسجد الأقصى، مضافاً إلى نِعَمِهِ التي لا تُحصى.

قلت: ولعُمارة اليمني من قصيدة:

مَـنْ شـاكـرٌ والله أَعْظَـمُ شـاكـر ... مـا كـانَ مـنْ نُعمـى بنـي أيـوبِ
طَلَـبَ الهُـدَىٰ نَصْـراً فقـال وقـد أَتَـوْا ... حَسْبـي فـأنتـم غـايـةُ المَطْلُـوبِ
جلبوا إلى دِمْيَاطَ عند حصارها[٦] ... عِـــزَّ القـــويِّ وذِلَّـــةَ المَغْلُـــوبِ
وجَلَـوْا عـن الإِسـلام فيهـا كُـرْبَـةً ... لـو لـم يجلُـوهـا أَتَـتْ بكُـرُوبِ

---

(١) صاحب القصر، ساقطة من (ل).
(٢) في (م): على، وهو تحريف.
(٣) خوفاً منهم، ساقطة من (ل).
(٤) في (ل): أسد الدين، وهو تحريف.
(٥) في الأصل: وحصلوا، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) في الأصل: حصارهم، والمثبت من (ل) و (م).

فالنَّاسُ في أعمال مصرٍ كلها عتقاؤهم من نازحٍ وقريْبِ
إنْ لم تظنَّ النَّاسَ قِشْراً فارغاً وهم اللُّبابُ فأنتَ غيْرُ لبيبِ ١/ ١٨٢

وللشِّهاب فِتْيان الشَّاغوري[١] من قصيدةٍ:

ولا غَرْوَ أنْ عاد الفرنجُ هزيمةً ولو لم تَعُدْ لم يَبْقَ للشِّرْكِ ساحِلُ
فقد أيقنتْ أعداؤه أنَّ حظَّهُمْ لديه رِماحٌ أُشْرِعَتْ أو سَلاسِلُ
ولما أَتَوْا دِمْياطَ كالبحرِ طامياً وليس له من كَثْرَةِ القَوْمِ ساحِلُ[٢]
يزيد عن الإِحصاء والعَدِّ جَمْعُهُمْ ألوفُ ألوفٍ خَيْلُهُمْ والرَّواحِلُ
رَأَوْا دونها أُسداً بأيديهمُ القنا وبِيْضاً رِقاقاً أَحْكَمَتْها الصَّياقِلُ
وداروا بها في البحر من كلِّ جانب ومن دونها سَدٌّ من الموتِ حائلُ
رجا الكلبُ مَلْكُ الرُّوم إذ ذاك فَتْحَها فخاب[٣] فأُمُّ المَلْكِ والرُّومِ هابِلُ[٤]

---

(١) هو شهاب الدين فتيان بن علي بن فتيان الأسدي الشاغوري، ولد في بانياس الساحل نحو سنة (٥٣٠ هـ)، وعاش طفولته وشبابه في حي الشاغور جنوبي دمشق، فنسب إليه، وقضى فترة طويلة من حياته معلماً للصبيان في الزبداني، تعلق بخدمة الأمير بدر الدين مودود بن المبارك شحنة دمشق ـ وهو أخو عز الدين فَرُّوخشاه ابن أخي السلطان صلاح الدين لأمه ـ وكان يعلم أولاده الخط، ثم كانت له في آخر حياته حلقة في الجامع الأموي يقرىء فيها النحو.

توفي سنة (٦١٥ هـ)، وفي «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٢٧٤ ذكر وفاته سنة ٦٢٧ هـ، والتاريخ الأول هو الأصح.

طبع «ديوانه» ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٧٨ هـ/ ١٩٧٦ م، بتحقيق الأستاذ أحمد الجندي، انظر ترجمته ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٤٧ ـ ٢٥٩، و «معجم البلدان»: ٣/ ٣١٠، و «التكملة» للمنذري: ٢/ ٤٢١، و «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤ ـ ٢٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٢) ثمة اضطراب في هذا البيت في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل، و(ل): فخاف، والمثبت من (م)، وهي رواية الديوان.

(٤) هابل: أي ثاكل، منه: هبلته أمه: ثكلته، «اللسان» (هبل).

فعـادوا علـى الأعقـابِ منها هـزيمـةً كَـــأَنَّهُـــمُ ذُلاًّ نَعَـــامٌ جَـــوَافِـــلُ
ومـــا أمَّلــوا أَنْ يلحقــوا ببــلادِهـــم لِتَعْصِمَهُـــمْ ممـــا رَأَوه المَعَـــاقِـــلُ[1]

قال العماد: وسألني كريم الملك أن أعملَ له أبياتاً في صلاح الدين تهنئةً بالنَّصْرِ في دِمْياط، فعملتُ قصيدةً، منها:

يا يوسف الحُسْن والإحسانِ يا ملكاً بجـــدِّه صـــاعـــداً أعـــداؤه هَبَـطُـــوا
حَلَلْـتَ مـن وَسَـطِ العَلْيَـاءِ فـي شَـرَفٍ ومَرْكَزُ الشَّمْسِ من[2] أفلاكها الوَسَطُ
هنِّيتَ صونَك دِمْياطَ التي اجْتَمَعَتْ لهــا الفــرنـجُ فمـا حَلُّــوا ولا رَبَطُــوا
مِصْــرٌ بيــوسُفِهــا أَضْحَــتْ مُشَــرَّفَــةً وكــلُّ أمــرٍ لهـــا بـــالعَــدْلِ مُنْضَبِــطُ
وحينَ وافى صلاحُ الدينِ أَصْلَحَهَا فللمَصَـــالِـــحِ مِـــنْ أيـــامِـــه نَمَـــطُ

قال: ومما سَيَّرْتُهُ إلى صلاح الدين قصيدة، منها:

كــأنَّ قلبـــي وحُـــبَّ مـــالكــــه مِصْرٌ وفيهـــا المليـــكُ يُوسُفُهـا
هـــذا بسَلْـــبِ الفُــؤاد يظلمنـــي وَهْـــوَ[3] بقتــلِ الأعــداءِ يُنْصِفُهـــا
المَلِــكُ النَّـــاصــر الـــذي أبــداً بِعِـــزِّ سُلْطـــانِـــه يشـــرِّفُهــــا
قـــامَ بـــأحـــوالِهـــا يُـــدَبِّـرُهـــا حُسْنـــاً وأثقـــالَهـــا يخففُهـــا
بعَـــدْلِـــه والصَّـــلاحِ يَعْمُـــرُهـــا وبـــالنَّـــدى والجميـــلِ يَكْنُفُهـــا
مِنْ دَنَسِ الغادِرينَ يَرْحَضُهـا[4] ومـــن خِبـــاثِ العِـــدَى ينظِّفُهـــا
وإنَّ مِصْـــراً بمُلْـــكِ يـــوسُفِهـــا جَنَّـــةُ خُلْـــدٍ يَـــرُوقُ زُخْـــرُفُهـــا

(١) القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٣١٥ ـ ٣٢١.
(٢) في (م): في.
(٣) في (م): وهل، وهو تحريف.
(٤) يرحضها: يغسلها، «اللسان» (رحض).

وإنَّـهُ فـي السَّمـاحِ حـاتِمُهـا وإنَّـهُ فـي الـوَقـارِ أحْنَفُهـا
يوسُفُ مِصْرَ الذي[1] ملاحِمُها جـاءَتْ بـأَوْصَـافِـهِ تُعَـرِّفُهـا
كُتْـبُ التَّـوارِيـخِ لا يـزيِّنُهـا إلاَّ بـأيـامـه[2] مُصَنِّفُهـا

[ومنها][3]:

وحُطْتَ دِمْياطَ إذ أحاطَ بها مَـنْ بِـرجُـومِ البَلاءِ يَقْـذِفُها
لاقَـتْ غُـواةُ الفـرنـجِ خَيْبَتَهـا فـزادَ مـن حَسْـرَةٍ تَـأَسُّفُهـا
أَوْرَدْتَ قُلْبَ[4] القلوب أرشيةً[5] مـن القَنَـا للـدِّمـاءِ تَنْـزِفُهـا
وَلَّيْتَهَـا سَفْكَهـا فعـامِلُهـا[6] عـامِلُهـا والسِّنـانُ مُشْـرِفُهـا
يُمضـي لـكَ[7] اللّـهُ فـي قتـالهـمُ عـزيمـةً للجهـادِ تُـرْهِفُهـا[8]

وله فيه من أُخرى:

قَـدِ اسْتَقَـرَّتْ أُمـوري فيـه بحسْـبِ اقْتِـرَاحـي
كمـا اسْتَقَـرَّ صـلاحُ الـدُّ (م) نيـا بملـكِ الصَّـلاحِ
تُنيـرُ شَمْـسُ أيـاديـ ـهِ[9] فـي سمـاءِ السَّمَـاحِ[10]

(١) في «الخريدة»: التي.
(٢) في «الخريدة»: بأوصافه.
(٣) ما بين حاصرتين من (ل).
(٤) القلب: جمع قليب، وهو البئر، «معجم متن اللغة»: ٤/ ٦٢٨.
(٥) الأرشية جمع، مفردها: رشاء: الحبل، «اللسان» (رشا).
(٦) عامل الرمح: صدره، «اللسان» (عمل).
(٧) في الأصل: إلى، والمثبت من (ل) و (م).
(٨) في الأصل و (م): ترهقها، والمثبت من (ل)، والقصيدة طويلة أورد جملة صالحة منها العماد في «الخريدة» قسم شعراء مصر ١/ ٩ ــ ١٣.
(٩) في «الخريدة»: مساعيه.
(١٠) في «الخريدة»: الصباح.

وأَمْـــــرُه[1] مستفـــــادٌ مِـــنَ القضـــاءِ المُتَـــاحِ[2]

وأرسله نور الدين إلى خِلاَط*، ومتولِّيها حينئذٍ ظهير الدين سُكْمان
/١٨٣ المعروف بشاه أرمن. قال: فلما كنتُ بِمارِدين* كتبتُ إلى بعض المعارف:

قـــد نَـــزَلْنـــا فـــي جِـــوَارِكْ وَطَلَبْنَـــــا قُـــــرْبَ دَارِكْ
وسَـــرَيْنـــا فـــي الـــدَّيـــاجـــي فهـــدانـــا ضَـــوْءُ نـــارِكْ[3]
فَتَـــدَارَكْ أَمْـــرَنـــا اليَـــوْ مَ بطَـــــوْلٍ مُتَـــــدَارِكْ
وَتَفَـــرَّدْ بـــاغتنـــام الشُّـ (م) ـكْـــرِ مـــن غيـــر مشـــارك[4]

قال العماد: وفي هذه السنة خرج نور الدين إلى داريَّا* فأعاد[5] عمارة جامعها، وعمَّر مشهد أبي سليمان الدَّاراني، وشتَّى بدمشق[6].

فصـــل

في مسير نجم الدين أيوب
إلى مصر بباقي أولاده وأهله

وقد وصف ذلك عُمارة في قصيدةٍ مدح بها السُّلْطان صلاح الدين[7]، تقدَّم بعضُها[8]، يقول فيها:

---

(١) في الأصل: وأمر، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر مقاطع من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٢ ــ ٢٥.
(٣) هذا البيت، ساقط من (ل).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٨.
(٥) في الأصل: وأعاد، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٨ ــ ٨٩.
(٧) صلاح الدين، ساقطة من (م).
(٨) انظر ص ١٤٤ من هذا الجزء.

صَحَّتْ به مِصْرٌ وكانَتْ قَبْلَه تَشْكُو سَقَاماً لم يُعَنْ بطبيبِ
عَجَباً لمعجزةٍ أَتَتْ في عَصْرِه والدَّهْرُ ولاَّدٌ لكلِّ عجيبِ
رَدَّ الإلٰهُ به قَضِيَّةَ يُوسُفٍ نَسْقاً على ضَرْبٍ من التَّقْرِيبِ
جاءته إخوتُه ووالده إلى مِصْرٍ على التَّدْريج والتَّرتيبِ
فَاسْعَدْ بأكرمِ قادمٍ وبدولةٍ قد ساعَدَتْكَ رياحُها بهبوبِ

قال العماد: لما دخل فصل النَّيروز استأذن الأمير نجم الدين أيوب نورَ الدين في قَصْد ولده صلاح الدين، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته وسَبَده ولَبَده[١]، وخيَّم بظاهر البلد إلى أن بان وضوح جَدده[٢]. وسار في حفظ الله تعالى، فوصل إلى مصر في السابع والعشرين من رجب، وقضى صاحب القصر العاضد من حقٍّ قدومه ما وجب، وركب لاستقباله، وزاد إقبال البلاد بإقباله.

ولما عزم على التوجُّه إلى مصر شرع في تفريق أملاكه، وتوفير مالَهُ فيه شركة على أشراكه، وما استصحب معه شيئاً من موجوده، وجعله نُهْبة لجوده[٣].

قلت: ووقف رباطاً[٤] داخل الدَّرْب الذي بقرب العوينة بباب البريد*.

ثم قال العماد: ولما نصب نجم الدين أيوب لقصد مصر مضاربه،

---

(١) السبد: الوبر، وقيل: الشعر، واللبد: الصوف، ويكنى بهما عن الإبل والغنم، وقيل: يكنى به عن المعز والضأن، وقيل: يكنى به عن الإبل والمعز، فالوبر للإبل، والشعر للمعز، ويقال: ماله سبد ولا لبد أي ماله قليل ولا كثير، انظر «اللسان» (سبد).

(٢) الجدد: الطريق إذا كان مستوياً لا حدب فيه ولا وعوثة. انظر «معجم متن اللغة» ١/ ٤٨٥.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٩.

(٤) هو الرباط النجمي، وسيرد ذكره ص ٢٥٠ من هذا الجزء.

وسحب للعُلا على رَوْض الرضا سحائبه، خرج نور الدين إلى رأس الماء* بعسكره وخيامه، وأرهف للجِدّ في الجهاد حَدَّ اعتزامه. ثم أقام بعد توديعه، والوفاء بحق تشييعه، إلى أن اجتمعت إليه عساكره، وحضر بادي جُنْده وحاضره، وعَبَّ بحرُه، وماجَ زاخره.

ثم توجهنا إلى بلاد الكَرَك* مستهل شعبان، ونزلنا أياماً بالبَلْقاء* على عَمّان، وأقمنا على الكَرَك أربعة أيام نحاصرها، ونصبنا عليها منجنيقين. فورد[1] الخبر أن الفرنج قد تجمَّعوا[2] ووصلوا إلى ماعِين*. فقال نور الدين: نرى أن نعطف أعنَّتنا وبالله نستعين، فإنا إذا كسرناهم وقسرناهم، وقتلناهم وأسرناهم، أدركنا المُرَاد، وملكنا البلاد. فرحلنا إليهم فولوا مُدْبِرين حين سمعوا برجوعنا، وقالوا: رحيلهم عن الحصن قد حصل، وهو مقصودنا. وعاد نور الدين إلى حوران، فخَيَّم بِعَشْترا*، وصام رمضان[3].

وقال ابن الأثير: كان سبب حَصْر نور الدين الكَرَك أن نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سار عن دمشق إلى مصر، فَسَيَّر معه نور الدين عسكراً، فاجتمع معهم من التجار ومن كان له مع صلاح الدين أنس ومودَّة ما لا يُعد؛ فخاف نور الدين[4] عليهم، فسار إلى الكَرَك فنزل عليه وحصره، وسار نجم الدين[4] أيوب ومن معه سالمين، ونَصَبَ نور الدين على الكَرَك المجانيق، فأتاه الخبر أنَّ الفرنج قد جمعوا وساروا إليه، وأن ابن الهَنْفَرِي[5]

(١) في (م): فوصل.
(٢) في (م): اجتمعوا.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٨٩ ــ ٩١.
(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).
(٥) هو Orfrai (humphrey) de Toron III صاحب بانياس والكرك، سلف ذكره ص ٢٢ من هذا الجزء.

وفليب بن الرفيق[١] ــ وهما فارسا الفرنج في وقتهما ــ في المقدِّمة إليه، فرحل نور الدين، رحمه الله تعالى، نحوهما للقائهما ومن معهما قبل أن يلحق[٢] بهما باقي الفرنج، وكانا في مئتي فارس وألف تُرْكُبلي[٣] ومعهم من الرَّاجل خَلْقٌ كثير. فلما قاربهما رجعا القهقَرى إلى من وراءهم من الإفرنج، وقصد نور الدين وسط بلادِهم، ونهب ما كان على[٤] طريقه، ونزل بعَشْتَرا*، وأقام ينتظر حركة الفرنج ليلقاهم، فلم يبرحوا[٥] من مكانهم خوفاً منه[٦].

وقال ابن شداد: أنفذ صلاح الدين في طلب والده ليكمل له السرور، ويجمع القصة مشاكلةً ما جرى للنبي يوسف [الصديق][٧] عليه السَّلام[٨]. فوصل والده نجم الدين إليه، وسلك معه من الأدب ما كان عادته، وألبسه الأمر كُلّه فأبى أن يَلْبَسَه، وقال: يا ولدي، ما اختارك الله لهذا الأمر إلا وأنت

(١) هو Philippe de Milly ، وقد سلف ذكره ص ٢٢، ٨٦ من هذا الجزء. والرفيق: تعريب كلمة Comes فإن معناها الأصلي في اللاتينية «الرفيق» لأن الملقب به كان يرافق الملك، ثم أصبح معناها الأمير.

(٢) في (م): يلتجوا.

(٣) تركبلي تعريب Turcopole جند في خدمة الفرنج، آباؤهم أتراك أو عرب وأمهاتهم يونان، وكانوا رماة الفرنج، ورد ذكرهم كثيراً في تواريخ هذا العصر، وذكرهم ابن العديم باسم «كافر ترك» انظر «زبدة الحلب»: ٢/ ٢٦٤، و «النوادر السلطانية»: ٢٢٤، و «سنا البرق الشامي»: ٩٠، ١٧، ١٧٤، و «مفرج الكروب»: ٢/ ١٤٩ حاشية رقم (١).

(٤) في (ل): في.

(٥) في (م): بيرجعوا، كذا، وهو تحريف.

(٦) «الباهر»: ١٤٤.

(٧) استدركت العبارة في الأصل بخط مغاير، وفيها: النبي عليه السلام، وما بين حاصرتين مثبت من (ل) و (م).

(٨) في (م): ﷺ.

كفء له، فلا ينبغي أن يُغَيَّر موقع السَّعادة. فحكَّمه في الخزائن كلها[1]. وكان رحمه الله تعالى كريماً يطلق ولا يرد. ولم يزل صلاح الدين وزيراً محكماً إلى أن مات العاضد أبو محمد عبد الله، وبه خُتم أمر المصريين[2].

وقال ابن أبي طيّ الحلبي: أرسل الخليفة المستنجد بالله من بغداد إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر، فأحضر الأمير نجم الدين أيوب، وألزمه الخروج إلى ولده بمصر بذلك، وحمَّله رسالة، منها: «وهذا أمر يجب المبادرة إليه لتحظى بهذه الفضيلة الجليلة، والمنقبة النبيلة، قبل
١٨٤/١ هجوم الموت، وحضور الفوت، لا سيما وإمام الوقت متطلِّعٌ إلى ذلك بكلِّيته، وهو عنده من أهم أمنيَّته».

وسار نجم الدين، وأصحبه نور الدين هديَّة سَنيَّة للملك النَّاصر، وخرج العاضد لتلقيه إلى ظاهر باب الفتوح* عند شجرة الإهْلِيلج[3]، ولم تجر بذلك عادة لهم، وكان من أعجب يوم شهده الناس، وخلع العاضد عليه ولقَّبه الملك الأفضل، وحمل إليه من القصر الألطاف والتُّحَف والهدايا، وأظهر السلطان من بِرِّه وتعظيم أمره ما أحرز به الشُّكر والأجر،

---

(١) في (ل) و (م): بأسرها.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٤٤.
(٣) الإهليلج: جنس أشجار حراجية وزراعية، من فصيلة الإهليجيات، منبتها الهند وجاوا والأنتيل وسرنديب والسنغال، يستخرج من لحائها صمغ يستعمل في الطلاء الصيني، وهو من أجود أنواعه، ولباب ثمار بعضها يدخل في عدة علاجات طبية، وهو على أنواع عدة، انظر «الموسوعة في علوم الطبيعة»: ١/ ١١١.
وصحراء الإهليلج المقصودة هنا، هي شرقي الخندق، إليها كانت تنتهي عمارة حارة الحسينية، من جهة باب الفتوح، وكان بها شجر الإهليلج الهندي، فعرفت به، انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٣٣، ٢٢١.

وأفرد له داراً إلى جانب داره، وأقطعه الإسكندرية ودِمْياط والبحيرة، وأقطع شمس الدولة أخاه قُوص* وأُسوان وعَيْذَاب*، وكانت عبرتها[1] في هذه السنة مئتي ألف وستة وستين ألف دينار.

وسار شمس الدولة إلى قُوص*، وولاها شمس الخلافة محمد بن مختار، وكان السلطان قبل إقطاعها شمس الدولة قد سيَّر رسلان بن دُغمش[2] لجباية خَرَاجها، فخرج عليه عباس بن شاذي في جماعة من الأعراب والعبيد في مرج بني هُميم[3]، فغنمه رسلان وعاد إلى القاهرة.

وفي هذه السنة ليلة عيد الفطر رزق السُّلْطان ولده الملك الأفضل نور الدين علياً[4]، وفرح به فرحاً عظيماً، وخلع وأعطى، وتصدَّق بما بَهَرَ به العقول.

ومن قصيدةٍ للحكيم عبد المنعم تقدَّم بعضها[5]:

في مَشْرِقِ المَجْدِ نجمُ الدِّينِ مَطْلَعُهُ ... وكــلُّ أبنـائِـهِ شُهْـبٌ فـلا أَفَلُـوا
جـاؤوا كيعقـوب والأسبـاط إذ وَرَدُوا ... على العزيزِ من أرض الشَّام واشتملوا
لكــنَّ يـوسـف هـذا جـاء إخـوتُـه ... ولــم يكــن بينهــم نَـزْغٌ ولا زَلَــلُ
ومُلِّكـوا مُلْـكَ مِصْـرَ فـي شمـاخَتِـهِ ... ومِثْلُهــا لــرجــالِ مِثْلِهِــمْ نُــزُلُ

(١) أي خراجها، انظر «قوانين الدواوين» لابن مماتي: ٢٢١، ٤٥٧.
(٢) الضبط من (ل).
(٣) في (م): برج، وهو تحريف، ومرج بني هميم بالصعيد من مصر، شرقي النيل، «معجم البلدان»: ٥/ ١٠١.
(٤) في النسخ الخطية: علي. وانظر ص ٤٧٥ من هذا الجزء.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٠ من هذا الجزء.

فصـــل
في ذكر[١] الزَّلْزلة الكبرى

قال ابن الأثير: وفي ثاني عشر شوَّال كانت زلزلة عظيمة لم يَرَ النَّاسُ مثلَها، عمَّت أكثر البلاد من الشَّام ومصر والجزيرة والمَوْصِل والعراق وغيرها، إلا أن أشدَّها وأعظمها كان بالشَّام. فخَرِبَتْ بعلبك وَحِمْص، وحماة، وشَيْزَر*، وبعرين*، وغيرها، وتهدَّمت أسوارها وقلاعها، وسقطت الدُّور على أهلها، وهلك من الناس ما يخرج عن العَدِّ والإحصاء. فلما أتى نورَ الدين خبرُها سار إلى بَعْلَبك ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها، وكان لم يبلغه خبر غيرها، فلما وصلها أتاه خبر باقي البلاد[٢] بخراب أسوارها، وخلوِّها من أهلها. فرتَّب ببعلبك من يحميها ويعمرها، وسار إلى حمص ففعل مثل ذلك، ثم إلى حماة، ثم إلى بارين، وكان شديد الحذر على البلاد[٢] من الفرنج لا سيما قلعة[٣] بارين، فإنها مع قربها منهم لم يبقَ من سورها شيء البتَّة، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أميرٍ كبير، ووكل بالعمارة من يحثُّ عليها ليلاً ونهاراً. ثم أتى مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد، فإنها كانت قد أتت عليها، وبلغ الرعب بمن نجا كل مبلغ، فكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السَّالمة من الخراب خوفاً من الزَّلزلة، فإنها عاودتهم غيرَ مرَّة، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب من الفرنج. فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها وباشر عمارتها بنفسه، وكان هو يقف على استعمال الفَعَلَة والبنَّائين، ولم يزل

---

(١) ذكر، ساقطة من (م).
(٢ ــ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) قلعة، ساقطة من (ل).

كذلك حتى أحكم أسوارها، وجميع البلاد وجوامعها، وأخرج من الأموال ما لا يقدَّر قَدْرُه.

وأما بلاد الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ فإنها أيضاً فعلت بها الزلزلة قريباً من هذا، وهم أيضاً يخافون نورَ الدين على بلادهم، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر(١).

قال العماد: وكانت قلاع الفرنج المجاورة لبارين(٢) كحصن الأكراد* وصافيثا* والعُرَيمة* وعِرقا*، في بحر الزَّلازل غَرْقى، لا سيما حصن الأكراد، فإنه لم يبق له سور، وقد تم عليهم(٣) فيه دُحُور وثُبُور. فشغلهم سوؤهم عن سواه، وكلٌّ اشتغل بما دهاه، وتواصلت الأخبار من جميع بلاد الشام، بما أحدثته الزلزلة من الانهداد والانهدام.

قال: وما سكنت النُّفوس من رُعبها، وسَلَتِ القلوب عن كَرْبها، إلا بما دَهَم الكُفَّار من أمرها، وعراهم من ضُرِّها، فلقد خصَّتهم بالأمَضِّ الأشقِّ، وأخذتهم الرَّجفة بالحقِّ، فإنها وافقت يوم عيدهم وهم في الكنائس، فأصبحوا للرَّدَى فرائس، شاخصة أبصارهم ينظرون ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وأَتَاهُمُ العَذَابُ من حيث لا يَشْعُرُون﴾(٤).

ثم ذكر العماد قصيدةً في مدح نور الدين، ووَصْفِ الزلزلة، مطلعها:

هل لعاني الهوى من الأَسر فادي ولساري لَيْلِ الصَّبابة هادي(٥)

---

(١) «الباهر»: ١٤٥.

(٢) في (ل) و (م): بعرين، وهي نفسها، انظر كشاف الأماكن.

(٣) في الأصل: لهم، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) سورة النحل، الآية ٢٦، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٥) هادي، ساقطة من (م). وفي «الخريدة»: أو لساري.

جنِّبوني خَطْبَ البِعادِ فَسَهْلٌ[(١)] كلُّ خَطْبٍ سوى النَّوَى والبِعَادِ
كنتُ في غَفْلَةٍ من البَيْنِ حتى صاحَ يومَ الأثيلِ بالبَيْنِ حادي
قد حَلَلْتُمْ من مُهْجَتي في السُّوَيْدا ءِ ومِنْ مُقْلَتِي[(٢)] مَحلَّ[(٣)] السَّوَادِ
وَبَخِلْتُمْ مِنَ الوِصالِ بإسعا فِ أما كنتُمُ من الأَجْوَادِ
١/ ١٨٥ وبعثتُمْ نسيمَكُمْ يتلافا ني فعادَ النَّسيمُ من عُوَّادي
سُمْتُموني تجلُّداً واشتياقاً ومُحَالٌ تجمُّعُ الأَضْدَادِ
أبقاءً بعدَ الأحِبَّةِ يا قَلْـ ـبيَ ما هذه شُروطُ الوِدَادِ
ذابَ قلبي وسالَ في الدَّمْعِ لمَّا دامَ مِنْ نارِ وَجْدِه في اتِّقادِ
ما الدُّموعُ التي تحدِّرُها الأشـ ـواقُ إلا فتائتُ الأَكْبادِ
حَبَّذا ساكنو فؤادي وَعَهْدي بِهِمُ يَسْكُنُونَ سَفْحَ الوادِي
أتمنَّى بالشَّام أهلي ببغدا دَ وأينَ الشَّآمِ مِنْ بَغْدادِ
ما اعتياضي عن حُبِّهم[(٤)] يَعْلَمُ اللَّـ ـهُ تعالى إلاّ بحبِّ الجِهادِ
واشتغالي بِخِدْمَةِ المَلِكِ العَا دِلِ محمودِ الكَريمِ الجَوَادِ
أنا منه على سَريرِ سُرُورِي راتع[(٥)] العَيْشِ في مَرَادٍ[(٦)] مُرَادي
قَيَّدَتْني بالشَّامِ منه الأيادي والأيادي للحُرِّ كالأقيادِ
قد وَرَدْتُ البَحْرَ الخِضَمَّ وخَلَّفْـ ـتُ ملوكَ الدُّنْيا به كالثِّمَادِ[(٧)]
هُوَ نِعْمَ الملاذُ من نائبِ الدَّهْـ ـرِ ونِعْمَ المَعَاذُ عند المَعَادِ

---

(١) في الأصل: فهل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (ل): قلبي.
(٣) في (م): مجد، وهو تحريف.
(٤) في الأصل: بحبهم، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في (م): رافع، وهو تصحيف.
(٦) المراد: الموضع الذي ترعى فيه الإبل: انظر «اللسان» (رود).
(٧) الثماد: الماء القليل، «القاموس المحيط» (ثمد).

جَلَّ رُزْءُ الفِرَنْج فاسْتَبْدلُوا منـ ـه بِلُبْس الحديدِ لُبْسَ الحِدَادِ
فَرَّقَ الرُّعْبُ منه في أَنْفُسِ الكُفَّـ (م) ـارِ بينَ الأَرْوَاحِ والأَجْسَادِ
سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُكَّانِها الأَرْ ضَ وهَدَّتْ قَوَاعِدَ الأَطْوَادِ
أَخَذَتْهُمْ بالحقِّ رَجْفَةُ بأْس تَرَكَتْهُمْ صَرْعَى صُرُوفِ العَوادي[1]
خَفَضَتْ من قِلاعِها كُلَّ عالٍ وأعادَتْ تِلاعَها كالوِهَادِ
أنفَذَ اللَّهُ حُكْمَهُ فهْو ماضٍ مُظْهِراً سِرَّ غَيْبِه فهْو بادي
آيةٌ آثَرَتْ ذوي الشِّرْكِ بالهُلْـ ـكِ وأهلَ التَّوحيد بالإِرشادِ
والأعادي جَرَى عليهمْ من التَّدْ مِير ما قَدْ جَرَى على قَوْم عادِ
أَشْرَكَتْ في الهلاك بينَ الفَرِيقيـ ـنِ دعاةِ الإِشراكِ[2] والإِلحادِ
ولقد حاربوا القَضَاء فأمضَى حُكْمَهُ فيهمُ بغيرِ جِلادِ
والإِلٰه الرَّؤوفُ في الشَّامِ عنا دافعٌ لُطْفُهُ بلاءَ البلادِ

قال[3] العماد: ومنها معنى مبتكر ابتدعتهُ في الزَّلزلة، وهو:

وبحقٍّ أُصِيبَتِ الأَرْضُ لَمَّا سَكَنَتْ[4] من مَقَام أهل الفَسَادِ
عَلِمَتْ أنها جَنَتْ فعَراها حَذَراً من سُطاك شِبْهُ ارْتِعادِ[3]

قال العماد: وفي هذه السنة عند وصولنا إلى حلب في الخدمة النُّورية كنت مقرِّظاً للفضائل الشَّهْرُزُورِيَّة، وكان الحاكم بها القاضي محيي الدين أبو حامد محمد[5] ابن قاضي قضاة الشَّام كمال الدين أبي الفضل محمد بن

(١) في الأصل و(ل): الغوادي، والمثبت من (م).
(٢) في (م): المشراك، وهو تصحيف.
(٣ ـ ٣) ما بينهما ساقط من (م)، وأورد العماد قطعة من قصيدته هذه مع اختلاف في بعض الألفاظ في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٤٦ ـ ٥٠.
(٤) في «الخريدة»: مكَّنَتْ.
(٥) سترد ترجمته في ٤/٢٣٨ ـ ٢٣٩.

عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوْرِي. وكان كمال الدين قد عُذق[1] به تنفيذ الأحكام، وإليه أمور الديوان، وهو ذو المكانة والإمكان، في بسط العدل والإحسان، ومحيي الدين ولده ينوبُ عنه في القضاء بحلب وبُلْدانها، وينظر أيضاً في أمور ديوانها، [و][2] بحماة وحمص من بني الشَّهْرُزُوْري قاضيان، وهما حاكمان متحكِّمان. وكان هذا محيي الدين من أهل الفَضْل، وله نَظْمٌ ونثر، وخُطَب وشِعْر. وكانت معرفتي به في أيام التفقه ببغداد في المدرسة النِّظامية*، منذ سنة خمسٍ وثلاثين[3]، والمدرِّس شيخنا معين الدين سعيد بن الرزَّاز[4]؛ وكان مَذهبُ الشَّافعي رضي الله عنه بعلمه مُعْلماً مُذْهَبَ الطراز. وكانت الزلزلة بحلب قد خربت دار محيي الدين وسلبت قراره، وغلبت اصطباره، وجلبت[5] أفكاره، فكتبتُ إليه قصيدةً، مطلعها:

لو كان من شكوى الصَّبابة مُشْكيا لعدا[6] على عَدْوى الصَّبابة مُعْدِيا[7]

---

(١) أي اختص به. انظر «معجم متن اللغة» ٤/ ٥٦.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ذكر العماد في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٣٠ أنه اجتمع به في بغداد في المدرسة النظامية سنة ست وثلاثين وخمس مئة.

(٤) في الأصل: الرزاذ، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م)، وهو سعيد بن محمد بن عمر، شيخ الشافعية في عصره، تفقه بالغزالي وإلكيا الهَرَّاسي، وروى عنه السمعاني، ولد سنة (٤٦٢ هـ) وتوفي سنة (٥٣٩ هـ)، والرزاز: نسبة إلى من يبيع الأرز، انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٠/ ١١٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٦٩، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٩٣.

(٥) في الأصل، و (ل): حلبت، والمثبت من (م).

(٦) في (م): لغدا، وهو تصحيف.

(٧) في (م): سعديا، وهو تصحيف.

ومنها:

مـات الـرَّجـاءُ فـإنْ أَرَدْتَ حيـاتَـه ... وَنُشُـورَه فـارجُ الإمـام المحييـا
أقضـى القُضَـاة محمـدُ بـن محمـدٍ ... مَـنْ لَسْـتُ منّـه للفضـائـل مُحْصِيَـا
قـاضٍ بـه قَضَـتِ المظـالِـمُ نَحْبَهـا ... وغـدا علـى آثـارِهـنَّ مُعَفِّيـا[1] ١/١٨٦
يـا كـاشفـاً للحـقِّ فـي أيـامـه ... غُـرَراً يـدوم لهـا الـزمـان مُغَطِّيـا
لـم تُنْعَـشِ الشَّهبـاءُ عنـد عِثَـارِهـا ... لو لـم تَجِدْكَ لِطَوْدِ حِلْمِك[2] مُرْسِيا
رَجَفَـتْ لِسَطْـوَتِـك التـي أَرْسَلْتَهـا ... نحـو الطُّغـاة لحـدِّ عَـزْمِـك ممهيـا[3]
وَتَظَلَّمَـتْ مـن شَـرِّهـم فتَمَلْمَلَـتْ ... عَجِّـلْ إجـارتهـا[4] عليهـا مُبْقيـا
أَنِفَـتْ مـن الثُّقـلاءِ فيهـا إذ رَمَـتْ ... أثقـالَهـا ورأتـك منهـا مُلْجيـا
حَلَـبٌ لهـا حَلَـبُ المدامـع مُسْبَـلٌ ... أَنْ لاقَـتِ الخَطْـبَ الفظيـع المُبْكِيـا
وَبِعَـدْلِ نـورِ الـديـن عـاوَدَ أُفْقُهـا ... مِـنْ بَعْـدِ غَيْـمِ الغَـمِّ جَـوّاً مُصْحِيـا
أضحـى لبهجتهـا مُعيـداً بعـدمـا ... ذَهَبَـتْ وللمعـروف فيهـا مُبْـديـا
لأمـورِهـا مُتَـدَبِّـراً لِشَتـاتِهـا ... متـألِّـفـاً لِصَـلاحِهـا متـولِّيـا
فـالشَّـرْعُ عـادَ بِعَـدْلـه مُسْتَظْهِـراً ... والحـقُّ عـادَ بِظِلِّـه مُسْتَـذْرِيـا[5]
والـدَّهْـرُ لاذ بعفـوه[6] مستغفـراً ... ممـا جَنَـاهُ مُطْـرِقـاً[7] مُسْتَحْيِيـا

---

(١) في (ل): مقفيا.
(٢) في (ل): حكمك.
(٣) المهي: ترقيق الشفرة، وأمهى الحديدة: سقاها الماء وأحدها، انظر «اللسان» (مها).
(٤) في الأصل: إجاراتها، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) أي مستظلاً به، والذَّرى ـ بالفتح ـ كل ما استترت به. انظر «اللسان» (ذرا).
(٦) في (ل): بعدله.
(٧) في (م): واجماً.

فصـــل

في غزوة صاحب البيرة* ووفاة صاحب المَوْصِل

قال ابنُ الأثير: كان شهاب الدين محمد(١) بن إلياس بن إيلغازي بن أُرْتُق، صاحب قلعة البيرة قد سار في عسكره، وهم مئتا فارسٍ، إلى الخدمة النُّورية وهو بعَشْتَرا*. فلما وصل إلى اللّبوة ــ وهي من أعمال بَعْلَبك ــ ركب متصيِّداً فصادف ثلاث مئة [فارس](٢) من الفرنج قد ساروا للغارة(٣) على بلاد الإسلام، وذلك سابع عشر شَوَّال، فوقع بعضُهم على بعض واقتتلوا، وصبر الفريقان لا سيما المسلمون، لأنَّ ألف فارس منهم لا تصبر لحملة ثلاث مئة فارس من الفرنج. وكثر القتلى بينهم وانهزم الفرنج، وعَمَّهم القَتْلُ والأسر، فلم يفلت منهم إلا من لا يعتدُّ به. ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاَخْتَلَفْتُمْ فِي المِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾(٤) وسار شهاب الدين بالأسرى ورؤوس القتلى إلى نور الدين، فركب هو وعسكره إلى لقائه، واستعرض الأسرى ورؤوس القتلى، فرأى فيها رأس مقدَّم الإسبتاريَّة* صاحب حصن الأكراد*، وكانت الفرنج تعظِّمه لشجاعته ودينه(٥) عندهم، ولأنه شجًى في حلوق المسلمين، وكذلك أيضاً رأى رأس غيره من مشهوري الفرنج، فازداد سروراً، ولله الحمد(٦).

---

(١) في «الباهر»: ١٤٥ محمود.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (م): للإغارة.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٢.

(٥) في الأصل و (ل): لدينه، والمثبت من (م).

(٦) «الباهر»: ١٤٥ ــ ١٤٦.

قال: وفي شوال سنة خمس وستين توفي الملك قطب الدين مودود بن زَنْكي بالمَوْصِل[١]. وكان لما اشتدَّ مرضه أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زَنْكي بن مودود[٢]، وهو أكبر أولاده، وأعزُّهم عليه، وأحبُّهم إليه. وكان النَّائب عن قطب الدين حينئذٍ والقَيِّم[٣] بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح، وكان يكره عماد الدين زَنْكي لأنه كان قد أكثر المَقَام عند عمِّه الملك العادل نور الدين رحمه الله تعالى، وخدمه وتزوَّج ابنته، وكان عزيزه وحبيبَهُ. وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لِظُلمٍ كان فيه، ويذمُّه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور. فخاف عبد المسيح أن[٤] يتصرَّف عماد الدين في أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده[٤]، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش؛ زوجة قطب الدين، فردُّوه عن هذا الرأي. فلما كان الغد أحضر الأمراء واستحلفهم لولده سيف الدين غازي. وتوفي وقد جاوز عمرُه أربعين سنة.

وكان تام القامة كبير الوجه، أسمر اللون، واسع الجبهة، جَهْوَرِيَّ الصوت. وكانت ولايتُه إحدى وعشرين سنةً وخمسة أشهر ونصفاً.

ولما توفي استقرَّ سيف الدين في المُلْك[٥]، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكياً ومستنصراً، وكان عبد المسيح هو متولي[٦] أمور سيف

(١) ولي الموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي سنة (٥٤٤ هـ) انظر ص ٢٣١ من الجزء الأول.

(٢) ابن مودود، ساقطة من (ل).

(٣) في (ل): والقائم، وعبد المسيح سترد أخباره ص ١٦٥، ١٧٤ وما بعدهما من هذا الجزء.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) بقي حاكماً للموصل حتى سنة وفاته (٥٧٦ هـ). وانظر ٣/ ٦٠ من هذا الكتاب.

(٦) في (ل) و (م): يتولى.

الدين[1] ويحكم في مملكته، وليس لسيف الدين[1] من الأمر إلا اسمه، لأنه في عنفوان شبابه وغِرَّة حداثته[2].

قال: وهذه حادثة تحثُّ على العَدْل: من جملة أعمال جزيرة ابن عمر* قرية تسمى العُقَيمة[3] مقابل الجزيرة من الجانب الشَّرْقي، يفصل بينهما دِجْلة، لها بساتين كثيرة، بعضها تمسح أرضه، ويؤخذ على كلِّ جريب[4] من الأرض التي قد زرعت شيء معلوم، وبعضُها عليه خَرَاج ولا مساحة عليه، وبعضها مطلقٌ منهما. فالممسوح منها لا يحصل لأصحابه منه إلا القدر القريب، وكان لنا بها عِدَّة بساتين. فحكى لي والدي قال: جاءنا كتاب فخر الدين عبد المسيح إلى الجزيرة ــ وأنا حينئذٍ أتولى ديوانها ــ يأمر بأن تُجعل بساتين العُقَيمة كلها ممسوحة. فشقَّ ذلك عليَّ لأجل أصحابها، ففيها ناسٌ صالحون، ولي بهم أُنسٌ، وهم فقراء. فراجعته، وقلتُ له: لا تظن أني أقول هذا لأجل ملكي، لا والله، إنما أريد أن يدوم النَّاس على الدُّعاء للمولى قطب الدين وأنا أمسح ملكي جميعه. قال: فأعاد الجواب يأمر
١٨٧/١ بالمساحة ويقول: تمسح أولاً ملكك ليقتدي بك غيرك، ونحن نطلق لك ما يكون عليه. فشرع النُّواب يمسحون، وكان بالعقيمة رجلان صالحان، وبيني وبينهما مودَّة، اسم أحدهما يوسف والآخر عبادة، فحضرا عندي وتضوَّرا[5]

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) «الباهر»: ١٤٦.

(٣) الضبط من الأصل.

(٤) الجريب في المساحة ١٤٧٤ متراً مربعاً و٥٦ سانتيماً، والجريب المكيالي ١١١ كيلاً (كيلوغرام) و٢٦٣ غراماً وثلثي الغرام، انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٤٩٩، وانظر «المكاييل والأوزان الإسلامية» لفالترهنتس: ٦١ ــ ٦٢، ٩٦ ــ ٩٧، فعنده تقدير آخر للجريب.

(٥) في «الباهر»، وتضررا.

من هذه الحال، وسألاني المكاتبة في المعنى، فأظهرت لهما كتاب عبد المسيح جواباً عن كتابي، فشكراني، وقالا: وأيضاً تعودُ تراجعُه[(١)]. فعاودت القَوْلَ، فأصرَّ على المساحة، فعرَّفتهما الحال. فلما مضى عدة أيام عُدْتُ يوماً إلى داري وإذا هما قد صادفاني على الباب، فقلت لنفسي: عجباً لهذين الشيخين، قد رأيا مراجعتي وهما يطلبان مني ما لا أقدر عليه! فقلت لهما: والله إني لأستحيي منكما كلما جئتما في هذا المعنى، وقد رأيتما الحال كيف هو. فقالا: صدقت، ولم نحضُر إلا لنعرِّفك أن حاجتنا قُضِيَتْ. قال: فظننت أنهما [قد][(٢)] أرسلا إلى المَوْصِل من شَفَع[(٣)] لهما، فدخلت داري وأدخلتهما معي، وسألتهما عن الحال كيف هو، ومن الذي سعى لهما. فقالا: إن رجلاً من الصَّالحين الأبدال شكونا إليه حالنا، فقال[(٤)]: قد قضيت حاجة أهل العُقَيمة جميعهم. قال: فوقع عندي من هذا، ولكن تارةً أصدقهما لما أعلم من صلاح أحوالهما، وتارةً أعجب من سلامة صدرهما[(٥)]، كيف يعتمدان على هذا القول، ويعتقدانه واقعاً لا شكَّ فيه! فلما كان بعد أيام وصل قاصد* من المَوْصِل بكتابٍ يأمر فيه بإطلاق مساحة العقيمة وإطلاق كُلِّ مسجون وبالصَّدقة، فسألت القاصد عن السبب، فأخبرنا أن قطب الدين شديد المرض. قال: فأفكرت في قولهما، وتعجَّبْتُ منه، ثم توفي بعد يومين من هذا. قال: ورأيت والدي إذا رأى أحد الرجلين يبالغ في إكرامه، ويحترمه، ويقضي أشغاله، واتخذهما صديقين[(٦)].

---

(١) في (ل): وأيضا تعاوده.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (ل) و (م): يشفع.

(٤) في (م): فقال لنا.

(٥) في (ل) و (م): صدورهما، قلت: والأشبه صدريهما.

(٦) «الباهر»: ١٤٧ ـ ١٤٨.

قال: وكان قطب الدين من أحسن الملوك، وأعفِّهم عن أموال رعيَّته، محسناً إليهم، كثير الإنعام عليهم، محبوباً إلى صغيرهم وكبيرهم، حليماً عن المذنبين منهم، سريع الانفعال للخير. حدَّثني والدي قال: استدعاني يوماً وهو بالجزيرة، وكنت أتولى أعمالها، فلامني في بعض الأمر، فقلت: أخاف من الاستقصاء؛ لو دُعي على بعض هؤلاء الملوك ــ وأومأتُ إلى أولاده ــ لكانت شعرة منه تساوي الدنيا وما فيها، ولنا مواضع تحتمل العمارة يتحصل منها أضعاف هذا. فقال: جزاك الله خيراً! لقد نصحت وأدَّيت الأمانة، فاشْرَعْ في عمارة هذه الأماكن. ففعلت[1]، وكبرت منزلتي عنده، ولم يزل يثني علي[2].

قال: وكان كثير الصبر والاحتمال من أصحابه. لقد صبر من نوابه زين الدين[3] وجمال الدين[4] وغيرهما على ما لم يصبر عليه سواه. وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين، كثير المساعدة له، والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله؛ حضر معه المصافَّ بحارِم* وفتحها، وفتح بانياس*، وكان يخطُبُ له في بلاده باختياره من غير خَوْفٍ. وكان إحسانُه إلى أصحابه متتابعاً من غير طلب منهم ولا تعريض. وكان يبغض الظلم وأهله، ويعاقب من يفعله.

قال: وبالله أقسم إذا فكَّرْت في الملوك أولاد زَنْكي: سيف الدين ونور الدين وقطب الدين، وما جمع الله فيهم من مكارم الأخلاق، ومحاسن

---

(١) ففعلت، ساقطة من (ل).

(٢) انظر «الباهر»: ١٤٨.

(٣) انظر ترجمته ص ٣٨ من هذا الجزء.

(٤) انظر ترجمته ص ٤٢٠ من الجزء الأول.

الأفعال، وحُسْن السِّيرة، وعمارة البلاد، والرِّفْق بالرَّعية؛ إلى غير ذلك من الأسباب التي يحتاج المُلْكُ إليها، أذكر قول الشَّاعر:

من تلقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهم ... مِثْلَ النُّجوم التي يَسْري بها السَّاري[1]

قلت: وقرأت بخطِّ الشيخ عمر المَلاء[2] ــ رحمه الله ــ في كتاب كتبه إلى بعض الصَّالحين وسأله فيه الدُّعاء لقطب الدين صاحب المَوْصِل وقال فيه: يا أخي، لو ذهبت أشرح لك سيرته في بلاده وعيش رعيته في ولايته[3] أطلتُ[4] وأضجرت. غير أني أذكر لك ما خصَّه الله به من الأخلاق الصَّالحة: هو من أكثر النَّاس رحمةً، وأشدهم حياء، وأعظمهم تواضعاً، وأقلهم طمعاً، وأزهدهم في الظلم، وأكثرهم صبراً، وأبعدهم غضباً، وأسرعهم رضاً. وهو من هذه الأخلاق على حدٍّ أحبُّه أنا محبةً لا أقدر أصفُها، وبيني وبينه إخاء ومزاورة، يزورني وأزوره.

فصـــل

قال ابن الأثير: ولما بلغ نور الدين وفاة أخيه قُطْب الدين وملك ولده سيف الدين بعده، واستيلاء عبد المسيح واستبداده بالأمور، وَحُكْمُه على سيف الدين أَنِفَ من ذلك وكَبُرَ لديه، وشقَّ عليه. وكان يبغض عبد المسيح لما يبلغه من خشونته على الرَّعية والمبالغة في إقامة السِّياسة. وكان نور

(١) انظر «الباهر»: ١٤٩ ــ ١٥٠.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من الجزء الأول، وص ١٧١ وما بعدها من هذا الجزء.
(٣) في (م): بلاده.
(٤) في (م): لأطلت.

الدين رحمه الله تعالى ليناً رفيقاً عادلاً، فقال: أنا أولى بتدبير أولاد[1] أخي وملكهم. ثم سار من وقته، فعبر الفرات عند قلعة جعبر* أول محرَّم[2].

ثم دخلت سنة ست وستين [وخمس مئة][3]

وقصدَ الرَّقَّةَ فامتنع النَّائبُ بها شيئاً من الامتناع، ثم سلَّمها على شيء اقترحه. فاستولى نور الدين عليها وقرَّر أمورها، وسار إلى الخابور* فملكه جميعه، ثم ملك نَصِيبين* وأقام بها يجمع العساكر، فإنه كان قد سار جريدةً، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان[4] صاحب الحصن* وديار
١٨٨/١ بكر*، واجتمعت[5] عليه العساكر؛ وقد كان ترك أكثر عسكره بالشَّام لحفظ ثغوره وأطرافه من الفرنج وغيرهم. فلما اجتمعت[5] العساكر سار إلى سِنْجار* فحصرها، وأقام عليها، ونصب المجانيق، وكان بها عسكر كبير من المَوْصِل. فكاتبه عامة الأمراء الذين بالموصل يحثُّونه على السُّرعة إليهم ليسلِّموا البلد إليه، وأشاروا بترك سِنْجار، فلم يقبل منهم، وأقام حتى ملك سنجار، وسلَّمها إلى ابن أخيه الأكبر عماد الدين زَنْكي[6]. ثم سار إلى

---

(١) في (ل) و (م): بني.
(٢) «الباهر»: ١٥٢.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) حكم بين سنتي ٥٦٢ هـ/ ٥٨١ هـ، وتسلم آمد من السلطان صلاح الدين سنة ٥٧٩ هـ، انظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٤. وانظر ص ١٤٧، ٢٣٣ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.
(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (م).
(٦) قال القاضي كمال الدين بن الشهرزوي تعليقاً على تسليم سنجار لعماد الدين: هذا طريق إلى أذى يحصل لبيت أتابك، لأن عماد الدين كبير لا يرى طاعة سيف الدين، وسيف الدين هو الملك لا يرى الإغضاء لعماد الدين، فيحصل الخلف ويطمع الأعداء.
=

الموصل فأتى مدينة[1] بَلَد*، وعبر دِجْلة في مخاضةٍ عندها إلى الجانب الشَّرْقي[1]، وسار فنزل شرقي الموصل على حصن نينوى*، ودِجْلة بينه وبين الموصل.

قال: ومن العجب أنه يوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة. وكان عبد المسيح قد سيَّر عِزّ الدين مسعود بن قطب الدين إلى أتابك إيلْدِكز[2] صاحب بلاد الجبل* وأَذْرَبِيجان* وأرَّان* وغيرها[3] يستنجده، فأرسل إيلْدِكز رسولاً إلى نور الدين ينهاه عن قصد المَوْصِل ويقول له: إن هذه البلاد للسُّلْطان ولا سبيل لك إليها. فلم يلتفت نور الدين إلى رسالته ــ وكان بسِنْجار* ــ فسار إلى الموصل، وقال للرسول: قل لصاحبك، أنا أَرْفَقُ ببني أخي منك فلا تُدخل نفسك بيننا، وعِنْدَ الفراغ من إصلاحهم يكون الحديث معك على باب هَمَذَان، فإنك قد ملكتَ نصف بلاد الإسلام، وأهملت الثُّغور حتى غلب الكُرْجُ[4] عليها، وقد بليت أنا وحدي بأشجعِ النَّاس؛ الفرنج، فأخذتُ بلادهم، وأسرتُ ملوكهم، فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه، فإنه يجب علينا القيام بحفظ ما أَهْمَلْتَ من بلاد الإسلام، وإزالة الظُّلْم عن المسلمين. فعاد الرسول بهذا الجواب.

= قال ابن الأثير: فكان كذلك على ما سنذكره سنة سبعين وخمس مئة. قلت: وقد انضم وقتها عماد الدين إلى جانب صلاح الدين ضد سيف الدين. انظر «الكامل»: ١١/ ٣٦٥، وص ٣٨١ من هذا الجزء.

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) حكم بين سنتي ٥٣١ هـ/ ٥٦٨ هـ، والضبط من «معجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٩.

(٣) في الأصل: وغيرهما، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) الكُرج: أمة مسيحية كانت مساكنها بجبال القوفاز المجاورة لتفليس، ثم استولوا عليها سنة (٥١٥ هـ) ولم يزالوا متملكين لها إلى أن استردها منهم السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه سنة (٦٢٢ هـ). انظر «الكامل»: ١٠/ ٥٦٧ ــ ٥٦٨، =

وحصر نور الدين الموصل، فلم يكن بينهم قتال، وكان هوى كل من بالموصل، من جندي وعامِّي معه؛ لحسن سيرته وعدله، وكاتبه الأمراء يعلمونه أنهم على الوثوب على عبد المسيح[(١)] وتسليم البلد إليه. فلما علم عبد المسيح[(١)] ذلك راسله في تسليم البلد إليه، وتقريره على سيف الدين، ويطلب الأمانَ وإقطاعاً يكون له. فأجابه إلى ذلك وقال: لا سبيل إلى إبقائه بالموصل، بل يكون عندي بالشَّام[(٢)]، فإني لم آتِ لآخذ البلاد من أولادي، إنما جئت لأخلص النَّاس منك، وأتولى أنا تربية أولادي. فاستقرَّت القاعدة على ذلك، وسُلِّمت الموصل إليه، فدخلها ثالث عشر جُمادى الأولى، وسكن القلعة. وأَقرَّ سيف الدين[(٣)] غازي على الموصل، وولى بقلعتها خادماً يقال له سعد الدين كُمُشْتِكِين[(٤)]، وجعله دُزْداراً* فيها، وقسم جميع ما خلَّفه أخوه قُطْب الدين بين أولاده بمقتَضَى الفريضة.

ولما كان يحاصر الموصل جاءته خِلْعة من الخليفة[(٥)] فلبسها، فلما دخل الموصل خَلَعَها على سيف الدين[(٣)]، وأطلق المكُوس جميعها من الموصل وسائر ما فتحه من البلاد، وأمر ببناء الجامع النُّوري[(٦)] بالمَوْصِل،

= ١٢/ ٤٣١ ــ ٤٣٦، و «معجم البلدان»: ٤/ ٤٤٦.

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) وفي سنة (٥٦٨ هـ) تركه نور الدين مع عسكره في سيواس في خدمة ذي النون، وبعد وفاة نور الدين عاد إلى خدمة سيف الدين في الموصل، ولكن لم تعد له حظوته عنده. انظر ص ١٧٤، ٢٦٣، ٣٢٤ ــ ٣٢٥ من هذا الجزء.

(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).

(٤) سيرد خبر قتله ص ٤٦٨ من هذا الجزء، وكان له دور مهم بعد وفاة نور الدين، انظر ص ٣٢٥ وما بعدها من هذا الجزء.

(٥) هو المستضيء بأمر الله، انظر «الباهر»: ١٥٤، وص ١٧٠ من هذا الجزء.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٥ من الجزء الأول.

فبني، وأقيمت الصَّلاة فيه سنة ثمانٍ وستين وخمس مئة [١].

وأقام بالموصل نحو عشرين يوماً [٢]، وسار إلى الشَّام، فقيل له: إنك تحبُّ الموصل والمقامَ بها ونراك أسرعتَ العود؟ فقال: قد تغيَّر قلبي فيها، فإن لم أفارِقْها ظلمتُ، ويمنعني أيضاً أنني ههنا لا أكون مرابطاً للعدوِّ وملازماً للجهاد. ثم أقطع نَصِيبين* والخابور* العساكر، وأقطع جزيرة ابن عمر سيف الدين غازي ابن أخيه مع الموصل، وعاد إلى الشام ومعه عبد المسيح، فغيَّر اسمه وسماه عبد الله، وأقطعه إقطاعاً كثيراً [٣].

وقال العماد: [و[٤]] استدعاني نور الدين ونحن بظاهر الرقَّة وقال لي: قد أَنِسْتُ بك وأَمِنْتُ إليك، وأنا غير مختار للفرقة، لكن المهم الذي عرض، لا يبلغ فيه غيرك الغرض، فتمضي إلى الديوان العزيز جريدةً، وتؤدي عني رسالة سديدة سعيدة، وتُنهي أني قصدت بيتي وبيت والدي، ومَغنى طريفي وتالدي، وأنا كبيره ووارثه، والذي له حديثه وحادثه. فامض وخذ لي إذناً فإني أعد كل جارحة لي لما أُخاطَبُ به أُذناً، وأَمْثَلُ ما يصلني من المثال لدفع كُلِّ مكروه ركناً. وأمر ناصر الدين محمد بن شِيركُوه أن يسيِّرَني إلى الرَّحْبة*، في رجال مأموني الصُّحبة، وسرتُ منها على البرية غربي الفُرات، بخفيرٍ من بني خَفَاجة. فذكر أنه وصل وقضى الحاجة، ثم رجع من عند الخليفة المستنجد إلى نور الدين، وهو يحاصر سِنْجار، فأخذها وملكها [٥]،

---

(١) في النسخ الخطية: سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة، وهو خطأ، والمثبت من «الباهر» ١٥٤ وانظر ص ١٧٢ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل، مكان الخرم، بخط مغاير: «سنة» وفي هامشه: لعله عشرين يوماً.

(٣) «الباهر»: ١٥٢ ــ ١٥٤.

(٤) ما بين حاصرتين من (م).

(٥) وملكها، ليست في (ل) و (م).

وسلَّمها إلى خَتَنه ابن أخيه عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زَنْكي.

قال: ثم رحل على عزم المَوْصِل، وقَصَدَ بَلَد*، واستوضح فيها الجَدَد، ودُلَّ هناك في دِجْلَة على مخاضة، وكان ذا أخلاقٍ وهمم مُرْتاضة، فاستسهل من خوضها والعبور فيها ما ظُنَّ مستصعباً، وسَهَّل الله لنا ذلك ورأيناه أمراً عجباً، وجاء دليل تُرْكماني قُدَّامنا، وهو يقطع دجلة تارةً طولاً وتارة عرضاً أمامنا، ونحن وراءه كخيطٍ واحد لا نميل يميناً ولا يساراً، ولا نجد لنا في سوى ذلك المجاز اختياراً، حتى عَبَرْنا من الجانب الغربي إلى الجانب الشَّرْقي برجالنا وأثقالنا، وخيلنا وبغالنا وجمالنا، وأقمنا بقية ذلك اليوم، حتى تمَّ عبور القَوْم.

ثم رحلنا ونزلنا على المَوْصِل من شرقيها، وخيَّمنا على تلِّ توبة*، فاستعظم أهلها تلك النَّوْبة، وما خطر ببالهم أننا نعبر بغير مراكب، وأنَّا نأخذ عليهم ذلك الجانب، فعرفوا أنهم محصورون، مقهورون، محسورون[1]، وانقطعت عنهم السُّبُل من الشرق، وتعذَّر عليهم الرَّقْع لاتساع الخَرْق، وبَسَطَ العطاء، وكشف الغِطاء، وتكلَّم في المصلحة والمصالحة الوسطاء؛ ومُدَّ ١٨٩/١
الجسر، وقُضي الأمر، وأنعم نور الدين على أولاد أخيه، وَمَثَلُوا بناديه، وأَقَرَّ سيفَ الدين غازياً على قاعدة أبيه، وألبسه التشريف الذي وصله من أمير المؤمنين المستضيء.

ثم دخل قلعة الموصل وأقام بها سبعة عشر يوماً، وجَدَّد مناشيرَ أهل المناصب، وتوقيعات ذوي المراتب من القضاء والنقابة وغيرهما. وأمر

(١) مقهورون محسورون، ساقطة من (م).

بإسقاط جميع المُكوس والضَّرائب، وأنشأ بذلك منشوراً[1] يقرأ على الناس، فمنه:

«قد قنعنا من كنز الأموال باليسير من الحلال، فَسُحْقاً للسُّحْت، ومَحْقاً للحرام الحقيق بالمَقْت، وبُعْداً لما يُبْعِدُ من رضا الرَّب، ويقصي من محلِّ القُرْب، وقد استخرنا الله وتقرَّبنا إليه، وتوكَّلنا في جميع الأحوال عليه، وتقدَّمنا بإسقاط كل مَكْس وضريبة، في كل ولاية لنا بعيدة أو قريبة، وإزالة كل جهة مشتبهة مشوبة، ومحو كل سُنَّة سيئة شنيعة، ونفي كل مَظلمة مُظلمة فظيعة، وإحياء كلِّ سنة حَسَنة، وانتهاز كلِّ فُرْصة في الخير ممكنة، وإطلاق كل ما جرت العادة بأخذه من الأموال المحظورة، خوفاً من عواقبها الرَّدِيَّة المحذورة، فلا يبقى في جميع ولايتنا جَوْرُ جائر جارياً، ولا عمل لا يكون به الله راضياً، إيثاراً للثواب الآجل، على الحطام العاجل. وهذا حقٌّ لله قضيناه، وواجبٌ علينا أدَّيناه، بل هي سُنَّة حسنة استنَّناها، ومَحَجَّة واضحة بيَّناها، وقاعدة مُحْكَمة مهدناها، وفائدة مغتنمة أفدناها».

فصـــل

قال العماد: وكان بالمَوْصِل شيخ صالحٌ يعرف بعُمَر المَلاَّء[2]؛ سمي

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٩٤ ــ ٩٧.

(٢) انظر ص ٤٥ من الجزء الأول، وانظر «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٣٥ فقد نقل عن ابن القطيعي (توفي سنة ٧٣٩ هـ) في ترجمة محمد بن عبد الباقي بن هبة الله المجمعي خبراً ينافي ما عرف عنه من زهد وورع قال فيه: وكان بالموصل عمر الملا مقدماً في بلده، فاتهمه بشيء من ماله ــ أي اتهم عمرُ الملا ابنَ عبد الباقي ــ وكان خصيصاً به، فضربه إلى أن أشفى، ثم أخرجه إلى بيته، وبقي أياماً يسيرة، وتوفي.. وعمر هذا كان يظهر الزهد والديانة، وأظنه كان يميل إلى المبتدعة وقد تبين بهذه الحكاية أيضاً ظلمه وتعديه».

بذلك لأنه كان يملأ تنانير الجص بأُجْرَةٍ يتقوَّت بها، وكل ما عليه من قميصٍ ورداء، وكسوة وكساء قد ملكه سواه واستعاره، فلا يملك ثوبه ولا إزاره. وكان له شيء فوهبه لأحد مريديه، وهو يتجر لنفسه فيه، فإذا جاءه ضيفٌ قَرَاه ذلك المريد. وكان ذا معرفةٍ بأحكام القرآن والأحاديث النبوية.

وكان العلماء والفقهاء والملوك والأمراء يزورونه في زاويته، ويتبرَّكُون بهِمَّته، ويتيمَّنون ببركته. وله كل سنة دعوة يحتفل[1] بها في أيام مولد رسول[2] الله ﷺ، يحضره فيها[3] صاحب الموصل، ويحضر الشُّعراء، وينشِدُون مدح رسول الله ﷺ في ذلك المَحْفِل.

وكان نور الدين من[4] أَخَصِّ محبيه يستشيره في حضوره، ويكاتبه في مصالح أموره. وكانت بالموصل خَرِبة واسعة في وسط البلد، أشيع عنها أنه ما شرع في عمارتها إلا مَن ذهب عمره، ولم يتم على مراده أمره. فأشار الشيخ عمر على نور الدين بابتياعها، ورفع بنائها جامعاً تقام فيه الجُمَع والجماعات. ففعل وأنفق فيه أموالاً كثيرة، ووقف عليه ضيعةً من ضياع الموصل، ورتَّب فيه خطيباً ومُدرِّساً. وكان قد وصل في تلك السنة وافداً الفقيه عمادُ الدين أبو بكر النُّوقاني الشَّافعي، من أصحاب الإمام محمد بن يحيى[5]، فسأله أن يكون مدرِّساً في ذلك الجامع، وكتب له

(١) في الأصل: ويحتفل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م) النبي.
(٣) فيها، ساقطة من (ل)، وفي (م): فيه.
(٤) من، ساقطة من (م).
(٥) هو محمد بن يحيى بن منصور، أبو سعد النيسابوري، صاحب الغزالي وتلميذه، انتهت إليه رياسة المذهب بنيسابور، وقصده الفقهاء من النواحي، وبَعُد صيته، وهو أستاذ الفقهاء المتأخرين، ولد سنة (٤٧٦ هـ) وقتل في رمضان سنة (٥٤٨ هـ) قتله =

[به][1] منشوراً.

قال: وحضر مجاهد الدين قايماز[2] صاحب إِرْبِل* في الخدمة النُّورية في المَوْصِل. وكان دخولهم إياها في بُحْبُوحة الشِّتاء، فكتب العماد إلى بعض كبراء الموصل قصيدةً، منها:

ما يمنَعُ الخادِمَ من قَصْدِهِ الـ ـخِدْمَةَ غَيْرُ الطُّرْقِ والوَحْلِ[3]
كأنما مَوْصِلكُمْ مَقْطَعٌ ما يُهْتدى فيه إلى وَصْلِ
وكلُّ معروفٍ بها مُنْكَرٌ كما تراه ضَيِّقُ السُّبْلِ
وكلُّ مَنْ حَلَّ بها لا يَرَى في زَمَنِ الخِصْبِ سوى المَحْلِ
ومُذْ دَخَلْناها حَصَلْنا بها كَرْهاً على خَرْجٍ بلا دَخْلِ
أَصعَبُ ما نلقاه من أَهْلِها قَوْلٌ بلا أَهْلٍ ولا سَهْلِ
وكنتُ أهواها ولكنَّني لقيتُ منها كُلَّ ما يُسْلي
وأنتَ مَنْ أصبحَ إحسانُه حِلْيَةَ هذا الزَّمنِ العُطْلِ

قال: وعاد نور الدين إلى سِنْجار*، فأعاد عمارة أسوارها، ثم أتى حَرَّان* وقد اقتطعها عن صاحب الموصل هي ونَصِيبين*، والخابور*، والمِجْدَل*. ووصل حلب في خامس رجب[4].

= الغز لما استولوا على نيسابور في وقعتهم مع السلطان سنجر السلجوقي، وقتل معه أئمة وفقهاء كثر. انظر ترجمته في «الكامل»: ١١/١٧٨ ـ ١٨١، وفيه أنه قتل في شوال سنة (٥٤٩ هـ) و «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٣١٢ ـ ٣١٥، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٢٥ ـ ٢٨، و «طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ٥٥٩ ـ ٥٦٠.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من هذا الجزء.

(٣) في (م): والموصل، وهو تحريف.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٩٨ ـ ٩٩.

وقال ابن شَدَّاد: دخل حلب في شعبان، وزوَّج صاحب الموصل ابنته[1].

قال العماد: وفَوَّض القضاء والحُكم بنَصِيبين وسِنْجار والخابور إلى الشَّيخ شرف الدين بن أبي عصرون، فولَّى بها نوَّابه، وحكَّم فيها أصحابه[2].

وقال القاضي ابن شداد[3]: لما صارت المَوْصِل إلى سيف الدين ابن أخي نور الدين، كان قد استولى عليه، وتولَّى أمر البلد رجلٌ يقال له عبد المسيح، كان نصرانياً فأسلم، وقيل: إنه كان باقياً على نصرانيته، وله بيعة في داره، وتتبَّع أرباب العلم والدين وشَتَّتهم وأبعدهم وآذى المسلمين.
١٩٠/١ فبلغَ نور الدين ذلك، وكُتِب له قصصٌ في ذلك. فسار ونزل على الموصل من جانب الشطِّ، والشط بينه وبينها، وقال: لا أقاتل هذه البلدة وأهتك حُرْمتها وهي لولدي. وراسل سيف الدين وقال له: أنا ليس مقصودي البلد، وإنما مقصودي حفظ البلد لك، فإنه قد كُتِب إليَّ في عبد المسيح كذا وكذا ألف قصة بما يفعل مع المسلمين، وإنما[4] مقصودي أزيل هذا النَّصْراني عن ولاية المسلمين.

قال: وعبد المسيح يدبِّر البلد ويدور فيه، والأمر إليه. وبذل الصُّلْح لنور الدين، فقال نور الدين: أنا قد جئت ولا بُدَّ لي من دخول البلد. فقال: نعم لا يدخل إلاّ من باب السِّرِّ. فقال نور الدين: ما أدخل إلاّ من باب السر.

(١) «النوادر السلطانية»: ٤٤.
(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠٠.
(٣) هذا النص ينقله أبو شامة عن كتاب آخر لابن شداد غير «النوادر السلطانية».
(٤) في (ل) و (م): وأنا.

فجرت بين نور الدين وبين ابن أخيه مراسلات، إلى أن عَلِمَ أن نيته صالحة، فصالحه في السر، وركب عبد المسيح وخرج يدور بين السورين، فجاءه بعض أصحابه وقال له: أنت نائم؟ دمُك قد راح وأنت غافل! فقال: ما الخبر؟ فقال: سيف الدين قد صالح عمه وأنت في مقابلة نور الدِّين! فجاء ودخل على سيف الدين وألقى شربوشَهُ[1] بين يديه، وقال له: أنت قد صالحت عَمَّك وقد علمتَ ما عملتُ في[2] حفظ بلدك، وما لي طاقة بمقابلة نور الدين، فاللَّهَ اللَّهَ في دمي. فقال له: ما لي طاقة بدفعه عنك، ولكن عليك بالشَّيخ عمر المَلاَّء. فقال: والله لو مضيتُ إليه لم يفتح لي ــ لعلمه بما[3] جرى منه في حَقِّ المسلمين ــ ولكن تسيِّر أنت إليه. فسيَّرَ[4] سيف الدين إليه واستحضره ــ وكان معتكفاً ــ فقال له: ما الخبر؟ فقال سيف الدين لعبد المسيح: منك إليه. فوقف بين يديه يبكي، فالتفت إليه عمر وقال: من يعادي الرجال يبكي مثل النساء! فقال له: قد تمسكتُ بك وأطلب منك حَقْنَ دمي. فقال: أنت آمن على دمك. فقال: وعلى مالي. فقال: وعلى مالك. قال[5]: وعلى أهلي[5]. فقال: وعلى أهلك.

وكان شرف الدين بن أبي عصرون مع نور الدين حينئذٍ، فقال سيف الدين لعمر المَلاَّء: تخرج تحلِّف نور الدين، فأحضر الفقهاء وعملوا له

---

(١) الشربوش: قلنسوة طويلة تشبه التاج كأنه على شكل مثلث، تلبس بدل العمامة، كانت شارة للأمراء دون غيرهم. انظر «خطط المقريزي»: ٢/ ٩٩، و «التعريف بمصطلحات صبح الأعشى»: ١٩٧ ــ ١٩٨.
(٢) في (م): وقد علمت ما علمت من.
(٣) في الأصل: ما، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في (ل) و (م): فأنفذ.
(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (م).

نسخة يمين ونسخة يمين لعبد المسيح، فأخذهما عمر وخرج إلى نور الدين، فقام نور الدين وخرج من خيمته والتقاه وأكرمه. فقال له عمر: الناس يعلمون حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وقد خرجتُ في كذا وكذا. وناوله النسخة التي تتعلَّق بسيف الدين، فقرأها وناولها لابن أبي عصرون، فقال: نسخة جيدة[1]. فقال له الشيخ عمر المَلاَّء: أيش تقول في هذه النسخة؟ فقال: جيدة. فقال: [إذا][2] حلف بها على هذا الوجه أليس أنها تقع لازمة؟ فقال: بلى. فقال للحاضرين: اشهدوا على الشيخ بذلك. يشير إلى أن نور الدين كان تجري منه أيمانٌ في وقائع، وكان ابن أبي عصرون يفتيه بالخروج منها، فقيَّد عليه القول، فأجاب نور الدين إلى ذلك، فقال له: قد علم الناس حُسْنَ عقيدتك فيَّ، وأن قولي مسموع عندك، وقد خرجتُ إليك ولا بُدَّ لي من ضيافة. قال: كيف لي بذلك وأنت لا تأكل طعامي ولا تقبل مني شيئاً! فقال: تحلف لي بهذه النسخة. فوقف عليها وتغيَّر وجهه، وقال: أنا ما جئتُ إلاّ في هذا لأخلص المسلمين منه! فقال له الشيخ عمر: فما نطلب منك أن توليه على المسلمين. فقال: قد أمنته على نفسه. فقال: وعلى أهله. فقال: ومن أهله؟ قال: نصارى. فقال: أمنتهم. فقال: وعلى ماله. فقال: ومن أين لهذا الكلب مال؟ هذا[3] مملوك لنا. فقال: قد أُعتق وماله له، وهو اليوم كان صاحب الموصل، فقال: قد أمنته على ماله. فحلف على ذلك جميعه، واستقرَّ الصُّلْح.

وخرج سيف الدِّين إلى خدمة نور الدين، فوقف بين يديه، فأكرمه نور

---

(١) جيدة، ساقطة من (ل).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: قال: هذا، والمثبت من (ل) و(م).

الدين، وكان وَصله خِلْعة أمير المؤمنين فخلعها عليه، فدخل إلى الموصل بها، وانتقل إلى جانب الشط الآخر، ولم يدخل إلى الموصل إلى أن جاء مطرٌ شديد جدًّا، فدخل من باب السر إليها، وأقام بها مُدَّة، ورتَّب أمورها، وولَّى فيها كُمُشْتِكِين، فرأى النَّبي ﷺ ذات ليلة [في المنام][1] وهو يقول [له][2]: جئتَ إلى بلدك وطاب لك المقامُ به، وتركت الجهاد وقتال أعداء الدين؟! فاستيقظ من منامه، وسار سُحْرَةَ ذلك اليوم ولم يلبث، ولم يعلم به أكثر الناس حتى خرج ولحقوه، رحمه الله تعالى.

فصــــل

وصل الخبر بموت الإمام المستنجد بالله أبي المُظَفَّر يوسف بن المقتفي، ونورُ الدين مخيِّم بشرقيِّ الموصل بتلِّ توبة*. وكانت وفاته يوم السبت تاسع ربيع الآخر، وبويع ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن.

وكان مولد المستنجد مستهل ربيع الآخر سنة عشر وخمس مئة، وكانت خلافته إحدى[3] عشرة سنة وستة أيام. وهو الثاني والثلاثون من خلفاء بني العَبَّاس. وهذا العدد له بحساب الجُمَّل، اللام والباء، وفيه يقول بعضُ الأدباء:

أَصْبَحْتَ لُبَّ بني العَبَّاس كلِّهِمُ ... إن عُدِّدَتْ بحسابِ الجُمَّل الخُلَفَا

وكان أسمر، تام القامة، طويل اللحية، وكان من أحسن الخلفاء سيرةً

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) ما بين حاصرتين من (ل).
(٣) في الأصل: أحد، والمثبت من (ل) و (م).

مع الرعية؛ كان عادلاً فيهم، كثير الرِّفْق بهم، وأطلق من المكوس كثيراً، ولم يترك بالعراق مَكْساً. وكان شديداً على أهل العيث والفساد والسعاية بالناس.

قال ابن الأثير: بلغني أنه قَبَض على إنسانٍ كان يسعى بالنَّاس، ويكتب فيهم السِّعايات، فأطال حَبْسَه، فحضر بعضُ أصحابه وشفع فيه، وبذل عنه
١٩١/١ عشرة آلاف دينار فقال له: أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي إنساناً آخر مثله أحبسه لأكفَّ شَرَّهُ عن الناس(١).

وتوفي في أيامه شيخ الشيوخ* إسماعيلُ بن أبي سعد(٢)، وصار بعده ابنه صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ(٣)، وذلك سنة إحدى وأربعين.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين توفي محمد بن نَصْر القَيْسَراني، وأحمد بن منير، الشَّاعران. وقد تقدَّم ذلك(٤).

وفي سنة تسعٍ وأربعين توفي الحكيم أبو الحكم الشَّاعر الأَنْدَلُسي(٥).

وفي سنة إحدى وخمسين توفي الوَأْوَاء الشَّاعر الحلبي(٦).

---

(١) «الباهر»: ١٥٢.

(٢) هو أبو البركات، إسماعيل بن أبي سعد أحمد، الصوفي، كان أبوه من أهل نيسابور، واستوطن بغداد، فولد بها سنة (٤٦٥ هـ) وكان وقوراً مهيباً، قرأ عليه السمعاني وابن عساكر. انظر ترجمته في «المنتظم»: ١٠/ ١٢١، و «وفيات الأعيان»: ١/ ٩٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ١٦٠ ـ ١٦١.

(٣) توفي عبد الرحيم سنة (٥٨٠ هـ). وانظر ص ٢١٠ من الجزء الثالث، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٠٢.

(٤) انظر ص ٢٩٣ من الجزء الأول.

(٥) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٦ من الجزء الأول.

(٦) هو أبو الفرج، عبد القاهر بن عبد الله بن الحسين، الشيباني الحلبي، شاعر، نحوي، أصله من بزاعة ـ بين منبج وحلب ـ ونشأ ومات بحلب، تردد إلى دمشق غير مرة، =

وفي سنة ثلاث وستين توفي الشيخ أبو النَّجيب الصُّوفي الفقيه الواعظ[1].

قال العماد: وجاءنا رسلُ دار الخلافة مُبَشِّرين بخلافة المستضيء، واتَّفق ذلك يوم عبور دِجْلَة. وركب يوم النُّزول على تَلٍّ توبة* في الأُهبة* السوداء، واليد البيضاء، وذلك بمرأى ومنظر من أهل الموصل الحَدْباء. ثم أرسل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون إلى بغداد نائباً عنه في خدمة الإمام[2].

ومما نظمه العماد فيه:

قد أضاءَ الزَّمانُ بالمستضيء ... وارثِ البُرْدِ وابنِ عَمِّ النَّبيء
جاء بالحَقِّ والشَّريعةِ والعَدْ ... لِ فيا مَرْحباً بهذا المجيء
فهنيئاً لأهلِ بَغْدَادَ فازوا ... بعد بُؤْس بكلِّ عَيْشٍ هَنِيء
ومُضيء إن كان في الزَّمَنِ المُظْـ ... ـلم فالعَوْدُ في الزَّمانِ المُضِيء[3]

وله من قصيدةٍ أخرى:

لهفي على زَمَنِ الشَّباب فإنني ... بسوى التأسُّفِ عنه لم أتعوَّضِ
نُقِضَتْ عهودُ الغانيات وإنَّها ... لولا انقضاءُ شبيبتي لم تَنْقَضِ

= وكان يقرىء بها النحو، ويشرح شعر المتنبي ويعربه وهو طبعاً غير الوأواء الدمشقي، الشاعر المشهور. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ١٥٥ ــ ١٥٧، و «إنباه الرواة»: ٢/ ١٨٦ ــ ١٨٧، و «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٢٢ ــ ٣٢٣، و «إعلام النبلاء» للطباخ: ٤/ ٢٣٢ ــ ٢٣٤.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٢ ــ ٥٣ من الجزء الأول.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠١.

(٣) الأبيات ما عدا البيت الأخير في «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠٣، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٢ ــ ١٣.

يـا حُسـنَ أيـام الصِّبـا وكـأنَّهـا ... أيـامُ مَـوْلانـا الإمـامِ المُسْتَضـي

ذو البَهْجَـةِ الـزَّهْـراء يُشْـرِقُ نـورُهـا ... والطَّلْعـةِ الغَـرَّاء والـوَجْـه الـوَضـي

قَسَـمَ السَّعـادة والشَّقَـاوة ربُّنـا ... فـي الخَلْـقِ بيـن مُحِبِّـهِ والمُبْغِـضِ

ومنها:

فَضَلَ الخلائِفَ والخلائِقَ بالتُّقى ... والفَضْلِ والإِفْضالِ والخُلُق الرَّضي

فـانْعَـمْ أميـرَ المـؤمنيـنَ بِـدَوْلـةٍ ... مـا تنتهـي وسَعَـادَةٍ مـا تنقضـي[1]

قال: ووصل نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ إلى دمشق، وأدَّى فَرْضَ الصِّيام، وخرج بعد العيد إلى الخيام، وأخرج سُرَادِقه إلى جسر الخشب*، وسرنا إلى عَشْتَرا[2].

ثم ذكر العماد هنا سيرة[3] [سرية][4] صاحب البيرة* الأَرْتُقي باللَّبْوَة، وقد مضت في أخبار سنة خمسة وستين[5] فَثَمَّ ذكرها ابنُ الأثير[6].

فصـــل

فيما جرى بمصر في هذه السَّنة

قال العماد: كان بمصر حبس للشِّحَن* يُعرف بدار المَعُونة[7]، فأعادها

(١) انظر أبياتاً من القصيدة في «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٣ ــ ١٠٤، و «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/١٧ ــ ١٨.

(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٥.

(٣) سيرة، ساقطة من (م).

(٤) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

(٥) انظر ص ١٦٠ من هذا الجزء.

(٦) انظر «الباهر»: ١٤٥ ــ ١٤٦، و «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٦ ــ ١٠٧.

(٧) دار المعونة كانت في الفسطاط قبلي جامع عمرو بن العاص، سميت بدار المعونة لأنها بنيت بمعونة المسلمين ينزلها ولاتهم، ثم عرفت بدار الفلفل، ثم صارت داراً =

صلاح الدين مدرسةً للشافعية في أول سنة ست وستين، وعمل في النصف من المحرَّم دار الغزل[1] مدرسةً للمالكية، وولّى صدرَ الدين عبد الملك بن دِرْباس[2] القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالها، وذلك في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة. ثم خرج إلى الغَزَاة، وأغار على الرَّمْلة وعَسْقَلان، وهَجَمَ رَبَضَ غَزَّة، ثم رجع إلى القاهرة.

ثم وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق فيها أهله، فأشفَقَ عليها، وأحبَّ أن يجتمع بها شمله، فخرج في النصف من ربيع الأول. وكانت

= للشرطة نحو سنة (٢١٣ هـ)، ثم جعلها يانس العزيزي صاحب الشرطة في عهد العزيز حبساً يعرف بالمعونة سنة (٣٨١ هـ)، وبقيت سجناً حتى أعادها صلاح الدين مدرسة كما ذكر هنا.

قال محمد رمزي في تحقيقاته في «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨٥: هذه المدرسة قد زالت. انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥، ٤/ ١٩٣، و«الانتصار لواسطة عقد الأمصار» لابن دقماق: ٤/ ٩٣.

(١) أوقف عليها صلاح الدين الأوقاف الكثيرة، أهمها ضيعة بالفيوم كان يجمع منها قمح كثير يوزع على فقهاء المدرسة، ومن ثم عرفت بالمدرسة القمحية، قال محمد رمزي: هذه المدرسة قد زالت. انظر «الانتصار» ٤/ ٩٥، و«خطط المقريزي»: ٤/ ١٩٣ ـ ١٩٤، و«النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٨٥.

(٢) هو عبد الملك بن عيسى بن درباس، الهذباني، كردي من قبيلة صلاح الدين، مولده بأعمال الموصل نحو سنة (٥١٦ هـ)، سمع من ابن عساكر الدمشقي، وروى عنه المنذري صاحب التكملة، كان من جلة العلماء وفضلائهم، توفي سنة (٦٠٥ هـ)، وهو أخو ضياء الدين عثمان بن عيسى، وكان أيضاً من أعلم الفقهاء في وقته بمذهب الإمام الشافعي، وقد ناب عن أخيه في الحكم بالقاهرة، وتوفي قبله سنة (٦٠٢ هـ)، وقد خلف كل منهما أولاداً كانوا أئمة أعلاماً. انظر ترجمة صد ِ الدين في «التكملة» للمنذري: ٢/ ١٥٦، و«المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٠٥ هـ) و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، وانظر ترجمة ضياء الدين في «التكملة» للمنذري: ٢/ ٩٠، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٢٩١. وانظر ٤/ ٤٢٤، ٤٥٦ من هذا الكتاب.

بأَيْلة* قلعة في البحر قد حَصَّنها أهل الكُفْر، فعمر لها مراكب، وحملها إلى ساحلها على الجمال، وركَّبها الصُنَّاع هناك، وشحنها بالرِّجال، وفتح القلعة في العشر الأول من ربيع الآخر، واستحلَّها، واستباح بالقتل والأسر أهلها، وملأها بالعُدَد والعَدَد، وحَصَّنها بأهل الجلاد والجَلَد. واجتمع بأهله عليها، وسار بهم على سَمْت القاهرة، ودخلوا في السَّادس والعشرين من جُمادى الأولى[1] إليها.

وسار إلى الإسكندرية في الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها
١٩٢/١ ويُرَتِّب قواعدها، وهي أول دفعةٍ سار إليها في أيام سُلْطانه، وعَمَّ أهلَها بإحسانه، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها.

وفي النصف من شعبان اشترى تقي الدين عمر بن شاهنشاه ــ وهو ابن أخي صلاح الدين ــ منازل العِز[2] بمصر وجعلها مدرسة للشَّافعية، واشترى الروضة وحَمَّام الذهب وغيرهما من الأملاك، ووقفها عليها.

---

(١) في «سنا البرق الشامي»: ١/١٠٩ جمادى الآخرة، وهو تحريف.

(٢) عرفت هذه المدرسة بالتقوية، وهذه المنازل بنتها السيدة تغريد أم الخليفة العزيز بالله، وقال ابن دقماق: بناها المعز لأخته لما قدمت من المغرب، ولم يكن بمصر أحسن منها، وكانت تشرف على النيل، وصارت معدة لنزهة الخلفاء، وكان بجانبها حمام يعرف بحمام الذهب من جملة حقوقها، وقد أنزل فيها صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين، فسكنها مرة، ثم اشتراها كما ذكر هنا.

قال محمد رمزي: ومحلها اليوم مجموعة المباني التي تحد من الغرب بشارع مصر القديمة، ومن الجنوب مدخل شارع المرحومي، أما المدرسة التقوية فتعرف اليوم باسم جامع شهاب الدين أحمد المرحومي الذي يتوسط هذه المنطقة بشارع المرحومي بمصر القديمة انظر «الانتصار» لابن دقماق: ٤/٩٣ ــ ٩٤، و «خطط المقريزي»: ٢/٣٧٦، ٤/١٩٤ ــ ١٩٥، و «النجوم الزاهرة»: ٥/٥٦٦ حاشية رقم (١).

وفي النصف من جُمادى الآخرة أغار شمس الدولة ـ أخو السُّلْطان ـ بالصَّعيد على العُربان، ثم دخل القاهرة في عاشر شهر رمضان.

وفي الثالث والعشرين من جمادى الآخرة توفي القاضي الموفق أبو الحَجَّاج يوسف بن الخلال، وكان من الأماثل الأفاضل، ولم يزل صاحب ديوان الإنشاء إلى أن كَبِرَ. وكان الأجل الفاضل يوصل إليه كل ما كان له، وقام به مدة حياته يكرم عهده ويكفله[1].

وقال في «الخريدة»: هو ناظر ديوان مصر وإنسان ناظره، وجامع مفاخره، وكان إليه الإنشاء، وله قوَّة على الترسُّل يكتب ما يشاء، عاش كثيراً وعطل في آخر عمره، وأَضَرَّ ولزم بيته إلى أن تعوَّض منه القبر. ومن شعره:

يا أخا الغِرَّة حَسْبُ الدَّهْر من ... عِظَةِ المغرورِ ما أَصْبَحَ يُبْدي
تؤثر الدُّنيا فهل نِلْتَ بها ... لحظةً تخلُصُ من همٍّ وكَدٍّ[2]

قلت[3]: وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير الجَزَري[4] في أول كتابه المسمى «بالوشي المرقوم في حَلِّ المنظوم»، قال: حدَّثني عبد الرحيم بن علي البَيْسَاني رحمه الله تعالى بمدينة دمشق في سنة ثمان وثمانين وخمس مئة قال: كان فن الكتابة بمصر في زمن يعني بني عبيد غضاً طرياً، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكاناً وبياناً، ويقيم لسطانه بقلمه سلطاناً. وكان من العادة أن كلاً من أرباب

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٠٧ ـ ١١٠.
(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٧.
(٣) هذا النقل بطوله ساقط من (م).
(٤) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٧ هـ).

الدَّواوين إذا نشأ له ولد، وشدا شيئاً من علم الأدب، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فنَّ الكتابة، ويتدرب ويرى ويسمع. قال: فأرسلني والدي ــ وكان إذ ذاك قاضياً بثغر عَسْقلان ــ إلى الديار المصرية في أيام الحافظ ــ وهو أحد خلفائها ــ وأمرني بالمصير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأسُ به في تلك الأيام رجلاً يقال له ابن الخَلاَّل. فلما حضرتُ الديوان ومَثَلْتُ بين يديه، وعرَّفته من أنا وما طَلِبتي، رحَّب بي وسَهَّل، ثم قال: ما الذي أعددتَ لفنِّ الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن العزيز وكتاب «الحماسة». فقال: في هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته. فلما تردَّدْتُ إليه، وتدربت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحلّ شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني بأن أحلَّه مَرَّة ثانية، فحللته[1].

وقال ابن أبي طيّ: في هذه السنة شرع السُّلْطان ــ يعني صلاح الدين ــ في عمارة سور القاهرة، لأنه كان قد تهدَّم أكثره، وصار طريقاً لا يردُّ داخلاً ولا خارجاً، وولاه لقَرَاقُوش الخادم[2]. وقَبَضَ على القصور وسلَّمها إليه، وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية، وقطع من الأذان «حيَّ على خير العمل»، وشرع في تمهيد أسباب الخطبة لبني العَبَّاس.

---

(١) انظر «الوشي المرقوم في حل المنظوم»: ٩، طبعة ثمرات الفنون سنة ١٢٩٨ هـ/ ١٨٨٠ م، وهي طبعة سقيمة، وانظر تعليق ابن خلكان على هذا الخبر في «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢٢٠ ــ ٢٢١.

(٢) سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٤/ ٤٨٤، وترجم له أبو شامة أيضاً في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٧ هـ)، وانظر ص ٤٤٤ من هذا الجزء. وهو غير قراقوش مملوك تقي الدين عمر الذي سترد أخباره ص ٢٦٧، ٤١٨ ــ ٤١٩ من هذا الجزء، وص ٩٩ من الجزء الثالث.

وفيها طلب شمس الدولة من أخيه السلطان ربع الكامل بالقاهرة، وازداد على إقطاعه بُوش[1]، وأعمال الجيزة وسَمَنُّود[2] وغيرها.

قلتُ: وقد وقفتُ على كتاب فاضلي وصف فيه غَزَاة غزاها صلاح الدين رحمه الله تعالى في زمان وزارته، وكان الكتاب إلى مدينة قُوص* وأظن هذه الغزاة هي التي أشار إليها العماد في أثناء كلامه السَّابق. أوَّلُ الكتاب ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[3].

وفيه: توجهنا من بركة الجُبّ[4] يوم الخميس الخامس عشر من ربيع الأول، ووصلنا بتاريخ السَّابع والعشرين من الشهر المذكور، والعساكر بالسهل والوعر منتظمة، والهمم على السهل والصَّعب مزدحمة، وجنود الله في الأرض المُعْلَمة، قد أَيَّدَتها جنود السماء المسوَّمة. وصابحنا الدَّير[5] يوم الأربعاء بقتالٍ جعل كلَّ من في حِصْن الدَّير راهباً، ونصبنا عليه منجنيقاً لا يزال بشهاب القذفِ ضارباً. فلما تعالى النَّهار ملكنا رَبَضَه، وأطلقنا فيه النيران، ورمَّلْنا الرِّجال بالدَّم، وأرملنا[6] النسوان، وزحفنا إلى أبراجه وهي أبراجٌ قد استعدَت للبلاء جِلباباً، فجعلنا لكلّ واحدٍ جورة مفردةً وباباً[7]،

(١) مدينة من نواحي الصعيد الأدنى في غربي النيل، «معجم البلدان»: ١/ ٥٠٨.
(٢) بلد من جهة دمياط على ضفة النيل. «معجم البلدان»: ٣/ ٢٥٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.
(٤) متنزه بظاهر القاهرة في الجهة البحرية، كان يخرج إليه خلفاء مصر وملوكها، وينزل الحجاج به عند مسيرهم من القاهرة وعند عودهم، ومن ثم سميت أيضاً ببركة الحجاج، انظر «خطط المقريزي»: ٣/ ٢٦٥ ـ ٢٦٧.
(٥) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: بلغني أن الدير هو الداروم، والله أعلم».
(٦) في الأصل و (ل): وأرسلنا، والمثبت من (م).
(٧) في (م): مآبا.

وسرَّحنا إليهم رُسُلَ المنايا من النُّشَّاب، وقصدنا أَخْذَ الأبراج، والبيوت تؤتى في الحرب من غير الأبواب، وتقدَّمت إليهم نقَّابة الحلبية فباتت ليلتها تساوره، وتراجعه بألسنة المعاول وتشاوره. وأسفر الصُّبْح وقد أمكن تعليقه، وتيسَّر تحريقه، فأودعنا تلك العقود آلات الوقود، فلم يكن إلا مقدار اشتعالها حتى خَرَّ صريعاً سريعاً، وعفر بين أيدينا سامعاً مطيعاً. وانتظمت الرجال على أحجاره، وتواثبت إلى أمثاله من الأبراج وأنظاره، فحصلت في القَبْضَة، وعَجَزَ من كان فيها عن النهضة، واحتكم فيها العذابُ بالسيف والنار، وضاق عليهم مجال النفس والقرار.

واستقبلنا يوم الخميس نقب القلعة وتقديم المنجنيق، وتيسير السبيل للقتال وتخليص الطريق، هذا والكسوب والنهوب قد امتارت منها العساكر، وخرجت فيها مكنونات الذخائر، وأشبه اليوم يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر، وطهَّرَ[1] الأرض منهم بالدم المائر.

فلما كان بُكْرة الجمعة وَرَدتْنا الأخبار بأن الملك قد زحف من غَزَّة في فارسه وراجله، ورامحه ونابله، وحشودِ دياره، وجنود أنصاره. فركبنا مستبشرين بزحفه، موقنين بحتفه، ولقيناه، فأحطنا من بين يديه ومن خلفه. وناوشته الخيل الطِّراد، وأحدقت به إحداق الأغلال بالأجياد، وانتظرت حملته التي كان لها قبل ذلك اليوم موقع، وصدمته التي لها[2] من رجال الحرب موضع، فملأ الله قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً. ولم يزل يخاتل ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يصاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لا تني في عقابه، حتى تحصَّل في الدَّير هو وخيلُه ورَجْله،

(١) في الأصل: وظهر، وهو تصحيف، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل: التي كان، وقد ضرب عليها.

١٩٣/١ ولم يبق له من مُلك الشام إلاّ ما وطئته رِجْله. فناصبناه الحصار في ليلة السّبت مستهل ربيع الآخر بالركوب إليه، والوقوف عليه، لعله يبرز ويبارز، ويخرج ولا يحاجز؛ فخرست غماغمه، واستذأبت ضراغمه، فتركناه وراء ظهورنا، وجعلنا بلاده أمام صدورنا، فكنا في توليته مرضين لله تعالى [سبحانه][1] لا مغضبين، وفي تركه وراء ظهورنا ومباعدته من الله متقرِّبين.

وواجهنا غَزَّة بعساكرنا المنصورة، وأطفنا بها في أحسن صورة، وهي على ما علم من كونها بِكْراً لم تفترعها الحوادث، وحَصَاناً لم يَطْمِثْها أمل طامث، وهي معقل الديويّة* الذين هم جمرة الشِّرْك، وداهية الإفك، وأتى الله ببنيانها من القواعد، وأنجز فيها من النَّصر صادق المواعد، ووردناها بأيمن الموارد؛ وفتحناها من عدّة جوانب، ووطئناها وإذا هي كأمسِ الذَّاهب، فألْقَتْ إلينا أفلاذ كبدها، وذخيرة يدها، فمن بين مَوَاشٍ تخرب البلاد التي منها خرجت[2]، وخيول مسوَّمة كأنها لركوبنا أُسْرِجَتْ وأُلجمت، وحوامل أثقال وزوامل[3] خَفَّفَتْ عن عساكرنا وفَرَّجَتْ، وميرة كثيرة تمكنت فيها يد الأجناد وأفرجت، وأسارى المسلمين فكوا من القيد والقِدّ، وأنقذوا بلطف الله من سوء المَلَكَة[4] وشدة الجهد. وأما الرؤوس المقطوعة، وأسارى الفرنج الذين أيديهم إلى أعناقهم مجموعة، فإنَّ الفضاءَ الفِضِّي تَعَصْفَرَ من دمائهم وتذهَّب، وجرى منها ما به اضطرم وَقْدُ الجحيم وتلهّب، وفي الحال أمرنا بالنار أن تشتغل بها وتشتعل، وبالهدم أن ينقل عنها معاوله

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: خرجت منها، والمثبت من (م)، وفي (ل): منها حرمت.
(٣) مفردها: الزاملة، وهي الدابة يحمل عليها المتاع والطعام في السفر، «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٨.
(٤) في الأصل و (ل): المملكة، والمثبت من (م).

وينتقل ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾[1]، أو تنظر إلا طلولاً على عروشها خاوية، وعِراصاً من سُكّانها خالية، قد بقيت عبرةً للعابر، وذكرى للذّاكر، وموعظةً سارّةً للمسلم مُرْغِمَةً للكافر.

ثم عدنا بقية يوم السبت إلى الملك ــ خذله الله تعالى ــ راجين أن يحمله الثُّكْلُ على الإقدام، ويخرجه حَرُّ النّار إلى مقام الانتقام، فإذا شيطانه قد نصحه، وقَتْلُ أصحابه قد جَرَحه، فبِتْنا عليه والألسنةُ بقراره تعيّره، واستتاره يقَرِّعه ويقرِّره.

وأصبحنا يوم الأحد ثاني شهر ربيع الآخر والكسبُ قد أثقل المقاتلة، ونَصْرُ الله قد بلغ الغاية المستأصلة، ورحلنا والسّلامة لصغير عسكرنا وكبيره شاملة، والعدُوُّ قد غُزي في عُقره وعُقر، وأُذِلَّ في دار مُلْكه واحتقر. ووصلنا إلى مستقرِّ سلطاننا في يوم الاثنين الحادي عشر من الشهر المذكور، فاستقبلنا من مولانا، صلوات الله عليه، وتشريفه واستقلال ركابه، ومشافهتنا بمقبول دعائه الشريف ومحابّه، ما عَظُمَتْ به النِّعَم وجلّت، وزالت به وعثاءُ الطريق وتجلّت، وجادتها سماء إنعامه التي لم تزل تجودنا واستهلّت.

قلت: ومن قصيدة لعُمارة في مدح صلاح الدين، أولها:

فؤادٌ بنارِ الشَّوْقِ والوَجْدِ مُحْرَقُ

يقول فيها:

لعـلَّ بنـي أيـوب إنْ عَلِمُـوا بمـا ... تظلَّمْـتُ منـه أن يَـرِقُّـوا ويُشفِقُـوا
غـزوا عُقـر دار المشـركيـن بغَـزَّةٍ ... جِهاراً وطَرْفُ الشِّرْكِ خَزْيانُ مُطْرِقُ

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٨.

وزاروا مُصَلَّى عَسْقَلانَ بأرعنٍ[1]   يفيضُ إناءُ البَرِّ منه ويَفْهَقُ[2]

وكانت على ما شاهد النَّاس قبلكم   طرائقَ من شَوْكِ القنا ليس تُطرقُ

وما عَصَمَتْهُمْ منك إلا معاقِلٌ   تأنَّوْا على تحصينها وتأنَّقوا

جَلَبْتَ لهم من سَورة الحرب ما التقى   بوادِرَهُ[3] سُورٌ عليهم وخَنْدَقُ

وأَخْرَبْتَ من أعمالهم كلَّ عامرٍ   يمرُّ به طيفُ الخيال فيَفْرَقُ

أضفتَ إلى أجر الجهاد زيارةَ الـ   ـخليل فأَبْشِرْ أنت غازٍ مُوفَّقُ

وهَيَّجْتَ للبيت المقدَّس لوعةً   يطولُ بها منه إليك التشوُّقُ

تَنَشَّقَ من ملقاك أَعْطَرَ نَفْحَةٍ   تطيبُ على قَلْبِ الهُدَى حين تُنْشَقُ

وغَزْوك هذا سُلَّمٌ نحو فتحه   قريباً وإلا رائدٌ ومُطَرِّقُ

هو البيتُ إنْ تَفْتَحْهُ والله فاعِلٌ   فما بعدَه بابٌ من الشَّامِ مُغْلَقُ[4]

ثم دخلت سنة سبع وستين [وخمس مئة][5]

واستفتحها صلاح الدين رحمه الله تعالى بإقامة الخُطْبة في الجمعة الأولى منها بمصر لبني العَبَّاس، وفي الجمعة الثانية خُطِبَ لهم بالقاهرة، وانقطع ذكر خلفاء مصر منها، وتوفي العاضد يوم عاشوراء بالقصر، وانقضت تلك الدولة بانتهاء ما دام لها من العصر.

---

(١) الأرعن: الجيش العظيم: «اللسان» (رعن).

(٢) الفهق: الامتلاء والاتساع. «اللسان» (فهق).

(٣) في (م): يؤازره.

(٤) انظر أبياتاً من القصيدة غير التي اختارها أبو شامة في «النكت العصرية»: ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٥) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

وذكر العماد أيضاً في أخبار سنة اثنتين وسبعين[١]، كما سيأتي[٢]، أنَّ الذي خطب بمصر لبني العباس أولاً هو أبو عبد الله محمد بن المحسَّن[٣] بن الحسين بن أبي المضاء البَعْلَبَكِّيّ[٤]. وذكر ذلك أيضاً ابن الدَّبيثي في «تاريخه»[٥]، وقد أشار إليه القاضي الفاضل في كتابٍ له إلى وزير بغداد سيأتي ذكره[٦].

١/ ١٩٤ وقال ابن الأثير: كان السَّبب في ذلك أنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب لما ثبتت قدمه في مصر، وزال المخالفون له، وضَعُفَ أمرُ العاضد، وهو الخليفة بها، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملكُ العادل نور الدين محمود يأمره بقطع الخطبة العاضدية، وإقامة الخُطْبة العبَّاسية، فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك؛ لميلهم إلى العلويين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فُسْحة له فيه.

واتفق أنَّ العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عَزَمَ على قطع الخطبةِ له، فاستشار الأمراء كيف يكون الابتداء بالخطبة العَبَّاسية، فمنهم من أقدم على المساعدة وأشار بها، ومنهم من خاف ذلك إلاّ أنه لم يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين. وكان قد دخل إلى مصر إنسانٌ أعجميٌّ يُعرف بالأمير

(١) وسبعين، ساقطة من (ل).
(٢) ستأتي ترجمته ص ٤٣١ من هذا الجزء.
(٣) ابن المحسن، ساقطة من (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٥.
(٥) انظر «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ١٤٢.
(٦) انظر ص ١٩٥ من هذا الجزء، وكان ابن الجوزي قد ألف للمستضيء كتاباً لما خطب له بمصر سماه «النصر على مصر» لم يصلنا بعد، انظر «مؤلفات ابن الجوزي»: ٣٠٣.

العالم[1] ــ وقد رأيناه بالمَوْصِل كثيراً ــ فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدىء بها. فلما كان أول جمعة من المُحَرَّم صَعِدَ المنبر قبل الخطيب ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم[2] ينكر أحدٌ ذلك عليه. فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله[2]، ففعلوا ذلك، ولم ينتطح فيها عنزان[3]. وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية.

وكان العاضد قد اشتدَّ مرضه، فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك، وقالوا: إن سَلِمَ فهو يعلم، وإن تُوفي فلا ينبغي أن نُنغص عليه هذه الأيام التي قد بقيت من أجلِهِ. فتوفي يوم عاشوراء ولم يعلم.

قال: ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وعلى جميع ما فيه. وكان قد رتَّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قَرَاقُوش ــ وهو خَصِيٌّ ــ لحفظه، وجعله كأستاذ دار* العاضد، فحفظ[4] ما فيه حتى تسلَّمه صلاح الدين، ونقل أهل العاضد[4] إلى مكان منفرد، ووكَّل بحفظهم، وجعل أولاده وعمومته وأبناءهم في الإيوان في القصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان بالقصر من العبيد والإماء، فأعتق البعضَ ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من أهله وسُكَّانه، فسبحان من لا يزول

---

(١) هو أبو أبو البركات محمد بن موفق الخبوشاني، ذكر ذلك الموفق عبد اللطيف، فيما نقله عنه الذهبي في «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٢٠٥ وانظر ترجمته ٤/ ٢٩٣ من هذا الكتاب.

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) في المثل: لا ينتطح فيها عنزان، إشارة إلى أن القضية لا يجري فيها خلف ونزاع. «اللسان» (نطح). و «المستقصى»: ٢/ ٢٧٧.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

ملكه، ولا يغيِّره ممرُّ الأيام وتعاقب الدهور[1].

قال: ولما اشتدَّ مرض العاضد أرسل يستدعي صلاح الدين، فظنَّ أن ذلك خديعة، فلم يمض إليه، فلما توفي علم صدقه، فندم على تخلُّفه عنه[2].

قلتُ: أخبرني الأمير أبو الفتوح بن العاضد ــ وقد اجتمعتُ به وهو محبوس مقيَّدٌ سنة ثمانٍ وعشرين وست مئة[3] بقلعة الجبل بمصر ــ أن أباه في مرضه استدعى صلاح الدين فحضر، قال: وأحضرنا ــ يعني أولادَه وهم جماعة صغار ــ فأوصاه بنا، فالتزم إكرامنا واحترامنا، رحمه الله. وأما ندمُ صلاح الدين، فبلغني أنه كان على استعجاله بقطع خطبته وهو مريض، وقال: لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعتها إلى أن يموت.

قال العماد: وجلس السُّلْطان للعزاء، وأغرب في الحزن والبكاء، وبلغ الغاية في إجمال أمره، والتوديع له إلى قبره، ثم تسلَّم القصر بما فيه من خزائنه ودفائنه. وكان مذ نافق مؤتمنُ الخلافة وقُتِل[4]، صُرِف مَنْ هو زمام القصر[5] وعُزِل، ووكَّل بهاء الدين قَراقُوش بالقصر، وجعله زِمَامه، واستنابه مقام نفسه وأقامه؛ فما دخل إلى القصر شيء ولا خرج إلا بمرأى منه

---

(١) «الباهر»: ١٥٦.
(٢) «الباهر»: ١٥٧.
(٣) سافر أبو شامة إلى مصر في هذه السنة، آخر ربيع الآخر، فدخل دمياط في جمادى الأولى، والقاهرة في جمادى الآخرة، والإسكندرية في ذي الحجة، ثم رجع إلى دمشق سابع ربيع الآخر سنة (٦٢٩ هـ). انظر «المذيل على الروضتين» حوادث هاتين السنتين، وانظر إلى ما آل إليه أمر آل العاضد في «مفرج الكروب»: ١/ ٢١٠ ــ ٢١١.
(٤) انظر ص ١٣٠ من هذا الجزء.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣١٠ من الجزء الأول.

ومسمع، ولا حصل أهل القصر بعد ذلك على صفو مشرع، فلما توفي العاضد بطلت تلك القواعد، وَوَهَتِ المعاقد، وأمر السلطان بالاحتياط على أهله وأولاده في موضعٍ خارج القصر جعلَهُ برسمهم على الانفراد، وقرَّر ما يكون لهم برسم الكُسوات والأقوات والأزواد[1].

قلتُ: أخبرني أبو الفتوح أنه جعلهم في دار بَرْجَوان[2] في الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة، وهي دار كبيرة واسعة، كان عيشهم فيها طيباً؛ ثم نقلوا بعد الدولة الصَّلاحية منها، وأُبعدوا عنها.

قال العماد: وهم إلى اليوم في حفظ قَرَاقُوش واحتياطه واستظهاره، يكلؤهم ويحرسهم بعين حزمه في ليله ونهاره. وجَمَعَ الباقين من عمومتهم وعِتْرتهم من القصر في إيوان، واحترز عليهم في ذلك المكان بكل إمكان، وأبعدَ عنهم النِّساء لئلا يتناسلوا فيكثروا، وهم إلى الآن محصورون محسورون لم يظهروا، وقد نَقَصَ عددهم، وقَلَصَ مددهم. ثم عَرَضَ[3] من بالقصر من الجواري والعبيد، والعدّة والعديد، والطَّريف والتَّليد، فوجد أكثرهن حرائر فأطلقهنَّ، وجَمَعَ الباقيات فوهبهنَّ وَفرَّقهُنَّ، وأخلى دوره، وأغلق قصوره، وسلَّط جوده على الموجود، وأبطل الوزن والعَدّ عن الموزون والمعدود، وأخذ كل ما صلح له ولأهله ولأمرائه، وخواصِّ مماليكه وأوليائه[4]، من أخاير الذَّخائر، وزواهر الجواهر، ونفائس

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١١ ــ ١١٢.

(٢) هو أبو الفتوح برجوان، كان من خدام العزيز ومدبري دولته، نافذ الأمر مطاعاً، نقم عليه الحاكم فقتله سنة (٣٩٠ هـ). انظر «الإشارة إلى من نال الوزارة»: ٢٧ ـ ٢٨، و «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٧٠ ـ ٢٧١، و «خطط المقريزي»: ٣/ ٤ ــ ٥.

(٣) في الأصل: عوض، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في الأصل: ولأهله والخواص وأمرائه مماليكه، والمثبت من (م) و (ل).

الملابس، ومحاسن العرائس، وقلائد الفرائد، والدُّرَّة اليتيمة، والياقوتة العالية الغالية القيمة، والمصوغات التِّبْرِيَّة، والمصنوعات العنبرية، والأواني الفضية، والصَّواني الصينيَّة، والمنسوجات المغربية، والممزوجات الذهبية، والمحوكات النُّضارِيَّة، والكرائم واليتائم، والعُوَذ والتمائم، والعقود والنقود، والمنظوم والمنضود، والمحلول والمشدود، والمنعوت والمنحوت، والدُّرِّ والياقوت، والحَلْي والوَشْي، والعبير والحبير، والوثير والنثير، والعيني واللُّجيني، والبُسط والفُرش، وما لا يُعَدُّ إحصاءً، ولا يحدُّ استقصاءً، فوقع فيها الفَنَاء، وكُشِفَ عنها الغطاء، وأُسرف فيها العطاء،
١٩٥/١ وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، ولَبِيسٍ وسحيق[١]، وبال وأسمال، ورخيص وغال، وكل منقول ومحمول، ومصنوع ومعمول. واستمرَّ البيع فيها مُدَّة عشر سنين، وتنقَّلَتْ إلى البلاد بأيدي المسافرين الواردين والصَّادرين[٢].

ونقلتُ من «ديوان العماد» بخطِّه قال: ولما وصل الخبر بموت العاضد الذي كان بمصر في القصر، موسوماً[٣] بالأمر، في ليلة عاشوراء سنة سبع وستين، بعد الخطبة بها للمستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، عملت هذه الأبيات. فذكر قصيدةً، منها:

تـوفـي العـاضـدُ الـدَّعِيُّ فمـا يَفْتَـحُ ذو بِـدْعَـةٍ بمصـرَ فمـا
وعَصْـرُ فِـرْعَـوْنِهـا انقضـى وغَـدا يـوسُفُهـا فـي الأمـور مُحْتَكِمـا

(١) اللبيس: الثوب الذي أكثر لبسه، فأخلق، ومثله السحيق. «معجم متن اللغة»: ١١٧/٣، ١٤٣/٥.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١١٢/١.
(٣) في (م): مسموماً.

وانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الغُواة وقد باخ[1] من الشِّرْكِ كلُّ ما اضْطَرَما
وصارَ شَمْلُ الصَّلاحِ ملتئماً بها وعِقْدُ السَّداد[2] مُنْتَظِما
لمَّا غدا مُعْلَناً شعارُ بني الـ ـعَبَّاس حقّاً والباطِلُ اكْتَتَما
وباتَ داعي التَّوحيد منتصراً ومِنْ دُعاة الإِشراكِ مُنْتَقِما
وظَلَّ أهلُ الضَّلالِ في ظُلَلٍ داجِيَةٍ من غَيابةٍ[3] وعمى
وَارْتَبَكَ الجاهِلُونَ في ظُلَمٍ[4] لما أضاءَتْ مَنابِرُ العُلما
وعاد بالمستضيء ممتهَداً بناءُ حقٍّ قد كانَ مُنْهَدِما
واعتلَّتِ الدَّولة التي اضْطُّهِدَتْ وانتصرَ الدينُ بعدما اهتُضِما
واهتزَّ عِطْفُ الإِسلام من جَذَلٍ وافترَّ ثَغْرُ الإِيمانِ وابتسما
واسْتَبْشَرَتْ أَوْجُه الهُدَى فرحاً فَلْيَقْرَعِ الكُفْرُ سِنَّهُ نَدَما
عاد حريمُ الأعداءِ مُنْهَتِكَ الـ ـحِمَى وفيءُ الطُّغاةِ مُقْتَسَما
قُصُور أهل القُصور أَخْرَبَها عامرُ بيتٍ من الكمال سَمَا
أَزْعَجَ بعد السُّكون ساكِنَها ومات ذُلاًّ وأنفُهُ رَغِمَا

ومن كتابٍ فاضليٍّ عن السُّلْطان صلاح الدين إلى وزير بغداد على يد الخطيب شمس الدين بن أبي المضاء في بعض السنين[5]: كتب الخادم هذه الخدمة من مستقرِّه ودينُ الولاء مشروع، وعَلَمُ الجهاد مرفوع، وسُؤْدُدُ السَّواد[6] متبوع، وحكم السَّداد بين الأمَّة موضوع، وسَبَبُ الفساد مقطوع[7]

---

(١) من باخت النار: سكنت. «اللسان» (بوخ).
(٢) في (م): السراد، وهو تصحيف.
(٣) في الأصل: غباية، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في (م): ظلل، وكأنها سبق قلم مما قبلها.
(٥) انظر ص ١٩٠ من هذا الجزء.
(٦) من المعروف أن السواد شعار العباسيين.
(٧) في (م): مطوع، وهو تصحيف.

ممنوع. وقد توالت الفتوح غرباً ويمناً وشآماً، وصارت البلاد بل الدُّنيا، والشهر بل الدهر، حَرَماً حَرَاماً، وأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً، والخلافة إذا ذُكّر بها أهلُ الخلاف لم يخرُّوا عليها صُمًّا وعُمياناً، والبِدْعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذلَّة في شيع الضَّلال شائعة؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء، وسمّوا أعداء الله أصفياء، وتقطعوا أمرهم بينهم شِيَعاً، وفرّقوا أمرَ الأمة وكان مجتمعاً، وكذَّبوا بالنَّار فعُجِّلَتْ لهم نار الحتوف، ونثرت أقلامُ الظُّبى حروفَ رؤوسهم نَثْرَ الأقلامِ للحروف، ومُزِّقوا كل ممزَّق، وأُخذ منهم كل مُخَنَّق، وقُطِعَ دابرهم، ووعظ آتيهم غابِرُهم، ورَغِمَتْ أنوفهم ومنابرهم، وحقَّتْ عليهم الكلمة تشريداً وقتلاً، وتمَّتْ كلماتُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً، وليس السيف عمن سواهم من كُفَّارِ الفرنج بصائم، ولا الليل عن سير إليهم بنائم. ولا خَفَاء عن المجلس الصَّاحبي أن من شَدَّ عَقْد خلافةٍ وحَلَّ عُقَدَ خِلاف، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عَجَزَ عنها الأخلاف والأسلاف، فإنه مفتقرٌ إلى أن يُشْكَرَ(١) ما نَصَحَ، ويُقلَّد ما فتح، ويبلَّغ ما اقترح، ويقدَّمَ حقّه ولا يُطَّرَح، ويقرَّب مكانه وإن نَزَح، وتأتيه التَّشريفات الشَّريفة، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة، وتُلبَّى دعوته بما أقامَ من دعوة، وتُوصل غزوته بما وصل من غزوة، وترفع دونه الحجب المعترضة، وترسَلَ إليه السحب المروَّضة، فكلُّ ذلك تعود عوائده، وتبدو فوائده، بالدولة التي كشف وَجْهَهُ لنصرها، وجرَّد سيفه لرفع منارها، والقيام بأمرها، وقد أتى البيوت من أبوابها، وطلب النُّجعة من سحابها، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها، وأنهض لإيصال ملطفاته* وتنجُز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر، وهو الذي اختاره لصعود درجة المنبر، وقام بالأمر

(١) في (م): يشكوا، وهو تصحيف.

قيام من برّ، واستفتح بلباس السَّواد الأعظم، الذي جمع الله عليه السَّواد الأعظم، آملاً أنه يعود إليه بما يطوي الرجاءُ فَضْلَ عَقِبه، ويخلِّد الشَّرفَ في عَقِبه.

ولصاحبنا[1] مجد الدين محمد بن الظهير الإِرْبلي[2] من قصيدةٍ في مَدْح بعض ذُرِّيَّة السُّلْطان رحمه الله تعالى:

مليكٌ من القومِ الذينَ رِماحُهُمْ ... دعائمُ هذا الدِّين في كلِّ مَشْهَدِ
هُـمُ نَصَـرُوا التَّـوحيـدَ نَصْـراً مـؤزَّراً ... بـه عَـزَّ فـي الآفـاقِ كـلُّ مُـوَحِّـدِ ١٩٦/١
وهـم قَهَـرُوا غُلْـبَ الفرنـجِ ببأسِهِـمْ ... فَـدَانُـوا لهـم بـالـرُّغْـمِ لا عَـنْ تَـوَدُّدِ
وردُّوا إلـى البيـتِ المُقَـدَّسِ نُـورَه ... وقـد كـانَ فـي ليـلٍ مـن الشِّـرْكِ أَسْـوَدِ
وهـم سَهَّلُـوا سُبْـلَ الحجيـجِ وآمنـوا ... بهـا الـركـب خـوفَ الكـافـرِ المتَشَـدِّدِ
وقـد رَكِبَـتْ فُـرْسـانُـه بَحْـرَ أَيْلَـةٍ* ... يخوضونَ في بحرٍ من الكَيْدِ مُزْبِدِ
وهم رجَّعوا مِصْراً إلى دعوة الهُدَى ... بِعَـزْمٍ ورأيٍ فـي العظـائـم مُحْصِـدِ
وهـم شَيَّـدوا رُكْـنَ الخِـلافـةِ بـالَّـذي ... أعـادوه مـن حـقٍّ طـريـفٍ وَمُتْلَـدِ[3]

---

(١) قصيدة الإِربلي، ساقطة من (م).

(٢) هو محمد بن أحمد بن عمر، الحنفي الأديب، ولد بإربل سنة (٦٠٢ هـ)، سمع بدمشق من علم الدين السخاوي شيخ أبي شامة، فانعقدت بينهما صحبة، وحدّث عنه أبو شامة أيضاً، كان من كبار الحنفية، درس بالمدرسة القيمازية (كانت تقع شرقي قلعة دمشق، مجاورة دار الحديث الأشرفية الجوانية، درست الآن)، وكان من أعيان شيوخ الأدب، وفحول المتأخرين في الشعر، له «ديوان» لم يصلنا بعد، توفي سنة (٦٧٧ هـ) بدمشق. انظر ترجمته في «فوات الوفيات»: ٣/ ٣٠١ ـ ٣١٠، وفيه منتخبات من شعره، و «العبر» للذهبي: ٥/ ٣١٦، و «الوافي بالوفيات»: ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٧، و «الجواهر المضية»: ٣/ ٥٢ ـ ٥٤، ٤/ ٤٩٢ ـ ٤٩٥، و «البداية والنهاية»: ١٣/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣، و «الدارس في تاريخ المدارس»: ١/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥.

(٣) في الأصل: ملتد، والمثبت من (ل).

وهم شَرَّفوا قَدْرَ المنابرِ باسمها وذكرٍ مَنُوطٍ بالرَّسول مُمَجَّدِ[1]
وهم وَهَبُوا غُرَّ الممالكِ واكتفوا بسُمْرِ العوالي والعلاء المُشَيَّدِ
فَسَلْ عن ظُباهم يوم حِطِّين كم قَضَتْ بمرٍّ مرادِ الله في كلِّ أَصْيَدِ
وضَعِّفْ حديث العَدْلِ والبأس والنَّدى إذا كان عن أيامهم غيرَ مُسْنَدِ

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: قد قدَّمنا ذكر مكاتبة نور الدين رحمه الله، وإلحاحه على صلاح الدين في إقامة الخُطْبة بمصر للعبَّاسيين، وأنه أنفذ إليه أباه الأمير نجم الدين أيوب لأجل ذلك لما كتب الخليفة المستنجد إلى نور الدين في ذلك. ولما ولي ابنه المستضيء أقبل أيضاً على مكاتبة نور الدين فيه، وألحَّ نور الدين على[2] صلاح الدين[2] في طَلَبه، وأفضى به الأمر إلى أنه اتَّهم صلاح الدين، وشَنَّع عليه بسببه، وأكثر القول في ذلك.

ولما قدم الأمير نجم الدين حداه على فعل ذلك، فاعتذر إليه بأن أحواله لم تستقرَّ بعد، وأموره مضطربة، وأعداؤه كثيرون، وأن المصريين لهم جماعة كبيرة متفرقة في بلاد مصر من السُّودان وغيرهم، وأن هذا الأمر إن لم يؤخذ على التدريج وإلاَّ فسدت أحواله. فلما أوقع السُّلْطان الملك الناصر بالسُّودان والأَرْمن، ونكب أمراء[3] المصريين وقطع أخبارهم، ونزَّل أجناده في دُورهم، ثم قطع إقطاع العاضد، وقبض جميع ما كان بيده من البلاد، واستولى على القصور، ووكَّلَ بها وبمن فيها قَرَاقُوش الخادم، وخَلَت له بلاد مصر من معاندٍ ومنابذ. ثم شرع وأبطل من الأذان «حيّ على

---

(١) في الأصل: فوقها محمد (خ) أي في نسخة أخرى، وهي المثبتة في (ل).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في الأصل: أمر، والمثبت من (ل) و (م).

خير العمل»، وأنكر على من يتّسم بمذهبهم الانتساب إليهم. فلما رأى أموره مواتية، وأعداؤه قليلون، شرع حينئذٍ في الخُطْبة لبني العبّاس، ولمَا عَوَّل على ذلك أمر والده الأمير نجم الدين بالنزول إلى الجامع في جماعةٍ من أصحابه وأمراء دولته، وذلك في أول جمعة من السنة، وأمره أن يُحضِرَ الخطيبَ إليه ويأمره بما يختاره. وإنما فعل الملك النَّاصر ذلك، ووكل الأمر إلى غيره استظهاراً وخوفاً من فادحة ربما طرأت، أو عدوٍّ ربما ثار، فيكون هو معتذراً من ذلك.

ولمّا حَصَل نجم الدين بالجامع أحضر الخطيب وقال [له](1): إن ذَكَرْتَ هذا المقيم بالقصر ضَرَبْتُ عنقك. فقال: فلمن أخطب؟ قال: للمستضيء العبّاسي. فلما صَعِدَ المنبر وخطب، ووصل إلى ذكر العاضد لم يذكر أحداً لكنّه دعا للأئمة المهديّين وللسُّلْطان الملك الناصر، ونزل، فقيل له في ذلك فقال: ما علمت اسم المستضيء ولا نعوته، ولا تقرّر معي في ذلك شيء قبل الجمعة، وفي الجمعة الثانية أفعل إن شاء الله ما يجب فعله في تحرير الاسم والألقاب على جاري العادة في مثل ذلك.

قال: وقيل إن العاضد لما اتصل به ما فعل من قطع اسمه من الخطبة قال: لمن خُطب؟ قيل له: لم يُخطب لأحدٍ مسمّى. قال: في الجمعة الأخرى يخطبون لرجل مُسَمَّى. واتفق أنه مات قبل الجمعة الثانية، قيل: إنه أفكر واستولى عليه الفكر والهَمُّ حتى مات. وقيل: إنه لما سمع أنه قطعت خطبته اهتمَّ، وقام ليدخل إلى داره فعثر وسقط، فأقام متعلِّلاً خمسة أيام ومات. وقيل: إنه امتصَّ فَصَّ خاتمه، وكان تحته سُمٌّ، فمات.

---

(1) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

ولما اتصل موته بالملك الناصر قال: لو علمنا أنه يموت في هذه الجمعة ما غصصناه برفع اسمه من الخطبة. فحُكي أن القاضي الفاضل قال للسُّلْطان: لو علم أنكم ما ترفعون اسمه من الخطبة لم يمت. أشار إلى أن العاضد قتل نفسه. وكان موته يوم عاشوراء.

قال: وحكى ابن المَارَسْتانية[1] في «سيرة ابن هُبيرة الوزير»[2] قال: إنه من عجيب ما جرى في أمر المصريين أنه رأى إنسان من أهل بغداد[3] في سنة خمسٍ وخمسين وخمس مئة، كأن قمرين أحدهما أَنْوَرُ من الآخر، والأنور منهما مُسامت للقبلة، وله لحية سوداء فيها طُول، ويهبُّ أدنى نسيم فيحرِّكُها، وأثر حركتها وظلها في الأرض؛ وكان الرجل يتعجَّب من ذلك، ١٩٧/١ وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحانٍ وأصوات لم يسمع قط مثلها، وكأنه سأل بعض من حضر فقال: ما هذا؟ فقالوا: قد استبدل النَّاس بإمامهم. قال: وكان الرجل [قد][4] استَقْبل القبلة وهو يدعو الله أن يجعله إماماً برًّا تقيًّا، واستيقظ الرَّجل، وبلغ هذا المنام ابنَ هُبيرة الوزير إذ ذاك ببغداد، فعبَّر المنام بأنَّ الإمام الذي بمصر يُسْتَبْدلُ به، وتكون الدعوة لبني

(١) في الأصل و(ل) المارستاني، وفي (م): المرستان، وهو خطأ، وهو عبيد الله بن علي بن نصر، المعروف بابن المارستانية نسب إلى أمه، وكانت تخدم مع أبيه في المارستان، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٩ هـ).

(٢) سلفت ترجمة ابن هبيرة ص ٤٤٠ من الجزء الأول.

(٣) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: رأيت في السيرة المذكورة أن الذي رأى هذا المنام هو الفقيه الزاهد أبو محمد عفيف بن المبارك بن محمود الأحمدي سنة اثنتين وخمسين وخمس مئة، والله أعلم».

(٤) ما بين حاصرتين من (م).

العباس لمكان اللِّحية السوداء، وقوي هذا عنده حتى كاتَبَ نور الدين حين دخل أسد الدِّين إلى مصر في أوَّل مرة بأنه يظفر بمصر وتكون الخطبة[1] لبني العباس بها على يده.

وقيلت في ذلك الزمان أشعارٌ في هذا، منها قصيدة شمس المعالي أبي الفضائل الحسين بن محمد بن تركان[2]، وكان صاحب[3] ابن هبيرة، قالها حين سمع تأويله المنام[4]:

لِتَهنِك[5] يا مَوْلى الأنام بشارةٌ ... بها سَيْفُ دينِ الله بالحقِّ مُرْهَفُ
ضَرَبْتَ بها هَامَ الأعادي بهِمَّةٍ ... تَقَاصَرَ عنها السَّمْهَرِيُّ المُثَقَّفُ
بَعَثْتَ إلى شَرْقِ البلادِ وغَرْبِها ... بعوثاً من الآراء تحيي وتُتْلِفُ
فقامَتْ مَقامَ السَّيْفِ والسَّيْفُ قاطِرٌ ... ونابَتْ منابَ الرُّمْحِ والرُّمْحُ يَرْعُفُ
وَقُدْتَ لها[6] جيشاً من الرَّوْعِ هائلاً ... إلى كلِّ قَلْبٍ من عِداتِك يَزْحَفُ

---

(١) في (ل): الدعوة.
(٢) كذا في الأصل و(ل)، وفي (م) شمس المعالي أبي الفضائل بن تركمان ــ وتركمان تصحيف ــ وفي «خريدة القصر» قسم شعراء العراق ج ٤/مج ٢/ ٥٠٦ ــ ٥٠٨، و «المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ٢٧٤ محمد بن الحسين، من أكابر أهل واسط. وكان الوزير ابن هبيرة يصدر عن رأيه ويأخذ بقوله، ويعتمد عليه في جميع أنحائه، ولما توفي الوزير سنة (٥٦٠ هـ) أخذ وحبس، وضرب ضرباً شديداً أشرف به على الموت، توفي شاباً بعد وفاة الوزير بعام (٥٦١ هـ).
(٣) في (ل): حاجب.
(٤) في الأصل: «حاشية، قال المؤلف: أول هذه القصيدة:

لعل حُداة الركب أن يتوقَّفوا ... ليشفي غليلاً بالمدامع مُدْنَفُ

وبعد قوله: فشابهته:

كشفت بها عن آل هاشم سبةً ... وعاراً أبى إلا بسيفك يُكْشَفُ

(٥) في الأصل: ليهنك، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) في (م): بها.

مَلَكْتَ بـه أَقْصَى المغـارِبِ عَنْـوَةً	وكادَتْ بمن فيها المشارِقُ تَرْجُفُ[1]
لِيَهْنِكَ يا مـولاي فَتْحٌ[2] تَتَـابعتْ	إليك بـه خوصُ الركـائب تُـوجَفُ
أَخَـذْتَ بـه مِصْـراً وقـد حـال دونها	من الشِّرْكِ بأسٌ[3] في لَهَى الحق يُقْذَفُ
وقـد دَنَّسَـتْ منهـا المنـابِـرَ عُصْبَـةٌ	يَعاف التُّقى والدينُ منهم ويَأْنَفُ[4]
فَطَهَّـرهـا مـن كـلِّ شِرْكٍ وبِـدْعـةٍ	أغَـرُّ غـريـرٌ بـالمكـارمِ يَشْغَـفُ
فعـادَتْ بحمـد الله بـاسـم إمـامنـا	تتيـهُ علـى كـلِّ البـلادِ وتَشْـرُفُ
ولا غَرْوَ أن دانَتْ[5] ليوسُفَ مِصْرُه	وكـانـت إلـى عَلْيَـائـه تتشـوَّفُ
تملَّكهـا مـن قَبْضَـةِ الكُفْـر يـوسُـفٌ	وخلَّصها من عُصْبَةِ الرِّفض يوسُفُ

قال يحيى بنُ أبي طيّ: يريد بيوسف الأول يوسف الصِّدِّيق النبي ﷺ، وبيوسف الثاني المستنجد بالله الخليفة يومئذٍ[6]، وقاله على سبيل الفأل؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت:

فشـابهتـه خَلْقـاً وخُلْقـاً وعِفَّـةً	وكلٌّ عن الرَّحمٰن في الأرْضِ يَخْلُفُ

وجرى الفأل في البيت باسم الملك النَّاصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبني العباس، وهذا من عجيب الاتفاق.

(١) هذا البيت ساقط من (م).
(٢) في الأصل: فتحاً، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل و (ل): ناس، والمثبت من (م).
(٤) في الأصل: تعاف. . تأنف، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) دانت، ساقطة من (م).
(٦) مَرَّ أن اسم المستنجد بالله هو يوسف، انظر ص ١٧٧ من هذا الجزء.

قلت[1]: وذكر ابن المَارَسْتانية[2] في السيرة المذكورة، قال: وكان هذا المنام سبباً إلى أن كاتب الوزيرُ ابنُ هبيرة نورَ الدين بن زَنْكي يحثُّه على التعرُّض لمصر والبعث إليها، واتفق في أثناء ذلك نوبة شاور وزير صاحب القصر[3] وقدومه هارباً منه[4] إلى نور الدين، فحرَّك ذلك ما كان تخمَّر في نفسه مما كان كاتبه به ابنُ هُبيرة، فاستطلعَ من شاور الأسباب التي يمكن بها الدخول على المصريين، فشرحها وأوضحها، فسيَّر إليها أسد الدين، كما سبق ذِكْره[1].

قال: ولما قطعت خطبة العاضد استطال أهل السُّنَّة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلُّوهم، وصاروا لا يقدرون على الظهور من دُورهم، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه، وعَظُمَتِ الأذية بذلك. وجلا أكثر أهل مِصْر عنها إلى البلاد، وفرح النَّاس بذلك، وكتبت الكتب به إلى الأقطار، وتحدَّث به السُّمَّار.

ولما وصل خبرُ ذلك إلى نور الدين ندبَ للبشارة به إلى بغداد شهاب الدين أبا المعالي المُطَهَّر بن أبي عَصْرون، وكتب معه نسخة بشارة تُقرأ بكلِّ مدينةٍ يمرُّ بها، يقول فيها: أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الإِسلامية عامة بما فتح الله على أيدينا رِتاجَه، وأوضح لنا مِنْهاجَهُ، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدعوة الهادية العباسية، بجميع المدن[5] والبلاد والأقطار والأمصار المِصْرية والإِسكندرية، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) في النسخ الخطية: ابن المارستاني، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٠٠ من هذا الجزء.

(٣) فوقها في الأصل: مصر (خ)، أي في نسخة أخرى، وهي المثبتة في (ل).

(٤) منه، ساقطة من (ل).

(٥) المدن، ساقطة من (ل).

والبادية والحاضرة، وانتهت إلى القريب والبعيد، وإلى قُوص* وأُسْوان بأقصى الصَّعيد، وهذا شَرَفٌ لزماننا هذا وأهله، يفتخر[١] به على الأزمنة التي مضت من قبله. وما بَرِحت هممنا[٢] إلى مصر مصروفة، وعلى افتتاحها موقوفة، وعَزَائمنا في إقامة الدَّعوة الهادية بها ماضِيَة، والأقدار في الأزل بقضاء آرابنا ونجاز مواعدنا قاضِيَة، حتى ظفرنا بها بعد يأس الملوك منها، وقَدَرْنا عليها وقد عَجَزوا عنها. وطالما مَرَّت عليها الحِقَب الخوالي، ١٩٨/١

وآبت[٣] دونها الأيام والليالي، وبقيت مئتين وثمانين سنة ممنوَّة بدعوة المبطلين، مملوَّة بحزب الشياطين، سابغة ظلالها للضَّلال، مقفرة المَحَلِّ إلا من المُحال، مفتقرة إلى نُصرة من الله تملكها، ونظرة ستدركها، رافعةً يدها في إشكائها، متظلِّمة إليه ليكفُلَ بإعدائها على أعدائها، حتى أَذِنَ الله لغُمَّتها بالانفراج، ولعِلَّتها بالعلاج؛ وسَبَّب قصدَ الفرنج لها وتوجُّههم إليها، طمعاً في الاستيلاء عليها، واجتمع داءان: الكفر والبِدْعة، وكلاهما شديد الرَّوْعة، فملَّكنا الله تلك البلاد، ومكَّن لنا في الأرض، وأقدرنا على ما كنا نُؤمِّله في إزالة الإلحاد والرِّفض، من إقامة الفَرْض[٤]، وتقدَّمنا إلى من استنَبْنَاه أن يستفتحَ باب السَّعادة، ويستنجح مالنا من الإرادة، ويقيم الدَّعوة الهادية العَبَّاسية هنالك، ويورد [٥] الأدعياء ودعاة الإلحاد بها المهالك.

وهو كتابٌ طويل اخترت منه الغرض، وهو هذا.

---

(١) في (ل): نفتخر.
(٢) في (ل): همتنا.
(٣) في (م): وأنت، وهو تصحيف.
(٤) في (م): الرفض، وهو تحريف.
(٥) في (م): ويوردوا.

قال: وسار شهاب الدين بن أبي عصرون إلى جهة بغداد، ولم يترك مدينةً إلا دخلها بهذه البشارة الجليلة القدر، وقرأ فيها هذا المنشور العظيم الخطر والذِّكْر، حتى وصل إلى بغداد، فخرج الموكبُ إلى تلَقيه[١] وجميعُ أهل بغداد، مكرمين لخطير وروده، معظِّمين لجليل موروده، ونُثرت عليه دنانير الإنعام، وحُبي بكلِّ إحسانٍ وإكرام، وأُرسلت التشريفات إلى نور الدين وصلاح الدين[٢]، كما سيأتي ذكره[٣].

وقال العماد: كان صلاح الدين لا يخرجُ عن أمر[٤] نور الدين، ويعمل له عمل القوي الأمين، ويرجع في جميع مصالحه إلى رأيه المتين. وقد كان كاتَبَه نور الدين في شوال سنة ستٍّ وستين بتغيير الخطبة، وتذليل أمورها الصَّعْبَة[٥]، وافتراع بِكْر هذه القضية وفرع الرتبة. وأيقن أن أمره متبوع، وقولَه مسموعٌ، وحكمه مشروع، ونطقت بذلك قبل التَّمام، ألسُنُ الخواص والعوام، فسيَّر نورُ الدين شهابَ الدين أبا المعالي المطهَّر بن الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون بهذه البشارة، وإشاعة ما تقدَّم له بها من الإشاعة، وأمرني بإنشاء بشارة عامة تقرأ في سائر بلاد الإسلام، وبشارة خاصَّة للديوان العزيز بحضرة الإمام، في مدينة السَّلام ــ ثم ذكر نسخة الكتابين[٦].

ثم قال: ونظمتُ قصيدةً مشتملة على الخُطْبة بمصر، أولها:

---

(١) في (ل): لتلقيه.
(٢) وصلاح الدين، ساقطة من (م).
(٣) انظر ص ٢٠٧ ــ ٢٠٩ من هذا الجزء.
(٤) في (م): على أمور.
(٥) في الأصل: هذه الصعبة، بزيادة هذه، والمثبت من (ل) و(م).
(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٤ ــ ١١٥.

قـد خطبنا للمستضيء بمصرِ نـائـب المصطفـى إمـامِ العَصْرِ
وخَـذَلنـا لنُصْـرةِ العَضُـدِ العـا ضِـدَ والقـاصـرَ الـذي بـالقَصْـرِ

أراد بالعَضُد وزير بغداد عَضُد الدين بن رئيس الرؤساء[1].

قال العماد في كتاب «الخريدة»: قصدت بالعَضُد والعاضد المجانسة. ونصرة وزير الخليفة كنصرته. ثم قال:

وأشْعَنَـا بهـا شعـارَ بنـي العَبَّـ (م) ـاس فـاسْتَبْشَـرَتْ وُجُـوه النَّصْـرِ
وتَـرَكْنـا الـدَّعـيَّ يـدعـو ثُبُـوراً وهـو بـالـذُّلِّ تَحْـتَ حَجْـر وحَصْـرِ
وتبـاهَـتْ منـابِـرُ الـدِّيـنِ بـالخُطْـ ـبـة للهـاشمـيِّ فـي أَرْضِ مِصْـرِ
ولَـدَيْنَـا تَضَـاعَفَـتْ نِعَـمُ اللَّـ ـهِ وَجَلَّـتْ عـن كـلِّ عَـدٍّ وَحَصْـرِ
فاغتدى الدينُ ثابتَ الرُّكْنِ في مِصْـ ـرَ مَحُـوطَ الحِمـى مصـونَ الثَّغْـرِ
واستنـارَتْ عَـزَائِـمُ المَلْـك العـا دل نـورِ الـدِّيـن الكـريـم الأَغَـرِّ
وبنـو الأَصْفَـرِ القـوامـصُ* منـه بـوجـوهٍ مـن المخـافـة صُفْـرِ
عَـرَفَ الحـقَّ أهـلُ مِصْـر وكـانـوا قبلَـهُ بيـنَ مُنْكِـرٍ ومُقِـرِّ
قل لداعي الدَّعيِّ حَسْبُك[2] فاللَّـ ـه أقـرّ الحقـوقَ خيـرَ مقـرِّ
هـو فَتْـحٌ بِكْـر [و][3] دون البـرايـا خَصَّنـا اللَّـهُ بـافتـراعِ البِكْـرِ
وحَصَلْنَـا بـالحمـد والأَجْـرِ والنَّصْـ ـرِ وطيـبِ الثنـا وحُسْـنِ الـذِّكْـرِ
ونَشَـرْنَـا أعـلامَنَـا السُّـودَ قهـراً للعِـدى الـزُّرْقِ بـالمنـايـا الحُمْـرِ
واسْتَعَـدْنـا مـن أدعيـاءَ حقـوقـاً تُـدَّعـىٰ بينهـم لـزيـدٍ وعَمْـرو
والـذي يـدَّعـي الإمـامـة بـالقـا هـرةِ انحـطَّ فـي حضيـضِ القَهْـرِ

---

(١) سيرد خبر مقتله ص ٤٨١ من هذا الجزء.

(٢) في (م): حسبك الله فالله، وهو وهم، وينكسر به وزن البيت.

(٣) ما بين حاصرتين من (م).

خانه الدَّهْرُ في مُناه، ولا يطـ ـمَعُ ذو اللُّبِّ في وفاءِ الدَّهْرِ
ما يُقَام الإمامُ إلا بحقٍّ ما تُحاز الحسناءُ إلا بمهرِ
خلفاءُ الهدى سَرَاة بني العبَّـ (م) ـاسِ والطَّيِّبون أهل الطُّهْرِ
بِهِمُ الدين ظافرٌ مستقيمٌ ظاهرٌ قُوَّةً قويُّ الظَّهْرِ 1/199
كشموس الضُّحى كمثل بدورِ التَّـ (م) ـمِّ كالسُّحْب كالنُّجوم الزُّهْرِ
قد بلغنا بالصَّبْرِ كلَّ مُرَادٍ وبلوغُ المُرَاد عُقْبى الصَّبْرِ
ليس مُثْري الرجال من مَلَكَ الما لَ ولكنما أخو اللُّبِّ مُثْرِي
ولهذا لم ينتفع صاحب القصْـ ـر وقد شارف الدُّثور بِدَثْرِ[1]
دامَ نَصْرُ الهُدى بمُلك بني العبَّـ (م) ـاس حتى يقومَ يَوْمُ الحَشْرِ[2]

قال العماد في «ديوانه»، ونَقَلْتُهُ من خَطِّه، قال: ووصل الخبر بالخطبة في الإسكندرية يوم الجمعة سابع شهر رمضان، وفي مصر والقاهرة يوم الجمعة ثامن عشري شهر رمضان لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين، وإشاعة شعار بني العباس بها. فقلتُ، ونحن نزولٌ بجسر الخشب* من دمشق في عاشر شَوَّال، وكتبتُ بها إلى بغداد ــ فذكر هذه القصيدة.

وقال في «البرق»: ووصل من دار الخلافة في جواب هذه البشارة عماد الدين صَنْدَل[3] وهو من أكابر الخدم المقتفوية، من ذوي الروية والهِمَّة القوية. وتولى أستاذية الدار* العزيزة بعد عزل كمال الدين بن عضد الدين عنها، فأُكرم نور الدين بإرسال مثله إليه، وعُوِّل في هذا الأمر المهمِّ عليه.

(١) الدثور: الدروس، والدثر: المال الكثير. «القاموس المحيط» (دثر).
(٢) انظر مختارات من هذه القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٤ ــ ١٧.
(٣) في الأصل: سندل، والمثبت من (ل) و (م). وقد ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٣ هـ).

وهو أكرمُ رسولٍ وصل، فأنجح الأمل، وجاء بالتشريف الشَّريف لنور الدين مكملاً، معظَّماً مجملاً، بأُهبته* السوداء العراقية، وحُلَله الموشِيَّة، وطوقه الثقيل، ولوائه الجليل.

وعُيِّن يوم يحضر فيه الرسول، ونصُّوا على من يحضر في مجلس نور الدين وأغفلوا ذِكْر العماد، فطلبه نور الدين لما حضروا، وقام لقيام الرسل له لما حضر، وقَصَدَ أن يعرِّفهم منزلته عنده، وناوله الكتاب ليقرأه. قال: فتناوله مني الموفق بن القَيْسَراني خالد*، وكان عنده في مقام الوزير، وله انبساط زائد، فداريته ومَاريته، وتركته يقرأ وأنا أردُّ عليه، وأرشده في التلاوة إلى ما لا يهتدي إليه، حتى أنهاه، وأنا على افتئاته عليَّ لا أنهاه. فأعجبَ نور الدين صمتي وسمتي، وأحمد مني فضل التأتي[1]، واجتاب الأُهبة*، ولبس الفَرَجية* فوقها، وتقلَّد مع تقلُّد السيفين طوقها. وخرج وركب من داخل القلعة، وهو حالٍ بما عليه من الخِلْعة؛ واللواء منشور، والنُّضار منثور، والمركبان الشريفان أحدهما مركوبة، والآخر بحليته مجنوبة.

قال: وسألت عن معنى تقليده السيفين، واشتماله بالنّجادين، فقيل: هما للشَّام ومصر، والجمع له بين البلادين.

وخرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى منتهى الميدان الأخضر*، ثم عاد شريف المفخر، جميل المنظر، جليل المحضر، حميد المخبر، سعيد المورد والمَصْدَر، لبيقاً بالأعظمين: السَّرير والمنبر. وكان وزن الطَّوْق مع أُكْرَته ألف دينار من الذَّهب الأحمر. وحملوا لصلاح الدين تشريفاً فاضلاً فائقاً، رائعاً رائقاً، لجماله وكماله لائقاً، لكنَّ تشريفَ نور الدين أميز وأفضل، وأجمل وأكمل. فسيَّر تشريفه بِرُمَّته إليه بمصر ليجتابه، وسَيَّر أيضاً

---

(١) في طبعة وادي النيل ١/١٩٩: فضل التأني والتأتي.

بخِلَع من عنده يكرم بها أصحابه. ووصلت تلك الخلعة إليه ولبسها، وآنس من السَّعادة الدائمة قَبَسها، وطاف بها في الحادي والعشرين من رجب، وهي أول أُهبة عَبَّاسِيَّة دخلت الديار المصرية؛ يعني بعد استيلاء بني عبيد عليها.

قال: وكانت وصلت مع الرسل أعلامٌ وبنود، ورايات سود، وأُهَبٌ عباسية، للخطباء في الدّيار المصرية، فسُيِّرت إلى صلاح الدين، ففرَّقها على المساجد والجوامع والخطباء والقُضاة والعلماء؛ والحمد لله على ما أنعم وأولى، ووهب وأعطى[1].

قال ابن أبي طيّ: ولما فرغ السلطان من أمر الخطبة أمر بالقبض على القُصور وجميع ما فيها من مال وذخائر وفرش وسلاح وغير ذلك، فلم يوجد من المال كبير أمر[2]؛ لأن شاور[3] كان قد ضيَّعه في إعطائه الفرنج في المرات التي قدَّمنا ذكرها، ووجد فيها ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر. ومن عجيب ما وجد فيه: قضيب زمرّد طوله شبر وكَسْر، قطعة واحدة، وكان سمت حجمه مقدار الإبهام، ووجد فيه طَبْلٌ للقولنج، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع، ووجد فيه سبع مئة يتيمة من الجوهر. فأما قضيب الزُّمرد فإن[4] السّلطان أخذه وأحضر صائغاً ليقطعه[4]، فأبى الصَّائغ[5] قطعه، فرماه السّلطان فانقطع ثلاث قطع، وفرَّقه السُّلطان على نسائه. وأما طبل القولنج [فإنه][6] وقع[7] إلى بعض الأكراد

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٥ ــ ١١٧.
(٢) في (ل): كثيراً.
(٣) شاور، ساقطة من (ل).
(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).
(٥) في الأصل و (م): الصانع، والمثبت من (ل).
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).
(٧) في الأصل: دفع، والمثبت من (ل) و (م).

فلم يَدْرِ ما هو، فكسره، لأنه ضَرَبَ به فحَبَق[1]، وأما الإبريق فأنفذه السلطان إلى بغداد.

واحتاط السُّلْطان على أهل العاضد وأولاده في موضعٍ خارج[2] القصر جعله برسمهم على الانفراد، وقَرَّر لهم ما يكفيهم، وجعل أمرهم إلى قَرَاقُوش الخادم، وفرَّق بين النساء والرِّجال ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم. واستعرض مَنْ بالقصر من الجواري والعبيد، والعُدَّة والعديد، والطَّريف والتّليد، فأطلق مَنْ كان منهم حُرًّا، وأعتق[3] من رأى إعتاقه، ووهب من أراد هبته. وفَرَّق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر
١/٢٠٠ وذخائره شيئاً كثيراً، وحصل هو على اليتيمات، وقطع البَلَخْش[4] والياقوت وقضيب الزُّمرُّد، وأطلق البيع بعد ذلك في كل جديد وعتيق، فأقام البيع في القصر مدَّة عشر سنين.

قال: ومن جملة ما باعوا: خزانة الكتب، وكانت من عجائب الدُّنيا ويقال: إنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر. ومن عجائبها: أنه كان بها ألف ومئتان وعشرون نسخة بتاريخ الطَّبري، ويقال: إنها كانت تحتوي على ألْفَي ألف وست مئة ألف كتاب، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة. وحَصَّل القاضي الفاضل نُخبَها؛ وذلك أنه دخل إليها واعتبرها، فكلُّ كتابٍ صَلُحَ له قطع جِلْده ورماه في بركةٍ كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك،

---

(١) أي ضرط، «القاموس المحيط» (حبق).

(٢) في (ل) و (م): في خارج.

(٣) في (م): فأطلق، وهو تحريف.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

ومنها حَصَّل ما[1] حصّل من الكتب، كذا أخبرني جماعةٌ من المصريين، منهم الأمير شمس الخلافة موسى[2] بن محمد.

واقتسم النَّاس بعد ذلك دور القَصْر، وأعطى السُّلْطان القصر الشمالي للأمراء فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين في اللؤلؤة؛ وهو قَصْرٌ عظيم على الخليج الذي فيه البستان الكافوري؛ ونقل الملك العادل[3] إلى مكانٍ آخر منه، وأخذ باقي الأمراء دور من كان ينتمي إليهم، وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحِبَها وسكنها. وانقضت تلك الدولة برمَّتها، وذهبت تلك الأيام بجملتها، بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد، واستخدموا العباد، مئتين وثمانين سنة وكسوراً.

قال: وحكي أن الشَّريف الجليس ــ وهو رجل كان قريباً من العاضد يجلس معه ويحدِّثه ــ عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب أخي السُّلْطان بعد القبض على القُصور، وأَخْذِ ما فيها وانقراض دولتهم[4]، وغَرِمَ هذا الشريف على هذه الدعوة مالاً كثيراً، وأحضرها أيضاً جماعة من أكابر الأمراء. فلما جلسوا على الطعام قال شمس الدَّولة لهذا الشريف: حدِّثني بأعجب ما شاهدته من أمر القوم. قال: نعم، طلبني العاضد يوماً ولجماعة من النُّدماء، فلما دخلنا عليه وجدنا عنده مملوكين من التُّرْك عليهم أقبية* مثل أقبيتكم، وقلانس* كقلانسكم، وفي أوساطهم مناطق* كمناطقكم، فقلنا له: يا أمير

(١) في (م): له.
(٢) في (ل): وموسى، وهو وهم.
(٣) هو سيف الدين أبو بكر بن أيوب، أخو السلطان صلاح الدين، انظر ص ٢١٢ من هذا الجزء.
(٤) هذا الخبر يعد من جملة أوهام ابن أبي طي، فقد سلف ص ٦ من هذا الجزء أن الجليس توفي سنة (٥٦١ هـ)، أي قبل انقراض دولة الفاطميين بنحو ست سنوات. .

المؤمنين، ما هذا الزِّيّ الذي ما رأيناه قط؟ فقال: هذه هيئة الذين يملكون ديارنا، ويأخذون أموالنا وذخائرنا.

قال العماد: وأُخِذَت ذخائر القصر. ففصَّلها كما سبق[١]. ثم قال: ومن جملتها الكتب، فإني أخذت منها جملة في سنة اثنتين وسبعين[٢]، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مئة وعشرين ألف مجلَّدة، مؤبَّدَة من العهد القديم مخلَّدة، وفيها بالخطوط[٣] المنسوبة ما اختطفته الأيدي، واقتطعه[٤] التعدِّي؛ وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام، يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام[٥]، ونقلت منها ثمانية أحمال إلى الشَّام. وتقاسم الخواص بِدُورِ القصر وقُصورِه، وشرع كل من سكن في تخريب معموره؛ وانتقل إليه الملك العادل سيف الدين لما ناب عن أخيه، واستمرَّت سكناه فيه. وخطب لإمامنا المستضيء في قُوص* وأُسْوان والصَّعيد، والقاصي والدَّاني والقريب والبعيد. وشاعت البشائر، وذاعت المفاخر، وسار بها البادي والحاضر. وتملك السلطان أملاك أشياعهم، وضرب الألواح على دورهم ورباعهم، ثم ملَّكها أمراءه، وخَصَّ بها أولياءه؛ وباع منها أماكن، ووهب منها[٦] مساكن، وعفَّى الآثار القديمة، واستأنف السُّنن الكريمة[٧].

وقال ابن الأثير: لما استولى صلاح الدين على القَصْر وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب أهله وأمراءه، وباع منه كثيراً. وكان فيه من

(١) انظر ص ١٩٣ ــ ١٩٤ من هذا الجزء.
(٢) انظر ص ٤٤٤ ــ ٤٤٦ من هذا الجزء.
(٣) في (ل): من الخطوط.
(٤) في (م): واقتطفه.
(٥) في (م): الانتهاب، وهو وهم.
(٦) منها، ليست في (ل) و (م).
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٣.

الجواهر والأعلاق النَّفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، قد جُمع على طول السنين وممرّ الدُّهور، فمنه القضيب الزمرُّد طوله نحو قبضة ونصف، والجبل الياقوت، وغيرهما؛ [و][1] من الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مئة ألف مجلد[2].

فَصْــــل

ولما خُطب بالديار المِصْرية لبني العبَّاس، ومات العاضد انقرضت تلك الدولة، وزالت عن الإسلام بمصر بانقراضها الذلة. واستولى على مصر صلاح الدين وأهله ونوابه، وكلُّهم من قِبَل نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ هم أمراؤه وخدمه وأصحابه. وفيهم يقول العَرْقَلَة[3]:

أصبح المُلْكُ بعدَ آلِ عليٍّ ... مشرقاً بالملوك من آلِ شاذي
وغدا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الغَرْبَ للقو ... مِ ومِصْرُ تزهو على بَغْداذِ
ما حَوَوْها إلاّ بحزمٍ وعَزْمٍ ... وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفِرْعون والعزيز ومن كا ... ن بها كالخَصِيبِ[4] والأُستاذ[5]

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) «الباهر»: ١٥٧.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٣ من الجزء الأول.

(٤) في (م): الخطيب، وهو تصحيف، والخصيب هو ابن عبد الحميد، كان على خراج مصر لواليها الحسين بن جميل الذي وليها للرشيد سنة (١٩٠ هـ)، وإليه تنسب منية الخصيب، وهو ممدوح أبي نواس، قال فيه حين زار مصر:

فإن يك فيكم إفك فرعون باقياً ... فإن عصا موسى بكف خصيبِ

انظر «ديوان أبي نواس»: ٤٨٤ ــ ٤٨٥ ففيه رائية في مدحه أيضاً، و «خطط المقريزي»: ١/ ٣٣١ ــ ٣٣٢.

(٥) الأبيات في «ديوانه»: ٣٧ ــ ٣٨، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٠٣ ــ ٢٠٤.

يعني بالأستاذ كافور الإخشيدي. وقوله: بعد آل علي، يعني بذلك بني
١/٢٠١ عبيد المستخلفين بها، أظهروا للنَّاس أنهم شرفاء فاطميون، فملكوا البلاد، وقهروا العباد. وقد ذكر جماعة من أكابر العلماء أنهم لم يكونوا لذلك أهلاً، ولا نسبهم صحيحاً[(١)]، بل المعروف أنهم بنو عبيد.

وكان والد عُبيد هذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسي، وقيل: كان والد عبيد هذا يهوديّاً من أهل سَلَمْية[(٢)] من بلاد الشَّام، وكان حداداً، وعبيد هذا كان اسمه سعيداً، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله[(٣)]، وزعم أنه علويٌّ فاطميٌّ، وادَّعى نسباً ليس بصحيح، لم يذكره أحد من مصنِّفي الأنساب العَلَويَّة، بل ذكر جماعة من العلماء بالنَّسب خلافه، وهو ما قدَّمنا ذكره. ثم ترقَّت به الحال إلى أن ملك[(٤)] وتسمى بالمهدي، وبنى المهدِيَّة

---

(١) اختلف علماء النسب والمؤرخون في صحة نسبهم، فالذين طعنوا بنسبهم اعتمدوا على المحضر الذي رفع للقادر بالله العباسي سنة (٤٠٢ هـ) زمن الحاكم بأمر الله، وقد تضمن القدح فيهم، وممن أيد صحة نسبهم ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي، وعلل السخاوي سبب تأييد ابن خلدون لنسبهم برأي غريب، وذكر أن المقريزي يدعي الانتساب إليهم. انظر «الكامل»: ٨/ ٢٤ وما بعدها، و «مقدمة ابن خلدون»: ١/ ٢٣٩ ــ ٢٤٤، و «اتعاظ الحنفا»: ١/ ٢٢ ــ ٥٤، و «المنتظم»: ٧/ ٢٥٥ ــ ٢٥٦، و«كنز الدرر» ٦/ ٥ وما بعدها و «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٣٢، ١٤٢، ١٧٧ ــ ١٧٨، و «الإعلان بالتوبيخ»: ٩٤ نشرة القدسي، و«الضوء اللامع»: ٢/ ٢٣.

ولبرنارد لويس دراسة في نسبهم في كتابه «أصول الإسماعيلية» طبع بالقاهرة سنة ١٩٤٨، ثم أعيد طبعه في بيروت عن دار الحداثة سنة ١٩٨٠ م، و «في نسب الخلفاء الفاطميين» وهو كتاب المهدي إلى اليمن، نشره الدكتور حسين الهمداني، طبع بالقاهرة في مطبعة الجامعة الأمريكية سنة ١٩٥٨ م.

(٢) يلفظها أهل الشام: سَلَمِيَّة، وهي من أعمال حمص، والغالب على أهلها حتى الآن المذهب الإسماعيلي. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٢٤٠ ــ ٢٤١.

(٣) في (ل): بعبد الله، وهو تصحيف.

(٤) في (ل): تملك.

بالمغرب ونسبت إليه. وكان زنديقاً خبيثاً عدوًّا للإسلام، متظاهراً بالتشيع متَستِّراً به، حريصاً على إزالة الملَّة الإسلامية؛ قتل من الفقهاء والمحدِّثين والصَّالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود، ليبقى العالم كالبهائم، فيتمَكَّن من إفساد عقائدهم وضلالتهم ﴿والله مُتِمُّ نُورِه ولو كَرِهَ الكَافِرُون﴾[1]، ونشأت ذرِّيته على ذلك منطوين، يجهرون به إذا أمكنتهم الفُرصة وإلا أَسَرُّوه، والدُّعاة لهم منبثُّون في البلاد، يضلُّون من أمكنهم إضلاله من العباد، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وذلك من ذي الحِجَّة سنة تسع وتسعين ومئتين إلى سنة سبع وستين وخمس مئة.

وفي أيامهم كثرت الرَّافضة واستحكم أمرهم، ووضعتِ المكوسُ على النَّاس، واقتدى بهم غيرهم، وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشَّام... والحشيشية نوعٌ منهم. وتمكَّن دعاتهم منهم لضعف عقولهم وجهلهم ما لم يتمكنوا من غيرهم. وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشَّام والجزيرة، إلى أن مَنَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي، وتقدَّمه مثل صلاح الدين، فاستردُّوا البلاد، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد.

وكانوا أربعة عشر مستخلفاً[2]، ثلاثة منهم بإفريقية، وهم الملقَّبون بالمهدي والقائم والمنصور، وأحد عشر بمصر وهم الملقبون بالمعزّ، والعزيز، والحاكم، والظَّاهر، والمستنصر، والمستعلي، والآمر، والحافظ، والظافر، والفائز، والعاضد.

---

(١) سورة الصف، الآية: ٨.

(٢) انظر أخبارهم ومظان تراجمهم في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٤١ ــ ٢١٥.

يدَّعون الشرف ونسبتهم إلى مجوسي أو يهودي، حتى اشتهر لهم ذلك بين العوام، فصاروا يقولون الدولة الفاطميَّة والدولة العلوية، وإنَّما هي الدَّولة اليهودية أو المجوسية الباطنيَّة الملحدة. ومن قِحَتهم أنهم كانوا يأمرون الخطباء بذلك على المنابر، ويكتبونه على جُدْران المساجد وغيرها.

وخطب عبدهم جوهر ــ الذي أَخَذَ لهم الدِّيار المصرية، وبنى لهم القاهرة المعزِّية ــ بنفسه خطبة طويلة قال فيها: اللهم صَلِّ على عبدك ووليِّك، ثمرة النبوَّة وسليل العِتْرَة الهادية المهدِيَّة، مَعَدّ أبي تميم الإمام المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صلَّيت على آبائه الطاهرين، وسلفه المنتخبين الأئمة الراشدين.

كذب عدوُّ الله اللعين، فلا خير فيه ولا في سلفه أجمعين، ولا في ذرِّيته الباقين، والعِترة النبوية الطاهرة منهم بمعزل، رحمة الله عليهم وعلى أمثالهم من الصَّدْر الأول.

وقد بيَّن نسبهم هذا، وأوضح مُحالهم وما كانوا عليه من التَّمويه وعداوة الإسلام جماعة ممن[1] سلف من الأئمة والعُلماء، وكل متورِّع منهم لا يُسميهم إلاّ بني عبيد الأدعياء، أي يدَّعون من النسب ما ليس لهم. ورحمة الله على القاضي أبي بكر محمد بن الطيب[2]، فإنه كشف في أول[3]

(١) في الأصل: من، والمثبت من (ل) و(م).

(٢) المعروف بابن الباقلاني، عالم مشهور، من كبار علماء الكلام، وإليه انتهت رياسة المالكية في وقته، كان له بجامع البصرة حلقة عظيمة، من أشهر كتبه المطبوعة «إعجاز القرآن» حققه السيد أحمد صقر، وقدمه بمقدمة قيمة، نشرت بعد بكتاب مستقل باسم «الباقلاني وإعجاز القرآن». أما كتابه «كشف أسرار الباطنية» فلم يصلنا بعد. انظر ترجمته في «تاريخ بغداد»: ٥/ ٣٧٩ ــ ٣٨٣، و «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ١٩٠ ــ ١٩٣.

(٣) أول، ساقطة من (م).

كتابه، المسمى بـ «كشف أسرار الباطنية»، عن بطلان نسب هؤلاء إلى عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ القدَّاح الذي انتسبوا إليه دَعيٌّ من الأدعياء، ممخرق كذاب، وهو أصل[1] دعاة القرامطة، لعنهم الله.

وأما القاضي عبد الجبار البَصْري[2]، فإنه استقصى الكلام في أصولهم[3]، وبيَّنَها بياناً شافياً في أواخر كتاب «تثبيت النبوَّةِ» له[4]. وقد نقلت كلامهما في ذلك، وكلام غيرهما في «مختصر تاريخ دمشق»[5] في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس[6]، وهو من تلك الطائفة الذين هم بئس

(١) في الأصل: أضل، والمثبت من (ل) و (م)، والمعروف أن القرامطة هم حركة انفصالية عن الدعوة الإسماعيلية، من أسبابها معارضتهم ابتعاد المهدي ــ باتجاهه غرباً ــ عن أراضي الدولة العباسية التي يطمعون بتدميرها، انظر «ملتقى القاضي النعمان للدراسات الفاطمية» الدورة الثانية، تونس ١٩٧٧ ص ٥٦ ــ ٥٧.

(٢) هو عبد الجبار بن أحمد، أبو الحسن الهمذاني، كان من كبار فقهاء الشافعية، وشيخ المعتزلة في عصره، له كثير من المصنفات المطبوعة، توفي سنة (٤١٥ هـ). وقد نسبه أبو شامة إلى البصرة لنزولـه فيها نحو سنة (٣٤٦ هـ)، وكان للمعتزلة فيها وقتئذٍ منزلة كبيرة، وفيها تحول عبد الجبار من مذهب الأشاعرة إلى مذهب الاعتزال. انظر ترجمته في «تاريخ بغداد»: ١١/ ١١٣ ــ ١١٥، و «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٢٤٤ ــ ٢٤٥، و «طبقات المعتزلة»: ١١٢ ــ ١١٣. وللدكتور عبد الكريم عثمان كتاب فيه عنوانه «قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمذاني»، طبع في دار العربية في بيروت ١٩٦٧ م.

(٣) في الأصل و(ل): أصولها، والمثبت من (م).

(٤) طبع كتاب «تثبيت دلائل النبوة» في جزأين بتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان في بيروت سنة ١٩٦٦ م.

(٥) انظر ص ٢٥ من الجزء الأول.

(٦) كان ولي عهد الحاكم، ثم ولاه نيابة دمشق سنة (٤١٠ هـ)، فلما قتل الحاكم في السنة التالية قبض الأمراء عليه، وحمل مقيداً إلى مصر، وسجن إلى أن مات، وقيل: بل نحر نفسه في الحبس. انظر «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسي: ١١٣ ــ ١١٤ نشرة د. زكار، و «تاريخ دمشق» لابن عساكر: س (خ): ج ١٠/ ١٤٧ أ ــ =

النَّاس[1]، وهذان إمامان كبيران من أئمة أصول دين الإِسلام.

وأظهر عبد الجبار القاضي في كتابه بعض ما فعلوه من المنكرات والكفريات التي يقفّ الشَّعر عند[2] سماعها، ولكن لا بد من ذكر شيء من ذلك تنفيراً لِمَنْ لعلّه يعتقد إمامتهم، وخفي عنه مُحالُهم، ولم يعلم قِحَتهم ومكابرتهم، وليعذر مَنْ أزال دولتهم، وأمات بِدْعتهم، وقلّل عِدَّتهم، وأفنى أُمَّتهم، وأطفأ جمرتهم.

ذكر عبد الجبار القاضي أنَّ الملقَّب بالمهدي ـ لعنه الله ـ كان يتَّخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل، وكان يرسل إلى الفقهاء والعُلماء فيذبحون في فُرشهم. وأرسل إلى الروم وسلَّطهم على المسلمين؛ وأكثر من الجَوْر واستصفاء الأموال وقتل الرجال. وكان له دُعَاة يُضِلُّون الناس على قدر طبقاتهم، فيقولون لبعضهم: هو المهدي ابن رسول الله ﷺ، وحُجَّة الله [على خلقه][3]. ويقولون لآخرين: هو رسول الله ﷺ، وحجة الله على خلقه، ويقولون لطائفةٍ أُخرى: هو الله الخالق الرَّازق. لا[4] إلّه إلا الله وحده لا شريك له، تبارك سبحانه وتعالى عما يقول[5] الظالمون علوّاً كبيراً[4].

ولما هلك قام ابنه المسمَّى بالقائم مقامه، وزاد شرُّه على شرِّ أبيه
٢٠٢/١ أضعافاً مضاعفة، وجاهر بشتم الأنبياء، فكان ينادي في أسواق المهدِيَّة

= ١٤١ ب، و «سير أعلام النبلاء»: ١٧٨/١٥، ١٨٤، وانظر «مختصر تاريخ دمشق» لابن منظور: ٣٢٨/٢٩ ففيه قصيدة تصور حريق دمشق في عهده.

(١) في (م): النار، هو تصحيف.

(٢) في الأصل: عن، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ما بين حاصرتين من (ل).

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) في (ل): عما يصفون ويقول.

وغيرها: الْعنوا عائشة وبَعْلَها، الْعنوا الغار ومن حوى.

اللهم[1] صَلِّ على نبيِّك وأصحابه وأزواجه الطَّاهرين، والْعَن هؤلاء الكفرة الفَجَرة الملحدين، وارحم من أزالهم وكان سبب قَلْعهم، ومن جرى على يديه تفريق جمعهم؛ وأَصْلِهِمْ سعيراً، ولَقِّهم ثُبُوراً، وأسكنهم النَّار جميعاً، واجعلهم ممن قلت فيهم ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ[1] صُنْعاً﴾[2].

رجعنا إلى الأصل:

وبعث إلى [أبي][3] طاهر القِرْمِطي المقيم بالبحرين، وبعثه على قتل المسلمين وإحراق المساجد والمصاحف.

وقام بعده ابنه المسمَّى بالمنصور، فقتل أبا يزيد مَخْلَداً الذي خرج على أبيه ينكر عليه قبيح فعله المقدم ذِكْره، وسَلَخَه وصَلَبه، واشتغل بأهل الجبال يَقْتلهم ويشرِّدُهم، خوفاً من أن يثور عليه ثائر مثل أبي يزيد.

وقام بعده ابنه المسمى[4] بالمعزِّ، فبثَّ دعاته فكانوا يقولون: هو المهدي الذي يملك، وهو الشمس التي تطلُعُ من مغربها. وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب من أخذ الرُّوم بلادَهم، واحتجب عن الناس أياماً[5]، ثم ظهر وأوْهَم أن الله رفعه إليه، وأنه كان غائباً في السماء، وأخبر

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م)، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٣٢٠ ــ ٣٢٥.

(٤) في هامش الأصل: الملقب (خ) أي في نسخة أخرى، وهي المثبتة في (م).

(٥) في (م): بمصر.

الناس بأشياء صدرت منهم كان ينقلها إليه جواسيس له، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه[(١)].

وهذا أول خلفائهم بمصر، وهو الذي تنسب إليه القاهرة. واستدعى بفقيه الشَّام أبي بكر محمد بن أحمد بن سهل الرَّملي[(٢)]، ويعرف بابن النابُلُسي، فَحُمل إليه في قفص خشب، فأمر بسلخه، فَسُلِخ حياً، وَحُشِيَ جلده تبناً وصُلب[(٣)]، رحمه الله تعالى. قال أبو ذَرٍّ الهَرَوي[(٤)]: سمعت أبا الحسن الدَّارَقُطْني[(٥)] يذكره ويبكي، ويقول: كان يقول وهو يُسْلخ: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾[(٦)].

قلت: وفي أيام الملقَّب بالحاكم منهم أمر بكَتْب سَبِّ الصحابة رضي الله عنهم على حيطان الجوامع، والقياسر* والشَّوارع، والطُّرقات، وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسبِّ، ثم أمر بقلع ذلك. وأنا رأيته مقلوعاً في بعض أبواب دمشق في الأُسْكُفَّة العليا منقوراً في الحجر، ودلَّني

---

(١) انظر «تثبيت دلائل النبوة»: ٢/ ٥٩٩ ــ ٦٠٦.

(٢) في الأصل: أبي بكر أحمد بن سهل البرمكي، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) وذلك سنة (٣٦٣ هـ)، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ١٤٨ ــ ١٥٠، و «اتعاظ الحنفا»: ١/ ٢١٠ ــ ٢١١.

(٤) هو عبد بن أحمد بن محمد، من كبار رجال الحديث، كان مالكي المذهب، جاور بمكة زماناً، سمع من الدارقطني وغيره، وأخذ علم الكلام عن ابن الباقلاني، توفي بمكة سنة (٤٣٤ هـ)، انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٥٥٤ ــ ٥٦٣.

(٥) هو شيخ الإسلام علي بن عمر بن أحمد، من أئمة المحدثين، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، توفي في بغداد سنة (٣٨٥ هـ)، وهو أشهر من أن يعرف، ولكنني ذكرته إتماماً للفائدة، انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٦/ ٤٤٩ ــ ٤٦١.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٥٨.

أول الكلام وآخره على ذلك، ثم جُدِّد ذلك الباب، وأزيل [ذلك][١] الحجر.

وفي أيَّامه طُوِّف بدمشق رجلٌ مغربي ونودي عليه: هذا جزاء من يحبُّ أبا بكر وعمر، ثم ضربت عنقه[٢]. وكان يجري في أيامهم من نحو هذا أشياء: مثل قطع لسان أبي القاسم الواسطي، أحد الصَّالحين، وكان أذَّن ببيت المقدس وقال في أذانه «حيَّ على الفلاح» فأُخذ وقطع لسانه[٣]. ذَكَرَ ذلك وما قبله من قتل المغربي وأبي بكر النابُلُسي الحافظُ أبو القاسم في «تاريخه»[٤]. وما كانت ولاية هؤلاء الملاعين إلاّ محنة من الله تعالى، ولهذا طالت مدتهم مع قلة عِدَّتهم، فإن [عِدَّتهم][٥] عِدَّة خلفاء بني أمية أربعة عشر، وأولئك بقوا نيّفاً وتسعين سنة، وهؤلاء بقوا مئتي سنة وثمانياً وستين سنة؛ فالحمد لله على ما يَسَّرَ من هُلْكهم، وإبادة ملكهم، ورضي [الله][٦] عمَّن سعى في ذلك وأزالهم؛ ورحم مَنْ بيَّـن مَخْرقتهم وكذبهم ومُحَالهم.

وقد كشف أيضاً حالهم الإمام أبو القاسم عبد الرَّحمن بن علي بن أبي نصر الشَّاشي[٧] في كتاب «الرَّدِّ على الباطنية»، وذكر قبائح ما كانوا عليه من الكفر والمنكرات والفواحش في أيام نزار وما بعده[٨]: ووصل الأمر إلى أن

---

(١) ما بين حاصرتين من (ل).

(٢) وذلك سنة (٣٩٣ هـ)، انظر «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ٣/ ٢٦٤ ب ــ ٢٦٥ أ و «تهذيبه» لابن بدران: ٣/ ٣٤٤، و «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٣١.

(٣) انظر «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» لابن منظور: ٢٩/ ١٠٨ ــ ١٠٩.

(٤) «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ١٤/ ٣٤٤ ب ــ ٣٤٥ أ.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٧) لم أهتد إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.

(٨) كان المستنصر قد عهد في حياته بالخلافة لابنه نزار، فخلعه الأفضل، وبايع المستعلي بالله. انظر «الكامل»: ١٠/ ٢٣٧ ــ ٢٣٨.

وصف بعضهم ما كانوا فيه في قصيدةٍ سماها: الإيضاح عن دعوة القدَّاح، أوَّلها:

حيَّ على مِصْر إلى خلع الرَّسَنْ   فَثَـمَّ تعطيـلُ فـروضٍ وسُنَـنْ

وقال: لو وُفِّق ملوك الإسلام لصرفوا أعِنَّة الخيل إلى مصر لِغَزْو الباطنيَّة الملاعين، فإنهم من شَرِّ أعداء دين الإسلام[1]، وقد خرجَت من حدِّ المنافقين إلى حدِّ المجاهرين، لما ظهر في ممالك الإسلام من كُفْرها وفسادها[2]، وتعَيَّن على الكافة فرضُ جهادها. وضرر هؤلاء أشدُّ على الإسلام وأهله من ضرر الكُفَّار؛ إذ لم يقم بجهادها أحد إلى هذه الغاية، مع العلم بعظيم ضررها وفسادها في الأرض، والله الموفق.

قلت: ثم إنّي لم يقنعني هذا من بيان أحوالهم، فأفردتُ كتاباً لذلك سميته «كشف ما كان[3] عليه بنو عبيد من الكفر والكذب والمكر والكيد»[4]، فمن أراد الوقوف على تفاصيل أحوالهم فعليه به، فإني بتوفيق الله تعالى جمعتُ فيه ما ذكره هؤلاء الأئمة المصنِّفون وغيرهم. ووقفتُ على كتابٍ كبير صنَّفه الشريف الهاشمي رحمه الله، وكان في أيام الملقَّب بالعزيز ثاني خلفاء مصر، فبيَّن فيه أصولهم أتمَّ بيان، وأوضح كيفية ظهورهم وغَلَبتهم على البلاد، وتتبع ذكر فضائحهم، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة، فنقلت منه إلى ما كنت جمعته قطعة كبيرة، وبالله التوفيق.

---

(١) في الأصل: الدين الإسلام، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م): سوادها، وهو تحريف.
(٣) في الأصل و (ل): ما كانوا، والمثبت من (م).
(٤) من كتب أبي شامة التي لم تصلنا بعد.

وما أحسن ما قال فيهم من مدح بعض بني أيوب بقصيدة، منها:

أَلَسْتُمْ مزيلي دَوْلَةَ الكُفْر من بني ... عُبيدٍ بمصر إن هـذا هـو الفَضْـلُ
زنــادقــةٌ شيعيَّــة بــاطنيَّــة ... مجوسٌ وما في الصَّالحين لهم أَصْلُ
يُسِــرُّون كُفْــراً يُظهــرون تشيُّعــاً ... ليستتــروا شيئــاً وعَمَّهُــمُ الجَهْــلُ

وما فعله[1] هؤلاء من الانتساب إلى عليٍّ رضوان الله عليه، والتستر ٢٠٣/١
بالتشيُّعِ قد فعله جماعة القرامطة، وصاحب الزِّنج الخارج بالبَصْرَة، وغيرهم من المفسدين في الأرض على ما عَرَف مِنْ سيرهم مَنْ وقف على أخبار الناس، وكلُّهم كَذَبة في ذلك، وإنما غرضهم التقرُّب إلى العوام والجهال، واستتباعهم لهم، واستجلابهم إلى دعوتهم بذلك البلاء ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[2] ولا يُغتر بأبيات الشَّريف الرَّضي[3] في ذلك، فقد حصل الجوابُ عنها في كتاب «الكشف» بوجوه حسنة، وبالله التوفيق.

وقد صنَّف الشَّريف العابد الدِّمشْقي[4] ـ رحمه الله ـ كتاباً في إبطال

---

(١) في الأصل: وما فعلوا، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٧.
(٣) أولها:

مـا مقـامـي علـى الهـوان وعنـدي ... مِقْـوَل صـارم وأنـف حمـيُّ

ومنها:

ألبس الذل في ديار الأعادي ... وبمصـر الخليفـة العلـويُّ
من أبوه أبي ومولاه مولا ... ي إذا ضامني البعيد القصيُّ
لف عرقي بعرقه سيد النَّا ... س جميعـاً محمـد وعلـيُّ

انظر الأبيات في «ديوانه»: ٢/ ٩٧٢ ـ ٩٧٣، طبعة بيروت ١٣٠٩ هـ، و «اتعاظ الحنفا»: ١/ ٣٢ ـ ٣٣ مع اختلاف في اللفظ.
(٤) هو محمد بن علي بن الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، أبو الحسين، المعروف بأخي محسن، كان يسكن بباب توما، محلة بدمشق، مات قبل الأربع مئة. انظر «سير أعلام النبلاء» ٦/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠، وذكر =

نسبهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفصَّل ذلك تفصيلاً حسناً، وأطنب في ذكر أخبار إخوانهم من القرامطة، لعنهم الله تعالى.

فصــــل

في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة

قال ابن شداد: واستمرَّت القواعد على الاستقامة، وصلاح الدين كلَّما استولى على خزانة مال وهبها، وكلَّما فتح له خزائن ملك أنهبها، ولا يُبقي لنفسه شيئاً، وشرع في التأهُّب للغَزاة، وقصد بلاد العدو، وتعبئة الأمر لذلك، وتقرير قواعده.

وأما نور الدين فإنه عزم على الغَزَاة، واستدعى صاحبَ المَوْصل ابن أخيه، فوصل بالعساكر إلى خدمته. وكانت غزوة عِرْقَة*، فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه في المحرَّم سنة سبع وستين[1].

وقال ابن أبي طيّ: جمع نور الدين عساكره وخرج إلى عرقة ونازلها، وقاتلها أياماً حتى فتحها، واحتوى على جميع ما فيها، وغنم الناس غنيمةً عظيمة.

قال ابن الأثير: خرجت مراكب من مصر إلى الشَّام، فأخذ الفرنج في اللاذقية مركبين منها مملوءين من الأمتعة والتجار، وغدروا بالمسلمين، وكان نور الدين قد هادنهم فنكثوا. فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه،

= اسمه ونسبه الدواداري في «كنز الدرر» ٦/٦ والمقريزي في «اتعاظ الحنفا»: ٢٢، وكتابه لم يصلنا بعد، وقد توسع في النقل منه الدواداري في كتابه «كنز الدرر» الجزء السادس.

(١) «النوادر السلطانية»: ٤٥.

وراسل الفرنج في ذلك، وأمرهم بإعادة ما أخذوه، فغالطوه، واحتجُّوا بأمورٍ، منها: أن المركبين كانا قد دخلهما ماء البحر لكسرٍ فيهما؛ وكانت العادة بينهم أخذ كل مركب يدخله الماء، وكانوا كاذبين، فلم يقبل مغالطتهم، وكان رضي الله عنه لا يهمل أمراً من أمور رعيته، فلم يردُّوا شيئاً، فجمع العساكر من الشَّام والمَوْصِل والجزيرة، وبث السَّرايا في بلادهم، بعضهم نحو أنطاكية، وبعضهم نحو طرابلس، وحصر هو حصن عرقة وأخرب رَبَضَه، وأرسل طائفةً من العسكر إلى حصني صافيثا* وعُرَيمة*، فأخذهما عَنْوَةً وكذلك غيرهما، ونهب وخرَّب، وغَنِمَ المسلمون الكثير، وعادوا إليه وهو بعِرْقة، فسار في العساكر جميعها إلى قريب طرابلس يخرِّب ويحرق وينهب. وأما الذين ساروا إلى أنطاكية، فإنهم فعلوا في ولايتها مثل ما فعل من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس، فراسله الفرنج، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين، ويجدِّد(١) معهم الهُدْنة، فأجابهم، وكانوا في ذلك كما يقال: اليهودي لا يعطي الجزية حتى يُلْطَم، فكذلك الفرنج ما أعادوا أموال التجار بالتي هي أحسن، فلَمَّا نُهبت بلادهم وخربت أعادوها(٢).

قال: وكان لوالدي في المركبين تجارة مع شخصين، فلما أعادوا إلى الناس أموالهم لم يصل إلى كل إنسانٍ إلا اليسير. وكان يُحمل المتاع(٣) فكل من اسمه على ثوبٍ أخذه. وكان في النَّاس من يأخذ ما ليس له، وكان أحد هذين المضاربين فيه أمانةٌ، وكان نصرانياً فلم يأخذ إلا ما عليه اسمه

---

(١) في (ل): وتُجدِّد.
(٢) «الباهر»: ١٥٤ ــ ١٥٥.
(٣) في «الباهر»: إلى نور الدين.

وعلامته، فذهب من ماله ومالنا شيء كثير بهذا السبب. وكان الذي حصل[1] من مالنا أكثر من الذي حصل له، فلما عاد إلينا سلَّم الذي لنا إلى والدي، فامتنع من أخذه وقال: خُذْ أنت الجميع، فإنك أحوج إليه، وأنا في غنى عنه. فلم يفعل، فقال: خذ[2] النِّصف وأنا النِّصف. واجتهد[3] به والدي فلم يفعل. فلما كان بعض الأيام وإذا قد جاء الغلام ومعه عِدَّة من الأثواب السوسي وغيرها، وقال: هذا من قماشنا قد حضر اليوم. وسبب حضوره أن إنساناً فُقّاعياً[4] من أهل تِبْريز كان معنا في المركب، وقد أعادوا عليه ماله، فرأى هذه الأثواب واسمي عليها، فلم يسهل عليه يردها - يعني عليهم - وسأل عني وقد قصدني، وهي معي، وحضر عندي السَّاعة وسلَّمها إليَّ، وقال: قد تركت طريقي لتبرأ ذمَّتي. فأخذنا نحن ما عليه اسمنا بعد الجهد، وطلب والدي الرجل، وسأله أن يقيم عندنا ليسلم إليه مالاً يتَّجر فيه، فلم يفعل، وعاد إلى بلده. قال: وهذان رجلان نادران في هذا الزمان[5].

فصـــل

في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر

قال العماد: وكان صلاح الدين واعده نورُ الدين أن يجتمعا[6] على الكَرَك* والشَّوْبك* يتشاوران فيما يعود بالصَّلاح المشترك، فخرج من القاهرة

(١) في (ل): قد حصل.
(٢) في (م): خذوا.
(٣) في الأصل: فاجتهد، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٦ من الجزء الأول.
(٥) «الباهر»: ١٥٥.
(٦) في (ل) و (م): يجتمعوا.

في الثاني والعشرين من المُحرَّم، بالعزم الأجزم، والرأي الأحزم. فاتفق للاجتماع عائق، ولم يُقدر للاتفاق قَدَرٌ موافق، فلقي في تلك السَّفْرة شِدَّة، وعَدِم خيلاً وظهراً وعُدَّة، وعاد إلى القاهرة في النِّصف من ربيع الأول[1].

وقال ابن الأثير: وفي سنة سبعٍ وستين أيضاً جرى ما أوجب نُفْرَةَ نور الدين من صلاح الدين. وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية، والمسير بها إلى بلاد الفرنج، والنزول على الكَرَك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على
١/ ٢٠٤ حرب الفرنج، والاستيلاء على بلادهم. فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرَّم، وكتب إلى نور الدين يُعَرِّفه أن رحيله لا يتأخر. وكان نور الدين قد جَمَعَ عساكره وتجهَّز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله[2] ليرحل هو. فلما أتاه الخبر بذلك رحل من دمشق عازماً على قصد الكَرَك، فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين[2] إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البُعْد عنها، فعاد إليها. فلم[3] يقبل نور الدين عُذْرَه.

وكان سبب تقاعده أنَّ أصحابه وخواصَّه خوَّفوه من الاجتماع بنور الدين. فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شقَّ ذلك عليه، وعَظُمَ عنده[4]، وعزم على الدُّخول إلى مصر، وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله، وفيهم والده نجم الدين، وخاله شهاب الدين الحارِمي،

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١١٧ ــ ١١٨.
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في الأصل: ولم، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في (ل): عليه، وهو تصحيف.

ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قَصْده وأخذ مصر منه، واستشارهم، فلم يجبه أحد منهم بشيء. فقام ابن أخيه تقي الدين عمر وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد. ووافقه غيره من أهله، فشتمهم نجم الدين أيوب، وأنكر ذلك واستعظمه ـ وكان ذا رأي ومكر، وكيد[1] وعقل ـ وقال لتقي الدين: اقعد. وسَبَّه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك وهذا شهاب الدين خالك، أَتظنُّ في هؤلاء كلِّهم مَنْ يحبُّك ويريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا. فقال: والله لو رأيتُ أنا وهذا خالك نورَ الدين لم يمكِنَّا إلا أن نترجَّل إليه، ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسَّيف لفعلنا. فإذا كنَّا نحن هكذا كيف يكون غيرنا! وكل من تراه[2] من الأمراء والعساكر لو رأى نور الدين وحدَه لم يتجاسر على الثَّبات على سَرْجه، ولا وسِعَه إلا النُّزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك فأيّ حاجة به إلى المجيء؟ يأمرك بكتاب مع نجّاب حتى تقصد خدمته، ويولِّي بلاده من يريد. وقال للجماعة كلِّهم: قومُوا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده، ويفعل بنا ما يريد. فتفرَّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

ولما خلا نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة؛ تجمع هذا الجمع الكثير، وتُطلِعُهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازمٌ على منعه من البلاد جعلك أهمَّ الأمور إليه، وأولاها بالقَصْد، ولو قصدك لم تَرَ معك من هذا العسكر أحداً، وكانوا أسلموك إليه. وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتُبون إليه ويعرِّفونه قولي، وتكتب أنت

---

(١) وكيد، ليست في (م).

(٢) في (م): ترى.

إليه، وترسل في هذا المعنى وتقول: أيّ حاجة إلى قصدي؟ يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي. فهو إذا سمع هذا عَدَل عن قصدك، واشتغل بما هو أهمّ عنده، والأيام تَنْدرج، والله كل وقت في شأن.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده. فلما رأى نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ الأمر هكذا عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين؛ توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها[1].

فصل
في الحَمَام

قال ابن الأثير: وفي سنة سبع وستين أمر الملك العادل نورُ الدين باتخاذ الحمام الهوادي، وهي المناسيب التي تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها، فاتخذت في سائر بلاده.

وكان سبب ذلك أنه اتَّسعت بلاده وطالت مملكته، فكانت من حد النَّوْبة إلى باب هَمَذان، لا يتخلَّلها سوى بلاد الفرنج. وكان الفرنج ــ لعنهم الله ــ ربما نازلوا بعض الثغور، فإلى أن يصله الخبر، ويسير إليهم [يكونون][2] قد بلغوا بعض الغرض. فحينئذٍ أمر بذلك، وكتب به إلى سائر بلاده، وأجرى الجرايات لها ولمربِّيها؛ فوجد بها راحةً كبيرة. كانت الأخبار تأتيه[3] لوقتها، لأنه كان له في كل ثَغْر رجالٌ مرتَّبون، ومعهم من حمام

(١) «الباهر»: ١٥٨ ــ ١٥٩.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من طبعة وادي النيل ١/ ٢٠٤.
(٣) في (م): تأتيها، وهو تصحيف.

المدينة التي تجاورهم، فإذا رأَوْا أو سمعوا أمراً كتبوه لِوَقْته، وعلَّقُوه على الطائر، وسرَّحوه، [فيصل][1] إلى المدينة التي هو منها في ساعته، فتنقل الرُّقْعة منه إلى طائر آخر من البلد الذي يجاورهم في الجهة التي فيها نور الدين، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه. فانحفظت الثُّغور بذلك، حتى إن طائفةً من الفرنج نازلوا ثغراً له، فأتاه الخبر ليومه، فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثَّغْر بالاجتماع والمسير بسرعة، وكَبْس العدوِّ، ففعلوا ذلك، فظفروا والفرنج قد أمِنوا لبُعْد نور الدين عنهم. فرحم الله نور الدين ورضي عنه، فما كان أحسن نظره للرعايا والبلاد[2].

وقال العماد: وكان نور الدين لا يقيم في المدينة أيام الربيع والصَّيف محافظةً على الثغر، وصَوْناً من الحَيْف، ليحمي البلاد من العدوِّ بالسَّيف، وهو متَشوِّف إلى أخبار مصر وأحوالها، وتحقيق اعتدالها بتمحيق اعتلالها. فرأى اتِّخاذ الحمام المناسيب وتدريجها على الطيران، لتحمل إليه الكتب بأخبار البلدان[3]. وتقدَّم إليَّ بكتب منشور لأربابها، وإعزاز أصحابها[4]، وهو حينئذٍ بظاهر دمشق، مخيِّم بوادي اللَّوَّان[5]، ونحن مستظهرون في ذلك الأوان، عادُون على أهل العُدْوان، وذلك في سابع عشر ذي القَعْدة من السنة.

ثم ذكر نسخة المنشور ووصف فيه الحمام، فقال: هي برائد الأنباء،

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) «الباهر»: ١٥٩.
(٣) في الأصل: بالأخبار البلدان، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١١٩.
(٥) جنوبي غرب دمشق، قرب المزة.

والمخصوصة(١) بفضيلة الإلهام والإيحاء، وهي فيوج الرسائل المأمونة ٢٠٥/١
الإبطاء، والسابقات الهُوج في الاهتداء، والحاملات مُلطَّفات* الأسرار في أقرب مُدَّة إلى أبعد غاية، والموصلات مهمَّات الأخبار في وقتها من أقاصي الأمصار بأكمل هداية، والقاطعات في ساعاتها(٢) إلى البلاد أجواز القِفار والمَوَامي(٣)، والنَّافذات بنُجْح المرام بعود السِّهام إلى المرامي. وهي تطوي الفراسخ البعيدة والأشواط في ساعة، وتنتهي إلى أقصى غايات(٤) الطاعة بأتمِّ استطاعة. وقد عَمَّ بها نفع المرابطين للغزاة والمجاهدين في سبيل الله، في إهداء أخبار الكفرة إليهم من أماكنها، دالَّةً على مكايدها ومكامنها، طائرة بكتبهم إلى مَنْ وراءهم من الطَّلائع والسَّرايا، مظهرةً لهم من أحوالها(٥) خبايا الأمور الخفايا. وإنها لميمونة المطار، مأمونة العِثار، سالمة على الأخطار، مَهْدِيَّة في الأسفار، أمينة على الأسرار، سابقة إلى الأوكار، صادرةً بالأوطار، سائرة إلى المؤمنين بأنباء(٦) الكُفَّار.

قلت: وكل هذه أوصاف(٧) حسنة، وعبارات مستحسنة. وقد بلغني عن القاضي الفاضل ــ رحمه الله تعالى ــ أنه وصفها بألطف من هذه الأوصاف وأخصر فقال: الطُّيور ملائكة الملوك. يشير إلى [أن](٨) نزولها على الملوك من جَوِّ الهواء نزول الملائكة على الأنبياء عليهم السلام من

(١) في (ل) و (م): والمخصوصات.
(٢) في (ل) و (م): ساعتها.
(٣) مفردها: موماة، وهي الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس بها. «اللسان» (موم).
(٤) في الأصل و (ل): عنايات، والمثبت من (م).
(٥) في (م): أحوالهم.
(٦) في (ل) و (م): بنبأ.
(٧) في الأصل: من أوصاف، والمثبت من (ل) و (م).
(٨) ما بين حاصرتين من (ل).

السماء، مع فرطِ ما فيها من الأمانة، لا يتوهَّم من جهتها خيانة. فلقد أحسن فيما وصف، وأبدع فيما استنبط وأنصف، وهو بذلك أولى وأعرف. رحم الله الجميع.

فصــــل
في باقي حوادث هذه السنة

قرأتُ نسخة سجل بإسقاط[١] المكوس [بمصر][٢]، قُرِىء على المنبر بالقاهرة يوم الجمعة بعد الصَّلاة ثالث صفر سنة سبع وستين وخمس مئة، عن السُّلْطان الملك النَّاصر في أيام نور الدين رحمه الله[٣]، فهو كان الآمر وذاك المباشر، يقول فيه:

أما بعد، فإنا نحمد الله سبحانه على ما مكَّن لنا في الأرض، وحسَّنَه عندنا من أداء كلِّ نافلة وفَرْض، ونصَبنا له من إزالة النَّصَب عن عباده، واختارنا له من الجهاد في الله حقَّ جهاده، وزهَّدنا فيه من متاع الدُّنيا القليل، وألهمنا من محاسبة أنفسنا على النَّقير والفتيل[٤]، وأولانا من شجاعة السماحة، فَيَوْماً نَهَبُ ما اشتملت عليه الدَّواوين، ويوماً نقطع ما سقاه النِّيل. فالبشائر[٥] في أيَّامنا تترى، شفعاً وَوِتْراً، والمسار كنظام الجوهر تتبع

---

(١) في (م): بإطلاق.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (م): رحمهما الله.

(٤) النقير: النكتة في ظهر النواة، يضرب بها المثل للشيء الطفيف، والفتيل: السَّحاة (أي ما يقشر) التي في شق النواة، يمثل بها للتافه الحقير. «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٢٠، ٤/ ٣٥٦، ٥/ ٥٢٨.

(٥) في (م): والبشائر.

الواحدة منها الأُخرى، والمسامحات قد ملأت المسامع والمطامع، وأسخطت الخيمة والصّناعة وأرضتِ المنبر والجامع، ولما تقلَّدنا أمور الرَّعية رأينا المكوس الدِّيوانيَّة بمصر والقاهرة[1]، أولى ما نقلناها من أن تكون لنا في الدُّنيا إلى أن تكون لنا في الآخرة، وأن نتجرَّد منها لنلبس أثواب الأجر الفاخرة، ونطهِّر منها مكاسبنا، ونصون عنها مطالبنا، ونكفي الرَّعيَّة ضَرَّهم الذي يتوجَّه إليهم، وَنَضَعُ عنهم إِصْرَهُمْ والأغلالَ التي كانت عليهم[2]، ونعيدها اليوم كأمس الذَّاهب، ونضعها فلا ترفعها من بعدُ يد حاسب، ولا قلم كاتب. فاستخرنا الله وعَجِلنا إليه ليرضى، ورأينا فُرْصَة أجر لا تغض عليها بصائرُ الأبصار ولا تُغضى؛ وخرج أمرنا بكَتْب هذا المنشور بمسامحة أهل القاهرة ومصر، وجميع التجار[3] المتردِّدين إليهما، وإلى ساحل المقسم*، والمنية*، بأبواب المكوس صادرها وواردها، فَيَرِدُ التَّاجر ويُسفر، ويغيب عن ماله ويحضر، ويقارض ويتجر برًّا وبحراً، مركباً وظهراً، سرّاً وجهراً، لا يحلُّ ما شَدَّه، ولا يُحاول ما عنده، ولا يكشف ما ستره، ولا يسأل عمَّا أورده وأصدره، ولا يُستوقف[4] في طريقه، ولا يَشْرَقُ بِريقه، ولا يُؤخذ منه طُعْمة، ولا يُستباح له حُرْمة. والذي اشتملت عليه المسامحة في السنة من العَيْن مئة ألف دينار، مسامحة لا يتعقَّبها تأويل، ولا يتخوَّنها تحويل، ولا يعْتريها زوال، ولا يعْتورُها انتقال، دائمة بدوام الكلمة، قائمة

---

(١) في الأصل و (م): بالقاهرة ومصر، وأثبتنا ما فيَ (ل) لتناسب السجعة.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٣) في (م): البحار، وهو تصحيف.

(٤) في (م): ولا يستوفق.

ما قام دين القَيِّمة، مَنْ عارضها رُدَّت أحكامه، ومن ناقضها[1] نُقِضَ إبرامه، ومن أزالها زلَّت قدمه، ومن أحالها حَلَّ دَمُه، ومن تعقبها خُلِّدت اللَّعنة فيه وفي عَقِبه، ومن[2] احتاط لدنياه فيها أحاط به الجحيم الَّذي هو من حَطَبه[2]. فمن قرأه، أو قُرِىء عليه من كافَّة ولاة الأمر مِنْ صاحب سيف وقلم، ومشارف* أو ناظر[3]، فليَمتثل ما مثل من الأمر، ولْيُمْضِه على ممرِّ الدَّهْر[4]، مُرضياً لربِّه، ممضياً لما أُمر به.

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو بكر[5] يحيى بن سَعْدون القُرْطُبي المقرىء النَّحْوي، وهو نزيل المَوصِل، رحمه الله[6].

وفيها ولد العزيز[7] والظَّاهر[8] ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين[9].

---

(١) في (ل): عارضها، وهي سبق قلم مما قبلها.

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

(٣) في (ل) و (م): وناظر.

(٤) في الأصل و(ل): الدهور، والمثبت من (م).

(٥) في الأصل: أبي بكر، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) ولد سنة (٤٨٦ هـ) بقرطبة، وقدم إلى المشرق في عنفوان شبابه، وأقام بدمشق مدة، واستوطن الموصل، كان بارعاً في العربية، بصيراً بعلل القراءات، وافر الحرمة، ديناً خيراً، تخرج به أئمة، وهو شيخ بهاء الدين بن شداد صاحب «النوادر السلطانية»، وابن عساكر مؤرخ دمشق. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٦/ ١٧١ ــ ١٧٣، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/٥٤٦ ــ ٥٤٨.

(٧) ترجم له أبو شامة في وفيات سنة (٥٩٥ هـ) ٤/ ٤٤٣ من هذا الكتاب، وفي حوادث سنة (٥٩٦ هـ) في «المذيل على الروضتين»، وكان أحب أولاد صلاح الدين إليه. انظر ص ٤٨ من الجزء الثالث.

(٨) ورد أنه ولد في منتصف رمضان سنة (٥٦٨ هـ) انظر ص ٤٧٥ من هذا الجزء، وترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٣ هـ).

(٩) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٧ هـ).

وفيها[1] في ثالث شوال توفي أبو الفتوح نَصْر[2] بن عبد الله الإسكندري، المعروف بابن قَلاقِس[3] الشَّاعر، بعَيْذَاب[4]، ومولده بالإسكندرية رابع ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة، فيكون عمره نحواً من خمسٍ وثلاثين[5] سنة.

ثم دخلت سنة ثمانٍ وستين [وخمس مئة][6]

ففيها توفي ملك النُّحاة الحسن بن صافي[7].

---

(١) هذا الخبر ساقط من (م).

(٢) في مصادر ترجمته ما عدا «الخريدة» نصر الله، وهو تحريف، انظر «الأعلام» للزركلي: ٨/ ٢٦.

(٣) قلاقس جمع، مفردها قُلْقاس: وهو جذر نبات كان يؤكل مطبوخاً. انظر «وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٨٨، و«معجم متن اللغة»: ٤/ ٦٣٨، و«الموسوعة في علوم الطبيعة»: ٢/ ٣١٥.

(٤) بليدة على ضفة البحر الأحمر، وكانت مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد، «معجم البلدان»: ٤/ ١٧١، و«وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٨٨.

(٥) انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٤٥ ـ ١٤٦، و«وفيات الأعيان»: ٥/ ٣٨٥ ـ ٣٨٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٥٤٦، وفي «الأعلام» للزركلي ترجمة مطولة له: ٨/ ٢٤ ـ ٢٦، طبعت منتخبات من شعره في مصر بمطبعة الجوائب سنة ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م، راجعها وضبطها الشاعر خليل مطران، ثم طبع ديوانه في الكويت سنة ١٩٨٢ ـ ١٩٨٨ بتحقيق سهام الفريح.

(٦) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٧) ولد في بغداد سنة (٤٨٩ هـ)، واستوطن دمشق، وفيها توفي، ودفن في مقبرة الباب الصغير، كان من كبار النحاة في عصره، شافعي المذهب، إلا أنه كان عنده عجب وتيه بعلمه، فلقب نفسه بملك النحاة، وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك. انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ج ٣/ ٨٩ ـ ١٣٧، و«معجم الأدباء»: ٨/ ١٢٢ ـ ١٣٩، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٢٨١، و«إنباه الرواة»: ١/ ٣٠٥ ـ ٣١٠، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ٩٢ ـ ٩٤، وترجم له العلامة محسن =

وفيها ترتب[1] العماد الكاتب مشرفاً بديوان نور الدين مضافاً إلى كتابة الإنشاء.

قال: وكان نور الدين ذكياً ألمعياً، فَطِناً لَوْذعياً، لا تشتبه عليه
٢٠٦/١ الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولا يتأهل لغير أهل الفضل منه الإفضال.

قال: ولما عرض صلاح الدين بعد العاضد خزائنه، واستخرج دفائنه، سَيَّر منها عِدَّة من الأمتعة المستحسنة، والآلات المثمنة، وقطع البِلَّوْر واليَشَم[2]، والأواني التي لا يُتصوَّر وجودُها في الوهم، ومعها ثلاث قطع من البَلَخْش[3]، أكبرها نيف وثلاثون مثقالاً، والثانية ثمانية عشر، والأخرى دونها، وقَرَنَ بها من اللآلىء مصونها ومكنونها، وحمل معها من الذهب ستين ألف دينار، ووصلت من غرائب المصنوعات ما لا يجتمع مثله في أعصار وأعمار، ومن الطِّيب والعطر ما لم يخطر ببال عَطَّار، فشكر نور الدين هِمَّته، وذكر بالكرم شِيْمَتَهُ، ووصف فضيلته، وفضَّل صفته، وقال: ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال، ولا نسدُّ به خَلَّة الإقلال، فهو يعلم أنا ما

= الأمين في «أعيان الشيعة»: ٥/ ١١٥ ــ ١١٨ مستدلاً على تشيعه بما أورده صاحب «كشف الظنون»، ولم أجد عبارته فيما بين يدي من مطبوع «الكشف»: ٢/ ١١٧٠.

(١) في الأصل: رتب، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) اليشم: تعريبه اليشب: حجر قريب من الزبرجد لكنه أكثر شفافية وصفاء منه، وألوانه: أبيض وأصفر وزيتي وهو أفضلها. انظر «نخب الذخائر في أحوال الجواهر» لابن الأكفاني: ٧٢ ــ ٧٤ مع حاشية المحقق.

(٣) هو جوهر أحمر شفاف مُسْفِر صاف، يضاهي فائق الياقوت في اللون والرونق، ويتخلف عنه في الصلابة، وليس له منفعة كالياقوت، بل يشترى لحسنه. انظر «نخب الذخائر»: ١٤ ــ ١٦.

أنفقنا[١] الذهب في ملك مصر وبنا إلى الذَّهب فقر، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جُدْنا به قدر، وتمثَّل بقول أبي تَمَّام:

لم يُنفِقِ الذَّهَبَ المُرْبي بِكَثْرَتِهِ   على الحَصَى وبه فَقْرٌ إلى الذَّهَبِ[٢]

لكنه يعلم أن ثغورَ الشَّام مفتقرة إلى السِّدَاد، ووفور الأعداد من الأجناد، وقد عَمَّ بالفرنج بلاءُ البلاد؛ فيجب أن يقع التَّعاقد على الإمداد بالمعونة، والمعونة بالإمداد.

فاستنزره وما استغزره، واستقلَّ المحمول في جَنْبِ ما حرَّره، وتروَّى فيما يُدَبِّره، وأفكر فيما يقدِّمه من هذا المهمِّ ويؤخِّره[٣].

قال ابنُ أبي طيّ: لم تقع هذه الهدية من نور الدين بموقعٍ، وجرَّد الموفق بن القَيْسَراني* وزيره إلى مصر، وأمره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها[٤]، وأين صُرفت أموالها، فإذا حصل جميع ذلك قَرَّر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة. وعَظُم على نور الدين أمر مصر، وأخذه من استيلاء صلاح الدين عليها المقيم المقعِد، وأكثر في مراسلته في حمل الأموال. حدَّثني أبي قال: لم يَخْفَ حالُ نور الدين في كراهية الملك النَّاصر، ولقد علم ذلك جميعُ الأجناد والأمراء، وتحدَّث به العوام، ولا سيما حين أنفذ هذه الهدية. واشتدَّ بعد ذلك في مراسلته، وأنفذَ ابن

---

(١) في الأصل: ما نفقنا، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) هذا البيت من قصيدته المشهورة التي مدح بها المعتصم لفتحه عمورية، والتي أولها:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

انظر «ديوان أبي تمام» بشرح الخطيب التبريزي: ١/ ٦٦.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢١ ـ ١٢٤.

(٤) ارتفاعها: أي خراجها.

القيسراني لكشف الأحوال، ولو طال عمره لم يكن له بدٌّ من الدخول إلى مصر.

قال العماد: وكان نور الدين مُذْ مُلكت مصر، وتوجَّه له فيها النَّصْر، يؤثر أن يُقَرَّرَ له فيها مالٌ للحمل، يستعين به على كُلَف الجهاد وتخفيف ماله من الثقل، والأيام تماطله، والأعوام تطاوله، وهو ينتظر أنَّ صلاح الدين يبتدىء من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده. فلما حمل من أخاير الذَّخائر والمال الحاضر ما حمله، وعرف مجمله ومفصَّله، تقدَّم إلى الموفق خالد بن القَيْسَرانيّ أنْ يمضي، ويطالب ويقتضي، ويعمل أيضاً بالأعمال المصرية جُزَازة، ولا يبقي في نفوس ديوانه من أمرها حَزَازة، وأرسل معه الهدايا، والتُّحف السنايا، وأقام العماد مقامه في ديوان الاستيفاء*، فجمع بين الإشراف والاستيفاء، ومنصب الإنشاء. ثم كان من أمره ما سيأتي ذكره.

قال العماد: وخرج صلاح الدين في النصف من شَوَّال[1] ومعه الفيل، والحمارة العَتَّابية[2]، والذخائر النفيسة التي كان انْتَخَبها من خزائن القصر، وهي معدودة من محاسن العصر، وقد سبق ذكر تسييرها إلى نور الدين[3]، وقُوبلت بالإحسان والتحسين. ووصلت الحمارة وكَثُرَت لها النظارة[4]. وأما

(١) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٤ في النصف من شعبان.

(٢) نوع من حمر الوحش المخططة، نسبة إلى العتابيين، إحدى محال بغداد في الجانب الغربي منها، اشتهرت بالنسيج المخطط، ومن ثم كان هذا النوع من الحمير يوصف بالعتابي تشبيهاً له بهذا النسيج، انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٩، و «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الطبعة الفرنسية): ٢/ ٩٣.

(٣) انظر ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

(٤) في (م): وكثرت الحمارة، وكبر لها النظارة، وهو تحريف.

الفيل فإنه وصل إلينا في سنة تسعٍ وستين ونحن بحلب بالميدان الأخضر*، وأهداه نور الدين إلى ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل مع شيء من تُحفة الثياب والعود والعنبر. ثم سيَّره سيف الدين [غازي][1] إلى بغداد هدية للخليفة، مع ما سيَّره معه من التُّحف اللطيفة، وسَيَّر نور الدين الحمارة العتابية إلى بغداد مع هدايا وتُحَف سنايا[2].

فصـــل
في جهاد السُّلْطانَين للفرنج في هذه السنة

قال العماد: ونزل صلاح الدين على الكَرَك* والشَّوبَك* وغيرهما من الحصون فبرَّح بها، وفرَّق عنها عَربها، وخَرَّب عماراتها، وشنَّت على أعمالها سراياه بغاراتها.

ووصل منه كتابٌ بالمثال الفاضلي: سَبَبُ هذه الخدمة إلى مولانا الملك العادل، أعزَّ الله سلطانه، ومدَّ[3] أبداً إحسانه[3]، ومكن بالنَّصر إمكانه، وشَيَّد بالتأييد مكانه، ونصر أنصاره، وأعان أعوانه، علم المملوك بما يؤثرُه المولى بأن يقصد الكُفَّار بما يَقُصُّ[4] أجنحتهم، ويفلِّلُ أسلحتهم، ويقطع موادَّهم، ويخرِّب بلادهم. وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومُه من هذه المصلحة ألا يبقى في بلادهم أحدٌ من العُرْبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفْر إلى عِزِّ الإيمان. ومما اجتهد فيه غاية الاجتهاد، وعَدَّه من أعظم أسباب

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٤.

(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).

(٤) في (ل): من قصد بما يقص.

الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل دارهم، إلى أن صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يَهْتَدي سبيلاً.

ثم: ذكر باقي الكتاب[1].

قال ابنُ شَدَّاد: وهذه أوَّلُ غزوة غزاها صلاح الدين من[2] الدّيارالمصرية. وإنما بدأ ببلاد الكَرَك والشَّوْبَك لأنها كانت أقرب إليه، وكانت في الطَّريق تمنع من يقصد الديارَ المصرية، وكان لا يمكن أن تصل قافلة حتى يخرج هو بنفسه يُعَبِّرها بلاد العدوِّ[3]، فأراد توسيع الطريق

١/٢٠٧ وتسهيله لتتَّصل البلاد بعضها ببعض، وتسهل على السَّابلة، فخرج قاصداً لها في أثناء سنة ثمانٍ وستين، فحاصرها، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات، وعاد عنها ولم يظفر منها بشيء في تلك الدَّفعة؛ وحصل ثوابُ القصد. وأمّا نور الدين فإنَّه فتح مَرْعَش* في ذي القعدة من هذه السنة، وأخذ بَهَسْنى* في ذي الحِجَّة منها[4].

وقال العماد: حضرتُ عند الملك العادل نور الدين بدمشق في العشرين من صفر، ووجهُه بنُور البِشْر قد سَفَر، والحديث يجري في طيب دمشق وحسن آلائها، ورِقَّة هوائها، وبهجة بهائها، وإزهار أرضها كزهر سمائها، وكلٌّ منا يمدَحُها، وبحبِّه يمنحُها، وكل منا يُطْرِيها، فقال

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٤ ــ ١٢٦.
(٢) في الأصل: في، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في (ل): عن بلاد العدو.
(٤) «النوادر السلطانية»: ٤٥.

نور الدين: أنا حُبُّ الجهاد يسليني عنها، فما أرغب فيها، فارتجلت هذا المعنى في الحال، فقلت:

ليس في الدُّنيا[1] جميعاً بَلْدَةٌ مِثْلُ دمشقِ
وَيُسَلِّيني عنها في سبيلِ اللَّهِ عِشقي
والتُّقى الأَصْلُ ومن يتـ ـركها[2] يَشْقَى ويُشْقي
كم رشيقٍ شاغِلٌ عنـ ـه بِسَهْمِ الغَزوِ رَشْقي
وامْتِشاقُ البيضِ يُغْني عنه بالأقلامِ مَشْقي[3]

قال: وسألني نور الدين أن أعمل دوبيتيات[4] في معنى الجهاد على لسانه، فقلتُ:

للغَزْوِ نشاطي وإليه طَرَبي مالي في العيش غَيْرَه من أَرَبِ
بالجدِّ وبالجهاد نُجْحُ الطَّلَبِ والرَّاحة مُسْتَوْدَعَةٌ في التَّعَبِ[5]

وقُلْتُ أيضاً:

---

(١) في (م): الأرض.
(٢) في «الخريدة»: يتركه.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٢٦ ــ ١٢٧، و «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٧ ــ ١٨.
(٤) الدوبيت: وزن فارسي غير داخل في أوزان العروض العربية، استحدثه أدباء الفرس، ومن أسبق من نظم فيه من شعرائهم (رودكي) المتوفى سنة (٣٠٢ هـ)، وعنهم أخذه شعراء بغداد، ولفظه مركب من كلمتين: إحداهما فارسية وهي «دو» أي اثنان، والأخرى «بيت» العربية، وسموه كذلك لأنه لا يكون إلا بيتين، ولا يجوز فيه اللحن مطلقاً، ويعرف بـ «الرباعي» أيضاً، ومن مشهوره «رباعيات الخيام». انظر «تاريخ آداب العرب» للرافعي: ٣/٧٢ الطبعة الأولى، و «ميزان الذهب» لأحمد الهاشمي: ١٣٢ ــ ١٣٤.
(٥) «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٤٣.

لا راحة في العيش سوى أن أغزو   سَيْفِي طَرَباً إلى الطُّلى[1] يهتزُّ
فـي ذُلِّ ذوي الكُفْـرِ يكـونُ العِـزُّ   والقُـدْرَةُ فـي غيـرِ جهـادٍ عَجْـزُ[2]

وقلتُ أيضاً:

أقسمتُ سوى الجهاد مالي أَرَبُ   والـرَّاحـةُ في سـواه عنـدي تَعَـبُ
إلا بـالجِـدِّ لا يُنـالُ الطَّلَـبُ   والعَيْـشُ بـلا جِـدِّ جهـادٍ لَعِـبُ[3]

قال: واتَّفق خروج كلب الرُّوم[4] اللَّعين في جنود الشياطين، يقصد الغارة على زُرًّا* من ناحية حَوْران*، وهم في جمع غلبت كثرته الخُبْر والعِيان، ونزلوا بقريةٍ تعرف بشمسكين*. فركب نور الدين وهو نازل بالكُسْوة* إليهم، وأقدم بعساكره عليهم، فلما عرفوا وصوله رحلوا إلى الفوَّار، ثم إلى السَّواد*، ثم نزلوا بالشَّلالة، ونزل نور الدين عَشْتَرا*، وقد سَرَّه ما جرى؛ فأنفذ سَرِيَّة إلى أعمال طبريَّة، واغتنم خلوَّها، فأدلجت تلك الليلة وحمدت في شنِّ الغارة غدوَّهَا، فلما عادت لَحِقَها الفرنج عند المخاضة، فوقف الشُّجعان، وثبتَ من ثَبَّته الإيمان، حتى عبرت السَّرِيَّة، وانفصلت تلك القضيَّة. ورحل نور الدين من عَشْتَرا، فنزل بظاهر زُرًّا[5].

قال العماد: وكنتُ راكباً في لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لي: كيف تصف ما جرى؟ فمدحته بقصيدة، منها:

عُقِـدَتْ بِنَصْـرِكَ رايـةُ الإيمـانِ   وبَـدَتْ لِعَصْـرِكَ آيـةُ الإحسـانِ

---

(١) الطلى: الأعناق، مفردها طُلاة، «اللسان» (طلي).
(٢) «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٤٢ ـ ٤٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) في «الخريدة» عظيم الفرنج، وفي «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٧ كلب الفرنج.
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

يا غالبَ الغُلْبِ الملوكِ وصائِدَ الصِّـ (م) ـيـد اللُّيـوثِ وفـارِسَ الفُـرْسَـانِ
يـا سـالـبَ التِّيجـان مِـنْ أَرْبـابهـا حُـزْتَ الفَخَـارَ علـى ذوي التِّيجـانِ
محمـودٌ المحمـودُ مـا بيْـنَ الـورى فــي كـلِّ إقليـمٍ بكـلِّ لِسـانِ
يـا واحـداً فـي الفَضْـل غيـرَ مُشَـارَكٍ أقسمـتُ مـالَـكَ فـي البَسِيْطَـةِ ثـاني
أحلـى أمـانيـك الجهـادُ وإنَّـه لـك مُـؤْذِنٌ أبـداً بكُـلِّ أَمَـانِ
كـم بِكْـر فَتْـحٍ وَلَّـدَتْـهُ ظُبـاك مـن حَـرْبٍ لقَمْـعِ المُشْـرِكيـن عَـوَانِ
كـم وقعـةٍ لـك بـالفِـرَنْـجِ حَـدِيثُهـا قـد سـارَ فـي الآفـاقِ والبُلْـدَانِ
قَمَّصْـتَ قُـومَصهُـم* رداء مـن ردًى وقَـرَنْـتَ رَأْسَ بِـرِنْسِهِـمْ بسِنـانِ
وَمَلَكْـتَ رِقَّ مُلـوكهـم وتَـرَكْتَهُـمْ بـالـذُّلِّ فـي الأَقْيَـادِ والأَسْجَـانِ
وَجَعَلْـتَ فـي أَعْنَـاقِهِـم أَغْـلالَهُـمْ وسَحَبْتَهُـمْ هُـونـاً علـى الأَذْقَـانِ ١/٢٠٨
إذْ فـي السـوابغِ تُحْطَـمُ السُّمْـرُ القنَـا والبِيـضُ تُخْضَـبُ بـالنَّجِيْـعِ القَـاني
وعلـى غِنَـاءِ المَشْـرَفِيَّـةِ فـي الطُّلَـى والهـام رَقْـصُ عـواليَ[1] المُـرَّانِ
وكـأنَّ بيـنَ النَّقْـعِ لَمْـعَ حَـدِيْـدِهـا نـارٌ تـألَّـقُ مـن[2] خِـلالِ دُخَـانِ
فـي مَـأزِقٍ وِرْدُ الـوَريـدِ مُكَفَّـلٌ فيـه بِـريِّ الصَّـارمِ الظَمْـآنِ
غَطَّـى العَجَـاجُ بـه نجـومَ سمـائِـهِ لتنـوبَ عنهـا أَنْجُـمُ الخُـرْصَـانِ
أوَ مـا كَفـاهُـمْ ذاك حتـى عـاودوا طُـرُقَ الضَّـلال ومـركـبَ الطُّغْيـانِ
يـا خيبـةَ الإفـرنـجِ حيـن تجمَّعُـوا فـي حَيْـرة وأتَـوْا إلـى حَـوْرَانِ

ومنها:

وجَلَوْتَ نورَ الدين ظُلْمَةَ كُفْرِهم[3] لمَّـا أتيـتَ بـواضـحِ البُـرْهَـانِ

---

(١) في (م): عوامل.
(٢) في (م): في.
(٣) في الأصل و(ل): ظلمهم، وأشير فيهما إلى «كفرهم» على أنه في نسخة أخرى، وهو المثبت في (م)، و«الخريدة».

وَهَزَمْتَهُمْ بالرَّأْيِ قَبْلَ لِقَائِهِمْ   والرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ[1]
أَصْبَحْتَ للإسْلامِ رُكْناً ثابتاً   والكُفْرُ مِنْكَ مُضَعْضَعُ الأَرْكَانِ
قَوَّضْتَ آساسَ الضَّلالِ بِعَزْمِك الـ   ـمَاضي وشِدْتَ مبانيَ الإيمانِ
قُل أينَ مثلُك في الملوك مجاهدٌ   لله[2] في سِرٍّ وفي إعلانِ
لم تَلْقَهم ثِقَةً بقُوَّةِ شَوْكَةٍ   لكِنْ وَثِقْتَ بنُصْرَةِ الرَّحمانِ
ما زال عَزْمُكَ مستقلاً بالذي   لا يَسْتَقِلُّ بِثِقْلِهِ الثَّقَلانِ
وبَلَغْتَ بالتَّأْييد أقْصى مَبْلَغٍ   ما كانَ في وُسْعٍ ولا إمكانِ
دانَتْ لكَ الدُّنْيا فقاصيها إذا   حقَّقْتَه لنفاذِ أمرك داني
فمن العراق إلى الشَّآم إلى ذُرا   مِصْرٍ إلى قُوص* إلى أُسْوانِ
لم تَلْهُ عن باقي البلاد وإنما   ألهاك فَرْضُ الغزو عن هَمَذَانِ[3]
للرُّوم والإفرنج منْك مصائبٌ   بالتُّرك والأكراد والعُرْبانِ
أَذْعَنْتَ لله المهيمن إذ عَنَتْ   لكَ أَوْجُهُ الأملاكِ بالإذْعانِ
أنتَ الذي دونَ الملوكِ وَجَدْتُه   ملآن من عُرْفٍ ومن عِرْفانِ
في بَأْس عمرٍو في بسالة حَيْدَرٍ   في نُطْقِ قُسٍّ في تُقَى سَلْمانِ
سِيرٌ لو أنَّ الوحي يَنْزل أُنزلت   في شأنها سُوَرٌ مِنَ القُرْآنِ
فاسلمْ طويلَ العُمْر ممتدَّ المدى   صافي الحياة مُخَلَّدَ السُّلْطَانِ[4]

---

(١) عجز هذا البيت هو من مطلع قصيدة للمتنبي:
الرأي قبل شجاعة الشجعان   هو أولٌ وهي المَحَلُّ الثاني
انظر «ديوانه» ٤/ ٣٠٧.

(٢) في (م): في الله.

(٣) كان نور الدين يفكر بغزو همذان. انظر ص ١٦٧ من هذا الجزء.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٨ ــ ١٢٩، و«خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٥٤ ــ ٦٢.

وهي قصيدة طويلة، وصف فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه، ومدحهم.

فصـــل

في فتح بلاد النُّوْبة

قال العماد: وفي جُمادى الأولى غزا شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين، بلاد النُّوبة[1]، وأراهم سُطاه المرهوبة، وفتح حِصْناً لهم يُعرف بإبريم، وآلى ألا يريم؛ وهي بلادٌ عديمة الجدوى، عظيمة[2] البَلْوى، ثم جمع السَّبْي، وعاد به إلى أُسْوان، وفَرَّقَ على أصحابه في الغنائم السُّودان.

وقال ابنُ أبي طيّ الحلبي: وفي هذه السنة اجتمعَ السُّودان والعبيد من بلاد النُّوْبة، وخرجوا في أُمم عظيمة قاصدين مُلْكَ بلاد مِصْر، وصاروا إلى أعمال الصَّعيد، وصَمَّموا على قَصْدِ أُسْوان وحصارها، ونَهْبِ قراها. وكان بها الأمير كَنْز الدَّولة[3]، فأنفذ يُعلم الملك النَّاصر، وطلب منه نجدةً، فأنفذ قِطْعةً من جيشه مع الشجاع البَعْلَبَكي. فلما وصل إلى أُسْوان وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخْرَبوا أرضها، فاتَّبعهم الشجاع والكَنْز، فجرت حربٌ عظيمة قُتل فيها من الفريقين عالم عظيم.

ورجع الشُّجاع إلى القاهرة، وأخبر بفعال العبيد، وتمكُّنِهم من بلاد الصَّعيد، فأنفذ الملك النَّاصر أخاه شمسَ الدولة في عسكرٍ كثيف، فوجدهم

(١) للدكتور مصطفى مسعد كتاب في تاريخ النوبة عنوانه: الإسلام والنوبة في العصور الوسطى.

(٢) في (ل): كثيرة.

(٣) وقد خرج بعد على صلاح الدين. انظر ص ٣٣٧ من هذا الجزء.

قد دخلوا بلاد النُّوبة، فسار قاصداً بلادهم، وشَحَن مراكب كثيرةً في البحر بالرِّجال والمِيرة، وأمَرها بلحاقه إلى بلاد النُّوْبة. وسار إليها ونزل على قلعة إبريم، وافتتحها بعد ثلاثة أيام، وغَنِمَ جميع ما كان فيها من المال والكُراع والميرة، وخلَّص جماعةً من الأسرى، وأَسَرَ مَنْ وجده فيها، وهرب ٢٠٩/١
صاحبها.

وكتب إلى السُّلْطان بذلك، فأنشد السُّلْطانَ أبو الحسن بن الذَّرَوي[١] [يهنِّئه][٢] بفتح إبريم[٣] قصيدةً، منها:

فَقَـدِّمِ العَـزْمَ فـذا مُبْتَـدَاه   يَقْصُـر مُلْـكُ الأرضِ عـن منتهـاهْ
واسْحَبْ ذيولَ الجيشِ حتى أرَى[٤]   أنْجمَـه طـالعـةً عَـنْ دُجـاهْ
سـواكَ مـن ألقـى عَصـاه بهـا   قنـاعـةً لمَّـا استقـرَّت نَـوَاه
عليكَ بـالـرُّومِ وَدَعْ صـاحـب التّـ (م) ـساجِ إذا شئـتَ وتُـورانشـاهْ
فقـد غَـدَت إبـريـمُ فـي مُلكـه   تُبـرم أمـراً فيـه كَبْـتُ العُـداهْ
لا بُـدَّ للنُّـوبـة مـن نَـوْبَـةٍ   تُـرضي بسُخطِ[٥] الكُفْـرِ ديـنَ الإلـهْ
تظـلُّ مـن سـوبـة[٦] منسـوبـةً   لعَـزمـةٍ كـامنـةٍ فـي أنـاهْ
تَكْسُـو الغُـزَاة القـاطِنـي أرضهـا   مـا نَسَجَـتْ للحَـرْبِ أيـدي الغُـزاه
سـودٌ وتحمـرُّ الظُّبـى حـولَهـا   كـأعيـنِ الـرُّمْـدِ بَـدَت لـلأُسـاهْ

---

(١) سترد ترجمته في ٣/ ١٠١ من هذا الكتاب.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) واقعة على بعد ٥٥ كلم إلى الشمال من أبي سمبل، ١١٧٢ كلم عن القاهرة. كتاب «صلاح الدين» ليونز وجاكسون (الترجمة العربية) ص ٨١ طبعة بيروت ١٩٨٨ م.
(٤) في (م): يرى.
(٥) في الأصل: لسخط، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) كذا في النسخ الخطية، وفي طبعة وادي النيل: نوبة، ولم يتضح لي المعنى.

أوْ لاَ فَسُمْرٌ يحتميها القَنا مثل دِنَانٍ[1] بزَّلتها[2] السُّقاهْ
للَّهِ جَيْشٌ منك لا ينْثني[3] إلا بنَصْرٍ[4] دَمِيَتْ شَفْرتاهْ
ما بين عِقْبان ولكنَّها خيلٌ وفُرْسان كَمِثْلِ البُزَاهْ
آسادُ حَرْبٍ فوقَ أيديهمُ أساود الطَّعْنِ فهم كالحُوَاهْ
تقلَّدوا الأنهار واستلأموا الـ ـغُدْران فالنِّيران تجري مياهْ

قال: ثم رجع شمس الدولة إلى أُسوان ثم إلى قُوص*، وكان في صحبته أمير يقال له إبراهيم الكُرْدي، فطلب من شمس الدَّوْلة قلعة إبريم، فأقطعه إياها، وأنفذ معه جماعةً من الأكراد البَطَّالين*، فلما حصلوا فيها تفرَّقُوا فِرَقاً. وكانوا يشنُّون الغارات[5] على بلاد النُّوْبة حتى[6] بَرَّحوا بهم، واكتسبوا أموالاً كثيرة حتى عَفَتْ أرزاقهم وكثرت مواشيهم. واتَّفق أنهم عَدُّوا إلى جزيرة من بلاد النُّوْبة[6] تعرف بجزيرة دندان، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه، ورجع من بقي منهم إلى قلعة إبريم، وأخذوا جميع ما كانوا فيها، وأخلَوْها بعد مقامهم بها سنتين، فعاد النُّوبة إليها وملكوها.

وأنفذ ملك النُّوْبة رسولاً إلى شمس الدولة وهو مقيم بقُوص* ومعه كتاب فيه طلب الصُّلْح، ومع الرسول هَدِيَّة؛ عبد وجارية، فكتب له جواب كتابه، وأعطاه زوجَيْ نُشَّاب، وقال: ما لك عندي جواب إلا هذا. وجهَّزَ

(١) في (م): ذئاب.
(٢) بزل: ثقب إناء الخمر، «اللسان» (بزل).
(٣) في (م): لا تنسني، وهو تصحيف.
(٤) في طبعة وادي النيل ١/ ٢٠٩ إلا بنصل.
(٥) في (ل) و (م): الغارة.
(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

معه رسولاً يعرف بمسعود الحلبي، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها. فسار الحلبي مع الرّسول حتى وصل دُنْقُلة[1]؛ وهي مدينة الملك. قال مسعود: فوجدتُ بلاداً ضيِّقة ليس لهم زَرْع إلا الذُّرة، وعندهم نخل صِغار منه إدامُهم. وَوَصَفَ مَلكهم بأوصاف منها [أنْ][2] قال: خرج علينا يوماً وهو عُريان قد ركب فرساً عُرْياً[3]، وقد التفَّ في ثوب أطلس، وهو أقرع ليس على رأسه شعر. قال: فأتيت فسلَّمت عليه، فضحك وتغاشى، وأمر بي أن تكوى يدي، فكوي عليها هيئة صليب، وأمر لي بقدر خمسين رطلاً من الدَّقيق، ثم صرفني. قال: وأما دُنْقُلة فليس فيها عمارة إلا دار الملك فقط، وباقيها أخصاص.

فصـــــل

في وفاة نجم الدّين أيُّوب، والد صلاح الدّين، وطرف من أخباره

قال العماد: وركب نجم الدين أيوب، فشَبَّ به فرسه بالقاهرة عند باب النَّصْر* وسط المَحَجَّة، يوم الاثنين الثامن عشر من ذي الحِجَّة، وحمل إلى منزله، وعاش ثمانية أيام، ثم توفي في يوم الثلاثاء السَّابع والعشرين من ذي الحجة.

وكان كريماً رحيماً، عطوفاً حليماً، وبابه مزدحم الوفود، وهو متلف الموجود ببذل الجود. وكان ولده صلاح الدين عنه غائباً، وفي بلاد الكَرَك*

---

(١) ويقال لها دمقلة أيضاً. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤٧٠، ٤٧٨.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) أي لا سرج عليه. «اللسان» (عرا).

والشَّوْبك* على الغَزَاة مواظباً، فدفن إلى جانب قبر[1] أخيه أسد الدين في بيت في الدَّار السُّلْطانية، ثم نقلا بعد سنين[2] إلى المدينة الشَّريفة النبوِيَّة، على ساكنها أفضل الصَّلاة والسَّلام، والتحية والإكرام، والإجلال والإعظام، وعلى آله وصحبه وسلم[3].

قلت: وقبرهما في تُرْبة الوزير جمال الدِّين الأَصْفهاني وزير المَوْصِل المقدَّم ذكره[4]، رحمهم الله تعالى.

وقال القاضي ابن شداد: ولما عاد صلاح الدين من غَزاته بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة أبيه نجم الدين، فشقّ ذلك عليه حيث لم يحضر وفاته. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد الرّكض، وَلِعاً بلعب الكرة* بحيث من رآه يلعبُ بها يقول: ما يموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس[5]. ١/ ٢١٠

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى عز الدين فَرُّخْشاه[6] بمصر يقول فيه: صح[7] من المصاب بالمولى الدَّارج[8] ـ غفر الله له ذنبه، وسقى بالرحمة تُرْبَه ـ ما عظمت به اللَّوْعة، واشتدَّت الرَّوْعة، وتضاعفت لغيبتنا عن

---

(١) قبر، ساقطة من (م).

(٢) نقلا سنة (٥٨٠ هـ). انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٥٨.

(٣) في (م): على ساكنها السلام والصلاة والتحية. وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٤) انظر ص ٤٢٠ من الجزء الأول.

(٥) «النوادر السلطانية»: ٤٦.

(٦) له ذكر في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته في ٣/ ١٢٦.

(٧) صح، ليست في (م).

(٨) الدارج، من دَرَجَ: أي مات. «معجم متن اللغة» ٢/ ٣٩٤.

مشهده الحسرة، فاستنجدنا بالصَّبر فأبى وأنجدت[1] العبرة، فيا له فقيداً فُقِدَ عليه العزاءُ، وهانت بعده الأرزاء، وانتثر شمل البركة بفقده، فهي بعد الاجتماع أجزاء.

وتخطفته يدُ الرَّدى في غيبتي ... هَبْني حَضَرْتُ فكنت ماذا أَصْنَعُ

قال ابنُ أبي طيّ الحلبي: هو الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي[2]، ولا يُعرف في نسبه أكثر من والده شاذي. وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: كان تقي الدين عمر يزيد فيقول: شاذي بن مروان.

قلت: وسمعت أنا من يقول: شاذي بن مروان بن يعقوب.

قال ابنُ أبي طيّ: وقد ادَّعى ابنُ سيف الإسلام لما ملك اليمن أنَّهم[3] من بني مروان[4] بن محمد الجَعْدِي المعروف بالحمار، يعني آخر خلفاء بني أميَّة. قال: وقد نقَّبْتُ عن ذلك فأجمع الجماعة من آل أيوب أنَّ هذا كذبٌ، وأن جميع آل أيوب لا يَعرفون جَدًّا فوق شاذي. وكذلك أخبرني السلطان الملك الظَّاهر[5] رحمه الله تعالى.

قلت: ودليل[6] صحة ذلك أنني وقفتُ على كتاب وقف الرباط[7] النَّجْمي[6] بدمشق، ولم يزد فيه على نجم الدين أبو سعيد أيوب بن شاذي العادلي، وابن سيف الإسلام هذا هو أبو الفداء إسماعيل بن طُغْتِكِين بن

(١) في الأصل و (ل): وانحدرت، والمثبت من (م).

(٢) في «وفيات الأعيان»: ١/ ٢٥٩ «وهذا الاسم أعجمي، ومعناه بالعربي: فرحان».

(٣) في الأصل: أنه، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) قول ابن أبي طي هذا مكرر في (م) ومصحح.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٨ ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٦ ـ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

(٧) في الأصل: رباط، والمثبت من (ل)، وقد وقفه قبل سفره إلى مصر سنة (٥٦٥ هـ) وقد درس. انظر ص ١٤٩ من هذا الجزء.

أيوب بن شاذي، ابن أخي السُّلْطان صلاح الدين، ملك اليمن بعد أبيه[1] وتعاظم إلى أن ولَّى نفسه الخلافة، وادَّعى أنه من بني أمية، وعزم على إعادة الخلافة من بني هاشم إلى بني أمية، وله في ذلك أشعار كثيرة[2]، وتلقَّب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين. ومدحه كثيرٌ من الشُّعراء بذلك، وزيَّنُوا له فعله وما هو فيه، فمن شعره:

وإنـي أنـا الهـادي الخليفـةُ والـذي ... أدوسُ رقابَ الغُلْبِ بالضُّمَّرِ الجُرْدِ
ولا بُـدَّ مِـنْ بغـدادَ أطـوي رُبُـوعَهـا ... وأَنْشُـرهـا نَشْـرَ السَّمـاسِـرِ للبُـرْدِ
وأنصـب أعـلامـي علـى شُـرُفـاتهـا ... وأُحيـي بهـا مـا كـان أَسَّسَـهُ جَـدِّي
ويُخْطَـبُ لـي فيهـا علـى كـلِّ مِنْبَـرٍ ... وأُظْهِـرُ ديـنَ الله فـي الغَـوْرِ والنَّجْـدِ

ثم قال ابنُ أبي طيّ: وكان نجم الدين أيوب عدلاً مرضياً، كثير الصَّلاة والصِّلات، غزير الفَضْل والخيرات، يحب العلماء، ويميل إلى الفُضَلاء، وكان مُمَدَّحاً، مدحه العماد الكاتب بعِدَّة قصائد.

قال: وكان مولد[3] نجم الدين أيوب ببلد شبختان، كذا حكاه مُؤَيَّد

---

(١) ولي أبوه طغتكين اليمن سنة (٥٧٨ هـ)، وتوفي سنة (٥٩٣ هـ) بالمنصورة، وهي مدينة اختطها باليمن، ومدحه الشاعر ابن عُنين بغرر القصائد حين دخوله اليمن، وابنه إسماعيل قتل سنة (٥٩٨ هـ) وكان أهوج، كثير التخليط. انظر «الكامل»: ١١/ ٤٨٠ ـ ٤٨١، و «رحلة ابن جبير»: ١٢٦، و «وفيات الأعيان»: ٢/ ٥٢٣ ـ ٥٢٥، و «شفاء القلوب» ١٩٨ ـ ٢٠٠، و«العقود اللؤلؤية»: ١/ ٢٩، و «تاريخ ثغر عدن»: ١٣٣ ـ ١٣٦، ٥١ ـ ٥٢، و «بلوغ المرام»: ٤١، وانظر ص ٩٤، وما بعدها من الجزء الثالث. و«المذيل على الروضتين» حوادث سنة ٥٩٣ هـ.

(٢) أورد له أبو الغنائم مسلم بن محمود الشيزري في كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» قصيدة طويلة يدعي فيها أن بني أيوب أمويون. انظر «مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق»: ٣٣/ ٦.

(٣) هنا ينتهي الخرم الذي ابتدأ من ص ١٣٠ من هذا الجزء، انظر حاشيتنا رقم ٥ من الصفحة المذكورة.

الدين ابن منقذ[١]. وحدَّثني جماعةٌ أنَّ مولد نجم الدين كان بجبل جُور[٢]، ورُبي في بلد المَوْصِل. ونشأ شجاعاً باسلاً، وخدم السُّلْطان محمد بن مَلِكْشاه[٣] فرأى منه أمانة وعقلاً، وسَداداً وشهامة، فولاه قلعة تَكْريت*، فقام في ولايتها أحسنَ قيام، وضبَطَها أكْرَمَ ضبط، وأجْلى مِن أرضها المفسدين وقُطَّاع الطريق وأهل العَيْث، حتى عُمِرَتْ أرْضُها، وحَسُنَ حال أهلها، وأمنت سُبُلها.

فلما ولي السُّلْطان مسعود[٤] المُلْكَ أقطع قلعة تكريت لمجاهد الدين بِهْرُوز الخادم[٥] شِحنة* بغداد ومُتولي العراق ــ وكان هذا بهروز أميراً ينفذ أمره في جميع العراق إلى البصرة إلى الموصل إلى أصفهان، وكانت خيله خمسة آلاف فارس ــ فأقرَّ الأمير نجم الدين في ولاية تَكْريت، وأضاف إليه النظر في جميع الولاية المتاخمة له، وقرَّر أمره عند السلطان مسعود، وجعل بِهْرُوز قلعة تكريت خزانة أمواله وبيت عقائله، وجعل جميع ذلك منوطاً بالأمير نجم الدين، ومَعْذُوقاً[٦] بهِمَّته.

وكان نجم الدين عظيماً في أنفس النَّاس بالدين والخير وحُسْن السِّياسة، وكان لا يمرُّ أحدٌ من أهل العلم والدين به إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة، وكان لا يَسمعُ بأحدٍ من أهل الدين في مدينة إلا أنفذ إليه.

---

(١) هو أسامة ابن منقذ، والمشهور أنه مؤيد الدولة، ويلقب أحياناً بمؤيد الدين. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/٥٦٨.

(٢) اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحي أرمينية. انظر «معجم البلدان»: ٢/١٠٢.

(٣) انظر ترجمته ص ١٠٧ ــ ١٠٨ من الجزء الأول.

(٤) انظر ترجمته ص ٢٨٦ من الجزء الأول.

(٥) انظر ص ٤٠٤ من الجزء الأول.

(٦) بمعنى منوطاً، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٨ من هذا الجزء.

وقد ذكر العماد الكاتب في «سيرة السَّلْجُوقية» الأمير نجم الدين وقرَّظه وأثنى عليه، وذكر من دينه وعِفَّته ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء حسنة. وحكى قضية عمه العزيز حين حُبس عنده بقلعة تكريت من جهة الوزير الدَّرْكَزيني(١)، وأمره بقتله، فأبى نجم الدين إلى أن قتله بِهْرُوز بنفسه بأمر الدَّرْكَزيني(٢).

ثم إن السلطان مسعوداً حَشَدَ وخرج في أخذ السَّلْطنة، وطمع هو وأتابك زنكي بن آق سُنْقُر في بغداد، وجرَّدا عسكراً ضخماً، وسارا إلى تكْريت طامِعَيْن في بغداد، واتصل هذا الخبر بقراجه السَّاقي ــ وهو أتابك ابن السُّلْطان محمود(٣) ــ فجرَّد ألف فارس للقاء زَنْكي(٤)، ثم أردفهم بعسكرٍ ضخم، فانهزم(٤) زنكي، وقُتل جماعة من أصحابه، ونهب جميع ما كان في عسكره، ولجأ إلى سور تكْريت وبه عِدَّة جراحات. وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شِيركُوه، فمتحاه إلى القلعة بحبالٍ، وداوَيا جراحاته، وخدماه أحسن خدمة، وتقربا إليه؛ فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً. ثم سار إلى الموصل، وأعوزه الظَّهْر، فأعطياه جميع ما كان عندهما من الظَّهْر حتى إنّهما أعطياه جُمْلَةً من البقر حمل عليها ما سلم معه ٢١١/١
مِنْ أمتعته. فكان زنكي يرى لأيوب هذه اليد، ويعرف له هذه الصَّنيعة، ويواصله بالهدايا والألطاف مُدَّة مُقامه في تكريت. فلما انفصل عنها ــ على

---

(١) هو أبو القاسم ناصر بن علي الأنساباذي الدركزيني، ولي الوزارة سنة (٥١٨ هـ)، وقتل سنة (٥٢٧ هـ). انظر أخباره في «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٣٥ وما بعدها، و «معجم البلدان»: ٢/ ٤٥١.

(٢) انظر «تاريخ دولة آل سلجوق»: ١٥٥ ــ ١٥٦.

(٣) انظر ص ٤٠٤ من الجزء الأول.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

ما سنذكره ــ تلقَّاه زَنْكي بالرَّحب والسَّعة، واحترمه احتراماً عظيماً، وأقطعه عدة قطائع.

وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة، حتى ملك بذلك حبَّات قلوبهم، وكان أخوه شِيركُوه معه في القلعة، وكان شُجاعاً باسلاً[1]، ينزل من القلعة ويصعد إليها في أسبابه وحاجاته. وكان نجم الدين لا يفارق القلعة ولا ينزل منها. فاتَّفق أن أسد الدين نزل من القلعة يوماً لبعض شأنه ثم عاد إليها، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارص، وكان رجلاً نصرانياً، فاتَّفق في ذلك اليوم أن النَّصراني صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة، فعبث به بكلمة مُمِضَّة، فجرَّد أسد الدين سيفه، وقتل النصراني، وصَعِدَ إلى القلعة، وكان مهيباً، فلم يتجاسر أحدٌ على معارضته في أمر النصراني بشيء، وأُخذ النَّصْراني بِرِجْله، فأُلقي من القلعة.

وبلغ بِهْرُوز صاحبُ قلعة تكريت[2] ما جرى، وحضر عنده مَنْ خَوَّفه جُرأة أسد الدين وأنه ذو عشيرة كبيرة، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرَّعايا، وأنه ربما كان منهما أمرٌ تخشى عاقبته ويصعب[3] استدراكه. فكتب إلى نجم الدين يُنكر عليه ما جرى من أخيه، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائبٍ سيَّره صُحبة الكتاب. فأجاب نجم الدين ذلك بالسَّمع والطَّاعة، وأنزل من القلعة جميع ما كان له بها من أهلٍ ومال، واجتمع هو وأخوه أسد الدين وصمّما على قصد عماد الدين زنكي بالموصل.

وقيل: إن أسد الدين كان خرج إلى المَوْصِل قبل نجم الدين.

---

(١) باسلاً، ساقطة من (م).

(٢) في (م): صاحب تكريت.

(٣) في (م): ويضعف، وهو تصحيف.

وأعْظَمَ أهلُ تكريت خروج نجم الدين مِنْ بين أظهرهم، ولم يبق أحدٌ إلا خرج لتوديعه وأظهر البكاء والأسف على مفارقته.

ولما اتصل بأتابك زَنْكي قُدومُهما أفْرَحَه ذلك، وأمر الموكب بلقائهما، وأكرمهما إكراماً عظيماً، وأقْطعهما في بلد شهرزور* إقطاعاً سنياً. وقيل: إنه أقطع أسد الدين بالمُوَزَّر*.

وجرى بين أسد الدين وجمال الدين الوزير[1] مودَّة عظيمة حتى حلف كل واحدٍ منهما للآخر أنه يقوم بأمره في حياته وبعد وفاته. وتجرَّد جمال الدين في أمر أسد الدين وأمْرِ أخيه نجم الدين حتى قرَّبهما من قلب أتابك، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة. وخرجا معه إلى الشَّام، وشهدا معه حروب الكُفَّار وقتال الفرنج ــ لعنهم الله تعالى ــ وكان لأسد الدين في تلك الوقائع اليد البيضاء، والفَعْلَة الغَرَّاء.

وحدَّثني أبي رحمه الله تعالى قال: حدَّثني سعد الدولة أبو الميامن المؤملي[2] ــ وكان أحد أصحاب نجم الدين أيوب ــ قال: وحدّثني أيضاً بهذه الحكاية مجد الدين ابن داية الملك الصَّالح قال: حدّثني حسام الدين سُنْقُر غلام الأمير نجم الدين أبي طالب ــ وكان سُنْقُر هذا يخدم مع الأمير نجم الدين أيوب بن شاذي ــ قال: كنت في صحابة الأمير نجم الدين لما نفَّذه نور الدين بن زنكي إلى ابنه السُّلْطان الملك النَّاصر إلى مصر مِنْ أجل قطع خُطْبة المصريين، وإقامة دعوة بني العباس، في أول سنة سبع وستين وخمس مئة، واتفق أني كنت حاضراً وقد اجتمع السلطان الملك الناصر

(١) سلفت ترجمته ص ٤٢٠ من الجزء الأول.
(٢) في (م): الموصلي.

ووالده الأمير نجم الدين في دار الوزارة، وقد قعدا على طُرَّاحة[1] واحدة، والمجلس غاصٌّ بأرباب الدَّوْلتين، وعند الناس من الفرح والسرور ما قد أذهل العقول. فبينا الناس كذلك إذ تقدَّم كاتبٌ نصراني كان في خدمة الأمير نجم الدين، فقبَّل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر ووالده [الأمير] نجم الدين[2]، والتفت إلى نجم الدين وقال له: يا مولاي، هذا تأويل مقَالتي لك بالأمس حين وُلد هذا السلطان. فضحك نجم الدين وقال: صدقتَ والله. ثم أخذ في حمدِ الله وشُكْره والثناء عليه، والتفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء، والقُضَاة والأمراء، وقال: لكلامِ هذا النَّصْراني حكايةٌ عجيبة؛ وذلك أنّني ليلة رُزقت هذا الولد ــ يعني السلطان الملك الناصر ــ أمرني صاحب قلعة تكريت في تلك الليلة بالرِّحلة عنها بسبب الفَعْلة[3] التي كانت من أخي أسد الدين شِيركُوه رحمه الله وقَتْله النَّصْراني، وكنت قد ألِفْت القلعة، وصارت لي كالوطن، فَثَقُلَ عليَّ الخروج منها، والتَّحوُّل عنها إلى غيرها[4]، واغتَمَمْت لذلك. وفي ذلك الوقت جاءني البشير بولادته فتشاءمت به، وتطيَّرت لِمَا جرى عليَّ، ولم أفرح به ولم أستبشر، وخرجنا من القلعة، وأنا على طِيَرتي به لا أكاد أذكره ولا أسميه، وكان هذا النصراني معي كاتباً، فلما رأى ما نزل بي من كراهية الطفل والتشاؤم به استدعى مني أن آذن له في الكلام، فأذنتُ له، فقال لي: يا

(١) الطرَّاحة: كلمة عامية تعني وسادة مربعة ومحشوة موثرة، تطرح ليجلس عليها، مأخوذة من طرح الوسادة إذا ألقاها، فكأنها بمعنى مطروحة، وفصيحها الميثرة، وتعرف في مصر: الشلتة. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٩٤ حاشية رقم (١). و«قاموس رد العامي إلى الفصيح» ٣٤٦ ــ ٣٤٧.

(٢) نجم الدين، ساقطة من (ل)، وما بين حاصرتين من (م).

(٣) في (م): القلعة، وهو تصحيف.

(٤) إلى غيرها، ساقطة من (ل).

مولاي، قد رأيتُ ما قد حدث عندك من الطِّيَرَة بهذا الصبي، وأي شيء له من الذنب، وبِمَ استحق ذلك منك وهو لا ينفع ولا يضر ولا يُغْني شيئاً! وهذا الذي جرى عليك قضاءٌ من الله تعالى سبحانه وقَدَر، ثم ما يُدريك أنَّ هذا الطفل يكون ملكاً عظيم الصيت[1]، جليلَ المقدار. فعطفني كلامه عليه، وها هو قد وقفني على ما كان قاله. فتعجَّب الجماعة من هذا الاتفاق، وحَمِدَ السُّلْطان ووالده الله تعالى سبحانه وشكراه.

قلت: ولعُمارة في نجم الدين مدائح ومراثٍ، منها قوله:

ثَغْرُ الزَّمان بنجمِ الدِّين مُبْتَسِمُ ... وَوَجْهُهُ بِدَوَامِ العِزِّ مُتَّسِمُ

يقولُ فيها:

أَضْحَى بكَ النِّيْلُ محجوجاً ومُعْتَمَراً ... كأنَّما حَلَّ فيهِ الحِلُّ والحَرَمُ ٢١٢/١
جاءت بَنُوك وشَمْلُ الدِّين مُنْتَثِرٌ ... فقَارعوا عنه فَهْوَ اليومَ مُنْتَظِمُ
وما دَرَى أحدٌ من قَبْلِ رُؤْيَتِهِمْ ... أنَّ الحُظُوظَ بِلَثْمِ الأَرْضِ تُقْتَسَمُ
نامَتْ عيونُ الوَرَى في عَدْلِ سيرتهمْ ... كأنَّ يقظتَنا في عَصْرِهِمْ حُلُمُ
والنَّاصِرُ ابنُكَ كافٍ[2] كلَّ مُعْضِلَةٍ ... إذا الحوادثُ لم يُكْشَفْ لها غَمَمُ
أَعَزَّ بالبأسِ والإحسانِ حَوْزَتَنا ... فلم يُلِمَّ بنا خَوْفٌ ولا عَدَمُ
تَبَسَّمَ الدَّسْتُ مِنْ أيوبَ عن مَلِكٍ ... تَنْحطُّ عن قَدْرِهِ الأقْدارُ والهِمَمُ[3]

وقال في مرثيته:

هي الصَّدْمَةُ الأُولى فمن بانَ صَبْرُهُ ... على هَوْلِ مَلْقاها تَضاعَفَ أَجْرُهُ

---

(١) في (م): عظيما عظيم الصيت.
(٢) في الأصل و(ل): كافي، والمثبت من (م).
(٣) انظر أبياتاً من القصيدة غير هذه في «النكت العصرية»: ٣٥٥ ـ ٣٥٦. وسيأتي بعض أبياتها ص ٢٩١ من هذا الجزء.

أذمُّ صباحَ الأربعاءِ فإنه تبسَّمَ عن ثَغْرِ المَنِيَّةِ فَجْرُهُ
أصابَ الهُدَى في نجمهِ بمصيبةٍ تَداعَى سِماكُ الجوِّ منها ونَسْرُهُ
فلا تَعْذُلونا واعْذُرونا فَمَنْ بكى على فَقْدِ أيوبٍ فَقَدْ بانَ عُذْرُهُ
أقامَ بأعمالِ الفُراتِ وخَيْلُهُ يُراعُ بها نِيلُ العزيزِ ومِصْرُهُ
إلى أنْ رماها من أخيه بِضَيْغَمٍ فرىٰ نابُه أهلَ الصَّليبِ وظُفْرُهُ
فلما قَضَى نَحْبَي حياةٍ ودَوْلَةٍ بأمرك في إدراكها تَمَّ أمْرُهُ
تعاقَبتما مِصْراً تَعاقُبَ وابِلٍ يبيتُ بقُطْرِ النِّيلِ ينهلُّ قَطْرُهُ
نَزَلْتَ بدارٍ حَلَّها فَحَلَلْتَها فمَغْناكَ مَغْناهُ وقُطْرُكَ قُطْرُهُ
وواخيتَه في البَرِّ حيّاً وميِّتاً فَقَبْرُكَ في دارِ القَرَارِ وقَبْرُهُ
وقد شَخَصَتْ أهلُ البقيعِ إليكما وإلا فَسُكَّانُ الحَجُونِ وحِجْرُهُ
هنيئاً لمَلْكٍ ماتَ والعِزُّ عِزُّه وقُدْرَتُهُ فَوْقَ الرِّجالِ وقَدْرُهُ
وأَدْرَكَ مِنْ طُولِ الحياةِ مُرادَه وما طالَ إلا في رِضا الله عُمْرُهُ
وأَسْعَدُ خَلْقِ الله مَنْ ماتَ بعدما رأى في بني أبنائه ما يَسُرُّهُ
شهيدٌ تلقَّى رَبَّه وهو صائِمٌ فكانَ على أجْرِ الشَّهادَةِ فِطْرُهُ

[منها][1]:

مضى وهو راضٍ عنكَ لم تَرِمْ صَدْرَه بضيقٍ ولا جاشَتْ من الغيظ قِدْرُهُ
حمى حَوْزَةَ الإِسلام والدِّين بعده ثمانيةٌ من أَجْلِهِمْ عَزَّ نَصْرُهُ
فكيف بخِيْس[2] آلُ أيوبَ أُسْدُه لقد بانَ خَوْفُ الدَّهْرِ منه وذُعْرُهُ
رَعَى الله نجماً تَعْرِفُ الشَّمْسُ أنَّه أبوها ونورُ البَدْرِ منها وزُهْرُهُ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ل).
(٢) الخيس: الشجر الكثير الملتف، وهو موضع الأسد، انظر «اللسان» (خيس).

وأبقـى المَقَـامَ النَّـاصِـرِيَّ فـإنَّـه   لِـدَوْلَتِكُـمْ كَنْـزُ الـرَّجـاءِ وَذُخْـرُه[1]

وقال أيضاً:

صَفْوُ الحياةِ وإنْ طالَ المَدَى كَدَرُ   وحادثُ الموتِ لا يُبْقي ولا يَذَرُ
ومـا يَـزالُ لسـانُ الـدَّهْـرِ يُنْـذِرُنـا   لـو أثَّـرَتْ عنـدنـا الآيـاتُ والنُّـذُرُ
فـلا تَقُـلْ غـرَّت الـدُّنيـا مطـامِعَنـا   فمـا مَـعَ المـوتِ لا غِـشٌّ ولا كَـدَرُ
كـأسٌ إذا مـا الـرَّدى حَيَّـا الحيـاة بهـا   لـم يَنْـجُ مِـنْ سُكْـرِهـا أنثـى ولا ذَكَـرُ
كَمْ شامخِ العزّ لاقَى الذُّلّ من يَدِها   مـا أَضْعَـفَ القَـدْرَ إنْ أَلْـوى بـه القَـدَرُ
فـي كـلِّ جيـلٍ وعَصْـرٍ مِـنْ وقـائعهـا   شَعْـوَاء يَقْطُـرُ منهـا النَّـابُ والظُّفُـرُ
أودى علـيٌّ وعثمـانٌ بمخلبهـا   ولـم[2] يَفُتْهـا أبـو بكـر ولا عُمَـرُ[3]
ومَـن أراد التَّـأسِّـي فـي مُصِيبَتِـه   فلِلْـوَرَى بـرسـولِ الله مُعْتَبَـرُ[4]
نجمٌ هَوَى من سماءِ الدِّين مُنْكَدِراً   والنَّجْمُ من[5] أُفْقِهِ يهوي وَيَنْكَدِرُ[6]
منظـومـةٌ أَنْجُـمُ الجوزاء مـن جَزَعٍ   لـه وعِقْـدُ الثُّـريَّـا منـه مُنْتَثِـرُ ٢١٣/١
وكيـف يُنْسـى مُحَيَّـاه الكريـمُ ومِـنْ   نُعمـاه فـي كـلِّ عَيْـشٍ صـالـحٍ أَثَـرُ
جَـدَّدْتَ مِـنْ أَسَـدِ الـدِّيـنِ الشَّهيـدِ لنـا   حُـزْنـاً بـه يتسـاوى الصَّبْـرُ والصَّبِـرُ
قـد كـانَ للـدِّيـن والـدُّنيـا بعـزمكمـا   ذكـرٌ يُعَبِّـرُ عنـه الصَّـارِمُ الـذَّكَـرُ
إنْ فـاحَ نَشْـرُ كـلامٍ تُمـدحـانِ بـه   مِسْكـاً فَعِتْـرَةُ أيـوبٍ هـي العِتَـرُ

---

(١) انظر أبياتاً من هذه القصيدة في «النكت العصرية»: ٢٦٠ ــ ٢٦١، و «مفرج الكروب»: ١/ ٢٣١ ــ ٢٣٢.

(٢) في الأصل: ولا، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في هامش الأصل: رضي الله عنهم.

(٤) في هامش الأصل و (ل): ﷺ.

(٥) في (م): في.

(٦) انكدرت النجوم: تناثرت. «اللسان» (كدر).

تخفي ذُبالَ مصابيحِ إذا طَلَعُوا صُبْحاً وتُنسي مُلوكَ الأرضِ إنْ ذُكِرُوا
كأنَّما صَوَّرَ اللهُ الكمالَ بهم شَخصاً ويوسفُ منه السَّمْعُ والبَصَرُ
لا شَوْبَكٌ* منه معصومٌ ولا كَرَكٌ* ولا خليلٌ ولا قُدْسٌ ولا زُغَرُ*
لم يرتَحِلْ قافلاً إلا وساكنها إما مُبَاحٌ حِماه أو دمٌ هَدَرُ
ما ماتَ أيوبُ إلا بعد مُعْجِزَةٍ في المجد لم يُؤْتَها من جِنْسِهِ بَشَرُ
مضى سعيداً من الدُّنيا وليسَ له في رُتْبَةٍ أَرَبٌ باقٍ ولا وَطَرُ
وطوَّلَ اللهُ منه باع أربعة منها النَّدى والتُّقَى والمُلكُ والعُمُرُ
وأشرفُ المُلكِ ما امتدَّت مسافَتُهُ في صِحَّةٍ أخواها العَقْلُ والكِبَرُ
ومن سَعَادتِهِ أنْ ماتَ لا سَأمٌ يشكوه منه مُعانيه ولا ضَجَرُ[١]

فصل

قال العماد: وسار نور الدين قاصداً جانب الشّمال لتسديد ما اختلَّ هناك من الأحوال. فسار إلى بَعْلَبك ومنها إلى حمص ثم حلب، وفعل في كلٍّ منها من المصالح ما وجب، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الرُّوم[٢]، ففتح مَرْعَش* في العشرين من ذي القَعْدَة، ثم فتح بَهَسْنىٰ*، واتَّبع في كلٍّ منهما الطريقة الحُسْنى.

وكتب العماد إلى صديقٍ له بدمشق، وكان سافر عنها مع نور الدين في أطيب فصولها وهو زمن المِشْمِش:

كتابي فَدَيْتُك من مَرْعَشٍ* وخوفُ نوائبها مُرْعِشي

---

(١) في «النكت العصرية»: ٢٦٩ بيتان من القصيدة.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من الجزء الأول.

وما مَرَّ في طَرْفِها مُبْصِرٌ صحيحُ النَّواظر إلا عَشي[1]
وما حَلَّ في أرضها آمِنٌ من الضَّيْمِ والضُّرِّ إلاّ خَشِي
تُرَنِّحُني نشَواتُ الغَرامِ كأنّيَ مِنْ كأسِهِ مُنْتَشي
أُسِرُّ وأُعْلن بَرْحَ الجَوَى فقَلبي يُسِرُّ ودمعي يَشي
بَذَلْتُ لكم مُهْجتي رِشوَةً فحاكِمُ حُبِّكُمُ مُرْتَشي
وكيف يَلَذُّ الكَرَى مُغْرَمٌ بنارِ الغَرَامِ حَشَاه حُشِي
بِمَرْعَشَ أبغي وبلُوطِها مُضَاهاة جِلِّقَ والمِشْمِشِ![2]

قال العماد في «الخريدة»: فسارت هذه القطعة، ونُمي حديثها إلى نُور الدين، فاستنشدنيها، فأنشدتُها إياه ونحن سائرون في وادٍ كثير الأشجار مع بيتين بَدَهْتُ بهما في الحال، وهما:

وبالمَلكِ العادِلِ اسْتَأنَسَتْ نجاحاً مُنى كلِّ مُسْتَوْحِشِ
وما في الأنامِ كريمٌ سواه فإنْ كُنْتَ تُنْكِرُ ذا فتِّشِ[3]

وقال ابنُ الأثير: وفي سنة ثمانٍ وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السَّلْجُوقي[4]، وهي مَلَطْية* وسيواس* وقُونية* وأَقْصَرا*، عازماً على حربه وأخذ بلاده منه.

---

(١) في (ل): غشي.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٤، و «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٦٣ ــ ٦٤.
(٣) انظر «الخريدة» بداية قسم شعراء الشام: ٦٤ ــ ٦٥.
(٤) في (ل) و (م): السلجقي.

وكان سببُ ذلك أنَّ ذا النُّون بن دانْشَمَنْد[1] صاحب مَلَطْيَة وسيواس وغيرهما من تلك البلاد قَصده قليج أرسلان، وأخذ بلاده، وأخرجه عنها طريداً فريداً، فسار إلى نور الدين مستَجيراً به، وملتجئاً إلى ظِلِّه، فأكرم نُزله وأحسن إليه، وحمل له ما يليقُ أن يُحملَ للملوك، ووعدَه النَّصْر والسَّعي في ردِّ ملكه إليه. وكانت عادة نور الدين أنه لا يقصد ولاية أحدٍ من المسلمين إلا ضرورةً؛ إما ليستعين بها على قتال الفرنج، أو للخوف عليها منهم، كما
٢١٤/١ فعل بدمشق ومصر وغيرهما. فلما قصده ذو النُّون راسل قليج أرسلان وشفع إليه في إعادة ما غلبه عليه من بلاده، فلم يجبه إلى ذلك، فسار نور الدين نحوه، فابتدأ بكيسون[2] وبَهَسْنَىٰ* ومَرْعَش* ومَرْزُبان، فملكها وما بينها من الحصون، وسيَّرَ طائفةً من عسكره إلى سيواس فملكوها.

وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلادَه قد سار من أطرافها التي تلي الشَّام إلى وسطها خوفاً وفَرقاً، وراسل نور الدين يستعطفه، ويسأله الصُّلْح والصَّفْح عنه، فتوقَّف نور الدين عن قَصْدِه رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب، فأتاه من الفرنج ما أزعجه، فأجابه إلى الصُّلْح.

وكان في جملة رسالة نور الدين إليه: إنني أريد منك أموراً وقواعد، ومهما تركتُ منها فلا أترك ثلاثة أشياء: أحدها أن تجدِّد إسلامك على يد رسولي حتى يحلَّ لي إقرارك على بلاد الإسلام، فإني لا أعتقدك مؤمناً ــ وكان قليج أرسلان يُتَّهم باعتقاد مذاهب الفلاسفة ــ والثَّاني إذا طلبتُ عسكرك إلى الغزاة تسيِّره، فإنَّك قد ملكت طرفاً كبيراً من بلاد الإسلام،

---

(١) ولي للمرة الأولى سنة (٥٣٧ هـ) حتى (٥٥٠ هـ)، ثم ولي ثانية سنة (٥٦٤ هـ) حتى سنة (٥٦٩ هـ)، وقد توفي في نهايتها. انظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٢٢١.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ويريد: كيسوم، لأن رستاقها هو رستاق بهسنى. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٥١٦.

وتركت الرُّوم وجهادهم وهادنتهم، فإما أن تكون تُنْجدني بعسكرك لأقاتل بهم الفرنج، وإما أن تجاهد مَنْ يجاورك من الرُّوم، وتبذل الوسع والجهد في جهادهم. والثالث أن تزوِّج ابنتك لسيف[1] الدين غازي ولد أخي. وذكر أموراً غيرها.

فلما سمع قليج أرسلان الرِّسالة قال: ما قصد نور الدين إلا الشَّناعة عليَّ بالزَّندقة، وقد أجبتُه إلى ما طلب، أنا أجدِّد إسلامي على يد رسوله. واستقرَّ الصُّلْح، وعاد نور الدين، وترك عسكره في سيواس* مع فخر الدّين عبد المسيح[2] في خدمة ذي النُّون، فبقي العسكر بها إلى أن مات نور الدين رحمه الله تعالى، فرحل العسكر عنها، وعاد قليج أرسلان وملكها[3].

قال العماد: وفي هذه السنة وصل الفقيه الإمام الكبير قطب الدين النَّيْسَابوري[4]؛ وهو فقيه عصره، ونسيج وحدِه، فَسُرَّ نور الدين به، وأنزله بحلب بمدرسة باب العراق، ثم أطلعه إلى دمشق، فدرَّس بزاوية الجامع الغربية المعروفة بالشيخ نصر المقدسي[5] رحمه الله تعالى، ونزل بمدرسة

---

(١) في (م): بسيف.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٦٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ١٦٠ ــ ١٦١.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٥) هو نصر بن إبراهيم بن نصر النابلسي المقدسي، الفقيه الشافعي، ولد قبل سنة (٤١٠ هـ)، وقدم دمشق سنة (٤٨٠ هـ)، ونزل في الزاوية الغربية من مسجد دمشق، ثم عرفت هذه الزاوية فيما بعد بالزاوية الغزالية لنزول الإمام الغزالي فيها أيضاً سنة (٤٨٩ هـ). وكان الشيخ نصر متقشفاً، متجنباً ولاة الأمور، قانعاً باليسير من غلة أرض كانت له بنابلس، يأتيه منها ما يقتاته، ولا يقبل من أحد شيئاً، توفي سنة (٤٩٠ هـ)، ودفن في مقبرة الباب الصغير. انظر «سير أعلام النبلاء»: ١٩/١٣٦ ــ ١٤٣، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٥/٣٥١ ــ ٣٥٣، ٦/١٩١ ــ ٣٨٩.

الجاروخ[1]. وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشَّافعية لفضله، وأدركه الأجل دون إدراك عملها لأجله.

قلتُ: هي المدرسة العادليّة* الآن التي بناها بعده الملك العادل أبو بكر بن أيوب؛ أخو صلاح الدين، وفيها تربتُه، وقد رأيت أنا ما كان بناه نور الدين ومَنْ بعده منها وهو موضع المسجِد والمحراب الآن. ثم لما بناها الملك العادل أزال تلك العمارة، وبناها هذا البناء المتقن المُحْكَم الذي لا نظير له في بنيان المدارس، وهي المأوى وبها المثوى، وفيها قَدَّر الله سبحانه وتعالى جَمْع هذا الكتاب، فلا أَقْفَرَ ذلك المنزلُ ولا أَقْوى[2]. وبقي قطب الدين إلى أن توفي في الأيام النَّاصرية في سنة ثمانٍ وسبعين. ووقف كتبه على طلبة العلم، ونُقِلَتْ بعد بناء هذه المدرسة إليها، فما فاتها ثمرته إذ فاتها مُبَاشرته، رحمه الله تعالى.

قال العماد: وكان وَفَدَ في سنة أربع وستين شيخ الشُّيوخ* عماد الدين أبو الفَتْح محمد[3] بن علي بن محمد بن حَمُّويه، فأقبل عليه نور الدين، وأمرني بإنشاء مَنْشورٍ له بمشيخة الصُّوفية، ورغَّبه في المقام بالإحسان إليه

---

(1) في النسخ الخطية، و«سنا البرق الشامي» ١/ ١٣٥ الجاروق، وإخاله تحريفاً وما أثبتناه هو الصواب، انظر «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦١٧ هـ) ترجمة صدر الدين بن شيخ الشيوخ، وانظر المدرسة الجاروخية في كشاف الأماكن.

(2) وقد استجاب الله دعاء أبي شامة ــ رحمه الله ــ فلا تزال العادلية إلى يومنا هذا عامرة، يختلف إليها طلاب العلم، وقد غدت منذ سنة ١٩١٩ م مقراً لمجمع اللغة العربية بدمشق، ثم ألحقت بالمكتبة الظاهرية العامرة، وفيها الآن قاعة للباحثين، كان من توفيق الله تعالى لي أن كنتُ أميناً لها ما يقرب من عشرين عاماً، ومن جميل الموافقات أن قدر الله لي فيها تحقيق هذا الكتاب، فلا أقفر ذلك المنزل ولا أقوى.

(3) كذا سماه العماد، وإنما هو عمر بن علي، انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٦ من الجزء الأول و«سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٥ ــ ١٣٦.

بالشَّام. ومن جُملة ما أتحفه به عِمامة بأعمدة ذهبيَّة نفَّذها صلاح الدين من مصر، فبذل فيها ألف دينار بزِنة ذهبها، فلم يُجب من سامها إلى طلبها.

قلت: وقد سبق ذكر هذه العِمامة في أخبار نور الدين أوَّل الكتاب من كلام ابنِ الأثير، وابن المُعْطَى إياها وهو الشيخ تاج الدين عبد الله، رحمهم الله تعالى[1].

ثم ذكر العماد نسخة المنشور، وفيه: فلينظر[2] في رباط السُّمَيْساطي* وقُبَّة الطَّواويس* ورباط الطَّاحونة* وغيرها من رُبُط الصُّوفية بدمشق المعمورة وبَعْلَبك.

ثم ذكر العماد أنه في آخر شعبان من هذه السنة قبل الرَّحيل من دمشق كان أهدى إلى صديقه الفاضل الأديب علم الدين الحسن بن سعيد الشَّاتاني[3] قطائف، وكتب إليه:

ما راقداتٌ في صُحُونِ ... مستوطناتٌ في سُكُونِ
يجلينَ أمثالَ العَرَا ... ئِسِ بين أبكارٍ وَعُونِ
أو كالعَقائلِ في الخُدُو ... رِ قد اعْتُقِلنَ على دُيونِ
هُنَّ اللذيذات اللوا ... ئذ بالسُّهولِ من الحُزُونِ
أو كالتَّمائم للصِّحا ... فِ وما نُسِبْنَ إلى جُنُونِ
السُّكَّرياتُ الغريـ ... ـقاتُ الغلائلِ والشُّؤونِ
صَرْعَى وما دارَتْ لها ... يوماً رحى الحَرْبِ الزَّبُونِ
لُفِّفْنَ في أَكْفانِهِنَّ (م) ... على المُنَى لا للمَنُونِ

(١) انظر ص ٣٦ من الجزء الأول.
(٢) في الأصل: فلتنظر، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣٥ من الجزء الأول.

يحيينَ بالتغريق بل | يَسْمَنَّ في ضِيقِ السُّجونِ
المُسْتَطاباتُ الظُّهو | ر المُسْتَلَذَّاتُ البُطُونِ
نُضِّدْنَ بالتَّرْصيع في الـ | ـجامات كالدُّرِّ المَصُونِ
المستقيماتُ الصُّفُو | فِ وَقَفْنَ كالخيلِ الصُّفُونِ
وقد اشْتَمَلْنَ من اللَّطَا | ئِفِ والصِّفات على فُنُونِ
اسْمَعْ حديثي في انبسا | طي فالحديث أخو شُجُونِ

وهي أكثر من هذا.

فصل

٢١٥/١

قال العماد: قد سبق ذكر مليح بن لاون مُقدَّم بلاد الأرمن، والتجائه إلى نور الدين، وتطاوله بقوَّته على الرُّوم والأرمن. وكانت الدُّروب: أَذَنة*، والمَصِّيصة*، وسيواس*(١)، يحميها كلب الرُّوم، ويضبطها بجنده، حتى استولى عليها مليح بن لاون، فكسرهم وقتل وأَسَر، وساق لنور الدين من مقدَّمي الروم ثلاثين أسيراً. فأرسل نور الدين القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضيء بأمر الله ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة، وما فتح من البلاد، ويقول فيه: وقُسْطَنْطينية* والقُدْس يجريان إلى أَمَد الفتوح في مضمار المنافسة، وكلاهما في وحشة ليل الظَّلام(٢) المُدْلَهِمّ على انتظار صباح المؤانسة، والله تعالى بكرمه يُدْني قطاف الفتحين لأهل الإسلام، ويوفق الخادم لحيازة مراضي الإمام.

وفي آخره: ومن جُمْلة حسنات هذه الأيام الزَّاهرة ما تَسنَّى في هذه النَّوبة، من افتتاح بعض بلاد النُّوبة*، والوصول إلى مواضع منها لم تَطْرُقْها

(١) في «سنا البرق الشامي»: طرسوس.
(٢) في (م): الضلال.

سنابك الخيل الإسلامية في العصور الخالية. وكذلك استولت عساكر مصر أيضاً على بَرْقة* وحصونها، وتحكَّموا في محكم معاقلها ومصونها، حتى بلغوا إلى حدود المغرب، فظفروا من السُّؤل بعنقاء مُغرب[1].

قلت: كان اتَّفق في هذه السَّنة وصول قَراقُوش[2] غلام تقي الدين من الدِّيار المصرية مع طائفةٍ من الترك، وانضمَّ إليهم جماعةٌ من العرب، فاستولى على طَرابُلُس* وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المَهْدِيَّة وسَفَاقُس* وقَفْصة* وتُونس.

وفي آخر ذلك الكتاب: ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المُنى، وإقصاء عَبدَة الصَّليب الأنجاس من[3] المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مُفْتَتَح مراده، ومُقْتَدَح زِناده، ومُقترحه في جهاده، وأن يملكه السَّاحل بجميع بلاده[4].

وسَيَّر العماد معه قصيدةً، منها:

بالمستضيء أبي محمدٍ الحَسَنْ ... رَجَعَتْ أمورُ المسلمينَ إلى السُّنَنْ
في أَرْضِ مِصْرَ دعا له خُطَباؤها ... وأتت لتخطب بِكْرَ خطبته عَدَنْ
فالمغربُ الأقصى لذلك[5] مُشْرِقٌ ... وَبِنَصْرِ مِصْرَ مُحَقِّقٌ يُمْنَ اليَمَنْ
ورأى الإله المستضيء لشرعه ... وعباده نِعْمَ الأمينُ المُؤتَمَنْ
سِرُّ النُّبوة كامِنٌ فيه وَمِنْ ... فطر الإمامةُ مُشْرق نورُ الفِطَنْ

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٣٦ ـ ١٣٧.
(٢) طبعاً هو غير قراقوش الأسدي المتوفى سنة (٥٩٧ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.
(٣) في (م): في، وهو تصحيف.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٣٧.
(٥) في الأصل: بذاك، والمثبت من (ل) و (م).

تَقْوى أبي بكرٍ ومن عُمَرَ الهُدى   وحياءُ عثمانٍ وعِلْمُ أبي الحَسَنْ
وبجِدِّه عُرِفتْ مقالةُ حَيدرٍ   لا من دَدٍ أنا، لا، ولا مِنِّي الدَّدَنْ[1]
كم من عدوٍّ ميِّتٍ في جلدِهِ   رُعْباً وخوفاً فهو حيٌّ في كَفَنْ

ومنها في مدح نور الدين رحمه الله تعالى:

هل مِثْلُ محمودِ بن زَنْكي مُخْلِصٌ   متوحِّدٌ يبغي رضاك بكلِّ فَنْ
وَرِعٌ لدى المحراب أَرْوَعُ مِحْرَبٌ   في حالتيه إنْ أقَامَ وإنْ ظَعَنْ
يُمسي ويُصْبِحُ في الجهاد وغَيْرُه   يَضْحَى رَضِيع سُلافَةٍ وضجيعَ دَنّ
وبعِزَّةِ الإِسلام منتصراً حَرٍ   وبِذِلَّةِ الإِشراكِ منْتقِماً قَمَنْ

قال ابن أبي طيّ: وفيها وصل شهاب الدين بن أبي عَصْرون من بغداد ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون وصَرِيفين، وخمسين ديناراً من دنانير النِّثار التي نُثِرَتْ يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخُطْبة في مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد: وكانت ناحيتا درب هارون وصَريفين من أعمال العراق لِزَنْكي ــ والد نور الدين ــ قديماً من إنعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرَّسْم[2] في حقِّه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما مثالَهُ الشَّريف إليه. وكان من مراده أن يستوهب ببغداد على شاطىء دِجْلة أرضاً يبنيها مدرسةً للشَّافعية، ويقف عليها الناحيتين طلباً للأجر، ولحسن الذكر

(١) هذا القول الذي نسبه العماد إلى حيدر، وهو علي بن أبي طالب يؤثر عن النبي ﷺ بلفظ: «لست من دَدٍ ولا الدَّد مني» أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٥)، والبيهقي في «السنن» ١٠/ ٢١٧ من حديث أنس بن مالك، والطبراني في «معجمه الكبير» ١٩/ (٧٩٤) من حديث معاوية، بأسانيد ضعيفة. قال البخاري: يعني: ليس الباطل مني بشيء، والدد والددن: اللهو واللعب. «اللسان» (ددن) و(ددا).

(٢) في الأصل: الاسم، والمثبت من (ل) و (م).

الباقي على الدَّهْر، فقيل له: ما ثَمَّ موضعٌ لهذا إلا دار التمر، فعاقه أمر القَدَر عن قُدْرته على[1] الأمر[2].

ثمَّ دخلت سنة تسع وستين [وخمس مئة][3]

ونور الدين قد فتح من حصون الرُّوم مَرْعَش* وغيرها، ومليح بن لاون متملك الأرمن في خدمته. ووصل إلى خدمته أيضاً ضياء الدين مسعود بن قفجاق صاحب مَلَطْيَة*. وكان في خدمته أيضاً الأمراء من المِجْدَل*، فسرَّحهم بالعطاء الأجْزَل، والسمت الأجمل، وأظهر أنه ينزل على قلعة الرُّوم على الفُرات، فتقبل[4] مستخلَف الأرمن[5] بالبراءة وحمل خمسين ألف دينار، على سبيل الجزية مصانعةً بِذُلٍّ وصَغار، وعاد إلى حلب وقد أنجح في كل ما طلب[6]. ٢١٦/١

وأراد أن يسرعَ إلى دمشق فالتاث سِرُّه لالتياث سُرِّيَّته، وحظي بمرض القلب لمرض جسم حَظيَّته، وجرَّت شكايَته شكايةُ جاريته، فتصدَّق عنها بألوف، والتزم لله في شفائها بنذور ووقوف؛ ثم سَيَّرها في مِحَفَّة*، تحمل على أيدي الرجال في خِفَّة، وسارت على الطَّريق المهيع مع العسكر، يحملها من الخدم والخواص المعشر بعد المعشر، فما تُقرِّب إليه بمثل حملها والمشي معها، وتقدَّم بحقٍّ لازم من بخدمته شَيَّعها. وتأخر نور الدين

(١) في الأصل: عن، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٩.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) في (م): فيقتل، وفي طبعة وادي النيل ١/ ٢١٥ فتقبله.
(٥) في الأصل و (ل): الأرض، وهو تصحيف، والمثبت من (م).
(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٧ ــ ١٣٨.

في[1] جريدة مع عِدَّة من مماليكه وأمرائه، المماحضين في ولائه، وتقدَّم إليَّ أنْ أسايره في طريقه وأحاوره، وأحاضره في منازله وأسامره.

وسرنا على طريق قُبَّة ملاعب والمشهد وسَلَمْية*، فجاءه الخبر أَنَّ الفرنج قد أغارت على حَوْرَان، فثنى إلى الجهاد العِنان، وسمع الفرنج به فتفرَّقوا، وقلقوا بعدما كانوا أقلقوا، ودخلنا دمشق[2].

قلت: وفي جمادى الأُولى أبطل نور الدين رحمه الله فريضة الأتبان، ورأيت منشوره بذلك، وعلامته عليه بخطه «الحمد لله»، يقول فيه:

وبعد، فإنَّ من سنتنا العادلة، وسِير أيامنا الزَّاهرة، وعوائد دولتنا القاهرة، إشاعة المعروف وإغاثة الملهوف، وإنصاف المظلوم، وإعفاء رسم ما سنَّه الظالمون من جائرات الرُّسوم. وما نزال نجدِّد للرعية رسماً من الإحسان يرتعون في رياضه، ويرتوون من حياضه، ونستقري أعمال بلادنا المحروسة، ونصفِّيها من الشُّبَه والشَّوائب، ونُلحق ما نعثر عليه من بواقي رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس والضَّرائب، تقرُّباً إلى الله تعالى الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب. وقد أطلقنا جميع ما جرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة، وضياع الغوطة، والمرج، وجبل سَنِير*، وقصر حَجَّاج*، والشَّاغور*، والعُقَيبة*، ومزارعها الجارية في الأملاك، وجميع ما يُقَسَّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضِّياع الخواصِّ والمقطعة بسائر الأعمال المذكورة، ووفَّرناه على أربابه، طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه، وهَرَباً من انتقامه وأليم عقابه. وسبيل النُّواب إطلاق ذلك على الدَّوام، وتعفية آثاره، والاستعفاء من

(١) في، ليست في (ل) و (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٣٩ ــ ١٤٠.

أوزاره، والاحتراز من التدنُّس بأوضاره، وإبطال رسمه من الدواوين، لاستقبال سنة تسعٍ وستين، وما بعدها على تعاقُب الأيام[1] والسِّنين.

فصـــل

في فتح اليمـن

قال العماد: وفي رجب توجَّه تورانشاه ـ أكبر إخوة صلاح الدين ـ إلى اليمن فملكها. وكان يحثُّه على المسير إليها عُمارة اليمني شاعر القصر، وكان كثير المدح لتورانشاه، فتجهَّز وسار إلى مكة، ثم إلى زَبِيد* فملكها وقبض على الخارجي بها، وأهلكه نائبه سيفُ الدولة مبارك بن منقذ[2]. ومضى إلى عَدَن فأخذها، واستناب فيها عز الدين عثمان الزَّنْجيلي[3]، وفتح حصن تعز* وغيره من القلاع، ففتح إقليماً، ومنح ملكاً عظيماً، وافترع بِكْراً وشيَّع ذِكْراً[4].

وقال ابن شداد: ولما كان سنة تسعٍ وستين رأى صلاح الدين قُوَّة عسكره، وكثرة عدد إخوته وقوَّة بأسهم. وكان بلغه أن باليمن إنساناً استولى عليها وملك حصونها، وهو يخطب لنفسه، يسمى عبد النَّبي بن مهدي، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها، واستتبَّ أمره؛ فرأى أن يسيِّر إليها أخاه الأكبر الملك المُعظَّم تورانشاه، وكان كريماً أريحياً حسن الأخلاق ـ سمعت منه، يعني من صلاح الدين رحمه الله تعالى، الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه، وترجيحه إياه على نفسه ـ فمضى إليها وفتح الله على

---

(١) في (م): الأعوام.

(٢) سترد أخباره في أثناء هذا الكتاب، وبخاصة ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ من هذا الجزء، وص ٩٢ من الجزء الثالث، وسنترجم له هناك.

(٣) سيرد ذكره ص ٩٦ ـ ٩٧ من الجزء الثالث.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٠ ـ ١٤١.

يديه، وقتل الخارجي الذي كان بها[1].

قلت: وكان أخو[2] هذا الخارجي قد خرج باليمن قبله، ذكر عُمارة اليمني في أول كتابه في وزراء مصر في أثناء كلامٍ له قال: وكان جماعةٌ من أماثل الناس مثل بركات بن المقرىء وعلي بن محمد النّيلي والفقيه أبي الحسن علي بن مهدي القائم الذي قام باليمن وأزال دولة أهل زَبيد وغيرهم قد سبقوني، يعني إلى صاحب عدن، فذكر كلاماً يتعلّق به[3].

وقال العماد في «الخريدة»: [المهدي بن] علي بن مهدي، ملك اليمن في زماننا هذا، وسفك الدماء وسبى المسلمين، وأقبل على شُرْب الخمر، وادَّعى الملك والإمامة، ودعا إلى نفسه، وكان يحدِّث نفسه بالمسير إلى مكة، فمات سنة ستين، وتولّى بعده أخوه، وله شِعْرٌ حسن يدلُّ على عُلوِّ هِمَّته[4].

قال ابن أبي طيّ: كان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريماً جواداً، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفُتُوَّته، ولا ينهض بمروَّته، وكان قد انتظم في سِلْكه عُمارة الشَّاعر، وكان من أهل اليمن، وكان ورد إلى مصر

(١) «النوادر السلطانية»: ٤٦، وانظر ص ٣٦٢ من هذا الجزء.

(٢) لعل هذا سبق قلم من أبي شامة فالصواب أن يقول: وكان أبو هذا الخارجي، لأن أباه ــ وهو علي بن مهدي بن محمد، كان يظهر التنسك ويحج كل عام ــ قد غلب على زبيد سنة (٥٥٤ هـ) ومات بعد شهرين ونيف من دخولها. انظر «بلوغ المرام»: ١٧، ثم ولي ابنه مهدي بن علي، وتوفي سنة (٥٥٩ هـ) كما في «بلوغ المرام»: ١٧، وهو الذي ترجم له العماد في «الخريدة» كما سيأتي، ثم ولي أخوه عبد النبي بن علي بعده، حتى مقتله في حوادث هذه السنة كما سيأتي. انظر «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» لعمارة اليمني: ٢٢٩ ــ ٢٣٧.

(٣) انظر «النكت العصرية»: ٢٩، وما بعدها.

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ٦٤ ــ ٧٠، وما بين حاصرتين منه.

ومدَح أصحابها ونفق عليهم، فلما زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحه. وكان إذا خلا به يَصِفُ له بلاد اليمن، وكثرة أموالها وخيرها، وضَعْفَ من فيها، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها.

قلت: فمن جملة شعره في ذلك قولُه في القصيدة التي أولها:

العِلْمُ مُذْ كانَ محتاجٌ[1] إلى العَلَم ... وشَفْرَةُ السَّيْفِ تستغني عن القَلَمِ
كم يترك البيضَ في الأجفانِ ظامئةً ... إلى المواردِ في الأعناقِ والقِمَمِ
أمامَك الفَتْحُ من شامٍ ومن يَمَنٍ ... فلا تَرُدَّ رؤوسَ الخيلِ باللُّجُمِ ٢١٧/١
فعمُّك الملكُ المنصورُ سوَّمها ... من الفُراتِ إلى مِصْرٍ بلا سَأَمِ
فاخلُقْ لنفسك مُلْكاً لا تضافُ به ... إلى سِواك وأوْرِ النَّارَ في العَلَمِ
هذا ابنُ تُومَرْتَ قد كانت بدايتُهُ ... كما يقولُ الورى لحماً على وَضَمِ
وقد ترامى إلى أن أَمْسَكَتْ يَدُهُ ... من الكواكب بالأنفاس والكَظَمِ
حاسِبْ ضميرك عن رأي أتاكَ وقُلْ ... نصيحةٌ وَرَدَتْ من غَيْرِ مُتَّهَمِ[2]

وله من أخرى:

أفاتحَ أرضِ النِّيلِ وهْي منيعةٌ ... على كلِّ راجٍ فَتْحَها ومُؤَمِّلِ
متى توقد النار التي أنتَ قادحٌ ... بِغُمْدَان مشبوباً سناها بِمَنْدَلِ[3]
وتَفْتَحُ ما بينَ الحصين وأبْيَنٍ ... وصنعاءَ من حصنٍ حصينٍ ومَعْقِلِ
وتملك من مخلاف طرفٍ وجعفرٍ ... نقيضين من حَزْنٍ خصيبٍ[4] ومُسْهل

---

(١) في الأصل و (ل): محتاجاً، والمثبت من (م).

(٢) انظر «النكت العصرية»: ٣٥٢ ــ ٣٥٥.

(٣) مندل: بلد بالهند منه يجلب العود الفائق الذي يقال له المندلي، «معجم البلدان»: ٢٠٩/٥.

(٤) في (ل): خفيف.

وتخلق مُلْكاً لا تُحِيل بفخره على أَحَدٍ إلاّ على عَزمِكَ العَلي

وله من قصيدةٍ أخرى:

قالوا إلى اليمن الميمونِ رِحْلَتُهُ فَقُلْتُ ما دونَه شيْءٌ سوى السَّفرِ
سيْرٌ يَسُرُّ بني الدنيا وطِيبُ ثناً وطول عُمْرٍ كذا يُحكى عن الخضِرِ
لا توقدَنَّ لها النار التي خمدت[1] خفّض عليك تَنَلْ ما شِئْتَ بالشَّرَرِ
المالُ ملءُ يدٍ والقَوْمُ ملكُ يدٍ ولا أطيل وهذا جملة الخَبَرِ

قال ابن أبي طيّ: ووافق ذلك أنه كاتَبَه رجلٌ من أهل اليمن شريف يقال له هاشم بن غانم وأطمَعَه في المعاونة، لأنَّ صاحب اليمن عبد النبي كان قد تعدَّى على هذا الشريف هاشم، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه، وتجهَّز، ثم دخل على أخيه السُّلطان، واستأذنه في دخول اليمن، فأذن له، وأطلق له مُغَلّ قُوص* سنة، وزوَّده فوق ما كان في نفسه، وأصحبه جماعة من الأمراء ومقدار ألف فارس خارجاً عمَّن سَيَّره من حلقته*. وسار في البر والبحر، في البر العساكر وفي البحر الأسطول، يحمل الأزواد والعُدَد والآلات. فوصل إلى مكة ــ شَرَّفها الله تعالى ــ فدخلها زائراً، ثم خرج متوجهاً منها إلى اليمن، فوصل زَبيد في أوائل شوال، فنزل عليها، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسني وجميع الأشراف بنو سليمان في جمع جَمٍّ وعدد كثير، فهجم زَبيد وتسلَّمها، واحتوى على ما فيها، وقبض على صاحب اليمن عبد النبيّ أخي علي بن مهدي[2].

ثم رحل إلى عَدَن وفي صحبته ابن مهدي ففتحها عَنْوَةً، وولاها

---

(١) في الأصل و (م): عمدت، والمثبت من (ل).

(٢) وهم ابن أبي طي في ذلك، والصواب أن يقول: أخي مهدي بن علي بن مهدي. انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٧٢ من هذا الجزء.

عز الدين بن الزَّنْجيلي. ثم سار إلى المخلاف، وتسلَّم الحصون التي كانت في يد ابن مهدي، كتعز* وغيرها، وسار إلى صَنْعاء بعد فتح مدينة الجَنَد* وغيرها، فأُحرقت صَنْعاء، فدخلها شمس الدولة، فلم يجد بها إلا شيخاً وامرأة عجوزاً، فأقام بها ثمانية أيام، ثم لم يستطع المقام لقلَّة المِيرة، فرجع إلى زَبيد، فوجد ابن منقذ قد قتل عبدَ النبي ابن مهدي[1]. وكان شمس الدولة قد استناب بزبيد [الأمير][2] سيف الدولة المبارك بن منقذ وأمره بحمله، فلما بَعُدَ شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره، فرأى المصلحة في قَتْله، فقتله ابن منقذ بزَبيد، فلما بلغ شمسَ الدولة قَتْلُه استصوبه

ولما حصل شمس الدولة في زبيد أنفذ إليه صاحب طَمَار وصالحه هو وباقي الملوك على أداء المال. ثم تتبَّعَ تلك الحصون والقلاع، فاحتوى عليها جميعها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك النَّاصر، فأرسل إلى نور الدين يخبره بما أفاض الله عليه من الإحسان، وخوَّله من ملك البُلْدان، فأرسل نورُ الدين مهذب الدين أبا الحسن علي بن عيسى النَّقَّاش[3] بالبشارة بذلك إلى بغداد.

فصـــــل

ذكر العماد ههنا الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزَبيد ووصفه بأنه من الكُفَاة الكرماء، والدُّهاة ذوي الآراء. وهو فاضلٌ من أهل بيت فضل، كتب إلى العماد من شعره:

---

(١) ابن مهدي، ساقطة من (م).

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) سترد ترجمته في ٣/ ١٤ ــ ١٥ من هذا الكتاب.

لما نزلتُ الدَّيْر قُلْتُ لصاحبي قُمْ فَاخْطُبِ الصَّهْبَاءَ من شَمَّاسِهِ
فـأتـى وفـي يُمْنـاه كـأسٌ خِلْتُهـا مقبـوسـةً فـي اللَّيـل مـن نِبْـراسِـهِ
218/ وكـأنَّ مـا فـي كـأسـه مـن خَـدِّه وكـأنَّ مـا فـي خَـدِّه مـن كـاسِـهِ
وكـأنَّ لـذَّةَ طَعْمِهـا مـن رِيقِـه وأريجَهـا الفَيَّـاحَ مِـنْ أنفـاسِـهِ
لـم أَنْـسَ ليلـةَ شُـرْبِهـا بفِنـائِـه[1] إذْ بـاتَ يجلـوهـا علـى جُـلاَّسِـهِ
إذ قـام يسقينـا المُـدَامَ وكلمـا عـاتبتُـه ردَّ الجـواب بـراسِـهِ[2]

قلت: ومدَحَه أبو الحسن [بن][3] الذَّرَوي المِصْري[4] بقصيدةٍ غرَّاء ذاليّة، ما أظنُّ أنه نُظم على قافية الذال أرق منها لفظاً وأروق معنى، أوَّلها:

لك الخَيْرُ عَرِّجْ بي على رَبْعِهِمْ فذي ربوع يفوحُ المِسْكُ من عَرْفها الشَّذى

يقول فيها:

مَبَارِكُ عِيسِ الوفد بابُ مبارِكٍ وهل منقذ القُصَّاد غيرُ ابن مُنْقِذِ[5]

قال العماد: ثم سيَّر نور الدين إلى بغداد بشارةً بأمرين، أحدهما فتح اليمن، والآخر كسر الرُّوم مرة ثانية ومقدَّمهم الدوقس كلمان ــ وكان قديماً أسيراً عند نور الدين من نوبة حارم[6]، وفداه بخمسة وخمسين ألف دينار وخمس مئة وخمسين ثوباً أطلساً ــ وسيَّر معه أسرى من الرُّوم، وذلك في

---

(1) في النسخ الخطية: بغنائه، والأشبه ما أثبتناه.
(2) انظر «سنا البرق الشامي»: 1/ 141 ــ 142.
(3) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).
(4) سترد ترجمته في 3/ 101 من هذا الكتاب.
(5) انظر أبياتاً أخرى من هذه القصيدة في «وفيات الأعيان»: 4/ 145، وانظر حاشيتنا رقم 2 ص 271 من هذا الجزء.
(6) انظر ص 416 من الجزء الأول.

شعبان هذه السَّنة[1].

ومما تضمَّنه كتاب البشارة: ولم يَنْجُ من عشرة آلاف غير عشرة حُمْرٍ مستنفرة، فَرَّت من قَسْورة.

وقبلَ ذلك بشهرين سُيِّرَتْ قصيدة للعماد في جمادى الآخرة على لسان نور الدين إلى بغداد، أَوَّلها:

أطاع دمعي، وصبري في الغَرام عَصَى ... والقَلْبُ جُرِّع من كأسِ الهوى غُصَصَا
وإنَّ صَفْوَ حياتي ما يُكَدِّرُه ... إلا اشتياقي إلى أحبابيَ الخُلَصا
ما أطيب العيشَ بالأحبابِ لو وصلوا ... وأسعدَ القلبَ من بلواه لو خَلَصا

ومنها:

من ذا الذي سار سيري في ولائِكُمُ ... غداة قال العِدَى لا سير عند عصا[2]
قد نال عبدُك محمودٌ بها ظَفَراً ... ما زال يرقُبه من قَبْلُ مُرْتَبِصا
مِنْ خوف سطوته أنَّ العدوَّ إذا ... أَمَّ الثُّغورَ على أعقابه نَكَصَا[3]

قال العماد: وكَلِفَ نور الدين في هذه السنة بإفادة الألطاف، والزيادة في الأوقاف، وتكثير الصَّدقات، وتوفير النفقات، وكسوة النِّسْوة الأيامى في أيامها، وإغناء فقراء الرَّعية وإنجادها بعد إعدامها، وصون الأيتام والأرامل

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٢.
(٢) عصا: موضع على شاطىء الفرات بين هيت والرحبة، «معجم البلدان» ٤/ ١٢٨، وكان نور الدين قد طلب إذناً من الخليفة في اجتياز الفرات وهو في طريقه إلى الموصل، ليطمئن الخليفة إلى سلامة مقصده، انظر ص ١٦٩ من هذا الجزء.
(٣) انظر مختارات مطولة من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ٦٤ ـ ٧١.

ببذله، وعَوْن الضعفاء وتقوية المُقْوين[1] بعدله[2].

ثم ذكر ما قَدَّمنا ذكره في أول الكتاب من مناقب نور الدين وأفعاله الكريمة[3].

قال العماد: وفي يوم الاثنين رابع شهر رمضان ركب نور الدين على العادة، وجلسنا نحن في ديوانه، حافلين في إيوانه، لبسط عَدْله وإحسانه، وتنفيذ أوامر سُلْطانه. فجاءني من أخبرني أنَّ نور الدين نزل إلى المدرسة[4] التي تتولاها[5]، وبسط سجادته في قبلتها لسُنَّة الضُّحى وصلاَّها. فقمتُ في الحال، ومضيت على الاستعجال، فلقيته في الدِّهليز خارجاً، في أجر[6] العبادة ناجحاً ولنهج[7] السعادة ناهجاً. فلما رآني توقَّف، ولقولي تشوَّف، فقلت له: إنَّ الموضع قد تشرَّف؛ أما ترى أنه من آيام الزلزلة قد تشعَّث؟ فلما رأى حاله تلبَّث، وقال: نعيدُه إلى العمارة، ونكسوه حُلَلَ النَّضارة. ثم حملت له وجوه سكر، وشيئاً من ثياب وطيب وعنبر، وكتبتُ معها هذه الأبيات:

عنـد سليمـان علـى قَـدْره ... هَـدِيَّـةُ النَّمْلَـةِ مَقْبُـولَـهْ
ويصغـر المملوكُ عـن نَمْلَـةٍ ... عنـدك والـرَّحمـةُ مـأْمُـولَـهْ
رِقِّـي لمـولانـا وملكـي لـه ... وذمَّتـي بـالشُّكْـرِ مَشْغُـولَـهْ

(١) أقوى الرجل: نفد طعامه وفني زاده، ومنه قوله تعالى: ﴿ومتاعاً للمقوين﴾ «اللسان» (قوا).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٣.
(٣) انظر ص ٥١ ــ ٥٤ من الجزء الأول.
(٤) هي المدرسة العمادية، انظرها في كشاف الأماكن.
(٥) في (م): متولاها.
(٦) في (م): أمر.
(٧) في (م): ولنجح.

وكيـف يقضـي الحـقَّ ذو مُنَّـةٍ ضعيفـةٍ بـالعَجْـزِ مَغْلُـولَـه[1]
وإنَّمـا شيمـةُ مَـوْلـى الـوَرَى طـاهـرةٌ بـالخيـر مَجْبُـولَـهْ

قال: وكان رأى قِبْلَة المدرسة غير مُفصَّصة، وبالترخيم والتذهيب [والتهذيب][2] غير مخصَّصة[3]، فنفَّذ لي لعمارتها فصوصاً مُذهبة وذهباً. ثم حُمَّ مقدور حِمامه، وعاق القدر عن إتمامه. ودُفعتُ إلى المَوْصِل فرأيتُه في المنام، وهو يجاريني في الكلام، ويقول ما يعود إلى المدرسة معناه، وقال: الصَّلاةَ الصَّلاة. فعرفت أنه أشار إلى المحراب، وأنه الآن على هيئة الخراب، فكتبتُ إلى الفقيه الذي كان عنده الذهب أن يشرع في عمارته، ٢١٩/١
ودخلت دمشق يوم فراغ الصَّانع منه[4].

فصـــل

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة وصل رسول نور الدين الموفق بن القَيْسَراني* إلى الدِّيار المصرِيَّة، واجتمع بالسُّلْطان الملك الناصر، وأنهى إليه رسالة نور الدين، وطالبه بحساب جميع ما حَصَّله وارتفع إليه من ارتفاع البلاد. فَصَعُبَ ذلك على السُّلْطان وأراد شَقَّ العصا لولا ما ثاب إليه من السَّكينة. ثم أمر النواب[5] بعمل الحساب، وعرضه على ابن القَيْسَراني، وأراه جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وكميات جامكياتهم* ورواتب نفقاتهم.

---

(١) في (م): معلولة.
(٢) ما بين حاصرتين من (ل).
(٣) في (ل): مجصصة.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٥.
(٥) النواب، ليست في (م).

فلما حَصَل عنده جميعُ ذلك أرسل معه هديَّة إلى نور الدين على يد الفقيه عيسى[(١)].

قال: ووقفت على برنامج شرحها بخطِّ الموفق بن القَيْسَراني وهي خمس ختمات، إحداها ختمة ثلاثون جُزْءاً مغشَّاة بأطلس أزرق، مضببة[(٢)] بصفائح ذهب، وعليها أقفال ذهب، مكتوبة بذهب بخط يانس، وختمة بخط راشد مغشَّاة بديباج فُسْتُقي عشرة أجزاء. وختمة بخطِّ ابن البَوَّاب، مجلَّد واحد بقفل ذهب. وختمة بخطّ مهلهل، جزء واحد، وختمة بخطّ الحاكم البَغْدادي، ثلاثة أحجار بَلَخْش[(٣)]؛ حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالاً، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالاً، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف. ست قصبات زمرُّد، قَصَبة وزنها ثلاثة عشر مثقالاً وثلث وربع، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل، وقصبة وزنها مثقالان ونصف، وقصبة وزنها مثقالان وربع وسدس، وقصبة وزنها مثقالان وثلث[(٤)]. وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل، وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس، مئة عقد جوهر مختومة وزنها جميعها ثماني مئة وسبعة وخمسون مثقالاً، خمسون قارورة دهن بَلَسان[(٥)]، عشرون قطعة بلَّور، أربعة عشر[(٦)] قطعة جزع، وذكر تفصيلها؛ إبريق يشم[(٧)]، طشت يشم سقرق

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء.
(٢) أي ملبسة. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٢٥.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٣٦ من هذا الجزء.
(٤) لم يذكر القصبة السادسة.
(٥) البلسان أو البيلسان، ضرب من الشجر، كان يزرع بالمطرية في القاهرة، يستخرج من حبه دهن تداوى به الجروح، انظر «الموسوعة في علوم الطبيعة»: ١/ ١٨٤، و «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٣٧. و «صبح الأعشىٰ» ٣/ ٢٨٣.
(٦) كذا في النسخ الخطية، أبقيتها على حالها حفاظاً على لغة الوثيقة.
(٧) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

مينا[١] مُذْهب؛ صحون صيني وزبادي وسكارج[٢]. أربعون قطعة عود طيب، قطعتان[٣] كبار، كُرتان وزن إحداهما ثلاثون رطلاً بالمصري والأخرى أحد وعشرون رطلاً. مئة ثوب أطلس. أربعة وعشرون بَقْياراً[٤] مذْهبة، أربعة وعشرون ثوباً حريري. أربعة وعشرون ثوباً من الوشي حريرية بيض. حُلَّة فلفلي مُذْهبة. حُلَّة مرايش صفراء مُذْهبة. وذكر غير ذلك أنواعاً من القماش قيمتها مئتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية، وعِدَّة من الخيل والغلمان والجواري، وشيئاً كثيراً من السِّلاح على اختلاف ضروبه.

قال: وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين لأنهم اتصل بهم وفاته، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك، لأن الفقيه عيسى وابن القيسراني وضعا عليها من نهبها، واستبدَّا[٥] بأكثرها. وقيل: إنها وصلت جميعها إلى السُّلْطان، لأنه اتصل به خبر موت نور الدين فأنفذ من رَدَّها.

قال: وحدَّثني من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لم يُعْلَم مقداره.

وقال العماد: ولما وصل إلى صلاح الدين رسول نور الدين، وهو الموفَّق خالد، أطلعه على كل ما هو فيه، وأحصى له الطَّريف والتالد، وقال: هؤلاء الأجناد فاعرضهم وأثبت أخبازهم*، وما يُضْبط مثل هذا

(١) مينا: الزجاج المنقوش. انظر «قاموس الفارسية»: ٧١٢.

(٢) مفردها سُكَرَّجة: قصاع صغار يؤكل فيها، وهي فارسية معربة. «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٨٠، و «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٩٢.

(٣) في الأصل و (ل): قطعتين، والمثبت من (م).

(٤) البقيار: فارسية، وهي العمامة الكبيرة التي يعتمرها الوزراء والكُتَّاب والقضاة. انظر «تكملة المعاجم العربية» لدوزي، الترجمة العربية: ١/ ٤٠٧.

(٥) في النسخ الخطية: وضعوا عليهم من نهبهم واستبدوا.

الإقليم إلا بالمال العظيم، ثم أنت تعرف أكابر الدَّوْلة وعظماءها، وأنهم اعتادوا على السَّعَة والدَّعة نُعماءها، وقد تصرَّفوا في مواضع لا يمكن انتزاعها، ولا يسمحون بأن يَنْقُصَ ارتفاعها؛ فالموارد مشفوهة، والشَّدائد مكروهة، والمقاصد بردعها مجبوهة، والهمم بها مشدوهة، وشَرَعَ في جمع مال يُسيِّره ويحمله، بجهدٍ يبذلُهُ، وبخطر يحتمله، وحصل لخالد منه ما لم يكن في خَلَده، وجاء مُطَرَّفُ غناه أضعافَ مُتَّلده[1].

فصـــل

في صَلْبِ عُمارة اليمني الشَّاعر وأصحابه

قال العماد: واجتمع جماعة من دُعاة الدولة المصرية المتعصبة[2]، المتشدِّدة المتصلِّبة، وتوازروا وتزاوروا فيما بينهم خيفة وخُفْية، واعتقدوا أمنيَّة، عادت بالعُقْبى عليهم منيَّة، وعينوا الخليفة والوزير، وأحكموا الرَّأْي والتَّدْبير، وبيَّتوا أمرهم بليل، وستروا عليه بذيل، وكان عمارة اليمني الشاعر عقيدهم، ودعا للدَّعوة قريبهم وبعيدهم.

وكانوا قد أودعوا سرَّهم عند من أذاعه، واستحفظوا من أضاعه، وأدخلوا عِدَّة من أنصار الدولة النَّاصرية في جملتهم، وعرفوهم بجهلتهم.

وكان الفقيه الواعظ زين الدين علي بن نجا[3] يُناجيهم فيما زُيِّنَ لهم من سوء أعمالهم، ويداخلهم في عزم خروجهم مطلعاً على أحوالهم، وتقاسموا الدُّور والأملاك، وكادت آمالهم تدنو من الإدراك، فجاء زين الدين

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٧.

(٢) في (ل): المتعصية المتعصبة.

(٣) انظر حاشيتنا رقم (٤) ص ٣٩١ من الجزء الأول.

الواعظ وأطلع صلاح الدين على فسادهم، وما سوَّلوه من مُرَاد مرادهم، وطلب مالابن كامل الدَّاعي[1] من العَقَار والدُّور، وكل ماله من الموجود والمذخور. فبذل له السُّلْطان كل ما طلبه، وأمره بمخالطتهم ورغَّبه.

ثم أمر السُّلْطان بإحضار مقدَّميهم، واعتقالهم لإقامة السياسة فيهم، وصلب يوم السبت ثاني شهر رمضان جماعة منهم بين القصرين، منهم عُمارة، وأفنى بعد ذلك من بقي منهم، ومات بموتهم الخبر عنهم.

وكان منهم داعي الدُّعاة ابن عبد القوي، وكان عارفاً بخبايا القصر وكنوزه، فباد ولم يسمح بإبدائها، وبقيت تلك الخزائن مدفونة، وتلك ٢٢٠/١
الدفائن مخزونة، قد دُفِنَ دافنها، وخُزن تحت الثَّرى خازنها، إلى أن يأذن الله في الوصول إليها، والاطلاع عليها. وجمع من أموال هؤلاء ما يحمل إلى الشام، للاستعانة به على حماية ثغور الإسلام[2].

قال ابنُ أبي طيّ: وفي هذه السنة اجتمع جماعةٌ من دُعاة المصريين والعوام، وتآمروا فيما بينهم خُفْيةً، وبكوا على انقراض دولة المصريين وما صاروا إليه من الذُّلّ والفقر، ثم أجمعوا آراءهم على أن يقيموا خليفة ووزيراً، ويجتمعوا[3] هم وجماعة عَيَّنوهم من الأمراء وغيرهم، وأن يكاتبوا الفرنج، ويَثِبوا بالملك النَّاصر. وأدخلوا معهم في هذا الأمر ابن مصال، وواعدوا جماعةً من شيعة المصريين ليلة عَيَّنوها، وكاتبوا الفرنج بذلك، وقرَّروا[4] معهم الوصول إليهم في ذلك[4] الزمان المقرَّر، فخانهم ابنُ مصال

---

(١) ستردد ترجمته ص ٢٩٦ من هذا الجزء.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٧ ــ ١٤٩.

(٣) في الأصل و (ل): وتجمعوا، والمثبت من (م).

(٤ ــ ٤) هذه العبارة مكررة في (م).

فيما عاهدهم عليه، ونكث في اليمين وكَفَّر عنها، وصار إلى الملك النَّاصر، وعرَّفه بجليَّة ما جرى.

فأحضرهم واحداً واحداً وقرَّرهم على هذه الحالة، فأقرُّوا واعترفوا، واعتذروا بكونهم قُطعت أرزاقهم، وأخذت أموالهم. فأحضر السُّلْطان العلماء واستفتاهم في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وصلبهم ونفيهم، فأمر بصلبهم.

وقيل: إن الذي أذاعَ سِرَّهم زين الدين علي الواعظ، وطلب جميع ما لابن الدَّاعي من العقَار والمال، فأعطاه جميع ذلك.

وكان الذين صلبوا منهم المُفَضَّل بن كامل القاضي، وابن عبد القوي الدَّاعي، والعوريس[١] وكان [قَد][٢] تولَّى النَّظر* ثم القضاء بعد ذلك، وشبرما كاتب السر، وعبد الصَّمد القشة[٣] أحد أمراء المصريين، ونجاح الحَمَّامي، ورجل منجم نصراني أرمني كان قال لهم إن أمرهم يتمَّ بطريق علم النُّجوم، وعُمارة اليمني الشَّاعر.

قلت: وبلغني أن عُمارة إنما كان تحريضه لشمس الدولة[٤] على المسير إلى اليمن ليتمَّ هذا الأمر، لأن فيه تقليلاً لعسكر صلاح الدين، وإبعاداً لأخيه وناصريه عنه.

قال العماد في «الخريدة»: ووقعت اتِّفاقات عجيبة من جملتها أنه نُسِبَ إليه بيت من قصيدة ذكروا أنه له، يعني في القصيدة التي حَرَّض فيها شمس الدولة على المسير إلى اليمن، أوَّلها:

---

(١) في (م): العوديس.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في (ل): الفشة، وفي (م): عبد الصمد والقشة، وكأنهما شخصان.

(٤) في (م): يحرضه بشمس الدولة.

العِلْم مذ كان محتاجٌ إلى العَلَم

وقد تقدم ذكرها[1]، وأما البيت[2] فهو:

قد كان أولُ هذا الدين من رَجُلٍ   سعى إلى أَنْ دَعُوه سيِّدَ الأُمَمِ[3]

قال العماد: ويجوز أن يكون هذا البيت معمولاً عليه، فأفتى فقهاء مصر بقتله، وحرَّضوا السلطان على المُثْلَة بمثله[4].

قال: ولعُمارة في مصلوب بمصر يقال له طَرْخان، وكان خرج على الصَّالح بن رُزِّيك، فظفر به الصَّالح وصلبه، وكان يستحسن أبيات عُمارة فيه، وهي:

أرادَ عُلُوَّ مَرْتَبَةٍ وقَدْر   فأَصْبَحَ فوقَ جِذْعٍ وهو عالي
ومُدَّ على صَليبِ الجِذْع منه   يمينٌ[5] لا تطولُ على الشِّمالِ
ونكَّسَ رأسهُ لعتابِ قَلْبٍ   دعاه إلى الغَوايةِ والضَّلالِ

قال العماد: فكأنه وصف حاله، وما آل إليه أمره[6].

وقال في «البرق»: ووصلَ من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية وهو بخط ابن قُريش، يعني المرتضى[7].

---

(١) انظر ص ٢٧٣ من هذا الجزء.
(٢) «النكت العصرية»: ٣٥٤.
(٣) في هامش (م): «وهذا البيت قد نسب في بعض الكتب إلى أبي العلاء المعري».
(٤) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١٠٤.
(٥) في (م): يميناً. قلت: فيكون «مَدَّ» مبنياً للمعلوم.
(٦) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١٠٩ ــ ١١٠، و «النكت العصرية»: ٤٦ ــ ٤٧.
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٠، وهذا النص فيه مستدرك من كتابنا هذا.

وقال ابنُ أبي طيّ: وقد كتب القاضي الفاضل إلى نور الدين كتاباً شَرَح فيه قضية المصلّبين، فقال بعد مطلع الكتاب: قصر هذه الخدمة على متجددٍ سار للإسلام وأهله، وبشارة مؤذنة بظهور وعد الله في إظهاره على الدين كُلِّه، بعد أن كانت لها مقدِّمات عظيمة إلا أنها أسفرت عن النُّجْح، وأوائل كالليلة البهيمة[١] إلا أنها انفرجت عن الصُّبْح، فالإسلام ببركاته البادية وفتكاته الماضية قد عاد مستوطناً بعد أن كان غريباً، وضرب في البلاد بجِرَانه[٢] بعد أن كاد الكفر[٣] يتم عليه تخيلاً عجيباً، إلا أن الله سبحانه أطلع عَلى أمرها من أوّله، وأظهر على سِرِّها من مستقبله[٤]، والمملوك يأخذ في ذكر الخبر، ويعرض عن ذكر الأثر:

لم يزل يُتوسم من جُنْد مصر ومن أهل القصر بعدما أزال الله من بِدْعتهم، ونقض[٥] من عُرى دولتهم[٥]، وخفض من مرفوع كلمتهم، أنهم[٦] أعداء وإن قعدت بهم الأيام، وأضداد وإن وقعت عليهم كلمةُ الإسلام. وكان لا يحتقر منهم حقيراً، ولا يستبعد منهم شراً كبيراً، وعيونه لمقاصدهم موكّلة، وخطراته في التحرز منهم مستعملة، لا تخلو سنةٌ تمر، ولا شهر يكرّ، من مكرٍ يجتمعون عليه، وفساد يتسرَّعون إليه، وحيلة يبرمونها، ومكيدةٍ يتمِّمونها[٧]. وكان أكثر ما يتعللون به، ويستريحون إليه المكاتبات المتواترة، والمراسلات المتقاطرة، إلى الفرنج خذلهم الله تعالى،

---

(١) الليلة البهيمة: هي التي لا يطلع فيها القمر. انظر «اللسان» (بهم).
(٢) أي ثبت واستقر. انظر «أساس البلاغة» و «اللسان» (جرن).
(٣) في الأصل و (ل): بعد أن كان كالكفر، والمثبت من (م).
(٤) في (ل): متقبلة، وهو تصحيف.
(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (م).
(٦) في (م): أنه.
(٧) في (م): يتيممونها.

التي يوسِّعون لهم فيها سُبُلَ المطامع، ويحملونهم فيها على العظائم الفظائع، ويزيِّنُون لهم الإقدام والقدوم، ويخلعون فيها[1] رِبْقة الإسلام خلع المرتدِّ المخصوم؛ ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن إجابتهم، إلا أنهم لا يقطعون ٢٢١/١
حَبْلَ طمعهم على عادتهم. وكان ملك الفرنج كلما سَوَّلت له نفسه الاستتار في مراسلتهم، والتحيُّلَ في مفاوضتهم، سَيَّرَ جُرج كاتبه رسولاً إلينا ظاهراً وإليهم باطناً، عارِضاً علينا الجميل الذي ماقبلته قَطُّ أنفسنا، وعاقداً معهم القبيح الذي يشتمل عليه في وقته علمنا. ولأهل القَصْرِ والمصريين في أثناء[2] هذه المدد رسل تتردَّد، وكتب إلى الفرنج تتجدَّد.

ثم قال: والمولى عالمٌ أنَّ عادة أوليائه المستفادة من أدبه ألا يبسطوا عقاباً مؤلماً، ولا يعذِّبوا عذاباً محكماً، وإذا طال لهم الاعتقال، ولم ينجع السؤال، أطلق سراحهم، وخَلَّى سبيلهم، فلا يزيدهم العفو إلا ضراوة، ولا الرِّقَّة عليهم إلا قساوة. وعند وصول جُرج في هذه الدفعة الأخيرة رسولاً إلينا بزعمه، ورد إلينا كتابٌ ممن لا نرتاب به من قومه، يذكرون أنه رسول مخاتلة، لا رسول مجاملة، وحامل بَلِيَّة، لا حامل هديَّة، فأوهمناه الإغفال عن التيقُّظ لكل ما يصدر منه وإليه، فتوصَّل مرَّة بالخروج ليلاً، ومرَّة بالركوب إلى الكنيسة وغيرها نهاراً، إلى الاجتماع بحاشية القصر وخُدَّامه، وبأمراء المصريين وأسبابهم[3]، وجماعة من النصارى واليهود وكلابهم وكُتَّابهم، فدسسنا إليهم من طائفتهم مَنْ داخلهم، فصار ينقل إلينا أخبارهم، ويرفع إلينا أحوالهم. ولما تكاثرت الأقوال، وكاد يشتهرُ علمنا بهذه الأحوال، استخرنا الله تعالى وقبضنا على جماعة مفسدة، وطائفة من هذا

(١) في الأصل: فيه، وفي (م): بها، والمثبت من (ل).
(٢) أثناء، ساقطة من (ل).
(٣) في (م): وأشبابهم.

الجنس متمرِّدة، قد اشتملت على الاعتقادات المارقة، والسَّرائر المنافقة، فكلاً أخذ الله بذنبه، فمنهم من أقرَّ طائعاً عند إحضاره، ومنهم من أقرَّ بعد ضربه، فانكشفت أمور أُخَر كانت مكتومة، ونُوَبٌ غير التي كانت عندنا معلومة، وتقريرات مختلفة في المراد، متفقة في الفساد.

ثم ذكر تفصيلاً، حاصِلُه أنهم عيَّنوا خليفة ووزيراً مختلفين في ذلك، فمنهم من طلب إقامة رجل كبير السن من بني عم العاضد، ومنهم من جعل ذلك لبعض أولاد العاضد وإن كان صغيراً، واختلف هؤلاء في تعيين واحدٍ من ولدين له. وأما بنو رُزِّيك وأهل شاور فكلٌّ منهم أراد الوزارة لبيتهم من غير أن يكون لهم غرض في تعيين الخليفة.

[ثم][1] قال: وكانوا فيما تقدَّم، والمملوك على الكَرَك* والشَّوْبك* بالعسكر، قد كاتبوهم وقالوا لهم: إنه بعيد، والفرصة قد أمكنت، فإذا وصل الملك الفرنجي إلى صَدْر* أو إلى أَيْلة* ثارت حاشية القَصْر وكافة الجُنْد وطائفة السُّودان وجموع الأرمن وعامة الإسماعيلية، وفتكت بأهلنا وأصحابنا بالقاهرة.

ثم قال: ولما وصل جُرج كتبوا إلى الملك الفرنجي أن العساكر متباعدة في نواحي إقطاعاتهم، وعلى قرب من موسم غلاَّتهم، وأنه لم يبق في القاهرة إلا بَعْضُهم، وإذا بعثت أسطولاً إلى بعض الثغور أنهض فلان مَنْ عنده وبقي في البلد وحده، ففعلنا ما تقدَّم ذكره من الثورة.

ثم قال: وفي أثناء هذه المدة[2] كاتبوا سِناناً صاحب الحشيشيَّة[3] بأن

---

(١) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

(٢) في (ل): النوبة.

(٣) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد توفي سنة(٥٨٨ هـ)، انظر عنه وعن الحشيشية. «رحلة ابن جبير»: ٢٤٢ ـ ٢٤٣، و «معجم البلدان»: ٤/ ١٣٧، =

الدَّعوة واحدة والكلمة جامعة، وأن ما بين أهلها خلاف إلا فيما لا يفترقُ به كلمة، ولا يجب به قعودٌ عن نُصْرة. واستدعوا منه من يُتمّم على المملوك غيلة، أو يبيت له مكيدة وحيلة، ﴿ واللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾[1] وكان الرسول إليهم عن المصريين خال ابن قَرْجَلَة[2] المقيم الآن هو وابن أخته عند الفرنج.

ولما صحَّ الخبر، وكان حكم الله أولى ما أخذ به، وأدبُ الله أمضى فيمن خرج عن أدبه، وتناصرت من أهل العلم الفتاوى، وتوالت من أهل المشورة بسبب تأخير القتل فيهم المراجعات والشكاوى، قتل الله بسيف الشَّرْع المطهَّر جماعةً من الغُواة الغُلاة، الدُّعاة إلى النَّار، الحاملين لأثقالهم وأثقال من أضلوه من الفُجَّار، وشنقوا على أبواب قصورهم، وصُلبوا على الجُذُوع المواجهة لدورهم، ووقع التتبُّعُ لأتباعهم، وشُرِّدت طائفة الإسماعيلية ونفوا، ونودي بأن يرحل كافَّة الأجناد وحاشية القصر وراجل السُّودان إلى أقصى بلاد الصَّعيد. فأما مَنْ في القصر فقد وقعت الحوطة عليهم إلى أن ينكشف وَجْهُ رأي يمضي فيهم، ولا رأي فوق رأي المولى، والله سبحانه مستخار[3]، وهو مستشار، وعنده من أهل العلم من تطيب النفس بتقليده، وتمضي الحدود بتحديده. ورأى المملوك إخراجهم من القصر، فإنهم مهما بقوا فيه بقيت مادَّة لا تنحسم الأطماعُ عنها، فإنه قِبْلة

= و «النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١٧، و «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، ولبرنارد لويس كتاب «الدعوة الإسماعيلية الجديدة» ترجمة الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٣٩١/ ١٩٧١، و «أعلام الإسماعيلية» ٢٩٥ ـ ٣٠٣.

(١) سورة البروج، الآية: ٢٠.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و (ل): مستجار، والمثبت من (م).

للضَّلال منصوبة، وبِيْعَة للبدع محجوجة[١].

قال المؤلف: لعلَّها محجوبة[٢].

ومما يطرفُ به المولى أن ثَغْرَ الإسكندرية على عموم مذهب السُّنَّة فيه، أَطْلَعَ البحث أن فيه داعيةً خبيثاً أمره، محتقراً شَخْصُه، عظيماً كفره، يسمى قديد القفاص، وأن المذكور مع خموله في الدِّيار المصرية، قد فَشَتْ في الشَّام دعوته، وطبقت عقول[٣] أهل مصر فتنته، وأن أرباب المعايش فيه يحملون إليه جُزْءاً من كسبهم، والنُّسْوان يبعثن إليه شطراً وافياً من أموالهنّ، ووجدت في منزله بالإسكندرية عند القبض له، والهَجْم عليه، كُتب مجرَّدة فيها خلع العِذَار، وصريح الكفر الذي ما عنه اعتذار، ورقاع يخاطب بها[٤] فيها ما تقشعرُّ منه الجلود، وكان يدَّعي النَّسب إلى أهل القصر، وأنه خرج منه طفلاً صغيراً، ونشأ على الضَّلالة كبيراً، وبالجملة فقد كُفي الإسلام

١/٢٢٢ أمره، وحاق به مكره، وصرعه كفره.

قلت: وفي قضية عُمارة هذه يقول العلامة تاج الدين الكِنْدي رحمه الله تعالى[٥]، ونقلته من خَطِّه:

عُمارة في الإسلام أبدَى جناية[٦] وبـايـع فيهـا بِيعـةً وصَليبـا
وأمسَى شريك[٧] الشِّرْك في بُغْضِ أحمدِ فـأصبح[٨] فـي حُـبِّ الصَّليـبِ صَلِيبـا

---

(١) في (ل): محجوبة. قلت: والظاهر أنها من تصرُّف النَّاسخ.

(٢) تعليق المؤلف، ساقط من (م).

(٣) عقول، ساقطة من (م).

(٤) بها، ساقطة من (ل).

(٥) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٣ هـ).

(٦) في (م): خيانة.

(٧) في (م): يعين.

(٨) في (م): وأصبح.

وكــان خبيــثَ الملتقــى إنْ عَجَمْتَــهُ تَجِـدْ منـه عـوداً فـي النِّفـاقِ صَلِيبـا
سيلقـى غـداً مـا كـان يسعـى لأجلـه وَيُسْقـى صَـديـداً فـي لظًـى وصَلِيبـا

قلـت: الصليـب الأول صليـب النَّصـارى، والثـانـي بمعنـى مصلـوب، والثالث من الصَّلابة، والرابع وَدَك العظام، وقيل: هو الصَّديد، أي يُسْقى ما يسيلُ من أهل النَّار، نعوذ بالله منها.

وكان عُمارة مستشعراً من الغُزِّ وهم أيضاً منه، لأنه كان من أتباع الدولة المصرية، وممن انتفع بها واختلَّ أمره بعدها، فلم تَصْفُ القلوب بعضها لبعض، وصار يظهر في فلتات لسانه، في نَظمه ونثره، ما يقتضي التحرُّز منه وإبعاده، وهو يرى ذلك منهم فيزداد فساداً في نيته، وإن مدحهم تكلَّف ذلك وصرَّح، وعرَّض فيه بما في ضميره.

وقد قال في كتاب «الوزراء المصرية»: ذكر الله أيامهم بحمدٍ لا يَكِلُّ نشاطه، ولا يُطْوى بساطُه، فقد وجدتُ فَقْدَهم، وهُنْتُ بعدَهم[1].

وقال من قصيدة مَدَح بها نجم الدين أيوب:

وكان لي في ملوك النِّيل قبلَكُمُ مكـانـةٌ عـرفتهـا العُـرْبُ والعَجَـمُ
وكــان بينـي وبيــن القَــوْمِ مَلْحَمَــةٌ فـي حـربهـا ألْسُـن الأديـان تَخْتَصِـمُ
ومــا تــزال إلــى داري عــوارفهــم يسعــى إلـيَّ بهــا الإنعــامُ والكَــرَمُ
تَــرَكْــتُ قَصْــدَكَ لمّــا قيــل إنــك لا تجــودُ إلا علــى مــن مَسَّــه العَــدَمُ
ولستُ بالرَّجُلِ المجهولِ مَوْضِعُهُ ولا لِنَــزْرٍ مــن الإحســانِ أغْتَنِــمُ
ولا إلــى صــدقــات المــال أطلُبهــا ولا عمًـى نـال أعضـائـي ولا صَمَـمُ
وإنمــا أنــا ضيــفٌ للملــوك ولــي دونَ الضيـوفِ لسـانٌ نـاطِـقٌ وفَـمُ[2]

(١) «النكت العصرية»: ١٢٠.
(٢) انظر أبياتاً من هذه القصيدة في «النكت العصرية»: ٣٥٥ ـ ٣٥٦، وقد سلفت بعض أبياتها ص ٢٥٧ من هذا الجزء.

وقال من قصيدةٍ مَدَح بها صلاح الدين رحمه الله تعالى:

قَــرَّرَتْ لــي أبنــاءُ رُزِّيــك رِزقــاً ... كــان فــي عَصْـرِهـم مسنًّـى مُهَنَّـا
وأَتَــتْ بَعْــدَهُــمْ ملــوكٌ فَسَنُّــوا ... فــيَّ مـا كــانَ صـالـحُ القَـوْمِ سَنَّـا
وَرَعَــوْنــي إمــا اقتــداءً بمــاضٍ ... أو لمعنًــى فكلُّهــمْ بــي يُعَنَّــى

وله من أُخرى:

فقد صارت الدُّنيا إليكُمْ بأَسْرِها ... فـلا تَشْبَعُـوا منهـا ونحـنُ جِيـاعُ
إذا لم تزيدونا فكونوا كمن مَضَى ... ففـي النَّـاس أخبـارٌ لهـم وسَمَـاعُ
وليـس علـى مُـرِّ الفِطَـامِ إقـامـةٌ ... فهـل فـي ضُروع المكـرمـات رِضاعُ

وقال في قصيدةٍ مَدَح بها تقيَّ الدين:

هـل تـأذنـونَ لمـن أراد عِتـابكـم ... أم ليس في إعتابكم من مَطْمَعِ
ضيَّعْتُـمُ مــن حَـقِّ ضيفِكُـمُ الـذي ... مـا زالَ قَبْـلَ اليـوم غيـرَ مُضَيَّـعِ
وتغـافَـلَ السُّلْطـانُ عنـي حيـن لـم ... أَكْشِـفْ قِنـاعَ مَـذَلَّـةٍ وتَضَـرُّعِ
وَرَجَـوْتُ نَفْعَـك بـالشَّفـاعـةِ عنـدَه ... فَسَمَحْـتَ لـي بشفـاعـةٍ لـم تَنْفَـعِ
وإذا نطـاقُ الـرِّزْقِ ضـاقَ مجـالُـه ... أمسـى مجـالُ النُّطْـقِ غيـرَ مُـوَسَّـعِ

وقال أيضاً:

تيمَّمْتُ مِصْراً أطلبُ الجاه والغِنى ... فَنِلْتُهُمـا فـي ظِـلِّ عَيْشٍ مُمَنَّـعِ
وَزُرْتُ ملـوكَ النِّيـلِ أرتـادُ نَيْلَهُـمْ ... فـأحمـدَ مُـرْتـادي وأَخْصَـبَ مَـرْبَعي
وَفُـزْتُ بـألْـفٍ مـن عطيَّـةِ فـائـزٍ ... مــواهِبُــه للصُّنْــعِ لا للتَّصَنُّــعِ
وكـم طـرقتنـي مِـنْ يَـدٍ عـاضـدِيَّـةٍ ... سَـرَتْ بيـن يَقْظَـى مـن عُيـونٍ وهُجَّـعِ
وجـاد ابـنُ رُزِّيـكٍ مـن الجـاه والغِنـى ... بما زاد عن مَرْمى رجائي ومَطْمعي

وأوحى إلى سمعي ودائعَ شِعْره … فَحَبَّرْتُهُ مني بأكرم مُودَعِ ١/٢٢٣
وليست أيادي شاورٍ بذميمةٍ … ولا عَهْدُها عندي بعهدِ مُضَيَّعِ
ملوكٌ رَعَوْا لي حُرْمةً صار نَبْتُها … هشيماً رَعَتْهُ النَّائباتُ وما رُعي
مذاهِبُهُمْ في الجُودِ مَذْهَبُ سُنَّةٍ … وإنْ خالفوني باعتقادِ التَّشيُّعِ
فَقُلْ لصلاح الدينِ والعَدْلُ شأنُهُ … مَنِ الحَاكِمُ المصغي إليَّ فأدَّعي
أقمتُ لكم ضيفاً ثلاثةَ أشهرٍ … أقول لصَدْري كلما ضاق وَسِّعِ
وكم في ضيوفِ البابِ ممَّن لسانُهُ … إذا قطَّعوه لا يقومُ بأُصْبعي
فيا راعيَ الإسلامِ كيف تَرَكْتنا … فريقَيْ ضَياعٍ من عَرَايا وجُوَّعِ
دَعَوْناك من قُرْبٍ وبُعْدٍ فَهَبْ لنا … جوابَكَ فالباري يُجيب إذا دُعي[1]

وقال أيضاً:

أسفي على زَمَنِ الإمامِ العاضِدِ … أَسَفُ العقيمِ على فِراقِ الواحدِ
جالستُ مِنْ وزرائه وصَحِبْتُ مِنْ … أُمرائه أهلَ الثناء الخالِدِ
لهفي على حُجُراتِ قَصْرِكَ إذْ خَلَتْ … يا ابنَ النَّبيِّ من ازْدِحامِ الوافِدِ
وعلى انفرادك من عساكرِكَ الذي[2] … كانوا كأمواجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ
قَلَّدْتَ مُؤْتَمِنَ الخِلافةِ[3] أَمْرَهُمْ … فكبا وقَصَّرَ عن صَلاحِ الفاسِدِ
فَعَسى اللَّيالي أن تَرُدَّ إليكُمُ … ما عوَّدَتْكُمْ من جميلِ عَوائِدِ[4]

---

(١) القصيدة بتمامها في «النكت العصرية»: ٢٨٧ ـ ٢٩١، مع اختلاف في بعض الألفاظ.
(٢) في (م): التي.
(٣) انظر ص ١٣٠ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) انظر «النكت العصرية»: ٢١٤.

وقال أيضاً:

قَسَتْ رَأفَةُ الدُّنيا فلا الدَّهْرُ عاطِفٌ … علــيَّ ولا عَبْـدُ الـرَّحيـمِ رَحِيْـمُ
عفــا الله عـــن آرائـــهِ كـــلَّ فَتْـــرَةٍ … كـــلامُ العِـــدَى فيهـــا علـــيَّ كُلُـــومُ
وســامَحَــهُ فـي قَطْـعِ رِزْقٍ بِفَضْلِـهِ … وَصَلْـــتُ إليـــه والـــزَّمـــان ذَميـــمُ
ألا هَــلْ لَــهُ عَطْـفٌ علــيَّ فــإنني … فقيـرٌ إلـى مـا اعتـدتُ منـه عَـدِيْـمُ

عبد الرحيم هو القاضي الفاضل[1] رحمه الله تعالى.

وبلغني أن عُمارة لما مَرُّوا به لِيُصلب عُبِرَ به على جهة دار الفاضل، فطلب الاجتماع به، فقيل: ليس إليه طريق. فقال:

عَبْـدُ الـرَّحيـم قَـدِ احْتَجَـبْ … إنَّ الخـلاصَ هـو العَجَـبْ

وقال: وهذه القصيدة تحقِّق ما رمي به من الاجتماع على مكاتبة الفرنج والخوض في فساد الدولة بل المِلَّة، وتوضح عُذْر السُّلْطان في قتله، وقتل من شاركه في ذلك:

رَمَيْتَ يـا دَهْـرُ كَـفَّ المَجْـدِ بـالشَّلَـلِ … وجِيْدَه بعد حَلْي الحُسْنِ[2] بالعَطَلِ
سَعَيْتَ في منهج الرأي العثور فإنْ … قَـدَرْتَ مـن عَثَـرَاتِ البغـي فـاسْتَقِـلِ
جَدَعْتَ مارِنَك[3] الأقنى فأنفُكَ لا … ينفكُّ ما بين نَقْصِ الشَّين والخَجَلِ
هَدَمْتَ قاعِدَةَ المعروفِ عن عَجَلٍ … سُقِيْتَ مُهْلاً[4] أما تمشي على مَهَلِ
لهفـي ولهـفُ بنـي الآمـال قـاطبـةً … علـى فجيعتنــا فـي أكـرمِ الـدُّوَلِ

---

(١) الفاضل، ليست في (م).
(٢) في (م): بعد حسن الحلي بالعطل.
(٣) المارن: ما لان من الأنف، «اللسان» (مرن).
(٤) المهل: القيح والصديد. «اللسان» (مهل).

قَدِمْتُ مِصْرَ فأوْلتني خلائفُها ... من المكارِمِ ما أَرْبى على الأمَلِ
قومٌ عَرَفْتُ بهم كَسْبَ الأُلوفِ ومِنْ ... كمالها أنَّها جاءَتْ ولم أَسَلِ
وكنتُ من وزراء الدَّسْتِ حيث سما ... رأسُ الحِصانِ بهاديه على الكَفَلِ
وَنِلْتُ من عظماءِ الجيشِ تكْرِمَةً(١) ... وخُلَّةً حُرِسَتْ من عارِضِ الخَلَلِ
يا عاذلي في هَوَى أبناءِ فاطمةٍ ... لك المَلامَةُ إن قَصَّرْتَ في عَذَلِي
بالله زُرْ ساحةَ القَصْرَيْنِ وابْكِ معي ... عليهما لا على صِفِّينَ والجملِ
وقُلْ لأهلهما واللَّهِ ما التَحَمَتْ ... فيكم قُروحي ولا جُرْحي بمُنْدَمِلِ
ماذا ترى كانتِ الإفرنجُ فاعِلَةً ... في نَسْلِ آلِ أمير المؤمنين علي
هل كان في الأمر شيءٌ غير قسمة ما ... مُلِّكتمُ بين حُكْمِ السَّبْي والنَّفَلِ ١/ ٢٢٤
وقد حَصَلْتُمْ عليها واسمُ جَدِّكُمُ ... محمدٍ وأبيكم غيرُ مُنْتَقِلِ
مَرَرْتُ بالقَصْرِ والأركانُ خاليةٌ ... من الوفودِ وكانت قِبْلَةَ القُبَلِ
فَمِلْتُ عنها بوجهي خَوْفَ مُنْتَقِدِ ... من الأعادي وَوجْهُ الوُدِّ لم يَمِلِ
أَسْبَلْتُ من أسفٍ دمعي غَدَاةَ خَلَتْ ... رحابُكُمْ وغَدَتْ مهجورةَ السُّبُلِ
أبكي على مأثُراتٍ من مكارِمِكُمْ ... حالَ الزَّمانُ عليها وهي لم تَحُلِ
دارُ الضِّيافَةِ كانت أُنْسَ وافِدِكُمْ ... واليومَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ ومن طَلَلِ
وفطرة الصَّومِ إن أصغت مكارمُكم ... تشكو من الدَّهْرِ حيفاً غير مُحْتَمَلِ
وكسوة النَّاس في الفَصْلَيْنِ قد دَرَسَتْ ... ورَثَّ منها جديدٌ عنهمُ وبلي
وموسم كان في كَسْرِ الخليجِ لكم ... يأتي تجمُّلُكُمْ فيه على الجَمَلِ
وأَوَّلُ العامِ والعيدانِ كان لكم ... فيهنَّ من وَبْلٍ(٢) جودٍ ليس بالوَشَلِ(٣)
والأرضُ تهتزُّ في عيدِ الغدير لما ... يَهتَزُّ ما بينَ قصريكُم مِنَ الأَسَلِ

---

(١) في (م): مكرمة.
(٢) الوبل: المطر الشديد الضخم القطر. «اللسان» (وبل).
(٣) الوشل: الماء القليل يتحلب من جبل أو صخرة. «اللسان» (وشل).

والخيلُ تعرض من وشيٍ ومن شِيَةٍ | مِثْلَ العَرائِسِ في حَلْيٍ وفي حُلَلِ[١]
ولا حملتم قِرَى الأَضيافِ من سَعَة الـ | أطباقِ إلا على الأعناق والعَجَلِ
ومـا خَصَصْتُـمْ ببـرٍّ أهـلَ مِلَّتِكُـمْ | حتى عَمَمْتُمْ به الأَقْصَىٰ من المِلَلِ
كـانـت رواتبكـم للـذمتيـن وللضـ (م) | ـيْفِ المقيمِ وللطَّاري من الرُّسُلِ
وللجـوامـع مـن أَحْبَاسِكُـمْ نِعَـمٌ | لمن تصـدَّر في عِلْـم وفـي عَمَـلِ
وربمـا عـادَتِ الـدُّنيـا لِمَعْقِلِهـا | منكم وأضْحَتْ بكم محلولةَ العُقُلِ

وقال العماد في «الخريدة»: أبو القاسم، هبة الله بن عبد الله بن كامل، كان داعي الدُّعاة بمصر للأدعياء، وقاضي القضاة لأولئك الأشقياء، يلقبونه بفخر الأمناء، وهو عندهم في المحلَّة العلياء، والمرتبة الشَّمَّاء، والمنزلة في السماء، حتى انكَدَرَتْ نجومُهم، وَتَغَيَّرَتْ رسومهم، وأقيم قاعدهم، وعُضِدَ عاضدهم، وأخليت منهم مِصْرهم، وأجلي عنهم قصرهم. فحرَّك ابنُ كامل ناقصَ الذَّبِّ[٢] عنهم، والشد منهم، فمالأ قوماً على البيعة لبعض أولاد العاضد، ليبلغوا به ما تخيَّلُوه من المقاصد، وسوَّلُوه من المكايد، فأثمرت بجثثهم الجذُوع، وأَقْفَرَتْ من جسومهم الرُّبوع، وأُحكمت في حلوقهم[٣] النُّسوع[٤]، وهذا أول من ضَمَّه حبل الصلب، وأمه فاقرة[٥] الصُّلْب. وهذا صنع الله فيمن ألحد[٦]، وكفر النعمة وجحد، وذلك غُرَّة رمضان سنة تسع

---

(١) في الأصل: الحلل، والمثبت من (ل) و(م).
(٢) في (م): نافض الكرب عنهم.
(٣) في الأصل: حلومهم، وفي «خريدة القصر»: لحومهم، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) النسوع، مفردها: النسع: سير يضفر على هيئة أعِنَّة النعال تشد به الرحال، ويجعل زماماً للبعير وغيره، انظر «اللسان» (نسع).
(٥) الفاقرة: الداهية الكاسرة للفقار، «اللسان» (فقر).
(٦) ألحد، ساقطة من (ل).

وستين وخمس مئة. سمعتُ الملك النَّاصر صلاح الدين يذكره[1]، وقد ذكروه عنده بالفَضْل والأدب، ونسبوا إليه هذين البيتين في غلامٍ رفاء، وأنشدهما[2] الملك الناصر، وذكر أنه كان[3] ينكرهما:

يـا رافيـاً خَـرْقَ كـلِّ ثَـوْبٍ   وَيـا رَشـاً حُبُّـه اعتقـادي
عسـى بِكَـفِّ الـوِصـالِ تَـرْفُـو   مـا مَـزَّقَ الهَجْـرُ مـن فـؤادي[4]

فصـــل

في التعريف بحال عُمارة[5] ونسبه وشعره

قال العماد: وقد أوردتُ شعر عمارة[5] بن أبي الحسن اليمني في كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر»، ونقلتُ إلى هذا الكتاب ـ يعني كتاب «البَرْق الشَّامي» ـ لمعاً من ذلك. فمن ذلك ما أنشدنيه نجم الدين أبو محمدٍ بن مَصَال[6]:

---

(١) في (م) يقول يذكره، وإخال «يقول» مقحمة.
(٢) في الأصل: وأنشده، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) كان، ساقطة من (م).
(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٨٦ ـ ١٨٧، وهما مستدركان من كتابنا هذا. وذكر محققه نقلاً عن «المغرب» لابن سعيد أن البيتين لابن القابلة السبتي.
قلت: هو أبو بكر محمد بن يحيى الشلطيشي؛ كاتب وشاعر أندلسي، كان من كبار أعوان ابن قَسِي الثائر على المرابطين، كان يسميه المصطفى لاختصاصه بالكتابة له، واطلاعه على أموره، قتل بعد نحو سنة (٥٣٩ هـ)، انظر «الحلة السيراء»: ١٩٨، ٢٠٦، و «المغرب في حُلَى المغرب»: ١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣، و «نفح الطيب»: ٣/ ٦١٠، ٤/ ١٠، ١٣.
(٥ ـ ٥) ما بينهما ساقط من (م).
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من هذا الجزء.

لـو أنَّ قلبـي يـوم كـاظمـةٍ معـي　　لملكتُـه وكَظَمْـتُ غيـظَ الأَدْمُـع

ــ قال العماد: إنما أنشدني فيضَ الأدمع فرأيت غيظ الأدمع أليق بالكظم ــ

قَلْـبٌ كَفَـاك مـن الصَّبـابَـةِ أنَّـه　　لبَّـى نـداءَ الظَّـاعنيـن ومـا دُعـي

ومِـنَ الظُّنـون الفـاسِـدَاتِ تَـوَهُّمـي　　بعـدَ اليقيـنِ بقـاءَه فـي أَضْلُعـي

مـا القَلْـبُ أَوَّلَ غـادِرٍ فـألـومَـه　　هي شِيْمَةُ الأيامِ مُذْ[1] خُلِقَتْ معي[2]

قال: وأنشدني لعمارة أيضاً: /٢٢٥

مَلِـكٌ إذا قـابَلْـتُ بِشْـرَ جَبِيْنِـهِ　　فـارَقْتـهُ والبِشْـرُ فـوقَ جبينـي

وإذا لَثَمْـتُ يمينَـهُ وخَـرَجْـتُ مـن　　أبـوابـه لَثَـمَ الملـوكُ يمينـي[3]

قال: وأنشدني له عضد الدين أبو الفوارس مُرْهَف بن أسامة بن منقذ[4]:

لي في هوى[5] الرَّشأ العُذْرِيِّ أَعْذَارُ　　لم يَبْقَ لي مُذْ أَقَرَّ الدَّمْعُ إنكارُ

لي في القُدُودِ وفي لَثْمِ الخدودِ وفي　　ضَـمِّ النُّهـودِ لُبـانـاتٌ وأَوْطَـارُ

هـذا اختيـاري فَـوافِـقْ إنْ رَضِيْـتَ بـه　　أَوْلا فَـدَعْنـي ومـا أَهْـوَى وأخْتـارُ

لُمنـي جـزَافـاً وسـامحنـي مُصـارفـةً　　فـالنَّـاسُ فـي دَرَجـات الحـبِّ أَطْـوارُ

---

(١) في «الخريدة» و «النكت»: قد، وهي الأشبه.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/١٠٦، و «النكت العصرية»: ٣٩٧ ــ ٣٩٨ مع اختلاف في ترتيب البيتين الثالث والرابع.

(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/١٠٦، و «سنا البرق الشامي»: ١/١٤٩ وفيهما: إيوانه بدلاً من أبوابه.

(٤) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦١٣ هـ).

(٥) في «الخريدة» و «النكت»: ما عن هوى.

وخلٍّ عَـذْلـي ففـي داري ودائـرتـي مـن المَهَـا دُرَّةٌ قلبـي[1] لهـا دارُ[2]

قلت: ويُروى:

وغُرَّ غيري ففي أسري ودائرتي[3]

والأبيات العينية من قصيدةٍ في مَدْح تقيِّ الدين، والنُّونيَّة في مدح نجم الدين أيوب، والرائيَّة في مدح شمس الدولة بن أيوب.

وكان عمارة هذا عربياً فقيهاً أديباً، وله كتابٌ صغير ذكر فيه أخباره وأحواله باليمن، ثم بمصر[4]، فذكر أنه أقام بزَبيد* ثلاث سنين يُقرأ عليه مذهب الشافعي رضي الله عنه. قال: ولي في الفرائض مصنَّف يُقْرأ باليمن[5].

وفي سنة تسع وثلاثين زارني والدي وخمسة من إخوتي إلى زَبيد، فأنشدته شيئاً من شعري، فاستحسنه، ثم قال: تعلم والله أن الأدب نعمة من نِعَمِ الله عليك فلا تكفُرها بذمِّ الناس. واستحلفني ألاَّ أهجو مسلماً ببيت

---

(١) في «النكت»: صدري.

(٢) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١٠٧ ــ ١٠٨، و «النكت العصرية»: ٢٦٥ ــ ٢٦٧، و «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٤٩.

(٣) هي رواية «النكت العصرية» ٢٦٥.

(٤) هو «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية» نشر سنة ١٨٩٧ م بعناية هرتوغ درنبرغ، ونشر له أيضاً «تكملة ديوان شعر عمارة اليمني ونبذ من ترسلاته وتراجمه» سنة ١٩٠٢ م، وأعاد طبع كتاب «النكت» بالأوفست قاسم محمد رجب صاحب مكتبة المثنى ببغداد، وعلى هذه المصورة كانت إحالاتنا عليه.

وطبع لعمارة أيضاً تاريخه «المفيد في أخبار صنعاء وزبيد» بتحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، طبع غير مرة، ثالثها سنة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

(٥) «النكت العصرية»: ٢٣.

شعر، فحلفت له على ذلك، ولطف الله تعالى بي فلم أهجُ أحداً ما عدا إنساناً هجاني بحضرة الملك الصالح ــ يعني ابن رُزِّيك ــ ببيتي شعر، فأقسَم الصَّالح عليَّ أن أجيبه، ففعلت متأوِّلاً قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[2]. قال: ولم يكن شيء غير هذا[3].

وحججتُ مع الملكة أم فاتك ملك زَبيد، وكانت تقوم لأمير الحرمين بجميع ما يتناوله من حاجّ اليمن براً وبحراً، وبجميع خفارات الطَّريق، فذكر أنه حصل له وجاهة عندها، فانتفع بها حتى أثرى وكَثُر ماله وجاهه. ثم طرأت أمورٌ اقتضت أنْ هرب من اليمن، وحجَّ سنة تسعٍ وأربعين وخمس مئة[4].

قال: وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فَلِيتة[5]، وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم[6]، فألزمني السَّفارة عنه والرسالة منه إلى الدولة المِصْرية، فَقَدِمْتُها في شهر ربيع الأول سنة خمسين، والخليفة بها يومئذٍ الفائز بن الظَّافر، والوزير له الملك الصَّالح طلائع بن رُزِّيك، فلما حضرتُ للسَّلام عليهما في قاعة الذهب من قصر الخليفة أنشدتهما:

الحَمْدُ للعيسِ[7] بعدَ العَزْمِ والهِمَمِ حمداً يقومُ بما أَوْلَتْ من النِّعَمِ

---

(١) سورة الشورى، الاية: ٤١.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.

(٣) «النكت العصرية»: ٢٣ ــ ٢٤.

(٤) انظر «النكت العصرية»: ٢٤ ــ ٣١.

(٥) انظر ص ٣١٧ من الجزء الأول.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣١٧ من الجزء الأول.

(٧) في الأصل: للعيش، وهو تصحيف، والمثبت من (ل)، و (م).

لا أجْحَدُ الحقَّ عندي للركاب يَدٌ   تمنَّتِ اللُّجْمُ فيها رُتْبَةَ الخُطُمِ
قَرَّبْنَ بُعْدَ مَزَارِ العِزِّ من نَظَري   حتى رأيتُ إمامَ العَصْرِ من أَمَمِ
ورُحْنَ من كعبةِ البَطْحاء والحَرَمِ   وفداً إلى كعبةِ المعروفِ والكَرَمِ
فهل دَرَى البَيْتُ أني بعد زَوْرَتِه[1]   ما سرتُ من حَرَمٍ إلا إلى حَرَمِ
حيثُ الخلافةُ مضروبٌ سُرادِقُها   بين النقيضين من عَفْوٍ ومن نِقَمِ
وللإمامةِ أنوارٌ مُقَدَّسَةٌ   تجلُو البغيضينِ من ظُلْمٍ ومن ظُلَمِ
وللنُّبُوَّةِ آياتٌ تنصُّ لنا   على الخفيَّين من حُكْمٍ ومن حِكَمِ
وللمكارمِ أعلامٌ تعلِّمنا   مَدْحَ الجزيلين من بَأْسٍ ومن كَرَمِ
وللعُلا ألْسُنٌ تُثْني محامِدُها   على الحميدين من فِعْلٍ ومن شِيَمِ
ورايةُ الشَّرَفِ البذَّاخِ تَرْفَعُها   يَدُ الرفيعين من مَجْدٍ ومن هِمَمِ
أقْسَمْتُ بالفائزِ المعصوم معتقداً   فَوْزَ النَّجاةِ وأَجْرَ البِرِّ في القَسَمِ
لقد حمى الدِّينَ والدنيا وأهلَهما   وزيرُه الصَّالحُ الفرَّاجُ للغُمَمِ
اللاَّبِسُ الفَخْرَ لم تَنْسُجْ غلائِلَه   إلا يَدُ الصنعتين[2] السَّيْفِ والقَلَمِ
وُجُودُه أوجدَ الأيامَ ما اقترحَتْ   وَجُودُه أعدَمَ الشَّاكين للعَدَمِ ١/٢٢٦
قد ملَّكته العَوالي رقَّ مملكةٍ   تعيرُ أنفَ الثُّريّا عِزَّةَ الشَّمَمِ
أرى مقاماً عظيمَ الشَّأْنِ أَوْهَمَني   في يقظتي أنها من جُمْلَةِ الحُلُمِ
يومٌ من العُمْرِ لم يَخْطُرْ على أَمَلٍ[3]   ولا تَرَقَّتْ إليه رَغْبَةُ الهِمَمِ
لَيتَ الكواكبَ تَدْنُو لي فأنظِمَها   عُقُودَ مَدْحٍ فما أَرْضَى لكم كَلِمي
ترى الوزارةَ فيه وهي باذِلَةٌ   عِنْدَ الخلافةِ نُصْحاً غيرَ مُتَّهَمِ
عواطفٌ أعلمتنا أنَّ بينهما   قرابةً من جميلِ الرَّأْيِ لا الرَّحِمِ

---

(١) في (م): فرقته.
(٢) في «النكت» الصَّنعَيْن، ومثله في «وفيات الأعيان».
(٣) في (م): أملي.

خليفـــةٌ ووزيـــرٌ مَـــدَّ عَـــدْلُهمـــا ظـلاً علـى مَفْـرِقِ الإِسـلامِ والأُمَـمِ
زيــادَةُ النِّيـلِ نَقْـصٌ عنـد فَيْضِهِمـا فمـا عسـى نَتَعـاطـىٰ مِنَّـةَ الـدِّيَـمِ[1]

قـال: وعهـدي بـالصَّـالـح وهـو يستعيـدهـا فـي حـال النشيـد مـراراً، والأستاذون والأمراء والكبراء يذهبون في الاستحسان كل مذهب. ثم أُفيضت عليَّ خِلَعٌ من ثياب الخلافة مُذْهَبة، ودفع إليَّ الصَّالح خمس مئة دينار، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لي من عند السيدة بنت الإمام الحافظ بخمس مئة دينارٍ أخرى، وحُمل المال معي إلى منزلي، وأُطلقت[2] لي من دار الضيافة رسومٌ لم تُطْلق لأحدٍ قبلي، وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم، واستحضرني الصَّالح للمجالسة، ونظمني في سِلْك أهل المؤانسة، وانثالت علي صِلاتُه، وغمرني بِرُّهُ.

وَوَجَدْتُ بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الجَبَّاب[3]، والموفق أبا الحجَّاج يوسف بن الخلاَّل صاحب ديوان الإنشاء[4]، وأبا الفتح محمود بن قادوس[5]، والمهذَّب أبا محمد الحسن بن الزّبير[6]، وغيرهم، وما من هذه الحَلْبة أحدٌ إلا ويَضْرِبُ في الفضائل النفسانية والرِّياسة الإنسانية بأوفر نصيب، وما زلت أحذو على طرائقهم حتى

(١) «النكت العصرية»: ٣٢ ــ ٣٤، و «وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٣٢ ــ ٤٣٣، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١١٢ ــ ١١٤.
(٢) في الأصل: وأطلق، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) سلفت ترجمته ص ٦ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) سلفت ترجمته ص ١٨٣ من هذا الجزء.
(٥) سلفت ترجمته ص ٣٢٩ من الجزء الأول.
(٦) سلفت ترجمته ص ٢٥ من هذا الجزء.

نظموني في سِلْك فرائدهم[1]، وقلتُ:

لياليَ بالفُسْطاط من شاطئيْ[2] مِصْرِ ... سقى عَهْدَكِ الماضي عِهادٌ[3] من القَطْرِ
ليالٍ هي العُمْرُ السَّعيدُ وكلُّ ما ... مضى في سِواها لا يُعَدُّ من العُمْرِ[4]
أفادتنيَ الأقْدار فيها مَواليَاً ... صَفَتْ بهمُ الأيامُ من كَدَرِ الغَدْرِ
تواصَوْا على ألا تُرَدَّ إرادتي ... ولو سُمْتُهُمْ نَثْرَ الكواكبِ في حِجْري[5]

وله في الصَّالح بن رُزِّيك من قصيدة:

ولو لم يكن[6] أدرى بما جَهِلَ الورى ... من الفَضْلِ لم تَنْفُقْ لديه الفَضَائِلُ
لئن كان منا قابَ قَوْسٍ فبيننا ... فراسخُ من إجلاله ومَرَاحِلُ[7]

قال: وأنشدتُ الصَّالح وهو بالقبو من دار الوزارة قصيدةً، منها:

دعُوا كلَّ بَرْقٍ شِمْتُمُ غَيْرَ بارِقٍ ... يلوحُ على الفُسْطاط صادِقُ بِشْرِهِ
وزوروا المقامَ الصَّالحيَّ فكلُّ من ... على الأرض يُنْسىٰ ذِكْرُه عند ذِكْرِهِ
ولا تجعلوا مَقْصُودكُمْ طَلَبَ الغِنى ... فَتَجْنُوا على مَجْدِ المقام وفخْرِهِ
ولكن سَلُوا منه العُلا تَظْفروا بها ... فكلُّ امرئٍ يُرْجى على قَدْرِ قَدْرِهِ[8]

---

(١) «النكت العصرية»: ٣٤ ــ ٣٥.
(٢) في (م): جانبي.
(٣) العهاد جمع، مفردها العهد: أول مطر، وقيل: هو كل مطر بعد مطر. «اللسان» (عهد).
(٤) اضطرب ترتيب أوراق نسخة (ل)، فجاءت تتمة هذه القطعة بعد ورقتين.
(٥) انظر «النكت العصرية»: ٤٠.
(٦) في الأصل: أكن، والمثبت من (ل) و (م).
(٧) «النكت العصرية»: ٤٧.
(٨) «النكت العصرية»: ٣٥ ــ ٣٦، و «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٣/ ١١٤ ــ ١١٥.

قال: ولما جلس شاور في دار الذَّهب قام الشُّعراء والخُطَباء ولفيفُ الناس إلا الأقل ينالون من بني رُزِّيك وضِرْغام نائب الباب، ويحيى بن الخيَّاط[1] الأسفهسلار*، فأنشدته:

صَحَّتْ بدَوْلتك الأيامُ من سَقَمِ ... وزال ما يشتكيه الدَّهْرُ من أَلَمِ

ومنها:

زالت ليالي بني رُزِّيك وانْصَرَمَتْ ... والحمدُ والذمُّ فيها غَيْرُ مُنْصَرِمِ
كأنَّ صالحهم يوماً وعادِلَهم ... في صَدْرِ ذا الدَّسْتِ لم يَقْعُدْ ولم يَقُمِ
كنَّا نَظُنُّ وبعضُ الظَّنِّ مأثمةٌ ... بأنَّ ذلك جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
فمذْ وَقَعْتَ وقوعَ النَّسْرِ خانَهُمُ ... مَنْ كان مجتمعاً من ذلك الرَّخَمِ
ولم يكونوا عدوّاً ذلَّ جانِبُهُ ... وإنما غَرِقُوا في سَيْلك العَرِمِ
وما قَصَدْتُ بتعظيمي عِدَاكَ[2] سوى ... تعظيم شأنِك فَاعْذُرْني ولا تَلُمِ
ولو شكرتُ لياليهم محافظةً ... لعهدها لم يكنْ بالعَهْدِ من قِدَمِ
ولو فَتَحْتُ فمي يوماً بذمِّهمُ ... لم يَرْضَ فَضْلُكَ إلا أن يُسَدَّ فمي
والله يأمر بالإحسانِ عارِفَةً ... منه وينهى عن الفَحْشاء في الكَلِمِ

٢٢٧/١

قال: فشكرني شاور وأبناؤه على الوفاء لبني رُزِّيك[3].

قلت: وشعر عُمارة كثيرٌ حسن، وعندي من قوله: الحمد للعيس ــ وإن كانت القصيدة فائقة ــ نُفْرَةٌ عظيمة، فإنه أقام ذلك مقام قولنا: الحمد لله، ولا ينبغي أن يُفْعَلَ ذلك مع غير الله تعالى عزَّ وجل، فله الحمد وله

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٦ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: علاك، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) «النكت العصرية»: ٦٩ ــ ٧٠.

الشُّكْر، فهذا اللفظ كالمتعين لجهة الرُّبوبيَّة المقدَّسة، على ذلك اطَّرد استعمال السَّلَف والخلف، رضي الله عنهم[1].

فصـــل

في وفاة نور الدين رحمه الله

قال العماد: وأمر نور الدين رحمه الله تعالى بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، واحتفلنا لهذا الأمر، وغُلِّقت محالُّ دمشق أياماً[2].

قال: ونظمتُ للهناء بالعيد والطُّهْر قصيدةً، منها:

عيدانِ: فِطْرٌ وطُهْرُ ... فَتْحٌ قريبٌ ونَصْرُ
كلاهما لك فيه ... حقّاً هناءٌ وأجْرُ
وفيهما بالتَّهاني ... رَسْمٌ لنا مُسْتَمِرُّ
طَهَارةٌ طابَ منها ... أَصْلٌ وفَرْعٌ وذِكْرُ
نَجْلٌ على الطُّهْرِ نامٍ ... زكا له منك نَجْرُ
محمودُ المَلِك العا ... دِلُ الكريمُ الأَغَرُّ
وبابنه الملك الصَّا ... لحِ العيونُ تَقِرُّ
مولىً بهِ اشتدَّ للدِّيـ ... ـنِ والشَّريعة أَزْرُ

---

(١) في «مجلة العرب» السنة الثالثة، الجزء الأول ص ٨٤ ــ ٩٠، والجزء الثاني ص ١٣٠ وما بعدها، مقالان عن عمارة يحسن الرجوع إليهما.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٠ ــ ١٥١، و «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٦٥ ــ ٦٦.

نــورٌ تجلَّــى عِيــانــاً ... مــا دونَــهُ اليــومَ سِتْــرُ
أَضْحَــتْ مسـاعيــكَ غُــرّاً ... كمــا أيــاديــك غُــزْرُ
وكــلُّ قَصْــدِكَ رُشْــدٌ ... وكــلُّ فِعْلِــكَ بِــرُّ
وإنَّ حُبَّــــكَ دِيْــــنٌ ... وإنَّ بُغْضَــــك كُفْــــرُ
لنـــا بيمنـــاكَ يُمْــنٌ ... كمـــا بِيُسْـــراكَ يُسْـــرُ[١]
وللمـــواليـــنَ نَفْـــعٌ ... وللمُـعـــاديـــنَ ضَـــرُّ
وللسَّمـــاء سَحَـــابٌ ... وسُحْـــبُ كَفَّيْـــكَ عَشْـــرُ
نـاديـكَ بـالـرِّفْـدِ رَحْـبٌ ... نَــدَاك للــوَفْــدِ بَحْــرُ
للبحــر مَــدٌّ وجَــزْر ... ومـــا لجُـــودِكَ جَـــزْرُ
عَــدْلٌ عميــمٌ وَجُــودٌ ... غَمْـــرٌ ويُسْـــرٌ وبِشْـــرُ
وفـــي العَطِيَّـــةِ حُلْـــوٌ ... وفـــي الحَمِيَّـــةِ مُـــرُّ
قـد استـوى منـك تقـوى الـ ... إلـــهِ سِـــرٌّ وجَهْـــرُ
تُقَـــاك والمُلْـــكُ عنـــد الـ ... ـقيـــاس عِقْـــدٌ ونَحْـــرُ
يـــا أَعْظَـــمَ النَّـــاس قَـــدْراً ... وهـــل لغيـــركَ قَـــدْرُ!
وســاهــراً حيــن نــامــوا ... وقـــائمـــاً حيـــن قَـــرُّوا[٢]
مـــا اعْتَـــدْتَ إلاّ وفـــاءً ... وعـــادَةُ القَـــوْم غَـــدْرُ
وفِعْلُـــكَ الـــدَّهْـــرَ غَـــزْوٌ ... للمشـــركيـــنَ وقَهْـــرُ
وفِعْـــلُ غيـــرِك ظُلْـــمٌ ... للمسلميـــنَ وقَسْـــرُ
يفتـــرُّ مـــن كـــلِّ ثغـــرٍ ... إلـــى ابتســـامِـــكَ ثَغْـــرُ
رومٌ بـــه وفـــرنـــجٌ ... فـــي شَفْعِهِـــمْ لـــك وِتْـــرُ

---

(١) سقط في (م) عجز هذا البيت، وصدر البيت التالي.
(٢) في (ل): فروا.

حَـــرْبٌ عَـــوَانٌ وفَتْـــحٌ　　علـــى مُـــرَادِك بِكْـــرُ
بنـــو الأصـــافـــر مِـــنْ خشـ　　ـيَـــةِ انتقـــامـــك صُفْـــرُ[1]
لـــم يَبْـــقَ للكُفْـــرِ ظُفْـــرٌ　　لا كـــان للكُفْـــرِ ظُفْـــرُ
ومـــا دَجَـــا ليـــلُ خَطْـــبٍ　　إلاّ وعَـــزْمُـــك فَجْـــرُ
أَصْبَحْـــتَ بـــالغَـــزْوِ صَبّـــاً　　وعنـــه[2] مـــا لَـــكَ صَبْـــرُ
لكســـرِ كـــلِّ يتيـــمٍ　　إسعـــافُ بِـــرِّك جَبْـــرُ
فـــي كـــلِّ قَلْـــبِ حســـودٍ　　مـــن حَـــرِّ بـــأسك جَمْـــرُ
تمـــلَّ تطهيـــرَ مَلْـــكٍ　　لـــه الملـــوكُ تَخِـــرُّ
يُـــزْهـــى ســـريـــرٌ وتـــاجٌ　　بـــه وَدَسْـــتٌ وصَـــدْرُ
وكيـــفَ يُعْمَـــلُ للطَّـــا　　هـــرِ المُطَهَّـــرِ طُهْـــرُ
هـــذا الطُّهـــورُ ظُهـــورٌ　　علـــى الـــزَّمـــان وأَمْـــرُ
وذا الخِتـــانُ خِتـــامٌ　　بِمِسْكِـــهِ طـــابَ نَشْـــرُ
رُزِقْـــتَ عُمـــراً طـــويـــلاً　　مـــا طـــالَ للـــدَّهْـــرِ عُمْـــرُ

قال: وفي يوم العيد يوم الأحد ركب نور الدين على الرَّسم المعتاد، محفوفاً من الله بالإسعاد، مكنوفاً من السماء والأرض بالأجناد، والقدر يقول له: هذا آخر الأعياد. ووقف في الميدان الأخضر* الشمالي لطعن الحلق، ورمي القبق*، وكان قد ضرب خيمته في الميدان القبلي الأخضر، وأمر بوضع المنبر. وخطَب له القاضي شمس الدين ابن الفَرَّاش قاضي العسكر[3]، بعد أن صلَّى به وذكَّر، وعاد إلى القلعة، طالع البهجة بهيج

(١) من هنا يعود اتساق أوراق نسخة (ل). انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٠٣.
(٢) عنه، ساقطة من (ل).
(٣) سترد ترجمته في وفيات سنة (٥٨٨ هـ) ٤/ ٣٤٧ ــ ٣٤٨ من هذا الكتاب.

الطلعة، وأنهب سِمَاطه العام على رَسْمِ الأتراك، وأكابر الأملاك، ثم حضرنا على خِوَانه الخاص، وله عقد كمال مصون من الانتقاض والانتقاص، وما أوضح بِشْرَه، وأضوع نَشْرَه، وأضحك سِنَّه، وأبرك يُمْنَه.

وفي يوم الاثنين ثاني العيد بكَّر وركب وجمَّل الموكب، وكأن الفَلَك بنيِّره جار، والطود الثابت يمرّ مرَّ السَّحاب في وقار. وكأنه القمر في هالته، /٢٢٨ والقدر في جلالته، والبدر في دائرته، سائرٌ بين سَيَّارته، ودخل الميدان والعظماء يُسايرونه، والفهماء يحاورونه، وفيهم همام الدِّين مودود، وهو في الأكابر معدود، وكان قديماً في أوَّل دولته والي حلب، وقد جرَّب الدهر بحنكته ولأَشْطُرِه حَلَب، فقال لنور الدين في كلامه، عظةً لمن يغتر بأيامه: هل نكون ههنا في مثل هذا اليوم في العام القابل؟ فقال نور الدين: قل هل نكون بعد شهر، فإنَّ السنة بعيدة! فجرى على منطقهما ما جرى به القضاء السَّابق، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر، والهمام لم يصل إلى العام.

ثم شرع نور الدين في اللعب بالكُرة*، مع خواصِّه البَرَرة، فاعترضه في حاله أمير آخُر* [اسمه] يَرَنْقُش وقال له: باش(١)، فأحدث له الغيظ والاستيحاش، واغتاظ على خلاف مذهبه الكريم، وخُلُقه الحليم، فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وساق ودخل القلعة ونزل، واحتجب واعتزل. فبقي أسبوعاً في منزله، مشغولاً بنازله، مغلوباً عن عاجله بحديث آجله، والنَّاس من الختان، لاهون بأوطارهم في الأوطان، فهذا يروح بجوده، وذاك يجودُ بروحه، فما انتهت تلك الأفراح إلاَّ بالأتراح، وما صلح الملك بعده إلا

---

(١) باش: كلمة تركية بمعنى الرأس، استعملت هنا بمعنى: انتهى. انظر «الدراري اللامعات في منتخبات اللغات»: ١٠٠، والحاشية رقم ٨ ص ١٥٢ من «سنا البرق الشامي».

بملك الصَّلاح[1].

قال: واتصل مرض نور الدين، وأشار عليه الأطباء بالفصد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع، وانتقل حادي عشر شوال يوم الأربعاء من مربع الفناء، إلى مرتع البقاء. ولقد كان من أولياء الله المؤمنين، وعباده الصَّالحين، وصار إلى جنَّات عدنٍ أُعدَّت للمتقين.

وكانت له صُفَّة في الدار التي على النهر الداخل إلى القلعة من الشَّمال، وكان جلوسه عليها في جميع الأحوال، فلما جاءت سنة الزلزلة بنى بإزاء تلك الصُّفَّة بيتاً من الأخشاب، مأمون الاضطراب، فهو يبيت فيه ويصبح، ويخلو بعبادته[2] ولا يبرح. فدُفن في ذلك البيت الذي اتخذه حِمًى من الحِمام، وأذن بناؤه لبانيه بالانهدام[3].

قال العماد: وقلتُ في ذلك:

عَجِبْتُ من الموتِ كيف اهْتَدى ... إلى مَلِكٍ في سجايا مَلَكْ
وكيف ثَوَى الفَلَكُ المستدِيـ ... ـرُ في الأرضِ والأَرْضُ وَسْطَ الفَلَكْ

وله فيه رحمهما الله تعالى:

يا مَلِكاً أيَّامُه لم تَزَلْ ... لفَضْلِهِ فاضِلَةً فاخِرَهْ
غاضَتْ بحارُ الجُودِ مُذْ غُيِّبَتْ ... أَنْمُلُكَ الفائِضَةُ الزَّاخِرَهْ
مَلَكْتَ دُنياكَ وخلَّفتها ... وسرتَ حتى تملكَ الآخِرَهْ

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٥١ ـ ١٥٣، وفيه «وما صلح الملك بعده إلا بملك الصالح». وما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ١/٢٢٨.

(٢) في (ل): بعبادة ربه.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٥٣.

قال ابن شداد: وكانت وفاة نور الدين رحمه الله تعالى بسبب خوانيق اعترته عَجَزَ الأطباء عن علاجها. ولقد حكى لي صلاح الدين قال: كان يبلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا بالدِّيار المصرية، وكانت جماعة أصحابنا يشيرون[1] بأن نكاشف ونخالف ونشقَّ عصاه، ونلقى عسكره بمصافٍّ يرده، إذا تحقق قصده. قال: وكنت وحدي أخالفهم وأقول: لا يجوز أن يقال شيء من ذلك، ولم يزل النِّزاع بيننا حتى وصل الخبر بوفاته رحمه الله تعالى، ورضي عنه[2].

قال ابن الأثير: وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر لأخذها من صلاح الدين لأنه رأى منه فتوراً عن غزو الفرنج من ناحيته، فأرسل إلى المَوْصِل وديار الجزيرة وديار بكر، يطلب العساكر ليتركها بالشَّام لمنعه من الفرنج، ليسير هو بعساكره إلى مصر، وكان المانعُ لصلاح الدين من الغزو الخوفَ من نور الدين، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه، فكان يحتمي بهم عليه، ولا يؤثر استئصالهم، وكان نور الدين لا يرى إلا الجدَّ في غزوهم بجهده وطاقته، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو، وعلم غرضه، فتجهز للمسير إليه، فأتاه أمر الله الذي لا يُرَدُّ[3].

قلت: ولو علم نور الدين ماذا ذخر الله تعالى للإسلام من الفتوح الجليلة على يدي صلاح الدِّين من بعده لقرَّتْ عَيْنُه، فإنه بَنَى على ما أسَّسه

---

(١) في (ل): يشيرون علينا.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٤٧.
(٣) «الباهر»: ١٦١.

نور الدِّين من جهاد المشركين، وقام بذلك على أكمل الوجوه وأتمها، رحمهما الله تعالى.

قال: وحكى لي طبيب بدمشق، يُعرف بالرَّحْبي[1]، وهو من حُذَّاق الأطباء، قال: استدعاني نور الدِّين في مرضه الذي توفي فيه مع غيري من الأطباء، فدخلنا عليه وهو في بيتٍ صَغير بقلعَة دمشق، وقد تمكَّنت الخوانيق منه وقارب الهلاك، فلا يكاد يُسْمَعُ صوتُه، وكان يخلو فيه للتعبُّد في أكثر أوقاته، فابتدأ به المرض فيه فلم ينتقل عنه. فلما دخلنا عليه ورأينا ما به قلتُ [له][2]: كان ينبغي أن لا يؤخَّر إحضارنا إلى أن يشتدَّ بك المرض إلى هذا الحد، فالآن ينبغي أن تنتقل إلى مكان فسيح، فله أثر في هذا المرض. وشرعنا في علاجه فلم ينجع فيه الدَّواء، وعَظُمَ الدَّاء، ومات عن قريبٍ، رضي الله عنه[3].

قال ابن الأثير: وكان أسمر، طويل القامة، ليس له لحية إلاّ في حنكه، وكان واسعَ الجبهة، حسن الصُّورة، حلو العينين. وكان قد اتَّسع ٢٢٩/١

(١) هو رضي الدين يوسف بن حيدرة بن حسن الرحبي، من أشهر أطباء عصره، كان كبير النفس عالي الهمة، شديد الاجتهاد في مداواة المرضى، أصل والده من بلد الرحبة على الفرات، وولد هو في جزيرة ابن عمر سنة (٥٣٤ هـ)، وقدم دمشق مع والده ــ وكان طبيباً أيضاً ــ سنة (٥٥٥ هـ)، وأقام فيها حتى وفاته سنة (٦٣١ هـ) ودفن بجبل قاسيون، وقد تخرج به كثير من أطباء عصره، انظر «عيون الأنباء»: ٦٧٢ ــ ٦٧٥، ٦٨٢ و «معجم البلدان»: ٣/ ٣٤.

ولا يلتفت إلى ما ذكره ابن واصل في «مفرج الكروب»: ١/ ٢٦٢ من أن الطبيب هو جمال الدين الرضي، فهذا متأخر الوفاة حتى سنة (٦٥٨ هـ)، وهو الابن الأصغر لرضي الدين.

(٢) ما بين حاصرتين من (م).

(٣) «الباهر»: ١٦١ ــ ١٦٢.

ملكه جداً، فملك المَوْصِل وديار الجزيرة، وأطاعه أصحاب ديار بكر، وملك الشَّام والدِّيار المِصْرية واليمن، وخُطِبَ له بالحَرَمين الشَّريفين: مكة والمدينة، وطبَّق الأرضَ ذِكْرُه بحسن سيرته وعَدْله. ولم يكن مثله إلا الشَّاذ النادر. رحمة الله تعالى عليه[١].

قال الحافظ أبو القاسم، بعدما ذكر أوصاف نور الدّين الجليلة المتقدِّمة مفرَّقة ومجموعة في هذا الكتاب: هذا مع ما جمع الله له من العقل المتين، والرأي الثاقب الرَّصين، والاقتداء بسيرة السَّلف الماضين، والتَّشبُّه بالعلماء والصَّالحين، والاقتفاء[٢] بسيرة من سلف منهم في حُسْن سمتهم، والاتِّباع لهم في حفظ حالهم ووقتهم، حتى روى حديث المصطفى ﷺ وأسمعه، وكان قد استجيز له ممن سَمِعَه وجَمَعه، حرصاً منه على الخير في نشر السُّنَّة بالأداء والتحديث، ورجاءً أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً كما جاء في الحديث[٣]. فمن رآه شاهَدَ من جلال السَّلْطنة وهيبة الملك ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه ما يحيِّره، يحبُّ الصَّالحين ويؤاخيهم، ويزور مساكنهم لحسن ظنِّه فيهم. وإذا احتلم مماليكه أعتقهم،

---

(١) «الباهر»: ١٦٢.

(٢) في الأصل: الاقتداء، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) حديث: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من سنتي أدخلته يوم القيامة في شفاعتي»، رواه ابن النجار في «تاريخه» عن أبي سعيد الخدري، وفي رواية أخرى عن ابن عباس: «من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة». قال النووي: طرقه كلها ضعيفة.

وقال ابن عساكر: الحديث روي عن علي وعمر وأنس وابن عباس وابن مسعود، ومعاذ وأبي أمامة وأبي الدرداء، وأبي سعيد بأسانيد فيها كلها مقال، ليس للتصحيح فيها مجال، لكن كثرة طرقه تقويه، وأجود طرقه خبر معاذ مع ضعفه. انظر «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للمناوي: ٦/ ١١٩.

وزَوّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم، ومتى تكرَّرَتْ الشكاية إليه من أحدٍ من ولاته، أمره بالكفِّ عن أذى من تظلَّم بشكاته، فمن لم يرجع منهم إلى العَدْل، قابله بإسقاط المنزلة والعَزْل، فلما جمع الله له من شريف الخصال، تيَسَّر له جميع ما يقصده من الأعمال، وسَهَّل[1] على يديه فتح الحصون والقلاع، ومكَّن له في البُلْدان والبقاع[2].

ثم قال بعد كلامٍ كثير: ومناقبه خطيرة، وممادحه كثيرة، ومدحه جماعةٌ من الشعراء فأكثروا، ولم يبلغوا وصف آلائه بل قصَّروا، وهو قليل الابتهاج بالشعر، زيادةً في تواضعه لعلوِّ القدر[3].

ومولِدُهُ على ما ذكر لي كاتبه أبو اليُسْر شاكر بن عبد الله[4]، وقت طلوع الشمس من يوم الأحد سابع عشر شوَّال سنة إحدى عشرة وخمس مئة[5]، وتوفي يوم الأربعاء الحادي عشر من شوّال سنة تسعٍ وستين وخمسة مئة، ودُفن بقلعة دمشق، ثم نُقل إلى تربة تجاور مدرسته التي بناها لأصحاب أبي حنيفة رضي الله عنه جوار الخَوَّاصين* في الشَّارع الغربي رحمه الله تعالى[6]:

قلت: وفي هذه المدرسة يقول العَرْقَلَة:

---

(١) في (م): سهل الله.

(٢) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (خ) س: ١٦/١٤٨/ب ــ ١٤٩/أ.

(٣) «تاريخ دمشق» (خ) س: ١٦/١٤٩/أ.

(٤) سلفت ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٩ من هذا الجزء.

(٥) المصدر السابق: ١٦/١٤٧/ب.

(٦) في النسخة الخطية التي بين يدي من تاريخ ابن عساكر، وهي نسخة سليمان باشا ــ لم تذكر سنة وفاة نور الدين، والمعروف أن ابن عساكر أنهى تأليف كتابه ونور الدين حي، بل إنه كان وراء التعجيل في إنجازه.

ومـدرسـة سَيَـدْرُسُ كُـلُّ شـيءٍ		وتبقـى فـي حِمَـى عِلْـمٍ ونُسْـكِ
تَضَـوَّعَ ذِكْـرُهـا شَـرْقـاً وغَـرْبـاً		بنـور الـدِّيـن محمـود بـن زَنْكـي
يقـول وقـولُـهُ حـقٌّ وصِـدْقٌ		بغيـر كنـايـةٍ وبغيـر شَـكٍّ
دمشـقٌ فـي المـدائـن بيـت مُلكـي		وهذي في المدارسِ بيت مِلكي[1]

ولما اشتهر به من قِلَّة ابتهاجه بالمدح[2] لما علم من تزيد الشعراء، وهي طريقة عمر بن عبد العزيز زاهد الخلفاء، قال يحيى بن محمد الوَهْرَاني[3] في مقامةٍ له، وقد سُئِلَ في بغداد عن نور الدين: هو سَهْمٌ للدَّوْلة سديد، وركن للخلافة شديد، وأمير زاهد، وملك مجاهد، تُساعده الأفلاك، وتعضده الجيوش والأملاك[4]، غير أنه عُرف بالمرعى الوبيل، لابن السَّبيل، وبالمحل الجديب، للشَّاعر الأديب، فما يُرَزَّىٰ ولا يعزَّى، ولا لشاعرٍ عنده من نعمةٍ تجزى.

وإيَّاه عنى أسامة بن منقذ بقوله:

سُلْطانُنا زاهِدٌ والنَّاس قد زَهِدُوا		لـه فَكُـلٌّ علـى الخَيْـراتِ مُنْكَمِـشُ

---

(١) انظر «ديوانه»: ٧٠، والبيتان الأخيران فيه مستدركان من كتابنا هذا، وانظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢١٨.
(٢) في (ل): بالشعر.
(٣) وهم أبو شامة في اسمه، والمعروف أنه محمد بن محرز بن محمد الوهراني، قدم دمشق أيام نور الدين، وغلب على كتابته الهزل، وهو رائق في بابه، أقام بدمشق، وفيها توفي سنة (٥٧٥ هـ). وقد طبعت مناماته ومقاماته ورسائله في مصر، دار الكاتب العربي سنة ١٩٦٨ بتحقيق إبراهيم شعلان ورفيقه، وهي نشرة سيئة. وكان الدكتور صلاح الدين المنجد قد أفرد بالنشر رقعته عن مساجد دمشق، وصدرت ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٩٦٥ م، وقدم له بترجمة ضافية. انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٨٥ ـ ٣٨٦، و «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٣٨٦ ـ ٣٨٩.
(٤) انظر «منامات الوهراني»: ١٤، ولم أجد تتمة الاقتباس فيه.

أيَّـامُـه مثـل شَهْـرِ الصَّـوْمِ طـاهـرةٌ   من المعاصي وفيها الجوعُ والعَطَشُ[1]

قلت: رحمه الله، ما كان يبذل أموال المسلمين إلاّ في الجهاد، وما يعود نفعه على العباد؛ وكان كما قيل في حق عبد الله بن مُحَيْرِيز، وهو من سادات التابعين بالشَّام[2]، قال يعقوب بن سفيان الحافظ[3]: حدَّثنا ضَمْرَة[4] عن السَّيْبَاني[5]، قال: كان ابن الدَّيْلمي[6] من أنصر النَّاس لإخوانه، فذُكِرَ ابن مُحَيْرِيز في مجلسه، فقال رجلٌ: كان بخيلاً. فغضب ابن الدَّيْلَمي وقال: كان جواداً حيث يحب الله، وبخيلاً حيث تحبُّون.

وأما شعر ابن مُنْقِذ فلا اعتبار به، فهو القائل في ليلة الميلاد يمدَحُ نور الدين رحمه الله تعالى:

فـي كـلِّ عـام للبـريَّـةِ لَيْلَـةٌ   فيهـا تَشُـبُّ النـارُ بـالإيقـادِ
لكـنْ لنـور الـدِّيـن مـن دونِ الـوَرَى   نـارانِ نـارُ قِـرىً ونـارُ جِهَـادِ
أبـداً يصـرِّفُهـا نَـدَاه وبَـأْسُـهُ   فـالعـامُ أَجْمَـعُ ليلـةُ الميـلاد
مَلِـكٌ لـه فـي كـلِّ جِيْـدٍ مِنَّـةٌ   أبهـى مِـنَ الأَطْـواقِ فـي الأَجْيـادِ
أعلـى الملـوك يـداً وأمنعهُـم حِمَـى   وأمـدُّهـم كَفّـاً بِبَـذْلِ تِـلادِ

---

(1) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٥١٦، و «ديوان أسامة»: ١٥٨ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(2) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٤٩٤ ـ ٤٩٦.

(3) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٣/ ١٨٠ ـ ١٨٤.

(4) هو ضمرة بن ربيعة الفلسطيني. انظر «تهذيب التهذيب»: ٤/ ٤٦٠ ـ ٤٦١.

(5) في الأصل و (ل): الشيباني، وهو تصحيف، والمثبت من (م)، وهو يحيى بن أبي عمرو، المتوفى سنة (١٤٨ هـ) انظر «الأنساب»: ٧/ ٢١٥.

(6) هو عبد الله بن فيروز الديلمي، تابعي ثقة. انظر «تهذيب التهذيب»: ٥/ ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

١/٢٣٠ يُعطي الجزيلَ من النَّوال تبرُّعاً ... من غيرِ مسألةٍ ولا ميعاد
لا زال في سَعْدٍ ومُلْكٍ دائمٍ ... ما دامَتِ الدُّنيا بغير نَفَادِ[١]

وقد تقدَّم في شعر ابن منير وابن القَيْسَراني والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نور الدين بالكَرَم والجود ما قليلٌ منه يَرُدُّ قَوْلَ الوَهْراني وابن منقذ. على أنَّ ابن منقذ قد رَدَدْنا شعره بشعره كما تراه، وإنَّما الشعراء وأكثر النّاس كما قال الله تعالى في وصف قومٍ ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ وما كلُّ وقتٍ ينفق العطاء، ويفعلُ الله ما يشاء[٢].

---

(١) لم أجد الأبيات في «ديوانه» المطبوع.

(٢) هناك قصة شائعة على ألسنة الناس، وهي أن نور الدين رأى فيما يرى النائم النبي ﷺ، يطلب منه أن ينقذه من رجلين أشقرين ــ وأشار إلى شخصين تجاهه ــ فاستدعىٰ نورُ الدين وزيره، فعبَّره له بأن في المدينة المنورة حدثاً، فخرج نور الدين إلى المدينة، واستعرض سكانها للصدقة، فأتى كلهم إلا رجلين مجاورين من أهل الأندلس، فأمر بإحضارهما، فإذا هما اللذان رآهما في منامه، فسألهما عن حالهما وما جاء بهما، فأقرا بأنهما من الفرنجة، وصلا لكي ينقلا النبي ﷺ من الحجرة الشريفة. ووجدهما قد حفرا نقباً تحت الأرض من تحت حائط المسجد، فضرب أعناقهما، ثم أحرقا بالنار، وركب عائداً إلى الشام، فاستغاث به أهل المدينة أن يبني لهم سوراً حولها، فأمر ببنائه، فبني سنة (٥٥٨ هـ) وكتب اسم نور الدين علىٰ باب البقيع.

قلت: وهذه القصة لا تثبت لدىٰ المنهج العلمي، إذ إن أول من رواها هو محمد بن أحمد المطري، مؤذن الحرم النبوي، المتوفى سنة (٧٤١ هـ) في كتابه «التعريف بما أَنْسَتِ الهجرةُ من معالم دار الهجرة» ص ٧٣ ــ ٧٤، وبين وفاته ووفاة نور الدين مئة واثنتان وسبعون سنة، ثم إن إسناد هذه القصة مسلسل بالمجاهيل، فقد سمعها المطري من طالب علم من المجاورين، وهو يعقوب بن أبي بكر ــ وكان أبوه فراشاً من قوام المسجد الشريف ــ وقد سمعها يعقوب ممن حدَّثه من أكابر من أدرك. ولم يجزم المطري بصحتها، فقال: هكذا حدَّثني عمن حدثه.

وروى نحوها جمال الدين الإسنوي، المتوفى سنة (٧٧٢ هـ) في رسالةٍ له دون إسناد، نقلها عنه السمهودي في «وفاء الوفا» ٢/٦٤٨ ــ ٦٥٠. =

فصــــل

قال ابن الأثير: لما توفي نور الدين جلس ابنُه الملك الصَّالح إسماعيل في الملك، وحُلِف له ولم يبلغ الحُلم، وحلَفَ له الأمراء والمقدَّمُون بدمشق، وأقام بها، وأطاعه النَّاس في سائر بلاد الشَّام، وصلاحُ الدين

= وهذا يعني أن القصة قد ذاعت بعد وفاة نور الدين، إذ لم يذكرها أحد ممن عاصر نور الدين من المؤرخين الملازمين له كابن عساكر وابن منقذ والعماد الكاتب، ولا من المتتبعين لسيرته كابن الأثير وأبي شامة مع شدة حرصهم على استقصاء أخباره، وتحليتها بكل جميل، بل إنه لم يذكرها من أرخ للمدينة المنورة ممن عاصر تلك الفترة كابن النجار في «الدرة الثمينة».

وقد نقلها عن المطري من جاء بعده من المؤرخين كالمراغي في «تحقيق النصرة» ١٤٦ ــ ١٤٧، وابن قاضي شهبة في «الكواكب الدرية» ٧٢ ــ ٧٣، والسمهودي في «وفاء الوفا» ٢/ ٦٥٠ ــ ٦٥١، وابن العماد في «شذرات الذهب» حوادث سنة (٥٦٩ هـ)، والبرزنجي في «نزهة الناظرين» ٨٣ ــ ٨٤.

ثم إن المطريَّ ذكر أن القصة وقعت سنة (٥٥٧ هـ)، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن نور الدين زار المدينة في تلك السنة، بل لم يذكروا أنه زارها في أي من سني حكمه، بل إنهم لم يذكروا أنه حج أبداً، فقد شغله جهاد الفرنج عن الحج، كما شغل صلاح الدين من بعده.

ولا عبرة بما ذكره الفاسي في «شفاء الغرام» ٢/ ٢٢٩ من أن نور الدين حجَّ سنة (٥٥٦ هـ) فقد وهم في ذلك، إذ إن الذي حج هو أسد الدين شيركوه، وقد خرج نور الدين إلى لقائه يوم رجوعه.

وقد يتساءل المرء: ما الباعث لهذه القصة؟ فأقول: ربما أثارت تكملةُ نور الدين لسور المدينة وكتابة اسمه عليه فكرةَ قدومه للمدينة، ثم اختلط هذا مع ما سيأتي من محاولة الصليبيين الاستيلاء على المدينة، وذلك سنة (٥٧٨ هـ) فقد أشيع وقتها أنهم كانوا يريدون نقل الجسد الشريف إلى فلسطين فيما ذكر ابن جبير في رحلته ص ٦٠، والمقريزي في «خططه» ٢/ ٤٤٣ (طبعة دار التحرير)، فدمج الخيال بين الحدثين في حدث واحد ليكشف عن هاجسٍ أقلق بال المسلمين وقتئذٍ وهو أن ما فشل الصليبيون في تحقيقه في العلن سيحاولونهَ في الخفاء، فكانت هذه القصة، والله أعلم.

بمصر، وخَطَبَ له بها، وضرب السِّكَّة باسمه فيها. وتولَّى تربيته الأمير شمس الدين محمد بن المقدَّم.

قال العماد: وأخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصَّالح إسماعيل، وقد أبدى الحُزْن والعويل، وهو مجزوز الذوائب مشقوق الجَيْب، حاسِرٌ حافٍ مما فجأه وفَجَعه من الرَّيْب، وأجلسوه في الإِيوان الشَّمالي من الدَّسْت والتَّخْت الباقي من عهد تاج الدولة تُتُش، فاستوحى كلُّ قَلْبٍ حزنه واستوحش، فوقف النَّاس يضطرمون ويضطربون، ويتلهفون ويتلهبون، ولما كُفِّنَ بحُلَّة الكرامة، ودُفن في روضةٍ بابها إلى باب رضوان من دار المقامة، وقضوا الجزع، وقوَّضوا الفَزَع، وغَيَّبوا الدمعة، وأحضروا الرَّبعة[1]، حضر القاضي كمال الدين، وشمس الدين بن المقدَّم، وجمال الدولة ريحان ــ وهو أكبر الخَدَم ــ والعَدْل* أبو صالح بن العَجَمي[2] أمين الأعمال، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال، وتحالفوا على أن تكون أيديهم واحدة، وعزائمهم متعاقدة، وأن ابن المقدَّم مقدَّم العسكر، وإليه المرجع في المورد والمصدر[3].

قال: وأنشأتُ في ذلك اليوم كتاباً عن الملك الصَّالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين، ترجَمتُه إسماعيل بن محمود، وفيه:

أطال الله بقاء سيدنا الملك النَّاصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، نَدَبَ الشَّام، بل الإِسلام، حافظَ ثغوره، وملاحظ أموره، وعَدِم الجهادُ مقتني فضيلته، ومؤدِّي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا

(١) الربعة: صندوق أجزاء المصحف، مولدة بغدادية، «معجم متن اللغة»: ٢/ ٥٣٥.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٦٩ من هذا الجزء.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٣ ــ ١٥٤.

بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعزُّ أن يرى الزَّمان نظيره، وما ههنا ما يُشْغِل السِّرَّ، ويقْسِمُ الفِكْر إلاّ أمرُ الفرنج خذلهم الله، وما كان اعتماد مولانا الملك العادل عليه وسكونه إليه إلاّ لمثل هذا الحادث الجَلَل، والصَّرْف الكارث المذهل، فقد ادَّخره لكفايات النَّوائب، وأعدَّه لحسم أدواء المعضلات اللوازب، وأمَّله ليومه ولغده، ورجاه لنفسه ولولده، ومكَّنه قوةً لعضُده. فما فُقِدَ رحمه الله تعالى إلاّ صُورةً والمعنى باق، والله تعالى حافظٌ لبيته واق، وهل غيره ــ دام سُمُوُّه ــ من مؤازر،وهل سوى السيد الأجل النَّاصر من ناصر. وقد عَرَّفناه المقترح، ليروض برأيه من الأمر ما جَمَحَ، والأهم شغل الكُفَّار، عن هذه الدِّيار، بما كان عازماً عليه من قصدهم والنكاية فيهم على البِدَار، ويجري على العادة الحُسنى في إحياء ذكر الوالد هناك بتجديد ذكرنا، راغباً في اغتنام ثنائنا وشُكْرنا[1].

قلت: وكان قد بلغ صلاح الدين خبر نور الدين، فأرسل كتاباً بالمثال الفاضلي، فيه: ورد خبرٌ من جانب العدوِّ اللعين، عن المولى نور الدين، أعاذ الله تعالى فيه من سماع المكروه، ونوَّر بعافيته القلوب والوجوه، واشتدَّ به الأمر، وضاق به الصَّدْر، وانقصم بحادثه الظَّهر، وعَزَّ فيه التثبت وأعوز الصَّبْر. فإن كان ــ والعياذ بالله ــ قد تَمَّ، وخَصَّه الحكم الذي عَمَّ، فللحوادث تذخر النِّصال، وللأيام تصطنع الرِّجال، وما رَتَّبَ الملوكُ ممالكها إلاّ لأولادها، ولا استودعت الأرض الكريمة البذر إلا لتؤدي حَقَّها يوم حَصَادها، فالله الله أن تختلف القلوبُ والأيدي، فتبلُغَ الأعداء مرادها، وتَعْدَمَ الآراء رشادَها، وتنتقل النِّعَم التي تعبت الأيام إلى أن أَعْطَتْ قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها وُدّ، وسيوفاً يضمُّها

(١) المصدر السابق: ١/ ١٥٤ ــ ١٥٥.

غِمْد، ولا تختلفوا فتنكلوا ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا﴾[١] وقوموا على أمشاط الأَرْجُل، ولا تأخذوا الأَمْرَ بأطراف الأَنْمُل، فالعداوة محدقة بكم من كلِّ مكان، والكُفْرُ مجتمعٌ على الإيمان. ولهذا البيت منا ناصر لا يخذله، وقائم لا يسلمه، وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحَقَّقَتْ، بأن ولده القائم بالأمر، وسعد الدين كُمُشْتِكِين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقُبِلَتْ، والطَّاعة في الغيبة والحضور أُدِّيت وَفُعلَتْ، وإلا فنحنُ لهذا الولد يدٌ على من ناواه، وسَيْفٌ على من عاداه. وإن أسفر الخبرُ عن معافاةٍ فهو الغرض المطلوب، والنذر الذي يحل على الأيدي والقلوب.

قال العماد: وورد كتابُ صلاح الدين بالمثال الفاضلي معزياً لابن نور الدين، وفي آخره: وأما العدوُّ ــ خذله الله تعالى ــ فوراءه من الخادم من يطلبه طلبَ ليلٍ لنهاره، وسيل لقراره، إلى أن يزعجه من مجاثمه، ويستوقِفَه عن مواقف مغانمه، وذلك من أقلِّ فروض البيت الكريم وأيسر لوازمه، ٢٣١/
أصدَر هذه الخدمة يوم الجمعة رابع ذي القعدة، وهو اليوم الذي أقيمت فيه الخطبة بالاسم الكريم، وصرَّح فيه بذكره في الموقف العظيم، والجمع الذي لا لغو فيه ولا تأثيم. وأشبه يوم الخادم أمسَه في الخدمة، ووفَّى ما لزمه[٢] من حقوقِ النِّعمة، وجمع كلمة الإسلام عالماً أنَّ الجماعة رحمةٌ. والله تعالى يخلِّد ملك المولى الملك الصَّالح، ويصلح به وعلى يديه، ويؤكد عهود النَّعْماء الراهنة لديه، ويجعل للإسلام واقية باقية عليه، ويوفّق الخادم لما ينويه من توثيق سُلْطانه وتشييده، ومضاعفة ملكه ومزيده، وتيسير منال كلّ أملٍ صالح وتقريب بعيده، إن شاء الله تعالى[٣].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) في (م): ما لحقه.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٥٦ ــ ١٥٩.

ومن كتابٍ آخر: الخادِمُ مستمرٌّ على بَدْأته من الاستشراف لأوامرها، والتعرُّضِ لمراسمها، والرَّفْع لكلمتها، والإيالة[1] لعسكرها، والتحقق بخدمتها، في بواطن الأحوال وظواهرها، والترقُّب لأن يُؤمر فيمتثل، ويُكلف فيحتمل، وأن يُرْمى به في نحر عدوه[2] فيتسدَّد بجهده، ويوفي أيام الدولة العالية يوماً يكشف الله فيه للمولى[3] ضمير عبده.

قال العماد: ولما توفِّي نور الدين اختلَّ أمري، واعتلَّ سِرِّي، وعلت حُسَّادي، وبلغ مُرادَهم أضْدادي، وكان الملكُ الصَّالح صغيراً، فصار العَدْل* ابن العجمي له وزيراً. وتصرَّف المتحالفون في الخزانة والدَّوْلة كما أرادوا، وولَّوْا وصرفوا، ونقَّصوا وزادوا، واقتصروا لي على الكتابة، محروم الدَّعوة من الإِجابة.

ومما نظمتُه في مرثية نور الدين قصيدةً، منها:

لِفَقْــدِ الملــكِ العــادِ ... لِ يبكــي المُلْــكُ والعَــدْلُ
وقـــد أَظْلَمَـــتِ الآفـــا ... قُ لا شَمْـــسٌ ولا ظِـــلُّ

منها[4]:

ولمَّـــا غـــابَ نـــورُ الـــدِّيـ ... ـــن عَنَّـــا أَظْلَـــمَ الحَفْـــلُ
وزال الخِصـــبُ والخَيْـــرُ ... وزادَ الشَّـــرُّ والمَحْـــلُ
ومـــات البَـــأسُ والجـــودُ ... وعـــاش اليَـــأسُ والبُخْـــلُ

(١) الإيالة: السياسة، من آل الملكُ رعيته يؤولها أولاً وإيالاً: ساسهم، وأحسن سياستهم. انظر «اللسان» (أول) و «معجم متن اللغة»: ١/ ٢٢٥.
(٢) في (ل) و (م): عدوٍّ.
(٣) للمولى، ساقطة من(ل).
(٤) منها، ساقطة من (ل) و (م).

وعَـــزَّ النَّقْـــصُ لمَّـــا هـــا ... نَ أَهْـــلُ الفَضْـــلِ والفَضْـــلُ
وهـــل يَنْفُـــقُ ذو عِلْـــمٍ[1] ... إذا مـــا نَفَـــقَ الجَهْـــلُ
ومـــا كـــان لنـــورِ الـــدِّيـ ... ـــن لـــولا نَجْلُـــهُ مِثْـــلُ[2]

فصـــل

قال العماد: واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين رحمه الله تعالى على الثَّغْر، وقصدهم بانياس*، ورجوا أن يتمَّ لهم الأمر، ثم ظهرت خيبتهم وبان الياس. وذلك أن شمس الدين بن المقدَّم خرج وراسل الفرنج، وخوَّفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم، وأنه قد عزم على جهادهم. وتكلَّموا في الهُدْنة، وقَطْعِ موادّ الحرب والفتنة، وحصلوا بقطيعةٍ استعجلوها، وعِدَّة من أساراهم استطلقوها، وتمت المصالحة[3].

وبلغ ذلك صلاح الدين فأنكره ولم يعجبه، وكتب إلى جماعة الأعيان كُتُباً دالَّة على التوبيخ والملام. ومن جملتها كتابٌ بالمثال الفاضلي إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون[4] يخبره فيه أنه لما أتاه كتابُ الملك الصالح بقصد الفرنج تجهَّزَ وخرج، وسار أربع مراحل، ثم جاءه الخبر بالهُدْنة المؤذنة بذُلِّ الإسلام من دفع القطيعة وإطلاق الأسارى، وسيدنا الشيخ أولى من جرَّد لسانه الذي تُغمد له السيوف وتُجرَّد، وقام في سبيل الله قيام من يَقُطُّ عادية من تَعدَّى وتمرَّد.

---

(١) في (ل) و (م): ذو العلم.

(٢) انظر مقاطع من القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٦٧ ــ ٧٢، و «سناالبرق الشامي»: ١/ ١٥٩ ــ ١٦٠.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٥٥ ــ ١٥٦.

(٤) سترد قطعة من هذا الكتاب ص ٣٢٩ من هذا الجزء.

وفي آخره: وكتب[1] من المنزل بفاقوس*، والفجر قد هَمَّ أن يَشُقَّ ثوب الصَّباح، لولا أن الثُّريا تعرَّضت تعرُّض أثناء الوِشاح. وهذه الليلة سافرة عن نهار يوم الجمعة ثاني عشر ذي الحِجَّة، بلَّغه الله فيه أمله، وقبل عمله، بالغاً أسنى المراد[2] وأفضله.

وقال ابنُ الأثير: لما توفي نور الدين قال الأمراء[3]، منهم شمس الدين بن المقدَّم وحسام الدين الحسين بن عيسى الجراحي، وغيرهما من أكابر الأمراء: قد علمتم أنَّ صلاحَ الدين من مماليك نور الدين ونوابه، والمصلحة أن نشاوره فيما نفعله ولا نخرجه من بيننا، فيخرج عن طاعة الملك الصَّالح، ويجعل ذلك حُجَّة علينا، وهو أقوى منا لأنَّ له مثل مصر، وربما أخرجنا وتولى هو خدمة الملك الصَّالح. فلم يوافق أغراضهم هذا القول، وخافوا أن يدخل صلاح الدين ويخرجوا[4].

قال: فلم يمض غيرُ قليل حتى [وصلت][5] كتب صلاح الدين إلى الملك الصَّالح، يهنئه بالملك ويعزِّيه بأبيه، وأرسل دنانير مصرية عليها اسمه، ويعرِّفه أن الخُطْبة والطاعة [له][6] كما كانت لوالده، فلما سار سيف الدين غازي ابن عَمِّه قُطْب الدين، وملك الدِّيار الجزرية، ولم يرسل مَنْ مع الملك الصَّالح من الأمراء[7] إلى صلاح الدين ولا أعلموه الحال، كتب إلى

---

(١) في نسخة (ل) ثمة اضطراب في ترتيب الأوراق، أعدناها إلى حاق سياقها.

(٢) في (م): أثنى المزيد.

(٣) في مطبوع «الباهر»: قال صاحبي كمال الدين للأمراء، ومثله في «الكامل»: ١١/ ٤٠٥.

(٤) «الباهر»: ١٦٢.

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و(م).

(٦) ما بين حاصرتين من (م).

(٧) في الأصل: الأتراك، والمثبت من (ل) و (م).

الملك الصَّالح يعتبه حيث لم يُعْلِمْه قصدَ سيف الدين بلاده ليحضر في خدمته ويمنعه. وكتب إلى الأمراء يقول: إنَّ الملك العادل لو علم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق إليه مثل ثقته بي، لَسَلَّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يَعْجَل عليه الموت لم يعهد إلى أحدٍ بتربية ولده والقيام بخدمته سواي، وأراكم قد تفرَّدتم بخدمة مولاي وابن مولاي دوني، فسوف أصلُ إلى خدمته، وأجازي إنعام والده بخدمةٍ يظهر أثرها، وأقابل كلاً منكم على سوء صنيعه، وإهمال أمر الملك الصَّالح ومصالحه، حتى أُخذت بلاده.

فأقام الصَّالح بدمشق ومعه جماعةٌ من الأمراء لم يمكِّنوه من المسير إلى حلب، لئلا يغلبهم عليه شمس الدين علي ابن الدَّاية، فإنه كان أكبر
١/ ٢٣٢ الأمراء النُّورية، وإنما تأخَّر عن خدمة الملك الصَّالح بعد وفاة نور الدين لمرضٍ لحقه، وكان هو وإخوته بحلب وأمرها إليهم، وعسكرها معهم في حياة نور الدين وبعده. ولما عَجَزَ عن الحركة أرسل إلى الملك الصَّالح يدعوه إلى حلب ليمنع البلاد من سيف الدين ابن عمه، وأرسل إلى الأمراء يقول لهم: إن سيف الدين قد ملك إلى الفُرات، ولئن لم ترسلوا الملك الصَّالح إلى حلب حتى يجمع العساكر، ويَسْتردّ ما أُخذ منه، وإلا عَبَر سيف الدين الفُرَات إلى حلب، ولا نقوى على منعه. فلم يرسلوه ولا مكَّنوه من قصد حلب[1].

قال: وكان نور الدين قبل أن يمرض قد أرسل إلى البلاد الشَّرقية كالمَوْصِل وغيرها يستدعي[2] العساكر منها، فسار سيف الدين في عساكره، فلما كان ببعض الطريق أتاه الخبرُ بموت عمّه نور الدين، فعاد إلى نَصِيبين*

(١) «الباهر»: ١٦٢ ــ ١٦٣.

(٢) في الأصل و (ل): استدعى، والمثبت من (م).

فملكها، وأرسل الشِّحَن* إلى [بلد][1] الخابور فاستولَوْا عليها، وسار هو إلى حرَّان* فحصرها عِدَّة أيام ثم أخذها، وملك الرُّها* والرَّقَّة* وسَرُوج* واستكمل ملك سائر ديار الجزيرة سوى قلعة جعبر*. فقال له فخر الدين عبد المسيح ــ وكان قد فارق سيواس* بعد وفاة نور الدين وقصد سيف الدين، ظنّاً منه أن سيف الدين يرعى له خدمته، وقيامه في أخذ الملك له من والده قطب الدين، على ما ذكرناه أولاً[2]، فلم يجنِ ثمرة ما غرس، وكان عنده كبعض الأمراء ــ ليس بالشَّام من يمنعك، فاعبر الفرات واملك البلاد، فأشار أمير آخر معه ــ وهو أكبر أمرائه ــ: قد مَلَكْت أكثر من والدك، والمصلحة أن تعود. فرجع إلى الموصل[3].

فصـــل

قال ابنُ الأثير: قد سبق أن نور الدين كان قد جَعَلَ بقلعة المَوْصِل لما ملكها دُزْداراً* له وهو سعد الدين كُمُشْتِكِين ــ بعض خدمه الخصيان[4] ــ فلما سار سيف الدين إلى الشَّام كان في مقدِّمته على مرحلة. فلما أتاه خبر وفاة نور الدين هرب، وأرسل سيف الدين في أثره فلم يُدْرك، فنهب بَرَكه[5] ودوابَّه. وسار إلى حلب، وتمسك بخدمة شمس الدين ابن الداية وإخوته، واستقرَّ بينهم وبَيْنَه أنْ يسير إلى دمشق ويحضر الملك الصَّالح. فسار إلى

(١) ما بين حاصرتين من (م) وبلد: هي بليدة معروفة على الخابور. انظر «معجم البلدان» ١/ ٤٨١.

(٢) انظر ص ١٦١ وما بعدها، وص ٢٦٣ من هذا الجزء، وحاشيتنا رقم ٢ ص ١٦٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر «الباهر»: ١٧٥.

(٤) انظر ص ١٦٨ من هذا الجزء.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩٧ من الجزء الأول.

دمشق، فأخرج إليه ابن المقدَّم عسكراً لينهبه، فعاد مُنْهزماً إلى حلب، فأخلف عليه شمس الدين ابن الداية ما أُخذ منه، وجهَّزه وسيَّره إلى دمشق ـ وعلى نفسها تجني براقش[١] ـ فلما وصلها سعد الدين دخلها، واجتمع بالملك الصَّالح والأُمراء، وأعلمهم ما في قصد الملك الصالح إلى حلب من المصالح، فأجابوا إلى تسييره، فسار إليها، فلما وصلها، وصَعِدَ إلى قلعتها قبض الخادم سعدُ الدين على شمس الدين ابن الدَّاية وإخوته وعلى ابن الخَشَّاب رئيس حلب.

قال ابن الأثير: ولولا مرض شمس الدين لم يتمكن منه، ولا جرى من ذلك الخُلْف والوَهْن شيء[٢] ﴿وكانَ أَمْرُ الله قَدَراً مَقْدُورا﴾[٣].

واستبدَّ سعد الدين بتدبير أمر الملك الصَّالح، فخافه ابنُ المقدَّم وغيره من الأمراء الذين بدمشق، فكاتبوا سيف الدين ليسلِّموا إليه دمشق، فلم يفعل، وخاف أن تكون مكيدةً عليه ليعبر الفرات ويسير إلى دمشق فيمنع عنها، ويقصده ابنُ عمه من وراء ظهره، فلا يمكنه الثَّبات. فراسل الملك الصَّالح، وصالحه على إقرار ما أخذه بيده، وبقي الملك الصَّالح بحلب وسعد الدين بين يديه يدبِّر أمره، وتمكَّن منه تمكُّناً عظيماً يقارب الحَجْر عليه[٤].

وقال العماد: كان كُمُشْتِكِين الخادم النائب بالموصل قد سمع بمرض نور الدين فأخفاه، واستأذن في الوصول إلى الشَّام، فطلب سيف الدين غازي رضاه، فخرج وسار مرحلتين وسمع النَّعْي، فأغذَّ السير والسَّعْي، ونجا بماله

(١) هذا مثل يضرب لمن أتاه الشر من نفسه. انظر «المستقصى»: ٢/ ١٦٥.
(٢) انظر «الباهر»: ١٧٥ ــ ١٧٦، و «الكامل»: ١١/ ٤١٥، وفيه أنهم أرسلوا إلى ابن الداية يطلبون إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.
(٤) «الباهر»: ١٧٦.

وبحاله، وندم صاحب المَوْصِل على الرِّضا بترحاله. وكانت عنده بوفاة عمه بشارة، وظهرت على صفحاته منها أمارة، فإنه لم يزل من كُمُشْتِكِين متشكِّياً، فإنه كان لجمر الأمر عليه مُذْكياً. وكان المرحوم قد أمر بإراقة الخمور، وإزالة المحظور، وإسقاط المكوس، وإعدام أقساط البوس، فنودي في المَوْصِل يوم ورود الخبر بالفُسْحة في الشُّرْب جهاراً، ليلاً ونهاراً، وزال العُرْف، وعاد النُّكْر، وأُنشد قول ابن هانىء:

ولا تسقني سِرّاً فقد أَمْكَنَ الجَهْرُ[1]

وقيل: أخذ المنادي على يده دنًّا وعليه قدح وزَمْر، وزعم أنه خرج بهذا أمْر، فلا حَرَج على من يغنِّي ويشرب، ويسكر ويطرب، وعادت الضَّرائب، وضربت العوائد.

وأما كُمُشْتِكِين فإنه وصل إلى حلب بعد عبور القُرى، وتمثل: عند الصَّباح يَحْمَدُ القومُ السُّرى[2]، واجتمع هناك بالأمير شمس الدين علي وإخوته؛ إخوة مجد الدين، وأظهر أنه لهم من المخلصين.

وكان مجد الدين أبو بكر أخوهم رضيعَ نور الدين وقد تربَّى مَعَه، ولَزِمَه وتَبِعَه إلى أن ملك الشَّام بعد والده، ففوَّض إلى مجد الدين جميع مقاصده، من طريفه وتالده، وحكَّمه في الملك، ونظمه في السِّلْك، فلا يحل ولا يعقد إلا برأيه، وكانت حصونه محصَّنة، وهو يسكن عنده[3] في

(١) هذا عجز بيت لأبي نواس، صدره: ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر. انظر «ديوانه»: ٢٨ تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، نسخة مصورة في بيروت عن طبعة القاهرة.

(٢) يضرب هذا المثل للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة. انظر «مجمع الأمثال»: ١/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤ و «المستقصى»: ٢/ ١٦٨.

(٣) في (م): معه.

قلعة حلب، والحاضر عنده صباحاً ومساءً إذا طلب. وشَيْزَر* مع أخيه شمس الدين علي، وقلعة جعبر* وتل باشر* مع سابق الدين عثمان، وحارم* مع بدر الدين حسن، وعين تاب* وعَزَاز* وغيرهما نوّابه فيها، وهو يصونها ويحميها.

ولما توفي جَرَتْ إخوته في القُرْب والانبساط على عادته، وهم أعيان الدَّوْلة وأعضادُها، وأبدال أرضها وأوتادها، وأمجادها وأجوادها، فلما توفي نور الدين لم يشكُّوا في أنهم يكفلون ولده ويربُّونه، ويحبهم لأجل سابقتهم ويحبونه. فأقام شمس الدين علي ــ وهو أكبرهم وأوجههم ــ ودخل قلعة
/٢٣٣ حلب ــ وبها واليها[1] شاذبخت[2] ــ وسكنها، وأسرَّ مصلحة الدولة وأعلنها، وعرف ما جرى بدمشق من الاجتماع، واتّفاق ذوي الأطماع، فكاتبهم وأمرهم بالوصول إليه في خدمة الملك الصَّالح. ونفَّذ أخاه سابق الدين عثمان ــ وكان قليل الخبرة، بعيداً من التحرُّز[3] والدَّهاء ــ فاستقرَّ الأمر على أن يحملوا الملك الصَّالح إليه، ويَقْدموا به عليه، وهو يتسلَّم ممالكه، ويكون أتابكه.

ووصل كُمُشْتِكِين إلى دمشق في تلك الأيام، فوافقهم على ما دبَّروه من المرام، وسار الصَّالح ومعه كُمُشْتِكِين، والعَدْل* ابن العَجَمي، وإسماعيل الخازن، فبغتوا إخوة مجد الدين الثلاثة فقبضوهم واعتقلوهم، وجاء ابنُ الخشَّاب أبو الفضل، مقدَّم الشِّيعة، فسفكوا دمه. وأقام شمس الدين بن المقدَّم بدمشق على عساكرها مقدَّماً، وفي مصالحها محكَّماً؛ وجمال الدين ريحان والي القَلْعة والشِّحن* من قبله، والأمر إليه بتفصيله وجُمَله،

(١) في الأصل و(ل): والياً، والمثبت من (م).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٢ من هذا الجزء.
(٣) التحرز، ساقطة من (ل) و (م).

والقاضي كمال الدين الشَّهْرُزُوري الحاكم النافذ حكمه، الصَّائب سهمه، الثاقب نجمه.

وكان مسير الملك الصَّالح من دمشق في الثالث والعشرين من ذي الحِجَّة. وغاظ صلاح الدين ما فُعل بأخوة مجد الدين[1].

وقال ابنُ أبي طيّ [الحلبي][2]: لما ماتَ نورُ الدين اجتمع أمراء دولته، وتعاقدوا على أن يكونوا في خدمة الملك الصَّالح بن نور الدين ــ وكان يومئذٍ صبياً ــ وحلفوا له على منابذة الملك النَّاصر، وقبض أصحابه الذين بالشَّام، ومُصالحة الفرنج، وجعلوا ابن المقدَّم شمس الدين مقدَّم العساكر. وتمَّ ذلك واستقر، وركب الملك الصَّالح بدمشق، وخُطِبَ له.

وكانت الفرنج قد تحرَّكت إلى قصد دمشق، فخرج ابنُ المُقَدَّم ونزل على بانياس* في عساكر نور الدين، ورَاسل الفرنج في الهُدْنة، فأجابوه بعد أن قطعوا قطيعة على المسلمين، فعجَّل حملها إليهم، وتمَّ أمر الصُّلْح، وعادت الفرنجُ إلى بلادها، وابن المقدَّم إلى دمشق[3].

واتَّصل خبر هذه الهُدْنة بالملك النَّاصر، وكان قد خرج من مصر أربع مراحل، فأعظم أمرها وأكبره، واستصغر أمر أهل الشَّام وعلم ضَعْفهم. فراسل ابنَ المقدَّم وغيره من الأمراء بإنكار ذلك والتوبيخ عليه، وقال في كتابه إلى ابن أبي عَصْرُون: ورد الخبر بصلحٍ بين الفرنج والدمشقيين، وبقيةُ بلاد المسلمين ما دخلت في العقد، ولا انتظمت في سِلْك هذا القصد، والعدوُّ لهما واحد، وصُرِفَ مالُ الله الذي أُعِدَّ لمغنم الطَّاعة، ومصلحة

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٦١ ــ ١٦٦.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) كان على رأس الفرنج أملريك Amalric (أموري الأول) ملك بيت المقدس. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان، الترجمة العربية: ٢/ ٦٤٥، وقد مات بعدها =

الجماعة، في هذه المعصِيّة المغضبة لله ولرسوله ولصالحي الأُمة، وكان مذخوراً لكشف الغُمَّة، فصار عَوْناً. وأن أسارى من طبرية وفُرسانها كانت وطأتهم شديدة، وشوكتهم حديدة، دُفعوا في القطيعة، وجعلوا إلى السِّلْم السبب والذريعة. فلما بلغنا هذا الخبر، وقفنا به بين الوِرْد والصَّدر، إن أتممنا ظُنَّ بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدوُّ من بقية الثغور التي لم تدخل في الهُدْنة غير بعيد، وإن فرَّقْنا العساكر لدينا فاجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا أن سَيَّرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وإخوته من يُعَرِّفهم قدر خطر هذا الارتباك، وأنه أمرٌ ربما عُجز عن الاستدراك، وأن العدوَّ طالبٌ لا يغفل، وجادٌّ لا يَنْكُل، وليثٌ لا يضيع الفُرْصة، مُجِدٌّ لا يميل إلى الرُّخصة. فإن كانت الجماعةُ ساخطين، فيظهر أمارات السخط والتغيير، ولا يمسك في الأول فيعجز عن الأخير، لا سيما ونحن نغارُ لله ونُغير، ونقصد للمسلمين ما يُجمع به صلاح الرأي وصوابُ التَّدْبير، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق[1] خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارِم* بالمال الذي قويت به قوَّته، وثَرَتْ به ثروته، وانبسطت به خطوتُه، فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، لا يمكنه أن يزايل مراكزه، ولا يبادر مناهزه.

قال: وكان متولي قلعة حلب شاذبخت الخادم النُّوري، وكان شمس الدين علي، أخو مجد الدين ابن الداية، إليه أمور الجيش والديوان، وإلى أخيه بدر الدين حسن الشِّحْنكية*، وكان بيده ويد إخوته جميع المعَاقل التي حول حلب. فلما بلغ علياً موت نور الدين صَعِدَ إلى القلعة، وكان مُقْعَداً، واضطرب البلد، ثم سكَّنه ابنُ الخَشَّاب، وكوتب ابن الخَشَّاب من دمشق

= بقليل كما سيأتي ص ٣٣٢ من هذا الجزء.

(١) في (م): يفتقر.

بحفظ البلد، وعوَّلَ أولاد الداية على الاستيلاء على حلب، وحلف لهم جماعة من القلعيين والحلبيين، وأنفذوا خلف أبي الفَضْل بن الخشاب، فامتنع من الصُّعود إليهم، وتردَّدت بينهم الرسالة. وتحزَّب الناس بحلب: السُّنَّة مع بني الدَّاية، والشيعة مع ابن الخَشَّاب، وجَرَت أسبابٌ اقتضت أن أنزلَ حسنُ ابن الداية جماعةً من القلعيين وأهل الحاضر، وزحفوا إلى دار ابن الخَشَّاب فملكوها ونهبوها، واختفى ابنُ الخشَّاب.

واتَّصلت هذه الأخبار بمن في دمشق، فأخذوا الملك الصَّالح وساروا إلى حلب في الثَّالث والعشرين من ذي الحِجَّة، وسار مع الملك الصَّالح سعد الدين كُمُشْتِكِين، وجُرْديك[1]، وإسماعيل الخازن، وسابق الدّين عثمان ابن الدَّاية، وقد وكلت الجماعة به وهو لا يعلم. وساروا إلى حلب، وخرجَ النَّاس إلى لقائهم.

وكان حسن قد رتَّب في تلك الليلة جماعةً من الحلبيين ليصبح ويصلِّبهم، فلمَّا خرج للقاء الملك الصَّالح، ووقعت عينه عليه ترجَّل ليخدم هو وجماعة من أصحابه، فتقدّم جُرْديك وأخذ بيده، وشتمه وجَذَبه، فأركبه خلفه رديفاً، وقُبض سابق الدِّين أخوه في الحال، وتُخُطِّفت أصحابهم جميعهم، واحتيط عليهم، وساروا مجدِّين حتى سبقوا الخبر إلى القلعة، وصعدوا إليها، وقبضوا على شمس الدين علي ابن الدَّاية من فراشه، وحُمل ١/ ٢٣٤
إلى بين يدي الملك الصَّالح، فاستقبله أحد مماليك نور الدين المعروف بالجُفَيْنة[2]، فركله برجله ركلةً دحاه بها على وجهه، فانشقَّتْ جبهته. ثم صُفِّدوا جميعاً وحبسوا في جُبّ القلعة، وقبضوا على جميع الأجناد الذين

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٥٠ من هذا الجزء.

(٢) عبارة: المعروف بالجفينة، ليست في (ل)، وكان الجفينة والياً على عزاز، انظر ص ٤١٢ من هذا الجزء.

حلفوا لأولاد الدَّاية، وأخرجوا جميعاً من القلعة.

قلتُ: وفي آخر هذه السنة توفي مُرِّي* الفرنجي الملك الذي كان حاصر القاهرة، وأشرف على أخذ الدِّيار المصرية.

وفي كتابٍ فاضلي: ورد كتابٌ من الدَّاروم* يذكر أنه لما كان عشية الخميس تاسع ذي الحجة هلك مُرِّي ملك الفرنج ــ لعنه الله ــ ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نارٍ تَلَظَّى ﴿لاَ يَصْلاَهَا إلاَّ الأَشْقَى﴾[1].

ثم دخلت سنة سبعين وخمس مئة

قال ابنُ أبي طيّ: ففي أوَّلها ضَمِنَ القطب ابن العجمي أبو صالح[2]، وابن أمين الدّولة لجُرْديك إن قَتَلَ ابن الخَشَّاب ردُّوا عليه جميع ما نُهِبَ له في دار ابن أمين الدولة. فدخل على الملك الصَّالح، وتحدَّث معه، وأخذ خاتمه أماناً لابن الخشاب، ونودي عليه، فحضر وركب إلى القلعة، فقتل، وعُلِّق رأسه على أحد أبراج القلعة.

وبقي الملك الصَّالح في قلعة حلب، ومضى العماد الكاتب إلى المَوْصل، قال: وعزمتُ على خدمة سيف الدين صاحبها[3] وقد أخذ من بلاد الجزيرة إلى حَدِّ الفرات، ومضى إليه ابن العجمي للإصلاح، فأصلح بين ابني العَمّ، وغُلق رَهْنُ إخوة مجد الدين في الاعتقال، وضيَّقوا عليهم في القيود والأغلال، وألزموهم[4] بتسليم الحصون، وتقديم الرُّهون، إلى أن

(١) سورة الليل، الآية: ١٥.

(٢) في النسخ الخطية: وأبو صالح، والواو مقحمة، لأن ابن العجمي هو نفسه أبو صالح. انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٦٩ من هذا الجزء.

(٣) في «سنا البرق الشامي»: ١/١٦٦ ــ ١٦٧ أن عبد المسيح رغَّبه في خدمة سيف الدين، فأبى.

(٤) في الأصل و (ل): فألزموهم، والمثبت من (م).

غصبوا دورهم، وخربوا مَعْمورهم[1].

قال: وكان الموفَّق خالد بن القَيْسَراني* قد وصل ــ ونحن بدمشق ــ من مِصْر، فلزم داره ولم يدخل مع القوم[2].

فأما صلاح الدين فإنه اعتقد أنَّ ولد نور الدين يتولاهُ بعده إخوة مجد الدين، فلما جرى ما جرى ساءه وقال: أنا أحقُّ برعي العهود، والسَّعي المحمود، فإنه إن استمرَّت ولاية هؤلاء تفرَّقت الكلمة المجتمعة، وضاقت المناهج المتَّسعة، وانفردت مصر عن الشَّام، وطمع أهل الكُفْر في بلاد الإسلام. وكتب إلى ابن المقدَّم ينكر ما أقدموا عليه من تَفْريق الكلمة، وكيف اجترؤوا على أعضاد الدَّوْلة وأركانها، بل أهلها وإخوانها، وأنه يلزمه أمرهم وأمرها، ويضره ضرهم وضرها. فكتب ابنُ المقدَّم إليه يَرْدَعُه عن هذه العزيمة، ويقبِّح له استحسان هذه الشيمة، ويقول له: لا يقال عنك إنك طمعت في بيت مَنْ غرسك، وربَّاك وأسَّسك، وأصْفَى مَشْربك، وأصفى ملبسك، وأجلى سكونك لملك مصر، وفي دَسْته أجلسك، فما يليق بحالك، ومحاسن أخلاقك وخِلالك[3] غَيْرُ فضلك وإفضالك.

فكتب إليه صلاح الدين بالإنشاء الفاضلي: إنَّا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما جَمَعَ شملهم وألَّف كلمتهم، وللبيتِ الأتابكي ــ أعلاه الله تعالى ــ إلا ما حفظ أصلَه وفَرْعه، ودفع ضرَّه وجلب نفعه. فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة، والمحبَّة إنما تظهر آثارها عند تكاثر أطماع العُداة، وبالجملة إنا في واد، والظَّانون بنا ظَنَّ السَّوْء في واد، ولنا من الصَّلاح مُرَاد، ولمن يبعدنا

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٦٧.
(٢) المصدر السابق، وانظر ص ٢٧٩ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل: وجلالك، والمثبت من (ل) و (م).

عنه مراد، ولا يقال لمن طَلَب الصَّلاح إنك قادح، ولمن ألقى السِّلاح إنك جارح[1].

فصـــل

قال العماد: ثم عَزَمَ السُّلْطان على أن يسارع إلى تلافي الأمر، فاعترضه أمران: أحدهما وصول أسطول صِقِلِّية إلى الإسكندرية وإدراكه، والثاني نوبة الكنز ونفاقه وهلاكه. أما وصول الأسطول فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذي الحِجَّة سنة تسع وستين، وانهزم في أوَّل المحرَّم سنة سبعين.

ثم ذكر كتاباً وصل من صلاح الدين إلى بعض الأمراء بالشَّام بشرح الحال، وحاصله: أنَّ أول الأسطول وصل وقت الظُّهر، ولم يزل متواصلاً متكاملاً إلى وقت العصر، وكان ذلك على حين غَفْلَةٍ من المتوكلين بالنَّظر، لا على حين خفاءٍ من الخبر، فأمْرُ ذلك الأسطول كان قد اشتهر، ورُوِّع به ابن عبد المؤمن في البلاد المغربيَّة، وهدَّد به في الجزائر الرُّومية صاحبُ قُسْطنطينية. فشوهد في الثغر من وفور عُدَّته، وكثرة عِدَّته، وعظيم الهمة به، وفرط الاستكثار منه، ما ملأ البحر، واشتدَّ به الأمر، فحمى أهل الثغر عليهم البرّ. ثم أشير عليهم أن يقربوا من السُّور، فأمكن الأسطول النزول، فاستنزلوا خيولهم من الطَّرائد*، وراجلهم من المراكب، فكانت الخيل ألفاً[2] وخمس مئة رأس[3]، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارسٍ

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٦٨ ــ ١٦٩.
(٢) في الأصل و (ل): ألفي، والمثبت من (م).
(٣) في (ل): فارس.

وراجل. وكانت عِدَّة الطرائد ستاً وثلاثين طريدةً تحمل الخيل، وكان معهم مئتا شيني* في كل شيني مئة وخمسون راجلاً. وكانت عِدَّة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن، وكانت عدة المراكب الحمَّالة برسم الأزواد للرجال أربعين مركباً، وفيها من الرَّاجل المتفرِّق، وغِلْمان الخيَّالة، وصُنَّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ما يتمِّمُ خمسين ألف راجل.

ولما تكاملوا نازلين على البَرّ، خارجين من البحر، حملوا على المسلمين حملةً أوصلتهم[1] إلى السُّور، وَفُقِدَ من أهل الثَّغْر في وقت ١/ ٢٣٥
الحملة ما يناهز سبعة أنفس[2]، واستشهد محمود بن البصارو بسهم جرخ*، وجدَّفت مراكب الفرنج داخلةً إلى الميناء، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة، فسبقهم أصحابنا إليها فخسفوها وغرقوها، وغلبوهم على أخذها وأحرقوا ما احترق منها، واتَّصل القتال إلى المساء، فضربوا خيامهم بالبر، وكان عِدَّتهم ثلاث مئة خيمة.

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا، ونصبوا ثلاث دبابات* بكباشها*، وثلاثة مجانيق كبار المقادير، تضربُ بحجارة سود استصحبوها من صِقِلِّية، وتعجَّب أصحابنا من شِدَّة أثرها وعظم حجرها. وأما الدبابات فإنها تشبه الأبراج في جفاء أخشابها، وارتفاعها، وكثرة مقاتلتها واتساعها، وزحفوا بها إلى أن قاربت السُّور، ولجُّوا في القتال عامة النهار المذكور.

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقُوس* يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدوِّ على جناح الطائر، فاستنهضنا العساكر إلى الثغرين إسكندرية ودِمْياط،

(١) في الأصل و (ل): أوصلوهم، والمثبت من (م).
(٢) في «مفرج الكروب»: ٢/ ١٤ سبع مئة نفس.

احترازاً عليها، واحتياطاً في أمرها، وخوفاً من مخالفة العدو إليها، واستمرَّ القتال، وقُدِّمت الدَّبَّابات، وضربت المنجنيقات، وزاحمت السُّور، إلى أن صارت منه بمقدار آماج(١).

فاتفق أصحابنا على أن يفتحوا أبواباً قُبالتها من السُّور ويتركوها مُعَلَّقة بالقشور. ثم فتحوا الأبواب على غفلة، وخرجوا(٢) منها على غِرَّةٍ، وركب مَنْ هناك من الأمراء(٢)، وخرجوا من الأبواب، وتكاثر صائح أهل الثَّغْر من كلِّ الجهات، فأحرقوا الدَّبابات المنصوبة، وصدقوا عندها القتال، وأنزل الله على المسلمين النَّصْر، وعلى الكُفَّار الخِذْلان والقهر.

واتَّصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء وقد ظهر فشلُ الفرنج ورعبهم، وقصرت عزائمهم وفتر حربهم، وأُحرقت آلات قتالهم، واستحرَّ القتل والجراح في رجالهم. ودخل المسلمون إلى الثغر لأجل قضاء فريضة الصلاة، وأخذ ما به قِوام الحياة، وهم على نية المباكرة، والعدو على نية الهَرَبِ والمبادرة. ثم كَرَّ المسلمون عليهم بغتة وقد كاد يختلط الظلام، فهاجموهم في الخيام، فتسلَّموها بما فيها، وفتكوا في الرَّجَّالة أعظم فتك،

---

(١) آماج: هي المسافة التي يمكن للقوس أن يرمي منها السهم فيصيب الهدف، وهي كلمة فارسية. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي، الترجمة العربية: ١/ ١٨٥. وفي طبعة وادي النيل من الروضتين ١/ ٢٣٥ «بمقدار أماجِ البحر وأهاج الدور» على أن «أماج» فعل ماض، وهي قراءة مضطربة زادها فساداً هذه الزيادة التي ليست في نسخي الخطية، وقد أضافها إلى النص الدكتور محمد حلمي في نشرته لهذا الكتاب: ٢/ ٥٩٩ على أنها من نسخة ليدن التي تشترك مع نسخة القاهرة في أصل واحد، وأضافها أيضاً د. جمال الدين الشيال محقق كتاب «مفرج الكروب» ٢/ ١٥ من طبعة وادي النيل، وليست في أصوله، وذكر أن هذه الزيادة ضرورية لفهم النص، فتأمل! . .

(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

وتسلَّموا الخَيَّالة، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه، ورمى في البحر نفسه، وتقحَّم أصحابنا في البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها، فولَّت بقيّة المراكب هاربة، وجاءتها أحكامُ الله الغالبة. وبقي العدو بين قَتْلٍ وغرق، وأَسْرٍ وفَرق، واحتمى ثلاث مئة فارس في رأس تَلٍّ، فأُخذت خيولهم، ثم قتلوا وأسروا، وأخذ من المتاع والآلات والأسلحة ما لا يملك مثله. وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس[1].

وذكر ابن شَدَّاد أن نزول هذا العدو كان في شهر صفر، وكانوا ثلاثين ألفاً في ست مئة قطعة ما بين شيني* وطرادة* وبطسة* وغير ذلك[2].

فصل

وأما نوبة الكنز[3]، فقال ابنُ شَدَّاد: الكنز[4] إنسان مقدَّم من

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٦٩ ــ ١٧٤.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٤٨ ــ ٤٩.
(٣) بنو الكنز، أصلهم من ربيعة بن نزار بن مضر، كانوا ينزلون اليمامة، وقدموا مصر في خلافة المتوكل على الله أعوام بضع وأربعين ومئتين، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد، وأسسوا ثمة إمارة عربية كانت أسوان مقراً لها، واعترف الفاطميون بهذه الإمارة، وفي زمن الحاكم بأمر الله كان أميرهم هبة الله بن محمد بن علي المعروف بالأهوج المطاع، وهو الذي ظفر بأبي ركوة الأموي الخارج على الحاكم، فأكرمه الحاكم ولقبه كنز الدولة، فصار لقباً لكل أمير فيهم، حتى كان آخرهم هذا. انظر «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، للمقريزي: ٤٤ ــ ٤٦، ودراسة عبد المجيد عابدين الملحقة به ص ١٢٤ ــ ١٢٥، و «الطالع السعيد»: ٣٠.
(٤) في هامش الأصل: «الكنز، بالنون بعد الكاف وبعدها الزاي، حاشية قال المؤلف: هو كنز الدولة متوّج، كذا سماه الأسعد [بن] مماتي في كتابه الذي جمع فيه السيرة الصلاحية، والله أعلم». =

المصريين، كان قد انتزح إلى أُسوان، فأقام بها، ولم يزل يُدَبِّر أمره، ويجمع السُّودان عليه، ويُخيِّل لهم أنه يملك البلاد ويُعيدُ الدَّولة مصْرية[1]. وكان في قلوب القوم من المهاواة للمصريين ما تُسْتَصْغَرُ هذه الأفعال عنده، فاجتمع عليه خَلْقٌ كثير وجمعٌ وافر من السُّودان، وقصد قُوص* وأعمالها. فانتهى خبره إلى صلاح الدين، فجرَّد له عسكراً عظيماً، شاكين في السلاح، من الذين ذاقوا حلاوة مُلْك الديار المصرية، وخافوا على فَوْت ذلك منهم، وقدَّم عليهم[2] أخاه سيف الدين، وسار بهم حتى أتى القوم، فلقيهم بمصافٍّ فكسرهم، وقتل منهم خلقاً عظيماً، واستأصل[2] شأفتهم، وأخمد نائرتهم، وذلك في السَّابع من صفر سنة سبعين، واستقرَّت قواعد الملك[3].

قال العماد: وفي أَوَّل سنة سبعين مستهلِّها، قام المعروف بالكنز في الصَّعيد، وجَمَعَ[4] من كان في البلاد من السُّودان والعبيد، وعدا ودعا من القريب والبعيد، وكان عنده من الأُمراء أَخٌ لحسام الدين بن أبي الهيجاء السَّمين[5]، ففتك به وبمن هناك من المقطَعين، فغارت حمية أخيه وثارت للثأر، وساعده أخو السُّلْطان سيف الدين، وعز الدين موسك ابن خاله[6]، وعدة من أُمرائه ورجاله، وجاؤوا إلى مدينة طَوْد* فاحتمت[7] عليهم،

= قلت: ما بين حاصرتين من عندنا، وتوفي الأسعد بن مماتي سنة (٦٠٦ هـ)، انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ٢١٠ ــ ٢١٣.

(١) في الأصل: المصرية، والمثبت من (ل) و (م).

(٢ ــ٢) ما بينهما ساقط من (ل).

(٣) «النوادر السلطانية»: ٤٧ ــ ٤٨.

(٤) في الأصل، وجميع، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من هذا الجزء.

(٦) توفي سنة (٥٨٥ هـ)، وسترد ترجمته في ٤/ ١٠٨.

(٧) في (م): فاجتمعت.

وامتنعت، فأسرعت البلية إليها وبها وقعت، وأتى السيف على أهلها، وباءت بعد عِزِّها بذُلِّها.

ثم قصد الكنز وهو في طغيانه وعدوانه، وسوئه وسودانه، فسُفك دمه، وظهر بعد ظهور وجوده عدمه، وأريقت دماءُ سوده، وهجم غابه على أُسوده، ولم يبق للدولة بعد كنزها كنز، وطُلَّ دمه ولم ينتطح فيه عَنْز، وارتدع المارقون فما رقوا بعده سُلَّم نفاق، والله لناصري[1] دينه ناصر واق[2].

وقال ابن أبي طيّ: واتَّفق أيضاً أن خرج بقريةٍ من قرى الصَّعيد يقال لها طَوْد [رجلٌ][3] يعرف بعباس بن شاذي، وثار في بلاد قُوص ونَهَبَها وخَرَّبها، وأخذ أموال الناس. واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب ــ وكان السّلطان قد استنابه بمصر ــ فجمع له العساكر وأوقع به، وبدَّد شمله، وفضَّ جموعه وقتله، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالي بأسوان، وكان قَصَدَ بلد طَوْد، فقتل أكثر عسكره وهرب، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله.

فصـــل

في توجُّه صلاح الدين إلى دمشق، ودخوله إليها في يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأوَّل.

١/٣٦ قال العماد: لما خلا باله مما تقدَّم ذكره تجهَّز لقصد الشام، فخرج إلى

---

(١) في الأصل: لناصر، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٧٥ ــ ١٧٦.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

البركة(١) مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بِلْبيس* ثالث عشر ربيع الأول. وكانت رسل شمس الدِّين صاحب بُصْرى* صديق ابن جَاوْلي وشمس الدين بن المقدم عنده، تَسْتوْري في الحثِّ والبعث زَنْدَه، وتستقدمه وجُنْدَه. وسار على صَدْرَ* وأيْلة* ووصل السير بالسُّرى، حتى أناخ على بُصْرى، بصيراً بالعُلا نصيراً للهدى، فاستقبله صاحب بُصْرى وشد أَزْرَه، وسدَّد أمره. واستضاف إلى بُصْرى صَرْخَد*، وتفرَّد بالسَّبْق إلى الخدمة وتوحَّد، وسار في الخدمة معه إلى الكُسْوَة*.

وبكَّر صلاح الدين يوم الاثنين انْسِلاخ الشهر، وسار في موكب قويّ بالعَدَد والعُدَد، وحسب أن يمتنع عليه البلد، وأن الأطراف توثق، والأبواب تغلق، فأقبل وهو يسوق، وإقباله يشوق، حتى دخل دمشق وخَرَقها، وكأنَّ الله [تعالى](٢) له خَلقها، ودخل إلى دار العقيقي* مسكن أبيه، وبقي جمال الدين ريحان الخادم في القلعة على تأَبِّيه، فراسله حتى استماله، وأغزر له نَوَاله، وتملَّك المدينة والقلعة. ونزل بالقلعة سيف الإِسلام أخو السُّلْطان صلاح الدين، وملَّك ابنَ المقدَّم داره وكل ما حواليها، وبذل له طَلِبته التي أشار إليها ونَصَّ عليها؛ وأظهر أنه [قد](٣) جاء لتربية الملك الصَّالح، وحِفْظ مَالَهُ من المصالح، وتدبير ملكه، فهو أحقُّ بصيانة حقِّه.

واجتمع به أعيانُها، وخَلَص لولائه إسرارها وإعلانُها، وأصبح وهو سُلْطانُها. وزاره القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري، فوفَّاه حقَّه من

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من هذا الجزء.
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

الاحترام، ووفَّر له حَظَّ التبجيل والإعظام[1].

ونفّذت الكتب بالأمثلة الفاضلية إلى مصر، بهذا الفتح والنَّصْر، وفي بعضها: يوم وصولنا إلى بُصْرى وقَبْله وفَدَتْ وهاجرت، وتزاحمت وتكاثرت، وتوافت، الأمراء والأجناد [و][2] الأتراك، والأكراد، والعُرْبان، وراجل الأعمال، وأعيان الرجال. وورد كتاب من دمشق بعد كتاب، وكلٌّ مخبر وذاكر، وهو غائب بكتابه حاضر، يذكر أنَّ البلاد ممكنة القياد، مُذْعنة إلى المراد. وأما الفرنج ــ خذلهم الله تعالى ــ فإنّا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم، وأقمنا بها إقامة الحاضر المتخيم، وأدلجنا وعيونهم متناومة، وجُزْنا وأنوفهم راغمة، ووطئنا ورقابهم صُعُر، ومررنا وعيشهم مُرّ. والله يزيدهم ذُلاً، ويجعل عداوة الإسلام في صدورهم غِلاًّ، وفي أعناقهم غُلاًّ.

وفي كتاب آخر: وكان رحيلُنا من بُصْرى* يوم الأربعاء الرَّابع والعشرين من ربيع الأول، وقد توجَّه صاحبها من بين أيدينا قائماً بشروط الخدمة ولوازمها. ثم لقينا الأجل ناصر الدين بن المولى أسد الدين رحمة الله عليه وأدام نعمته، والأمير سعد الدين بن أُنَر في السبت السابع والعشرين. ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب* والأجناد الدِّمشقية إلينا متوافية، والوجوه على أبوابنا مترامية، ولم يتأخر إلا من أبقى وجهه وراقب صاحبه، ومن اعتقد بالقعود أنه قد نظر لنفسه في العاقبة. ولما كان يوم الاثنين التاسع والعشرين من الشهر ركبنا على خيرة الله تعالى، وعرض دون الدُّخول عَدَدٌ من الرِّجال، فدعستهم عساكرنا المنصورة وصدمتهم، وعرَّفتهم كيف يكون

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٧٦ ــ ١٧٧.

(٢) ما بين حاصرتين من (ل) و (م).

اللِّقاء وعَلَّمتهم، ودخلنا البلد، واستقرَّت بنا دار والدنا رحمة الله عليه، قريرةً عيونُنا، مستقراً سكونُ الرعية وسكوننا، وأَذَعْنا في أرجاء البلد النداء بإطابة النُّفوس، وإزالة المكوس. وكانت الولاية فيهم قد ساءت وأسرفت، واليد المتعدِّية قد امتدَّت إلى أحوالهم وأجحفت، فشرعنا في امتثال أمر الشَّرْع برفعها، وإعفاء الأمة منها بوضعها.

قال ابنُ الأثير: لما خاف مَنْ بدمشق من الأُمراء أن يقصدَهم كُمُشْتِكِين والملك الصَّالح من حلب فيعاملهم بما عامل به بني الدَّاية، راسلوا سيف الدين غازي ليسلِّموها إليه فلم يجبهم، فحملهم الخوف على أن راسلوا صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر، وكان كبيرهم في ذلك شمس الدين بن المقدَّم، ومن أشبه أباه فما ظلم[1]. فلما أتته الرُّسل لم يتوقَّف وسار إلى الشَّام، فلما وصل دمشق سلَّمها إليه من بها من الأمراء، ودخلها واستقرَّ بها، ولم يقطع خُطْبة الملك الصالح، وإنما أظهر أني إنما جئت لأخدمه، واسترد له بلاده التي أخذها ابنُ عمِّه. وجرت أمورٌ آخرها أنه اصطلح هو وسيف الدين والملك الصَّالح على ما بيده[2].

وقال القاضي ابن شدَّاد: لما تحقَّق صلاح الدين وفاة نور الدين، وكون ولده طفلاً لا ينهض بأعباء الملك، ولا يستقل بدفع عدو الله عن البلاد، تجهَّز للخروج إلى الشَّام، إذ هو أصل بلاد الإِسلام، فتجهَّز بجمعٍ كثير من العَسَاكر، وخلَّف بالديار المصرية مَن يستقلُّ بحِفْظِها وحراستها،

---

(١) يشير ابن الأثير لما كان من تسليم الأمير المقدم والد شمس الدين سنجار لنور الدين سنة (٥٤٤ هـ)، انظر ص ٢٣٣ من الجزء الأول. وانظر معنى المثل في حاشيتنا رقم ١ ص ٧٧ من الجزء الثالث.

(٢) «الباهر»: ١٧٦ ــ ١٧٧.

ونَظْمِ أمورها وسياستها، وخرج هو سائراً مع جمعٍ من أهله وأقاربه، وهو يكاتب أهل البلاد وأمراءها. واختلفت كلمة أصحاب الملك الصَّالح، واختلَّت تدبيراتهم، وخاف بعضهم من بعض، وقبض البعضُ على جماعةٍ منهم، وكان ذلك سبب خوف الباقين ممن فعل ذلك، وسبباً لتنفير قلوب النَّاس عن الصَّبي، فاقتضى الحال أن كاتَبَ ابنُ المقدَّم صلاحَ الدين، فوصل إلى البلاد مطالباً بالملك الصَّالح ليكون هو الذي يتولى أمره ويَرُبُّ حاله[١].

فدخل دمشق يوم الثلاثاء سَلْخ ربيع الآخر، وكان أول دخوله إلى دار أبيه. واجتمع النَّاس إليه، وفرحوا به، وأنفق في ذلك اليوم في النَّاس مالاً ١/٢٣٧
طائلاً، وأظهر الفرح[٢] والسرور بالدمشقيين[٢] وأظهروا[٣] الفرح به. وصَعِدَ القلعة، واستقرَّ قدمه في ملكها، فلم يلبث أن سار في طلب حلب، فنازل حمص، وأخذ مدينتها في جُمادى الأولى، ولم يشتغل بقلعتها، وسار حتى أتى حلب، ونازلها سَلْخ جُمادى المذكور، وهي الدفعة الأولى[٤].

وقال ابنُ أبي طيّ: بلغ السُّلْطان أن ابنَ المقدَّم نقض عهد الملك الصالح، وهو كان السبب في خروج سيف الدين صاحب المَوْصِل، واستيلائه على البلاد الشَّرْقية ومضايقته للملك الصالح في ممالكه. وقيل: إن ابنَ المقدَّم كاتَبَ السلطان ودعاه إلى الخروج. وقيل: إنما خرج إلى الشام خوفاً من حركةٍ تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام، وشغل بعضهم ببعض، ولجواب مُمضٍّ ورد من ابن المقدَّم إليه. ولما تيقَّن

---

(١) يرب: يصلح. انظر «اللسان» (ربب).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في الأصل: فأظهروا، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) «النوادر السلطانية»: ٥٠.

ابنُ المقدم خروجَ السُّلْطان إلى جهة دمشق أشفق من ذلك، واستدرك ما بدا منه، وتذلل له، ووعده تسليم دمشق إليه.

قال: ولما حصل على دمشق وقلعتها، واستوطن بُقعتها، نشر عَلَم العدل والإحسان، وعفَّى آثار الظُّلْم والعدوان، وأبطل ما كان الولاة استجدُّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات، والمؤن والضرائب المحرَّمات.

قلتُ: وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ قصيدةً بعد مصافِّ عَسْقَلان، أولها:

تهنَّ يا أَطْوَلَ الملوكِ يَداً ... في بَسْطِ عَدْلٍ وسطوةٍ وندى
أجراً وذكراً مِنْ ذلك الشكرُ في الد(م) ... نيا ومن ذلك الجنانُ غدا[1]
لا تستقلَّ الذي صنعتَ فقد ... قُمْتَ بفرض الجهاد مجتهدا
وَجُسْتَ أرض العِدَى وأفنيتَ من ... أبطالهمْ ما يجاوزُ العَدَدا
وما رأينا غزا الفِرَنْجَ من الـ ... ـملوك في عُقْر دارِهم أَحَدا
فَسِرْ إلى الشَّام فالملائكة الـ ... أبرارُ يلقاك جَمْعُهمْ مَدَدا[2]
فهْو فقيرٌ إليك يأملُ أنْ ... تُصْلِحَ بالعَدْلِ منه ما فَسَدا
والله يعطيك فيه عاقبة النَّـ(م) ... ـصْرِ كما في كتابِهِ وَعَدا
فما حباك الورى وألهمك الـ ... ـعَدْل وأعطاك ما ملكتَ سُدَى[3]

ومَدَحَ وُحَيش الأَسَدي[4] صلاحَ الدين عند أخذه دمشق بقصيدةٍ،

---

(١) هذا البيت ساقط من (ل).

(٢) في طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٣٧ تلقاك ملتقى حمدا.

(٣) ليست الأبيات في «ديوانه» المطبوع.

(٤) هو سبع بن خلف بن محمد، الأسدي الفقعسي، ولد سنة (٥٠٤ هـ)، ولقيه العماد =

أولها:

قد جاءك النَّصْرُ[1] والتوفيق فاصطحبا[2] فَكُنْ لأضعافِ هذا النصر مُرْتَقِبا
لله أنتَ صلاحَ الدين من أسدٍ أدنى فريستِهِ الأيامُ إن وَثَبا
رأيتَ جِلَّق ثَغْراً لا نظيرَ له فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذُّلِّ لما قلَّ ناصِرُها وأزْمَعَ الخَلْقُ من أوطانها هَرَبا
أحْيَيْتَها مِثْلَ ما أحييت مِصْرَ فقد أعَدْتَ من عَدْلها ما كان قد ذَهَبا
هذا الذي نَصَرَ الإسلامَ فاتَّضَحَتْ سبيلُهُ وأهانَ الكُفْرَ والصُّلُبا
ويوم شاورَ والإيمانُ قد هُزِمَتْ جيوشُه كان فيه الجَحْفَلَ اللَّجِبا
أَبَتْ له الضَّيْمَ نَفْسٌ مُرَّةٌ ويدٌ فعَّالة وفؤادٌ قَطُّ ما وَجَبا
يستكثر[3] المدح يُتْلى في مكارمه زُهْداً ويَسْتَصْغِرُ الدُّنيا إذا وَهَبا
ويوم دِمْياطَ والإسكندريةَ قد أصارَهم مَثَلاً في الأرض قد ضُرِبا
والشَّام لو لم تُدارِكْ أهلَه انْدَرَسَتْ آثارُهُ وعَفَتْ آياتُه حُقُبا[4]

فصل

فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة وحصار حلب

قال ابن أبي طيّ: لما اتصل بمن في حلب حصول دمشق للملك

= في دمشق، وقصده بقصائد مدحه بها، فأحسن العماد جائزته. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٤٢ ــ ٢٤٦.

(١) في «الخريدة»: السعد.

(٢) في (م): واصطحبا.

(٣) في إحدى نسخ «الخريدة»: يستكبر.

(٤) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٢٤٢ ــ ٢٤٣.

النَّاصر وميل النَّاس إليه، وانعكافهم عليه، خافوا وأشفقُوا وأجمعوا على مراسلته، فحمَّلوا قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان[1] رسالة أرعدوا فيها وأبرقوا، وقالوا له: هذه السيوف التي ملَّكتك مصر بأيدينا، والرماح التي حَوَيْتَ بها قصور المصريين على أكتافنا، والرجال التي ردت عنك تلك العساكر هي تردك، وعما تصديت له تصدّك، وأنت فقد تعدَّيْتَ طورك، وتجاوزت حَدَّك، وأنت أحد غِلْمان نور الدين وممن يجب عليه حفظه في ولده.

قال: ولما بلغ السُّلْطان وُرود ابن حَسَّان عليه رسولاً تلقَّاه بموكبه
١/٢٣٨ وبنفسه، وبالغ في إكرامه والإِحسان إليه، ثم أحضره بعد ثالثة لسماع الرِّسالة منه. فلما فاه ابن حسان بتلك الشَّقاشِق الباطلة، وقعقع بتلك التمويهات العاطلة، لم يُعِره السُّلْطان رحمه الله تعالى طَرْفاً ولا سمعاً، ولا رَدَّ عليه خفضاً ولا رفعاً، بل ضرب عنه صَفْحاً وتغاضياً، وترك جوابه إحساناً وتجافياً، وجرى في ميدان أريحيته، واستنَّ في سنن مروءته، وخاطبه بكلام لطيف رقيق، وقال له: يا هذا، اعلم أنني وصلت إلى الشَّام، لجمع كلمة الإِسلام، وتهذيب الأمور، وحياطة الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، وكفِّ عادية المعتدين، فقال له ابن حسان: إنك إنما وردت لأخذ الملك لنفسك، ونحن لا نطاوعك على ذلك، ودون ما ترومه خَرْطُ القَتَاد[2]، وفتُّ الأكباد، وإيتام الأولاد. فتبسَّم السلطان لمقاله، وتزايد في احتماله، وأَوْمَى إلى رجاله بإقامته من بين يديه، بعد أن كاد يسطو عليه.

ونادى في عساكره بالاستعداد لقصد الشَّام الأسفل، ورحل متوجِّهاً إلى

(١) كان صاحب منبج، انظر ص ٢٥ من هذا الجزء.
(٢) القتاد: شجر صلب له شوكة كالإبر، وخرط الشجر: انتزاع الورق منه اجتذاباً. والمثل: دونه خرط القتاد، يضرب للأمر الشاق. انظر «القاموس المحيط»: (قتد، خرط)، و «المستقصى»: ٢/ ٨٢ ــ ٨٣.

حمص فتسلَّم البلد، وقاتل القلعة ولم ير تضييع الزمان عليها، فوكَّل بها من يحصرها. ورحل إلى جهة حماة، فلما وصل إلى الرَّسْتَن* خرج صاحبها عز الدين جُرْديك[(١)]، وأمر مَنْ فيها من العسكر بطاعة أخيه شمس الدين علي واتباع أمره. وسار جُرْديك حتى لقي السُّلْطان، واجتمع به بالرَّسْتَن، وأقام عنده يوماً وليلة، وظهر من نتيجة اجتماعه به أنه سَلَّم إليه حماة، وسأله أن يكون السَّفير بينه وبين من بحلب، فأجابه السّلطان إلى مُرَاده. وسار إلى حلب، وبقي أخو جُرْديك بقلعة حماة.

قال: وسار جُرْديك إلى حلب وهو ظانٌّ أنه قد فعل شيئاً، وحصَّل عند من بحلب يداً، فاجتمع بالأمراء والملك الصَّالح، وأشار عليهم بمصالحة الملك الناصر، فاتَّهمه الأمراء بالمخامرة، وردُّوا مشورته، وأشاروا بقبضه، فامتنع الملك الصالح. ولجَّ سعد الدين كُمُشْتِكِين في القبض عليه، فقبض وثُقِّل بالحديد، وأُخذ بالعذاب الشديد، وحُمل إلى الجُبِّ الذي فيه أولاد الدَّاية.

قال: ولما قُدِّم جُرْديك وشُدَّ في وسطه الحبل وأُدْلِيَ إلى الجُبّ، وأحسَّ به أولاد الدَّاية، قام إليه منهم حسن وشَتَمَه أقبحَ شتم، وسَبَه ألأم سَبٍّ، وحلف بالله إِن أُنزل إليهم ليَقتُلَنَّه. فامتنعوا من تدليته، فأُعلم سعد الدين كُمُشْتِكِين، فحضر إلى الجُبِّ، وصاح على حسن وشتمه وتوعَّده، فسكن حسن وأمسك، وأنزل جُرْديك الجُب، فكان عند أولاد الدَّاية، وأسمعه حسنٌ كلَّ مكروه.

قال: وكتب أبي إلى حلب حين اتصلَ به قبض أولاد الدَّاية وجُرْديك،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٥٠ من هذا الجزء.

وكانوا تعصَّبوا عليه حتى نفاه نور الدين من حلب ، قصيدةً منها :

بنُو فـلانـة أعـوان الضَّـلالـة قـد قضـى بـذُلِّهـمُ الأفـلاكُ والقَـدَرُ
وأصبحوا بعد عِزِّ المُلْكِ في صَفَدٍ وقَعْـرِ مَظْلَمَـةٍ يغشـى لهـا البَصَـرُ
وجَرَّد الدَّهْرُ في جُرْديك عَزمته[1] والـدَّهْـرُ لا ملجـأٌ منـه ولا وَزَرُ

قال: ولم يزل السُّلْطان مقيماً على الرَّسْتَن، ثم طال عليه الأمر، فسار إلى جباب التركمان، فلقيه أحد غِلْمان جُرْديك، وأخبره بما جرى على جُرْديك من الاعتقال والقهر، فرحل السطان من ساعته عائداً إلى حماة، وطلب من أخي جُرْديك تسليم حماة إليه، وأخبره بما جرى على أخيه، ففعل. وصَعِدَ السُّلْطان إلى قلعة حماة واعتبر أحوالها، وولاها مُبارز الدين عليَّ بن أبي الفوارس، وذلك مستهل جُمادى الآخرة.

وسار السّلطان إلى حلب ونزل على أنف جبل جَوْشَن* فوق مشهد الدَّكَّة* ثالث جُمادى، وامتدَّت عساكره إلى الخَنَّاقية وإلى السَّعْدي. وكان من بحلب يظنون أن السُّلْطان لا يقدَمُ عليهم، فلم يرعهم إلا وعساكره قد نازلت حلب، وخيمه تضرب على جبل جوشن، وأعلامه قد نشرت، فخافوا من الحلبيين أن يُسلِّموا البلد كما فعل أهل دمشق، فأرادوا تطييب قلوب العامة، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان، ويقبل عليهم بنفسه، ويخاطبهم بلسانه أنهم الوَزَرُ والملجأ. فأمر أن يُنادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق*، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالنَّاس، فنزل الصَّالح من باب الدرجة وصَعِدَ من الخندق، ووقف في رأس الميدان من الشمال وقال لهم: يا أهل حلب، أنا ربيبكم ونزيلكم، واللاجىء إليكم، كبيركم

---

(١) في (م): أخذته.

عندي بمنزلة الأب، وشابكم عندي بمنزلة الأخ، وصغيركم عندي يحل محل الولد. قال: وخنقته العبرة، وسبقته الدمعة، وعلا نشيجه، فافتتن النَّاس وصاحوا صيحةً واحدة، ورمَوْا بعمائمهم، وضجُّوا بالبكاء والعويل، وقالوا: نحن عبيدك وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك. وأقبلوا على الدُّعاء له، والترحُّم على أبيه.

وكانوا قد اشترطوا على الملك الصَّالح أنه يُعيد إليهم شرقية الجامع يُصَلُّون فيها على قاعدتهم القديمة، وأن يُجهر بحيّ على خير العمل والأذان والتذكير في الأسواق، وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة الاثني عشر، وأن يصلُّوا على أمواتهم خمس تكبيرات، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطَّاهر أبي المكارم حمزة بن زُهْرة الحسيني، وأن تكون العصبية مرتفعة، والنَّاموس وازع لمن أراد الفتنة، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان قد أبطله نور الدين رحمه الله تعالى. فأُجيبوا إلى ذلك.

١/٢٣٩ قال ابن أبي طيّ: فأذن المؤذنون[١] في منارة الجامع وغيره بحيّ على خير العمل، وصلىٰ أبي في الشَّرْقية مُسْبلاً، وصلَّى وجوه الحلبيين خلفه، وذكروا في الأسواق وقُدَّام الجنائز بأسماء الأئمة، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات، وأُذِنَ للشريف في أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه، وفعلوا جميع ما وقعتِ الأيمان عليه.

فصــــل[٢]

قال ابن أبي طيّ[٢]: وكانت هذه السنة شديدة البرد، كثيرة الثلوج،

---

(١) في الأصل: المؤذن، والمثبت من (ل) و (م).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).

عظيمة الأمطار، هائجة الأهوية. وكان السُّلْطان قد جعل أولاد الدَّاية[1] عُلالة له وسبباً يقطع به ألْسِنَة من يُنكر عليه الخروج إلى الشام وقَصْد الملك الصَّالح، ويقول: أنا إنما أتيتُ لاستخلاص أولاد الدَّاية[1] وإصلاح شأنهم.

وأرسل السُّلْطان إلى حلب رسولاً يُعَرِّض بطلب الصُّلْح، فامتنع كُمُشْتِكين، فاشتدَّ حينئذٍ السُّلْطان في قتال البلد.

وكانت ليالي الجماعة عند الملك الصالح لا تنقضي إلا بنصب الحبائل للسلطان، والفكرة في مخاتلته وإرسال المكروه إليه. فأجمعوا آراءهم على مراسلة سنان صاحب الحشيشيَّة[2] في إرصاد المتالف للسلطان، وإرسال من يفتك به، وضمنوا له على ذلك أموالاً جمة وعِدَّة من القرى. فأرسل سنان جماعة من فُتَّاك أصحابه لاغتيال السلطان، فجاؤوا إلى جبل جَوْشَن* واختلطوا بالعسكر، فعرفهم صاحب بوقُبيس[3] لأنه كان مثاغراً لهم، فقال لهم: يا ويلكم، كيف تجاسرتم على الوصول إلى هذا العسكر ومثلي فيه! فخافوا غائلته فوثبوا عليه، فقتلوه في موضعه، وجاء قومٌ للدفع عنه فجرحوا بعضهم وقتلوا البعض، وبدر من الحشيشيّة أحدهم وبيده سكينة مشهورة ليقصد السلطان ويهجم عليه، فلما صار إلى باب الخيمة اعترضه طغريل أمير جاندار*، فقتله، وطُلب الباقون فقتلوا بعد أن قتلوا جماعة.

وقال: ولما فات من بحلب الغرض من السلطان بطريق الحشيشيَّة كاتبوا قومص طرابلس[4]، وضمنوا له أشياء كثيرة متى رحَّل السلطان عن

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٨٨ من هذا الجزء.

(٣) هو الأمير ناصح الدين خمارتكين كما سيأتي ص ٣٥٤، وأبو قبيس: حصن مقابل شيزر. «معجم البلدان»: ١/ ٨١.

(٤) هو Raymond III انظره في كشاف الأعلام.

حلب. وكان لعنه الله في أسر نور الدين منذ كسرة حارم[١]، وكان قد بذل في نفسه الأموال العظيمة فلم يقبلها نور الدين. فلما كان قبل[٢] موت نور الدين سعى له فخر الدين مسعود بن الزّعْفراني[٣] حتى باعه نور الدين بمبلغ مئة وخمسين ألف دينار وفكاك ألف أسير.

واتفق في أول هذه السَّنة موت ملك الفرنج صاحب القُدس وطبرية وغيرهما[٤]، فتكفَّل هذا القمص بأمر ولده المجذوم[٥]، فعَظُم شأنه وزاد خطره. فأرسل إلى السلطان في أمر الحلبيين، وأخبره الرسول أن الفرنج قد تعاضدوا وصاروا يداً واحدة، فقال السلطان: لستُ ممن يَرْهَبُ بتألُّب الفرنج وها أنا سائرٌ إليهم. ثم أنهد قطعةً من جيشه وأمرهم بقصد أنطاكية، فغنموا غنيمةً حَسَنةً وعادوا. فقصد القمص جهة حمص فرحل السلطان[٦] من حلب إليها، فسمع الملعون فنكص راجعاً إلى بلاده، وحصل[٦] الغرض من رحيل السُّلْطان عن حلب، ووصل إلى حمص فتسلَّم القلعة، ورتَّب فيها والياً من قِبَله.

قال: وفي فتح قلعة حمص يقول العماد الكاتب من قصيدة، وستأتي[٧]:

---

(١) وكانت سنة (٥٥٩ هـ). انظر ص ٤١٥ وما بعدها من الجزء الأول.

(٢) في (م): قبيل.

(٣) كان من كبار أمراء نور الدين، قدمه في آخر حياته على العساكر، وأقطعه الرها وحماة وكفر طاب وحمص وسلمية وبعرين. انظر «سنا البرق الشامي»: ١/١٩٢، وص ٣٨٥، ٣٨٦ من هذا الجزء.

(٤) ذكر أبو شامة أنه توفي آخر السنة السالفة. انظر ص ٣٣٢ من هذا الجزء.

(٥) هو Boldwin IIII انظره في كشاف الأعلام.

(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

(٧) انظر ص ٣٧٠ ــ ٣٧٣ من هذا الجزء.

إيـابُ ابـن أيـوب نحـو الشَّـآم   علـى كـلِّ مـا يـرتَجيـه ظُهـورُ
بيـوسُـف مِصْـرٍ وأيَّـامِـه   تَقَـرُّ العيـونُ وتَشْفـى الصُّـدُورُ
رأت منـك حمـصُ لهـا كـافيـاً   فـواتـاك منهـا القـويُّ العَسِيْـرُ[1]

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى زين الدين بن نجا الواعظ[2] يقول في وصف قلعة حمص: والشيخ الفقيه قد شاهد ما يشهدُ به من كونها نجماً في سحاب، وعُقاباً في عِقاب، وهامةً لها الغمامة عِمامة، وأَنْمُلةً إذا خضبها الأصيلُ كانِ الهلالُ منها قُلامة، عاقدةً حبوةً صالحها الدَّهْرُ على ألا يَحُلّها بقرعه، عاهدةً عصمةً صافحها الزمن على ألا يروعها بخَلْعه. فاكتنفت بها عقارب منجنيقات[3] لا تطبع طَبْعَ حمْصَ في العقارب، وضربت حجارةً بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحد إلا وقد أثّرت فيها جُدَرِياً بضربها، ولم تصل إلى السابع إلا والبحران منذرٌ بنَقْبها. واتَّسع الخَرْقُ على الراقع، وسقط سَعْدُها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها الطّالع، وفُتحت الأبراج فكانت أبواباً، وسُيِّرت الجبال بها فكانت سراباً. فهنالك بدت نقوبٌ، يَرى قائم[4] مِنْ دُونها ما وراءها، وحُشيت فيها النّار فلولا الشُّعاع من الشعاع أضاءها[5].

(١) انظر «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ٢٨.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩١ من الجزء الأول.
(٣) في «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ٣٥٠، المنجنيقات، ليست في النص، وعلق محققاه أنها تفسير للعقارب مقحم على النص!
(٤) في (ل) و (م): القائم.
(٥) ضمن الفاضل عجزي بيتين لقيس بن الخطيم يصف بهما طعنة، هما:
طعنت ابن القيس طعنة ثائر   لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها
ملكت بها كفي فأنهرت فتقها   يرى قائماً من خلفها ما وراءها
انظر اختلاف روايتهما في «ديوانه»: ٧ ــ ٨.

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى أخيه العادل: قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ما يزاحم سبعة آلاف فارس، وتكاثفت الجموع إلى الحد الذي يخرج عن العَدّ، وبعد أن نُرَتِّب أحوال حمص ــ حرسها الله تعالى ــ نتوجَّه إلى حماة [وإلى ما بعدها][1]، والله المعين على ما ننويه من الرَّشاد، وننظِّفه من طُرُقِ الجهاد.

وقال العماد: لما سمع المدبِّرون للملك الصَّالح بإقبال صلاح الدين المُؤذن بإدبارهم، سُقط في أيديهم، وراسلوا المواصلة وكاتبوهم، وأرسلوا ١/ ٢٤٠ إلى صلاح [الدين][2] بالإغلاظ والإحفاظ. وكان الواصل منهم قطب الدين يَنَال بن حَسَّان، وقد تجنَّب في قوله الإحسان، وقال له: هذه السُّيوف التي مَلَّكتك مصر ــ وأشار إلى سيفه ــ إليها تردُّك، وعمَّا تصدَّيت له تصدُّك. فحلم عنه السلطان واحتمله، وتغافل كرَماً وأغفله، وخاطبه بما أبى أن يقبله، وذكر أنه وَصَل لترتيب الأُمور، وتهذيب الجمهور، وسَدِّ الثُّغور، وتربية ولد نور الدين، واستنقاذ إخوة مجد الدين. فقال له: أنت تريد الملك لنفسك، ونحن لا ننزع في قوسك، ولا نأنس بأنسك، ولا نرتاع لجرسك، ولا نبني على أُسّك، فارجع حيث جئت، أو اجهد واصنع ما شئت، ولا تطمع فيما ليس فيه مطمع، ولا تطلع حيث ما لسعودك فيه مطلع. ونال من تقطيب القطب ينال، كل ما أحال الحال، وأبلى البال، وأبدى له التبسُّم وأخفى الاحتمال.

ثم إنه استناب أخاه سيف الإسلام طُغْتِكِين بدمشق، وسار بالعسكر ونزل على حمص، فأخذها يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأُولى، وامتنعت

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

القلعة فأقام عليها من يحصرها. ورحل إلى حماة، فأخذها مستهل جُمادى الآخرة.

ثم مضى ونزل على حلب، فحصرها ثالث الشهر، فلمّا اشتدَّ على الحلبيين الحصار، وأعوزهم الانتصار، استغاثوا بالإسماعيليّة، وعيَّنوا لهم ضياعاً، وبذلوا لهم من البذول أنواعاً، فجاء منهم في يوم بارد شات، من فُتّاكهم كُلُّ عات، فعرفهم الأمير ناصح الدين خُمارتِكين صاحب بوقُبيس ـ وكان مثاغراً للإسماعيلية ـ فقال لهم: لأي شيء جئتم، وكيف تجاسرتم على الوصول وما خشيتم! فقتلوه، وجاء من يدفع عنه فأثخنوه، وعدا أحدهم ليهجم على السُّلْطان في مقامه، وقد شهر سكين انتقامه، وطُغْرُل أمير جاندار* واقف ثابت، ساكن ساكت، حتى وصل إليه، فشمل بالسَّيف رأسه، وما قُتل الباقون حتى قَتَلُوا عِدَّة، ولاقى من لاقاهم شِدَّة.

وعصم الله [تعالى][1] حُشاشته في تلك النَّوْبة من سكاكين الحشيشِيَّة، فأقام إلى مستهل رجب، ثم رحل إلى حمص بسبب أن الحلبيين كاتبوا قومص طرابلس* ـ وقد كان في أسر نور الدين مُذْ كسرة حارِم*، وبقي في الأسر أكثر من عشر سنين، ثم فدى نفسه بمبلغ مئة ألف وخمسين ألف دينار، وفكاك ألف أسير ـ فتوجَّه في الإفرنجية إلى حمص، فلما سمع بالسُّلْطان رجع ناكصاً على عقبيه، خوفاً مما يقع فيه[2] ويتم عليه[3].

ومن كتاب فاضليٍّ عن السُّلْطان إلى العادل: قد أعلمنا المجلس أن

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) في الأصل: به، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٧٩ ـ ١٨٢.

العدوَّ ــ خذله الله ــ كان الحلبيون قد استنجدوا بصُلْبانهم، واستطالوا[1] على الإسلام بعدوانهم، وأنه خرج إلى بلد حمص، فوردنا حماة، وأخذنا في ترتيب الأطلاب* لطلبه ولقاه. فسار إلى حصن الأكراد* متعلقاً بحبله مفتضحاً بحيله. وهذا فتحٌ تفتح له أبواب القلوب، وظفرٌ وإن كان قد كفى الله [تعالى][2] فيه القتال المحسوب، فإنَّ العدوَّ قد سقطت حِشْمته، وانحطَّت فيه هِمَّته، وولَّى ظهراً كان صدره يصونه، ونكَّس صليباً كانت ترفعه شياطينه.

وقال العماد في «الخريدة»: ولما خَيَّم السُّلْطان بظاهر حمص قصده المهذَّب بن أسعد بقصيدةٍ، أوَّلها:

ما نامَ بَعْدَ البَيْنِ يستحلي الكَرى ... إلا ليَطْرُقَه الخيالُ إذا سَرى
كَلِفٌ بِقُربِكُمُ فلمّا عاقه ... بُعْدُ المَدَى سَلَكَ الطَّريق الأخصرا
ومُوَدِّعٍ أَمرَ[3] التفرُّقُ دَمْعَه ... ونَهَتْهُ رِقْبَةُ كاشحٍ فتَحَيَّرا

ومنها في المديح:

تُرْدِي الكتائبَ كُتْبُهُ فإذا غَدَتْ ... لم يُدْرَ أَنْفَذ أَسْطُراً أم عسكرا
لم يُحْسِنِ الإترابَ فوقَ سُطُورِها ... إلا لأن الجيشَ يعقِدُ عِثْيَرا[4]

فقال القاضي الفاضل لصلاح الدين: هذا الذي يقول:

والشِّعْرُ ما زَالَ عند التُّرْك متروكا

---

(١) في (ل): استصالوا.
(٢) ما بين حاصرتين من (ل).
(٣) في «خريدة القصر» و «الديوان»: أمَّ، وإخالها تحريفاً.
(٤) العِثْيَر: العجاج الساطع. «اللسان» (عثر).

فعجَّلَ جائزَتَه لتكذيب قوله وتصديق ظنِّه، فشرَّفه وجمعَ له بين الخِلْعة والضَّيْعة[1].

وعَنى الفاضل ما قاله في قصيدة في مدح الصَّالح بن رُزِّيك التي أوَّلها:

أما كَفَاك تلافي في تلافيكا

يقول فيها:

يا كعبةَ الجُودِ إنَّ الفَقْرَ أَقْعَدَني ... ورِقَّةَ الحالِ عن مفروضِ حَجِّيكا
من أرتجي يا كريمَ الدَّهرِ تَنْعَشُني ... جَدْواه إن خاب سَعْيي في رجائيكا
أأمْدَحُ التُّركَ أبغي الفَضْلَ عِنْدَهُمُ ... والشِّعْرُ ما زالَ عند التُّرْك متروكا
أم أمدح السُّوْقَةَ النَّوْكى لِرِفْدِهُمُ ... واضَيْعَتَا إن تخطَّتني أياديكا
لا تتركَنِّي وما أمَّلتُ في سَفَري ... سواك أُقْفِلُ نحو الأهل صُعْلُوكا[2]

قلتُ: وقد مضى ذِكْرُ ابن أسعد هذا في أخبار سنة ثمانٍ وخمسين[3]، وسيأتي من شعره أيضاً في أخبار سنة ستٍّ وسبعين، وثمانٍ وسبعين.

وما أحسنَ ما خرجَ ابنُ الدَّهَّان من الغَزَل إلى مدح ابن رُزِّيك في قوله من[4] قصيدةٍ أوَّلها:

إذا لاحَ بَرْقٌ مِنْ جَنَابِكَ لامعُ ... أضاءَ لِوَاشٍ ما تُجِنُّ الأضالعُ[4] ٢٤١/أ

[يقول فيها][5]:

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٦، و «ديوانه»: ٤٧ ـ ٥٤.
(٢) انظر القصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٨٢ ـ ٢٨٤، و «تكملة ديوانه»: ٢١٩ ـ ٢٢٣.
(٣) انظر ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣ من الجزء الأول.
(٤ ـ ٤) ما بينهما ساقط من (م).
(٥) ما بين حاصرتين من (ل).

تمــادى بنــا فــي جــاهليَّــة بُخْلهــا وقد قام بالمعرُوفِ في النَّاس شارِعُ
وتحسَــبُ ليــلَ الشُّــحِّ يمتــدُّ بعــدَمــا بدا طالعاً شَمْسُ السَّخاءِ طلائعُ[1]

فصـــــل

ثم أرسل السُّلْطان الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي المضاء[2] إلى الديوان العزيز برسالةٍ ضمنها القاضي الفاضل كتاباً طويلاً رائقاً فائقاً، يشتمل على تعداد ما للسُّلْطان من الأيادي من جهاد الإِفرنج في حياة نور الدين، ثم فتح مصر واليمن، وبلادٍ جمَّة من أطراف المغرب، وإقامة الخُطْبة العباسية بها، يقول في أوله للرسول:

فإذا قضى التسليم[3] حَقَّ اللقاء، واستدعى الإِخلاص جهد الدُّعاء، فلْيُعدْ وليعدَّ حوادث ما كانت حديثاً يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيراً فأكثرُ منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها لعلَّه يشرح منا صدراً، وليوضح الأحوال المستسرَّة فإن الله لا يُعبد سِرّاً:

ومـن الغـرائـب أن تَسِيـر غـرائِـبٌ في الأرض لم يَعلَم بها المأمولُ
كالعيسِ أقتل ما يكون لها الصَّدى والمــاءُ فــوقَ ظهــورِهــا محمــولُ

فإنا كنا نَقْتبس النار بأكفنا وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونَلْقى السِّهام بنحورنا وغيرنا يعتمد[4] التصوير، ونصافح الصِّفاح

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨، و «ديوانه»: ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) وهو أول من خطب للعباسيين في مصر سنة (٥٦٧ هـ)، انظر ص ١٩٠، ١٩٥ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: حق التسليم، والمثبت من (ل) و (م).

(٤) في (ل) و (م): يعبد.

بصدورنا وغيرنا يدَّعي التَّصْدير. ولا بد أن نستردَّ بضاعتنا بموقف العدل الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا فنأخذ بحظ الألْسنِ[١] كما أخذنا بحظٍّ القلوب. وما كان العائقُ إلا أنا كُنَّا ننتظر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمة، يضاهي ابتداءنا بالخدمة، وإيجاباً للحق، يشاكل إيجابنا للسَّبْق. [و][٢] كان أول أمرنا أنا كنا في الشام نفتتح[٣] الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكُفَّار مُتقدِّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا. فأي مدينة فُتحت، أو مَعْقِل مُلك، أو عسكرٍ للعدوِّ كُسِرَ، أو مصافٍّ للإسلام معه ضُرب لم نكن فيه[٤]. فما يجهل أحدٌ صُنْعنا، ولا يجحد عدونا أنَّا نصطلي الجمرة، ونملك الكَرَّة، ونتقدم الجماعة، ونُرتِّب المقاتلة، وندبر التَّعبئة، إلى أن ظهرت في الشَّام الآثار التي لنا أجرُها، ولا يضرنا أنْ يكون لغيرنا ذكرُها.

وكانت أخبارُ مصر تتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء تدبير، وبما دَوْلتها عليه مِن غلبة صغيرٍ على كبير، وأن النظام بها قد فَسَد، والإسلام بها قد ضَعُفَ عن إقامته كلُّ من قام وقَعَد. والفرنج قد احتاج من يدبرها[٥] إلى أن يقاطعهم بأموالٍ كثيرة، لها مقادير خطيرة، وأنَّ كلمة السُّنَّة بها وإن كانت مجموعة فإنها مقموعة، وأحكام الشَّريعة وإن كان مسماة فإنها متحاماة. وتلك البدع بها على ما يُعلم، وتلك الضَّلالات فيها على ما يفتى فيه بفراق الإسلام ويحكم. وذلك المذهب قد خالط من أهله اللَّحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهةً تُعْبَدُ من دون الله وتعظَّم وتفخم، فتعالى الله

(١) في (م): الألسنة.
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) في (ل) و (م): نفتح.
(٤) لم نكن فيه، ساقطة من (ل) و (م).
(٥) في الأصل: تدبرها، وفي (ل): مهملة، والمثبت من (م).

عن شَبه العباد، وويلٌ لمن غَرَّه تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد. فسمت هِمَّتُنا دون همم أهل الأرض إلى أن[1] نستفتح مُقفلها، ونسترجع للإسلام شاردها، ونعيد على الدين ضالَّته منها. فسرنا إليها في عساكر ضخمة، وجموع جمة، وبأموالٍ انتهكت الموجود، وبلغت منا المجهود، أنفقناها من حاصل ذممنا وكسب أيدينا، وثمن أسارى الفرنج الواقعين في قبضتنا. فعرضت عوارض منعت، وتوجَّهت للمصريين رُسلٌ باستنجاد الفرنج قطعت، و ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[2] ولكلِّ أملٍ باب. وكان في تقدير الله تعالى أنّا نملكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغَدَرَ الفرنج بالمصريين غدرة في هدنة عَظُمَ خَطْبُها وخبطها، وعُلم أن استئصال كلمة الإسلام محطُّها، فكاتبنا المسلمون من مصر في ذلك الزمان، كما كاتبنا المسلمون من الشَّام في هذا الأوان، بأنَّا إنْ لم ندرك الأمر وإلا خرج عن اليد، وإن لم ندفع غريم[3] اليوم لم نمهل إلى الغد. فسرنا بالعساكر المجموعة، وأمراء الأهل[4] المعروفة، إلى بلاد قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرَّر لنا في القلوب وُدَّان: الأول ما علموه من إيثارنا للمذهب الأقوم، وإحياء الحقّ الأقدم، والآخر ما يرجونه من فكِّ إسارهم، وإقالة عِثارهم[5]. ففعل الله ما هو أهلُه، وجاء الخبر إلى العدو فانقطع حَبْلُه، وضاقت به سُبله، وأفرج عن الديار بعد أن كانت ضياعها ورساتيقها*، وبلادها وأقاليمها، قد نفذت فيها أوامره، وخفقت عليها صُلْبانه، ونُصبت بها أوثانه، وأُيس من أنْ

(١) في الأصل: التي، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٨.
(٣) في (م): غرائم.
(٤) في طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٤١، و «الأمراء والأهل».
(٥) في (م): عشارهم.

يُسترجع ما كان بأيديهم حاصلاً، وأن يُستنقذ ما صار في ملكهم داخلاً، ووصلنا البلاد وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير، وأموالهم واسعة، وكلمتهم جامعة، وهم على حرب الإسلام أقدر منهم على حرب الكفر، والحيلة في السِّرِّ فيهم أنفذ من العزيمة في الجهر. وبها راجل من السُّودان يزيد على مئة ألف، كلهم أغتام[1] أعجام ﴿إنْ هُمْ إلاّ كالأَنْعَام﴾[2] لا
٢٤٢/١ يعرفون ربّاً إلاّ ساكن قصره، ولا قِبْلةً إلاّ ما يتوجهون إليه من ركنه، وامتثال أمره، وبها عسكرٌ من الأرمن باقُون على النَّصْرانية، موضوعةٌ عنهم الجِزْية، كانت لهم شوكة وشِكَّة، وحُمة وحَمِيَّة. ولهم حواشٍ لقصورهم من بين داعٍ تَلَطَّفُ في الضلال مداخلُه، وتصيب القلوبَ مخاتلُه، ومن بين كُتَّاب تفعلُ أقلامهم أفعال الأَسَل، وخُدَّام يجمعون إلى سواد الوجوه سواد النِّحَل، ودولة قد كبر نملها الصَّغير، ولم يعرف غيرها[3] الكبير، ومهابة تمنع من خَطَرات الضَّمير، فكيف بخطوات التدبير. هذا إلى استباحةٍ للمحارم ظاهرة، وتعطيل للفرائض على عادةٍ جائرة، وتحريفٍ للشريعة بالتأويل، وعدول إلى غير مُراد الله بالتنزيل، وكُفْرٍ سُمي بغير اسمه، وشرعٍ يُتَسَتَّرُ به ويُحكم بغير حكمه. فما زلنا نسحتهم سحت المبارد للشّفار، ونتحيَّفهم تحيُّف الليل والنهار للأعمار، بعجائب تدبير لا تحتملها المساطير، وغرائب تقدير لا تحملها[4] الأساطير، ولطيف توصُّلٍ ما كان من حيلة البشر ولا قُدْرتهم لولا إعانة المقادير. وفي أثناء ذلك استنجدوا علينا الفرنج، دفعة إلى

---

(١) أغتام، مفردها: أغتم وغتمي. والغتمة: عجمة في المنطق. انظر «اللسان» (غتم).
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
(٣) في الأصل: غرها، وفي هامشه «قال المؤلف: لعله يعرف غيرها» وهي المثبتة في (ل) و (م).
(٤) في هامش الأصل: تحويها (خ)، وهي المثبتة في (ل) و (م).

بِلْبيس* ودفعة إلى دِمْياط، وفي كل دفعة منهما وصلوا بالعدد المجهر[1]، والحشد الأوفر، وخصوصاً في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب، مقاتل وحامل، وبرّاً في مئتي ألف فارس وراجل، وحصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها، ويماسونها ويصابحونها القتالَ الذي يصلِّبه الصليب، والقِراع الذي ينادي به الموت من كل[2] مكانٍ قريب، ونحن نقاتل العدوَّين الباطن والظَّاهر، ونصابر الضِّدَّين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج، وشرعنا في تلك الطوائف من الأرمن والسُّودان والأجناد، فأخرجناهم من القاهرة، تارةً بالأوامر المرهقة لهم، وبالأمور الفاضحة منهم، وبالسيوف المجرَّدة، وبالنار المحرقة، حتى بقي القصرُ ومن به من خدم ومن ذُرِّية قد تفرَّقت شِيَعُه، وتمزَّقت بدعه، وخفَتت دعوته، وخفِيَت ضلالته، فهنالك تَمَّ لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخُطْبة، والرفع للواء الأسود المعظم[3]، وعاجل الله الطاغية الأكبر بهلاكه [وفنائه][4]، وبرأنا من عُهدة يمين كان إثم حِنْثها أيسر من إثم إبقائه، لأنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته. ولما خلا ذرعنا، ورَحُب وسعنا، نظرنا في الغزوات إلى بلاد الكُفَّار، فلم تخرج سَنَة إلا عن سُنَّة أقيمت فيها براً وبحراً، مركباً وظهراً، إلى أن أوسعناهم قتلاً وأسراً، وملكنا رقابهم قهراً وقسراً، وفتحنا لهم معاقل ما خطر أهل الإسلام فيها مُذْ أُخذت من أيديهم، ولا أُوجفت عليها خيلهم ولا ركابهم مُذْ مَلَكها أعاديهم. فمنها ما حُكِّمت فيه يَدُ الخراب، ومنها

(١) أي المستكثر. انظر «معجم متن اللغة» ١/ ٥٨٨.

(٢) كل، ساقطة من (ل) و (م).

(٣) في (ل) و (م): الأعظم.

(٤) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل من «الروضتين» ١/ ٢٤٢.

ما استولت عليه يدُ الاكتساب، ومنها قلعة بثغر أيلة* كان العدوُّ قد بناها في بحر الهند، وهو المسلوك منه إلى الحرمين واليمن، وغزا ساحل الحَرَم، فسبى منه خَلْقاً، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقاً، فكادت القبلة أن يُستولى على أصلها، ومشاعر الله أن يسكنها غيرُ أهلها، ومقام الخليل عليه السَّلام، أن يقوم به من نَارُه غيرُ بَرْدٍ وسلام، ومضجع الرسول ﷺ أن يتطرَّقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام. ففتح الله هذه القلعة وصارت مَعْقِلاً للجهاد، وموئلاً لسُفَّار البلاد، وغيرهم من عُبَّاد العباد[1].

ثم قال: وكان باليمن ما عُلِمَ من ابن مهدي الضَّال الملحد[2]، المبدع المتمرِّد، وله آثار في الإسلام، وثأر طالِبُهُ النبيُّ عليه الصَّلاة والسلام[3]، لأنه سبى الشرائف الصَّالحات، وباعهن بالثمن البَخْس، واستباح منهن كل ما لا يقر لمسلم عليه نفس، ودان ببدعةٍ، ودعا إلى قبر أبيه وسمَّاه كعبة، وأخذ أموال الرَّعايا المعصومة وأجاحها[4]، وأحلَّ الفروج المحرَّمة وأباحها. فأنْهَضْنا إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلَّفنا له نفقات واسعة، وأسلحة رائعة، وسار فأخذناه ولله الحمد، وأنْجح الله فيه القَصْد، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند سامية، وإلى ما يقتضُّ الإسلام عُذْرته متمادية.

ولنا في الغرب أثرٌ أغرب، وفي أعماله أعمال دون مطلبها مهالك كما يكون المهلك دون المطلب؛ وذلك أن بني عبد المؤمن قد اشتهر أنَّ أمْرَهم قد أَمِر[5]، وملكهم قد عُمِر، وجيوشهم لا تطاق، وأمرهم لا يشاق، ونحن

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك ٣/ ١٣٣ وما بعدها من هذا الكتاب.

(٢) سلف ذكره ص ٢٧٢ من هذا الجزء.

(٣) في (ل): عليه أفضل الصلاة والسلام، وفي (م): عليه السلام.

(٤) أي أهلكها. انظر «اللسان» (جوح).

(٥) أي قد تمَّ. انظر «القاموس المحيط» (أمر).

بحمد الله قد تملكنا مما يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسَيَّرْنا إليها عسكراً بعد عسكر، فرجع بنصر بعد نصر. ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير: بَرْقة*، قَفْصة*، قَسْطِيلية، تَوْزَر*. كلٌّ هذه تقام فيها الخُطْبَة لمولانا الإمام المستضيء بأمر الله ــ أمير المؤمنين سلام الله عليه ــ ولا عهد للإسلام بإقامتها، وينفَّذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها.

وفي هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وفود الأمصار، ورموه بأسماعٍ وأبصار، مقداره سبعون راكباً، كلُّهم يطلب لسلطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعيداً، وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسَيَّرنا الخِلَع والمناشير والألوية، بما فيها من الأوامر والأقضية. فأما الأعداء المحدقون بهذه البلاد، والكُفَّار الذين يقاتلوننا بالممالك العظام والعزائم الشِّداد، فمنهم صاحب قُسْطَنْطينية، وهو الطَّاغية الأكبر، والجالوت الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلت على الدَّهْر ١/٢٤٣
وشربت، وقائم النصرانية الذي حكمت دولته على ممالكها وغَلَبَتْ، جَرَت لنا معه غَزَواتٌ بحرية، ومناقلات[١] ظاهرة وسِرِّية، ولم نخرج من مصر إلى أن وصلتنا رُسله في جمعةٍ واحدة نَوْبتين، بكتابين، كلّ واحدٍ منهما يظهر فيه خفض الجَنَاح، وإلقاء السِّلاح، والانتقال من معاداة إلى مُهاداة، ومن مفاضحةٍ إلى مناصحة، حتى إنه أنذرَ بصاحب صِقِلِّية وأساطيله التي تردَّد ذِكرُها، وعساكره التي لم يخفَ أمرُها.

ومن هؤلاء الكُفَّار هذا صاحبُ صِقِلِّية، كان حين علم بأن صاحب الشَّام وصاحب قُسْطَنْطينية قد اجتمعا في نوبة دِمْياط فغُلبا وقُسرا، وهُزما وكُسرا، أراد أن يُظهر قوَّته المستقلَّة، فعمَّر أسطولاً استوعب فيه ماله

(١) في (م): ومناولات.

وزمانه، فله الآن خمس سنين يكثرُ عِدَّته، وينتخب عُدَّته، إلى أن وصل منها في السنة الخالية إلى الإسكندرية أمر رائع، وخَطْبٌ هائل، ما أثقل ظهر البحر مِثْلُ حمله، ولا ملأ صدره مثل خيله ورَجْله، وما هو إلا إقليم بل أقاليم نَقَلَه، وجيش ما احتفل ملك قط بنظيره لولا أن الله خذله.

ومن هؤلاء الجيوش البنادقة، والبياشنة، والجنوية[1] كلّ هؤلاء تارةً يكونون[2] غُزاةً لا تُطاق ضراوة ضَرِّهم، ولا تُطفأ شرارة شَرِّهم، وتارةً يكونون[3] سُفّاراً يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة، وتقصرُ عنهم يدُ الأحكام المرهوبة، وما منهم إلا من هو الآن يجلب إلى بلدنا آلة قتاله وجهاده، ويتقرَّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وتلاده، وكلهم قد قُرِّرت معهم المواصلة، وانتظمت معهم المُسالمة، على ما نريد ويكرهون، وعلى ما نؤثرُ وَهُمْ لا يؤثرون.

ولما قضى الله سبحانه بالوفاة النورِيَّة، وكنا في تلك السنة على نِيَّة الغَزَاة، والعساكر قد تجهَّزت، والمضارب قد برّزت، ونزل الفرنج بانياس*، وأشرفوا على احتيازها، ورأوها فُرْصةً مدُّوا يَدَ انتهازها، استصرخ بنا صاحبها، فسرنا مراحل اتصل بالعدوِّ أمرها، وعوجل بالهُدْنة الدمشقِيَّة التي لولا مسيرناً ما انتظم حكمها.

ثم عدنا إلى البلاد، وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها، وأن كل قلعةٍ قد حصل

---

(١) البنادقة: أهل مدينة البندقية، والبياشنة: من مدينة بيزا، والجنوية أهل جنوة، وكلها من المدن الإيطالية التي اشتهرت بنشاطها التجاري في تلك العصور.

(٢) في الأصل: تكون، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: يكونوا، والمثبت من (ل) و (م).

فيها صاحب، وكل جانب قد طمح إليه طالب، والفرنج قد بنوا قلاعاً يتحيَّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشَّامية، وأمراء الدولة النُّورية قد سُجن كبارُهم، وعُوقبوا وصودروا، والمماليك الأغمار الذين خُلقوا للأطراف لا للصُّدور، وجُعلوا للقيام لا للقعود في المجلس المحضور، قد مدُّوا الأيدي والأعين والسيوف، وساءت سيرتُهم في الأمر بالمنكر والنَّهي عن المعروف، وكل واحدٍ يتخذ عند الفرنج يداً، ويجعلهم لظهره سنداً. وعلمنا أن البيت المقدَّس إن لم تتيسَّر الأسبابُ لفتحه، وأمرَ الكُفر إنْ لم يُجرد العزم في قَلْعه، وإلا نبتت عروقه، واتَّسعت على أهل الدين خُروقه، وكانت الحُجَّة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمة. وإنّا لا نتمكن بمصر منه مع بُعْد المسافة، وانقطاع العمارة، وكلال الدَّواب التي بها على الجهاد القُوَّة، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية، والمنفعة جامعة، واليد قادرة، والبلاد قريبة، والغزوة ممكنة، والميرة متسعة، والخيل مستريحة، والعساكر كثيرة الجموع، والأوقات مساعدة. وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتَلَّة، وأمورٍ مختَلَّة، وأراء فاسدة، وأمراءٍ متحاسدة، وأطماع غالبة، وعقول غائبة، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه، فإنَّا به أَوْلى من قومٍ يأكلون الدُّنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء في خدمته، وهم عاملون بظلمه.

والمراد الآن هو كل ما يقوي الدولة، ويؤكد الدعوة، ويجمع الأمة، ويحفظ الألفة، ويضمن الرأفة، ويفتح بقية البلاد(١)، وأن يطبَّق بالاسم العباسي كل ما تطبقه العِهاد(٢)، وهو تقليد جامع بمصر، واليمن، والمغرب، والشَّام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله

---

(١) في هامش الأصل: بلغ مقابلة.

(٢) في الأصل: العباد، والمثبت من (ل) و (م).

تعالى للدولة العَبَّاسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا، ولمن نقيمه من أخٍ أو ولد من بعدنا، تقليداً يضمن للنعمة تخليداً، وللدعوة تجديداً، مع ما ينعم به من السّمات التي فيها الملك. وبالجملة فالشام لا تنتظم أموره بمن فيه، والبيت المقدَّس ليس له قِرْن يقوم به ويكفيه، والفرنج فهم يعرفون منا خصماً لا يَمَلُّ الشر حتى يملوا، وقِرْناً لا يزال محرم السيف حتى يحلوا، وإذا شَدَّ رأينا حُسْن الرأي ضربنا بسيفٍ يقطع في غمده، وبلغنا المنى بمشيئة الله تعالى ويَدُ كلّ مؤمن تحت بُرْده، واستنقذنا أسيراً من المسجد الذي أسرى الله إليه بعبده.

ومن كتاب آخر فاضلي عن السُلْطان إلى الديوان في تعداد ماله من الأيادي، قال: والذي أجراه الله [تعالى](١) على يد المملوك من الممالك التي دَوَّخها، وسُنن الضلال التي نسخها، وعقود الإلحاد التي فسخها، ومنابر الباطل التي رَحَضَها، وحجج الزَّندقة التي دحضها. فلله عليه المِنَّة فيه إذْ أهَّله لشرف مشهده، وما فعله إلا لوجهه، ويدُ الله كانت عون يده، وإلا فقد مضت الليالي(٢) والأيام على تلك الأمور وما تحرَّكت للفُلْك(٣) في قلعها نابضة، وغبرت الأحوال على تلك البدعة وما ثارت لأفراسها رابضة.
٢٤٤/ فشكر يد الله تعالى فيما أجراه على يده منها، أن يجتهد في أخرى مثلها في الكُفَّار، وقد عاد الإسلام إلى وطنه، وصوَّحت من الكُفْر خضراء دِمَنِهِ.

ومن كتاب آخر للفاضل يذكر فيه إعادة صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العَبَّاسية يقول فيه: حتى أتى الدُّنيا ابن بَجْدتها، فقضى من الأمر

(١) ما بين حاصرتين من (م).
(٢) في (ل): مضت تلك الليالي.
(٣) في الأصل: ما تحركت الفلك، والمثبت من (ل) و (م).

ما قضى، وأسخط مَنْ لله في سُخطه رضا، وجعل وجه لابسي[1] السَّواد مُبيضاً، فأدرك لهم بثأرٍ نامت عنه الهمم، ودوَّخت عليه الأمم، وشفى الصُّدور، وجاء بالحق إلى من غَرَّه بالله الغَرور، واستبضع إلى الله تعالى تجارةً لن تبور.

ومن كتابٍ آخر: قد بورك للخادم في الطَّاعة التي لبس الأولياء شعارها، وأمضى في الأعداء شِفارها، وجمع عليها الدين وكان أدياناً، واستقامت بها القلوب على صِبْغة التكلُّف[2] وكانت ألواناً.

ومن كتابٍ آخر: لم يكن سببُ خروج المملوك من بيته إلا وعدٌ كان انعقد بينه وبين نور الدين رحمه الله تعالى في أن يتجاذبا طرفي الغزاة من مصر والشَّام؛ المملوك بعسكري بَرِّه وبحره، ونور الدين من جانب سهل الشَّام وَوَعْره. فلما قضى الله بالمحتوم على أحدهما، وحدثت بعد الأمور أمور، اشتهرت للمسلمين عورات وضاعت ثغور، وتحكَّمت الآراء الفاسدة، وفُورقت المحاجُّ القاصدة، وصارت الباطِنية بطانةً من دون المؤمنين، والكُفَّار محمولةً إليها جِزَى المسلمين، والأمراء الذين كانوا للإسلام قواعد، وكانت سيوفُهم للنَّصْر موارد، يشكون ضيق حلقات الإسار، وتَطَرُّقَ الكفار بالبناء في الحدود الإسلامية، ولا خفاء أنَّ الفرنج بعد حلولنا بهذه الخطة قاموا وقعدوا، واستنجدوا علينا أنصار النصرانية في الأقطار، وسَيَّروا الصَّليب ومن كُسى مذابحهم بقمامة، وهدَّدوا طاغية كفرهم بأشراط القيامة، ونفَّذوا البطارقَة والقِسِّيسين، برسائل صُوَرٍ من يصورونه ممن يسمُّونهم[3]

---

(١) في (م): لابس. ولابسو السواد: إشارة إلى العباسيين الذين اتخذوا السواد شعاراً لهم.

(٢) في (م): التكليف.

(٣) في الأصل: يسومونهم، والمثبت من (ل) و (م).

القِدِّيسين، وقالوا: إن الغفلة إن وقعت أوقعت فيما لا يُستدرك فارِطُه. وإن كلاً من صاحب قُسْطنطينية، وصاحب صِقِلِّية، وملك الألمان، وملوك ما وراء البحر، وأصحاب الجزائر، كالبندقية، والبيشانية، والجَنوية[1]، وغيرهم، قد تأهبوا بالعمائر البحرية، والأساطيل القوية، والإسلام يا أمير المؤمنين أعزُّ ناصراً[2]، لا سيما وهم ينصرون باطلاً وهو ينصر حقاً، وهو يعبد خالقاً وهم يعبدون خَلْقاً.

فصـــل

قال العماد: وكنت بالموصل فَسُئِلْتُ نَظْمَ مرثيةٍ في نور الدين، فنظمتُ بعد عودي إلى دمشق في رجب:

الـدِّيـن فـي ظُلَـمٍ لغيبـة نـورِهِ ... والـدَّهْـرُ فـي غُمـم لِفَقْـدِ أميـرِه
فلينـدُبِ الإسـلامُ حـامـيَ أهلـه ... والشـامُ حـافـظَ مُلْكِـهِ وثُغُـورِهِ
مـا أعظـم المِقْـدَار فـي أخطـاره ... إذْ كـان هـذا الخَطْـبُ فـي مَقْـدُورِه
مـا أكثـرَ المتـأسِّفيـن لفقـدِ مَـنْ ... قَـرَّتْ نـواظِـرُهُـمْ بِفَقْـدِ نظيـرِه
مـا أغـوصَ الإنسـانَ فـي نسيـانـه ... أوَ مـا كفـاه المـوتُ فـي تـذكيـرِه
مَـن للمسـاجـدِ والمـدارس بـانيـاً ... لله طَـوْعـاً عـن خُلُـوصِ ضَمِيْـرِهِ
مَـنْ يَنْصُـرُ الإسـلامَ فـي غَـزَواتـه ... فلقـد أُصيـبَ بُـركنـه وظَهِيْـرِهِ
مَـنْ للفـرنـج ومـن لأَسْـرِ ملـوكهـا ... مَـنْ للهُـدى يبغـي فَكَـاك أسيـرِه
مـن للخُطُـوبِ مُـذلِّـلاً لجمـاحهـا ... مَـنْ للـزَّمـانِ مُسَهِّـلاً لـوعُـوره

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٦٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل و (ل): وللإسلام بأمير المؤمنين أعز ناصر، والمثبت من (م).

من كاشِفٌ للمُعْضِلاتِ برأيه — من مُشْرِقٌ في الدَّاجيات[1] بنوره
منْ للكريم ومن لنعش عِشارِهِ — منْ لليتيم ومن لِجبْر كسيره
من للبلادِ ومن لنصر جيوشِها — من للجهاد ومن لحِفْظِ أُموره
مَنْ للفُتوحِ محاولاً أبكارها — برَواحِه في غَزْوه[2] وَبُكُورِهِ
مَنْ للعُلا وعُهودها مَنْ للنَّدَى — ووفوده مَنْ للْحِجا ووفُوره
ما كنتُ أَحْسبُ نورَ دينِ محمدٍ — يخبو وليْلُ الشِّرْكِ في دَيْجوره
أَعْزِزْ عليَّ بليثِ غابٍ للهُدَى — يخلو الشَّرى من زوره وزئيرِه
أَعْزِزْ عليَّ بأنْ أراه مُغيّباً — عنْ مَحْفِلٍ متشرِّفٍ بحضوره
لهفي على تلك الأنامل إنَّها — مُذْ غُيِّبَتْ غاضَ النَّدَى ببحورِه
ولقَدْ أتى مَنْ كنتَ تُجري رسمه — فَضَعِ العلامة* منك في منشوره
ولَقَدْ أتى منْ كنتَ تكشفُ كُرْبَهُ — فارفع ظُلامَتَه بنصْر عشيره ١/٢٤٥
ولَقَدْ أتى مَنْ كنتَ تُؤمن سِرْبَهُ — وقِّع له بالأمن مِنْ مَحْذُوره
ولَقَدْ أتى منْ كنتَ تُؤثر قُرْبَه — فأَدِمْ له التَّقْرِيْبَ في تقريره
والجيش قد ركب الغَدَاة لعَرْضِه — فاركبْ لتُبْصِرَه أوَانَ عبوره
أنت الَّذي أحييْتَ شَرْعَ محمدٍ — وقضيتَ بعد وفاته بنُشوره
كم قد أقمتَ من الشَّريعة مَعْلماً — هو مُنْذ غبتَ مُعَرَّضٌ لِدُثوره
كم قد أمرتَ بحفر خندقِ مَعْقِلٍ — حتى سَكَنْتَ اللَّحْدَ في محفوره
كم قيصرٍ للرُّوم رُمْتَ بقسره — إرْواءَ بيضِ الهند من تاموره[3]
أُوتيتَ فتح حُصُونه ومَلَكْتَ عُقْـ — ـرَ بلاده وسبيْتَ أهلَ قُصُوره

---

(١) في (ل): الداجنات.

(٢) في (م): غدوه.

(٣) التامور: النفس ومهجتها. انظر «اللسان» (تمر).

أَزَهِـدْتَ فـي دار الفَنـاء وأهلهـا ... ورَغبـت فـي الخُلْـدِ المقيم وحُـوره
أوَمَـا وعـدْتَ القُـدْسَ أنـك مُنْجـزٌ ... ميعـادَهُ فـي فَتْحـه وظهـوره
فمتى تجيرُ القُدْسَ مِنْ دَنس العِدَى ... وتقـدِّسُ الـرَّحمْـنَ فـي تطهيـره
يـا حـاملـيـنَ سـريـره مهـلاً فمـنْ ... عَجَـبٍ نهـوضُكـمُ بحَمْـل ثبيـره[1]
يـا عـابـريـنَ بنَعشـه أنَشَقْتُـمُ ... مِـنْ صـالـح الأعمـالِ نَشْـرَ عَبيـره
نـزلـتْ مـلائكـةُ السَّمـاء لِـدَفْنـهِ ... مستجمعيـن علـى شَفيْـرِ حَفيْـرِهِ
ومِـنَ الجفـاء لـه مُقـامـي بعـده ... هـلاّ وفيـتُ وسـرتُ عنـد مسيـره
حَيَّـاك مُعْتَـلُّ الصَّبـا بنسيمـه ... وسقَـاك مُنْهَـلُّ الحيـا بـدُرُورُه
ولبسْـتَ رضـوان المهيمـن سـاحِبـاً ... أذيـالَ سُنْـدس خَـزِّه وحَـريـره
وسكنْـتَ علِّيِّـن فـي فِـرْدَوْسِـهِ ... حِلْـفَ المَسَـرَّة ظـافـراً بـأُجـوره

قال العماد: وجاء نَجَّابٌ إلى المَوْصِل، وذكر أنه فارق صلاح الدين بقرب دمشق بالكُسوة* وهو الآن يستكمل من ملك دمشق الحظوة. فهاجني الطَّرَب لقصده، لسابق معرفته وقديم وُدِّه، فقدمت دمشق على طريق البرية، والسُّلْطان على حلب.

وكان العماد في عقابيل [ألم][2]، فلمّا شُفي وعاد السُّلْطان إلى حمص قصده فيها وقد تَسلَّم قلعتها في شعبان، في الحادي والعشرين منه[3].

قال: وكنتُ نظمتُ قصيدةً في الشَّوْق إلى دمشق والتأسُّف عليها، ثم جعلت مَدْحَ السُّلْطان مخلصها، وهي طويلة، أولها[4]:

---

(١) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرمة. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٧٣.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٤.
(٤) سلفت منها ثلاثة أبيات ص ٣٥٢ من هذا الجزء.

أجيرانَ جَيْرونَ* مالي مُجيرُ ... سوى عَطفِكُمْ فاعدِلُوا أوْ فَجُوروا
ومالي سوى طَيْفِكُمْ زائرٌ(١) ... فلا تمنعوه إذا لمْ تزوروا
يَعِزُّ عليَّ بأنَّ الفؤادَ ... لديْكُمْ أسيرٌ وعنكم أَسِيرُ
وما كنتُ أعلم أنّي أعيـ ... ـشُ بعد الأَحِبَّةِ إني صَبُورُ
وَفَتْ أَدْمُعي غير أن الكَرَى ... وقلبي وصبريَ كلٌّ غَدُورُ
إلى ناس بَانَاس* لي صَبْوَةٌ ... لها الوجدُ داعٍ وذكرى مثيرُ
يزيد اشتياقي وينْمُو كما ... يزيدُ يزيدٌ* وثَوْرا* يثورُ
ومن بَرَدى* بَرْدُ قلبي المشوق ... فها أنا من حَرِّه مستَجيرُ
وبالمَرْجِ* مَرْجُوُّ عَيْشي الذي ... على ذِكْرِهِ العَذْبِ عَيْشي مريرُ
فَقَدْتُكُمُ ففَقَدْتُ الحياة ... ويومَ اللِّقاء يكونُ النُّشورُ
تطاولْ لسؤليَ عند القُصَيْر* ... فعن نَيْلِهِ اليومَ باعي قَصِيْرُ
وكن لي بريداً بباب البريد* ... فأنتَ بأخبارِ شوقي خبير
متى تجد الرِّيَّ بالقريتَين* ... خَوامِسُ أَثَّرَ فيها الهجيرُ ٢٤٦/١
ونحو الجُلَيْجِل* أُزْجي المَطِيَّ ... لقد جَلَّ هذا المَرَامُ الخطيرُ
تُراني أُنيخ بأدنى ضُميرٍ* ... مطايا بَرَاها الوَجَا والضُّمورُ(٢)
وعند القُطَيْفَة* المشتهاة ... قُطوفٌ بها للأماني سُفُورُ
ومنها بُكوريَ نحو القُصَير* ... ومُنْيَةُ عُمْريَ ذاك البُكُورُ
ويا طِيبَ بُشْرايَ من جِلَّقٍ ... إذا جاءني بالنَّجاحِ البشيرُ
ويستبشرُ الأصدقاءُ الكرامُ ... هنالك بي وتُوفَّى النُّذورُ
تُرَى بالسَّلامة يوماً يكون ... ببابِ السَّلامة* مني عُبورُ

---

(١) في الأصل: زائراً، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في (م): الضمير، وفي هامشها: الضمور، وهي المثبتة في الأصل و (ل).

وأنَّ جـوازي بـبـاب الصَّغيـر * لَعَمْـري مـن العُمْـر حـظٌّ كبيـرُ
ومـا جَنَّـةُ الخُلْـدِ إلا دمشـقُ وفي القَلْبِ شوقٌ[1] إليها سعيرُ
ميـادينهـا الخُضـرُ فِيْحُ الـرِّحـاب وسَلْسَـالهـا العَـذْبُ صـافٍ نميـرُ
وجـامعهـا الـرَّحْـبُ والقُبَّـة الْـ ـمُنيفـةُ والفَلَـكُ المستـديـرُ
وفـي قُبَّـة النَّسـرِ * لـي سـادَةٌ بهـمْ للمكـارم أُفْـقٌ مُنِيْـرُ
وبـابُ الفَـراديـس * فِـرْدَوْسُهـا وسُكَّـانهـا أحسـنُ النَّـاس حـورُ
والارزة فـالسَّهْـمُ * فـالنَّيْـرَبـانِ * فجنَّـاتُ مِـزَّتهـا * فـالكُفُـورُ
كـأنَّ الجـواسِـقَ مـأهـولـةً بـروجٌ تَطلَّـعُ منهـا البُـدُورُ
بنيـربهـا تتَبَـرَّا[2] الهمـوم بـربـوتهـا * يتـربّـى السُّـرورُ
ومـا غَـرَّ فـي الـرَّبـوة العـاشقيـ ـنَ بـالحُسْنِ إلاّ الـرَّبيبُ الغَـريـرُ
وعنـد المغـارة * يَـوْمَ الخميـس أغـارَ علـى القَلْـبِ منـي مُغِيْـرُ
وعنـد المُنَيْبِـع * عَيْـنُ الحيـاة مَـدَى الـدَّهْـرِ نـابعـةٌ مـا تغُـورُ
بجسر ابن شَوَّاش[3] تَمَّ السُّكون لنفسـي بنفسـيَ تلـك الجسـورُ
وما[4] أَنْسَ لا أَنْـسَ أُنْـسَ العبـور على جسر جِسْرين * إني جَسُورُ
وكـمْ بِـتُّ أَلْهـو بِقُـرب الحبيـ ـب في بيت لِهْيا * ونام الغَيُورُ
فـأيـنَ اغتبـاطـيَ بـالغُـوطتيـن وتلـك الليـالـي وتلـك العُصُـورُ
وأشجـار سَطْـرا * بَـدَتْ كـالسُّطُـو رِ نَمَّقَهُـنَّ البليـغُ البصيـرُ

---

(١) في (م): شوقاً.

(٢) في الأصل و(ل): تبير، وفي (م): تبر، والمثبت من «الخريدة».

(٣) جسر ابن شواش: أحد متنزهات دمشق. «معجم البلدان»: ٣/ ٣٧٠ قلت: لعله ينسب إلى الحسن بن علي بن الحسن بن شواش، كان يتولى الإشراف على وقوف جامع دمشق، أصله من أرتاح، توفي سنة (٤٣٩ هـ). انظر «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» لابن منظور: ٦/ ٣٥٣.

(٤) في (م): ومن.

وأينَ تأمَّلْتَ فُلكٌ يدورُ ... وعينٌ تفُور وبحرٌ يمورُ
وأين نَظَرْتَ نسيمٌ يرِقُّ ... وزهرٌ يروقُ وروضٌ نَضِيْرُ
إلامَ القساوة يا قاسِيون* ... وبين السَّنا يتجلَّى سَنيرُ*
ومُنْذُ ثَوى نورُ دينِ الإلـ ... ـه لم يبقَ للدِّين والشَّام نُورُ
وللنَّاس بالملكِ النَّاصِرِ الصَّـ (م) ... ـلاحِ صلاحٌ ونَصْرٌ[١] وخيرُ
هو الشَّمْسُ أفلاكُه في البلادِ ... ومَطْلِعُهُ سَرْجُهُ والسَّريرُ
إذا ما سطا أو حبا واحتبى ... فما اللَّيثُ مَنْ حاتمٌ ماثبيرُ
بيوسُف مِصْرٍ وأيامِهِ ... تَقَرُّ العيونُ وتَشْفى الصُّدورُ
ملكتَ فأسْجِحْ فما للبلادِ ... سواكَ مجيرٌ ومولًى نَصِيْرُ
وفي مِعْصَمِ المُلك للعزِّ منك ... سِوَارٌ ومنك على الدِّين سُورُ
لكَ اللَّهُ في كلِّ ما تبتغيه ... بحقٍّ ظهيرٌ ونِعْمَ الظَّهيرُ
أمَا المفسدونَ بمصر عَصَوْكَ ... وهذي ديارهُمُ اليومَ قُورُ[٢]
أما الأدعياءُ بها إذْ نَشَطْتَ ... لإبعادهم زال منك الفُتُورُ ٤٧/١
ويوم الفرنج إذا ما لقوك ... عَبُوسٌ برغمهمُ قَمْطَرِيْرُ
نهوضاً إلى القُدْس يشفي الغليل ... بفتح الفُتوحِ وماذا عسيرُ
سَلِ الله تسهيلَ صَعْبِ الخُطُو ... ب فهو على كلِّ شيءٍ قديرُ
إليك هَجَرْتُ ملوكَ الزمان ... فما لكَ والله فيهم نظيرُ
وفجرك فيه القِرى والقُرآن ... جميعاً وفَجْرُ الجميعِ الفُجُورُ
وأنتَ تُريقُ دماءَ الفِرَنْجِ ... وعندَهُمُ لا تُراقُ الخمورُ[٣]

---

(١) في (م): ونصب.
(٢) في هامش الأصل و (ل): «حاشية للمؤلف، القور: أي آكام من الخراب».
(٣) انظر مختارات من القصيدة مع اختلاف في بعض الألفاظ في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٩ ـ ٢٩.

فصــــل
في فتحِ بَعْلَبَكّ

قال العماد: ولما فرغ السُّلْطان من حمص وحَصَّنها سار إلى بعلبك، فتسلَّمها في رابع شهر رمضان.

قال ابن أبي طيّ: وكان بها خادم يقال له يُمْن، فلما شاهد كثرة عساكر السُّلْطان اضطرب في أمره وراسل مَنْ بحلب على جناح طائر، فلم يرجع إليه منهم خبر؛ فطلب الأمان، وسلَّم بعلبك إلى السُّلْطان.

قال العماد: وهنأته بأبْياتٍ، منها:

بفُتُوح عَصْرِك يَفْخَرُ الإسلامُ ... وبنُور نَصْرِكَ تُشْرِقُ الأيَّامُ
وبفتح قلعة بَعْلَبَكَّ تهذَّبَتْ ... هذي الممالكُ واستقام الشَّامُ
ويكى الحَسُودُ دماً وثَغْرُ الثَّغْرِ من ... فَرَحٍ بنصْرك للهُدَى بَسَّامُ
فتحٌ تَسَنَّى في الصِّيام كأننا ... شكراً لما مَنَحَ الإلٰه صِيَامُ
من ذا رأى في الصَّوْمِ عيدَ سعادةٍ ... حَلَّت لنا والفطْرُ فيه حَرَامُ
أسدى صلاح الدِّين والدُّنيا يداً ... بنَوالها سُوقُ الرَّجاء تُقَامُ
فتملَّ فَتْحك واقصدِ الفتح[1] الذي ... بحصوله لفُتُوحك الإتمامُ
دُمْ للعُلا حتى يدومَ نظامُها ... واسلَمْ يَعِزُّ بنصرِك الإسلامُ[2]

قال: ولزمتُ خدمته أرحل برحيله وأنزل بنزوله. وكنتُ ليلةً عنده وهو يذكر جماعةً من شعراء الزَّمان، وعنده ديوان الأمير مؤيد الدولة أُسامة بن مُرْشد بن سديد الملك علي بن مُنْقذ، وهو به مشغوف، وخاطره على تأمله

(١) في (م): وافتح القدس.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٥، و «مفرج الكروب»: ٢/ ٣٠.

موقوف، وإلى استحسانه مصروف. وقد استحسن قصيدةً له طائيَّة[1]، لو عاش الطائيَّان لأقرَّا بفضلها، وإن خواطر المبتكرين لتقصر عن مثلها. على أنَّ الشّعراء المحدثين ما منهم إلاّ من نظم على رويّها ووزنها، واستمد خِصْب خاطره من مُزنها، فمنهم المَعَرِّي، وابن أبي حُصَيْنَة[2]، والأرَّجاني[3].

(١) انظر قصيدة أسامة في «ديوانه»: ٧٨ ــ ٨١، ١٧٤ ــ ١٧٥، ٢١١ ــ ٢١٢.

(٢) هو الحسن بن عبد الله بن أحمد، السلمي المعري، أبو الفتح، المشهور بابن أبي حصينة، ولد في معرَّة النعمان سنة (٣٩٠ هـ)، وانقطع إلى دولة بني مرداس في حلب، فامتدح أمراءها، أوفد رسولاً إلى مصر للخليفة المستنصر سنة (٤٣٧ هـ) وسنة (٤٥٠ هـ)، ومدحه سنة (٤٥١ هـ) بقصيدة، فمنحه لقب الإمارة، توفي سنة (٤٥٧ هـ) على الأرجح. نشر قسم من ديوانه مع المجلد الأول من شرحه لأبي العلاء ضمن مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة (١٩٥٦ م) بتحقيق محمد أسعد طلس. ضبط الزركلي في «الأعلام»: ٢/ ١٩٧ حصينة كسفينة كما رآه مشكولاً في نسخة قديمة من ديوانه.

وقصيدته الطائية في «ديوانه»: ١/ ١٠ ــ ١٣، ومطلعها:

لأية حال حكّموا فيك فاشتطُّوا ... وما ذاك إلا حين عمَّمك الوَخْطُ

وهي في مدح الأمير ثمال بن صالح بن مرداس السلمي، أنشده إياها بالرافقة (قريبة من الرقة) سنة (٤٣٣ هـ). انظر ترجمته في «معجم الأدباء»: ١٠/ ٩٠ ــ ١١٨، وفيه الحسين بن عبد الله. و «تاريخ ابن الوردي»: ١/ ٥٥٠ ــ ٥٥١، و «فوات الوفيات»: ١/ ٣٣٢ ــ ٣٣٤، و «مجلة مجمع اللغة العربية» بدمشق: مج ٢٤/ ٥٢٦ ــ ٥٣٦.

(٣) هو أبو بكر، أحمد بن محمد بن الحسين، الملقب ناصح الدين، مولده سنه (٤٦٠ هـ)، وكان قاضي تستر وعسكر مُكرم، وله شعر رائق في نهاية الحسن، وهو عربي المحتد، توفي سنة (٥٤٤ هـ) بتستر. وأرجان ــ بتخفيف الراء وتشديدها ــ هي من كور الأهواز من بلاد خوزستان. طبع ديوانه في بيروت أوائل هذا القرن، ثم حققه د. محمد قاسم مصطفى، ونشرته وزارة الثقافة والإعلام في الجمهورية العراقية سنة (١٩٨١) في ثلاثة أجزاء، انظر ترجمته في «الأنساب»: ١/ ١٧٤، و «معجم البلدان»: ١/ ١٤٤، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٥١ ــ ١٥٥، و «العبر» للذهبي: ٤/ ١٢١، و «الوافي بالوفيات»: ٧/ ٣٧٣ ــ ٣٧٨، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ٥٢ ــ ٥٧، وقصيدته التي أشار إليها العماد، مطلعها: =

والصَّالح بن رُزِّيك[1]. وقد أوردت جميعها في كتاب «الخريدة»، ومطلع قصيدة المعرِّي:

لمن جِيرةٌ سِيمُوا النَّوالَ فلم يُنْطُوا[2]

فنظمتُ في السُّلْطان ونحن على بعلبك بتاريخ انسلاخ شعبان قصيدة طائية، منها:

عفا الله عنكم مالكم أيها الرَّهْطُ قَسَطْتُمْ ومن قَلْبِ المحبِّ لكم قِسْطُ
شَرَطْتُمْ لنا حِفْظَ الودَادِ وخُنْتُمُ حَنَانيْكُمُ ما هكذا الوُدُّ والشَّرْطُ
جَعَلْتُمْ فؤادَ المُسْتهام بكم لكم محطّاً فعنه ثِقْلَ هَمِّكُمُ حُطُّوا
مَلَكْتُمْ فأَنْكَرْتُمْ قديمَ مَوَدَّتي كأَنْ لم يكن في البينِ معرفةٌ قَطُّ
فَدَتْ مهجتي من لا يُذَمُّ لمهجتي إذا حاكمَتْهُ وهو في الحُكْم مُشْتَطُّ
وما كنتُ أدري قبلَ سَطْوَة طَرْفِهِ بأَنَّ ضعيفاً فاتراً مِثْلَه يَسْطُو
وأهيفَ للإِشفاقِ من ضَعْفِ خَصْرِهِ يحلُّ نطاقاً للقلوب به رَبْطُ
يلازمُ قَلبي في الهوى القَبْضُ مثلما يلازمُ كفَّ النَّاصِرِ الملكِ البَسْطُ
مليكٌ حوى الملكَ العقيمَ بضبطه كريمٌ وما للمالِ في يَدِهِ ضَبْطُ
إذا لُثِمَتْ أيدي الملوكِ فعندَه مدَى الدَّهرِ إجلالاً له تُلْثَمُ البُسْطُ

= سرى ولثام الصبح قد كاد ينحط خيال تسدَّى القاع والحي قد شطوا

وهي في «ديوانه»: ٣/ ٨٥١ ــ ٨٥٨.

(١) سلفت أبيات منها ص ٣٧٣ ــ ٣٧٤ من الجزء الأول.

(٢) وعجزه: يُظَلِّلُهُمْ ما ظلَّ يُنْبِتُهُ الخطُّ.

وينطو: أي يعطو، يقال: أنطيته بمعنى أعطيته. انظر القصيدة وشرحها في «شروح سقط الزند» القسم الرابع: ١٦٤٦ ــ ١٦٩٦.

عَنا لك طَوْعاً نيلُ مصرٍ ودِجْلَةُ الـ ـعراقِ ودانَ العُرْبُ والعُجْمُ والقِبْطُ
وللنِّيـلِ شـطٌّ ينتهـي سَيْبُـه بـه ونَيْلُـكَ للـرَّاجيـن نِيـلٌ ولا شَـطُّ ٤٨/١
عـدوُّك مثـلُ الشَّمْـعِ فـي نـارِ حِقْـدِهِ لـه عُنُـقٌ إصـلاحُ فـاسِـدِه القَـطُّ

وهي ثمانية وثمانون بيتاً[١].

ولسعادة الأعمى قصيدة طائيّة في السُّلْطان سيأتي ذِكْرُها[٢].

قال العماد: ولما وصلتُ إلى السُّلْطان، ورغبت منه في الإِحسان، وجدته لأمري مُغْفلاً، ولشُغلي مهملاً، ثم عرفت أن حُسَّادي قالوا له: متى أعَذْتَ ديوان الكتابة إلى العماد، وهو لا شك بمحل الوثوق والاعتماد، وهذا منصب الأجل الفاضل، وهو عنده[٣] في أجل المنازل، ربما ضاق صدره، وتشعَّث سِرُّه. فلما عرفتُ هذا المعنى، لجأت إلى الفضل الفاضلي لأنه به يُعْنى، فقام بأمري، ونوَّه بقدري، وأراح سِرِّي، وشَدَّ أَزْري.

فصـــل

فيما جرى للمَوَاصلة والحلبيين مع السُّلطان في هذه السنة

قال ابنُ شدَّاد: ولما أحسَّ سيف الدين صاحب الموصل بما جرى، علم أنَّ الرجل قد استفحل أمره، وعَظُمَ شأنه، وعَلَت كلمته، وخاف أنه إنْ غفل عنه استحوذ على البلاد، واستقرَّ قدمه في المُلك وتعدَّى الأمر إليه. فجهَّز عسكراً وافراً، وجيشاً عظيماً، وقدَّم عليهم أخاه عز الدين مسعوداً،

(١) أورد منها العماد ثمانية وسبعين بيتاً في «الخريدة» قسم شعراء مصر: ١/ ٢٥ ــ ٣١، وانظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٦.
(٢) انظر ص ٣٩٣ من هذا الجزء.
(٣) في (م): عندك.

وساروا يريدون لقاء السُّلْطان، وضَرْبَ المصافِّ معه، وردَّه عن البلاد. فوصل إلى حلب والسُّلْطان بحمص، وانضمَّ إليهم[1] من كان بحلب من العسكر، وخرجوا في جَمْعٍ عظيم. ولما عرف السُّلْطان بمسيرهم سار حتى وافاهم بقرون حماة* وراسلهُم وراسلُوه، واجتهد أن يُصالحهم[2] فمَا صالحوه، ورأوا أن المصافَّ ربما نالوا به الغرض الأكبر، والمقصود الأوفر، والقضاء يجرُّ إلى أمورٍ وهم بها لا يشعرون، وقام المصاف بين العسكرين، فقضى الله تعالى أن انكسرُوا بين يديه، وأَسَر جماعةً منهم، ومنَّ عليهم وأطلقهم، وذلك عند قرون حماة في تاسع عشر شهر رمضان.

ثم سار عقيب انكسارهم ونزل على حلب، وهي الدفعة الثَّانية، وصالحوه على أن أخذ المعرة*، وكفر طاب*، وبارين*[3].

وقال العماد: لما تسَلَّم السُّلْطان قلعة بعلبك عاد إلى حمص وقد وصل عز الدين مسعود ــ أخو صاحب الموصل ــ إلى حلب نجدة. ولما عرفوا أن السّلطان مشغول بالحصون جاؤوا إلى حماة فحَصَروها، وراسلوا في الصُّلْح. فَقَدِمَ السُّلْطان في خِفٍّ من أصحابه، وجاء كُمُشْتِكِين وابن العَجَمي وغيرهما، وأجابهم السُّلْطان إلى ما طلبوا، وأن يردّ عليهم الحصون، وأن يقنع بدمشق نائباً عن الملك الصَّالح وله خاطباً، وعلى الانتماء إليه مواظباً، وأن يردَّ كلّ ما أخذه من الخزانة، وأن يسلك فيه سبيل الأمانة. فلما رأَوْه مجيباً لكل ما يُلتمس منه وهو في عسكرٍ خفيف قالوا: ما خبره صحيح. فشرعوا في الاشتطاط، وطلبوا الرَّحْبة* وأعمالها، فقال: هي لابن عمي

---

(١) في (ل): إليه، وهو تصحيف.

(٢) في (م): يصالحوه.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٠ ــ ٥١.

ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، وكيف أُلحق به في رضاكم المكروه. فنفَروا وجفلوا، وأصبحوا على الرَّحيل إلى جانب العاصي قريباً من شَيْزَر*، وجمعوا العسكر، وأظهروا أنهم على المصافِّ وعَزْم الانتصاف. فعبَّر السُّلْطان إلى سفح قرون حماة خيامه، وركز على مقابلتهم أعلامه. ووصل[١] العسكر المصري في عشرة من المقدَّمين منهم فرُّخْشاه وأخوه تقي الدين. والتقوا، فهزمهم السُّلْطان، ونزل في منزلتهم[٢].

قال العماد: ومما نظمتُ في هذه الوقعة في مدح ناصر الدين محمد بن شِيركُوه قصيدةً، فقد كان له فيها غَنَاء وبلاء حسن، منها:

ولَقَدْ ألِفتُ نِفارَها وهَوِيْتُها ... إذ ليس يُنكَرُ للظِّباء نِفارُ
يا جارةً للقلب جائرةً دَعِي ... ظُلمي وإلاّ قلتُ جارَ الجارُ
قلبي كَطَرْفِك ما يُفيق إفاقةً ... سكران ما دارت عليه عُقَار
صَبٌّ بصبِّ الدَّمْعِ محترِقُ الحشا ... خَطَرَتْ ببالٍ بلائه الأخطارُ
لم يَخْشَ من خَطَرِ الهوى حتى حَمى ... ذاكَ القَوَامَ شَبِيهُهُ الخَطَّارُ
يَذْري الدُّموع كأنَّهن عوارفٌ ... لابْنِ المملَّك شِيركُوه غِزَارُ
من آل شاذي الشَّائدين بُنَى العُلا ... أركانُهنَّ لَهَاذِمٌ وشِفَارُ
حَسُنَتْ بهم للدَّوْلَةِ الأيامُ والـ ... أعمالُ والأحوالُ والآثارُ
قد حاز مُلْكَ الشَّام يوسفُ الذي ... في مصر تَغْبِطُ عَصْرَه الأَعْصَارُ
نَصَرَ الهُدَى فتوطَّد الإسلامُ في ... أيامِه وتَضَعْضَعَ الكُفَّارُ
لمَّا لقيتَ جُموعَهم منظُومَةً ... صَيَّرْتَ ذاكَ النَّظْمَ وهو نِثارُ
في حالتَيْ جُودٍ وبأسٍ لم يَزَلْ ... للتِّبْرِ والأعداءِ منكَ تَبَارُ

---

(١) في (م): ورحل.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٨٦ ــ ١٨٨.

٢٤٩/٢ تَهَبُ الألوفَ ولا تهابُ ألوفَهم هانَ العدوّ عليك[١] والدِّينارُ
لما جَرَى العاصي هنالك طائعاً بدمائهم فَخَرَتْ به الأنهارُ
وتحطَّمَتْ عند القُرونِ قُرُونُهُمْ بل كَلَّتِ الأنيابُ والأظفارُ
عَبَروا المَعَرَّة* مالكين مَعَرَّةً والعارُ يُملكُ تارةً ويُعَارُ
أوَمَا كفاهم يوم حمص وكفّهم في بَعْلَبَكَّ بمثلها الإنذارُ[٢]

قال: وهنَّأت الملك المُظفَّر تقي الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب بقصيدةٍ، منها:

لا تُفْنِ مِنْ فَرَق الفِراقِ الأَدْمُعَا فهي الشهودُ على الغَرَام المُدَّعَى
واستبقِ صَبْرَكَ ما اسْتَطَعْتَ فإنه عَوْنٌ[٣] لقلبك إن هُما ثبتا معا
قلبٌ أصابَتْهُ العيونُ ولم يَزَلْ من مَسِّها بالهاجساتِ مُرَوَّعا
ما بالُه قد صَدَّ عند صُدُودهم عني ولمَّا ودَّعُوني وَدَّعا
ومن التحيُّرِ[٤] أنني أَبْصَرْتُهُ في ظَعْنهم وسألتُ عنه الأَضْلُعا
أصبحتُ إذ شَيَّعْتُهُمْ لثلاثةٍ صبري وغمضي والفؤاد مشيِّعا

ومنها:

أوَما اتَّقيتم حين رُعْتُم سِرْبَه فيه تقي الدِّين ذاك الأَرْوَعا
عمر بن شاهِنْشاه مَنْ هو عامرٌ أركانَ مُلْكِ الشَّام حين تَضَعْضَعا
خَضَعَ العدوُّ وذلَّ بعد تعزُّزٍ لكمُ وحقٌّ عدوِّكم أنْ يخضَعَا

(١) في (م): لديك.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٠.
(٣) في (م): عوناً.
(٤) في (م): التخير.

مِـنْ معشـرٍ غُـرٍّ يَـرَوْنَ جميـعَ مـا | لـم يبـذُلُـوه فـي السَّمـاح مضيَّعـا
فـي مصـرَ واليمـنِ اجتلينـا[1] منهـمُ | فـي عصـرنـا تبعـا ليـوسـف تُبَّعـا
الحـاويـان بملـك مصـر ومكَّـةٍ | والشَّـامِ واليمـن الحظـايـا الأَرْبعـا
لما عصى الأعداءُ بالعاصي جرى | بـدمـائهـم طَـوْعـاً سُيُـولاً دُفَّعـا

وقال ابنُ أبي طيّ: لما تسلَّم السُّلْطان بَعْلَبَكّ وأزاح عِللها، عاد إلى حمص ونزل بها، فاتصل به ورود[2] عز الدين مسعود ــ أخي سيف الدين صاحب الموصل ــ نجدةً للملك الصَّالح. وكان سببُ وروده أن جماعةَ أمراءِ حلب لما كان السُّلْطان نازلاً على حلب أجمعوا على آراءهم وكاتبوا سيف الدين، وألزموه نجدة ابن عَمِّه، وأخْبَروه أنَّ السلطان متى ملك حلب لم يكن له قصدٌ إلا الموصل. وأرسلوا بذلك أمين الدين هاشماً خطيب حلب، وقُطْب الدين ينَال بن حَسَّان، وغَرْس الدين قليج.

وكان سيف الدين منازلاً لسِنْجار*، وفيها أخوه عماد الدين زَنْكي[3]، وكان عماد الدين قد أظهر الانتماء إلى السلطان، فأنجده السُّلْطان بقطعةٍ من جيشه فكسرهم، ونهبهم عماد الدين بهم وبعسكره.

فلما وصلت رسالةُ الحلبيين إلى سيف الدين صالحَ أخاه عماد الدين، وحشد عسكره، وأنفذ نُخَبهم مع أخيه عز الدين مسعود، فورد حلب بعد رحيل السلطان عنها إلى بعلبك. فاغتنم الحلبيون بُعْدَ السلطان عنهم، فاحتشدوا وخرجوا جميعاً حتى خيَّموا على حماة، وأخذوا في حصارها. واتَّصل بالسُّلْطان ذلك، فرحل من بَعْلَبَكّ إلى حمص، وبلغ عزَّ الدين، فعاد

---

(١) في (م): اختلينا.
(٢) في (ل): وصول.
(٣) انظر ص ١٦٩ ــ ١٧٠ من هذا الجزء.

عن حماة، ونزل قريباً من جباب التركمان إلى جهة العاصي إلى قريب من شَيْزَر*.

وراسل النائب بحماة علي بن أبي الفوارس، يقول له: إنما وَصَلْتُ في إصلاح الحال ووَضْعِ أوزار القتال. وسأله مكاتبة السلطان فيما يجمع الكلمة ويلُمُّ شَعَثَ الفُرْقة. فكتب ابن أبي الفوارس بذلك[1] إلى السُّلْطان، وحَسَّن له الصُّلح، وتلطَّف في ذلك غاية التَّلَطُّف.

وقدم أبو صالح بن العجمي وسعد الدين كُمُشْتِكِين لطلب الصُّلح، فأجابهما السلطان إلى ما أرادا، وتقرَّر الأمر على أنه يردُّ إليهم جميعَ الحصون والبلاد، ويقنع بدمشق وحدَها، ويكون نائباً للملك الصَّالح. فلما عاين سعد الدين إجابة السلطان إلى الصُّلْح، والنُّزول عن جميع الحُصُون التي أخذها: حمص وحماة وبعلبك، طمع في جانب السلطان، وتجاوز الحدَّ في الاقتراح، وطلب الرَّحْبة* وأعمالها. فقال: هي لابن عمي، ولا سبيل إلى أخذها. فقام سعد الدين من بين يديه نافراً، وكان ذلك برأي أبي صالح ابن العجمي لأنه كان معه، فاجتهد السُّلْطان به أن يرجع فلم يفعل، وخرج إلى عز الدين مسعود، وكان بعدُ نازلاً على حماة، وحدَّثه ما دار بينه وبين السلطان، وهوَّن عليه أبو صالح أمرَ السُّلْطان، وأخبره بقِلَّة من معه.

وكان السلطان لما كُوتب في أمر الصُّلْح سار في خِفٍ من أصحابه، ١/٢٥٠ فلما علموا بذلك طمعوا في جانبه، وعَوَّلوا على لقائه، وانتهاز الفرصة في أمره. فكاتب باقي أصحابه واستعدَّ لحربهم، وسار إلى أن نزل على قرون حماة، وأخذ في مدافعة الأيام حتى يَقْدَمَ عليه باقي عسكره. وراسلهم في

(١) في الأصل و (ل): وذلك، والمثبت من (م).

التلطف للأحوال، فلم ينجع فيهم حال. وكانوا في كل يوم يعزمون على لقائه وقتاله، فيبطل عزيمتهم بمراسلةٍ يفتعلها، تسويفاً للأوقات وتقطيعاً للزمان، حتى يقدم عليه عسكره، وكانت هيبته قد ملأت صُدور القوم، ولولا ذلك لكانوا قد ناهزوا الفُرْصة، ونالوا منه الغَرَض.

قال: وفي يوم الأحد تاسع عشر [شهر][1] رمضان التقوا، ولم يكن بعد وَصل السلطان[2] من عسكره أحد. فتجمع أصحاب السلطان كُرْدُوساً* واحداً، وأخذوا يحملون يمنةً ويسرةً، ويدافعون الأوقات رجاء أن يتصل بهم بعض العسكر. وضَرِي عسكر حلب والعسكر المَوْصلي على أصحاب السُّلْطان حين شاهدوا قِلَّتهم واجتماعهم، وكاد[3] أصحاب السلطان يولُّون الأدبار، فوصل تقي الدين عمر عند الحاجة إليه لتمام سعادة السلطان، فإنه لو تأخَّر ساعة انكسر عسكره، فوصل تقي الدين في عسكر مصر وجماعة من الأمراء وهم غير عالمين بأن الحرب قائمة. فلما رأوا الناس في الكَرِّ، والضَّرْب الهَبْر، حملوا جميعاً بعد أن افترقوا في الميمنة والميسرة، فصدموا عسكر المَوْصِل صدمةً ضعضعتهم.

وكان السُّلْطان في هذه المدة قد كاتَبَ جماعةً من عسكرهم واسْتَفسَدهم إليه، وحمل إليهم الأموال، وهذا هو الذي بَطَّأ بهم إلى أن وصلت عساكره، وإلا لو كان عسكر حلب نصح لم يقدر السُّلْطان على الثُّبوت ساعة. فلما اشتدَّ القتال لم تنصح الجماعة التي كاتبها السلطان بل كانوا مثبطين مخوفين لمن قَرُب منهم. ثم إنهم بعد ذلك انهزموا، وتبعهم

---

(1) ما بين حاصرتين من (م).
(2) في (ل) و (م): للسلطان.
(3) في الأصل و (ل): وكادوا، والمثبت من (م).

عسكر السلطان، واستباحوا أموالهم وخيامهم، وأمر السُّلْطان أصحابه ألا يُوغلوا في طلبهم، ولا يقتلوا من رأوه منهزماً، ولا يُذَفِّفوا(١) على جريح، ورحل حتى نزل في منزلتهم.

ثم سار من وقته مجدّاً حتى نزل بمرج قرا حصار*، ولم يزل هناك حتى عَيَّد عيد الفطر، فجاءته رُسُل الملك الصَّالح(٢) يسألونه المهادنة، وأن يُقرّر(٣) الملكُ الصَّالح(٢) على ما في يده، وما هو جارٍ تحت حُكْمه من الشَّام الأسفل إلى بلد حماة، فلم يرض بذلك، فجعلوا له مع حماة المعرَّة* وكَفْر طاب*، فرضي بذلك، وحلف على نسخة رأيتُها، وعليها خَطُّه.

قال: وكان في جملة اليمين أنه متى قصد الملك الصَّالحَ عدوٌّ حضر بنفسه وجيوشه ودافع عنه، وألا يغيِّر الدُّعاء له من جميع منابر البلاد التي تحت يد السلطان وولايته وولاية أصحابه، وأن تكون السِّكَّة باسمه.

ولما حلف السلطان والملك الصَّالح وأمراؤه عاد السلطان قاصداً دمشق. فلما وصل إلى حماة وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء ومعهم التشريفات الجليلة والأعلام السُّود، وتوقيعٌ من الدِّيوان بالسَّلْطنة ببلاد مصر والشَّام.

وفي هذه الخِلَع يقول ابن سعدان الحلبي(٤):

(١) ذفف على الجريح: أجهز عليه. انظر «اللسان» (ذفف).
(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في (ل): يقر.
(٤) هو عيسى بن سعدان الحلبي، لم تذكره كتب التراجم، وأورد له ياقوت بعض أبياته في «معجم البلدان» (جبل السماق، باب الجنان، فامية، ليلون، دابق، الدارين). وانظر «إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء» الطباخ: ٣/ ٤٥٤، وص ٩٤، ١٢٧ من الجزء الثالث. وص ٤٦٨ من هذا الجزء.

يا أيها المَلْكُ الغزيرُ فَضْلُه لقد غَدَوْتَ بالعُلا مَليّا
كفى أمير المؤمنين شَرَفاً أنك أصبحتَ له وليّا
طارحك الودَّ على شَحْط النَّوى فكنتَ ذاك الصَّادِقَ الوفيّا
أوْلاكَ من لباسِهِ زخرفةً لم يُوْلِها قبلك آدميّا
ناسبَتِ الرَّوْضَ سناً وبهجةً حتى حَكَتْهُ رَوْنقاً وزِيّا

قال: ورحل السُّلْطان من حماة إلى بعرين*، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني[1]، وكان خرج إلى السُّلْطان لما وَصَل إلى الشَّام، وتطارح عليه وخدمه، وظن أن السلطان يقدمه على عساكره، فلم يلتفت إليه، فترك السلطان وعاد إلى حِصْن بعرين، فأغضب السلطان ذلك، وسار إليه وحاصره حتى تسلم[2] حصنه.

وقال العماد: نزل السُّلْطان قراحصار*، بنيَّة الحصار، فجاءت رسلهم بالانقياد، وأجابوا إلى المراد، وقالوا: اقنعوا بما أخذتموه إلى حماة، ولا تُشْمِتُوا بنا العُدَاة، فاستزدنا[3] عليهم كفر طاب* والمعرَّة*، واستوفينا عليهم الأيمان المستقرَّة، وسألهم في المعتقلين، إخوة مجد الدين، فأجابوا وأفرجوا عنهم، وتَمَّ الصُّلْح، وعَمَّ النُّجْح.

ورحلنا ظاهرين ظافرين، ونزلنا حماة يوم الاثنين ثاني عشر شوال، وبها وصلت إليه رسل الديوان العزيز بالتشريفات، والتقليد بما أراد من الولايات. وأفاضوا على السلطان وأقاربه الخِلَع، وخص ناصر الدين محمد بن شِيركُوه بمزيد تفضيل على أقارب السلطان، وكأنه رعاية لحق والده أسد الدين، رحمه الله تعالى.

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٥١ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: سلم، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل: فاستزدناه، والمثبت من (ل) و (م).

ثم تسلم السلطان حصن بعرين، وكان بيد الأمير فخر الدين مسعود بن الزَّعفراني[1]، وهو من أكابر أمراء نور الدين، وذلك في أواخر شوَّال، وأقطع مدينة حماة خاله[2] وصهره الأمير شهاب الدين محموداً، وأنعم بحمص على ابن عمه ناصر الدين.

قال العماد: وأذكر أنَّا عبرنا نهر العاصي عائدين وقد انكسفت الشمس
١/٢٥١ وادلهمَّ النهار، وغلب على القلوب الاستشعار، وطاحت الأنوار، وخفيت الرُّسوم، وظهرت النجوم؛ وجئنا حمص، ثم بَعْلَبَكَّ، ثم البِقاع، ووصلنا دمشق في ذي القعدة[3].

فصـــل

قال العماد: قد سبق ذِكْرُ ما قرَّره حُسَّادي في خاطر السلطان، وقالوا: شُغله المكاتبة وهي منصب الأجل الفاضل، وهو يستنيب فيه من يراه من الأفاضل، وهذا تَصْرفُه برِفدٍ جزيل، ووجهٍ جميل. والسُّلْطان مع شِدَّة رغبته متوقف، وإلى ظهور وجه النَّجاح في أمري متشوِّف.

وكنت قد أنست مدَّة مقامي بالمعسكر بذي المجد والمفخر، ومورد الكرم والمصدر، الأمير نجم الدين بن مَصَال، وهو ذو فضلٍ وإفضال، وقَبول وإقبال، وله من السُّلْطان ومن الفاضل لجلالة قدره إجلال، وقد مال إليَّ لفضله، ونباهته ونبله. وكان أبوه قد وزر للحافظ في آخر عهده[4]،

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٥١ من هذا الجزء.

(٢) في النسخ الخطية: لابن خاله، وهو خطأ، والمثبت من «سنا البرق الشامي»، وانظر ص ٧٠ من هذا الجزء.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٠ ـ ١٩٣.

(٤) في الأصل: عهد، والمثبت من (ل) و (م). وانظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من هذا الجزء.

متفرِّداً بسؤدَدِه ومجده. وكان من أهل السُّنَّة والجماعة، والتُّقى والورع والعفاف والطَّاعة، وله يَدٌ عند السلطان في النُّوَب التي قصدوا فيها مصر، وأجزل عنده الإحسان والبر، لا سيما عند كونه بالإسكندرية محصوراً. وكان إحسانه مشكوراً، واعتناؤه لحفظه مشهوراً. فلما ملك أَحَبَّه، واختار قُرْبَه، فلزِمْتُ له التودُّد، وإليه التردُّد، وجعلته الوسيط بيني وبين الأجلِّ الفاضل، واتخذته من الحجج والوسائل، ووقفتُ خاطري على تقاضيه نظماً ونثراً، ورسالة وشِعْراً، فمن ذلك ما كتبتُه إليه:

لعلَّ نجمَ الدِّين ذا الفضل ... يُذكِّرُ الفاضلَ في شُغلي
إنَّ أجلَّ النَّاسِ قَدْراً فتًى ... بفضله يَتْعَبُ من أجلي
ومثلُهُ من يعتني بالعُلا ... ويستديمُ الحَمْدَ من مِثْلي

قال: وأول ما أهديته للفاضل مِدْحةً حين لقيته بحمص في شعبان، منها:

عايَنْتُ طَوْدَ سكينةٍ ورأيت شَمْـ ... ـسَ فضيلةٍ وَوَرَدْتُ بَحْرَ فواضِلِ
ورأيتُ سَحْبَان البلاغةِ ساحباً ... ببيانه ذَيْلَ الفَخَار لوائِلِ
أبصرتُ قُسّاً في الفَصَاحة معجزاً ... فعرفتُ أني في فهاهة باقِلِ
حِلْفُ الحصافة والفصاحة والسَّما ... حةِ والحماسةِ والتُّقى والنَّائلِ
بحرٌ من الفَضْلِ الغزير خِضَمُّهُ ... طامي العُباب ومالَهُ من ساحِلِ
وجميعُ ما في الأرض سبعة أبحر ... وبحوره تُسْمى بِعَشْرِ أنامِلِ
في كفِّه قَلَمٌ يعجِّلُ جَرْيُه ... ما كان من أجلٍ ورِزْقٍ آجلِ
يجري ولا جَرْيَ الحُسام إذا جَرَى ... حَدَّاه بل جَرْيَ القضاءِ النَّازلِ
نابَتْ كتابتُهُ منابَ كتيبةٍ ... كَفَلَتْ بهَزْمِ كتائبٍ وجَحَافِلِ
فَعَدُوُّهُ في عَدْوِه ووليُّه ... في عَدْلِه أكرِمْ بِعادٍ عادِلِ

ريّـان مـن مـاءِ التُّقـى صـادٍ إلـى كَسْبِ المحـامِـدِ وهـي خَيْرُ منـاهِـلِ
يـا واحـد العَصْـرِ الـذي بَـذَّ الـورى فضـلاً بغيـر مُشَـابـهٍ ومُشَـاكِـلِ
مـالـي وجـاهَ الجـاهليـن فـأغْنِنـي عنهـمْ كُفيتَهُـمُ وَجُـدْ بـالجـاه لـي
أرجـوك مُعتنيـاً لـدى السُّلْطـان بـي كَـرَمـاً فمثلُـك يَعْتنـي بـأمـاثلـي
قَـرِّر لـيَ الشُّغْـلَ المبجَّـل مُخْليـاً بـالـي مـن الهـمِّ المقيـمِ الشَّـاغِـلِ[1]

قال: فدخل الفاضل إلى السُّلْطان، وعرَّفه أنه فيَّ راغب، وقال: أنا لا يمكنني الملازمة الدائمة في كل سَفْرة، وغداً يكاتبك ملوك الأعاجم، ولا تستغني في الملك عن عقد الملطفات وحلّ التراجم، والعمادُ يفي بذلك ولك أختاره، وقد عُرف في الدولة النُّورية مقدارُه. وأخذ لي خَطَّ السلطان بما قرّره لي من شغلي، وقد عَرَفَ أن الأجلَّ الفاضل قد أجَلَّ[2] فضلي[3].

قال: وخدمتُ أمير المؤمنين المستضيء في ذي القَعْدة مع الرّسل بهذه القصيدة:

أصحُّ عُيـونِ[4] الغانيات مَرِيْضُها وأفْتكُ ألحاظِ الحِسان غَضِيْضُها

يقول في مديحها:

ومِنْ عَجَبٍ صَلَّتْ لِقِبْلَةِ بأسِهِمْ رؤوسُ أعـادٍ مـن ظُبـاهـم مَحِيْضُهـا[5]

قال ابن أبي طيّ: وظهر في مَشْغَرا* ــ قَريةٌ من قرى دمشق ــ رجلٌ ادعى النُّبوة وكان من أهل المغرب، وأظهر من التَّخاييل والتمويهات ما فُتن

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٣٧ ــ ٣٩.
(٢) في (ل): أجلى.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٣ ــ ١٩٤.
(٤) في الأصل و(ل): عقود، والمثبت من (م).
(٥) انظر القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ٧١ ــ ٧٦.

به النَّاس، واتَّبعه عالم عظيم من الفَّلاحين وأهل السَّواد، وعصى على أهل
دمشق، ثم هرب من مشغرا في الليل، وصار إلى بلد حلب، وعاد إلى إفساد ٢٥٢/١
عقول الفلاَّحين بما يريهم من الشعبذة والتخاييل، وهوي امرأةً وعلَّمها ذلك، وادَّعت أيضاً النبوَّة..

قال: وفيها توفي شهاب الدين الياس الأُرْتُقي صاحب البيرة*، وأوصى إلى الملك الناصر بولده شهاب الدين محمد.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين [وخمس مئة](١)

قال العماد: والسُّلْطان نازل بمرج الصُّفَّر* من دمشق، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهُدْنة، فأجابهم السُّلْطان بعد أن اشترط عليهم أموراً، فالتزموها.

وكان الشَّام ذلك العام جَدْباً، فأَذِنَ السلطانُ للعساكر المصرية في الرَّحيل إلى بلادهم وإذا استغلُّوها خرجوا إليه، وسار معهم الفاضل، واعتمد على العماد فيما كان بصدده(٢).

وواظب السلطان على الجلوس في دار العَدْل*، وعلى الصَّيْد، ومدحه العماد بقصيدةٍ، منها:

سـواك لسهـم العُـلا لـن يـريشـا   فنســأَلُ رَبَّ العُــلا أن تعيشــا
مـن النـاس بـالبِـرِّ صِـدْتَ الكِـرام   وبالبأس في البَرِّ صِدْتَ الوحوشا
وكمْ سِرْتَ من مِصْرَ نحو العريش   فهــدَّمْــتَ للمشــركيــنَ العُــروشــا

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٤ ــ ١٩٥.

سـرايـاك تبعـث قُـدَّامهـا   مـن الرُّعْـب نحـو الأعـادي جيوشـا
[ويـوم حمـاةَ تـركـتَ العُـدَاة   كما طَيَّرَتْ بالفلا الرِّيحُ ريشا][1]

قال: ومَدَحتُ مستهل ربيع الأول تقيَّ الدين بقصيدةٍ موسومة، وكان قد فَوَّض إليه ولاية دمشق، ومنها بيتان ابتكرت المعنى فيهما ولم أُسبَق إليهما، وهما:

يفيـدُ العـاقِـلَ اليقِـظَ التَّغـابـي   لِيُـدْرِكَ فـي الغِنـى حَـظَّ الغبـيِّ
ولـم تُصِـبِ السِّهـامُ علـى اعتـدالٍ   بهـا لـولا اعـوجـاجٌ فـي القِسِـيّ
فَقُـلْ للـدهْـرِ يُقْصِـرُ عـن عنـادي   أمـا هـو يتَّقـي بَـأْسَ التَّقـي
حَلَفْـتُ بـربِّ مكَّـةَ والمُصَلَّـى   وثـاوي تُـرْبِ طَيْبَـةَ والغَـرِيِّ[2]
لأنتـم يـا بنـي أيـوبَ خيـرُ الـ   ـوَرى بعـد الإمـامِ المستضـيِّ[3]

قال: وفي أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقةً لقطب الدين قايماز، فأخذوا لأنفسهم بالالتجاء إلى السلطان الاحتراز.

وكان قايماز هذا مُحَكَّماً في الدولة الإمامية من أول الأيام المستنجدية، وقوي في الأيام المستضيئية على وزير الخليفة عضد الدين بن رئيس الرؤساء، وسامه أنواع البلاء، وأخافَه، ورام إتلافه، حتى اسْتعاذ منه برباط[4] صَدْر الدين شيخ الشيوخ، فَسَلِمَ به[5].

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ثاوي ترب طيبة هو الرسول ﷺ. وثاوي الغري هو الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه. والغري من أسماء النجف.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٩.
(٤) في الأصل: رباط، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) انظر أخبار قايماز وعضد الدين وما بينهما من عداوة في «الكامل»: ١١/ ٣٦٠، =

ثم إنَّ قايماز خالف الخليفة وشقَّ العَصَا، وعَنَّ له حصار الدَّار، فأمر الخليفة بالقبض عليه، فلم ينج لمّا أُحيط بداره، إلا بفتح بابٍ في جداره، وانهزم فوصل إلى الحِلَّة* في أوائل ذي القَعْدة سنة سبعين، وهو في موسم الحج[١]، فجمع رجاله وتوجَّه إلى المَوْصِل، وخانه إخوانه، وخذله أصحابه، فتوفي في بعض قرى المَوْصِل، وتفرَّق أصحابه في البلاد، فمنهم من رجع إلى بغداد، ومنهم من أتى الشَّام؛ منهم حسام الدين تميرك، وعز الدين أقبوري بن أزغش، وكان صهر السلطان قديماً، وعنده كريماً، فأقطعه في الديار المصرية، وكتب في حقه إلى الديوان شفاعة في تخليص ماله، واستقامة حاله. وكان ذا خزائن مملوَّة، وخَيْلٍ مسوَّمة، فلم يكن ذنبه عندهم في متابعة قايماز مما يقبل الصَّفْح. وكان أقبوري زوج أخت السُّلْطان، والسلطان خال بنته، وهي زوجة عز الدين فَرُّخْشاه ابن أخي السلطان[٢].

قلتُ: وفي بعض الكتب عن السُّلطان إلى وزير بغداد بالمثال الفاضلي: وما نحسب أنَّا مع الموالاة المشتهرة، والنُّصرة المستظهرة، والمساعي التي كانت لثارات هذه الدَّولة بالغة، ولأعدائهم دامغة، ولمنازعيهم الأمر قاصمة، ولمجاذبيهم الحقَّ واقمة[٣]، وبحقوق الله تعالى الواجبة لهم قائمة، وكوننا ما أُعنا منها بنجدة من رجال، ولا بمادَّةٍ من مال،

= ٣٧٥، ٤٠٩، ٤٢٤، و «تلخيص مجمع الآداب» ج ٤/ق ٤/ ٦٧٩ ــ ٦٨٠، و «المنتظم»: ١٠/ ٢٥٠ ــ ٢٥٦، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٦٦، وسيرد خبر مقتل عضد الدين ص ٤٨١ من هذا الجزء.

(١) يعني أن قايماز لم يقم بالحلة، لأنه كان في موسم الحج، والحلة هي على طريق الحاج، وهي إحدى منازلهم، ومنها ينحدرون إلى الكوفة، وقد فات بعضهم الحج تلك السنة بسبب ذلك، انظر «الكامل» ١١/ ٤٢٦.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ١٩٦ ــ ١٩٨.

(٣) واقمة: مذلة، قاهرة، انظر «اللسان» (وقم).

ولا بإعانة بحال من الأحوال ــ يرد سؤالنا من الدولة ــ أعلاها الله ــ في ذي قُرْبى لا نستطيع دفعه، ولا يقبل أسباب النفع إذا أردنا نفعه، فالأخباز* عندنا واسعة، والأعواض لدينا غير متعذرة، والولايات التي نفوضها إليه عن كفايته غير مستغنية، ولكنه ما باع بمكانه من الخدمة مكاناً، ولا آثر غير سلطانه سلطاناً، وله أعذار لا بأس أن نعيرَه فيها لساناً[1] وبياناً.

ثم ذكرها، ثم قال: وهذا الأمير جُزْءٌ منَّا فكيف يُعدُّ جزء منا عاصياً، وبألسنتنا وسيوفنا يُدْعى الخلق إلى الطَّاعة، وكيف تخلو دار الخلافة من واحدٍ من أهلنا ينوب عنا وعن بقية الجماعة. فنحن في أنفسنا نشفع، وعن
١/٢٥٣ جاهنا ندفع، وفي مكاننا نسأل، وبحظنا الذي لا نسمح به للإسلام نبخل، وأنت أيها الأمير السَّائر[2] ثالث رسولٍ ندب في أمر هذا الأمير[2]، والله وليُّ التَّدْبير.

وقال العماد في «الخريدة»: كنت جالساً بين يدي الملك النَّاصر صلاح الدِّين بدمشق في دار العدل*، أنفِّذُ ما يأمر به من الشُّغْل، فحضَرَ سعادة الأعمى من أهل حمص، وكان مملوكاً لبعض الدمشقيين مولداً، ويكتب على قصائده سعيد بن عبد الله[3]، فوقف ينشد هذه القصيدة في عاشر شعبان سنة إحدى وسبعين[4]، [وهي][5]:

حيَّتْك أعطافُ القُدودِ ببانها ... لما انثنتْ تِيْهاً على كُثْبانها

ثم ذكر القصيدة وغزلها في وصف دمشق، ثم قال:

---

(١) لساناً، ساقطة من (م).
(٢ ــ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٠ من الجزء الثالث.
(٤) في (م): وخمسين، وهو تحريف.
(٥) ما بين حاصرتين من (م).

سُلْطانها الملك ابن أيوب الذي كَفَّاه لا تنكفُّ عن هطلانها
بمواهبٍ لوْ لمْ أكن نُوحاً لما نُجِّيتُ يَوْمَ نَداه من طُوفانها
سمحٌ يروحُ إلى النَّدِيِّ براحةٍ قد أَعْشَبَ المَعْرُوفُ بين بَنانها
وفتًى إذا زَخَرَتْ بحارُ نَوالِه غَرِقَتْ بحارُ الأرضِ في خُلْجانها
تلك السُّيوف المُرْهَفاتُ بكفِّه أمضى على الأيام من حِدْثانها
مَلِكٌ إذا جُلِيَتْ عرائسُ مُلْكِه رَصَعَتْ[1] فريدَ[2] العَدْلِ في تيجانها
فاسلمْ صلاحَ الدينِ وابْقَ لدولةٍ ذَلَّتْ لِدَولتها مُلوكُ زَمانِها
وانهضْ إلى فَتْحِ السَّواحِلِ نَهْضَةً قادَتْ لك الأعداءَ بعد حِرَانها

وهي طويلةٌ[3].

قال: وقام اليوم الذي يليه، وقد جلس السُّلْطان للعدل، فأنشده ــ يعني قصيدة ــ منها:

هل بعد جِلِّقَ إلا أن ترى حَلَباً وقد تحَلَّلَ منها مُشْكِلٌ عَقِدُ
وقد أتتْك كما تختارُ طائعةً وقد عَنَا لك منها الحِصْنُ والبَلَدُ[4]

قال: وكان سعادة سافر إلى مصر في أول مملكة الملك النَّاصر، فمدحه بقصيدة طائية، فأعطاه ألف دينار. فمنها يصف غارته على غَزَّة، وعوده من ذلك الغزو بالعِزَّة:

فتًى مُذْ غزا بالخيلِ والرَّجْل غَزَّةً نأى عن نواحيها الرِّضا ودنا السُّخْطُ
رماها بأُسْدٍ ما لهنَّ مَرابضٌ ولا أُجُمٌ إلا الذي يُنْبتُ الخَطُّ

---

(١) في الأصل: رضعت، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) الفريد: الجوهرة النفيسة، والدر إذا نظم وفُصِّل بغيره. «القاموس المحيط» (فرد).
(٣) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٠٦ ــ ٤١١، و «بغية الطلب» ٩/ ٤٢٣٠.
(٤) المصدر السابق: ١/ ٤١٢ ــ ٤١٦.

وعـاث ضـواحيهـا ضُحًـى بكتـائـبٍ من التُّرْكِ لا نُوبٌ طَغَامٌ ولا قِبْطُ[1]

وله في السلطان قصائد أُخر.

قال: وقام البهاء السِّنْجاري[2] وأنشد الملك النَّاصر قصيدةً في دار العَدْل* بدمشق سنة إحدى وسبعين في شعبان، منها:

يا ظَبْيَةَ الْهَرَمَيْنِ من مصرٍ، على الرَّ (م) بْـعِ السَّـلامُ وإنْ تَقـوَّضَ أوْ عَفَـا

أصْبُـو إلـى عَصْـرٍ تقـادَم عَهْـدُهُ فـأزيـدُ مِـنْ وَلَـهٍ عليـه تَلَهُّفـا

أحبـابَنـا بـالقَصْـرِ لـو قَصَّـرْتُـمُ في الهَجْرِ ما شَمِتَ الحسُودُ[3] ولا اشْتفى

ومنها:

أشكـو إلـى الـوادي فيحنُـو بـانُـه مِـن رِقّـةِ الشَّكْـوى علـيَّ تَعَطُّفـا

وجـرى بـي الأمـلُ الطَّمـوحُ فـأمَّ بـي سلطـانَ أرضِ الله طُـرّاً يُـوسُفـا

النَّـاهـب الأرواح فـي طَلَـبِ العُـلا والواهب الآجال في حُسْنِ الوفا[4]

فصـــل

فيما تجدَّد للمواصلةِ والحلبيين

قد سبق ذِكْرُ الصُّلْح الذي جرى بين السُّلْطان والحلبيين، فلما سمع به

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤١٦ ــ ٤١٩.

(٢) هو أسعد بن يحيى، فقيه شافعي غلب عليه قول الشعر فاشتهر به، وقدِّم عند الملوك، كان جرياً ثقة، كيساً لطيفاً، فيه مزاح وخفة روح، له أشعار جيدة اشتهرت في عصره، رأى ابن خلكان ديوان شعره في خزانة التربة الأشرفية بدمشق. ولد سنة (٥٣٣ هـ) وتوفي سنة (٦٢٢ هـ) وقد ناهز التسعين. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٢٦٣، و«وفيات الأعيان»: ١/ ٢١٤ ــ ٢١٧، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٣٠٢ ــ ٣٠٣، و«الوافي بالوفيات»: ٩/ ٣٢ ــ ٣٤، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ١٢٩ ــ ١٣٠.

(٣) في هامش الأصل: العدو (خ)، وهي رواية نسخة (ل).

(٤) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٤٠٢ ــ ٤٠٣.

المواصلة عتبوا عليهم ووبَّخوهم، ونسبوهم إلى العَجَلة في ذلك، وسلوك غير طريق الحَزْم، فحملوهم على النَّقْض والنَّكْث[1]، وأنفذوا من أخذ عليهم المواثيق، وتوجَّه ذلك الرسول[2] منهم إلى دمشق ليأخذ للمواصلة[3] من السُّلْطان عهده، ويكشف أيضاً ما عنده. فلما خلا به طالبه السُّلْطان بنسخة الرأي، فغلط وأخرج من كُمِّه نسخة يمين الحلبيين لهم، وناولها إياه، فتأمَّلها وأخفى سِرّه وما أبداه، واطلع على ما اتفقوا عليه، وردَّها إليه، وقال: لعلَّها قد تبدَّلت. فعرف الرسول أنه قد غلط، ولم يمكنه تلافي ما فرط. وقال السُّلْطان: كيف حلف الحلبيون للمواصلة، ومن شرط أيمانهم، أنهم لا يعتمدون أمراً إلاّ بمراجعتهم لنا واستئذانهم؟ وعرف من ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض.

١/ ٢٥٤ وشاع الخبر عن المواصلة بالخروج في الرَّبيع، فكتب السلطان إلى أخيه العادل، وهو نائبه بمصر، يُعلمه بذلك، ويأمره أن يأمر العساكر بالاستعداد للخروج في شعبان[4].

قلت: وفي كتابٍ طويل[5] فاضلي جليلٍ إلى بغداد عن السلطان يطالع بأن الحلبيين والموصليين لما وضعوا السِّلاح، وخفضوا الجناح، اقتصرنا، بعد أن كانت البلاد في أيدينا، على استخدام عسكر الحلبيين في البيكارات* إلى الكُفْر، وعرضنا علينا الأمانة فحملوها، والأيمان فبذلوها. وسار رسولنا وحلَّف صاحب الموصل بمحضرٍ من فقهاء بلده، وأمراء مشهده، يميناً جعل

(١) في(م): النكس.
(٢) في (م): لرسول.
(٣) في الأصل: المواصلة، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٠.
(٥) في (م): كبير.

الله فيها حَكَماً، وضيّق في نَكْثها المجال على من كان حنيفاً مسلماً، وعاد رسوله ليسمع منا اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها، أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين[(١)] كانت[(٢)] بين الموصليين والحلبيين مضمونها الاتفاق على حِزبنا، والتداعي إلى حربنا، والتساعدُ على إزالة خطبنا، والاستنفار لِمن هو على بُعْدنا وقربنا. وقد حلف بها كُمُشْتِكين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأُولى. فرددنا اليمين إلى يمين الرسول، وقلنا: هذه يمينٌ عن الأيمان خارجة، وأردتَ عمراً وأراد الله خارِجة[(٣)].

وانصرف الرَّسول عن بابنا وقد نزَّهنا الله أن يكون اسمُه معرَّضاً للحِنْث العظيم، والنَّكْث الذَّميم، وعلمنا أن الناقد بصير، والآخذ قدير. والمواقف الشريفة النبوية ــ أعلاها الله ــ مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إما بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، وإما أن تكون الفسحة واقعة لنا في تضييق خناقه.

ثم ذكر أمر الفرنج، ثم قال: والمملوك بين عدو إسلام يشاركونه في هذا الاسم لفظاً، ولا يَنْوُون لما استحفظوا حفظاً، وعدو كفر فما يجاورهم إلا بلادُه، ولا يقارعهم إلا أجناده.

---

(١) في (م): كتاب.

(٢) في (م): كانت جرت.

(٣) في هذه العبارة إشارة إلى قصة الخوارج الثلاثة الذين اتعدوا أن يقتلوا كلاً من الإمام علي ومعاوية وعمرو بن العاص في قصة مشهورة. فجلس عمرو بن بكر ــ وهو الذي تعهد بقتل عمرو بن العاص ــ تلك الليلة في المسجد، فلم يخرج عمرو لأنه اشتكى من بطنه، فأمر خارجة بن حذافة ــ وكان صاحب الشرطة ــ فخرج ليصلي، فشدَّ عليه الخارجي وهو يحسبه عمراً، فضربه فقتله، فأخذه الناس وانطلقوا به إلى ابن العاص يسلمون عليه بالإمرة، فقال الخارجي: من هذا؟ قالوا: عمرو. قال: فمن قتلت؟ قالوا: خارجة بن حذافة. قال: أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك. فقال عمرو: أردتني =

ثم طلب خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونُوا للمَمْلوك على المشركين أعواناً، وأن يُمْتَثل أمر نبينا ﷺ في أن يكونوا بنياناً، فيعضدوه إذا سعى، ويلبُّوه إذا دعا، ولا يقعدوا عن المعاضدة في فتح البيت المقدس الذي طابت النفوس عن ثاره، وتطأطأت الرُّؤوس تحت عاره، وصارت القلوب صخرةً لا ترقُّ على صَخْرته، والعزائم قاصية عن تطهير أقصاه من رِجْس الشِّرْك ومعرَّته. فإن قعدت بهم العزائم، وأخذتهم في الله لومةُ لائم، فلا أقلَّ من ألا يكونوا أعواناً عليه يلفتونه[1] عن قَصْده، حريصين على إيصال المكروه إليه.

وقال ابنُ شَدَّاد: لما وقعت الوقعة الأولى مع الحلبيين والمواصلة، كان سيف الدين ـ صاحب الموصل ـ على سِنْجار* يُحاصر أخاه عماد الدين بِقَصْد أخذها منه ودخوله في طاعته. وكان أخوه قد أظهر الانتماء إلى السُّلطان صلاح الدين واعتصم بذلك. واشتدَّ سيف الدين في حصار المكان وضَرْبه بالمنجنيق حتى استُهدِم من سوره ثُلَمٌ كثيرة، وأشرف على الأخذ، فبلغه وقوع هذه الواقعة، فخاف أن يبلغ ذلك أخاه فيشتدُّ أمره ويقوى جأشه، فراسله في الصُّلْح، فصالحه.

ثم سار من وقته إلى نَصِيبين*، واهتمَّ بجمع العساكر والإنفاق فيها، وسار حتى أتى الفرات وعبر بالبيرة*، وخيَّم على جانب الفرات الشَّامي، وراسل كُمُشْتِكِين والملك الصالح حتى تستقرَّ قاعدة يصل عليها [إليهم][2]. فوصل كُمُشْتِكِين إليه، وجرَت مراجعات كثيرة عزم فيها على العَوْد مراراً، حتى استقرَّ اجتماعه بالملك الصَّالح وسمحوا به، وسار ووصل حلب،

= وأراد الله خارجة. فقدمه عمرو فقتله. انظر «تاريخ الطبري»: ٥/ ١٤٩.

(١) في (م): يلقونه.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

وخرج الصَّالح إلى لقائه بنفسه، فالتقاه قريب القلعة، واعتنقه، وضمَّه إليه وبكى. ثم أمره بالعود إلى القلعة فعاد إليها، وسار هو حتى نزل بعين المباركة، وأقام بها مُدَّة، وعسكر حلب يخرج إلى خدمته في كل يوم.

وصَعِدَ القلعة جريدةً وأكل فيها خُبْزاً ونزل، وسار راحلاً[1] إلى تل السُّلْطان*، ومعه جمع كثير وأهل ديار بكر، والسلطان رحمه الله تعالى قد أنفذ في طلب العساكر من مصر وهو يرقب وصولها، وهؤلاء يتأخَّرون في أمورهم وتدابيرهم، وهم لا يشعرون أنّ في التأخير تدميراً[2]، حتى وصل عسكر مصر، فسار رحمه الله تعالى حتى أتى قرون حماة، فبلغهم أنه قد قارب عسكرهم فأخرجوا اليَزَك*، ووجَّهوا من كشف الأخبار، فوجدوه قد وصل جريدة إلى جباب التركمان، وتفرَّق عسكره يسقي، فلو أراد الله نُصْرتهم لقصدوه في تلك السَّاعة، لكن صبروا عليه حتى سقى خيله هو وعسكره، واجتمعوا، وتعبّوا تعبئة القتال.

وأصبح القوم على مصاف، وذلك بُكْرة الخميس العاشر من شوَّال، فالتقى العسكران وتَصادما، وجرى قتالٌ عظيم، وانكسرت ميسرة السلطان بابن زين الدين مظفر الدين[3]، فإنه كان في ميمنة سيف الدين، وحمل السلطان بنفسه، فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً عظيماً من كبار الأمراء، منهم فخر الدين عبد المسيح، فمنَّ عليهم وأطلقهم.

---

(١) في (م): راجلاً، وهو تصحيف.

(٢) في مطبوع «النوادر السلطانية»: تدبيراً، وهو تحريف.

(٣) هو كُوكُبوري بن علي بن بكتكين، ورد ذكر أبيه في أثناء الجزء الأول، وتوفي سنة (٥٦٣ هـ) كما مر ص ٣٨ من هذا الجزء، وسترد أخبار مظفر الدين في أثناء هذا الكتاب، وسيرد ذكر مصادر ترجمته عند ذكر وفاته سنة (٦٣٠ هـ) في «المذيل على الروضتين». وفي «النوادر السلطانية»: وانكسرت ميسرة السلطان زين الدين مظفر الدين، وهو وهم.

وعاد سيف الدين إلى حلب فأخذ منها خزانته، وسار حتى عبر الفرات، وعاد إلى بلاده. وأمسك هو ــ رحمه الله ــ عن تتبع العسكر، ونزل في بقية ذلك اليوم في خيم القوم، فإنهم كانوا قد أبقَوْا الثَّقَل على ما كان عليه، والمطابخ قد عملت، ففرّق الاصطبلات، ووهب الخزائن، وأعطى خيمة سيفِ الدين عزَّ الدين فَرُخْشاه[(١)].

وقال العماد: رحلنا[(٢)] في شهر رمضان من دمشق مستأنفين، فعبَرْنا العاصي لله طائعين، وإلى المسارِّ مسارعين، فما عرَّجنا على بلد، ولا انتظرنا ما وراءنا من مَدَد، ونزلنا الغَسُولة[(٣)] وجُزنا حماة، وخيمنا في مرج بوقُبيس* ٢٥٥/١
وجاء الخبر أنهم في عشرين ألف فارس سوى سوادهم[(٤)]، وما وراءهم من أمدادهم، وأنهم موعودون[(٥)] من الفرنج بالنجدة، وأنهم يزيدون في كل يوم قوّة وشِدَّة، وما كان اجتمع من عسكرنا سوى ستة آلاف فارس. فرتَّب

---

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٥١ ــ ٥٢.

(٢) في (م): دخلنا، وهو تصحيف.

(٣) الغسولة: منزل للقوافل بين حمص وقارا. هكذا ضبطت ضبط قلم في «معجم البلدان»: ٤/ ٢٠٤، وفي «القاموس المحيط» (غسل): الغِسْوَلَّة.

(٤) نقد ابن الأثير ما حكاه العماد عن عدد الجيش، قال: وقد ذكر العماد الكاتب في كتاب «البرق الشامي» في تاريخ الدولة الصلاحية أن سيف الدين كان عسكره في هذه الوقعة عشرين ألف فارس، ولم يكن كذلك؛ إنما كان على التحقيق يزيد على ستة آلاف فارس أقل من خمس مئة، فإنني وقفت على جريدة العرض، وترتيب العسكر للمصاف ميمنة وقلباً وجاليشية وغير ذلك، وكان المتولي لذلك والكاتب له أخي مجد الدين أبا السعادات المبارك بن محمد بن عبد الكريم رحمه الله، وإنما قصد العماد أن يعظم أمر صاحبه بأنه هزم بستة آلاف عشرين ألفاً، والحق أحق أن يتبع، ثم يا ليت شعري كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون فيها عشرون ألف فارس؟» «الكامل»: ١١/ ٤٢٩.

(٥) في الأصل: موعدون، والمثبت من (ل) و (م).

السلطان عسكره، وقوَّى بقوّة قَلبه قلْبَه[1]، وأمدَّ الله بحزب ملائكته حزبه.

ولما وصل المواصلة إلى حلب، أطلقوا من كان في الأسر من ملوك الفرنج، منهم أرناط إبرنس الكَرَك*، وجوسلين خال الملك*، وقرَّروا معهم أن يدخلوا من مُساعدتهم في الدَّرك. فلما عيَّدْنا وصل إلى السلطان الخبر بوصولهم إلى تل السُّلْطان، فعَبرْنا العاصي عند شَيْزَر*، ورتَّبنا العسكر، وأعدنا الأثقال إلى حماة[2].

ثم وصف الوقعة إلى أن قال: وركب السُّلْطان أكتافهم فشلّ مِئِيهمْ وآلافهم، حتى أخرجهم عن خيامهم، وأشْرَقهم بمائهم. ووكل بِسُرادق سيف الدين غازي ومضاربه ابنَ أخيه فَرُّخشاه، وركض وراءه حتى علم أنه تعدَّاه. ووقع في الأسر جماعة من الأمراء المقدَّمين، ثم مَنَّ عليهم بالخِلَع بعد أن نقلهم إلى حماة وأطلقهم. ثم نزل في السُّرادق السيفي فتسلَّمه بخزائنه ومحاسنه، واصطبلاته ومطابخه، ورَوَاسِيَ عِزّه ورواسخه، فبسط في جميع ذلك أيدي الجُود، وفرّقها على الحضور والشُّهود، وأبقى منها نصيباً للرُّسل والوفود. ورأى في بيت الشراب، بل في السُّرادق الخاص، طيوراً من القَمَاريّ والبلابل والهَزَار والببَّغاء في الأقفاص، فاستدعى أحد النُّدماء مُظَفَّراً الأقرع[3] فآنسه، وقال: خُذْ هذه الأقفاص، واطلب بها الخلاص، واذهب بها إلى سيف الدين، فأَوْصِلْها إليه، وسَلِّم منا عليه، وقل له: عدْ إلى اللعب بهذه الطُّيور، فهي سليمة لا توقعك في مثل هذا المحذور[4].

---

(١) قلبه، ساقطة من (م).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٠ ــ ٢٠٢.

(٣) أحد ندماء سيف الدين. انظر «مفرج الكروب»: ٢/ ٤٠.

(٤) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٤ ــ ٢٠٥.

قال: ولما كُسِرَ القوم [و] ولّوا مُدبرين [ركضوا][1] إلى حلب، فلم يقفْ بعضهم على بعض، وظنُّوا أن العساكر وراءهم ركضاً وراء ركض؛ فتبعَّجت خيولهم، وتموَّجت سيولهم، وما صدَّقوا كيف يصلون إلى حلب ويغلِّقون أبوابها، ويسكِّنون اضطرابها. وأما سيف الدين فإنه ركض في يومه من تلِّ السلطان* إلى بُزاعة*، وجاوز في سَوْقه الاستطاعة، وفرق وفارق الجماعة[2].

وفي كتاب ابن أبي طيّ: أن ميسرة سيف الدين انكسرت، فتحرَّك إلى جانبها ليكون رِدْءاً لها ومدداً، فظنَّ باقي العسكر أنه قد انهزم فانهزموا، فحقَّق ما كان وهماً، فسار على وجهه هارباً لا يلوي على شيء. وتبعهم السُّلْطان، فهلك منهم جماعة قَتْلاً وغرقاً، وأَسر جماعة كبيرة من وجوههم وأمرائهم. ثم رجع وأمر أصحابه برفع السَّيف عن النَّاس، وتَرك التَّعرُّض لمن وُجد منهم بقتلٍ أو نَهْب.

وفرَّق ما وجد في خزائن سيف الدين، وسيَّر جَواريه وحظاياه إلى حلب، وأرسل إليه بالأقفاص وقال له: عُدْ إلى اللعب بهذه الطيور، فإنها ألذُّ من مُقاساة الحرب. ووجد السلطان عسكر الموصل كالحانة من كثرة الخمور والبرابط[3] والعيدان والجنوك[4] والمغنين والمغنيات.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٥.

(٣) البرابط جمع، مفردها البربط، وهو العود، معرب بربط بالفارسية ومعناه: صدر البط، لأنه يشبهه، انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية): ١/ ٢٧٢ الحاشية رقم ١٤٦، و «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٨.

(٤) الجنك: العود، انظر: «تكملة المعاجم العربية» لدوزي (الترجمة العربية) ٢/ ٣١٣، «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٤٦.

قال: واشتهر أنه كان مع سيف الدين أكثر من مئة مغنيّة، وأنَّ السُّلْطان أرى ذلك لعساكره واستعاذ من هذه البلية. وكان أَنفذَ الأمراء الذين أسرهم إلى حماة ثم ردَّهم، وخلعَ عليهم وأرسلهم إلى حلب.

وهنأ العمادُ السُّلْطان رحمه الله تعالى بقصيدةٍ، منها:

فالحمدُ لله الذي إفْضَالُه ... حُلْوُ الجنا عالي السَّنا وضَّاحُهُ
عادَ العَدُوُّ بِظُلْمَةٍ مِن ظُلْمِهِ ... في ليلِ وَيْلٍ قد خَبا مِصْباحُهُ
وجنَى عليه جَهْلُه بوقوعِه ... في قبضةِ البازي فَهِيضَ جَنَاحُهُ
حَمَلَ السِّلاحَ إلى القتال وما درى ... أنَّ الذي يَجْني عليه سلاحُه
أضحى يريد مواصليه صُدُودَه ... وغدا يجيد رثاءه مُدَّاحُهُ
إنْ أَفْسَدَ الدِّينَ الغُلاة[1] بِحِنْثِهِمْ ... فالنَّاصِرُ الملك الصَّلاحُ صلاحُهُ
قد كان عَزْمُك للإله مُصَمِّماً ... فيهِمْ فلاحَ كما رأيتَ فلاحُهُ
وكأنني بالسَّاحلِ الأقصى وقد ... ساحَتْ بِبَحْرِ دَمِ الفِرَنْجَةِ ساحُهُ
فاعبُرْ إلى القوم الفُراتَ ليشربوا الـ ... ـمَوْتَ الأُجاجَ فقد طَمَى طَفَّاحُهُ
لِتَفُكَّ من أيديهِمُ رَهْنَ الرُّها* ... عَجِلاً ويُدْرِكَ ليلَها إصْباحُهُ
وابغُوا لحَرَّان الخلاصَ فكم بها ... حَرَّانُ قَلْبٍ نحوكمْ مُلْتَاحُهُ
نجُّوا البلادَ من البلاءِ[2] بِعَدْلِكُمْ ... فالظُّلْمُ بادٍ في الجميع صُرَاحُهُ
واستفتحوا ما كان من مُسْتَغْلِقٍ ... فيها فربُّكُمُ لكُمْ فَتَّاحُهُ
1/256 أنتم رجالُ الدَّهر بل فُرْسَانُهُ ... وَلِذي الحُلوم الطائشاتِ رِجَاحُهُ
فُتَّاكُهُ نُسَّاكُهُ ضُرَّارُهُ ... نُفَّاعُهُ مُنَّاعُهُ مُنَّاحُهُ
وأبو المُظَفَّر يوسفٌ مِطْعَامُه ... مِطْعانُهُ مِقْدامُهُ جَحْجَاحُهُ[3]

---

(1) في «الخريدة»: العصاة.

(2) في الأصل: البلاد، والمثبت من (ل) و (م).

(3) هذا البيت ساقط من (ل). والجحجاح: السيد الكريم. «اللسان» (جحح).

وإذا انتـدَى فـي مَحْفِـلٍ فحيُّـهُ[١]		وإذا غـدا فـي جَحْفَـلٍ فَـوَقَـاحُـهُ[٢]

قال: وكان لعز الدين فَرُّخْشاه في هذه الوقعة يدٌ بيضاء، وهو محبٌّ للفضل وأهله، باعثٌ للخواطر على مدحه ببذله؛ فنظمتُ فيه قصيدةً، منها:

نَصْـرٌ أنـار لملكِكُـمْ بُـرْهـانُـه		وعـلا لـذلَّـة شـانئيكـم شـانُـهُ
مـا أسعـدَ الإسـلامَ وهـو مظفَّـرٌ		وأبـو المُظَفَّـر يـوسـفٌ سُلْطـانُـهُ
المُلْـكُ مـرفـوعٌ لكـم مقـداره		والعَـدْلُ مـوضـوعٌ بكـم ميـزانُـهُ
والـدَّهْـرُ لا يـأتـي بغيـرِ مُـرَادِكُـمْ		فهـلِ القضـاءُ لأجلكـم جَـرَيـانُـهُ
وكـأنمـا لله فـي أحكـامـه		فَلَـكٌ علـى إيثـاركـم دَوَرانـهُ
فخـراً بنـي أيـوبَ إن فَخَـاركـم		بـذَّ الملـوك السَّـابقيـن رهـانُـهُ
يكفـي حسـودكـم اعتقـالاً همّـه		فكـأنمـا أشجـانُـه أسجـانُـهُ[٣]
الـدِّيـن عِـزَّ الـديـن عَـزَّ بنصـركـم		والكُفْـرُ ذلَّ بعـونكـم أعـوانُـهُ
قـد كـانَ جيشهـمُ كبحـرٍ زاخـرٍ		والـلابِسُـون جـواشنـاً* حِيتـانُـهُ
فطمـى لِهُلْكِهِـمُ عليهـم بَحْـرُكُـمْ		بـأسـاً وغـرَّق فُلْكَهُـمْ طُـوفـانُـهُ
فَضَـلَ الملـوكَ الأكـرمين بِفَضْلـه		فعـلا زمـانَهُـمُ البهيـجَ زمـانُـهُ
فـي فَضْلـه فـي عَـدْلـه فـي حِلْمِـهِ		صِـدِّيقُـه فـارُوقُـه عُثْمـانُـهُ
هـو فـي السَّمـاح وفـي اللقـاء عَلِيُّـه		هو[٤] في العَفَافِ وفي التُّقى سَلْمانُهُ
من آلِ شاذي الشَّائدين لمجده		ببنيـه بيتـاً عـاليـاً بُنْيـانُـهُ
بيـتٌ مـن العليـاء سـامٍ سـامـقٌ		يُبْنـى علـى كيـوانهـا[٥] إيـوانُـهُ

(١) في الأصل: فحميه، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٧ ــ ٢٢.

(٣) في (م): أسجانه أشجانه.

(٤) في (ل): وهو، وبه يختل وزن البيت.

(٥) كيوان: هو الكوكب زُحَل. «معجم متن اللغة» ٥/ ١٣٠.

يا سالبَ التِّيجان من أربابها ومن الثَّناءِ مصوغةٌ تِيْجانُهُ
والحمدُ مالٌ أنتمُ بُذَّالُهُ والمال حمدٌ أنتمُ خُزَّانُهُ

قال: ثم إن صاحب المَوْصِل أسرع عودته، وواصل لذته، والحلبيون أوثقوا الأسباب، وغلَّقوا الأبواب، وسُقِطَ في أيديهم، حين أفرطوا في تعديهم، وتهيئوا للحصار، وخافوا من البوار، وتبلَّدوا وتلددوا، وتجادلوا ثم تجلَّدوا[1].

وقال ابنُ سعدان الحلبي[2] من جُملة قصيدةٍ يهنىء بها السُّلْطان بهذه الكسرة[3].

وما شكَّ قَوْمٌ حين قُمْتَ عليهمُ غَدَاةَ التقى الجمعانِ أنَّك غالبُ
ولو لم تَقُدْ تلك المقانبَ[4] لاغتدى لنفسك في نفس العدوِّ مقانِبُ

قال ابنُ أبي طيّ: وأما سيف الدين فإنه امتدَّت به الهزيمة إلى بُزَاعا*، فأقام بها حتى تلاحق به من سَلِمَ من أصحابه، ثم خرج منها حتى قطع الفرات، وصار إلى الموصل. وصار باقي عسكر حلب إلى حلب، في سابع شوال، في أقبح حال وأسوئه، عُراةً حُفاةً فقراء، يتلاوَمُون على نقض الأيمان والعهود.

وخاف أهل حلب من قَصْد السُّلطان لهم، فأخذوا في الاستعداد

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٧.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل: بالكسرة، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في الأصل: المناقب، وهو تحريف، والمثبت من (ل) و (م). والمقانب الأولى: الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين، أو زهاء الثلاث مئة، والمقانب الثانية: الذئاب الضارية. «القاموس المحيط» (قنب).

للحصار، وجاء السُّلْطان وخيَّم عليها أيَّاماً، ثم قال: الرأي أن نقصد ما حَوْلها من الحصون والمعاقل والقلاع فنفتحها، فإنَّا إذا فعلنا ذلك ضعفت حلب، وهان أمرها. فصوَّبوا رأيه، فنزلوا على بُزاعا، فتسلَّمها بالأمان، وولاها عِزَّ الدين خُشترين الكُرْدي[١].

فصـــل

في فتح جُمْلة من البلاد حوالي حلب

قال العماد: ثم نزل السُّلْطان على حِصْن بُزاعة وتسلَّمه في الثَّاني[٢] والعشرين من شوَّال، ثم فتح مَنْبِج* في التَّاسع والعشرين منه، وكان فيها الأمير قُطْب الدين يَنَال بن حَسَّان[٣]، [والسلطان][٤] لا ينال به إحسان، بل كان في جَرِّ عسكر المَوْصِل إليه أقوى سبب، ولا يماذقه ولا يحفظ معه شرط أدب[٥]، ويواجهه بما يكره، فسلَّم القلعة بما فيها، وقُوِّم ما كان سلَّمه ٢٥٧/١
بثلاث مئة ألف دينار، منها عين ونقود، ومصوغ [ومطبوع][٦] ومصنوع، ومنسوج، وغلاَّت، وسَامُه على أن يخدم، فأبَى وأنف، وكبرت نفسه، فتعب سرُّه، وذهب ما جمعه. ومضى إلى صاحب المَوْصِل فأقطعه الرَّقة، فبقي فيها إلى أن أخذها السُّلْطان منه مرة ثانية في سنة ثمانٍ وسبعين[٧].

---

(١) كان من عسكر أسد الدين شيركوه بمصر، انظر ص ٩٤ من هذا الجزء.
(٢) في (ل): الحادي.
(٣) سلف ذكر ينال في ص ٢٥، ٣٣، ٥١، ٣٤٦ من هذا الجزء.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في (م): الأدب.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٧ ــ ٢٠٨، وص ١٢٣ من الجزء الثالث.

وقال العماد:

نُــزُولُــكَ فــي مَنْبِــجِ   علــى الظَّفَــرِ المُبْهِــجِ
ونُجْحُــكَ فــي المُــرتجــى   وفَتْحُــك للمُــرْتَــجِ
دليــلٌ علــى كــلِّ مــا   تحــاول أو تــرتجــي
أمــورك فيمــا تَــرُوْ   مُ واضحــةُ المَنْهَــجِ
وشــانيــك دامــي الشُّــؤو   ن[1] منــك شَقــيٌّ شَجِــي
ومــن كــان فــي حِصْنِــهِ   ومِــنْ قَبْــلُ لــم يَخْــرُجِ
يقــال لــهُ ليــس ذا   بعُشِّــكَ قُــمْ فــادْرُجِ[2]
فَــرَأيُــكَ يستنــزلُ النُّـ (م)   ـجُــومَ مــن الأَبْــرُجِ
فَعَجِّــلْ عُبــورَ الفُــرات   وأَسْــرِ وَسِــرْ وادْلِــجِ
وَعُــجْ نحــو تلــك البــلاد   وعــن غَيْــرِهــا عَــرِّجِ
فحَــرَّان* والــرَّقَّتــا   نِ[3] تَــاليتَــا مَنْبِــجِ
وجَــلِّ عــن المُسْلميــنَ ليلهــمُ المُــدَّجــي

قال ابن أبي طيّ: لما ملك السُّلْطان مَنْبِج، وتسلَّم الحِصْن صَعِدَ إليه وجلس يستعرض أموال ابن حَسَّان وذخائره، فكان في جملة أمواله ثلاث مئة ألف دينار، ومن الفِضَّة والآنية الذَّهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفي ألف دينار. فحَانَ من السُّلْطان التفاتة، فرأى على الأكياس والآنية مكتوباً يوسف، فسأل عن هذا الاسم، فقيل له: ولدٌ يحبُّه ويؤثره اسمه يوسف كان

---

(١) الشؤون: جمع، مفردها: شأن، وهو مجرى الدمع إلى العين. «اللسان» (شأن).
(٢) فيه تضمين للمثل: ليس بعُشِّك فادْرُجي، يضرب لمن يدَّعي أمراً ليس من شأنه. انظر «المستقصى» ٢/ ٣٠٥، و«مجمع الأمثال» ٢/ ١٨١، و«جمهرة الأمثال» ٢/ ١٩٧.
(٣) الرقتان: تثنية الرقة، قال ياقوت: أظنهم ثنوا الرقة والرافقة كما قالوا العراقان للبصرة والكوفة. «معجم البلدان» ٣/ ٥٧.

يذخر هذه الأموال له. فقال السُّلْطان: أنا يوسُف وقد أخذت ما خُبِىء لي. فتعجَّب النَّاس من ذلك.

قال: ولمَّا فرغ من مَنْبِج نزل على عَزَاز* ونصب عليها عِدَّة مجانيق، وجَدَّ في القتال، وبَذَل الأموال.

قال العماد: ثمَّ نزل السُّلْطان على حِصْن عَزَاز، وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز. وهو حِصْنٌ منيع رفيع، فحاصره ثمانية وثلاثين يوماً. وكان السُّلْطان قد أشفق على هذا الحِصْن من موافقة[1] الحلبيين للفرنج، فإنَّ الغيظ حملهم على مهادنة الفرنج، وإطلاق ملوكهم الذين تعب نور الدين ــ رحمه الله تعالى ــ في أَسْرهم، فرأى السّلطان أن يحتاط على المعاقل، ويصونها صَوْنَ العقائل، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة بعد مُدَّة حصارها المذكورة[2].

وقال العماد قصيدةً، منها:

أعطاه رَبُّ العالمين دولةً ... عِزَّةُ أهلِ الدِّين في إعزازها
حاز العُلا ببأسه وجُودِهِ ... وهْو أحقُّ الخَلْقِ باحتيازِها
بجوده[3] أفنى كنوزاً فَنِيَ الْـ ... ـملوكُ في الجدِّ على اكتنازها
مهلكُ أهلِ الشِّرْك طرّاً رُومِها ... أرمنها إفرنجها أبخازها[4]

(١) في هامش الأصل: بلغ مقابلة بأصله.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٠٩.
(٣) في الأصل و (ل): بجده، والمثبت من (م).
(٤) أبخاز: اسم ناحية من أرمينية، جبلية صعبة المسلك وعرة، كان يسكنها الكرج. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٦٤، ٤/ ٣٠٦ ــ ٤٤٦، و «تاج العروس» (بخز)، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من هذا الجزء.

تفـاخـرَ الإِسـلامُ مـن سُلْطـانـه | تفـاخُـرَ الفُـرْسِ بـأبْـروَازهـا[1]
تَهْـنَّ مـن فَتْـح عَـزَازٍ نُصْـرةً | أوقعـتِ العُـداة فـي اعْتـزازِهـا
واليــوم ذلَّـتْ حلــبٌ فـإنَّهـا | كـانـت تَنَـالُ العِـزَّ مـن عَـزَازهـا
وحلــبٌ تنفــي كُمُشْتِكينهــا[2] | كما انتفت بغدادُ من قَيْمازِها[3]
بَـرَزْت فـي نصـر الهـدى بحجَّـةٍ | وضـوحُ نهـج الحقِّ فـي إبـرازهـا
كـم حـامـلٍ للـرُّمْـح عـاد مبـديـاً | عَجْزَ عجوز الحيِّ عن عكَّازها
ارفَعْ حظوظي من حضيض نقصها | وعــدِّ عَــنْ همَّــازِهــا لَمَّــازِهــا
والشِّعْـرُ لا بُـدّ لـهُ مـن بـاعـثٍ | كحاجة الخَيْلِ إلى مِهْمازِها[4]

قال: وأغار عسكر حلب على عسكرنا في مدَّة مقامنا على عَزاز، فأخذوا على غِرَّة وغفلة ما تعجَّلوه، وعادوا، فركب أصحابنا في طلبهم، فما أدركوا إلا فارساً واحداً، فأمر السلطان بقطع يده بحكم حَرْدِه[5]. فقلت للمأمور، وذلك بِمسْمَع من السُّلْطان: تمهَّل ساعة لعله يقبل مني شفاعة، ثم قلت: هذا لا يحِلُّ، وقدرُك بلْ دينُك عن هذا يجِلّ. وما زلت أكرِّر عليه الحديث حتى تبسَّم، وعادت عاطفته ورحم، وأمر بحبسه، وسرَّني سلامة نفسه. ودخل ناصر الدِّين بن أسد الدِّين، وقال: ما هذا[6] الفشل والوَنَى، وإن سكتُّم أنتم فما أسكت أنا. ودمدم وزمجر، وغضب وزأر، وقال[6]: لِمَ

(١) في الأصل: بأبراوزها، وفي (ل): بأبرازها، والمثبت من (م)، وهو ملك من ملوك الفرس، قال السهيلي: هو كسرى الذي كتب إليه النبي ﷺ، ومعنى أبرويز عندهم: المظفر، انظر «تاج العروس»: (برز).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٨ من هذا الجزء.
(٣) انظر ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ من هذا الجزء.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٣.
(٥) الحَرْد: الغيظ والغضب. «اللسان» (حرد).
(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (ل).

لا يُقْتلُ هذا الرجل ولماذا اعتقل! فوعظه السُلْطان واستعطفه، وسكَّن غَيْظه وتعطَّفه، وتلا عليه ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1] وأُطلق سراحه، وتمَّ في نجاته نجاحُه[2].

٢٥٨/١

فصـــل

في وثوب الحشيشيّة على السُلْطان مرّة ثانية على عَزاز*، وكانت الأُولى على حلب

قال العماد: وفي حادي عشر ذي القَعْدَة قفز الحششية على السُلْطان ليلة الأحد وهو نازلٌ على عَزَاز، وكان للأمير جاولي الأسدي خيمة قريبةٌ من المنجنيقات، وكان السلطان يحضر فيها كل يوم لمشاهدة الآلات وترتيب المهمات، وحضِّ الرجال، والحثّ على القتال. وهو بارٌّ ببثِّ أياديه، قارٌّ على الدَّهر بكفِّ عواديه، والحشيشيّة في زِيِّ الأجناد وقُوف، والرجال عنده صفوف، إذ[3] قَفَزَ واحدٌ منهم[3] فضرب رأسه بسكّينِه، فعاقَتْه صفائح الحديد المدفونة في كمتَّه عن تمكينه، ولفحت المدية خدَّه فخدشته. فقوَّى السُلْطان قلبه، وحاش رأس الحشيشيّ إليه وجذبه، ووقع عليه وركبه، وأدركه سيف الدين يازكوج[4] فأخذ حُشاشة الحشيشي وبضّعه، وقطَّعه، وجاء آخر فاعترضه الأمير داود بن منكلان فمنعه، وجرحه الحشيشي في جنبه، فمات بعد أيام. وجاء آخر فعانقه الأمير علي بن أبي الفوارس، وضمّه من تحت إبطيه، وبقيت يَدُ الحشيشي من ورائه لا يتمكن من الضَّرْب،

(١) سور فاطر، الآية: ١٨.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٤.

(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (م).

(٤) ولاه صلاح الدين سنة (٥٧٩ هـ) قلعة حلب، وذكره أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٩هـ). انظر ٣/ ١٧٣ ــ ١٧٤ من هذا الكتاب.

ولا يتأتى له كشف ما عراه من الكرب، فنادى[1]: اقتلوني معه فقد قتلني، وأذهب قوّتي وأذهلني، فطعنه ناصر الدين بن شِيركُوه بسيفه. وخرج آخر من الخيمة منهزماً، وعلى الفتك بمن يعارضه مُقْدِماً، فثار عليه أهل السُّوق فقطعوه.

وأما السُّلْطان فإنه ركب وجاء إلى سُرَادقه وقد خرعه الحادث، وقرعه الكارث، وصوتُه جَهْوريّ، وزئيره قَسْوريّ، ودم خده سائل، وعِطْف روعه مائل، وطوق كَزَاغُنْده* بتلك الضَّرْبة مفكوك، ونهج سلامته مسلوك. وكان سلا سلامتَهُ، وأقام القوم قيامته، ومن بعد ذلك رعب[2] ورهب، واحترز واحتجب، وضرب حول سُرَادقه على مثال خشب الخَرْكاة* تأزيراً، ووثَّقه[3] تحجيراً، وجلس في بيت الخشب، وبرز للنَّاس كالمحتجب، وما صرَّف إلا من عرفه، ومن لم يعرفه صَرَفه، وإذا ركب وأبصر مَنْ لا يعرفه في موكبه أبعده ثم سأل عنه، فإن كان مُسْتَسْعفاً أو مُستَسعداً أسعفه وأسعده[4].

ومن كتابٍ فاضلي إلى العادل: السَّلامة شاملة، والرَّاحة بحمد الله للجسمِ الشريف النَّاصري حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلا خدشٌ قَطَرَتْ منه قطرات دم خفيفة، انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها. والرُّكوب على رسمه، والحصار لأعزاز* على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً، ولا ما يشغل سراً.

وقال ابنُ أبي طيّ: لما فتح السُّلْطان حِصْن بُزَاعا ومَنْبِج* أيقَن مَنْ

(١) في الأصل: ونادى، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: رغب، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل: مهملة، وفي (م) ووفقه. وفي «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١١ وأوثقه، والمثبت من (ل).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٠ ــ ٢١٢.

بحلب بخروج ما في أيديهم من المعاقل [والقلاع][1]، فعادوا إلى عادتهم في نصب الحبائل للسُّلْطان. فكاتبُوا سِناناً صاحب الحشيشية مرَّة ثانية، ورغَّبوه بالأموال والمواعيد، وحملوه على إنفاذ من يَفْتك بالسلطان. فأرسل ــ لعنه الله ــ جماعةً من أصحابه، فجاؤوا بزِيِّ الأجناد، ودخلوا بين المقاتلة، وباشروا الحرب وأبلوا فيها أحسن البلاء، وامتزجوا بأصحاب السلطان لعلَّهم يجدون فُرْصة ينتهزونها. فبينما السلطان يوماً جالس في خيمة جاولي، والحرب قائمة، والسلطان مشغولٌ بالنظر إلى القتال، إذ وثب عليه أحد الحشيشية وضربه بسكينة على رأسه، وكان رحمه الله محترزاً خائفاً من الحشيشية، لا ينزع[2] الزَّرَدِيَّة* عن بدنه، ولا صفائح الحديد عن رأسه، فلم تصنع ضربة الحشيشي شيئاً لمكان صفائح الحديد. وأحسَّ الحشيشي بصفائح الحديد على رأس السلطان فسَبح يده بالسكينة إلى خَدِّ السلطان، فجرحه وجرى الدم على وجهه؛ فتَعْتَعَ السُّلْطان لذلك.

ولما رأى الحشيشي ذلك هجم على السلطان وجذب رأسه حتى وضعه على الأرض وركبه لينحره. وكان مَنْ حولَ السلطان قد أدركتهم دهشة أخذت بعقولهم.

وحضر في ذلك الوقت سيف الدين يازكوج ــ وقيل: إنه كان حاضراً ــ فاخترط سيفه وضرب الحشيشي فقتله. وجاء آخر من الحشيشية أيضاً يقصد السلطان، فاعترضه الأمير منكلان الكُرْدي[3] وضربه بالسيف، وسبق الحشيشي إلى منكلان فجرحه في جبهته، وقتله منكلان، ومات

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في (م): لا يمنع.

(٣) كذا ورد عند ابن أبي طي، ومرَّ ص ٤٠٩ من هذا الجزء عند العماد الكاتب: داود بن منكلان، وهو الأشبه بالصواب.

منكلان من ضربة الحشيشي بعد أيام. وجاء آخر من الباطنية فحصل في سهم الأمير علي بن أبي الفوارس، فهجم على الباطني ودخل الباطني فيه ليضربه، فأخذه علي تحت إبطه، وبقيت يد الباطني من ورائه لا يتمكَّن من ضربه، فصاح علي: اقتلوه واقتلوني معه. فجاء ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، فطعن بطن الباطني بسيفه، وما زال يُخَضْخِضُهُ فيه حتى سقط ميتاً ونجا ابن أبي الفوارس، وخرج آخر من الحشيشية منهزماً، فلقيه الأمير شهاب الدين محمود؛ خال السلطان، فتنكبَ الباطني عن طريق شهاب الدين، فقصَده أصحابه، وقطعوه بالسُّيوف.

وأما السلطان فإنه ركب من وقته إلى سُرَادقه ودمه على خده سائل، وأخذ من ذلك الوقت في الاحتراس والاحتراز، وضرب حول سرادقه مثال الخَرْكاة*، ونصب له في وسط سُرَادقه برجاً من الخشب كان يجلس فيه وينام، ولا يدخل عليه إلا مَنْ يعرفه، وبَطَلت الحرب في ذلك اليوم، وخاف الناس على السُّلْطان.

واضطرب العسكر، وخاف النَّاس بعضهم من بعض[1]، فألجأت
/٢٥٩ الحال إلى ركوب السلطان ليشاهده الناس، فركب حتى سكن العسكر، وعاد إلى خيمته، وأخذ في قتال عَزَاز* فقاتلها مدَّة ثمانية وثلاثين يوماً حتى عجز من كان فيها وسألوا الأمان، فتسلَّمها حادي عشر ذي الحِجَّة، وصَعِدَ إليها وأصلح ما تهدَّم منها، ثم أقطعها لابن أخيه تقي الدين عمر.

وكانت عَزَاز أولاً للجُفينة[2] غلام نور الدين، فلما ملك السُّلْطان

---

(١) في (م): من بعضهم بعضاً.

(٢) سلف ذكره ص ٣٣١ من هذا الجزء.

مَنْبِج* أخذها منه الملك الصَّالح وقوَّاها لعله يحفظها من الملك الناصر، فلم يبلغ ذلك.

ولما فرغ السلطان من أمر عَزَاز حقد على مَنْ بحلب لما فعلوه من أمر الحشيشيّة، فسار حتى نزل على حلب خامس عشر ذي الحِجَّة[1]، وضربت خيمته على رأس الياروقية* فوق جبل جَوشَن* وجبى أموالها، وأقطع ضياعها، وضيَّق على أهلها، ولم يفسح لعسكره في مقاتلتها، بل كان يمنع أن يدخل إليها شيء أو يخرج منها أحد.

وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين في حارِم*، وكانت إقطاعه في يد نوابه، وكان انتزعها من يد أولاد الداية بعد أن عصى نائِبها.

وكان سببُ خروجه إليها أن السُّلْطان لما نزل على عَزَاز خاف كُمُشْتِكِين أن ينتقل منها إلى حارِم، فخرج إليها، فلما نزل السلطان على حلب ندم كُمُشْتِكِين على كونه خارجاً في حارِم، وخاف أن يجري بين السلطان وبين الأمراء الحلبيين صُلْح فلا يكون له فيه ذكر ولا اسم. فراسل السلطان يتلطَّف معه الحال ويقول: لو فُسِحَ لي في الدُّخول إلى حلب لسارعتُ في الخدمة، وأصلحتُ الأمر على ما يرومه السلطان. وراسل أيضاً الملك الصَّالح والأمراء بحلب يقول لهم: قد حصلتُ خارجاً وقد بلغتني أمورٌ ولا بد من طلبي من الملك الناصر ليأذن لي في الصَّيرورة إليكم، فإن الذي قد حصل عندي لا يمكنني الكلام فيه. فراسل الملك الصَّالحُ السلطانَ في الإذن له في الدخول إلى حلب، فأذن له؛ وطلبوا الرَّهائن منه، فنفَّذ السلطان إليهم رهينة شمس الدين بن أبي المضاء الخطيب[2] والعماد كاتب

(١) في الأصل: حادي عشر ذي الحجة، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) ستردد ترجمته ص ٤٣١ من هذا الجزء.

الإنشاء، وأنفذوا من حلب [إلى السلطان][1] رهينةً نصرة الدين بن زَنكي[2].

وحكى العماد الكاتب قال: لما حصلنا داخل حلب أُخذنا برأي العدل ابن العجمي وجُعِلْنا في بيت، ومنع منا غِلْماننا، ولم يُحضر لنا طعامٌ ولا مِصْباح، وبِتْنا في أنكد عيش.

وفي تلك الليلة دخل كُمُشْتِكين إلى حلب، فلما أصبحوا أُحضرتُ أنا وابنُ أبي المضاء إلى مجلس الملك الصَّالح، وكان عنده ابن عمه عز الدين مسعود بن مودود وجماعة من أرباب الدولة، وكان صاحب الكلام العدل ابن العجمي، فأخذ يتحدث بلثغته، ويترجم بلكنته، ويُضْرِبُ صفحاً عني، ويوهم الجماعة أني بأني.

وما درى الغُمْرُ بأني امرؤ | أُميِّزُ التِّبْرَ من التُّرْبِ
قد عارك الأهوالَ حتى غدا | بين الوَرَى كالصَّارِمِ العَضْبِ
قد راضَه الدَّهْر فلَو أمَّهُ | بخطبِه ما رِيْعَ للخَطْبِ

قال: وعُرضت نسخة اليمين علينا، وصُرفنا، ولم يُلتفت إلينا[3].

فلما صارا إلى السلطان، وأخبراه بما جرى في حقهما من الهوان، علم أن ذلك كان حيلةً عليه حتى دخل كُمُشْتِكين إلى حلب، فأطلق نُصْرَة الدين وقاتل أهل حلب.

ولم يزل منازلاً لحلب إلى انسلاخ سنة إحدى وسبعين وخمس مئة، ثم كان ما سيأتي ذكره.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) هو الأخ الأصغر لنور الدين، وقد سلفت بعض أخباره في الجزء الأول ص ١٥٥، ٣٤٠، ٣٤٨، ٤٣٧. وانظر ص ٩١ من هذا الجزء.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٦.

فصـــل
في باقي حوادث هذه السنة
ودخول قَراقُوش إلى المغرب

قال العماد: وفي سابع شوَّال وصل أخو السُّلْطان شمس الدولة من اليمن إلى دمشق[١].

وذكر ابنُ شَدَّاد أنه قَدِمَ في ذي الحِجَّة[٢].

قلت: ولما سمع السلطان بقُدومه أرسل إليه بالمثال الفاضلي كتاباً أوله ﴿أَنَا يُوسُفُ وهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا﴾[٣]. وقال في آخره: ولقد أحسن عدنان المبشر، إذ طلع علينا طلوعَ الفجر قبل شمسه، وغَرَسَ في القلوب ما يسرُّنا ويسّره جنى غَرْسه.

قال ابن أبي طيّ: كان سببُ خروجه من اليمن[٤] كراهية البلاد، والشَّوْق إلى أخيه الملك النَّاصر، وأن يُرِيَ ملوكَ الشَّام وغيرها وأمراء[٥] العساكر ما أنعم الله به عليه من النِّعم والأموال.

قال: وحُكي أنَّه لما تحدَّث النَّاس بخروج شمس الدّولة من اليمن كان باليمن رجلٌ يقال له عَبَّاس، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشي صاحب عدن، وكان بين عباس وياسر عداوة، فافتعل عباس كتاباً على لسان ياسر،

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٠٦.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٢.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٩٠.
(٤) في (م): البلاد.
(٥) في الأصل: وأمر، والمثبت من (ل) و (م).

وزوّر عليه علامته إلى زيد بن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه: إن شمسَ الدولة سائرٌ إلى أخيه الملك النَّاصر إلى الشَّام، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن؛ فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة والرشوة يبق[1] لكم. واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضراء[2] يحاصِرُه.

فلما وقف شمسُ الدولة على الكتاب استدعى ياسراً وقال له: هذا خَطُّك وعلامتك؟ قال: كأنه هو. قال: فبأي شيء استحققت منك [هذا][3] وقد قرَّبت منزلتك، وأبقيتُ عليك بلادك، ورفعت بضبعك على أهل إقليمك. وأراه الكتاب. فلما وقف عليه ياسر حلف أنه ما كتبه، ولا يعرفه، ١/ ٢٦٠
ولا أملاه لأحد، ولم يعلم خبره. فلم يصدِّقه شمس الدولة، وأمر به فقتل صبراً بين يديه. فهاب شمسَ الدولة ملوكُ اليمن، وحملوا إليه الأموال، وحلفوا له على الطاعة.

ثم إن شمس الدولة خرج إلى تهامة، وتوجَّه إلى الشام، واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، وعثمان بن علي الزَّنجيلي على عدن[4]، وتوجَّه إلى حَضْرَمَوْت ففتحها، واستناب عنه بها رجلاً كردياً يسمى هارون، وكان مقامه بشِبام[5]، واستمرَّ الكُرْدي بها مدَّة.

---

(١) في الأصل: وتبقى، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) حصن في جبال وصاب من عمل زبيد. «معجم البلدان»: ٢/ ٣٧٦.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) سترد أخبارهما في ٣/ ٩٢ ـ ٩٧ من هذا الكتاب، وانظر ص ٢٧١ ـ ٢٧٦ من هذا الجزء.
(٥) شبام حضرموت: هي إحدى مدينتي حضرموت، والأخرى تريم. «معجم البلدان»: ٣/ ٣١٨، و «منتخبات في أخبار اليمن» لنشوان الحميري: ١٣، ١٤، ٥٣.

ثم إنَّ صاحب حضرموت تحرَّك وجمع، فقتل، وعاث هارون في تلك البلاد واستقام أمره. وولّى شمسُ الدولة ثغر تَعِز مملوكه ياقوت، وجعل إليه أمر الجند، وولّى قلعة تَعْكُر[1] مملوكه قايماز.

قال: وكان وصول شمس الدّولة إلى السُّلْطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم، وكان شمس الدولة [هو][2] سبب الظَّفر، وأعطاه السلطان سُرَادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات، وولاه دمشق وأعمالها والشام، وأمره أن يكون في وجه الفرنج لأن السُّلْطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج كعادتهم.

قال: وفيها قُتِلَ صدِّيق بن جَوْلة[3] صاحب بُصرى* وصَرْخد* قَتله[4] ابنُ أخيه، وملك بعده بُصْرى وصَرْخد[4] شهوراً، فكاتبه شمس الدولة أخو السلطان، وحلف له على ما يريده من إقطاع، واقترح شمس الدولة أن يكتب هو ما يريده ليحلف عليه، فأنفذ من بُصْرى نسخة يمين كتبها قاضي بُصْرى، وكان قليل المعرفة بالفقه والتصرُّف في القول، فلم يستَقْصِ فيها وجوه التّأويل. فلما استوثق بها من شمس الدولة وخرج إليه تأوَّل عليه شمس الدولة في اليمين وقبضه، ثم أقطعه عشرين ضيعة، ثم أخذها منه بعد أيام[5].

قال: وفيها عصى الأمير غرس الدين قليج بتل خالد* بسبب كلام جرى

---

(١) في الأصل و (ل): مهملة، وفي (م): بعكر ــ بالباء الموحدة ــ وهو تصحيف، وتعكر: اسم غير قلعة باليمن. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٣٤.

(٢) ما بين حاصرتين مثبت من (ل) و (م).

(٣) الضبط من (ل).

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) في طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٦٠ بعد أن قتله.

بينه وبين كُمُشْتِكِين، فأنهَدَ إليه من حَلَب عسكراً فحاصروه أياماً، وسَلَّم الحِصْن، وصَلُحت[1] حاله.

قال: ولما ملك شمس الدولة اليمن سَمَتْ نَفْسُ ابن أخيه تقيِّ الدِّين إلى المُلك، وجعل يرتاد مكاناً يحتوي عليه[2]، فأُخبر أنَّ قلعة ازبري هي فم درب المغرب، وكانت خراباً فأشير عليه بعمارتها، وقيل له: متى عُمرت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلِكَت بَرْقة*، وإذا مُلكت بَرقة مُلك ما وراءها. فأنفذ مملوكه بهاء الدِّين قَرَاقُوش، وقدَّمه على جماعةٍ من أجناده ومماليكه، فصاروا إلى القلعة المذكورة، وشرعوا في عمارتها.

واجتمع بقراقوش رجلٌ من المغرب[3] فحدَّثه عن بلاد الجريد وفَزَّان، وذكر له كثرة خيرها، وغزارة أموالها، وضعف أهلها، ورغَّبه في الدُّخول إليها، فأخذ جماعة من أصحابه، وسار في حادي عشر المحرَّم من هذه السنة، فكان يكمن النَّهار ويسير الليل مدَّة خمسة أيام، وأشرف على مدينة أَوْجَلة[4]، فلقيه ملكها[5]، وأكرمه واحترمه، وسأله المقام عنده ليعتضد به، ويزوِّجه بنته، ويحفظ البلاد من العرب، وله ثُلُث[6] ارتفاعها[7]، ففعل قَراقُوش ذلك، فحصل له من ثلث[6] الارتفاع ثلاثون ألف دينار، فأخذ عشرة آلاف لنفسه، وفرَّق على رجاله عشرين ألفاً.

---

(١) في (م): وحسنت.

(٢) انظر ص ٢٦٧ من هذا الجزء.

(٣) في (م): العرب.

(٤) مدينة جنوبي برقة نحو المغرب، فيها نخل وشجر كثير وفواكه، «معجم البلدان»: ١/ ٢٧٦.

(٥) في (ل): مالكها.

(٦ ــ ٦) ما بينهما ساقط من (م).

(٧) أي دخلها.

وكان إلى جانب أَوْجَلَة مدينة يقال لها الأزراقية[1]، فبلغ أهلها صنيع قَرَاقُوش في أَوْجَلَة وأنه حرس غلالهم، فصاروا إليه، ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه، ورغَّبوه في المصير إليهم على أنهم يملكونه عليهم. فأجاب إلى ذلك، واستخلف على أَوْجَلَة رجلاً من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة فوارس من أصحابه، فحصل لِقَرَاقُوش أموال كثيرة.

واتفق أنَّ صاحب أَوْجَلَة مات، فقتل أهلُ أَوْجَلَة أصحابَ قَرَاقُوش، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عَنْوَةً، وقتل من أهلها سبع مئة رجل، وغنم أصحابه منها غنيمةً عظيمة، واستولى على البلد.

ثم إنَّ أصحابه رغبوا في الرُّجوع إلى مصر، وخشي قَرَاقُوش أن يقيم وحدَه فرجع معهم. فلما حصل بمصر طاب له المقام وثَقُلَ عليه العَوْد، وزوَّجه تقي الدين بإحدى جواريه. وكان استناب بأَوْجَلَة، وقال لأهلها: أنا أمضي إلى مصر لتجديد رجالٍ، وأعود إليكم.

قال ابن الأثير: وفي ربيعٍ الآخر سنة إحدى وسبعين استوزر سيف الدين صاحبُ الموصل جلالَ الدين أبا الحسن علي بن جمال الدين الوزير[2] ــ رحمهما الله تعالى ــ ومكَّنه في ولايته، فظهرت منه كفاية لم يظُنَّها النَّاس، وبدا منه معرفةٌ بقواعد الدول وأوضاع الدواوين، وتقرير الأمور، والاطِّلاع على دقائق الحسبانات، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حَيَّرت العقول، ووضع في كتابة الإنشاء وضعاً لم يعرفوه.

وكان عمره حين ولي الوزارة خمساً وعشرين سنة، ثم قبض عليه في

---

(١) في «معجم البلدان»: ١/ ٢٧٦ أرزاقية.

(٢) انظر ترجمة والده جمال الدين ص ٤٢٠ وما بعدها من الجزء الأول.

شعبان سنة ثلاث وسبعين، وشفع فيه كمال الدين بن نيسان وزير صاحب آمِد* ــ وكان قد زوَّجه بنته ــ فأُطلق وسار إليه، وبقي بآمِد يسيراً مريضاً، ثم فارقها، وتُوفي بدُنَيْسَر* سنة أربعٍ وسبعين، وحُمل إلى الموصل فدفن بها، ثُمّ حمل منها في موسم الحج إلى المدينة، ودُفِنَ عند والده. وكان من أحسن النَّاس صورةً ومعنًى، رحمه الله تعالى[(١)].

قال: ثم إن سيف الدين استناب دُزْدَاراً* بقَلْعَة الموصل[(٢)] الأمير
١/٢٦١ مجاهد الدين قايماز[(٣)] في ذي الحِجَّة سنة إحدى وسبعين، وردَّ إليه أزمَّة الأُمور في الحَلِّ والعَقْد، والرفع والخفض، وكان بيده قبل هذه الولاية مدينة إرْبِل* وأعمالها، ومعه فيها ولدٌ صغير لزين الدِّين علي، لقبه أيضاً زين الدِّين، فكان البلد لولد زين الدِّين اسماً لا معنى تحته، وهو لمجاهد الدِّين صورة ومعنًى[(٤)].

قلت: وفي حادي عشر رجب توفِّي حافظ الشَّام أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر صاحب التاريخ الدِّمشْقي[(٥)]. رحمه الله تعالى، وحضر السُّلْطان صلاح الدِّين جِنازته، ودفن في مقابر باب الصَّغير[(٦)].

وفيها[(٧)] قدم [دمشق][(٨)] أبو الفتوح عبد السَّلام بن يوسف بن

---

(١) «الباهر»: ١٧٧. قلت: وستأتي بعض أخبار ابن نيسان ص ١٤٦ من الجزء الثالث.
(٢) الموصل، ساقطة من (م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من هذا الجزء.
(٤) «الباهر»: ١٧٧.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥ من الجزء الأول.
(٦) انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/١٠٥ ــ ١١١ بتحقيقي، وقد استقصيت ثمة مصادر ترجمته.
(٧) هذا الخبر بأكمله ساقط من (م).
(٨) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).

محمد بن مُقلَّد الدمشقي الأصل، البغدادي المولد، التّنوخي الجُماهِري[1] الصُّوفي ابن الصُّوفي، ذكره العماد في «الخريدة» وقال: كان صديقي، وجلس للوعظ، وحضر عنده صلاح الدِّين وأحسن إليه، وعاد إلى بغداد.

وذكر العماد من أشعاره مقطَّعات، منها في الحقائق، وأنشدها في مجلسه:

يا مالكاً مُهْجتي يا مُنْتهى أمَلي ... يا حاضراً شاهداً في القَلْب والفِكَرِ
خَلَقْتني من تُرابٍ أنتَ خالِقُهُ ... حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّوَرِ
أجريتَ في قالبي رُوحاً منوَّرَةً ... تَمُرُّ فيه كَجَري الماء في الشَّجرِ
جمَعْتَ بين صَفَا رُوحٍ منَّورَةٍ ... وهيكلٍ صُغْتَهُ من مَعْدِنٍ كَدِرِ
إنْ غِبتُ فيك فيافَخري ويا شَرَفي ... وإنْ حضرتُ فيا سَمْعي ويا بَصَري
أو احتجبتُ فَسِرِّي منك في وَلَهٍ ... وإنْ خَطَرْتُ فقَلْبي منك في خَطَرِ
تبدو فتمحُو رسُومي ثم تثبتُها ... وإنْ تَغَيَّبْتَ عنِّي عشتُ بالأثَرِ[2]

---

(١) الجُماهري: بضم الجيم وتخفيف الميم نسبة إلى جماهر بن الأشعر من القحطانية، من نسله الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، توفي عبد السلام بن يوسف سنة (٥٨١ هـ)، ووالده يوسف بن محمد كان فقيهاً محدثاً صوفياً، تفقه ببغداد على أبي منصور الرزاز، ثم انقطع برباط أبي النجيب السهروردي، وأدخله الخلوة، وصنف كتاباً في أسماء الرجال، سماه «الارتجال»، رجع في آخر عمره إلى دمشق وهو مريض بالاستسقاء، وتوفي فيها سنة (٥٥٨ هـ) ودفن بقاسيون. انظر «طبقات الشافعية» للإسنوي: ١/٣٦٦ ـ ٣٦٧ وفيه: الجماهيري، وهو تصحيف، وانظر «الإشتقاق» لابن دريد: ٤١٦، و «تاج العروس» (جمهر)، و «جمهرة أنساب العرب»: ٣٩٧، و «النجوم الزاهرة»: ٦/٩٩.

(٢) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ج ٣/٣١٥ ـ ٣١٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ، وترتيب الأبيات.

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين [وخمس مئة][1]:

قال العماد: والسُّلْطان مقيمٌ بظاهر حلب، فعرف أهلُها أنَّ العُقوبة أليمة، والعاقبة وخيمة. فدخلوا من باب التذلُّل، ولاذوا بالتوسُّل، وخاطبوا في التَّفضُّل، وطلبوا الصُّلح، فأجابهم، وعفا وعفّ، وكفى وكفّ، وأبقى للملك الصَّالح حلب وأعمالها، واستقرى كل عثرة لهم وأقالها؛ وأراد له الإعزاز، فرد عليه عَزَاز[2]*.

وقال ابنُ شدَّاد: أخرجوا إليه ابنةً لنور الدين صغيرة سألت منه عَزَاز، فوهبها إياها[3].

قال ابن أبي طيّ: لما تَمَّ الصُّلْح، وانعقدت الأيمان، عوَّل الملك الصالح على مراسلة السلطان، وطلب عَزَاز منه، فأشار الأمراء عليه بإنفاذ أخته ــ وكانت صغيرة ــ فأُخرجت إليه، فأكرمها السُّلْطان إكراماً عظيماً، وقدَّم لها أشياء كثيرة، وأطلق لها قلعة عَزَاز، وجميع ما فيها من مالٍ وسلاح وميرة وغير ذلك.

وقال غيره[4]: بعث الملك الصَّالح أُخته الخاتون بنت نور الدين إلى صلاح الدين في الليل فدخلت عليه، فقام قائماً، وقبَّل الأرض، وبكى على نور الدين، فسألت أن يردَّ عليهم أعزاز فقال: سمعاً وطاعة. فأعطاها إياها، وقدَّم لها من الجواهر والتُّحَف والمال شيئاً كثيراً، واتفق مع الملك الصَّالح أنّ له من حماة [و][5] ما فتحه إلى مصر، وأن يطلق الملك الصالح أولاد الدَّاية[4].

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٧.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٢.

(٤ ــ ٤) ما بينهما ساقط من (م).

(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).

قال العماد: وحلفوا له على كلٍّ ما شرطه، واعتذروا عن كل ما أسخطه، وكان الصُّلح عامّاً لهم وللمَوَاصلة وأهل ديار بكر. وكُتب في نسخة اليمين أنه إذا غدر منهم واحدٌ وخالف، ولم يَفِ بما عليه حالف، كان[1] الباقون عليه يداً واحدة، وعزيمةً متعاقدة، حتّى يفيءَ إلى الوفاء والوفاق، ويرجع إلى مرافقة[2] الرفاق.

فلما انتظم الصُّلْح ذكر السُّلْطان ثأره عند الإسماعيلية، وكيف قصدوه بتلك البليّة، فرحل يوم الجمعة لعشر بقين من المحرَّم، [فحصر][3] حصنهم مصياث*، ونصب عليه المجانيق الكبار، وأوْسعهم قتلاً وأسراً، وساق أبْقارهم، وخرَّب ديارهم، وهدم أعمارهم، وهتك أستارهم، حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، وكانوا قد راسلوه في ذلك لأنهم جيرانه، فرحل عنهم، وقد انتقم منهم[4].

قال: وكان الفرنج قد أغاروا على البقاع، فخرج إليهم شمس الدين [محمد][5] بن عبد الملك المعروف بابن المقدَّم، وهو متولّي بَعْلَبكَّ ومقْطَع أعمالها، ومُدَبِّر أحوالها، والمتحكّم في أموالها، فقتل منهم وأسر أكثر من مئتي أسير، وأحضرهم عند السُّلْطان وهو على حصار مصياث، فجدَّد منه إلى غزو الفرنج الانبعاث[6].

---

(١) في (م): قال، وهو تحريف.
(٢) في (ل): موافقة.
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٧ ــ ٢١٩.
(٥) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢١٩.

قال ابن أبي طيّ: وهذا أكبر الدواعي في مصالحة السلطان لسنان وخروجه من بلاد الإسماعيلية، لأن السلطان خاف أن تهيج الفرنج في الشام الأعلى، وهو بعيدٌ عنه، فَرُبَّما ظفروا من البلاد بطائل، فصالح سِناناً وعاد إلى دمشق.

قال العماد: وكان قد خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الفرنج على الخروج، وباسطهم عند عين الجر* في تلك المروج؛ ووقع من أصحابه عِدّة في الإسار، منهم سيف الدين أبو بكر بن السَّلاَّر.

ووصل السُلْطان إلى حماة وقد استكمل الظَّفَر، واجتمع فيها بأخيه

١/٢٦٢ شمس الدولة ثاني صفر، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر؛ وتعانق الاخوان في المخيّم بالميدان، وتحدَّثا في الحدثان، وروعات الفراق، ولوعات الأشواق.

وكان قد وصل إلى السُلْطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمَّنه أبياتاً أظنها من شعر ابن المنجِّم المِصْري[1]، أولها:

---

(١) هو أبو الحسن علي بن مفرج نشو الدولة ــ وعند ابن خلكان: نشو الملك ــ شاعر، معري الأصل، مصري الولادة والوفاة، من طبقة ابن الذروي وابن قلاقس، ولد سنة (٥٤٩ هـ)، وتوفي سنة (٦٢٠ هـ)، وكان قد ضمن الصابون والملاهي، وارتكب في عسف الناس المناهي، فعذب بالنفي إلى عيذاب. انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/١٦٨ ــ ١٦٩، و «وفيات الأعيان»: ١/١٩٧، وفي «الخريدة» ذكر قصيدة عينية أخرى غير هذه، كتبها عن شمس الدولة، منها:

ولما تمادت مدة البين بيننا   ونازعني قلب إلى الشام نازع

وكان ابن المنجم والعماد الأصفهاني يتعاوران النظم على هذا الروي، ابن المنجم عن لسان شمس الدولة، والعماد عن لسان صلاح الدين، وسيأتي بعض هذه القصيدة ص ٦٤ ــ ٦٥ من الجزء الثالث.

الشَّوْقُ أَوْلَعُ بالقُلوبِ وأوْجَعُ ... فَعَلامَ أَدْفَعُ منه ما لا يُدْفَعُ

منها:

وَحَمَلْتُ مِنْ وَجْدِ الأَحِبَّة مُفْرداً ... ما ليس تحمِلُه الأَحِبَّةُ أَجْمَعُ
لا يَستقرُّ بيَ النَّوى في موضعٍ ... إلا تقاضاني التَّرحُّلَ مَوْضِعُ
فإلى صلاح الدِّين أشكو أنني ... مِن بُعده مُضْنَى الجوانح مُوْجَعُ
جَزِعاً لِبُعْدِ الدَّار منه ولم أكن ... لولا هواه لِبُعْدِ دارٍ أَجْزَعُ
فلأركبنَّ إليه مَتْنَ عَزائمي ... ويَخُبُّ بي رَكْبُ الغَرامِ ويُوضِعُ
حتى أشاهِدَ منه أسعدَ طَلْعَةٍ ... من أُفْقِها صُبْحُ السَّعادةِ يَطْلُعُ

قال العماد: فسألني السلطان أن أكتب له في جوابها على رَوِيِّها ووزنها، فقلت، فذكر قصيدةً، منها:

مولاي شمسَ الدَّوْلَةِ الملك الذي ... شَمْسُ السِّيادَةِ من سَنَاه تَطْلُعُ
مالي سِواكَ من الحوادث ملجأٌ ... مالي سِواك من النَّوائِب مَفْزَعُ
ولأَنْت فَخْرُ الدين فخري في العُلا ... ومَلاذُ آمالي ورُكني الأَمْنَعُ
إلا بخدمتِك المُجلَّة موقعي ... والله ما للملك عندي مَوْقَعُ
وبغير قُرْبِكَ كلُّ ما أرجوه من ... دَرْكِ المُنى متعذِّرٌ متمنِّعُ
النَّصْرُ إن أقبلتَ نحويَ مُقْبِلٌ ... واليُمْنُ إنْ أسرعتَ نحويَ مُسْرِعُ

قال: ثم سرنا إلى دمشق، ووصلنا إليها سابع عشر صفر، وفوَّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظَّم شمس الدولة، وعزم إلى مِصْر السَّفر(١).

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

فصـــل

في ذكر جماعةٍ من الأعيان
تجدَّد لهم ما اقتضى ذكرُهُ في هذه السنة

قال العماد: في السَّادس من المحرَّم توفي بدمشق القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزُوْري[1]، وعمره ثمانون سنة، لأن مولده في سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة. وكان في الأيام النُّورية بدمشق هو الحاكم المتحكِّم، وصلاح الدين إذا ذاك يتولى الشِّحْنكية* بدمشق، وكمال الدين يعكس مقاصده بتوخّيه الأحكام الشرعيّة، وربما كسر أغراضه، وأبدى عن قَبُوله إعراضَه، ويقصد في كل ما يعرض له اعتراضه، وكم صبر على جماحه بحلمه وراضه، إلى أنْ نقله الله سبحانه من نيابة الشِّحْنكية إلى المُلك، وصار كمال الدين من قضاة ممالكه المنتظمة في السِّلْك، وكان في قلبه منه ما فيه، وما فَرَطَ منه فات وقت تلافيه. فلما ملك دمشق أجْرَاه على حكمه، ولم يؤاخِذه بجُرمه، واحترم نوَّابه، وأكرم أصحابه، وفتح للشَّرْع بابه، وخاطبه واستحسن جوابه، ولم يزل يستفتيه ويستهديه، ويعرض على رأيه ما يعيده ويبديه.

وكان ابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشَّهْرُزُوري[2] قد هاجر إلى

---

(١) سلف من أخباره ما يدل على منزلته العالية في دولة نور الدين، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام»: ٢/ ٣٢٣ ــ ٣٢٧، و «المنتظم»: ١٠/ ٢٦٨، و «مرآة الزمان»: ٨/ ٢١٥ ــ ٢١٦، و «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٥، و «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤١ ــ ٢٤٤، و «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٥٧ ــ ٦٠، و «الوافي بالوفيات»: ٣/ ٣٣١ ــ ٣٣٢، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ١١٧ ــ ١٢١، و «طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ٩٩ ــ ١٠٠، وانظر ص ٣٨٨ من الجزء الأول.

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٩ هـ).

صلاح الدين بمصر في ريعان ملكه، وأذنت هجرته في درك إرادته بإدارة فلكه[1]، وأنعم عليه هناك بجزيرة الذَّهب، ومن دار الملك بمصر بدار الذهب*، ووفَّر حظه من الذَّهب، وملَّكه داراً بالقاهرة نفيسةً جميلة، جليَّةً جليلة، ورتَّب له وظائف، وخصَّه بلطائف، ووصل مع صلاح الدين إلى الشَّام، وأمْرُه جارٍ على النِّظام[2].

ولما اشتدَّ بكمال الدين المرض، وكاد يفارق جَوْهَرَه العَرَض، أراد أن يبقي القَضاء في ذويه، فوصَّى مع حضور ولده بالقضاء لضياء الدين ابن أخيه، علماً منه بأن السلطان يُمضي حُكمه لأجل سوالفه، ويجعلُه عنده من عوائد عوارفه. ومات ولم يخلف مثله، ومن شاهده شاهد العَقْل والفَضْل كُلَّه، بارّاً بالأبرار، مختاراً للأخيار، مكرماً للكرام، ماضياً في الأحكام. وقد قوَّاه نور الدين رحمه الله تعالى وولده في أيامه، وسدَّد مرامي مرامه.

وهو الذي سن دار العدل* لتنفذ أحكامه بحضرة السلطان، فلا يبقى عليه مغمزٌ ولا ملمز لذوي الشنآن، وهو الذي تولى له بناء أسوار دمشق، ومدارسها، والبيمارَسْتان، فاستمرَّت عادته واستقرَّت قاعدته في دولة السلطان. وتوفي ونحن بحلب محاصرون[3].

وذكر العماد في «الخريدة» لابنه محيي الدين[4] قصيدةً في مرثيته، منها:

أَلِمُّوا بِسَفْحَيْ قاسيون فَسَلِّموا   على جَدَثٍ بادي السَّنا وترحَّموا

---

(١) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٣ فأذنت هجرته في درك المراد بإدارة فلكه.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٦.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٢ ــ ٢٢٤.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٥٧ من هذا الجزء.

وبالرَّغم منِّي أن أناجيه بالمُنى | وأسأل مَعْ بُعْد المدى من يُسَلِّمُ
/٢٦٣ لقد عَدِمَتْ منك البَرِيَّةُ والداً | أَحَنُّ من الأمِّ الرَّؤوف وأَرْحَمُ
ولا سيَّما إخوانُ صِدْقٍ بجلِّقٍ | هُمُ في سماء المَجْدِ والجُودِ أَنْجُمُ
نَشَرْتَ لواءَ العَدْلِ فوقَ رؤوسهم | فما كان فيهم من يُضَامُ ويُظْلَمُ
لَقِيتَ من الرَّحمن عفواً ورحمةً | كما كنتَ تعفو ما حَيِيتَ وتَرْحَمُ[١]

قال العماد: وجلس ابنُ أخيه ضياء الدين مكانه، وأحسن إحسانه، وأبقى نُواب عمه، وأنفذ أحكامه بنافذ حكمه.

وكان الفقيه شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبي عصرون قد هاجر من حلب إلى السُّلْطان، وقد أنزله عنده بدمشق في ظل الإحسان، وهو شيخ مذهب الشَّافعي رضي الله عنه، والأقوم بالفُتيا، وأعرفهم بما تقتضيه الشريعة من أمر الدِّين والدُّنيا، والسلطان يؤثر أن يفوِّض إليه منصب القضاء، ولا يرى عَزْلَ الضِّياء، فأفضى بسرِّ مراده إلى الأجل الفاضل، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى [أيضاً][٢] يتعصَّب لشيخه، فاستشعر الضياء من العزل، وأُشير عليه بالاستعفاء، ففعل، فأعفي، وبقيت عليه الوكالة الشرعية عنه في بيع الأملاك[٣].

قال العماد: وأول ما اشتريتُ منه بوكالة السُّلْطان الأرضَ التي ببستان بقر الوحش التي بنيتُ فيها المواضع من الحمَّام[٤] والدُّور والاصطبل والخان، وكنتُ قد احتكرتها في الأيام النورية، فملكتُها في الأيام الصَّلاحية.

---

(١) هذا البيت ساقط من (م)، والقصيدة بتمامها في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٣٦ ــ ٣٣٩.
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٤ ــ ٢٢٥.
(٤) هو حمام القُصَير، وقد سلف ذكره ص ١٧ وانظر ص ٤٣٩ من هذا الجزء.

قلت: قد خربت هذه الأماكن في سنة ثلاث وأربعين وست مئة بسبب الحصار[1] واستمرّ خرابها، وعفت آثارها، وصارت طريقاً على حافة بردى وأنت خارج من جسر الصَّفي خارج باب الفرج* مارّاً إلى ناحية الميدان.

قال: فلما استعفى ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوْري من القضاء لم يبق في منصب القضاء إلا فقيه يعرف بالأوحد داود بن إبراهيم بن عمر بن بلال الشَّافعي، وكان ينوبُ عن كمال الدين، فأمره السُّلْطان أن يجري على رسمه، ويتصرف في حُكْمه.

وكان السلطان لإحياء القضاء في البيت الزَّكوي[2] مؤثراً، ولذكر مناقبه مكثراً، وقد سبق منه الوعد للشيخ شرف الدين بن أبي عصرون وهو راجٍ، وبطلب نجاز عِدَته مُناج، ففوض إليه القضاء والحكم والإنفاذ والإمضاء، على أن يتولى محيي الدين أبو المعالي محمد بن زكيّ الدين[3]، والأوحد [داود][4] قاضيين في دمشق، يحكمان، وهما عن نيابته يوردان ويصدران، وتوليتهما بتوقيع من السلطان، ولم يزل الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون متولّياً للقضاء، منفرداً بالحكم والإمضاء، سنة اثنتين وثلاث وسبعين في ولاية أخي السُّلْطان الملك المعظم فخر الدين.

(١) كانت دمشق محاصرة من قبل الخوارزمية وعساكر مصر. انظر تفاصيل هذا الحصار في «المذيل على الروضتين» في حوادث السنة المذكورة.
(٢) سلف أن زكي الدين علي بن محمد بن يحيى قد استعفى من القضاء سنة (٥٥٥ هـ). انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٣، ٣٨٨ من الجزء الأول. وانظر عن القضاء في البيت الزكوي «قضاة الشافعية» للنعيمي: ٤٤، وما بعدها، المنشور في كتاب «قضاة دمشق» لابن طولون.
(٣) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٨ هـ) وهو صاحب أول خطبة في القدس بعد فتحها سنة (٥٨٣ هـ). انظر ص ٣٨٤ من الجزء الثالث وص ٢٩٠ من الجزء الرابع
(٤) ما بين حاصرتين من (م).

فلما عُدْنا إلى الشَّام تكلَّم الناس في ذهاب نور بصره، وأنّه لا يقوم في القضاء بورده وصدره، ففوض السلطان القضاء بالإشارة الفاضلية إلى ابنه محيي الدين أبي حامد محمد[1]، كأنه نائب أبيه، ولا يظهر للنَّاس صرفه عما هو متوليه. واستمر القضاء له إلى انقضاء أشهر من سنة سبع وثمانين، ثم صُرف، واستقلَّ به ابن زكي الدين، فأقام في مدّة ولايته للشرع القواعد والقوانين، وفوّض ديوان[2] الوقوف بجامع دمشق وغيره من المساجد والمشاهد إلى أخيه مجد الدين بن الزكي[3]، فتولاه إلى أن انتقل من أعمال الوقوف[2] إلى موقف اعتبار الأعمال، وتولاّها بعده أخوه محيي الدين على الاستقلال، إلى آخر عهد السلطان وبعده[4].

قلت: وفي صفر وقف السُّلْطان قرية حزم باللِّوى من حوران على الجماعة الذين يشتغلون بعلم الشريعة أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزّاوية الغربية[5] من جامع دمشق المعروفة بالفقيه الزَّاهد نَصْر المقدسي[6] رحمه الله تعالى، وعلى من هو مدرّسهم بهذا الموضع من أصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وجعل النظر لقطب الدين النَّيسابوري رحمه الله[7]، ورأيتُ كتاب الوقف بذلك على هذه الصُّورة، وعليه علامة السلطان رحمه الله تعالى: الحمد لله وبه توفيقي.

(١) سيرد ذكره في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٠١ هـ).
(٢ ـ ٢) ما بينهما ساقط من (م).
(٣) في «سنا البرق الشامي»: إلى القاضي الأجل محيي الدين بن الزكي، وهو خطأ، وقد ورد على الصحيح في نشرة فتحية النبراوي: ١١٣ على اضطراب في العبارة.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.
(٥) هي الزاوية الغزالية، انظرها في كشاف الأماكن.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٦٣ من هذا الجزء.
(٧) انظر ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول.

قال العماد: وفي ليلة الجمعة الثاني عشر من صفر، ونحن في طريق الوصول إلى دمشق، توفي شمس الدين ابن الوزير أبي المضاء بدمشق، وهو أول خطيب بالدِّيار المِصْرية للدولة العباسية. وكان يتولى الرسالة إلى الديوان العزيز، ويقصده الشعراء ويحضره الكرماء، فيكثر خِلَعهم وجوائزهم، ويبعث على مدحه غرائزهم، فحمل السلطان همه، وقرّب ولده، وجبر بِتربيته يُتْمه[1].

ثم تعين ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري بعده للرسالة إلى الدِّيوان، وصارت منصباً له ينافس عليه، واستتبت له هذه السفارة إلى آخر العهد السُّلْطاني، وذلك بعد المضي إلى مصر والعود إلى الشَّام، فإنه بعد ذلك خاطب في هذا المرام، فأما في هذه السنة فإنه كان في مسيرنا إلى مصر في الصُّحبة، وهو متودد[2] إليَّ بصفاء المحبة[3].

وفي آخر صفر تزوَّج السلطان بالخاتون المنعوتة عصمة الدين بنت الأمير معين الدين أُنَر، وكانت في عصمة نور الدين رحمه الله تعالى[4]، فلما

---

(١) هو محمد بن المحسَّن بن الحسين بن أبي المضاء، أصله من بعلبك، ونشأ بمصر، وقرأ الأدب، وعاد إلى دمشق، فسمع بها من ابن عساكر، ورحل إلى بغداد، وسمع بها، وقرأ الفقه والأدب، ثم عاد إلى مصر، واتصل فيها بالسلطان صلاح الدين، وتوفي ولم يبلغ الأربعين. وكان فيه ترفع وتكبر، تراه في هيئته وهيبته كأنه وزير كما وصفه العماد. مدحه بعض الشعراء، منهم سبط ابن التعاويذي انظر «ديوانه»: ١٠٨، وفيه ابن أبي المها، وهو تصحيف، ١٨٥، ٤٨٥ وانظر ترجمته في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٥ ــ ٢٢٦، «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ١٤٢، «الوافي بالوفيات»: ٤/ ٣٨٩ ــ ٣٩٠، «البداية والنهاية»: ١٢/ ٢٩٧، «النجوم الزاهرة»: ٥/ ٣٤٣، وانظر ص ١٩٠ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: متردد، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٦.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤ من الجزء الأول.

توفي أقامت في منزلها بقلعة دمشق، رفيعة القدر، مستقلَّة بأمرها، كثيرة الصّدقات، والأعمال الصَّالحات. فأراد السُّلْطان حفظ حرمتها، وصيانتها
٢٦٤/١ وعصمتها، فأحضر شرف الدين بن أبي عصرون وعُدُوله، وزَّوجه إياها بحضرتهم أخوها لأبيها الأمير سعد الدين مسعود بن أُنَر[(١)] بإذنها، ودخل بها وبات عندها، وقرن بسعده سعدها؛ وخرج بعد يومين إلى مصر[(٢)].

وذكر العماد بعد وفاة ابن الشَّهْرُزُوْري وابن أبي المضاء الأمير مؤيد الدولة أبا الحارث أُسامة بن مرشد بن سديد الملك أبي الحسن عليّ بن منقذ، وعوده إلى الشَّام عند علمه بوصول السلطان، فقال: هذا مؤيد الدولة من الأمراء الفضلاء، والكرماء الكبراء، والسَّادة القادة العظماء، وقد متَّعه الله بالعمر وطول البقاء، وهو من المعدودين من شجعان الشَّام، وفرسان الإسلام.

ولم يزل بنو منقذ ملاَّك شَيْزَر*، وقد جمعوا السيادة والمفخر[(٣)]، ولما تفرد بالمعقل منهم من تولاه، لم يرد أن يكون معه [فيه][(٤)] سواه، فخرجوا منه في سنة أربع وعشرين وخمس مئة[(٥)]، وسكنوا دمشق وغيرها من البلاد،

---

(١) سترد ترجمته ٣/ ٢٤٥ من هذا الكتاب.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٠ ــ ٢٣١.
(٣) انظر ما كتب عن حصن شيزر، وكيف تولاه بنو منقذ ص ٣٥٢ وما بعدها من الجزء الأول.
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) الصحيح أن خروجهم كان سنة (٥٣٢ هـ) بعد وفاة مرشد أبي أسامة، أما أسامة فقد خرج وحده سنة (٥٢٥ هـ) ملتحقاً بزنكي، ثم عاد إلى شيزر ليخرج منها سنة (٥٣٢ هـ) ــ كما ذكرنا ــ إلى دمشق. انظر «أسامة بن منقذ» للأستاذ حسن عباس ١/ ٨٣ ــ ٨٥، ومقدمة د. السَّامرائي لكتاب «الاعتبار» ٨ م، وما بعدها، وانظر ص ٣٥٥ من الجزء الأول.

وكلهم من الأجواد الأمجاد، وما فيهم إلا ذو فضل وبَذْل، وإحسان وعدل، وما مِنْهم إلا منْ له نظمٌ مطبوع، وشِعْرٌ مصنوع[1]، ومن له قصيدة وله مقطوع.

وهذا مؤيد الدولة أعرقهم في الحسب، وأعرفهم في الأدب، وكانت جَرَتْ له نبوةٌ في أيام الدمشقيين، وسافر إلى مصر وأقام هناك سنين، في أيام المصريين، فتمت نوبة قتل المنعوت بالظّافر، وقتل عباسٍ وزيرِهم إخوتَهُ، وإقامة المنعوت بالفائز، وما رَدَفَ[2] ذلك من الهَزَاهز[3]، فعاد مؤيد الدولة إلى الشَّام، وسار إلى حصْن كَيْفا* وتوطَّن. ولما سمع بالملك الصلاحي جاء إلى دمشق، وذلك في سنة سبعين[4]، وقال:

حمدتُ على طول عُمْري المشيبا وإنْ كنتُ أكثرتُ فيه الذُّنوبا
لأني حَيِيتُ إلى أن لقِيتُ بعد العدوِّ صديقاً حبيبا[5]

قال: وكنتُ أسمع بفضله وأنا بأصبهان في أيام الشَّبيبة، وأنشدني له مجدُ العرب العامري[6] بأصفهان في سنة خمسٍ وأربعين هذين البيتين،

---

(١) في (م): منظوم.

(٢) في الأصل: وصادف، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) انظر تفصيل هذه الحوادث ص ٣٠٩ وما بعدها من الجزء الأول.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

(٥) البيتان ليسا في «ديوانه» المطبوع.

(٦) هو مصطفى الدولة أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري، من كبار شعراء العراق في تلك الفترة، أقام في أصفهان من سنة (٥٣٧ هـ) حتى سنة (٥٤٨ هـ). توفي بالموصل سنة (٥٧٣ هـ). انظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ٢/ ١٤١ ــ ١٧١، و «فوات الوفيات»: ٣/ ٨٧، و «الوافي بالوفيات»: ٢٢/ ١٠٩ ــ ١١٠.

وهما من مبتكرات معانيه، في سنٍّ قلعها:

وصاحبٍ لاأَملُّ[1] الدَّهْرَ صُحْبَتَهُ   يشقى لنفعي ويَسْعى سَعْيَ مجتهدِ
لـم أَلْقَـهُ مُـذْ تصـاحبْنـا فحيـن بـدَا   لِنـاظـريَّ افتـرقنـا فُـرْقَـة الأَبَـدِ

قال: فلما لقيته بدمشق في سنة سبعين أنشدنيهما لنفسه؛ مع كثيرٍ من شعره المبتكر من جنسه[2].

قلتُ: ومن عجيبِ ما اتفق أني وجدت هذين البَيْتين مع بيتين آخرين، المجموع أربعة أبيات، في ديوان أبي الحسين أحمد بن منير الأطرابلسي، ومات ابن منير سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة[3]. قرأت في ديوانه: وقال في الضِّرْس:

وصاحبٍ لا أَمَلُّ الدَّهْرَ[4] صُحْبَتَهُ   يشقي لنفعي وأجني ضرَّه بيدي

ثم قال:

أدنى إلى القلب من سمعي ومن بَصَري   ومن تِلادي ومن مالي ومن ولدي
أخلُـو بِبَثِّـيَ مـن خـالٍ بـوجنتـه   مِـداده زائِـدُ التقصيـر للمَـدَد

لم أره مُذْ تصاحبنا.. البيت[5].

---

(١) في الأصل: لم أمل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨، والبيتان في «ديوان أسامة»: ١٥٣.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٩٣ من الجزء الأول.
(٤) في الأصل لم يتم البيت، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في (ل):
لم أره مذ تصاحبنا فحين بدا   لناظريَّ افترقنا فرقة الأبد
وفي (م):
لم أره مذ تصاحبنا فمذ وقعت   عيني عليه افترقنا فرقة الأبد

فالأشبه أنَّ ابن منير أخذهما وزاد عليهما ولهذا غَيَّر فيهما كلمات[(١)].
وقد وجدت هذا البيت الأوّل على صورةٍ أخرى حسنة:

وصاحبٍ ناصح لي في معاملتي[(١)]

ويجوز أن يكون أُسامة أنشدهما متمثلاً فنسبا إليه لما كان مظنة ذلك. ويجوز أن يكون اتفاقاً، والله أعلم.

قال العماد: وشاهدت ولده عضد الدين أبا الفوارس مُرْهَفاً[(٢)] وهو جليس صلاح الدين وأنيسه، وقد كتب ديوان شعر أبيه لصلاح الدين، وهو لشغفه به يفضِّله على جميع الدَّواوين. ولم يزل هذا الأمير العضد مرهف مصاحباً له بمصر والشَّام، وإلى آخر عصره، وتوطن بمصر. فلما جاء مؤيد الدولة أبوه، أنزله أرحب منزل، وأورده أعذب منهل، وملَّكه من أعمال المعرَّة ضيعة زعم أنها كانت قديماً[(٣)] تجري في أملاكه، وأعطاه بدمشق داراً [وإدراراً][(٤)]. وإذا كان بدمشق جالسهُ وآنسه، وذاكره في الأدب ودارسه.

وكان ذا رأي وتجربة، وحنكة مهذَّبة، فهو يستشيره في نوائبه، ويستنير برأيه في غياهبه، وإذا غاب عنه في غزواته، كاتبه وأعلمه بواقعاته ووقعاته، ويستخرج[(٥)] رأيه في كشف مهماته، وحلِّ مشكلاته، وبلغ عمره ستّاً وتسعين سنة، فإن[(٦)] مولده سنة ثمانٍ وثمانين وأربع مئة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمس مئة[(٧)].

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).
(٢) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٣ هـ).
(٣) في الأصل و (ل): قديمة، والمثبت من (م).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٥) في الأصل و (ل): استخرج، والمثبت من (م).
(٦) في (م): كان.
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٢٨، وفيه: توفي سنة خمس وثمانين وخمس مئة، =

قلت: وقد تقدَّم من أخباره في قتل [الأسد][1] في شبيبته أيام كونه بشَيْزَر[2]، وذكرت له أيضاً ترجمة حسنة في «تاريخ دمشق».

فصــــل

في رُجوع السُّلْطان إلى مِصْر

خرج من دمشق يومَ الجمعة، رابع شهر ربيع الأول.

/٢٦٥ قال العماد: ولما استتمت للسلطان بالشَّام أمورُ ممالكه، وأمن على مناهج أمره ومسالكه، أزمع إلى مصر الإياب، وقد أمْحَلت بعده من جُوده[3] جَود السَّحاب، وتقدَّمه الأمراء والملوك. وخرج [بُكْرة][4] يوم[5] الجمعة، ونزل بمرج الصُّفَّر*، ثم رحل عنه قبل العَصْرِ إلى قريب الصَّنَمَيْن*، وخرجتُ معه وقلبي نزوع إلى أهلي، فما نزلتُ منزلاً إلا نَظَمْتُ أبياتاً. فقلتُ يوم المسير وقد عبرتُ بالخِيارة[6]:

أقـول لِـرَكْـبٍ بـالخيـارَة نُـزَّلٍ ... أثيـروا فمـا لـي فـي المقَـام خِيـارُ
هـمُ رحلُـوا عنـك الغـداةَ ومـا دَرَوْا ... بـأنهـمُ قـد خَلَّفـوك وسـاروا
حليـفَ اشتيـاق لا تـرى مـن تحبُّه[7] ... وفـي القَلْـب مِـنْ نـارِ الغَـرَام أُوارُ

= وبلغ سبعاً وتسعين سنة، وهو وهم من المختصر، وانظر ٤/ ٥٩ من هذا الكتاب.

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) انظر ص ٣٥٥ من الجزء الأول.

(٣) في الأصل و(م) جود، والمثبت من (ل). وجَوْد السحاب: أي: السحب التي تجود بالمطر. انظر «معجم متن اللغة» ١/ ٥٩٨.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) يوم، ساقطة من (ل) و (م).

(٦) الخيارة: قرية جنوبي الكسوة بـ ٥ كم، والكسوة هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. انظر «معجم البلدان» ٤/ ٤٦١.

(٧) في (ل) و (م): لا يرى من يحبه.

أجيروا من البَلْوى فؤادي فعندكُمْ ذِمامٌ له يا سادتي وجِوَارُ

وقلت وقد نزلنا بالفُقيع[1]:

رأيتُني بالفقيع منفرداً أضْيَعَ مِنْ فَقْعِ قاعها الضَّائعْ
بعت بمصرٍ دمشقَ عن غَررٍ مني فيا غَبْنَ صَفْقَةِ البائعْ[2]
صبْريَ والقلبُ عاصيان وما غيرُ همومي وأَدْمُعي طائعْ

وقلت بالفَوَّار*:

تحدَّر بالفَوَّار دَمْعي على الفَوْرِ فقلتُ لجيراني أجيرُوا من الجَوْرِ
وأَصْعَبُ ما لاقيتُ أنيَ قانعٌ من الطَّيْفِ مذ بنْتم بزُورٍ من الزَّوْرِ

وقلت بالزَّرقاء*:

وَلَمْ أنسَ بالزرقاء يوم وَدَاعِنا أنامِلَ تَدْمى حَيْرةً للتَّنَدُّمِ
أعدتُك يا زرقاءُ حمراءَ إنني بكيتُك حتى شِيْبَ ماؤك بالدَّمِ
تأخَّر قلبي عِنْدَهُمْ مُتخلِّفاً وخالَفْتُهم في عَزْمتي والتقدُّمِ
فيا ليت شِعْري هل أعودُ إليهمُ وهل لَيْتَ شِعْري نافعٌ للمتيَّمِ[3]

قال: وقلتُ وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشَّوْبك*، وفيها تخطف[4] الفرنجُ القاصدين إلى مصر:

طريقُ مِصْرَ ضيِّقُ المَسْلكِ سالكُهُ لا شكَّ في مَهْلكِ
وَحُبُّ مِصْرٍ صار حُبًّا لمن أوقعه في شَبَكِ الشَّوْبكِ
لكنَّما مِنْ دُونها كعبةٌ محْجُوجة مبرُورة المَنْسَكِ

(١) الضبط من الأصل.
(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣١ ـ ٢٣٢.
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٢.
(٤) في (ل) و (م): تختطف.

بها صلاحُ الدين يُشكي[1] الذي إليــه مــن أيّــامــه يشتكــي

قال: ونظمت في طريق مصر قصيدةً مشتملة على ذكر المنازل بالترتيب، وإيراد البعيد منها والقريب. واتفق أن السلطان[2] سيَّرَ إلى مِصْر الملك المظفر تقي الدين، وكان لا يَسْتدعي من شاديه، إلا إنشادها في ناديه، ويطرب لسماعها، ويعجب بإبداعها، وكان قد فارق أهله بدمشق كما فارقتُ بها أهلي، وجمع الله بهم بعد ذلك شملي. وهي:

هَجَرْتُكُمُ لا عن مَلالٍ ولا غَدْرِ ولكن لمقدُورٍ أُتيحَ مِنَ الأَمْرِ
وأعلمُ أني مخطيءٌ في فِراقِكُمْ وعُذْريَ في ذنْبي وذنْبيَ في عُذري
أرى نُوَباً للدَّهْرِ تُحصى ولا أرى أشدَّ من الهِجْرانِ في نُوَبِ الدَّهْرِ
بعيني إلى لُقْيا سواكم غِشَاوةٌ وسمعيَ عَنْ نجْوى سواكم لَذُو وَقْرِ[3]
وقلبي وصَبْري فارقاني لِبُعْدِكُمْ فلا صَبْرَ في قلبي ولا قَلْبَ في صَدْري
وإني على العَهْدِ الذي تَعهدُونَهُ وسِرِّي لكُمْ سِرِّي وجَهْرِي لكم جَهْري
تجرَّعْتُ صِرْفَ الهَمِّ من كأسِ شَوْقِكُمْ وها أنا في صَحْوي نزيفٌ من السُّكْرِ
وإنَّ زماناً ليس يَعْمُرُ مَوْطني بسُكْناكُمُ فيه فَلَيْس مِنَ العُمْرِ
وأُقسم لو لم يَقْسِمِ البَيْنُ بيننا جَوَى الهَمِّ ما أمسيتُ مُقْتَسَمَ الفِكْرِ
أسيرُ إلى مِصْرَ وقَلْبي أسيرُكُم ومِنْ عَجَبٍ أَسْري وقَلبيَ في أَسْرِ
٢٦٦/١ أخِلاَّيَ قد شَطَّ المَزارُ فأرسلوا الـ ـخيالَ وَزُورُوا في الكَرى وارْبَحُوا أجْري
تذكَّرْتُ أحبابي بجِلِّقَ بَعدمَا ترحَّلْتُ والمشتاقُ يأنَسُ بالذِّكْرِ
وناديتُ صَبْري مستغيثاً فلم يُجِبْ فأسبلْتُ دَمْعي للبكاءِ على صَبْري
ولمَّا قَصَدْنا من دمشقَ غَباغِباً* وبِتْنا من الشَّوْقِ المُمِضِّ على الجَمْرِ

(١) أي يزيله عما يشكوه. وأشكيت من الأضداد، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) في «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٢ في بعض السنين.

(٣) في الأصل: له وقر، والمثبت من (ل) و (م).

نَزَلْنا برأسِ الماء* عند وَدَاعِنا ... موارد من ماءِ الدُّموعِ التي تجري

نزلنا بصَحْراء الفُقيع وغُودِرَتْ ... فواقعُ من فَيْضِ المَدَامعِ في الغُدْرِ

ونهنهتُ بالفَّوار* فيضَ مدامعي ... ففاضت وباحَتْ بالمكتَّم من سِرِّي

سَرَينا إلى الزَّرْقاء* منها ومن يُصِبْ ... أُواماً(١) يَسِرْ حتى يرى الوِرْدَ أو يَسْرِي(٢)

تذكَّرْتُ حَمَّام القُصَيرِ(٣) وأهلَه ... وقد جُزْتُ بالحَمَّام في البَلَدِ القَفْرِ

وبالقريتَين القرْيتَين وأين من ... مغاني الغواني منزل الأُدْم والعُفْرِ

ورَدْنا من الزَّيتون* حِسْمَى* وأيلةً* ... ولم نستَرِحْ حتى صَدَرْنا إلى صَدْرِ*

غَشِينا الغَوَاشي* وهي يابسةُ الثَّرى ... بعيدةُ عهْد القُطْرِ بالعَهْدِ والقَطْرِ

وضَنَّ علينا بالنَّدى ثَمَدُ الحصى ... ومن يرتجي رِيًّا من الثَّمَدِ النَّزْرِ

فقلتُ اشرحي بالخمسِ صَدْراً مطيَّتي ... بِصَدْرٍ وإلا جادَكَ النَّيْلُ للعشْرِ

رأينا بها عَيْنَ المواساة إننا ... إلى عين موسى* نَبذلُ الزَّادَ للسَّفْرِ

وما جَسَرَتْ عَيْني على فَيْضِ عبرةٍ ... أُكَفْكِفُها حتى عَبَرنا على الجِسْرِ

ومِلْنا إلى أَرْض السَّدِير وجَنَّةٍ ... هنالك من طَلْح نضيدٍ ومن سِدْرِ

وجُبْنا الفَلا حتى أصَبْنا مباركاً ... على بركة الجُبِّ* المبشِّر بالقَصْرِ

ولما بدا الفُسْطاط بَشَّرْتُ رِفقتي ... بمن يتلَقَّى الوَفْدَ بالوَفْر والبِشْرِ

بَكَتْ أُمُّ عمرو مِنْ وشيكِ تَرَحُّلي ... فيا خَجْلَتي مِنْ أُم عمرٍو ومِنْ عمرو

تقول إلى مِصْر تصير(٤) تعجُّباً ... وماذا الذي تبغي ومَنْ لك في مِصْرِ

---

(١) الأوام: شدة العطش. انظر «اللسان» (أوم).

(٢) أُشبعت كسرة الراء للوزن.

(٣) هو الحمام الذي بناه العماد قرب باب الفرج بدمشق، وقد سلف ذكره ص ١٧، ٤٢٨ ــ ٤٢٩ من هذا الجزء. وقد أخطأ الدكتور محمد حلمي في تعيين هذا الموضع في نشرته للروضتين ق ٢/ ٦٨١ فقال: بالغور من أعمال الأردن! وانظر ص ٧ من الجزء الأول.

(٤) في (ل) و (م): تسير.

فقلتُ ملاذي النَّاصرُ المَلِكُ الذي حَصَلْتُ بجَدْواه على المُلْكِ والنَّصْرِ
فقالتْ أقِمْ لا تَعْدَمِ الخيرَ عندنا فقلتُ وهل[1] تُغْني السَّواقي عن البحرِ
ثِقي برجوعٍ يَضْمَنُ اللهُ نُجْحَه ولا تَقنطي[2] أنْ يُبْدل[3] العُسْرُ باليُسْرِ
عطيّتُهُ قد ضاعَفَتْ مُنَّةَ الرّجا ومِنّتُه[4] قد أضعفت مُنَّةَ الشُّكْرِ[5]

قال: وكان الدُّخول إلى القاهرة يوم السبت سادس عشر ربيع الأول بالزِيّ الأجمل والعِزّ الأكمل.

وتلقَّى السُّلْطان أخوهُ ونائبه الملك العادل سيف الدين إلى صَدْر*، وعبر إلينا عند بحر القُلْزُم[6] الجِسْر، وتلقَّانا خَيْرُ مصر، وجُلِبَتْ[7] إلينا ثمراتُها، وجُليت علينا زهراتها، فظهر بنا نشاطها، وزاد اغتباطها، ودخل السُّلْطان داره، ووفق الله في جميع الأمور إيرادَهُ وإصْداره[8].

وكانت قد صَعُبت عليَّ مفارقة دمشق وأهلها، لِقلَّة الوثوق بأنّي أحصل بمثلها، فنظمت[9] يوم خُروجي منها أبياتاً إلى ناصر الدين محمد بن

---

(١) في الأصل: فهل، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل و (ل): ولا تقتضي، والمثبت من (م).
(٣) في (م): يبذل، وهو تصحيف.
(٤) في (ل) و (م): نعمته، والمنة: بكسر الميم النعمة، وبضمها: القوة، «اللسان» (منن).
(٥) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/٦ ــ ٩، و «سنا البرق الشامي»: ١/٢٣٢ مع اختلاف في بعض الألفاظ. وللعماد قصيدة أخرى في ذكر هذه المنازل، ستأتي ٣/٦٩ ــ ٧١ من هذا الكتاب، وفيها تعريف ببعض ما ورد منها هنا.
(٦) هو البحر الأحمر.
(٧) في الأصل و(ل): ووصلت، والمثبت من (م).
(٨) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٣٣.
(٩) في الأصل: ونظمت، والمثبت من (ل) و (م).

شِيرِكُوه، منها:

بمُهجتـــي خَنِـــثُ العِطْـ ـــفِ مستلـــذُّ الـــدَّلالِ
يقـــول لـــي بـــانكســـارٍ ورقَّـــــةٍ واعْتـــــلالِ
معـــاتبـــاً بحـــديـــثٍ أصفـــى مـــن السَّلْسَـــالِ
مَـــا مِصْـــرُ مثـــل دمشـــقٍ بعـــتَ الهُـــدَى بـــالضَّـــلالِ
فقلـــتُ عنَّـــت أمـــورٌ عجيبـــــةُ الأشكـــــالِ
أسيـــرُ فـــي طلـــب العِـــزِّ (م) مثـــل سيْـــرِ الهِـــلالِ
لـــم يبلـــغِ البـــدرُ لـــولا الـ ـمَسيـــرُ أوجَ الكمـــالِ
وكيـــف أتـــرك شُغْلـــي وإنَّـــهُ رأسُ مـــالـــي
صـــلاح حـــالـــي صـــلاح الـــدِّ (م) يـــن الغـــزيـــر[1] النَّـــوَالِ
مـــالـــي أفـــارق مَلْكـــاً ملَّكْتُـــهُ آمـــالـــي
يـــا نـــاصـــرَ الـــدِّيـــن قلبـــي عليـــه فـــي بَلْبـــالِ

ثم ذكر العماد المحسنين إليه بالقاهرة، وسيّدهم المولى الأجل ٢٦٧/١
الفاضل، وقد مدحه بقصيدةٍ، منها:

كيف لا يغتدي لي الدَّهْرُ عبداً وأنـا عبـدُ عَبْـدِ عَبْـدِ الـرَّحيـمِ
بـــدوام الأجَـــلِّ سيِّـــدِنـــا الفـــا ضِـــلِ يـــا دَوْلـــةَ الأفـــاضِـــلِ دُومـــي
إن آراءه تنـــــوب لـــــدى المَلْـ ـــك منـــابَ الأرواحِ عنْـــدَ الجُســـوم
مـــالـــكُ الحَـــلِّ فـــي الممـــالـــك والعَقْـ ـــد وحُكْـــمِ التَّحليـــل والتَّحْـــريـــمِ
مُعْمـــلٌ للنَّفَـــاذ فـــي كـــلِّ قُطْـــرٍ قَلَمـــاً حـــاكمـــاً علـــى إقليـــمِ
يتلَقَّـــى الملـــوكُ فـــي كـــلِّ أرضٍ كُتْبَـــهُ القـــادمـــاتِ بـــالتَّعْظيـــمِ

(١) في (م): العزيز.

نـاحـلُ الجسـم ذو خطـابٍ بـهِ يَصْـ ـغُـرُ للـدَّهْـرِ[1] كـلُّ خَطْـبٍ جسيـمِ

ثم ذكر الأخوين تقي الدين عمر وعز الدين فَرُّخْشاه ــ وهما ابنا أخي السُّلْطان، وهو شاهنْشاه بن أيوب ــ وهمام الدين بُزْغُش الشنباشي؛ والي القاهرة، ومدح فَرُّخْشاه بقصيدةٍ [حسنة][2]، منها:

شـادنٌ كـالقضيـب لَـدْنُ المهـزَّهْ سَلَبَـتْ مُقْلتـاه قلبـي بغمـزهْ
كلّمـا رُمْـتُ وَصْلَـهُ رامَ هجـري وإذا زدتُ ذِلّـةً زاد عِـزَّهْ
للصِّبـا مـن عِـذارهِ نسـجُ حُسْـنٍ رَقـمَ المِسْـكُ فـي الشَّقـائـق طَـرْزَهْ
وعـزيـزٌ علـيَّ أنَّ اصْطِبـاري فيـه قـد عَـزَّه الغَـرَامُ وَبـزَّهْ
مـا رأى مـا رأيـتُ مجنـونُ ليلـى فـي هـواهُ ولا كُثَيِّـر عَـزّهْ
مـا ذَكَـ ـنـا الفُسْطـاط إلا نسينـا مـا رأينـا بـالنَّيْـرَبيـن* والارْزَهْ
فمهـا الجِيـزة الجـوازي لهـا الميـ ـزةُ حُسْنـاً علـى ظبـاء المِـزَّهْ**
ونصيـري عليـه نـائـل عـز الـدِّ (م) يـن ذي الفَضْـلِ خلَّـد الله عِـزَّهْ
فـرَّغ الكَنْـزَ مـن ذخـائـر مـالٍ مـالئـاً مـن نفـائِسِ الحَمْـدِ كَنْـزَهْ

منها:

هِمَّـةٌ مستهـامـةٌ بـالمعـالـي للـدَّنـايـا أبِيَّـةٌ مُشْمَئِـزَّهْ

قال العماد: وتوفَّرنا[3] على الاجتماع في [المغاني][4] لاستماع الأغاني، والتنزُّه في الجزيرة والجِيزة، والأماكن العزيزة، ومنازل العِزّ

(١) في الأصل و (م): الدهر، والمثبت من (ل).
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) في الأصل، وتوقنا، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

والرَّوْضة، ودار الملك والنّيل والمقياس، ومراسي السُّفن، ومجاري الفلك والقصور بالقَرَافة، وربوع الضِّيافة، ورواية الأحاديث النبوية، والمباحثة في المسائل الفقهية، والمعاني الأدبية[(١)].

قال: واقترحنا على القاضي ضياء الدين بن الشّهرُزُوري[(٢)] أن يفرِّجنا في الأهرام، فقد كنا شُغفنا بأخبارها في الشَّام، فخرج بنا إليها، ودُرْنا تلك البرابي[(٣)] والبراري، والرِّمال والصحاري، وأحمدنا المقارَّ والمقاري، وهالَنا أبُو الهول، وضاق في وصفه مجال القَوْل، ورأينا العجائب، ورَوْينا الغرائب، واستصْغَرْنا في جَنْب الهرميْن كلَّ ما استعظمناه، وتداولنا الحديثَ في الهرمِ ومَنْ بناه، فكلٌّ يأتي في وصفهما بما نقله، لا بما عقلَه، واجتهدوا في الصُّعود إليه فلم يُوجد من تَوَقَّله، وحارت العُقول في عقوده، وطارت الأفكار عن توهُّمِ حدوده، فيَا لهُ مِنْ مولودٍ للدَّهْرِ قبل الطُّوفان، انقرَضت القرون الخالية على آبائه وجدوده، وسُمَّار الأخبار تذكر حديث أحداث عَادِه وثَمُوده، ويُدلُّ إحكامُه وعلوُّه على همة بانيه [في بأسه][(٤)] وجوده، وإنَّ في الأرض الهرمين كما أنَّ[(٥)] في السماء الفرقدين، وهما كالطَّودَيْن الرَّاسخيْن، وكالجبلين الشَّامخين، قد فنِيت الدُّهور وهما باقيان، وتقاصَرت القُصُور وهما راقيان، وكأنّهما لأمِّ الأرض ثَدْيان، وعلى ترائب التُّراب نَهْدَان، ولسُلطان العالَم علَمان، وإلى مراقي الأملاك سُلَّمان، وهُما للَّيل والنهار

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٣.

(٢) انظر ص ٤٢٦ من هذا الجزء.

(٣) كلمة قبطية معربة، مفردها: بربىٰ، وهي المعبد عند قدماء المصريين. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية) ١/ ٢٦٨، و«معجم البلدان» ١/ ١٢٤.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٥) أن، ساقطة من (ل) و (م).

رقيبان، ولرَضْوى[(1)] ولشَمَام نسيبان، ومن زُحل والمريخ قريبان[(1)]، ولِعَوادي الخُطوب خطيبان، ولثَوْرِ الفَلَك رَوْقان[(2)]، ولشخص الكُرَة الترابية ساقان[(3)].

قلت: ثم ذكر العماد جماعةً ممن كان يقيم الضِّيافة له ولمثله من الفضلاء الأعيان، فذكر منهم النَّاصح مؤدب أولاد السُّلْطان، وله دارٌ مشرفة على النيل. وذكر منهم اللسان الصُّوفي البَلْخي، وكان له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان، وله دارٌ أيضاً على شاطىء النيل برسم ضِيافة من نَزَل به.

قال: ثم وقف السُّلْطان دارَه على الصُّوفية من بعده، وانتقل بعد سنين إلى النَّعيم وخُلْده[(4)].

فصـــل

في بيع الكُتُب وعِمارة القلعة والمدرسة والبيمارَسْتان

١/٢٦٨

قال العماد: وكان لبيع الكتب في القَصر كلّ أسبوع يومان، وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها[(5)] في القصر مرتَّبة البُيوت، مقسَّمة الرُّفوف، مفهرسة بالمعروف. فقيل للأمير بهاء الدين قَراقُوش، متولِّي القصر[(6)]،

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (م).

(٢) الروق: القرن. «القاموس المحيط»: (روق).

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٧ ــ ٢٣٨.

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٣، ويفهم من سياقه أن اللسان الصوفي نفسه هو الذي وقف داره للصوفية لا السلطان.

(٥) في الأصل: وخزانتها، والمثبت من (ل) و (م).

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

والحالّ والعاقد للأمر: هذه الكتب قد عاث فيها العُثّ، وتساوى سمينُها والغَث، ولا غنى عن تهويتها ونفضها، وإخراجها من بُيوت الخزانة إلى أرضها. وهو تركيٌّ لا خِبرة له بالكُتب، ولا دُرْبة له بأَسْفار الأدب. وكان مقصود دلاَّلي الكتب أن يُوكسوها، ويخرِّموها ويعكسوها. فأُخرجت ــ وهي أكثر من مئة ألف ــ من أماكنها، وغُرِّبت من مساكنها، وخربت أوكارُها[1]، وأُذهبت أنوارُها، وشُتّت شملها، وبُتّ حَبْلُها، واختلط أدبيُّها بنجُوميِّها، وشرعيُّها بمنطقيِّها، وطبيُّها بهندسيِّها، وتواريخها بتفاسيرها، ومجاهيلُها بمشاهيرها.

وكان فيها من الكُتب الكبار، وتواريخ الأمْصار، ومصنَّفات الأخبار، ما يشتمل كلُّ كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلَّداً، إذا فُقِدَ منها جُزءٌ لا يُخلَف أبداً، فاختلطت واختبطَتْ، فكان الدَّلال يخرج عشرة عشرة من كلِّ فنّ كتباً مبتَّرة، فتُسام بالدُّون، وتُباع بالهُون، والدَّلال يعرف كلّ شدَّة، وما فيها من عدَّة، ويعلم أنّ عنده من أجناسها وأنواعها، وقد شارك غيره في ابتياعها، حتى إذا لفَّق كتاباً قد تقوَّم عليه بعشرة، باعه بعد ذلك لنفسه بمئة.

قال: فلما رأيت الأمر حَضَرْت القصر، واشتريْت كما اشتروا، ومَرَيْتُ الأَطباء[2] كما مَرَوْا، واستكثرت من المتاع المبتاع، وحويت نفائس الأنواع، ولما عرف السُّلْطان ما ابتَعْتُه، وكان بمئين، أنعم عليَّ بها، وأبرأ ذمَّتي من ذهبها، ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عَيَّنْتُ عليه من كتبها.

ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلَّدات كثيرة انتُقيَت له من القصر، وهو ينظر في بعضها، وبسط يدي لقبضها، وقال: كنتَ طلبت كُتباً عيَّنتها، فهل

---

(١) في (م): أفكارها.

(٢) المري: مسح ضرع الناقة لتدر، والأطباء جمع، مفردها طبي، بكسر الطاء وضمها، حلمات الضرع، «القاموس المحيط»: (مرا، طبي).

في هذه منها شيء؟ فقلت: كلها، وما أستغني عنها، فأخرجتها من عنده بحمَّال، وكان هذا منه بالإضافة إلى سماحه أقلَّ نوال[1].

قال: وكان السلطان لما تملَّك مصر رأى أنَّ مصر والقاهرة لكل واحدة منهما سور لا يمنعها، فقال: إن أفردت كلَّ واحدة بسور احتاجت إلى جُنْدٍ مفرد يحميها، وإني أرى أنْ أدير عليهما سوراً واحداً من الشَّاطىء إلى الشَّاطىء[2].

فأمر[3] ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة[4] على جبل المُقطَّم، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج في المقسم، وانتهى به إلى أعلى مِصْر ببروج وصلها بالبرج الأعظم، ووجدت في عهد السلطان ثبتاً رفعه النواب، وتكمَّل فيه الحساب، ومبلغه ـ وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ـ تسعة وعشرون ألفاً وثلاث مئة وذراعان، من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر[5] بساحل مصر عشرة آلاف وخمس مئة ذراع، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد[6] سعد الدولة ثمانية آلاف وثلاث مئة واثنان وتسعون ذراعاً، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البُرْج بالكوم

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦.
(٢) انظر تاريخ بناء سور القاهرة في «خطط المقريزي»: ٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٩.
(٣) في الأصل و (ل): وأمر، والمثبت من (م).
(٤) مسجد سعد الدولة كان بقلعة الجبل بجوار برج المبلات، المشرف اليوم على تربة يعقوب شاه المهمندار التي في الجنوب الشرقي لسور القلعة. انظر «النجوم الزاهرة»: ٤١/٤ حاشية رقم ١.
(٥) الكوم الأحمر: كان عند فم الخليج على جانبه الغربي، في نهاية شارع قصر العيني من الجهة الجنوبية، انظر «النجوم الزاهرة: ٤/ ٤٠ حاشية رقم ٧.
(٦) في الأصل: مسجد، والمثبت من (ل) و (م).

الأحمر سبع آلاف ومئتا ذراع، [و][1] دائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومئتان وعشرة أذرع. وذلك طول قوسه في أبدانه وأبراجه من النِّيل إلى النِّيل، على التحقيق والتعديل، وذلك بالذراع الهاشميّ[2] بتولي الأمير بهاء الدّين[3] قَراقُوش الأَسَدي.

وبنى القلعة على الجبل، وأعطاها حقَّها من إحكام العمل، وقَطْعِ الخَندق وتعميقه، وحَفْر واديه وتضييق طريقه. وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة، فاشتملت القلعة عليها ودخلت في الجملة، وحفر في رأس الجبل بئراً ينزل فيها بالدَّرج المنحُوتة من الجبل إلى الماء المعين، ولمْ يتأتَّ له هذا كله في سنين متَقاربة لولا إعانة رَبِّه المُعين[4].

وتُوفِّي السُّلْطان وقد بقي من السُّور مواضع والعمارة فيه مستمرّة، ووظائفُ نفقاتها مستدرَّة.

قال: وأمر ببناء المدرسة بالتُّرْبة المقدسة الشَّافعيّة، ورتَّب قواعدها بفرط الألمعيَّة، وتولاها الفقيه[5] الزَّاهد نجم الدِّين الخبُوشاني، وهو الشيخُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في النسخ الخطية، و «سنا البرق الشامي» القاسمي، وهو تحريف، والصواب ما أثبتناه، والذراع الهاشمية على قسمين: الكبرى وهي ٢٧ و٦٦ سم، والصغرى: ٥٥ و٦٠ سم. انظر كتاب «المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري» لفالتر هنتس، ترجمة الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ١٩٧٠ ص: ٩١.

(٣) في الأصل و (ل): شهاب الدين، وفي هامش الأصل: بهاء الدين، وهو الصحيح، والمثبت من (م). وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من هذا الجزء.

(٤) في (م): لولا إعانة الله ربه المعين.

(٥) في (م): القاضي الفقيه. قلت: لم يعرف أنه ولي القضاء. فهي زيادة مقحمة على النص.

الصَّالح الفقيهُ الوَرِع[1] النقي التقي[2].

قال: وأمر باتخاذ دارٍ في القَصْر بيمارَسْتاناً للمرضى، واستغفرَ الله تعالى بذلك واسترضى، ووقف على البيمارَسْتان والمدرسة وقوفاً، وقد أبطل منكراً وأشاع معروفاً، وأضرب عن ضرائب فمحاها، وهبّ إلى مواهب فأسْداها، واهتمّ بفرائضَ ونوافل فأدّاها[3].

فصـــل

في خروج السُّلْطان إلى الإسكندرية وغير ذلك من بواقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: ثمَّ خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثَّاني والعشرين من شعبان، واستصحب ولديه الأَفْضَل علياً والعزيز عثمان، وجعل طريقه على دِمْياط، ورأى في الحضور بالثَّغْر المذكور ومشاهدتِه الاحتياط، وكانَ له بها سَبْيٌ كثير جلبه الأسطول، فمتَدَ[4] بظاهر البلدِ يومين، ووهَبَ لي منه جارية.

ثمَّ وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وتردَّدْنا مع السُّلْطان إلى الشيخ الحافظ
١/٢٦٩ أبي طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي[5]، وداومنا الحضور عنده، واجتلَيْنا من

---

(١) في الأصل: الزاهد نجم الدين، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) توفي سنة (٥٨٧ هـ)، وسترد ترجمته في وفياتها ٤/٢٩٣، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٩١ من هذا الجزء من هذا الكتاب.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٢٣٩ ـ ٢٤١.

(٤) يقال: مَتَدَ بالمكان مُتوداً: أقام به. ولم تتبين لناسخي الكتاب، فأثبتوها: فامتدَّ. ولا معنى لها هنا. انظر «اللسان» (متد).

(٥) سيرد خبر وفاته ص ٥٤ من الجزء الثالث.

وجهه نُورَ الإيمان وسَعْدَه، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان، واغتنمنا الزَّمان، فتلك الأيام الثلاثة هي التي حسبناها من العُمر، فهي آخر ما اجتمعنا به في ذلك الثغر.

وشاهدنا ما استجدَّه السُّلْطان من السُّور الدائر، وما أبقاه من حُسْن الآثار والمآثر، وما انصرف حتى أمر بإتمام الثُّغور وتعمير الأسطول[1].

قال ابن أبي طيّ: ولما نوى السُّلْطان المقام بالإسكندرية ليصوم فيها رأى أنَّه لا يُخْلي نفسه من ثوابٍ يقوم له مقام القَصْد إلى بلاد الكُفَّار والجهاد في المشركين، فرأى الأسطول وقد أخْلقت سُفُنه وتغيَّرت آلاته، فأمر بتعمير الأسطول، وجَمع له من الأخشاب والصُّنَّاع أشياء كثيرة، ولما تَمَّ عَمَلُ المراكب أمر بحمل الآلات، فنقل من السِّلاح والعُدد ما يحتاج الأسطول إليه، وشحنه بالرِّجال، وولَّى فيه أحد أصحابه، وأفرد له إقطاعاً مخصوصاً، وديواناً منفرداً[2]، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الأسطول، وأن لا يُمنع من أخذ رجاله[3] وما يحتاج إليه، وأمر صاحب الأسطول أن لا يُبارح البحر، ويغزي إلى جزائر البحر.

قال العماد: وقُلت في معنى تنقلُّي في البلاد:

يوماً بجيٍّ[4] ويوماً في دمشقَ وبالـ ـفُسطاط يوماً ويوماً بالعِرَاقَيْنِ
كأنَّ جسمي وقلبي الصَّبَّ ما خُلقا إلا ليُقْتسما بالشَّوْقِ والبَيْنِ[5]

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤١ ــ ٢٤٢.
(٢) في (ل) و (م): مفرداً.
(٣) في (ل): رجَّالةٍ.
(٤) جي: مدينة على بعد ميلين من أصبهان. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٠٢ ــ ٢٠٣.
(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٢.

وقلت يوم الخروج من القاهرة:

يـا بـاخـلاً عنـد الـوَداعِ بـوقفـةٍ ... لو سامني رُوحي بها لم أَبْخلِ
مـا كـان ضَـرَّك لـوْ وقَفْـتَ لِسـائـلٍ ... تـركَ الفـؤادَ بـدائـه فـي المنـزل
هـلاّ وَقَفْـتَ لقلـبِ مَـنْ أحـرقتـه ... مقـدارَ إطفـار الحـريـقِ المُشْعَـلِ
إنْ أسْـرِ مُـرْتحـلاً ففـي أسْرِ الهـوى ... قلبـي لـديـك مُقَيّـداً لـم يَـرْحَـلِ
عَذُبَ العذابُ لدى فؤادي المبتَلى ... إذْ كنـتَ أنـتَ معـذِّبـي والمبتلـي

وقلت، وقد نزلنا بين مُنية غَمْر ومُنية سَمنُّود:

نَـزَلْـتُ بـأرضِ المُنْيَتيـن ومُنْيتـي ... لقاؤكُمُ الشّافي وَوَصْلُكمُ المجدي
سـأبْلَـى ولا تَبْلَـى سـريـرةُ ودِّكـم ... وتؤنسني إنْ مُتّ في وحشة اللَّحْدِ(١)

قال: وعُدْنا من الإسكندرية في شهر رمضان، فصُمنا بقيَّة الشهر بالقاهرة، والسُّلْطان متوفرٌ في ليله ونهاره، على نَشْر العدل وإنْشاره، وإفاضة الجُود وإغزاره، وسماع أحاديث الرسول ﷺ وأخباره، وإشاعة العلم والإعلان بأسراره، وإبداء شعار الشرع وإظهاره، وإبقاء المعروف على قراره، وإعدام الباطل وإنكاره(٢).

وقال: ومِنْ مدائحي في السُّلْطان ما أنشدته إياه سادس شَوَّال.

فَـدَيْتُـكَ مـن ظـالـمٍ مُنْصِـفِ ... ونـاهيـكَ مـن بـاخِـلٍ مُسْرِفِ(٣)

ومنها:

أيبلـغُ دهـريَ قصـدي وقـد ... قَصَـدْتُ بمصـر ذَرا يـوسـف

---

(١) المصدر السابق، وفيه ثلاثة أبيات أخرى من القصيدة.

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٣ ــ ٢٤٤.

(٣) في «الخريدة»: مسعف.

ويـــوســـف مِصْـــرٍ بغيـــر التُّقَـــى وبـذل[1] الصَّنـائـعِ لـم يُـوْصَـفِ[2]
فَسِـرْ وافتَـحِ القُـدْسَ واسفـكْ بـه دمـــاءً متـــى تُجْـــرِهـــا يَنْظُـــفِ
وأهْـــدِ إلـــى الإسبتـــارِ* التَّبـــار وهُـــدَّ السُّقـــوفَ علـــى الأُسْقُـــفِ
وخَلِّـصْ مـن الكُفْـرِ تلـك البـلاد يُخلِّصُـكَ اللهُ فـي المَـوْقِـفِ[3]

قال: وفيها وصل رُسُل المواصلةِ وصاحبي الحِصْن* وماردين* إلى دمشق، فاستوثقوا بتحليف أخي السلطان شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، ثم قصدوا مصر، ووقع رسول صاحب حِصْن كيفا في الأسر[4].

قال ابن أبي طيّ: وصل رسول المَوْصِل القاضي عماد الدين بن كمال الدين بن الشّهْرُزُوري بهدية وقود، فخرج[5] الموكبُ إلى لقائه، وأكرمه السُّلْطان واحترمه. وقدم بعده رسول نور الدين [قرا][6] أرسلان ورسول صاحب مارِدين بهدايا، واجتمعوا في دمشق، وخرجوا إلى السلطان بمصر، فاعترضهم الفرنج، فأُسر رسول صاحب الحِصْن[7]، ولم يزل في الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان[8]، فأطلقه وأحسن إليه.

قال: وفيها رجع قَرَاقُوش إلى [ل ٢٤٢/أ] أَوْجَلة[9] وتلك البلاد [٢١٢ أ]

---

(١) في الأصل: ووصف، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) في الأصل: يعرف، والمثبت من (ل) و (م).
(٣) انظر قطعة من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٥ ــ ١٧.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٤٤ ــ ٢٤٥، وفيه: أن رسولا الحصن وماردين وقعا في الأسر.
(٥) في (م): خروج.
(٦) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م) وهو محمد بن قرا أرسلان، أخطأ فيه ابن أبي طي.
(٧) في (م): حصن كيفا.
(٨) سيرد خبر هدمه ٣/ ٣٦ من هذا الكتاب.
(٩) من هنا يبدأ خرم في الأصل يقع في ورقتين وبضعة أسطر ينتهي في صفحة [٢١٤/أ]، كتب بخط متأخر، استدركناه من نسختي (ل) و (م). وسنشير في المتن إلى رقم ورقة

١/ ٢٧٠ [ل/ ٢٤٢ب] فجمع أموالاً ورجع إلى مصر، ثم أراد الرُّجوع فمنعه العادل، ثم خلَّصه فَرُّخْشاه، فرجع وفتح بلاد فزَّان بأسرها[(١)].

قال العماد: ثم خرج السُّلطان إلى مرج فاقُوس*، مِنْ أعمال مصر الشَّرْقية، لإرهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص، والتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص. واقترح عليَّ أن أمدح عز الدين فَرُّخْشاه بقصيدةٍ موسُومة، ألزم فيها الشين قبل الهاء، فعملت ذلك في أواخر ذي الحِجَّة، فقلت:

مَـوْلاَي عـزَّ الـديـن فَـرُّخْشَـهْ ... الـدَّهْـرَ مَـنْ يَـرْجُـك لا يَخْشَـهْ
تَلْقــاه سَمْــحَ الكَـفِّ دَفَّــاقهــا ... طَلْــقَ المحيَّــا كَــرَمــاً بَشَّــهْ
إنْ شئـتَ فـوتـاً بـالـرَّدى فَـالْقَـهُ ... أو شئـتَ فـوزاً بـالعُـلا فـاغْشَـهْ
يُـديـم بـالأيـدي وبـالأَيْـدِ فـي ... حَـرْبـي لُهـاه والعِـدَى بطشَـهْ[(٢)]
كـم مَلِـكٍ عـاداكـمُ لـم يَبِـتْ ... إلا جَعَلْتُــمْ عَــرْشَــهُ نَعْشَــهْ
خَـوَّفْتُـمُ الشِّـرْكَ فـلا قمصُـهُ* ... أَمَّنْتُــمُ يــومــاً ولا فُنْشَــهْ*
أورَثَــك السُّـؤدد يـا ابـن العُـلا ... والــدُّك السَّيِّــد شــاهِنْشَــهْ

وقال في «الخريدة»: كنا مخيمين بمرج فاقوس، مصمِّمين على الغَزَاة إلى غزَّة، وقد وصلت أساطيل ثَغْرَيْ دمياط والإسكندرية بسبي الكُفَّار، وقد أَوْفَتْ على ألف رأس عِدَّة من وصل في قيد الإسار، فحضر ابنُ رَوَاحة[(٣)]

(ل) إضافة إلى رقم الأصل في الهامش. وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٦٢ من هذا الجزء.

(١) انظر ص ٤١٨ ــ ٤١٩ من هذا الجزء.

(٢) في (م): والعدى عرشه نعشه، وهو تداخل مع البيت الذي يليه، والذي سقط من هذه النسخة.

(٣) هو الشاعر الفقيه أبو علي الحسين بن عبد الله بن رواحة، قتل شهيداً بمرج عكا سنة (٥٨٥ هـ)، وسترد ترجمته ٤/ ٩٧ ــ ٩٨.

منشداً مهنئاً بعيد النَّحْر، سنة اثنتين وسبعين، ومُعَرِّضاً بما وَهبه الملك النَّاصر من الإماء والعبيد، بقصيدةٍ[1]، منها:

لقد خَبَرَ التَّجاربَ منهُ حَزْمٌ وقَلَّبَ دَهْرَهُ ظَهْراً لِبَطْنِ
فساقَ إلى الفرنج الخيلَ بَرّاً وأدركهم على بحرٍ بِسُفْنِ
لقد جَلَب الجواريَ بالجواري[2] يَمِدْن بكل قدٍّ مُرْجَحِنّ[3]
يزيدهُمُ اجتماعُ الشَّمْلِ بُؤْساً فمرنانٌ تنوحُ على مُرِنّ
زَهَتْ إسكندرِيَّةُ يوم سِيقُوا ودمياطٌ فما مُنِيا بِغَبْنِ
يرونَ خيالَه كالطَّيْفِ يَسْري فلو هَجَعوا أتاهُمْ بعد وَهْنِ
أبادَهُمُ تخوُّفُهُ فأمسى مُناهُمْ لو يُبَيِّتُهُمْ بأمْنِ
تملَّكَ حَوْلهم شرقاً وغرباً فصارُوا لاقتناصٍ تحتَ رَهْنِ

[قال العماد: يشير إلى أنه مالك الشام ومصر والفرنج بينهما][4].

أقام بآل أيوبٍ رباطاً رأت منه الفرنج مضيق سِجْنِ
رجا أقصى الملوكِ السِّلْم منهم ولم يَرَ جُهْدَه في البَأْس يُغْني[5]

/ وفي هذه السَّنة أبطل السُّلْطان المَكْس الذي كان بمكة على الحاجِّ، [٢١٢/] وسيأتي ذكره في أخبار سنة أربع وسبعين[6].

قال ابن الأثير: وفي سنة اثنتين وسبعين شَرَع مجاهد الدين[7]، يعني

(١) في (ل): قصيدة، والمثبت من (م).
(٢) الجواري الأولى: الإماء، والثانية: السفن. انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٥١٩.
(٣) المرجحن: المائل. «اللسان» (رجحن).
(٤) ما بين حاصرتين من (م).
(٥) انظر مختارات من القصيدة في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٩١ ـ ٤٩٦.
(٦) انظر ص ٩ وما بعدها من الجزء الثالث.
(٧) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من هذا الجزء.

قايماز دُزْدَار* قلعة المَوْصِل، في عمارة جامعه بظاهر الموصل بباب الجسر، وهو من أحسن الجوامع، ثم بنى بعد ذلك الرباط، والمدرسة والبيمارَسْتان [ل/ ٢٤٣/ أ] وكلّها متجاورات(١).

قال: وتوفي في شهر ربيع الأول من سنة خمس وتسعين بقلعة الموصل، وهو متولِّيها، والحاكم في الدولة الأتابكية النُّورية. وكان ابتداء ولايته القلعة في ذي الحِجَّة، سنة إحدى وسبعين، ثم قبض عليه سنة تسع وثمانين(٢)، وأُعيد إلى ولايتها بعد الإفراج عنه، وبقي إلى الآن، وكان أصلُه من أعمال شبختان، وأُخذ منها وهو طفل. وكان عاقلاً خيِّراً، ديّناً فاضلاً، يعلم الفِقْه على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، ويحفظ من الأشعار والحكايات والنَّوادر والتَّواريخ شيئاً كثيراً، إلى غير ذلك من المعارف الحسنة، وكان يكثر الصَّوْم، وله وِرْدٌ يصلِّيه كل ليلة، ويكثر الصدقة، وبنى عِدَّة جوامع منها الذي بظاهر الموصل، وبنى عِدَّة خانقاهات منها التي بالموصل، ومدارس وقناطر على الأنهار، إلى غير ذلك من المصالح، ومناقبه كثيرة(٣).

قال العماد في «الخريدة»: نزلنا ببركة الجُبّ* لقصد فرض الجهاد، وعَرْضِ الأجناد، فكتب الأسعد بن مَمَّاتي(٤) إليَّ أبياتاً في الملك النَّاصر،

---

(١) «الباهر»: ١٧٧.

(٢) كذا في النسخ الخطية، ومثله في «الباهر»: ١٩٣، وهو تحريف، صوابه سنة (٥٧٩ هـ) كما في «الباهر» أيضاً: ١٨٣، و «الكامل»: ١١/ ٤٩٩ ــ ٥٠١، وسيرد خبر القبض عليه في حوادث سنة (٥٧٩ هـ) ٣/ ٢٠٠ من هذا الكتاب.

(٣) «الباهر»: ١٩٣ ــ ١٩٤.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٣٧ من هذا الجزء.

ويعرض بالشِّطْرنج فإنه كان يشتغل به، وذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين:

يا كريمَ الخِيْم[1] في الخِيَم — أهيفٌ كالرِّيم ذو شَمَم
عجبي للشَّمْس إذ طَلَعَتْ — منه في داجٍ من الظُّلَم
كيف لا تُصْمي لواحظُه — ورُماة الطَّرْف في العَجَم
لا تصدْ قَلْبَ المحبِّ لكم — لا يحلّ الصَّيدُ في الحَرَم
يا صلاحَ الدِّينِ يا ملكاً — قد براه الله للأُمَم
أضحتِ الكُفَّارُ في نِقَم — وغدا الإسلامُ في نِعَم
١/ ٢٧١ إنْ يَكُ الشِّطْرنج مشغلةً — لعليِّ القَدْر والهِمَم
فهْي في ناديك تذكرةٌ — لأمورِ الحَرْبِ والكَرَم
فلكم ضاعَفْتَ عِدَّتها — بالعطاءِ الجمِّ لا القَلَم
/٢١٣] / ونَصَبْتَ الحَرْبَ نصبتها — فانْثَنَتْ كفَّاك بالقِمَم
فابْقَ للأقدارِ[2] ترفعها — وأُمُرِ الأَقْدارَ كالخَدَم[3]

وفيها توفي بالإسكندرية القاضي الشريف أبو محمد عبد الله العثماني الدِّيباجي من ولد الدِّيباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفَّان رضي الله عنهم[4]، ويعرف بابن أبي إلياس، من بيت القضاء والعلم. وكان واسعَ الباع في علم الأحاديث، كثير الرواية، قيماً بالأدب، متصرِّفاً في النظم

---

(١) الخيم: الشيمة والخلق والسجية. «اللسان» (خيم).
(٢) في «الخريدة» للإسلام.
(٣) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٠٦.
(٤) لقب بالديباج لحسنه، كانت أمه فاطمة بنت الحسين الشهيد، مات في سجن المنصور سنة (١٤٥ هـ)، وكان جواداً سخياً ذا مروءة وسؤدد وحشمة. انظر «سير أعلام النبلاء»: ٦/ ٢٢٤ ــ ٢٢٥.

والنثر، إلا أنه مقلٌّ من النظم، أوحد عصره في علم الشُّروط، وقوله [هو][(١)] المقبول على كل العدول، ذكر ذلك العماد رحمه الله في «الخريدة».

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين [ل/ ٢٤٣/ ب] [وخمس مئة][(٢)]

والسُّلْطان مخيم بمرج فاقُوس*، فنظم العماد في الأجل الفاضل قصيدة ميميَّة في منتصف المحرَّم، وخدمه بها هناك في المخيم، أوَّلها[(٣)]:

ريـمٌ هضيـمٌ يـروم هَضْمـي ... مِـنْ سُقْـم عَيْنَيـه عَيْـنُ سُقْمـي
إنْ رُمـتَ يـا عـاذلـي صـلاحـي ... فَخَلِّنـي والهَـوى وزَعْمـي
لـومُـك يُـذكـي الغَـرام قُـلْ لـي ... أنـت نصيحـي أم أنـتَ خصمـي
أيَـا زمـانـي الغشـوم أَقْصِـرْ ... إنَّـك لا تستطيـع غَشْمـي[(٤)]
عَبْـدُ الـرّحيـمِ الـرحيـمُ أضحـى ... عـونـي علـى خَطْبِـك المُلِـمِّ
بـالفـاضـلِ الأفضـلِ الأجـلِّ ... المُفْضِـلِ الأشـرفِ الأَشَـمِّ

---

(١) ما بين حاصرتين من (م).

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

ومن هنا سنحيل فيما يقتبس أبو شامة من العماد على الجزء الثالث من «البرق الشامي» المطبوع في عمان سنة (١٩٨٧ م) بتحقيق د. مصطفى الحياري، الصادر عن مؤسسة عبد الحميد شومان. وهو ينتهي في ذكر النزول على حصن بيت الأحزان وفتحه، في حوادث سنة (٥٧٥ هـ). انظر ص ٣٨ من الجزء الثالث.

والمعروف أنه لم يصلنا بعد من البرق إلا الجزء الثالث والخامس، والمطبوع أيضاً بتحقيق د. رمضان ششن، ثم أعاد تحقيقه الدكتور فالح صالح حسن، نشرته في عمان مؤسسة عبد الحميد شومان سنة (١٩٨٧ م)، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٠ من الجزء الأول.

(٣) في (م): منها.

(٤) الغشم: الظلم، والغشوم: الظلوم. «اللسان» (غشم).

غيثُ غياثٍ وجودُ جودٍ   وبَحْرُ عِلْمٍ وَطَوْدُ حِلْمِ
يراعُهُ في اليمين منهُ   يستخرجُ الدُّرَّ من خِضَمٍّ[1]

قال: وكان عندنا بالمخيم بالعباسة[2] في المحرَّم علم الدين الشَّاتاني[3]، وهو من أدباء المَوْصِل وشعرائها، وفصحائها وظرفائها، وفد سنة اثنتين وسبعين إلى مصر، وأهدى النَّظم والنثر، واصطعنه عزّ الدين فَرُّخْشاه، وأنزله في جواره، وجمع له من رِفْده ومن الأمراء ألف دينار، فمدح السُّلْطان بالمخيّم[4] بكلمة، مطلعها:

غدا النَّصْرُ مَعْقُوداً برايَتِك الصَّفْرا   فَسِرْ وافتحِ الدُّنيا فأنتَ بها أَحْرى[5]

قلت: لم يذكر العمادُ من هذه القصيدة غير هذا البيت، وإنه لقائم مقام قصائد كثيرة.

والشَّاتاني هو أبو علي الحسن بن سعيد، له ترجمة في «تاريخ دمشق»[6]. وذكره العماد في «الخريدة»، وذكر فيها من هذه القصيدة:

(١) انظر القصيدة بتمامها في «البرق الشامي»: ٣/ ٢٤ ــ ٢٨. ومختارات منها في «الخريدة» قسم شعراء مصر: ١/ ٥٢ ــ ٥٤.
(٢) في (ل) و (م): العباسية، والمثبت من «البرق الشامي»: ٣/ ٢٩. وفي «معجم البلدان»: ٤/ ٧٥ «العباسة.. هكذا يتلفظون بها من غير إلحاق ياء النسبة، وهي بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون، إذ بنت بهذا الموضع قصراً، فكان يقال: قصر عباسة، ثم حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، فبقي عباسة.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣٥ من الجزء الأول.
(٤) بالمخيم، ليست في (م).
(٥) «البرق الشامي»: ٣/ ٢٩.
(٦) «تاريخ دمشق» لابن عساكر س (خ): ج ٤/ ٢٢٦ ب ــ ٢٢٧ أ.

يمينك فيها اليُمْنُ واليُسْرُ في اليُسْرى فَبُشرى لمن يرجو النَّدى منهما بُشرى[1]

قال العماد: وكانت الأعلام السلطانية صُفراً، لا يفارق نشرها نصراً[2].

قلت: وفيها يقول بعضُ الفضلاء:

إذا اسْوَدَّ خَطْبٌ دونَه الموتُ أحمرُ أَتَتْ بالأيادي البيضِ أعلامُهُ الصُّفْرُ
فمذ ظهرت منصوبةً جُزِمَتْ بها ظهورُ العِدَى من رفعها انخفض الكُفْرُ
ولِمْ لا يحوز الأرضَ شرقاً ومغرباً ولله في إعلاءِ رُتْبَتِهِ سِرُّ

وقال العماد: وعاد السُّلْطان إلى القاهرة وأقام بها، ثم اهتمت بالغزاة هِمَّته إلى غَزَّة وعَسْقَلان، فخرج يوم الجمعة ثالث جُمادى الأولى بعد الصَّلاة، وخَيَّم بظاهرِ بِلْبيس* في خامسه بخميسه، ثم تقدَّمنا منه إلى [٢١/ب] السَّدير، وخيمنا بالمبرَّز، ثم نُودي: خذُوا زادَ عشرة أيام أخرى زيادة للاستظهار، ولإعواز ذلك عند توسُّط ديار الكُفَّار[3].

قال العماد: فركبت إلى سوق العسكر للابتياع، وقد أخذ السِّعْر في الارتفاع، فقلت [ل/ ٢٤٤ أ] لغُلامي: قد بدَا لي ــ وقد خطر الرُّجوع من الخطر ببالي ــ فاعْرِض للبيع أَجْمالي وأثقالي، وانتهز فرصة هذا السِّعْر الغالي، وأنا صاحبُ قلم لا صاحب عَلَم، وقد استشعرت نفسي في هذه الغزوة من عاقبة[4] ندم. والمدى بعيد، والخَطْبُ شديد، وهذه نوبة السُّيوف

(١) «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٦٤.
(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٢٩.
(٣) المصدر السابق: ٣/ ٣١.
(٤) في (ل): بعاقبة، والمثبت من (م).

لا نوبة الأقلام، وفي سلامتنا سلامة الإسلام. والواجب على كل منا أن يلزم شُغْلَه[١]، ولا يتعدَّى حدَّه، ولا يتجاوز محلَّه، لا سيما ونواب الديوان قد استأذنوا في العودة، وأظهروا قِلَّة العِدَّة. وأظهرت سرِّي للمولى الأجل الفاضل، فسرَّه إشفاقاً علي، وإحساناً إلي. وكان السلطان أيضاً يؤثر إيثاري، ويختار اختياري، فقال لي[٢]: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا ولا تتبعنا؟
فقلت: الأمر للمولى، وما يختاره لي فهو أَوْلى. فقال: تَعود وتدعو لنا، ١/ ٢٧٢
وتسْأل اللَّهَ أنْ يبلِّغنا في النَّصْر سُؤْلنا.

وكنتُ قد كتبت أبياتاً إلى المخدُوم الفاضل ونحن بالمبرَّز في العشرين من الشهر:

قيلَ في مصْرَ نائلٌ عدد الرَّمْـ ... ـلِ وَوَفْرٌ كنيْلِها المَوْفُورِ
فاغترزْنا بها وسِرْنا إليها ... ووقعنا كما ترى في الغُرورِ
وحظِينا بالرَّمْلِ والسَّير فيه ... ومُنِعْنا من نِيلها المَيْسُورِ
وبرزنا إلى المبرّز نشكو ... سَدَراً[٣] من نزولنا بالسَّديرِ
قيل لي سِرْ إلى الجهاد[٤] وماذا ... بالغٌ في الجهاد جهدُ مسيري
ليس يقوى في الجيش جأشي ولا قو ... سي يُرَىٰ مُوْتَراً إلى موتورِ
أنا للكُتْب لا الكتائب إقدا ... مي وللصُّحف لا الصِّفاح[٥] حضوري
كاد فضلي يضيع لولا اهتمامُ الـ ... ـفاضل الفائض النَّدى بأموري

---

(١) شغله، ليست في (ل)، وهي في (م).
(٢) لي، ليست في (م).
(٣) السدر: شبه الدوار. انظر «اللسان» (سدر).
(٤) في (م): بالجهاد.
(٥) في الأصل و(ل): لا للكتائب، لا للصِّفاح، والمثبت من (م).

فـأنـا منـه فـي مـلابـس جـاهٍ رافـلاً منـه فـي حبيـر حُبـورِ
فهْـو رَقَّـىٰ مـن الحضيـض حظـوظـي وسمـا بـي إلـى سـريـر السُّـرورِ[1]

وقال: وما انقطعتُ عن السُّلْطان في غزواته[2] إلا في هذه الغزوة، وقد عَصَمَ الله فيها من النَّبوَة، وكانت غزوات السلطان بعدها مُؤيَّدة، والسَّعادات فيها مجدَّدة.

وكنتُ لما فارقت القاهرة استَوحشت، وتشوَّقْتُ إلى أصدقائي وتشوشت، وكتبت من المخيم بِبِلْبيس* إلى القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفَرَّاش[3]، وقد أقام بالقاهرة، وكان صاحباً لي من الأيام النُّورية، واستشرته في التأخر عن السلطان. فكتب في الجواب: رافِقه ولا تفارقْه. فكرهت رأيه، فكتبتُ إليه:

إذا رضيتُم بمكْرُوهي فذاك رضا لا أبتغي غير ما تَبغُون لي غَرَضا
وإن رأيتـم شفـاء القَلْـبِ فـي مَرَضـي فـإنـنـي مُسْتطيـبٌ ذلـك المَـرَضـا
أنتـم أشـرتـم بتعـذيبـي فصـرتُ لـه مُستعْـذبـاً أَسْتَلِـذُّ الهـمَّ والمضَضَـا
أصبحـتُ ممتعضـاً مـن أجـل أنـيَ لا أرى[4] صـديقـاً لمـا ألقـاه ممتعضـا
إن رمتـمُ عِـوَضـاً بـي[5] فـي محبَّتكـم فحـاشَ لله أن أبغـي بكـم عِـوَضـا
لله عيـشٌ تَقَضَّـى عِنْـدَكُـمْ ومضـى وكـان مثـلَ سحـابٍ بَـرْقُـه وَمَضَـا

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٣٢ ـ ٣٣، وفيه أنه قال هذه الأبيات على سبيل المداعبة.
(٢) في (ل): غزاة، والمثبت من (م).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٠٧ من هذا الجزء.
(٤) أرى، ساقطة من (م)، وفي «البرق الشامي»: ٣/ ٣٤ أرضى، وإخاله تحريفاً.
(٥) في «البرق الشامي»: لي.

العَيْشُ دانٍ جناه الغَضّ عندكمُ … والقلبُ محترِقٌ مني بجمرِ غَضَا
ما كنتُ أَعْهَد منكمْ ذا الجفاء ولا … حسبتُ أنَّ وِدَادي عندكم رُفِضا
قد أظلمَ الأفقُ في عيني لغيبتكم(١) … فإنْ أَذِنْتَ(٢) لشخصي في الحضور أَضَا
ولستُ أوَّل صَبٍّ من(٣) أحبته … لمَّا جفوا ما قَضى أوطاره وقضى
مُروا بما شئتُمُ من محنةٍ وأذًى … فقد رأيتُ امْتثالَ الأمرِ مُفْتَرِضا
طوبى لكم مصرُ والدَّار التي قُضِيَتْ … فيها المآربُ والعَيْش الذي خُفِضا
بعيشكم إن خَلَوْتُمْ بانبساطِكُم … تذكَّروا ضَجِراً بالعيش مُنْقَبِضا
رضيتُمُ سفري عنكم وأعهدُكم … بسَفرتي عنكُمُ لا تُظهرون رِضا
/ هلا تكلَّفتم قولاً أُسَرُّ به … هيهات جوهركم قد عادَ لي عَرَضا [٢١٤/أ]
تفضَّلوا واشرحوا صدري بِقُرْبِكُمُ … أو فاشْرحُوا ليَ ذا المعنى الَّذي غَمُضا

فكتب إليَّ في جوابها أبياتاً، منها:

لا تَنْسُبُوني إلى إيثار بُعْدِكُمُ … فلَسْتُ أرضى إذا فارقتكم عِوَضا
ولي وِدادٌ تولَّى الصِّدْقُ عُقْدَتَهُ … فما تَراه على الأيَّام مُنْتَقِضا
يلقاك قلبي على سُبْلِ العتاب له … بصحَّةٍ ليس يخشى بَعْدَها مَرَضا
وصرت كالدَّهْرِ يجني أهلُه أسفاً … ويَلْتقي من عِتاب المُذْنِب المضَضَا ١/ ٢٧٣

قال: ثمّ ودّعت وعُدْت، ونهضوا وقعَدْت(٤).

(١) في (م): بغيبتكم.
(٢) في «البرق الشامي»: أذنتم.
(٣) في (م): في.
(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٣٣ ـ ٣٦.

فصـــل[1]

في نوبة كسرة الرَّمْلة

وكانت على المسلمين بالجملة، وذلك يوم الجمعة غُرَّة جمادى الآخرة أو ثانيه.

ورحل السُّلْطان بعساكره فنزل على عَسْقلان يوم الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الأُولى، فسبى وسلب، وغنم وغلب، وأسر وقسر، وكسب وكسر، وجمع هناك مَنْ كان معه من الأَسْرى، فضرب أعناقهم، وتفرَّق عسكره في الأعمال مُغيرين ومبيدين، فلما رأوا أن الفرنج خامدون استرسلوا وانبسطوا.

وتوسَّط السُّلطان البلاد، واستقلَّ يوم الجمعة مستهل جمادى الآخرة، بالرَّمْلة، راحلاً ليقصد بعض المعاقل، فاعترضه نَهْرٌ عليه تلٌّ الصَّافية* فازدحمت على العُبور أثقال العساكر[2] المتوافية، فما شعروا إلا بالفرنج طالبةً[3] بأطلابها*، حازبةً بأَحْزابها، ذابّةً بذئابها، عاويةً بكلابها، وقد نفر نفيرُهم، وزفر زفيرهم. وسرايا المسلمين في الضِّياع مغيرة، ولرِحَا الحرب عليهم في دورهم مديرة، فوقف الملك المُظَفَّر تقي الدين وتلقَّاهم بصدره، وباشرهم بِبيضِه وسُمْره، فاستُشهد من أصحابه عِدَّة من الكرام، انتقلُوا إلى نعيم دار المقام؛ وهلك من الفرنج أضعافها.

---

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في نسخة الأصل، ومن ثم نعود إليها أصلاً في التحقيق. انظر حاشيتنا رقم ٩ ص ٤٥١ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: العباد، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) في الأصل: طالة، والمثبت من (ل) و (م).

وكان لتقيِّ الدين ولدٌ يقال له أحمد، أول ما طرَّ شاربه، فاستشهد بعدما أردى فارساً.

قال: وكان لتقي الدين أيضاً ولد آخر، اسمه شاهِنشاه، وقع في أسر الفرنج، وذلك أن بعض مستأمني الفرنج بدمشق خدعه وقال له: تجيء إلى المَلِك وهو يعطيك المُلك. وزوَّر له كتاباً، فسكن إلى صدقه وخرج معه، فلما تفرَّد به شَدَّ وثاقه، [وغلَّه][1] وقيَّده، وحمله إلى الدَّاوية*، وأخذ به مالاً، وجدَّد عندهم له حالاً وجمالاً، وبقي في الأسر أكثر من سبع سنين حتى فكَّه السُّلْطان بمالٍ كثير، وأطلق للدَّاوية كلّ مَنْ كان لهم عنده من أسير. فَغِلَظُ القلبِ التقوي على ذلك الولد جَرَّ هلاك أخيه، ولما عاد من الغزوة زرناه للتعزية فيه.

قال: ولو أن لتقيِّ الدين رِدْءاً لأردى القوم، لكن النَّاس تفرَّقوا وراء أثقالهم، ثم نجوا برحالهم، وصوَّب العدوُّ بجملتهم حملتهم على[2] السُّلْطان، فثبت ووقف على تقدمة من تخلَّف، وسمعته يوماً يصف تلك النَّوْبة، ويشكر من جماعته الصُّحْبَة، ويقول: رأيت فارساً يحثُّ نحوي حصانه، وقد صوَّب إلى نَحْري سِنانه، فكاد يُبْلغني طعانَه، ومعه آخران قد جعلا شأنهما شانه، فرأيت ثلاثة من أصحابي خرج كلّ واحد إلى [كل][3] واحدِ منهم فبادروه وطعنوه، وقد تمكن من قربي فما مكَّنوه، وهم إبراهيم بن قنابر، وفضل الفيضي، وسُوَيد بن غشم المصري، وكانوا فرسان العسكر وشجعان المعشر، واتَّفق لسعادة السُّلْطان أن هؤلاء الثلاثة رافقوه وما فارقوه، وقارعوا العدو دونه وضايقوه.

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).

(٢) في الأصل: إلى، والمثبت من (ل) و (م).

(٣) ما بين حاصرتين من (م).

فما زال السُلْطان يسير ويقف، حتى لم يبق[1] مَنْ ظنّ أنه يتخلف، ودخل اللّيل وسلك الرمل ولا ماء ولا دليل، ولا كثير من الزّاد والعلف ولا قليل، وتعسَّفوا السُّلوك في تلك الرِّمال والأوعاث والأوْعار، وبقُوا أياماً ولياليَ بغير ماء ولا زادٍ حتى وصلوا إلى الدِّيار. وأذن ذلك بتلف الدَّواب وترجّل الركاب، ولُغوب الأصحاب، وفَقْد كثير ممن لم يُعرف له خبر، ولم يظهر له أثر. وفقد الفقيه ضياء الدين عيسى وأخوه الظَّهير[2]، ومن كان في صُحبتهم، فَضلَّ الطريق عنهم، وكانوا سائرين إلى وراء، فأصبحوا بقُرب الأعداء، فأكمنوا[3] في مغارة، وانتظروا مَنْ يدلُّهم مِن بلد الإسلام على عمارة. فدلَّ عليهم الفرنج من زعم أنه يدل بهم، وسعى في أَسْرهم[4] وعطبهم، فأُسروا، وما خلص الفقيه عيسى وأخوه إلا بعد سنين، بستين سبعين ألف دينار، وفكاك جماعة من الكُفَّار.

قال: وما اشتدَّت هذه النَّوْبة بكسرة، ولا عَدم نُصرة، فإن النِّكاية في العدوّ وبلاده بلغت منتهاها، وأدركت كلُّ نفسٍ مؤمنة مُشتهاها. لكن الخروج من تلك البلاد شتَّت الشَّمْل، وأوعر السهل، وسُلك مع عدم الماء والدليل الرَّمْل.

ومما قدَّره الله تعالى من أسباب السَّلامة، والهداية إلى الاستقامة، أنَّ الأجل الفاضل استظهر في دخول بلاد الأعداء باستصحاب الكنانية[5]

(١) لم يبق، ساقطة من (م).

(٢) استشهد في مرج عكا سنة ٥٨٥ كما سيرد ٤/ ٩٠ وانظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من هذا الجزء. وص ٢٨ من الجزء الثالث.

(٣) في (م): فاكتمنوا.

(٤) في (م): أثرهم.

(٥) كان من الكنانية طائفة بدمياط وما حولها، انظر «قلائد الجمان» للقلقشندي: ١٣٥، و «البيان والإعراب» للمقريزي: ١٠، ٤٦ ـ ٤٧.

والأدلاء، وأنهم ما كانوا يفارقونه في الغداء والعشاء، فلما وقعت الواقعة خرج بدوابه، وغِلْمانه وأصحابه، وأدلائه وأثقاله، وبثَّ أَصْحابه في تلك الرِّمال، والوهاد والتِّلال، حتى أخذ خبر السُّلْطان وقصده، وأوضح بأدلائه جَدَده، وفرَّق ما كان معه من الأَزْوَاد[1] على المنْقَطين، وجمعهم في خِدْمة السُّلْطان أجمعين، فسَهُل ذلك الوَعْر، وأنِس بعد الوحشة القَفْر، وجُبر الكسر.

وكان النَّاس في مبدأ توجُّه السُّلْطان إلى الجهاد، ودخول الأجل الفاضل معه إلى البلاد، ربما تحدَّثوا وقالوا: لو قعد وتخلَّف كان أولى به، فإن الحرب ليست من دأبه. ثم عُرف أنَّ السَّلامة والبركة والنجاة كانت في استصحابه.

وجاء الخبر إلى القاهرة مع نجابين فخلع عليهم وأركبوا، وأُشيع بأن السلطان نصره الله، وأنَّ الفرنج [ــ خذلهم الله ــ][2] كسروا وغلبوا. فركبت لأسمع حديث النجَّابين وكيف نصر الله المسلمين وإذا [هُم][3] يقولون: أبشروا فإن السُّلْطان وأهلَه سالمون، وإنهم واصلون غانمون، فقُلت لرفيقي: ما بُشِّر بسلامة السلطان إلا وقد تَمَّت كسرة، وما ثَمَّ سوى سلامته نُصرة. ١/ ٢٧٤

ولما قرب خرجنا لتلقِّيه، وشكرنا الله على ما يسَّره من ترقيه وتوقِّيه، ودخل القاهرة يوم الخميس منتصف الشهر، ونابت سلامتُه مناب النَّصْر[4]، وسيَّرْنا بها البشائر، وأنهضنا ببطاقاتها الطائر، لإخراس ألسنة الأراجيف،

---

(١) في الأصل: الزاد، والمثبت من (ل) و (م).
(٢) ما بين حاصرتين من (م).
(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل) و (م).
(٤) في النسخ الخطية: الدهر، والمثبت من «البرق الشامي» ٣/ ٤٢، و«سناه» ١/ ٢٦٠.

وإبدال التأمين من التخويف، فقد كانت نوبَتُها هائلة، ووقعتها غائلة[١].

وقال القاضي ابن شدَّاد: خرج السُّلْطان يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرَّمْلة، وذلك في أوائل جمادى الأُولى، وكان مقدم الفرنج البرنز أرناط* ــ وكان قد بيع بحلب فإنه كان أسيراً بها من زمن نور الدين رحمه الله تعالى[٢] ــ وجرى خللٌ في ذلك اليوم على المسلمين. ولقد حكى السلطان ــ قدَّس الله روحه ــ صورة الكسرة في ذلك اليوم، وذلك أن المسلمين كانوا قد تَعَبَّوْا تعبئة الحرب، فلما قارَبَ العدوّ رأى بعضُ الجماعة أن يغير الميمنة إلى جهة الميسرة والميسرة إلى جهة القلب، ليكونوا حالَ اللقاء وراء ظهورهم تلٌّ معروف بأرض الرَّمْلة[٣]، فبينا اشتغَلوا بهذه التعبئة هجمهم[٤] الفرنج، وقدر الله تعالى كسرهم، فانكسرُوا كسرةً عظيمة، ولم يكن لهم حِصْن قريبٌ يأوُون إليه، فطلبوا جهة الدِّيار المصرية، وضلُّوا في الطريق وتبدَّدُوا، وأُسر منهم جماعة منهم الفقيه عيسى. وكان وَهْناً عظيماً جبره الله تعالى بوقعة حطين المشهورة، ولله الحمد[٥].

قلت: وذلك بعد عشر سنين؛ فكسرة الرَّمْلَة هذه كانت في سنة ثلاث وسبعين، وكسرة حِطِّين كانت في سنة ثلاث وثمانين.

قال العماد الكاتب: وحيث كانت للملك المظفَّر تقي الدين في هذه الغزوة اليد البيضاء، أنشدته قصيدةً، منها:

سقى اللَّـهُ العـراقَ وسـاكنيـه   وحَيَّـاه حيَـا الغيـثِ الهَتُـونِ

---

(١) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٣٦ ــ ٤٢.
(٢) انظر ص ٤٠٠ من هذا الجزء.
(٣) هو تل الصافية الذي سلف ذكره ص ٤٦٢ من هذا الجزء.
(٤) في الأصل و(ل): هجم، والمثبت من (م).
(٥) «النوادر السلطانية»: ٥٣.

وجيـرانـاً أمِنَـت الجَـوْرَ منهـم وما فيهـم سِـوَى وافٍ أميـنِ
صفَـوْا والـدَّهْـرُ ذو كَـدَرٍ وقِـدْماً وفَوْا بالعهد في الزَّمن الخؤونِ
بنـو أيـوبَ زانـوا المُلْـكَ منهـم بحِلْيـة سُـؤْدَدٍ وتُقـىً وديـنِ
ملـوكٌ أصبحـوا خيـرَ البـرايـا لِخَيْـرِ رَعِيَّـةٍ فـي خيـر حيـنِ(١)
أسـانيـدُ السيـادةِ عـن عُـلاهـم مُعَنْعَنـةٌ مصحَّحـةُ المُتُـونِ
بنـو أيـوب مثـلُ قـريـشَ مجـداً وأنـت لهـا كـأنـزعهـا البطيـنِ(٢)
أخفت الشِّرْكَ حتى الذُّعْرُ منهم يُـرى قبـل الـولادةِ فـي الجنيـنِ
ويـومَ الـرَّمْلـة المرهـوب بـأسـاً تـركـت الشِّـركَ منزعـج القَطِيـنِ
وكنـتَ لعسكـرِ الإسـلامِ كَهْفـاً أوى منـه إلـى حِصْـنٍ حَصِيْـنِ
وقـد عَـرَفَ الفـرنـج سُطـاك لمـا رأوا آثـارهـا عيـنَ اليقيـنِ
وأنـت ثَبـتَّ دون الـدِّيـن تحمـي حِمـاهُ أوَانَ ولَّـى كـلُّ دونِ(٣)

قال: واهتمَّ السُّلْطان بعد ذلك بإفاضة الجود، وتفريق الموجود، وافتقاد الناس بالنُّقود، والنسايا(٤) الصَّادقة الوعود، وجبر الكسير، وفك الأسير، وتوفير العدد، وتكثير المدد، وتعويض ما وقف(٥) من الدواب،

(١) في الأصل و (ل): دين، والمثبت من (م).
(٢) النزع: انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبي الجبهة. والبطين الأنزع هي صفة الإمام علي كرَّم الله وجهه. «اللسان» (نزع).
(٣) في الأصل و (ل): دين، والمثبت من (م). وانظر «القصيدة» في «البرق الشامي» ٣/ ٤٦ ـ ٥٠.
(٤) في النسخ الخطية: والسنايا، والمثبت من «البرق الشامي»: ٣/ ٥٠.
(٥) في «البرق الشامي»: ٣/ ٥٠ وقت، وهو تحريف، وفي طبعة وادي النيل من «الروضتين»: ١/ ٢٧٤: نفق، وهو تحريف أيضاً. والصواب ما هو مثبت في نسخنا. وكانت عدة من الدواب قد وقفت عند العودة بالأثقال. انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٤٦.

فسلَوا ما نابهم، ولم يأسوا على ما أصابهم[1].

قال ابن أبي طيّ: وقال[2] ابن سَعْدَان الحلبي[3] يمدح السُّلْطان، ويذكر ما فعله على عَسْقلان، ويهون عليه أمر هذه الكسرة، من قصيدة:

قرَّبْت من عسقلانٍ كلّ نائبة ... باتت تقلّ بوكّافٍ من الأسَلِ
فاض النَّجيعُ عليها وهي مُمْحِلةٌ ... فأصْبَحَتْ مَرْتَعاً للخيلِ والإِبِلِ
قُل للفرنجيّة الخذلى رُوَيْدكم ... بالثأر أو تخرجَ الشِّعْرَى من الحَمَلِ
ترقَّبوها من الفَوَّارِ طالعةً ... خوارق الأرض تمحو رونق الأُصُلِ
كأنني بِنَواصِيْهِنَّ يَقْدُمها ... كاسٍ من الجود عُرْيانٍ من البَخَلِ
حَسْبُ العِدَى يا صلاحَ الدين حسبهمُ ... أن يقرفوك بجرحٍ غير مُنْدَمِلِ
وهل يخاف لسانَ النَّحْل ملتمسٌ ... مرَّت على أصبعيه لَذَّةُ العَسَلِ

فصل

في وفاة كُمُشْتِكين[4]
وخروج السُّلْطان من مصر بسبب حركة الفرنج

قال العماد: وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبِّري الملك الصَّالح،

(١) انظر «البرق الشامي»: ٣/٤٦ ـ ٥٠.

وفي (م) بعد هذا الخبر: «تم الجزء الأول من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، يتلوه ـ إن شاء الله تعالى ـ في الجزء الثاني قال ابن أبي طي، والحمد لله حق حمده، وصلواته على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً».

قلت: انظر وصف نسخة ميونخ ص ١٠ في مقدمة الجزء الأول.

(٢) في الأصل: وكان، والمثبت من (ل).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من هذا الجزء.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٨ من هذاالجزء.

وكان كمشتكين قد بنى خانقاه في حلب، كانت من قبل داراً لأبي الطيب =

واستولى على أمره العَدْل ابن العجمي أبو صالح[1]. وكان سعد الدين كُمُشْتِكِين الخادم مقدَّم العسكر، وأمير المعشر، وهو صاحب حِصْن حارِم*، ١/ ٢٧٥
وقد حسده أمثالُه من الأمراء والخُدَّام، فسلموا لابن العجمي الاستبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الإسماعيلية يوم الجمعة بعد الصَّلاة في جامع حلب فقتلوه.

واستقل[2] كُمُشْتِكِين بالأمر، فتكلَّم فيه حُسَّادُه وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرَك ومُشيرَك ابنَ العجمي إلا كمشتكين، فهو الذي حَسَّن ذلك للإسماعيلية، وقالوا له: أنت السُّلْطان وكيف يكون لغيرك حُكمٌ أو أمر! فما زالوا به حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة حارِم، وأوقعوا بها لأجله العظائم. فكتب إلى نوابه بها فنبَوْا وأبَوْا[3]، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوَّفوه بالصَّرعة، فلما طال أمره، قصر عُمره، واستبدَّ الصِّغار بعده بالأمور الكبار، وامتنعت عليه قلعة حارم، وجَرَّد إليها العزائم، ونزل عليه الفرنج ثم رحلوا بقطيعةٍ بذلها لهم الملك الصَّالح، واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولّى بها مملوكاً لأبيه يقال له سرخك[4].

وقال ابن الأثير: سار الملك الصَّالح من حلب إلى حارِم ومعه كُمُشْتِكِين، فعاقبه ليأمُرَ مَنْ بها بالتَّسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعُلِّق

= المتنبي. انظر «زبدة الحلب» لابن العديم: ٣/ ١٧.

(١) هو شهاب الدين، أبو صالح، عبد الرحيم بن أبي طالب بن العجمي، سلفت أخباره ص ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٨، ٣٣٢، ٤١٤ من هذا الجزء. وقد هجاه العماد هجاء مقذعاً لعداوة كانت بينهما، انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٦٩ ــ ٣٧٢، وله ترجمة في «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٢، و «زبدة الحلب»: ٣/ ١٠، ٣٢ وما بعدها.

(٢) في (ل): واشتغل، وهو تصحيف.

(٣) في الأصل: ونبوا، والمثبت من (ل).

(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٥٠ ــ ٥٢.

منكوساً ودُخِّن تحت أنفه فمات، وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها. ثم إنه أخذها بعد ذلك(١).

قال ابن شدَّاد: أما الملك الصَّالح فإنه تخبَّطَ أمرُه، وقبض كُمُشْتِكِين صاحبَ دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله، ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم، طمعاً فيها، وذلك في جمادى الآخرة، وقابل عسكر الملك الصَّالح العساكر الإفرنجيّة، ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج [سلَّموها](٢) إلى الملك الصَّالح في العشر الأواخر من شهر رمضان. ولما عرف الفرنج ذلك رحلوا عن حارِم* طالبين بلادَهم، ثم عاد الصَّالح إلى حلب، ولم يَزَلْ أصحابه على اختلاف بميل بعضهم إلى جانب السلطان، قدَّس الله روحه(٣).

قال العماد: ووصل في هذه السنة إلى السَّاحل من البحر كندٌ كبير يقال له افلندس(٤)، أكبر طواغيت الكفر، واعتقد خُلُوَّ الشَّام من ناصري الإسلام. ومن جملة شروط هُدْنة الفرنج أنهم إذا وَصَلَ لهم ملك أو كبير، ما لهم في دَفعه تدبير، أنهم يعاونونه ولا يباينونه، ويحالفونه ولا يخالفونه، فإذا عادَ عادت الهُدْنة كما كانت، وهانت الشدة ولانت. وبحكم هذا الشرط حشدوا الحشود، وجنَّدوا الجنود، ونزلوا على حماة في العشرين من جُمادى الأولى، وصاحبها شهاب الدين محمود الحارمي مريض، ونائب السُّلْطان بدمشق يومئذٍ أخوه الأكبر تورانشاه، وهو والأمراء مشغولون بلذَّاتهم، وكان

(١) «الباهر»: ١٧٨.
(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).
(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٣.
(٤) هو Philip Flanders. انظر عن أخباره «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/٦٦٨ ــ ٦٧١.

سيف الدين علي بن أحمد المشطوب[1] بالقُرْب، فدخلها وخرج للحرب، واجتمع إليها رجال الطَّعْن والضَّرْب، وجرت ضروبٌ من الحروب، وكاد الفرنج تهجم البلد فأخرجوهم من الدُّروب، ونصر الله أهل الإسلام، بعد حصارهم لهم أربعة أيام، فانهزم الملاعين ونزلوا على حِصْن حارم، كما تقدَّم ذكره. فرحَّلهم عنه الملك الصَّالح بعد حصاره أربعة أشهر[2].

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد: خرج الكُفَّار إلى البلاد الشَّامِيَّة، فاسخين لِعَقْدٍ كان مُحْكماً، غادرين غدْراً صريحاً، مقدّرين أنْ يُجهزوا على الشَّام لما كان بالجدب جريحاً، ونزلُوا على ظاهر حماة يوم الاثنين الحادي والعشرين من جُمادى الأولى، وزحفوا إليها في ثانيه، فخرج إليهم أصحابنا، وتضمَّن كتاب سيف الدِّين ــ يعني المشطوب ــ أنَّ القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجلٍ ما بين فارس وراجل، شفى الله منهم الصُّدور، ورزق عليهم النصر والظهور. ثم انصرفوا مجموعاً لهم بين تنكيس الصُّلُب وتحطيم الأصلاب، مفرَّقة أحزابُهم عن المدينة المحروسة كما افترقت عن المدينة الشَّريفة النَّبويَّة الأحزاب.

قال العماد: وتسامعَ الحلبيُّون بيوم رحيلنا من مصر لِقَصد الشَّام لنُصْرة الإسلام[3]، وقالوا: أوَّلُ ما يصل صلاح الدِّين يتسلَّم حارِم. فراسلُوا الإفرنج وقاربوهم، وأرغبوهم وأرهبُوهم، وقالُوا لهم: صلاح الدِّين وَاصِل، وما لكُم بعد حصوله عندكم حاصل. فرحل الفرنج بقَطيعةٍ من المال أخذوها، وعِدَّة من الأسارى خلَّصوها.

---

(١) في الأصل: ابن المشطوب، والمثبت من (ل). وأخباره كثيرة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٣٤٨/٤ ــ ٣٤٩.

(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٥٢ ــ ٥٤.

(٣) في الأصل: ونصرة، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق».

ثم تُوفِّي خالُ السُّلْطان شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارِمي، في جمادى الآخرة، وتوفي ولده تكش، ابن خال السُّلْطان، قبله بثلاثة أيَّام وذلك أوان وقعة الرَّمْلَة(١).

ولمَّا سمع السُّلْطان بنزولُ الفرنج على حارم رحل من البِرْكة(٢) يوم عيد الفطر بعساكره، ووصل أَيْلَة* في عاشر الشَّهر، واستناب بمصر أخاه العادل، وأقام بها أيضاً القاضي الفاضل بنيَّة الحج في السنة القابلة. ووصل السُّلْطان إلى دمشق في الرَّابع والعشرين من شَوَّال(٣).

ومما نظمه العماد في التَّشوق إلى مصر قوله:

ساكني مِصْرٍ هَناكُمْ طِيبُها   إنَّ عَيْشي بَعْدَكُمْ لَمْ يَطِبِ
لا عَدِمْتُم راحةً من قُرْبِها   فأنا من بَعْدِها في تَعَبِ
بَعُدَ العَهْدُ بأخبارِكُمُ   فابْعثوا أخبارَكُمْ في الكُتُبِ
ليْتَ مِصْراً عرفَت أنِّي وإنْ   غِبْتُ عنها فالْهوَى لم يَغِبِ(٤)

ومن ذلك: /٢٧٦

تَذَكَّرْتُ في جِلِّقٍ دارَكم   بمِصْرَ ويا بُعْدَ مَا بيننا
وما أتمنَّى سِوى قُرْبِكُمْ   وذلك والله كلُّ المُنَى
لكم بالجِنان وطيبِ المَقَامِ   وحُسْنِ النَّعيمِ بمصر الهنا(٥)

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٥٤ ــ ٥٦.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من هذا الجزء.
(٣) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٥٦ ــ ٥٧.
(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٣.
(٥) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٣.

ومن ذلك:

يا ساكني مِصْرَ قد فُقْتُمْ بفضلكمُ ... ذوي الفَضَائل من سُكّان أَمْصَارِ
لله دَرُّكُـمُ مـن عُصْبَـةٍ كَـرُمَـتْ ... ودَرُّ مِصْـرِكُـمُ الغَنَّـاء مِـنْ دَارِ[1]

ومن ذلك:

يـا حبَّـذا مِصْـرٌ وبِـرْ ... كَتُهـا وصَـدْرٌ* والعَـريـشُ
فهنـاك أمـلاكـي الَّـذيـ ... ـنَ سَمَـتْ بِعِـزِّهِـمُ العُـرُوشُ

قال: ووصل كتابٌ من الفاضل يذكر فيه أن العدو ــ خذله الله تعالى ــ نهض [ووصل][2] إلى صَدْر، وقاتَل القلعة ولم يتمَّ له أمر، فصرف الله شَرَّه، وكفى أمره.

ووصل من الفرنج مستأمِنٌ وذكر أنَّهم يريدُون الغارة على فاقُوس*، فاستقلُّوا أنفسهم وعرَّجوا، وذكر أنَّهم مَضَوْا بنية تجديد الحشد، ومعاودة القَصْد.

قال: وأما نوبة العدو في الرَّمْلة فقد كانت عثرةً، علينا ظاهرُها، وعلى الكُفَّار باطنها، ولزمنا مانَسِّىٰ[3] من اسمها، ولزمهم مابَقَّىٰ من غرمها، ولا دليل أدلَّ على القوّة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشَّام، نخوضُ بلاد الفرنج بالقَوافل الثَّقيلة، والحشود الكثيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور[4].

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٤.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل).

(٣) في الأصل: ما لزم، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق».

(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٦٦، ٦٨.

قال العماد: ولما دَخَلْنا دمشق وجَدْنا رُسُل دار الخلافة، قد وصلوا بأسباب العاطفة والرأفة، وكان حينئذٍ صاحبُ المخزن ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر العَطَّار[1]، وهو من ذوي الأخطار، وله التحكم في الإيراد والإصدار، وقد توفَّر على محبّة السُّلْطان وتربية رجائه، وتلْبية دعائه. ووصل كتابُه ورسوله بكلّ ما سَرَّ السَّرائر، ونوَّر البصائر[2].

فصـــل
في ذكر أولاد السُّلْطان

قال العماد: وفي هذه السَّنة وُلد بمِصْر للسُّلطان ابنُه أبو سليمان داود.

وكتب الفاضل إلى السُّلْطان يهنئه به ويقول: إنه وُلد لسبعٍ بقين من ذي القَعْدة، وهذا الولدُ المُبارك هو المُوفي لاثني عشر ولداً، بل لاثني عشر نجماً متوقِّداً، فقد زاد الله في أنجمه على أنجم يوسف عليه السلام نجماً، ورآهم المَوْلى يقظةً ورأى تلك الأنجم حُلُماً، ورآهم ساجدين له، ورأينا الخلق له سجوداً، وهو قادرٌ سبحانه أن يزيد جُدُود المولى إلى أن يراهم أباءً وجدوداً[3].

قال العماد: وكنت في بعض الليالي عند السلطان في آخر عهده[4]، وجرى ذكرُ أولاده، واعْتِضادِه بهم واعتداده، فقلت له: لو عرفتُ أيام

---

(١) سيرد خبر مقتله ــ وكان من الظلمة ــ ٣/ ٥٢ من هذا الكتاب، وانظر ص ٤٨٢ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: الأبصار، وفي هامشه: (خ) البصائر، وهي المثبتة في (ل) و «البرق الشامي»: ٣/ ٦٩.

(٣) «البرق الشامي»: ٣/ ٧٥ ــ ٧٦.

(٤) في «البرق الشامي»: ٣/ ٧٦ بالبيت المقدس سنة ثمانٍ وثمانين.

مواليدهم في أعوامها[1]، لأنشأتُ رسالةً على نظامها، فذكر لي ما أثبته على ترتيب أسنانهم.

الملك الأفضل نور الدين أبو الحسن علي، وُلد بمصر ليلة عيد الفطر عند العصر سنة خمسٍ وستِّين وخمس مئة[2].

العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدِّين، وُلد بمصر ثامن جُمادى الأولى سنة سبعٍ وستين[3].

الظافر أبو العبَّاس خضر مظفر الدِّين، ولد بمصْر في خامس شعبان سنة ثمانٍ وستين، [وهو أخو الأفضل لأبويه][4].

الظاهر أبو منصور غازي غياث الدِّين، ولد بمصر منتصف رمضان سنة ثمانٍ وستين[5].

المعِزّ أبو يعقُوب إسحاق فتح الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل سنة سبعين[6].

المؤيَّد أبو الفتح مسعود نجم الدِّين، وُلد بدمشق في ربيع الأوّل سنة

---

(١) في الأصل: أيامها، والمثبت من (ل).

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٢ هـ). وانظر ص ١٥٣ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ل)، وفي هامش الأصل: «حاشية قال المؤلف: وقيل أبو الفتح وأبو المظفر».

قلت: توفي بحرَّان سنة (٦٢٧ هـ) انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢٠٥، و «شفاء القلوب في مناقب بني أيوب» لابن الحنبلي: ٢٦٦.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٨ ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٦) توفي سنة (٦٢٥ هـ) «شفاء القلوب»: ٢٦٥ ــ ٢٦٦.

إحدى وسبعين، وهو أخو العزيز لأبويه[1].

الأعزُّ أبو يوسف يعقوب شرف الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الآخر سنة اثنتين وسبعين، وهو لأم العزيز[2].

الزَّاهر أبو سلَيْمان داود مجير الدِّين، ولد بمصر في ذي القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين، وهو لأم الظَّاهر[3].

المفضَّل أبو محمد موسى قطب الدِّين، ثم نعت بالمظفَّر، ولد بمصر سنة ثلاثٍ وسبعين. وهو لأم الأفضل[4].

الأشرف أبو عبد الله محمَّد عز الدِّين[5]، وُلد بالشَّام سنة خمسٍ وسبعين.

المُحسنِ أبو العباس أحمد ظهير الدِّين، وُلد بمصر في ربيع الأوّل[6] سنة سبعٍ وسبعين، وهو لأم الأشرف[7].

---

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٠٦ هـ).

(٢) توفي بحلب سنة (٦٢٤ هـ) «شفاء القلوب»: ٢٧٠، «ترويح القلوب»: ٩٤.

(٣) كان صاحب قلعة البيرة على الفرات، توفي سنة (٦٣٢ هـ).
انظر ترجمته ومظانها في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٣٨٣، و «وفيات الأعيان»: ٢/ ٢٥٧ ــ ٢٥٨، و «شفاء القلوب»: ٢٦٦ ــ ٢٦٧.

(٤) توفي سنة (٦٣١ هـ) «السلوك» للمقريزي: ج ١/ ق١/ ٢٨٩، «شفاء القلوب»: ٢٧٠، «ترويح القلوب»: ٩٣.

(٥) في الأصل: عزيز الدين، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق الشامي»: ٣/ ٧٨، وقد ذكره أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٠٥ هـ).

(٦) في «البرق الشامي»: ٣/ ٧٨ في ربيع الآخر.

(٧) كان من أكثر أولاد صلاح الدين عناية بالحديث، وفي مجاميع الظاهرية الحديثية سماعات كثيرة له، توفي سنة (٦٣٤ هـ). انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٤٣١ ــ ٤٣٢، و «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٠٣ ــ ٢٠٤، وفيه: وبقي أخوه

المعظَّم أبو منصور تورانشاه فخر الدِّين، ولد بمصر في ربيع الأوَّل سنة سبعٍ وسبعين أيضاً.

قلت: ومات سنة ثمانٍ وخمسين [وست مئة][1] وهي السَّنة التي ٢٧٧/١
أخرب العدوُّ من التتار ــ خذلهم الله تعالى ــ فيها مدينة حلب وغيرها، والله أعلم[2].

الجواد أبو سعيد أيوب ركن الدين، ولد في ربيع الأوَّل سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعزّ[3].

الغالب أبو الفتح مَلِكْشاه نصير الدين، مولده بالشَّام في رجب سنة ثمانٍ وسبعين، وهو لأم المعظم[4].

المنصور أبو بكر، وهو أيضاً أخو المعظَّم لأبويه، ولد بحرَّان* بعد وفاة السُّلطان[5].

قلت: فهذه خمسة عشر ولداً ذكرهم العماد في هذا الموضع[6].

= الصالح أحمد صاحب عينتاب حياً إلى سنة إحدى وخمسين». قلت: وهذا وهم من الذهبي إذ إن الصالح أحمد هو ابن أخيه الملك الظاهر غازي. انظر «العبر» للذهبي: ٥/٢٠٧ ــ ٢٠٨ و «شفاء القلوب» ٢٦٧. وص ٩٩ من الجزء الثالث.

(١) ما بين حاصرتين من (ل).

(٢) انظر «العبر» للذهبي: ٥/٢٤٥، و «شفاء القلوب»: ٢٦٨ ــ ٢٩٦ وفيه: توفي سنة (٦٤٨ هـ)، وهو تحريف. وص ٩٩ من الجزء الثالث.

(٣) «شفاء القلوب»: ٢٧٠، «ترويح القلوب»: ٩٥، ولم يذكرا سنة وفاته.

(٤) في «شفاء القلوب»: ٢٧٠ وفيه العادل، وقيل: الغالب ملك شاه ناصر الدين، وقيل: هو الغالب فروخ شاه» ولم يذكر سنة وفاته وانظر«ترويح القلوب»: ٩٦.

(٥) «شفاء القلوب»: ٢٧١، وتوفي السلطان سنة (٥٨٩ هـ).

(٦) «البرق الشامي»: ٣/٧٦ ــ ٧٩.

وقال في آخر كتاب «الفتح القُدسي»، على ما سنذكره في آخر هذا الكتاب: إنَّ السُّلطان لما تُوفِّي خلَّف سبعةَ عشرَ ولداً وابنةً صغيرة[1].

فقد فاته هنا ذكر اثنين، وهما عماد الدِّين شاذي[2]، لأم ولد، ونُصرة الدين مروان[3]، لأم ولد، وأمَّا البنت فهي مؤنسة خاتون، تزوَّجها الملك الكامل محمَّد، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى[4]، وهو ابن عمِّها الملك العادل أبي بكر بن أيوب.

وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن دَرَجَ في حياته، كالملك المنصور حسن، وسيأتي ذكر وفاته[5]، والأمير أحمد وهو الذي رثاه العَرْقَلة بقوله:

أيّ هـــلالٍ كُسِفـــا ... وأيّ غُصْـــنٍ قُصِفـــا
كـــان ســـراجـــاً قـــد طفـــا ... علـــى الـــورى ثـــمّ انطفـــا
لـــم يَـــرْكـــب الخيـــلَ ولـــم ... يقلّـــدوه مُـــرْهفـــا
قـــل للنُّحـــاة وَيْحَكُـــمْ ... أحمـــدُكُـــمْ قـــد صُـــرِفـــا
صبـــراً صـــلاحَ الـــدِّيـــن يـــا ... ربَّ السَّمـــاحِ والـــوَفَـــا[6]

---

(١) «الفتح القسي»: ٦٢٩. وانظر ٤/ ٣٧٥.

(٢) «شفاء القلوب»: ٢٧١، وفيه يسمى: عمر بن يوسف.

(٣) في (ل): نصير الدين، وسترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٥٢ هـ).

(٤) في هامش الأصل: «حاشية، في سنة ست وتسعين وخمس ومئة عندما ملكه أبوه مصر بعد قطع خطبة المنصور بن العزيز بن صلاح الدين». قلت: وانظر ص ٤٦٠ من الجزء الرابع.

(٥) انظر ص ٥٠ من الجزء الثالث. وذكر ابن شداد في «نوادره»: ٢٦ الملك الصالح إسماعيل وقد توفي في حياة والده وهو بالغ.

(٦) الأبيات في «ديوانه»: ٦٥، وهي مستدركة من كتابنا هذا.

قال العماد: وورد من الفاضل كتابٌ تاريخه منتصف ذي الحجة من سنة ثلاثٍ وسبعين ذكر فيه فصولاً متعددة، منها: للمولى أولادٌ وقد صاروا رجالاً، ويجب أن يستجيد[1] للقلاع رجالاً، كما فعل السابقون أعماراً وأعمالاً، وقيل: القلاع أنوفٌ من حلَّها شَمَخَ بها.

ما في الرِّجال على النِّساء أمين

ومنها أبيات في ذكر السَّلام:

مملوكُ مولانا ومملوكُ ابنه ... وأخيه وابن أخيه والجيران
طيّ الكتاب إليه منه[2] إجابة ... لسلام مَوْلانا ابنه عثمان
والله قد ذَكَر السَّلام وأنه ... يجزي بأحسن منه في القُرْآنِ
وغريبة قد جئتُ فيها أوّلاً ... ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
فرسوليَ السلطان في إرسالها ... والنَّاس رُسْلُهُم إلى السُّلْطانِ[3]

قلت: ووصف الفاضل الملك المُؤيَّد في كتاب آخر فقال: وقد تمطَّت به السّنّ وامتدَّت، وتأهبّت السَّعادة لخطبته واعتدَّت، ولاحظته العيون بالوقار وطرفت دون جلالته وارتدَّت.

وفي بعض كتب الفاضل عن السلطان إلى ولده الأفضل: إعزازه لأهل الفضل دليلٌ على فضله، وأنّ الأولى أن تكون كتب الأدب عند أهله، وما أبهجنا إذْ جال في فضاء الفضائل، وخطب من أبكار المعاني كرائم العقائل، وآخى بين السيف والقلم، وصار في موكبه العِلْمُ والعَلَم.

---

(١) في الأصل: يستجد، والمثبت من (ل)، وهو يوافق ما في «البرق الشامي»: ٣/ ٨١.
(٢) في الأصل: منه إليه، والمثبت من (ل).
(٣) «البرق الشامي»: ٣/ ٨١ ــ ٨٢.

ومن كتاب آخر في المعنى: فلقد زادَتْ هذه المنقَبة في مناقبه، ونظمت عقود سُؤدد في ترائبه.

فما تَرْجَمَ الإِنسانُ عن سِرِّ فَضْلِهِ　　بأفضل من تقريبه لأُولي الفَضْلِ

قال العماد: وخرج السُّلْطان للصيد في ذي الحِجَّة نحو قارا*، فشكوت ضرسي، وعَدِمْتُ أُنسي، فرجعت مع عزّ الدين فَرُّخْشاه لحمًّى عَرَتْه فشكا منها، ألا تزور إلاّ نهاراً جهاراً، ولا تفارق بعرق، بالضدِّ من الحُمَّى التي وصفها أبو الطيب المتنبي[1]، فنظمت فيه كلمة طويلة، أوَّلها:

يمينك دَأْبُها بَذْلُ اليسارِ　　وكَفُّك صَوْبُها بِدَرُ النُّضارِ[2]
وإنك من ملوكِ الأَرْضِ طُرّاً　　بمنزلة اليمينِ مِنَ اليسارِ
وأنتَ البَحْرُ في بَثِّ العطايا　　وأنت الطَّوْدُ في نادي الوقار

ومنها في وصف الحُمَّى:

وزائرةٍ وليس بها حَيَاءٌ　　فليْسَ تزور إلاّ في النَّهارِ
ولو رَهِبَتْ لدى الإِقدام جوري　　لما رَغِبَتْ جهاراً في جِواري
أتتْ والقلبُ في وَهَجِ اشتياقٍ　　لتظهر ما أُوارِي من أُوَاري

---

(١) إشارة إلى قصيدة المتنبي التي مطلعها:
ملومكما يجل عن الملام　　ووقع فَعاله فوق الكلام
وفيها عن الحمى:
وزائرتي كأن بها حياءً　　فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا　　فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها　　فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني　　كأنا عاكفان على حرام
انظر القصيدة في «ديوان المتنبي» ٤/ ١٤٢ ــ ١٤٩ بشرح العكبري.
(٢) في الأصل و (ل): النطار، والمثبت من «البرق الشامي»: ٣/ ٨٦.

ولو عرفت لظى سطواتِ عَزْمي | لكانت من سُطَاي على حِذَارِ ٢٧٨/١
تقيمُ فحين تُبصر من أناتي | ثباتَ الطَّوْدِ تُسْرع في الفِرَارِ
تفارقني على غير اغتسالٍ | فلم أحلُل لِزَوْرَتِها إزاري
أيا شمسَ الملوكِ بقيتَ شمساً | تنيرُ على الممالك والدِّيارِ
أحمَّاك[1] استعارَتْ لَفْحَ نارٍ | لِعَزْمِكَ لم تَزَلْ ذاتَ اسْتِعارِ[2]

فصل

قال العماد: وفي العشر الأوَّل من ذي القعدة قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء[3] وزير الخليفة[4] ببغداد، على أيدي الملاحدة، وكان قد توجَّه إلى الحج، فوقف له في مضيق قَطُفْتا[5]، غربي دِجْلة، كهلٌ في يده قِصَّة يزعم

---

(١) في الأصل: أخلاي، والمثبت من (ل).

(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٨٥ ــ ٨٦.

(٣) هو أبو الفرج، محمد بن عبد الله بن هبة الله بن مظفر بن الوزير الكبير رئيس الرؤساء أبي القاسم علي بن المسلمة، ولد سنة (٥١٤ هـ) وكان أبوه أستاذ دار المقتفي لأمر الله، فلما مات ولي عضد الدين مكانه، وبقي كذلك إلى أن مات المقتفي، فأقره المستنجد ورفع قدره، فلما ولي المستضيء سنة (٥٦٦ هـ) استوزره، ثم عزله سنة (٥٦٧ هـ)، ثم أعيد إلى الوزارة سنة (٥٧٠ هـ)، وبقي فيها حتى مقتله، أخباره في «المنتظم»: ١٠/ ٢٧٣ ــ ٢٧٥، ٢٨٠، وفيه تفصيل حادثة مقتله، و«الكامل»: ١١/ ٤٤٦ ــ ٤٤٧، و«المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٥ ــ ٥٨، و«مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٠ ــ ٢٢٢، و«الفخري في الآداب السلطانية»: ٢٣٢ ــ ٢٣٣، و«تلخيص مجمع الآداب»: لابن الفوطي: ج ٤/ق ١/ ٤٥٣ ــ ٤٥٤، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٧٥ ــ ٧٧، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٣٣٥، وفيه أنه مات سنة (٥٧٢ هـ) وهو وهم، وانظر ص ٣٩٠ من هذا الجزء.

(٤) من هنا يبدأ خرم بنسخة (ل) ينتهي بانتهاء الجزء، ومن ثم سنعتمد فيما بقي من هذا الجزء على الأصل وحده.

(٥) محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربي من بغداد، «معجم البلدان»: ٤/ ٣٧٤.

أنه يريد رفعها إلى الوزير من يده إلى يده، فأومأ ليوصل قِصَّته، فانتهز فيه فُرْصته، فقتله، وبَدَر كمال الدين أبو الفضل بن الوزير[1] فقتل قاتل أبيه بسيفه، وكان مع ذلك الجاهل الملحد رفيقان له، فجرح أحدهما حاجب الباب ابن المعوَّج فمات[2]، وجرح آخر ولد قاضي القضاة، وقُطع الملاحدة وأحرقوا، واستقلَّ ظهير الدين أبو بكر منصور[3] بن نصر المعروف بابن العطَّار صاحب المخزن بالدولة، وكان للسلطان خدناً مصافياً[4].

قلت: وابن العطّار هذا هو المرجوم المسحوب بعد موته ببغداد، كما سيأتي ذكره في آخر حوادث سنة خمس وسبعين[5].

قال ابن الأثير: وكنت حينئذٍ ببغداد عازماً على الحجّ، فعبر عضد الدّين دِجْلة في شبارة[6]، فلما ركب دابته والنَّاس معه ما بين راكب وراجل، تقدَّم إليه بعض العامة ليدعو له، فمنعه أصحابه، فزجرهم وأمرهم ألا يمنعوا أحداً عنه، فتقدم إليه الباطنيّة فقتلوه بالجانب الغربي، وقُتل الباطنية

---

(١) هو عبيد الله بن محمد، كان أستاذ الدار زمن وزارة أبيه، وللعماد الكاتب قصيدة في مدحه، توفي سنة (٥٧٦ هـ). انظر «خريدة القصر»: قسم شعراء العراق: ٢/ ١٦٢ ـ ١٦٦، و «تاريخ الإسلام» (خ) ١٤/ ٦٦أ.

(٢) هو محمد بن عبد الله بن الحسين، من بيت الحجابة والرواية، قتل ولم يبلغ الثلاثين، كان عاقلاً ديناً ذا مروءة، وله نوادر مع اللصوص في بغداد، ذكر بعضاً منها سبط ابن الجوزي. انظر «المنتظم»: ١٠/ ٢٨٢، و «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ٥٨، و «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٢.

(٣) في الأصل: ابن منصور، والمثبت من ص ٤٧٤ من هذا الجزء. وكان ابن العطار هذا مدبراً لمقتل الوزير عضد الدين. انظر «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٢٨.

(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ٨٦ ـ ٨٨.

(٥) انظر ص ٥٢ من الجزء الثالث.

(٦) ضرب من الزوارق. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي الطبعة الفرنسية: ١/ ٧١٩.

وأحرقوا، وحُمل من موضعه إلى دارٍ له بِقَطُفْتا في الجانب الغربي، فتوفي بها[١].

قال العماد: ووردت مطالعة الفاضل إلى السُّلْطان تتضمن التوجع لقتل الوزير عضد الدين، وفيها: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٢] فقد كان ــ عفا الله عنه ــ قتل ولدَيْ الوزير ابن هُبيرة[٣] وأزهق أنفسهما وجماعة لا تحصى.

مَــنْ يُــرِ يــومــاً يُــرَ بِــهْ　　　والــدَّهْــرُ لا يُغْتَــرُّ بِــهْ

وهذا البيت بيت ابن المُسْلمة عريق في القتل، وجدُّه[٤] هو المقتول بيد البساسِيري[٥] في وقت إخراج الخليفة القائم في أيام الملقب بالمستنصر بمصر[٦]، فهو من ذُرِيَّة لم تزل قاتلة مقتولة، وما زالت السيوف عليها ومنها

(١) «الباهر»: ١٧٩.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٣) سلفت ترجمة الوزير ابن هبيرة ص ٤٤٠ من الجزء الأول.

(٤) هو علي بن الحسين بن أحمد، أبو القاسم بن المسلمة، ولد سنة (٣٩٧ هـ)، وقتل سنة (٤٥٠ هـ)، وكان الخليفة القائم قد استكتبه ثم استوزره ولقبه برئيس الرؤساء، وكان وافر العقل، أصيل الرأي، انظر ترجمته في «تاريخ بغداد»: ١١/ ٣٩١ ــ ٣٩٢، و «الفخري في الآداب السلطانية»: ٢١٥ ــ ٢١٦، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٥/ ٢٤٧ ــ ٢٥٣، وفيه تفصيل وافٍ عن مقتله.

(٥) هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله، كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، وكان مقدماً زمن القائم بأمر الله على جميع الأتراك، وخطب له على منابر العراق وخوزستان، ثم إنه خرج على القائم، وأخرجه من بغداد، وخطب فيها للمستنصر العبيدي صاحب مصر، وذلك سنة (٤٥٠ هـ) وبقي سنة، حتى قتله عسكر طغرلبك السلجوقي سنة (٤٥١ هـ)، وطيف برأسه في بغداد، انظر أخباره في «الكامل»: ٩/ ٦٤٠ ــ ٦٥٠، و «وفيات الأعيان»: ١/ ١٩٢ ــ ١٩٣، و «سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ١٣٨ ــ ١٤٠.

(٦) في هامش الأصل: «حاشية، قال المؤلف: ذكر أبو الفضل محمد بن عبد الملك الهمذاني في تاريخه المذيل أن البساسيري حبس رئيس الرؤساء وزير الخليفة، ثم =

مسلولة، فهم في هذه الحادثة المسمعة المُصِمّة كما قال دُريد:

أبى الموتُ إلا آل صِمَّة

والأبيات المولى يحفظها، وهي في «الحماسة»[(١)]، وقد ختمت له السعادة بما ختمت به له الشَّهادة، لا سيما وهو خارج من بيته إلى بيت الله. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾[(٢)].

إنَّ المساءةَ قد تسرُّ وربما ... كان السُّرورُ بما كَرِهْتَ جديرا
إنَّ الوزيرَ وزيرَ آل محمد ... أَوْدَى فمن يَشْنَاك كان وزيرا

وهذان البيتان قيلا في أبي سَلَمة الخَلاَّل أول وزير لبني العَبَّاس[(٣)].

قلت: وبلغني أنَّ الفاضل كان ينشد:

وأحسنُ من نيل الوزارة للفتى ... حياةٌ تريه مَصْرَعَ الوزراءِ

قال العماد: وكان ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوْري[(٤)] قد سار في الرسالة

= أخرجه وعليه جبة صوف وطرطور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنقة جلود، وهو يقرأ ﴿قُلِ اللهم مالك المُلْك﴾ الآية، ويرددها، وطيف به على جمل في هذه الحال، ثم نصبت له خشبة بباب خراسان، ثم حط عن الجمل، وخيط عليه جلد ثور سُلِخ في الحال، وعلق في فكيه كلابان من حديد، واستبقي في الخشبة حياً، ولبث إلى آخر النهار يضطرب، ثم مات، والله أعلم». قلت: انظر عن الهمذاني حاشيتنا رقم ٢ ص ٩٩ من الجزء الأول.

(١) «حماسة أبي تمام» شرح المرزوقي: ٢/ ٨٢٤، وفيها:

أبى القتل إلا آل صِمَّة إنهم ... أَبَوْا غيره والقَدْرُ يجري إلى القَدْر

(٢) سورة النساء، الآية: ١٠٠.

(٣) قالهما سليمان بن المهاجر البجلي. انظر «تاريخ الطبري»: ٧/ ٤٥٠، «وفيات الأعيان»: ٢/ ١٩٦، وانظر «البرق الشامي»: ٣/ ٨٩ ـــ ٩٠.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٢٦ من هذا الجزء.

إلى بغداد، وتوقَّف في المَوْصِل لحادثة الوزير، ووافق وصوله إلى الموصل وفاة ابن عمه القاضي عماد الدين أحمد[1] ابن القاضي كمال الدين بن الشَّهْرُزوري، وكان شاباً، وجاء كتاب الفاضل يذكر ذلك، وفيه:

يُدلَّى ابنُ عشرين في لَحْدِهِ ... وتسعون صاحِبُها راتِعُ

اغتُبط الولد مع نضارة الشباب المقتبل، وعُمِّر الوالد مع ذبول المشيب المشتمل.

ليُعْلم أن الشّيب ليس بمُسلم ... وأن الشباب الغضّ ليس بمانع

وليكون العبد حذِراً من بغتات الآجال، في كلّ الأحوال، والله يطيل للمولى العمر، كما أطال له في القَدْر [ويُسمع منه ولا يُسمع فيه، ويبقيه سنداً للدين الحنيفيّ فإن بقاءه يكفيه][2].

* * *

(١) ولد سنة (٥٢٧ هـ) بالموصل، وولي القضاء فيها، وفي «طبقات الشافعية» للسبكي: ٦/ ٥٧، لقبه محيي الدين، ولعله خلط بينه وبين أخيه محيي الدين محمد، وهو مشهور.
انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٤٨، و «ديوان ابن التعاويذي»: ٣٣٧ — ٣٣٩ ففيه قصيدة في مدحه، مطلعها:
حللت حلول الغيث في البلد المحل ... وإن جَلَّ ما تولي يداك عن المِثْلِ
وكان قد ورد بغداد رسولاً من قبل نور الدين سنة (٥٦٩ هـ)، وأشار ابن خلكان: ٤/ ٢٤٢ إلى ولد آخر للكمال هو جلال الدين أبو أحمد، ترجم له الإسنوي في «طبقاته»: ٢/ ١٠١ وسماه عبد الرحمن، وذكر أنه مات شاباً في حياة والده سنة (٥٦٦ هـ) وعلى هذا يكون لكمال الدين ثلاثة أولاد هم: عماد الدين أحمد، وجلال الدين عبد الرحمن، ومحيي الدين محمد.
(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ٩٢، وما بين حاصرتين منه، وهي مثبتة في طبعة وادي النيل: ١/ ٢٧٨.

آخر الجزء الأول من الأصل المنقول منه الذي هو بخط المؤلف رحمه الله تعالى، يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني:

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمس مئة، قال العماد: وكان شمس الدين بن المقدَّم من أكابر الأمراء.

ووافق الفراغ منه في سابع شهر ذي الحجة من سنة ست وسبعين وست مئة، غفر الله تعالى لمؤلفه وكاتبه وصاحبه والمنتفع به والمطلع عليه وجميع المسلمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين[1].

[نجز الجزء الثاني من كتاب الروضتين
ويليه الجزء الثالث
ويبدأ بحوادث سنة (٥٧٤ هـ)]

(١) في هامش الأصل: بلغ مقابلة بأصله.

المحتوىٰ

حوادث سنة إحدى وستين وخمس مئة ٥
وفاة فتح الدين بن أسد الدين شيركوه ٥
فتح نور الدين حصن المنيطرة ٥
وفاة الشاعر الجليس بن الجباب ٦
حوادث سنة اثنتين وستين وخمس مئة ١٠
عودة أسد الدين شيركوه إلى مصر للمرة الثانية ١٠
استغاثة شاور بالفرنج لدفع أسد الدين عن مصر ١١
وقعة البابين بين شيركوه والعساكر المصرية والفرنجية .... ١١، ١٥، ١٩
تسلم شيركوه الإسكندرية من غير قتال، واستنابة
صلاح الدين فيها، وعوده إلى الصعيد ١٣
حصار الفرنج والمصريين للإسكندرية ١٤
عقد الصلح بين شيركوه والفرنج والمصريين، وتسلم المصريين
للإسكندرية ١٤
المعاهدة بين الفرنج والمصريين ١٤
تخريب نور الدين قلعة أكاف ١٦
تخريب نور الدين قلعة هونين .... ١٦، ٢٤
عودة أسد الدين إلى الشام من مصر ١٦
وفاة قرا أرسلان بن داود بن سقمان صاحب حصن
كيفا وديار بكر ١٦
فصل/ قدوم العماد الكاتب إلى دِمشق، وتجديد معرفته بنجم الدين
وشيركوه بن شاذي، وبداية معرفته بصلاح الدين، ومدحه لهم ١٦

فصل/ اجتماع قطب الدين ونور الدين على غزو الفرنج ٢٤
تخريب قلعة جبلة ٢٤
فتح العريمة وصافيثا ٢٤
عصيان الأمير غازي بن حسان صاحب منبج على نور الدين ٢٤
وفاة القاضي الشاعر الرشيد أحمد بن علي بن الزبير ٢٥
ذكر المهذب الحسن بن علي بن الزبير، وقصيدته في نور الدين..... ٢٥
تعريف القاضي الشهرزوري لنور الدين بالعماد الكاتب ٢٧
تولي العماد الكاتب ديوان الإنشاء لنور الدين أول سنة (٥٦٣ هـ) ... ٢٩
استعفاء أبي اليسر شاكر بن عبد الله التنوخي من ديوان الإنشاء...... ٢٩
ذكر وفاة الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني........ ٢٩
حوادث سنة ثلاث وستين وخمس مئة ....
قضاء نور الدين الشتاء في قلعة حلب ٣٠
توجه نور الدين إلى منبج لتهذيب أحوالها ٣٢
سير نور الدين من منبج إلى قلعة نجم على الفرات ٣٣
عبور نور الدين الفرات إلى الرها، وإقامته بقلعتها مدة ٣٣
عود نور الدين إلى حلب ٣٦
ولاية أسد الدين لحمص ٣٧
فصل/ وفاة زين الدين علي بن بكتكين والد مظفر الدين
صاحب إربل............................... ٣٨
حوادث سنة أربع وستين وخمس مئة ٤١
تملك نور الدين قلعة جعبر، وتولية شمس الدين
علي ابن الداية لها ٤١
ذكر وفاة بهاء الدين عمر أخي مجد الدين ابن الداية ٤٥

فصل/ مسير أسد الدين لمصر للمرة الثالثة وفتحه لها ٤٦
فصل/ فيما فعله نور الدين حين جاءته رسل العاضد ٥٠
فصل/ في القبض على شاور وقتله ٥٥
فصل/ في وزارة أسد الدين ٦٤
فصل/ في وفاة أسد الدين، وولاية ابن أخيه
صلاح الدين مكانه . . . . : ٦٨
فصل/ رواية ابن أبي طي لقصة شاور، وما جرى بسببه في
الديار المصرية إلى أن تمت وزارة صلاح الدين ٨١
فصل/ قصائد في التهنئة بملك مصر ١٢١
فصل/ في قتل المؤتمن بالخرقانية، ووقعة السودان بين القصرين ١٣٠
ذكر وفاة ياروق أحد أمراء نور الدين ١٣٨
ذكر احتراق جامع حلب وأسواق البز ١٣٨
حوادث سنة خمس وستين وخمس مئة ١٣٩
نزول الفرنج على دمياط ١٣٩
استيلاء الفرنج على حصن عكار وأسر صاحبه ١٤١
وفاة العمادي صاحب نور الدين وأمير حاجبه ١٤١
حصار نور الدين الكرك ١٤١
ذكر وفاة مجد الدين ابن الداية ١٤١
رحيل الفرنج عن دمياط ١٤٣
فصل/ إرسال نور الدين كتاب تهنئة للعاضد برحيل الفرنج
عن دمياط ١٤٤
إرسال نور الدين العماد الكاتب إلى خلاط ١٤٨

خروج نور الدين إلى داريا، وإعادة عمارة جامعها ومشهد
أبي سليمان الداراني ١٤٨
فصل/ في مسير نجم الدين أيوب إلى مصر بباقي أولاده وأهله ١٤٨
ولادة الملك الأفضل علي بن صلاح الدين ١٥٣
فصل/ في ذكر الزلزلة الكبرى التي عمت أكثر البلاد من الشام
ومصر والجزيرة والموصل والعراق وغيرها ١٥٤
فصل/ في غزوة صاحب البيرة ووفاة صاحب الموصل قطب الدين
مودود بن زنكي ١٦١
فصل/عزم نور الدين على دخول الموصل بعد وفاة أخيه قطب الدين . ١٦٥
حوادث سنة ست وستين وخمس مئة ١٦٦
تسلم نور الدين الرقة ١٦٦
استيلاء نور الدين على الخابور ١٦٦
ملك نور الدين نصيبين ١٦٦
اجتماع نور الدين مع محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن
كيفا وديار بكر ١٦٦
محاصرة نور الدين لسنجار وتملكها وتسليمها لابن أخيه الأكبر
عماد الدين زنكي بن مودود ١٦٦
نزول نور الدين شرقي الموصل ١٦٧
استنجاد المواصلة بإيلدكز صاحب بلاد الجبل وأذربيجان وأران وغيرها ١٦٧
حصار نور الدين للموصل ١٦٨
دخول نور الدين للموصل وإطلاقه جميع المكوس منها ومن سائر
ما فتحه من البلاد وأمره ببناء الجامع النوري ١٦٨
مسير نور الدين إلى الشام ١٦٩

سفارة العماد الكاتب إلى بغداد ١٦٩
فصل/ في ذكر الشيخ عمر الملاء.................. ١٧١
عودة نور الدين إلى سنجار وعمارة أسوارها ١٧٣
وصول نور الدين إلى حلب.................. ١٧٣
تزويج نور الدين ابنته من صاحب الموصل سيف الدين
غازي بن مودود.................. ١٧٤
تفويض القضاء والحكم بنصيبين وسنجار والخابور إلى الشيخ
شرف الدين بن أبي عصرون ١٧٤
فصل/ وفاة الخليفة المستنجد بالله وتولي ابنه المستضيء بأمر الله ١٧٧
فصل/ فيما جرى بمصر في هذه السنة.................. ١٨٠
إعادة صلاح الدين دار المعونة مدرسة للشافعية.................. ١٨٠
إعادة صلاح الدين دار الغزل مدرسة للمالكية ١٨١
تولية صلاح الدين لصدر الدين عبد الملك بن درباس القضاء والحكم
بمصر والقاهرة وأعمالها.................. ١٨١
إغارة صلاح الدين على الرملة وعسقلان.................. ١٨١، ١٨٥
استيلاء صلاح الدين على قلعة أيلة ١٨٢
مسير صلاح الدين إلى الإسكندرية ليشاهدها ويرتب قواعدها.......... ١٨٢
شراء تقي الدين عمر منازل العز، وجعلها مدرسة للشافعية.......... ١٨٢
إغارة شمس الدولة تورانشاه على العربان في الصعيد ١٨٣
وفاة القاضي الموفق أبي الحجاج يوسف بن الخلال ١٨٣
شروع صلاح الدين في عمارة سور القاهرة ١٨٤
شروع صلاح الدين في تمهيد أسباب الخطبة لبني العباس ١٨٤
حوادث سنة سبع وستين وخمس مئة ١٨٩

إقامة صلاح الدين الخطبة لبني العباس ١٨٩
وفاة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين بمصر ١٩١
إرسال نور الدين المطهر بن أبي عصرون إلى بغداد للبشارة
بإقامة الخطبة العباسية في مصر ٢٠٣
وصول عماد الدين صندل من بغداد في جواب بشارة نور الدين ٢٠٧
إرسال الخِلع لصلاح الدين ٢٠٨
أمر صلاح الدين بالقبض على قصور العاضد، وجميع ما فيها من
مال وذخائر وفرش وسلاح ٢٠٩
فصل/ نبذة عن الدولة الفاطمية ٢١٣
فصل/ في ذكر غزو الفرنج في هذه السنة ٢٢٤
فتح نور الدين عرقة ٢٢٤
نكث الفرنج الهدنة مع نور الدين ٢٢٤
فصل/ في عزم نور الدين على الدخول إلى مصر ٢٢٦
فصل/ اتخاذ نور الدين الحمام الهوادي ٢٢٩
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٢٣٢
إسقاط صلاح الدين المكوس بمصر ٢٣٢
وفاة الشيخ أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي المقرىء النحوي ٢٣٤
ولادة العزيز والظاهر ابني صلاح الدين ٢٣٤
ولادة المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه ٢٣٤
وفاة الشاعر أبي الفتوح نصر بن عبد الله الإسكندري المعروف
بابن قلاقس ٢٣٥
حوادث سنة ثمان وستين وخمس مئة ٢٣٥
وفاة ملك النحاة الحسن بن صافي ٢٣٥

تولي العماد الكاتب الإشراف على الديوان مضافاً إلى كتابة الإنشاء . . . ٢٣٦
تسيير صلاح الدين تحفاً وهدايا من خزائن العاضد إلى نور الدين ٢٣٦
فصل/ في جهاد السلطانين للفرنج في هذه السنة ٢٣٩
نزول صلاح الدين على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون
وتخريب عماراتها ٢٣٩
محاولة الفرنج الإغارة على زرا، وخروج نور الدين لدفعهم عنها ٢٤٢
فصل/ في فتح بلاد النوبة ٢٤٥
فصل/ في وفاةِ نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وطرف من أخباره ٢٤٨
فصل/ قصد نور الدين بلاد قليج أرسلان عازماً على حربه
وأخذ بلاده منه ٢٦٠
فتح نور الدين مرعش ٢٦٠
فتح نور الدين بهسنى ٢٦٠
المعاهدة بين نور الدين وقليج أرسلان ٢٦٢
قدوم الفقيه قطب الدين النيسابوري إلى حلب وسرور نور الدين به . . . ٢٦٣
شروع نور الدين في إنشاء المدرسة العادلية الكبرى ٢٦٤
ذكر المؤلف أنه ألف كتابه الروضتين في المدرسة العادلية ٢٦٤
قدوم شيخ الشيوخ عماد الدين بن حمويه إلى دمشق،
وتعيين نور الدين له بمشيخة الصوفية ٢٦٤
فصل/ استيلاء مليح بن لاون للدروب، وكسره للروم، وإرساله
لنور الدين ثلاثين أميراً من مقدَّميهم ٢٦٦
استيلاء قراقوش غلام تقي الدين على طرابلس وكثير من
بلاد إفريقية ٢٦٧

وصول شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد، ومعه توقيع لنور الدين
بدرب هارون وصريفين ٢٦٨
حوادث سنة تسع وستين وخمس مئة ٢٦٩
عودة نور الدين من بلاد الروم إلى حلب ثم دخوله دمشق ٢٦٩
إبطال نور الدين فريضة الأتبان ٢٧٠
فصل/ في فتح تورانشاه أخي صلاح الدين لليمن ٢٧١
فصل/ ذكر المبارك بن منقذ المستناب بزبيد ٢٧٥
تسيير نور الدين البشارة لبغداد بفتح اليمن وكسره الروم ٢٧٦
نزول نور الدين إلى المدرسة العمادية ٢٧٨
فصل/ وصول رسول نور الدين الموفق ابن القيسراني إلى مصر
مطالباً صلاح الدين بحساب البلاد ٢٧٩
إرسال صلاح الدين هدية إلى نور الدين ٢٧٩
فصل/ في صلب عمارة اليمني الشاعر وأصحابه ٢٨٢
فصل/ في التعريف بحال عمارة ونسبه وشعره ٢٩٧
فصل/ في وفاة نور الدين ٣٠٥
تفنيد قصة مجيء نور الدين إلى المدينة المنورة لمنامٍ رآه ٣١٦
ولاية الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين ٣١٧
قصد الفرنج بانياس ٣٢١
كتاب صلاح الدين للملك الصالح يعزيه بأبيه نور الدين ٣٢٣
هروب سعد الدين كمشتكين من قلعة الموصل إلى حلب ٣٢٥
مجيء كمشتكين إلى دمشق لإحضار الملك الصالح ٣٢٥
مسير الملك الصالح إلى حلب ٣٢٦

قبض سعد الدين كمشتكين على إخوة مجد الدين ابن الداية
في حلب ٣٢٦
استبداد سعد الدين بتدبير أمر الملك الصالح ٣٢٦
الهدنة بين الفرنج وابن المقدم ٣٢٩
استنكار صلاح الدين لهذه الهدنة ٣٢٩
وفاة مري ملك بيت المقدس ٣٣٢
حوادث سنة سبعين وخمس مئة ٣٣٢
قتل جرديك النوري لابن الخشاب في حلب.......... ٣٣٢
مسير العماد الكاتب إلى الموصل ٣٣٢
مساءة صلاح الدين مما جرى لإخوة مجد الدين ابن الداية ٣٣٣
عزم السلطان صلاح الدين على دخول الشام ٣٣٤
وصول أسطول صقلية إلى الإسكندرية، وانهـزامه ٣٣٤
فصل/ ثورة الكنز في الصعيد ٣٣٧
فصل/ توجه صلاح الدين إلى دمشق ٣٣٩
تسلم صلاح الدين دمشق ٣٤٢
فصل/ فيما جرى بعد فتح دمشق من فتح حمص وحماة، وحصار حلب ٣٤٥
مكاتبة كمشتكين لسنان صاحب الحشيشية ٣٥٠
وثوب الحشيشية على صلاح الدين أثناء حصاره حلب ونجاته منهم .. ٣٥٠
مكاتبة كمشتكين لريموند أمير طرابلس ٣٥٠
مهاجمة الفرنج لحمص ٣٥١
رفع صلاح الدين الحصار عن حلب ٣٥١
إرسال صلاح الدين ابن أبي المضاء رسولاً إلى بغداد ومعه

رسالة تشتمل على تعداد ما للسلطان من الأيادي في جهاد الفرنج،
وفتح مصر واليمن وأطراف المغرب، وإقامة الخطبة العباسية بمصر . . ٣٥٧
فصل/ مرثية العماد الكاتب لنور الدين ٣٦٨
قدوم العماد الكاتب إلى دمشق ٣٧٠
فصل/ في فتح صلاح الدين لبعلبك ٣٧٤
فصل/ فيما جرى للمواصلة والحلبيين مع السلطان هذه السنة ٣٧٧
اجتماع المواصلة والحلبيين على قتال صلاح الدين، وهزيمة السلطان
لهم عند قرون حماة ٣٧٨
عودة صلاح الدين لمحاصرة حلب، وهو الحصار الثاني لها ٣٧٨
الصلح بين الحلبيين وصلاح الدين ٣٧٨
تسلم صلاح الدين حصن بعرين ٣٨٦
ولاية شهاب الدين الحارمي حماة ٣٨٦
ولاية ناصر الدين بن شيركوه حمص ٣٨٦
تعيين العماد الكاتب في ديوان الإنشاء ٣٨٨
ظهور متنبىء في مشغرا ٣٨٨
وفاة شهاب الدين الياس الأرتقي صاحب البيرة ٣٨٩
حوادث سنة إحدى وسبعين وخمس مئة ٣٨٩
الهدنة بين الفرنج وصلاح الدين ٣٨٩
فتنة قطب الدين قايماز في بغداد، وخروجه منها ٣٩٠
فصل/ فيما تجدَّد للمواصلة والحلبيين ٣٩٤
نقض الحلبيين للصلح ٣٩٥
قتال المواصلة والحلبيين للسلطان صلاح الدين عند قرون
حماة وهزيمتهم ٣٩٨

عودة سيف الدين غازي صاحب الموصل إلى حلب ثم إلى الموصل . . ٣٩٩
خوف أهل حلب من قصد السلطان لهم ٤٠٤
قصد السلطان للحصون والقلاع والمعاقل التي حول حلب ٤٠٥
فصل/ في فتح جملة من البلاد حوالي حلب ٤٠٥
فتح صلاح الدين حصن بزاعة ٤٠٥
تسلم صلاح الدين منبج ٤٠٥
تسلم صلاح الدين عزاز ٤٠٧
فصل/ في وثوب الحشيشية على السلطان مرة ثانية على عزاز ٤٠٩
نزول السلطان على حلب ٤١٣
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٤١٥
قدوم تورانشاه أخي صلاح الدين إلى دمشق من اليمن ٤١٥
مقتل صديق بن جَوْلة صاحب بصرى وصرخد ٤١٧
عصيان الأمير غرس الدين قليج بتل خالد ٤١٧
دخول قراقوش غلام تقي الدين إلى المغرب ٤١٨
وزارة أبي الحسن علي بن جمال الدين لصاحب الموصل ٤١٩
وفاة حافظ الشام ومؤرخها أبي القاسم ابن عساكر ٤٢٠
قدوم الواعظ أبي الفتوح عبد السلام بن يوسف التنوخي
الجماهري إلى دمشق ٤٢٠
حوادث سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة ٤٢٢
عقد الصلح بين الحلبيين والمواصلة وصلاح الدين ٤٢٢
بذل السلطان عزاز لابنة نور الدين ٤٢٢
محاصرة صلاح الدين لحصن مصيات ٤٢٣
إغارة الفرنج على البقاع وهزيمتهم ٤٢٣

اجتماع السلطان بأخيه تورانشاه في حماة ٤٢٤
عودة السلطان إلى دمشق، وتفويض ملكها لأخيه تورانشاه ٤٢٥
عزم السلطان على السفر إلى مصر ٤٢٥
وفاة القاضي كمال الدين بن الشهرزوري، وتعيين ابن أخيه ضياء الدين
الشهرزوري ٤٢٦
استعفاء ضياء الدين الشهرزوري من القضاء ٤٢٨
تفويض القضاء إلى الشيخ شرف الدين بن أبي عصرون، وتعيين
ابنه أبي حامد محمد كالنائب عنه ٤٢٩
وقف السلطان قرية حزم باللوى من حوران على المشتغلين بعلم
الشريعة، أو بعلم يحتاج إليه الفقيه، أو يحضر لسماع الدروس بالزاوية
الغربية من جامع دمشق، وعلى مدرسهم في هذا الموضع ٤٣٠
وفاة شمس الدين بن أبي المضاء ٤٣١
تعيين ضياء الدين بن الشهرزوري رسولاً إلى بغداد ٤٣١
زواج السلطان صلاح الدين من عصمة الدين بنت أنر ٤٣١
نبذة عن أسامة بن منقذ ٤٣٢
فصل/ في رجوع السلطان إلى مصر ٤٣٧
قصيدة للعماد في ذكر المنازل بالترتيب بين دمشق ومصر ٤٣٨
زيارة العماد الكاتب للأهرامات ٤٤٣
فصل/ بيع مكتبة العاضد ٤٤٤
أمر صلاح الدين ببناء القلعة على جبل المقطم ٤٤٦
أمر صلاح الدين ببناء سور حول الفسطاط والقاهرة ٤٤٦
أمر صلاح الدين ببناء مدرسة بالتربة الشافعية ٤٤٧

أمر صلاح الدين ببناء بيمارستان في دار القصر ٤٤٨

فصل/ في خروج السلطان إلى الإسكندرية ٤٤٨

تردد السلطان إلى الشيخ الحافظ أبي طاهر السلفي ٤٤٨

أمر صلاح الدين بتعمير الأسطول ٤٤٩

وصول رسول الموصل إلى صلاح الدين بمصر ٤٥١

أسر الفرنج رسول صاحب حصن كيفا وهو في طريقه إلى مصر ٤٥١

رجوع قراقوش غلام تقي الدين إلى مصر من المغرب ٤٥١

خروج السلطان إلى مرج فاقوس لإرهاب الفرنج ٤٥٢

إبطال السلطان المكس الذي كان بمكة على الحاج ٤٥٣

شروع مجاهد الدين قايماز في عمارة جامعه بالموصل ونبذة عن حياته ٤٥٣

وفاة القاضي الشريف أبي محمد عبد الله العثماني ٤٥٥

حوادث سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة ٤٥٦

حوادث سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة ٤٥٦

عودة السلطان إلى القاهرة، وعزمه على غزو غزة وعسقلان ٤٥٨

فصل/ في نوبة كسرة الرملة ٤٦٢

فصل/ في وفاة كمشتكين، وخروج السلطان من مصر بسبب حركة الفرنج ٤٦٨

نزول الفرنج على حارم ورجوعهم عنها ٤٧٠

فسخ الفرنج للهدنة، ومهاجمتهم لحماة وانهزامهم ٤٧٠

وفاة شهاب الدين محمود الحارمي صاحب حماة ٤٧٢

وصول السلطان إلى دمشق من مصر ٤٧٢
اجتماع السلطان برسل دار الخلافة بدمشق ٤٧٤
فصل/ في ذكر أولاد السلطان ٤٧٤
فصل/ في قتل عضد الدين بن رئيس الرؤساء
وزير الخليفة ٤٨١
وفاة القاضي أحمد بن القاضي كمال الدين بن
الشهرزوري ٤٨٥

كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية

تأليف
شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

حققه وعلّق عليه
إبراهيم الزيبق

الجزء الثالث

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة

شارع حبيب أبي شهلا

بناء المسكن

تلفاكس: (٩٦١١)

٨١٥١١٢ ـ ٣١٩٠٣٩ ـ ٦٠٣٢٤٣

ص.ب: ١١٧٤٦٠

برقياً: بيوشران

بيروت ـ لبنان

Al-Resalah

PUBLISHERS

BEIRUT

LEBANON

Telefax: (9611)

815112 - 319039 - 603243

P.O. Box: 117460

E-mail:

Resalah@cyberia.net.lb

Web Location:

Http://www.resalah.com

حقوق الطبع محفوظة ©١٩٩٧م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكِّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

٢/٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

ثُمَّ دَخلَت سَنَةُ أَرْبَعٍ وسَبْعين وخَمْسِ مِئَةٍ

قال العمادُ: وكان شمسُ الدِّين بن المُقَدَّم من أكابر الأمراء، وهو السَّابق إلى مكاتبة السُّلْطان في تصويب رأيه في الوصول إلى الشَّام، وتدارك أمر الإسلام[١]. وكان السُّلْطان عند تسلُّم بَعْلَبَك أَنْعَمَ بها عليه، ورَدَّ أمورها إليه، فأقام بها مستقراً، ولأخلاف[٢] أعمالها مستدرّاً. ولما وصل السلطان في هذه النَّوْبة إلى الشَّام لم يَحْضُر ــ كما جَرَتِ العادَةُ ــ للخدمَةِ والسَّلام، فإنه كان نَمَى إليه أن الملك المُعَظَّم فخر الدين شمس الدولة تورانشاه بن أيوب طَلَبها من أخيه، وأنه لا يمكنه الرَّدُّ، فخاف من الحضور أن تتمَّ الأمور، ورُوْجِعَ في ذلك مراراً سِرًّا وجِهاراً، والتزم له أن يُعوَّض عنها ما هو أوفى منها، فأبى إلا الإِباء، وشارفَ السُّلْطان منه ومن أخيه الحياءَ. وشمس الدولة لا يقبَلُ عُذْراً ولا يرى عما طلبه صبراً. ثم استأذن أخاه في التوجُّه إليها، فأذِنَ له، وتوجَّه عِزُّ الدين فَرُّخْشاه إلى حَوْران لحفظ الثُّغور، وسار السلطان إلى حمص، ونزل على العاصي عازماً على الجهاد[٣].

ووردَتْ من الفاضل كتبٌ، من بعض فصولها: وأما سور القاهرة فعلى

(١) انظر ص ٣٤٢ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) مفردها خِلْف: وهو ضرع الناقة، وكل ذات خف وظلف. انظر «معجم متن اللغة»: ٢/ ٣٢٢.

(٣) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٩٢ ــ ٩٤، و«سناه»: ١/ ٢٩٢ ــ ٢٩٤.

ما أمر به المولى شُرِعَ فيه، وظهر العمل وطلع البناء، وسلكت به الطريق المؤدِّية إلى السَّاحل بالمقسم*، والله يُعمِّر المولى إلى أن يراه نِطاقاً مستديراً على البلدين، وسوراً بل سِوَاراً يكونُ به الإسلام مُحلَّى اليدين، مُحَلأً الضِّدَّين. والأمير بهاء الدين قَرَاقوش ملازمٌ الاستحثاثَ بنفسه ورجاله، لازمٌ لما يعنيه بخلاف أمثاله، قليل التثقيل مع حمله لأعباء التدبير وأثقاله[١].

ومنها في حَقٍّ نقل القضاء من شرف الدين بن أبي عَصْرُون لما ذهب بصرُه إلى ولده[٢]: لن يخلو الأمر من قسمين ــ والله يختار للمولى خِيْرَةَ الأقسام، ولا ينسىٰ [له][٣] هذا التحرُّج الذي لا يبلغه ملك من ملوك الإسلام ــ إما إبقاء الأمر باسم الوالد بحيث يبقى رأيه ومشاورته، وفتياه وبركته، ويتولَّى ولده النيابة ويشترط عليهما المجازاة لأوَّل زلَّة، وترك الإقالة لأول عثرة، فطالما بعث حبُّ المنافسة الراجحة على اكتساب الأخلاق الصَّالحة. وإما أن يُفَوَّض الأمر إلى الإمام قُطْب الدين[٤]، فهو بقية المشايخ، وصدرُ الأصحاب، ولا يجوز أن يتقدَّم عليه في بلد إلا مَنْ هو أرفعُ طبقةً في العِلْم منه[٥].

ومنها في إقامة عذر التأخر عن الجهاد: وأما تأسُّف المولى على

---

(١) «البرق الشامي»: ٣/ ٩٧ ــ ٩٨، و«سناه» ١/ ٢٩٦ ــ ٢٩٧.
(٢) انظر ص ٤٣٠ من الجزء الثاني.
(٣) ما بين حاصرتين ليست في الأصل، وثمة إشارة إلى استدراكها في الهامش، لكنه ذهب بالخرم الذي أصاب بعض كلمات السطرين الأخيرين، وما أثبتناه من «البرق الشامي»: ٣/ ٩٨.
(٤) هو النيسابوري، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول.
(٥) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٩٨ مع اختلاف في بعض الألفاظ، و«سنا البرق الشامي»: ١/ ٢٩٧ ــ ٢٩٨.

أوقاتٍ تنقضي عاطلةً من الفريضة التي خرج من بيته لأجلها، وتجدُّد العوائق التي لا يوصل إلى آخر حبلها، فللمولى نيّةُ رُشْده، وأليس اللّهُ العالم بعبده، وهو سبحانه لا يسألُ الفاعل عن تَمام فعله، لأنه غير مقدورٍ له، ولكن عن النيّةِ لأنها محلُّ تكليف الطّاعة، وعن مقدور صاحبها من الفعل بحسب ٣/٢ الاستطاعة. وإذا كان المولى [آخذاً][1] في أسباب الجهاد، وتنظيف الطُّرُقِ إلى المُراد، فهو في طاعةٍ قد امتنَّ الله عليه بطول أمدها، وهو منه على أملٍ في نُجْح موعدِها، والثَّواب على قدر مشقَّته، وإنما عَظُمَ الحجُّ لأجل جُهده وبُعْدِ شُقَّته، ولو أنَّ المولى فتح الفتوحَ العِظام في أقلِّ الأيَّام، وفَصَلَ القضيَّة بين أهل الإسلام وأعداء الإسلام، لكانت تكاليفُ الجهاد قد قضيت، وصحائفُ البِرِّ المكتسبة بالمرابطة والانتظار طويت[2].

ومنها في ذكر أولاد السُّلْطان: وقبل الإجابة عن الفصول فنبشِّر بما جرت العادَةُ به، لا قطع اللّهُ تلك العادة، من سلامةٍ وصحَّةٍ وعافيةٍ شَمَلتْ موالينا أولاده السَّادة، أطاب الله الخبر إليهم عن المولى وإلى المولى عنهم، وعجَّل لقاءه لهم ولقاءهم له، فإنهم من يلق منهم [بل][3] كلٌّ منهم ملكٌ دَسْتُه برجُه، وفارسٌ مهده سَرْجُه، فهم ــ بحمد الله ــ بهجةُ الدُّنيا وزينَتُها، وريحان الحياة وزهرتها، وإنَّ فؤاداً وسعَ فراقَهم لواسعٌ، وإن قلباً قنع بأخبارهم لقانع، وإنَّ طَرْفاً نام على البُعْد عنهم لهاجع، وإن ملكاً مَلَكَ تصبُّرَه عنهم لحازم، وإن نعمة الله فيهم لنعمةٌ بها العيشُ ناعم، أما يشتاقُ

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٣، وفي «البرق الشامي»: ٣/ ٩٩: «يسبب الأسباب».

(٢) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ٩٩ ــ ١٠٠ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٣.

جِيْدُ المولى أن يتطوَّق بِدُرَرِهم؟ أما تظمأ عينه إلى أن تتروَّى بنظرهم؟ أما يحنُّ قلبه على قلبه؟ أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم ما خرج من حبه؟ وللمولى ــ أبقاه الله تعالى ــ أن يقول:

وما مِثْلُ هذا الشوق تحمل مُضْغَةٌ ولكنَّ قلبي في الهوى بقلوبِ

وفي أخرى: والملوك الأولاد في كَفَالة العافية لا رَفَعَتْ عنهم كفالتها، وعليهم جلالةُ السلطنة لا فارَقَتْهم جَلالتُها، وكلٌّ من الموالي السَّادة الأمراء الأولاد، والقِلادة كلُّها جوهر، وكلُّهم المقدَّم، وليس فيهم ــ بحمد الله ــ من يؤخَّر، على ما عوَّد الله من صحَّةٍ وسلامةٍ وكفايةٍ ووقاية، ولزوم المستقلِّ منهم لمشهد الكُتَّاب ولموقف الأماج[1]، ومخايل الخَفَرِ فيهم من تحت ليل الصِّبا أنورُ دلالةً من ضوء السِّراج، والله تعالى يمدُّ في عُمر المولى إلى أن يرى من ظهورهم ما رأى جَدُّهم ــ رحمه الله ــ في أهل بيته من البطن الرَّابع، فوارس الحرب الرائعة، وملوك الإسلام التي منهم للإسلام أكاسرةٌ وتبابعة.

ما فيهمُ[2] عِنْدَ العلاءِ صغيرُ وصِغَارُ أبناءِ الكِبارِ كِبارُ

نجومُ الأرض، وذُرِيَّة بعضُها من بعض، والخلف الصَّالح المحض[3]، وهم في الدُّنيا والآخرة فُرْسان القوَّة والتُّقى يوم[4] الحرب ويوم العَرْض.

---

(١) الأماج: الدريئة، وهي كلمة فارسية. انظر «تكملة المعاجم لدوزي [الترجمة العربية] ١/ ١٨٥ حاشية رقم (٣٩٧)، و«قاموس الفارسية»: ٥٢. قلت. وفي هذه العبارة إشارة إلى ملازمة البالغين منهم للدرس وتعلم الرمي.

(٢) في الأصل: وما فيهم، وبه لا يستقيم الوزن.

(٣) في «البرق الشامي»: ٣/ ١٠١ «والخلف الصالح المحض من الخلف الصالح المحض».

(٤) في الأصل: ويوم، والمثبت من «البرق»: ٣/ ١٠١.

ومنها في ذمِّ ماء دمشق ووخمها: عرف المملوك من الكتب الواصلة التياث جسم المولى الأمير عثمان[1]، والحقير مما ينالُ ذلك الجسمَ الكريم، يوقدُ في قلوب الأولياء الأثر العظيم. و

قليلُ قَذَاةِ العَيْنِ غَيْرُ قليلِ

وماذا يقول في بلدٍ لو صحَّت الحِمْيةُ من مائه لكانت من أكبر أسباب صحَّةِ المحتمي وشفائه، فإنه ماءٌ يؤكل، وبقيَّةُ المياه تُشْرَب، ويجدُ وخامَتَه من ينصف ولا يتعصَّب[2].

ومنها: وأما المأمور به في معنى المنكرات الظَّاهرة، وإزالة أسبابها، وإغلاق أبوابها، وتحصين كل مبتوتةٍ[3] من عصمة، وتطهير كل موسومة بوصمة، فاللهُ يثيب المولى ثوابَ من غَضِبَ ليُرْضِيَه بغضبه، وحَمَلَ الخَلْقَ على مِنْهاج شَرْعه وأدبه[4].

ثم أورد العماد فصولاً كثيرةً، وقال: إنما أوردتُ الفصول الفاضلية، لأنَّ في كل فصلٍ منها ذكر سيرة، وفوائد كثيرة[5].

فَصْلٌ [6]

قال العماد: ومن جُملة ما أغفلتُه ذِكْر ما أسقطه السلطان من مَكْس

---

(١) هو العزيز، وكان له من العمر هنا سبع سنين، انظر ص ٤٧٥ من الجزء الثاني.

(٢) انظر «البرق»: ٣/ ١٠١، و«سناه»؛ ١/ ٢٩٩.

(٣) المبتوتة: هي المرأة المطلقة طلاقاً بائناً. انظر «اللسان» (بتت).

(٤) «البرق»: ٣/ ١٠٣، و«سناه»: ١/ ٣٠١.

(٥) «البرق»: ٣/ ١٠٥، و«سناه»: ١/ ٣٠٣.

(٦) من هنا تبدأ نسخة برلين، ورمزت لها بحرف (ب).

مكة ــ شَرَّفها الله تعالى ــ عن الحاجِّ، وتعويض أميرها بجلاب* غَلَّة تُحمل إليه في كُلِّ سنةٍ، وتعيين ضياع موقوفة عليها بالأعمال المصرية.

كان الرسم بمكة أن يؤخذ من حاج المغرب على عدد الرؤوس ما ينسب إلى الضَّرائب والمكوس، فإذا دخل حاجٌّ حُبِسَ حتى يؤديَ مَكْسَه، ويَفُكَّ بما يطلبونه منه نَفْسَه، وإذا كان فقيراً لا يملك، فهو يحبس ولا يُترك، وتفوته الوقفة بعَرَفة ولا تُدْرَك. فقال السُّلْطان: نريد أن نُعوِّض أميرَ مكَّة عن هذا المكس بمالٍ، ونغنيه عنه بنوال، وإن أعطيناه ضياعاً استوعبها ارتفاعاً وانتفاعاً، فلا يكونُ لأهل مكَّة فيها نصيب. فقرَّر معه أن يحمل إليه في كل سنة مبلغ ثمانية آلاف إرْدَبّ[1] قمح إلى ساحل جُدَّة، فإن الأُمير بها يحتاج إلى بيعها للانتفاع بأثمانها، ويثق أهل الحرمين من الدَّوْلة بدوام إحسانها. وقرَّر أيضاً حمل الغلات إلى المجاورين بالحرمين والفقراء، ومَنْ هناك من الشرفاء، ووقف لها وقوفاً، وخلَّد بها إلى قيام السَّاعة معروفاً، فسقطت المكوس، واغتبطت النفوس، وزاد البِشْرُ وزال العُبوس، واستمرتِ النُّعمى ومرَّ[2] البوس، وذلك في سنة اثنتين وسبعين[3].

ومن كلام الفاضل في ذلك في بعض كتبه: من البشائر التي لا عهد لحاج ديار مصر بمثلها، ولا عَهْدَ لملكٍ من ملوك الدِّيار المِصْرية بالحُصول على فخرها وأَجْرها، انقطاع المكَّاسين عن جُدَّة وعن بقية السَّواحل، ويكفي

---

(١) الإردب: كيل لأهل مصر يسع أربعة وعشرين صاعاً بصاع النبي ﷺ، يزن اليوم ٣٩,٥٨٨ كيلاً. انظر «معجم متن اللغة»: ٢/ ٥٦٩.
(٢) في الأصل: وزال، والمثبت من (ب)، وهو يوافق ما ورد في «البرق» و«سناه».
(٣) «البرق»: ٣/ ١٠٥، و«سناه»: ١/ ٣٠٣ ــ ٣٠٤.

أن تمام هذه المثوبة موجب الاستطاعة[1]، مقيم لحُجَّة[2] الله في الحجِّ؛ فقد كانت الفُتيا على سقوطه مع وجود الحامل، وما أكثر ما أجرى الله للخلائق ٢/ ٤
على يد المولى من الأرزاق، التي تفضل عن الاستحقاق، وما أولاه أن يتوخَّى بالمعروف مكانه من هذين الحرمين الشريفين المهجورين من إسعاف أهل الاقتدار، والمحروم من قَدَرَ فيهما[3] على خيرٍ فأضاع فُرْصَتَه بترك البِدَار. وغير خافٍ عن مولانا همَّة الفرنج بالقدس بَرًّا وبحراً، ومركباً وظَهْراً، وسِلْماً وحَرْباً، وبُعْداً وقُرْباً، وتوافيهم على حمايته وهو أنفٌ في وجه الإسلام، ومسارعتهم إلى نُصْرة أهليه بالأرواح والأموال على مَرِّ الأيام. ومعاذ الله أن يستبصروا في الضَّلال، ونصرف نحن عن الحقِّ وتضيق بنا في التوسعة على أهله سَعَة المجال[4].

المملوك في مستهل رجبٍ بمشيئة الله تعالى يُعَوِّل على السَّفَر إلى الحجاز لقضاء الفريضة قولاً وفعلاً، والسَّائرون في هذه السنة بطمعة وقفة الجمعة وبفُسْحَة وضع المكس خَلْقٌ لا يحصى، والمولى شريكٌ في أجرهم، فليَهْنه أن الملوك عمرت بيوتها فخربت، وأنَّ المولى عَمَرَ بيت الله، فمن كرمه ــ سبحانه ــ أن يَعْمُرَ بيت المولى، وما أشدَّ خجل الملوك[5] من النبي ﷺ في التقصير في قوت جيرانه في هذه السنة، وما هكذا وصَّى ابن

(١) في (ب) للاستطاعة، ومثله في «البرق».
(٢) في (ب) بحجة، ومثله في «البرق».
(٣) في الأصل: منهما، وفي (ب) فيها، ومثله في «البرق»، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٤.
(٤) انظر «البرق الشامي»: ٣/ ١٠٦، و«سناه»: ١/ ٣٠٤ ــ ٣٠٥.
(٥) في «البرق» المملوك.

اللَّمَطي، ولكن للغائب حُجَّته[1].

قلت: وفي هذه المكرمة التي فعلها صلاح الدين رحمه الله بالحاجّ يقول الشيخ الفاضل أبو الحسين محمد بن أحمد بن جُبير الأندلسي[2] من قصيدةٍ له يمدح بها صلاح الدين ــ وستأتي فيما بَعْدُ[3] ــ أخبرني بها ثِقَةٌ نقلها من خطِّه:

رَفَعْتَ مغارِمَ مَكْسِ الحجاز ... بإنعامك الشَّامل الغامِرِ
وأمَّنْتَ أكنافَ تلك البلاد ... فهانَ السَّبيلُ على العابِرِ

---

(١) في الأصل: محجته، والمثبت من «البرق»: ٣/ ١٠٧.

(٢) هو صاحب الرحلة المشهورة، كان مولعاً بالترحل والتنقل، ولد سنة (٥٤٠ هـ) في بلنسية، وزار المشرق ثلاث مرات، الأولى (٥٧٨ ــ ٥٨١ هـ) وهي التي ألف فيها رحلته، وقد طبعت غير مرة، بتحقيق الدكتور حسن نصار، والرحلة الثانية كانت في شهر ربيع الأول سنة (٥٨٥ ــ ٥٨٧ هـ) وكان فتح بيت المقدس سنة (٥٨٣ هـ) من أقوى أسبابها، إذ أراد أن يجمع زيارة المساجد الثلاثة: المسجد الأقصى، والمسجد النبوي، والمسجد الحرام. والرحلة الثالثة كانت سنة (٦٠١ هـ) وذلك بعد وفاة زوجه بأيام، ووصل مكة أثناء سنة (٦٠٢ هـ)، فجاور فيها طويلاً، ثم جاور بالقدس، ثم تحول إلى مصر والإسكندرية، فأقام بها حتى وفاته سنة (٦١٤ هـ).

كان شاعراً رقيقاً، له ديوان شعر، منه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح» أودعه قطعاً وقصائد في مراثي زوجه، والتوجع لها أيام حياتها، وكانت زمانة قد طاولتها مدة. ومنه جزء أيضاً سماه «نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان»، يشتمل على أزيد من مئتي بيت.

انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٢/ ٤٠٧، و«التكملة» لابن الأبار: ٢/ ٥٩٨ ــ ٥٩٩، و«المغرب في حلى المغرب»: ٢/ ٣٨٤ ــ ٣٨٥، و«الذيل والتكملة» للمراكشي: ٥/ق ٢/ ٥٩٥ ــ ٦٢١، و«سير أعلام النبلاء»: ٢٢/ ٤٥ ــ ٤٧، و«غاية النهاية»: ٢/ ٦٠، و«نفح الطيب»: ٢/ ٣٨١ ــ ٣٨٨.

(٣) انظر ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣ من هذا الجزء.

وسُحْـبُ أيـاديـكَ فَيّـاضَـةٌ		علـى واردٍ وعلـى صَـادِرِ
فكَمْ لـك بـالشَّرْق مـن حـامِدٍ		وكـم لـك بـالغَرْبِ مـن شـاكـر
وكـم بـالـدُّعـاء لكُـمْ كـلَّ عـامٍ		بمكَّـةَ مـن مُعْلـنٍ جـاهـرِ
وقـد بقِيَـتْ حسبـةٌ فـي فـلانٍ		وتلـكَ الـذَّخِيْـرَةُ للـذَّاخِـرِ
يُعَنِّـفُ حُجَّـاجَ بيـتِ الإلٰـهِ		ويسطـو بهـمْ سَطْـوَةَ الجـائـرِ
ويكْشِـفُ عَمَّـا بـأيـديهـمُ		ونـاهِيْـكَ مـن مـوقـفٍ صـاغِـرِ
وقـد وَقَفُـوا بعـدمـا كُشِفُـوا		كـأنهـمُ فـي يَـدِ الآسِـرِ
وَيُلْـزِمُهُـمْ حَلِفـاً بـاطـلاً		وَعُقْبـى اليميـنِ علـى الفـاجـرِ
وإنْ عَـرَضَـتْ بينَهُـمْ حُـرْمَـةٌ		فليـس لهـا عنـه مـن سـاتـرِ
أليـس يخـافُ غـداً عَـرْضَـهُ		علـى الملـكِ القـادرِ القـاهـرِ
أليـس علـى حُـرَمِ المسلميـن		بتلـك المشـاهـدِ مـن غـائـرِ
ألا حـاضـرٌ نـافـعٌ زَجْـرُهُ		فيـا ذِلَّـةَ الشَّـاهـد الحـاضـرِ
ألا نـاصِـحٌ مُبْلِـغٌ نُصْحَـهُ		إلـى الملـك النَّـاصـر الظَّـافـر
ظلـومٌ تَضَمَّـنَ مـالَ الـزكـاةِ		لقـد تَعِسَـتْ صَفْقَـةُ الخـاسـر
يُسِـرُّ الخيـانَـةَ فـي بـاطـنٍ		وَيُبْـدِي النَّصِيْحَـةَ فـي الظَّـاهِـرِ
فـأَوْقِـعْ بـه حـادثـاً إنـه		يُقَبِّـحُ أُحْـدُوثَـةَ الـذَّاكـر
فمـا للمنـاكـرِ مـن زاجـرٍ		سِـوَاكَ وبـالعُـرْفِ مـن آمـر
وحـاشـاكَ إنْ لـم تُـزِلْ رَسْمَهـا		فمـا لـك فـي النَّـاس مـن عـاذِرِ
وَرَفْعُـكَ أمثـالَهـا مـوسِـعٌ		رداءَ فَخَـارِكَ للنَّـاشِـرِ
وآثـارُكَ الغُـرُّ تبقـى بهـا		وتلـكَ المـآثـر لـلآثـر
نَـذَرْتُ النَّصيحـةَ فـي حَقِّكُـمْ		وَحُـقَّ الـوَفَـاء علـى النَّـاذِرِ
وَحُبُّـكَ أنطقنـي بـالقـريـض		ومـا أبتغـي صِلَـةَ الشَّـاعِـرِ

ولا كـــان فيمـا مضـى مكسبي ... وبِئْـــسَ البِضَـــاعَـــةُ للتَّـــاجِـــرِ
٥/٢ إذا الشِّعْـرُ صـار شِعَـار الفتـى ... فَنَـاهِيْـكَ مِـنْ لَقَـبٍ شـاهِـرِ
وإنْ كـــان نَظْمِــي لــه نــادراً ... فقــد قيــل لا حُكْـــمَ للنَّـــادِرِ
ولكنَّمـــا خَطَــراتُ الهــوىٰ ... تَعِـــنُّ فَتَلْعَـــبُ بـــالخـــاطِـــرِ
أمـــا وقـــد زَانَ تلــك العُـــلا ... فقــد فــازَ بــالشَّـرَفِ البــاهِـرِ
وإن كـــان منــك قَبُـــولٌ لـــه ... فتـلــك الكَـــرَامَـــةُ لِلـــزَّائــرِ
ويكفيــه سَمْعُــكَ مــن ســامــعٍ ... ويكفيــه لَحْظُـكَ مــن نــاظِـرِ
وَيُزْهَى على الرَّوْضِ غِبَّ الحيا ... بما حازَ مِنْ ذِكْرِكَ العاطِرِ[1]

قال العماد: وفي المحرَّم من هذه السنة توفي الحكيم مهذَّبُ الدين أبو الحسن علي بن عيسى المعروف بابن النَّقَّاش البغدادي بدمشق[2]، وكان

---

(١) انظر القصيدة مع اختلاف في بعض ألفاظها في «الذيل والتكملة» للمراكشي: ٥/ق ٥٩٨/٢ ــ ٦٠١، ومنها أربعة أبيات في «نفح الطيب»: ٢/ ٣٨٣.

(٢) كان والده عيسى من ظرفاء بغداد وأعيانها، صاحب نوادر وملح، وله شعر رقيق، عمل نقاشاً للحلي ثم صار بزازاً. ولد سنة (٤٥٧ هـ)، وتوفي سنة (٥٤٤ هـ). انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: مج ١/ج ٣/ ٤٨ ــ ٥١، و«المنتظم»: ١٠/ ١٤١، و«فوات الوفيات»: ٣/ ١٦٥ ــ ١٦٦.

أما مهذب الدين هذا فقد ولد ونشأ ببغداد، واشتغل بصناعة الطب على رئيس أطباء بغداد أمين الدولة هبة الله بن صاعد بن التلميذ المتوفى سنة (٥٦٠ هـ)، وحين هاجر مهذب الدين إلى دمشق كان أوحد زمانه في صناعة الطب، وأقام بدمشق زمناً، كان له فيها مجلس عام للمشتغلين عليه، ثم توجه إلى الديار المصرية، وأقام بالقاهرة مدة، ثم رجع إلى دمشق، فأقام بها إلى حين وفاته في هذه السنة. وقد خدم بصناعة الطب الملك العادل نور الدين، ومن بعده صلاح الدين، وقام على البيمارستان النوري عدة سنين.

وكان يتكلم الفارسية، وله يد في صناعة الإنشاء، وكتب كثيراً لنور الدين المراسلات والكتب إلى سائر النواحي. ولم يتخذ امرأة ولا خلَّف ولداً، ودفن في جبل قاسيون. انظر «البرق الشامي»: ٣/ ١٢٦ ــ ١٢٧، و«سناه»: ١/ ٣٠٥، و«عيون =

كنعته مهذَّباً، ومن الملوك لتفرُّده بفضله مُقَرَّباً، وهو مُبَرِّزٌ في فَنِّه حتى إن من شدا شيئاً من الطبِّ تبجَّح بأنه قرأ عليه، وتردَّد لاستفادته إليه، وقد راضته العلومُ الرِّياضية، وأحكمت أخلاقَهُ المعارفُ الحكميَّة.

وفي الثَّاني عشر من جُمادى الأولى توفي الأمير نجم الدين بن مَصَال بمصر[1]، وجاءنا نعيه ونحن بحمص، فجاوز اغتمامُ السُّلْطان بِرُزْئه حَدَّه، وجلس في بيت الخشب مستوحشاً وَحْدَه، وقال: لا يخلفُ الدَّهْرُ لي صديقاً مثلَه بعده. وأجرى ما كان له جميعه لولده، وحفظ عهدَه، وكان لجماعةٍ من الأعيان والشُّعراء والأماثل والأدباء بعنايته ووساطته من السلطان رزقٌ بَقَّاه عليهم، كأنه عليه مستحق[2].

وفي العَشْر الأوَّل من ربيع الآخر أغارت طائفةٌ من الفرنج على بلد حماة، فخرج إليها متولي عسكر حماة الأمير ناصر الدين منكورَسْ بن خُمارْتكِين صاحب حصن بو قُبَيْس[3]، فأسر المقدَّمين، وسفك بسيفه دم الباقين، وجاء إلى الخدمة السُّلْطانية بظاهر حمص، وساق معه الأسارى، فأمر السُّلْطان بضرب أعناقهم، وأن يتولَّى ذلك أهلُ التُّقى والدِّين من الحاضرين. فتقدَّم إمامه الضِّياء الطَّبَري وضرب عنق بعضهم، وتلاه الشيخ سليمان المغربي[4]، ثم الأمير ايطُغان[5] بن ياروق، واستدعيَ العمادُ وأُمِرَ

= «الأنباء» لابن أبي أصيبعة: ٦٣٥ ـ ٦٣٧، ٣٤٩ ـ ٣٧١. وانظر ٢/ ٢٧٥ من هذا الكتاب.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٦ من الجزء الثاني.

(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ١٢٧ ـ ١٢٨، و«سناه»: ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.

(٣) كان والده خمارتكين ممن قتله الإسماعيلية في محاولتهم اغتيال صلاح الدين، وهو على حصار حلب، وذلك سنة (٥٧٠ هـ). انظر ص ٣٥٠، ٣٥٤ من الجزء الثاني.

(٤) في «البرق الشامي» ٣/ ١٣١ أنه كان صاحب الأمير جرديك النوري.

(٥) في «البرق» و«سناه»: آقطفان، وقد مرت وفاة ياروق سنة (٥٦٤ هـ)، انظر حاشيتنا =

بذلك، فلم يفعل، وطلب أنْ يملِّكَه السلطان منهم صغيراً، فعوِّض عنه[1].

ثم رحل السُّلْطان على طريق الزراعة إلى بَعْلَبَك، فنازلها محاصراً من غير قتالٍ، فطال أمرها، ولم يسمح بها صاحِبُها، ودخل فَصْلُ الشِّتاء، فرحل السلطان عنها إلى دمشق، ووكَّل بها من يحصُرُها بالمنع من الخروج والدخول من غير قتال، وهم جماعة مع طُغْرُل الجاندار*، ودخل إلى دمشق في العَشْر الأواخر من رجب، وتمادى الأمرُ إلى أن رضي ابنُ المقدَّم بحصن بعرين* وأعماله، وببلد كفرطاب* وأعيان نواحٍ وقرًى من بلد المعرَّة، وسَلِمَ بتسليم بَعْلَبك من المَضَرَّة والمَعَرَّة. وكان الذي أخذه أكثر وأنفع من الذي خلاَّه، وما خطر بباله ما حصل له ولا ترجَّاه ولا تمنَّاه[2].

فصـــلٌ

كالذي قبله في حوادث متفرِّقة

قال العماد: وكتب النوَّاب بدمشق إلى السُّلْطان أن الأموالَ ضائِعَةٌ، وأن الأطماعَ فيها راتعة، وأنَّ في أرباب الصَّدَقات أغنياء لا يستحقونها، وما لهم رِقْبَةٌ من الله يتقونها، وأنَّ أرباب العنايات استوعبوها وما استوجبوها، وأنَّ المصلحة تقتضي إفراد جهات لما يسنَحُ من مهمات. وكانت الصدقاتُ مبلغ أحد عشر ألف دينار، فقال لي: اكتب عليها جميعها بالإمضاء، ولا تكدِّر على ذوي الآمال موارِدَ العطاء. فقلتُ: أما[3] أتلو عليك الأسماء؟ فقال: لا، بل نَزِّهْني عن هذه الأشياء. فبقيت تلك الرُّسوم

= رقم ١ ص ٥١، وص ١٣٨ من الجزء الثاني.

(١) «البرق»: ٣/ ١٢٨ ــ ١٣١، و«سناه»: ١/ ٣٠٦ ــ ٣٠٩.

(٢) «البرق»: ٣/ ١٣٤ ــ ١٤٠، و«سناه»: ١/ ٣٠٩ ــ ٣١٢.

(٣) في الأصل: أنا، والمثبت من «البرق».

دارَّة، والآمال بها سارَّة[١].

قال: وفي شعبان من هذه السنة توفي متولِّي المقياس بمصر، ففوَّض السُّلْطان منصبه إلى أخيه.

قال: وهذا المقياس موضعٌ مبنيٌّ من عهد خلفاء بني العَبَّاس لتعرف زيادة الماء ونقصانه بالقياس، وهناك عمود[٢] في الماء مقسومٌ بالأذرع، والأذرع مقسومةٌ بالأصابع، في مسجدٍ ينوب في الجزيرة عن الجامع، تُصَلَّى فيه الجماعات والجُمَع، ويتولاَّه من العهد القديم متولٍّ من بني أبي الرَّدَّاد ممن هو معروفٌ بالنَّزاهة والعِلْم والسَّداد، وله راتبٌ دارٌّ، ورسمٌ وقرار[٣].

قلت: بلغني أن أبا الرَّدَّاد هذا كان معلِّماً من أهل الصِّدْق والصَّلاح، رتَّبه جعفرُ المتوكل على الله في ولاية المقياس، وبقي من بعده على ولده، وقرأت في «تاريخ الغرباء الذين قدموا مصر»[٤] لأبي سعيد بن يونس[٥] قال: عبد الله بن عبد السَّلام بن الرَّدَّاد العَمِّي[٦]، بصريٌّ قَدِمَ مصر، وحدَّث بها،

---

(١) «البرق»: ٣/ ١٣٧ ــ ١٣٨، و«سناه»: ٣/ ٣١١ ــ ٣١٢.

(٢) في الأصل: عود، والمثبت من «البرق»، ومثله في (ب).

(٣) «البرق»: ٣/ ١٤٤، و«سناه»: ١/ ٣٠٣.

(٤) في الأصل: تاريخ الغرباء لأبي سعيد بن يونس الذين قدموا مصر، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٥.

(٥) لأبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي كتابان: «كتاب مصر»، و«كتاب الغرباء»، وكلاهما في التاريخ، ولم يصلانا بعد. وكان أبو سعيد مؤرخاً محدثاً، توفي سنة (٣٤٧ هـ). انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٣/ ٩٢ ــ ٩٣، و«سير أعلام النبلاء»: ١٥/ ٥٧٨ ــ ٥٧٩ بتحقيقي، و«تاريخ التراث العربي» لسزكين مج ١/ ج ٢/ ٢٣٨.

(٦) انظر ترجمته في «الولاة والقضاة» للكندي: ٥٠٧ ــ ٥٠٨، وفيه وفاته سنة (٢٨٠ هـ)، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ١١٢، و«رفع الإصر»: ١٤٤، و«خطط =

وكان قد جعل على قياسة النيل، توفي بمصر لسبع بقين من رجب سنة ستٍّ وستين ومئتين[١]. وذكره أبو سعيد في أهل مصر أيضاً، وقال فيه: وُلِدَ هو وأبوه بمصر.

قال ابن الأثير: وفي سنة أربعٍ وسبعين وخمس مئة اشتدَّ الغلاء، وعمَّ أكثر البلاد: العراق ومصر وديار بكر وديار الجزيرة والشَّام، وغير ذلك من البلاد، ودام إلى أن انقضى [أكثر] سنة خمس وسبعين، وخرج النَّاس في البلاد يستسقون، فلم يُسْقَوا، ثم إن الله تعالى رَحِمَ عباده، ولَطَفَ بهم،
٦/٢ وأنزل عليهم الغيثَ، وأرخص الأسعار. ومن عجيب ما رأيت تلك السنة أنني كنت في الجزيرة، فأقبل إنسانٌ تركماني قد أثَّر فيه الجوع، وكأنه قد أُخرج من قبرٍ، فبكى وشكا الجوع، فأرسلتُ من اشترى له خُبْزاً، فتأخَّر إحضاره لعدمه، وهو يبكي ويتمرَّغ على الأرض، فتغيمت السماء، وجاءت نقط مطرٍ متفرِّقة، وضجَّ الناس، ثم جاء الخبزُ، فأكل التركماني، وأخذ الباقي معه ومشىٰ، واشتدَّ المطر، ودام من تلك السَّاعة، فَرَخُصَتِ الأسعار، وَوُجِدَتِ الأقوات بعد أن كانت معدومةً. ثم تعقَّب الغلاءَ وباءٌ شديد كثير، وكان مرضُ النَّاس شيئاً واحداً هو سِرْسام[٢]، فمات فيه من كلِّ بلدٍ أُمَمٌ لا يُحصون كثرةً، ولقي النَّاس منه ما أعجزهم حمله، ثم إن الله تعالى رَفَعَه

= المقريزي»: ١/ ٩٣، و«النجوم الزاهرة»: ٢/ ٣١١، و«حسن المحاضرة»: ٢/ ٢٢١.

(١) في «وفيات الأعيان»: ٣/ ١١٢ توفي سنة تسع وسبعين ومئتين، وقيل: سنة ست وستين ومئتين.

(٢) السرسام: ورم في حجاب الدماغ تحدث عنه حُمَّى دائمة، مركب من سَرْ: أي رأس. ومن سام: أي ورم. انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ٩٠.

في سنة ست وسبعين وخمس مئة، وقد ضَعْضَعَ العالم[1].

فَصْــــلٌ

في عمارة حِصْن بيت الأحزان ووقعة الهنفري

قال العماد: وفي مُدَّة مقام السلطان على بَعْلَبَك، واشتغاله به، انتهز الفرنجُ الفرصةَ، فبنوا حِصْناً على مخاضَةِ بيت الأحزان، وبينه وبين دمشق مسافة يوم، وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم، وقيل للسلطان: متى أُحْكم هذا الحصن تحكَّم مِنَ الثَّغر الإسلامي الوَهْنُ، وغَلِقَ الرَّهْن[2]. فيقول: إذا أتموه نزلنا عليه، وهدمناه إلى الأساس، وجعلناه من الرُّسوم الأدراس. فكان الأمر بعد سنةٍ، على ما جرى على لفظه من عِدَةٍ حسنة.

فلما انقضى أمر بعلبك، وصل السلطانُ دمشق، فأقام بها، وأَمْرُ الحِصْنِ من هَمِّه، وقَصْدُ حصاره من عَزْمه، وكان العام مجدباً، والجَدْبُ عاماً، وقيل للسُّلْطان: ليس هذه سنةَ جهادٍ، فإن استمنحوك السَّلامة فامنح، وإنْ جَنَحوا للسَّلم فاجْنَح[3]. فقال السُّلْطان: إن الله أمَرَ بالجهاد، وكَفَلَ بالرِّزق، فأمره واجب الامتثال، ووعدُه ضامن الصدق، فنأتي بما كلَّفنا لنفوز بما كَفَلَه، ومن أغفل أمره أغفله[4].

---

(١) «الباهر»: ١٧٨ ــ ١٧٩، وما بين حاصرتين منه، و«الكامل»: ١١/ ٤٥١ ــ ٤٥٢.
(٢) غلق الرهن: أي بقي في يد المرتهن، ولم يقدر راهنه على تخليصه. انظر «اللسان» (غلق).
(٣) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وإن جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم﴾ سورة الأنفال، الآية: ٦١.
(٤) «البرق»: ٣/ ١٤٤ ــ ١٤٦، و«سناه»: ١/ ٣١٣ ــ ٣١٥.

قال: ووصل في هذه السنة رسولُ دار الخلافة، وهو الخادِمُ فاضل، وكان من أفضل الخَدَم، نُدِبَ بأفضل الخِدَم. وفرح السلطان به، واستصحبه معه إلى الغَزَاة، ووقف به على الحصن الذي استجدَّه الفرنج بالمشهد اليعقوبي، وتخطَّفَ من حوله من الفرنج جماعةً، وأقام على أهل المعصية بجهاده الطَّاعةَ، وعاد وقد عرف ما يعزمُ عليه من أمر فتحه[1].

قال: وفي مستهل ذي القعدة كانت وقعة هنفري[2] ومقتله؛ وذلك أن الأخبار تواترت بأن الفرنج قد تجمَّعوا في جمعٍ عظيم، وأنهم عازمون على الخروج إلى المسلمين على غِرَّة. فقدَّم السّلطانُ ابنَ أخيه فَرُّخشاه على عساكر دمشق، وأمره أن يخرج إلى الثَّغْر، ففعل، وأمره إن علم بخروجهم أن ينفذ إلى السُّلْطان يعلمه بذلك، ولا يلقاهم بل يتركهم حتى يتوسَّطوا البلاد. فلم تشعر طلائع فَرُّخشاه إلا وقد خالطوهم على غِرَّة، فوقعت الوقعة، فَقُتِلَ صاحبُ النَّاصرة وجماعة من مُقَدَّميهم، وطُلِبَ الملك، فَطُرِحَ حصانُه وجرح فرسانه، وجاء الهنفري ليحميه، فوقعت فيه جراحات؛ أحدها نُشَّابة وقعت في مارنه[3] فَجَدَعَتْه، ونفذت إلى فِيه، ومرَّت بضرسه فقلعته، وخرجت من تحت فكه، ووقعت أخرى في مشط رِجْله، فنفذت إلى أخمصه، وأخرى في ركبته، وضرب بلَتٍّ[4] في جَنْبه، فكسر له ضلعين. وقُتِلَتْ عِدَّةٌ من الرَّجَّالة والخيَّالة، ورجعت الفرنج بخزي عظيم، ليس فيهم

---

(١) «البرق»: ٣/ ١٤٧ ــ ١٤٨، و«سناه»: ١/ ٣١٥ ــ ٣١٦.

(٢) هو Humphry II سيد تبنين. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية): ٢/ ٦٧٦.

(٣) المارن: الأنف، وقيل: طرفه، وقيل: المارن مالان من الأنف. «اللسان» (مرن).

(٤) اللت: الفأس العظيمة، وهي كلمة فارسية معربة، انظر «الألفاظ الفارسية المعربة»: ١٤١، وانظر ص ٤١٢ من الجزء الأول.

إلا مجروح، وكل يوم تَرِدُ بُشْرى بموت مُقَدَّمٍ من جراحةٍ أصابته. ووردت بطاقة الطير في ذلك اليوم إلى دمشق، فخرج السُّلْطان، فما وصل إلى الكُسْوة* إلا ورؤوسهم وأسراؤهم قد جيء بها، فرجع مظفَّراً منصوراً، وذلَّت الفرنج بعدها، وانكسرت لموت الهنفري.

ثم سار السلطان إلى الحصن الذي بنوه، فأزعجهم وذَعَرَهُمْ، وعاد على عَزْمِ العَوْد إليه(١).

قال: ثم وَجَّه السُّلْطَان أخاه الأمير تورانشاه من الشام إلى مصر بمن ضَعُفَ من الأجناد لأجل مَحْلِ البلاد. فرتَّب في بعلبك نوَّابه، وودَّعه السلطان من مرج الصُّفَّر*، وذلك في أواخر ذي القعدة، ومَرَّ على بُصْرى، ومنها إلى الأزرق(٢)، ومنه إلى الجَفْر(٣) إلى أَيْلَة* إلى صَدْر*، ووصل معه خَلْقٌ كثير من التجار والرجال والنساء والأطفال(٤).

فصلٌ

قال العماد: وسافر الفاضل إلى الحَجِّ في هذه السَّنة، وركب البحر، فكتبتُ إليه كتاباً فيه: طوبى للحِجْر والحَجُون(٥) من ذي الحِجْر والحِجا،

---

(١) «البرق»: ٣/ ١٤٩ ــ ١٥٢ و«سناه»: ١/ ٣١٧ ــ ٣١٩.
(٢) هو الماء المعروف في الأردن في الشرق منه، كانت تمر بقربه القوافل، ويعده المقدسي النهر الوحيد في البادية، لأن مياهه تجري طوال السنة. انظر «أحسن التقاسيم» للمقدسي: ٢٤٨، و«معجم البلدان»: ١/ ١٦٨.
(٣) مكان معروف في جنوبي الأردن، وهو مجمع عدة أودية، وبه مياه جوفية. انظر «البرق الشامي» ٣/ ١٥٥ حاشية رقم (٣).
(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ١٥٣ ــ ١٥٥ و«سناه» ١/ ٣١٩ ــ ٣٢١.
(٥) جبل بأعلى مكة. «معجم البلدان»: ٢/ ٢٢٥.

منيل الجَدَا[١]، ومنير الدُّجى، ولنديِّ الكعبة من كَعْب النَّدى، وللهدايا المُشْعَرات من مَشْعَر الهُدَى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فِقار الفَقْرِ للحطيم، ومتى رُئي هَرِم في الحَرَم، وحاتم ماتح زمزم؟ ومتى ركب البحرَ البحرُ، وسلك البَرَّ البَرُّ؟ لقد عاد قُسٌّ إلى عُكَاظه، وعاد قيس لِحفاظه، ويا عجباً لكعبةٍ تقصدها كعبةُ الفَضْلِ والإِفضال، ولقبلة تستقبلها قِبْلَةُ القَبُول والإِقبال.

قلت: ومدحه أبو الحسن بن الذَّرَوي[٢] عند عوده من الحج بقصيدةٍ حسنةٍ، منها:

عَلِـمَ البَحْـرُ أنَّـك الخَلْـقُ وافـا ... ه فـأمسـى حَشَـاه يَخْفُـقُ رُعْبـا
وغـــدا دُرُّهُ لَـــدَيْـــهِ حقيـــراً ... إذ رأى الـدُّرَّ منـك يُنْشِـىءُ سُحْبـا ٧/٢
ولـو احتـاز قطـرةً منـك يـا بَحْـ ... ـرُ لأضحى أُجاجُه المِلْحُ عَـذْبـا
هـائـجٌ لـم يَـزَلْ دعـاؤك حتـى ... هَـوَّن اللَّـهُ منـه مـا كـانَ صَعْبـا
ولقـــد نـــام إذ رَكِبْـتَ وللـرِّيـ ... ـحِ هُبُـوْبٌ وحيـثُ أَرْسَيْـتَ هَبَّـا
حبَّــذا مـــا صَنَعْتَـــهُ مـــن أيـادٍ ... عـادَ جَـذْبُ الحجـازِ منهـنَّ خِصْبـا
رُمْـتَ كِتْمـانَهـا فَـذَاعَـتْ وهـل يَقْـ ... ـدِرُ غَيْثٌ يخفي عن الأرض سَكْبا
قـد رَأَتْ منـك كَعْبَـةُ اللَّـهِ لمـا ... جِئْتَهـا حـاتِمـاً وإن شِئْـتَ كَعْبـا[٣]

---

(١) الجدا: المطر العام، ومنه أخذ الجدا بمعنى العطية: «اللسان» (جدا).

(٢) سترد ترجمته ص ١٠١ من هذا الجزء.

(٣) هو كعب بن مامة الإيادي، أحد أجواد العرب، وكان حسن الجوار، وبه كان يضرب المثل: أجود من كعب بن مامة، وذلك أنه آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري ــ وكانا بمفازة ــ فمات عطشاً، والقصة مشهورة، انظرها في «مجمع الأمثال» للميداني: ١/ ١٢٣ ــ ١٢٤ و«الكامل» للمبرد: ١/ ٣٠٠ ــ ٣٠١.

بَـل رأى منـك بَيْتُـهُ بيـتَ مَجْـدٍ أَحْـرَمَ الجُـوْدُ حَـوْلَـهُ ثُـمَّ لَبَّـىٰ
ورأى الـرُّكْـنُ مـن يمينِـك رُكْنـاً جـاءَ لِلَّثْم أبيض اللَّـوْنِ رَطْبـا[1]
وَزَهَـتْ زَمْـزَمٌ بِشُـرْبِـكَ منهـا وعَجِيْـبٌ أَنْ يُظْهِـرَ المـاءُ عُجْبـا
وَتَـوَجَّهْـتَ للمـدينـة عـن مكَّـ(م) ـة لمـا تشـاركـا فيـك حُبَّـا
وأَتَيْـتَ الشَّـامَ تِلْـوَ فُتُـوْحٍ سـارَ شَـرْقـاً بهـا الهَنَـاءُ وغَـرْبـا
إِنْ تكُـنْ غِبْـتَ عنـه واللّـهُ يُبْقِيْـ ـكَ لأَمْثَـالِـهِ فمـا غِبْـتَ قَلْبـا
سِـرْتَ والـرَّأْيُ فيـه منـك مُقِيْـمٌ وَبَعَثْـتَ الـدُّعـاءَ فـي اللَّيْـلِ كُتْبـا

وقد وقفتُ على الرُّقعة التي كتبها القاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ بخطِّه إلى السُّلْطان يلتمس منه الإِذْنَ له في سفر الحج، فأحببتُ نقلَها هنا، وما كتب السُّلْطانُ ـ رحمه الله ـ عليها، وما كتب بسببها إلى بعض نوَّابه.

نقلتُ من خَطِّ الفاضل رحمه الله:

بسم الله الرحمن الرحيم، كتب المملوك هذه الرُّقعة بعد أن استخار الله سبحانه من مستهل رجب في أكثر لياليه وإلى آخر هذه السَّاعة، وهو ينهي أنه قد شارف الأربعين، وما يدري لعلها عقبة اللِّقاء، وفَرْضُ اللَّهِ في الحَجِّ قد تعيَّن، وَوَعْدُ المولى به قد سبق عند أَيْلَة*، ومدَّة الغيبة قصيرة، والنائب يُنَفِّذُ ما يحتاج إليه في السَّفَر والحَضَر، والثِّقة به حاصلة في المرادين من الكاتب؛ وهما الكِتْمان والمعرفة، وحَظُّ المولى في حجّه والله أضعافُ حَظِّه في مقامه، لأنه إن كان ينفع هنا في الدُّنيا، فهو ينفع هناك في الآخرة، وإن لم يكن أهلاً لأَن يستجاب منه، فالله أهلٌ لأن يجيب في المولى، والمملوك فما ثقل قطُّ في سؤالٍ، وليس لأن المولى لا يقضيها، ولكن لأنه يغنيه عن السؤال فيها، وهذه حاجةُ الدُّنيا والآخرة، وبعدها ينشد:

(١) رطباً: أي ناعماً. «اللسان» (رطب).

متى يأتِ هذا الموتُ لا يُلْفِ حاجةً   لِنَفْسِيَ إلا قد قَضَيْتُ قَضَاءها[1]

وما أراد المملوك أن يستشفع بمن يشارك المولى في الأجر، وما يريد إلا دستوراً عن نفس طيِّبة، ورضىً ظاهر وباطن، ولا يريد خلاف الفرض، فما يفي له بقضاء المفترض، والله المعين برحمته، الحمد لله وحده، وصلاته على سيدنا محمدٍ وآله وسلامه.

وعلى رأس الرُّقعة في سطر البسملة بخط السُّلْطان رحمه الله ما صورته: على خيرة الله تعالى، يا ليتني كنتُ مَعَكم فأفوز فوزاً عظيماً[2]. نقلته من خَطِّه.

ونقلتُ من خَطٍّ بعض الكُتَّاب ما نقلَهُ من خَطِّ السُّلْطان رحمه الله إلى بعض النوَّاب.

فصـــل

من كتابٍ كريم بالخَطِّ العالي النَّاصري أعلاه الله، ورد بتاريخ السَّابع والعشرين من جُمادى الأولى سنة أربع وسبعين وخمس مئة.

وصلني كتاب القاضي الفاضل، وهو يذكر أنه مصمِّمٌ على الحَجِّ، اللَّهُ يجعله مباركاً ميموناً، ولكن لا أفسح له فيه إلا بعد ثنتين؛ واحدة: أنه لا يركب بحر، يسير من العسكر إلى أيلة*، ومنها يتوجّه، ويقيم العسكر على أيلة ليلة، وعلى إِرَم ليلة، ودون إرَم ليلة، وقاطع إِرَم ليلة، فيكون هو

(١) هذا البيت من قصيدة لقيس بن الخطيم الأوسي، اختارها أبو تمام في «حماسته» ١/ ١٨٣ (شرح المرزوقي)، وانظرها في «ديوانه» ص ٤١ ــ ٥١.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ سورة النساء، الآيـة: ٧٣.

قد بَعُدَ، وما يبقى عليه خوفٌ إن شاء الله تعالى. وثانية: تأخذ يده، وتحلفه برأسي أنه لا يجاور. وثالثة: تُعطيه من مال الجوالي* ثلاثة آلاف دينار، وتقول له: لا بُدَّ ما تُخْرج هذا عني لا عنك في المجاورين بمكة والمدينة، وفي أهلها، هذا أمرٌ لا بُدَّ منه، فإنَّ النَّاس لا بُدَّ لهم من الطَّلب، ولا بُدَّ لك من العطاء، وإن قال: إن الشيء قليل. فأنت تقرضني هذا المبلغ من مالك، وتعطيه إياه، فلا بُدَّ، وإلا فلا إِذْن له في الرَّوَاح إلى الحَجِّ إلا على هذه الشروط التي قد شَرَطْتُها، وأما مجيئه فيجيء إلى الشَّام، فأنا ما بقي لي دار
إلا هي حتى يقضي الله بيننا وبين الفرنج ﴿وَهُوَ خَيْرُ الحاكمين﴾[1]. ٨/٢

وكتب الفاضل إلى بعض مشايخ مكَّة بعد رجوعه: سقى الله الحجاز وحيًّا كَعْبَتَهُ، ويا طُولَ مَا تَرْشُقُني سهامُ الشَّوْق الذي أصبح الذِّكْرُ جَعْبَتَهُ، آهاً على تلك المواقف، وتَبّاً لمن رَضِيَ أن يكون مع الخوالف، فَرَعْياً ونُعْمى، وحَسَنةً وحُسْنى، لمجاوري ذاك الحرم، ولعامِرِي أيامه التي هي الأيام لا أيام ذي سَلَمِ. فَيَالَهْفَ الصُّدورِ وطُول غَلِيلها إلى وُرودِ ماءِ زَمْزَمِهِ، وطُوبى لمن استضاء في مَضَالِّ الظُّلَم بِعَلَمِهِ، ومهما نسيتُ فلا أنسى بَرْدَ الكَبِدِ بحرِّ صَيْفها، وموسمَ الأُنس بثلاث مِناها وخَيْفها.

آهاً عليها ليالٍ ما تَركْنَ لنا ... إلا الأسى وعُلالاتٍ من الحُلُم
عسى الرِّياحُ إذا سارت مبلِّغة ... توفي فقد غَدَرَ الأَحْبابُ بالذِّمَمِ

ثم قال: فأما الطريقُ المباركة فقد جرى فيها خطوبٌ وشؤون، وأحاديث كلّها شجون، وكانت العُقْبى إلى سلامة، ولما قاربنا الكَرَك* نهض العدوُّ، فلم تمكن الرجعة ولا التعريج جانباً، ثم مَنَّ الله تعالى بانجلاء

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٧.

النَّوْبة، ووصلنا إلى بلاد السُّلْطان، ولقينا ذلك الوجه، فلا عَدِمْنا بِشْرَه، وذلك الفضل، فلا فارقت أعيُنُنا فجرَه، ووجدناه في الغَزَاة جاهداً، وللعدو مُجاهداً، أوقاته مستغرقة، وعزماتُه محققة.

فصـــل

فيما فعل مع الفرنج في باقي هذه السَّنة، وأول الأُخرى ووقعة مرج عيون

قال ابنُ أبي طي: كانت الفرنجُ قد عَمَرَتْ بيت الأحزان، وكان على المسلمين منه ضررٌ عظيمٌ، فراسل السلطانُ الفرنجَ في هَدْمه، فأجابوا أنه لا سبيل إلى هَدْمه إلا أن يعطينا ما غَرِمنا عليه. فبذل لهم السلطان ستين ألف دينار، فامتنعوا، فزادهم إلى أن بلغ مئة ألف دينار ــ وكان هذا الحصن للدَّاوية*، وكانوا يقوّون مَنْ فيه بالأموال والنَّفقات لقطع الطُّرقات على قوافل المسلمين ــ فأشار تقي الدين على السلطان ببذل هذا المال لأجناد المسلمين ونخرج بهم إلى الحِصْن ونهدمه. ففعل ذلك كما سنذكره[1].

قال العماد: ولما ودَّع السُّلطان أخاه ورجع، أغار في طريقه على بلاد الفرنج، وقصد الحصن الذي بنوه، ورجع بالأسرى والغنائم، وخَيَّم السُّلْطان بمروج الشَّعْراء[2]، ثم انتقل إلى بانياس، وبلغت الخيم إلى حدودِ بلاد الكَفَرة[3]، وأضرم عليهم لهب النِّيران المُسْتعرة، وكان كل يوم يركب بحُجَّة الصَّيد، وينزل على النهر، ويجرِّدُ فرسان الجِلادِ والقَهْر، ويُسيِّرُ قبائل العرب

(١) انظر ص ٣٦ من هذا الجزء.

(٢) الشعراء: الأرض الكثيرة الشجر. انظر «اللسان» (شعر).

(٣) في الأصل: الكفر، والمثبت من (ب).

إلى بلد صيدا وبيروت حتى يحصدوا غَلاَّت العَدو، ولا يبرحُ [مكانه][1] حتى يعودوا بجمالهم وأحمالها موثقة بأثقالها، حتى خفَّ زَرْعُ الكفَّار[2].

قال: وفي هذه السنة اقتضى رأي الفرنج أن يُرعبوا المسلمين في كل ناحيةٍ خوفاً من اجتماعهم على جهةٍ واحدة، فغدر إبرنسُ أنطاكية، وأغار على شَيْزَر*، وغدر القومص بطرابلس بجماعةٍ من التركمان بعد الأمان. فرتَّب السُّلْطانُ ابن أخيه تقي الدين عمر في ثغر حماة ومعه شمس الدين بن المقدَّم، وسيف الدين علي المَشْطُوب. ورتَّب ابن عمه ناصر الدين في ثغر حمص في مقابلة القومص[3]، وكتب السُّلْطانُ إلى أخيه العادل ــ وهو نائبه بمصر ــ أن ينتخب له من عسكر مصر ألفاً وخمس مئة فارس يتقوّى بهم مع عسكر الشَّام على العدو[4].

ثُمَّ دَخَلَتْ سنةُ خَمْسٍ وسبعين [وخمس مئة][5]

والسلطان نازلٌ على تل القاضي ببانياس*، فأجمع رأيه مع بقية المسلمين على أن يقتحموا على الكُفَّار ديارهم، ويستوعبوا ما بقي في أيديهم من الغَلاَّت في يومٍ واحد، ثم يرجعوا فيرحلوا صَوبَ البقاع. فنهضوا تلك الليلة ــ وهي ليلة الأحد ثاني مُحَرَّم ــ فلما أصبح السُّلْطان جاءه الخبر

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ب).
(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ١٥٧ ــ ١٥٨، و«سناه»: ١/ ٣٢٤.
(٣) «البرق الشامي»: ٣/ ١٥٥ ــ ١٥٦، و«سناه»: ١/ ٣٢٢ ــ ٣٢٣.
(٤) «البرق الشامي»: ٣/ ١٥٤، و«سناه»: ١/ ٣٢١.
(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

بأن الفرنج قد خرجت، فالتقاهم، وأنزل الله نصره على المسلمين، وأَسَرَ فُرسانهم وشجعانهم، وانهزمت رجَّالتهم في أول اللِّقاء؛ فكان من جُملة الأسرى مُقدَّم الدَّاوية(١)، ومقدَّم الإسبتارية*، وصاحب طبرية، وأخو صاحب جُبَيْل(٢)، وابن القومصية(٣)، وابن بارزان(٤) صاحب الرَّمْلة، وصاحب جِيْنِين*، وقَسْطِلان(٥) يافا، وابن صاحب مَرَقِيَّة(٦)، وعِدَّة كثيرة من خيَّالة القدس وعكا من البارونيَّة وغيرهم من المقدَّمين الأكابر ما زاد على مئتين ونيف وسبعين، سوى غيرهم. ثم قُدِّمَتِ الأسارى وهم يتهادَوْن كأنَّهم سُكارى.

قال العماد: وأنا جالسٌ بقرب السلطان استعرضهم بقلمي، ومن ألطاف الله تعالى أنَّا وخواصُّه الحاضرين لم نزد على عشرين، والأسرى قد أنافوا على سبعين، وقد أنزل الله علينا السَّكينة، وخصَّهم بالذِلَّة المستكينة وطلع الصَّباح، ورُفع المِصْباحُ، وقمنا وصلَّينا بالوضوء الذي صلَّينا به العِشاء، ثم عُرِضَ الباقون من الأسرى، ثم نقلوا إلى دمشق، فأما ابن بارزان فإنه بعد سنة بذل في نفسه مئة وخمسين ألف دينار صورية(٧)، وإطلاق ألف أسير من المسلمين، وكان الفقيه ضياء الدين عيسى من نوبة الرَّمْلة(٨) عندهم

(١) هو Odoof Saint - Amand. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان (الترجمة العربية) ٢/ ٦٧٨.

(٢) هو Hngue II de Gbelet.

(٣) هو ابن كونتيسة طرابلس Hugh of Gablee.

(٤) هو Baldwin of Ibelen.

(٥) قسطلان، معرب اللفظ اللاتيني castellanus، ومعناه: مستحفظ القلعة.

(٦) قلعة حصينة على الساحل تجاه حمص. انظر «معجم البلدان»: ٥/ ١٠٩.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٢٨ من الجزء الأول.

(٨) انظر ص ٤٦٤ من الجزء الثاني.

من المأسورين، فالتزم إدراكه، وأن يؤدي من قطيعة المذكور[1] القطيعة التي قرَّر بها فكاكه. وأما ابن القومصية فإنه استفكته أُمه بخمسة وخمسين ألفاً من الدَّنانير الصُّورية. وأما أود مقدَّم الدَّاوية فإنه انتقل من سجنه إلى سجِّين[2]، ٩/٢
فطُلبت جيفته، فأخذوها بإطلاق أسيرٍ من مقدَّمي المؤمنين، وطال أسرُ الباقين، فمنهم من هلك وهو عانٍ، ومنهم من خرج بقطيعةٍ وأمان[3].

وهذه هي وقعةُ مرج عيون، وكان العدو في عشرة آلاف مقاتل[4]، وانهزم ملكهم مجروحاً. وكان لعز الدين فَرُّخْشاه في هذه الوقعة بلاءٌ حسنٌ.

حكى حسام الدين تميرك بن يونس[5] ــ وكان مع عِزِّ الدين ــ قال: كُنَّا في أقل من ثلاثين فارساً، قد تقدَّمنا العسكر، فشاهدنا خيلَ الفرنج في ستِّ مئة فارس واقفين على جَبَلٍ، وبيننا وبينهم الماء، فأشار عز الدين أن نعبر النهر إليهم، ففعلنا، ولحقنا عسكر السُّلْطان، فهزمناهم[6].

ومن أحسن ما اتَّفق أنَّ اليوم الذي كُسِرَتْ فيه الفرنج بمرج عيون ظَفِرَ الأُسْطول المِصْري ببطسةٍ* كبيرة، فاستولى عليها وعلى أُخرى، وعاد إلى الثغر مستصحباً ألف رأس من السَّبْي. فما أقرب ما بين النصرين في المِصْرين، وما أعذب عذاب الفئتين، وتجريعهما الأمرين الأمرَّين، لقد عمَّ النصر، وتساوى فيه البَرُّ والبَحْرُ[7].

---

(١) في «البرق»: ٣/ ١٦٦ قطيعته المذكورة.

(٢) سجين: واد في جهنم. «اللسان» (سجن).

(٣) «البرق الشامي»: ٣/ ١٦١ ــ ١٦٦، و«سناه»: ١/ ٣٢٥ ــ ٣٢٩.

(٤) انظر «مضمار الحقائق»: ١٦ ــ ١٧.

(٥) انظر عن قصة خروجه من بغداد ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ من الجزء الثاني.

(٦) «البرق الشامي»: ٣/ ١٧١ ــ ١٧٢، و«سناه»: ١/ ٣٣٠ ــ ٣٣١.

(٧) «البرق»: ٣/ ١٧١، و«سنا البرق»: ١/ ٣٣٠.

ومما مُدحَ به السلطان في هذا الفتح مِدْحة سيَّرها من مصر إليه فخر الكُتَّاب أبو علي الحسن بن علي العراقي الجُوَيْني[1]، أوَّلها:

لـك رَبُّ السَّمـاءِ خَيْـرُ مُعيـنِ ... وكفيـلٍ بمـا تُحِـبُّ ضَمِيـنِ
فَلَـهُ الحَمْـدُ أيُّ نَصْـرٍ عـزيـزٍ ... قـد حَبـانـا بـهِ وفتـحٍ مُبيـنِ
أَدْرَكَ الثَّـأْرَ حيـن نـازَلَـهُ المِغْـ ... ـوارُ حَتْفُ الكُفَّـارِ لَيْثُ العريـنِ
الهُمَـامُ الغَضَنْفَـرُ المَلِـكُ النَّـا ... صِرُ مَوْلى الوَرَى صلاحُ الدِّيـنِ
يـا مليكـاً أضحـى الـزَّمـانُ يناجيـ ... ـه بِلَفْـظِ المُـذَلَّـلِ المُسْتَكِيْـنِ
قَـذَفَـتْ أهلَهـا الحصـونُ إلـى بَـأْ ... سِـكَ حتـى عَـوَّضْتَهُـمْ بـالسُّجُـون
وأَراهُـمْ رَبُّ السَّمـاء بـأَسْيـا ... فِـكَ مـالـم يَجُـلْ لهـم فـي ظُنـونِ
يا مليكاً يَلْقَى الحروبَ بحول الـ ... ـلّه مُسْتَعْصِمـاً وصِـدْقِ اليقيـنِ
لـك قلـبٌ عنـد اللِّقـاء مكيـنٌ ... ولـه مـن تُقـاه ألـفُ كميـنِ
إن هـذا الفَتْـحَ المبيـنَ شِفَـاءٌ ... لِصُـدُورٍ وقُـرَّةٌ لعيـونِ
هـو يـومٌ أضحـى كيـومِ حُنَيْـنٍ ... سَهَّـلَ الله نَصْـرَه فـي الحُـزُونِ[2]

---

(١) كان من ندماء عماد الدين زنكي، وبعد وفاته أقام عند نور الدين، ثم سافر إلى مصر أيام ابن رُزِّيك، وأقام بها حتى وفاته سنة (٥٨٦ هـ) على الصحيح، وكان مشهوراً بجودة الخط، لم يكتب أحد بعد ابن البواب أجود خطاً منه.

انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق: ج ٣ مجلد ٢/ ٥٨ ـ ٦٣، «معجم الأدباء»: ٩/ ٤٣ ـ ٤٦، «التكملة» للمنذري: ١/ ٧٩، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ١٣١ ـ ١٣٢، «معجم الألقاب» لابن الفوطي: ج ٤/ق ٣/ ١٤٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) الحزون جمع، مفردها الحَزْن: وهو ما غلظ من الأرض وخشن. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٨١.

وانظر مختارات من القصيدة في «البرق الشامي»: ٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

قال العماد: وكان تقي الدين غائباً عن هذه الوقعة، واشتغل عنها بغيرها، وذلك أن سُلْطانَ الرُّوم قليج أرسلان طلب حِصن رَعْبَان*، وادَّعى أنه من بلاده، وإنما أخذه منه نور الدين ــ رحمه الله ــ على خلافِ مراده، وأن الملك الصَّالح ولده قد أنعم به عليه، ورضي بعوده إليه. فلم يفعل[1] السلطان. وكان هذا الحصن مع ابن المقدَّم، فأرسل قليج أرسلان عسكراً مجمعاً في عشرين ألفاً لحصار الحِصْن، فلقيهم تقي الدين ومعه سيف الدين علي المَشْطُوب في ألف مقاتلٍ، فهزمهم.

قال: ولم يزل تقي الدين يَدِلُّ بهذه النُّصْرة، فإنه هَزَمَ بآحادٍ ألوفاً، وأرغم بأعدادٍ من الأعداء أُنوفاً[2].

وقال ابنُ أبي طيّ: واتَّصل بالسُّلْطان أن قليج أرسلان قد طَمِعَ في أَخْذ رَعْبَان* وكيسون[3]، فلما دخل دمشق وصله رسوله يطلبهما منه، ويدَّعي أن نور الدين بن زَنْكي اغتصبهما منه، وأنَّ الملك الصَّالح قد أَنْعَمَ عليه بهما. فاغتاظ السُّلْطانُ، وزَبَرَ[4] الرسول، وتوعَّد صاحبه، فعاد الرَّسول، وأخبر قليج أرسلان، فغضب، وسيَّر عَسْكراً إلى رَعْبان* فحاصرها، وسَمِعَ السلطان، فندب تقيَّ الدين عمر في ثماني مئة فارسٍ، فسار، فلما قارب رَعْبان أخذ معه جماعةً من أصحابه مقدار مئتي فارس، وتقدَّم عسكرَهُ، وسار حتى أشرف على عَسْكر قليج أرسلان ليلاً، فرآهم قد سدُّوا الفضاء، وهم

---

(١) في (ب) فلم يقبل.

(٢) «البرق الشامي»: ٣/ ١٧٣ ــ ١٧٤، و«سناه»: ١/ ٣٣١ ــ ٣٣٢.

(٣) كذا في الأصل و(ب)، ورسمها ياقوت في «معجم البلدان»: ٤/ ٤٩٧ كيسوم، وسيرد التعريف بها في ملحق كشاف الأماكن.

(٤) زبره: انتهره، وأغلظ له في القول والرد. «اللسان» (زبر).

قارُّون آمنون وادعون، فقال تقي الدين لأصحابه: هؤلاء على ما تَرَوْن من الطُّمأنينة والأمن والغَفْلَة، وقد رأيتُ أن نحمل فيهم بعد أن نتفرَّق في جوانب عسكرهم، ونصيح فيهم، فإنهم لا يثبتون لنا. فأجابوه إلى ذلك، فأنفذ واحداً من أصحابه إلى باقي عسكره، وأمرهم أن يتفرَّقوا أطلاباً*، وأن يُجعل في كل طِلْب* قطعةٌ من الكوسات* والبوقات*، فإذا سمعوا الضجَّة ضربوا بكُوساتهم وبوقاتهم، وجدُّوا في السَّيْرِ حتى يلحقوا به. ففعلوا ما أمرهم.

ثم إنه حمل في عسكر قليج أرسلان، وصرخ أصحابُهُ في جوانبه، وكان عِدَّة عسكر قليج أرسلان ثلاثة آلاف فارس. فلما سمعوا الضَّجَّة، وحِسَّ الكُوسات والبوقات، وشِدَّةَ وَقْعِ حوافر الخيل، وجَلَبَةَ الرِّجال، واصطكاكَ أجرام الحديد، هالهم ذلك، وظنوا أنهم قد فوجئوا بعالمٍ عظيم،
١٠/٢ فلم يكن لهم إلا أن جالوا في كواثب[1] خيولهم عُرياً[2]، وطلبوا النَّجاة، وأَخَذَتْهُمُ السُّيوف، فتركوا خيامهم وأثقالهم بحالها، وأكثر تقي الدِّين فيهم القتل والأسر، وحصل على جميع ما تركوه. فلما أصبح جَمَعَ المأسورين ومَنَّ عليهم بأموالهم وكُراعهم*، وَسَرَّحهم إلى بلادهم.

قال: وقيل إن الخبر بهذه الكسرة وصل إلى السُّلطان في اليوم الذي كَسَرَ فيه السُّلْطانُ الفرنجَ على مرج عيون، فتوافَتِ البِشارتان إلى البلاد.

قال: وقد مَدَح ابنُ التَّعاويذي[3] السُّلْطان الملك النَّاصر بقصيدةٍ أنفذها إليه من بغداد، يذكُر فيها وقعة مرج عيون، يقول فيها:

---

(١) الكواثب من الفرس، مجتمع كتفيه قدام السرج. «اللسان» (كثب).
(٢) أي لا سرج عليها. «اللسان» (عرا).
(٣) سترد ترجمته ص ٤٢٦ من هذا الجزء.

كـادَ الأعـادِي أَنْ يُصِيْبَكَ كيدُهـا لـو لـم تَكِـدْكَ بِـرَأيِها المَـأْفُـونِ
تُخْفِـي عَـدَاوَتَهـا وراءَ بَشَـاشَـةٍ فَتَشِـفُّ عـن نَظَـرٍ لها مَشْفُـونِ[1]
دَفَنَـتْ حَبـائِـلَ مَكْـرِهـا فَـرَدَدْتَهَـا تَدْوَى[2] بغيظِ صُدُورِها المَدْفُونِ
وَعَلِمْـتَ مـا أَخْفَـوْا كـأَنَّ قُلُـوبَهُـمْ أَفْضَـتْ إليـكَ بِسِـرِّهـا المَخْـزُونِ
كَمَنُوا وكَمْ لك من كَمِيْنِ سَعَادَةٍ فـي الغَيْـبِ يَظْهَـرُ مـن وراءِ كَمِيْـنِ
فَهوَتْ نُجُوْمُ سُعُوْدِهِمْ وقَضَى لَهُمْ بـالنَّحْـسِ طـائِـرُهُـمْ بِمَـرْجِ عُيُـوْنِ

قلت: هكذا أنشده[3]، وهو حَسَنٌ، وقد كَشَفْتُهُ من نسخة من «ديوان ابن التَّعاويذي» فوجدتُ آخر هذا البيتِ:

طائِرُ جَدِّكَ المَيْمُونِ

وأول هذه القصيدة:

إنْ كـانَ دِيْنُكَ فـي الصَّبَابَةِ دِيْني فَقِـفِ المَطِـيَّ بِـرَمْلَتَـيْ يَبْـرِيْـنِ[4]

ثم قال بعد تمام الغَزَل:

لَيْتَ الضَّنِيْنَ على المُحِبِّ بِوَصْلِهِ لَقِنَ السَّمَاحَةَ من صلاحِ الدِّيْنِ
مَلِـكٌ إذا عَلِقَـتْ يَـدٌ بِـذِمـامِـهِ عَلِقَـتْ بِحَبْـلٍ فـي الحِفَـاظ مَتِيْـنِ
قـادَ الجِيـادَ مَعَـاقِـلاً وإنِ اكْتَفَـى بمعـاقـلٍ مِـنْ رَأْيِـهِ وحُصُـوْنِ

---

(١) من الشفن: أن يرفع الإنسان طرفه ناظراً إلى الشيء كالكاره له أو المبغض. انظر «اللسان» (شفن).
(٢) دَوِي يَدْوَىٰ دوًى، فهو دوٍ: إذا هلك بمرض باطن، وقال الليث: الدَّوى: داء باطن في الصدر. وقال ابن سيده: الدَّوىٰ: المرض والسل. «اللسان» (دوا).
(٣) يعني ابن أبي طي.
(٤) يبرين من أصقاع البحرين. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٧١ ــ ٧٢، ٥/ ٤٢٧.

سَهِرَتْ جُفُوْنُ عِدَاه خِيْفَةَ ماجِدٍ ... خُلِقَتْ صَوارِمُهُ بغيرِ جُفُوْنِ
لَوْ أَنَّ لِلَّيْثِ الهِزَبْرِ سُطَاه لم ... يَلْجَأْ إلى غابٍ له وعَرِيْنِ
أَضْحَتْ دمشقُ وقد حَلَلْتَ بجوِّها[١] ... مأوى الطَّرِيْدِ وَمَوْئِلَ المِسْكِيْنِ
لك عِفَّةٌ في قُدْرَةٍ وتواضعٌ ... في عِزَّةٍ وشراسَةٌ في لِيْنِ
وَأَرَيْتَنَا بجميلِ صُنْعِكَ ما رَوَى ... الرَّاوون عن أُمَمٍ خَلَتْ وقُرُوْنِ
وَضَمِنْتَ أَنْ تُحيي لنا أَيَّامَهُمْ ... بالمَكْرُماتِ فَكُنْتَ خَيْرَ ضمينِ[٢]

قال ابن أبي طي: نزل السُّلْطان على تل القاضي ببانياس على المَرْج الذي يُعرف بمرج عُيون، وأنفذ في ثاني المحرَّم قطعةً من عَسْكره مع عز الدين فَرُّخْشاه لشَنِّ الغارة على بلاد الفرنج. فلما أصبح ركب يستوكف[٣] أخبار فَرُّخْشاه، فما هو إلا أن خَرَجَ من الخِيَم حتى رأى أغنام بانياس قد أقبلت من المراعي هاجَّةً على وجوهها من الغياض والأودية. فقال: هذه غارة. فأمر بلبس السِّلاح والاستعداد للحرب، فوصل بعضُ الرُّعاة، فأخبر أن الفرنج قد عبروا وصاروا قريباً منه على هيئة المتغفلة، فسار حتى أشرف على الفرنج، فإذا هم في ألف رُمح، فأخذتهم السُّيوفُ والدَّبابيس حتى فرشت الأرض منهم، وألقى جماعةٌ منهم سلاحهم، وسلَّموا أنفسهم أسارى، ونجا ملك الفرنج هنفري[٤] هارباً. ويقال: إنه وقف به فرسه،

---

(١) الجو: ما انخفض من الأرض. «القاموس المحيط» (جوا).
(٢) القصيدة بتمامها في «ديوانه» ٤٢٠ ــ ٤٢٤ مع اختلاف في بعض ألفاظها.
(٣) أي ينتظرها ويسأل عنها. «اللسان» (وكف).
(٤) هذا من أوهام ابن أبي طي، فقد مَرَّ أن الهنفري قتل سنة (٥٧٤ هـ)، انظر ص ٢٠ من هذا الجزء، والذي هرب من هذه الوقعة هو الملك المجذوم بلدوين الرابع ملك بيت المقدس. انظر «البرق»: ٣/ ١٦٤ ــ ١٦٥.

فحمله أحد خَيَّالته على ظهره، ثم رجع السلطان إلى معسكره، وسيفه يقطر دماً، وجلس لاستعراض الأسارى. فذكر نحو ما سبق.

وفي كتاب الفاضل إلى صاحبٍ له بمكَّة، وقد سبق بعضُه[1]، قال: وجَرَتْ نُوَبٌ، منها نوبة قتل الهنفري ـ لعنه الله ـ وتمام سبعين فارساً من كبار الخَيَّالة، وطرح ملك الفرنج من على ظهر دابته، وتحامله بآخر رمق مع بَقِيَّة من نجا من خَيَّالته.

ومنها: نوبة وادي الحريق، وقد جمع الله العدوَّ فارسه وراجله.

ومنها: نصر الله الذي ما كان قبله لملكٍ من ملوك الأرض قتل ابن بارزان، ومقدَّم الدَّاوية، وابن صاحب طبرية، وأخو أسقف صُور، وصاحب جُبيل، وأصحاب الحصون والقلاع، ومقطعو الأقاليم والضِّياع، وحصل تحت اليد النَّاصرية ـ أعلاها الله ـ مئة وستون كلُّهم تُثْنَى عليهم الخناصر[2]، وتُقْطَرُ[3] بهم العساكر[4].

ومنها: دخول العساكر إلى عمل بيروت وصور، وغارتها على غِرَّة من أهلها، وقَطْع كلِّ شجرةٍ مُثمرةٍ من أصلها.

١١/٢ قال: وكانت الأساطيل المنصورة قد تضاعفت عِدَّتُها إلى أن بلغت ستين شينيّاً*، وعشرين طريدة*، فسارَتِ الشَّواني خاصَّةً، فدخلت البلاد الرُّومية، ودوَّخت السَّواحل الفرنجية، وأسرت ألف عِلْجٍ أحضرتهم أسرى

(١) انظر ص ٢٥ ـ ٢٦ من هذا الجزء.
(٢) أي يبدأ بذكرهم. «اللسان» (ثني).
(٣) أي أن تُشَدَّ الأسرى على نسقٍ واحداً خلف واحد، ثم يساقون. انظر «اللسان» (قطر).
(٤) انظر ص ٢٨ من هذا الجزء.

في قيد الإسار، وقتلت الرِّفاق الكبار، وغَنِمَتْ من هذه الغَزْوة أقوامٌ كانت أعينهم لا تعرفُ عين الدِّرْهم، ولا وَجْهَ الدِّينار.

فصــل

في تخريب حِصْن بيت الأحزان، وذلك في شهر ربيع الأول

قال العماد: جمع السُّلْطان جموعاً كثيرة من الخَيَّالة والرجَّالة، وسار، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبنيٌّ دونها من الغَرْب، فخيَّم منها بالقُرْب، وضاق ذلك المَرْجُ عن العَسْكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بُكْرة الأحد إلى ضياع صَفَد، وكانت قلعة صفد يومئذٍ للدَّاوية، وهو عُشُّ البلية. وأمر بقطع كُرومها، وحَمْلِ أخشابها، فأخذ كل ما احتاج إليه، ورجع بعد الظهر، وزحفوا إلى الحِصْن بعد العَصْر، فما أمسىٰ المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة*، وانتقلوا بكلِّيتهم إليها، وباتوا طول الليل يحرسون، وخافوا أن تفتحَ الفرنجُ الأبواب، ويُغيروا عليهم على غِرَّة، وإذا الفرنج قد أوقدوا خَلْفَ كل بابٍ ناراً؛ ليأمنوا من المسلمين اغتراراً. فاطمأن المسلمون، وقالوا: ما بقي إلا نَقْبُ البُرْج. ففرَّقه السلطان على الأُمراء، فأخذ فَرُّخْشاه الجانب القِبْلي، وأخذ السُّلْطان الجانب الشَّمالي، وقصد ناصر الدين بن شِيْركُوه بِقُرْبه نقباً، وكذلك تقي الدين، وكل كبير في الدولة جَعَلَ له قِسْماً، وكان البُرْجُ مُحْكَمَ البناء، فَصَعُبَ نقبه، لكن ما انقضى يوم الأحد إلا وقد تَمَّ نَقْبُ السُّلطان وعُلِّقَ، وحُشي بالحَطَب ليلة الاثنين وحُرِّقَ، وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاث أذرع، وكان عرض السور تسع أذرع، فما تأثر

بذلك، فاحتاج السُّلْطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النِّيران ليتمَّ نَقْبُه، وقال: من جاء بقُرْبة ماءٍ فله دينار.

قال العماد: فرأيتُ النَّاس للقِرَب حاملين، ولأَوْعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك النُّقوب فَخَمَدَتْ، فعاد نقَّابوها وقد بَرَدَتْ، فخرَّقوه وعمَّقوه، وفتحوه وفتقوه، وشَقُّوا حَجَره وفلقوه، ثم حشوه وعلَّقوه، واستظهروا فيه يومي الثلاثاء والأربعاء ثم أحرقوه. واشتدَّ الحرصُ عليه لأنَّ الخبر أتاهم بأن الفرنج قد اجتمعوا بطبرية في جمعٍ كثير، فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيعٍ الأول، وتعالى النهار، انقضَّ الجدار، وتباشرتِ الأبرار.

وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطباً، فلما وقع الجدارُ دخلت الرِّياحُ، فردَّتِ النَّارَ عليهم، وأحرقت بيوتهم وطائفةً منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار، وطلبوا الأمان. فلما خمدت النيرانُ دخل الناسُ، وقتلوا وأسروا، وغَنِمُوا مئة ألف قطعةٍ من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها، وجيء بالأسارى إلى السُلْطان، فمن كان مُرْتداً أو رامياً ضُرِبَتْ عنقه، وأكثرُ من أُسِرَ قتَلَه في الطريق الغُزاة المطَّوعة، وكان عِدَّة الأسارى نحو سبع مئة، وخَلَّصَ من الأسر أكثر من مئة مُسْلم، وسيَّر باقي الأسارى إلى دمشق.

وأقام السُلْطان بمنزلته حتى هدّوا الحصن إلى الأساس، وطَمَّ جُبَّ ماءٍ مَعِيْنٍ كانوا حفروه في وسطه، ورمى فيه القَتْلى. وكان عند السُلْطان رسول القومص معافى وهو يشاهد بلية أهل مِلَّته.

وقد كان السلطانُ بذل لهم في هدمه ستين ألف دينار، فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مئة ألف، فأبَوْا. وكان مُدَّة المقام على الحِصْن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوماً.

وبعد ذلك سار السُلْطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها، فأغار عليها، وأَرْجَفَ قلوبهم بوصوله إليها، ورجع السُلْطان إلى دمشق يوم الأربعاء، ومَرِضَ جماعةٌ من ذلك الوباء؛ لأن الحرَّ كان شديداً، وأنتنت جِيَفُ القتلى. وطوَّل السُلْطان المقامَ عليه بعد فتحه لأجل تتميم هَدْمه، فتوفي أكثر من عشرة أمراء، وعاد المشهد اليعقوبي كما كان مزوراً، وبتكبير المسلمين وصلاتهم معموراً[(١)].

وهنَّأَ الشعراءُ السُلْطان بفتح هذا الحصن، فمن ذلك ما أنشده نشو الدولة أحمد بن نفاذة[(٢)] الدِّمَشْقي من جُملة مدائحه:

هلاكُ الفرنجِ أتى عاجلاً وقد آن تَكْسِيْرُ صُلْبانِها
ولو لم يكن قد دَنا حَتْفُها لما عمَّرت بَيْتَ أَحْزَانِها[(٣)]

ولأبي الحسن علي بن محمد بن رُسْتُم السَّاعاتي الخُرَاساني، ثم الدِّمَشْقي[(٤)] من قصيدةٍ، أولها:

---

(١) «البرق»: ٣/ ١٧٥ ــ ١٨١، و«سناه»: ١/ ٣٣٣ ــ ٣٣٧. وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥٦ من الجزء الثاني.

(٢) هو أحمد بن عبد الرحمن بن علي، بدر الدين السُّلَمي الدمشقي، ولد بدمشق سنة (٥٤١ هـ)، كان عند صلاح الدين في عداد رؤساء الأجناد الذين يسمونهم بالأمراء، وكان شاعراً، له مدائح في صلاح الدين وأولاد أخيه وغيرهم من رجالات الدولة، وكان ديوانه موجوداً في زمانه، مضنوناً به، توفي سنة (٦٠١ هـ).

انظر ترجمته ومقتطفات من شعره في «خريدة القصر». قسم شعراء الشام: ١/ ٣٢٩ ــ ٣٣٤، و«الغصون اليانعة»: ٢٦ ــ ٢٨، و«بغية الطلب»: ٢/ ٩٧٨ ــ ٩٨١، و«فوات الوفيات»: ١/ ٨٤ ــ ٨٦، و«الوافي بالوفيات»: ٧/ ٣٩ ــ ٤٤.

(٣) البيتان في «سنا البرق» ١/ ٣٣٨ و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٥٧.

(٤) كان أبوه محمد من خراسان، ثم انتقل إلى دمشق، وأقام بها إلى حين وفاته، =

بجـدِّكَ أَعْطـافُ القَنَـا تتعَطَّـفُ   وطَرْفُ الأعادي دونَ مَجْدِكَ يَطْرِفُ
شِهابُ هدًى في ظُلْمةِ الشَّكِّ ثاقِبٌ   وسَيْـفٌ إذا مـا هـزَّه الله مُـرْهَـفُ
وَقَفْتَ على حِصْنِ المخاضِ وإنَّهُ   لَمَـوْقِـفُ حـقٍّ لا يـوازيـه مَـوْقِـفُ
فلم يَبْدُ وَجْهُ الأَرْضِ بل حَالَ دُوْنَهُ   رجالٌ كآسادِ الشَّرىٰ وهْي تَزْحَفُ
وجَـرْدَاءُ سَلْهـوب[1] ودِرْعٌ مُضَـاعَـفٌ[2]   وأبيـضُ هِنْـدِيٌّ وَلَـدْنٌ مُثَقَّـفُ ١٢/٢
ومَا رَجعَتْ أعلامُكَ الصُّفْرُ ساعةً   إلى أنْ غَدَتْ أكبادُها السُّودُ تَرْجُفُ
كبـا مـن أعـاليـه صليـبٌ وبِيْعَـةٌ   وشـادَ بـه ديـنٌ حنيفٌ ومُصْحَفُ
صليبـةُ عُبَّـادِ الصَّليـب ومنـزل الـ   ـنزال لقد غادَرْتَهُ وهْو صَفْصَفُ
أَيَسْكُـنُ أَوْطـانَ النَّبِيِّـن عُصْبَـةٌ   تميـنُ لـدى أيمـانهـا وهـي تَحْلِفُ

ومنها:

نَصَحْتُكُمُ والنُّصْح في الدين واجب[3]   ذَرُوا بيت يَعْقُوبٍ فقد جاء يوسُفُ[4]

= وكان أوحد عصره في معرفة الساعات وعلم النجوم، وهو الذي عمل الساعات عند باب الجامع بدمشق، صنعها في أيام الملك العادل نور الدين.

وأما ابنه علي هذا، فهو شاعر مبرز، ولد بدمشق، وتوفي بالقاهرة سنة (٦٠٤ هـ)، وله إحدى وخمسون سنة. وديوان شعره مطبوع في جزأين في المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٩٣١ م، بتحقيق أنيس المقدسي.

انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري ١٤٢/٢ ـ ١٤٣ ـ وفيه: وهو ابن ثمان وأربعين سنة وسبعة أشهر واثني عشر يوماً ـ و«وفيات الأعيان»: ٣٩٥/٣ ـ ٣٩٧، و«طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة: ٦٦١ ـ ٦٦٢، و«سير أعلام النبلاء» ٤٧١/٢١ ـ ٤٧٢، و«الوافي بالوفيات» ٧/٢٢ ـ ٢٩ وانظر مقدمة محقق ديوانه.

(١) جرداء سلهوب: الفرس السَّبَّاقة الماضية. «اللسان» (جرد، سلهب).

(٢) هي الدرع التي ضوعف حلقها، ونسجت حلقتين حلقتين. «اللسان» (ضعف).

(٣) في الأصل: نصحتكم والدين في النصح واجب»، والمثبت من «سنا البرق»: ٣٣٨/١.

(٤) ليست القصيدة في «ديوانه» المطبوع، وقد استدركها محققه من كتابنا هذا، انظر =

ومن قصيدةٍ لسعادة الضَّرير الحِمْصي[1]

حَلَلْتَ فَكُنْتَ الألْمَعِيَّ المُسَدَّدا وسِرْتَ فَكُنْتَ الشِّمِّرِيَّ[2] المُؤَيَّدا
وَقُمْتَ بأَعْباء الممالك ناهِضاً فَأَقْعَدْتَ أعداءً ولم تَخْشَ مُقْعِدا
تَعَوَّدْتَ ضَرْبَ السَّيْفِ والطَّعْنَ بالقَنَا وكلُّ امرىءٍ مُغْرًى بما قد تَعَوَّدا
نَصَرْتَ الهُدَى لَمَّا تخاذَلَ حِزْبُهُ فناداك حِزْبُ اللَّهِ يا ناصِرَ الهُدَى
غَضِبْتَ لِدِيْنٍ أنتَ حقاً صلاحُهُ فأَرْضَيْتَ ـ لمَّا أنْ غضِبْتَ ـ محمَّدا
فيا يُوسُفَ الخَيْرِ الذي في يَمِيْنِهِ مِنَ الخَيْرِ ما قد غارَ فينا وأَنْجدا
وَصَلْتَ لذي سِلْمٍ وَصُلْتَ لذي وغًى فَفُقْتَ جميعَ النَّاس بالبَأْس والنَّدَى
وَقُدْتَ إلى الأعداء جيشاً عَرَمْرَماً إذا أَبْرَقَتْ فيه الصَّوارِمُ أَرْعَدا
فلم تُبْقِ للطُّغْيان شَمْلاً مجمَّعاً ولم تُبْقِ للإيمان شَمْلاً مبدَّدا
فَنَاهِيْكَ مِن جيشٍ نَهَضْتَ بِعِبْئِهِ فأَقعَدْتَ لمَّا أنْ نَهَضْتَ به العِدَى
حَمَلْتَ ذُبالاً[3] في ذَوابلِ سُمْرِهِ[4] فلما دَجا ليلُ العَجَاجِ توَقَّدا
وَزُرْتَ به الحِصْنَ الذي لو تحصَّنتْ فَوارِسُهُ بالنَّجْمِ أَوْرَدْتَهُ الرَّدَى
قَصَمْتَ به صُلْبَ الصَّليب وَرُعْتَهُ وسَهَّدْتَهُ لمَّا غفَا فتَسهَّدا

= «الديوان»: ٢/ ٤٠٩، و«سنا البرق»: ١/ ٣٣٨.

(١) مرت قصيدة له ص ٣٩٢ ــ ٣٩٣ من الجزء الثاني. وانظر ترجمته ومختارات من شعره في «خريدة القصر». قسم شعراء الشام: ١/ ٤٠٦ ــ ٤٣٢ و«بغية الطلب»: ٩/ ٤٢٣٠ ــ ٤٢٣٢، وذكر أن وفاته سنة (٥٩١ هـ) وكان له من العمر اثنان وستون سنة.

(٢) الشمري: الرجل الماضي في الأمور والحوائج، مجرّب. «اللسان» (شمر).

(٣) الذبال جمع، مفردها الذُّبالة: وهي الفتيلة التي تسرج. «اللسان» (ذبل).

(٤) الذابل من القنا: الرقيق اللاصق باللِّيط، أي القشر، جمعها ذوابل وذُبُل، وذُبَّل. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٤٨٩ والسُّمْرة في ألوان الرماح محمودة. انظر «اللسان» (سمر).

وفَضَّ بما قد فَضَّه من سِهامِهِ نـواجِذَ ثَغْرِ الهنفري وقَدَّدا
هَبَبْتَ إليه هَبَّةً يُوسُفِيَّةً تعيدُ هَبَاءً كلَّ ما كانَ جَلْمَدا[١]

قال: ومنهم الأمير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العِراقي[٢] من أهل الحِلَّة المَزْيَدِيَّة، كان حاضراً في نوبة ابن بارزان، له من قصيدةٍ أولها:

هنيئاً صلاحَ الدِّيْنِ بالفَتْحِ والنَّصْرِ وَنَيْلِ الأماني الغُرِّ والفَتْكَةِ البِكْرِ
وما حُزْتَ فيها من فَخَارٍ ومن عُلاً وحُسْنِ ثناً يبقى إلى آخرِ الدَّهْرِ
سَمَوْتَ لها بالمَشْرَفِيَّةِ والقَنَا سُمُوَّ أَبيٍّ لا ينامُ على وِتْرِ
وَصَلْتَ بها حَبْلَ المَفَاخِرِ مِثْلَما قَطَعْتَ بها يومَ الوَغَى دابِرَ الكُفْرِ
سَلَلْتَ بياضَ الصُّبْحِ وهو صَوارِمٌ وخُضْتَ سوادَ اللَّيْلِ وَهْوَ دَمٌ يَجْرِي
وقد عرَفَ الإِفْرَنْجُ بأْسَكَ في الوَغَى وَجَرَّعْتَهُمْ منهُ أَمَرَّ من الصَّبِرِ[٣]
وَظَنُّوا بناءَ الحِصْنِ صَوْناً لِمُلْكِهِمْ فأَصْبَحَ بالشَّعْراء مُنْهَتِكَ السِّتْرِ
فما قَبَضَتْ منهم يَدُ الغَدْرِ ــ قُطِّعَتْ أَنامِلُها ــ إلا على صَفْقَةِ الخُسْرِ
هي الفَتْكَةُ الغَرَّاء لا زِلْتَ قائماً بأمثالها للدِّيْنِ في السِّرِّ والجَهْرِ
وأَصْبَحَ في أَقْصَى خُراسانَ ذِكْرُها وفي كلِّ قَلْبٍ منه جيشٌ من الذُّعْرِ
فلا تَرْضَ منهمْ بَعْدَها بَذْلَ طاعةٍ فما خُلقوا إلا على شِيْمَةِ الغَدْرِ
وَسِرْ واملكِ الأَرْضَ التي لو تَرَكْتَها لأَغْضَتْ عيونُ المَجْدِ منها على أَمْرِ

---

(١) في «سنا البرق» ١/٣٣٨ ــ ٣٣٩ بعض أبياتها.
(٢) لم أهتد إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.
(٣) الصبر ــ بكسر الباء ــ عصارة شجر مُرّ، ولا يسكن إلا في ضرورة الشعر. «القاموس المحيط» (صبر).

فيــا آل أَيــوبِ حَــوَيْتُــمْ منــاقبــاً بأَخْمَصِها تعلُو على الأَنْجُمِ الزُّهْرِ
١٣/٢ إذا عُــدَّ أربــابُ الفَخَــار فــأنتــمُ ذوو الفَعَلات الغُرِّ والنائلِ الغَمْرِ
وأنــتَ الــذي أَصْبَحْــتَ بالبَـأْس والتُّقــى وبَذْلِ اللُّهى[1] عالي السَّنا عَطِرَ الذِّكْرِ[2]

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد في وَصْفِ الحِصْن: وقد عُرِّض حائطُه إلى أن زاد على عَشرة أذرع، وقُطِعَتْ له عِظامُ الحجارة؛ كل فَصٍّ منها من سبع أذرع إلى ما فوقَها وما دونها، وعِدَّتُها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقرُّ الحجرُ في مكانه، ولا يستقلُّ في بُنْيانه إلا بأربعة دنانير فما فوقها، وفيما بين الحائطين حَشْوٌ من الحجارة الصُّمِّ، المُرْغم بها أُنوف الجبالِ الشُّمِّ، وقد جُعلت تسقيتُه بالكِلْس الذي إذا أحاطت قَبْضَتُهُ بالحجر مازَجَه بمثل جِسْمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جِرْمِهِ، وأوعَزَ إلى خَصْمه من الحديد بألا يتعرَّضَ لِهَدْمه.

ومنه في وصف النَّار، قال: وباتَ النَّاسُ في ليلة الجُمُعة مُطيفين بالحِصْن والنَّار به مُطيفة، وعليه مُشْتَمِلة، وعَذَباتُ[3] ألسنتها على تاجه مُنْسَدِلة، وعلى خَلْفِهِ مُسْبَلَة، ونارهم قد أطفأها الله بتلك النار الواقدة، ومَنَعَتُهُمْ قد أذهبها الله بتلك الأبرجة السَّاجدة، وبَنَفْسَجُ الظَّلْماء قد استحالَ جُلَّناراً، والشَّفَقُ قد عمَّ الليلة فلم يختصَّ آصالاً ولا أسحاراً. ونفحاتها حميميَّة وَقُودُها النَّاس والحجارة، والبلاء ينادي بلسان مُصابها: إياكِ أعني

---

(١) العطية. «اللسان» (لها).
(٢) في «سنا البرق»: ١/ ٣٣٩ أربعة أبيات من القصيدة.
(٣) عذبات جمع، مفردها عَذَبَة، وهي ما يسدل من العمامة بين الكتفين، وهما طرفاها. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٥٣.

واسمعي يا جارة. فولجت النَّارُ موالجَ تضيق منها الفِكَر، وتعجَزُ عنها الإِبَرُ، ونَقَلَتِ النبأَ من العين إلى الأثَر، وقال الكُفْر: إنها لإحدى الكُبَر. وخُولف المَثَل: إنَّ السَّعادَةَ لتلحظُ الحجر. وأغنى ضوؤها لسانَ كلِّ إمَّعة أن يسألَ هذا وهذا: ما الخَبَر، وَقَذَفتْ بِشَرَرٍ كالجِمالاتِ[1] الصُّفْرِ، وزَفَرَت بغيظٍ تعفَّر له خدودُ الجبال الصُّعْر، وتلحقها بالكُتُبِ العُفْر. وبات الليل والنَّهار يشُلُّه[2]، وكلما أغمده الخمودُ جعل الوقود يَسُلُّه، إلى أن بدا الصَّباح كأنَّه منها امتار الأنوار، وانشقَّ الشَّرْقُ ومن عُصْفُرها صَبَغَ الإِزار، فحينئذٍ تقدَّم الخادم، فاقتلع شَدُّه الأحجارَ من أُسِّها، ومحا حروفَ البُنْيان من طِرْسِها، وتَبِعَهُ الجيشُ ورفاقه، وكافَّة من اشتمل عليه نِطاقُه.

وفي كتابٍ آخر: وكان مبنياً على تلٍّ، وفيه صِهْريج[3]، لما فتح المسلمون الحِصْن رموا فيه ما يناهز ألف قتيل، ودابَّة محرقة بالنَّار، فما سدَّت عَرْصَته ولا ملأت حُفْرَتَهُ، وكان فيه نحو ألف زَرَدِيَّة*، والمقاتلة ثمانون فارساً بغِلْمانهم، وخمسة عشر مقدَّماً للرِّجال، مع كل مقدَّمٍ خمسون رجلاً، هذا إلى الصُّنَّاع ما بين بنَّاء ومعمار وحدَّاد ونجار وصَيْقَل وسيوفي، وصُنَّاع أنواع الأسلحة. وكان به من أسرى المسلمين ما يزيد على مئة رجل، نُزِعَتِ القيود من أرجلهم وَجُعلت في أرجل الفرنج. وكانت فيه أقواتٌ لِعدَّة سنين، وأنواع اللحوم الطيبة والخبيثة فيها بلاغٌ ومَتَاعٌ إلى حين. ولما قوتل

---

(١) الجمالات جمع جمال، «اللسان» (جمل).

قلت: وهذا التشبيه مقتبس من الآية الكريمة ﴿إنها ترمي بشرر كالقصر، كأنه جمالةٌ صفر﴾ [المرسلات: ٣٢ ــ ٣٣].

(٢) الشل والشلل: الطرد. شله يشله شلاً فانشلَّ، وكذلك شل العيرُ أُتُنَه والسائقُ إبلَهُ. ومَرَّ فلان يشلهم بالسيف: أي يطردهم. «اللسان» (شلل).

(٣) الصهريج: حوض يجتمع فيه الماء. «القاموس المحيط» (صهرج).

أول يوم هُجِمَ حَوْشُه وفيه جماعةٌ من المقاتلة، فَضُرِبَتْ رِقابُهم، وأُخذت دوابُّهم، وفي الحال علقت النقوب على خمس جهات، وَحُشِيَتْ بالنِّيران، وتأخَّر وقوع الجدران لفرط عَرْض البُنْيان، ولم تزل النَّار توقَد، ثم تخرج، ثم تُشْعل، ثم تُخْمد إلى أن تمكَّنَتِ النقوبُ، وحُشيت بالأحطاب، وأُطلقت فيها النِّيران في يوم الخميس، فيومئذٍ وَقَعَتِ الواقعة، وانشقَّت الأَبْرجة فهي يومئذٍ واهية، وملك المسلمون الحِصْنَ بما فيه ومَنْ فيه، واشتعلت النِّيران في أرجائه ونواحيه.

وكان الطاغية مُقَدَّم الحصن يشاهد ما حَلَّ بِبُنْيانه، وما نَزَلَ من البلاء بأصحابه وأعوانه. ولما وصلت النَّار إلى جهته ألقى نَفْسَه في خندقِ نارٍ صابراً على حَرِّها، ففي الحال نقلته هذه النَّار إلى تلك النَّار. ولما أُخذ أسارى الإفرنج، وهم عِدَّةٌ تزيد على سبع مئة بعد المقتولين، وما تقصر عِدَّتُهم عن مثلها، توفَّرتِ الهِمَّة على هَدْم هذا الحصن، وتعفية أَثَره، وإزالة ضَرره، فألحقت أعاليه بقواعده، وصار أَثَراً بعد عَيْنٍ في عَيْنِ مُشاهده، هذا، والفرنج مجتمعون في طَبَرِيَّة يشاهدون الأمر عِياناً، وينظرون إلى الحِصْن قد مُليء نيراناً، وارتفع دُخَّاناً[1]. وسارت العساكر إلى أعمال صيدا وبيروت وصور، فانْثَنَتْ مُغيرة، فاستثارت كُلَّ غامضة، ووصلت إلى كل ذخيرة، وصارت بلاد الفرنج لا يسكن منها إلا كل قلعة أو مدينة، ولا يقيم فيها إلا مَنْ نَفْسُه لشدَّة الخوف معتقلة في نَفْسه أو مشحونة.

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى وزير بغداد: تأخَّر فلانٌ

---

(١) هكذا ضبط في الأصل، وهي لغة فيه. انظر «تاج العروس» (دخن).

لضروراتٍ، منها أمراضٌ كانت قد عمَّت بها البَلْوى، وكَثُرَتْ بها الشَّكْوى، وكان أكثرها خاصاً بالعائدين من العساكر من نوبة فتح الحصن. وكان خادما المجلس السَّامي ابن أخيه تقي الدين، وابن عمه ناصر الدين قد جهدا وأُثخنا، وبلغا حدَّ اليأس وامتُحنا، وكادا يَسْقُطان من ضمير المَنَى[(١)]، فَمَنَّ الله تعالى بالشِّفا، وهذه البُشْرى بفتح الحِصْن، وإن كانت شريفةً مواقِفُها[(٢)]، عامَّةً منافِعُها، فقد تجدَّدت بعدها بشارةٌ طلعت بِشَارَةٍ رائقةٍ، وجاءت في مكان الرَّديف لأُخرى، لا فَرْقَ بينهما إلا أَنَّ تلك سابقة وهذه لاحقة؛ وذلك أن الأسطول المِصْري غزا غزوةً أخرى غير الأُولى، وتوجَّه عن السَّواحل الإسلامية مرة أُخرى، مَنَّ الله فيها مِنَّةً أخرى. وكانت عِدَّته في هذه السَّنة قد أُضعفت وقُوِّيت، واستفرغت[(٣)] فيها عزائم الجهاد ١٤/٢
واستقصيت، واحتلت به[(٤)] الرجال الذين يعملون في البحر، ويفتكون في البر، ومن هو معروفٌ من المغاربة لغزو بلاد الكُفْر، فسارت على سوارٍ هي كنائن، إلا أنها تمرق مروقَ السِّهام، ورواكد هي مدائن إلا أنها تمرُّ مَرَّ السحابِ غيرِ الجَهَام[(٥)]، فلا أعجب منها تسمَّى غُرباناً، وتنشُرُ من ضُلوعها أجنحة الحَمَام، وتُسمَّى جواري وكم مُبشِّر مُجْريها من النَّصْر بِغُلام. وطوقت[(٦)] في الأحد حادي عشر جُمادى الأُولى ميناء عَكَّا، وهي قُسْطنطينية الفرنج، ودار كُفْرهم، أبدلها الله من الكُفْر إسلاماً، وخلَعَ عنها الشِّرْك البالي، وخَلَعَ عليها من التوحيد أعلاماً. وكانت مفروسة فأصبحت مفترسة،

(١) المنى: القَدَر. «اللسان» (مني).

(٢) في طبعة وادي النيل ٢/ ١٣ مواقعها، وهي الأشبه.

(٣) من هنا يبدأ اضطراب في ترتيب أوراق الأصل، أعدتها إلى حاقِّ موضعها.

(٤) أي نزلت به. «معجم متن اللغة» ٢/ ١٥١.

(٥) الجهام: بالفتح: السحاب الذي لا ماء فيه. «اللسان» (جهم).

(٦) في طبعة وادي النيل: ٢/ ١٤ طرقت.

وباتت جميع الفرنج محترسة وغدت مترسة، فما هي إلا أن حُذفت والجةً على المينا، وفيه المراكبُ والبضائع، فاستولت على عِدَّةٍ من المراكب تحطيماً وتكسيراً، ونطاحاً يُقَلْقِلُ ولو كان ثَبِيراً[1]، وأخلَتْ ساحل الفرنج بقتالها، وباشرت مثل الماء بنزولها ونِزَالها، وهذا مما لم يُعهد من الأُسطول الإسلامي مثلُه في سالف الدَّهْر، لا في حالة قوَّةِ إسلامٍ ولا ضُعْفِ كُفْرٍ، ومما سبيله أن تُطَرَّزَ السِّيَرُ الكريمة بفخره، كما طرَّز الله الصحيفةَ الشَّريفة بأَجْره. وقُتل على قلعة عكا ثلاثة نفرٍ بأليم السِّهام، أبعد ما كانوا وقفوا عنها، وآمن ما كانوا منها، فصرعتهم الأيدي والأفواه، وخرُّوا سُجَّداً على الجباه، سجوداً لا يرفعون منه الرُّؤوس، ولا ينتقلون منه إلى حالةِ الجلوس، ولا يرفع فيما يرفع لهم من عمل، ولا لهم فيه من قِبْلَةٍ ولا لهم به من قِبَل. وأقامت المراكب يومين تقابلها وتقاتلها وتُناضلها.

فصـــل
في باقي حوادث هذه السنة

منها حجة الفاضل الثَّانية، ووفاة الخليفة المستضيء بالله وغير ذلك.

قال العماد: وفي العَشْر الأخير من شوَّال خرج الفاضل من دمشق إلى الحج، ثم عاد إلى مصر من مكَّة[2].

قلت: وقفت على نسخةِ كتاب الفاضل إلى الصَّفي بن القابض[3]

(1) ثبير: من أعظم جبال مكة المكرَّمة. «معجم البلدان»: ٢/ ٧٣.
(2) انظر «سنا البرق»: ١/ ٣٤٢.
(3) كان متولي الخزانة والديوان والأعمال بدمشق، وهو كالنائب عن السلطان فيها. سترد ترجمته ٤/ ٢٩٢ من هذا الكتاب.

يصفُ له مالقي في طريقه إلى مصر وركوب[1] البحر، وكانت جمالُه ذهبت بمكَّة في خامس عشر ذي الحِجَّة، فقال: خرجنا من مكَّة ــ شرَّفها الله ــ يوم الخامس والعشرين من ذي الحجة، وفي هذه الأيام [زاد][2] تبسُّطُ المفسدين، وإسراف المُسْرفين، وظَهَرَ من هَوَان أمير الحاجّ العراقي ومن ضَعْف نَفْسه وانخفاض جَنَاحه ما أطمع المفسد وأخاف المصلح. ووصلنا إلى جُدَّة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي الحجة، وركبنا البحر يوم الثلاثاء التاسع والعشرين منه، وبتنا فيه ليلتي الأربعاء والخميس، ورمتنا الرِّيحُ إلى جزيرةٍ بالقُرْب من بلاد اليمن تُسمَّى دبادب. وكانت إحدى الليلتين في البحر من ليالي البلاء، وبالله أُقسم لقد شاب بعضُ رؤوس أصحابنا في تلك الليلة، وأيسوا من الأنفس، وتمنّوا معاجلة الأمر وتقصير العذاب، وظنوا أنهم أُحيط بهم، وعاتبوا أنفسهم، ثم احتجوا عليها بالأقدار التي لا حيلة فيها. وصبرنا إلى أن فرَّج الله سبحانه، ونزلنا البرية بحيث لا ماء يُشرب ولا جمل يُركب، ونُفِّذ إلى البُجاة النَّازلين على ساحل البحر، فأحضروا جمالاً ضعيفةً، أُجرتها أكثر من ثمنها وثمن ما تحمله، فركبنا ووصلنا إلى عَيْذَاب* بعد عشرة أيام، وقد هلكنا ضعفاً وتعباً وجُوعاً وعطشاً، لأنَّ الخَلْقَ كانوا كثيراً، والزَّاد يسيراً. وركبنا البريَّة من عَيْذَاب إلى أُسوان، فكانت أشق من كلِّ طريقٍ سلكناها، ومن كل مسافةٍ قطعناها لأنا وردنا الماء في إحدى عشرة ليلة مرَّتين، وكانت الهِمَّة قاصرة في المزاد، وكانت البلوى عظيمةً في العطش. فأما الحزون والوَعْرُ فهي تزيدُ على ما في

---

(١) في الأصل: وركب، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ١٤.

(٢) ما بين حاصرتين مثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ١٤.

بريَّة الشَّام بكونها طريقاً بين جبلين كالدَّرْب المتضايق، والزُّقاق المتقارب، وحَرُّ الشمسِ شديد، وقريب الوعد بينهما بعيد، ولَطَفَ اللَّهُ إلى أن وصلنا مِصْر في السَّابع عشر من صَفَر.

قلت: وللوجيه ابن الذَّرَوي[١] في الفاضل:

لــك اللَّــهُ إمَّــا حِجَّــةٌ أو وِفَــادَةٌ   فمن مَشْهَدٍ يُرْضي الإله ومَوْسِمِ
تُــرى تــارةً بيــن الصَّــوارِمِ والقَنَــا   وطَـوْراً تُـرى بيـن الحَطِيْـم وزَمْـزَمِ
وكـم لـك يـا عبـدَ الـرَّحيـم مـآثِـرٌ   لها في سماءِ الفَخْرِ إشْرَاقُ أَنْجُمِ
كــأنَّــكَ لــم تُخْلَــقْ لغيــرِ عِبَــادَةٍ   وإظهـارِ فَضْـلٍ فـي الـوَرَى وتكَـرُّمِ

قال العماد: وفي هذه السَّنة طُهِّر الملك العزيز أبو الفتح عثمان عماد الدين بن السُّلْطان، وكان أحبّ أولاده إليه، وهو الذي قام بتدبير الملك بعدَه، وولد بمصر ثامن جُمادى الأُولى سنة سبع وستين وخمس مئة كما سبق ذكره[٢].

وكان السُّلْطان لما قدم الشَّام زاد شوقه إليه، فاستقدمه، فقدم عليه عاشر رجب سنة إحدى وسبعين، وأنشد العمادُ السُّلْطانَ عند قدومه قصيدةً، منها:

يــا أســداً يحمــي عَـرِيْـنَ العُـلا   هُنِّيْــتَ جَمْــعَ الشَّمْــلِ بــالشِّبْـلِ
عثمــانَ ذي النّـوريـن بيـن الـوَرَى   مــن سُــؤْدَدٍ ســامٍ ومِــنْ فَضْــلِ ١٥/٢
يَحكيــكَ إقــدامــاً وبَــأْســاً فمــا   أَشْبَــهَ هــذا الفَــرْعَ بــالأَصْــلِ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٢ من هذا الجزء.
(٢) انظر ص ٤٧٥ من الجزء الثاني، و«سنا البرق»: ١/ ٣٣٩.

مَخَايِلُ الرُّشْدِ على بِشْرِهِ شَاهِدَةٌ بالفَضْلِ والنُّبْلِ
مَلْكٌ قَضَى اللَّهُ لَهُ أَنَّهُ علىٰ مُلُوكِ الأَرْضِ يَسْتَعْلي
بالمَلِكِ النَّاصِرِ سُلْطانِنا طالَتْ يَدُ الإِحسانِ والعَدْلِ

ثم لم يفارقه، واستصحبه إلى مِصْر في سنة اثنتين وسبعين، ثم عاد به معه إلى الشام في شَوَّال سنة ثلاث وسبعين، واتخذ له معلماً من مصر، وهو نجم الدين يوسف بن الحسين المجاور[١]، فحصَّل من صحبته رِزْقاً واسعاً لا سيما في عام الطهور، فإنَّه عَمَّ فيه السُّرور والحبور، وكان متولي الإِنفاق في الطهور صفي الدين بن القابض[٢]؛ لأنه كان متولي الخزانة والديوان والأعمال بدمشق[٣].

قال: وحجَّ ــ يعني ابن القابض ــ سنة أربع وسبعين، وفيها حجَّ

(١) المجاور لقب أبيه لأنه جاور بمكة، وقد توفي فيها سنة (٥٨٦ هـ) انظر «التكملة» للمنذري: ١/ ١٤١.
وأما نجم الدين هذا فقد ولد سنة (٥٤٩ هـ)، وكان قد اتخذ مكتباً على باب جامع دمشق يعلم فيه الصبيان، وقد أنس به العزيز بن صلاح الدين، حتى إنه استوزره في نيابته عن أبيه بمصر، ثم لما مات صلاح الدين فوض إليه العزيز جميع أمور دولته، وكان أهلاً لذلك لما جمع من الفضائل والآداب ومكارم الأخلاق، وتوفي بالقاهرة سنة (٦٠٠ هـ).
انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٢/ ٣٠ ــ ٣١، و«الغصون اليانعة»: ١٩ ــ ٢٥، وفيه وفاته سنة (٦٠١ هـ).
ويفهم من سياق الخبر أن نجم الدين كان بمصر حين اتخذه صلاح الدين معلماً لولده، والصحيح أنه كان في دمشق، وطلب منه صلاح الدين أن يصحب ابنه إلى مصر. قال العماد: وقال لي السلطان عند قرب رحيله إلى مصر: اطلب لولدي هذا معلماً يصحبه، ويتسنَّى به تأدبه وتهذبه». انظر «سنا البرق»: ١/ ٣٤٠.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٦ من هذا الجزء.
(٣) «سنا البرق»: ١/ ٣٤٠.

الفاضل من مِصْر ــ يعني حجته الأُولى ــ وعاد إلى الشَّام، ومعه ابن القابض.

قلت: فلما رجعا معاً في حجة الفاضل الأولى إلى الشَّام، ثم انفرد الفاضل بالحج ثانياً من العام المقبل، وهو سنة خمس وسبعين، وتَمَّ له في رجوعه ما تَمَّ كاتبه بالكتاب الذي سبق ذكره[1]، يصف له ما لقي في رجوعه. وكانت حجة الفاضل الأُولى من مصر ورجع إلى الشَّام[2]، وكانت الثَّانية من الشَّام ورجع إلى مِصْر.

وفي هذه السنة توفي الملك المنصور حسن بن السُّلْطان صلاح الدين[3]، وقبره القبر القِبْلي من القُبور الأربعة بالقُبَّة التي فيها شاهنشاه بن أيوب بالمقبرة النَّجمية* بالعوينة* ظاهر دمشق.

قال العماد: وفيها خرجوا إلى بَعْلَبَكَّ لتسليمها إلى عز الدين فَرُّخْشاه، فسلكوا طريق الرَّواديف؛ وهي طريقٌ شاقَّة[4].

وفيها أغار عز الدين على صَفَد ثامن عشر ذي القعدة، وكان قد جمع لهم من رجال بانياس وما حولها، ورجع غانماً سالماً[5].

قال: وفي مستهل ذي القعدة أو ثانيه توفي ببغداد الخليفة الإمام المستضيء بالله أمير المؤمنين، واسْتُخْلِفَ ولده النَّاصر لدين الله أبو العباس أحمد. وكان رسول السلطان ضياء الدين بن الشَّهْرُزُوري[6] حاضراً، فحضر

---

(١) انظر ص ٤٦ ــ ٤٨ من هذا الجزء.
(٢) انظر ص ٢١ وما بعدها من هذا الجزء.
(٣) انظر ص ٤٧٨ من الجزء الثاني.
(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٤١.
(٥) المصدر السابق.
(٦) سلفت أخباره في أثناء هذا الكتاب، وسيترجم له أبو شامة في «المذيل على =

وبايع، وأخبر بجليّة الحال، فبادر السُلْطان إلى الخطبة له في جميع البلاد، ومضى صَدْرُ الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل[١] من بغداد رسولاً إلى بهلوان[٢]، وألزمه حتى خَطَبَ بهمَذَان وأَصْفَهان، وعمَّت الدعوة الهادية في جميع بلاد خُراسان. ثم لما رجع شيخ الشيوخ جاء إلينا رسولاً في سنة ستٍّ وسبعين، وأخذه السُلْطان معه إلى مصر، وحجَّ منها وركب البحر كما سيأتي ذِكْرُه[٣].

وللعماد في مدح الإمام النَّاصر قصائد، منها قصيدةٌ بائية مدحه بها سنة فتح القُدْس، وسيأتي منها أبياتٌ عند ذكر فتحه[٤]، ومنها:

الدَّهْرُ يَنْصُرُني ما دَامَ يَنْسُبُني ... لِخِدْمَةِ النَّاصِرِ المَنْصُورِ نَسَّابُ

بطاعَةِ النَّاصر بن المستضيء أبي الـ ... ـعَبَّاس أحمد للأيَّامِ إصْحابُ[٥]

وقال محمد بن القادِسي[٦] في تذييل تاريخ أبي الفَرَج بن الجَوْزِي:

= الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٩ هـ)، وانظر ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧ من الجزء الثاني.

(١) وردت أخباره في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ص ٢١٠ من هذا الجزء، وقد سلفت ترجمة أبيه في الحاشية رقم ٢ ص ١٧٨ من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

(٣) انظر ص ٦٥ ــ ٦٦، ٦٩ من هذا الجزء.

(٤) انظر ص ٣٦٤ من هذا الجزء.

(٥) الإصحاب: الانقياد. «اللسان» (صحب).

(٦) هو محمد بن أحمد بن محمد بن علي، أبو عبد الله القادسي، نسبة إلى القادسية، وهي قرية بين سامراء وبغداد، لاقادسية الكوفة التي كانت فيها الوقعة المشهورة.
كان له اعتناء بالتواريخ والحوادث، وصنَّف كتابين: «ذيل المنتظم» وصل فيه إلى سنة (٦١٦ هـ) و«أخبار الوزراء» وكلا الكتابين لما يصلنا، توفي سنة (٦٣٢ هـ) ببغداد.

انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣/ ١٣١، و«وفيات الأعيان»؛ ١/ ٣٢٩ وفي الحاشية أن وفاته سنة (٦٢١ هـ) وهي خطأ، إذ هي سنة وفاة والده ــ =

مولد المستضيء ثالث عشري شعبان من سنة ست وثلاثين، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. بويع تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين، وكان كريماً رحوماً، بارّاً بالرَّعية، يعفو عن الجرائم الكبار، عادلاً. ظَهَرَ يوم مبايعته من رَدِّ المظالم والأملاك المقبوضة، والإفراج عن المسجونين، وإسقاط الضَّرائب والمكوس ما شاع واشتهر.

قال: وتقدّم إلى شيخ الشيوخ عبد الرحيم، وإلى عبد الرحمن بن الجَوْزي فَصَلَّيا عليه. ثم بايع النَّاصِرَ أخوه الأمير أبو منصور هاشم، ثم بنو أعمامه وخواصُّه، ثم الولاة وأرباب المناصب والأعيان، والوافدون للحجِّ من بلاد خُرَاسان وغَيْرُهم. وكان والده المستضيء قد عهد إليه قبل وفاته بيومٍ واحد.

قلت: كذا نقلته من خطه، ولعله أراد بأسبوع واحد، فسبق به قلمه، فإن ابن الدُّبيثي[١] ذكر أنه خطب للناصر بولاية العهد يوم الجمعة الثاني والعشرين من شوال[٢].

ثم قال ابنُ القادِسي: وفي سابع ذي القَعْدَة قبض على صاحب المخزن ظهير الدين أبي بكر بن العَطَّار[٣]، ووكِّل به، وتتبع أصحابه ومن يتعلَّق به.

= و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ١١٧، و«تاريخ الحكماء» للقفطي ط ليبسك: ص ١١١.
وترجم أبو شامة لوالده أحمد بن محمد في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢١ هـ).

(١) انظر «المختصر المحتاج إليه»: ١/ ١٨٠.

(٢) في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٨ هـ) أن بنفشا بنت عبد الله، جارية المستضيء هي التي أشارت عليه بولاية الإمام الناصر، وكان في عزمه أن يولي ابنه أبا منصور.

(٣) انظر ص ٤٨٢ من الجزء الثاني، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٨٤ ــ ٨٥.

وقُتل النقيب مسعود الذي كان بين يديه، وكان أحد الأعوان بباب النوبي[1]، قد نُزِعت الرَّحمةُ من قلبه، فقطِّع قِطَعاً، ورُبِطَ في رِجْله حَبْلٌ، وسحبته العامَّةُ في الدُّروب، ثم أُحرق بعد ذلك.

قال: وفي حادي عشره حُمل ابنُ العَطَّار مَيْتاً، وعَلِمَ به العامَّةُ، فرجموا تابوته بالآجُرِّ، فألقاه الحمَّالون وهربوا، فأخذه العامَّة، وشدُّوا في رِجْله شريطاً، وسُحِبَ في جميع بغداد ومنافذها ودُروبها ومَحالِّها، وقُطِّع لحمه قِطَعاً. ١٦/٢

قال: وتوجَّه شيخُ الشُّيوخ أبو القاسم عبد الرحيم إلى البهلوان بن إيلدِكِز[2] شِحْنة هَمَذان لأجل الخُطْبة، فتوقَّف عن ذلك، فهاجت العامَّةُ عليه، ووثَبَ أهل المذكور وخطبوا. وجاء كتاب شيخ الشُّيوخ إلى الدِّيوان سَطَّرها فلانٌ: والحالُ في الجنوح كقِصَّة نوح، من قرأ السُّورة عَرَفَ الصُّورة.

قال: وفي هذه السَّنة اشتدَّ الغلاء، وكَثُرَ الوباء ببغداد وغيرِها من البلاد، وذُكر أنَّ رجلاً بواسط ذبح بنتاً له وأكلها، وآخر بَقَرَ بَطْنَ صبيٍّ، وأخذ كَبِدَه وشَوَاها وأكلها.

قال: وفي رابع عشر ربيع الآخر زلزلت الأرض بعد العَتَمَة فوق بلاد

---

(١) باب النوبي كان يقع في سور دار الخلافة ببغداد إلى الشرق من باب بدر، وهو باب كبير لدار الخلافة، ويسمىٰ أيضاً باب العتبة، فقد كانت فيه العتبة التي يقبلها الرسل والأمراء والملوك ورؤساء الحجاج إذا قدموا بغداد، وكان هذا الباب في بعض الأدوار باباً رئيساً لقصور الخلفاء. انظر «دليل خارطة بغداد»: ١٥٨ ـ ١٥٩.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

إِرْبل*، فلما أصبح النَّاس عادت الزلزلَةُ في الجبال، فتصادمت، ووقع منها الحجارة، وسقطت قِلاعٌ كثيرة، وهلكت قُرًى بمن فيها، وكان يكون بين الجمل والجمل عشرون ذراعاً، فتقذفهما الزلزلة فيتصادمان ويعودان إلى مكانهما.

قال ابن أبي طي: وفيها أحرق الإسماعيلية أسواقَ حلب، وافتقر أهلُها بذلك، وكانت إحدى الجوائح التي أصابت حلب وأهلها.

قال: وفيها خرج قَرَاقُوش التَّقوي(١) إلى طَرَابُلُس المغرب، ففتح بلادًا، وصَلَى حروباً مع إبراهيم السلاح دار* الذي دخل بلاد المغرب أيضاً من أصحاب تقي الدِّين؛ لأن نَفْسَه أطمعته أن يفعل فِعْل قَرَاقُوش في تملُّك البلاد، ثم أصلح بينهما.

ثم دخلت سنة ستٍّ وسبعين [وخمس مئة](٢)

وفيها توفي الحافِظُ أبو طاهر السِّلَفي(٣) رحمه الله بالإسكندرية، وقد زُرْتُ قبرَه(٤) بها داخل الباب الأخضر.

قال العماد: وفيها هادن السُّلْطانُ صلاحُ الدين الفرنجَ، وتوجَّه إلى بلد

---

(١) انظر ما سلف من خبره ص ٤١٨ ــ ٤١٩ من الجزء الثاني.
(٢) ما بين حاصرتين من (ب).
(٣) انظر ترجمته ومظانها في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/ ٧٢ ــ ٧٧ بتحقيقي، وقد مَرَّ أن السلطان صلاح الدين سمع منه الحديث. انظر ص ٤٤٨ من الجزء الثاني.
(٤) كان أبو شامة قد زار مصر سنة (٦٢٨ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٩٢ من الجزء الثاني.

الرُّوم، فأصلح بين[1] نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن أَرْتُق صاحب حصن كيفا*، وبين زوج ابنته[2] السُّلْطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، واجتمعوا على نهرٍ يُقال له كوك سُو[3]، وكَثُرَتْ ثَمَّ الهدايا والدَّعوات والأفراح والهِبَات[4].

وفيها دخل السُّلْطان بلاد الأرمن لقلع[5] ملكهم ابن لاون، لأنه كان استمال قوماً من التركمان حتى يرعوا في مراعي بلاده بالأمان، ثم صبَّحهم بغَدْره، وحَصَلوا بأَسْرِهم في أَسْرِه. فدخل السُّلْطانُ بلاده، وأذلَّ أعوانه وأجناده، ونصر اللَّهُ المسلمين بالرُّعْب، فأحرق[6] من الخوف قلعةً شامخةً تُعرف بالمانقير، وبادر المسلمون إلى إخراج ما فيها من الآلات والغَلاَّت، فتقوَّوْا بها، وتمموا هَدْمَها إلى الأساس[7].

---

(١) إلى هنا ينتهي خلل ترتيب الأوراق في الأصل، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٥ من هذا الجزء.

(٢) وهم أبو شامة في النقل، إذ إنَّ السلطان عز الدين هو الـذي زوَّج ابنته لنور الدين محمد بن قرا أرسلان. وسبب الخلاف هو اطراح نور الدين لابنة عز الدين، وتقديم مغنية عليها، إضافة إلى أن عز الدين كان يطمع ببعض أراضي السلطان صلاح الدين. انظر ص ٣١، وما بعدها من هذا الجزء. وقد توفي نور الدين سنة (٥٨١ هـ) وتوفي عز الدين سنة (٥٨٨ هـ). انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٤٤ وما بعدها، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٦٤ ـ ٤٦٦، ٥١٤ ـ ٥١٥، ١٢/ ٨٧ وما بعدها، وانظر ص ٢٣٣ من هذا الجزء.

(٣) هو النهر الأزرق، من فروع الفرات، بين بهسنى وحصن منصور، في طرف بلاد الروم من جهة حلب. «معجم البلدان»: ٥/ ٣١٧، وانظر ص ٥٩ من هذا الجزء.

(٤) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٤٤ ـ ٣٤٧.

(٥) في (ب) لقمع.

(٦) أي الأرمني.

(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

قال ابنُ أبي طي: ووجد المسلمون في أرضها صهريجاً مملوءاً آلات نحاس وفِضَّة وذَهَب لها زمنٌ طويل.

قال: وبَذَلَ للسُّلْطان جُمْلَةً من المال، وأنَّه يُطلق من عنده من الأسارى. فلم يَرْضَ السُّلْطان بما بذله، فزاد في المال، وأنَّه يشتري خمس مئة أسير من بلاد الفرنج ويعتقهم، فأجاب السلطان، وأخذ منهم رهينةً على ذلك.

قال العماد: وأذعن الأرمني وذَلَّ، وأطلق ما بيده من الأسارى، ورجع السُّلْطان مؤيَّداً منصوراً، ووصل إلى حماة في أواخر جُمادى الآخرة[1]. وكان الجمال الواسطي أبو غالب محمد بن سُلْطان بن الخطاب المُقْرىء[2] شاهداً هذه الغَزَاة، فنظم قصيدةً في السُّلْطان، منها:

لقد جَمَّل اللَّهُ منك الورى ... بأَوْفَى مليكٍ وفيٍّ هِجَانِ[3]
تَهَشُّ إلى نَغَماتِ السُّيو ... فِ في الهامِ لا نَغَماتِ القِيانِ
أَزَرْتَ ابن لاونَ لأْوَاءَه ... فأضْحَى به خَبَراً عن عِيانِ
ودانَ مِنَ الذُّلِّ لا يَرْعَوِي ... حِذاراً من الرَّاعِفاتِ اللِّدانِ
فلا قَدَمٌ عِنْدَه للثَّباتِ ... وليس له بِسُطاكُمْ يَدَانِ

(١) في «سنا البرق»: ٣٤٨/١ «في العشر الأوسط من جمادى الآخرة».
(٢) من أهل النيل ــ بليدة في سواد الكوفة، قرب حلة بني مزيد ــ قدم بغداد، وقرأ بها الأدب على ابن الخشاب وأبي البركات الأنباري، وأبي محمد الجواليقي وسكن دمشق، وأقرأ الأدب، لم يذكر الصفدي والسيوطي سنة ولادته ووفاته.
انظر «الوافي بالوفيات»: ١١٨/٣، و«بغية الوعاة»: ١١٥/١ و«معجم البلدان»: ٥/ ٣٣٤.
(٣) رجل هجان: كريم الحسب نقيُّه. «اللسان» (هجن).

وأخلــى لهيبتــك المــانقيــر   وغــادَرَ للهَــدْمِ تلــكَ المَبَــانــي
وأَرْسَــلَ بــالأُسَــراءِ العُنَــا   ةِ يَسْــأَلُ إطــلاقَــهُ فهْــو عــانــي
رَتَقْــتَ بِعَــزْمِــك والمَكْــرُمــاتِ   فُتُــوقــاً مــن الأَرْتقــيِّ الهِجَــانِ
ورُعْــتَ ابــنَ سَلْجُــوقَ فــي مُلْكِــهِ   فقعقــع مــن رُعْبــهِ بــالشِّنَــان[1]

قال: ولما وصل السُّلْطانُ إلى حمص، وخيَّم بالعاصي أتاه الفقيه مهذب الدين عبد الله[2] بن أسعد المَوْصِلي، وأنشده، وله في السُّلْطان مدائح منها قصيدةٌ غرَّاء[3]، مطلعها:

أَمَا وَجُفُوْنك المَرْضَى الصِّحاحِ   وَسَكْــرَةِ مُقْلَتَيْــكَ وَأَنْــتَ صَــاحِي
لقــد أَصْبَحْــتُ فــي العُشَّــاق فَــرْداً   كمــا أَصْبَحْــتَ فَــرْداً فــي المِــلاحِ 17/2
يَهُــزُّ الغُصْــنَ فَــوْقَ نقًــى ويَــرْنُــو   بحــدِّ ظُبًــى ويَبْسِــمُ عــن أقَــاحِ
وقــد غَــرَسَ القَضِيْــبَ علــى كَثِيْــبٍ   فَــأَثْمَــرَ بــالظَّــلامِ وبــالصَّبــاحِ
ومــالَ مــع الــوشــاةِ ولا عَجِيْــبٌ   لِغُصْــنٍ أن يَمِيْــلَ مــع الــرِّيــاحِ
قَطَعْنــا اللَّيْــلَ فــي عَتْــبٍ وشَكْــوَى   إلــى أَنْ قيــلَ حَــيَّ علــى الفَــلاَحِ
ولاحَ الصُّبْــحُ يحكــي فــي سَنَــاه   صلاحَ الدِّين يُوْسُفَ ذا الصَّلاحِ
ولمــا ضَــاقَ حَــدٌّ عــن مَــدَاه   لَقِيْنَــــاه بــــآمَــــالٍ فِسَــــاحِ

---

(١) الشنان جمع، مفردها الشن: القربة الخلق، المصنوعة من جلد، وفي المثل: لا يقعقع له بالشنان، يضرب للرجل الشرس الصعب: أي لا يهدد ولا يفزع. انظر «المستقصى في أمثال العرب»: ٢/ ٢٧٤، و«اللسان» (شنن).

(٢) في الأصل: ابن عبد الله بن أسعد الموصلي، وهو وهم، وقد سلف ذكره ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣ من الجزء الأول، وص ٣٥٥ من الجزء الثاني، وسيرد ص ١١١ و٢٤٧ من هذا الجزء.

(٣) هذه القصيدة أنشدها لصلاح الدين حين نزل حمص سنة (٥٧٨ هـ)، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١١٣ من هذا الجزء.

فَمَنْ هَرِمٌ وَكَعْبٌ وابن سُعْدَى[1] رِعَـاءُ الشَّـاءِ والنَّعَـمِ المِـرَاحِ
جَـوَادٌ بـالبـلادِ ومـا حَـوَتْـهُ إذا جـادوا بـأَلْبـانِ اللِّقـاحِ
لِيَفْـدِ حيـاءَ وَجْهِـك كـلُّ وَجْـهٍ إذا سُئِـلَ النَّـدى جَهْـمٍ وَقَـاحِ
ملـوكٌ جُلُّهـم مُغْـرًى بظُلْـمٍ ومشغـولٌ بلهـوٍ أو مُـزَاحِ
إذا مـا جـالَـتِ الأبطـالُ وَلَّـى وَيَقْـدُمُ نحـو حـائِلَـةِ الـوِشَـاحِ
وبَـوْنٌ بيـن مـالـكِ بَيْـتِ مـالٍ ومـالـكِ رِقّ أمـلاكِ النَّـواحـي
هُـمُ جَمَعُـوا وقـد فَـرَّقْـتَ لكـنْ جَمَعْـتَ بـه الـرِّجـال مـع السِّـلاحِ
ومـا خَضَـعَ الفـرنـج لـديك حَتَّـى رأَوْا مـا لا يُطـاق مـن الكِفَـاحِ
ومـا سـألـوك عَقْـدَ الصُّلْـح وُدًّا ولكـنْ خَـوْفَ مُعْلِمَـةٍ رَدَاحِ[2]
مَـلأْتَ بـلادَهُـمْ سَهْـلاً وحَـزْنـاً أُسُـوداً تحـت غـابـاتِ الـرِّمـاحِ[3]

---

(١) هرم بن سنان، ممدوح زهير بن أبي سلمى، من أجواد العرب المشهورين في الجاهلية. وأما ابن سُعْدى، فهو أوس بن حارثة بن لأم الطائي، كان سيداً مقداماً، وكان من أجواد العرب أيضاً، وفيه قال حاتم: إنما ذكرتُ بأوس، ولأَحَدُ ولده أفضل مني. وقد مدحه بشر بن أبي خازم بقوله:

إلـى أوس بـن حـارثـة بـن لأم ليقضـيَ حـاجتـي فيمـن قضـاهـا
ومـا وطـىء الثرى مِثْـلُ ابـن سُعْـدىٰ ولالبـس النِّعـالَ ولا احتـذاهـا

وقال جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

ومـا كعـب بـن مـامـة وابـن سعـدى بـأجـودَ منـك يـا عمـرُ الجـوادا

انظر «الكامل» للمبرد: ١/٣٠١ ــ ٣٠٣، وقد سلفت ترجمة كعب بن مامة في حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٢ من هذا الجزء.

(٢) المُعْلم: الذي يجعل لنفسه علامة في الحرب يعرف بها مكانه، وهي علامة الشجعان. والرَّداح: الكتيبة الكثيرة الفرسان، ثقيلة السير لكثرتها. انظر «اللسان» (علم، ردح).

(٣) انظر القصيدة بتمامها في «ديوانه»: ٥٩ ــ ٦٩ مع اختلاف في بعض ألفاظها، وانظر أبياتاً منها في «سنا البرق الشامي»: ١/٣٤٨ ــ ٣٤٩.

وقال ابن شداد: لما عاد السُّلْطان بعد الكسرة ــ يعني كسرة الرَّمْلة[١] ــ إلى الدِّيار المِصْرية، وأقام فيها ريثما لَمَّ النَّاسُ شَعَثَهُمْ، وعَلِمَ تَخَبُّطَ الشَّام، عَزَم على العَوْد إليه، وكان عَوْدُه للغَزَاة، فوصله رُسُل قليج أرسلان[٢] يلتَمسون منه الموافقة، ويستغيث إليه من الأَرْمن. فاشتمل نحو بلاد ابن لاون لِنُصْرة قليج أرسلان عليه، ونزل بقراحِصار، وأخذ عسكر حلب في خدمته، لأنه كان قد اشترط في الصُّلْح ذلك، واجتمعوا على نهر الأزرق بين بَهَسْنى* وحِصْن منصور[٣]، وعبر منه إلى النَّهر الأسود[٤] طَرَفَ بلاد ابن لاون، فأخذ منهم حِصْناً وأخربه، وبذلوا له أسارى، والتمسوا منه الصُّلْح، وعاد عنهم. ثم راسله قليج أرسلان في صُلْح الشَّرْقيِّين بأسرهم، واستقرَّ الصُّلْح في عاشر جُمادى الأولى سنة ستٍّ وسبعين، ودخل في الصُّلْح قليج أرسلان والمواصلة وأهل ديار بكر، وكان ذلك على نهر سَنْجَة[٥]؛

---

(١) انظر ص ٤٦٢ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٢٠ من الجزء الأول.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٥٥ من هذا الجزء، وحصن منصور غربي الفرات قرب سميساط، وكان مدينة عليها سور وخندق وثلاثة أبواب، وفي وسطها حصن، وهو منسوب إلى منصور القيسي الذي بناه، وكان مقيماً به أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٦٥ ــ ٢٦٦.

(٤) النهر الأسود نهر قريب من نهر الأزرق في طرف بلاد المصيصة وطرسوس. «معجم البلدان»: ٥/ ٣١٧.

(٥) في «النوادر السلطانية» ص ٥٤ شنجة، وفي طبعة وادي النيل ٢/ ١٧ شيخة، ومثله في «مفرج الكروب»: ٢/ ١٠٠ وعلق محققه الدكتور جمال الدين الشيال بقوله: ولم أجد لهذا النهر ذكراً عند ياقوت لضبط اسمه.

قلت: هو سنجة: نهر عظيم يجري بين حصن منصور وكيسوم، ويروى صنجة ــ بالصاد ــ ذكره ياقوت في «معجم البلدان»: ٣/ ٢٦٤ ــ ٢٦٥.

وهو نهر يرمي إلى الفُرَات، وسار السُّلْطان نحو دمشق[1].

فصــــل
في وفاة صاحب الموصل

قال العماد: وفي أوائل هذه السنة توفي صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكي، والسُّلْطان مخيم على كوك سو[2] من حدود بلاد الرّوم، وجلس مكانه أخوه عِزُّ الدين مسعود بن مودود. وجاء رسول مجاهد الدين قايماز[3]، وهو الشيخ الفقيه فخر الدين أبو شجاع بن الدَّهَّان البَغْدَادي[4] إلى السُّلْطان يطلب منه أن يكون معه كما كان مع أخيه من إبقاء سَرُوج* والرُّها* والرَّقَّة وحَرَّان* والخابور ونَصِيبين* في يده، فلم يفعلِ السُّلْطان[5].

وقد كانت له بإطلاق الخليفة، وإنما جعلها في يد سيف الدين غازي بالشَّفاعة على شرط أن يُقَوِّي السُّلْطانَ بالعساكر. فلما مات سيف الدين كتب السلطان إلى الخليفة النَّاصر يعلمه بذلك، وأن هذه البلاد لم يزل يتقوَّى بها ثَغْرُ الشَّام. فَفُوِّضت إليه على ما أراد.

وكان الكتاب إلى صدر الدين عبد الرحيم شيخ الشيوخ[6] من إنشاء

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٥٤.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٥٥ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.

(٤) هو محمد بن علي بن شعيب بن الدهان، سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٢ هـ).

(٥) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٥٦ ــ ٣٥٧.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

العماد، وفيه: قد عُرِفَ اختصاصُنا من الطَّاعة والعبودية للدَّار العزيزة النَّبوية بما لم يختص به أحد، وامتدَّتِ اليد مِنَّا في إقامة الدَّعوة الهادية بمصر واليمن والمغرب بما لم تمتدَّ إليه يد، وأزلنا من الأقاليم الثلاثة ثلاثة أدعيا، وخلَّفناهم للرَّدى، حيث دُعوا بلسان الغَوَاية خُلَفا. ولا خَفَاء أنَّ مِصْرَ إقليمٌ عظيم، وبلد كريمٌ، بقيت مئتين وخمسين سنة مَضِيْمَة، وعانَتْ كل هَضِيمة، وعاينت كُلَّ عَظِيمة، حتى أنقذها اللهُ عَزَّ وجل بنا من عَبيد بني عُبيد، وأطلقها بمطلقات أعنَّتنا إليها من عَنَاء كلِّ قَيْد، وفيها شيعة القوم، وهم غير مأموني الشَّرِّ إلى اليوم. وطوائفُ أقاليم الرُّوم والفرنج من البَرِّ والبحر بها مطيفة، فمن حَقِّها أن يتوفَّر عسكرها، فلو حصل ـ والعياذَ بالله ـ فَتْقٌ لأَعْضَلَ رَتْقُه، واتَّسع على الرَّاقع خَرْقُه. واحتجنا لحفظ بلاد الشَّام، وثغور الإِسلام، إلى استصحاب[1] العسكر المصري إليها، وله مُدَّة خمس سنين في بيكارها[2]، مُنْتقماً من كُفَّارها، متحمِّلاً لمشاقها على غلاء أسعارها. وإنما أحوج إلى ذلك أنَّ بلاد هذا الثَّغْر قد اقتطعت عنه، وعساكرها أُخذت منه، وكانت في تولي نور الدين رحمه الله. ثم ذكرها كما سبق، ففوضت إليه كما سيأتي[3].

١٨/٢ وقال ابنُ الأثير: توفي سيف الدين يوم الأحد ثالث صفر سنةَ ستٍّ وسبعين، وكان مَرَضُه السل، وطال به[4].

قال: ومن العجائب أنَّ الناس لما خرجوا يستسقون بالمَوْصِل سنةَ

---

(١) في الأصل: واستصحاب، والمثبت من (ب) وطبعة وادي النيل: ٢/ ١٧.

(٢) بيكار: كلمة فارسية معربة، تعني الحرب، الحملة، الوقعة، وتجمع على بياكر. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية): ١/ ٥٠٦.

(٣) انظر ص ٦٥ من هذا الجزء.

(٤) «الباهر»: ١٨٠، و«الكامل»: ١١/ ٤٦٢.

خمسٍ وسبعين للغلاء الحادث في البلاد خَرَجَ سيف الدين في موكبه، فثار النَّاس وقصدوه مستغيثين به، وطلبوا منه أن يأمر بالمنعِ من بيع الخمر، فأجابهم إلى ذلك. فدخلوا البلد وقصدوا مساكن الخَمَّارين، وخرَّبوا أبوابها ونهبوها، وأراقوا الخمور، وكسروا الأواني، وعملوا ما لا يحِلُّ. فاستغاث أصحابُ الدُّور إلى نُوَّاب السلطان، وخصُّوا بالشكوى رجلاً من الصَّالحين يقال له أبو الفرج الدَّقَّاق، ولم يكن له في الذي فَعَله النَّاسُ من النَّهْب فِعْلٌ، إنما هو أراق الخمور، ولما رأى فعل العامَّة نهاهم، فلم يسمعوا منه.

فلما شُكي أُحضر بالقلعة، وضُرِبَ على رأسه، فسقطت عِمامَتُه، فلما أطلق لينزل من القلعة نَزَل مكشوف الرأس، فأرادوا تغطيته بعِمامته، فلم يفعل، وقال: والله لا غطيته حتى ينتقمَ الله لي ممن ظلمني. فلم يمضِ غير قليل حتى توفي الدُّزْدار* المباشر لأذاه، ثم بعقبه مَرِضَ سيف الدين، ودام مرضه إلى أن توفي. وكان عمره نحو ثلاثين سنة، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً. وكان من أحسن الناس صورةً، تام القامة، مليح الشمائل، أبيض اللَّوْن، مُستدير اللحية، متوسط البدن بين السَّمين والدقيق. وكان عاقلاً، وقوراً، قليل الالتفات إذا ركب وإذا جَلَس، عفيفاً، لم يُذْكر عنه شيءٌ من الأسباب التي تنافي العِفَّة. وكان غيوراً شديد الغيرة؛ لم يترك أحداً من الخدم يدخل دور نسائه إذا كبر، إنما يدخل عليهن الخَدَم الصِّغار. وكان لا يحبُّ سفك الدماء، ولا أخذ الأموال مع شُحٍّ فيه[1].

قال: ولما اشتدَّ مَرَضُه أراد أن يعهد بالملك لولده معز الدين سنجرشاه[2]، فخاف من ذلك، لأنَّ صلاح الدين يوسف بن أيوب كان قد

---

(١) «الباهر»: ١٨٠، و«الكامل»: ١١/ ٤٦٢ ــ ٤٦٣.

(٢) كان عمره حينئذٍ اثنتي عشرة سنة. انظر «الكامل»: ١١/ ٤٦٣.

تمكَّن بالشَّام، وقويت شوكته، وامتنع أخوه عز الدين من الإذعان والإجابة إلى ذلك، فأشار الأُمراء الكبار ومجاهد الدين قايماز بأن يجعل المُلْك بعده لأخيه؛ لما هو عليه من كبر السن والشجاعة والعقل وقوة النَّفْس، وحُسْنِ سياسة الملك، وأن يعطي ابنيه بعض البلاد، ويكون مرجعهما إلى عَمِّهما عز الدين، ليبقى لهما ذلك. ففعل ذلك، وحلف النَّاس لأخيه. فلما توفي سيف الدين كان مجاهد الدين هو المُدَبِّر للدولة، والنائب فيها، والمرجع إلى قوله ورأيه، فركب إلى الخدمة العِزِّية وعَزَّاه، وركَّبه إلى دار المملكة، ومشى في ركابه راجلاً، فدخلها، وجلس للعزاء. وكانت الرعية تخافه قبل أن يملك لإقدامه وجرأته وحِدَّةٍ كانت فيه، وكان لا يلتفت إلى أخيه سيف الدين إذا أراد أمراً، فلما تولَّى تَغَيَّرت أخلاقه، وصار رفيقاً بالرَّعية، محسناً إليهم، قريباً منهم(١).

قال ابنُ شَدَّاد: وفي عاشر المحرَّم سنة ستٍّ وسبعين بَلَغَ الملك الصالح بن نور الدين عصيان غرس الدين قليج بتل خالد*، فأخرج إليه العسكر، ثم بلغه وفاةُ ابنِ عمه صاحب الموصل ثالث صَفَر(٢).

فَصْـــلٌ
في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان الأكبر وقدوم رُسُل الدِّيوان بالتفويض إلى السلطان ما طلبَه

قال ابن أبي طي: كان السُّلْطان قد أنفذ أخاه شمس الدَّوْلة إلى الإسكندرية، وجعل إليه وِلايتها، فلما حَصَلَ بها لم توافِقْه، وكان يعتادُه

(١) «الباهر»: ١٨١، و«الكامل»: ١١/ ٤٦٣.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٣ ــ ٥٤.

القُولَنْج، فهلكَ به، ودفن بقصر الإسكندرية. وكان أحد الأجواد، الكرماء الأفراد، شُجاعاً باسلاً، عظيم الهيبة، كبير النَّفْس، واسع الصَّدْر، مُمَدَّحاً، فيه يقول ابن سَعْدَان الحلبي [(١)] من قصيدةٍ:

هو المَلْكُ إنْ تَسْمَعْ بِكِسْرىٰ وقَيْصَرٍ فإنَّهما في الجُوْدِ والبَأْس عَبْدَاه
وما حاتِمٌ ممَّن يُقاس بِمِثْلِهِ فَخُذْ مَا رَأَيْناه وَدَعْ ما رَوَيْنَاه
وَلُذْ بذَراه [(٢)] مُسْتَجيراً فإنَّه يُجيْرُك من جَوْرِ الزَّمان وعَدْواه
فلا تتحمَّلْ للسَّحائب مِنَّةً إذا هَطَلَتْ جُوْداً سحائِبُ جَدْوَاه
وَيُرْسِلُ كَفَّيْهِ بما اشتقَّ منهما فللِيُمْنِ يُمناه ولليُسْرِ يُسْراه

قال العماد: وفيها في المُحَرَّم توفي بثغر الإسكندرية تُوْرَانشاه أخو صلاح الدين، ووصل الخبر بذلك إلى السلطان، وهو نازلٌ بظاهر حمص، فَحَزِنَ عليه حُزْناً شديداً، وجعل يكثر إنشاد أبيات المراثي، وكان كتاب «الحماسة» من حِفْظه، وكان صلاح الدين لما ملك مِصْرَ أرسله إلى اليمن فملكها، ثم استناب فيها، وقَدِمَ الشَّام سنة إحدى وسبعين، فلما وصل تيماء* جاء منه كتابٌ، وفيه أبياتٌ لشاعره ابن المُنَجِّم [(٣)]، منها:

فَهَلْ لأَخي بل مالكي عِلْمُ أنني إليه وإنْ طالَ التردُّدُ راجعُ
وإني بيومِ واحدٍ مِنْ لقائه لِمُلْكي على عُظْم المَزِيَّة بائِعُ
ولم يبقَ إلا دونَ عشرين ليلةً وَتَجْني المُنَى أبصارُنا والمسامعُ
١٩/٢ لدى مَلِكٍ تَعْنُو الملوكُ إذا بدا [(٤)] وتَخْشَعُ إعظاماً له وَهْوَ خاشِعُ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.
(٢) بذراه: أي بكنفه. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٤٩٦.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٢٤ من الجزء الثاني.
(٤) في «الخريدة»: لبأسه.

كَتَبْتُ وأَشْـوَاقـي إليـك ببعضهـا تَعلَّمَـتِ النَّـوْحَ الحَمَـامُ السَّـوَاجِـعُ
وما المُلْكُ إلا راحَةٌ أنتَ زَنْدُها تَضُمُّ على الدُّنيا ونحن الأَصابعُ[(١)]

قلت: وقبر تُورانشاه الآن بالتُّرْبة الحُسَامية بالعوينة* ظاهر دمشق، نَقَلَتْه إليها أُخته سِتُّ الشَّام بنت أيوب، وبنت القُبَّة عليه وعلى زوجها ناصر الدين محمد بن شِيركُوه، وهو ابنُ عمها[(٢)]، وعلى قَبْرِها وقبر ابنها حُسام الدين عمر بن لاجين ـ وسيأتي ذكره ـ[(٣)] وإليه تنسب التُّرْبة، فهي ثلاثة قبور: القِبْلي لتُورانشاه، والأوسط لابن شِيركُوه، والشَّامي لستِّ الشَّام[(٤)] وابنها[(٥)]، رحمهم الله[(٦)].

قال العماد: وفيها في رجب وَصَلَتْ رُسُلُ الدِّيوان العزيز النَّاصري صدر الدين شيخ الشُّيوخ* أبو القاسم عبد الرَّحيم[(٧)]، ومعه شهاب الدِّين بشير الخاص بالتفويض والتقليد* والتَّشريف* الجديد، فتلقيناهم بالتعظيم

---

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٦٩، و«سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٥١.
(٢) كانت وفاته سنة (٥٨١ هـ)، انظر ص ٢٤٤ من هذا الجزء.
(٣) انظر ٤/ ٢٩١. وسماه العماد هناك: محمد بن عمر بن لاجين.
(٤) ترجم لها أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦١٦ هـ).
(٥) أي أنها دفنت وابنها في قبرٍ واحد.
(٦) انظر ترجمة تورانشاه في «وفيات الأعيان»: ١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٩ و«شفاء القلوب»: ص ٥٠ ـ ٥٥.
قلت: عدَّ الدكتور إحسان عباس في حاشيته على «وفيات الأعيان» كتاب «طبقات الشافعية» للسبكي، من جملة مراجع ترجمة تورانشاه، وقد وهم في ذلك، إذ إن السبكي ترجم في «طبقاته» لتورانشاه ولد الملك الصالح نجم الدين، آخر ملوك الأيوبيين في مصر.
(٧) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.

والتمجيد، وركب السُّلْطانُ للتلقي، وعلى صَفَحاته بشائِرُ التَّرقي، فلما تراءى له الرُّسُل الكِرام، ووجب له الإِجلالُ والإِعظام، نزل وترجَّل، وأبدى الخضوع وتوجَّل، ونَزَلَ الرُّسُلُ إليه، وسلَّموا عن أمير المؤمنين عليه، فتقبَّل الفَرْض، وَقَبَّلَ الأَرْض، ثم ركبوا، ودخلوا المدينة[١].

قال ابن أبي طي: وكانت هذه أولَ خِلْعَةٍ قَدِمَتْ من الإِمام النَّاصر على الملك النَّاصر، وكانت ثوب أطلس أسود واسع الكُمِّ مُذْهَب، وَبَقْيار[٢] أسود مذهب، وطَيْلَسان أسود مذهب، ومشدّة سوداء مذهبة، وطوق وتخت، وسَرْفسار[٣]، وجواد كُمَيْت من مراكب الخليفة عليه سَرْجٌ أسود، وسلال أسود، وطوق مجوهر، وقصبة ذهب، وعلم أسود، وعِدَّة خيول، وبُقَج[٤]، وركب السُّلْطانُ بالخِلْعة، وزينت له دمشق، وكان يوماً عظيماً[٥].

قال العماد: وظَفِرَ السُّلْطان من صدر الدِّين بصديقٍ صَدُوق، وكان قد عَزَمَ على قَصْدِ الدِّيار المِصْرية، وسلوك طريق أيلة* والبرِيَّة، فَحَسَّن لشيخ الشيوخ مُصَاحَبَتَه، ورغَّبه في زيارة قبر الشَّافعي رضي الله عنه، فقال: قد عَزَمْتُ في هذه السنة على الحج، فأَصِلُ معكم إلى القاهرة بشرط إقامة يومين ولا أدخُلُها، وإنما أسكن بالتربة الشَّافعية، وأسير منها إلى بحر عَيْذَاب[٦]،

(١) انظر «سنا البرق»: ١/ ٣٥٢ ــ ٣٥٣.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٨١ من الجزء الثاني.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٨ ص ١١٥ من الجزء الثاني.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١١٦ من الجزء الثاني.
(٥) انظر الخلعة التي قدمها الخليفة الفاطمي العاضد للناصر صلاح الدين حين تولى الوزارة بمصر. ٢/ ١١٥ ــ ١١٦.
(٦) في هامش الأصل بخط مغاير: بحر عيذاب هو البحر الذي يمتد من أرض العرب إلى جُدَّة حتى اليمن.
قلت: وقد مر التعريف بعيذاب في حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٣٥ من الجزء الثاني.

فلعلي أُدرك صومَ رمضان بمكَّة. فالتزمَ له ذلك، وأعاد أصحابَه [إلى بغداد][1] ليأتوه من طريقها إلى الحجاز، ورجع شهاب الدين بشير في جواب رسالته، ومعه رسوله ضياء الدين الشَّهْرُزُوري، وأنشأ العمادُ كتاباً في الجواب إلى الدِّيوان وفيه: وقد توجَّه الخادِمُ إلى الدِّيار المصرية لتجديد النَّظر فيها، ثم يستخير الله في الحج وأدائه، ويعود إلى مجاهدة أعدائه[2].

فَصْــــلٌ
في رجوع السُّلْطان إلى مِصْر مرَّة ثانية

قال العماد: ولمَّا عَزَم السُّلْطان على الرَّحيل استناب بالشَّام ابن أخيه عِزّ الدين فَرُّخْشاه، وكان عزيز المِثْلِ، غزيرَ الفَضْلِ.

وقال فيه العماد عند توديعه قصيدة، منها:

أســـألُ اللَّــهَ ذا العُــلا أَنْ تعيشـــا ... ألـــفَ عـــامٍ لِنَصْـــرِهِ مُسْتَجيشـــا

ومنها:

ما أُكَدِّي[3] شيئاً سوى فَرْوَةٍ منـ ... ــك وأبغـي لِسَفْـرَتـي إكـديشـا[4]

---

(١) ما بين حاصرتين مثبت من (ب).

(٢) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/٣٥٣ ــ ٣٥٤.

قلت: ويستدل من هذا النص أن السلطان كان عازماً على الحج، ولكن لم يتهيأ له رحمه الله، فقد شغله الجهاد حتى عن الحج! وانظر ص ٦٨ من هذا الجزء.

(٣) كدَّى بمعنى أكدى: سأل وألحَّ في المسألة. «اللسان» (كدا).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٧ من الجزء الثاني.

كيف يخلو من دِفْء ظَهْر[1] وظَهْرٍ[2] سـالـكٌ طُـرْقَ أَيْلَـةَ* والعَـرِيشـا[3]

ووقفتُ على ثلاثة كتب للفاضل عن الملك العادل إلى الولاة باليمن يُعْلمهم أَنَّ ملوك الشَّرْق قد دخلوا في طاعة السُّلْطان، وأنه عازِمٌ على القُدوم إلى مِصْر، وصَوْمِ رمضان بها، والحَجِّ إلى بيت الله الحرام منها، ويأمرهم بالاستكثار مما يحمل لأجله إلى مكَّة من المال والأزواد والخِلَع مما تشتمل عليه تلك الأعمال.

ووقفت على كتابين أُخريين، أحدهما إلى أمير مكة، والآخر إلى أمير يَنْبُع* يعلمهما بذلك ليتأهَّبا لقدومه.

ووقفتُ على كتابٍ سادس للفاضل إلى السُّلْطان في ذلك يقول فيه: جعل الله الملوكَ ذِمَّة لسيفه، وشَرَّد منام الأعداء منهم بطَيْفه، وأَمَّنَ أهلَ الإسلام بِعَدْله من جَوْر الدَّهْر وحَيْفه، وأشهدَه موقف الحجِّ الأكبر، وزان بمحضره مشهدَ خَيْفِه[4]، وجعل وَفْدَه الأكرم وضيفَ بيته [منتظمين][5] في هذه السنة في وَفْدِه وضَيْفِه.

ثم هَنَّأه بما فتح الله عليه من مَحَبَّةِ الجهاد، وما أَثَّرَه في بلاد الأَرْمن وغيرها من البلاد، وما تَبِعَ ذلك من نِيَّةِ الحج، بلَّغه الله منه المُرَاد.

---

(١) الظهر: الركاب التي تحمل الأثقال في السفر، وقد عنى به العماد الإكديش الذي طلبه.

(٢) الظهر: خلاف البطن، وقد عنى العماد به الفروة التي طلبها لتدفىء ظهره.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٥٤ ــ ٣٥٥.

(٤) الخيف: ما انحدر من غلظ الجبل، وارتفع عن مسيل الماء، ومنه سمي مسجد الخيف من منى. «معجم البلدان»: ٢/ ٤١٢.

(٥) ما بين حاصرتين من (ب).

ودخول السُّلْطان بلادَ الأرمن كان في هذه السنة كما سبق[١]، فلعلَّه سَنَحَ له الحج مع شيخ الشيوخ، ثم حصل له ما منعه منه[٢].

قال العماد: ورحل السُّلْطان إلى مِصْر يوم الاثنين ثامن عشر رجب[٣]، ومعه صدر الدين شيخ الشيوخ[٤]، فأقام يومين كما ذَكَرَ[٥]، وتوجَّه منها إلى مكَّة على البحر، فأدرك الصَّوْم.

قال العماد: وَوَصَلْنا إلى القاهرة على طريق أيلة* ثالث عشر شعبان، واستقبلنا أهلُها، ولَقِيَنا الأكابرُ والأَعْيان، والملك العادل أخو السُّلْطان حينئذٍ بها نائِبُه، وتلقَّتْنا مواكِبُه ومَوَاهِبُه، وخَدَمْتُه بقصيدةٍ ذكرتُ فيها المنازل ٢/٠
والمناهل من يومِ الرَّحيل من دمشق إلى الوصول بالقاهرة[٦]، منها:

أَحِبَّـةَ قلبـي طـال ليلـيَ بَعْـدَكُـمْ ... أسىً فمتى أَلْقى بوجهكمُ الفَجْرا
فَقَدْتُ حياتي مُذْ فَقَدْتُ لقاءَكُمْ ... فهـل لحيـاتـي منكُـمُ نشـأَةٌ أُخْـرى
أجيـرانَ جَيْـرُونَ* المُجيْـرِيْـنَ جـارَهُـمْ ... مِنَ الجَوْرِ حُوزوا في مَشُوقكُمُ الأَجْرا
مُحِبُّكُـمُ قـد خـانَـهُ الصَّبْـرُ فـاطْلُبـوا ... مُحِبًّـا سِـوَاه عنكُـمُ يُحْسِـنُ الصَّبْـرا
وَمُذْ غِبْتُ عن مُقْرَىٰ* مَقَرِّيَ قد نبا ... سَقَى ورَعَى رَبِّي مَقَرِّيَ في مُقْرَى
أَحِـنُّ إلـى عَـذْرا* وعُـذْرِيَ واضِـحٌ ... لأَنَّ الهَوَى العُذْرِيَّ مِنِّيَ في عَذْرا

---

(١) انظر ص ٥٥ وما بعدها من هذا الجزء.
(٢) انظر ص ٦٧ من هذا الجزء.
(٣) «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٥٤.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.
(٥) انظر ص ٦٦ من هذا الجزء.
(٦) سلفت قصيدة أخرى للعماد ذكر فيها أسماء المنازل بين دمشق والقاهرة انظر ص ٤٣٨ ــ ٤٤٠ من الجزء الثاني.

إنِ القَـدَرُ المَحْتُـومُ مِـن جِلَّقٍ* بنـا ... إلى مِصرَ أَسرَى[1] فالقُلُوبُ بها أسْرَى[2]
رَحَلْنَا فما باحتْ بأسرارِنا سِوَى ... عبارةُ عَيْنٍ خوْفَ يوْمِ النَّوى عَبْرَى
تَـرَكْنـا دِمَشْقـاً والجِنـانَ وراءنـا ... وقُدّامنا بالكُسْوَةِ* الرِّفْقَةُ السَّفْرا
وَجِئْنا إلى المَرْجِ[3] الذي طاب نَشْرُهُ ... فـلا زَالَ مِـنْ أحبـابنـا طَيِّبـاً نَشْـرا
رَحَلْنـا بمـرجِ الصُّفَّـر* العِيسَ غُـدْوَةً ... فسـارَتْ وحطَّـتْ في مَحَجَّتها[4] ظُهْـرا
وقد قَطَعَتْ تُبنىٰ* إلى الدَّيْرِ[5] بعدها ... وما عَرَّست حتى أَناخَتْ على بُصْرَى*
نَزَلْنا الدِّناح* والجلاعبَ بعدَها ... وبعـدهمـا غُـدرَ البشـامِيَّـة الغُـزْرا
ورأسَ الحسـا والقـريتيـن[6] وكلُّهـا ... مواردُ فيها السُّحْبُ قد غادَرَتْ غُدْرا
وَرَدْنا من الزَّيتون* حِسْمَى* وأَيْلَة* ... وجزنا عُقاباً[7] كان مَسْلَكُها وَعْرا
إلـى قُلْتَـةِ الـرّاعـي إلـى نـابعٍ إلـى ... جراوِلَ فالنَّخْلِ الذي لم يزل قَفْرَا
إلى مَنْزِلٍ في رَوْضَةِ الجَمَلِ اغْتَدَتْ ... به عِيْسُنا في صَدْر[8] شارحِهِ صَدْرا
ودون حَثَـا لمـا حَثَثْنـا رِكـابَنَـا ... عيونٌ لموسى لم يَزَلْ ماؤها مُرَّا
هنـاكَ تَلَقَّـانـا الـوفُـودُ بِبِـرِّهِـمْ ... فَسُـرُّوا بنـا نَفْسـاً وزادوا بنا بِشْـرا

---

(١) أي سار ليلاً. «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٤٦.
(٢) أسرى جمع، مفردها أسير. «معجم متن اللغة»: ١/ ١٧٤.
(٣) هو محرج الصُّفَّر.
(٤) المَحَجَّة: من قرى حوران. «معجم البلدان»: ٥/ ٦٠.
(٥) في حوران ديران، هما: دير الباعقىٰ، ودير بُصْرى. أما دير أيوب فهي قرية كانت تسمى بهذا الاسم، ولعلها هي التي عناها العماد هنا. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٤٩٩ ـ ٥٠٠.
(٦) أخطأ محقق «ديوان العماد» وجامعه حين قال: إنها من أعمال حمص! وقد عرفها العماد نفسه في عجز البيت بأنها من المناهل التي وردوها في حوران.
(٧) العقاب جمع، مفردها العقبة: وهي الطريق في الجبل. «اللسان» (عقب).
(٨) صدر: قلعة بين القاهرة وإيلات. انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٣٩٧.

قطَعْنا إلى بَحْرِ النَّدىٰ بَحْرَ قُلْزُمٍ[1] وَمَنْ قَصْدُه بَحْرَ النَّدى يَقْطَعُ البَحْرا
عَبَرْنا إلى مَنْ كاثَرَ الرَّمْلَ جُوْدُه وجزنا إليه ذلك الرَّمْلَ والجِسْرا
ولـم يُـرْونـا مـاءُ الثِّمـادِ[2] بِعَجْـرَدٍ ولم يَقْتَنِعْ بالقُلِّ من يَأْمُلُ الكُثْرا
وَجِئْنا البُوَيْبَ[3] والمصانعَ قَبْلَهُ إلى بِرْكَةِ الجُبِّ التي قَرُبَتْ مِصْرا
إلى عَزْمةٍ في المَجْدِ غيرِ قصيرةٍ وكان قُصَارى أَمْرِنا أَنْ نَرَى القَصْرَا
وَلَمَّـا نَـزَلْنـا مِصْـرَ فـي شَهْـرِ طُـوْبَـةٍ[4] وَرَدْنـا بكَـفِّ العـادِلِ النِّيْلَ فـي مُسْـرىٰ[5]
غدا قاصِراً عن قَصْرِهِ قَصْرُ قَيْصَرٍ وإيوانُ كِسْرَى عند إيوانه كِسْرَا[6]

قال العماد: وفي هذه السَّنة بمصر عَرَّبْتُ كتابَ «كيمياء السَّعادة» تصنيف الإمام أبي حامد الغزَّالي في مجلَّدين، وفُزْتُ من تعريبه وعِلْم ما فيه بسعادَتَيْن، وذلك بأمرِ فاضليّ لَزِمني امتثالُه، وشَمِلَني في إتمامِهِ إقبالُه[7].

قال: وفيها في خامس عَشَر شوَّال توفِّيَ صاحبي المعتمد [إبراهيم][8] بدمشق وأنا بمصر.

قلتُ: وهذا غير والي دمشق المعروف بالمُبارز إبراهيم بن موسى، ويلقَّب أيضاً بالمُعْتَمد.

---

(١) هو البحر الأحمر.
(٢) الثماد: الحفر يكون فيها الماء القليل. «اللسان» (ثمد).
(٣) البويب: مدخل أهل الحجاز إلى مصر. «معجم البلدان»: ١/ ٥١٢.
(٤) طوبة: هو خامس الشهور القبطية، أوله يوافق ٢٦ كانون الأول، وآخره يوافق ٢٤ كانون الثاني. «صبح الأعشى» ٢/ ٣٨٥ وقد أخطأ في قراءتها محقق «ديوان العماد» فقال: لعلها توبة!.
(٥) هو من أشهر السنة القبطية أوله يوافق ٢٤ تموز، وآخره يوافق ٢٧ آب. انظر «صبح الأعشى» ٢/ ٣٨٩. قلت: من المعروف أنَّ زيادة النيل تكون في أشهر الصيف.
(٦) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٥٦.
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ١/ ٣٥٨.
(٨) ما بين حاصرتين من (ب).

ورثى العمادُ صاحِبَه بقصيدةٍ، منها:

أَرَى الحُزْنَ لا يُجْدِي على مَنْ فَقَدْتُه ... وَلَوْ كانَ في حُزْني مزيدٌ لَزِدْتُهُ
تَغَيَّـرتِ الأَحْـوَالُ بعـدَك كلُّهـا ... فَلَسْتُ أَرَى الدُّنيا على ما عَهِدْتُهُ
عَقَدْتُ بك الآمالَ بالنُّجح واثقاً ... فَحلَّت يـدُ الأَقـدَارِ مـا قـد عَقَـدْتُـهُ
وكان اعتقادِي أَنَّك الدَّهْرَ مُسْعِدِي ... فخـانَتْنِـيَ الأَيـامُ فيمـا اعْتَقَـدْتُـهُ
أَرَدْتُ لك العُمْرَ الطَّويلَ فلم يَكُنْ ... سِـوَى مـا أرادَ اللَّـهُ لا مـا أَرَدْتُـهُ
٢١/٢ وداعٍ دعـانـي بـاسْمِـهِ ذاكـراً لـه ... فـأَطْـرَبَنِي ذِكْـرُ اسْمِـهِ فـاسْتَعَـدْتُـهُ
فَقَدْتُ أَحَبَّ النَّاسِ عندي وخَيْرَهُمْ ... فَمَـنْ لائمي فيه إذا مـا نَشَـدْتُـهُ[١]

قال: وَرَثَيْتُهُ ببيتين، وذكَرْتُ العناصِرَ الأربعة في واحدٍ منهما[٢]:

لَهفِي على مَنْ كانَ صُبْحِيَ وَجْهُهُ ... فَعَـدِمْـتُ حيـن عَـدِمْتُـه أنـوارَهُ
سَكَـنَ التُّـرَابَ وغـاض مـاءُ حيـاتِـهِ ... مُـذْ أَطْفَـأَتْ رِيْـحُ المَنِيَّـةِ نـارَه

قال ابن أبي طيّ: وفي هذه السَّنة سافر قَرَاقُوش إلى قابس[٣]. فذكر محاصرتَه لجملةٍ من القلاع، وقَتْلَه جماعةً من البربر، ومما ذكره أنه أسر جماعةً على حِصْنٍ، وأمر بقتلهم، وفيهم صبيٌّ أَمْرَد، فبذَلَ فيه أهلُ القَلْعة عشرة آلاف دينار على أن لا يقتله. فأبى، فزادوه إلى مئة ألف، فأبى وقتله،

---

(١) انظر «سنا البرق»: ١/٣٥٨ ـ ٣٥٩.
قلت: وفي هذا الخبر تنتهي إحالتي على طبعة الدكتور رمضان ششن من «سنا البرق»، وسأحيل فيما يأتي على نشرة الدكتورة فتحية النبراوي التي طبعتها مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٩٧٩، وهي نشرة سقيمة، فشا فيها التحريف والتصحيف حتى غلبا الصواب فيها، ولم أنبه على أخطائها ـ كعادتي ـ لكثرتها، وليس ثمة فائدة في تشتيت ذهن القارىء بذكر ما تعثر الآخرون بقراءاته..
(٢) في الأصل: منها، والمثبت من طبعة وادي النيل ٢/ ٢١.
(٣) مدينة بين طرابلس وسفاقس على ساحل البحر. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٢٨٩.

فما استتمَّ قتله حتى نزل شيخٌ من القلعة، ومعه مفاتيحها، وقدَّمها لقَرَاقُوش، فسأله عن الخبر، فقال: هذا الصَّبي الذي قَتَلْتَه ولدي، ولم يكن لي سواه، ولأجله كنتُ أحفظ هذه القلعة، فلما قَتَلْتَه عَلِمْتُ إن بقيتْ هذه القلعة بيدي ومتُّ صارت إلى أولاد أخي، وأنا أُبغضهم. فردَّه إلى القلعة، وأخذ منه[1] أموالاً[2].

ثم دخلت سنة سبع وسبعين [وخمس مئة][3]

قال العماد: والسلطانُ مقيمٌ بالقاهرة، وقد عَيَّنَ لسماع الأحاديث النبويَّة ـ بقراءة الإمام تاج الدين البَنْدَهي المَسْعُودي[4] ـ ميقاتاً، وجَمَعَ به

(١) انظر ص ٥٤ من هذا الجزء.
(٢) في هامش الأصل، بخط مغاير متأخر: «انظر قيمة صبي أمرد، لا لأجل ثروته وكثرة ماله، بل بسبب حسبه وجماله، فلعنة الله على من يعمل عمل قوم لوط في كل حال».
قلت: لا وجه لهذا التعليق بعد قول الشيخ: هذا الصبي ولدي.
(٣) ما بين حاصرتين من (ب).
(٤) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود، المسعودي، الفقيه الشافعي الصوفي، ولد سنة (٥٢٢ هـ) على الأصح، كان مؤدباً للملك الأفضل بن صلاح الدين، وحصل بسببه على كتب نفيسة استعان بها على شرح مقامات الحريري شرحاً مستوعباً، رآه ابن خلكان في خمس مجلدات كبار، وكان متداولاً في عصره.
وكان معروفاً أيضاً بطلب الحديث، سمع من السِّلَفي، وكتب عن ابن عساكر، مؤرخ دمشق الكبير، وكتب عنه ابن عساكر.
ونسبته البندهي هي نسبة مختصرة، أصلها البنجديهي أو الفنجديهي ـ بالفاء والجيم، أو بالباء الموحدة والجيم ـ نسبة إلى بَنْج دِيه من أعمال مروروذ.
توفي رحمه الله بدمشق سنة (٥٨٤ هـ)، ودفن بسفح جبل قاسيون.
انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٣٩٠ ـ ٣٩٢، و«معجم البلدان»: ١/ ٤٩٨، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٥٣، و«الوافي بالوفيات»: ٣/ ٢٣٣، و«لسان الميزان»: ٥/ ٢٥٦.

من العِلْم والعُلماء عنده أشتاتاً[1].

وورد كتابُ عِزِّ الدين فَرُّخْشاه من الشَّام يذكر ما مَنَّ الله به على الأنام من الإنعام بكثرة ولادة التَّوْأَم في ذلك العام، وجَبَرَ الله به ما كان قبله من الوباء، وتفاءلوا بالخِصْبِ بعد الجَدْبِ والغَلاء[2].

قال: ودَخَلْتُ الحَمَّام الذي بناه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا الواعظ[3] في داره خارج باب زُوَيْلَة* بالقاهرة في ذي القَعْدَة، فقلتُ:

مـا مَنْـزِلٌ مَـنْ يُـرَى فيـ ـــه غَيْــرُ عـــارٍ فَعَـــارُ
بـــهِ تُمـــاطُ الأذايـــا وَتُـرْحَـضُ[4] الأَوْضـارُ[5]
والعَيْـــشُ فيـــه قَـــرَارٌ والطِّيْــشُ فيـــه وَقَـــارُ
والسَّبْتُ[6] في كـلِّ يَـوْمٍ لمـــن يُـــرى مُخْتَـــارُ
نــارٌ تطيــب أَلا اعْجَــبْ لجنَّـــةٍ هـــي نـــارُ

وله فيه:

وَمَنْـــزِلٍ يَـــدْخُلُـــه لِشُغْلِـــهِ كـــلُّ أَحَـــدْ
يـوجـدُ فيـه السَّبْـتُ فـي كـــلِّ خَمِيْـــسٍ وَأَحَـــدْ

---

(١) «سنا البرق»: ١٨٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩١ من الجزء الأول.
(٤) أي تغسل. «اللسان» (رحض).
(٥) الأوضار جمع، مفردها وضر: وهو الوسخ. «المصباح المنير» (وضر).
(٦) السبت أصل معناه: الراحة والسكون. انظر «اللسان» (سبت).

فَصْــلٌ[1]

في ذكر وفاة الملك الصَّالح إسماعيل بن نور الدين رحمهما الله

وما تَمَّ في بلاده بعده، وذلك بحلب

قال ابنُ شَدَّاد: وكان مرضُه بالقُوْلَنج. وكان أول مرضه في تاسع رجب، وفي الثَّالث والعشرين منه أُغلق بابُ قلعة حلب لشدَّة مرضه، واستدعى الأمراءَ واحداً واحداً، واستحلفوا لعزِّ الدين صاحب المَوْصل. وفي الخامس والعشرين منه توفِّي رحمه الله، وكان لموته وَقْعٌ عظيم في قلوب النَّاس[2].

وقال ابنُ أبي طي: كان سببُ مَوْته أن عَلَم الدِّين سليمان بن جَنْدَر[3] سقاه سُمّاً في عنقود عِنَبٍ، وهو في الصَّيْد. وقيل: الذي سقاه ياقوت الأَسَدي في شرابٍ. وقيل: إنه أطعمه خُشْكُنانكهْ[4]، وهو في الصَّيْد.

قال: ودُفِنَ بالمقام الكبير الذي في القلعة، وحَزِنَ النَّاس له[5] حُزْناً عظيماً، وكان من أحسن النَّاس صورةً، وألبقهم أعطافاً.

قلتُ: وبلغني أَنَّه كان يقال: إنَّ موتَ الملك الصَّالح صغيراً كان من

---

(١) من هنا بدأت نسخة كوبنهاجن، رمزت لها بحرف (ك).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٥.

(٣) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وسترد ترجمته ٤/ ٢٩٢.

(٤) في هامش الأصل بخط متأخر: صوابه خشكنانجة. قلت: وانظر التعريف بها في حاشيتنا رقم ١ ص ١٥٩ من الجزء الأول.

(٥) في (ك) عليه، وكلاهما صحيح.

كرامات نور الدين، رحمه الله؛ فإنَّه سأَل الله تعالى ألا يُعَذِّبَ شيئاً من أجزائه بالنَّار، وولَدُه جُزْؤه، فمات قبل أن يطول عُمُره، على أحسنِ سيرةٍ وحالةٍ، رحمهما الله(١).

قال ابن الأثير: ولم يبلغ عشرين سنة، ولمَّا اشتدَّ مرضُه، وَصَفَ له الأطباء شُرْبَ الخمر تداوياً بها، فقال: لا أفعل حتى استفتي الفقهاء. وكان عنده علاء الدين الكاساني الفقيه الحنفي(٢) بمنزلة كبيرةٍ يعتقد فيه اعتقاداً حسناً، ويكرمه، فاستفتاه، فأفتاه بجواز شُرْبها. فقال له: يا علاءَ الدين، إن كان الله سبحانه وتعالى قد قرَّب أجلي، [هل](٣) يؤخِّره شُرْبُ الخمر؟ قال: لا والله. قال: والله لا لقِيْتُ الله تعالى وقد استعملتُ ما حرَّمه عليَّ(٤).

قلتُ: يحتمل أنه ذكر له أَنَّ من العلماء من ذهب إلى جواز ذلك، لا أنه كان يرى ذلك، فإنَّ مذهبه بخلافه، والله أعلم(٥).

---

(١) هذا التعليق من أبي شامة ليس في (ك).

(٢) هو أبو بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني، من كبار علماء الحنفية في عصره، صاحب كتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» في الفقه الحنفي، ذكر فيه أدلة مسائله، ورتبه أحسن ترتيب، وطبع في سبع مجلدات في مصر سنة ١٣٢٨ هـ، وقد شرح فيه كتاب شيخه علاء الدين السمرقندي «تحفة الفقهاء» ــ وهو مطبوع أيضاً ــ فجعله شيخه مهراً لابنته فاطمة ــ وكانت عالمة فقيهة ــ وزوجه إياها، توفي الكاساني في حلب سنة (٥٨٧ هـ) وكان له وجاهة وشجاعة.

انظر ترجمته في «بغيه الطلب»: ١٠/٤٣٤٧ ــ ٤٣٥٤، و«الجواهر المضية»: ٤/٢٥ ــ ٢٨، و«تاج التراجم»: ٢٩٤ ــ ٢٩٦، «الطبقات السنية»: رقم (١٨٤٠)، «الفوائد البهية»: ٥٣، و«إعلام النبلاء»: ٤/٢٨٦ ــ ٢٨٩.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) انظر «الباهر» ١٨١ ــ ١٨٢. وفي هامش الأصل بخط متأخر: قال أبو علي بن سينا ما كلامه: وأنا أشرب الخمر تداوياً لا تشفياً!!

(٥) تعقيب أبي شامة وما بعده ساقط من (ك) حتى ص ٧٩.

ثم قال ابن الأثير: فلما أَيِسَ من نفسه أحضر الأمراء كُلَّهم وسائر الأجناد، واستحلفهم لابن عمه أتابك عِزّ الدين، وأمرهم بتسليم مملكته جميعها إليه، فقال له بعضهم: إنَّ ابنَ عمِّك عِزّ الدين له المَوْصِل وغيرها من البلاد من هَمَذَان إلى الفُرَات، فلو أَوْصَيْتَ بحلب لابن عمك عماد الدِّين، لكان أحسن، ثم هو تربيةُ والدك، وزَوْج أُختك، وهو أيضاً عديم المِثْل في الشَّجاعة والعقل والتدبير، وشرف الأعراق وطهارة الأخلاق والخِلال التي تفرَّد بها. فقال: إنَّ هذا لم يَغِبْ عني، ولكن قد علمتم تَغَلُّبَ صلاح الدين
على عامَّة بلاد الشَّام سوى ما بيدي ومعي، فإن سلَّمت حلبَ إلى عماد الدِّين ٢٢/٢
يَعْجِزُ عن حِفْظها من صلاح الدين، وإنْ مَلَكها صلاحُ الدين فلا يبقى لأهلنا معه مقام، وإذا سلَّمتها إلى عِزِّ الدين أمكنه أَنْ يحفظها لكثرة عساكره وبلاده وأمواله. فاستحسن الحاضرون قَوْلَه، وعلموا صِحَّتَه، وعجبوا من جُودة رأيه مع شدَّة مرضه، وَمَنْ أَشْبَهَ أباه فما ظَلَم[1]. فلما توفي أرسل دُزْدار* حلب ــ وهو شاذبخت[2] ــ وسائر الأمراء إلى أتابك عِزّ الدين يدعونه إلى حلب ليسلِّموها إليه، فورد الخبر، ومجاهد الدين قايماز[3] قد سار إلى مارِدِين* لِمُهِمٍّ عَرَضَ، فلقي القاصدين* عندها، فأخبروه الخبر، فسار إلى الفرات، وأرسل إلى أتابك عز الدين [يعرِّفه الحال][4]، ويشير بتعجيل الحركة، وأقام

---

(١) فما ظلم: أي لم يضع الشبه في غير موضعه. وهذا من الأمثال المشهورة، وهو من قول كعب بن زهير:

أقـول شبيهـات بمـا قـال عـالمـاً بهـنَّ ومـن يُشْبـه أبـاه فمـا ظَلَـمْ

انظر «ديوانه»: ٦٥، و«المستقصى في أمثال العرب»: ٢/ ٣٥٢ ــ ٣٥٣.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٢ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

على الفرات ينتظره، وسار أتابك مُجِدّاً، فلما وصل إلى المنزلة التي بها مجاهد الدِّين أقام معه، وأرسل إلى حلب يستحضر الأمراء، فحضروا كلُّهم عنده، وجدَّدوا اليمين له، فسار حينئذٍ إلى حلب ودخَلَها، وكان يوماً مشهوداً.

ولما عَبَرَ الفرات كان تقيُّ الدِّين عمر بن أخي صلاح الدين بمدينة مَنْبِج*، فسار عنها هارباً إلى مدينة حماة، وثار أَهْلُ حماة، ونادوا بشعار أتابك. وكان صلاح الدِّين بمصر، فأشار عَسْكَرُ حلب على عِزِّ الدين بقصد دمشق، وأطمعوه فيها وفي غيرِها من البلاد الشَّامية، وأعلموه محبَّةَ أهلها للبيت الأتابكي، فلم يفعل، وقال: بيننا يمينٌ فلا[1] نغدر به.

وأقام بحلب عِدَّة شهور، ثم سار منها إلى الرَّقَّة، فأقام بها، وجاءته رُسُل أخيه عماد الدين يطلب [منه][2] أن يسلِّم إليه حلب، ويأخذ عِوَضها مدينة سِنْجار*، فلم يُجِبْه إلى ذلك، وَلَجَّ عمادُ الدين وقال: إنْ سَلَّمتم إليَّ حلب، وإلا سَلَّمْتُ أنا سِنْجار إلى صلاح الدين، فأشار حينئذٍ الجماعةُ بتسليمها إليه، [و][3] كان أكثرهم في ذلك مجاهد الدين قايماز، فإنَّه لجَّ في تسليمها إلى عماد الدين، ولم يمكن أتابك عز الدين مخالفته؛ لتمكُّنه في الدَّوْلة وكثرة عساكره وبلاده، فوافقه وهو كاره، فسلَّم حلب إلى أخيه، وتسلم سِنجار*، وعاد إلى المَوْصِل.

وكان صلاحُ الدين بمصر، وقد أَيِسَ من العَوْدِ إلى الشَّام، فلما بلغه ذلك بَرَزَ عن القاهرة إلى الشَّام، فلما سمع أتابك عِزُّ الدين بوصول

---

(١) في الأصل: فلم، والمثبت من (ب).
(٢) ما بين حاصرتين من (ب).
(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

صلاح الدين إلى الشَّام جمع عساكره، وسار عن الموصل خوفاً على حلب من صلاح الدين. فاتَّفق أَنَّ بعض الأُمراء الأكابر(١) مال إلى صلاح الدين، وعَبَرَ الفُرَات إليه، فلما رأى أتابك ذلك لم يثق بعده إلى أحدٍ من أمرائه؛ إذ كان ذلك الأمير أَوْثَقهم في نَفْسه، فعاد إلى المَوْصِل. وعبر صلاح الدين الفرات، وملك البلاد الجَزَرِيَّة، ونازل المَوْصل، فلم يتمكن من النُّزول عليها، وعاد إلى حلب وحَصَرَها، فسلَّمها عمادُ الدين إليه ــ وسبب ذلك أن عِزَّ الدين لما تسلَّم حلب لم يَتْرُك في خَزَائنها من السِّلاح والأموال شيئاً إلا نقله إلى المَوْصِل، وتسلَّمها عماد الدين وهي كما يقال بَطْنُ حمارٍ، فهو كان السبب في تسليمها لصلاح الدين ــ وأخذ عِوَضَها سِنْجَار* والخابور* ونَصِيْبين وسَرُوج* والرَّقَّة، وغير ذلك(٢).

قال ابن شَدَّاد: ولما توفِّي الملك الصَّالح، سارعوا إلى إعلام عز الدين مسعود بن قُطْب الدِّين بذلك، وبما جرى له من الوَصِيَّة إليه، وتحليف النَّاس له، فسارع سائراً إلى حلب، مبادراً خوفاً من السُّلْطان، فكان أول قادمٍ من أُمرائه إلى حلب مظفَّر الدين بن زين الدين، وصاحب سَرُوج*، ووصل معهما من حلَّف [جميع](٣) الأمراء له، وكان وصولهم في ثالث شعبان.

---

(١) هو مظفر الدين كوكبري بن علي كوجك، صاحب حَرَّان حينئذٍ. انظر ص ١١٣ وما بعدها من هذا الجزء.

وإلى هنا ينتهي السقط من (ك). انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٧٦ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: وغير ذلك والرقة، والمثبت من (ك) و(ب).

قلت: وانظر الخبر بطوله في «الباهر» ١٨٢ ــ ١٨٣ و«الكامل»: ١١/ ٤٧٣ وما بعدها وص ٤٩٦ ــ ٤٩٧. وذكر سبب تسليم حلب المذكور بين معترضتين هو من كلام أبي شامة على الأرجح.

(٣) ما بين حاصرتين مثبت من (ك) و(ب).

وفي العشرين منه وصل عِزُّ الدين إلى حلب، وصَعِدَ القلعة، واستولى على خزائنها وذخائرها، وتزوَّج أُمَّ الملك الصَّالح في خامس شوال من السَّنة المذكورة.

ثم أقام عِزُّ الدين بقلعة حلب إلى سادس عشر شَوَّال، وعَلِمَ أنه لا يمكنه حِفْظُ الشَّام مع المَوْصِل لحاجته إلى ملازمة الشَّام لأجل السُّلْطان، وألحَّ عليه الأمراءُ في طلب الزِّيادات، ورأوا أنفسهم أنَّهم قد اختاروه، وضاق عَطَنُه[1]. وكان صاحبُ أمره مجاهد الدين قايماز، وكان ضَيِّق العَطَن، لم يعتد مقاساةَ أمراء[2] الشَّام، فرحل من حلب طالبَ الرَّقَّة، وخَلَفَه وَلَدُه ومُظَفَّر الدِّين بن زين الدِّين بها، فأتى الرَّقَّة، ولقيه أخوه عماد الدين عن قرار بينهما، واستَقَرَّ مقايضة حلب بسِنْجار*، وحَلَفَ عِزُّ الدين لأخيه عماد الدين على ذلك في حادي عشر شوال، وسار من جانب عماد الدين مَنْ تَسَلَّم حلب، ومن جانب عز الدين من تسلَّم سِنْجار، وفي ثالث عشر المحرَّم سنة ثمانٍ وسبعين صَعِدَ عماد الدين قلعة حلب[3].

قلت: ووقفتُ على كتابٍ فاضلي عن[4] السُّلْطان إلى عِزِّ الدين

---

(١) العطن هو مبرك الإبل حول الحوض، كانت إذا رويت بركت حول الماء أو عند الحياض لتعاد إلى الشرب مرة أخرى، لتشرب عللاً بعد نَهَلٍ، فإذا استوفت رُدَّت إلى المراعي. «اللسان» (عطن).

قلت: وضيق العطن تعبير مجازي كان فاشياً ويعني أنه نزق، قليل الصبر، وبهذا المعنى ذكر في «المعجم الوسيط» ٢/ ٦١٥. وقد كتب في هامش (ك): ضيق العطن: أي ضيق الحوصلة.

قلت: وهذا تعبير عامي مستعمل عندنا في الشام، ويعني أنه عجول، متسرع.

(٢) في الأصل: أمر، والمثبت من (ك).

(٣) «النوادر السلطانية»: ٥٥ ــ ٥٦.

(٤) في الأصل: من، والمثبت من (ك) و(ب).

فَرُّخْشاه، وهو نائبه بدمشق: وَقَفْنا على كتابه، وعَلِمْنا ما تجدَّد من الخبر بمرض الملك الصَّالح، واشتداد حاله، وانقطاع الدَّاخل عليه.

ثم أشار بتنفيذ عسكرٍ إلى جهة أخيه تقي الدِّين على إظهار قاعدة النظر في القضية يالحادثة بين أهل ديار بكر وابن قرا أرسلان[١]، والتوجُّه لفَصْلها، قال: فيكون ظاهر حركة العَسْكر لهذا السبب المتقدِّم، وباطنها لهذا السبب المتأخِّر. وقد كُوتب الولد تقي الدين أن يتوجَّه إلى مَنْبِج* على الظَّاهر والباطن المذكورين، وأن يحفظ المغازي[٢] ويرابط الفرات، ويمنع المعابر، ولنا بالِس* وقلعة جَعْبر* ومَنْبِج* وتل باشر*، وهي جمهور الطُّرق، بل كلُّها، وقد أَوْعَزْنا إلى تقي الدين بأن يكون حَمَامُ حماة في حلب، وحمام دمشق في حماة. وإلى الأَجَلِّ ناصر الدين[٣] بأن يكون حَمَامُ دمشق في
حمص، وحمام حمص في حلب. وولدنا عِز الدين يؤمر بأن يكون حمام ٣/٢
بُصْرى* في دمشق. وقد بعثنا نَجَّابين يكونون منبجين بِبُصْرى، فإن تحقَّقَتِ الوفاة فنحن أسبق إأليكم من الجواب قولاً وفِعْلاً، ووعداً ونُجْحاً، فالعِلَّة مُزَاحة، والعساكر مستريحة، والظَّهْرُ قد استعدَّ، والمصلحة في الحركة ظاهرة، وحُجَجُ انتقاد المنتقدين في هذه القضيَّة ساقطة.

وقال العماد: كان قَصْدُ السُّلْطان إصلاح حال الملك الصَّالح، وأنَّه القائم مقام أبيه، فَصَدَّه عنه مماليكه، فأُخِذَتْ بلاده بلجاجهم، وَمَرِضَتْ دَوْلَتُه لسوءِ علاجهم، فامتنع بحلب إلى أن توفِّيَ. ووصل ابنُ عمه عِزُّ الدين

---

(١) هو نور الدين محمد بن قرا أرسلان، أخباره مبثوثة في أثناء الكتاب، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٥٥ من هذا الجزء.

(٢) المغازي: مواضع الغزو، ومثلها: المَغْزَىٰ والمغزاة. «اللسان» (غزا).

(٣) هو محمد بن شيركوه، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦٥ من هذا الجزء.

مسعود صاحب المَوْصل إلى حلب، فجمع ظاهِرَه وباطنه، وأَخَذَ خزائنه واستخرج دفائِنه، وأخلى كنائنه، ثم إنه عَرَفَ أَنَّه لا يستقرُّ له بها أمر، فرغَّب أخاه عماد الدين تزنْكي صاحِبَ سِنْجار* في تعويضها له بحلب، فمال إلى بَذْله ورَغِبَ.

ولما سمع السُلْطان في مِصْرَ بوفاة الملك الصَّالح تحرَّك عَزْمُه، وَنَدِمَ على النُّزوح من الشَّام مع قُرْب هذا المَرَام، فكتَبَ إلى ابنِ أخيه تقيِّ الدِّين، وهو يتولَّى له المعرَّة* وحماة، وأَمَرَه بالتَّأَهُّب والنُّهوض[1]، وكذلك شَحَذَ عزائم نُوَّابه بالشَّام بتجديد المكاتبات لهم، وبَعْثِهم على الاستعداد وحَمْلهم. وكان نائبه بدمشق ابن أخيه عِزّ الدِّين فَرُّخْشاه قد نهض في مقابلة الفرنج بالكَرَك*، فإن الإبرنس الكَرَكي[2] كان يحدِّث نَفْسَه بقصد تيماء* في البَرِّية، فما زال فَرُّخْشاه في مقابلته حتى نَكَصَ اللَّعين على عَقِبَيْهِ ذليلاً، ولم يَجِدْ إلى ما حَدَّثَتْه به نَفْسُه سبيلاً[3]، فَعَرَفَ السُّلْطانُ اشتغالَه بهذا المُهِمِّ. فكتب كتاباً بِشَرْحِ الحال إلى بغداد باللَّفْظ العِمادي، يقول فيه: وشاع الخبرُ بغارة فرنج أنطاكية* على حارم*، وأَتَوْا من السَّبْي والنَّهْبِ بالعَظَائم، وشاع أيضاً أَنَّ عسكر حلب أغار على الرَّاوَنْدان*، وهي في عملنا، ورسولهم عند الفرنج يستنجد بهم وَيُغْريهم بنا، وقد راسلوا الحشيشيَّة، والمرادُ من الرِّسالة

---

(١) في الأصل: بالنهوض، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) هو Reginald de chatllon وهو المعروف عند المؤرخين بأرناط.

(٣) أعاد أرناط قصد الحجاز في السنة التالية، ولكنه هزم شر هزيمة، ثم قتله صلاح الدين عقب معركة حطين. انظر ص ١٣٣، ٢٨٨ من هذا الجزء.

غَيْرُ خاف، والعلم بالمعتاد منه كاف[1]. وابن أخينا غائبٌ في أقصى بلاد الفرنج في أول بَرِّيَّة الحجاز، فإن طاغيةً منهم جَمَعَ خَيْلَه ورَجْلَهُ، وحدَّثته نَفْسُه الخبيثة بقصد تيماء*، وهي دِهْليز المدينة على ساكنها السَّلام، واغتنم كون البَرِّيَّة مُعْشِبة مُخْصِبة في هذا العام. والعَجَبُ أنَّا نحامي عن قَبْرِ النَّبي صلوات الله عليه وسلامه، مشتغلين بمهمِّه، والمذكور ــ يعني صاحبَ المَوْصِل ــ ينازعُ في ولايةٍ هي لنا ليأخذها بيد ظُلْمِهِ، وكم بَيْنَ مَنْ يحارب الكُفْرَ، ويحمل إليهم قواصِمَ الآجال، وبين من يتَّخذهم بِطانَةً دون المؤمنين، ويحمل إليهم كرائِمَ الأموال.

هذا مع ما نَعُدُّ[2] في المِلَّة[3] الحنيفيَّة، والدَّوْلة الهادية العباسِيَّة من آثارٍ لا يُعَدُّ مِثْلُها؛ أولاً لأبي مُسْلِم[4] لأنه أَقْدَم ثم خام[5]، ووالى ثم ولَّى، ولا آخراً لِطُغْرُلْبك[6]؛ فإنَّه نَصَرَ ونَصَبَ، ثم حَجَرَ وحَجَب، وقد عُرِفَ

---

(١) في هذا تعريض بمحاولتي الاغتيال التي قام بها الحشيشية ضد صلاح الدين بتواطؤ مع حكام حلب. انظر ص ٣٥٠، ٤٠٩ من الجزء الثاني.

(٢) في الأصل: يعد، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل: الدولة، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) هو أبو مسلم الخراساني عبد الرحمن بن مسلم، أحد القادة الكبار الذين مهدوا للدولة العباسية، ثم خامر عليها، فقتله أبو جعفر المنصور سنة (١٣٧ هـ) وأخباره مبثوثة في كتب تاريخ تلك الفترة.

(٥) خام: نكص وجبن. «اللسان» (خيم).

(٦) هو أول ملوك السلاجقة، دخل بغداد سنة (٤٤٧ هـ) منهياً حكم البويهيين الذين شكلوا خطراً على الدولة العباسية بتحالفهم مع خصمها العتيد حكام مصر العبيديين، ومن ثم كان لطغرلبك يد بيضاء على الدولة العباسية، إلا أنه ضايق الخليفة القائم بعض المضايقة، انظر أخباره مفصلة في كتب تاريخ تلك الفترة، وانظر «وفيات الأعيان» ٥/ ٦٣ ــ ٦٨، وفيه وفاته سنة (٤٥٥ هـ).

ما فضَّلنا الله به عليهما في نَصْرِ الدولة، وقَطْعِ من كان ينازع الخلافة رداءَها، وتطهير المنابر من رِجْسِ الأدعياء[1]، ولم نفعل ما فعلنا لأجل الدُّنيا، غير أن التحدُّث بنعمة الله واجب، والتبجُّحَ[2] بالخِدْمة الشَّريفة والافتخار بالتوفيق فيها على السَّجية غالب. ولا غِنَى عن بُروز الأوامر الشَّريفة إلى المذكور بأَنْ يَلْزَمَ حَدَّه، ولا يتجاوز حقَّه، فإنَّ دُخولَ الأيدي المختلفة عن الأعداء المتَّفقة شاغل، ويحتاج إلى مَغْرَم يُنْفَق فيه العمر بغير طائل، فإنَّ الأعمال تَمَرُّ مرَّ السَّحاب، والفُرَصُ تَمِضُّ وَمْضَ السَّرَاب[3]. وبقاؤنا في هذه الدَّارِ القليل اللَّبْثِ، القصير المُكْثِ، نؤثر أنت نغتنمه في مجاهدة العدوِّ الكافر، الذي صار به البيتُ المقدَّس محلاً للأَرْجاس، ومضَتْ عليه دَهورٌ وملوك لم يحصلوا مِنْ رجاء تطهيره إلا على الياس، وإن كان القَوْمُ قد بَذَلُوا للدَّارِ العزيزة بُذُولاً مُعَارةً، فقد أسلفَ الخادِمُ خدماتٍ ليست بِعَوَارٍ، فإنَّهم لو بذلوا بلادَهم كُلَّها ما وَفَتْ بفتح مِصْر التي رَجَّلَ بها أسامي الأدعياء الراكبة أعوادَها، وأعادَ إلى عَيْنِها بعد بياض عَماها من نُوْرِ الشِّعار العَبَّاسي سَوَادَها، فإنِ اقْتَضَتِ الأوامرُ الشَّريفة أن يوعز للمذكور في حلب بتقليد، فالأَوْلى أن يقلِّد الجميع، فلا رغبة فيما لا يؤمن معه شَرّ الشَّريك، ولمالكِ الأمر الحكمُ في ممالك المماليك[4].

وكان في الكتاب أيضاً ما معناه: إنَّ حلب من جُمْلة البلاد التي اشتمل

---

(١) في الأصل: الأعداء، والمثبت من (ك) و(ب). ويعني العبيديين، وكان صلاح الدين قد قطع خطبة العاضد سنة (٥٦٧ هـ) انظر ص ١٨٩ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) في الأصل: بالتبجح، والمثبت من (ك).

(٣) في (ك) السحاب.

(٤) انظر: «سنا البرق» ١٨٥ ـ ١٨٨، و«مضمار الحقائق» ٥٩ ـ ٦٥.

عليها تقليد أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله[1] له، وإنما تَرَكها في يد ابنِ نور الدين لأجل أبيه، والآن فَلْيَرْجِعْ كلٌّ إلى حَقِّه، وَلْيَقْنَعْ برِزْقِه.

ومن كتابٍ [آخر][2] فاضلي: فقد صَرَفَ وَجْهَنا في هذا الوقت عن جهادٍ لو كُنَّا بصدَدِه، وعن فَرْضٍ لو وَصَلْنا يَوْمَه بغده، لكان الإسلامُ قد أُعْفِيَ من شِرْكة الشِّرْك، وانفكَّ أهلُه من رِبْقَةِ أهل الإفْك. ولكانت الأسماءُ الشَّريفةُ قد قَرَعَتْ منابر طالما عَزَلَتِ الصُّلُبُ خُطَباءها، ولكان الدِّين الخالص قد خَلَصَ إلى بلادٍ صار المشركون متوطِّنيها، والمسلمون غُرَباءها.

وفي كتابٍ آخر له: وقد علم الله [سبحانه][3] أنَّا لهذْنَتِهِمْ كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكنَّا قد بُلينا بقومٍ كالفَرَاش أو أخفّ عُقُولاً[4]، وكالأنعام أو أَضَل سبيلاً، إن بُنيَ معهم فعلى غيرِ أساس، وإن عُدِّد الغَدْرُ منهم فهو أكثر من الأنفاس.

وفي كتابٍ آخر: والخادم ــ والحمد لله ــ يُعَدِّد سوابق في الإسلام
والدَّوْلة العباسية لا تعدُّها أَوَّلِيَّةُ أبي مُسْلم، لأنه والى ثم وارى، ولا آخِرِيَّةُ ٢٤/٢
طُغْرُلْبَك لأنه نَصَرَ ثم حَجَر. والخادم ــ بحمد الله ــ خَلَعَ مَنْ كان ينازِعُ الخلافة رداءها، وأساغَ الغُصَّة التي ذَخر الله للإساغة. في سَيْفه ماءها، فَرَجَّل الأسماءَ الكاذبة، الرَّاكبة على المنابر، وأُعِزَّ بتأييدِ إبراهيميٍّ، فكَسَّرَ الأصنامَ

---

(١) سلف خبر وفاته ص ٥٠ ــ ٥٢ من هذا الجزء.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) في المثل: أطيش من فراشة، لأنها لا تزال واقعة وطائرة لا تستقر في مكان، وهي تتهافت في النار. ومنه قيل للرجل الخفيف الطياش الفراش. «اللسان» (فرش) و«المستقصىٰ في أمثال العرب»: ١/ ٢٣٠.

الباطنة بسيفه الظَّاهر لا السَّاتر، وفعل وما فعل للدُّنيا، ولا معنى للاعتداد بما هو متوقع الجزاء عنه في اليوم الآخر.

ومن كتابٍ آخر عند دُخُول صاحب المَوْصِل حلب، واستيلائه عليها، وكانت داخلةً في تقليد السُّلْطان السَّابق، فقال: دَخَلَ حَلَبَ مستولياً، وحَصَلَ بها مُعْتدياً، وعقود الخُلَفاء لا تُحَلُّ، والسُّيوف في أَوْجه أوليائهم لا تُسَلُّ، وإنه إنْ فُتِحَ بابُ المُنَازعة، أُدْنيَ من ندامةٍ، وأُبْعِدَ من سلامة، وخُرِّق ما يُعْيي على الرَّاقع، وجُذِبَ الرِّداء فلم تُغْنِ فيه إلا حيلةُ الخالع. وليس الاستيلاء بِحُجَّةٍ في الولايات لطالبها، ولا الدُّخول إلى الدَّار بموجبٍ مُلْك غاصبها، إلا أَنْ تكون البلاد كالدِّيار المِصْرية حين فتحها الخادم وأهلُه، حيث الجمعة مُسْتريبة، والخلافة في غير أهلها غريبة، والعقائد لغير الحَقّ مستجيبة، فتلك الولاية أَوْلى [بها][(١)] ممن[(٢)] مُنِحَها مَنْ فَتحها، وكان سُلْطانها مَنْ أدخل في [خبر][(٣)] كان شَيْطانَها. وأما حَلَبُ التي الكلمة فيها عالية، والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية، فإنما تكون لمن قُلِّدها، لا لمن تورَّدَها، ولمن بالحق تسلَّمها، لا لمن بالباطل تَسَنَّمها، ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يُشاور، وَلَوَلَجها ولم يناظر، ولكنه أتى البيوتَ من أبوابها، واستمطر القِطار[(٤)] من سحابها.

ثم ذكر أَنَّ المواصلة راسلوا الملاحدة الحَشِيشية، واتخذوهم بِطانَةً من دون المؤمنين، وواسطةً بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاعٍ من يَدِ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) في الأصل: من، والمثبت من (ك).
(٣) ما بين حاصرتين من (ك) وكتب إلى جانبها كلمة «صح».
(٤) القطار جمع، مفردها قطر، وهو المطر. «اللسان» (قطر).

الإسلامِ تُقْلَع، وبضياعٍ[١] من فَيْءِ المسلمين تُوْضَع، وبدارِ دعوةٍ بحلب يُنْصبُ فيها عَلَمُ الضَّلالة وَيُرْفَع[٢]، وياللعَجَبِ مِنَ الخَصْمِ يَهْدِمُ دَوْلَةَ حَقٍّ وهي تَبْنِيْه، ومِنْ العبد يبني مُلْكها بنفسه وماله وذويه، وهي تراقِبُ أعداءه فيه، وَدَعْوَاه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوًى لا يقومُ شاهِدُها، ولا هي بشناعةٍ لا يهتدي قائدُها، بل هذا رسولهم عند سِنان[٣] صاحب الملاحدة، ورسولهم عند القومص* ملك الفرنج، وهذه الكتبُ الواصلة بذلك قد سيِّرَتْ، ولاستنجاب الولاية طُرُق، أما السَّبْقُ إلى التَّقليد، فللخادم السَّبْقُ. وأما العدالة والعَدْلُ، فلو وَقَعَ الفَرْقُ لوقع الحَقُّ. وأما بالآثار بالطَّاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق فيه لقَصَرَتْ عنه أيدي الخلق، ومتى استمرَّت المُشَاركة في الشَّام، أَفْضَتْ إلى ضَعْفِ التَّوْحيد، وقُوَّةِ الإِشْراك، وتَرَامَتْ إلى أخطارٍ تَعْجزُ عنها خواطِرُ الاستدراك، وأَحْوَجَتْ قابِضَ الأَعِنَّةِ إلى أن يُعْلِيَها الجَدَدَ[٤] ويُرْسِلَها العِراك[٥]. وطريقُ الصَّلاح والمُصَالحات الأَيْمان، والمشار إليهم لا يلتزمون رِبْقَتَها، ولا يوجبون صَفْقَتَها، فكفى بالتَّجريب ناهياً عن الغِرَّة[٦]، ولا يُلْدَغ المُؤْمِنُ إلا مرَّة[٧]، وإذا اجتمعت في الشام أَيْدٍ ثلاث: يدٌ عادلة، ويدٌ مُلْحدة، وَيَدٌ كافرةٌ، نهض الكُفْرُ بتثليثه، وقَصَرَت عن

---

(١) في الأصل: وضياع، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: فيرفع، والمثبت من (ك).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٨٨ من الجزء الثاني.

(٤) الجدد: الأرض الصلبة المستوية. «اللسان» (جدد).

(٥) العراك: ازدحام الإبل على الماء، وقالوا: أرسلها العراك أي أوردها جميعاً الماء. «اللسان» (عرك).

(٦) الغِرَّة: الغفلة. «اللسان» (غرر).

(٧) إشارة إلى قوله ﷺ «لا يلدغ المؤمن من جُحْر واحدٍ مرتين» أخرجه البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨) من حديث أبي هريرة، وأحمد في «المسند» (٥٩٦٤) من حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب.

الإسلام يَدُ مُغِيثه، ولم ينفعِ الخادم حينئذٍ تصحيح حسابه وتصديق حديثه[1]، وما يريدُ الخادم إلا مَنْ تكونُ يَدُ الله عليه، وهي الجماعة، ولا يُؤْثِرُ إلا ما يتقرَّبُ به إليه، وهو الطَّاعة، ولا يتوخَّى إلا ما تقومُ به الحُجَّة اليوم ويوم تقومُ السَّاعة.

ومن كتابٍ آخر: قد أحاطَ العِلْمُ بما طالع به أولاً عند وفاة وَلَدِ نور الدِّين، رحمه الله[2]، أنَّ التقليد الشَّريف المستضيء لما وصلَهُ بالبلاد، وكان قد فتح أكثرها: قلاعاً وأمصاراً وحُصُوناً وديارا، ولم يبق إلا قَصَبَةُ حلب، وهو على أَخْذِها، عَدَلَ وَلَدُ نور الدِّين عن القتال إلى النَّوال، وعن النِّزال إلى الاستنزال، وقَصَدَ القَصْدَ الذي ما أَوْجَبَت المحافظة أن يُتَلَقَّى بالرَّدِّ، فأَقَرَّه على الولاية فَرْعاً لا أصلاً، ونائباً لا مُسْتقلاً، وسلَّم إليه البلاد ويدُه الغالبة لا المغلوبة، وسيوفه السَّالبة لا المَسْلُوبة، ومشى الأمر معه مستقيماً ومائلاً، وجائراً وعادلاً، إلى أَنْ قضى نَحْبَه، ولقي رَبَّه، فبدا من المواصلة نَقْضُ الأَيْمان، والابتداءُ بالعُدْوان، والتعرُّض للبلاد، والتصرُّفُ [فيها][3] بغير حُجَّة يكون عليها الاعتماد. فطالعَ الدِّيوانَ بالقضية، واستشهدَ بدِلالات قوانينه الجَلِيَّة، في هذا التقليد الذي تهادته المحاضر، وأشاعته المنابر، وسُيِّرَتْ إلى الشَّرْق والغرب نُسَخُهُ، وغُلَّتِ الأيدي التي تُحدِّث أنفسها أَنَّها تَفْسَخُه.

فَصْـــلٌ

قال العماد: وتوجَّه السُّلْطان بعد شهر رمضان إلى الإسكندرية على

(١) في الأصل. تصديق حسابه وتصحيح حديثه، والمثبت من (ك).
(٢) في (ك) رحمهما الله.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

طريق البحيرة، وخيَّم عند السواري، وشاهد الأسوار التي جدَّدها، والعمارات التي مهَّدَها، وأمر بالإتمام والاهتمام. وقال السُّلْطان: نغتنم حياة الشيخ الإمام أبي طاهر بن عَوْف[1]. فحضرنا عنده، وسمعنا عليه «مُوَطَّأ مالك» رضي الله عنه بروايته عن الطُّرْطُوشي[2]، في العَشْر الأخير من شَوَّال، وتَمَّ له ولأولاده ولنا به السَّماع، والوالي يومئذٍ بها فخر الدين قراجا[3].

قلتُ[4]: ووجدتُ للقاضي الفاضل كتاباً كَتَبَه إلى السُّلْطان تهنئةً بهذا السماع، يقول فيه: أدام الله دَوْلة المولى الملك النَّاصر، صلاح الدُّنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي دولة أمير المؤمنين، وأسعده برحلته للعلم وأثابه عليها، وأَوْصَلَ ذخائر الخير إليه وأوصله إليها، وأَوْزَعَ الخَلْقَ شكراً لنعمته فيه، فإنَّها نعمة لا يوصل إلى شُكْرها إلا بإيزاعه، وأودع ٢/٢٥
قَلْبَه نورَ اليقين، فإنَّه مستقرٌّ لا يودعُ فيه إلا ما كان مستنداً إلى إيداعه، ولله

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٩٧ من الجزء الثاني.

(٢) هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف، القرشي الأندلسي، أبو بكر، ويعرف بابن أبي رندقة، من فقهاء المالكية الحفاظ، ولد نحو سنة (٤٥١ هـ) بطرطوشة شرقي الأندلس، وصحب أبا الوليد الباجي، وقرأ الأدب على ابن حزم، ثم رحل إلى المشرق سنة (٤٧٦ هـ) فحجَّ، ودخل بغداد والبصرة، ونزل بيت المقدس مدة، ثم استقر في الإسكندرية حتى توفي سنة (٥٢٠ هـ)، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك» وهو مطبوع متداول. وكان إماماً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ديناً، متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا، راضياً فيها باليسير.

انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٦٥، و«سير أعلام النبلاء»: ١٩/ ٤٩٠ ـ ٤٩٦.

(٣) «سنا البرق الشامي»: ١٨٨.

(٤) هذا التعقيب حتى نهايته ص ٩٢ ساقط من (ك)، وجاء فيها عقيبه: قول العماد: وعدنا إلى القاهرة في ذي القعدة، وشرع السلطان في الاستعداد لسفر الشام. . .

قلت: سيرد خبر سفر السلطان إلى الشام ص ١٠٣ من هذا الجزء.

في الله رحلتاه، وفي سبيل الله يوماه، وما منهما إلا أَغَرُّ محجَّل، والحمد لله الذي جعله ذا يومين؛ يوم يَسْفِكُ دَمَ المحابر تحت قلمه، ويوم يَسْفِك دَمَ الكافر تحت عَلَمه، ففي الأَوَّل يطلُبُ حديثَ المُصْطَفى ﷺ، فيجعل أثره عَيْناً لا تُستر، وفي الثَّاني يجعل لنصرهِ شَرِيْعَتَهُ هداه على الضَّلال، فيجعل عينه أَثَراً لا يظهر، وقد استغربَ النَّاسُ هِمَمَ العُلَماء في رِحْلَتهم لنقل الحديث وسماعه، والموالاة في طلب ثقته وانتجاعه، وصنَّفوا في ذلك تصانيف، قَصَدُوا بها التحريضَ للهِمَمِ والتَّنبيه، والرَّفْعَ من أقدار أهله والتنويه، فقالوا: رَحَلَ فلانٌ لسماع مُسْنَدِ فلان، وسار زيدٌ إلى عمروٍ على بُعْدِ المكان، هذا، وصاحب الرِّحلة قد نَصَبَ نَفْسَه للعلم، وشَغَلَ به دَهْره، ووقف عليه فِكْرَه، فلا تتجاذب عِنانَ هِمَّته الكبائر، فما القَوْلُ في ملكٍ خواطِرُهُ كأَبوابه مَطْرُوقة، وأمور خَلْقِ الله كأمور دينه به مَعْذُوقة[1]، إذ هاجر إلى بقيَّة الخير في أضيق أَوْقاته، وترك للعِلْم أشدَّ ضروراته، وَوَهَبَ له أياماً مع أنه في الغَزَاة يُحاسب لها نفسه على لحظاته وساعاته، وما يحسب المملوك أَنَّ كاتب اليمين كتب لملكٍ قط رِحْلَةً في طلب العلم إلا للرَّشيد هارون رحمة الله عليه، على أَنَّه خَلَطَ زيارة نبويَّة بطلب، ورحل بولَدَيْه إلى مالك رحمة الله عليه لسماع هذا «المُوَطَّأ»، الذي اتفقت الهِمَّتان الرَّشيدية والنَّاصرية على الرَّغْبة في سماعه، والرِّحْلَة لانتجاعه. وقد كان الرَّشيدُ سام مالكاً ــ رحمه الله ــ أن يجعل له ولوَلَدَيْه الأمين والمأمون مجلساً خاصّاً لإسماع مصنَّفه، فقال له ما معناه: إنها سُنَّة ابنِ عَمِّك ﷺ، وغَيْرُك من سَتَرها، ومِثْلُكَ من نَشَرَها. فهذه رِحْلَة ثانيةٌ في الزَّمان، وأُولى في الإيمان، يكتبها الله للمولى بقلم كاتب اليمين،

(١) أي مختصة به، انظر «معجم متن اللغة» ٤/٥٦ وهي كلمة كانت فاشية في استعمال ذلك العصر.

ويقوم فيها مقام الرَّشيد، ويقوم عَلِيُّه[1] وعُثْمانُهُ[2] مقام وَلَدَيْه المأمون والأمين.

وكان أصل «المُوَطَّأ» بسماع الرَّشيد على مالك رحمة الله عليه في خزانة الكُتُبِ المِصْرية[3]، فإن كان قد حصل بالخزانة النَّاصرية فهو بركة عظيمةٌ، ومنقبةٌ كريمةٌ، وذخيرة قديمةٌ، وإلا فليلتَمَس، وكذلك خَطُّ موسى بن جَعْفر في فُتيا المأمون رحمهما الله كان أيضاً فيها، وهو مما يتبرَّك بمِثْله، ويُعْلَمُ به فَضْلُ العلم، لا خلا المولى ــ أبقاه الله ــ من فَضْله.

وقف المملوك على ما بُشِّر به من صُنْعِ المولى وتوفيقه، وصِحَّةِ مزاجه في طريقه، وانقطاع ما كان من دمٍ، واستِرواح القلب من كلِّ هَمّ، وقد استفتحت هذه الطريق بكل فَأْلٍ مباركة البُكَر، والفأل مأثورة عن سَيِّد البَشَر، فمن ذلك صِحَّة جِسْمه، فَلْتَهْنِه الصِّحة، وفُسْحة قلبه دامت له الفُسْحة، وانقطاع الدم، وطريقه إلى الشَّام ينقطع بها الدم، ويتَّصل النَّصْرُ له وينتظم السِّلْم. وأخرى أنه رحل إلى «المُوَطَّأ» رحم الله مالكه، ويرحل فيما يطلب من الشَّام إلى «الموطأ»، أسعد الله به ممالكه، الله تعالى يحقِّق الخَيْرَ، ويَصْرِفُ الضَّيْرَ، ويبارك لمولانا في المقام والسَّير، إن شاء الله.

قلتُ: هكذا يَقَعُ في كتب الفاضل ــ رحمه الله ــ كثيراً، وهو أنه يختمها بالأدعية مُتَّصِلةً بقوله: إن شاء الله. والتعليق بالمشيئة غير لائق بالأدعية، ففي الحديث عن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٧٥ من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٢٣٤ من الجزء الثاني.

(٣) انظر عن هذه الخزانة ما تقدم ص ٢١٢، ٤٤٤ من الجزء الثاني.

رسول الله ﷺ: «لايَقُلْ أَحَدُكُم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارْحَمْني إن شئت، اللهم ارْزُقْني إن شئتَ، لِيَعْزِمْ مَسْأَلَته، فإنه يفعل ما يشاء، لا مُكْرِهَ له»[١].

فَصْـــلٌ
في أمورٍ تتعلَّق بولاة اليمن في هذه السنة

قال العماد: كان الأمير مجد الدِّين سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ[٢] نائباً لشمس الدولة أخي السُّلْطان بِزَبيد*، وحَصَّل له من أموالها الطَّريف والتَّليد.

ثم ابتاع من السُّلْطان النَّاحية المعروفة بالعَدَوِيَّة[٣] بمصر لَمَّا عاد إليها،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٩) (٧٤٧٧) ومسلم (٢٦٧٨) (٨)، (٩).
قال الحافظ في «الفتح»: ١١/ ١٤٠ «والمراد أن الذي يحتاج إلى التعليق بالمشيئة ما إذا كان المطلوب منه يتأتى إكراهه على الشيء، فيخفف الأمر عليه، ويعلم بأنه لا يطلب منه ذلك الشيء إلا برضاه، وأما الله سبحانه فهو منزه عن ذلك، فليس للتعليق فائدة.
وقال الداودي: معنى قوله «ليعزم المسألة» أن يجتهد ويلح ولا يقل إن شئت كالمستثني، ولكن دعاء البائس الفقير».

(٢) هو ابن عم أسامة بن منقذ، الشاعر المشهور، ولد سنة (٥٢٦ هـ) بقلعة شيزر، وتوفي سنة (٥٨٩ هـ) وهي سنة وفاة السلطان صلاح الدين. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٤/ ١٤٤ ـ ١٤٦، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٧١ من الجزء الثاني. وفي «النجوم الزاهرة»: ٦/ ٨٩ أنه قبض عليه باليمن، وهو خطأ، وسيرد ص ٩٤، ٩٥ ـ ٩٦ من هذا الجزء أن الذي قبض عليه باليمن وقتل هو أخوه حطان.

(٣) العدوية: قرية ذات بساتين قرب القاهرة على شاطىء شرقي النيل. «معجم البلدان»: ٤/ ٩٠.

وبقي أخوه حِطَّان بزَبيد* والياً عليها، فصنَعَ دعوةً عظيمةً بها، ذكر العماد أنه حضرها هو وغَيْرُه من الفُضَلاء الأعيان، فبينما هم عنده في أسرِّ حالٍ، إذْ أحدق بهم الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش، فقبض على سَيْفِ الدَّوْلة، واعتُقِلَ بالقَصْر.

وكان سببه أن أقارِب السُّلْطان وخواصَّه كَثَّروا عليه عنده أنه استوعب مال[1] زَبيد، وأَنَّ له كنوزاً لا تبيد، وأشاروا عليه بقبضه، وهو يدافع عنه، إلى أن أكثروا، وقيل فيه[2]: إن لم تُدْرِكه فات[3]. فَأَمَرَ به فاعْتُقل، فسمح للسُّلْطان خاصَّةً من النَّقد المِصْري بثمانين ألف دينار، لم يظهر فيها بيع [دار ولا][4] متاعٍ، ولا استدانة من تُجَّار. وغَرِمَ لأَخَوَيِّ السُّلْطان العادل وتاج الملوك[5] ما حافظ به على نهج الكرم المَسْلُوك، وخرج مُشرَّفاً مكرَّماً، مُصَرَّفاً محترماً، وزاد السُّلْطانُ في تكرمته، ونفَّذ إليه بما قبضه منه خَطَّ يده، بأَنَّ المبلغَ دَيْنٌ في ذِمَّته، ثم باعه أملاكاً بمصر بتقدير ثلاثين ألف دينار، وبذل له كل ما طلب عن إيثارٍ واختيار، وزاد في إقطاعه، وبارك الله له في أشيائه وأشياعه[6].

---

(١) في (ك) و(ب) أموال.

(٢) في (ك) و(ب): له.

(٣) كان سيف الدولة المبارك قد أرسل أتباعه إلى الأسواق كي يشتروا له ما يحتاج إليه من الأطعمة وغيرها من أجل الوليمة، فقيل لصلاح الدين: إن ابن منقذ يريد الهرب، وأصحابه يتزودون له، ومتى دخل اليمن أخرجه عن طاعتك، فأرسل صلاح الدين من قبض عليه والناس عنده وحبسه، ولما علم بعد بجلية الأمر أطلقه، وصانعه على ثمانين ألف دينار مصرية كما ذكر العماد، انظر «الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٧١.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

(٥) سترد وفاته ص ١٥٨ من هذا الجزء.

(٦) «سنا البرق الشامي»: ١٨٩ ـ ١٩١.

قال العماد: وكان هذا الأمير من رجاحة عقله، وحَصَافة فَضْله، ما سُمِعَتْ منه شكوى، ولا حكاية في بَلْوىٰ، وقُتِلَ أخوه حِطَّان بزَبيد*، وأُخِذَ ماله فلم يظهر منه للسُّلْطان كراهة، وكلُّ شِيْمته نزاهةٌ ونباهة[1].

٢٦/٢ قال: وكان لما توفي الملك المعظم شمس الدولة[2] أشفق السُّلْطان من نوَّابه باليمن، وذكر ما بين وُلاتها من الإِحَن، ووصل الخبر بما يجري بين الأمير عثمان بن الزَّنْجيلي[3] والي عَدَن، وبين الأمير حِطَّان والي زَبيد من الفِتَن، فَنَدَبَ إلى زَبيد عِدَّةً من الأمراء لحفظ البلاد، وإصلاح الأمور التي يُخْشَىٰ عليها من الفَساد، ومن جُمْلتهم والي مِصْر صارم الدين خُطْلُبا[4]، وبقيت الولاية له بها في غَيْبته يقوم بها نوَّابة، ويَرْجِع إلى رأي أهله أصحابُهُ، فشرعت زَوْجته في عمارة دارٍ عظيمة سَنِيَّةٍ.

وذكر العماد أنه حصل له ولغيره من الأعيان بها ضيافةٌ جليلة اتفاقية.

وقال ابن أبي طي: كانت نَفْسُ سيف الإسلام طُغْتِكِين[5] أخي السُّلْطان تَشْرَئِبُّ إلى اليمن من حيث مات أخوه شمس الدولة، ويشتهي أن يصير إليها، فأمر ابنَ سَعْدان الحلبي[6] أن يعمل [له][7] قصيدةً يُعرِّض فيها بإنفاذ سيف الإسلام إلى اليمن، فعمل القصيدة التي يقول فيها:

---

(١) «سنا البرق»: ١٩١.
(٢) سلف ذكر وفاته ص ٦٣ من هذا الجزء.
(٣) انظر ص ٢٧١ من الجزء الثاني، وسيرد خبره ص ٩٦ ــ ٩٧ من هذا الجزء.
(٤) انظر ترجمته في «تاريخ ثغر عدن»: ص ١٠١ ــ ١٠٢ وفيه تحرف حطان إلى خطاب.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥١ من الجزء الثاني.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.
(٧) ما بين حاصرتين من (ب).

جَرِّدْ لهـا السَّيْـفَ الصَّقيْـلَ فِتْنَـةً فـالسَّيْـفُ لا يُـذْخَـرُ إلا للفِتَـنْ
شُـدَّ بـه أَزْرَ العُـلا فـإنَّـه نِعْـمَ فتًى مَـنْ شَـرَّعَ الجُـوْدَ وَسَنّ
القـائِـلُ المُسْمِـعُ فـي مقـالِـهِ والصَّادِقُ النَّدْبُ[1] الأمينُ المُؤْتَمَنْ
بـادِي الفـؤادِ[2] كيفمـا سَيَّـرْتَـهُ حَـنَّ إلـى دار الـوَغَـى ثَمَّـتَ أَنّ

وفيها يقول:

يـا ابـن الكـرام النُّجبـاءِ والـذي تَلَقَّـفَ العَلْيَـاءَ فيهـا وَلَقِـنْ
لا تَعْـدُ عينـاك عـن المُلْـكِ فمـا يخـاطِـبُ العَلْيـاء إلا مَـنْ وَمَـنْ
قَدْ فَسَدَ المُلْكُ وقد طال العِدَى واقْتَسَمُـوا بَعْـدَك أمـوالَ اليَمَـنْ

قال: فلما سمع السُّلْطان هذه القصيدة أَذِنَ لسيف الإسلام في المسير إلى اليمن.

وقال العماد: وفي هذه السنة تقرَّر مع سيف الإسلام ظهير الدين طُغْتِكِين بن أيوب أن يمضي إلى بلاد اليمن وزَبيد* وعدن، وأن يقطع بها الفِتَن، ويتولاها، ويولِّي ويَعْزِل، ويُحْسِن ويَعْدِل. فسار بعد مسيرنا إلى الشَّام، وجَرَتْ مملكته فيها على أحسن نظام، وذلك في سنة ثمانٍ[3]. ووصل إلى زَبيد*، وحطَّ حِطَّان عن رُتْبته، وأَمَّنه وطمَّنَه، ثم أَذِنَ له في الانفصال إلى الشَّام، فجمع حِطَّان كل ماله من سَبَدٍ وَلَبَدٍ[4]، ومُطْرَفٍ

---

(١) الندب: الخفيف في الحاجة. «اللسان» (ندب).
(٢) أي باطنه كظاهره.
(٣) أي ثمانٍ وسبعين وخمس مئة.
(٤) انظر معناها في حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٩ من الجزء الثاني.

ومُتْلَـد[1]، ولُجَيْـن[2] وعَسْجـد[3]، ويـاقـوت وزَبَـرْجَـد، وآلات وعُـدَد، وحُصُنٍ[4] وحُجُورٍ[5] عِراب[6]، ومالٍ اعتقده[7] من اليمن بغير حساب. ثم أناخ جمالَهُ، ورحَّل عليها أَحْماله، وقدَّم قُدَّامه أثقاله، وظنَّ أنه نجا وفاز، وركب الأَوْفاز، فَرَدَّه إليه ليودِّعه، ثم يشيِّعه ويركب معه، فلما دخل عليه اعتقله، وسَيَّر وراءَ ماله مَنْ أَقْفَلَه، وإلى خزانته[8] نقله، ثم أنفذه إلى بعض معاقله فحبسه، ثم قتله. وفيما ذُكِرَ للسُّلْطان من خبر ذَهَبه وماله الذَّاهب، ما يُعَيِّي بحصر تفاصيلِ جُمَلِهِ أَنْمُلَ الحاسب، أنَّ نَيِّفاً وسبعين غِلافاً من غُلُفِ الزَّرَد كانت مملوءة بالذَّهب الأحمر المُنْتَقَد[9]، وقُوِّم المأخوذ بقيمة ألف ألف دينار[10].

وأما صاحب عَدَن الأمير عِزُّ الدين عثمان بن الزَّنْجيلي[11]، فإنه لما

---

(١) المطرف من المال: المستحدث. والمتلد: القديم. «اللسان» (طرف، تلد).
(٢) اللجين: الفضة، جاء مصغراً. «اللسان» (لجن).
(٣) العسجد: الذهب. «اللسان» (عسجد).
(٤) الحصن جمع، مفردها حصان: الفحل من الخيل. «اللسان» (حصن).
(٥) الحجور جمع، مفردها حِجْر: الفرس الأنثى تتخذ للنسل، لم يدخلوا فيها الهاء لأنه اسم لا يشركها فيه المذكر. «اللسان» (حجر).
(٦) عراب جمع، مفردها عربي، أي أنها خيول عربية، ليس فيها عرق هجين، وهذا الجمع خاص في الخيل. انظر «اللسان» (عرب).
(٧) أي اقتناه. «اللسان» (عقد).
(٨) في (ك) خزائنه.
(٩) في الأصل: المتقد الأحمر، والمثبت من (ك) و(ب). والمنتقد: أي التي نَقَدَها الناقد، وميز خالصها، وأخرج الزيف منها. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٥٢٥.
(١٠) انظر «رحلة ابن جبير» ١٢٦، ١٥٣.
(١١) الزنجيلي نسبة إلى زنجيلة: قرية من قرى دمشق، ويقال فيه الزنجاري. وهو أبو عمرو عثمان بن علي، كان أميراً كبيراً، استنابه تورانشاه بن أيوب على عدن سنة (٥٧١ هـ)، وتوفي بدمشق بعد سنة (٥٩٠ هـ) لأنه في هذه السنة أرسله الأفضل =

سمع بسيف الإسلام توجَّه(١) إلى الشَّام(٢).

قلت: ولهذا الأمير أوقافٌ وصدقات بمكَّة واليمن ودمشق، فإليه تُنْسَبُ المدرسة والرباط المتقابلات بباب العُمْرة بمكة، والمدرسة التي خارج باب توما* بدمشق، رحمه الله.

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إليه: البلادُ لك فيها عِدَّة سنين، وأنت فيها مُؤْتمن على مال الله، فأدِّه إلى من يجاهدُ به أعداءَ الله، ويقيم به كلمة الله ويحفظ به البَيْضَة(٣)، ويَذُبُّ [به](٤) عن المِلَّة، ويقاتل به أعداء القِبْلة، ويضرب بالأَسْداد(٥) بين الكُفْر والإسلام، وينصِبُ وَجْهَه بين الهجير والزَّمْهرير، عاماً في إثر عام، وما نطلب منك الباطل الذي لا يجوز لنا أن

= إلى عمه العادل يستنجد به على أخيه العزيز حين حصاره دمشق، وقد ذكرت بعض المصادر وفاته سنة (٥٨٣ هـ) وهو خطأ بيِّن، ودفن بمدرسته التي بناها خارج باب توما وهي المدرسة الزنجيلية أو الزنجارية ـ وقد أخطأ ابن شداد في «الأعلاق الخطيرة» حين قال: إنها بنيت سنة (٦٢٦ هـ) ـ وقد شاهد ابن جبير الأمير عثمان في مكة هارباً من اليمن، وذلك سنة (٥٧٩ هـ).

انظر «العقد الثمين» ٦/ ٣٤ ـ ٣٥ و«تاريخ ثغر عدن» ١٦٣، وص ٢٧١ من الجزء الثاني وص ٤٢١ من الجزء الرابع من هذا الكتاب. و«الدارس»: ١/ ٥٢٦، و«رحلة ابن جبير»: ص ١٥٣ و«طبقات فقهاء اليمن» لابن سمرة: ٢٠٤. وقد تحرفت نسبته في بعض المصادر إلى الزنجبيلي.

(١) في (ك) و(ب) تجهَّز.

(٢) انظر «سنا البرق» ١٩١ ـ ١٩٢ والنص مسجور بالتحريفات.

(٣) البيضة: أصول القوم ومجتمعهم وموضع سلطانهم، ويقال لجماعة المسلمين: بيضة. «اللسان» (بيض).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

(٥) الأسداد جمع، مفردها سد، وهو كل بناء سُدَّ به موضع، وأيضاً هو كل ما قابلك فسَدَّ ما وراءه. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٢٦.

نَـطْلُبَـه، ولا لك أن تَدْفعه، ولا نريد إلا الحقَّ الذي لا يحلُّ لنا أن نتركه، ولا لك أن تمنعه.

فصـــل

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: وفي هذه السنة وَصَلَ إلى السُّلْطان من دمشق العَلَمُ خطيب المِزَّة، وكان قد زَوَّر على السلطان مثالاً يتضمَّن له منالاً، ورفعه إلى عِزِّ الدين فَرُّخْشاه، فما خفي تزويره عليه، وهَمَّ بالإيقاع به، فقصد السُّلْطانَ بمصر، وأطلعه على حاله، فما اكترث به، وقال: نُحَقِّق ما زَوَّرْتَ. وأمر أن يُكْتَبَ له توقيعٌ بضعف ذلك الإدرار[1].

قال: وكان له إمامٌ يصلي به[2]، وهو يكتب مثل خَطِّه، فأطلق به أموالاً، وأَصْلَح وأنجح بتزويره لأصدقائه أحوالاً، وما يشُكُّ صاحبُ ديوانٍ ولا متولِّي خزانة في أنَّه صحيح، فلما دام سنين انكشف، وشارف التَّلف، وجلس إخوة السُّلْطان وأمراؤه عنده يغرونه [به][3]، فقلت له بالعجمية سراً: تهبه للقرآن. فقال: نعم. فَنَفَّس من خِناقه، وأمر بإطلاقه، وأبقى عليه خَيْره حين استبدل به غيره، وصار بعده للعادل إماماً، وبقي شغله معه مُسْتداماً[4].

---

(١) «سنا البرق»: ١٩٢ ــ ١٩٣.

(٢) في الأصل: وكان الإمام يصلي به، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) «سنا البرق»: ١٩٣ ويأتي في (ك) عقيب هذا الخبر: «وكان السلطان عشية توديعه... قلت: وسيأتي ص ١٠٣.

قال[١]: وفيها غَدَرَ الفرنج، ونقضوا عهدهم، واستولوا على تُجَّارٍ في البحر وغيرهم، وسهَّلَ الله تعالى بُطْسة* لهم عظيمة من المراكب الفرنجية، ٢٧/٢
مقلعةً من بلدٍ لهم يقال له بوليه، تحتوي على ألفين وخمس مئة نفس من رجال القوم وأبطالهم [وأتباعهم، وهم على قصد زيارة القدس في الساحل، وتكثير حزب الباطل][٢]، فألقتهم الرِّيح إلى ثَغْر دِمْياط، فَغَرِقَ منهم الشَّطْر، وشَمِلَ الباقين الأَسْر، فحصل في الأسر منهم زُهاءَ ألفٍ وست مئة وست وسبعين نَفْساً، واتفق ذلك أمام الاهتمام بالمسير إلى الشَّام[٣].

قال ابن أبي طي: وفيها ولد للسُّلْطان الملك المعظَّم تورانشاه[٤]، والملك المُحْسِن أحمد[٥]، بينهما سبعةُ أيامٍ، واتصل الفَرَحُ بهما أربعة عشر يوماً.

وفيها سار قَرَاقُوش[٦] إلى إفريقية، فأَوْغَل في بلادها، وانتهب ما قَدَرَ عليه، وحارب عسكر ابن عبد المُؤْمن[٧] بالقيروان، ثم بلغه أَنَّ إبراهيم السلاح دار احتوى على أَهْلِ قَرَاقُوش وبلده، فَرَجَعَ إليه، فهرب إبراهيم،

---

(١) هذا الخبر يأتي في (ك) عقيب خبر «وكان السلطان عشية توديعه، انظر ص ١٠٣ ــ ١٠٤ من هذا الجزء»، وهو ما يتفق أيضاً مع إيراد العماد له في «البرق»، انظر «سنا البرق»: ١٩٣ ــ ١٩٤.
وقد آثرنا هنا متابعة الأصل.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) «سنا البرق»: ١٩٤.
(٤) انظر ص ٤٧٧ من الجزء الثاني.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٧٦ من الجزء الثاني.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٧ من الجزء الثاني، وانظر ما سلف من أخباره ص ٤١٨ ــ ٤١٩ من الجزء الثاني أيضاً.
(٧) هو السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي، ثالث ملوك دولة الموحدين بمراكش، وسيرد خبر وفاته ص ٢٢٣ من هذا الجزء.

وسار إلى خدمة ابن عبد المؤمن، وملك قراقوش ما كان بيد إبراهيم.

قال ابن القادِسي[1]: وفيها عشِيَّة الخميس، ثامن شعبان، توفي الإمام كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي السَّعادات[2]، الأَنْباري النَّحْوي، وكان فقيهاً نَحْوياً، زاهداً عابداً، خَشِنَ العيش، صَبُوراً على الفقر، وكان يَسْرُدُ الصَّوْم، ولا يقبل من أحدٍ شيئاً، وكان يحضُر في نوبة الصُّوفية بدار الخلافة المعظَّمة في الوقت، فَيُنْفَذُ إليه بالتَّشْريف والذهب، فيعيدُه ولا يقبله، وكان يجتهد به الوزير ابن رئيس الرؤساء[3] أن يقبل لولده شيئاً، فما كان يفعل. وكان يفطر على الخبز الخُشْكار[4]، ويبتاع برغيفٍ أرزاً وما شاء. وكان بابه مفتوحاً لطالبي العلم، يعلمهم لوجه الله تعالى، وكان إذا أَحْضَرَ أحدهم في الصيف مَرْوَحةً يتروَّح بها، فإذا خرج يقولُ له: خُذْ مَرْوَحَتَك معك. فيجتهد به ذلك أن يجعلها عنده إلى غدٍ، فما يفعل. وصنَّف تصانيف كثيرة[5]، ودُفِن في تُرْبة أبي إسحاق الشِّيْرازي،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٢) هذا من أوهام ابن القادسي، والصواب: ابن أبي سعيد، وهو المثبت في مصادر ترجمته.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٨١ من الجزء الثاني.

(٤) الخشكار: كلمة فارسية تعني: الدقيق الذي لم يطحن طحناً جيداً، ولم ينخل جيداً. انظر «تكملة المعاجم» لدوزي (الترجمة العربية) ٤/ ١٠٢.

(٥) كان له مئة وثلاثون مصنفاً، سرد كثيراً منها الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ٢٤٨ ـ ٢٤٩، وانظر «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١١٤ ـ ١١٥، وقد طبع من مصنفاته «أسرار العربية» و«نزهة الألباء» و«الإنصاف في مسائل الخلاف» وغيرها، وهي كتب مشهورة ومتداولة.

رضي الله عنه[1].

قلت: وفيها توفي بمصر الشَّاعر ابن الذَّرَوي[2]، وهو أبو الحسن علي بن يحيى المِصْري، وسنُّه حول الأربعين، وقد تقدَّم من شعره في حج الفاضل[3]، وفي مدح ابن منقذ[4] وغيرهما. ومن ظريف شعره قوله في أحدب:

يا أخي كيف غَيَّرتنا اللَّيالي كيف حالت ما بينَنا بالمِحَالِ[5]

---

(١) انظر ترجمته في «إنباه الرواة»: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧١. و«مرآة الزمان»: ٨/ ٢٣٤، و«وفيات الأعيان» ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١١٣ ـ ١١٥، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ٢٠٩ ـ ٢١١، و«فوات الوفيات»: ٢/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥، و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ١٥٥ ـ ١٥٦، و«بغية الوعاة»: ٢/ ٨٦ ـ ٨٧.

(٢) الذروي نسبة إلى ذرواء، قرية بصعيد مصر، وهو شاعر كان مشهوراً زمن صلاح الدين، أورد له العماد مقتطفات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١٨٧، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ١٤٥، و«فوات الوفيات»: ٣/ ١١٣ ـ ١١٧، و«الوافي بالوفيات»: ٢٢/ ٣١٢ ـ ٣٢٠ وفيه وفاته سنة (٥٧٩ هـ)، وهو الأرجح، إذ أورد له أبو شامة أشعاراً في مدح حسام الدين لؤلؤ الذي انتصر على الفرنج السالكين بحر الحجاز، وكان ذلك سنة (٥٧٨ هـ) انظر ص ١٣٥ من هذا الجزء. وصفحات متفرقة من «بدائع البدائه» و«تبصير المنتبه»: ٢/ ٥٧٤، و«توضيح المشتبه»: ٤/ ٥٤ و«حسن المحاضرة»: ١/ ٥٦٥ وفيه: علي بن الحسين، وهو خطأ.

قلت: وهذا التعقيب من أبي شامة ساقط من (ك).

(٣) انظر ص ٢٢، ٤٨ من هذا الجزء.

(٤) هو مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ. انظر ص ٢٧٦ من الجزء الثاني، وانظر مقطعات مما ورد من شعر ابن الذروي ص ٥٥، ٢٤٦ ـ ٢٤٧ من الجزء الثاني، وسيرد ص ١٣٥ ـ ١٣٦، ٣٠٠ من هذا الجزء، وص ١٢ من الجزء الرابع.

(٥) المحال: العداوة. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٢٥٥.

حَـــاشَ لله أن أُصــــافـــيَ خِــلاً فيـــرانـــي فـــي وِدِّه ذا اختــــلالِ
زعمــــوا! أننـــي أتيـــتُ بهجـــوِ فيـــك نَمَّقْتُـــهُ بسُـــمٍّ خـــلالِ
كَـذَبـوا إنمـا وَصَفْـتُ الـذي حُزْ تَ مــن النُّبْـل والسَّنَـا والكمــال
لا تَظُنَّـنَّ حَـدْبَـةَ[1] الظَّهْـرِ عَيْبـاً فهْـي للحُسْـنِ مِـنْ صفـات الهِـلال
وكـــذاك القِسِـــيُّ مُحـــدَوْدِبـــاتٌ وهْي أَنْكَىٰ من الظُّبى[2] والعَوَالي[3]
ودنـانـي[4] القُضَـاة وهْـي كمـا تعـ ـلَـمُ كـانَـتْ مـوسـومـةً بـالجَمَـال
وإذا مـــا عَـــلا السَّنـــام ففيـــه لِقُـــروم[5] الجِمـــال أي جَمـــال
وأرى الإنحنـاء فـي مِنْسـر[6] الكـا سِـرِ يُلْفَـىٰ ومِخْلَـب الـرِّئْبـال[7]
وأبـو الغُصْـن أنـت لا شـك فيـه وَهْـــوَ ربُّ القَـــوَام والإعتـــدالِ
قـد تحلَّيْـتَ بـانحنـاءٍ فـأنـتَ الـ ـــراكـع المُسْتَمِـرُّ فـي كـلِّ حـالِ
وتعجَّلْـت حَمْـلَ وِزْرِك فـي الظَّهْـ ـــرِ فـأمنـاً فـي مَـوْقِـفِ الأَهْـوَالِ
إنَّ حَمْلَ الذُّنوب أهونُ في الدُّنْـ ـيـــا علـــى أَنَّـــهُ مـــن الأَثْقَـــالِ
كـوَّن اللَّـهُ حَـدْبـةً فيـك إن شئـ ـــت مـن الفَضْـل أَوْ مِـنَ الإِفْضَـال
فـأَتَـتْ ربـوةً علـى طَـوْدِ حِلْـمٍ منـــك أو مـــوجـــةً ببحـــرِ نَـــوَال

---

(١) هي الحدبة: بالتحريك، وسكنت الدال لضرورة الشعر.
(٢) الظبي جمع، مفردها الظبة، وهي طرف السيف وحدُّه. «معجم متن اللغة» ٣/ ٦٥٧.
(٣) العوالي جمع، مفردها عالية، وهي من الرمح رأسه أو النصف الذي يلي السنان منه، أو السنان نفسه. «معجم متن اللغة»: ٤/ ١٩٩.
(٤) دناني جمع، مفردها الدَّنِّيَّة: بفتح الدال وكسرها: قلنسوة محددة الأطراف، كان يلبسها القضاة والأكابر. انظر «معجم متن اللغة»: ٢/ ٤٥٩.
(٥) القروم جمع، مفردها القرم: وهو الفحل الذين يترك من الركوب والعمل، ويودع للفِحْلة. «اللسان» (قرم).
(٦) المنسر لسباع الطير بمنزلة المنقار لغيرها. «اللسان» (نسر).
(٧) الرئبال: من أسماء الأسد. «اللسان» (رأبل).

مــا رَأَتْهــا النِّســاء إلا تمنَّــتْ　　لــو غَـدَتْ حِلْيَـةً لكـلِّ الـرِّجـال
عُـدْ إلـى ودِّنـا القـديـم ولا تُصْـ　　ـغِ لِقِيْـلٍ مـن الـوُشَـاة وقـالِ[1]

فَصْــلٌ

في عَوْد السُّلْطان من الدِّيار المِصْرية إلى الشَّام[2]

قال العماد: وعدنا من الإِسكندرية إلى القاهرة في ذي القَعْدة، وشرع السُّلْطان في الاستعداد لسفر الشام، فَجَمَعَ العساكر والسِّلاح، واستصحب نصفَ العَسْكر، وأبقى النِّصف الآخر لحفظ[3] ثغور مصر، وأمر قَرَاقُوش[4] بإتمام الأَسْوار الدَّائرة على مِصْر والقاهرة.

قال[5]: وكان السُّلْطان عشية توديعه لأهل مصر جالساً في سُرَادقه،

---

(١) انظر بعض أبيات القصيدة مع اختلاف في بعض ألفاظها في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ١٨٧ ــ ١٨٨، وهي مستدركة من كتاب «المغرب» لابن سعيد كما ذكر محققوه. و«فوات الوفيات» ٤/ ٢٧٢ ــ ٢٧٣، وذكر أن الأحدب هو رضي الدين بن أبي حصينة، الشاعر المصري، وقال: وهي في غاية التهكم بأحدب، قلت: بل الأرجح عندي أنها في القاضي الفاضل، وكانت له حدبة يغطيها بالطيلسان فيما ذكر المقريزي في «خططه» ٣/ ٣٢١، والقصيدة ليس فيها تهكم، وإنما هي من قصائد الاعتذاريات.

(٢) تقدم هذا الخبر في نسخة (ك) ورقة ٦/أ، وانظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٨٩ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل و(ب) يحفظ، والمثبت من (ك).

(٤) هو قراقوش الأسدي. انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من الجزء الثاني.

(٥) يأتي هذا الخبر في (ك) عقيب خبر الإِمام الذي كان يزوِّر كتب صلاح الدين.. والذي ينتهي بقوله: وبقي شغله معه مستداماً. وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٩ من هذا الجزء.

وكلٌّ ينشُدُه بيتاً في الوَدَاع، فأخرج أحدُ مؤدِّبي أولاده رأسَه، وأنشد مظهراً له فَضْلَه، ورافعاً به[1] محلَّه:

٢٨/٢ تَمَتَّـعْ مِـن شَمِيـمِ عَـرَارِ نَجْـدٍ فمـا بَعْـدَ العَشِيَّـةِ مِـن عَـرَارِ[2]

فلما سمعه خَمَدَ نشاطُه، وتبدَّل بالانقباضِ انبساطُه، ونحن ما بين مُغْضبٍ ومُغْضٍ، ينظر بعضُنا إلى بعض، ولا نقضي العَجَب من مؤدِّبٍ تَرَك الأدب، فكأنَّه نطق بما هو كائن في الغيب، فإنه ما عاد بعدها إلى الدِّيار المِصْرية حتى اتصل بنُجْح المُنَى في المَنِيَّة[3].

قال: ومن جُمْلة تسمُّح المعلِّمين في القَوْلِ ما حكاه لنا شَيْخُنا أبو محمد بن الخَشَّاب[4] قال: وصلتُ إلى تبريز، فأحضرني يوماً رئيسُها في داره، وأجلس ولده [بين يدي][5] ليقرأ بعض ما تلقنه[6] عليَّ، فقلت: فَرْخُ

---

(١) في الأصل و(ب) له، والمثبت من (ك).

(٢) البيت للشاعر الصمة بن عبد الله القشيري، وهو شاعر غزل رقيق توفي نحو سنة (٩٥ هـ)، وهذا البيت هو من أبياتٍ اختارها له أبو تمام في «حماسته»، مطلعها:

أقول لصاحبي والعيس تهوي بنـا بيـن المنيفـة فـالضمـار
تمتـع مـن شميـم عـرار نجدٍ فمـا بعـد العشيـة مـن عـرار

انظر تتمة الأبيات «بشرح المرزوقي»: ٣/ ١٢٤٠ ــ ١٢٤٤.

(٣) «سنا البرق»: ١٩٣ ــ ١٩٤.

(٤) هو عبد الله بن أحمد، من أهل بغداد، كان من أعلم عصره بكلام العرب، وأعرفهم بعلوم شتى من النحو واللغة والتفسير والحديث والنسب، له مؤلفات كثيرة، وكان متواضعاً عند العامة، مترفعاً على الملوك والخاصة. قرأ عليه العماد في بغداد، وذكر وفاته سنة (٥٦٨ هـ) وذكرها ابن الجوزي وابن خلكان سنة (٥٦٧ هـ). وهي الأشبه. انظر ترجمته ومقطعات من شعره في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق، المجلد الأول، الجزء الثالث ص ٥ ــ ١٨، و«المنتظم»: ١٠/ ٢٣٨، و«معجم الأدباء» ١٢/ ٤٧ ــ ٥٣، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ١٠٢ ــ ١٠٤.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٦) في (ك) ما تلقن.

البَطِّ سابح. فقال معلِّمه، وكان حاضراً: نعم، وجَرْو الكَلْبِ نابح. فخجلت من خَطاءِ خِطابه، وإذا به على دَأْبه في سُوء آدابه، ومقصوده أن يَذْكُرَ قَرِينة، ولا يبالي بعينه قريرةً أم سَخِينة[١]، ودَأْبُ أدباء أولادِ الملوك ـــ لاجترائهم على أعِزَّة أولادهم ـــ الاجتراءُ على الآباء، ويُحتمل ما يصدُرُ منهم لعِزَّة الأبناء، وإنما يَصْلُح لمجالسة الملوك من يتحفَّظُ في كلامه، ويتيقَّظ حتى في منامه[٢].

ثم دخلت سنةُ ثمانٍ وسبعين [وخمس مئة][٣]

قال العماد: وفي خامس المحرَّم منها رحل السُّلْطانُ من البركة[٤] قاصداً إلى الشَّام، ولم يَعُدْ بعدها إلى مِصْر حتى أدركه الحِمام. وأخذ على طريق صَدْر* وأَيْلَة* في المفاوز، فبات بالبُوَيْب[٥]، ثم كانت منازله على الجسر ووادي موسى وحثا وصَدْر، وبعد خمس ليالٍ وصل عقبة أَيْلَة، وهناك سمع باجتماع الكُفَّار بالكَرَك*؛ لقصد قطع الطريق، فاحترز بحفظ الأطراف، وجاز بحِسْمىٰ، ثم عقبة شتار، ثم القريتين، وأغار[٦] في تلك الأيام على أطراف بلاد العدو، ثم تجرَّد السلطان في كُماته، وسلك بهم سَمْتَ الكَرَك

---

(١) سخينة ضد قريرة. «اللسان» (سخن).
(٢) «سنا البرق»: ١٩٤.
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.
(٤) هي بركة الجب. انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من الجزء الثاني.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٧١ من هذا الجزء.
(٦) من هنا يبدأ اضطراب في أوراق الأصل، أعدنا بما يتفق مع السياق.

إلى الحسا[١]، وأَمَّر أخاه تاج الملوك بوري على النَّاس، وأمره أن يسير بهم يمنةً منه، ثم اجتمعوا بالسُّلْطان بالأزرق[٢] بعد أسبوع.

ووصل الخبر بظفر الملك المنصور عز الدين فَرُّخْشاه ــ قال العماد: ويلقب أيضاً معز الدين ــ بما غنمه أيضاً من بلاد العدو؛ وذلك أن الفرنج لما سمعوا بمسير السُّلْطان مِنْ مصر، ومعه خَلْقٌ من التُّجَّار، اجتمعوا بالكَرَك للقُرْب من الطَّرِيق، لعلهم ينتهزونَ فرصةً، فيقتطعون من القافلة قطعة. فخرج فَرُّخْشاه من دمشق، واغتنم خُلُوَّ ديارهم، فأغار على بلاد طبرية وعكا، وفتح دَبُّورِيَة[٣]، وجاء إلى حبيس جلدك بالسواد، وهو شقيفٌ[٤] يشرِفُ على بلاد المسلمين، ففتحه، وأسكنه المسلمين، فبقي عيناً على الكُفَّار بعدما كان لهم، ورجع بالغنائم والأسرى مظفَّراً منصوراً، ومعه ألف أسير، وعشرون ألف رأس من الأنعام. ثم وصل السُّلْطانُ بُصْرى*، ودخل دمشق سابع عشر صفر[٥].

قال: وفي العشر الأول من ربيع الأول خرج السُّلْطان، وأغار على بلاد طبرية وبَيْسان*، والتحم بينهم القتالُ تحت حصن كوكب*، واستشهد جماعةٌ

---

(١) سرد العماد أسماء البلدان والمنـازل والمناهل ما بين الشام ومصر في قصيدةٍ له، انظرها ص ٦٩ ــ ٧١ من هذا الجزء.

(٢) الأزرق: ماء في طريق حاج الشام دون تيماء. «معجم البلدان»: ١/ ١٦٨.

(٣) دبورية: بلد قرب طبرية من أعمال الأردن. «معجم البلدان»: ٢/ ٤٣٧.

(٤) الشقيف: كلمة آرامية سريانية، تعني المغارة والكهف، والصخر الشاهق المشرف. «معجم أسماء المدن والقرى اللبنانية» ص ٩٧.

(٥) «سنا البرق»: ١٩٥ ــ ١٩٧.

من المسلمين، ولكن كانت الدَّائرة على الكافرين، ورجع السُّلْطان بحمد الله ظافراً[1].

وكتب بالمثال الفاضلي إلى الدِّيوان: كان الخادم طالع بخروجه من مصر طالباً للغَزَاة المفروضة، والمسافةُ بين مصر والشام لمن يَرْفُقُ في المسير لا تقصر عن ثلاثين يوماً، فحشد الفرنج، ونزلوا بالكَرَك* على إرْجافٍ بالمصافّ، ولم يَزَل الخادم على مداومة الإعمال إلى أوساط الأعمال[3]، فَحَلَّ بها وشنَّ الغارة فأبعد، وأذكى النَّار فأَوْقد، وطلبَ الماء المحميَّ أَزْرَقُه بأَزْرقهم[4] فَأَوْرَد، وسَفَكَ دم الخِصْب بالنَّار، وأخذ فيها عدلُ السَّيْف الجار بالجار، وعلم أَنَّ الفرنج قد تسلَّلوا لواذاً، وتعلَّلوا بالحصون احتجازاً ولياذاً، وأنهم لا يقاتلون إلا في قُرًى محصَّنة، ولا يقاتلون إلا على نجاةٍ متيقَّنة، وسرَّح الخادم إلى تلك الذَّراري، واستنفر[5] لها من كلِّ فِرْقَةٍ منهم[6] طائفة، وساروا في طريقٍ على العدو غير خافية، ومنهم غير خائفة، وركب هو وحَمِيَّةُ الإسلام الحامية[7]، التي تستنهضُ أرواح الكُفْرِ إلى نار الله الحامِيَة،

(١) «سنا البرق»: ١٩٧. قلت: وبهذا الخبر تنتهي إحالتنا على «سنا البرق» نشرة النبراوي، وسنحيل فيما يأتي على أصله «البرق الشامي» الجزء الخامس تحقيق د. رمضان ششن، المنشور في استانبول (١٩٧٩ م)، وسنرمز له بـ (ش)، وعلى نشرة د. فالح حسين، الصادرة عن مؤسسة شومان في عمان سنة (١٩٨٧ م)، وسنرمز لها بـ (ص). ويبدأ بخبر عزم السلطان على المسير إلى حلب، انظر ص ١١١ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) إدامة.

(٣) الإعمال: بالكسر: للفكر، والأعمال ــ بالفتح ــ جمع، مفردها عمل، وهي الولاية أو المركز. «المعجم الوسيط»: ٢/ ٦٣٤.

(٤) الأزرق: السنان، جمعها: أسنة، وتسمى زرقاً للونها. انظر «اللسان» (زرق).

(٥) في الأصل: واستفز، والمثبت من(ك).

(٦) من هنا يبدأ اضطراب في أوراق الأصل، أعدناه إلى حاقِّ موضعه.

(٧) الحامية: الجماعة من الجيش التي تحمي البلد. «المعجم الوسيط»: ١/ ٢٠٠.

وسلك البلاد المؤدية أوديتُها إلى سيول الشرك الطَّامية، وسيوف الضَّلال الدامية، فجثموا جثوم الكسير[1]، وجَدَعوا أنوف الأُنُفِ[2] جَدْعاً[3] قَصَّرَ فيه رأي قصير[4]. وجاز الخادم المسافة المقابلة لهم التي كانت تُجازُ في يومٍ واحد في أيام، وأورد عليهم طيفَ الخوف غير لابسٍ ثياب الأحلام، ويَسَّر الله الوصول، ورقاب عُصْبة الكُفْر تكاد تتوثب عليها رِقاقُها، وعيون الأعيان منهم قد قَيَّدَها للذُّلِّ إطراقُها[5].

وتوجَّه يوم الاثنين سابع شهر ربيع الأَوَّل، ونَزَل أمام طبرية ليلة الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول، فجاءه الخبر بأنَّ الفرنج رحلوا في ليلٍ ركبوه جَمَلاً، ولَبِسُوه سِتْراً دون اللِّقاء مُسْبلاً، وأصبحت الأطلابُ* الإسلامية طالبةً الأُرْدُنّ، وأشرف عليهم المملوك فَرُّخْشاه، وكان على ميسرة الإسلام، فما خرج منهم من أخرج كفّاً، ولا تطرَّف منهم من أَجال طَرْفاً، ولا [مَنْ] ركَّض طِرْفاً[6]، ولم يَزَل الخادم مقيماً ينادي للخروج الصُّمَّ الذين لا يسمعون الدُّعاء، إلى أن طوى النَّهارُ مُلاءَتَهُ، وَمدَّ عليهم كِلاءته[7]، فإنَّه رعى ما بينه

(١) في (ك) الأسير.

(٢) الأنف جمع، مفردها الأنوف، وهو الذي يأنف الضيم. «معجم متن اللغة» ١/ ٢١٤.

(٣) في الأصل: وجذعوا أنوف جذوع الأنف جذعاً. والعبارة مضطربة، والمثبت من (ك).

(٤) قصير هو ابن سعد اللخمي، صاحب جذيمة الأبرش، ومنه المثل: «لا يطاع لقصير أمر»، وهو مثل يضرب في اتهام النصيح. انظر «المستقصى من أمثال العرب»: ٢/ ٢٧٢ ــ ٢٧٣، و«تاج العروس» (قصر)، وانظر قصته في «جمهرة الأمثال»: ١/ ٢٣٢ ــ ٢٣٦.

(٥) في الأصل: أطواقها، والمثبت من (ك).

(٦) الطِّرْف بالكسر من الخيل: الكريم والعتيق. «اللسان» (طرف)، وما بين حاصرتين من (ك).

(٧) أي حفظه وحراسته. «اللسان» (كلأ).

وبين مناسبةِ وجوههم وصحائفهم بسواده، ولأنَّ اللَّيلَ يُدْعى كافراً فهداهم وخبأهم في فؤاده، وانبرى لهم من المماليك ذوو سهام، كلُّ رمية منها طَعْنة، وكلُّ أَنَّةٍ من قَوْسها تُجاوبها للحَيْنِ أَنَّة، فاستخرجوا ضمائر كنائنهم، وقصدوا بها ضمائر ضغائنهم، فمرَّت كأن التوفيق يَقُودُها إلى حيث أَمَّت ٢٩/٢
فأماتت، وطارت جَرَاداً ترعى زَرْعَ الحياة فَبَتَّتْ وما أباتت، ولم يروا مضاجِعَ ذوات حَسَكٍ كمضاجعِ حَسَكُها السِّهام، ولا ليلةَ هَمٍّ ذات أحلام كليلةٍ حُلْمُها يقظةُ الحِمام، وأصابَتْ خيولَهم صوائِبُها، وتعلَّقت نِصالُهم بِدُهْمها، فكأنهم في ظُلُماتِها كواكِبُها، فلما انشقَّ الصُّبْحُ غَيْظاً من شِقاق كُفْرهم، شُوهدوا نازلين من حِصْنهم الذي كانوا إليه آوين، وطالبي التباعد عنه إلى حِصْن الطُّور الذي كانوا إليه ناوين، فساقت إليهم أطلابُ* المَيْسرة صُحْبة المملوك فُرُّخشاه. وساق المملوك عمر[1] من الميمنة طالباً لِحَوْمَةِ[2] القِتال، فرأَوْا الخُطَّة عليهم متضايقة، وشهادات البلاء إلى فئتهم متناسقة، وأنزل الله النَّصْرَ من سمائه على مطيعه في أَرْضه، ومنح نافلة الموهبة لمن قام في الجهاد بِفَرْضه. وتَوَالت من الفرنج حملاتٌ ألجأهم إليها الاضطرار لا الاختيار، وثَبَتَ من دنا منهم من المسلمين من الأطلاب، ولقوهم وَهُمُ الأعداء لقاءَ الأحباب، وتعانقت لغير الوداد فصارت أيديها أوشحة، وطارت إلى أقرانها فصارت أَرْجُلُ الخيلِ [لها][3] أجنحة، وصُرِعَتْ للفرنج أبطالٌ وخَيَّالة، وتمَّت الحَمْلة الإسلامية على من كان وراءهم من الرَّجَّالة، فأخذ القَتْلُ كثيراً وقليلاً ترك، وفَرَّ روح الكافر من الجَسَد، وعلمت النار أَنَّه سلك، وألجأهم

---

(١) هو تقي الدين عمر بن شاهنشاه، أخو فروخشاه، وابن أخي صلاح الدين.
(٢) الحومة من القتال: أشد موضع فيه. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٢٠٧.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

البلاء إلى حِصْنٍ يعرف بِعَفْرَبَلا*، وَسَّع الخَوْفُ منه ما هو ضَيِّق، وتعلَّق بالحياة منهم مَنْ هو به متعلِّق، ولم تنصرف صدورُ الخيل دون أنِ اعتقلتهم في سِجْنه، وألزمتهم به فصاروا قُرْطاً في أُذْنه، وكان اليوم من الأيام التي اضطرمت فيها نيرانُ الجحيم، ارتياحاً لمن قَدِمَها من أرْواح الكُفَّار. وكان قائم الظَّهيرة في الغَوْر قد مَنَعَ من استتمام عَوْدَةِ المُغَار، ومورد الماء بعيدٌ من غريمه، والرِّيُّ ـ ولو أنه من حميم ـ أَحَبُّ إلى المرء من حميمه، فمالت الجنودُ إلى المناهل متفرِّقة عليها، ومنصرفةً إليها، وحافَّةً بها من حواليها، وأذْعَنَ الكُفَّارُ بالحَصْرِ والتفادي من الإِصحار، والاعتماد على المطاولة والاضِّجار، والاستعصام بما لا يطاق من أنفاس الهجير الحِرَار. وبات الخادمُ والمسلمون على الحِصْنِ المذكور الذي باتوا به نازلين، قد حقَّقُوا من أحوال اللِّقاء ما كانوا به جاهلين، وفعل الله سبحانه وتعالى في هذه النَّوْبة ما عواقِبُهُ مُسْفِرَةٌ عن المُرَاد، ودلائِلُهُ محقِّقَةٌ لقوله تعالى ﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الذين كَفَرُوا في البلاد﴾[1] وأَنَّ الكُفْرَ مُذْ قام قائِمُهُ، والشَّام مذ حَلَّه ظالمه، لم يَعْبُرْ أحدٌ من ولاة الأمر هذا الحدَّ إلا على حين غَفْلَةٍ من أهله، ولم يواجه الكُفْرَ وهو مجتمعٌ في خَيْلِهِ فَضْلاً عن رَجْله، ولم يهدِّدِ العدوُّ بضرب مصافٍّ إلا واستكانت العزائم لتهديده، ولم يُجْمِعْ أمره على اللِّقاء إلا صرفَهُ عنه الآمر بصرفه بذهبه لا بحديده، فأما الآن فقد أَنِسَ المسلمون بحزبه، وتمرَّنُوا بحربه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩٦.

فصــل
في مسير السُّلْطان إلى بلاد المشرق مرة ثانية

قال العماد[(١)]: ثم إنَّ السُّلْطان عَزَمَ على المسير إلى حلب، وبلغه أنَّ المَوَاصلة كاتبوا الفرنج، ورغَّبوهم في الخروج إلى الثغور، ليشغَلُوا السُّلْطان عن قصدهم. فتوجَّه على سَمْتِ بَعْلَبَك، وخَيَّم بالبقاع، وكان قد واعد أسطول مصر أن يتجهَّز إلى بلاد السَّاحل، فبلغه الخبر أنه وصل إلى بيروت، فبادَره السلطان بعسكره جريدةً[(٢)] قبل أن يفوت، فلما وصل رأى أنَّ أمر بيروت يطول، وكان قد سبى الأسطول منها وسَلَبَ، وظَفِرَ من غنيمتها بما طَلَب، فأغار السُّلْطان على تلك البلاد، ورجع، وأعاد فَرُّخْشاه إلى دمشق، ورحل إلى بعلبك، ومنها إلى حمص، فخرج الفقيه المهذب عبد الله[(٣)] بن أسعد بن الدَّهَّان، وله في السُّلْطان مدائح، منها قصيدة، أولها:

أَعَلِمْــت بَعْـدَكَ وقْفَتــي بــالأَجْــرَعِ[(٤)] ورِضـى طلـولـكِ عـن دمـوعـي الهُمَّـعِ[(٥)]

مَطَرَتْ غَضًى في مَنْزِلَيْكِ[(٦)] فذاوياً فـي أَرْبُـعٍ[(٧)] ومُـؤَجَّجـاً فـي أَضْلُـعِ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٠٧ من هذا الجزء.

(٢) الجريدة: خيل لا رجالة فيها. «معجم متن اللغة»: ١/ ٥٠٤.

(٣) في الأصل: عبيد الله، والمثبت من (ك)، وانظر ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣. في الجزء الأول، وص ٣٥٥ من الجزء الثاني، وص ٥٧ من هذا الجزء.

(٤) الأجرع: المكان الواسع الذي فيه حزونة وخشونة، وهو كثير الذكر في أشعار الجاهلية وصدر الإسلام. «اللسان» (جرع).

(٥) همع الدمع: سال. «اللسان» (همع).

(٦) أي جمر الغضى، ويريد بمنزليها: دارها وقلبه.

(٧) أَرْبُع جمع، مفردها رَبْع: وهو الموطن. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٥٣٥.

هـل يعلـمُ المتحمِّلُـونَ لِنُجْعَـةٍ[1] ... أَنَّ المنـازِلَ أَخْصَبَـتْ مِـن أَدْمُعـي

دَعْنـي ومـا شـاءَ التلـذُّذُ والأَسـى ... واْقْصِدْ بِلَوْمِك مَنْ يُطِيْعُكَ أو يَعِي

لا قَلْبَ لـي فَـأَعِي المَـلامَ فـإِنَّني ... أَوْدَعْتُـهُ بـالأَمْـسِ عنـد مـودِّعـي

قُـلْ للبخيلـةِ بـالسَّـلام تـورُّعـاً ... كيفَ اسْتَبَحْتِ دَمي ولم تتورَّعي

وبـديعـةِ الحُسْنِ التـي فـي وَجْهِها ... دونَ الـوجـوه عِنـايـةٌ للمُبْـدِعِ

مـا بـالُ مُعْتَمِـرٍ بِـرَبْعِـك دائبـاً ... يقضـي زِيـارَتَـهُ بغيـرِ تَمَتُّـعِ

ومنها:

ووعدتِني إن عُدْتِ عَوْدَ وِصالنا ... هيهات ما أبقىٰ إلى أَنْ تَرْجِعي

هـل تَسْمحيـنَ بِبَـذْلِ أَيْسَـرِ نـائـلٍ ... أنْ اشْتكي وَجْدِي إليكِ وتَسْمَعِي ٢/ ٣٠

فتيقَّنـي أنـي بحبِّـكِ مُغْـرَمٌ ... ثم اصْنَعِي ما شئتِ بي أَنْ تصنعي

ومنها:

فسقَى الرَّبيعُ[2] الجَوْنُ[3] رَبْعاً طالما ... أَبْصَـرْتُ فيـه البَـدْرَ ليلـةَ أَرْبَـع

ولو استطعتُ سَقَيْتُهُ سَبَلَ[4] الغِنى ... من كَفِّ يُوسُفَ[5] بالأَدَرِّ الأَنْقَعِ[6]

بِيَـدَيْ فتًـى لـو أَنَّ جُـودَ يمينـه ... للغَيْثِ لم يكُ مُمْسِكاً عن مَوْضعِ

فـإذاتَبَسَّـمَقـاليـاجـودُانْـدَفِـقْ ... فَيْضـاً[7] ويـاسُحْبَالنَّدىلا تُقْلِعـي[8]

(١) النجعة: طلب الكلأ. «اللسان» (نجع).

(٢) الربيع: المطر الذي يكون في الربيع. «اللسان» (ربع).

(٣) الجون من أسماء الأضداد، ويقصد به هنا الأبيض. «اللسان» (جون).

(٤) في الأصل: سيل، والمثبت من (ك). والسبل ــ بالتحريك ــ المطر المسبل. «اللسان» (سبل).

(٥) أي صلاح الدين فهو كما هو معروف يوسف بن أيوب.

(٦) الأنقع: أي الذي يروي ويذهب العطش. «اللسان» (نقع)، وفي الأصل: الأنفع، والمثبت من (ك).

(٧) في (ك) فينا.

(٨) أي لا تمسكي. «اللسان» (قلع).

وإذا تَنَمَّر[1] قال يا أرضُ أَرْجُفي بالصَّاهِلات ويا جبالُ تَزَعْزَعِي
وإذا عـلا فـي المَجْـد أعلـى غـايـةٍ قـالَـتْ لـه الهِمَـمُ الجِسَـامُ تَـرَفَّـعِ
كم وَقْفَةٍ لكَ في الوَغَى محمودةٍ أبـداً وكـم جُـوْدٍ حميـدِ الْمَـوْقِـعِ
والنَّاسُ بَعْدَكَ في المكارم والنَّدى[2] رجـلان إمـا سـارقٌ أو مُـدَّعـي[3]

قـال: ثـم رحـل السُّلْطـان إلـى حمـاة، واستصحـب معـه ابـنَ أخيـه تقي الدين، فلما قَرُبَ من حلب أقبل مظفر الدين كُوكُبُرِي بن علي كُوجك[4]، صاحب حرَّان* حينئذٍ، فاجتمع بالسُّلْطان، وصار[5] في خدمته من جُمْلَةَ الأعوان، وأشار عليه أن يعبر الفرات ويحوز ما وراءها[6]، ويترك حلب إلى ما بعد ذلك لئلا تشغله عن غيرها. فاستصوبَ السُّلْطان رأيه وعبر الفرات[7].

وقال القاضي ابن شدَّاد: نزل السُّلْطَانُ على حلب في ثامن عشر جُمادى الأولى سنة ثمانٍ وسبعين، فأقام ثلاثة أيام، ورحل في الحادي والعشرين منه يطلب الفرات، واستقرَّ الحال بينه وبين مُظَفَّر الدين بن زين

---

(١) أي غضب. «اللسان» (نمر).
(٢) في (ك) والعلى.
(٣) انظر «البرق الشامي» ٥/ ش ٢ ــ ٦، ص ١٧ ــ ٢٣، وانظر القصيدة في «ديوانه» ص ٢٥ ــ ٣٤ مع اختلاف في بعض ألفاظها.
قال العماد: وهذه القصيدة من أول مدائحه فيه، وإنما مدحه في هذه النوبة بالحائية التي سبقت، فاتفق إيرادها على الجملة التي اتفقت.
قلت: انظر ص ٥٧ من هذا الجزء.
(٤) انظر ص ٧٨ ــ ٧٩ من هذا الجزء.
(٥) في الأصل: وسار، والمثبت من (ك) و(ب).
(٦) في الأصل: ويجوز إلى ما وراءها، والمثبت من (ك).
(٧) «البرق الشامي» ٥/ ش ٦ ــ ٧، ص ٢٣ ــ ٢٤.

الدين، وكان صاحبَ حَرَّان، وكان قد استوحش من جانبِ المَوْصِل، وخاف من مجاهد الدين[(١)]، فالتجأ إلى السُّلْطان، وعبر إليه إلى قاطع الفُرَات، وقوَّى عزمه على البلاد، وسَهَّل أمرها عنده، فعبر الفرات، وأخذ الرُّها* والرَّقَّة ونَصِيبين* وسَرُوج*، ثم شَحَنَ على الخابور، وأقطعه[(٢)].

وقال ابنُ أبي طي: في أوَّل السنة أراد مظفَّر الدين بن زين الدين ــ وكان إليه شِحنكية* حلب ــ الاستيلاء على قلعة حلب، بأن يهجمها، فلم يتمكَّن، وظهر أمرُه، وبعد هذه الوقعة اجتمع الأَخَوان عِزُّ الدين وعماد الدين على الرَّقَّة، وتحالفا على بساطٍ واحد، وسلَّم عمادُ الدين ما كان بيده[(٣)] من سِنْجار* وغيرها إلى عِزِّ الدين، وسلَّم عزُّ الدين إليه حلب، فسار إليها، ودخلها. فخرج مظفر الدِّين عنها، وصار إلى الفُرَات، فلما اتصل به قَصْدُ السلطان حلب سار إلى خدمته، واجتمع به على جباب التُّرْكمان، وأشار على السُّلْطان بعبور الفرات، والاستيلاء على بلاد الشَّرْق، وتأخير أمر حلب، ففعل. ورحل عن حلب بعد أن أقام عليها ستة أيام، وأقام على تل خالد* ثلاثة أيام، ثم رحل إلى البِيرة*، وفيها شهاب الدين محمد بن الياس الأُرْتُقي[(٤)]، فنزل إليه، وقَبَّل الأرض بين يديه، وسأله الصُّعود إلى قلعة البِيرة، فأجابه، وقدَّم له مفاتيح القلعة، فردَّها إليه[(٥)]، ووعده باستخلاص ما كان صاحب مارِدِين* غلبه[(٦)] عليه.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.
(٢) «النوادر السلطانية» ٥٦ ــ ٥٧.
(٣) في (ك) ما كان معه.
(٤) ولي البيرة بعد وفاة أبيه، وذلك سنة (٥٧٠ هـ)، انظر ص ٣٨٩ من الجزء الثاني.
(٥) كان السلطان قد كاتب الملوك أنه من جاءه مستسلماً سُلِّمت بلاده إليه على أن يكون من أجناد السلطان وأتباعه، انظر ص ١٢٢ من هذا الجزء.
(٦) في الأصل: ردَّه، والمثبت من (ك) و(ب).

ورحل السُّلْطان إلى سَرُوج*، فنزل إليه صاحِبُها ابن مالك مستأمناً، فأعاده إلى بلده، وراسل صاحب مارِدِين في ردِّ ما كان تغلَّب عليه من أعمال البيرة*، ففعل. ثم أخذ الرُّها* ثم الرَّقَّة[1]، ثم سلم الرُّها إلى ابن زين الدِّين، والرَّقَّة إلى صاحب الرُّها، لأنه سأل أن يكون في خدمة السُّلْطان.

ومن كتابٍ فاضلي عن السُّلْطان إلى عز الدين فَرُّخْشاه يعلمه بالحال، وفي آخره: وَلْتَعْجَلْ بحمل ما هناك من الأموال، فكلما فتحتِ البلادُ أبوابها، قد فتحت المطامعُ أفواهها، واستُوْعِبَتِ الخزائنُ إخراجاً وإنفاقاً، واستُنْفِدَتِ الحواصلُ إعطاءً وإطلاقاً، وقدمنا على بحرٍ لا يسدُّه إلا بحر، وعلى أيدٍ إن كان بها الغنى ففي أَنْفُسِها الفَقْر.

ومن كتابٍ آخر إلى العادل: يعلم مقدار الحاجة إلى الإنفاق، وكثرة الخَرْجِ الذي اشترك فيه أهل الآفاق، وأنَّه متى نَضَبَتِ الموادُّ وقفتِ الأُمور التي قد شارفَتْ نهاياتِها، وتفرَّقتِ الجموعُ التي تناذَرَتِ[2] الأعداءُ نكاياتها، وما دون تملُّك البلاد إلا الوصول إليها، والنُّزول عليها.

قال العماد: وقال مُظَفَّر الدِّين للسُّلطان: ما زلتُ شوقاً إليك في حَرَّان حرَّان[3]، وإلى الرِّي من وِرْدِ خِدْمتك ظمآن، وهي لك مبذولة، وبأوليائك

---

(١) كانت الرقة إقطاعاً لقطب الدين ينال بن حسان المنبجي، وكان قد وليها سنة (٥٧١ هـ)، وانظر ص ٤٠٥ من الجزء الثاني، وص ١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) تناذر القوم، خوف بعضهم بعضاً. «اللسان» (نذر).

(٣) حران الأولى: بلد في الجزيرة، بينها وبين الرُّها يوم، وقد سلف ص ١١٣ من هذا الجزء أن مظفر الدين كوكبري كان صاحبها حينئذٍ. وحران الثانية: أي شديد العطش، وهي هنا كناية عن شدة الشوق. انظر «اللسان» (حرر).

من أهل الدِّين والدنيا مأهولة، والرُّها لا يَعْسُرُ[1] أمرها، والرَّقَّة لرقك وبعض حَقِّك، والخابور في انتظار خبرك، ودارا[2] دارُك، ونَصِيبين* نصيبُك، ومُلْكُ المَوْصِل مُوصلك إلى المُلْك، وما هذا أوان الوَنَى، فادْنُ إلينا، وكلُّ بعيدٍ قد دنا.

قال: ووصل البحرُ[3] إلى الفرات، وخيَّم عليها من غربي البيرة*،
٣١/٢ وَمُدَّ الجِسرُ، وكانت البيرة قد طمع فيها صاحبُ مارِدين*، واستولى على مواضع من أعمالها، فلما سمع بالسُّلْطان تخلَّى عنها، فأعادَ إليها صاحِبَها شهابَ الدِّين محمد بن إلياس الأُرْتُقي[4].

وكتب السُّلْطانُ بالمثال الفاضلي إلى الدِّيوان عند عبور الفرات كتاباً فائقاً طويلاً، يقول فيه: خَدَمُ الخادِم متواليةٌ إلى الأبواب الشَّريفة ــ خَلَّد الله سُلْطَانها ــ شارحاً لأحواله، ومعتداً[5] بها من صالح[6] أعماله، ومتوقعاً من الأجوبة عنها ما يهيىء له من أمره رَشَداً، ويفرِّق الأعداء إذ كادوا يكونون عليه لِبَداً[7]، فإنَّ الآراء الشَّريفة لو لم تفصح عنها الإنشاءات وتتضمنها الإجابات والابتداءات، لأفصحت عنها موالاةُ الخادم التي استفتحتِ الدَّوْلَةَ بعقائلِ الفتوح قبل خُطْبتها، وردَّتِ الأسماءَ الشريفة إلى أوطانها من المنابر

---

(١) في الأصل: يعز، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) دارا: مدينة من أعمال الخابور قرب قرقيسياء. «معجم البلدان»: ٢/ ٤٢٤.
(٣) يعني السلطان صلاح الدين.
(٤) «البرق الشامي» ٥/ش ٦ ــ ٧، وص ٢٤ ــ ٢٥، وانظر ص ١١٤ ــ ١١٥ من هذا الجزء.
(٥) في (ك) معيداً.
(٦) في الأصل: مصالح، والمثبت من (ك).
(٧) أي مجتمعين بعضهم على بعض، واحدتها لِبْدَة. «اللسان» (لبد).

بعد طول غُرْبتها[١]، فتلك الأعمال كالهجرة، ولكل امرئٍ ما هاجر إليه[٢]، وَنِيَّةُ المَرْءِ[٣] ثَوْبُه، فلا يلبس إلا ما خَلَعَتْه النِّيَّة عليه.

وكتابُ الخادِمِ الآن من البِيرة* بعدما قطع الفرات[٤]، وكان مَنْ لا تُقَرِّبُ عليه العزائِمُ ما هو بعيد، ولا يُلْقي السَّمْعَ وهو شهيد، يظنُّ أَنَّ ساكنَ النِّيل يحولُ الفراتُ بينه وبين قَصْده، وأنه يَنْسىٰ عزيمة رأيه إذا ذَكَرَ طُوْلَ مُدَّته وهَوْل مَدِّه، وكيفما كان هذا المَخْرَجُ المُحْرِجُ فقد أَحْسَنَتْ إلى الخادم إساءَتُه إليه، وقَرَّبه من محل دار السَّلام بل الإِسلام، فما أكثر ما قال السَّلام عليه، واستشرف جَنَانُه مِنْ جَنَابِهِ أمناً وذُعْراً، أَوْجَبَتْهما الموالاةُ والمهابة، وطالعت عَيْنُه أنواءً وأنواراً تُنْسَبُ إلى بركاتها كُلُّ سحابة، وكاد ينزل عن السُّروجِ والأكوار[٥]، ويقبل الثَّرى لأجل شَرَفِ الجِوَار، وتستنفد غُلَّتُه ماءَ الفرات، لأنه يمرُّ بتلك الدِّيار، ويقرأُ من صفائه صفاء تلك الخواطر العظيمة الأخطار، ومن عذوبته عذوبة ذلك الإنعام، الذي هو أعمُّ وأغمر للأقطار[٦] من القِطار[٧]، وتنوّر دار الإِسلام من منزلته فأدناه النَّظَرُ العالي، وأسفلته آمالُه حَوْزَ الفَوْزِ بما قَرَّبه نَجِيًّا من قُرْبها والآمال أمالي، والله تعالى

---

(١) يشير إلى فتحه مصر، وأخذها من العبيديين، ثم خطبته للخلفاء العباسيين على منابرها. انظر ص ٤٦، ١٨٩ وما بعدهما من الجزء الثاني.

(٢) في (ك) ولكلٍ ما هاجر إليه.

(٣) في (ك) المؤمن.

(٤) عبارة: بعدما قطع الفرات، ساقطة من (ك).

(٥) الأكوار جمع، مفردها الكور ــ بضم الكاف ــ وهو رحل البعير، أو الرحل بأداته. «معجم متن اللغة»: ٥/ ١٢٢ ــ ١٢٣.

(٦) في الأصل: الأقطار، والمثبت من (ك).

(٧) القطار جمع، مفردها قطر، وهو المطر. «اللسان» (قطر).

يُشَرِّف أَرْضاً هو واطِئُها، ويرعى سُروجاً هو كالئها[1] ويُسْعِدُ به أمةً هو بارُّها[2]، طاعةً لمن هو بارِئُها.

ولما تحقَّق الخادِمُ أنَّ المَوَاصلة قد واصلوا الفرنج مواصلةً أخلصوا فيها الضمائر، ولم يستطيعوا فيها كِتْمان السَّرائر، وخَصَمَتْهُم خُطوطُ الأيدي المتمسِّكة بعِصَمِ الكَوَافِر، وعقدوا معهم عَقْداً شَهِدَه مَنْ هو حاضِرُه، ونقلَه إلى مَنْ سَمِعَه مَنْ هو ناظِرُه، وكان عقدهم إحدى عشرة سنةً، والمُسْتَقِرّ لهم في كلٍّ سنة عشرةَ آلاف دينار، على أن تُسَلَّم ثغورُ المُسْلمين إلى الكُفَّار، منها: بانياس* وشَقيفُ تِيرون* وحبيس جلدك[3] وأسارى الفرنج في كل بلدةٍ بأيديهم، وفي كل بلدٍ يسترجعونه من الخادم بمساعدة الفرنج. ولما تمَّ لهم هذا العَقْد، وحملوا إلى الفرنج ذلك النَّقْد، ظَنُّوا أن الحقَّ يجادِلُه الباطل فيدحَضُه، وأنَّ يد الكُفْر تنبسط إلى الإسلام فتقبضُه، وأنَّ الخادم لا يمكنه أن يتوجَّه إليهم إلا بأن تكون الفرنج سِلْماً، ولا يستطيع أن يَقْسِمَ العساكر فيجعل بإزاء الفرنج قِسْماً وبإزائهم قِسْماً، وعملوا على هذا الوَهْم، وبنوا على هذا الحُكْم، واستنهضوا الفرنج على تثاقل الخَطْوة، واستخرجوهم على ما بهم من كُلُومِ[4] الغَزْوة بعد الغَزْوة، فتحاملت أَرْجُل الكُفْرِ على ظَلْعِها[5]، وخرجت على طمعها إلى قَرْعها[6]، وأنفقَتْ في رجالها[7] مالاً حملوه إليهم

(١) في الأصل: ويرعىٰ سروجاً هو مالئها، ويرعىٰ سروجاً هو كالئها، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: بارئها، والمثبت من (ك).
(٣) سلف ص ١٠٦ من هذا الجزء.
(٤) كلوم جمع، مفردها الكَلْم: الجرح. «اللسان» (كلم).
(٥) الظلع: العرج. «اللسان» (ظلع).
(٦) عبارة: إلى قرعها، ساقطة من (ك). والقرع هو الضرب، ومنه القراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف. «اللسان» (قرع).
(٧) في الأصل: رجالهم، والمثبت من (ك).

جَمًّا، وجَرَّتْ إلى الإِسلام جيشاً جهَّزه من يدَّعي الإِسلام لَفْظاً ويفارِقُه حُكْماً، وتواعَدَ المَوَاصِلة مع الفرنج ليطلبوا ولاية الخادم من جانب، ويطلبها الفرنج من جانب، ونظروا فيما يُوصل المَسَاءة إلى الخادم، ولم ينظروا للإِسلام في العواقب، فوصل المَواصلة إلى نَصِيبين*، مُجدِّين مُحْفلين[1]، وحرَّكُوا الفرنج للخروج إلى الشَّام متطرِّفين[2] ومتوغِّلين، فلا جَرَمَ أن أُمراء جانبهم[3] وخواصَّ صاحبهم لم يَسَعْهم المُروقُ من الدِّين، ولا الخروجُ عن زُمْرة الموحِّدين، فأرضوا الله بإسخاطهم، وأشفقوا على دينهم إشفاقاً دَلَّ على تحرُّزهم له واحتياطهم، فاتبعوا الحَقَّ وسلكوا سبيلَه، ورَفَعَ لهم الهُدَىٰ منارَه، فاقتفوا دليلَه ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُون بالله واليَومِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[4] فاستعان الخادِمُ عليهم بالله الذي استعانوا على دينه بأعدائه، ولما رأى أنهم قد أمَّلوا النَّصْرَ من أَرْضِهِم أمَّلَه مِنْ سمائه، فَرَتَّب الخادمُ في رأس الماء بدمشق بإزاء الفرنج المملوك فَرُّخْشاه ابن أخيه، وأبقى عسكرَ الشَّام وحامِيَتَهُ فيه، واستنهض أخاه من مِصْر إلى ما يليه من بلاد الكُفْرِ، فنهض، وقام للخادم[5] بما أقامه له ولله عز وجل بما فَرَض، وسار الخادمُ بالعَسْكر المِصْرِي إلى هذا الجانب الذي هو الآن[6] فيه، وكان أيسره يكفيه، وتثاقل في الطَّريق انتظاراً لأن يأتوا البيوت من أبوابها،

---

(١) أي مجتمعين محتشدين. «اللسان» (حفل).

(٢) في الأصل: متطرقين، والمثبت من (ك).

(٣) إشارة إلى انحياز مظفر الدين كوكبري إلى صلاح الدين. انظر ص ١١٣ من هذا الجزء.

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٥) في الأصل: الخادم، والمثبت من (ك).

(٦) الآن: ساقطة من (ك).

ويُفرِجُوا عن الوِلاية أيدي اغتصابها، وتعتذِرُ إلى السَّيْف ألسنةٌ تُشْفِقُ على رِقابها، فأبَوْا إلا الإباء، ورأوا المُلْك إرثاً ما ادعوا فيه تقليدَ الخُلَفاء بل الآباء.

ولما قَرُبَ الخادم من الفُرَات، وصل إليه صاحب حرَّان* ابن زين الدين علي كُوجك، مقدَّم عسكرهم، وابن أمير معشرهم، وكذلك صاحب سَرُوج* وصاحب البِيرة*، وكلٌّ بيده مفاتيح بلده، وأمامَهُ أمانُ الخادم له، قد استبدله من مقلِّده، ووراءه عَسْكَرُهُ على كمال عَدَده وعُدَدِه، وتوالت كتب أمرائهم الذين يأخذون إقطاعاتهم خدماً ومصانعات، ورعاياهم الذين يأخذون أموالهم جناياتٍ ومقاطعات، ومكُوساً وعُشوراً واحتكارات، ٣٢/٢
يرغبون إلى الخادم في الإنفاذ، ويحثُّونه في المسير على الإغذاذ[١]، ويشكون أنهم مع جِوَار دار الخلافة المُعَظَّمة، لا يُسْلَكُ فيهم سَنَنُها، ولا يُقْتَفَى فيهم شرائعها وسُنَنُها، ونُمِيَ إلى الخادم من تفاصيل المغارم التي تُلْزِمُ الفريقين، ويُعْدَلُ بها عن أقصد الطَّريقين، ما يروِّع السَّامع ويُسْمِعُ الرَّائع[٢]، ويسجل عليهم بالخلاف، ويشهد لهم بالانحراف، لأنهم إنِ ادَّعوا تقليداً فقد نقضه كونهم ابتدعوا وما اتبعوا، ونقضوا وما افترضوا[٣]، ومثَّلوا بالحقِّ وما امتثلوا، وأُمِرُوا بكَفِّ الأيدي وقد بسطوها، وبأخْذِ الأموال من حِلِّها وقد خَلَطُوها، وبرعايةِ أُمَّةِ النبي ﷺ وقد أَسْخطوه فيها وأسخطوها. وابنُ الدَّعْوةِ العَبَّاسية مَنْ رعاها لا من ادَّعاها، والعهود وصايا وما الأَوْلى بها مَنْ سَمِعَها بل مَنْ وعاها، وأي عهدٍ لمن لا عَهْدَ له بالطَّاعة، وأي ولايةٍ

(١) الإغذاذ: الإسراع في السير. «اللسان» (غذذ).
(٢) أي المتروِّع، من الروع وهو الفزع. «اللسان» (روع).
(٣) عبارة: ونقضوا وما افترضوا، ساقطة من (ك).

لمأمورٍ بأن يجمع أهلَ الفُرْقة فَفَرَّق أهلَ الجماعة، فالجُنْدِي تُؤكل الأرضُ باسمه ولا شيء بيديه، والعاميُّ يرفع إلى السَّماء استغاثةَ[1] ما لا يُمْهل الله عليه، ولقد تعجَّب الخادم من إسفاف الأنفس الغنية إلا أنها الفقيرة[2]، والارتفاق بتلك الطُّعَم الجليلة وهي على الحقيقة الحقيرة ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عليها في نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِها جِباهُهُمْ وجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ﴾[3] الآية.

هذا، إلى طامَّةٍ أُخرى لا تَقِرُّ عليها الجُنُوب، ولا تَدُرُّ عليها الحَلُوب، ولا ينام على سهرِ بارقُها وإن كان الخَلُوب؛ وهو أنَّ الخادم بلغه أنهم كاتبوا جهةً من الجهات التي الدولة منحرفةٌ عنها، وبذلوا الطَّاعة لها وقد أُمروا بالامتناع منها، وهذا نصٌّ في الخِلاف لا يدخله التأويل، وقَوْلٌ قد أحاط به العِلْمُ فلا يَخْتَلِجُهُ التَّقويل، وكلُّ صغيرةٍ من هذه الكبائر، وكلُّ واحدٍ من هذا الجمع المتكاثر، يَنْقُضُ الولاية ويَجْرَحُ العَدَالة، ويَسْلُبُ الرُّشْدَ ويُثْبِتُ الضَّلالة، ويُمْضي نيةَ الولي[4] فيما هو له ماضٍ، ويَبْعَثُ عَزْمَه فيقضي ما هو قاضٍ، ويُسْخِطُه[5] وكيف لا يسخَطُ والمَوْلَى غَيْرُ راض، ويغيظه بما لا عُذْرَ له لمغتاظٍ منغاض. وما أنهى الخادمُ مما اتصل به الأوائل والأطراف، وما عوَّل إلا على ما صَحَّحته النَّفْسُ دونَ ما خَيَّلَه الإرجاف، وإذ قد ساق الله إلى هذه الولاية حَظَّها من مَعْدِلَةٍ[6] كان الزَّمانُ بها طويلاً مَطْلُه، وأنشأها

---

(١) في الأصل: الاستغاثة، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: فقيرة، والمثبت من (ك).

(٣) سورة التوبة، الآية: ٣٥، وتتمتها ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾.

(٤) في الأصل: الوالي، والمثبت من (ك).

(٥) من هنا حتى قوله: ويجلى ضرها. ساقط من (ك).

(٦) المعدلة: العدل. «معجم متن اللغة» ٤/ ٤٧.

سحابُ إحسانٍ كان بعيداً عليها هَطْلُه، فقد كُفِيَتِ الخواطرُ الشَّريفة ما كانت به على اهتمامها، كما يجب للأُمة على إِمامها، وإليه بتفويض الله يرجع أَمْرُها، وبيده يُجْلَبُ نَفْعُها ويُجْلَى ضَرُّها، وقد تجدَّدت للدَّوْلة الشَّريفة قوةٌ واستظهار، وَبَسْطَةٌ واقتدار، وسَيْفٌ به يُناضل من يُسيء الجوار، ولسانٌ يجادل به من يريد الدار.

وكان الخادم طالع بوصول الأسطول المِصْري إلى الشام الفرنجي، وما فعله في موانيه وسواحله، وما غنمه[(1)] من مراكبه وقوافله[(1)]، وورد كتابٌ من مِصْر بأنه كَسَبَ بُطْسة* فرنجية، خرج مَنْ فيها هارباً من القُسْطَنْطِينيَّة لفتنةٍ وقعت فيها بين رومها وفرنجها، فَقُتِلَ منهم خمسون ألف فرنجي، وأُفلتت منهم بَطَس منها هذه البُطْسة، وفيها رجال أكابر، ومقدَّمون لهم فيها ذكر سائر، وغَنِمَ المجاهدون منهم ما ملأ أيديهم من سبي وذخائر، وانقلبوا بنعمةٍ مِنَ اللَّهِ وفَضْل[(2)]، وحازت القَبْضَةُ من الأسارى ما يزيد على أربع مئةٍ بعد من دَرَجَ بالقَتْلِ[(3)].

فَصْــــلٌ

قال العماد: ثم كاتَبَ السُّلْطان الملوك بالوفود للاتفاق، فَمَنْ جاء مستسلماً سُلِّمت بلادُه على أن يكون من أجناد السُّلْطان وأتباعه في جهاد الكُفَّار، فجاء رسولُ صاحب حِصْن كَيْفا* بالإِذعان، وهو نور الدين

---

(1) ما بينهما ساقط من (ك).

(2) اقتباس من قوله تعالى: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٧٤.

(3) في (ك): وحازت القبضة ما يزيد على أربع مئة أسير بعد من درج بالقتل.

محمد بن قرا أرسلان. ثم رحل السُّلْطان من البيرة*، ونزل على الرُّها*، وكان فيها فخر الدين مسعود بن الزَّعْفَراني(١)، فأذعن وانقاد، وتسلَّمها مُظَفَّر الدين مضافةً له إلى حَرَّان*. ثم وصل السلطان إلى حران، فَرَتَّبها وانفصل منها إلى الرَّقَّة، وفيها الأمير قُطْب الدِّين ينال بن حَسَّان، فأذعن أيضاً، وسلَّم، ولم يوافق مراعاةً لصاحبه(٢)، فأصلحها السُّلْطان. ورحل منها إلى مشهد الرُّمَّان، ثم إلى عَرَابان(٣)، فتسلَّمها وأصلح من شأنها. وتواصلت أخبار وصول السلطان الخابور(٤)، وما نَشَرَ من العدل في البلاد التي فتحها؛ ففتحت رأس العين* ودورين وماكِسِين* والشَّمْسانية* والفُدَيْن* والمِجْدَل* والحُصَيْن*.

قال: وقطعنا نهر الخابور على قَنْطَرة التُنَيْنِير* إلى نَصِيبين*، فاستعصت قلْعَتُها أياماً، ثم فتحت استسلاماً، وولاها السُّلْطان حسام الدين أبا الهيجاء السَّمين(٥)، وولَّى الخابور جمال الدين خُوشترين(٦). ثم سرنا إلى المَوْصِل، وقطعنا أعمال بين النَّهرين، ثم أعمال البقعة، ثم سرنا إلى بَلَد(٧)، وأشرفنا على دِجْلَة، وكنا أوردنا خَيْلَنا في أشهرٍ من تلك السنة نِيْلَ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٥١ من الجزء الثاني.

(٢) انظر ص ٤٠٥ من الجزء الثاني.

(٣) عربان: بليدة بالخابور من أرض الجزيرة «معجم البلدان» ٤/ ٩٦.

(٤) في الأصل و(ك) بالخابور، وفي (ب) بالخابور، والمثبت من «البرق الشامي»: ٥/ ٢٩.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من الجزء الثاني.

(٦) توفي خوشترين سنة (٦١٩ هـ) بإربل، وهو الذي عمر المدرسة الشافعية بالقصر في القاهرة. انظر ترجمته في «الوافي بالوفيات»: ١٣/ ٣١٨.

(٧) بلد: بليدة معروفة من نواحي دُجيل. انظر «معجم البلدان»: ١/ ٤٨٢.

مِصْر والفُرَات ودِجْلَة، ثم صممنا على قَصْدِ المَوْصِل، فلما قربنا من الوصول كَبَّرْنا تكبيرَ من ظَفِرَ بالسُّول، وتقدَّم السُّلْطان في الأمراء ذوي الآراء، ودار حول السُّور، وعيَّن لكلِّ مقدَّم مقاماً؛ فنزل هو وراء البلد، وتقي الدين من شرقِيِّه، وأخوه تاج الملوك بُوري عند باب العِمادِيَّة، فحصلت المحاصرة والمضايقة، وتولّى مجاهد الدين قايماز[1] حِفْظَ البلد[2]
٢/٣٣ بأحسن تدبير، وكاتَبَ الديوان العزيز في أن يشفع لهم إلى السُّلْطان، فَقَدِمَ في ذلك صدر الدين شيخ الشُّيوخ[3] وشهاب الدين بشير في الشَّفاعة، فرحل السلطانُ عنها في شعبان، وقصد سِنْجار*، وقدَّم أمامه تقيَّ الدِّين[4].

وقال القاضي ابن شَدَّاد: كان نزول السلطان على المَوْصِل في هذه الدُّفْعة يوم الخميس حادي عشر[5] رجب سنة ثمانٍ وسبعين، وكنت[6] إذ ذاك بالموصل، فَسُيِّرْتُ رسولاً إلى بغداد قُبيل نزوله بأيام قلائل، فسرت مسرعاً في دِجْلة، وأتيت بغداد في يومين وساعتين من اليوم الثالث مستنجداً بهم، فلم يحصل [منهم][7] سوى الإنفاذ إلى شيخ الشُّيوخ ـ وكان في صحبته رسولاً من جانبهم ـ يأمرونه بالحديث معه، وتلطُّف الحال معه، وسُيِّر إلى بهلوان رسولٌ من المَوْصِل يستنجده[8]، فلم يحصل من جانبه

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ٤٠ من الجزء الثاني.
(٢) في الأصل: البلاد، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١ من هذا الجزء.
(٤) «البرق الشامي»: ٥/ش ٨ ـ ٢١، ص ٢٥ ـ ٤٠.
(٥) في الأصل: ثاني عشر، والمثبت من (ك) و(ب).
(٦) في الأصل: وكتب، والمثبت من (ك) و(ب).
(٧) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٨) العبارة مضطربة في مطبوع «النوادر»، وهي هنا على الجادة.

سوى تَشَرُّطٍ كان الدُّخول تحته أخطر من حَرْب السُّلْطان.

ثم أقام السُّلْطان على الموصل أياماً، وعلم أنه بلدٌ عظيم لا يتحصَّل منه شيءٌ بالمحاصرة على هذا الوجه، ورأى أنَّ طريق أَخْذِهِ أَخْذُ قلاعه وما حوله من البلاد، وإضعافهُ بطول الزَّمان، فرحل عنه، ونزل على سِنْجار* في سادس عشر شعبان، فأقام يحاصرها، وفيها شرف الدين بن قطب الدين وجماعةٌ، واشتدَّ عليه الأمر حتى كان ثاني شهر رمضان، فأخذها عَنْوَةً، وخرج شرف الدين وجماعته محترمين محفوظين إلى المَوْصِل، وأعطاها السُّلْطان ابنَ أخيه[1] تقيَّ الدين، ورحل عنها إلى نَصِيبين[2]*.

وقال العماد: لما قصد السلطان سنْجار*، نزل بارنْجان[3]، فوجد بها عسكراً من المَوْصِل سائراً إليها، فأحاط به، وأخذ خيلهم وعُدَدهم، ورَدَّهم إلى المَوْصِل رجَّالة، ووصل إلى سِنْجار ومعه رسلُ دار الخلافة، ونور الدين صاحب حِصن كَيْفا*، وكان في سِنْجار شرف الدين أخو صاحب المَوْصل، فامتنع من تسليمها، فحوصر، ورُميت القلعة بالمنجنيق، فانهدم منها ثُلْمَةٌ من السُّور، فوكَّلَ بها من يحفظها، ودخل شهر رمضان، فكفَّ السلطان عن القتال، ثم جاءه الخبر ليلةً أن الموكلين [بحفظ][4] تلك الثُّلْمة نيام، فأرسل إليهم من أَوْثَقَهم، وحملهم إليه، وكان فيهم جماعةٌ من المقدَّمين والأعيان، فلما أصبح صاحب سنجار أذعن وسلَّم، ورحل بأهله وماله، ودخل السُّلْطان

---

(١) في الأصل: لابن أخيه، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٧.

(٣) بارنجان: قرية قرب سنجار. «معجم البلدان»: ١/ ٣٢٠.

(٤) في الأصل: الموكلين بتلك الثلمة، والمثبت من (ك) و(ب)، وما بين حاصرتين منهما.

القلعة ورتَّبها، وأمر بعمارتها، وولاها الأمير سعد الدين مسعود بن أُنَر[١]، وكان السلطان يعتمد عليه، وأخته ابنة معين الدين كانت في حِبالة السلطان[٢]، وكان رؤساء سنجار بني يعقوب، فَتُرِكت الرِّياسة فيهم، وولَّى القضاء منهم نظام الدين نصر بن المُظَفَّر بن محمد بن يعقوب.

ثم رحل السلطان إلى نَصِيبين*، فأقام بها، لأن الأيام كانت باردة، ومنها ودَّع رسل دار الخلافة، وشكا أهلُ نَصِيبين من أميرها أبي الهيجاء السَّمين[٣]، فاستصحبه السلطان معه، وسار إلى دارا*، وأميرها صمصام الدين بَهْرام الأُرْتُقي، فتلقَّى السلطان بأحسن ملقى، فأكرمه وسار إلى حَرَّان*، وأقام بها للاستراحة، وعاد كلٌّ إلى بلده، وسار تقي الدين إلى حماة. هذا، والمواصلة في جِدٍّ من جَمْعِ الجموع وَبُغَاء الغَوائل[٤] للسلطان[٥].

فَصْــــلٌ
في وفاة فَرُّخْشاه بن شاهِنْشاه بن أيوب

قال العماد: وفي هذه السنة في جُمادى الأُولى توفي بدمشق الملك المنصور عِزُّ الدين فَرُّخْشاه[٦]، ووصل خبره إلى السلطان عند عبوره

---

(١) سلفت وفاة أبيه ص ٢٢٢ من الجزء الأول، وتوفي مسعود سنة (٥٨١ هـ) كما سيرد ص ٢٤٥ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤ من الجزء الأول.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٠ من الجزء الثاني.

(٤) الغوائل جمع، مفردها الغول: الداهية.

(٥) «البرق الشامي» ٥/ش ٢٢ ــ ٤٢، ص ٤٠ ــ ٥٦.

(٦) انظر ترجمته في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١١٣ ــ ١٣٣ و«مرآة =

الفرات، فأقَرَّ السلطان ولده الملك الأمجد بَهْرامشاه على بَعْلَبَك وأعمالها مكان أبيه[١]، ونفذ شمس الدين بن المقدَّم والياً مكانه على دمشق وأعمالها[٢].

قال ابن أبي طي: كان فَرُّخشاه من أكرم الناس يداً، وأطهرهم أخلاقاً، وأسدِّهم رأياً، وأشجعهم قلباً، ومما يحكى من كرمه أنه دخل الحَمَّام يوماً، فرأى رجلاً قد قعد به الزَّمان، وكان يعرفه من أهل اليسار، وشاهد عليه ثياباً رثَّة يبينُ منها بعضُ جسده، فاستدعى بجميع ما يحتاج الرَّجُل إلى لبسه. وببغلة مسرجة وبألف دينار، وقال لبعض غِلْمانه: اجعل هذا كلَّه في موضع ثياب الرجل، وَخُذْ ثيابه، واجعل هذا الغلام والبغلة له. ففعل. فلما تغسَّل الرجل وخرج، رأى موضع ثيابه تلك الثِّياب، فسأل الحَمَّامي عن ثيابه فقال: انبدلت بهذه الثياب. فتقدَّم إليه الغُلام، وأخبره بجميع ما صنعه عِزُّ الدين، وأخبره بأنه قد أجرى عليه معيشة عشرين ديناراً في كلِّ شهر، فلبس الثياب وخرج من الحمام وهو من أغنى النَّاس.

قال: وكان فَرُّخشاه مُمَدَّحاً، مدحه ابن سَعْدان[٣] بعِدَّة قصائد، من جُمْلتها التي يقول فيها:

تخِذَ السَّابريَّ[٤] لِبْداً وعُوْدَ الزَّ (م) ان نـابـاً والهِنْدُوانـيَّ[٥] ظُفْـرا

= الـزمـان» ٨/ ٢٣٧، و«وفيـات الأعيـان» ٢/ ٤٥٢ ــ ٤٥٣، و«شفـاء القلـوب»: ٢٣٢ ــ ٢٣٤.

(١) انظر ترجمة الملك الأمجد في حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٠٨ من الجزء الرابع.

(٢) «البرق» ٥/ ش ٤٢، ٥٦، ص ٥٩، ٧٥.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.

(٤) السابري من الثياب: الرقاق، وهي من أجود الثياب. «اللسان» (سبر).

(٥) هو السيف، نُسب إلى الهند. «اللسان» (هند).

أَعْجمـيُّ الأنسـابِ قَصَّـرَتِ الأعْـ ـرابُ عنـه سَجْعـاً ونَظْمـاً ونَثْـرا
هَـزَمَـتْ كتبُـه الكتـائـبَ جفـلاً وأعـادَتْ دُجـى الحـوادثِ فَجْـرا
فهْو كالمازنيِّ[(١)] عِلْماً وكالأحْـ ـنَفِ[(٢)] حِلْمـاً وكـالفَـرَزْدَق شِعْـرا

قال: وكان فَرُّخْشاه مضافاً إلى شجاعته عالماً مُتَفَنِّناً، كثير الأدب، مطبوع النَّظْم والنثر، فمن شعرِه قولُه:

٢/ ٣٤ أنـا فـي أَسْـرِ السَّقـام مِـنْ هَـوى هـذا الغُـلامِ
رَشَـأٌ[(٣)] تَـرْشُـقُ عينـا ه فُـؤادي بِسِهـام
كلَّمـا أَرْشَفنـي فـا ه علـى حَـرِّ الأُوام[(٤)]
ذُقْـتُ منـه الثَّلْـجَ فـي الشَّهْـ ـدِ المُصَفَّـى فـي المُـدَام[(٥)]

قلت: ونبغ ابنه الأمجد أيضاً شاعراً، وكان السُّلْطان كثير الاعتماد على فَرُّخْشاه.

---

(١) هو إمام العربية، أبو عثمان، بكر بن محمد بن عدي البصري، قال فيه المبرد ــ وكان تلميذه ــ: لم يكن أحد بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازني، توفي سنة (٢٤٧ هـ) أو (٢٤٨ هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٢/ ٢٧٠ ــ ٢٧٢.
(٢) الأحنف هو ابن قيس بن حُصين التميمي، اسمه الضحاك، وقيل: صخر، وشُهِرَ بالأحنف لحنف رجليه ــ وهو العوج والميل ــ كان سيد بني تميم، أسلم في حياة النبي ﷺ ولم يره، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان أحد من يضرب بحلمه المثل، توفي سنة (٦٧ هـ) على الأشهر. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٢/ ٤٩٩، و«سير أعلام النبلاء»: ٤/ ٨٦ ــ ٩٧.
(٣) الرشأ: الظبي إذا قوي وتحرَّك، ومشىٰ مع أمه. «اللسان» (رشأ).
(٤) الأوام: العطش. «اللسان» (أوم).
(٥) في الأصل:
ذقـت منـه الشهـد فـي الثَّلْـ ـج المصفَّـى فـي المـدام
والمثبت من (ك) و(ب).

وفي بعض الكُتُبِ الفاضلية عن السُّلْطان إليه: وصل كتابه يتضمن خروجَ الفرنج، وما دبَّره من الأحوال، وأعدَّه من مكايد القتال، ولسنا نستبعد أن يدني اللَّهُ به كلَّ بعيد من المُرَاد، وأن يقابل[1] بتدبيره تقلُّبَ الذين كفروا في البلاد، وأن يُجري على يده أَوَّل النَّحْل[2] الذي توعد به آخر صاد[3]، وأن يصبَّ به على المشركين سَوْطَ عذاب إنَّ رَبَّك لبالمِرْصاد.

وقال العماد: وكان عِزُّ الدين فَرُّخْشاه من أهل الفضل ويَفْضُل على أهله، ويُغني الكرام عن الابتذال بكرم بَذْله. ومن أَخَصِّ خواصِّه، وذوي اصطفائه[4] واستخلاصه، الصَّدْرُ الكبير العالم تاج الدين أبو اليُمْن الكِنْدي[5]، أوحدُ عَصْره، ونسيجُ وحدِه، وقريع دَهْره، وعلاَّمة زمانه، وحَسَّان إحسانه، ووزير دَسْته، ومشير وَقْته، وجليس أُنسه، ورفيقُ دَرْسه، وشُعاع شمسه، وحبيبُ نفسه.

ولي في هذا الملك قصائد، منها قصيدة هائية موسومة، مدحتهُ بها في أول سنة صَحِبْتُ فيها السُّلْطان إلى مصر، وهي سنة اثنتين وسبعين، وعارضها تاجُ الدِّين أبو اليُمْن بكلمةٍ بديعةٍ في وزنها ورويِّها وحُسْن زِيِّها، فأما كلمتي، فهي:

---

(١) في الأصل: يقلل، والمثبت من (ك).
(٢) ألمع بذلك إلى أول سورة النحل، وهي قوله تعالى: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ وهذا وعيد للمشركين.
(٣) ألمع بذلك إلى آخر سورة صاد، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾.
(٤) في (ك) أصفيائه.
(٥) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٦١٣ هـ).

بَيْـنٌ أَمَـرَّ حـلاوةَ العَيْـشِ الشَّهِـي ... وهوًى أحال غَضارَة[1] الزَّمَنِ البَهِي
وصَبـابَـةٌ لا أستقِـلُّ بِشَـرْحِهـا ... عن حَصْرِها حَصْرَ البليغ المِدْرَه
أأحِبَّتِي إنْ غِبْتُ عنكـمْ فـالهـوى ... دانٍ لقلـبٍ بـالغَـرَام مُـوَلَّـهِ
أُنْهِـي إليكُـمْ أَنَّ صَبْـرِيَ مُنْتَـهٍ ... بَـلْ مُنْتَـهٍ والشَّـوْقُ ليـس بمُنْتَـهِ
أمـا عُقُـوْدُ مَـدامعـي فلقـد وَهَـتْ ... وأَبَـتْ عُقُـوْدُ الـودِّ مِنِّـيَ أَنْ تَهِـي
ولقـد دُهِيْـتُ بِبَيْنِكُـمْ فـاشْتَقْتُكُـمْ ... يـا مَـنْ لمشتـاقٍ بِبَيْنِكُـمُ دُهِـي
فـي شَـوْقِكُـمْ أَبَـدَ الـزَّمـانِ تَفَكُّـري ... وبِـذِكْـرِكُـمْ عنـد الكِـرام تَفَكُّهـي
لَوْ قِيْلَ لي ما تشتهي مِنْ هذه الدُّ (م) ... نيـا لَقُلْـتُ سِـواكُـمُ لا أَشْتهـي
مـا كـان أَرْفَـهَ عِيْشَتـي وأَلَـذَّهـا ... مَـنْ ذا الـذي يَبْقَـى بِعَيْـشٍ أَرْفَـهِ
وَمِـنَ السَّفَـاهَـةِ أَنَّنـي فَـارَقْتُكُـمْ ... من أينَ ذُو الحِلْم الذي لم يَسْفَهِ

ومنها:

وعقـاب أَيْلَـة* لا يفـارِقُ[2] جِلِّقـاً ... أَحَـدٌ إليهـا غَيْـرُ غِـرٍّ أَبْلَـهِ
مـالـي ومصـرَ وللمطـامـع إنَّمـا ... مَلَكَـتْ قِيـادي حَيْـثُ لـم أتنـزَّهِ
لا تَنْهَنـي يـا عـاذِلـي فـأنـا الـذي ... تَبِـعَ الهـوى وأَتَـىٰ بمـا عنـه نُهِـي
قـد قُلْـتُ للحـادِي وقـد نـادَيْتُـهُ ... فـي مَهْمَـهٍ أَقْصِـرْ وَصَلْـتَ مَـهٍ مَـهِ
حَتَّـامَ جَـذْبُـك للـزِّمـامِ فَـأَرْخِـهِ ... فلقَـدْ أَنَخْـتَ إلـى ذَرَى فَـرُّخْشَـهِ
متكـرِّمٌ بـالطَّبْـعِ لا متكـرِّهٌ[3] ... شَتَّـانَ بَيْـنَ تكـرُّمٍ وتكَـرُّهِ
إحسـانُ ذي مَجْـدٍ وهِمَّـةُ مُحْسـنٍ ... مُجْـدٍ وتقـوى عـابـدٍ متـأَلِّـهِ[4]

---

(١) في (ك) طلاوة.

(٢) في (ك) ما يفارق.

(٣) في الأصل: متكرماً بالطبع لا متكرهاً، والمثبت من (ك).

(٤) انظر «البرق الشامي»: ٥/ ش ٤٣ ــ ٤٨، وص ٦٠ ــ ٦٥، و«خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١١٩ ــ ١٢٨.

وهي ثلاثةٌ وثمانون بيتاً، والقصيدة التَّاجية تسعةٌ وأربعون بيتاً، أولها:

هـل أنـتَ راحـمُ عَبْـرَةٍ وتـوَلُّـهِ ... وَمُجِيْـرُ صَـبٍّ عنـد مَـأْمَنِـهِ دُهـيْ
هَيْهـاتَ يَـرْحَـمُ قـاتـلٌ مَقْتُـولَـه ... وسِنـانـه فـي القَلْـب غيـرُ مُنَهْنَـهِ
مَـنْ بَـلَّ مـن داءِ الغَـرَام فـإنني ... مُذْ حَلَّ بي مَرَضُ الهوى لم أَنْقَهِ
إنـي بُلِيْـتُ بحـبِّ أغيـدَ سـاحـرٍ ... بلحـاظِـهِ رَخْـصِ البَنَـان بَـرَهْـرَهِ(١)
أبغـي شِفَـاءَ تَـدلُّهـي مـن دَلِّـه ... ومتـى يَـرِقُّ مُـدَلَّـلٌ لِمُـدَلَّـهِ
يـا مُفْـرَداً بـالحُسْـن إنَّـك مُنْتَـهٍ ... فيـه كمـا أنـا فـي الصَّبـابَـةِ منتهـي
قـد لامَ فيـك معـاشِـرٌ أَفـأَنْتَهـي ... باللَّوْم عن حُبِّ الحياة وأَنْتَ هِيْ
أبكـي لَـدَيْـهِ فـإنْ أَحَسَّ بِلَـوْعَـةٍ ... وتَشَهُّـقٍ أومـا بِطَـرْفٍ مُقَهْقِـهِ ٢/ ٣٥
أنـا مـن محـاسِنِـه وحـالـي عنده ... حَيْـرانُ بيـن تفكُّـهٍ وتفكُّـهِ
ضِـدَّانِ قـد جُمِعـا بلفـظٍ واحـدٍ ... لـي فـي هـواه بمعنيـيـنِ مُـوَجَّـهِ

قلت: يقال تفكهتُ بالشيء: أي تمتعت به، وتفكهت: أي تعجبت، ويقال: تندَّمت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُوْن﴾(٢) فهو في تفكُّهٍ: أي تمتُّعٍ بالمحاسن، وفي تعجُّبٍ من حاله وتندُّمٍ عليها.

ثم قال:

أنا عَبْدُ من شَهِدَ الزَّمانُ بِعَجْزِه(٣) ... عَـنْ أَنْ يجـيء لـه بنـدٍّ مُشْبِـهِ
عَبْدٌ لعِزِّ الدِّين ذي الشَّرَفِ الذي ... ذَلَّ الملـوك لِعـزِّه فَـرُّخْشَـهِ

---

(١) أي بيضاء، بضة. «اللسان» (بره).
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٦٥.
(٣) في الأصل: بفخره، وهو تصحيف، والمثبت من (ك).

طَـابَـتْ مَـوارِدُه فغَـصَّ فِنـاؤه وشدا الحُدَاة بِذِكْرِه في المَهْمَه[1]

يَهْـديـك كـلُّ مُمَلَّـكٍ متنـايِـه أبـداً بـألسنة الـرِّعـاع مُمَـدَّه[2]

لا يَفْقَـه النَّجـوى إذا حـدَّثْتَـهُ وإذا بـدا[3] بحـديثـه لـم يُفْقَـه[4]

قلت[5]: وذكر العماد في ديوانه أبياتاً حسنة في مدح[6] الشَّيخ تاج الدين أبي اليُمْن، رحمهما الله:

تـذاكَـرَ مِـنْ وَرَّادِ مِصْـرَ عصـابـةٌ حديثَ فَتًى طاب النَّدِيُّ[7] بِذِكْرِه

وقـالـوا رأينـا فـاضِـلاً ذا نَـبـاهَـةٍ أديبـاً يفـوقُ الفـاضِلِيْـنَ بفَخْـرِهِ

يَدِيْنُ حبيبٌ[8] والوليدُ[9] لِنَظْمِه وَيَحْمَـدُهُ عبـدُ الحميـد[10] لِنَثْـرِه

ولو عاش قُسٌّ[11] في زمان بيانه لكـان مُشيـداً فـي البيـان بِشُكْـرِه

فضائِلُهُ كالشَّمْسِ نوراً ولم تَزَلْ منـاقِبُـهُ فـي الـدَّهْـرِ أعـدادَ زَهْـرِه

بَيَـانٌ هُـو السِّحْـرُ الحـلالُ وإنَّنـا نَرَى مُعْجِزاً مِنْ فَضْلِه حَلَّ سِحْرِه

ذوو الفَضْلِ هُمْ عند الحقيقة أَبْحُرٌ ولكنَّهـم أضحـوا جَـدَاوِلَ بَحْـرِه

(١) المهمه: المفازة، الفلاة. «اللسان» (مهه).

(٢) في هامش الأصل و(ك) حاشية: الممده: الممدح. قلت: انظر «اللسان» (مده).

(٣) في طبعة وادي النيل: ٢/ ٣٥: أتى.

(٤) انظر القصيدة في «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٢٩ ـ ١٣٣ و«البرق الشامي» ٥/ ش ٤٨ ـ ٥٠، ص ٦٥ ـ ٦٩.

(٥) في الأصل: قال العماد: وذكر.. والمثبت من (ك).

(٦) كلمة: مدح، ليست في (ك).

(٧) الندي: مجتمع القوم وأهل المجلس. «اللسان» (ندي).

(٨) هو حبيب بن أوس الطائي، أبو تمام الشاعر.

(٩) هو الوليد بن عبيد، أبو عبادة البحتري الشاعر.

(١٠) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد الأنباري، الكاتب البليغ، كان يكتب لمروان بن محمد، آخر خلفاء بني أمية، قتل سنة (١٣٢ هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٥/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣.

(١١) هو قس بن ساعدة الإيادي، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم في الجاهلية.

يَضُوعُ مَهَبُّ الحَمْدِ من عَرْف عُرْفه[1] وتَأرَجُ[2] أَرْجاءُ الرَّجاء بِنَشْرِهِ[3]
فَقُلْتُ لهم هذا الذي تصفونَهُ أبو اليُمْن تاجُ الدِّين أَوْحَدُ عَصْرِهِ

قلت[4]: وبلغني أَنَّ أول معرفةِ فَرُّخْشاه [به][5] أنه كان في مجلس القاضي الفاضل بالقاهرة، فجاء فَرُّخْشاه إلى الفاضل، فجرى ذِكْرُ بيتٍ من شِعْر أبي الطيب المتنبي، فتكلَّم فيه تاج الدِّين بما يليق به[6]، فأعجب فَرُّخْشاه، وسأل القاضي الفاضل عنه، فقال: هذا فلان. وعرَّفه بفضله، فلما قام فَرُّخْشاه من مجلس الفاضل أخذ بيد الشَّيخ تاج الدين، وخرج به، ولزِمه إلى أن توفي، رحمهم الله أجمعين.

فَصْلٌ

في أَخْذِ السَّالكين البحرَ لقصد الحجاز[7]

قال العماد: وفي شوَّال سنة ثمانٍ وسبعين كانت نُصْرة الأُسطول المتوجِّه إلى بحر القُلْزُم[8]، والمقدَّم فيه الحاجب حسام الدين لؤلؤ[9]،

---

(١) العرف ــ بفتح العين ــ الريح الطيبة. والعُرْف ــ بضم العين ــ المعروف، وهو الجود أيضاً. «اللسان» (عرف).
(٢) أرج الطيب: فاح. «اللسان» (أرج).
(٣) النشر: الريح الطيبة. «اللسان» (نشر).
(٤) هذا التعقيب من أبي شامة ساقط من (ك)، وسيأتي في ترجمة أبي اليمن في «المذيل على الروضتين». وفيات سنة (٦١٣ هـ).
(٥) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٣٥.
(٦) لأبي اليمن الكندي من جملة مؤلفاته شرح لديوان المتنبي.
(٧) في (ك) فصل في قصة أخذ الفرنج السالكين لقصد الحجاز.
(٨) هو البحر الأحمر.
(٩) سترد ترجمته في ٤/ ٤٦٦ ــ ٤٦٧ من هذا الكتاب.

لطلب الفرنج السَّالكين بَحْرَ الحجاز؛ وذلك أن الإبرنس[1] صاحب الكَرَك* لما صَعُبَ عليه ما توالى عليه من نكاية أصحابنا المقيمين بقلعة أَيْلَة*، وهي في وسط البحر، لا سبيل عليها لأهل الكُفْر، أفكر في أسباب احتياله، وفَتَحَ أبوابَ اغتياله، فبنى سُفُناً، ونقل أخشابها على الجمال إلى السَّاحل، ثم ركَّب المراكب، وشحنَها بالرِّجال وآلات القتال، ووقَّف منها مركبين على جزيرة القلعة، فمنع أهلها من استقاء الماء، ومضى الباقون في مراكب نحو عَيْذَاب*، فقطعوا طريق التُّجَّار، وشرعوا في القتل والنهب والإسار، ثم توجَّهوا إلى أرض الحجاز، فتعذَّر[2] على النَّاس وجه الاحتراز، فَعَظُمَ البلاء، وأعضل الدَّاء، وأَشْرَفَ أهل المدينة النَّبوية منهم على خَطَر، ووصل الخبر إلى مِصْر وبها العادل أخو السُّلْطان، فأمر الحاجب حسام الدين لؤلؤ، فَعَمَر في بحر القُلْزُم مراكب بالرِّجال البحرية، ذوي التجربة من أهل النَّخوة للدِّين والحَمِيَّة، وسار إلى أَيْلَة، فظَفِرَ بالمركب الفرنجي عندها، فَخَرَق السفينة وأخذ جُنْدها، ثم عدَّى[3] إلى عَيْذَاب*، وشاهد بأهلها العذاب، ودُلَّ على مراكب العدوّ فتبعها، فوقع بها بعد أيام، فأَوْقَعَ بها وواقعها، وأطلق المأسورين من التُّجَّار، ورَدَّ عليهم [كل][4] ما أُخِذَ لهم، ثم صَعِدَ إلى البر، فوجد أَعراباً قد نزلوا منه شِعاباً، فركب خَيْلَهم وراء الهاربين، وكانوا في أرض تلك الطُّرق ضاربين، فحصرهم في شِعْب لا ماء فيه، فأَسَرهم بأَسْرهم، وكان ذلك في أشهر الحج، فساق منهم أسيرين إلى مِنى

---

(١) كان أرناط صاحب الكرك قد حاول قصد الحجاز في السنة الماضية. انظر ص ٨٢ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: وتعذر، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل: غدا، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

كما يساق الهَدْي، وعاد إلى القاهرة ومعه الأسارى، فكتَبَ السُلْطان إليه بضرب رقابهم وقطع أسبابهم، بحيث لا تبقىٰ منهم عَيْنٌ تطرف، ولا أحد يَخْبُرُ طريقَ[1] ذلك البحر أو يَعْرف[2]. ٣٦/٢

قلت: ولأبي الحسن بن الذَّرَوي في الحاجب لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعارٌ[3]، منها:

مَـرَّ يـومٌ مِـنَ الـزَّمـان عَجِيْـبُ ... كـاد يُبْـدِي فيـه السُّـرورَ الجمـادُ
إذْ أتـى الحـاجِـبُ الأَجَـلُّ بـأَسْـرى ... قَـرَنَتْهُـمْ فـي[4] طيِّهـا الأَصْفـادُ
بجمـــالٍ كـــأنَّهُـــنَّ جبـــالٌ ... وعُلُـــوجٍ كـــأَنَّهُـــمْ أَطْـــوَادُ
قُلْـتُ بعـد التَّكْبيـر لمَّـا تَبـدَّى ... هكـــذا هكـــذا يكـــونُ الجهـــادُ
حَبَّـذا لـؤلـؤٌ يَصِيْـدُ الأعـادي ... وسِـــواهُ مـــن الـــلآلـــي يُصَـــادُ

ومنها:

قُلْـتُ وقـد سـافَـرْتَ يـا مَـنْ غـدا ... جهـــادُه يَعْضُـــدُ مِـــنْ حَجِّـــهْ
إذ قيـل سـار الحـاجِـبُ المُـرْتَجـى ... فـــي البَحْـرِ يـاربَّ السَّمـا نَجِّـهْ

---

(١) في الأصل: بطريق، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر «البرق الشامي» ش ٥/ ٥٠ ـ ٥٢، ص ٦٩ ـ ٧١.

(٣) في هامش الأصل: «حاشية: ما أعرف المؤلف كيف قال: ولابن الذروي في لؤلؤ بسبب هذه الوقعة أشعار، فإن هذه الوقعة في أواخر سنة ثمان وسبعين، وقد ذكر أن ابن الذروي توفي في سنة سبع وسبعين، والله عز وجل أعلم، وربما تكون هذه الأشعار في غير هذه الواقعة».

قلت: الأرجح في وفاته أنها كانت سنة (٥٧٩ هـ) كما ذكر الصفدي في «الوافي بالوفيات» ٢٢/ ٣١٣، وقد سكتت بقية مصادر ترجمته عن تحديدها، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٠١ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل و(ك) عن، والمثبت من طبعة وادي النيل ٢/ ٣٦.

البحرُ لا يَغْدُو على لُؤْلُؤٍ لأنَّهُ كُوِّن من لُجِّهْ

ومنها:

يا حاجبَ المَجْدِ الذي مالُهُ ليس عليه في النَّدَى حَجْبَهْ
ومن دَعَوه لؤلؤاً عندما صحَّتْ[1] من البحرِ له نِسْبَهْ
لله ما تَعْمَلُ مِنْ صالح فيه وما تُظْهر من حِسْبَهْ
كَفَيْتَ أَهْلَ الحَرَمَيْنِ العِدَى وذُدْتَ عن أَحْمَدَ والكَعْبَهْ

ومنها:

لئن كُنْتَ مِنْ ذا البحر بالؤلؤ العُلا نُتِجْتَ فإنَّ الجُوْدَ فيك وفيهِ
وإن لم تكن منه لأَجْلِ مَذَاقِهِ فإنَّك من بحر السَّماحِ أخيهِ

ومنها:

إنما أنت لؤلؤٌ للمعالي جاءَ من أَبْحُرِ السَّماح العِذاب

وكتب السُّلْطان إلى العادل من كلام الفاضل: وصل كتابه المؤرَّخ بخامس ذي القَعْدَة المُسْفِر عن المسفر من الأخبار، المتبسم عن المتبسِّم من الآثار، وهي نِعْمةٌ تضمَّنت نِعَماً، ونُصْرة جعلت الحرم حرماً، وكفايةٌ ما كان الله ليؤخِّر معجزة نبيِّه ﷺ بتأخيرها، وعجيبةٌ من عجائب البحر التي تحدَّث عن تسييرها وتسخيرها، وما كان الحاجب لؤلؤ فيها إلا سَهْماً أصاب وَحُمِدَ مُسَدِّده، وسَيْفاً قطَعَ وشُكِرَ مجرِّده، ورسولاً عليه البلاغ وإن لم يُجْهل ما أَثَّرَتْهُ يَدُه، وقد غَبَطْناه بأَجْر جهاده ونُجْح اجتهاده. رَكِبَ[2] السَّبيلين برّاً

(١) في الأصل: صح، والمثبت من (ك).
(٢) في (ك) وركب.

وبحراً، وامتطى السَّابقين مركباً وظَهْراً، وخطا فأوسع الخطو، وغزا فأنْجح الغزو، وحَبَّذا العِنان الذي في هذه الغزوة أُطْلق، والمال الذي في هذه الكرَّة أُنفق، وهؤلاء الأسارى فقد ظهروا على عَوْرة الإسلام وكشفوها، وتطرقوا بلاد القِبْلة وتطوَّفوها، ولو جرى في ذلك سبب ـ والعياذ بالله ـ لضاقت الأعذار إلى الله والخَلْق، وانطلقت الألْسُن بالمَذمَّة في الغَرْب والشَّرْق، ولا بدَّ من تطهير الأرض من أرجاسهم، والهواء من أنفاسهم، بحيث لا يعود منهم مُخْبِرٌ يدلُّ الكُفَّار على عَوْرات المسلمين، وإن هذا العدد القليل قد نال ذلك المَنَال الجليل، وهذا مَقَامٌ، إن روعي فيه حراسة الظَّاهر، والوفاء للكافر، حَدَث الفَتْقُ الذي لا يُمْكِن في كلِّ الأوقاتِ سَدُّه ورَتْقُه، ولُدِغَ المؤمن مرَّتين والأُولى تكفي لمن له في النَّظَر تفقُّه.

وفي كتابٍ آخر إلى العادل أيضاً: ونحن نُهنِّىء المجلس السَّامي بظفره، ولم لا نكمله؟ وبنَصْره، ولم لا نشكره شكراً نُعجِّله[1]؟ وليس في قَتْلِ هؤلاء الكُفَّار مُراجعة، وللشَّرْعِ في إبقائهم فُسْحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التَّغاضي عنهم عند الله عُذْرٌ مقبول، ولا حُكْم اللَّهِ في أمثالهم عند أهل العلم بمشكلٍ ولا مجهول، فليمضِ العَزْمُ في قتلهم ليتناهى أمثالُهم عن فعلهم، وقد كانت عظيمة ما طُرِقَ الإسلام بمثلها، وقد أتى الله بعدها بلطيفة أجراها على يد من رآه من أهلها.

وفي كتابٍ آخر إلى العادل: [و][2] قد تكرَّر القول في معنى أسارى بحر الحجاز، فلا تَذَر على الأرض من الكافرين ديَّاراً[3]، ولا توردهم بعد ٧/٢

---

(١) في الأصل: ولم يشكره ويعجله، والمثبت من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وقال نوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ على الأرض من الكافرين دياراً﴾ سورة نوح، الآية: ٢٦.

ماء البحر إلا ناراً، فأقلهم إذا بقي جنى الأمر الأصعب، ومتى لم تعجّلِ الرَّاحة منهم وعَدَتِ العاقبةُ بالأشقِّ الأتعب.

ومن كتابٍ آخر إلى بغداد: وسارتِ المراكبُ الإسلامية طالبةً شوكة المراكب الحربيَّة المتعرِّضة للمراكب الحجازية واليمنية. وكانت مراكبُ العدو قد أوغلت في البحر، وَدَلَّها على عورات الساحلين من العربِ مَنْ أشبه ركَّابها في الكُفْر، فوصلت إلى عَيْذاب*، فلم تنل منها مُراداً، غير أَنَّ ما وجدته في طريقها أو في فُرْضَة[1] عَيْذَاب نالتْ منه، وشعثت وأفسدت فيه، وعَتَتْ[2] وتمادت في السَّاحل الحجازي إلى رابغ إلى سواحل الحَوْراء[3]، وهناك وقع عليها أصحابُنا، وأوقعوا بها أشدَّ إيقاع، وأخذوا المراكب الفرنجية على حكم البِدار والإسراع، وفرَّ فرنجها إلى السَّاحل، فركب أصحابنا وراءهم خيول العُربان التي وجدوها، وأخذوا الكفار من شِعابٍ وجبالٍ اعتصموا بها وقصدوها، وكُفي المسلمون أشدَّ فسادٍ في أرضهم، وأقطع قاطعٍ لفَرْضهم، وانبسطت أمالُهم بقبضهم، وعَمِيَتْ على الكُفَّار هذه الطريق التي لو كُشِفَ لهم غطاؤها قِدْماً، ولو أحاطوا بها عِلْماً، لاشتطَّت نكايتهم، واشتدَّت جنايتهم، وعَزَّ على قدماء ملوك مصر أن يصرعوا هذه الأقران، ويطفؤوا هذه النِّيران، ويركبوا غوارب اللُّجَج[4]،

---

(١) الفرضة: محط السفن. «اللسان» (فرض).

(٢) في (ك) وعثت.

(٣) الحوراء: كورة من كور مصر القبلية في آخر حدودها من جهة الحجاز، وهي على البحر في شرقي القلزم (البحر الأحمر). انظر «معجم البلدان»: ٢/٣١٦.

(٤) أي أعالي الموج. «اللسان» (غرب، لجج).

ويُرْخِصوا غوالي المُهَج، ويقتنصوا هذا الطَّائر من جوِّه الذي لا يُدْركه[1] لَوْحُه[2]، ويُدْركوا هذا العدوَّ الذي لا يُدْرَك إلا أن يُنْجَدَ عليه ملائِكَةُ الله ورُوحهُ[3].

وفي كتابٍ آخر إلى بغداد: كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نُكْراً، وافتضُّوا من البحر بِكْراً، وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد، واشتدَّت مخافةُ أهل تلك[4] الجوانب بل أهل القِبْلَة لما أَوْمَضَ إليهم من خَلَلِ العواقب، وما ظنَّ المسلمون إلا أنها السَّاعة، وقد نُشِرَ مطويُّ أشراطها، والدُّنيا قد طُوي منشورُ بساطها، وانْتُظِرَ غَضَبُ الله لفناء بيته المُحرَّم، ومقام خليله الأكرم، وتراث أنبيائه الأقدم، وضريح نبيه الأعظم ﷺ، ورجوا أن تَشْحَذَ البصائرَ آيةٌ كآية هذا البيت، إذ قصده أصحابُ الفيل، ووكلوا إلى الله الأمر، وكان حَسْبَهم ونِعْمَ الوكيل.

وكان للفرنج مقصدان، أحدهما قلعة أَيْلَة* التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوِرُه بلادُهم من ساحله، وانقسموا فريقين، وسلكوا طريقين، فأما الفريق الذي قصد قلعة أَيْلَة، فإنَّه قَدَّرَ أن يمنعَ أهلَها من مَوْرِد الماء الذي به قِوام الحياة، ويقاتِلُهم بنار العَطَش المَشْبُوبِ الشَّبَاة، وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن، فقدَّر أن يمنع طريقَ الحاجّ عن حَجِّه، ويحول بينه وبين فَجِّه، ويأخذ تجار اليمن وأكارم عدن، ويلمَّ بسواحل الحجاز، فيستبيحَ ــ والعياذ بالله ــ

(١) في الأصل: لا يدرك، والمثبت من (ك).
(٢) اللَّوح: الهواء. «اللسان» (لوح).
(٣) «البرق الشامي» ٥/ ش ٥٣ ــ ٥٤، ص ٧٢ ــ ٧٣.
(٤) في (ك) بلد.

المحارم، ويَهِيْجَ جزيرة العرب بعظيمةٍ دونها العظائم.

وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عَمَّر مراكب، وفرَّقها على الفريقين، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين. فأما السَّائرة إلى قلعة أَيْلَة، فإنها انقضَّتْ على مُرَابطي الماء انقضاضَ الجوارحِ على بنات الماء، وقذفتها قَذْفَ شُهُبِ السَّماء مسترقي سَمْعَ الظَّلْماء، فأخذت مراكب العدوِّ برمتها، وقتلت أكثر مقاتلتها، إلا[1] من تعلَّق بهضبةٍ وما كاد، أو دخل في شِعْبٍ وما عاد، فإنَّ العُرْبان اقتصُّوا آثارهم والتزموا إحضارهم[1]، فلم يَنْجُ منهم إلا من ينهىٰ عن المُعَاودة، ومن قد عَلِمَ أَنَّ أمر السَّاعة واحدة.

وأما السائرة إلى بحر الحجاز، فتمادَتْ في الساحل الحجازي إلى رابغ [إلى][2] سواحل الحَوْراء، فأخذت تُجَّاراً، وأخافت رفاقاً، ودلَّها[3] على عَوْرات البلاد مِنَ الأعراب مَنْ هو أشدُّ كُفْراً ونفاقاً، وهناك وقع عليها أصحابُنا، وأُخذت المراكب بأسرها[3]، وفَرَّ فرنجها بعد إسلام المراكب، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك، ومعاطن المعاطب، وركب أصحابُنا وراءهم خيل العرب، يَشُلُّونهم شَلاً[4]، ويقتنصونهم أَسْراً وقَتْلاً، وما زالوا يتبعونَهم خمسةَ أيامٍ خيلاً ورَجْلاً، ونهاراً وليلاً، حتى لم يَتْركوا عنهم مُخبراً، ولم يُبْقوا لهم أثراً ﴿وسِيْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾[5] وقُيِّدَ

---

(١) ما بينهما ساقط من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (ك)، وسترد فيها في سياق الكتاب التالي بعد كلمة: العمائر.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣ من هذا الجزء.
(٥) سورة الزمر، الآية: ٧١.

منهم إلى مِصر مئة وسبعون[١] أُسَرا[٢].

ومن كتابٍ آخر: ومن جُمْلة البشائر الواصلة من مصر عود الأسطول مرةً ثانية كاسراً كاسباً، غانماً غالباً بعد نكايته في أهل الجزائر، وإخراب ما وجده فيها من الأعمال والعمائر[٣]، ومن جملة ما ظَفِرَ به في طريقه بَطْسة* من مراكب الفرنج تحمل أخشاباً منجورة إلى عكا، ومعها نَجَّارون ليبنوا منها شواني*، فأُسر النَّجّارون ومن معهم، وهم نيِّفٌ وسبعون. وأما الأخشاب فقد انتفع بها المجاهدون، وكُفي شَرَّها المؤمنون، وللخادم في المغرب عسكر قد بلغت أقصى أفريقية فُتُوحُه، وعاوَدَ به شخصُ الدِّين في تلك البلاد روحُه[٤].

فَصْــلٌ

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: وفي هذه السنة ــ وهي سنةُ ثمانٍ وسبعين ــ أَنْعَمَ السُّلْطان
على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال الهيثم، وكانت جاريةً في عمل ٣٨/٢
المَوْصل، فلما تسلَّمها جعلها من نصيبه. وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي ــ رحمه الله ــ حين توجَّه إلى الموصل في أوائل سنة ستٍّ وستين عند وفاة أخيه مودود[٥]، وَعَدَ ابن قرا أرسلان بقلعة الهيثم، ثم

---

(١) في الأصل: وسبعين، والمثبت من (ك).

(٢) «البرق الشامي» ٥/ش ٥٤ ــ ٥٥، ص ٧٣ ــ ٧٥.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ من الصفحة السَّالفة.

(٤) إشارة إلى قراقوش غلام تقي الدين، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩٩ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل و(ك) ممدود، والمثبت من (ب)، وانظر ص ١٦١ من الجزء الثاني.

سلَّمها إليه دون أعمالها تَحِلَّةً ليمينه، ووفاءً بوعده الكريم ودينه، ولما جاء لمساعدتنا في هذا العام خصَّه السُّلْطانُ عاجلاً بهذا الإنعام، ثم وهب له قلعة الجُدَيدة[1]؛ وهي قريبة من نَصِيبين*، ووعده بفتح آمِد* له، فَوفَى بوعده كما سيأتي[2].

قال: وكان شاه أرمن صاحب خِلاط* ظهير الدين سكمان[3]، وهو خال صاحب مارِدِين* إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش[4]، وصاحبُ مارِدِين* هذا هو ابن خال صاحب المَوْصِل عز الدين مسعود بن مودود[5] بن زَنْكي، فنفَّذ شاه أرمن يشفع إلى السُّلْطان في المَوْصِل وسِنْجار* ــ وهو على سِنْجار ــ وأرسل إليه سيف الدين بَكْتَمُر[6]، وهو من أعز أصحابه عليه، فلم يسمع السلطان شفاعته، فاجتمع هو وصاحب مارِدِين وصاحب المَوْصِل وصاحب أَرْزَن* وبَدْلِيس* وغيرهم من عسكر حلب، وجمعوا جموعاً، وعزموا على لقاء السُّلْطان، ونزلوا ضيعةً من أعمال ماردين يقال لها حَرْزَم[7]، فجمع السلطان عساكره، وجاءه تقي الدين من حماة إلى حَرَّان* في خمس ليالٍ، فساروا إليهم بعد العيد الأكبر، فلما وصل السلطان رأس عين*، وسمعوا بمجيئه، تفرَّقوا وافترقوا، وعاد الخلاطي إلى خِلاطه

(١) قلعة الجديدة ــ بالتصغير ــ قلعة حصينة، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا. «معجم البلدان»: ٢/ ١١٥.

(٢) انظر ص ١٤٦ ــ ١٤٧ من هذا الجزء، و«البرق» ٥/ ش ٥٩، ص ٧٧ ــ ٧٨.

(٣) انظر وفاته ص ٢٣١ من هذا الجزء.

(٤) سترد ترجمته ص ٢٢٢ من هذا الجزء.

(٥) في الأصل: ممدود، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) سترد وفاته ٤/ ٤١٢ من هذا الكتاب.

(٧) انظر «معجم البلدان»: ٢/ ٢٤٠.

باختلاطه، ورجع المَوْصلي إلى مَوْصِله لمواصلة احتياطه، واعتصم الماردي بحصنه المارد، وهتكوا حرز حَرْزَم للصَّادر والوارد، وهاب عسكر حلب العود إليها، ونحن على طريقه، فآذن جمعه بتفريقه، ومضى معظمهم إلى الموصل، فعبر الفرات عند عانة*، ولم يجدوا إعانة، ونسفتهم ريحنا وهم جبال، وذهبوا بقلوب النِّساء [وقد جاؤوا](١) وهم رجال، ثم نزل السلطان منزلة القوم بحَرْزَم، وفيها قصر لصاحب ماردين كان يتنزه فيه، فأقام فيه تاج الملوك أخو السُّلْطان(٢).

قال ابن أبي طي: وفي هذه السنة نزل قَراقُوش(٣) على بلد زالوت، وقاتله إلى أن [ملكه و](٤) انهزم منه أَهْلُه، ودخل المدينة ليقضي بها أيام الشِّتاء، فأصبح يوماً فإذا حول المدينة عَسْكر مقدارُه خمسة آلاف رجل، فقام وافتقد أصحابه، فلم يجد إلا جماعةً من البَوَّابين والركابدارية*، وباقي النَّاس سُكَارى، ورأى أحد البوقيَّة، فأمره أن يضرب بالبوق، وفتح البابَ وخرج، فظنَّ العسكر أنَّ قراقوش وعسكرَه قد شعروا بهم، فانهزموا.

قال: ثم إنَّه قصد طَرَابُلُس، فحاصرها، وضيَّق عليها، وكان شيخها عبد المجيد بن مطروح قد راسل قراقوش، وطلب منه الأمان، وسأله أن ينفِّذ إليه قوماً يقرِّر معهم أمر التَّسْليم. فأنفذ إليه وزيره وثلاثة من وجوه أصحابه، فأخذهم عبد المجيد، وأنزلهم في دارٍ أخلاها لهم، وأمر لهم بجميع ما

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) «البرق الشامي»: ٥/ ش ٦٢ ــ ٦٥، ص ٨٠ ــ ٨٣.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩٩ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

يحتاجون إليه، فلما خلا لهم الليل أخذوا المخادَّ وتصافعوا [بها][1] حتى قطعوها، وقام بعضهم إلى صهريجٍ مملوءٍ ماءً للشُّرْب، فأحدَثَ فيه، فأَخبرتِ الرُّقَباءُ عبدَ المجيد بما كان منهم، فأحضر وجوه البلد، وقصَّ عليهم ما كان منهم، وقال: إذا كان هؤلاء خيارهم[2]، فما ظنكم بشرارهم؟! وكان أهل البلد قد أشاروا على عبد المجيد بتسليم البلد، فامتنعوا حينئذٍ. وحضر ابنُ مطروح من الغد إليهم إلى الدار ومعه وجوه البلد، فقال لصاحب ضيافته: لِمَ أحضرتَ لهؤلاء السَّادة مخادَّ مقطَّعة؟ فقال: ما أحضرت لهم[3] إلا مخادَّ جُدُداً، ولكن القوم أكلوا طعام الصُّوفية الذي لا نعرفه في بلادنا. فاستحيا القوم، وعلموا أنهم قد فطنوا[4] بحالهم، ونزل رجلٌ إلى الصِّهْريج فرأى العَذِرَة على وجه الماء، فقال: من فعل هذا؟ فلم يردَّ واحدٌ منهم جواباً، فقال ابن مطروح: يا قوم، ما أدخلناكم إلينا إلا عازمين على تسليم البلد إليكم، وأن نكون لكم رعايا، وقد شاهدنا منكم أفعالاً ما نرضاها، فإن قلتم إن هذه الفعلة من غِلْماننا وعبيدنا، فما أقبح هذه الأُحدوثة عن خيار أصحاب هذا الرجل، وإن كان عنده من هو خيرٌ منكم، فَلِمَ بعثكم إلينا؟ هذا طعنٌ في عقله. ثم أمر بإخراجهم، فأُخرجوا من المدينة، فلما صاروا إلى قراقوش، وعَلِمَ القِصَّة عَظُمَ عليه الأمر، وأراد الفتك بهم، وعلم أنهم قد فتقوا عليه فَتْقاً لا يمكنه رَتْقُه أبداً، وتيقَّن أنه لا يملك البلد أبداً. وأنفذ عبد المجيد إلى قرَاقُوش: إنك لست بقادرٍ على أخذ هذا البلد، لأجل ما نفَّر به أصحابك قُلُوبَ أهله، فإن رأيت أن نجعل

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٢) في (ك) و(ب) خيار القوم.
(٣) في (ك) و(ب) ما أحضرتهم، والمثبت من (ب).
(٤) في (ك) و(ب) فطن.

لك جُعالة[1] نحملها إليك في كلِّ سنة، وترحل عنا، فعلنا. فأجاب إلى ذلك، ورحل عنهم بعد أن احتوى عليهم.

قال: وتوافت إليه الفُرْسان من مصر حتى صار في ثماني مئة فارسٍ من الأتراك، وسار من جبل نفوسة إلى قابس في يومين، ثم إلى قصر الرُّوم وغيره من المواضع والقلاع، فهجم وَنَهَبَ وغنم وغلب، وخافه أهلُ تلك النَّواحي.

فصـــل

في فتح آمِد*

قال العماد: ثم سار السلطانُ إلى آمِد، ونزل عليها يوم الأربعاء سابع عشر ذي الحِجَّة بعد أن استأذن الخليفة في ذلك، فأذِنَ له، فنصب السلطان عليها المجانيق وضايقهم وطال حصارهم، ثم أخذها في السنة الآتية كما سيأتي[2].

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمس مئة ٢/٣٩

قال ابن أبي طي: والسُّلْطان منازل لآمد*، واشتدَّ قتال العامة بها، فأمر السلطان بكَتْبِ رقاعٍ فيها إِبْراقٌ وإرعاد، ووعد وإيعاد: إن داموا على القتال ليستأصِلَنَّ شأفتهم، وإن اعتزلوا وسَلَّموا البلد ليحسنَنَّ إليهم، وليضعن ما عليهم من الكُلَف والضَّرائب. وأمر أن تعلَّق تلك الرِّقاع على السِّهام،

---

(١) في هامش الأصل بخط مغاير: الجعل والجعالة بمعنى، يعنى به ما يؤخذ من واحد في مقابلة التعب برضى الطرفين، خارجاً عن الحقوق الشرعية.

(٢) «البرق الشامي»: ٥/ ش ٦٦، ص ٨٤.

وتُرْمىٰ إلى آمِد، فَرُمِيَ من ذلك شيءٌ كثير، فكفُّوا عن القِتال، وأشاروا على ابن نيسان[1] بطلب الأمان، فأُومِنَ على أن يخرجَ بجميعِ أمواله دون الذَّخائر والسِّلاح، وأُمهل ثلاثة أيام، فلما عوَّل على نقل أمواله قعد به أصحابُه، فأرسل إلى السُّلْطان، فأنفذ إليه غِلْماناً ودوابَّ، وضُربت له خيمةٌ بظاهر آمِد، وجعل ينقل ما يقدر على نقله من المال والقُماش وآلات الذَّهب والفِضَّة مدة ثلاثة أيامٍ بعالم عظيم كانوا يزيدون على ثلاث مئة إنسان، ولم ينقل عُشْر ما كان له، وسُرِقَ من أمواله أكثر مما حَصَلَ له، لأنه ما أَخْرج أحدٌ شيئاً إلا وأخذ نِصْفه أو أكثر.

وكان ابن نيسان قد حصَّل في آمد أشياء كثيرة لا يمكن وَصْفُها من الأسلحة والأموال والغِلال والكتب، ولما انقضى الأجل أخذ ما حصل، وسار قاصداً بلاد الرُّوم، وتسلَّم السُّلْطان مدينة آمد بأموالها وذخائرها، ونصب أعلامه على سورها[2]، وذلك في رابع عشر محرَّم، ووجد فيها من الغِلال والسِّلاح وآلات الحصار من المناجيق* واللعب والعَرَّادات* أشياء كثيرة لا يمكن أن توجد في بلدٍ مثلها، ووجد فيها برج من أبراجها فيه مئة ألف شمعة، وبرج مملوء نصول النُّشَّاب، وأشياء يطول شَرْحُها. وكان فيها خزانة كتب كان فيها ألف ألف وأربعون ألف كتاب، فوهب السُّلْطان الكتب للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين جمَّازة[3]، ويقال: إن ابن قرا أرسلان باع من ذخائر آمد وخزائنها مما لا حاجة له به مدَّة سبع سنين حتى

---

(١) كان وزير صاحب آمد، مَرَّ ذكره ص ٤٢٠ من الجزء الثاني، وانظر ص ١٤٨ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) و(ب) ونصبت أعلامه على أسوارها.

(٣) الجمازة: الناقة، انظر «تاج العروس» (جمز)، وفي «المعجم الوسيط»: ١/ ١٣٥ مركب سريع يتخذه الناس في المدن (شبه العجلة التي تجرها الخيل).

امتلأت الأرضُ من ذخائرها. وكان السلطان لما تسلَّم آمِد وهبها لنور الدين محمد بن قرا أرسلان بما فيها، وكتب له بها وبأعمالها توقيعاً، ووفى له بما وعده به[١]. وقيل للسلطان: إنك وعدته بآمد وما وعدته بما فيها من الأموال والذخائر، وفيها من الذخائر [ما يساوي][٢] ثلاثة آلاف ألف دينار. فقال: لا أضنُّ عليه بما فيها من الأموال، فإنه قد صار من أتباعنا وأصحابنا.

قال: وفي فتح آمِد* يقول سعيد الحلبي[٣] من قصيدةٍ في السُلْطان[٤]:

رمى آمِداً بالصَّافنات فأَذْعَنَتْ ... له طاعةً آكامُها ووعورُها

فما عَزَّ ناديها ولا اعتاصَ[٥] ثَغْرُها ... ولا جاشَ طاميها ولا ردَّ سورُها

وأَنْزَلْتَ بالكُرهِ ابنَ نَيسان مُحْرَجاً ... كما أَنْزَلَ الزَّبَّاءَ كَرْهاً قَصِيْرُها

نَهَدْتَ لها حتى إذا انقادَ صَعْبُها ... وقَرَّ على طول الشِّماس نفورُها

سَمَحْتَ بها جُوداً لمن ظلَّ بُرْهَة ... يغاورها طَوْراً وطوراً يغيرُها

وَمَلَّكْتَ ما مُلِّكْتَ منها تخولاً[٦] ... وكان قليلاً في نَدَاكَ كثيرُها

وإن بلاداً تَجْتَدِيْكَ[٧] ملوكُها ... لأَجْدَرُ أن يَرْجُو نَدَاك فقيرُها

وقال ابن سَعْدان الحلبي[٨] يذكر فتح آمد، يقول:

---

(١) انظر ص ١٤٢ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) هو سعيد بن محمد الحريري، هاجر إلى مصر في الدولة الناصرية الصلاحية، ترجم له العماد في «الخريدة» قسم شعراء الشام: ٢/ ١٥٣ ــ ١٥٤، وأورد بعض أشعاره، وسيأتي بعض أبيات هذه القصيدة ص ١٦٩ من هذا الجزء.

(٤) في الأصل: في السلطان يقول: وكلمة يقول زيادة في النص، وقد أثبتنا ما في (ك).

(٥) اعتاص عليه الأمر: اشتدَّ والتوى، والتاث عليه فلم يهتدِ لجهة الصواب فيه. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٢٤٥.

(٦) أي أعطاه إياها تفضلاً. «اللسان» (خول).

(٧) تجتديك: أي تسألك العطية. «اللسان» (جدا).

(٨) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.

فيا ساكني الرَّعْناء[1] من سَفْحِ آمدٍ أرى عارِضاً ينهلُّ بالموتِ هاطِلُهْ
لئن غَضِبَتْ يوماً عليكُمْ عروشها فهـذا ابـنُ أيـوبٍ وهـذي معـاقِلُـهْ
ولـو رامهـا يَـوْمـاً سـواه لقُطِّعَـتْ أبـاهِـرُهُ مـن دُوْنهـا وأبـاجِلُـهْ[2]

قلت: وقال آخر:

لـوعُـرِّفَـتْ آمِـدُ مَـنْ جَـاءهـا يَخْطُـبُ فـي الإسـلامِ تَسْلِيْمَهـا
لَصَيَّـرَتْ أعلـى شـراريفهـا لِمَـنْ علـى الأَرْضِ سـلالِيْمَهـا

قال العماد: وأما آمد فَحَصَلَ فَتْحُها يوم الأحد في العَشْر الأول من المحرَّم، وكان مدبِّر آمد ابن نَيْسان[3]، فهو رئيسها والقائم بأمرها، وكان لآمد أميرٌ قديم يقال له إيكلدي من أيام السَّلاطين القدماء، وولده محمود شيخ كبير عنده يطعمه ويسقيه، ويدَّعي أنه من غِلْمانه ومصطنعيه، وأنه يحفَظُ البلد له، وأنه لا يغدر به ولا يُؤْثر بَدَله، وإذا جاء رسولٌ يحضره عند أميره، ويسند ما يدبِّره إلى تدبيره، ويقول: إنه غلام وما معه كلام. وحافظ على سر هذه السَّريرة، وأمن باحتياطه من جَوْر الجيرة، بل ما منهم إلا من يخاف مكره، ويحفظ منه وكره، وينكر عُرْفه ويعرف نُكْره.

٢/ ٤٠ ولم يزل الحصار عليهم إلى أن أذعنوا للانقياد، وخرجت نساؤهم سَحَراً إلى المخيَّم الفاضلي يطلبن الأمان، فأمَّنهم السُّلْطان على أنهم

---

(١) الرعناء: أنف الجبل المتقدم. «اللسان» (رعن).
(٢) أباجل جمع، مفردها أبجل، وهو عرق في باطن الذراع، وقيل: هو عرق غليظ في الرجل فيما بين العصب والعظم. «اللسان» (بجل).
(٣) في (ب) أبو القاسم علي بن نيسان. قلت: انظر حاشيتنا رقم١ ص ١٤٦ من هذا الجزء.

يخرجون بعد ثلاث، ويحملون ما قدروا عليه من المال والأثاث، وأعانهم السُّلْطان على نَقْلِ الأموال بالدَّوابِّ والرِّجال. فلما انقضت مدَّة الأمان تسلَّمها السلطان، وسلَّمها إلى نور الدين بن قرا أرسلان وأعمالها وما فيها. وكان السلطان وعده بها قبل ذلك، فأنجز له الوعد، وقد كان أبوه عاناها مدة وتمناها فما قدر عليها.

ثم وصف العماد ما كان في قلعة آمد* من الذَّخائر والأموال والحواصل والأمتعة، وأن أصحابها لم يقدروا في تلك الأيام الثلاثة إلا على تحويل ما خفَّ منها، واستغنى المساعدون لهم في تحويلها إليهم[١].

وكتب الفاضل عن السُّلْطان إلى الديوان ببغداد: وَرَدَ إلى الخادم التقليد الشَّريف بولاية آمِد، فلما رآه مستقرّاً عنده قال: هذا مِفْتاحها. وسمع الوصايا فاستضاء بها في ظلمات القصد وقال: هذا مِصْباحها. وتناوله فما ظنَّه إلا كتاباً أُنزل عليه من السَّماء في قِرْطاس، وما تيقَّنه إلا نوراً يمشي به في النَّاس، فسار به ولولا العادة ما استصحب جُنْدياً وعوَّل عليه، ولولا الزِّينة[٢] ما تقلَّد هندياً وطرق بابه بإقليده، ولولاه ما اسطاع الأولياء أن يَظْهَروه وما استطاعوا له نَقْباً[٣]، وناشد المقيم بتقليده ثلاثة أيام بثلاث[٤] رسائل، فلو كان ذا سَمْعٍ أَصْغى، ولو كان ذا لُبٍّ لَبَّى. فلما انقضت ضيافة أيام النِّذارة[٥]، واحتقر مَنْ بآمد نارَ الحَرْبِ جاهلاً أن وَقُودَها النَّاسُ

---

(١) انظر «البرق الشامي» ٥/ ش ٧ ـ ٨١، ص ٨٧ ـ ٩٦.
(٢) في الأصل و(ب) الرتبة، والمثبت من (ك).
(٣) اقتباس من قوله تعالى في سورة الكهف، الآية ٩٧ ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً﴾.
(٤) في الأصل: بثلاثة، والمثبت من (ك) و(ب).
(٥) أي الإنذار، وهو الإعلام مع التخويف. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٤٣٤.

والحِجارة[1]، عَمَدَ لها في اليوم الرَّابع فزلزل عُمُدَها، وقاتلها فأزال جِلْدها وزَيَّل جَلْمَدَها، ثم رأى أن الشَّوْكة ربما أصابت غير ذات الشَّوْكة من جُنْدها، وأن المُسْلم قد آمنه الله من عذاب الحريق، ولا يأمن أن تحرقه القِسِيُّ من السِّهام بشَرار زَنْدها، فعدَلَ إلى منجنيقه، الذي أمَّل صاحبُها منه منجىً نِيْقِهِ[2]، ورأى أنه سَوْطُ سَطْوته، يَضْرِبُ الحَجَر، ويُضْرِبُ عن أن يُباشر البَشَر، وتلك الأبرجة قد شَمَخَتْ بأنفها، ونأت بعِطْفها، وتاهت على وامقها، وغَضَّتْ عينَ رامقها، فهي في عقاب لُوح[3] الجو كالطَّائر، إلا أن المنجنيق أغرى بها عُقابيه، وَضَغَّمَها[4] بمخلبيه[5]، وجثم أمامها يخاصمها، وقام إلى الغير يحاكمها، ويضرب بعصاه الحَجَر، فتنبجس من النُّقوب أعينٌ لا ترسلِ الماء، ولكن تروي العطاش إلى منهل المدينة، وتنهل الظِّماء كذلك أياماً حتى محا من الشُّرفات شَنَبَ ثَغْرها، وتناوبها كَأْسُ فَتْكٍ تبين بهزٍّ أبراجها آثارُ سُكْرها، وعَلَتِ الأيدي الرَّامية لها، وغُلَّت الأيدي المحامية عنها، فلم يبق على سورها مَنْ يفتح جَفْناً، وشنَّ المنجنيق عليها غارَتَه إلى أن صارت شَنّاً، وفُضَّتْ صناديقُ الحجارة المُقْفَلة، وفُصِّلت منها أعضاء السُّور المتَّصلة، ووجب القتال لئلا يُظَنَّ بالخادم ألا جُندَ له إلا جَنْدَلَه، فأوعز بالتقدُّم إليها، ودخول النَّقابين فيها، فأُثخنت جراحاً بالنُّقوب، وهُتِكَ الحجابُ من أضالع البلد، فكاد يوصل إلى ما وراءها من القلوب، وخُشيت معرَّة الجيش في

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٤.

(٢) النِّيق: أرفع موضع في الجبل. «معجم متن اللغة» ٥/ ٥٧٩.

(٣) اللُّوح: الهواء. «اللسان» (لوح).

(٤) الضغم: العض الشديد. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٥٥.

(٥) في الأصل: بمخاليبه، والمثبت من (ك) و(ب).

وقت هَجْمه، وَرُوْسِل صاحبها بأنه كشف له الخِذْلان حتى بَصُرَ[1] على شَكّه بعِلْمه، فأعادَ الرسول مُسْتكنفاً[2] بحجب النَّجاة بإرسال ذوات الحجاب وإبرازهن، ومستكفاً ليد القتل بمن لم يكن جوابُه غير إحرازه وإحرازهن، ولم يُعارَضْ في نفسه ولا في قومه ولا في أمواله وهي ما هي؛ ذخائر موفَّرة، ومكاسب من أرباح مخسَّرة، كانت الحقوق عنها مذودة[3]، والآمال دونها مطرودة. وغَضَّ الخادم كُلَّ عين عن عَيْنه وَوَرِقِه، وصانَه في مخيَّمه من الفقر صيانته في ذات سُوره وخَنْدَقِه، واستوفى شَرْطَ الوفاء بما أعطاه من مَوْثِقه.

وهذه آمِد* فهي مدينةٌ ذِكْرُها بين العالم مُتَعالم، وطالما صادَمَ جانبها من تقادم، فرجع مَقْدُوعاً أنفه وإن كان فَحْلاً[4]، وقَرَعها فريدُ الهِمَّة واستصحب حَفْلاً، ورأى حَجَرها فقدَّر أنه لا يُفَكُّ له حَجْر، وسوادَها فحسب أنه لا ينسخه فَجْر، وحمِيَّةَ أنف أنفها فاعتقد أنه لا يستجيب لِزَجْر، من ملوك كلهم طوى صَدْرَه على الغليل إلى موردها، ووقفَ بها وقوف المُحِبِّ المسائل فلم يَفُزْ بما أَمَّلَ من جواب معهدها[5].

ثم ذكر تسليمها إلى ابن قرا أرسلان، ثم قال: ولما رأى صاحب مَيَّافارقين* أن أُخت صاحبته قد ابْتُني بها، خاف أن يُجمع له بين الأختين،

---

(١) في الأصل و(ب) نصر، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: مستنكفاً، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب): أي محاطاً. انظر «اللسان» (كنف).
(٣) في الأصل: مذادة، والمثبت من (ك) لتناسب السجعة.
(٤) كان الفحل غير الكريم إذا قَرُبَ من النَّاقة الكريمة لِيَقْعُوَ عليها قدع أنفه: أي ضرب أنفه بالرمح أو غيره حتى يرتدع وينكفَّ. «اللسان» (قدع).
(٥) «البرق الشامي» ٥/ ش ٨٦ ـ ٨٨، ص ١٠٠ ـ ١٠٢.

فراسل ببذل الخِدْمة التي يكون فيها لنور الدين ثاني اثنين[1].

ثم ذكر اجتماع المواصلة وشاه أرمن وصاحب مارِدِين* وصاحب أَرْزن* وبَدْلِيس، وغيرهم على قَصْدِ الخادم، ونزلوا تحت الجَبَل، فلما صحَّ عندهم قَصْدُه، ظنُّوا أنه واقعٌ بهم، فأخذوا أعِنَّة الفرار بقوة، وذكروا ما في لقائه من عوائد كانت عندهم مَخُوفة وعنده مرجوَّة، وسار كلُّ فريقٍ على طريق، بِنِيَّةِ عدوٍّ وفِعْلِ صديق، والخادم يقول مهما أرادت فيه الآراء الشريفة أتاه، ومهما نَوَتْ فيه من إحسانٍ قَرُبَ عليه ما نواه، فهذه آمِد* لما أُرسل إليه مِفْتاحُها وهو التَّقليد فَتَحها، وهذه المَوْصل لما تأخر عنه المِفْتاحُ مُنِعَها وما مُنحها، ولو أُعين به لَعَظُمَتْ على الإِسلام عائدته، وظهرت في رفع[2] مناره فائدته، لأنَّ اليد كانت تكون به على عدو الحق واحدة، والهِمَّة لآلات النَّصْر واجدة. فإن رأى أميرُ المؤمنين أن يميِّزَ بين أوليائه، ويَنْظُرَ أيُّهم أَبَرُّ بأوليائه، ٢/٤١
وأشَدُّ على أعدائه، وأقومُ بحقِّه وحق آبائه، وأثبتُ رأياً ورويَّةً في مواقف راياته، ومجالس آرائه، وأعظمُ إقداماً على ملحدين كلّهم كان يُنازعه رداءَ علائه، وكان السَّابقُ من ولاة الدولة العَبَّاسية قاصر السَّيف عن أن نسيغ الغُصَّة بمائه، وأَيُّهم أتركُ للفراش الممهَّد، وأهتكُ للطِّراف[3] الممدَّد، وأهجرُ في سبيل الله لراحِهِ، وأصبرُ في جهاد عدو الله على مضض جراحِه، وأَسْلى عن ريحانة فؤاد، وأكثر ممارسةً لحية واد، فيختار لهذه الأمة التي جعله اللَّهُ لها إماماً وأميراً، أسعدَ من أَجْرى في طاعته ضامراً وملأ بولائه ضميراً، فمن عَدْله أن يُولي عليها العَدْلَ الذي يقرُّ عَيْنها، ومن فَضْله أن

(١) «البرق الشامي» ٥/ش ٨٨، ص ١٠٢.
(٢) في الأصل: وقع، وهو تحريف، والمثبت من (ك).
(٣) في الأصل: للطريق، وهو تحريف، والمثبت من (ك).

لا ينسى الفَضْل بينها[١].

وقد ورد ذلك المنشور بآمِد* فأورد الميسور، بأن ورده المنشور المُشَار إليه بالجزيرة وما وسَقَت، فإنه نورٌ على نور، وما يحسبُ الخادمُ أن كيداً للعدوِّ الكافر أكْيَد، ولا جهداً لأهل الضَّلال أَجْهد، ولا عائدةً بغيظِ رؤساء أهل الإلحاد أَعْود، من تفخيم أمر الخادم بمزيد الاستخدام، وإلا فلينظر، هل يشقُّ على الكُفَّار مزيدُ أحدٍ سواه من وُلاة الإسلام، فكلُّ ذي سُلْطان هو الطَّاعم الكاسي، المَحْمِيُّ بالمناصل لا الحامي، المَكْفِي لا الكافي، يقضي عُمُرَه وهو لا يشهدُ الطَّعْنَ إلا في المَيْدَان، ولا يتمثَّل الهامَ طائراً لولا الكُرة في الصَّوْلجان، ولا يَشْقىٰ بسهمه إلا قِرْطاسُه، ولا يحظى برِفْده إلا أكياسُه، فأعاد الله بأمير المؤمنين هذا الدِّين إلى معالم حقِّه الأُولى، وأطال يد سُلْطانه الطُّولى، إلى أن تأخذ الأمور مآخذها عَدْلاً واعتدالاً، وسِلْماً وقتالاً، فتعود إلى الإسلام عوائدُ ارتياحه، وأيامُ منصوره وسَفَّاحه.

ومن كتابٍ آخر فاضلي عن السُّلْطان إلى وزير بغداد: أَصْدَرَ هذه الوسيلة إلى المجلس السَّامي، معوِّلاً على كرمه فيما حَمَلْتُهُ من اللُّبانة، مستغنياً بشهرة الحال المتجدِّدة عن الإبانة، فإن آمد* قَصُرَ الأَمَدُ في الظَّفر بها، وإنقاذها من المظالم التي [كانت][٢] تُلْبِسُ نهارها نُقْبَةَ غَيْهبها، وسار إليها ببقية العساكر بعد الذين ساروا إلى الشَّام، وأقاموا قبالة الكُفَّار، بعدَّة اقتصر عليها أكثرها من عساكر الدِّيار المصرية على بُعْد تلك الدِّيار، لِيَظْهَر

---

(١) انظر بعض الفقرات من هذا الإنشاء الفاضلي في «البرق الشامي» ٥/ش ٦٥ ــ ٦٦، ٨٩، ص ٨٤، ١٠٣.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

لمن نوى المناواة، ويتبيَّن لمن كان على منافاة الملاقاة، أنَّ رجالاً[1] من مِصْر فتحوا آمِد بعد سنة من البَيْكار[2]، وبعد غزوتين قد طولع بهما في تواريخهما إلى الكُفَّار، ففي ذلك ما يَغُصُّ الحاسد، ويَغُضُّ الحاقد، ويعلم أن في أولياء الدولة ما رَدَّ كُلَّ مارد. فلما حَلَّ بعقْوتها[3] أراد أن يُجري الأمر على صوابه، ويَلِجَ الأمرَ من بابه، وأن يُنْذِرَ المُغْتَرَّ ويوقِظَه، ويَعِظَهُ بالقَوْل الذي رأى من الرِّفْق.ألا يُغْلِظَه، فبعث إليه أن يَهُبَّ من كَرَاه، ويُعِدَّ لضيف التقليد قِراه، وينجو بنفسه منجى الذُّباب[4]، ولا يتعرَّض[5] لأن يكون منتجىً للذُّباب[5]، فإذا عريكته لا تلين إلا بالعِراك، وطريدته لا تُصاد إلا بالأَشْراك[6]، فَهُناك رأى عاجلاً ما هُناك، وقوتل حقَّ القتال في يومٍ واحد، عرف ما بعده من الأيام، ووقع الإشفاق من رَوْعةِ الحريم وسَفْك [الدم][7] الحرام، ونصب المنجنيقات، فأرسل عارضُها مطرَه، وفَطَرَ السُّورَ بقدرة الذي فَطَره، وخَطَبَ أمامها خطيبُ خَطْبه، وأغمد الصَّارم اكتفاءً بضَرْبِه، وتَرَفَّه أهلُ الحرب لِحُسْنِ المناب منه عن حَرْبه، فصار في أقرب الأوقات جبلُها كثيباً مهيلاً، وعُفِّرتِ الأَبْرِجة وجهاً تَرِباً، ونظرت القلعة نظراً كليلاً، حتى إذا أمكنت النُّقُوبُ أن تُؤْخَذ، وكبد السُّور أن تُفْلَذ، رأى الذي لا يصبر

---

(١) في الأصل: وأن رجالاً، والمثبت من (ك).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦١ من هذا الجزء.

(٣) العقوة: الساحة، وما حول الدار والمحلة. «اللسان» (عقا).

(٤) هذا كقول الشاعر:

نجا بك لؤمك منجىٰ الذباب ... حمته مقاذيره أن يُنالا

انظر «التمثيل والمحاضرة» للثعالبي: ٣٧٥.

(٥ ــ ٥) ما بينهما ساقط من (ك).

(٦) الشَّرَك: حبالة الصائد: كل ما ينصب للصيد. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٣١٢.

(٧) ما بين حاصرتين من (ك).

على بعضه، واعتذر إليه البِنَاءُ الذي بناءُ الأمر إن لم يَقْضه، فلا بُدَّ من نَقْضه، وسأل فأجيب إلى الأمان على نَفْسه، وخرج منها وإنما أخرجه الظُّلْم، وسَلِمَ وهو يرى السَّلامة إما من الحُلُم وإما من الحِلْم.

ثم قال: ولولا تقليدُ أمير المؤمنين لما فُتِحَ له البابُ الذي قَرَعه، ولا أُنزل عليه النَّصْرُ الذي أُنزل معه، ولا ساعَدَ سيفاً ساعِد، ولا نالت يدٌ مُدَّت من مِصْر فأخذت آمِد وَمَنْ بآمِد، ولو قُبلت مسألته في تقليد المَوْصل، لكان وَلَجها ولو بدلجةٍ ادَّلجها، وأخذَها ولو بحصَاةٍ نبذَها، وهو يتوقَّع في جواب هذا الفتح أن يُمَدَّ بجيشٍ هو الكلام، ورماحٍ هي الأقلام، ونصرٍ هو وافد الأمر، وترشيدٍ هو فكُّ الحَجْر، وليس ذلك لوسائل [تقدَّمت][1] من دولةٍ أقامها بعد مَيْل عُروشها، ولا لدعوةٍ قام فيها بما تصاغَرَتْ دونه هِمَمُ جيوشها، ولكن لأن هذه الجزيرة الصغيرة منها تنبعث الجريرة الكبيرة، وهي دار الفُرْقة ومدار الشُّقَّة، ولو انتظمت في السِّلْك، لانتظم جميع عسكر الإِسلام في قتال الشِّرْك، ولكان الكُفْر يُلْقي بيديه، وينقلبُ على عقبيه، ويغشاه الإِسلام من خلفه ومن بين يَديه، ويُغْزَى من مِصْر براً وبحراً، ومن الشَّام سراً وجهراً، ومن الجزيرة مَدّاً وجَزْراً، ويكون خادمه قد وجب أن يتمثَّل بقوله تعالى: ﴿ولقد مَنَنَّا عليك مَرَّةً أُخرى﴾[2].

ومن كتابٍ آخر: كتابنا هذا والمدينة قد فُتحت أبوابها، وعُذقت[3] بدولتنا أسبَابها، وتكلَّم لسان عَلَمنا في فم قلعتها. وبعد أن لبستها دولتنا، وَفَينا بموعد خِلْعتها، فالحمد لله الذي تتمُّ النعمة[4] بحمده، وينجحُ الأَمَلُ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سورة طه، الآية: ٣٧.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٠ من هذا الجزء.

(٤) في (ك) النعم.

بقَصْده ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يُمْسِك فلا مُرْسِلَ له مِنْ بعده﴾[1].

قال العماد: ثم دخل السُّلْطان مدينة آمِد*، وجلس في دار الإمارة، وحَلَّفَ نورَ الدين بن قرا أرسلان على أنه يُظْهِرُ بها العَدْل، ويقمع الجَوْر، ويكون سامعاً مطيعاً للسُّلْطان؛ من معاداة الأعداء، ومصافاة الخِلاَّن، في كلِّ وقتٍ وزمان، وأنه متى استمدَّه من آمد لقتال الفرنج وجده لذلك يقظان، وإليه عطشان[2]. ٢/٤٢

قال: وكان هذا نور الدين في خدمة السُّلْطان بنفسه وعسكره منذ عبر الفُرَات، ثم إن رُسلَ ملوك الأطراف اجتمعت عند السلطان كل يطلب لصاحبه الأمان، وأن يتخذه من جُمْلَة الأعوان؛ منهم صاحب مارِدِين*، وصاحب مَيَّافارقين*، وهما قريبا ابن قرا أرسلان، فَرَدَّ السُّلْطان كلَّ رسولٍ بسوله، وأجاب إقباله بقبوله[3]. ثم رحل السلطان من آمِد، وعبر الفرات لقصد حلب وولاياتها، فتسلَّم في طريقه تل خالد* بالرُّعْب، ولم يكن منهم بالقُرْب، فأقَرَّ أهلها فيها، ثم نزل على عين تاب*، فبادر صاحبها ناصح الدين محمد بن خُمارْتِكِين إلى خدمة السُّلْطان، فأعاده إلى مكانه بالإحسان[4].

وقال ابن أبي طي: تسلَّم السُّلْطان تل خالد في رابع عشر محرَّم،

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢، وانظر «البرق» ٥/ش ٨٢، ص/٩٧.
(٢) «البرق»: ٥/ش ٩١ ــ ٩٢، ص ١٠٤ ــ ١٠٥.
(٣) «البرق»: ٥/ش ٩٧، ص ١٠٩ ــ ١١٠.
(٤) «البرق»: ٥/ش ١٠٠، ص ١١٢.

وسلمها إلى بدر الدين دُلْدُرُم[1].

ومن كتابٍ فاضلي: نزلنا تل خالد* يوم الثلاثاء ثاني عشر محرَّم، وكان قد تقدَّمنا الأجلُّ تاجُ الملوك إليها، وأناخ عليها، وقابلها وقاتلها، وعالجها ولو شاء لعاجلها، ولما أَطلَّتْ عليها[2] راياتنا ألقى من فيها بيده، وأنجز النَّصْرَ صادقُ مَوْعده، وأرسلتها حلب مقدِّمةً لفتحها، وقد أنعمَ الله علينا بنعمٍ لا نحصيها تعداداً، ولا نستقصيها اعتداداً، ولا نستوعبها ولو كان النَّهار طِرْساً والبحرُ مِداداً، وراياتُنا المنصورة قد صارت مغناطيس البلاد تَجْذِبُها بطبعها، وسيوفُنا قد صارت مفاتح الأمصار تفتحها بنصر الله لا بحدِّها ولا بقطعها[3].

قلتُ: وما أحسن ما قال التَّلَّعْفَري[4] من قصيدةٍ له في السُّلْطان:

قل للملوكِ تنحَّوْا عن ممالككمْ فقد أتى آخذُ الدُّنيا ومُعْطيها

فَصْــل
في فتح حلـب

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما عاد السُّلْطان بدأ بتل خالد، فنزل عليها وقاتلها، وأخذها في ثاني عشر محرَّم سنة تسعٍ وسبعين، ثم سار إلى حلب،

---

(١) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد ذكر أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفاته سنة (٦١١ هـ).

(٢) في الأصل: عليه، والمثبت من (ك).

(٣) «البرق الشامي»: ٥/ش ٩٨ ـ ٩٩، ص ١١٠ ـ ١١١.

(٤) هو مظفر بن محمد، موفق الدين، فيلسوف من الشعراء، من أهل تل أعفر من حصون سنجار، توفي سنة (٦٠٢ هـ)، انظر ترجمته في «الغصون اليانعة»: ٥٩ ـ ٦٥.

فنزل عليها في سادس عشري المحرَّم، وكان أول نزوله بالمَيْدَان الأخضر، وسيَّر المقاتلة يقاتلون، ويباسطون عَسْكر حلب ببانَقُوسا* وباب الجِنان* غُدْوةً وعشية. وفي يوم نُزُوله جُرِحَ[1] أخوه تاج الملوك. وكان عماد الدين زَنْكي[2] قبل ذلك قد خرج وخَرَّب قلعة عَزَاز* في تاسع جمادىٰ الآخرة سنة ثمانٍ وسبعين، وخرَّب حصن كفرلاثا*، وأخذها من بكمش، فإنه كان قد صار مع السُّلْطان، وقاتل تل باشر*، فلم يقدر عليها، وجَرَتْ غارات من الفرنج على البلاد بحكم اختلاف العساكر[3].

قال: ولما نزل السُّلْطان على حلب استدعى العساكر من الجوانب، فاجتمع خَلْقٌ كثيرٌ، وقاتلها قتالاً شديداً، وتحقَّق عماد الدين زَنْكي أنه ليس له به قِبَل، وكان قد ضَرِسَ من اقتراح الأمراء عليه وَجَبْهِهم، فأشار إلى حسام الدين طُمان أن يَسْفِرَ له مع السُّلْطان في إعادة بلاده، وتسليم حلب إليه، واستقرَّت القاعدة، ولم يشعر أحد من الرَّعية ولا من العسكر حتى تَمَّ الأمر، ثم أعلمهم، وأَذِنَ لهم في تدبير أنفسهم، فأنفذوا عنه وعن الرَّعية عِزَّ الدين جُرْديك وزين الدين بلك، فبقُوا عنده إلى اللَّيل، واستحلفوه على العَسْكر وعلى أهل البَلَد، وذلك في سابع عشر صفر، وخرجت العساكر إلى خدمته إلى الميدان الأخضر ومقدَّمو حلب، وخَلَع عليهم، وطيَّب قلوبهم، وأقام عماد الدين بالقلعة يقضي أشغاله وينقل أقمشته وخزائنه إلى يوم الخميس ثالث عشري صفر[4].

---

(١) في الأصل: خرج، وهو تصحيف، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: عماد الدين بن زنكي، وهو خطأ، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) انظر «النوادر السلطانية»: ٥٨ ــ ٥٩، ولم يسق أبو شامة الأخبار كما وردت، بل قدَّم فيها وأَخَّر.

(٤) «النوادر السلطانية»: ٥٩.

وفيه توفي تاج الملوك أخو السُّلْطان من الجُرْح الذي كان أصابه، وشقَّ عليه أمر موته، وجلس للعَزَاء[1].

قلت: وكان أصغر أولاد أيوب، ذكر ابن القادسي[2] أن مولده سنة ستٍّ وخمسين في ذي الحِجَّة، فيكون عمره اثنتين وعشرين سنة وشيئاً، وأنشد له شِعْراً.

وقال العمادُ الكاتب في كتاب «الخريدة»: إنه لم يبلغ العشرين سنة، وله نَظْمٌ لطيف، وَفَهْمٌ شريف[3].

ثم قال القاضي أبو المحاسن: وفي ذلك اليوم نزل عماد الدين إلى خدمته وعزَّاه، وسار[4] معه بالميدان الأخضر، وتقرَّرت بينهما قواعد، وأنزله عنده بالخيمة، وقدَّم له تقدمةً سَنِيَّة، وخيلاً جميلة، وخلع على جماعةٍ من أصحابه. وسار عماد الدين من يومه إلى قَرَا حِصَار* سائراً إلى سِنْجار*، وأقام السلطان بالمخيَّم بعد مسير عماد الدين غير مكترثٍ بأمر حلب ولا مستعظمٍ لشأنها إلى يوم الاثنين سابع عشري صفر، ثم صَعِدَ في ذلك اليوم قلعة حلب مسروراً منصوراً، وعمل له حسام الدين طُمان دعوةً سنية، وكان قد تخلَّف لأخذ ما تخلَّف لعماد الدين من قُماش وغيره[5].

وقال العماد: وصل السُّلْطان إلى حلب وفيها عماد الدين زَنْكي بن

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٦٠.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٣) «خريدة القصر» بداية قسم شعراء الشام: ١٣٦، وقد ساق في ترجمته ثمت أبيات من شعره.

(٤) في الأصل و(ك) وسيَّر، والمثبت من «النوادر».

(٥) «النوادر السلطانية»: ٦٠.

مودود[1] الذي كان صاحب سِنْجار، وقد تحصَّن بكثرة الأجناد والعُدَد، وأراد مقابلة السلطان ومقاتلته، وأراد السُّلْطان أن يظفر بها بدون ذلك من القتال وعداوة الرجال، لكن الشَّباب وجُهَّال الأصحاب راموا القتال، وأحبُّوا النِّزال، وتقدَّموا وأقدموا، والسُّلْطان ينهاهم فلا ينتهون، وكان فيهم تاج الملوك[2] بوري أخو السُّلْطان، فطعن في فخذه، ثم مات بعد ذلك بأيام بعد فتح البلد. وكان السلطان ذلك اليوم قد صنع وليمةً لعماد الدين زَنْكي، وكان السلطان أول ما نزل على حلب نزل في صَدْر الميدان الأخضر، وذلك في زمن الرَّبيع الأنضر، ثم رحل ونزل على جبل جَوْشَن*، ونهى عن القتال،
٤٣/٢ وقال: نحن هاهنا نستغلُّ البلادَ، وما علينا من الحصن الذي بلغ منه هذا العناد. ونفَّذَ رُسُلَ الترهيب إليهم، ففكَّر عماد الدين [زنكي][3] في أمره، ورأى أن الصَّواب مصالحةُ السلطان، فنفَّذ سراً إليه حسام الدين طُمان، وصالحه، وحلَّفه على أن يُسَلِّم إليه حلب، ويرد عليه بلدة سِنْجار. ففعل وزاده الخابور* ونَصِيبين* والرَّقَّة وسَرُوج*، واشترط عليه إرسال العسكر في الخدمة للغَزَاة[4].

ومن كتبٍ فاضلية: تسلَّمنا مدينة حلب وقلعتها بسِلْم وَضَعَتْ به[5] الحَرْبُ أوزارها، وبلغت بها الهِمَمُ أَوْطَارها، وعوِّض صاحِبُها بما لم يخرج عن اليد، لأنه مشترط عليه به الخدمة بنفسه وعَسْكره، ومختلط بالجملة فهو أحدُ الأولياء في مغيبه ومحضره، عُوِّض عماد الدين عنها من بلاد الجزيرة

(١) في (ك) ممدود، وهو خطأ.
(٢) في الأصل: الدين، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) «البرق الشامي» ٥/ ش ١٠١ ــ ١١٠، ص ١١٣ ــ ١٢٠.
(٥) في الأصل: بها، والمثبت من (ك).

سِنْجار* ونَصِيبين* والخابور* والرَّقَّة وسَرُوج*، فهو صَرْف بالحقيقة؛ أخذنا فيه الدِّينار وأعطينا[1] الدَّراهم، ونزلنا عن المبيحات وأَحْرزنا العواصم، وسرَّنا أنها انجلت والكافر المحارَبُ، والمُسْلم المسالَم[2]. واشترطنا على عماد الدِّين الخدمة والمظاهرة، والحضور في مواقف الغَزْو[3] والمُصَابرة، فانتظم الشَّمْل الذي كان نثيراً، وأصبح المؤمن بأخيه كثيراً، وزال الشَّغَب، وأُخمد اللَّهب، واتَّصل السَّبب، وأُخذت للغَزَاة الأُهَب، ووصلت إلى غايتها هِمَّةُ الطَّلب، والأُلْفة واقعة، والمَصْلحة جامعة، وأشعة أنوار الاتفاق شائعة[4].

فتحنا مدينةَ حلب بسِلْم ما كشفت لِحُرْمتها قِناعاً، وتسلَّمنا قلعتها التي ضمنت أن نتسلَّم بعدها بمشيئة الله قِلاعاً، وعُوِّض صاحبها من بلاد الجزيرة ما اشترط عليه به الخدمة في الجهاد بالعُدَّة الموفورة، فهي بيدنا بالحقيقة، لأن مرادنا من البلاد رجالُها لا أموالها، وشوكتها لا زهرتها، ومناظرتها للعدو لا نضرتها، وأن تَعْظُمَ في العدوِّ الكافر نكايتُها، لا أن تُعْذَقَ[5] بالولي المُسْلم ولايتُها. والأوامر بحلب نافذة، والرَّاياتُ بأطراف قلعتها آخذة[6].

وجاء أهل المدينة يستبشرون، وقد بلغوا ما كانوا يؤمِّلون، وأَمِنوا ما كانوا يحذَرون، وعُوِّض صاحبها ببلادٍ من الجزيرة، على أن تكون

---

(١) في الأصل: وأعطيناه، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: والمسلم فهو المسالم، والمثبت من (ك).

(٣) في (ك) العز، وفي «البرق» العزم.

(٤) انظر «البرق الشامي» ٥/ش ١٢١ ــ ١٢٢، ص ١٢٨ ــ ١٢٩، ففيه تقديم وتأخير في سياق الكتاب المذكور.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٠ من هذا الجزء.

(٦) «البرق» ٥/ش ١٢٢ ــ ١٢٣، ص ١٢٩.

العساكر مجتمعةً على الأعداء، مُرْصَدَةً للاستدعاء، فالبلادُ بأيدينا لنا مغنَمُها ولغيرنا مَغْرَمُها، وفي خدمتنا ما لا نسمح به وهو عَسْكرها[1]، وفي يده ما لا نضنُّ به وهو دِرْهَمُها.

شرطنا على عماد الدِّين النَّجْدة في أوقاتها، والمظاهرة على العُداة عند ملاقاتها، فلم يخرج منا بلدٌ إلا إلينا عاد عسكره، وإنما استنبنا فيه من يحمل عنا مؤنته ويدبِّره، ويكون عساكره إلى عساكرنا مضافة، ونتمثل قوله سبحانه وتعالى ﴿وقاتلوا المُشْرِكين كافَّة كما يُقَاتِلُونكم كافَّة﴾[2].

[و][3] نشعر الأمير بما مَنَّ الله به من فَتْح مدينة حلب التي هي مفتاح البلاد، وتسَلُّم قلعتها التي هي أحد ما رَسَتْ به الأرض من الأوتاد، فلله الحمد، وأين يقع الحمد من هذه المِنَّة، ونسأل الله الغاية المطلوبة بعد هذه الغاية وهي[4] الجنة. وصَدَرَتْ هذه البُشْرى والموارِدُ قد أَفْضَت إلى مصادرها، والأحكام في مدينة حلب نافذة في باديها وحاضرها، وقلعتها قد أناف لواؤنا على أنفها، وقبضت على عقبه بكفِّها، واعتذرت من لقائه أمس برشفها، ورأينا أن نتشاغل بما بورك لنا فيه من الجهاد، وأن نوسِّع المجال فيما يُضَيَّقُ [به][5] تقلُّبُ الذين كفروا في البلاد[6].

قلتُ: ولأبي الحسن بن السَّاعاتي[7] في مَدْح السُّلْطان عند إرادة فتح حلب قصيدة، منها:

---

(١) في (ك) عسكرنا.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) في الأصل: فهي، والمثبت من (ك).

(٥) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/ ٤٣.

(٦) «البرق الشامي» ٥/ ش ١٢٣، ص ١٣٠.

(٧) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨ من هذا الجزء.

ما بعد لُقْياك للعافين[1] من أَمَلِ ... مَلْكَ المُلُوك وهذي دولةُ الدُّوَلِ
فانهضْ إلى حَلَبٍ في كلِّ سابقةٍ ... سُرُوْجُها قُلَلٌ[2] تُغْني عنِ القُلَلِ
ما فَتْحُها غَيْرُ إقليدِ[3] الممالكِ والدَّ (م) ... اعـي إليـه جميـعُ الخَلْـق والمِلَـلِ
ومـا عَصَـتْ مَنْعَـةً لكنَّـه غَضَـبٌ ... عـلامَ أَهْمَلْتَهـا إهمـالَ مُبْتَـذِلِ
غارَتْ وَحَقِّك من جاراتها فَشَكَتْ ... ما بالَهُ باقتضاضي غَيْرُ مُحْتَفِلِ[4]

[قلت: وهذا معنى حسن يشير إلى أنها كانت من آخر البلاد الإسلامية فتحاً على يديه، فلهذا غضبت إذ كان من حقها لجلالة قدرها أن تخطب أولاً][5].

وللقاضي السعيد ابن سناء المُلْك[6] من قصيدةٍ:

بِدَوْلَةِ التُّرْكِ عزَّتْ مِلَّةُ[7] العَرَبِ ... وبـابـن أيـوبَ ذلَّـت بِيْعَـةُ الصُّلُـبِ

---

(١) وتجمع أيضاً على عفاة، مفردها العافي، وهو الضيف، وطالب المعروف. «اللسان» (عفا).

(٢) القلل جمع، مفردها قُلَّة، وهي من كل شيء أعلاه، ومنه: قلة الجبل. «اللسـ[ان]» (قلل).

(٣) الإقليد: المفتاح. «اللسان» (قلد).

(٤) «ديوان ابن السّاعاتي» ٢/ ٣٨٢ ــ ٣٨٤.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك).

(٦) هو أبو القاسم هبة الله بن جعفر بن المعتمد، سناء الملك، شاعر كبير من مصر، نحو سنة (٥٥٠ هـ)، وتوفي سنة (٦٠٨ هـ) بالقاهرة، له ديوان شعر طبع غير م[...] وإحالتنا على طبعة دار الكاتب العربي بمصر، تحقيق الدكتور محمد إبراهيم نصر.
انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٦٤ ــ ١٠٠، و«معجم الأدباء» ١٩/ ٢٦٥ ــ ٢٧١، و«وفيات الأعيان» ٦/ ٦١ ــ ٦٦.
قلت: وقصيدته هذه ساقطة من (ك).

(٧) في النسخ الخطية: دولة، والمثبت من «ديوانه».

إنَّ العواصم كانت أي عاصمةٍ ... معصومةً بتعاليها عن الرُّتَبِ
جليسةُ النَّجْمِ في أعلى مَرَاتِبِه ... وطالما غابَ عنها وهي لم تَغِبِ
ومانَعَتْه كمَعْشُوقٍ تَمَنُّعُه ... أحلى من الشَّهْدِ أو أَشْهى من الضَّرَبِ[1]
فمرَّ عنها بلا غيظٍ ولا حَنَقٍ ... وسار عنها بلا حِقْدٍ ولا غَضَبِ
تطوي البلادَ وأهليها كتائبُه ... طَيّاً كما طَوَتِ الكُتَّابُ للكُتُبِ
أرضُ الجزيرةِ لم تَظْفَرْ ممالِكُها ... بمالكٍ فَطِنٍ أَوْ سائسٍ دَرِبِ
٢/٤٤ ممالكٌ لم يُدَبِّرْها مُدَبِّرُها ... إلا برأيِ خَصِيٍّ أو بِعَقْلِ صَبي
حتى أتاها صلاحُ الدِّينِ فانْصَلَحَتْ ... مِنَ الفَسَاد كما صَحَّتْ من الوَصَبِ[2]
وقد حَوَاها وأَعْطَى بعضَها هِبَةً ... فهو الذي يَهَبُ الدُّنيا ولم يَهَبِ
ومُذْ رأَتْ صَدَّه عن رَبْعها حلبٌ ... وَوَصْلَهُ لبلادٍ حُلْوَةِ الخَلَبِ
غارَتْ عليه وَمَدَّت كفَّ مُفْتَقِرٍ ... منها إليه وأَبْدَتْ وَجْهَ مُكْتَئِبِ
واسْتَعْطَفَتْهُ فوافَتْها عواطِفُهُ ... وأَكْثَبَ الصُّلْحُ[3] إذ نادَتْهُ عن كَثَبِ
وحلَّ منها بأُفُقٍ غيرِ مُنْخَفِضٍ ... للصَّاعدين وبُرْجٍ غيرِ مُنْقَلِبِ
فَتْحُ الفُتوح بلامَيْنِ وصاحِبُهُ ... مَلْكُ الملوك ومَوْلاها بلا كَذِبِ[4]

وقال ابنُ أبي طي: وكان كثيرٌ من الشُّعراء يحرِّضون السُّلْطان على فَتْحِ حلب، منهم أبو الفضل بن حُميد الحلبي، له من قصيدة:

يا ابن أيوبٍ لا بَرِحْتَ مدى الدَّهْـ ... ـرِ رفيعَ المكانِ والسُّلْطانِ
حَلَبُ الشَّامِ نحو مرآكَ وَلْهى ... وَلَهَ الصَّبِّ رِيْعَ بالهِجْرانِ

---

(١) الضرب ــ بالتحريك ــ العسل الأبيض. «اللسان» (ضرب).
(٢) الوصب: الوجع والمرض. «اللسان» (وصب).
(٣) أكثب: أي دنا. «اللسان» (كثب).
(٤) «ديوانه»: ٢/١ ــ ٤.

وقال ابنُ سَعْدان الحَلَبي[١] في قصيدة:

دُوْنَكَ والحسناءَ [من][٢] أم القُرَى ... وبازَها الأَشْهَبَ والطَّوْدَ الأَشَمْ
واركب إلى العَلْياء كلَّ صَعْبَةٍ ... أَبَيْتَ لعناً وخَلاك كلُّ ذَمْ
وارم فَكَلُّ الصَّيْدِ في جَوْف الفَرَا ... لا صارِدَ[٣] السَّهْمِ ولا نابي الحَكَمْ
مُدَّ إلى أُختِ السُّهاءِ[٤] زَوْرَةً ... لا فَرَقٌ يعْقبها ولا نَدَمْ
فيا لها شَمَّاءَ مُشْمَخِرَّةً[٥] ... تطارِحُ البَرْقَ وساحاتِ الدِّيَمْ[٦]
ايهِ صلاحَ الدِّين شُدَّ أَزْرها ... واعزمْ عليها فالزَّمان قَدْ عَزَمْ
ودونك المنعةَ من قِبابها ... وبابها المُغْلَقَ في وَجْهِ الأُمَمْ

قال: وفي آخر يوم السبت ثامن عشر صفر نُشِرَ سَنْجَق[٧] السُّلْطان الأصفر على سور قلعة حلب، وضُرِبَتْ له البشائر، وفي ذلك الوقت تخفَّى عماد الدين، وخَرَجَ من القلعة ليلاً إلى الخيم، وأخذ في إخراج ما كان له في القَلْعة من مالٍ وسلاح وأثاث. وكان استناب الأمير حسام الدين طمان في القلعة حتى توافي رسله بتسليم سِنْجار* ونَصِيبين* والخابور* إلى نوَّابه، وأعطى السُّلْطانُ طُمانَ الرَّقَّة لوساطته في أمر عماد الدِّين. وكان السلطان

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨٤ من الجزء الثاني.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) أي لا مخطىء الرمي، ومنه: أصرد السهم: أخطأ. «اللسان» (صرد).
(٤) السها: كويكب صغير، خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم. «اللسان» (سها).
(٥) أي عالية. «اللسان» (شمخر).
(٦) الديم جمع، مفردها ديمة: وهي من المطر الذي لا رعد فيه ولا برق. «اللسان» (دوم).
(٧) السنجق: كلمة تركية، يراد بها الراية. «معجم متن اللغة» ٣/ ٢٢١.

شَرَطَ أنه ما يريد من حَلَب إلا الحجر فقط، وأَذِنَ لعماد الدين في أَخْذ جميع ما في القلعة، وما يمكنه حَمْله، فلم يترك عماد الدين فيها شيئاً، وباع في السُّوق كل ما لم يتمكَّن مِنْ حمله، وأطلق له [السلطان][1] بغالاً وجمالاً وخيلاً برسم حَمْلِ ما يحتاج إلى حمله، وعمل له يوم الأحد تاسع عشر صفر دعوةً عظيمةً في الميدان الأخضر، وأحضرها جميع الأمراء ومقدَّمي حلب.

قال: وبينما السُّلْطان على لذَّته بالدَّعْوة، والأخذ والعَطَاء، والإنعام والحِباء، إذ حضر إليه مَنْ عَرَّفه وفاةَ أخيه تاج الملوك بسبب الضَّرْبة التي أصابته على حلب، فلم يتغيَّر لذلك ولا اضطرب، ولا انقطع عَمَّا كان عليه من البَشَاشة والفَرَح، وبَذْلِ الإحسان، وأَمَرَ بِسَتْرِ ذلك وَتوعَّد عليه إنْ ظهر، وكَظَمَ حُزْنه وأخفى رَزِيَّته، وصبر على مُصيبته، ولم يَزَل على طَلاقته وبشاشته إلى وقت العَصْر، وفي ذلك الوقت انقضتِ الدَّعوة وتفرَّق النَّاس، فحينئذٍ قام رحمه الله واسترجع، وبكى على أخيه، ثم أمر به فَغُسِّلَ وكُفِّن، وصلى عليه، وأمر به فدفن في مقام إبراهيم ﷺ بظاهر حلب، ثم حمله بعد ذلك إلى دمشق، ودفنه بها.

قال: وكان تاج الملوك شاباً حَسَنَ الشَّباب، مليح الأعطاف، عَذْبَ العبارة، حُلْوَ الفُكاهة، مليح الرَّمي بالقَوْس والطَّعْن بالرُّمْح، وكان شجاعاً باسلاً مِقْداماً على الأهوال، وكان قد جمع إلى ذلك الكَرَم والتفنُّن في الأدب، وله ديوان شِعْر حسن متوسط، فمنه:

يا هذه وأماني النَّفْس قُرْبُكُمُ ... يالَيْتَها بَلَغَتْ منكم أمانيها
إن كانتِ العَيْنُ مُذْ فَارَقْتُكُمْ نَظَرَتْ ... إلى سِوَاكم فخانتني[2] أماقيها

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٢) في الأصل: فخانتها، والمثبت من (ك) و(ب).

قال: ولما انقضت تعزية السلطان بأخيه خلع على النَّاس في اليوم
الرَّابع، وفرَّق في وجوه الحلبيين الأموال. وفي سادس عشر صفر ورد ٢/٤٥
أصحابُ عماد الدين، وأحضروا إليه العلائم بتسلُّم سِنْجار* ونَصِيبين*
والخابور*، ففي ذلك اليوم سلَّم قلعة حلب، وأنزل منها الأمير طمان
وأصحابه، ولما سلَّمها إلى نوَّاب السُّلْطان ركب عماد الدين في وجوه
أصحابه وأمرائه، وخرج إلى خدمة السُّلْطان ظاهراً وركب السُّلْطان إلى
لقائه، فاجتمعا عند مشهد الدعاء الذي بظاهر حلب من جهة الشَّمال،
فتسالما، ولم يترجَّل أحدٌ منهما لصاحبه. ثم جاء بعد عماد الدين وَلَدُه قطب
الدين، فترجَّل للسُّلْطان، وترجَّل السلطان له، واعتنقه، وعادا فركبا، وسار
هو وأبوه في خدمة السلطان إلى المخيَّم بالميدان الأخضر، فأجلس السُّلْطانُ
عمادَ الدين معه على طرَّاحته[1]، وقدَّم له تقدمةً حسنةً: عشرين بقجة[2]
صفراء، فيها مئة ثوب من العَتَّابي والأطلس والمعتق والمُمَرَّش، وغير ذلك
وعشرة جلود قُنْدُس، وخمس خِلَع خاص برسمه ورَسْم ولده، ومئة قَبَاء،
ومئة كُمَّة[3]، وحِجْرتين[4] عربيتين بأداتهما، وبغلتين مسروجتيـن، وعشرة
أكاديش[5]، وخمس قطر بغال، وثلاث قطر جمال عربيات، وقطار بُخْت.
ولما فرغ السُّلْطان من عرض الهدية قَدَّم الطعام، فلما أصاب منه عماد الدين
نهض للرُّكوب، وخرج السلطان معه وركب لوداعه، وسار معه إلى قريب من
بابِلَّى[6]، وودَّعه، وعاد وسار عماد الدين إلى بلاده.

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥٦ من الجزء الثاني.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١١٦ من الجزء الثاني.
(٣) القلنسوة المدورة. «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» لدوزي: ٣١٣.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٩٦ من هذا الجزء.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٧ من الجزء الثاني.
(٦) قرية كبيرة بظاهر حلب. «معجم البلدان»: ١/٣٠٩.

قال: وفي يوم الاثنين سابع عشر صفر رَكِبَ السُّلْطان، وصَعِدَ إلى قلعة حلب، وكان صعودُه إليها من باب الجبل، وسُمِعَ وهو صاعد إلى قلعة حلب يقرأ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ المُلْكِ تُؤْتي المُلْكَ مَنْ تَشاء﴾[1] الآية. وقال: والله ما سُرِرْتُ بفتح مدينةٍ كسُروري بفتح هذه المدينة، والآن قد تبيَّنت أنني أملك البلاد، وعَلِمْتُ أن مُلْكي قد استقرَّ وثَبَتَ. وقال: صَعِدْتُ يوماً مع نور الدين رحمه الله تعالى إلى هذه القلعة، فسمعتُهُ يقرأ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ المُلْك﴾ الآية.

قال: ولما بلغ السُّلْطان بابَ[2] دار عماد الدين قرأ ﴿وأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ ودِيارَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ وأَرْضاً لم تَطَؤُوها﴾[3] ثم صار إلى المقام، فصلَّى ركعتين، ثم سجد، فأطال السجود، ثم خرج ودار في جميع القلعة، ثم عاد إلى المخيَّم، وأطلق المكوس والضَّرائب، وسامح بأموالٍ عظيمة، وجلس للهناء بفتح حلب، وأنشده جماعةٌ من الشُّعراء، منهم يوسف البُزَاعي[4] له من قصيدةٍ:

شَرُفَتْ بسامي مَجْدِك الشَّهْباءُ ... وتجلَّلتها بهجةٌ وضِياءُ
أَلْقَتْ إليكَ قِيادَها وبها على ... كلِّ الملوك تَرَفُّعٌ وإباءُ

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٢٦.
(٢) في الأصل: إلى باب، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧.
(٤) نسبة إلى بزاعا ــ بضم الباء الموحدة وفتح الزاي، وبعد الألف عين مهملة ثم ألف ــ وهي قرية كبيرة ما بين حلب ومنبج في نصف الطريق. انظر «وفيات الأعيان» ١/ ١٤٥. أما ترجمة الشاعر، فلم أهتد إلى مظانها.

ومنهم سعيد بن محمد الحريري، له من قصيدة تقدَّم بَعْضُها[1]:

وَصَبَّحْتَ شهباءَ العَواصِمِ مُصْلِتاً قواضِبَ عَزْمٍ لا يُفَلُّ شهيرُها
فأَمْطَتْكَ منها غازياً فيكَ راغباً وعادَ يسيراً في يَدَيْكَ عَسِيْرُها
وَأَوْطَأْتَ منها أَخْمَصَيْكَ تَنُوفَةً[2] يَعِزُّ على الشِّعْرَىٰ العَبُور[3] عُبُورها
وَرَدَّ إليها روحُ عَدْلِك روحَها وكانت رميماً لا يُرَجَّى نُشُوْرُها

قال[4]: وقال والدي أبو طي النَّجّار من قصيدةٍ:

حَلَبٌ شامة الشَّام وقد زِيْـ ـدَتْ جلالاً بيوسفٍ وجَمَالا
هي أُسُّ الفَخَار مَنْ نال أَعلا ها تعالى فَخَامَةً وتغالا
ومحلُّ العلاء من حَلَّ فيها تاه كِبْراً وعِزَّةً وجلالا
مَنْ حَوَاها مملَّكاً ملكَ الأَرْ ض اقتساراً سُهُوْلةً وجِبالا
فافْتَرِعْها مُهَنَّأً بمحلٍّ سَمَقَ الأَنْجُمَ الوِضَاءَ وطالا

قال: وحدَّثني جماعةٌ من الحلبيين، منهم الركن ابن جَهْبَل العَدْل.

قال: كان الفقيه مجد الدين بن جَهْبل الشَّافعي الحلبي[5] قد وقع إليه «تفسير

---

(١) انظر ص ١٤٧ من هذا الجزء، وحاشيتنا رقم ٣ في الصفحة نفسها.
(٢) التنوفة: الأرض الواسعة، البعيدة الأطراف. «القاموس المحيط» (تنف).
(٣) الشعرى: كوكب نير، وهما شعريان: العبور التي في الجوزاء، والغميصاء التي في الذراع، تزعم العرب أنهما أُختا سهيل. انظر «اللسان» (شعر).
(٤) إلى هنا ينتهي اضطراب الأوراق في الأصل، وقد أشرنا إليه في حاشيتنا رقم ٦ ص ١٠٧ من هذا الجزء.
(٥) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٦ هـ).

القرآن» لأبي الحكَم المَغْرِبي[1]، فوجد فيه عند قوله تعالى ﴿آلم، غُلِبَتِ الرُّوْم﴾[2] الآية أن أبا الحكم قال: إن الرُّوم يُغْلَبون في رجب سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة، ويُفتح البيتُ المقدَّس، ويصير داراً للإسلام إلى آخر الأبد[3]. واستدل على ذلك بأشياء ذكرها في كتابه. فلما فتح السُّلْطان حلب كتب إليه المجد بن جَهْبَل ورقةً تبشِّره بفتح البيت المقدَّس على يديه، ويُعَيِّن فيه الزَّمان الذي يفتحه فيه، وأعطى الورقة للفقيه عيسى، فلما وقف الفقيه عيسى عليها لم يتجاسر على عَرْضها على السلطان، وحدَّث بما في الورقة
٤٦/٢ لمحيي الدين بن زكي الدين القاضي الدِّمَشْقي، [وكان][4] ابن زكي الدِّين واثقاً بعقل ابن جَهْبَل، وأنه لا يُقْدِمُ على هذا القول حتى يحقِّقَه ويثقَ به، فعمل قصيدةً مَدَحَ السُّلْطان بها حين فتح حلب في صفر، وقال فيها:

وَفَتْحُكُمْ حَلَباً بالسَّيْفِ في صَفَرٍ ... قَضَى لكُمْ بافتتاحِ القُدْسِ في رَجَبِ

---

(١) هو عبد السلام بن عبد الرحمن بن محمد، اللخمي الإشبيلي، المعروف بابن بَرَّجان، متصوف، من مشاهير الصالحين، وتفسيره المذكور ما زال مخطوطاً، ولم يكمله، عابوا عليه الإمعان في علم الحرف حتى استعمله في تفسير القرآن، توفي سنة (٥٣٦ هـ) بمراكش.

انظر ترجمته في «التكملة» لابن الأبار: ٣/ ٦٤٥ ــ ٦٤٦، و«صلة الصلة» لابن الزبير: ٣١ ــ ٣٣، و«فوات الوفيات» ٢/ ٣٢٣، و«الوافي بالوفيات» ١٨/ ٤٢٨، «لسان الميزان» ٤/ ١٣ ــ ١٤، و«طبقات المفسرين» للدَّاودي: ١/ ٣٠٠، وانظر أيضاً «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٣٦ ــ ٢٣٧، و«الاستقصا» ٢/ ٧٦. وحاشيتنا رقم ١ ص ٣٩٦ من هذا الجزء.

(٢) سورة الروم، الآيتان: ١، ٢.

(٣) وفي هذه الأيام تغشاها غاشية من اليهود الصهاينة، ستزول إن شاء الله عما قريب، وما ذلك على الله بعزيز.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

ولما سمع السُّلْطان ذلك تعجَّبَ من مقالته. ثم حِيْنَ فتح [السلطان][1] البيت المُقَدَّس خرج إليه المجد بن جَهْبَل مهنئاً له بفتحه، وحدَّثه حديث الورقة، فتعجَّب السلطان من قوله، وقال: قد سبقَ إلى ذلك محيي الدين بن زكي الدِّين، غير أني أجعلُ لك حظّاً لا يزاحمك فيه أحد. ثم جمع له مَنْ في العسكر من الفُقَهاء وأهل الدين، ثم أدخله إلى القُدْس، والفرنج بَعْدُ ما خرجوا منه، وأمره أن يذكر درساً من الفِقْه على الصَّخْرة. فدخل وذكر درساً هناك، وحَظِيَ بما لم يَحْظَ به غيره.

قلت: وسيأتي في فتح بيت المقدس في فصل المنبر ذِكْرُ ما قاله أبو الحكم في «تفسيره»، وغيره مما يناسبه، وبالله التَّوفيق[2].

وقال العماد: تَمَّ فَتْحُ حلب في صَفَر من هذه السَّنة، ومدح القاضي محيي الدين بن الزكي السُّلْطانَ بأبياتٍ، منها:

وَفَتْحُكُمْ حَلَباً بالسَّيْفِ في صَفَرٍ ... مُبَشِّرٌ بفتوحِ القُدْسِ في رَجَبِ

فوافق فتح القدس كما ذكره، فكأنَّه من الغيب ابتكره.

قال: ويشبه هذا أنني في سنة اثنتين وسبعين طلبتُ من السُّلْطان جاريةً من سبي الأُسطول المنصور في الأبيات، وهي:

يؤمِّلُ المملوكُ مملوكةً ... تبدِّلُ الوَحْشَةَ بالأُنسِ
تُخْرِجُهُ من لَيْلِ وَسْوَاسِهِ ... بِطَلْعَةٍ تُشْرِقُ كالشَّمْسِ
فَوَحْدَةُ العُزْبَةِ قد حرَّكَتْ ... سَوَاكِنَ البَلْبَالِ والمَسِّ

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٢) انظر ص ٣٩٤ ــ ٣٩٦ من هذا الجزء.

فـلا تَـدَعْ يَهْـدِم شَيْطـانُـهُ ... ما أَحْكَمَ التَّقْوى من الأُس
فَـوَقِّـعِ اليَـوْمَ بمطلُـوبـه ... مما سبى الأُسطولُ بالأَمْسَ
لا زِلْـتَ وَهَّـابـاً لمـا حـازَه ... سَيْفُك من حُوْرٍ ومِنْ لُعْسَ
وإننـي آمُـلُ مِـنْ بَعْـدِهـا ... كـرائِـمَ السَّبْـي مـن القُـدْسَ

قال: فجاء الأمر على وَفْق الأمل، فَوَهَبَ لي عام القدس ما أَمَّلْتُ[1].

فصـــل

فيما جرى بعد فتح حلب

قال ابن أبي طي: كاتب الوالي بحارم* الفرنج واستدعاهم إليه، مُطْمِعاً لهم في الاستيلاء على حارم بشرط أن يعصموه من الملك النَّاصر، وَعَلِمَ الأجناد بقلعة حارم بما عَزَمَ عليه، فتآمروا بينهم في القَبْضِ عليه. وكان هذا الوالي ينزل من القلعة ويصعَدُ إليها في أموره ولَذَّاته، فاتفق أنه نزل منها لبعض شأنه، فوثَبَ أهلُ القلعة لما خرج، وأغلقوا بابها، ونادوا بشعار السلطان. وكان السُّلْطان راسل والي حارم، وبَذَلَ له في تسليم حارم إليه أشياء كثيرة، منها ولاية بُصْرى*، وضيعة في دمشق يملِّكه إياها، ودار العقيقي* التي كان نجم الدين أيوب والد السُّلْطان يسكنها، وحَمَّام العقيقي* بدمشق، وثلاثون ألف دينار عَيْناً، ولأخيه عشرة آلاف دينار. فاشتطَّ في السَّوْم، وتغالى في العِوَض، فأنفذ إليه السلطانُ وتوعَّده وتهدَّده، فكاتب الفرنج يطلب نجدتهم، وقيل: إن نقيب القلعة أراد أن تَنْفُقَ سُوقه عند السلطان، ويحصِّل منه شيئاً، فكاتب السلطان بالعمل على الوالي، فكتب

(١) «البرق الشامي» ٥/ ش ١٠٩، ص ١١٩ ــ ١٢٠.

إليه السلطان بتتميم ذلك، ووعده بأشياء سَكَنَ إليها، وجرى الأمر على ما ذكرناه من إغلاق الباب في وَجْه الوالي. وقيل: إن النَّقيب وأهلَ القلعة لما أغلقوا الباب في وجهه شنَّعوا عليه بمكاتبة الفرنج، ولم يكن فعل ذلك إقامةً لعذرهم، وقذفوه بالحجارة، ونادوا بشعار السُّلْطان. ولما اتصل بالسلطان هذه الأحوال أنفد تقيَّ الدين إلى حارم لِيَتَسلَّمها، فامتنع النقيب وأهل القلعة من تسليمها إليه، فرحل السلطان إليها بنفسه جريدةً، فلما أشرف عليها نزل إليه النقيب ووجوه القلعيين، وسلَّموها إليه في تاسع عشر صفر. ولما حضروا عند السُّلْطان حدَّثوه بكيفية الحال، وكان بدر الدين حسن ابن الدَّاية حاضراً، فقال للسلطان: يا مولانا، لا تلتفت إلى هؤلاء، فإنهم آذوا هذا الوالي، وكذبوا عليه حتى فَوَّتوه ما كان السلطان وَعَدَه به، وما قلتُ هذا إلا عن تجربةٍ، فإنني لما كنتُ متولِّياً لهذه القلعة جرى عليَّ من كذبهم في حقِّي، وتخرُّصهم[1] عليَّ أموراً كِدْتُ بها أَهْلِكُ مع نور الدين، وهُمْ كانوا سببَ خروجي من هذه القلعة، وأنا أرى أن السُّلْطان يُقِرُّهم في القلعة على هذه التجربة! فضحك السلطان وأمر لهم بما كان وعدهم به، وأَفْضَلَ عليهم، وولَّى القلعة غيرهم، وقال لابن الدَّاية: إن بين أيدينا أمكنةً ٤٧/٢
نريد أَخْذَها، ومتىٰ لم نفِ بما نَعِدُ ونُجْزِلُ العطاء لم يثق بنا أحد.

وبات السُّلْطان بقلعة حارم* ليلتين، وعاد إلى حلب في ثالث ربيع الأول، فَرَتَّبها، وقرَّر ولده الظَّاهر سُلْطاناً بها، وقرَّر له في كلِّ شهر أربعة آلاف دِرْهم وعشرين كُمَّة[2] وقَبَاء، وما يحتاج إليه من الطَّعام وغيره، وجعل

---

(١) في (ك) وعرضهم.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٦٧ من هذا الجزء.

معه والياً سيف الدين أزكش[1] الأَسَدي، ووَلَّى حسام الدين تميرك[2] الخليفتي شِحْنة* حلب، ووَلَّى الديوان ناصح الدين إسماعيل بن العميد الدِّمَشْقي ودار الضَّرْب، فضرب الدرهم النَّاصري الذي سكته خاتم سليمان، ونقل الخَطَابة من بني العديم إلى أبي البركات بن الخطيب هاشم بسفارة القاضي الفاضل، وولى القضاء لمحيي الدين بن زكي الدين الدِّمَشْقي، فاستناب فيه ابن عمته أبا البيان نبأ بن البانياسي، ووَلَّى الجامع والوقوف لأبي علي بن العَجَمي.

وقال العماد: كان في قلعة حارم مملوك من مماليك نور الدين [رحمه الله][3] فعصىٰ، وتأبَّى عن تسليمها، فأخرجه منها أهلُها لمَّا اتهموه بمكاتبة الفرنج، وأرسلوا إلى السلطان فتسلَّمها، ودبَّر أمرها، وأحكمها[4].

وقال ابن شداد: أنفذ إلى حارم* من يتسلَّمها، ودافعهم الوالي، فأنفذ الأجناد الذين بها يستحلفونه، فوصل خبرهم إليه يوم الثلاثاء ثامن عشري صفر، فحلَفَ لهم، وسار من وقته إلى حارم، فوصلها تاسع عشري صفر، فتسلَّمها، وبات بها ليلتين، وقرَّر قواعدها، ووَلَّى فيها إبراهيم بن شروه، وعاد إلى حلب، فدخلها ثالث ربيع الأول. ثم أعطى العساكر دستوراً، فسار

---

(١) هكذا رسم ابن أبي طي اسمه، وسيأتي في الصفحة التالية رسمه على المشهور: يا زكوج، وهو الذي قتل الباطني الذي حاول قتل صلاح الدين حين محاصرته عزاز. انظر ص ٤٠٩ من الجزء الثاني.

(٢) انظر قصة خروجه من بغداد ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ من الجزء الثاني.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) «البرق الشامي» ٥/ ش ١١٤ ــ ١١٥، ص ١٢٣ ــ ١٢٤.

كلٌّ منهم إلى بلده، وأقام يقرِّر قواعد حلب ويدبِّرُ أمورها[1].

قال العماد: وَرَجَفَتْ أنطاكية بعد ذلك رُعْباً، فأرسل صاحِبُها جماعةً من أسارى المسلمين، وانقاد، وسارع إلى أمان السُّلْطان. وولَّى السلطان القضاء بحلب محيي الدين بن الزكي، فاستناب فيها زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن بالبانياسي، وكشف السُّلْطان عن حلب المظالم، وأزال المُكُوس، وولَّى قلعتها سيف الدين يازْكُوج، وولَّى الدِّيوان ناصح الدين إسماعيل بن العميد، وجعل حلب باسم ولده الملك الظَّاهر غازي، وكان استصحبه من مصر عند وصوله إلى الشَّام، وأَقَرَّ عين تاب* على صاحبها، وأعطى تل خالد* وتل باشر* بدر الدين دُلْدُرُم بن بهاء الدولة بن ياروق[2]، وأعطى قلعة عَزَاز* علم الدين سليمان بن جَنْدَر[3].

قلت: وفي توقيع إسقاط المكُوس عن حلب من كلام الفاضل عن السُّلْطان: وانتهى إلينا أنَّ بمدينة حلب رسوماً[4] استمرَّت الأيدي على تناولها، والألْسِنةُ على تداولها، وفيها بالرُّعاة إرفاق، وبالرَّعايا إضرار، ولها مقدار إلا عند مَنْ كلُّ شيء عنده بمقدار، منها ما هو على الأثواب المجلوبة، ومنها ما هو على الدَّوابِّ المركوبة، ومنها ما هو في المعايش المَطْلوبة. وقد رأينا بنعمة الله [علينا][5] أن نبطلها وَنَضَعها، ونعطِّلها ونَدَعها، ونُضْرِبَ عنها في أيامنا، ونَضرِبَ عليها بأقلامنا، ونسلك ما هو

---

(١) «النوادر السلطانية» ٦٠.

(٢) في (ك) بهاء الدين ياروق.

(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١١٥ ــ ١٢٦، ١٢٧ ــ ١٢٨، ص ١٢٤، ١٣٢، ١٣٣ ــ ١٣٤.

(٤) في (ك) رشوة.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك).

أهدى سبلاً، ونقول ما هو أقوم قيلاً، ونكره ما كرهه الله، ونحظر ما حَظَرَه الله، ونتاجِرُهُ سبحانه، فإنه من ترك لله شيئاً عوَّضه الله أمثاله، وأربح متجره في الرَّعِيَّة اليوم بما يوضع عنهم من إصْرها، ولنا غداً بمشيئة الله بما يرفع[1] من أَجْرِها. فعلى كافة أوليائنا وولاتنا، وأمرائنا، والمتصرِّفين من قِبلنا ألا يُهووا إليها يداً، ولا يَرِدُوا ولو بلغ الظمأ منها مَوْرِداً، ولا يثقلوا بها ميزان المال فيخِفَّ ميزان الأعمال، ولا يرغبوا في كثير الحرام، فإن الله يُغْني عنه بقليل الحلال، ولْيُعْلَم أن ذلك من الأمر المُحْكَم، والقَضاء المُبْرَم، والعَزْم المُتَمَّم.

وفي منشور أهل الرَّقَّة بمثل ذلك: أَشْقى الأُمراء من سَمَّن كيسه وأَهْزَل الخَلْق، وأبعدُهُمْ من الحقِّ من أخذ الباطل من النَّاس وسمَّاه الحق، ومن تَرَكَ شيئاً عَوَّضه [الله][2]، ومن أقرض الله [قَرْضاً][3] حسناً وفَّاه ما أقرضه. ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرَّقَّة أشرفنا منها على سُحْتٍ يؤكل، وظُلْمٍ مما أمر الله به أن يُقْطع، وأَمَرَ الظَّالمون أن يوصل، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافَّة الولاة من قِبلنا أن يَضَعوا هذه الرُّسوم بأَسْرِها، ويلقوا الرَّعايا من بشائر أيام مُلْكنا بأَسَرِّها، ونُعْتق بلد الرَّقَّة من رِقِّها، ونثبتُ أحكام المَعْدَلَةِ فيها بمحو هذه الرُّسوم وَمَحْقها. وقد أمرنا بأن تُسَدَّ هذه الأبواب وتُعَطَّل، وتُنْسخ هذه الأسباب وتُبْطَل، وتُسْتمطر سحائبُ الخِصْب بالعَدْل وتُستنزل، ويُعفَّى خَبَرُ هذه الضَّرائب من الدَّواوين، ويُسامح بها جميعها جميع الأغنياء والمساكين، مسامحةً ماضيةَ الأحكام، مستمرَّة الأيام، دائمةَ الخُلُود، خالدةَ

(١) في الأصل: بما لا يرفع، والمثبت من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/ ٤٧.

الدَّوام، تامة البلاغ، بالغة التمام، موصولة على الأحقاب، مسنونةً في الأعقاب، ملعوناً من يطمحُ إليها ناظِرُه، وتتناولُها يده، أو يمسك عنها اليوم على طمعٍ لا يوصله إليه غده.

قال العماد: وورد على السُّلْطان، وهو نازِلٌ على حلب بشارتان إحدهما: أن الأُسطول المِصْري غزا في خامس عشر محرَّم، ورجع بعد تسعة أيام وقد ظَفِرَ ببطسة* مقلعةٍ من الشَّام، فيها ثلاث مئة وخمسة وسبعون عِلْجاً من خَيَّالةٍ وتُجَّار، والثَّانية: أن فرنج الدَّاروم* نهضوا، فَنَذِرَ[1] بهم والي الشَّرْقية، فخرج إليهم، فالتقوا على ماءٍ يُعْرف بالعُسَيْلة، فاستولى عليهم المسلمون بعد أن كادوا يَهْلِكُون عطشاً، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا الماء، فأرواهم الله بماء السَّماء[2]. ٤٨/٢

قلتُ: وكتبَ الفاضل عن السلطان إلى بغداد بهاتين البشارتين: بفتح حلب وحارم كتاباً شافياً، أوله: أدام الله أيام الدِّيوان العزيز، ولا زالت منازل مملكته منازلَ التَّقديس والتطهير، والوقوف بأقصى المطارح من أبوابه موجباً للتقديم والتقدير، والأُمة مجموعة الشَّمْلِ بإمامته جمع السَّلامة لا جمع التكسير. الخادمُ ينهي أن الذي يفتتحه من البلاد ويتسلَّمه إما بسكون التَّغمُّدِ أو بحركةِ ما في الأغماد، إنما يَعُدُّه طريقاً إلى الاستنفار إلى بلاد الكُفَّار، ويحسِبُه جناحاً يمكنه به المطار إلى ما يلابسه الكُفَّار من الأقطار. وعلى هذه المقدِّمة فهو يستفتح بذكر ظَفَرين للإسلام: بري وبحري. شامي ومِصْري، أحدهما وهو البحري عَوْدُ أحد الأُسطولين اللذين أغزاهما أخو الخادم

---

(١) أي علم. «اللسان» (نذر).

(٢) «البرق الشامي» ٥/ ش ١٣٨ ـ ١٣٩، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

أبو بكر بمصر، وكانت مُدَّة غيبته من حين خروجه إلى وقت عَوْده إلى دِمْياط تسعة أيام، فظفر ببطسة* مقلعةٍ من الشَّام، فيها ثلاث مئة وخمسة وسبعون عِلْجاً، منهم خيَّالة ذوو شِكَّة وازِعة[1]، وتُجَّارٌ ذوو ثَرْوةٍ واسعة.

والثَّاني، وهو البَرِّي، نهوض فرنج الدَّاروم* إلى أطراف بعيدة، فَنَذِر بهم والي الشَّرْقية، فركب إليهم الليل فرساً كما ركبوه جملاً، وسروا ثقيلاً وسرىٰ رَمَلاً، فتوافى الفريقان إلى ماء يُعْرَف بالعُسْيلة، سَبَقَ الفِرَنْج إلى موردته، والسَّابق إلى الماء محاصِرٌ للمسبوق، ووردوا أزرقه فتغضَّب لأزرقهم[2]، فظنَّ المؤمن أن الكافر مرزوق. واشتدَّ بالمسلمين العطش، ثم ثابوا إلى الفرنج بقوة إنجاد السماء بالماء، فلم ينجُ من الفرنج إلا رجلان، أحدهما الدليل، والثاني الذليل، وعاد المسلمون برؤوس عَدُوِّهم في رؤوس القَنَا وقد اجتنوا ثمراتِها، وبأرواحهم في رؤوس الظُّبى وقد أطفؤوا بمائها جمراتِها[3].

ثم قال: ويثني الخادم بذكر ما امتثله من الأوامر العَلِيَّة، في إغماد سيفٍ مجرِّدُهُ من استدعى تجريده، ومُوْرِدُه من عَرَّض له وريده ــ ثم ذكر تسلُّمه حلب ــ وأنه لا يُؤْثر إلا أن تكون كلمةُ الله هي العليا لا غَيْرُ، وثغور المسلمين لها الرَّعايا ولا ضَيْر، ولا يختار إلا أن تَغْدُوا جيوش المُسْلمين متحاشدة على عدوِّها لا متحاسدة بعتوِّها. ولو أن أمور الحَرْب تصلحها الشِّرْكة لما عَزَّ عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا ساءه أن تكون الدُّنيا كثيرة

---

(١) أي سلاح مانع. «اللسان» (شكك) و«معجم متن اللغة»: ٥/ ٧٤٨.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٠٧ من هذا الجزء.

(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١٣٦ ــ ١٣٨، ص ١٤٠ ــ ١٤٢.

المالكين، وإنما أمور الحَرْب لا تحتمل في التَّدبير إلا الوَحْدَة، فإذا صحَّ التدبير لم يحتمل في اللِّقاء إلا العِدَّة، فعوَّض عماد الدين من بلاد الجزيرة سِنْجار* وخابورها*، ونَصِيبين* والرَّقَّة وسَرُوج*، على أن المظالم تموت فلا ينشر مقبورها، والعساكر تنشر راية غزوها فلا يُطْوى منشورُها. وأجابَ الخادمُ عمادَ الدين إلى ما سأل فيه من أن يُصالح المواصلة مهما استقاموا لعماد الدِّين، لأنه لم يثق بهم وإن كان لهم أخاً، ولم يطمئنَّ إلى مجاورتهم إلى أن يَضْرِبَ بينه وبينهم من عنايته بَرْزخاً، فَلْيَلُح الآن عُذْرُ الأجنبي إذا لم يثق، ولتكُن هذه مُصْحية من عُوْتِبَ في سُكْرِهِ حُسْن الظَّنِّ فلم يُفِقْ، ومن شَرْطه على المواصلة المعونة بعسكرهم في غَزَواته، والخروج عن المظالم، فما زاد على أن قال: سالموا مسلماً، وحاربوا كافراً، واسكنوا لتكون الرَّعية ساكنة، وأظهروا ليكون حزب الله ظاهراً. وهذه المقاصد الثلاثة: الجهادُ في سبيل الله، والكفُّ عن مظالم عباد الله، والطَّاعة لخليفة الله، هي مُرادُ الخادم من البلاد إذا فتحها، ومغنمه من الدُّنيا إذا مُنحها، والله العالم أنَّه لا يقاتل لعيشٍ ألين من عيش، ولا لغَضَبٍ يملأُ العَنَان من نَزَقٍ وطَيْش، ولا يريد إلا هذه الأمور التي قد توسَّم أنها تلزم، ولا ينوي إلا هذه النِّيَّةَ التي هي خير ما يُسَطَّر في الصحيفة ويُرْقَم.

وكتب الخادم هذه الخدمة بعد أن بات بحلب ليلةً، وخرج منها إلى حارم*، وكانت استحفظت مملوكاً لا يملكه دين ولا عقل، غِرّاً ما هذبته نَفسٌ ولا أهل، فاعتقد أن يُسلمها إلى صاحب أنطاكية* ـ يَسَّر الله فَتْحَها ـ اعتقاداً صرَّح بفعله، وشَهَرَه بكُتُبِهِ ورسُلِه، وواطأ على ذلك نَفَراً من رجالٍ يعرفون بالشَّمْسية؛ لا يعرفون خالقاً إلا من عَرَفُوه رازقاً، ولا يسجدون إلا لمن يرونه في نهر النَّهار سابحاً، وفي بحر الظَّلام غارقاً، فشعر به مَنْ فيها

من الأجناد المسلمين، فشرَّدوه ومن تابعه على فِعْله، وظَفِرَ به المملوك عمر ابن أخيه في ضواحي البلد، فأخذه وأرسله إلى قلعة حلب، وسار الخادم إليها، فتسلَّمها، ورتَّبَ بها حاميةً ورابطة، ولم يعمل على أنها للعمل طرف بل إنها للعِقْد واسطة، والخادم كما[1] طالع بماضيه [الذي][2] حازه الأمسِ المذكور، يطالع بمستقبله الذي ينجزه بمشيئة الله الغد المشكور، فهو متأهِّب للخروج نحو الكُفَّار، لا تسأَمُ رايتُه النَّصْبَ، ولا جهة سيره الرَّفع، ولا جيشُه الجَرَّ[3]، ولا يُصْغي إلى قول خاطر الراحة المفنَّد: لا تنفروا في الحَرِّ[4]، ولا يُجيب دعوة الفراش المُمَهَّد، ولا يُعرِّج على الظَّنِّ الممدود، ولا دُمْية الطراف[5] الممدَّد، ولا يعطف على ريحانة فؤادٍ يفارقه حَوْلاً ويلقاه يوماً، ولا يقيم على زهرةٍ ولدٍ استهلّ[6] فمتى ذكَّره الفطر على راحته[7] قال: ﴿إني نَذَرْتُ للرَّحمن صَوْماً﴾[8].

ومن كتاب آخر أنفذه من نَصيبين* سنة ثمانٍ وسبعين إلى بغداد: سبيلُ الخادم أن يُبْنَى ولا يُهْدَم، ويُوفَّر جانبه ولا يُثْلَم، وأن يُفَرَّقَ بينه وبين من يمسكون أَعِنَّة الجياد المسوَّمة ولا يطلقونها، ويَكْنِزُون الذهب والفِضَّة ٢/٤٩

(١) في الأصل: كلما، والمثبت من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) من هنا يبدأ اضطراب في ترتيب أوراق نسخة (ك) أعدتها إلى حاق موضعها.
(٤) إشارة إلى قوله تعالى على لسان المنافقين: ﴿وقالوا: لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون﴾ [التوبة: ٨١].
(٥) في (ك) الطراز.
(٦) في (ك) يستهل.
(٧) في (ك) راحة.
(٨) سورة مريم، الآية: ٢٦.

ولا ينفقونها، فقد عُلِمَ أن الخادمَ بيوتُ أمواله في بيوت رجاله، وأن مواطِنَ نُزُوله في مواقف نِزَاله ومضارب خيامه [لا][1] أَكِنَّة ظلاله. وأنه لايدَّخر من الدُّنيا إلا شِكَّته[2]، ولا ينالُ من العيش إلا مُسْكته[3]، وعدوُّ الإسلام شديدٌ على الإسلام كَلَبُه، مضطرمٌ على أهله لَهَبُهُ، زَجِلٌ ــ إذا أصغت أسماعُ التأمُّل ــ لَجَبُهُ[4]. ولو أن أحدَ من يدَّعي المُلْك ميراثاً، ويَعُدُّ البلاد له تراثاً، دُفع إلى مدافعة هذا العدو الكافر، وإلى منافرة هذا الفريق النافر، لعرَّفته الأيام ما هو جاهِلُه، ولقلَّدته الحَرْب ما هو قاتله، ولحمَّلته الأهوال ما تخور تحته محامِلُه.

وفي كتابٍ آخر: وإذا ولاَّه أمير المؤمنين ثَغْراً لم يبت في وسطه وأصبح في طَرَفه، وإذا سوَّغَه بلداً[5] هجَّر في ظلِّ خِيمَه ولم يَقُمْ في ظل غُرَفِهِ، وإذا باتَ السَّيْفُ له ضجيعاً، وإذا أصبح أصبح ومعترك القِتالِ له ربيعاً، لا كالذين يغبون أبوابَ الخلافة إغباب الاستبداد، ولا يؤامرونها في تصرُّفاتهم مؤامرة الاستعباد، وكأنَّ الدنيا لهم إقطاع لا إيداع، وكأن الإمارة لهم تخليد لا تقليد، وكأنَّ السِّلاح عندهم زينةً لحامله ولابسه، وكأن مال الخلق عندهم وديعة، فلا عُذْرَ عندهم لمانعه ولا لحابسه، وكأنهم في البيوت دُمًى مصوَّرة في لزوم جُدُرها لا في مستحسنات صورها، راضين من

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) الشكة: السلاح. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٣٥٧.

(٣) المسكة من الطعام والشراب: ما يمسك الرمق. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٢٩٦.

(٤) الزجل: صوت رفيع عال. واللجب: ارتفاع الأصوات واختلاطها. «اللسان» (زجل، لجب).

(٥) أي تركه له خالصاً. «اللسان» (سوغ).

الدِّين بالغَزْوة اللَّقبية، ومن إعلاء كلمته بما يسمعونه على الدَّرجات الخشبية، ومن جهادِ الخارجين على الدولة باستحسان الأخبار المُهَلَّبية، ومن قتال الكُفَّار بأَنه فرض كفاية؛ تقوم به طائفةٌ فيسقط عن الأخرى في أخراها، ومِنْ طاعةِ الخلافة بذكر اسمها والخروج عن سيماها[1]، فلا يقنعون بأنَّهم لا يجاهدون إلى أن يمنعوا من يجاهد عنهم ويثاغر، وبأنهم لا يُساعدون المسلمين إلى أن يساعدوا عليهم عدوَّهم الكافر، فقد توالوا الشيطان تليداً وطريفاً، ووطئوا الإِسلامَ وأَهْلَه وَطْأً عنيفاً، فإذا جاء وَعْدُ الآخرة جاء الله بهم في زُمْرة الشَّيْطان لفيفاً[2].

وقال في هذا الكتاب: إنَّ المواصلة ما فَزِعُوا[3] إلى دار الخلافة إلا بعد أن فَزِعوا[4]، وإلا فطالما طَمِعَ أَوَّلهم كما طمعوا، وقديماً دُعوا إلى طاعتها فما سمعوا، وسمعوا فما اتَّبعوا، حتى إن الأولين [منهم][5] علَّموا أولياء الدولة من الأتراك ضِدَّ ما جُبِلَتْ أخلاقهم عليه من عقوقها، وسَنُّوا لهم إضاعة حقوق الله بإضاعة حقوقها، فأين كان التعلُّق بالدار العزيزة، وهم يحاصرون[6] دار السَّلام بأحزابهم، ويرامون التَّاج الشَّريف بِنُشَّابهم، ويمدُّون محاصريها بالأسلحة والمنجنيقات، والأزواد والإِقامات، ويصافُّون الخلفاء مصافَّة المُواقف، ويكاشفونهم مُكاشفة المُخالف، ويُغرون دُزْدار* تكريت ــ وهي من أهون بلاد الله ــ بِجَوْر الجِوار، ويجعلُونها سِجْناً

(١) في الأصل: شيمها، والمثبت من (ك).

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً﴾ [الإسراء: ١٠٤].

(٣) فزع إليه: استغاث به.

(٤) أي خافوا. «اللسان» (فزع).

(٥) ما بين حاصرتين (ك).

(٦) في (ك) محاصرون.

لمماليك الخلافة ذوي الأقدار، ولو تحرَّك اليوم متحرِّكٌ لكانوا له كِنانة، ولكانت بلادهم له خِزانة، ويرجو الخادم بالمَوْصِل أن تكون المُوصِلَ إلى القُدْس وسواحله، ومستقرِّ الكُفْر في القُسْطنطينية على بُعْد مراحله، وبلاد الكُرْج[1]، فلو أَنَّ لهم من الإِسلام جاراً لاستباح الدار، وبلاد أولاد عبد المؤمن، فلو أن لها ماء سيفٍ لأطفأ ما فيها من النَّار، إلى أن تعلو كلمةُ الله العليا، وتملأَ الولايةُ العَبَّاسية الدُّنيا، وتعود الكنائس مساجد، والمذابح المستعبدة معابد، والصَّليب المرفوع حطباً في المواقد، والنَّاقوس الصَّهَل أخرس اللَّهجة في المشاهد. ويضيف إلى الديوان بمشيئة الله ما يجاوز أكنافه، ويمدُّ أطرافه مثل تكريت* ودَقُوقا* والبوَازيج* وخُوزستان* وكِيْش* وعُمان*، والذي وقع أعظم من الذي يتوقَّع، والذي طلع أكثر من الذي يتطلع، والذي رُئي أمسِ أكبر من الذي يُسمع.

قلت: يعني أَنَّ ما فتحه من البلاد أعظم من هذه التي يرجوها. وأشار بفعل أول المواصلة إلى ماسبق من فعل زَنْكي في حصار بغداد، ومساعدته للسَّلجوقية على العادة في ذلك الزَّمان[2]، والله أعلم.

وفي آخر كتابٍ فاضلي إلى حِطَّان بن منقذ باليمن عن السُّلْطان: فَتَحَ الله علينا ممالك وأَضافها، وبلاداً آمنها بنا مما أخافها، وبلَّغنا غرائب صُنع لا نبلُغ أوصافها؛ منها بلاد الشَّام بأسرها، ومملكة حلب بجملتها، والمدينة بقلعتها، وبلاد الجزيرة إلى دِجْلَتها. فمنها ما أُعيد على من اشترط عليه استخدام عسكره في بيكارنا[3]، ومنها ما استمرَّ في اليد، وولاته من

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من الجزء الثاني.

(٢) انظر «الكامل» ١٠/ ٦٧٨ ــ ٦٧٩، وص ٢٥٣ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦١ من هذا الجزء.

أوليائنا وأنصارنا. ولمّا لم يبق في البلاد الإسلامية إلا ما هو في يدنا أو في يد مطيعٍ لنا، كان من شُكْر هذه النِّعْمة أن نصرف القوّة ونُثْنِيَ العَزْمة، ونحدَّ الشَّوْكة ونَلْبَس الشِّكَّة للفرنج الملاعين، فننازلهم ونقارِعُهم، ونخاصمهم إلى الله وننازعهم، فَنُطَهِّر الأرض المقدَّسة من رِجْسهم بدمائهم، إلى أن تَرِقَّ السُّيوف للصخرة الشَّريفة لما مَرَّ بها من قسوة كُفْرهم واعتدائهم. فنحن نرجو أن نكون عين الطَّائفة من الأُمة التي أخبر نبيُّنا صلوات الله عليه أنها لا تزال على الحقِّ ظاهرة، وبثواب الله وعَدُوِّه ظافرة، والله تعالى يُعيننا على ما يَعْنينا، ويلهمنا الاستجابة لدعوته إلى ما يحيينا.

فصــل ٢/ ٥٠

في رجوع السُّلْطان إلى دمشق وخروجه منها للغَزَاة بمخاضــة الأُرْدُن

رحل السلطان من حلب، فمرَّ على حماة ثم حمص ثم بَعْلَبك ثم دمشق.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لم يقم السلطان في حلب إلا إلى يوم السبت الثاني والعشرين من ربيع الآخر، وأنشأ عَزْماً على الغَزَاة، فخرج في ذلك اليوم إلى الوضيحي مبرِّزاً نحو دمشق، واستنهض العساكر، فخرجوا يتبعونه. ثم رحل في الرابع والعشرين منه إلى حماة، فوصلها، ثم رحل في بقية يومه، ولم يَزَلْ يواصل بين المنازل حتى دخل دمشق في ثالث جُمادى الأولى، فأقام بها متأهباً إلى السابع والعشرين منه. ثم برّز في ذلك اليوم، ونزل على جسر الخشب*، وتبعته العساكر مبرّزةً، وأقام به تسعة أيام، ثم رحل في ثامن جمادى الآخرة حتى أتى الفوّار*، وتعبّى فيه للحرب، وسار

حتى نزل القُصير*، فبات به، وأصبح على المخاض وعَبَرَ، وسار حتى أتى بَيْسَان، فوجد أهلها قد نزحوا عنها وتركوا ما كان من ثقيل الأقمشة والغلال والأمتعة بها، فنهبها العسكر، وغنموا وأحرقوا ما لم يمكن أخذه.

وسار حتى أتى الجالوت؛ وهي قريةٌ عامرة، وعندها عين جارية، فخيَّم بها.

وكان قد قدَّمَ عز الدين جُرْديك وجماعةً من المماليك النُّورية، وجاولي مملوك أسد الدين حتى يكشفوا خبر الفرنج، فاتَّفق أنهم صادفوا عسكر الكَرَك* والشَّوْبك* سائرين نجدةً للفرنج، فوقع أصحابنا عليهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمةً، وأسروا منهم زُهاء مئة نفر، وعادوا، ولم يُفقد من المسلمين سوى شخصٍ واحد يدعى بَهْرام الشَّاووش*، فوصل إليه في بقية يوم الكسرة، وهو العاشر من جُمادى الآخرة.

وفي حادي عشرة وصل الخبر إلى السلطان أن الفرنج [قد][1] اجتمعوا في صَفُّورِيَة*، ورحلوا إلى الفولة*؛ وهي قرية معروفة، وكان غرضه المصافَّ، فلما سمع بذلك تعبَّى للقتال، وسار للقاء العدو، فالتقوا، وجرى قتالٌ عظيم، وقتل من العدو جماعةٌ وجُرح جماعة، وهم ينضمُّ بعضهم إلى بعضٍ، يحمي راجلهم فارسهم، ولم يخرجوا للمصاف، ولم يزالوا سائرين حتى أتوا العين، فنزلوا عليها، ونزل السلطان حولهم، والقتل[2] والجرح يعمل فيهم ليخرجوا إلى المصاف، وهم لا يخرجون؛ لخوفهم من المسلمين، فإنهم كانوا في كثرةٍ عظيمة، فرأى السلطان الانتزاح عنهم لعلَّهم

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٢) في الأصل: القتال، والمثبت من (ك) و(ب).

يرحلون، فَيُضْرَبُ معهم مصافّ، فرحل نحو الطور سابع عشر جُمادى الآخرة، فنزل تحت الجبل مترقباً رحيلهم، ليأخذ منهم فُرْصة، فأصبح الفرنج راجعين على أعقابهم ناكصين، فرحل رحمه الله نحوهم، وجرى من رمي النُّشَّاب واستنهاضهم للمصاف أمورٌ عظيمة، فلم يخرجوا، ولم يزل السلطان حولهم حتى نزلوا الفولة راجعين إلى بلادهم، وعاد السلطانُ منصوراً وقد نال منهم قتلاً وأسراً، وخرَّب عَفْرَبَلا* وبَيْسان وزرعين وقرًى عِدَّة، فنزل الفَوَّار، وأعطى النَّاس دستوراً، فسار من آثر المسير، وأتى هو دمشق يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الآخرة.

قال: فانظر إلى هذه الهِمَّة التي لم يشغلها عن الغَزَاة أخذ حلب ولا الظَّفر بها، بل كان غرضه ـ رحمة الله عليه ـ الاستعانة بالبلاد على الجهاد، فالله يحسن جزاءه في الآخرة، كما وفَّقه للأعمال المرضية في الدُّنيا[١].

وقال العماد: خرج السُّلْطان إلى الغزو، ورابط العدوُّ بعين الجالوت، وعبر المخاضة الحُسَيْنية[٢] تاسع جُمادى الآخرة، فوصل إلى بَيْسان وقد أخلاها أهلُها، فأطلق النَّاسُ فيها النيران، ونهبوا ما فيها، وكذلك فعلوا بأبراج وقلاع غيرها. وصادفت مقدَّمة العساكر خيلاً ورَجْلاً للفرنج عابرين من نابلس* ومقدَّمهم ابن هنفري*، فَقُتل منهم وأُسر، وتوقَّل[٣] الباقون في الجبال، ووصل الخبر بأنَّ الفرنج قد أقبلوا في ألفٍ وخمس مئة رُمْح، ومثله تركبلي[٤]، وخمسة عشر ألف راجل، فأتاهم المسلمون وذلك على عين

(١) «النوادر السلطانية»: ٦١ ـ ٦٣.
(٢) قرية، شرقي طبرية. «معجم البلدان»: ٤/١٨.
(٣) وقل: أي صعَّد في الجبل. «اللسان» (وقل).
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٥١ من الجزء الثاني.

الجالوت، فأخذهم الرُّعْب، وخاموا[1] عن الإقدام عليهم، فخندقوا حولهم، وأسندوا ظهورهم إلى الجبل، وأقاموا كذلك خمسة أيام. فلما رأى المسلمون منهم ذلك رجعوا عنهم، فتنفَّس خناقهم، ونكصوا على أعقابهم إلى النَّاصرة، وعاد المسلمون بالغنائم والأسارى، لم يخلِّص العدو منها شيئاً، وذلك يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة. وقد كانوا مُدَّة مقامهم يتخطَّفهم المسلمون من كلِّ جانب، ويرمونهم بالنَّبْل، وينتظرون أن يحملوا أولاً كما هو عادتهم، فما فعلوا.

وفي كتاب فاضلي عن السُّلْطان إلى بغداد: لما كان بتاريخ الثَّامن من جُمادى الآخرة سار الخادم من أدنى المنازل من بلاد الإسلام إلى بلاد الكُفْر، وقد تكاملت جنودُ الإسلام، وتعيَّنت ميامنه ومياسره، وأُخذت أُهَبُهُ، وشُحِذت قُضُبه، وباعوا الله ما اشتراه، وَمُثِّل لأعينهم ثوابه فكأنَّها تراه، وساروا تحت ليل عَجَاجٍ سَتَرَ السَّائِرُ تحته سُرَاه، وأصبح الخادم وإياهم بعين الله في سبيله على ماء الأُرْدُن؛ وهو النهر الفاصل بين الإسلام والكُفْر، والمخاضة المضروب منها بسورٍ على ذلك القُطْر، فخاض ذلك البحر وذلك النهر، وأمدَّته نُطَفُ الحديد فإذا الماء يرمي بالشَّرر ويقذف بالجمر، وذلك يوم الخميس ثاني يوم المسير وهو تاسع الشَّهر. ولما جاز المخاضة أخذ البلادَ ضَرْبُ المخاض، وزُلْزِلَتْ أرضُها فهي بالقوم تُرَضُّ أو للقيامة تُرَاض، ٢/٥١
وأخذت رجال المسلمين[2] تنقُصُ الأرضَ من أطرافها، وتَقْلَعُ قِلاع الجبال، وتطيِّرُ رؤوسها من أكتافها، فإذا البلادُ قد انهزم أهلها، فألحقها المسلمون

(١) خام عن القتال: جَبُنَ عنه. والخائم: الجبان. «اللسان» (خيم).
(٢) في (ك) الإسلام.

مساكنها في الهزيمة، وعوَّلوا فيها على سيوف المعاول، فإذا هي راحلة وكأنها مقيمة، وهذه البلادُ مدن ما كان غرم قَبْلُ منها مُدْنياً، وعماراتٌ ما كان أملٌ إليها مفضياً، بل طالما كان عنها مغضياً، مثل بَيْسان وعَفْرَبَلا* وزرعين وجِينين، كلها بلاد مشاهير لها قُرى مُغِلَّة، وبساتين مُظلَّة، وأنهار مقلَّة، وقلاع مُطلَّة، وأسوار قد ضُربت على جهاتها وأحاطت بجنباتها، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها، فغنم المسلمون ما فيها من أقواتٍ مُخْتَزَنةٍ، وشفوا منها حزازات القلوب المضطغنة، وأحرقوا أوعية كُفْرها بالنَّار، وعذَّبوها عذاب أهلها من الكُفَّار، وقتلوها وكان الضِّرام لها دماً، وكتبوا عليها الخراب وكان السَّيْفُ فيها قلماً، فأجلوا عن حماها حُمماً، وتساقطت جُدُرُها فكأنَّما أسارَّت فيها النوى لَمماً[1].

ولما كان يوم السبت الحادي عشر ورد الخبرُ بأن عسكر الكافرين قد رَكِبَ من مكان مجتمعه، وزحف بلابسه ومُدَّرِعه، فركب الخادم يبوِّىءُ المؤمنين مواقف القتال، ومنازل النِّزال، فمن متسرِّع يطوف عليهم بصفاحٍ ليطاف عليه[2] بصحاف، ومن متثبت يمشي إلى الموت مَشْيَ العَرُوس ساعةَ الزِّفاف، وهنالك منظرٌ وَدَّ المؤمنون لو أن أميرهم له ناظر، كما هو به آمر، ولا غَرْوَ أن يصفه الخادمُ ليسرَّ المخدوم لا ليوصف الخادم، وَمَنْ وَصَفَ ضَرْبة السيف فإنما وصف الضَّارب ولم يصف الصَّارم، ونزل العدو إلى الأرض منحطاً عن سَرْجه، ومنحازاً عن فَجِّه، وسالكاً نهجاً غير نَهْجه، وأحدقَ به راجله، وهو زُهاء عشرين ألف راجل، ورَكَزَ صليبَ صلبوته، فاستوى في العَجْز المحمول والحامل، ونزل محصوراً، وخَنْدَقَ فكأنما

(١) اللَّمَمُ: الجنون، أو طرف منه. «معجم متن اللغة» ٥/ ٢١٢.
(٢) في الأصل: عليها، والمثبت من (ك).

أصبح الكافر في حفر ذلك الخندق مقبوراً، وأقام بإزائه خمسة أيام تماسيه الوقائع وتصابحه، وتماشيه الرَّوائع وتصافحه، ويفزع فيه إلى الحفير، ويتكرَّر إليه في اليوم الواحد النَّفير، ويبعث إليه السهم وهو في الحرب السَّفير، فيقبل تحيّة الضَّرْب متردّدةً ولا يَرُدُّها، وتتبسَّم إليه صفيحة النَّصْل متودّدة فلا يودُّها، ويجتهد في استخراجه وقد رأى العزائم ولم يخرج لدعوتها، والمكارم ولم يرحل لِبُغْيتها.

ومن كتابٍ آخر إلى وزير بغداد: أثاروا على يوم الكفر ليلةَ عَجَاجٍ جَعَلَتْ ليلَ مَنْ وراءهم من الإسلام سَكَناً، وصبروا وصابروا فكأنما كان السَّيف لهم أليفاً، وكان المُعْتَرك لهم وطناً، وأخذت في البلاد النَّارُ مأخذها، ونفَّذت فيها الغِيَرُ منافذَها، وثُلَّت عُروشها وثلَّت غُروسها، وجُليت في مُصَبِّغات النِّيران عَرُوسُها، وأصبحت تناجي العيونَ ثواكِلُها، وتَصِفُ النَّوازلَ منازِلُها، دمناً على الأطلالِ مطلولة، وصَرْعَىٰ بسيوف البلاءِ مقتولة. وجاء العدوُّ، فأحدقت به الأبطال، وتنجَّزَتْ عادة حملته[1] فمطلت وما كان خُلُقها المِطَال، فلما كثَّر الله المسلمين في عيونهم، ورأوا بها ما لم يكونوا يرونه قبلها بظنوهم، واستمدُّوا مغاني الشكوى لتبوح بها أَلْسِنَتهم، إذا خَلَوْا إلى شياطنهم، فأخلدوا إلى الأرض نازلين، وقعدوا عن الحَمْلَةِ ناكلين، واتقى فارسُهم براجله، ورامِحهُم بنابله، ولاذَ سَيْفُهم بِجَفْنه ولا خَيْرَ في حامله، ولاذ جَفْنُه بإطراقه خَوْفاً من كَحْلِهِ بسهم قاتله. وأقاموا محصورين لا يستطيعون وِرْداً ولا صَدَراً، ولا يجدون متقدَّماً ولا متأخَّراً، فما كان للكُفْر فئةٌ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً، وعَزَف النَّصْل في لحن

(١) في الأصل: حمله، والمثبت من (ك).

السيف، أن الشجاعة والنكول أمران يقذفهما الله في القُلُوب، فلا يقل النَّاسُ كيف.

فَصْــل

في ولاية الملك العادل حلب، وولاية تقي الدِّين مصر، وغير ذلك

قال العماد: وقد كان العادل نائباً بمصر، فلما فتح السُّلْطان حلب كتب العادلُ إليه يطلبُها منه مع أعمالها، ويدع الدِّيار المِصْرية، فكتب السلطان إليه أن يوافيه إلى الكَرَك*، فإنه سائرٌ إلى فَتْحه، فأشار القاضي الفاضل على السلطان أن يستنيب في الدِّيار المصرية موضع أخيه العادل ابنَ أخيه تقي الدِّين، فاستصحبه السلطان معه إلى الكَرَك في رجب [من][1] هذه السنة، وحاز في طريقه قبل وصوله إليها غنائم، وخَيَّم علىٰ الرُّبَّة[2]، ثم حصر الكَرَك ورماه بالمجانيق صباحاً ومساءً، وتناوب عليه الأُمراء حتى خرج شهر رجب، وما حصل منه الطَّلب، لكن عَظُمت النِّكاية في الكُفَّار بأخذ أموالهم وتخريب الدِّيار. ووصل الخبر أن الفرنج قد استجمعوا وتجمَّعوا بالموضع المعروف بالواله[3] على قَصْد المسلمين وخلاص الكرك من أيديهم، ورأى السُّلْطان أن أمر حَصْرِهِ يطول، فعوَّل على الرَّحيل إلى دمشق، ووصل العادلُ إلى السّلْطان وهو بَعْدُ على الكَرَك، فجهَّز تقيَّ الدين إلى

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) قرية في طرف الغور بين أرض الأردن والبلقاء. «معجم البلدان»: ٣/ ٢٦.

(٣) قرية تقع على طريق المسافر من عمان إلى الكرك، بين مأدبا وذيبان. «البرق» ٥/ص ١٥٤، حاشية رقم ٥.

الديار المصرية والياً عليها، وقوّى عَضُده بصحبة القاضي الفاضل له، وتولّى العادل حلب وأعمالها، ومَنْبِج* وجميع قلاعها، وسار إليها في رمضان، ورجع منها إلى دمشق الملكُ الظَّاهر ونوَّابُ السلطان(1).

٥٢/٢ قلت: وكتب العادِلُ إلى الفاضل يستشيره في التعوُّض عن مصر بحلب. فكتب إليه الفاضل كتاباً، فيه:

إنمـا أنـتَ كغيـثٍ مـاطـرٍ حيثمـا صَـرَّفَـه الله انصـرفْ

والمولى أعلم، وبسياسة الدُّنيا أقوم، وقد تكرَّر الكتاب النَّاصري إليه بما نصَّ عليه، وكشف له الغِطاء، وسنَّى له العطاء، وقالت له المخطوبة: هَيْتَ لك(2). وأدَّى إليه مالكُ الأَمْرِ ما قد ملك، فلا زالت سعادتُه أنورَ مِنْ شمسٍ وأدورَ مِنْ فَلَك، ولا زال رابحاً على الدَّهْرِ إنِ امرؤٌ خَسِرَ، وباقياً إنِ امرؤٌ هَلَك.

ومن كتابٍ آخر إليه: أدام اللَّهُ دولة حامي الحِمى، وثبَّت الدولة النَّاصرية التي يقومُ بها ملكان هُمامان هما(3)، هذا صلاحٌ يمنعُ فساداً، وهذا سَيْفٌ(4) يحقِنُ دماً.

قال ابن أبي طي: كان السلطان يَعَظِّم الملك العادل، ويعمل برأيه في

---

(1) «البـرق الشـامـي» ٥/ش ١٤٩ ـ ١٥٣، ١٥٤، ١٥٩، ١٦٢ ـ ١٦٣، ص ١٥٢ ـ ١٥٤، ١٥٦، ١٦٢ ـ ١٦٣.
(2) أي أَقْبِلْ. «اللسان» (هيت).
(3) في الأصل: هما ما هما، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٥٢، وهذا النص ليس في (ك).
(4) سيف الدين هو لقب الملك العادل أخي صلاح الدين.

جميع أموره، ويتيمَّن بمشورته، ولا يُعلم بأنه أشار على السُّلْطان بأمرٍ فخالفه. حدَّثني قاضي اليمن جمال الدين، قال: كان السلطان يجمع الأُمراء للمشورة، فإن كان العادل حاضراً سمع من رأيه، وإن لم يكن حاضراً لم يقطع أمراً في المهمات حتى يكاتبه بجلِيَّة الأحوال، ثم يسمع رأيه فيها.

قال: وحدَّثني أبي قال: حدَّثني جماعة قالوا: كان السلطان ليس له غَنَاء عن العادل ولا عن رأيه، فلما حصل العادل بمصر وبَعُدَ عن السلطان هناك صار السلطان يتكلَّف في مكاتبته بالأخبار، ويؤخِّرُ الأمور إلى أن يَرِدَ عليه جوابُه، فيفوته بذلك كثير من المنافع الحاصلة للدَّوْلة وللجهاد. فلما حصر الكَرَك* في هذه السنة كاتبه بالحضور إليه بعياله وأمواله وجميعِ أصحابه، وولَّى مِصْرَ تقيَّ الدين، ولما حصل العادلُ عند السلطان وقع في نفسه أن يعوضه عن ولاية مصر، ثم حار في أي ولايةٍ يولِّيه.

قال: وحدَّثني علم الدين قيصر الصَّلاحي قال: إنما أَقْدَمَ السُّلْطانُ العادلَ من مِصْر لأجل ولايةِ حلب، وبذلك كاتبه، ولأجل هذا[1] خَرَجَ العادل بأمواله وعياله وأثقاله.

قال: وحدَّثني غيره، قال: لما حصل العادِلُ عند السُّلْطان بأمواله وأثقاله كانت الأموال قد قلَّت على السُّلْطان، وقد حصلت عنده عساكر عظيمة، فأحضر العادلَ ليلاً وقال: أريد أن تقرضني مئة وخمسين ألف دينار إلى الميسور، فقال: السَّمْع والطَّاعة. ثم قام، وخرج من عنده، وكتب إليه يقول: أموالي جميعها بين يديك، وأنا مملوكك، وأشتهي أن أحمل هذا

---

(١) في (ك) و(ب): ولهذا.

المال إلى خدمة السُّلْطان، ويكون[1] عوضاً عنه مدينة حلب وقلعتها. فأجابه السلطان: إنني والله ما أقدمتك إلا لأولِّيك حلب، وإذ قد اقترحت ذلك، فقد وافق ما عندي. فلما أصبح العادل أنفذ وسأل السلطان أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويجعله ككتاب البَيْعِ والشِّرىٰ[2]. فامتنع السُّلْطان وقال: إنما تكون حلب إقطاعاً، والمال عليَّ له. فاعتذر العادل إلى السُّلْطان، ولما اجتمعا قال له السلطان: أظننت أن البلاد تباع، أَوَ ما علمتَ أن البلاد لأهلها المرابطين بها، ونحن خَزَنَةٌ للمسلمين، ورعاةٌ للدِّين، وحُرَّاس لأموالهم؟ أَوَما عَلِمْتَ أن السُّلْطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقي لما وقف طبرية* على جامع خُرَاسان لم يحكم به أحدٌ من القضاة ولا من الفقهاء[3]؟ ثم قرَّر السلطان ولاية العادل بحلب وأعمالها إلى رَعْبان* إلى الفرات إلى حماة، وكتب له التوقيع، وقرَّر عليه مالاً يحمله برسم الزردخاناه* وخزانة الجهاد، ورجَّالةً من الحلبيين. ورحل السلطان إلى دمشق، واستدعى ولده الظَّاهر من حلب، فلما حضر أمره بالعَوْدِ إلى حلب وتسليمها إلى عَمِّه العادل، ففعل، وعاد إلى دمشق، وسار العادل إلى حلب، فالتقيا بالرَّستن*، وباتا فيه. فكانت [مدة][4] ولاية الظَّاهر بحلب في هذه النوبة نحو ستة أشهر، ولما وصل الظَّاهر إلى دمشق أقبل على خدمة والده والتقرُّب إليه، إلا أن الانكسار

---

(١) في (ك) و(ب) ويجعل.

(٢) في (ك) والشراء، وكلاهما صحيح.

(٣) في هامش الأصل بخط متأخر: أما قرأ العادلُ القرآن العظيم ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾.

قلت: سورة طه، الآيـة ٦. وقد جاءت في الأصل: ولله ما في السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

لخروج حلب [من يده][(١)] ظاهر عليه، وهو مع ذلك لا يظهر شيئاً إلا الطَّاعة لوالده، والانقياد لمرضاته.

حدثني أبي عن مجد الدين بن الخَشَّاب، قال: حدثني الملك الظَّاهر قال: لما بلغني أن السلطان أعطى حلب للملك العادل جرى عليَّ ما قَدُمَ وما حَدُث، وأصابني من الهَمِّ ما لم أقدر على النُّهوض به، ووددت أني لم أكن رأيتُها، ولا دخلت إليها، لأن قلبي أَحَبَّها وقبلها، وطاب لي هواؤها، ولما فارقتها كنت أحِنُّ إليها واشتاقُها.

قال: ودخل العادل حلب في رمضان، وخلع على المقدَّمين والأعيان، وكان قد قدَّم بين يديه كاتبه المعروف بالصنيعة ليُسَلِّم حلب وقلعتها من الملك الظَّاهر، وولَّى القلعة صارم الدين بُزْغُش، وولَّى الديوان والإقطاعات شجاع الدين بن البيضاوي صبَّاغ دقنه، وولى الإنشاء وما يتعلَّق بأمور السر للصنيعة ابن النَّحَّال ـ وكان نصرانياً ثم أسلم على يد العادل ـ فولى ابن النحال [الوظائف][(٢)] لجماعةٍ من النصارى. وفي ذلك يقول الشَّاعر:

فاق دينُ المسيح في دولة العا … دل حتى علا على الأديانِ
ذا أميرٌ وذا وزيرٌ وذا وا … لٍ وذا مُشْرِفٌ على الدِّيوانِ

٥٣/٢ قال: ولم يزل العادل يهذِّب أمور حلب إلى سادس عشر ذي القَعْدة، ثم خرج متوجِّهاً إلى دمشق بسبب أن السلطان اجتمع عنده في ذي القعدة

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/ ٥٢.

عِدَّةُ رسل، منهم: رسل الخليفة، ورسل طُغْرُل بن البهلوان، ورسل قزل أخي البهلوان، ورسل شاه أرمن صاحب خِلاط*، ورسل المواصلة، ورسل عماد الدين صاحب سِنْجار*، ورسل قليج أرسلان صاحب الشمال، فأراد السلطانُ إحضار العادل لسماع الرَّسائل، ولحضور الأجوبة عنها، ولتقرير أمور الفرنج، ويوم وصلَ العادلُ إلى دمشق أحضره السلطانُ لسماع الرسائل، وسمع ما عنده من الأجوبة، ولما قضى أجوبة الرسل ودَّعَ السلطان، وعاد إلى حلب.

قال: ولما بلغ سيْف الإسلام أن السلطان كتب لتقي الدين عهداً بولاية مصر عَتِبَ لأجل ذلك، فكتب السلطان له عهداً ببلاد اليمن جميعها.

قال: وأقطع السلطان تقيَّ الدين الإسكندرية ودِمْياط، وجعل لخاصته البحيرة والفيوم وبُوْش*، ثم عوَّضه عن بوش سَمَنُّود وحَوْف رمسيس، وذكر غير ذلك.

قال العماد: أنعم السُّلْطان على تقيِّ الدِّين بالأعمال الفَيُّومية وسائر نواحيها بجميع جهاتها وجواليها[1]، وزاده القايات وبُوش، وأبقى عليه بالبلاد الشَّامية مدينة حماة وقلعتها وجميع أعمالها. ولما وصل تقيُّ الدِّين إلى مِصْر اقتدى بالتدبير الفاضلي، وكان السُّلْطان لا يؤثر مفارقته، فلما لم يجد من توجيه تقي الدين إلى مصر بُدّاً، وكانت فيه حِدَّة لم تكن في العادل احتاج في تقويمه إلى تدبير الأَجَل الفاضل[2].

---

(١) الجوالي جمع، مفردها جالية، وهي الجزية. انظر «تكملة المعاجم» لـدوزي الترجمة العربية: ٢/ ٣٥٢.

(٢) «البرق الشامي» ٥/ ش ١٥٤، ص ١٥٥ ــ ١٥٦.

قال القاضي ابن شداد: وَقُتل على الكَرَك* في هذه الكرة شرف الدين بُزْغُش النُّوري شهيداً رحمه الله، ثم رحل السلطان عنها مستصحباً أخاه العادل إلى دمشق، فدخل دمشق في رابع عشري شعبان، وأعطى العادل حلب في ثاني شهر رمضان، فسار في ذلك اليوم نحوها[١]، فوصلها، وصَعِدَ القلعة في يوم الجمعة الثَّاني والعشرين من رمضان، وكان بها ولد السلطان الملك الظَّاهر، ومعه سيف الدين يازكُوج يدبِّر أمره، وابن العميد في البلد، وكان الظَّاهر أَحَبَّ[٢] أولاده إلى قلبه لما قد خَصَّه اللَّهُ به من الشَّهامة والفِطْنة والعقل، وحُسْن السَّمْت والشَّغف بالمُلْك، وظهور ذلك عليه، وكان من أبرِّ النَّاس[٣] بوالده، وأطوعهم له، ولكن أخذ منه حلب لمصلحةٍ رآها، فخرج من حلب ـ لما دخلها عمه العادل ـ هو ويازكوج سائرين إلى خدمة السُّلْطان، فدخل دمشق يوم الاثنين ثامن عشري شَوَّال، فأقام في خدمة والده لا يُظْهر له إلا الطَّاعة والانقياد، مع انكسار [في][٤] باطنه لا يخفى عن نَظَر والده.

قال: وفي ذلك الشهر وَرَدْنا على السُّلْطان رُسُلاً من جانب المَوْصل، وكُنَّا قد ترسَّلْنا إلى الخليفة النَّاصر لدين الله في إنفاذ شيخ الشيوخ صدر الدين[٥] رسولاً وشفيعاً إلى السُّلْطان، فسيَّره معنا من بغداد، وكان غزير المروءة، عظيمَ الحُرْمة في دولة الخلافة[٦] وفي سائر البلاد، وكانت

---

(١) في (ك) و(ب): نحو حلب.

(٢) في (ك) من أحب.

(٣) في (ك) و(ب): وكان أبر الناس بوالده.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥١، وص ١٢٤ من هذا الجزء.

(٦) في (ك و(ب) الخليفة.

مكانته[1] عند السُّلْطان بحيث يتردَّدُ إليه إذا كان عنده في مُعْظم الأيام.

قال: وكان الشيخ قد وصل إلى المَوْصل، وسار منها بعد أن سار في صحبته القاضي محيي الدين بن كمال الدين[2]، وكان بينهما صحبة من الصِّبا، وكنتُ مع القوم، وسرنا حتى أتينا دمشق، وخرج السلطان إلى لقاء الشيخ ونحن في خدمته، وأقمنا أياماً نراجع في فَصْلِ حال، فلم يتفق[3] صُلْح في تلك الدفعة، وخرجنا راجعين إلى المَوْصل، وخرج السلطان إلى وداع الشيخ إلى القُصير[4]، واجتهدوا في ذلك اليوم أن ينقضي شغل، فلم يتفق. وكان الوقوف من جانب محيي الدين، فإنَّ السلطان اشترط أن يكون صاحب إِرْبِل* والجزيرة على خيرتهما في الانتماء إليه أو[5] إلى صاحب المَوْصل، فقال محيي الدين: لا بُدَّ من ذكرهما في النسخة. فوقف الحال. وكان مسيرنا يوم الخميس سابع ذي الحِجَّة.

قال: وفي تلك الدفعة عَرَضَ عليَّ السُّلْطان مواضع البهاء الدمشقي[6] بمصر على لسان الشيخ، فاعتذرتُ، ولم أفعل، خوفاً من أن يُحالَ توقفُ الحالِ عليَّ، ومن تلك الدفعة ثبت في نفسه الشريفة مني أمرٌ لم أعرفه إلا بعد خدمتي له. وأقام السُّلْطان بدمشق ترد عليه الرُّسُل من الجوانب، فوصله رسول سِنْجر شاه صاحب الجزيرة، فاستحلفه لنفسه وانتمى إليه، ورسل

---

(١) في الأصل: مكاتبته، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) سترد ترجمته في ٤/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩ من هذا الكتاب.

(٣) في الأصل: يبق، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) القصير: بالتصغير: منطقة تقع جنوبي غرب حمص، على بعد ٣٢ كيلومتر. وكانت أول منزل لمن يريد حمص من دمشق. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٣٦٧.

(٥) في الأصل: وإلى، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) كان مدرساً بمصر، وقد توفي في ذلك العام، انظر «وفيات الأعيان»: ٧/ ٨٨.

إرْبل، وحلف لهم وساروا، ووصل إليه أخوه العادل يوم الاثنين رابع ذي الحِجَّة، فأقام عنده. وعيَّد، وعاد إلى حلب[1].

قال العماد: ووصلت رُسُل صاحب الجزيرة معز الدين سِنْجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكي، ورسل صاحب إرْبل* زين الدين يوسف بن علي كوجك بن بُكْتِكِين[2]، ورسل صاحبي الحديثة[3] وتكْريت* يشكون من صاحب المَوْصل، ويطلبون أن يكونوا من أولياء السُّلْطان المنتمين إليه، ففعل السلطان ذلك. وكان أبو سنجر شاه سيف الدين غازي هو صاحب المَوْصل بعد والده مودود ــ كما تقدم ذكره[4] ــ فعهد إلى ابنه سِنْجرشاه بها، فغلبه عليها عَمُّه عز الدين مسعود بن مودود، فبقيت الجزيرة بيد سِنْجرشاه، وهو تحت يد عمه، وفي قلبه منه ما فيه، وكانت إرْبل وأعمالها وما يليها كلُّها مضافةً إلى الموصل، وصاحب الموصل هو الحاكم على جميعها، فمن ثَمَّ طلب هؤلاء[5] الانحياز إلى خدمة السُّلْطان،
٢/ ٥٤ فأجابهم[6]، وسمع بذلك صاحب الموصل، فاستشفع بدار الخلافة إلى أن أرسل منها شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير إلى السُّلْطان أن يجدِّد لصاحب الموصل الأيمان، ويكون له من جُمْلة الأعوان، حَرْباً[7] لمن حاربه، سِلْماً لمن سالمه. وجاء رسول صاحب المَوْصل قاضي القضاة محيـي الدين أبو

(١) «النوادر السلطانية»: ٦٣ ــ ٦٥.
(٢) في (ك) زين الدين يوسف بكتكين بن علي كوجك. وهو خطأ.
(٣) يعني حديثة الموصل. انظرها في كشاف الأماكن.
(٤) انظر ص ١٦١ وما بعدها من الجزء الثاني.
(٥) في الأصل: هو، والمثبت من (ك) و(ب).
(٦) في الأصل: فأجابه، والمثبت من (ك) و(ب).
(٧) في الأصل: كلها، وهو تحريف، والمثبت من (ك و(ب).

حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري، وترفَّع في أداء الرسالة، وأغلظ في الكلام، فألان له السلطان، وقال: أنا أقضي حاجته على ما أراد، ولكن قد سبق مني يمينٌ لأولئك السلاطين، فأنا أستثنيهم وأَرُدُّهم إلى اختيارهم لي أَوْ له. فأبى ذلك، وأراد أن تكون الصَّداقة له دون سائر ذوي الممالك، وأشار إلى أن لهم من ينصرهم من جهة البهلوان ملك العجم. فَعَظُمَ ذلك على السلطان، وكان ذلك محرِّكاً له إلى أن يعود إلى الموصل، ورجعت الرُّسل على ذلك غير ظافرين بطائل.

وكان منزل شيخ الشيوخ بالرِّباط على المنيبع*، ومنزل القاضي محيي الدين في جوسق بستان الخلخال، وشهاب الدين بشير بجوسق المَيْدَان[1]، وتوفي ولد شيخ الشيوخ بدمشق، وكان في صحبته، فدفنه في المقبرة[2] المحاذية للرِّباط، وحضر عنده السلطان وجماعة الأمراء للعزاء[3].

فَصْــل
في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: وكانت شَتْوة هذه السنة كثيرة الأمطار[4].

وكثرت مكاتبات العماد للفاضل، وأورد في بعضها أبياتاً، منها:

عُــذْرُ الـزَّمـانِ بـأيِّ وجـهٍ يُقْبَـلُ ... ومُحِبُّكُــمْ بــالصَّــدِّ فيــه يُقَتَّــلُ

(١) أي الميدان الأخضر.
(٢) هي مقبرة الصوفية.
(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١٦٣ ــ ١٧٠، ص ١٦٣ ــ ١٦٩.
(٤) «البرق الشامي» ٥/ش ١٧٢، ص ١٧٠.

ما لي سوى إنسان عيني مُسْعداً بـالـدَّمْـعِ إنسـانٌ عليـه أُعَـوِّلُ
الـدَّهْـرُ لَيْـلٌ كلُّـه فـي نـاظـري لا صُبْـحَ إلا وَجْهُـكَ المُتَهَلِّـلُ
خُيِّـرْتُـمُ بيـن المَنِيَّـة والمُنَـى[1] لا تَهْجُروا فالمَوْتُ عنديَ أسْهَلُ
يـا غـائبيـن وهـم بفكـريَ حُضَّـرٌ يـا راحليـن وَهُـمْ بقَلْبـي نُـزَّلُ
مـا للسُّلُـوِّ إلـى فـؤاديَ مَنْهَـجٌ[2] مـا للصَّبـابـة غيـر قلبـي مَنْهَـلُ
لا تَعْـدِلُـوا عنـي فمـالـي مَعْـدِلٌ عنكـم وليس سـواكُـمُ لـي مَـوْئِـلُ
كـلُّ الخُطُـوب دفعتـه بتجلُّـدي إلا التفـرُّقَ فهـو خَطْـبٌ مُعْضِـلُ
إن لـم يَجِـدْنـي طَيْفُكُـمْ فـي زَوْرَةٍ فـلأننـي منـه أَدَقُّ وَأَنْحَـلُ
لا صَبْرَ لي لا قَلْبَ لي لا غَمْضَ لي لا عِلْمَ لـي بـالبَيْـنِ مـاذا أَفْعَـلُ[3]

قال ابن الأثير: وفي جُمادى الأُولى من سنة تسعٍ وسبعين[4] قبض عِزُّ الدِّين أتابك على مجاهد الدِّين قايماز، وهو حينئذٍ نائبه في بلاده، واتبع في ذلك هوى من أراد المصلحة[5] لنفسه، ولم ينظر[6] في مضرَّة صاحبه. وكان الذي أشار به عز الدين محمود زلفَنْدار، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير ـ الذي كان أبوه صاحب بلد الغَرَّاف[7] ـ وهما من أكابر الأُمراء، فلما قبضه كان بيده إِرْبل* وشَهْرُزور* ودَقُوقا* وجزيرة ابن عمر*، وكان بها مُعِزُّ الدين سِنْجرشاه بن سيف الدين صغيراً، والحكم فيها إلى مجاهد الدين،

---

(١) في «البرق»: والنوى.
(٢) المنهج: الطريق. «اللسان» (نهج).
(٣) «البرق الشامي» ٥/ش ١٨٠ ــ ١٨١، ص/ ١٧٧.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥٤ من الجزء الثاني.
(٥) في الأصل: النفحة، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب).
(٦) في الأصل: نصر، وهو تحريف، والمثبت من (ك) و(ب).
(٧) الغراف: قرب واسط، بينها وبين البصرة. «معجم البلدان» ٤/ ١٩٠.

ولهم أيضاً قلعة العَقْر[1]، فحين قُبض امتنع زين الدين يوسف بن زين الدين عليّ بإربل، وكان فيها لا حُكْم له مع مجاهد الدين، وامتنع معز الدين بالجزيرة، وأرسل الخليفة النَّاصر لدين الله عسكراً حصر دَقُوقَا فملكها، ولم يحصل لعز الدين [من جميع ما كان لمجاهد الدين][2] إلا شَهْرُزور، وصارت هذه البلاد التي كانت بيده أَضَرَّ شيء على المَوْصِل، وبقي مقبوضاً [نحو عشرة أشهر، وندم أتابك على قبضه][3]، فأخرجه وأعاده إلى ولاية قلعة المَوْصل، إلا أن الذي أُخذ من البلاد لم يَعُدْ إلى طاعته، وقَبَضَ عِزُّ الدين على من كان أشار عليه بقبض مجاهد الدين.

قال ابن الأثير: وعلى الحقيقة فليس[4] على الدُّول شيءٌ أَضَرَّ من إزالة مُدَبِّر لها وإقامة غيره، فإن الأول يكون كالطَّبيب الحاذق العارف بمزاج الإنسان ومرضه وعلاجه، وما يوافقه ويؤذيه، [ويكون الثاني ــ وإن كان كافياً ــ بمنزلة الطبيب الذي لا يعرف مزاج الإنسان، وما يوافقه ويؤذيه][5]، فإلى أن يعرف حاله ينفسد أكثر مما ينصلح[6].

قال ابنُ القادسي[7]: وفي هذه السنة في جُمادى الآخرة توفي الأبله

---

(١) العقر: قلعة حصينة في جبال الموصل من شرقيها، تعرف بعقر الحميدية، وأهلها أكراد. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ١٣٦.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٣) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من مطبوع «الباهر»: ١٨٤.
(٤) في الأصل: ليس، والمثبت من (ك) و(ب).
(٥) ما بين حاصرتين مثبت من (ك) و(ب).
(٦) «الباهر»: ١٨٣ ــ ١٨٤، و«الكامل: ١١/ ٤٩٩ ــ ٥٠١، ٥٠٤.
(٧) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

الشَّاعر ـ وهو من أسماء الأضداد[١] ـ واسمه أبو عبد الله محمد بن بَخْتِيار بن عبد الله[٢]، وكان فصيحاً هجَّاء، وله أشعار رقيقة، منها:

زار مــن أحيــا بِــزَوْرَتِــه والــدُّجــى فــي لَــوْنِ طُــرَّتِــهِ
يــا لهــا مــن زَوْرَةٍ قَصُــرَت فــأمــاتَــتْ طُــوْلَ جَفْــوتِــهِ[٣]

ثم دخلت سنة ثمانين [وخمس مئة][٤]

قال العماد[٥]: وقد تقوَّض البرد، فلما طاب الزَّمان تجهَّز السُّلْطان بالعساكر المنصورة إلى الكَرَك* مَرَّة أُخرى، وأرسل إلى تقي الدِّين، فجاء بالعساكر المِصْرية والأَجَلِّ الفاضل، وتتابعت العساكر المشرقية والملك العادل، وجاء نور الدين بن قرا أرسلان صاحب الحِصن* وآمِد*، وصاحب ٢/٥٥

(١) قال الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٤٥: «وإنما قيل له الأبله، لأنه كان في غاية الذكاء، فسمي الأبله من باب تسمية الشيء بضده، كما قيل للأسود: كافور». قلت: وشجر الكافور خشبه أبيض هش، وانظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦٥.

(٢) قال ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ٤/٤٦٣: «الشاعر المشهور، أحد المتأخرين المجيدين، جمع شعره بين الصناعة والرقة، وله ديوان شعر بأيدي الناس، كثير الوجود...

قلت: ما زال ديوانه مخطوطاً لم يحقق.

ومن أبياته السائرة قوله:

لا يعرف الشوقَ إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

انظر ترجمته في «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٤٢ ـ ٢٤٣، «الكامل»: ١١/ ٥٠٣، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦٣ ـ ٤٦٥، «الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٤٤ ـ ٢٤٦.

(٣) انظر بعض أبيات القصيدة في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦٣.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٥) انتهى ما وصلنا من الجزء الخامس من «البرق الشامي»، وسنحيل من بعد على مختصره «سنا البرق»، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٠٧ وحاشيتنا رقم ١ ص ٧٢ من هذا الجزء.

دارا، وأخو صاحب سِنْجار، وعسكر مارِدِين*، فاجتمعت العساكر برأس الماء، وأشفق السُّلْطان على ابن قرا أرسلان من اقتحام المشاق، فأقامه برأس الماء بحوران إلى حين العَوْد، وأمر العادل بالإقامة معه[1].

وقال القاضي ابن شَدَّاد: سيَّر السُّلْطان إلى العساكر يطلبها، فوصل ابن قرا أرسلان نور الدين إلى حلب ثامن عشر صفر، فأكرمه العادل إكراماً عظيماً، وأَصْعَده القلعة، وباسطه، ورحل معه طالباً دمشق. وكان السلطان قد مَرِضَ أياماً، ثم شفاه الله تعالى، ولمَّا بلغه وصولُ ابن قرا أرسلان خرج إلى لقائه ــ وكان رحمه الله يكارم النَّاسَ مُكارمةً عظيمة ــ فالتقاه على الجسر بالبقاع في تاسع ربيع الأول، ثم عاد إلى دمشق، وخلَّف نور الدين واصلاً مع العادل، فتأهَّب للغَزَاة، وخرج مبرِّزاً إلى جسر الخشب، ووصل العادل وابن قرا أرسلان دمشق، فأقاموا بها أياماً، ثم رحلوا يلتحقون بالسُّلْطان، ورحل السلطان من رأس الماء ثاني ربيع الآخر طالباً للكَرَك*، فأقام قريباً منها أياماً ينتظر وصول الملك المُظَفَّر من مصر إلى تاسع عشر الشهر، فوصل تقيُّ الدين، واجتمع به ومعه بيت العادل وخزائنه، فسيَّرهم إليه، وتقدَّم إليه وإلى بقية العساكر بالوصول إليه إلى الكَرَك، فتتابعت العساكر إلى خدمته حتى أحدقوا بالكَرَك في رابع عشر جُمادى الأُولى، وركَّب المجانيق عليه، وقد التقت العساكر المِصْرية والشَّامية والجَزَرِيَّة.

ولما بلغ الفرنج ذلك خرجوا براجلهم وفارسهم إلى الذَّبِّ عن الكَرَك، وكان على المسلمين فيه ضرر عظيم، فإنه كان يقطع عن قَصْدِ مصر بحيثُ كانت القوافل لا يمكنها الخروج إلا مع العساكر الجَمَّة، فاهتمَّ السلطانُ بأمره

---

(١) «سنا البرق»: ٢٤٠ ــ ٢٤١.

لتكون الطَّريق سابلة ــ ويَسَّر الله ذلك، وله الحمد والمِنَّة، ولكن كان فتحها بعد ذلك ــ ولما بلغ السلطانَ خَبَرُ خروج الفرنج تعبِّي للقتال، وأمر العساكر أن تخرج إلى ظهر[1] الكَرَك، وسيَّر الثَّقَل نحو البلاد، وبقي العسكر جريدةً، ثم سار السلطان يقصد العدو.

وكان الفرنج قد نزلوا بموضعٍ يقال له الواله[2]، وسار حتى نزل بالبَلْقاء* على قريةٍ يقال لها حُسبان قُبالة الفرنج في طريقهم، ورحل منها إلى موضعٍ يقال له ماعين، والفرنج مقيمون بالواله إلى السَّادس والعشرين من جُمادى الآخرة، ثم رحلوا قاصدين الكَرَك، فسار بعض العساكر وراءهم، فقاتلوهم إلى آخر النهار. ولما رأى رحمه الله تصميمَ الفرنج على الكَرَك، أمر العسكر أن يدخل الساحل لخلوِّه عن العساكر، فهجموا نابلس ونهبوها، وغنموا ما فيها، ولم يبق فيها إلا حصناها، وأخذوا جِينين*، والتحقوا بالسلطان برأس الماء[3].

قلت: وقد وصف القاضي الفاضل حِصْن الكَرَك في بعض كتبه، فقال: هو شَجَاً في الحناجر، وقذًى في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقَعَدَ بأرصاد العَزَائم وطُرُقها، وصار ذئباً[4] للدَّهْر في ذلك الفَجِّ، وعُذْراً لتارك فريضة الله من الحَجِّ، وهو وحصن الشَّوْبك ــ يسر الله الآخر ــ كبيت الواصف للأَسدين:

مــا مَــرَّ يَــوْمٌ إلا وعِنْــدَهُمــا ... لَحْــمُ رجــالٍ أو يُــوْلِغــانِ دَمَــا

---

(١) في مطبوع «النوادر»: ظاهر.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٩٠ من هذا الجزء.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٦٦ ــ ٦٧.

(٤) في (ك) ذنباً، وفي الأصل: مهملة، ولعل الأشبه ما أثبتناه.

وفي كتابٍ آخر: وأما الكَرَك فكفَّات المنجنيقات عليه[1] متضافرة، وحجارتُها على مَنْ فيه حاجرة، وقد جُدعت أنوف الأَبْرِجة، وأَسْبَلَتْ قناع السَّتائر وجوهها المتبرِّجة، وكلُّ جوانبها وَعْرة المُرْتَقى، صَعْبَة المُخْتطى، والسُّلْطان يستعذب المشقَّات التي تتفادى منها الهِمَم، ويباشر جمرات الشِّتاء الكالح بوجهه المبتسم.

ومن كتابٍ آخر[2]: وقد جمعت الحجارة في الإسقاط بين رؤوس الأبراج ورؤوس الأعلاج، فرمت الشَّراريف والواقفين عليها لحمايتها، وأرت الفرنج باهتدائها إلى أردائها غاية غوايتها، فما أَخْرَجَ أحدٌ منهم رأساً إلا دخل في عينه نَصْلٌ، وما هَجَرَ قِرابَ الإسلامِ سيفٌ إلا وله مع رقاب الكُفْر عند قَطْعها وَصْل، وما على الحَجَرِ في الإسراف والتبذير حَجْر، ولكلِّ ليلةٍ من نَقْعِ الحوافر من سنا الأسِنَّة فَجْر، ولقد أخذنا من العدوِّ بالمخنق، وشرعنا في طَمِّ الخَنْدَق، والحائط واقع والواقعة بهم محيطة، والمدرَّع بالسيوف مُفَصَّلة وبالجروخ* مخيطة.

ومن كتابٍ آخر: عذاب الله بالحِصْنِ وأهله واقع، ما له من دافع، وإن دليلَ النَّصْرِ قد ظهر وما دونه من مانع، وأما المنجنيقات فقد نكأت في الأبراج بالهَدْم، وفي الأعلاج بالهَتْكِ، فلم تُبْقِ لها الحجارةُ الطَّائرة إليها حجارةً قائمة، وإن لها من إمطارها عليها ليلاً ونهاراً دِيْمَة دائمة، وأطفنا عليها بالزَّرَجُون[3] حتى[4] وقعت الأسوار من سُكْرها، وضربنا دونها

---

(١) في الأصل: عليها، والمثبت من (ك).

(٢) من هنا، حتى آخر ص ٢٠٦، ساقط من (ك).

(٣) الزرجون: الخمرة، فارسي معرَّب. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٢٥.

(٤) في الأصل: قد، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٥٥.

الستائر حتى ترنَّمت لصخرها، وعاطَتْها كفة المنجنيق عُقار عقرها، فالسُّور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه، وانهدَّت قواعده وأركانه، ولولا الخندق الذي هو وادٍ من الأودية واسع عميق، لما تعذَّر إلى الزَّحْفِ إليهم والهَجْمِ عليهم طريقٌ.

ومن كتابٍ آخر: الحِصْن الذي نحن حاضروه وحاصروه في حصانة

٥٦/٢ الحصانة، قد هدَّت الحجارةُ منه ما أحكموه بالحجارة، وغدا عليه بالتخريب ما أعدُّوه للعمارة، فقِسِي المنجنيقات ترمي ولا تُرَنِّم سهامُها، ويستديم من أعداء الله ومعقلهم بالقتل والهَدْم انتقامها، فما قابل المنجنيقات من الأبراج والأبدان، قد أتى التخريب على ما فيه من العُمْران، فلم يبق إلا طَمُّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدوِّ بالمخنق، والقلوب واثقةٌ بحصول الفَتْح، وقد عَلِمَ كلُّ واحدٍ منا أن متجره قد فاز بالرِّبْح، فما يُسْمع منا بحمدِ الله من أحدٍ ملل ولا ضَجَر، ولا تُسْفِرُ هذه النَّوْبة إن شاء الله تعالى إلا عن نَصْرٍ وظَفَر.

قال العماد[1]: ورحل السُّلْطان من رأس الماء على طريق الظَّليل والزَّرْقاء*، وعَمَّان والبَلْقاء، ثم الرَّقيم* وزيزاء*، والنقوب واللَّجُون*، ثم أدر، ثم الرُّبَّة*، وذلك في بلد مآب، فلما تلاحقتِ العساكر نزل على وادي الكَرَك، ونصب عليها تسعة مجانيق صفًّا قُدَّام الباب، فهدمت السُّور المقابل لها، ولم يبقَ مانعٌ إلا الخندق الواسع العميق، وهو من الأودية الهائلة، والمهاوي الحائلة، والمهالك الغائرة الغائلة، ولم يكن في الرأي إلا طمُّه، وملؤه بكل ممكنٍ وَرَدْمُه، فَعُدَّ ذلك من الأمور الصِّعاب، وتعذَّر لُحُزُونة

---

(١) إلى هنا ينتهي السقط من (ك) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٠٥ من هذا الجزء.

الأرض وتحجُّرِها حَفْرُ الأسراب[1]، فأمر السُّلْطان بضرب اللَّبن وجَمْعِ الأخشاب، وبناء الحيطان المقابلة من الرَّبَض إلى الخندق وتسقيفها، وتلفيق ستائرها وتأليفها، فتمَّت دروباً واسعة لا يَزْحَمُ فيها الجائي الذَّاهب، وتوافدت رجال العسكر وأتباعه، وغِلْمانُه وأشياعه، على نقل ما يُرْمى في الخندق، وهان طَمُّ الخندق بالدَّبابات التي قُدِّمت، والأسراب التي بنيت وأُحْكِمت، فوجد[2] النَّاس إلى الخندق طريقاً مهيعاً فهم يَزْدَحمون آمنين من الجِرَاح، عاملين بانشراح، والنَّاس تحت القلعة على شفير الخندق لا يستشعرون حَذَراً، ولا يخشون سَهْماً ولا حَجَراً، وقد امتلأ الخندق حتى إن أسيراً مقيداً رمى بنفسه إليه، ونجا بعدما توالى من الفرنج رمي الحجارة عليه[3].

وفي بعض الكتب العمادية: ولولا الخندق المانع من الإرادة، وأنه ليس من الخنادق المعتادة، بل هو وادٍ من الأودية واسع الأفنية، لَسَهُلَ المشرع وهجم الموضع، فلم يبق إلا [تدبير][4] طَمِّ الخندق، والأخذ بعد ذلك من العدوِّ بالمخنق، فعملنا دبابات قدَّمناها، وبنينا إلى شفير الخندق ثلاثة أسراب باللَّبِن سقفناها وأحكمناها، فصارتْ منها إلى طَرَفِ الخندق طُرُقٌ آمنة، وشرع النَّاس في طَمِّ الخندق منها ونفوسهم مطمئنة، وقلوبهم ساكنة. وكان الشُّروع فيه يوم الخميس سابع جُمادى الأُولى، وقد تسنَّى طَمُّه وتهيأ[5] رَدْمُه، وتسارع النَّاس إليه، وازدحموا عليه، ولم يبق صغيرٌ ولا كبير

(١) في الأصل: الأتراب، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل هنا اضطراب في ترتيب أوراقه، أعدناها إلى حاق موضعها.
(٣) «سنا البرق»: ٢٤١ ـ ٢٤٢.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).
(٥) في (ك) وتمشىٰ.

إلا وهو مستبشر بالعمل، منتظر لبشرى نُجْح الأمل، وقد تجاسروا حتى ازدحموا تحت القَلْعة نهاراً كازدحامهم في المصلَّى يوم العيد، وليلاً كحضورهم في جامع دمشق ليلة النِّصف السَّعيد، وهم بحمد الله من الجراح سالمون، وبنصر الله[1] موقنون عالمون، وإن أبطأ العدو عن النجدة فالنَّصْر سريع، والحِصْنُ ومَنْ فيه صريع، وقد خَرَقَتِ الحجارةُ حجابه، وقطعت بهم أسبابه، وناولته من الأَجَل كتابه، وحسرت لثام سُوَرِهِ وحلَّت نقابه، فآناف الأبرجة مجدوعة، وثنايا الشُّرُفات مقلوعة، ورؤوس الأبدان محزوزة، وحروف العوامل مهموزة، وبطون السُّقوف مبقورة، وأعضاء الأساقف معقورة، ووجوه الجُدُر مسلوخة، وجلود البواشير[2] منشورة.

والنَّصْرُ أَشْهَرُ من نارٍ على عَلَمٍ   والحَرْبُ أَقْوَمُ من ساقٍ على قَدَمِ

قال: وأشرف السُّلْطان على أَخْذها، فوصل الخبر أن الفرنج قد تجمَّعوا وجاؤوا منجدين لأهل الكَرَك* ليزحزحوه عن حصارها، فثنى السلطان عِنان العَزْم إليهم، وكانوا في منزلة الواله، وتلك المواضع ضيقة صعبة المَسْلك، فانتظر السلطان أن يخرجوا إلى [أرض][3] البَلْقاء، وتقدَّم عنهم بأميال، فرجعوا وتفرَّقوا ولم يُقدموا، وعلى قصد الكَرَك عزموا، ولما رأى السُّلْطان أن الفُرْصة من الفئتين فاتت مَرَّ على نابلس*، فأغار وغَنِمَ، وفي طريق عَوْدِهِ نزل على سَبَسْطِيَة*، وفيها مشهد زكريا عليه السَّلام، وقد اتخذه الفرنج كنيسةً، وأودعوها أمتعةً نفيسة، وبها من الفرنج سُكَّان وأقسَّاء

(١) في الأصل: وبالنصر، والمثبت من (ك).
(٢) مفردها باشورة، ستأتي في كشاف المصطلحات.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

ورُهْبان، ففدوها بأسارى المسلمين، ولاذوا بالأمان معتصمين، ثم أناخ على جِينين*، فأهبط أَوْجَها وهدم بُرْجها، وآب بالنهاب والسبايا والمرباع والصَّفايا، واجتمع بأصحابه على الفَوَّار*، وتحدَّث بالإنجاد لحوادث الغَوْر* في الغَوَّار[1].

فصــــل

ثم رحل السُلْطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة شيخ الشيوخ وبشير، وكانوا وصلوا والسلطان محاصرٌ الكَرَك، فاجتمع بهم وأكرمهم، وكانوا قد مرضوا، ومات جماعةٌ من أصحابهم، وعادَ السُّلْطانُ شيخَ الشيوخ كل يوم وليلة في الرباط بالمُنيبع*، واستأذنوا في العَوْد قبل الشِّفاء، فضاقت الصُّدور بصدر ذلك الصَّدْر على تلك الحالة، وعجزت تلك العثرة ــ كما شاء الله ــ عن الإقالة، ثم اسْتَقَلَّ مودِّعاً وداعَ الأبد. وكان حسام الدين طُمان مقدَّم عسكر سِنْجار* مع السُّلْطان حاضراً في الجهاد، فأذن له في العود، وأمره بمرافقة صدر الدين والرُّسُل معه، والرِّفْق بهم في مسيرهم، فساروا على سَمْت الرَّحبة*، فاغتنم الأمير طمان بركةَ تلك الصُّحْبة، فأدركت المَنِيَّة ٥٧/٢
شهاب الدين بشيراً بالسُّخْنة*، ووصلوا بشيخ الشُّيوخ إلى الرَّحبة، وهناك لقي رَبَّه.

قال: ولقد توفَّاه الله على الوفاء بعهده، والوفاق لعقده، مشيم الكرم، كريم الشِّيَم، صالح العمل، ناجح الأمل، مفارِقاً للدُّنيا في حياته، مقبلاً على الآخرة قبل وَفاته، فهو ممن رَفَعَتْ سريرَه الملائكُ، وَوُضِعَتْ له في عِلِّيين

(١) انظر «سنا البرق الشامي» ٢٤٣ ــ ٢٤٤.

الأرائك، وكانت وفاته في شعبان، بوَّأه الله الجِنان[1].

قلتُ: كان صدر الدين هذا أحد السَّادة، وأبوه[2] وجَدُّه من أكابر الأعيان، وشيوخ مشايخ الزَّمان، وهو عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبي سَعْد أحمد بن محمد النَّيْسَابوري، وقد ذكرتُ ترجمة والده في «تاريخ دمشق» وألحقتها من أخبار جَدِّه مما ذكره أبو سعد السَّمْعاني في «تاريخه».

وقال ابن القادسي[3]: توفي صدر الدِّين في رجب برحبة مالك بن طَوْق، ودُفِنَ في قُبَّةٍ إلى جانب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المُتَقَّنة الرَّحْبي[4]، وكان مولده في ذي الحِجَّة سنةَ ثمانٍ وخمس مئة، وكان شيخاً ماثلاً في العِلْم والدِّين والسَّداد، ثابت الجَنَان في الحوادث المُزْعجة، والوقائع الباغتة المُجَلْجلة، سديد البديهة، صافي الفِكْرة، وجَمَعَ بين نَظْم الشِّعْرِ ونثر الترسُّل، وكان يُرْسَلُ إلى الأطراف، ورُتِّبَ في مشيخة الشيوخ* منذ توفي والده في جُمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمس مئة، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي، وتولى بعده مشيخة الرِّباط صفي الدين إسماعيل.

ومن شِعْره، يعني صدر الدين:

ولم أَخْضِبْ مشيبي وهو زَيْنٌ لإيثاري جهالاتِ التَّصَابي

---

(١) «سنا البرق»: ٢٤٤ ــ ٢٤٥.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٧٨ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٤) هو محمد بن علي بن محمد بن الحسن، أبو عبد الله، فقيه شافعي، له معرفة بالأدب، وهو صاحب الأرجوزة في علم الفرائض، المسماة «بغية الباحث» والمشهورة بالرَّحْبية، توفي سنة (٥٧٧ هـ) على الأرجح، انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/ ٢٤١ ــ ٢٤٢، و«معجم البلدان»: ٣/ ٣٥ وفيه «ابن المتقننة» وهو تصحيف، و«طبقات الشافعية» للسبكي ٦/ ١٥٦ و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٢/ ١٩، وفيه وفاته سنة (٥٧٩ هـ).

ولكـن كـي يَـرَانـي مَـنْ أُعـادِي فـأُرْهِبُـهُ بـوثْبـاتِ الشَّبـابِ

قلت: ووقفتُ على كتابٍ فاضلي إليه جواباً عن كتابٍ عَتَبَ فيه: وقف على التحيَّة الطَّيبة، والكرامة الصَّيِّبة، والألفاظ العِذاب إلا أنها الغضاب، والنَّعيم إلا أنه العَذَاب، والمسامحة إلا أنها الحساب، والمتشابهات اللواتي تأوَّلها[1] أحسن تأويلها، والمحكمات اللَّواتي هُنَّ أمهات[2] الكتاب، ويكفي أنه مَزَجَ الصَّاب بعسله، وأرْعَفَ قلمه بما لا يُرْعِفُهُ الشُّجاع من أُنوف أَسَلِهِ. وهذا بابٌ قد آن سَدُّه، وسبيلٌ قد وجب صدُّه، وعينُ دَهْرٍ أصابت هذه المودَّة، وقد آن لها أن تنطرف[3] وتنصرف، وبادِرَةُ همٍّ[4] قد حان أن تنكشف وتنكسف، فلا نظر بَعْدَها للعينِ التي أصابت، ولا خطرات في أثرها للخطرة التي رابت، ولا كان للأيام في فَضْلِ سيدنا على عبده نصيب، ولا عدا[5] أبداً على شباب الرِّضى عنه مشيب، ولا تمكَّن من حبيبٍ ودُّه إلى القَلْب رقيب، ولا ملك رِقَّه غير تلك اليد الكريمة، ولا سمعت حديث الحوادث تلك المودَّة القديمة.

قال العماد: وخرجنا من دمشق في شعبان، وخَيَّمنا على سَعْسع*، ودعا تقيَّ الدين فأمره أن يرجع بالعسكر إلى مصر، فسار في منتصف الشَّهْر، ثم رجعنا من فَرْض الجهاد إلى فرض الصِّيام بدمشق، ورجع كلٌّ عسكرٍ إلى مركزه[6].

---

(١) في الأصل: أولها، والمثبت من (ك).
(٢) في (ك) أم.
(٣) في الأصل: تطرف، والمثبت من (ك).
(٤) في (ك) وهم.
(٥) في الأصل: وغدا، والمثبت من (ك).
(٦) «سنا البرق»: ٢٤٦.

ومدح العمادُ تقيَّ الدين في هذه المرَّة[1] بقصيدةٍ ثائية، نحو خمسة وثمانين بيتاً، أوَّلها:

إذا شِئْتُما عن غيرِ قلبي تحدَّثا ... فما حَلَّ فيه الهمُّ إلا لِيَلْبَثا
خُذا شاهِدَي صدقٍ[2] على صِحَّةِ الهَوَى ... ضنًى ساكتاً مني وَدَمْعاً[3] مُحَدِّثا
مريضكُما أَشْفَىٰ على اليأس سُقْمُهُ ... فلا تَعْجَلا في أَمْرِهِ وَتَرَيَّثا
رثى لي عَدُوِّي من جَفَاء أَحِبَّتي ... وناهيك من حالٍ عَدُوِّي لها رثى

ومنها:

عهودكم بعد النَّوى ما تشعَّثَتْ ... وحاشىٰ لذاك العَهْدِ أن يَتَشَعَّثا
وأَمِلْتُ بالمَلْكِ المُظَفَّر ظافراً ... من الجدِّ والجدوى قديماً ومُحْدَثا
مخوفُ السُّطا[4] صَعْبُ الإبا حَسَنُ الثنا ... مرجًّى النَّدى سَهْلُ الرِّضى طَيِّب النَّثا[5]
صفا آخر[6] العُمْرين منْ عمر الذي ... به العُمَران اليوم في العَدْلِ ثُلِّثا
هم أَحْدَثُوا قَمْعَ الضَّلالةِ بالهُدَى ... فمذ ملكوا لم تَلْقَ في الدِّين مُحْدِثا
غُثَائي وغَثِّي أنتَ حامل نَقْصِهِ ... بفضلك إنَّ البحر يحتملُ الغُثَا

ومنها في وَصْفِ القصيدة:

وقد سَهُلَتْ والثَّاء أَوْعَرُ مُرْتَقىً ... فلا فَرْقَ عندي بين راءٍ وبين ثا[7]

---

(١) في (ك) الكرَّة.
(٢) في الأصل: صدقي، والمثبت من (ك).
(٣) في الأصل: ووجداً، والمثبت من (ك).
(٤) في الأصل: خوف السلطان، والمثبت من (ك).
(٥) النثا: مثل الثناء إلا أنه في الخير خاصة. «اللسان» (نثا).
(٦) في (ك) أحد.
(٧) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٤٥.

فَصْــــل

يحتوي على ذِكْر المفاضلة بين مصر والشَّام والتعريف بحال زين الدين الواعظ

٥٨/٢ الذي كان صلاح الدين يكاتبه بوقائعه، وهو الذي نمَّ على عُمارة وأصحابه بما كانوا عزموا عليه من قلب الدولة النَّاصرية مِصْريةً كما سبق[١].

وسبب[٢] ذِكْره هنا أنه هو الذي شرع في تفضيل مصر بكتابٍ كتبه إلى السُّلْطان في هذا العام[٢]، وقد تقدَّم للقاضي الفاضل كلام في تفضيل مصر وذَمِّ الشَّام في أوائل أخبار سنة أربعٍ وسبعين[٣].

وله من كتابٍ آخر: فَدَعُونا من بَعْلَبَك البلد الأعسر، ومن رأس عينها الضَّيِّقة المَحْجِر، ومن ثَلْجها الذي تَنْفشُ الجبال بعِهْنِهِ، ومن بَرْدها الذي لا يَشْفَعُ الجَمْرُ عنده إلا بإذنه، وعُودوا إلى ما أُتْرِفْتُمْ فيه ومساكِنِكُمْ، فإنها[٤] قد عَلَتْها وَحْشة لقطينها، فسأَلَتْ مطالعُ دُسُوتها عن أقمار سلاطينها، واذكروا النِّيل الذي وفىٰ لكم في هذه السنة بنقصه، وأبى أن يكون ماؤه ذخيرةً لغير جُودكم الذي أحصاه الله ولم نحصه، واذكروا قُرطها وماء طوبتها، فقد كاد يقيم الحُجَّة على ثَلْج الشَّام وَوَخِمه، ويتغلغل بَرْدُه فيسري إلى قلب الغليل وكأنه جارٍ على غير طريق فمه، واذكروا صحة هوائها وتعصُّبه لأيامكم، حتى أنعم الله عليكم قبل صحة أجسامنا بصحَّة أجسامكم.

---

(١) انظر ص ٢٨٢ وما بعدها من الجزء الثاني.

(٢) ما بينهما ساقط من (ك).

(٣) انظر ص ٩ من هذا الجزء.

(٤) في (ك) فإنه.

ومن كتابٍ آخر: وأما أحوالي فإنني لم أزل مُلْتاثاً منذ دخلتُ دمشق لتغيُّرِ مائها وهوائها، وأبنيتها وأبنائها، وأوديتها وأودَّائها، وقُراها وقرنائها. وَمَنْ لي بمصر، فإني أقنع بما تُنْبِتُه أَرْضُها من بَقْلها وقِثَّائها، وأبيع بَرَدى وما عساه بشربةٍ من مائها، وامتطي مَتْنَ السَّيف في هَجْرِ سوادها وسودائها، فالطَّلَلُ هائل ولا طائل، وما كُنَّا نسمع به من تلك الفضائل متضائل، حتى[1] إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً، فهي بلادٌ تستجدي ولا تجدي، وفِعْلُ المال بها لازم للتعدي[1].

وقال العماد: هذا زين الدِّين علي بن نجا الواعظ من أهل دمشق، ومن ساكني مصر، وهو ذو لهجة في الوَعْظ فصيحة، وبهجة في الفضل صبيحة، وقَبُولٍ من القلوب، وفصول في فَصْل الخطاب للخطوب، وقد تأثث وتأثل، وقُبِلَ وأقبل، وأحسن السُّلْطان إليه بالأعطيات والإقطاعات وأجمل، وأعطاه وأَجْزل، وأَتَمَّ له مراده وأكمل. وكان السُّلْطان يستشيره، ويروقه تدبيره، ويميل إليه لقديم معرفته وكريم سَجِيَّته. ووصل منه في هذه السَّنة كتابٌ يُشَوِّق إلى مصر ونيلها ونعيمها وسلسبيلها، ودار مُلْكها ودارة فلكها، وبحرها وخليجها، ونَشْرها وأريجها، ومقسمها ومقياسها، وإيناس ناسها، وقصور مُعِزِّها ومنازل عِزِّها، وجيزتها وجزيرتها، وخيرتها وجيرتها، وبَرَكتها وبِرْكتها، وعُدْوتها وعَدَوِيَّتها، وتعلق القلوب بقَلْيُوبها، واستلاب [نفائس][2] النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومُرْتقى الهَرَمين، وروضة جِنانها، وجَنَّة رِضْوانها، ومساجدها وجوامعها، ومشاهدها ومرابعها، ونواظر[3] بساتينها، ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها، وآيات فضائلها،

(١ ــ ١) ما بينهما ساقط من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) في (ك) نواضر.

ورحاب شوارعها، وحِلاب مشارعها، وشروق غربيتها، وغروب شرقيتها، وطيب طُوبتها، ومسارّ مُسْراها[١]، ومَجْرى فُلكها ومُرْساها، وعجائب بُناها وغرائب مناها، وبيان عيانها بلسان بَلَسانها، وكياسة أخلاقها، ونفاسة أَعْلاقها، وشتاؤها في الفصل ربيع [نضير][٢]، وغبارها عبير، وماؤها كوثري، وترابها عنبري.

ثم وصف العماد غير ذلك، ثم قال: وذكر زين الدين الواعظ في كتابه ما دَلَّ به على فضيلة تلك الدِّيار من الآيات والأخبار والآداب والآثار، ولو ظفرتُ به لأوردته بلفظه، وجلوته بوعظه، لكنني فقدته، فَعَرَمْتُ معانيه وأَحْكمتُ مبانيه.

قال: فكتبتُ إلى زين الدين الواعظ في جوابه عن السُّلْطان: عَرَفْنا طيب الدِّيار المِصْرية ورِقَّة هوائها، ونحن نسلِّم له المسألة في طيبها وتوفر نصيبها، ورقة نسيمها ورائق نسيبها، لكن لا ريب أنَّ الشَّام أفضل، وأن أجر ساكنه أَجْزَل، وأن القلوب إلى قُبْله[٣] أميل، وأن الزُّلال البارد به أعلّ وأنهل، وأن الهواء في صيفه وشتائه أعدل، وأن الزَّهْرَ به أشبُّ والنبت به أكهل، وأن الجمال فيه أكمل، والكمال فيه أجمل، وأن القَلْبَ[٤] به أروح، والروح به أقبل، ودمشق عقيلته[٥] الممشوطة، وعُقْلته المنشوطة[٦]، وحديقته النَّاضرة، وحدقته الناظرة، وهي عينُ إنسانه، بل إنسانُ عينه،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤، ٥ ص ٧١ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٢/ ٥٨.

(٣) القبل: الوجه. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٤٨٧.

(٤) في الأصل: القلوب، والمثبت من (ك).

(٥) العقيلة من النساء: الكريمة المخدرة النفيسة. «معجم متن اللغة»: ٤/ ١٦٨.

(٦) العقلة: العقدة. ونشطها: عقدها وشدَّها. «اللسان» (عقل، نشط).

وصيرفيُّ نقوده [في][1] عين نُضاره ولُجينه، فمستامها مستهام، وما على محبِّها مَلام، وما في رَبْوتها ريبة، وفي كلٍّ حبوة [منها][2] جنيبة، ولكلٍّ شائب من نَوْرها شبيبه، وعلى كلٍّ ورقةٍ وَرْقا، وعلى كلٍّ معانقة من قدود البانات عَنْقا، وشادياتها على الأعواد تُطْري وتطرب، وساجعاتها بالأوراد تُعْجم وتُعْرِب، وكم فيها من جوارٍ ساقيات، وسواقٍ جاريات، وأثمار بلا أثمان، وروح وريحان، وفاكهة ورُمَّان، وخيرات حسان، وجميع[3] ما في سورة الرحمن، ونحن نتلو عليها آلاءها إلى أن يرجع إلينا فنتلو على منكرها ﴿فبأي آلاء ربكما تكذِّبان﴾[3] وقد تمسَّكْنا بالآية والسُّنَّة والإجماع، وغنينا بهذه الأدِلَّة عن الاختراع والابتداع، أَمَا أَقْسَمَ الله تعالى بدمشق في قوله تعالى ﴿والتِّين والزَّيتون﴾[4] والقَسَمُ من الله لها أَدَلُّ دليلٍ على فَضْلها المصون، أَمَا قال رسولُ الله ﷺ: «الشَّام خيرة الله من أَرْضه، يسوق الله إليها خِيرَتَه من عِباده»[5]. وهذا أوضح بُرْهان قاطعٍ على أَنَّه خير بلاده. أَمَا الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على اختيار السُّكْنى بالشَّام، أَما فتح
٥٩/٢ دمشق بِكْرُ الإسلام، وما ننكر أن الله تعالى ذكر مِصْر وسمَّاها أَرْضاً، فما الذكر والتسمية في فضيلة القَسَم، و[لا][6] الإخبارُ عنها دليلاً على الكَرَم، وإنما اكتسبت الفضيلة من الشَّام بنقل يوسف الصِّدِّيق إليها عليه أفضل الصلاة والسَّلام، ثم المقام بالشام أقرب للرِّباط، وأوجب للنَّشاط، وأجمع للعساكر

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣ ــ ٣) ما بينهما ليس في (ك).
(٤) سورة التين، الآية: ١.
(٥) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: ٤/ ١١٠، وأبو داود في «سننه» (٢٤٨٣) من حديث عبد الله بن حوالة، ولفظه: «عليك بالشام فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده».
(٦) ما بين حاصرتين من (ك).

السَّائرة من سائر الجهات للجهاد، وأين قطوب المقطب[١] من سناء سَنير[٢]، وأين ذُرى مَنْفٍ المشرف من ذروة الشَّرَف المنيف المنير، وأين الهَرَم الهَرِم من الحرم المحترم، وبينهما فَرْقٌ ما بين الفَرْق والقَدَم، وهل للنِّيل مع طول نيله وطُول ذيله واستطالة سيله بَرْدُ بردى في نقع الغليل، ونفع العليل، وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل، وسيل هذا السَّلْسبيل، وإذا فاخرنا بالجامع[٣] وقُبَّة النَّسْر* ظهر عند ذلك قِصَرُ القَصْر، على أن باب الفراديس* في الحقيقة باب النَّصْر، وما رأس الطابية كبابِ الجابية، ولو كان لناسها باناس* لم يحتاجوا إلى قياس المقياس، ونحن لا نجفوا الوطن كما جفاه، ولا نأبى فَضْله كما أباه، وحُبُّ الوطن من الإيمان، ومع هذا فلا ننكر أن مصر إقليمٌ عظيم الشان، وأن مَغَلَّها كثير، وماءها غزير، وأن عِدَّها[٤] نمير، وأن ساكنها ملك أو أمير، ولكن نقول كما قال المجلس السامي الأجلي الفاضلي ــ أسماه الله ــ أن دمشق تصلُح أن تكون بُسْتاناً لمصر. ولا شك أن أحسن ما في البلاد البُسْتان. وزين الدين ــ وفقه الله ــ قد تعرَّض للشام، فلم يَرْضَ أن يكون المُساوي حتى شرع وعَدَّ المَسَاوي، ولعله

---

(١) في هامش (ك) حاشية: كذا هو بخطه: المقطب، وكذا تقوله العامة، وإنما هو المقطم، وآخره ميم، كذا يقوله أهل العلم، وهو في صحاح الجوهري. وفي قصيدة المتنبي الميمية:

واستذرت بظل المقطَّمِ

وأولها: فراق ومن فارقت غير مذمم.

قلت: استذرت: نزلت في ذراه، أي في كنفه وناحيته. وانظر «ديوان المتنبي»: ٤/ ٢٦٩ (طبعة البرقوقي).

(٢) جبل بين حمص وبعلبك على الطريق. «معجم البلدان» ٣/ ٢٦٩.

قلت: هو ما يعرف الآن بجبال القلمون.

(٣) يعني جامع دمشق الكبير (الأموي).

(٤) العد: الماء الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها، مثل ماء العين. «اللسان» (عدد).

يرجع إلى الحقّ، ويعيد سعد إسعاده ووفاقه إلى الأُفْقِ، إن شاء الله[1].

قلتُ: وقد قيل في وصف دمشق شيء كثير من النَّظْم والنثر، واشتمل ما جمعته في أول «تاريخ دمشق» على قطعةٍ حسنة كبيرة من ذلك، وصنَّف شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السَّخَاوي[2] رحمه الله مقامةً تشتمل على المفاخرة بين دمشق ومصر، ووصف كلاً من البلدين بما يليق به، وكان أول ما قدم دمشق يذمُّها في مكاتباته إلى مصر نَظْماً ونثراً؛ حُبّاً للوطن. ثم لما استقر فيها قَرَّت عينه، وفضَّلها في بعض مكاتباته، وقد ذكرتُ كل ذلك في جُزْءٍ مستقلٍّ به.

وأما القاضي الفاضل رحمه الله، فقد قال في بعض مكاتباته إلى مصر: ومما أسُرُّ به قلبه الكريم أنني وصَلْتُ إلى دمشق المحروسة حين شردَ بردُها، وورد وَرْدُها، واخضلَّ نَبْتُها، وحَسُنَ نعتها، وصفا ماؤها، وضفا رداؤها، وتغنَّت أطيارها، وتبسّمت أزهارها، وافترَّ زهر أُقحوانها، فحكى ثغور غِزْلانها، ومالت قُضُب بانها، فانثنت تثنِّيَ وِلْدانها، فلما قربتُ من بساتينها، ولاح لي فَيْحُ[3] ميادينها، وتوسطتُ جَنَّة واديها، ورأيتُ ما أبدعه[4] الله فيها، سمعت عند ذاك حماماً يُغَرِّد، وَهَزاراً يشدو[5] ويردِّد، وقُمْرياً ينوحُ،

---

(1) «سنا البرق الشامي»: ٢٤٦ ــ ٢٤٧.

(2) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٤٣ هـ).

(3) الفيح: خصب الربيع في سعة البلاد. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٤٦٤.

(4) في (ك) ما أودعه.

(5) في (ك) ينشد.

وبُلْبلاً[1] بأشجانه يَبُوح، فوقفتُ أُثني على باريها[2]، وأكادُ بالدَّمْعِ أُباريها، أَسَفاً على أيامٍ خلت بعدما حلت منها وفيها، فعند ذلك عاينت روحي، وزال أنيني ولوحي[3].

وكانت النَّفْسُ قد ماتت بغُصَّتها فعند ذلك عادت رُوحها فيها

قلت: ووَصَفَ أيضاً دمشق من أهل مصر مَنْ يُرْجَع إلى قوله، ويُرْضى بحكمه لفضله وفَضْله؛ وهو الوزير العادلي صفيُّ الدين أبو محمد عبد الله بن علي المعروف بابن شُكْر[4] في كتاب «البصائر» له، فقال: دمشق نُزْهة الأبصار، وعروس الأمصار، ومجرى الأنهار، وَمَغْرِسُ الأشجار، ومُعَرَّس السُّفَّار، ومعبد الأبرار، المستغفرين بالأسحار، ظِلُّها الممدود، ومقامها المحمود، وماؤها المسكوب، وعَيْبُها المسلوب، ومحاسنها المجموعة، وفضائلها المَرْوِيَّة المسموعة، ودرجتها المرفوعة، وفاكهتها الكثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، ونسيمها العليل، وهجِيرُها الأصيل، وماؤها السَّلْسبيل. وقد شرَّفها الله تعالى بالذِّكْر في كتابه، وآوى إليها من اختار من أنبيائه وأحبابه، فقال تعالى في كتابه المبين: ﴿وَآوَيْناهُما إلى رَبْوَةٍ ذاتِ قَرارٍ وَمَعِيْنٍ﴾[5] ولم تزل مقرَّ البركات، ومَعْدِن النُّبوَّات. ومنزل الرِّسالات، ومسكنَ أرباب الكرامات، وورد في تفضيل بُقْعتها من الأخبار ما لا يشك في

---

(١) في (ك): وقمرياً ينوح وبأشجانه يبوح.

(٢) في الأصل: نازلها، والمثبت من (ك).

(٣) في(ك): فعند ذلك تأسفت على أيام خلت منها وفيها، وعاشت روحي، وزال أنيني ولوحي.

وفي هامشها: بيان: ونوحي. واللوح: العطش.

(٤) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٦٢٢ هـ).

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٥٠.

صحة إسناده، قال رسول الله ﷺ: «الشَّام صفوة الله من بلاده، فيها خِيرةُ الله من عِباده»[١]. ونبَّه في خبرٍ آخر على عظم فَضْله، فقال: «إن الله تكفَّل لي بالشَّام وأَهْلِهِ»[٢] وركب في سُكْناها أهلُ الإسلام بقوله عليه السلام: «البركة في الشَّام»[٣]. وذهب بعضُ المفسِّرين من أهل الاجتهاد إلى أنها ﴿إِرَمَ ذاتِ العماد، التي لم يُخْلَق مِثْلُها في البلاد﴾[٤].

قال: ولما أنعم الله تعالى عليَّ بإسكاني في فِنائها، وتخيري لبنائها، ونَزَّهني في أفنانها، وآنسني بإنسانها، مضيت إلى جامعها الجامع، وشفعت بإدراك البصر منها[٥] إدراك المسامع، فلما وصلت إليه، وحللتُ الحُبَى[٦] لديه، رأيتُ مرأى صَغَّر الرواية، ورونقاً حصل من الحسن على النِّهاية، ونوراً يجلو الأبصار، وجمعاً يفضل على جموع الأمصار، وعبادة موصولة ٢/ ٦٠ على الاستمرار، وقرآناً يُتْلى في آناء الليل وأطراف النَّهار، ومنقطعين إليه قد انفقوا في الاعتكاف به نفائس الأعمار. والبركاتُ تَحُفُّ بجوانبه، والعلومُ تنشر في زواياه ومحاربه، والأحاديث عن رسولِ الله ﷺ تُسْنَدُ وتُرْوَىٰ، والمصاحفُ بين أيدي التَّالين تُنْشَر ولا تُطْوى، وأعلام البِرِّ فيه ظاهرة

---

(١) أخرجه البزار (٢٨٥٢) والحاكم في «المستدرك» ٤/ ٥٠٩ من حديث ابن عمر، وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٧١٨) من حديث أبي أمامة، وانظر ما تقدم ص ٢١٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣٠٦) من حديث عبد الله بن حوالة.

(٣) أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (٥٦٤٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٠١) من حديث عبد الله بن عمر، ولفظه: اللهم بارك لنا في شامنا..

(٤) سورة الفجر، الآيتان: ٧ ــ ٨.

(٥) في الأصل: منه، والمثبت من (ك).

(٦) الحبى جمع، مفردها: الحبوة: وهو الثوب الذي يحتبي به: «معجم متن اللغة»: ٢/ ٢٠.

فلا تخفى ولا تُزْوى، والخَلْقُ منقسمون إلى حَلَقٍ، قد نبذَ أهلُها ما وراءهم من العُلَق. والإِسلامُ فيه فاشٍ، والجهل به مُتلاشٍ، وهو مما بناه الأولون لعبادتهم، وجعلوه ذُخْراً لآخرتهم، وما بَرِحَ مَعْبَداً لكل مِلَّةٍ، اتخذته المجوس واليهود والنَّصارى قبل الإِسلام هيكلاً وقِبْلَة، وهو بيتُ المتقين، وسوق المتصدِّقين، ليله للمتهجدين، ونهاره للعلماء المجتهدين.

قال: وعاشرتُ أهلها وباشرتهم، ثم كاشرتهم وكاشفتهم، فرأيت سادةً أدباء، وعلماء نجباء؛ [و][1] رأيتهم يتناظرون في الفِقْه مناظرة الوالد مع ولده، ويقفون عند كتاب الله فلا يعدلون عن واضح جَدَده[2]، ويفسِّرونه عن عِلْمٍ واستبصار، ويحتاطون في علمهم بصحيح الأخبار، ويتبعون ما وردت به ثقاتُ الآثار. وعامَّتُهم مشغولون بالمعاش، آخذون من زينتهم عند كل مسجد أفضلَ الرِّياش، لا يخوضون في لَغَطٍ ولا إكثار، ولا يجتمعون على فسادِ نيَّة في مقيمٍ ولا بعيد الدار.

قال: فأقمتُ منها في أشرف البُلْدان التي هي أُنموذج الجِنان، وعنوان الدَّار التي خازنها رِضْوان، والقلوب فيها عند ذكر الله حاضرة، والنُّفوسُ بالخير دون الشَّرِ[3] آمرة.

فَصْــل

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: كانت إِرْبل* وما يجري معها من البلاد والقلاع من

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) الجدد: الطريق لا حدب فيه ولا وعوثة. «معجم متن اللغة»: ١/ ٤٨٥.

(٣) في (ك) السوء.

ولايات المَوْصل معدودة، فأراد صاحب إرْبِل أن ينفرد عنه ويستبدّ بالبلاد، فاعتزىٰ إلى السُّلْطان، وكاتبه وطلب منه منشوراً ببلاده، فكتبه له، وفيه: إن الله لما مكَّن لنا في الأرض، ووفقنا في إعزاز الحق وإظهاره لأداء الفَرْض، رأينا أن نقدِّم فرض الجهاد في سبيل الله، فَنُوْضِحُ سبيله، ونُقْبِلُ على إعلاء الدين وننصر قَبِيْلَهُ، وندعو أولياء الله من بلاد الإسلام إلى غزو أعدائه، ونجمعُ كلمتهم في رفع كلمته العليا في أَرْضه، على استنزال نَصْرِهِ من سمائه، فمن ساعدنا على أداء هذه الفريضة، واقتناء هذه الفضيلة، يَحْظَىٰ من عوارفنا الجزيلة بِحُسْنِ الصَّنيعة، ونُجْح الوسيلة، ومن أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه وأعرض عن حَقٍّ دينه بالإقبال على باطل دنياه، فإن أناب قبلناه، وإن أَصَرَّ على غَوَايته أزلنا يده وعَزَلْناه.

تفصيل ما كتب في منشوره: إربل وقلعتها وأعمالها، جميع ما قطعه الزَّابي الكبير، شَهْرزُور وأعمالها، معايش بيت قفجاق، معايش بيت القرابلي، الدَّشْت والزرزارِيَّة[1].

قال العماد: وفي مستهل جُمادى الآخرة من هذه السنة توفي صاحب مارِدِين*، وهو قطب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أُرْتُق، والأمراء الأُرْتُقية هم الذين رتقوا فُتوق الإسلام أولاً، وكانوا يتولّون بيت المقدس، وحموه من الفرنج قبل المِصْريين، وإنما أخذه الفرنج سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة من المِصْريين، فبقي السَّاحل كلُّه مع أهل الشِّرْك، فَحَمَتِ الأُرْتُقية ديار بكر* وما والاها، وحلب وأعمالها، وتوارثوا ديار بكر كابراً عن كابرٍ إلى أن انتهى إلى هذا قُطْب الدين أعمال مَيَّافارِقين*

---

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٤٩ ــ ٢٥٠.

وماردِين*، فلما مات بقيت على ولده، وله عَشْرُ سنين، وانتهى إلى ابن عَمِّه نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سُكْمان[١] بن أُرْتُق حصن كيفا* وخَرْتَبِرْت*، والبلاد التي تناسبها، وأضاف السُّلْطان إليه آمِد*. وقد كان قطب الدين أولاً على مصافاة صاحب المَوْصل لما بينهما من القَرَابة، ثم أذعن للسُّلْطان، ودخل تحت طاعته[٢].

قلتُ: وفي هذه السنة أيضاً توفي خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن علي[٣]، وولي ابنُه يعقوب.

قال القاضي ابن شَدَّاد: وبعد عَوْدِ السُّلْطان من حصار الكَرَك*، وصل رُسُل الخليفة ومعهم الخِلَع، فَلَبِسَها السُّلْطان، وأَلْبَسَ أخاه العادل وابن أسد الدين خِلَعاً جاءت لهما، ثم خَلَعَ السُّلْطان خِلْعة الخليفة على نور الدين بن قرا أرسلان، وأعطاه دستوراً، فسار إلى بلاده، ووصلت رسل زين الدين بن زين الدين مستصرخاً إلى السُّلْطان، يخبر أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إرْبل* مع مجاهد الدين قايماز، وأنهم نهبوا وأحرقوا، وأنه نُصِرَ عليهم وكَسَرَهم[٤].

فلما سمع ذلك سار من دمشق يطلُبُ البلاد، وتقدَّم إلى العساكر، فتبعته، وسار على طريق المغار ويبوس البقاع إلى بَعْلَبك، ومَرِضَ العماد،

---

(١) في الأصل و(ك): سليمان، وهو تحريف. والمثبت من «سنا البرق»: ٢٥١، وتكتب أيضاً سقمان. وانظر «معجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٦ ــ ٣٤٧.

(٢) «سنا البرق»: ٢٥٠ ــ ٢٥١.

(٣) انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/٩٨، و«المعجب» للمراكشي ص ٣٠٩ وما بعدها.

(٤) «النوادر السلطانية»: ٦٧.

فانقطع بها، وسار السُّلْطان إلى حمص، ثم إلى حماة، فأقام بها إلى أن شُفِيَ العماد، ولحقه بها. وكان الأَجَل الفاضل بدمشق، فأرسل الحكيم [الموفق][1] بن المطران، واسمه أسعد بن إلياس[2] إلى العماد ببعلبك لَمَّا سمع بمرضه، فسار من دمشق إلى بعلبك في يوم وليلة، وعمل معه عمل من طبَّ لمن حَبَّ، فبرىء بعون الله تعالى، فرجع إلى دمشق، فلما استقام مزاجه رحل إلى السُّلْطان، فوافقه بحماة[3].

ودخلت سنة إحدى وثمانين [وخمس مئة][4] ٢/ ٦١

قال العماد: والسُّلْطان مخيِّم بظاهر حماة، فسار إلى حلب، وتلقَّاه أخوه العادل، واجتمعت له بها العساكر، فخرج منها في صفر لقصد المَوْصل، فسار وقطع الفُرَات، وأقام العسكر ثلاثة أيام للعبور بها، وكان السُّلْطانُ قد سيَّر إلى معاقل الفرات وقلاعه، ونواحيه وضياعه، وأَمَر أهلها بعمارة كل سفينة في الفُرَات، وزورق ومَرْكَب، وجمعها من كل مَشْرِقٍ ومغرب. ثم وصل إلى حرَّان*، وفيها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين يوسف صاحب إرْبِل*، وقد كان أوَّل من دخل في خدمة السُّلْطان أول ما قصد تلك البلاد في المرة الأولى، واقتدى به أخوه وغيره من أصحاب الأطراف في الانتماء إلى السُّلْطان، وحضر معه حصار عِدَّة بلادٍ كالمَوْصل وسِنْجار* وآمِد* وحَلَب، وأظهر من المودَّة فوق ما كان في

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سترد ترجمته ٤/ ٢٩٣ من هذا الكتاب.

(٣) «سنا البرق»: ٢٥٢.

(٤) ما بين حاصرتين مثبت من (ب).

الحساب، و[هو][1] كان كثيرَ الحَثِّ للسُّلطان على المسير إلى الموصل هذه المرَّة برسوله وكتابه، وقال رسوله للسُّلْطان: إن مُظَفَّر الدِّين إذا عبرتُم الفرات يستدرك كلَّ ما فات، ويقوم بكل ما تحتاج إليه في تلك البلاد من النفقات والغرامات والأزواد، ويُقَدِّم يوم الوصول إلى حرَّان* خمسين ألف دينار، وكتب خَطَّه بذلك.

فلما وصل السُّلْطان إلى حَرَّان لم يَرَ منه ما التزمه الرسول، فارتاب به، وظَنَّ أنه مال مع المواصلة، ووَشَتِ الأعداءُ فيه بذلك، وأن نِيَّته قد تغيَّرت، فحلف للسلطان أنه لم يتغيَّر، وأن ما التزمه الرسول لم يكن بأمره، وهو ابن ماهان، فانعزل عنده عن مرتبته وهان، فقبضَ السُّلْطان على مظفَّر الدين ليتبيَّن أمره، وشاور فيه أصحابه، فأشار بعضُهم بإتلافه، وبعضهم باستبقائه واستئلافه، فعفا السلطانُ عنه على أن يُسلِّم قلعتي الرُّها* وحَرَّان، ففعل ذلك وهو مسرور ببقاء نفسه، ثم أُعيدت إليه القلعتان في آخر السنة؛ لما رأى السلطانُ من حركاته المُسْتحسنة[2].

قال القاضي ابن شَدَّاد: وسار السلطان حتى أتى حران على طريق البيرة*، والتقاه مظفَّر الدين بالبيرة في ثاني عشر المحرَّم، وكان قد وصل إليه عز الدين بن عبد السلام ــ يعني المَوْصلي ــ رسولاً ــ واسمه[3] إبراهيم بن علي بن عبد السلام، ويُكْنى بأبي الخليل[3] ــ فلقيه بحماة يعتذر مما جرى، فأعطاه دستوراً بعد أن أكرمه، وسار من غير غَرَض.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) «سنا البرق»: ٢٥٣ ــ ٢٥٦.

(٣ ــ ٣) ما بينهما ليس في (ك) و(ب).

قلت: وصحب ابنَ عبد السلام في هذه السفرة[1] من الموصل عمرُ بن محمد المعروف بابن الشِّحْنة[2]، فمدح السلطان بقصيدةٍ، أولها:

سلامٌ مشوقٍ قد براه التشوُّقُ ... على الحَيِّ من وادي الغَضا إذ تَفرَّقوا[3]

فلما بلغ من مديحها إلى قوله:

وقالتْ لي الآمالُ إن كنتَ لاحقاً ... بأبناءِ أيوبٍ فأنت المُوَفَّقُ

قال له السلطان: لقد وفِّقْتَ. وأجازه جائزةً سنية[4].

ثم قال القاضي: وتقدَّم السلطان إلى سيف الدين المَشْطُوب أن يسير في مقدِّمة العسكر إلى رأس عين، ووصل السلطان حرَّان في الثاني والعشرين من صَفَر.

وفي السادس والعشرين منه قَبَضَ على مُظَفَّر الدين لشيء كان جرى منه، وحديثٍ بلَّغَهُ عنه رسولُه ولم يقف عليه، وأنكره، وأخذ منه حَرَّان* والرُّها*، ثم أقام في الاعتقال تأديباً إلى مستهلِّ ربيع الأول، ثم خلع عليه وطَيَّب قلبه، وأعاد عليه قلعة حَرَّان وبلاده التي كانت بيده، وأعاده إلى قانونه في الاحترام والإكرام، ولم يتخلَّف له سوى قلعة الرُّها، ووعَدَه السُّلْطان بها.

---

(١) في (ب) أو بعدها.

(٢) هو مهذب الدين، أبو حفص، عمر بن محمد بن علي بن أبي نصر، شاعر مشهور في عصره، توفي سنة (٦٠٦ هـ)، وعدة أبيات قصيدته هذه مئة وثلاثة عشر بيتاً، «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢١١.

(٣) في «وفيات الأعيان»: ٧/ ٢١١: على جيرة الحي الذين تفرقوا.

(٤) تعقيب أبي شامة هذا ساقط من (ك).

ثم رحل السلطان ثاني ربيع الأول من حَرَّان إلى رأس عين، ووصله في ذلك اليوم رسول قليج أرسلان يخبره أن ملوك الشرق بأَسْرهم قد اتفقت كلمتُهم على قَصْدِ السلطان إن لم يَعُدْ عن المَوْصل ومارِدِين*، وأنهم على عَزْمِ ضَرْبِ المصافِّ معه إن أَصرَّ على ذلك، فرحل السلطان يطلب دُنَيسر*، فوصله ثامن ربيع الأول عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين، فالتقاهم السلطانُ واحترمهم، ثم رحل من دُنيسر نحو المَوْصِل حتى نزل بموضعٍ يُعرف بالإسماعيليات قريب الموصل، بحيث يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدةً تحاصر الموصل، فبلغ عماد الدين بن قرا أرسلان موت أخيه نور الدين، فطلب من السلطان دستوراً طمعاً في ملك أخيه، فأعطاه دستوراً[1].

وقال العماد: خرج السلطان من حرَّان* في ربيع الأول، فَمَرَّ على رأس عين* ودارا*، فخرج أميرها بأصحابه في الخدمة، وقدم عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان بعساكر ديار بكر* وآمِد* نيابةً عن أخيه نور الدين، فإنه كان مريضاً، ثم رحل إلى نَصِيبين*، وقَدِمَ صاحب الجزيرة سِنْجر شاه بن أخي صاحب المَوْصِل، فأكرمه السُّلْطان، ثم سار من أقرب الطُّرُق من دِجْلة، وتنكَّب طريق الدَّوْلَعِيَّة*، فنزل على بَلَدِ[2] آخِرَ ربيع الأول، ثم توجَّه إلى المَوْصِل، وخيَّم على الإسماعيليات. وقَدِمَ على السلطان زين الدين صاحب إِرْبِل*، وأول ما بدأ به السلطان يوم نزوله على بلد قِبَل الإسماعيليات إرسال ضياء الدين أبي الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن الشَّهْرُزُوري[3] إلى الخليفة بما عَزَمَ عليه من حَصْرِ المَوْصِل، فإن ٢/١٢

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٦٧ ــ ٦٨.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٧ ص ١٢٣ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٠ من هذا الجزء.

أهلها يواصلون الأعاجم، وخاطبون لسلطانهم القائم، وناقشُو اسمه في الدَّنانير والدَّراهم، وأنهم يتعزَّزون بالبهلوان، ويعجزون إلا عن الطَّاعةِ له والإذعان، وأنهم يرسلون إلى الفرنج، ويقوون نفوسهم على قَصْدِ الثُّغور، وتفريق الجمهور، وأنه ما جاء طمعاً في استضافة مُلْك، ولا استزادة سِلْك، ولا قَلْعِ بيتِ قديم، ولا قَطْعِ أصلِ كريم، وإنما مقصوده الأصلي ومطلوبه الكُلِّي ردُّهم إلى طاعة الإمام ونُصْرَةِ الإسلام، وكَشْفُ ما اعتادوه واعتوروه من الظُّلْم والظَّلام، وفَطْمُهُمْ عن استحلال الحرام، وقَطْعُهُمْ عن مواصلة الأعجام، وإلزامُهم بما يجب عليهم من حِفْظ الجار وَصِلَةِ الأرحام؛ فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل، وولي عهد أبيه، لم يَرْعَ فيه ذِمَّةَ أخيه، وأبعده عما استحقَّه بالإرث والتولية، وحَرَمَه ما يستوجبه من التَّرْبية والتَّلْبية، وأخافَ حُرَمَه، وقَطَعَ رَحِمَه، ولو تمكَّن منه لأطاح دَمَه، ولولا خوفُه من جانبه، وتوقِّيه من دبيب عقاربه، لما التجأ إلى هذا الجانب، ولما اختار الأجانب على الأقارب. وهذا صاحب إربل جار الموصل، أبوه زين الدين عليٌّ هو الذي حَفِظَ بيتهم، وخلف في أحيائهم ميتَهم، وهذا ولده في جوارهم يشكو جَوْرَهُمْ، وحديث صاحب الحديثة* في حادثةٍ لا تخفى، وعَيْنُ مَنْ بتكريت من مخافتهم وآفتهم لا تكرىٰ[1].

قلت: وفي بعض الكتب الفاضِلِيَّة عن السُّلْطان إلى الدِّيوان: وكان قد تحيَّز إلى الخادم في وَقْت حركته صاحبُ تكريت* والحديثة*، وهو يستأذن في استتباعهما بحكم التقليد الذي تناول هذا وغيره، ولم يستأذن في ذلك استئذاناً مخصَّصاً إلا لمحلِّهم من جوار دار الخلافة، ولأنهما مما يرى الخادم إضافته إلى ما يجري في خاصِّ الديوان العزيز مع غيرهما، مما يجري

(١) «سنا البرق الشامي»: ٢٥٦ ــ ٢٥٧.

مجراهما في القُرْب من الجوار، والدخول في ذمام شَرَفِ تلك الدَّار، فإن أذِنَ له استثناهما في صُلْح إن تَمَّ معهم، أو حماهما مع مباينته إن اختار المشار إليهم البقاء عليها، وهذا بُرْدُ شَرَفٍ قد أعوزه علمه، وتاج إذا أسلمه الخط الشَّريف نَظَمَ الفخار منتظمه.

ومن كتابٍ آخر: وما كُنَّا بشهادة الله في قتال المذكورين إلا كقاطعِ كَفِّه ليسلم سائر جسمه، وكراكب حَدَّ السِّنان مضطراً في حكمه[1].

وأصحب العمادُ الرسولَ قصيدةً مدح بها الصَّاحب مجد الدين أبا الفضائل، أولها:

قضى الوَجْدُ لي أن لا أُفيق من الوَجْدِ ... فيا ضلَّة اللاحي إذا ظَنَّ أَنْ يَهْدِي
مُحِبُّكُمْ جَلْدٌ على كلِّ حادِثٍ ... ولكن على هِجْرانِكُمْ ليس بالجَلْدِ
ببغداد حُطُّوا رَحْلَكُمْ ليخصَّكُمْ ... أبو الفَضْلِ مَجْدُ الدِّين بالفَضْل والمَجْدِ
رآه الإمام النَّاصر الدين ناصراً ... فحاول تعويلاً على مَجْدِهِ المُجْدِي

ومنها:

إليكَ صلاحُ الدِّين ألجأَ أمرَهُ ... فَحُطْ رُكْنَهُ والعقد بالشدِّ والشَّدِّ
مليكٌ على حَرْبِ العَدُوِّ مُصَمِّمٌ ... ومازال فيه غالبَ الجَدِّ والجُنْدِ
تُساوِرُ أفواه الجِرَاحِ رِماحُهُ ... مساورةَ الأميال للأَعْيُنِ الرُّمْدِ
يُحِلُّ المنايا الحُمْرَ بالكُفْرِ مُجْرِياً ... دَمَ الأصفر الرُّوميِّ بالأبيضِ الهِنْدِي

---

(١) كتاب الفاضل هذا ليس في (ك).

ومـا لأميـر المـؤمنيـن كيـوسـفٍ فتًى في مراضيه بمُهْجَتِهِ يفدي[1]

قال: وشرع السُّلْطان في إقطاع البلاد، والتوقيع بها على الأجناد، وسيَّر الأمير سيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب الهكَّاري، ومعه الأمراء من قبيلته، والأكراد من شيعته إلى بلد الهكارية، وجماعةٍ من الأُمراء الحميدية إلى العَقْر* وأعمالها، لاستفتاح قلاعها، واستغلال ضياعها. ونُصِبَ الجسر، ومُلك الأمر، وعبر مُظَفَّر الدين صاحب حرَّان وغيره من الأمراء، وخيموا بالجانب الغَرْبي، وكان الحَرُّ إذ ذاك شديداً، فأمر السلطان بالصَّبْر عن القتال إلى أن يطيب الزَّمان. وأهل الموصل في الحصار، وأُشير عليه بتحويل دِجْلة ــ وكان ماؤها قد قَلَّ ــ بطريق ذكره خبيرٌ بها، زعم أنه يمكن سَدَّ دجلة وسَكْرَها، وَبَثْقَ فُرْضَةٍ أُخرى وكَسْرَها، ونقلها وتحويلَها إلى دِجْلة نينوى، وتعطش المَوْصِل إذا الماء عنها انزوى، وعُرض ذلك على رأي الفقيه العالم فخر الدين أبي شجاع ابن الدَّهَّان البغدادي[2] ــ وكان مهندس زمانه، وإنسان عين الفَضْلِ
٢/٦٣ وعين إنسانه، وكان منذ عهد قديمٍ سكن المَوْصِل في ظل كبير من أصحاب زين الدين عليٍّ، ولما سمع بكرم السُّلْطان تفيأ بظله، وتعرَّف إلى فَضْله ــ فصدَّق المشيرَ بذلك، وقال: هذا ممكن ولا يتعذَّر، ويتيسَّر ولا يتعسَّر[3].

ومن كتابٍ عمادي إلى بغداد: وذكر المهندسون أهل الخبرة أنه يسهل تحويل دجلة الموصل عنها، بحيث يبعد مستقى الماء منها، وحينئذٍ يضطر أهلها إلى تسليمها بغير قتال، ولا حصول ضررٍ في تضييق ولا نزال.

---

(١) «سنا البرق»: ٢٥٧ ــ ٢٥٨، وهذه القصيدة لم يذكرها الدكتور ناظم رشيد في «الديوان» الذي جمعه للعماد.
(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٢ هـ).
(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٥٨ ــ ٢٥٩.

فَصْــــلٌ

فيما فعل السُّلْطان في أمر خِلاط* ومَيَّافارقين* وغيرهما من البلاد

قال العماد: ثم وصل خبر وفاة شاه أرمن صاحب خِلاط، فتحوَّل إليها العَزْم، وترجَّح بها الحَزْم. وكان ورود موته في العشرين من ربيع الآخر، وكان موته في التَّاسع منه، ولم يُخلِّف ولداً ولاذا قَرَابةٍ يكون خلفاً له فيها، ووردت كتب الأولياء من أهل بَدْليس* وغيرها إلى السُّلْطان يخطبونه لها، وهم خائفون من العجم أن يتولَّوها، فاختلف النَّاس على السلطان، فمن مشيرٍ بالإقامة إلى انفصال أمر المَوْصِل، ومن مشيرٍ بالمسير إلى بلاد الأرمن، فإن الموصل غير فائتة، ومِن قائلٍ بانقسام العسكر في الجهتين، فترجَّح رأي السُّلْطان على المسير إليها، فكتب إلى الخليفة يطلُب منه كتابَ تقليدٍ ببلاد الأرمن وديار بكر والمَوْصل، فجاءه بعد فتح مَيَّافارِقين مثالٌ شريف بتقليده النَّظر في أمر ديار بكر، والنظر في مصالح أيتام ملوكها.

ثم رحل السلطان عن المَوْصل في أواخر شهر ربيع الآخر، وقدَّم في مقدِّمته ناصر الدين محمد بن شِيركُوه ابن عمه، ومظفر الدين صاحب حَرَّان*، وأمرهما أن يسيرا إلى خِلاط من أقرب الطُّرق، فلما وصلا وجدا سيف الدين بَكْتَمُر من مماليك شاه أرمن قد دخلها وحماها، وتغلَّب عليها، وجاء بهلوان في عساكر الشَّرْق، وهو شمس الدين أبو جعفر محمد بن إيلدكز متولِّي تلك البلاد، فنزل من الجانب الآخر، وكان وزير خلاط مجد الدين بن الموفق بن رشيق يُظْهر للسلطان المودَّة والمناصحة، وهو على خلاف ذلك، وكتب إلى ناصر الدين أن يقيم على القُرْب، فهو أشدُّ للإرهاب والرُّعب. ففعل، ولو خلاه لسبق إليها.

وقيل: إن هذا الوزير أنفذ إلى بهلوان، وأمره بالإتيان، وأظهر له المودَّة والإحسان، ولما تَمادى الزمان، وقرب منها البهلوان، راسله بَكْتَمُر، وحمل إليه مع ابنته زوجة شاه أرمن من الأموال التي أُودعت المخزن، ونَدَبَ السُّلْطان إليها الفقيه ضياء الدِّين عيسى، فدخلها وتخلَّلها، وتأمَّلها، وتكلَّم مع الوزير وشاوره، فأحال الحال على البهلوان، وأنه جاء ليتملَّك المكان، ولو استعجلتم لسَهُلَ ما صَعُبَ الآن وهان. ثم جرت مراسلة بين السلطان والبهلوان، وانفصل الأمر كأنه ما كان[1].

وقال القاضي ابن شَدَّاد: وفي ربيع الآخر توفي صاحب خِلاط، وولي بعده غلامٌ له يُدْعى بَكْتَمُر[2] ـ وهو الذي [كان][3] وصل رسولاً إلى خدمة السلطان بسِنْجار* ـ فعدَلَ وأحسن إلى أهل خِلاط، وكان متصوِّناً في طريقته، فأطاعه النَّاس ومالوا إليه. ولما ملك خلاط امتدَّت نحوه الأطماع، فسار نحوه البهلوان بن الدكز[4]، فلما بَلَغه ذلك سيَّر إلى خدمة السلطان من يقرِّرُ معه تسليم خلاط إليه، واندراجه في جُمْلته، فطمع السُّلْطانُ بخلاط، وارتحل عن المَوْصل متوجِّهاً نحوها، وسيَّر إليه الفقيه عيسى وغَرْس الدِّين قليج لتقرير القاعدة وتحريرها، فوصلت الرُّسُل وبهلوان وقد قارب البلاد جداً، فخوَّف بهلوان من السلطان، وأشعره أنَّه إن قصده سلَّم البلاد إلى السُّلْطان. فطلب بهلوان إصلاحه، وزوَّجه ببنتٍ لهم وولاَّه، وأعاد البلاد إليه، واعتذر إلى رُسُلِ السلطان، وعادوا من غير زُبْدَةٍ. وكان السلطان قد

---

(١) «سنا البرق»: ٢٥٩ ـ ٢٦١.

(٢) سيرد خبر مقتله في ٤/ ٤١٢ من هذا الكتاب.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

نزل على مَيَّافارِقين*، فحاصرها وقاتلها قتالاً عظيماً، ونصب عليها مجانيق، وملكها في آخر جُمادى الأولى[1].

قال العماد: واستشعر ملوك ديار بكر من حركة السُّلْطان، وكان قد مات صاحب ماردِين* كما تقدَّم[2]، وبقيت الولاية لولده الكبير، وله عَشْرُ سنين، وكان القائم بتدبير مُلْكه نظام الدين بن البُقش. ومات أيضاً صاحب آمِد* نور الدين محمد بن قرا أرسلان[3] رابع عشر ربيع الأول من هذه السنة، وتولى ابنه قطب الدين سُكْمان، فاحترزوا من السلطان، وخافوا أن يستردَّ بلاد آمد منهم، فنفَّذ السلطان إليهم شمس الدين بن الفَرَّاش[4]، ليختبر حالهم في المحاربة والمسالمة، فوجدهم على الطَّاعة مقيمين، وإليه راغبين، ومنه راهبين. ووصل السلطان في جُمادى الأُولى إلى مَيَّافارقين*، وكان قد دخلها من أمراء صاحب ماردين أسد الدين يرنقش، واستعصى فيها على السلطان، فحاصره وقاتله، ثم رأى أن القتال يطول، فراسل أميرها الأسد، ورغَّبه في الموادعة، ونهاه عن المقاطعة، وكان في المدينة خاتون ابنة قرا أرسلان، وهي زوجة قطب الدين صاحب ماردِين* الذي توفي، فأحال الأسدُ الأمرَ على الخاتون، فراسلها السُّلْطان ورغَّبها، وضمن لها كل ما تطلبه منه، ووعدها أن يصاهر إليها، فما زال بها وبالأسد حتى لانا، فقرَّر السلطان لها كل ما كان باسمها واسمِ خُدَّامها، وطلبت حصن الهَتَّاخ[5]

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٦٩.

(٢) انظر ص ٢٢٢ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا ٢ ص ٥٥ من هذا الجزء.

(٤) سترد ترجمته في ٤/ ٣٤٧ من هذا الكتاب.

(٥) قلعة حصينة في ديار بكر قرب ميافارقين. «معجم البلدان»: ٥/ ٣٩٢.

ليكون لها عُشًّا للأفراخ، وزوَّج السلطان ابنه معز الدين إسحاق بإحدى كرائمها، وأبرم العهد، وأحكم العقد، وسارع السلطان إلى بَذْلِ كل
٢/ ٦٤ ما اقترحوه، وفُتحت مَيَّافارقين. وأقبل صاحب آمد قطب الدين سُكْمان بن نور الدين على صِغَرِ سِنِّه إلى خدمة السلطان، فأكرمه، وأعاده إلى منصبه، وكان معه وزيره قِوامُ الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة[١]، وقُتِلَ غِيْلَةً في رمضان من هذه السنة كما سيأتي[٢].

ثم سار السلطان لقصد المَوْصل، وولَّى تلك الدِّيار مملوكه حسام الدين سُنْقُر الخِلاطي، فنزل السلطان على دِجْلة بكَفْر زَمَّار[٣] بقرب الموصل في شعبان، وعزم على أن يشتِّي في ذلك المكان، فخرجت من الموصل نساء أتابكيَّات معرِّضات للشفاعة، فأكرمهن السُّلْطان، ووعدهنَّ بالإحسان، وقال: قد قبلت شفاعتكن لكن لا بُدَّ من مصلحةٍ تتم، ومصالحة نفعها يعمُّ. واستقرَّ الأمر على أن يكون عماد الدين زَنْكي صاحب سِنْجار أخو صاحب المَوْصل وسيطاً في البين، وحَكَماً فيما يعود بمصلحة الجانبين، فإنه كانت شفاعته سابقة، ورأى بهذا الرأي قضاء الحقين، وتعطَّف وتلطّف لأجلهن وإجلالهن، وأتى من الكرامة بما يليق بأمثالهن. وكن ظننَّ أنَّه لا يقيمُ لحرمةِ قصدهن، ويُصَدِّق ظنونهن، وأنه يعرف حقوقهن، ويقضي بمكارمه ديونهن، ولا يشتغل بأمرٍ لا يؤذن بمرادهن دونهن. فدخلن البلد متلومات متذمِّمات، وبلطف الله لائذات معتصمات[٤].

---

(١) في الأصل: أبو عبد الله محمد بن سماقة، والمثبت من (ك) و(ب)، وسيجيء على الصواب في النسخ الخطية ص ٢٤٦ من هذا الجزء.

(٢) انظر ص ٢٤٦ من هذا الجزء.

(٣) انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٤٦٩.

(٤) انظر «سنا البرق»: ٢٦١ ــ ٢٦٦.

فصـــــل

في انتظام الصُّلْح مع أهل المَوْصل، ومرض السُّلْطان المرضة المشهورة بحرَّان*

قال العماد: وكان السُّلْطان لما دخل شهر رمضان داوم قراءة القرآن وحِفْظه، واشتغل بالصِّيام والتقليل من الطعام، فظهر انزعاجه وتغيَّر مزاجُه، وتعذَّر علاجه، وطال مرضه، وندم على رَدِّ الشَّوافع[1]، وسيَّر إلى عماد الدين صاحب سِنْجار* في إنفاذ رسله ليوعز بكل ما يعود بسؤله. فوصل وزيره[2] شمس الدين بن الكافي، وكان من قبل قد سبق القول في تسليم بلاد شَهْرُزور* وقلاعها وحصونها وضياعها، وكذلك ما وراء الزَّابين* من البَوَازيج* والرُّسْتاق، وبلد القرابليَّة وبني قفجاق، فدخل شمس الدين بن الكافي، وشمس الدين قاضي العَسْكر من جانبنا[3] إلى المَوْصل لأخذ العهد على هذا الملتزم، ورحل السُّلْطان قبل عيد الفِطْر بيوم، وهو من بحر بُحْرانه في عَوْم، وخيَّمنا على نَصِيبين* في شوَّال، ولم نترقب عود الرسول[4] بنجاز الأشغال، بل كان الارتحال على الارتجال، ثم استمر الصُّلْح، وصَلُح الأمر، وخُطِبَ في جميع بلاد الموصل للسُّلْطان بعد قطع خطبة السَّلْجوقية، وفي ديار بكر أيضاً والولايات الأُرْتُقية، وضُرِبَ باسمه الدِّينار والدِّرْهم، وانحلَّ الإشكال وانكشف[5] المبهم[6].

---

(١) هن النساء الأتابكيات اللواتي جئن يشفعن عند صلاح الدين، ولم يقبل شفاعتهن. انظر ص ٢٣٤ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: رسوله، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) هو ابن الفراش، انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٣٣ من هذا الجزء.

(٤) في (ك) و(ب) المرسل.

(٥) في الأصل: وكشف، والمثبت من (ك) و(ب).

(٦) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٧.

وكتب العماد عن السُلْطان كتاباً إلى أخيه سيف الإسلام باليمن بشرح الحال، وفيه: ونزل لنا صاحب المَوْصل عن جميع ما وراء الزَّاب* من البلاد والقلاع والحصون والضياع [وشهرزور ومعاقلها وأعمالها، وولاية بني قفجاق، وولاية القرابلي والبوازيج وعانة](١)، وقرَّرنا عليه المَوْصل وأعمالها على أنه يكون بحكمنا، وينفذ عسكره إلى خدمتنا، وتكون الخطبة والسِّكَّة باسمنا، وأن يطلق المظالم، ولا يرتكب المآثم، وقد خصل لنا من صاحب الموصل ومن جميع من بالجزيرة وديار بكر الطَّاعة والسِّكَّة والخُطْبة، وعمَّت الهيبة والرَّهْبة، والعزائمُ إلى الجهاد في سبيل الله نوازع، وقد زالت العوائق وارتفعت الموانع.

قال: ونفَّذ السُلْطان إلى شَهْرُزُور مملوكه مجاهد الدين أياز سربك، فتملأً بها وتملَّك، ونال المقاصد وأدرك، وكان التركمان الإيوانية مستولية بها، فشتَّت شملها وندب للنَّظر في تلك الأعمال القاضي شمس الدين بن الفَرَّاش، وأقطع البَوَازيج* لبعض خواصِّه المماليك، وسيَّر إلى البلاد نوَّابه، ورتَّب فيها لإقامة سُنَنِ العَدْل والإحسان أصحابَهُ، ووقف ضيعةً بالبوازيج تُعرف ببافيلا على ورثة شيخ الشيوخ ببغداد(٢).

وقال القاضي ابن شَدَّاد: لما أيس السُلْطان من أمر خِلاط*، وعاد إلى المَوْصل، فنزل بعيداً عنها ــ وهي الدفعة الثَّالثة ــ بموضع يقال له كَفْر زَمَّار، وكان الحرُّ شديداً، فأقام مُدَّة، وفي هذه المنزلة أتاه سِنْجر شاه من الجزيرة، واجتمع به وأعاده إلى بلده، ومرض السلطان بكَفْر زَمَّار مرضاً

(١) ما بين حاصرتين مثبت من (ك) و(ب).
(٢) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٧.

شديداً، خاف من غائلته، فرحل طالب حَرَّان وهو مريض، وكان يتجلَّد، ولم يركب في مِحَفَّة*، ووصل حَرَّان شديد المرض، وبلغ إلى غاية الضَّعْف، وأُيس منه، وأُرجف بموته، ووصل إليه أخوه العادل من حلب ومعه الأطباء.

قال: وكان سببُ صُلْحه مع المواصلة أن عِزَّ الدين صاحب المَوْصل سيَّرني إلى الخليفة يستنجد به، فلم يحصل منه زُبْدَة، وسيَّر إلى العجم، فلم يحصل منهم زُبْدَة، فلما وصلتُ من بغداد، وأدَّيت جوابَ الرِّسالة، أيس من نجدة، فلما بلغهم مرضُ السُّلْطان رأوا ذلك فُرْصة، وعلموا رِقَّة قلبه وسُرْعة انقياده في ذلك الوقت، فندبوني لهذا[1] الأمر، وبهاءَ الدين الربيب، وفُوِّض إليَّ أمر النُّسْخة، وقالوا: أَمْضِ ما يصل جهدكم وطاقتكم إليه. فسرنا حتى أتينا العسكر، والنَّاسُ كلُّهم آيسون من السلطان، وكان وصولنا في أوائل ذي الحِجَّة، فاحْتَرَمنا احتراماً عظيماً، وجَلَس لنا ـ وكان أول جلوسه من مرضه ـ وحلف في يوم عرفة، وأخذنا منه بين النهرين، أخذها من سِنْجر شاه وأعطاها المواصلة، وحَلَّفْتُهُ يميناً تامَّةً، وحلَّفْتُ أخاه العادل ـ ٢/ ٦٥
ومات قدَّس الله روحه وهو على ذلك الصُّلْح، لم يتغيَّر عنه ـ وسرنا عنه وهو بحَرَّان قد تماثل، ووصله خبر موت ابن أسد الدين صاحب حمص، وكانت وفاته يوم عَرَفة، ونحن في العَسْكر، وجلس العادل في العَزَاء.

وفي تلك الأيام كانت وقعة التُّرْكُمان والأكراد، وقُتِلَ بينهم خَلْقٌ عظيم.

وفي هذا الشهر وصل خبر وفاة بهلوان بن الدكز[2]، وكانت وفاتُهُ في

---

(١) في الأصل: لذلك، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٨ من هذا الجزء.

سَلْخ ذي الحِجَّة[1].

قال العماد: وأقام السلطان على نَصِيبين* أياماً قلائل، ثم رحل إلى حَرَّان* فألقينا بها عصا النَّوى، والقلوب بمرض السلطان متخاذلة القُوَى، متواصلة الجَوَىٰ، والفَضْلُ خائف من كساده، آسفٌ على عَتَاده، مُشْفِقٌ من انخفاض قَدْره وانقراض عَصْره، والسَّماح يقول: هذا أوان كسوف سمائي، ونضوبُ مائي، والدِّين يُنْدَب، والمُلْك يصخب، والأيدي إلى الله تعالى مرفوعة، والنِّيات بالإخلاص مشفوعة، والكُفْر في أراجيف، والقَدَرُ في تصاريف، والسُّلْطان كلما زاد ألمه زاد في لُطْف الله أَمَلُه، وكلَّما بان ضَعْفُه قَوِيَ على الله توكُّلُه، وأنا ملازِمُهُ ليلاً ونهاراً، سِرّاً وجِهاراً، وهو يُمْلي عليَّ في كلِّ وقتٍ وصاياه، ويُفَرِّقُ بقلمي على عُفاته عطاياه، ومن جُمْلة ذلك أنَّه اشتدَّت به الحالُ ليلةً أيس بها منه الأطباء، وغلب القنوط وعُدِمَ الرَّجاء، فلما أصبح اجتمع المعتفون والوافدون إلى بابه، والقاصدون المرتجون جَنَى جَنَابه، وضَجُّوا ضَجَّةً ارتجَّت منها الدَّهْماء، ولانت لسماعها الصخرة الصَّمَّاء، فسأل عن ذلك، فقيل: هؤلاء وَفْدُك، قد اجتمعوا على بابك، متأسِّفين على مابك. فدعاني وأمرني بكَتْبِ أسمائهم، وتفريق ما اجتمع في خزائنه من الأموال عليهم، وأمسينا وما على الباب سائل، وكُنَّا نظنُّ أن ما به من الألم شغل شاغل، فوجد بتلك السَّماحة راحة، واستمرَّ مُدَّة استمرار مَرَضِه على بَذْلِ جَوْهر ماله وعَرَضه. وكان خلُقُه أحسن ما كان في حال الصِّحَّة، يخاطبنا بسجاياه السهلة السَّمْحة، ولا يخلو مجلسُه من أولي فَضْلٍ، وذوي نباهة ونُبْل، يتجاذبون بحضرته أطرافَ الفوائد، ويهزُّون لمكارمه أعطاف المحامد، فتارةً في أحكامٍ شرعية ومسائل فقهيَّة، وآونةً في صناعات

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٧٠ ــ ٧١.

شِعْرية، وألفاظٍ عربية، ومعانٍ أدبية، ومرةً في أحاديث الأجواد وشِيَم الأمجاد، ودفعةً في ذكر فضائل الجهاد، وفرائض التأهب له والاستعداد، وينذُرُ أنه إنْ خلَّصه الله من نَبْوةِ هذه النَّوْبة، وأعفاه من كَدَر هذه المرضة ومرارتها بالعافية الصَّافية الحُلْوة، اشتغل بفتح البيت المقدَّس، ولو ببذل نفائس الأموال والأنفس، وأنه لا يصرف بقيَّة عمره إلا في قتالِ أعداء الله، والجهاد فى سبيله، وإنجاد أهل الإسلام والإقبال على قبيله، وأنه لا يترك شيمة الجود، والسماحة بالموجود، والوفاء بالعقود، والمحافظة على العهود، وإنجاز الموعود.

قال: وربما اسْتَرْوَحَ في بعض ساعات الليل أو النهار إلى السماع لإشارة الأطباء به لأجل التفريج والإمتاع، ولقد كان ذلك المرضُ تمحيصاً من الله للذُّنوب وتنزيهاً، وتذكرةً مُوْقظةً من سِنَةِ الغَفْلة وتنبيهاً[1].

قال: ولما سمع العادل في حلب بمرض أخيه السُّلطان، ووصوله إلى حرَّان*، بادر بالوصول، وصادف وقت القَبُول، وقام بضبط الأُمور، وسياسة الجُمْهُور، والجلوس في كلِّ يوم في النُّوبتية السُّلْطانية، لتولي مصالح الرَّعيَّة، وإقامة وظيفة السِّماط، والعمل في كلِّ يوم بالاحتياط، والتصدِّي لكشف المظالم، وبَثِّ المكارم، وتنفيذ ما يخرج من المراسم، ورَقْع كلِّ خَرْق، ورَتْقِ كُلِّ فَتْق، وحِفْظ المَهَابة، والقيام عن السُّلْطان في كلِّ مُهِمٍّ بحُسْنِ النِّيابة، ولقد نفعنا حضورُه، ورفعنا تدبيره، فقد كُنَّا على خَوْفٍ من إرجاف يقوىٰ، وانتشار خبر سوءٍ لا يُطْوى، لا سيَّما إذا خرج الأطباء وقالوا: ما فيه أمل، ولكلِّ عُمر أجل. فهناك ترىٰ النَّاس يستشعرون، وبإبعاد ما يَعِزُّ

(١) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٧ ــ ٢٦٨.

عليهم من أعلاقهم ودوابِّهم يستظهرون، فزال بحضورِ العادلِ كل مخافة، وسلَّم الله برأفته من كلِّ آفة. وكان الملك العزيز عثمان ولد السُّلْطان مع أبيه، مُقْتَدٍ بمعاليه، مقتفٍ لمراضيه، وكان من جُمْلة وصاياه عند إشفائه، وإرجاء ترجِّي شفائه: إن أدركني المحتوم، ودنا اليوم المعلوم، فقد خلَّفت أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، وكلهم أراه بمرادي في إقامة الجهاد مليّاً؛ فعنى بأبي بكر سيف الدين أخاه، وبعمر تقي الدين ابن أخيه، وبعثمان وعلي ولديه الملكين العزيز والأفضل، ورأى عليهما بكفالة سيف الدين وتقي الدين في الشَّام ومِصْر المعوَّل.

وأقام العادل إلى أن وَضَحَ المِنْهاج، وصحَّ المِزاج[(١)]، وطابت القُلُوب وغابت الكروب، ثم وصل مع أخيه إلى حلب، وتمَّ[(٢)] معه إلى حمص ودمشق، وهَبَّ له نسيم مصر، فاستجدَّ إلى نَشْرِهِ النَّشْق. وسيأتي ذكر مُضِيِّه إلى مِصْر مع الملك العزيز في سنة اثنتين وثمانين، ووصول الملك الأفضل من مصر وبعده الملك المُظَفَّر تقي الدين[(٣)].

قال العماد: وكانت صدقاته الرَّاتبة دارَّة، وبالأبرار[(٤)] بارَّة، على أن جُوده مُسْتَوْعبٌ الموجود، ولا يترُكُ فَضْلاً للوفود، ولما مرض، وعَرَضَ له
٦٦/٢ من الألم ما عَرَض، قال لي: اكتب إلى الولاة والنُّوَّاب بالدِّيار المِصْرية والشَّامية أن يتصدَّقوا على الفقراء والمساكين من المال المُعَدِّ للحمل بما نَصَّ على قَدْره في التعيين. فلم يبق في الممالك إلا من وصل إليه نصيب، ودعا بالصَّالحات مَنِ الله لدعائه مجيب. فدفع بالصَّدَقة البلاء، ورفع للصِّدْق

(١) في الأصل: وضح المزاج وصح المنهاج، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) في الأصل: ثم، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) انظر ص ٢٥٩ وما بعدها من هذا الجزء.
(٤) في الأصل و(ب) بالأبرار، والمثبت من (ك).

الولاء، ونظر الله إلى النيات، وأسنى سناء مِنَنِه السَّنِيَّات، ومن جُمْلَة تلك الصَّدقات أنه أمرني أن أكتب إلى نائبه بدمشق الصفي بن القابض أن يتصدَّق بخمسة آلاف دينار صُوريَّة[1]، فقلت: ما عنده غير دنانير مِصْرية، فقال: يتصدَّق بها مصرية خمسة آلاف، لنفوز من الثَّواب بأضعاف.

قال: ولما امتدَّ زمانُ مرضه أمر ببناء دارٍ عند سُرَادقه وحمَّام، فَبُنِيَتْ في أربعة خمسة أيام، وكان قد استحضر من دمشق ولديه الصَّغيرين تُورانشاه ومَلِكْشاه وأمهما، وأسكنهم فيها مُدَّة مقامه، وسماها دار العافية، للبُرْء فيها من سَقَامه، ثم خلاها لمن ينزل بها ضيفاً، وجعلها للآوين إليها وَقْفاً. وبعدها اتصلت المُواصلة بين السُّلْطان والمَواصلة، وأهدى السلطان لهم هدايا عظيمة، لصاحب المَوْصل ولوالدته ولصاحبته ولابنة نور الدين رحمه الله، وقوِّم ما سيَّره إليهم بما يربي على عشرة آلاف دينار سوى الخيل والطِّيب، والشيء البديع والغريب، وجرى أمر المواصلة على السَّداد، وتجهَّزوا في النُّصْرة النَّاصرية ــ على ما سيأتي شَرْحُه ــ إلى الجهاد، وأول بركات الاتفاق فتح البيت المقدَّس وسائر البلاد، وتجدَّدتِ الفتوح، وأنجدت الملائكة والرُّوح، وامْتُحَتْ[2] باليُسْر العُسْرة، وصَحَّتْ بحطين الكَسْرة، وخَصَّ الله السلطان بفضيلة فتح القُدْس، وقضى حاجاته التي كانت في النَّفْس، وسيأتي ــ إن شاء الله ــ شَرْحُ كلٍّ فتح في موضعه، وكيف أشرق سنا النصر في مَطْلعِه[3].

وكتبَ الفاضلُ من دمشق إلى تقي الدين بمصر: إن العافية النَّاصرية قد

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٢٨ من الجزء الأول.

(٢) أي انتزعت. «اللسان» (متح).

(٣) «سنا البرق الشامي»: ٢٦٩.

استفاضت أخبارها [وفاضت][1] أنوارها وآثارها، وولَّتِ العِلَّة ــ ولله الحمد ــ وأُطفئت نارُها، وانجلى غبارُها، وخَمَدَ شرارُها، وما كانت إلا فَلْتَةً وقىٰ الله شَرَّها، وعظيمةً كُفي الإسلامُ أمرها، ونوبةً امتحن الله بها نفوسَنا، فرأى أقل ما عندنا[2] صبرها، وما كان الله ليضيِّع الدعاء وقد أخلصته القلوب، ولا ليوقف الإجابةَ وإن سَدَّت طريقَها الذنوب، ولا ليخلف وَعْدَ فَرَجٍ وقد أيس الصَّاحب والمصحوب.

نعيٌّ زاد فيه الدَّهْرُ ميما فأصبح بعد بُؤساه نعيما
وما صدَقَ النَّذيرُ به لأني رأيتُ الشمسَ تَطْلُعُ والنُّجوما

وقد استقبل مولانا السُّلْطانُ الملك النَّاصر العافيةَ غَضَّةً جديدة، والعزمةَ ماضيةً حديدة، والنَّشاط إلى الجهاد والجنة مبسوطة[3] البساط، وقد انقضى الحساب، وجُزْنا الصِّراط، وعُرضنا نحن على الأهوال التي من خوفها كاد الجَمَلُ يَلِجُ في سُمِّ الخِيَاط.

ومن كتابٍ [آخر][4]: الأحوال بالحَضْرَةِ مستقيمة، والنِّعْمة بالعافية عظيمةٌ عظيمة، والبقيَّة الموهوبة من العُمْر النَّاصري كريمة القيمة، عَرَفَ وعَرَفَ النَّاسُ قَدْرَها، ولزم ولزموا شُكْرَها[5]، فسيوف الجهاد قد كادت تهتزُّ في أغمادها، وخَيْلُ الله قد كادت تنادي أهلها: اركبي لميعاد طرادها،

---

(١) المثبت بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/ ٦٦.
(٢) في الأصل: ما عندها، والمثبت من (ك).
(٣) في الأصل: مبسوط، والمثبت من (ك).
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).
(٥) في الأصل: وعرف الناس شكرها، ولزم ولزموا قدرها، والمثبت من (ك).

والمسجد الأقصى مبشّر تأنيسُه بما استوحش منه من القرآن، وتطهيره مما استولى عليه من رِجْس الصُّلْبان.

فَصْــــل

في باقي حوادث هذه السَّنة، ومن توفي فيها من الأعيان

قال العماد: في هذه السنة توفيت الخاتون العصمِيّة بدمشق في ذي القَعْدة، وهي عصمة الدين ابنة معين الدين أُنَر، وكانت في عصمة الملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله، فلما توفي، وخلّفه السلطان بالشَّام، في حِفْظ البلاد ونُصْرة الإسلام، تزوَّج بها في سنة اثنتين وسبعين، وهي من أَعَفِّ النساء، وأعصمهن وأجلهن في الصِّيانة، وأحزمهن، مستمسكة من الدين بالعُرْوة الوثقى، ولها أمرٌ نافذ، ومعروفٌ وصدقاتٌ، ورواتب للفقراء وإدرارات، وبَنَتْ للفقهاء والصُّوفية بدمشق مدرسةً[1] ورباطاً[2].

قلتُ: وكلاهما ينسب إليها، فالمدرسة داخل دمشق بمحلة حجر الذَّهب* قريب الحَمَّام الشركسي، والرباط خارج باب النَّصْر، راكب على نهر باناس* في أول الشَّرَف القِبْلي*. وأما مسجد خاتون في آخر الشرف القبلي من الغَرْب، فهو منسوب إلى خاتون أُخرى قديمة، تقدَّم ذِكْرُها[3].

---

(١) هي المدرسة الخاتونية الجوانية، انظرها في كشاف الأماكن.

(٢) كان هذا الرباط قرب جامع تنكز، انظر «منادمة الأطلال»: ص ٣٣٣، وانظر «سنا البرق الشامي»: ٢٧٢، وكشاف الأماكن.

(٣) انظر ص ١٢٢ من الجزء الأول.

وهي زُمُرُّذ بنت جاولي أُخت الملك دُقاق لأُمِّه، وزَوْج زنكي والد نور الدين، رحمهم الله.

قال العماد: وذلك سوى وقوفها على معتقيها وعوارفها وأياديها، وكان السلطان حينئذٍ بحرَّان* في بحر المرض وبُحْرانه، وعنف الألم وعُنْفُوانه، فما أخبرناه بوفاتها خوفاً من تزايد عِلَّته، وتوقُّد غلَّته، وهو يستدعي في كلِّ يوم درجاً، ويكتب إليها كتاباً طويلاً، ويلقي على ضَعْفه من
٦٧/٢ تعب الكتابة والفكر حملاً ثقيلاً، حتى سمع نعي ناصر الدين محمد بن شِيركُوه ابن عمه، فنُعِيَتْ إليه الخاتون، وقد تعدَّت عنه إليهما المَنُون، وكانت وفاة ناصر الدين بحمص في تاسع ذي الحِجَّة فجأةً من غير مرض، وأجرى السلطان أسد الدين شيركوه ولده على ما كان لوالده، ومقابلته بأحسن عوائده[١].

قلتُ: وقبر الخاتون المذكورة في التُّرْبة* المنسوبة إليها[٢] بسفح جبل قاسيون قِبْليِّ المقبُرة الشَّرْكسية*.

وأما ناصر الدين فنقلته زوجته ابنة عَمِّه ستُّ الشام بنت أيوب، فدفنته في مقبرتها بمدرستها بالعُوينة*، فهو القَبْر الأوسط بين قبرها وقبر أخيها، رحمهم الله[٣].

وكانت ستُّ الشَّام كثيرةَ المعروف والبر والصَّدقات.

وكتب الفاضلُ إلى تقي الدين: ورد الخبر عشيَّة يوم الأربعاء الحادي

---

(١) «سنا البرق»: ٢٧٢.

(٢) انظر «التربة الخاتونية» في كشاف الأماكن.

(٣) انظر ص ٦٥ من هذا الجزء.

عشر من ذي الحِجَّة من حمص بأنه لما كان عشية يوم الأحد وقت الوقفة انتقل إلى رحمة الله ورضوانه المولى الأجل ناصر الدين محمد بن المولى أسد الدين رحمهما الله بمرضٍ حاد أَعْجَلَ من لمح البصر ومَرَدِّ النظر، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وشاهد المملوك كتاباً من ولده أسد الدين شيركوه ــ أحياه الله ــ إلى كاتب أبيه رحمه الله يقول في: وكتبتُه وقد صار في حُفْرته، واستقرَّ في قَبْره. فنسألُ الله حُسْنَ المَرْجِع، وكفاية هَوْلِ المُطَّلَع، والمعونة على ساعة هذا المَصْرَع، ونشكرُ الله ثم نشكره، ونذكره بأحسن ما يذكره به مَنْ يذكره، إذ وقى النَّفس الكريمة العالية الشَّريفة النَّاصرية، وقدَّم قبلها من لا يَسُرُّه التقدُّم بين يديه، وجعل الله أنفسَنا فداها، فإن تلك نعمة علينا كما هي نعمة عليه، ولا فرَّق الله لهذا البيت شَمْلاً، ولا قَضَبَ[1] له حبلاً، وأعظم الله أجر الملك المظفَّر في ابن عمه، وأمتعه ببقاء عَمِّه، وأعاذَه من مقابلة مقدور الله بهَمِّه وهِمِّه[2]، فليس إلا التَّسليم لما لا يستطيعُ الخَلْقُ له دَفْعاً، وتفويض أمر هذه الأنفس إليه تعالى، فإنَّا لا نملك لها ضَرًّا ولا نفعاً، ولخوف المملوك أن يلتبس الخبر في مَطَالعه، ويُحرَّف الكَلِمُ عن مواضعه، عَجَّلَ بالإنهاء والإشعار، وسَبَقَ بما لا يسرُّه السَّبْقُ به من هذه الأخبار.

قال العماد: وفيها في جُمادى الآخرة توفي أخو الخاتون المذكورة سعد الدين مسعود بن أُنَر، ونحن قد فتحنا مَيَّافارقين* بها، ولقد كان من الأكارم الأكابر، ومن ذوي المآثر والمفاخر، وما رأيت أحسنَ منه خُلُقاً، وأزكى عِرْقاً، ولم يزل في الدولتين النُّورية والصَّلاحية أميراً مقدَّماً، وعظيماً مكرَّماً، ولسفور فضائله، ووفور فواضله، وجِدِّ شهامته وحَدِّ صرامته، رغب

---

(١) قضب: قطع. «القاموس المحيط» (قضب).

(٢) بهَمه: أي بحزنه. وهِمِّه: أي هواه. «اللسان» (همم).

السُّلْطانُ ـ وهو زوج أخته ـ أن يكون هو أيضاً زوج أخته، فزوَّجه بالتي تزوَّجها مُظَفَّر الدين كُوْكُبُري بعده[1].

قلتُ: وهي ربيعة خاتون بنت أيوب، عمَّرت إلى أن توفيت بدمشق بدار أبيها، وهي دار العقيقي* في شهر رمضان سنة ثلاث وأربعين وست مئة، وهي آخر أولاد أيوب لصلبه موتاً، وكان يحترمها الملوك من أولاد أُخوتها وأولادهم، ويزورونها في دارها[2].

قال: وفيها توفي الأمير عز الدين جاولي، وهو من أكابر الأمراء، وله مواقف حميدة في الهيجاء، ومقامات في الغزاة حقيقة بالثَّناء، وهو أكبر أمير للأسدية، ولم يزل في الهيجاء يَحْسُنُ بلاؤه، ويصدق غَناؤه. ولما عُدْنا بعد فتح مَيَّافارقين* إلى المَوْصل طَرَقَه البلاءُ في طريقه، قَفَزَ بحصانه بعض السُّواقي، فعثر به، وانكسرت رِجْلُه، ثم عملت عليه قدمُه، واشتدَّ ألمه، وطال به سَقَمه، وانتقل إلى دمشق، وتوفي بها في آخر هذه السنة أو في سنة اثنتين وثمانين، ولقد فُجِعَ الإسلامُ منه بِذَمِرٍ مشيحٍ[3]، لِذِمار الكُفْر مُبِيْح[4].

قال: وفيها يوم الأربعاء ثامن رمضان قُتِلَ بآمِد* وزير ابن قرا أرسلان، وهو قِوامُ الدين أبو محمد عبد الله بن سماقة، قتلته مماليك مخدومه غِيْلَةً، وتمحَّلُوا له في مباغتته بالقَتْل حِيْلَةً؛ وذلك أنه كان جالساً في ديوانه

---

(١) ولابن الساعاتي في مسعود بن أُنَر مدائح. انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨ من هذا الجزء. و«ديوان ابن الساعاتي»: ٢/١٩١، وما بعدها، و«سنا البرق»: ٢٧٢ ـ ٢٧٣، وص ١٢٦ من هذا الجزء.

(٢) ترجم لها أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٤٣ هـ).

(٣) الذمر المشيح: يعني الشجاع المجد. «اللسان» (ذمر، شيح).

(٤) الذمار: هو كل ما يلزم حفظه وحياطته وحمايته والدفع عنه. «اللسان» (ذمر). وانظر «سنا البرق»: ٢٧٣.

وإيوانه[1]، متصدِّراً بمكانته في مكانه، وعنده الأكابر والأماثل، فدخل عليه واحدٌ منهم، وقال [له][2]: الملك يدعوك وَحْدَك. فقام، فدخل الدِّهْليز، وقد أُغلق البابُ الذي يصل منه إلى الأمير، وأُغلق وراءه الباب الآخر وقتلوه، ثم أخرجوا الصَّلاح من حبسه، وهو أحد الأمراء الأكابر، فقتل أولئك القاتلين، وكانوا به واثقين[3].

قال: وفيها توفي الفقيه مهذَّب الدين عبد الله بن أسعد المَوْصِلي بحمص[4]، وكان المدرِّس بها، وكان عَلاَّمة زمانه في عِلْمه، ونسيجَ وَحْدِهِ في نَظْمه، وقد أوردتُ من شِعْره في صَدْر الكتاب ما يستدلُّ به على فَضْله، وأنه ممن عُقِمَ الدَّهْر بمثله، واشْتُريت كتبه بأغلى الأثمان، ولكم أخرج بَحْرُهُ قلائدَ اللؤلؤ والمَرْجان[5]

قال: وفي هذه السنة ردَّ السُّلْطانُ قلعتي الرُّها* وحَرَّان* إلى مُظَفَّر الدين كُوكُبُوري بن زين الدين لتوفُّرِهِ في الخدمة على حفظ القوانين، وظهر منه كل ما حَقَّق به الاستظهار، وأوجب لأمره الإمرار، ورغب في مصاهرة السُّلْطان، وقلَّده طوق الامتنان[6].

قال: وكان السُّلْطان قد سكنت نَفْسُه بالمقام[7]، وأراد أن تكون حركته بعد استكمال السكون، وعنده أولاده الأصاغر، والملك العزيز والملك

---

(١) إيوانه: ليست في (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٣) انظر «سنا البرق»: ٢٧٣ ــ ٢٧٤.
(٤) انظر ص ٤٠٢ ــ ٤٠٣ من الجزء الأول.
(٥) انظر «سنا البرق»: ٢٧٤.
(٦) انظر «سنا البرق»: ٢٧٣.
(٧) في الأصل: للمقام، والمثبت من (ك) و(ب).

الظَّاهر بدمشق، والأفضل بمصر، فلما ورد نعي الخاتون وناصر الدين، وخلاً شِبْلَه أسدَ الدين بعده في العرين، وخيف على بلاده لصِغَرِ أولاده، واحتيج أيضاً إلى الاحتياط على ما في خزائنه، واستخراج دفائنه، وكذلك
٦٨/٢ الخاتون خلَّفت أملاكاً وتراثاً، وأوقافاً وأمتعةً وأثاثاً، لم يكن من الحركة بُدٌّ، وقدَّم الكُتُبَ إلى البلاد بما صمَّم عليه عَزْمه، وأجرى به حُكْمه، وأمر بالاستعداد لترقُّب الاستدعاء، ووصَّاهم في سائر المقاصد والأنحاء[1].

وكتب إلى ولد ناصر الدين: قد عَرَفْنا المصاب بوالده رحمه الله، وأعظم[2] أجرنا وأجره فيه، وإن مضى لسبيله فولدنا أسد الدين ــ أحياه الله ــ نِعْمَ الخَلَفُ الصَّالح، وإن انتقل والدُه إلى دار البقاء، فهو في مكانه المستقرِّ من المجد والعلاء، والولايات والبلاد والمعاقل باقية عليه، مُسَلَّمة إليه، مُقَرَّرة في يديه، وما مضى من والده رحمه الله إلا عينه، وولدنا قُرَّة العيون، وبه استقرار السُّكُون، والحمد لله الذي جبر به كَسْرَ المصاب، وألبسنا وإياه ثَوْبَ الثَّواب، فليشرح ولدنا صَدْرَه، ولا يشغل سِرَّه، ويُعَرِّف خواصَّه وأصحابه، ووُلاته ونوَّابه بحمص والرَّحْبة* وغيرهما أنهم باقون على عادتهم.

وكان المندوب إليه القاضي نجم الدين أبو البركات بن الشيخ شرف الدين بن أبي عَصْرون، ولم يفارق الخدمة السُّلْطانية في هذه السَّنة.

قال: وفي هذه السنة لما كنَّا على مَيَّافارِقين* وقد فتحناها، ورد للسُّلْطان مثالٌ شريف إمامي ناصري بتفويض ولاية مارِدين* والحِصْن ــ وهو

---

(١) «سنا البرق»: ٢٧٤ ــ ٢٧٥.

(٢) في الأصل و(ب) وعظم، والمثبت من (ك).

حصن كيفا* ــ والعلامة* الشريفة النَّاصرية في ثاني سطره بالقلم الشريف: «النَّاصِرُ اللَّهُ»[١].

قلت: وفيها في جُمادى الأولى توفي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر بن أحمد المديني الأصبهاني، محدِّثٌ مشهور، له تصانيف كثيرة[٢].

وفي هذه السنة[٣] توفي بمصر في شعبان الشيخ جمال الدين أبو الفتح أبو الثناء أبو محمد محمود بن أحمد بن علي بن أحمد بن المحمودي، المعروف بابن الصَّابوني، ودفن بسارية من القرافة، ومولده ببغداد سنة خمس مئة ــ وجَدُّ أبيه لأُمِّه شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل بن عبد الرحمن الصَّابوني، فيه عُرِفَ بابنِ الصابوني[٤] ــ وكان جَدُّه صحب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه، ونسبته بالمحمودي إليه. ودخل ابن الصابوني هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله، واجتمع به، ونزل إلى زيارته، وسأله الإقامة بدمشق، فذكر له أن قَصْدَه زيارة الإمام الشَّافعي رضي الله عنه بمصر، فجهَّزه وسيَّره صُحْبَة الأمير نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة سارَ إلى ولده بمصر[٥]، وصار بينه وبينه صحبة أكيدة ومحبة عظيمة، بحيث إنه ما كان يصبر عنه ساعةً واحدة،

---

(١) في الأصل: أقحمت كلمة «لدين» فوق الناصر بخط مغاير، فأصبحت «الناصر لدين الله» وهو خطأ، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر ترجمته في طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/ ١١٢ ــ ١١٤، بتحقيقي، وقد استقصيت هناك مصادر ترجمته.

(٣) من هنا سقط من (ك) ينتهي ص ٢٥١.

(٤) توفي شيخ الإسلام إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني سنة (٤٤٩ هـ). انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ١٨/ ٤٠ ــ ٤٤.

(٥) كان ذلك سنة (٥٦٥ هـ) انظر ص ١٤٨ من الجزء الثاني.

وأقبل عليه. ولما ملك ولده الملك النَّاصر صلاح الدين رحمه الله مصر لم يمكِّنْه من العود إلى الشَّام، ووقَّف عليه وقفاً بالديار المِصْرية، وعلى عقبه، وهو باقٍ بأيديهم إلى الآن.

وقرأتُ بخطِّ صلاح الدين رحمه الله ما كتبه في حَقِّه إلى أخيه الملك العادل لما كان نائبه بمصر: الأخ الأجل، الملك العادل أدام الله دولته، غير خافٍ عنه قضية الوقف الذي أوقفه الوالد نجم الدين تغمده الله برحمته ورضوانه على الشيخ الفقيه ابن الصَّابوني، وأنَّه لما جرى له من المخاصمة مع الشيخ الفقيه نجم الدين ــ يعني الخُبُوشاني[1] ــ ما جرى اقتضت المصلحة لتسكين الفتنة وقطع الكلام انتقاله إلى موضع غيره، لنقطع الفتنة والخصومة بينهم، بأمرنا إليه، مع بقاء الوقف في تصرفه وتصرف مَنْ عنده من الفقهاء. والأخ الأجل الملك العادل يتقدَّم بمراعاته وحفظ جانبه وتمكينه من التصرُّف في الوقف المشار إليه، ومنع من يعترضه فيه بوجهٍ من وجوه التأويلات، وحسم مادَّة الشكوى منه ممن يتعدَّى عليه، إن شاء الله تعالى.

وقرأت بخط الشيخ عمر المَلاَّء المَوْصِلي[2] رحمه الله كتاباً كتبه إلى ابن الصَّابوني هذا بشيراز، يطلب منه فيه الدعاء، ويصف حاله، أَوَّلُه: أخوه عمر بن محمد المَلاَّء يقول فيه: وبعد، فالذي يتطلَّع إليه من معرفة أحوالي فجملتها خير وسلامة، غارق في بحار النعماء، ومغمورٌ في هواطل الآلاء،

(١) سترد ترجمته ٤/ ٢٩٣ من هذا الكتاب. وقال سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»: ٨/ ٢٦٥: «وكان الخبوشاني كثير الفتن منذ دخل مصر إلى أن مات، وما زالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة وابن الصابوني وزين الدين بن نُجَيَّة، ويكفرونه ويكفرهم. . .».

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من الجزء الأول.

غير أن أيدي البلوى بالنِّعَم[1] ترفعني تارةً إلى مقام الصِّدِّيقين، وتضعني تارةً أُخرى إلى مقامات المتخلِّفين، ومع هذا، فطلب النجاة لا يفتر، والحركة في طلب الفوز لا تسكن، والعمر ينقضي بالعنا والمُنَى، وما أشبه حالي بحال القائل:

آمُلُ في يومي إدراك المُنَى ... حتى إذا ولَّى تَمَنَّيْتُ غدا
لا وَطَراً أقضي من الدُّنيا ولا ... أَفْعَلُ للأُخرى فِعَال السُّعَدا
والعمر يمضي بين هاتين فلا ... ضلالة خالصةً ولا هُدَى

يا أخي، ما أخبرتك بأحوالي هذه إلا رجاءَ أن تتحرَّك هِمَّتُك لي بالشَّفقة والرأفة، فتدعو الله لي بقلبٍ حاضر، منوَّرٍ بنور الشفقة والرحمة ويؤمِّنُ على دُعائك مَنْ حضر مِنَ السَّادة الأُخوان، وتقول: اللهم عبدك الضعيف عمر بن محمد المَلاَّء، يدعوك ويقول:

لا تهنِّي بعد إكرامِكَ لي ... فشديدٌ عادةٌ منقطعه

وقد توسَّل بنا إليك، نسألك أن تبلغه آماله، وأن تحييه حياة السُّعَداء، وأن تميته موت السُّعَداء، وتحشره في زُمْرة السُّعداء، وأن تجعل خَيْرَ عُمُره آخره، وخيرَ أعماله خواتيمها، وخيرَ أيامه يوماً يلقاك فيه[2].

---

(١) في طبعة وادي النيل: ٢/ ٦٨ تحرفت إلى النقم.
(٢) إلى هنا ينتهي السقط من (ك)، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٤٩ من هذا الجزء.
وانظر ترجمة ابن الصابوني في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٦٣ ــ ١٦٤، وحفيده صاحب «تكملة إكمال الإكمال» توفي سنة (٦٨٠ هـ) انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/ ٢٤٩ ــ ٢٥٠، وانظر الدراسة القيمة عن آل ابن الصابوني في مقدمة «التكملة» بقلم العلامة الدكتور مصطفى جواد، رحمه الله.

٦٩/٢

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين [وخمس مئة][1]

قال العماد: فرحل السُّلْطان إلى الشَّام، وودَّع مظفَّر الدين صاحب حَرَّان* من الفرات، ورحل صَوْب حلب، والعادل صاحبها على المقدِّمة، وقد هيأ أسباب التَّكْرِمة، فوصل حلب في العَشْر الأوسط من المحرَّم، ثم رتَّب العادلُ في حلب نُوَّابه، وصحب السُّلْطان، فوصلوا حماة، وفيها نائب تقي الدين ناصر الدين منكورس بن ناصح الدين خُمارتِكِين، وهو صاحب بوقُبيس، وقد جمع النهضة والأمانة. ثم وصل السلطان إلى حمص، وقرَّر أمر المجاهد أسد الدين أبي الحارث شيركوه بن ناصر الدين، وكان عمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة سماه أبوه باسم جَدِّه ولقَّبه بلقبه، وكتب له منشوراً بما قَرَّر عليه من البلاد، وذلك حمص وسَلَمِيَّة[2] وتدمر ووادي بني حُصَين والرَّحبة* وزلبيا. وكتب منشوراً آخر بإسقاط المكوس بالرَّحْبة، وفيه: وهذا دأب السلطان في جميع البلاد، اقتصر منها على الرُّسوم التي يُبيحها الشرع، وهي الخَرَاج والأجور والزَّرْع.

واعتمد على الأمير الحاجب بدر الدين إبراهيم بن شروه الهَكَّاري في ولاية قلعة حمص، ثم نقله إلى قلعة حلب، فبقي والياً بها ستَّ سنين، ورتَّبه العزيز في آخر عهد السلطان بقوص*.

قال: ورتَّب السلطان مع أسد الدين بحمص أميراً من الأسدية يعرف بأرسلان بوغا، فَقَدَّمه[3] على أصحابه، بتولي مصالح بابه، حتى تفرَّد الأسدُ

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) في الأصل: لم تكتب واضحة، فكتب ناسخ فوقها، وقلعته، وهو خطأ، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل و(ب) فقدم، والمثبت من (ك).

بالأمر لسَدَاده، وبلغ مدى رشاده، ونُعِتَ بالملك المجاهد، ونهض بمحامل المحامد.

قال: وأقمنا بحمص حتى استعرضنا خَزَائن ناصر الدين، وقسمنا ميراثه، وكانت أُخت السلطان الحُسَامية زوجة ناصر الدين، وهي مستحقة الثُّمن، والباقي بين البنت والابن، وخلَّف عيناً وَوَرِقاً، مجتمعاً ومفترقاً، ومبلغ[1] التراث في الملك والعين والأثاث عَظُمَ أن يُقَدَّر بمقدار، وأناف علىٰ[2] ألف ألف دينار، فما أعاره السلطان طَرْفه، بل تركه على أهل التَّرِكَة.

قال: ولما شاع بدمشق خَبَرُ دُنوِّنا، احتفل أهلُها، واجتمع بالمسارِّ شَمْلُها، وطلعت أعيانها ونبعت عيونها، ووافت أبكارها وعُونُها، وظهر مكنونها ومخزونها، وترامت إلينا ثمراتها ومكرماتها سهولها وحُزُونها، ودخلنا المدينة وزينة الدُّنيا خارجة، وسكينة النُّعْمى فارجة، ودمشق كالهَدِيِّ[3] مزفوفة، وبالهُدَىٰ محفوفة، وبالحُسْنِ موصوفة. وكان النَّاس قد ساءهم خبر المرض، فسرَّهم عيانُ السَّلامة، وأسهرهم الهم للإشفاق فراجعوا للشِّفاء كَرَى الكرامة، وما ألذَّ الرجاءَ بعد الإبلاس، والثَّراء غِبَّ الإفلاس، والأمل عقيب الياس، وأنهم ظفروا في حالة الإيحاش بالإيناس، وأمنوا بمشاهدة الأنوار السلطانية حنادِسَ[4] الوَسْوَاس. واجتمع السُّلْطان في القلعة بأهله، وأقلع المُرْجِفُ عن جهله، وَحَسُنَتِ الأحوال، وأُمنت الأهوال، وشاهدنا الفَضْلَ والكرم بالمشاهدة الفاضلية الكريمة، وَعُدْنا إلى

---

(١) في الأصل: وملك، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: عن، والمثبت من (ك).

(٣) الهدي: العروس. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٦١٥.

(٤) الحنادس جمع، مفردها حِنْدِس: الظلمة. «القاموس المحيط» (حندس).

عادة السعادة القديمة، واجتمع السلطان به فبثَّه أسراره، واستزال بصفو رأيه أكداره، ودخَل جَنَّته وجَنَى ثماره، وزاره مرةً واستزاره، وراجعه في مصالح دولته [واستشاره][1]، وجلس السلطان في دار العدل* لكشف المظالم، وَبَثِّ المكارم، وإحياء المعالم[2]، وإقامة مواسم المراسم[3].

وقال القاضي ابن شَدَّاد: ولما وجد السلطانُ نشاطاً من مرضه رحل يطلب جهة حلب، وكان وصولُه إليها يوم الأحد رابع عشر المحرَّم، وكان يوماً مشهوداً لشدَّة فرح النَّاس بعافيته ولقائه، فأقام بها أربعة أيام، ثم رحل في ثامن عشره نحو دمشق، فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتلِّ السُّلْطان[4]، ومعه أُخته[5]، وقد صحبه خدمة عظيمة وقُرَب زائدة، ومَنَّ عليه بحمص، وأقام أياماً يعتبر تركة أبيه، ثم سار يطلب جهة دمشق، وكان دخوله إليها في ثاني ربيع الأول، وكان يوماً لم يُرَ مثله فرحاً وسروراً[6].

فَصْــلٌ
في ذكر ما استأنفه السُّلْطان بمصر والشَّام من نَقْلِ الولايات بين أولاده

قال العماد: وكان السلطان لملازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في الأصل: المعلوم، وقد كتبها ناسخ فوق خط الأصل، وفي (ك) العالم، وفي (ب) العلوم، والمثبت من طبعة وادي النيل: ٢/ ٦٩، وهو الموافق لما في «سنا البرق الشامي»: ٢٧٨.

(٣) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٧٥ ــ ٢٧٨.

(٤) تحرف في مطبوع «النوادر» إلى قبل السلطان.

(٥) في (ك) أخيه، وهو تصحيف.

(٦) «النوادر السلطانية»: ٧١.

وكان الملك الأفضل نور الدين علي بمصر، وهو ولده الأكبر، وقد بدأ يظهر، وعلىٰ تجويد الخَطِّ والأدب وسماع الأحاديث النَّبوية يتوفَّر، وقد مالت إليه بمِصْر جماعة، وله منهم طاعة، وربما نَقَمَ تقيُّ الدِّين النَّائب هناك من أحدٍ أمراً، فوقعت منه فيه شفاعة، فكتب يشكو من اختلال أمره، واشتغال سِرِّه، وكان في نفس السُّلْطان أن ينقل ولده الملك العزيز عثمان إلى مصر ليكون عزيزَها، وليحرز مملكتها ويحوزَها، وهو مفكِّر في طريق تدبيره، ووجه تقريره، حتى بدا له نَقْل الأفضل إلى الشَّام، فكتب إليه يتشوَّقه ويستدعيه بجميع أهله وجماعته، ووالدته وحَشَمه وأصحابه، فخرج ووصل دمشق يوم الاثنين الثَّالث والعشرين من جُمادى الأُولى، وخرج السُّلْطان لاستقباله، وأنزله بالقلعة في دار رضوان، وكتب إلى تقيِّ الدين أنه قد استقلَّ أمرُه، وزال عُذْرُه. فابتهجَ بتفرُّده، وخَفِيَ عنه أنه كان في ذِمَّة ولد السُّلْطان وعِصْمته، وأن تَمَام حُرْمته بحرمته[١].

قال: ولما وصَلْنا إلى دمشق كان بها من أولاد السُّلْطان الملك الظَّاهر غازي غياث الدين، فزاره[٢] عَمُّه العادل وهو صهره، وقد اشتدَّ بمصاهرته ظهره، فقال له: قد نَزَلْتُ عن حلب لك، وأنا قانعٌ من أخي بإقطاع أين كان، ٢/ ٧٠
وأَلْزَمُ الخِدْمة ولا أفارقُ السلطان، فاطْلُبْها من أبيك إن كانت تُرْضيك. وجاء إلى السلطان، وقال: هذه حلب مع رغبتي فيها، ومحبَّتي لتولِّيها، أرى أن أحد أولادك بها أَحَقّ، وهذا ولدنا الملك الظَّاهر أُحِبُّ أن أُوثره بها. فقال السُّلْطان: المهم الآن تدبير [أمر][٣] ولدي الملك العزيز، فإنَّ مِصْرَ لا بُدَّ أن يكون لي بها ولدٌ أعتمد عليه، وأسند ملكها[٤] إليه. ورحل إلى الزرقاء*

(١) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٢) في الأصل و(ك) فزار، والمثبت من (ب).
(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٤) في (ك) ممالكها.

ومعه ولداه العزيز والظّاهر وأخوه العادل، فالتمس العادل عِوَضَ حلب بلاداً عيَّنها، ونواحي بمصر بيَّنها. وكان قد مال الملك العزيز إليه لإشفاقه عليه، فسأل أباه أن يُسَيِّرَ معه العادل، فإنه نِعْمَ الكافي الكافل. فأعطاه السلطان بمصر البلاد المعروفة بالشَّرْقية، واعتمد عليه في نيابته في سائر الممالك المِصْرية.

ولما سمع تقي الدين هذا الخبر، نبا ونَفَر، وذمَّ الغِيَر، واستبدل من الصَّفْو الكَدَر، وغار من تغيُّرِ الرأي فيه، وإذا تولَّى أبو بكر فلا عمر. فعبر إلى الجِيزة مُظْهِراً أنَّه يمضي إلى بلاد المغرب ليملكها، وكتب وسأل السُّلْطانَ أن لا يمنعه من سلوك مسلكها، وسَمَتْ هِمَّتُه إلى مملكةٍ جديدة، وأقاليم ذات ظلالٍ مديدة، وبلادٍ واسعة: ومدنٍ شاسعة.

وقد كان أحد مماليكه المعروف بقَراقَوش[1]، قد جمع من قَبْلُ الجيوش، وسار إلى بلاد بَرْقة* فملكها، وَهَدَتْهُ الأُمنيَّة إلى النفائس من بلاد نفوسة فأدركها، وتجاوز إلى إفريقية، وهو يكتب أبداً إلى مالكه الملك المُظَفَّر، يُرَغِّبه في تلك المملكة، ويقول: إن البلاد سائبة. فلما تجدَّد لتقي الدين ما تجدَّد، وتمهد لعمِّه العادل ما تمهَّد، عاد[2] له ذكر المغرب، فعبر بعسكره، ومالت إليه عساكر مصر لِبَذْله، وقدَّم مملوكه يوزبا في المقدِّمة.

فلما انتهى إلى السلطان خَبَرُ عَزْمه، قال: لَعَمْري، إن فتح المغرب مُهِمٌّ، لكن فتح البيت المقدَّس أهم، والفائدة به أتم، والمصلحة منه أَخَصُّ وأَعَمُّ، وإذا توجَّه تقي الدين، واستصحب معه رجالنا المعروفة، ذهب العمر

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٩٩ من هذا الجزء.

(٢) في النسخ الخطية: عادت، والمثبت من طبعة وادي النيل ٢/ ٧٠.

في اقتناء الرِّجال، وإذا فتحنا القُدْس والسَّاحل، طوينا إلى تلك الممالك المراحل. وعلم لَجَاجَ تقي الدين في ركوب تلك اللُّجَّة، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، وجهَّزَ ولده العزيز إلى مصر، وقَرَّر له قوص* وأعمالها، وسار ومعه عَمُّه العادل، فدخلا القاهرة في خامس شهر رمضان.

وأما الملك الظَّاهر فسيَّره السُّلْطانُ إلى حلب، وأنعم عليه بها، وبسائر قلاعها وأقاليمها، وندب معه الحاجب شجاع الدين عيسى بن بلاشو، وعاد السُّلْطان، ومعه الأفضل.

وقدم تقي الدين في آخر شعبان، وتلقَّاه السلطان، وخيم على المصري فوق قصر أُمِّ حكيم[1]، فلما قرب ركب إلى موكبه، ورحَّب به، ودخل دمشق، وعاد إلى ما كان له من البلاد [حماة][2] ومَنْبِج* والمَعَرَّة* وسائر أعمالها، ثم أضاف إليه مَيَّافارِقين* وجميع ما في ذلك الإقليم من المعاقل، وكتب إلى مصر باستدعاء رجاله، وإعلامهم بتأخير عَزْمِ المغرب بل إبطاله. فامتثلوا الأمر، وفارقوا إلى الشَّام مصر، سوى مملوكه زين الدين يوزبا، فإنه رَتَّب له عسكراً إلى المغرب، فمضى واستصحبه، وغلب على بلاد إفريقية، ثم قصده صاحبُ المغرب، فأخذه مأسوراً، ثم أغزاه مع الغُزِّ[3] في ثغرٍ من الثغور، فألفاه مشهوراً مشكوراً، فقدَّمه عليهم[4].

---

(١) قصر أم حكيم بمرج الصفر، قرب الكسوة جنوبي دمشق. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٣٥٥.

(٢) ما بين حاصرتين مستدركة في هامش (ك).

(٣) في الأصل: الغزو، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) انظر «سنا البرق الشامي»: ٢٧٩ ـ ٢٨١، و«الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٥١٩ ـ ٥٢٢.

قلتُ: وكتب الفاضل إلى تقي الدين: سببُ هذه الخدمة ما اتَّصل بالمملوك من تردُّد رسائل مولانا في التماس السفر إلى المغرب والدستور إليه.

يكفي الزَّمان فمالنا نَسْتَعْجِلُ

يا مولانا، ما هذا الواقع الذي وقع، وما هذا الغريم من الهَمِّ الذي ما اندفع، بالأمسِ ما كان لكم من الدُّنيا إلا البُلْغة، واليوم قد وهب الله هذه النِّعْمة، وقد كان الشَّمْل مجموعاً، والهمُّ مقطوعاً ممنوعاً، أفتصبحُ الآن الدنيا ضيقة علينا وقد وسِّعت؟ والأسباب بنا مقطوعة ولا والله ما انقطعت؟ يا مولانا، إلى أين؟ وما الغاية؟ وهل نحن في ضائقةٍ من عَيْش؟ أو في قِلَّةٍ من عدد؟ أو في عَدَمٍ من بلاد؟ أو في شكوى من عَدَم؟ كيف نختارُ على الله وقد اختار لنا! وكيف نُدَبِّر لأنفسنا وهو دبَّرَ لنا! وكيف ننتجع الجَدْبَ ونحن في دار الخِصْب! وكيف نَعْدِل إلى حَرْب الإسلام المنهيِّ عنها ونحن في المدعوِّ إليها من حِزْب[1] أهل الحرب! معاشِرَ الخدَّام والجُلَساء، وأرباب العقول والآراء ﴿أَلَيْسَ منكم[2] رَجَلٌ رَشِيْد﴾[3].

تَعَقَّبِ الرَّأْي وانْظُرْ في أَواخِرِه فطالما اتُّهِمَتْ قِدْماً أوائِلُهُ

لا زال مولانا يُمْضي الآراء صائبة، ويلحظها بادية وعاقبة، ولا خَلَتْ منه دار إن خَلَتْ فهيهاتَ أن تُعْمر، ولا عَدِمَتْه أيام إن لم تَطْلُعْ فيها شَمْسُ وَجْهه دَخَلَتْ في عِداد اللَّيالي فلم تُذْكر.

---

(١) حزب، ساقطة من (ك).

(٢) في الأصل و(ك) فيكم.

(٣) سورة هود، الآية: ٧٨.

وقال القاضي ابن شَدَّاد: وفي سابع عشر جُمادى الأُولى سنة اثنتين وثمانين وصل الملك الأفضل إلى دمشق، ولم يكن رأى الشَّام قبل ذلك، وكان السُّلْطان رأى رواح الملك العادل إلى مصر، فإنه كان آنس بأحوالها من الملك المُظَفَّر، فما زال يفاوضه في ذلك، وهو على حرّان* مريض، وحصل ذلك في نفس العادل، فإنه كان يُحِبُّ الدِّيار المِصْرية. فلما عاد السلطان إلى دمشق، ومَنَّ الله بعافيته، سيَّر يطلب العادل إلى دمشق، فَخَرَجَ[1] من حلب
٢/٧١ جريدةً، وأقام بدمشق في خدمة السلطان يجري بينهما أحاديث ومراجعات في قواعد تقرر إلى جُمادى الآخرة، فاستقرَّ عَوْدُ العادل إلى مصر، ويسلِّم بلاد حلب إلى الملك الظاهر، وسلَّم السلطان إليه ولده الملك العزيز، وجعله أتابكه*.

قال: ولقد قال لي الملك العادل: لما استقرَّت هذه القاعدة اجتمعتُ بخدمة الملك العزيز والملك الظاهر، وجلست بينهما، وقلت للعزيز: اعلم يا مولاي أن السلطان قد أمرني أن أسير في خدمتك إلى مصر، وأنا أعلم أن المفسدين كثير، وغداً فما يخلو ممن يقول عني ما لا يجوز، ويخوفك مني، فإن كان لك عزم تسمع، فَقُل لي حتى لا أجيء. فقال: لا أسمع، وكيف يكونُ ذلك! ثم التفتُّ وقلت للملك الظَّاهر: أنا أعرف أن أخاك ربما سمع فيَّ أقوال المُفْسدين، وأنا فمالي إلا أنت، وقد قَنِعْتُ منك بمنبج* متى ضاق صَدْري من جانبه. فقال: مبارك. وذكر كلَّ خير.

ثم إن السُّلْطان سيَّر ولده الظَّاهر إلى حلب وأعادها إليه، وكان ــ رحمه الله ــ يعلم أن حلب هي أَصْلُ الملك وجُرْثُومته وقاعدته، ولهذا دأب

---

(١) في الأصل: فتجهز، والمثبت من (ك) و(ب).

في طلبها ذلك الدأب، ولما حصلت أعرض عما عداها من بلاد الشَّرْق، وقَنِعَ منهم بالطَّاعة والمعونة على الجهاد، فسلَّمها إليه علماً منه بحذاقته وحَزْمه وحِفْظه، فسار إليها حتى أتى العين المباركة، وسيَّر في خدمته شِحْنَةً* حسام الدين بشارة، ووالياً شجاع الدين عيسى بن بلاشو، ونزل يوم الجمعة بالعين المباركة، وخرج النَّاس إلى لقائه بُكْرة يوم السبت تاسع جُمادى الآخرة، وصَعِدَ القلعة ضاحي نهاره، وفَرِحَ النَّاسُ به فرحاً شديداً، ومَدَّ على النَّاس جَناح عَدْله، وأفاض عليهم وابِلَ فَضْله.

وأما الملك العزيز والعادل فإنَّ السُّلْطان قرَّر حالهما، وكتب إلى الملك المُظَفَّر يخبره بمسيرهما إلى مصر، ويأمره بالوصول إلى الشَّام. فشقَّ ذلك عليه حتى ظهر للنَّاس، وعزم على المسير إلى ديار الغَرْب إلى برقة*، فَقَبَّحَ ذلك عليه جماعةٌ من أكابر الدولة، وعرَّفوه أن عمه السلطان يخرج من يده في الحال، والله يعلم ما يكون منه بعد ذلك، فرأى الحقَّ بعين البصيرة، وأجاب بالسَّمْع والطَّاعة، وسلَّم البلاد، ورحل واصلاً إلى خدمة السُّلْطان، فسار السلطان إلى لقائه، فلقيه بمَرْج الصُّفَّر*، وفرح بوصوله فرحاً شديداً، وذلك في الثَّالث والعشرين من شعبان، وأعطاه حماة، وسار إليها، وكان عقد بين الظَّاهر وبعض بنات العادل عَقْدَ نكاحٍ، فتمَّم ذلك، ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان، ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين محمد بن شيركوه في شوال من هذه السَّنة(١).

ومن كتابٍ فاضليٍّ إلى السُّلْطان: الملك العادل والملك المُظَفَّر

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٧١ ـ ٧٤.

المذكوران ما هما أخ و[لا][1] ابن أخ، بل[2] هما ولدان لا يَعْرِفان إلا المولىٰ والداً ومُنْعماً، وكلٌّ واحدٍ منهما له عُشٌّ كثير الفِراخ، وبيتٌ كرقعة الشِّطْرنج فيه صغار وكبار كالبياذق والرِّخاخ، فلا يُقْنع كلاً واحد منهما إلا طرف يملكه، وإقليم ينفرد به، فَيُدبِّرُ مولانا في ذلك بما يقتضيه صَدْرُه الواسع، وَجُوده الذي ما نَظَرَ مثله النَّاظر ولا سَمِعَ السَّامع، ولا ينس قول عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنه: مرو القَرَابة[3] أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. وما على مولانا عجلة في تدبيرٍ يُدَبِّره، ولا في أمرٍ يَبُتُّه. وستبدي لك الأيام ما كنتَ عارِفاً، وفي غدٍ ما ليس في اليوم، ولله أقدارٌ ولها أمد، وقد رزق الله مولانا ذُرِّيَّة تَوَدُّ لو قَدَّمت أنفسها بين يديه، ولو اكتحلت أجفانُها بغبارِ قَدَميه، ما فيها من يُشْتكى منه إلا التَزَيُّد في الطَّلب، وهو من باب الثقة بكرم المُنْعم، ولهم أولاد، والمولى مدَّ الآمال لهم، كما قال مولى الأُمَّة [لها][4]: «تناكحوا تناسلوا، فإني مكاثرٌ بكم الأُمم»[5]، طالما قال لهم المولى: لِدُوا، وعليَّ تجهيز الإناث وغنى الذكور، وسواء على أفق هذا البيت طلوع الشموس والبُدُور.

قال العماد: ومدحت تقي الدين بقصيدةٍ سينية سَنِيَّة، قطوفها دانية جَنِيَّة، تشتمل على مئة وأربعين بيتاً، أنشدته إياها في ثالث شهر رمضان من هذه السنة بدمشق، وأوردتُ بعضَها، ومطلعها:

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في (ك) و(ب) إنما.

(٣) في (ك) و(ب) القرائب.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٥) أخرج ابن حبان في «صحيحه» من حديث معقل بن يسار قول النبي ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم». وإسناده قوي. وانظر تخريجه ثمة.

عَفا الله عَنْكُمْ عن ذوي الشَّوْقِ نَفِّسوا فقد تَلِفَتْ منَّا قلوبٌ وأَنْفُسُ

[ومنها][1]:

ألم تعلموا أني من الشَّوْقِ موسِرٌ ألم تعلموا أني من الصَّبْرِ مُفْلِسُ
ظننتُمْ بعيني أنَّها تَألَفُ الكَرىٰ فَهَلاً بَعَثْتُمْ طَيْفَكُمْ يَتَجَسَّسُ
وليس لقلبي في السُّرورِ تَصَرُّفٌ فَقَلْبي على الأَحْزانِ وَقْفٌ مُحَبَّسُ

ومنها:

لِفَتْكِ مُحِبِّيهِ تيَقُّظُ طَرْفِهِ وَتَحْسِبُهُ من سُقْمِ عينيه يَنْعَسُ
له ناظِرٌ عند الخِلاف مُناظِرٌ يقولُ دَلِيلُ الدَّلِّ عِنْدِيَ أَقْيَسُ
إذا دَرَسَتْ ألحاظُه السِّحْرَ أصبحت رسومُ اصْطِباري حين تَدْرُسُ تَدْرُسُ
٧٢/٢ ولم أَنس أُنسي بالحِمى رُعِيَ الحِمى عَشِيَّةَ لي مجنًى ومَجْلًى وَمَجْلِسُ
لحا الله أبناءَ الزَّمانِ فكلُّهم صَحِيْفَتُهُ أَوْدَىٰ بها المُتَلَمِّسُ
ولولا ابتساماتُ المُظَفَّر بالنَّدَىٰ لما راق نَفْسي صُبْحُه المُتَنَفِّسُ
جَلَتْ شَمْسُ لقياه الحَنادِسَ بعدما عَرَتْنا وهل يَبْقَى مع الشَّمْس حِنْدِسُ
وصارَ بِهِ هذا الزَّمان جَمِيْعُه نهاراً فما للنَّاس لَيْلٌ مُعَسْعِسُ
إذا صال فالمغلولُ[2] ألفٌ مُدَرَّعٌ وإن جاد فالمَبْذُولُ أَلْفٌ مُكَيَّسُ
وليس بمغبونٍ على فَضْلِ رأيه وَيُغْبَنُ في الأموالِ منه ويُبْخَسُ
إذا أطلق المَلْكُ المُظَفَّر في الوَغَى أعِنَّتَهُ فالشَّمْسُ بالنَّقْعِ تُحْبَسُ
فِداكَ ملوكٌ لا يُلَبُّون داعياً وكلُّهُم عن دَعْوَةِ الحَقِّ يَخْنُسُ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في الأصل: المغلول، والمثبت من (ك).

تشكَّى إليك الغَرْبُ جَوْرَ مُلُوكهِ فأشْكَيْتَهُ والجَوْرُ بالعَدْلِ يُعْكَسُ
سَيُهْدىٰ إلى المهدِيَّة* النَّصْر والهُدَى بهديكُمْ فيها وتونس تُؤْنَسُ
رَدَدْتَ كراديس الفِرنج وكلُّهمْ لدى الأَسْر في غُلِّ الصَّغَار مُكَرْدَسُ
وبَيَّضْتَ وَجْهَ الدِّين يومَ لَقِيْتَهُمْ وأَبيضكُمْ من أَسْوَدِ القَصْر أَشْوَسُ
أفادَ دَمُ الأنجاسِ طُهْرَ سُيوفِكُمْ[1] وما تستفيدُ الطُّهْرَ لولا التَّنَجُّسُ
شموس ظُبًى تغدو لها الهام سُجَّداً فلله نَصْرانِيَّةٌ تَتمجَّسُ
وكم كُفِيَ الإِسلامُ سوءاً بملككمْ كُفِيْتُمْ على رَغْم المعادين كُلَّ سُو
ولا يَفْتَحُ البيتَ المُقَدَّسَ غَيْرُكُمْ وبيتكُمُ مِنْ كُلِّ عابٍ مُقَدَّسُ
لهمْ كلَّ يومٍ في جهادِ مثلَّثٍ إذا نصروا التَّوحيدَ فيءٌ مُخَمَّسُ
إذا ما تقيُّ الدِّين صال تساقَطَتْ لأَقْدامه من عُصْبَة الشِّرْك أَرْؤُسُ
وما عمرٌ إلا شَبِيْهُ سَمِيِّهِ شديدٌ على الَّلأواء ثَبْتٌ عَمَرَّسُ[2]

فَصْلٌ

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: كان المنجِّمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة [في][3] شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان، بطوفان الرِّيح في سائر البُلْدان، وخَوَّفوا من ذلك من لا وثوق له باليقين، ولا إحكام له في الدِّين، من ملوك الأعاجم والرُّوم، وأشعروهم من تأثيرات النُّجوم، فشرعوا في حَفْرِ مغارات في التُّخوم، وتعميقِ بيوتٍ في الأسراب

(١) في (ك) نفوسكم.
(٢) العمرس: القوي الشديد. «اللسان» (عمرس). وانظر بعض أبياتها في «سنا البرق»: ٢٨٢ مع اختلاف في بعض ألفاظها.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

وتوثيقها، وسدِّ منافسها على الرِّيح وقَطْعِ طريقها، ونقلوا إليها الماءَ والأزواد، وانتقلوا إليها، وانتظروا الميعاد، وكلَّما سمعنا بأخبارهم استغربنا في الضَّحك من عقولهم، وسُلْطاننا متنمِّرٌ من أباطيل المنجِّمين، موقنٌ أن قولهم مبنيٌّ على الكذب والتخمين، فلما كانت الليلة التي عيَّنها المنجمون لمثل ريح عاد، وقد شارفنا الميعاد، ونحن جلوسٌ عند السُّلْطان في فضاءٍ واسع، ونادٍ للشموع الزَّاهرات جامع، وما يتحرَّك لنا نسيم، ولا لسرح الهواءِ في رعي منابت الأنوار مُسِيْمٌ، وما رأينا ليلةً مثلها في ركودها وركونها، وهدوِّها وهدونها[1].

قال ابن القادِسي: وحكم أصحابُ النُّجوم أن في الثَّامن والعشرين من جُمادى الآخرة من هذه السنة تقترن الكواكب السَّيَّارة الخمسة، والشمس والقمر في بُرْج الميزان، ويؤثر ذلك هواءً عظيماً، وخِيماً سموميًّا. وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين تَهْلِكُ البلاد، ويُحمل الرَّمل، ونسبوا ذلك إلى الخازمي[2]، وقالوا: يكون أشدَّ[3] ذلك من ليلة الثلاثاء إلى نصف ليلة الأربعاء، فاستعدَّ لذلك أقوامٌ في البلاد، وجمعوا الكعك، وحفروا السَّراديب، فأهلَّ رجب وما جرى مما قالوا شيء، فخزي أهلُ التنجيم لذلك، ولم يَهُبَّ في ذلك اليوم هواء البتة، وكان الزَّمانُ حاراً، واشتدَّ الحرُّ

---

(١) «سنا البرق» ٢٨٣.

(٢) هو أبو الفضل الخازمي. انظر «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطي ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩، وجاء في هامش المطبوع: ٢/ ٧٢: وفي هامش الأصل المنقول منه لعله الخوارزمي». قلت: وهو تحريف كما رأيت.

(٣) في الأصل: يكون ذلك أشد من ليلة.. والمثبت من (ك).

في ذلك اليوم وبعده، ولم يظهر مما قالوا شيء. وعمل الشُّعراء في ذلك شعراً يَزْرون عليهم في حكمهم، منهم أبو الغنائم محمد بن علي بن المُعَلِّم الهُرْثي[1]، وفخر الدين عيسى بن مودود[2] دُزْدار* قلعة تكريت*، وأبو الفتح سبط ابن التَّعاويذي[3].

قال أبو الغنائم بن المعلِّم:

قُلْ لأبي الفَضْلِ قَوْلَ مُعْتَرِف ... مَضىٰ جُمادَىٰ وجاءنا رَجَبُ ٢/٧٣
وما جَرَتْ زَعْزَعاً كما حكموا ... ولا بدا كوكبٌ له ذَنَبُ
كلا ولا أَظْلَمَتْ ذُكاء[4] ولا ... أبدت أذًى في قرانها الشُّهُبُ
يقضي عليها من ليس يَعْلَمُ ما ... يُقْضَىٰ عليه هذا هو العَجَبُ
فارْم بِتقويمك الفُرَاتَ والإصـ ... ـطرلابُ خَيْرٌ من صُفْرِهِ الخَشَبُ
قد بان كِذْبُ المُنَجِّمين وفي ... أيِّ مقالٍ قالوا فما كَذَبوا
مدبِّرُ الأمرِ واحدٌ ليس للسَّـ ... ـبْعَةِ في كلِّ حادثٍ سَبَبُ (م)
لا المشتري سالمٌ ولا زُحَلٌ ... باقٍ ولا زُهْرَةٌ ولا قُطُبُ
تبارك الله حَصْحَصَ الحَقُّ وانـ ... ـجاب التَّمادي وزالتِ الرِّيَبُ

---

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٢ هـ).
(٢) ولد في حماة، وولي تكريت، وقتله إخوته فيها سنة (٥٨٤ هـ)، وكان له ديوان شعر حسن، ورسائل مطبوعة، ودوبيت رقيق. انظر ترجمته في «وفيات الأعيان»: ٣/٤٩٨ ـ ٥٠٠.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٢٦ من هذا الجزء.
(٤) ذكاء: الشمس.

فَلْيُبْطِلِ المُدَّعون ما وضعوا   في كُتْبِهِم وَلْتُخَرَّقِ الكُتُبُ[1]

وقال عيسى بن مودود:

مَزِّقِ التقويم والزِّيْـ   ـجَ فقد بان الخَفَاءُ
إنما التقويم والزِّيـ   ـجُ هَبَاءٌ وهَوَاءُ
قُلْتَ للسَّبعة إبرا   مٌ ومَنْعٌ وعطاءُ
ومتى يَنْزِلْنَ في الميـ   ـزان يَسْتَوْلي الهواءُ
وتثير الرَّمْلَ حتى   يمتلي منه الفَضَاءُ
ويَعُمُّ الأَرْضَ خَسْفٌ   وخرابٌ وبلاءُ
ويصير القاع كالقُـ   ـفِّ وكالطَّوْدِ العَرَاءُ
وحكمتم فأبى الحا   كمُ إلا ما يَشَاءُ
ما أتى الشَّرْعُ ولا جا   ءَتْ بهذا الأنبياءُ
فبقيتم ضُحْكَةً تضـ   ـحك منها العلماءُ
حَسْبُكُمْ خِزْياً وعاراً   ما يقول الشُّعَراءُ
ثم ما أطمعكم في الـ   ـحُكْم إلا الأُمَراءُ
ليت إذ لم يُحْسِنوا في الدِّ (م)   ين ظَنًّا ما أساؤوا
فعلى اصطرلاب بطليـ   ـموس والزِّيج العَفَاءُ
وعليه الخِزْي ما جا   دَتْ على الأرضِ السَّماءُ

ولم يذكر شعر سبط [ابن][2] التَّعاويذي[3].

(١) «إخبار العلماء بأخبار الحكماء» للقفطي: ص ٢٧٨ ــ ٢٧٩، طبعة الخانجي، ٤٢٧ ــ ٤٢٨ طبعة ليبسك.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) أبيات سبط ابن التعاويذي، هي:

قالوا القِرانُ وطوفانُ الهواء له   بالشر عن كثبٍ في الأرض طغيان =

قال: وفي السَّابع والعشرين من شوَّال توفي أبو محمد عبد الله[1] بن بَرِّي بن عبد الجبار النَّحْوي، وكان آيةً في النحو، ثقةً عالماً صالحاً، وكان مُبْلَداً في أمر دنياه[2]، حدَّث عن ابن الحَطَّاب[3]، ومرشد أبي صادق[4] وغيرهما[5].

= أما لهم فيه برهان وطائرك الـ ... ـميمون فيه لدفع الشر برهان

وكيف تسطو الليالي أو يكون لها ... في عصر مثلك إرهاق وعدوانُ

وأنـت فـي كـل علـوي لـه أثـرٌ ... مؤثِّرٌ وعلى الطوفان طوفان

سعادة لو أحاط الخازمي بها ... لعـاد فيمـا ادعـاه وهـو خـزيـانُ

والقصيدة طويلة، وهي في مدح صلاح الدين، مطلعها:

سقاك سار من الوسمي هتان ... ولا رقت للغوادي فيك أجفانُ

انظر «ديوانه» ٤١٢ ــ ٤١٦.

(١) في الأصل: أبو عبد الله محمد بن بري، والمثبت من (ك).

(٢) في «إنباه الرواة»: ٢/ ١١١ «وكان يُنْسب إلى الغفلة في غير العلوم العربية، حتى ما يقوم بمصالح نفسه، ويحكىٰ عنه حكايات في التغفل أجلّه عنها وعن ذكر شيء منها».

وفي «طبقات الشافعية» للسبكي: ٧/ ١٢٣ نقلاً عن الموفق عبد اللطيف البغدادي: «كان ابن بري شيخاً محققاً صحفياً، ساذج الطباع، أبله في أمور الدنيا».

(٣) في الأصل: الخطاب ــ بالخاء المعجمة ــ وهو تصحيف، والمثبت من (ك)، وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي، لم يكن في وقته من يدانيه في علو الإسناد، توفي سنة (٥٢٥ هـ)، انظر ترجمته في «السير»: ١٩/ ٥٨٣ ــ ٥٨٤.

(٤) في الأصل و(ك): مرشد بن صادق، وهو خطأ، والصواب ما أثبتناه، وهو مرشد بن يحيى بن القاسم المديني المصري، أبو صادق، توفي سنة (٥١٧ هـ)، انظر ترجمته في «السير»: ١٩/ ٤٧٥ ــ ٤٧٦.

(٥) انظر ترجمة ابن بري في «معجم الأدباء»: ١٢/ ٥٦ ــ ٥٧، «إنباه الرواة»: ٢/ ٣١٨، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٥٨ ــ ٦٠، «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٠٨ ــ ١٠٩، «إشارة التعيين»: ١٦١، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٣٦ ــ ١٣٧، «الوافي بالوفيات»: ١٧/ ٨٠ ــ ٨٣، «طبقات الشافعية» للسبكي ٧/ ١٢١ ــ ١٢٣، «بغية الوعاة»: ٢/ ٣٤.

قال العماد: وفي هذه السنة جاء نعي أتابك شمس الدين محمد بن أتابك الدكز(١) المعروف بالبهلوان(٢)، وهو الذي كان نَزَل على خِلاط* في العام الماضي، وكانت حياته متصلة الجِدِّ والجَدَا (٣)، واضطربت من بعده تلك الممالك، واحتربت أصفهان، وإلى اليوم من سنة أربع وتسعين ما وضعت أوزارها، وتولَّى بعده أخوه قزل أرسلان، فأزال مهابة الملك السَّلْجقي، وسلك السعيد نهج الشَّقي(٤) إلى أن ذهب، فاتَّضع المُلْك، وانقطع السِّلْك، واتسع الهُلْك، وطمعت خراسان في العراق، وعدمت الإفاقة من الآفاق، وأظلمت مطالع الإشراق (٥).

قال: واشتغل السُّلْطان في بقية سنة اثنتين وثمانين بدمشق بالصَّيْد والقَنَص، والانتهاز فيه لبوادر الفُرَص، وكان يركب إلى تل راهط* للصَّيْد بالبُزاة والشَّواهين، مع مماليكه الخواصّ الميامين، وله شاهين بحري كأنه بحر، إذا حلَّق فَشَرَار، وإن أحرق فجمر، فكم صاد ليوسف يعقوباً(٦)، وعَقَرَ بإنجاز وعد صيده عُرْقُوباً، فطلبته من السُّلْطان، فقال: أنت للقلم والدَّواوين، فما لك وللبُزَاة والشَّواهين! فقلت: يكون في مُلْكي، وكل ما يَقْنِصُهُ يأمر لي

---

(١) في (ب) ايلدكز، وكلاهما صحيح.

(٢) كان صاحب الجبل والري وأصفهان وأذربيجان وغيرها، ولي سنة (٥٦٨ هـ)، وأخباره مبثوثة في كتب التاريخ، انظر «الكامل» لابن الأثير: ١١/٣٨٨، ٥٢٥ ــ ٥٢٦، و«وفيات الأعيان»: ٥/٢٠٨، و«معجم الأنساب» لزامباور: ٣٤٩، و«الدول الإسلامية» لستانلي لين بول: ١/٣٦٥ ــ ٣٦٦، وانظر ص ٥١، ٢٣٧ ــ ٢٣٨ من هذا الجزء.

(٣) الجدا: العطية. «اللسان» (جدا).

(٤) في الأصل: ونهج السعيد سلك الشقي، والمثبت من (ك) و(ب).

(٥) «سنا البرق»: ٢٨٣ ــ ٢٨٤.

(٦) اليعقوب: ذكر الحجل والقطا. «معجم متن اللغة» ٤/١٥٧.

به المولى، وهذا أربح لي وأنفع وأولى. فقال: نعم. فلما أصبح سيَّر لي سبع عشرة قطعة من طَيْرٍ وحَجَل، وقال: هذا صيدُ شاهينك في طَلْقٍ واحد على عَجَل. فملكتُ ذلك الشَّاهين خمس ستَّ سنين، والسُّلْطان يصطادُ به ولي قَنْصُهُ، له مطلعه ولي مخلصه، فما زال لي على هذا الحقّ محافظاً، ولهذه النُّكْتة ملاحظاً، إلى أن أَوْدى الجارح، وانقطعت تلك المنايح، فيالله دَرُّه من سُلْطانٍ لم ينس ذكر هذه القضيَّة التي أعاد مَزْحها جدّاً، واعتدَّه لي حقاً مُعَدًّا، فدون حَقِّه على مثله أن يُؤَسَفَ، ومن حَقِّنا بعده أن نتلو ﴿يا أَسَفَىٰ على يُوْسُفَ﴾[1].

قال: ولما دخل شهر رمضان نوَّعَ أقسام الإنعام، واتفق أن بعض التُّجَّار كانت بضاعته بقايير[2] رفيعة، وما لها نَفَاق، وهي أكثر من مئة قطعة، فحملها إلى الخزانة السُّلْطانية في بضاعات، وقال: خذوها واكتبوا لي بأثمانها في مِصْر على بعض الجهات[3]. فاشْتُرِيَتْ منه بما كان يرجوه من الرِّبْح. وكان من كرم شِيَم السُّلْطان إذا عرف في خزانته موجوداً، أنَّه ٢/٧٤ لا يستطيب تلك الليلة حتى يفرقَه جُوداً. فقال لي: قد اجتمعت لنا بقايير وعمائم، وقد تقاضتني[4] بخلعها على أهل الفَضْل المكارم، فنبدأ بأهل الدِّين والتقوى، ونجعل لهم أوفر حَظٍّ من الجَدْوىٰ[5]. وكان في الوافدين ومن أهل البلد وعَّاظ، وعلماء وحُفَّاظ، فيكون كل يوم بكرة نوبةً لمن يتكلَّم

(١) سورة يوسف، الآية: ٨٤، وانظر «سنا البرق»: ٢٨٦.

(٢) لعل مفردها بَقْيار: وهي ضرب من العمائم الكبيرة، يعتمرها الوزراء والكتاب والقضاة. انظر «تكملة المعاجم العربية» ١/٤٠٧، و«المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب»: ص ٧٤، وكلاهما لدوزي.

(٣) في الأصل: على مصر في بعض الجهات، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) في «سنا البرق»: تقاضتني نفسي.

(٥) الجدوى: العطية. «اللسان» (جدا).

على المنبر، ويُذكِّرنا بالحلال والحرام، والبَعْث والمحشر، ثم يخلع عليهم وعلى القُرَّاء. فاشتغل مُدَّة أسبوعين بالمواعظ، ووضع المنبر في إيوان القلعة، فقلت: بقي إحضار الفقهاء في المُدَّة الباقية من الشهر، فقال: إنهم يفضي[١] بهم الخلاف إلى التشاحن والتَّضاغُن. فقلت: أنا أضمنهم ولا يحضر إلا أوقرهم وأوزنهم[٢]. فاستدلَّ أول يوم برهان الدين مسعود[٣] مدرس الحنفية في المدرسة المعمورة النُّورية*، واعترض عليه العماد الكاتب، وفي اليوم الثاني استدل أكبر مشايخ الحنفية بدر الدين عسكر[٤]، واعترض عليه قاضي القضاة محيي الدين بن الزكي، فكان السُّلْطان يجلس في كل يوم لطائفةٍ، فلما دنا العيد أمر بابتياع العمائم وغيرها، وصرفها إليهم[٥].

قال القاضي ابن شَدَّاد: وفي شهر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانين وقعت وقعاتٌ كثيرةٌ بين التركمان والأكراد بأرض نَصِيبين* وغيرها، وقُتِلَ من الفئتين خَلْقٌ عظيمٌ. وبلغ السُّلْطان أن معين الدين بن معين الدين قد عصى بالرَّاوَنْدان*، فكتب إلى عسكر حلب أن حاصروه. وكان نزولهم عليه في العَشْر الأول من[٦] سنة اثنتين وثمانين، وأعطى برج الرَّصاص لتميرك[٧] في

(١) في الأصل: يمضي، والمثبت من (ك).
(٢) في (ك) وأنبههم.
(٣) هو مسعود بن شجاع الحنفي، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٩ هـ).
(٤) هو عسكر بن خليفة الحموي، أبو الجيوش، كان رئيس الحنفية بدمشق ومن خيارهم. ستأتي ترجمته في ٤/ ٤٦٩ من هذا الكتاب.
(٥) انظر «سنا البرق»: ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٦) في الأصل بياض، ولم يذكر الشهر أيضاً في مطبوع «النوادر».
(٧) هو حسام الدين تميرك، انظر ص ٣٩١ من الجزء الثاني.

بقيَّة ذلك الشَّهْر، وفي ثامن جُمادى الأُولى وصل معين الدين من الراوندان، وقد سَلَّمها إلى علم الدين سليمان، ثم مضى إلى خدمة السُّلْطان[١].

قال ابنُ القادسي: وقدم الحاجُّ في عاشر صَفَر، فأخبروا أن سيف الإسلام أخا صلاح الدين ملك مكَّة، وضرب الدَّنانير فيها باسم أخيه، ومنع من قولهم «حي على خير العمل»، وشرط على العبيد أن لا يؤذوا الحاج. وأَخْبَرَ الحاج أن قُفْل باب الكعبة تعسَّر حتى فُتح، ولما فُتحَ مات في الدّوسة أربعة وثلاثون شخصاً من بين رجلٍ وامرأة.

قال: ووصل الخبر أن ريحاً هبَّتْ بالبصرة، فكسرت نخيلاً كثيراً، وماتت بهائم كثيرة، ووصل الخبر إلى بغداد بقتل البهلوان، وأن القتال وقع هناك، وأُحرقت المحال ونُهبت الأموال، واقتتل أهل المذاهب، واحترقت مدارس، وبقي الأمرُ على ذلك من سابع محرَّم إلى ربيع الآخر، فأحصوا من القتلى أربعة آلاف رجل وسبع عشرة امرأة، بعد أن احترق أطفالٌ في المهود بالليل، وقام قزل أخو البهلوان فكفَّ الناس، وكان قزل قد رتب شِحْنَةً* في أصفهان بعد الفتنة التي وقعت بها ومعه ألف فارس، فما زال يهذب البلد والرساتيق بالقتل والصَّلْب، وصادرهم، وأُشير على قزل بأن يُلْزم أهل البلد سبعين ألف دينار، فقال له الشحنة: أهل البلد فقراء. فقال بعضُ المصالحة لقزل: ما نأخذ إلا من الأغنياء. فوثَبَ عَيَّار فقتل المصلحيَّ، وكان العَيَّار متعلِّقاً على قاضي البلد، فوكَّل الشحنة بدار القاضي، فجاء ابن الخُجَنْدِي إلى دار القاضي، فحسَّن له إخراج الموكلين بها، وتحالفا على إخراج الشحنة من البلد، وأن يقطعوا خُطْبة السُّلْطان الذي نصبه[٢] قزل. ففعل ذلك

---

(١) انظر «النوادر السلطانية»: ٧١.

(٢) في الأصل: نصب، والمثبت من (ك) و(ب).

في سابع شوّال، ثم كَثُرَ القَتْل في البلد، فكل من في قلبه على أحد شر وَثَبَ عليه، فقتله مِنْ رجلٍ أو امرأة، وكان القَتْل الكثير في أصحاب ابن الخُجَنْدي، وكان الحريق والنهب وإحراق الدُّور في أصحاب القاضي، وجرى القتال يوم عَرَفة ويوم العيد، ودام، وبطل الناس من المعايش، وخَرِبَتِ الأسواق، ووقع الغلاء، ومات النَّاس من الجوع، وبقي أهل أصفهان على قدم الخَوْف، وأُخذت ثياب الناس، فلا يتجاسر أحد أن يلبس ثوباً جديداً، والعَيَّارون يأخذون أموال الناس مقاواة، وهرب النَّاس من أصفهان.

فَصْـــلٌ

قال العماد: مما قدَّره الله تعالى من أسباب نُصْرة الإسلام وَوَهْنِ الكُفْر أن قومص طرابلس[١] رغب في مصافاة السُّلْطان، والالتجاء إليه، والمساعدة له على أهل مِلَّته، بسبب أنه كان تزوَّج بالقومصية صاحبة طبرية[٢]، وكان أخوها الملك المجذوم[٣] لما هلك أوصى بالمُلْك لابن أخته[٤] هذه وهو صغير، فتزوَّج القومص أُمَّه[٥] وربَّاه، فمات الصَّغير، وانتقل المُلْكُ إلى

(١) هو ريموند الثالث. انظره في كشاف الأعلام.

(٢) هي ايشيفا بورز، وهي التي تزوجها ريموند الثالث، وهذه ليست بأخت الملك بلدوين الرابع، إذ إن أخته هي سبيللا، وهي التي تولت المملكة. ويبدو أن العماد لم يكن على اطلاع دقيق على أحوال الفرنجة، لما سيأتي في الخبر أيضاً من مغالطات. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ٦٥٢.

(٣) هو بلدوين الرابع، انظره في كشاف الأعلام.

(٤) هو بلدوين الخامس ابن سبيلا، وكان طفلاً في السادسة من عمره. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ٧١٠، ٧٢١.

(٥) لم يتزوج القومص من سبيللا أم بلدوين الخامس، بل الذي تزوجها هو جاي =

أُمه. ثم إنها مدَّت عينها إلى بعض المقدَّمين من الغَرْب فتزوَّجته[1]، وفوضت الملك إليه، فشرَعَ يطلب حساب البلاد من القومص، فوقع الاختلاف بينهم لذلك[2]، فالتجأ القومص إلى ظل السُّلْطان، فصار له من جُمْلة الأتباع، فقبله السُّلْطان وقوَّاه، وشدَّ عَضُدَه بإطلاق من كان في الأَسْر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين، حتى كاد لولا خوف أهل مِلَّته يُسْلم، وصار بدولة السلطان وملكه يُقْسم، ومال إليه من الفرنج جماعةٌ، وظهرت له منهم للطماعية طاعة، ودخلت إلى بلادهم من جانبه السَّرايا، وخرجت بالغنائم والسَّبايا، وأعطى الدَّنِيَّة في دينه بما استدناه من العطايا، فصار الفرنج يدفعون شرَّه، ويحذرون مكره، فتارةً يدارونه، وآونةً يمارونه، وللقومص قومُ صِدْقٍ يساعدونه في كلِّ حق وباطل، فَبُلِيَ منهم أهل السَّاحل ٢/ ٧٥
بشغل شاغل، وهذا الملك المجذوم هو ابن الملك أماري بن فُلْك[3]، وهو مُرِّي* الذي تقدَّم ذكره[4]، وتوفي أماري في آخر سنة تسع وستين، سنة مات نور الدين، رحمه الله تعالى، وخلف الملعون هذا الولد المجذوم، فبقي

= لوزنجيان ـ الملك فيما بعد ـ وحين مات ابنها من زوجها الأول وليم وكان في التاسعة من عمره، أصبحت ملكة، ففوضت أمر مملكتها لزوجها جاي لوزنجيان. أما ريموند فكان وصياً على بلدوين الخامس، عهد إليه بذلك بلدوين الرابع الملك المجذوم، انظر «تاريخ الحروب الصليبية»: ٢/ ٦٦٣، ٧١٦، ٧٢١.

(١) تزوجت سبيللا أخت بلدوين الرابع من جاي لوزنجيان قبل اعتلائها عرش مملكة بيت المقدس. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» ٢/ ٦٨٤ ـ ٦٨٥.

(٢) وقع نزاع شديد بين ريموند الثالث الوصي على العرش، وبين جاي لوزنجيان الملك الجديد لبيت المقدس، وكان ريموند يرى نفسه أحق بولاية العرش منه. انظر «تاريخ الحروب الصليبية»: ٢/ ٧٢١ ـ ٧٢٦.

(٣) هو أملريك الأول بن فولك انجو. انظره في كشاف الأعلام.

(٤) انظر ص ٦٢ من الجزء الثاني.

بينهم زُهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً، فلما حضره الموت أوصى لابن أُخته بالمُلْك(١).

قال: وكان إبرنس* الكَرَك* أَرْناط* أغدرَ الفرنجية وأخبثها، وأفْحَصَها عن الرَّدى والرداءة وأبحثها، وأنْقَضَها للمواثيق المُحْكَمة، والأيمان المُبْرَمة وأنكثها وأحنثها، ومعه شِرْذِمة لها شَرُّ ذِمَّة، وهي من شَرِّ أُمة، [وهم](٢) على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز، وكُنَّا في كلّ سنةٍ نغزوه، وبالبوائق نعروه، ويُصيبُه منَّا المكروه، فأظهر أنه على الهُدْنة، وجنحَ للسِّلْم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملاً، والقُفْل من مِصْر في طريق بلده متواصلاً، وهو يمكس الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصةٌ في الغَدْرِ، فقطَعَ الطَّريق، وأخاف السَّبيل، ووقع في قافلةٍ ثقيلة، معها نِعَمٌ جليلة، فأخذها بأسْرِها، وكان معها جماعة من الأجناد، فأوقعهم في الشَّرَك، وحملهم إلى الكَرَك*، وأخذ خَيْلَهم والعُدَّة، وسامهم الشدّ والشِّدَّة، فأرسلنا إليه، وذممنا فِعَاله، وقبحنا احتياله واغتياله، فأبى إلا الإِصْرار والاضرار، فنذر السُّلْطانُ دمه، ووفى في إراقة دمه بما التزمه، وذلك في السَّنة الآتية كما سيأتي إن شاء الله تعالى(٣) ــ وأقام السُّلْطانُ بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الاستعداد للجهاد، وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمِصْرية، فانتظمت أمورُه على أحسن قضيَّة(٤).

---

(١) انظر «سنا البرق»: ٢٨٨ ــ ٢٨٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) انظر ص ٢٨٨ ــ ٢٨٩ من هذا الجزء.

(٤) انظر «سنا البرق»: ٢٨٩ ــ ٢٩٠.

ومن كتابٍ فاضلي إلى بعض إخوانه: كتبتُ هذه المكاتبة من جسر الخشب ظاهر دمشق، وقد ورد السُلْطان ـ أعزَّ الله أنصاره ـ للغَزَاة إلى بلاد الكُفْر، في عسكرٍ فيه عساكر، وفي جمعٍ البادي فيه كأنه حاضر، وفي حَشْدٍ يتجاوز أن يحصِّله الناظر، إلى أن لا يُحصِّله الخاطر، وقد نهضت به هِمَّةٌ لا يُرْجى غير الله لإنهاضها، ونجحت به عزمةٌ، اللّهُ المسؤول في حَسْم عوارض اعتراضها، وباع اللّهَ نفساً يستمتع أهلُ الإسلام بهيئتها، ويُذْهِبُ اللّهُ الشِّرْكَ بهيبتها، وأرجو أن يتمخَّض عن زُبْدةٍ تستريح الأيدي بعدها عن المخض، وأن يكون الله قد بعث سَفْتَجَة[1] نُصْرة الإسلام، وسُلْطانُه قد نهضَ للقَبْض.

ثم دخلت سنة ثلاثٍ وثمانين [وخمس مئة][2]

وهي سنةُ كَسْرَة حِطِّين، وفَتْحِ السَّاحل والأرض المقدَّسة للمسلمين.

قال العماد في كتاب «البرق»: وهي السنة الحسنة المُحْسنة، والزَّمان الذي تقضَّتْ على انتظار إحسانه الأَزْمنة، وطُهِّر فيه المكان المقدَّس الذي سَلِمَتْ بسلامته الأَمْكنة، وخَلَصت بمنحة الله من المحنة الأرضُ المقدَّسة الممتحنة، وكَفَىٰ الله شَرَّ الشِّرْك، وحكم على دماء الكَفَرة بالسَّفْك، ونُصِرَتِ الدَّولة النَّاصرية، وخُذلت المِلَّة النَّصْرانية، وانتقم التَّوحيد من التَّثْليث، وشاع في الدُّنيا بمحاسنِ الأيام الصَّلاحية حُسْنُ الأحاديث[3].

---

(١) السفتجة: فارسية معربة، وهي الحوالة. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) فوقها في الأصل بخط مغاير: كان أولها رابع عشر آذار. وما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) في الأصل: الحديث، والمثبت من (ك) و(ب)، و«سنا البرق»: ٢٩١.

ثم ذكر في كتابي «الفتح» و «البرق» ما جملته أن قال: فبرز السُّلْطان من دمشق يوم السَّبت أول المحرَّم في العسكر العَرَمْرَم، ومضى بأهل الجَنَّة لجهاد أهل جَهَنَّم، فلما وصل إلى رأس الماء، أمر ولده الملك(١) الأفضل بالإقامة هناك، ليستدني إليه الأُمراء الواصلين والأملاك، ويجمع الأعراب(٢) والأعاجم والأتراك، وسار السُّلْطانُ إلى بُصْرى*، وخيَّم على قَصْر السَّلامة، وأقام على ارتقاب اقتراب الحُجَّاج، وكان فيهم حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، ووالدته أُخت السُّلْطان مع جماعةٍ من الخواصِّ، وقد تقدَّم ذكر غَدْر إبرنس(٣) الكَرَك*، وهو على طريقي العسكر المِصْري والحُجَّاج. ووصل الحاجُّ في آخر صفر، وخلا سِرُّ السُّلْطان من شُغْلهم، ثم سار ونَزَل على الكَرَك، وأخاف أهله، وأخذ ما كان حوله، ورعى زَرْعهم، وقَطَعَ أشجارهم وكَرْمهم، ثم سار إلى الشَّوْبك*، وفعل به مِثْلَ ذلك، ووصل عسكر مِصْر، فتلقَّاه بالقريتين، وفرَّقه على أعمال القلعتين، وأقام على هذه الحالة في ذلك الجانب شهرين، والملك الأفضل ولده مقيمٌ برأس الماء، في جَمْعٍ عظيم من العظماء، وعنده الجحافل الحافلة، والحواصل الحاصلة، والعساكر الكاسرة، والقساور القاسرة، وهو ينتظر أمراً من أبيه، ويكتب إليه ويقتضيه، وانقضى من السنة شهران، وطال بهم انتظارُ السُّلْطان، فأنهض منهم سَرِيَّةً سَرِيَّة، وأمرها بالغارة على أعمال طَبَرية، ورتَّب على خيل الجزيرة ومن جاء من الشَّرْق وديار بكر مظفر الدِّين كُوكُبُرِي صاحب حَرَّان*، وعلى عسكر حلب والبلاد الشَّامية بدر الدين دُلْدُرُم بن ياروق، وعلى عسكر

---

(١) الملك، ليست في (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: الأعارب. قلت: وصوابها الأعاريب. انظر «اللسان» (عرب).

(٣) انظر ص ٢٧٤ من هذا الجزء.

دمشق وبلادها صارم الدين قايماز النَّجْمي، فساروا مدجَّجين، وسروا مُدْلجين، وصبَّحوا صَفُّورية*، وساء صباحُ المُنْذَرين، فخرج إليهم الفرنج في حَشْدهم، فآتاهم الله النصر الهني، والظفر السّني، وشفوا منهم حنين الحنايا، وأدركوا فيهم مُنَى المنايا، وفازوا وظَفِروا، وقتلوا وأسروا، وهلك مقدَّم الإسبتار*، وحصلَ جماعةٌ من فُرْسانهم في قبضة الإسار، وأُفلت مقدَّم الدَّاوية وله حُصاص، ووقع الباقون ولم يكن لهم من الهلاك خلاص، ٧٦/٢
وعادوا سالمين سالبين، غانمين غالبين، فكانت هذه النوبة باكورة البركات، ومقدِّمة ما بعدها من ميامن الحركات. وجاءتنا البُشْرى ونحن في نواحي الكَرَك* والشَّوْبك*، فسار السلطان، ووصل السير بالسُّرى، وخيَّم بعَشْترا*، والقدر يقول له: تعيش وترَى. وقد غُصَّت بخيل الله الوهادُ والذُّرىٰ، وامتدَّ العسكر فراسخ عَرْضاً وطُولاً، وملأ بالملأ حُزوناً وسهولاً، وما رأيتُ عسكراً أبرك منه ولا أكبر، ولا أكْرَثَ[1] للكُفْر ولا أكثر، وكان يوم عرضه مُذكِّراً بيوم العَرْض، وما شاهده إلا من تلا ﴿ولله جنودُ السَّموات والأَرْض﴾[2] وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجَّج، في ليل العَجَاج مُدَلَّج، ولما تمَّ العرضُ، وحُمَّ الفرض، وسالت بأفلاك السماءِ الأرضُ، وتعيَّن الجهاد، وتبيَّن الاجتهاد[3]، ثم رتَّب السلطانُ العسكر أطلاباً*، وحزَّبه أحزاباً، وسار يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر، عازماً على دخول السَّاحل، فأناخ ليلة السبت على خِسْفين*، ثم سار في الأُرْدُنّ إلى ثَغْر الأُقْحوانة، وأقام هناك

---

(١) من كرثه الأمر وأكرثه: ساءه واشتدَّ عليه، وبلغ منه المشقَّة. وغمه وأثقله. «اللسان» (كرث).

(٢) سورة الفتح، الآية: ٤.

(٣) في الأصل: وتعين الاجتهاد وتبين الجهاد، والمثبت من (ك) و(ب).

خمسة أيام، وقد عيَّن مواقف الأمراء وشِعارهم، وأحاط ببحيرة طبرية بحرُه المحيط، وضاق ببسائط خيامه ذلك البسيط.

ولما سمع الفرنجُ باجتماع كلمة الإسلام عليهم، وسَيْرِ تلك العساكر إليهم، علموا أنه[1] قد جاءهم ما لا عَهْدَ لهم بمثله، وأن الإيمان كلَّه قد برز إلى الشِّرْك كلِّه، فاجتمعوا واصطلحوا وحشدوا وجمعوا وانتخوا، ودخل القومص* معهم[2] بعد أن دخل عليه الملك، ورمى بنفسه عليه، وصفُّوا راياتهم بصَفُّورية، ولووا الألوية، وحشدوا الفارس والرَّاجل، والرَّامح والنَّابل، ورفعوا صليب الصَّلبوت، فاجتمع إليه عُبَّاد الطاغوت، وضُلاَّل النَّاسوت واللاهوت، ونادوا في نوادي أهل أقاليم أهلْ الأقانيم، وصَلَّبوا للصَّليب الأعظم بالتعظيم، وما عصاهم من له عصا، وخرجوا عن العَدِّ[3] والإحصا، وكانوا عَدَدَ الحَصَىٰ، وصاروا في زُهاء خمسين ألفاً ويزيدون، ويكيدون ما يكيدون، قد توافوا على صعيد[4]، ووافوا من قريب وبعيد، وهم هناك مقيمون لا يريمون، والسُّلْطان في كلِّ صباحٍ يسير إليهم، ويُشْرِفُ عليهم ويراميهم، وينكي فيهم، ويتعرَّض لهم ليتعرَّضوا له، ويردُّوا عن رقابهم سيوفَه، وعن شعابهم سيوله، فربضوا وما نبضوا، وقَعَدُوا وما نهضوا، فلو بَرَزُوا للمصافِّ لطالت عليهم يَدُ الانتصاف. فلما رأى السلطانُ أنَّهم لا يَبْرَحُون، ومن قُرْب صَفُّورية لا يَنْزَحُون، أمر أمراءه أن يقيموا في مقابلتهم، ويدوموا على عَزْمِ مقاتلتهم، ونزل هو في خواصِّه العَبْسِيَّة على

(١) في الأصل: أنهم، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) انظر ص ٢٧٢ من هذا الجزء.
(٣) في الأصل: العدد، والمثبت من (ك) و(ب).
(٤) في (ك) على صعيد واحد.

مدينة طبرية، وعلم أنهم إذا علموا بنزوله عليها بادروا للوصول إليها، فحينئذٍ يتمكَّن من قتالهم، ويجهد في استئصالهم، ثم أحضر الجاندارية* والنَّقابين، والخراسانية والحجَّارين، وأطاف بسورها، وشرع في تخريب معمورها، وأخذ النقابون النقب في بُرْجٍ فهدُّوه وهدموه، وتسلَّقوا فيه وتسلَّموه، ودخل الليل وصباح الفَتْحِ مُسْفر، وليل الوَيْل على العدوِّ معتكر، وامتنعت القلعةُ بمن فيها، من القومصية [صاحبة طبرية][1] وبنيها.

ولما سمع القومص بفتح طبريَّة وأَخْذِ بلده، سُقِطَ في يده، وخرج عن جلد جَلَده، وسمح للفرنج بسَبَدِهِ وَلَبَدِهِ[2]، وقال لهم: لا قعودَ بعد اليوم، ولا بُدَّ لنا من لقاء القَوْم، وإذا أُخذت طبرية أُخذت البلاد، وذهبت الطراف والتِّلاد، وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكَسْرِ من جَبْر[3]. وكان الملك قد حالفه فما خالفه، ووافقه فما نافقه، ورحل بجمعه وأتباعه وشياطينه وأشياعه، فمادت الأرضُ بحركته، وغامت السماءُ من غَبَرته، ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا ووثبوا، ففرح السُّلْطان، وقال: جاءنا ما نريد، ونحن أُولوا بأس شديد، وإذا صَحَّتْ كسرتهم فطبرية وجميع السَّاحل ما دونه مانع، ولاً عن فَتْحه وازع.

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٩ من الجزء الثاني.

(٣) ذكرت المصادر الغربية أن رأي ريموند كان في إبقاء الجيش الصليبي في صفورية حيث يعسكر، وأنه كان يؤثر أن تضيع طبرية بكل ماتحويه على أن تضيع المملكة، وذكر أن الجيش الذي يهاجم في حرارة الصيف اللافحة لن يكون النصر حليفه. ولكن الصليبيين لم يلتفتوا إلى رأيه لما كان له من علاقة سابقة بالمسلمين. انظر «تاريخ الحروب الصليبية» لرنسيمان: ٢/ ٧٣٥.

واستخار الله تعالى وسار، وعَدِمَ القرار، وذلك يوم الخميس ثالث عشري ربيع الآخر، والفرنج سائرون إلى طبرية بقضِّهم وقضيضهم، وهم كالجبال السَّائرة، والبحار الزَّاخرة، أمواجُها ملتطمة، وأفواجها مُزْدَحمة، فرتب السُّلْطان في مقابلتهم أطلابه*، وحصل بعسكره قُدَّامهم، وحجز بينهم وبين الماء، واليوم قيظ، وللقوم غيظ، وحجز الليل بين الفريقين، وحجرت الخيل على الطَّريقين، وهيئت دركات النيران، وهنئت درجاتُ الجنان، وانتظر مالك واستبشر رِضْوان، فهي ليلة القَدْر خَيْرٌ من ألف شهر، تنزَّل فيها الملائكة والرّوح، وفي سحَرها نَشْر الظَّفَر يفوح، وفي صباحها الفُتوح، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة، فقد كُنَّا ممن قال الله تعالى [فيهم][1] ﴿فآتاهم الله ثَوَابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوَابِ الآخرة﴾[2] وبتنا والجَنَّة معروضة، والسُّنَّة مفروضة، والكوثر واقفةٌ سُقاتُهُ، والخُلْد قاطفةٌ جُنَاته، والسَّلْسبيل واضحٌ سبيلُه، والإِقبال ظاهرٌ قَبِيْلُه، والظُّهُور قائمٌ دليلُه، والله ناصِرُ الإِسلام ومديلُه.

٧٧/٢ وسَهِرَ السُّلْطان تلك الليلة حتى عيَّن الجاليشية* من كلِّ طلب*، وملأ جِعَابها وكنائنها بالنِّبال، وكان ما فرَّقه من النُّشَّاب أربع مئة حِمْل، ووقف سبعين جَمَّازة[3] في حومة الوغىٰ، يأخذ منها من خَلَت جِعابه، وفَرَغ نُشَّابه، حتى إذا أسفر الصباح خرج الجاليشية* تحرق بنيران النِّصال أهل النَّار، ورنَّت القِسِي وغنَّتِ الأوتار، ذاك، واليوم ذاكٍ، والجيش شاكٍ، وللقيظ عليهم فيض، وما للغيظ منهم غيض، وقد وَقَدَ الحرّ، واستَشْرىٰ الشَّرُّ، ووقع

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٨.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٤٦ من هذا الجزء.

الكرُّ والفرُّ، والسَّرابُ طافح، والظمأ لافح، والجوُّ محرق، والجَوَى مقلق، ولأولئك الكلاب من اللهب لَهَث، وبالغيث عبث، وفي ظَنِّهم أنهم يَرِدُون الماء، فاسْتَقْبَلَتْهُمْ جهنَّم بشرارها، واستظهرت عليهم الظَّهيرة بنارها، وذلك في يوم الجمعة، بجموع أهلها المجتمعة، ووراء عسكرنا بحيرةُ طبرية، والوِرْدُ عِدٌّ[1] وما منه بُعْد. وقد قطعت على الفرنج طريق الورود[2] وبلوا من العَطَش بالنَّار ذات الوقود، فوقفوا صابرين مصابرين، مكابرين مضابرين[3]، فَكَلِبوا على ضَرَاوتهم، وشَرِبوا ما في إداوتهم، وشَفَهوا ما حولهم من موارد المصانع، واستنزفوا حتى ماء المدامع، وأشرفوا على المصير إلى المصارع، ودخل الليل وسكن السَّيْل، وباتوا حيارى، ومن العطش سُكارىٰ، وهم على شَعَفِ[4] البُحيرة بِحَيْرة، وقوَّوا أنفسهم على الشَّدَّة، واستعدُّوا بالعَزَائم المحتدَّة، وقالوا: غداً نصُبُّ عليهم ماء المواضي، ونقاضيهم إلى القواضب القواضي، فأحَدُّوا[5] عَزْمَ البلاء، وطلبوا البقاء بالتورُّط في الفَنَاء.

وأما عسكرنا فإنها اجترأت، ومن كلٍّ ما يعوقُها برئت، فهذا لسنانه شاحذ، وهذا لِعنانه آخذ، وهذا سهم مفوَّق، وهذا شهم موفَّق، وهذا مكثر للتكبير، ومنتظر للتبكير، وهذا ناجٍ للسَّعادة، وهذا راجٍ للشَّهادة، فيالله تلك من ليلةٍ حُرَّاسها الملائكة، ومن سُحْرَةِ أنفاسها ألطاف الله المتداركة،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢١٧ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: الورد، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) الضبر: الشديد. «اللسان» (ضبر).

(٤) شعفة كل شيء: أعلاه. «اللسان» (شعف).

(٥) في الأصل و(ب) فأجدوا، والمثبت من (ك).

والسُّلْطـانُ ــ رحمـه الله ــ قـد وَثِـقَ بنصـر الله، فهـو يمضـي بنفسـه علـى الصُّفوف، ويحضُّهم ويَعِدُهم من الله بنصره المألوف، ويغري المئين بالألوف، وهم بمشاهدته إياهم يُجِيْدُون ويجدُّون، ويصدُّون العدو ويردُّون. وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس، حمل في أول النَّاس، وكان حصانُه قويَّ الرَّاس، فأبعد عن إخوانه، ولم يتابعه أحدٌ من أقرانه، فانفرد به الفرنج، فأَثْبَـتَ في مستنقع الموت رِجْلَه، وقاتل إلى أن بلغوا قتله، فلما أخذوا رأسه ظنُّوا أنه أحد أولاد السُّلْطان، وانتقل الشهيدُ إلى جوار الرحمن. ولما شاهد المُسْلمون استشهاده، وجلَده وجلاده، حميت[1] حميَّتهم، وخَلَصت لله نيتهم، وأصبح الجيشُ على تعبئته، والنَّصْر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر[2]، وهو يوم النُّصْرة، ووقوع الكسرة، وبرَّحَ بالفرنج العَطَشُ، وأبت عثرتُها تنتعش، وكان النسيمُ من أمامها، والحشيشُ تحت أقدامها، فرمى بعضُ مطوعة المجاهدين النَّار في الحشيش، فتأجَّج عليهم استعارُها، وتوهَّج أُوارها، فَبُلُوا ــ وهم أهل التثليث ــ من الدنيا بثلاثة الأقسام في الاصطلاء والاصطلام، نار الضرام، ونار الأُوام، ونار السِّهام، فرجا الفرنج فرجاً، وطلب طَلْبهم* المُحْرَج مَخْرَجاً، فكلما خرجوا جُرحوا، وبرَّح بهم حَرُّ الحرب فما برحوا، وهم ظِمَاء، وما لهم [ماء][3] سوى ما بأيديهم من ماء الفِرِنْد ماء، فشوتهم نارُ السِّهام وأشوتهم، وصمَّمـت عليهم قلوب القِسِي القاسية وأصمتهـم، وأُعجزوا وأزعجوا، وأُحرجوا وأُخرجوا، وكلما حملوا رُدُّوا وأُرْدُوا، وكلما ساروا وشدُّوا أُسروا

(١) في الأصل: وحميت، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) في هامش الأصل بخط مغاير: ووافق ذلك بالعشر الأول من تموز.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

وشُدُّوا، وما دبَّت منهم[1] نملة، ولا ذبَّت عنهم حَمْلَة، واضطرموا واضطربوا، والتهفوا والتهبوا، وناشبهم النُّشَّاب فعادت أسودُهُمْ قنافذ، وضايقتهم السِّهام فوسعت فيهم الخَرْقَ النَّافذ. فآووا إلى جبل حِطِّين يعصمهم من طوفان الدَّمار، فأحاطت بحطِّين بوارق البَوَار، ورشفتهم الظُّبَى، وَفَرشَتْهُم على الرُّبى، ورشقتهم الحنايا، وقَشَرَتْهُمُ المنايا، وقرشتهم البلايا، ورقشتهم الرَّزايا.

ولما أحسَّ القُومص بالكَسْرة، حَسَرَ عن ذراع الحسرة، واقتالَّ من العزيمة، واحتال في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجَمْع، واضطرام الجَمْر، فخرج بطلبه يطلُبُ الخروج، واعوجَّ إلى الوادي وما ودَّ أن يعوج، ومضى كومض البَرْق، ووسع خُطَى خَرْقه قبل اتساع الخَرْق، وأُفلت في عِدَّة معدودة، ولم يلتفت إلى ردَّة مردودة، وكان قال لأصحابه: أنا أسبق بالحَمْلَة، وأفصلُهُم من الجُمْلة. فاجتمع هو ومؤازروه، وجماعةٌ من المقدَّمين [هم][2] مضافروه[3]، وصَحِبَه صاحب صيدا، وباليان بن بارزان، وتآمروا على أنهم يحملون ويبلِّغون الطعان. فحمل القُومص ومن معه على الجانب الذي فيه الملك المُظَفَّر تقي الدين، وهو مُؤَيَّدٌ من الله بالتوفيق والتمكين، ففتح لهم طريقاً، ورمى من أتباعهم فريقاً، فمضوا على رؤوسهم، ونجوا بنفوسهم. ولما عرف الفرنج أن القومص أخذ بالعزيمة، ونفذ في الهزيمة، وَهَنوا وهانوا، ثم اشتدُّوا وما لانوا، وَثَبَتُوا على ما كانوا، واستقبلوا واستقتلوا، واسْتُلْحموا وحملوا، ووقعنا عليهم وقوعَ النَّار في

---

(١) في (ك): فيهم.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) في النسخ الخطية: مظافروه، والصواب ما أثبتناه.

الحَلْفَاء، وصببنا ماء الحديد للإطفاء، فَزَاد في الإذكاء، فحطُّوا خيامهم على غارب حِطِّين، حين رأونا بهم مُحيطين، فأعجلناهم عن ضَرْب الخيام بضرب الهام، ثم استحرَّت الحرب، واشتجر الطَّعْن والضَّرْب، وأُحيط بالفرنج من
٧٨/٢ حواليهم، ودارت الدَّوائِرُ عليهم، وترجُّوا خيراً فترجَّلوا عن الخيل، وجرفهم السَّيْفُ جَرْفَ السَّيْل، ومُلِكَ عليهم الصَّليب الأعظم، وذاك مُصابُهُم الأعظم. ولما شاهدوا الصَّليب سليباً، ورقيب الرَّدَىٰ قريباً، أيقنوا بالهلاك، وأُثخنوا بالضَّرْب الدِّراك، فما بَرِحُوا يُؤسرون ويُقتلون، ويخمدون ويُخملون، وللوثوب يخفُّون، وبالجراح يثقلون، ومن مصارع القتل إلى معاصر الأَسْر ينقلون.

ووصلنا إلى مقدَّمهم، وملكهم وإبرنسهم، فتمَّ أسر الملك، وإبرنس الكَرَك*، وأخي الملك جُفري، وأوك صاحب جُبيل، وهنفري بن هنفري، وابن صاحب إسكندرونة، وصاحب مرقية، وأُسِرَ من نجا من القَتْل من الدَّاوية* ومقدَّمها، ومن الإسبتارية* ومُعَظَّمها، ومن البارونية [و](1) من أخطأه البوار، فأصابه وساءه الإسار، وأُسِر الشَّيطان وجنودُه، ومُلك الملك وكنوده، وجُبِرَ الإسلام بكسرتهم، وقُتلوا وأسروا بأَسْرهم، فمن شاهد القتلى قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال: ما هناك قتيل، ومُذِ استولى الفرنج على ساحل الشَّام ما شُفِيَ للمسلمين كيوم حطين غليل.

فالله عَزَّ وجل سَلَّط السُّلْطان وأقدره على ما أعجز عنه الملوك، وهداه من التَّوفيق لامتثال أمره وإقامة فَرْضِهِ النهج المسلوك، ونَظَمَ له في حُتُوف أعدائه والفتوح لأوليائه السُّلوك، وخصَّه بهذا اليوم الأَغَرِّ، والنَّصْر الأَبَرِّ، واليُمْن الأَسَرِّ، والنُّجح الأَدَرِّ، ولو لم يكن له إلا فضيلة هذا اليوم، لكان

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

متفرِّداً على الملوك السَّالفة، فكيف ملوك العَصْر في السموِّ والسَّوم، غير أن هذه النوبة المباركة كانت للفتح القُدْسي مقدِّمة، ولمعاقد النَّصْر وقواعده مُبْرِمة مُحْكِمة.

ومن عجائب هذه الوقعة، وغرائب هذه الدفعة، أن فارسهم ما دام فَرَسُهُ سالماً لم يدلَّ للصَّرعة، فإنه من لُبْسِهِ الزَّردي من قَرْنه إلى قَدَمه كأنَّه قطعة حديد، ودِراك الضَّرْب [والرمي][1] إليه غير مفيد، لكنَّ فرسه إذا هلك فُرِسَ ومُلِكَ، فلم يُغْنَمْ من خيلهم ودوابِّهم ـ وكانت ألوفاً ـ ما هو سالم، وما ترجَّل فارِسٌ إلا والطَّعْن والرَّمي لمركوبه كالم، وغَنِمْنا ما لا يحصر من بيضٍ مكنون، وزَغْفٍ مَوْضُون[2]، وبلادٍ وحُصُون، وسهول وحُزون، وابتذلنا منهم بهذا الفتح كلَّ إقليمٍ مصون، وذلك سوى ما استبيح من مالٍ مخزون، واستُخْرِجَ من كَنْزٍ مدفون. وصَحَّت هذه الكسرة، وتمَّتْ هذه النُّصْرة يوم السبت، وضُرِبَتْ ذِلَّة أهل السَّبت على أهل الأحد، وكانوا أسوداً فعادوا من النَّقد[3]، فما أُفلت من تلك الآلاف إلا آحاد، وما نجا من أولئك الأعداء إلا أعداد، وامتلأ الملا[4] بالأَسْرى والقَتْلى، وانجلى الغُبار عنهم بالنَّصْر الذي تجلَّى[5]، وقُيِّدتِ الأسارى في الحبال واجبةَ القلوب، وفُرِشَتِ القَتْلى في الوِهاد والجبال واجبةَ الجُنُوب، وحَطَّت حِطِّين تلك الجيف عن

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) الزغف الموضون: الدرع المحكمة، الداخلة الحِلَق بعضها في بعض. «اللسان» (زغف، وضن).

(٣) النقد: الصغيرة من الغنم. «اللسان» (نقد).

(٤) الملا: الفلاة.

(٥) في هامش الأصل بخط مغاير متأخر:

سـوف تـرى سينجلـي الغبـار ... هـل فـرس تحتـك أم حمـار

مَتْنها، وطاب نَشْرُ النَّصْرِ بنتنها، وعَبَرْتُ بها فألفيتها مَحَلَّ الاعتبار، وشاهدتُ ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار، وعاينت أعيانهم خَبَراً من الأخبار، ورأيت الرؤوس طائرة، والنُّفوسَ بائرة، والعيونَ غائرة، والجسوم رمستها السَّوافي، والرُّسوم دَرَستها العَوَافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة، بالعَرَاء عُراة، مُمزَّقةً بالمآزِق، مفصَّلة المفاصل، مفرَّقةَ المرافق، مُفَلَّقة المفارق، محذوفة الرِّقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطَّعة الهام، موزَّعة الأقدام، مجدوعةَ الآناف، منزوعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، مُنَصَّفة الأجساد، مُقَصَّفة الأعضاد، مقلَّصة الشِّفاه، مُخلَّصة الجباه، سائلةَ الأحداق، مائلةَ الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمةَ الأشباح، كالأحجار بين الأحجار، عبرةً لأُولي الأبصار.

ولما أبصرتُ خدودهم ملصَّقةً بالتُّراب وقد قُطعوا آراباً تلوتُ قول الله تعالى ﴿ويقول الكافر ياليتني كُنْتُ تُرَاباً﴾[1] فما أطيب نفحات الظَّفَر من ذلك الخَبَث، وما ألهب عَذَبات العذاب في تلك الجُثَث، وما أحسنَ عمارات القلوب بقبح ذلك الشَّعَث، وما أجزأ صلوات البشائر بوقوع ذلك الحَدَث، هذا حساب من قُتل فقد حُصرت ألسنة الأُمم عن حَصْرِه وعَدِّه، وأما من أُسِرَ فلم تكف أطناب الخيم لقيده وشدِّه، ولقد رأيتُ في حبلٍ واحد[2] ثلاثين وأربعين يقودهم فارس، وفي بقعة واحدة مئة ومئتين يحميهم حارس، وهنالك العُتَاة عُناة، والعُدَاة عُرَاة، وذوو الأَسِرَّةِ أَسْرىٰ، وأولـو الأَثْرَةِ عَثرى، والقوامِصُ قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح رخائص، ووجوه الدَّاوية* عوابس، والرؤوس تحت الأخامص، فكم أُصيد صِيْد،

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

(٢) في الأصل: رأيت الحبل الواحد.. والمثبت من (ك) و(ب).

وقائد قيِّد وقِيْد، وملك مملوك، وهاتك مهتوك، وحرّ في الرِّق، ومبطل في يد المُحِقّ، ولم يُؤْسر الملك حتى أُخذ صليب الصَّلبوت، وأُهلك دونه الطَّاغوت، وهو الذي إذا نُصب وأُقيم ورفع، سجد له كلُّ نَصْرانيٍّ وركع، وهم يزعمون أنَّه من الخشبة التي يزعمون أنه صُلِبَ عليها معبودهم، وقد غلَّفوه بالذَّهب الأحمر، وكلَّلوه بالدُّرِّ والجَوْهر، وأعدُّوه ليوم الرَّوْع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجته القسوس، وحملته الرؤوس، تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولا يسع أحدهم عنه التخلُّف، ولا يسوغ للمتخلِّف عن اتِّباعه في نَفْسه التَّصَرُّف، وأَخْذُه عندهم أعظم من أَسْر الملك، وهو أشدُّ مصابٍ لهم في ذلك المُعْتَرَك، فإنَّ الصَّليب السَّليب
٢/٧٩ ماله عِوَض، ولا لهم في سواه غَرَض، والتَّألُّه له عليهم مفترض، فهو إلههم وتعفَّر له جباههم، وتسبِّح له أفواههم، يتغاشون عند إحضاره، ويتعاشون لإبصاره، ويتلاشون لإظهاره، ويتغاضون إذا شاهدوه، ويتواجدون إذا وجدوه، ويبذلون دونه المُهَج، ويطلبون به الفَرَج، بل صاغوا على مثله صُلْباناً يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها.

فلما أُخذ هذا الصَّليبُ عَظُمَ مصابهم، وَوَهَتْ أصلابُهم، وكان الجمعُ المكسور عظيماً، والموقف المنصور كريماً، فكأنَّهم لما عرفوا إخراج هذا الصَّليب، لم يتخلَّف أحدٌ عن يومهم العصيب، فهلكوا قَتْلاً وأَسْراً، ومُلكوا قَهْراً وقَسْراً. ولما صَحَّ الكَسْرُ، وَقُضِيَ الأمر، وتمكَّن النَّصْر، وسكن البحر، ضربَ السُّلْطانُ في تلك الحومة دِهْليز السُّرَادق، وتوافت إليه حُماة الحقائق، ونَزَل السُّلْطان وصلَّى للشكر وسجد، وجدَّد الاستبشار بما وجد، وأُحضر[١]

(١) في الأصل: وأحضروا، والمثبت من (ك) و(ب).

عنده من الأسارىٰ الملك والبرنس، وأجلس الملك بجنبه(١).

وقال في كتاب «الفتح»: وجلس السلطان لعرض أكابر الأَسارى وهم يتهادون في القيود تهادي السُّكارى، فَقُدِّم بدايةً مقدَّم الدَّاوية* وعِدَّة كثيرة منهم، ومن الإسبتارية*، وأحضر الملك كي وأخوه جفري، وأوك صاحب جُبيل، وهنفري، والإبرنس أرناط صاحب الكَرَك، وهو أَوَّل من وقع في الشَّرَك، وكان السُّلْطان نَذَرَ دمه، وقال: لأُعجِّلَن عند وِجْدانه عَدَمَه.

فلما حضر بين يديه، أجلسه إلى جنب الملك والملك بجنبه، وقرَّعه على غَدْره، وذكَّره بذنبه، وقال له: كم تَحْلِفُ وتَحْنِث، وتعهد وتنكُثُ، وتُبرم الميثاق وتنقُض، وتُقْبِلُ على الوفاق ثم تُعْرِضُ، فقال التَّرْجُمان عنه: إنه يقول: قد جَرَتْ بذلك عادةُ الملوك، وما سلكْتُ غير السَّنَن المسلوك.

وكان الملك يلهث ظمأً، ويميل من سَكْرَة الرُّعْب مُنتشياً، فآنسه السلطان وحاوره، وفثأَ سورةَ الوَجَلِ الذي ساوره، وسكَّن رُعْبَه، وأمَّن قلبه، وأمر له بماءٍ مثلوج فشربه، وأَطفأَ به لهبه، ثم ناول الملكُ الإبرنسَ القَدَح، فاستشفَّه، وبرَّد به لهفه، فقال السُّلْطان للملك: لم تأخذ في سقيه مني إذناً، فلا يوجب ذلك له مني أَمْناً. ثم ركب وخلاَّهما، وبنار الوَهَلِ(٢) أصلاهما، ولم ينزل إلى أن ضُرِبَ سُرَادقُه، ورُكِزَتْ أعلامُه وبيارقُه، وعادت إلى الحِمىٰ عن الحومة فيالِقُه.

فلما دخل سُرَادقه استحضر الإبرنس، فقام إليه، وتلقَّاه بالسَّيْف، فحلَّ عاتقه، وحين صُرِعَ أمر برأسه فَقُطِعَ، وجُرَّ برجله قُدَّام الملك حين أخرج،

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٧٦ ــ ٨٠.

(٢) الوهل: الفزع. «اللسان» (وهل).

فارتاع الملك وانزعج، فعرف السلطانُ أنه خامره الفزع، وساوره الهَلَع، وسامره الجَزَع، فاستدعاه واستدناه، وأمَّنه وطمَّنه، ومكَّنه من قُرْبه وسكَّنه، وقال له: ذاك رداءتُه أَرْدَتْهُ، وغدرته كما تراه غادرته، وقد هلك بغَيِّه وَبغْيه. [ونبا زَنْد حياته وَوِرْدُها عن ريه ووريه][1].

ثم جمع الأُسارى المعروفين، وسلَّمهم إلى والي قلعة دمشق النَّاصح الغيدي، فقال لهم: أنتم تحت قَيْدي. وسلَّمهم إلى أصحابه، فتسلَّمتهم الأيدي، وأمرهم أن يأخذوا خَطَّ الصَّفي بن القَابض في دمشق بوصولهم، ويحتاط عليهم في أغلالهم وكُبُولهم. فتفرَّق العسكر بمن ضمَّته أيدي السَّبْي أيدي سبا، وهادتهم الوِهادُ والرُّبى.

قال: ولما أصبح السُّلْطان يوم الأحد، استقام على الجَدَد، وخيَّم على طبرية، وراسل القومصية، وأخرجها من حِصْنها بالأمان، ووفَى لها وللفُرْسان بَنِيْها بشروط الأمان[2]، فخرجت بمالها ورحالها، ونسائها ورجالها، وسارت إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها. وولَّى طبرية قايماز النَّجْمي. وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم على نصف مغل البلاد من الصَّلْت* والبَلْقاء* وجبل عوف، والحَيَّانِيَّة* والسَّواد*، وتناصف الجولان وما يقربها إلى بلد حوران، فخلصت المناصفات، وَصَفَتِ الصفاة، وأُمِنَت الآفات[3]، هذا، والسلطان نازل ظاهر طبرية، وقد طَبَّ البَرِيَّة، وعسكره قد طبَّق البريَّة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك)، وانظر «الفتح»: ٨٠ ــ ٨١.

(٢) في الأصل و(ب): الأيمان، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: الأوقات، والمثبت من (ك) و(ب).

فلما أصبح يوم الاثنين بعد الفتح بيومين، طلب الأسارىٰ من الدَّاوية والاسبتارية، وقال: أنا أطهر الأرض من هذه الجنسين النجسين، فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر، وهما أخبثُ أهل الكُفْر[1]. فتقدَّم بإحضارِ كل أسير داوي واسبتاري ليمضي فيه حكم السيف، ورأى البقيا عليهم عَيْنَ الحَيْف، ثم علم أن كل من عنده أسير لا يسمح به، وأنه يَضَنُّ بعطبه، فجعل لكل من يأتيه بأسيرٍ منهما من الدَّنانير الحُمْر خمسين، فأتوه في الحال بمئين، فأمر بإعطابهم، وضَرْبِ رقابهم، ومحو حسابهم، وكان بحضرته جماعةٌ من المتطوِّعة المتورِّعة، والمتصوِّنة المتصوِّفة، والمتعمِّمة المتصرِّفة، ومن يمتُّ بالزُّهْد والمعرفة، فسأل كلَّ واحدٍ في قَتْلِ واحد، وسَلَّ سيفه وحسر عن ساعد، والسُّلْطان جالس ووجهه باشر، والكُفْر عابس، والعساكر صفوف، والأُمراء في السماطين وقوف، فمنهم من فَرَىٰ وبرىٰ وشُكِرَ، ومنهم من أبى ونبا وَعُذر، ومنهم من يضحك منه، وينوب سواه عنه، وشاهدتُ هناك الضَّحوكَ القتَّال، ورأيت منه القوَّال الفعَّال، فكم وعدٍ أنجزه، وحَمْدٍ أحرزه، وأجرٍ استدامه بدمٍ أجراه، وبِرٍّ أعنق إليه بعنق براه. وسيَّر ملك الفرنج وأخاه، وهنفري وصاحب جُبيل ومقدَّم
٢/ ٨٠ الداوية، وجميع أكابرهم المأسورين إلى دمشق، ليودعوا السُّجون، وتستبدل حركاتهم السكون، وتفرَّقتِ العساكر بما حَوَتْ أيديهم من السَّبْي[2]، وسبق بهم إلى البلاد الناس، ولم يقع على عددهم القياس، فكتب إلى الصفي بن القابض نائبه بدمشق أن يضرب عُنق من يجد من الدَّاوية والاسبتارية، فامتثل الأمر في إزهاقهم، وضَرْبِ أعناقهم، فما قَتَلَ إلا من عُرض عليه الإسلام

(١) انظر «الفتح»: ٨٦ ــ ٨٧.
(٢) «الفتح»: ٨٦ ــ ٨٧.

فأبى أن يُسْلم، وما أسلم إلا آحادٌ حَسُنَ إسلامُهم، وتأكَّد بالدِّين غَرَامهم.

قال العماد: وما زلت أبحثُ عن سبب نَذْر السُّلْطان إراقة دم الإِبرنس، حتى حدَّثني الأمير العزيز عبد العزيز بن شَدَّاد بن تميم بن المُعِزّ بن باديس، وهو ذو البيت الكبير، والحسب الجليل، وكان جَدُّه صاحبَ إفريقية والقيروان، وكانوا يتوارثون ملكه إلى قريبٍ من هذا الزَّمان، ذكر أن الأجل الفاضل حدَّثه أن السلطان لما عاد إلى دمشق من حَرَّان*، بعد المرضة التي صار بها كُلُّ قلبٍ [عليه][1] حَرَّان، وذلك في سنة اثنتين وثمانين، وهو من عقابيل سَقَمه لا يفارق الأنين، فقلتُ له ما معناه: قد أيقظك الله، وما يعيذك من هذا السُّوء سواه، فانذر أنك إذا أبللت من هذا المرض، تقوم بكل مالله من المُفْتَرض، وأنك لا تقاتل من المسلمين أحداً أبداً، وتكون في جهاد أعداءِ الله مجتهداً، وأنَّك إذا نصرك الله في المعترك، وظفرت بالقومص وابرنس الكَرَك*، تتقرَّب إلى الله بإراقة دمهما، فما يتمُّ وجود النَّصْر إلا بعدَمهما. فأعطاه يده على هذا النَّذْر، ونجَّاه الله ببركة هذا العُذْر من الذُّعْر، وخلَّصه إخلاصُه في مرضاة الله، فَأَبَلَّ من مرضته، واستقلَّ بنهضته، واستقبل السَّنة القابلة بسُنَّة الغزو وفريضته، ثم جرى من مقدِّمات الجهاد ونتائجها ما جرى، وخيَّم السلطان في جموع الإِسلام بعَشْترا*، وركب يوماً في عسكره، وعزم على نَشْرِ القساطل، وطَيِّ المراحل، ودخول السَّاحل، والقذف بالحقِّ على الباطل، فبدأ بلقاء الطلعة المباركة من الأجل الفاضل، فقال له: ليكن نَذْرُك على ذُكْرك، واستزد نعمة الله عنده بمزيد شُكْرك، ولا تُخْطر غير قَمْعِ أهل الكُفْر بفكرك، فما أنقذك الله من تلك الورطة، ونعشك من تلك

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

السَّقطة، إلا ليوفر حظَّك من هذه الغِبْطة. فتوكَّلَ على الله عازماً، وجازَ الأُرْدُن حازماً، وأرعبَ جَأْشَ الكُفْر وكسَرَ جيوشه، وثلَّ عُروشه، ووقع في الشَّرَك إبرنسُ الكَرَك*، فوفَى بضرب عنقه نَذْرَه. وأما القومص، فإنه أخذ في الملتقى بالهزيمة حِذْره، ولما وصل إلى طرابلُسَ أخافه في مأمنه[1] القَدَرُ، وَفَجَأَه في صَفْوه الكَدَرُ، وتسلَّمه مالكٌ إلى سَقَر[2].

فصـــل

هذا الذي تقدَّم من وَصْفِ كسرة حِطِّين، هو عين ما ذكره عماد الدين، رحمه الله في كتابيه «الفتح» و«البرق» اختصرتُه منهما وهو مطوَّل فيهما، وقد وقفتُ على كلامٍ لغيره في ذلك، فأحببتُ إيراده على وجهه لما فيه من شَرْح ما تقدَّم وتقويته، وربما اشتمل على زياداتٍ من فوائد تتعلَّق بذلك لم يتعرَّض لها، أو مخالفة لبعض ما ذكره.

قال القاضي أبو المحاسن بن شَدَّاد: لما كان المحرَّم سنة ثلاثٍ وثمانين عَزَمَ السُّلْطان على قصد الكَرَك*، فَسَيَّر إلى حلب من يستحضر العسكر، وَبَرَّز من دمشق في منتصف المحرَّم، فسار حتى نزل بأرض الكَرَك، منتظراً لاجتماع العساكر المِصْرية والشَّامية، وأمر العساكر المتواصلة إليه بشنِّ الغارة على ما في طريقهم من البلاد السَّاحلية، ففعلوا ذلك، وأقام ــ رحمه الله ــ بأرض الكرك، حتى وصل الحاجُّ الشامي إلى الشَّام، وأمنوا

---

(١) في الأصل: منامه، والمثبت من (ك).
(٢) «سنا البرق» ٢٢٩.

غائلة العدو[1].

ووصل قَفْل مصر، ومعه بنت الملك المُظَفَّر وما كان له بالدِّيار المِصْرية، وتأخَّرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالها بالفرنج بأرض أنطاكية وبلاد ابن لاون، وذلك أنه كان قد مات ووصَّى لابن أخيه لاون بالمُلْك، وكان الملك المظفَّر بحماة، وبلغ الخبر السلطان، فأمره بالدُّخول إلى بلاد العدو، وإخماد نائرته. فوصل تقي الدين حلب، ونزل في دار العفيف ابن زريق، وانتقل إلى دار طُمان، وفي تاسع صفر خرج بعسكر حلب إلى حارم* ليعلم العدوُّ أن هذا الجانب ليس بمهمل.

وعاد السُّلْطان، فوصل إلى السَّواد*، ونزل بعَشْتَرا* سابع عشر ربيع الأول، ولقيه ولده الأفضل ومظفر الدين وجميع العساكر، وكان تقدَّم إلى الملك المُظَفَّر بمصالحة الجانب الحلبي مع الفرنج ليتفرَّغ البال مع العدو في جانبٍ واحد، فصالحهم، وتوجَّه إلى حماة يطلب خدمة السُّلْطان للغزاة، فسارتِ العساكر الشَّرْقية في خدمته، وهم عسكر المَوْصل مقدَّمهم مسعود بن الزَّعْفَراني، وعسكر مارِدِين* إلى أن أتوا عَشْتَرا، فلقيهم السلطان وأكرمهم.

ثم عرض السلطان العساكر منتصف ربيع الآخر على تَلٍّ يُعْرَف بتل تسيل، ورتَّبهم، واندفع قاصداً إلى بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجُمَع لاسيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخُطَباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة.

/٢ وبلغه أن الفرنج اجتمعوا في مرج صفُّورية* بأرض عكا، فقصد

(١) في الأصل: الغدر، والمثبت من (ك) و(ب).

نحوهم للمصافّ معهم، فسار ونزل على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصِّنَّبْرَة*، ورحل من هناك، ونزل على غربي طبرية على سَطْح الجبل لتعبئة الحرب، منتظراً أنَّ الفرنج إذا بلغهم ذلك قصدوه، فلم يتحرَّكوا من منزلتهم، فنزل جريدةً على طبرية، وترك الأطلاب* على حالها قُبالة وجه العدو، ونازل طبرية، وزحف عليها فهجمها، وأخذها في ساعةٍ من نهار، وامتدَّت الأيدي إليها بالنهب والأسر، والحريق والقَتْل، واحتمت القلعة وحدها. فرحل الفرنج وقصدوا طبرية للدَّفْع عنها، فأخبرتِ الطلائعُ الإسلامية الأمراءَ بحركة الفرنج، فسيَّروا إلى السلطان مَنْ عَرَّفه ذلك، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها، ولحق[1] العسكر هو ومن معه، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها، وحال الليل بين الفئتين، فباتتا على مصافّ شاكين في السِّلاح إلى صبيحة الجمعة، فركب العسكران وتصادما، وذلك بأرض قريةٍ تسمَّى اللُّوبيا*، ولم تزل الحرب إلى أن حال بينهم الظَّلام.

وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة، والأمور الجسيمة ما لم يُحْكَ عمَّن تقدَّم، وبات كلُّ فريق في سلاحه ينتظر خصمه في كلِّ ساعة، وقد أقعده التعب عن النهوض، حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه، فطلب كلٌّ من الفريقين مقامه، وعلمت كلُّ طائفة أن المكسورة منها مدحورة الجنس، معدومةَ النفس، وتحقَّق المسلمون أن مِنْ ورائهم الأُرْدُن، ومن بين أيديهم بلادُ القوم، ولا ينجيهم إلا الله.

وكان الله قد قدَّر نصره للمسلمين فيسَّره، وأجراه على وَفْق ما قدَّره،

---

(١) في الأصل: ولقي، والمثبت من (ك) و(ب).

فحملت الأطلاب* الإسلامية من الجوانب، وحمل القلب وصاحوا صيحة الرَّجل الواحد، فألقى الله الرُّعْب في قلوب الكافرين ﴿وكان حَقًّا علينا نَصْرُ المُؤْمِنِين﴾[1].

وكان القومص ذكي القوم وألمعيَّهم، فرأىٰ أمارات الخِذْلان قد نزلت بأهل دينه، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن يقينه، فهرب في أوائل الأمر قبل اشتداده، وأخذ طريقه نحو صور*، وتبعه جماعةٌ من المسلمين، فنجا وحده، وأمِنَ الإسلام كيده، واحتاط أهل الإسلام بأهل الكُفْر والطُّغيان من كلِّ جانب، وانهزمت منهم طائفة، فتبعها أبطال المسلمين، فلم يَنْجُ منها واحد، واعتصمت الطائفة الأُخرى بتل حطين ــ وهي قرية عنده، وعندها قبر النبي شُعيب عليه السَّلام ــ فضايقهم المسلمون على التَّلِّ، وأشعلوا حولهم النِّيران، وقتلهم العَطَشُ، وضاق[2] بهم الأمر، حتى كانوا يستسلمون للأسر خوفاً من القتل، فأُسر مُقَدَّموهم، وقُتِلَ الباقون وأُسروا، وكان الواحد منهم العظيم يخلد إلى الأَسْرِ خوفاً على نَفْسه، ولقد حكى لي من أثق بقوله أنه لقي بحوران شخصاً واحداً ومعه طُنُبُ خيمةٍ وفيه نيف وثلاثون أسيراً، يجرُّهم وحده لخِذْلان وَقَعَ عليهم.

وأما القومص الذي هرب، فإنه وصل إلى طرابلس، وأصابه ذات الجنب، فأهلكه الله بها.

وأما مقدَّمو الاسبتارية والدَّاوية، فإن السلطان اختار قَتْلَهم، فقتلوا عن بَكْرَةِ أبيهم.

---

(١) سورة الروم، الآية: ٤٧.

(٢) في (ك) وطال.

وأما البرنز أرناط، فكان السلطان قد نذر أنه إن ظَفِرَ به قتله، وذلك أنه كان عَبَرَ به بالشَّوبك قَفْلٌ من الديار المصرية في حالة الصُّلْح، فنزلوا عنده بالأمان، فغدر بهم وقتلهم، فناشدوه الله والصُّلْح الذي بينه وبين المسلمين، فقال ما يتضمَّن الاستخفاف بالنبي ﷺ، وقال: قولوا لمحمدكم يخلِّصكم. وبلغ ذلك السلطان، فحمله الدِّين والحمية على أنه نذر إن ظفر به قتله، فلما فتح الله عليه بالنصر والظفر جلس في دِهْليز الخيمة، فإنها لم تكن نُصبت، والنَّاس يتقرَّبون إليه بالأسارى، وبمن وجدوه من المقدَّمين، ونُصبت الخيمة، وجلس فرحاً مسروراً، شاكراً لما أنعم الله به عليه، ثم استحضر الملك جفري وأخاه، والبرنز أرناط، وناول الملك شربة من جُلاَّب بثلج، فشرب منها ــ وكان على أشد حال من العطش ــ ثم ناول بعضها البرنز أرناط، فقال السلطان للترجمان: قل للملك، أنت الذي تسقيه، وإلا أنا ماسقيته ــ وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب مِنْ مال مَنْ أسره، أَمِنَ، فقصد بذلك الجري على مكارم الأخلاق ــ ثم أمر بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم، فمضوا وأكلوا شيئاً، ثم عاد واستحضرهم، ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم، فأقعد الملك في الدِّهْليز، واستحضر البرنز أرناط، وأوقفه على ما قال، وقال له: ها أنا أنتصر لمحمدٍ[1] ﷺ، ثم عرض عليه الإسلام، فلم يفعل، ثم سَلَّ النَّمجاة*، وضربه بها، فَحَلَّ كتفه، وتمَّمَ عليه من حضر، وعجَّل الله بروحه إلى النَّار، فأُخذ ورمي على باب الخيمة، فلما رآه الملك قد أُخرج على تلك الصُّورة لم

(١) في هامش (ك) بخط مغاير: ﷺ عدد الرمل والحصىٰ والتراب، ورحم الله الناصر المنتصر له، وأعظم أجره وأجزله.
قلت: آمين آمين يا ربَّ العالمين.

يشك في أنه يثنّي به، فاستحضره، وطيّبَ قلبه، وقال: لم تَجْرِ عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك، وأما هذا فإنه جاوز حدَّه، فجرى ما جرى.

وبات النَّاس تلك الليلة على أتم سرور وأكمل حبور، ترتفعُ أصواتُهم بالحمد لله والشُّكْرِ له، والتكبير والتهليل، حتى طلع الصُّبْح في يوم الأحد، فنزل رحمه الله على طبرية، وتسلم في بقية ذلك اليوم قلعتها، وأقام بها إلى يوم الثلاثاء[(١)].

قلت: وذكر محمد بن القادسي[(٢)] في «تاريخه» أنه ورد في هذه السنة كتب إلى بغداد في وصف هذه الوقعة، منها كتاب من عبد الله بن أحمد. ٨٢/٢
المقدسي[(٣)]، يقول فيه: كتبتُ هذا الكتاب من عَسْقلان يوم الثلاثاء، ثالث عشر جُمادى [الآخرة][(٤)] سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة، وفيه:

ولو حمدنا الله عز وجل طول أعمارنا ما وفينا بعُشْر معشار نعمته التي أنعم بها علينا من هذا الفتح العظيم، فإنَّا خرجنا إلى عسكر صلاح الدين، وتلاحق الأجناد حتى جاء النَّاس من المَوْصِل وديار بكر* وإِرْبل*، فجمع صلاح الدين الأمراء وقال: هذا اليوم الذي كنتُ أنتظره، وقد جمع الله لنا العساكر، وأنا رجل قد كَبِرْتُ، وما أدري متى أجلي، فاغتنموا هذا اليوم، وقاتلوا الله تعالى لا من أجلي. فاختلفوا في الجواب، وكان رأي أكثرهم لقاء الكُفَّار، فعرض جُنْدَه ورَتَّبهم، وجعل تقي الدين في الميمنة، ومظفر الدين في الميسرة، وكان هو في القلب، وجعل بقية العسكر في الجناحين، ثم

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٧٤ ــ ٧٩.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٣) هو شيخ الإسلام، موفق الدين، ابن قدامة، صاحب كتاب «المغني» في الفقه الحنبلي، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٢٠ هـ).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

ساروا على مراتبهم حتى نزلوا الأُقْحوانة*، فتركوا بها أثقالهم، وساروا حتى نزلوا بكَفْر سَبْت*، فأقاموا يومين ينتظرون أن يبرز لهم الكُفَّار ــ وكان عسكر الكفار على صَفُّورية* ــ فلم يبرزوا، فعاد صلاح الدين حتى نزل على طبرية*، فتقدَّم فُرْسانه وحُماته ورُماتُه والنَّقَّابون، فدخلوا حتى الحِصْن، فلما تمكَّن النقب منه انهار[1] من غيرِ وَقُود نار، ودخل المسلمون فانتهبوا يوم الخميس، وأصبحوا في يوم الجمعة، فشرعوا في نَقْبِ القلعة، فلما كان وقتُ الصَّلاة، جاء الخَبَرُ أن الكُفَّار قد توجَّهوا إلينا، فارتحل صلاحُ الدِّين على صفوفه، فلقيهم، ثم لم يزالوا يتقدَّمون حتى صار المسلمون محيطين بهم، وصار قَلْبُ المسلمين خلفهم، فتراموا ساعةً، وباتَ كلُّ فريقٍ على مصافِّهم، ثم أصبحوا، فسار الكُفَّار يقصدون طبرية والمسلمون حولهم يُلِحُّون عليهم بالرَّمي، فاقتلع المسلمون منهم فوارس، وقتلوا خَيَّالة ورجَّالة، فانحاز المشركون إلى تل حطين، فنزلوا عنده، ونصبوا الخيام، وأقام النَّاس حولهم إلى أن انتصف النهار، وهبَّتِ الرِّياح، فهجم المسلمون عليهم، فانهزموا لا يلوون على شيءٍ، ولم يفلت منهم إلا نحوٌ من مئتين، وكانوا كما قيل اثنين وثلاثين ألفاً، وقيل: ثلاثة وعشرين ألفاً، لم يتركوا في بلادهم من يقدر على القتال إلا قليلاً. وكان الذي أسر الملك دِرْباس الكُرْدي، وغلام الأمير إبراهيم المِهْراني أسر الإبرنس، وقَتَلَ صلاح الدين الإبرنس بيده لأنه كان قد غدر، وأخذ قافلةً من طريق مصر.

ثم عاد صلاح الدين إلى طبرية فأخذ قلعتها بالأمان، ثم ضَرَبَ أعناق الأسرىٰ الذين كانوا في العَسْكر، وأرسل إلى دمشق فضربت أعناق الذين بها منهم.

---

(١) في الأصل و(ب): انهال، والمثبت من (ك).

قال: وورد كتابٌ آخر فيه: هذه الفُتوح التي ما سُمِعَ بها قَطُّ، وهذا ذِكْرُ بعضها مختصراً مع أنه لا يقدر أحدٌ يصف ذلك، لأن الأمر أكبر من ذلك، الذي يبشّر به المسلمون، أنَّ مدينة طبرية فُتِحَتْ بالسيف، وأُخذت قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الفرنج جميعهم، والتقوا بالمسلمين عند قبر شعيب النبيِّ ﷺ، وقُتِلَ من الإفرنج ثلاثون ألفاً. وكان عدد الإِفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارسٍ وراجل، وأُسر منهم ثلاثون ألفاً، وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الإِسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحدٌ يصفُ ذلك، وما سَلِمَ من عسكر الفرنج سوى قومص إطرابلس مع أربعةِ نَفَر، وهو مجروحٌ ثلاث جراحات. وأُخذ جميع أُمراء الفرنج، وكم قد سبي من النساء والأطفال، يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعةً واحدة، ولقد بيع بحضوري رجل وامرأة وخمسةُ أولاد؛ ثلاث بنين وابنتان بثمانين ديناراً، وأُخذ صليب الصَّلبوت فَعُلِّق على قنطارية منكساً، ودخل به القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق، وكل يوم يُرَىٰ من رؤوس الفرنج مثْل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال ما لم يجيء من يشتريها من كثرة السَّبْي والغنائم.

قال: وفي كتابٍ آخر: وكان الفرنجُ خمسةً وأربعين ألفاً، فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم، وكذلك الملوك.

قلتُ: وبلغني أن بعض فقراء العسكر وقع بيده أسير، وكان محتاجاً إلى نعلٍ، فباعه بها، فقيل(١) له في ذلك، فقال: أردت أن يُذْكر ذلك، ويقال: بلغ من هَوَان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع واحدٌ منهم بنعلٍ، ولله الحمد.

---

(١) في الأصل: فقلت، والمثبت من (ك) و(ب).

وما أحسن ما قال أبو الحسن بن الذَّرَوي [المِصْري] من قصيدة[1]:

شَرَحْتَ صلاحَ الدِّين بالسُّمر والظُّبىٰ ... من المَجْدِ معنىً كان من قَبْلُ يَغْمُضُ
ومـا كـاد جَيْشُ الـرُّوْمِ يُبْـرِمُ كَيْـدَهُ ... إلى أَنْ سَرَتْ منكَ المَهَابةُ تَنْقُضُ
حَمَيْتَ ثُغُوْرَ المُسْلمين فأَصْبَحَتْ ... ثغـوراً بـأمـواه الحـديـد تَمَضْمَضُ
أَسَـرْتَ ملـوكَ الكُفْـرِ حتـى تـرَكْتَـهُ ... وما فيه عِرْقٌ عن قُوىٰ النفس يَنْبِضُ

وكان القاضي الفاضل غائباً عن هذه الكسرة بدمشق، فلما بلغته كَتَبَ إلى السُّلْطان: ليهن المولى أن الله قد أقام به الدِّين القَيِّم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كلِّ مُسْلم، وأنه قد أسبغ عليه النِّعْمتين: الباطنة
٢/٨٣ والظَّاهرة، وأورثه المُلْكين: مُلْك الدُّنيا وملك الآخرة. كتب المملوك هذه الخِدْمة، والرؤوس إلى الآن لم تُرْفَع من سُجُودها، والدُّموع لم تُمْسَحْ من خُدودها، وكلما فكَّر المملوك أنَّ البِيَعَ تعودُ وهي مساجد، والمكان الذي كان يقالُ فيه: إن الله ثالثُ ثلاثة يقال اليوم فيه: إنه واحد، جَدَّد لله شُكْراً، تارةً يفيض من لسانه، وتارةً يفيض من جَفْنه، وجزى يوسفَ خيراً عن إخراجه من سجنه، والمماليك ينتظرون أمر المولى، فكلٌّ من أراد أن يدخل الحمام بدمشق، قد عوَّل على دخول حَمَّام طبرية.

تلك المكارِمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنِ[2] ... وذلـك الفَتْـحُ لا عَمَّـان واليَمَـنِ
وذلك السَّيْفُ لا سَيْفُ ابنِ ذي يَزَنِ

---

(١) في هامش الأصل: «هذا الشعر في غير هذه الواقعة، فإن ابن الذروي توفي سنة سبع وسبعين وخمس مئة.
قلت: انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٠١ من هذا الجزء، وما بين حاصرتين من (ك).

(٢) هذا الشطر صدر بيت، عجزه:
شيبا بماء فعادا بعد أبوالا =

وللألسنة بَعْدُ في هذا الفتح سَبْحٌ طويل، وقَوْلٌ جليل.

وللعماد رحمه الله قصائدُ يذكر فيها وقعةَ حِطِّين، لم يذكر منها شيئاً هنا، بل ذكر بعضَها عند ذكر فتح نابُلُس، وبعضها عند ذكر فَتْح القُدْس، فنقلتُ منها إلى هذا المكان ما يتعلَّق به، والباقي يُذْكَرُ في مكانه [إن شاء الله][1]، قال:

يا يومَ حِطِّين والأبطالُ عابِسَةٌ ... وبالعَجَاجَةِ وَجْهُ الشَّمْسِ قد عَبَسا
رأيتُ فيه عظيمَ الكُفْرِ مُحْتَقراً ... مُعَفَّراً خَدُّهُ والأَنْفُ قد تَعَسا[2]
يا طُهْرَ سَيْفٍ بَرَىٰ رأسَ البرنس فقد ... أصابَ أَعْظَمَ مَنْ بالشِّرْكِ قد نَجُسَا
وغاصَ إذْ طار ذاك الرَّأْسُ في دَمِه ... كأنَّه ضِفْدَعٌ في الماءِ قد غَطَسا
ما زالَ يَعْطُسُ مَزْكُوماً بغَدْرَتِه ... والقَتْلُ تَسْمِيْتُ مَنْ بالغَدْرِ قد عَطَسَا
عرَّىٰ ظُباه من الأَغْمادِ مُهْرَقَةً ... دماً من الشِّرْكِ رَدَّاها به وكَسَا
مَنْ سَيْفُه في دِماءِ القَوْمِ مُنْغَمِسٌ ... من كلِّ من لم يَزَلْ في الكُفْرِ مُنْغَمِسا
أَفْنَاهُمُ قتلُهمْ والأَسْرُ فانتكسوا ... وبَيْتُ كُفْرِهُمُ مِنْ خُبْثِهِمْ كَنِسَا[3]

وقال أيضاً يخاطبُ صلاحَ الدين رحمه الله:

سَحَبْتَ على الأُرْدُنِّ رُدْناً من القَنَا ... رُدَيْنِيَّةً مُلْداً وخَطِّيَّةً مُلْسا
حَطَطْتَ على حِطِّين قَدْرَ مُلُوكِهِمْ ... ولم تُبْقِ من أجناس كُفْرِهُمُ جِنْسا

= وهو لأبي الصلت بن أبي ربيعة الثقفي من قصيدة طويلة منسوبة له. انظر «الشعر والشعراء»: ١/ ٤٦١ ــ ٤٦٢. والقعبان: تثنية قعب: وهو قدح يحلب فيه. وشيبا: مزجا.

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) أي انكبَّ. «اللسان» (تعس).

(٣) وسيأتي بعضها ص ٣١٦ ــ ٣١٧، ٣٦٣ ــ ٣٦٤ من هذا الجزء.

وَنِعْمَ مجالُ الخَيْلِ حِطِّينُ لم تكنْ — مَعَارِكُها لِلْجُرْدِ ضِرْساً ولا دَهْسا[1]

غَـدَاةَ أُسُـودُ الحَـرْبِ تَعْتَقِـلُ القنـا — أسـاوِدُ تَبْغـي مِـنْ نُحـورِ العِـدَىٰ نَهْسَـا[2]

أَتَـوْا شُكُـسَ الأخـلاقِ خُشْنـاً فَليَّنَـت — حُدودُ الرِّقاقِ الخُشْنِ أخلاقَها الشُّكْسا

طَـرَدْتَهُـمُ فـي المُلْتَقـى وعَكَسْتَهُـمْ — مُجيداً بِحُكْمِ العَزْمِ طَرْدَك والعَكْسَا

فكيـفَ مَكَسْـتَ المشـركيـنَ رُؤوسَهُـمْ — ودَأْبُكَ في الإحْسانِ أن تُطْلِق المَكْسـا

كَسَـرْتَهُـمُ إذْ صـحَّ عَـزْمُـك فيهـمُ — ونكَّسْتَهُـمْ إذْ صـار سَهْمُهُـمُ نَكْسـا

بـواقعـةٍ رُجَّـتْ بهـا الأرضُ تَحْتَهُـمْ — دمـاراً كمـا بُسَّـتْ جِبـالُهُـمُ بَسَّـا[3]

بطـونُ ذِئـابِ الأَرْضِ صـارَتْ قُبـورَهُـمْ — ولـم تَـرْضَ أَرْضٌ أن تكـونَ لهـم رَمْسا[4]

وطارَتْ على نار المواضي فَرَاشُهُمْ — ضلالاً فَزَادَتْ من خُمودِهُمُ قَبْسا

وقـد خَشَعَـتْ أصـواتُ أبطـالهـا فمـا — يعي السَّمْعُ إلا من صليل الظُّبَىٰ هَمْسا

تُقـادُ بِـدَأْمـاءِ[5] الـدِّمـاءِ ملـوكُهُـمْ — أُسارى كَسُفْنِ اليَمِّ نُطَّتْ[6] بها القَلْسا[7]

سبـايـا، بـلادُ اللّـهِ مملـوءةٌ بهـا — وقد شُرِيَتْ بَخْساً وقد عُرِضَتْ نَخْسا

يُطافُ بها الأسواقَ لا راغبٌ لها — لِكَثْرَتها كم كَثْرَةٍ تُوجِبُ الوَكْسا[8]

---

(١) الضرس: الأرض الخشنة. والدهس: المكان السهل اللين، ومنه قول دريد بن الصمة يصف أرضاً: لا حزن ضرس ولا سهل دهس. انظر «اللسان» (دهس، ضرس).

(٢) النهس: القبض على اللحم ونتره. «اللسان» (نهس).

(٣) أي فتت ونسفت، فصارت كالدقيق. «اللسان» (بسس).

(٤) الرَّمْس: القبر. «اللسان» (رمس).

(٥) الدأماء: البحر. «اللسان» (دأم).

(٦) أي شدت. «اللسان» (نطط).

(٧) القلس: حبل غليظ من حبال السفن. «اللسان» (قلس).

(٨) الوكس: اتضاع الثمن في البيع. «اللسان» (وكس).

شكا يَبَساً رأسُ البِرِنْس الذي به | تَنَدَّى حسامٌ حاسِمٌ ذلك اليُبْسا
حسا دَمَه ماضي الغِرار[1] لِغَدْرِهِ | وما كانَ لولا غَدْرُه دَمُهُ يُحْسَىٰ
فللهِ ما أَهْدَىٰ يداً فتكَتْ بِهِ | وأَظْهَرَ سَيْفاً مُعْدِماً رِجْسَهُ النَّجْسا
نَسَفْتَ بهِ رأسَ البرنس بِضَرْبَةٍ | فأشبهَ راسي رَأْسِهِ العِهْنَ[2] والبُرْسا[3]
تبوَّغ[4] في أَوْداجهِ دَمُ بَغْيِهِ | فَصَالَ عليه السَّيْفُ يَلْحَسُهُ لَحْسا
بَعَثْتَ أمامَ أُمةِ النَّارِ نحوها | إمامَهُمُ أَرْناطَها ذلك الجِبْسا[5]
ولله نَصُّ النَّصْرِ جاء لِنَصْلِهِ | فلا قَوْنَساً[6] أبقى لِرَأْسٍ ولا قَنْسا[7]
حكىٰ عُنُقُ الدَّاويِّ صَلَّ بِضَرْبَةٍ | طريرُ الشَّبا[8] عُوداً بِمِضْرَابِهِ حُسَّا[9]
أيومُ وغىً يَدْعُوه أم يومُ نائلٍ | وأنتَ وَهَبْتَ الغانمينَ به الخُمسا
وقد طابَ ريَّانا على طَبَرِيَّةٍ | فيا طيبَها رِياً ويا حُسْنَها مَرْسىٰ[10]

٢/ ٨٤

وللشِّهاب فِتْيان الشَّاغوري[11] من قصيدةٍ سيأتي بعضُها[12] في مدح صلاح الدِّين رحمه الله:

---

(١) الغرار: حد السيف. «اللسان» (غرر).
(٢) العهن: الصوف. «اللسان» (عهن).
(٣) البرس: بكسر الباء وضمها. القطن. «اللسان» (برس).
(٤) تبوغ به الدم: هاج به، وذلك حين تظهر حمرته في البدن. «اللسان» (بوغ، بيغ).
(٥) الجبس: الجبان الضعيف اللئيم. «اللسان» (جبس).
(٦) القونس: أعلى البيضة من الحديد. «اللسان» (قنس).
(٧) القنس: الأصل. «اللسان» (قنس).
(٨) طرير الشبا: يعني طرف السيف وحدّه، وقد حُدِّد، يعني أصبح في غاية الرهافة. «اللسان» (طرر، شبا).
(٩) من الحس: القتل الذريع المستأصل. «اللسان» (حسس).
(١٠) انظر بعض أبيات من القصيدة في «معجم الأدباء»: ١٩/ ٢٤ ــ ٢٧.
(١١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٥ من الجزء الثاني.
(١٢) انظر ص ٤١٠ من هذا الجزء وص ٣٧ ــ ٣٨ من الجزء الرابع.

جاشَتْ جيوشُ الشِّرْك يَوْمَ لَقِيْتَهُمْ يتـدامـرون[1] علـى مُتُـونِ الضُّمَّرِ
أَوْرَدْتَ أَطْرَافَ الرِّماح صُدُوْرَهُمْ فَوَلَغْنَ في عَلَقِ النَّجيعِ[2] الأَحْمَرِ
فهنـاك لـم يُـرَ غَيْـرُ نَجْـمٍ مُقْبِـلٍ فـي إِثْـرِ عِفْـرِيْـتٍ رجيـمٍ مُـدْبِـرِ
فَمَنِ الذي من جَيْشِهِمْ لم يُخْتَرَمْ وَمَنِ الذي مِنْ جَمْعِهِمْ لم يُؤْسَرِ[3]
حتـى لقـد بِيْعَـتْ عَقَـائِـلُ أُرْهِقَـتْ بـالسَّبْي بـالثَّمَنِ الأَخَسِّ الأَحْقَرِ
سَقـتِ المـماليكُ الكِـرَامُ مُلُوْكَهُـمْ كـأسـاً بـه سَقَـتِ اللَّئيم الهَنْفَـرِي*
وَعَجَمْـت عُـوْدَ صَلِيْبِهِـمْ فَكَسَـرْتَـهُ وسِــواكَ أَلْفـــاه صَلِيْـبَ المَكْسَـرِ
أَغْلَىٰ الأَدَاهِمَ[4] مَنْ أَسَرْتَ وأَرْخصَتْ بِيْـضُ الصَّـوارِمِ مـن نِهـابِ العَسْكَـرِ
وَجَعَلْتَ شَرْقَ الأَرْضِ يَحْسُدُ غَرْبَها بِــك فهــو داعٍ دَعْــوَةَ المُسْتَنْصِـرِ
لا يَعْـدَمَنْـك المُسْلمـون فكـم يـدٍ أَوْلَيْتَهُــمْ معــروفُهــا لــم يُنْكَـرِ
أَمَّنْـتَ سِـرْبَهُـمُ وَصُنْـتَ حـريمَهُـمْ ودَرَأْتَ عنهـم قـاصِمـاتِ الأَظْهُـرِ
مــا إنْ رآك اللّـــهُ إلا آمِـــراً فيهـم بمعــروفٍ ومُنْكَـرَ مُنْكَـرِ
متــواضعــاً لله جَــلَّ جَــلالُــه وبِـكَ اضْمَحَلَّـتْ سَطْـوَةُ المُتَكَبِّـرِ
لـم تَخْـلُ سَمْعـاً مـن هنـاءِ مُهَنِّـىءٍ للمُسْلميـن ومِـنْ سَمَـاعِ مُبَشِّـرِ
واسْتَعْظَـمَ الأخبـارَ عنـك معـاشِـرٌ فاسْتَصْغَروا ما اسْتَعْظَموا بالمَخْبَرِ
مَضَتِ الملوكُ ولم تَنَلْ عُشْرَ الذي أُوْتِيْتَــهُ مــن مَنْجَـحٍ أو مَفْخَـرِ[5]

وقال أبو الحسن علي بن السَّاعاتي[6] في فَتْحِ طبرية :

---

(١) أي يهلكون. دمر القوم دماراً: هلكوا. «اللسان» (دمر).
(٢) النجيع: الدم. «اللسان» (نجع).
(٣) في «الديوان»: قبلاً ومن مِنْ جمعهم لم يؤسر.
(٤) الأداهم جمع، مفردها: أدهم، وهو القيد. «اللسان» (دهم).
(٥) «ديوان فتيان الشاغوري» ١٤٣ ــ ١٤٧ مع بعض تقديم وتأخير في الأبيات.
(٦) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨ من هذا الجزء.

جلَتْ عَزَماتُك الفتحَ المُبيْنا ... فقد قَرَّتْ عُيونُ المُؤمنينا
رَدَدْتَ أَخِيْذَةَ[1] الإسلام لما ... غدا صَرْفُ القضاءِ بها ضَمِيْنا
وهانَ بك الصَّليبُ وكان قِدْماً ... يَعُزُّ على العواليَ أن يَهُوْنا
يقاتِلُ كلُّ ذي مُلْكٍ رياءً ... وأنت تقاتِلُ الأعداءَ دينا
غَدَتْ في وَجْنَةِ الأَيام خالاً ... وفي جِيْدِ العُلا عِقْداً ثمينا
فيالله كم سَرَّتْ قلوباً ... ويالله كم أَبْكَتْ عُيونا
وما طبريةٌ إلا هَدِيٌّ ... تَرَفَّعُ عن أَكُفٍّ اللاَّمسينا
حَصَانُ الذَّيْلِ لم تُقْذَفْ بسوءٍ ... وَسَلْ عنها اللَّياليَ والسِّنينا
فَضَضْتَ خِتامَها قَسْراً ومَنْ ذا ... يَصُدُّ اللَّيْثَ أن يَلِجَ العَرِيْنا
لقد أنكحتَها صُمَّ العوالي ... فكان نِتاجُها الحَرْبَ الزَّبُونا
منالٌ بَذَّ أَهْلَ الأَرْضِ طُرًّا ... سِوَاكَ ومَعْقِلٌ أعيا القُرونا
قَسَتْ حتى رَأَتْ كُفؤاً فلانَتْ ... وغايةُ كُلِّ قاسٍ أن يلينا
قَضَيْتَ فَرِيْضَةَ الإسلامِ منها ... وَصَدَّقْتَ الأمانيَّ والظُّنونا ٢/ ٨٥
تَهُزُّ معاطِفَ القُدْسِ ابتهاجاً ... وتُرْضي عنك مكَّة والحَجُونا
فلو أنَّ الجمادَ يطيقُ نُطْقاً ... لَنادَتْكَ ادْخُلُوها آمنينا
جَعَلْتَ صباحَ أهليها ظَلاماً ... وأَبْدَلْتَ الزَّئيرَ بها أَنينا
تَخالُ حُماةَ حَوْزَتِها نساءً ... بِمَوْضُوْنِ الحديدِ مُقَنَّعينا
لِبِيْضِك في جَماجِمِهِمْ غِناءٌ ... لذيذٌ علَّم الطَّيْرَ الحنِيْنا
تميلُ إلى المُثَقَّفةِ العَوالي ... فهل أَمْسَتْ رِماحاً أم غُصُونا
يكاد النَّقْعُ يُذْهِلُها فلولا ... بُرُوْقُ القاضِباتِ لما هُدِيْنا

---

(١) الأخيذة: ما اغتصب من شيء فأخذ، ومنه قيل للأسير: أخيذ، والأخيذة: المرأة لسبي. «اللسان» (أخذ).

فكـم حـازَتْ قُـدودُ قَنَـاك منهـا ... قُـدوداً كـالقَنَـا لـونـاً ولينـا
وغِيْـداً كـالجـآذر[1] آنسـاتٍ[2] ... كغيـد نَـدَاك أبكـاراً وعُـونـا[3]
ولمـا بـاكَـرَتْهـا منـك نُعْمَـىٰ ... بَنـانٍ تُفْضِـجُ[4] الغَيْـثَ الهَتُـونـا[5]
أعـدتَ بهـا اللَّيـالـي وهـي بِيْـضٌ ... وقـد كـانـت بهـا الأيـامُ جـونـا[6]
فليـس بعـادمٍ مـرعًـى خَصِيْبـاً ... أخـو سَغَـبٍ ولا مـاءً مَعِينـا
فـلا عَـدِمَ الشَّـآمُ وسـاكنـوه ... ظُبَـى تَشْفـي بهـا الـدَّاء الـدَّفينـا
سُهـادُ جُفُـونهـا فـي كـلِّ فَتْـحٍ ... سُهـادٌ يَمْنَـحُ الغُمـض الجُفُـونـا
فـأَلْمِـمْ بـالسَّـواحِـلِ فهـي صـورٌ ... إليـك وأَلْحِـقِ الهـامَ المُتُـونـا
فَقَلْـبُ القُـدْسِ مسـرورٌ ولـولا ... سُطـاك لكـان مكتئبـاً حـزينـا
أَدَرْتَ علـى الفـرنـج وقـد تـلاقَـتْ ... جُمـوعُهُـمُ عليـك رحـىً طَحُـونـا
ففـي بَيْسـانَ* ذاقـوا منـك بُـؤْسـاً ... وفـي صَفَـدٍ أَتَـوْك مُصَفَّـدينـا
لقـد جـاءتْهُـمُ الأَحـداثُ جَمْعـاً ... كـأَنَّ صـروفَهـا كـانَـتْ كمينـا
وخـانَهُـمُ الـزَّمـان ولا مَـلامٌ ... فلسـتَ بِمُبْغِـضٍ زمنـاً خَـؤُونـا
لقـد جَـرَّدْتَ عَـزْمـاً نـاصِـرِيًّـا ... يُحَـدِّثُ عـن سنـاه طـورُسينـا
فكنـت كيـوسـف الصِّـدِّيـق حقـاً ... لـه هَـوَتِ الكـواكـبُ سـاجـدينـا
لقـد أَتْعَبْـتَ مَـنْ طَلَـبَ المعـالـي ... وحـاول أن يسـوس المسلمينـا

---

(١) الجآذر جمع، مفردها الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. «اللسان» (جذر).
(٢) آنسات جمع، مفردها آنسة، وهي الطيبة النفس التي تحب قربك وحديثك. «اللسان» (أنس).
(٣) العون جمع، مفردها: عوان، وهي الثيب. «اللسان» (عون).
(٤) أي تسكب. «اللسان» (فضج).
(٥) الهتون: الهطول. «اللسان» (هتن).
(٦) الجون: الأسود.

وإن تـــكُ آخـــراً وخـــلاك ذَمٌّ   فـإنَّ محمـداً فـــي الآخِـرِيْنـا[1]

قال ابنُ أبي طي: حدّثني والدي حميد النَّجّار، قال: كنت بالمَوْصِل في سنة خمسٍ وخمسين وخمس مئة فزرتُ الشيخ عمر المَلاَّء[2]، فدخل إليه رجلٌ فقال: أيها الشيخ، رأيت البارحةَ في النوم كأني بأرضٍ غريبة لا أعرفها، وكأنَّها مملوءة بالخنازير، وكأن رجلاً بيده سيف، وهو يَقْتُلُ الخنازير، والناس ينظرون إليه. فقلتُ لرجلٍ: هذا عيسى ابن مريم، هذا المهدي؟ قال: لا. فقلتُ: مَنْ هذا؟ قال: هذا يوسف. ما زادني على ذلك. قال: فتعجَّبَتِ الجماعةُ من هذه الرؤيا، وقالوا: إنه سيقتل النَّصارى رجلٌ يقال له يوسف. وحَدَسَتِ الجماعة أنه يوسف بن عبد المؤمن، صاحب المغرب، وكان المستنجد بالله قد ولي الخلافة تلك السنة[3]، فَحَدَس بعضُ الجماعة عليه، قال: وأُنسيت أنا هذه الواقعة، فلما كانت سنة كسرة حطين ذكرتُها، وكان يوسفُ الملكَ النَّاصر، رحمه الله.

قال: وحدَّثني ظِئْرٌ[4] لي من نساء الحلبيين كانت تداخل أُخت السُّلْطان الملك النَّاصر، قالت: كانت والدة السلطان تخبر أنها أُتيت في نومها وهي حامل بالسُّلْطان، فقيل لها: إن في بطنك سيفاً من سيوف الله تعالى.

---

(١) «ديوان السَّاعاتي»: ٢/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨، وهي مستدركة فيه من كتابنا.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥ من الجزء الأول.
(٣) وكان اسم المستنجد يوسف. وقد سلفت ترجمته ص ١٧٧ من الجزء الثاني.
(٤) الظئر: زوج مرضعته. «اللسان» (ظأر).

فَصْــــلٌ
في فَتْحِ عَكَّا وغيرِها[1]

وهي بالألف الممدودة، ويدلُّ على ذلك أنه يقال في النسبة إليها عكَّاوي، وقد وجدتُ ذلك في شِعْرٍ قديم، ومنهم من يقول عَكَّه بالهاء، ومثل ذلك حِصْن عِرْقَه، وبعضهم يقول عِرْقا بالألف، ونهر ثَورا، وبعضهم يقول نهر ثوره، بالهاء.

قال القاضي ابن شدَّاد: ثم رحل السُّلْطان طالباً عَكَّا، وكان نزولُه عليها
٨٦/٢ يوم الأربعاء سَلْخ ربيع الآخر، وقاتلها بُكْرة الخميس مستهل جُمادى الأُولى، فأخذها، واستنقذ مَنْ كان فيها من الأسارى، وكانوا زُهاء أربعة آلاف نفر، واستولى على ما فيها من الأموال والذَّخائر، والبضائع والتجائر، فإنها كانت مظنَّة التُّجَّار، وتفرَّقت العساكر في بلاد السَّاحل يأخذون الحُصُون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابُلُس وحيفا وقَيْسارِيَّة* وصَفُّورية* والنَّاصرة، وكان ذلك لخلوّ الرِّجال بالقَتْلِ والأسر[2].

قال العماد: ورحل السلطان ظُهْر يوم الثلاثاء، والتوحيد ظاهر على التثليث، والطيِّبُ قد امتاز من الخبيث، ونزل بأرض لوبية* عشيَّةً، وأعادها بأزهار بنوده وأنوار جنوده روضةً موشية. ثم أصبح سائراً إلى عَكَّا سارًّا سِرَّه، وبارّاً بأهلِ الدِّين برَّه، وكان أمير المدينة النبوية ــ صلوات الله على ساكنها ــ في موكبه، فكأنَّ رسولَ الله ﷺ سيَّر للفقير إلى نُصْرته من يُثْرَىٰ به

---

(١) في (ك): فصل فيما يسَّر الله تعالى فتحه من البلاد بعد كسرة حطين وفتح طبرية قبل فتح البيت المقدس، فأول ذلك عكا، وهي بالألف الممدودة. . .

(٢) «النوادر السلطانية»: ٧٩.

من يَثْرِبِه، وهذا الأمير عز الدين أبو فَلِيْتة القاسم بن المهنَّا الحُسَيْني، قد وفد في تلك السنة أوان عود الحاج، وهو ذو شَيْبَةٍ تقد كالسِّراج، وما برح مع السُّلْطان مأثورَ المآثر، ميمونَ الصُّحْبة، مأمونَ المحبة، مباركَ الطَّلْعة، مشاركاً في الوَقْعة، فما تمَّ فتحٌ في تلك السنين إلا بحضوره، ولا أشرق مَطْلعٌ من النَّصْر إلا بنوره، فرأيتُه في ذلك اليوم للسلطان مسايراً، ورأيت السلطان له مشاوراً محاوراً، وأنا أسير معهما، وقد دنوت منهما ليسمعاني وأسمعهما، ولاحتْ أعلامُ عكا، وكأَنَّ بيارق الفرنج المركوزة عليها ألسنةٌ من الخوف تتشكَّىٰ، وكأن عَذَبات النِّيران[1] تصاعدت لعذاب أهلها، وقد توافرت عساكر الإسلام إليها من وَعْرِها وسهلها. ولما أشرفنا عليها مستظهرين، أيقنَّا بفتحها مستبشرين، فما كان فيها من يحميها، فما صدقنا كيف نملكها ونحويها. وظهر على السور أهلها لأجل الممانعة، والثَّبات على المدافعة، وخَفَقانُ ألويتها يُشْعِرُ بقلوبها الخافقة، وأرواح جلدهم الزَّاهقة. ووقفنا نتأمَّل طلولَها، ونؤمِّلُ حصولها، وخيَّم السلطان بقربها وراء التَّلِّ، وانبثَّتْ عساكره في الوَعْثِ[2] والسَّهْل. وبتنا تلك الليلة وقد هَزَّتنا الأطراب، ونقول: متى يجتمع الصباح والأصحاب، فما هَجَدْنا ولا غِراراً، ولا وجدنا من الفَرَح قراراً، والسلطان جالس ونحن عنده، وهو يحضُّ جُنْدَه، ويقدَحُ معهم في اقتباس الآراء زَنْدَه، ومنا من يستنجز وعده، ومنا من يستميح رِفْدَه، ومنَّا من يواصله بالدُّعاء، ومنا من يشافهه بالهناء. وأصبح يوم الخميس وركب في خميسه، ووقف كالأسد في عِرِّيسه[3]، ووقفنا بإزاء

---

(١) في الأصل: النار، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) الوعث: الطريق العسر سلوكه. «القاموس المحيط» (وعث).

(٣) العرِّيسة: الشجر الملتف، وهو مأوىٰ الأسد. «معجم متن اللغة»: ٤/٦٨.

البلد صفوفاً، وأَطْلَلْنا على أطلالِهِ وقوفاً، فخرج أهلُ البلد يطلبون الأمان، ويبذُلُون الإذعان، فآمنهم وخيَّرهم بين المُقَام والانتقال، وَوَهَبَ لهم عِصْمة الأَنْفُس والأموال، وكان في ظنِّهم أنه يستبيح دماءهم، ويسبي ذُرِّيَّتهم ونساءهم، وأمهلهم أياماً حتى ينتقل من يختار النُّقْلَة، فاغتنموا تلك المُهْلَة، وفتح الباب للخاصَّة، واستغنى بالدخول إلى البلد جماعةٌ من ذوي الخَصَاصة، فإن القوم ما صدَّقوا من الخَوْفِ المُزْعج، والفَرَق المحرج، كيف يتركون دورهم[1] بما فيها ويَسْلَمون، وعندهم أنهم إذا نجوا بأنفسهم أنهم يغنمون. فلما دخل الجُنْدُ، رَكَزَ كلٌّ على دارٍ رُمْحه، وأسام فيها سَرْحَه، فحصلوا على دورٍ أخلاها أربابها، وأموالٍ خلاَّها أصحابها، وكنا لأجل الأمان نَهابُها، فطاب لأولئك نِهابُها. وجعل السُّلْطان للفقيه عيسى الهَكَّاري كل ما كان للدَّاوية من منازل وضياع، ومواضع ورباع، فأخذها بما فيها من غِلالٍ ومَتَاع، واستخرجوا الدفائن، وولجوا المخازن، وداروا الأماكن، وكذلك مماليك الملك الأفضل وأصحابُه، وولاتُه ونوَّابُه، نبشوا المحارز، وفتَّشوا المراكز، واستباحوا الأَهراء[2]، واجتاحوا الأشياء. وكان السلطان قد فوَّض عَكَّا وضياعها، ومعاقلها وقلاعها[3]، إلى ولده الأكبر الملك الأفضل نور الدين علي.

ثم ذكر العماد أنواع ما استولوا عليه من الأموال، ثم قال: ومن جُمْلة ذلك أنهم احتاطوا بغير علمي على دارٍ باسمي، فباعوا منها متاعاً بسبع مئة دينار، وأخلوها مما كان فيها من آلاتٍ وأدخار، وقلَّدوني المِنَّة في تحصيل

(١) في الأصل: الدور، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) الأهراء جمع، مفردها الهُرْي. وهو بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان. «المعجم الوسيط»: ٢/ ٩٩٤. وانظر «خطط المقريزي» ٢/ ٢٢٩ (طبعة دار التحرير).
(٣) في الأصل: ومتاعها، والمثبت من (ك) و(ب).

تلك الدار، فإنها كانت من أنفس العَقَار، وسلَّموها إلى غلامِ صديقٍ لي ليصونَها، ويقوم بحفظها والذَّبِّ عنها والدِّفاع دونها.

فذكر أَنَّ الغلام انتفع من آلاتها بعد خلوِّها بما قيمته سبعون ديناراً، وأن الأولين نقلوا منها من الذخر أوقاراً.

قال: وإنما وصفتُ هذا لِيُعْلَمَ ما غنموه، والتهبوا على حيازته والتهموه، وتصرَّف الملك المظفر تقي الدين في دار السُّكَّر، فأفنى قُنودَها[1]، واستوعب موجودَها، ونقل قُدورها وأنقاضها، وحوى جواهِرَها وأعراضَها[2].

وقال في كتاب «الفَتْح»: وخلَّى سكانُ البلد دورهم، ومخزونهم ومذخورهم، وتركوها لمن أخذها، ونبذوا ما حووه لمن حواها وما نبذَها، وافتقر من الفرنج أغنياء، واستغنى من أجنادنا فقراء، ولو ذُخرت تلك الحواصل، وحُصِّلت تلك الذخائر، وجُمعَ لبيت المال ذلك المال المجموع الوافر، لكان عُدَّةً ليوم الشَّدائد، وعُمْدَةً لنُجْح المقاصد. فَرَتَعَتْ في خضرائها بل صفرائها وبيضائها سروح الأطماع، وطال لمستحليها ومستجليها[3] الإمتاع بذلك المتاع[4]. ٨٧/٢

قال في «البرق»: وقُرِىء على السُّلْطان ليلةً من كتاب «الفتح» ونحن

---

(١) القنود جمع، مفردها القند والقندة: عصارة قصب السكر يصب في القوالب حتى يجمد، ولا يزال إلى اليوم يعرف بالعراق بهذا المعنى. «معجم متن اللغة»: ٦٥٦/٤.

(٢) انظر «سنا البرق»: ٢٩٩ ــ ٣٠٠.

(٣) في مطبوع «الفتح»: ومستحلها.

(٤) «الفتح القسي»: ٨٩ ــ ٩٠.

بالقُدْس ـ نعني هذا المكان ـ وذلك سنة ثمانٍ وثمانين، فقال السُّلْطان: هذه رفيعة[1] على ثلاثةٍ، اثنان منهم في جوار الرَّحْمة، والآخر باقٍ في مَقَرِّ العِصْمة. يعني بالاثنين الفقيه عيسىٰ وتقي الدِّين، وبالآخر الباقي ولده نور الدين.

قال: ولَعَمْري هو كما ذكره، لكن الأفضل ما حصل له لخاصِّه[2]، بل لذوي اختصاصه واستخلاصه. وفتحوا البلد يوم الجمعة مستهل جُمادى الأُولى، فجئنا إلى كنيستها العُظْمى، فأزحنا عنها البُؤْسىٰ بالنُّعْمى، وحضر الأَجَلُّ الفاضل فرتَّب بها المِنْبر والقِبْلة، وهي أوَّلُ جمعة أقيمت بالسَّاحل بعد يوم الفتح، وكان الخطيب والإمام فيها الفقيه جمال الدين عبد اللطيف بن الشيخ أبي النَّجيب السُّهْرَوَرْدِي[3]، وولاه السُّلْطان مناصب الشَّريعة بعكَّا، تولَّى الخطابة والقضاء والحِسْبة والوَقْف[4].

ومن كتابٍ فاضلي[5] إلى بغداد بعد فتح عَكَّا يصف كسرة حطين:

(١) الرفيعة: القصة يبلغها الرجل، ويرفعها على العامل، وتسميها العامة عندنا في الشام: عريضة أو استدعاء أو عرض حال. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٦٢١.
(٢) في الأصل: الخاصة، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) ولد ببغداد سنة (٥٣٤ هـ)، وتفقه على أبيه، ثم سافر إلى خراسان، ودخل ما وراء النهر، لقي الأئمة وحصَّل، وعاد إلى بغداد، ثم خرج منها إلى الشام، فوفد على الناصر صلاح الدين، فولاه قضاء كل بلد افتتحه من السواحل وغيرها، وكان يستنيب في كل موضع نائباً، ثم رجع إلى بغداد، فأقام بها مدة، ثم سافر إلى إربل، وأقام بها إلى حين وفاته سنة (٦١٠ هـ). انظر «تاريخ إربل»: ١/ ١٧١ ـ ١٧٢، و«التكملة» للمنذري: ٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ٦٤ و«طبقات الشافعية» للسبكي: ٨/ ٣١٢، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ٦٦.
وتقدمت ترجمة أبيه وأخيه في حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٢ من الجزء الأول.
(٤) «سنا البرق»: ٣٠٠ ـ ٣٠١.
(٥) كتاب القاضي الفاضل وكتاب العماد الآتي بعده جاءا في نسخة (ك) على غير هذا =

صبَّح الخادِمُ طبرية، فاقتضَّ عُذْرَتَها بالسَّيف، وهجم عليها هجوم الطَّيف، وتفرَّق أهلها بين الأَسْر والقَتْل، وعاجلهم الأمر فلم يقدروا على الخداع والخَتْل، وجاء الملك ومن معه من كُفَّاره، ولم يشعر أن ليل الكُفْر قد آن وقتُ إسفاره، فأضْرَمَ الخادمُ عليهم ناراً ذات شَرَار، أذكرت بما أعدَّ الله لهم في دارِ القَرَار، فترجَّل هو ومن معه عن صهواتِ الجياد، وتسنَّموا هضبةً رجاء أن تنجيهم من حَرِّ السُّيُوف الحِداد، ونصبوا للملك خيمةً حمراء، وضعوا على الشِّرْك عمادها، وتولَّت الرجال حِفْظَ أطنابها فكانوا أوتادها، فأُخذ الملك أسيراً ﴿وكَانَ يَوْماً على الكافِرِيْنَ عَسِيراً﴾[1] وأُسِرَ الإبرنس ــ لعنه الله ــ فحصد بَذْره، وقتله الخادم بيده ووفَّى بذلك نَذْره، وأُسر جماعةٌ من مقدَّمي دَوْلته، وكُبراء ضلالته، وكان القَتْلى تزيد على أربعين ألفاً، ولم يبق أحدٌ من الدَّاوية، فلله هو من يومٍ تصاحب فيه الذِّئب والنَّسْر، وتداول فيه القَتْل والأسر. أصدر الخادم هذه الخدمة من ثَغْر عَكَّا، والإسلامُ قد اتَّسع مجاله، وتصرَّف أنصارُه ورجالُه، والكُفْرُ قد ثبتت أوجاله ودَنَتْ آجالُه.

قال العماد: ومن جُملة البشائر بكسرة حطِّين: ولما أُحيط بالقوم آوىٰ ملكهم إلى جبلٍ يَعْصِمُهُ من العَوْم، فأسمَعَهُ السيف لا عاصم اليوم، واستولى الخِذْلان عليهم بأَسْرِهم، وبَرُدَتْ أيدي المؤمنين بِحَرِّ قتلهم وأَسرهم، ولم يبق لهم باقية، وغصَّت بقتلاهم في الدُّنيا والآخرة أرضُ الله الواسعة، ونار الله الحامية، فما يَطَأُ من يصل إلى خيمنا[2] إلا على رممهم البالية،

= الترتيب، كتاب العماد أولاً، ثم كتاب الفاضل، وهما بعد فصل فتح نابلس الآتي ص ٣١٤، وقد تابعنا ما جاء في الأصل.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٦.

(٢) في (ك): مخيمنا.

وأُسر الملك وأخوه، وبارونيَّته ومقدَّموه، ولم يفلت منهم إلا القومص وهو مسلوب، ولا بُدَّ أن ندركه فهو مطلوب. وقد كنا نذرنا ضَرْبَ رقبة الإبرنس صاحب الكَرَك* الغَدَّار، كافر الكُفَّار، ونشيدة النَّار. فلما رأيناه ضربنا عُنُقَه سريعاً، وسرنا إلى عكَّا وهي بيضةُ مُلْكهم، وواسطة سِلْكهم، ومركزُ دائرة كُفْرهم، ومجمع جمع بَرِّهم وبَحْرهم، فتسلَّمناها بالأمان، والصخرة المقدَّسة الآن، بنا تصرخ وتستغيث، وعبادُ الله الصَّالحون قد وَصَلَتْ إليهم بوعد الله الصَّادق المواريث، والبشارة بفتح القدس لا تتأخَّر، والهِمَمُ بعد هذا الفتح السَّني على ذلك تتوفَّر، والحمد لله الذي تتمّ الصَّالحات بحمده ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ للنَّاسِ من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ له مِنْ بَعْدِهِ﴾(١).

فَصْـــل(٢)

في فَتْح نابُلُس وجُمْلة من البلاد السَّاحلية بعد فتح عكا وطبريَّة، وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك

قال العماد: أقام السلطان أياماً بباب عَكَّا بعد فتح عكا، على التَّل(٣) مخيماً، وعلى فَتْحِ سائر بلاد السَّاحل مُصَمِّماً. وكان قد كتب إلى أخيه العادل بمصر بما فتحه الله عليه، فوصل بعسكره، وفتح في طريقه حصن

(١) سورة فاطر، الآية: ٢.

(٢) في (ك) فصل في فتح عدة من البلاد غير ما تقدم، وقد جاء هذا الفصل في (ك) و(ب) عقب خبر تولي الشيخ عبد اللطيف السهروردي مناصب الشريعة بعكا، وقبل كتاب القاضي. انظر ص ٣١٢ من هذا الجزء.

(٣) في الأصل: النيل، والمثبت من (ك) و(ب).

مَجْدَل يابا*، ومدينة يافا* عَنْوَةً، فقصده من عسكرنا القُصَّاد، ووفد إليه الوُفَّاد، وأمره السُّلْطان أن يقيم في ذلك الجانب جامعاً للكتائب، ليجتمع به الواصلون من مصر، الآملون معه النَّصر.

قال: وتوجَّه عِدَّة من الأمراء والعسكرية إلى النَّاصرة* وقَيْسارية* والبلاد المجاورة لعَكَّا وطبرية*، ومضى كلُّ فريقٍ في صَوْب، وآبوا بالغنيمة والسَّبْي خَيْرَ أَوْب.

قال: فأما الفُولَة*، فهي قلعة للدَّاوية* حصينة، وفيها ذخائرهم، فلما خرج الدَّاوية منها وقُتلوا، لم يبق فيها إلا أتباع وغِلْمان، فسلَّموها وجميعَ ما يجاورها كدَبُّورِيَة* وجِيْنِين* وزِرْعين* والطُّور*.

وزاد في كتاب «الفتح»: واللَّجُّون* وبَيْسان* والقَيْمون*، وجميع ما لعَكَّا وطبرية من الولايات، والزِّيب* ومَعْلَيَا* والبعنة وإسكندرونة* ومَنْواث*[1].

قال: وتوجَّه مظفر الدين كُوكُبُري إلى النَّاصرة، فاستباحها، وصَفِرَتْ صَفُّورِيَة* من سُكَّانها، وتوجه بدر الدين دَلْدُرُم وغرس الدين قليج وجماعةٌ من الأمراء إلى قَيْسارِيَّة* فافتتحوها بالسَّيْف، وتسلمت بعدها حيفا وأَرْسُوف*، واستولى على تلك الشموس والأقمار الكُسُوف والخُسوف، ٨٨/٢
وحيفا بين عَكَّا وقَيْسارِيَّة على البحر.

قال: وأما نابُلُس فإن أهل ضياعها ومعظم أهلها كانوا مسلمين، وفي سِلْك الرَّعِيَّة مع الفرنج منتظمين، وهم يجبون كلَّ عام منهم قراراً،

---

(١) «الفتح القسي» ٩٧ ــ ٩٨.

ولا يغيِّرون لهم شَرْعاً ولا شعاراً، فلما عرفوا كسرتهم، وأنهم لا يرجون جبرهم، خافوا من مساكنة المسلمين، فتفرَّقوا، وكبسهم أهلُ الضياع في الدُّور والرباع، وغنموا ما وجدوه من الذَّخائر والمتاع، وأوقعوا بضعفائم وضايقوا الحصون على أقويائهم، وطلبها من السُّلْطان ابنُ أُخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو عزيز عند خاله، مليءٌ بفَضْله وإفضاله، فأقطعه السُّلْطان نابُلُس وأعمالها، وضياعها ونواحيها وقلاعها، فتوجَّه إليها بعسكره، فأوَّل ما أناخ على سَبَسْطِيَة*، وبها مشهد زكريا عليه السلام، وقد اتخذه الأقسَّاء كنيسةً منذ فارقه الإِسلام، وهو متعبَّدُهُم المُعَظَّم، والمشهد المكرَّم، وقد حجبوه بالأستار، وحلُّوه بالفِضَّة والنُّضار، وعيَّنوا له مواسم الزُّوَّار، وقَوَمَتُه من الرَّهابين فيه مقيمة، ولا يُؤْذَن في الزِّيارة إلا لمن معه هدية لها قيمة، فدخله وحوى ما فيه، وأبقى ما لا يحسن أن يخلو من مثله المسجد، وفتح للمسلمين أبوابه، وأظهر للمصلِّين محرابه. ثم سار إلى نابُلُس ففتحها بالأمان، واستمال من سُكَّانها من صرف عليه الجِزْية بعد زمان، وأجراهم على مالهم من العمارة والبنيان، وبقيت بيده إلى آخر عهده، وعمرت بعدله ورِفْده.

قال العماد: وأنشدتُه يوم فتح القُدْس قصيدةً، أوَّلها:

استوحش القَلْبُ مُذْ غِبْتُمْ فما أَنِسا ... وأَظْلَمَ اليومُ مذ بِنْتُمْ فما شَمَسا
ما طِبْتُ نَفْساً ولا استحسنْتُ بعدَكُمُ ... شيئاً نفيساً ولا استعذَبْتُ لي نَفَسا
قَلْبي وصبري وغَمْضي والشَّبابُ وما ... أَلِفْتُمُ من نشاطي كلُّه خُلِسا
وكيف يُصْبِحُ أو يُمْسي مُحِبُّكُمُ ... وشَوْقُكُمْ يتولاَّه صَباحَ مسا
عادت معاهِدُكُمْ بالجزع دارسةً ... وإن مَعْهَدَكُمْ في القَلْب ما دَرَسا
وكنتُ أَحْدِسُ منكم كُلَّ داهيةٍ ... وما دهانا من الهِجْران ما حُدِسا

لما هدت نارُ شوقي ضيفَ طيفكمُ قَـرَيْتُـه بـالكَـرَى إذْ زار مُقْتَبِسـا
ورمـتُ تَـمأْنيسـه حتـى وَهَبْـتُ لـه إنسـانَ عينـيَ أَفْـدِيـهِ فمـا أَنِسـا
أنـا الخيـالُ نُحـولاً فـالخيـالُ إذا ما زارني كيف يَلْقَىٰ مَنْ بِهِ التَبَسا
لَهْفـي علـى زَمَـنٍ قَضَّيْتُـهُ طَـرَبـاً إذ لم أكن من صُروفِ الدَّهْرِ مُحْتَرِسا
عسى يعـودُ شبـابي نـاضـراً ومتى أرجـو نَضَـارَةَ عُـوْدٍ للشَّبـاب عسىٰ
وشـادنٍ يَفْـرِسُ الآسـادَ نـاظِـرُهُ فَـدَيْتُـه شـادنـاً لـلأُسْـدِ مُفْتَـرِسا
في العِطْفِ لينٌ وفي أخلاقِهِ شَوَسٌ[1] يـا ليـنَ عِطْفِيـه جَنِّبْ خُلْقَـه الشَّـوَسَا

ومنها:

إنَّ نـابَ لَبْـسٌ[2] مضينـا لاجئيـنَ إلـى الـ ـفَتَـىٰ الحسـام ابـنِ لاجيـنَ بنـابُلُسـا
يميـتُ أعـداءه بـأْسـاً ونـائِلُـه يُحْيي رجاءَ الذي مِنْ نُجْحه أَيِسا
ممـزَّق المـازق المنسـوج عِثْيَرُه[3] وقد محا اليوم ليل النَّقْعِ فانطمسا
لا زلـتَ مستـويـاً فـوْقَ الحِصـانِ وفـي حِصْـنِ الحفـاظِ ومـن عاداك مُنْتَكِسا[4]

وهي طويلة، وقد تقدَّمت منها أبيات في وَصْفِ كسرة حِطِّين[5]، وسيأتي منها أيضاً أبيات عند فتح القدس في مدح السُّلْطان صلاح الدين[6]، رحمه الله.

ومن كتابٍ عن السُّلْطان إلى سيف الإسلام أخيه: كاتبنا أخانا العادل

---

(١) الشوس: الكبر. انظر «اللسان» (شوس).
(٢) اللبس: اختلاط الأمر. «اللسان» (لبس).
(٣) العثير: التراب، العجاج الساطع. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٢٧.
(٤) «سنا البرق»: ٣٠٢ ـ ٣٠٣.
(٥) انظر ص ٣٠١ من هذا الجزء.
(٦) انظر ص ٣٦٣ ـ ٣٦٤ من هذا الجزء.

أن يدخل بالعَسْكر المِصْري من ذلك الجانب، فلما بُشِّر بكسر الفرنج، وفَتْحِ عكًّا وطبرية كان قد وصل إلى السَّواد*، فجاز العريش* وزار الدَّاروم*، وأجفلت قُدَّامه البلاد، ووصل إلى يافا، ففتحها عَنْوَةً، ثم حصر مجدل يابا*، فطلبت منه الأمان.

وقد اشتمل الفَتْحُ على البلاد المعيَّنة، وهي: طبرية*، عكا*، الزِّيب*، مَعْلَيَا*، إسكندرونة*، تِبْنِين*، هُونين*، النَّاصرة*، الطُّور*، صَفُّـوريَـة*، الفُـولـة*، جِينيـن*، زِرْعِيـن*، دَبُّـورِيَـة، عَفْـرَبَـلا، بَيْسـان*، سَبَسْطِيَة*، نابُلُس*، اللَّجُّون*، أريحا*، سِنْجِل*، البِيْرة*، يافا، أَرْسُوف*، قَيْسارِيَّة*، حيفا*، وصَرْفَنْد*، صَيْدا*، بيروت، قَلْعة أبي الحسن*، جُبيل*، مجدل يابا*، جبل الجليل*، مجد حباب، الدَّاروم*، غزَّة، عَسْقَلان*، تل الصَّافية*، التل الأحمر، الأُطْرُون*، بيت جبريل*، جبل الخليل*، بيت
٨٩/٢ لَحْم، لُدّ*، الرَّمْلة*، قَرَتَيَا*، القُدْس، صُوْبا، هُرْمُز*، سَلْع*، عِفرىٰ*، الشَّقيف*.

قال: ولم نذكر ما تخلَّلها من القُرَى والضِّياع، والأبراج الحصينة الجارية مجرى الحصون والقلاع، ولكلٍّ واحدةٍ من البلاد التي ذكرناها أعمال وقرى ومزارع، وأماكن ومواضع، قد جاس المسلمون خلالها، واستوعبوا ثمارها وغلالها.

قال العماد: ومما أنشأته [في هذا التاريخ](١) من شرح الفتوح، وكتبتُ به إلى الديوان، وبدأت بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُوْرِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عبادِيَ الصَّالحون﴾(٢) الحمد لله على ما أنجز من هذا

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٥.

الوعد، وعلى نُصْرَتِهِ لهذا الدِّين الحنيف من قَبْلُ ومن بَعْد، وجعل بعد عُسْرٍ يُسراً، وقد أحدث الله بعد ذلك أمراً، وهوَّن الأمر الذي ما كان الإِسلام يستطيع عليه صبراً، وخُوطب الدين بقوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾[١] فالأولى في عَصْرِ النبي ﷺ والصَّحابة، والأُخرى هذه التي عَتَقَ فيها من رِقِّ الكآبة، فهو قد أصبح حُرّاً رَيَّانَ الكبد الحَرَّىٰ، والزَّمان كهيئته استدار، والحق ببهجته قد استنار، والكُفْرُ قد رَدَّ ما كان عنده من المُسْتعار. فالحمد لله الذي أعاد الإِسلام جديداً ثَوْبُه بعد أن كان جذيذاً[٢] حَبْلُه، مبيضّاً نَصْرُه، مُخْضَرّاً نَصْلُه، مُتَّسِعاً فَضْلُه، مجتمعاً شَمْلُه.

والخادمُ يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم، والنَّصر الكريم ما يَشْرَحُ صدور المؤمنين، ويمنح الحبور لكافَّة المسلمين، ويورد البُشْرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثَّالث والعشرين من [شهر][٣] ربيع الآخر إلى يوم الخميس منسلخه، وتلك سبع ليال وثمانية أيام حُسوماً[٤]، سخَّرها الله على الكفار ﴿فتَرَىٰ القَوْمَ فيها صَرْعى، كأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خاوية﴾[٥] وإذا رأيتَ ثَمَّ رأيت البلاد على عُروشِها خاوية[٦]، ورأيتَها إلى الإِسلام ضاحكة، كما كانت من الكُفْر باكية، فيوم الخميس الأول فُتحت طبرية*، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنجُ، فكُسِرُوا الكسرة التي مالهم بعدها[٧] قائمة، وأَخَذَ الله

(١) سورة طه، الاية: ٣٧.

(٢) الجذيذ: المقطوع. الجذ: القطع. «اللسان» (جذذ).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) الأيام الحسوم: الدائمة في الشر خاصة. والحسوم: الشؤم، وأيام حسوم: وضعت بالمصدر: تقطع الخير أو تمنعه، وقيل: المتوالية في الشر. «اللسان» (حسم).

(٥) سورة الحاقة، الآية: ٧.

(٦) في الأصل: خالية، والمثبت من (ك).

(٧) في الأصل: التي بعدها ما لهم قائمة، والمثبت من (ك).

أعداءه بأيدي أوليائه أَخْذَ القُرَىٰ وهي ظالمة. وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فُتحت عَكّا بالأمان، ورُفِعَتْ بها أعلامُ الإيمان، وهي أُمُّ البلاد، وأُخت إرم ذات العِماد. وقد أصدر هذه المطالعة وصليبُ الصَّلبوت مأسور، وقَلْبُ ملك الكُفْر الأسيرِ بجيشه المكسورِ مكسورٌ، والحديد الكافر الذي [كان][1] في يد الكُفْر يَضْرِبُ وجه الإسلام، قد صار حديداً مُسْلماً يُعَوِّقُ خُطُوات الكفر عن الإقدام، وأنصار الصليب وكباره، وكلٌّ من المَعْمُودِيَّة عُمْدتُه والدَّيْرُ داره، قد أحاطت به يد القبضة، وغَلِقَ رَهْنُه[2] فلا يقبل فيه القناطير المقنطرة من الذهب والفِضَّة، وطبرية قد رُفعت أعلامُ الإسلام عليها، وَنَكَصَتْ من عكا مِلَّةُ الكُفْر على عَقبيها، وعُمِّرت إلى أن شَهِدَتْ يوم الإسلام وهو خَيْرُ يوميها. وقد صارت البِيَعُ مساجدَ يَعْمُرُها من آمن بالله واليوم الآخر، وصارت المذابح مواقفَ لخطباء المنابر، واهتزَّت أرضُها لموقف المسلم فيها وطالما ارتجَّت لموقف الكافر. فأما القَتْلى والأَسْرى فإنها تزيد على ثلاثين ألفاً، وأما فرسان الدَّاوية* والاسبتار* فقد أمضى حُكْمَ الله فيهم، وقَطَعَ بهم سوق[3] نار الجحيم، ورَحَلَ الرَّاحلُ منهم إلى الشَّقاء المقيم، وقتل الإبرنس كافرَ الكُفَّار، ونشيدة النَّار،مَنْ يَدُه في الإسلام كما كانت يَدُ الكليم.

والبلاد والمعاقل التي فُتِحت: طبريَّة*، عَكّا*، النَّاصرة*، صَفُّورِيَة*، قَيْسارِيَّة*، نابُلُس*، حَيْفا*، معْلَيَا*، الفُولة*، الطُّور*، الشَّقيف*، وقلاع بين هذه كثيرة. والملك المُظَفَّر تقي الدين ــ ظَفَّره الله ــ مضايق لصور*،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.

(٣) في (ك) سيوف.

وحِصْن تِبْنين*، والأخ العادل سيف الدين ـ نصره الله ـ قد كوتب بالوصول بمن عنده من العساكر، وينزل في طريقه على غَزَّة* وعَسْقلان*، ويجهِّز مراكب الأسطول المنصورة إلى عكَّا، وما يتأخر النهوضُ إلى القدس، فهذا هو أوانُ فتحه، ولقد دام عليه ليلُ الضَّلال، وقد آن [أن][1] يُسْفِرَ فيه الهُدَى عن صُبْحه.

فَصْــل

في فَتْحِ تِبْنين وصَيْدا وبيروت وجُبيل وغيرها، ومجيء المركيس إلى صور

قال العماد: أرسل السُّلْطانُ إلى تِبْنِين* ابنَ أخيه تقي الدين، فضايقها، وكتب إلى السُّلْطان أن يأتيه بنفسه، فوصل إليها في ثلاث مراحل، ونزل عليها يوم الأحد حادي عشر جُمادى الأُولى، فراسلوا السلطان، وسألوا الأمان، واستمهلوا خمسةَ أيام لينزلوا بأموالهم، فأُمهلوا، وبذلوا رهائن من مُقَدَّميهم، ووفوا بما بذلوا، وتقرَّبوا بإطلاق الأسارى من المسلمين، فخرج الأسارى[2] مسرورين، فَسُرَّ بهم السلطان وسَرَّبهم[3]، وأقَرَّهم وقرَّبهم، وكساهم وحباهم، وآتاهم بعد رَدِّهم إلى مغانيهم غناهم، وهذا دأبه في كلِّ بلدٍ يفتحه، ومُلْكٍ يربحه، أنه يبدأ بالأُسارى فيفكُّ قيودها، ويُعيد بعد عدمها وجودها، فَخَلَصَ تلك السنة من الأسر أكثرُ من عشرين ألف أسير، ووقَعَ في أَسْره من الكُفَّار مئة ألف، ولما خلُّوا القلعة، وأخلوا البُقْعة سيَّرهم ومعهم

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك) و(ب) المأسورون.

(٣) أي أرسلهم سرباً سرباً. «اللسان» (سرب).

من العسكر المنصور، من أوصلهم إلى صور*، وتسلَّمها يوم الأحد الثَّامن عشر من جُمادى الأُولى، وكان شَرَطَ عليهم تسليم العُدَد والدَّوابِّ والخزائن[1].

وقال القاضي ابن شَدَّاد: فتحها السلطان عَنْوَةً، وكان بها رجالٌ أبطال
٢/٩٠ شديدون في دينهم، فاحتاجوا إلى معاناةٍ شديدة، ونصره الله عليهم، وأَسَرَ من بقي بها بعد القتل، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا*، فنزل عليها، ومن الغد تسلَّمها، وهو يوم الأربعاء الحادي والعشرون[2].

قال العماد: سَنَحَتْ له صيدا فتصدَّى لِصَيْدِها، وكانت هِمَّتُه في قيدها، وبادرها إشفاقاً من مكر العُدَاة وكيدها. ووصلنا في يومين إلى صيدا، إلى مَنْهَلِ فَتْحِها صادِين[3]، وعن حِمى الحقِّ دونها لأهل الباطل صَادِّين، ولما نزلنا من الوَعْر إلى السَّهْل، سَهُلَ ما تَوَعَّر، وصفا من الأمر ما ظُنَّ أنه تكدَّر، فَصَرَفْنا الأعِنَّة إلى صَرْفَنْد*، وهي مدينةٌ لطيفة على السَّاحل، موروده المناهل، ذات بساتين وأشجار، ورياحين وأزهار، فأخذناها، وخَيَّمْنا على صَيْدَا، وقد جاءت رُسُلُ صاحبها بمفاتيحها، وقد طلعت الرَّاية الصَّفْراء على أسوارها[4]، وأقيمت بها الجمعة والجماعة، واستديمت بها بدل[5] العصيان لله الطَّاعة. ثم سار في يومه على سَمْتِ بيروت، فنزل عليها يوم الخميس، وضايقها وحاصرها ثمانية أيام، ثم طلبوا الأمان، فأمَّنهم،

---

(١) «سنا البرق»: ٣٠٤.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٨٠.

(٣) أي عطاش. الصدى: العطش. «القاموس المحيط» (صدي).

(٤) كانت راية صلاح الدين صفراء اللون. انظر ص ٤٥٧ من الجزء الثاني.

(٥) في (ك) بعد.

وتسلَّمها يوم الخميس التاسع والعشرين من جُمادى الأولى.

ومرض العماد، فأملى كتاب صُلْح بيروت، ورجع إلى دمشق للمداواة، ثم وجد الشِّفاء، وعاد إلى السلطان يوم فتح القُدْس كما سيأتي[1].

قال: وسُلِّمت بيروت بحضوري، فكان من سبب إبلالي سروري بفتحها وحُبوري، وخرج منها ومن قلعتها الفرنج، وامتلأ بهم إلى صور النَّهج، وعاد الإسلام الغريبُ فيها إلى وطنه، وتوطَّن الدين بها في مأمنه، وسكن في مسكنه.

وأما جُبيل*، فإن صاحبها أوك كان في جُمْلة من نُقِلَ إلى دمشق مع الملك الأسير، فضاق ذَرْعاً بسجنه الذي تعجَّل له فيه عذابُ السَّعير، فتحدَّث مع الصَّفي بن القابض في أمره[2]، وباح إليه بسرِّه، وقال: مالكم في أسري فائدة، ولا غنيمة على فَتْح جُبيل زائدة، وأنا أُسلِّمها بشرط سلامتي، فخذوها ولا تقعدوني، فقد قامت قيامتي. فأنهى الصَّفِيُّ حالَه، واستصوب ما قاله، فأمر بإحضاره في قيده، والاحتراز من كيده، فَوُصِلَ به ونحن على بيروت، فسلَّم جُبيل وسَلِمَ، وَرَبِحَ نجاته وغَنِمَ، ومضى إليها من تولاَّها، وانسلَّ منها صاحبها وسلاها، وتَبِعَها فَتْحُ بيروت وتلاها، فانتظمت هذه البلاد المتناسقة بالسَّاحل في سِلْكٍ من الفتوح مُتَّسق، وأمرٍ من الاستقامة متَّفِق. وكان معظم أهل صيدا وبيروت وجُبيل مسلمين مساكين، لمساكنة الفرنج مُستَسْلمين، فذاقوا العِزَّة بعد الذِّلَّة، وفاقوا الكَثْرة بعد القِلَّة، وصدقت البشائر، وصَدَحَتِ المنابر، وظهر عَيْبُ البِيَع، وشُهِرَ جَمْعُ الجُمَع، وقُرِىء

---

(١) انظر ص ٣٤٥ ــ ٣٤٦ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) أسره.

القرآن، واستشاط الشيطان، وخَرِسَتِ النَّواقيس، وبَطَلَتِ النواميس، ورفع المسلمون رؤوسهم، وعَرَفوا نفوسهم. وكان كلُّ من استأمن من الكُفَّار يمضي إلى صور محميَّ الذِّمار، فصارت صور عُشَّ غِشِّهم، وَوَكْرَ مَكْرهم، وملجأ طريدهم، ومنجىٰ شريدهم، وهي التي فَرَّ القومص إليها يوم كسرتهم، بل يوم حَسْرتهم. ولما عرف القومص قُرْبَ السُّلْطان منها أخلاها وخلاَّها، وآوىٰ إلى طرابلس وثواها، فما مُتِّعَ بما ملك، وكان كما قيل:

راح يَبْغـــــي نَجْـــوَةً مِـــنْ هَـــلاكٍ فَهَلَـــكْ[1]

وتعوَّضت صور عن القومص بالمركيس، كما يتعوَّض عن الشَّيطان بإبليس، فأدرك ذَماء[2] الكُفْر بعدما أشفى، وأيقظ رُوْعَ الرَّوْعِ بعدما أَغْفى، وضبط صور بمن فيها من مهزومي الفرنج ومنفيِّها.

وكان المركيس من أكبر طواغيت الكُفْر وأغوى شياطينه، وأَضْرَىٰ سراحينه[3]، وأخبث ذئابه، وأنجس كلابه، وهو الطَّاغية الدَّاهية، الذي خُلِقَتْ له ولأمثاله الهاوية، ولم يكن وصل إلى السَّاحل[4] قبل هذا العام، واتفق وصوله إلى ميناء عَكَّا، وهو بفتحها جاهل، وعَمَّن فيها من المسلمين ذاهل، فعزم على إرساء الشيني* بالمينا، ثم تعجَّب، وقال: ما نرىٰ أحداً من أهلها يلتقينا! ورأى زِيَّ النَّاس غير الزيِّ الذي يعرفه، فارتاب وارتاع، وحدث عن الدخول توقفه، وبان تَنَدُّمُه وتأخَّر تقدُّمُه، وسأل عن الحال فأُخبر

---

(١) هذا البيت من جملة أبيات في «الحماسة» يروى أنها لأم تأبط شراً. ، ويقال لأم السليك بن سلكة. انظر «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي: ٢/ ١٩١ (الطبعة البولاقية) والمرزوقي: ٢/ ٩١٤ ــ ٩١٨، و«العقد»: ٣/ ٢٦١.

(٢) الذماء: بقية الروح في المذبوح. «اللسان» (ذمي).

(٣) السِّرْحان: الذئب. «القاموس المحيط» (سرح).

(٤) في الأصل: السُّلْطان، وهو تحريف، والمثبت من (ك و(ب).

بها، ففكَّر في النجاة والهواء راكد، والقضاء عنه راقد، فإنَّه لو خرج إليه مركبٌ لأخذه، ولو وقف له قاصدٌ لوقذه[1]، فاحتال كيف يخرج بسفينته، ولا يدخل مع فَقْدِ سكينته، فسأل عن متولِّي البلد، وقال: خذوا لي منه أماناً حتى أدخل، وأرفع ما معي من المَتَاع وأنقل. فجيء إليه من الأفضل بالأمان، فقال: ما أثق إلا بخطٍّ يده، ولا أنزل إلا بعهده إلى بلده. وهو ينتظر هُبوب الرِّيح الموافقة، فما زال يردِّدُ الرسل، ويدبِّر الحِيَلَ حتى وافقته الرِّيح فأقلع، وأُفلت من الشَّرَك بعدما وقع، وصار في صور، فَزَمَّ الأمور، وجَرَّأ الكُفْرَ بعد خَوَره، وبَصَّر الشَّيطان بعد عماه وعَوَره، وأرسل رُسُلَه إلى الجزائر وذوي الجرائر، يستعدي ويستدعي، ويستودع مِلَّة الصَّليب عُبَّاده ويسترعي، ويستثير ويستزير، ويستنفر ويستنصر. وثبت في صور ونَبَتَ، وجمع إليه من الفرنج من تَشَتَّتَ، ومافُتح بلدٌ بالأمان إلا سار أهله في حِفْظ السلطان حتى يصيروا بصور، ويأمنوا المحذور، فاجتمع إليها أهلُ البلاد ٢/٩١
المفتوحة، بالقلوب المقفلة المغلقة المقروحة، فامتلأت وكانت خالية، وانتشأَت[2] وكانت بالية، وتَعَلَّلتْ وكانت مُعْتَلَّة، وتعقَّدت وكانت مُنْحَلَّة، ولم يحتفل بها فأَخَّر فتْحَها، فاستجدت رمقاً بالمهلة، وتصعَّبت بعد مقادتها السَّهْلة، وألهى عن طلبها طلبُ ما هو أشرف، وهو البيت المقدَّس، فإن فتحه من كلِّ فَتْح أنفس، والمركيس في أثناء ذلك يحفر الخَنْدَق ويُحْكِمُه، ويَعْقِدُ المَوْثِقَ ويُبْرِمُه، ويجمعُ المتفرِّق ويَنْظِمُه[3].

---

(١) الوقذ: شدة الضرب. «اللسان» (وقذ).
(٢) في الأصل: وانتاشت، أي استدركت واستنقذت. «اللسان» (نوش) والمثبت من (ك) و(ب)، ويعني: تجددت. «المعجم الوسيط»: ٢/٩٢٨.
(٣) «سنا البرق»: ٣٠٦.

فصـــل
في فَتْحِ عَسْقلان وغَزَّة والدَّاروم وغيرها

قال العماد: لما فرغ السُّلْطان من فتح بيروت وجُبيل* ثنى عنانه عائداً على صَيْدا* وصَرْفَنْد، وجاء إلى صور* ناظراً إليها، وعابراً عليها غير مكترثٍ بأمرها، ولا متحدِّثٍ في حصرها، ودلَّته الفِراسة على أن محاولتها تصعب، ومزاولتها تتعب، وليس بالسَّاحل بلد منها أحصن، فعطف الأَعِنَّة إلى ما هو منها أهون. وكان قد استحضر ملك الفرنج ومقدَّم الداوية في قيودهما، وشرط معهما، واستوثق منهما أن يطلقهما من الأسر والبَلِيَّة، متى تمكَّن بإعانتهما من البلاد البقِيَّة، وعَبَرَ والعيون صورٌ إلى صور*، وما شكَّ المركيس أنه بها محسور محصور، فلما أرخى من وَثَاقه، واتَّسع ضيقُ خِناقه، حَلَّق في مطار أوطاره، وحرَّك لغُواته أوتار أوتاره. واجتمع السلطان بأخيه العادل، واتفقا على طَيِّ المراحل، ونَشْر القَساطل، فنزل على عسقلان يوم الأحد سادس عشر جُمادى الآخرة، وشديدها قد لان، فتجلَّد من بها على الحصار، وتربَّصوا وتصبَّروا، فنصب السلطان عليها مجانيق، ورماهم بها، وجَسَرَ النُّقَّاب، فَحَسَرَ النِّقاب، وباشر الباشورة*، فَرَفَع الحِجاب، واشتدَّ القتال، واحتدَّ المصال. وراسلهم عند ذلك الملكُ المأسور، وقال: قد بان عُذْرُكم حين نُقِبَ السُّور. وجرت حالات، وتكرَّرت حوالات، وتردَّدَتْ رسالات، وقال لهم الملك الأسير: لا تخالفوا ما به أشير، واحفظوا رأسي فهو رأسُ مالكم، ولا تُخْطِروا غيري ببالكم، فإني إذا تخلَّصتُ خلَّصْتُ، وإذا استُنْقِذْتُ استَنْقَذْتُ. وخرج مقدَّمون وشاوروا الملك، ونهجوا في التسليم نهجاً سُلِك، وسلَّموا عَسْقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، واستوفوا بذلك الميثاق واليمين، وذلك يوم السبت

لانسلاخ جُمادى الآخرة، وخرجوا بنسائهم وأموالهم. وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الكُبَراء حسام الدين إبراهيم بن حسين المِهْرَاني، وهو أول أميرٍ افتتح بالشهادة، واختتم بالسَّعادة.

وكان السُّلْطان قد أخذ في طريقه إليها الرَّمْلة*، ويُبْنَىٰ* وبيت لحم* والخليل*، وأقام بها حتى تسلَّم حصون الدَّاوية: غزة* والنطرون* وبيت جبريل*. وكان قد استصحب معه مقدَّم الدَّاوية، وشَرَط معه أنه متى سَلَّم معاقلهم أطلقه[1]، فسلَّم هذه المواضع الوثيقة لما أخذ مَوْثِقَه، كذا قال العماد في كتاب «الفتح»[2].

وقال في كتاب «البرق»: وما بَرِحَ السُّلْطان مقيماً بظاهر عسقلان حتى تسلَّم المعاقل المجاورة لها، والبلاد.

فذكر الدَّاروم*، وغَزَّة*، والرَّمْلة*، ويُبْنىٰ*، وبيت لحم*، ومشهد الخليل عليه السلام*، ولُدّ*، وبيت جبريل*، والنّطرون[3].

قال ابنُ شَدَّاد: ولما فرغ بالُ السُّلْطان من هذا الجانب ــ يعني ناحية بيروت ــ رأى قصد عسقلان، ولم ير الاشتغال بصور، بعد أن نزل عليها ومارسها، لأن العسكر كان قد تفرَّق في السَّاحل، وذهب كلُّ إنسانٍ يأخذ لنفسه شيئاً، وكانوا قد ضرسوا من القتال، وملازمة الحرب، وكان قد اجتمع في صور ــ يَسَّر الله فتحها ــ كلُّ فرنجي بقي في السَّاحل، فرأى قصد عَسْقلان لأن أمرها كان أيسر، وتسلَّم في طريقه مواضع كثيرة كالرَّمْلة ويُبْنىٰ

(١) في الأصل: أطلقهم، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) «الفتح القسي»: ١١٢ ــ ١١٤.
(٣) «سنا البرق»: ٣٠٨.

والدَّاروم، فأقام عليها المنجنيقات، وقاتلها قتالاً شديداً، وتسلَّمها سَلْخ جمادى الآخرة، وأقام عليها إلى أن تسلَّم أصحابه غَزَّة وبيت جبرين والنطرون بعد قتال.

قال: وكان بين فتح عسقلان وأخذ الفرنج لها من المسلمين خمس وثلاثون سنة، فإن العدوَّ ملكها في السَّابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وأربعين وخمس مئة(١).

وذكر ابنُ القادسي(٢) نسخةَ كتابٍ كتبه السُّلْطان إلى بعض أهله، وفيه: انتقلنا إلى الجانب الذي فيه القدس وعَسْقلان، ففتحنا قلاعه كلَّها، وحصونَه جميعها، ومعاقلَه بجملتها، ومُدُنَه بأسرها: حيفا*، وقَيْسارِية*، وأَرْسُوف*، ويافا*، والرَّمْلة*، ولُدّ*، وتل الصَّافية*، وبيت جبريل*، والدَّيْر، والخليل*، ونازلنا عسقلان، وهي المَعْقِل المنيع، والحصن الحصين، والتل الرَّفيع، وفيهم من القوة والعُدَة والعَدَد ما تتقاصر الآمال عن نَيْل مثلها، فافتتحناها سِلْماً لتمام أربعة عشر يوماً من يوم نزولنا عليها، ونُصِبَتْ أعلامُ التوحيد على أبراجها وأسوارها، وعُمِرَتْ بالمسلمين، وَخَلَتْ من مشركيها وكُفَّارها، وكَبَّر المؤذِّنون في أقطارها، ولم يبق في السَّاحل من جُبيل إلى أوائل حدود مصر سوى القُدْس وصور، والعَزْمُ مصمِّم على قَصْد القدس، فالله يُسَهِّلُه ويُعَجِّلُه، فإذا يسَّر الله تعالى فَتْحَ القُدْس مِلْنا إلى صور، والسَّلام.

وفي كتابٍ آخر تقدَّم ذِكْرُ بعضه قال: وقد تفرَّق العسكر قومٌ إلى

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٨٠ ــ ٨١.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

القدس، وابن زين الدِّين وتقي الدين نازلان على صُور، وفُتِحَتْ هُونين* بالسيف، وتِبْنين* بالسيف، وإسكندرونة* بالسَّيف. ٩٢/٢

وفي كتابٍ آخر: ونزلوا على صور، وكاتَبَهم ملكُ بيت المقدس يطلبُ الأمان، فقال له صلاح الدين: أنا أجيء إليكم. فقال له المنجِّمون: على نجمك أن تدخل بيت المقدس، وتذهب عينٌ واحدة منك. فقال: قد رضيتُ بأن أعمى وآخذ البلد.

قال: ولم يمنعه من ذلك إلا فَتْحُ صور، وما هي شيء يقف عليه. وقد خُطِبَ لأمير المؤمنين النَّاصر لدين الله على ثلاثين منبراً من بلاد الفرنج.

قال العماد: وفَوَّض السلطان القضاء والحكم والخطابة وجميع الأمور الدينية بمدينة عسقلان وأعمالها إلى جمال الدين أبي محمد عبد الله بن عمر الدِّمَشْقي المعروف بقاضي اليمن(١).

قال: ووصل إلى السُّلْطان من مصر ولدُه الملك العزيز عثمان، واجتمع به على عَسْقلان، فقرَّت عينه بولده، واعتضد بعضده، ووضع يده بتأييد الله في يده. وكان قد استدعى بالأساطيل المنصورة، فوافت كالفُتْخ(٢) الكواسر، بالفُلْك المواخر، وجاءت كأنها أمواج تلاطم أمواجاً، وأفواج

---

(١) ولد سنة (٥٣٠ هـ) ظناً، وسمع بالإسكندرية من الحافظ السلفي وغيره، وتوجه من دمشق صحبة شمس الدولة تورانشاه إلى اليمن، وأم به في الصلوات، وتقدم عنده، واختص به، وولاه قضاء اليمن، ثم عاد إلى دمشق وحدث بها، توفي بدمشق سنة (٦٢٠ هـ). انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٩٦/٣، و«تاريخ الإسلام» للذهبي رقم الترجمة (٦٧٤) طبعة مؤسسة الرسالة.

(٢) أي كالأسود الكواسر، يقال: أسد أفتخ: عريض الكف، والفتخ: عرض مخالب الأسد ولين مفاصلها. «اللسان» (فتخ).

تزاحم أفواجاً، تدبُّ على البحر عقاربها، وتَخُبُّ كقطع الليل سحائِبُها. والحاجب لؤلؤ مقدَّمها ومقدامها، وضرغام غابها وهمامها، فطفق يكسر ويكسب، ويسل ويسلب، ويقطع الطَّريق على سفن العدو ومراكبه، ويقف له في جزائر البحر على مذاهبه، وسيأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى[1].

فَتْحُ البيتِ المقدَّس[2]
شَرَّفـه الله تعالى

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما تسلَّم السلطانُ عَسْقلان والأماكن التي هي محيطة بالقُدْس، شمَّر عن ساق الجِدِّ والاجتهاد في قَصْده، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرِّقة في السَّاحل بعد قضاء لُبانتها من النَّهْب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوِّضاً أمره إلى الله، منتهزاً فُرْصة فتح باب الخير الذي حُثَّ على انتهازه إذا فُتح بقوله عليه السَّلام: «من فُتِحَ له بابُ خَيْرٍ فلينتهزه، فإنه لا يُعْلَم متى يُغْلَقُ دونه»[3]، وكان نزوله عليه ـ قَدَّس الله روحه ـ يوم الأحد الخامس عشر من رجب، فنزل بالجانب الغَرْبي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيَّالة والرَّجَّالة، ولقد تحازر أهل الخِبْرة عِدَّةَ من كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ما عدا النِّساء والصبيان. ثم انتقل رحمه الله لمصلحةٍ رآها إلى الجانب الشمالي، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المنجنيقات، وضايقه بالزَّحْف والقتال

---

(١) «الفتح القسي»: ١١٤ ـ ١١٥.

(٢) في هامش الأصل بخط مغاير: كان ثاني تشرين الأول من الشهور الشمسية، يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب.

(٣) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١١٧) وأحمد في «الزهد» (٤٧٢) من حديث حكيم بن عمير مرسلاً، وأورده المزي في «تهذيب الكمال» ٨/ ١٧٢ من قول خالد بن معدان.

وكثرة الرُّماة، حتى أخذ النَّقْب في السُّور مما يلي وادي جهنَّم في قُرْنة شمالية. ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع، وظهرت لهم أمارات نُصْرة الحقِّ على الباطل، وكان الله قد ألقى في قلوبهم [الرعب][1] بما[2] جرى على أبطالهم ورجالهم من السَّبْي والقَتْل والأَسْر، وما جرى على حُصُونهم من الاستيلاء والأَخْذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسَّيف الذي قُتِلَ به إخوانهم يُقْتلون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرَّت القاعدة بالمراسلة بين الطَّائفتين. وكان تسلُّمه له يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج، المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتِّفاق العجيب، كيف يسَّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيِّهم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسَلَّم، وهذه علامةُ قَبُول هذه الطَّاعة من الله تعالى.

قلتُ[3]: هذا أحد الأقوال في ليلة المعراج، وفي ذلك اختلافٌ كثير، ذكرناه في مواضع غير هذا، والله أعلم.

ثم قال القاضي: وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العِلْم خَلْقٌ عظيم، ومن أرباب الخِرَق[4] والحُرَق[5]؛ وذلك أن النَّاس لما بلغهم ما مَنَّ الله به

---

(١) ما بين حاصرتين من «النوادر السلطانية».
(٢) في الأصل و(ب) مما، والمثبت من (ك).
(٣) هذا التعقيب ليس في (ك) و(ب).
(٤) يعني الصوفية، والخرقة التي يلبسونها هي رمز للارتباط بين الشيخ والمريد. انظر «معجم مصطلحات الصوفية» للحفني: ٨٩.
(٥) الحرق: السيوف الماضية، ولعل المراد من أرباب الحرق هم المتطوعة. وفي مطبوع «النوادر» الطرق، وإخالها محرفة.

على يده من فُتوح السَّاحل، شاع قصدُه للقدس، فقصده العلماء من مِصْر والشَّام، بحيث لم يتخلَّف معروفٌ عن الحضور، وارتفعت الأصواتُ بالضَّجيج والدُّعاء، والتهليل والتكبير، وخُطبَ فيه، وصُلِّيت فيه الجمعة يوم فَتْحه، وحُطَّ الصَّليب الذي كان على قُبَّة الصَّخْرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام نَصْرَ عزيزٍ مقتدر. وكان قاعدة الصُّلْح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلِّ رجلٍ عشرة دنانير، وعن كلّ امرأةٍ خمسة دنانير، وعن كل صغيرٍ ذكر أو أنثى ديناراً واحداً.

قلتُ: كذا قال، وسيأتي في كتاب العماد أن على كل صغير دينارين، وكذا قال: إن الجمعة صُلِّيت ببيت المقدس يوم فتحه، وسيأتي في كتاب العماد التصريح بأنَّ يوم الفتح ضاق عن ذلك، فَصُلِّيت في يوم الجمعة الآتي[(١)].

ثم قال القاضي: فمن أحضر القطيعة سَلِمَ بنفسه وإلا أُخذ أسيراً، وفرَّج الله عمن كان فيه من أسرى المسلمين، وكانوا خَلْقاً عظيماً زُهاء ثلاثة آلاف أسير[(٢)]، وأقام عليه رحمة الله يجمع الأموال ويفرِّقها على الأمراء والعلماء، ويوصل من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه، وهو صور*.

قال: ولقد بلغني أنه ــ رحمه الله ــ رحل عنه ولم يبق معه من ذلك المال شيء، وكان مئتي ألف [دينار][(٣)] وعشرين ألفاً، وكان رحيلُه عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاثٍ وثمانين [وخمس مئة][(٤)]

---

(١) تعقيب أبي شامة ليس في (ك). وانظر ص ٣٤١، ٣٤٤ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: نفر، والمثبت من (ك).
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) انظر «النوادر السلطانية»: ٨١ ــ ٨٢، وما بين حاصرتين منه.

كما سيأتي[1].

٢/٩٣

فَصْــل

هذا الذي ذكره القاضي في أمر فَتْحِ بيت المقدس مختصرٌ مُجْمل، وقد بسطه العمادُ، فقال: رحل السُّلْطان من عَسْقلان للقدس طالباً، وبالعزم غالباً، وللنَّصْر مُصاحباً، ولذيل العِزِّ ساحباً. والإسلام يخطُبُ من القُدْس عروساً، ويَبْذُل لها في المَهْرِ نفوساً، ويحمل إليها نُعْمى ليحمل عنها بُوْسىٰ، ويهدي بِشْراً لِيُذْهِبَ عُبوساً، ويسمع صرخة الصَّخْرة المستدعية المُسْتعدية لإعدائها على أعدائها، وإجابة دعائها وتلبية ندائها، وإطلاع زُهر المصابيح في سمائها، وإعادة الإيمان الغريب منها إلى وطنه، وردّه إلى سكونه وسكَنه، وإقصاء الذين أقصاهم الله تعالى بلعنته من الأقصى، وجَذْب قِياد فَتْحه الذي استعصى، وإسكات الناقوس منه بإنطاق الأذان، وكَفّ كَفِّ الكُفْر عنه بأيمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وأدناس أدنى النَّاس.

وطار الخبر إلى القدس، فطارت قلوب من به رُعْباً وطاشت، وخَفَقَتْ أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشَتْ، وتمنَّتِ الفرنج لما شاعت الأخبار أنها ما عاشت، وكان به من مقدَّمي الفرنج باليان بن بارزان*، وهو وملكهم في التَّسَلُّط سِيَّان، والبطرك[2] الأعظم وهو الشَّاني العظيمُ الشَّان، والذين أغفلتهم حياطةُ حِطِّين من الفُرْسان الدَّاوية* والاسبتارية* والبارونية*، من ذوي الكُفْر والشَّنآن، وقد حشروا وحشدوا، ونشروا ونشدوا، وحميت

---

(١) انظر ص ٤١١ من هذا الجزء.

(٢) فوقها في الأصل بخط مغاير: البطريق.

حَمِيَّتهُم، وأبت الضَّيْمَ أبيَّهم، وحارت غيرتهم، وغارت خيرتهم، وتبلَّدوا وتلدَّدوا، وقاموا وقعدوا، وصوَّبوا وصعَّدوا، فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنِّيران، وخَمَدَتْ نارُ بَطَر البطرك، وضاقت بالقوم منازِلُهم، فكأنَّ كلَّ دارٍ منها شَرَكٌ للمُشْرِك، وقاموا للتدبير في مقام الإدبار، وتقسَّمت أفكار الكُفَّار، وأَيِسَ الفرنج من الفَرَج، وأجمعوا على بذل المُهَج، وقالوا: هاهنا نطْرَح الرؤوس، ونسْبك النُّفوس، ونسفك الدِّماء، ونهلك الدَّهْماء، ونصبر على اقتراح القُروح، واجتراح الجروح، ونسمح بالأرواح شُحّاً بمحل الرُّوح، فهذه قُمامتنا[1]، فيها مقامتنا، ومنها تقوم قيامتُنا، وتصيح هامتنا، وتصحُّ نَدَامتنا، وتسيح علاَّمتنا، وتَسُحُّ غمامتنا، وبها غَرَامنا، وعليها غَرَامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإن تخلَّينا [عنها][2] لزمت لآمَتُنا، ووجبت ملامَتُنا، ففيها المصلب والمطلب، والمَذْبح والمقرب، والمجمع والمعبد، والمهبط والمصعد، والمَرْقى والمرقب، والمشرب والملعب، والمموَّه والمُذْهَب، والمطلع والمقطع، والمربى والمربع، والمُرَخَّم والمخرَّم، والمُحَلَّل والمُحرَّم، والصُّور والأشكال، والأنظار والأمثال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح، والأجسام والأرواح، وفيها صُوَر الحوارِيِّين في حِوارهم، والأحبار في أخبارهم، والرَّهابين في صوامعهم، والأقِسَّاء في مجامعهم، والسَّحَرة وحبالها، والكهنة وخيالها، ومثال السَّيِّدة والسَّيِّد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوت، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ

---

(١) القمامة من أعظم الكنائس في بيت المقدس. وتسمَّى أيضاً كنيسة القيامة. انظر «الموسوعة الفلسطينية»: ٣/ ٦١٥ ــ ٦١٦، وانظر ص ٤٠١ من هذا الجزء.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

والمعلِّم، والمهد والصَّبي المتكلِّم، وصورة الكبش والحمار، والجنَّة والنَّار، والنواقيس والنواميس.

قالوا: وفيها صُلِبَ المسيح، وقُرِّب الذَّبيح، وتجسَّد اللاهوت، وتألَّه النَّاسوت، واستقام التركيب، وقام الصَّليب، ونزل النُّور، وزال الدَّيْجور، وازدوجت الطبيعة بالأُقْنُوم، وامتزج الموجود بالمعدوم، وعمدت معمودية المعبود، ومخضت البتول بالمولود، وأضافوا إلى متعبَّدهم من هذه الضلالات ما ضَلُّوا فيه بالشُّبَه عن نهج الدلالات، وقالوا: دون مقبرة ربنا[١] نموت، وعلى خوف فوتها منا نفوت، وعنها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا ألا نقاتل! وكيف لا ننازع ولا ننازل! ولأيِّ معنى نتركهم حتى يأخذوا، ونَدَعهم حتى يستخلصوا ما استخلصناه منهم ويستنقذوا!

وتأهبوا وتباهوا، وما انتهوا بل تناهوا، ونصبوا المجانيق على الأسوار، وستروا بظلمات السَّتائر وجوه الأنوار، واستشاطت شياطينُهم، وسَرَحَتْ سراحينُهُمْ، وَطَغَتْ طواغيتهم، وأُصليت مصاليتهم، وهاج هائجهم، وماج مائجهم، وحضَّتهم قسوسُهُم، وحرَّضتهم رؤوسهم، وحَرَّكتهم نفوسُهم، وجاءتهم بجوى السُّوء جواسِيْسُهم.

ونصبوا على كلِّ نِيْقٍ[٢] منجنيقاً، وحَفَرُوا في الخَنْدَق حَفْراً عميقاً، وشادوا في كل جانبٍ رُكْناً وثيقاً، وفرَّقوا على كل بُرْجٍ فريقاً، وجعلوا إلى كل طارقٍ بالرَّدى للرَّدِّ طريقاً، وأعادوا كل نَهْجٍ واسعٍ بما وعَّروه وعوَّروه به مضيقاً، وتحمَّل كلٌّ منهم ما لم يكن له من قَبْلُ مطيقاً، وخرج جماعةٌ منهم

---

(١) في هامش الأصل: «يعني بذلك عيسى ابن مريم عليه السلام».

(٢) النيق: أرفع موضع في الجبل. «القاموس المحيط» (نوق).

على سبيل اليَزَك[1]، فأدلجوا ليلاً، واعترضوا عِدَّة من أصحابنا غارَّةً، على طريق السَّلامة مارَّةً، وكان قد شذَّ من المقدمة المنصورة أميرٌ تقدَّم، وما تحرَّز ولا تحزَّم، وما ظن أن قُدَّامه من له جرأة الإقدام، ومن يعتقد أنَّ رِبْحَ كُفْره خسارةُ الإسلام، وهو الأمير جمال الدين شروين بن حسن الزرزاري، فوقعوا عليه في موضعٍ يُعرف بالقُبيبات، فاستُشْهد رحمه الله.

ولما بلغ السُّلْطانَ خَبَرُه ساءه وغَمَّه.

ثم أقبل بإقبال سلطانه وأبطال شجعانه، وأقيال أولاده وإخوانه، وأشبال مماليكه وغِلْمانه، وكبار[2] أمرائه وعِظَام أوليائه، وأصبح يسأل عن
٢/٩٤ الأقصى، وطريقه الأدنى، وفريقه الأَسْنى، ويذكُرُ ما يفتح الله عليه بِحُسْنِ فَتْحه من الحُسْنٰى، وقال: إنْ أُسعدنا من الله على إخراج أعدائه من بيته المقدَّس فما أَسْعَدَنا، وأي يدٍ له عندنا إذا أَيَّدَنا، وإنه مكث في أيدي الكُفْر إحدى وتسعين سنة لم يتقبَّلِ اللّهُ فيه من عابدٍ حسنة، ودامت هِمَمُ الملوكِ دونه متوسِّنة[3]، وخَلَتِ القرون عنه متخلِّية، وخَلَتِ الفرنج به متولِّية، فما ادَّخر الله فضيلة فَتْحِهِ إلا لآل أيوب، ليجمع لهم بالقَبول القُلوب.

وكيف لا يهتمُّ بافتتاح[4] البيت المقدَّس والمسجد الأقصى، المؤسَّس على التَّقوى، وهو مقامُ الأنبياء، وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومَزَارُ أبدال الأرض وملائكة السَّماء، ومنه المحشر والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المَعْشَرِ المَعْشَر، وفيه الصَّخرة التي صِيْنَتْ جِدَّة أبهاجها من

---

(١) اليزك، كلمة فارسية تعني طلائع الجيش.

(٢) في (ك) و(ب): وكرام.

(٣) أي نائمة. «اللسان» (وسن).

(٤) في الأصل: بفتح، والمثبت من (ك) و(ب).

الإنهاج(١)، ومنها مِنْهاج المِعْراج، ولها القُبَّة الشَّمَّاء التي هي على رأسها كالتَّاج، وفيه وَمَضَ البارق ومَضَىٰ البُرَاق، وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السِّراج المُنير فيه الآفاق.

ومن أبوابه باب الرَّحْمة، الذي يستوجب داخله إلى الجَنَّة بالدخول الخُلُود، وفيه كرسي سليمان ومحراب داود، وفيه عين سُلْوان* التي تُمثِّل لواردها من الكوثر الحوض المورود، وهو أَوَّلُ القِبْلتين، وثاني البَنِيَّتَيْن، وثالث الحَرَمين، وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النَّبوي أنها تُشَدُّ إليها الرِّحال(٢)، وتعقد الرجاءَ بها الرِّجال. ولعل الله يعيده بنا إلى أَحْسَنِ صورة، كما شرَّفه بذكره مع أشرف خَلْقه في أوَّل سورة، فقال عَزَّ من قائل ﴿سُبْحانَ الذي أَسْرَى بعبده ليلاً من المَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المسجد الأقصى﴾(٣) وله فضائلُ ومناقب لا تُحصىٰ، ومنه كان الإسراء، ولأَرْضه فُتِحَتِ السَّماء، وعنه تُؤْثَر أنباء الأنبياء وآلاء الأولياء، ومشاهد الشُّهداء، وكرامات الكُرَماء، وعلامات العُلَماء، وفيه مَبَارِك المَبَارّ، ومسارحُ المسارّ، وصخرتها الطُّولى القِبْلة الأُولى، ومنها تعالت القدم النَّبوية، وتوالت البركةُ العُلْوية، وعندها صَلَّى نبينا [ﷺ](٤) بالنبيين، وصحِبَ الرُّوح الأمين، وصَعِدَ منها إلى أعلى عِلِّيِّين، وفيه محراب مريم عليها السَّلام، الذي قال الله فيه ﴿كُلَّما دَخَلَ عليها زكريا المِحْرَاب﴾(٥)، ولنهاره التعبُّد، ولليله المحيا، وهو

(١) الإنهاج: البلى، ومنه: نهج الثوب، بلي وخلق. «اللسان» (نهج).

(٢) يشير إلى قوله ﷺ فيما أخرجه البخاري (١٩٩٥) ومسلم (١٣٩٧) (٥١١) في «صحيحيهما» «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد، مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى».

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣٧.

الذي أسَّسه داود، وأوصى ببنائه سُلَيمان، ولأجل إجلاله أنزل الله سبحانه ﴿سُبْحان﴾ وهو الذي افتتحه الفاروق، وافتتحت به سورة من الفُرْقان.

فما أجلَّه وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلاه، [وأسماه][1] وأسناه، وأيمن بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج مزاينه، وقد أظهر الله طُوله وطَوْله بقوله ﴿الذي بارَكْنا حَوْلَه﴾ وكم فيه من الآيات التي أراها الله نَبِيَّه، وجعل مسموعنا من فضائله مرئية[2]، ووصف للسلطان[3] من خصائصه ومزاياه، ما وثَّق على استعادة آلائه مواثيقَه والاياه[4]، وأقسم لا يبرح حتى يبرَّ قَسَمُه، ويُرْفع بأعلاه عَلَمُه، وتخطو[5] إلى زيارة موضع القدم النَّبوية قَدَمُه، ويصغي إلى صرخة الصَّخْرة، وسار واثقاً بكمال النُّصْرة[6].

فصل

في نزول السُّلْطان على البيت المقدَّس وحَصْره وما كان من أمره

قال العماد: نزل السُّلْطان على غربي القُدْس يوم الأحد خامس عشر

---

(١) ما بين حاصرتين من «الفتح القسي».

(٢) في الأصل: مروية، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل و(ك) ومطبوع «الفتح» ص ١٢٤: ووصف السلطان. وفي (ب) ووصف إلى السلطان، وهي الأشبه، ومنها أستأنسا ما أثبتناه.

(٤) ألايا جمع، مفردها الألوة: اليمين. «اللسان» (ألا).

(٥) في الأصل: وتخطر، والمثبت من (ك).

(٦) انظر «الفتح القسي»: ١١٦ ــ ١٢٤، و«سنا البرق»: ٣٠٩ ــ ٣١٠ وقد لفق أبو شامة ما جاء فيهما.

رجب، وكان في القُدْس حينئذٍ من الفرنج ستُّون ألف مقاتل من فارسٍ وراجل، وسائف ونابل، فاستهدفوا للسِّهام، واستوقفوا للحِمَام، وقالوا: كلّ واحد منا بعشرين، وكل عشرة بمئتين[1]، ودون القيامة تقوم[2] القيامة، ولحبِّ سلامتها تُقْلَىٰ السَّلامة.

وأقام السُّلْطان خمسة أيام يدور حول البلد، ويقسِّم على حصاره أهل الجَلَد، وأبصر في شماليه أرضاً رضيها للحصار، متَّسعة لمجال الأسماع والأبصار، ممكنةً للدنُوِّ من النقب إن صار من حَيِّز الأنصار. فانتقل إلى المنزل الشمالي يوم الجمعة العشرين من شهر رجب، فما أصبح يوم السبت إلا على منجنيقات قد نُصِبَتْ بلا نَصَب، فدام القتالُ والنِّزال، وفرسانهم في كلِّ يوم يباشرون دون الباشورة*، أمام جموعهم المحصورة المحسورة المحشورة، ويبرزون ويُبارزون، ويطاعنون ويحاجزون، والمطيعون لله عليهم يحملون، ومن دمائهم يَنْهَلُون ويُنْهِلون، كما قال الله تعالى فيهم ﴿يقاتلون[3] في سبيلِ الله فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُون﴾ وممن استُشْهد مبارزاً، ولم يشهد بينه وبين الجَنَّة حاجزاً، الأمير عز الدين عيسى بن مالك[4]، كان أبوه صاحب قلعة جَعْبر*، فإنه حاز بشهادته في المحشر المفْخر، وأكثر ورود الموت إلى أن ورد الكَوْثَر، وكان في كلٍّ يوم يَفْرِسُ فوارس، ويَلْقى بِبِشْر وَجْهه وجوه المَنُون العَوَابس، فاغتمَّ المسلمون من صرعته، وهان عليهم إتلاف المُهَج بعد تلاف مُهْجَته، فركبوا أكتاف الرَّهَج، حتى وصلوا إلى

(١) في (ك) بمئين.
(٢) في (ك) يوم.
(٣) في النسخ الخطية: يجاهدون، وهو خطأ. سورة التوبة، الآية: ١١١.
(٤) في النسخ الخطية: بلك، وهو تحريف. وانظر ص ٤١ من الجزء الثاني.

الخندق فخرقوه، وبدَّدوا جمعه[1] وفرَّقوه، والتصقوا بالسُّور فنقبوه، وعَلَّقوه وحشوه وأحرقوه، وصدَّقوا وعد الله في القتال لأعدائه فَصَدَقوه، ولما عضَّتهم الحرب، وقع السُّور واتَّسع النَّقْب، فَصَعُبَ عليهم الهَيِّن وهان لنا الصَّعْب، عقدوا ما بينهم مشورة، وقعدوا ما بينهم ضرورة، وقالوا: مالنا إلا الاستئمان، فقد أخذ لنا بخطِّه الخِذْلان والحِرْمان. وأخرجوا كبراءهم ليؤخذ
٩٥/٢ لهم الأمان، فأبى السُّلْطان إلا قتالهم وتدميرهم واستئصالهم، وقال: ما آخذ القدس إلا كما أخذوه من المسلمين منذ إحدى وتسعين سنة، فإنَّهم استباحوا القتل، ولم يتركوا طَرْفاً يستزير سِنَة، فأنا أُفني رجالهم قتلاً، وأحوي نساءهم سبياً. فبرز ابن بارزان* ليأمن من السُّلْطان بمَوْثِقه، وطلب الأمان لقومه، وتمنَّع السُّلْطان، وتسامى في سَوْمه، وقال: لا أمن لكم ولا أمان، وما هوانا إلا أن نُديم لكم الهَوَان، وغداً نملككم قَسْراً، ونوسعكم قَتْلاً وأَسْراً، ونسفك من الرِّجال الدِّماء، ونسلِّط على الذُّرِّيَّة والنِّساء السِّباء. وأبى في تأمينهم إلا الإباء، فتعرَّضوا للتضرُّع، وخَوَّفوا عاقبة التسرع، وقالوا: إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سُلْطانكم، وخبنا من إحسانكم، وأيقنَّا أنه لا نجاة ولا نجاح، ولا صُلْح ولا صلاح، ولا سلم ولا سلامة، ولا نعمة ولا كرامة، فإنَّا نستقتلُ فنقاتل قتال الدم والندم، ونقابل الوجود بالعَدَم، ونلقي أنفسنا على النَّار، ولا نُلْقي بأيدينا إلى التَّهْلُكة والعار، ولا يجرح منا واحد حتى يجرح عشرة، وإنَّا نحرق الدُّور، ونخرب القُبَّة، ونترك عليكم في سبينا السُّبَّة، ونقلع الصَّخْرة، ونوجدكم عليها الحسرة، وقُبَّة الصَّخْرة نرميها وعين سُلْوان* نعميها، والمصانع نَخْسِفُها، والمطالع نَكْسِفُها، وعندنا من المسلمين خمسة آلاف أسير، ما بين غنيٍّ وفقير، وكبير وصغير، فنبدأ

---

(١) في الأصل: جمعهم، والمثبت من (ك) و(ب).

بقتلهم، وشتِّ شملهم، وأما الأموال، فإنا نَعْطِبُها ولا نُعْطيها، وأما الذَّراري فإنا نسارع إلى إعدامها[1] ولا نستبطيها، فلا يحصل لكم سبيٌّ، ولا يُقبل لكم سعي، ولا يسلم عمر ولا عمارة، ولا نُضار ولا نَضَارة، ولا نساء ولا صبيان، ولا جماد ولا حيوان، فأيُّ فائدةٍ لكم في هذا الشُّحِّ، وكل خُسْرٍ لكم في هذا الرِّبْح، ورُبَّ خيبةٍ جاءت من رجاء النُّجْح، ولا يصلح السوء سوى الصُّلْح. فشاور السُّلْطان أصحابه، فقيل له: الصَّواب أن نحسبهم أُسارانا، فنبيعهم نفوسهم، ونعمِّم بصَغَار الجزية رؤوسهم، ويدخل في القطيعة مرؤوسهم ورئيسهم.

واستقرَّ بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على قطيعةٍ تُكمَّل بها الغبطة، ويحصل منها الحوطة، اشتروا بها منا أنفسهم وأموالهم، وخلَّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم، على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عما لزمه، أو امتنع منه وما سَلَّمه، ضُرِبَ عليه الرِّق، وثبت في تملكه لنا الحق، وهو عن كلِّ رجل عشرة دنانير، وعن كلِّ امرأة خمسة دنانير، وعن كل صغيرة أو صغير ديناران، الذكر والأنثى في ذلك سِيَّان، ودخل ابن بارزان* والبطرك* ومقدَّما الدَّاوية* والاسبتار* في هذا الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار عن الفقراء، وقام بالأداء، ولم يَنْكُلْ عن الوفاء، فمن سَلَّم خرج من بيته آمناً، ولم يعد إليه ساكناً، وسلَّموا البلد يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب على هذه القطيعة، وردُّوه بالرغم رَدَّ الغَصْب[2] لا الوديعة، وكان فيه أكثر من مئة ألف إنسان من

---

(١) في الأصل: إعلامها، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: وردوه بالرغم والغضب، والمثبت من (ك) و(ب).

رجالٍ ونساء وصبيان، فأُغلقت دونهم الأبواب، وَرُتِّب لعرضهم واستخراجِ ما يلزمهم النُّوَّاب، ووُكِّلَ بكلِّ بابٍ أمير ومقدَّمٌ كبير، يحصر الخارجين، ويحصي الوالجين، فمن استخرج منه خرج، ومن لم يَقُمْ بما عليه قعد في الحَبْس وعَدِمَ الفَرَج، ولو حُفِظَ ذلك المال حَقَّ حفظه، لفاز منه بيت المال بأَوْفر حَظِّه، لكنَّما تَمَّ التفريط، وعَمَّ التخليط، فكلٌّ من رشا مشى، وتنكَّبَ الأُمناء نَهْجَ الرُّشد بالرُّشا، فمنهم من أُدلي من السور بالحبال، ومنهم من حُمل مخفياً في الرِّحال، ومنهم من غُيِّرت لبسته فخرج مخفياً في زِيِّ الجُنْد، ومنهم من وقعت فيه شفاعةٌ مطاعة لم تقابل بالرَّدِّ، والثقات الأكابر استنابوا أصاغر، فأقاموا في تقصيرهم المعاذر، وقنوا لأنفسهم الذَّخائر، وادَّعى مُظَفَّر الدين كُوكُبُوري أن منهم جماعة من أرمن الرُّها*، وعددها ألف نسمة، فجعل إليه أمرها، وكذلك صاحب البيرة* ادَّعى بالعُدَّة الكثيرة زهاء خمس مئة أرمني ذكر أنهم من بلده، وأن الواصل منهم إلى القُدْس لأجل متعبَّده، وكذلك كل من استوهب عدة استطلقها، وحصل له مرفقها، ثم تولى الملك [العادل][1] استخراجهم، وقوَّم على الأداء منهاجهم، وسهل على السلطان لفرط جوده الاستخراج والإخراج، وتوفر لعامة الناس وخاصَّتهم ببهجة سماحه الابتهاج، وما فينا إلا من فاز بأوفى نصيب، ورعى منه في مرعًى خصيب.

وكان السُّلْطان قد رتَّب عدة دواوين، في كلِّ ديوانٍ منها عِدَّة من النُّواب المِصْريين، وفيهم من الشَّاميين، فمن أخذ من أحد الدواوين خطاً بالأداء، انطلق مع الطُّلقاء، بعد عرض خطه على مَنْ بالباب من الأُمناء

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

والوكلاء، فَذَكَرَ لي من لا أشكُّ في مقاله أنه كان يحضر في الديوان، ويطَّلع على حاله، فربما كتبوا خطاً لمن نَقْدُه في كيسهم، وتَلَبَّس أمر تلبيسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أُمناءه، وخانوه على ما حصل لكلٍّ من الغِنى والنفع وما أضر غناءه، ومع ذلك حصل لبيت المال ما يقارب مئة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رِقٍّ [و][1] إسار، ينتظر به انقضاء المُدَّة المضروبة، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبة.

٢/٦ وكانت بالقُدْس ملكة رومية متعبِّدة مترهِّبة، في عبادة الصليب متصلِّبة، وعلى مُصابها مُتَلَهِّبة، وفي التمسُّك بِمِلَّتها متصعِّبة متعصِّبة، أنفاسها متصاعدة للحُزْن، وعبراتها متحدِّرة تَحَدُّر القطراتِ من المُزْن، ولها حال ومال ومتاع، وأشياء وأشياع وأتباع، فعاذت بالسلطان فأعاذها، ومَنَّ عليها وعلى كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كلٍّ ما لها في الأكياس والأخراج، وأبقى عليها من مصوغات صُلْبانها الذَّهبية المجوهرة ونفائسها، وكرائم خزائنها، فخرجت بجميع مالها وحالها، ونسائها ورجالها، وأسفاطها وأعدالها، والصناديق بأقفالها، وتبعها من لم يكن من أتباعها، فراحت فَرْحَىٰ، وإن كانت من شجنها قَرْحَىٰ.

وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي، وهي ابنة الملك أماري*، وكانت مقيمة في جوار القُدْس مع مالها من الخَوَل والخَدَم والجواري، فاستأذنت في الإلمام بزوجها، وكان بقيده مقيماً في بُرْج نابُلُس* موكلاً به ليوم وَعْدِ تسريحه، فأذن لها، فخلصت هي ومن تبعها، وأقامت عند زوجها.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

وكذلك خرجت الإبرنساسة أم هنفري، وهي ابنة فليب وزوجة الإبرنس الذي سُفِك دمُه يوم حطين، وهي صاحبة الكَرَك* والشَّوْبك*، وهي بنوَّابها محوطة، وبرأيها منوطة، فجاءت سائلة في ولدها العاني، فوعِدت أنها إن سمحت بحِصْنها سمح لها بابنها، ثم أُعفيت وأُطلقت وعُصمت، واستحضر ابنها هنفري بن هنفري من دمشق إليها، وأقرَّ برؤيته عينيها، وسار معها من الأُمراء والأمناء من يتسلَّم منهم تلك المعاقل، فخرجت فمضت إلى حصونها لتسلِّمها، فمانعها أهلها ودافعوها، وردُّوها ذليلة خائبة، فسكنت صور، واستودعت السلطان ابنها المأسور، ووعدها بإطلاقه إذا تسلَّم تلك الحصون[1].

فصـــل

في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد

قال العماد: تسلَّم المسلمون البلد يوم الجمعة أوان وجوب صلاتها، وطلعت الرَّايات النَّاصرية على شُرُفاتها، وأُغلقت أبوابها لحفظ ناسها، في طلب القطيعة والتماسها، وضاق وقتُ الفريضة، وتعذَّر أداؤها. وللجمعة مقدِّمات وشروط لم يمكن استيفاؤها، وكان الأقصى لا سيما محرابه مشغولاً بالخنازير والخنا، مملوءاً بما أحدثوا من البنا، مسكوناً ممن كَفَر وغَوَىٰ، وضَلَّ وظلم وجَنَى، مغموراً بالنَّجاسات التي حَرُمَ علينا في تطهيره منها[2] الونىٰ، فوقع الاشتغال بالأهم الأنفع، والأتمِّ الأنجح الأنجع، وهو حِفْظُهم وضبطهم إلى أن يوجد شرطهم، ويؤخذ قسطهم.

---

(١) انظر «الفتح القسي» ١٢٤ ـ ١٢٩ و«سنا البرق»: ٣١٠ ـ ٣١٣.
(٢) في الأصل: منا، والمثبت من (ك).

واتفق فَتْحُ البيت المقدَّس في يومٍ كان في مثل ليلته منه المِعْراج، وتمَّ بما وَضَحَ من مِنْهاج النَّصر الابتهاجُ، وجلس السُّلْطان بالمخيَّم ظاهر القُدْس للهناء، وللقاء الأكابر والأُمراء، والمتصوِّفة والعُلَماء، وهو جالسٌ على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهُهُ بنور البِشْر سافر، وأمله بعزِّ النُّجْح ظافر، وبابُه مفتوح، ورِفْدُه ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه مُقْبل، وبساطه مُقَبَّل، ومحياه يلوح، وريَّاه يفوح، قد جَلَتْ له حالة الظَّفَر، وكأنَّ دَسْتَه به[1] هالةُ القمر، والقُرَّاء جلوسٌ يقرؤون ويُرْشِدُون، والشُّعراء وقوف يُنْشدون ويَنْشدون، والأعلامُ تبرز لتنشر، والأقلام تُزبر لتبشِّر، والعيون من فَرْط المَسَرَّة تدمع، والقلوب للفرح بالنُّصْرة تخشع، والألسنةُ بالابتهال إلى الله تَضْرَع، وبُشِّر المسجد الحرام بخلاص المسجد الأقصى، وتلي ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّين ما وَصَّىٰ﴾[2] وهُنِّىء الحجرُ الأسود بالصَّخْرة البيضاء، ومنزل الوحي بمحلِّ الإسراء، ومقرُّ سَيِّد المُرْسلين وخاتم النبيين بمقَرِّ الرُّسل والأنبياء، ومقام إبراهيم بموضع قدم المُصْطفى ﷺ وعليهم أجمعين، وأدام أهل الإسلام بشرف بَنِيَّتِهِ مستمتعين. وتسامع النَّاس بهذا النَّصْر الكريم، والفَتْح العظيم، فوفدوا للزِّيارة من كلِّ فجٍّ عميق، وسلكوا إليه في كلِّ طريق، وأحرموا من البيت المقدَّس إلى البيت العتيق، وتنزَّهوا من زهر كراماته في الرَّوْض الأنيق[3].

وقد سبق أن العماد كان توجَّه إلى دمشق والسُّلْطان على بيروت[4]،

---

(١) في الأصل: من، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) سورة الشورى، الآية: ١٣.

(٣) «الفتح القسي»: ١٣٠ ــ ١٣٤.

(٤) انظر ص ٣٢٣ من هذا الجزء.

للألم الذي أَلَمَّ به، فلما سمع بنزول السُّلْطان على القُدْس أَبَلَّ من مرضه، وتوجَّه إليه، فوصل يوم السَّبْت ثاني يوم الفتح، قال: وطلعت عليه صُبْحاً عند طلوع الصُّبْح، فاستبشر بقدومي، وخلع على البشير قبل رؤيتي، وكان أصحابه يطالبونه بكتب البشائر ليغرِّبوا بها ويشرِّقوا، وهو يقول: لهذه القوس بارٍ، ولهذه المأْدبةِ قارٍ[1].

قال: فكتبتُ في ذلك اليوم سبعين كتاب بشارة، كل كتابٍ بمعنى بديع وعبارة، فمنها الكتاب إلى الدِّيوان العزيز ببغداد أفتتحه بهذه الآية ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصَّالحات لَيَسْتَخْلِفَنَّهم في الأَرْضِ كما اسْتَخْلَفَ الذين مِنْ قَبْلهم وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِيْنَهُمُ الذي ارْتَضَىٰ لهم وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أمناً﴾[2].

الحمد لله الذي أنجز لعباده الصَّالحين وَعْدَ الاستخلاف، وقهر بأهل التَّوحيد أهلَ الشِّرْك والخلاف، وخَصَّ سُلْطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكَّن دينه المُرْتضى، وبَدَّل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى
٩٧/٢ والنَّصْر الأهنىٰ للعصر الإمامي النَّبوي النَّاصري على يد الخادم؛ أخلصِ أوليائه، وأخصِّ مَنِ اعتزازُه باعتزائه إليه وانتمائه. وهذا الفتح العظيم والنُّجح الكريم قد انقرض [من][3] الملوك الماضية، والقرون الخالية على حسرةِ تمنِّيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنِّيه، وتقاصرت عنه طوال الهِمَم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاكُ الأُمم، فالحمد لله الذي أعاد القُدُس

---

(١) قار من القِرى: وهو الضيافة. انظر «معجم متن اللغة»: ٤/ ٥٥٤. وانظر «سنا البرق»: ٣١٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

إلى القُدْس، وأعاذه من الرِّجْس، وحقَّق من فَتْحه ما كان في النَّفْس، وبدَّل وحشة الكُفْر فيه من الإسلام بالأُنس، وجعل عِزَّ يومه ماحياً ذُلَّ الأمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجُهَّال والضُّلال من البطرك والقَسّ، وعبدة الصَّليب ومستقبلي الشمس، وقد أظهر الله على المشركين الضَّالين جنودَه المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظَّالمين، والحمد لله رَبِّ العالمين، فكأنَّ الله شَرَّف هذه الأُمة، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضَّلكم، وحقَّق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسة التي كَتَبَ الله لكم﴾[1].

وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العَوَان، وجعل ملائكته المسوَّمة له من أعزِّ [الأنصار وأظهر][2] الأعوان، وأخرج يوم الجمعة من بيته المُقَدَّس أهلَ الأحد، وقمع من كان يقول: إن الله ثالثُ ثلاثة بمن يقول هو الله أحد. وأعان الله بإنزال الملائكة والرُّوح، وأتى بهذا النَّصْر الممنوح، الذي هو فَتْحُ الفتوح، وقد تعالى أن يحيط به وصفُ البليغ نَظْماً ونثراً، وعُبِدَ الله في البيت المقدس سِرًّا وجهراً، ومُلِكَتْ بلاد الأُرْدُنِّ وفِلَسْطين غوراً ونجداً، وبراً وبحراً، ومُلئت إسلاماً، وكانت قد ملئت كُفْراً، وتقاضى الخادم دَيْنَ الدِّين الذي غَلِقَ رَهْنُه[3] دهراً، والحمد لله شكراً، حمداً يُجَدِّد للإسلام كلَّ يومٍ نصراً، ويزيدُ وجوه أهله بِبُشْرى فتوحه بِشْراً، وأبىٰ الخادم إلا استباحة أموالهم وأرواحهم، وحسم داء اجتراحهم باجتياحهم، وأنه لا بُدَّ من تطهير الأرض المقدسة بِرِجْس دمائهم، وقتل رجالهم وسبي

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٢١.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.

ذراريهم ونسائهم، ولما أيسوا من النَّجاة، وفتح أبوابها المُرْتَجة من أسبابها المرتجاة، خوَّفوا بقتل الأسارى المسلمين، وهم أكثر من ثلاثة آلاف، وأنهم يفسدون جميعَ ما في البلد من مالٍ وبناء بهدمٍ وإحراق وإتلاف، وعُرِفَ أنَّ جهلهم يحملهم على كل نُكْرٍ شنيع، وأنَّهم تدعوهم فظاظتهم إلى كلِّ ضُرٍّ فظيع، وبذلوا إطلاق الأسرى، وشرطوا حمل مال الفدا، وما زالوا يبتهلون ويضَّرَّعون، ويَذِلُّون ويخشعون، حتى استقرَّ الأمر أنهم يُفادون، وأجيبت الصخرة المُقَدَّسة عند استصراخها، وبركت البركة النَّاهضة إليها في مناخها، وغُسِلَت من أوضارها وأوزارها بعبرات العيون، ورجع اضطرابها إلى السكون، وفُديت بنواظر أهل الإيمان، وصوفحت للوفاء بعهدها المجدد بالأيمان، وذَكَّرَتْ في يوم خلاصها من رجب بليلة المِعْراج، وتجلَّى إظلامها بإنارة سنا السِّراج، وأُعيدت الكنائس مدارس، وأضحت بإحياء رميم التوحيد رسومُ الكُفْرِ عافيةً دوارس، وزالت ضجرة الصَّخْرة، ونعَّشها الله من العَثْرة، وَبُدِّل بالأُنس فيها ما كان من الوحشة والحسرة، فالحمد لله على هذه النُّصْرة، والمِنَّة له على هذه المَبَرَّة.

وقد تسلَّمنا مع بيت المقدس جميع المعاقل من حَدِّ الدَّاروم* إلى حَدِّ طرابُلُس*، وكل ما كان جارياً في مملكة ملك القدس ونابُلُس*، ولم يبق إلا صور*، فإنها قد تأخَّر انتزاعها، وتقدَّم امتناعها، والفرنج فيها قد ضَرِيَتْ بآمالها أطماعُها، وهي بتأييد الله مستفتحة، والقلوب بتذليل جامحها منشرحة.

ومن كتب أُخَر: فُتحَ بيتُ الله المقدَّس الذي عَجَزَ الملوك عن تمنيه فكيف تسنِّيه! وماتت الأطماع دونه فلم تطمع فيه، فَمَنَّ الله علينا بتذليل صَعْبه، وإعذاب شربه، وتسهيل وَعْره، وتحصيل فخره، وقضى الملوك في

ليله، وجئنا نحن عند[1] إسفار فَجْره. وقد كانت الصَّخْرة مُسْتَصْرخة، ومطايا الكفر بكلاكلها عليها منوَّخة، فأُجيبت دعوتها، وأُصينت حظوتها، وتناثرت على حَجَرها يواقيتُ الشِّفاه، وقوبلت قِبْلتها بِقُبَل الأفواه، ودنا المسجد الأقصى للقاصي والدَّاني، وزال رين العائن وقَرَّت عَيْنُ الرَّاني.

هذا فتحٌ عظيمٌ قدره، جسيم فَخْره، فاضلٌ عصره، كاملٌ نصره، غَيْرُ منسيٍّ إلى يوم الحشر ذِكْرُه، وقد اقْتُضَّ بنا بِكْرُه، واقْتُضي بسيفنا وِتْرُه، وزَهَر زَهْرُه، وظَهَرَ قهره، وهلك الكافر وكُفْرُه، وجاء من نِعَمِ الله ما لَزِمَ على الأبد شُكْرُه.

أبينا إلا إحراقهم بنيران الصَّوارم، وإغراقهم في أمواه الطُّلَىٰ والجماجم، وتسلَّمنا القدس في يوم كانت في مثل ليلته ليلة المِعْراج، وحَنَّت الصَّخرة حنين جذع المعجزة الأُولى في ظلمة ليلها إلى ذلك السِّراج الوَهَّاج، والحمد لله على سلوك ما وَضَحَ من المِنْهاج، ونضوب ما كان نبع من الأُجاج، وخلا بيت الله لقصد الحاجِّ، وصدق الحاج.

مبشرة بما فضَّل الله به عصرنا، وعجَّل به نَصْرنا، ونَظَمَ به سِلْكنا، وطرَّز به مُلْكنا، وهو فتحُ بيتِ الله المقدَّس الذي غَلِقَ رَهْنُه[2] دهراً، واغْتُصبت من الإسلام قَهْراً، وارتدَّ كُفْراً، وامتدَّت به الأيام عُمراً فعمراً،
٩٨/٢ وتقاصرت الهِمَمُ عن استفتاحه، وأَصْلَدَ زَنْد[3] الملوك فيه فَعَجَزوا عن اقتداحه، ونزلوا بالرَّغْم على التماس الكُفْر واقتراحه، واحتملوا لحفظ

(١) في الأصل: عليه، والمثبت من (ك).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.
(٣) أصلد الزند، صوت، ولم يور. «القاموس المحيط» (صلد).

مواضعهم نكاية اجترامه واجتراحه، فلا جَرَمَ أعدَّه الله لأيامنا، وذخره لمواسم اعتزامنا، وفتحه بنا إظهاراً لفضيلة هذه الأيام، وإيثاراً لما نحن نؤثره من إعلاء كلمة الإسلام، فأصرخنا الصخرة، وأهدينا إليها النُّصْرة، ومكنَّا من [قلبها][1] وإن كان من الحَجَر المسرَّة.

وتسلَّمنا القدس يوم الجمعة السَّابع والعشرين من رجب، وقضينا من حَقِّ هذا البيت ما وَجَب، وجاء القُدُس إلى القُدْس، وزال الرِّجْسُ وذَهَب، وتولَّى فيه الإسلام وتولى عنه الكُفْر، وعَظُمَ الأجر وفَخُمَ الفَخْر، وطاب النَّشْر وزاد البِشْر، ومُحي الرِّجْس وثَبَتَ الطُّهْرُ، وهلك المشرك، وذَلَّ البطرك، وأُقصي من المسجد الأقصى السَّاجدُ إلى الشَّمس، وتجلَّى الحَقُّ بنوره الكاشف لِلَّبْس.

عاد بيت الله المقدَّس إلى طهارته، ونطق منه لسان التقديس بعبارته، وتهلَّل وجه السَّعْد بنضارته، وخصَّنا القَدَرُ في إتمام أمره بخطابه وإشارته، وزادت الوجوه بِشْراً ببشارته، وقد أعاد الله إلى الإسلام المسجد الأقصى، ومَلَّكنا أدناه وأقصاه، وأسنى دولتنا بما سناه من فتحه وهناه، وعلموا أنهم هالكون، وأنَّا لهم بالقَهْر مالكون، وفي سبيل القَتْلِ والأَسْرِ والسَّبْي سالكون، فخرجوا يطلبون الأمان، ويبذلون الإذعان، حتى يسلِّموا المكان، فقيل لهم: الآن وقد عَصَيْتُمْ، ورضيتم بما فيه هلاكهم وأَبَيْتُمْ، فَرَوَّعوا بقتل أُسارى المسلمين وهم ألوف، وعرفنا أنهم لا يقصِّرون عن[2] شَرٍّ، فإن جهلهم معروف. فتضرَّعوا وتشفَّعوا وتعفَّروا في تراب الذُّلِّ ووقعوا، وتقرَّر

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): في.

عليهم مال اشتروا به أنفسهم، فنزعوا به من الخوف ملبسهم، وسَلَّموا القُدْس، فأعدناه إلى القُدُس، وطهرناه من الرِّجْس، وأجبنا دَعْوة الصَّخْرة، وغسلنا عنها وضَرَ الكُفْر بعبرات العبرة.

فُتحَ بيتُ الله المقدس، الذي غَلِقَ رَهْنُه[1]، وطال في يد الكُفْر أَسْرُه وسِجْنُه، واستهلَّ بغُرِّ أيامنا مُزْنُه، وأنار يُمْنُه، وعاد بإحساننا حُسْنُه، وزال بنا خَوْفُه وزاد أَمْنُه، وبقي قريب مئة سنة في يد الكفر مسجوناً، وبرِجْس الشِّرْك مشحوناً، حتى أعاد الله بنا رَوْنَقَه، وأذهب قَلَقَه، وأعدم فَرَقَهُ.

وهذا فَتْحٌ لم يكن منذ عَصْرِ الصَّحابة رضي الله عنهم له نظير، وأُفُقُ الدِّين به منيفٌ منير، وشَرَفُ أيامنا به كبير، وهو إمام فتوحنا المُدَّخرة لنا، وما لها بتأييد الله تأخير.

فُتحَ البيتُ المقدَّس الذي لم يخطر تَمَنِّيه بخاطر الملوك، وتوعَّر على عزائمهم نَهْجُ طريقه المسلوك، وحالت دونه قنطاريات* الفرنج وطوارقُها، وجنت على الإسلام فيه حوادثُ اللَّيالي وطوارقُها، حتى دعانا الله لفتحه فأجبناه، ووعدنا بالفوز فأصبناه، وأوردنا مشرع صفائه فاستعذبناه، وعرَّفَنا طِيْبَ عَرْفِهِ فاستطبناه، وذخَر لعصرنا هذا الفَتْحَ[2] فاستقبلناه.

رأوا أحجار المنجنيقات قد أَنْزَلَتِ الأسواء بالأسوار، وغارَتِ الصُّخور للصَّخْرة المباركة فجدَّت في إنقاذها من الإسار، وهَتَمَتْ ثنايا الأبراج، وأَعْضَلَ بها في العلاج داءُ الأعلاج، فعاينوا الحِمام، وشاهدوا الموْتَ الزُّؤام.

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) الفخر.

أقامت المنجنيقات على حَصَانته جَدَّ الرَّجْم، وواقعت ثنايا شُرُفاته بالهَتْم، وتطايرت الصخور من نُصْرَة الصَّخْرة المباركة، وحَجَرَتْ على حُكْم السُّور بِسَفَهِ الأحجار المتداركة، وحسرت النُّقوبُ عن عروسِ البلد نُقُبَ الأسوار، وانكشفت للعيون انكشافَ الأسرار.

نَهَضَتْ لإصراخ الصَّخْرة المقدَّسة الصُّخور، وطارت من أوكار المجانيق كأنَّها الصُّقور، ما أَسَرَّ البيت الحرام بفِكاك أخيه من الأسر، وإجراء ماء الإسلام فيه لغَسْل أوضار الكُفْر، وإنقاذ الصَّخرة المباركة ممن قلوبهم كالحجارة أو أشدُّ قَسْوة، وإلحافها من البهاء والرَّوْنق والعِزِّ الإسلامي كُسْوة، ولقد غُسِلَتْ من أَدْران الكُفْر وأدناسه، وطُهِّرَتْ من أرجاس أنجاسه، بمياه العيون التي بها قَذِيَتْ، وصُقِلَتْ بشفاه المؤمنين وطالما بأيدي الكفر صَدِيَتْ، وأعيد إليها ذِكْرُ الله تعالى بعد طول الغُرْبة، وتذَّكرت بِصُحْبة الأولياء ما سَلَفَ لها في عهد الصَّحابة رضي الله عنهم من حُسْنِ الصُّحبة، ودنا المسجد الأقصى فأُقصي منه السَّاجد للشمس، وسكن العلماءُ والفقهاء في مواطن البطرك والقَسِّ، وأُبدل النَّاقوس بالأذان، بل الكُفْر بالإيمان، وصَلَّى محرابُ[1] الإسلام في المحراب الذي أسلم، وقد سنَّى الله تعالى هذا الفتح الأعظم، والنُّجح الأفخم.

وقد نُدِبَ فلان في الرِّسالة القُدْسية، والبشارة العُرْسية، التي تَمَّ بها مأتم الكفر وعُرْس الإسلام، وعاد بها المسجدُ الأقصى إلى مداناة المسجد الحرام، وتجلَّت عروس الصخرة لعيون النَّاظرين، وفاضَتْ عليها مياه أحداق

---

(١) المحراب والمحرب: الشديد الحرب، الشجاع، ويعني به صلاح الدين. «القاموس المحيط» (حرب).

الأولياء، فَرَحَضَتْ[1] عنها أوضار الكافرين، وكان الإسلام منه غريباً فرجع إلى وطنه، وسكن منه إلى التوطُّن في مسكنه، وزالت مخاوفه وعاد إلى مَأْمنه، وفاض العُرْف من منبعه، وأنار التَّوحيد من مَطْلَعِه، وعلا سَنَا السُّنَّة، وحلا جَنَى الجَنَّة، وخلصت مواضع المُخْلصين من أولياء الأُمة، وخرج
٩٩/٢ البطاركة والقِسِّيْسون من مساجد الأئمة، وعادت الكنائسُ مدارس، وآيات التثليث بها دوارس، ووجوه الإيمان باشرة، ووجوه أهل الصَّليب عوابس، ومحت أيامنُ هذه الأيام تلك الليالي الدَّوامس، وقد أقيمت الجُمَع والجماعات، ونُظِّفَتْ بل طُهِّرت تلك السَّاحات، وصَلَّى في محرابه المِحْرَب[2]، ودَرَّس فيه الخلافَ والمَذْهب، فالحمد لله الذي تسنَّى بفضله هذا المطلب، وتيسَّر بتأييده الأمر الأصْعب.

فصـــل

قال العماد: وكان المولى الأجل الفاضل متأخراً بدمشق لعارضٍ مَنَّ الله بشفائه، فمن جملة ما كتب السُّلْطان إليه: أما الفتح فمن جُمْلة بركات هِمَّته، وآثار جذبات عزمته، فإنَّ الله تعالى سهَّل ما سجَّل أهلُ الدَّهْر بأنه صَعْب، وأَهَبَّ نسيمَ النَّصْر إبَّان يقال ليس له مَهَبّ، وخَصَّنا بهذا الشَّرف، وألحقنا في هذه الفضيلة بصالحي السَّلَف، وقد بُدِّل الكُفْرُ بالإيمان، والنَّاقوس بالأذان. وجلس العلماءُ والفقهاء في مجالس الرُّهْبان، وفُتِحَتْ بهذا الفَتْح من بيت الله المقدَّس أبوابُ الجِنَان، وتزاحَمَ الخارجون من البلد

(١) رحضت: أي غسلت. «القاموس المحيط» (رحض).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٥٢ من هذا الجزء.

من الفرنج والنَّصارى في دخول أبواب النِّيران، وصَلَّى محارب الدِّين في المحراب، ورفع الملائكة ما كان تكاثف بأنفاس الكُفْر من الحجاب، وغُسِلَتِ الصَّخْرة المباركة من أوضارها بماء العيون، الفائض الفائق غزارة الأمواه، وقُبِّلَتْ بالشِّفاه وبوشرت بالأفواه، وطَهُرَتْ بأهل العِلْم والحِلْم من أدناس أهل الجهل والسِّفَاه.

والحمد لله ثم الحمد لله، وما كان يعوزنا ويَعُوْزُهُ إلا حُضورُ المجلس السَّامي أسماه الله، فما لهذا الأمر رُواء إلا بِرُوائه، ولا للأُنس لقاء إلا بأُنس لقائه، وكاد يُصَحَّف الفَتْحُ لولا صالح دعائه، [وحُسْن][1] آلائه.

والحمد لله الذي خصَّنا بهذه الخاصِّية، وفَضَّلنا بالنُّصْرة القُدْسية، وذخر لنا هذا البِرَّ الذي عَجزَ بل قصَّر عنه ملوكُ البَرِيَّة.

والحمد لله على هذه النِّعْمة السَّنِيَّة، فما أشوقنا وأشوق القدس إلى قدومه، وما أظمأنا وأظمأه إلى خُصوص الرَّيِّ به وعُمومه، ويا حظَّ هذا البيت الذي هو أخو البيت الحرام من زيارته، وما آنق رَوْضَه وأوفق رضاه إذا فاز بنظره ونضارته، ونحن نعرف أنَّ هِمَّته العالية تحدُوه، وأن دينه إلى إجابة دَعْوته تدعوه، ونسأل الله تعالى أن يكمِّل صحته، ويُنْعِشَ نهضته، ويقوِّيَ قوَّته[2]، وما أقمنا بهذا البلد إلا لتطهيره، وترتيب أمره وتَدْبيره.

ومن كُتُبٍ أُخَر: نصرنا الله بملائكته المسوَّمين، وأوليائه المؤمنين. واستخلصنا بتأييده البلاد وانتزعناها، واقتضضنا بالبِيض الذكور من الحَرْب

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك) ينعش قوته، ويقوي نهضته.

العَوَان أبكَارَ الفُتُوح وافترعناها، وهذه موهبةٌ مُذْهَبَة، ومَنْقَبَةٌ لا تبلغ إلى وَصْفها بلاغة موجزة ولا مُسْهَبَة، ونوبة ما للإسلام بعدها نبوة، وحظوة في مذاق أهل التقوى والمغفرة حُلْوة، وبُشْرى تجلو الوجوه بِبِشْرها، وتضوِّع مَهَابَّ المحابِّ بِنَشْرها، ويُغْرِقُ أهلَ الشَّرْق والغرْب سِجالُ غَرْبها، وتَقَرُّ عين المؤمنين في البُعْد والقُرْب بأنوار قُرْبها.

عاد التقديس إلى الأرض التي به وُصِفَتْ، وأحاطت البركة بالبقعة التي بقوله تعالى ﴿باركنا حوله﴾[1] عُرِفَتْ، وظَهرَتِ الصَّخرة المقدَّسة وطُهِّرَت، وَزُهِيَتْ أيامنُ هذه الأيام وزَهَرَتْ، وقُمِعَتِ الطَّائفة الباغية[2] من أهل التَّثْليث بأهل التوحيد وقُهِرَت، واستبشر المحراب والمنبر بخطبته وإمامه، وافتخر الزَّمان بعصر مولانا أمير المؤمنين وأيامه، وقد تملَّكنا البلاد السَّاحلية وتسلَّمناها حِصْناً حصناً، ونقضنا من الكُفْر رُكْناً ركناً، وأجلينا الكُفَّار منها فاجتلينا بها من الحسنى حُسْناً.

فتحٌ شرَّف الله به هذه الأُمة، وجلا به الغُمَّة، وكَشَفَ المُلِمَّة، بل شرَّفنا بفخره، وأعدَّنا لذُخْره، وخَصَّنا بفضيلته في عَصْره، وأجرى لنا ما كان قد أبطأ من عادة نَصْرِهِ، وقمع بأهل دينه من عساكرنا أهل كُفْره، وقامت بَوَاتِرُنا بِوَتْرِه[3]، وغرَّق البلاد السَّاحلية من دم الكُفْرِ ببحره، وأصرخت الصَّخرة، وحفَّت بها النُّصْرة، وزالت عنها المَضَرَّة، وعادت إليها المَبَرَّة، ونُعِشَتْ منها العَثْرة، وفاضت لها من عين المؤمنين العَبْرة، وزُفَّت عروسها البكر محصنة

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٢) في (ك) الطاغية.

(٣) بواتر جمع، مفردها باتر وهو السيف القاطع. «اللسان» (بتر). والوتر: القتل. «اللسان» (وتر).

لم تُقْتَضَّ منها العُذْرَة، وحالت العُرَّة[1] ولاحتِ الغُرَّة، وظهرت من صدف قُبَّتها الدُّرَّة، وصُوفحت آثارُ القَدَم النَّبوية بالأيمان، وجُدِّدَت بعهدها صفقة الإيمان، وبَطَلَ النَّاقوسُ بحقِّ الأذان، وفُتِحَتْ أبواب الجِنان لأهلها، وأُخرج منها أهل النيران، والحمد لله على هذا الإحسان حمداً مستمرّاً على مَرِّ الزَّمان.

ومن كتابٍ إلى سيف الإسلام باليمن: فُتحَ بيتُ الله المقدَّس الذي غَلِقَ نيفاً وتسعين سنةً مع الكُفرِ رَهْنُه[2]، وطال في أسره سِجْنُه، واستحكم وَهْنُه، وقوي نُكْرُه، وضَعُفَ رُكْنُه، وزاد حزنه، وزال حُسْنه، وأجدبت من الهُدَى أرضُه وأخلف مُزْنه، وواصله خَوْفُه وفارقه أَمْنُه، واشتغل خاطِرُ الإسلام بسببه وساء ظَنُّه، وذُكِرَ فيه الواحدُ الأحد الذي تعالى عن الولد أن المسيح ابنه، ورُبِّع فيه التثليث فعـزَّ صليبه وصُلبه، وأُفرد عنه التوحيد فكاد يهي
١٠٠/٢ مَتْنُه، وَدَرَجَ الملوك المتقدِّمون على تمنِّي استنقاذه، فأبىٰ الشَّيطان غير استيلائه واستحواذه، وكان في الغيب الإلٓهي أن معاده في الآخرة إلى معاذِه، وطنَّتْ أوطانُه بقراءة القرآن ورواية الحديث وذكر الدُّروس، وجُلِيَتِ الصَّخرةُ المقدَّسة جَلْوة العَرُوس، وزارها شهرُ رمضان مضيفاً لها، نهارُ صومها بالتسبيح، وليلُ فِطْرها بالتَّراويح.

ومن كُتُبٍ أُخَر: البيتُ المقدَّس صار مقدَّساً، وأصبح للإسلام مُعَرَّساً، ورجع أهلُ التَّقْوىٰ إليه فقد كان بها مُؤَسَّساً، وخَرِسَ الجَرَس، وذَهَبَ الدَّنس، وبَطَلَ النَّاقوس، وخرج القُسوس، وزال الأذى بالأذان، وصُوفحت الصَّخْرة المقدَّسة بأيمان أهل الإيمان، وما صلَّت في محراب البيت المقدَّس

(١) حالت: زالت. والعُرَّة: الجرب، والقذر. «اللسان» (حول، عرر).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من هذا الجزء.

التُّقاة[1]، حتى صلَّت في محاريب رقاب الكُفْرِ المَشْرَفِيَّات، وما تمَّ الرِّضى بفتح المسجد الأقصى حتى أُقصي منه من أقصاه الله عن رضاه، وما تَبَوَّأ المسلم المُصَلِّي فيه مثواه من الجَنَّة حتى تبوأ الكافر المُصْلَىٰ بالنَّار مثواه.

صُوفح موضِعُ القَدَم المباركة ليلةَ المِعْراج بالأيدي، وقال لأولياء الله أهلِ الإخلاص: أهلاً بكم فما أحسن الخلاص من ولاية أهل التَّعَدِّي، وعاد المسجد الأقصى للمصلِّين المُقَرَّبين جَنَّةً ومناراً، بعد أن كان لِلْمُقْصَيْن المُضَلِّين ناراً وداراً، وتسلَّم مِحْرَبُ[2] الإسلام مِحْرَابه، وأصبحت لأُلاَّفه لما ألفى أصحابه، وترنَّح المنبر لِتَرَنُّمِ الخطيب، وانجبر الدِّين بانكسار صُلْب عابد الصَّليب السَّليب.

خلا بالُه من أمر القُدْس بإعادته إلى قُدُسه، وإخلائه من رِجْزِ الشِّرْك ورِجْسه، وإجلاء داويِّه* واسبتاره* وبطركه وقَسِّه، وتعويضه من وحشة الضَّلالة من الهدى بأُنسه، ورَدِّ الإسلام الغريب إلى بيته المقدَّس، ونَفْي الكافر منه كاسِفَ البال راغمَ المَعْطِس، ونصب المنبر بالمسجد الأقصى لإقامة الخطبة الإمامية، ورَفْعِ ما رُفعَ قَدْرُه من الأعلام العَبَّاسية، والإفراج عن محرابه بهدم ما بني دونه من مباني الشِّرْك، وكَشْفِ أستار الكَفَرَة التي حَجَبَتْ بالهَتْك والفَتْك، وإقامة الجُمَع فيه والجماعات، وإدامة أوراد العبادات به ووظائف الطَّاعات، وغسل الصَّخْرة المقدَّسة بدم الكافر ودمع المؤمن، ونزع لباس بأس المسيء عنها بإفاضة ثَوْبِ ثَوَاب المُحْسِن، وتنزيه تلك الجَنَّة من دَنَسِ أهل النَّار، وإعلاء ما كان دَرَس من معالم الأبرار ومطالع الأنوار.

---

(١) في الأصل: أهل التقاة، والمثبت من (ك).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٥٢ من هذا الجزء.

وقد رجع الإسلام الغريب منه إلى داره، وخرج قَمَرُ الهُدَى به من سِراره، وذَهَبَتْ ظُلَمُ الضَّلالة بأنواره، وعادت الأرضُ المقدَّسة إلى ما كانت موصوفه به من التقديس، وأُمنت المخاوف فيها وبها فصارت صباح السُّرىٰ ومناخ التَّعْريس، وقد أُقصي عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون، وتوافى[1] إليه المُصْطَفُون الأقربون والملائكة المقرَّبون، وخَرِسَ النَّاقوس بِزَجَلِ[2] المسبِّحين، وخرج المفسدون بدخول المُصْلحين، وقال المحراب لأهله: مرحباً وأهلاً، وشَمِلَ جماعة المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة ما جمع للإسلام فيه شَمْلاً، ورُفِعَتِ الأعلام العَبَّاسِيَّة على منبره، فأخذت من بِرِّه أوفىٰ نصيب، وتَلَتْ بألسنة عَذَبها ﴿نَصْرٌ مِنَ الله وفَتْحٌ قَرِيْبٌ﴾[3] وغُسِلت الصخرة المباركة بدموع المتقين من دَنَس المُشْركين. وبَعُدَ أهل الأحد من قُرْبها بقُرْب المُوَحِّدين، فذكر بها ما كاد يُنْسىٰ من عَهْد المِعْراج النَّبوي، وأقامت بدلائلها براهين الإعجاز المحمَّدي.

عاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه، ورجع بُنْيانه من التقوى إلى تأسيسه، وزال ناموس ناقوسه، وبَطَلَ بنصِّ النَّصر قياسُ قَسِّيسه، وفُتِحَ باب الرَّحمة لأهلها، ودخلت فيه الصَّخْرَةُ لفَضْلها، وباشرت الحياة بها مواضع سجودها، وصافحت أيدي الأولياء آثارَ القدم النَّبوية بتجديد عهودها، وشُهِدَ مقامِ المِعْراج وموطىء بُرَاقه، ورُؤِي نُورُ الإسلام ومَطْلَعُ إشراقه، ودنا المسجد الأقصى للرَّاكع والسَّاجد، وامتلأ ذلك الفضاء بالأتقياء الأماجد.

---

(١) في (ك) وتوافد.

(٢) الزجل: رفع الصوت. «اللسان» (زجل).

(٣) سورة الصف، الآية: ١٣.

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد: تقلَّص ظِلُّ الكافر المبسوط، وصَدَق الله أهلَ دينه، فلما وقع الشَّرْط وقع المشروط، وجاء أمر الله وأُنوف أهل الشِّرْك راغمة، وأدلجت السيوفُ والآجال نائمة، واستردَّ المسلمون تُراثاً كان عنهم آبقاً، وظفروا يقظةً بما لم يصدِّقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النأي طارقاً.

ومنه في وصف نَقْب السُّور: فأُخلي السُّورُ من السَّيَّارة، والحرب من النَّظَّارة، وأمكن النَّقَّاب أن يُسْفِرَ للحرب النِّقابَ، وأن يعيد الحَجَرَ إلى سيرته من التُّراب، فتقدَّم إلى الصَّخْر فمضغ سَرْدَه بأنياب مِعْوَله، وحَلَّ عُقَدَه بضربه الأخرق الدَّالِّ على لطافةِ أَنْمُلِه، وأسمع الصَّخرة الشَّريفة حنينه فاستغاثته إلى أن كادت تَرِقُّ لمقتله، وتبرَّأ بعضُ الحجارة من بعض، وأَخَذَ الخرابُ[1] عليها مَوْثِقاً فلن يَبْرَحَ الأَرْض.

ثم قال: واستقرَّت على الأعلى أقدامُهم، وخَفَقَتْ على الأقصى أعلامُهم، وتلاقت على الصَّخْرة قُبَلُهم، وشُفيت بها وإن كانت صخرةً كما يُشْفىٰ بالماءِ غُللهم، وملك الإِسلام خُطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةَ سُكَّان، فخدمها الكُفْرُ إلى أن صارت روضةَ جِنان، لا جَرَم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهلَ الحقِّ وأَسْخَطَهم. وأوعز الخادمُ بردِّ الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه[2] وِرْدَه المورود. وأُقيمت الخطبة ١٠١/٢
يوم الجمعة رابع شعبان فكادتِ السمواتُ للسَّجُوم[3] يَتَفَطَّرْنَ، والكواكبُ منها للطَّرَبِ يَنْتَثِرْن، ورُفِعَتْ إلى الله كلمةُ التوحيد وكانت طريقُها مسدودة، وطَهُرَتْ قبورُ الأنبياء وكانت بالنَّجاسات مكدودة، وأُقيمت الخَمْس وكان

---

(١) في الأصل: الحرب، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: يوفي، والمثبت من (ك).
(٣) من انسجم الدمع: إذا سال وانصبَّ. «اللسان» (سجم).

التَّثْليث يُقْعِدها، وَجَهَرَتِ الأَلْسُن بالله أكبر وكان سحر الكُفْر يَعْقِدُها، وجُهِرَ باسم أمير المؤمنين في وطنه الأَشْرف من المِنْبر، فَرُحِّبَ به ترحيبَ مَنْ بُرَّ [بمن بَرَّ][1]، وخَفَقَ علماه في خِفَافَيْهِ، فلو طار سروراً لطار بجناحيه. وكان الخادمُ لا يسعى سعيه إلا لهذه العُظْمى، ولا يُقاسي تلك البؤسىٰ إلا رجاءَ هذه النُّعْمى، ولا يُحارب من يستظلمه إلا لتكون الكلمةُ مجموعةً فتكون كلمةُ الله هي العليا، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعَرَض الأدنى من الدُّنيا، وكانت الألسن ربما سَلَقته، فأنضج قلوبها بالاحتقار، وكانت الخواطر ربما غَلَتْ عليه مراجِلُها، فأطفأها بالاحتمال والاصطبار، ومن طلبَ خطِيراً خاطَرَ، ومن رام صفقةً رابحةً جاسَرَ، ومن سما لأن يُجلِّي غمرةً غامَرَ.

ووصف فيه يوم حِطِّين فقال: وكان اليومُ مشهوداً، وكانت الملائكةُ له شهوداً، وكان الصَّليب[2] صارخاً وكان الإِسلام مولوداً، وأُسِرَ الملك وبيده أوثقُ وثائقه، وآكدُ وُصَلِه بالدِّين وعلائقِه، وهو صليب الصَّلبوت، وقائد أهل الجبروت، ما دُهِموا قَطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهمائهم يحرِّضهم؛ يبسط لهم باعَهُ، وكان مَدُّ اليدين في هذه الدّفعة وَدَاعَه، لا جَرَمَ أنه يتهافتُ على ناره فَرَاشُهم، ويجتمع في ظِلِّ ظلامه خِشَاشُهُمْ، ويقاتلون تحت ذلك الصَّليب أَصْلَبَ قتالٍ وأصدَقَه، ويرونَهُ ميثاقاً يبنون عليه أشدَّ عُقَدٍ وأوثَقَه، ويعدُّونه سوراً تحفر حوافر الخيل خَنْدَقَه، ولم[3] يُفْلت منهم معروفٌ إلا القومص، وكان ــ لعنه الله ــ مليّاً يوم الظَّفر بالقتال، ومليّاً يوم الخِذْلان بالاحتيال، فنجا ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يَلْحَقَه مِنْسَرُ الرُّمْح وجَنَاح

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في الأصل: الضليل، والمثبت من (ك).

(٣ ــ ٣) ما بينهما ساقط من (ك).

السَّيْف، ثم أخذه الله بعد أيامٍ بيده، وأهلكه لمَوْعِدِه، وكان لِعِدَّتهم فذلك، وانتقل من ملكِ الموت إلى مالك[٣]. وبعد الكسرة مَرَّ الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الرَّاية السوداءِ صِبْغاً البيضاءِ صُنعاً، الخافقة هي وقلوب أعدائها، العالية هي وعزائم أوليائها[١].

فصـــل

[قال العماد][٢]: ومن قصائدي التي هنَّأتُ بها السُّلْطان بفتح القُدْس وهو مخيِّم عليه:

أَطِيْبُ بأنفاسٍ تطيبُ لكم نَفْسا ... وَتَعْتَاضُ من ذِكْرَاكُمُ وَحْشَتي أُنسا
وأسألُ عنكُمْ عافياتٍ دَوَارِس ... غَدَتْ بلسان الحالِ ناطقةً خُرْسا
مَعَاهِدُكُمْ ما بالُها كَعُهُوْدِكُمْ ... وقد كرَّرَتْ مِنْ دَرْسِ آثارها دَرْسا
وقد كان في حَدْسي لكم كلُّ طارقٍ ... وما جِئْتُمُ من هَجْرِكُمْ خالفَ الحَدْسا
أرىٰ حَدَثانَ الدَّهْرِ[٣] يُنْسىٰ حديثُه ... وأمَّا حديثُ الغَدْر منكم فلا يُنْسىٰ
تَزُولُ الجِبالُ الرَّاسياتُ وثابتٌ ... رَسِيْسُ غَرامٍ في فؤادي لكمْ أَرْسىٰ
حَسِبْتُ حبيبي قاسيَ القَلْبِ وَحْدَه ... وقَلْبُ الذي يهوىٰ بِحَمْلِ الهَوَىٰ أقسىٰ
أمالكُمُ يا مالكي الرِّقِّ رِقَّةً ... يَطِيْبُ بها مملوككمْ منكُمُ نَفْسا
وإنَّ سروري كنت أَسْمَعُ حِسَّه ... فمذ سِرْتُ عنكمْ ما سَمِعْتُ له حِسَّا

---

(١) انظر كتاب القاضي الفاضل بتمامه في «وفيات الأعيان» ٧/ ١٨٠ ــ ١٨٦، مع اختلاف في بعض ألفاظه، وتقديم وتأخير في بعض فقراته، وانظر «صبح الأعشى»: ٦/ ٤٩٦ ــ ٥٠٤، ٨/ ٢٨٢ ــ ٢٨٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) في الأصل: الغدر، والمثبت من (ك) و(ب).

وإنَّ نهـاري صـارَ ليـلاً لبُعْـدِكُـمْ فما أَبْصَرَتْ عيني صباحاً ولا شَمْسا
بكيـتُعلـىمستـودعـاتِقلـوبِكُـمْ كما قد بَكَتْ قِدْماً على صَخْرِها الخَنْسا
فلا تَحْبِسُـوا عَنِّـي الجميـلَ فـإنَّنـي جَعلْتُ علىٰ حُبِّي لكم مُهْجتي حُبْسا[(١)]
رأيـتُصـلاحَ الـديـنأَشْـرَفَمـنغـدا وأَفْضَلَ من أضحىٰ وَأَكْرَمَ من أَمْسىٰ[(٢)]
وقيـل لنـا فـي الأرضِ سبعـةُ أَبْحُرٍ ولسنـا نَـرَىٰ إلا أنـامِلَـهُ الخَمْسـا
سَجِيَّتُـه الحُسْنـى وَشِيمَتُـه الـرِّضـا وَبَطْشَتُه الكُبْرَىٰ وعِزَّتُهُ[(٣)] القَعْسا
فـلا عَـدِمَـتْ أيـامُنـا منـه مَشْـرِقـاً يُنيـر بمـا يُـوْلـي ليـالِيَنـا الـدُّمْسـا
جنـودُكَأمـلاكُالسَّمـاءِوَظَنُّهُـمْ عُدَاتُك جِنَّ الأَرْضِ في الفَتْكِ لا الإِنسا
فلا يستحقُّ القُدْسَ غَيْرُك في الوَرَىٰ فأنتَ الذي مِنْ دونهم فَتَحَ القُدْسا
ومن قَبْلِ فَتْحِ القُدْسِ كنتَ مقدَّساً فلا عَدِمَتْ أخلاقُك الطُّهْرَ والقُدْسا
/١٠٢ وَطَهَّـرْتَـهُ مـن رِجْسِهِـمْ بـدمـائهـم فأذهبتَ بالرِّجْس الذي ذَهَبَ الرِّجْسا
نَزَعْتَ لباسَ الكُفْرِ عن قُدْسِ أَرْضِها وأَلْبَسْتَها الدِّينَ الذي كَشَفَ اللَّبْسا
وعـادَتْ ببيـتِ الله أحكـامُ دينـه فـلا بطـركـاً أبقيـتَ فيهـا ولا قَسَّـا
وقد شاعَ في الآفاقِ عنك بِشَارةٌ بـأَنَّ أَذَانَ القُـدْسِ قـد بَطَّـل النَّقْسـا
جَرَىٰ بالذي تهوىٰ القضاءُ وظَاهَرَتْ ملائكةُ الرَّحمن أجنادَك الحُمْسا[(٤)]
وكـم لبنـي أيـوبَ عَبْـدٌ كَعَنْتَـرٍ فإن ذُكِروا بالبَأْس لا يذكروا عَبْسا
وقـد طـاب رَيَّـانـا علـى طَبَـرِيَّـةٍ فياطِيْبَها مغنىً ويا حُسْنها مَرْسَىٰ

---

(١) الحُبْس؛ يقع على كل شيء وقفه صاحبه تقرباً لله. «اللسان» (حبس).
(٢) في (ك) و(ب) أفضل من غدا وأشرف من أضحى.
(٣) في الأصل: وعزمته، والمثبت من (ك) و(ب).
(٤) الحمس جمع، مفردها أحمس، وهو الشجاع، والمتشدد على نفسه في الدين. «اللسان» (حمس).

وَعكّا وما عكّا فقد كانَ فَتْحُها لإجلائهِمْ عن مُدْنِ ساحلهِمْ كَنْسا
وصيدا وبيروت وتبْنِين* كلُّها بسيفك ألفىٰ أَنْفُه الرَّغْمَ والتَّعْسا
ويافا وأَرْسُوف* ويُبْنَىٰ* وغَزّةٌ تَخِذْتَ بها بين الطُّلى والظُّبَىٰ عُرْسا
وفي عَسْقَلانَ الكُفْرُ ذَلَّ بملككمْ فَمَنْظَرُهُ بل أَمْرُهُ ارْبَدَّ وارْجَسَّا
وصارَ بصورٍ عُصْبَةٌ يَرْقُبونَكُمْ فلا تُبْطِئوا عنها وحُسُّوهمُ حَسَّا
توكَّلْ على الله الذي لك أَصْبَحَتْ كلاءَتُهُ دِرْعاً وعِصْمَتُهُ تُرْسا
ودَمِّرْ على الباقين واجْتَثَّ أَصْلَهُمْ فإنَّك قد صَيَّرْتَ دينارهمْ فَلْسا
ولا يَنْسَ شِرْكَ الشَّرْقِ غَرْبُك[1] مُرْوِياً بماءِ الطُّلىٰ من صادياتِ الظُّبَى الخَمْسا
وإن بلادَ الشَّرْق مظلمةٌ فَخُذْ خُراسان والنَّهْرين والتُّرْك والفُرْسا
وبعد الفرنج الكُرْجَ[2] فاقْصِدْ بلادَهُمْ بِعَزْمِك واملأ من دمائهمُ الرَّسَّا[3]
أقامتْ بغاب السَّاحلين أُسودُكمْ وقد طَرَدَتْ عنه ذئابَهُمُ الطُّلْسا[4]

وهي طويلة، وقد تقدَّم بعضها في ذكر كسرة حِطِّين[5].

وللعماد أيضاً من جُمْلة القصيدة التي مَدَحَ بها حسامَ الدين بن لاجين، وقد تقدَّم بعضُها[6].

قُلْ للمليك صلاحِ الدِّين أكرم مَنْ يمشي على الأرْضِ أو [من] يَرْكَبُ الفَرَسا
من بَعْدِ فَتْحِكَ بيت القُدْس ليس سوى صُورٍ فإن فُتِحَتْ فاقصدْ طرابُلُسا

---

(١) الغرب: حدة السيف. «اللسان» (غرب).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من الجزء الثاني.
(٣) الرس: البئر. «اللسان» (رسس).
(٤) أورد ياقوت الحموي بعض أبياتها في «معجم الأدباء»: ١٩/ ٢٢ ـ ٢٧.
(٥) انظر ص ٣٠١ ـ ٣٠٣ من هذا الجزء.
(٦) انظر ص ٣٠١، ٣١٦ ـ ٣١٧ من هذا الجزء.

أَثِرْ على يوم أَنْطَرسوسَ* ذا لَجَبٍ   وابعثْ إلى ليل أنطاكيةَ العَسسا
وأَخْلِ ساحِلَ هذا الشَّام أَجْمَعَهُ   من العُداة ومَنْ في دينه وَكَسا
ولا تَدَعْ مِنْهُمُ نَفْساً ولا نَفَساً   فإنَّهم يأخذون النَّفْسَ والنَّفَسا
نزلتَ بالقُدْسِ فاسْتَفْتَحْتَهُ ومتى   تَقْصِدْ طرابُلُساً فانزلْ على قَدَسا*

ومن قصيدةٍ أخرى له نفَّذها إلى الخليفة النَّاصر:

أَبْشِرْ بِفَتْح أميرَ المؤمنين أتى   وَصِيتُهُ في جميع الأرضِ جَوَّابُ
ما كان يَخْطُرُ في بالٍ تصوُّره   واسْتُصْعِبَ الفَتْحُ لما أُغْلِقَ البابُ
وخامَعنه[1] الملوكُ الأقدمون وقد   مَضَتْ على النَّاس أحقابٌ وأحْقابُ[2]
وجاء عَصْرُك والأيامُ مُقْبِلَةٌ   فكان فيه لِفَيْضِ الكُفْرِ إنضابُ
نَصْرٌ أعادَ صلاحُ الدِّين رَوْنَقَه   إيجازُه ببليغ القَوْلِ إسْهَابُ
قَرْعُ الظُّبى بالظُّبى في الحَرْبِ يُطْرِبُهُ   لا قَيْنَةٌ صَنَعٌ بِاللَّحْنِ مِطْرَابُ
أحيا الهُدَىٰ وأماتَ الشِّرْكَ صارِمُهُ   لقد تجلَّى الهُدَىٰ والشِّرْكُ منجابُ
بِفَتْحِهِ القُدْسَ للإسلام قد فُتِحَتْ   في قَمْعِ طاغيةِ الإشْراكِ أبوابُ
ففي موافقةِ البيتِ المُقَدَّس للـ   ـبيتِ الحَرَامِ لنا تِيْهٌ وإعْجابُ
والصَّخْرَةُ الحَجَرُ المَلْثُوم جانبه   كلاهما لاعتمار الخَلْقِ مِحْرَابُ
١٠٣/ نفىٰ من القُدْسِ صُلْباناً كما نُفِيَتْ   من بيتِ مكَّة أَزْلامٌ وأنصابُ[3]

وكَثُرَ مدح الفُضَلاءِ للسُّلْطان عند فتح القُدْس، وقد ذكر العمادُ من ذلك جُملةً في أواخر كتاب «البرق»، فرأيتُ تقديم ما اخترته منها هنا، وزدتُ عليه ما لم يذكره، فمن ذلك قصيدة الحكيم أبي الفَضْل

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٨٣ من هذا الجزء.
(٢) في طبعة وادي النيل: ٢/ ١٠٢: مضت على الناس من بلواه أحقابُ.
(٣) سلف بيتان من هذه القصيدة ص ٥١ من هذا الجزء.

عبد المنعم بن عمر بن حسَّان الأندلُسي الجِلْياني[١] ، منها:

أبـا المُظفَّـر أنـت المُجْتبَىٰ لهدى ... أُخرىٰ الزَّمان على خُبرٍ بِخُبْرَتِه
فلـو رآك وقـد حُـزْتَ العُـلا عمـرٌ ... في قُلَّة التَّلِّ قَضَّى كُنْه عِبْرَتِهِ[٢]
ولـو رآك وأهـلُ القُـدْس فـي وَلَـهٍ ... أبـو عبيـدة فَـدَّىٰ[٣] مـن مَسَـرَّتـه
غداةَ جزُّوا النَّواصي في قُمامته ... وأعولوا بالتَّباكي حَوْلَ صَخْرَتِهِ
دارتْ بك المِلَّة الحُسْنى فنحن على ... عَهْدِ الصَّحابة في استمرارِ مِرَّته
وأنت كاسْمِك صدِّيقٌ وصاحِبُهُ الـ ... ـمَلْـكُ المُظَفَّـرُ سـامٍ فـي مَبَـرَّتـه
وفـي السُّـلالـة عثمـانٌ يـؤيِّـدُه ... عُـلا علـيٍّ علـى إيثـار نُصْـرَتـهِ
وكم لديك ذوي قُرْبى رقَوا شَرَفاً ... وكـم بعيـدٍ رأىٰ الـزُّلْفـى بِهِجْـرَتـهِ
يُشبِّـه القُبْـجُ[٤] مـا بيـن البُـزاة لَقًى ... مَلْكَ الفِرَنْجِ أخيذاً[٥] بين عِتْرَتِهِ
أَمـا رأيـتَ معـالي يـوسفٍ نُسِقَـتْ ... حتى رَمَتْ كلَّ ذي مُلْك بِحَسْرَتِهِ
أضحىٰ لِنَشْر الهُدَىٰ في فَتْح مَنْهجِهِ ... وباتَ يطوي العِدَىٰ في سَدِّ ثُغْرَتِه
واسْتَقْبَـحَ الـرِّجْـس ممنـواً بِمَشْهَـدِهِ ... فاستفتَحَ القُدْس محشواً بِزُمْرَتِهِ
لكـنَّ بـأس صـلاحِ الـدِّيـن أَذْهَلَهُـمْ ... بـوقعـةِ التَّـلِّ واستَشْـرى بسَـوْرَتِـهِ
تعيا الجوارِحُ والفُرْسانُ وهو على ... بَـدْءِ النَّشـاط عَشِيّـاً مِثْـلَ بُكْـرَتِـهِ
يا فاتحَ المَسْجِدِ الأقصى على بُهَمٍ[٦] ... وقانِصَ الجيشِ لا يُحْصى بِقَفْزَتِهِ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٠ من الجزء الثاني.
(٢) العبرة: العجب. «معجم متن اللغة»: ٤/ ١١.
(٣) يعني يقال له: جعلت فداك. «القاموس المحيط» (فدي).
(٤) القُبَجُ: ويسكن: الحَجَل. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٤٨٠.
(٥) أي: أسيراً. انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٠٥ من هذا لجزء.
(٦) البهم جمع، مفردها بهمة: بالضم: الشجاع، وقيل: الفارس الذي لا يُدْرى من أين يؤتى له من شدة بأسه، وتأتي أيضا بمعنى: الجيش. «اللسان» (بهم).

أَبْشِرْ بِمُلْكٍ كَظْهَرِ الشَّمْس مُطَّلع		علـى البسيطـةِ فتَّـاحٍ بنشـرتـه
حتـى يكـونَ لهـذا الـدِّيـن ملحمـةٌ		تحكـي النُّبـوةَ فـي أيـام فَتْـرَتِـهِ

قال: ونفَّذَ من مصر نجمُ الدِّين يوسف بن الحسين ابن المجاور الوزير العزيزي[1] قصيدةً، وعرضتها على السُّلْطان بالقُدْس، وفيها ذكر[2] الإنكلتير وفتح يافا، وذكر الهُدْنة التي يأتي ذكرها في آخر الكتاب[3]، فمنها وسيأتي الباقي المختار أيضاً:

الـوَقْتُ أَضْيَقُ مِنْ سماعِ قصيدةٍ		مَـوْسُـومـةٍ بصفـاتِ أَغْيَـدَ أَهْيَـفِ
الجِـدُّ فـي هـذا الـزَّمـان مُبيَّـنٌ		والهَـزْلُ فيـه مـع الغَـوَايـة مُخْتَـفِ
بـالنَّـاصـرِ المَهْـدِي والهـادي إلـى		سُبُلِ الجهادِ أبي المُظَفَّرِ يُوسُفِ
المستعيـنِ بِـربِّـه والـواثـقِ الـ		ـمنصـورِ والمستظهـر البَـرِّ الـوَفـي
شُـدَّتْ قُـوىٰ أركـان مِلَّـةِ أحمـدٍ		وَتَجَمَّلَـتْ بجهـادِهِ فـي المَـوْقِـفِ
ملـكٌ إذا أَمَّ الملـوكُ جَنَـابَـهُ		لاذوا بـأكـرمِ مـن يُـؤَمُّ وأَشْـرَفِ
وإذا أَتَـوْا أَسْـرَىٰ إلـى أبـوابـه		وَقَفُـوا بـأعظـمِ مـن يَصُـوْلُ وأَرْأَفِ
مـولـى غـدا للـدِّيـن أكـرمَ والـدٍ		حَـدِبٍ علـى أبنـائـه مُتَـرَفْـرِفِ
عَـزَلَ الفـرنجـة ثـم وَلَّـى جَيْشَـهُ		أَعْظِـمْ بـه مـن صَـارِفٍ ومُصَـرِّفِ
قـد أَنْصَـفَ التَّـوحيـدَ مـن تثليثهـم		وأقامَ في الإنجيل حَدَّ المُصْحَفِ
مُغْـرًى بتجـريـح الـرِّجـال لأنَّـه		يَـرْوِي أحـاديـثَ العَـوَالي الـرُّعَّـفِ
مَلِكٌ له في الحَرْب بَحْرٌ[4] تَفَقُّهٍ		ولـه غَـدَاةَ السِّلْـم زُهْـدُ تَصَـوُّفِ

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٩ من هذا الجزء.
(٢) في (ك) منها حديث.
(٣) انظر ص ٣٢٨ من الجزء الرابع.
(٤) في (ك) تخت.

وعليه أُنْزِلَ في الجهاد مُفَصَّلٌ ... فلذاك يقرؤه بسبعةِ أَحْرُفِ
عَزْمٌ وحِلْمٌ أنسيا ما كان من ... عَزْمِ ابن مِرْداسٍ وحِلْمِ الأَحْنَفِ[1]
يا أيها الملكُ الذي لطباعِهِ ... وسيوفِهِ خُلُقا رِضًى وتَعَسُّفِ
لله يوم عَرُوبة إذ أَعْرَبَتْ ... ساعاتُهُ عن نَصْرِك المتعرِّفِ
سَنَّتْ سيوفُكَ في الرؤوس ختانةً ... ذَهَبَتْ بمهجة كلِّ عِلْجٍ أَقْلَفِ
آفاتهم وافَتْ بأَخْذِك منهُمُ ... يافا* فكم من حَسْرَةٍ وتأسُّفِ
أَوَما رأى الأعلاجُ حين دَعَوْتَها ... بلسانِ سَيْفٍ في الكريهةِ مُلْحِفِ
لم تَسْتَطِعْ عصيانَ أَمْرِك بل أَتَتْ ... مُنْقَادةً طَوْعاً ولم تَتَخَلَّفِ ٢/ ٤
فاسْتَدْعِ جارَتَها وثَنِّ بأُختها ... وكذاك حتى الأربعين ونَيِّفِ
ما للسَّواحل غَيْرُ بَحْرِك حافظٌ ... بِشَبَا سِنانٍ أو بصَفْحَةِ مُرْهَفِ
هذا الطِّرازُ الأَخْضرُ اسْتَفْتَحْتَهُ ... فَزَها بثوبٍ من عُلاك مُسَجَّفِ
أَحْيَيْتَ دينَ محمدٍ وأَقَمْتَهُ ... وسَتَرْتَهُ مِنْ بَعْدِ طُوْلِ تَكَشُّفِ
وَضَبَطْتَ ديوانَ الجهادِ بعاملٍ ... من عاملٍ وَبِمُشْرِفٍ من مَشْرِفي[1]
وبِجِهْبِذِ العَزْمِ الذي لا يَنْثَني ... وبناظرِ الرأي الذي لم يَطْرِفِ

---

(١) وردت في (ك) بعد هذا البيت، الأبيات التالية، وستأتي ص ٣٢٨ من الجزء الرابع:

يا صاحِ قُلْ للإنكتير الكلب دَعْ ... عَنْك الجنونَ وَخُذْ مقالةَ مُنْصِفِ
القُدْسُ مافيه لسَّرْجِكِ مطمعٌ ... كلا ولا نورُ الإلهِ بمنطفي
والمسجد الأقصى فعنه تقصَّ مِنْ ... وَقْعِ الدَّبابيس الأليمةِ تَعْرِفِ
واسْتَفْتِ نَفْسَك فهي أخبثُ ناصح ... واتْرُكْ متابعةَ اللَّجاجِ المُتْلِفِ
واعجبْ لرُمْحٍ بالرؤوس مُعَمَّمٍ ... واطْرَبْ لسيفٍ بالدِّماء مُغَلَّفِ

العامل: الرمح. والمشرفي: السيف، ينسب إلى المشارف، من قرى اليمن. «اللسان» (عمل، شرف).

فَخُـذِ الخَـرَاجَ مـن البسيطـةِ كلِّهـا   واسْتَـأْدِ فَرْضَـيْ جِـزْيَـةٍ ومـوظَّـفِ
واقْبِـضْ على الـدُّنيـا بكـفٍّ زهـادةٍ   وابْسُـطْ لـرحمتهـا جَنَـاحَ تَعَطُّـفِ
جـاءت جنـودُ الله تَطْلُـبُ ثَـأْرَهـا   وَصُـدُورُهـا بـك عـن قليـلٍ تَشْتَفِـي
فانْهَضْ بها وتَقَاضَ حَقَّك موقناً   أنَّ الإلـــه بمـــا تُـــؤَمِّلُـــه حَفِـــي
هـم فِتْيَـةُ الأتـراك كـلُّ مُجَفْجِـفٍ   يَغْشَىٰ الكريهةَ فَوْقَ كُلِّ مُجَفْجَفِ
قـومٌ يخـوضُـون الحِمـامَ شجـاعـةً   لا يَنْظُـرون إليـه مـن طَـرْفٍ خَفِـي
إنْ صبَّحـوا الأعـداءَ فـي أَوْطـانِهِـمْ   تـركـوا ديـارَهُـمُ كَقَـاعٍ صَفْصَـفِ
أنـــتَ اصْطَفَيْتَهُـــمُ لِنُصْـرَةِ ديننـا   لله دَرُّ المُصْطَفَـــىٰ والمُصْطَفِـــي

قلتُ: وذكرتُ بقوله: «هذا الطِّراز الأخضر استفتحته» حكايةً حسنة لائقة بالحال حدَّثني بها شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السَّخاوي(٢)، قال: قرأتُ بخطِّ شيخنا أبي الفضائل بن رشيق بمصر عقيب موته في سنة ثلاث وسبعين وخمس مئة، قال: رأى إنسان كأنَّ شخصاً ذا جَهَامةٍ واقفٌ على حائطٍ بجامع دمشق يسمى النَّسْر، وهو يقول:

مَلَكَ الصَّياصي(٣) والنَّواصي(٤) ناصرٌ   للـــدِّيـــن بعـــد إيـــاســـه أن يُنْصَـــرا
وَسَيَفْتَـحُ البيـتَ المُقَـدَّس بعـدمـا   يُطْـوىٰ الطِّـرازُ لـه ويَقْتُـلُ قَيْصَـرا

قلتُ: وهذا قبل أن يفتح صلاح الدين البلاد بعشر سنين. وقرأتُ بخطِّ بعض أصحابنا، قال: وجدتُ على حاشية كتابٍ يروى عن خطيبٍ كان بالرَّقَّة

---

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» حوادث سنة (٦٤٣ هـ).
(٢) الصياصي: الحصون. «اللسان» (صيص).
(٣) في الأصل: الصواحي، والمثبت من (ك).

أنه رأى من ينشده هذا الشِّعْر في النوم سنة إحدى وثلاثين وخمس مئة، فذكر البيتين وهذا قَبْل الفتح باثنتين وخمسين سنة، وقبل مَوْلد صلاح الدين بسنة. والمعنى بالطِّراز بلاد السَّاحل المصطفَّة على بلاد البحر من الدَّاروم* وغَزَّة* وعَسْقلان* وعكَّا وصيدا وبيروت وجُبيل وغير ذلك، ولم يَبْق من الطِّراز في أثناء ذلك سوى صور بين صيدا وعكا، وهكذا كان الأمر على ما سبق بيانُه؛ فتح هذا الطراز أولاً، ثم فُتحَ البيت المقدَّس، وكنَّىٰ بقيصر عن الإبرنس الذي قتله بيده، لأنه كان من رؤوس الكُفْر وملوكهم وغُلاتهم في معاداة الإسلام، والله أعلم.

قال العماد: وكان فَخْرُ الكُتَّاب أبو علي الحسن بن علي الجُوَيْني(١) المقيم بمصر من أهل بغداد ينفِّذ إليَّ قصائده لأعرضها، فرأيتُ أن أثبت له هذه القصيدة في الفَتْحِ، وهي مشتملة على ذِكْرِ ملوك الإسلام وإهمالهم له تسعين عاماً حتى تجرَّد له سُلْطاننا(٢). فذكر منها:

جُنْدُ السَّماءِ لهذا المَلْكِ أَعْوَانُ ... مَنْ شَكَّ فيهم فهذا الفَتْحُ بُرْهانُ
متى رأى النَّاس ما نحكيه في زَمَنٍ ... وقد مَضَتْ قَبْلُ أزمان وأَزْمانُ
هذي الفُتوحُ فتوحُ الأنبياءِ وما ... لها سوى الشُّكْرِ بالأفعال أثمانُ

---

(١) أقام الجويني في حلب أيام زنكي، ومن بعده ابنه نور الدين، ثم سافر إلى مصر في أيام ابن رزِّيك، وتوطن فيها إلى حين وفاته سنة (٥٨٦ هـ)، وكان شاعراً أديباً، وكاتباً مجوداً، ذا خط رائق. انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء العراق. المجلد الثالث، الجزء الثاني ص ٥٨ ــ ٦٣، و«معجم الأدباء»: ٩/ ٤٣ ــ ٤٦، و«التكملة» للمنذري: ١/ ٧٩، و«بغية الطلب» لابن العديم: ٥/ ٢٤٦٠ ــ ٢٤٦٤، و«وفيات الأعيان»: ٢/ ١٣١ ــ ١٣٢، و«مجمع الآداب» ج ٤/ ق ٣/ ١٤٣، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٣٣ ــ ٢٣٤.

(٢) ثمة تقديم وتأخير في إيراد الأشعار في نسخة (ك)، ولكن التزمنا ترتيب الأصل.

أَضْحَتْ ملوكُ الفرنجِ الصِّيْدِ في يده … صَيْداً وما ضَعُفوا يوماً وما هانُوا
كم مِنْ فُحولِ ملوكٍ غُودروا وهُمُ … خَوْفَ الفرنجةِ وِلْدانٌ ونِسْوانُ
استصرَخَتْ بِمَلِكْشَاهِ طَرابُلُسٌ … فخام عنها[1] وصُمَّتْ منه آذانُ
هذا وكم ملكٍ من بعده نَظَرَ الـ … ـلإسلامَ يُطْوَىٰ ويُحوى وهو سَكْرَانُ
تسعون عاماً بلادُ الله تَصْرَخُ والـ … ـلإسلامُ نُصَّارُه صُمٌّ وعُمْيانُ
فالآنَ لبَّىٰ صلاحُ الدِّين دَعْوَتَهُمْ … بأمرِ مَنْ هو للمِعْوَانِ مِعْوَانُ
للنَّاصر ادُّخِرَتْ هذي الفُتوحُ وما … سَمَتْ لها هِمَمُ الأملاكِ مُذْ كانوا
حَبَاه ذو العَرْشِ بالنَّصر العزيز فقا … ل النَّاس داودُ هذا أم سُلَيمانُ
في نصف شَهْرٍ غدا للشِّرْكِ مُصْطَلِماً … فطُهِّرَتْ منه أقطارٌ وبُلْدانُ
فأين مَسْلَمَةٌ عنها وإخوتُهُ … بل أين والِدُهُمْ بل أين مَرْوَانُ (م)
وَعَدِّ عما سواه فالفرنجةُ لم … يَبُذُّهُمْ من ملوكِ الأَرْضِ إنسانُ
لو أنَّ ذا الفَتْحَ في عَصْرِ النَّبيِّ لقد … تَنَزَّلَتْ فيه آياتٌ وقُرْآنُ
يا قُبْحَ أَوْجُه عُبَّادِ الصَّليبِ وقد … غدا يُبَرْقِعُها شُؤم وخِذْلان
خَزَنْتَ عند إله العَرْشِ سائر ما … مَلَكْتَهُ وملوكُ الأَرْضِ خُزَّانُ
فالله يُبْقيك للإِسلامِ تَحْرُسُهُ … من أن يُضَامَ ويُلْفَىٰ وهو حَيْرانُ
وهذه سَنَةٌ أَكْرِمْ بها سنةً … فالكُفْر في سِنَةٍ والنَّصْرُ يَقْظانُ
يا جامعاً كِلْمَةَ[2] الإِيمانِ قامعَ مَنْ … معبودُه دونَ رَبِّ العَرْشِ صُلْبانُ
إذا طَوَىٰ الله ديوانَ العبادِ فما … يُطْوَىٰ لأَجْرِ صلاحِ الدِّين ديوانُ

وللشَّريف النَّسَّابة المِصْري محمد بن أسعد بن علي بن مَعْمَر الحُسَيْني

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٨٣ من هذا الجزء.
(٢) في (ك) كلم.

المعروف بالجَوّاني[1]، نقيب الأشراف [بالديار المصرية][2] من قصيدةٍ:

أتُـرى مَنَامـاً مـا بعينـي أُبصِـرُ ... القُـدْسُ يُفْتَـحُ والفـرنجـةُ تُكْسَـرُ
وقُمامةٌ قُمَّت من الرِّجْس الذي ... بِـــزَوَالـــه وزوالهـــا يتطهَّـــرُ
وَمَلِيْكُهُـمْ فـي القَيْـدِ مصفـودٌ ولـم ... يُـرَ قَبْـلَ ذاك لهـمْ مليـكٌ يُـؤْسَـرُ
قـد جـاء نَصْـرُ الله والفَتْـحُ الـذي ... وُعِدَ الرَّسُولُ فسبِّحوا واسْتَغْفِرُوا
فُتِـحَ الشَّـآم وطُهِّـرَ القُـدْسُ الـذي ... هـو فـي القيـامـة لـلأنـام المَحْشَـرُ
مَـن كـان هـذا فتحـه لمحمَّـدٍ ... مـاذا يُقـالُ لـه ومـاذا يُـذْكَـرُ
يا يـوسـف الصِّـدِّيق أنـت لِفَتْحها ... فـاروقُهـا عُمـرُ الإمـامُ الأَطْهَـرُ
ولأَنْـتَ عثمـان الشَّـريعـة بعـدَه ... ولأَنْـتَ فـي نَصْـرِ النُّبُـوَّة حَيْـدَرُ
ملكٌ غدا الإسلامُ من عَجَبٍ به ... يختـالُ والـدُّنيـا بـه[3] تَتَبَخْتَـرُ
نَثْـرٌ ونَظْـمٌ طَعْنُـهُ وضِـرَابُـهُ ... فـالـرُّمْـحُ يَنْظِـمُ والمهنَّـد يَنْثُـرُ
حيث الرِّقابُ خواضِعٌ حيث العيو ... نُ خـواشـعٌ حيـث الجبـاه تُعَفَّـرُ
غـاراتُـهُ جُمَـعٌ فـإن خَطَبَـتْ لـه ... فيهـا السُّيـوفُ فكـلُّ هـام مِنبَـرُ
إذ لا تـرى إلا طُلَـى[4] بسنـابـكٍ ... تُحْـذَىٰ نعـالاً أو دمـاءً تُهْـدَرُ

---

(١) أصله من الموصل، وولد بمصر سنة (٥٢٥ هـ) وولي نقابة الأشراف فيها مدة، وله «طبقات الطالبيين» و«تاج الأنساب»، وغيرهما، توفي بمصر سنة (٥٨٨ هـ). انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر ١/ ١١٧ ـ ١١٩، و«الوافي بالوفيات»: ٢/ ٢٠٢، و«لسان الميزان» ٥/ ٧٤ ـ ٧٦، وفيه الجوالي، وهو تصحيف. والجواني نسبة إلى الجوانية قرية قرب المدينة. انظر «معجم البلدان»: ٢/ ١٧٥، و«الأعلام» للزركلي: ٦/ ٣١.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) في (ك) له.

(٤) الطُّلى جمع، مفردها الطُّلاة: وهي العنق. «اللسان» (طلي).

وصـوافنـاً تختـار أن تَطَـأَ الثَّـرَىٰ فَيَصُـدُّهـا عنـه طُلَّـى وسَنَـوَّرُ[١]
تمشي على جُثَثِ العِدَىٰ عُرْجاً ولا عَـــرَجٌ بهـــا لكنَّهـــا تَتَعَثَّـــرُ

وقال أبو الحسين بن جُبير الأَنْدَلُسي[٢]:

أَطَلَّـتْ علـى أُفْقِـكَ الـزَّاهِـرِ سُعُـودٌ مـن الفَلَـك الـدَّائِـرِ
١٠٦/٢ فَـأَبْشِـرْ فـإن رِقـابَ العِـدَىٰ تُمَـدُّ إلـى سَيْفِـكَ البـاتِـرِ
وعمـا قـريـبٍ يَحُـلُّ الـرَّدَى بكُنْـدِهـمُ* النَّـاكِـثِ الغـادِرِ
وخِصْبُ الورى يوم تسقي الثُّرى سحـائِـبُ مـن دَمِهـا الهـامِـرِ
وكـم لـك مـن فَتْكَـةٍ فيهُـمُ حَكَـتْ فَتْكَـةَ الأَسَـدِ الخـادِرِ
كَسَـرْتَ صَلِيْبَهُـمُ عَنْـوَةً فللـه دَرُّكَ مـن كـاسِـرِ
وغَيَّـرت آثـارَهُـمْ كُلَّهـا فليس لها الـدَّهْـرَ مـن جابِرِ
وأَمْضَيْـتَ جِـدَّك فـي غَـزْوِهـم فَتَعْسـاً لِجَـدِّهِـمُ العـاثِـرِ
وأدْبَـرَ مُلْكُهُـمُ بـالشَّـآم ووَلَّـى كـأمْسِهِـمُ الـدَّابـرِ
جنـودُك بـالـرُّعْـبِ منصـورةٌ فَنَـاجِـزْ متـى شِئْـتَ أو صـابِـرِ
فكلُّهـمُ غَـرِقٌ هـالِـك بتيَّـار عَسْكَـرِكَ الـذَّاخـرِ
ثَأَرْتَ لدين الهُدَى في العِدَىٰ فـآثـرك الله مِـنْ ثـائِـرِ
وَقُمْـتَ بنَصْـرِ إلـه الـوَرَىٰ فَسَمَّـاك بـالملـك النَّـاصِـرِ
وجـاهَـدْتَ مجتهـداً صـابـراً فللـه أَجْـرُكَ مـن صـابِـرِ
تبيـت الملـوكُ علـى فُـرْشِهِـمْ وتَـرْفُـلُ فـي الـزَّرَدِ السَّـابـري
وتُـؤْثِـرُ جـاهِـدَ عَيْشِ الجهـادِ علـى طِيْـبِ عَيْشِهِـمُ النَّـاضـرِ
وتَسْهَـرُ ليلَـك فـي حَـقِّ مَـنْ سَيُـرْضِيْـكَ فـي جَفْنِـك السَّـاهـر

---

(١) السنور: جملة السلاح، وخص بعضهم به الدروع. «اللسان» (سنر).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٢ من هذا الجزء.

فَتَحْتَ المقدَّس من أرضه فعادَتْ إلى وَصْفها الطَّاهِرِ
وجئْتَ إلى قُدْسه المُرْتَضىٰ فخلَّصْتَهُ من يَدِ الكافر
وأَعْلَيْتَ فيه مَنارَ الهُدَىٰ وأَحْيَيْتَ من رَسْمِهِ الدَّاثر
لكم ذَخَرَ الله هذي الفتوح من الزَّمَنِ الأوَّل الغابِرِ
وَخَصَّك من بعد فاروقه بها لاصطناعك في الآخِرِ
محبَّتُكُمْ أُلْقِيَتْ في النُّفوس بذكرٍ لكم في الورَىٰ طائرِ
فكم لهمُ عند ذكر الملوك لمثلك من مَثَلٍ سائر[1]

وباقي القصيدة تقدَّم في أخبار سنة أربع وسبعين[2].

وقال أبو الحسن عليُّ بن محمد السَّاعاتي:

أعِيّاً وقد عاينتمُ الآيةَ العُظْمىٰ لأيةِ حالٍ تذخروا النَّثْرَ والنَّظْما
وقد ساغَ فَتْحُ القُدْسِ في كلِّ منطقٍ وشاعَ إلى أن أَسْمَعَ الأَسَلَ الصُّمَّا
حَبا مكَّةَ الحُسْنى وَثَنَّى بيثربٍ وأَطْرَبَ ذيَّاك الضَّريحَ وما ضمَّا
فَلَيْتَ فتَىٰ الخطَّاب شاهَدَ فَتْحَها فَيَشْهَدَ أنَّ السَّيْفَ من يوسفٍ أَصْمَىٰ
وما كان إلا الداءُ أعيا دواؤه وغَيْرُ الحُسامِ العَضْبِ لا يُحْسِنُ الحَسْما
وأصبح ثَغْرُ الدِّين جَذْلانَ باسماً وألسنةُ الأغماد تُوْسِعُه لَثْما
سَلُو السَّاحل المخشي عن سَطَوَاته فما كان إلا ساحلاً صادَفَ اليَمَّا[3]

وله من قصيدةٍ أُخرى في السُّلْطان:

عَصَفَتْ به ريحُ الخُطُوب زعازعاً فلقينَ طَوْداً لا تخفُّ أَناتُهُ

(١) انظر «الذيل والتكملة» للمراكشي ٥/ ق ٢/ ٥٩٨ ــ ٦٠١.
(٢) انظر ص ١٢ ــ ١٤ من هذا الجزء.
(٣) «ديوان ابن السَّاعاتي»: ٢/ ٣٨٥ ــ ٣٨٦.

هـو منقـذُ البيـتِ المقـدَّس بعـدمـا طـالَـتْ فمـا وَجَـدَ الشِّفـاءَ شُكـاتُـهُ
بيـتٌ تـأسَّـس بـالسُّكـون وإنمـا عنـد الـزِّحـافِ تَحـرَّكَـتْ سكنـاتُـهُ
أمشتِّـتَ الأعـداء وهـي جحـافـلٌ عـن شَمْـلِ ديـنٍ جُمِّعَـتْ أشتـاتُـهُ
أُوتيتَ عَزْماً في الحروبِ مسدَّداً لا زَيْغُـه يُخْشَـىٰ ولا هَفَـواتُـهُ
أحسنـتَ بـالبيـتِ العتيـقِ ويَثْرِبٍ ولـك الفِعَـالُ كثيـرةٌ حَسَنـاتُـهُ
هـذي سيـوفُـك مُحْـرِمـاتٌ دونَـهُ لبكـائِهِـنَّ تبسَّمَـتْ حُجُـرَاتُـهُ[1]

١٠٧/٢ وله من قصيدةٍ أُخرى:

هو الفاتحُ البيت المقدس بعدما تحامته سادات الدُّنا ومَسودُها
فضيلـةُ فَتْـحٍ كـان ثـانـي خليفـةٍ من القوم مُبْديها وأنت مُعِيْدُها[2]

وله من قصيدةٍ في بعض أقارب السُّلْطان:

ألستَ مِنَ القَوْمِ الأُلـي بسيوفهم ثنوا صَخْرَةَ البيتِ المقدَّس مسجدا[3]

وللعماد الكاتب من قصيدةٍ مدح بها الملك الأفضل:

والقُـدْسُ أَعْضَـلَ داؤه مَـنْ قَبْلَكُـمْ فَـوَفَيْتُـمُ بشفـاءِ ذاك المُعْضِـلِ
دَرَجَ الملـوكُ علـى تمنِّـي فَتْحِـهِ زمنـاً وغُلَّتهـم بـه لـم تُبْلَـلِ
وأتـى زمـانكـمُ فـأمكـن آخـراً مـا قـد تعـذَّر فـي الـزَّمـانِ الأَوَّلِ
مـا كـان قَـطُّ ولا يكـون كَفَتْحكُـمْ للقُدْس في الماضي ولا المُسْتَقْبَلِ
أَوْجَـدْتُـمُ منـه الـذي عَـدِمَ الـوَرَىٰ وَفَعَلْتُـمُ فـي الفَتـحِ مـا لـم يُفْعَـلِ

---

(١) «ديوان ابن الساعاتي»: ٢/ ٤١٠، وهي مستدركة فيه من كتابنا.
(٢) «ديوانه»: ٢/ ٤١٠، وهي مستدركة فيه من كتابنا.
(٣) لم أجده في «ديوانه».

أيدي الملوكِ تقاصَرَتْ عن مَفْخَرٍ طُلْتُمْ بـه فَبُلُـوا بِعَـضِّ الأَنْمُـلِ
أَحْيَيْتُـمُ شَـرْعَ الكِـرَامِ ولـم يَـزَلْ نَصْرُ المحقِّ[1] بكم وقَهْرُ المُبْطِلِ

وله من قصيدة في مدح الملك المؤيَّد [مسعود بن صلاح الدين][2]:

وكـم لبنـي صـلاحِ الـدِّيـن فينـا علـى الإِسـلام مـن حَـقٍّ تـأكَّـدْ
وإنَّ لهـم علـى الأمـلاكِ طُـرّاً بِفَتْحِ القُـدْس فَضْـلاً ليس يُجْحَـدْ

وله من أُخرى في مدح الملك الظَّاهر غازي:

هـمُ الملـوكُ ذوو بَـأْس ومَكْـرُمَـةٍ إن سالموا أُمنوا[3] أو حاربوا خِيْفُوا
أغناهمُ القُدْسُ عن قَوْلِ الوَرَىٰ فُتِحَتْ عَكَّـا* وصَيْـدا وبيـروت وأَرْسُـوفُ
جَيْشُ الفرنـجِ إذا لاقـى سوابقَهُـمْ كـأنَّـه جَبَـلٌ بـالـرِّيـح مَنْسُـوفُ

وقرأتُ على شيخنا أبي الحسن علي بن محمد السَّخاوي[4] رحمه الله من جُمْلة قصيدةٍ مَدَحَ بها بعضَ ولد السُّلْطان، أظنُّه الملك المحسن ظهير الدين أحمد بن صلاح الدين، رحمهما الله:

ملـكٌ بـه وأبيـه يَفْتَخِـرُ العُـلا ويَفُـوْقُ فَخْرُهمـا السُّهـا والفَـرْقَـدا
مـا يـوسـفٌ ممَّـن يُقـاسُ بحـاتـمٍ أنَّى وقد وَهَبَ الحُصُوْنَ وأَصْفَدا[5]
أو أن يقـال كـأنَّـه يـوم الـوَغَـى والـرَّوْعِ كـالأَسَدِ الهَصُوْرِ إذا عـدا

(١) في الأصل: المحب، والمثبت من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) في (ك) أملوا.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٦٨ من هذا الجزء.
(٥) أي أعطاه مالاً. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٤٦١.

أو مَــن يُشَبَّــه جُــودُه بغمــامــةٍ — أو مـن يُقـالُ لِمثْلِـهِ غَمْـرُ الـرِّدا[1]
بـل مـالـك الـدُّنيـا ومـالـىء رَحْبهـا — خَيْـلاً ورَجْـلاً نـاصـراً ديـنَ الهُـدَىٰ
ومخلِّـص البيـتِ المقـدَّس بعـدمـا — رُفِـعَ الصَّليـب علـى ذُرَاه ومُجِّـدَا
ومـن الملـوكِ الصِّيْـد تلقـاهـم إذا — رُفِـعَ السُّـرَادِقُ راكعيـنَ وسُجَّـدا
وبـه أتـىٰ البيـتَ الحَـرَامَ وفـودُه — مِــن كــل فــجٍّ آمنيــنَ المُــرَّدا
مِنْ بَعْـدِ مـا دَرَسَـتْ معـالـمُ سُبْلِـهِ — دَهْــراً وعَــزَّ لخــوفهــا أن يُقْصَــدا

فصــل

في صفة إقامة الجمعة بالأقصى شَرَّفه الله تعالى في رابع شعبان ثامن يوم الفَتْح

وقد وَهِمَ محمد بن القادسي[2] في «تاريخه» فيما قرأتُه بخطِّه، فإنه قال: فَتَحَ صلاحُ الدِّين بيتَ المقدس، وخَطَبَ على المِنْبر فيه بنفسه، وصلَّى فيه، ولبس خِلْعَةً سوداء.

ولم يكن السُّلْطان هو الذي باشر الخُطْبة على ما سنذكره[3]، وقد تقدَّم أن يوم الفَتْح وإن كان يوم الجمعة إلا أن الوقت ضاق عن إقامة فرض صلاة الجمعة فيه[4].

قال العماد: لما تسلَّم السُّلْطانُ القُدْس أمر بإظهار المحراب، وكان الدَّاوية* قد بنوا في وجهه جداراً، وتركوه للغَلَّة هُرْياً[5]، وقيل: كانوا

(١) هو غمر الرداء: سخيٌّ كثير المعروف. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٣٢٢.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.
(٣) انظر ص ٣٧٩ من هذا الجزء.
(٤) انظر ص ٣٤٤ من هذا الجزء.
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣١٠ من هذا الجزء.

اتخذوه مستراحاً عُدْواناً وبغياً، وكانوا قد بنوا من غربي القِبْلة داراً وسيعة، وكنيسةً رفيعة، فأوعز برفع[1] ذلك الحجاب، وكَشْفِ النِّقاب عن عروس المحراب، وهَدْمِ ما قُدَّامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنية، بحيث يجتمع النَّاس للجمعة في العَرْصة المتَّسعة. ٢/٥٠٨

ونُصِبَ المنبر، وأُظْهِرَ المحراب المطهَّر، ونُقِضَ ما أحدثوه بين السَّواري، وفرشوا تلك البسيطة بالبُسط الرَّفيعة عِوَضَ الحُصُر والبَوَاري[2]، وعُلِّقَتِ القناديل، وتُلِيَ التَّنْزيل، وحُقَّ الحق وبطلت الأباطيل، وتولَّى الفرقان وعُزِلَ الإنجيل، وَصُفَّتِ السجادات، وصَفَت العبادات، وأُقيمت الصَّلوات، وأُديمت الدَّعوات، وتَجَلَّتِ البركات، وانجلت الكربات، وانجابت الغَيَابات، وانثابت الهدايات، وتُلِيَتِ الآيات، وأُعليت الرَّايات.

ونَطَقَ الأَذان وخَرِسَ النَّاقوس، وحَضَرَ المؤذِّنون وغاب القُسوس، وزال العبوس والبوس، وطابتِ الأنفاس والنُّفوس، وأقبلتِ السُّعود وأدبرت النُّحوس، وعاد الإيمان الغريب منه إلى مَوْطنه، وطُلِبَ الفَضْلُ من مَعْدِنِهِ، وورد القُرَّاء وقُرِىء الأوراد، واجتمع الزُّهَّاد والعُبَّاد، والأبدال والأوتاد، وعُبِدَ الواحد، ووحَّد العابد، وتوافد الرَّاكع والسَّاجد، والخاشع والواجد، والزَّاهي والزَّاهد، والحاكم والشَّاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجد والسَّاهد[3]، والزَّائر والوافد.

وصَدَحَ المنبر، وصَدَعَ المُذَكِّر، وانبعث المعشر، وذُكِرَ البعث

(١) في (ك) و(ب) بكشف.

(٢) البواري جمع، مفردها الباري والبارياء، الحصير المنسوج. فارسي معرب، «اللسان» (بري).

(٣) في (ك) والمتهجد السَّاهد.

والمحشر، وأملى الحُفَّاظ، وأبكى[1] الوعَّاظ، وتذاكر العُلَماء، وتناظر الفقهاء، وتحدَّثت الرُّواة، وروى المحدِّثون، وتحنَّف الهُدَاة، وهدى المتحنِّفون، وأخلص الدَّاعون، ودعا المُخْلصون، وأَخَذَ بالعزيمة المترخِّصون، ولَخَّصَ المُفَسِّرون، وفَسَّر الملخِّصون، وانتدى الفضلاء، وانتدب الخُطَباء، وَكَثُرَ المترشِّحون للخطابة، المتوشِّحون بالإصابة، المعروفون بالفَصَاحة، الموصوفون بالحَصَافة، فما فيهم إلا من خطب الرُّتْبة، ورتَّبَ الخُطْبة، وأنشأ معنىً شائقاً، ووشَّى لفظاً رائقاً، وسوَّى كلاماً بالموضع لائقاً، وروَّى مبتكراً من البلاغة فائقاً، وفيهم من عَرَضَ علي خُطْبته، وطلبَ مني نصبته، وتمنَّى أن ترجَّحَ فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق منيَّته[2] فيها أُمنيَّته، وكلُّهم طال إلى الالتهاء بها عُنُقُه، وسال من الالتهاب عليها عَرَقُهُ. وما منهم إلا من يتأهَّب ويترقَّب، ويتوسَّل ويتقرَّب، وفيهم من يتعرَّض ويتضرَّع، ويتشوَّف ويتشفَّع، وكلٌّ قد لبس وقاره ووقَّر لباسه، وضَرَبَ في أخماسه أسداسَه، ورفع لهذه الرِّياسة راسه، والسُّلْطان لا يعين ولا يبين، ولا يخصُّ ولا ينص، ومنهم من يقول: ليتني خطبتُ في الجمعة الأُولى، وفُزْتُ باليد الطُّولى، وإذا ظفرتُ بطالع سَعْدي، فما أبالي بمن خَطَبَ بعدي.

فلما دخل يوم الجمعة رابع شعبان أصبح النَّاس يسألون في تعيين الخطيبِ السُّلْطانَ، وامتلأ الجامعُ، واحتفلت المجامع، وتوجَّسَتِ الأبصار والمسامع، وفاضَتْ لِرِقَّة القلوب المدامع، وراعت لحلية تلك الحالة وبهاء

---

(١) في (ك) وأسلى.

(٢) في الأصل: بمنيته، والمثبت من (ك).

تلك البهجة الرَّوائع، وغُصَّتْ بالسَّابقين إليها المواضع، وتوسَّمتِ العيون، وتقسَّمت الظُّنون، وقال النَّاس: هذا يومٌ كريم، وفَضْلٌ عميم، ومَوْسم عظيمٌ، هذا يوم تُجاب فيه الدَّعوات، وتُصَبُّ البركات، وتسال العَبَرات، وتُقَال العَثَرات، ويتيقَّظ الغافلون، ويتَّعظ العاملون. وطوبىٰ لمن عاش، حتى حَضَرَ هذا اليوم الذي فيه انتعش الإِسلام وارتاش، وما أفضل هذه الطَّائفة الحاضرة، والعُصْبة الطَّاهرة، والأُمة الظاهرة، وما أكرم هذه النُّصْرة النَّاصِريَّة، والأسرة الإِماميَّة والدَّوْلة العَبَّاسية، والمملكة الأيوبية، والدَّوْلة الصَّلاحية، وهل في بلد الإِسلام أشرفُ من هذه الجماعة، التي شَرَّفها الله بالتوفيق لهذه الطَّاعة.

وتكلَّموا فيمن يخطب، ولمن يكون المَنْصِب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدَّثوا بالتَّصريح والتَّعريض. والأعلام تُعْلَىٰ، والمِنْبر يُكْسىٰ ويُجْلى، والأصواتُ ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تَزْدَحم، والأمواج تلتطم، وللعارفين من الضَّجيج ما في عرفات للحجيج، حتى حان الزَّوال، وزال الاعتدال، وحَيْعل[1] الدَّاعي، وأعجل السَّاعي، نصب السُّلْطان الخطيب بنصِّه، وأبان عن اختياره بعد فحصه، وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد بن زكي الدين علي القُرَشي[2] بأن يرقى ذلك المَرْقَى، وترك جباه الباقين بتقديمه عَرْقَىٰ، فأَعَرْتُهُ من عندي أُهبةً سوداء من تشريف الخلافة، حتى يكمل له شرف الإِفاضة والإِضافة، فَرَقِيَ العُود، ولقي السُّعود، واهتزَّت أعطاف المنبر، واعتزَّت أطرافُ المعشر.

---

(١) حيعل، أي قال: حي على الصلاة، وصحفها محقق «الفتح» إلى «خيعل» وشرحها بقوله: أي ألبس!!

(٢) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وقد ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٥٩٨ هـ).

وخَطَبَ وأنصتوا، ونَطَقَ وسكتوا، وأفصح وأعرب، وأبدع وأغرب، وأعجز وأعجب، وأَوْجَزَ وأسهب، ووعظ في خُطْبتيه، وخطب بموعظتيه، وأبان عن فَضْلِ البيت المقدَّس وتقديسه، والمسجد الأقصى من أول تأسيسه، وتطهيره بعد تنجيسه، وإخراس ناقوسه، وإخراج قسِّيسه، ودعا للخليفة والسُّلْطان، وختم بقوله تعالى: ﴿إنَّ الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والاحسان﴾[1] ونزل وصَلَّىٰ في المحراب، وافتتح ببسم الله الرحمن الرحيم من أُمِّ الكتاب، فأمَّ[2] بتلك الأُمَّة، وتَمَّ نزولُ الرَّحْمة، وكَمَلَ وصولُ النِّعْمة.

ولما قُضيت الصَّلاةُ انتشر النَّاس، واشتهر الإيناس، وانعقد الإجماع
١٠٩/٢ واطَّرَدَ القياس، وكان قد نُصِبَ للوعظ تجاه القِبْلَة سرير، ليفرعه كبير، فجلس عليه زين الدين أبو الحسن علي بن نجا[3]، فذكَّر من خاف ومن رجا، ومن سَعِدَ ومن شقي، ومن هلك ومَنْ نجا، وخوَّف بذي الحِجَّة ذوي الحِجا، وجلا بنور عِظَاتِهِ من ظُلَم الشُّبهات ما دجا، وأتى بكل عِظَةٍ للرَّاقدين موقظة، وللظَّالمين محفظة، ولأولياء الله مرقِّقة، ولأعداء الله مغلظة.

وَضَجَّ المتباكون، وعجَّ المتشاكون، ورقَّتِ القلوب، وَحَقَّت[4] الكُروب، وتصاعدت النعرات، وتحدَّرَتِ العبرات، وتاب المذنبون، وأناب المتحوِّبون، وصاح التَّوَّابون، وناح الأَوَّابون، وجرت حالات جلَّت، وجلوات حلَّت، ودعوات عَلَتْ، وضراعات قُبِلَتْ، وفُرَصٌ من الولاية الإلهية انْتُهِزَتْ، وحِصَصٌ من العناية الرَّبَّانية أُحْرِزَتْ.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) في (ك) فائتمَّ.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩١ من الجزء الأول.

(٤) فى الأصل: وخفت، والمثبت من (ك).

وصلَّى السُّلْطانُ في قُبَّة الصَّخْرة، والصُّفوف على سَعَة الصَّحْنِ بها مُتَّصلة، والأُمة إلى الله بدوام نَصْرِهِ مبتهلة، والوجوه الموجَّهة إلى القِبْلة عليه مُقْبِلَة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدَّعوات له مسموعة، ثم رُتِّبَ في المسجد الأقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرَّت نصبته(١).

قلتُ: هذه ألفاظ العماد في هذا الفَصْل من كتاب «الفَتْح»، وذكره في كتاب «البرق» بعبارةٍ أُخرى تشتمل على فوائد زائدة، وفي تكرار ما تقدَّم أيضاً بغير تلك العبارة فائدة، فإنها معانٍ جليلة كلما كررت(٢) حَلَتْ.

فصــل

قال العماد في كتاب «البرق»: لما كان يوم الجمعة التالية لجمعة الفَتْح تقدَّم السُّلْطان في المسجد الأقصى ببسط العِرَاص، وإخلائها لأهل الإخلاص، وتنظيفها من الأدناس، وكَنْسِ ما في أرجائها من الأَرْجاس. وقد كان سبق أمره من مبدأ الأمر، بهدم ما هناك من أبنية الكُفْر، وإبراز المحراب القديم، وإعادة موضعه إلى الوَضْعِ الكريم، فقد كان الدَّاوية* بَنَوْا غربيَّه داراً وأدخلوه فيها، وخلطوه بمبانيها، واتخذوا منه جانباً مستراحاً للأعلال، وجانباً هُرْياً للغِلال، فأمر في العاجل بكَشْفِ قناعه، ورَفْعِ الوضيع من أوضاعه، ونَقْلِ ما وقع من أنقاضه، ونقض ما اعتور ذلك الجَوْهر النَّفيس من أعراضه، حتى طَهُرَ موضعُ المنبر والمحراب، واستظهر بإزالة ما قُدَّامه من الحجاب، واجتمع الخَلْقُ في ذلك الأُسبوع على تفريق ذلك الهَدْم

---

(١) «الفتح القسي»: ١٣٧ ــ ١٤٠.

(٢) في الأصل: ذكرت، والمثبت من (ك).

المجموع، وتعاونوا حتى كشفوه، ونظفوه ورشُّوه وفرشوه، وكان قد أمر باتِّخاذ منبر في تلك الأيام، فنجَّزوه وركبوه.

ولما أصبحنا يوم الجمعة وجدنا العِلَل مُزَاحة، والهِمَمَ مُرَاحة، والخواطر إلى وِرْدها ملتاحة مرتاحة، وهناك فضلاء بلغاء، وعلماء أتقياء، وكلٌّ منهم قد سبق بخِطْبة الخُطْبة، وأمَّل الفوز بفضيلة تلك الرُّتْبة، وأعدَّ لذلك المقام مقالاً[1]، ونَشِطَ بشِقْشَقَةِ فصاحته من قَرَمِ حصافته عِقالاً، حتى إذا حَيْعل الدَّاعي، وتعين الفَرْضُ على السَّاعي، حضر السُّلْطان للصَّلاة قُبَّة الصَّخرة، باديةً على أساريره أسرار سروره بالأَسِرَّة، وامتلأت تلك العراص والصحون، واستعبرت للفرح بما يسَّره الله العيونُ، وآن لدين الله أن تُقْضىٰ له الدُّيون وتُفَكَّ الرُّهون، وَوَجِلَتِ القلوب، وخَشَعَتِ الأصوات، وحَسُنَتِ الظُّنون، وعين السُّلْطان القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن علي القُرَشي الزَّكي بن الزكي للصَّلاة والخطبة، وفَرْع تلك الرُّتْبة، فصعِدَ وسَعِدَ، وحَمِدَ وأحمد، وأدَّت المعاني الشَّريفَة ألفاظُه، ونبَّه الأقاصي والأداني إيقاظُه، وجلا المسامع، وجلت المَدَامع، وأتى بالخطبتين المفروضتين على الوَجْه المَشْروع، والمَنْهَج المتبوع، والشَّرْطِ الموضوع، وذكر في الفتح البكر ما اقتضَّ به أبكار الاستعارات بأبدع البراعات، وأبرع العبارات، وصدَحَ بالصِّدْق، ونَطَقَ بالحَقِّ، وفاز بالسَّبْق، وحاز الفضيلة على فُضَلاء الغَرْب والشَّرْق، فهو لنشر المعاني أضم خطيب، له بنشر المعالي أضمخ طيب، فأين قُس في عكاظه من قياس ألفاظه! وأين سَحْبان من سجعاته! وابن نُبَاته من نباته! ولو عاشا لافتقرا إلى فِقَرِه، واحتقرا أعراضهما عند

---

(١) في الأصل: مقالات، والمثبت من (ك).

جوهره، ودعا لأمير المؤمنين، ثم لسُلْطان المسلمين، ونزل وقام إماماً أكمل بصلاته الفرض، وأرضى بِسَمْتِ دعواته والطمأنينة في ركعاته وسجداته أهلَ السَّماء والأرض، وسُرَّ السلطان بنصبه ورَفْعِهِ، وامتلأ صدرُه حبوراً منه بجلاء بصره وسمعه، فقد أخذت بالأبصار أشعَّة أنوار الخُطْبة، في سواد الأُهبة، وعَظُمَتْ أخطار المهابة في خواطر المحبّة، وكَرُمَت سرائرُ الزُّلْفى إلى الله والقُرْبة.

ثم رتَّب السُّلْطان بعده خطيباً تستمرُّ إقامته للجُمَع والجماعات، وتستقرُّ ملازمته لأداء الصَّلوات.

ولما قضيت الصَّلاة تلك الجمعة، نُصب سريرٌ للوعظ أبقى تلك الأُمة المجتمعة، وتقدَّم السلطان إلى زين الدين الواعظ ليفرع السَّرير، وينفع بعظاته الصَّغير والكبير، وحضر المجلس بمرأًى منه ومسمع، فكان أنور مجلس ومجلى وأشرف جمع ومجمع، فحقَّق ورَقَّق، وأشهد وأشهق، وحَلَبَ بعباراته الحُلْوة العبرات، وشار العسل بمعسول الإشارات، وبشَّر البَشَر بشارة البشارات، وذكر الفتح وبكارته، والقُدْس وطهارته، والدِّين وجسارته، والكُفْر وخسارته، والقدر وإعانته، والظَّفر وإبانته، والصَّخْرة وإصراخها، والرَّوعة وإفراخها، والنَّار وصراطها، والقيامة وأشراطها، ٢/١١٠
والرَّحمة وبابها من باب الرَّحمة، والجَنَّة وجناها لهذه الزحمة، وما أعده الله لهذه الطَّائفة، وما أنزله من الأمن على القلوب الخائفة، ووصَفَ ببلاغته ما لا يبلغ إليه نُطْقُ الألسنة الواصفة، ووصف الجهاد وفرائضه وفضائله، والخير ودلائله، والنُّجح ووسائله، والشَّرْع ومسائله، والذنب وغوائله، وإحسان السُّلْطان وفواضله، والبحر وساحله، والدِّين وحقه، والكفر وباطله، وكان يوماً راجحاً، وسَوْماً رابحاً.

فصــل

في إيراد ما خَطَبَ به القاضي محيي الدين، رحمه الله

قال العماد: وخطب القاضي محيي الدين بن زكي الدِّين أربع خُطَبٍ. في أربع جُمَع، كلها من إنشائه، وأَوْدعها سِرَّ بلاغة عُنيت بإفشائه، وذكرت الخُطْبة الأُولى، ويد الفصاحة فيها طُولىٰ، افتتاحها بهذه الآيات ﴿فَقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الذين ظَلَموا والحمدُ لله رَبِّ العالمين﴾[1] ﴿الحمد لله رَبِّ العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، مالك يوم الدِّين﴾[2] ﴿الحمدُ لله الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ والنُّور﴾[3] ﴿وَقُلِ الحمد لله الذي لم يَتَّخِذْ وَلَداً﴾[4] الآية ﴿الحمد لله الذي أَنْزَلَ على عبده الكِتابَ﴾[5] ﴿قُلِ الحَمْدُ لله وسَلامٌ على عبادِهِ الذين اصْطَفَىٰ﴾[6] ﴿الحمد لله الذي له ما في السَّموات وما في الأَرْض﴾[7] ﴿الحَمْدُ لله فاطِرِ السَّمواتِ والأَرْضِ﴾[8].

والخطبة: الحمد لله مُعِزِّ الإِسلام بنصره، وَمُذِلِّ الشِّرْك بقهره، ومُصَرِّفِ الأمور بأمره، ومديمِ النِّعَمِ بشكره، ومستدرجِ الكافرين بمكره،

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٥.

(٢) سورة الفاتحة، الآيات: ٢ ــ ٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.

(٤) تتمتها ﴿ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبِّره تكبيراً﴾ [الإسراء: ١١١].

(٥) سورة الكهف، الآية: ١.

(٦) سورة النمل، الآية: ٥٩.

(٧) سورة سبأ، الآية: ١.

(٨) سورة فاطر، الآية: ١.

الذي قدَّر الأيام دُولاً بعَدْلِهِ، وجَعَلَ العاقبة للمتقين بفَضْله، وأفاء على عباده من ظِلِّه، وأظهر دينه على الدِّين كلِّه، القاهر فوق عباده فلا يُمانع، والظَّاهر على خليقته فلا يُنازع، والآمر بما يشاءُ فلا يُرَاجع، والحاكم بما يريدُ فلا يُدافع.

أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونَصْرِهِ لأنصاره، وتَطْهيره بيته المقدَّس من أدناس الشِّرْك وأوضاره، حَمْدَ من استشعر الحمد باطنُ سِرِّه وظاهر جهاره.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، الأحد الصَّمد الذي ﴿لم يَلِدْ ولم يُولد، ولم يَكُنْ له كُفُواً أَحَد﴾[1] شهادَةَ من طَهَّرَ بالتوحيد قَلْبَهُ، وأَرْضىٰ به رَبَّه.

وأشهدُ أنَّ محمداً ﷺ عَبْدُه ورسولُه، رافع الشَّكِّ، وداحض الشِّرْك، وراحض الإفك، الذي أُسرِيَ به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعُرِجَ به منه إلى السموات العُلا إلى سِدْرة المنتهى. عندها جَنَّةُ المأوى، ما زاغ البصر وما طَغَىٰ[2].

صلى الله عليه، وعلى خليفته أبي بكر الصدِّيق السَّابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخَطَّاب أول من رَفَعَ عن هذا البيت شعار

---

(١) سورة الإخلاص، الآية: ٢ ــ ٤.
(٢) في هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة مايغشىٰ، ما زاغ البصر وماطغى﴾[النجم: ١٤ ــ ١٧].

الصُّلْبان، وعلى أمير المؤمنين عُثمان [بن عفان][1] ذي النُّورين جامعِ القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشِّرْك ومكسِّر الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتَّابعين لهم بإحسان.

أيها النَّاس، أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القُصْوىٰ، والدَّرجة العُلْيا، لما يسَّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضَّالَّة، من الأمة الضَّالَّة، وردِّها[2] إلى مقرِّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المُشْركين قريباً من مئة عام، وتطهيرِ هذا البيت الذي أَذِنَ الله أن يُرْفَعَ وأن يُذْكَرَ فيه اسمه[3]، وإماطةِ الشِّرْك عن طُرُقه بعد أنِ امتدَّ عليها رُواقه، واستقرَّ فيها رسمه، ورَفْعِ قواعده بالتوحيد فإنه بُني عليه، وبالتَّقْوى فإنه أُسِّسَ على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم إبراهيم، ومعراج نبيكم محمد عليه السَّلام، وقِبْلتكم التي كنتم تُصلُّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرُّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومَفَرُّ الرُّسل، ومهبط الوحي، ومنزل تَنَزُّلِ الأمر والنَّهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدَّسة التي ذكرها الله في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بالملائكة المقرَّبين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه؛ عيسى الذي شرَّفه الله برسالته، وكرَّمه بنبوَّته، ولم يزحزحه عن رُتْبة عبوديَّته، فقال تعالى: ﴿لن يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أن يكونَ عَبْدَاً لله﴾[4] وقال: ﴿لقد كَفَرَ الذين قالوا إنَّ اللَّهَ هو المسيحُ ابنُ مريم﴾[5].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: مردها، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) اقتباس من قوله تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾ [سورة النور: ٣٦].

(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٢.

(٥) سورة المائدة، الآية: ١٧، ٧٢.

وهو أولُ القِبْلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحَرَمين، لا تُشَدُّ
الرِّحالُ بعد المسجدين إلا إليه(١)، ولا تُعْقَدُ الخناصر بعد الموطنين إلا
عليه، ولولا(٢) أنكم ممن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سُكَّان بلاده،
لما خصَّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مُجارٍ، ولا يباريكم في شَرَفها
مُبَارٍ، فطوبىٰ لكم من جيشٍ ظَهَرَتْ على أيديكم المعجزات النَّبوية، ١١/٢
والوقعات البَدْرية، والعزمات الصدِّيقية، والفتوح العُمَرِيَّة، والجيوش
العُثْمانية، والفتكات العَلَوية، جدَّدتُمْ للإِسلام أيامَ القادسية، والوقعات
اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية، فجزاكم(٣) الله عن
نبيه محمد ﷺ أفضلَ الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهَجكم في مقارعة
الأعداء، وتقبَّلَ منكم ما تقربتم به إليه من مُهْرَاقِ الدِّماء، وأثابكم الجَنَّة فهي
دار السُّعَداء، فاقدروا ــ رحمكم الله ــ هذه النِّعْمة حَقَّ قَدْرِها، وقوموا لله
تعالى بواجبِ شُكْرِها، فله النِّعْمة(٤) عليكم بتخصيصكم بهذه النِّعْمة،
وترشيحكم لهذه الخِدْمة، فهذا هو الفَتْحُ الذي فُتِحَتْ له أبوابُ السَّماء،
وتبلَّجت بأنواره وجوه الظَّلْماء، وابتهج به الملائكةُ المقرَّبون، وقَرَّ به عَيْناً
الأنبياءُ والمرسلون، فماذا عليكم من النِّعْمة بأن جعلكم الجيش الذي يفتح
عليه البيت المقدَّس في آخر الزَّمان، والجُنْد الذي تقوم بسيوفهم بعد فَتْرَةٍ من
النُّبُوَّة أعلامُ الإِيمان، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء(٥)، أكثر
من التهاني به بين أهل الغَبْراء، أليس هو البيتُ الذي ذكره الله في كتابه،
ونصَّ عليه في خطابه، فقال تعالى: ﴿سُبْحانَ الذي أَسْرَىٰ بعبده ليلاً مِنَ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٣٧ من هذا الجزء.
(٢) في (ك) هذا، ولولا. . .
(٣) في (ك(و(ب) فجازاكم.
(٤) في «وفيات الأعيان» و«شفاء القلوب»: المنة.
(٥) الخضراء: السماء. «القاموس المحيط» (خضر).

﴿الْمَسْجِدِ الحَرَامِ إلى المسجدِ الأَقْصىٰ الذي باركنا حَوْلَه﴾[1] ــ الآية؟ أليس هو البيت الذي عظَّمته الملوك، وأثنت عليه الرُّسلُ، وتُلِيَتْ فيه الكتبُ الأربعة المنزَّلة من إلهكم عَزَّ وجل؟ أليس هو البيتُ الذي أمسك الله عَزَّ وجل الشمس على يوشع لأجله أن تَغْرُب، وباعد بين خطواتها لِيتيسَّرَ فتحهُ ويَقْرُب؟ أليس هو البيتُ الذي أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يُجِبْه إلا رجلان، وغضب عليهم لأجله، فألقاهم في التيه عقوبةً للعِصْيان؟

فاحمدوا الله الذي أمضى عزائمكم لما نَكَلَتْ عنه بنو إسرائيل، وقد فضَّلهم على العالمين، ووفَّقكم لما خُذِلَ فيه من كان قبلكم من الأُمم الماضين، وجَمَعَ لأجله كلمتكم وكانت شَتَّىٰ، وأغناكم بما أمضته «كان» و«قد» عن «سوف» و«حتَّى». فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده، وجعلكم ــ بعد أن كنتم جنوداً لأهويتكم ــ جُنْدَه، وشكركم الملائكةُ المنزَّلون على ما أهديتم إلى هذا البيت من طِيْبِ التوحيد، ونَشْرِ التقديس والتَّحميد، وما أَمَطْتُمْ عن طُرُقهم فيه من أذىٰ الشِّرْك والتَّثْليث، والاعتقاد الفاجر الخبيث، فالآن يستغفر لكم أملاكُ السَّموات، وتصلِّي عليكم الصلوات المباركات.

فاحفظوا ــ رحمكم الله ــ هذه الموهبة فيكم، واحرسوا هذه النِّعْمة عندكم، بتقوى الله التي من تمسَّك بها سَلِمَ، ومن اعتصم بعُرْوتها نجا وعُصِمِ، واحذروا من اتِّباع الهوى، وموافقة الرَّدَىٰ، ورجوع القَهْقَرَىٰ، والنكول عن العِدَىٰ، وخذوا في انتهاز الفُرْصة، وإزالة ما بقي من الغُصَّة، وجاهدوا في الله حَقَّ جهاده، وبيعوا عبادَ الله أنفسَكم في رضاه إذ جعلكم من

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١.

عباده، وإياكم أن يستزلَّكُمُ الشيطان، وأن يتداخلكم الطُّغْيان، فيخيِّل لكم أن هذا النَّصْرَ بسيوفكم الحِداد، وبخيولكم الجِياد، وبِجِلادكم في مواطن الجِلاد، لا والله، ﴿ما النَّصْرُ[1] إلا من عِنْدِ الله إنَّ الله عزيزٌ حكيم﴾[2].

واحذروا عبادَ الله ــ بعد أن شرَّفكم بهذا الفَتْحِ الجليل، والمنح الجزيل، وخصَّكم بهذا الفتح المُبين، وأعلق أيديكم بحبله المتين ــ أن تقترفوا كبيراً من مناهيه، وأن تأتوا عظيماً من معاصيه، فتكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَها من بَعْدِ قُوَّةٍ أنكاثاً[3]، والذي آتيناه آياتِنا فانْسَلَخَ منها فأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فكان من الغاوين[4]، والجهادَ الجهادَ فهو من أفضل عباداتكم، وأشرف عاداتكم[5]، انصروا الله يَنْصُرْكُمْ، اذكروا الله يذكركم، اشكروا الله يَزِدْكُمْ ويشكركم، جُدُّوا في حَسْمِ الدَّاء، وقَطْعِ شَأْفة الأعداء، وتطهيرِ بقيَّةِ الأرض التي أغضبتِ اللَّهَ ورسولَهُ، واقطعوا فروع الكُفْرِ واجْتَثُّوا أُصولَه، فقد نادت الأيام بالثَّارات الإسلامية، والمِلَّة المحمدية.

الله أكبر، فَتَحَ الله ونَصَرَ، غَلَبَ الله وقَهَرَ، أَذَلَّ الله من كَفَر.

واعلموا ــ رحمكم الله ــ أن هذه فُرْصة فانتهزوها، وفريسة فناجزوها، ومهمَّة فأخرجوا لها هِمَمكم وَبَرِّزُوها، وسيِّروا إليها سرايا عزماتكم

---

(١) الآية: وما النصر. . .

(٢) سورة الأنفال، الآية: ١٠.

(٣) اقتباس من قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً﴾ [النحل: ٩٢].

(٤) اقتباس من قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين﴾ [الأعراف: ١٧٥].

(٥) في الأصل: والجهاد الجهاد فهو وأشرف عاداتكم أفضل من عباداتكم. والمثبت من (ك).

وجَهِّزُوها، فالأمور بأواخرها، والمكاسب بذخائرها، فقد أظفركم الله بهذا العدوِّ المخذول، وهم مثلكم أو يزيدون، فكيف وقد أضحى في قُبالة الواحد منهم منكم عشرون، وقد قال الله تعالى: ﴿إن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صابِرونَ يَغْلِبُوا مئتين﴾[1] أعاننا الله وإياكم على اتِّباع أوامره، والازدجار بزواجره، وأيدنا مَعْشَرَ المسلمين بنصرٍ من عنده ﴿إن يَنْصُرْكُمْ الله فلا غَالِبَ لكم وإن يَخْذُلْكُمْ فمن ذا الذي يَنْصُرُكُمْ من بَعْدِهِ﴾[2].

وتمام الخُطْبة [والخطبة][3] الثَّانية قريب مما جَرَتْ به العادة، وقال بعد الدُّعاء للخليفة: اللهم، وأدم سُلْطان عبدك، الخاضعِ لهيبتك، الشَّاكرِ لنعمتك، المُعْترفِ بموهبتك، سيفكِ القاطع، وشهابك اللامع، والمحامي عن دينك المُدَافع، والذابِّ عن حَرَمك الممانع، السَّيِّد الأجل، الملكِ النَّاصر، جامعِ كلمة الإيمان، وقامعِ عَبَدَة الصُّلْبان، صلاحِ الدُّنيا والدِّين، ١١٢/٢
سلطان الإِسلام والمسلمين، مطهِّرِ البيت المقدَّس، أبي المُظَفَّر يوسف بن أيوب، محيي دولة أمير المؤمنين.

اللهم عُمَّ بدولته البسيطة، واجعل ملائكتك براياته محيطة، وأحسنْ عن الدِّين الحنيفيِّ جزاءه، واشكر عن المِلَّة المحمدية عَزْمه ومضاءه.

اللهم أبقِ للإِسلام مُهْجته، ووقِّ للإيمان حَوْزته، وانشر في المشارق والمغارب دعوته.

اللهم كما فتحت على يَدِهِ البيتَ المقدَّس بعد أن ظُنَّت الظُّنون، وابتُلي

(١) سورة الأنفال، الآية: ٦٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

المؤمنون، فافتح على يده أداني الأرض وأقاصيها، وملِّكه صياصي الكَفَرة ونواصيها، فلا تلقاه منهم كتيبة إلا مَزَّقها، ولا جماعة إلا فَرَّقها، ولا طائفة بعد طائفةٍ إلا ألحقها بمن سبقها.

اللهم اشكر عن محمدٍ ﷺ سَعْيه، وأنفذ في المشارق والمغارب أمره ونَهْيه، اللهم وأَصْلِحْ به أوساطَ البلاد وأطرافَها، وأرجاء الممالك وأكنافها.

اللهم ذَلِّلْ به مَعَاطِسَ الكُفَّار، وأَرْغِمْ به أُنوفَ الفُجَّار، وانشر ذوائب مُلْكه على الأمصار، وابْثُثْ سرايا جنوده في سُبُل الأقطار.

اللهم ثَبِّتِ المُلْكَ فيه وفي عَقِبِه إلى يوم الدِّين، واحفظه في بنيه وبني أبيه الملوك الميامين، واشدد عَضُدَه ببقائهم، واقض بإعزاز أوليائه وأوليائهم.

اللهم كما أجريت على يده في الإسلام هذه الحَسَنة التي تبقى على الأيام، وتتخلَّد على مَرِّ الشُّهور والأعوام، فارْزُقْه المُلْكَ الأبديَّ الذي لا ينفد في دار المتَّقين، وأجب دُعاءه في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عليَّ وعلى والديَّ وأَنْ أَعْمَلَ صالحاً تَرْضَاه وأَدْخِلْني بِرَحْمَتِكَ في عبادِكَ الصَّالحين﴾[١].

ثم [دعا][٢] بما جَرَتْ به العادة[٣].

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) انظر الخطبة بتمامها في «مفرج الكروب» ٢/ ٢١٨ ـ ٢٢٧، و«وفيات الأعيان» ٤/ ٢٣٠ ـ ٢٣٦، و«شفاء القلوب»: ١٣٠ ـ ١٣٨.

فصـــل
في المِنْبـر

قال العماد: لما فتحنا القُدْس أمر بتعمير المحراب وترخيمه، وتكميل حُسْنه وتتميمه، ووَضْعِ منبرٍ رسمي في أوَّل يومٍ قضى به الفرض، واحتيج بعد ذلك إلى منبر حَسَنٍ رائق، بحسنه لائق، وبجماله شائق، وبكماله فائق، فذكر السلطانُ المنبر الذي أنشأه الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله لبيت المقدس قبل فَتْحِهِ بنيِّفٍ وعشرين سنة، وأودعه له من ذخائره عند الله حَسَنة، فأمر أن يكتب إلى حلب ويُطْلب، فَحُمِلَ وعُمِلَ على ما أمر به وامتثل، فجاء كالرَّوْض النضير، والوَشْي الحبير، عديم النَّظير.

وكان من حديث إحداثه، ما ألهم الله نور الدين رحمه الله لارتياح خاطره إليه وانبعاثه، وقد أوقع في رُوعه، من النُّور الفائض من يَنْبُوع ضلوعه، أَنَّ البيت المقدس بعده سيُفتح، وأَنَّ صدورَ المُسْلمين الحَرِجة لأجله ستُشْرح، وهو من أولياء الله المُلْهَمين، وعباده المُحَدَّثين المُكْرَمين، وكان بحلب نجّارٌ يعرف بالأختريني من ضيعةٍ تُعْرف بأخترين، لم يُلْفَ له في براعته وصنعته قرين، فأمره نور الدين بعمل منبر لبيت الله المقدَّس، وقال له: اجتهد أن تأتي به على النَّعْت المُهَنْدم والنَّحت المهندس. فجمع الصُّنَّاع، وأحسـن الإبـداع، وأتمَّـه فـي سنيـن، واستحـقَّ بحُسْـنِ إحسـانـه التَّحْسين، والنَّاس يقولون: هذا أمرٌ مستحيل، وحكم ماله دليل، وذِكْرٌ جميل، وأَجْرٌ جزيل لو كان إليه سبيل، وهيهات أن يعود القدس إلى الإسـلام، ويقضـي الإصبـاح فيـه علـى الإظـلام، فـإنَّ الفـرنـج مستـولـون مستعلون، ويكثرون على الأيام ولا يقلُّون، أَمَا ناصفونا على أكثر أعمال حوران، وقابلوا بالكُفْرِ الإيمان! وقد أعجزوا ملوك الإسلام إلى اليوم، فما

أصْعَبَ وأتعب وَقْمَ[١] القَوْم. ويقول من له قوّة اليقين، وعَرَفَ أَنَّ الله كافِلٌ بنصره الدِّين: اصبروا، فَلِسِرٍّ هذه الأمة نبأ، وهو كما قال الله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الفُلْكَ وكلّما مَرَّ عليه ملأٌ﴾[٢].

ولم يَزَلْ لنور الدين في قلبه من الدِّين نور، وأثر تقواه للمتقين مأثور، أزهد العُبّاد، وأعبد الزُّهّاد، ومن الأولياء الأبرار، والأتقياء الأخيار، وقد نَظَرَ بنور الفِراسة أن الفتحَ قريب، وأنَّ الله لدعائه ولو بعد وفاته مجيب، ويزيده قوة عزمه جِدّاً، وتمدُّه بحياء الحياة الرَّبَّانية مدّاً، قد طهَّره الله من العَيْب، وأطلعه على سِرِّ الغيب[٣]، ونزَّهه من الرَّيب لنقاء الجيب، وشَمِلَتِ الإسلامَ بعده بركته، وخُتِمَتْ بافتتاح مُلْكِ صلاح الدين مملكتُهُ، وهو الذي ربّاه ولبّاه، وأحبَّه وحباه، وهو الذي سنَّ الفَتْح، وسنَّى النُّجح.

واتفق أن جامع حلب في الأيام النورية احترق، فاحتيج إلى منبر يُنْصَب، فَنُصِبَ ذلك المنبر، وحسن المنظر، وتولى حينئذٍ النَّجَّار عمل المحراب على الرَّقْم، وشابه المحرابُ المنبرَ في الرَّسْم، ومن رأى حلب الآن شاهد منه على مثال المنبر القُدْسي الإِحسان.

ولما فتح السلطان القدس تقدَّم بحمله، وصَحَّ به في محراب الأقصى اجتماعُ شَمْلِهِ، وظهر سِرُّ الكرامة في فوز الإسلام بالسَّلامة، وتناصرتِ الألسن بالدُّعاء لنور الدين بالرحمة، ولصلاح الدين بالنُّصْرة والنِّعْمة.

وقال العماد في موضعٍ آخر من كتاب «البرق»: وكان الملك العادل

---

(١) الوقم: القهر. «اللسان» (وقم).

(٢) سورة هود، الآية: ٣٨.

(٣) لم يطلع الله أحداً من خلقه على سر الغيب، ولكنه الإيمان بنصر الله عز وجل بعد تكامل أسبابه. وانظر تعليق أبي شامة الآتي في الصفحة التالية.

نور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله في عهده عَرَفَ بنور فِرَاسته فَتْحَ البيت المقدَّس من بعده، فأَمَرَ في حلب باتخاذ منبر للقدس، تَعِبَ النَّجَّارون
١١٣/٢ والصُّنَّاع والمهندسون فيه سنين، وأبدعوا في تركيبه الإحكام والتَّزْيين، وأنفق في إبداع محاسنه وإبداء مزاينه أُلوفاً، وكان لترديد النَّظر فيه على الأيام أَلُوفاً، وبقي ذلك المنبر بجامع حلب منصوباً، سيفاً في صِوَان الحِفْظ مقروباً، حتى أمر السُّلْطان في هذا الوقت بالوفاء بالنَّذْر النُّوري، ونَقْلِ المنبر إلى موضعه القُدْسي، فَعُرِفَتْ بذلك كراماتُ نور الدين، التي أشرق نورُها[1] بعده بسنين، وكان من المحسنين الذين قال الله تعالى فيهم ﴿واللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِين﴾[2].

قلتُ: وهذا الذي نسبه إلى نور الدين رحمه الله من أَنَّه كرامة من كراماته لائق بمحله ومنزلته من الدِّين، وليس بالبعيد من مثل ذلك. وكان رحمه الله قد بَدَتْ له مخايل ذلك بما تسنَّى له من فَتْح البلاد الشَّامية والمِصْرية وقَهْرِ العدوِّ بين يديه مراراً، وكان فَتْحُ القُدْس في هِمَّته من أول مُلْكه، فإن لم يكن حَصَلَ له مباشرة فقد حصل له تسبُّباً، فإن الفاتحين له رحمهم الله بَنَوْا على ما أَسَّسه لهم من المُلْك والتَّدْبير، وهم أمراؤه وأتباعه، وأجناده وأشياعه.

ثم يُحتمل أن يكون ــ رحمه الله ــ وَقَفَ على ما ذكره أبو الحكم بن بَرَّجان الأندلسي[3] في «تفسيره»، فإنه أخبر عن فَتْح القُدْس في السنة التي فُتِحَ فيها وعمر نور الدين إذ ذاك إحدى عشرة سنة، وقد رأيتُ أنا ذلك في

---

(١) في (ك) سناها.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٧٠ من هذا الجزء.

كتابه، ذكر في تفسير أول سورة الرُّوم أَنَّ البيتَ المقدَّس استولت عليه الرُّوم عام سَبْعٍ وثمانين وأربع مئة[1]، وأشار [إلى][2] أنه يبقى بأيديهم إلى تمام خمس مئة وثلاث وثمانين سنة، قال: ونحن في عام اثنتين وعشرين وخمس مئة. فلم يستبعد نور الدين رحمه الله لما وَقَفَ عليه أن يمتدَّ عمره إليه، فهيأ أسبابه حتى منبر الخطابة فيه، تقرُّباً إلى الله تعالى بما يبديه من طاعته ويخفيه.

وهذا الذي ذكره أبو الحكم الأندلسي في «تفسيره» من عجائب ما اتَّفق لهذه الأمة المرحومة، وقد تكلَّم عليه شيخنا أبو الحسن علي بن محمد[3] في تفسيره الأول، فقال: [وقد][4] وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي في أول سورة الرُّوم إخبارٌ عن فتح البيت المقدس، وأنه يُنْزَعُ من أيدي النَّصارىٰ سنة ثلاثٍ وثمانين وخمس مئة. قال: وقال لي بعضُ الفقهاء: إنه استخرج ذلك من فاتحة السُّورة. قال: فأخذت السورة، وكشفت عن ذلك، فلم أره أخذ ذلك من الحروف، وإنما أخذه ـ فيما زعم ـ من قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّوْمُ في أَدْنَىٰ الأَرْضِ وهم من بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُوْنَ في بِضْعِ سنين﴾[5] فبنى الأمرَ على التَّاريخ كما يفعل المنجِّمون، ثم ذكر أَنَّهم يُغْلَبون في سنة كذا، ويغلبون في سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير.

قال: وهذه نَجَامة وافقت إصابة إن صَحَّ أنه قال ذلك قبل وقوعه،

---

(١) كذا قال، والمعروف أن الصليبيين استولوا عليه سنة (٤٩٢ هـ)، ومكث في أيديهم (٩١) سنة.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٣) هو علم الدين السخاوي. انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٦٨ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٥) سورة الروم، الآيتان: ٢ ــ ٣.

وكان في كتابه قبل حدوثه[1]، وليس ذلك بمأخوذٍ من الحروف، ولا هو من قبيل الكرامات أيضاً، فإن الكرامة لا تكتسب بحساب، ولا تفتقر إلى تاريخ، ولذلك لم يوافق الصواب لمَّا أدار الحساب على القراءة الأخرى الشَّاذَّة التي هي بفتح الغين من ﴿غَلَبَتِ الرُّوم﴾ ويوضح ذلك أنه قال في سورة القدر: لو عُلِمَ الوقت الذي أنزل فيه القرآن لَعُلِمَ الوقت الذي يُرْفَعُ فيه.

فصــل

قال العماد: وأما الصَّخرة المقدَّسة فإنَّ الفرنج كانوا بَنَوْا عليها كنيسة، وأعادوا رسومها القديمة دريسة، وستروها بالأبنية، وعوَّجوا أوضاعها بزعم التَّسْوية، وكسوها صُوَراً هي أشنعُ من التَّعْرية، وملؤوها بتصاريف التَّصاوير، ونَبَّتوا في ترخيمها أشباه الخنازير، وجعلوا المذبح لها مذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المُتَبرِّكة ولا للعيون المُدْرِكة مَلْمَساً ولا مطمحاً، وقد زَيَّنوها بالصُّور والتماثيل، وعيَّنوا بها مواضعَ الرُّهْبان ومحطَّ الإنجيل، وكملوا بها

(١) ذكر ابن خلكان أنه وقف على هذا الفصل من تفسير أبي الحكم، فوجده مكتوباً في الحاشية بخط غير خط الأصل، فقال: لا أدري هل كان من أصل الكتاب أم هو ملحق به.

وقد عقب عليه ابنه موسى في كتابه «المختار من وفيات الأعيان»، فقال: وقعت في القاهرة ودمشق على ثلاث نسخ من التفسير المذكور، وهذا الفصل المشار إليه، لكنه مكتوب على الجميع على الحاشية بعد خط الأصل، وأخبرني الشيخ تقي الدين محمد بن زين الدين الشافعي قاضي القضاة بالديار المصرية رحمه الله تعالى أنه رأى هذا الفصل المعين في نسختين على صورة ما ذكرناه، والله أعلم.

قلت: وهذا يرجح أنه مدسوس على الكتاب، وأما الغيب فلا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. انظر «وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٣٠.

أسباب التعظيم والتبجيل، وأفردوا فيها لموضع القَدَم قُبَّة صغيرة مُذْهبة، بأعمدة الرُّخام مُنَصَّبة، وقالوا: مَحَلُّ قدم المسيح، وهو مقام التَّقْديس والتَّسْبيح. وكان فيها صور الأنعام مُنَبَّتةً في الرُّخام، والصَّخْرة المقصودة المَزُورة، بما عليها من الأبنية مستورة، وبتلك الكنيسة المَعْمورة مغمورة.

فأمر السُّلْطان بكَشْفِ نِقَابها، ورَفْعِ حجابها، وحَسْرِ لثامها، وقَشْرِ رُخامها، [وَمَحْي صورِها][1] وَرَحْضِ وضَرِها، ونَقْضِ أبنيتها، ونَقْلِ حجرها، وإبرازِها للزَّائرين، وإظهارها للنَّاظرين، فبانت من الشَّيْن، وبانَتْ للعين، وحُبِيَتْ بالقُبَل، وفُدِيَتْ بالمُقَل، فعادت كما كانت في الزَّمن القديم، وشَهِدَتْ حين شُوهدت بِحَسَبِها الكريم، وما كان يظهر منها قبل الفَتْح إلا قطعة من تحتها، وقد أساء الكُفْرُ في نَحْتِها، وظهرت الآن أحسنَ ظُهور، وسَفَرَتْ أيمن سُفُور، وأشرقتِ القناديل من فَوْقها نوراً على نور، وعُمِلَتْ عليها حظيرةٌ من شبابيك حديد، والاعتناء بها إلى كلِّ يوم في مزيد.

قال: وكان الفرنج قد قطعوا من الصَّخْرة قِطَعاً، وحملوا منها إلى قُسْطنطينية، ونقلوا منها إلى صِقِلِّية، وقيل: باعوها بوزنها ذهباً، واتخذوا ذلك مكسباً. ولما طُهِّرَتْ ظَهَرَتْ مواضِعُها، وقُطِّعَتِ القلوبُ لما بانت مقاطِعُها، فهي الآن مُبَرَّزَةٌ للعيون بحزِّها، باقية على الأيام بعِزِّها، مصونةٌ للإسلام في خِدْرها وحِرْزها[2].

وقال في «البرق»، ولما ظهرت الصَّخْرة وجدناها وقد أبقت لها

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) انظر «الفتح القسي»: ١٤١.

٢/ ١١٤ النَّوائب حزوزاً، وأودعَتْ ضميرها من شرِّ أهل الشِّرك[١] سراً مرموزاً، فإنَّ الفرنج نقلوا إلى بلادهم قِطَعاً، وأبدعوا فيها بِدَعاً، حتى قيل إنها بيعت بوزنها ذهباً، وأفضى الأمرُ بها أن يكون حجرها مُنْتَهباً، فغطَّاها بعضُ ملوكهم إشفاقاً عليها، لئلا تمتدَّ يدُ ضَيْمٍ إليها، فأبقت حزوزها في القلب حزازات، وسار حديث حادثها في الآفاق برواياتٍ وإجازات، وتولاها بعد ذلك الفقيه ضياءالدين عيسى، فصانها بشبابيك من حديد، وثبَّتَ أركانها بكلِّ تسديد.

وقال في «الفتح»: ورتَّب السُّلْطان في قُبَّة الصَّخْرة إماماً حسناً، ووقف عليه داراً وأرضاً وبُسْتاناً، وحُمِلَ إليها وإلى محراب المسجد الأقصى مصاحف وختمات، وربعات معظَّمات، لا تزال بين أيدي الزَّائرين على كراسيِّها مرفوعة، وعلى أسرَّتها موضوعة، ورتَّب لهذه القُبَّة خاصَّة وللبيت المقدَّس عامةً قَوَمَةً من العارفين العاكفين، القائمين بالعبادة الواقفين، فما أبهج ليلها وقد حَضَرَتِ الجموع، وزَهَرَتِ[٢] الشُّموع، وبان الخشوعُ، ودان الخضوع، ودرَّت من المتقين الدُّموع، واقْشَعَرَّت من العارفين الضُّلوع. فهناك كلُّ وليٍّ يعبد ربَّه ويؤمِّل برَّه، وكلُّ أشعثَ أغبر لا يؤْبه له، لو أقسم على الله لأَبَرَّه[٣] وهناك كل من يحيي الليل ويقومه، ويسمو بالحقِّ ويسومه، وهناك كل من يَخْتِمُ القرآن وَيُرَتِّله، ويَطْرُدُ الشَّيْطان وَيُبْطِلُه، ومن عَرَفَتْهُ لمعرفته الأسحار، ومن أَلِفته لتهجُّدِهِ الأورادُ والأذكار، وما أسعد نهارها

---

(١) في الأصل: الدهر، والمثبت من (ك).
(٢) زهرت: أي أضاءت. «اللسان» (زهر).
(٣) اقتباس من قوله ﷺ الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٢٢) (١٣٨) من حديث أبي هريرة «رُبَّ أَشعث مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره».

حين تستقبل الملائكة زُوَّارها، وتلحق الشمس أنوارها، وتحمل القلوبُ إليها أسرارها[(١)].

قال: وتنافس ملوكُ بني أيوب فيما يؤثرونه فيها من الآثار الحسنة، وفيما يجمع لهم وُدَّ القلوب وشُكْرَ الألسنة، فما منهم إلا من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلَّى وبيَّن، وحَلَّى وزيَّن، وأتى العادل أبو بكر، بكل صُنْع بِكْر، وتقي الدين عمر، بكلِّ ما عَمَّ وغَمَر. ومن جملة أفعاله المشكورة، ومكرماته المشهورة، أنه حضر يوماً في قُبَّة الصخرة ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصَّدقة والرِّفْد مال، فانتهز فُرصةَ هذه الفضيلة التي ابتكرها، وتولى بيده كنس تلك السَّاحات والعِرَاص، ثم غسلها بالماء مراراً حتى تطهَّرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صَبّاً حتى تعطَّرت، وكذلك طَهَّرَ حيطانها، وغَسَلَ جُدْرانها، ثم أتى بمجامر الطِّيب فتبخَّرَتْ وتضوَّعت، ثم فَرَّق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر بأن فاق الكرام بالإنفاق. وجاء الملك الأفضل نور الدين علي، بكل نورٍ جلي، وكَرَمٍ ملي، وبسط بها الصَّنيعة، وفرش فيها البُسُطَ الرفيعة، وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القُدْس وحَفْرِ خنادقه، وأعجز بما أعجب[(٢)] من سوابق معروفه ولواحقه.

وأما الملك العزيز عثمان، فإنه لما عاد إلى مصر ترك خزانة سلاحه بالقُدْسِ كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها، وكانت أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافية، وعُدَداً واقية، وكان من جملة ما شُرط على الفرنج أن يتركوا لنا خيلهم وعُدَّتَهُمْ، فتوفَّر بذلك عُدَد البلد، واستغنى به عما يصل من المَدَد[(٣)].

---

(١) «الفتح القسي»: ١٤١ ــ ١٤٢.

(٢) من هنا اضطراب في ترتيب الأوراق في الأصل، أعدناها إلى حاق موضعها.

(٣) «الفتح القسي»: ١٤٣ ــ ١٤٤.

قال: وأما محراب داود عليه السَّلام خارج المسجد الأقصى، فإنه في حِصْنٍ عند باب المدينة منيع، وموضعٍ عال رفيع، وهو الحصن الذي يقيم به الوالي، فرتَّب السلطانُ له إماماً ومؤذنين وقُوَّاماً، وهو مثابة الصَّالحين، ومزار الغادين والرَّائحين، فأحياه وجدَّده، ونهج لقاصديه جَدَده، وأمر بعمارة جميع المساجد، وصَوْن المشاهد، وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقاصد والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان ينتابهما فيهما الأنام. وكان الملك العادل نازلاً في كنيسة صهيون، وأجناده[1] على بابها مخيِّمون. وفاوض السلطانَ جلساؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء الشَّافعية، ورِباطاً للصُّلحاء الصوفية، فعين للمدرسة الكنيسة المعروفة بصند حَنَّة[2] عند باب أسباط، وعيَّن دار البطرك، وهو بقرب كنيسة قُمامة للرباط، ووقف عليهما وقوفاً، وأسدىٰ بذلك إلى الطَّائفتين معروفاً، وارتاد أيضاً مدارس للطَّوائف، ليضيفها إلى ما أولاه من العوارف[3].

فصـــل

قال في «البرق»: وشرع الفرنج في إخلاء البيوت، وبيع ما ذخروه من الأثاث والقوت، وأُمهلوا حتى باعوا بأرخص الأثمان، وكان خروجها شبيهاً بالمجَّان، لا سيما ما تعذَّر لثقله نَقْلُه وصَعُبَ حَمْلُه، وكان كما قال الله تعالى: ﴿كم تركُوا من جَنَّاتٍ وعُيون، وزُرُوْعٍ ومَقَامٍ كريم، ونَعْمَةٍ كانوا فيها فاكهين، كذلك وَأَوْرَثْناها قوماً آخرين﴾[4] فباعوا ما تهيأ على البيع إخراجه

---

(١) في الأصل: وأجنادها، والمثبت من (ك).

(٢) هي كنيسة يقال إن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ويبدو أن كلمة صند هي تعريب للكلمة الفرنسية Saint بمعنى قديسة. انظر حاشية محقق «الفتح»: ١٤٥.

(٣) «الفتح القسي»: ١٤٥.

(٤) سورة الدخان، الآيات: ٢٥ ــ ٢٨.

رخيصاً، وأبقوا ما لم يجدوا من تركه محيصاً، وغُلبوا على ما في الدُّور من الماعون والمذخور. وأما الصناديق والأخشاب والرُّخام وما يجري مجراها مما توفَّرت منه الأنواع والأقسام، فإنها بقيت بحالها متروكة، ولمن يسكن تلك الأماكن مملوكة.

وكانت قُمامة وهي كنيستهم العُظْمى، ومتعبَّدهم[1] التي يجتمعون بها للدين[2] والدُّنيا، مفروشة بالبسط الرفاع، مكسوةً بالسُّتور النسيج والحرير
١٥/٢ الممزوج من سائر الأنواع، والذي يذكرون أنه قبر عيسى عليه السَّلام، مُحَلَّى بصفائح الفِضَّة والعَيْن، ومصوغات الذَّهب واللُّجَين، مصفح بالنُّضار، مثقل من نفائس الحلي بالأوقار، فأعاده البطرك منه عاطلاً، وتركه طللاً ماثلاً، فقلت للسُّلْطان: هؤلاء إنما أخذوا الأمان على أموالهم، فما بال هذا المال وهو بألوفٍ يحملونه في أثقالهم! فقال: هم ما يعرفون هذا التأويل، وينسبون إلينا لما حرَّمْناه التحليل، ويقولون: إنهم لم يحفظوا العهد، ولم يلحظوا العقد، ونحن نجريهم على ظاهر الأمان، ونغريهم بذكر محاسن الأيمان. وكانت المهلة أنه من عَجَزَ بعد أربعين يوماً عن أداء ما عليه من القطيعة، ضُرِبَ عليه الرِّقُّ بحكم [الشريطة ووفق][3] الشَّريعة. فتولاهم النُّوَّاب بعد خروجنا من القُدْس، وبقي منهم ممن ضرب عليه الرق [زُهاء][4] خمسة عشر ألفاً في الحبس، ففرَّقهم السلطان، وتناهت بهم البُلْدان، وحَصَلَ لي منهم سبايا نِسْوان وصِبْيان، وذلك بعد أن وفى ابن بارزان* بالضَّمان،

(١) عادت الأوراق في الأصل إلى ترتيبها، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٩٩ من هذا الجزء.

(٢) في الأصل: يجمعون الدين.. والمثبت من (ك).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

وأدّىٰ ثلاثين ألف دينار، وأخرج من ذكر أنه فقير بحسب الإمكان، وكانوا تقدير ثمانية عشر ألفاً، واعتقد أنّه لم يبق فقير، وبقي بعد أدائه على ما ذكرناه كثير.

وأما النَّصارى السَّاكنون بالقُدْس، فإنهم بذلوا مع القطيعة الجزية ليسكنوا ولا يُزْعجوا، ويُؤْمَنوا ولا يخرجوا، فأُقِرُّوا بوساطة الفقيه[1]، وأُقِرَّ من قسوس النصارى أربعة قُوَّام لقُمامة، وأعفاهم ولم يُكلِّفهم الغَرَامة، وأقام بمدينة القُدْس وأعمالها منهم ألوف، فشمَّروا وعمروا وعرَّشوا وغَرَسوا، فلهم منها مجان وقطوف. وكانت لأمراء الفرنج ومقدَّميهم مجاورةً للصخرة، وعند باب الرَّحمة مقبرة وقباب مُعَمَّرة، فعفَّينا آثارها، وَرَحَضْنَا أَوْضَارها.

وقال في «الفتح»: وأمر السُّلْطانُ بإغلاق كنيسة قُمامة، وحَرَّم على النَّصارى زيارتها ولا إلمامة، وتفاوض النَّاس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفية آثارها، وتعمية نَهْجِ مزارها، وقالوا: إذا هُدِمت، ونُبشت المَقْبُرَة وعُفِّيت، وحُرِثت أرضُها، ودُمِّر طولها وعَرْضُها، انقطعت عنها أمداد الزُّوَّار، وانحسمت عن قَصْدِها موادُّ أطماع أهل النَّار، ومهما استمرَّت العمارة، استمرَّت الزِّيارة. وقال أكثر الناس: لا فائدة في هَدْمها وهَدِّها، فإنَّ متعبَّدهم موضعُ الصَّليب والقبر لا ما يُشَاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قَصْدُ أجناس النصرانية ولو نُسِفَتْ أرضُها في السَّماء، ولما فتح أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه القدس في صَدْر الإسلام أقرَّهم على هذا المكان، ولم يأمر بهدم البُنْيان[2].

---

(١) هو ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري، انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٨ من الجزء الثاني.

(٢) «الفتح القسي»: ١٤٥ ـ ١٤٦.

قال: وأقام السُّلْطان على القُدْس حتى تسلَّم ما بقربها من حُصُون، واستباح كلَّ ما للكفر بها من مَصُون، ثم عَمَدَ إلى ما جمعه ففرَّقه، وأخرجه في ذوي الاستحقاق وأنفقه، فأكثروا عَذْلَه على بَذْلِهِ، واستكثروا ما فضَّه بفضله، فقال: كيف أمنع الحقَّ مستحقيه، وهذا الذي أُنفقه هو الذي أُبقيه، وإذا قَبِلَهُ المستحقُّ فالمِنَّة له عليَّ فيه، فإنه يخلِّصني من الأمانة، ويطلقني من وَثَاقها، فإن الذي في يدي وديعة أحفظها لذوي استحقاقها. وقيل له: لو ذَخَرْتَ هذا المال للمآل. فقال: أملي قوي من الله الكافل بنُجْح الآمال. وجَمَعَ الأسراء المُطْلَقين، وكانوا ألوفاً من المسلمين، فكساهم وأساهم[1] وواساهم، وأذهب أساهم[2]، فانطلق كلٌّ منهم إلى وَطَنه ووطره، ناجياً من ضَرِّه وضَرَرِهِ[3].

وقال في «البرق»: وسمعتُ الملك العادل يوماً في أثناء حديثه في ناديه، وهو يجري ذكر إفراط السُّلْطان في أياديه، يقول: إني توليت استيفاء قطيعة القُدْس، فأنفذتُ له ليلةً سبعين ألف دينار، فجاءني خازنه بُكْرَة وقال: نريد اليوم ما نخرجه في الإنفاق، فما عندنا مما كان بالأمس باق. فنفذت له ثلاثين ألف دينار أخرى في الحال، فَفَرَّقَتْها على رجال الرجاء يَدُ النَّوَال.

فصل

قال العماد: وللحكيم أبي الفَضْل[4] قصائِدُ قُدْسيَّات طوال، كثيرة الفوائد.

---

(١) أساهم: أي داواهم. «معجم متن اللغة»: ١/ ١٧٧.

(٢) أي حزنهم. «معجم متن اللغة»: ١/ ١٧٧.

(٣) «الفتح القسي»: ١٥٠ ــ ١٥١.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٠ من الجزء الثاني.

قلتُ: قد وقفت على بعضها.

وقدَّمَ قبل ذلك أن قال: لم أزل من أوَّل ما ولي الملك الناصر الأمر في مصر أعلم أنَّه مُؤَيَّد بعنايةٍ من الله سبحانه، فامتدحته في سنة خمسٍ وستين بقصيدة تنيف على مئة بيت، منها في التباشير:

لَتَظْفَرَنَّ بما لم يَحْوِه مَلِكٌ أبا المُظَفَّر حظاً خَطَّهُ الأَزَلُ
دليلُ ذلك آراءٌ لك اقْتَرَنَتْ بالحَزْمِ والعَزْمِ لم يُخْصَصْ بها الأُوَلُ

وفيها:

قد سادَ إسكندرٌ أهلَ الزَّمان معاً في سِنِّ عِشْرين وامتدَّتْ له الحِيَلُ
وافى الثَّلاثينَ والأقطارُ أَجْمَعُها طَوْعاً له وملوكُ الأَرْضِ والمِلَلُ[1]

قال: ومدحته سنة سبعٍ وستين عند قُفوله من غَزاة غَزَّة بقصيدة، منها:

١١٦/٢ أبا المظفَّر فاهنأ حظ مُنْتَخَبٍ أُخْرىٰ الزَّمان لدينٍ كاد يَنْبَتِرُ
زَهِدْتَ فيما سبىٰ الأملاك منكدراً عِلْماً بِمِلْكِ نعيمٍ ماله كدَرُ
وطِبْتَ نَفْساً عن الدُّنيا وزُخْرُفِها وجئتَ تَقْدُمُ حيثُ الهَوْلُ والخَطَرُ

قال: ومدحته سنةَ ثمانٍ وستين بقصيدةٍ تنيف أيضاً على مئة بيت، منها في التَّباشير:

أرى الرَّاية الصَّفْراء يرمي اصطفاقُها بني أَصْفَرٍ بالرَّاعِفاتِ اللَّهاذِمِ
فتسبي فِلَسْطيناً وتجبي جزائراً وتَمْلِكُ من يونانَ أَرْضَ الأَسَاحِمِ[2]
وتَعْنُوا لها الأملاكُ شَرْقاً ومَغْرِباً بذا حكمت حُذَّاق أهلِ الملاحِمِ

---

(١) هذان البيتان ليسا في (ك).
(٢) في (ك) الأحاسم.

قال: وبعثتُ إليه في غُرَّة سنة اثنتين وثمانين وهو على حِمْصَ بقصيدةٍ هنأته فيها بالعافية، منها:

فيـا مَلِكـاً لـم يَبْـقَ للـدِّيـن غَيْـرُهُ ... وَهَتْ عُمُدُ الإِسلامِ فاشْدُدْ لها دَعْما
فَشُؤْمُ فريقِ الشِّرْك في الشَّام طائرٌ ... فَقُصَّ جَنَاحَيْهِ بأقصىٰ القُوىٰ قَصْما
خُصِصْتَ بتمكينٍ فَعُمَّ العِدَىٰ ردًى ... فـإنهُـمُ يـأجـوج أفـرغ بهـا رَدْمـا
إذا صَفِرَتْ من آل الأصفر ساحةُ الـ ... ـمقدَّس ضاهت فَتْحَ أُمِّ القُرىٰ قِدْما
فذا المسجد الأقصى وهِمَّتُك العُلَى ... وعَزْمَتُك القُصْوى وَرَمْيَتُك الأَصْمَىٰ
فمـا هـو إلا أن تَهُـمَّ وقـد أَتَـتْ ... فتوحٌ كما فاضَ الخِضَمُّ الذي طَمَّا
وإنْ أنـتَ لـم تُـرْدِ الفـرنـجَ بـوقعـةٍ ... فمن ذا الذي يقوىٰ لِبُنْيانها هَدْما
وما كلُّ حينٍ تُمْكِنُ المَرْءَ فُرْصَةٌ ... ولا كلُّ حالٍ أَمْكَنَتْ تقتضي غُنْما
وليـس كفتـحِ القُـدْسِ مُنْيَـةُ قـادرٍ ... وما آنَ يُلْقَاها سوى يوسفٍ حَزْما

قال: وأنشأتُ قصيدةً أُخرى في سنة اثنتين وثمانين، وحضرت بها بين يديه، منها:

الله أكبر أَرْضُ القُدْسِ قد صَفِرَتْ ... من آل الأصفر إذ حينٌ به حانوا
أسباطُ يوسف من مِصْرٍ أَتَوْا ولهم ... مِـن غيـرِ تيـهٍ بهـا سَلْـوىٰ وأمنـانُ
لهـم فِلَسْطيـن إنْ يُخـرج عُـداتَهُـم ... عنهـا وإلا عَـدَتْ بيضٌ وخِـرْصـانُ
حتى بنيت رِتاجَ القُدْسِ مُنْفَرِجاً ... ويَصْعَـدَ الصَّخْـرَةَ الغَـرَّاء عثمـان
واستقبل النَّاصرُ المِحْرَابَ يَعْبُدُ مَنْ ... [قد][1] تَمَّ من وَعْدِهِ فَتحٌ وإمكانُ
وجازَ بعضُ بنيه البَحْرَ تُجْفِلُ مِنْ ... غـاراتِـهِ الـرُّومُ والصِّقْـلاب والـلاَّنُ
حتـى يـوحِّـدَ أهـلُ الشِّـرْك قـاطبـةً ... ويَـرهَـبَ القَـوْلَ بـالثَّـالـوثِ رُهْبـانُ
ولابنِ أيوبَ في الإفرنجِ مَلْحَمَةٌ ... دَلَّـتْ عليهـا أسـاطيـرٌ وحُسْبـانُ

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

وَمَنْ أَحَقُّ بِمُلْكِ الأَرْضِ مِنْ مَلِكٍ كـأنَّـه مَلَـكٌ فـي الخَلْـقِ حَنَّـانُ

ثم قال: وأما القصيدة الفتحية النَّاصرية، فأوّلها:

في باطِنِ الغَيْب ما لا تُدْرِكِ الفِكَرُ فذو البَصِيْرَةِ في الأحداثِ يَعْتَبِرُ
مالي أرى مَلِكَ الإفرنجِ في قَفَصٍ أيـنَ القـواضـبُ والعَسَّـالـة السُّمْـرُ
والاسبتـار* إلـى الـدَّاويـة* التـأمـوا كـأنَّهُـم سُـدُّ يـأجـوجٍ إذا اشتجـروا
والنَّفْـسُ مـولَعَـةٌ عُجْبـاً بسيـرتهـا وفي المقادير ما تُسْلَىٰ به السِّيَرُ
يا وقعةَ التَّلِّ ما أَبْقَيْتِ من عَجَبٍ جحافل لم يفت مِنْ جَمْعِها بَشَرُ
ويا ضُحَىٰ السَّبْتِ ما للقوم قد سَبَتُوا تهوَّدوا أَمْ بكأسِ الطَّعْنِ قد سُكِرُوا
ويا ضَرِيْحَ شُعَيبٍ مالهم جَثَمُوا كَمَـدْيَـنٍ أم لَقُـوا رَجْفـاً بمـا كَفَـرُوا
حَطُّـوا بحطِّيْـنَ مُـلاَّكـاً فيـا عَجَبـاً في ساعةٍ زَالَ ذاك المُلْكُ والقَدَرُ
117/2 أهوىٰ إليهم صلاحُ الدين مُفْتَرِساً وهو الغَضَنْفَرُ أعدىٰ ظُفْرَهُ الظَّفَرُ
أملـى عليهـم فصـاروا وَسْـطَ كِفَّتِـهِ كَسِرْبِ طَيْرٍ حَوَاها القانصُ الذَّكَرُ
وأنجـز الله للسُّلْطـان مَـوْعِـدَه وَنَـذْرَه فـي كَفُـوْرٍ دِيْنُـهُ البَطَـرُ
وعـايـنَ الملك الإبـرنس في دمـه فمـات حَيَّـا وحَيّـا وهْـو يَعْتَـذِرُ
رأىٰ مليكـاً ملـوكُ الأَرْضِ تَتْبَعُـهُ والنَّجْـمُ يَخْـدُمُـهُ والشَّمْـسُ والقَمَـرُ
إذا بـدا تُبْهِـرُ الأعيـانَ هَيْبَتُـهُ ويختفي وهو في الأَذْهان مُشْتَهَرُ
تقدَّم الجيلَ في أُخْرَىٰ الزَّمانِ به على صدور عُلاً من قَبْلِنا صَدَرُوا
أمـا رأيتـم فُتُـوْحَ القـادسيـة فـي أكنـاف لـوبيـة* تُجْلَـىٰ وذا عُمَـرُ
والحـقُّ يُعْـرسُ والطُّغْيـان مُنْتَحِـبٌ والكُفْـرُ يُطْمَسُ والإيمـان مَـزْدَهِـرُ
هذا المليكُ الذي بُشْرى النبيِّ به فـي فِتْنَـةِ البَغْـي لـلإسـلام يَنْتَصِـرُ
أنسى ملاحِمَ ذي القَرْنَيْنِ واعترفَتْ لـه الـرُّواةُ بمـا لـم ينمـه أَثَـرُ
أُعِيْـنَ إسكنـدرٌ بـالخضـر وهـو لـه عَـوْنٌ مـن الله يستغنـي بـه الخَضِـرُ

وَصُنْعُ ذي العَرْشِ إبداعٌ بلا سببٍ ... فلا تَقُلْ كيف هذا الحادثُ الخَطِرُ
بينا سباياه تُجْلَىٰ في دمشق إذا ... ملكُ الفرنج مع الأتراك مُحْتَجَرُ
إزاءه زُعماء السَّاحلين معاً ... مُصَفَّدين بحَبْلِ القَهْرِ قد أُسِرُوا
يتلوهم صلبوتٌ سيق منتكساً ... وحَوْلَه كل قِسِّيْسٍ له زُبُرُ
ونحن في ذا إذا طيرٌ صحيفَتُهُ ... بفتح عكا التي سُدَّت بها الثُّغَرُ
تَغْزُو أساطيلُنا منها صِقِلِّيَةً ... فَيُذْعَرُ الرُّومُ والصِّقْلابُ والخَزَرُ
من ذا يقولُ لعل القُدْسَ منفتحٌ ... إليك بل سَبْتُ[1] يعقوبٍ له السَّفَرُ
أبو المُظَفَّر ينويها فَخُذْ سُفُناً ... من باب عَكَّا إلى طرطوس تَنْتَشِرُ
يسبي فرنجة من أقطارها وله ... مع المجوس حروبٌ قَدْحُها سُعُر
وبعض أبنائه بالقُدْس مُنْتَدَبٌ ... وبَعْضُهُمْ رومةُ الكبرى له وَطَرُ
برايةٍ تَخْرِقُ الأَرْضَ الكبيرةَ في ... جَمْعٍ تقول له الأجسامُ لا وَزَرُ
قالوا أطلتَ مديحاً فيه قلتُ كما ... بدأتُ فالصَّبُّ للمحبوبِ مُدَّكِرُ

وأما القصائد القدسيات التي له، فمنها التَّائية، وقد تقدَّم ذكرها[2]، ومنها القدسية الكُبْرى، عددها مئة واثنان وخمسون بيتاً، أولها:

تصاريفُ دَهْرٍ أعربت لمن اهتدى ... وبسطةُ أمرٍ أغربت من تمرَّدا
لِسُرْعة فَتْحِ القُدْس سرٌّ مُغَيَّبٌ ... وفي صِرْعة الإفرنج مُعْتَبَرٌ بدا
أَتَوْا بحبالٍ أُبرمت لإسارنا ... فَسُقْناهُمُ فيها قَطِيْناً[3] مُحَدَّدا[4]
وساموا تِجَاراً تشترينا غواليا ... فَبِعْنَاهُمُ بالرُّخْصِ جَهْراً على النِّدا

---

(١) في الأصل: سين، والمثبت من (ك).
(٢) انظر ص ٣٦٥ من هذا الجزء.
(٣) القطين: الخدم والأتباع والمماليك. «اللسان» (قطن).
(٤) أي محرومين مخذولين. «اللسان» (حدد).

وَجَرُّوا جيوشاً كالسُّيول على الصُّوَىٰ ... فآضَتْ غُثاءً في البِطَاحِ مُبَدَّدا[1]
وقالوا ملوكُ الأَرْضِ طوعُ قيادنا ... إذا الكُلُّ منهم في القُيودِ مُعَبَّدا
وقد أَقْطَعَ الكُنْدُ العراقَ مُوَقِّعاً ... فأُودع سِجْناً وَسْطِ جِلِّق مُوْصَدا
وَأَقْسَمَ أن يَسْقي بِدِجْلَةَ خَيْلَهُ ... فما وَرَدَ الأُرْدُنَّ إلا مُصَفَّدا
فكم واثقٍ خجلانَ قهقه خَصْمُهُ ... وكم سابقٍ عجلانَ قُهْقِرَ مُقْعَدا
أتى الكُنْدُ من بيسان[2] يحمي قُمامةً ... فكان تقضَّىٰ مُلْكه قَبْلُ يُبْتَدا
فما عقد الرَّاياتِ إلا مُحلِّلاً ... ولا حلَّل الرَّاياتِ إلا معقِّدا
ووقعةِ يوم التل إذ قُبِضَتْ به ... جبابرة الإفرنج حَيْرَىٰ وشُرَّدا
١١٨/٢ عليهمْ من البَلْوىٰ سُرَادِقُ ذِلَّةٍ ... ومن ذَلَّ ماتَتْ نَفْسُهُ فتقيَّدا
ترى المِنْسَرَ الدَّيويّ* يُلقي سلاحَهُ ... وينساقُ ما بينَ السَّبايا مُلَهَّدا[3]
يُباعون أسراباً شرائحَ أَحْبُلٍ ... كشَكَّةِ عصفورٍ من الرِّيش جُرِّدا
فتَلْقَىٰ نصارىٰ جِلِّقٍ في مآتم ... يُسِرُّونها إلا شجًى وتنَهُّدا[4]
ألم تَرَ للسُّلْطانِ صُدِّق نَذْرُهُ ... دَم الغادرِ الإبرنس فاقتيدَ أَرْبَدا
وباشَرَهُ بالقَتْلِ وَسْطَ خِبائِهِ ... وعايَنَهُ الكُنْدُ المليكُ فأُرْعِدا
وضاقَتْ بنَفْسِ القُومِصِ الأرضُ مَهْرَباً ... فأدركه الموتُ المفاجيءُ مُكْمَدا
وما طَرَقَ الأسماعَ من عَهْدِ آدمٍ ... كملحمةِ التَّلِّ التي تَلَّتِ العِدَى
أَتَوْا وادياً ما زالَ يَنْفي خباثثاً ... ويُصْفِي بعقبى الدَّارِ طائفةَ الهُدَىٰ
به جَثَمَتْ أصحاب لَيْكَة وهي في ... ذُراه وذا فيه شُعَيْبٌ تأيَّدا

---

(١) في الأصل: ممدداً، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: أشبان، وفي (ك) بيشان، ولعلها ما أثبته.
(٣) من لهده لهداً، أي دفعه لذله. «اللسان» (لهد).
(٤) في الأصل: تهدداً، والمثبت من (ك).

أرى اللَّهُ فيه معجزَ النَّصرِ مُخْلَصاً ... لأمرِ صلاحِ الدِّينِ في النَّاسِ مُخْلَدا
وأعدىٰ جنودَ الرُّعْبَ تَرْدَىٰ عُداتُه ... وسَلَّـمَ جَمْـعَ المسلمِيـنَ مُجَنَّـدا
ومن عجبٍ خمسون ألفَ مُقاتلٍ ... سَبَتْهُمْ جيوشٌ ليس فيها من ارتدًا

وللرَّشيد بن بَدْر النَّابُلُسي(١):

هـذا الـذي كـانـت الآمـالُ تَنْتَظِـرُ ... فَلْيُـوفِ لله أقـوامٌ بمـا نَـذَروا
بمثـلِ ذا الفَتْـح لا والله مـا حُكِيَـتْ ... في سالفِ الدَّهْرِ أخبارٌ ولا سِيَرُ
حَيْنٌ به حانَ هُلْكُ المشركين فيا ... لله طيـبُ العشـايـا منـه والبُكَـرُ
الآن قَـرَّتْ جُنُوبٌ فـي مضـاجعهـا ... ونام مَنْ لم يَزَلْ حِلْفاً له السَّهَرُ
يا بهجةَ القُدْس إن أضحى به عَلَمُ الـ ... ـلإسلامِ من بَعْدِ طَيٍّ وهو مُنْتَشِرُ
يا نورَ مَسْجِدِهِ الأقصى وقد رُفِعَتْ ... بعـد الصَّليـب بـه الآيـاتُ والسُّـوَرُ
شَتَّـانَ مـا بيـن نـاقـوس يُـدَانُ بـه ... وبين ذي مَنْطِقٍ يُصْغِي له الحَجَرُ
اللَّـهُ أكبـر صـوتٌ تَقْشَعِـرُّ لـه ... شُـمُّ الـذُّرى وتكـادُ الأرضُ تَنْفَطِـرُ
يا مالك الأَرْضِ مَهِّدْها فما أحدٌ ... سِـواكَ مـن قـائـمٍ للمَهْـدِ يُنْتَظَـرُ
ما اخْضَرَّ هذا الطِّرازُ السَّاحليُّ ثَرًى ... إلا لِتَعْلُـو بـه أعـلامُـك الصُّفُـرُ
أضحى بنو الأَصْفَرِ الأنكاس مَوْعِظَةً ... فيهـا لأعـدائـك الآيـاتُ والنُّـذُرُ
صاروا حديثاً وكانوا قَبْلُ حادثةً ... على الوَرَىٰ يتَّقيها البَدْو والحَضَرُ
سَلَبْتَهُـمْ دولـةَ الـدُّنيـا وعيشتَهـا ... حتى لقد ضَجِرَتْ من وَفْدهم سَقَرُ
هذا الذي سَلَبَ الإفرنج دَوْلَتَهُمْ ... ومُلْكَهُمْ يا ملوكَ الأَرْض فاعْتَبِروا

---

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن بدر، لقبه مدلويه، كان شاعراً محسناً، توفي سنة (٦١٩ هـ) بدمشق، ودفن بباب الصغير. انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣/ ٧٠، و«وفيات الأعيان»: ٥/ ٢٦٦، و«تاريخ الإسلام» للذهبي، وفيات سنة (٦١٩ هـ) (طبعة مؤسسة الرسالة).

مراكزُ ما اخْتَطَاها الخَوْفُ مُذْ مئةٍ عاماً ولا رِيعَ أَهْلُوها ولا ذُعِرُوا
ولـم أُصَـرِّحْ بـأسمـاء البـلادِ فقـد اسْهَبْتُ والقـائـل المِنْطيقُ يَخْتَصِـرُ
يُغْنيك مُجْمَلُ قَوْلي عن مُفَصَّلِهِ في لفظة البَحْرِ معنًى تحته الدُّرَرُ

وهي طويلة، وله من قصيدةٍ أخرى:

ألمم بـدار النَّاصر الملك الـذي فـي كَفِّـهِ للجـود سَبْعَـةُ أَبْحُـرِ
فـإذا مَـرَرْتَ بِمُلْكِـهِ وفتـوحـه فاسْخَرْ بما يُرْوىٰ عن الإسكَنْدَرِ
وإذا بَصُـرْتَ بجَـأْشِـهِ وجيـوشِـهِ فاحْثُ التُّرابَ على ذُؤابة سَنْجَرِ[1]
كُسِرَتْ على كسرى لعدلك دولةٌ قَصَـرَتْ مهـابتُهـا تطـاولَ قَيْصَـرِ

[وللشِّهاب فتيان الشَّاغوري من قصيدة][2]:

١١٩/٢ أَهْـدَىٰ صـلاحُ الـدِّيـن لـلإسـلام إذ أَرْدَىٰ قَبِيْـلَ الكُفْـرِ مـا لـم يُكْفَـرِ
رَبُّ المـلاحـم لـم يُـؤَرِّخ مِثْلَهـا العُلَمـاءُ قِـدْمـاً فـي قـديم الأَعْصُـرِ
خُلِعَـتْ عليـه خِلْعَـةُ المُلْـك التـي زيـدت بهـاءً بـالطِّـرازِ الأَخْضَـرِ
رايـاتُـه صُفْـراً يَـرِدْنَ وتنثنـي حُمْـراً تَمُـجُّ نجيـعَ آل الأَصْفَـرِ
لِمَ لَمْ تَدِنْ شوسُ الملوكِ له وقد ملـك السَّـواحـل فـي ثـلاثـة أَشْهُـرِ
واسْتَنْقَـذَ البيـتَ المُطهَّـر[3] عَنْـوَةً مـن كـلِّ ذي نَجِـسٍ بكـلِّ مُطَهَّـرِ

(١) هو سنجر بن ملكشاه، آخر السلاطين السلاجقة العظام، توفي سنة (٥٥٢ هـ)، انظر الجزء الأول ص ٣٥٩ من هذا الكتاب.

(٢) ما بين حاصرتين ليس في الأصل، وقد سردت القصيدة كلها في الأصل على أنها من شعر ابن بدر النابلسي، وفي (ك) انتهت قصيدة ابن بدر حتى البيت الرابع، وهو: كسرت على كسرى.. وهذا البيت عُدَّ في طبعة وادي النيل ١١٨/٢ من شعر الشاغوري: وهو خطأ، إذ ليس في «ديوانه»، وأما بقية الأبيات فهي من شعره، وقد تقدم بعض أبياتها ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ من هذا الجزء.

(٣) في «ديوانه» المقدس.

[وَأَرَيْتَهُمْ لَمَّا التقى الجمعان بالـ — ـبيت المقدَّس هَوْلَ يومِ المحشر
ورددْتَ دينَ اللهِ بعد قطوبه — بالمسجد الأقصى بوجهٍ مُسْفِرِ
وَأَعَدْتَ ما أبداه قبلك فاتحاً — عمرو فأنت شريكه في المَتْجَرِ
حتى جمعت لمعشر الإسلام بيـ — ـن الصخرة العُظمىٰ وبين المِشْعَرِ][1]
فَلِصَخْرَةِ البيتِ المُقَدَّس كُفْؤها — الحَجَرُ المُفَضَّلُ عند أَفْضَلِ مَعْشَرِ
فكأنَّه إنسانُ عينٍ صورةً — يلقاك أسوَدُهُ بمعنى أنور[2]

فصل

في حصار صور، وفتح هُونين* وغير ذلك

قال العماد: ثم إن السُّلْطان ما زال مقيماً بظاهر القُدْس، يحقِّق الآمال ويفرِّق الأموال، حتى وَرَدَتْ كُتُبُ سيف الدين علي بن أحمد المَشْطُوب، وكان نائب السُّلْطان لصيدا وبيروت، وهما مجاورتان لصور، فكتب يحرِّض السُّلْطان على حصار صور، فرحل السُّلْطانُ عن القدس يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان، وأخذ صَوْبَ عكَّا*، وسبقه إليها الأفضل وتقي الدِّين، وودَّع السُّلْطان ولده العزيز وردَّه إلى مِصْر، فكان آخر عهده به. واستصحب السُّلْطانُ أخاه العادل، فوصلا إلى عكَّا مستهل رمضان، فأصلح من شأنها، ثم رحل فنزل على صور يوم الجمعة تاسع رمضان، وخَيَّم بإزاء السُّور بعيداً منه على النَّهر، ومعظم البلد في البحر، وهي مدينةٌ حصينة متوسِّطة في البحر كأنَّها سفينة، وكان المركيس الذي في صور قد حَفَرَ لها خندقاً من البحر إلى البحر، وبنى بواشيره*، وأحكم في التَّعْمير تدبيره، واستظهر بتكثير العَدَد

---

(١) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/١١٩.

(٢) انظر «ديوان فتيان الشاغوري»: ١٤١، ١٤٣، مع تقديم وتأخير في بعض الأبيات.

والعُدَد، واغتنم اشتغال السُّلْطان بفتح القدس. فأقام السلطان بتلك المنزلة على صور ثلاثة عشر يوماً، حتى تلاحقت الأمداد، وكَثُرَت العُدَد وآلات الجهاد، ورتِّبت المنجنيقات، ثم حَوَّل السُّلْطان مضارِبَهُ إلى تلٍّ قريب من السُّور يشرف منه، ثم حاصرهم، وقَبَّل[1] كُلاً من الملوك بجانبٍ يكفيه، منهم الأفضل والعادل وتقي الدين، فحاصروهم وضايقوهم. ووصل في تلك الأيام من حلب الملك الظَّاهر غازي ولد السُّلْطان بعسكره الحلبي، فاستظهر السُّلْطانُ به، واستدعى الأسطول المِصْري، وكان بعكَّا، فجاء منه عشرة شواني*، وكان للفرنج في البحر مراكبُ وحراريق*، وفيها رُماة الجروخ* والزنبوركات* يرمون من دنا من البحر، فلما جاء أسطول السُّلْطان استطال عليها وأبعدها، فأحاط بهم المسلمون، وقاتلوهم بَرّاً وبحراً، فبينما هم في أحلى ظفر، وأهنأ وِرْدٍ وصَدَر، إذ ملك الفرنج خمسةً من شواني المسلمين، وأسروا مقدَّميها ورئيسها عبد السَّلام المَغْرِبي، ومتوليه بدران الفارس، وألقى جماعةٌ أنفسهم في البحر، فمن ناجٍ وهالك، وذلك أنهم سهروا تلك الليلة بإزاء ميناء صور إلى السَّحَر، ثم غلبهم النَّوْم، فما انتبهوا إلا والفرنج قد ركبتهم ونكبتهم، فأصبح المسلمون وقد وجموا، وأتاهم من الأمر ما لم يعلموا، ونفَّذ السُّلْطانُ إلى المراكب الباقية أن يسيروا إلى بيروت، وخاف عليها لِقلَّتها أن يستوليَ عليها عَبَدَةُ الطَّاغوت، فنجا منها شيني رئيس جُبَيل، والباقون نظروا إلى الفرنج وراءهم، فألقوا أنفسهم في الماء، وخرجوا إلى البر على وجوههم.

ثم إن الفرنج بعد هذا طمعت، فخرجت يوماً وقت العصر مستعدَّة للقتال، فالتقاهم المسلمون، فكانت الدَّائرة على الكافرين، وأُسر مقدَّم كبير

---

(١) أي كفَّل. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٤٨٦.

لهم، وظُنَّ أنه المركيس، فسلَّمه السُّلْطان إلى ولده الظَّاهر ليحفظه، فضرب عُنُقَه، وكان الليل قد دخل، فلما أصبحوا تبيَّن لهم أن المركيس بَعْدُ في الحياة، فطال حصاره حتى ضَجِرَ كثير من أُمراء المسلمين، لأنهم رأَوْا ما لم يألفوه من تَعَسُّر الفتح عليهم، فأشاروا على السلطان بالرَّحيل لئلا تفنى الرجال، وتَقِلَّ الأموال، وكان البردُ قد اشتدَّ عليهم، وكان رأي السلطان والأتقياء من الأُمراء كالفقيه عيسى، وحُسام الدين طُمان، وعِز الدين جُرْديك النُّوري الثبات إلى الفَتْح لئلا يضيع ما تقدَّم من الأعمال وإنفاق الأموال، وقال السلطان: قد هدمنا السُّور، وقاربنا الأمور، فاصبروا تفلحوا، وصابروا تفتحوا ولا تعجلوا. فأظهروا الموافقة وفي أنفسهم ما فيها، فلم يصدقوا ١٢٠/٢
القتال، وتعلَّلوا بأنَّ الرِّجال جرحى، والعلوفات قد قلَّت، فلم يَسَعِ السُّلْطان بعد ذلك إلا الرَّحيلُ، فأمر بنقل الأثقال، فَحُمل بعضها إلى صيدا وبيروت، وأحرق الباقي لئلا ينالَهُ العدوُّ، ورحل في آخر شَوَّال، وهو أول يوم من كانون الأول، وسار تقيُّ الدين إلى دمشق على طريق هُونين*، واستصحب معه عساكر الشَّرْق وديار بكر والمَوْصِل والجزيرة وسِنْجار* ومارِدِين*، ورحل السُّلْطان إلى عَكَّا، فوصلها في ثلاثِ مراحل، لأنه سلك طريق النَّاقورة*. وهي طريق ضيقة مُطِلَّة على البحر، بها يُضْرَبُ المثلُ، لا يعبر بها إلا جمل جمل، فعبرت بها الأثقال والأحمال في أُسبوع. وكان عَيَّن يوم رحيله من صور أمراء يقيمون عليها إلى أن يعرفوا عبور الثَّقَل. وخَيَّم السُّلْطان عند التَّلِّ، وسار العادل إلى مصر، والظَّاهر إلى حلب، وبدر الدين دُلْدُرُم اليارُوقي إلى بلاده.

قال: وفي مُدَّة رحيل السلطان عن صور جاءه خبر سيف الدين محمود أخي عز الدين جاولي أنه استُشْهد في عَفْرَبَلا* تحت حصن كوكب*، كبسه

الفرنج فيها ليلاً، وذلك أنه كان قد بقي على السلطان بعدما فتح من بلاد العدوِّ من جُمْلة أعمال طبرية والغَوْر حِصْنا صَفَد وكوكب، وكان في صفد جمرة الدَّاوِيَّة*، وفي كوكب جمرة الاسبتارية*، فاحتاج السلطان في فَتْحهما إلى المُطَاولة، فوكَّل بصفد جماعة يُعْرفون بالنَّاصرية مقدَّمهم مسعود الصَّلْتي، ووكَّل بكوكب هذا الأمير سيف الدين محموداً، فأقام في حِصْن عَفْرَبَلا، وهو قريبٌ من حصن كوكب، ونغَّص على المقيمين فيه المطعم والمَشْرَب، وضيَّق عليهم المَذْهب، إلى أن دخل الشِّتاءُ، فاختلَّت الحراسة، واعتلَّت السِّياسة، فلما كانت ليلة آخر شوَّال، وكانت ليلة باردة ماطرة، حرس أصحابُ سيف الدين حتى ضَجِروا، فغلبهم النُّعاس، فما استيقظوا إلا وفرنج كوكب عليهم باركة، فدافعوا عن أنفسهم حتى استُشْهدوا، وأخذ الفرنج غنيمة المسلمين، ودخلوا بها كوكب. وكان هذا الأمير محمود ذا دينٍ متين، ومكان من النُّسُك مكين، وهو يسهر أكثر ليله متهجِّداً، وقد جعل منزله مَسْجداً، فجمع بين التهجُّد والجهاد، وكان كثير الاجتهاد، فاغتمَّ السلطان بمصابه، وزاد تألماً إلى مابه، وتقدَّم إلى صارم الدين قايماز النَّجْمي أن يُرابط كوكب في خمس مئة فارس، ففعل، ولم يَزَل بها إلى أن فتحت كما سيأتي[1].

قال: وفتحت هُونين* والسُّلْطان محاصر صور، وكان لما فتح تِبْنين*، قد امتنعت عليه هُونين، فوكَّل بها من رابطها وضايقها حتى طلبوا الأمان، وجاء خبرها إلى السُّلْطان وهو على صور، فنفَّذ الأمير بدر الدين دُلْدُرُم ففتحها، وخرج الفرنجُ منها سالمين آمنين. وكان قد بقي أيضاً من عمل صيدا قلعة أبي الحسن*، وشقيف أرنون*، وأقام السُّلْطان بظاهر عكَّا ناظراً

(١) انظر ص ٥٢ من الجزء الرابع.

في أمور رَعِيَّته، ثم دخلها وسكن بالقَلْعة، وسكن الأفضل بُرْجَ الدَّاوية*، وولى عكا عز الدين جُرْدِيك، ووقف دار الاسبتار نصفين: نصفاً على الفقهاء، ونصفاً على الصُّوفية، ووقف دار الأسقف بيمارستاناً، ووقف على كُلٍّ من ذلك كفايته، وأظهر به عنايته، وسلَّم جميع ذلك إلى قاضيها جمال الدين بن الشيخ أبي النَّجيب[1]، وهو في ذلك مصيب.

فَصْــــلٌ

في ورود رُسل التَّهاني من الآفاق، وقدوم الرسول العاتب من العراق

قال العماد: ووردت رُسُل الآفاق من الرُّوم وخُرَاسان والعراق، وكلهم يهنِّي السُّلْطان بما أفرده الله به من الفضيلة، وأقدرَهُ عليه من نُجْح الوسيلة، وهو فَتْحُ القُدْس الذي دَرَجَ على حسرته القرون الأُولى، وتقاصَرَتْ عنه أيديهم المتطاولة، وتمكَّنت منه يَدُه الطُّولى، فما منهم إلا من يعترفُ بيُمْنه، ويغترف من يَمِّه، ويُقِرُّ بحكم التَّنزيل له وينزل على حُكمه، ويخطب صداقته، ويتقرَّب بالوفاء والوفاق، ويتباعد عن الشِّقاء والشِّقاق، فمن جملتهم رسول صاحب الرَّي*، ورسول المستولي على ممالك هَمَذَان وأَذْربيجان وأرَّان*، فما من يومٍ يمضي وشهر ينقضي إلا ويصل منهم رسول، ويتَّصل به سول[2].

وذكر العماد[3] في «البرق» أنه وصل إلى السُّلْطان وهو بعكَّا رسول

(١) سلفت ترجمته في حاشيتنا رقم ٣ ص ٣١٢ من هذا الجزء.

(٢) «الفتح القسي»: ١٨١.

(٣) في (ك) تقديم وتأخير بين هذا الخبر والخبر الذي بعده.

أتابَك* مظفر الدين قزل أرسلان، وهو عثمان بن أتابك إيلدكز المستولي على بلاد العجم بعد أخيه البهلوان.

ثم ذكر من خِرْقه[1] في كرمه شيئاً كثيراً، ثم قال: وهذا كلُّه لا يكون في بحر سُلْطاننا جدولاً، كان السلطان مُذْهَبَ المَذْهَب، ظاهر المَحْفِل والمَوْكِب، قد خَصَّه الله بالصَّدر الأَرْحَب، والنَّصْر الأغلب، عَزْمُهُ إلى الجهاد مصروف، وخُلُقه بالمعروفِ معروف، وهمُّه بالسَّماح مشغوف، ما يفتحه بالسَّيْف في البلاد، يهبه لمن يَضْرِبُ معه بالسيف في الجهاد، وللخالق تقواه، وللمخلوقين جدواه، وإنما يريد للآخرة دُنْياه، فلا جَرَم خَتَمَ الله بالحُسْنَىٰ عقباه.

قال: ولم يكن في الملوك السَّالفة أمضى منه عَزْماً، وأجدى فَضْلاً، وأعمَّ جدوى، وأكمل جهداً في الجهاد، وأملك جَلَداً على الجِلاد، فإنه
١٢١/٢ باشر بنفسه الحَرْب، ومارس الصَّعْب، وقذف بالحقِّ حين حَقَّقه على الباطل فأزهَقَهُ، ولا حَدَّ ولا عدَّ لما في سبيل الله من نفائس النُّفوس والأموال أنفقه، ومن أول هذا العام إلى منتهاه لم يَجِفَّ لِورْدِهِ لِبْدٌ[2]، ولم ينضب من وِرْدِهِ عِدٌّ[3]، ولم يقرَّ له جَنْب، بل لقي في فَصْلَي القَيْظ والقَرِّ، مَضَّ الحَرِّ وعَضَّ البَرد، بحُرِّ وجهه[4] الكريم، وقضى حَقَّ الدِّين موفياً[5] بصدق غَرَامه حقَّ الغريم، وكل ما تَمَّ من النَّصْر يوم حِطِّين، وفتح القدس وتسلُّم بلاد السَّاحل

(١) أي من سخائه، والخرق: الكريم المتخرق في الكرم. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٢٦١.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٦٠ من الجزء الثاني.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢١٧ من هذا الجزء.

(٤) حر الوجه: ما بدا منه. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٦٠.

(٥) في الأصل: موقناً، والمثبت من (ك).

إنما تسنَّى بشَهْرِ سَيْفِهِ في فصل الصَّيْف وشهوره، واستظهاره بظهور الإسلام وشَدِّ ظَهُوره.

وأنشد العماد للقاضي الفاضل في وَصْفِ أسيافه:

مـاضيـاتٌ علـى الـدَّوام دوامـي ... هـي فـي النَّصْـرِ نَجْـدَةُ الإِسْـلامِ
فـي يميـن السُّلْطـان إن جَـرَّدَتْها ... أشبهتهـا صـواعـقٌ فـي غَمَـام
تَنْثُـرُ الهـامَ كـالحـروفِ فمـا أَشْـ ... ـبَـهَ هـذي السُّيـوف بـالأقـلام
في محاريب حَرْبه البِيْضُ صَلَّت ... وركـوع الظُّبـى سجـودُ الهـامِ(١)

وذكر من كلامه في التوسُّطِ بين الأصدقاء: ما أدخل بينكم إلا كدخول المرود في الأجفان يَرُدُّ إليها ما ذهب منها من النُّور والغَمْض، أو كالنسيم بين الأغصان يَعْطِفُ بعضَها على بعض.

قال العماد: ووصل أخي تاجُ الدين أبو بكر حامد من دار الخلافة برسالةٍ في العَتْبِ على أحداثٍ ثَقُلَتْ، وأحاديثَ نُقِلَتْ، ووشاياتٍ أُثِّرت، وسِعَايات في السُّلْطان شَعَّثَتْ، وذلك في شَوَّال، ونحن على حصار صور، وسببُ ذلك أنه لما تَمَّ الفتح الأكبر، وخَصَّ وعَمَّ النُّجح الأظهر، وقُطِعَ دابرُ المُشْركين، وَحَطَّ إقبالُ المسلمين أوزارَ أدبار الكافرين(٢) بحطِّين، أمرني السُّلْطان بإنشاء كتب البشائر إلى الآفاق، وتقديم البُشْرى به إلى العراق، فقلت: هذا فتحٌ كريم، ومنحٌ من الله عظيم، فلا ينبغي أن يكون مبشِّر دار الخلافة بما أنزله الله علينا من الرَّحْمة والرَّأفة إلا من هو عندنا أجل وأجلى. وأعلم وأعلى، وأجمع لفنون الفضائل، وأعرف بأَدَاء الرَّسائل، فلا يُرفع

---

(١) هذه الأبيات ليست في «ديوانه» المطبوع.
(٢) في (ك) الكفر.

العظيم إلا بالعظيم الرَّفيع، فإنَّ الشَّريف يتَّضع شرفه بمقارنة الوضيع. فقال: هذه نُصْرَةٌ مبتكرة، وموهبةٌ مبشِّرة، بدرت وندرت، فنحن نعجِّل بها بشيراً، ونؤخر للإجلال[١] كما ذكرت سفيراً.

وكان في الخِدْمة شابٌّ بغدادي من الأجناد، قد هاجر للاسترفاد، وتوجَّه بعد وصوله، ونبَّه بعد خُموله، فسأل في البشارة إلى بغداذ، وزعم أنَّه يدوام إليها الإغذاذ، وشَفَعَ له جماعةٌ من الأكابر، حتى خُصَّ[٢] بأشرف البشائر. فقلتُ: هذا لا يحصَلُ له وَقْع، ولا يصل إليه نَفْع، والواجب أن يسير في مثل هذا الخطيرِ خطير، وفي هذه النُّصْرة الكبرى كبير.

ثم سار المندوب، وشَغَلَتْ عن إرسال سواه الفتوحُ[٣] والحروب، ولما فتح البيت المقدَّس أُرسل ببشارته نَجَّاب، ونُفِّذ بها كتاب، ووصل البشير الجُنْدي فَحَقَروه وما وقَرُوه، فإنَّه كان عندهم بعين فنظروه بتلك العين، وحبوه بما يليق من الرقة والعين، ونُقِمَ على السُّلْطان إرسالُ مثله، وتسمَّح المندوب بكلامٍ أُخذ عليه، وبَدَرَتْ منه أحاديثُ نُسبت إليه. وقال في سُكْره، وحالة نكره، ما نُعْرِضُ عن ذكره، فخيَّل ومَوَّه، وتنكَّر وتكرَّه، وظُنَّ أن لكلامه أصلاً، ولقَطْعِهِ منا وَصْلاً، وأُنهيت إلى العرض الأشرف مقالاته، وعُلِمت جهالاته، وَتُجُنِّيَ على السلطان بإرساله، وطُرِّق إلى هُداه ما أنكروه من مقال المذكور وضلاله، ووجد الأعداءُ حينئذٍ إلى السِّعاية طريقاً، وطلبوا لشمل استسعاده بالخدمة تفريقاً، واختلقوا أضاليل، ولفَّقوا أباطيل، وقالوا:

---

(١) في الأصل: الإجلال، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: حظي، والمثبت من (ك).
(٣) في الأصل: الفتح، والمثبت من (ك).

هذا يزعم أنه يقلب الدَّوْلة، ويغلب الصَّوْلة، وأنه يُنْعَتُ بالملك النَّاصر نَعْتَ الإمام النَّاصر، ويُدِلُّ بمالَهُ من القوَّة والعساكر.

فأشفق الديوان العزيز على السُّلْطان من هذه، وبرز الأمر المطاع بإرسال أخي وإنفاذه، وقالوا: هذا تاجُ الدين أخو العماد، يكْفُلُ لنا في كَشْفِ سرِّ الأمر بالمُراد، فإن أخاه هناك مُطَّلع على الأسرار، وهو منتظم في سِلْك الأولياء الأبرار. وعوَّل عليه الديوان في السِّفَارة، ورُدَّ معه جواب البشارة، وكُتبت له تذكرة بموجبات مقاصد العَتْب، ومكدِّرات موارد القُرْب، والمخاطبة فيها وإن كانت حسنة خشنة، والمعاتبة مع شدَّتها للعواطف الإمامية لينة.

فسار الأخ إلى دمشق، وكان قد عاد المندوبُ نادباً عادياً، جاحداً للنِّعْمة شاكياً، وقال: أخو العماد قد وصل بكلِّ عَتْبٍ وغَضَبٍ ولَفْظٍ فَظٍّ، ومعه الملامات المؤلمات. فقلت له: اسكت واصمت. وقلتُ للسلطان: سمعاً وطاعة لأمر الدِّيوان، فإن إظهار سِرِّ العَتْبِ لك من غاية الإحسان. فقال: نِعْمَ ما قلتَ.

ولما قَرُبَ أخي أصبحتُ لقدومه أنتخي، فأمر السلطان الأُمراء على مراتبهم باستقباله، وتقدَّم لجلالة قدومه بإجلاله، وتلقَّاه الملوك الحاضرون: العادل والمظفَّر والأفضل والظَّاهر. ثم ركب وتلقَّاه بنفسه، وخصَّه من تقريبه ٢/٢٢
بأُنْسه، ولم يزل حتى أراه مواضع الحصار، ومصارِعَ الكُفَّار، ثم نزل وأنزله بالقُرْب، ثم حضر عنده، وقد أخلى مجلسه لي وله وحده، فأدَّى الأمانة في مشافهته، ووجَّه مقاصده في مواجهته، وأحضر التَّذْكِرَة، وقد جَمَعَتِ المَعْرِفة والنَّكِرة، فقرأْتُها عليه، وكانت في الكُتُب غِلْظة، عُدَّت من الكاتب غَلْطة،

وخِيْلَتْ سَقْطَه، وجَلَبَتْ سُخْطَه، وقال: [إنَّ][1] الإمام أَجَلُّ أن يأمر بهذه الألفاظ الفِظاظ، والأسجاع الغِلاظ، فقد أمكن إيداع هذه المعاني في أرقَّ منها لَفْظاً وأرفق، وأوفى منها فَضْلاً وأوفق، ومعاذَ الله أن يُحْبَطَ عملي، أو يُهْبَطَ أملي.

وامتعض وارتمض، ثم أعرض عما عَرَض، ورجع إلى الاستعطاف وانتجع بارِقَ الاستسعاف. وقال: أما ما تمحّله الأعداء، وعدا به المتمحِّلُون، فما عُرِفَ مني إلا الاعتراف بالعارفة. وذَكَرَ السُّلْطانُ أياديه السَّالفة في الفتوحات، وإقامة الدَّعْوة العَبَّاسية بمصر واليمن، وإزالة الأدعياء، وإبادة الأعداء، وفتح البيت المقدَّس.

قال: وأما النَّعْتُ الذي أُنكر، وَنُبِّه على موضع الخطأ فيه وذُكِر، فهذا من عهد الإمام المستضيء، والآن كل ما يشرِّفني به أمير المؤمنين من السِّمَة، فإنَّه اسْمي الذي هو أسمىٰ وأَشْرَفُ، وأرفعُ وأعرف، وما عزمي إلا استكمال الفتوح لأمير المؤمنين، وقَطْعِ دابر المنافقين والمشركين.

ثم ندب مع أخي مَنْ سار في خدمته لزيارة القدس، ثم وَدَّعه وأَوْدَعه من شفاهه كل ما في النَّفْس، وظهرت بعد ذلك بالقَبُول آثارُ الرِّضى، ومضى ما مضى، وكان جماعةٌ من الملوك والأمراء كالعادل ومُظَفَّر الدين قد نخُّوه لما قيل في حَقِّه، وأرادوا أن يُغْضِبوه فما غضب، بل غاض غيظه ونَضَب، وتلقى ذلك بصدر رحيب، ولَفْظٍ مُصيب[2].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) «الفتح القسي»: ١٨٣ ــ ١٨٨.

قلت[1]: ووقفتُ على كتابٍ كتبه الصَّاحب قِوَام الدين بن زيادة من الدِّيوان العزيز ببغداد إلى السُّلْطان صلاح الدين، وكان قوام الدين يومئذٍ أستاذ الدَّار العزيزة يقول فيه: لولا مكانُ صلاح الدين من الخِدْمة، والشُّحُّ به، والمنافسةُ فيه لما جُوهر بالعتاب، ولا رُفع دونه هذا الحجاب، بل كان يُتْرَك معه الأمرُ على اختلاله، ويُدْمَلُ الجُرْحُ على اعتلاله، وقد ذكرتُ الأسباب التي أخذها الديوان العزيز عليه، واستغرب وقوعها من كماله لِيُرْعيها سَمْعَه الكريم، ويستوري فيها رأيه الأصيل، وينصف في استماعها والإجابة عنها، غير عائجٍ على الجدل، ولا مُؤْتَمٍّ بالمِرَاء المذمومَيْن عَقْلاً وشرعاً، بل يحملُ قولي هذا على سبيل المماحضة والانتصاح، وصِدْق النِّيَّة في رأب الثَّأَىْ[2] والإصلاح، فإنَّ إبجارَّ الدَّواء المُقِرِّ لا يُتَّهم فيه الطبيبُ المجتلب للعافية.

ثم ذكر من تلك الأمور: أن من انتفى من العراق بسببٍ من الأسباب لجأ إلى صلاح الدين، فوجد عنده الإقبال عليه، وكان الأدبُ يوجب إبعاد من أبعده عنه، وتقريب من قَرَّبه إليه.

ثم قال: وإنَّ مما أضحك ثَغْرَ الاستعبار، ما انتهى عن العوام وأشباه الأنعام وطَغَام الشَّام من الخَوْض في المذاهب، والانتهاء في التشنيع إلى اختلاق كلِّ قَوْلٍ كاذب، ومنها ما جرى من سَيْفِ الإسلام بالحجاز من إزعاج الحُجَّاج، وإرهاج تلك الفِجاج، والإقدام على مناسك الله وشعائره، وإيقاد سعير الفتنة فيها ونوائره، واحتذاء السِّيرة القاسطة، وإحياء بدع القَرَامطة، ما

---

(١) هذا التعقيب ساقط من (ك).

(٢) الثأىْ: الإفساد. يقال: رأب الثأى: أي أصلح. «معجم متن اللغة»: ١/ ٤٢٢.

نفر منه كلُّ طَبْعٍ، ومَجَّه كل سَمْعٍ، فكيف جاز لصلاح الدين أن يرخي عِنان أخيه فيما يقرِّض سوابقه وأواخيه، ومنها ما قضى الناس منه العَجَب، وفُوْرِق فيه الحَزْمُ والأدب، وهو ما أوجب التَّلَقُّب باللَّقب الذي استأثر به أميرُ المؤمنين.

ثم قال: وقد ساوق زمان الدَّوْلة العَبَّاسية ــ ثَبَّتَها الله ــ خوارج دَوَّخوا البلاد، وأسرفوا في العناد، وجاسوا خلال الدِّيار، وأخافوا المسالك، واستضاموا الممالك، واقتحموا من الشِّقاق أشقَّ المهالك، فما انتهى أحدُهم فيما احتقب وارتكب إلى المشاركة في اللَّقب، ومن الحكم الذائعة في وجيز الكلام: الذي يصلح للمولى على العبد حَرَام. ومنها مكاتبة كلِّ طرف يتاخم أعمال الدِّيوان من مواطن التركمان والأكراد، ومراسلتهم ومهاداتهم وقرع أسماعهم، بما يعود باستزلال أقدامهم، وفَلِّ عزائمهم، وهم لا يعرفون إلا أنهم رعيةٌ للعراق، وَخَولٌ للديوان، يرثون الطَّاعة خالفاً عن سالف.

ثم قال في آخر الكتاب: وهذا كلُّه لا أقوله إنكاراً لجلائل مقامات صلاحِ الدين، ومشاهير مواقف جهاده في سبيل المُؤْمنين، فإنه ــ أدام الله علوَّه ــ رجلُ وَقْته، ونسيج وَحْدِه، والمُرْبي على من سَلَفَ من صنائع الدَّوْلة على من يأتي بعده، وهو الوليُّ المخلص الذي عهد فوفى، واسْتُكْفي فكفىٰ، وطب فشفى، فكيف يجوزُ له بسعادته أن يهجِّن مساعيه الغُرّ المُحَجَّلة، ويخرج من مكانته المكرَّمة المُبَجَّلة، وتبطل حقوقه الثابتة المُسَجَّلة.

ثم قال: فقد علم كلُّ من نَظَرَ في التَّواريخ والآثار، ونَصَحَتْه بصيرتُه في التبصُّر والاعتبار، أن هذا البيت العظيم ما زال يَرْفَعُ الأقدارَ الخاملة، ١٢٣/٢ فينزون عليه بَطَراً، فيغَارُ الله له منتصِراً، ويعقبه عليهم إظفاراً وظفراً، كدأب

آل طولون، وآل سامان، وآل بويه، وآل سَلْجوق، وقروناً بين ذلك كثيراً[1]، فمن الذي زلزلوه فثبت، ومن الذي حصدوه فنَبَتْ، وأي نارٍ أوقدوها فما خَبَتْ.

ثم قال في آخره: اللهم، هل بَلَّغْتُ؟ وللرأي الصَّلاحي علوه، إن شاء الله تعالى.

وذكر ابنُ القادسي[2] أن الجُنْدي الذي أرسله صلاح الدين بالبشارة يُعرف بالرَّشيد بن البُوشَنْجي. قال: وكان صبيّاً، كثير الإدبار، مشمِّراً في دروب بغداد، ثم توجَّه إلى الشَّام هارباً من الفَقْر، فحين وصل إلى بغداد رسولاً قامت القيامة برسالته[3]، وكُتِبَ إلى صلاح الدين بالإنكار عليه، وقيل له: ما كان في أصحابك أَمْيَزَ من هذا تُرْسِله[4] إلى الدِّيوان! فاعتذر صلاح الدين، ووصلت كتبه بالاعتذار، وقُبِلَ عُذْرُه. وأما ابن البُوْشَنْجي، فإنه حين وصوله إلى الشَّام أكثر الكلام عند صلاح الدين، فأنكر ذلك عليه، فلما مضى الأسبوع جاءته نُشَّابة ذَبَحَتْهُ.

فَصْــــل

في باقي حوادث سنة ثلاثٍ وثمانين

ففيها قُتِلَ الأمير شمس الدين بن المقدَّم، وهو محمد بن عبد الملك يوم عرفة بها.

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿وعاداً وثموداً وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً﴾ سورة الفرقان، الآية: ٣٨.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من هذا الجزء.

(٣) في (ك) بمراسلته.

(٤) في (ك) تنفذه.

قال العماد: وكان السُّلْطان لما فَرَغَ من فتح القُدْس ودنا موسمُ الحَجِّ، قال الموفقون: نُحْرِمُ من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، ونفوز بالحج مع إدراك فضيلة فَتْحِ البيت المقدَّس في هذا العام، فالحجُّ والجهاد رُكْنا الإسلام. فاجتمع جمعٌ جمٌّ من أهل ديار بكر والجزيرة والشَّام، وسار بهم الأمير شمس الدين بن المقدَّم، شيخ أمراء الإسلام الكرام، فودَّعه السلطانُ على كُرْهٍ من مفارقته، واستمهله ليحج في السنة الأُخرى على مرافقته. فقال ما معناه: إن العمر قد فرغ، والأمد[1] قد بلغ، والشَّيبُ قد أنذر، والفرضُ قد أعذَر، فأغتنمُ فرصة الإمكان قبل أن يتعذَّر. فمضى والسَّعادة تقوده، والشَّهادةُ تروده، حتى وصل إلى عَرَفات، وما عرف الآفات، وشاع وصوله، وراع قَبُوله، وضُرِبَتْ طُبوله، وسالت سيولُه، وجالت خيوله، وضُربت خيامه، وخَفَقَتْ أعلامُه، فلما أصبحوا نقَّرت على العادة نقَّاراتُه، ونَعَرَتْ[2] بوقاتُهُ، فغاظ ذلك أمير الحاج العراقي، فركب إليه في أحزابه، فأوقع به وبأصحابه، وأبلاهم بجراحه ونهابه، وجرى حُكْمُ الله الذي كان [ضَرْبُ][3] الطَّبْلِ أوكدَ أسبابه، وقُتِلَ جماعةٌ من حاجِّ الشَّام، وجُرحوا، وهُتِكَتْ أستارُهُم وافْتُضحوا. ونقل أميرُ الحاج طاشْتِكِين[4] شمسَ الدِّين بنَ المُقَدَّم إلى خيمته وهو مجروح، وفيه رُوح، وحمله معه إلى مِنَى، فقضى ودُفِنَ بالمَعْلىٰ، وتَمَّ ذلك بقضاء الله وقَدَره، في تقلُّب حوادث الدَّهْر وغِيَرِهِ، وارتاع أميرُ الحاج بما اجترمه، وكيف لم يراقبِ الله وأَحَلَّ

---

(١) في الأصل: والأمر، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) نعرت: صاحت. «القاموس المحيط» (نعر).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٤) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٠٢ هـ).

حَرَمَهُ، وكيف عدا على الحاجِّ العائذ بالله وسَفَكَ دمه، فكتب محضراً على ما اقترحَهُ؛ بعُذْره فيما اجترحه، وألزم أعيان الحاجِّ من سائر البلاد، بوضع خُطُوطهم على ما عيَّنه من المُرَاد، فكتبوا مُكرهين غيرَ مشتهين. وكان عذره أنه أنكر عليه ضَرْبَ الطَّبْل فأبى. فلما انتهت [تلك][1] الحالة إلى الخليفة أنكرها إنكاراً شديداً، ونسبها إلى طَيْشِ طاشْتِكين، ولم يجد له رأياً سديداً، فلا جَرَمَ، اتضع عنده قَدْرُه، واتضح له وِزْرُه، ووهى أمره، وذخرها له حتى نَكَبَهُ بها بعد سنين وَحَبَسَه[2] وأطال سِجْنَه، ثم عفا عنه بعد مُدَّة مديدة، وشِدَّةٍ شديدة، وولاه حَرْبَ بلاد خوزستان وخَرَاجها، وولَّىٰ إمارة الحاجِّ غيره. ولما وصل إلى السلطان خَبَرُ استشهادِ ابن المقدَّم وجماعته، لامه على تَرْك الحزم وإضاعته، فاحتسبه عند الله غازياً شهيداً، ساعياً إلى الجَنَّة بقدمه سعيداً، وأقام ابنه عِزَّ الدين إبراهيم في بلاده مقامه، وأَقَرَّ عليه إنعامه[3].

وقال محمد بن القادسي في «تاريخه»، ونقلته من خَطِّه: أراد أميرُ الحاج بالشَّام، وهو ابنُ المُقَدَّم، أن يرفع علماً على الجَبَل بالموقف، فمنعه أمير الحاج طاشْتِكين، وجَرَتْ بينهما مراجعات أفضت إلى الخصومة بين حاجِّ العراق وحاجِّ الشَّام، ونهب البعض للبعض، وجَرَتْ جراحات، فَجُرِحَ ابنُ المقدَّم، ولم تُغَيِّر العادةُ في ذلك [وأفاض الناس][4]، ومات ابنُ المقدَّم بمِنىٰ في اليوم الثَّاني، ووصلت النَّجابة من مكة، فأخبروا بما جرى من

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٢) في الأصل: وحبسه بها، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) انظر «الفتح القسي»: ١٨٨ ـ ١٨٩.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

أصحاب ابن المقدَّم، وقد شهد الشهود بذلك من الحُجَّاج، فقرىء ذلك بجامع القَصْر الشريف.

قال: وفي ثاني شوَّال من هذه السنة توفي أبو الفَتْح محمد بن عُبيد الله بن عبد الله، سِبْط ابن التَّعاويذي[١] الشَّاعر، وكان كاتباً بديوان المُقَاطعات، وخدم بيت ابن رئيس الرؤساء، وأَضَرَّ في آخر عمره، ومولده عاشر رجب[٢] سنة تسع عشرة وخمس مئة.

قال: وفي خامس رمضان توفي الفقيه الحَنْبَلي أبو الفَتْح نَصْر بن فِتْيان بن مَطَر، المعروف بابنِ المَنِّي[٣]، وكان فقيهاً زاهداً صالحاً عالماً، مولده سنة إحدى وخمس مئةٍ، وتفقَّه عليه جماعةٌ من أئمة الحنابلة كالحافظ

---

(١) يقال لمن يكتب التعاويذ والرقىٰ: تعاويذي، ولعل أبا جده كان يرقىٰ ويكتب التعاويذ، وانظر ترجمته في «معجم الأدباء»: ١٨/ ٢٣٥ ــ ٢٤٩، و«المختصر المحتاج إليه» ١/ ٦٦، والمنذري في «التكملة»: ١/ ١٠٣ ــ ١٠٤، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٤٦٦ ــ ٤٧٣، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٧٥ ــ ١٧٦، «العبر» للذهبي: ٤/ ٢٥٣، «الوافي بالوفيات»: ٤/ ١١ ــ ١٦، و«نكت الهميان»: ٢٥٩ ــ ٢٦٣، «البداية والنهاية»: ١٢/ ٢٢٩، «النجوم الزاهرة» ٦/ ١٠٥ ــ ١٠٦، «شذرات الذهب»: ٤/ ٢٨١ ــ ٢٨٢،

قلت: وافق أبا شامة في ذكر سنة وفاته ابنُ كثير، وابن تغري بردي. والباقون ذكروا وفاته سنة (٥٨٤ هـ).

(٢) في الأصل: رجب،. والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ١/ ٧٠ ــ ٧١، و«المختصر المحتاج إليه»: ٣/ ٢١٢، «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٣٧ ــ ١٣٨، «العبر» للذهبي: ٤/ ٢٥١، و«البداية والنهاية»: ١٢/ ٣٢٩، «ذيل طبقات الحنابلة»: ١/ ٣٥٨ ــ ٣٦٥، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١٠٦، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٧٦ ــ ٢٧٨.

عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور، وأخيه إبراهيم، والشيخ الموفَّق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قُدَامة، ومحمد بن خَلَف بن راجح، والنَّاصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهَّاب، وعبد الرَّزَّاق بن الشيخ عبد القادر الجِيْلي، وغيرهم.

[نجز الجزء الثالث من كتاب الروضتين

ويليه الجزء الرابع

ويبدأ بحوادث سنة ٥٨٤ هـ].

المحتوىٰ

حوادث سنة أربع وسبعين وخمس مئة ٥
امتناع ابن المقدم عن المجيء إلى دمشق خوفاً من انتزاع بعلبك منه .. ٥
مسير السلطان صلاح الدين إلى حمص وعزمه على الجهاد......... ٥
كتب من القاضي الفاضل إلى السلطان صلاح الدين ٦
فصل/ ذكر ما أسقطه السلطان صلاح الدين من
مكس مكة عن الحاج ٩
وفاة الحكيم مهذب الدين علي بن عيسى المعروف بابن النقاش ١٤
وفاة الأمير نجم الدين بن مصال بمصر ١٥
إغارة طائفة من الإفرنج على حماة وانهزامهم ١٥
رحيل صلاح الدين إلى بعلبك ثم دمشق ١٦
رضا ابن المقدم بالنزول عن بعلبك، وأخذه حصن بعرين
وأعماله وغيرها بدلاً عنها ١٦
فصل/ في حوادث متفرقة ١٦
وفاة متولي المقياس بمصر، ونبذة عن المقياس وتاريخه ١٧
وقوع القحط والغلاء والوباء في العراق ومصر وديار بكر
والجزيرة والشام، وغير ذلك من البلاد............. ١٨
فصل/ في عمارة بيت الأحزان ووقعة الهنفري.......... ١٩
فصل/ سفر القاضي الفاضل إلى الحج ٢١
فصل/ فيما فعل صلاح الدين مع الفرنج من تخريب غلاتهم
في بانياس وبيروت وصيدا ٢٦

إغارة إبرنس أنطاكية على شيزر، وغدر قومص أطرابلس
بجماعة من التركمان بعد الأمان ٢٧
حوادث سنة خمس وسبعين وخمس مئة ٢٧
وقعة مرج عيون مع الفرنج وانهزامهم ٢٧
مسير تقي الدين عمر إلى رعبان، وانهزام قليج أرسلان منه ٣١
غزو الأساطيل الإسلامية ودخولها سواحل البلاد
الرومية والإفرنجية ٣٥
فصل/ في تخريب حصن بيت الأحزان ٣٦
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٤٦
حجة القاضي الفاضل الثانية ٤٦
ختان الملك العزيز أبي الفتح عثمان بن صلاح الدين ٤٨
وفاة الملك المنصور حسن بن صلاح الدين ٥٠
إغارة عز الدين فرخشاه على صفد ٥٠
وفاة الخليفة المستضيء بالله وولاية ابنه الناصر لدين الله ٥٠
القبض على صاحب المخزن ظهير الدين بن العطار وقتله ٥٢
توجه شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل إلى
البهلوان شحنة همذان من أجل الخطبة للخليفة ٥٣
اشتداد الغلاء والوباء في بغداد ٥٣
وقوع زلزلة في إربل ٥٣
خروج قراقوش غلام تقي الدين إلى طرابلس الغرب ٥٤
حوادث سنة ست وسبعين وخمس مئة ....
وفاة الحافظ أبي طاهر السِّلفي ٥٤
الهدنة بين صلاح الدين والفرنج ٥٤

توجه صلاح الدين إلى بلد الروم وإصلاحه بين نور الدين
محمد بن قرا أرسلان وعز الدين قليج أرسلان بن مسعود ٥٥
دخول صلاح الدين بلاد الأرمن وهدم قلعة المانقير ٥٥
الصلح بين صلاح الدين والأرمن ٥٦
عودة صلاح الدين إلى دمشق ٥٦
فصل/ وفاة صاحب الموصل سيف الدين غازي بن
مودود بن زنكي وولاية أخيه عز الدين مسعود ٦٠
فصل/ في وفاة شمس الدولة بن أيوب أخي السلطان
الأكبر وقدوم رسل الديوان بالتفويض إلى السلطان ما طلبه ٦٣
فصل/ في رجوع السلطان إلى مصر مرة ثانية ٦٧
تعريب العماد كتاب كيمياء السعادة للغزالي ٧١
وفاة المعتمد إبراهيم صاحب العماد الكاتب ٧١
سفر قراقوش غلام تقي الدين إلى قابس ومحاصرته جملة قلاع ٧٢
حوادث سنة سبع وسبعين وخمس مئة ٧٣
سماع صلاح الدين الأحاديث النبوية بقراءة الإمام تاج الدين
البندهي في القاهرة ٧٣
فصل/ في ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين،
وما تم في بلاده بعده، وذلك بحلب ٧٥
وصية الملك الصالح لابن عمه عز الدين بولاية حلب وقدومه إليها .. ٧٧
كتاب صلاح الدين إلى بغداد
يستعدي فيه الخليفة على ولاة الأمر بحلب والموصل ٨٣
فصل/ في توجه السلطان إلى الإسكندرية وسماعه هناك موطأ
مالك من الإمام أبي طاهر بن عوف بروايته عن الطرطوشي ٨٩

فصل/ في أمور تتعلق بولاة اليمن ٩٢
قبض صلاح الدين على سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ
لوشاية بلغته وإفراج السلطان عنه ٩٣
اضطراب أمور اليمن بعد وفاة الملك المعظم شمس الدولة
تورانشاه أخي صلاح الدين ٩٤
ولاية سيف الإسلام طغتكين أخي صلاح الدين اليمن ٩٥
مقتل حطان بن منقذ والي زبيد ٩٥
فرار عز الدين عثمان بن الزنجيلي صاحب عدن إلى الشام ٩٦
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٩٨
وصول خطيب المزة إلى السلطان من دمشق وكان قد زور
كتاباً عن السلطان ٩٨
نقض الفرنج للهدنة مع صلاح الدين ٩٩
ولادة الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين ٩٩
ولادة الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين ٩٩
مسير قراقوش غلام تقي الدين إلى إفريقية ومحاربته عسكر
الموحدين بالقيروان ٩٩
وفاة كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي
سعيد الأنباري النحوي ١٠٠
وفاة الشاعر أبي الحسن علي بن يحيى المصري المعروف بابن الذروي ١٠١
فصل/ في عود السلطان من الديار المصرية إلى الشام ١٠٣
حوادث سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة ....
رحيل السلطان عن مصر قاصداً الشام ١٠٥

إغارة عز الدين فرخشاه على بلاد طبرية وعكا وفتح دبورية،
وحبيس جلدك، ورجوعه بالغنائم والأسرى ١٠٦
إغارة السلطان على بلاد طبرية وبيسان ١٠٦
فصل/ في مسير السلطان إلى بلاد المشرق مرة ثانية ١١١
توجه السلطان نحو بعلبك وتخييمه بالبقاع ومهاجمة بيروت
بالأسطول ثم عوده إلى بعلبك ثم حمص ١١١
مسير السلطان إلى حماة ١١٣
التحاق مظفر الدين كوكبري بالسلطان عند اقترابه من حلب
ومصيره من جملة أتباعه ١١٣
اقتراح مظفر الدين على السلطان عبور الفرات، وفتح ما وراءه
من البلاد وترك حلب ١١٣
رحيل السلطان إلى بلاد الشرق بعد إقامته على حلب
ستة أيام ١١٤
إقامة السلطان بتل خالد ثلاثة أيام ثم رحيله إلى البيرة ١١٥
كتاب السلطان إلى الخليفة في بغداد شارحاً لأحواله
وموضحاً موقفه من حكام الموصل ١١٦
إغارة الأسطول المصري على موانىء الفرنجة ١٢٢
الاستيلاء على بطسة فرنجية ١٢٢
مكاتبة السلطان ملوك المشرق للقدوم عليه للاتفاق على أن
من جاء منهم مستسلماً سلمت بلاده إليه على أن يكون من
أجناد السلطان وأتباعه ١٢٢
مجيء رسول صاحب حصن كيفا بالإذعان ١٢٢

رحيل السلطان من البيرة ونزوله على الرها، وولاية
مظفر الدين كوكبري لها مضافة له إلى حران ١٢٣
وصول السلطان إلى حران، وانفصاله عنها إلى الرقة
وأخذها من صاحبها قطب الدين ينال بن حسان ١٢٣
فتح السلطان الخابور ١٢٣
نزول السلطان على نصيبين وتوليتها لحسام الدين أبي
الهيجاء السمين ١٢٣
تولية جمال الدين خوشترين الخابور ١٢٣
محاصرة السلطان الموصل ١٢٣
مكاتبة حكام الموصل للخليفة في أن يشفع لهم إلى السلطان ١٢٤
رحيل السلطان عن الموصل وقصده سنجار ١٢٤
محاصرة السلطان سنجار وفتحها وتولية ابن أخيه تقي الدين لها ١٢٥
تولية الأمير سعد الدين مسعود بن أنر قلعة سنجار ١٢٦
رحيل السلطان إلى نصيبين وإقامته بها، وعزل أبي الهيجاء
عنها ثم مسيره إلى دارا، ثم إقامته في حران للاستراحة ١٢٦
فصل/ في وفاة فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ١٢٦
فصل/ في أخذ السالكين البحر لقصد الحجاز وهو في إغارة
الفرنج على سواحل الحجاز وانهزامهم ١٣٣
إغارة الأسطول المصري على الفرنج وعوده غانماً ١٤١
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ١٤١
إنعام السلطان على نور الدين محمد بن قرا أرسلان بأعمال
الهيثم وكانت تابعة للموصل ١٤١
اجتماع ملوك خلاط وماردين والموصل وأرزن وبدليس وغيرهم

من عسكر حلب وعزمهم على لقاء السلطان وهو في حران،
وتفرقهم من بعد حين علموا بتوجه السلطان نحوهم ١٤٢
نـزول قراقوش غلام تقي الدين على بلد زالوت وتملكه ثم قصده
طرابلس وحصارها ثم رحيله عنها بعد مصالحتها ١٤٣
مسير قراقوش إلى قابس وقصر الروم وغيرها من النواحي ١٤٥
فصل/ في مسير السلطان إلى آمد وحصارها ١٤٥
حوادث سنة تسع وسبعين وخمس مئة ١٤٥
فتح السلطان آمد وولاية نور الدين محمد بن قرا أرسلان لها ١٤٥
إعطاء السلطان خزانة كتب آمد ــ وكان فيها ألف ألف وأربعون ألف
كتاب ــ للقاضي الفاضل ١٤٦
طلب صاحب ماردين وصاحب ميا فارقين الأمان من صلاح الدين
وإجابة السلطان لهم ١٥٦
رحيل السلطان من آمد قاصداً حلب ١٥٦
تسلم السلطان تل خالد وتولية بدر الدين دلدرم له ١٥٦
فصل/ في فتح حلب . . . .
تسليم عماد الدين زنكي حلب على أن يعوض عنها بسنجار ونصيبين
والخابور والـرقـة وسـروج ويتعهد عماد الدين بإرسال العسكر للغزاة . ١٥٧
وفاة تاج الملوك أخي السلطان من جرح أصابه ١٥٨
ولاية حسام الدين طمان الرقة ١٦٥
فصل/ فيما جرى بعد فتح حلب ١٧٢
مكاتبة والي حارم للفرنج يطلب نجدتهم ١٧٢
تسلم صلاح الدين حارم ١٧٣
ولاية الملك الظاهر بن صلاح الدين حلب ١٧٣

هدنة صلاح الدين مع أنطاكية ١٧٥
إسقاط صلاح الدين المكوس عن حلب والرقة ١٧٥
غزو الأسطول المصري الساحل الفرنجي وظفره ببطسة مقلعة من الشام ١٧٧
خروج والي الشرقية لقتال فرنج الداروم وكسرهم ١٧٧
كتاب صلاح الدين إلى الخلافة في بغداد داعياً إلى الوحدة الإسلامية
لمواجهة الفرنج ١٧٩
فصل/ في رجوع السلطان إلى دمشق وخروجه منها للغزاة
بمخاضة الأردن ١٨٤
مهاجمة فرنج الكرك والشوبك وكسرهم ١٨٥
اجتماع الفرنج في صفورية، واستعداد صلاح الدين للقائهم ثم رجوع
الفرنج إلى بلادهم ناكصين ١٨٦
رجوع السلطان إلى دمشق........ ١٨٦
فصل/ في ولاية الملك العادل حلب، وولاية تقي الدين مصر ١٩٠
مجيء القاضي ابن شداد مع وفد الموصل لإبرام الصلح مع
صلاح الدين وعوده دون الاتفاق على ذلك ١٩٦
مجيء رسل صاحب الجزيرة وصاحب إربل وصاحب الحديثة وتكريت
يشكون من صاحب الموصل ويطلبون أن يكونوا مع السلطان ١٩٨
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ١٩٩
قبض عز الدين صاحب الموصل على مجاهد الدين قايماز ٢٠٠
وفاة الشاعر أبي عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبله ٢٠١
حوادث سنة ثمانين وخمس مئة ٢٠٢
حصار السلطان للكرك........ ٢٠٢
مسير الفرنج نحو الكرك لفك الحصار ٢٠٣
تراجع السلطان عن الكرك وإقامته برأس الماء

وإرسال العسكر لمهاجمة نابلس وجينين ٢٠٤
رجوع السلطان إلى دمشق للاجتماع برسل الخلافة ٢٠٩
وفاة صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل شيخ الشيوخ
بالرحبة منصرفاً من دمشق إلى بغداد ٢٠٩
فصل/ يحتوي على ذكر المفاضلة بين مصر والشام والتعريف بحال
زين الدين الواعظ ٢١٣
وصف دمشق للوزير صفي الدين بن شكر ٢١٩
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٢٢١
كتاب صلاح الدين إلى صاحب إربل منشوراً ببلاده ٢٢٢
وفاة قطب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش صاحب ماردين ٢٢٢
وفاة خليفة المغرب يوسف بن عبد المؤمن بن علي
وولاية ابنه يعقوب من بعده ٢٢٣
مسير صلاح الدين نحو إربل لإنجاد صاحبها من هجوم عسكر
الموصل وعسكر قزل عليه ٢٢٣
حوادث سنة إحدى وثمانين وخمس مئة ٢٢٤
وصول السلطان إلى حلب، وخروجه منها قاصداً الموصل ٢٢٤
نزول السلطان على حران وارتيابه من مظفر الدين كوكبري
لشيء بلغه عنه ٢٢٤
قبض السلطان على مظفر الدين ليتبين أمره وأخذه
قلعتي الرها وحران منه، ثم عفو السلطان عنه ٢٢٥
خروج السلطان من حران نحو الموصل وحصاره لها ٢٢٧
إرسال صلاح الدين رسولاً إلى الخليفة يخبره بما عزم
عليه من حصار الموصل ٢٢٧

فصل/ فيما فعل السلطان في أمر خلاط وميافارقين وغيرهما
من البلاد ٢٣١
مسير السلطان إلى خلاط بعد وصول خبر وفاة صاحبها
شاه أرمن ٢٣١
استيلاء سيف الدين بكتمر غلام شاه أرمن على خلاط ٢٣٢
فتح السلطان ميافارقين ٢٣٣
عودة السلطان إلى الموصل لحصارها ٢٣٤
فصل/ في انتظام الصلح مع أهل الموصل، ومرض السلطان
المرضة المشهورة بحران ٢٣٥
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة، ومن توفي فيها
من الأعيان ٢٤٣
وفاة الخاتون عصمة الدين ابنة معين الدين أنر ٢٤٣
وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص ٢٤٤
وفاة سعد الدين مسعود بن أنر ٢٤٥
وفاة عز الدين جاولي الأسدي ٢٤٦
مقتل قوام الدين أبي محمد عبد الله بن سماقة وزير صاحب آمد ٢٤٦
وفاة الشاعر الفقيه مهذب الدين عبد الله بن أسعد
الموصلي المعروف بابن الدَّهان ٢٤٧
رد السلطان قلعتي الرها وحران إلى مظفر الدين كوكبري ٢٤٧
ورود تفويض من الخليفة بولاية صلاح الدين ماردين وحصن كيفا . . . ٢٤٨
وفاة الحافظ أبي موسى محمد بن عمر المديني ٢٤٩
وفاة الشيخ جمال الدين أبي الفتح محمود بن أحمد المعروف
بابن الصابوني ٢٤٩

حوادث سنة اثنتين وثمانين وخمس مئة ٢٥٢
عودة السلطان إلى دمشق ٢٥٢
فصل/ في ذكر ما استأنفه السلطان بمصر والشام من نقل
الولايات بين أولاده ٢٥٤
نقل الملك الأفضل إلى الشام من مصر ٢٥٤
تعيين العزيز بن صلاح الدين بمصر ٢٥٥
عزم تقي الدين على غزو المغرب ٢٥٦
قدوم تقي الدين من مصر إلى الشام بأمر من السلطان ٢٥٧
وصول العادل والعزيز إلى مصر ٢٥٧
مسير الملك الظاهر إلى حلب ٢٥٧
غزو زين الدين يوزبا مملوك تقي الدين المغرب ٢٥٧
زواج الملك الظاهر بن صلاح الدين من ابنة عمه العادل ٢٦٠
زواج الملك الأفضل بن صلاح الدين من ابنة ناصر الدين
محمد بن شيركوه ٢٦٠
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٢٦٣
تخرص المنجمين في جميع البلاد بخراب العالم في هذه السنة وخزيهم
في ذلك ٢٦٣
وفاة أبي محمد عبد الله بن بري بن عبد الجبار النحوي ٢٦٧
وفاة شمس الدين محمد بن أتابك الدكز المعروف بالبهلوان ٢٦٨
القتال بين التركمان والأكراد بأرض نصيبين ٢٧٠
عصيان معين الدين بالرواندان ومحاصرة عسكر حلب له ٢٧٠
ولاية علم الدين سليمان بن جندر الرواندان ٢٧٠
وصول معين الدين إلى السلطان ٢٧١

استيلاء سيف الإسلام طغتكين أخي صلاح الدين على مكة ٢٧١
الفتنة في أصبهان بعد وفاة البهلوان ٢٧١
فصل/ في الخلف الواقع بين قومص طرابلس وملك
بيت المقدس ومصافاة قومص طرابلس للسلطان ٢٧٢
نقض إبرنس الكرك أرناط للهدنة مع صلاح الدين ٢٧٤
حوادث سنة ثلاث وثمانين وخمس مئة وهي سنة كسرة
حطين وفتح الساحل والأرض المقدسة للمسلمين ٢٧٥
مسير السلطان للغزاة ووقعة حطين المباركة من رواية
العماد الكاتب ٢٧٦
مقتل أرناط صاحب الكرك بعد أسره ٢٨٨
فصل/ وصف معركة حطين من رواية ابن شداد وغيره ٢٩٢
فصل/ في فتح عكا ٣٠٨
فصل/ في فتح نابلس وجملة من البلاد الساحلية بعد فتح
عكا وطبرية، وذكر بعض كتب البشائر الشاهدة لذلك ٣١٤
فصل/ في فتح تبنين وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها
ومجيء المركيس إلى صور ٣٢١
فصل/ في فتح عسقلان وغزة والداروم وغيرها ٣٢٦
فتح البيت المقدس شرفه الله تعالى ٣٣٠
فصل/ في نزول السلطان على البيت المقدس وحصره
وما كان من أمره ٣٣٨
فصل/ في ذكر يوم الفتح وبعض كتب البشائر إلى البلاد ٣٤٤
فصل/ في كتب السلطان إلى القاضي الفاضل يبشره بالفتح
وكان القاضي مريضاً بدمشق ٣٥٣

فصل/ في قصائد مدح بها السلطان عند فتح البيت المقدس ٣٦١
فصل/ في صفة إقامة الجمعة بالأقصى ــ شرفه الله تعالى ــ في
رابع شعبان ثامن يوم الفتح ٣٧٦
فصل/ في إيراد ما خطب به القاضي محيي الدين رحمه الله ٣٨٤
فصل/ في المنبر الذي وضع في المسجد الأقصى ٣٩٢
فصل/ في الصخرة المقدسة وإزالة ما بني عليها ٣٩٦
فصل/ في خروج الفرنج من بيت المقدس بعد فتحه ٤٠٠
فصل/ قصائد قدسيات للحكيم أبي الفضل عبد المنعم بن
عمر الجلياني وغيره ٤٠٣
فصل/ في حصار صور وفتح هونين ٤١١
استشهاد محمود أخي عز الدين جاولي في عفربلا ٤١٤
فصل/ في ورود رسل التهاني من الآفاق وقدوم الرسول
العاتب من العراق......................... ٤١٥
وصول أبي بكر حامد أخي العماد الكاتب من دار الخلافة
برسالة عتب إلى السلطان لإرساله البشارة في فتح البيت
المقدس مع جندي خامل ٤١٧
فصل/ في باقي حوادث سنة ثلاث وثمانين
مقتل شمس الدين بن المقدم في عرفة ٤٢٣
وفاة الشاعر أبي الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله
سبط ابن التعاويذي........................ ٤٢٦
وفاة الفقيه الحنبلي أبي الفتح نصر بن فتيان بن مطر
المعروف بابن المني ٤٢٦

كتاب الرّوضتين
في
أخبار الدّولتين
النّوريّة والصّلاحيّة

تأليف

شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الدمشقي
المعروف بأبي شامة
(٥٩٩ - ٦٦٥ هـ)

حقّقه وعلّق عليه

إبراهيم الزّيبق

الجزء الرّابع

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الروضتين

في

أخبار الدولتين

النورية والصلاحية

٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

مؤسسة الرسالة
للطباعة والنشر والتوزيع

وطى المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
مبنى المسكن
تلفاكس: (٩٦١١)
٨١٥١١٢ - ٣١٩٠٣٩ - ٦٠٣٢٤٣
ص.ب: ١١٧٤٦٠
برقياً: بيوشران
بيروت - لبنان

Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT
LEBANON
Telefax: (9611)
815112-319039-603243
P.O.Box: 117460
E-mail:
Resalah@cyberia.net.lb
Web Location:
Http://www.resalah.com

حقوق الطبع محفوظة ©١٩٩٧م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكّن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

ثُمَّ دخلت سنةُ أربعٍ وثمانين [وخمس مئة][1]

قال العماد: فخرج السُّلْطان من عكّا، فَنَزَلَ على كَوْكَب* في العَشْر الأَوْسط من المُحَرَّم، فحاصرها وصابرها أيّاماً، فلم يتمكَّن منها لِمَنَعَتِها وحَصَانتها، ورآها تحتاجُ إلى طُولِ مصابرةٍ ومرابطة، ولم يكن معه جميعُ أمرائه وأوليائه، وإنَّما كان في خَواصِّه، فوكَّل بها قايماز النَّجْمي[2]، ووكل بصفد طُغْرُلْ الجانْدَار*، كلُّ واحدٍ منهما في خمسِ مئة، وسَيَّر إلى الكَرَك* والشَّوْبَك* سعد الدين كُمَشْبَة[3] الأَسَدِي، وكانت هذه الحُصُون الأربعة ضَيِّقَةَ المَسْلَك صعبةَ المَدْرَك.

قال: ثم إنَّ السُّلْطان اشتغل بلقاء الرُّسُل الواصلين، من جُمْلتهم رسول صاحب آمِد* قُطْب الدين سُكْمان بن نور الدين محمد بن قرا أرسلان، وكانوا خائفين على آمِد أن يسترجعها منهم السُّلْطان، لأنها كانت لهم من مواهبه كما سبق[4]، فاستوثقوا

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) انظر ترجمته ص ٤٦٤ من هذا الجزء.

(٣) الضبط من (ك).

(٤) انظر ص ١٤٧ من الجزء الثالث.

بالوُصْلة بإحدى بنات العادل، وكان العادِلُ قد وَكَّل أخاه السُّلْطان في ذلك لمَّا سار إلى مِصْر، وقَدِمَ رسولُهم في ذلك، فتمَّت الوُصْلَة بينهما.

قال: وأول من وَصَل والسُّلْطان بكَوْكَب* اختيار الدِّين حسن بن غفراس مدبِّر دولة قَلِيج أرسلان بالرُّوم، وكان هذا الرَّسول مغرًى بلبس الحُلِيِّ والدِّيباج والوَشْي، وفي يديه زنود وخواتيمُ مُرَصَّعَةٌ بزينةٍ ثقيلة؛ بجواهر ويواقيت ثمينة، وفي عُقودها دُرَّةٌ يتيمة، وفي يده عمودٌ من العَسْجَد، وكلُّ عِدَّته تِبْرُها مُجَوْهر، وكان إذا شاهده السُّلْطان تَبَسَّم، وعامله بخُلُقه وقال: هذا سافَرَ بنُضَارِهِ ليُنْظَرَ، وبديناره لِيُبْصَرَ.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: لما دخلتْ سنةُ أربعٍ وثمانين رأى السُّلْطان الاشتغال بأَخْذِ هذه الحصون الباقية لهم[1]، مما يُضْعِفُ قلوبَ مَنْ في صور ويهي أمرها به[2]، فاشتغل بذلك، ونزل ـ رحمه الله ـ على كَوْكَب في أوائل المحرَّم.

وكان سببُ بداءته بكوكب أنه كان قد جعل حَوْلَها جماعةً يحفظونها من أن تدخل إليهم قوةٌ أو جماعة، فخرج الفرنج ليلاً وأخذوا غِرَّتهم، وكبسوهم بعَفْرَبَلا*، وقتلوا مقدَّمهم، وكان من الأمراء يُعْرَفُ بسيف الدين أخي جاولي، وأخذوا أسلحتهم[3]. فسار

(١) في (ك): الباقية التي لهم.
(٢) في الأصل: ويهي بأمرها. والمثبت من (ك).
(٣) انظر ص ٤١٣ ـ ٤١٤ من الجزء الثالث.

ـ رحمه الله ـ من عَكّا، ونزل عليها بمن كان بقي معه من خواصّه بعَكا، فإنه كان قد أعطى العساكر دستوراً، ولقي في طريقه شِدَّةً من الثَّلج والبَرَد، فحملتِ السُّلْطان مع ذلك الحَمِيَّةُ على النزول عليها، وأقام يُقاتِلُها مُدَّة.

قال: وفي تلك المنزلة وصلتُ إلى خدمته؛ فإني كنتُ قد حججتُ سنةَ ثلاثٍ وثمانين، وكانت وقعة ابن المُقَدَّم[1]، وجُرِحَ يوم عرفة على عرفة لِخُلْفٍ جرىٰ بينه وبين أمير الحاج طاشْتِكِين على ضَرْب الكُوس* والدَّبْدَبة، فإنَّ أمير الحاجِّ نهاه عن ذلك، فلم ينته ابنُ المقدَّم، وكان من أكبر أمراء الشَّام، وكان كثيرَ الخير، كثير الغَزَاة، فقدَّر الله أنَّه جُرِحَ بعرفة يوم عرفة، ثم حُمِلَ إلى مِنًى مجروحاً، فمات بمِنى يوم الخميس يوم عيد الله الأكبر، وصُلِّي عليه في مسجد الخَيْف في بقية ذلك اليوم، ودُفِنَ بالمَعْلىٰ، وهذا من أَتَمِّ السَّعادات. وبلغ ذلك السُّلْطان قَدَّس الله روحه، فَشَقَّ عليه.

قال: ثم اتفق لي العَوْدُ من الحَجِّ على الشَّام لقَصْدِ القُدْس وزيارته، والجمع بين زيارة النبيِّ ﷺ وزيارة أبيه إبراهيم عليه الصَّلاة والسَّلام، فوصلتُ إلى دمشق، ثم خرجت إلى القُدْس، فبلغه خَبَرُ وصولي، فظنَّ أني وصلتُ من جانب المَوْصِل في حديثٍ، فاستحضرني عنده، وبالغَ في الإكرام والاحترام، ولما وَدَّعْتُه ذاهباً إلى القُدْس خَرَجَ إليَّ بعضُ خَوَاصِّه، وأبلغني تقدُّمه إليَّ بأن أعود أَمْثُلُ في خدمته عند العَوْدِ من القدس، فظننت أنه يوصيني بمهمٍّ إلى

---

(١) انظر ص ٤٢٣ وما بعدها من الجزء الثالث.

المَوْصِل، وانصرفتُ إلى القدس الشَّريف يوم رحيله عن كَوْكَب*، ورحل ـ رحمه الله ـ لأنَّه عَلِمَ أن هذا الحِصْنَ لا يؤخذُ إلاّ بجمع العساكر عليه، وكان حِصْناً قوياً، وفيه رجالٌ شِدَادٌ من بقايا السَّيْف ومِيْرَةٌ عظيمة، فرحل إلى دمشق، وكان دخولُه إليها في سادس ربيع الأَوَّل، وفي ذلك اليوم اتَّفق دخولي إلى دمشق عائداً من القُدْس، فأقام ـ رحمه الله ـ في دمشق خمسةَ أيام، وكان له [غائباً][1] عنها ستة عَشَرَ شهراً[2].

قال: وفي اليوم الخامس بلغه خَبَرُ الفرنج أنهم قصدوا جُبَيْل* واغتالوها، فخرج منزعجاً ساعةَ بلوغ الخبر، وكان قد سَيَّرَ إلى العساكر يستدعيها من سائر الجوانب، وسار يَطْلُبُ جُبَيْل، فلما عرف الفرنجُ بخروجه كَفُّوا عن ذلك. وكان بلغه وصولُ عماد الدين وعسكر المَوْصِل ومُظَفَّر الدين إلى حلب قاصدين الخِدْمة للغَزَاة، فسار نحو حِصْن الأكراد* في طلب السَّاحل الفوقاني.

ولما كان مستهلّ ربيع الآخر[3] نَزَل[4] على تَلِّ قُبَالة حِصْن الأكراد، ثم سَيَّر إلى الملك الظَّاهر ولدِهِ والملك المُظَفَّر بأن يجتمعا وينزلا بتِيزين* قُبَالةَ أنطاكية لِحِفْظِ ذلك الجانب، ففعلا. وسارت عساكرُ الشَّرْق حتى اجتمعتْ بخدمة السُّلْطان في هذه المنزلة،

---

(١) ما بين حاصرتين ليس في النسخ الخطية، والمثبت من «النوادر السلطانية» وطبعة وادي النيل من «الروضتين» ٢/ ١٢٤.
(٢) في الأصل: أربعة عشر شهراً، والمثبت من (ك) و(ب) و«النوادر».
(٣) في (ك): الأول، وهو وهم.
(٤) في الأصل: نزله، والمثبت من (ك) و(ب).

ووصلتُ إليه ـ رحمه الله ـ في هذه المنزلة، فإنَّه كان قد سَيَّر إليَّ إلى دمشق يقول: تَلْحَقُنا نحو حِمْص. فخرجتُ على عَزْمِ المسير إلى المَوْصِل متجهِّزاً لذلك، فوصلتُ إليه امتثالاً لأمره، فلما حَضَرْتُ عنده فَرِحَ بي وأكرمني.

وكنتُ قد جمعتُ له كتاباً في الجهاد بدمشق مُدَّة مقامي فيها يجمعُ[1] آدابَهُ وأحكامه، فقدَّمْتُه بين يديه، فأعجبه، وكان يلازم ١٢٥/٢
مطالعته، وما زلتُ أطلبُ دستوراً في كلِّ وقت، وهو يُدَافعني عن ذلك، ويستدعيني للحضور في خدمته في كلِّ وقت، ويَبْلُغني على ألسنة الحاضرين ثناؤه عليَّ وذِكْره إياي بالجميل، فأقام في منزلته تلك شهر ربيع الآخر أجمع، وصَعِدَ في أثنائه إلى حِصْن الأكراد، وحاصره يوماً يَجُسُّه [به][2]، فما رأى الوقتَ يحتمل حِصارَهُ، واجتمعتِ العساكر من الجوانب.

وأغار على بلد طرابُلُس في هذا الشَّهْر دُفْعتين، ودخل البلاد مُغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر، وتقويةً للعساكر بالغنائم، ثم نادى في النَّاس في أواخر الشَّهْر: إنا داخلون إلى السَّاحل، وهو قليل الأَزْواد، وهو مُحيطٌ بنا في بلاده من سائر الجوانب، فاحملوا زادَ شَهْرٍ.

ثم سَيَّر إليّ مع الفقيه عيسى، وكشَفَ لي أنه ليس في عَزْمه أن يمكِّنني من العَوْد إلى بلادي. وكان الله تعالى قد أَوْقَعَ في قلبي

(١) في (ك): بجميع.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

محبَّته منذ رأيته وحُبَّ الجهاد، فأجبتُهُ إلى ذلك، وخدمتُه من تاريخ مستهل جُمادى الأُولى وهو يوم دخوله السَّاحل الأعلى، وجميع ما حَكَيْتُهُ من قَبْلُ إنما هو روايتي عمّن أثق به ممن شاهدوه، ومن هذا التَّاريخ ما أُسَطِّر إلا ما شاهَدْتُهُ أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العِيان، والله الموفِّق[1].

فصـــل

قال العماد: وكان جماعةٌ من أهل الحَزْم وأولي العَزْم قد أشاروا على السُّلْطان لما فتح عَكّا بتخريبها وتعفية آثارها، وأن يبقى المرابطون المحامون مكانها، فلا نأمن عَوْدَ الفرنج إليها وتملُّكها، وأن تُبْنىٰ قلعة القَيْمون*. فكاد يجيبُ، فقيل له: هذه مدينة كبيرة، وعِمارةٌ كثيرة. فأشير عليه بتبقيتها، وأن تُعَمَّر وتُحصَّن. فولّىٰ أمر عمارتها وتدبيرها الأمير بهاء الدِّين قَراقُوش[2]؛ وهو الذي أدار السُّور على مِصْر والقاهرة، فاستدعاه من مِصْر، وأمره أن يستنيب في تلك العِمارة، فَقَدِمَ عليه وهو بكَوْكَب*، ففوَّضَ إليه عمارة عكا، فشرع في تجديد سُورها، وتعلية أبراجها، وكان قدم من مصر ومعه أسارىٰ العَمَلِ وأنفاره، وآلاته ودوابّه وأبقاره[3].

قال: ولما رَتَّب السُّلْطان الأمور على كوكب رحل مستهل ربيع الأول، ودخل دمشق في سادسه، وكان العَسْكَرُ الغائب على

(١) «النوادر السلطانية»: ٨٤ ـ ٨٧.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من الجزء الثاني.
(٣) انظر «الفتح القسي»: ٢٠٨ ـ ٢١٠.

مواعدةِ[1] المعاودة في الرَّبيع، وأنه يجتمع على حِمْص بالجميع، وكانت طريق السُّلْطان على بحيرة طبرية من شَرْقيِّها، وتجنَّب عَقَبَةَ فِيْق[2] لاستصعاب رُقِيِّها، ولما قارب السُّلْطانُ دمشقَ تلقَّاه النَّاس أحسنَ لقاءٍ، فقد كانوا متعطِّشين إلى رؤيته، ومتشوِّقين إلى طَلْعته، لأنه غاب عنهم سنةً وشهرين وخمسة أيام، فكسَرَ فيها الكُفرَ ونَصرَ الإسلام، وفتحَ فيها الأرضَ المقدَّسة وأشباهَها من البلاد التي كانت بأَوْضار الكُفر نَجِسة، فأصبحت بالإيمان مُؤَسَّسة.

فلما استقرَّ قَرَارُه أمر بإنشاء الكُتُبِ لاستدعاء الأجناد من الجهات للجهاد من سائر البلاد، وابتدأ بالجلوس في دار العَدْل* وبحضرته القُضَاة والعلماء من أهل الفَضْل[3].

قال: وكان السُّلْطان قد ولَّى دمشق بدر الدين مودوداً المعروف بالشُّحْنة، وهو أخو عِزِّ الدين فَرُّخْشاه لأُمِّه، وفوَّض إليه في هذه الأيام ولايةَ الدِّيوان، وكان مع الصَّفي بنِ القابض[4]، فبقيت معه الخِزانة وحدها، وكان الصَّفي قد بنىٰ للسُّلْطان داراً مُطِلَّةً على الشَّرَفين بالقَلْعة، وأنفق عليها أموالاً كثيرة، وبالغ في تحبيرها وتحسينها، وظَنَّ أنها تقع من السُّلْطان بمكان، فما أعارها طَرْفاً،

---

(١) في الأصل: معاودة، والمثبت من(ك) و(ب).

(٢) عقبة فيق: ينحدر منها إلى غور الأردن، ومنها يشرف على طبرية وبحيرتها. انظر «معجم البلدان»: ٤/ ٢٨٦.

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٢١٤.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٤٦ من الجزء الثالث.

ولا استحسنها، وكانت من جُمْلة ذنوبه عند السُّلْطان التي أوجبت عَزْلَه عن الدِّيوان. وقال: ما يصنع بالدَّار من يتوقع الموت، وما خُلقنا إلا للعبادة، والسَّعي للسَّعادة، وما جئنا دمشق لنقيم، وما نروم أن لا نَرِيم[١].

قال: ثم هَمَّ بالغَزَاة، فبدأ بزيارة القاضي الفاضل، وكان مقيماً بجَوْسق* ابنِ الفَرَّاش[٢] بالشَّرَف الأعلى* في بُسْتانه، فاستضاء برأيه فيما يريد فِعْلَه، وكان لا يأتي أمراً إلا من بابه، فأقام عنده إلى الظُّهر، ثم وَدَّعه ورحل[٣].

قلتُ: وما أحسن ما قال ابنُ الذَّرَوِي[٤] في الآراء الفاضلية من قصيدةٍ مَدَحه بها:

لرأيكَ هذا النَّصْرُ للدِّين يَنْتمي ... فلا ينتحلْه كلُّ عَضْبٍ[٥] ولَهْذَمِ[٦]
وإنْ كانَ فيه للأَسِنَّةِ والظُّبَىٰ ... مساعدةٌ فالفَضْلُ للمتقدِّمِ
تُشيرُ على الإسلام منك فِرَاسةٌ ... لها حَزْمُ طِبٍّ واحترازُ مُنَجِّمِ
وتحميه ألفاظٌ لديك كأنَّها ... قواطعُ بُتْرٍ أو نوافذُ أَسْهُمِ
ألا حَبَّذا فَتْحٌ نَشَرْتَ لواءه ... وقُلْتَ لخيلِ الله يا خَيْلُ أَقْدِمي
وقمتَ وقد نامَ الأنامُ مناجياً ... لمولايَ نَجِّ المسلمين وسَلِّمِ

---

(١) لا نَرِيم: أي: لا نبرح. انظر «اللسان»، وانظر «الفتح القسي»: ٢١٥ ـ ٢١٦.
(٢) سترد ترجمته ص ٣٤٧ من هذا الجزء.
(٣) انظر «الفتح القسي»: ٢١٧ ـ ٢١٨.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٠١ من الجزء الثالث.
(٥) العضب: السيف القاطع. «معجم متن اللغة» ٤/١٢٧.
(٦) اللهذم: القاطع من الأسنة. «معجم متن اللغة»: ٥/٢١٦.

فصـــل

في دخول السُّلْطان ــ رحمه الله ــ السَّاحل الآخر وفتح ما يَسَّرَه الله تعالىٰ من بلاده

قال العماد: ثم رحل السلطان فسلك في جبل يَبُوس* إلى عين الجَرّ* إلى الدَّلْهَمِيَّة على البِقاع وأتى بَعْلَبَكَّ، وخَيَّم بمرج عدُّوسة، ثم رحل على سَمْتِ اللَّبْوة، ثـم أتى الزَّرَّاعة، ووصل الخبر بوصول ١٢٦/٢
عماد الدين صاحب سِنجار* في جموعه وجنوده ونزوله على قَدَس* من عمل حمص على نهر العاصي، ولما تراءىٰ موكبه لموكب السُّلْطان تقابل القَمَران، ثم تقارن[1] النَّيِّران، واجتمع السَّعْدان، وسَعِدَ الجمعان، فخيم السلطان عند مخيَّمه، وسأل أن يزوره السلطان بموكبه، فأجاب دعوته، ثم رَتَّب السلطانُ يوماً لحضوره عنده، وتهاديا وتصافيا.

وكان أيام المِشْمِش وقد وصل من دمشق، فأفرح قدومُهُ، وطَلَعَتْ في أبراج الأطباقِ نجومُهُ، كأَنَّها كُرَات من التِّبْر مَصُوغة، أو بالوَرْسِ[2] مصبوغة، صُفْر كأنها ثمر[3] الرَّايات النَّاصرية حلا منظراً وذَوْقاً، ولو نُظِمَ جَوْهَرُه لكان طَوْقاً، كأنما خُرِطَ من الصَّنْدل[4]، وخُلِطَ بالمَنْدَل[5]، وجُمِّدَ من الثَّلْج والعَسَل.

---

(١) في الأصل: وتقارن، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: وبالورس، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في (ك) و(ب): ثمار.

(٤) الصندل: خشب طيب الريح. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٠٠.

(٥) المندل: عود الطيب الذي يتبخر به. «اللسان» (ندل).

وتصاحب هو والسُّلْطان في الرُّكوب والجلوس، والتَّناجي بما في النُّفوس، وتكرَّرَتِ المشاورة في الموضع الذي يبتدأ بقَصْدِهِ، واتفقوا على عِرْقا* وعقرها، والنُّزول بعُقْرها، وأنها إذا مُلِكَت مُلِكت طرابُلُس. فأقاموا بقَدَس* إلى آخر الشَّهر، حتى اجتمعت الجموع، ووصلت قبائل العُرْبان، ثم سار السُّلْطان أول ربيع الآخر، وخَيَّمَ بِقُرْب حِصْن الأكراد* على البقيعة، ثم شَنَّ الإغارة على نواحي الحِصْن وصافيثا* والعُرَيمة* وتلك الحصون، فاستخرج ما فيها من المخزون، وفتح حصن يحمور*، وسامهُ الدُّمُور[1]، ولم تَزَل الإغارات والغنائم وهم في تلك المنزلة إلى آخر الشَّهر، فوصل قاضي جَبَلَة* منصور بن نبيل وجماعة معه، فأشار على السلطان بقصدها، وتكفَّل بفَتْحها وفَتْحِ اللاذقية وتلك الحصون والمعاقل الشَّمالية.

وكانت تلك البلاد قد سَلَّمها إليه ابرنس أنطاكية، وعَوَّل عليه فيها. وقال: إن الاشتغال بطرابُلُس مع احتراسها يُذهب الزَّمان، ويفوِّت الإمكان، والمسلمون بجبَلَة مجبولون على التَّسليم، مُؤَمِّلون أن يتبدَّل شقاؤهم منك بالنعيم. فأصغىٰ السُّلْطان إلى قوله، وأصفىٰ له وِرْدَ طَوْله[2]. وكان قد وصل إليه مُقَدَّمو جبل بَهْرا[3]، فوفَّر لهم رواتبهم وأجرىٰ، فندبوا إلى أتباعهم، وكتبوا إلى أشياعهم[4].

---

(١) الدمور: الإهلاك. «القاموس المحيط» (دمر).
(٢) الطول: الفضل والغنى والسَّعَة. «اللسان» (طول).
(٣) هم الإسماعيلية، انظر «صبح الأعشىٰ»: ١٤/ ٣٥.
(٤) انظر «الفتح القسي»: ٢١٩ ـ ٢٢٨.

فصـــل
في فَتحِ أَنطَرطُوس*

قال العماد: وأَجْمَعَ السُّلْطان على دخول الساحل بتلك العساكر والجحافل، فرحل يوم الجمعة رابع جُمادى الأُولىٰ، فسرنا في آجامٍ مُؤْتَشِبة[1]، وآكام مُعْشبة، وحُزُون وسهول، وشِعَابٍ وتُلُول، حتى خرجنا إلى ساحة السَّاحل، ونزلنا بها وسرنا السَّاحِلَ السَّاحل في ثلاث مراحل، حتى وَصَلْنا أَنطَرطُوس سادس الشَّهْر، فأحدقنا بها من البحر إلى البحر، فأخلىٰ الفرنجُ البلد وما أَحوجوا إلى الحَصْرِ، واجتمعوا في بُرْجين عظيمين هما لأَنْطَرطُوس كالقَلْعتين، ونقلوا إليهما من الأموال ما قَدَرُوا عليه، فحصر مُظَفَّرُ الدين كُوكُبُري أحدَ البُرْجين حتى أنزلهم بالأمان، ثم نَقَبَهُ من أساسه، وألقاه على أُمِّ راسه، وعَجَّلَ دمارَه، وألقىٰ[2] في البحر أحجاره، وملك جميع ما فيه، وامتنع البُرْج الآخر وفيه الدَّاوِيَّة* وشَوْكَتُهم ومقدَّمهم الذي أُسر يوم حِطِّين، وأُطلق لما سَلَّم ما اشتُرِطَ عليه من البلاد، ثم اجتمع بأصحابه في هذا البُرْج وقَوَّاه بآلات الحَصْر، فامتنع فَتْحُه، فاشتغل المسلمون بتعفية البلد وإخلائه[3].

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: دخل السُّلْطان السَّاحل على تعبية لقاء

---

(١) الآجام جمع، مفردها: الأجمة: الشجر الكثير الملتف، والمؤتشبة: الملتفة. «اللسان» (أجم، نشب).

(٢) في (ك) و(ب): ورمىٰ.

(٣) في الأصل: وإخفائه، والمثبت من (ك) و(ب)، وانظر «الفتح القسي»: ٢٢٨ ـ ٢٣٠.

العدو، ورتَّبَ الأطلاب*، وسارت الميمنةُ أولاً، ومُقَدِّمها عماد الدين زَنْكي، والقَلْبُ في الوسط، والميسرة في الأخير، ومقدَّمُها مُظَفَّر الدين بن زين الدين، وسار الثَّقَل[1] في وسط العَسْكر حتى أتى المنزل، فبتنا تلك الليلة في بلد العدو، ثم رحل في صبيحة السبت، ونزل على العُرَيمة* فلم يقاتلها ولم يعرض لها، ولكن أقام عليها بقية يومه، ورحل يوم الأحد.

ووصل أَنْطَرطُوس، فوقف قُبالتها ينظر إليها، وكان في عزمه الاجتياز إلى جَبَلَة*، فاستهان بأمرها، فَسَيَّر من رَدَّ الميمنة، وأمرها بالنُّزول على جانب البحر، وأمر الميسرة بالنُّزول على البحر من الجانب الآخر، فما استتمَّ نَصْبُ الخِيَم حتى صَعِدَ النَّاسُ السُّور، وغَنِمَ العسكرُ جميع مَنْ بها وما بها، وخرج النَّاسُ والأسرى بأيديهم وأموالهم، وَتَرك الغِلْمان نَصْبَ الخِيَم واشتغلوا بالكَسْب والنَّهْب، وَوَفَىٰ بقوله ـ رحمه الله ـ فإنه كان قد عُرِضَ عليه الغداء فقال: نتغدَّى بأَنْطَرطُوس إن شاء الله تعالىٰ.

وعاد إلى خيمته فَرِحاً مسروراً، وحضرنا عنده للهناء بما جرى، ومُدَّ الطَّعامُ، وحَضَرَ النَّاس، وأكلوا على عادتهم، ورَتَّبَ على البُرْجين الباقيين الحصار، فَسَلَّم أحدهما إلى مُظَفَّر الدين، فما زال يُحاصره حتى أخربه، وأخذ[2] مَنْ كان فيه، وأمر السُّلْطانُ بإخراب سور البلد، وقَسَمَه على الأمراء، وكان البُرْج الآخر حصيناً منيعاً مبنياً

(١) في الأصل: على الثقل، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) في الأصل: وأخلا، والمثبت من (ك) و(ب).

بالحجر النَّحيت، وقد اجتمع من كان فيها من الخَيَّالة والمقاتلة فيه، وخندقه فيه الماء، وفيه جروخ* كثيرة تجرح النَّاس عن بُعْدٍ، فرأى السُّلْطانُ تأخير أمره، والاشتغال بما هو أهمُّ منه، فاشتَدَّ في خراب السُّور حتى أتى عليه، وخَرَّب البِيْعة؛ وهي بِيْعةٌ عظيمة عندهم، محجوجٌ إليها من أقطار بلادهم، وأمر بوضع النَّار في البلد، فأحرق ١٢٧/٢ جميعه، والأصواتُ مرتفعة بالتهليل والتكبير، وأقام عليها يخرِّبها إلى رابع عشر الشهر، وسار يريد جَبَلَة، وعَرَضَ له ولده الظَّاهر في أثناء طريق جبلة، ومعه العساكر التي كانت بتيزين*(١).

فصل

في فتح جَبَلَة* وغيرها

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان وصول السُّلْطان إلى جَبَلَة يوم الجمعة ثامن عشر الشهر، وما استتمَّ نزول العسكر حتى أخذ البلد، وكان فيه مسلمون مقيمون فيه، وقاضٍ يحكُمُ بينهم، وكان قد عمل على البلد فلم يمتنع، وبقيت القلعة ممتنعة، ونزل العسكر مُحدقاً بالبلد وقد دخله المسلمون، واشتغل بقتال القلعة، فقوتلت قتالاً يقيم عُذْراً لمن كان فيها، وسُلِّمت بالأمان يوم السبت تاسع عشر الشهر، وأقام عليها إلى الثالث والعشرين، وسار عنها يطلب اللاذقية(٢).

وقال العماد: بعد فتح أَنطَرطُوس* وصل إلينا رجال حماة،

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٨٧ ـ ٨٨.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٨٩.

فرحل السُّلْطان يوم الاثنين رابع عشر[1] الشهر، وَنَزل على مَرَقِيَّة* وقد أخلاها سُكّانُها، فَخَيَّمَ فيها أهلُ الإسلام، وطاب لهم فيها المقام، وكانت الطريق إلى جَبَلَة على السَّاحل ضيقةَ المسالك، صعبةَ المراحل، وهناك للفرنج الاسبتار* حِصْنٌ يقال له المَرْقَب*، مأهولٌ معمور، ولا طريق إلا تحت تَلِّهِ.

واتفق أنَّ طاغية صِقِلِّية لما شجاه ما تَمَّ على الفرنج في السَّاحل، جَهَّزَ أُسطولاً يشتمل من الشَّواني* على ستين قطعة، تحسب كلَّ واحدةٍ منها قلعة أو تَلْعة، وقَدَّم عليها طاغيةً يقال له المرغريط، فوصل وما ضَرَّ ولا نفع، فإنَّ فرنج السَّاحل ما رفعوا به رأساً، وتضجَّروا منه، وكان في عشرة آلاف رجل، يحتاجون إلى مِيْرَةٍ وكُلَفٍ كبيرة، فصار إلى صور، ثم رجع إلى طرابُلُس، وتردَّدَ في البحر وتلدَّد[2] وأَبْلَس[3]، واضطرب أشهراً، لا يَظْهَرُ له رأي، ولا يرى له مظهراً، فلما سمع بعبور عساكر المسلمين على السَّاحل إلى جَبَلَة جاء بالشَّواني، وصَفَّها على موازاة الطَّريق، ومباراة المضيق، وفيها الرُّماة، فأمر السُّلْطان بنقل الجفاتي* إلى هناك، وتصفيفها، وتكثير ستائرها، وأجلس الرُّماة من ورائها، فما زال الأمر على ذلك، والرُّماة ترمي وتَصْمِي، وعامة المسلمين في سلوك ذلك المضيق حتى خَفَّتِ الأثقال، وعبرتِ الأحمال[4]،

---

(١) في (ك): تاسع عشر، وهو خطأ.

(٢) تلدد: تلفت يميناً وشمالاً، وتحير. «اللسان» (لدد).

(٣) أبلس: تحير. «اللسان» (بلس).

(٤) في (ك): الأجمال.

وخَلَص المسلمون من ذلك الشّقّ بغير مَشَقَّة، وجازوا على مدينةٍ يقال لها بُلُنياس*، وقد انجلىٰ عنها النَّاس، فخيَّم المسلمون فيها، ثم أصبحوا على الرَّحيل، فاعترضهم نهرٌ [عريض][(١)] عميق ما فيه طريق، وهو مُطَّرِدٌ من الجبل إلى البحر، وفيه قنطرةٌ واحدة، فتنكَّبها السُّلْطان بالجحفل، ومضى يميناً إلى الجبل، وأبعد حتى عَبَرَ فوق رأس العين، واحتاطت العساكر بالنَّهْرِ من الجانبين، وتزاحمتِ الأثقالُ على القنطرة فما خلصوا تلك الليلة إلى آخرها، ونَزَلَ السُّلْطان قبل وصول الأثقال على بَلْدة*، وهي بلدة كاسمها بلدة؛ وهي بُلَيْدَة من غربيّ النَّهر وعلى شاطىء البحر، وجانباها الآخران خندق يلتقي فيه البحران، وقد أخلاها أيضاً أهلُها، وتفرَّق شملُها.

وأصبح السُّلْطان يوم الجمعة ثامن عشر جُمادى الأُولى على جَبَلَة، فتسلَّمها المسلمون في الوقت، وذلك أنَّ قاضيها كان قد سبق ودخلها، وقَرَنَ بالنُّجح للمسلمين أملها، فلما وصلوا أعلىٰ الأعلامَ النَّاصرية على سورها، وخَلَص المسلمون [بها][(٢)] من مساكنة الكَفَرَة. وتَحَصَّن الفرنج بحصنيها، واحتموا بقلعتيها، فما زال قاضي جَبَلَة يخوِّفُهم ويرغِّبهم، حتى استنزلهم بشرط أن يسترهنهم إلى أن يردُّوا من أنطاكية رهائن جَبَلَة من المسلمين، فضبط عنده جماعة من رؤوس الفرنج والمقدَّمين، حتى أعاد

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

صاحبُ أنطاكية الرَّهائن التي عنده، فَفَكَّ بها رهائنه، وتولَّىٰ قاضي جَبَلَة الأمر، فاستخرج ذخائر الكُفْر ودفائنه، واستنظفهم من كلِّ سلاح وعُدَّة، وخيل وقُوَّة.

وجاء مقدَّمو الجبل(١) سامعين مطيعين، وفي الجبل على سَمْتِ طريق حماة حِصْنٌ يعرف ببِكِسرائيل*، وكان أهلُ الجَبَل استعادوه من الفرنج منذ سنين، فتسلَّمه السُّلْطان أيضاً منهم، ثم سَلَّم جَبَلَة إلى سابق الدين عُثْمان صاحب شَيْزَر* وَبَجَّلَ قاضي جَبَلَة وشَرَّفه، وحبس عليه ملكاً نفيساً ووقَّفه، وصَرَّفه في أملاك آبائه، وحكَّمه في ولاية حُكْمه وقضائه(٢).

فصــل

في فتح اللاذقية

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وهي بلدٌ مليح، خفيفٌ على القَلْب، غير مُسَوَّرٍ، وله ميناء مشهور، وله قَلْعتان مُتَّصلتان على تَلٍّ يشرف على البلد، فنزل السُّلْطان ـ رحمة الله عليه ـ يوم الخميس الرَّابع والعشرين [من](٣) جُمادى الأُولىٰ محدقاً بالبلد، وأخذ العسكر منازلهم مستديرين على القَلْعتين من جميع نواحيها إلا من ناحية البلد، واشتدَّ القتال، وعَظُمَ الزَّحْف، وارتفعت الأصواتُ، وقَوِيَ

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٤ من هذا الجزء.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٢٣٠ ـ ٢٣٤.

(٣) في النسخ الخطية: رابع عشر، وهو خطأ، والمثبت من «النوادر»، وما بين حاصرتين زيادة من عندنا.

الضَّجيج إلى آخر النَّهار، وأُخذ البلد دون القلعتين، وغَنِمَ النَّاسُ منه غنيمةً عظيمةً، فإنَّه كان بلدَ التُّجَّار.

وفرَّق بين النَّاس الليل وهجومُهُ، وأصبح يوم الجمعة مقاتلاً مجتهداً في أَخْذِ النُّقوب من شمالي القِلاع، وتمكَّن منها النَّقْبُ حتى بلغ طوله ـ على ما حكىٰ لي مَنْ ذَرَعه ـ عشرين ذراعاً، وعرضُه أربع أذرع، فاشتدَّ الزَّحْفُ عليه حتى صَعِدَ النَّاس الجبل، وقاربوا السُّور، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بحجارة اليد، فلما رأى ١٢٨/٢ عدوُّ الله ما حَلَّ به من الصَّغَار والبوار، استغاثوا بطلب الأمان، وطلبوا قاضي جَبَلَة يدخل إليهم ليقرِّرَ لهم قاعدةَ الأمان، فأُجيبوا إلى ذلك.

وكان ـ رحمه الله ـ متى طُلِبَ منه الأمان لا يبخل به، فعادَ النَّاسُ عنهم إلى خيامهم وقد أَخَذَ منهم التَّعَب، فباتوا إلى صبيحة السبت، ودخل قاضي جَبَلَة إليهم، واستقرَّ الحالُ معهم على أنهم يُطْلَقون بأنفسهم وذراريهم ونسائهم وأموالهم خلا الغِلال والذَّخائر وآلات السِّلاح والدَّوابِّ، وأُطلق لهم دوابُّ يركبونها إلى مَأْمنهم، وَرُقِّيَ عليها العَلَمُ الإسلامي المنصور في بقية يوم السَّبْت، وأقمنا عليها يوم الأحد السَّابع والعشرين [من][1] جُمادى الأُولى[2].

وقال العماد: رحل السُّلْطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثَّالث والعشرين من جُمادى الأُولىٰ، فبات بالقُرْبِ منها، وصبحها يوم

---

(١) في النسخ الخطية: سابع عشر، وهو خطأ، والمثبت من «النوادر»، وما بين حاصرتين زيادة من عندنا.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٨٩ ـ ٩٠.

الخميس وقد لاذَ أهلُها بقلاعها، وهي ثلاثُ قلاعٍ متلاصقات، على طُول التَّلِّ متناسقات، كأنَّهنَّ على رأس راسٍ راسخ، وذِرْوَة أشمَّ شامخ، فسهَّل [الله][1] لنا فَرْعَها[2]، وشَرَعْنا نستأصِلُ أَصْلَها وفَرْعَها، فطلبوا السَّنجق* النَّاصِري، ونَصَبُوه على السُّور عشيةَ يوم الجُمُعة، فلما أصبحوا صَعِدَ إليهم قاضي جَبَلَة*، وأنزلهم بالأمان، وتُسُلِّمت تلك القلاعُ بما فيها من عُدَّةٍ وذخيرة، وأسلحة ومِيْرَةٍ، وخيلٍ ودوابّ كثيرة، وأُمِّنوا على أنفسهم وأموالهم، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم، وذُرِّيَّتهم وأطفالهم، وخفوا من أثقالهم، ودخل جماعةٌ منهم في عَقْد الذِّمَّة، وتمسَّكوا بحبل العِصْمة، وانتقل الباقون إلى أنطاكية. ثم ولَّىٰ السُّلْطانُ بها مملوكه سُنْقُر الخِلاطي، ورَكِبَ السُّلْطان إلى البلد وطافه، وهَزَّ إلى إحسانه أعطافَهُ، وأَمَّنَهُ بعدما أخافه.

قال: ورأيتُها بلدةً واسعةَ الأفنية، جامعةَ الأبنية، متناسقة المغاني، متناسبة المعاني. في كلِّ دارٍ بُسْتان، وفي كل قُطْرٍ بُنْيان، أمكنتها مُخَرَّمة، وأزقَّتها[3] مُرَخَّمة، وعقودُها مُحْكَمة، ومساكنها مُهَنْدسة مُهَنْدَمة، وسقُوفُها عالية، وقطوفُها دانية، وأسواقُها فضية، وآفاقُها مُضِيَّة، وأرجاؤها فسيحة، وأهواؤها صحيحة، لكن العسكر شَعَّث عِمارتَها، وأذهب نَضارتها، ووقع مِنْ عِدَّةٍ من الأُمراء الزِّحام على الرُّخام، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشَّام، فشوَّهوا وجوه الأماكن، ومَحَوْا سَنَا المحاسن.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) أي نزولها. «القاموس المحيط» (فرع).

(٣) في «الفتح القسي»: ٢٣٨ وأروقتها.

قال: وبظاهر اللاذقية كنيسةٌ عظيمةٌ نفيسةٌ، قديمة بأجزاء الأجزاع مُرَصَّعة، وبألوان الرُّخام مجزَّعة، وأجناس تصاويرها متنوِّعة، وأصولُ تماثيلها متفرعة، وهي متوازيةُ الزَّوايا، متوازنة البنايا، قد تُخُيِّرتْ بها أشباحُ الأشباه، وصُوِّرَتْ فيها أمواج الأمواه، وزُيِّنَتْ لإخوان الشَّيْطان، وُعُيِّنَتْ لعبدةِ الأوثان والصُّلْبان. ولما دخلها النَّاس أخرجوا رُخامها، وشوَّهوا أعلامها، وحسروا لثامها، وكسروا أجرامها، وأهدوا الأسىٰ لِهَدِّ أساسها، وأفاضوا عليها لباسَ إبلاسها، وحكموا بعد الغِنى بإفلاسها، وافتقرت وأقفرت، وخربت وتَرِبَتْ. ثم لما طابتِ النُّفوس، وتجلَّى عن البلد بفتحه البوس، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القُسوس، وهي متشوِّهة مُتَشَعِّثة، مستمسكة بأركانها وقواعدها متشبثة.

قال: ولقد كَثُرَ أسفي على تلك العِمارات كيف زالت، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت، ولكنما زاد سروري بأنها عادت للإسلام [مرابع][1]، ولشموسه مطالع، فلو بقيت بحليتها وحالتها بعدما تبدَّلت رُشْدها من ضلالتها لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت. ورَغِبَ في إعطاء الجزية سُكَّانُ البلد من النَّصارى والأرمن حُبّاً للوطن. ولما أراد السُّلْطان الرَّحيل دخل المدينة، وَرَدَّ إلى سُكَّانها السَّكينة، ودار خلال ديارها، وخَرَقَ[2] أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها*، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله علىٰ تمكينه من مِلْكها، وتخصيصه بمُلْكها.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) خَرَق: أي جاب. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٢٦٠.

وفي كتابٍ عمادي إلى سَيْف الإسلام باليمن عن السُلْطان قال: وهذه اللاذقية مدينةٌ واسعة، وخُطَّة جامعة، معاقِلُها لا تُرام، وأعلاقُها لا تُسْتام، وهي أحسنُ بلاد السَّاحل وأحصنُها، وأزيدها أعمالاً وضياعاً وأزينُها، وما في البحر مثل ميناها، ولا للمراكب الواردة إليه[1] مثل مَرْساها، وهي جَنَّةٌ كان يسكنها أهلُ الجحيم، وطالما مكثت بالكُفْرِ دار بؤس، فعادت بالإسلام دارَ نعيم.

قال: وكانت شواني* صِقِلِّية قد قابلت في البحر اللاذقية طمعاً في امتناعها، فلما خابت خَبَتْ نارُها، وقصدت لجهلها أَخْذَ مراكب[2] من يخرج من أهلها حَنَقاً عليهم، كيف سلَّموا البَلْدة، وسمحوا ببذلها، فكان ذلك مقتضياً لبقاء ساكنيها، بالجزية تؤدِّيها.

ولما وَقَفَ السُلْطان على شاطىء البحر بعساكره طلب مقدَّمَ تلك الشواني أمانَهُ، ليصعَدَ ويشاهد سلطانَهُ، فأَمَّنه، فَصَعِدَ وعَفَّر وَكَفَّر، وتروَّىٰ ساعةً وتفكَّر، وقال ما معناه: أنتَ سُلْطانٌ عظيم، وملك رحيم، وقد شاع عَدْلُك، وذاع فَضْلُك، وقَهَرَ سُلْطانُك، وظَهَرَ إحسانُك، فلو مَنَنْتَ على هذه الطَّائفة السَّاحلية الخائفة لملكت قِيادَها، إذا أعدتَ إليها بلادها، وصاروا لك
١٢٩/٢ عبيداً، وأطاعوك قريباً وبعيداً، وإلا جاءك من وراء البحار في عددِ الأمواج أفواجٌ بعد أفواج، وسار إليك ملوكُ ذوي الأقانيم من سائر الممالك والأقاليم، وهؤلاء أهون منهم، فاتركْهُمْ

---

(١) في (ك) و(ب): إليها.
(٢) في (ك) و(ب): مركب.

واصْفَحْ عنهم. فقال له السُّلْطان: قد أمرنا الله بتمهيد الأرض، ونحن قائمون في طاعته بالفَرْض، وعلينا الاجتهاد في الجهاد، وهو الذي يُقَدِّرنا على فَتْح البلاد، ولو اجتمع أهلُ الأرض ذات الطُّول والعَرْض، لتوكلنا على الله في اللِّقاء، ولم نبال بأعداد الأعداء. فَصَلَّب على وَجْهه، وركب بكَرْبه، ولم يُغْنِ خِطابُهُ عن خَطْبه[١].

فصـــل

في فتح صِهْيَوْن* وغيرها

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: رحل السُّلْطان عن اللاذقية ظهيرةَ الأحد السَّابع والعشرين من جُمادى الأُولى طالِبَ صِهْيَوْن، فنزل عليها يوم الثلاثاء التاسع والعشرين، فاستدار العسكر بها من جميع نواحيها بُكْرَة الأربعاء، ونَصَبَ عليها ستة مناجيق*، وهي قلعةٌ حصينةٌ منيعة في طَرَفِ جبلٍ، خنادِقُها أودية هائلة، واسعة عميقة، وليس لها خندق محفور إلا من جانبٍ واحد، مقدارُ طُوله سِتُّون ذراعاً، ولا يبلغ، وهو نقرٌ في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سوران دون رَبَضها، وسور دون القُلَّة[٢]، وسور القُلَّة، وكان على قُلَّتها عَلَمٌ طويل منصوب، فحين أقبل العَسْكر الإسلاميُّ شاهدته وقد وقع، فاستبشر بذلك المسلمون، وعلموا أنَّه النَّصْر والفَتْح، واشتَدَّ القتالُ عليها من

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٢٣٥ ـ ٢٤٠.

(٢) القلة: أعلى القلعة، قلة كل شيء أعلاه، انظر «معجم متن اللغة» ٤/ ٦٣٩.

سائر الجوانب، فضربها مَنجنيق* ولده الملك الظَّاهر، وكان نَصَبَه قُبالة قُرَينة[1] من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعةً جيدة عظيمة تمكِّن الصَّاعد في السور من التَّرَقِّي إليه منها.

ولما كان يوم الجمعة ثاني جُمادى الآخرة عَزَمَ السُّلْطان على الزَّحْف، وركب وتقدَّم، وتواترت المنجنيقات بالضَّرْب، وارتفعت الأصوات، وعَظُمَ الضَّجيج بالتكبير والتَّهليل، وما كان إلا ساعة حتى رَقِيَ المسلمون على أسوار الرَّبَض، واشتدَّ الزحف، وعَظُمَ الأمر، وهجم المسلمون الرَّبَض.

ولقد كنتُ أشاهد النَّاسَ وهم يأخذون القِدْر، وقد استوى فيها الطَّعام، فيأكلونها، وهم يقاتلون القلعة، وانضمَّ مَنْ كان في الرَّبض إلى القلعة بما أمكنهم أن يحملوه من أموالهم، ونُهِبَ الباقي، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة، فلما عاينوا الهلاك، استغاثوا بطلب الأمان، فأمَّنهم السُّلْطان على أن يَسْلَموا بأنفسهم وأموالهم، ويؤخذ من الرَّجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن الصغير ديناران، فَسُلِّمت القلعة، وأقام السلطان حتى تسلَّم عِدَّة قلاع كالعِيْذُو*، وبلاطُنُس* وغيرهما من القلاع والحصون، فتسَلَّمها النُّوَّاب، فإنها كانت تتعلق بصِهْيَوْن[2].

وقال العماد: كان الطَّريق إلى صِهْيَون في أودية وشعاب،

---

(١) قرينة: تصغير قُرْنة، وهي الزاوية. انظر «القاموس المحيط» (قرن).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٩٠ ـ ٩١.

ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وأنجاد وأغوار، فقطعنا تلك الطريق[1] في يومين، ووصَلْنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيَّمنا على صِهْيَوْن يوم الثلاثاء، وهي قلعةٌ على ذِرْوة جبل بين واديين عميقين يلتقيان عليها، ويدوران حواليها، والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق، وسور وثيق ما إليه سوى للقضاء والقدر من طريق، والقلعة ذاتُ أسوارٍ خمسة كأنَّها خمسُ هضاب، ممتلئة بذئاب سِغاب[2]، وأسْدٍ غِضَاب. وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع، وهي ممتنعةٌ علينا بالرُّكْن الأمنع، والسُّمو الأمتع.

ونقل السُّلْطانُ خيمته إلى جانب الجبل، وأقام الملك الظاهر غازي صاحب حلب منجنيقين، ونَهَجَ بهما من جانب الوادي إلى ردىٰ[3] الأعادي طريقين، وكان له في فَتْحِ هذه القلعة الجَدُّ العالي والجِدُّ الوالي، فإنه اتَّصل بنا قبل الوصول إلى جَبَلَة* من طريق حماة، وقد استصحب الكُماة الحُماة، ومعه الرِّجال الحلبية، والمنجنيقية* والجرخية*، والجانْدَارية* والخراسانية*، واستصحب الحدَّادين والحَجَّارين والنَّجَّارين، فأظهر على صِهْيَوْن اليد البيضاء، وأنار في فضاء الفضائل وأضاء، وكان نازلاً على جانب الوادي مقابل الحِصْن، وشرع الجدار في الانقضاض، وأصبحنا يوم الخميس وللجلاميد وقوع، وللسُّور سجود وركوع، وما زالت المجانيق من جانبه وجانبنا تَرْمي، والحنايا بسهام المنايا تَصْمي،

---

(١) في (ك): الطرق.
(٢) سغاب: جياع. «اللسان» (سغب).
(٣) في الأصل: رد، والمثبت من (ك).

حتى قُتِلَ وجُرِحَ أكثر مقاتلة الحِصْن، وهان بما دَبَّ فيه من الوَهْن.

وأصبحنا يوم الجمعة ثاني جُمادى الآخرة، وبَحْرُ الحَرْب في أمواجه الزَّاخرة، وتطرَّق أصحابنا من قُرْنَةٍ[1] خفيت عليهم من الخندق، لم تُحْكَم عِمارَتُها كأنَّ الله أعماهم عنها، حتى يَسْلُك الحَتْف إليهم منها؛ فتعلَّقوا في الصُّخور، وتَسلقوا السور[2]، وملكوا عليهم ثلاثة أسوار، واحتووا على كلِّ ما فيها من ذخائر وغلال، ودوابّ وأبقار، وازدحم الفرنج في القُلَّة[3]، وتفادَوْا من الخوف لا من القِلَّة، وصاحوا: الأمان، وبذلوا الإذعان، ونادوا مكنوناً من السَّلامة، وتسلَّموا المكان.

فما أُمِّنوا على المال والنفس حتى قَرَّرْنا عليهم مثل قطيعة القُدْس، وأُغلقت دونهم الأبواب، وسُيِّرَتْ إليهم النُّوَّاب، وما استَقَرَّ خروجهم حتى استُخْرِجَ القرار، وجُبي الدِّرْهم والدِّينار، وعَمَّ الصَّغارُ الكبارَ والصِّغار، وتولَّى ذلك شجاع الدين طُغْرُل الجانْدَار، ثم سُلِّم
٢/١٣٠ حِصْن صِهْيَوْن بجميع أعماله، وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين منكورس بن خُمارْتِكِين صاحب بوقُبَيْس*، فأحكمه وحَصَّنه، وحَفِظه وحَسَّنه، وتسلم يوم السبت قلعة العِيْذو*، ويوم الأحد قلعة الجماهريين، ويوم الاثنين حِصْن بلاطُنُس*، ونَدَبَ إلى كل حصن مَنْ تَسَلَّمه، وسَلَكَهُ في سِلْك الفتوح ونَظَمَهُ.

قال: وبفتح صهيون حَصَلَ الأمن على اللاذقية، وقوي الأمل

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٦ من هذا الجزء.
(٢) في الأصل: فتعلقوا في السور، وتسلقوا في الصخور، والمثبت من (ك).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٥ من هذا الجزء.

في فَتْحِ أنطاكية، فإنه قُفْل مُحْكَمٌ على بابها، وسببٌ قويٌّ من أسبابها، فَفُتِحَ الرِّتاج، وَوَضَحَ المِنْهاج[1].

فصـــل

في فَتْحِ بَكَاس والشُّغْر وسُرْمانِيَّة

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم رحل السُّلْطان، وسرنا حتى أتينا بَكَاس* وهي قلعةٌ حصينة على جانبِ العاصي، ولها نَهَرٌ يخرج من تحتها، وكان النُّزول بذلك المنزل على شاطىء العاصي يوم الثُّلاثاء سادس جُمادَىٰ الآخرة، وصَعِدَ السُّلْطان جريدةً إلى القلعة، وهي علىٰ جبلٍ مُطِلٍّ على العاصي، فأحدق بها من كلِّ جانب، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات والزَّحف المضايق إلى يوم الجمعة أيضاً تاسع جُمادى الآخرة، ويَسَّرَ الله فتحها عَنْوَةً، وأُسر من فيها بعد قَتْلِ من قُتِلَ منهم، وغُنِمَ جميع ما كان فيها، وكان لها قُلَيْعَةٌ تسمَّى الشُّغْر* قريبة منها، يُعْبَرُ إليها منها بجسر، وهي في غاية المَنَعَة، ليس إليها طريق، فَسُلِّطت عليها المنجنيقات من الجوانب، ورأَوْا أنهم لا ناصِرَ لهم، فطلبوا الأمان، وذلك في يوم الثُّلاثاء ثالث عشره، وسألوا أن يؤخَّروا ثلاثة أيام لاستئذان مَنْ بأنطاكية، يَسَّرَ الله فتحها، فأُذِنَ في ذلك، وكان تمامُ فتحها وصعود العلم السُّلْطاني على قُلَّتها[2] يوم الجمعة سادس عشره.

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٢٤١ ـ ٢٤٤.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٥ من هذا الجزء.

ثم عاد السلطان إلى الثَّقَل، وسَيَّر ولده الظَّاهر إلى قلعةٍ تسمى السُّرْمانية* يوم السبت سابع عشره، فقاتلها قتالاً شديداً، وضايقها مضايقةً عظيمة، وتسلَّمها أيضاً يوم الجمعة ثالث عشري الشهر المذكور.

قال: فاتَّفق فتوحات السَّاحل من جَبَلَة* إلى سُرْمانِيَّة في أيام الجُمَع، وهي علامة قَبُولِ دعاء خُطباء المسلمين، وسعادة السلطان، حيث يَسَّر الله له الفتوح في اليوم الذي يُضاعف فيه ثوابُ الحسنات.

قال: وهذا من نوادر الفتوحات في الجمع المتوالية، لم يتَّفق مثلها في تاريخ[1].

وقال العماد: سار السُّلْطان ثاني يوم فَتْحِ صِهْيَوْن على سَمْتِ القُرَشِيَّة*، ونزل على العاصي في طاعة الله على تَلِّ كَشْفَهان*، فتسلَّم حِصْن بَكَاس يوم الجمعة تاسع الشهر، وحَوَّلَ خيمةً خفيفةً إلى الجبل لحصار قلعة الشُّغْر*، وهي قُلَّةٌ شامخة من أعلى القُلَل مُطِلَّة على وادٍ عميق، وكان الكُفَّار قد أَخْلَوْا بكَاس* من الرُّعْب، واحتموا بقلعة الشُّغْر*، وهي عالية حصينةٌ منيعة لا تصل المجانيق إليها، فاستصعب السُّلْطانُ أَخْذها، وخاف من طُول أمرها، فبينما هو مفكِّرٌ في ذلك والفرنج قد داخلهم الرُّعْب، فأرسلوا في طلب الأمان، واستمهلوا ثلاثة أيام، فكَبَّر المسلمون وفرحوا، وأصبحوا يوم الجمعة والشُّغْر شاغر، والكُفْر صَاغر، فتسلَّمها المسلمون، وتصرَّفوا فيها وفيما تحويه من ذخائر وعُدَد ودواب وأنعام، وأَنْعَمَ

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٩١ ـ ٩٢.

السُلْطان بها وبقلعة[1] بكاس، وتلك الأعمال على غرس الدِّين قَليج، وكان هذا قليج قد تَسَلَّم كَفردُبِّين*، وهو مَعْقل حصين يسكنه الأرمن في ذلك الصُّقْع، وبُذِلَ في استخلاصه غاية الوسع، فولاَّه السلطانُ تلك الحصون، وحاط بإيالته أمرها المصون، وعاد إلى مُخَيَّمه يوم السبت، وهو حَسَنُ السَّمْت، كريم النَّعْت.

قال: وكان الملك الظَّاهر عند اشتغالنا بفتح قلعة الشُّغْر، قد نزل على سُرْمانِيَّة مضايقاً لها بالحَصْر، فتسلَّمها يوم الجمعة ثالث عشري الشَّهْر، وذلك بعد قطيعةٍ قَرَّرها وقبضها، ولما أخرجهم منها دخلها، فأبطل عِمارتها وعطَّلها، وهَدَمَ بُنْيانها وهَدَّ أركانها، وما بَرِحَ حتى سَوَّاها بالأرض، وخلط طولَها بالعَرْض.

قال: وهذه ستُّ مُدُنٍ وقلاع، فُتِحَتْ في ستّ جُمَع تِبَاعٍ: جَبَلَة، واللاَّذقية، وصِهْيَوْن، وبَكاس، والشُّغْر، وسُرْمانِيَّة، وأطلق بها الأنفس والنَّفائس العانية، فقد كان في هذه المعاقل من أُسارى المسلمين عِدَّة، لولا فَتْحها لما زالت عنهم تلك الشِّدَّة، وهذا أقليم جَبَلَة واللاذقية هو عين أنطاكية التي فُقِئت، ونحرها الذي عنه حُلِئَتْ[2]، ولم يبق لأنطاكية من الحصون سوى ثلاثة: القُصير وبَغْرَاس* ودَرْبَسَاك، وقد أصبحت معدومة الأطراف، قد قُطِعَتْ أيديها وأرجُلها من خِلاف[3].

---

(١) في الأصل: قلعة، والمثبت من (ك).

(٢) حلئت: أي طردت ومنعت. انظر «القاموس المحيط» (حلأ).

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٢٤٥ ـ ٢٤٧.

فصــل

في فَتْحِ حِصْن بُرْزَيَه[1]

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار السُّلْطان جريدةً إلى قلعة بُرْزيه*، وهي قلعةٌ حصينةٌ في غاية القُوَّة والمَنَعَة على متن[2] جَبَلٍ شاهق يُضْرَب بها المَثَلُ في جميعِ بلاد الفرنج والمسلمين، يحيط بها أوديةٌ من سائر جوانبها، وذُرِعَ عُلُوُّ قُلَّتها[3] فكان خمس مئة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً، ثم حَرَّرَ عَزْمَه على حصارها بعد رؤيتها، واستدعى الثَّقَل، فنزل تحت جَبَلها.

وفي بُكْرة الأحد الخامس والعشرين من جُمادىٰ الآخرة صَعِدَ السُّلْطان جريدةً مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها، وركَّبَ القتال عليها من كلِّ جانب، وضَرَبَ أسوارها بالمنجنيقات المتواترةِ الضَّرْب ليلاً ونهاراً، ١٣١/٢ وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين، فقسم العسكر ثلاثة أقسام، ورَتَّب كُلَّ قسمٍ يقاتل شَطْراً من النهار ثم يستريح، ويتسلَّم القتال الشَّطْرُ الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً.

وكان صاحبَ النَّوْبة الأُولىٰ عماد الدين صاحب سِنْجار*، فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفىٰ نَوْبته، وضَرِسَ النَّاسُ من القتال، وتراجعوا عنه.

---

(١) هكذا ضبط في أصولنا الخطية، وفي «معجم البلدان»: ١/ ٣٨٣: برزويه: بالفتح، وضم الزاي، وسكون الواو، وفتح الياء، والعامة تقول: بَرْزَيَه.

(٢) في الأصل و(ب): سن، والمثبت من (ك).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٥ من هذا الجزء.

وتسلَّم النَّوْبة الثَّانية السُّلْطان بنفسه، وركب، وتحرَّك خُطُوات عِدَّة، وصاح في النَّاس، فحملوا [عليها][1] حملةَ الرَّجل الواحد، وصاحوا صيحة الرَّجل الواحد، وقصدوا السُّور من كلِّ جانب، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رَقِيَ النَّاسُ على الأسوار، وهجموا القلعة، وأُخذت عَنْوَةً، واستغاثوا الأمان وقد مُلِئتِ الأيدي منهم ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إيمانُهُم لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[2] ونُهِبَ جميع ما كان فيها، وأُسر جميع مَنْ كان بها، وكان قد أوى إليها خَلْقٌ عظيم، وكانت من قلاعهم المذكورة، وكان يوماً عظيماً.

وعاد النَّاس إلى خيامهم غانمين، وعاد السُّلْطان إلى الثَّقَل، وأحضر بين يديه صاحب القلعة، وكان رجلاً كبيراً منهم، فكان هو ومن أُخذ من أهليه سبعةَ عَشَرَ نَفْساً، فَمَنَّ عليهم السلطان، وَرَقَّ لهم، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية استمالةً له، فإنهم كانوا يتعلَّقون به ومن أهله[3].

وقال العماد: وُصِفَ للسُّلطان قلعة بُرْزَيه، وأنها لحصنِ أفامِيَة* متاخمة، وله مناصفة مقاسمة، وأن المسلمين في جوارها في جَوْر، وفي حَوْرٍ بعد كَوْر[4]، ووصفوا عُلُوَّها، فركب السُّلْطان إليها، وأشْرَفَ عليها، فألفاها كما وصفوها، وبالغوا فيها وما

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٢) سورة غافر، الآية ٨٥.
(٣) «النوادر السلطانية»: ٩٢ ـ ٩٣.
(٤) في حور بعد كور: أي في فساد بعد صلاح. انظر «اللسان» (حور).

أنصفوها، فَنَصَبَ عليها المجانيق، فوقعت أحجارُها دونها، ولم تُحرِّكْ سكونَها، وكيف تُهَدَّد الخنساءُ بصَخْر، والعَنْقاء بصَقْر، وحُجْرُ[1] الجَبَلِ بحَجَرٍ، ومَدَارُ الفَلَك بمَدَرٍ[2]؟

فلما رأى السُّلْطان ذلك قَوِيَ رأيه على أن يُفَرِّق العسكر ثلاث فِرَق، ويتناوبون علىٰ قتالهم زحفاً ليتعبوهم ويضجروهم، فإنه عَدَدٌ محصور عما قليلٍ تفنىٰ عُدَّتُهم وتقِلُّ عِدَّتهم، ففعل ذلك، وكانت النَّوْبة الأُولى لصاحب سِنْجار*، والثَّانية للسُّلْطان وخواصّه، ثم امتزجت الثالثة بالثَّانية، وعادت رجالُ النوبة الأولى، وتناصرت أنصارُ الله على النِّزال لاستنزال النَّصر، وأحمدوا عاقبة الصَّبْر في الحَصْر، فطلب العدوُّ الأمان، وأرسلوا إلى السلطان، وكان أصحابنا خالطوهم وباسَطُوهم، وأحاطوا بهم.

وهناك جماعة من دُهاة العسكر أشاعوا للنَّاس أن السلطان يُؤَمِّنُهم، فرجع العالَمُ عنهم ولم ينالوا منهم، فلما رَدَّ السُّلْطان رسولهم ولم يؤمنهم ساق أولئك السَّبايا قُدَّامهم كما يسوقون أغنامهم، وخانوا إخوانهم وراموا حرمانهم، وتفرَّقوا بالسَّبْي أيدي سبأ، وسافروا بها من العسكر إلى البلاد، وباعوها في سوق الكساد، وتسلَّم السلطان حصن بُرْزَيه* ظهر يوم الثلاثاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة، وولاَّه الأمير عز الدين إبراهيم بن الأمير شمس الدين محمد بن المُقَدَّم، وهو صاحب حصن أفامِيَة مناظر بُرْزَيه*، وهو علىٰ الثَّغْر،

---

(١) الحجر: الغار. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٣٢.
(٢) المدر: الحجارة. «القاموس المحيط» (مدر).

وما بين الحصنين[1] بحيرةٌ تَحْجُزُ الجانبين، وصَيَّادوها المسلمون بأفامية، فَخَلَصَ للإسلام الثَّغرُ، وسكَنَ الدَّهْرُ.

قال: وكانت صاحبة حصن بُرْزَيَه* أُخت زوجة الابرنس صاحب أنطاكية، وقد سُبِيَتْ وخُبيت، فما زال يَطْلُبُها حتى أظهروها وأحضروها وزَوْجَها وابنةً لها وجماعةً من أصحابها وصهرها، وكانت امرأة ابرنس أنطاكية تُعرف بدام سبيل[2] في مولاة السُّلْطان، عيناً له على العدوِّ، تهاديه وتُناصحه، وتطلعه على أسرارهم، والسُّلْطان يكرمها لذلك، ويهدي لها أنفس الهدايا. فلما فَتَحَ حِصْن بُرْزَيه، وحصل في أَسْرِهِ هذه الجماعة، وافترقت بهم أيدي المسلمين، تَتَبَّعهم السُّلْطان، وخَلَّصهم من الأسر، وأنعم عليهم، وجَهَّزهم، وسَيَّرهم إلى أنطاكية لأجل امرأة الابرنس، فشكرتْهُ على ذلك، ودامت مودَّتها ونفعها للمسلمين.

وفي بعض كتبِ البشائر العمادية: آخر ما فتحناه حِصْنَ بُرْزَيَه الذي تُضرب بحصانته الأمثال، ولا تَرْقَىٰ إلى ذُرْوة تمنِّيه الآمال، وقد أخذناه بالسَّيْفِ عَنْوَةً، وفتحناه ضحوةً، فيا لها ضحوة ليوم الثلاثاء أظلمت على أهل التثليث، وألهى الله المؤمنين عن ذكر الفتوح القديمة بحديث هذا الفتح الحديث، ولو وكَلَنا الله إلى اجتهادنا في الفَتْح لتعذَّر، ولكنه سبحانه سَهَّل ويَسَّر[3].

ومن كتابٍ فاضلي إلى السُّلْطان: وصلَتْ كُتُبُ البشارة بفتح

---

(١) في الأصل: الاثنين، والمثبت من (ك).

(٢) هي سبيلا خليلةُ بوهمند أمير أنطاكية، انظرها في كشاف الأعلام.

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٢٤٨ ـ ٢٥٤.

حِصْن بُرْزَيَه* وهو الذي تُضرَب به الأمثال، وتُضرِبُ عنه الآمال، ويكاد[1] يَخرُنُ إذا قادت أيدي السَّلاسل أَزِمَّةَ الجبال، ويكاد[1] يُذِمُّ[2] ساكنيه من خَطَرات الأوجال بل من خُطُوات الآجال، وكان للكُفْر دِرْعاً حصينةً طالما كانت تهزأ بالنِّصال، فعَظُمَتِ المِنَّة السُّلْطانية عند أهل الإسلام، ودعوا بأن يُفْلج الله حُجَّة سيفه الألد الخصام.

وقد كان النَّاس يَعُدُّون مواهبه مما لا تُحصى، فقد لحقت[3] بها فتوحاتُهُ فهي أيضاً لا تُحْصَر، فمرحباً بفتوحٍ يقول غائِبُها: الحمد لله، وحاضِرُها: الله أكبر، وما بقي المملوك يستبطىء خبر أنطاكية، فقد ألقتِ الأرض أفلاذَها، وقد ولدت لِكَرَمِهِ ذهَبَها، ولنَصْرِه فولاذَها، ولم نَرَ في نِعَمِ الله مِثْلَها نعمةً كريمة وجيهة، ولا نَعْرِفُ بعدها للزَّمنِ
١٣٢/٢ سيئةً ولا كريهةً، إلا أَنَّا نرجع في معرفة قَدْرها، وإخلاص شُكْرها إلى ما رضيه الله شكراً ممن نَجَّاه من أهوال يوم القيامة، وأدخله دار المُقَامة بأَنَّهم قالوا الحَمْدُ لله الذي أَذْهبَ عَنَّا الحَزَن، الحمد لله الذي صَدَقَنا وَعْدَه، الحمد لله الذي هَدَانا لهذا، وكان آخر دَعْوَاهُم أَنِ الحمدُ لله رَبِّ العالمين[4] فَرَضِيَ بالحمد منهم، ورضي عنهم، وأَثْنَىٰ

(١) في الأصل: كاد، والمثبت من (ك).
(٢) أي يجيرهم. «القاموس المحيط» (ذمم).
(٣) في الأصل: تحققت، والمثبت من (ك).
(٤) فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ سورة فاطر، الآية ٣٤، وقوله تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ سورة الزمر، الآية ٧٤، وقوله تعالى: ﴿وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ سورة الأعراف، الآية ٤٣، وقوله تعالى ﴿وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ سورة يونس، الآية ١٠.

عليهم بأنهم اختتموا به وافتتحوا، وقَدَّسوا به وسَبَّحوا، وثَقُلَتْ به موازين أعمالهم فرجحت ورجحوا.

ونحن نقول: الحمد لله على بهجة الدُّنيا بمولانا ونَضْرتها، وعلى عِزَّة المِلَّة به ونُصْرتها، وعلى بهجة القُلوب به ومَسَرَّتها، وعلى غنى الأيدي به ومِيْرتها، وعلى روعة قلوب الأعداء به وحَسْرتها ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوْها﴾[1].

وفتوحُ مولانا من تلك النِّعَم وإن قَصَّرْنا في شُكْرها فما نُقَصِّر في ذكرها، وإن عَجَزْنا عن حَصْرها فما نَعْجِزُ عن المعرفة بفضل قَدْرها، وتلك النِّعم بحمد الله مُنْتَظمة العقود، مُطَّرِدَة السُّعود، متوافية الرُّسل، عامرة السُّبُل، خارقة العوائد، قارنة المساعي بالمساعد، كادت العيون قبل وقوعها تَلْحَظُها، وكادت المنابِرُ لما يُدْرَسُ عليها من كُتُبها تَحْفَظُها، فما يُشْرَحُ صدرٌ من خبرها فيسمعه ذو صَدْرٍ إلا انْشَرَحَ، وما يسأل النَّاسُ: هل فَتَحَ الملك النَّاصر، وإنما يقال ما اسم البلد الذي فتح، فمن عند مولانا الجَنَان، ومن عندنا اللِّسان، وعليه الجُهْد، وعلينا الحمد، فهي فتوحٌ كثمرات الجَنَّة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وأعمالها المبرورة إلى الله تعالى مرفوعة.

ومن قصيدةٍ[2] للشهاب فِتْيان الشَّاغُوري[3] وقد تقدَّم بعضُها[4]:

---

(١) سورة إبراهيم، الآية ٣٤.

(٢) هذه الأبيات ليست في (ك) و(ب).

(٣) سلفت ترجمته في حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٥ من الجزء الثاني.

(٤) انظر ص ٣٠٣ و ٤١٠ من الجزء الثالث.

لَمَّا مَلَكْتَ حُصونَ أنطاكيَّةٍ — يَئِسَ الصَّلِيبُ وحِزْبُهُ من مُظْهِرِ
أَرْدَيْتَ كُلَّ مُثَلِّثٍ متكبِّرٍ — بموَحِّدٍ متواضِعٍ فمكَبِّرِ
بَرَزَتْ إلى بُرْزَيْهِ عَزْمَتُك التي — مَدَّت يداً عن مَطْلَبٍ لم يَقْصُرِ
فتناولَتْهُ بأَيْدِها من باذخٍ — في الأُفْقِ ذي مَثَلٍ يروعُ مُسَيَّرِ
فانهَدْ لِصُورٍ فهي أحسنُ صورَةٍ — في هيكل الدُّنيا بَدَتْ لِمُصَوِّرِ
ما سُوْرُ صورٍ عاصمٌ منه وهل — سُوْرُ المعاصم عاصِمٌ لمسوَّرِ[1]

فصــل

في فتح حِصْن دَرْبَسَاك*

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار السُّلْطان حتى أتى جسر الحديد، وأقام عليه أياماً، وسار حتى نزل على دَرْبَسَاك يوم الجُمُعة ثامن شهر رجب، وهي قلعةٌ منيعة قريبةٌ من أنطاكية ـ يَسَّرَ الله فتحها ـ فنزل عليها، وقاتلها قتالاً شديداً بالمنجنيقات، وضايقها مضايقةً عظيمةً، وأخذ النَّقْبُ تحت بُرْجٍ منها، وتمكَّن النَّقْب منه حتى وقع، وحموه بالرِّجال والمقاتلة، ووقف في الثُّغرة رجالٌ يحمونها عمن يصعَدُ فيها.

قال: ولقد شاهدتهم، وكلما قُتِلَ رجلٌ منهم قام غيره مقامه، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين، واشتدَّ الأمر حتى طلبوا الأمان، واشترطوا مراجعة أنطاكية، وكانت القاعدة أن ينزلوا بأنفسهم وثياب أبدانهم لا غير، ورَقِيَ عليها العَلَم الإسلامي يوم الجمعة أيضاً ثاني عشري رجب، وأعطاها عَلَم الدِّين سليمان بن جَنْدَر، وسار عنها

---

(١) «ديوان فتيان الشاغوري»: ١٤٧ ـ ١٤٨ مع تقديم وتأخير في الأبيات.

من الغد بُكرة السَّبت[1].

وقال العماد: ثم عَبَرَ نهر العاصي إلى شرقِيِّه عند شقيف دَرْكُوش؛ وهو ثَغرٌ على الفُرَات للإسلام منيع، فَجُزْناه، وخَيَّمنا على جسر الحديد أياماً حتى استكمل العسكر راحاته وتكامل، ونحن بقُرْب أنطاكية، وقد صَوَّبْنا إليها عزائمنا النَّاكية، ثم قُلْنا: قُدَّامها حصون وحِماها بحمايتِها مصون، فإذا ذهبت معاقِلُها جاءتها غوائلها. فنزلنا على دَرْبَسَاك؛ وهو حِصْنٌ للدَّاوية*، وقد اعتصموا بعِصْمَتِهِ، وامتنعوا بمنَعَته، فنصبنا عليه المنجنيقات، فما زالوا يجالدون ويجتلدون إلى أن ضاق بهم الخِناق، وتَسَلَّق النَّقَّابون إلى الباشورة*، وهدُّوا بالنَّقْب بُرْجاً، ووسَّعوا للزَّحْف نَهْجاً، فطلبوا الأمان، وفدوا أنفسهم بألوف، فأُمِّنوا على أنهم يخرجون بهوانهم وثياب أبدانهم، ويَدَعون كُلَّ ما في الحِصْن من خيلٍ وعُدَّةٍ، وذخيرةٍ وغَلَّة، وأثاثٍ وقُماش، وذهب وفِضَّة، وأُمهلوا ثلاثة أيام، ثم أُخرجوا من ديارهم، وتَسَلَّم السُّلْطان الحِصْن يوم الجمعة الثَّاني والعشرين من رجب[2].

وفي بعض الكتب العمادية: المكاتبة مُبَشِّرةٌ بالفَتْح الأهنى والنَّصْر الأَسْنى، وهو فَتْحُ دَرْبَسَاك الذي لم يكن لأنطاكية إلاَّ به الامتساك، وقد حُصَّ[3] الآن جَنَاحُها، وَفُلَّ[4] سلاحُها، وحُقَّ قَرْحُها وبَطَلَ اقتراحُها، وخرجت بإخراج حصونها من ولايتها

(١) «النوادر السلطانية»: ٩٣.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

(٣) حُصَّ: انجرد وتناثر ريشه. انظر «اللسان» (حصص).

(٤) في الأصل: وقل، والمثبت من (ك).

أرواحُها، وقد بقيت غَرَضاً للعَسْكَر، وعَرَضاً بلا جَوْهر، وشَبَحاً بغير روح، وَصَدْراً غير مَشْرُوح، والكُفْر مفجوع بالنَّفْس والبلد، والأهل والولد، ونحن لا راحةَ لنا إلا في هذا التَّعب، ولا أَرَبَ لنا في غير هذا الأَرَب[1]، ولا اجتهاد لنا إلا في الجهاد، ولا مَغْزىٰ لنا

١٣٣/٢ غير الغَزَاة، وما نرجو من الله إلا إنجاز العِدَات في جميع العُداة.

فأصبحنا يوم الثلاثاء وقد ساء صباح المُثَلِّثين، وبان صباح الموحِّدين، وأَبَيْنَا أمانهم إلا أن يفدوا نفوسهم، وينزعوا من الحَرْب لبوسهم، ويخلعوا بأسهم ويلبسوا بوسهم، وينجوا بثياب أبدانهم، وقد أَدُّوا خمسةَ آلاف دينار من أثمانهم.

فصـــل
في فَتْح بَغْرَاس*

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وهي أيضاً قلعة منيعة أقربُ إلى أنطاكية من دَرْبَسَاك، وكانت كثيرةَ العُدَّة والرِّجال، فنزل العسكر في مَرْجٍ لها، وأحدق العسكر بها جريدةً مع أَنَّا احتجنا في تلك المنزلة إلى يَزَك* يحفظ من جانب أنطاكية لئلا يخرج منها من يهجم على العسكر، فضرب يَزَك الإسلام على باب أنطاكية بحيث لا يشذُّ عنه من يخرج منها.

قال: وأنا ممن كان في اليَزَك في بعض الأيام لرؤية البلد، وزيارة حبيب النَّجَّار[2] المدفون فيه ـ عليه السَّلام ـ ولم يزل

(١) في (ك): ولا أرب لنا غير هذا الأرب.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٢٠١ من الجزء الأول.

يقاتل بَغْراس* مقاتلة شديدة حتى طلبوا الأمان على استئذان أنطاكية، ورَقِيَ العَلَمُ السُّلْطاني عليها في ثاني شعبان[1].

وقال العماد: ولما فُتحت دَرْبَسَاك* لم يبق لنا هِمَّة إلا بَغْراس، وقد شارف رجاء أكثر النَّاس في فتحه الياس، وهو حِصْنٌ حصين، ومكان مكين، هو للدَّاوية وِجارُ[2] ضِباعها، وغاب سِباعها، وهو بقُرْب أنطاكية، حصارُه وحصارها سواء[3]، وما لداء داويَّته دواء.

فنزل العسكر بين أنطاكية وبينه، يتقاضون منهما للدِّين دَيْنَهُ، ويشنُّون الغارات، ويسنُّون النكايات، ولا يبرحون بإزاء أنطاكية صَفّاً يرومون لها ولأهلها فتحاً وحَتْفاً، يتناوبون على سبيل اليَزَك*، ويَدْعُون العِدَىٰ إلى المعترك، وليس بينهما إلا النَّهر.

فَصَعِدَ السُّلْطان جريدةً إلى الجبل، وأمر بنَصْب المجانيق حولها على تلك القُلَل[4]، ونقل إليها أحواضَ الماء وروايا‌ه، وبَثَّ في النَّواحي سَرَاياه، وفرَّق على الجميع عطاياه، وأقمنا عليه أسبوعاً نجري إليه من كل منجنيقٍ من فيض الحجارة يَنْبوعاً، ونحن نفكر فيما يكون، ومتى تتم الحركة وفيمَ السكون، وهذا بيكارٌ[5] يطول،

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٩٣ ـ ٩٤.

(٢) الوجار: جحر الضبع. «القاموس المحيط» (وجر).

(٣) في (ك): حصارها وحصاره سواء.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٥ من هذا الجزء.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦١ من الجزء الثالث.

وتَعَبٌ لا يزول، إذ رأينا بابَ الحِصْنِ وقد فُتِحَ، وخَرَجَ من الحِصْن من أَخَذ الأمان لأهله، وسَلَّم الحصن بما فيه من الأموال، وقُدِّر ما فيه من الغَلَّة تخميناً باثني عَشَرَ ألف غِرارة، وسلَّمها السلطان مع دَرْبَسَاك إلى صاحب عَزَاز* علم الدين سليمان بن جَنْدر، وكتبتُ عليه جميع ما في القَلْعتين من الموجود، من المكيل والموزون والمعدود.

وكانت الغَلَّة بأنطاكية غالية السِّعْر فقلتُ: كأني بمن تولَّى القلعة وقد باع الغَلَّة، وشفى من فقره بها الغُلَّة. ثم أشار بتخريبها وهَدْمها، ولم يلتزم بحكمها، وقال: إبقاؤها غَرَر، وحِفْظُها على المسلمين ضَرَر وخَطَر. فجاء الأمر على ما حسبتُه بعد سنين، وعاد إخلاؤها بمَضَرَّة المؤمنين، فإنه أظهر ذلك الوقت أنه أخلاها، وأنه للتخريب خلاها، فجاء إليها مُقَدَّم الأرمن ابن لاون فدخلها، وأَتَمَّ غارته وكملها، وذلك في سنة سَبْعٍ أو ثمان وثمانين.

وهذان الحِصْنان دَرْبَسَاك وبَغْرَاس كانا لأنطاكية جناحين، ولطاغية الكُفْر سلاحين، فَتَمَّ للسُّلطان فَتْحُ هذه الحصون المذكورة، مع أبراجٍ ومغارات وشقفان كثيرة، حتى خلص ذلك الإقليم، وتم الفَتْحُ العظيم، وعادت الكنائس مساجد، والبيع معابد، والصَّوامع جوامع، والمذابح لعبدة الصُّلْبان[١] مصارع[٢].

---

(١) في الأصل: السلطان، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) انظر «الفتح القسي»: ٢٥٧ ـ ٢٥٩.

فصـــل

في عقد الهُدْنة مع صاحب أنطاكية وعَوْدِ السُّلْطان

قال العماد: كان السُّلْطان قد عزم على قَصْدِ أنطاكية، فرأى هِمَمَ الأجناد لا سيما الغُرباء قد ضَعُفَتْ، ونيَّاتهم في الجهاد قد فَتَرَت، وتشوَّقوا إلى بلادهم، والرَّاحة من جهادهم، وكان صاحب أنطاكية قد أشرف على الهلاك، وعلم أنَّه إن قُصِدَ غُلِبَ، فَنَفَّذ أخا زوجته رسولاً إلى السُّلْطان متذللاً، يطلب الهُدْنة على أنه يُطلق مَنْ عنده من أُسارى المسلمين، وهم جَمْعٌ كثير، فعقدها معهم مُدَّة يسيرة؛ ثمانية أشهر من تشرين الأول إلى انقضاء أَيَّار، فيكون انقضاء الهدنة قبل إدراك الغَلَّة وأوان حصادها، فيستريح فيها الأجناد ويعودون [بعدها](1) إلى فَرْض الجهاد، فَتَمَّ كتابُ الهُدْنة، وتوجَّه شمس الدولة(2) ابن منقذ لتخليص الأَسْرىٰ وإنقاذهم منه(3).

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وفي بقية ذلك اليوم ـ يعني يوم فتح بَغْراس* ـ وهو ثاني شعبان عاد السُّلْطان إلى المخيَّم الأكبر، وراسله أهل أنطاكية في طلب الصُّلْح، فصالحهم لشدَّة ضجر العسكر، وقوة

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل و(ك): شمس الدين، والمثبت من (ب)، وهو الأمير أبو الحارث عبد الرحمٰن بن محمد بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ، ولد في شيزر سنة (٥٢٣ هـ)، وتوفي بالقاهرة سنة (٦٠٠ هـ)، وهو ابن أخي أسامة ابن منقذ الشاعر المشهور، انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٢/ ٥٢، و «الوافي بالوفيات»: ١٨/ ٢٥١ ـ ٢٥٢. وقد أخطأ محقق «الفتح» في تعيينه، فظنه أسامة ابن منقذ! وانظر ص ٢٠٦ من هذا الجزء.

(٣) في (ك) و(ب): منهم، وانظر «الفتح القسي»: ٢٦٠ ـ ٢٦١.

قلق عماد الدين صاحب سِنْجار* في طلب الدستور. وعُقِدَ الصلح بيننا وبين أهل أنطاكية لا غير على أن يطلقوا جميع أُسارى المسلمين الذين عندهم، وكان إلى سبعة أشهر، فإن جاءهم مَنْ ينصرهم وإلا سَلَّموا البلد إلى السُّلْطان.

ثم رحل عنه يطلب دمشق، وسأله ولده الظَّاهر صاحب حلب أن يجتاز به، فأجابه، فدخلها في حادي عشر شعبان، وأقام بقلعتها ثلاثة أيام. ثم سار إلى دمشق، فاعترضه ابنُ أخيه تقي الدين، وأصعده إلى قلعة حماة، وبات بها ليلةً واحدة، فأعطاه جَبَلَة* واللاذقية. وسار إلى بَعْلَبَكَّ، وأقام ببُرْجها يوماً، ودخل حَمَّامها، ثم أتى دمشق، فأقام بها حتى
١٣٤/٢ دخل شهرُ رمضان، وما كان يرى تبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه. وكان قد بقي له من القلاع القريبة من حَوْران التي يخاف عليها من جانبها صفد* وكَوْكَب*، فرأى أن يشغل الزمان بفتح المكانين [في الصوم][1].

وقال العماد: وَوَدَّع السُّلْطانُ عمادَ الدين صاحب سِنْجار* والعساكر الغريبة، وأتحفهم بالتُّحَف العجيبة، وارتاح إلى العبور على أرتاح*، ووصل إلى حلب وقد خرج كُلُّ مَنْ بها للتَّلَقِّي[2]، مستبشرين بالإقبال المتضاعف المترقِّي، وشاهدنا من النَّظَّارة عيوناً للمحاسن ناظرة، ووجوهاً ناضرة، وقلوباً حاضرة، وأَلْسُناً شاكرة، وأيدياً في بَسْطها إلى الله للابتهال بالدُّعاء متظاهرة، فأقام بقلعتها أياماً يسيرة، وألفى ولدَه الظَّاهر قد سار فيها أحسن سيرة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب)، وانظر «النوادر السلطانية»: ٩٤.
(٢) في الأصل: للملتقى، والمثبت من (ك) و(ب).

ثم سار منها على طريق المَعَرَّة*، وقصد زيارة الشيخ الزَّاهد أبي زكريا المَغْرِبي[1] عند مشهد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ فتبرَّك بزيارة الميت والحيِّ، ثم وصل إلى حماة، فنزل بقلعتها ومعه أمير المدينة النَّبوية على ساكنها السَّلام، وهو عِزُّ الدين أبو فَلِيْتة القاسم بن المهنَّا، وكان للسُّلْطان في جميع الغزوات مصاحباً، وعلى معاضدته مواظباً، وما حَضَرَ معنا على بلدٍ أو حِصْنٍ إلا فتحناه، وكان السلطان يستوحش لغيبته، ويأنس بشيبته، وكان بجنب السُّلْطان جالساً، ولنظره عليه حابساً.

وكانت قلعة حماة ذات تلٍّ[2] منبطح، فلما تولاها تقي الدِّين رفع تَلَّها، وعَمَّق خندقها وحَصَّنها، فطلع السُّلْطان تلك الليلة إلى القلعة، وسُرَّ بما رأى من الحصانة والرِّفْعة، ووقف الملك المُظَفَّر لعمِّه، وجرى في الخدمة على رَسْمه، وأصبح السُّلْطان راحلاً، ولم يقم بحمص، وجاء إلى بَعْلَبَكَّ على طريق الزَّرَّاعة واللَّبوة، ووصل إلى دمشق قبل رمضان، وأُشير على السلطان بأن يُريح عسكره، فقد أحمد في عامِهِ موردَهُ وَمَصْدَرَه، وأربح في سبيل الله متجره، فقال: إن القدر غيرُ مأمون، والعمر غير مضمون، وللفُرَص أوقات، وللدَّهر آفات، وقد بقيت مع الكُفر هذه الحصون، وإن لم نبادرها اختلَّ أمرُنا المصون، لا سيما صفد* وكَوْكَب*، فإنهما للدَّاوية*

---

(١) في (ك) المعري. قلت: قد دفن أبو زكريا في دير النقيرة، وهو في جبل قرب المعرَّة، وكان يزار زمن ياقوت الحموي، انظر «معجم البلدان»: ٥٣٩/٢.

(٢) في الأصل: قل، والمثبت من (ك).

والإسبتارية* في وسط البلاد، والثُّغور الإسلامية بهما واهية السِّداد، فنخرج ونشتوا عندهما، ونقصد قصدهما، فإذا فتحناهما خَلَصت هذه البلاد، وَصَفَتِ الأوراد.

قال: فما لبث السلطان ولا مكث، ولا نقض عهد عزمه على الغَزَاة ولا نكث، وقال: لا نُبَطِّل الغَزْوة، ولا نُعَطِّل هذه الشَّتْوة[١].

فصل

في فتح الكَرَك* وحُصُونه

قال العماد: ووردتِ البُشْرى بِنُجْح الدَّرَك في تسليم حِصْن الكَرَك، وذلك أنها في مُدَّة غيبتنا في بلاد أنطاكية لم تعدم من محاصرتها المضايقة النَّاكية. وكان الملك العادل أخو السلطان مقيماً بتِبْنِين* في العساكر، محترزاً على البلاد من غائلة العدوِّ الكافر، أقامه السلطان هنالك عند توجهه إلى البلاد الشَّمالية لقصد جَبَلَة* واللاذقية، فأقام بتِبْنين مقوياً للأمراء المرتَّبين على الحصون، حافظاً على الدَّهماء بحركته في الأمور عادة السكون، وكان صهره سَعْد الدين كُمَشْبَة بالكَرَك موكَّلاً، وبأهله مُنَكِّلاً، قد غَلِقَ رَهْنُه[٢]، وبقي داؤه مُعْضلاً، وأمره مشكلاً حتى فنيت أزوادهم، ونَفِدَتْ موادُّهم[٣]، ويئسوا من نجدةٍ تأتيهم، وأمحلَتْ عليهم مصايفهم ومشاتيهم، فتوسَّلوا بالملك العادل، وأبدوا له ضراعة السَّائل، فما

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٢٦٢ ـ ٢٦٥.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٩ من الجزء الثالث.

(٣) في الأصل: حتى فنيت موادهم، ونفدت أزوادهم، والمثبت من (ك).

زالت الرسالات تتردَّد، والاقتراحات تتجدَّد، والقوم يلينون والعادل يتشدَّد، حتى دخلوا في الحكم، وخرجوا على السلم، وسَلَّموا الحصن وتَحصَّنُوا بالسَّلامة، وخلصوا بإقامة عُذْرهم عند قومهم من المَلاَمَة(١)، وتسلَّم سعد الدين بعدها الحصون التي بقُرْبها كالشَّوْبك* وهرمز والوَعْر وسَلْع.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وفي أثناء شهر رمضان سُلِّمت الكَرَك* من جانب نُوَّاب صاحبها، وخَلَّصوه بها من الأسر، وكان أُسِرَ في وقعة حِطِّين المباركة(٢).

وكتب العمادُ في بعض البشائر: سُلِّم حِصْن الكَرَك، وهو الحصن الذي كان طاغيته يحدِّث نفسه بقصد الحجاز، وقد نَصَبَ أشراك إشراكه

---

(١) «الفتح القسي»: ٢٦٦.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٩٥. قلت: وفي هامش الأصل حاشية هذا نصها: «حاشية: هذا وهم، فإن صاحب الكرك قتله صلاح الدين بيده بعد وقعة حطين، فإنه كان نذر دمه».
وتلا هذه الحاشية تعقيب بخط مغاير، هذا نصه: «حاشية: مقتضىٰ ما نقل هنا عن القاضي كما ذكر صاحب الحاشية أنه وهم، لأنه قد تقدم النقل عنه أنه قتله السلطان في وقعة حطين، لأجل نذر دمه، لكن يمكن تصحيحه، وهو أن المراد بصاحب الكرك ولد زوجة هذا المقتول، وهو هنفري بن هنفري، لأن في فتح القدس ذكر العماد أنها صاحبة الحصون، وأنها ذهبت تسلمها لخلاص ولدها، فلم يفعل ذلك أهل الحصون، فرجعت خائبة، ومنَّ عليها السلطان بنفسها، ووعدها بإطلاق ولدها عند تسليم تلك الحصون، وسماه هنا صاحبها لأن الملك وراثة عندهم، ولهذا كانت الحصون لها، فيستقيم الكلام حينئذٍ، والله أعلم».
قلت: انظر عن مقتل أرناط صاحب الكرك ص ٢٨٨، وعن زوجه ص ٣٤٤ من الجزء الثالث.

منه على طُرُق[1] الاجتياز، فأذقناه عام أول كأس الحِمام، وملكنا حِصْنَه الذي كان يعتصم به في هذا العام، واضطرّ الكُفر في إسلامه إلى الإسلام، وَتَمَّ بحل هذا البيت أمن البيت الحرام[2].

وكتب القاضي الفاضل إلى السلطان شفاعةً: أدام الله سُلْطان مولانا الملك النَّاصر وثَبَّته، وتقَبَّل عَمَلَه بقَبُولٍ حسنٍ وأنبته[3]، وأخذ عَدُوَّه قائلاً أو بَيَّته، وأرغم أنفه بسيفه وكَبَتَهُ.

خدمةُ المملوك هذه واردةٌ على يد فلان، خطيب عَيْذاب*، ولمَّا نَبَا به المنزل منها، وقَلَّ عليه المرفق فيها، وسمع بهذه الفتوحات التي طَبَّق الأرضَ ذِكْرُها، ووجب على أهلها شُكْرُها، وحصل لمن جَرَتْ على يده أجرُها، هاجر من هجير عَيْذَاب ومِلْحها، سارياً في ليلة أملٍ كلُّها صباح، فلا يسألُ عن صُبْحها، وقد رَغِبَ في خطابة الكَرَك، وهو خطيب، وتوسَّل بالمملوك في هذا الملتمس وهو

٢/١٣٥ قريب، ونَزَعَ من مِصْر إلى الشام، ومن عيذاب إلى الكَرَك وهو عجيب، والفقر سائق عنيف، والمذكور عائل ضعيف، ولُطْفُ الله تعالى بالخَلْق بوجود مولانا لطيف، ورأيه أعلى إن شاء الله تعالى.

فصـــل

في فتح صَفَد

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار في أوائل رمضان من دمشق

---

(١) في الأصل: طرف، والمثبت من (ك).

(٢) «الفتح القسي»: ٢٦٦ ـ ٢٦٧.

(٣) في (ك): وأثبته.

يريد صفد*، ولم يلتفت إلى مفارقة الأهل والأولاد والوطن، في هذا الشهر الذي يسافر الإنسان أين كان ليجتمع فيه بأهله، فأتاها وهي قلعةٌ منيعة، وقد[1] تقاطعت حولها أودية من سائر جوانبها، فأحدق العسكرُ بها، ونُصِبَتْ[2] عليها المجانيق، وكانت الأمطار شديدة، والوحول عظيمة، ولم يمنعه ذلك عن جِدِّه.

ولقد كنتُ ليلةً في خدمته، وقد عَيَّن مواضع خمسة مجانيق حتى تُنْصَبَ، فقال في تلك الليلة: ما ننام حتى ننصب الخمسة. وسَلَّم كلَّ منجنيق إلى قوم، وَرُسُلُه تتواتر إليهم يخبرونه، ويعرِّفُونهم[3] كيف يصنعون، حتى أطلَّنا الصباح، وقد فرغت المنجنيقات، ولم يبق إلا تركيب خنازيرها فيها، فرويتُ له الحديث المشهور في الصِّحاح، وبَشَّرْتُهُ بمقتضاه، وهو قوله ﷺ: «عَيْنان لا تَمَسُّهُما النار: عينٌ باتت تَحْرُسُ في سبيل الله، وعَيْنٌ بكت من خشية الله»[4].

قال: ولم يَزَلِ القتالُ متواصلاً بالنُّوَب مع الصوم، حتى سُلِّمت بالأمان في رابع عشر شَوَّال[5].

وقال العماد: لما خرج السُّلْطان من دمشق صَحِبَهُ الفاضل،

---

(١) في (ك): قد.

(٢) في (ك): نصب.

(٣) في (ك): ويعرفهم.

(٤) أخرجه الترمذي في «جامعه» (١٦٣٩) من حديث ابن عباس، وقال: حسن غريب.

(٥) «النوادر السلطانية»: ٩٥.

وجعل طريقه على مرج بُرْغُوث، وعَبَرَ مخاضة الأحزان، وجاء إلى صَفَد، وقد لان مَنْ فيها من الفرنج وزادُهُم نفد، فنزل عليه في العَشْر الأوسط من رمضان، فضايقها، ونَصَبَ المجانيق إلى أن سَلَّمها مُقَدَّمها في ثامن شَوَّال بالأمان، وراح إلى صور.

وقد كانوا عدموا القوت، ووجدوا الموت الموقوت، وعلموا أَنَّهم إنْ لم تخرج صفد من أيديهم، دخلت أرجُلُهم في الأصفاد، فتبرَّؤوا من الجدار والجلاد. وإنها كانت في عين الإسلام قَذًى، لا يتوقع منها على الأيام إلا مَضَرَّة وأذًى، فَسَهَّلَ الله صَعْبَها، وأوطأ هِضَبَها، وَكَشَفَ عن البلاد كَرْبَها، وقذف في قلوب أهلها رُعْبها، فخرجوا مُذْعنين، واستسلموا مُسَلِّمين، وتَبَرَّؤوا من حصنهم، ونزلوا بهَوَانهم ووهنهم، وأحضروا رهائنهم للاستمهال في نَقْلِ متاعهم، وندموا على ما كان من امتناعهم.

قال: واجتمع الفرنج بصور، ونحن نُضايق حِصْنَ صفد، وقالوا: متى فُتِحَتْ صفد، فإن كَوْكَب* لا تمتنع، وأملُنا عن حفظها ينقطع، والرأي أن نجرِّدَ لها نجدة، فلعلها[1] تثبت إلى أن توافينا من البحر ملوكنا.

فَسَيَّروا مئتي رجل، فتفرَّقوا في تلك الأودية، يكمنون في الشِّعاب والهضاب، واتفق أن أميراً من أصحابنا خرج متقنِّصاً، فوقع أحدُهم في قَنَصِهِ، وحصل طائرٌ منهم في قَفَصه، فاستُغْرِبَ وجودُه

(١) في الأصل: لعلها، والمثبت من (ك).

في ذلك المكان، فهدَّدَه وتوعَّده، وأقامه للعذاب وأقعده، حتى دَلَّ على مكمن ذئابه، فما أَحَسُّوا [إلا][1] بصارم الدين قيماز النَّجْمي وأجناده وقد نزلوا[2] عليهم في آكَام ذلك الشِّعْب ووهاده، فتلقَّطُوهم من كلِّ غارٍ وَوِجَارٍ، ولم يهتدِ أحدٌ من أولئك الضُّلاَّل إلى نهج فرار، فما شعرنا ونحن على صفد للحصار حتى وصل صاحب قايماز بالأسارى مُقَرَّنين في الأصفاد، مقودين في الأقياد، وكان فيهم[3] مقدَّمان من الإسبتار*، وقد أشفيا على التَّبَار[4]، فإنَّ السُّلْطان ـ رحمه الله ـ ما كان يبقي على أحدٍ من الإسبتارية* والدَّاوِيَّة*.

فأُحضرا عند السُّلْطان للمَنِيَّة، فأنطقهما الله بما فيه حياتُهما، وناجياه بما به نجاتُهما وقالا عند دخولهما: ما نظنُّ أننا بعدما شافهناك يلحقنا سُوء. فعرفتُ أن بقاءهما مرجو، فمال إلى مقالهما[5]، وأمر باعتقالهما، فإنَّ تلك الكلمة حَرَّكت منه الكَرَم، وحقنت منهما الدَّم، وفتح الله علينا صفد ثامن شوال حين فرغنا من صوم ستٍّ منه بعد صوم رمضان، وجمعنا بين فضيلتي الصَّوْم والجهاد، وسُلِّمت قلعة صفد إلى شجاع الدين طُغْرُل الجانْدَار*، واستبشرنا بانعكاس ما أحكمه الكُفَّار[6].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).

(٢) في (ك) و(ب): بركوا.

(٣) في الأصل: فيهما، والمثبت من (ك) و(ب).

(٤) التبار: الهلاك. «اللسان» (تبر).

(٥) في (ك): بقائهما.

(٦) انظر «الفتح القسي»: ٢٦٨ ـ ٢٧٢.

فصـــل
في فَتْحِ حِصْن كوكب

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم سار ـ رحمة الله عليه ـ يريد كوكب*، فنزل على سَطْحِ الجبل، وجَرَّدَ العسكر، وأحدق بالقلعة، وضايقها بالكُلِّية، بحيث اتخذ له موضعاً يتجاوزه نُشَّاب العَدُوِّ، وبنىٰ له حائطاً من حجارةٍ وطين يستتر وراءه، والنُّشَّاب يتجاوزه ولا يقدر أحدٌ يقف على باب خيمته إلا أن يكون مُلْبِساً[1]، وكانتِ الأمطارُ متواترةً، والوحول بحيث تمنع الماشي والرَّاكب إلا بمشقَّةٍ عظيمة، وعانى شدائد وأهوالاً من شِدَّة الرِّياح، وتراكم الأمطار، وكون العدو متسلِّطاً عليهم بعلوِّ مكانه، وجُرِحَ وقُتِلَ جماعة، ولم يزل راكباً مركب الجِدِّ ـ رحمه الله ـ حتى تمكَّنَ النَّقْبُ من سُورها.

ولما أَحَسَّ العدوُّ المخذول بالنَّقْب وقد تمكَّنَ من السُّور، عَلِمَ أنه مخذول[2] مأخوذ، فطلب الأمان، فأَمَّنهم، وتسلَّمها في منتصف ذي القَعْدة، ونَزل إلى الغَوْر إلى الثَّقَل، وكان قد أنزل الثَّقَل من شِدَّة
١٣٦/٢ الوحل والرِّيح في سطح الجبل[3].

وقال العماد: وجئنا إلى كوكب، ووجدناها في مناط الكوكب، كأنَّها وكر العَنْقاء، ومنزل العَوَّاء، قد نزلتها كلابٌ عاوية، ونزغت بها ذئابٌ غاوية، وقالوا: لو بقي منا واحد لَحَفِظَ بيت الإِسبتار*، وخَلَّصه إلى الأبد من العار، ولا بُدَّ من عَوْد الفرنج إلى

---

(١) أي: لابساً الدرع، من اللَّبُوس، وهي الدرع تُلبس في الحرب. انظر «اللسان».
(٢) مخذول: ليست في (ك) و(ب). (٣) «النوادر السلطانية»: ٩٦.

هذه الدِّيار، فتتشدَّد للانتظار.

ثم وصف القتال بالرَّمي والمنجنيق، والنَّقْب والتعليق، والحفر والتعميق، والحَصْر والتضييق.

ثم قال: وكان الوقتُ صعباً، والغَيْثُ سَكْباً، وتكاثرتِ السُّيول، وتكاثفتِ الوحول، ودامتِ الدِّيَمُ لدموعها مريقة، وبقيت الخِيَم في الطِّين غريقة، وكُنَّا في شغلٍ شاغل من تَقَلُّعِ الأوتاد وتوتد الأقدام، ووهاء الأطناب ووقوع الخيام، وقد عادت الخيام مناخل الأنداء، والأنوارُ معدومةٌ لوجود الأنواء، وماء الشُّرْب مفقودٌ مع سيول الماء، والرَّواحل في الطِّين باركةٌ، وهي للعَلَفِ تاركة، والطُّرُق[1] زَلِقة لَزِقة، وهي مع سَعَتها ضَيِّقة.

فنقل السُّلْطان خيمته إلى قُرْب المكان، لتقريب وجوه الإمكان، وبنى له من الحجارة، ما صار [له][2] كالسِّتارة، ونزلت الأثقال والخيم إلى أسفل التَّلِّ بالغَوْر.

وأقام السلطان على محاصرة الحِصْن ومُصابرته، ونحن نركبُ إليه من الخيام، بُكْرةً وعَشِيَّة للسَّلام، وتنفيذ المهام، حتى بلغ الرِّجال أماكن النُّقُوب، وتمكَّنَ لهمُ المطلوب، فَشَرَع الكَفَرَة في التذلُّلِ، وسَلَّموا الحِصْن بالأمان، وَعَرَضَه على جماعةٍ، فلم يقبل ولايته أحد سوى قايماز النَّجْمي على كُرْهٍ منه، وذلك في منتصف ذي القَعْدة، ونَزَلَ السُّلْطان إلى المخيَّم بالغَوْر[3].

---

(١) في الأصل: الطريق، والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

ومن كتابٍ فاضلي إلى سَيْفِ الإسلام باليمن عن السُّلْطان: مما تجدَّد بحضرتنا فَتْحُ كوكب وهي كُرْسِيُّ الإسبتارية*، ودارُ كُفْرهم، ومستقرُّ صاحب أمرهم، ومَوْضِعُ سلاحهم وذخرهم، وكان بمجمع الطُّرُقِ قاعداً، ولملتقى السُّبُلِ راصداً، فَتَغَلَّقَتْ بفتحه بلادُ الفتح واستوطنت، وسُلِكَتْ طُرُقُها وأُمِنَتْ، وعُمِرَتْ بلادُها وسُكنت، ولم تبق في هذا الجانب إلا صور، ولولا أنَّ البحر ينجدها، والمراكب تَرِدُها، لكان قِيادُها قد أمكن، وجِماحُها قد أذعن، وما هم ـ بحمدِ الله ـ في حِصْنٍ يحميهم، بل في سجنٍ يحويهم، بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء، وأمواتاً وإن كانوا أحياء. قال الله تعالىٰ: ﴿فَلا تَعْجَلْ عليهم إنَّما نَعُدُّ لهم عَدًّا﴾[1].

وكان نزولُنا على كَوْكَب بعد أن فتحنا صَفَد*، بلد الديوية[2]، وفتحنا الكَرَك* وحُصُونه، والمجلس السَّامي أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته المثقلة، وقضِيَّته المُشْكِلة، وعِلَّته المُعْضِلة، والله تعالىٰ المشكور على ما طَوَىٰ من كلمة الكُفْر، ونَشَرَ من كلمة الإسلام، فإنَّ بلاد الشَّام اليوم لا يُسْمع فيها لَغْو ولا تَأْثيم إلا قِيْلاً سلاماً سلاماً[3]، فادخلوها بسلام[4].

---

(١) سورة مريم، الآية ٨٤.

(٢) في طبعة وادي النيل من الروضتين ٢/١٣٦: بلد الديوية المصونة!.

(٣) فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾ سورة الواقعة، الآية ٢٥.

(٤) فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود﴾ سورة ق، الآية ٣٤.

وكان نزولنا علىَ كَوْكب والشّتاء في كوكبه، وقد طلع من الأنواء في موكبه، والثلوجُ تنشر على الجبال مُلأَها، والأودية قد عَجَّت بمائها، وفاضت عند امتلائها، فَشَمَخَتْ أنوفُها سيولاً، فخرقتِ الأرض وبلغتِ الجبالَ طُولاً، والأوحالُ اعتقلت الطُّرقات، ومشىٰ المُطْلَق فيها مشيةَ الأسير في الحَلَقات، فتجشَّمْنا العَنَاء نحن ورجالُ العساكر، وكابرنا العدوَّ والزمانَ وقد يُحْرِزُ الحَظَّ المكابِرُ، وعَلِمَ الله النِّيَّة فأنجدها بفعلها، وضميرَ الأمانة فأعانَ على حَمْلِها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرارُ عليها أصعبَ مِنْ نقلها.

ثم قال: والآن فالمجلس السَّامي يعلم أن الفرنج لا يَسْلُون عما فتحنا، ولا يصبرون على ما جرحنا، وأنهم ـ لعنهم الله ـ أُمَمٌ لا تحصىٰ، وجيوش لا تُسْتَقصىٰ، و ﴿يَدُ اللّهِ فَوْقَ أيديهم﴾[1]، و ﴿سَيَجْعَلُ اللّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾[2]، وما هم إلا كلابٌ قد تعاوَتْ، وشياطين قد تغاوت، وإن لم يُقْذَفوا من كل جانبٍ استأسدوا واستكلبوا، وكانوا لباطلهم الدَّاحض أنصر منا لحقِّنا النَّاهض.

وكَتَبَ المستخدمون بالإسكندرية وصاحب قُسْطنطينية والثغور المغربية يُنذرون بأنَّ العدوَّ قد أجمع أمراً، وحاول نُكْراً، وغضبوا زادهم الله غضباً، وأوقدوا ناراً للحرب جعلها الله عليهم حطباً، وسَلُّوا سيوفاً للبغي لا يبعد أن يكونوا أغمادها، وتواعدت جموعُ ضلالتهم أخلف الله ميعادها.

---

(١) سورة الفتح، الآية ١٠.

(٢) سورة الطلاق، الآية ٧.

وأما نحن فبالله ندفع ما نطيق وما لا نطيق، وإليه نرغب في أن يُثَبِّتَ قلوبنا إذ كادت تزيغ قلوبُ فريق. ونحن الآن نستجذبُ أخانا، وندعوه إلى ما له دُعينا، ونؤمِّل من الله أن ينصرنا دُنيا وديناً، وأن يمدَّنا بنفسه سريعاً، وبعسكره جميعاً، وبذخره الذي كان لمثله مجموعاً، وأن يلبِّيها دعوةً؛ إما أن يطيع بها رَبَّه، لأنها دعوته، وإما أن ينصر بها نبيَّه ﷺ، فإنها شريعتُه، وإما أن يعينَ بها أخاه؛ فإنها شِدَّة الإسلام لا شِدَّتُه.

هذا، وإن كان المجلس قد قعد عَنَّا، ولم يَعُذْنا في مرض الأجسام، فلا يقعد عَنَّا في مرض الإسلام، فالبِدَارَ البِدَارَ، فإن لم يكن الشَّام له بدار، فما اليمن له بدار، والجَنَّةَ الجنةَ؛ فإنها لا تُنال إلا بإيقاد الحرب على أهل النَّار، والهِمَّةَ الهِمَّةَ، فإنَّ البحار لا تُلْقىٰ إلا بالبحار، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلا الملوك الكبار.

وفي هذه السنة ننزل على أنطاكية، وينزل ولدنا المُظَفَّر
١٣٧/٢ تقي الدِّين أَطْرَابُلُس. ويستقرُّ الرِّكاب الملكي العادلي بمصر لأنها مذكورة عند العدو، وأنها تُطْرَقُ، وأنَّ الطَّلَب على مِصر والشَّام [منه][(١)] يُفْرَق، ولا غنى عن أن يكون المجلس السَّيْفي بحراً في بلاد السَّاحل يزخر سلاحاً، ويجرِّد سيفاً يكون على ما فتحنا قُفْلاً، ولِمَا لم يُفتح مِفْتاحاً، وما يُدْعى للعظيم إلا العظيم، و[لا يرجىٰ][(١)] لموقف الصَّبْر الكريم إلا الكريم.

هذا، والأقدار جارية، ومشيئة الله ماضية، فإن يشأ ينصرنا على العدد المُضَعَّف بالعددِ الأَضْعَفِ، فإنَّا لا نرتاب بأَنَّ الله تعالىٰ

---

(١) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٢/ ١٣٧.

ما فتح علينا هذه الفتوح لِيُغْلِقَهَا، ولا جَمَعَ علينا هذه الأُمة ليفرِّقَها، وإنما نؤثر أن يتساهَمَ آل أيوب في ميراثهم منه مواقف الصَّبْر، ومطالع النَّصْر، ولا يسرُّنا أن ينقضي عمره في قتال غير الكافر، ونزالِ غير الكُفُؤ المناظر، فإنما هي سفرةٌ قاصدة، وَزَجْرَةٌ واحدة، فإذا هو قد بَيَّض الصحيفة والوجه والذكر، فليحضُر وليشاهد أولاداً يَسْتَشْعِرُونَ لفراقه غمًّا، قد عاشوا ما عاشوا ولا يعرفون أن لهم مع عَمِّهم عَمًّا.

وله إليه من كتابٍ آخر، وكأنه بعد اعتذاره عن الحضور: المولى على حسب اختيارِهِ، وإن سار فمثله من سار وسَرَّ، وقاد الجيش وجَرَّ، ونفع الوليَّ وضَرَّ العدوَّ الذي أضَرَّ، وإن أقام فالعُذْرُ الذي أقعده، وإشفاق السلطان ـ عَزَّ نَصره ـ الذي رَدَّه عن وجهه، والرأي الذي رَدَّدَه، فلا يكن في صدره من الأمرين حَرَج، ولا يَخَف استقصار عزمه إن رَكَدَ أو خرج، فمكانه مكانه من القلب، وودُّه وُدُّه، وله من اللِّسان حَمْدُه، وهو سيف الإسلام إن ضُرِبَ بحدِّه، أو صِيْنَ في غمده، لا زال المولى منوَّهاً باسمه، وَمُرَفَّهاً في جسمه، ومجرِّداً سَيْفَ عزمه، وسعيداً بحكم التوفيق فلا خرج التوفيق عن حُكْمه.

ومن كتابٍ عماديٍّ إلى الديوان بفتح الكَرَك* والشَّوْبك* وصَفَد* وكَوْكَب* يقول فيه: والآن فقد خَلَّص جميع مملكة القُدْس، وحَدُّها في سَمْتِ مصر من العريش، وعلى صوب الحجاز من الكَرَك والشَّوْبك، وتشتمل على البلاد السَّاحلية إلى منتهى أعمال بيروت، ولم يبق من هذه المملكة إلا صور.

وفتح أيضاً جميع إقليم أنطاكية ومعاقلها التي للفرنج والأرمن، وحَدُّه من أقصى بلاد جَبَلَة* واللاذقية إلى بلاد ابن لاون، وبقيت أنطاكية بمفردها، والقُصَير من حُصونها، ولم يبق من البلاد التي لم تفتح أعمالها، ولم تَحُلْ عما كانت عليه حالُها سوى طَرَابُلُس، فإنها لم يفتح منها إلا مدينة جُبَيْل*، وقد سحبت عليها المُهلة الذَّيل، ومعاقلها باقية، وليس لها من عذاب الله الواقع واقية.

والخادم الآن على التوجُّه إليها، وعَزْم النزول عليها، وأنه قد رتَّبَ الجانب القِبْلي والبلد القُدْسي، وشحن الثغور من حَدِّ جُبيل إلى عَسْقلان بالرِّجال والأموال، وآلات العُدَد، والعَدَد[1] المتواصل المَدَد، ورَتَّبَ فيها ولده الأفضل علياً لحمايتها، وحفظ ولايتها، وقَلَّد ولده العزيز عُثمان ولاية مِصْر ومملكة أقاليمها، لتهذيب أحوالها وتقويمها.

فصل

في باقي حوادث هذه السَّنة

قال العماد: ولما فرغ السُّلْطان من شغل القلاع، ونَزَل إلى الوهاد من التِّلاع، تجدَّدَ للأَجَلِّ الفاضل عزم مصر، فركب السُّلْطان معه للوداع، ثم تحوَّل إلى صحراء بَيْسان، وأقام بها إلى مستهل ذي الحِجَّة، ثم رحل يوم الجمعة مستهل الشهر ومعه أخوه العادل، وسلكا طريق الغَوْر* إلى القُدْس، ووصله يوم الجمعة ثامن الشهر،

(١) في (ك): بالرجال والآلات، والعُدَد والعَدَد.

وهو يوم التَّرْوية، وصَلَّى الجمعة في قُبَّة الصَّخْرة، وعَيَّد بها يوم الأحد الأضحى، وسار يوم الاثنين إلى عَسْقلان للنَّظر في مهامِّها، ونَظْمِ أسباب أحكامها، ثم أذن للعادل في العَوْدِ إلى مِصْر لمساعدة ولده العزيز، وودَّعه، وأعطاه الكَرَك*، وأخذ منه عَسْقلان، قاله ابن شداد(١). ورحل على سَمْتِ عَكَّا بعسكره، موفَّقاً في مورده ومَصْدَرِه، فما عَبَرَ ببلدٍ إلا قَوَّىٰ عُدَده، وكَثَّر عَدَده(٢).

وانفصل العمادُ عن خدمته إلى دمشق عند رحيله من بَيْسان لعارِضِ مرضٍ سَلَبَهُ الإمكان، وما زال منفصلاً عنه إلى أن وصل السُّلْطان دمشق بعد شهرين مستهل صَفَر من السَّنة الجديدة(٣).

وفي هذه السنة في الثالث والعشرين من رمضان توفي الأمير مجد الدين مُؤَيَّد الدَّوْلة أُسامة بن مُرْشد بن علي بن منقذ، وكان مولده بشَيْزَر* سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، فبلغ عمره ستاً وتسعين سنة(٤).

---

(١) يعني قوله: أعطاه الكرك، وأخذ منه عسقلان. انظر «النوادر السلطانية»: ٩٦.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٢٧٥.

(٣) انظر المصدر السالف.

(٤) سلفت أخباره في أثناء هذا الكتاب، انظر بخاصة ص ٣٥٢ وما بعدها من الجزء الأول، وص٤٣٢ ـ ٤٣٥ من الجزء الثاني. وقد ترجم له العماد في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٩٨ ـ ٥٤٧، وياقوت الحموي في «معجم الأدباء»: ٥/ ١٨٨ ـ ٢٤٥، وابن خلكان في «وفيات الأعيان» ١/ ١٩٥ ـ ١٩٩، والمنذري في «التكملة»: ١/ ٩٥ ـ ٩٦، والذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٦٥ ـ ١٦٦، وكتب أسامة أطرافاً من سيرته الذاتية في كتابه «الاعتبار»، وهو كتاب ممتع مشهور. وساق العلامة أحمد محمد شاكر ترجمته وطائفة من شعره في مقدمة كتابه «لباب الآداب». وللأستاذ حسن عباس كتابٌ في سيرته وشعره، طبع سنة ١٩٨٠ بمصر، وهو من أحسن ما ألف عنه.

وفيها في الثّامن والعشرين من جُمادى الأُولىٰ توفي الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عُثمان بن حازم الحازمي الهَمَذاني ببغداد، صاحب المصنَّفات على صِغَرِ سِنِّه، منها «العُجَالة»[1]، و «النَّاسخ»[2] وغيرهما. ومولده سنة ثمانٍ أو تسع وأربعين وخمس مئة، رحمهما الله تعالى[3].

قال العماد: ووصل كتابٌ من مصر، ونحن على حصار صفد* أن اثني عشر رَجُلاً أعلنوا بشعار أهل القَصْر، ودخلوا من باب زُويلة* إلى قُرْب الصَّياقلة مجذوبي السيوف لإدالة الدَّولة الزَّاهقة، ونُصْرة الدَّعوة الباطلة، وهم ينادون بآل عليٍّ، وفي زعمهم أنَّهم يَقيلُون[4] بالصَّوْلة، ويقلبون[5] بالبأس لباس الدَّوْلة، ويخالون أنهم إذا ثاروا أثاروا، وإذا داروا أداروا، فما اكترث بهم مكترث، ولا انبعث إليهم منبعث، فلما تحقَّقوا أنهم لا مجيب لهم ولا داع،
١٣٨/٢ تَفَرَّقوا في الدروب واضمحلُّوا، وكانوا عقدوا على الوفاء فانحلُّوا، ثم أُخذوا ووُقذوا، واعْتُقلوا ولم يُسْتَنْقَذوا.

---

(١) هو «عجالة المبتدي وفضالة المنتهي» طبع بالقاهرة سنة (١٩٦٥ م) بتحقيق الأستاذ عبد الله كنون.

(٢) هو «كتاب الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار» طبع مرتين في الهند، طبعته الثانية سنة (١٣٥٩ هـ)، (١٩٤٠ م).

(٣) انظر ترجمته في «طبقات علماء الحديث» لابن عبد الهادي: ٤/١٣٦ ـ ١٣٨، وقد استقصيتُ ثمة مصادر ترجمته.

(٤) في الأصل: يقبلون، وفي (ب): يقتلون، والمثبت من (ك)، وقال يقيل بمعنى غلب. انظر «القاموس المحيط» (قول).

(٥) في (ك): ويغلبون.

ولما علم السُّلْطان بهذا الأمر عَرَاه الهَمُّ، وتَضَجَّر بمن على بابه من وفود مِصْر، وقال: إلى متى نتحمل منهم هذا، وهمَّ بطردهم وردعهم وردِّهم. وكان قد وفد إلى الباب السُّلْطاني جماعةٌ من أولاد الوزراء المِصْريين، والأمراء بها المُقَدَّمين، ومن أهل المعروف المعروفين، ووافق ذلك دخول الفاضل إليه، فأخبره بالخبر، فقال له: يجب أن تشكر الله على هذه النِّعْمة، فقد عرفتَ بهذا طاعة رَعِيَّتك، وموافقة نياتهم لنيَّتك، أليس لم يُلَبِّ دعوتَهم أحد؟ ولم يكن من ورائهم مدد؟ فَطِبْ نَفْساً، وزد بمنزلتك عند الله أُنساً.

فقال السُّلْطان: كان الملوك قبلي تخافهم وتهربُ منهم الرَّعِيَّة، وتتوقَّع منهم البَلِيَّة، والآن فقد تكاثروا علينا، وتوافدوا إلينا حتى أضجرونا وأَمَلُّونا ونَفَّرونا، فإذا ركبنا أو نزلنا تعاورونا بالقِصص، وساورونا بالغُصص.

فقال له: أنت أَوْلى بشكر الله على هذه العارفة، كان بمصر من صاحب القصر وأشياعه، وخدمه وأتباعه، وأمرائه وخواصِّه، وذوي استخلاصه وجهاته وإلزامه كل من كان يرتع الخَلْقُ في رياض إنعامه، وكان بالشَّام في كل بلد والٍ وصاحب، له على أهله نِعَمٌ ومواهب، وملوك يلوذ بهم الأقارب والأجانب، واليوم أنت سلطان الجميع، وقد رَدَّ الله الآمال في تلك الصَّنائع كلِّها إلى ما لَكَ من حُسْنِ الصَّنيع، وقد اجتمع أولئك المتفرِّقون على بابك، ووفدوا إلى جَنابك، فلا يجدون بعد الله إلا وُجودك وَجُودك، فأكرم وفودك.

فاغرورقت بالدُّموع عيناه، وبالسَّماح يداه، وأقسم أنه ما عاش

لا يردُّ قاصداً، ولا يَصُدُّ وافداً، وتقدَّم في الحال بقضاء حقوق الوافدين، وإنجاح آمال القاصدين.

قلت[1]: وكتب إلى السلطان في هذا المعنى أبو الفتح سِبْط [ابن][2] التَّعاويذي من بغداد[3]:

فلا يُضْجِرَنْك ازْدِحامُ الوُفُودِ ... عليكَ وكَثْرَةُ ما تَبْذُلُ
فإنَّك في زَمَنٍ ليس فيهِ ... جَوَادٌ سِوَاكَ ولا مُفْضِلُ
وقد قَلَّ في أهله المُنْعِمُونَ ... وقد كَثُرَ البائِسُ المُرْمِلُ
وما فيه غَيْرُكَ من يُسْتَماحُ ... وما فيه إلاك من يُسْأَلُ

وقرأتُ رقعة بخط الفاضل: المملوك ينهي وصول فخر الكُتَّاب الجُوَيْني وقد كاد يَهْلِكُ من لهب الحَرِّ والمشقَّة [في السير][4]، وكيف يكون حال ابنُ السبعين مع المَرَضِ اللاَّزم والقولنج الدَّائم، ونحافة الأعضاء، وضعف القوة، واستشعار انقطاع الرزق الذي هو نظير انقطاع العمر. وما أظنُّ أنَّ الله أجرى على يد المولى ولا فَرَّح عدواً له بأن ينقطع رزق مثل هذا البقية الحسنة والضَّيف الرَّاحل والأديب الفاضل في أيام مولانا التي هي تاريخُ الكرم، ومواسم النِّعَم.

---

(١) من هنا وحتى قوله ص ٦٣ «ثم دخلت سنة خمس وثمانين»: ليس في (ك) و(ب).
(٢) ما بين حاصرتين زيادة لا بد منها.
(٣) لا يصح هذا، وقد سلف أن سبط ابن التعاويذي توفي في ثاني شوال سنة (٥٨٣ هـ)، وجاء في «ديوانه» ص ٣٣٣ أن هذه القطعة كتبها في أثناء رقعة رفعها إلى ابن البخاري. انظر ص ٤٢٦ من الجزء الثالث.
(٤) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/١٣٨.

وفي آخرها: ومما يجب أن يعلم المولى أن أرزاق أرباب العمائم في دولته إقطاعاً وراتباً يتجاوز مئتي ألف دينار بشهادة الله، وربما كانت ثلاث مئة ألف دينار.

وفي الرُّقعة بالخَطِّ الصَّلاحي: وقفتُ على رقعة القاضي الفاضل، وما نقطع لأحدٍ رزق إن شاء الله تعالى، بل هي علالات، نحن مثل الغريم المنكسر نرضى لذا بمال ذا، وعلى الجملة ما تقدَّمْتُ بقطع [رزق][1] أحد، وقد عَلَّمت[2] فيها، اكتب فيها الذي لهما ولغيرهما إن شاء الله تعالى.

كان في آخر الرقعة ذكر الجمال الحنفي وكأنه كان له مثل حاجة الجُوَيني، رحم الله الكل أجمعين، إن شاء الله تعالى.

ثمَّ دخلت سنة خَمْسٍ وثمانين [وخمس مئة][3]

قال العماد: والسُّلْطان في عكا، نافذ الأمر، نابه القدر، فأحكم أمرها، وكَشَفَ ضُرَّها، واستحضر جماعةً من مصر يحمي بهم الثَّغر، فما انفصل حتى وصلوا، واتَّبعوا أمره وامتثلوا، وتقدَّم بهاء الدين قراقوش بإتمام العمارات، وولَّى حُسام الدِّين بشارة، وعَوَّل عليه في الولاية والحفظ والحماية[4].

وقال القاضي ابن شداد: أقام بعكا معظم المُحَرَّم يصلح

(١) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/١٣٨.

(٢) من العلامة: وهي ما يكتبه السلطان بخطه على صورة اصطلاحية، وكان لكل سلطان علامةٌ وتوقيع.

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

(٤) انظر «الفتح القسي»: ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

أحوالها، ورتَّبَ فيها بهاء الدين قَرَاقُوش والياً، وأمره بعمارة السُّور، والإطناب فيه ومعه حسام الدين بشارة، وسار يريد دمشق، فدخلها مستهل صَفَر[1].

قال العماد: وولَّى مملوكه فارس الدِّين كشتغدي شَهْرُزور* وأعمالها، وكان قد تَزَوَّج بأُخت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق، فولاه ذلك لِقُرْب الولاية القفجاقية من الشّهرزورية، وقصد حصول المناصرة بحكم المصاهرة.

قال: وحَكَّم السُّلْطان بدر الدين مودوداً في ولاية دمشق، وجَدَّد له منشوراً بإنشائي، وفيه: وقد قَلَّدناه أمر دمشق وجهاتها وأعمالها، والحشري[2] والزَّكوات، وكل ما يجري في الدِّيوان، وما يُبْتاع للخزانة، وولاية المرج والغوطة وما يُضاف إليها من الأعمال، وولاية الجبل ووادي بردىٰ* ويَبُوس*، وتولي الشُّحنكيات* وحِفْظ الطُّرُقات.

ثم رحل السُّلْطان إلى طبرية، فألحقها بمعدلته العُمرية، ثم
وصل وأقام بدمشق شهر صفر، وَوَجْه الدِّين به قد سَفَر، وعَزَّ من ١٣٩/٢
آمن وذَلَّ من كفر، وبدأ بحضور دار العدل* وحكم بالشَّرْع المُطَهَّر.

ووصل في ثاني عشر صفر رسول الديوان ضياءُ الدين عبد الوَهَّاب بن سُكَيْنة[3]، والوزير يومئذٍ معز الدين بن حديدة[4]

(١) «النوادر السلطانية»: ٩٦.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٥٣ من الجزء الأول.
(٣) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦٠٧ هـ).
(٤) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٦١٠ هـ).

يأمر بالخطبة لولي العهد عُدَّة الدِّين أبي نَصْر محمد[1] ابن الإمام النَّاصر، فاستقبله السُّلْطان وأولاده وأمراؤه وأجناده، وخطب له بذلك يوم الجمعة ثالث عشر صفر خطيب دمشق ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد الدَّوْلَعي[2]، فلما انقضتِ الخطبةُ وعاد الرسول سَيَّرَ السلطان معه رسوله ضياء الدين القاسم بن يحيى الشَّهْرُزُوري، وسُيِّرَتْ معه الهدايا، والتُّحَف السَّنايا، وأسارى الفرنج الفوارس، وَعُدَدُها النَّفائس، وتاج ملكهم السَّليب، والملبوس والطِّيب والصَّليب، وهو الذي كان فوق قُبَّة الصَّخْرة المقدَّسة، ليدلَّ على تطهير ما كان هناك من الأسباب المدنَّسة، وسار الضياآن رسولُهم ورسولُ السُّلْطان، ودخلا بغداد، وأسارى الفرنج على هيئتها يوم قراعها، راكبةً حُصُنها في طوارقها وبيارقها وأدراعها، قد نُكِّست بنودها، وأُتعست أنوفها، وهيئت على هيئة فتوحنا حتوفُها.

قلت: وقال ابنُ القادسي[3]: قَدِمَ ابن الشَّهْرُزُوري[4] ومعه صليب الصلبوت الذي تعظِّمه النَّصارى، فدفن تحت عتبة باب النوبى[5] الشَّريف يبينُ منه شيء قليل، وكان من نحاسٍ، وقد طُلِيَ بالذهب، فجعل يُداس بالأرجل، وَيَبْصُقُ النَّاس عليه، وذلك في سادس عشر ربيع الآخر.

---

(1) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٦٢٣ هـ).
(2) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين»، وفيات سنة (٥٩٨ هـ).
(3) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من الجزء الثالث.
(4) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٠ من الجزء الثالث.
(5) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٥٣ من الجزء الثالث.

كذا قال: صليب الصلبوت، وقد نَصَّ العماد في «البرق» على أنه الصليب الذي كان فوق الصَّخرة، وهذا غير ذلك، والله أعلم.

ثم إن الخليفة النَّاصر اعتقل ابنه هذا بعد مُدَّة في سنة إحدى وست مئة، وأراده على خَلْع نفسه من ولاية العهد، ففعل، وأشهد على نفسه بذلك، ثم قضى الله سبحانه أن أعاد إليه ولاية العهد في أواخر عمره، فخطب له بذلك، ونُقِشَ اسمُه على الدِّينار والدِّرْهم إلى أن توفي النَّاصر سنة اثنتين وعشرين، وتولَّى بعده، فأقام نحو تسعة أشهر، ولقِّب بالظَّاهر، ثم توفي، وولي ابنه المستنصر المنسوب إليه المدرسة ببغداد، ثم توفي سنة أربعين، وولي ابنه المستعصم بالله وهو الخليفة الآن.

قال[1] المؤلف: ثم أهلكه التَّتار عام استولوا على بغداد في أول سنة ست وخمسين وست مئة[2]، والله المستعان[1].

فصــل

في فَتْحِ شقيف أَرْنُون*

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وهو موضعٌ حصين قريبٌ من بانياس*، خرج السُّلْطان من دمشق بعد صلاة الجمعة في الثَّالث من ربيع الأول، فسار حتى نزل في مرج فلوس، ونَزَلَ من الغد يوم

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ك) و(ب).

(٢) في الأصل: وخمس مئة، وهو سبق قلم من المؤلف ـ رحمه الله ـ وقد وضع ضبة، وكتبت في الهامش بخط مغاير على الصواب.

السبت في مرج بُرْغُوث، فأقام به والعساكر تتتابع إلى حادي عشره، ورحل إلى بانياس، ومنها إلى مرج عيون، فخيَّم به وهو قريبٌ من شقيف أرنون، بحيث يركب كل يوم يشارفه ويعود، والعساكر تجتمع وتطلبه من كل صوب.

فأقمنا أياماً نشرفُ كلَّ يوم على الشَّقيف، والعساكر الإسلامية في كل يوم تصبح متزايدة العَدَد والعُدَد، وصاحب الشقيف يرى ما يتيقَّن معه عدم السَّلامة، فرأى أن إصلاح حاله معه قد تعيَّن طريقاً إلى سلامته، فنزل بنفسه، وما أحسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان، فأَذِنَ له، فدخل، فاحترمه وأكرمه، وكان من كبار الفرنجية وعقلائها، وكان يعرف بالعربية، وعنده اطِّلاع على شيء من التَّواريخ والأحاديث.

قال: وبلغني أنه كان عنده مسلمٌ يقرأُ له ويفهِّمُهُ، وكان عنده تأتٌّ، فحضر بين يدي السُّلْطان، وأكل معه الطعام، ثم خلا به، وذكر أنه مملوكه وتحت طاعته، وأنه يسلِّم المكان إليه من غير تَعَبٍ، واشترط أن يُعْطىٰ موضعاً يسكنه بدمشق، فإنَّه لا يقدر بعد ذلك على مساكنة الفرنج، وإقطاعاً بدمشق يقوم به وبأهله، وأنه يُمكَّنُ من الإقامة بموضعه، وهو يتردَّدُ إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذي كان فيه حتى يتمكَّن من تخليص أهله وجماعته من صور، ويأخذ مغل هذه السنة، فأُجيب إلى ذلك كلِّه. وأقام يتردَّدُ إلى خدمة السلطان في كل وقتٍ، ويناظرنا في دينه ونناظره في بُطْلانه، وكان حَسَنَ المحاورة، متأدباً في كلامه.

ثم استفاض بين النَّاس أن صاحب الشقيف فعل ما فعله من المُهْلة غِيْلَةً، لا أنه صادق في ذلك، وإنما قصد به تدفيع الزَّمان، وظهرت لذلك مخايلُ كثيرة من الخوض في تحصيل الميرة، وإتقان الأبواب، فرأى السُّلْطان أن يصعد إلى سطح الجبل لِيَقْرُبَ من المكان، ويمنع من دخول نجدةٍ وميرةٍ إليه، وأظهر أنَّ سببَ ذلك شِدَّة حُمُوّ الزمان، والفرار من وَخْمِ المرج، فنزل صاحِبُهُ، وسأل أن يُمْهَلَ تمام سنة، فماطله السُّلْطان وما آيسه، وقال: نفكر في ذلك ونجمع الجماعة، ونأخذ رأيهم. ثم وكَّل به من حيث لا يشعر إلى أن كان من أمره ما سنذكر[١].

قال: وفي أثناء ربيع الأول وصل الخبر بتسليم الشَّوْبك*، وكان قد أقام السُّلْطان عليه جمعاً عظيماً يحاصرونه مُدَّة سنة حتى فرغت أزوادهم، وسلَّموه بالأمان[٢].

وقال العماد: كان الشقيف في يد صاحب صيدا أرناط[٣]، وقد أكمل في حفظه الاحتياط، فنزل إلى خدمة السُّلْطان، وسأل أن يُمْهَلَ ثلاثة أشهر يتمكَّن فيها من نقل مَنْ بصور من أهله، وأظهر أنَّه محترز من علم المركيس ـ لعنه الله ـ بحاله فلا يسلم من جهله، وحينئذ
٢/١٤٠ يسلِّم الموضع بما فيه، ويدخل في طاعة السُّلْطان ومراضيه، ويخدمه على إقطاعٍ يغنيه، وعن حُبِّ أهل دينه يسليه، فأكرمه وقَرَّبه، وقضى أَرَبه، وأجابه إلى ما سَأله، وقَبِلَ منه عزيزاً ما بِذُلِّه

(١) «النوادر السلطانية»: ٩٧ ـ ٩٨، ١٠٢.
(٢) «النوادر»: ٩٨. وانظر ص ١١٨ من هذا الجزء.
(٣) هو Reynold Garnier lord of Sidon and Beaufort.

[بَذْلَه][(١)]، واقتنع بقوله ولم يأخذ رهينة، ووجد إليه سكوناً وسكينة. فشرع أرناط في إذالة[(٢)] حِصْنه، وإزالة وَهْنه، وترميم مستهدمه، وتوفير غلاله، وتدبير أحواله، ونحن في غِرَّة من تحفُّظه، وفي سِنَةٍ من تيقُّظه.

وكان يبتاع من عسكرنا الميرة، ويكثر فيه الذَّخيرة، وقد أضمر الغدر، وظَنَّ أَنَّ له النَّصر، والسلطانُ حَسَنُ الظَّنِّ به، يحمل صدق الواشي به على كذبه، وكان انتهاء المُدَّة يوم الأحد ثامن عشر جُمادى الآخرة، وأقام السُّلْطان بالمرج ينتظر انسلاخ الهُدْنة، وتسليم الحِصْن، وخاف إن فارقه أن تجيء أمداد الفرنج إليه، وكان مشفقاً أيضاً من جانب أنطاكية لانتهاء أشهر هُدْنتها، فكتب إلى تقي الدين بالمقام في تلك الخُطَّة، وسَيَّرَ بذلك الفقيه عيسى الهَكَّاري، ولم يستدعِ إلا صاحب آمِد قُطْب الدين سُكْمان بن قَرَا أرسلان، فجاء في أمداده وأعداده، ولازم السُّلْطان، فلما قَرُبَ انتهاء مُدَّة صاحب الشَّقيف أحضره السُّلْطان، فتضرَّعَ، وقال: إنَّ قومي إلى الآن لم يخلصوا من صور، وقد أنعمتَ فأتمم. وسأل أن تكون المُهْلَة سنة، فعرف السلطان من فحوى الخطاب أمارات الارتياب، فكلَّمه بإيناس، وما رَدَّه بياس، فأرخى طِوَلَهُ[(٣)]، وأرجى أَمَلَه.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) يقال: أذال فلان ثوبه: إذا أطال ذيله، وهي هنا بمعنى رممّه ووسعه. انظر «اللسان» (ذيل).

(٣) الطِّوَل: حبل طويل تشد به قائمة الدابة، يرخى لها لترعىٰ. انظر «اللسان» (طول).

وأمر السلطانُ بتحويل الخيم إلى ظهر الجبل، ليقرب من الحِصْن، وقد بقي من الهُدْنة يومان، فتضوَّر صاحب الحصن، فقيل له: تقيم عندنا في كنف الأمان. فبكى وتألَّم من ضَبْطه، وانكشفت سريرتُهُ الغادرة، فأمر بحمله إلى الشقيف حتى يُسَلِّمه، ووكَّلَ به وحُفِظَ من حيث لا يعلم، وقيل: لعله يحسن، ولا يحوج إلى المقابحة ويسلِّم، وقيل له: قد بقي يومان من المُدَّة، تقيم حتى تنتهي وتسلم. فأبدى ضرورةً[1] وضراعة، وقال: سمعاً وطاعة.

وكان له مَلْقًى ومَلَق، وفي لسانه ذَلَقٌ، وما عنده من كلٍّ ما يفرق منه فَرَق، وقال: أنا أنفِّذ إلى نوَّابي في التسليم، وهو قد تقدَّم إليهم بالوصيَّة والتعليم، فأظهروا عصيانه، وقالوا: يبقى مكانه.

فقيِّد وحُمِلَ إلى قلعة بانياس*، وبطل الرجاء فيه، وبان الياس. ثم استحضره في سادس رجب وهدَّده وتوعَّده، فلما لم يُفِدْ خطابه، ولم يُجْدِ عَذَابه، سَيَّره إلى دمشق وسجنه، ورَتَّب عِدَّةً من الأمراء بملازمة حَصْرِ الحِصْن في الصَّيْف والشتاء إلى أن تسلَّمه بعد سنة بحكم السِّلْم، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حُكْمَ الحِلْم[2].

فصــل

وفي مُدَّة مقام السُّلْطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أَرْنُون اجتمعتِ الفرنج، وجَرَتْ[3] لهم مع المسلمين وقائع.

---

(١) الضرورة: الحاجة. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٥٤٤.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٢٨٥ ـ ٢٨٨.

(٣) في الأصل: وجرى، والمثبت من (ك) و(ب).

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: كان السلطان قد اشترط على نفسه حين تسلَّم عسقلان أنه إن أمر الملك مَنْ بها بتسليمها أطلقه، فأمرهم بتسليمها، وسلَّموها، فطالبه الملك بإطلاقه، فأطلقه وفاءً بالشَّرْط ونحن على حصن الأكراد*، أطلقه من أَنْطَرطُوس*، واشترط عليه أن لا يشهر في وجهه سَيْفاً أبداً، وأن يكون مملوكه وطليقه، فنكث ـ لعنه الله ـ وجمع الجموع، وأتى صور يطلب الدُّخول إليها، فخيَّم على بابها يُراجع المركيس الذي كان بها في ذلك، وكان المركيس اللَّعين رجلاً عظيماً، ذا رأي وبأسٍ شديد، وصرامةٍ عظيمة، فقال له: إنني نائب الملوك الذين وراء البحر، وما أذنوا لي في تسليمها إليك.

وطالت المراجعة، واستقرَّت القاعدة بينهما على أن يتفقوا جميعاً على المسلمين، وتجتمع العساكر التي بصور وغيرها من الفرنجية على المسلمين، وعسكروا على باب صور.

ولما كان يوم الاثنين سابع عشر جمادى الأُولى بلغ السلطان من جانب اليَزَك* أنَّ الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور* وأرض صيدا*، وهي الأرضُ التي نحن عليها، فركب السُّلْطان بعسكره نحو اليَزَك، فوصل وقد انفصلت الوقعة، وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعةٌ الجسرَ، فنهض إليهم يَزَك الإسلام، وكانوا في عُدَّة وقُوَّة، فقاتلوهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وجرحوا أضعاف ما قتلوا، ورموا في النَّهر جماعةً، فغرقوا، ولم يُقتل من المسلمين إلا مملوك للسُّلْطان يُعرف بأَيْبَك الأخرش، وكان شجاعاً باسلاً،

مجرّباً للحرب ممارساً، فتقطّر[1] به فرسُه، فلجأ إلى صخرةٍ فقاتل بالنُّشَّاب حتى فنيَ، ثم بالسَّيْف حتى قَتَلَ جماعةً، ثم تكاثروا عليه فقتلوه.

وفي يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأُولى ركب السُّلطان يشرف على القوم على عادته، فتبع العَسْكَرَ خَلْقٌ عظيم من الرَّجَّالة والغُزَاة والسُّوقة، وحرص ـ رحمه الله ـ في رَدِّهم فلم يفعلوا، وخاف عليهم، فإنَّ المكان كان حَرِجاً[2] ليس للرَّاجل فيه ملجأ، ثم هجم الرجَّالة إلى الجسر، وناوشوا العدو، وعَبَرَ منهم جماعة إليهم، وجرى بينهم قتالٌ شديد، واجتمع لهم من الفرنج خَلْق عظيم وهم لا يشعرون، وكشفوهم بحيث علموا أن ليس وراءهم كمين، فحملوا عليهم حملةً واحدة على غِرَّة من السُّلْطان، فإنه كان بعيداً عنهم، ولم يكن معه عسكر، فإنَّه لم يخرج للقتال، وإنما ركب مستشرفاً
١٤١/٢ عليهم على العادة في كلِّ يوم.

ولما بان له الوقعة، وظهر له غُبارها، بعث إليهم من كان معه ليردُّوهم، فوجدوا الأمر قد فَرَطَ، والفرنج قد تكاثروا حتى خافت منهم السَّرِيَّة التي بعثها السلطان، وظفروا بالرَّجَّالة ظفراً عظيماً، وأسروا جماعة، وعُدَّ من قُتِلَ من الرَّجَّالة في ذلك اليوم، فكان عددُ الشهداء مئةً وثمانين نفراً، وقُتِلَ أيضاً من الفرنج عِدَّة عظيمة، وغرق أيضاً منهم عِدَّة.

---

(١) أي سقط. «اللسان» (قطر).

(٢) مكان حَرَج وحَرِج: أي مكان ضيق كثير الشجر. «اللسان» (حرج).

وكان ممن قُتل منهم مقدَّم الألمانية، وكان عندهم عظيماً محترماً، واستشهد في ذلك اليوم من المعروفين من المسلمين الأمير غازي بن سعد الدين مسعود بن البصار، وكان شاباً حسناً شجاعاً، واحتسبه والده في سبيل الله، ولم تقطر من عينه عليه دمعة على ما ذكره جماعةٌ لازموه.

قال: وهذه الوقعة لم يتَّفق للفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتُها وشاهدتُها، ولم ينالوا من المسلمين مثل هذه الوقعة في هذه المُدَّة.

ولما رأى السلطان ما حَلَّ بالمسلمين من هذه الوقعة النَّادرة جمع أصحابه وشاورهم، وقَرَّر معهم أنه يهجم على الفرنج، ويعبر على الجسر، ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم.

وكان الفرنج قد رحلوا عن صور، ونزلوا قريب الجسر، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ وزائد على فرسخ، فلما صَمَّم العزم على ذلك رحل الفرنج عائدين إلى صور، ملتجئين إلى سُورها، فرأى ـ رحمه الله ـ أن يسير إلى عكَّا ليلحظ ما بني من سورها، ويحثَّ على الباقي، فراح على تِبْنين*، ولم يرجع على مرج عيون، فمضى إلى عكا، فَرَتَّب أحوالها، وعاد إلى العسكر بمرج عيون منتظراً مُهْلَة صاحب الشَّقيف.

ولما كان يوم السبت سادس جمادى الآخرة بلغه أَنَّ جماعةَ من رَجَّالة الفرنج[1] يتبسَّطون، ويصلون إلى جبل تِبْنين يحتطبون،

---

(١) في (ك) و(ب): العدو.

وفي قلبه من رَجَّالة المسلمين وما جرى عليهم أمرٌ عظيم، فرأى أن يقرِّر قاعدة كمين يرتِّبه لهم، وبَلَغه أنهم يخرج وراءهم أيضاً خيل يحفظهم، فعمل كميناً يصلح للقاء الجميع، ثم أنفذ إلى عسكر تِبْنين أن يخرجوا في نفرٍ يسير غائرين على تلك الرَّجَّالة، وأن خيل العدوِّ إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهةٍ عَيَّنها لهم، وأن يكون ذلك صبيحة الاثنين ثامن جمادى الآخرة، وأرسل إلى عسكر عكَّا أن يسير حتى يكون وراء عسكر العدو، حتى إن تحرَّكوا في نُصْرة أصحابهم قصدوا خيمهم.

وركب هو وجحفله إلى الجهة التي عَيَّنها لهزيمة عساكر تِبْنين[1]، حتى قطع تبنين، وَرَتَّب العسكر ثمانية أطلاب* واستخرج من كل طُلْب عشرين فارساً، وأمرهم أن يتراءوا حتى يظهروا إليهم ويناوشوهم، وينهزموا بين أيديهم، حتى يصلوا إلى الكمين، ففعلوا ذلك، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم، يَقْدُمُهم الملك ـ لعنه الله ـ وجرى بينهم وبين هذه السرية اليسيرة قتالٌ شديد، والتزمت السرية القتال، وأنفوا من الانهزام بين أيديهم[2]، وحملتهم الحَمِيَّة على مخالفة السلطان.

واتصل الخبر بالسلطان في أواخر الأمر وقد هجم الليل، فبعث بعوثاً كثيرة، فعاد الفرنج ناكصين على أعقابهم، وقتل من

---

(١) في (ك): المسلمين.
(٢) في الأصل: والتزمت السرية الانهزام بين أيديهم، والمثبت من (ك) و(ب).

الفرنج عشرة أنفس، ومن المسلمين ستة: اثنان من التُّرْك، وأربعة من العرب، منهم الأمير زامل، وكان شاباً تاماً، حسن الشَّباب، يتقدم عشيرته، وكان سبب قتله أنه تَقَطَّرَتْ[1] به فرسه، ففداه ابنُ عَمِّه بفرسه، فتقطرت به أيضاً، وأُسر هو وثلاثة من أهله، فلما بَصُرَ الفرنج بمددِ العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجُرِحَ خَلْقٌ كثيرٌ من الطَّائفتين وخيلٌ كثيرة.

قال: ومن نوادر هذه الوقعة أن مملوكاً من مماليك السُّلْطان يقال له أَيبَك أُثخن بالجراح حتى وقع بين القتلى وجراحاته تَثْعَبُ[2] دماً، وبات ليله أجمع على تلك الحال إلى صبيحة يوم الثلاثاء، فتفقَّده أصحابه فلم يجدوه، فعرَّفوا السلطان فَقْدَه، وأنفذ من يكشف عن حاله، فوجدوه بين القتلى، فحملوه إلى المخيَّم، وعافاه الله، وعاد السُّلْطان إلى المخيم يوم الأربعاء عاشر الشهر فرحاً مسروراً[3].

وقال العماد: اجتمع من كان سَلِمَ من الفرنج ونجا على ملكهم الذي خَلَص من الأسر، وقالوا: نحن في جَمْعٍ جَمٍّ، خارج عن الحصر، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر، فَثُرْ بنا للثار، وأَعْرِنا من هذا العار. وجاء من كان بطرابُلُس، وخَيَّموا على صور، واتفقوا [على][4] أنهم يقصدون بلداً إسلامياً من السَّاحل، ويقيمون عليه،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٢ من هذا الجزء.
(٢) تثعب: تجري. «اللسان»(ثعب).
(٣) «النوادر السلطانية»: ٩٨ ـ ١٠١.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

والمركيس يمدُّهم من صور بالمَدَد والعُدَد. ثم جاء الخبر أنهم على قَصْدِ صيدا للحصر، وقد جَسَرُوا على عبور الجسر، ووقعت عليهم اليَزَكية* فردُّوهم، ووقع في الأسر من سباعهم سبعة، فحملوا إلى سجن دمشق. ثم ذَكَرَ قَتْلَهم للغُزاة المطَّوِّعة على الجسر[1].

وقال: لم يصب الكُفَّار من المسلمين مُذْ أصيبوا غير هذه الكرَّة، وأذاقُونا بعد أن حلا لنا جَنىٰ الفتوحات مرارة هذه المرة، فأيقظنا الله من رقدة الغِرَّة، وأخذ النَّاس حِذْرهم، وقالوا بهذا وعد الله حيث قال: ﴿فَيَقْتُلُون ويُقْتَلُون﴾[2]، وعباده هم الذين يتَّبعون أمره ويمتثلون. ثم ذَكَرَ وقعة الكمين[3].

قال: وكان مع المسلمين أربعةٌ من أمراء العرب، فحملوا كما وصَّاهم السلطان على عزم الطِّراد ليقصدوا الكمين، وسلكوا أسفل الوادي وإنَّما الطَّريق أعلاه، ولا خبرة لهم بتلك الأرض، فعرف ١٤٢/٢ الفرنج أنهم ضائعون، فطاردوهم ورَدُّوهم إلى المضيق، وأَنِفَتِ العربُ من الهزيمة فاستشهدوا.

قال: وكان معهم مملوكٌ للسُّلْطان يقال له أَيْبَك السَّاقي، فاعتزل إلى صخرةٍ، واحتمى بها، ونَكَب كِنانته[4] ورماهم بنُشَّابها، وهم لا

(١) انظر ص ٧٢ من هذا الجزء.

(٢) سورة التوبة، الآية ١١١.

(٣) انظر ص ٧٤ من هذا الجزء.

(٤) نكب كنانته: نثر ما فيها، وقيل: إذا كبَّها ليخرج ما فيها من السهام. «اللسان» (نكب).

يقدرون على الاقتحام إليه بالخيل، فرموه بالزنبورك* حتى كَثُرَت فيه الجراحات، وظَنُّوا أنه قد مات، ووصل الخبر إلى المسلمين فأدركوهم، ووقفوا على الشُّهداء وقبروهم، وجاؤوا إلى أَيْبَك، فوجدوا فيه الرُّوح، فنقلوه إلى الخيام وهم يظنون أنه لا خلاص له من الحِمام، وكان في أجله باقية، فَمَنَّ الله عليه بالعافية[1].

فصــل

في نزول الفرنج ـ خذلهم الله ـ علىٰ عَكًا

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ثم بَلغَنا بعد ذلك أَنَّ الفرنج بصور ومن كان مع الملك قد ساروا نحو النَّواقير يريدون جهة عكا، وأَنَّ بعضهم نزل بإسْكَندرونة*، وجرى بينهم وبين رَجَّالة المسلمين مناوشة، وقَتَلَ منهم المسلمون نفراً يسيراً، وأقاموا هناك.

ولما بلغ السلطانُ حركتهم إلى تلك الجهة عَظُمَ عليه، ولم ير المسارعة خوفاً من أن يكون قصدهم ترحيله[2] عن الشَّقيف لا قصد المكان، فأقام مستكشفاً للحال إلى يوم الأحد ثاني عشر رجب، فوصل قاصد* أخبر أَنَّ الفرنج في بقية ذلك اليوم رحلوا، ونزلوا عين بَصَّة، ووصل أوائلهم إلى الزَّيب*، فَعَظُمَ ذلك عنده، وكتب إلى سائر أرباب الأطراف بالمسير إليه، وتقدَّم إلى الثَّقَل أن سار بالليل، وأصبح هو يوم الاثنين ثالث عشر رجب سائراً إلى عكا على

(١) انظر «الفتح القسي»: ٢٨٩ ـ ٢٩٥.
(٢) في الأصل و(ب): ترحيلهم، والمثبت من (ك).

طريق طبرية، إذ لم يكن ثَمَّ طريقٌ يَسَعُ العسكر إلا هو، وسَيَّر جماعةً على طريق تِبْنين* يستشرفون العدوَّ، ويواصلون بأخباره.

وسرنا حتى أتينا الحُوْلَة* منتصف النَّهار، فنزل بها ساعة، ثم رحل، وسار طول الليل حتى أتى موضعاً يقال له مُنْية صبيحة الثُّلاثاء، وفيه بلغَنَا نزول الفرنج على عكا، وسَيَّر صاحبَ الشَّقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة على سوء صنيعه، واشتدَّ حُنُقُه عليه بسبب تضييع ثلاثة أشهر عليه وعلى عسكره لم يعملوا فيها شيئاً، وسار السلطان جريدةً من المُنْية حتى اجتمع ببقية العسكر الذي كان أنفذه على طريق تِبْنين* بمرج صَفُّورِيَة*، فإنه كان واعدهم إليه، وتقدَّم إلى الثَّقَل أن يلحقَهُ إلى مرج صَفُّورِيَة، ولم يزل حتى شارف العدوَّ من الخَرُّوبة*، وبعث بعض العسكر، ودخل عكا على غِرَّة من العدو، تقويةً[1] لمن فيها، ولم يَزَلْ يبعث إليها بعثاً بعد بَعْثٍ حتى حصل فيها خَلْق كثير.

وسار من الخَرُّوبة إلى تل كَيْسان* في أوائل مرج عكا، فنزل عليه، وأمر الناس أن ينزلوا على التعبية، فكان آخر الميسرة على طرف النَّهر الحلو، وآخر الميمنة مقاربَ تل العياضيَّة، واحتاط العسكر الإسلاميُّ بالعدو، وأخذوا عليهم الطُّرُق من الجوانب، وتلاحقت العساكر الإسلامية، واجتمعت، ورتَّبَ اليَزَك* الدَّائم، وحَصَرَ العدوَّ في خيامه بحيث لا يخرج منها[2] أحد إلا ويُجرح أو يُقتل.

---

(١) في الأصل: وتقوية، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: منهم، والمثبت من (ك).

وكان عسكر العدو على شَطْرٍ من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلّبين، قريباً من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفي فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفاً.

قال: وما رأيت من نَقَصَهم عن ذلك، ورأيتُ من حَزَرَهم بزيادة على ذلك، ومددُهُم من البحر لا ينقطع، وجرى بينهم وبين اليَزَك* مقاتلات عظيمة متواترة، والمسلمون يتهافتون على قتالهم، والسلطان يمنعهم من ذلك إلى وقته، والبعوث من عساكر المسلمين تتواصل، والملوك والأُمراء من الأقطار تتتابع، ووصل تقي الدين من حماة، ومُظَفَّر الدين بن زين الدين.

وفي أثناء هذه الحال توفي الحسام سُنْقُر الخِلاطي بإسهال شديد، وكان شجاعاً، دَيِّناً، فأَسِفَ المسلمون عليه[1].

ولما استفحل أمر الفرنج استداروا بعكا بحيث مَنَعوا من الدُّخول والخروج منها، وذلك سَلْخ رجب، فَعَظُمَ على السلطان، وضاق صدره، وثارت هِمَّتُه العالية في فتح الطَّريق إلى عَكَّا لتستمر السَّابلة إليها بالميرة والنَّجدة، فباكرهم مستهلَّ شعبان وضايقهم مضايقةً شديدة، فكانت الحملة بعد صلاة الجمعة، وانتشر عسكر العدوّ إلى أن ملكوا التلول، وكانت ميسرة عسكرهم إلى النَّهر[2] الحلو آخذةً إلى البحر، وميمنتهم قُبالة القلعة الوسطى التي لعكا، واتصلت الحربُ إلى أن حال بين الفئتين هجومُ الليل، وبات النَّاس

---

(١) وانظر ص ١٠٨ من هذا الجزء.

(٢) في النسخ الخطية: البحر، والمثبت من «النوادر».

على حالهم من الجانبين شاكِّين في السِّلاح، تحرُسُ كل طائفةٍ نفسها من الأُخرى.

وأصبحوا ثاني شعبان يوم السبت على القتال، وأنفذ السُّلْطانُ طائفةً من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالي عكا، ولم يكن هناك للعدو خيم، لكن عسكره كان قد امتدَّ جريدةً شمالي عكا إلى البحر، فحمل شجعان المسلمين على عسكر الفرنج الواقف شمالي عكا، فانكسروا بين أيديهم كسرةً عظيمة، وقتلوا منهم جمعاً كبيراً، وانكفَّ السَّالمون منهم إلى خيامهم، وهجم المسلمون خَلْفَهم إلى أوائل خيامهم، ووقف اليَزَك* الإسلامي مانعاً من أن يخرج من عسكرهم خارج، أو يدخل إليه داخل، وانفتح الطَّريق إلى عكا من باب القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قَرَاقُوش الذي جَدَّده،
١٤٣/٢ وصار الطريق مَهْيَعاً[١] يمرُّ فيه السوقيُّ، ومعه الحوائج، ويمرُّ به الراجل[٢] الواحد والمرأة، واليَزَك بين الطريق وبين العدو.

ودخل السلطان في ذلك اليوم إلى عكا، ورقي على السُّور، ونظر إلى عسكر العدو، وتراجع النَّاس عن القتال بعد صلاة الظهر لسقي الدَّوابّ، وأَخذ الراحة، ولم يعودوا إلى القتال.

وأصبحوا يوم الأحد، فرأى بعض الأمراء تأخير القتال إلى أن يدخل الرَّاجل كله إلى عكا، ويخرجوا مع العسكر المقيم بها من أبواب البلد على العدو من ورائه، وتركب العساكر من خارج من

---

(١) طريق مهيع: واضح واسع بَيِّن، وجمعه مهايع. «اللسان» (هيع).
(٢) في (ك) و(ب): الرجل.

سائر الجوانب، ويحملوا حملةَ الرجل الواحد، والسُّلْطان ـ رحمه الله ـ يُعاني هذه الأمور كلها بنفسه، ويصافحها بذاته، لا يتخلَّف عن مقامٍ من هذه المقامات، وهو من شِدَّة حرصه، ووفور هِمَّته كالوالدة الثَّكْلَىٰ.

ولقد أخبرني بعضُ أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه، وفعلوا ما كان عزموا عليه، واشتدت منعة العدو، وحمى نفسه في خيامه، ولم تَزَلْ سوق الحرب قائمة، تباع فيها النُّفوس بالنفائس، وتمطر سماء حربها الرؤوس من كل رئيس ومُتَرائس، حتى كان يوم الجمعة ثامن شعبان عزم العدوُّ[1] على الخروج بجموعهم، فخرج راجلهم وفارسهم، وامتدُّوا على التلول، وساروا الهوينا غير مفرِّطين في نفوسهم، ولا خارجين من راجلهم، والرَّجَّالة حولهم كالسُّور المبني يتلو بعضُهم بعضاً، حتى قاربوا خيام اليَزَك، فصاح السلطان بالعساكر الإسلامية، فركبوا بأجمعهم، وحملوا حملةَ الرجل الواحد، فعاد العدو ناكصاً على عقبيه، والسيفُ يعمل فيهم، فالسالم منهم جريح، والعاطب طريح، يشتدون هزيمة، يعثر جريحهم بقتيلهم، ولا تلوي الجماعة منهم على قبيلهم، حتى لحق بخيامهم من سَلِمَ منهم، وانكفُّوا عن القتال أياماً، وكان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم، ويحرسوا رؤوسهم، واستمرَّ فتح طريق عكا، والمسلمون يتردَّدون إليها.

---

(١) في (ك): العسكر.

قال: وكنتُ ممن دخل ورقي على السُّور، ودام القتالُ بين الفئتين متصلاً الليل مع النَّهار حتى كان الحادي عشر من شعبان، ورأى السُّلطان ـ رحمه الله ـ توسيع الدَّائرة عليهم، لعلهم يخرجون إلى مصارعهم، فنقل الثَّقَل إلى تل العياضية*، وهو تل قُبالة تل المصلّبين مشرفٌ على عكا وخيام العدو. وفي هذه المنزلة توفي حسام الدين طُمان[1]، وكان من شجعان المسلمين، ودُفِنَ في سطح هذا التل، وصَلَّيت عليه مع جماعةٍ من الفقهاء ليلة نصف شعبان.

وبلغ السلطانَ أنَّ جمعاً من العدو يخرجون للاحتشاش من طرف النَّهر، مما ينبت عليه، فكمَّنَ لهم جماعةً من العرب، وقَصَدَ العربَ لخفتهم على خيلهم، فهجموا عليهم، وقتلوا منهم خَلْقاً عظيماً، وأسروا جماعةً، وأحضروا رؤوساً عِدَّة بين يديه، وذلك يوم السبت سادس عشر[2] شعبان.

وفي عشية ذلك اليوم وقع بين العدو وبين أهل البلد حربٌ عظيمة قُتِلَ فيها جمعٌ عظيم من الطَّائفتين، وطال الأمر بين الفئتين، وما يخلو يوم عن قَتْلٍ وجَرْحٍ وسبي ونَهْب، وأَنِسَ البعضُ بالبعض بحيث إنَّ الطَّائفتين كانتا تتحدَّثان وتتركان القتال، وربما غَنَّى البعضُ، ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون إلى القتال بعد ساعة[3]، وسئموا يوماً فقالوا: إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصِّغار

(١) توفي عصر الأربعاء ١٣ شعبان كما في «الفتح القسي»: ٣٠٥. وانظر ص ١٠٨ من هذا الجزء.
(٢) في الأصول الخطية: تاسع عشر، والمثبت من «النوادر السلطانية».
(٣) في الأصل: القتال، والمثبت من (ك) و(ب).

حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبيٌّ منا، وصبي منكم. فأُخرج صبيًّان من البلد إلى صبيين من الفرنج، فوثب أحدُ الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين فاحتضنه، وضرب به الأرض، وأخذه أسيراً، فاشتراه بعضُ الفرنج بدينارين، وقالوا: هو أسيرك حقاً. فأخذ الدينارين وأطلقه.

قال: ووصل مركبٌ فيه خيل، فهربَ منها فرس، ووقع في البحر، وما زال يسبح وهم حوله يردُّونه حتى دخل ميناء عكا، وأخذه المسلمون(١).

قلت: وذكر العماد كلَّ هذه الوقائع والنَّوادر في كتابه بألفاظه المسجوعة.

وقال: وكان من رأي السُّلْطان أن يسايرهم في الطَّريق ويواقعهم عند المضيق، ويقطعهم عن الوصول، ويدفعهم عن النُّزول، فإنَّهم إذا نزلوا صَعُبَ نزالهم، وأتعب قتالهم، وقالوا ـ يعني أمراءه ـ: بل نمضي على أسهل الطُّرق. فسار الثَّقَل من الليل على طريق الملاحة، وسرنا على جُبِّ يوسف إلى المُنْيَة، وجئنا عصر يوم الثُّلاثاء والسُّلْطان نازل بأرض كفركَنَّا*، ونزل يوم الأربعاء على جبل الخَرُّوبة، ونزل الفرنج على عكا من البحر إلى البحر، محيطين بها للحصر، وضرب الملك العتيق خيمةً على تل المصلَّبة، وربطت مراكبهم بشاطىء البحر، فكانت كالآجام المُؤْتَشَبة.

ثم عبأ السلطانُ جيشه، ونزل بمرج عكا على تل كَيْسان،

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٠٣ ـ ١٠٩.

وصرنا محاصِرين للمحاصرين، قد أحطنا العدوّ، وهو بالبلد محيط، واستشطنا منه وهو مستشيط، وأحطنا[1] بأولئك الكَفَرة إحاطة النَّار بأهلها، ومنعنا الطُّرق من ورائهم في وَعْرها وسَهْلها، ورتَّبنا بالزَّيب* والنَّواقير* رجالاً يصدُّونهم عن سُبُلها، ودُمْنا نصدُّهم ونصدمهم، ويوجدهم البحر ونعدمهم. واستدارت الفرنج بعكا كالدَّائرة بالمركز، وزادوا من جانبنا في التحرُّس والتحرُّز، وذلك في آخر رجب
١٤٤/٢ لانسلاخه، والإسلام ينادينا باستصراخه.

وأصبح السلطان يوم الجمعة مستهل شعبان، واتفقت الآراء على أن يكون اللقاء وقت الصلاة عند ارتفاع الدَّعوات على المنابر الإسلامية، فأحاط العسكرُ الإسلاميُّ بجوانبهم، فكدَّر عليهم صفو مشاربهم، وفَلَّلَ مضَاء مضاربهم، وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون، وفي مواطنهم ثابتون كالبنيان المَرْصوص ما فيه خلل، وكالحَلْقة المفرغة ما إليها مدخل، وكالسُّور المحيط ما عليه متسلِّق، وكالجبل الأَشَمِّ ما فيه متعلّق.

فَزَحَفْنا إليهم فلم يبرجوا، وقربنا منهم فلم ينزحوا، وحملنا عليهم فأخذوا الضَّربة ولم يُعطوها، وكلما قُتِلَ واحد وقف آخر مقامه حتى دخل الليل وحجز.

وحملوا من الغد من جانب البحر شمالي عكا، فانهزم الفرنج إلى تل المصلَّبة نحو القُبَّة، وثبتوا عند الوثبة، وانفتح لنا طريقُ عكا، فدخلها الرِّجال، وحُمِلَتْ إليها الغلال، والفرنج قد رهبوا،

(١) في (ك): وأحدقنا.

ولو قدروا لهربوا، وأصحابنا رأوا أنَّ انفتاح باب البلد غنيمة، فتوقفوا عن إتمام[١] العزيمة، ولو أنهم استمرُّوا لبادوا[٢] العدو بسرعة، فإن للصَّدْمة الأُولى في الرُّوع[٣] روعة، فبلع العدو ريقه، ووجد إلى الجِلْد طريقه[٤]، ووقفوا كالسُّور من وراء الجنويات*، والتراس والقنطاريات*، وصوَّبوا[٥] الجروخ* وفوَّقوها، وجمعوا العُدَد وعلى الرجال فرَّقوها، وكانوا في عَدَد الرَّمل ومدد النَّمْل، وهم كلَّ يومٍ في ازدياد، والبحر يمدُّهم بالأمداد، وشرعوا في حفر الخنادق، وسَدِّ المضائق، ونَصْبِ الطَّوارق، والسُّلْطان ساهرٌ للمسلمين في ليلهم، قائم بأمرهم في نهارهم[٦].

ومن كتابٍ فاضلي في بعض الوقعات: فاستدارت بهم رجال الجاليشية*، تقذف شياطينهم بشهابها، وتهوي إلى أوكار أفئدتهم طيرُ نُشَّابها، وتُجْنيهم من القَنَا والنُّشَّاب ثمر الرَّدىٰ متشابهاً[٧]، وقد ارتفع الإسلامُ إلى درجاتٍ سيذكر أمرها، وانخفض الكفر إلى دركات سيمرُّ ذكرها، فالنَّصْر خافق علمه، وكتاب البشارة[٨] قد استمدَّ قلمه، وقد وثقنا بلطف الله تعالى فيما يأتي، فتأهبت الخواطر لمعاني المسارّ، وأعدَّت ألفاظ البُشْرى المهداة إلى كافة البَشَر من

(١) في الأصل: تمام، والمثبت من (ك).
(٢) في (ك): لباد.
(٣) الرُّوع، بالضم: القلب. «اللسان» (روع).
(٤) يعني: تعرَّقوا من الخوف.
(٥) في الأصل: وضربوا، والمثبت من (ك).
(٦) انظر «الفتح القسي»: ٢٩٦ ـ ٣٠٣.
(٧) في (ك): فتشابها.
(٨) في (ك): البشائر.

الاستبشار، فإنَّ الفرنج محصورون، والنَّازل المحصور كالمركب[1] المكسور، والنَّصْر قد أعرب لعسكر الإسلام، والكفر جار ومجرور.

فصــل

في المصافِّ الأعظم على عكا، وهي الوقعةُ الكبرى التي بدأت بالسُّوأىٰ وخُتِمَتْ بالحُسْنى

قال القاضي ابنُ شداد: لما كان يوم الأربعاء الحادي والعشرين من شعبان تحرَّكت عساكر الفرنج حركةً لم يكن لهم بمثلها عادة، فارسهم وراجلهم، وكبيرهم وصغيرهم، واصطفُّوا خارج خيمهم قلباً وميمنةً وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمول، مستور بثوب أَطلس نقطي[2]، يمسك أربعة أنفس أربعة أطرافه، وهم يسيرون بين يدي الملك.

وامتدَّت الميمنة في مقابلة ميسرة المسلمين[3] من أولها إلى آخرها، وامتدَّت ميسرة العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها، وملكوا رؤوس التِّلال، فكان[4] طَرَفُ ميمنتهم إلى النَّهر، وطرف ميسرتهم إلى البحر. وأمر السُّلْطان الجاووش* أن ينادي في النَّاس: يا للإسلام وعساكر الموحِّدين. فركب النَّاس وقد باعوا أنفسهم بالجَنَّة، وامتدَّتِ الميمنة إلى البحر، كل قومٍ يركبون ويقفون بين يدي خيامهم، والميسرة إلى النَّهْر كذلك أيضاً.

(١) في (ك): كالراكب.
(٢) أي منقط، انظر «تكملة المعاجم» لدوزي ٢/ ٧١٤ (الطبعة الفرنسية).
(٣) في (ك): في مقابلة الميسرة التي للعسكر الإسلامي.
(٤) في (ك): وكان.

وكان السلطان قد أنزل النَّاس في الخيم ميمنةً وميسرةً وقلباً، تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب، وكان هو في القلب، وفي ميمنة القلب ولدُهُ الأفضل، ثم ولده الظَّافر، ثم عسكر المواصلة مقدَّمهم ظهير الدين ابن البلنكري، ثم عسكر ديار بكر في خدمة قُطْب الدين صاحب الحِصْن، ثم حسام الدين عمر بن لاجين صاحب نابُلُس، ثم قايماز النَّجْمي، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة، وكان في طرفها الملك المُظَفَّر تقي الدين بجحفله وعسكره، وهو مطلٌّ على البحر.

وأما أوائل الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي بن أحمد المَشْطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدَّميهم، والأمير مُجَلِّي وجماعة المهرانية والهَكَّارية، ومجاهد الدين يرنقش مقدَّم عسكر سِنْجار*، وجماعة من المماليك، ثم مُظَفَّر الدين بن زين الدين بجحفله وعَسْكره.

وأواخر الميسرة كبار المماليك الأَسَدية كسيف الدين يازكوج، ورسلان بُغا، وجماعة الأسدية الذين يُضرب بهم المَثَل، وفي مقدمة القلب الفقيه عيسى وَجَمْعُهُ. هذا، والسُّلْطان ـ رحمه الله تعالى ـ يطوفُ على الأطلاب* بنفسه، يحثُّهم على القتال، ويدعوهم إلى النِّزال، ويرغِّبهم في نُصْرة دين الله.

ولم يزل القوم يتقدَّمون والمسلمون يُقْدمون حتى علا النَّهار، ومضى فيه أربعُ ساعات، وعند ذلك تحرَّكت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين، وأخرج لهم تقي الدين الجاليش*، وجرى بينهم

قلبات كثيرة، وتكاثروا على تقيِّ الدين ـ وكان في طرف الميمنة على البحر ـ فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يبعدُون[1] عن أصحابهم، فينال منهم غَرَضاً، فلما رآه السُّلْطان قد تأخر ظَنَّ به ضَعْفاً، فأمدَّه بأطلاب عِدَّة من القلب حتى قوي جانبه، وتراجعت
١٤٥/٢ ميسرة العدو، واجتمعت على تل مشرف على البحر، ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضَعْفَ القلب وَمَنْ خرج منه من الأطلاب داخلَهم الطَّمع، وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملةَ الرَّجل الواحد، راجلُهم وفارسُهم.

قال: ولقد رأيتُ الرَّجَّالة تسير سَيْرَ الخَيَّالة ولا يسبقونها، وهم يسيرون خبباً.

وجاءت الحملة على الدِّياربكرية كما يشاء الله تعالى، وكان بهم غِرَّة عن الحرب، فتحركوا بين يدي العدوّ، وانكسروا كسرةً عظيمة، وسَرَىٰ الأمر حتى انكسر مُعْظَمُ الميمنة، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضية، فإنَّهم استداروا حول التَّلِّ، وصَعِدَ طائفة من العدو إلى خيم السُّلْطان، فقتلوا طشت دار* كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد إسماعيل المكبِّس[2] وابن رواحة[3] ـ رحمهما الله تعالى ـ. وأما الميسرة فإنَّها ثبتت، فإن الحملة لم تصادفها.

---

(١) في الأصل: يتعدون، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) سيرد ذكره أيضاً ص ٩٨ من هذا الجزء.
(٣) هو الحسين بن عبد الله بن رواحة، أبو علي، وسيأتي بعض خبره ص ٩٧ من هذا الجزء، وسأذكر ترجمته هناك.

وأما السُّلْطانُ ـ رحمه الله ـ فإنَّه أخذ يطوف على الأطلاب* ينهضهم ويَعِدُهم الوعود الجميلة، ويحثُّهم على الجهاد، وينادي فيهم: يا للإسلام. ولم يبق معه إلا خمسة أنفس، وهو يطوفُ ويتخرَّق الصُّفوف، وأوىٰ إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام.

وأما المنهزمون من العسكر فإنَّهم بلغت هزيمتهم إلى القحوانة[1]، قاطع جسر طبرية، وتَمَّ منهم قومٌ إلى دمشق، وأما المتَّبِعُون لهم فإنهم اتبعوهم إلى العياضية، فلما رأوهم قد صَعِدُوا الجبل رجعوا عنهم عائدين إلى عسكرهم، فلقيهم جماعةٌ من الغِلْمان والخَرْبَنْدِيَّة* والسَّاسة منهزمين على بغال الحمل، فقتلوا منهم جماعة، ثم جاؤوا على رأس السُّوق، فقتلوا جماعة، وقُتِلَ منهم جماعة، فإنَّ السُّوق كان فيه خَلْقٌ عظيم، ولهم سلاح.

وأما الذين صَعِدوا الخيم السُّلْطانية، فإنهم لم يلتمسوا منها شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرناه وهم ثلاثةُ نفر، ثم رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا أنَّ الكسرة لم تتمَّ، فعادوا منحدرين من التَّلِّ يطلبون عسكرهم.

وأما السُّلْطان فإنه كان واقفاً تحت التَّلِّ ومعه نَفَرٌ يسير، وهو يجمعُ النَّاس ليعودوا إلى الحملة على العدو، فلما رأى الفرنج نازلين من التل[2] أرادوا لقاءهم، فأمرهم بالصَّبْر إلى أن وَلَّوْا ظهورهم، واشتدُّوا يطلبون أصحابهم، فصاح في النَّاس، وحملوا

---

(١) في «معجم البلدان»: ١/ ٢٣٤ الأُقحوانة.

(٢) في الأصل و(ب): نازلين من على التل، والمثبت من (ك).

عليهم، وطرحوا منهم جماعة، واشتدَّ الطَّمعُ فيهم، وتكاثَرَ النَّاس وراءهم حتى لحقوا أصحابهم، والطَّرْد وراءهم، فلما رأَوْهم منهزمين والمسلمون وراءهم في عددٍ كثير ظنُّوا أن من حمل منهم قد قُتِلَ، وأنه إنما نجا منهم هذا النَّفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم، فاشتدُّوا في الهرب والهزيمة، وتحرَّكت الميسرة عليهم.

وعاد الملك المظفَّر بجمعه من الميمنة، وتحايا الرِّجال وتداعت، وتراجع النَّاس من كل جانب، وكَذَبَ اللّٰهُ الشَّيْطانَ، ونَصَرَ الإيمان، وظلَّ الناس في قَتْلٍ وطَرْحٍ، وضَرْبٍ وجَرْحٍ إلى أن اتَّصل المنهزمون السَّالمون إلى عسكر العدو، فهجم المسلمون عليهم في الخيام، فخرج منهم أطلاب كانوا أعدُّوها ـ خشيةً من هذا الأمر ـ مستريحة، فردُّوا المسلمين. وكان التَّعب قد أخذ من النَّاس، والخوف والعرق قد ألجمهم، فتراجع الناس عنهم بعد صلاة العَصْر يخوضُون في القتلى ودمائهم فرحين مسرورين.

وعاد السلطان وجلسوا في خدمته يتذاكرون من فُقِدَ منهم، فكان مقدار من فُقِدَ منهم من الغِلْمان والمجهولين مئةً وخمسين نفراً، ومن المعروفين استشهد في ذلك اليوم ظهير الدين أخو الفقيه عيسى ـ رحمه الله ـ ولقد رأيتُه وهو جالسٌ يضحك والنَّاس يُعَزُّونه، وهو ينكر عليهم ويقول: هذا يوم الهناء لا يوم العزاء. وكان قد وقع هو من فرسه ـ رحمه الله ـ وأُركبه، وقُتِلَ عليه جماعة من أقاربه. وقُتل في ذلك اليوم الأمير مجلّي يعني ابن مروان.

وزاد العماد: والحاجب خليل الهَكَّاري.

ثم قال القاضي: هذا الذي قُتِلَ من المسلمين، وأما العدو المخذول فَحُزِرَ قتلاهم بسبعة آلاف نفر، ورأيتهم وقد حُملوا إلى شاطىء النهر ليلقوا فيه، فَحَزَرْتُهم بدون سبعة آلاف.

ولما تَمَّ على المسلمين من الهزيمة ما تَمَّ، رأى الغِلْمان خُلُوَّ الخيام عمن يعترضُ عليهم، فإن العسكر انقسم إلى منهزمين ومقاتلين، فلم يبق في الخيم أحد، ورأوا الكسرة قد وقعت ظَنُّوا أنها تتم، وأن العدوَّ ينهب جميع ما في الخيم، فوضعوا أيديهم في الخيم، ونهبوا جميع ما كان فيها، وذهب من النَّاس أموالٌ عظيمة، وكان ذلك أعظم من الكسرة وَقْعاً.

فلما عاد السُّلْطان إلى الخيم، ورأى ما قد تَمَّ على الناس من نَهْبِ الأموال والهزيمة سارع في الكُتُب والرُّسل في رَدِّ المنهزمين، وتتبَّع من شَذَّ من العسكر، والرُّسُلُ تتتابع في هذا المعنى حتى بلغت عقبة فيق*، فردُّوهم وأخبروهم بالكَرَّة للمسلمين، فعادوا.

وأَمَرَ بجمع الأقمشة من أكف الغِلْمان، وجَمَعَ الأقمشة في خيمته حتى جلالات الخيل والمخالي، وهو جالسٌ، ونحن حوله، وهو يتقدَّم إلى كلِّ(١) مَنْ عَرَفَ شيئاً وحلف عليه يُسَلَّم إليه، وهو يتلقَّى هذه الأحوال بقلب صلب، وصَدْرٍ رَحْب، وَوَجْه منبسط، ورأي مستقيم، واحتساب لله تعالى، وقوَّةِ عَزْمٍ في نُصْرة دينه.

وأما العدو المخذول فإنَّه عاد إلى خيمه، وقد قُتِلَتْ

---

(١) في الأصل: إلى أن كل، والمثبت من (ك).

١٤٦/٢ شُجْعانهم، وفُقِدت ملوكهم، وطرحت مقدَّموهم، وأمر السُّلْطان أن يخرج من عكا عَجَلٌ يسحبون [عليه][1] القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه.

قال: ولقد حكى لي بعضُ من ولي أمر العَجَل أنه أخذ خيطاً، وكان كلما أُخذ قتيل عَقَدَ عقدةً، فبلغ عدد قتلىٰ الميسرة أربعة آلاف ومئة وكسراً، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدَّهم، فإنه[2] ولي أمرهم غيره، وبقي من العدو بعد ذلك من حمىٰ نفسه، وأقاموا في خيمهم لم يكترثوا بجحافل المسلمين وعساكرهم، وتشذَّب[3] من عساكر المسلمين خَلْقٌ كثير بسبب الهزيمة، فإنه ما رجع منها إلا رجلٌ معروف خاف على نفسه، والباقون ذهبوا في حال سبيلهم.

وأخذ السُّلْطان في جمع الأموال المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، وأقام المنادية في العساكر، وقَرَنَ النِّداء بالوعيد والتهديد، وهو يتولَّى تفرقتها[4] بنفسه بين يديه، واجتمع من الأقمشة عددٌ كثير في خيمته، حتى إن الجالس في أحد الطَّرفين لا يرى الجالس في الطَّرف الآخر، وأقام من ينادي على مَنْ ضَاعَ منه [شيء][5]، فحضر

---

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في الأصل و(ب): فإنهم، والمثبت من (ك).

(٣) في (ب): وتشتت. وتشذب: أي تفرق. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ٢٩٣.

(٤) في (ك) و(ب): تفريقها.

(٥) ما بين حاصرتين من مطبوع «النوادر السلطانية»: ١١٤.

الخَلْق، وصار من عَرَفَ شيئاً وأعطى علامته حلف عليه وأخذه، من الحبل والمخلاة إلى الهِمْيان[1] والجوهرة، ولقي من ذلك مشقَّة عظيمة، ولا يرى ذلك إلا نعمةً من الله تعالى يشكر عليها، ويسابق بيد القَبُول إليها، ولقد حضرتُ يوم تفرقة الأقمشة على أربابها، فرأيتُ سوقاً للعدل قائمة لم يُرَ في الدُّنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة الثَّالث والعشرين من شعبان.

قال: وعند انقضاء هذه الوقعة وسكون نائرتها، أمر السُّلْطان بالثَّقَل حتى تراجع إلى موضعٍ يقال له الخَرُّوبة* خشيةً على العسكر من أراييح القتلىٰ وآثار الوقعة من الوخم، وهو موضعٌ قريبٌ من مكان الوقعة إلا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند الثَّقَل، وأمر اليَزَك* أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سَلْخ الشهر، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه، وكنتُ من جملة الحاضرين، ثم قال: بسم الله، والحمدُ لله، والصَّلاة [والسلام][2] على رسول الله، اعلموا أنَّ هذا عدو الله وعدونا، قد نزل في بلدنا، وقد وطىء أرضَ الإسلام، وقد لاحت لوائح النُّصْرة عليه إن شاء الله تعالى، وقد بقي في هذا الجمع اليسير، ولا بُدَّ من الاهتمام بقلعه، والله قد أوجب علينا ذلك، وأنتم تعلمون أنَّ هذه

---

(١) الهميان: منطقة من جلد تتخذ لصر النقود. «المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب» لدوزي: ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

عساكرنا، ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل، وهو واصل. وهذا العدوّ إنْ بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءه مَدَدٌ عظيم، والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كل منكم ما عنده في ذلك.

وكان ذلك في ثالث عشر تشرين ـ يعني الثَّاني ـ من الشهور الشَّمْسية، فانفصلت آراؤهم على أَنَّ المصلحة تأخر العسكر إلى الخَرُّوبة*، وأن يبقى العسكر أياماً حتى يستجمَّ من حمل السِّلاح، وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التَّعَب، واستولى على نفوسهم الضَّجر، وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته، والنَّاس لهم خمسون يوماً تحت السِّلاح وفوق الخيل، والخيلُ قد ضجرت من عَرْكِ اللُّجُم، وعند أخذ حَظٍّ من الرَّاحة ترجع نفوسها إليها، ويصلُ الملك العادل، ويشاركنا في الرأي والعمل، ونستعيد من شَذَّ من العساكر، ونجمع الرَّجَّالة ليقفوا في مقابلة الرَّجَّالة. وكان بالسلطان ـ رحمه الله ـ التياثٌ مِزَاجيٌّ قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه، وما عاناه[1] من التَّعب بحمل السِّلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه، ورآه مصلحةً، فأقام يُصلح مِزَاجه، ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان[2].

قال: وكان لما بلغه خَبَرُ العدوّ وقَصْدُه عكا جمع الأُمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع، وكان رأيه ـ

---

(١) في الأصل و(ب): وعاناه، والمثبت من (ك).
(٢) «النوادر السلطانية»: ١٠٩ ـ ١١٥.

رحمه الله ـ أن قال: المصلحة مناجزة القوم، ومنعهم من النُّزول على البلد، وإلا إن نزلوا جعلوا الرَّجَّالة سوراً لهم، وحفروا الخنادق، وصعب علينا الوصول إليهم، وخيف على البلد منهم. وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا، واجتمعت العساكر قلعناهم في يومٍ واحد. وكان الأمر كما قال، والله لقد سمعتُ منه هذا القول، وشاهدتُ الفعل كما قال[1].

وقال العماد: عَبَّأ السُّلْطان ميمنته وميسرته، وطلب من الله نُصْرته، وهو يمرُّ بالصفوف، ويأمر بالوقوف، وَيَحُضُّ على حَظِّ الأبد، ويحثُّ على الجِلاد والجَلَد.

قال: وكنت في جماعةٍ من أهل الفَضْل قد ركبنا في ذلك اليوم، ووقفنا على التَّلِّ نشاهد الوقعة، ونحن على بغالٍ بغير أُهبة قتال، فرأينا العسكر مولِّياً، والمنهزم عما تركه من خيامه ورحله متخلِّياً، فوصلنا إلى طبرية فيمن وصل، ووجدنا ساكنها قد أجفل، فسقنا إلى جسر الصِّنَّبْرة*، ونزلنا على شرقيِّه، وكل منا ذاهلٌ عن شِبَعِهِ ورِيِّه، ومن المنهزمين من بلغ عقبة فيق*، وهو غير مُفيق، ومنهم من وصل إلى دمشق وهو غير معرِّج على طريق.

ووصل جماعةٌ من الفرنج إلى خيمة السُّلْطان، وجالوا جولة ثم رأوا انقطاع أشياعهم عنهم، فانحدروا عن التل، واستقبلهم أصحابنا فركبوا أكتافهم، وحكَّموا في رقابهم أسيافهم، وكان ميسرتنا

---

(١) المصدر السالف.

عسكر سِنجار والأَسَدِيَّة*، فما زلُّوا ولا زالوا[١]، بل وصلوا وصالوا، وحملت عليهم ميمنة الفرنج، فكأنما مرَّتِ الرياحُ بالجبال،
١٤٧/٢ وعاد من كان من الميمنة مثل تقي الدين وقايماز النَّجْمي والحسام بن لاجين، ومن ثَبَتَ من أبطال المجاهدين، فلم يفلت من الأعداء إلا أعداد، ولم ينجُ من آلافها إلا آحاد، وفُرِسَ[٢] منهم زُهاء خمسة آلاف فارس، منهم مقدَّم الدَّاوية الذي كنا أطلقناه، وذكر أنهم في مئة ألف وعشرين ألف حين سألناه، ثم ضربنا عنقه. وقال في «الفتح»: وعشرة آلاف[٣].

وقال العماد: ومن العجب أن الذين ثبتوا منَّا لم يبلغوا ألفاً فردُّوا مئة ألف، وآتاهم الله قوَّة من بعد ضَعْف، وكان الواحد يقول: قتلتُ من المثلِّثين ثلاثين وأربعين، وتركتُهم مُصَرَّعين. وكان السُّلْطان من الثابتين في تلك الجولة، الكابتين لأهل الصَّوْلة، وقد بقي وحده عند تولِّي المسلمين، ولا شكَّ أن الله أنزل ملائكته المسوَّمين.

حكى بعضُهم قال: كنتُ منهزماً من فارسٍ مدجَّج قد لزَّ بقربي حصانه، وهَزَّ لصُلْبي سِنَانه، فأيست من البقاء، ثم أبطأَتْ عليَّ طَعْنَتُه، فالتفتُّ، فإذا هو وحصانه كلاهما ملقى، وما بالقرب أحد، فعرفتُ أنه نَصْرٌ إلهي، وصُنْعٌ رَبَّاني[٤].

---

(١) في (ك): ومازالوا.
(٢) أي قُتِلَ، من الفَرْس: وهو دق العنق. انظر «اللسان» (فرس).
(٣) انظر «الفتح القسي»: ٣١٢.
(٤) «الفتح القسي»: ٣٠٨ ـ ٣١٢.

قال: وعاد[1] السُّلْطان إلى مضاربه، وأمر بموارة الشُّهداء، ومن جملتهم الفقيه أبو علي بن رواحة[2]، وكان غزيرَ الفَضل، قد أكمل الشجاعة والرَّجاحة، وهو شاعرٌ مُفْلِق وفقيه محقِّق، من ولد عبدالله بن رواحة الصَّحابي الأنصاري في الشَّهادة والشِّعْر مُعْرق، فَطَرَفُه الأعلى يوم مُؤتة مع جعفر الطَّيَّار، وطَرَفُه الأقرب يوم عكا في لقاء الكُفَّار[3].

قال في «البرق»: وكان السُّلْطان قد أنعم عليه في حلب بمزرعةٍ، وكتبتُ توقيعه، وأراد الله تعويقه، إذ قَرَّب إلى الآخرة طريقه، وحملتُ توقيعه إلى السُّلْطان تلك الليلة ليعلِّم فيه فما عَلَّم،

---

(١) في الأصل: ولما، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) هو الحسين بن عبد الله بن رواحة، ولد بحماة سنة (٥١٥ هـ)، ونشأ بها، ثم رحل إلى دمشق. فأقام بها مدة، واشتغل بالفقه، وسمع الحديث من مؤرخ الشام ابن عساكر وآخرين، ورحل إلى مصر أيام الصالح بن رُزِّيك، ولما أراد الرجوع إلى الشام ركب البحر، فقطع عليه فرنج صقلية الطريق، فأسروه بصقلية، وذلك نحو سنة (٥٦٠ هـ)، وهناك ولد ابنه المحدث عز الدين عبد الله بن الحسين، وبقي في أسرهم مدة، ثم عاد إلى حماة، ثم سافر إلى مصر، وأقام فيها في ظل صلاح الدين، وهناك أسمع ولده من الحافظ السِّلَفي.
انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ١/ ٤٨١ ـ ٤٩٦، و«معجم الأدباء»: ١٠/ ٤٦ ـ ٥٦، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١١٦، و«مفرج الكروب»: ٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢، و«فوات الوفيات»: ١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧، و«الوافي بالوفيات»: ١٢/ ٤١٣ ـ ٤١٦، و«تهذيب ابن عساكر» لبدران: ٤/ ٣٠٥ ـ ٣٠٧ (وهي من زيادات القاسم على تاريخ والده).
وانظر ترجمة ولده عبد الله بن الحسين في «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ٢٦١ ـ ٢٦٣.

(٣) «الفتح القسي»: ٣١٨.

وراجعتُه في معناه فسكت وما تكلَّم، وكان ساعة الوقعة راكباً معنا، ثم قال: وقوفنا يطول. فمضىٰ إلى خيمته يتودَّع، فلما علم باندفاعنا ساق وراءنا، فَقُطِعَ عمره قبل أن يقطع الوادي. وكان قال لنا لما أصبح: رأيتُ [كأنَّ][1] رجلاً يحلق رأسي في المنام. فقلنا له: هذا من أضغاث الأحلام. فنقله الله بعد ساعة إلى دار السَّلام.

قلت: وليس هو من أولاد ابنِ رواحة الصَّحابي، ذاك لم يُعقب، وإنما في أجداده من اسمه رواحة، وقد بَيَّنَّاه في «التَّاريخ»[2]، والله أعلم.

قال: ومنهم إسماعيل الصُّوفي الأُزْمَوِي المكبِّس، وشيخٌ من الحاشية في بيت الطشت*، وغلام في الخزانة أمين على البيت، وآخرون صودفوا عند التَّلِّ فجاءتهم السَّعادة، وفجأتهم الشَّهادة، وهؤلاء سوى من وَقَعَ في الوقعة، وذهب قبل الرَّجعة[3].

وأجمع السُّلْطان وذوو الآراء على أنه يصبِّح القوم، فتفقدوا العسكر، فإذا هو قد غاب لما ناب من الأمر وراب، وذلك أن غِلْمان العسكرية والأوباش ظنُّوا أن تلك الفورة هزيمة، فنهبوا الأثقال، وعَدُّوها غنيمة، فمن عاد إلى رحله وجده منهوباً مسلوباً، وكان في ظَنّه أَنَّه فرغ من لقاء خَطْبٍ فلقي خُطُوباً، وأصبحنا وإذا العسكر مفترق[4]،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) هو مختصره لتاريخ ابن عساكر، وقد زاد فيه فوائد، انظر ص ٢٥ ـ ٢٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٣١٨.

(٤) في (ك): متفرق.

والثَّابت قَلِق، والآمن فَرِق، والغنيُّ مُعْدِم، والجريء متندِّم.

فهذا خَلْفَ ما ذهب من ماله ذاهب، وهذا لمن طَلَبَ الطَّريق بأثقاله طالب، فتفتَّر ذلك العَزْم، وتأخَّر ذلك الحُكْم، وانتعش الفرنج في تلك المُدَّة، وانتشلوا من تلك الشِّدَّة، وجاءتهم في البحر مراكب أخلفت من عُدِم، وبنت ما هُدِم.

وشكونا نتن رائحة تلك الجيف، فحملت على العَجَل إلى النهر، ليشرب من صديدها أهلُ الكُفْر، فحمل أكثر من خمسة آلاف جُثَّة، حُمِلَت إلى النَّار قبل يوم البعثة، وأُشير على السُّلْطان بالانتقال إلى الخَرُّوبة*، عند خيم الأثقال المضروبة، فسار إليها رابع رمضان، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها، وإحكام أسبابها، فوجد الفرنجُ بذلك الفَرَج، وشَرَعوا في حفر خندقٍ على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحَصْر، وفي كل يوم يأتينا اليَزَكيَّة* بخبرهم، وبما ظَهَرَ من أثرهم، والجدّ في تعميق الخندق، وتتميم محتفرهم، فكان من قضاء الله أَنَّا أغفلناهم وأمهلناهم، بل أهملناهم حتى عَمَّقوا الحفور، ووثقوا من تُرَابها السُّور، فكانوا يخندقون ويعمِّقون، ويعملون من تراب الحُفَر حولهم سوراً، فعاد مخيَّمهم بلداً مستوراً معموراً، فملؤوه بالسَّتائر، ومنعوه من الطير الطائر، وبنوه وأسَّسوه، وستروه وتَرَّسوه، ورتَّبوا عليه رجالاً، ولم يتركوا إليه لواغلٍ مجالاً، وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً.

ولما فرغوا من هذا الأمر اشتغلوا بالحَصْر، وانقطعت الطريق

على المسلمين إلى عكا، وبان ضعف رأي الانتقال، فإنه بعدما أضحك أبكى[1].

وجاء كتابٌ[2] من الفاضل إلى العماد جواباً عن كتابه المخبر فيه بوقعة مرج عكا، يقول فيه: وعرفت ما جرى على قضيته، فسبَّحتُ الله تعالى، فإن من عجائب قُدْرَتِهِ سلامة سَيِّدنا على ضَعْف حركته، والأمر كان عظيماً، والمدفَعُ أعظم، والسَّلامة كانت غريبة إلا أن نقول: ولكنَّ الله سَلَّم، والسُّلْطان ـ أَعَزَّه الله ـ إذا سَلِمَ فكلُّ النَّاس قد سَلِموا، وإذا وجد وقد عدم النَّاس كلهم فقد وُجِدُوا وما عُدموا، وكلُّ جوهر بالإضافة إليه عَرَض، وهو جوهر بالحقيقة ما عنه من كلِّ جوهر عَرَض.

١٤٨/٢ ومن كتابٍ له إلى السُّلْطان، أَوَّله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ على رسوله وعلى المؤمنين﴾[3] الآية، ﴿وما رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنَّ اللّهَ رمى﴾[4] ورد الكتاب بخط مولانا من معترك حربه، وتوفيق جهاده قبل أن تَضَعَ الحرب أوزارها، وهَرَعَ النَّاسُ إلى المجلسين العادلي والعزيزي يستمعون الأخبار، ويستوضحون من وجوههما الأنوار، ويسألون كيف كان عاقبة أهل الجنة وعاقبة أهل النَّار، ويشكرون الله على سلامة أديانهم وقلوبهم وأبدانهم، وسلامة سُلْطانهم، وما أدراك

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٣١٩ ـ ٣٢٦.
(٢) كتاب الفاضل هذا، والذي يليه لم يردا في (ك) و(ب).
(٣) سورة التوبة، الآية ٢٦.
(٤) سورة الأنفال، الآية ١٧.

ما سلامة سُلْطانهم، ونُصْرة كلمة إيمانهم، ودلائل الخير لا تخفى، وقد يقرأ الكتب وما يلمح قارئها منها حرفاً، وتصوَّر النَّاسُ الأمر الذي وقاهم الله شَرَّه، وكفاهم أمره.

فصـــل

في باقي حوادث هذه السنة بمرج عكا وغيره

قال العماد: وفي يوم الاثنين ثالث رمضان أخذ أصحابُنا بعكا مركباً للفرنج إلى صور، مقلعاً محتوياً على ثلاثين رجلاً وامرأة واحدة، ورِزْمَةً من الحرير، وجاءت حظوة حُلْوة، وغنيمة صَفْوة، وقد كان انكسر نشاطهم، وانقبض انبساطهم، فلما عثروا بالمركب انتعشوا، وصاروا يخرجون ويقتلون ويجرحون، ويمسون على القتال ويصبحون، وندم الفرنج على تلك الحركة، فإنها أفضَتْ بهم إلى الهَلَكَة، فإنَّهم ما داموا رابضين، وعلى يد الصَّبْر قابضين، يتعذَّر الوصول إليهم، والدخول عليهم[(١)].

وفي بعض الكتب إلى بعض الأطراف: والمرجو من الله سبحانه تحريك هِمَم المؤمنين في تسكين ثائرهم، وتخريب عامرهم، وما دام البحر يمدُّهم، والبر لا يصدُّهم، فبلاء البلاد بهم دائم، ومرض القلوب بأدوائهم مُلازم، فأين حَمِيَّةُ المسلمين؟ ونخوةُ أهل الدين؟ وغيرة أهل اليقين؟

وما ينقضي عَجَبنا من تظافر المشركين وقعود المسلمين، فلا

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٣٢٩.

مُلَبِّيَ منهم لمنادٍ، ولا مثقِّف لمنآد، فانظروا إلى الفرنج أي موردٍ وردوا، وأي[1] حَشْدٍ حشدوا، وأي ضالَّة نشدوا، وأي نجدةٍ أنجدوا، وأية أموالٍ غَرِموها وأنفقوها، وَجِدَاتٍ جمعوها وتَوَزَّعوها فيما بينهم وفَرَّقوها، ولم يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم، إلا جارى جاره في مضمار الإنجاد، وبارى نظيره في الجدِّ والاجتهاد، واستقلُّوا في صون مِلَّتهم بَذْلَ المُهَج والأرواح، وأمدُّوا أجناسهم الأنجاس بأنواع السِّلاح مع أكفاء الكفاح، وما فعلوا ما فعلوا، ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرَّد الحَمِيَّة لمتعبَّدهم، والنخوة لمعتقدهم.

وليس أحدٌ من الفرنجية يستشعر أَنَّ السَّاحل إذا مُلِكَ، ورُفِعَ فيه حجابُ عِزِّهم وهُتِك، يخرج بلدٌ عن يده، وتمتدُّ يدٌ إلى بلده.

والمسلمون بخلاف ذلك قد وَهَنوا وفَشِلوا، وغَفَلوا وكَسِلُوا، ولزموا الحَيْرَة، وعَدِمُوا الغَيْرة. ولو انثنىٰ ـ والعياذ بالله ـ للإسلام عِنان أو خبا سناً ونبا سِنان، لما وُجِدَ في شَرْق البلاد وغَرْبها، وَبُعْدِ الآفاق وقُرْبها مَنْ لدينِ الله يغار، ومن لنُصْرَة الحقِّ على الباطل يختار.

وهذا أوانُ رَفْضِ التَّواني، واستدناء أولي الحمية من الأقاصي والأداني، على أَنَّا بحمد الله لنصره راجون، وله بإخلاص السِّرِّ وسِرِّ الإخلاص مناجون، والمشركون ـ بإذن الله ـ هالكون، والمؤمنون آمنون ناجون[2].

---

(١) من هنا يبدأ اضطراب في ترتيب أوراق الأصل، أعدناها إلى حاق موضعها.
(٢) «الفتح القسي»: ٣١٦ ـ ٣١٧.

[فصــل][1]

قال العماد: وكان السُّلْطان قد كتب إلى مِصْر يستدعي بأخيه العادل في رجاله، فقدم عليه منتصف شوَّال، وكتب أيضاً في طلب الأسطول المِصْري، فقدمت خمسون قطعة مع حسام الدين لؤلؤ منتصف ذي القَعْدة، فجاءت فجأة على مراكب الفرنج وبغتتها وسحقتها، وبدَّدتها وكبستها وسلبتها، وظفر ببطستين* كبيرتين بما فيهما من أموالهم ورجالهم وغِلالهم[2].

قال: وهذا لؤلؤ قد اشتهرت بالكفر فتكاتُه، وشُكرت في العدوِّ نكاياتُه، وقد تفرَّد بغزوات لم يشاركه فيها أحد، وهو الذي رَدَّ الفرنج عن بحر الحجاز[3]، ووقف لهم على طرق المجاز، ولم يترك منهم عيناً تطرف، ولم يُبْق لهم دليلاً يُعَرِّف. وغزواتُهُ مشهورة، وفتكاته مذكورة، وأمواله مبذولة، وأكياسُهُ لعُقَد الإنفاق في سبيل الله محلولة[4].

قال: ونقل السُّلْطان إلى البلد في المراكب جماعةً من الأمراء بأجنادهم وعُدَدهم وأزوادهم، واستظهر البلد أيضاً برجال الأُسطول، وكانوا زُهاء عشرة آلاف، هذا ورجَّالة المسلمين يتطرَّقون إليهم ليلاً، ويذيقونهم من القتل والأسر والسرقة ويلاً، حتى كان رجالنا يختفون

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٣٤٠ ـ ٣٤١.

(٣) انظر ص ١٣٣ من الجزء الثالث، وص ٤٦٦ من هذا الجزء.

(٤) «الفتح القسي»: ٣٤٠.

بالحشيش في أجراف الأنهار، فإذا صادفوا فارساً وَرَدَ الماء فاجؤوه بالقَتْل والإسار(١).

قال: ولما عَرَفَ صاحبُ المَوْصِل ما شَرَعَ فيه السُّلْطان من تكثير العُدَّة، وتقوية النَّجدة، بكل ما يمكنه من أسباب البأس والشِّدَّة، سَيَّر من أحمال النفط الأبيض مع عِزَّة وجوده ما وجده، ومن التِّرَاس والرِّماح من كل جنسٍ أحكمه وأقومه وأجوده(٢).

وكتبنا في شُكْره: وَصَلَ السِّلاح، وتمَّ للإسلام من قروح الكُفْر الاقتراح، فإنَّ الحرب المتطاولة المُدَد، أَتَتْ على جميع العُدَد، ومن العجب أنَّ العُدَّة تفنى وما يفنى العُدَاة، وتنمو على
١٤٩/٢ الحصاد كأنَّها النَّبات، فالبحرُ يُمِدُّهم، والكفر إلى الردى يردُّهم(٣).

ومن كتابٍ إلى الديوان: قد مضت ثلاثة أشهرٍ شَهَرَ بها التَّثليث على التوحيد سلاحه(٤)، وبَسَطَ الكُفْر جناحه، وقُتِلَ من الفرنج، وعُدِمَ في الوقعات التي رَوَّعت والرَّوعات التي وقعت أكثر من عشرين ألف مقاتل؛ من فارسٍ وراجل، ورامحٍ ونابل، فما أَثَّر ذلك في نقصهم، ولا أَرَّثَ إلا نار حرصهم.

وليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير، ويأتي عليه

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٣٤٥ ـ ٣٤٦.
(٢) المصدر السالف: ٣٥٠.
(٣) المصدر السالف: ٣٥٠ ـ ٣٥١.
(٤) في الأصل: شهر بها التوحيد على التثليث سلاحه، والمثبت من (ك).

التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في دار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة، ولا جزيرة ولا خُطَّة صغيرة ولا كبيرة إلا جَهَّزَتْ مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرَّك ساكنها، وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونفضت خزائنها، وانفضَّت معادنها، وحُملت ذخائرها، وبذلت أخايرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصُلْبانها أساقفها وبطاركها، وغُصَّت بالأفواج فجاجُها ومسالكها، وتصلَّبت للصَّليب السَّليب، وتعصَّبت للمُصاب المُصِيب، ونادوا في نواديهم بأنَّ البلاء دَهَمَ بلادهم، وأنَّ إخوانهم بالقُدْس أبارهم الإسلام وأبادهم، وأنه من خرج من بيته مهاجراً لحرب الإسلام وُهِبَتْ له ذنوبه، وذهبت عنه عيوبُهُ، ومن عَجَزَ عن السَّفر سَفَّر بعُدَّته وثروته من قدر، فجاؤوا لابسين للحديد بعد أن كانوا لابسين للحِدَاد، وتواصلت منهم الأمداد[1].

قال: ووصلت في مركب ثلاث مئة امرأة فرنجية مستحسنة، اجتمعن من الجزائر، وانتدبن للجرائر، واغتربن لإسعاف الغُرباء، وقَصَدْنَ بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء، وأنهن لا يمتنعن من العُزْبان، ورأين أنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القُرْبان، وَزَعَمْنَ أَنَّ هذه قُرْبة ما فوقها قُرْبة، لا سيما فيمن اجتمعت فيه عُزْبة وغُرْبة[2].

قال: وأَبَقَ من عسكرنا من المماليك الأغبياء، والمدابير[3] الجهلاء

(١) «الفتح القسي»: ٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) المصدر السالف: ٣٤٧ ـ ٣٤٨.

(٣) المدابير جمع، مفردها المدابر: وهو الذي قمر في الميسر مرة بعد مرة، فيعاود ليقمر. انظر «اللسان» (دبر).

جماعة جَذَبهم الهوى، واتبعوا من غوى، فمنهم من رضي للذَّة بالذِّلَّة، ومنهم مَنْ نَدِمَ على الزَّلَّة، فتحيَّل في النُّقْلة، فإنَّ يَدَ مَنْ لا يرتدُّ لا تمتد، وأَمْرَ الهارب إليهم لاتهامه يشتد، وباب الهوى عليه يستد، وما عند الفرنج على العَزْباء إذا أمكنت منها العَزَب حَرَج، وما أزكاها عند القسوس إذا كان للعُزْبان المضيقين من فَرْجها فَرَج[١].

قال: ووصلت[٢] أيضاً في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوَفْر، وفي جملتها خمس مئة فارس بخيولهم وأتباعهم، وغِلْمانهم وأشياعهم، وهي كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤنة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها.

وفي الفرنج نساءٌ فوارس، لهنَّ دروعٌ وقوانس، وكنَّ في زي الرِّجال، ويبرزن في حومة القتال، ويعملن عمل[٣] أرباب الحِجا، وهنَّ ربَّاتُ الحِجال، وكل هذا يعتقدنه[٤] عبادة، وَيَخَلْنَ أنهن يعقدن به سعادة، ويجعلنه لهنَّ عادة، فسبحان الذي أَضَلَّهن، وعن نهج الهدى[٥] أزلَّهن، وفي يوم الوقعة قُلعت منهن نسوة، لهن بالفُرْسان أُسوة، وفيهنَّ مع لينهن قَسْوة، وليس لهن[٦] سوى السَّوابغ كسوة،

(١) «الفتح القسي»: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.
(٢) في الأصل: ووصل، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) في الأصل و(ب): على، والمثبت من (ك).
(٤) في الأصل: يعتقدون أنه، والمثبت من (ك).
(٥) في (ك): النُّهى.
(٦) في الأصل: لهم، والمثبت من (ك).

فما عُرِفْنَ حتى سُلِبْن وعُرِّين، ومنهن عِدَّة سُبين واشترين، وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز، وهن يُشَدِّدن تارة وَيُرْخين، ويحرِّضْنَ وينخِّين، ويَقُلْن: إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وإنه لا بقاء إلا بالفَنَاء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء، فانظر إلى الاتفاق في الضَّلال بين الرجال منهم والنساء[١].

قال: وفي آخر هذه السنة نَدَبَ السُّلْطان الرُّسُلَ إلى الأقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار، وَبَثَّ الكتب، وكتب بالبَثِّ، وحَثَّ الرُّسل، وراسل[٢] بالحثِّ، وسَرَّح عدنان النَّجَّاب إلى سيف الإسلام باليمن، وشرح في الكتاب إليه ما جرى من حوادث الزَّمن، ووصف له جليةَ الحال، وطلب منه الإعانة بالمال، وكوتب مظفر الدين قزل أرسلان بهمَذَان، بما دنا منه عَزْمُهُ ودان، وحكم على كل ملك بحجة الإيمان، وهدى إلى مَحَجَّة الإحسان[٣].

ووصل إلى السُّلْطان رسولُ ابن أخيه لأُمِّه ركن الدين طُغْرُل بن أرسلان بن طُغْرُل بن محمد بن مَلِكْشاه، وهو آخر السَّلاطين السَّلْجوقية يتظلم من عمه قزل أرسلان، ويطلب من السلطان إعانته، فاعتذر السُّلْطان بما هو فيه[٤] من شغل الجهاد مع الكُفَّار. وأرسل رسولاً في السَّفارة بينه وبين عمه جمال الدين

(١) «الفتح القسي»: ٣٤٩.
(٢) في الأصل: وأرسل، والمثبت من (ك).
(٣) «الفتح القسي»: ٣٥٢ ـ ٣٥٣.
(٤) في الأصل و(ب): عليه، والمثبت من (ك).

أبا الفتح إسماعيل بن محمد بن عبدكُويه نسيب العماد، وكتب إلى صاحب إربل*، وإلى حسن بن قفجاق ونائبه بِشَهْرُزُور* بالتوفُّر على خدمته، والارتياد لمصلحته، وإشاعة معونته[١].

قال: وفي هذه السنة توفي الأمير حسام الدين سُنْقُر الخِلاطي أخصُّ مماليك السُّلطان وأخلصهم، وقد قدَّمه على مماليكه، وكانت وفاته ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب.

قال: وفي ثالث عشر شعبان توفي الأمير حسام الدِّين طُمان صاحب الرَّقَّة، وهو من المجاهدين المجتهدين، والأتقياء المتهجدين، ولما حضرته الوفاة تأسَّف من موته على فراشه، وطلب حصانه ليركبه، وينتقل سعيداً شهيداً إلى معاده من معاشه.

قال: وفي تاسع عشر شعبان توفي الأمير عز الدين موسَك[٢] بن جكو الهَذَباني، وهو ابن خال السُّلْطان، وهو من أكابر
١٥٠/٢ أقاربه ومقدَّمي كتائبه، وكان للقرآن حافظاً، وعلى الإحسان محافظاً، ولقضاء حقوق النَّاس مُلاحظاً، ولم يَزَل للسُّلْطان في هذه الغزوات ملازماً، وعلى قَمْع جمع الكفر عازماً. ولما اشتدَّ به مرضه استأذن في الدخول إلى دمشق، فمات بها، ودفن في جبل قاسيون.

قال: وفي حادي عشر رمضان توفي بدمشق القاضي

---

(١) في الأصل و(ب): وأشياعه ومعونته، والمثبت من (ك)، وانظر «الفتح القسي»: ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٢) هو الذي أنشأ قنطرة الموسكي على الخليج بالقاهرة. «خطط المقريزي» ١٤٧/٢.

شَرَف الدِّين بن أبي عَصْرون[1]، ومولده في أوائل سنة اثنتين وتسعين وأربع مئة، فبلغ عمره ثلاثاً وتسعين سنة ونصفاً، وأَضَرَّ قبل وفاته مُدَّة عشر سنين، ودفن بالمدرسة[2] التي أنشأها بدمشق قُبالة داره*، بينهما عَرْضُ الطَّريق، وكان شيخَ المذهب، وقد خُتمت به الفُتيا، وأوحشت غيبته الدين والدنيا.

قال: وفي تاسع ذي القَعْدة توفي الأمير الفقيه ضياء الدِّين عيسى الهَكَّاري[3] في العسكر بمنزلة الخَرُّوبة*، وكان صاحبَ

---

(١) هو شرف الدين أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون التميمي الموصلي، الحديثي الأصل، الدمشقي الدار والوفاة، الشافعي.
انظر ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٧، و«الكامل» لابن الأثير ١٢/ ٤٢، و«التكملة» للمنذري: ١/ ١١٧ ـ ١١٩، و«وفيات الأعيان» ٣/ ٥٣ ـ ٥٧، و«المختصر المحتاج إليه»: ٢/ ١٥٨ ـ ١٦٠، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٥٦، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١٢٥ ـ ١٢٩، و«المستفاد من ذيل تاريخ بغداد»: ١٤٩ ـ ١٥٠، و«الوافي بالوفيات»: ١٧/ ٥٧١ ـ ٥٧٤، و«نكت الهميان»: ١٨٥ ـ ١٨٧، و«طبقات الشافعية» للسبكي ٧/ ١٣٢ ـ ١٣٧، و«طبقات الشافعية» للإسنوي: ٢/ ١٩٣ ـ ١٩٦، و«البداية والنهاية»: ١٢/ ٣٣٣، و«غاية النهاية» للجزري ١/ ٤٥٥، و«السلوك» للمقريزي ج ١/ق ١/ ١٣٠، و«طبقات الشافعية» لابن قاضي شهبة ٢/ ٣٣ ـ ٣٦، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١٠، و«قضاة الشافعية» للنعيمي: ٤٩ ـ ٥١، و«الدارس في تاريخ المدارس»: ١/ ٣٩٩ ـ ٤٠٣، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

(٢) هي المدرسة العصرونية، انظرها في كشاف الأماكن.

(٣) سلفت أخباره في أثناء هذا الكتاب، وله ترجمة في «الكامل» لابن الأثير ١٢/ ٤٢، و«التكملة» للمنذري ١/ ١٢٣، و«وفيات الأعيان»: ٣/ ٤٩٧ ـ ٤٩٨، و«المختصر في تاريخ البشر»: ٣/ ٧٧، و«طبقات الشافعية» للسبكي ٧/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦ و«البداية والنهاية»: ١٢/ ٣٣٤، و«السلوك» للمقريزي ج ١/ ق ١/ ١٣٠، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ١١٠. وانظر ص ٥٨ من الجزء الثاني.

أسد الدين شِيركُوه، ومضى معه إلى مِصْر حين ملكها، ثم اختصَّ بالسُّلْطان بعده، وتولى حَلَّه وعَقْدَه، ودرَّت بوساطته وشفاعته للنَّاس أرزاق، ونُقِلَ إلى القُدْس، فَدُفِنَ بظاهره، ولقد كان من الأعيان، ومن أهل الجد في نُصْرة الإيمان، فنقله الله إلى الجِنان[1].

قال: وفي هذه السَّنة أقطع السُّلْطان مملوكه مجاهد الدين أَياز ولاية شَهْرُزُور* وأعمالها، وولَّى جمال الدين بن المحسن نقابةَ الأشراف بدمشق.

قال: وفي عاشر جُمادى الأُولى منها كان مولد ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بمصر الذي اجتمع عليه أصحابه بعد وفاة أبيه في مُحَرَّم سنة خمسٍ وتسعين[2]، وورد بذلك إلى السلطان جَدِّه كتابٌ كريم فاضليٌّ من مصر، نسخته: المملوك يقبل الأرض بين يدي مولانا الملك النَّاصر، دام رشاده وإرشادُه، وزاد سَعْدُه وإسعاده، وكَثُرَتْ أولياؤه وعبيدُهُ وأعداده، واشتدَّ بإعضاده فيهم[3] اعتضاده، وأنمى الله عَدَده حتى يقال: هذا آدمُ الملوك وهذه أولاده. وينهي أنَّ الله ـ وله الحمد ـ رَزَقَ الملكَ العزيز ـ عَزَّ نَصْرُه ـ ولداً مباركاً علياً، ذكراً سَوِياً، براً زكياً، تقياً نقياً، من ذُرِّيَّةٍ كريمة بعضُها من بعض، ومن بيتٍ شريف، كادت ولاته تكون ولاةً في السماء، ومماليكه تكون ملوكاً في الأرض، وكان مَقْدَمُه الميمون في ليلة

(١) «الفتح القسي»: ٣٥٥.
(٢) انظر ص ٤٤٦ من هذا الجزء.
(٣) في (ك): منهم.

الأحد، وهي من الجمعة أولى العَدَد، وبه وبآله يُعِزُّ الله أهل الجمعة ويذلُّ أهلَ الأحد. ثم ذكر باقي[1] الكتاب.

فصـــل

في ورود خبر خروج ملك الألمان

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولما دخل شهرُ رمضان من سنة خمسٍ وثمانين وصل من حلب كتبٌ من ولده الظَّاهر يخبر فيها أَنَّه قد صَحَّ أن ملك الألمان خرج إلى القُسْطَنْطينية في عِدَّة عظيمة ـ قيل: مئتا ألف، وقيل: مئتان وستون ألفاً ـ يريد البلاد الإسلامية، فاشتدَّ ذلك على السُّلْطان، وعَظُمَ عليه، ورأى استنفار النَّاس للجهاد، وإعلام خليفة الوقت بهذه الحادثة، فاستندبني لذلك، وأمرني بالمسير إلى صاحب سِنْجار* [وصاحب الجزيرة][2]، وصاحب المَوْصِل، وصاحب إربل*، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم، وأمرني بالمسير إلى بغداد، فسرت حادي عشر رمضان، ويَسَّر الله تعالىٰ الوصول إلى الجماعة وإبلاغ الرسالة إليهم، فأجابوا إلى ذلك بنفوسهم، وسَيَّر صاحبُ المَوْصل علاَ الدين ابنَه بِمُعْظم عسكره، ووعَدَ الدِّيوان بكل جميل، وعدتُ إليه في خامس ربيع الأول سنةَ ستٍّ وثمانين، وسبقتُ العساكر، وأخبرتُه بإجابتهم وتأهبهم للمسير، فَسُرَّ بذلك[3].

---

(١) في (ك): تمام.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) «النوادر السلطانية»: ١١٥.

وقال العماد: في كتاب «الفتح»: ونمى الخبر بوصول ملك الألمان إلى قُسْطنطينية في ثلاث مئة ألف مقاتل على قَصْد العبور إلى بلاد الإسلام، وقَطْع بلاد الرُّوم والأرمن إلى الشَّام، وفيهم ستون ألف فارس مدرَّع، ومعهم ملوك وكُنود*، وكلُّ شَيْطان لربه كنود.

وكتب صاحبُ قلعة الرُّوم* مُقَدَّم الأرمن، وهو في قلعته على الفرات وبين أهل الذمة في المأمن، يبدي تنصُّحاً[1] وإشفاقاً، وتخوُّفاً على البلاد واحتراقاً، ويقطع أن الواصلين في كثرة، وأنَّ النَّاهضين إلى طريقهم في عَثْرة. وأبرق في كتابه وأرعد، وأبدع في خطابه وأبعد، ولا شكَّ أنه إلى جنسه النَّجِس مائل، وبملاءة أهل مِلَّته قائل.

ولما وصل هذا النبأُ وقيل إنَّه عظيم، وورد هذا الخبر، وَخُيِّل أنَّه أليم، كاد النَّاس يضطربون على أنهم يصدقون ويكذبون، ومن طَرَفِ كلِّ حبل من الرَّأي يجذبون، وقُلْنا: إنْ وَضَحَ هذا الخطر، وصَحَّ هذا الخبر، فالمسلمون يقومون[2] لنا ولا يقعدون، ويغضبون لله ولا يرضون أنهم لا يعضدون، على أَنَّ الله ناصرنا ومؤازرنا ومظاهرنا.

وحقَّقنا بإظهار القوَّة لمن استوحش التأنيس، وبَثَثْنا بالإرسال إلى بلاد الرُّوم عيوناً وجواسيس، وندبنا رُسُلَ الاستنصار، وبَعَثْنا كتب الاستنفار إلى جميع الأمصار والأقطار، وقلنا: ما هذه المَرَّة إلا

---

(١) في الأصل: تنصيحاً، والمثبت من (ك) وفي (ب): نصحاً.

(٢) في الأصل: يقيمون، والمثبت من (ك).

مُرَّة، لا يسيغها إلا كلُّ مُرٍّ أَبيٍّ، وما هذه الكَرَّة مثل كل كَرَّة، ولا يحضرها إلا [كل][1] كَمِيْشٍ كَمِيّ[2].

قال: وعوَّل السُّلْطان على إرسال القاضي بهاء الدين بن شَدَّاد يوسف بن رافع بن تميم، ليكون كتابه إلى الدِّيوان العزيز مع رسولٍ كريم، وقال له: ما أحتاج أوصي، وأنت تستوفي[3] القول وتستقصي. وَجَعَلَ له إلى كل طَرَفٍ في طريقه رسالة، وأودَعَه إليه مقالة.

١٥١/٢ فسار ووصل إلى حلب، والقاضي ضياء الدين بن الشَّهْرُزوري[4] رسول السُّلْطان ببغداد قد عاد، وذَكَر أَنَّه قد بلغ المُرَاد، فما هذا الرَّسول الرَّائح؟! ووصل وهو مغتاظ، وتغيَّرَ عليَّ، ونَسَبَ إنفاذ القاضي بهاء الدين إليَّ، ثم اجتمع بالسُّلْطان وَنَدَّمه على ما قَدَّمه، وأعلمه بما عمله وعلمه، وقال له: الشغل قد فرغ، والقصد[5] قد بُلِغَ.

وقَرَّر مع السُّلْطان أمراً وعاد على النُّجب إلى بغداد، وصادف بها القاضي بهاء الدين ابن شَدَّاد، فلم يُسْفر أمر سِفارته عن سَدَاد، وقيل: جوابُ ما أتيتَ فيه مع ضياء الدين نسيِّره، ونندبه فيما نتخيَّرُه[6].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) الكميش: الرجل العزوم الماضي، السريع في أموره. «اللسان» (كمش). والكمي: الشجاع، المقدم الجريء، «اللسان» (كمي)، وانظر «الفتح القسي»: ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٣) في الأصل: توفي، والمثبت من (ك).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٠ من الجزء الثالث.

(٥) في (ك): المقصود.

(٦) «الفتح القسي»: ٣٣٢ ـ ٣٣٤.

وقال في كتاب «البرق»: وصل الخبر بخروج ملك الألمان من بلاده في مئتي ألف دارع، وفي راجل في دبيبِ رِجْل الدَّبى[1]، في عَدَدِ رمل اللِّوىٰ، فأقام بمحشرهم القيامة، واستثارهم لثأر كنيستهم بالقُدْس قُمامة، وساروا في شهور حتى وصلوا قُسْطنطينية.

وكان ملك الرُّوم يكتب إلينا بأخبارهم، ونبأ خروجهم من ديارهم، ويقول: أنا لا أمكِّنهم من العبور. فلما جاؤوا لم يقدر على منعهم، فَصَدَّ عنهم الأزواد، وحرمهم الإسعاد، وعبروا الخليج وقد كَثُرَتْ أمدادهم، وقَلَّت أزوادهم.

ولما وصلوا إلى حدود بلاد الإسلام، وسلكوا في الأودية والآجام، والوِهاد والآكام، تسلَّمهم تركمان الأُوج[2]، وتراكم الثُّلوج، وشتاء الكلاب في كَلَبِ الشِّتاء[3]، واحتاجوا إلى أكل الدَّواب، وإحراق عُدَدهم لإعواز الأحطاب، وعَدِموا العَلَف، وما وجدوا الخَلَف، ومناهل الزُّلال جامدة، وهم بالبلاد جاهلون، ومن البلاء ناهلون، لا يقطعون في يومين فَرْسخاً، وقد أَذْهَبَ الله عنهم البركة، وَصَعَّب عليهم الحركة، وخَرَجَ الأمر عن حسابهم، وهم كل يوم في نقصٍ [من][4] أنفسهم ودوابِّهم.

---

(١) الدَّبى: أصغر ما يكون من الجراد والنمل. انظر «اللسان» (دبي).

(٢) الأوج: قوم من التركمان ينسبون إلى قرية أوج وراء سيحون، انظر «معجم البلدان»: ١/ ٢٧٦.

(٣) كَلَبُ الشتاء: شدته وحدته. انظر «اللسان» (كلب).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

وكانوا يدفنون من أعلاقهم النَّفيسة، وعُدَدهم الكريمة الرئيسة ما يعجزون عن نقله، ولا يخفون بثقله، فاتخذوا لأسرارها من أضلاع تلك الشِّعاب، وصدور تلك الوِهَاد والهضاب ضمائر لا تبوحُ بها أبداً، ولا تُطْلِعُ على مكنونها ومدفونها أحداً.

هذا، وبحرهم عَبَّاب المَوْج، هَبَّاب الفَوْج، فلمَّا خلصوا بعد أشهر كأنَّهم زخروا بموج سبعة أبحر. هذا، وقد نقص شطرهم، وانقطع ظهرهم، لكنهم عَرَضوا في ستين ألف مُدَرَّع مدجج مقنَّع، ذلك وقد باد أكثر راجلهم، وتَرَجَّل مُعْظم أبطال باطلهم، وسيأتي باقي أخبارهم.

قلتُ: ومن قصيدةٍ للحكيم أبي الفَضْل الجِلْياني(١):

يا مُنْقِذَ القُدْس مِنْ أيدي جَبَابِرَةٍ ... قد أقسموا(٢) بذراع الرَّبِّ تدخله
فأكذبوا كِذْبَهُمْ في وَصْفِ رَبِّهِمُ ... وَصُدِّقَ الوَعْدُ مأموناً تحوُّلُهُ

[ومنها](٣):

أَما رَأَيْتَ ابنَ أيوبَ استقلَّ بما ... يُعْيي الزَّمانَ وأهليه تَحَمُّلُهُ
هاجَ الفرنجُ وقد خاروا لفتكته ... فاستنفروا كلَّ مرهوبٍ تَغَلْغُلُهُ
لما سَبىٰ القُدْسَ قالوا كيف نتركها ... والرَّبُّ في حُفْرَةٍ منها نُمَثِّلُهُ
فكم مليكٍ لهم شَقَّ البحار سُرَى ... لينصُرَ(٤) القَبْرَ والأقدارُ تَخْذُلُهُ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٨٠ من الجزء الثاني.
(٢) في (ك): تحالفوا بذراع الرب تدخله.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) في الأصل: لينصروا، والمثبت من (ك).

وكم تَرَحَّلَ منهم فَيْلَقٌ بفلا | إلى الخوامعِ[1] ألقاه تَرَحُّلُهُ
اسْتَصْرَخُوا الأَهْلَ والعَذْوى تمزِّقُهم | واستكثروا المال والهيجا تُنَفِّلُهُ[2]
هُمُ الفَرَاشُ لهيبُ الحرب تَصْرَعُهُ | وكلّما لَجَّ صَدْماً جَلَّ مَقْتَلُهُ
سَيْفٌ أمام فِلَسْطِينِ بَرَىٰ أُمَماً | خَلْفَ البحارِ لقد أمهاه[3] صَيْقَلُهُ
كم قد أَعَدُّوا وكم قد فُلَّ جَمْعُهُمُ | من غير ضَرْبٍ ولا طَعْنٍ يُزَيِّلُهُ
وإنما اسمُ صلاحِ الدين يُذْكَرُ في | جَيْشِ العَدُوِّ فَيَسْبيهِمْ تَخَيُّلُهُ

ثم دخلت سَنة ستٍّ وثمانين [وخمس مئة][4]

قال العماد ـ رحمه الله ـ: والسُّلْطان مقيم بعسكره بمنزلة الخَرُّوبة، في خيامه المضروبة، على الحالة المحبوبة، وعنده العادل والأفضل والمُظَفَّر وعكا محصورة، وانقرضت هذه السنة وهو على مرابطة المحاصرين لعكا، واتفق في أوائل هذه السنة وقبلها انصرافُ العساكر الغريبة، إلى بلادها البعيدة والقريبة، لهجوم الشِّتاء وتوالي الأنداء والأنواء، وحالت[5] الوحول عن الركوب والنزول. وكانت نُوَب اليَزَكِ* مترتِّبة، والأحوال متهذِّبة، وربما ركب السُّلْطان يوماً للقنص بالبُزَاة، ثم يعود لانتهاز فُرْصة الغُزَاة[6].

---

(١) الخوامع: الضباع، اسم لها لازم، لأنها تخمع في مشيتها. والخُماع: العرج. انظر «اللسان» (خمع).
(٢) في الأصل: تنقله، والمثبت من (ك).
(٣) أمهى السيف: أحدَّه ورققه، والمهو من السيوف: الرقيق. انظر «اللسان» (مها).
(٤) ما بين حاصرتين من (ب).
(٥) في (ك) وقد حالت.
(٦) انظر «الفتح القسي»: ٣٥٦.

ثم وقعت وقعة الرَّمْل؛ وذلك أنه ركب يوماً في صفر، فتصيَّد، وطاب له قُرْبُ القنص فأبعد، واليَزَكية* على الرَّمْل وساحل البحر، فخرج الفرنج في وقت العَصْر، في عَدَدٍ لا يدخل في الحَصْر، وتسامع أصحابُنا بهم، فزحفوا إليهم، وحكموا عليهم، وطردوهم[1] إلى خيامهم، وأخذوا عليهم من خلفهم وأمامهم، ولهم في كلِّ دفعةٍ من العدوِّ قلائع، وللفرنج في كل كَرَّةٍ على الرَّمْل مصارع، حتى فَنِيَ النُّشَّـاب، وبقي الانتشاب. ١٥٢/٢

وشاع نداء الأصحاب باستدعاء النُّشَّاب، والفرنجُ لا يعجزهم إلا الرِّماء[2]، ولا يهتكهم إلا الإصماء[3]، فلما أَنِسُوا بخلوِّ الجِعَاب، تجاسروا على الدنوِّ من تلك الشِّعاب، وحملوا حملةً واحدةً ردُّوا بها أصحابنا إلى النهر، وكادت تعبث بهم يَدُ القهر، فَثَبَتَ من العادلية في وجوه القوم صَفٌّ مرصوص البُنْيان، واستشهد جماعةٌ من الشجعان، وذلك أنهم لما رَدُّوا الفرنج قلعوا فُرْساناً، وصرعوا أقراناً، فنزلوا بعد فَرْسهم[4] لسَلْب لِبْسهم، فمرَّت بهم الحملة في الأَوْبة، وأعجلتهم عن الركبة والوثبة، وأظلم الليل وافترق الجمعان، وكَثُرَ التأسُّف على من فُقِدَ، ومنهم الحاجب أَيْدغُمش المجدي[5].

---

(١) في الأصل و(ب): وطردوا عليهم، والمثبت من (ك).

(٢) الرماء: المراماة بالنبل. «اللسان» (رمي).

(٣) الإصماء: أن تقتل الصيد في مكانه. «اللسان» (صما).

(٤) الفرس: القتل، والأصل في الفرس دق العنق، ثم كثر حتى جُعل كل قتل فرساً. انظر «اللسان» (فرس).

(٥) «الفتح القسي»: ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

قال: ومن عجائب هذه الوقعة أنَّ مملوكاً للسُّلْطان يقال له سراسُنْقُر عَثَرَ به جواده، فقبض مَنْ أَسَره شَعْره ليجذبه، وسَلَّ آخر سيفه ليضربه، فَضَرَبَ يد قابض شَعره فسيَّبه، واشتدَّ سراسنقر يعدو وهم خلفه، فلم يدركوه، وعاد السُّلْطان من الصَّيْدِ، وقد انفصل الأمر[1].

قال: وفي يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تسلَّم شقيف أرنون* بالأمان، وكان الحصارُ قد استمرَّ عليه حتى فني زادُه، وصاحبه أرناط في الأَسْر، فسلَّمه بخلاصه، وصار إلى صور[2].

قال: واغتنم السُّلْطان هيجان البحر، وحضور مراكب الأُسطول من مِصْر، فما زال يقوِّي عكا بتسيير الغَلاَّت والقُوَّات إليها في المراكب، وملأها بالذَّخائر والأسلحة والكُماة، فلما سَكَنَ البحر، عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، وَدَبَّت عقاربها وأفاعيها، وشُدَّت مراكبنا في موانيها، وانقطع خبر البلد، وامتنع عليه دخول المدد، فانتدب العُوَّام بالسباحة، وحملهم على ذلك من السُّلْطان السَّماحة، حتى صاروا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم، ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم، ويحملون كُتُباً وطيوراً، ويعودون بكُتُبٍ وطيور، ونكتبُ إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحَمَام بالترجمة المصطلح عليها.

وكان في العسكر من اتخذ حماماً يطوف على خيمته، وينزل في منزلته، وعمل لها بُرْجاً من خشب، وهوادي من قَصَب،

(١) «الفتح القسي»: ٣٥٨.
(٢) المصدر السالف: ٣٥٩.

ويدرِّجها على الطَّيران من البُعْد، وكُنَّا نقول: ما لهذا[1] الولع بما لا ينفع! حتى جاءت نوبة عكا، فنفعت، وشَفَتِ الغليل[2] ونقعت، وأتت بالكتب سارحة شارحة، وكُنَّا نطلبها منه مع الليل والنهار، حتى قَلَّ وجودُها [عنده][3] لكثرة الإرسال، ولقد عطب عَوَّامون، فما ارتدع الباقون، ومنهم من سلم مراراً من القوم، فاجترأ وأنس بالعَوْم[4].

فصـــل

في قدوم الملوك وحريق الأبراج

قال العماد: ولما انقضى الشِّتاء وانفتح البحر، وحان زمان القتال جاءت العساكر الإسلامية من البلاد، فكان أول من وصل الملك المجاهد أسد الدين شِيركُوه صاحب حِمْص والرَّحبة، وسابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر*، وعز الدين إبراهيم بن المُقَدَّم، ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان، وحشود من العرب والتُّرْكمان.

فرحل السُّلْطان وتقدَّم، وعَزَم على طلب العدوِّ وصَمَّم، ونزل على تل كَيْسان* يوم الأربعاء ثامن عشر ربيع الأول، ورتَّبَ عسكره، فكان تقي الدين في آخر الميمنة، والعادل في آخر

---

(١) في (ك) و(ب): ما هذا.

(٢) في (ك): الغَلَل. وهما بمعنى.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) «الفتح القسي»: ٣٦٠ ـ ٣٦١.

الميسرة، والأفضل في أوّل ميمنة القلب، وأخوه الظافر في أول الميسرة على الجنب.

ثم وصل الظَّاهر في عساكر حلب، وعماد الدين محمود بن بَهْرَام الأُرْتُقي صاحب دارا*، وغيرهم من الملوك والمقاتلين، ووصل رسول الخليفة يوم الاثنين سادس عشر ربيع الأول؛ وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التِّبْن* ببغداد، ووصل معه حملان من النفط الطَّيَّار، وحملان من القَنَا الخَطَّار، وتوقيع بعشرين ألف دينار، يقترض على الدِّيوان العزيز من التُّجَّار، وخمسة من الزَّرَّاقين النَّفَّاطين المتقنين صناعة الإحراق بالنَّار، فاعتدَّ السُّلْطان بكل ما أحضره، وأخلص الدُّعاء للدِّيوان العزيز وشكره، غير أنه أبدى رَدَّ التوقيع، وقال: كل ما معي من نعمة أمير المؤمنين، ولولا صرف أموال هذه البلاد إلى الجهاد لكانت محمولة إلى الديوان.

وأركب الرسول معه مراراً، وأراه مبارك النِّزال، ومعارك القتال، حتى يشهد بما يشاهد، ويتبيَّن له المجتهد والمجاهد، وأقام طويلاً، ثم استأذن في العود، فرجع(١).

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: قَبِلَ السُّلْطان جميع ما وصل مع الرَّسول، واستعفى من الرُّقْعة والتثقيل بها(٢).

قال: وفي ذلك اليوم بلغ السُّلْطان أنَّ الفرنج قد زحفوا على

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٣٦٢ ـ ٣٦٦.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١١٩.

البلد وضايقوه، فركب إليهم لِيُشْغلهم بالقتال عن البلد، فقاتلهم قتالاً شديداً إلى الليل، وخاف السُّلْطان أن يهجم العدو البلد، فانتقل إلى تل الحجل[1] في خامس عشر ربيع الأول للقُرب.

قال: وفي صبيحة هذا اليوم وَصَلَ من البلد عَوَّام معه كتبٌ تتضمَّن أنه قد طَمَّ العدو بعضَ الخندق، وقد قوي عَزْمُ العدو على منازلة البلد ومضايقته، فجدَّد السُّلْطان الكتب إلى العساكر بالحثِّ على الوصول.

وفي سَحَر ليلة الجمعة سابع عشري ربيع الأول وصل ولدُه الظَّاهر، وفي آخر ذلك اليوم وصل مُظَفَّر الدين، وكان السُّلْطان ـ رحمه الله ـ ما تقدم عليه عسكر إلا ويعرضهم، ويسير بهم إلى العدو، وينزل بهم في خيمته، ويمدُّ لهم الطعام، وينعم عليهم بما ١٥٣/٢
تطيبُ به قلوبُهُم إذا كانوا أجانب، ثم تضرب خيامهم حيث يأمر، وينزلون بها مكرَّمين[2].

قال: وكان العدو قد اصطنع ثلاثة أبرجة من خشبٍ وحديد، وألبسها الجلود المُسَقَّاة بالخَلِّ على ما ذُكِرَ بحيث لا تنفذ فيها النِّيران. وكانت هذه الأبراج كأَنَّها الجبال نُشاهدها من مواضعنا عالية على الأسوار[3]، وهي مركَّبة على عَجَلٍ يَسَعُ الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمس مئة نفرٍ على ما قيل، ويتسع سطحه لأن

(١) في مطبوع «النوادر» تل العجول.
(٢) «النوادر السلطانية»: ١١٩ ـ ١٢٠.
(٣) في (ك): أسوار البلد.

يُنْصَبَ عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين، وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شَرْحُه، وأَيِسَ النَّاسُ من البلد بالكُلِّية، وتقطَّعَتْ قلوب المقاتلة فيه[1]، وكان قد فرغ عملها، ولم يبق إلا جَرُّها إلى قريب السُّور.

وكان السلطان ـ رحمه الله ـ قد أعمل فكره في إحراقها وإهلاكها، وجَمَعَ الصُّنَّاع من الزَّرَّاقين والنَّفَّاطين، وباحثهم في الاجتهاد في إحراقها، ووعدهم عليه بالأموال الطائلة، والعطايا الجزيلة، وضاقت حيلهم عن ذلك.

وكان من جُملة من حَضَرَ شابٌّ نَحَّاس دِمَشْقي، فذكر أَنَّ له صناعة في إحراقها، وأنه إن مُكِّن من الدُّخول إلى عكا، وحَصَلَ له الأدوية التي يعرفها أَحْرَقَها.

فَحُصِّل له جميع ما طلبه، ودخل إلى عكا، وطبخ تلك الأدوية مع النِّفْط في قدورٍ من النُّحاس، حتى صار الجميعُ كأَنَّه جمرةُ نارٍ، ثم ضَرَبَ البرج الواحد يوم وصول الملك الظَّاهر بقدرٍ، فاشتعل من ساعته ووقته، وصار كالجبل العظيم من النَّار، طالعة ذؤابته نحو السماء، فاستغاثَ المسلمون بالتهليل والتكبير، وغلبهم الفرح حتى كادت عقولهم تذهب، فبينما النَّاس ينظرون ويتعجَّبون إذ رمى البُرْجَ الثَّاني بالقدرة الثانية[2]، والثالث بالثالثة فاحترقا كالأول.

---

(١) في الأصل: فيها، والمثبت من (ك) و(ب).

(٢) في الأصل و(ب): بالقدر الثاني، والمثبت من (ك).

وركب السُّلْطان والعساكر، وسار إليهم، وانتظر أن يخرجوا فيناجزهم، عملاً بقوله ﷺ: «من فُتِحَ له بابُ خيرٍ فلينتهزه»[١]، فلم يظهر العدو من خيامهم، وحال بين الطَّائفتين الليل، واستمرَّ ركوب السُّلْطان إليهم في كلِّ يوم، وطلب نزالهم وقِتَالهم وهم لا يخرجون من خيامهم لعلمهم بتباشير النَّصْر والظَّفر بهم، والعساكر الإسلامية تتواتر وتتواصل، فوصل في الثَّاني والعشرين من ربيع الآخر عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زنكي صاحب سِنْجار*، وهو ابنُ أخي نور الدين ـ رحمه الله ـ وصهرُه زوج ابنته، فلقيه السلطان بالاحترام والتعظيم، ورَتَّبَ له العسكر في لقائه، وسار به حتى وقفه على العدو، وعاد معه إلى خيمته، وأنزله عنده.

وكان صنع له طعاماً لائقاً بذلك اليوم، فحضر هو وجميع أصحابه، وقدَّم له من التُّحف واللَّطائف ما لا يقدر عليه غيرُه، وكان قد أكرمه بحيث طرح له طَرَّاحة[٢] مستقِلَّة إلى جانبه، وبَسَطَ له ثوباً أطلس عند دخوله، وضربت خيمته على طرف المَيْسَرة على جانب النهر.

وفي سابع جُمادى الأُولىٰ وصل ابنُ أخيه صاحب الجزيرة معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي بن مودود بن زَنْكي، فلقيه السُّلْطان، وأنزله إلى جانب عمه عماد الدِّين.

---

(١) سلف تخريجه في الحاشية رقم ٣ ص ٣٣٠ من الجزء الثالث.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥٦ من الجزء الثاني.

وفي تاسع جمادى الأُولىٰ وصل ابنُ صاحب المَوْصِل، وهو علاء الدين خُرَّم شاه بن عِزِّ الدين مسعود بن مودود بن زَنْكي نائباً عن أبيه، ففرح السُّلْطان به فَرَحاً شديداً، وتلقَّاه عن بعيد هو وأهله، واستحسن أدبه واستنجبه[(١)]، وأنزله عنده في الخيمة، وكارمه مكارمةً عظيمة، وقدَّم له تُحَفاً حسنة، وأمر بضرب خيمته بين ولديه الأفضل والظَّاهر.

وفي أواخر الشهر وصل صاحبُ إربل* زين الدين يوسف بن زين الدين علي، فأكرمه السلطان، وأنزله عند أخيه مُظَفَّر الدين؛ يعني في الميسرة[(٢)].

وذَكَرَ العماد قُدوم هؤلاء الملوك بمعنى ما تقدَّم. قال: وكان الفرنج مُذْ نزلوا على عكا، صمَّموا على الإقامة والحَصْر، فشرعوا في بناء الأبراج العِظام العالية، ونقلوا في البحر آلاتها وأخشابها الجافية، وأقطاع الحديد، وبنوا ثلاثة أبراج عالية في ثلاثة مواضع من أقطار البلد، فتعبوا فيها سبعة أشهر، فلم يفرغوا منها إلا في ربيع الأول، فَعَلَتْ كأنها ثلاثة أطواد قد مُلِئَتْ طبقاتها بعُدد وأعداد، وكل بُرْجٍ لا بُدَّ له في أركانه من أربع أسطوانات عاليات، غلاظ جافيات، طول كل واحدةٍ خمسون ذراعاً، ليشرف على ارتفاع سور البلد، وبسطوها على دوائر العَجَل، ثم كسوها بعد الحديد والوثوق الشديد بجلود البقر والسلوخ، وكل يوم يقرِّبونها

(١) في الأصل: واستنخبه، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) «النوادر السلطانية»: ١٢٠ ـ ١٢٢.

ولو ذراعاً[1]، على حسب التيسير في تسييرها، وسقُّوها بالخَلِّ والخمر، وكشفوا من جوانبها الثلاثة سورَ البلد، وشرعوا في طَمِّ الخندق.

وجاء عَوَّام من عكا فأخبر السُّلْطان، فركب بالعسكر ولازمهم من الجمعة إلى الجمعة، يقاتلهم صباحاً ومساءً[2] ليشغلهم، فافترقوا قسمين: فريقٌ للقتال، وفريق آخر مع الأبراج، فأشفى البلد، وبقي له رَمَقٌ ضعيف، ورُمِيَتِ الأبراج بكل قارورة نفطٍ، فما أثَّرت.

ولم نشعر يوم السبت الثَّامن والعشرين من ربيع الأول بالأبراج إلا وقد اشتعلت والتهبت ووقعت، وكانت آيةً من قُدْرة الله تعالى ظهرت، وذلك أنَّه كان بعكا شابٌّ من أهل دمشق يُعْرف بعلي ابن عريف النَّحَّاسين، وكان أبداً بجمع آلات الزَّرَّاقين مولعاً، ولتحصيل عقاقيرها متتبِّعاً، وكلُّ من عَرَفَه عَذَله وينكر عمله، وكان قد ألَّف ١٥٤/٢
منها مقادير وقدوراً، وملأ بغيظٍ من أهل تلك الصِّناعة صدوراً، ولم يكن النِّفْط من صناعته، ولكنَّ الله وَفَّقه لسعادته.

فلما كان يوم حريقها جاء إلى الأمير قَرَاقوش وهو مغتاظ، وأخلاقه فِظاظ غِلاظ، وقال: تأذن لي في تصويب المنجنيق، لأُحَرِّق البُرُوج[3]، والله وليُّ التوفيق.

فزجره وزبره، ونهاه ونهره، وقال: صُنَّاع هذا الشُّغْل قد

---

(١) في (ك): أذرعاً.

(٢) في (ك): صباح مساء.

(٣) في الأصل و(ب): البرج، والمثبت من (ك).

خاروا وحاروا، وبعدما أنجدوا غاروا[1]. فقال النَّاس: دَعْه وشانه، وما يدريك أنَّ الله وَفَّقه وأعانه.

فرمىٰ ابنُ العريف البُرْجَ الأول قدور نفط خالية من نار، حتى عَرَفَ أنه سقاه وَرَوَّاه، ثم رماه بقدر محرقة، وأردفها بأُخرى مُزْهقة، فتسلَّطت النَّارُ على طبقاتها، فأضرم على أهل السَّعير سعيراً، وكان يوماً على الكافرين عسيراً.

ثم أحرق الثَّاني والثالث، فاجتمع عليه الأصحاب يفدُّونه، ومن أولياء الله يَعُدُّونه، وحملوه بعد ذلك إلى السُّلْطان فلم يقبل عطاءً، وقال: عملته لله، فما أريد به مِنْ سواه جزاءً.

وقيل: احترق في البرج الأول[2] سبعون فارساً بِعُدَّتها، فحبطت أعمالهم، وخابت آمالهم. وخرج رجالُنا من البلد فنظفوا الخندق، وسَدُّوا الثُّغَر، وأظهروا القُدَر بظهور القَدَر[3]، وجاؤوا إلى مواضع الأبراج وأماكنها، واستخرجوا الحديد من مكامنها، ونبشوا الرَّماد عن الزرديات* التي انسبكت، وكشفوا عن الستائر التي تهتكت، فأخذوا ما وجدوا، وحصلوا ما نشدوا.

---

(١) في الأصل: وبعد ما أنجدوا أغاروا. وفي (ك): وبعد ما أنجدوا وغاروا، والمثبت من (ب). وأنجد: أي أخذ في أرض نجد. وغار: أي أتى الغَوْر، والنجد: المرتفع من الأرض، والغور: المنخفض منها. انظر «اللسان» (نجد، غور).

(٢) في الأصل: الآن، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في (ك): وأظهروا بظهور القَدَر القُدَر.

قال: وكان السُّلْطان قد كتب بالاستظهار من شواني* الأسطول، والإسراع به في الوصول، فوصل الخبر بوصوله يوم الخميس ثامن الشهر، فاستظهر به الأسطول الأول الذي بالثغر، فركب السلطان بجميع كتائبه، وأحاط بالكفر من جميع جوانبه، واشتغل الفرنج عنا بما دهمهم في البحر، فجدُّوا في الأمر، وجهزوا أسطولاً بعدد الرجال وعُدَد القتال، وخرج لتلقي الأُسطول الواصل، وقابلوا الحقَّ بالباطل، وجاءت شواني المسلمين فنطحت وطحنت، وأخذت مركباً للعدوّ برجاله، وأخذوا لنا قطعة، وما زالت الحربُ قرعة وقرعة، وصرعةً وصرعة، حتى دخل الليل، فتحاجز الفريقان، وتفرق الأسطولان، وكانت المقتلة في الكُفْر شديدة، والسطوة مبيدة[1].

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولما كان ظهيرة يوم وصول علاء الدين ابن صاحب الموصل ظَهَرَتْ في البحر قلوعٌ كثيرة، وكان ـ رحمه الله ـ في نظرة [وصول][2] الأسطول من مصر، فإنه كان قد أمر بتعميره ووصوله، فعلم أنه هو، فركب والنَّاس[3] في خدمته، وتعبَّى تعبية القتال، وقصد مضايقة العدو ليشغله عن قصد الأسطول.

ولما علم العدو بالأُسطول استعدَّ له، وعَمَّر أسطوله لقتاله، ومنعه من دخول عكا.

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٣٦٧ ـ ٣٧٢.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) في (ك): وركب الناس.

وخرج[١] أسطول العدو، واشتدَّ السُّلْطان في قتالهم من خارج، وسار النَّاس على جانب البحر تقويةً للأُسطول وإيناساً له ولرجاله، والتقى الأسطولان في البحر، والعسكران في البر، واضطرمت نارُ الحرب واستعرت، وباع كلُّ فريقٍ روحه براحته الأخروية، وجرىٰ قتالٌ شديد أَقْشَعَ[٢] عن نُصْرة الأُسطول الإسلامي، وأُخذ منه شيني*، وقُتِلَ من به، ونُهب جميع ما فيه، وظُفِرَ من العدو بمركبٍ أيضاً كان واصلاً من قُسْطنطينية*، ودخل الأُسطول المنصور إلى عكا، وكان قد صحبه مراكب من السَّاحل فيها مِيَر وذخائر، وطابت قلوبُ أهل البلد بذلك، وانشرحت صدورهم، فإن الضَّائقة كانت قد أخذت منهم.

واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن فَصَلَ بينهما الليل، وعاد كل فريقٍ إلى خيمه وقد قُتِلَ من عدو الله وجُرح في ذلك اليوم خَلْقٌ عظيم، فإنهم قاتلوا في ثلاثة مواضع، فإن أهل البلد اشتدُّوا في قتالهم ليشغلوهم عن الأُسطول أيضاً، والأُسطولان يتقاتلان، والعسكر من البر يقاتلهم، وكان النَّصْر بحمد الله للمسلمين[٣].

قال العماد: وقتلنا منهم مُدَّة مقامنا على عكا في سنتين أكثر من ستين ألف، وزرناهم بكل حَتْف، وكلما بادوا في البر زادوا من

---

(١) في الأصل و(ب): ولما خرج، والمثبت من (ك).
(٢) أي انجلى. انظر «اللسان» (قشع).
(٣) «النوادر السلطانية»: ١٢٢ ـ ١٢٣.

البحر، وكم جسروا فخسروا، وقُتلوا وأُسروا، وهُزموا وكُسِروا، وخَلَفهم خَلْف، ويقوم مقام مئتهم ألف، وقد أفنينا أنفسهم وأموالهم، وقطعنا أرزاقهم، ووصلنا آجالهم.

فصـــل

فيما كان من أمر ملك الألمان

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: [ثم][1] تواصلتِ الأخبارُ بوصول ملك الألمان إلى بلاد قَلِيج أرسلان، وأنه انتهض للقائه جمعٌ عظيم من التُّركمان، وقصدوا منعه من عبور النهر، وأنه أعجزهم لكثرة خَلْقه، وعدم مقدَّم لهم يجمع كلمتهم. وكان قليج أرسلان يظهر شِقَاقه، وهو في الباطن قد أضمر وفاقه، ثم لما عبر إلى البلاد أظهر ما كان أضمره ووافقه، وأعطاه رهائن معه على أنه ينفِّذ معه مَنْ يوصله إلى بلاد ابن لاون، وأنفذ معه أدلَّةً يدُلُّون به، وعَرَاهم في الطَّريق جوعٌ عظيم، وأعوزهم الزَّاد، وقَلَّ بهم الظَّهْر، حتى إنهم ألقوا بعض أقمشتهم.

ولقد بلغنا ـ والله أعلم ـ أنهم جمعوا عُدَداً كثيرة من زرديَّات* وخُوَذ* وآلات وسلاح عَجَزوا عن حَمْلها، وجعلوها بيدراً ١٥٥/٢ واحداً، وأضرموا فيها النَّار لتتلف ولا ينتفع بها أحد، وأنها بقيت بعد ذلك رابية من حديد.

وساروا على هذه الحال حتى وصلوا إلى طَرَسُوس*، فأقاموا على نَهَرٍ ليعبروه، وأن ملكهم الملعون عَنَّ له أن يسبح فيه ـ وكان

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

ماءً شديدَ البرد ـ وكان ذلك عقيب ما ناله من التَّعب، وأنه عَرَضَ له بسبب ذلك مرضٌ عظيم اشتدَّ به إلى أن قتله، ولما رأى ما حَلَّ به أوصى إلى ابنه الذي كان في صحبته.

ولما مات أَجْمعوا رأيهم على أنهم سَلَقُوه في خَلٍّ، وجمعوا عظامه في كيس حتى يحملوه إلى القُدْس الشَّريف، ويدفنوه فيه، وترتَّب ابنُه مكانه على خُلْفٍ من أصحابه؛ فإنَّ ولده الأكبر كان خَلَّفه في بلاده، وكان جماعةٌ من أصحابه يميلون إليه، واستقرَّت[١] قدم ولده الحاضر في تقدُّمه في العسكر.

ولما أَحَسَّ لافون[٢] بما جرى عليهم من الخلل، وما حَلَّ بهم من الجوع والموت والضَّعف بسبب موت ملكهم، ما رأى أن يلقي نفسه بينهم، فإنَّه لا يعلم كيف يكون الأمر وهم فرنج وهو أرمني، فاعتصم عنهم في بعض قلاعه المنيعة.

ولقد وصل إلى السُّلْطان كتابٌ من الكاغيكوس، وهو مقدَّم الأرمن، وهو صاحب قلعة الرُّوم التي على طرف الفُرَات ـ ومعنى هذا الاسم الخليفة ـ ونسخة الكتاب: كتابُ الدَّاعي المخلص الكاغيكوس: مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السُّلْطان الملك[٣] النَّاصر، جامع كلمة الإيمان، رافع علم العَدْل والإحسان، صلاح الدُّنيا والدين، سُلْطان الإسلام والمسلمين؛ من أمر ملك الألمان،

---

(١) في الأصل و(ب): واستقرَّ، والمثبت من (ك).
(٢) سيرد اسمه ص ١٣٤ أنه لافون بن اصطفانة بن لاون.
(٣) الملك، ليست في (ك).

وما جرى له عند ظهوره، وذلك أنه أول ما خرج من دياره دَخَلَ بلاد الهُنْكر غَضباً، ثم دخل أرض مقدَّم الرُّوم، وفَتَحَ البِلاد ونهبها، وأحوج ملك الرُّوم إلى أن أطاعه، وأَخَذَ رهائنه: ولده وأخاه وأربعين نفراً من خُلَصائه، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً، وخمسين قنطاراً فِضَّة، وثيابَ طلس مبلغاً عظيماً، واغتصب المراكب، وعَدَّى بها إلى هذا الجانب وصحبته الرَّهائن إلى أن دَخَلَ حدود بلاد الملك قليج أرسلان، وَرَدَّ الرَّهائن، وبقي ثلاثة أيام سائراً، وتركمان الأُوْج[1] يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع، فتداخلهم الطَّمع، وجمعوا من جميع البلاد.

ووقع القتال بين التركمان وبينهم، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً، وهو سائر، ولما قَرُبَ من قُونية* جمع قُطْبُ الدين ولد قليج أرسلان العساكر، وقصدَه وضَرَبَ معه مصافًا عظيماً، فَظَفِرَ به ملكُ الألمان، وكَسَرَه كسرةً عظيمة، وسار حتى أشرف على قُونية، فخرج إليه جموعٌ عظيمة من المسلمين، فردَّهم مكسورين، وهجم قُونية بالسَّيف، وقَتَلَ منها عالماً عظيماً من المسلمين والفُرْس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأَمَّنه الملك، واستقرَّ بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملكُ رهائن؛ عشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طَرَسُوس* والمَصِّيصة*، ففعل.

وقبل وصوله إلى هذه البلاد نفَّذ كتابه ورسوله يشرح حاله،

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١١٤ من هذا الجزء.

وأين قصدُه، وما لقيه في طريقه، وأنه لا بُدَّ مجتاز بهذه البلاد اختياراً أو كرهاً، فاقتضىٰ الحال إنفاذ المملوك خاتم وصحبته ما سأل، ومعه من الخواصِّ جماعة للقاء الملك في جواب كتابه، وكانت الوصية معهم أن يحرفوه عن[1] بلاد قليج أرسلان إن أمكن.

فلما اجتمعوا بالملك الكبير، وأعادوا عليه الجواب، وعرَّفوه الأحوال أبىٰ الانحراف، ثم كَثُرَ عليه العساكر والجموع، ونزل على شَطِّ بعض الأنهر، وأكل خُبْزاً ونام ساعة، وانتبه، فتاقت نَفْسُهُ إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك، وخرج وكان أمر الله أنه تحرَّك عليه مَرَضٌ عظيم من الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات.

وأما لافون فكان سائراً يلتقي[2] الملك، فلما جرى هذا المجرى هَرَبَ الرُّسُل من العسكر، وتقدَّموا إليه، وأخبروه بالحال، فدخل في بعض حصونه واحتمىٰ هناك.

وأما ابنُ الملك فكان أبوه منذ توَّجه لقصد هذه الدِّيار نصب ولده الذي معه عوضه، وتأطَّدت[3] قواعده، وبلغه هَرَبُ رسل لافون فأنفذ، واستعطفهم وأحضرهم، وقال: إنَّ أبي كان شيخاً كبيراً، وإنما قَصَدَ هذه الدِّيار لأجل حج بيت المقدس، وأنا الذي دَبَّرْتُ الملك، وعانيت المشاق في هذه الطَّريق، فمن أطاعني، وإلا بدأتُ بقصد دياره.

---

(١) في الأصل: على، والمثبت من (ك) و(ب).
(٢) في (ك): يلقى.
(٣) أي توطدت وتثبتت. «معجم متن اللغة» ١/ ١٨٣. وفي (ب): ترتبت.

واستعطف لافون، واقتضى الحال الاجتماع به ضرورةً، وفي الجُمْلة هم في عددٍ كثير، ولقد عَرَضَ عسكره، فكان في اثنين وأربعين ألف مجفجف[1]، وأما الرَّجّالة فلا يُحصى عَدَدُهم، وهم أجناس متفاوتة وخِلَق غريبة، وهم على قَصْدٍ عظيم وَجَدٍّ في أمرهم، وسياسة هائلة، حتى إنَّ مَنْ جنى منهم جناية ليس له جزاء إلا أن يُذْبح مثل الشّاة.

ولقد بلغهم أَنَّ بعض أكابرهم أَنَّه جنى على غُلامٍ له، وجاوز الحَدَّ في ضربه، فاجتمعت القُسوس للحُكم عليه، فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه، وشَفَعَ إلى الملك منهم خَلْقٌ عظيم، فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه.

وقد حَرَّموا الملاذَّ على أنفسهم حتى إنَّ من بلغهم عنه بلوغ لذَّةٍ هجروه وعزَّروه، وكل ذلك كان حُزْناً على بيت المقدس. ولقد صَحَّ عن جَمْعٍ منهم أَنَّهم هجروا الثياب مُدَّة طويلة، وحَرَّموها على أنفسهم، ولم يَلْبَسوا إلا الحديد حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك، ١٥٦/٢
وهم من الصَّبْر على الذُّلِّ والشَّقاء والتعب على حالٍ عظيم[2].

وقال العماد: لما قاربوا بلاد عِزِّ الدين قَليج أرسلان نهض إليهم ابنُه قطب الدين مَلِكْشاه، فوقع بينهم الحرب، ثم اندفع عنهم إلى مدينة قونية*، فساقوا وراءه، ودخلوها، وحرقوا أسواقها

---

(١) أي عليه تجفاف: وهو ما يجلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح. «اللسان» (جفف). وانظر «الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين» ص ٣٢٣.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٢٣ ـ ١٢٦.

ونزلوها، فنفَّذوا إلى السُلْطان قَليج أرسلان: إنَّا لم نصل لأخذ بلادك وإنما ثُرنا لثأر بيت المقدس. ونفَّذوا إليه هدايا، وطلبوا الهُدْنة، فهادنهم، فتقوَّوا من تلك البلاد بما أرادوا من العُدَد والأزواد، ونفَّذ قَليج أرسلان وابنه يعتذران إلى السُلْطان من تمكينهم من العبور، وأنهم غُلبوا على ذلك.

ثم إن الألمانية طلبوا من قليج أرسلان إنفاذَ جماعةٍ من الأمراء معهم يمنعونهم من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن، فنفَّذ معهم خمسة وعشرين، ووافق ذلك غرض قُطْب الدين، فإنَّه كان كارهاً لجماعة من المُقَدَّمين، فتقدم إليهم بأن يكونوا في صُحْبة ملك الألمان، فحملهم على الخطر، وأوقعهم في الغَرَر، وورَّطهم في الضَّرر، فإنهم ما قدروا في الطَّريق على دفع كلِّ سارق، وقد تبعتهم اللُّصوص حتى وصلوا إلى بلاد الأرمن، ومقدَّمهم لافون بن اصطفانة بن لاون، فأخذوا أولئك الرَّهائن وقَيَّدوهم، وجعلوهم في الأَسْر وجَرَّدوهم، فمنهم من خلص بعد حين بمالٍ جزيل، ومنهم من بقي مأسوراً حتى أتاه اليقين.

ووصل مقدَّم الأرمن إلى خدمته، ودخل في طاعته، وهداهم لمقصدهم[1]، وأقام لهم بالضِّيافات والعلوفات وذلك في طَرَسُوس، فتمكثوا بها ليريحوا النُّفوس، فَعَنَّ لملك الألمان أن يسبح في النَّهر لإماطة ما به من الضَّرَر، فَعَرَضَ له مَرَضٌ سلكَ به في سَقَر.

---

(١) في الأصل: لمقصده، والمثبت من (ك).

وقيل: لما عبرت جموعُه النهر ازدحموا، والتطم الموجُ بهم واقتحموا، وطلب هو موضعاً يعبر فيه وحده، ويتبعه من بعده، فنزل على مخاضة ذات مخافة، لا يخلو من هَجَمها من آفة، فجرى إليها، واجترىٰ عليها، فجذبته سَوْرَةُ الماء إلى شجرةٍ شَجَّت رأسه، ومحت أنفاسه، وأخرجوه ونفسه على الخروج، وعُمره على الدُّروج، فتسلَّم مالكٌ ملكَ الألمان بألمه، وحمله إلى جهنَّمه[1]، وجلس ابنه مكانه، واتبع شانه، واستتبع رجاله وفرسانه.

وقيل: عَرَضَ في نيِّف وأربعين ألف كَمِيّ، وانقطع عنه ابنُ لاون، واختلف عليه أصحاب أبيه مَيْلاً منهم إلى أخيه، وساروا على سَمْت أنطاكية في فرق ثلاث، كأنَّهم من المرض قد نُبشوا من أجداث، وأكثرهم حَمَلةُ عصا ورُكّابُ حمير، وكلٌّ بالأرض التي يسلكها غير خبير، فتبرَّم بهم صاحبُ أنطاكية، وثَقُلَتْ عليه وطأتهم المفاجية، وحَسَّن لهم طريق بلاد حلب، فلم يَرَوْا لهم في ذلك الأرَب.

وطلب منه الملك قلعة أنطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له، وسلَّمها إليه طمعاً في ماله وأموال رجاله، وكان على ما حَدَسَه، فإنَّه لم يَعُد إليها، واستولى الابرنس بأنطاكية عليها.

وجاءت فرقة منهم ليلاً إلى حصن بَغْرَاس*، وظنُّوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس، ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الأصحاب،

(١) في الأصل: جهنم، والمثبت من (ك).

وتسلَّم تلك الأموال بأحمالها، والصَّناديق بأقفالها، وأُسر منهم وقُتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجُنْدها إلى طرقهم، وفرَّقوا بين فِرَقهم، والتقطوهم من الخَمَر[1] والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثةً، ولا يرىٰ [وراءهم][2] من رفقائهم إغاثة، فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس، وباعُوهم في الأسواق بالثمن الأبخس.

ولما تكامل وصول السَّالمين إلى أنطاكية، سلكوا إلى طريق طرابُلُس جَبَلة* واللاذقية، فخرج عليهم رجالُها، فقتلوا منهم وأسروا، فما وصلوا إلى طَرابُلُس إلا في خِفٍّ[3]، ولم يَضْفُ ممن جاء مع الملك غير ألف.

وجاؤوا إلى النَّازلين على عكا، فغرقوا في لُجِّهم، وخمدوا في وهجهم. ثم هلك على عكا بعد انقضاء مُدَّة، واقتضاء شِدَّة، بتاريخ ثاني عشر ذي الحِجَّة سنة ستٍّ وثمانين.

وقال في «الفتح»: وجَبُنَ الملك عن المسير على الطريق لما لقيتْ جموعُه في طرقاتهم منَ التفريق، فركب في البحر في عددٍ يسير لا يزيد على الألف، برُغْبِ قلب وقصور يد ورغم أنف، واختلط مع الفرنج على عكا، فسقط اسمُه، وسُخِطَ حكمُهُ، وهلك بعد قليل، ولم يحظَ بنقع غليل[4].

---

(١) الخمر: هو كل ما واراك من أكمةٍ أو جبل. انظر «معجم متن اللغة» ٢/ ٣٣٢.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) الخِف: الجماعة القليلة. «القاموس المحيط» (خفف).

(٤) «الفتح القسي»: ٣٩٦.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاً عظيماً، وأقام بموضعٍ يسمى التِّينات[1] من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً، وأربعون داويًا، وجهَّز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا الطَّريق، ورَتَّبهم ثلاث فرق لكثرتهم.

ثم إن الفرقة الأُولى اجتازت تحت قلعة بَغْرَاس* ومقدَّمها كُنْد عظيم عندهم، وأن عسكر بَغْرَاس مع قِلَّته أخذ منهم مئتي رجل نهباً وقهراً، وكتبوا يخبرون عنهم بالضَّعْف العظيم والمرض الشديد، وقِلَّة الخيل والظَّهْر والعُدَد والآلات.

ولما اتصل هذا الخبر بالنُّوَّاب في البلاد الشامية، أنفذوا إليهم عسكراً يكشفون أخبارهم، فوقع العسكر على جَمْعٍ عظيمٍ قد خرجوا لطلب العلوفة، فأغاروا عليهم، وقتلوا وأسروا زُهاء خمس مئة نفس، ولقد حَضَرْتُ من يخبر السُّلْطان عنهم ويقول: هم عددٌ كثير لكنهم ضعفاء، قليلو الخيل والعُدَّة، وأكثر ثَقَلهم على حمير وخيلٍ ١٥٧/٢ ضعيفة[2].

قال: ولقد وقفتُ على جسرٍ يعبرون عليه لأعتبرهم، فَعَبَر منهم جمعٌ عظيم ما وجدتُ مع واحدٍ منهم طارقة* ولا رمحاً إلا النَّادر، فسألتهم عن ذلك فقالوا: أقمنا بمرج وَخِمٍ أياماً، وقَلَّتْ

---

(١) التينات، كأنه جمع تينة من الفواكه: فرضة على بحر الشام قرب المصيصة. «معجم البلدان»: ١/ ٦٨. وجاءت في (ك) ومطبوع «النوادر»: الميناث.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٢٧.

أزوادُنا وأحطابنا، فأوقدنا معظم عُددنا، ومات منا خَلْقٌ عظيم، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها. ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية، وطمع لافون[١] فيهم حتى عَزَمَ على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقِلّة جمعه الذي تأخّر[٢] معه، ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضَّعْف والمرض[٣].

قال: ولما تحقَّق السُّلْطان وصول ملك الألمان إلى بلاد لافون، وقربه من البلاد الإسلامية جمع أمراء دولته، وأرباب الآراء وشاورهم فيما يصنع، فاتفق الرأي على أَنَّ العسكر يسير بعضه إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل، وأن يقيم هو ـ رحمه الله ـ على منازلة العدو بباقي العسكر المنصور، فكان أول من سار صاحب منبج* ناصر الدين بن تقي الدين، ثم عِزُّ الدين ابن المقدَّم صاحب كفرطاب* وبارين* وغيرهما، ثم مجد الدين صاحب بَعْلَبَكَّ، ثم سابق الدين صاحب شَيْزَر*، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب، [ثم عسكر حماة][٤].

وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرضٍ عَرَض له، وكذا بدر الدين شِحْنة دمشق، ثم سار الملك الظّاهر إلى حلب لإيالة الطَّريق وكشف الخبر، وحفظ ما يليه من البلاد، وسار بعده الملك المُظفَّر لحفظ ما يليه من البلاد، وتدبير أمر العدو المجتاز.

---

(١) في (ك): ابن لافون، وهو خطأ.
(٢) في (ك): تخلف.
(٣) «النوادر السلطانية»: ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

ولما سارت هذه العساكر خَفَّت الميمنة، فإنَّ معظم من سار منها، فأمر ـ رحمه الله ـ الملك العادل، فانتقل إلى منزلة تقي الدين في طرف الميمنة، وكان عماد الدين زنكي في طرف الميسرة، ووقع في العسكر مَرَضٌ عظيم، فمرض مُظَفَّر الدين بن زين الدين صاحب حَرَّان* وشُفي، ومرض بعده الملك الظَّافر ولد السُّلْطان وشُفي، ومرض خَلْقٌ كثير من الأكابر وغيرهم إلا أن المرض كان سليماً بحمد الله تعالى، وكان المرضُ عند العدو أعظم وأكثر، وكان مقترناً بموتانٍ عظيمٍ، وأقام السلطان مصابراً على ذلك، مرابطاً للعدو[1].

قال العماد: وتقدَّم السُّلْطان بهدم سور طبرِيَّة، وهَدْمِ يافا وأَرْسُوف* وقَيْسارية*، وهَدْمِ سور صَيْدا وجُبيل*، ونَقْلِ أهلهما إلى بيروت.

وفي بعض الكتب السُّلْطانية: قد عَرَفْنا خبر العدوِّ المشؤوم، الواصل من جانب الرُّوم، وهذا أوانُ تحرُّكِ ذوي الحَمِيَّة، ونهوض أهل الهِمَمِ الأبيَّة العَلِيَّة، فإنَّ القوم في كثرةٍ، مُسْتَنُّون[2] في طريق العَثْرَة، والسَّيْلُ إذا وصل إلى الجبل الرَّاسي وَقَفَ، واللَّيل إذا بلغ إلى الصُّبح المُسْفر انكشف، فأين المُؤدُّون فَرْضَ الجهاد المتعين؟ وأين المهتدون في نهج الرَّشاد المتبيِّن؟ وأين المسلمون؟ وحاشىٰ أن يكونوا للإسلام مُسْلِمين، وأين المقدَّمون في الدِّين؟ ومعاذ الله ألا

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) أي سائرون. «القاموس المحيط» (سنن).

يكونوا في نُصْرته على الموت مُقْدِمين، ولولا التقيُّد بهذا العدوّ الرَّابض لأطلقتُ أَعِنَّة النهضة إلى العدو النَّاهض، ولا بُدَّ من لقائه قبل تلفُّق[1] الجمعين، وإراءة الملاعين وجوه حتفهم مِلْء العين[2].

ومن كتابٍ فاضلي إلى بغداد: ومن خبر الفرنج أنهم الآن على عكا يمدُّهم البحر بمراكب أكثر عِدَّة من أمواجه، ويُخْرج للمسلمين أَمَرَّ من أُجاجه، وقد تعاضَدَتْ ملوك الكُفْر على أن ينهضوا إليهم من كلِّ فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شَوْكة، فإذا قَتَلَ المسلمون واحداً في البَرّ، بعث ألفاً عوضه البحر، فالزَّرْع أكثر من الحُصَّاد، والثمرة أنمى من الجُدَّاد[3]، وهذا العدوُّ المقابل ـ قاتله الله ـ قد زرّ عليه من الخنادق دروعاً متينة، واستجنَّ من الجنويات* بحصونٍ حصينة، فصار مُصْحِراً ومتمنعاً[4]، حاسراً ومتدرِّعاً، مواصلاً ومنقطعاً، وعددهم الجَمُّ قد كاثر القتل، ورقابهم الغُلْب[5] قد قطعتِ النَّصْل لشِدَّة ما قطعها النَّصْل.

وأصحابنا قد أثَّرَتْ فيهم المُدَّة الطويلة، والكلف الثَّقيلة في استطاعتهم لا في طاعتهم، وفي أحوالهم لا في شجاعتهم، وكل من

---

(١) في (ك): تلقف. وتلفُّق الجمعين أي اجتماعهما، وأصلها من لفق الثوب: يلفقه: ضم شقة إلى أخرى. انظر «القاموس المحيط» (لفق).

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٣٩٩، ٤٠١.

(٣) الجداد: من جَدَّ الشيءَ إذا قطعه. «اللسان» (جدد).

(٤) في (ك): ممتنعاً.

(٥) الغُلْب جمع، مفردها الأغلب: الغليظ الرقبة. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٣١٢.

يعرفهم يناشد الله فيهم المناشدة النَّبوية في الصُّحْبة البَدْرية: اللهم إنْ تُهْلِكْ هذه العِصَابة[1]، ويُخلص الدُّعاء، ويرجو على يد سيدنا أمير المؤمنين الإجابة، وقد حَرَّم باباهم ـ لعنة الله عليه وعليهم ـ كلَّ مباح، واستخرج منهم كلَّ مذخور، وأغلق دونهم الكنائس، ولبس وألبسهم الحِدَاد، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المَقْبُرَة [ويعيدُوا القُمامة][2]، فيا عُصْبة[3] محمد ـ عليه السَّلام ـ اخلُفْه في أُمَّته بما تطمئنُّ به مضاجعه، وَوَفِّه الحَقَّ فينا فإنَّا والمسلمون عندك ودائعه.

وما مثَّل الخادم نفسه في هذا القول إلا بحاله لو وقف بالعَتَبات ضارعاً، وقَبَّل ترابها خاشعاً، وناجاها بالقول صادعاً، ولو رُفِعَتْ عنه العوائق لهاجر، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مسيحه بالدَّاء الذي خامر[4]، ولو أمن عدوّ الإسلام أن يقول قولاً آخر[3] لسافر، ولولا أَنَّ في التَّصريح ما يعود على العِدَىٰ له بالتجريح لقال ما يبكي العيون وينكي القلوب، ولكنه صابرٌ محتسب، منتظر لنصر الله مرتقب، قائم من نفسه بما يجب، [قائل][5]: ربِّ إني لا أَمْلِكُ إلا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢٠٨)، ومسلم (١٧٦٣) والترمذي (٣٠٨١) من حديث عمر بن الخطاب مرفوعاً.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك)، وقد استدركت في هامشها وعليها علامة الصحة.

(٣ ـ ٣) ما بينهما جاء في (ك) بعد الآية ﴿لله من قبل ومن بعد﴾ الآتية بعد أسطر.

(٤) في (ك): جاهر.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك).

نَفْسي[1]، وها هي في سبيلك مبذولة، وأخي وقد هاجر إليك هجرةً
١٥٨/٢ يرجوها مقبولة، وولدي وقد بذلتُ لعدوك صفحاتِ وجوههم، وهان على محبوبك بمكروهي فيهم ومكروههم، ونقف عند هذا الحد ﴿ولله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾[2].

فصل

في الوقعة العادلية على عكّا ظهر يوم الأربعاء العشرين من جُمادى الآخرة

قال القاضي ابنُ شدَّاد: علم عدوُّ الله أَنَّ العساكر قد تفرَّقت في أطراف البلاد، وأن الميمنة قد خَفَّت لأن معظم من سار كان منها[3] بحكم قُرْب بلادهم من طريق العدو، فأجمعوا رأيهم، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة، فخرجوا واستخفُّوا طرف الميمنة، وفيها مخيَّم العادل، فلما بَصُرَ الناس بهم صاح صائحهم، وخرجوا من خيامهم كالأُسود من آجامها، وركب السلطان، ونادى مناديه: يا للإسلام.

وكان ـ رحمه الله ـ أوَّل راكب، ولقد رأيته وقد ركب من خيمته، وحوله نَفَرٌ يسير من خواصِّه والناس لم يستتم ركوبهم، وهو كالفاقدة ولدها، الثاكلة واحدها، ثم ضرب الكوس*، فأجابته

(١) فيه اقتباس من قوله تعالى حكايةً عن موسى عليه السلام: ﴿قال رَبِّ إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ سورة المائدة، الآية ٢٥.

(٢) سورة الروم، الآية ٤.

(٣) في الأصل: من كان سار منها، والمثبت من (ك).

كوسات الأُمراء من أماكنها، وركب النَّاس، وسارع الفرنج في قَصْدِ الميمنة حتى وصلوا إلى المخيَّم العادلي قبل استتمام ركوب العساكر، ودخلوا في وطاقه*، وامتدَّت أيديهم في السُّوق وأطراف الخيم بالنَّهب والغارة، وقيل: وصلوا إلى خيمة الخاص، وأخذوا من شرابخاناته* شيئاً.

وركب العادل واستركب من يليه من الميمنة كالطواشي* قايماز النَّجمي، وعز الدين جُرْديك النُّوري ومن يجري مجراه، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعُهم في المخيَّم، ويشتغلوا بالنَّهب، وكان كما ظَنَّ، فإنه عاثت أيديهم في الخيام والأقمشة والفواكه والطَّعام[١]، فلما علم اشتغالهم بذلك صاح بالنَّاس، وحمل بنفسه يَقْدُمُه ولده الكبير شمس الدين مودود، وحمل بحملته من كان يليه من الميمنة، واتصل الأمر بجميع الميمنة حتى وصل الصَّائح إلى عسكر المَوْصل، وهجموا على العدوِّ هجمةَ الأُسود على فرائسها، وأمكنهم الله منهم، ووقعت الكسرة، فعادوا يشتدُّون نحو خيامهم هاربين، وعلى أعقابهم ناكصين، وسيف الله يقتل فيهم، وصاح صائح السُّلْطان في النَّاس: يا أبطال الموحِّدين، هذا عدوُّ الله قد أمكن الله منه، وقد داخله الطَّمع حتى غشي خيامكم بنفسه.

فبادَرَ إلى إجابته حَلْقَتُه وخاصَّتُه، ثم [طُلْب*][٢] عسكر المَوْصل يَقْدُمُهم علاء الدين ولد عز الدين، ثم عسكر مِصْر يَقْدُمهم

(١) في (ك): والأطعمة.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

سُنْقُر الحلبي، وتتابعت العساكر، وتجاويت الأبطال، وقامت سوق الحَرْب، فلم يكن إلا ساعة حتى رأينا القوم صَرْعىٰ كأنَّهم أعجازُ نَخْلٍ خاوية[1]، وامتدُّوا مطروحين من خيام العادل إلى خيامهم، أولهم في الخِيَم الإسلامية، وآخرهم في خيم العدوّ صرعى على التُّلول والوِهاد، وكان مقدار ما امتدَّ فيه القتلىٰ بين المخيَّمين فرسخاً، ورُبَّما زاد على ذلك، ولم ينجُ من القوم إلا النَّادر[2].

قال: ولقد خضتُ في تلك الدِّماء بدابَّتي، واجتهدتُ على أن أعدَّهم فما قَدِرْتُ على ذلك لكثرتهم وتفرُّقهم، وشاهدتُ منهم امرأتين مقتولتين. وحكى لي من شاهَدَ منهم أربع نسوة يقاتلن، وأُسِرَ منهن اثنتان، وأسر من الرجال في ذلك اليوم نَفَرٌ يسير، فإنَّ السُّلْطان كان أمر النَّاس ألا يستبقوا أحداً.

هذا كلُّه في الميمنة وبعض القلب، وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نَجِزَ الأمر، وقُضي القضاء على العدو؛ لِبُعْد [ما بين][3] المسافتين، وكانت هذه الوقعة فيما بين الظُّهر والعصر، فإنَّ العدو ظهر في قائم الظهيرة، وانفصلت الحرب بعد العصر. وانكسر القوم حتى دخلت طائفةٌ من المسلمين [وراءهم][4] إلى مخيمهم على ما قيل.

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ سورة الحاقة، الآية ٧.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٢٩ ـ ١٣٠.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

ثم إن السُّلطان أمر النَّاس بالتراجع، ولم يفقد أحد من المسلمين في ذلك اليوم سوى عشرة أنفس غير معروفين.

ولما أَحَسَّ جند الله [بعكا][١] بما جرى بين المسلمين وبين العدو من الوقعة، فإنهم كانوا يشاهدون الوقعات من أعالي السُّور، خرجوا إلى مخيَّم العدو من البلد، وجرى بينهم مقتلةٌ عظيمة، وكانت النُّصْرة ـ والحمد لله ـ للمسلمين، بحيث هجموا خيامَ العدو، ونهبوا منها جمعاً من النِّسْوان والأقمشة، حتى القدور وفيها الطَّعام، ووصل كتابٌ من عكَّا يخبر بذلك.

واختلف النَّاس في عدد القتلى منهم، فذكر قومٌ أنهم ثمانية آلاف، وقال آخرون: سبعة آلاف، ولم ينقصهم حازِرٌ عن خمسة آلاف، ولقد شاهدتُ منهم خمسةَ صفوف أَوَّلها في خِيَم العادل وآخرها في خيم [العدو][٢]، ولقد لقيت إنساناً عاقلاً جندياً يسعى بين صفوف القتلى ويعدُّهم، فقلتُ [له][٣]: كم عددتَ؟ فقال: إلى هاهنا أربعة آلاف ونيفاً وستين قتيلاً. وكان قد عَدَّ صفين وهو في الصَّفِّ الثَّالث، لكن ما مضىٰ من الصفوف أكثر عدداً من الباقي[٤].

قال: وجاء من الغد نَجَّاب له عن حلب خمسة أيام بكتابٍ يتضمَّن أن جماعةً عظيمة من العدو الشمالي خرجوا للنَّهب بأطراف البلاد الإسلامية، ونهض العسكر الحلبي إليهم وأخذ عليهم الطَّريق، فلم يَنْجُ منهم أحد إلا من شاء الله[٥].

---

(١)(٢) (٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) «النوادر السلطانية» ١٣٠ ـ ١٣١.

(٥) «النوادر السلطانية»: ١٣١.

قال: وجاء في ليلة ذلك اليوم من اليَزَك* مَنْ ذكر أَنَّ العدو قد سأل من جانب السلطان من يصل إليهم ليسمع منهم حديثاً في سؤال الصُلْح لضعفٍ حلَّ بهم، ولم يزل العدو من حينئذٍ مكسور
١٥٩/٢ الجَنَاح، منهاض الجانب، حتى وصلهم كُنْد يقال له كندهري، وسيأتي ذكره[١].

وقال العماد: ولما شاع عند الفرنج خبر وصول الألمانية قالوا: إذا وصل ملكهم ونكىٰ في المسلمين انكسر ناموسنا، وتطأطأت عنده رؤوسنا.

فذكر الوقعة بمعنى ما تقدَّم إلى أن قال: ووصل السلطان، وشاهد من مساءة الفرنج ما سَرَّه، وعَرَفَ لُطْفَ الله وَبِرَّه ونَصْره، وعايَنَ هناك مصارع الأعداء، ومشارع البلاء، وكانوا مفروشين في مدى فرسخٍ على الأرض، وهم في تسعة صُفُوف من تلال الرَّمْل إلى البحر بالعرض، وكلُّ صَفٍّ يزيد على ألف قتيل، وشاع القَتْلُ في الفرنج في كلِّ قَبيل. وكانت هذه النَّوْبة بلا نائبة، والغزوة بلا شائبة، وقُتِلَ منهم زُهاء عشرة آلاف، ولم يبلغ من استشهد من أتباع العسكر عشرة، فاغتنمها تجارةً رابحة، وغنيمةً مُيَسَّرة[٢].

قال: ولما عَرَفْتُ بالواقعة، والنُّصْرة الجامعة، صدَّرْتُ ثلاثين أربعين كتاباً بالبشارات، بأبلغ المعاني وأبرعِ العِبارات، وقُلْتُ: إذا نَزَلَ السُلْطان وَجَد الكتب حاضرة، ولأرىٰ البشارة شائرةً.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٣١.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

ركبتُ أنا والقاضي بهاء الدين ابنُ شَدَّاد، لمشاهدة ما هناك من أشلاء صرعى وأجساد، فما أَعْجَلَ ما سُلِبوا وأعروا، وفُرُوا وفُرُّوا، وقد بُقِرَتْ بطونُهم، وفُقِئت عيونُهم، ورأينا امرأةً مقتولة لكونها مقاتلة، وسمعناها وهي خامدة بالعَبْرة قائلة، وما زلنا نطوفُ عليهم ونَعْبُرُ، ونفكِّر فيهم ونعتبر، حتى ارتدى العشاء بالظَّلام، فَعُدْنا إلى الخيام، وأَطَلْنا الوقوف على تلك الطُّلول الدَّارسة، واستبشرتِ الوجوه بتلك الوجوه العابسة، وحزرناهم بعشرة آلاف قتيل، لا حَزْرَ تكثيرٍ بل حزر تقليل، وكان الذين حَمَلوا وهَزَموا وقَتَلوا أقلَّ من ألف، فقتلوا أضعافاً مُضاعفةً، وعَدِموا ممن وراءهم مساعدة ومساعفة[1].

وحُكي من نوادر هذه الوقعة أنَّ فرنجياً عُقِرَ فجثا للصرعة، فَعَثَر به راكبُ بِرْذون[2]، فعرقب الفرنجيُّ فرسَه بسيفٍ في يده، فنزل بجَدِّه مُسْتِنّاً في جَدَده[3]، وقَتَل ذلك الفرنجيَّ، ورَوَّى من دمه الهنديَّ، وحلَّ من وسطه ثمانين ديناراً، فانقلب ربحاً ما عَدَّه خساراً. وامتلأت الأيدي بالأسلاب والأكساب، وحصل من العُدَد ما لم يكن في الحساب، وبيعت الزرديَّات* ذوات الأثمان بالرُّخْص[4].

قال: وشَرَعَ الفرنجُ في الخِدَاع والمراسلة، وسألوا في الصُّلح، وأَذِنَ لهم السُّلطان في الخروج للنَّظر إلى أولئك الصَّرْعىٰ بتلك المروج، وهي قد تورَّمت وأنتنت وجافت، وحميت الشَّمس على

---

(١) «الفتح القسي»: ٤٠٥ ـ ٤٠٦.

(٢) انظر حاشيتنا رقم١ ص ٣٧ من الجزء الثاني.

(٣) الجد: الحظ، ومستناً: أي سائراً، والجدد: الطريق المستقيمة.

(٤) انظر «الفتح القسي»: ٤١١.

جيفها وحافت، وضافتها القشاعم والخوامع[1] عليها أطافت، فساءهم ما سَرَّنا، ونَفَّرهم ما أَقَرَّنا[2].

فصـــل

قال العماد: وكان الرأي بعد هذه النُّصْرة أن تردَّ عليهم الكَرَّة، مَرَّةً بعد مَرَّة، إلى أن يهلكوا حسرة، ويبيدوا فلا يبقى لهم جَمْرة، فاشتغل السُّلْطان بما جاءه من المكاتبات، بظفر التركمان وغيرهم بعسكر الألمان، فجاءت للفرنج نجدةٌ من البحر، ومَدَدٌ أضعاف ما نَقَصَ منهم من العَدَد والعُدَد، فأضحوا كأن لم يُنْكَبُوا، وثبتوا مكانَهم ولم يَثِبُوا.

ووصل إليهم المعروف بالكُنْدهري، ففرَّق الأموال، واستخدم الرِّجال، وأنفق في عشرة آلاف راجل، وأظهر أنَّه يخرج إلى لقاء عسكر الإسلام، فتحوَّل السُّلْطان إلى منزلة الخَرُّوبة* ليوسِّعَ عليهم الدَّائرة. ونَصَبَ الكندُ على عكا منجنيقاتٍ كثيرة[3]، فأحرقها المسلمون، وقُتِلَ منهم من الفوارس سبعون، وأُسِرَ عِدَّةٌ معروفون، ثم نَصَبَ منجنيقين، فأُحرقا أول شعبان، وكان الكند قد أنفق على أحدهما ألفاً وخمس مئة دينار.

ومن جُملة مَنْ وقع في الأسر فارسٌ كبير، فما أمهلوه حين أخذوه حتى قتلوه ونبذوه، فطلبه منهم الفرنج بالأموال، ولم يعرفوا

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١١٦ من هذا الجزء.
(٢) انظر «الفتح القسي»: ٤١٢.
(٣) في (ك): عِدَّة.

بالحال، فأخرجوه إليهم قتيلاً، فأكثر الفرنج عليه بعد العويل عويلاً، فباتوا يندبونه نوحاً، ويذيعون سِرَّ تقدُّمه فيهم بوحاً.

وحين وقعت أعينُهم عليه قتيلاً ضربوا بنفوسهم الأرض، وحثوا على رؤوسهم التُّراب، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدةٌ عظيمة، وكتموا أمره، ولم يظهر من كان، واستصغر المسلمون بعد ذلك أمرهم، وهَجَمَ عليهم العربُ من كلِّ جانب يسرقون وينهبون، ويقتلون ويأسرون[١].

هذا، والكتبُ متواصلة من عكا إلينا، ومنَّا إليها على أجنحة الطُّيور وأيدي السُّبَّاح، والمراكب اللُّطاف، تخرج ليلاً، وتدخل سرقة من العدو[٢].

قال العماد: ووصل من ملك قُسْطنطينية كتابٌ يتضمَّن استعطافاً واستسعافاً، ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخُطْبة، وأنَّه مستمرٌّ على المودَّة، راغبٌ في المحبَّة، ويعتذرُ عن عبور الملك الألماني، وأنَّه قد فُجِعَ في طريقه بالأماني، ونال من الشِّدَّة ونقص العُدَّة ما أضعفه وأوهاه، وأنه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع، ويَمُتْ بما به كاده، وأنَّه قد بلغ في أذاه اجتهاده، ويطلبُ رسولاً يدرك به من السُّلْطان سُولاً، فأُجيب في ذلك إلى مُرَاده، ووقع الاعتدادُ بما ذكره من اعتداده.

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٤١٥.

(٢) سياق العبارة هكذا كأنها من كلام العماد، وهي عند ابن شداد في «النوادر السلطانية»: ١٣١.

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان بين السُّلْطان وبين ملك
٢/١٦٠ قسطنطينية* مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسولٌ إلى الباب
الكريم السُّلْطاني بمرج عيون* سنة خمسٍ وثمانين في رجب في
جواب رسولٍ كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد، وإقامة قانون
الخُطْبة في جامع قُسْطنطينية.

فمضى الرَّسول، وأقام الخُطْبة، ولُقِّيَ باحترامٍ عظيم، وإكرامٍ
زائد، وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيبَ والمنبر وجَمْعاً من
المُؤَذِّنين والقُرَّاء، وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من
أيام الإسلام، شاهدَه جمعٌ كثير من التُّجَّار.

ورقي الخطيبُ المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها
والتجار، وأقام الدَّعْوة الإسلامية العَبَّاسية، ثم عاد، فعاد معه هذا
الرَّسول يخبرُ بانتظامِ الحال في ذلك، فأقام مُدَّة، ولقد شاهدتُهُ يبلِّغ
الرِّسالة، ومعه تَرْجُمان يُترجم عنه، وهو شيخٌ من أحسن ما يُفْرَضُ
أن يكون من صور المشايخ، وعليه زِيُّهم الذي يختصُّ بهم، ومعه
كتابٌ وتذكِرَة، والكتاب مختومٌ بذهب. ولما مات وصل خبرُ وفاته
إلى ملك قسطنطينية، فأنفذ هذا الرسول في تتمة ذلك[١].

ثم وصف القاضي الكتاب، وعَبَّر عنه بألفاظه، وقد عَبَّر العمادُ
عن معانيه، فأغنى عن ذلك[٢].

ثم قال: وكان من حديث ملك الألمان أَنَّه بعد أن استقرَّ قدمه

(١) «النوادر السلطانية»: ١٣٢.
(٢) انظر المصدر السالف: ١٣٢ ـ ١٣٣.

في أنطاكية أخذها من صاحبها، وحكم فيه، وكان بين يديه فيها ينفِّذ أوامره، فأخذها منه غِيْلَةً وخديعة، وأودعها خزائنه، وسار عنها خامس عشري رجب نحو عكا في جيوشه وجموعه على طريق اللاّذقية، حتى أتى طَرَابُلُس، وكان قد سار إليه من معسكر الفرنج يلتقيه المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حِيْلَةً وأشدِّهم بأساً، وهو الأصل في تهييج الجموع؛ وذلك أَنَّه صَوَّر القُدْس في ورقةٍ عظيمة، وصَوَّر فيه صورة القيامة التي يحجُّون إليها، ويعظِّمون شأنها، وفيها قَبْرُ المسيح الذي دُفِنَ فيه بعد صَلْبه بزعمهم، وذلك القبر هو أصلُ حَجِّهم، وهو الذي يعتقدون نزول النُّور عليه في كلِّ سنة في عيدٍ من أعيادهم.

فصوَّر القبر، وصوَّر عليه فرساً عليه فارس مسلم راكب، وقد وطىء قبر المسيح، وقد بال الفَرَسُ على القبر، وأبدى هذه الصُّورة وراء البحر في الأسواق والمجامع، والقسوس يحملونها، ورؤوسهم مكشَّفة، وعليهم المسوح، وينادون بالويل والثبور.

وللصُّورِ عملٌ في قلوبهم، فإنَّها أَصْلُ دينهم، فهاج بذلك خلائقُ لا يُحْصِي عَدَدَهُم إلا الله تعالى، وكان من جُمْلتهم ملك الألمان وجنوده، فلقيهم المركيس لكونه أصلاً في استدعائهم إلى هذه الواقعة، فلما اتَّصل به قَوَّى قَلْبَه، وبَصَّرَه بالطُّرق، وسلك به السَّاحل خوفاً من أَنَّه إذا أتى على بلاد حلب وحماة نازلهم المسلمون من كلِّ جانب، ومع ذلك لم يَسْلموا من شَنِّ الغارات عليهم.

واختلف حَزْرُ النَّاس لهم، ولقد وقفتُ على بعض كتب

الخبيرين بالحرب، وقد حَزَرَ فارِسَهُمْ وراجِلَهم بخمسة آلاف بعد أن كانوا قد خرجوا على ما ذكر بمئتي ألف، فانظر إلى صنيع الله مع أعدائه.

ولما ساروا من اللاذقية يريدون جَبَلَة* وجدوا في أعقابهم نيفاً وستين فرساً قد عَطِبَتْ، وانتزع لحمها، ولم يبق فيها إلا العظام من شِدَّة الجوع وضعف الخيل، ولم يزالوا سائرين، وأيدي المسلمين تتخطَّفهم من حولهم نهباً وأسراً وقتلاً حتى أتوا طرابُلُس، فأقام بها حتى استجمَّ عسكره، وأرسل إلى النَّازلين على عكا يخبرهم بقدومه، فوجموا من ذلك؛ لأن المركيس صاحب مشورته، وكان الملك جفري وهو ملك السَّاحل بالمعسكر هو الذي يُرْجَعُ إليه في الأمور، فعلم أَنَّ مع قدوم الألماني لا يبقى له حُكْم.

وفي أواخر شعبان نَزَلَ الألماني في المراكب هو وعسكره، فثارت عليهم ريح أهلكت منهم ثلاثة مراكب، وسار الباقون إلى صور، ثم وصل إلى عكا في نَفَرٍ يسير في سادس رمضان، وكان لقدومه وَقْعٌ عظيم عندهم، ووصل خبر وصولهم إلى طرابُلُس ثامن شعبان والسُّلْطان ثابت الجأش، راسخ القدم، لا يزعزعه ذلك عن حراسة عكا، والحماية لها، ومُرَاصدة العسكر النَّازل بها، وشَنِّ الغارات، والهجوم عليهم في كلِّ وقت، مُفَوِّضاً أمره إلى الله تعالى، معتمداً عليه، منبسط الوجه لقضاء حوائج النَّاس، مواصلاً ببِرّه من نفّذ إليه من الفقراء والفقهاء والمشايخ والأدباء، ولقد كنتُ إذا بلغني هذا الخبر تأثرتُ حتى إذا دخلتُ عليه أَجِدُ من قوَّة النَّفْس، وشِدَّة

البَأس ما يشرح صدري، وأتيقَّن معه نُصْرة الإسلام وأهله[١].

فصــل
في إدخال البَطَس* إلى عكا

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: كان ـ رحمه الله ـ قد أَعَدَّ ببيروت بُطْسَةً وعَمَّرها، وأودعها أربع مئة غِرارة من القمح، ووضع فيها من الجُبْن والبصل والغنم وغير ذلك من المِيْرَة، وكان الفرنج قد أداروا مراكبهم حول عكا، حراسةً لها عن أن يدخلها مركبٌ للمسلمين، وكان قد اشتدَّتْ حاجة مَنْ فيها إلى الطَّعام والميرة، فركب في بطسة بيروت جماعةٌ من المُسْلمين، وتزيُّوا بزِيِّ الفرنج، حتى حلقوا لحاهم، ووضعوا الخنازير على سطح البطْسة بحيث تُرَىٰ من بُعْد، وعَلَّقوا الصُّلْبان، وجاؤوا قاصدي البلد من البُعْد حتى خالطوا مراكب العدو، فخرجوا إليهم، واعترضوهم في الحَرَّاقات* ١٦١/٢ والشَّواني*، وقالوا لهم: نراكم قاصدين البلد، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا: أَوَ لم تكونوا أخذتم البلد؟ فقالوا: [لا][٢]، لم نأخذ البلد بعد. فقالوا: نحن نردُّ القلوع إلى العسكر، ووراءنا بطسة أخرى في هوائها، فأَنْذِرُوهم حتى لا يدخلوا البلد.

وكان وراءهم بطسةٌ فرنجية قد اتفقت معهم في البحر قاصدين العسكر، فنظروا فرأوها، فقصدوها لينذروها، فاشتدَّت البطسة

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

الإسلامية في السَّير، واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد، وسَلِمَتْ ولله الحمد. وكان فرجاً عظيماً، فإنَّ الحاجة كانت قد أَخَذَتْ من أهل البلد، وكان ذلك في العشر الآخر من رجب[1].

قال: وفي العشر الأوسط من شعبان كتب بهاء الدين قَرَاقُوش وهو والي البلد، والمقدَّم على الأسطول وهو الحاجب لؤلؤ يذكران للسُّلْطان أَنَّه لم يبق بالبلد مِيْرة إلا قدر يكفي البلد إلى ليلة النِّصْف من شعبان لا غير، فأَسَرَّها يوسف في نفسه ولم يُبْدِها لخاص ولا عام، خشية الشُّيوع والبلوغ إلى العدو، وتضعف به قلوبُ المسلمين.

وكان قد كتب إلى مِصْر بتجهيز ثلاث بطس* مشحونة بالأقوات والإدام والمير، وجميع ما يحتاج إليه في الحصار، بحيث يكفيهم ذلك طول الشِّتاء.

فأقلعت البطس الثلاث من الدِّيار المِصْرية، وَلَجَّجَتْ[2] في البحر تتوخَّى النوتية بها الريح التي تحملها إلى عكا، فطابت لهم الريح حتى ساروا ووصلوا إلى عكا ليلة النصف من شعبان، وقد فَنِيَتِ الأزواد، ولم يبق عندهم ما يطعمون النَّاس في ذلك اليوم.

وخرج عليها أسطول العدو يقاتلها، والعساكر الإسلامية تُشاهد ذلك من السَّاحل، والنَّاس في تهليلٍ وتكبير، وقد كَشَفَ المسلمون رؤوسهم يبتهلون إلى الله تعالى في القضاء بسلامتها إلى البلد، والسُّلْطان على السَّاحل كالوالدة الثَّكْلَىٰ يشاهد القتال، ويدعو إلى رَبِّه

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٣٥.

(٢) أي خاضت في اللُّجَّة. انظر «معجم متن اللغة»: ١٥١/٥.

بنصره، وقد عَلِمَ من شِدَّة القوم ما لم يعلمه غيره، وفي قلبه ما في قلبه والله يثبِّتُه، ولم يَزَلِ القتال يعمل حول البطس من كلِّ جانب، والله يدفع عنها، والريح تشتدُّ، والأصوات قد ارتفعت من الطَّائفتين، والدُّعاء يخرق الحُجُب، حتى وصلوا بحمد الله سالمين إلى ميناء البلد، وتلقَّاهم أهلُ عكا تلقي الأمطار عن جَذْب، وامتاروا بما فيها، وكانت ليلة بلبال، وكان دخولها العصر رابع عشر شعبان[١].

وقال العماد: كان السُّلْطان قد أمر نُوَّاب الإسكندرية بتجهيز بطس كبار، وتعميرها من كل مِيْرَةٍ وغَلَّة، وتسييرها إلى عكا، فأبطأت عن الميقات، وأَضَرَّ بالمقيمين بالبلد إعوازُ الأقوات، فأفكر فيما يتعجَّل به الغَرَض، فكتب إلى متولِّي بيروت عِزِّ الدين سامة، فجهَّز بطسةً كبيرة، [قد][٢] ملأها ميرة وغَلَّة كثيرة، وأركبها جماعةً على زِيِّ الفرنج، ممسوحي اللُّحَىٰ[٣]، ممسوخي الحُلَىٰ[٤]، وأصحبهم صُلْباناً، وخَيَّل بهم رُهْباناً.

وكانت هذه البطسة من الفرنج مأخوذة، وهي بساحل بيروت منبوذة، فأمر السُّلْطانُ بترميمها وتتميمها، فَمُلِئَتْ بالشُّحوم واللُّحوم، وأربع مئة غِرارة غلَّة، وأحمال من النُّشَّاب والنِّفْط، ورُتِّب فيها

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٣٨.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) اللحى جمع، مفردها: اللحية: وهو شعر الخدين والذقن. «معجم متن اللغة»: ٥/١٦٤.

(٤) الحلى جمع، مفردها الحِلْية: وهي الخلقة والصورة والصفة. «معجم متن اللغة»: ٢/١٥٦.

رجالٌ مسلمون ونصارى من أهل بيروت، وأرادوا أن تشتبه ببطس العدو في البحر، وشدُّوا زنانير، واستصحبوا خنازير، وساروا بها في البحر بمراكب الفرنج مختلطين، وإلى محادثتهم ومجاذبتهم منبسطين، ولَمَّا حاذوا بها عكًّا صَوَّبوا بها[1] نحوها، والرِّيح تسوقها والفرنج من مراكبها تقول: ما هذه طريقُها.

وهي كالسَّهْمِ النَّافذ قد سُدِّد فوقها، فدخلتِ الثَّغر، واجتزأ البلد بها نصف شهر، وظهرت رابع عشر شعبان من ثَبَج البحر ثلاثة مراكب كأنها ثلاث هواضب، فجاءت فجأة أعلامُها كالأعلام، طائِرَةً كالسِّهام، ولم تبالِ بمراكب العدوِّ، فخرقتها، وقربت منها سفينة فَغرَّقتها، وَعَبَرَتْ وَعَيْنُ الكُفر عَبْرَىٰ، وامتلأ الثَّغْرُ بها وأَثْرَىٰ[2].

فصل

قال العماد: ووصلَ ملك الألمان، ورام أن يُظْهر بمجيئه وَقْعاً، ويُبْدِي به نَفْعاً، فدبُّوا في راجلٍ كرجل الدَّبىٰ[3]، وخيلِ أَغَصَّت الوِهَاد والرُّبىٰ، وقربوا من تل العياضيَّة، وعليه خِيَمُ اليَزَكية*، والنَّوْبة فيها للحَلْقة المنصورة النَّاصرية، والعُصْبَة المَوْصِلية، فثارت إليهم، ودارت عليهم، وركب السُّلْطان وتقدَّم إلى تل كَيْسان، ولم تَزَلِ الحربُ إلى أن جَنَّ الظَّلامُ، وكَفَّ الكُفر وسَلِمَ

(١) في (ك): صوبوها.
(٢) انظر «الفتح القسي»: ٤١٩ ـ ٤٢٠.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١١٤ من هذا الجزء.

الإسلام، وكانت الدَّائرة على الكَفَرة(١).

قال القاضي: وقُتِلَ منهم وجُرِحَ خَلْقٌ عظيم، والسيفُ يعمل في بقيَّتهم وهم هاربون، حتى وَصَلَ المخيَّمَ غروبَ الشمس من ذلك اليوم، وهو لا يعتقد سلامة نفسه من شِدَّة خوفه، وقُتِلَ من المسلمين في ذلك اليوم اثنان، وجُرِحَ جماعةٌ كثيرة(٢).

ومن كتاب إلى بغداد: قد بُليَ الإسلامُ(٣) منهم بقومٍ قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبَيْنِ: الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفَيْن: الأهل والدِّيار، وركبوا اللُّجَج، ووهبوا المُهَج، كلُّ ذلك طاعةً لقسِّيسهم، وامتثالاً لأمر مركيسهم، وغَيْرَةً لمتعبَّدهم، وحميَّةً لمعتقدهم، وتهالكاً على مَقْبُرَتهم، وتحرُّقاً على قُمامتهم.

١٦٢/٢ لا يطلبون مع شِدَّة الإملاق مالاً، ولا يجدون مع كَثْرة المشاقِّ مَلالاً، بل يتساقطون على نيران الظُّبَىٰ تساقُطَ الفَرَاش، ويقتحمون الرَّدىٰ متدرِّعي الصَّبْر متثبتي الجاش، حتى خرجت النِّساءُ من بلادهن متبرِّزات، وسرنَ إلى الشَّام في البحر والبر متجهِّزات، وكانت منهنَّ ملكة استتبعت خمس مئة مقاتلٍ، فارس وراجل، رامح ونابل، والتزمت بمؤنتهم، فصُودف مركبُها بقُرْب الإسكندرية، فأُخذت برجالها، وأراح الله من شَرِّ احتفالها.

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٤٢٤ ـ ٤٢٥.
(٢) «النوادر السلطانية»: ١٤٠.
(٣) في (ك): المسلمون.

ومنهن ملكة وَصَلَتْ مع ملك الألمان، وذوات المقانع من الفرنج مقنَّعات دارعات، يحملن إلى الطِّعان الطوارق* والقنطاريات*، وقد وُجِدَتْ في الوقعات التي جرت عِدَّة منهن بين القَتْلَىٰ، وما عُرِفْنَ حتى سُلِبْنَ.

وإن البابا الذي برومية* قد حَرَّم عليهم مطاعمهم ومشاربهم، وقال: مَنْ لا يتوجَّه إلى القدس مستخلصاً، فهو عندي محرّم، لا منكح له ولا مطعم. فلأجل هذا يتهافتون على الورود، ويتهالكون على يومهم الموعود، وقال لهم: إني واصلٌ في الرَّبيع، جامع على الاستنفار شَمْلَ الجميع. وإذا نهضَ هذا الملعون فلا يقعد عنه أحد، ويصل معه بأهله وولده كل من يقول: لله أهل وولد[1].

فهذا شَرْحُ هؤلاء وتعصُّبهم في ضلالتهم، ولجاجتهم في غوايتهم، بخلاف أهل الإسلام، فإنهم يتضجَّرون ولا يصبرون، بل يتفلَّلون ولا يجتمعون، ويتسلَّلون ولا يرجعون، وإنما يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا حضروا بقلوبٍ غير متفقة، لِيُعْلَمَ أَنَّ الإسلامَ من عند الله منصور، وأنَّ الكُفْرَ بإرداةِ الله محسورٌ ومدحور.

قال القاضي: ولما عَرَفَ ملكُ الألمان ما جرىٰ علىٰ أصحابه من اليَزَكْ* الذي هو شِرْذمة من العسكر، رأى أن يرجع إلى قتال البلد، ويشتغل بمضايقته، فاتَّخذ من الآلات العجيبة، والصَّنائع الغريبة، ما هال النَّاظر إليه، وخِيْف على البلد منه؛ فمما أحدَثَهُ آلة

(١) في الأصل: إن لله أهل وولد (كذا)، والمثبت من (ك).

عظيمة تُسَمَّى دبابة، يدخُلُ تحتها من المقاتلة خَلْق عظيم، ملبَّسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عَجَلٌ تُحَرَّكُ بها من داخل، وفيها المقاتلة حتى ينطحَ بها السُّور، ولها رأسٌ عظيم برقبة شديدة من حديد ـ وهي تسمى كبشاً ـ ينطح بها السُّور بشدَّةٍ عظيمة، لأنه يجرُّها خَلْقٌ عظيم، فتهدمه بتكرار نطحها.

وآلةٌ أخرى وهي قبوٌ، فيه رجالٌ تسحب ذلك إلا أنَّ رأسها محدَّد على مثال[1] السِّكَّة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدوَّر، هذا يهدم بثقله، وتلك بحدَّتها وثقلها، وهي تسمَّى سفوداً، ومن السَّتائر والسَّلالم الكبار الهائلة، وأعدُّوا في البحر بطسةً هائلة، وصنعوا فيها بُرْجاً بخرطوم إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقى طريقاً إلى المكان الذي ينقلب عليه، يمشي عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى بُرْج الذُّبَّان ليأخذوه به[2].

قال: ونَصَبَ العدو على البلد منجنيقاتٍ هائلة حاكمة على السُّور، وتواترت حجارتها حتى أَثَّرت فيه أثراً بَيِّناً، وخِيْفَ من غائلته، فأُخذ سهمان من سهام الجرخ* العظيم، وأُحرق نَصْلاهما حتى بقيا كالشُّعْلة من النَّار، ثم رُميا في المنجنيق الواحد، فعلقا فيه، واجتهد العدو في إطفاء النَّار فلم يقدر على ذلك، وهَبَّت ريحٌ شديدة، فاشتعل اشتعالاً عظيماً، واتصلت لهبتُه بالآخر فأحرقته، واشتدَّ ناراهما بحيث لم يقدر أحدٌ أن يقرب مكانهما ليحتال في

(١) في (ك): شكل.
(٢) «النوادر السلطانية»: ١٤٠ ـ ١٤١.

إطفائهما، وكان يوماً عظيماً اشتدَّ فيه فرحُ المسلمين، وغَمُّ الكافرين[١].

قال: ومن نوادر هذه الوقعة ومحاسنها ـ يعني نوادر ما جرى في القتال على عكًا ـ أن عَوَّاماً مسلماً كان يُقال له عيسى، كان يدخل البلد بالكُتُبِ والنَّفقات على وسطه ليلاً على غِرَّةٍ من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو.

وكان ذاتَ ليلةٍ شَدَّ على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكُتُبٌ للعسكر، وعَامَ في البحر، فجرىٰ عليه أَمْرٌ أهلكه، وأَبْطَأَ خَبَرُه عَنَّا، وكانت عادتُه إذا دخل البلد طار طائر عَرَّفَنا بوصوله، فأبطأَ الطَّائر، فاستشعر هلاكه، فلما كان بعد أيام بينا النَّاس على طرف البحر [في البلد][٢] وإذا البحر قد قَذَفَ إليهم ميتاً غريقاً، فافتقدوه، فوجدوه عيسى العَوَّام، ووجدوا على وسطه الذهب ومشمَّع الكُتُب. وكان الذهب نفقةً للمجاهدين، فما رُئي من أدَّىٰ الأمانة في حال حياته، وقَدَّر الله له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل، وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضاً[٣].

وقال العماد: فَعُدِمَ ـ يعني عيسى ـ ولم يُسمع له خبر، ولم يظهر له أثر، فَظُنَّتْ به الظُّنون، وما تيقَّنت المنون، وكانت له لا شكَّ عند الله منزلة، فلم يرد أن تبقى حاله وهي مجملة محتملة،

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٣٦.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) «النوادر السلطانية»: ١٣٥ ـ ١٣٦.

فوجد في عكا ميتاً قد رماه البحر إلى ساحلها، وبرأه الله مما قالوا، فذهب حقُّ اليقين من الظُّنون بباطلها[1].

فصــل

في إحراق ما حوصر به بُرْج الذُّبَّان وتحريق الكبش*

قال القاضي: وفي الثَّاني والعشرين من شعبان جَهَّز العدو - لعنه الله - بَطَساً* متعدِّدة لمحاصرة برج الذُّبان، وهو بُرْجٌ في وسط البحر مبنيٌّ على الصَّخر على باب ميناء عكا، يُحْرَسُ منه الميناء، ومتى عبره المركب أَمِنَ من غائلة العدو، فأراد العدو أَخْذَه ليبقى الميناء بحكمه، ويمنع من دخـول شيء من البَطَس إليه، فتنقطع الميْرَة عن البلد. ١٦٣/٢

فجعلوا على صواري البطس بُرْجاً، وملؤوه حطباً ونِفْطاً على أنهم يسيِّرون البطس، فإذا قاربت بُرْجَ الذُّبَّان ولاصقته أحرقوا البرج الذي على الصَّاري، وألصقوه ببرج الذبَّان ليلقوه على سطحه، ويُقتل من عليه من المُقاتلة ويأخذوه، وجعلوا في البطسة وقوداً كثيراً حتى يلقى في البرج إذا اشتعلت النَّار فيه، وَعَبُّوا بطسة ثانيةً وملؤوها حطباً ووقوداً على أنهم يدفعونها إلى أن تدخل بين البطس الإسلامية، ثم يلهبونها، فتحرق البطس الإسلامية، ويهلك ما فيها من المير.

وجعلوا في بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو بحيث لا يصل إليهم نُشَّاب ولا شيء من آلات السلاح حتى إذا أحرقوا ما أرادوا إحراقه

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٤٢٣.

دخلوا تحت القبو، فأمنوا وأحرقوا ما أرادوا إحراقه، وقدَّموا البطسة نحو البُرْج المذكور، وكان طمعهم مشتدّاً حيث كان الهواء مُسْعداً لهم، فلما أحرقوا البطسة التي أرادوا يحرقون بها بطس المسلمين والبرج الذي أرادوا يحرقون به مَنْ على البرج، فأوقدوا النَّار، وضربوا فيها النِّفْط، فانعكس الهواءُ عليهم كما شاء الله تعالى وأراد، واشتعلت البطسة التي كان فيها البرج بأَسْرها، واجتهدوا في إطفائها فما قدروا، وهلك من كان بها من المقاتلة إلا من شاء الله تعالى، ثم احترقت البطسة التي كانت مُعَدَّة لإحراق بطسنا، وَوَثَبَ أصحابُنا عليها فأخذوها.

وأما البطسةُ التي فيها القبو، فإنَّهم انزعجوا وخافوا، وهَمُّوا بالرجوع، واختلفوا واضطربوا اضطراباً عظيماً، فانقلبت وهلك جميع مَنْ [كان][1] بها؛ لأنهم كانوا في قبوٍ لم يستطيعوا الخروج منها، وكان ذلك من أعظم آيات الله، وأندر العجائب في نُصْرَةِ دين الله، ولله الحمد، وكان يوماً مشهوداً[2].

وقال العماد: وعند ميناء عكا في البحر بُرْجٌ يعرف ببرج الذُّبَّان، وهو في حراسة المينا عظيم الشَّان، وهو منفردٌ عن البلد، محميٌّ بالرجال والعُدَد، وقَصَدَ الإفرنج حصاره قبل مجيء ملك الألمان، في الثَّاني والعشرين من شعبان، ببطس كبارٍ جَهَّزوها، ومراكب عِظام الآلات أبرزوها، ومكرٍ مكروه، ودَبَرٍ دَبَّروه.

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) «النوادر السلطانية»: ١٣٨ ـ ١٣٩.

وأحدُ تلك المراكب قد رُكِّبَ برجٌ فوق صاريه، لا يطاوله طَوْدٌ ولا يباريه، وقد حُشِيَ حشاه بالنِّفْط والحَطَب، وضُيِّق عَطَنُه لسَعَة[1] العَطَب، حتى إذا قَرُبَ من برج الذُّبَّان، والتصق بُشُرفاته، أعدى إليه بآفاته، ورُمِيَتْ فيه النَّار فاحترق، واحترق من الأخشاب والستائر ما به التصق، وتستولي النَّار على مواقف المقاتلة، فتباعدوا عنها، ولم يقربوا منها، وأوقدت بطسة الحطب التي من ورائها، وعادت على الفرنج فالتهبوا، وحمي عليهم الحديد فاضطرموا واضطربوا، وانقلبت بهم السَّفينة فاحترقوا وغرقوا، والنَّاجون منهم فارقوا وفَرِقوا ولم يُفْرِقوا، واحتمىٰ بُرْج الذُّبَّان فلم يَطِرْ من بعدها عليه ذُباب[2]، ولم يفتح للعدو في الكيد له باب[3].

ومن كتابٍ إلى سيف الإسلام باليمن: ومن حديث البُرْج أنه يحيط به البحر من جوانبه، وهو قُفْل ميناء الثَّغر على مراكبه، وقد رفعناه وأعليناه، وبالعُدَد والرِّجال قوَّيناه، فَعَمدوا إلى أكبر بطسة*، واتَّخذوا فيها مِصْقالاً كأنَّه سُلَّم، وهو في مقدَّمها مركبٌ مُقَدَّم[4]، وقد جعلوها بحيث إذا قُرِّبت إلىٰ البُرْج ركب رأس السُّلَّم على شراريفه، وصَعِدَ الرجال إليه في تجاويفه. وتعبوا في ذلك أياماً، وأشبعوه توثيقاً وإحكاماً، حتى إذا التصق بالبُرْج أُلْصِقَتْ به قواريرُ النِّفْط، وتوالت أمطار البلايا من الجروخ* والمنجنيقات على أولئك

---

(١) في الأصل: بسعة، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: فلم يطر عليه من بعدها ذباب، والمثبت من (ك).

(٣) «الفتح القسي»: ٤٢٧ ـ ٤٢٨.

(٤) في الأصل: وهو في مركب مقدمها مقدم، والمثبت من (ك).

الزَّهْط، ثم عمل الفرنجُ بُرْجاً عالياً في أكبر مركبٍ، وحَشَوْه بالحَطَب، وعملوا على رأس صاريه مكاناً يقعدُ فيه الزُّرَّاق، وقدَّموه إلى برج الذُّبَّان، وسَلَّطوا على جوانبه النِّيران، فَأَهَبَّ اللهُ من مَهَبِّ لُطْفه نكباءَ نكَّبتِ النَّارَ عن البرج المحروس، وكَبَّتِ الفرنجَ على الوجوه والرؤوس[1].

قال القاضي: وفي ثالث رمضان زَحَفَ العدوُّ على البلد في خَلْقٍ لا تُحْصى، فأهملهم أهلُ البلد حتى نَشِبَتْ مخاليبُ أطماعهم فيه، وسحبوا آلاتهم المذكورة حتى قاربوا أن يلصقوها بالسُّور.

وتحصَّل منهم في الخندق جماعةٌ عظيمة، فأطلقوا عليهم الجروخ* والمجانيق والسِّهام والنِّيران، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفتحوا الأبواب، وهَجَموا على العدو من كلِّ جانب، وكبسوهم في الخنادق فهربوا، ووضع[2] السَّيف فيمن بقي في الخندق منهم، ثم هجموا على كَبْشهم*، فألقوا فيه النَّار والنِّفْط، وتمكَّنوا من حريقه لهرب المقاتلة عنه، فأُحرق حريقاً شنيعاً، وظَهَرَتْ له لُهَبَةٌ نحو السَّماء، وارتفعتِ الأصواتُ بالتكبير والتهليل والشكر، وسَرَتْ نارُ الكَبْش بقوَّتها إلى السفود، فاحترقَ، وعَلَّق المسلمون في الكبش الكلاليب الحديد المصنوعة في الأَسَل، فسحبوه وهو[3] يشتعل حتى حَصَّلوه عندهم في البلد، وكان مركَّباً

(١) «الفتح القسي»: ٤٢٩ ـ ٤٣٠.
(٢) في الأصل: ووقع، والمثبت من (ك).
(٣) في (ك): وهي.

من آلاتٍ هائلة عظيمة، وألقي الماءُ عليه حتى بَرَد حديدُه بعد أيام.

وبلغنا من البلد أنّه وُزِنَ ما كان عليه من الحديد فكان مئة قنطار بالشَّامي، والقنطار مئة رطل. ولقد أنفذوا رأسه إلى السُّلْطان، وَمَثَلَ بين يديه، وشاهدتُه وقَلَّبْتُه، وشكلُه على مثال السَّفُّود الذي يكون بحجر المدار، قيل إنه ينطح به السُّور فيهدم ما يلاقيه، وكان ذلك من أحسن أيام الإسلام، ووقع على العدو خِذْلانٌ عظيم، ١٦٤/٢
ورفعوا ما سَلِمَ من آلاتهم، وسَكَنَتْ حركاتُهم التي ضيَّعُوا فيها نفقاتهم[١].

وقال العماد: واستأنف الفرنج عَمَلَ دَبَّابةٍ هائلة، وآلةٍ للغوائل غائلة، في رأسها شكلٌ عظيم يقال له الكَبْش، وله قَرْنان في طول رُمْحين، كالعمودين الغليظين، وهذه الدَّبَّابة في هيئة الخربشت[٢] الكبير، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد، ولبَّسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنُّحَاس، فلم يبق للنَّار إليها سبيل، ولا للعَطَبِ عليها دليل، وملؤوها بالكُماة والرُّماة، وسحبوها وقَرَّبوها، فجاءت صورة مزعجة، وبلي البلد منها بالبلاء، وقالوا: ما في دفعها حيلة.

ونصبوا على صوبها مجانيق، ورموا بالحجارة الثَّقيلة ذلك النِّيق، فأبعدت رجالها من حواليها، ثم رموها بحُزَم الحَطَب حتى طموا[٣] ما بين القَرْنين، وقذفوها بالنَّار، فباتوا يُطفئونها بالخَلِّ

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٤٢.

(٢) كلمة فارسية تعني الخيمة التي تستعمل بيتاً للخلاء، يفهم هذا مما ورد في «عقود الجمان» للزركشي (خ) في ترجمة أحمد بن محمد بن سليمان الزينبي.

(٣) في الأصل: أحرقوا، والمثبت من (ك).

والخمر، وقد تمكَّنَتِ النَّار من أضلاعها، ثم خَسَفها المنجنيق، وخرج مَن بالثَّغْر، فقطعوا رأس الكبش، واستخرجوا ما تحت الرماد من العُدَد بالنَّبش، وقُدِّر ما نُهِبَ من الحديد بمئة قنطار، وعلم الفرنج أَنَّ أعمالهم حَبِطَتْ، وآمالهم هَبَطَتْ، وكان ذلك في ثالث عشر رمضان.

وفيه قَدِمَ الظَّاهر صاحب حلب، والأمجد صاحب بَعْلَبَك، وسابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر* وعز الدين ابن المُقَدَّم، والأمير حسام الدين حسين بن باريك، وجماعة من الأمراء والخواص والمماليك[١].

فصل

في حوادث أُخَر متفرِّقة في هذه السنة

قال العماد: ووصل الخبر في سادس عشر رمضان من حلب أنَّ صاحب أنطاكية أغار على غِرَّة، بشَرَهٍ وَشِرَّة، فرتَّب أصحابنا له كميناً، ثم خرجوا عليه شمالاً ويميناً، فقتلوا أكثر رجاله، وأُفلت وبالُهُ في وبالِهِ[٢].

قال القاضي: خرج عليه نُوَّاب الملك الظاهر، فَقُتِلَ من عسكره خمسة وسبعون نفراً، وأسر منهم خَلْقٌ عظيم، واستعصم

(١) انظر «الفتح القسي»: ٤٣٢ ـ ٤٣٤.

(٢) البال: الخاطر، والوبال: الشدة والمكروه. انظر «اللسان» (بول، وبل)، وانظر «الفتح القسي»: ٤٣٦.

بنفسه في موضعٍ يسمَّى شيح حتى اندفعوا وسار إلى بلده[1].

قال: وفي أثناء العشر الأوسط أَلْقَتِ الرِّيح بطستين*، فيهما رجالٌ وصبيان ونساء، ومِيْرَة عظيمة، وغَنَم كثيرة، قاصدين نحو العدو، فغنمها المسلمون. وكان العدُو قد ظفر لنا ببركوس* فيه نفقةٌ ورجال أراد الدُّخول إلى البلد، فأخذوه، فوقع الظَّفر بهاتين البطستين ماحياً لذلك، وجابراً له[2].

قال العماد: وفي هذا التاريخ ألقتِ الريحُ إلى ساحل زَيب* بطستين خرجتا من عكّا بجماعةٍ من الرِّجال والصبيان والنِّساء، وفيها امرأة محتشمة غَنِيَّة محترمة، فأخذتا وأُخذوا وأُخذت، وجَدَّ الفرنج في استنقاذها فما استنقذت[3].

قال: وفي تاسعِ عشر الشَّهر رَحَلْنا إلى منزلةٍ تعرف بشَفْرَ عَمّ*، وسببُهُ أَنَّه كَثُرَ المستأمنون من الفرنج، وأخبروا أَنَّهم في عَزْمِ الخروج إلى المرج، هائجين للثَّأر[4]، ثائرين إلى الهيجاء، فاستشار السُّلْطان أُمراءه فقالوا: الصَّواب أن نفسح لهم عن هذه المروج، حتى يكون دخولهم إليها يوم الخروج، فنصبِّحهم في اليوم الآخر، ولا يتعذَّر بهم إحداقُ العساكر.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٤٣.

(٢) المصدر السالف: ١٤٣ ـ ١٤٤.

(٣) «الفتح القسي»: ٤٣٦.

(٤) في الأصل: إلى الثار، والمثبت من (ك).

فخيمنا هناك، ورَحُبَتِ المنازل وعَذُبَتْ المناهل، وعادت معالم تلك المجاهل، وحللنا التِّلاع(١) والآكام، وركزنا بتلك الأعلام الأعلام، ونزلنا لمقام الشتاء مستعدِّين، ولأسباب التوقِّي من الأمطار مستنجدين(٢).

قال: ومَرِضَ زين الدِّين صاحب إِرْبل* في شهر رمضان، وتوفي في الثَّامن والعشرين منه(٣).

قال القاضي: وكان استأذن في الرَّواح، فلم يؤذن له، فاستأذن في الانتقال إلى النَّاصرة، فأُذِنَ له، فأقام بها أياماً يُمَرِّض نفسه، ثم توفي وعنده أخوه مُظَفَّر الدين يشاهدُه، وحَزِنَ النَّاسُ عليه لمكان شبابه وغُرْبته(٤).

قال العماد: وكان كريماً أريحياً، نحياً سخياً، وبكَّرْنا إلى مُظَفَّر الدين نعزِّيه في أخيه، وظَنَنَّا به الحُزْن، فقلنا نعظه ونسلِّيه، فإذا هو في شُغل شاغل عن العَزَاء، مهتمٌّ بالاحتياط على ما خَلَّفه وتركه من الأشياع والأشياء، وهو جالسٌ في مخيَّم أخيه المتوفَّى، وقد أشرف على حفظه وأوفى، وقد قَبَضَ على جماعةٍ من أُمرائه واعتقلهم، وعَجَّل عليهم وما أغفلهم؛ منهم صارم الدين بن بُلَداجي

---

(١) في الأصل: التلال، والمثبت من (ك).

(٢) «الفتح القسي»: ٤٣٦ ـ ٤٣٧.

(٣) انظر المصدر السالف: ٤٣٨.

(٤) «النوادر السلطانية»: ١٤٤.

متولِّي خُفتِيان كان[1] ليتسلَّم منه المكان، وكذلك كلُّ حاضرٍ له حصن، ليحصل له من طاعته أَمْن.

وخاطَبَ في أسباب ولاية إربل* وأعمالها، وأن يستقلَّ ببلادها وأموالها، ورغب في شَهْرُزُور* واستضافتها[2]*، لاستنارة وجاهته بها واستفاضتها، وأنه ينزل على حَرَّان* والرُّها* وسُمَيْساط* والمُوَزَّر*، ويجعل كل ما في يده من الأعمال في المُوَفَّر، ويخدم[3] بخمسين ألف دينار ويحضرها نقداً، ويلتزم بها على الميثاق عقداً.

فأُجيبتْ رَغْبَتُه، وأُصيبت طِلْبَتُه، وعُقِدَ لواؤه، ونجح رجاؤه، وأراد سُرْعة الرَّحيل، فاسْتُمْهِلَ إلى حين وصول الملك المُظَفَّر تقي الدين، لينزل في منزلته بجنده وصحبه الميامين، فوصل يوم الأحد ثالث شَوَّال، وأُضيف إليه ما استعيد من مُظَفَّر الدين من الأعمال، وكتب منشور إربل*، وكتاب إلى صاحب المَوْصِل فيه: لا شَكَّ في إحاطة العلم بانتقال زين الدين إلى جوار الله وَمَقَرِّ رحمته، مجاهداً

---

(١) قال ياقوت في «معجم البلدان»: ٢/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠: خفتيان: قلعتان عظيمتان من أعمال إربل، إحداها على طريق مراغة يقال لها: خفتيان الزرزاري، على رأس جبل من تحتها نهر عظيم جار وسوق ووادٍ عظيم، والأخرى: خفتيان سُرْخاب بن بدر في طريق شهرزور من إربل، وهي أعظم من تلك وأفخم، ويكتب في الكتب: خفتيذ كان ـ بضم أوله وسكون ثانيه وتاء مثناة من فوقها، وياء مثناة من تحتها، وذال معجمة وكاف، وآخره نون ـ وهو الصحيح في اسم القلعتين المذكورتين.

(٢) في الأصل: لاستضافتها، والمثبت من (ك) و(ب).

(٣) في (ك): وخدم.

في سبيل الله شاكراً لنعمته، وهو من السُّعَداء الذين أنزل الله تعالى
١٦٥/٢ فيهم ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ من بَيْته مُهاجراً إلى الله ورسوله ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ على الله﴾[١] فما أفجع القلوب بمصابه، وما أنكىٰ في النُّفوس فلول شَبَا شَبَابه.

ولقد كانت[٢] الهِمَّةُ متوفِّرةً على تربيته، وإعلاء درجته، ولكن الله تعالى استأثر به قبل ظهور حُسْن الآثار في إيثاره، وبُلِيَ بَدْرُهُ التَّمُّ بسِرَارِهِ، وأصبح في ضمير البِلَىٰ من أسراره.

وهذه إربل من إنعام البيت الكريم الأتابكي على البيت الزَّيني مُذْ سبعين عاماً، لم يحِلّوا لعقد أنعامهم بها نظاماً، ولم يزيدوا أحكامه إلا إحكاماً وإبراماً، وما أرى[٣] أَنْ يخرج هذا الموضع منهم، وأن يُصْدَفَ به عنهم، والأمير الأَجَل مُظَفَّر الدين، كبير البيت وحاميه، والمُقَدَّم في الولاية بمقتضى وصية أبيه، وقد أُنهض ليسُدَّ مَسَدَّ أخيه.

قال: وكان الملك المُظَفَّر تقي الدين متولياً مذ سنين أعمال مَيَّافارقين*، فطلب من عَمِّه تفويض كل ما وراء الفرات إليه، والاعتماد فيه عليه، فأنعم عليه بذلك، فأقام عندنا بالمنزلة المظفرية إلى أن يؤذن له في المُضِيِّ إلى تلك الولاية، وسَيَّر نُوَّابه إليها لإبقاء رعاياها على شيمة الرِّعاية.

---

(١) سورة النساء، الآية ١٠٠.
(٢) في الأصل: وكانت، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) في الأصل: وما رأى، والمثبت من (ك).

قال: ولما أحَسَّ العسكر الشَّرْقي بالشتاء أبدوا خُلُق السَّآمة، وضجروا من الإقامة، فأما عماد الدين صاحب سِنْجار*، فإنه عَرَف كراهية السُّلْطان لفِراقه، فلم يَجْرِ إلا على وِفاقه. وأما صاحب الجزيرة سنجر شاه، فإنه استطال المقام وأباه، ودخل يوم عيد الفطر على السُّلْطان، فَقَبَّل يده وودَّعه من غير سابقة الاستئذان، فأغضبه انفصاله، وساءه ارتحاله. وكان تقيُّ الدين واصلاً فلقي صاحب الجزيرة عنا فاصلاً، فَرَدَّه عن طريقه، وَجَدَّ في تعويقه، ورجع به إلى الرِّضا، وعفا الله عَمَّا مضى.

وقال القاضي: تَرَدَّدت رُسُله ورِقاعُه إلى السُّلْطان في طلب الدُّسْتُور، والسُّلْطان يعتذر بأن رُسُلَ العدو متكرِّرَةٌ في معنى الصُّلْح، ولا يجوز أن تنفضَّ العساكر حتى نتبيَّن على ماذا ينفصل الحال من سِلْمٍ أو حَرْبٍ.

فلما كان يوم عيد الفطر دخل على السُّلْطان، وهو ملتاث الجسم، فقبَّل يده وخرج، وسار من ساعته ومعه أصحابه، فلما بلغ السلطان صنيعه كتب إليه: إنك أنت قصدت الانتماء إليَّ ابتداءً، وراجعتني في ذلك مراراً، وأظهرت الخِيفة على نَفْسِك وبلدك من أهلك، فقبلتُك وآويتك ونصرتك، فَبَسَطْتَ يدك في أموال النَّاس ودمائهم وأعراضهم، فنفَّذْتُ إليك وَنَهيْتُكَ عن ذلك مراراً، فلم تنته، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام، فدعوناك، فأتيت بعسكرٍ قد عرفته وعَرَفَه النَّاس، وأقمتَ هذه المديدة، وقلقت هذا القلق، وتحرَّكت بهذه الحركة، وانصرفت عن غير طيب نَفْسٍ، وغير فَصْلِ حالٍ مع

العدو، فانظر لنفسك، وأبصر من تنتمي إليه غيري، واحفظ نفسك ممن يقصدك، فما بقي لي إلى جانبك التفات.

وسَلَّم الكتاب إلى نَجَّاب، فَلَحِقَهُ قريباً من طبرية*، فقرأ الكتاب ولم يلتفت، وسار، فلقيه تقيُّ الدين عند عقبة فيق*، فأخبره بأمره، وتعتَّب على السُّلْطان كيف لم يخلع عليه، ولم يأذن له في الرَّوَاح، فَفَهِمَ تقيُّ الدين انفصاله عن غير دُسْتُورٍ من السُّلْطان، فأمره بالرُّجوع وقال: أنت صبيٌّ، ولا تعلم غائلة هذا الأمر. فقال: ما يمكنني الرجوع. فقال: ترجع من كل بُدٍّ من غير اختيارك.

وكان تقيُّ الدين شديدَ البَأْس، مقداماً على الأمور، ليس في عينه من أحدٍ شيء، فلما عَلِمَ أنه قابضُهُ إن لم يرجع رجع معه، وسأل السُّلْطانَ الصَّفْح عنه، ففعل، وطلب أن يقيم في جوار تقي الدين خشيةً على نفسه، فأذن[1] له، فأقام في جواره إلى حين ذهابه[2].

قال العماد: في «الفتح»: وطال على الملك عماد الدين صاحب سِنْجار* المقام، وَجَدَّ في الاستئذان في الرَّحيل منه الاهتمام، وتقرر ملاله، وتكرر سؤاله، فكتب إليه السلطان:

مَنْ ضاع مِثْلي مِنْ يديه ... فَلَيْتَ شِعْري ما استفادا

فلما قرأ هذا البيت ما راوح في الخِطَابِ ولا غادى[3].

---

(١) في الأصل: وأذن له، والمثبت من (ك).
(٢) «النوادر السلطانية»: ١٤٥ ـ ١٤٦.
(٣) «الفتح القسي»: ٤٣٩.

وقال في «البرق»: وفي مستهلِّ ذي القَعْدَة أَذِنَ لعلاء الدين خُرَّم شاه ابن صاحب المَوْصِل، ونُعِتَ بالملك السَّعيد لما تُفُرِّس فيه من أمارات السَّعْد، وأقام بعده عمه عماد الدين، وابن عمه معز الدين سنجر شاه، وهما صاحبا سنجار والجزيرة، وحُبوا بالحِبَاء[1] الوافر والعطايا الغزيرة، وما فارقا إلا في السنة الأُخرى في ثالث صفر.

قال: وغَلَتِ الأسعارُ عند الفرنج[2] حتى بلغت الغِرَارة أكثر من مئة دينار، والسعر من الزيادة لديهم في استعار، وَبُلُوا بأمورٍ صعبة، وهرب إلينا منهم عُصْبَةٌ بعد عُصْبة، فاستأمنوا إلينا لفرط جوعهم، ولما شبعوا عندنا لم يرغبوا في رجوعهم، فمنهم من أسلم فَحَسُنَ إسلامه، ومنهم من خَدَمَ فوافق استخدامه، ومنهم من حَنَّ إلى إلفه، فرجع القَهْقَرَىٰ إلى خَلْفِهِ[3].

فـصـل

كان القاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ في هذه الأوقات بالدِّيار المِصْرية يُرَتِّب للسُّلْطان أموره من تجهيز العساكر، وتعمير الأُسطول، وحمل المال، ونقل المير إلى عكّا، والسُّلْطان يكاتبه في مهمّاته، وترجع أجوبتُه بأحسن عباراته، مشيراً وناصحاً ومسلّياً، وباحثاً عن مصالح الإسلام متقصياً، فمن بعض كتبه:

---

(١) الحباء: العطاء. «اللسان» (حبا).

(٢) في الأصل: بلاد الفرنج، والمثبت من (ك).

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٤٣٩ ـ ٤٤٠.

١٦٦/٢ المملوك ينهي أن الله تعالى لا يُنال ما عنده إلا بطاعته، ولا تُفرَّج الشَّدائد إلا بالرُّجوع إليه والامتثال لأمر شريعته، والمعاصي في كلِّ مكانٍ بادية، والمظالم في كلِّ مَوْضعٍ فاشية، وقد طَلَعَ إلى الله تعالى منها ما لا يُتوقَّع بعدها إلا ما يُسْتعاذ منه.

وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا [أبقاه الله](١) من فَتْحِ البيت المقدَّس ما يكون بمشيئة الله له حُجَّة في رضاه، ونعوذ بالله أن يكون حُجَّة له في غضبه.

بلغ المملوك من كلِّ واردٍ منه مكاتبةً ومخاطبة بأنه على صفةٍ تَقْشَعِرُّ منها الأجساد، وتتصدَّع بذكرها الأكباد، والمملوك لا يتعرَّض لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات فيه، وشيوع المظالم في ضياعه وخراب البلد، وعدم القُدْرة على المرمَّة لقُبَّة الصَّخْرة والمسجد الأقصى، وبالغفلة من مرمَّتهما، وبفقدهما في أشتية القُدْس العظيمة الجليلة المُثْلجة لا يُؤْمَنْ سقوطُهما، وافتضاح القُدْرَةِ في العجز عن إعادتهما، والمرمَّة أقربُ متناولاً من الإنشاء والتجديد.

ولا شُبْهة أن مولانا ـ عَزَّ نَصْرُه ـ في أشغال شاغلة، وأمور متشدِّدة(٢)، وقضايا غير واحدةٍ ولا متعدِّدة، ولكن قد ابتُلي النَّاس فصبروا، وأضجرتْهُمُ الأيامُ فما ضَجِرُوا، وأيُّ عبادةٍ أعظم من عبادته التي قام بها والنَّاس عنها قعود، وصَبَرَ في طلب جَنَّتها على ناري الحرب والوقت ذواتي الوقود، غير أن مولانا إذا ذكر نَصيبهُ من

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) في (ك): منتشرة.

الإقدام فلا ينسى نصيبه من الحَزْم، ولا يعجل في الأمور الخطيرة، ولا يُقْدم بالعدد القليل على العِدَّة الكثيرة، فالمولى إذا قاتل كان واحداً، وإذا دَبَّر كان بالخلق، ولا يطمع بأن يقوم به الألف، وليذكر المولى نوبة الرَّمْلة التي كان وقوعها من الله سبحانه أدباً لا غَضَباً، وتوفيقاً لا اتِّفاقاً، ولا يكره المولى أن تطول مُدَّة الابتلاء بهذا العدو، فثوابه يطول، وحسناته تزيد، وأثره في الإسلام يبقى، وفتوحاتُه بمَشيئة الله يَعْظُمُ موقعها، والعاقبة للتقوى، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُه﴾[1].

والله تعالى يشكر لمولانا جهاده بيده وبرأيه وبولده، وبخاصَّته وبعامة جُنْدِه، والإعداء في أعدائه، كجهاده بصاحب صيدا* في الفرنج، فهو جهادٌ قد أربى فيه رأي المولى فَرَجَح، والحديد بالحديد يُفْلَح، وأَكْيَدُ ما قوتل[2] به العدوُّ سلاحُه، وأَسْرَعُ جَناحٍ طار لقبضه جَنَاحُه، ودولةُ مولانا كالبحر كرماً وظهور عجائب، وكالسَّماء مَطَراً وأَسِنَّة كواكب.

ومن كتاب آخر: المملوك يقبِّل الأرض بين يدي مولانا الملك النَّاصر، لَطَفَ الله بقلبه، وحمل عنه، وَرَوَّح سِرَّه، ووصل الرَّاحة به، ونسأل أن يرحمه بنا[3] الذي رَحِمَنا به، فقد بلغتِ القلوبُ،

(١) سورة الحج، الآية ٤٠.
(٢) في الأصل: قوبل، والمثبت من (ك).
(٣) في الأصل: لنا، والمثبت من (ك).

وقد وقفت في طُرُقنا الذُّنوب، وبينما نحن ننتظر من كتب المولى ما يستدلُّ به على أَنَّ قَلْبَ المولى قد طاب، وقَصْدَ العدوِّ قد[1] خاب إذ تَرِدُ كُتُبٌ يكون الوقوف عليها قاطعاً للأكباد، مفتتاً للقلوب ولو أنها جماد.

ثم ذكر البطَس* الذي تقدَّم ذكرها الواصلة إلى عكا ليلة نصف شَعْبان فقال: وبينا نحن نعتقد أن البطس في عكا وصل الخَبَرُ بأنها في دِمْياط*، ويوم وصل الخبر بأنها في دمياط نحن على انتظار خروجها منه، وكتب البطائق بالاستحثاث والاستعجال وتحذيرهم من تمادي المقام، وما تيقَّنَّا أَخَرَجت أم هي باقية، كأنَّ الرِّيح في بيتٍ ما خرجت منه في[2] هاتين الجمعتين، ولها من تاريخ خُروجها من الإسكندرية، وإلى تاريخ تسطير هذه الخدمة خمسة عشر يوماً، والعيونُ ممدودةٌ، والأيدي مرفوعة بأَنْ يفرِّجَ الله عَنَّا وعنكم بوصولها، فمن شَبِعَ في هذه الأيام فما واسى المُسْلمين، ومن نام مِلْءَ عينيه فما هو من أُخوة المؤمنين.

والمملوك شفيقٌ على البطس في وقت الدُّخول حَذَرَ أن يعترض العدوُّ طريقَها فيحول بينها وبين الوصول، فينعكس المراد بها، ويحدث من المَضَرَّة بحرمانها أضعاف ما يحدث من النِّعمة بالفرج المُسَيَّر فيها[3]، وأكَّدَ هذه الحال في نفس المملوك وقوفه

---

(١) في الأصل: وقد، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: من، والمثبت من (ك).
(٣) في (ك): بها.

على كتب أصحابنا من عكا، وقد وقع لهم هذا الواقع الذي وقع للمملوك من خوفهم عليها، واستبعادهم دخولها، فما المملوك وكل من يعرِف الأمر إلا كأهل الصِّراط: رَبِّ سَلِّم رَبِّ سَلِّم[1].

فنسأل اللَّهَ سبحانه ألا يكلنا إلى أنفسنا فنعجز، ولا إلى النَّاس فنضيع، ومجهودُ أهلِ الأرض قد انتهىٰ، وبقي ما يفعله الله، والخير منتظر منه، والفرج بالقوت قد سُيِّر في البحر من خمسة عشر يوماً، والفرج بالنفقة قد سُيِّر في البَرّ من عشرة أيام، والله يا مولانا ما يُنْجَزُ شيء من هذه الأمور إلى أن تُضرَبَ الوجوه بالشَّوْك، وتُستَحلَبَ الحجارة، ويُنَبَّه النُّوَّام، وتُبَحَّ الأصوات من التذكار، وتحفى الأقلام من الكتابة، ويُخضَع لمن يلزمه الشُّغْل كالخضوع لمن لا يلزمه، والله المستعان، فليخلص المولى نيته في الاستعانة، فالأعوان قليل:

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلاً فقد صاروا أَقَلَّ من القليلِ

ومن كتابٍ آخر: وما[2] تجدَّد للعدو من الشُّروع في آلات الحِصار لعكا، وما أرجف به من النَّجْدتين الفرنجيتين الواصلة والبعيدة، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضَّرورة، والتماس العسكر الشَّرْقي الدُّسْتُور للضَّجر، وحاجة المولى من الإنفاق إلى ما لا يَسَعُه التدبير، ويضيق عنه الإمكان، ومطالبة الغنيِّ بالزِّيادة مع

---

(١) في (ك): رَبِّ سَلِّم سَلِّم. قلت: وهو إشارة إلى حديث النبي ﷺ في حال أهل القيامة، وقد أخرجه مطولاً أحمد في «المسند» (١١٢٠١)، ومسلم ١٨٣ (٣٠٢) من حديث أبي سعيد الخدري، والبخاري (٧٤٣٧) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنهما.

(٢) في (ك): ومما.

١٦٧/٢ الغِنَىٰ، والضعيف بأكثر مما يحتاج إليه، وضياع فُرْصَةٍ بعد فرصة، واختلاف رأي بين المستشارين من الجماعة، وَجُود الألسنة بالآراء، وبُخْلُ الأيدي بالمعونة، وانفراد المولىٰ بالتَّعب، واشتراك الناس في الرَّاحة، وما ابتليَ به المسلمون من مَرَضٍ أظهروه ليكون لهم عُذْراً في القعود، وكتمه المولى على نَفْسِهِ لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النُّفوس.

فهذه الأمور وإن كانت شدائد، وزائدات على العوائد، فقد ألهمَ الله مولانا فيها سَعَةَ الصَّدْر، وحُسْنَ الصَّبْر، لِيُشْعره أَنَّ صَبْرَهُ يَعْقِبُهُ النَّصر، وحِسْبَتَهُ يعقبه الأَجْر، ولو لم يَرَ الله تعالى أن قُوَّةَ مولانا أكمل القُوَىٰ، وعُرْوة عَزْمِهِ أوثق العُرَىٰ لما أَهَّلَه لأن يَنْصُرَ مِلَّةً لا يعرف المملوك غير الله ينصرها، وغير مولانا يباشر النُّصْرة[١] ويحضرها، فليس إلا التجرُّد للدُّعاء، والتَّجلُّد للقضاء، فلا بُدَّ من قَدَرٍ مفعول، ودُعاء مقبول، ومن الأمثال المنظومة:

نحن الذين إذا عَلَوْا لم يَبْطَروا يوم الهِيَاجِ وإنْ عُلُوا لم يَضْجَروا

ومعاذَ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يُغلقها، وأن يُسْلِمَ على يدينا القدس ثم يُنَصِّرَه، ثم معاذ الله أن نُغلب على النَّصْر، ثم مَعَاذ الله أن نغلب على الصَّبْر.

وإذا كان ما يُقَدِّمُ [الله][٢] إليه المماليك قَبِلَه[٣] المولىٰ لا بُدَّ

(١) في الأصل: النصر، والمثبت من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) في الأصل: قبل، والمثبت من (ك).

منه، وهو لقاء الله سبحانه، فَلأَنْ نلقاه والحُجَّة لنا خيرٌ من أَن نلقاه والحُجَّة علينا، فلا تَعْظُمُ هذه الفتوق على مَوْلانا فَتَبْهَرَ صَبْرَه، وتملأَ صَدْرَه ﴿فلا تَهِنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ واللَّهُ مَعَكُمْ﴾[١].

وهذا دِيْنٌ ما غَلَبَ بكَثْرَةٍ، ولا نُصِرَ بثروة، وإنما اختار الله تعالى له أربابَ نِيَّات، وذوي قلوب معه وحالات، فليكن المولى نِعْمَ الخَلَفُ لذلك السَّلَف ﴿لقد كانَ لكُمْ في رسولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٢]، واشتدِّي أزمة تنفرجي[٣]، والغَمَرات تذهب ثم لا تجي، والله تعالى يُسْمِعُ الأُذُن ما يَسِرُّ القلب، ويصرف عن الإسلام وأهله غاشية هذا الكَرْب، ونستغفر الله العظيم، فإنه ما ابتلى إلا بذنب.

ومن كتابٍ آخر: يا مولانا، اعلم أَنَّ الله تعالى قد فعل لك ما فعله لنفسه، وَدَلَّ على لُطْفه بك كما دَلَّ على قُدْرته، فإنه تعالى خَلَقَ الخَلْق من غير مادَّةٍ، وأقام السَّماء بغير عَمَدٍ، وكذلك فَعَلَ الله بك؛ خَلَقَك بغير شبيهٍ في الملوك كرماً وديناً، وسَهَّلَ لك من مِصْر مالاً من غير جهةٍ، وحمىٰ منها بلاداً بغير جُنْد، وسكَّن لك فيها رَعِيَّةً بغير وُلاة، فاشْكُرِ الله ولا تحتقر خدمة من يبيع الأنفاس والنَّوم والرَّاحة اجتهاداً فيما يريحك ويخفِّفُ عنك، ثم لا يريدُ العِوَض منك، إنما يريده من الله عنك، لأن خدمتك طاعةٌ له.

---

(١) سورة محمد، الآية ٣٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٢١.

(٣) هو مطلع القصيدة المنفرجة المشهورة التي نظمها يوسف بن محمد بن يوسف التوزري المتوفى سنة (٥١٣ هـ)، وفي نسبتها له خلاف، انظر «كشف الظنون» ٢/١٣٤٦.

والوجوه التي وقعتِ الإشارةُ إليها خُضْنا فيها وفي غيرها فما وجدنا أكثر مما بلغنا إليه.

يا مولانا، ليس لك في مِصْر إلا الثغور، وما عملت في هذه السنة إلا بقدر ثمن حبالٍ ما سُيِّرَ إليك من الأساطيل، إنَّ الله آخذٌ بيد الكريم، والمعونة بحسب المؤنة، فليهن المولىٰ العافية من الحساب، فشتانَ ما حِسابُ من كَنَزَ الذَّهب والفِضَّة ولم ينفقها في سبيل الله، وحساب من قال بيده هكذا وهكذا في سبيل الله[1].

ومن كتابٍ آخر: وما في نفس المملوك شائبة إلا بقية هذا الضعف الذي بجسم مولانا، فإنه بقلوبنا، ونفديه بأسماعنا وأبصارنا.

بنا مَعْشَرَ الخُدَّامِ ما بك من أذىً   وإن أَشْفَقُوا مما أقولُ فبي وَحْدِي

ومن كتابٍ آخر: إنما أُتينا من قبل أنفسنا، ولو صَدَقْناه لَعَجَّل لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نَقْدِرُ عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحدٌ إلا عمله، ولا يَلُمْ إلا نفسه، ولا يَرْجُ إلا رَبَّه، ولا ينتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يعتقد عليه أن يُقاتل، ولا فلان الذي ينتظر أنه يُشير، فكلُّ هذه مشاغل عن الله ليس النَّصر بها، ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنَّصر به، واللُّطْف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا، فلولا أنها تسدُّ طريقَ دُعائنا لكان جواب دعائنا[2] قد نَزَل، وفيض دموع

---

(١) في (ك): لوجه الله.

(٢) في (ك): الدعاء.

الخاشعين قد غَسَل، ولكنْ في الطَّريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السَّابق واللاحق.

وفي كتابٍ آخر وَصَفَ فيه الملكَ العزيز عثمان ابن السُّلْطان ثم قال: ولو شاهد مولانا اليوم شَخْصَه الكريم، وصورته الجميلة، ونفسه الطَّاهرة، ونظرته المُطْرقة، وصفحته الحَيِيَّة، وسكون حركاته الموزونة لخلَعَ [مولانا][1] عليه فؤادَه، ووَهَبَهُ عينه وَرُقادَه.

ولقد يَرِدُ المولى عَرَصَات القيامة، وثواب فراقه له لوجه الله أعظمُ من ثواب جهاده في سبيل الله، وإن إيماناً صَبَّره عن ذلك الولد الكريم لكريم، وإن إيماناً أَسْلَىٰ عن ذلك الملك العظيم لعظيم.

ومن كتابٍ آخر: وعسكرنا لا يشكو والحمد لله منه خَوَراً، إنما يشكو منه ضَجَراً، والقُوَىٰ البشرية لا بد أن يكون لها حَدٌّ، والأقدارُ الإلهية لها قَصْد، وكلُّ ذي قصد خادمٌ قصدها، وواقفٌ عند حَدِّها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مَقْتَ المتقاعس من رجاله، كما يثبت فيه شكر المسارع من أبطاله، قال الله تعالى: ﴿فاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ في الأَمْرِ﴾[2].

يا مولانا، أليس الله تعالى اطَّلَعَ على قلوب أهل الأَرْض فلم يؤهِّل، ولم يستصلح، ولم يَخْتَرْ، ولم يسهِّل ولم يستعمل، ولم ١٦٨/٢

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

يستخدم في إقامة دينه، وإعلاء كلمته، وتمهيد سُلْطانه، وحماية شعاره، وحفظ قِبْلَة موحِّديه إلا أنت؟

هذا، وفي الأرض من هو [أحق][1] للنُّبوَّة قَرَابة، ومن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكَسَّلهم ونَشَّطك، وقبضَهم وبسطك، وحَبَّبَ الدُّنيا إليهم، وبَغَّضها إليك، وصعَّبها عليهم وَهَوَّنها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يَدَك، وأغمد سيوفهم وجَرَّد سَيْفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وَثَبَّطهم وَسَيَّرك ﴿وَلَوْ أرادوا الخُروجَ لأَعَدُّوا له عُدَّةً ولكن كَرِهَ اللَّهُ انبعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وقيل اقْعُدوا مع القاعدين﴾[2].

نعم، وأخرى أَهَمُّ من الأُولى أنه لما اجتمعت كلمةُ الكُفْر من أقطار الأرض وأطراف الدُّنيا، ومغرب الشمس ومزخر البحر، ما تَأَخَّر منهم متأخِّر، ولا استبعد المسافةَ بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة، لا أموال تُنفَق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصاً تسوقهم، ولا سيفٌ يزعجهم، مهطعين[3] إلى الدَّاعي، ساعين في أثر السَّاعي، وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلُون، ومن كلِّ بَرٍّ وبحر يقبلُون، كنت يَا مولانا ـ [أبقاك الله][4] ـ كما قيل:

ولستَ بمَلْكٍ هازمٍ لنظيرهِ ... ولكنَّك الإسلامُ للشِّرْك هازِمُ

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) سورة التوبة، الآية ٤٦.
(٣) من هطع وأهطع: أي أسرع مقبلاً خائفاً. «معجم متن اللغة»: ٥/ ٦٤٤.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

هذا، وليس لك من المسلمين كافَّة مساعد إلا بدعوةٍ، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بِهَمٍّ، ولا خارج بين يديك إلا بالأُجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشتري منهم الخُطُوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نَفسك، وتسألهم الفريضة وكأنَّك تكلِّفهم النَّافلة، وتعرضُ عليهم الجَنَّة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوَّع بمجلسك، فقائل: لِمَ لا نتباعد عن المنزلة، وآخر: لم لا نميل إلى المصالحة، ومتندِّم على فائت ما كان فيه حظ، ومشير بمستقبل ما يلوحُ فيه رُشْد، ومشيرٌ بالتخلِّي عن عكا حتى كأَنَّ تَرْكَها تغليق المعاملة، وما كأنها طليعة الجيش ولا قُفْل الدَّار ولا خَرَزَةُ السِّلْك إن وَهَتْ تداعىٰ السِّلْك، وانبتَّ في يد الملك، فألهمك الله قتل الكافر وخلاف المخذِّل، والتجلُّد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوَغْر:

ولكنَّ مولانا صفيحة وجهِهِ كَضَوْءِ شهابِ القابسِ المتنوِّرِ

* *

قليلُ التَّشكِّي للمهمِّ يصيبُهُ كثيرُ الهوىٰ شَتَّى النوى والمسالكِ[(١)]

لا شُبْهة أَنَّ المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، وما مُرَاده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له، ويَسَّره عليه، وحبَّبه إليه، فَرُبَّ ممتَحَنٍ بنعمة، ورُبَّ مُنْعَمٍ عليه بمشقَّة، وكم مغبوطٍ بنعمة هي داؤه، ومرحومٍ من بَلْوى هي دواؤه[(٢)].

---

(١) هذا البيت لتأبط شراً من قصيدة اختارها له أبو تمام في حماسته، ١/ ٩٤ (شرح المرزوقي).

(٢) في (ك): شفاؤه.

ويريد المملوك بهذا أن لا يتغيَّر لمولانا ـ أبقاه الله ـ وجهٌ عن بشاشة، ولا صَدْرٌ عن سَعَةٍ، ولا لسانٌ عن حَسَنة، ولا تُرَىٰ منه ضجرة، ولا تُسْمع منه نهرة، فالشِّدَّة تذهبُ ويبقى ذكرها، والأَزْمة تنفرج ويبقىٰ أجرُها.

وكما لم يُحْدِثْ استمرارُ النِّعَم لمولانا ـ عَزَّ نَصْرُه ـ بَطَراً، فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجراً، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا ـ أبقاه الله، وخَلَّد سُلْطانه وملكه ـ يحفظهما:

شَرِبْنا بكأس الفَقْرِ يَوْماً وبالغِنَىٰ ... وما منهما إلا سقَانا به الدَّهْرُ

فما زادنا بَغْياً على ذي قَرَابةٍ ... غِنانا ولا أَزْرَىٰ بأحسابنا الفَقْرُ[١]

والمملوك بأن يسمع أن مولانا ـ عَزَّ نصره ـ على ما يعهده من سَعَة صدره، أسرُّ منه بما يسمعه من بشائر نصره، ويا ليتني كنتُ معهم. وماذا كانت تصنع الأيام؟ إما شيباً[٢] من مشاهدة الحروب؟ فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أو غُرْماً يمكن خَلَفُهُ من الوفر[٣]؟ فقد غَرِمْنا في بُعْد مولانا ما لا خَلَفَ له من العُمر، أو مرض جسم؟ فخيره ما كان الطبيبَ حاضرُه، ولقد[٤] مَرِضْنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أن التجلُّد ساتره.

ومن كُتُبٍ أُخَر: المملوك يوصي المولى بالإسلام، والإسلام هو قَلْبُ المولى فَيُرَوِّحه، ولا يُحمِّله ما يُشْغله ويثقله، ويوصِّي المولى بقلوب المسلمين، وقلوبُ المسلمين جسمُ مولانا أبقاه الله.

---

(١) انظر البيتين في «ديوان حاتم»: ٧٣ على اختلاف في ألفاظهما.

(٢) في الأصل: أما شبنا، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: ألوفه، والمثبت من (ك).

(٤) في النسخ الخطية: قد، والمثبت من طبعة وادي النيل ٢/١٦٨.

مَنْ عَلِمَ أَنَّه لا توفيه رواتبُ الحياة اشتغل قَلْبُهُ، واستطار لُبُّه، وضَعُفَتْ نَفْسُه، فَيَحْسُبُ المولى من جهاده تَفَقُّدَ جسمه، وإلانة مَطْعَمِهِ، وترويح خَطَراته، فقد بلغ المملوك مِنْ حَمْلِهِ على نفسه ما يُخْشى على مولانا الإثم فيه، وإنما نتجشَّمُ كلَّ مَشَقَّة لنسلم منه، ونحن في ضُرٍّ قد مَسَّنا، ولا نرجو لكشفه إلا من ابتلي به، وفي طوفانِ فتنةٍ، ولا عاصِمَ اليوم من أَمْرِ الله إلا مَنْ رَحِمَ.

ولنا ذنوبٌ قد سَدَّتْ طريق دُعائنا، فنحن أَوْلى بأن نلوم أنفسنا، ولله قَدَرٌ لا سلاحَ لنا في دَفْعِهِ إلا أن نقول: لا حول ولا قُوَّة إلا بالله، وقد أَشْرَفْنا على أهوالٍ ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكم مِنْها وَمِنْ كلِّ كَرْبٍ﴾[1] وقد جمع العدوُّ لنا وقيل ١٦٩/٢
لنا: اخشوه، فقلنا: حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل، متنجِّزين بذلك موعود الانقلاب بنعمةٍ من الله وفَضْلٍ، فما نرجو إلا ذلك الفَضْلَ العظيم[2]، وليس إلا الاستعانة بالله، فما دَلَّنا الله في الشَّدائد إلا على الدُّعاء له، وعلى طُروقِ باب كَرَمه، وعلى التضرُّعِ إليه، ﴿فلولا إذْ جاءهم بأْسُنا تَضَرَّعوا ولكن قَسَتْ قلوبُهُمْ﴾[3].

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٦٤.

(٢) اقتباس من قوله تعالى: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم﴾ سورة آل عمران، الآيتان ١٧٣، ١٧٤.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٤٣.

ونعوذ بالله من القسوة، ومن القنوط من الرَّحمة، ومن اليأس من الفَرَج، فإنه لا ييأس منه إلا مسلوب الرَّشَد، مطرودٌ عن الله، مقطوع الحَظِّ منه.

ولا حيلة إلا بترك الحيلة، بل قَصْدُ من تمضي أَقْدَارُه بلا حيلة سبحانه وتعالى.

إنْ عَلِمَ اللَّهُ من جُنْد مولانا أَنَّهم قد بذلوا المجهود فقد عَذَرهم، فيعذرهم المولى، وإن عَلِمَ أنهم قد ذخروا قوة أو قَصَّروا في نُصْرَة كلمة الله، فيكفيهم مَقْتُ الله.

المملوك يذكُرُ المولى بصبره، وبرحب صدره، وبفضل خُلُقه، وبتقواه لرَبِّه، وبمداراة مِزَاجه، وببرء القلوب الإسلامية ببرِء جسمه، ﴿وإنْ كان كَبُرَ عليكَ إعْرَاضُهُمْ﴾ الآية إلى ﴿ولو شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ على الهُدَى﴾[1] والمولى أَوْلى بهذا البيت:

لا بَطِرٌ إن تتابَعَتْ نِعَمٌ وصابرٌ في البلاءِ مُحْتَسِبُ

قيل للمُهَلَّب: أيسرُّك ظَفَرٌ ليس فيه تَعَبٌ؟ فقال: أكره عادة العجز.

ولا بُدَّ أن تنفذ مشيئة الله في خَلْقه، ولا رادَّ لحكمه، فلا يتسخَّط مولانا بشيء من قَدَره، فلأَنْ يجري القضاءُ وهو راضٍ مأجور خيرٌ من أن يجري وهو ساخط موزور، فيصطلي نار الشِّدَّة ـ أعاذه الله منها ـ ولا يجدُ راحةَ الثَّواب، وَفَّرَ الله حَظَّه منه.

من شكا بَثَّه وحُزْنَه إلى الله شكا إلى مُشْتكى، واستغاث

---

(١) سورة الأنعام، الآية ٣٥.

بقادر، ومن دعا ربَّه دُعاءً خَفِيّاً استجاب له استجابةً ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خَفِيَّةً عَنَّا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتدُّ إلا به، ولا يضيِّق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرَّد الكرى، وأطال على الأفكار ليل السرى إلا ضائقة القوت بعكا.

لم يبق إلا ضَعْفُ نِعْمَ المعينُ عليه ترويحُ النَّفْس، وإعفاؤها من الفكر، فقد عَلِمَ مولانا بالمباشرة أنه لا يُدَبِّرُ الدَّهْرُ إلا بِرَبِّ الدَّهْر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحبِ الأمر، وأَنَّه لا يقل الهم إن كَثُرَ الفكر:

قَدْ قُلْتُ للرَّجُلِ المُقَسَّمِ[1] أَمْرُهُ   فَوِّضْ إليه تَنَمْ قريرَ العَيْنِ

كل مُقْتَرَحٍ يُجاب إليه إلا ثَغْراً يصير نَصْرانياً بعد أن أَسْلَمَ، أو بلداً يَخْرَسُ فيه المِنْبَر بعد أن تكلَّم.

يا مولانا، هذه اللَّيَالي التي رابطتَ فيها والنَّاس كارهون، وسَهِرْتَ فيها والعيون[2] هاجعة، وهذه الأيام التي يُنادىٰ فيها: يا خيلَ الله اركبي، وهذه السَّاعات التي تَزْرَعُ الشَّيْبَ في الرؤوس، وهذه الغَمَراتُ التي تفيض فيها الصُّدور بمائها بل بنارها، هي نعمةُ الله عليك، وغِرَاسُك في الجنَّة، ومجملات محضرك، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾[3]، وهي مُجَوِّزاتك الصِّراط، وهي مُثَقِّلاتُ الميزان، وهي دَرَجاتُ الرِّضْوان.

---

(١) رجل مقسَّم: مشترك الخواطر بالهموم. «اللسان» (قسم).
(٢) في (ك): والأعين.
(٣) سورة آل عمران، الآية ٣٠.

فاشكرِ اللَّهَ عليها كما تشكرُهُ على الفتوحات الجليلة، واعلم أنَّ مثوبة الصَّبْر فوق مثوبة الشُّكْر، وَمِنْ رَبْطِ جَأْشِ أمير المؤمنين عمر بن الخَطَّاب ـ رضي الله عنه ـ قولُه: لو كان الصَّبْر والشُّكْر بعيرين ما باليتُ أيهما ركبتُ.

وبهذه العزائم سبقونا[1] وتركونا لا نطمع بالغُبار، وامتدَّتْ خُطاهم ونعوذ بالله من العِثار.

ما استعمل الله في القيام بالحقِّ إلا خَيْرَ الخَلْقِ، وقد عُرِفَ ما جرى في سِيَرِ الأوَّلين وفي أنباء النَّبيين، وأن الله تعالى حَرَّض نبيَّه ﷺ أن يهتدي بِهُدَاهم، وأن يسلك سبيلهم، ويقتدي بأُولي العَزْم منهم. وما تغلو الجَنَّة بثمن، وما ابتلىٰ الله سبحانه من عباده إلا من يعلم أنه يصبر، وأمورُ الدنيا ينسخ بعضُها بعضاً، وكأَنَّ ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر.

* وإنــمــا يَــقَــظــاتُ الــعَــيْــنِ كــالــحُــلُــمِ[2] *

أَهَمُّ الوصايا أن لا يحمل المولى هماً يُضْعِفُ به جِسْمَه ويُضِرُّ مِزَاجه، والأُمَّة بنيان وهو ـ أبقاه الله ـ قاعدتُهُ، والله يثبِّتُ تلك القاعدة القائمة[3] في نُصْرة الحقِّ[3].

ومما يستحسنُ من وصايا الفُرْس: إن نَزَلَ بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نَزَلَ بك ما ليس فيه حيلة ـ والعياذ بالله ـ فلا تَجْزَع.

---

(١) في (ك): سبقوا.

(٢) هذا عجز بيت للمتنبي، صدره: هوِّن على بَصَرٍ ما شقَّ مَنْظَرُهُ. وهو من قصيدة يرثي بها فاتكاً، انظر «ديوانه» ٤/ ٢٩٤.

(٣ ـ ٣) ما بينهما ليست في (ك).

وَرُبَّ واقعٍ في أمرٍ لو اشتغل عن حمل الهَمِّ به بالتدبير فيه مع مقدور الله لانْصَرَفَ هَمُّه وكُفِي خطبه ﴿وما تَشَاؤون إلا أَنْ يَشَاء اللَّهُ﴾[1].

هذا سُلْطان هو بحولِ الله أوثقُ منه بسلطانه، قاتلتِ الملوكُ بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نَظَرَ الله إلى قَلْب مولانا لم يجد فيه ثِقَةً بغيره، ولا تعويلاً على قُوَّةٍ إلا على قُوَّته، فهنالك الفَرَج ميعاده، واللُّطْف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يَقُل ﴿متى نَصْرُ الله﴾[2] وليصبر فإنما خُلِقَ للصَّبْر، بل ليشكر فالشُّكْرُ في موضعِ الصَّبْر أعلى درجات الشُّكر، وليقل لمن ابتلى أنت المعافي، وليرضَ عن الله سبحانه، فإنَّ الرَّضِيَّ عند الله هو المُسْلم الرَّاضي. فأما أخبار فتنة بلاد العجم فسبحان من ألحق قلوبهم بألسنتهم ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُوْنَ﴾[3].

وكتب السُّلْطان إلى القاضي الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عَمَّا لاح له من أمارات النَّصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها.

١٧٠/٢ فكتب إليه الفاضل: فأما قول مولانا إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوبُ كانت مُثْبَتة قبل هذا المقام وفيه مُحِيَتْ، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفي عنها بهذه الساعات وعُفِّيت، فيكفي مستغفراً لسانُ السَّيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجَنَّة صوتُ

(١) سورة الإنسان، الآية ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٤.
(٣) سورة الأنعام، الآية ٩١.

مقارعة الأضداد، وبعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدمٍ سَعَتْ في مِنْهاجك، وطوبى لوجهٍ تَلَثَّم بمثار عَجَاجك، وطوبى لنفسٍ بين يديك قَتَلَتْ وقُتِلَتْ، وأَنَّ الخواطر بشُكْرِ الله فيك عن شُكْرِها لك قد شُغِلَتْ.

فصل

كان بلغني أَنَّ السُّلْطان ـ رحمه الله ـ لما اشتدَّ أمرُ الفرنج على عكَّا، أرسل إلى ملك المغرب[١] يستنجد به عليهم، ليقطع عنه مادَّتهم من جهة البحر، وكنت أَتَطَلَّبُ حقيقةَ ذلك، وأبحث عن شرح الحال فيه، فإنَّ العماد والقاضي لم يتعرَّضا له في كتبهما، غير أن العماد ذكر كتاباً كتبه القاضي الفاضل إلى رسولهم بالمغرب يستنجز منه ما كان أُرْسِلَ لأجله، وسيأتي[٢].

وغَرَضِي كان الاطِّلاع على نفس كتاب الرِّسالة ومضمونها، ثم أراني بعضُ الشيوخ الصُّلَحاء الثقات بخطِّه ما كنت أرومُه، فنقلته على وجهه.

قال: نسخةُ كتابٍ كَتَبَهُ القاضي الفاضل، ونَقَلْتُه من خَطِّه لابن منقذ[٣] يأمره فيه بالسَّفَر إلى المغرب بأَمْرِ الملك النَّاصر صلاح

---

(١) هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، من سلاطين الدولة الموحدية، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٥ هـ)، وانظر الصفحة التالية.

(٢) انظر ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ من هذا الجزء.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣ من هذا الجزء.

الدين ـ رحمه الله ـ يستنصر بملك المغرب يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن لما حَصَرَ الفرنج ـ خَذَلَهم الله ـ عكًا بعد كسرة حِطِّين وفَتْحِ بيت المقدس، والكتاب الذي سُيِّر إلى المغرب، والهدية التي حُملت، يأتي ذكر ذلك إن شاء الله تعالى.

بسم الله الرحمن الرحيم، الأمير الأَجَلّ، الإسفهسلار* الأصيل، العالم المحترم، شمس الدِّين، عُدَّة[1] الإسلام، جمال الأنام، تاج الدولة، أمين المِلَّة، صفوة الملوك والسَّلاطين، شرف الأُمراء، مقدَّم الخواص، أدام الله توفيقه، ويَسَّر طريقه، وأنجح مَقْصِدَه، وأعذب مَوْرِدَه، وحَرَسَ مغيبه ومشهده، وأسعد يومَه وغَدَه.

تستخير الله سبحانه، وتتوجَّه كيفما يَسَّر الله إلى الجهة الإسلامية المغربية، حَرَسَ الله جانبها، ونَصَرَ كتائبها ومراكبها. وتستقري في الطَّريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأخلاقهم وأفعالهم، وما يحبُّونه من القول نَزْرَه أو جَمَّه، ومن اللِّقاء منبسطه أو منقبضه، ومن القعود بمجالسهم مُخَفَّفه أو مُطَوَّله، ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقعه، وهل هي السُّنَن الدِّينية أو العوائد الملوكية؟

ولا تلقه إلا بما يحبه، ولا تخاطبه إلا بما يُسِرُّه، والكتاب قد نُفِّذ إليه ولم يُخْتم لتعلم ما خوطب به.

والمقصود أن تقصَّ القِصَصَ عليه من أول وصولنا إلى مِصْر،

---

(١) في (ك): عمدة.

وما أَزَلْنا من البِدَع بها، وعَطَّلْنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفر[1] من مصر، فكانت مقدمة لملك الشَّام الإسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدمة لملك الشَّام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، وإصفاق[2] الملوك المجاورين على طاعتنا.

وتُفَصِّل ما جرى لنا مع الفرنج من الغَزَوات المتقدِّمة التي جُسْنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدِّمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكُبْرى، وفتح البيت المقدَّس، وتلك على الإسلام مِنَّة الله العُظْمىٰ، إلى غير ذلك من أَخْذِ الثُّغور، وافتتاحِ البلاد، وإثخان القَتْلِ فيهم والأَسْر لهم، واستنجاد بقيَّتهم لفرنج المغرب، وخروج نجداتهم وكثرتها وقُوَّتها، ومَنَعتها وغِناها وثَرْوتها، ومُسارعتها ومبادرتها، وأنه لا يمضي يومٌ إلا عن قُوَّة تتجدَّد، ومِيْرَةٍ تَصِل، وأموالٍ واسعة تخرج، ومعوناتٍ كثيرة تُحمل.

وأَنَّ ثغرنا حَصَرَه العدو، وحَصَرْنا نحن العدوَّ، فما تمكَّن من قتال الثَّغر، ولا تمكَّن من قتالنا، وخَنْدَقَ على نفسه عِدَّة خنادق، فما تمكَّنَّا من قتاله، وقَدَّم إلى الثَّغر أبرجةً أحرقها أهلُه، وخرج مرَّتين إلى عسكرنا فكسرَ العدوَّ الكثير أَقَلُّهُ، فإنه اغتنم أوقاتاً لم تكنِ

---

(١) في (ك): الكفار.

(٢) أي اجتماع الملوك، من الصفقة: الاجتماع على الشيء، وأصفقوا على الأمر: اجتمعوا عليه. «اللسان» (صفق).

العساكرُ فيها مجموعة، وارتاد ساعاتٍ لم تكنِ الأُهَبُ فيها مأخوذة، وأقدم على غِرَّةٍ استيقظت فيها نُصْرَةُ الله لنا وخِذْلانه لهم، فقتل الله العدوَّ القَتْلَ الذَّريع، وأوقع به الفَتْك الشَّنيع، وأجلت إحدىٰ الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكُفَّار، خَرَجَتْ أنفسُها إلى مصارعها، وهَمَدَتْ أجسامها في مضاجعها.

والعدوُّ وإن حَصَرَ الثَّغْرَ فإنَّه محصور، ولو أَبْرَزَ صَفْحَتَهُ لكان بإذن الله هو المثبور المكسور.

وتذكُرُ ما دَخَلَ الثَّغْرَ من أساطيلنا ثلاث مرَّات، واختراقها مراكبهم وهي الأكثر، ودخولها بالمِيْرَة بحكْم السَّيْف الأَظْهر، وأنَّ أمر العدوِّ مع ذلك قد تطاول، وخَطْبَهُ قد تمادىٰ ونجدته تتواصل، ومنها ملك الألمان في جموعٍ جماهيرها مُجَمْهَرَة، وأموالٍ قناطيرها مُقَنْطَرَة، وأنَّ عساكرنا لو أدركتْهُ لما استدرك، ولولا سَبْقُهُ لها بالدُّخول إلى أنطاكية لَتَلِفَ وهَلَك.

١٧١/٢ وتذكر أَنَّ الله قَصَمَ طاغية الألمان، وأخذه أَخْذَةَ فِرْعَوْنِيَّة بالإغراق في نهر الدُّنيا الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة.

وأنَّ هذا العدو لو أرسل الله عليه أُسطولاً قوياً مستعدّاً، يقطع بحرَهُ ويمنع مُلْكَه، لأَخَذنا العدوَّ بالجوع والحَصْرِ، أو بَرَزَ فأخذناه بيد الله تعالىٰ التي بها النَّصر، فإن كانتِ الأساطيل بالجانب المغربي مُيَسَّرَة، والعُدَّة منها متوفِّرة، والرِّجال في اللِّقاء فارهة، وللمسير غير كارهة، فالبِدَارَ البدار، وأنتَ أيها الأمير فيها أول من استخار الله وسار.

وإن كانت دون الأُسطول موانعُ إما من قِلَّة عُدَّة، وإما من شغل هناك بمهمَّة، أو بمباشرة عَدُوٍّ إما تُحَصَّن منه العورة أو قد لاحت منه الفُرْصة، فالمعونة ما طريقُها واحدة، ولا سبيلها مسدودة، ولا أنواعُها محصورة، تكون تارةً بالرِّجال، وتارةً بالمال.

وما رأينا أهلاً لخطابنا ولا كفؤاً لإنجادنا، ولا محقوقاً بدعوتنا، ولا مليباً بنصرتنا إلا ذلك الجَناب، فلم نَدْعُه إلا لواجبٍ عليه، وإلى ما هو مستقلٍ به، ومطيقٌ له، فقد كانت تُتَوقَّع منه هِمَّة تَقِدُ في الغَرْب نارُها، ويستطير في الشَّرْق سناها، وتُغْرس في العُدْوة القُصْوىٰ شجرتها، فينال مَنْ في العُدْوة الدُّنيا جَناها، فلا ترضىٰ هِمَّتُه أن يعين الكُفْرُ الكُفْرَ، ولا يعين الإسلامُ الإسلامَ، وما اخْتُصَّ بالاستعانة إلا لأَنَّ العدو جارُه، والجارُ أقدرُ على الجار، وأهلُ الجَنَّةِ أَوْلىٰ بقتال أهل النَّار، ولأنه بحرٌ والنَّجْدة بحرية، ولا غَزْوَ أن تجيش البحار.

وإن سُئِلَ عن المملوكين يوزبا وقَرَاقُوش، وَذُكِرَ ما فعلا في أطراف المغرب بمن معهما من نُفَايات الرِّجال الذين نفتهم مقاماتُ القتال، فيعلمهم أَنَّ المملوكين ومن معهما ليسوا من وجوه المماليك والأُمراء، ولا من المعدودين في الطَّواشية* والأولياء، وإنَّما كَسَدَتْ سوقُهما، وتبعهما(١) ألفافٌ أمثالهما، والعادة جاريةٌ أَنَّ العساكر إذا طالت ذيولها، وكَثُرَتْ جموعُها، خَرَجَ منها، وانضاف إليها، فلا يظهر مزيدُها ولا نَقْصُها.

---

(١) في الأصل: وتبعتهما، والمثبت من (ك).

ولا كان هذان المملوكان ممن إذا غابَ أُحضر، ولا ممن إذا فُقِدَ افْتُقِدَ، ولا يُقَدَّرُ في مثلهما أنه ممن يستطيع نكايةً، ولا يأتي بما يُوجب شكوىً من جناية. ومعاذ الله أن نأمر مفسداً بأن يُفْسِد في الأرض ﴿إِنْ أُرِيدُ إلا الإِصْلاحَ ما اسْتَطعْتُ﴾[1].

إن سُئِلَ عن النَّوْبة المِصْرية[2] وما فُعل بجندها، فليعلمهم الأمير أن القوم راسلوا الكُفَّار، وأطمعوهم في تسليم الدِّيار، فأَشْفَىٰ الإسلام على أمرٍ شديد، وكاد يقربُ على الكُفْر أمرٌ بعيد، فلم يُعاقبِ الجيشُ، بل أعيان المفسدين، فقوبلوا[3] بما يجب، وكانوا دُعاةَ كُفْرٍ وضلال، ومحاربين لله بما سَعَوْا في الأرض من فساد، فأما بقية الجيش وإنْ كان بينهم مَنْ هو تَبَعٌ للمذكورين في الرِّضا، فإنهم اقْتُصِرَ بهم على أن لا يكونوا جُنْداً، ومنهم من أُجريت عليه أرزاق تبلِّغه، وشَمِلَتْهُ أَمَنَةٌ تسكِّنه.

وأما الهدية المُسَيَّرة على يد الأمير فتفصيلها يَرِدُ في كتابِ الأمير الأجل الإسفهسلار*، العالم الكبير، مجد الدين سيف الدولة ـ أدام الله عُلُوَّه ـ مقروناً بالهدية المذكورة، ومع قُرْب الشِّتاء فلم يبق إلا الاستخارة والتَّسْمية، ومبادرة الوقت قبل أن يُغْلِقَ البحرَ انفتاحُ الأشتية، والله سبحانه يوفِّق الأمير، ويسهِّلُ سبيله، ويهدي دليلَه، ويكلؤه بعينه، ويمدُّه بعونه، ويحمل رَحْلَه، ويبلِّغه أهلَه، ويشرح له صَدْرَهُ، وييسِّر له أمره، إنْ شاء الله تعالىٰ، وكتب في ثامن وعشرين شعبان سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة.

---

(١) سورة هود، الآية ٨٨.

(٢) يعني ما قام به عمارة اليمني وأصحابه، وقد سلفت أخبارهم ص ٢٨٢ من الجزء الثاني.

(٣) في الأصل: فقوتلوا، والمثبت من (ك).

فصل

في نُسْخَةِ الكتاب إلى ملك المغرب والهَدِيَّة.

العُنْوان: بلاغ إلى مَحَلِّ التَّقْوىٰ الطَّاهر، ومستقر حزب الله الظاهر، من المغرب أعلىٰ الله به كلمةَ الإيمان، ورفع به مَنَار البِرِّ والإحسان.

بسم الله الرَّحمن الرحيم، الفقيرُ إلى رحمة رَبِّه يوسف بن أيوب، أما بعد: فالحمدُ لله الماضي المَشِيّة، المُمْضي القضيّة، البَرِّ بالبَرِيَّة، الحَفِيِّ بالحنيفية، الذي استعمل عليها من استعمر به الأرض، وأغنى من أهلها من سأله القَرْض، وأَجْزَلَ أَجْرَ من أجرىٰ على يده النَّافلة والفَرْض، وزانَ سماء المِلَّة بدراري الذَّراري التي بعضُها من بعض.

وصَلَّىٰ اللَّهُ على سَيِّدنا محمد الذي أنزلَ عليه كتاباً فيه الشِّفاء والتِّبْيان، وبَنَىٰ الإسلامَ بأُمَّته التي شبَّهها صاحِبُها بالبُنْيان، وعلى آله وصحبه الذين اصْطَفَاهم وَطَهَّرهم، ونصروه وظاهروا رسولَه ﷺ، فنصرهم وأَظْهرهم، وَيَسَّر بهم السَّبيل، ثم السبيل يَسَّرهم، وإنَّ الله بهم لذو فَضْلٍ على النَّاس، ولكن أكثرهم[1]. ﴿رَبَّنا اغْفِرْ لنا ولإخْواننا الذين سَبَقُونا بالإيمان ولا تَجْعَلَ في قُلُوبنا غِلاً للذين آمنوا رَبَّنا إنك رؤوفٌ رحيم﴾[2].

وهذه التحية الطَّيِّبة، الكريمة الصَّيِّبة[3]، الواجبةُ الرَّدِّ، الموجبة

---

(١) في هذه العبارة اقتباس من قوله تعالى: ﴿وإنَّ ربَّك لذو فَضْلٍ على النَّاس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ سورة النمل، الآية ٧٣.

(٢) سورة الحشر، الآية ١٠.

(٣) في (ك): وهذه التحية الكريمة، الطيبة الصيبة.

للقصد[1]، العذبةُ الوِرْد، المتنفِّسة عن العنبر الوَرْد، وقَّادةٌ على دار المُلْك، ومَدَارِ النُّسُك، وَجُلِّ الجلالة، وأصلِ الأصالة، ورأس الرِّياسة، ونفس النفاسة، وحَكَم الحُكْم، وعَلَم العِلْم، وقائم الدين وقَيِّمه، ومُقَدَّمِ الإسلام ومقدَّمه، ومقتضي دَيْن الدِّين، ومثبت المتَّقين على اليقين، ومُعْلي الموحِّدين على المُلْحدين، أدام الله له النُّصْرة، وجَهَّز به العُسْرة، وَرَدَّ له الكَرَّة، وبَسَطَ له باع القُدْرة، وأَوْثَقَ به ١٧٢/٢
حَبْلَ الأُلْفة، ومَهَّد له درجات الغُرفة، وعَرَّفه في كل ما يعتزمه[2] صُنْعاً جزيلاً جميلاً، ولُطْفاً خفياً جليلاً، ويسَّر عليه في سبيله كل ما هو أشدُّ وَطْأً، وأقومُ قيلاً.

تحيةٌ استُنير منها الكتاب، واستثيب عنها الجواب، وحَفَزَ لها حافزان: أحدهما شَوْقٌ قديم كان مَطْلُ غريمِه ممكناً إلى أن تَيَسَّر الأسباب، والآخر مَرَامٌ عظيمٌ ما كُرِهَ إذا اسْتُفْتِحَتْ به الأبواب، وكان وقتُ المواصلة، وموسم المكاتبة هناءةً بفتح[3] البيت المُقَدَّس، وسكونِ الإسلام منه إلى المَقِيْل والمُعَرَّس، وما فَتَحَ اللّهُ للإسلام من الثُّغور، وما شَرَحَ لأهله من الصُّدور، وما أنزله عليهم من النُّور، ولم يَخْلُ المسلمون فيه من دعوات أسرار ذلك الصَّدْر، ومُلاحظات [أنوار][4] ذلك البدر، ومطالعاتِ تلك الجهة التي هي وإن كانت غربيَّة فإنَّ الغَرْبَ مستودعُ الأنوار، وكنز دينار الشمس،

---

(١) في الأصل: القصد، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: ما يعتز منه، والمثبت من (ك).
(٣) في (ك): بافتتاح.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

ومَصَبُّ أنهارِ النَّهار، ومن جانبه يأتي سكونُ اللَّيل ومستروح الأسرار، وعنه ﴿يُقَلِّبُ اللّهُ اللَّيْلَ والنَّهَار إنَّ في ذلك لَعِبْرَةً لأولي الأبصار﴾[1].

ولم تتأخر المكاتبة إلا ليتمَّ الله ما بدأ مِنْ فَضْله، وليفتح بقية ما لم ينقطع بتقطُّع يد الشِّرك من حبله، والمفتتح بيد الله من الشَّام مُدُنٌ وأمصار، وبلاد كبار وصغار، وثغورٌ وقلاع، كانت للشِّرْك معاقل، وللإسلام معاقر، ولبني الكُفْر مصانع، ولبني الإسلام مصارع، والباقي بيد الكفر منها ثغرا طرابُلُس وصور، ومدينة أنطاكية ـ يَسَّرَ الله أَمْرَها، وفَكَّ من يد الكُفْر[2] أَسْرَها ـ وإذا أَمَّن المُؤمن على هذه الدَّعْوة رُجي إيجابها، وما يتأخَّر من الله سبحانه جوابُها.

فالدُّعاء أحدُ السِّلاحين، ومع النيَّة يطير إلى وكره من السماء بجناحين، بعد أن كُسِرَ العدوُّ الكسرة التي لم يُجْبَرْ بعدها، وأُلجىء إلى حصونه التي للحَصْرِ أَعَدَّها، وكان يومها كريماً، ولطفُ الله فيها عظيماً، قضت كلَّ حاجةٍ في النَّفْس، وأغنتِ المسلمين. فأما العدو بعد يومها فكأنْ لم يَغْنَ بالأمسِ، وكانت على أثر غزواتٍ قبلها، فما الظَّنُّ بالمجهَّزة بعد النُّكْسِ.

ولم يُؤَخِّر فَتْحُ البلاد بعدها إلا أَنَّ فَزَعَ الكُفَّار بالشَّام استصرخ بأَصْلِ الكُفَّار من الغَرْب، فأجابوهم رجالاً وفُرْساناً، وشِيباً وشُبَّاناً،

(١) سورة النور، الآية ٤٤.
(٢) في (ك): الكفار.

وزُرَافاتٍ ووحداناً، وبَرّاً وبحراً، ومركباً وظَهراً، وركبوا إليهم سَهْلاً وَوَعْراً، وبذلوا ماعوناً وذُخْراً، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم، ولا أرساناً تقتادهم، بل خَرَجَ كُلُّ يلبِّي دعوة بطركه، ولا يحتاج إلى عَزْمةِ مَلِكِه.

وخرجت لهم عِدَّةُ مُلوك أقفلت العُجْمةُ على أسمائها، وأتتِ العزمةُ ـ بحمد الله ـ على أشخاصها عند لقائها، ومنهم ملك الألمان خَرَجَ في جموعٍ بَرِّيَّة، مِنَ الله تعالىٰ بَرِيَّة، ملأتِ الفِجَاجَ، وازدحمت فما نَفَذَها العَجَاج، ومنهم من رَكِبَ ثَبَجَ البحر فركب الأُجاج العَجَّاج[1]، وامتطى من البحر مَتْنَه الرَّجَّاج، لينصر ديناً مُشْبِهَ الزُّجاج؛ يقبل الكسر ولا يسرع إليه الجَبْر، وراكبُ ذلك الدِّين كراكب البحر، بلا ساحل سلامة، وإلى قاع كفر.

وجلب الكُفَّارُ إلى المحصورين بالشَّام كلَّ مجلوب، وملؤوا عليهم ثَغْرتهم[2] من كلِّ مطلوب؛ ما بين أقواتٍ وأَطْعِمَة، وآلاتٍ وأسلحة، وشِكَّةٍ وجُنَّة، وحديدٍ مضروب وَزُبْرة[3]، ونقدَيْ ذَهَبٍ وفِضَّة، إلى أن شَحَنوا بلادَهُمْ رجالاً مقاتلة، وذخائر للعاجلة من حَرْبهم والآجلة، لا تشرقُ شارِقَةٌ إلا طَلَعَتْ على العدو من البحر طالعة، تُعَوِّضُ من الرِّجال من قُتِلَ، وتخلِّف مِنَ الزَّاد ما أُكِلَ، فهم كل يوم في حصولِ زيادة، ووفور مادَّة، وقد هان عليهم موقع

---

(١) في (ك): الأجَّاح.

(٢) في (ك): ثغورهم.

(٣) الزُّبرة: القطعة من الحديد، وجمعها زُبَرٌ وزُبُرٌ. «القاموس المحيط» (زبر).

الحَصْر، وأعطاهم البحرُ ما منعهم البَرُّ، وبَطِروا لما كَثُرُوا، ونظروا في أنهم لا يستطيعون أن يلقَوْا أو يُضْحروا، ويستطيعون أن يُحْصِرُوا على أن ينحصروا.

ونزلوا على عكا بحيث يمدُّهم البحر بإمداده، ويصل إلى المقاتل ما يحتاجه من أسلحته وأَزْواده، وبمن تكثَّر به من مقاتلته[1] وأجناده، فانقطعت مادَّةُ عكا من البحر، وحَصَرْنا مُنازليهم[2] من العدوِّ من جهة جانب البر، فخندقوا على نفوسهم، وحثوا تراب المصارع على رؤوسهم[3]، وعقدت عِدَّتُهم مئة ألفِ أو يزيدون، كلما أفناهم القَتْل أخلفتهم النَّجدة، فكأنَّهم بعد الممات يعودون.

فاهتممنا بعمارة بحرية لقينا عمارتهم بها، فنفذت عمارتُنا إلى الثَّغْر، وأوصلت إليه الأقوات التي حَملَ منها البحر ما لا يحمله الظَّهر، والأسلحةَ التي أمضاها الله عَزَّ وَجَلَّ بيد الإسلام في صدور الكُفْر، وما لقينا عمارة العدو بأوفر منها عُدَّة، فَعَدُّ مراكبهم كبير، ولكن بأصدق منها عَزْمة، والقليل مع العَزْمِ الصَّادق كثير.

واستمرَّ مقام العدو محاصراً للثَّغر، محصوراً منا أَشَدَّ الحَصْر، لا يستطيع قتال الثَّغر لأنَّا من خَلْفه، ولا يستطيع الخروجَ إلينا خوفاً من حَتْفه، ولا نستطيع نحن الدُّخولَ إليه؛ لأنه قد سَوَّرَ وخَنْدَقَ، وحاجَزَ من وراء الحُجُرات وأغلق.

ولما خرج ملك الألمان بحشده وسُمْعَتِهِ التي هي منه أَحْشَد،

---

(١) في (ك): مقاتله.
(٢) في الأصل: منازلتهم، والمثبت من (ك).
(٣) في الأصل: وحثوا مصارع التراب على رؤوسهم، والمثبت من (ك).

وعاد جيشه الملعون على رَسْمٍ قديم إلى الشَّام، فكان العَوْدُ لأُمَّةِ أحمد ﷺ أَحْمَدَ، قَوِيَتْ فيه نفوسُهم، وجمحت به رؤوسهم، وظَنُّوا أنه يُزْعجنا من مجثمنا، ويخرجنا من مخيَّمنا، فبعثنا إليه من يلقاه بعساكرنا الشَّمالية، فسلك ذاتَ الشِّمال متوعِّراً فيها، محتجزاً عن لقائها، مُظْهراً أنه صريعُ داءٍ وما به غير دائها. ١٧٣/٢

وكان أبوه الطَّاغية ملك الألمان ـ شَيْبَة اللَّعْن اللَّعين، قائد جيشه إلى سِجْن سِجِّين ـ قد هَلَكَ في طريقه غَرَقاً، وخاض الماءَ فخاضَه الماءُ شَرقاً، وبقي له ولد هو الآن المُقَدَّم المؤخَّر، وقائد الجمع المُكَسَّر، وربما وَصَّلهم إلى عكا في البحر تهيُّباً أن يسلك البر، ولو سبق أصحابنا إلى عساكر الألمان قبل دخولها إلى أنطاكية لأخذوه أَخْذاً سريعاً، وسبق ماءُ بحرِ سيوفهم إلى أن يكون الطَّاغية فيه لا في النَّهْرِ صريعاً، ولكنْ لله المشيئةُ في البَرِيَّة، والطَّاغية إنما يمشي إلى البَلِيَّة، فإنه لولا احتجاز مقيمهم بالخنادق، واجتياز واصلهم بالمضائق، لكان لنا ولهم شان، وكان ليومنا في النُّصْرة الكُبْرَىٰ بحول الله ثان، لا يثنيه من العدو ثان.

ولما كانت حضرة سُلْطان الإسلام، وقائد المجاهدين إلى دار السَّلام أَوْلَى مَنْ تَوجَّهَ إليه الإسلام بشكواه وَبَثِّه، واستعان به على حماية نَسْله وحَرْثِهِ، وكانت مساعيه ومساعي سَلَفِهِ في الجهاد الغُرَّ المُحَجَّلَة، المُؤمَّرة المؤمَّلة، الكاسفة لكل مُعْضلة، الكاشفة لكل مُشْكلة. الأخبار بذلك سائرة، والآثار ظاهرة، والصُّحف عنه باسمة، والسِّيَر به مُعْلَمة وعالمة، وكُلٌّ بجهاده قد سَكَنَ إلا السيوف في أغمادها،

وقد أَمِنَ إلا كلمة الكُفرِ في بلادها. لا يزال في سبيل الله غادياً ورائحاً، ومواجهاً ومكافحاً، ومماسياً ومصابحاً، يجوز لُجَّة البحر بالمجاهدين ملوكاً على الأَسِرَّة، وغُزاةً تصافح وجوهَهَا السيوفُ فلا تُخْمِدُ نورَ الأَسِرَّة[١]، يذود الفِرَقَ الكافرة، ولو تَرَكَ سبيلَها لملأ قَراره كلَّ واد و ﴿كلَّما أَوْقَدُوا ناراً للحرب أطفأها الله﴾[٢] ولولاه لأخمدوا شَرَار كلِّ زناد.

كان المتوقَّع من تلك الدَّولة العالية، والعَزْمة الغادية، مع القُدْرَة الوافية، والهمّة المهدية الهادية، أن يُمِدَّ غَزْبُ الإسلام المسلمين بأكثر مما أَمَدَّ به غَزْبُ الكُفَّار الكافرين، فيملأها عليهم جواري كالأعلام، ومدناً في اللُّجَجِ سوائر، كأَنَّها اللَّيالي مقلعةً بالأيام، تَطْلُعُ علينا مَعْشَرَ الإسلام آمالاً، وتَطْلُعُ على الكُفَّار آجالاً، وتَرِدُنا إما جُمْلَةً وإما أرسالاً، مسوَّمة تمدُّها ملائكة مسوَّمة ومُعْلَمة، تقدم حيازِيْمُها إقدام حَيْزُوم[٣]، تحثّ أصحابه الحَزَمَة، وإنما هي منه عَزَمَة، كانت تعين أصحاب الميمنة على أصحاب المَشْأمة، وكلمة كانت تنفخ الرُّوح في الكلمة، ولما استُبْطِئت ظُنَّ أنها توقَّفت على الاستدعاء، فصرخنا به في هذه التحية، فقد تَحَفَّل السحابُ

---

(١) الأسرة الأولى جمع سرير: وهو ما يجلس عليه. والثانية: مستقر الرأس في العنق. انظر «معجم متن اللغة»: ٣/ ١٣٩.

(٢) سورة المائدة، الآية ٦٤.

(٣) حيزوم: اسم فرس جبريل عليه السلام، وفي حديث بدر أنه سمع صوته يوم بدر يقول: أقدم حيزوم. وقال الجوهري: حيزوم اسم فرس من خيل الملائكة. انظر «اللسان» (حزم).

ولا تُمْطِرُ إلى أن تُحَرِّكها أيدي الرِّياح، وقد يُنْزِلُ اللّهُ النُّصْرة فلا تظهر إلى أن تضرع إليها ألسنة الصِّفاح.

وسُيِّر لحضور مجلسه الأَطْهر، ومَحَلِّه الأنور، الأمير الأَجَلُّ، المجاهد الأمين الأصيل، شمس الدين، ثقة الإسلام والمسلمين، سفير الملوك والسَّلاطين، أبو الحَزْم[1] عبد الرحمن ابن مُنْقذ، كتب الله سلامته وأحسن صحابته، وما اختير للوفادة إلا مَنْ هو أهلُها، ولا حُمِّل[2] الوديعة إلا مَنْ هو مَحَلُّها، ولا بُعِثَ لنهج الصِّلة إلا من هو مِفْتَاحُها، ولأداء الأمانة إلا من هو قُفْلها.

ومهما استوضح منه وسُئِلَ عنه فإنه على نَفْسه بصيرة، ومن البيان ذو ذخيرة، وفي العَرَبِيَّة ذو بيتٍ وعشيرة، والمشاهدة له أَوْصَف، على أنّ تلك الجلالة رُبّما ذعرت البيانَ فَأَخْلَف، وما أجدره بأن يُصادف بسطةً على بساطه، ونظراً يأذن له في القول على اختصاره، وتوسُّطه وإفراطه، فكلٌّ هو به وافٍ، وكلٌّ هو للفهم الكريم كاف، والله تعالىٰ يجعل هذه العَزْمة مِنّا في استنهاض العَزْمَةِ منه بالغةً مبلغاً يُسِرُّ أهل دينه، ويوزعُهم بها اقتضاء ديونه، من الذين اتخذوا إلهاً من دونه.

والسَّلام الصَّادر عن القلب السَّليم، والوِدُّ الصَّميم، والعهد الكريم، على حضرة الكرم العَلِيَّة، وسُدَّة السِّيادة الجَلِيَّة، سلامَ مَوَدَّةٍ

---

(١) كذا في النسخ الخطية، والمعروف أنه أبو الحارث، وقد سلفت ترجمته في حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣ من هذا الجزء.

(٢) في (ك): ولا يحمل.

ما وَفَدَ الغَرْبَ قَبْلَها، ورسالةَ ما خَطَرَتْ إلى أن بَعَثَتْ وراءها المحبةُ رُسْلَها، وليصل السلامَ رحمة الله وبركاته ورِضْوانُهُ وتحياتُه إنْ شاء الله تعالىٰ.

وكَتَبَ في شعبان سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة، والحمد لله وَحْدَهُ، وصلواته على سَيِّدنا محمدٍ نَبِيِّه وآله وسلامُه.

الهدية: ختمة كريمة في ربعة مُخَيَّشة(١)، مسك ثلاث مئة مثقال، عنبر عشر قلائد عددها ستُّ مئة حَبَّة، عود في سفط عشرة أمناء، دِهان بَلَسان(٢) مئة دِرْهَم واحدة، قِسِي بأوتارها مئة وقوسان، سروج عشرون، نصول سيوف هندِيَّة عشرون، نُشَّاب ياسج(٣) خاص مُرَيَّش كبير ومتوسط ضمن صندوقي خشب مُجَلَّدة [محدَّدة](٤) سبع مئة سَهْم.

وكان إقلاعُهُ من الإسكندرية في شيني* عمارته مئة وعشرون، في ثالث عشر رمضان سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة، ووصل إلى أطرابُلُس* أَوَّل البلاد في الخامس والعشرين من شَوَّال، وأقام بها إلى ثامن ذي القَعْدَة، وتوجَّه إلى البلاد، وكان الاجتماع بالوزير أبي يحيى أبي بكر أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص، ودفع كتاب

---

(١) المخيش: المُغَشَّىٰ بالذهب. انظر «معجم متن اللغة»: ٢/ ٣٥٤.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٨٠ من الجزء الثاني.

(٣) ياسج: السهم ذو الرأس المدببة، وهي كلمة فارسية «قاموس الفارسية» ٨٢٦.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

السُّلْطان إليه يوم الخميس سابع ذي الحِجَّة، وكان الدُّخول على يعقوب[1] والسَّلامُ عليه في العشرين من ذي الحِجَّة.

174/2 وفي هذا النهار حُمِلَتْ هديةُ السُّلْطان إلى خزانته، وكان انفصالُهُ من مَرَّاكُش عاشر المحرَّم سنةَ ثمانٍ وثمانين وخمس مئة، ووصل إلى الإسكندرية في الثَّامن والعشرين من جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وثمانين.

فصــل

لم يَحْصُل من جهة سُلْطان الغَرْب ما التُمِسَ منه من النَّجْدة، وبلغني أَنَّه عَزَّ عليهم كونه لم يُخَاطب بأمير المؤمنين على جاري عادتهم. وقد كان سُلْطاناً عادلاً، مظهراً للشَّريعة غازياً، وتوفي سنة خمسٍ وتسعين، وفيه يقول شاعره:

أَهْلٌ لأن يُسْعى إليه ويُرْتَجىٰ ... ويُزَار مِنْ أقصىٰ البلادِ على الوَجَا[2]
مَلِكٌ غدا بالمَكْرُمات مُقَلَّداً ... وموشَّحاً ومختَّماً ومُتَوَّجا
عُمِرَتْ مقاماتُ الملوكِ بذكره ... وَتَعَطَّرَتْ منه الرِّياح تَأَرُّجا
وَجَدَ الوجودَ وقد دَجَا فأضاءه ... ورآه في الكُرَبِ العِظامِ فَفَرَّجا

وفيه يقول ابنُ عَمِّه سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، أبو الربيع من قصيدةٍ أَوَّلُها:

هَبَّتْ بِنَصْرِكُمُ الرِّياحُ الأَرْبَعُ ... وَجَرَتْ بِسَعْدكُمُ النُّجومُ الطُّلَّعُ

---

(1) انظر حاشيتنا رقم 1 ص 190 من هذا الجزء.
(2) الوجا: الحفا. «اللسان» (وجا).

إن قيلَ مَنْ خَيْرُ الخلائف كلِّها فإليك يا يعقوب تومي الإصْبَعُ
إن كنتَ تتلو السَّابقين فإنَّما أنتَ المُقَدَّمُ والخلائِقُ تُبَّعُ

وقد مدحه أيضاً شمس الدين ابن منقذ[1] هذا المُرْسَلُ إليه من جهة السُّلْطان بقصيدةٍ، منها:

سأشكر بحراً ذا عُبابٍ قَطَعْتُهُ إلى بَحرِ جُوْدٍ ما لنعماه ساحِلُ
إلى مَعْدِنِ التَّقْوىٰ إلى كَعْبَةِ الهدى إلى مَنْ سَمَتْ بالذِّكْرِ منه الأوائِلُ
إليك أميرَ المُسْلمين ولم تَزَلْ إلى بابك المأمول تُزْجى الرَّواحِلُ
قطعتُ إليك البَرَّ والبحر موقناً بأَنَّ نَداك الغَمْرَ بالنُّجْحِ كافِلُ
فما راعني من وَجْبَةِ البَرِّ رائعٌ ولا هالني من زاخر البحر هائِلُ
وَمَنْ كان غاياتُ المعالي طِلابَهُ يهونُ عليه كلُّ أمرٍ يحاوِلُ
رجوتُ بقَصْدِيك العُلا فَبَلَغْتُها وأدنى عطاياكَ العُلا والفَضائِلُ
فلا زِلْتَ للعلياء والجُود ثانياً تُبَلِّغُكَ الأَيَّامُ ما أنتَ آمِلُ

وابنُ منقذ هذا من أهل بيتٍ وأدبٍ[2] وشِعْر، وله على ما وجدتُ بخطِّ بعض الثِّقاتِ:

تَصَرَّمَ عُمْري في التَّغرُّب والنَّوىٰ وأَفْنَىٰ ارتحالي طارِفي وتِلادي
وَأَخْلَقَتِ الأيامُ بُرْدَ شبيبتي وأَصْلَدَ[3] من وَقْعِ الخُطُوب زِنادِي
وأشْغَلَني الحِرْصُ المُوَكَّلُ في الوَرَىٰ عن العَمَلِ المُنْجي ليوم مَعَادِي
فلا راحة الأُخْرىٰ تَيَقَّنْتُ نَيْلَها ولا أنا في الدُّنيا بَلَغْتُ مُرَادِي

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣ من هذا الجزء.
(٢) في (ك): بيت أدب.
(٣) أصلد الزناد: صوت ولم يور. «معجم متن اللغة»: ٣/ ٤٨٠.

وله على لسان بعض غِلْمانه:

وَرُبَّ قميصٍ دعاني إلى احـ ـتمالِ الرَّثاثةِ منه العَدَمْ
أُقطِّبُ وَجْهي له كلَّما تهلَّلَ لي ضاحكاً وابْتَسَمْ

ومن كتابٍ فاضلي إلى بعض إخوانه: وأما الأخبار الغربية وإخلال جانبها، وضعْف مطلوبها وطالبها، فإذا انجرَّتِ الظَّلماءُ إلى الغَرْبِ فَبِحَقٍّ، كما أَنَّ الأنوار النَّاصرية قد تناصرت في الشَّرْق، فالله يُسْعدُ بلاد الدُّنيا بالانخراط في سِلْك مُلْكه، ويُمكِّن من مؤمنها حُكْمَ عَدْله، ومن كافرها سَيْفَ فَتْكِهِ، واللّهُ يجزيها الخير عن نِيَّتها في الخير، ويكتبُ سلامَةَ عَزْمها في طرق النَّفْعِ أَتَمَّه السَّيْر.

ثم إني وقفتُ على كتابٍ فاضلي للسُّلْطان يُشْعر بأن الرِّسالة المغربية لم تكن برأي الفاضل، ولا هو مختار لها، صورته:

المملوك يقبِّلُ الأرض بالمقام العالي المولوي الملكي النَّاصري، جعل الله له في الدُّنيا والآخرة المقام العالي، وأبقى دولته التي هي الأيام بالحقيقة والأيام قَبْلَها هي اللَّيالي، ويُنْهي أَنَّ الظاهر بأن المملوك عند المولىٰ ليس من أهل الاتِّهام، وأنَّ له ولله الحمد آثاراً في دولته تشهد بها الأيام، وآثار السيوف طاحت وبقيت آثار الأقلام.

والرِّسالة المغربية ليس المملوك مشيراً بتركها، ولا كارهاً لسفر رسولها، ولا مستبعداً مصلحة قريبة الأمر منها، لكن على وجهها، ١٧٥/٢
وقد نجزت الهَدِيَّةِ المغربية على ما أُمر به، وكُتِبَ الكتاب على ما مُثِّل، وفُخِّم الخطابُ والوصف فوق العادة، وبما لا يمكن مخاطبة مخلوق بأكثر منه.

وعند وصول الأمير نجم الدين من المُخَيَّم المنصور، فاوضه المملوك في أنَّه لا يمكن إلا التعريض لا التَّصريح بما وقع له أنَّه لا تَنْجَحُ الحاجةُ إلاَّ به من لفظة أمير المؤمنين، وأنَّ الذين أفاضوا في هذا الحديث، وأشاروا به ما قالوه نقلاً، ولا أحاطوا به قياساً، ولا عرفوا مكاتبة المصريين قديماً، وآخر ما كُتِبَ في أيام الصَّالح بن رُزِّيك، فخوطب فيه أكبر أولاد عبد المؤمن وولي عهده: بالأمير الأصيل النِّجار، الجسيم الفَخَار، وعادت الأجوبة إلى ابن رُزِّيك ـ وهو وزير سُلْطان مِصْر الذي في أتباع مولانا اليوم مئة مثله ـ مترجمةً بمعظم أمره، وملتزم شكره.

هذا، والصَّالح يتوقع أن يأخذ ابن عبد المؤمن البلاد من يديه، ما هو أن يهرب مملوكان طريدان منا، فيستوليا على أطراف بلاده، ويصل المشار إليه بالأمر من مَرَّاكُش إلى القَيْروان في ستة أشهر، فيلقاهم، فَيُكْسَر مرة، ويتماسك أُخرى.

وأعلم الأمير نجم الدين بذلك، فأمسك مقدار عشرة أيام، ثم أنفذ الأمير المذكور إليه على يد ابن الجليس بأَنَّ الهَدية أُشير عليه بأن لا يستصحبها، وإن استصحبها تكون هديَّةً برسم من حواليه، وأن الكتاب لا يأخذه إلا بتصريح أمير المؤمنين، وأن السُّلْطان ـ عَزَّ نَصْرُه ـ رسم له ذلك، والملك العادل ـ دامت قدرته ـ بأن لا يسير إلا به، وأنه إذا لقي القوم خاطبهم بهذه التحية عن السلطان ـ أبقاه الله ـ من لسانه.

فأجابه المملوك: بأَنَّ الخطاب يكفي، وطريق جحدنا له ممكن، والكتابةُ حُجَّة تقيد اللِّسان عن الإنكار، ومتى قرئت على

منبرٍ من منابر الغرب، جعلنا خالعين في مكان الإجماع، مبايعين من لا ينصره الله ولا شوكة فيه، ولا يحل اتِّباعه، مُرْخصين الغالي، منحطين عن [العالي][1]، شاقِّين عصا المُسْلمين، مُفَرِّقين كلمة المؤمنين، مطيعين لمن لا تحل طاعته، متقلِّدين لمن لا تصحُّ ولايته، فيفسد عقود الإسلام، وينفتح بابٌ تعجز موارده عن الإصدار، بل تمضي وتستشف الأمور وتكشف الأحوال.

فإن رأيت للقوم شوكةً ولنا زُبْدَة فَعِدْهُمْ بهذه المُخَاطبة، واجعل كل ما نأخذه ثمناً للوعد بها خاصَّة، فامتنع، وقال: أنا أقضي أشغالي، وأتوجَّه إلى الإسكندرية، وأنتظر جوابَ السُّلْطان ـ عَزَّ نَصْرُه ـ وما يفوت وقت، وإلى أن أُنَجِّزَ أمر المراكب[2]، وأرتاد الركاب.

فسيَّر المملوك النُّسْخة، فإن وافقت، فينعم المولى على المملوك بترجمةٍ يلصقها على ما كتبه، ويأمر نجم الدين بتسلُّم الكتاب، على أَنَّ ابن الجليس حَدَّثه عنه أنه ممتنعٌ من السفر إلا بالمكاتبة بها، فأما الذي يترجم به المولى ـ عَزَّ نَصْره ـ فيكون مثل الذي يُدْعىٰ به على المنبر لمولانا، وهو: الفقير إلى الله تعالى يوسف بن أيوب، أدام الله غِنَىٰ مولانا بالفَقْر إلى رَبِّه.

وإذا كَتَبَ الصَّالحُ بن رُزِّيك إليهم: من السَّيِّد الأَجَلِّ الملك الصَّالح، قَبُحَ أن يكتب إليه مولانا ـ أبقاه الله ـ: الخادم، وهذا

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): المركب.

مبلغ رأي المملوك، والمؤمن لا يذل نفسه، وقاسم الأرزاق يوصلها وإنْ رَغِمَ مَنْ جَرَتْ على يده، وإن كان مولانا أَعَزَّ الله نَصْرَه، يقول: أنت غافلٌ وغائب، وما تعرف ما الإسلام فيه، فلو حَضَرْتَ وعَرَفْتَ ما شقَّقْتَ الحديث، فجواب ما نكتب بعد سنتين، فما يتخلَّىٰ الله عَنَّا، ولا تستمرُّ هذه الشِّدَّة، ولا نسيء الظَّنَّ بالله.

وإذا كانت لنا إنْ شاء الله أَخَذْتَ جالية[1] من نطلب الآن مواساته، وإذا كان المملوك مُسْتَجْهَلاً وغير مُسْتَنْصَح، وللضرورة حكمها، والأحوال ـ المملوك ـ غائب عنها، فالمفهوم من الأمر للمملوك أن يتولى من المكاتبة ترتيب المقاصد، وتحرير الألفاظ، وتنضيد الخبر عَمَّا أجراه الله تعالى على يد مولانا ـ عَزَّ نَصْرُه ـ والتَّأني للمطلوب، فقد فعل هذا كله في النُّسْخة، وبقيت اللَّفظة التي ليست كتابة المملوك لها شرطاً فيها، والمملوك وعقبه مستجيرون بالله تعالى، ثم بالسُّلْطان ـ عَزَّ نصره ـ من تعريضهم لكدر الحياة، وتوقع الخوف، ومُعَاداة من لا يخفى عنه خبر، ولا تقال به عثرة.

ويكفي أَنَّ المولى بخطِّه في كتابه إلى المملوك، وفيما هو بخط حضرة سَيِّدنا الأجل عماد الدين الكاتب[2] الأصفهاني ـ حرسه الله ـ لمَّا وُصي بأن لا يناظر في الخطاب ما صُرِّح باللَّفظة فهي إما تَقِيَّة، فالمملوك أَوْلى بها، وإما استهانةً، فنفس الملك لا تُقَاسُ بنفس المملوك.

---

(١) الجالية: هي الجزية. انظر «اللسان» (جلا).

(٢) في (ك): وفيما هو بخط العماد.

فإنْ كان لا بُدَّ، فالنُّسْخة بين يديه، والمقصود فيها من زيادة هذه اللفظة ما يحتاج إلى تعليم، والكُتَّاب الذين يستقلُّون بكتابة النُّسْخة معدومون، وقد ناب [المملوك][1] عنهم، والكُتَّاب الذين يستقلُّون بالتبييض موجودون، فينوبون عن المملوك في التبييض، وإلا فكيف يُسَيَّرُ رسولٌ[2] بكتاب من مِصْر بلا خَطِّ سُلْطان، وبغير حضرته كُتِبَ، ولا بهدِيَّة سار، وبمحضرٍ من البغاددة والمغاربة يعلمون أَنَّ الكتاب كُتِبَ بمصر، ويشهدون بما لم يَرَوْه وما لم يقرؤوه من الخطاب.

وإذا وَصَلَ من المولى ـ أدام الله أيامه ـ كتابٌ مختومٌ، وسُيِّر ولم يعلم ما فيه انقطع فضولٌ كثير، وخمدت أراجيفُ شنيعةٌ، ولا يعتقد المولى أَنَّ المملوك يُعَظِّم القصص، فما للألسنة والأعين ١٧٦/٢
شغل إلا السَّلاطين وأفعالهم وأقوالهم، ولا للخَلْق خوض إلا في أوامرهم وأحوالهم.

ولو عَلِمَ المملوك أن هذا الذي استعفى منه يضره بحيث ينفع المولى ـ أبقاه الله ـ لهان عليه، ولكنَّه مَضَرَّةٌ بغير منفعة، وتَعَرُّضٌ لما تُذَمُّ عاقبته، أو يبقى على الخوف منه، وذلك مما لا يقتضيه حُسْنُ عهد المولى، وفَضْلُ رأفته. فمقصود المولى ـ أبقاه الله ـ تحصيل تبييضها بين يديه، وربَّما حصل استتاره، وأُمنت المكاره فيه، وغَمُضَتِ العيون عنه، وشَحَّتِ الأيام عليه، طالع المملوك بذلك.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): وإلا فكيف يسيرون رسولاً.

فـصـل

وللقاضي الفاضل ـ رحمه الله ـ من كتبٍ أُخَر يشرح لنا بعض ما تقدَّم، وما لم نذكره من السِّيَر[(١)].

منها قوله: كتابٌ بغداد كتابٌ بارد غَثٌّ، جامد، ما فيه مقصودٌ لقاصد، ولا صِلَةٌ لعائد[(٢)]، ونحن نطلب الذهب الحار فنضرِبُ في حديدٍ بارد.

ومنها فيما خُرِّب من البلاد الفرنجية المغنومة: خَرَابُ البلادِ في هذا الوقت الضَّيِّق لا شُبْهَة في تقويته لنفس العَدُوِّ، وإضعافه لأَنْفُسِ المسلمين، وكل من يسمعه يَفْجَؤُه من بديهة[(٣)] اليأس ما يقطع رجاءه، والمولى يعلم أن العدو أخذها من المِصْريين في تمام ستين سنة، وحفظوها بالانحصار مرة، وبالهُدْنة أخرى، وبالقِتال مَرَّات، وبولاة سُوءٍ لو كان فيهم خيرٌ لما عَجَزوا عنها.

ونحن قد حملنا عن العدو المؤنة بتخريب البلاد التي كان العدو يريد أن يحاصرها ويُنازلها، ويَنْصِبَ المنجنيق* والبُرْج* عليها، ويخاف النجدة أن تَصِلَها، وقوَّةَ الإسلام أن تثوب إليها، ويتوقع أن يبدهه المصافُّ قبل النُّزول عليها، فَعَرَّفْناه أنه قادمٌ على من لا سلاحَ له[(٤)] إلا أن يُلْقي السلاح، ولا حِفْظَ للبلاد إلا أن

---

(١) في (ك): يشرح لنا بعض ما تقدم من السير.
(٢) في الأصل: ولا صلة ولا عائد، والمثبت من (ك).
(٣) البديهة: أول ما يفاجأ به. «معجم متن اللغة»: ١/٢٥٦.
(٤) في الأصل: معه، والمثبت من (ك).

نخرِّبها، فقد نَكَلْنَا عن اللِّقاء، وفَرَرْنا قبل المواجهة، وزدنا زيادةً عجيبة؛ وهو أن المنهزمَ ينهزِمُ بالرِّجال، ونحن ننهزم بالبلاد.

ثم قال: وثبوت مولانا على عكا هو حراستُها وحِفظُها، وقُوَّةُ نَفْسِ مَنْ بها، وأهون الأعداء ملك الألمان، لا يشك مولانا أن جَمْعَه لا يفي بعشر قَرَاقر من ستين قُرْقُورة[1] وصَلَتْ إلى الفرنج نجدةً من بلاد المجوس في السَّنة الماضية، وإنما الزائد سُمْعَة ملكٍ وقد هلك، ورأسٍ وقد قُطِعَ، وقائد جيش وقد كبا الحمار.

ومنها عند ورودِ كتاب السُّلْطان إليه يبشِّر بعافيته من مَرَضٍ في شهر رمضان: أسفرت بشارته عن أنَّ المولى أتاه الفرج، وغَذَّاه الفَرُّوج، واستقلَّ بحمد الله وصَحَّ، وقالتِ العافيةُ للمرضِ تَنَحَّ.

وكان ما في كتابيه الأولين من تعريق النون من الحمد لله رَبِّ العالمين فيه أَثَرُ ضعفٍ ينتقده صيارفة الخطوط.

فأما هذا الكتاب المبارك فقد صَحَّت فيه التعريقة وقويت اليد، وطلعت النون أَهَمَّ إلينا من مطلع الهلال الفطري الذي يشبهه الشُّعراءُ بالنون، ومنهم من قال:

ولاحَ هلالٌ مثل نونٍ أجادها ... بذوب النُّضَار الكاتبُ ابنُ هلالِ

وهذا من أنواع الفراغ الذي ما أوجبه للمملوك إلا مَسَرَّتُهُ بعافية المولى، أدامها الله، وأدام المَسَرَّة بها له وللخلق، فما يشبِّهها

(١) في الأصل: قرقرة، والمثبت من (ك). والقُرْقُور: ضرب من السفن، وقيل: هي السفينة العظيمة أو الطويلة، وجمعه: قراقير، وهي معربة. انظر «اللسان» (قرر)، و«شفاء الغليل»: ص ٢١١.

المملوك إلا بنور الشمس الذي له في كلِّ مكانٍ أَثَر، ولكل عينٍ به نَظَر، فلا أخلىٰ الله الدُّنيا من آثاره، والعيونَ من أنواره.

وبعد عافية المولى قد انتظر الإسلامُ عافيته به من المرض الذي هو العدو، فيجمع الله تعالى للمولى وللخلق بين العافيتين، ويستخدم شكرهم للنعمتين، فقد جلا الله سبحانه بهذا المرض سيفَ الله الذي هو المولى، وما صَقَلَه إلا لتصدأ به قلوبُ أعدائه.

ومن فوائد هذا المرض أن المولى يستأنف[1] العمر جديداً، [والعَزْمَ حديداً][2]، ويستقبل التدبير بنشاط قد حَضَر، وأعضاءٍ قد فارقها ما كان سببُ الضَّجَر.

ومنها: وأما تَبَرُّمُ مولانا بكثرة المطالبات منه فلا أخلى الله مولانا من القُدْرة عليها، وهنيئاً له أَنَّ الله سبحانه يطالبه بحفظ دينه، والنبي ﷺ يطالبه بحُسْنِ الخلافة في أُمَّته، والسَّلَفُ الصَّالح من هذه الأُمة يطالبونه بمباشرة ما لو حضروه لما زادوا على ما يفعله المولى، وأهلُ الحرب يطالبونه بإزاحة عِلَّتهم من الذهب والفِضَّة والحديد، وبقية الأُمَّة تطالبه بالأمن في سِرْبهم[3]، والاستقامة في كَسْبهم، والخُفارة في سُبُلهم، ونَفْسُهُ الكريمةُ تطالبه بالجَنَّة، بَلَّغه الله إليها، وبمعالي الأمور، أعانه الله عليها.

وإذا عُدِّد ما يُرَادُ منه فلا بُدَّ أن يُعَدَّد ما يُسِّر عليه، فهل عَدِمَ

---

(١) في (ك): استأنف.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) السِّرْب: النفس. «اللسان» (سرب).

من الله تعالى قط نُصْرَةً؟ فهل استمرَّت به قَطُّ عُسْرة؟ فهل تمَّت لعدو قط عليه كَرَّة؟ هل بات قَطُّ إلا راجياً؟ هل أصبح إلا راضياً؟.

ألا يعلم أنَّ الله تعالى ذَخَرَ[1] له من الصَّالحات ما لم يَرَ كُفُوءاً له غَيْرَه؟ ألا يُحصي مَنْ سَبَقَه من الملوك إلى الدُّنيا، فعَجزوا عما سبق إليه المولى من الآخرة؟ هل يعرف رايةً يُقَاتَلُ تحتها في سبيلِ الله إلا رايته؟

هل يعرف مالاً يُنفق في سبيل الله إلا ماله؟ هل يُسْمَعُ في مجلسه إلا كتابُ الله يُتْلى، وسُنَّةُ رسول الله ﷺ تقرأ؟ أو يُرَى به إلا الخيل تُعْرَض والسِّلاح يُقَلَّب، لا أقداح الشَّاربين، ولا أصوات المغنِّين، ولا رقائع الكذَّابين، ولا سِعَايات النَّمَّامين؟ ١٧٧/٢

وبحقٍّ إذا خَطَّ مولانا ـ أبقاه الله ـ على تشبيه المملوك مجلس ابن عبد المؤمن بالمسجد، فإنَّ مجلسه أولى بأن يكون مسجداً من كلِّ مجلس، ولا غَرْوَ أن تُعْتَرَفَ المدائح كما تُعْتَرَفُ الضَّوالُّ، وأن تُتَّبَعَ كما تُتَّبعُ الطَّرائد ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُه﴾[2].

لعلَّ المولى ـ عَزَّ نَصْرُه ـ قد نفَّذ إلى جانب الشمال جماعةً، فإنَّ صاحب أنطاكية ـ خَذَلَه الله ـ عاث وشَعَّثَ، وخلا الجبانُ بأرضٍ فَطَلَبَ الطَّعْن وحدَه[3].

---

(١) في (ك): ذكر.

(٢) سورة الحج، الآية ٤٠.

(٣)اقتباس من بيت المتنبي:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلَبَ الطَّعْنَ وحدَه والنِّزالا

وهو في «ديوانه» ٣/ ٢٦٢.

لو قَرَنَ أهلُ عكا ـ وكذلك يفعلون بمشيئة [الله][1] ـ ما هم فيه من جهادٍ بنيَّة احتسابٍ لما سَبَقَهم إلى الجَنَّة سابق، ولا لَحِقَهم بعدهم لاحق، فليهنِ مولانا توفُّر ثوابه على كلِّ حال، فَلَه ثوابُ نَفْسه، وثوابُ مَنْ جاهد بسببه.

فلا أعدَمَ الله الخَلْقَ واحداً استقام به جميعُهُمْ، ومالكاً قام برعاياهم فأقعد ما يروعهم، وشفيقاً يَقيهم بنفسه وبولده وبإخوته، ويتقدَّم إلى الأهوال أمام مماليكه وأمرائِهِ وعسكره وحَمْلته، كأنَّه منهم مكان بسم الله من الكتاب، ومكان الإمام من المحراب، ومكان النَّواصي من وجوه الصَّواهل، ومكان الأَسِنَّةِ من وجوه الذَّوابل، خير ما كان إذا لم تظنَّ نَفْسٌ بنفسٍ خيراً، وأَغْيَرُ ما كان على محارم الله إذا كانت أنفس الملوك غُيْرَ غيرىٰ.

وقد اطمأنَّت القلوبُ إلى أنَّ الله سبحانه قد كَشَفَ الغُمَّة وأفرجها[2]، وأطفأ نار الحرب التي كان العدو أجَّجها، فما يتوقع من كتب مولانا ـ أبقاه الله ـ إلا أنَّ الإسلام قد رضي بما يسخط الكفر، ولا يُسْمِعُ من قَصَصه الذي هو أحسن القَصَص إلا أن يقول ما قاله سَمِيُّهُ على نبيِّنا وعليه السَّلام ﴿قُضِيَ الأَمْرُ﴾[3].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): وفرجها.

(٣) في قوله تعالى حاكياً عن يوسف عليه السلام: ﴿يا صاحبي السِّجْن أما أحدُكما فيسقي رَبَّه خمراً، وأما الآخَرُ فَيُصْلَبُ فتأكُلُ الطَّيْرُ من رأسه قُضِيَ الأمر الذي فيه تَسْتَفْتيان﴾ سورة يوسف، الآية ٤١.

فأما ملك الألمان فقد سَلَبه الله ما أضيف إليه كما كان المملوك رأى في منامه على كوكب*، وأعلَمَ به مولانا رسالةً فقال أبقاه الله: قد قبلتُ البُشرىٰ.

وصورة الرؤيا أَنَّ رسولاً جاء من السلطان ـ عَزَّ نصره ـ إلى المملوك، فقال: اكتب كتاباً ببشارة ملك الألمان. فقلتُ: حتى أفكر، فقال الرسول: اكتب بأنَّ الله قد سَلَبَ ملك الألمان ما أضيف إليه، والمشهور أنَّ ملك الألمان خرج في مئتي ألف، وأنه الآن في دون خمسة آلاف.

ومنها: ورَدَ كتابٌ من المهدية إلى الإسكندرية ثاني رجب بعد ستةَ عَشَرَ يوماً من المهدية، وذكر من فيه أخباراً، وقد طولع بها، ولما تكرَّرت عُلِمَتْ صِحَّتُها؛ وهو أن عساكر الغرب الإسلامية نازلةٌ على طُلَيْطُلَة، وقد افتتحت عِدَّة حصون كافرة، وأَنَّ يوزبا شوهد بالمهدية مُوثَقاً بالحديد، وقد نفَّذه قَرَاقوش[1] إلى صاحب تونس ليسيِّره إلى بلاد الأندلس موضع نزول ابن عبد المؤمن بالعساكر.

وأن أهل صِقِلِّية من المسلمين إلى الآن في حَرْبٍ قائمة بينهم وبين فرنجها، ومعتصمون بالجبال في أعمالها، وأن عسكر الفرنج قد خَرَجَ لإنجاد أصحابهم بصِقِلِّية والمسلمون بها على تَوَقُّعٍ ورِقْبَةٍ، وحذارٍ وخِيْفَةٍ، نَصَرَ الله كلمة التوحيد، وأهلك كُلَّ جبارٍ عنيد.

وأنَّ مراكب فيها أزواد للجنويين دخلَتِ المهدية بأمانٍ من

---

(١) هو غلام تقي الدين انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٦٧ من الجزء الثاني.

صاحبها، فباعت بها، وتزوَّدت منها، وأنها قاصدة الشَّام خَيَّبَ الله قَصْدَها.

ومنها: وقد سُيِّر الحِملُ الآن من المجلس العزيزي بحضور فلانٍ وفلان، وكلُّهم مجتهدٌ في الخدمة، ولما عَرَفَ المملوك أنهم لا يطرقون المعنى الذي يطرقه المملوك من تنبيه مولانا على أن يقتصد في الإنفاق، ويُقَدِّر الإخراج للعِلْم أَنَّ هذا الحجر قد رُمينا بعدمه، وسمع بخبر المولى فانهزم فراراً من سَطْوة كَرَمه.

والبلاد ليست الآن كعهدها في انقطاع أسفارها، ووقوف معايشها، وكساد أسواقها، وانكسار تجارها، ولو لم تكن الدَّراهم سِلْعة لا تخرج من مِصْر كما يخرج الدِّينار لما وجدت كما لا يوجد الدينار، وإن تصريف الدَّراهم بعد أن تصير مستخرجاً بِذَهَبٍ شغل شاغل، واستخراج ثانٍ غير الأول، وعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمرٍ من عنده[1] يحدث للإسلام نَصْراً عزيزاً، وللكفر خِذْلاناً سريعاً وجيزاً.

مولانا ـ خلَّد الله مُلْكَه ـ من وراء ضرورةٍ لا تخفى عن المملوك، والمماليكُ من وراء ضرورةٍ لا تخفى عن المولى، وصدرُ المولى ـ بحمد الله ـ واسع، وفَرَجُ الله منه قريب، وهذه الضَّائقة لما يريده الله تعالى من حُسْنِ موقع الفَرَجِ بعدها.

---

(١) فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿فعسىٰ الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده﴾ سورة المائدة، الآية ٥٢.

فقد أنفق المولى مال مِصر في فَتْحِ الشَّام، وأنفق مالَ الشَّام في فتح الجزيرة، وأنفق مال الجميع في فتح السَّاحل، وينفق إن شاء الله تعالى مالَ القُسْطَنْطينية في فتح رُومِيَة[1] والملوك كلُّهم وكلاؤه وأمناؤه على خزائنهم إلى أن يُسَلِّموها إليه، فيشكره الله على ما أخرجه في سبيل الله منها، ويمقتهم على ما كنزوه من ذهبها وفِضَّتها، فلا يكن في صَدْر المولى حَرَجٌ ولا في خُلُقه، فإنَّ الله سبحانه لا يضيِّق رِزْقاً على يده الكريمة لاسيِّما وقد أجرى عليها أرزاق خَلْقه.

ومنها: ينهي وصول رسول ملك الرُّوم بما في صحبته من هَدِيَّةٍ، وبما علىٰ لسانه من رسالة، وبما على يده من كتاب. وحضر بين يدي الملك العادل، وجرىٰ من المفاوضة ما زُبْدَتُه امتنان الملك بكونه لم يجب رسول ملك الألمان وصاحب صِقِلِّية وغيرهم من جيوش الفرنج إلى الموافقة على حَرْب السُّلْطان، وإطلاق طريقهم، وامتنعَ وسَدَّ الدَّرْبَنْدات*، وحَفِظَ عليهم الطُّرق، ووصَّىٰ أرباب الحصون بالتَّيقُّظِ لهم، والمَنْعِ دونهم، وجعل عُذْره لملتمسي ١٧٨/٢
موافقته أنَّ البلاد في هذه السنة غالية السِّعْر، والمصلحة تقتضي أن لا تكون الحركة إلا بقوَّةٍ، وعلىٰ تَمَكُّنٍ من المِيْرَة، وتؤخر الحركة إلى السنة الأخرى.

---

(١) إشارة إلى حديث عبد الله بن عمرو أنَّ النبي ﷺ سُئل: أي المدينتين تفتح أولاً: قسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً، يعني قسطنطينية. وقد أخرجه أحمد في «المسند» (٦٦٤٥).

ثم قال: وهذا ملك الرُّومِ خائفٌ من الفرنج على بلده، مُدَافِعٌ عن نفسه، إن تَمَّ له الدفع ادَّعى أنه بسببنا، وإن لم يتمَّ ادَّعى أنَّه غُلِبَ[1] عن مقصده ومقصدنا، وقد جعل ما أورده من أن تقام البطركة في قُمامة* من قِبَلِه، وأن تُنقَلَ من ولاية الفرنج إلى أن يوليها الطَّاغية من أهل عمله، سبباً يبسط به عُذْره بزعمه عند أهل جِنْسه، ويدفع به عن نفسه، لا سيما مع إقامة الخُطْبة الإسلامية ونَقْلِهِ المِنْبر، وفُسْحته في الصَّلاة، وإعزاز الكلمة الإسلامية، أَرْغَمَ اللَّهُ بها أنفه، وعَجَّلَ بسيفها حَتْفَه، ومولانا ـ أبقاه الله ـ يَتَثَبَّتُ في الأجوبة، ولا يجيبُ إلى ما على الإسلامِ فيه غَضَاضة[2]، ولا إلى ما للكُفر فيه قُوَّة ﴿إنْ يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فلا غالِبَ لكم﴾[3].

ومن كتابٍ آخر: وصل إلى المملوك كتابٌ يذكر وصول رسل الملك العتيق[4] من قُبْرُسَ إليه يخبره بعصيانه على ملك إنكلتير، ومكاشفته بالعداوة والحَرْب، وأنَّه قد كاتَبَ السُّلْطان ـ أَعَزَّ الله نصره ـ يبذل له من نَفسه العبودية والطَّاعة والمظاهرة على ملك إنكلتير، والأخبارُ متواترةٌ بأَنَّ العتيق أحرق موانىء قُبْرُس، ووعَّرها، وقَطَعَ المِيْرَة عن السَّاحل.

---

(١) في الأصل: غاب، والمثبت من (ك).

(٢) الغضاضة: الذلة والمنقصة. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٣٠١.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٦٠.

(٤) هو ملك بيت المقدس جاي لوزيجنان، انظره في كشاف الأعلام.

ولا شُبْهةَ أَنَّ مولانا يتقبَّل من المذكور، ويقوي نفسَه على هذه المُبَاينة، فإنَّ في تخاذلهم نُصْرة الإسلام، وشغل بعضهم ببعضٍ، وافتراق كلمتهم المجتمعة وقَطْعاً للميرة عن الشَّام، وأَمْناً لجانبٍ كبير من جوانب البحر.

وهذا الملك العتيق قد صار لمولانا صديقاً، وما سمِّي العتيق إلا لأنه صار لمولانا عتيقاً، ولا اعتبار بحديثنا مع صاحب القُسْطَنْطينية في أَنَّا نُنجِدُه على قُبْرُس، فإنَّا إنما وَعَدْناه بالنَّجْدة عليها لما كانت بيد عدونا.

ووالله ما أفلح ملك الرُّوم قَطُّ ولا نَفَعَ إن يكن صديقاً، ولا ضَرَّ إن يكن عدواً، وكذلك صاحب الغَرْب ﴿والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس﴾(١).

وقف المملوك على كتاب بغداد، والمقصود الذي نُدِبَ لأجله الرَّسول ما أَلَمَّ بذكره في الكتاب؛ وهي المعونة على الجهاد، وعرف استدعاء المساعدة على تَكْريت*، ولو كان لنا فَرَاغٌ لها لما كان النظر الصحيح يقتضيها، لأنها مهما بقيت في يد مَنْ هو الآن بها، فهي في يد المولى ـ أبقاه الله تعالى ـ ومهما خرجت عنه خرجت عنها، وما نقول أنه ليس لنا تطلُّعٌ إلى مِثْلها، لاسيما وهي طريقٌ إلى غيرها، وقد فتح الله للمولى ببلادٍ هي مع سَعَتها ضيِّقة عن زُبونها.

---

(١) سورة المائدة، الآية ٦٧.

فللمولى أولادٌ كَثَّرَ الله منهم، ما منهم إلا من هو متطلِّع إلى طَرَف، وله أهل ما منهم إلا من هو متطلع إلى مملكة، وأمراء ما منهم إلا من هو متوقِّعٌ زيادة، ومماليك ما منهم إلا من يريد أن يوفي الحق عليه في الخِدْمة.

وَمَنْ سَيَّره المولى لهذا الأمر عَدِمَ من أصحابه منفعةً فيما هو أهم مما سار فيه، وما يليق أن يُسَيَّرَ إلا مَنْ يريهم ما يعجزون عنه، ويكون عنواناً لما لعلَّهم في شكٍّ منه، من قوة المولى على ما يريد وإمساكه مع القُدْرة، ويرى المملوك أنَّ مطلبهم نَقْد، ومطلبنا منهم وَعْد، وإن كان ولا بُدَّ [من][1] تسيير، فلا يُسَيَّر إلا من يقضي الشُّغْل، ويستزيد الجُعْل.

ما تضمَّنه الكتاب البغدادي من عَزْمِ الخليفة على الحَجِّ في هذه السَّنة المملوك يستبعده، بالإضافة إلى الوقت وإلى عادة أهله، آخرهم حَجّاً الرَّشيد ـ رحمه الله ـ ويستقربه بالإضافة إلى خُلُقه، وإن سار صَلُحَ أن يُهْتَمَّ بما أشار إليه ابن الشَّهْرُزُوري[2]، ولا شكَّ أنه قد أُنسي الرِّسالة التي توجَّه فيها، فإنَّا بعثناه يلتمسُ لنا نفقة فالتمسها مِنَّا.

[فصــل][3]

وكتب الفاضلُ إلى السُّلْطان:

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٠ من الجزء الثالث.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

ينهي أنه عُرف تسحُّبُ رجلٍ وصبي من القَصْر الغَرْبي، وأن المُؤَيَّد ـ يعني ابنَ السُّلْطان ـ وكان ينوب عن أخيه العزيز بمصر أحضر نائب الطَّواشي* بهاء الدين، واستعلَم أمرهما، فذكر أنَّ هَرَبَهما صحيح، وأن أحدهما، وهو الصَّبي من جُمْلة ثلاثةٍ وثلاثين ولداً كانوا أطفالاً وقت الحوطة عليهم بالقصر الغَرْبي، وقد بلغ هذا وكَبِرَ، وزاحم عشرين سنة، والآخر كان معتقلاً في الإيوان، فحدثَتْ له خنازير[1] في حَلْقه، وأشفى على الهلاك، فأمر الطواشي بنقله إلى القصر الغَرْبي [من الإيوان][2]، وفُكَّ حديدُه، وحُمِلَ ليتداوى في أوائل سنة ثلاث وثمانين، واستمرَّ مَرَضُه، واشتدَّ ضَعْفُه، وبقي في القَصْر الغربي إلى أن عَلِمَ أنَّه تسحَّبَ.

فسأله المملوك عن المستحفظ للقصر الغربي، فذكر أُستاذين كان الطَّواشي أقامهما، ورضي أمانتهما، وأنهما يذكران أنَّ هذا القصر الغربي قد خَرِبَ ودَثَرَ، وكَثُرَتْ التسليقات عليه، ويجاوره إِصطبلان فيهما جماعة من الخَرْبَنْدِيَّة* والمُفسدين، والتطرُّقُ مستمرٌّ من هذه الإصطبلات إلى مَنْ في القَصْر من النِّساء، وأنهما كانا أنهيا مرةً بعد أخرى أَنَّ المكان غيرُ حريز، والاعتقال فيه غير وثيق.

قال: وجمعتُ أصحابَ الأرباع وجيرة القصر، ورجوتُ بترك الشَّناعة الظَّفَرَ بهما، والبحثُ واقعٌ عنهما.

وكتب الفاضلُ عن السُّلْطان إلى العادل وهو بمصر:

---

(١) الخنازير: قروح صلبة تكون في الرقبة. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٣٤٢.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

انتهى إلينا أَنَّ بالدِّيار المِصْرية وبالحَضْرَة العَلِيَّة، جماعةً من الفقهاء قد اعتضدوا بجماعةٍ من أرباب السُّيوف، وبسطوا ألسنَتَهم
١٧٩/٢ بالقول غير المعروف، وأنشؤوا من العصبية ما أطاعوا به القُوَىٰ الغضبية، وأحيوا بها ما أماته الله من أهل حَمِيَّة الجاهلية، والله سبحانه يقول، وكفى بقوله حُجَّة على من كان سميعاً مطيعاً ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً﴾[1].

ولم يزل التعصُّب للمذاهب يملأ القلوب بالشَّحْناء، ويشحنها، وقد نهىٰ الله عن المجادلة لأهل الخلاف فكيف لأهل الوفاق إلا أن يقال أحسنُها، وما عَلِمْنا أَنَّ في ذلك نيَّةً تُنْجَد، ولا مصلحةً توجد، ولا هدايةً تُعْتَقَد، بدراسةٍ تُعْقَد، ونارِ عداوةٍ تُوْقَد، وقلَّما أثمرت المُشَاجرة إلا خلافاً، فالمجلس ـ أَعَزَّه الله ـ يوعز[2] بكَفِّ الألسنة الخائضة، وعَقْلِ الأَعِنَّة الرَّاكضة، فإن أقنع بلُطْفِهِ المَرْضَىٰ وإلا كانت هِمَّتُه الرَّائضة، ومَنْ عاد بعد الزَّجْر أُبْعد عن مُسْتَقَرِّه، وأُزعج، وليسعِ الخَلَف ماوَسِعَ السَّلَف من الأدب، وليعلم العَبْدُ أنه يكتب كتاباً إلى رَبِّه فليفكر فيما كتب وإلى مَنْ كتب.

فصل

في ذكر خروج الفرنج ـ خذلهم الله ـ على عزم[3] اللِّقاء، ووصولهم إلى رأس الماء*

قال العماد: وذلك يوم الاثنين حادي عشر شَوَّال، بعد أن

(١) سورة آل عمران، الآية ١٠٣.
(٢) في (ك): فليوعز المجلس بكف.
(٣) في (ك): بعزم.

رتَّبوا على البلد مَنْ لازم القتال مع ملك الألمان، وخرج معهم المركيس* والكند هري*، وأخذوا معهم عليق أربعة أيام وزادها، واستصحبوا أنجاب الكريهة وأنجادها.

وكان مخيم اليَزَك* على تل العياضية*، فركبوا، وأشعلوا القوم بنيران النِّصال وألهبوا، فَنَزَلَ العدو تلك الليلة على آبارٍ حفرناها عند نزولنا هناك، وباتوا ترميهم وتشويهم وتصميهم الأنزاك، وأصبحوا يوم الثلاثاء سائرين إلى اللِّقاء، ورفع السُّلْطان تلك الليلة الثَّقَل إلى ناحية القَيْمون*،وقد امتدَّت ميمنته إلى الجبل صفاً، وميسرته إلى البحر زَحْفاً، وعنده في يمين قلبه أولادُه: الأفضل والظَّاهر والظافر، وأخوه العادل في أول الميمنة، ويليه حسام الدِّين بن لاجين، ثم صارم الدين قايماز النَّجْمي، ثم حُسام الدين بشارة ومعه بدر الدين دُلْدُرُم الياروقي، فهؤلاء عُظماء دولته، وكُبَراء مملكته، ومعهم أمراء، ومقدَّمون جريئون مُقْدِمون.

وكان في الميمنة أيضاً ابنُ صاحب المَوْصِل، وعِزُّ الدين جُرْديك النُّوري، وعلى ميسرته صاحب سنجار، وصاحب الجزيرة، وتقيُّ الدين، والمَشْطُوب(١) سيف الدِّين، وخشترين، والأمراء: الهَكَّارية والحُمَيْدية والزُّرْزارية والمهرانية، وأمراء القبائل من الأكراد.

---

(١) في النسخ الخطية: ابن المشطوب، بزيادة ابن، وهو خطأ، إذ إن المشطوب هو لقب سيف الدين، وسترد وفاته ص ٣٤٨ من هذا الجزء. أما ولده المعروف بابن المشطوب فهو عماد الدين، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٤٩ من هذا الجزء.

ورجال الحَلْقة المنصورة واقفون في القَلْب. وضُرب للسُّلْطان خيمة لطيفة بقرب الخَرُّوبة* على تَلٍّ مُشْرِفٍ.

وفي مَرْجِ عكا عينٌ غزيرة الماء، يجري منه نهر كبيرٌ إلى البحر، فسار الفرنج ذلك اليوم شرقيِّ النهر حتى وصلوا إلى رأس الماء، وشاهدوا مواقفَ الهائجين إلى الهيجاء، فانحرفوا إلى غربيِّ النهر ونزلوا، واعتزوا بالاحتراز واعتزلوا، فأنهض السُّلْطان إليهم الجالشية*، وانتظر من الله في كَسْرِهم المشية، فاستداروا بمركزهم، وأثخنوا باللتوت* رَضّاً، وبالدَّبابيس* فَضّاً، وبالنِّصال قَرْضاً، وبالأَسِنَّةِ وخزاً وخضاً، وقضوا فيهم مِنْ حَقِّ الجهاد سُنَّةً وفَرْضاً.

وكان المرادُ أن يحتموا فيثوروا حتى يَلْقاهم ويبوروا، فما راموا مكانهم.

وأصبحوا يوم الأربعاء راكبين، وعن سبيل اللِّقاء ناكبين، ووقفوا على صهوات الخيل إلى ضحوة النَّهار، والرَّاجل محدقٌ بهم كالإِسْوار، وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونَهُمْ، وأرادوا أن يباسطونهم، والسُّلْطان يمدُّ الرُّماة بالرُّماة، والكُماةَ بالكماةِ، وهم ثابتون نابتون، ساكنون ساكتون، ونحن نقول: لعلَّهم يحملون ويغضبون، فَيَجْهلون، فنتمكَّن من تفصيل جُمْلتهم بحملتهم، وتفريق جماعتهم.

وأَحَسَّ العدوُّ بالضَّعْف، وأَنَّه متورِّطٌ في الحَتْفِ، فأُلجئوا لعجزهم عن الدِّفاع إلى الاندفاع، وساروا عائدين على هيئة الاجتماع، والنهر عن يمينهم، والبحر عن يسارهم، وقد أيقنوا إنْ صَحَّ منهم الثَّبات بانكسارهم، وأصحابُنا حواليهم ومن ورائهم،

يغرقونهم في دمائهم، ويَشُلُّونهم[1] وَيَغْلُونهم، ويُنْهلونهم من ماء الحديد وَيعِلُّونهم[2]، وهم يتحرَّكون في سكونٍ، ويتظاهرون في كمون، ويتذَوَّبون في جُمود، ويتلَهَّبون في خمود، وكلما صُرِعَ منهم قتيل حملوه وستروه، وطمُّوا مدفنه وطمروه، حتى يخفىٰ أمرهم، ولا يصحُّ لدينا كسرهم.

ونزلوا ليلة الخميس على جسر دَعُوق، وقطعوا الجسر حتى يمنعوا[3] عبورنا إليهم ويَعُوق، وأبلى المسلمون في ذلك اليوم في الجهاد بلاءً حسناً، وأتوا كل ما كان فيه مستطاعاً ممكناً، وبذل أيازُ الطَّويل هذا اليوم جُهْدَه، وفَلَّ في فَلِّ حَدِّهم[4] حَدَّه، وكذلك سيف الدين يازكوج عامَ في بحرهم، وقام بأمرهم، فأصبحوا يومَ الخميس إلى نارِ الوطيس، ووصلوا إلى مربضهم، ولم يحصلوا على غَرَضهم، ونقص منهم خَلْقٌ، وعُدْنا إلى الخيام، ظافرين ظَفَرَ الكِرام، فرحين بذُلِّ الكُفْرِ وعِزِّ الإسلام، وعَرَفَ الفرنج مَسَاق خِزْيهم، وإخفاق سعيهم، فاحترزوا من الهَلَكة، وما عادوا إلى مِثْل هذه الحَرَكة[5].

قال القاضي: وكانوا قد جعلوا راجلهم سوراً لهم يضرب

---

(١) أي يطردونهم بالسيوف. انظر «اللسان» (شلل).
(٢) من النهل: وهو الشرب الأول، والعلل: الشربة الثانية. «اللسان» (نهل، علل).
(٣) في (ك): يمنع.
(٤) في (ك): جهدهم.
(٥) انظر «الفتح القسي»: ٤٤١ ـ ٤٤٥.

النَّاس بالزنبورك* والنُّشَّاب حتى لا يترك أحداً يصلُ إليهم إلا بالنُّشَّاب، فإنه كان يطير عليهم كالجَراد، وخَيَّالتهم يسيرون في
١٨٠/٢ وسطهم بحيث لم يظهر منهم أحدٌ في ذلك اليوم أصلاً، وعَلَم العدو مرتفعٌ على عَجَلة، وهو مغروسٌ فيها، وهي تُسْحَبُ بالبغال، وهم يَذُبُّون عن العَلَم، وهو عالٍ جداً كالمنارة، خِرْقَتُهُ بياضٌ مُلَمَّع بحمرة على شكل الصُّلْبان.

ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة إلى قبالة جسر دَعُوق، وقد ألجمهم العطشُ من شِدَّة الحَرِّ، وأخذ منهم التَّعب، وأثخنتهم الجراح، وكان الفِعْلُ معظمه للحَلْقة المنصورة في ذلك اليوم، فإنهم أذاقوهم طَعْمَ الموت، وجُرِحَ منهم جماعةٌ كأياز الطَّويل، فإنَّه قام في ذلك اليوم أعظم مقام يُحْكَىٰ عن الأوائل، وجُرح جراحاتٍ متعدِّدة وهو مستمرٌ على القتال، وجُرِحَ سيف الدين يازكوج جراحات متعدِّدة، وهو من فُرسان الإسلام وشجعانه، وله مقاماتٌ متعدِّدة، وجُرِحَ خَلْقٌ كثير في ذلك اليوم.

وعَزَمَ السُّلْطان [في تلك الليلة][1] على كَبْس بقيتهم في الخِيَم، وكتب إلى البلد يُعَرِّفهم ذلك حتى يخرجوا هم من ذلك الجانب، ونحن من هذا الجانب، فلم يصل من أهل البلد كتابٌ، فرجع عن ذلك العَزْم بسبب تأخُّر الكتاب، فلما أصبحوا كَفَّ السُّلْطانُ النَّاسَ عن القتال خشيةَ أن يُغتالوا، فإنَّ العدو كان قد قرب من خِيَمِهِ، ووقف الأطلاب في الجانب الشرقي من النهر تسير قبالة

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

العدو حتى وصل إلى مخيَّمه، وكان لهم فيها أطلاب مستريحة، فخرجت على اليَزَك الإسلامي، وحملت عليهم، وانتشب القتال بينهم، فقتل من العدو وجرح خَلْقٌ كثير، منهم شخصٌ كبيرٌ فيهم، مقدَّم عندهم، وكان على حصان عظيم مُلَبَّس بالزَّرَدِ إلى حافره، وكان عليه لبس لم يُرَ مثله، وطلبوه من السُّلْطان بعد انفصال الحَرْب، فدفع لهم جُثَّته، وطُلِبَ رأسه فلم يوجد.

وعاد السُّلْطان إلى مخيمه، وأُعيد الثَّقَلُ إلى مكانه، وعاد كلُّ قومٍ إلى منزلتهم.

وكان عماد الدين زَنْكي غائباً بنفسه مع الثَّقَل لمرضٍ كان به، وبقي عسكره، فعاد وقد أقلعت حُمَّاه، وبقي التياث مزاج السُّلْطان، وهو كان سبب سلامة هذه الطَّائفة الخارجة كونه لا يقدر على مباشرة الأمر بنفسه.

ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ وهو يبكي في حالِ الحرب كيف لم يقدر على مخالطة القوم، ورأيته وهو يأمر أولاده واحداً بعد واحدٍ بمصافحة الأمر، ومخالطة الحرب، ولقد سمعتُ منه وقائل يقول: إنَّ الوخم قد عَظُمَ في مَرْجِ عكا، بحيث إنَّ الموت قد كَثُرَ في الطَّائفتين، فأنشد متمثلاً:

اقْـتُـلانـي ومـالـكـاً واقْـتُـلا مـالـكـاً مـعـي(١)

---

(١) قائله على الأشهر عبد الله بن الزبير في وقعة الجمل، وذلك أنه عانق الأشتر النخعي ـ واسمه مالك بن الحارث ـ فسقطا إلى الأرض، فنادى عبدُ الله بنُ الزبير: اقتلوني ومالكاً. فضرب به المثل لكل من أراد بصاحبه مكروهاً وإن ناله منه ضرر. انظر «الفاخر» ص ١٦٠.

يريد بذلك أنني قد رضيت بأن أتلف أنا إذا تلف أعداء الله. وحَدَث بذلك قوة عظيمة في نفوسِ العساكر الإسلامية[١].

وكان مَرَضُ السُّلْطان هو أحد الأسباب الحاملة للفرنج على هذه الحركة، منضمّاً إلى كثرتهم، وشِدَّة الغلاء والجَذْب عليهم[٢].

فصـــل

في وقعة الكمين وغيرها، ودخول البَدَل إلى عكا

قال العماد[٣]: لما كان يوم الجمعة الثاني والعشرون من شَوَّال انتخب السُّلْطانُ من أجناده عِدَّة وكَثَّر لهم العُدَّة، وأمرهم أن يكْمُنُوا في سفح تَلٍّ هو شمالي عكا، بعيد من عسكر العدو، بقرب المنزلة العادِليَّة القديمة عند السَّاحل، فكمنوا تلك الليلة، فلما أصبح الصَّباحُ ركب منهم عِدَّة يسيرة، وساروا نحو الفرنج، وصالوا عليهم وأغاروا، فاستقبلهم الفرنج، فخرج إليهم زُهاء أربع مئة فارس ـ هكذا قال العماد في «البرق». وقال في «الفتح»[٤] مئتا قنطاري*، وكذا قال ابنُ شَدَّاد مئتا فارس[٥] ـ وطمعوا في المُسْلمين، فتأخَّروا قُدَّامهم قليلاً قليلاً حتى أوصلوهم إلى الكمين، فخرج عليهم أُسْدُ العرين، وقتلوا وأسروا، واستولوا عليهم بأسرهم، فلم ينجُ منهم ناجٍ.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٤٨ ـ ١٥٠.

(٢) المصدر السالف: ١٤٧.

(٣) قال العماد: ليست في (ك).

(٤) «الفتح القسي»: ٤٤٨.

(٥) «النوادر السلطانية»: ١٥١.

ووقع في الأَسْر مُقَدَّمون أكابر، منهم خازن الملك، وجماعة من الإفرنسيسيَّة، وركبَ السُلْطانُ فرحاً بهذه البشارة، ووقف على تَلِّ كيسان وقد توافت إليه الأسرى والأسلاب، فترك الأسلاب والخيول لآخذيها، وكانت بأموالٍ عظيمة فما أعارها طَرْفاً[1]، ولا تردَّدَ أمرُه فيها، وجلس، وأحضر الأسرى، وباسطهم، وأطعمهم وكساهم، وأَذِنَ لهم في أن يسيِّروا غِلْمانهم لإحضار ما يريدون إحضاره، ثم نقلهم إلى دمشق للاعتقال، وحِفْظهم بالقيود الثِّقال[2].

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولما هَجَمَ الشِّتاءُ، وهاجَ البحر، وأَمِنَ العدوَّ من أن يَضْرِبَ مَصَافَّ، وأن يبالغ في طلب البلد وحصاره من شِدَّة الأمطار وتواترها، أَذِنَ السُلْطان للعساكر في العَوْدِ إلى بلادها، ليأخذوا نصيباً من الرَّاحة، فسار عمادُ الدين صاحب سِنْجار* خامس عشري شَوَّال، وعَقِيْبُه ابنُ أخيه صاحب الجزيرة بعد أن أفيض عليهما من التَّشْريف والإنعام والتُّحَف ما لم يُنْعَمْ به على غيرهما.

وسار علاء الدين ابن صاحب المَوْصِل في أول ذي القَعْدة مُشَرَّفاً مكرَّماً، وسار الظاهر في المُحرَّم من سنة سبعٍ، وتقي الدين في صفر منها، ولم يبق عند السُلْطان إلا نَفَرٌ يسير من الأُمراء والحَلْقة الخاص[3].

قال: واشتغل السُلْطان بإدخال البَدَل إلى عكا، وحمل المِيَر

---

(1) في (ك): نظرة.

(2) انظر «الفتح القسي»: ٤٤٨ ـ ٤٥٠.

(3) «النوادر السلطانية»: ١٥١ ـ ١٥٢.

١٨١/٢ والذَّخائر، وإخراج مَنْ كان بها من الأُمراء، لعظم شكايتهم من طول المُقام بها، ومعاناة التَّعب والسَّهر، وملازمة القتال ليلاً ونهاراً، وكان مُقَدَّم البَدَل الدَّاخل من الأُمراء سيف الدِّين المشطوب، دخل في سادس عشر المحرَّم سنة سبع، وفي ذلك اليوم خرج المقدَّم الذي كان بها، وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه، ومَنْ كان بها من الأُمراء، ودخل مع المشطوب خَلْقٌ من الأُمراء وأعيان من الخلق، وتقدَّم إلى كلِّ من دخل[1] أن يصحب معه ميرة سنةٍ كاملة.

وانتقل العادِلُ بعسكره إلى حيفا على شاطىء النَّهر، وهو الموضع الذي تُحَمَّلُ منه المراكب، وتدخلُ إلى البلد، وإذا خرجت تخرجُ إليه، فأقام ثَمَّ يحثُّ النَّاس على الدُّخول، ويحرس المير والذَّخائر لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرَّضُها.

وكان مما دخل إليها سبع بطس* مملوءة ميرة وذخائر ونفقات، كانت وَصَلَتْ من مِصْر، وكان دخولها يوم الاثنين ثاني ذي الحِجَّة، فانكسر منها مركبٌ على الصَّخر الذي هو قريبُ الميناء، فانقلب كل مَنْ في البلد من المقاتلة إلى جانب البحر لتلقِّي البطس، وأَخْذ ما فيها.

ولما علم العدو انقلاب المقاتلة إلى جانب البحر اجتمعوا في خَلْقٍ عظيم، وزحفوا على البلد من جانب البَرِّ زحفةً عظيمة،

---

(١) في الأصل: وتقدم إلى كل واحد، والمثبت من (ك)، وهو الموافق لما في «النوادر».

وقاربوا الأسوار، وصَعِدُوا في سُلَّم واحد، فاندقَّ بهم السُّلَّم كما شاء الله تعالى، وأدركهم أهل البلد، فقتلوا منهم خَلْقاً عظيماً، وعادوا خائبين خاسرين.

وأما البطس، فإنَّ البحر هاج هيجاناً عظيماً، وضَرَبَ بعضَها ببعضٍ على الصَّخْرِ، فهلكت وهَلَك جميعُ ما كان فيها، وهلك فيها خَلْقٌ عظيم، قيل: كان عددهم ستين نفراً، وكان فيها ميرةٌ عظيمة لو سَلِمَتْ لكَفَتِ البلدَ سنةً كاملة، ودَخَلَ على المسلمين من ذلك وَهْنٌ عظيم، وحَرِجَ[1] السُّلْطانُ لذلك حرجاً شديداً، وكان ذلك أول علائم أخذ البلد[2].

وقال العماد: لما دَخَلَ الشتاءُ وعصفَتِ الأهواء، وهاج البحر، ووقع في سُفُنِ الفرنج الكَسْر، أنفذوها إلى الجزائر للاحتياط، وخافوا عليها من اختباط البحر.

وقال في «الفتح»: نَقَلَ الفرنجُ سُفنهم خوفاً عليها إلى صور، فربطوها بها، فخلا وجه البحر من مراكبهم، وحصل الأمن فيه من جانبهم.

وكان أصحابنا في البلد قد مَلُّوا، فشكوا ضررهم[3] وضجرهم، وكانوا زُهَاء عشرين ألف رجل من أميرٍ ومُقَدَّم وجُنْدي، وأُسطُولي وبحري، ومتعيِّش وتاجر وبَطَّال*، وغِلْمان ونُوَّاب

---

(١) حَرِجَ: أي ضاق صدره. «اللسان» (حرج).

(٢) «النوادر السُّلْطانية»: ١٥٢ ـ ١٥٣.

(٣) في (ك): مللهم.

وعُمَّال، وقد تعذَّر عليهم الخروج، فرأىٰ السُّلْطان أن يفسحَ لهم فيه، رِفقاً بهم ورأفةً، وما أفكر أَنَّ في ذلك مخافةً وآفة.

وأُشير على السُّلْطان بترتيب البَدَل، وكفَّل العادلَ بذلك، وانتقل بمخيَّمه إلى سَفْح جبل حيفا قاطع النَّهر، وتقدَّم بجمعِ السُّفُن للنَّقْل، واجتمع المنتقلون بالسَّاحل على الرَّمْل، فمن نَجَزَ أمره انتقل.

وكان الرأي إزاحة عِلَّة المقيمين فإنهم قد جَرَّبوا وصبروا، وخبروا، وهم كَنَفْسٍ واحدةٍ، وكانوا في ثروةٍ وكرمٍ ونَخْوة، وفيهم أبو الهيجاء السَّمين، وله أتباع وأشياع، وله في شَرْعِ السَّماحة اقتداءَ بالسُّلْطان أوضاع، ولعلَّه أنفق من ماله[1] في تلك السَّنة خمسين ألف دينار، فلما فَسَحَ لهم في الانتقال لأجل الاستبدال، انتشر ذلك الضَّمُّ، وانتثر ذلك النَّظْم، ودخل إلى عكا مَنْ لم يجرِّب حصارَها، ولم يَخْبُرْ منافعها ومَضَارَّها، وما ثَبَتَ ممن كان مقيماً بها إلا الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش*.

ودخل عشرون مُقَدَّماً وأميراً شبه المكرهين عوض سِتِّين، واسْتُخْدِمت الرِّجالُ، وأُنفقتِ الأموال، وتفاوتَ الدَّاخلون والخارجون، فلا جَرَمَ وقع الوَهْنُ، وقُضِيَ الأَمْر، وتكفَّل بالدَّاخلين المَشْطُوب، وطاب الزَّمان، وتعذَّر الإمكان بعود مراكب العدو، فلم يستتمَّ البلد ما كان يحتاجُ إليه من الرِّجال والأموال، فإن كُلَّ من

---

(١) من ماله، ليس في (ك).

عُيِّنَ للدخول كَرِهَهُ، وصار يتوسَّل في أن يُعْفَىٰ، ويبذل في نفسه الفداء، ثم لما حَقَّتْ كلمةُ الدُّخول على مَنْ تَعَيَّن له استُمْهِلُوا زماناً يتهيؤون فيه للدُّخول، ولإنفاذ قضاء الله تعالى أسباب لا بُدَّ من وقوعها[1].

فصــــل[2]

في باقي حوادث هذه السنة[2]

قال العماد: وفي ليلة سابع ذي الحِجَّة وقعت قطعةٌ عظيمةٌ من سور عكا، فانثلم الثَّغْر، وبادر الفرنج إليها، فجاء أهل البلد، وسدُّوها بصدورهم، وقاتلوا عنها إلى أن بنوها، وعادت أقوىٰ مما كانت.

وفي ثاني [عشر][3] ذي الحِجَّة هَلَكَ ابنُ ملك الألمان، وكند كبير يقال له كند بنياط*، ومَرِضَ الكند هري*، وصار يموت من الفرنج كل يوم مئة والمئتان، وحزن الفرنج على ابنِ ملك الألمان حُزْناً عظيماً، وأشعلوا نيراناً هائلة، بحيث لم تبق خيمة إلا اشتعل فيها النَّاران والثلاثة، بحيث بقي عسكرهم كلُّه[4] ناراً تَقِدُ، وحصل للمسلمين غنائم أُخر كثيرة في سرايا سرية، وأساطيل مرضية؛ ومن

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٤٥٦ ـ ٤٥٨.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ك).

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) في (ك): كأنه نار تقد.

جملة ذلك مَلُّوطة[١]، مكلَّلة باللؤلؤ منوطة، وبأزرار الجوهر مربوطة، قيل إنَّها من ثياب ملك الألمان.

وكان قد استأمن من الفرنج خَلْقٌ عظيم أخرجهم الجوع إلينا، وقالوا للسُّلْطان: نحن نخوض البحر في براكس، ونكسب من العدو ويكون الكَسْبُ بيننا وبين المسلمين.

فأَذِنَ لهم، وأعطاهم بركوساً ـ وهو المركب الصَّغير ـ فركبوا فيه، وظفروا بمراكب لتجار العدو، بضائعهم[٢] مُعْظَمُها
١٨٢/٢ فِضَّة مصوغة، وغير مصوغة، فأسروهم، وكسبوهم[٣]
وأحضروهم بين يدي السُّلْطان، فأعطاهم السُّلْطان جميع ما غنموه[٤].

قال العماد: فلما أُكرموا بهذه المَكْرُمة، أثنوا على اليد المُنْعمة، وأَسْلَمَ منهم شَطْرُهم، وأحضروا مائدة فِضَّةٍ عظيمةً، وعليها مكبَّة عالية، ومعها طَبَقٌ يماثلها في الوزن، ولو وُزِنَتْ تلك الفِضِّيات قاربت قنطاراً، فما أعارها السُّلْطان طَرْفَه احتقاراً[٥].

قال: واستُشْهد في عكا سبعةٌ من الأُمراء؛ منهم الأمير سوار.

---

(١) الملوطة: قباء واسع الكمين، جمعها ملاليط، وهي كلمة عامية، «تاج العروس» (ملط).

(٢) في (ك): وبضائعهم.

(٣) في الأصل: وكبسوهم، والمثبت من (ك).

(٤) «الفتح القسي»: ٤٥٩ ـ ٤٦١.

(٥) المصدر السالف: ٤٦١.

والتقى في هذه السَّنة شواني* المسلمين بشواني الفرنج في البحر، فأُحرقت للكفر شواني برجالها. وكان عند العود تأَخَّر لنا شيني، مقدَّمهُ الأمير جمال الدين محمد بن أركِكز[1]، فأحاطت به مراكب العدو، فتواقع ملاَّحُوه إلى الماء، وسَلَّموه إلى البلاء، فقاتل وصَبَرَ[2]، فَعَرضُوا عليه الأمان، فقال: ما أضع يدي إلا في يد مقدَّمكم الكبير، فلا يخاطر الخطير إلا مع الخطير.

فجاء إليه[3] المقدَّم الكبير، وظَنَّ أنه قد حصل له الأسير، فعاقره وعانقه، وقوَّىٰ عليه وما فارقه، ووقعا في[4] البحر وغَرِقا، وترافقا في الحِمام واتَّفقا، وعلى طريقي الجَنَّة والنَّار افترقا.

واستشهد أيضاً الأمير نُصَير الحُمَيْدي.

قال: وفي تاسع جُمادىٰ الأُولىٰ قُتِلَ القاضي المرتضى بن قُريش الكاتبُ في خيمته؛ قَتَلَه شريكٌ له في دارٍ بنابُلُس أراده على بيعها، وخرج من خيمته فوجد قاضي نابُلُس فقتله، وضَرَبَه وما أمهلَه، ومَرَّ لينجو، فأُدرِكَ وضُرِبَ بعمودِ خيمةٍ فأُهلك، واستكتب السُّلْطان أخا المُسْتَشْهد مكانَه، فلم يبلغ في الإحسان مَيْدَانه.

قال: وفي هذه السَّنة ورد كتابُ سَيْف الإسلام أخي السُّلْطان من اليمن يذكر استيلاءه على صَنْعاء، واستنابة ولده شمس الملوك فيها[5].

---

(١) في الأصل: اركز، والمثبت من (ك).
(٢) في (ك): وصابر.
(٣) إليه، ليس في الأصل، والمثبت من (ك).
(٤) في (ك): إلى.
(٥) «الفتح القسي»: ٤٦٣ ـ ٤٦٥.

قال: ووصل القاضي الفاضل من مِصْر إلى المعسكر المنصور في ذي الحِجَّة، وكان السُّلْطانُ متشوِّقاً إلى قدومه، وطالت مُدَّة البين لغيبته عنه سنتين، على أن أمور الممالك بمصر كانت بحضوره[١] مستتبَّة، وقد جمع للملك العزيز بمقامه هيبةً[٢] ومحبَّة.

وكان السلطانُ شديدَ الوثوق بمكانه، دائم الاعتماد والاستناد على إحسانه وإلى أركانه، فإن استقدمه خاف على ما وراءه من المهام، وإن تركه نال وحشة التفرُّد بالقضايا والأحكام.

وكان يكاتبه بشرح الأحوال ويستشيره، والنجَّابون متردِّدون بالمكاتبات والمخاطبات، والاستشارة في المهمَّات، فوصل إلى القُدْس، واعتاق بتوالي الأمطار، ثم وصل في ذي الحِجَّة، ورجع الفَضْل، واجتمع الشَّمْل، واستأنس الملكُ بصاحب تدبيره، وتأسَّسَ رُكْنُهُ برأي مُشيره.

قلت[٣]: وفي جمادىٰ الأُولى من هذه السنة توفي بالمَوْصِل قاضي القُضاة محيي الدِّين أبو حامد محمد بن قاضي القضاة كمال الدين بن الشَّهْرُزُوري[٤]، وقد أثنىٰ العمادُ الكاتب عليه في «الخريدة»

(١) في (ك): محصورة.

(٢) في (ك): مهابة.

(٣) هذا الخبر ليس في (ك).

(٤) ترجمته في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام ٢/٣٢٩ ـ ٣٣٩، و«الكامل» لابن الأثير ١٢/ ٢٥، و«التكملة» للمنذري: ١/١٣٦ ـ ١٣٧، و«وفيات الأعيان» ٤/ ٢٤٦ ـ ٢٤٨، و«المستفاد من تاريخ بغداد» ص ٣٧، و«سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٦٠ ـ ٦١، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٥٩، =

ثناءً كثيراً، وأنشد له أشعاراً حَسَنة، منها في التوحيد:

قـامَـتْ بـإثـبـاتِ الـصِّـفـات أَدِلَّـةٌ   قَـصَـمَـتْ ظهورَ أئمَّة التَّعْطيلِ
وطـلائـعُ الـتَّـنْـزيـه لـمـا أَقْـبَـلَـتْ   هَـزَمَـتْ ذوي التَّشْبيه والتَّمْثيل
فـالحقُّ ما صِرْنا إليه جميعُنا   بـأَدِلَّـةِ الأخـبـار والـتَّـنـزيـلِ
من لم يكن بالشَّرْعِ مقتدياً فقد   ألقاه فَرْطُ الجَهْلِ في التَّضْليل

وله في مَدْحِ الصَّحابة رضي الله عنهم:

لائـمـي فـي هـوى الـصَّـحـا   بـةِ إرجِـعْ إلـى سَـقَـرْ
لا بـلـغـتَ الـمُـنَـىٰ ولا   نِـلْـتَ مـن رِفْـضـك الـوَطَـرْ
كـيـف تَـنـهـىٰ عـن حُـبِّ قَـوْ   مِ هُـمُ الـسَّـمْـعُ والـبَـصَـرْ
وهُـمُ سـادة الـوَرَىٰ   وهُـمُ صـفـوةُ الـبَـشَـرْ
فـأبـو بـكـرِ الـمُـقَـدَّ (م)   مُ مـن بـعـده عُـمَـرْ
ثـم عـثـمـانُ بـعـده   وعـلـيٌّ عـلـى الأثَـرْ
أيـهـا الـرَّافـضـيُّ حَـسْـ   ـبُـك فـالـحـقُّ قـد ظَـهَـرْ[1]

= و«الوافي بالوفيات» ١/ ٢١٠ ـ وفيه أن وفاته سنة (٥٨٤ هـ) وهو وهم ـ و«طبقات الشافعية» للسبكي ٦/ ١٨٥ ـ ١٨٦ و«البداية والنهاية» ١٢/ ٣٤١، و«النجوم الزاهرة» ٦/ ١٠٨، ١١٢، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٨٧.
وذكر العماد أن ولادته سنة (٥١٩ هـ)، وذكر ابن خلكان روايتين في ولادته (٥١٠) و(٥١٩)، وذكر الدمياطي في «المستفاد» أنها سنة (٥١٧ هـ)، والصحيح ما أورده العماد، فهو تربه وقرينه. وانظر ص ١٥٧ ـ ١٥٩ من الجزء الثاني. وص ٢٩٤ من هذا الجزء.

(١) انظر «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/ ٣٣٤ ـ ٣٣٥.

ثم دَخَلَتْ سَنةُ سَبْعٍ وثمانين [وخمس مئة][1]

وفيها[2] وصل إلى الفرنج ملك إفرنسيس وملك إنكلتير وغيرهما، وأُخذت عكا يَسَّرَ الله فتحها.

قال العماد[2]: والغيم في هطلانه، والبحر في هيجانه، والسُّلْطان مقيم بمخيَّمه على شَفْرَعَمّ*، ولطفُ الله به قد خَصَّ وَعَمَّ، والعادل مخيِّم قاطع نهر حيفا على الرَّمْل، وسُفُنُ البَدَل إلى عكا مُتَّصلة السُّبل، والفرنجُ مستمرّون على الحصار، متحرِّزون من الإصحار، ونُوَب اليَزَك* راتبة، ووظائف الجهاد مواظبة.

ووصل من الدِّيوان العزيز مثال*، ومعه مكاتبة للملك الأفضل، وفيها إكرامٌ وإجلال، وفَضْلٌ وإِفْضال.

وفي ثالث صَفَر رَحَلَ تقيُّ الدِّين لتسلُّم البلاد التي أُضيفت إليه شرقي الفُرَات، وكان له بالشَّام: المَعَرَّة* وحماة وسَلَمْية* وجَبَلَة* واللاذقية، وبالجزيرة ودياربكر: حَرَّان* والرُّها* والمُوَزَّر* وسُمَيْساط* وضياعها، ومَيَّافارِقين* وحُصُونها وأعمالها وقلاعها.

وسار على أنه يرجع عن قريب، فأبطأ وتشوَّف إلى افتتاح ما يجاوره من البلاد، وسار إلى مَيَّافارقين*، فكان السُّلْطان ينسُب ما
١٨٣/٢ جرىٰ من استيلاء الكُفَّار على عكا بعد قضاء الله تعالى إلى غيبته، فإنه تأخَّرت عساكر تلك البلاد الشَّرْقية لخوف مَضَرَّته، وجَوْر مجاورته، وسيأتي ذِكْرُ وفاته في آخر السنة.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ك).

ووصل كتابُ المجاهد أسدِ الدين شِيركُوه أنه أغار على جشير[1] للفرنج بطرابُلُس فاستاقه، ولم يطق الكُفَّار لحاقه، واقتطع لخاصَّته منه أربع مئة رأس، تلف في الطريق منها أربعون، وغَنِمَ أبقاراً وغَنَماً، وأنفذ للعماد منها بغلة، وذلك رابع صفر.

وفي ليلة هذا اليوم ألقت الرِّيحُ مركباً للعدو على الزِّيب*، فكسرته، وكان فيه خَلْقٌ عظيمٌ منهم، فَغَرِقَ بعضُهم، وأُسر بعض، وفيهم امرأتان سُبيتا.

وفي ليلة أول ربيع الأول خَرَجَ أصحابُنا من البلد، وهجموا على العدو، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأخذوا منهم من خيمهم جمعاً عظيماً، منهم اثنتا عشرة امرأة.

وفي ثالث ربيع الأول كان اليزك* للحَلْقة السُّلْطانية، وخرج إليهم من العدو خَلْقٌ عظيم، وجرىٰ بينهم وقعةٌ شنيعة، وقُتِلَ فيها للعدوِّ جماعة منهم مقدَّمٌ كبير، ولم يفقد من المسلمين إلا خادم رومي صغير - عَثَرَ به في الحملة فَرَسُه - يسمَّى قَراقُوش، وكان شجاعاً له وقعات.

وفي تاسع ربيع الأول[2] بلغ السُّلْطان أَنَّ العدو يخرج منه طائفة للاحتشاش، فأمر العادِلَ أن يكمن بالعسكر خلف التَّلِّ الذي كانت فيه الوقعة المعروفة به، وسار هو فكمن وراء تل العياضِيَّة، ومعه من أولاده الصِّغار والقاضي الفاضل، ونَذِرَ[3] الفرنجُ فلم يخرج منهم أحد.

---

(١) يقصد الجشار، وقد سلف التعريف به في الحاشية رقم ١ ص ٣٢٩ من الجزء الأول.

(٢) الأول، ليست في (ك).

(٣) أي علموا فحذروا. انظر «القاموس المحيط» (نذر).

ووصل في أثناء ذلك اليوم خمسةٌ وأربعون أسيراً من الفرنج أُخذوا في بيروت، فيهم شيخٌ كبير هَرِم، لم يبق في فمه ضِرْس، ولم يبق فيه قوة إلا مقدار ما يتحرَّك، فسأله عن مجيئه، فقال: للحج إلى قُمامة*، وبيني وبين بلادي مسيرة أشهر. فَرَقَّ له، وأطلقه، وأعاده إلى العدو راكباً على فَرَس. وطلب أولادُه الصِّغار أن يأذن لهم في قَتْلِ أسيرٍ، فلم يأذن. وسئل عن ذلك، فقال: لئلا يعتادوا من الصِّغَر سَفْكَ الدَّم، ويهون عليهم، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر.

ثم لما أقبل الرَّبيع توافت العساكر وفاءً بموعدها، فوصَلَتْ في شهر ربيع الأول، فأَوَّل من قَدِمَ الأمير عَلَم الدين سُلَيمان بن جَنْدَر صاحب قلعتي عَزَاز* وبَغْراس*، وهو شيخ له رأي وتجربةٌ، ومنزلة كبيرة ومرتبة، والملك الأمجد صاحب بَعْلبك*، وبدر الدين مودود والي دمشق في رجالهم وأبطالهم، وفي كلِّ يوم يقدم أميرٌ بعد أمير، والله يتولى التَّدْبير.

وكان قد شاع الخبر بأَنَّ ملوك الفرنج واصلون، وهم حاشدون حافلون، فوصل ملك إفرنسيس فيليب في عِدَّة من عَبَدَةِ الصَّليب ثاني عشر ربيع الأول في ستِّ بُطَس عظام، مملوءة بفوارس ذوي إقدام، فقلنا: ما أَحْمَلَ الماءَ لأهلِ النَّار، وما أجلبه للدَّوائر إلى الدِّيار! وكان عظيماً عندهم، من كبار ملوكهم، ينقادون له، بحيث إذا حَضَر حكم على الجميع، ومازالوا يتواعدونا به حتى قَدِمَ، وصحبه من بلاده بازٌ عظيم عنده، هائل الخَلْق، أبيض اللون، نادر

الجِنْس، وكان يعزُّه، ويحبُّه حُبّاً عظيماً، فطار من يده حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابُنا، وأنفذوه إلى السُّلْطان، وبذل الفرنج فيه ألف دينار، فلم يجابوا(١).

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض مشرق اللَّوْن، ما رأيت بازياً أحسنَ منه(٢).

قال العماد: وكان مع هذا الملك بازيٌّ أشهب، كأَنَّه عند إرساله نار تتلهَّب، ففارقه يوم وصوله بحيث عَجَزَ عن حصوله، وكان في ظَنِّ الفرنج أَنَّه يقدم في جمع جم، فلما رأوا جمعه قليلاً سُقِطَ في أيديهم، فوعدهم بالمدَد خَلْفه(٣).

قال القاضي: وقَدِمَ بعده كند فرير*، وكان مقدَّماً عظيماً عندهم مذكوراً، كان حاصَرَ حماة وحارم* عامَ الرَّمْلة.

وفي ثاني عشر ربيع الآخر وصل كتابٌ من اللاذقيَّة أنَّ جماعةً من المستأمنين نزلوا ناحيةً من جزيرة قُبْرُس في عيدٍ لهم، وقد اجتمع جَمْعٌ كثير في بيعةٍ قريبة من البحر، وأَنَّهم صَلُّوا معهم صلاةَ العيد، فلما فَرَغوا من الصَّلاة ضربوا على كلِّ من كان في البِيعَةِ من الرِّجال والنِّساء عن آخرهم حتى القسِّيس، وحملوهم إلى مراكبهم، وساروا بهم إلى اللاذقية، وكان فيهم سبع وعشرون امرأة، وكانوا أغلقوا باب الكنيسة عليهم ليأمنوا إفلاتهم، وأسروهم بأَسْرِهم،

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٤٦٥ ـ ٤٧٥.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٥٧.

(٣) «الفتح القسي»: ٤٧٥.

وكسبوا[1] جميع ما في الكنيسة من الأمتعة والأعلاق النفيسة واقتسموها، فوصل إلى كلِّ واحدٍ على ما قيل أربعة آلاف دِرْهم من الفِضَّة النُّقْرَة[2]، كذا في كتاب القاضي[3].

وقال العماد في «الفتح»: وقيل حصل لكلِّ واحدٍ منهم على كثرتهم أربع مئة دِرْهم، وهَجَمَ جماعةٌ من العسكرية على غَنَمٍ للعدو، فأخذوها، وكان عَدَدُها مئةً وعشرين رأساً، وركبوا في طلبها بأَسْرهم؛ بخيلهم ورَجْلهم في إثْرهم، فلم يظفروا بطائل، ولم يرجعوا بحاصل[4].

قال العمادُ: كان عِزُّ الدين سامة متولِّي بيروت، ولم يكن لمراكب العدو بُدٌّ من الجَوَاز بها أو بقُرْبها، وإذا عَبَرَتْ أُخذت وإن كانت مستعِدّةً لحربها، فَغَنِمَ هو ورجالُه مغانم، خَلَّدت له ادِّخار الغِنى، وكَثُرَتْ في البحر غَزَواته، ووصل ملك الإنكلتير إلى قُبْرُس في السَّادس والعشرين من ربيع الآخر، واشتغل بها عن الوصول إلى عكا حتى أخذها عَنْوَةً من صاحبها، وكانت مقدِّمات سُفُنِه قد وصلت،
١٨٤/٢ فاستولى سامة على خَمْسٍ منها مملوءة رجالاً ونساء، وأموالاً وخيلاً، وكان في الزِّيب* ـ وهو شمالي عكا ـ طائفةٌ من المسلمين يجهِّزون السُّفُن الدَّاخلة إلى عكا، ويقطعون الطريق على الفرنج[5].

---

(١) في (ك): وكبسوا.
(٢) النقرة: السبيكة. انظر «معجم متن اللغة» ٥/ ٥٢٧.
(٣) «النوادر السلطانية»: ١٥٧.
(٤) «الفتح القسي»: ٤٧٦.
(٥) انظر «الفتح القسي»: ٤٧٨.

قال القاضي: وكان للمسلمين لصوصٌ يدخلون إلى خيام العدو، فيسرقون منهم حتَّى الرِّجال ويخرجون، فأخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، فلما فَقَدَتْهُ أُمُّه باتت مستغيثة بالويل والثُّبُور في طول تلك الليلة، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: إنه رحيمُ القَلْب، وقد أَذِنَّا لك في الخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه، فإنه يَرُدُّه عليك.

فخرجت تستغيث لليزَك* الإسلامي، وأخبرتهم بواقعَتها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السُّلْطان، فأتَتْهُ وهو راكبٌ على تَلِّ الخَرُّوبة*، وأنا في خدمته، وفي خدمته خَلْقٌ عظيم، فبكت بكاءً شديداً، ومَرَّغَتْ وجهها في التُّراب، فسأل عن قِصَّتها، فأخبروه، فَرَقَّ لها، ودَمِعَتْ عينُهُ، وأمر بإحضار الرَّضيع، فمضوا، فوجدوه قد بيع في السُّوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المُشْتري، وأخذه منه، ولم يَزَل واقفاً ـ رحمه الله ـ حتى أُحضر الطِّفْل، وسُلِّم إليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً، وضمَّتْه إلى صدرها، والنَّاس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقفٌ في جُمْلتهم، فأرضعته ساعةً، ثم أمر بها، فَحُمِلَتْ على فرسٍ، وأُلحقت بمعسكرهم مع طفلها.

قال: فانظر إلى هذه الرَّحمة الشَّاملة لجنس الإنس، اللهم إنَّك خَلَقْتَه رحيماً، فارحمه رحمةً واسعةً، آمين.

قال: وفي ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلَنكري، وكان مُقَدَّماً من أُمراء المَوْصِل، وصل مفارقاً لهم، طالباً خدمة السُّلْطان[1].

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٥٨ ـ ١٥٩.

فصــل

في مضايقة العدو ـ خَذَله الله ـ لعكا ـ يَسَّر الله فتحها ـ واستيلائهم عليها

قال العماد: لما كان يوم الخميس رابع جُمادى الأُولى زحفَ الفرنج إلى عكا، ونصبوا عليها سبعة مجانيق، ووصَلَتْ كُتُبٌ من عكا إلى السُّلْطان بالاستنفار العظيم، والتماس شغل العدو عنهم، فركب السُّلْطان بعسكره، وكان هذا دأبه معهم كلَّما نابوا البلد نابهم، فإذا زحف إليهم رجعوا عن الحَصْر، وإذا رجع عنهم عادوا[1]، وكان علامة ما بين السُّلْطان وأهل البلد أنه متى زحف الفرنج عليهم دقُّوا كُوسَهم*، فيدقُّ كوس السلطان إجابةً لهم، واستبعد السُّلْطان منزلته، فتحوَّل إلى تل العياضية تاسع جُمادى الأولى.

ووصل ملك الإنكلتير ثالث عشر جمادى الأولى من قُبرس، ومعه خمس وعشرون قطعةً، وهو في جمع شاكٍ وجمرٍ ذاكٍ، فَبُلِيَ الثَّغْرُ منه بغير البلاء الأَوَّل، هذا ومجانيق الكفر على الغَيِّ مقيمة وللرَّمي مُديمة، وتمكَّن الفرنج بها من الخندق، فَدَنَوْا منه دُنُوَّ المُخْنَق، وشَرَعوا في هجمه، وأسرعوا إلى طَمِّه، وداموا يرمون فيه جُثَث الأموات، وجيف الخنازير، والدَّواب النافقات، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم، ويحملون إليه موتاهم، وأصحابنا في مقاتلتهم ومقابلتهم، قد انقسموا فريقين، وافترقوا قسمين، ففريقٌ يُلْقي من

---

(١) في الأصل: عاودوه، والمثبت من (ك).

الخندق ما أُلقي فيه، وفريق يقارع العدوَّ ويلاقيه[1].

قال القاضي: وقد بلغ من مضايقتهم البلد، ومبالغتهم في طَمِّ خَنْدقه أنهم كانوا يلقُون فيه موتىٰ دوابِّهم، وكانوا إذا جُرِحَ منهم واحدٌ جراحةً مثخنة موئسة ألقوه فيه. وانقسم أهلُ البلد أقساماً، قسم ينزلون إلى الخندق، ويقطعون الموتى والدَّواب التي يلقونها فيه قِطَعاً ليسهلَ نَقْلُها، وقسمٌ ينقلون ما يقطعه ذلك القسم ويلقونه في البحر، وقسم يذبُّون عنهم ويدافعون حتى يتمكَّنوا من ذلك، وقسمٌ في المنجنيقات وحراسة الأسوار، وأخذ منهم التَّعب والنَّصَب، وتواترت شكايتهم من ذلك[2].

قال: وهذا ابتلاء لم يبتلَ بمثله أحد، ولا يصبر عليه جَلِد.

هذا، والسُّلْطان ـ رحمه الله ـ لا يقطع الزَّحْف عنهم، والمضايقة على خنادقهم بنفسه وخواصِّه وأولاده، ليلاً ونهاراً حتى يشغلَهم عن البلد، وصوَّبوا منجنيقاتهم إلى بُرْج عين البقر، وتواترت عليه أحجار المنجنيقات ليلاً ونهاراً حتى أثَّرت فيه الأَثَرَ البيِّن.

وكلما ازدادوا في قتال البلد ازداد السُّلْطان في قتالهم، وكَبَسَ خنادقهم، والهجوم عليهم، ودام ذلك حتى وصل ملك الإنكلتير[3].

قال: وفي سادس عشر جُمادى وصلت بطسة* من بيروت

(١) انظر «الفتح القسي»: ٤٨٢ ـ ٤٨٣.
(٢) «النوادر السلطانية»: ١٦٠.
(٣) «النوادر السلطانية»: ١٦٠ ـ ١٦١.

عظيمة هائلة مشحونة بالآلات والأسلحة والمِيَر والرِّجال الأبطال[1] المقاتلة. وكان السُّلْطان قد أمر بتعبئتها في بيروت وتسييرها، ووضع فيها من المُقاتلة خَلْقاً عظيماً حتى تدخل مُرَاغمةً للعدوِّ.

وكان عِدَّة رجالها المقاتلة ستّ مئة وخمسين رجلاً، فاعترضها الإنكلتير الملعون في عِدَّة شواني، قيل: إنه كان في أربعين قلعاً[2]، فاحتاطوا بها من جميع جوانبها، واشتدُّوا في قتالها، وجرى القضاء بأن وقف الهواء، فقاتلوها قتالاً شديداً، وقُتِلَ من العدو عليها خَلْقٌ عظيم، وأحرقوا على العدو شانياً كبيراً فيه خَلْقٌ، فهلكوا عن آخرهم، وتكاثروا على أهل البطسة، وكان مقدَّمهم رجلاً جيداً، شجاعاً مجرِّباً في الحرب اسمه يعقوب من أهل[3] حلب، فلما رأى أمارات الغَلَبة عليهم، قال: والله لا نُقتل إلا عن عز، ولا نسلِّم إليهم مِنْ هذه البطسة شيئاً، فوقعوا في البطسة من جوانبها بالمعاول يهدمونها حتى فتحوها من كل جانبٍ أبواباً، فامتلأت ماء، وغَرِقَ جميعُ مَنْ
١٨٥/٢ فيها وما فيها من الآلات والمِيَر، ولم يظفر العدوُّ منها بشيء أصلاً، وتلقَّف العدو بعض من كان فيها، وأخذوه إلى الشَّواني من البحر، وخَلَّصوه من الغرق ومثَّلوا به، وأنفذوه إلى البلد ليخبرهم بالواقعة.

---

(١) في الأصل: والأبطال، والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: قطعة، والمثبت من (ك)، وهو الموافق لما في مطبوع «النوادر».

(٣) في (ك): رجال.

وحَزِنَ النَّاس لذلك حزناً شديداً، والسُّلْطان يتلقى ذلك بيد الاحتساب في سبيل الله تعالى، والصَّبر على بلائه[١].

قال: وكان العدو المخذول قد صنع دَبَّابة عظيمة هائلة أربع طبقات: الأُولى من الخشب، والثَّانية من الرَّصاص، والثَّالثة من الحديد، والرَّابعة من النُّحاس، وكانت تعلو على السُّور وتركب فيها المقاتلة، وخاف أهل البلد منها خوفاً عظيماً، وحدَّثتهم نفوسُهم بطلب الأمان من العدو، وكانوا قد قرَّبوها من السُّور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمس[٢] أذرع على ما نشاهد، وأخذ أهلُ البلد في تواترِ ضَرْبها بالنِّفْط ليلاً ونهاراً حتى قَدَّر الله تعالى حريقها واشتعال النَّار فيها، وظهر لها ذُؤَابة نار نحو السَّماء.

واشتدَّتْ الأصواتُ بالتكبير والتَّهليل، ورأى النَّاس ذلك جبراً لذلك الوَهْن، ومحواً لذلك الأثر، ونِعْمَةً بعد نِقْمة، وإيناساً بعد يأس[٣]، وكان ذلك في يوم غَرَقِ[٤] البُطْسة*[٥].

قال العماد: فكان ذلك تسميتاً[٦] لتلك العَطْسة.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٦١ ـ ١٦٢.

(٢) في (ك): خمسة، والذراع يذكر ويؤنث.

(٣) في الأصل: بأس.

(٤) في (ك): غريق.

(٥) «النوادر السلطانية»: ١٦٢.

(٦) يقال: سمت وشمت، والتسميت: الدعاء للعاطس، وهو قولك: رحمك الله! وقيل: معناه هداك الله إلى السمت، وذلك لما في العاطس من الانزعاج والقلق. «اللسان» (سمت، شمت).

ثم جرى بعد ذلك عِدَّة وقعات في هذا الشَّهر، وهو جُمادى الأُولى، وهَجَمَ المسلمون خيام العدو ونهبوها، ووصل رجلٌ كبيرٌ من أهل مازَنْدَان* يريد الغَزَاة، فوصل والحرب قائمة، فحمل حملةً استشهد فيها في تلك السَّاعة.

ولم تَزَل الأخبارُ تتواصل من أهل البلد باستفحال أمر العدوِّ، والشكوىٰ من مُلازمتهم قتالهم ليلاً ونهاراً، وذكر ما ينالهم من التعب العظيم من تواتر الأعمال المختلفة عليهم من حين قدوم الإنكلتير الملعون، ثم مَرِضَ مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك، وجُرِحَ الإفرنسيس، ولا يزيدهم ذلك إلا إصراراً وعُتُوّاً.

وهرب إلى السُّلطان خادمان، ذكرا أنهما لأُخت ملك الإنكلتير، وأنهما [كانا][١] يكتُمان إيمانهما، فقبلهما السُّلطان وأكرمهما.

وهرب أيضاً المركيس منهم إلى صور، وكان قد استشعر منهم أن يُخرِجوا مُلْكها عن[٢] يده[٣].

قال العماد في «البرق»: ولما أعوزت الفرنج الحِيَل، وأعجزتهم تفاصيل تدابيرهم والجُمَل، وذلك أنَّ أبرجتهم الخشبية [أُحرقت][٤]، وستائرهم ودبَّاباتهم وكباشهم وُزِّعت، ومُزِّعت

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): من.

(٣) انظر «النوادر السلطانية»: ١٦٢ ــ ١٦٤.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

ومُزِّقت، أقاموا قُدَّام خيامهم صوب عكا تلاً من التُّراب مستطيلاً، ورفعوه كثيباً مهيلاً، ثم نقلوه وحَوَّلوه، وكانوا يقفون وراءَه، ويحوِّلون إلى قُدَّامه ترابَهُ، ويرفعون إلى قُرْب البلد رقابه، فهم من خلفه من النكايات محجوبون؛ يَشُبُّون ويذبُّون، ويدبِّرون الحرب الزَّبون، والتل المتحوِّل إلى البلد، قد أعيا على أهل الجَلَد، لا تعمل فيه النَّار، ولا يصل إلى دَفْعه الاقتدار، حتى صار من المدينة على نصف غَلْوةِ سَهْم، ورُمِيَ بكل جَمْر ورجم، فما يزيد في كلِّ يوم إلا قُرْباً، وما يجرُّ في كلِّ وقتٍ إلا خَطْباً وحَرْباً، وكان الأصحاب يخرجون من البلد إليه، ويقاتلون عليه، ويطيفون بحول الله حواليه.

ومن كتابٍ فاضليٍّ إلى الدِّيوان: ما قَطَعَ الخادمُ الخِدَم إلا أَنَّه قد أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدو الذي قد استفحل أمرُه، واسْتَشْرَىٰ شَرُّه، فإنَّ النَّاس ما سمعوا ولا رأوا عدوّاً حاصِراً محصوراً، غامراً مغموراً، قد تَحَصَّن بخنادق تمنع الجائز من الجواز، وتعوق الفُرَص عن الانتهاز، ولا تقصر عِدَّتهم عن خمسة آلاف فارس، ومئة ألف راجل، وقد أفناهم القتل والأَسْر، وأكلتهم الحَرْب، ولفَظَهم النَّصْر، وقد أمدَّهم البحر بالبحار، وأعانَ أهلُ النَّارِ أهلَ النار، واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربيَّة، والألسنة الأعجمية من لا يُحْصَرُ معدودُه، ولا يُصَوَّر في الدُّنيا وجودُه، فما أحقَّهم بقول أبي الطَّيِّب:

تَجَمَّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وأُمَّةٍ　　　فما تُفْهِمُ الحُدَّاثَ إلا التَّراجِمُ[1]

---

(١) البيت في «ديوان المتنبي» ٤/ ١٠٠.

حتى إنه إذا أُسر الأسير، واستأمن المستأمن، احتيج في فهم لغته إلى عِدَّة تراجم، ينقل واحدٌ عن الآخر، ويقول ثانٍ ما يقول أول، وثالث ما يقول ثان، والأصحاب كَلُّوا ومَلُّوا، وصَبَروا إلى أن ضَجِروا، وتجلَّدوا إلى أن تبلَّدوا، والعساكر التي تصل من المكان البعيد لا تَصِلُ إلا وقد كَلَّ ظَهْرُها، وَقَلَّ وَفْرُها، وضاق بالبيكار[1] صَدْرُها، ولا تستفتح إلا بطلب الدُّستور، ويصير ضجرها مضرّاً بالسُّمْعة عند العدوِّ المخذول، ولهم ـ قاتلهم الله ـ تنوعٌ في المكايد، فإنهم قاتلوا مرَّة بالأبرجة، وأخرى بالمنجنيقات، ورادفة بالدَّبابات، وتابعةً بالكِباش، وآونةً باللَّوالب، ويوماً بالنَّقْب، وليلاً بالسرابات، وطوراً بِطَمِّ الخنادق، وآناً بنَصْبِ السَّلالم، ودفعةً بالزُّحوف في اللَّيل والنّهار، وحالةً في البحر بالمراكب.

ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السُّور من التُّراب، وتلالاً تُشْبه الأَبْرجة مدوَّرة، ورفعوها بالأخشاب، وعالوها بالحجارة، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ورموه قُدَّامها، وهم يتقدمون أول أول، وترتفع حالاً بعد حال حتى صارت منه كنصف غَلْوةِ سَهْمٍ، وقد كان الحجرُ والنَّار تُؤَثِّران في أَبْرِجة
١٨٦/٢ الخشب، وهذه أبراج وستائر للرِّجال والمنجنيقات من العَطَب، لا تؤثر فيها الحجارة الرَّامية، ولا تعمل فيها النَّار الحامية.

قال: ووصل في آخر جُمادىٰ الأُولى من العساكر الإسلامية مجاهد الدين يرنقش، ومعه عسكر سِنْجار*.

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦١ من الجزء الثالث.

وفي ثاني جمادى الآخرة ابن صاحب المَوْصِل، وجماعةٌ من أمراء مِصْر والقاهرة كعَلَم الدين كُرْجي، وسيف الدين سُنْقُر الدَّوَوي وغيرهما من الأسدية والنَّاصرية.

وأما عساكر دياربكر، فإنَّهم تأخَّروا واعتذروا بالخوف من جوار تقي الدين. وكان قد تعرَّضَ للسُّويداء وغيرها، وصَعُبَ ذلك على السُّلْطان، وقال: هذا من عمل الشيطان[1]، وفي مثل هذا الوقت يتعرَّض لهذا المقت، وإني أخاف عليه في هذه السَّنة، حيث أساء عند إمكان الحَسَنة.

واشتدَّ مَرَضُ الإنكلتير بحيث شَغَلَ الفرنجَ مرضُهُ عن الزَّحْف، وكان ذلك خيرةً من الله عظيمة، فإن البلد كان قد ضَعُفَ مَنْ فيه ضَعْفاً عظيماً، وهدمت المنجنيقات من السُّور مقدار قامة الرجل[2]، فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رَمَق، وزوال فَرَق، وانتعاش عَثْرة، وانجبار كَسْرَة[3].

قال القاضي: واللصوص يدخلون عليهم إلى خيامهم ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم، ويأخذون الرِّجال في عافية؛ بأن يجيئوا إلى الواحد وهو نائم، فيضعُوا على حَلْقه السِّكِّين، ويوقظونه ويقولون له بالإشارة: إن تكلَّمت ذبحناك. ويحملونه ويخرجون به إلى عَسْكر المُسْلمين، وجرىٰ ذلك مراراً كثيرة[4].

---

(١) اقتباس من قوله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ سورة القصص، الآية ١٥.

(٢) انظر «النوادر السلطانية»: ١٦٥.

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٤٩٧.

(٤) «النوادر السلطانية»: ١٦٥.

ثم تكرَّرَتِ الرَّسائل من الفرنج إلى السُّلْطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته، منها أن [ملك][1] الإنكلتير طلب الاجتماع به، ثم فَتَرَ بعده أياماً، ثم جاء رسولُه يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر، ويذكر[2] أنها قد ضَعُفَتْ وتغيَّرت، وطلب أن يُحْمَلَ لها دجاج وطير تأكله لتقوى، ثم تُهْدَىٰ.

ففهم أَنَّه محتاج إلى ذلك لنفسه، لأنه حديث عهدٍ بمرضٍ، ثم نفَّذ أسيراً مغربياً عنده، فأطلقه السُّلْطان، ثم أرسل في طلب فاكهة وثَلْج، فأرسل إليه ذلك.

وكان غرضهم من ذلك تفتير العَزَمات، وتضييع الأوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحَصْر، وموالاة الرَّمْي والجدِّ بالزَّحْف، حتى تبدَّلَتْ قوة البلد بالضَّعْف، وتخلخل السُّورُ، وأنهك التَّعبُ والسَّهَرُ أهلَ البلد لِقلَّة عددهم، وكثرة الأعمال عليهم، حتى إن جماعةً منهم بقوا ليالي عِدَّة لا ينامون أصلاً [لا][3] ليلاً ولا نهاراً، والعدو عَدَد كثيرٌ، يتناوبون على قتالهم، واشتدَّ ذلك عليهم سابع جمادىٰ الآخرة، فركب السُّلْطان بالعسكر الإسلامي، ورغَّبهم ونخَّاهم، وزَحَفَ على خنادق العدو[4] حتى دخل فيها العسكر[5]،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): وذكر.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) في (ك): القوم.

(٥) العسكر، ليست في (ك).

وجرىٰ قتالٌ عظيم، وهو كالوالدة الثَّكلى يحرِّك فرسه من طُلْب* إلى طُلْب، ويحثُّ النَّاس على الجهاد، وينادي بنفسه: ياللإسلاماه[1]، وعيناه قد فارت[2] بالدَّمع.

وكلما نَظَرَ إلى عكا، وما حلَّ بها من البلاء، وما يجري على مَنْ بها من المُصَاب العظيم، اشتدَّ في الزَّحْف والحَثِّ على القتال، ولم يَطْعَم في ذلك اليوم طعاماً البتَّة، وإنما شَرِبَ شيئاً أشار به الطبيب.

ولما هَجَمَ الليل عاد إلى الخيم، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحُزْن، ثم ركب سَحَراً، وصبَّحوا على ما أَمسوا عليه.

وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها: إنا قد بلغ بنا العجز إلى غايةٍ ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان، ونُسَلِّم البلد، ونشتري مجرَّد رقابنا. وكان هذا أعظمُ خبرٍ وَرَدَ على المسلمين وأنكاه في قلوبهم، فإنَّ عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح السَّاحل والقُدْس ودمشق وحلب ومِصْر أيضاً، فرأىٰ السُّلْطان مهاجمة العدو، فلم يُساعده العسكر، فإنَّ الرَّجَّالة من الفرنج وقفوا كالسُّور المُحْكَم البناء بالسِّلاح والزنبورك* والنُّشَّاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعضُ النَّاس من بعض أطرافهم، فثبتوا، وذَبُّوا غاية الذَّبِّ.

---

(١) في (ك): يا للإسلام.

(٢) في (ك): تذرفان.

وحكىٰ بعضُ مَنْ دَخَلَ عليهم أسوارهم أنه كان هناك واحد من الفرنج صَعِدَ سور خندقهم وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين، ووقع فيه زُهاء خمسين سهماً وحجراً، وهو يتلقاها، ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذَّبِّ حتى ضَرَبه زَرَّاقٌ* بنفطٍ فأحرقَه. ورؤيت امرأة عليها مَلُّوطة[1] خضراء، فما زالت ترمي بقوسٍ من خشب حتى جَرَحَتْ جماعةً، ثم قُتِلَتْ وحُملت إلى السُّلْطان، فعجب من ذلك.

ولم تزل الحربُ إلى الليل، وضَعُفَتْ نفوسُ أهل البلد، وتمكَّن العدوُّ من الخنادق، فملؤوها، ونقبوا سور البلد، وحشوه وأحرقوه، فوقعت بَدَنة من الباشورة*، ودخل العدوُّ إليها، وقتل منهم فيها زُهاء مئةٍ وخمسين نفساً، وكان منهم ستة أنفس من كبارهم، فقال لهم واحدٌ منهم: لا تقتلوني حتى أُرَحِّل الفرنج عنكم بالكلِّية. فبادر رجلٌ من الأكراد وقتله، وقُتِلَ الخمسة الباقية.

وفي الغد ناداهم الفرنج: احفظوا السِّتَّة، فإنَّا نطلقكم كلكم بهم. فقالوا: إنا قد قتلناهم. فحزن الفرنج، وبطلوا عن الزَّحْف ثلاثة أيام.

وخرج سيف الدين المشطوب بنفسه بأمانٍ إلى ملك الإفرنسيس، وهو كان مقدَّم الجماعة في الرُّتْبة، وقال له: إنَّا قد أخذنا منكم بلاداً عِدَّة، وكنا نهدم البلد، وندخل فيه، ومع هذا إذا

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٣٦ من هذا الجزء.

سألونا الأمان أعطيناهم، وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم، ونحن نُسَلِّم البلد، وتعطينا الأمان على أنفُسنا. فقال: أرى فيكم رأيي. فأغلظ له المشطوب القول، وانصرف عنه. ١٨٧/٢

ولما دخل المشطوب بهذا الخبر خاف جماعةٌ ممن كانوا[١] في البلد، فأخذوا لهم بركوساً ـ وهو مركب صغير ـ وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي، منهم عِزُّ الدين أرسل، وحسام الدين تمرتاش ابن الجاولي، وسُنْقُر الوشاقي ـ وهو من الأسدية الأكابر ـ وذلك في ليلة الخميس تاسع جُمادى الآخرة.

فأما أرسل وسُنْقُر فتغيَّبا خوفاً من السُّلْطان، وأما ابن الجاولي فظُفِرَ به ورُمي في الزردخاناه*، وكان شاباً أول ما توفي والده، فقطع السُّلْطان إقطاعاتهم وأقطعها[٢]، وحَبَسَ عنهم عند الرِّضا بعد مُدَّة مديدة بشاشةَ وجهه ومنعها. وكان من جُمْلَة الهاربين عبد القاهر الحلبي نقيب الجاندارية* النَّاصرية، فشفع فيه على أَنَّه يضمن على نفسه العودة، فعاد من ليلته. ووقع بعد ذلك في الإسار، واستفكَّه السُّلْطان بعد سنةٍ بثماني مئة دينار[٣].

ومن كتابٍ إلى صاحب إربل* مُظَفَّر الدين: لما عاين أصحابُنا بالبلد ما عليه من الخَطَر، وأنهم قد أَشفَوْا على الغَرَر، فَرَّ من

---

(١) في (ك): كان.

(٢) في الأصل: فأقطع السلطان إقطاعاتهم وقطعها، والمثبت من (ك)، وعليها علامة الصحة.

(٣) انظر «النوادر السلطانية» ١٦٥ ـ ١٦٨، و«الفتح القسي»: ٥٠٦.

جماعةِ الأُمراء مَنْ قَلَّ[1] بالله وثوقُه، وأعمىٰ قَلْبَه فجورُه وفسوقُه، ولقد خانوا المسلمين في ثَغْرهم، وباؤوا بوبال غَدْرهم، وما قَوَّىٰ طَمَعَ العدوِّ في البلد إلا هَرَبُهُمْ، وما أرهَبَ قلوبَ الباقين من مقاتلته[2] إلا رَهَبُهُمْ، والمقيمون[3] من أصحابنا الكرام قد اسْتَحْلَوْا مُرَّ الحِمام، وأجمعوا أَنَّهم لا يُسلِمون حتى يقتلوا من الأعداء أضعاف أعدادهم، وأنهم يبذلون في صون ثَغْرهم غاية اجتهادهم.

وكانوا تحدَّثوا مع الفرنجي في التسليم، فاشتطُّوا واشترطوا، فصبروا بعد ذلك وصابروا، ومدُّوا أيديهم في القوم وبسطوا، فتارةً يخرجونهم من الباشورة*، وتارةً من النُّقوب، والله تعالى يُسَهِّل تنفيس ما هم فيه من الكروب[4].

قال القاضي: وفي سُحْرَةِ تلك اللَّيلة رَكِبَ السُّلْطان مشعراً أنه يريد كَبْسَ القوم، ومعه المساحي وآلات طَمِّ الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك، وتخاذلوا وقالوا: نخاطر بالإسلام كلِّه!

وفي ذلك اليومِ خرج من عند الإنكلتير رُسُلٌ ثلاثة طلبوا فاكهةً وثَلْجاً، وذكروا أنَّ مقدَّم الإسبتارِيَّة يخرج في الغد ـ يعني يوم الجمعة ـ يتحدَّث ويتحدَّثون معه في معنى الصُّلْح، فأكرمهم السُّلْطان، ودخلوا سوق العَسْكر، وتفرَّجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عَسْكرهم.

---

(١) في الأصل: فر جماعة من الأمراء ممن قل.. والمثبت من (ك).

(٢) في الأصل: مقاتلتهم، والمثبت من (ك).

(٣) في الأصل: والمقيمين، والمثبت من (ك).

(٤) «الفتح القسي»: ٥٠٧.

وفي ذلك اليوم تقدَّم إلى قايماز النَّجْمي حتى يدخُلَ هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم، وترجَّلَ جماعةٌ من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه، وهو أخو المشطوب ولفيفهم، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج. ونَصَبَ قايماز عَلَمه بنفسه على سورهم، وقاتل عن العَلَم قطعةً من النَّهار.

وفي ذلك اليوم وصل عِزُّ الدين جُرْديك النُّوري، وسوق الزَّحف قائمة، فترجَّلَ هو وجماعتُهُ، وقاتل قتالاً شديداً، واجتهد النَّاس في ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً(١).

قال العمادُ: وباتَ العسكرُ تلك الليلة علىٰ الخيل تحت الحديد، منتظراً لنُجْح الأمل البعيد، ولما عرفَ السُّلْطان أَنَّه لا سلامة، وأن عكا عَدِمَتِ الاستقامة، نَفَّذ إلى جماعةِ عكا سرّاً، وقال لهم: خُذُوا من العدو حِذْراً، واتَّفِقُوا، واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة، وسيروا على جانب البحر، وصادِمُوا العدوَّ بالقَهْر، وخَلُّوا البلد بما فيه، واتركوه بما يحويه.

فشرعوا في ذلك، واشتغل كلٌّ منهم باستصحاب ما يملكه، ولم يعلم أَنَّ التهاءه به يُهلكه، فما تمكَّنوا من المراد حتى أسفر الصَّباح، ولم يصحَّ ذلك في الليلة الثانية لمصير السِّرِّ إلى العلانية.

قال: ولو صَحَّ ذلك لنجح المقصد، لكن الفرنج اطَّلعوا على هذا السِّرِّ، فحرسوا الجوانب والأبواب، وكان سببُ علمهم اثنين من

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٦٨ ـ ١٦٩.

غِلْمان الهاربين خرجا إلى الملاعين، وأخبراهم بجلِيَّة الحال، وعزيمة الرِّجال[1].

قال: وخرج يوم الجمعة العاشر من الشهر جماعةٌ من رُسُلِ الفرنج، ونحن على الحرب، ومحاولة الطَّعْنِ والضَّرْبِ، وفيهم صاحب صيدا، فطلب نجيب الدين العَدْل، وكان السُّلْطان يعذق[2] به في رسالاتِ الفرنج العقد والحَلّ، وعوَّل السُّلْطان في سماع الرسائل على ولده الأفضل وأخيه العادل، وتردَّد العدل مراراً في الخطاب والجواب، فلم ينفصل الأمرُ على الصَّواب، وبذلنا لهم عكا على ما فيها دون مَنْ فيها، وأنَّا نطلق لهم أسرى بعَدَد العِدَّة التي تحويها، فأبوا غير الاشتطاط، فزدناهم صليب الصَّلبوت، فلم يحصُل لهم به كمال الاغتباط، هكذا قال في «البرق».

وقال في «الفتح»: إنَّ ذلك كان يوم السبت وقال: اشترطوا إعادة جميع البلاد، وإطلاق أساراهم من الأقياد. وضَعُفَ البلد وعَجَزَ مَنْ فيه، ضَعْفاً لا يمكن تلافيه، ووقف كرام أصحابنا، وَسَدُّوا الثُّغَر بصدورهم، وشرعوا في بناء سورٍ يقتطع جانباً، حتى ينتقلوا إليه إذا شاهدوا العدوَّ غالباً[3].

وكذا قال ابنُ شَدَّاد: إنَّ ذلك كان يوم السبت الحادي عشر.

وقال: لبست الفرنج بأسرها لباس الحَرْب، وتحرَّكوا حركةً

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٠٩.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٩٠ من الجزء الثالث.
(٣) «الفتح القسي»: ٥٠٩، ٥١١.

عظيمة، بحيث اعْتُقِدَ أَنه[1] رُبَّما كان مصافّ، واصطفُّوا، وخَرَجَ من الباب الذي تحت القُبَّة زُهاء أربعين نَفْساً، واستدعوا جماعةً من المماليك، وطلبوا منهم العَدْل الزَّبداني، وذكروا أنه ـ يعني الخارج ـ صاحب صيدا طليق السُّلْطان، فذكر نحو ما تقدَّم.

قال: وتَصَرَّم نهارُ السبت، ولم ينفصل حال[2].

قال: ولما كان يوم الأحد ثاني عشر الشهر وصل من البلد كتبٌ يقولون فيها: إنَّا قد تبايعنا على الموت، فإياكم أن تَخْضَعُوا لهذا العدو، وتلينوا[3] له، فأما نحن فقد فات أمرُنا. وذكر العَوَّام ١٨٨/٢ الواصل بهذه الكتب أنَّه وَقَعَ بالليل صوتٌ انزعج منه الطَّائفتان، وظَنَّ الفرنج أن عسكراً عظيماً قد عبر إلى عكا، وسَلِمَ، وصار فيها، واندفع كيد العدو في تلك الأيام بعد أن كان قد أشفى البلد على الأَخْذ.

ووصل من عساكر الإسلام صاحب شَيْزَر* سابق الدين، وبدر الدين دُلْدُرم، ومعه تُرْكمان كثير، كان السُّلْطان أنفذ إليه ذهباً أنفقه فيهم، وصاحب حمص. واشتدَّ ضعف البلد، وكَثُرَت[4] ثُغَر سوره،، فبنوا عِوَض الثُّلْمة سوراً مِنْ داخلها، حتى إذا تَمَّ انهدامها، قاتلوا عليه، وَثَبَتَ الفرنج ـ لعنهم الله ـ على أنهم لا يصالحون،

(١) في الأصل: أن، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: أمر، والمثبت من (ك)، وانظر «النوادر السلطانية»: ١٦٩.
(٣) في الأصل: وتلينون، والمثبت من (ك).
(٤) في (ك): كبرت.

ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسرى الذين في أيدي المسلمين، وتعاد البلاد السَّاحلية إليهم(١).

وفي يوم الجمعة سابع عشر الشهر خَرَجَ العَوَّام، وفي كتبه أَنَّ أهل البلد ضاق بهم الأمر، وتيقنوا أنه متى أُخذ البلد عَنْوَةً ضُرِبَتْ رقابُهم عن آخرهم، وأخذ جميع ما فيه من العُدَد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحوهم على أنهم يُسَلِّمون إليهم البلد، وجميعَ ما فيه من الآلات والعُدَد والمراكب، ومئتي ألف دينار، وألفاً وخمس مئة أسير مجاهيل الأحوال، ومئة أسير مُعَيَّنين من جانبهم يختارونهم، وصليب الصَّلبوت، على أنهم يخرجون بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصَّة بهم، وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس الملعون ـ فإنه كان قد استُرضِيَ وعاد ـ عشرة آلاف دينار، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار، واستقرَّت القاعدةُ على ذلك بينهم وبين الفرنج(٢).

ولما وقف السُّلْطان على ذلك أنكره وأعظَمه، وعَزَمَ على أن يكتبَ إليهم في إنكار ذلك عليهم، فهو في مثل هذه الحال وقد جمع أمراءه وأصحاب مشورته، فما أَحَسَّ المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكُفر وصُلْبانُه، وشعارُه ونارُه على أسوار البلد، وذلك [في](٣) ظهيرة نهار [الجمعة](٤) سابع عشر جُمادىٰ الآخرة،

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٦٩ ـ ١٧٠.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٧٠ ـ ١٧١.

(٣) (٤) ما بين حاصرتين من (ك).

وصاح الفرنج صيحةً واحدةً، وعَظُمَتْ المصيبة علىٰ المسلمين، واشتدَّ حُزْنُ الموحِّدينِ، وانحصر كلام العقلاء من النَّاس في [تلاوة][1] ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾[2].

وغَشِيَ النَّاسَ بهتةٌ عظيمة، وحيرةٌ شديدة، ووقع في العسكر الصِّياح والعويل، والبكاء والنَّحيب، وكان لكل قلبٍ حظٌّ في ذلك على قَدْر إيمانه، ولكل[3] إنسانٍ نصيبٌ من هذا الحظِّ على مقدار ديانته ونخوته، وأَقْشَعَتِ[4] الحالُ على أَنَّ المركيس ـ لعنه الله ـ دَخَلَ البلد، ومعه أربعة أعلام للملوك، فنصب عَلَماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع في يوم الجمعة، وعلماً على بُرْج الدَّاوية*، وعلماً على برج القتال عِوَضاً عن علم الإسلام، وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد، وجرىٰ على أهل الإسلام المُشاهدين لتلك الحال ما كَثُرَ التعجُّب من الحياة معه[5].

قال: وَمَثَلْتُ بخدمة السُّلْطان ـ رحمه الله ـ عشية ذلك اليوم، وهو أشدُّ حالةً من الوالدة الثَّكْلَىٰ، والوالهةِ الحَيْرَىٰ، فَسَلَّيْتُهُ بما تَيَسَّر من التَّسْلية، وأذكرتُهُ الفكر فيما قد استقبله من الأمر في معنى البلاد السَّاحلية والقُدْس الشريف، وكيفية الحال في ذلك، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد، وانفصل الحالُ

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

(٣) في الأصل: وفي كل، والمثبت من (ك).

(٤) أي انكشف. «اللسان» (قشع).

(٥) «النوادر السلطانية»: ١٧١.

على أن رأى التأخُر عن تلك المنزلة مصلحةً، فإنه لم يبق غَرَضٌ في المضايقة.

فتقدَّم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشَفْرَعَمَ*، وأقام هو جريدةً مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، فانتقل النّاس في تلك الليلة إلى الصَّباح، واشتغل العدو بالاستيلاء على البلد، وأقام السُلْطان إلى التاسع عشر، ثم انتقل إلى الثَّقَل، ووصل ثلاثة نفر، ومعهم أقوش حاجب بهاء الدين قَرَاقُوش ـ وكان لسانه، فإنه كان رجلاً عاقلاً ـ مستنجزين ما وقع عليه عقد الصُّلح من المال والأَسْرى، فأقاموا ليلةً مُكرَّمين، وساروا إلى دمشق يبصرون الأسارىٰ[١].

قال العماد: وخرج سيف الدين مشطوب، وحسين بن باريك، وأخذا أمان الفرنج، يعني على القطيعة المقدَّم ذِكْرُها[٢].

قال: ولم نشعر إلا بالرَّايات الفرنجية على عكا مركوزة، وأعطاف أعلامها مهزوزة، وعَمَّ البلاء، وتَمَّ القضاء، وعَزَّ العَزَاء، وقنط الرَّجاء، وحَضَرْنا عند السُلْطان وهو مُغْتَمّ، وبالتدْبير للمستقبل مهتمّ، فعزَّيناه وسلَّيناه، وقلنا: هذه بلدة مما فتحه الله قد استعادها عُداه، وقلتُ له: إن ذهبت مدينة فما ذهب الدِّين، ولا ضَعُفَ في نَصْر الله اليقين[٣].

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٧١ ـ ١٧٢.
(٢) انظر «الفتح القسي»: ٥١٣.
(٣) المصدر السالف: ٥١٣ ـ ٥١٤.

قال: ودخلوا عكا وتسلَّموها، ولم يقفوا على الشرائط التي أحكموها، فإنَّهم منعوا أصحابنا من الخروج، واحتاطوا عليهم وعلى أموالهم، [وبدؤوا][1] بحبسهم واعتقالهم، ثم طلبوا المال، فجمعه السُّلْطان وكَمَّله، وأودعه خزانته بعدما حَصَّله، وأحضر صليبهم المطلوب المسلوب، وأتمَّ شرطهم المخطوب، فظهرت أمارات غدرهم، وبدت دلائل مكرهم.

وفي كتابٍ كتبه الفاضل عن السُّلْطان إلى شمس الدَّولة بن منقذ[2] وهو بالمغرب في الرسالة: لقد تجاوزت عِدَّة من قُتِلَ على عكا ـ يعني من الفرنج ـ الخمسين ألفاً، قولاً لا يطلقه التسمُّح، بل يحزره التصفُّح. فانبروا في هذه السنة ملكا إفرنسيس وإنكلتير، وملوكٌ آخرون في مراكب بحرية وحَمَّالة، حملوا فيها الخيول ١٨٩/٢
والخَيَّالة، والمقاتلة والآلة، ووصلت كلُّ سفينةٍ تحمل كل مدينة، وأحدقت بالثَّغر، فمنعت الناقل بالسِّلاح إليه، والدَّاخل بالميرة عليه.

ثم قال: وأخذ البلد على سِلْم كالحَرْب، ودخله العدو ولو لم يَدْخُلْه[3] من الباب دَخَلَ من النَّقْب، وما وهَنَّا لما أصابنا في سبيل الله، وما ضعفنا، ولا رجعنا وراءنا، ولا انصرفنا، بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم، ويخرجوا فنناجزهم، وينتشروا فنطويهم، وينبثُّوا فنزويهم، وأقمنا على طرقهم، وخيَّمنا على

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٣ من هذا الجزء.
(٣) في (ك): يدخل.

مِخْنَقِهم، وأخذنا بأطرار[١] خندقهم، وأحوج ما كُنَّا [الآن][٢] إلى النجدة البحرية، والأساطيل المغربية، فإن عاريتنا بها تُرَدّ، وعاديتنا بها تشتد.

والأمير يبلِّغ ما بلغه من خَطْب الإسلام وخُطُوبه، ويقوم في البلاغ يوم الجمعة مقام خطيبه، ويعجل العودة وقبلها الإجابة، ويستصحب السَّهْم ويسبق بِبُشْرى الإصابة، ويُشعر أن[٣] الرَّاية قد رفعت لنصرٍ تقدَّم به عِرَابَه، فإن للإسلام نظرات إلى الأُفُق الغربي يقلِّبها، وخطرات من اللُّطْف الخفي يقرِّبها، ويكفي من حُسْنِ الظَّنّ أنها نظرةٌ رَدَّتِ الهوى الشَّرْقي غَرْباً، وخَطْرَةٌ أوهمت أن تلك الهِمَّة لو تُلِمُّ بالسَّفَائن لأخذت كلَّ سفينةٍ غَصْباً.

قال العماد: وعَزَمَ الملك إفرنسيس على المسير إلى بلاده لأمرٍ اختلَّ عليه، فأخذ قسماً من الأسارى، وسَلَّمهم إلى المركيس، ووكَّله في قَبْض نصيبه، ورضي بتدبيره وترتيبه[٤].

وخرج الفرنج يوم الخميس انسلاخ الشَّهر من جانب البحر، وانتشروا بالمَرْج، ووصلوا إلى الآبار التي حفرها اليَزَك*، وتواقعوا مع اليزك، وأمدَّهم السُّلْطان، ففلُّوا[٥] العدوَّ، وصُرِعَ منهم خمسون فارساً.

---

(١) أطرار جمع، مفردها طُرَّة، وطرة كل شيء ناصيته، وطرة النهر والوادي: شفيره، وأطرار البلاد: أطرافها. انظر «اللسان» (طرر).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) في (ك): بأن.

(٤) انظر «الفتح القسي»: ٥٢٦ ـ ٥٢٧.

(٥) أي هزموا. «اللسان» (فلل).

قال القاضي: وجُرِح خَلْقٌ عظيم، ولم يزل السيف فيهم حتى دخلوا خنادقهم[1].

قال: ولم تزل الرُّسُل تتردَّد بين الطَّائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب، فخرج حسام الدين حُسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الإنكلتير، فأخبر أَنَّ ملك الإفرنسيس صار إلى صور، وذكروا أشياء[2] من تحرير أمر الأسارىٰ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصَّلبوت، وأنه هل هو في العَسْكر أو حُمِلَ إلى بغداد؟

فأُحْضِرَ صليب الصَّلبوت، وشاهدوه وعظَّموه، ورموا نفوسهم إلى الأرض، ومَرَّغوا وجوههم على التُّراب، وخضعوا خضوعاً عظيماً لم يُرَ مثله، وذكروا أنَّ الملوك قد أجابوا السُّلْطان إلى أن يكون ما وقع عليه القرار، يُدْفَع في تُرومٍ ثلاثة ـ أي نجوم ـ كُلُّ ترم[3] شَهْر.

ولم تزل الرُّسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حَصَلَ لهم ما التمسوه من الأسارى والمال المختصّ بذلك الترم، وهو الصَّليب ومئة ألف دينار [وألف][4]، وست مئة أسير، وأنفذوا

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٧٢.
(٢) في (ك): شيئاً.
(٣) من الإنكليزية Term أي الوقت. والنجوم جمع، مفردها النجم: الوقت المضروب. «القاموس» (نجم).
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

ثقاتهم، وشاهدوا الجميع ماعدا الأسارى المُعَيَّنين من جانبهم، فإنَّهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكملوهم[1] حتى يحصلوا، ولم يزالوا يطاولون ويُقَضُّون[2] الزَّمان حتى انقضى الترم الأول من ثامن عشر رجب.

ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك، فقال لهم السُّلْطان: إما أن تنفِّذوا إلينا أصحابنا، وتتسلَّموا الذي عُيِّن لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي يصل إليكم في ترومكم الباقية، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلِّمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا. فقالوا: لا نفعل شيئاً من ذلك، بل تسلِّمون ما نقبضه بهذا الترم[3]، وتقنعون بأمانتنا حتى نسلِّم إليكم أصحابكم. فأبىٰ السُّلْطان ذلك لعلمه أَنَّهم إن تسلَّموا المال والصَّليب والأَسْرى، وأصحابنا عندهم، لا يُؤْمن غَدْرهم[4].

فلما رأوه قد امتنع من ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مُبَرَّزين في الحادي والعشرين: الإنكلتير وجماعة من الخَيَّالة والرَّجَّالة والتركبل[5]، وركبوا في وقت العَصْر السَّابع والعشرين من رجب، وساروا حتى أتوا إلى الآبار التي تحت تل العياضية، [وقدَّموا خيامهم إليها، وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان

---

(١) في الأصل: يكلموهم، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: ويغصبون، والمثبت من (ك).
(٣) في (ك): ما يقتضيه هذا الترم.
(٤) «النوادر السلطانية»: .
(٥) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٥١ من الجزء الثاني.

وتل العياضية][1]، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كَتَبَ الله شهادَتَه، وكانوا زُهاء ثلاثة آلاف مُسْلم في الحبال، ووقَّفوهم، وحملوا عليهم حَمْلَةَ الرجل الواحد، فقتلوهم صبراً؛ طَعْناً وضَرْباً بالسَّيْف ـ رحمةُ الله عليهم ـ واليَزَك* الإسلامي يُشاهدهم ولا يعلمُ ماذا يصنعون لبُعْده عنهم.

وكان اليَزَك قد أنفذ إلى السُّلْطان، وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم، فأنفذ إلى اليزك من قوَّاه، وبعد أن فرغوا منهم حَمَلَ المسلمون عليهم، وجَرَتْ بينهم حَرْبٌ عظيمة، جرىٰ فيها قَتْلٌ وجَرْحٌ من الجانبين، ودام القتال إلى أن فَصَلَ اللَّيل بين الطَّائفتين، وأصبح المسلمون يكشفون الحال، فوجدوا المسلمين الشُّهداء في مصارعهم، وعرفوا مَنْ عرفوا منهم، وغَشِيَ المسلمين بذلك حُزْنٌ عظيم، ولم يُبْقوا من المسلمين إلا رجلاً معروفاً مقدَّماً، أو قوياً أَيِّداً للعمل في عمائرهم[2].

قال العماد: وطلب السُّلْطان منهم أن يضمنهم الدَّاوِيَّة* في قبض المال. فقال الدَّاوية: ما ندخل في الضَّمان، فاقْنَعُوا منهم بالقَوْل والأمان. فظهر من فحوىٰ كلامهم الخُلْفُ.

ثم ذكر قَتْلَ الأسارىٰ. قال: فشاهدناهم مستشهدين، وبالعَرَاء عَرَايا مجرَّدين، ولا شكَّ أنَّ الله كساهم من سُنْدُس النَّعيم، ونقلهم إلى دار المقامة في العِزِّ المقيم. وتصرَّف السُّلْطان حينئذٍ في الحال،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٧٤.

وفرّق مجموعَهُ في رجاء الرِّجال، وأعاد الأسارى إلى أربابها، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها، وحفظ الصَّليب السَّليب،
١٩٠/٢ وردَّه إلى مكانه، وأعاده إلى صِوَانه[1]، لا لعِزِّه بل لهوانه، فإنه لا مُصَاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد أيدينا إليه، وقد بذل فيه الرُّوم، ثم الكُرْج[2] بذولاً، وأنفذوا بعد رسولٍ رسولاً، فما وجدوا قَبُولاً، ولا صادفوا سُولا.

ومن كتابٍ عمادي عن السلطان في ذلك:

وللكرام آجال، والحَرْبُ سِجَال، ولله مِنَ المؤمنين رجال، والآن فقد ثارت الحمِيَّات، وهَبَّتِ النَّخوات، ووجَبَ على كلِّ مُسْلمٍ أن ينهض لنُصْرة الإسلام، ويتدارك ما حَدَثَ من الكَسْر والوَهْن بالجَبْر والإحكام، ويعيد ما وَهَىٰ من عُقدة الفتوح إلى النِّظام، فأين ذوو الأَنَفة والحَمِيَّة، والهِمَم العَلِيَّة والنفوس الأبية؟

أما يغتمُّون لمصرع من استُشهد من إخوانهم؟ أما يثورون لثأر إيمانهم؟ أما تبكي العيون لمن قُتِلَ من أماثلهم وأعيانهم؟ فإنَّ مُصَابهم عظيم، ومقامهم عند رَبِّهم الكريم كريم، وأراد الله بذلك تنبيه الهِمَمِ الرَّاقدة، وإثارة العزائم الرَّاكدة.

فصـــل

فيما جرى بعد انفصال أمر عكا

قال العماد: ثم إنَّ الفرنج رَحَلَتْ صوب عَسْقَلان مستهل

(١) الصوان، بضم الصاد وكسرها: الوعاء الذي يصان فيه. انظر «اللسان» (صون).
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من الجزء الثاني.

شعبان، وسار السُّلْطان في عِرَاضهم، والمسلمون يخطفونهم[(١)] ويقتلون منهم ويأسرون، ويجرحون ويسلبون ويسرقون، وكل أسيرٍ أُتي به السُّلْطان أمر بقتله. ووصلوا إلى حيفا، فأقاموا بها، ونزل المسلمون بالقَيْمون*، وقدَّم السُّلْطان ثَقَلَه إلى مَجْدَل يابا*، وأضحىٰ نازلاً على النَّهر الجاري إلى قَيْسارية*، وودَّع الفاضلُ السُّلْطان، وسار إلى دمشق لأنها مدرج الوافدين من الأكابر، والنُّوابُ بها ربما جبنوا عن إقامة الوظائف، وكان الأمر الفاضلي عندهم كالأمر السُّلْطاني، فإذا استشاروه خلصوا من كلِّ تَبِعَة ودَرَك.

وفي تاسع شعبان جاء الخبر بأنَّ الفرنج ركبوا وتألَّبوا، وهم يسيرون في السَّاحل بالفارس والرَّاجل، وعن يمينهم البحر، وعن يسارهم الرَّمْل. وكانت الرَّجَّالة حولهم كالسُّور، وعليهم الكبورة الثخينة، والزرديات السابغة المُحْكَمة بحيث يقع فيهم النُّشَّاب، ولا يتأثرون وهم يرمون بالزنبورك*، فتجرح خيول المسلمين وغيرهم[(٢)].

قال القاضي: ولقد شاهدتهم وفي ظهر الواحد منهم النُّشَّابة والعشرة مغروزة[(٣)]، وهو يسير على هينته من غير انزعاج. وثَمَّ قسم آخر من الرَّجَّالة مستريح يمشون على جانب البحر، ولا قتال عليهم، فإذا تَعِبَ هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم[(٤)] الجراح، قام مقامهم

---

(١) في (ك): يتخطَّفونهم.

(٢) ظاهر السياق أن هذا النص من كلام العماد، وإنما هو من كلام القاضي ابن شداد، انظر «النوادر السلطانية»: ١٧٩.

(٣) في (ك): مغرزة.

(٤) في (ك): وأثخنتهم.

القسم المستريح، واستراح القسم العَمَّال.

هذا، والخيالة في وَسَطهم لا يخرجون عن الرَّجَّالة إلا في وقت الحملة لا غير، وقد انقسموا أيضاً ثلاثة أقسام: الأول الملك العتيق جُفري* وجماعة السَّاحلية معه في المقدِّمة، والإنكتار والفرنسيسية معه في الوَسَط، وأولاد الست أصحاب طبرية وطائفة أُخرى في السَّاقة، وفي وسط القوم بُرْجٌ على عَجَلة، وعَلَمهم على ما وصفته مِنْ قَبْلُ يسير أيضاً في وسطهم على عجلة كالمنارة العظيمة، وساروا على هذا المثال، وسُوق الحرب قائمةٌ بين الطَّائفتين، والمسلمون يرمونهم من جوانبهم بالنُّشَّاب، ويحرِّكون عزائمهم حتى يخرجوا، وهم يحفظون نفوسهم حفظاً عظيماً، ويقطعون الطَّريق على هذا الوضع، ويسيرون سيراً رفيقاً[1]، ومراكبهم تسير في مُقَابلتهم في البحر إلى أن أتوا المنزل، فنزلوا، وكانت منازِلُهُمْ قريبةً لأجل الرَّجَّالة، فإنَّ المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم لِقلَّة الظَّهْر عليهم[2].

قال: فانظر إلى صبر هؤلاء القوم على الأعمال الشَّاقَّة من غير ديوانٍ ولا نَفْع. وطاف الجاليش[3]* حولهم من كلِّ جانبٍ، ولزُّوهم بالنُّشَّاب، وكلما ضَعُفَ قسم عاونه الذي يليه، وهم يحفظ بعضُهم بعضاً، والمسلمون محدقون بهم من ثلاثةِ جوانب.

---

(١) في الأصل: رفقاً، والمثبت من (ك).

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٣) في الأصل: الجيش، والمثبت من (ك).

ورأيتُ السُّلْطان وهو يسير بنفسه بين الجاليشية* ونُشَّاب القوم يتجاوزه، وليس معه إلا صبيَّان بجنيبين[1] لا غير، وهو يسير من طُلْب* إلى طُلْب، يحثُّهم على التقدُّم، ويأمرهم بمضايقة القوم، والصِّياح بالتَّهليل والتكبير يرتفع، والعدوُّ على أتمّ ثبات، على ترتيبهم لا يتغيَّرون ولا ينزعجون، وجَرَتْ حملاتٌ كثيرة، ورجَّالتهم تجرح المسلمين وخيولهم بالزنبورك* والنُّشَّاب، إلى أن أَتَوْا إلى نهر القصب، فنزلوا عليه، وقد قام قائمُ الظهيرة، وضربوا خيامهم، وتراجع النَّاس عنهم، فإنهم كانوا إذا نزلوا أَيِسَ النَّاس من أمرٍ يَتِمُّ معهم.

وفي ذلك اليوم قُتِلَ من فُرْسان المسلمين وشجعانهم أياز الطَّويل؛ وهو من مماليك السُّلْطان، وكان قد فَتَك بهم، وقَتَلَ خَلْقاً من خَيَّالتهم وشُجْعانهم، وكان قد استفاضت شجاعتُهُ بين العسكرين، بحيث إنه جرت له وقعاتٌ كثيرة صَدَّقت أخبار الأوائل، وصار بحيث إنه إذا عَرَفَه الفرنج في موضعٍ تجافوا عنه، فاتفق أَنْ تَقَطَّرَ به فَرَسُه، فاستُشْهِدَ في ذلك اليوم، ودُفِنَ على تلٍّ مُشْرف على البركة، وحَزِنَ المسلمون عليه حُزْناً عظيماً، وقُتِلَ عليه مملوكٌ له.

ونَزَلَ السُّلْطان بالثَّقَلِ على البركة، وهو موضعٌ تجتمع فيه مياه كثيرة، ثم رحل بعد العَصْر، وأتى نهر القصب، فنزل عليه أيضاً، فكُنَّا نشرب من أعلاه، والعدو يشرب من أسفله ليس بيننا إلا مسافة

(١) كان من العادة أن يقودوا خلف السلطان عدداً من الخيل مجهزة بعدَّتها تسمى الجنائب، مفردها جنيب. انظر «اللسان» (جنب) و «تكملة المعاجم» لدوزي «الترجمة العربية» ٢/ ٢٩٦، وانظر ص٣١٢ من الجزء الأول.

يسيرة، وبات الفريقان هناك[1].

قال العماد: وكانت نوبة اليَزَك* لعِزِّ الدين إبراهيم ابن المُقَدَّم في السَّاقة، وكانت الفرنج قد أَنِسَتْ بانقضاء الحرب، فخرج منها
١٩١/٢ جماعة مسترسلين، وتقدَّموا علىٰ اليَزَكية مُشْرفين، فَبَصُرَ بهم ابنُ المُقَدَّم، فعبر إليهم من ورائهم هو ومن معه النَّهر، وهم لم يأخذوا من خلفهم الحَذَر، ففجأهم وفجعهم، وَفرَغَ من شُغْلهم قبل أن يُدْركهم الصَّريخ، وسَلَبهم، وغنمهم، ثم نهض الفرنج إليه، وحملوا عليه، وجَرَتْ وقعةٌ شديدة، لحزب الضَّلال مبيدة، جَلَبَتْ لنا غنيمةً وعليهم هزيمة.

وأُحضر الأسارىٰ عند السُّلْطان بحزام الذُّلِّ والهوان، فأخبروا أنهم جُرِحَ منهم بالأمسِ ألف، وسَرَىٰ فيهم وَهْنٌ وضعف، ثم رحل السُّلْطان، وعَبَرَ شَعْرَاء[2] أَرْسُوف*، ونَزَلَ علىٰ قريةٍ تُعْرف بدير الرَّاهب[3].

وطلب ملك الإنكلتير الاجتماع بالملك العادل خَلْوَةً، فاجتمعا، فأشار بالصُّلْح، وكان حاصلُ كلامه أنه [قد][4] طال بيننا القتال، ونحن جئنا في نُصرة إفرنج السَّاحل، فاصطلحوا أنتم وهم، وكلٌّ منا يرجعُ إلى مكانه.

---

(١) «النوادر السُّلْطانية»: ١٨٠.

(٢) الشعراء: الأرض ذات الشجر، وقيل: هي الكثيرة الشجر. «اللسان» (شعر).

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٥٤١.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

فقال: على ماذا يكون الصُلْح؟ قال: على أن يُسَلَّم إلى أهل السَّاحل ما أُخذ منهم من البلاد. فأبىٰ الملك العادل، وأخبره أن دون ذلك قتل كلِّ فارسٍ وراجل. فرجع مُغْضَباً[1].

وفي يوم السبت رابع عشر شعبان كانت وقعة أَرْسُوف، تأَهَّبَ المسلمون للقائهم، فأزعجوهم وأبلوهم ببلائهم، فلما رأىٰ العدو ما هو فيه من الضِّيقة، احتَموا، وحملوا حملةً واحدة، فانكشف من كان قُدَّامهم، واندفعوا، وثَبَتَ ذلك اليوم العادل وأصحابُهُ[2] وقايماز النَّجمي، وعسكر المَوْصِل، ثم كَرَّتْ العساكر إليهم، وجَرَتْ النَّوائبُ عليهم، فجرت بين الفئتين مقتلةٌ عظيمة، فلجؤوا إلى جُدْران أَرْسُوف*، ولولا ذلك لاستوعبت فيهم الحتوف، فنزل السلطان على نهر العَوْجاء*، ورحل العدو إلى يافا، فنزلوها، والمسلمون علىٰ العادة في عراضهم، مقيمة على تبديد جموعهم واعتراضهم.

وقُتِلَ يوم أرسوف لهم كندٌ كبير تحت حكمه من الفرنج عددٌ كثير، وكان من عُظْم شأنه، وفخامة مكانه أنه يوم صُرِعَ قاتل دونه جماعةٌ من المقدَّمين، فما قُتِلَ حتى قُتِلوا، ولا بَذَلَ روحه حتى بذلوا.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرَّجَّالة، وأخذوا رماحهم، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، وفَرَجَ لهم رَجَّالتُهم، وحملوا حملةً واحدةً من الجوانب كلِّها، فاندفع النَّاسُ

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٤٢.
(٢) في (ك): وما ثبت ذلك اليوم إلا العادل وأصحابه.

بين أيديهم، ولم يبق في طُلْب* السُّلْطان إلا سبعة عشر مقاتلاً، والأعلام باقية، والكوس يُدَقُّ لا يفتر، فلما رأى السُّلْطان ما نزل بالمسلمين سار حتى أتى طُلْبه، فوقف فيه، والنَّاس يَفِرُّون من الجوانب، وكلما رأى فارّاً أَمَرَ من يحضره عنده، فاجتمع في الطُّلْب خلقٌ عظيم، ووقف العدو قُبَالتهم على رؤوس التُّلول والرَّوابي، وخاف العدو أن يكون في الشَّعراء كمين، وثابَتِ العساكر كلُّها، فتراجع العدو إلى منزلته، وجَلَس السُّلْطان ينتظر الناس من العَوْد من السَّقْي، والجرحى يحضرون بين يديه، وهو يتقدَّم بمداواتهم وحملهم، وقُتِلَ رجَّالة كثيرة، وجُرِحَ جماعةٌ من الطَّائفتين، وصُدِمَ الملك الأفضل، وانفتح دُمَّلٌ كان في وجهه، وسال منه دم كثير على وجهه، وهو صابر محتسب في ذلك كلِّه، وقُتِلَ من العدو جماعة، وأُسِرَ واحد، فأُحضر، وأمر بضرب عنقه[1].

وفي بعض الكتب السُّلْطانية: سار العدو من عكا على قَصْد عَسْقلان، وسُقْنا[2] لمعارضتهم في كل طريق، ومضايقتهم في كلِّ مضيق، ومنازلتهم في كل منزل، ومُدَافعتهم عن كلِّ مَنْهَل، وهم يسيرون البحرَ البحرَ لا يفارقون ساحله، ولا يتجاوزون مراحله، والمواضع مضائق، وشَعْراء[3] ورمال، وما للقتال فيها مَجَال، وما وجدنا فُسْحَةً إلا وضايقناهم فيها، وأخذنا عليهم في نواحيها.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٨٤.

(٢) في (ك): وسرنا.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٧٤ من هذا الجزء.

من جُملة أيامنا المشهورة المشهودة، ومواسمنا المعروفة المحمودة يوم الاثنين تاسع شعبان عند رحيلهم من قَيْسارية* فذكر الواقعة السَّابقة، وفيها: أنه نَفَقَ من خَيْلهم ألف رأس. ثم ذكر يوم أَرْسُوف*، وحُسْن عاقبة[1] المؤمنين بعد اليأس.

ثم رحل السُّلْطان سابع عشر[2] شعبان، ونزل بالرَّمْلة*، واجتمعت الأثقال [كلها][3] بها في تلك الرِّحلة، ورحل ليلاً، وأصبح على يُبْنَىٰ*، وجاوزها إلى نهرٍ أَمَرَ أَنَّ الخيام عليه[4] تُبْنَىٰ[5].

قال: وزُرْنا بيُبْنَىٰ قبر أبي هُريرة ـ رضوان الله عليه ـ وبادَرَ النَّاسُ بالتيمُّن به إليه.

قلتُ: اعتمد العمادُ في هذا على ما اشتهر بين العامة من ذلك، وأما أهل العلم المصنِّفون في أخبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كابن سَعْد وغيره، فذكروا أنَّ أبا هُريرة توفي بالمدينة، ولم يذكروا غيره على ما ذكرناه في ترجمته في «التَّاريخ»[6]، والله أعلم[7].

---

(١) في (ك): عاقبته.

(٢) في النسخ الخطية: تاسع عشر، والمثبت من مطبوع «الفتح القسي»: ٥٤٩، وهو الموافق لما في مطبوع «النوادر السلطانية»: ١٨٦.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) في (ك): به.

(٥) انظر «الفتح القسي»: ٥٤٩.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٩ من الجزء الأول.

(٧) في هامش (ك): الصحيح أن أبا هريرة توفي بالمدينة، وقبره بها مشهور.

قال العماد: ورحل السُّلطان، ونزل بظاهر عَسْقلان بعد العَصْر، وشرع فيما عَزَمَ عليه من الأمر. وكان لما نزل بالرَّمْلة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء، وشاور في أمر عَسْقلان ذوي الآراء، فأشار علم الدين سليمان بن جَنْدَر بخرابها للعجز عن حِفْظها على ما بها، ووافقه الجماعة، وقالوا: قد ضاق عن صونها الاستطاعة، فإنَّ هذه يافا قد نزلوا بها، وسكنوا فيها، وهي مدينة بين القُدْس وعَسْقلان متوسطة، ولا سبيل إلى حفظ المدينتين، فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصِّنْه وأحكمه، فاقتضت الآراء إقامة
١٩٢/٢ العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء، حتى إذا تحرَّك العدو كانوا منه على عِلْم[١].

قال القاضي: أشاروا عليه بخراب[٢] عَسْقلان خشية أن يستولي عليها الفرنج وهي عامرة، فيتلفوا مَنْ بها من المُسْلمين، ويأخذوا بها القُدْس الشريف، ويقطعوا [بها][٣] طريق مصر.

وخشي السُّلْطان من ذلك، وعلم عَجْزَ المسلمين عن حِفْظها لقُرْب عهدهم من عَكا، وما جرىٰ على مَنْ كان مقيماً بها، فسار حتى أتى عَسْقلان وقد ضُرِبَتْ خيامُهُ[٤] شماليها، فبات هناك مهموماً بسبب خرابِ عَسْقلان، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً، ولقد دعاني

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٥٠.
(٢) في (ك): بتخريب.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) في (ك): خيمته.

إلى خدمته سَحَراً، وكنت فارَقْتُهُ بعد مضي نصف الليل، فحَضَرْتُ، وبدأ بالحديث في معنى خرابها، وأحضر ولدَه الأفضل، وشاوره في ذلك، وطال الحديث، ولقد قال لي ـ رحمه الله ـ: والله، لأن أفقد أولادي بأَسْرِهم أحبُّ إليَّ من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضىٰ الله بذلك وعَيَّنه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً، فكيف أصنع؟[1].

قال: ثم استخار الله تعالى، فأوقع في نفسه أَنَّ المصلحة في خَرَابها، فاستحضر الوالي، وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان، ولقد رأيته وقد اجتاز بالسُّوق والوطاق* بنفسه يستنفر النَّاس للخراب، وقَسَمَ السُّور على النَّاس، وجعل لكل أميرٍ وطائفة من العسكر بَدَنَةً معلومة، وبُرْجاً معلوماً يخربونه، ودخل النَّاسُ إلى البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء، وكان بلداً نَضِراً، خفيفاً على القَلْب، مُحْكَمَ الأَسْوار، عظيم البناء، مرغوباً في سُكْناه، فَلَحِقَ النَّاسَ عليه حُزْنٌ عظيم.

وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعملان النَّاس في الخراب خشيةَ أَن يسمع العدو فيحضُر، ولا يمكِّن من خرابها، وأباح النَّاس الهُرْيَ[2] الذي كان ذخيرةً في البلد للعجز عن نَقْله، وضيقِ الوقت، والخوفِ من هجوم الفرنج، وأمر بحريق البلد، فأُضرمت النَّار فيه، والأخبار تتواتر من جانب العدو بعمارة يافا.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٨٦.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣١٠ من الجزء الثالث.

وخرب من سور عسقلان مُعْظَمُه، وكان عظيم البناء؛ بحيث إنه كان في موضعٍ تسع أذرع، وفي موضعٍ عشراً. وذكر بعضُ الحَجَّارين للسُّلْطان وأنا حاضر أن عرض البُرْج الذي ينقبون فيه مقدار رُمْحٍ. فلم يزل الخرابُ والحريقُ يعمل في البلد وأسواره إلى سَلْخ شعبان.

وعند ذلك وصل من جُرْديك كتابٌ يذكر فيه أَنَّ القوم قد تَفَسَّحوا، وصاروا يخرجون من يافا، ويغيرون على البلاد القريبة منها، فلو تحرَّك السُّلْطان لعلَّه يبلغُ منهم غَرَضاً في غِرَّتهم. فعزم على الرَّحيل، وعلى أن يخلِّف في عَسْقلان حَجَّارين، ومعهم خيلٌ تحميهم يستقصون في الخراب، ثم رأى أن يتأخَّر بحيث يحرق البُرْج المعروف بالإسبتار، وكان بُرْجاً عظيماً، مُشرفاً على البحر كالقلعة المنيعة، ولقد دَخَلْتُهُ وطفْتُه، فرأيتُ بناءه أحكم بناء لا تعمل فيه المعاول، وإنما أُحرق ليبقى بالحريق قابلاً للخراب، وبقيت النَّار تشعل فيه يومين بليلتيهما[1].

قال العماد: ونقض منها الأبراج التي على ساحل البحر، ودَخْلتُها، فرأيتها أحسنَ مدينة منيعة حصينة، فطال بكائي على رُسُومها وفَضِّ ختومها، وقَبْضِ أرواحها من جسومها، وحلول الدَّوائر بدورها، ونزول السُّوء بسورِها، فما بَرِحَ السُّلْطان منها حتى رأينا طلولها دوارس، ورسومها طوامِس، والرؤوس حياء من معاهدها نواكس.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٨٧ ـ ١٨٨.

قال: ولو حُفِظَتْ لكان حفظها متعيناً، وصَوْنُها ممكناً، لكن وَجَدَ كلاً له متجنِّباً[1] متجبِّناً، وقد راعتهم نوبة عكا وحفظها ثلاث سنين، وعادت بعد ذلك بمَضَرَّة المُسْلمين، وقال مَنْ تعلَّل، واعتذر عن دخولها: تدخلها أنت أو أحد أولادك فندخلها اتِّباعاً لمرادك. فحينئذٍ لم يجد بُدّاً من نَقْضِ أسوارها، وفَضِّ سوارها، وسُكَّانها كانوا في رفاهية، فانتقلوا عنها على كراهية، وباعوا أنفس الأعلاق بأبخس الأثمان، وفجعوا بالأوطار والأوطان[2].

فصــل

فيما جرى بعد خَرَاب عَسْقلان

قال العمادُ: فارقها السُّلْطان يوم الثلاثاء ثاني رمضان، ونزل على يُبْنىٰ*، ونزل بالرَّمْلة يوم الأربعاء، وأمر بتخريب حِصْنها، وتخريب كنيسة لُدّ، وركب جريدةً إلى القُدْس فأتاه يوم الخميس، وأعاد إليه رسوم التأنيس، وخرج منه يوم الاثنين ثامن رمضان، وبات في بيت نوبة*، وعاد إلى المخيَّم يوم الثلاثاء.

ووصل مُعِزُّ الدِّينِ قيصر شاه صاحب مَلَطية* ابن قليج أرسلان وافداً عليه، مستنصراً به على أبيه وإخوته، فإنهم كانوا يقصدون أخذ بلده من يده، فأقام في الخدمة السُّلْطانية مُدَّة، وتزوَّج بابنة العادل على صَدَاق مئة ألف دينار، وسار مستهل ذي القَعْدة[3].

---

(١) في (ك): مُجَبِّناً.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٥٥٠ ـ ٥٥١.

(٣) المصدر السالف: ٥٦٠.

وفي ثامن الشهر أيضاً خرج الكمينُ علىٰ ملك الإنكلتير، وكان خرج في فوارسه مخفراً للحطَّابة والحشَّاشة، وكاد يؤخذ الملك لكن أحد خواصِّه فداه بنفسه بأن أظهر حُسْنَ لباسه، فظنَّ أنه الملك فأُسِرَ[1].

وقال ابنُ شدَّاد: حال بينهم وبينه فرنجي، فَقُتِلَ الفرنجي وجُرِحَ[2] هو.

وفي ثاني عشره جَرَتْ أيضاً وقعة كان النَّصر فيها للمسلمين، وقُتِلَ مقدَّم كبير من المشركين، ومازال يقع بينهم وبين اليَزَك* وقعات، وتسرق العربُ من خيولهم وبغالهم ورجالهم[3].

١٩٣/٢ ومن كتاب إلى صاحب سِنْجار: قد تقدَّم الإعلامُ بما جرىٰ عند رحيل العدو على قَصْد عَسْقلان، وما تَمَّ عليه مِنَّا في طريقه من النِّكاية والخِذْلان، وأنه قطع في سبعة عشر يوماً مسافة يومين لما لابسه وغامره من الحَيْن[4]، وما صَدَّق كيف وصل إلى يافا، فأظهر بها الاستيطان، وأقام يَعْمُرُ المكان.

وهذه مدينة يافا متوسِّطة بين القُدْس وعَسْقلان، ومنها إلى كلِّ واحدةٍ منهما مسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خَوْفٍ وحِذار، وكُلُّ واحدٍ من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٥١ ـ ٥٥٢.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٩٠.

(٣) انظر المصدر السالف.

(٤) الحين، بفتح الحاء: الهلاك. «اللسان» (حين).

ألف مقاتل، وتعذَّر الجمع بين حفظ الثغرين وتحصين البَلَدين، وتعيَّنتْ في تخريب عَسْقلان عمارة القُدْس وتحصينه، وعِصْمَتُهُ من العدوّ وتأمينُه.

ثم رحل السُلْطان إلى النطرون، وخيم على تلٍّ عالٍ، والنطرون حِصْنٌ حصين كان للدَّاوية*، لكن لما فتح تشعثت أسوارُه، وانقض جداره، فأمر بهدمه فَهُدِم.

ثم بعث ملك الإنكلتير راغباً في المصالحة والمسالمة إلى العادل، وزعم أَنَّ له أُختاً عزيزةً عليه، كبيرة القَدْر، وأَنَّها كانت زوجة ملك كبير من ملوكهم، وهو صاحب صِقِلِّية* توفِّي عنها، ورغب أن يتزوجها العادل، ويُجعل له الحكم على [جميع][1] بلاد السَّاحل ينفِّذ فيها أمره، وهو يقطع الدَّاوية والإسبتار [ما أراد][1] من البلاد والقُرَى دون الحصون، وتكون أُخته مقيمةً بالقُدْس، ومعها فيه قِسِّيسون ورُهْبان، حافظةً لها من آفات الزَّمان.

فرأى العادِلُ في ذلك عينَ الصَّواب، وشاور السُلْطان، فوافقه فيما أجاب.

فنفَّذ الرسول إلى الإنكلتير بالإجابة، فدخل الفرنج على المرأة، وخوَّفوها، واتهموها في دينها، وعنَّفوها، وقالوا لها ما معناه: هذه فضيحة فظيعة، وسُبَّةٌ شنيعة، وقطعٌ على النَّصْرانية وقطيعة، وأنتِ عاصيةٌ للمسيح لا مُطيعة. فرجعت عن ذلك وما

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

أجابت، فاعتذر الإنكلتير بعدم موافقتها إلا أن يدخل العادل في دينها، فعرف أنها خديعةٌ كانت من الإنكلتير.

قال القاضي: ووصل رسولٌ من المركيس يذكر أنه يصالح الإسلام بشرط أن يُعْطَىٰ صيدا وبيروت، على أن يجاهر الفرنجَ بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها، ويأخذها منهم. فأُجيب إلى ذلك علىٰ أن يطلق مَنْ بها وبصور من الأسارى[1]، ولما سَمِعَ الإنكلتير بذلك رجع إلى عكا لفَسْخ هذه المصالحة، واسترجاع المركيس إليه.

وجاء الخبر أَنَّ ملك الإفرنسيس ماتَ بأنطاكية[2].

ووصل كتابٌ من تقي الدين يخبر فيه أَنَّ قزل صاحب ديار العَجَم ابن الدكز قُتِلَ، وجرىٰ بسبب قَتْلِهِ في بلاد العجم خَطْبٌ عظيم[3].

قال العماد: وكان محتقراً للعظائم، مقترفاً للمآثم، واضعاً للشُّرْب والقصف المواسم، وقَتَلَ بأصفهان عشرة من رؤساء الشَّافعية المعروفين، وكبرائهم[4] الموصوفين.

ووصل من الديوان كتابٌ ينكر فيه قَصْدَ تقي الدين خِلاط*،

---

(١) في الأصل: على أن يطلق من بها من الأسارى وبصور، والمثبت من (ك).

(٢) انظر «النوادر السلطانية»: ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) المصدر السالف: ١٩٢.

(٤) في (ك): وكبارهم.

ويظهر فيه العناية التامة ببَكْتَمُر، ويشفع في حسن بن قفجاق، ويتقدم بإطلاقه. وكان قد قبض عليه مُظَفَّر الدِّين بإربل، ويتقدم بمسير القاضي الفاضل إلى الديوان لبتِّ حالٍ، وفصل أمرٍ[1].

فأجاب السُّلْطان بأَنَّا لم نأمر تقيَّ الدين بشيء من ذلك، وإنما عَبَرَ ليجمع العساكر، ويعود إلى الجهاد. وأما ابن قفجاق فقد تقدَّم إلى مظفر الدِّين حتى يحضره إلى الشام فنقطعه فيه، ويكون ملازماً للجهاد. وأما الفاضل فاعتذر عنه بأنه كثير الأمراض، وقوته تضعُفُ عن الحركة إلى العراق[2].

قلت[3]: بلغني أَنَّ الفاضل ـ رحمه الله ـ كَتَبَ في الاعتذار بالحضور إلى الدِّيوان، [و][4] تمثَّل في كتابه بهذين البيتين:

ما كنتَ أَوّل سارٍ غرَّه قَمَرٌ ... ورائدٍ خَدَعَتْهُ خُضْرَةُ الدِّمَنِ
مَثِّلْ لنفسكَ شخصي إنني رجلٌ ... مِثْلَ المُعَيْدِي فاسْمَعْ بي ولا تَرَني[3][5]

قال القاضي: وأرسل الإنكلتير إلى السُّلْطان أَنَّ الفرنج

---

(١) في الأصل: أو فصل أمر، والمثبت من (ك)، وانظر «النوادر السلطانية»: ١٩٢.

(٢) انظر «النوادر السلطانية»: ١٩٨ ـ ١٩٩.

(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في (ك).

(٤) ما بين حاصرتين من (ب).

(٥) هذان البيتان للحريري صاحب المقامات، وهو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، وقد حكي أنه كان دميماً، قبيح المنظر، فجاءه شخص غريب يزوره، ويأخذ عنه شيئاً، فلما رآه استزرى شكله، ففهم الحريري ذلك منه، فلما التمس منه أن يملي عليه، قال له: اكتب. وأملى عليه:

ما أنت أول سار غره قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن =

والمسلمين قد هلكوا، وخَرِبَتِ البلادُ، وتَلِفَتِ الأَموال والأرواحُ، وقد أخذ هذا الأمر حَقَّه، وليس هناك حديث سوىٰ القُدْس والصَّليب والبلاد، والقُدْسُ متعبَّدُنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن[1]، وأما الصَّليب فهو خَشَبَةٌ عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمنُّ السلطان به علينا، ونستريح من هذا العَناء الدائم.

فأرسل السُّلْطان في جوابه: القدسُ لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرىٰ نبينا [صلى الله عليه وسلم][2]، ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه، ولا نقدر على أن نتلفَّظ[3] بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي لنا أيضاً في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضَعْف مَنْ كان بها من المسلمين [في][2] ذلك الوقت. وأما الصَّليب فهلاكه عندنا قُرْبة عظيمة لا

= فاختر لنفسك غيري إنني رجل مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني

وقد غيَّر القاضي الفاضل بعض ألفاظهما لمناسبة المقام، وقد أوردهما ابن خلكان في «وفيات الأعيان»: ٤/ ٦٦ ـ ٦٧، وذكر هذه القصة.

وقوله «مثل المعيدي فاسمع بي ولا ترني» هو من المثل المشهور «تَسْمَعُ بالمُعَيْدِيِّ خيرٌ مِنْ أَنْ تراه»، يضرب مثلاً للشيء لم تره، ويعظم في نفسك بالسماع، فإذا رأيته اقتحمته عينك. وكان أول من قال ذلك المنذر بن ماء السماء. انظر «الفاخر» للضبي: ٦٥، و«مجمع الأمثال» للميداني: ١/ ١٢٩ ـ ١٣١، و«المستقصى» للزمخشري: ١/ ٣٧٠ ـ ٣٧١، و«الوسيط في الأمثال» للواحدي: ٨٣.

(١) في الأصل: من الأردن، والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) في (ك): التلفظ.

يجوز أن نفرِّط فيه إلا لمصلحةٍ راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها[1].

وهرب شِيْركُوه بن باخل الكُرْدِي من عكا، وكان أسيراً بها، وكان ادَّخر حبلاً في مخدَّته، فتدلَّى به من طاقة في بيت الطَّهارة، واشتدَّ هرباً في قيوده إلى تل العياضية، فكمن في الجبل وقد طلع عليه النَّهار، ثم كسر قيوده، وسار إلى المسلمين[2]. ١٩٤/٢

ثم تواتر الخبر أَنَّ الفرنج على عَزْمِ النُّهوض، فسار السُّلْطان من المخيَّم بالنطرون إلى الرَّمْلة سابع شَوَّال، وأقام بها عشرين يوماً، فجرت وقعات، وتمَّت دفعات، منها وقعة في ناحية يازُور*، وكان النَّصْر فيها للمسلمين، وفقد من المُسْلمين ثلاثة، وذلك ثامن شَوَّال[3].

وفي سادس عشر شَوَّال وقعت وقعةٌ أُخرى عظيمة قُتِلَ فيها جماعةٌ من الأُمراء، وأُسِرَ فارسان من الكَفَرَة معروفان بالبأس سوى غيرهما، وقُتِلَ منهم زُهاء ستين نَفَراً[4].

وفي خامس شَوَّال وصل الخبر أَنَّ الأسطول المِصْري استولى على مراكب الفرنج، وفيها مركب يعرف بالمسطح، قيل: إنه كان فيه خمس مئة نفر وزائد على ذلك، وأنه قُتِلَ منهم خَلْقٌ عظيم،

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٩٤.
(٢) المصدر السالف: ١٩٤ ـ ١٩٥.
(٣) انظر المصدر السالف: ١٩٧.
(٤) المصدر السالف: ١٩٩ ـ ٢٠٠.

واسْتُبْقِيَ منهم أربعة نَفَرٍ مذكورون[1].

وفي ثامن عشر شَوَّال اجتمع العادل والإنكلتير على طعامٍ ومحادثة، وانفصلا عن توادُدٍ ومطايبة، وطلبَ منه الاجتماعَ بخدمة السُّلْطان، فامتنع ـ رحمه الله ـ وقال: الملوكُ إذا اجتمعوا تَقْبُحُ بينهم المخاصمة بعد ذلك، وإذا انتظم أَمْرٌ حَسُنَ الاجتماع[2].

ورحل[3] الفرنج ثالث ذي القعدة إلى الرَّمْلة، وأظهروا قصد القُدْس بتلك الرِّحْلة، ودامت الوقعات بينهم وبين المسلمين، ورحل السُّلْطان إلى القُدْس بنيَّة المقام في الثَّالث والعشرين من ذي القَعْدَة، وكان الشِّتاءُ قد دخل، والغيث قد اتَّصل، فوصل إلى القُدْس وقت العَصْرِ، ونزل بدار الأقساء مجاورة كنيسة قُمامة.

وفي ثالث ذي الحِجَّة وصل عسكرٌ من مِصْرَ بأموالٍ ورجال مع أبي الهيجاء السَّمين، وتحوَّل الفرنج إلى النطرون، فقوَّىٰ السُّلْطان اليَزَك*، فوقعوا على سريَّة للفرنج فغنموها، وسيق منهم إلى القُدْس نيف وخمسون أسيراً سوى من قُتِلَ منهم، وواقعهم سابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر* يوم عيد الأضحى، فنحر منهم وضَحَّى، واحتوى على عشرةٍ من مقدَّميهم أَسْراً وقتلاً[4]، وتسلَّق باقي الفرنج في الجبال، وتركوا خيلهم، فغنمها المسلمون.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٩٦.

(٢) المصدر السالف: ٢٠١.

(٣) في (ك): ثم رحل.

(٤) انظر «الفتح القسي»: ٥٦٢.

ولم يزل المسلمون [عليهم][1] مستظهرين مُدَّة مقامهم بالنَّطْرون، وجعل المسلمون يقطعون الطَّريق على تُجَّارهم حتى إنهم أخذوا قافلةً ثقيلة بما فيها، ولم يقدروا[2] على تخليصها، فرحلوا عائدين إلى الرَّمْلة في الثَّاني والعشرين من ذي الحِجَّة.

وفي ذلك اليوم وَصَلَ من المَوْصِل خمسون رجلاً برسم قَطْعِ الصُّخور من الخندق، فإنَّ السُّلْطان شَرَعَ في تحصين القُدْس، وعمارة أبراجه وأسواره، وحَفْرِ خنادقه، وأرسل إلى البلاد في جَمْعِ رجال هذه الأعمال، وتقبَّل الأمراء فيه العمل، وعمل فيه السُّلْطان بنفسه بنقل الحجارة هو وأولاده وأمراؤه وأجناده، ومعهم القُضَاة والعلماء، والولاة والأمراء[3].

قلت: وفي قَصْدِ الفرنج للسُّلْطان بالقُدْس يقول الرَّشيد ابن النَّابُلُسي[4] من [جملة][5] قصيدةٍ له:

وَيْحَ الفِرَنْجَةَ بل ويل أمِّهِمْ أَوَ ما ... فيهمْ لبيبٌ على العِلات يعتبرُ
فكم نَثَرْتَهُمُ[6] ضَرْباً إذا انتظموا ... وكم نَظَمْتَهُمْ طَعْناً إذا انْتَثَروا
كم قد سَقَيْتَهُمُ ذُلاً فلا عَجَبٌ ... إنْ عَرْبَدُوا سَفَهاً فالقَوْمُ قد سَكِرُوا

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) في (ك): وما قدروا.
(٣) انظر «الفتح القسي»: ٥٦٥.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٠٩ من الجزء الثالث.
(٥) ما بين حاصرتين من (ك).
(٦) في (ك): كم قد نثرتهمُ.

إنْ يمَّموكَ فلا بِدْعٌ لجهلهمُ[1] تَسْعَىٰ إلى الأُسْدِ في غاباتها الحُمُرُ
زاروا نموراً ولا تُغْني وَقَاحَتُهُمْ إذا أُسودُكَ في أبطالهِمْ زأروا
فَحَامِ عن حَوْطَةِ البَيْتِ المقدَّسِ لا خوفٌ وحاشاكَ من خَوْفٍ ولا ضَرَرُ[2]
هو الشَّريفُ وقد ناداكَ مُعْتَصِماً فما علىٰ مَجْدِهِ من بَعْدِها حَذَرُ
وسوف تَسْتَغْفِرُ الأيامُ هَفْوَتَها وَتَحْصُدُ الفئةُ الأوغادُ ما بَذَروا

فصل

في بقايا حوادث هذه السنة

قال العماد: وفي ربيع الأول منها تولَّى القاضي محيي الدين محمد بن الزكي[3] قضاءَ دمشق.

وفيها يوم الجمعة تاسع عشر رمضان كانت وفاةُ تقيِّ الدين عمر ابن أخي السُلْطان وهو على محاصرة مَنَازِكِرْد*، وكان ـ كما تقدَّم[4] ـ قد توجَّه إلى بلاده التي زاده إياها السلطان وراء الفرات، فامتدَّت عينه إلى بلاد غيره، واستولى على السويداء[5]، وعلى مدينة حاني*، وعَزَمَ على قَصْدِ خِلاط*، وكسر صاحبها سيف الدين بكْتَمُر، وتملَّك مُعْظم تلك البلاد، ثم أناخ على منازكرد يحاصرها ومعه عساكر كثيرة، فأناخت بجسده المَنِيَّة بسبب مرضٍ اعتراه، وزاد إلى أن بلغ منه المراد.

---

(١) في (ك): بجهلهم. (٢) في (ك): ولا حذر، وهو وهم.
(٣) انظر عن إيثار السلطان لتولية محيي الدين القضاء ص ٤٢٩ من الجزء الثاني.
(٤) انظر ص ١٧٠ من هذا الجزء.
(٥) السويداء: بلدة مشهورة قرب حرّان، انظر «معجم البلدان»: ٣/ ٢٨٦، وقد أخطأ محقق «الفتح القسي» في تعيينها، فظن أنها التي في حوران. وربما نسي أن تقي الدين كان وقتئذٍ في الشمال، وهذه في الجنوب!.

وأخفى ولدُه الملك المنصور وفاته، ورحل عن البلد المحصور وفاتَه، وعاد به إلى البلاد التي في يده، وعَجِبَ النَّاسُ من حَزْمه وعَزْمه، وثباته وجَلَده، وجاءت رُسُلُه إلى السُّلْطان يخبره بأنه قام مقام والده فيما كان له من البُلْدان، وطلب منه شروطاً نسبه بسببها إلى العصيان، وكاد أمره يضطرب، وقلبه يكتئب، وشأنه ينعكس وينقلب، حتى احتمى بالملك العادل فنصره، وأظهره إلى الوجود وأظهره[1].

١٩٥/٢ وقال القاضي ابن شَدَّاد: كانت وفاته في طريق خِلاط عائداً إلى مَيَّافارِقين*، فَحُمِل مَيْتاً حتى وصل به إلى مَيَّافارقين، ثم عُمِلت له تُرْبة عليها مدرسةٌ مشهورة بأَرْض حماة، وحمل إليها فَدُفِنَ بها[2].

قال العماد: وفيها توفي ابن أُخت السُّلْطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين[3] بدمشق ليلة الجمعة تاسع عشر رمضان، ففجع السُّلْطان بابن أخيه وابن أخته في تاريخٍ واحد، وكانا له من أعظم الأعوان على ما يكابده من الشَّدائد[4].

قلت: ودفن بالتُّرْبة الحُسَامية المنسوبة إليه من بناء والدته ستّ الشَّام بنت أيوب، وهي المدرسة الشَّامية* ظاهر دمشق بالعوينة*[5].

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٦٦ ـ ٥٧٠.

(٢) «النوادر السلطانية»: ١٩٨.

(٣) وقيل اسمه عمر بن لاجين، كما سلف ص ٦٥ من الجزء الثالث، وانظر «الوافي بالوفيات» ٤/٢٤٨.

(٤) انظر «الفتح القسي»: ٥٧٦، و«مرآة الزمان» (خ) ٨/ ٢٦٥.

(٥) انظر ص ٦٥ من الجزء الثالث، وفي (ك) تداخل كلام العماد مع تعقيب أبي شامة.

قال: وفيها في أواخر ذي الحجة توفِّي الأمير عَلَمُ الدين سليمان بن جَنْدر من أكابر أمراء حلب، وكان في خدمة السُّلْطان بالقُدْس، وهو شيخ الدَّولة وكبيرها، وظهيرها ومشيرها، وهو الذي أشار بتخريب عَسْقلان لتتوفَّر العناية والاهتمام بالقُدْس، ثم مَرِضَ بالقُدْس، وطلب المسير إلى الوطن، فأدركته المَنِيَّة بقرية غباغب* على مرحلةٍ من دمشق(١).

وفيها في الثَّالث والعشرين من رجب كانت وفاة الصَّفي بن القابض، نائب السُّلْطان بدمشق، وكان قد خدم السُّلْطان في أيام عُدْمه، وهو في كفالة أبيه وعَمِّه، فلما ملك مِصْر أمرحه في أموالها، وحكَّمه في أعمالها، حتى نال المُنَىٰ ووجد(٢) الغِنىٰ، وكتب لمماليكه دُوْرَه وأملاكه وجميعَ أمواله(٣).

وفيها توفي نسيبُ العماد وهو جمال الدين أبو الفتح إسماعيل بن محمد بن عبد كويه سابع عشر ذي الحِجَّة بدمشق. قال العماد: وكنتُ استنبته في كتابة الإنشاء وخَرَّجته، وقَلَّبته في مراتب المعالي ودرَّجته، واعتمد السُّلْطان عليه في التَّرسُّل إلى سلاطين العَجَم، وخواص الأمراء منهم والخدم، وكان نبيلاً نبيهاً، كريماً وجيهاً.

---

(١) سلفت أخباره في أثناء هذا الكتاب، وانظر «تلخيص مجمع الآداب» ج ٤/ ق ١/ ٥٨١ و«الفتح القسي»: ٢٥٩، و«مرآة الزمان» (خ): ٨/ ٢٦٥.

(٢) في الأصل: ووجه، وفي (ب): ونجح، والمثبت من (ك).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص٤٦ من الجزء الثالث، وص١١ - ١٢ من هذا الجزء، و«الفتح القسي»: ٥٧٦، و«مرآة الزمان»: ٨/ ٢١٥.

وفيها توفي الحكيم الموفَّق أسعد بن المِطْرَان في شهر ربيع الأول، وكان من أهل النظافة والظرافة، ومن ذوي الفصاحة والحَصَافة، وفَّقه الله في بدايته لهداية الإسلام، ونال أسباب الاحترام، وتقدَّم عند السُّلْطان، وما شانه كِبَرٌ وهو كبير الشَّان[1].

وفي أواخر هذه السَّنة توفي الشيخ الفقيه نجم الدين الخُبُوشاني بمصر[2]، وهو الذي عمر تُرْبة الشَّافعي ـ رضوان الله عليهما[3] ـ وبنىٰ المدرسة في جوارها، وأحيا شعار التوحيد، وبنىٰ أمره على التسديد والتشديد، وحَفِظَ شمل الشَّافعية من التبديد، وكان السُّلْطان مجيباً له إلى كلِّ ما يستدعيه، ويقضي له من الحوائج ما يقتضيه،

---

(١) هو أسعد بن إلياس بن جرجس، انظر ترجمته في «الفتح القسي»: ٥٧٦ ـ ٥٧٧، و«مرآة الزمان»: ٨/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤، و«طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة: ٦٥١ ـ ٦٥٩، و«الوافي بالوفيات» ٩/ ٤٠ ـ ٤٣، و«النجوم الزاهرة» ٦/ ١١٣، و«أعيان الشيعة»: ١١/ ١٨٨، و«مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق» ٣/ ٢ ـ ٨.

(٢) هو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن علي الخبوشاني، نسبة إلى بليدة بناحية نيسابور. انظر ترجمته في «الفتح القسي» ٥٧٧، وابن جبير في «رحلته» ص ٤٨، و«مرآة الزمان» (خ) ٨/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦، و«التكملة» للمنذري ١/ ١٦١ ـ ١٦٢، و«وفيات الأعيان»: ٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ٢٠٤، و«العبر» للذهبي ٤/ ٢٦٢، و«الوافي بالوفيات»: ٥/ ٩٩ ـ ١٠٠، و«طبقات الشافعية» للسبكي، ٧/ ١٤ ـ ٢١، و«طبقات الشافعية» للإسنوي ١/ ٤٩٣، و«النجوم الزاهرة» ٦/ ١١٥ ـ ١١٦، و«حسن المحاضرة» ١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٧، وانظر ص٤٤٧ ـ ٤٤٨ من الجزء الثاني وص ٢٥٠ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٣) في (ك): عليه.

ووقَّف على المدرسة التي بناها وقوفاً، وأعطاه في بنائها أُلوفاً، فلما توفي الخُبُوشاني طلبَ المدرسةَ جماعةٌ من العلماء، فَرُدُّوا، وشفع العادِلُ في صدر الدين أبي الحسن محمد بن حمُّويه شيخ الشيوخ[١]، فكُتِبَ بها له، ورُتِّب بوقفها وتدريسها استقلاله، وذلك في أواخر سنة ثمانٍ وثمانين، ثم صُرِفَ بعدَ السُّلْطان عن المدرسة، وتبدلت الوحشة بالأنسة[٢].

قلت: ثم استمرَّت عليها يدُ أولاده واحداً بعد واحدٍ إلى الآن.

قال: وفيها توفي الوجيه ابن النَّفيس مستوفي* ديوان دمشق [بها][٣] وكان بهياً مهيباً، نَزِهاً عارِفاً مُصيباً.

وفيها توفي القاضي أمين الدين أبو القاسم بحماة في حادي عشر رمضان، وكان كريماً سخياً، نابهاً سَرِيّاً.

وفيها نُقِلَتْ تُرْبة القاضي محيي الدين أبي حامد محمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم الشَّهْرُزُوري إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل السَّلام، وكان قاضي المَوْصِل، وقد بنىٰ رباطاً* هناك، وكانت وفاته بالمَوْصِل في الثَّامن والعشرين من جُمادى الأولى سنة ستٍّ وثمانين، وقد تقدَّم ذلك[٤].

---

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٦١٧ هـ).

(٢) في الأصل: وتبدلت بالوحشة الأنسة، والمثبت من (ك)، وانظر «الفتح القسي»: ٥٧٧.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) انظر ص ٢٣٨ من هذا الجزء.

وسأل ابنُ أخيه القاضي بعده كتاباً إلى أمير المدينة، فكُتِبَ له كتابٌ، منه: سببُ إصدارها إلى الأمير مسير نائب القاضي كمال الدين بضريح عمه محيي الدِّين من المَوْصِل إلى المدينة المقدَّسة على ساكنها أفضل الصلوات، ليدفن في الرِّباط الذي أنشأه، حيث يُبْعَثُ مع شفيع الأُمة يوم البعث والنُّشُور، ويأمن ظلام اللَّحد المحفور في جوار الضِّياء والنُّور، ويحشر بما يناله من البركة والحبور، منشرح الصَّدْر إذا بُعْثر ما في القبور، وحُصِّلَ ما في الصُّدور[1]، ولقد وفِّق في اختياره أيام حياته نَقْلَهُ إلى ذلك البيت المعمور، فَلْيُعِن الأميرُ على هذه المَكْرُمة، وليعتن بمواراته في التُّرْبة المجاورة للبقعة المعظَّمة.

قال: وكان هذا القاضي خِرْقاً[2] جَوَاداً، لِبَذْلِ اللُّهى[3] مُعتاداً، واسع المروَّة، جامع أشتات الفتوَّة، يحبُّ معالي الأمور، وفضائله متجاوزة حَدَّ الوفور.

قال ابن القادسي[4]: ووصل الحاجُّ في صفر بعدما اعتاقت أخبارهم، وأخبروا أنَّ داود أمير مكة أخذ ما في الكعبة من الأموال، وأخذ طوقاً كان يلزم الحجر الأسود، فأوجب ذلك تشعُّثه، وكان قد دخل بعض الباطنية بعد سنة أربع مئة، فضربه بدبُّوس*، وقال: إلى

---

(١) اقتباس من قوله تعالى: ﴿أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور﴾ سورة العاديات، الآية ٩.

(٢) الخرق: الكريم المتخرق في الكرم. انظر «اللسان» (خرق).

(٣) اللُّهى جمع، مفردها: اللهية واللهوة: العطية. «اللسان» (لها).

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من الجزء الثالث.

كم حجر! وفي يد ذلك الرجل سيف، فما تجاسر أحدٌ يقرب منه، فتطوَّع رجلٌ، وبذل نفسه للقتل، وتقدَّم إليه فقتله[1]، فأُخِذَ الحجر، وجُمِعَتْ شظاياه، وأُلْفِتْ، وجُعِلَ له طوقٌ، فأخذ أمير مكَّة [داود][2] ذلك الطَّوق، فلما وصل أمير الحاجِّ عزل داود، وولَّى أخاه مكثراً،
١٩٦/٢ ونقض قلعةً كان بناها داود على جبل أبي قُبَيْس*، وهو داود بن عيسىٰ بن فَلِيْتَة بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم الحَسَني، ولما صُرِفَ عن مكة، أقام بنخلة، وتوفي بها في رجب سنة تسعٍ وثمانين، وهو أمير ابن أمير إلى آخر ما ذكرنا من آبائه، وهم به ستة نَفَر.

قال ابنُ الأثير: وفي ربيع الأوّل سنة سبع وثمانين سار عِزُّ الدين يعني صاحب المَوْصِل إلى جزيرة ابن عمر، فحصرها وبها ابنُ أخيه مُعِزُّ الدين سِنْجر شاه، لأنه كان سيىء السِّيرة معه، خارجاً عن طاعته، مساعداً للأعداء عليه، فعزم علىٰ أخذها منه، فخضع وطلب العفو والصَّفح، فأجابه، وصالحه على قاعدةٍ استقرَّت بينهما، وعاد عنه إلى المَوْصِل، فعاد سِنْجر شاه إلى حالته الأُولى، فتجاوزَ عنه واطَّرَحه[3].

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنةُ ثمانٍ وثمانين [وخمس مئة][4]

قال العماد: والسُّلْطان مقيمٌ بالقُدْس، وقد قَسَمَ سورَ البلد

(١) كان ذلك سنة (٤١٣ هـ)، وكان الحجر الأسود قد ضرب أيضاً سنة (٣١٧ هـ) حين استباح القرامطة مكة المكرمة؛ انظر «سير أعلام النبلاء» ١٥/ ١٨٥، ٣٢١ وما بعدها.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) «الكامل» لابن الأثير: ١٢/ ٦٠ _ ٦٢.

(٤) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

على أولاده، وأخيه وأجناده، فشرعوا في إنشاء سورٍ جديد، محدقٍ به مديد، وكان يركب كلَّ يوم، وينقل الصَّخْر على قربوس سَرْجه، فيستنُّ الأكابر والأمراء في نَقْل الحجارة بنهجه، ولو رأيت وهو يحمل حجراً في حِجْره لعلمتَ أَنَّ له قلباً كم حمل جبلاً في فكره، ولقد جَدَّ في حماية الصخرة المقدَّسة حتى حمل لها الصخور، وانشرح صدره لانضمامها إلى صدره، حتى باشر صدور مماليكه بها الصُّدور، وما تغلو دار يبنيها في الجنَّة بنقل حجارتها، ليكون مَلِكاً في دارها، وقمراً في دارتها. وداوم البكور بالركوب، وَعرَّض وجهه الكريمَ للشُّحوب(١).

قال: وفي ثالث المحرَّم رحل الفرنج على سَمْتِ عَسْقلان، وأشاعوا أنهم يعيدون بها العُمْران، وهم نازلون بظاهرها، جائلون في مواردها ومصادرها، فرأى الإنكلتير دُخاناً على بُعْدٍ، فقصده، وكان ثَمَّ جماعةٌ من الأسدية، وسيف الدين يازكوج، وعلم الدين قيصر وهم غارُّون عما دَهِمَهُمْ، فوصل اللَّعين إليهم وقت المغرب، فوقع عليهم، وكانوا فريقين نازلين في موضعين، فلما وقع على أحدهما رَكِبَ الفريقُ الثَّاني ودافعه حتى ركب الفريقُ الآخر، فدافعوهم وواقعوهم، وساقوا قُدَّامهم أثقالَهُمْ، وخلصوا ناجين، وسَلَّم الله أنفسهم من أيدي الملاعين، ولم يُفْقَد من المسلمين إلا أربعة، وكانت نوبةً عظيمة، دفع الله خَطَرها، وهوَّن ضَرَرها(٢).

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٨١.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٥٨٣.

وفي حادي عشر المحرَّم كبس عِزُّ الدين جُرْديك يُبْنى* على مَنْ نَزَلَ بها من الفرنج، فأوقع بهم البلاء، وساق منهم اثني عشر أسيراً، ومتاعاً كثيراً، وأغار أيضاً ثاني صفر على ظاهر عسقلان، وجاء بثلاثين أسيراً(١).

وفي ليلة رابع عشر صفر كَمَنَتْ سَرِيَّةٌ مقدَّمها فارس الدين ميمون القَصْرِي عند يُبْنى إلى أن عَبَرَتْ قوافلُ الفرنج، فساقَها بأحمالها وأثقالها، ونسائها ورجالها(٢).

وفي مُسْتهلِّ ربيع الآخر وصل سيف الدين المشطوب، وقد خَلَص من الأسر، وقطعت عليه الفرنج خمسين ألف دينار عَجَّلَ منها عشرين ألفاً، وأعطاهم بالباقي رهائن، فأحسن السُّلْطان لقاءه، وأقطعه نابُلُس بأعمالها، فتوفي بها في آخر شَوَّال(٣).

وفي ثالث عشر ربيع الآخر قُتِلَ المركيسُ لعنه الله بصور، وذلك أن رَجُلين دخلا صور، وتنصَّرا، وأظهرا التعبد والترهُّب، ولزما الكنيسة، وشكرهما الأقساء والرُّهْبان، وأحبَّهما المركيس، ولم يكن يصبرُ عنهما.

ففي بعض الأيام وَثَبا عليه، وقتلاه، فأُخذا وقُتِلا، وعُرِفَ أَنَّهما كانا من الحشيشية، فجلس مكانه الكند هري بأمر الإنكلتير، وسُرَّ الإنكلتير بمُصَاب المركيس، فإنه كان يضادُّه، ويراسل السُّلْطان

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٨٥.
(٢) المصدر السالف: ٥٨٦.
(٣) انظر المصدر السالف: ٥٨٧.

في الإعانة عليه، فلما قُتِلَ سَكَنَ رَوْعُه، وذهب عنه ضَرُّه، وتزوَّج الكند هري بالملكة زوجة المركيس في ليلته، ودخل بها وهي حامل، وما الحمل في مِلَّة الفرنج عن النِّكاح حائل، ويكون الولد منسوباً إلى الملكة، هذه قاعدة هذه الطائفة المشركة.

وهذا الكند هري ابن أُخت ملك إفرنسيس من أبيه، وملك إنكلتير من أُمِّه، ودخل الفرنج في حُكْمه، وعاش إلى آخر سنة أربعٍ وتسعين، وتولاهم دون سَبْعِ سنين.

وقال العماد في «الفتح»: أضافه الأسقف بصور، فاستوفى رزقه وتعدَّى، وما درى أنه يتردَّىٰ، وأكل وشَرِبَ، وشَبِعَ وطَرِبَ، وخرج وركب، فَوَثَبَ عليه رجلان وسكَّنا حركته بالسكاكين، ودكَّاه عند تلك الدكاكين، وهرب أحدُهما ودخل الكنيسة، وقد أخرج تلك النَّفس الخسيسة، فقال المركيس وهو مجروح، وفيه روح: احملوني إلى الكنيسة، فحملوه.

فلما أبصره أحد الجارحين وَثَبَ عليه، وزاده جُرْحاً على جُرْح، وقَرْحاً على قَرْح، فأخذ الفرنج الرَّفيقين، فألفوهما من الفداوِيَّة الإسماعيلية مرتدين، فسألوهما مَنْ وَضَعَهما على تدبير هذا التَّدْبير؟ فقالا: ملك الإنكلتير. فَقُتِلا شَرَّ قِتْلَة، فيالله من كافِرَيْن سفكا دَمَ كافر، وفاجرين فتكا بفاجر[1].

قال: ولم يعجبنا قَتْلُ المركيس في هذه الحالة، وإن كان من

(١) «الفتح القسي»: ٥٨٩ ـ ٥٩٠.

طواغيت الضَّلالة، لأنه كان عدو ملك الإنكلتير، ومنازِعَهُ على الملك والسرير، ومناقِشُهُ على القليل والكثير.

قال: وفي تاسع جمادى الأُولىٰ استولى الفرنجُ على قلعة
١٩٧/٢ الدَّاروم*، ثم خَرَّبوها، ورحلوا عنها، وأسروا مَنْ فيها. وكان الإنكلتير الملعون قد استفسَدَ من نوبة عكا نقَّابين حلبيّين فتمكّنوا من نَقْبِ المكان، وأحرقوا النَّقْب، وطلب أهلُ الحِصْن مُهْلَةً يشاورون فيها [السلطان][1]، فلم يمهلهم[2].

وفي رابع عشرة خرجت اليَزَكية* على الفرنج على قلعة تعرف بمجدل جناب ـ كذا قال في «الفتح»[3]، وقال في «البرق»: بمجدل يابا، وكذا قال ابنُ شَدَّاد[4] ـ وقُتِلَ كند كبير، ثم نزلوا تل الصَّافية*، ثم إلى النَّطرون، ثم إلى بيت نوبة*، وهي وطأة بين جبالٍ، بينها وبين القُدْس مرحلة، وقد ألهبهم المسلمون بنهبهم[5]، وأضعفوهم بسلبهم، يتسلَّطون عليهم من كلِّ ناحية، ويكمنون لهم تحت كلِّ رابية، وقد قويت قلوبهم بثبات السلطان بالقُدْس[6].

وفي انسلاخ الشهر التقى الجمعان، وقد وصل العدو إلى قلونية، وهي من القُدْس على فرسخين، فلما رأى العدو ما لا يَدَانِ

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) انظر «الفتح القسي»: ٥٩١.
(٣) «المصدر السالف»: ٥٩٠.
(٤) «النوادر السلطانية»: ٢١٠.
(٥) في (ك): والمسلمون قد ألهبوهم بنهبهم.
(٦) انظر «الفتح القسي»: ٥٩٢.

له به رَجَعَ ناكصاً على عقبيه، والمسلمون في إثرهم يكمنون لهم، وينالون منهم. وكان بدر الدين دُلْدُرُم في اليَزَك، فبعث مَنْ كَمَنَ لهم عند طريق يافا، فمرَّت بهم فوارس، فاستولى عليهم الكمينُ، وما سَلِمَ منهم أحد[1].

وفي ثالث جمادىٰ الآخرة كبست الكُمناء قافلة، فكسبت وسلبت وأسرت.

وفي تاسعِهِ وصل الخبر أن الفرنج رحلوا بأَسْرهم، وأدلجوا ليلاً، ولم نعلم قصدهم، فعرف السُّلْطان أنه إلى طريق العسكر المِصْري، فندب الأمير فخر الدين الطُّنبا العادِلي، وشمس الدين أسلم النَّاصري حتى يُعلما العسكر، فالتقيا بهم بالحسي، وأخبراهم الخبر، فنزلوا وعَرَّسوا، وهم يظنُّون أن لا حس للعدوِّ بأرض الحسي، فجاءهم، وفجأهم، فاستولى على بعض الأموال، وخَلَص أكثرُها مع الرجال، ومن جملة مَنْ كان في العسكر فلك الدين أخو العادل لأُمه[2]، فنجا بما قدر عليه من القوافل.

قال العماد: وجرىٰ هذا كلُّه والملكان العادِلُ والأفضلُ غائبان، وعساكر المَوْصِل، واسِنْجار* وديار بكر متباطئة في الإتيان، وسببه ما كان من تقيِّ الدين وموته، وتشرُّطِ ولده في بقاء بلاد أبيه عليه، وأنَّ [الملك][3] الأفضل كان طَلَبَ من والده البلادَ قاطع

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٥٩٢.

(٢) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» وفيات سنة (٥٩٩هـ) وانظر ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

الفرات، ونَزَلَ عن جميع ما لَهُ من الولايات، وأنه إذا عَبَرَ إلى الرُّها* وحَرَّان* مَلَكَ تلك البُلْدان، ورحل من القُدْس في ثالث صَفَر، وأطلق له السُّلْطان عشرين ألف دينار سوى ما أصحبه برسم الخِلَع والتَّشريفات، ووصل إلى حلب، فاحتفل أخوه الظَّاهر لقدومه، وأقام له سُنَن المكارم ورسومه، ووقف بخدمته ماثلاً، وهز عطف الابتهاج إليه مائلاً، وأحضر له مفاتيح بلده، وقدَّم له كل ما في يده.

وسَمِعَ ناصر الدين بن تقيِّ الدين بما أقلقه، ودفع منه إلى ما أرهجه وأرهقه، ووصل رسولُه إلى العادل وهو بالقُدْس لاجئاً إلى ظِلِّه، راجياً لفضله، لائذاً بجنابه، عائذاً ببابه، فاحتمى له واحتمله، وقوَّى في تقويته أمله، وخاطب السُّلْطان في حَقِّه واستعطَفه.

وقال: أنا أمضي إليه وأحضره، وأؤمنه مما يحذَرُهُ، وتبقي هذه السَّنة عليه حَرَّان* والرُّها*، وتُعطيه في السَّنة الأُخرى حماة والمعرَّة*، ثم قَرَّر السُّلْطان مع أخيه العادل أن يأخذ هو تلك البلاد، وينزل عن إقطاعاته بمصر ونصف خاصِّه ففعل، واستزاد قلعة جَعْبَر*، فامتنع الملك الظَّاهر من تسليمها حتى استظهر، فسار العادلُ في العَشر الأول من جُمادى الأُولى، وكتبَ السُّلْطان إلى الأفضل بالعَوْد(١)، فجاء هذا راجعاً، وذهب ذلك مسارعاً، ووصل إلى حَرَّان والرُّها، وعاد في آخر جُمادى الآخرة، ومعه ابن تقي الدِّين(٢).

(١) في (ك): وكتب السلطان بعود الأفضل.
(٢) انظر «الفتح القسي»: ٥٩٥ ـ ٥٩٦.

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: عاد الأفضل منكسراً متعتِّباً، فوصل دمشق، ولم يحضر إلى خدمة السُّلْطان، فلما اشتدَّ خبر الفرنج سَيَّر إليه، وطلبه فما وَسِعَه التأخُر، فسار إليه مع العساكر الواصلة إليه من الشَّرْق، فلقيه السُّلْطان، وتَرَجَّل له جَبْراً لقلبه، وتعظيماً لأمره[1].

قال: ولما بلغ ابنَ تقي الدين مَوْجِدَةُ السُّلْطان أنفذ إلى العادل يستشفع به ليطيِّب قَلْبَ السُّلْطان عليه، ويقترح أحد قسمين: إما حَرَّان* والرُّها* وسُمَيْساط*، وإما حماة ومَنْبِج* وسَلَمْية* والمَعَرَّة* مع كفالة إخوته، فراجع العادلُ السُّلْطانَ مراراً، فلم يفعل ذلك، ولم يُجِبْ إلى شيء منه، فكَثُرَتِ الشَّفاعة إليه، فحلف له على حَرَّان والرُّها وسُمَيْساط، على أنه إذا عَبَرَ الفُرَات أُعطي المواضع التي اقترحها، وتكفَّل إخوته، وتخلَّى عن تلك المواضع التي في يده، ثم التمس العادلُ خَطَّ السُّلْطان، فأبىٰ، وألحَّ عليه، فَخَرَّق نُسخة اليمين، وانقطع الحديث، وأخذ من السُّلْطان الغيظُ، كيف يُخاطَبُ بمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاد أخيه، ثم أعطاه خَطَّه بما استقرَّ من القاعدة.

ثم إنَّ العادلَ التمس من السُّلْطان البلاد التي كانت بيد ابن تقي الدِّين بعد انتقاله، وجرت مراجعاتٌ كثيرة في العِوَض عنها، وكان آخر ما استقرَّ أنَّه ينزلُ عن كلِّ ما هو شامي الفُرَات ما خلا الكَرَك*

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢١٥.

والشَّوْبك والصَّلْت والبَلْقاء، وخاصَّه بمصر بعد النزول عن خُبْزه*، وعليه في كلِّ سنة ستة آلاف غِرَارة غَلَّة، تُحمل للسلطان من الصَّلْت والبلقاء إلى القُدْس[1]. ١٩٨/٢

فصـــل

في عَزْمِ الفرنج على قَصْدِ القُدْس، وسببه

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان تقدَّم السُّلْطان إلى عسكر مِصْر بالمسير، وأوصاهم بالاحتراز عند مُقاربة العدو، فأقاموا ببِلْبِيس* أياماً حتى اجتمعت القوافل إليهم، واتصل خَبَرهم بالعدو، ثم ساروا طالبي البلاد، والعدو يترقَّبُ أخبارهم، ويتوصل إليهم بالعرب المفسدين.

ولما تحقَّق العدوُّ أَمْرَ[2] القَفْلِ أَمَرَ عسكره بالانحياز إلى سَفْح الجبل، وركِبَ في ألف راكب مُرْدِفين ألفَ راجل، فأتى تَلَّ الصَّافية، فبات، ثم سار حتى أتى ماءً يقال له الحَسي، فأنفذ السُّلْطان إلى القافلة ينذرهم نهضة العدو، وأمرهم أن يُبْعدوا في البرِيَّة.

وركب الإنكلتير الملعون مع العَرَب بجمعٍ يسير، وسار حتى أتى القَفْل، وطاف حوله في صورة عَرَبي، ورآهم ساكنين قد غَشِيَهُمُ النُّعاس، فعاد، واستركب عسكره، وكانت الكَبْسةُ قريبةَ الصَّباح،

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٠٨.

(٢) في (ك): خبر.

فَبَغَتَ النَّاسَ، ووقع عليهم بخيله ورَجْله، فكان الشجاعُ الأَيِّد القوي الذي ركب فرسَه ونجا بنفسه.

وانقسم القَفْل ثلاثة أقسام: قسم قصدوا الكَرك* مع جماعةٍ من العَرَب، وقسم أوغلوا في البرية مع جماعةٍ من العرب، وقسم استولى العدو عليهم، فساقهم بجمالهم وأحمالها، وجميعَ ما معهم، وكانت وقعة شنعاء لم يُصَبِ الإسلامُ بمثلها من مُدَّة مديدة، وتبدَّد النَّاسُ في البرية، ورموا أموالهم، وكان السعيد منهم من نجا بنفسه، وجمعَ العدو ما أمكنه جَمْعُه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال، وكلَّف الجَمَّالين خدمة الجمال، والخَرْبَنْدِيَّة* خدمة البغال، والسَّاسة خدمة الخيل، وسار في جَحْفَلٍ من غنيمةٍ يطلُبُ عسكره.

ولقد حكى مَنْ كان أسيراً معهم أنه في تلك الليلة وقع فيهم(١) الصَّوتُ أَنَّ العسكر السُّلْطاني قد لحقهم، فتركوا الغنيمة، وانهزموا، وبَعُدُوا عنها زماناً، ثم انكشف الأمر، فعادوا وقد هَرَبَ جمعٌ من الأَسْرى، وكان الحاكي منهم، وأخبر أنَّ الأسارىٰ خمس مئة، والجمال تناهز ثلاثة آلاف جمل.

ووصل العدو إلى مخيَّمه سادس عشر جُمادى الآخرة، وكان يوماً عظيماً عندهم، وَصَحَّ عزمهم على القُدْس، وقويت نفوسهم بما حَصَلوا عليه من الأموال والجمال التي تنقل المِيْرَة والأزواد، ورتَّبوا

---

(١) في (ك): عليهم.

جماعةً على لُدّ* يحفظون الطريق على من ينقل المِيْرَة، وأنفذوا الكند هري إلى صور وأطرابُلُس وعكا يستحضر مَنْ فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القُدْس حرسه الله تعالى.

ولما عَرَفَ السُّلْطان ذلك منهم عَمَدَ إلى الأسوار فَقَسمها على الأُمراء، وتقدَّم إليهم بتهيئة أسباب الحصار، وأَخَذَ في إفساد المياه ظاهر القُدْس، فخرَّب الصَّهاريج والجباب، بحيث لم يبق حول القُدْس ماء يُشْرَبُ أصلاً، وأرض القُدْس لا يُطْمَعُ في حفر بئرٍ فيها ماء مَعِيْن في جميعها، لأنها جبلٌ عظيم، وحَجَرٌ صُلْبٌ، وسَيَّر إلى العساكر يطلبها من الجوانب والبلاد[1].

قال: ولما كانت ليلة الخميس تاسع عشر جُمادى الآخرة أحضَر السُّلْطان الأُمراءَ عنده، فحضر الأمير أبو الهيجاء السَّمين بمشقَّةٍ عظيمة، وجلس على كُرْسي في خدمة السُّلْطان، وحضر المشطوبُ والأَسَدِية بأَسْرِهم وجماعة الأمراء، ثم أمرني أَنْ أكلِّمَهم وأَحُثَّهم على الجهاد.

فذكرتُ ما يَسَّر الله من ذلك، وكان مما[2] قُلْتُه أَنَّ النبي ﷺ لما اشتدَّ به الأمر بايعه الصَّحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على الموت في لقاء العدو، ونحن أَوْلى من تأسَّىٰ به ﷺ، والمصلحة الاجتماع عند الصَّخْرة، والتحالف على الموت، فلعلَّ ببركة هذه النِّية يندفع هذا العدو. فاستحسن الجماعة ذلك، ووافقوا عليه.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢١٣ ـ ٢١٥.

(٢) في (ك): فيما.

ثم شَرَعَ السُّلْطان بعد أن سكت زماناً في صورة فِكْرٍ، والنَّاس سكوت كأَنَّ على رؤوسهم الطير، ثم شرع، وقال:

الحمد لله، والصَّلاة على رسول الله، اعلموا أنكم جُنْدُ الإسلام اليوم ومَنَعَتُه، وأنت تعلمون أَنَّ دماء المسلمين وأموالهم وذراريهم مُعَلَّقة في ذممكم، وأَنَّ هذا العدو ليس له من المسلمين مَنْ يلقاه إلا أنتم، فإنْ لويتم أَعِنَّتكم ـ والعياذ بالله ـ طوى البلاد كطيِّ السِّجِلِّ للكتاب، وكان ذلك في ذِمَّتكم، فإنَّكم أنتم الذين تصديتُم لهذا كلِّه، وأكلتم مال بيت مال المسلمين، فالمسلمون في سائر البلاد متعلِّقون بكم، والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدِّين المشطوب، وقال: يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك، وأنت الذي أنعمت علينا، وكَبَّرْتنا، وعَظَّمتنا، وأعطيتنا، وأغنيتنا، وليس لنا إلا رقابنا وهي بين يديك، والله ما يرجع أحدٌ مِنّا عن نُصْرتك إلى أن يموت.

فقال الجماعة مِثْلَ ما قال، وانبسطت نَفْسُ السُّلْطان بذلك المجلس، وطاب قَلْبُه، وأطعمهم، ثم انصرفوا.

ثم انقضى يوم الخميس على أشدِّ حالٍ في التأَهُّب والاهتمام، حتى كان العِشاءُ الآخرة اجتمعنا[١] في خدمته على العادة، وسَمَرْنا حتى مضى هَزِيْعٌ من الليل، وهو غير منبسطٍ على عادته، ثم صَلَّينا العشاء، وكانت الصَّلاة هي الدُّستور العام، فصلَّينا وأخذنا في

---

(١) في (ك): واجتمعنا.

الانصراف، فدعاني[1] ـ رحمه الله ـ وقال[2]: أَعَلِمْتَ ما الذي تجدَّد؟ قلتُ: لا. قال: إنَّ أبا الهيجاء السَّمين أنفذ إليَّ اليوم، وقال: إنَّه اجتمع عندي جماعة المماليك الأُمراء، وأنكروا علينا
١٩٩/٢ موافقتنا لك على الحصار، والتأَهُّب له، وقالوا: لا مصلحة في ذلك، فإنَّا نخافُ أن نُحْصَرَ، ويجري علينا ما جرىٰ على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلادُ الإسلام جمعاً[3]، والرأي أن نلقىٰ مَصَافَّ، فإنْ قَدَّر الله أن نهزمهم ملكنا بقيَّة بلادهم، وإن تكن الأُخرى سَلِمَ العسكر، ومضى القُدْس، وقد انحفظت بلادُ الإسلام بعساكرها مُدَّة بغير القدس.

وكان ـ رحمه الله ـ عنده من القُدْس أمرٌ عظيم لا تحمله الجبال، فشقَّ عليه هذه الرِّسالة، وأقمتُ تلك الليلة في خدمته حتى الصَّباح، وهي من اللَّيالي التي أحياها في سبيل الله ـ رحمه الله ـ وكان مما قالوه في الرِّسالة: إنك إن أردتنا نقيم فتكون معنا أو بعض أهلك، حتى نجتمع عنده، وإلا فالأكراد لا يدينون للأتراك، والأتراك لا يدينون للأكراد.

وانفصل الحال على أن يقيم من أهله مجد الدين بن فَرُّخْشاه صاحب بَعْلَبَك[4]، وكان ـ رحمه الله ـ يحدِّث نفسه بالمقام، ثم منعه رأيه عنه لما فيه من خَطَرِ الإسلام.

---

(١) في (ك): فاستدعاني.
(٢) في (ك): وقال لي.
(٣) في (ك): أجمع.
(٤) هو بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، تسلم بعلبك بعد وفاة أبيه سنة (٥٧٨ هـ)، وكان من شعراء بني أيوب، وقد طبع ديوانه في =

فلما قارب الصُّبْح أشفقتُ عليه وخاطبتُهُ في أن يستريح ساعةً لعلَّ العينَ تأخذ حَظَّها من النَّوْم، وانصرفتُ عنه إلى داري، فما وصلتُ إلا والمؤذن قد أَذَّن، فأخذتُ في أسباب الوضوء، فما فرغتُ إلا والصُّبْح قد طلع، وكنتُ أُصَلِّي الصُّبْح معه في غالب الأحوال، فَعُدْتُ إلى خدمته وهو يجدِّد الوضوء، فصلَّينا، ثم قلتُ له: قد وقع لي واقعٌ أعرضه، فأَذِنَ لي فيه.

فقلتُ: المولى في اهتمامه وما [قد][1] حَمَّل نفسه من هذا الأمر مجتهدٌ فيما هو فيه، وقد عَجَزَتْ أسبابُهُ الأَرْضية، فينبغي أن ترجع إلى الله تعالى، وهذا يوم الجمعة، وهو أبرك أيام الأُسبوع، وفيه دعوةٌ مستجابة في صحيح الأحاديث، ونحن في أبرك موضعٍ نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا، فالسُّلْطان يغتسل للجمعة، ويتصدَّق بشيءٍ خِفْيَةً بحيث لا يُشْعَر أنه منك، وتصلِّي بين الأذان والإقامة ركعتين تُنَاجي فيهما رَبَّك، وتفوِّض مقاليد أمورك إليه، وتعترف بعجزك عما تصدَّيت له، فلعلَّ الله يرحمك ويستجيب دُعاءك.

= بغداد بتحقيق ناظم رشيد، ثم أعيد طبعه في مصر سنة ١٩٩١ بتحقيق د. غريب محمد علي أحمد، وقد توفي سنة (٦٢٨ هـ)، ولم يؤرخ له أبو شامة في «المذيل على الروضتين». انظر ترجمته في «مرآة الزمان» (خ): ٨/ ٦٦٦، و«الحوادث الجامعة» ٢٦، و«المختصر في تاريخ البشر» ٣/ ١٤٦، و«فوات الوفيات»: ١/ ١٥٠، و«مرآة الجنان»: ٤/ ٦٥، و«البداية والنهاية» ١٣/ ١٣١، و«السلوك» للمقريزي ١/ ١/ ٢٤٠، و«النجوم الزاهرة» ٦/ ٢٧٥، و «مفرج الكروب» ٤/ ٢٨٤، و «كنز الدرر» ٧/ ٣٠١، و «شفاء القلوب» ٣٣٣ ـ ٣٣٧، و «شذرات الذهب» ٥/ ١٦٩. وانظر ٣/ ١٢٦ ـ ١٢٧ من هذا الكتاب.

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

قال: وكان ـ رحمه الله ـ حسن العقيدة، تامَّ الإيمان يتلقَّى الأمور الشَّرْعية بأكمل انقيادٍ وقَبُول. ثم انفصلنا، فلما كان وقتُ الجمعة صلَّيْتُ إلى جانبه في الأقصىٰ، وصلَّى رَكْعتين، ورأيتُهُ ساجداً وهو يذكر كلمات، ودموعُهُ تتقاطَرُ على مُصَلاَّه، رحمه الله.

ثم انقضت الجمعة بخير، فلما كان عَشِيَّتُها، ونحن في خدمته على العادة وصلت رُقْعة جُرْدِيك ـ وكان في اليَزَك* ـ يقول فيها: إنَّ القوم ركبوا بأَسْرهم، ووقفوا في البَرِّ على ظهر، ثم عادوا[1] إلى خيامهم، وقد سَيَّرْنا جواسيس تكشِفُ أخبارهم.

ولما كان صبيحة السبت وصلت رُقْعة أُخرى يخبر فيها أن الجواسيس رجعوا وأخبروا أَنَّ القوم اختلفوا في الصُّعود إلى القُدْس والرَّحيل إلى بلادهم، فذهب الفرنسيسية إلى الصُّعود إلى القُدْس، وقالوا: نحن إنما جئنا من بلادنا بسبب القدس، ولا نرجع دونه. وقال الإنكتار: إنَّ هذا الموضع قد أُفسدت مياهه، ولم يبق حوله ماء أصلاً، فمن أين نشرب؟ قالوا له: نشرب من نهر نقوع، وبينه وبين القُدْس مقدار فرسخ. فقال: كيف نذهب إلى السَّقي؟ فقالوا: ننقسم قسمين، قسم يذهب إلى السقي مع الدوابِّ، وقسم يبقى على البلد مع اليَزَك*، ويكون الشُّرْب في اليوم مرَّة.

فقال الإنكلتير: إذاً يؤخذ العسكر البَرَّاني الذي يذهب مع الدَّواب، ويخرج عسكر البلد على الباقين، ويذهب دين النَّصْرانية.

---

(١) في (ك): ساروا.

فانفصل الحالُ على أَنَّهم حكَّموا ثلاث مئة من أعيانهم، وحَكَّمَ الثلاث مئة اثني عشر من أعيانهم[1]، وحكَّم الاثنا عشر ثلاثة منهم، وقد باتوا على حُكْم الثلاثة، فما يأمرونهم به يُفْعل، فلما أصبحوا حكموا عليهم بالرَّحيل، فلم يمكنهم[2] المخالفة، وأصبحوا في بُكْرة الحادي والعشرين من جُمادىٰ الآخرة راحلين إلى نحو الرَّمْلة*، ناكصين على أعقابهم، ولله الحمد.

ووقف عسكرهم إلى أن لم يبق في المنزلة إلا الآثار، ثم نزلوا بالرَّمْلة، وتواتر الخَبَرُ بذلك، فركب السُّلْطان ـ قَدَّس الله روحه ـ وركب النَّاس، وكان سرور وفرح، ولكن السُّلْطان خاف على مِصْر لما حصلوا عليه من الجمال والظَّهْر، وكان قد ذكر الإنكلتير مثل هذا مراراً[3].

فصــل

في تردُّد رُسُل الإنكلتير في معنى الصُّلْح
وما جرى في أثناء ذلك إلى أَنْ تَمَّ، ولله الحمد

وقد ساق ذلك القاضي ابن شَدَّاد أحسنَ سياق، واستقصى الأمر فيه بخلاف العماد، فقال: إنَّ[4] الإنكلتير جاء منه رسول يقولُ: قد هلكنا نحنُ وأنتم، والأصلح حَقْنُ الدِّماء، ولا ينبغي أن يُعتقد أن

(١) في (ك): وحكَّم ثلاث مئة اثني عشر منهم.
(٢) في الأصل: تمكن، والمثبت من (ك).
(٣) «النوادر السلطانية»: ٢١٦ ـ ٢١٨.
(٤) في (ك): فذكر أن.

ذلك عن ضَعْفٍ مني بل للمصلحة، ولا يُغترّ بتأَخُري عن منزلي، فالكبش يتأخَّر لينطح.

ثم جاء رسولُه يقول: لا يجوز لك أن تُهلك المسلمين كُلَّهم، ولا يجوز لي أَنْ أُهلك الفرنج كُلَّهم، وهذا ابن أُختي الكند هري قد مَلَّكْتُهُ هذه الدِّيار، وسَلَّمْتُهُ إليك يكونُ هو وعسكره بحكمك، ولو استدعيتَهُمْ إلى الشَّرْق سَمِعُوا وأطاعوا، وأَنَّ جماعةً من الرُّهْبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس، فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلبُ منك كنيسةً، وتلك الأمور التي كانت تضيِّق صدرك لما كانت تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلتُ بتركها، وأعرضت عنها، ولو أعطيتني مِقْرَعة أو قَرِيَّةً[1] قَبَّلْتُها وقَبِلْتُها.

٢/٢٠٠ فاستشارَ السُّلْطان الأُمراء في جوابه، فأشاروا بالمحاسنة وعَقْدِ الصُّلْح؛ لما كان قد أخذ المسلمين من الضَّجر والتَّعب، وعلاهم من الدُّيون، واستقرَّ الحالُ على هذا الجواب: إنك إذا دَخَلْتَ معنا هذا الدُّخول فما جزاءُ الإحسان إلا الإحسان، ابن أُختك يكون عندي كبعض أولادي، وسيبلغك ما أفعل في حَقِّه من الخير، وأنا أُعطيك أكبر الكنائس وهي القيامة*، وبقيَّة البلاد نَقْسِمُها، والسَّاحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا، وما بين العملين يكون مناصفة، وعَسْقلان وما وراءها تكون خَرَاباً لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قُرَاها كانت لكم، والذي كنتُ أكرهُهُ حديث عسقلان. فانفصل الرَّسول طَيِّب القَلْب.

---

(١) المقرعة: السوط، كل ما قرعت به. والقَرِيَّة: العصا. انظر «معجم متن اللغة» ٤/ ٥٤٢، ٥٥٥.

قال: واتصل الخبر أنهم بعد وصول الرَّسول إليهم راحلون إلى جهة عَسْقلان، طالبون جهة[1] مِصْر.

ووصل رسولٌ من جانب قُطْب الدِّين بن قَلِيج أَرْسلان يقول: إن البابا قد وَصَلَ إلى قُسْطنطينية في خَلْق لا يعلم عدَدَهم إلا الله تعالى، وقال الرَّسول: إني قَتَلْتُ في الطَّريق اثني عشر فارساً، ويقول: تقدَّم إلى مَنْ يتسلَّم بلادي مني، فإني قد عَجَزْتُ عن حِفْظها. فلم يصدِّق السُّلْطان هذا الخبر، ولا اكترث[2] به.

ثم جاء رسول الإنكلتير يطلبُ أن يكون في قلعة القُدْس عشرون نَفَراً، وأَنَّ من سَكَنَ من النَّصارى والفرنج في البلد لا يُتَعَرَّض لهم، وأما بقية البلاد فلنا منها السَّاحليات والوطاة، والبلاد الجبلية لكم، وأخبر الرسولُ من عند نفسه مناصحةً أنهم قد نزلوا عن حديث القُدْس ما عدا الزِّيارة، وإنما يقولون هذا تصنُّعاً، وأَنَّهم راغبون في الصُّلْح، وأَنَّ الإنكلتير لا بُدَّ له من الرَّواح إلى بلده.

فأُجيب بأنَّ القُدْس ليس لكم فيه حديثٌ سوى الزِّيارة. فقال الرَّسول: وليس على الزُّوار شيءٌ يُؤْخذ منهم؟ فَعُلِمَ من هذا القول الموافقة.

وأما البلاد فعسقلان وما وراءها لا بُدَّ من خَرَابه. فقال الرسول: قد خَسِرَ الملكُ على سورها مالاً جزيلاً، فسأل المشطوبُ

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢١٩ ـ ٢٢٠.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٢٠.

أن يجعل مزارِعَها وقُرَاها في مقابل خسارته. فأجاب السُلْطان: وأن الدَّاروم* وغيره يُخْرَب، ويكون بلدها مناصفة، وأما باقي البلاد فيكون لهم من يافا إلى صور بأعمالها، ومهما اختلفنا في قرية كانت مُنَاصفة.

ثم جاء الرسول يقول: الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة(١)، وأي قَدْرٍ لها عند ملكك وعظمتك، وما سببُ إصراره عليها إلا أَنَّ الفرنج لم يسمحوا بها، وهو قد ترك القُدْس بالكُلِّيَّة لا يطلب أن يكون فيه لا رُهْبان ولا قسوس إلا في القيامة وحدَها، فتترك له أنت هذه البلاد ويكون الصُلْح عامّاً، فيكون لهم كل ما في أيديهم من الدَّاروم* إلى أنطاكية*، ولكم ما في أيديكم، وينتظم الحال ويروح، وإن لم ينتظمِ الصُلْح، فالفرنج ما يمكِّنونه من الرَّوَاح، ولا يمكنه مخالفتهم(٢).

قال القاضي: فانظر إلى هذه الصِّناعة في استخلاص الفُرَص، باللِّين تارةً، وبالخشونة أُخرى، وكان ـ لعنه الله ـ مضطراً إلى الرَّوَاح، وهذا عمله مع اضطراره، والله المسؤول في أن يكفي المسلمين مكره، فما بُلُوا بأعظم حيلةً، ولا أشدّ إقداماً(٣) منه.

فأجابه السُلْطان بأَنَّ أنطاكية* لنا معهم حديث، ورسُلُنا

---

(١) في الأصل: أن تنزل له عن هذه الأماكن الثلاثة عامرة، والمثبت من (ك).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٢٢١.

عندهم، فإنْ عادوا بما نريد أدخلناهم في الصُّلح، وإلا فلا، وأما البلاد التي سألها فلا يوافق المسلمون على دَفْعها إليه، وإلا فلا قدر لها. وأما سُوْرُ عسقلان فيأخذ في مقابلة ما خَسِرَ عليه لُدّاً في الوطاة[1].

ثم عاد الرسولُ، وقال: إن الملك قال لا يمكننا أن نخرِّب من عَسْقلان حجراً واحداً، ولا يُسْمع عنا في البلاد مثل ذلك. وأما البلاد فحدودها معروفة، لا مناكرة فيها. وعند ذلك تأَهَّب السُّلْطان للخروج إلى جهة العدوّ، وإظهار القوة، وشدَّة العَزْم على اللِّقاء[2].

وبلغه في العاشر من رجب أنَّ الفرنج ـ خذلهم الله ـ قد رحلوا طالبين نحو بيروت، فبرَّز من القُدْس إلى منزلةٍ يقال لها الجيب، وجاء العادِلُ من الشَّرْق، والظَّاهر من حلب، ورحل من الجيب إلى بيت نوبة*، ثم رحل إلى الرَّمْلة*، فنزل بها على تلالٍ بين الرملة ولدّ، وركب جريدةً حتى أتى يازُور* وبيت دَجَن*، وأشرف على يافا، ثم نزل عليها من الغد، ورتَّب عسكره، في الميمنة ولده الظاهر، وفي الميسرة أخوه العادل، وركَّب المنجنيقات، وزحف عليها، فأرسل العدو رسولين نَصْرانياً وفرنجياً يطلبان الصُّلح، فطلب منهم قاعدة القُدْس وقطيعته، فأجابوا إلى ذلك، واشترطوا أن يُنْظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رَجَب، فإن جاءتهم نجدة، وإلا تَمَّتِ القاعدة على ما استقرّ.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٢١.

(٢) المصدر السالف: ٢٢١ ـ ٢٢٢.

فأبىٰ السُّلطان الإنظار، وأمر بالنَّقْب فَحُشِيَ وأُحرق، فوقع بعض البدنة، فوضع العدو أخشاباً عظيمة خلف النَّقْب، فالتهب فمنع[1] من الدُّخول في الثُّلمة، وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل، فلما أصبحوا وقعت البدنة فعلا غُبارٌ مع الدُّخان، فأظلم الأُفق، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النَّار، فلما انكشفت الغَبَرَة ظَهَرَتْ أَسِنَّةٌ قد نابت مناب الأسوار، ورماح قد سَدَّتِ الثُّلمة حتى عن نفوذ الأبصار، ورأى النَّاس هولاً عظيماً من صَبْرِ القوم وثباتهم، ولقد رأيتُ رجلين على ممشىٰ السور يمنعان المتسلِّق فيه من جهة
٢٠١/٢ الثُّلمة، وقد أتى أحدَهما حَجَرُ المنجنيق، فأخذه، ونزل إلى داخل، فقام رفيقُه في مقامه، مُتَصدِّياً لمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر، بحيث لم يفرق بينهما إلا ناقدٌ[2] بصير.

ولما رأى العدو ما قد آل الأمرُ إليه سَيَّروا يطلبون الأَمان، فقال ـ رحمه الله ـ: الفارس بفارس والتركبلي[3] بمثله، والرَّاجل بالرَّاجل، والعاجز فعلى قطيعة القُدْس.

فنظر الرَّسولُ ورأىٰ القِتال على الثُّلمة أشد من إضرام النَّار، فسأل السُّلطان أن يُبَطِّل القتال إلى أن يعود، فقال: ما أقدرُ على مَنْعِ المُسلمين من هذا الأمر، ولكن ادخل إلى أصحابك فَقُلْ لهم ينحازون إلى[4] القلعة، ويتركون النَّاس يشتغلون بالبلد فما بقي دونه

(١) في (ك): فالتهبت فمنعت.

(٢) انظر «النوادر السلطانية»: ٢٢٢ ـ ٢٢٤.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ١٥١ من الجزء الثاني.

(٤) في (ك): عن.

مانع. ففعلوا، وانحازوا إلى قلعة يافا بعد أن قُتِلَ منهم جماعة، ودخل النَّاس البلد عَنْوَةً، ونهبوا منه أقمشةً عظيمة، وغلالاً كثيرة، وأثاثاً وبقايا قُماشٍ ما نُهِبَ من القافلة المِصْرية، واستقرَّتِ القاعدةُ على الوجه الذي قَرَّره السُّلْطان.

وكان قايماز النَّجْمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدو الذي بعكا، فوصل منه كتابٌ يخبر فيه أَنَّ الإنكلتير الملعون لما سَمِعَ خبر يافا أعرض عن قصد بيروت، وعاد على قَصْد يافا، فاشتدَّ عَزْمُ السُّلْطان على تتمة الأمر، وتسلُّم القلعة، وكنتُ ممن لم يَرَ الأمان لأنه قد لاح أخذُهم، وكان النَّاس لهم مُدَّة لم يظفروا من العدو بمغنمٍ يوثبهم عليه، فكان أَخْذُهم عَنْوَةً مما يبعث هِمَم العسكر، غير أَنَّ الأمان وقع واتفق الصُّلْح، فكنتُ بعد ذلك ممن يحثُّ على إخراجِ العدو من القلعة وتسلُّمِها خوفاً من لحوق النجدة.

وكان السُّلْطان يشتدُّ حِرْصُهُ على ذلك غير أَنَّ النَّاس قد أقعدهم التَّعَبُ عن امتثال الأمر، وأخذ منهم الحديد وشِدَّةُ الحَرِّ ودخان النَّار، بحيث لم يبق لهم استطاعة على الحركة.

وسَمِعْنا بوق الفرنج في السَّحَر، فعلمنا بوصول النجدة، فسيَّر السلطانُ معي عِزَّ الدين جُرْديك وعَلَم الدين قيصر، ودرباس المهراني، وعدل الخزانة شمس الدين، وقال: امضِ إلى الملك الظَّاهر وقُلْ له يقف ظاهر الباب القِبْلي، وتدخل أنت ومن تَرَاه إلى القَلْعة، وتُخرجون القوم، وتستولون على ما فيها من الأموال والأسلحة، وتكتبها بخطِّك إلىٰ الظَّاهر، وهو ظاهر البلد، وهو يسيِّرها إلينا.

ففعلنا ودخَلْنا القلعة، وأمرنا الفرنج بالخروج، فأجابوا وتهيؤوا، فقال جُرْديك: لا ينبغي أن يخرج منهم أحد حتى يخرجَ النَّاسُ من البلد خشيةَ أن يتخطَّفوهم. وكان النَّاس قد داخلهم الطَّمع في البلد، وأخذ يشتدُّ في ضَرْب النَّاس وإخراجهم، وهم غير مضبوطين بعِدَّةٍ، ولا محصورين في مكان، فكيف يمكن إخراجهم؟!

وطال الأمر إلى أن علا النَّهار، وأنا ألومُهُ، وهو لا يرجع عن ذلك، والزمان يمضي، فلما رأيت الوقت يفوت، قلتُ له: إن النجدة قد وصلت، والمصلحة المسارعة في إخراجهم. فأجاب، وأخرجنا خمسةً وأربعين نفراً بخيولهم ونسائهم، وسَيَّرناهم، ثم اشتدَّتْ أنفُس الباقين، وحدَّثتهم نفوسُهُمْ بالعِصْيان، وكانوا[1] استقلُّوا المراكب التي جاءتهم، وظنُّوا أن لا نجدةَ لهم فيها، ولم يعلموا أنَّ الإنكلتير مع القوم، ورأوهم قد تأخَّروا عن النزول إلى عُلُوِّ النَّهار، فخافوا أن يمتنعوا، فيؤخذوا ويقتلوا، فخرج من خَرَجَ، ثم بعد ذاك قويت النجدة حتى صاروا خمسةً وثلاثين مركباً، فقويت نفوسُ الباقين في الحِصْن، فظهرت منهم أمارات العِصْيان ودلائله.

فقلتُ لأصحابنا: خذوا حِذْركم فقد تغيَّرت عزائمُ القوم. فما كان إلا ساعة بحيثُ صِرْتُ خارجَ البلد، وقد حَمَلَ القومُ من القلعة، وأخرجوا مَنْ كان في البلد من الأجناد، ولقد ازدحَمَ النَّاس في الباب حتى كاد يتلفُ منهم جماعة، وبقي في بعض الكنائس

(١) في الأصل: فكانوا، والمثبت من (ك).

جماعة من رعاع العَسْكر مشتغلين بما لا يجوز، فهجموا عليهم، وقتلوا منهم وأسروا، وعُرِّفَ السُّلْطان، فأمر النَّاسَ، فزحفوا، وعاد الحصارُ كما كان، وحشروا العدو في القلعة، واستبطؤوا نزول النجدة إليهم، وخافوا خوفاً عظيماً، فأرسلوا بطركهم والقسطلان* إلى السُّلْطان يعتذران مما جرى، ويسألانه القاعدة الأولى.

وكان سببُ امتناع نزول النجدة أنهم رأوا البلد مشحوناً ببيارق المُسْلمين ورجالهم، فخافوا أن تكون القلعة قد أُخذت، وكان البحر يمنع من سماع الصَّوْت وكثرة[1] الضجيج والتهليل والتكبير، فلما رأى مَنْ في القَلْعة شِدَّةَ الزَّحْف عليهم، وامتناع النجدة من النُّزول مع كَثْرتها، فإنَّها بلغت نيفاً وخمسين مركباً، منها خمسة عشر من الشواني* علموا أَنَّ النجدة قد ظنوا أَنَّ البلد قد أُخِذ، فوهب رَجُلٌ منهم نفسه للمسيح، وقفز من القلعة إلى الميناء، وكان رملاً، فلم يُصِبْه شيء، وعدا إلى البحر، فحدَّث الإنكلتير بالحديث، فما كان إلا ساعة حتى نزل كل من في الشَّواني إلى الميناء، هذا كلُّه وأنا أشاهد ذلك، فحملوا على المسلمين، فأخرجوهم من الميناء، فقبَضَ السُّلْطان على الرُّسُل، وأمر بتأَخُّر الثَّقَل والأسواق إلى يازُور*، فرحل النَّاس، وتأَخَّر[2] لهم ثَقَلٌ عظيم مما كانوا نهبوا من يافا[3].

وخرج الإنكلتير إلى موضع السُّلْطان الذي كان فيه لمضايقة

(١) في (ك): من كثرة.

(٢) في (ك): وتخلف.

(٣) في «النوادر السلطانية»: ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

البلد، وأمر مَنْ في القَلْعة أن يخرجوا إليه ليعظم[1] سوادُه.

ثم اجتمع به جماعةٌ من المماليك طلبهم، وحَضَرَ الحاجبُ أبو بكر العادِلي، وكان قد صادَقَ جماعةً من خواصِّ المماليك، ودخل
٢٠٢/٢ معهم دخولاً عظيماً، بحيث كانوا يجتمعون به في أوقاتٍ متعدِّدة، وكان قد صادق من الأُمراء جماعةً كبدر الدين دُلْدُرُم وغيره، فلما حضروا عنده جَدَّ وهَزَلَ، ومن جُمْلة ما قال:

هذا السُّلْطان عظيمٌ، وما في الأرض للإسلام ملكٌ أكبر ولا أعظمُ منه، كيف رَحَلَ عن المكان بمجرَّد وصولي، ووالله ما لبِسْت لأمَة حَرْبي ولا تَأَهَّبْتُ لأمرٍ، وليس في رِجْلَيَّ إلا زربول البحر، فكيف تأخر؟!

ثم قال: والله إنه لعظيم، والله ما ظننتُ أنه يأخذ يافا في شهرين، فكيف أخذها في يومين؟! ثم قال لأبي بكر الحاجب: تُسَلِّم على السُّلْطان، وتقول له: بالله عليك أَجِبْ سؤالي في الصُّلْح، فهذا أمر لا بُدَّ له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر، وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم.

فأرسل السُّلْطان إليه في الجواب: إنك كنتَ طَلَبْتَ الصُّلْح أولاً على قاعدةٍ، وكان الحديث في يافا وعَسْقَلان، والآن فقد خَرِبَتْ هذه يافا، فيكون [لك][2] من قَيْسارِيَّة إلى صور.

---

(١) في (ك): فيعظم.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

فأرسل الإنكلتير يقول: إنَّ قاعدة الإفرنج أنَّه إذا أعطى واحدٌ لواحدٍ بلداً صار تبعه وغُلامه، وأنا أطلب منك هذين البلدين: يافا وعَسْقلان، وتكون عساكرهما في خدمتك دائماً، وإذا احتجتَ إليَّ وصلتُ إليك في أسرع وقتٍ، وخدمتك كما تعلم خدمتي.

فقال السُلْطان: حيثُ دَخَلْتَ هذا المدخل، فأنا أجيبك على أن تجعل البلدين قسمين: أحدهما لك، وهو يافا وما وراءها. والثاني: لي، وهو عَسْقلان وما وراءها. ثم رَتَّبَ السُلْطان اليَزَك* بيازُور*، وأمر بخرابها وخراب بيت دَجَن*، ورَتَّب النَّقَّابين لذلك، وسار إلى الرَّمْلة، فعاد رسول الإنكلتير يشكر على إعطائه يافا، ويجدِّدُ السؤال في عسقلان، ويقول له: إن وقَعَ الصُلْح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده، وإلا احتاج أن يشتِّي ها هنا.

فأجابه السُلْطان في الحال، وقال: أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه، وأما تشتيته ها هنا فلا بُدَّ منها، لأنه قد استولى على هذه البلاد، ويعلم أنَّه متى غاب عنها أُخذت بالضَّرورة، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله تعالى، وإذا سَهُلَ عليه أن يشتِّي ها هنا، ويبعُدَ عن أهله ووطنه مسيرةَ شهرين، وهو شابٌّ في عُنْفُوان شبابه، ووقت اقتناصِ لذَّاته ما يسهُلُ عليَّ أن أُشتِّي وأُصيِّف، وأنا في وسط بلادي، وعندي أهلي وأولادي، ويأتي إليَّ ما أريدُه ومَنْ أريده، وأنا شيخ كبير[1]، قد كرهت لذَّات الدُّنيا، وشَبِعْتُ منها، ورفضتها عنِّي، والعسكر الذي يكون عندي في الشِّتاء غير الذي يكون

---

(١) في (ك): وأنا رجل شيخ.

[عندي][1] في الصَّيف، وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات، ولا أزالُ كذلك حتى يعطي الله النَّصر لمن يشاء.

ثم جاء رسوله يقول: كم أطرحُ نفسي على السُّلْطان، وهو لا يقبلني، وأنا كنتُ أحرص حتى أعود إلى بلادي، والآن فقد هَجَمَ الشِّتاء، وتغيَّرَتِ الأنواء، وعَزَمْتُ على الإقامة، وما بقي بيننا حديث.

ثم بلغ السُّلْطان أنَّ عسكر العدو قد رحل من عكا قاصداً يافا، فسار ـ رحمه الله ـ فنزل على العَوْجاء*، ووصل من أخبره أَنَّ العدو دخل قيسارِيَّة*، ولم يبق فيه طمع، وبلغه أن الإنكلتير نازِلٌ خارج يافا في نَفَرٍ يسير، فوقع له أن يكبسه، فأتاه فوجد خِيَمَهُ نحو عشر خِيَم، فحملوا عليهم فثبتوا، ولم يتحرَّكوا من أماكنهم، وكَشَّروا عن أنياب الحَرْب، وكانوا على الموت أصبر، فارتاعَ المسلمون[2] منهم، ووجموا من ثَبَاتهم، وداروا حولهم حَلْقةً، وكانت عِدَّة الخيل سبعة عشر، وقيل: تسعة، والرجَّالة ثلاث مئة أو أكثر، فوجد السلطان من ذلك مَوْجِدَةً عظيمة، ودار على الأطلاب* بنفسه يحثُّهم على الحملة، ويَعِدُهُم بالحُسْنى [على ذلك][3] فلم يُجب دعاءه أحدٌ سوى ولدِه الظَّاهر[4].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): العسكر.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

(٤) «النوادر السلطانية»: ٢٢٧ ـ ٢٢٩.

قال: وبلغني أنه قال له الجناح أخو المشطوب: قُلْ لغِلْمانك الذين ضربوا النَّاس يوم فتح يافا، وأخذوا منهم الغنيمة يحملون. وكان في قلوب العسكر من صُلْح السُّلْطان على يافا حيث فَوَّتهم الغنيمة، فلما رأىٰ السُّلْطان ذلك أعرض عن القتال، وغضب، وسار إلى يازُور*.

قال: ولقد بلغني أنَّ الإنكلتير أخذ رُمْحه ذلك اليوم، وحمل من طَرَفِ الميمنة إلى طَرَفِ المَيْسرة، فلم يعرض له أحد[1].

قلت: ووصل من الفاضل كتابٌ من دمشق، يقول فيه: كَثُرَ الإرجاف بهلاك ملك الإنكلتير، فإن كان كذلك فجوابُ كلٍّ من قَصَّر في يافا [عن أخذه][2] عن السُّلْطان ﴿إلا تَنْصُرُوه فَقَدْ نَصَرَه الله﴾، وجوابُ السُّلْطان لهم عن ملك الإنكلتير: إلا تقتلوه فقد قتله الله. ولم يزل لطيفاً، ولم يزل مولانا يحمل الثقل ثقيلاً وخفيفاً، ومن كان الله عليه لم يكن قوياً، ومن كان الله معه لم يكن ضعيفاً.

قال القاضي: ثم سار السُّلْطان إلى النطرون، ثم إلى القُدْس، فنظر العمائر ورَتَّبها، ثم عاد إلى النطرون، وتوافت إليه فيه العساكر، ووصل علاءُ الدين ابن صاحب المَوْصل، ثم قَدِمَ عسكر مِصْر، وفيهم سيف الدين يازكوج، وجماعةُ الأسدية في خدمة ولده الملك المؤيَّد مسعود، ووصل المنصور ناصر الدين محمد بن تقي

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٢٩.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

الدين، فلقيه الظّاهر إلى بيت نوبة*، ودخل به على السُّلْطان، فنهض واعتنقه، وضمَّه إلى صَدْره، وغشيه البكاءُ، فَصَبَّر نفسَهُ حتى غلبه الأمر، فبكى النَّاسُ لبكائه ساعةً، ثم باسطه، وسأله عن الطريق، وكان معه عسكر جميل، فقرَّتْ عينُ السُّلْطان به، ثم سار
٢٠٣/٢ ونزل في مقدِّمة العسكر مما يلي الرَّمْلة[1].

ولما رأىٰ السلطانُ العساكر قد اجتمعت جَمَعَ أرباب الرأي، وقال: إن الإنكلتير قد مَرِضَ مرضاً شديداً، والإفرنسيسيَّة قد ساروا راجعين ليعبروا البحر من غير شكٍّ، ونفقاتُهُم قد قَلَّتْ، وأرىٰ أن نسير إلى يافا، فإن وجدنا فيها طمعاً، وإلا عُدْنا إلى عَسْقلان، فما تلحقها النجدة إلا وقد بلغنا منها غَرَضاً. فوافقوه على ذلك، فأرسل عِزَّ الدين جُرْديك، وجمال الدين فرج سادس شعبان حتى يكونا قريباً من يافا.

هذا، ورُسُل الإنكلتير لا تنقطع في طلب الفاكهة والثَّلْج، وأوقع الله عليه في مرضه شهوة الكُمَّثْرَىٰ[2] والخوخ. وكان السُّلْطان يمدُّه بذلك ويقصد كشف الأخبار بتواتر الرُّسُل، والذي انكشف له أَنَّ فيها ثلاث مئة فارس على قول المكثِّر، ومئتي فارس على قول المقلِّل، وأن الكند هري تردَّدَ بينه وبين الفرنسيسية في مقامهم، وهم عازمون على عبور البحر قولاً واحداً.

فسار السُّلْطان إلى جهة الرَّمْلة، وجاء رسول الإنكلتير مع

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٣٠ ـ ٢٣١.

(٢) هي المعروفة عندنا في الشام بالانجاص.

الحاجب أبي بكر يشكر السُلْطان على إسعافه بالفاكهة والثلج، وذكر أبو بكر أنه انفرد به، وقال له: قُلْ لأخي ـ يعني الملك العادل ـ يبصر كيف يتوصل إلى السُلْطان في معنى الصُلْح، ويستوهب لي منه عَسْقلان، وأمضي، ويبقىٰ هو ها هنا مع هذه الشِّرْذِمة اليسيرة، ويأخذ البلاد منهم، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية، وإن لم ينزل السُلْطان عن عسقلان، فتأخذ لي منه عِوَضاً عن خسارتي على عمارة سورها. فأرسل السُلْطان إلى العادل: إنْ نزلوا عن عسقلان فصالحهم، فإنَّ العسكر قد ضَجِرَ من ملازمة البيكار[1]، والنفقات قد نَفِدَتْ.

ثم إنَّ الإنكلتير نزل عن عَسْقلان وعن العِوَض عنها، واستوثق منه على ذلك، فأحضرَ السُلْطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان، وذكر يافا وعملها، وأخرج الرَّمْلَة منها، ولُدّ*، ومجدل يابا*، ثم ذكر قَيْسَارِيَّة* وأعمالها، وأَرْسُوف* وعملها، وحيفا وعملها، وعكا وعملها، وأخرج منها النَّاصرة* وصفورية*، وأثبت الجميع في ورقةٍ، وقال للرسول: هذه حدودُ البلاد التي تبقىٰ في أيديكم، فإن صالحتم على ذلك فمبارك، وقد أعطيتكم يدي، فينفِّذ الملك من يحلف في بُكْرة غد، وإلا فنعلم أنَّ هذا تدفيع ومماطلة.

وكان من القاعدة أن تكون عَسْقلان خراباً، وأن يتفق أصحابُنا وأصحابهم على خَرَابها، واشترط دخول بلاد الإسماعيلية، واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابُلُس في الصُلْح، وشرط أن تكون الرملة وَلُدّ بين المسلمين وبينهم مناصفة.

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٦١ من الجزء الثالث.

واستقرّت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء الثّاني والعشرين من شعبان، ورضي الإسبتارية* والدّاوية* وسائر مقدّمي الإفرنجية بذلك، ولم يحلف الإنكلتير، بل أخذوا يده، وعاهدوه، واعتذر بأنّ الملوك لا يحلفون، وقنع من السُّلْطان بمثل ذلك.

ثم حلف الجماعةُ، فحلف الكند هري ابن أخته المُسْتخلف عنه في السّاحل، وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية، ووصل ابن الهنفري وابن بارزان وجماعةٌ من مقدّميهم إلى السُّلْطان، فأخذوا يده على الصُّلْح، واقترحوا حلف جماعة العادل، والأفضل، والظّاهر، والمنصور، وسيف الدين المشطوب، ودُلْدُرم، وابن المقدّم، وصاحب شَيْزَر*، وكل مجاورٍ لبلادهم، وحُلِفَ لصاحب أنطاكية وطرابُلُس، وعَلّق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين(١).

قال: ووصل رسولُ سيف الدِّين بَكْتُمَر صاحب خِلاط يُبْدي الطاعة والموافقة، وتسيير العسكر، وحضر رسولُ الكُرْج(٢)، وذكر فصلاً في معنى الدِّيارات التي لهم في القُدْس وعمارتها، وشكوا من أَنّها أُخِذَتْ من أيديهم، ويسأل رَدَّها إلى أيدي نُوّابهم، ورسول صاحب أَرْزَن* الرُّوم يبذل الطّاعة والعبودية(٣).

قال العماد: وعُقِدَتْ هُدْنة عامّة في البَرّ والبحر، والسَّهْل والوَعْر، وجعل لهم من يافا إلى قَيْساريَّة إلى عكا إلى صور، وأدخلوا في الصُّلْح أطرابُلُس وأنطاكية، ووقعت المصالحة مُدَّة ثلاث

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٣١ ـ ٢٣٥.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٦٧ من الجزء الثاني.

(٣) المصدر السالف: ٢٣٤.

سنين وثلاثة أشهر، أولها مُبْتدأ أيلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان[1].

قال: وكان الفرنج قد ملؤوا يافا من الرِّجال والأسلحة والأقوات ليتقوَّوا بها على فَتْحِ القُدْس، لتكون لهم ظهراً وعوناً لقُرْبها من البيت المقدَّس.

قلت: ومن الألفاظ الفاضلية: وقد فعلت الأقدار في رياضة عرائكهم ما كان سببه هذه الحركات المباركة، وكيف يشنِّع ملك إنكلتير بالغَدْر، وهو ـ لعنه الله ـ قد أتى بأقبح الغَدْر وأفحشه في أهل عكا نهاراً جِهاراً، وشهد فيها بخَزْيته وفضيحته المسلمون والنَّصارى، وغَدْرُ الفرنجِ معلومٌ.

إذا غَدَرَتْ حَسْناءُ أَوْفَتْ بعَهْدِها وَمِنْ عَهْدِها أَنْ لا يدوم لها عَهْدُ

القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفسخون إذا قووا، ونحن ننتظر في ملك إنكلتير ما تُفْصح عنه المقادير في أمره، إما الهلاك وشاباش[2] لها، فيلقىٰ الأَحِبَّة: المركيس ودوك وملك الألمان، ويؤنس في النَّار غُرْبتهم، ويكثر عِدَّتهم[3]، وإما أن يُعافىٰ [والعياذ بالله][4] فهو بين أمرين، إما أن يرجع إلى لعنة الله، وإلى مروءة البحر في تغريقه، وإما أن يقيم، فهنالك [قد][4] أبدىٰ الشَّرُّ

---

(١) انظر «الفتح القسي»: ٦٠٥.

(٢) شاباش: كلمة فارسية معربة تقال في التهنئة والفرح، انظر «المعجم الذهبي» ٣٦٠ ـ ٣٦١، و«معجم عطية»: ٩٢.

(٣) في (ك): عددهم.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

٢٠٤/٢ ناجذيه، ونكص الملعون من الوفاء على عقبيه، وانتظر الفُرْصة لتُنْتَهز، والعورة لِيَثِب.

ومما قيل في هذه الهُدْنة أبياتٌ من قصيدة نجم الدين يوسف بن الحسين ابن المجاور[١] التي تقدَّمت في فَتْح البيت المقدَّس، وهي:

يا صاحِ قُلْ للإنكتير الكَلْبِ دَعْ عَنْكَ الجنونَ وخُذْ مقالةَ مُنْصِفِ
القُدْسُ ما فيه لِسَرْجِك مَطْمَعٌ كلا ولا نورُ الإله بِمُنطَفي
والمسجدُ[٢] الأقصى فعنه تَقَصَّ مِنْ وَقْعِ الدَّبابيسِ الأليمةِ تَعْرِفِ
واسْتَفْتِ نَفْسَك فهي أَخْبَثُ ناصحٍ واتْرُكْ متابعةَ اللَّجاج المُتْلِفِ
واعْجَبْ لرُمْحٍ بالرؤوس مُعَمَّمٍ واطْرَبْ لسيفٍ بالدِّماءِ مُغَلَّفِ[٢]
قد قُلْتُ لما قيل صُلْحٌ قد جرىٰ هذا حديثُ مُجَزَّفٍ ومُحَرِّفِ
سَلَفٌ تولَّى السيفُ عَقْدَ شروطه أَخْبِبْ به مِنْ مُسْلَمٍ ومُسَلِّفِ
ظَنُّوه سِلْماً وهو في أرواحهم سَلَمٌ إلى أجلٍ لهم متخلِّفِ

وذكر أبو الحسن ابن السَّاعاتي[٣] الإنكلتير هذا في شِعْره في قصيدةٍ مَدَحَ بها السُّلْطان ـ رحمهما الله ـ يقول فيها:

مُنِعَتْ ظِبَاءُ المُنْحنىٰ بأسوده وأشدّ ما أشكوه فَتْكَ ظِبائه
فَعَلَتْ بنا وهي الصَّديق لحاظُها كظُبَى صلاح الدين في أعدائه

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٩ وص ٣٦٦ من الجزء الثالث.

(٢ ـ ٢) ما بينهما ليس في (ك). وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٦٧ من الجزء الثالث.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٨ من الجزء الثالث.

سَلْ عنه قلب الإنكتار فإنَّ في خَفَقَانِهِ ما شئتَ من أنبائه
لولاك أَمَّ البيتَ غير مُدَافَعٍ ولسال سيل نَدَاك في بطحائه
وبَكَتْ جفونُ القُدْسِ ثانيةً دماً لترنُّمِ النَّاقوس في أَفنائِهِ[1]

فصل

فيما جرى بعد الهُدْنة

قال القاضي: أمر السُّلْطان أن يُنَادىٰ في الوطاقات* والأسواق: ألا إن[2] الصُّلْح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخلُ إلى بلادهم فليفعل. وأشاع ـ رحمه الله ـ أن طريق الحج قد فُتِحَ من الشَّام، ووقع له عَزْمُ الحجِّ في ذلك المجلس، وكنت حاضراً ذلك جميعَهُ، وأمر أن يُسَيِّر مئة نقَّابٍ لتخريب سور عسقلان، معهم أمير كبير، ولإخراج الفرنج منها، ويكون معهم جماعة من الفرنج إلى حين وقوع الخراب في السُّور خشيةً من استبقائه عامراً، ففعل ذلك، وخربت.

وكان يوم الصُّلح يوماً مشهوداً غشيَ النَّاسَ من الطَّائفتين من الفرح والسُّرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى، والله العليم أنَّ الصُّلْح لم يكن من إيثاره، فإنه قال لي في بعض محاوراته في الصُّلْح: أخاف أن أُصالح، وما أدري أَيش[3] يكون مني، فيقوىٰ هذا العدو، وقد بقي

---

(١) «ديوان ابن الساعاتي»: ١/٧٦ ـ ٧٧، ٢/٤١١.
(٢) في الأصل: الآن، والمثبت من (ك).
(٣) في (ك): أي شيء، وأيش منحوتة منها، انظر «معجم متن اللغة»: ١/٢٢٢.

لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم، وترى كلَّ واحدٍ من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تَلِّه ـ يعني حِصْنه ـ وقال: لا أنزل، ويهلك المسلمون.

فهذا كلامه، وكان كما قال ـ رحمه الله ـ لكنَّه رأى المصلحةَ في الصُلْح لسأم العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحةً [في][1] عِلْمِ الله تعالى، فإنه اتفقَتْ وفاتُهُ بُعيد الصُلْح، ولو كان اتَّفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خَطَرٍ، فما كان الصُلْح إلا توفيقاً وسعادةً من الله، رحمة الله عليه[2].

ورحل السُلْطان إلى النَّطرون، واختلط العسكران، وذهب جماعةٌ من المسلمين إلى يافا في طلب التِّجارة، ووصل خَلْقٌ عظيمٌ من العدو إلى القُدْس للحج، وفَتَحَ السُلْطان لهم الباب في ذلك، ونفَّذ معهم الخُفَراء يحفظونهم حتى يردُّوهم إلى يافا، وكان غرضُ السُلْطان بذلك أن يقضوا وَطَرهم من الزِّيارة، ويرجعوا إلى بلادهم، فيأمن المسلمون شَرَّهم.

ولما علم الملك كثرة من يزور منهم صَعُبَ عليه ذلك، وسَيَّر إلى السُلْطان يسأله منع الزُوَّار، واقترح أن لا يأذن لأحدٍ إلا بعد حضور علامةٍ من جانبه أو بكتابه، وعلمت الفرنجية ذلك، فَعَظُمَ عليها، واهتَمُّوا في الحج، فكان يَرِدُ في كلِّ يوم منهم جموعٌ كثيرة: مقدَّمون وأوساط وملوك متنكِّرون، وشَرَعَ السُلْطان في إكرام من يَرِدُ،

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٣٥.

ومدّ الطَّعام لهم، ومباسطَتِهم ومحادثتهم، وَعرَّفهم إنكار الملك ذلك، وأذن لهم السُّلْطان في الحَجِّ، وعَرَّفهم أنه لم يلتفت إلى مَنْعِ الملك من ذلك، واعتذر إلى الملك بأَنَّ قوماً قد وصلوا من ذلك البُعْد، ويُسِّر لهم زيارة هذا المكان الشريف لا استحلُّ منعهم.

ثم اشتدَّ المَرَضُ بالملك، فرحل ليلة الأربعاء التَّاسع والعشرين من شعْبان، وقيل: إنَّه مات، وسار هو والكند هري، وسائر المقدَّمين إلى جانب عكا، ولم يبق في يافا إلا مريضٌ أو عاجز، ونفر يسير، ثم أعطى السُّلْطان للنَّاس دُسْتوراً، فسار عسكر إِزْبل* والموصل وسِنْجار* والحِصْن، وأشاع ـ رحمه الله ـ أمر الحج، وقوي عَزْمُهُ على براءة الذِّمَّة منه[1]. ٢٠٥/٢

قال القاضي: وكان هذا مما وَقَعَ لي، وبدأتُ بالإشارة به في يوم تتمة الصُّلْح، ووقع منه ـ رحمةُ الله عليه ـ موقعاً عظيماً، وأمر الدِّيوان أَنَّ كلَّ من عَزَمَ على الحج من العسكر يثبت اسمَهُ حتى نُحصي عِدَّة من يدخُلُ معنا الطَّريق. وكتب جرائد بما يحتاج إليه في الطَّريق من الخِلَع والأزواد وغير ذلك، وسَيَّرها إلى البلاد ليعُدُّوها.

ورحل من النَّطرون رابع شهر رمضان، وسار حتى أتى مار صَمْويل* يفتقد أخاه العادِل، وكان مريضاً بها، فوجده قد سار إلى القُدْس، وكان قد انقطع عن أخيه مُدَّة بسبب المرض. وكان قد تماثَلَ، فَعُرِّف بمجيء السُّلْطان إلى مار صَمْويل لعيادته، فحمل على

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٣٦.

نفسه، وسار حتى لقيه بذلك المكان، وهو أول وصوله، ولم ينزل بعد، ونزل، وقَبَّل الأرض، وعاد ركب فاستدناه، وسأله عن مِزَاجه، وسارا جميعاً حتى أتيا القُدْس بقية ذلك اليوم[١].

وقال العماد: عاد السُّلْطان بعد السِّلْم إلى القُدْس لتفقُّد[٢] أحواله، وعَرْضِ رجاله، واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها، وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه، وزاد في وَقْفِ المدرسة سُوقاً بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها، وكذلك رَتَّبَ أحوال الصُّوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفايتها، وعَيَّن الكنيسة التي في شارعِ قمامة للبيمارَسْتان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان، وأدار سور القُدْس على قُبَّةِ صهيون، وأضافها إلى المدينة، وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمَّم العَزْم على الحج، فلم يوافقه القَدَر، وتأسَّفَ على فواته بعد أن قدَّم مقدِّماته، وأقام شهر رمضان، وأفاض الإحسان، وفَوَّض ولاية القُدْس وأعمالها[٣] إلى عزِّ الدين جُرْديك حين استعفى منها حُسام الدِّين سياروخ، وولَّى مملوكه علم الدين قيصر ما دون القُدْس كعمل الخليل وغَزَّة والدَّاروم* وعَسْقلان[٤].

قلت: ولما بلغ القاضي الفاضل من قبل السُّلْطان أنه عازِمٌ

---

(١) «النوادر السُّلْطانية»: ٢٣٧.
(٢) في (ك): وتفقد.
(٣) في (ك): وأعماله.
(٤) انظر «الفتح القسي»: ٦١١.

على الحج كتب إليه مشيراً بتبطيله: إنَّ الفرنج لم يخرجوا بَعْدُ مِنَ الشَّام، ولا سَلُوا عن القُدْس، ولا وُثِقَ بعهدهم في الصُّلْح، فلا يؤمَنْ مع[1] بقاء الفرنج على حالهم، وافتراق عسكرنا وسفر سُلْطاننا[2] سفراً مقدَّراً معلوماً مُدَّة الغيبة فيه أن يَسْرُوا ليلةً فيصبِّحوا القُدْسَ على غَفْلَةٍ، فيدخلوا إليه ـ والعياذ بالله ـ ويَفْرُطُ من يد الإسلام، ويصيرُ الحج كبيرةً من الكبائر التي لا تُغْفر، ومن العَثَرات التي لا تُقال.

ثم قال: وحاجُّ العراق وخُرَاسان أليس هم مئتي ألف أو ثلاث مئة ألف أو أكثر، هل يؤمن أن يقال قد سار السُّلْطان لطلب ثار[3]، وسَفْكِ دم، وتشويش موسم، فاقعُدُوا، فيكون تاريخَ سَوْءٍ، أعوذُ بالله منه، ما هذه الشَّناعة مُمتنعة الوقوع، ولا مستبعدة من العقول السَّخيفة، فَيُنْعِمُ المولى بتأَمُّلِ ما أنهاه المملوك مستوراً، فإنه يَسْأل مولانا أن لا يُشارك أحداً فيما يكتُبُه، لا من مُهِمٍّ، ولا من غير مُهِمٍّ.

يا مولانا، مظالمُ الخَلْقِ كَشْفُها أَهَمُّ من كل ما يُتَقَرَّب به إلى الله، وما هي بواحدةٍ، في أعمال دمشق من المظالم من الفلاحين ما يُسْتَغرب معه وقوع القَطْر، ومن تَسَلُّطِ المُقْطَعين على المنقطعين ما

---

(١) في (ك): من.

(٢) في الأصل: سلاطيننا، والمثبت من (ك).

(٣) سلف في ص ٤٢٣ من الجزء الثالث خبر مقتل ابن المقدم في عرفة، قتله طاشتكين أمير الحاج العراقي، فلربما ظَنَّ أن السلطان في حجته هذه يطلب ثأر ابن المقدم.

لا يُنادَىٰ وليدُه[١]، وفي وادي بَرَدىٰ* والزَّبَدَاني* من الفِتْنة القائمة والسَّيف الذي يَقْطُر دماً ما لا زاجر عنه، وللمسلمين ثغورٌ تريد التحصين والذَّخيرة، ومن المهمَّات إقامة وجوه الدَّخْل وتقدير الخَرْجِ بحسبها، فمن المستحيل نفقة من غير حاصل، وفرع من غير أصل، وهذا أمرٌ قد تقدَّم فيه حديثٌ كثير، وعَرَضَتْ للمولىٰ شواغِلُ دونه، وَمَشَتِ الأحوالُ مشياً علىٰ ظَلْعٍ[٢]، فلما خَلَتِ النُّوب ـ أعاذ الله مِنْ عَوْدها ـ كان خُلُوُّ بيتِ المال أشدَّ ما في الشِّدَّة، وليس المملوك مطالباً بذخيرة تُحَصَّل، إنما يطلُبُ تمشيةً من حيث تستقر.

قلتُ: ولم يزل البيتُ المقدَّسُ ـ شَرَّفه الله تعالى ـ ملحوظاً بالعِمارة والتحصين من عهد السُّلْطان ـ رحمه الله ـ إلى سنة ستة عشرة وستّ مئة[٣]، فإنَّه خُرِّبَ في المحرَّم منها بسبب خروج الفرنج ـ لعنهم الله ـ وانتشارهم في البلاد، فخيف من استيلائهم عليه. وفي السنة التي قبلها[٤] توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السُّلْطان[٥]، وتشتَّتَ النَّاسُ بعد خَرَابه، ورغبوا عن السُّكْنىٰ به،

---

(١) في المثل: هم في أمر لا ينادى وليده. قال ابن سيده: نُرَىٰ أصله كأن شدةً أصابتهم حتى كانت الأم تنسىٰ وليدها فلا تناديه ولا تذكره مما هم فيه، ثم صار مثلاً لكل شدة. انظر «اللسان» (ولد).

(٢) الظَّلْع: العَرَج. «اللسان» (ظلع).

(٣) في (ك): خمس عشرة وست مئة، وهو خطأ، وسيذكر أبو شامة نبأ خرابه هذا في «المذيل على الروضتين» في حوادث سنة (٦١٦ هـ).

(٤) في (ك): وهذه السنة هي التي توفي فيها الملك العادل. قلت: وهي موافقة لما ذُكر فيها من قبل أن ذلك كان سنة خمس عشرة وست مئة.

(٥) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦١٥ هـ).

ورثاه الرَّئيس الفاضل شهاب الدين أبو يوسف يعقوب بن محمد المجاور[1] بقصيدَةٍ حَسَنة، منها:

أَعَيْنَيَّ لا تَرْقَىٰ من العَبَرَاتِ ... صِلِي في البُكا[2] الآصالَ بالبُكُراتِ
لَعَلَّ سيولَ الدَّمْعِ يُطْفِىءُ فَيْضُها ... تَوَقُّدَ ما في القَلْبِ مَنْ جَمَرَاتِ
ويا قَلْبُ أَسْعِرْ نارَ وَجْدِك كلَّما ... خَبَتْ بادِّكارٍ يَبْعَثُ الحَسَرَاتِ
ويا فَمُ بُحْ بالشَّجْوِ منك لَعَلَّه ... يروِّحُ ما أَلْقَىٰ مِنَ الكُرُبات
على المَسْجِدِ الأقصى الذي جَلَّ قَدْرُهُ ... على مَوْطِنِ الإِخْبَاتِ والصَّلَواتِ
على مَنْزِلِ الأَملاك والوحي والهُدَىٰ ... على مَشْهَدِ الأَبدال والبَدَلات ٢٠٦/٢
على سُلَّم المِعْرَاج والصَّخْرة التي ... أنافَتْ بما في الأَرْضِ مِنْ صَخَرَاتِ
على القِبْلَةِ الأُولىٰ التي اتَّجهَتْ لها ... صلاةُ البَرَايا في اختلافِ جهاتِ
على خيرِ معمورٍ وأَكْرَم عامرٍ ... وأَشْرَفِ مَبْنِيٍّ لخيرِ بُنَاةِ
وما زالَ فيه للنَّبيين مَعْبَدٌ ... يُوالونَ في أرجائِهِ السَّجَداتِ
عَفَا المَسْجِدُ الأَقْصَىٰ المُبارَكُ حَوْلَه الرَّ ... (م) فِيعُ العمادِ العالي الشُّرُفاتِ
عَفَا بعدما قد كان للخير مَوْسِماً ... وللبِرِّ والإحسانِ والقُرُباتِ
يُوافي إليه كلُّ أَشْعَثَ قانِتٍ ... لمولاه بَرٍّ دائمِ الخَلَواتِ
خلا مِنْ صلاةٍ لا يَمَلُّ مُقِيمُها ... تُوَشَّحُ بالآياتِ والسُّوَرَاتِ

---

(١) هو يعقوب بن محمد بن علي الشيباني الدمشقي، ابن أخت الوزير نجم الدين ابن المجاور، كان في خدمته بالقاهرة، وتوفي سنة (٦٤٣ هـ) انظر «سير أعلام النبلاء»: ٢٣/ ١٤٧، و«تاريخ إربل» ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، و«بدائع البدائه»: ١١٦ ـ ١٢٨، ١٥٦، ١٨٦، ٢٠١ ـ ٢٠٢، ٢٧٧، ٢٨١. وقد سلفت ترجمة نجم الدين ابن المجاور في حاشيتنا رقم ١ ص ٤٩ من الجزء الثالث.

(٢) في (ك) و(ب): بالبكا.

خلا من حَنِينِ التَّائبين وحُزنهم ... فمن بين نُوَّاحٍ وبين بُكاةِ
لِتَبْكِ على القُدْسِ البلادُ بَأَسْرِها ... وتعلنُ بالأَحْزَانِ والتَّرَحاتِ
لِتَبْكِ عليها مكَّةٌ فَهْي أُخْتُها ... وتشكو الذي لاقَتْ إلى عَرَفاتِ
لِتَبْكِ على ما حَلَّ بالقُدْسِ طَيْبَةٌ ... وتَشْرَحُهُ[1] في أكْرَمِ الحُجُرات
لقد أشمتوا عكا وصورَ بهدمها ... ويا طالما غادَتْهُما بشَمَاتِ
لقد شَتَّتُوا عنها جماعة أهلها ... وكلُّ اجتماعٍ مُؤذِنٌ بشَتَاتِ
وقد هَدَّموا مَجْدَ الصَّلاحِ بهَدْمِها ... وقد كان مجداً باذِخَ الغُرُفاتِ
وقدأخمدوا[2] صَوْتاً وصيتاً أثاره[3] ... لهم عُظْمُ ما والَوْا[4] من الغَزَواتِ
أَما عَلِمَتْ أبناءُ أيوبَ أنَّهُمْ ... بمَسْعَاتِهِ عُدُّوا من السَّرَوَاتِ
وأنَّ افتتاحَ القُدْس زهرةُ مُلْكهم ... وَهَلْ ثَمَرٌ إلا مِنَ الزَّهَراتِ
فمن لي بِنُوَّاحٍ يَنُحْنَ على الذي ... شَجَاني بأصواتٍ لَهُنَّ شُجَاةِ
يُرَدِّدْنَ بيتاً للخُزَاعيِّ قاله ... يُؤَبِّنَّ فيه خِيَرَةَ الخِيَرَاتِ
مدارِسُ آياتٍ خَلَتْ من تِلاَوَةٍ ... ومَنْزِلُ وَحْيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ

قلت[5]: هذا البيتُ الأخير لدِعْبِل بن علي الخُزاعي[6] في أوَّل قصيدة يرثي بها أهلَ بيتِ النبي ﷺ[5].

(١) حقه الجزم، وحُرِّك بالضم لضرورة الشعر.
(٢) في الأصل: أخدموا، والمثبت من (ك) و(ب).
(٣) في الأصل: أناره، والمثبت من (ك) و(ب).
(٤) في الأصل: ما لاقوه، والمثبت من (ك) و(ب). وقد استدرك هذا البيت على هامش الأصل بخط مغاير.
(٥ ـ ٥) ما بينهما ليس في (ك) و(ب).
(٦) هو شاعر مشهور، توفي سنة (٢٤٦ هـ)، والبيت في «ديوانه» ص ٣٦ جمعه وحققه الدكتور محمد يوسف نجم. وانظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ٢/٢٦٦ ـ ٢٧٠.

وهذه السنة التي توفِّي فيها العادل قبل التي خَرِبَ فيها القُدْس هي السنةُ التي(١) نَزَلَ فيها الفرنج ـ خَذَلهم الله ـ على ثَغْر دِمْياط* حَرَسَهُ الله تعالى، وهي(٢) المَرَّة الأولى في زماننا(٢)، وأقاموا عليه إلى أن استولوا عليه بعد أن جَرَىٰ لهم [عليه](٣) نحو مما جرى لهم على عَكّا، ثم أخذه المسلمون منهم، وقُتِلُوا وأُسروا.

ثم إنَّ الفرنج استولوا عليه(٤) صُلْحاً في سنةِ خمسٍ وعشرين وستٍّ مئة(٥)، وشرعوا في بناء طائفةٍ منه، ثم أُخرجوا منه عَنْوَةً مَرَّتين، أخرجهم في إحدىٰ المرتين [منه](٦) الملك النَّاصر صلاح الدين داود بن المُعَظَّم شرف الدين عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقال فيه حينئذٍ بعضُ شعراء العَصْر.

هذا الشاعر هو الصَّاحِبُ(٧) جمال الدِّين يحيى بن

---

(١) في (ك): وهذه السنة التي خرب فيها القدس هي السنة التي نزل..
قلت: هذا يتفق مع ما ذكر في هذه النسخة من أن ذلك كان سنة خمس عشرة وست مئة، انظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٣٣٤ من هذا الجزء.
(٢ ـ ٢) ما بينهما ليست في (ك).
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) في (ك): على القدس.
(٥) وذكر أبو شامة في «المذيل على الروضتين» استيلاء الفرنج على القدس في حوادث سنة (٦٢٦ هـ)، وهو الصحيح.
(٦) ما بين حاصرتين من (ك) و(ب).
(٧) في (ك): هذه الأبيات من شعر الصدر جمال الدين.

[عيسى بن][1] مَطْروح، ـ رحمه الله ـ [تعالى][1].

المَسْجِد الأَقْصَىٰ له عادَةٌ سارَتْ فصارَتْ مَثَلاً سائرا
إذا غدا للكُفْر مستوطَناً أن يَبْعَثَ اللَّهُ له ناصِرا
فناصِرٌ طَهَّرَهُ أَوَّلاً وناصِرٌ طَهَّرَهُ آخرا[2]

ثم استولى الفرنج أيضاً على طبرية وعَسْقلان، ثم أُخذتا منهم عَنْوَةً في شهور سنةِ خمس وأربعين وستٍّ مئة في دولة الملك الصَّالح نجم الدِّين أيوب ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد استولوا أيضاً على الشَّقيف* وصفد، والله يُسَهِّل عودهما إلى أهل الإسلام، ويؤيِّد الدِّين الحنيفي على ممرِّ الأيام.

فصل

في مسير السُّلْطان ـ رحمه الله ـ من القُدْس إلى دمشق

قال العماد: ولما استتمَّ السُّلْطان النَّظر في أحوال القُدْس وعمارته، وفوَّض القضاء والنَّظر في الوقوف إلى القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم[3]، وعَوَّل منه على أمينٍ كريم، آثَرَ أن يعود إلى دمشق على الثُّغور عابراً، وفي أحوالها ناظراً.

---

(1) ما بين حاصرتين من (ك)، وقد ذكره أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٥٠ هـ)، وسنترجم له هناك، ووفاته على الصحيح سنة (٦٤٩ هـ).

(2) «ديوان يحيى بن عيسى مطروح»: ١٨٢ ـ ١٨٣.

(3) هو ابن شداد صاحب «النوادر السلطانية»، انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٩ من الجزء الأول.

وكان عَزَمَ على الحج وصمَّمَ، وكتب إلى مِصْر واليمن بما ٢٠٧/٢
عَلَيه عَزَم، وأمر أن يُحمل له في المراكب كل ما يحتاج إليه من الأزواد والنفقات والثياب والكسوات، فقيل له: لو كتبتَ إلى أمير المؤمنين، وأعلمته بحَجِّك، وعَرَّفْته بنَهجك، حتى لا يَظُنَّ بك أمر أنتَ منه بريء، ويعلم أنَّ قَصْدَك في المُضِيِّ مُضيء، والوقتُ قد ضاق، ويبلغ الخبرُ الآفاق.

ثم هذه البلاد إذا سافَرْتَ[1] تركْتَها على ما بها من الشَّعَث، وهذه المعاقل التي في الثُّغور حِفْظُها من أهمِّ الأمور، ولا تغتر بعقد الهُدْنة، فإنَّ القوم على ترقُّبِ المُكْنة، والغَدْرُ دَأْبُهُم.

فما زال به الجماعةُ حتى حَلُّوا عَقْدَ عَزْمِهِ على الحج، فشرع في ترتيب قاعدة القُدْس في ولايته وعمارته، ثم خرج من القُدْس يوم الخميس خامس شَوَّال، وجاوز ناحية البيرة*، وبات على بركة الدَّاوية، ونزل يوم الجمعة بظاهر نابُلُس*، وأقام بها إلى ظُهْرِ يوم السبت حتى كَشَفَ مظالم، ووظَّف مكارم، وكان بها سيف الدين المشطوب، وشكا أهلُها نوائب من جهته تنوب، فأزال الشكوىٰ، وأزاح البَلْوىٰ.

ورحل بعد ظهر السبت، وبات عند عقبة ظهر حِمَارِ[2] بموضعٍ يُعرف بالفُريديسة، ورتعنا في مروجها الأنيسة، وأصبحنا راحلين، ونزلنا ضحوةً على جِيْنِين*، وهناك ودَّعنا المشطوب وداعَ الأبد، فإنه انتقل بعد أيامٍ إلى رحمةِ الواحد الصَّمد.

(١) سافرت، ليست في (ك).
(٢) هي قرية بين نابلس وبيسان. «معجم البلدان»: ٤/ ٦٣.

وجئنا ضحوة الاثنين إلى بَيْسَان*، وصَعِدَ إلى قلعتها المهجورة الخالية، فأبصر قُلَلها[1] العالية، وقال: الصواب بناءُ هذه وتخريب كوكب*.

ثم رحل ظهراً، وبات بقلعة كوكب، وصعَّدَ نَظَرَ رأيه فيها وصَوَّب، ورحل ضحوة الثُّلاثاء، ونزل بطبرية* وقت العِشاء، وهناك لقينا بهاء الدِّين قَرَاقوش[2]، وقد خرج من الأَسْر، فتلقَّيناه بالبِشْر والبِرِّ، ووصل مع السُّلْطان إلى دمشق، وأقام إلى أن خلص أصحابه من الأَسْر، وتوجَّه إلى مِصْر، وقد صان[3] نفسه ببذل ماله، وأخرج ثروته ودخل في إقلاله.

قال: وتوالت تلك اللَّيلة الأمطار، وواصلها النَّهار، فأقمنا يوم الأربعاء، وسرنا بُكْرة الخميس، ونزلنا بسفح الجبل الذي عليه قلعة صَفَد*، وصَعِدَ إليها، وكمَّل فيها الرِّجال والعُدَد.

ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة إلى قلعة تِبْنين* وجاز يوم الأحد على هُونين*، وخيَّمنا على عين الذَّهب عند نزولنا من الجبل، واجتمعنا تلك الليلة بالثَّقَل، ثم سرنا إلى مرج عيون مرحلة، وإلى جسر كامد منزلة، وطريقنا بين عمل صيدا ووادي التَّيْم*، وطلعنا من تلك الأودية والشِّعاب طلوع الأنوار من الغَيْم[4].

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٢٥ من هذا الجزء.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٤ من الجزء الثاني.
(٣) في الأصل و(ك): ضاق، و(ب): ضاقت، والمثبت من مطبوع «الفتح»: ٦٢٠.
(٤) انظر «الفتح القسي»: ٦١٢ ـ ٦١٤.

وقال في «الفتح»: عبرنا عمل صيدا[1] يَسْرَةً وعمل وادي التيم يَمْنةً، وعَرَّسْنا على مرج تَلْفِيَاثا مقابل مرج القُنْعُبة، ودفعنا إلى سلوك المسالك الصَّعْبة، ورحلنا يوم الثلاثاء إلى البقاع، فخيَّمنا علىٰ جسر كامد، ويوم الأربعاء بناحية قَبِّ إلياس*، ودخل يوم الخميس بيروت، وبها واليها عِزُّ الدين سامة، فاهتمَّ له بالكرامة.

ولما أراد عن بيروت الانفصال، في الحادي والعشرين من شَوَّال، قيل له: إن الإبرنس الأَنطاكي بيمند* مع عصابةٍ من الوَفْد وصل إلى الخدمة، مُسْتمسكاً[2] بحبل العِصْمة.

فثنى عِنانه ونَزَل، وأقام وما ارتحل، وأَذِنَ للإبرنس في الدُّخول، وشَرَّفه في حَضْرته بالمثول، وقَرَّبه وآنَسَهُ، ورفع مَجْلِسَه، وكان معه من مقدَّمي فُرْسانه أربعة عشر بارونياً، فوهب كلاً منهم تشريفاً سَرِيّاً، وأجزل له ولهم العطاء، وأبدىٰ بهم الاعتناء، وكتب له من مُنَاصفات أنطاكية* معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار، وخَصَّ أصحابه بمبارٍّ، وأعجبه استرساله إليه، ودخوله بغير أمانٍ عليه، فلا جَرَمَ تلقَّاه بالإحسان ووافقه، وَوَدَّعه يوم الأحد وفارقه.

وكانت الأثقال قد انتقلت من قَبِّ إلياس إلى مَرْج فلميطية من البقاع، فبات بمخيَّمِهِ، وعَبَرَ يوم الاثنين عين الجَرِّ* إلى مرج يَبُوس*، وقد زال البوس، وهناك توافد أعيانُ دمشق وأماثِلُها، وأفاضلها وفواضلها.

---

(١) في الأصل: على صيدا، والمثبت من (ك).
(٢) في (ك): متمسكاً.

ونزلنا يوم الثلاثاء بالعَرَّادة*، وجرىٰ الملتقون بالطُّرَف والتُّحَف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء إلى جَنَّة دمشق داخلين، بسلامٍ آمنين، لولا أننا غير خالدين، وكانت غيبة السُّلْطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها، وأبرزت نساءها ورجالها، فكان يوم الزِّينة، وخرج كلُّ مَنْ في المدينة، وحُشِرَ النَّاس ضُحَى، وأشاعوا استبشاراً وفَرَحاً.

وكانت غيبةُ السُّلْطان في الجهاد طالت، فاهتزَّتْ بقدومه واختالت، وقَرَّتْ بفضائله الأَعْيُن، وأَقَرَّت بفواضله الأَلْسُن، وأبدوا وجوه الاستبشار، وأَلْسُن الاستغفار، وأعين الاستعبار، ورفعوا أيدي الابتهال بصالح الدُّعاء، عن خالص الولاء، وجاء ربيع الفضل في فَصْل الخريف، واتصل تليدُ الجد بالطَّريف، واتَّسع فضاءُ الفضائل، وارتدع جاه الجاهل، وحَلَّ في القلعة حلولَ الشمس في بُرْجها، وأخذت بحار سماحِهِ في موجها، وجلس في دار العَدْل* فأجاب وأجار، وأنال وأنار، وخرجت السَّنة والسُّلْطان في أسنىٰ سنائه، وأبهى جلاله، وأجلىٰ بهائه، والنَّاس راتِعون في رياض نعمائه، ورُسُل الممالك الغربية والشَّرْقية، يخطبونه ويطلبونه، وينتظرون عَزْمَهُ
٢٠٨/٢ ويَرْقُبونه، وهو يعدهم بانحسار الشِّتاء وانكساره، وابتسام ثَغْر الرَّبيع وافتراره.

وأقمنا على هذا العَزْم إلى آخر السَّنة، والسُّلْطان مشتغل(١) بالصَّيْد والقَنَص، منتهزٌ من العُمر للفُرَص، وقَرَّب العلماء، وأكرم

---

(١) في (ك): مشغول.

الفضلاء، وفضل الكرماء، وما كان أحسنَ إلى الحقِّ[1] إصغاءه، وأسرع للباطل إلغاءه[2].

وقال القاضي أبو المحاسن: أقام السُّلْطان بالقُدْس يُقْطِع النَّاس ويعطيهم دُسْتوراً، ويتأهَّب للمسير إلى الدِّيار المِصْرية، وانقطع تشوُّفُه إلى الحجِّ، ولم يزل كذلك حتى صَحَّ عنده إقلاعُ مركب الإنكلتير المخذول، متوجِّهاً إلى بلاده في مستهلِّ شَوَّال، فعند ذلك حَرَّرَ السُّلْطان عَزْمَه على أن يدخل السَّاحل جريدةً، ويتفقَّد القلاع البحرية إلى بانياس*، ويدخُل دمشق يقيم بها أياماً قلائل، ويعود إلى القُدْس الشَّريف، سائراً إلى الدِّيار المِصْرية لتفَقُّدِ أحوالها، وتقرير قواعدها، والنَّظر في مصالحها[3].

قال: وأمرني بالمقام بالقُدْس إلى حين عَوْدِهِ لعمارة بيمارَسْتان أنشأه فيه، وإدارة المدرسة التي أنشأها فيه إلى حين عَوْده، وخرج من القدس، وَوَدَّعْتُهُ إلى البيرة*، ونزل بها.

ثم ذكر إزالته للمظالم[4] عن بلد نابُلُس، ثم رحل ونزل بسَبَسْطِيَة*، فتفقَّدَ أحوالها، ثم أتىٰ في طريقه إلى كوكب* في عاشر شَوَّال، وانفكَّ بهاءُ الدِّين قراقوش من الأَسْر حادي عشر شَوَّال، ومَثَلَ بالخِدْمة السُّلْطانية، ففرح به فرحاً شديداً، وكان[5] له حقوق

(١) في الأصل: الخلق، والمثبت من (ك).
(٢) «الفتح القسي»: ٦١٤ ـ ٦٢٢.
(٣) «النوادر السلطانية»: ٢٣٩.
(٤) في الأصل: إزالة المظالم، والمثبت من (ك).
(٥) في (ك): وكانت.

كثيرة على السُّلْطان والإسلام، واستأذن السُّلْطانَ ـ رحمه الله ـ في المسير إلى دمشق لتحصيل القطيعة، فأَذِنَ له في ذلك، وكانت القطيعة على ما بلغني ثمانين ألفاً[1].

قال: ولما وصل السُّلْطان إلى بيروت وصل إلى خدمته البرنس صاحب أنطاكية* مسترفداً، فبالغ في إكرامه واحترامه ومباسطته، وأنعم عليه بالعَمْقِ* وأرزغان ومزارع تعمل خمسة عشر ألف دينار*[2].

ثم سار[3] السُّلْطان إلى دمشق بعد [الفراغ من][4] تَصَفُّحِ أحوال القلاع السَّاحلية بأَسْرِها، والتقدُّمِ بسَدِّ خَلَلِها، وإصلاح [أمور][4] أجنادها، وإشحانها بالرِّجال، فدخل دمشق بُكْرة [يوم][4] الأربعاء سادس عشري شَوَّال، وفيها أولاده: الأفضل والظافر والظَّاهر، وأولاده الصِّغار، وكان يحبُّ البلد ويُؤْثر فيه الإقامة على سائر البلاد.

وجلس للنَّاس في بُكْرة الخميس، وحَضَر النَّاسُ عنده، وبَلُّوا شوقَهم من رؤيته، وأنشده الشُّعراء، وعَمَّ ذلك المجلس الخاص والعام، وأقام يَنْشُرُ جناحَ عَدْله، ويَهْطلُ سحابُ إنعامِهِ وفَضْله، ويكشف مظالمَ الرَّعايا في الأوقات المعتادة.

---

(١) في هامش الأصل: يعني ديناراً. «النوادر السلطانية»: ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٤٠.
(٣) في (ك): عاد.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

واتخذ الأفضلُ يوم الاثنين مستهلَّ ذي القَعْدة دعوةً لأخيه الظَّاهر، وكان الظَّاهر لما وصل دمشق بلغه حركةُ السُّلْطان إليها، فأقام بها حتى يتملَّى بالنَّظر إليه ثانياً، وكأَنَّ نفسَهُ الشَّريفة كانت [قد][1] أحَسَّتْ بدنو أجل السُّلْطان، فودَّعَه في تلك الدفعة مراراً متعدِّدة، وهو يَعود إليه، ولما اتخذ الأفضل له الدَّعوة أظهر فيها من بديع التجمُّلِ وغريبه ما يليقُ بهمَّته، وكأَنَّه أراد مجازاته عما خَدَمَه به حين وصل إلى حلب المحروسة، وحضَرها أرباب الدُّنيا وأبناءُ الآخرة، وسأل السُّلْطان ـ رحمه الله ـ الحضورَ، فحضر جبراً لقلبه[2].

قال: وكان العادِلُ قد استأذنَ السُّلْطان في أواخر رمضان في القُدْس بالمضي إلى الكَرَك* لتفقُّدها، فمضى وأمر بإصلاح ما قصد إصلاحه، وعاد طالباً المضيَّ إلى البلاد الفُرَاتية التي أعطاه السُّلْطان إياها، فوصل دمشق سابع عشر ذي القَعْدَة، وخرج السُّلْطان إلى لقائه، وأقام يتصيَّد حول غباغب* إلى الكُسْوة*، حتى لقيه وسارا جميعاً يتصيدان، وكان دخولهما إلى دمشق في الحادي والعشرين منه.

وأقام السُّلْطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده، ويتفرَّجون في أراضي دمشق ومواطن الصِّبا، وكأَنَّه وجَدَ به راحةً مما كان فيه من ملازمة التَّعبِ والنَّصَب، وسَهَرِ اللَّيل ونَصَبِ النَّهار، وما كان ذلك إلا كالوداع لأولاده ومرابع نُزَهِهِ، وهو لا يشعر ـ رحمة الله

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٤٠ ـ ٢٤١.

عليه ـ ونسي عَزْمَه المِصْري، وَعَرَضَ له أمورٌ أُخَر، وعزماتٌ غير تلك، ووصلني كتابُهُ إلى القُدْس يستدعيني إلى خدمته، وكان شتاءً شديداً، ووحلاً عظيماً(١).

قلت: وفي عيد الأضحىٰ من هذه السنة أنشده الرَّشيد النّابُلُسي(٢) قصيدةً حسنةً على وزن قصيدة التِّهامي(٣):

حازَكِ البَيْنُ حين أَصْبَحْتِ بَدْرا(٤)

يقول فيها، يعني قصيدته:

وأبيها لولا تَغَزُّلُ عَيْنَيْـ ـها لما قُلْتُ في التَّغَزُّلِ شِعْرَا
ولكانت مدائحُ الملكِ النّا صر أَوْلَى ما فيه أَعْمَلُ فِكْرَا

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٤١.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٠٩ من الجزء الثالث.

(٣) هو علي بن محمد بن فهد، أبو الحسن التهامي، شاعر مشهور، زار الشام والعراق، وولي خطابة الرملة، ثم رحل إلى مصر مستخفياً، ومعه كتب من حسان بن مفرج الطائي الخارج على الدولة الفاطمية في ذلك الوقت، يطلب من بني قرة عصيانهم، فاعتقل، ثم قتل سراً في سجنه سنة (٤١٦ هـ)، وله ديوان شعر طبع في الإسكندرية سنة (١٨١٣ م). انظر ترجمته في «دمية القصر» ١/ ١٣٥ ـ ١٥٣، و «الذخيرة» لابن بسام: ق٤/ج٢/ ٥٣٧ ـ ٥٤٩، و «وفيات الأعيان»: ٣/ ٣٧٨ ـ ٣٨١ و «سير أعلام النبلاء»: ١٧/ ٣٨١ ـ ٣٨٢.

(٤) هو مطلع قصيدة طويلة يمدح فيها الشريف أبا عبد الله محمد بن الحسين النصيبي، وهذا صدره، وعجزه: إن للبدر في التنقل عُذْرا.

فارحلي إن أردت أو فأقيمي أعظمَ الله للهوى فيَّ أجرا

انظر «ديوانه»: ص٢٠، وقد ورد بعض أبياتها في «دمية القصر» ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩.

مـلـكٌ طَـبَّـقَ الـمـمـالـك عَـدْلاً مِـثْـلَ مـا أَوْسَـعَ الـبَـرِيَّـةَ بِـرّا

[ثم قال في آخرها][1]:

فَـتَـمـلَّ الأعـيـادَ صَـوْمـاً وفـطـراً وتَـلَـقَّ الـهـنَـاءَ عَـشْـراً ونَـحْـرا ٢٠٩/٢
يـا مُـسِـرَّ الـطَّـاعـات لله إنْ أَضْـحىٰ مَلِيْكُ على الهَنَاةِ مُصِرًّا
نِلْتَ ما تبتغي من الدِّين والدُّنْـيا فَتِيْهاً على الملوكِ وفَخْرا
قد جَمَعْتَ المَجْدَيْنِ أَصْلاً وفَرْعاً وَمَلَكْتَ الدَّارَيْنِ دُنْيا وأُخْرىٰ

فصـــل

في ذِكْر أمورٍ جَرَتْ في هذه السَّنة من وَفَياتٍ وغيرها

قال العماد: في شهر ربيع الآخر توفِّي القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسىٰ المعروف بابن الفَرَّاش[2] من أهل دمشق، قاضي العسكر، وكانت وفاته بمَلْطيَة* وهو عائد من الرِّسالة إلى أولاد قليج أرسلان بالرُّوم.

وكان هذا القاضي من أَصْدَق الأصدقاء، وأكرم الكرماء، وما فارقني من أيام الملك العادل نور الدين ـ رحمه الله ـ في السَّرَّاء والضَرَّاء، وكنتُ بأحواله شديدَ الاعتناء، وتوصَّلْتُ له عند السُّلْطان في تخصيصه بالمُوَاصلة المَوْصِلِيَّة، والمراسلة في المهام الخفية والجَلِيَّة، ثم تولَّى نيابةً عن السُّلْطان في الولاية الشَّهْرُزُوريَّة، والحكم

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) أخباره مبثوثة في أثناء هذا الكتاب، وانظر ترجمته ومنتخبات من شعره في «خريدة القصر». قسم شعراء الشام ١/٢٨٩ ـ ٣٠٦، و «البداية والنهاية» ١٢/٣٥٢، و «تاريخ ابن الفرات» ج٤/ق٢/٩٩، وانظر ص ١٢ من هذا الجزء و ص ٤٦٠ ـ ٤٦١ من الجزء الثاني.

على المُقْطَعين بها وإنصاف الرَّعية، فلما فُوِّضَتْ إلى مُظَفَّر الدين صاحب إِرْبِل* رَجَعَ شمسُ الدين، ودامت غَيْبَتُهُ عن الحَضْرة مُدَّة سبع سنين.

وكان تولَّى قضاءَ العسكر موضعه بهاءُ الدين بن شَدَّاد. وكان خَطْبُ أولاد السلطان قليج أرسلان مهمّاً عند السلطان، فاعتمد على القاضي شمس الدِّين في الوصول إليهم(١)، والحكم بتأليف ذات بينهم عليهم، فمضى وعاد، وأدركته المنية بمدينة مَلَطْية*(٢).

قال: وفي يوم الخميس السادس والعشرين من شَوَّال توفي الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكَّاري المعروف بالمشْطُوب بنابُلُس*، وقد سبق ذكر هذا الأمير وبأسه وبسالته، وإصابته وأصالته، وإقدامِهِ في الحروب، وتقدُّمِهِ في الخطوب.

وقد حَضَرَ مع أسد الدين شِيْركُوه النُّوَب الثَّلاث التي فَتَحَ في آخرها مِصْر، ولازم صلاح الدين إلى مُنْتهى العُمْر، ولما احتيج إلى البَدَل في عكا، لما ضَجِرَ من أقام به وتشكَّىٰ، أجاب إلىٰ دخوله، وقابل الأمر بقبوله، وحصل بقضاء الله في الأَسْر، واحتوت عليه قَبْضَةُ الكُفر، وفدَىٰ نفسه بخمسين ألف دينار ونجا، وآتاه الله من نِعَمِهِ خُلاصة ما رجا، وأنعمَ السُّلْطان عليه بنابُلُس وأعمالها، وخُصَّ بأموالها [وغلالها](٣)، وحين جُزْنا به ودَّعنا عند جِيْنين*، ودَاعَ الأبد إلى جَنَّة عِلِّيين.

---

(١) في (ك): إليكم.

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٦٢٥.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

وإنما سُمِّيَ مَشْطوباً لِشَطْبَةٍ في وَجْهه مَنْ أَثَرِ طَعْنَةٍ في غَزَاةٍ حَضَرها، وله مواقفُ في الجهادِ كثيرةٌ موفورة، ومقاماتٌ مشهودة مشهورة، ووقَّفَ السُّلْطان بعده ثُلُثَ نابُلُس وأعمالها على مصالح القُدْس، وأقطع ولده[1] وأميرين معه الثُّلُثين، محافظةً على حَقِّه الذي التزمه التزام الدَّيْن[2].

وقال القاضي ابنُ شَدَّاد: وكان السلطان خَلَّف المَشْطوب بالقُدْس من جُملة العسكر المقيمين به، ولم يكن واليه، وإنما كان واليه عِزّ الدين جُرْديك، وتوفي المَشْطُوب ـ رحمه الله ـ بالقُدْس يوم الأحد الثَّالث والعشرين من شَوَّال، ودُفِنَ في داره بعد أن صُلِّيَ عليه في المسجد الأقصى[3].

قال العماد: وفي منتصف شعبان توفي سُلْطان بلاد الرُّوم عِزُّ الدين قَلِيجْ أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بقُونِيَة*، وكان أولاده لما كَبِروا تجبَّروا، وتفرَّد كلٌّ منهم بإقليم، فضعف بقوَّتهم، وعَجَزَ بقُدْرتهم، وانخفض برفعتهم، فإنَّه فَرَّق بلاده على جماعتهم، طمعاً في طاعتهم، واختار لتدبير مُلْكه اختيار الدين حسن بن

---

(١) هو أحمد بن علي، أبو العباس، عماد الدين. توفي مسجوناً سنة (٦١٩ هـ) ستِرد ترجمته في «المذيل على الروضتين» في وفيات تلك السنة، وانظر «وفيات الأعيان»: ١/ ١٨٠ ـ١٨٢.

(٢) انظر «وفيات الأعيان»: ١/ ١٨٢ ـ ١٨٣، وفي «مجلة المجمع العراقي» ٨/ ٣٠١ ـ ٣٢٤ مقال بعنوان: «المشطوب الهكاري، سيرة مجاهد» لمحسن محمد حسين.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٢٤٠.

غفراس، فحالفه[1] عليه من أولاده قُطْب الدين مَلِكْشاه صاحب سيواس، فجاء وغلَبَ على والده وأخذ عليه الأنفاس، وقال له: أنا بين يديك عِوَض الاختيار، ثم أخلىٰ منه الدِّيار، ثم أبعد عن خِدْمة والده خواصَّه وأولياءه، وأفنىٰ بالقَتْل والاغتيال أمراءه وكبراءه، واستخلصه لنفسه، وأجلسه على [سرير][2] مُلْكه وهو في حَبْسه.

ثم جاءَ به إلى قيصرية ليأخذَها من أخيه، وأظهر أنَّه بأمر أبيه، فوجد قليج أرسلان فُرْصَةً في خلاصه، فساق وحده، ودخل البلد، ونجا من الولد إلى الولد، فعاد مَلِكْشاه إلى قُونيَة* وأقصرا داري ملك أبيه، فتملَّكهما، ولم يزل قليج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد، ومن بلد إلى بلد، يتردَّد في بلاده، في ضيافة أولاده، وكلهم يضجر منه، ويُعرِضُ عنه، حتى حَصَلَ عند ولده غياث الدِّين كَيْخُسْرو صاحب بُرْغُلو، فلما حَضَرَه وأبصره آواه ونَصَرَه، وجاء به إلى قُونية، فدخَلَها، وحَلَّىٰ عَطَلَها، ومات بها، فجلس مكان والده، وَقوِيَ على أخيه[3].

قال: وجاء الرَّبيع في شهر ربيع الأول، فكتب إليَّ نشو الدَّوْلة أحمد بن نفاذة[4] أبياتاً يدعوني إلىٰ دمشق في خامس جُمادىٰ الأُولىٰ وقد دخل أوانُ المِشْمِش، وهو موسم دمشق المشهود، أَوَّلها:

---

(١) في الأصل و (ب): فخالفه والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) انظر «الفتح القسي»: ٦٢٣ ـ ٦٢٥.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٨ من الجزء الثالث.

دعا النَّاسَ للَّذَّاتِ مِشْمِشُ جِلَّقٍ ... فقد أَسْرَعُوا من كلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقِ
فَقُمْ يا عمَادَ الدِّين تَحْظَ بأَكْلِهِ ... ولا تَثْنِ عنه عَزْمَةَ السَّيْرِ تُسْبَقِ
وَقُلْ حين يبدو أَصْفَرَ اللَّوْنِ مُشْرِقاً ... ويا حُسْنَهُ من أَصْفَرِ اللَّوْنِ مُشْرِقِ
لأكلك ما يَلْقَىٰ الفؤادُ وما لقي ... وللتُّوت مالم يَبْقَ مِنِّي وما بقي[1] ٢/٢١٠
فليس سوى الحَلْواء في القُدْسِ مأكلٌ ... وما جلبوه من زَبيبٍ وفُسْتُقِ

قال: فعرضتُ أبياته علىٰ السُّلطان [فتَبَسَّم][2] وقال: ما قُلْتَ في جوابه؟ فأنشدتُهُ:

هَلُمُّوا نُسَابِقْ نَحْوَ مِشْمِشِ جِلَّقٍ ... وَثَمَّ كما نهوىٰ على الأكل نَلْتَقِي
تَصَفَّر شَوْقاً لانتظارِ قُدومِنا ... وَمَنْ يَتَعَشَّقْ ذا الفَضَائِلِ يَشْتَقِ
إذا حَضَرتْ أطباقُهُ غاب رُشْدُنا ... لما يتلاقىٰ مِنْ مَشُوقٍ وشَيِّقِ
حَكَىٰ جَمَراتٍ بالأَضَا[3] قد تَعَلَّقَتْ ... فيا عَجَبِي مِنْ جَمْرِهِ المُتَعَلِّقِ
كَأَنَّ نجومَ الأَرْضِ فوق غُصُونِهِ ... فيا حَيْرَتِي مِنْ نَجْمِهِ المتأَلِّقِ
وَحَبَّاتُها[4] مُحْمَرَّةٌ وَجَنَاتُها ... فَمَنْ يَرَها مِثْلِي يحبَّ وَيَعْشَقِ
بَدَتْ بين أَوراقِ الغُصُونِ كَأَنَّها ... كُرَاتُ نُضَارٍ فِي لُجَيْنٍ مُطَرَّقِ

(١) في هذا البيت محاكاة ساخرة لبيت المتنبي:
لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي ... وللحبِّ ما لم يبق مني وما بقي
وهو من فرائد قصائده، انظر «ديوانه»: ٣/٤٨.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) الأضاة: الغدير، واستعير للدرع، فقيل: دروع كالأضاة، ومنه قولهم: خرجوا لابسين الأضا رامين بجمر الغضا، وقد شبهت الدروع في صفائها بالغدران.
انظر «أساس البلاغة» (أضي)، و «خزانة الأدب» للبغدادي: ٣/١٦٧.
(٤) في الأصل: وجناتها، والمثبت من (ك).

قال: فلما أنشدْتُ السُّلطان هذا البيت، قال: تشبيه الورَقِ باللُّجَيْن غير موافق، فإنَّ الورق أخضر، فقلتُ:

. . . . كُراتُ نُضَارٍ بالزُمرُّد مُحْدِقِ
تُسَاقِطُها أشجارُها فكأنَّها دنانيرُ فِي أيدي الصَّيارِفِ تَرْتَقِي
وَمِشْمِشُ بُسْتان الزَّكيِّ[1] بشهْدِهِ شهادَتُهُ تقضي فَزَكٍّ وَصَدِّقِ
يقولُ رفيقي في دمشقَ تعجُّباً أما لك بُستان؟ مقالةَ مُشْفِقِ
فَقُلْتُ إلى باب البريد* وسُوقه لأمثالِنا تُجْبَىٰ بساتِينُ جِلَّقِ
ولوكانلي بالسَّهْم* سَهْمٌ وَجَدْتُ لي مَنالي بأيام الثِّمار ومَرْفَقي
إذا كنتُ مُبْتاعاً من السُّوق مِشْمِشي فما ليَ إلا لذَّةُ المُتَسَوِّقِ
وما لي بأرْبَاب البساتين خِلْطَةٌ فَيُصْبِحُ في حيطانها متسلِّقي
كرامٌ وثوقي في الشِّتاء بودِّهم ولكنهمْ في الصَّيْف ينسون مَوْثقي
وما ثَمَّ مَنْ يُقْري ويُجْدِي وَيَقْتَني ثَنَائي سوىٰ المحيي[2] الكريم الموفَّقِ
وذلك يومٌ واحدٌ ليس غيرَه أَمِنْ أَجْلِ يومٍ واحدٍ قُلْتَ لي اسبقِ
على أنني لو قيل بالصِّين دَعْوَةٌ أَثَرْتُ إليها لَوْعَةَ المتحرِّقِ
فإنْ جئتَ قَبْلِي جِلَّقاً فارمِ مُنْعِماً حديثي بنادي المنعمين وحَلِّقِ
لعلَّ كريماً ينتخي لضيافتي بمِشْمِشَةٍ عند القُدُوم وينتقي
فلا تَنْسَ نَشْوَ الدِّين نَشْوَةَ خاطري وَقُلْ عن صَبُوحي كيف شِئْتَ وَرَقِّقِ

---

(١) هو زكي الدين علي بن محمد بن يحيى القرشي، والد محيي الدين قاضي دمشق، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٣ من الجزء الأول.

(٢) هو محيي الدين محمد بن علي المعروف بابن الزكي، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٧٩ من الجزء الثالث.

وهاتِ وساعدني وَخُذ من قريحتي لطيمةَ داريٍّ[1] مِنَ الحَمْدِ واغبَقِ

قال: فقال لي السُّلطان: عن صَبُوحٍ تُرَقِّقُ[2]، كأنَّك تريد تمضي إلى دمشق وتسبق. فقلت: الأهل والولد، وقد عيل عنهم الجَلَد، ولكن مغيبي عن الخِدْمة لا يدور به الخَلَد، فظلك هو السَّكَنُ والبَلَد.

قال: وكتبتُ أيضاً في جوابه وصفة المِشْمِش، وذكرت تشبيهاته، وقد أَذِنَ لي السُّلطان لمهمٍّ له أيضاً اتفق:

قد صحَّ عَزْمي على المسير فلا أبغي مَقامي والقَلْبُ قد رَحَلا
أمضي إلى دُمْيَةٍ مُقَبَّلُها أَرْشُفُ منه المُدَام والعَسَلا
مُصَوَّرٌ بل مُدَوَّرٌ عَجَبٌ تَرَىٰ بِهِ وهو جامِدٌ شُعَلا[3]
ففي قلوبِ الأَشجارِ منه جُذًى وفي ظُهور الغُصُونِ منه كُلا[4]
طلوا بماء النُّضارِ ظاهِرَهُ لباطِنٍ في حشاه نار طِلا[5]
يخفى إذا ما بدا لعينك في فِيْكَ وفيه النَّوىٰ إذا وَصَلا
حُلِيُّ تِبْرٍ على عَرائسِ أغـ ـصانٍ تَشكَّتْ من قَبْلها عَطَلا
حُمْرٌ حِسَانُ الوجوه قد لَبِسَتْ من خُضَرٍ أوراقها لها حُلَلا ٢١١/٢

(١) اللطيمة: قطعة المسك، وداري: نسبة إلى دارين، وهي فرضة بالبحرين كان يجلب إليها المسك من الهند، انظر «اللسان» (لطم) و «معجم البلدان»: ٢/ ٤٣٢.

(٢) هو مثل يضرب لمن يوجب عليك ما لا يجب بكلام يلطِّفُهُ. انظر «اللسان» (صبح).

(٣) شُعَل جمع، مفردها شعلة: لهب النار، القبس والشهاب. «معجم متن اللغة» ٣/ ٣٣٥.

(٤) في «الوافي بالوفيات»: ١/ ١٣٧: حُلَى.

(٥) الطِّلا: الخمر. «اللسان» (طلي).

عرائسٌ من خدورها بَرَزَتْ تَحسَبُ أشجارها لها كِللا[1]
حلاوةٌ لا يَمَلُّ آكِلُها إذا الحلاوات أَحْدَثَتْ مَلَلا
زُهرٌ كَشُهْبِ السَّماءِ راجمةً جِنَّ جُناةٍ بِقَطْفِها كُفَلا
عيونُها الرُّمْدُ في ترقُّبِنا جاحظةٌ أَبرَزَتْ لنا مُقَلا
ماذا التَّواني وذا التَّأَخُّر والـ إبطاء قَدِّم مَسيرَنا عَجَلا
نَغْدُو خِفَافاً إلى مواسِمِها مِنْ قَبْلِ نُبْلَىٰ بصُحْبَةِ الثُّقَلا
قدِ انتظرنا من الخِزَانةِ ما نُعطَىٰ فَأَكْدَىٰ[2] نُوَّابُها البُخَلا
فَإِنْ عَدِمْنا مِنْ عندهمْ ذَهَباً فما عَدِمْنا عنه به بَدَلا
وَكلُّنا في عوارِفِ الملك النّـ (م) ـاصِرِ نَرْعَىٰ وَنَسْلُكُ السُّبُلا

قال: وقلتُ فيه رباعية:

المِشْمِشُ لانتظارِنا مُصْفَرُّ والرَّوْضُ إلىٰ لقائنا مُفْتَرُّ
قُمْ نَغتنمِ الوقتَ فهذا العُمُرُ لا لُبْثَ له فمن به يَغْتَرُّ

قال: وفي هذه السنة نُصِرَتِ الأساطيل في البحر مراراً، وأنفذ السُّلطان في استدعائها استظهاراً.

قال محمد بن القادسي[3]: وفي مستهلِّ رجب وُكِّلَ بأمير الحاج طاشتِكين ـ يعني الذي قَتَل أميرَ حاجِّ الشَّام شمس الدين ابن المُقَدَّم بِعَرَفَات سنة ثلاثٍ وثمانين[4] ـ ثم قُبِضَ عليه. وسَبَبُهُ أَنَّهُ

(١) الكلل جمع، مفردها الكِلَّة: الستر الرقيق الذي يتوقى به. انظر «معجم متن اللغة» ٥/٩٦.
(٢) أي بَخِلَ. «معجم متن اللغة»: ٥/٣٨.
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من الجزء الثالث.
(٤) انظر ص ٤٢٣ من الجزء الثالث.

اتُّهِمَ بمكاتبة السُّلْطان صلاح الدين رحمه الله فيما يتعلَّق بقلب الدَّولة، وأظهر عليه أُستاذ الدار* أبو المُظَفَّر بن يونس كتاباً، قيل: إنه خَطُّه، وفيه: المصلحة مهادنة الفرنج، والمجيء إلى البلاد، فما يقف بين أيديكم، والبلاد لكم إذا ملكتم العراق، وهذا وقتكم إن كان لكم نِيَّة، وأنا مشدودُ الوسط في الخدمة.

ثم ذكر ابنُ القادسي أَنَّ ذلك مستبعد في حَقِّ طاشتِكين، وزور وبهتان، ونُسِبَ ذلك إلى افتعال ابن يونس عليه. وكان طاشتِكين أمير الحاج عشرين سنة يُخْطَبُ له بمكَّة بعد الخُطْبة لأمير المؤمنين، وله إقطاع بمئة ألف دينار(١).

قال: وفيها في ربيع الآخر توفي أبو المُرْهِف نصر بن منصور النُّمَيْري(٢)، الشَّاعر الأديب الزَّاهد، سمع قاضي البيمارَسْتان(٣)،

---

(١) في الأصل: ثمانية ألف دينار، والمثبت من (ك) و (ب).

(٢) انظر ترجمته في «مرآة الزمان» ٨/ ٢٧٠، و «التكملة» للمنذري ١/ ١٧٠، و «معجم الأدباء» ١٩/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣، و «وفيات الأعيان» ٥/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤، و «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٢١٣ ـ ٢١٤، و «المختصر المحتاج إليه» ٣/ ٢١٣، و «نكت الهميان» ٣٠٠، و «ذيل طبقات الحنابلة» ١/ ٣٧٤ ـ ٣٧٦، و «النجوم الزاهرة» ٦/ ١١٨، و «شذرات الذهب» ٤/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ وورد اسمه في «مرآة الزمان»: نصر بن مسعود، وفي «معجم الأدباء»: نصر بن الحسن. وكانت ولادته بالرافقة قرب الرقة سنة (٥٠١ هـ).

(٣) هو محمد بن عبد الباقي بن محمد، أبو بكر السلمي البغدادي، توفي سنة (٥٣٥ هـ). وكان ينظر في أوقاف البيمارستان العضدي. انظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء»: ٢٠/ ٢٣ ـ ٢٨.

وروى عن ابن نَبْهان، وكان قد رُبِّيَ بالشَّام، وخالط أهل الأدب، وأَضَرَّ بالجُدَري وله أربعَ عشرةَ سنة، وكان يبصر الأشياء القريبة منه، ولا يحتاج إلى قائدٍ إذا مشى، ثم قَدِمَ العراق لمداواة عينه، فآيسه الأطبَّاء من ذلك، فاشتغل بالقرآن وحَفِظَهُ، وصاحَبَ المتديِّنين والزُّهَّاد من أهل الفِقْه والحديث واللُّغة، وله ديوانُ شِعْرٍ كبير، وسُئِلَ عن مذهبه فأملىٰ:

أُحِبُّ عليّاً والبَتُولَ وَوُلْدَها ... ولا أجْحَدُ الشَّيخين فَضْلَ التَّقَدُّمِ
وأبرأُ مِمَّن نال عُثمانَ بالأذىٰ ... كما أتبرَّا مِنْ ولاءِ ابنِ مُلْجَمِ
ويُعْجِبُني أهلُ الحديث لِصِدْقهم ... فَلَسْتُ إلى قَوْمٍ سواهم بمنتمي

وله أيضاً في غير ذلك:

وَزَهَّدني في جميعِ الأَنا ... مِ قِلَّةُ إنصافِ من تَصْحَبُ
هُمُ النَّاس ما لم تُجَرِّبْهُمُ ... وطُلْسُ الذِّئاب إذا جُرِّبوا
وليتكَ تَسْلَمُ عند البعا ... دِ منهم فكيف إذا تَقْرُبُ

قال: ودُفِنَ بمقابر الشهداء بباب حَرْب.

ثم دخلت سنة تسعٍ وثمانين[وخمس مئة][1]

قال العماد: والسلطانُ مقيمٌ بدمشق في داره، وممالك الآفاق في انتظاره، والأنام مشرقة بمطالع أنواره، ورُسُلُ الأمصار مجتمعون على بابه، منتظرون لجوابه، والضيوف في فيوض إنعامه عائمون، والفُقَراء في رياض صدقاته[2] راتعون، ويجلس في كلِّ يومٍ وليلة

(١) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٢) في الأصل: صدقته، والمثبت من (ك) وعليها علامة الصحة.

لإسداء الجود، وإبداء السُّعود، وبَثِّ المكارم، وكَشْفِ المظالم، وبَرَزَ إلى الصَّيْدِ شرقي دمشق بزاد خمسة عشر يوماً، واستصحب معه أخاه العادل وأبعد في البَرِّيَّة، وظهر عن ضَمِير ضُمَير* إلى الجهة الشَّرْقية، وطابت له الفُرَصْ، ووافق مرادَه القَنَص.

ثم عاد يوم الاثنين حادي عشر صَفَر، ووافق ذلك عَوْد الحاج الشَّامي، فخرج للتَّلَقِّي، وسعاداتُه في التَّرَقِّي، ولما لَقي الحُجَّاج استعبرت عَيْناه، كيف فاتَه من الحج ما تَمَنَّاه، وسألهم عن أحوال مكَّة وأميرها وأهلها، وخِصْبها ومَحْلِها، وكم وصَلَهم من غَلاَّت مِصْر وصدقاتها، والفقراء والمجاورين ورواتبها وإدراراتها، وسُرَّ ٢١٢/٢ بسلامة الحاجِّ، ووضوح ذلك المِنْهاج. ووصل من اليمن ولدُ أخيه سيف الإسلام، فتلقَّاه بالإكرام[١].

قال القاضي ابن شَدَّاد: وخرجتُ من القُدْس الشَّريف يوم الجمعة الثالث والعشرين من المحرَّم، وكان الوصولُ إلى دمشق ثاني عشر صَفَر، وكان الأفضل حاضراً في الإيوان الشَّمالي، وفي خدمته خَلْقٌ من الأُمراء وأرباب المناصب ينتظرون جُلُوس السُّلطان، فلما شعر بحضوري استحضرني وهو وَحْدَه قبل أن يَدْخُلَ إليه أحد، فدخلت عليه رحمه الله، فقام ولقيني مَلْقىً ما رأيتُ أشدَّ من بِشره فيه، ولقد ضَمَّني إليه، ودمعت عينه[٢].

---

(١) «الفتح القسي»: ٦٢٥ ـ ٦٢٦.

(٢) في الأصل: عينيه (كذا)، والمثبت من (ك)، وانظر «النوادر السلطانية»: ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وفي ثالث عشر صفر طلبني فحضرتُ، فسألني عَمّن في الإيوان، فأخبرتُهُ أَنَّ الملك الأفضل جالسٌ في الخِدْمة، والأُمراء والنَّاس في خدمته، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدَّولة إقبال، ثم استحضرني بُكْرَة الخميس رابع عشر صَفَر وهو في صُفَّة البُسْتان، وعنده أولاده الصِّغار، فسأل عن الحاضرين فقيل: رُسُل الفرنج وجماعة الأُمراء والأكابر.

فاستحضر رُسُلَ الفرنج إلى ذلك المكان، فحضروا، وكان له ولدٌ صغير، وكان كثير الميل إليه يُسمّى الأمير أبا بكر، وكان حاضراً، وكان رحمة الله عليه يداعبه، فلما وَقَعَ بصرُه على الفرنج، ورأى أشكالهم، خاف منهم وبكى، فاعتذر إليهم، وصرفهم بعد أن حضروا، ولم يسمع كلامهم، وقال لي: أكلتَ اليوم شيئاً ـ وكانت عادَتُهُ رحمه الله هذه المُبَاسَطة ـ ثم قال: أحضروا لنا ما تَيَسَّر. فأحضروا أرزاً بلبن، وما يشبه ذلك من الأطعمة الخفيفة، فأكل ـ رحمه الله ـ وكنتُ أظنُّ أن ما عنده شهوة.

وكان في هذه الأيام يعتذر إلى النَّاس لثقل الحركة عليه، وكان بدنُهُ ممتلئاً، وعنده تَكَسُّل، فلما فرغنا من الطَّعام قال: ما الذي عندك من خَبَرِ الحاجِّ؟ فقلت: قد اجتمعت بجماعةٍ منهم في الطَّريق، ولولا كثرةُ الوحل لدخلوا اليوم، ولكنَّهم في غدٍ يدخلون، فقال: نخرج إن شاء الله إلى لقائهم. وتقدَّم بتنظيف طُرُقاتهم من المياه فإنها كانت سنة كثيرة الأَنْداء، وقد سالت المياه في الطُّرق كالأنهار، وانفصلتُ عن خِدْمته، ولم أجد عنده من النَّشاط ما أعهده منه[1].

(١) في (ك): ما أعرفه منه.

ثم بكَّر في يوم الجمعة، فركب، ثم لحقتُهُ وقد لقي الحاج، ولم أجد عليه كَزَاغَنْده*، وما كان له عادة يركب بدونه، وكان يوماً عظيماً قد اجتمع فيه للقاء الحاجِ والتفرُّج على السُّلطان مُعْظَمُ من في البلد، فأذكرتُهُ ذلك فكأنَّه استيقظ، فطلب الكزَاغَنْد فلم يُوجد، وأوقع الله في قلبي تطيراً بذلك.

ثم سار رحمه الله بين البساتين يطلُبُ جهة المُنَيْبع* حتى أتى القلعة، فعبر على الجسر إليها، وهو طريقه المعتاد، وكانت آخر ركباته، رحمه الله[1].

فصــل

في مرض السُّلطان ووفاته، أحلَّه الله بُحْبوحَة جَنَّاته

قال القاضي: لما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، فما انتصف اللَّيل حتى غَشِيَتْهُ حُمَّىٰ صفراوية كانت في باطنه أكثر منها في ظاهره، وأصبح يوم السبت سادس عشر صَفَر عليه أَثَرُ الحُمَّى ولم يُظْهر ذلك للنَّاس لكن حَضَرْتُ عنده أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولدُه الأفضل، وطال جلوسُنا عنده، وأخذ[2] يشكو من قلقه بالليل، وطاب له الحديث إلى قريب الظُّهر، ثم انصرفنا والقلوبُ عنده، فتقدَّم إلينا بالحضور على الطَّعام في خدمة ولده الأفضل، ولم يكن للقاضي عادةٌ بذلك، فانصرف.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

(٢) في (ك): فأخذ.

ودخلتُ إلى الإيوان القِبْلي، وقد مُدَّ الطَّعام وولدُهُ الأفضلُ قد جلس في موضعه، فانصرفتُ، وما كان لي قوَّةٌ للجلوس استيحاشاً.

وبكى في ذلك اليوم جماعةٌ تفاؤلاً بجلوس ولده في موضعه، ثم أخذ المرضُ في تَزَايُدٍ من حينئذ، ونحن نلازمُ التردُّد في طَرَفَي النَّهار، وأدخُلُ إليه أنا والقاضي الفاضل في النَّهار مراراً، ويُعطى الطريق في بعض الأيام التي يجدُ فيها خِفَّةً، وكان مرضُهُ في رأسه، وكان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذي كان قد أَلِفَ مِزَاجه سَفَراً وحَضَراً، ورأىٰ الأطباء فَصْدَه ففصدوه في الرَّابع، فاشتدَّ مرضُه، وقَلَّتْ رطوباتُ بَدَنِهِ، وكان يغلبه النَّفَسُ[(١)] غلبةً عظيمةً، ولم يَزَل المرض في تزايدٍ حتى انتهى إلى غايةِ الضَّعْف.

ولقد أجلسناه في السَّادس من مرضه، وأسندنا ظهره إلى مخدَّة، وأُحضر ماء فاتر يشربُهُ عقيب شرابٍ يُلَيِّن الطَّبع، فشربَه، فوجدَه شديدَ الحرارة، فشكا من شِدَّة حَرِّه، فغُيِّر، وعُرض عليه ثانياً، فشكا من برده، ولم يغضبْ ولم يصخبْ رحمه الله، ولم يقل سوىٰ هذه الكلمات: سبحان الله لا يمكن أحداً تعديل الماء!

فخرجتُ أنا والقاضي من عنده، وقد اشتدَّ مِنَّا البكاءُ، والقاضي الفاضل يقول لي: أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها، والله لو أَنَّ هذا بعض النَّاس كان قد ضرب بالقَدَح رأس مَنْ أَحْضره.

---

(١) في مطبوع «النوادر»: اليبس.

واشتدَّ مرضُهُ في السَّادس والسَّابع والثَّامن، ولم يزل متزايداً، وتغيَّب ذهنُهُ، ولما كان التَّاسع حدَثَتْ به رَعْشة، وامتنع من تناول المشروب، واشتدَّ الإرجافُ في البلد، وخاف النَّاسُ، ونقلوا الأقمشةَ من الأسواق، وغشي النَّاسَ من الكآبة والحُزن ما لا يمكن حكايته.

ولقد كنتُ أنا والقاضي الفاضل نقعد كُلَّ ليلةٍ إلى أن يمضي من الليل ثُلثُه، أو قريبٌ منه، ثم نحضُر في باب الدَّار، فإن وجدنا طريقاً ٢١٣/٢
دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلاَّ تعرَّفنا أحواله وانصرفنا، وكُنَّا نجد النَّاس يرتقبون خروجَنا إلى بيوتنا حتَّى يقرؤوا أحواله من صفحات وجوهنا.

ولما كان العاشر من يوم مرضه حُقِنَ دفعتين، وحصل من الحقنة راحةٌ، وحصل بعض الخِفِّ، وتناول من ماء الشَّعير مقداراً صالحاً، وفَرِحَ النَّاسُ فرحاً شديداً، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من اللَّيل هزيعٌ، ثم أتينا بابَ الدَّار، فوجدنا جمال الدولة إقبالاً، فالتمسنا منه تعريف الحال المتجدِّد، فدخل، ثم أنفذ إلينا مع الملك المُعَظَّم تورانشاه يقول: إنَّ العَرَق قد أخذ في ساقيه. فشكرنا الله تعالى على ذلك، وانصرفنا[1] طيِّبةً قلوبنا، ثم أصبحنا فأُخبرنا أنَّ العرقَ أفرط حتى نفذ في الفُرُش، وتأثَّرت به الأرض، وأنَّ اليَبَس[2] قد تزايد به تزايداً عظيماً، وخارت القوة، واستشعر الأَطِبَّاء.

---

(١) في (ك): فانصرفنا.

(٢) في (ك): كتبت على رسم يقرأ بالوجهين: اليبس والنفس. قال ابن سينا في كتابه «القانون» ٣/ ٣٣ حين ذكر أعراض الحميات: ضيق النفس يعرض لهم إما لتشنج ويبس يعرض لعضل النفس (...) إلخ. وانظر ص ٣٦٠ من هذا الجزء.

ولما رأى الملك الأفضل ما حَلَّ بوالده، وتحقَّق اليأسَ منه شَرَعَ في تحليف النَّاس، وجلس في دار رضوان المعروفة بسكنه، واستحضر القُضاة، وعُمِلَ له نُسْخة يمين مختصرة، مُحَصِّلة للمقاصد، تتضمَّن الحَلِفَ للسُّلطان مُدَّة حياته، وله من بعد وفاته، واعتذر إلى النَّاس بأَنَّ[1] المَرَضَ قد اشتدَّ، وما نعلم ما يكون، وما نفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك[2].

ثم سمَّىٰ القاضي ممن حَلَفَ له جماعة، منهم سعد الدين مسعود أخو بدر الدِّين مودود الشِّحْنة، وناصر الدين صاحب صِهْيَوْن*، وسابق الدين صاحب شَيْزَر*، وخشترين الهَكَّاري، ونوشروان الزرزاري، وعلَّكان ومنكلان، ثم مُدَّ الخِوان، وأَكلوا.

ولما كان العَصْر أُعيد مجلس التَّحليف، وأُحضر ميمون القَصْري، وشمس الدين سُنْقُر الكبير، وسامة[3]، وسُنْقُر المَشْطُوب، واليكي الفارس، وأَيْبَك الأَفْطَس، وأخو الأمير سياروخ، وحسام الدين بشارة، وبعضهم اشترط في يمينه، وبعضهم لم يشترط، ولم يحضر أحد[4] من الأُمراء المِصْريين، ولم يُتَعَرَّض لهم.

ولما كانت ليلة الأربعاء السَّابع والعشرين من صَفَر، وهي ليلة الثَّاني عشر من مَرَضه اشتدَّ مرضُهُ وضَعُفَتْ قُوَّتُهُ، ووقَعَ في أوائل

---

(١) في (ك): أن.
(٢) في (ك): على جاري العادة للملوك.
(٣) في الأصل و (ب): أسامة، والمثبت من (ك)، وهو عز الدين سامة والي بيروت.
(٤) في الأصل: ولم يحضر أحداً، والمثبت من (ك).

الأمر من أوائل[1] اللَّيل، وحال بيننا وبينه النِّساء، واستُحْضِرْتُ أنا والقاضي الفاضل في تلك الليلة وابن الزَّكي، ولم تكن عادته الحضور في ذلك الوقت.

وعَرَضَ علينا الملكُ الأفضل أن نبيت عنده، فلم يَرَ الفاضل ذلك رأياً، فإنَّ النَّاس كانوا في كلِّ ليلةٍ ينتظرون نزولنا من القلعة، فخاف أن لا ننزل، فيقع الصَّوْت في البلد، وربما نَهَبَ النَّاسُ بعضهم بعضاً، فَرَأَىٰ المصلحةَ في نزولنا، واستحضار الشيخ أبي جعفر[2] إمام الكَلاَّسة* ـ وهو رجل صالح ـ يبيت بالقَلْعة، حتى إن احتضر باللَّيل حَضَرَ عنده، وحالَ بينه وبين النِّساء، وذكَّره بالشهادة، وذكر الله تعالى، ففعل ذلك، فنزلنا وكلٌّ منا يودُّ لو فداه بنفسه، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن، ويذكّره بالله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع، لا يكادُ يفيق إلا في الأحيان.

وذكر الشيخ أبو جعفر أنَّه لما انتهى إلى قوله تعالىٰ: ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادة﴾[3] سَمِعَهُ وهو يقول: صحيح. وهذه يَقَظَةٌ في وقت الحاجة، وعنايةٌ من الله تعالىٰ به، فللّه الحمدُ على ذلك.

---

(١) في (ك): في أول.
(٢) هو أحمد بن علي بن أبي بكر بن إسماعيل القرطبي، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين»، في وفيات سنة (٥٩٦ هـ).
(٣) سورة الحشر، الآية ٢٢.

وكانت وفاته ـ رحمة الله عليه ـ بعد صلاة الصُّبح من يوم الأربعاء السَّابع والعشرين من صَفَر سنة تسعٍ وثمانين وخمس مئة، وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصُبح، فحضر وفاته، ووصلتُ أنا وقد مات وانتقل إلى رِضوان الله، وَمَحَلِّ كرامته.

ولقد حُكيَ لي أنَّهُ لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: ﴿لا إله إلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ﴾[1] تَبسَّم، وتهلَّل وجهه، وسلَّمها إلى ربِّه، وكان يوماً لم يُصَبِ الإسلامُ والمسلمون بمثله منذ فَقدَ الخلفاءُ الرَّاشدون، وغَشِيَ القلعة والبلد والدُّنيا من الوحشة ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى.

وتاللّه لقد كنتُ أسمع من بعض النَّاس أنهم يتمنون فِدَاء من يعزُّ عليهم بنفوسهم، فكنت أحمل ذلك على ضَرْب من التجوُّز والترخُّص إلى ذلك اليوم، فإني علمتُ من نفسي ومن غيري أنَّهُ لو قُبِلَ الفِداء لَفُدِيَ بالنَّفس.

ثم جلس ولدُهُ الأفضلُ للعَزَاء في الإيوان الشَّمالي، وحُفِظَ بابُ القلعة إلا عن الخواص من الأمراء والمعمَّمين، وكان يوماً عظيماً قد شَغَلَ كلَّ إنسانٍ ما عنده من الحُزْنِ والأَسَفِ والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره، وحُفِظَ المجلس عن أن يَنْشُدَ فيه شاعرٌ أو يتكلَّم فيه فَصَّال[2] أو وَعَّاظ[3].

وكان أولادُهُ يخرجون مُسْتَغيثين بين النَّاس، فتكاد النُّفوس

---

(١) سورة الرعد، الآية ٣٠.

(٢) الفصال: مداح الناس ليصلوه، وهي كلمة دخيلة، انظر «معجم متن اللغة» ٤/٤١٨، وتحرفت في مطبوع «النوادر» إلى فاضل!

(٣) في (ك): أو واعظ.

تُزْهِق لهولِ منظرهم، ودام الحالُ على ذلك إلى بعد صلاة الظُّهر، ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه، فما مَكَّنَا أن نُدخل في تجهيزه ما قيمتُهُ حَبَّة واحدة إلا بالقرض حتى في ثمن التِّبْن الذي يُلَتُّ به الطِّين، وغَسَّله الدَّوْلَعِي الفقيه[1]، ونُدِبْتُ إلى الوقوف على غُسْله فلم يكن لي قوَّة تحمُّل ذلك المنظر، وأُخرج بعد صلاة الظُّهر في تابوت مُسَجَّىً بثوب فوط، وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من الثِّياب في تكفينه قد أحضره الفاضل من وجه حِلٍّ عَرَفَه.

وارتفعتِ الأصواتُ عند مشاهدته، وعَظُمَ الضَّجيج حتى إن العاقِل يتخيَّل أنَّ الدُّنيا كلَّها تصيح صوتاً واحداً، وغَشِيَ النَّاسَ من البكاء والعويل ما شَغَلَهم عن الصَّلاة، وصَلَّى عليه النَّاسُ أرسالاً، ٢١٤/٢
وكان أولُ من أَمَّ بالنَّاس القاضي محيي الدِّين بن الزكي، ثم أُعيد رحمة الله عليه إلى الدَّار التي في البُستان التي كان متمرِّضاً بها، ودُفِنَ في الصُّفَّة الغربية منها، وكان نزوله في حُفرته قريباً من صلاة العَصْر، ثم نزل في أثناء النَّهار ولدُه الظَّافر، وعَزَّى النَّاسَ فيه، وسكَّن قلوبَ النَّاس.

وكان النَّاسُ قد شَغَلَهم الحُزْنُ والبكاء عن الاشتغال بالنَّهب والفَسَاد، فما يوجد[2] قلب إلا حزين، ولا عينٌ إلا باكية إلا مَنْ شاء الله، ثم رجع النَّاسُ إلى بيوتهم أقبحَ رجوعٍ، ولم يَعُدْ منا أحدٌ

---

(١) هو ضياء الدين، عبد الملك بن زيد، خطيب دمشق، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٨هـ).

(٢) في الأصل: فلا يوجد.

في تلك اللَّيلة، إلا أنَّا حضرنا وقرأنا وجدَّدنا حالاً من الحُزْن، واشتغل [ذلك اليوم][(١)] الملك الأفضل بكَتْبِ الكُتُبِ إلى إخوته وعَمِّه يُخْبرهم بهذا الحادث.

وفي اليوم الثاني جَلَس للعَزاء جلوساً عاماً، وأطلق بابَ القَلْعة للفُقهاء والعلماء، وتكلَّم المتكلمون، ولم ينشد شاعرٌ، ثم انفضَّ المجلس في ظهيرة ذلك اليوم، واستمرَّ الحال في حضور النَّاس بُكْرَة وعشيَّة لقراءة القُرْآن، والدُّعاء له، رحمه الله[(٢)].

وقال العماد: جلس السُّلْطان ليلة السبت سادس عشر صَفَر ونحن عنده حتى مضىٰ من الليل ثُلُثُه، وهو يحدِّثنا ونحن نحدِّثه، ثم صَلَّى به وبنا إمامه، وحان قيامه، وانفصلنا بإحسانه مُغْتَبطين، وبامتنانه مرتبطين، وأصبحنا يوم السبت، وجلسنا في الإيوان[(٣)] ننتظر خروجَهُ لوضع الخِوان، ووجدناه وقد أَغلق بإغلاق بابه رَهْنَه[(٤)]، ولم نَشْعُر بما قضاه القَدَرُ وأَجَنَّه، وخرج مِنْ خَدَمه من أخبر بسَقَمِهِ، ودخول الخوف إلى حُرَمِهِ.

وأمر الملك الأفضل بأن يجلس في الإيوان[(٤)] لبسط الخِوان، فجلس في مكان والده متربِّعاً، وكان من شَرْط الأدب أن يخليَ له

(١) ما بين حاصرتين من (ك) و (ب).
(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٤٢ ـ ٢٤٧.
(٣) في الأصل: إيوانه، والمثبت من (ك).
(٤) انظر حاشيتا رقم ٢ ص ١٩ من الجزء الثالث.
(٥) في (ك) في «الإيوان والحضور» بزيادة لفظة: والحضور، وإخالها مقحمة.

موضعاً، فتطيَّرْنا من تلك الحالة، وتكرَّهْنا منها سُوء الدَّلالة، فتلاعبت فيه العيون، وتراجمتِ الظُّنُون، ودخلنا إليه ليلةَ الأحد للعيادة، ومرضُهُ في الزِّيادة، وفي كلِّ يوم تَضْعُفُ القلوب، وتتضاعفُ الكروب، وانتقل من دار الفَنَاء إلى دار البقاء في سُحْرَةِ يوم الأربعاء، ونابتِ الظَّلْماء عن الضِّياء، ودخل قَمره ليلة السَّابع والعشرين في السِّرَار[١]، ودَجَت مطالِعُ الأنوار، ومات لموته[٢] رجاءُ الرِّجال، وأظلم بغروب شمسه فضاءُ الأفضال، وغاضت الأيادي، وفاضَتْ الأعادي، ودُفِنَ بقلعة دمشق في مسكنه، ودُفِنَ جِماعُ الكَرَم والفَضْل والدِّين بمدفنه، ثُمَّ بنىٰ الملكُ الأفضل قُبَّةً شمالي الجامع بجواره، بشُبَّاك إلى الجامع لزوَّاره[٣]، ونقله إليها يوم عاشوراء سنةَ اثنتين وتسعين، واسترجعنا وقلنا: ما لنا إلا أَن نستعيذ بالله ونستعين.

قال: ومما قلتُه رباعية[٤] في المرثية:

قال الملكُ النَّاصِرُ مَنْ كَلَّفني ... في الجود بشيمتي فما أنصفني

ما يعلَمُ أَنَّ ذا[٥] الملك فني ... لم يَبْقَ من الجُودِ إلا كَفَني

وقال العماد أيضاً في رسالته الموسومة «بِعُتْبَىٰ الزَّمان»: وكان السُّلْطان رحمه الله لما توفي دُفِنَ بالقلعة في منزله، وما

---

(١) السِّرار: الليلة التي يستسر فيها القمر، أي يخفى. انظر «اللسان» (سرر).
(٢) في (ك): بموته.
(٣) في (ك): شمالي الجامع في جواره، فشباك إلى الجامع لزواره.
(٤) هو الدوبيت، انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٢٤١ من الجزء الثاني.
(٥) في (ك): ذلك.

زال الأفضل يتروّى في موضع ينقله إليه، واستشار في ذلك، فأُشير عليه في سنةِ تسعين بأن تُبْنَى تُربته عند مسجد القدم*، ويُبْنَى عندها مدرسةٌ للشافعية، وقالوا: إذا وصل الملك العزيز استغنى بزيارتها عن الدُخول إلى دمشق لأجلها.

وقالوا: إنَّ السُّلْطان ـ رحمه الله ـ لما مَرِضَ سنة إحدى وثمانين بحرّان* وَصَّى[1] أَنْ يُدْفَنَ بدمشق قبليَّ مَيْدَان الحصى*، ويكون قبره على النَّهج السَّابل، وطريق القوافل، ليدعو له الوارد والصَّادر، والبادي والحاضر، وتجوز عليه في الغَزَوات العَساكر.

قالوا: وإنْ تناءت هذه الأرض عن مكان الوَصِيَّةِ، فهي منه قريبة، فأمر الأفضل ببناء التُّرْبة عند مسجد القدم، وتولى عمارتها بدر الدِّين مودود والي دمشق، فاتّفق وصول العزيز تلك السَّنة للحصار، وهم قد شرعوا في عمارتها، فخرَّب ما كان قد ارتفع من البناء، ثم استقرى الأفضل حدودَ الجامع ليجعل التُّرْبة فيها، فوُفِّق لدارٍ كانت لبعض الصالحين، وهي في حَدِّ المكان الذي زاده الأَجَل الفاضل في المسجد، فاشتراها منه، وأمر بعمارتها فيه فَعُمِرَتْ، ونُقِلَ إليها السُّلْطان يوم عاشوراء من سنة اثنتين وتسعين بُكْرة الخميس، ومشى الأفضل بين يدي تابوته.

وأراد العلماء والفقهاء حَمْلَه على أعناقهم التي فيها مِنَّته، فقال الأفضل: كَفَتْهُ أَدْعِيَتُكم الصَّالِحة، التي هي في المَعَادِ جُنَّتُهُ، وحمله مماليكُه وخدمُهُ، وأولياؤه وحَشَمه، وأُخرج من باب القلعة في البلد

(١) في (ك) أوصى.

علىٰ دار الحديث* إلى باب البريد*، وأُدخل منه إلى الجامع، ووضع قُدَّام باب النَّسر*، وصَلَّى عليه القاضي محيي الدين محمد بن علي القُرَشي بإذن الأفضل، ثم حُمِلَ منه على الرؤوس إلى بطن مُلْحَده، ثم جاء الأفضل وحده، ودخل لحده، وأودعه وخرج، وسَدَّ البابَ على أبيه، وجلس هناك في الجامع ثلاثة أيامِ للعَزَاء، وأنفقت سِتُّ الشام أُختُ السُّلطان في هذه النَّوْبة أموالاً كثيرة.

قال محمد بن القادسي[(١)]: وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأَوَّل شاعتِ الأخبار يعني ببغداد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب، وذُكِرَ أَنَّهُ دُفِنَ معه سَيْفُهُ الذي كان مَعَهُ في الجهاد، وكان ٢١٥/٢
ذلك برأي الفاضل، وقيل عنه: هذا يتوكأ عليه إلى الجنَّة. وأنَّ الفاضل كَفَّنه من ماله، وتولى غُسْله الفاضل وخطيب دمشق[(٢)].

قلتُ: وحُكي لي أَنَّهُ رؤي النبيُّ ﷺ في جماعةٍ من الصَّحابة رضي الله عنهم زاروا قبر صلاح الدين رحمه الله، وأنهم لِما صاروا عند الشُّبَّاك سجدوا. ووجدتُ[(٣)] في بعض الكُتُب الفاضلية أَنَّ رجلاً رأى ليلة وفاة السُّلْطان كأنَّ قائلاً يقول له: قد خرج الليلة يوسف من السِّجْن، وهو من الأَثَر النَّبوي: «الدُّنيا سِجْنُ المُؤمِن وجنة الكافر»[(٤)].

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من الجزء الثالث.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٦٥ من هذا الجزء.

(٣) من هنا حتى آخر الخبر ص ٣٧٠ ليس في (ك).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٩٥٦).

قال: وما كان يوسفنا ــ رحمة الله عليه ــ في الدُّنيا بالإضافة إلى ما صار إليه في الآخرة إلا في سِجْنٍ، رضي الله عن تلك الرُّوح، وفتح له بابَ الجَنَّة، فهو آخر ما كان يرجو من الفُتُوح.

ومن كلام غيره في وفاة السُّلطان رحمه الله تعالىٰ: أَفَلَت الشَّمْسُ عند الصَّباح، وذهبت روح الدُّنيا الذي ذَهَبَ بذهابها كثيرٌ من الأرواح، وتلك ساعةٌ ظلَّت لها الألباب حائرة، وتمثَّلت فيها السَّماء مائرة، والجبال سائرة، وأُغْمِدَ سَيْفُ الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد، وخَفَّت الأرض من جبلها الذي كان يمنعها أن تميد، وأصبح الإسلامُ وقد فُقِدَ ناصِرُه، فهو أعظم فاقدٍ لأعظم فقيد، وليس أحدٌ من النَّاس إلا وقد صُمَّ عن الخبر، وأُصيب في سواد القلب والبَصر، وقال وقد توفي رسولُ الله ﷺ بقولِ عمر[1].

وخَتَمَ العمادُ كتابه «البرق الشَّامي» بقصيدة رثى بها السُّلْطانَ ــ رحمه الله ــ عددها في ديوانه [بخطِّه][2] مئتان واثنان وثلاثون بيتاً، أولها:

شَمْلُ الهُدَىٰ والمُلْكِ عَمَّ شَتَاتُهُ	والدَّهْرُ ساء وأَقْلَعَتْ حَسَنَاتُهُ
أين الذي مُذْ لَمْ يَزَلْ مَخْشِيَّةً	مَرْجُوَّةً هَبَّاتُهُ وَهِبَاتُهُ
أين الذي كانت له طاعاتنا	مبذولةً ولِرَبِّهِ طاعاتُهُ
بالله أين النَّاصِرُ الملك الذي	للّه خالصةً صَفَتْ نِيَّاتُهُ
أَين الذي ما زال سُلْطاناً لنا	يُرْجىٰ نَدَاه وتُتَّقىٰ سَطَواتُهُ

(١) إلى هنا ليس في (ك).
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

أَيْنَ الذي شَرُفَ الزَّمان بفضله ... وسَمَتْ على الفُضَلاء تَشريفاتُهُ
أين الذي عَنَتِ الفرنجُ لبأسه ... ذُلاً ومنها أُدركت ثاراتُهُ
أغلالُ أَعناقِ العِدَىٰ أسيافُهُ ... أطواقُ أجياد الورىٰ مِنَّاتُهُ
لَمْ يُجْدِ تدبيرُ الطَّبيب وكم وكم ... أَجْدَتْ لطبِّ الدَّهر تدبيراتُهُ
مَنْ في الجهادِ صِفَاحهُ ما أُغمدت ... بالنَّصر حتى أُغمدت صَفحاتُهُ
مَنْ في صدور الكُفر صَدْرُ قَناتِهِ ... حتى توارَتْ بالصَّفِيح[1] قَنَاتُهُ
لَذَّ المتاعِبَ في الجهاد ولم تكن ... مُذْ عاش قَطُّ لذاتِهِ لَذَّاتُهُ
مسعودَةٌ غَدَواتُهُ محمودةٌ ... رَوَحاتُهُ ميمونة ضَحَواتُهُ
فِي نُصْرَةِ الإسلام يَسْهَرُ دائماً ... ليطولَ في رَوْضِ الجِنانِ سُبَاتُهُ[2]
لا تَحْسَبُوه ماتَ شَخْصٌ واحدٌ ... فمماتُ كُلِّ العالَمين مماتُهُ
مَلِكٌ عن الإسلامِ كان محامياً ... أبداً لماذا أَسْلَمَتْهُ حُمَاتُهُ
قد أظلمت مُذ غابَ عنها دُورُه ... لما خَلَتْ من بَدْرِهِ دَارَاتُهُ
دُفِنَ السَّماحُ فليس تُنْشَرُ[3] بعدما ... أَوْدَىٰ إلى يوم النُّشور رُفاتُهُ
الدِّينُ بعد أبي المُظَفَّر يوسُفٍ ... أَقْوَتْ قُواه[4] وأَقْفَرَتْ ساحاتُهُ
جَبَلٌ تَضَعْضَعَ مِنْ تَضَعْضُعِ رُكنِهِ ... أركانُنا وتَهُدُّنا هَدَّاتُهُ
ما كنتُ أَعْلَمُ أَنَّ طَوْداً شامخاً ... يَهْوِي ولا تَهْوِي بنا مَهْوَاتُهُ
ما كنتُ أعلم أَنَّ بحراً طامياً ... فينا يُطَمُّ وتنتهي زَخَراتُهُ

(١) في الأصل: بالصياح، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: سناته، والمثبت من (ك).
(٣) في الأصل: ينبش، والمثبت من (ك).
(٤) من أقوى الرجل: إذا نفد طعامه وفني زاده، وكأنه يريد: ضعفت قواه. انظر «اللسان» (قوى).

بَحرٌ خلا من وارديه ولم تَزَلْ … محفوفةً بوفوده حافاتُه[1]
مَن للِيتامى والأرامل راحِمٌ … متعطِّفٌ مفضوضةٌ صَدَقاتُه
٢١٦/٢ لو كانَ في عَصْرِ النبيِّ لأُنزِلَتْ … في ذِكْرِهِ من ذِكْرِهِ آياتُه
فعلى صَلاحِ الدين يوسُفَ دائماً … رِضوانُ رَبِّ العَرْشِ بَلْ صَلَواتُه
لضريحه سُقْيا السَّحابِ فإنْ يَغِبْ … تَحضُرْ لرحمةِ رَبِّه سُقْياتُه
وكعادَةِ البيتِ المقدَّسِ يَحزُنُ الْـ … بيتُ الحَرامُ عليه بل عَرَفاتُه
مَن للثُّغور وقد عَدَاها حِفظُهُ … مَنْ للجهاد ولم تَعُدْ عاداتُه
بَكَتِ الصَّوارِمُ والصَّواهِلُ إذْ خَلَتْ … مِن سَلِّها[2] وركوبها غزواتُه
وبسيفه صَدأٌ لحُزْنٍ مُصابه … إذ ليس يُشفَىٰ بعده صَدْياتُه
يا وحشتا للبيض في أغمادِها … لا تنتضيها للوغَىٰ عَزَماتُهُ
يا وحشةَ الإسلامِ يوم تمكَّنَتْ … في كلِّ قَلْبِ مُؤمِنٍ رَوْعاتُهُ
يا حَسْرَتا من يأسِ راجيه الذي … يُقْضَىٰ الزَّمانُ وما انقضت حَسَراتُهُ
مَلأَتْ مَهابَتُهُ البِلادَ فإنَّه … أَسَدٌ وإنَّ بِلادَه غاباتُهُ
ما كانَ أسرعَ عَصْرَه لما انقضَىٰ … فكأنَّما سَنَواتُهُ ساعاتُهُ
لم أنسَ يوم السَّبْتِ وهو لما به … يُبْدي السُّباتَ وقد بَدَتْ غشياتُهُ
والبِشْرُ منه تَبَلَّجَتْ أنوارُهُ … والوَجْهُ منه تلألأَتْ سُبُحاتُهُ[3]
ويقول للّه المهيمنِ حُكْمُهُ … في مَرْضَةٍ حَصَلَتْ بها مَرْضاتُهُ
وَقَفَ الملوكُ على انتظارِ ركوبِهِ … لهمُ ففيمَ تأخَّرتْ رَكَباتُهُ

---

(١) في الأصل: حفَّاته، والمثبت من (ك).
(٢) في الأصل: سيلها، والمثبت من (ك).
(٣) سبحات الوجه: مواضع السجود منه. «معجم متن اللغة» ٣/٩٧.

كانوا وقوفاً أمسِ تحتَ رِكابِهِ ... واليومَ هُمْ حَوْلَ السَّريرِ[1] مُشاتُهُ
ومَمالكُ الآفاقِ ساعيةٌ له ... فمتى تجيءُ بفتْحِهِنَّ سُعاتُهُ
هذي مناشيرُ الممالكِ تقتضي ... توقيعَهُ فيها فأينَ دَواتُهُ
هذي الجيوشُ منَ البلادِ تواصَلَتْ ... فعلامَ لا تسمو لها راياتُهُ ٢/٧٢٢
قد كانَ وَعْدُكَ في الرَّبيعِ بجمعها ... هذا الربيعُ وقد دنا ميقاتُهُ
والجُنْدُ في الدِّيوانِ جُدِّدَ عَرْضُهُ ... وإذا أَمَرْتَ تجدَّدَتْ نَفَقاتُهُ
والقُدْسُ طامحةٌ إليكَ عيونُهُ ... عَجِّلْ فقد طَمِحَتْ إليه عُداتُهُ
والغَرْبُ منتظرٌ طلوعَكَ نحوه ... حتى تفيءَ إلى هُداكَ بُغاتُهُ
والشَّرْقِ يرجو غَرْبَ عَزْمِكَ ماضياً ... في مُلْكِه حتى تطيعَ عُصاتُهُ
مُغْرىً بإسْداءِ الجميلِ كأنَّما ... فُرِضَتْ عليه كالصَّلاةِ صِلاتُهُ
هل للملوكِ مَضاؤه في مَوْقِفٍ ... شُدَّتْ على أعدائِه شَدَّاتُهُ
وإذا الملوكُ سَعَوْا وقَصَّرَ سَعْيُهُمْ ... رَجَحَتْ وقد نَجَحَتْ به مَسْعَاتُهُ
كم جاءَه التَّوفيقُ في وقعاته ... مَنْ كان بالتَّوفيقِ توقيعاتُهُ

قال: بخطِّ العماد في حاشية «ديوانه»: كانت علامته: الحمد لله، وبه توفيقي.

يا راعياً للدِّين حين تمكَّنَتْ ... منه الذِّئابُ وأسلَمَتْهُ رُعاتُهُ
ما كان ضَرَّكَ لو أَقَمْتَ مُراعياً ... ديناً تَوَلَّى مُذْ رَحَلْتَ وُلاتُهُ
أَضَجِرْتَ مِنّا أَمْ أَنِفْتَ فلم تكن ... ممن تصابُ لِشِدَّةٍ ضَجَراتُهُ
أَرَضِيتَ تحتَ الأرْضِ يا مَنْ لم تَزَلْ ... فَوْقَ السَّماءِ عَلِيَّةً درجاتُهُ
فارقْتَ مُلْكاً غيرَ باقٍ مُتْعِباً ... وَوَصَلْتَ مُلْكاً باقياً راحاتُهُ

---
(١) السرير: النعش. «معجم متن اللغة»: ٣/١٣٩.

أَعْزِزْ على[1] عيني برؤية بهجة الدُّ ... نيا وَوَجْهُكَ لا تُرَىٰ بهجاتُهُ
أبني صلاح الدِّين إنَّ أباكُمُ ... ما زالَ يأبىٰ ما الكِرَامُ أباتُهُ
لا تقتدوا إلا بسُنَّةِ فَضْلِهِ ... لتطِيْبَ في مَهْدِ النَّعيم سِناتُهُ[2]
٢١٧/٢ وَرِدُوا مواردَ عَدْلِهِ وسماحِهِ ... لِتُرَدَّ عن نَهج الشَّمَاتِ شُمَاتُهُ
ولئن هَوَىٰ جَبَلٌ لقد بُنِيَتْ لنا ... بِبَنِيْهِ مِنْ هَضَبَاتِهِ ذُرَوَاتُهُ
وبفضل أَفْضَلِهِ وعِزِّ عزيزه ... وظهورِ ظاهره لنا سَرَواتُهُ
الأفضلُ الملكُ الذي ظَهَرَت على الدُّ ... نيا بِزُهْرِ جلاله جَلَواتُهُ
والدِّينُ بالملك العزيز عِمَادُه ... عثمان حاليةٌ لنا حالاتُهُ
والمَلْك غازي الظَّاهرِ العالي الذي ... صَحَّتْ لإظهار العُلَىٰ مغزاتُهُ
ولنا بسيفِ الدِّين أَظْهَرُ نُصْرَةٍ ... بالعادلِ الملكِ المُطَهَّرِ ذاتُهُ

وللعماد فيه من قصيدةٍ أُخرى:

من للعُلا من للذُّرى من للهُدَىٰ ... يحميه مَنْ للبأسِ مَنْ للنائِلِ[3]
طلبَ البقاءَ لِمُلْكِهِ في آجلٍ ... إذْ لَمْ يَثِقْ ببقاء مُلْكِ العاجل
بحرٌ أعاد البَرَّ بحراً بِرُّه ... وبسيفِهِ فُتِحَتْ بلادُ السَّاحِلِ
مَنْ كانَ أهلُ الحَقِّ في أيَّامه ... وبعِزِّه يُرْذُونَ أهلَ الباطِلِ
وفتوحُهُ والقُدْسُ من أبكارها ... أَبقَتْ له فَضْلاً بغير مساجل
ما كنتُ أستسقي لقبرك وابلاً ... ورأيتُ جُوْدَكَ مُخجِلاً للوابل
فَسَقاك رِضْوانُ الإله لإنني ... لا أَرْتَضِي سُقْيا الغَمَامِ الهاطِلِ

---

(١) أعزز على: أي عَظُمَ واشتَدَّ. انظر «اللسان» (عزز).
(٢) السنات جمع، مفردها سنة: وهو النعاس من غير نوم. «اللسان» (وسن).
(٣) هذا البيت في (ك) بعد قوله: من كان أهل الحق في أيامه.

فصل

في تركة السُّلْطان ووصف أخلاقه رحمه الله

ذكر القاضي ابنُ شدَّاد أنه لما مات لم يخلِّف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعةً وأربعين دِرْهَماً ناصرية، وَجِرْماً[(١)] واحداً ذهباً صورياً[(٢)]، ولم يخلِّف مِلْكاً: لا داراً ولا عَقَاراً ولا بُسْتاناً [ولا قرية][(٣)] ولا مزرعة. يعني لا في البلد[(٤)] مسقَّفاً، ولا ظاهراً مستغلاً من أنواع الأملاك[(٥)].

وقال العماد في كتاب «الفتح»: خَلَّف السُّلْطان [صلاح الدين][(٦)] رحمه الله سبعة عشر ولداً ذكراً وابنةً صغيرة[(٧)]، وأبقى له مآثر أثيرةً، ومحاسن كثيرة، ولم يخلِّف في خزانته سوى دينارٍ واحد وستة وثلاثين دِرْهماً، فإنه كان بإخراج ما يَدْخُلُ من الأموال في المكْرُمات والغرامات مُغْرماً.

وكان يجود بالمال قبل الحصول، ويقطعه عن خزانته بالحوالات عن الوصول، وإذا عَرَفَ بوصول حِمْلٍ وقَّع عليه بأضعافه، وخَصَّ الآحاد من ذوي الغَنَاء في الجهاد بآلافه، ولا جَبَهَ

---

(١) هي هنا بمعنى الدينار، يفسره قول العماد الآتي.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٢٨ من الجزء الأول.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) في الأصل: يعني في البلد ولا مسقفاً، والمثبت من (ك).
(٥) «النوادر السلطانية»: ٨.
(٦) ما بين حاصرتين من (ك).
(٧) انظر ص ٤٧٥ ـ ٤٧٨ من الجزء الثاني.

أحداً بالرَّدِّ إذا سأله، بل تَلَطَّفَ له كأنَّه استمهله، فإنه يقول: ما عندنا شيء السَّاعة. ومفهومه أنه يعطي وإن كان يُبْطي، وأنَّه يصيبه بالنَّوَال ولا يخطي[١].

وكان مشغوفاً في سبيل الله بالإنفاق، موقوفاً عَزْمُهُ في الأعداء بإدناء الآجال وفي الأولياء بإجراء الأرزاق. وما عُقِرَ في سبيل الله فَرَسٌ أو جُرِح إلا وعوَّض مالكه مِثْلَه، وزاده من زاده فَضْلَة[٢].

وحُسِبَ ما وَهَبَهُ من الخيل العِراب، والأكاديش الجياد، للحاضرين معه في صَفِّ الجهاد، مُدَّة ثلاث سنين وشهر مُذْ نزل الفرنج على عكا في رجب سنة خمس وثمانين إلى يوم انفصالهم بالسِّلْم في شعبان سنة ثمانٍ وثمانين، فكان تقديرُه اثني عشر ألف رأس من حصانٍ وحِجْرٍ[٣] وإكديش، وذلك غير ما أطلقه من المال في أثمان الخيل المُصابة في القتال.

ولم يكن له فَرَسٌ يركبه إلا وهو موهوب، أو موعود به، وصاحبه ملازم في طلبه، وما حضر اللِّقاء إلا استعار فرساً فركبه وهجر جياده، فإذا نزل جاء صاحِبُه واستعاده، فكلُّهم يركبُ خَيْلَه، ويطلب خيره، وهو يستعير جواداً، ويستعر في الجهاد اجتهاداً[٤].

وقال في «البرق»: وحضرتُ بعده عند بعض الملوك وقد

(١) «الفتح القسي»: ٦٢٩.

(٢) في الأصل: وزاده من فضله، وفي (ب): وزاده من فضله فضلة، والمثبت من (ك).

(٣) الحجر: الفرس الأنثى، انظر «اللسان» (حجر).

(٤) «الفتح القسي»: ٦٥٦.

قِيدَتْ إليه عِرَابٌ، فقيل له: كان السلطان يُضَيِّع هذه وما عنده لها حِسَاب. ونسبوا جوده بها إلى السَّرَف، وعدُّوه من معايبه، وأعرضوا عن ذكر مفاخره ومناقبه، وبمثل ذلك استتبَّتْ له الفتوح وخَلَصَتْ[1] له طاعة كتائبه.

قال في «الفتح»: وكان لا يَلْبَسُ إلا ما يَحِلُّ لُبْسُه، وتطيب به نَفْسُه: كالكَتَّان، والقُطْن والصُّوف، وكسوتُه يخرجها في إسداء المعروف.

وكانت محاضِرُه مصونةً من الحَظْر، وخَلَواتُهُ مقدَّسة بالطُّهر، ومجالسُهُ مُنَزَّهة من الهُزْء والهَزل، ومحافِلُهُ حافلةً آهلةً بأهل الفَضْل. وما سُمِعَتْ له قَطُّ كلمةً تسقُط، ولا لفظةً فَظَّةً تُسْخِطُ. ويَغْلُظُ على الكافرين الفاجرين، ويلين للمؤمنين المتقين.

ويؤثر سماعَ الأحاديث بالأسانيد، ويكلِّم[2] العلماء عنده في العِلْم الشَّرعي المفيد. وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء، ومشاركة القُضَاة في القضاء، أعلم منهم بالأحكام الشرعية، والأسباب المَرْضِيَّة، والأدلة المَرْعِيَّة.

وكان مَنْ جالَسَهُ لا يعلم أَنَّه جليسُ السُّلطان، بل يعتقد أَنَّهُ جليسُ أخٍ من الإخوان. وكان حليماً مُقِيلاً للعَثَرات، متجاوزاً عن ٢١٨/٢
الهَفَوات، تقيّاً نقيّاً، وفِيّاً صَفِيّاً، ويُغضي ولا يغضب، ويَبْشُرُ ولا

---

(١) في (ك): وحصلت.

(٢) في (ك): ويتكلم.

يتقطَّب، ما رَدَّ سائلاً، ولا صَدَّ نائلاً، ولا أخجل قائلاً، ولا خَيَّب آملا[1].

قال: ومن جُمْلة مناقبه أَنَّه تأخَّر عنه في بعض سفراته الأمير أيوب بن كنان، فلما وصل سأله عن سبب تَخَلُّفه، فذكر دَيْناً، فأحضر غُرماءه، وتقبَّل بالدَّين وكان اثني عَشَرَ ألف دينار مِصْرية وكسراً[2].

قال: ولما كُنَّا بالقُدْس في سنة ثمانٍ وثمانين كَتَبَ إليه سيفُ الدَّوْلة بن مُنْقِذ نائبُهُ بمصر أَنَّ واحداً ضَمِنَ معاملة بمبلغٍ، فاستنضَّ[3] منها ألفي دينار وتَسَحَّب، وربما وصل إلى الباب فتحيَّل وتمحَّل وكذَّب، فجاء مَنْ أخبر السُّلْطان بأَنَّ الرَّجُل بالباب، فقال: قُلْ له إِنَّ ابن منقذ يطلبك، فاجتهد أن لا تقع في عينه. فعجبنا من حِلْمه وكَرَمه، بعد أن قُلْنا قَدِمَ الرجلُ إلى حَيْنِه[4] بقدمه[5].

قال: ومما أذكره له في أَوَّل سفرتي معه إلى مِصْر سنة اثنتين وسبعين أَنَّه حوسِبَ صاحب ديوانه عما تولاه في زمانه، فكانت سياقة الحساب عليه سبعين ألف دينار باقية عليه، فما طلبها ولا ذكرها، وأَراه أنه ما عرفها، على أَنَّ صاحب الديوان ما أنكرها.

---

(١) «الفتح القسي»: ٦٥٦ ـ ٦٥٧.

(٢) «الفتح القسي»: ٦٥٧.

(٣) أي استوفى «المعجم الوسيط»: ٢/٩٣٧.

(٤) الحين: الهلاك «معجم متن اللغة»: ٢/٢٠٨.

(٥) «الفتح القسي»: ٦٥٧.

وكان يَرْضَىٰ من الأعمال بما يُحمل صَفْواً عَفْواً، ويحصل عَذْباً حُلْواً، وكلُّه يخرج في الجود والجهاد، ثم لم يَرْضَ له بالعُطْلة، فولاه ديوان جيشه[1].

قال: ولما كُنَّا بظاهر حَرَّان* عَمَّ بصدقاته الفُقَراء والمساكين، وكتَبَ إلى نوَّابه في الولايات، بإخراج الصَّدقات، وقال لي: اكتُب إلى الصَّفي بن القابض بدمشق أن يتصدَّق بخمسة آلاف دينار صورية[2]. فقلت له: الذَّهب الذي عنده مِصْري. فقال: فيتصدَّق بخمسة آلاف دينار مصرية. وأشفق من صَرْف المِصْري بالصُّوري فيكون حراماً، ويرتكب في كَسْب الأجر آثاماً، فسَمَحَ وَمَنِحَ، وتاجَرَ الله ورَبِحَ.

ولما عَزَمَ على الرَّحيل من حَرَّان*، أفاض بها الفَضْلَ وبَثَّ الإحسان، وقال لي: انظر يوم الرَّحيل، كم بقي بالباب من الوافدين أبناء السَّبيل، وهذه ثلاث مئة دينار اقسمها عليهم بالقلم على أقدارهم. وكانوا عِدَّةً يسيرة لم تبلغ عشرة، فعيَّنت لكل اسمٍ قسماً، فبلغ أربع مئة دينار، فأعلمتُهُ وقُلْتُ: أنقص من كلِّ اسمٍ ربعاً؟ فقال: أجرِ ما جَرَىٰ به القَلَم.

قال: وكان رحمه الله إذا أطلقَ لعافٍ عارفةً، وقلتُ له: هذه ما تكفيه رَدَّها مضاعفة[3].

---

(١) «الفتح القسي»: ٦٥٧ ـ ٦٥٨.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٣٢٨ من الجزء الأول.
(٣) «الفتح القسي»: ٦٥٨.

قال: وكان يغضب للكبائر، ولا يغضي عن الصَّغائر، ويرشد إلى الهدى، ويهدي إلى الرَّشاد، ويسدِّد الأمر ويأمر بالسَّداد، فكان[1] مماليكه وخواصُّه، بل أمراؤه وأجناده أَعَفَّ من الزُّهاد والعُبَّاد[2].

قال: ورأى لي يوماً دواةً محلاَّةً بالفِضَّة، فأنكرها، فقلتُ له: إنَّ الشيخ أبا محمد والد أبي المَعَالي[3] قد ذكر وجهاً في جوازها. ثم لم أكتبْ بها عنده بعدها[4].

وكان محافظاً على الصَّلوات الخمس في أوائل أوقاتها، مواظباً على أداء مفروضاتها[5] ومسنوناتها، فما رأيته صَلَّى إلا في جماعة، ولم يؤخر له صلاةً من ساعة إلى ساعة، وكان له إمامٌ راتب، ملازم مواظِبٌ، فإن غاب يوماً صَلَّى به من حَضَره من أهل العلم، إذا عَرَفَه متقياً متجنِّباً للإثم.

وكان يأخذ بالشَّرْع ويعطي به، ولم يكن إلى المنجِّم مصغياً، ولم يزل لقوله مُلغياً، ولا يتعيَّف ولا يتطيَّر، ولا يُعَيِّن ولا يتخيَّر، بل إذا عَزَمَ توكَّل على الله، فلا يفضِّل يوماً على يوم، ولا زماناً على زمان، إلا بتفضيل الشَّرْع، وما زال ناصراً للتوحيد، وقامعاً[6] جَمْعَ أهلِ البِدَع بالتبديد.

---

(١) في الأصل: فكل، والمثبت من (ك).

(٢) «الفتح القسي»: ٦٥٩.

(٣) هو زكي الدين علي بن محمد، وكنيته أبو الحسن، وقد كناه العماد هنا باسم ابنه محمد أبي المعالي المعروف بابن الزكي، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٧٣ من الجزء الأول.

(٤) المصدر السالف: ٦٥٩ ـ ٦٦٠.

(٥) في (ك): مفترضاتها.

(٦) في (ك): قامعاً.

شافعي المذهب أصولاً وفروعاً، معتقداً له معقولاً ومسموعاً، يُدني أهلَ التنزيه ويُقصي أهلَ التشبيه، ويديم استفادة فقه الفقيه، واستزادة نباهة النَّبيه، ووجاهة الوجيه. فالعالَمون في عَدْله، والعَالِمون في فَضْلِه، والبلاد في أَمْنه، والعباد في مَنِّه[1].

فصل

قال القاضي ابنُ شَدَّاد: كان مولد السُلْطان رحمه الله في شهور سنة اثنتين وثلاثين وخمس مئة بقلعة تكريت*، وكان والده أيوبُ بن شاذي والياً بها، وكان كريماً، أريحيّاً حليماً، حَسَنَ الأخلاق، مولده بدُوِين[2]، ثم اتَّفق له الانتقال من تكريت إلى المَوْصل، وانتقل ولدُه المذكور معه، وأقام بها إلى أن ترعرع.

وكان والدُه محترماً مقدَّماً هو وأخوه أسد الدين شِيركُوه عند أتابك* زَنْكي، واتَّفق لوالده الانتقال إلى الشَّام، وأُعطي بَعْلَبَكَّ، وأقام بها مُدَّة ومعه ولده المذكور، فأقام في خدمة والده يتربَّى تحت حِجْرِه، ويرتضعُ ثدي محاسن أخلاقه حتى بَدَتْ منه أمارات السَّعادة، ولاحت عليه لوائح التقدُّم والسِّيادة، وقدَّمه الملكُ العادل نور الدين محمود بن زَنْكي رحمه الله، وعَوَّل عليه، ونَظَرَ إليه، وقَرَّبه وخَصَّصه، ولم يزل كلما تقدَّم قدماً تبدو منه أسبابٌ تقتضي تقديمه إلى ما هو أعلى منه، حتَّى اتَّفق لعمِّهِ أسدِ الدين شِيْركُوه

---

(١) «الفتح القسي»: ٦٦٠ ـ ٦٦١.

(٢) بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج. «وفيات الأعيان»: ٧/ ١٣٩.

الحركة إلى مصر، والنهوض إليها[1]. وقد مضىٰ ذلك[2].

ثم قال: ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية، وملاحظته للأمور الشَّرْعِية. ورد في الحديث الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس: شهادةِ أن لا إله إلا الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصَوْمِ رمضان، والحَجُّ إلى بيت الله الحرام»[3].

٢١٩/٢ وكان رحمه الله حَسَنَ العقيدة، كثيرَ الذِّكْر لله تعالى، قد أخذ عقيدته عن الدَّليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العِلْم، وأكابر الفُقهاء، ويَفْهَمُ من ذلك ما يحتاج إلى تفهُّمه، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً، وإن لم يكن بعبارة الفُقَهاء، فتحصَّل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشْبيه والتعطيل، جاريةً على نمط الاستقامة.

وكان قد جَمَعَ له الشيخ الإمام قُطْب الدِّين النَّيسابوري رحمه الله[4] عقيدةً تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب، وكان من شِدَّة حِرْصه عليها يُعلِّمها الصِّغار من أولاده حتى تترسَّخ في أذهانهم من الصِّغَر، ورأيتُهُ وهو يأخذها عليهم، وهم يقرؤونها من حفظهم بين يديه[5].

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٦.
(٢) انظر ص ٤٠٤ من الجزء الأول، وص ٤٦، ٢٥١ من الجزء الثاني.
(٣) هامش (ك) بخط مغاير: من استطاع إليه سبيلاً.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٣ من الجزء الأول.
(٥) في الأصل: عليه، والمثبت من (ك).

وأما الصَّلاة فإنَّه كان شديدَ المواظبة عليها بالجماعة، حتى إنَّه ذكر ـ رحمه الله ـ [يوماً][(١)] أنَّ[(٢)] له سنين ما صَلَّى إلا جماعة، وكان إذا مَرِضَ يستدعي الإمام وحدَه، ويكلِّف نَفْسَه القيام، ويصلِّي جماعة.

وكان يواظب على السُّنَن الرَّواتب، وكان له ركعاتٌ يصلِّيها إن استيقظ بوقتٍ من اللَّيل، وإلا أتى بها قبْلَ صلاة الصُّبْح. وما كان يترك الصَّلاة ما دام عقلُه عليه، ولقد رأيته يصلِّي في مرضه الذي مات فيه قائماً، وما ترك الصَّلاة إلا في الأيام الثَّلاثة التي تغيَّب فيها ذِهْنُه. وكان إذا أدركته الصَّلاة وهو سائر نزل وصَلَّى.

وأما الزكاة فإنَّه مات ـ رضي الله عنه ـ ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة. وأما صدقة النَّفْل فإنَّها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال.

وأما صومُ رمضان فإنَّه كان عليه فيه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعدِّدة.

وكان القاضي الفاضل قد تولَّى ثبت تلك الأيام، وشَرَعَ ـ رحمه الله ـ في قضاء فوائت ذلك في القُدْس الشَّريف في السَّنَة التي توفي فيها. وواظب على الصَّوم مقداراً زائداً على شهر، فإنَّه كان عليه فوائت رمضانين شَغَلَتْهُ الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) في الأصل: أنه، والمثبت من (ك).

وكان الصوم لا يوافق مِزَاجه، فألهمه الله الصَّوْم لقضاءِ الفَوائت، فكان يصوم وأنا أُثبتُ الأيام التي يصومها، فإنَّ القاضي كان غائباً، والطبيبُ يلومه، وهو لا يسمع ويقول: ما أعلم ما يكون. فكأنَّه كان مُلْهماً براءة ذمَّته، ولم يزل حتى قَضَىٰ ما عليه، رحمه الله.

وأما الحج فإنه لم يزل عازماً عليه وناوياً له، لا سيما في العام الذي توفِّيَ فيه، فإنه صَمَّمَ العَزْمَ عليه، وأمر بالتأَهُّبِ، وعُملت الزَّوَّادة، ولم يبق إلا المسير، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت، وفراغ اليد عما يليق بأمثاله، فأخَّره إلى العام المستقبل، فقضى الله ما قضىٰ. قال: وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام.

وكان ــ رحمه الله ــ يحبُّ سماع القُرْآن العظيم حتى إنَّه كان يستخير إمامه، ويشترط عليه أن يكون عالماً بعلوم القرآن العظيم، متقناً لحفظه، وكان يستقرىء من يحضره في الليل وهو في بُرْجه الجزأين والثلاثة والأربعة وهو يسمع، وكان يستقرىء في مجلسه العام مَنْ جَرَتْ عادتُهُ بذلك الآية والعشرين والزَّائد على ذلك، ولقد اجتاز على صغيرٍ بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن، فاستحسن قراءته، فقرَّبه، وجعل له حظاً من خاص طعامه، ووقَّف عليه وعلى أبيه جُزْءاً من مزرعة.

وكان ــ رحمه الله ــ خاشعَ القَلْب، رقيقَ الدَّمْعة، إذا سمع القرآن العزيز يخشع قَلْبُه وتدمع عَيْنُه في مُعْظم أوقاته.

وكان شديد الرَّغْبة في سماع الحديث، ومتى سمع عن شيخٍ

ذي رواية عالية وسماع كثير، فإنْ كان ممن يحضرُ عنده استحضره، وسَمِعَ عليه، وأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه والمختصِّين به. وكان يأمر النَّاسَ بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن كان الشيخ ممن لا يطرق أبواب السَّلاطين ويتحامىٰ[1] عن الحضور في مجالسهم، سعىٰ إليه، وسمع عليه؛ تردَّد إلى الحافظ السِّلَفي[2] بالإسكندرية، وروىٰ عنه أحاديثَ كثيرة.

وكان يحبُّ أن يقرأ الحديث بنفسه، فكان يستحضرني في خَلْوته، ويُحْضِر شيئاً من كُتُبِ الحديث، ويقرأ هو، فإذا مَرَّ بحديثٍ فيه عِبْرة رَقَّ قلبُه، وَدَمَعتْ عَيْنُه.

وكان كثيرَ التَّعظيم لشعائر الدين، قائلاً ببعث الأجسام ونشورها، ومجازاة المحسن بالجنَّة[3]، والمسيىء بالنَّار، مصدِّقاً لجميع ما وَرَدَتْ به الشرائع، منشرحاً بذلك صَدْرُه، مبغضاً للفلاسفة والمعطِّلة والدَّهرية، ومن يعاند الشَّريعة المطهَّرة.

ولقد أمر ولدَه الظَّاهر صاحبَ حلب بقتل شابٍّ كان نشأ يقال له السُّهْرَوَرْدِي[4]، قيل عنه إنه كان معانداً للشَّرائع مبطلاً، وكان قد قبض عليه ولدُه المذكور لما بلغه من خبره، وعرَّفَ السُّلْطان به، فأمر بقتله وصَلْبه أياماً، فقتله.

---

(١) في (ك): ويتجافى.

(٢) انظر حاشيتنا رقم٣ ص ٥٤ من الجزء الثالث.

(٣) في الأصل: بالحسنة، والمثبت من (ك).

(٤) هو أبو الفتوح يحيىٰ بن حبش بن أميرك، شهاب الدين، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ٦/٢٦٨.

وكان حَسَن الظَّنِّ بالله، كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه، ولقد شاهدتُ من آثار ذلك ما أحكيه. فحكىٰ التجاءه إلى الله تعالىٰ عند خوفه من قَصْد الفرنج بيت المقدس، وامتناع أصحابه من دخوله للحصر، فصلّىٰ ودعا، فكُفي ذلك[1]، وقد تقدَّم ذكره[2].

ثم قال: وكان ـ رحمه الله ـ عادلاً رؤوفاً رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، وكان يجلس للعَدْل في كلِّ يوم اثنين وخميس في مجلسٍ عام يحضره الفُقَهاء، والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصلَ إليه كلُّ أحدٍ من كبير وصغير، وعجوزٍ
٢٢٠/٢ هَرِمة وشيخٍ كبير، وكان يفعل ذلك سَفَراً وحضراً، على أَنَّه كان في جميع زمانه قابلاً لما يُعرض عليه من القِصَص، كاشفاً لما يُنهىٰ إليه من المظالم، وكان يجمع القِصص في كلِّ يوم، ثم يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النَّهار، ويوقِّع على كلِّ قصَّة بما يطلق الله على قلبه، وما استغاث إليه أحد إلا وَقَفَ وسَمِعَ ظُلامَتَهُ، وأخذ قِصَّته، وكَشَفَ قضيَّته.

ولقد رأيته وقد استغاثَ إليه إنسانٌ من أهل دمشق يقال له [ابن][3] زهير على تقيِّ الدين ابن أخيه، وأنفذ إليه ليحضره في مجلس الحُكم، فما خلَّصه إلا أن أَشْهَدَ عليه شاهدين أَنَّه وكل القاضي أمين الدِّين أبا القاسم قاضي حماة في المخاصمة، فأقاما

(١) «النوادر السلطانية»: ٧ ـ ١٣.
(٢) انظر ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ من هذا الجزء.
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

الشَّهادة عندي في مجلسه، فأمرتُ أبا القاسم بمساواة الخَصْم، فساواه، وكان من خواصِّ جُلَساء السُّلطان، ثم جَرَتْ المحاكمة بينهما، واتجهت اليمين على تقيِّ الدين، وكان تقيُّ الدين من أَعَزِّ النَّاس عليه، وأعظمهم عنده، ولم يُحابِهِ في الحق[1].

قال: وكنتُ يوماً في مجلس الحُكْم بالقُدْس الشريف إذ دخل عليَّ شيخٌ حَسَنٌ، تاجر معروف يُسَمَّى عمر الخِلاطي، ومعه كتابٌ حُكْمي سأل فَتْحَهُ، وقال: خصمي السُّلطان، وهذا بساطُ الشَّرْع، وقد سَمِعْنا أنك لا تُحابي. فقلتُ: وفي أيِّ قضية هو خصمك؟ فقال: إن سُنْقُر الخِلاطي كان مملوكي، ولم يزل على مِلْكي إلى أن مات، وكان في يده أموالٌ عظيمة كلُّها لي، ومات عنها، واستولى عليها السُّلطان، وأنا مطالِبُهُ بها.

فقلت: يا شيخ، وما الذي أقعدك إلى هذه الغاية؟ فقال: الحقوق لا تبطلُ بالتَّأخير، وهذا الكتاب الحُكْمي ينطقُ بأَنَّه لم يزل في مِلْكي إلى أن مات، فأخذتُ الكتابَ منه، وتصفَّحْتُ مضمونه، فوجدته يتضمَّن حِلْيَة سُنْقُر الخِلاطي، وأنه قد اشتراه من فلان التَّاجر بأرجيش[2] في اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا، وأنه لم يزل في مِلْكه إلى أن شَذَّ عن يده في سنة كذا، وما عرف شهودُ هذا الكتاب خروجَه عن ملكه بوجهٍ، وتمَّمَ الشَّرْط إلى آخره.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٣ ـ ١٤.

(٢) مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط. «معجم البلدان»: ١/ ١٤٤.

فتعجَّبْتُ من هذه القِصَّة، وأعلمتُ السُّلطان بذلك، فأحضره واستدناه حتى جلس بين يديَّ، وكنتُ إلى جانبه، ثم انفرك من طَرَّاحته[1] حتى ساواه ـ رحمه الله تعالىٰ ـ، ثم ادَّعى الرَّجل، وفُتِحَ كتابُه، وقرىء تاريخه.

فقال السُّلْطان: إنَّ لي من يشهد أَنَّ هذا سُنْقُر في هذا التاريخ كان في مِلْكي وفي يدي بمصر، وأني اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدِّمٍ على هذا التَّاريخ بسنةٍ، وأنه لم يزل في يدي ومِلْكي إلى أن أعتقتُهُ.

ثم استحضر جماعةً من أعيان الأُمراء الْمجاهدين، فشهدوا بذلك، وحكُوا القضيَّة كما ذكرها، وذكروا التَّاريخ كما ادَّعاه، فأَبْلَسَ[2] الرَّجُلُ، فقلتُ له: يا مولانا، هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمَراحم السُّلطان وقد حضر بين يدي المولى، وما يحسن أن يرجع خائب القصد، فقال: هذا بابٌ آخر، وتقدَّم له بخلعةٍ ونفقةٍ بالغة.

قال: فانظر إلى ما في طَيِّ هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة من التَّواضع، والانقياد إلى الحقِّ، وإرغام النَّفس، والكَرَم في موضع المؤاخذة مع القُدْرة التَّامة، رحمة الله عليه[3].

قال: وكرمُهُ كان أظهر من أن يُسَطَّر، كان ـ رحمه الله ـ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥٦ من الجزء الثاني.
(٢) أي انقطع فلم تكن له حجة. «معجم متن اللغة»: ١/ ٣٣٦.
(٣) «النوادر السلطانية»: ١٤ ـ ١٦.

يَهَبُ الأقاليم؛ وفَتَحَ آمد* فطلبها منه ابن قرا أرسلان، فأعطاه إياها، ورأيتُه وقد اجتمع عنده وفودٌ بالقُدْس، ولم يكن في الخزانة ما يعطيهم، فباع قريةً من بيت المال، وفضضنا ثمنها عليهم، ولم يفضل منه دِرْهم واحد.

وكان يعطي في وقت الضَّائقة كما يعطي في حال السَّعَة، وكان نُوَّاب خزانته يخفون عنه شيئاً من المال خوفاً أن يفجأهم مُهِمٌّ، لعلمهم أنَّه متى عَلِمَ بِهِ أخرجه. وسمعتُه يوماً يقول: يمكن أن يكون في النَّاس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التُّراب. فكأنَّه أراد بذلك نفسه.

وكان يعطي فوق ما يؤمِّل الطَّالب، وما سمعته قط يقول: أَعطينا لفلان. وكان يعطي الكثير، ويبسط وجهه للمُعْطَى بَسْطَ من لم يعطه شيئاً. وكان النَّاس يستزيدونه في كلِّ وقتٍ، وما سَمِعْتُهُ قَطُّ يقول: قد زدت مراراً، فكم أزيد؟ وأكثر الرَّسائل في ذلك كان يكون على لساني ويدي، وكنتُ أخجل من كثرة ما يطلبون، ولا أخجل منه لعلمي بعدم مؤاخذته بذلك. وما خدمه أحد قطُّ إلا وأغناه عن سؤالِ غيره.

وأما تعداد[1] عطاياه، [وتعداد صنوفها فلا تطمع فيه أصلاً، ولقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي وقد تجارينا عطاياه][2] فقال: حَصَرْنا عدد ما وَهَبَ من الخيل بمرج عكا لا غير، فكان

---

(١) في الأصل: تعدد، والمثبت من (ك).

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل، والمثبت من (ك).

عشرة آلاف فرس[1]. ومن شاهد مواهبه يستقلُّ هذا القدر، اللهم إنك ألهمته الكَرَم، وأنتَ أكرم الأكرمين[2]، فتكرَّم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الرَّاحمين[3].

وقال: وكان رحمه الله من عُظَماء الشجعان، قويّ النَّفْس، شديد البأس، عظيم الثَّبات، لا يهولُه أمر، ولقد رأيته مرابطاً في مقابلة عِدَّةٍ عظيمةٍ من الفرنج، ونجدتهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلا قوةَ نفسٍ وصبراً.

ولقد وصل في ليلة واحدةٍ منهم نيِّف وسبعون مركباً على عكا، وأنا أعدُّها من بعد صلاة العَصر إلى غروب الشَّمْس، وهو لا يزداد إلا قوةَ نَفْس.

ولقد كان يعطي دسْتوراً في أوائل الشِّتاء، ويبقىٰ في شِرْذِمَةٍ يسيرة، في مقابلة عِدَّتهم الكثيرة، ولقد سألتُ باليان بن بارزان[4]، وهو من كبار ملوك السَّاحل، وهو جالسٌ بين يديه يوم انعقاد الصُّلْح
٢٢١/٢ عن عِدَّتهم، فقال التَّرْجُمان عنه: إنه يقول: كنتُ أنا وصاحب صيدا ـ وكان أيضاً من ملوكهم وعُقلائهم ـ قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تحازرناه، فحزره هو بخمس مئة ألف، وحزرتُه أنا بستِّ مئة ألف. أو قال عكس ذلك، فقلتُ: فكم هَلَك منهم؟ فقال:

---

(١) في الأصل: رأس، والمثبت من (ك).

(٢) في (ك): وأنت أكرم منه.

(٣) «النوادر السلطانية»: ١٧ ـ ١٨.

(٤) هو بليان الثاني الإبليني Balion II of Ibelin انظره في كشاف الأعلام.

أمّا بالقَتْلِ فقريبٌ من مئة ألف، وأما بالموت والغَرَق فلا يعلم، وما رجع من هذا العالم إلا الأقل.

قال: وكان لا بُدَّ له من أن يطوف حول العدو كل يوم مرَّة أو مرتين إذا كُنَّا قريباً منهم، وكان إذا اشتدَّ الحرب يطوف بين الصَّفَّين، ومعه صبيٌّ واحد، وعلى يده جنيب[1]، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة يرتِّبُ الأطلاب*، ويأمرهم بالتقدُّم والوقوف في مواضع يراها، وكان يشارف العدو ويجاوره.

ولقد قرىء عليه جُزْء من الحديث بين الصَّفَّين؛ وذلك أني قلتُ له: قد سُمِعَ الحديثُ في جميع المواطن الشَّريفة، وما نُقِلَ أنه سُمِعَ بين الصَّفَّين، فإن رأىٰ المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً. فأَذِنَ في ذلك، فأُحضر جُزْء هناك مَنْ له به سماعٌ فَقُرِىءَ عليه، ونحن على ظهور الدَّواب بين الصَّفَّين، يمشي تارةً، ويقف أُخرى.

وما رأيته استكثر العدوَّ أصلاً، ولا استعظم أمرهم قَطُّ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتَّدْبير يذكر بين يديه الأقسام كلَّها، ويرتِّب على كلِّ قِسْمٍ مقتضاه من غير حِدَّةٍ ولا غَضَبٍ يعتريه. ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافِّ الأكبر بمرج عكا حتى القَلْبُ ورجاله، ووقع الكوس* والعلم، وهو ثابتُ القدم في نَفَرٍ يسير، وقد انحاز إلى الجبل يجمع النَّاسَ ويردُّهم ويخجِّلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى عَكَر المسلمون[2] على العدو في ذلك اليوم، وقُتِلَ منهم زُهاء سبعة آلاف ما بين راجلٍ وفارس.

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٧٣.

(٢) عكر: أي كروا راجعين. انظر «اللسان» (عكر).

ولم يزل مُصابراً لهم وهم في العِدَّة الوافرة إلى أَنْ ظَهَرَ له ضَعْفُ المسلمين فصالح، وهو مسؤول من جانبهم، فإنَّ الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنَّهم كانوا يتوقَّعون النجدة ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في الصُّلح.

وكان ـ رحمه الله ـ يمرض ويصحُّ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابِرٌ مرابط، وتتراءىٰ النَّاران، ونسمع منهم صوتَ النَّاقوس، ويسمعون منا صوتَ الأَذان إلى أن انقضىٰ الأمر[1].

قال: وكان ـ رحمه الله ـ شديدَ المواظبة على الجهاد، عظيمَ الاهتمام به، ولو حلف حالف أَنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا دِرْهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد لصدق وبَرَّ في يمينه.

ولقد كان الجهادُ وحُبُّه والشَّغف به قد استولى على قَلْبه وسائر جوانحه[2] استيلاءً عظيماً، بحيثُ ما كان له حديث إلا فيه، ولا نَظَرٌ إلا في آلته، ولا اهتمامٌ إلا برجاله، ولا مَيْلٌ إلا إلى من يذكره ويحثُّ عليه. ولقد هَجَرَ في محبَّة الجهاد في سبيل الله أهلَه وأولاده، ووطنه وسكَنَه، وسائر بلاده، وقَنَعَ من الدُّنيا بالسُّكون في ظل خيمة، تَهُبُّ بها الرِّياح يمنةً ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلةٍ رَيِّحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البُرْج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلا رغبةً ومصابرةً واهتماماً[3].

---

(١) «النوادر السلطانية»: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) في (ك): جوارحه.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٢١.

قلتُ: وشواهد ما ذكر القاضي من ذلك كثيرة، وقد سبقت مفرَّقة في وقعاته ـ رحمه الله ـ منها ما قاساه على حصار حِصْن كوكب* من الأمطار والأوحال.

وقال الرَّشيد ابن النَّابُلُسي[1] من قصيدةٍ له:

ما أَبهج الدِّين والدُّنيا بمالكها الصِّـ ... ـديق يوسفَ لا لاذَتْ به الغِيَرُ
مَلْكٌ تساوىٰ جُمَادَىٰ في الجهاد وتَمـ ... ـوزٌ لديه وضاهىٰ ناجِراً[2] صَفَرُ
فليس يَثْنِيه حَرٌّ إن تَوَقَّدَ عن ... رضا الإلٰه ولا إنْ أَغْدَقَ الْمَطَرُ
ولا يُنَهْنِهُهُ[3] عمَّا يكابِدُهُ ... ضَجٌ[4] أُعيذُ مَعَالِيْهِ ولا ضَجَرُ
ولا يرىٰ الرَّوْحَ[5] إلا ظَهْرَ سَلْهَبَةٍ[6] ... في بَطْنِ معركةٍ مَرْكوبُها وَعِرُ
صَبْرٌ جميلٌ كطَعْمِ الشَّهْدِ في فمِهِ ... وعند كلِّ مليكٍ طَعْمُهُ الصَّبِرُ

قال القاضي: وكان الرجل إذا أراد أن يتقرَّب إليه يحثه على الجهاد، أو يذكر شيئاً من أخبار الجهاد. ولقد أُلِّف له كتبٌ عِدَّة في الجهاد، وأنا ممن جَمَعَ له فيه كتاباً، جمعت فيه آدابه، وكلَّ آيةٍ وردت فيه، وكلَّ حديث روي فيه، وشرحتُ غريبها، وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يطالعه حتى أخذه منه ولدُه الأفضل[7].

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٠٩ من الجزء الثالث.

(٢) جاء في «اللسان» (نجر): شهرا ناجر وآجر: أشد ما يكون من الحر، ويزعم قوم أنهما حزيران وتموز، وقيل: كل شهر من شهور الصيف ناجر.

(٣) أي ولا يكفُّه. انظر «معجم متن اللغة»: ٥/ ٥٦٥.

(٤) في النسخ الخطية: ضوج، والمثبت من طبعة وادي النيل ٢/ ٢٢١، من ضج القوم: إذا فزعوا من شيء وغُلبوا. انظر «اللسان» (ضجج).

(٥) الروح: الراحة والسرور والفرح. «معجم متن اللغة»: ٢/ ٦٧٢.

(٦) السلهبة من الخيل: الجسيمة. انظر «القاموس المحيط» (سلهب).

(٧) «النوادر السلطانية»: ٢١.

قال: ولأحكينَّ عنه ما سمعتُ منه في ذلك، وذلك أَنَّه كان قد أخذ كوكب* في ذي القَعْدة سنةَ أَربعٍ وثمانين، وأعطى العساكر دُسْتوراً، وأخذ عسكر مِصْر في العَوْد إلى مصر، وكان مقدَّمُهُ أخاه العادل، فسار معه ليودِّعه ويحظى بصلاة العيد في القُدْس، ففعل، ووقع له أَنَّه يمضي معهم إلى عَسْقلان* ويودِّعهم، ثم يعودُ على طريق السَّاحل يتفقَّد[1] البلادَ السَّاحلية إلى عكا، ويُرتِّب أحوالها، فأشاروا عليه أن لا يفعل، فإنَّ العساكر إذا فارقتنا نبقى في عِدَّةٍ يسيرة، والفرنج كلُّهم بصور، وهذه مخاطرةٌ عظيمة. فلم يلتفت،
٢٢٢/٢ وودَّع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا على الساحل طالبي عكا، وكان الزَّمان شتاءً عظيماً، والبحر هائجاً هيجاناً عظيماً، وموجه كالجبال كما قال الله تعالىٰ[2]، وكنتُ حديثَ عهدٍ برؤية البحر، فَعَظُمَ أمر البحر عندي حتى خُيِّل لي أنني لو قال لي قادر: لو جزت في البحر ميلاً واحداً مَلَّكْتُكَ الدُّنيا، لما كنتُ أفعل. واستخففت رأي من يركب البحر رجاء كَسْبِ دينارٍ أو دِرْهم، واستحْسنتُ رأي من لا يقبل شهادة راكب البحر.

هذا كلُّه خَطَر لي لِعظَمِ الهَوْل الذي شاهدته من حركة البحر وتموّجه، فبينا أنا في ذلك إذ التفتَ إليَّ، وقال: في نفسي أَنَّه متى يَسَّر الله تعالى فَتْحَ بقيَّة السَّاحل قسمتُ البلاد، وأوصيتُ، وودَّعت، وركبتُ هذا البحر إلى جزائرهم[3] أتتبعهم فيها حتى لا أُبقي على

(١) في الأصل: ويتفقد، والمثبت من (ك).
(٢) في قوله تعالىٰ: ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ سورة هود، الآية ٤٢.
(٣) في (ك): جزائره.

وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت.

فَعَظُمَ وَقْعُ هذا الكلام عندي، حيث ناقض ما كان يخطر لي، وقلت له: ليس في الأرض أشجعُ نَفساً من المولى، ولا أقوى نيَّةً منه في نُصْرة دين الله. وحكيت له ما خَطَرَ لي، ثم قلتُ: ما هذه إلا نيَّةٌ جميلة، ولكن المولى يُسَيِّر في البحر العساكر، وهو سور الإسلام، ولا ينبغي أن يخاطر بنفسه. فقال: أنا أستفتيك، ما أشرفُ الميتات؟ فقلتُ: الموتُ في سبيل الله. فقال: غايةُ ما في الباب أن أموت أشرف المِيْتات.

قال: فانظر إلى هذه الطَّوية ما أطهرها، وإلى هذه النَّفس ما أشجعها وأجسرها، اللهم إنك تعلم أَنَّه بذل جهده في نُصْرة دينك رجاء رحمتك، فارحمه(١).

قال: وأما صبره، فلقد رأيته بمرج عكا، وهو على غايةٍ من مرضٍ اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظَهَرَتْ عليه من وسطه إلى ركبته، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إذا كان في الخيمة، وامتنع من مَدِّ الطَّعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يُفَرَّق على النَّاس، وكان مع ذلك كله يركب من بُكْرة النَّهار إلى صلاة الظُّهر يطوف على الأطلاب*، ومن العَصْر إلى صلاة المَغْرب، وهو صابرٌ على شِدَّة الألم، وقوة ضَرَبان الدَّماميل، وكنا نعجب من ذلك فيقول ـ رحمه الله ـ: إذا ركبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل، [قال](٢): وهذه عنايةٌ رَبَّانية.

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

ولقد مرض ونحن على الخَرُّوبة*، وكان قد تأخَّر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الفرنج ذلك، فخرجوا طمعاً في أن ينالوا من المسلمين شيئاً بسبب مرضه، وهي نوبة النَّهر، فخرجوا في مرحلة إلى الآبار التي تحت التل، ثم رحل العدو في اليوم الثَّاني يطلبنا، فركب ـ رحمه الله ـ على مضض، ورتَّب العساكر للحرب، وجعل أولاده في القلب، ونزل هو وراء القوم بطُلْبه*.

وكلما سار العدو يطلبُ رأس النَّهر سار هو يستدير إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو ـ رحمه الله ـ يسيرُ ساعة، ثم ينزل يستريح، ويظلل بمنديل على رأسه من شِدَّة وَقْع الشمس، ولا تُنْصَبُ له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً، ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النَّهر، ونزل هو على تَلٍّ قُبَالتهم مُطِلٍّ عليهم[1] إلى أن دخل الليل.

ثم أمر العساكر أن تعود إلى مَحَلِّ المصابرة، وأن يبيتوا تحت السِّلاح، وتأخَّر هو إلى قِمَّة الجبل، وضُرِبَتْ له خيمةٌ لطيفة، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نُمَرِّضه ونشاغله، وهو ينام تارةً ويستيقظ أُخرى، حتى لاح الصَّباح، ثم ضَرَبَ البوق، وركب ـ رحمه الله ـ وركبتِ العساكر، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً إلى خِيَمِهِ من الجانب الغَرْبِي للنَّهْر، وضايقه المسلمون مضايقةً شديدة.

(١) في (ك): ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم.

وفي ذلك اليوم قَدَّمَ أولاده بين يديه احتساباً: الأفضل والظاهر والظَّافر، وجميع من حضره منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا وطبيبٌ وعارض* الجيش، والغِلْمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظنُّ الرَّائي لها عن بُعْد أن تحتها خلقاً كثيراً، وليس تحتها إلا واحد بخَلْقٍ عظيم، رحمه الله.

وبقي في موضعه والعساكر على ظهور الخيل قُبالة العدو إلى آخر النَّهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحَتَهم، وبتنا على ما بتنا عليه إلى الصَّباح، وعاد العسكر إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو.

قال: ولقد رأيته ليلةً على صفد*، وهو يحاصرها، وقال: لا نَنامُ اللَّيلة حتى يُنْصَبَ لنا خمسة مجانيق*، ورتَّب لكل منجنيق قوماً يتولّون نَصْبَهُ، وكُنَّا طول الليل في خدمته في ألذِّ فكاهة، وأرغد عيش، والرُّسُل تتواصل مخبرةً بأنَّه نُصِبَ من المنجنيق الفلاني كذا ومن الآخر كذا حتى أتىٰ الصَّباح وقد فُرِغَ منها، وكانت من أطول اللَّيالي وأشدِّها بَرْداً ومَطَراً.

قال: ولقد رأيته وقد جاءه خبر وفاةِ ولدٍ له بالغ أو مراهق يسمَّىٰ إسماعيل، فوقف على الكتاب، ولم يُعَرِّف أحداً ولم نعرف حتى سَمِعْناه من غيره، ولم يظهر عليه شيءٌ من ذلك سوى أَنَّه لما قرأ الكتاب دَمَعَتْ عَيْنُهُ، رحمه الله.

قال: ولقد رأيته وقد وصله خبر وفاة تقي الدين ونحن في مقابلة الفرنج جريدةً على الرَّمْلة، وفي كلِّ ليلة تقع الصيحة، فتقلع

الخيام، ويقف النَّاسُ على ظهرٍ إلى الصَّباح، والعدو بيازُور*، بيننا وبينه شَوْطُ فَرَسٍ لا غير، فأَحْضَرَ العادل وابن جَنْدَر وابن المقدَّم وابن الدَّاية سابق الدين، وأمر بالنَّاس فأُبعدوا[1] عن الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد عن غَلْوةِ سَهْمٍ، ثم أظهر الكتاب، ووقف عليه، وبكى بكاءً شديداً حتى أبكانا من غير أن نعلم السَّبب، ثم قال ـ رحمه الله ـ والعَبْرَة تَخْنُقُه: توفِّي تقيُّ الدين.

٢٢٣/٢ فاشتدَّ بكاؤه وبكاء الجماعة، ثم عدتُ إلى نفسي، فقلت: استغفروا الله من هذه الحالة، وانظروا أين أنتم، وفيم أنتم، وأعرضوا عما سواه. فقال ـ رحمه الله ـ: نعم، أستغفر الله. وأخذ يكررها، ثم قال: لا يعلم هذا أحد.

قال: وكان ـ رحمه الله ـ شديد الشَّوْق والشَّغف بأولاده الصِّغار، وهو صابرٌ على مفارقتهم، راضٍ ببعدهم عنه، وكان صابراً على مُرِّ العيش وخشونته مع القُدْرة التَّامة على غير ذلك، احتساباً للّه تعالىٰ. اللهم، إنَّه ترك ذلك كلَّه ابتغاءَ لمرضاتك، فارضَ عنه[2].

قال: ولقد كان ـ رحمه الله ـ حليماً متجاوزاً، قليل الغضب، ولقد كنتُ بخدمته بمرج عيون قبل خروج الفرنج إلى عكا ـ يسَّر الله فتحها ـ وكان من عادته أنَّه يركب في وقتِ الركوب، ثم ينزل فيمد الطَّعام، ويأكل مع النَّاس، ثم ينهض إلى خيمة خاص له

(١) في (ك): فبعِّدوا.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٤ ـ ٢٧.

ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويُصلِّي ويجلس خلوةً وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه.

ولقد قرأ عليَّ كتاباً مختصراً لسُلَيْم الرَّازي[1] يشتمل على الأرباع الأربعة من الفِقْه، فنزل يوماً على عادته، ومُدَّ الطَّعام بين يديه، ثم عَزَمَ على النُّهوض، فقيل له: إنَّ وقت الصَّلاة قد قَرُبَ. فعاد إلى الجلوس، وقال: نصلِّي وننام.

ثم جلس يتحدَّث حديث متضجِّر، وقد أُخلي المكان إلا عن لَزِمٍ، فتقدَّم إليه مملوك كبير محترم عنده، وعَرَضَ عليه قِصَّة لبعض المجاهدين، فقال له: أنا الآن ضَجِر، أَخِّرْها ساعة، فلم يفعل، وقدَّمها إلى قريبٍ من وجهه الكريم بيده، وفتحَها بحيث يقرؤها، فوقف على الاسم المكتوب في رأسها، فعرفه، وقال: رجلٌ مستحقٌّ. فقال: يوقِّع له المولى. فقال: ليست الدَّواة حاضرة الآن. وكان ـ رحمه الله ـ جالساً في باب الخَركاه* بحيث لا يستطيع أحد الدُّخول إليها، والدَّواة في صدر الخركاه، والخركاه كبيرةٌ، فقال له المخاطب: ها هي الدَّواة في صدر الخركاه.

---

(١) هو سُلَيم بن أيوب الرازي، أبو الفتح، فقيه شافعي، أصله من الري، وتفقه ببغداد، ثم سافر إلى الشام، وأقام بثغر صور، مرابطاً محتسباً، ينشر العلم، وكان مشاراً إليه في الفضل والعبادة، له تصانيف كثيرة، توفي غرقاً عند ساحل جدة عائداً من الحج سنة (٤٤٧ هـ)، وكان قد نيف على الثمانين. انظر ترجمته في «طبقات الفقهاء» للشيرازي: ١٣٢، و «تبيين كذب المفتري» ٢٦٢ ـ ٢٦٣، و «إنباه الرواة» ٢/٦٩ ـ ٧٠ و «وفيات الأعيان» ٢/٣٩٧ ـ ٣٩٩، و «سير أعلام النبلاء» ١٧/٦٤٥ ـ ٦٤٧، و «طبقات الشافعية» للسبكي: ٤/٣٨٨ ـ ٣٩١.

قال القاضي: فليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدَّواة لا غير، فالتفتَ ـ رحمه الله ـ فرأى الدَّواة، فقال: والله [لقد][1] صَدَقَ. ثم امتدَّ على يده اليُسْرىٰ ومَدَّ يده اليُمْنى، [و][1] أحضرها، ووقَّع له. فقلتُ: قال الله تعالىٰ في حقِّ نبيِّه ﷺ ﴿وإنَّكَ لعلىٰ خُلُقٍ عَظيم﴾[2] وما أرى المولىٰ إلا قد شاركه في هذا الخُلُق. فقال: ما ضَرَّنا شيء، قضينا حاجته، وحصل الثواب.

قال القاضي: ولو وَقَعَتْ هذه الواقعة لآحاد النَّاس لقام وقعد، ومن الذي يقدر أَنْ يخاطِبَ أحداً هو تحت حُكْمِهِ بمثل ذلك، وهذا غايةُ الإحسان والحِلْم، والله لا يُضِيع أجر المحسنين[3].

قال: ولقد كانت طَرَّاحتُه[4] تُداسُ عند التزاحم عليه لعرض القِصص، وهو لا يتأثَّر لذلك، ولقد نَفَرَت يوماً بغلتي من الجِمال وأنا راكبٌ في خدمته، فَزَحَمَتْ وَرِكَهُ حتى آلمته وهو يتبسَّم.

ولقد دخلتُ بين يديه في يوم ريح مطير إلى القُدْس، كثير الوَحْل، فنضحت البغلة عليه من الطِّين حتى أهلكت جميع ما كان عليه، وهو يتبسَّم وأردتُ التَّأَخُّرَ عنه بسبب ذلك، فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين إليه والمتظلِّمين أغلظ ما يمكن أن يسمع، ويلقىٰ ذلك بالبِشْر والقَبُول[5].

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) سورة القلم، الآية ٤.

(٣) «النوادر السلطانية»: ٢٨ ـ ٢٩.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٥٦ من الجزء الثاني.

(٥) «النوادر السلطانية»: ٢٩.

ثم قال القاضي: وهذه حكايةٌ يندُر أن يُسَطَّر مثلها. فذكر ما تقدَّم[١] من امتناع عسكره من الهجوم على الإنكلتير، وهو في جمعٍ يسير من أصحابه بعد أن أطافوا بهم، وواجه الجناح السُّلْطانَ بذلك الكلام الخَشِن، فرجع السُّلْطان مغضَباً، وظُنَّ أنه ربما صَلَبَ وقتل في ذلك اليوم، فنزل بيازُور* وقد وصَلَه من دمشق فاكهةٌ كثيرة، فَطَلَب الأمراءَ ليأكلوا، فحضروا، فرأَوْا من بِشْره وانبساطه ما أحدَثَ لهم الطُّمأنينة والأمن والسُّرور[٢].

قال: وكان ـ رحمه الله ـ كثيرَ المروءة، نَدِيَّ الوَجْه، كثير الحياء، منبسطاً لمن يَرِدُ عليه من الضُّيوف، يُكْرِم الوافد عليه وإن كان كافراً، ولقد وَفَدَ عليه البرنس صاحب أنطاكية فما أَحَسَّ به إلا وهو واقفٌ على باب خيمته بعد وقوع الصُّلْح في شَوَّال عند منصرفه من القُدْس إلى دمشق ـ وقد تقدَّم ذلك[٣] ـ عَرَض له في الطَّريق، وطلب منه شيئاً، فأعطاه العَمْق*، وهي بلادٌ كان أخذها منه عام فتح السَّاحل سنةَ أربعٍ وثمانين.

ولقد رأيته وقد دخل إليه صاحب صيدا*، فاحترمه وأكرمه، وأكل معه، وعَرَضَ عليه الإسلام، وذكر له طَرَفاً من محاسنه، وحَثَّه عليه[٤].

---

(١) انظر ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ من هذا الجزء.
(٢) «النوادر السلطانية»: ٢٩ ـ ٣٠.
(٣) انظر ص ٣٤١ من هذا الجزء.
(٤) «النوادر السلطانية»: ٣١.

وكان يُكْرم من يَرِدُ عليه من المشايخ، وأرباب العِلْم والفَضْل، وذوي الأقدار، وكان يُوصينا لئلا نَغْفُلَ عمن يجتاز بالخيم من المشايخ المعروفين حتى نحضرهم عنده، وينالهم من إحسانه.

ولقد مَرَّ بنا سنة أربع وثمانين رجل جَمَعَ بين العلم والتصوف، وكان من ذوي الأقدار، وكان أبوه صاحبَ توزير[1]، فأعرض هو عن فنِّ أبيه، واشتغل بالعِلْم والعمل، وحجَّ ووصل زائراً لبيت الله المقدَّس، ولما قضىٰ لُبانته منه، ورأى آثار السُّلْطان فيه وقع له زيارته، فوصل إلينا إلى العسكر، فلقيتُهُ ورحَّبْتُ به، وعَرَّفْتُ السُّلْطَانَ وصوله، فاستحضره وشكره عن الإسلام، وحَثَّه على الخير وانصرف، وبات عندي في الخيمة.

فلما صلَّينا[2] الصُّبح أخذ يودِّعني، فقبَّحت له المسير دون وداع السُّلطان، فلم يلتفت، ولم يلوِ على ذلك، وقال: قضيتُ حاجتي منه، ولا غَرَضَ لي فيما عَدا رؤيته وزيارته، ثم انصرف من ساعته، ومضىٰ على ذلك ليالٍ، فسأل السُّلْطانُ عنه، فأخبرته بفعله،
٢٢٤/٢ فظهر عليه آثار التَّعتُّب، كيف لم أخبره برواحه، وقال: كيف يطرقنا مثل هذا الرجل، وينصرف عَنَّا من غير إحسان يَمَسُّه مِنَّا؟ وشدَّد النكير عليَّ في ذلك، فما وجدتُ بُدّاً من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين قاضي دمشق كلَّفته فيه السؤال عن حال الرَّجل، وإيصال رقعة كتبتُها إليه طيَّ كتابي، أخبرته فيها بإنكار السُّلْطان

(١) هي بلدة كانت في عراق العجم، أشار إليها ابن خلدون في مقدمته ٣/ ١٠٣٣ ولم أجدها في غيره من المصادر التي بين يدي.
(٢) في الأصل: صليت، والمثبت من (ك).

رواحه من غير اجتماعٍ[1] به، وحَسَّنْتُ له فيها العود، وكان بيني وبينه صداقةٌ تقتضي مثل ذلك، فعاد، واجتمع بالسُّلْطان، فرحَّب به، وانبسط معه، واستوحش له، وأمسكه أياماً، ثم خلعَ عليه خِلْعةً حسنةً، وأعطاه مركوباً لائقاً، وثياباً كثيرة ليحملها إلى أهل بيته وأتباعه وجيرانه، ونفقةً يرتفق بها، وانصرف عنه وهو أشكر النَّاس له، وأخلصهم دعاء لأيامه[2].

قال: ولقد رأيته ـ رحمه الله ـ وقد مَثَلَ[3] بين يديه أسيرٌ فرنجي، وقد هابه بحيث ظهر عليه أمارات الخوف والجَزَع، فقال له التَّرْجُمان: من أي شيء تخاف؟ فأجرى الله على لسانه أن قال: كنتُ أخاف قبل أن أرىٰ هذا الوجه، فبعد رؤيتي له، وحضوري بين يديه أيقنتُ أني ما أرىٰ إلاّ الخير. فَرَقَّ له، ومَنَّ عليه، وأطلقه[4].

قال: وكنتُ راكباً في خدمته في بعض الأيام قُبالة الفرنج، و [قد][5] وصل بعض اليزكية* ومعه امرأة شديدة التحرُّق كثيرة البكاء، متواترة الدَّقِّ على صَدْرها. فذكر قِصَّة أم الرَّضيع الذي سُرِقَ، وقد مضت[6].

قال: وكان ـ رحمه الله ـ لا يرىٰ الإساءة إلى مَنْ صحبه،

---

(١) في (ك): اجتماعه.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٣١ ـ ٣٢.

(٣) في الأصل: مسك، والمثبت من (ك).

(٤) في الأصل: فمنَّ عليه وأطلقه ورقَّ له، والمثبت من (ك)، وانظر «النوادر السلطانية»: ٣٢.

(٥) ما بين حاصرتين من (ك).

(٦) انظر ص ٢٤٥ من هذا الجزء.

وإن أفرط في الجناية، ولقد قُلِبَ في خزانته كيسان من الذَّهب المِصْري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنُّوَّاب شيئاً سوى أنه صرفهم من عملهم لا غير[1].

وكان ـ رحمه الله ـ حَسَنَ العِشْرة، لطيف الأخلاق، طيِّب الفكاهة، حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم، عارفاً بِسِيَرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم، عالماً بعجائب الدُّنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضِرُهُ منه ما لا يسمعه من غيره.

وكان يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومَطْعمه ومَشْربه، وتقلُّبات أحواله.

وكان طاهر المجلس لا يُذْكر بين يديه أحد إلا بالخير، وطاهر السَّمْع فلا يحبُّ أن يسمع عن أحدٍ إلا بالخير، وطاهر اللِّسان فما رأيته أُولع بشتمٍ قط، وطاهر القلم فما كتب بقلمه أذىً لمسلم قط، وكان حسنَ العهد والوفاء، فما أُحضر بين يديه يتيمٌ إلا وترحَّم على مخلِّفه، وجَبَرَ قلبه، وأعطاه خُبز* مخلِّفه إن كان له من أهله كبير يَعْتَمِدُ عليه، وسَلَّمه إليه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكفي حاجته، وسلَّمه إلى من يَكْفُلُه، ويعتني بتربيته.

وكان مايرىٰ شيخاً إلا ويَرِقُّ له، ويعطيه، ويحسن إليه، ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله عَزَّ وجلَّ إلى مقرِّ رحمته، ومَحَلِّ رضوانه[2].

---

(١) «النوادر السلطانية»: ٣٣.

(٢) «النوادر السلطانية»: ٣٤.

قلت: ولجعفر ابن شمس الخلافة(١) من قصيدةٍ رثاه بها:

ألستَ ترىٰ كيفَ انبرىٰ الخطبُ ثائراً ... ومَدَّ يداً منه إلى دافع الخَطْبِ
إلى النَّاصِر المَلْكِ الذي مُلِئَتْ به ... قلوبُ البَرَايا من رجاءٍ ومن رُعْبِ
كريمٌ أتاه الموتُ ضيفاً فلم يكن ... لينزلَه إلا على السَّهْلِ والرُّحْبِ
ولو خابَ منهُ قبل ذلك سائِلٌ ... لخاب وليس البُخْلُ من شِيَمِ السُّحْبِ
قَضىٰ فقَضىٰ المعروفُ وانقرضَ النَّدىٰ ... وحُطَّتْ رِحالُ الوَفْدِ في الشَّرْقِ والغَرْبِ
أفاض علىٰ الدُّنيا سِجَال(٢) نَوَاله ... ففاضَتْ عليه أَعْيُنُ العُجْمِ والعُرْبِ
ولو أنه يُبْكىٰ على قَدْر حَقِّه ... أسالَ دُموعَ المُزْنِ من أعين الشُّهْبِ
جَزَاه عن الإسلام خيراً إلٰهُهُ ... فما كلٌّ عنه مِنْ دفاعٍ ومن ذَبِّ
تدارَكَهُ بعد ابتذالٍ فقد غدا ... وكان شديدَ الخَوْفِ فِي أَمْنَعِ الحُجْبِ
وأصبحَ للبيتِ المقدَّسِ مُنْقِذاً ... بأصْلَبِ عَزْمٍ مِنْ مُقَارَنةِ الصُّلْبِ
أذلَّ له الله العِدَىٰ مُذْ أطاعَهُ ... وسَهَّلَ منهم كُلَّ مُمْتَنِعٍ صَعْبِ
ففي الخُلْدِ عندَ الله دارُ مَقَرِّه ... يُمَتَّعُ منه بالجِوَارِ وبالقُرْبِ

فصـــل

في انقسام ممالكه بين أولاده وإخوته(٣)، وبعض ما جرىٰ بعد وفاته

قال العماد في كتاب «البرق»: خلَّف السُّلْطان سبعةَ عَشَرَ ولداً

---

(١) هو جعفر بن محمد بن مختار، شاعر مشهور في عصره من أهل مصر، وله تآليف حسنة، منها كتاب «الآداب النافعة بالألفاظ المختارة الجامعة» طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٠، ولد سنة (٥٤٣ هـ)، وتوفي سنة (٦٢٢ هـ)، انظر ترجمته في «وفيات الأعيان» ١/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣.

(٢) سجال جمع، مفردها سجل: وهي الدلو الضخمة. «اللسان» (سجل).

(٣) في (ك): وأخيه.

أكبرهم الملك الأفضل نور الدِّين أبو الحسن علي، ومولده بمصر يوم عيد الفِطْر سنةَ خمسٍ وستين وخمس مئة، وتولّىٰ بعده دمشق إلى أن خرج منها إلى صَرْخَد*، وتولاها عَمُّه العادل في شَعْبان سنةَ اثنتين وتسعين مضافةً إلى ممالكه بالبلاد الشَّرْقية والجزيرة وديار بكر.

ثم الملك العزيز عماد الدين أبو الفَتْح عُثْمان، ومولده بمصر ثامن جُمَادىٰ الأُولى سنة سبعٍ وستين، وتوفي بها في مُلْكه ليلةَ الأحد العشرين من محرَّم سنةَ خمسٍ وتسعين، وتولى بعده أحد أولاده الصِّغار.

٢/٢٢٥ ثم الملك الظَّاهر غياث الدين غازي، ومولده بمصر منتصف شهر رمضان سنةَ ثمانٍ وستين، وتولى حلب وأعمالها.

قال: ولقد أنشأتُ الرِّسالة الموسومة «بالعُتْبىٰ والعُقْبىٰ» فيما طرأ بعد السُّلْطان إلى آخر سنة اثنتين وتسعين.

وقال في كتاب «الفتح»: تولّى الملك الأفضل دمشق والسَّاحل، وما يجري مع ذلك من البلاد، وهو الذي حضر وفاةَ والده، وقام بسُنَّة العَزاء، وفَرْضِ الاقتداء بأبيه في إيلاء الآلاء، وإدناء الأولياء، وخلع على الأماثل والأمراء، والأفاضل والعلماء، وآوىٰ إليه إخوته، وضَمَّ جماعته، وجهَّز أخاه الظافر خضراً مظفر الدين، وأنهضه لإنجاد عمه العادل كما سنذكره[1]. وكانت

(١) انظر ص ٤١٠، ٤١٢ وما بعدهما من هذا الجزء.

حمص والمناظر* والرَّحْبة* وبَعْلَبَكَّ* وما يجري معها في المملكة الأفضلية داخلة، وقَدِمَ عليه سُلْطاناهما الملكُ المجاهد والأمجد إلى دمشق، فتأكَّدَتْ بينهم القَرَابة والأُلفة[(١)].

ولما استقرَّ الأفضل بدمشق في مقام والده قَدَّم إلى الديوان العزيز نجَّابين بإنهاء الحال، ثم نَدَبَ ضياءَ الدين ابن الشَّهْرُزُوري[(٢)] في الرِّسالة، وأصحبه عُدَّة والده في الغَزَاة وسيفَه ودِرْعَه وحِصانه، وأضاف إلى ذلك من الهدايا والتُّحف والخيل العِرَاب ما استنفد وُسْعَه وإمكانه، فما تهيأ مسير الرسول إلا في أواخر جُمادىٰ الآخرة حتى حصَّل كل ما أراد من الهدايا الفاخرة، وحتى كاتَبَ مِصْر وحلب، وأعلم بمسير رسوله، حتى لا يُظَنُّ أَنَّه انفرد بسوله، وقصد مداراة إخوته، وفَضَلَ بفَضْل نَخْوته، وذلك بعد أن جَدَّد نَقْشَ الدِّينار والدِّرْهم بسمتي أمير المؤمنين، وولي العهد عُدَّة الدِّين[(٣)].

وقال ابنُ القادسي[(٤)]: وفي يوم الثلاثاء مستهلّ رمضان حَمَلَ ابنُ الشَّهْرُزوري ما كان أصحبه الأفضل من حَمْل الشَّام[(٥)] إلى الديوان العزيز، وهو صليب الصَّلبوت الذي كان [قد][(٦)] أخذه والده، وذكر أَنَّه ذهبٌ يزيد على العشرين رطلاً مُرَصَّعاً بالجواهر،

(١) انظر «الفتح القسي»: ٦٢٩، ٦٣٢ _ ٦٣٣.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٠ من الجزء الثالث.
(٣) «الفتح القسي»: ٦٥٠.
(٤) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥١ من الجزء الثالث.
(٥) في (ك): ما كان صحبه من حمل الشام.
(٦) ما بين حاصرتين من (ك).

ومعه خادم مختصٌ بخدمته، وحمل فرس أبيه وزرديَّته* وخوذته، وكانت صفراءُ مُذَهَبة، ودبُوس حديد، وسيف، وأربع زَرْديات، وقالوا: هذه تركته، وبها كان يقاتل. وتُحفاً جَمَّة من الثِّياب، وحُمِلَ في جُمْلة التُّحَف أربعُ جوارٍ من بنات ملوك الرُّوم، فيهن ابنة بيرزان، وبنت صاحب جَبَلَة*.

قال العماد: وأمرني بإنشاء الكتب وتحريرها، وتقريب المقاصد وتقريرها، منها: أصدر العبد هذه الخِدْمة وصدرُهُ منشرح[1] بالولاء، وقلبه معمورٌ بالصَّفاء، ويده مرفوعة إلى السَّماء، للابتهال بالدُّعاء، ولسانه ناطقٌ بشُكْرِ النَّعْماء، وجَنَانُه ثابت من المهابةِ والمحبَّة على الخوف والرجاء، وطَرْفُه مُغْضٍ من الحياء، وهو للأرض مُقَبِّل، وللفرض متقبِّل، وهو يمتُّ بما قدَّمه وأسلفه من الخَدَمات، وذخره ذُخْر الأقوات لهذه الأوقات.

وقد أحاطت العلوم الشريفة بأن الوالد السَّعيد الشهيد[2]، الشديد السَّديد، المبير للشِّرْك المبيد، لم يزل أيام حياته، وإلى ساعةِ وفاته، مستقيماً على جَدَد[3] الجِدّ، مستنيماً[4] في صون فريضة الجهاد إلى بذل الجُهد. ومِصْرُ بل الأمصار باجتهاده في الجهاد شاهدة، والأنجاد والأغوار في نظر عَزْمِهِ واحدة، والبيت المقدَّس من فتوحاته، والملك العقيم من نتائج عَزَماتِهِ.

---

(١) في (ك): مشروح.

(٢) لفظه: الشهيد، ليست في (ك) ولا في مطبوع «الفتح»، وهو الأشبه.

(٣) الجدد: الأرض المستوية. انظر «اللسان» (جدد).

(٤) من استنام: إذا استأنس وسكن واطمأن. انظر «اللسان» (نوم).

وهو الذي ملكَ ملوك الشِّرْك[١] وغَلَّ أعناقها، وأسر طواغيت الكُفر وشَدَّ خِناقها[٢]، وقَمَعَ عَبَدَة الصُّلْبان وقَصَمَ[٣] أصلابها، وجمع كلمة الإيمان وعَصَم جَنَابها، ونَظَمَ أسبابها، وسَدَّ الثغور، وسدَّدَ الأمور. وقُبِضَ وعَدْلُهُ مبسوط، وأمره مَحُوط، وَوِزْرُهُ محطوط، وعمله بالصَّلاح مَنُوط.

وما خرج من الدُّنيا إلا وهو في حُكْم الطَّاعة الإمامية داخل، وبمتجرها الرَّابح إلى دار المقامة راحل. ولم تكن له وصية إلا بالاستمرار على جادَّتها، والاستكثار من مادَّتها، وإن مضى الوالد على طاعة إمامه، فالمماليك أولاده وأخواه في مقامه[٤].

قال: وتولىٰ ولده الملك العزيز أبو الفتح عثمان مصر وجميع أعمالها، وأبقاها على اعتدالها، ونفاها من شوائب اختلالها واعتلالها، وأحيا سُنَّتَي الجود والباس، وثبَّت القواعد من حُسْن السِّياسة على الأساس، وأطلق كل ما كان يؤخذ من التُّجَّار وغيرهم باسم الزَّكاة، وضاعف ما [كان][٥] يُطْلق برسم العُفَاة[٦].

وقَدَّم أمر بيت الله المقدَّس، وعَجَّل له عشرة آلاف دينار مِصْرية، لتصرف في وجوه ضرورية، ثم أمدَّه بالحَمْل، وأفاض عليه

---

(١) في الأصل: الشرق، والمثبت من (ك).
(٢) الخناق: الحبل يخنق به. «اللسان» (خنق).
(٣) في الأصل: وقطع، والمثبت من (ك).
(٤) «الفتح القسي»: ٦٥١ ـ ٦٥٤.
(٥) ما بين حاصرتين من (ك).
(٦) العفاة: طلاب المعروف. «اللسان» (عفا).

من الفَضْل، وقَرَّر واليه عِزَّ الدين جُرْديك على ولايته، وقوّىٰ يده برعايته. ووالىٰ حَمْل الغَلاَّت من مِصْر إلى القُدْس، وأبدل وحشته بوفاة والده[1] من وفائه بالأُنس.

ثم أشفق من غدر الفرنج في فَسْخ الهُدْنة، فأتى من تجهيز العساكر إلى البيت المقدَّس بكل ما في المُكْنة، ثم سمع بحركة المواصلة ومن تابعهم وبايعهم وشايعهم، وقد خرجوا في إيمانهم حانثين، ولعقد أيمانهم ناكثين، فخيَّم ببركة الجُبّ*، واستشار أمراءه أهلَ الرأي واللُّبّ، وجهَّز جيشاً فوصلوا إلى دمشق وقد فرغ العادل من حَرْب القوم وسِلْمهم، وهَزَّ منهم أعطاف الاستكانة له بعد هَزْمِهم، فرأىٰ أنَّ الحمدَ أَعْوَد، والعَوْدَ أحمد[2].

٢٢٦/٢ قال: وتولَّىٰ حلب وأعمالَها، وحصونها ومعاقِلَها، وكرائمَ البلاد وعقائِلَها، الملكُ الظَّاهر غازي، وهو برجاحته وسماحته الطَّوْدُ والجود الموازن الموازي، وملك مملكة[3] أقطارها واسعة، وأمصارها شاسعة، فحماها وحواها، وبماء العَدْل روَّاها وقَوَّاها، وأقرَّ البيرة* وأعمالها، وما يجري معها على أخيه الملك الزَّاهر مجير الدِّين داود، ودخل في أمره صاحب حماه، ابن تقيِّ الدِّين فأعَزَّه وحَمَاه[4].

(١) في (ك): السلطان.
(٢) «الفتح القسي»: ٦٣٠ ـ ٦٣١.
(٣) في الأصل: مملكته، والمثبت من (ك).
(٤) «الفتح القسي»: ٦٣٤ ـ ٦٣٥.

قلتُ: وهو مأوىٰ ذُرِيَّةِ والده، وبقي الملك منهم في عقبه، وانحاز كلٌّ من إخوته وأولادهم إليه، وعوَّلوا في تمشية أمورهم عليه، والأمر مستمرٌّ على ذلك في عقبه إلىٰ الآن، والله تعالىٰ وليُّ الإحسان.

ثم[1] زال مُلك هذا البيت في صَفَر سنةَ ثمانٍ وخمسين وست مئة[2] بسبب غَلَبة التَّتار الكَفَرة على البلاد ﴿والله بَصِيرٌ بالعِبَاد﴾[1][3].

ومن كلام القاضي الفاضل في جواب كتابٍ وَرَدَ عليه منه بعد موت السُّلْطان: متى رأى المملوك خَطَّ مولانا طالعاً في كتابٍ، وطليعةً على خطابٍ، تمَثَّلَ ذلك الشخصَ الكريم، وذلك السُّلْطانَ العظيم، وذلك الخُلُقَ الكريم، وذلك العهدَ القديم، فَحَيِيَ بعد موته، وسَبَّح من يُحْيي العِظَامَ وهي رميم، ورَفَعَ يده بما الله رافِعُهُ، ودعا بصالحِ اللّهُ سامِعُهُ.

قال العماد: وكان الملك العادل مع السُّلْطان في الصَّيد قبل وفاته، وكان موافِقَهُ ومرافِقَه في مقتضياته. فلما عاد السُّلْطان إلى دمشق وَدَّعه ومضى إلى حِصْنه بالكَرَك*، فنابه النَّائب، ولم يحضر وقت احتضاره الأخ الغائب، فلما عَرَفَ وصل إلى دمشق بعد أيام، ولم يُطِلِ المقام، ورحل طالباً لبلاده بالجزيرة، حَذَراً عليها من أهل الجزيرة.

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ك).

(٢) في الأصل: وخمس مئة، ثم ضرب عليها، وكتب في هامشها، صوابه وست مئة.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٥، ٢٠.

وكان السُّلْطان جَعَلَ له كل ما هو شرقي الفُرَات، من البلاد والولايات، فلما وصل إلى الفُرات، وجد مما خافه دلائل الفَتَرات، فأقام بقلعة جَعْبر* وسَيَّر إلى الولايات الوُلاة، ووصَّىٰ برعاياه الرُّعاة، واستناب في مَيَّافارقين* وحاني* وسُمَيْساط* وحَرَّان* والرُّها*، وشَحَّنها بالشُّحَن*، وعلم العِدَىٰ أنَّه في خِفٍّ(١) فَخَفُّوا، وعَرَضُوا وَصَفُّوا، وكان سيف الدين بَكْتَمُر صاحب خِلاط* قد استبشر بموت السُّلْطان، وتلقَّب بالملك النَّاصر، وحدَّث أمله بجرِّ العساكر، وراسل صاحبي المَوْصل وسِنْجار، وطيَّر إليهم كُتُبَ الاستنفار، وضَمَّ إليه من ماردين* مارِدَيْن، وطار وطاش، وارتاش وانتاش، فبينا هو في أثناء ذلك قتلته الإسماعيلية بخِلاط* رابع عشر جُمادىٰ الأُولى سنةَ تسعٍ وثمانين(٢).

وأوَّل من بدأ أمره بالخروج(٣) على بلادِ السُّلْطان متولي مارِدِين*، ونزل على حِصْن المُوَزَّر*، وهذا الحِصْن كان السُّلْطان اقتطعه عن أعمال ماردين حين صالَحَ أهلها، وأضافه إلى نائبه بالرُّها. ثم تحرَّك عِزُّ الدين أتابَك صاحب المَوْصِل، وأخوه عماد الدين زَنْكي [صاحب سِنْجار](٤) بنصيبين*، وأرسلوا إلى العادل: تخرج من بلادنا، وتدخل في مرادنا.

---

(١) الخف: الجماعة القليلة. انظر «اللسان» (خفف).

(٢) «الفتح القسي»: ٦٣٦ _ ٦٣٧.

(٣) في (ك): وأول ما بدأ بالخروج.

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

فكتَبَ إلى بني أخيه يستنجدهم ويستنفرهم، فأنجدوه. وكان إنجاد حلب أقرب، وتقدَّم ذكر نجدة الأفضل مع أخيه الظافر، ونجدة العزيز الواصلة إلى دمشق بعد نجاز الأمر[1].

ووصلَتِ المواصلة إلى رأس عين*، والعادل بحرَّان، وتقارب العسكران، حتى إنَّ الطلائع تتواجه وتتجابه، فَمَرِضَ صاحبُ المَوْصل ولم يُطِقِ الإقامة، فعاد، ورجع عمادُ الدين أخوه، وتضرَّع صاحبُ ماردين، وتشفَّع بالأمراء الأكابر، فرضي العادِلُ عنه.

وبلغه قدوم ابن أخيه الظَّافر إلى الفُرات، فكتب إليه بمنازلة سَرُوج*، وهي من أعمال ماردين، وأَمَدَّه بابن تقي الدين وابن المُقَدَّم، فنزلوا عليها ثامن رجب، وفتحوها تاسعه.

ورَحَلَ العادلُ منتصف رجب إلى الرَّقَّة، وتسلَّمها، ثم تملَّك بلد الخابور جميعَه، وجاء إلى نَصِيبين*، فنزل بظاهرها، وشَرَعَ في ضَمِّ ذخائرها، فجاءت الرُّسُل العمادية في طلب الصُّلْح، فرحل، ونزل دارا*، وأتاه وفاة صاحب المَوْصل، وتسليم بلده إلى ولده نور الدين أرسلان شاه، وجرىٰ بينهم وبينه صُلْح.

ثم كاتبه أهل خلاط*، فرحل إليها، فرأىٰ أَنَّ البرد يشتد، وأَمَدَ الحصار يمتد، فعاد إلى حَرَّان* والرُّها*، وأعرض عن مخالطة خِلاط، وتأخَّر إلى الرَّبيع أمرُها[2].

---

(١) انظر ص ٤٠٦، ٤١٠ من هذا الجزء.

(٢) «الفتح القسي»: ٦٣٧ ـ ٦٤٠.

قال: وإقليم اليمن مستقر[1] للملك ظهير الدين سيف الإسلام طُغتِكِين بن أيوب أخي السُّلطان، وهو هناك سُلطان عظيم الشَّان، مستولٍ علىٰ جميع البُلْدان، وكان قد وصل ولدُه مع الحاجِّ قبل وفاة السُّلطان بأيامٍ، فلما استقرَّ الملكُ الأفضل علىٰ سرير أبيه كاتَبَ عَمَّه سيفَ الإسلام[2].

فصل

في وفاة صاحب المَوْصل، وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشَّرْق

قال عِزُّ الدين أبو الحسن عليُّ بن الأثير: لما وصل خبرُ وفاة صلاح الدين إلى صاحب المَوْصلِ عِزِّ الدين استشار في الذي يفعلهِ، فأشار عليه أخي مجدُ الدين أبو السَّعَادات بالإسراع في الحركة، وقَصْدِ البلاد الجَزَرية، فإنَّها لا مانع لها منه.

وقال مجاهد الدين قايماز: ليس هذا برأي، فإنَّا نترك وراءنا مثل المولى عماد الدِّين صاحب سِنجار*، ومُعِزّ الدين صاحب الجزيرة، ومُظَفَّر الدين صاحب إربل* ونسير! إنما الرأي أَنَّا نراسلهم ونستميلهم، ونأخذ رأيهم، وننظر ما يقولون.

٢٢٧/٢ فقال أخي: إن كنتم تفعلون ما يشيرون به ويَرَوْنَهُ فاقعد، فإنَّهم لا يَرَوْنَ إلا هذا، لأنهم لا يؤثرون حركتكم ولا قوَّتكم، إنما الرَّأي أن يبرز هذا السُّلطان، ويكاتبهم ويراسلهم ويستميلهم، ويبذل

(١) في الأصل: مستمر، والمثبت من (ك).

(٢) انظر «الفتح القسي»: ٦٤٤.

لهم اليمين على ما بأيديهم، ويُعْلمهم أنَّه علىٰ الحركة، فليس فيهم من يمكنه يخالف، خوفاً من قصد ولايته، لا سيما إذا رأوا جِدَّة وخُلُوَّ البلاد الجزرية من مانعٍ وحامٍ، فهم[1] لا يشكُّون أنه يملكها سريعاً، فيحملهم ذلك على موافقته، ومتى أراد الإنسان أن يفعل فعلاً لا تتطرَّق إليه الاحتمالات بَطَلَتْ أفعالُه، إنما إذا كانت المصلحة أكثر من المَضَرَّة أَقْدَمَ، وإن كان العكس أَحْجَمَ، فظهرت أمارات الغيظ على مجاهد الدين، فسكتَ أخي، لأَنَّه كان هو مخدوم الجميع على الحقيقة والحاكم فيهم. واتَّبع المرحوم ـ يعني صاحب الموصل ـ قول مجاهد الدين، وأقام بالمَوْصل عِدَّة شهور يراسل المذكورين، فلم ينتظم بينه وبين أحدٍ منهم حال غير أخيه عماد الدين، فإنَّهما اتَّفقا علىٰ قواعد استقرَّت بينهما، فإلى أن انفصل الحالُ وَصَلَ الملكُ العادِلُ أبو بكر بن أيوب من الشَّام إلى حَرَّان*، وأقام هناك، وجاءته العساكر من دمشق وحمص وحماة وحلب، وامتنعت البلادُ به.

وسار عِزُّ الدين عن الموصل إلى نَصِيبين*، وقد ابتدأ به إسهالٌ قريب، واجتمع بها بأخيه عماد الدين، وسارا في عساكرهما إلى تَل مَوْزَن* من شبختان* لقَصْدِ الرُّها*. فأرسل العادلُ حينئذٍ يطلب الصُّلح، وأن تكون البلادُ الجَزَرية الرُّها وحران* والرَّقَّة* وما معها بيده على سبيل الإقطاع من عِزِّ الدين، فلم يُجِبْهُ[2] إلى ذلك.

---

(١) في (ك): فإنهم.

(٢) في الأصل: يجب، والمثبت من (ك).

وقَوِيَ المرضُ به واشتدَّ إلى أن عَجَزَ عن الحركة، فعاد إلى الموصل في طائفةٍ يسيرة من العسكر، فلما وصل دُنَيْسِر* رأى ضعفاً شديداً، فأحضر أخي، وكتَبَ وصيَّةً، ثم سار إلى المَوْصل فوصلها مريضاً بالإسهال، وبقي كذلك إلى أن توفي في السَّابع والعشرين من شعبان سنةَ تسعٍ وثمانين وخمس مئة(١).

قال: ولم أسمع عن أحد من النَّاس بمثل حاله في مرضه، فإنَّه كان لا يزال ذاكراً لله تعالىٰ حتى إنه كان إذا تحدَّث مع إنسانٍ يقطع حديثه مراراً ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيٌّ لا يموت، بيده الخير، وهو علىٰ كل شيء قدير، وأشهد أنَّ محمداً ﷺ عبدُه ورسولُه، وأشهد أنَّ الموت حق، وعذاب القبر حق، وسؤال منكر ونكير حق، [والصراط حق](٢)، والميزان حق ﴿وأنَّ السَّاعة آتيةٌ لا رَيْبَ فيها، وأنَّ الله يبعث مَنْ في القبور﴾(٣). ويقول لمن عنده يخاطبه: اشهد لي بهذا عند الله تعالىٰ، ثم يعود إلى حديثه. وأحضر عنده من يقرأ القرآن، فلم يزل كذلك إلى أن توفي ـ رحمه الله ـ ودُفِنَ بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصل مقابل دار المملكة، وهي للفريقين الشافعية والحنفية.

وكانت مملكته نحو ثلاث عشرة سنة وستة أشهر، وكان أسمرَ، مليحَ الوَجْه، حَسَنَ اللِّحْية، خفيف العارضين، وحكى لي

---

(١) «التاريخ الباهر»: ١٨٥ ـ ١٨٦.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) سورة الحج، الآية ٨.

والدي، قال: هو أشبه النَّاس بجدِّه الشَّهيد، قَدَّس الله روحه[1].

قال: وكان ـ رحمه الله ـ ديِّناً خيِّراً، قد ابتنىٰ في داره مسجداً يخرج إليه في الليل، ويُصَلِّي أوراداً كانت له، ويلْبَسُ فَرَجيّة* كان قد أخذها من الشيخ عمر النَّسائي الصُّوفي، ويصلِّي فيها. وكان قد حَجَّ ولبس بمكة ـ حرسها الله ـ خرقة التصوُّف من الشيخ عمر النَّسائي المذكور، وكان من الصَّالحين[2].

وأوصىٰ بالمُلْك لابنه نور الدين أرسلان شاه، وأراد أخوه شَرَفُ الدِّين بن مودود بن زَنْكي أن يوليه، فلم يفعل، وبقي نور الدين إلى سنة سبع وستّ مئة، فتوفِّي في شهر رجب منها، ودُفِنَ بالمدرسة التي أنشأها بباطن المَوْصل حِذَاء دار السَّلْطنة، وكان عَهِدَ بالملك لابنه القاهر عز الدين مسعود، وجعل الأمير بدر الدين لؤلؤ القائم بأمر دولته، وولاَّه إمارة الجيوش والعساكر، وسياسة القبائل والعشائر، ثم توفي الملك القاهر في ربيع الأول من سنة خمس عشرة وست مئة فجأة، وخَلَّف ثلاثة بنين صغاراً.

قال: وأما عماد الدين زَنْكي بن مودود بن زنكي صهر نور الدين ـ رحمه الله ـ وهو صاحب سِنجار*، فإنَّه توفي في المحرَّم سنة أربعٍ وتسعين، وكانت ولايته ثلاثين سنة، وكان عَدْلُه قد عمَّ البلاد، وغَمَرَ

---

(١) «التاريخ الباهر»: ١٨٦.

(٢) «التاريخ الباهر»: ١٨٨. وقد سلف ذكر عمر النَّسائي ص ٤٣٢ من الجزء الأول، ولم أقع له على ترجمة، وقد ساق ابن النجار خبراً عنه يبين مكانته في عصره في كتابه «الدرة الثمينة» ص ٣٩٦ المنشور ضمن كتاب «شفاء الغرام» للفاسي.

العباد، وأريقت الخمور، وحُدَّ شارِبُها، وكانت صدقاتُهُ تصل إلى أقاصي البلاد. وتولى بعده ولدُهُ الأكبر قُطْب الدين محمد بن زَنْكي، وكان متولي أمره مجاهد الدين يرنقش العمادي[1].

قال: وحاصَرَ الملك العادِلُ أبو بكر بن أيوب مارِدين[2] في سنة خمسٍ وتسعين، فبقي محاصراً لها أَحَدَ عَشَرَ شهراً، ولم يبق إلا الاستيلاءُ عليها، فبينما العادل يحاصرها إذ توفي ابنُ أخيه الملك العزيز صاحب مصر، وكان عسكره مع عمِّه العادل على ماردين، فلما توفي مَلَكَ أخوه الأفضل مِصْر، وكان بينه وبين عَمِّه العادل نُفْرَةٌ، فلما ملك مصر أرسل إلى العسكر المصري الذي مع عمه يأمرهم بمفارقته ففارقوه، وعادوا إلى مصر، فَقَلَّ جمعه وعسكره.

ثم خرج الأفضل من مصر عازماً على حَصْرِ دمشق واستعادتها من عمه، فسار العادل عن مارِدين* جريدةً إلى دمشق ليحفظها بعدما كان قد طلع سَنْجَقه* إلى قلعة ماردين، وترك ولده الملك الكامل
٢٢٨/٢ محمداً محاصراً لها إلى أن اجتمع صاحب سِنْجار* وصاحب الموصل على ترحيله عنها، فَرَحَلَ[2].

قال: وفي سنة ستٍّ وست مئة سار الملك العادل بن أيوب من الشَّام إلى سِنْجار* في العساكر الشامية والمِصْرية والجزرية والديار بكرية، فحصرها، ونَزَلَ عليها من كلِّ جانب، ونصب أَحَدَ عَشَرَ منجنيقاً ثلاثة أشهر، وانتخىٰ صاحب المَوْصل وصاحب إربل*

---

(١) انظر «التاريخ الباهر»: ١٩١، و «الكامل»: ١٢/ ١٣٢.

(٢) انظر «التاريخ الباهر»: ١٩٤ ـ ١٩٦، و «الكامل» ١٢/ ١٤٨ ـ ١٥٠.

لصاحب سِنجار، وأنفذ الخليفة رُسُلَه، فأصلح الأمر، وانتظم الصُّلح، ولله الحمد[1].

فصــل

وأما رسالة العماد الكاتب المعروفة: «بالعُتْبىٰ والعُقْبىٰ»[2] التي أشار إليها في آخر كتاب «البرق» فيما جرىٰ بعد وفاة السُّلطان إلى سنة اثنتين وتسعين فقد وقفت عليها، وحاصل ما فيها أن قال:

لما توفي السُّلطان ــ رحمه الله ـ وَمَلَكَتْ أولادُه كان العزيز بمصر يقرِّب أصحاب أبيه ويُكرمهم، والأفضل بدمشق يفعل ضد ذلك يقرِّبُ الأجانب ويُبْعِدُ الأقارب، وأشار عليه بذلك جماعة داروا حوله كالوزير الجَزَري الذي استوزره.

قلت[3]: هو الضِّياء ابن الأثير[4] أخو عز الدين المؤرِّخ، ومجد الدين أبي السَّعادات، وفيه يقول الشهاب فتيان الشَّاغوري[5]:

مــتــىٰ أرى وَزِيــرَكُــمْ ومــا لــه مِــنْ وَزَرِ[6]
يَــقْــلَــعُــه[7] الــلّــهُ فــذا أوانُ قَــلْــعِ الــجَــزَرِ

---

(١) انظر «التاريخ الباهر»: ١٩٦ ـ ١٩٧، و «الكامل» ١٢/ ٢٨٤ ـ ٢٨٧.

(٢) هي «عتبى الزمان في عُقْبى الحدثان» هكذا سماها الصفدي في «الوافي بالوفيات» ١/ ١٤٠، وقد تحرفت في المطبوع منه إلى: عتب الزمان.

(٣) تعقيب أبي شامة هذا ليس في (ك).

(٤) سترد ترجمته في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٣٧ هـ).

(٥) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٤٥ من الجزء الثاني.

(٦) الوزر: الملجأ. «اللسان» (وزر).

(٧) في الأصل: قلعه، والمثبت من «ديوانه»: ٢٠٣.

قال العماد: فلما طلب من الأمراء أن يَحْلِفُوا له أظهروا له أيماناً وهم قد أضمروا الحِنْثَ فيها، ولم يَخْفَ ذلك عليه. ولما رأىٰ الفاضل أمور الأفضل مختلَّة تركه وسار إلى مِصْر، وشرع الوزير الجَزَرِي في تفريق العُصْبة النَّاصرية، وما منهم إلا مَنْ فارق إلى الدِّيار المِصْرية.

وكان قد أُشير على الأفضل بإخلاء البيت المقدَّس لنواب العزيز بأعماله، حَذَراً عليه من تكاليفه وأثقاله، فأجاب إلى ذلك، وقد كانت نابُلُس* وأعمالها قد وَقَف السُّلْطان ثُلُثَها على مصالح القُدْس، وباقيها على ابن الأمير علي بن أحمد المشطوب[1]، فشاركه أحد الأمراء الأكراد فيه، فمدُّوا أيديهم إلى الوقف، وساءت سيرتهم، وتَخَوَّفوا من إنكار الملكِ العزيز عليهم، فلجؤوا إلى الأفضل، فأفضل عليهم، وسَكَنَ إليهم، فتأثَّر الملك العزيز لذلك.

وأقوىٰ الأسباب فيما حَدَثَ من النُّفار نِفارُ الأُمراء النَّاصرية الكبار، ومفارقتهم دمشق إلى مصر على سبيل الاضطراب والاضطرار، فأعَزَّهم العزيز ورفعهم، فاتفقوا على أن تكون كلمةُ الإسلام مجتمعة على الملك العزيز، لإحياء سُنَّة والده في الجود والبأس والكرم.

ومن جُملة الأسباب الباعثة تَسَلُّم الفرنج ثغر جُبيل* من بعض مستحفظيه، وضعف الأفضل عن استخلاصه، فقيل للعزيز: إنْ توانيت استولت الفرنج على البلاد.

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ من هذا الجزء.

فخرج العزيز بعساكره، وبلغ الأفضل فضاق صدرُه، واجتمع بمن في خدمته من الأمراء برأس الماء*، وأراد أن يستعطف قايماز النَّجْمي ـ وكان في إقطاعه بالسَّواد، وكان بينه وبين الأفضل شِقاقٌ وعناد ـ فأرسل إليه، فلم يقبل، ورحل إلى عسكر العزيز، ورأى الأفضل أن يكتب إلى أخيه بكل ما يحبُّ من إعلاء كلمته، والاجتماع عليه، ويكون الأفضل من بعض القائمين بين يديه، طلباً لتسكين الفِتَن، ورغبةً في ذهاب الإِحن، فأُشير عليه بغير الصَّواب، وقيل: أنت الكبير، وإليك التَّدبير، فجِدَّ واجتهد، ولا تُغْلم أصحابك بهذا الخَوَر الذي داخَلَك، والجُبْنَ الذي نازلك، ونحن بين يديك، وكلُّنا عاقدون بالخناصر عليك.

ووصل رسولُ الملك الظاهر، والكتب من الملوك الأكابر بالإنجاد المتظاهر للأفضل، وسيَّر الأفضلُ إلى عمه العادل وهو بحرَّان* والرُّها* كُتُباً ورُسُلاً، فلما أبطأ عليه سَيَّر عِزَّ الدين عثمان بن الزَّنجيلي[1] على نجيبٍ، ليسرع ويأتي به عن قريب، وكتبه واصِلَةٌ بعزمه على نصره ونجدته، وذلك في أوائل جُمادى الآخرة من شهور سنة تسعين.

ولم يشعر الأفضل إلا والعزيز بعساكره قد وصل إلى الفَوَّار*، فعجَّل الرَّحيل وقد خالطت عساكر العزيز ساقة جيش الأفضل، فأسرع ودخل دمشق يوم الجمعة خامس جُمَادىٰ، ونزل العزيز يوم

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ١١ ص ٩٦ من الجزء الثالث.

السبت بالكُسْوة*، ونزل على دمشق يوم الأحد، فلم يزل الأفضل يمانع ويُدَافع حتى وصل عمُّه العادل، فكتَبَ إلى العزيز يسأله الاجتماع، فتواعدا واجتمعا راكبين بصحراء المِزَّة*، فَعَذَله في أخيه، واستنزله عما كان فيه، فقال: عليَّ رضاك، واتِّباع هواك. فقال: نفِّسْ عن البلد الخِناق. وكان قد بُلِيَ البلد منهم بما لا يطاق من قَطْعِ الأنهار، وقَطْف الثِّمار. فتأَخَّر العزيز إلى صوب داريًا* والأَغْوج*.

وكان قد اجتمع عند الأفضل من الملوكِ عمُّه العادل والمجاهد أسد الدين شِيركُوه بن ناصر الدين محمد بن شِيركُوه [بن شاذي](١) صاحب حمص، والأمجد مجد الدين بَهْرام شاه بن فَرُّخْشاه بن شاهِنْشاه بن أيوب [بن شاذي](١) صاحب بَعْلَبَكّ، والمنصور ناصر الدِّين محمد بن تقي الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب صاحب حماة، ثم وصل الملك الظاهر غياث الدين غازي بن السُّلطان، فاتَّفقوا على عَقْدٍ يُؤكَّد، وعَهْدٍ يُمَهَّد.

ورحل العزيزُ إلى مرج الصُّفَّر* لكون المقام به أرفق، فَمَرِضَ حتى أُيس منه، ثم أفاق، وأَرسل من جانبه الأمير فخر الدين أياز ٢٢٩/٢
جركس، واعتمد عليه في هذه النَّوْبة، فوصل إلى العادل في تعديل الأمور، فتقرَّر بينهم الصُّلْح، وتزوَّج العزيز ابنة عمه العادل.

وخرج الملوك لتوديع الملك العزيز في أوَّل شعبان واحداً بعد

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

واحد، فخرج الظاهر أولاً، والتقيا ونزلا بمرج الصُّفَّر*، وبات عنده ليلة ثم رجع، وخرج العادل، ثم الأفضل، فلما اجتمع بأخيه فارَقَهُ وما ثَوَىٰ[1]، ورجع كلٌّ إلى بلده.

ولما استقرَّ الأفضل بدمشق قضىٰ حقوق الجماعة، وشكرهم، ورحل الظَّاهر صوب حلب رابع عشر شعبان، وأقام العادل إلى تاسع شهر رمضان، ورحل إلى بلده الرُّها* وحَرَّان.

ثم إنَّ الأفضل نَظَمَ أبياتاً يكتبها إلى أخيه العزيز في استعطافه واستمالته وقال: كنتُ فارقتُ أخي مُذْ تسع سنين، وما التقينا إلا في هذه السَّنة.

نَظَرْتُكَ نَظْرَةً مِنْ بَعْدِ تِسْعٍ ... تَقَضَّتْ بالتَّفَرُّقِ مِنْ سنينِ
وَغَضَّ الدَّهْرُ عنها طَرْفَ غَدْرٍ ... مسافةَ قُرْبِ طَرْفٍ[2] من جبينِ
وعاد إلى سَجِيَّتِهِ فأَجْرَىٰ ... بفُرْقتنا العيونَ من العيونِ
فَوَيْحَ الدَّهرِ لم يَسْمَحْ بوَصْلٍ ... يعودُ به الهجوعُ إلى الجفونِ
فِراقاً ثمَّ يُعْقِبُهُ بِبَيْنٍ ... يُعِيدُ إلى الحَشَا عَدَمَ السُّكُونِ
ولا يبدي جيوشَ القُرْبِ حتى ... يُرَتِّبَ جَيْشَ بُعْدٍ في الكَمِيْنِ
ولا يُدْني محلِّي منك إلا ... إذا دارَتْ رَحَىٰ الحَرْبِ الزَّبُونِ
فَلَيْتَ الدَّهْرَ يَسْمَحُ لِي بأُخْرَىٰ ... ولو أمضى بها حُكْمَ المَنُونِ

قال: ثم كَثُرَ الشَّرُّ ممن حول الأفضل في حقِّ الأمراء الكبار ذوي الأقدار، فأَنِفوا من ذلك، وأزمعوا على الانفصال، لسوء تلك

---

(١) ما ثوى: أي ما أطال المقام. انظر «اللسان» (ثوي).

(٢) في طبعة وادي النيل ٢/٢٢٩: عين.

الحال، فممن سار إلى مِصْر عزُّ الدِّين سامة، وحرَّض العزيز على القيام لنُصرة الدَّوْلة النَّاصرية، وعَرَّفه أَنَّ أخاه الأفضل مسلوبُ الاختيار مع مَنْ حَوْله من الأشرار.

وممن سار إلى مِصْر القاضي محيي الدين محمد بن أبي عَصْرُون، وتولَّىٰ بعد أشهرٍ قضاء القُضَاة بمصر وأعمالها، وذلك سنة إحدىٰ وتسعين، فاستمرَّت ولايته إلى أن عاد العزيز من الشام وتبعه العادل، فصرفه، وأعاد القضاء إلى زين الدين عليّ بن شَرَف الدين يوسف الدِّمَشْقي[1]، وكان نائباً لصدر الدين عبد الملك بن عيسىٰ بن درباس[2]، ثم استقلَّ، ثم عُزِلَ بابن أبي عَصْرون، ثم أُعيد إليه.

وكان الأفضل قد اشتغل بعد انصراف أخيه باللَّذَّات، وتشاغل عن أمور النَّاس بإدمان الشَّراب، مع مَنْ حوله من الأصحاب، ثم أقلع عن ذلك وتاب، وجدَّ في الذكر والزُّهد وأناب، وشرع في كَتْبِ مُصْحف بخطِّه، وحَسُنَتْ طريقته، وظهرت حقيقتُهُ، وذلك في أوائل سنة إحدىٰ وتسعين.

وفي هذه السنة في ربيع الآخر وصل الخبرُ بأنَّ العزيز قادم

---

(١) انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري: ٣/١٤٩ ـ ١٥٠، و «سير أعلام النبلاء» ٢٢/٢٩٦ ـ ٢٩٧، و «طبقات الشافعية» للإسنوي ١/٥٤١ و «الوافي بالوفيات» ٢٢/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦، و «النجوم الزاهرة» ٦/ ٢٦٣، و «حسن المحاضرة» ١/ ٤١١، و «شذرات الذهب» ٥/١٠١، وقد توفي سنة (٦٢٢ هـ) وله اثنتان وسبعون سنة.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨١ من الجزء الثاني.

لحصر دمشق مرّة ثانية، فاشتدَّ غَمُّ الأفضل، فأُشير عليه بأن يرحل إلى عَمِّه العادل، ويأتي به لدَفْعِ هذا القضاء النّازل، فرحل رابع عشر جُمادى الأُولى، والتقىٰ بعمِّه بصِفِّين*، وطلب منه الرُّجوع معه إلى دمشق، ففعل، ووصل العادل إليها تاسع جُمادىٰ الآخرة، وتخلَّف عنه الأفضل، و[قد][1] قَصَدَ حلب للاستظهار بأخيه الظَّاهر، فوثّق معه الأيمان على ما كانا عليه من الصَّفاء، وكذلك فعل بابن تقي الدِّين بحماة، ووصل إلى دمشق واجتمع مع عمه العادل.

وكان العادلُ أبداً يشير بصَرْف الوزير الجَزَري، وكان قد استولى على الأفضل، فلم يقبل، فكان العادل أبداً مُغْتَمّاً لذلك، فبالغ الأفضلُ في إكرامِ عَمِّه، وإزالة غَمِّه حتى ترك له سَنْجقه* وصار يركب في خدمة عَمِّه، وضاق أخوه الظَّافر من هذه الحال.

وكان الظَّاهر قد نَفَرَ عليه جماعة من الملوك والأُمراء ممن هم في طاعته من جملتهم صاحبُ حماة، وعز الدِّين بن المُقَدَّم صاحب بارين*، فراسلا العادل في الاعتصام به، وكان من جماعتهم بدر الدين دُلْدُرُم بن بهاء الدولة بن ياروق صاحب تل باشر*، فاعتقله الظَّاهر وبني عَمِّه، وطلب منه تسليم حِصْنه، فَشَفَعَ العادلُ فيهم، وكَفَلَ أنَّه يكفُّهم ويكفيهم، واستصحبهم إلى دمشق، فطلب منه الظَّاهر الوفاء بضمانه، فتعذَّر عليه رَدُّهم، وتَيَسَّر له وُدُّهم، فَغَضِبَ الظَّاهر لذلك، وراسل العزيز يحثُّه على الإسراع في القدوم، فأقبل العزيزُ وخيَّم بالفَوّار*.

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

وَشَرَعَ العادِلُ في تدبير أمور الأفضل، فكاتَبَ الأُمراء الأَسَدية من أصحاب العزيز يحثُّهم على تَرْكِهِ والانقطاع إلى حِزْب الأفضل وسِلْكه، وكانت الأسدية أبداً في عَناء من تقدُّم النَّاصرية [عليها][1]، وراسل العادِلُ أيضاً العزيز يخوفه من قِبَلِ[2] الأسدية، ويُعَرِّفه ما انطوت عليه قلوبُهُم من الغِلِّ، فكانوا إذا لقيهم عَرفوا في وجهه التغيُّر عليهم، فرغبوا عنه، وحسَّنوا للأكراد مرافقتهم في الانصراف عنه، ففعلوا.

٢/٢٣٠ وكان أمير أمراء الأكراد أبو الهيجاء السَّمين، فدارتِ الأكرادُ حوله، وقالوا: لا نأمن عليك من النَّاصرية. فأبرموا أمرهم، وعَجَّلوا رحيلهم، فَرَحَل أبو الهيجاء والمهرانية والأسدية عشيَّة الاثنين رابع شَوَّال وكانوا أكثر العسكر، وعلم العزيز بهم فما بالىٰ بانصرافهم، وقال: صَفَوْنا من أكدارهم. ولم يأمُر أصحابَهُ باتِّباعهم، وَرَدَّهم، وبقي في خواصِّه مقيماً في تلك الليلة، ثم رحل عائداً إلى مِصْر، فجاء رسولُ أبي الهيجاء السَّمين إلى العادل يُعْلِمُهُ برحيل العزيز خائفاً، ويأمره بالقدوم ليلحقوه ويأخذوه، ويتسلَّموا ملك الدِّيار المِصْرية، فتحالف العادلُ والأفضل على ملك مِصْر على أن يكون للعادل الثُّلُث، وللأفضل الثُّلثان، وخرجا يوم الأربعاء في الجيوش، واستناب الأفضل بدمشق أخاه الأصغر قُطْب الدين موسى.

وأما العزيز فإنَّه سار وأخذ طريق اللَّجُون* والرَّمْلة*، وفَرِقَ من

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).
(٢) في (ك) فتك.

الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا فِعْلَ إخوانهم، فيمنعوه من دخول البلد، وكان مقدَّمهم(١) الأمير بهاء الدين قَراقُوش، وهو أكبر الأمراء الأَسَدية، قد استنابه العزيز بالدِّيار المِصْرية، فهو مقيمٌ على الصَّفاء والمودَّة والإخاء. فلما وصل العزيز تلقَّوْه، وإلى ذِرْوَةِ سَلْطنته رقَّوه.

وأما العادل والأفضل فاجتمعا بالمتخلِّفين عن العزيز، وحَرَصَتِ الأسدية أن يسبقوا العزيز فلم يقدروا، واجتهدوا أن يُدْركوه ويتقدموا فتأَخَّروا، فأمرهم العادلُ بالثَّبات، وتسلَّمَ القُدْسَ وأعماله وما يجاوره من أعمال السَّاحل أبو الهيجاء السَّمين بأمر الأفضل والعادل، فرتَّب فيها نوَّابه، وأسكنها أصحابه، وصحبهم إلى الدِّيار المِصْرية لمحالفة الأسدية ومخالفة النَّاصرية، فنزل العادل بهم على بِلْبِيس*، وكان أوان أخذ زيادة النِّيل في الانتهاء، والسِّعْر غالٍ، وظهرت ندامة الأسدية، وضَعُفَتْ معونتهم، وضوعفت مؤونتهم، فخاف من مكرهم، والعدول إلى مستقرِّهم، فأرسل إلى القاضي الفاضل يستوفده للاستزارة(٢)، ويسترشده بالاستشارة.

فألزمه العزيزُ بإجابة سؤاله، فخرج إليه، واستبشر النَّاسُ بخروجه رجاء الصُّلْح، وركب العادل وتلقَّاه على فراسخ، واجتمعا، وأصلحا الأمور على ما يحبُّ الفريقان، وعفا العزيز عن الأسدية، وأقام العادل عند العزيز.

وأما الأفضل فإنَّ العزيز خرج إليه وودَّعه، فانصرف ومعه

(١) مقدمهم: ليست في (ك).
(٢) في الأصل: للزيارة، والمثبت من (ك).

أبو الهيجاء السمين، وتولى القدس، ووصل الأفضل إلى دمشق غُرَّة المحرَّم سنة اثنتين وتسعين.

ثم إنَّ الأفضل لازم صيامه وقيامه، وقلَّل شرابَهُ وطعامه، وحسُنَ شعاره، واستوىٰ ليلُه ونهاره. ووزيره الجزري قد بُلي النَّاس منه ببلايا، وهو في غَفْلَةٍ عن تلك القضايا، وكان يدخل إليه ويوهمه من قِبَلِ أقوامٍ أَنَّهم عليه، وأنهم يميلون إلى أخيه. فيصدِّقُه الأفضل فيما يَدَّعيه.

فصار يبلغ العادلَ عنه أحوالٌ ما تعجبه، بل تغضبه، وصار يتصل به كلُّ من هاجر من الشَّام إلى مصر، وما منهم[1] إلا من يشكو من الوزير الجَزَري. وكان قايماز النَّجْمي قد لَصِقَ بالعادل ـ وكذلك عز الدين سامة ـ وصاهر العادل وظاهره، وكان العادل بمصر مستوطناً للقَصْر، فوعد الجماعة بإزالة يد الوزير الجَزَري، وَرَدِّه إلى بلاده، وقرَّر مع العزيز تسيير عسكره معه إلى الشام، ليمهِّد له قاعدة الملك في سائر بلاد الإسلام، فأخرج العادلُ العساكر إلى بركة الجُب*، وخرج العزيز لتشييعه[2]، وذلك مستهل ربيع الأول.

ووصل الملكُ الزَّاهر مجير الدين داود من حلب إلى أخيه العزيز من جانب الظَّاهر، لتسكين هذا الرَّهَج الثائر، ومعه سابق الدين عثمان صاحب شَيْزَر*، والقاضي بهاء الدين بن شَدَّاد.

---

(١) في (ك): وما فيهم.

(٢) في (ك): يشيعيه.

ثم إنَّ العادل أشار على العزيز بأن يوافقه على المسير ويرافقه فيه، فرآه عين التَّدْبير، فسارا بالعساكر نحو الشَّام، ولما انصرفت رُسُلُ الظَّاهر من مصر بما طلبوا مَرُّوا بدمشق فأعلموا الملك الأفضل بما أُبرم من الأمر، فضاق صدرُه، وطال فِكْرُه، واستشار أصحابَهُ، فأشار عليه شيوخُ الدولة بأن يستقبل أخاه وعَمَّه، ويسلم لهما حُكْمَه.

وأشار الجزري وأصحابُهُ بالتصميم على المخالفة، وترك المجاملة والملاطفة. ثم دخل عليه أخوه الملك الظَّافر خضر فشجَّعه وصَبَّره، وتولى أسباب التَّحصين[1]، وحَلَّفوا الأمراء والمقدَّمين. وقطعوا ما فوق المصلَّى عند مسجد فلوس* بفصيل[2]، ورتبوا رجالاً حوالي البلد يتناوبون لحفظه في البُكرة والأصيل، وتفرَّق الأمراء على الأسوار والأبراج، وجاءت الرُّسُل الظَّاهِرية لإظهار المظاهرة، وندب الأفضل فلك الدين أخا العادل إليه منه رسولاً، فوصل إلى العسكر العزيزي بالدَّاروم* وغَزَّة، ولقي عند العزيز من قبوله العِزَّة، فبقي فلك الدين هناك أياماً في إصلاح ذات البين، ولا شكَّ أنهم اشترطوا على الأفضل شروطاً، وردُّوه بها، وأقاموا ينتظرون الجواب، فنفَّذ من ذكر أنَّ الأفضل أبىٰ ذلك، فلما رأى الأكابر وشيوخ الدَّوْلة أَنَّ الأفضل لا يسمع من رأيهم، وأَنَّه عازمٌ على المحاربة، ولا يعدل عن رأي وزيره، مع ما قد عرفه من شُؤم

---

(١) في النسخ الخطية: التحصير، والصواب ما أثبتناه.

(٢) الفصيل: حائط قصير دون سور البلد. انظر «القاموس المحيط» (فصل).

تدبيره، شرعوا في إصلاح أمورهم في الباطن، فراسلوا العزيز والعادل، واستظهر كلٌّ لنفسه.

وأقام العسكر مُذْ عاشر رجب على البلد، مستظهراً بالعَدَد والعُدَد، لا يحدث حدثاً، ولا يعبث بالبلد إلا عبثاً، فكتب الأولياء
٢٣١/٢ من البلد إلى العزيز والعادل بانتهاز الفُرْصة، فركبوا وتأهَّبوا يوم الأربعاء السَّادس والعشرين من رجب، وساقوا، فما صَدَّهم عن قَصْد البلد أحدٌ، وما كان في طريقهم إلا الملك الظَّافر ومعه عسكر حلب، فقاتل على ظَنِّ قتال الجماعة، وما عنده علمٌ بما دبَّروه من المخامرة، فجاوزا ولم يكترثوا.

ووصل العزيز إلى الميدان الأخضر*، ووصل العادل إلى باب توما*، وكان الأمير الأمين به، قد استنهضه إليه بكتبه، ففتحه له، فدخل العادل وأصحابه من باب توما والباب الشرقي*، وبات العادل في الدَّار الأسدية. ودخل العزيز من باب الفرج*، وبات في دار عمته الحُسامية، وخرج إليه الأفضل ولقيه، وتجرَّع من هَمِّ زوال مُلْكه ما سُقِيَه.

فلما ملك العزيزُ دمشق أقام أياماً بالميدان الأخضر الكبير إلى أن انتقل الأفضلُ من القلعة بأهله وأصحابه، وأخرج وزيره الجَزَري مخفياً في صناديقه، إشفاقاً عليه من قَتْله وتحريقه، وتحوَّل الأفضل تلك الأيام إلى مسجد خاتون* وما يجاوره ومعه وزيره، فهرب ليلاً إلى بلاده وقد ادَّخر فيها أموال دمشق وأعمالها ثلاث سنين.

قال: وكان العزيز قَرَّر مع العادل أن يقيمَ العزيزُ بدمشق،

ويستنيب العادلَ بمصر، فلما ملك دمشق نَدِمَ على ما قَرَّره، ورجع عما دَبَّره، ونفَّذ إلى أخيه الأفضل في السِّرِّ يعتذر إليه، ويشير عليه بما كان اشترط عليه، فأظهر الأفضل هذا السِّرَّ لصحبه، والمخصوصين بقُرْبه، فقالوا: لا تنخدع بهذا القول، فربما كانت خديعةً، وأطلع عَمَّك العادل علىٰ هذا السِّرِّ، فإنَّه يرىٰ ذلك عَيْنَ البِرِّ.

فأرسلَ إلى العادل من أعلمه بذلك، فعَزَّت عليه مراسلة العزيز الأفضلَ، واجتمع بالعزيز وعَتَبَه، وقَرَّعه بما أُنبيء به وأَنَّبه، وقال: أبني وتهدم، وأُوجد مصالحك وتُعْدم.

فأنكر الحال وأحالها[1]، وانتقض الأمرُ قبل إبرامه. ووجه إلى الأفضل من أزعجه، وإلى صَرْخَد* أخرجه، وسَدَّ طريق الاستنصار على أخيه الظَّافر، حتى أسلم في تسليم بصْرى* الظفر بسلامته، وبَذَلها ولم يُتْبِعْها بندامته، ورحل إلى حلب، وأظهر الظَّاهرُ الاحتفال به.

وأما الأفضل فَإِنَّه سار إلى قلعة صرخد وسَكَنها، وحوَّل أهله وأخاه قطب الدين إليها وتوطَّنها. وعند خروج الأفضل من قلعة دمشق دَخَلَ العزيزُ إليها يوم الأربعاء رابع شعبان، وجلس يوم الجمعة[2] في دار العَدْل*، واعتقد النَّاسُ أنه يطول مقامه عندهم، فلم يشعروا به إلا وقد برَّز للرَّحيل، وتقدَّم إلى العادل بأن يتولى البلاد، وفارق دمشق عشيَّة الاثنين تاسع الشهر، ونزل بالمخيَّم فوق

---

(١) أي عدل بها عن وجهها. انظر «اللسان (حول).

(٢) في (ك): الخميس.

مسجد القدم*، ثم تحوَّل إلى الكُسْوة*، وودَّعه بها يوم السبت رابع عشر الشهر.

فلما عاد العادلُ من وَدَاع العزيز قُرىء بالجامع منشوره العزيزي بالبلاد والأعمال، والنَّظر في جميع الأحوال، وأشاع أَنَّه نائب العزيز، وهو سُلْطانه، وأبقىٰ الخطبة باسم العزيز خالية من اسمه، حاليةً برسمه، وضَرَبَ الدِّينار والدِّرْهم على سِكَّته، وأظهر أَنَّه قوي بشوكته وشِكَّته[1]، وجلس يومي الاثنين والخميس للعَدْل، وبَسَطَ يده لجمع الأموال وخَزْنها، لوقت عموم الحاجة إلى صَرْفها.

فصـــل

هذا آخر ما انطوت عليه رسالة «العُتْبَىٰ» من أخبار ما جرى بعد موت السُّلْطان، رحمه الله.

وللعماد أيضاً كتابٌ آخر سمَّاه «نِحْلَة الرِّحْلة»[2] ذكر فيه أيضاً نحواً من ذلك، وهو أَنَّ الأحوال اختلت وتغيَّرت بعد موت السُّلطان، وأراد العماد الرحيل إلى مِصْر، فأَصْحبه الأفضلُ رسالةً إلى أخيه [العزيز][3]، فمضىٰ إليه وعنده عَمُّه العادل، فلم يتمكَّن من الرُّجوع إلا معهما لما خرجا بالعساكر. فذكر الحديث في أخذ البلد.

---

(١) الشوكة والشكة: السلاح. «القاموس المحيط» (شك، شوك).

(٢) هو «نِحْلة الرحلة وحِلْية العطلة» كما سماه الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ١/ ١٤٠.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

قال: وخرج الملك الأفضل، واجتمع بالعزيز في الميدان، ودخلا من باب الفرج متصاحبين إلى الضَّريح النَّاصري، وصَعِدَ العزيز القلعة يوم الأربعاء، وصلَّى هذه الجمعة عند ضريح والده في هيئة المودِّع، وأظهر بالبكاء والنَّحيب عنده سرَّ القلب المُوْجَع، ودخل دار الأمير أسامة في جوار تلك القُبَّة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بأن يبنيها مدرسةً للتُّرْبة.

قلت: هي المدرسةُ المعروفة بالعزيزية، وَوَقْفُها[(١)] قرية عظيمةٌ تعرف بمَحَجَّة[(١)]، فهذا قدر ما في كتاب «النَّحلة» مما يتعلَّق بما نحن فيه، ولم يكن ذكر مثل هذا من شرط كتابنا هذا، لأنه موضوعٌ للدَّوْلتَين النَّيِّرتين، إلا أنه لا بُدَّ من ذكر ما يتعلَّق بهما مما وقع فيهما وعقيبهما[(٢)]، وتبعنا العماد فيما ذكر في «العُتْبَىٰ» لكونه أشار إليها في كتاب «البرق»[(٣)]، واستوفينا ما في كتاب «البرق» و «الفتح القُدْسي»[(٤)] والتاريخ الأتابكي[(٥)]، وكتاب القاضي أبي المحاسن[(٦)]، وأتينا على ما فيها من المحاسن، وانضاف إلى ذلك قطعةٌ كبيرة من مواضع متفرِّقة كثيرة[(٧)]، من عِدَّة مصنفات، ودواوين ومراسلات[(٧)]،

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ك). والمحجة: من قرى حوران. «معجم البلدان»: ٥/ ٦٠.

(٢) وعقيبهما، ليست في (ك).

(٣) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٣٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

(٤) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٢٩ من الجزء الأول.

(٥) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٩ من الجزء الأول.

(٦) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٢٩ من الجزء الأول.

(٧ ـ ٧) ما بينهما ليس في (ك).

والله تعالىٰ يوفق ملوكنا للاقتداء بسيرة سلفنا في إقامة فَرْض الجهاد، وتخليص البلاد من أيدي الكفرة والنَّظر في مصالح العباد.

ومن[1] كتاب فاضلي: أما هذا البيت، فإنَّ الآباء منه اتفقوا فملكوا، وإن الأبناء منهم اختلفوا فهلكوا، وإذا غَرَبَ نجم فما في
٢٣٢/٢ الحيلة تشريقه، وإذا بدأ خريق ثوبٍ فما يليه إلا تمزيقُه، وهيهات أن يُسَدَّ على قَدَرٍ طريقه وقد قُدِّر طروقُه، وإذا كان الله مع خَصْمٍ على خَصْمٍ، فمن كان الله معه فمن يطيقُه[1].

فصـــل

بعد انتهاء هذا الكتاب وإسماعه مَرَّة وقفتُ على ما حَسَّن لي إلحاقه بهذا الكتاب، من ذلك أَنَّ القاضي الفاضل كتب في سنة ثلاثٍ وتسعين إلى القاضي محيي الدين بن الزكي كتاباً قال فيه: ومما جرىٰ في هذه المُدَّة من المَثُلاتِ الجارية، والمعضلات العادية[2] بأس من الله طَرَق بَيَاتاً ونحن نيام، وظَنَّ النَّاس أَنَّ اليومَ الموعود قد طَرَقَ في اللَّيْل الممدود، فإذا هم قيام، إنَّ الله تعالىٰ أتىٰ بساعةٍ كالسَّاعة، كادت تكون للدُّنيا كساعة، في الثُّلث الأول من ليلة الجمعة تاسع [عشري][3] جمادىٰ الآخرة، وذلك أَنَّه أتىٰ عارِضٌ فيه[4] ظُلُماتٌ متكاثفة، وبروقٌ خاطفة، ورياح عاصفة، قَوِيَ أُلهوبُها، واشتدَّ هُبوبها، وارتفعت لها صَعَقات،

(١ ـ ١) ما بينهما ليس في (ك).
(٢) في الأصل: والمعضلات العادية العادية، والمثبت من (ك).
(٣) ما بين حاصرتين من (ك).
(٤) العارض: السحاب المعترض في الأفق. «معجم متن اللغة»: ٤/ ٧٤.

وتدافعت لها أَعِنَّة مُطْلَقات، فرجفت لها الجُدْران واصطفقت، وتلاقت على بُعْدها واعتنقت، وثار من السماء والأرض عَجَاج، فقيل: لعلَّ هذه على هذه قد انطبقت.

وتوالت البروق من جهة المُقَطَّم* على نظام، وتبع الواحدة الأخرىٰ، وتقفَّىٰ الثَّانية على أَثَرِ الأُولى، وترى البروق واقفةً وهي تتعاقب، وقائمةً وهي تتجاذب، ولا تحسب إلا أَنَّ جهنم قد سال منها وادٍ، وعدا منها عادٍ.

وزاد عَصْفُ الرِّيح إلى أنِ انطفأتْ سُرُج النُّجوم، ومزَّقت أديمَ السَّماء ومحت ما كان فوقه من الرُّقوم، ولا تزال هذه الرِّيح تسكُنُ سكوناً خفيفاً، ثم تعاود عَوْداً عنيفاً، فكُنَّا كما قال الله تعالىٰ ﴿يَجْعَلُون أَصابِعَهُمْ في آذانهم من الصَّواعق﴾[1] وكما قلنا: ويردُّون أيديهم على أَعْيُنهم من البوارق، لا عاصِمَ من الخَطْف للأبصار، ولا ملجأ من الخَطْبِ إلا معاقل الاستغفار.

وفَرَّ النَّاس رجالاً، ونساء وأطفالاً، ونهضوا من دُورهم خِفافاً وثِقالاً، لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً، إذ يستغيثون رَبَّهم، ويذكرون[2] ذَنْبهم، لا يستغربون العذاب، لأنهم على مُوجباته مُصِرُّون، وفي وقتِ وقوع واقعاته باستحقاقه مُقِرُّون، معتصمين بالمساجد الجامعة، ومتلقين[3] الآية النَّازلة من السَّماء بالأَعناق الخاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأموال والأهل سالية ﴿يَنْظُرُون

(١) سورة البقرة، الآية ١٩.

(٢) في (ك): وإذ يذكرون.

(٣) في الأصل: وملتقين، والمثبت من (ك).

مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍ﴾[1] ويتوقعون أي خَطْبٍ جلي، قد انقطعت من الحياة عُلَقهم، وعميت عن النجاة طُرُقهم، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون، ونَدِموا ونحمد الله أَنْ نَفَعَهم بأَنَّهم نادمون، وقاموا إلى صلاتهم[2] ووَدُّوا أَنْ لو كانوا من الذين عليها دائمون.

ولم يزل ذلك دَأْبهم، كلَّما سَكَنتِ الرِّياحُ تحرَّكت، وكلما قيل استقلَّت بركت، وكلما أخذت قيل ما تركت[3] حتى الثُّلُث الأخير من الليلة المذكورة، والقلوب إلى الحناجر بالغة، والأبصار عن سُنَنها زائغة، إلى أن أَذِنَ الله في الرُّكود، وأسعف الهاجدين بالأمر لها بالهجود. وأصبح كُلٌّ يسلِّم على رفيقه، ويهنِّيه بسلامة طريقه، ويرىٰ أَنَّه قد بُعِثَ بعد النَّفْخة، وأفاق بعد الصيحة والصَّرْخة، وأَنَّ الله قد رَدَّ له الكَرَّة، وأَدَّبه بعد أَنْ كاد يأخذه على الغِرَّة.

وورد من الخبر أَنَّ المراكب كسرها ما كان معترضاً [منها][4] في البحر[5] للعارض، والأصول العاديَّة من الشجر عَدَتْ عليها الرِّيحُ بحُمَّاها النَّافض، وأَنَّ في الطُّرق من المسافرين مَنْ كان نائماً فَدَفَنَتْهُ الرِّياح حَيّاً، وركب فما أَغْنى [عنه][6] الفرار مما هو أمامه شيّاً.

---

(١) سورة الشورى، الآية ٤٥.

(٢) في (ك): صلواتهم.

(٣) في الأصل خرم مقدار كلمتين، استدرك بخط مغاير خطأ، فجاء: تركت وكلما تركت، والمثبت من (ك).

(٤) ما بين حاصرتين من (ك).

(٥) في الأصل: التحرز، والمثبت من (ك).

(٦) ما بين حاصرتين من (ك).

ولا يحسب المجلس أني أرسلتُ القلم محرَّفاً، والقول مجزَّفاً، فالأمر أعظم، ولكنَّ الله سَلَّم، والخَطْب أشق، وما بلغتُ ولا قضيتُ بهذا التكثير بعض الحق، ونرجو أَنَّ الله سبحانه قد أيقظنا بما وعظنا، ونبَّهنا بما ولَّهنا، فما من عباده مَنْ رأَىٰ القيامة عِياناً، ولم يلتمس عليها من بعده بُرْهاناً إلا أهل بلادنا، فما اقتصَّ الأولون مثلها في المَثُلات، ولا سَبَقَتْ لها سابقةٌ في المُعْضلات.

والحمد لله الذي مِنْ فَضْلِهِ أن جعلنا نُخَبِّر عنها ولا تُخَبِّر عَنَّا، ونسأل الله أنْ يصرف عَنَّا عارِضَ الحِرْص والغُرور إذا عَنَّا.

وشغلتُ خدمَتَهُ بهذا المُهِمّ، وجعلتُهُ على عِلْمٍ من هذا العلم، فالسَّعيد[1] من وُعِظَ بغيره وقد كانت لنا وفينا الموعظة، وللذكرىٰ حدودٌ ونعوذ بالله من إقامة حدودها[2] المُغلَّظة.

ومن كتابٍ له آخر إلى[3] العادل في سنة ثلاث وتسعين أيضاً[3]: وقد تجدَّد من وصال العدوِّ اللَّعين، وحركته إلى جانب بيروت وخطره البلاد ما أذهل كُلَّ مُرْضعة، وأوقع في ضائقةٍ تَنْفُقُ الأفكارُ فيها من سَعَة، وللإسلام اليوم قدمٌ إن زَلَّت زَلَّ، وهِمَّةٌ إنْ قَلَّتْ فإنَّ النَّصر منه مَلَّ، وتلك القدمُ القَدَمُ العادلية، وتلك الهِمَّة الهِمَّةُ المسابقة السَّيْفية، فاللَّه اللهَ ثَبِّتوا ذلك الفؤاد، ودمِّثوا ذلك المِهاد، واسهروا في الله فليست بليلة رُقاد.

---

(١) في (ك): والسعيد.
(٢) في الأصل: حدوده، والمثبت من (ك).
(٣ ـ ٣) ما بينهما ليس في (ك).

ولا يُنْظر في حديث زيدٍ ولا عمرو، ولا أَنَّ فلاناً نَفَعَ ولا ضَرَّ، ولا أَنَّ من الجماعة من جاء، ولا أنَّ فيهم من مَرَّ. انظروا إلى أنكمُ الإسلام كلُّه، قد بَرَزَ إلى الشِّرْك كلِّه، وأنكم ظِلُّ الله، فإنْ صححتم تلك النِّسْبة فإنَّ الله لا ناسخَ لظِلِّه، واصبروا إنَّ الله مع الصَّابرين، ولا

٢٣٣/٢ تهنوا وإنْ ذهب[1] النَّاصر فإنَّ الله خير النَّاصرين، فما هي إلا غَمْرَةٌ[2] وتنجلي، وهيعة[3] وتنقضي، وليلةٌ وتصبح، وتجارةٌ وتربح.

ومن كتابٍ له آخر إلى الملك العادل: أدام الله ذلك الاسم تاجاً علىٰ مفارق المنابر والطُّروس، وحياةً[4] للدُّنيا وما[5] فيها من الأَجساد والنفوس، وعَرَفَ المملوك ما عَرَّفه به من الأمر الذي اقتضته المشاهدة، وحُرِسَتْ به العاقبة في بيروت، ولا مزيدَ على تشبيه الحال بقوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ المرء تَدْوىٰ[6] يمينُهُ فَيَقْطَعُها عَمْداً لِيَسْلَمَ سائِرُهْ

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا [قد][7] سبق إليه، ومن قَلَّم من الإصْبَع ظُفراً، فقد جلب إلى الجسد بفعله نَفْعاً، ودفع عنه ضَرّاً:

وتجشُّمِ المكروه ليس بضائرٍ ما خِلْتَهُ سبباً إلى المحمودِ

---

(١) في (ك): قَلّ.

(٢) الغمرة: الشِّدَّة. «اللسان» (غمر).

(٣) الهيعة: صوت الصارخ للفزع. «اللسان» (هيع).

(٤) في (ك): وجاهاً.

(٥) في (ك): ولما.

(٦) تدوى: تمرض. «اللسان» (دوي).

(٧) ما بين حاصرتين من (ك).

وآخر كلِّ شَتْوَةٍ أَوَّلُ كلِّ غَزْوة، فلا يسأم مولانا نيَّةَ الرِّباط وفِعْلَها، وتجشُّمَ الكُلَفِ[1] وحَمْلَها، فهو إذا صَرَفَ وجهه إلى وجهٍ واحدٍ وهو وجه الله صَرَفَ الله إليه الوجوه كُلَّها ﴿والَّذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنَّ الله لمعَ المُحْسِنين﴾[2].

ومن كتابٍ له آخر: هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهورُ الحور في دار القَرَار، وما أسعَدَ من أَوْدَعَ يدَ الله ما في يديه، فتلك نِعَمُ الله عليه، وتوفيقه الذي ما كُلُّ مَنْ طلبه وصل إليه، وسَوَاد العَجَاج في هذه المواقف، بياضُ ما سَوَّدَتْهُ الذُّنُوب من الصَّحائف، فما أسعَدَ تلك الوقفات، وما أعود بالطُّمأنينة تلك الرَّجفات.

فصل

وللعماد [الكاتب][3] ـ رحمه الله ـ كتابٌ آخر سَمَّاه «خَطْفة البارق وعَطْفة الشَّارق» ذكر فيه أشياء من حوادث سنة ثلاثٍ وتسعين إلى أن توفي هو ـ رحمه الله ـ في سنةٍ سبع وتسعين وخمس مئة، واشتمل ذلك على فوائد تتعلَّق بما تقدَّم، فأحببت إلحاقها به؛ من ذلك وفاة سيف الإسلام طُغْتِكِين بن أيوب باليمن في شَوَّال سنة ثلاثٍ وتسعين، وتولَّى ابنه شمس الملوك إسماعيل.

---

(١) الكلف جمع، مفردها الكلفة: وهي ما تكلفته على مشقة من نائبة أو حق «معجم متن اللغة» ٥/ ٩٤.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٩.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك).

هذا، والملك العادل بدمشق، وقد انتقل الملك الظَّافر إلى حلب بعد أَخْذِ عَمّه منه بُصرىٰ*، وعَزَمَ على قَصْد بغداد، فصرفه أخوه الظَّاهر عن ذلك.

وذهب الأمير أبو الهيجاء السَّمين إلى بغداد بأصحابه، فأُكْرِمَ، ثم سُيِّرَ في جيشٍ إلى هَمَذَان، ثم بعد رجوعه مات بدَقُوقا*.

وانقضت مُدَّة هُدْنة الفرنج التي عقدوها مع الملك النَّاصر ـ رحمه الله ـ فخرجوا والتقوا مع الملك العادل برأس العين(١)* بمرج عكا، فكسرهم، وفتح يافا عَنْوَةً.

وكانوا كاتبوا ملك الألمان، وكان قد ملك صِقِلِّية، فأنهوا إليه تلك البليَّة، وقالوا: إنَّ عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلَّل بالدِّيباج، وكأنَّه في الأَسْرِ منتظرُ الإفراج، فإنَّه لا يُقْبر إلا بالبيت المقدَّس إذا استخلص، والآن ما كان غلا منه استرخص، فإنَّ المسلمين قد اشتغل بعضُهم ببعض، ولهوا عن كلِّ سُنَّةٍ وفَرْض.

فتدافعت إلى عكا سُفُنهم، وتدفَّق مُزْنُهم، وامتلأت بهم في السَّاحل مُدْنُهُم، وقصدوا بيروت وبها الأمير عِزّ الدين سامة، فلما سمع بوصولهم إلى صيدا، خرج بجماعته منها وسار بأهله، ومال عن وَعْرِ الأمر إلى سَهْلِهِ، ودخلها الفرنج بعد يوم، من غير مطاولة سَوْم، ولا مماطلة رَوْم، وكَثُرَ فيه الحديث، وذُكِرَ الطَّيِّب والخبيث، فمن قائلٍ: تَجَبَّنَ وتجنَّب، ومن قَبْلِ أن يُنْكَبَ تَنَكَّبَ. ومن قائلٍ:

---

(١) في الأصل: برأس الماء، والمثبت من (ك).

رجاله هابوا فغابوا، ولو أنَّه دعاهم لما[1] أجابوا. واتَّسَعَ القول، ووقع الهَوْلُ، حتى نَظَمَ بعضُهم والفرنج على تِبْنِين*.

سَلِّمِ الحِصْنَ ما عليك مَلامهْ ... ما يُلامُ الذي يَرُوْمُ السَّلامهْ

فعطاءُ الحصونِ مِنْ غير حَرْبٍ ... سُنَّةٌ سَنَّها ببيروتَ سامهْ

وتصرَّفت الفرنج في بيروت وأعمالها السَّاحلية، وبقي لسامة جميع الولاية الجبلية، ثم توجَّه إلى مصر.

ودخلت سَنة أربع وتسعين [وخمس مئة][2]

فنزل الفرنج سادس عشر المحرَّم على تِبْنين*، وأرسل العادل القاضي محيي الدين محمد بن علي القُرَشي إلى الملك العزيز بمصر، فخرج بجيوشه، ووصل في الثَّالث والعشرين من ربيع الأوَّل فَجَفَلَتِ الفرنج بعد أن كانوا ضايقوا الحِصْن ورحلوا.

وجاءهم الخبر بهلاك ملك الألمان. ثم انتقل عسكر المسلمين إلى جانب الطُّور، ومع العزيز إخوته الظَّافر والمُعِزّ والمؤَيَّد.

وكان الأفضل قد جاء إلى عَمِّه قبلهم، وكان معهم على تِبْنِين المجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بَعْلَبَك، وعز الدين بن المقدَّم، وبدر الدِّين دُلْدُرُم، وغيرهم من الأعيان، ثم تراجعوا إلى بلادهم بعد عقد الهُدْنة، ورجع العزيز إلى مِصْر بعد أن خلع على

(١) في الأصل: ما، والمثبت من (ك).
(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

ابن عَمِّه الملك المُعَظَّم عيسى بن العادل، وخصَّه بالسَّنْجق* واللِّواء، المنشور لطيِّ اللأواء.

وعاد المُعَظَّم إلى دمشق وقد قَرَّتْ به العيون، وحَسُنت فيه
٢٣٤/٢ الظُّنون، وكان أعَزَّ أولاد العادل عنده، وأعلَقهم بقلبه، وأخصَّهم بحُبِّه، قد ولاَّه سلطنة دمشق، وأطاب فيها[1] بنَشْر كَرَمِهِ النَّشْق، وأقام العادل حتى استقرَّت الهُدْنة، وظهرت في عمارة تبنين* المُكْنة، ثم عاد إلى دمشق، وأقام قليلاً ثم شرَّق، ورقع بها من الأمر ما تخرَّق، ورتق ما تفتَّق.

وردَّ بلاد أولاد عماد الدين زَنْكي إليهم لأنَّه توفي في هذه السنة، واستولى عليها ابنُ عَمِّهم صاحب المَوْصل، فأنجدهم عليه السُّلطان الملك العادل.

وتوفي جماعةٌ من أمراء الموصل، منهم الأمير [الكبير][2] عِزُّ الدين جُرْدِيك، وكان فَارِسَ الإسلام ومِقْدَامَهُ، وشُجاعَهُ وهُمَامَهُ، وما بَرِحَ من أيام نور الدِّين إلى آخر أيام صلاح الدين ـ رحمهما الله ـ ليثَ العرين، أشمَّ العِرْنين. وهو الذي أعان صلاح الدين على القَبْض على شاور، وولاَّه صلاحُ الدين القُدْس في آخر عهده، فقام بمصالحه من بعده، ثم تسلَّمه منه الملكُ الأفضل، وسَلَّمه إلى أبي الهيجاء السَّمين، فلما خرج الأفضل من دمشق وصل إلى المَوْصل، وانتقل من حَوْض الكوثر إلى أعذب مَنْهَل.

---

(١) في (ك): منها.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

قال: ونزلَ السُّلطان العادل على قلعة مارِدِين* في شهر رمضان، وملك رَبَضها ومدنها وولاياتها، وصافَ عليها وشتى، وصَبَرَ وصابر، ولم يقل كيف ومتى، وما شكَّ أحد أن مارِدِين في مِلْكه مضافةً إلى مُلْكه. وقد هَنَّأه بها الشُّعراء، منهم إبراهيم بن مروان(١) من أهل رأس عين*، [و](٢) له من قصيدةٍ:

فإنْ تَكُ مِصْرٌ أُمَّ مُلْكٍ فمارِدٌ ... إذا نُسِبَ البُلْدانُ فَحلُ الممالكِ
تقاعَسَ عنها سنجرٌ وابنُ عَمِّهِ ... وقَصَّرَ عنها عَزْمُ زَنْكي الأتابكِ
فإنْ تَكُ قَد شُورِكْتَ في فَتْحِ غيرها ... فما لك في أمثالها مِنْ مُشَارِكِ

ودخلت سَنةُ خَمس وتسعين [وخمس مئة](٣)

والملك العادل نازِلٌ على مارِدِين*، وقد وصل إليه أصحابُ الأطراف مساعدين، وقد أصلح بين صاحب المَوْصلِ وبني عَمِّه عماد الدِّين، وردَّهم إلى سِنْجار* والخابور* ونَصِيبين*، وقد أذعن له الجماعة بالطَّاعة، ونائبه في تلك البلاد وديار بكر ولده الملك الكامل محمد.

قال: وفيها ليلة الأحد العشرين من المحرَّم توفي الملك العزيز بداره بالقاهرة، وكان على عَزْمِ الصَّيد في أعمال الفيُّوم*، فخَيَّم تلك الليلة عند الأهرام، فقيل: إنه أصبح وركض خلف صيد، فكبا به

(١) لم أهتد إلى ترجمته في المصادر التي بين يدي.
(٢) ما بين حاصرتين من (ك).
(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

الفَرَسُ مَرَّةً بعد أُخرى، فتمَّت له سقطة، عَمَّت بها على الزَّمان سُخْطه، فتفاقم ألمُه، وأقام يومين أو ثلاثة، لا يستطيع له مخلوقٌ إعانةً ولا إغاثة، ثم حُمَّ حِمامُهُ، وأظلمت بفجيعته أيامه، وقُبِرَ في داره، لِيُنْقَلَ منها إلى دار قَراره، ثم حُوِّل منها في الأيام الأفضلية، إلى التُّرْبة المُقَدَّسة الشَّافعية.

وورد كتابُ القاضي الفاضل تعزيةً به للملك العادل: أدام الله سُلْطان مولانا الملك العادل، وبارك في عمره، وأعلىٰ أمره بأَمْرِهِ، وأَعزَّ نَصْرَه[1] الإسلامَ بنَصْره. وَفَدَتِ الأنفسُ نَفْسَه الكريمة، وأصغر الله العظائم بنعمته فيه العظيمة، وأحياه الله حياةً طيِّبةً، يقفُ هو فيها والإسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المُسَلَّمة[2] والعواقب السَّليمة، ولا نقَّص له رجالاً ولا عدَداً، ولا أعدمه نَفساً ولا ولداً، ولا قَصَّر له ذيلاً ولا يداً، ولا أَسْخَنَ له قَلْباً ولا كَبِداً، ولا كَدَّر له خاطراً ولا مورداً.

ولما قَدَّر الله ما قدَّر في الملك العزيز رحمة الله عليه، وتحيَّاته مكرَّرة إليه، من انقضاء مَهَلِهِ، وحضور أَجَلِهِ، كانت بديهة[3] المُصَاب عظيمة، وطالعةُ المكروه أليمة، فَرَحِمَ الله ذلك الوجه ونضَّره، ثم السَّبيل إلى الجَنَّة يَسَّره.

وإذا محاسنُ أَوْجُهٍ بَلِيَتْ فعفا الثَّرىٰ عن وجهه الحَسَنِ

---

(١) في الأصل: نصر، والمثبت من (ك).

(٢) في (ك): المسهلة، وكتب فوقها: ينظر.

(٣) البديهة: أول كل شيء، وما يفجأ منه: «اللسان» (بده).

فأَعْزِزْ على المملوك وعلى الأولياء، بل على قَلْب مولانا ـ لا سَلَبه الله ثوب العَزَاء ـ بسُرْعة مصرعه، وانقلابه إلى مضجعه، ولباسِهِ ثوبَ البِلَىٰ قبل أن يَبْلَىٰ ثوبُ الشَّباب، وَزَفِّهِ إلى التُّراب، وسريرُه محفوفٌ باللَّذَّات والأتراب.

وكانت مُدَّة المَرَض بعد العَوْد من الفيُّوم* أسبوعين، وكانت في السَّاعة السَّابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرَّم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع له بين مرضِ قَلْبٍ وجَسَد، ووجع أطراف وغليل كَبِد، وقد فُجِعَ بهذا المولى والعهد بوالده ـ رحمه الله ـ غير بعيد، والأَسىٰ عليه في كلِّ يوم جديد.

ووصل قبل هذا إلى العماد كتابٌ من الفاضل فيه: وأنا على ما يعلمه من العُزْلة إلا أنَّها بلا سكون، وفي الزَّاوية المَسْنُونة لأهل العافية إلا أني على مِثْلِ حَدِّ المَنُون، وكيف يعيش العاقل في الزَّمان المجنون؟! ونحن على انتظار البَرْق الشَّامي أن يُمطر، وحاشىٰ ذِمَّة الوعد به أن تُخْفَر. واشتغال سَيِّدنا في هذا الوقت بالدَّرْس والتدريس، والتصوير والتكييف، والتصانيف التي تُصْرف فيها البلاغة أحسن التَّصاريف نعمةٌ عُيِّن شُكْرُها على العلماء، ويختصُّ باللَّذَّة بها سادتهم من الفُقَهاء.

قال العماد: ولما توفي الملك العزيز خَلَّف بنين صغاراً يزيدون على العشرة، وولده الأكبر ناصر الدين محمد قد أنافت سنوه على عشر، وكان إلى أبيه أحب أولاده، يشيمُ من شيمَة مخيله سَدَاده، وقد اختصَّ لديه، ونَصَّ عليه، فاجتمع الأُمراء الصَّلاحية ٢٣٥/٢

وكبيرهم ومقدَّمُهم فخر الدين أياز سركس، ومنهم أسد الدين سراسُنقُر، وزين الدِّين قَرَاجه.

وعقدوا الأمر لولده ناصر الدين، ونعتوه بالملك المنصور، وأخذوا له أيمان الجمهور.

قال: وكانت الأسدية في الأيام العزيزية بالنَّاصرية مغمورين، وبالاستيلاء عليهم مقهورين، وكبيرهم سيف الدين يازكوج، وكان عند وفاة العزيز غائباً بأُسوان، فلما بلغه ذلك حَضَرَ، وجمع الأسدية واجتمعوا هم والصَّلاحية [في][1] ظاهر القاهرة، فقال لهم: نِعْمَ ما رأيتموه من حِفْظ [عهد][1] العزيز في ولده، لكنه صغيرُ السِّنِّ، لا يحتمل ثِقَلَ هذا الفنِّ، ولا بُدَّ من كبيرٍ من أهل البيت يُرَبِّيه، ويدير الدَّواوين، ويرتِّب القوانين، وما ها هُنا إلا الملك العادل، وهو الآن في بلاد الشَّرق مشغول، وها هنا مَنْ هو أقرب منه، وهو الملك الأفضل.

فقال الأسدية: هذا هو الرَّأي الرَّاجح. ولم يسعِ الصَّلاحية مخالفته، فاتفقوا على استدعاء الأفضل من صَرْخَد*. فخرج منها ليلة الأربعاء التَّاسع والعشرين من صَفَر، وسلك البريَّة، فوصل إلى القُدْس يوم الخميس، وخرج إليه عسكره، وساروا مَعَه إلى بيت جبريل*، ثم أغذَّ السَّير. فلما قَرُبَ منهم في تاسع ربيع الأول تلقَّوه، وإلى أعلى مراقي العلاء رقَّوه، وسُرُّوا بقدومه، وجَرَوْا لمرسومه.

قال: وكان النَّاصرية كتبوا إلى رُفَقائهم بالشَّام: إنَّا أحوجنا إلى

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

الوفاق، وتأكيد الميثاق، وقد كُتِبَ إلى نور الدين[1] بالحضور، وضَبْطِ الأمور، وهو عندكم في صَرْخَد*، وإن وَصَلَ إلينا انتظم أَمْرُه وتمهَّد، فاجْتَهِدُوا في حَصْره وهو في حِصْنه، ولا تسمحوا بفكِّ رَهْنه. ووصل إلى دمشق بعض الكتب يوم الاثنين السَّابع والعشرين من صفر، فخرج عسكرها إلى صرخد، فوصلوا إلى بُصْرىٰ* يوم الأربعاء، فقيل لهم: إنَّ الأفضل أدلج ليلاً، واستصحب نُجُباً[2] وخيلاً، فرجعوا إلى دمشق.

وقيل: لما عَبَرَ الأفضل بالبيت المقدَّس وَجَدَ في طريقه نَجَّاباً مسرعاً فاستحضره، واستكشف وِرْدَه وصَدَرَه، فقال: أنا نَجَّابُ فخر الدين أياز سركس، ومعي كُتُبه، إلى من يأنس به ويحبُّه، فتسلَّم منه الكتب، وعاد النَّجَّاب في خدمته، فلما وصل إلى القاهرة احتفل سركس له وأضاف، وقدَّم وغَرِمَ أموالاً، ثم أبصر نجابه واقفاً ببابه، فأخبره الخبر، فاستشعر من ذلك وتضور، فمضى وتبعه عسكره وزين الدين قراجه، فوصلا إلىٰ القُدْس، وسكَنا به. وعَرَفَ النَّاصِرية جلِيَّة الحال، فأخذوا في الانتقال، وتوهَّم الأفضل من الباقين فقبضهم، وحوىٰ جوهرهم وعَرَضَهم، فتفرَّقت الكلمة المجتمعة، وتوقفت الهِمَمُ المُسْرِعَة، وأمر الأفضل بالخُطْبة لابن العزيز على جميع المنابر، ثم الدُّعاء له في الآخر، ونُقِشَتِ السِّكَّة أيضاً باسم الولد في البلد وغير البلد.

---

(١) يعني الملك الأفضل.

(٢) النجب جمع، مفردها النجيب، وهي الإبل. «اللسان» (نجب).

قال: ولما استقرَّ الأفضل بمصر حملوه على قَصْد دمشق وحَصْرِها، وقالوا له: اطلب بلدك الذي منه أُخرجت، وعن المقام فيه أُزعجت، ومالك في مصر ما يكفيك، ودمشق لك بوصية أبيك. وجاءته رُسُل أخيه الظَّاهر من حلب وهداياه، وقال له: انتهز الفُرْصة، فعَمُّنا عنَّا مشغول، وإلى أن يتمَّ من ماردِين* مرادُهُ، وينضمَّ إلى بياضه سوادُه، تخرج دمشق عن يده، وتُعْجِلُه اليوم فيها عن غده، وأنا أصل إليك، وأَقْدَمُ عليك بالبنود والجنود، والأساود والأسود. فما زالوا به حتى خَرَجَ بالعسكر، واستناب سيف الدين يازكوج مكانه.

قال: ووصل إلى الملك العادل الأمير سراسُنْقُر أحد الأمراء النَّاصرية المفارقين، فاستحثَّه على مفارقة ماردين*. وتواصل من النَّاصرية جماعة بعده، وعندهم من الاستحثاث ما عنده، فحرَّكه القول، وتجرَّد عن العسكر، واستصحب معه الأميرين عز الدين بنَ المقدَّم وبدر الدين دُلْدُرُم، وسَرَىٰ ليلاً لخمسٍ بقين من رجب، وأوصىٰ ولدَه الكامل أن يسير في مضايقة حِصْن ماردين* بسيرته، ويقتدي بعزمته.

ووصل إلى دمشق يوم الاثنين حادي عشر شعبان، وأخذ في تحصين البلاد، ووصلت العساكر المِصْرية يوم الخميس، وأحاطت بدمشق ودخَلَها جماعةٌ منهم من باب السَّلامة*، بلغوا إلى السوق الكبير، وأعلنوا الفَتْحَ بالتكبير، ولم يتبعهم أحدٌ على هذا التَّدْبير، فخرجوا من باب الفراديس*، وكرُّوا على أعقابهم لمن[1] وقف لهم من الكراديس.

---

(١) في (ك): بمن.

وأما الأفضل فإنَّه وصل إلى الميدان الأخضر*، وضرب فيه دِهْليز سُرادقه، وأقدم برواعده وبوارقه، فأشار عليه أمراؤه بالتأخُّر عن تلك المنزلة، وكانت منهم[1] زَلَّة، فنزلوا عند ميدان الحصىٰ*، ثم تأخروا إلىٰ مسجد القدم*، وامتلأ ذلك الفضاء بمضارب الخِيَم، ففترتِ الصَّدمة الأُولى، وقَصُرَتْ الصَّدْعة الطُّولى، وخَمَدَ الجمرُ فصار رماداً، واستحالت تلك الأمواج المتلاطمة ثِماداً[2]، ولزموا منازلهم أكثر من ستة أشهر هناك، وتمَّت فوارط عَدِمت الاستدراك، وامتدَّت خيامهم من أقصى داريا* إلى الغوطة، وظَنُّوا أنهم آخذون بمِخْنَق دمشق المضغوطة.

وكاتَبَ الملك العادل جماعةً من أُمراء العسكر المِصْري، ففارقوه ودخلوا دمشق، فأكرمهم واحترمهم، منهم طُغْرُل المهراني، وأياز البانياسي، وابن كَهَدان، ومِثْقال الخادم، وابن أُخت السُّلطان ابن سعد الدين كُمَشْبَهْ. وكَثُرَ الواصلون القاطعون لمن وراءهم، ٢٣٦/٢ وأحسن العادِلُ جزاءهم، فتكاثرتِ الأطماع، وتتابعتِ الرؤوس والأتباع.

ووصل الملك الظَّاهر ومعه أخواه[3] الظَّافر والمعِزّ، وجاءهم الملك المجاهد صاحب حمص، وعسكر حماة دون سُلْطانها، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس*، وهو شيخ الدَّولة وكبيرها،

---

(١) في (ك): منه.
(٢) الثماد: الماء القليل. انظر «معجم متن اللغة»: ١/ ٤٤٧.
(٣) في الأصل: أخوه، والمثبت من (ك).

وأمينها وأميرها، وفي حمايته حِصْنا تِبْنين* وهُونين* ـ وما يزال أَسْرَىٰ من كبراء أهل الكفر[1] بدين الله عنده مرهونين ـ فرغَّبهم في السَّلامة والسِّلْم، والاحتمال والحِلْم، وأشار على كلٍّ من الجانبين بتجنُّب المجانبة، والتقرُّب بالمقاربة والمراقبة. وجاءهم أيضاً سعد الدين مسعود صاحب صفد*، وأخوه نور الدين مودود.

قال: ولما جَبُنوا عن مضايقة الحصار، واصلوا قَطْعَ الأشجار، وكَسْرَ الأنهار، ومَنْعَ كل ما يدخل إلى البلد من نِعْمَةٍ ونِعَم، وغنيمة وغَنَم، حتى رَدُّوا القوافل، وصدُّوا الفروض والنَّوافل.

قال: وكان النَّاصرية المقيمون بالقُدْس قد استولوا عليه، ونظفوا ممن ارتابوا به حواليه، وأخرجوا منه المغاربة، ورجاله وأجناده الرَّاتبة، ومعهم الأمير فارس الدين ميمون صاحب نابُلُس*، وعز الدين سامة صاحب كَوْكب* وبَيْسان*.

ثم وصل الخبر بأنَّ سركس ومن معه واصلون إلى دمشق، فتجرَّد من المحاصرين عسكر إلى طريقهم. وكانوا قد وصلوا إلى طبريَّة*، وعبروا منها إلى البِقاع، وتكمّنوا خلال تلك الضِّياع، وسيَّروا إلى بَعْلَبَكَّ ما صَحِبَهُمْ من الأثقال والأحمال ـ وكان صاحبها الأمجد في جانب الملك العادل ـ وتجرَّدوا خيلاً، وقطعوها ليلاً، وتوَّقلوا[2] الجبال حتى أشرفوا علىٰ دمشق من عَقَبَة[3] دُمَّر*، وقد فاتوا العسكر، فتقوَّى عسكر البلد، فصاروا يبكِّرون ويركبون،

---

(١) في الأصل: من كبراء الفرنج، والمثبت من (ك).
(٢) توقلوا: أي صعَّدوا في الجبل. «اللسان» (وقل).
(٣) العقبة: طريق في الجبل. «معجم متن اللغة»: ٤/١٥٦،

ويَقْرُبُون من العسكر المصْري ولا يَرْقُبون. وحَفَرَ المحاصِرون حولهم خَنْدقاً عميقاً، فصار لهم به عن الحصار شُغْلٌ شاغل.

قال: وعلى الجُمْلة فما ظَهَرَ منهم صُنْعٌ إلا في قَطْع الماء، ومَنْعِ المِيْرَة، والمضايقة الكثيرة، وإحراق البساتين، وتخريب الطّواحين، حتى إذا انحسمت الموادُّ، وفَنِيَتْ في البلد الأَزْواد، اضطرُّوا إلى التَّسليم، واضطربوا على التَّأخير والتَّقديم، فتسلَّط الرَّعيَّةُ على الملك العادل[١]، وحملوه على التسليم والاستسلام.

فتباينت آراء الملوك المحاصِرين، بما دَبَّره [الملك][٢] العادل سيف الدين، ولا بُدَّ للكبار من الاحتيال، إذا صَمَّم الصِّغار على الاغتيال، وليس في ذلك بِدْعة، لأنَّ[٣] الحَرْبَ خِدْعة.

فنفَّذ إلى الظَّاهر في الباطن، وقال له: أنتَ السُّلطان، وحكمك على جميع الأماكن والمواطن، وأنا أسلِّم إليك دمشق، على أنها تكون لك لا لغيرك. فقال الظَّاهر لأخيه الأفضل: قَلِّدْني في الإنعام بدمشق مِنَّة المُتَفَضِّل. فقال له: هذه لا تخلو من أقسامٍ جالباتٍ لأسقام: أُجِلُّك أَنْ تتولاها تولية النَّائب، وإنْ أخذتها دوني فمِنَ النَّوائب. وإن أعطيتني عِوَضاً، مما أعرف لك فيه غَرَضاً، فما لك ما يصلح أنْ تقايض به دمشق، وأنت لا تدَّعي لها العِشْق. فتغيَّر بهذا رأي الظَّاهر، والله المطَّلع على الضَّمائر.

---

(١) في (ك): على السلطان.

(٢) ما بين حاصرتين من (ك).

(٣) في (ك): فإن.

وقيل: أرسلَ العادِلُ، وقال: أُسلم إليكم دمشق بعد سبعة أشهر ـ وتربَّص وتصبَّر ـ فخذوا يميني، وكِلُوني إلى ديني. وظنَّ أنَّهم لا يوافقون، وفي الحَصْرِ يضايقون. فلما أجابوه إلى هذا المُلْتَمس، وقعقعوا في الاستضاءة بهذا القَبَس، عَرَفَ أنهم نادمون، فيما هم عليه من الحَصْرِ قادمون، فعادَ عن هذا البَذْل، ورَدَّهم إلى سَنَنِ العَدْلِ.

وقيل: كان يكتب إلى الأفضل: إنّ الأمر انفصل مع الظَّاهر، وإنه يعاملك معاملة المُسِرِّ لا المجاهر، فَخُذْ لنفسك، وأَبْدِلْ معي وَحْشَتَك بأُنسك. ويكتب أيضاً إلى الظَّاهر: إنَّ الأفضل قد صالحني، وعلى الرِّضا صافحني، وإنك تحصل على المضاغنة، وستفضي بك المباينة إلى المعاينة.

وقيل: إنَّه كان يكتب في كلِّ يومٍ أجوبةَ كُتُبِ قومٍ لم يكاتبوه، ويجيبهم عما فيه لم يخاطبوه، وخُبِزَتْ تلك الملطَّفات* في عجين، ثم تُفَرَّق على من يقصد العسكر من المساكين، فإذا فُتِّشوا عُثِرَ على تلك الملطِّفات، فَبُغِتَ من كُتِبَ إليه ولا عِلْمَ له بالآفات، وعُدُّوا من المخامرين، فصار أكثر العَسْكر من المتَّهمين.

ثم دخلت(١) سنةُ ستٍّ وتسعين [وخمس مئة](٢)

وهم على ذلك، والشِّتاء قد هَجَمَ، وكلٌّ(٣) بأمره مهتمّ.

---

(١) في (ك): ودخلت.

(٢) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٣) في (ك): وكلهم.

ودَهمهُمْ أيضاً خبرُ وصول الملك الكامل من الشَّرْق، وخرج من دمشق جماعةٌ يظهرون أَنَّهم من النَّاصحين، وتردَّدوا إليهم ومنهم غادين ورائحين، وأبرقوا وأرعدوا، وقالوا: غداً يكون قدوم الملك الكامل، في الجَحْفلِ الحافل، ومعه من المال الصَّامت إلى أبيه العادل، فيستظهر بولده والمال والرِّجال، فلا يقعد عن النُّهوض إلى القتال، والصَّواب أن نتأخَّر قليلاً.

فرحلوا[1] إلى سَفْح جبل العَقَبة، وبقيت أسواقهم مملوءة، وباتوا تلك الليلة وهم لكل ما يحتاج إليه عادمون، وعلى ما فَرَطَ منهم نادمون، وفقدوا حتى الماء للشُّرْب، وكانت تلك الحالة كسرةً قبل الحرب، فاضطربوا للمحل المحيل، واضطرُّوا إلى راحة الرَّحيل.

ووصل الكامل تاسع عشر صَفَر، وقد جمع التركمان، واستصحب جُنْدَ الرُّها* وحَرَّان*، ونزل في جوسق* أبيه، فاستبشر ٢٣٧/٢
السُّلْطان برحيلهم وقدوم ابنه، وقضت خشيةُ الله بأمنه. وأقام الكامل حتى توجَّه أبوه إلى مِصْر، فخرج معه أياماً، ثم عاد ولم يُؤثر مقاماً، وانتقل إلى حَرَّان* والرُّها*، واستقام به أمرها، وذلك حادي عشر ربيع الأول.

وأما المحاصرون فإنهم انتقلوا من الكُسْوة* إلى مَرْج الصُّفَّر، وسيَّر الملكان الظَّاهر والمجاهد بعض الأثقال إلى بانياس*، وأصحبا

(١) في (ك): فوصلوا.

بقية أحمال الملك الأفضل إلى مِصْر، وودَّعاه، وكلاهما سار جريدة* إلى مَقَرِّه، واستمرَّ بعد ذلك على إمرار أمره.

وكلما رحل القوم عن منزلٍ أحرقوا ما لم يظفروا له بِمَحْمِل، واستقلُّوا[1] من مَرْج الصُّفَّر* ولم يلووا علىٰ أحد، ولم يعرِّجوا على بلد.

وأخذوا في السَّيْر والسُّرَىٰ، وذهبت آسادهم ترومُ معاودةَ الشَّرَىٰ، وتبعهم الصَّلاحية ينزلون بعدهم في منازلهم، ويَخْلُفونهم في مناهلهم. وكان القوم ظنُّوا أنهم يقدرون بمرج الصُّفَّر* على الإقامة، فلقوا من البرد ما حضَّهم على النَّجاة والسَّلامة، وهذا المرجُ بقُرْب جبل الثَّلْج في تموز لا يقيم به إلا لابس فَرْوة، فكيف في كانون، وقد عرفوا أَنَّهم الجانون، حيث لم يلزموا القانون.

وأرسلت الصَّلاحية إلى الملك العادل يستعجلونه ويحثُّونه ولا يمهلونه، فخرج يوم الخميس تاسع ربيع الأول، وودَّع أعيان البلد، وسار وتلا مَنْ تقدَّمه إلى تل العجول*، وأقام حتى اجتمع أتباعه، وأرسل إلى الأفضل العَدْلَ النَّجيب أبا محمد، وكان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ يعتقد في صلاح دِيْنه، ويمكنه من خواصِّ حاجاته، ويُرْسلُه في مهام الرَّسائل، وكان مدلول الرِّسالة: ارفق في السَّيْر، ووافقْ على الخير، فما عندك اليوم من يَصْدُقُك، وأنا لك كالوالد، وأبلغك مقصودك، وأحالفك ولا أخالفك، وأوافقك ولا أفارقك.

فأشار على الأفضل جماعتُهُ بأن يَرُدَّ جواب الرِّسالة: إنَّ

(١) استقلوا: ارتحلوا. انظر «اللسان» (قلل).

مقاربتي لك بمباعدتك للصَّلاحية منوطة، وموافقتي بمخالفتهم مشروطة.

فلما سَمِعَ ذلك الصَّلاحية استشاطوا ونفروا، واستدلوا به على أنَّهم ظفروا، وجَدَّ جِدُّهم، واحتدَّ حَدُّهم، فطووا المراحل إلى السَّانح*. وكان الأفضل على بِلْبِيس* وقد تفرَّق مُعْظم أصحابه إلى أخبازهم*، وجماعة منهم مع العادل في الباطن كاتبوه، وعلى الإبطاء عاتبوه.

فسار الجمعان بعضُهم إلى بعض، والتقوا، فانكسر أصحابُ الأفضل وانهزموا، فدخلوا القاهرة، وأغلقوا الأبواب للمحاصرة، وانتهىٰ إلى الأفضل أنَّ جماعةً منهم أرسلوا إلى العادل في إصلاح أحوالهم، وإنجاح آمالهم، فقال سيف الدين يازكوج للأفضل: لكل زمانٍ عمل، ولكل أوان أمل، فأصلحِ الأمر كيف تهيَّا، فلا مَلام على اللَّبيب بأيِّ زِيٍّ تَزَيَّا. فشرع الأفضلُ في إصلاح الأمر مع عَمِّه، وراسله على أن يكون بحكمه، ثم سلَّم الأمر ومَرَّ سالماً، وحصل له من التجربة ما عاد به للعواقب عالماً.

قال: وخيَّم العادِلُ بالبركة(١)، واستبدَّ بملك مِصْر آمناً من الشَّرْكة، ونفَّذ المُقْطَعين إلى إقطاعهم، ونظر للصَّلاحية في صلاح ضِياعهم، وأرسل إلى الأفضل: إنْ وافقتني على ما أُعطيك وقَبِلْتَ سَعِدْتَ، فهؤلاء الذين عندك ما منهم إلاَّ مَنْ كَتَبَ إليَّ وتقرَّب، وانتظر يومي وترقَّب، وهذه إضبارةُ كُتُبهم فتأَمَّلْها، وإن لم تُصَدِّقْني فَسَلْها. واعلم أنَّهم غَرُّوك وضَرُّوك، وساؤوك بما سَرُّوك.

---

(١) هي بركة الجب، انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من الجزء الثاني.

وقيل: لم يبق من الأمراء من لم يكتب إليه ولم يخامر إلا أربعة، أخلصهم سيف الدين يازكوج. فلما عَرَفَ الأفضل صِدْق عمِّه سَلَّم المسألة، وسأل المَعْدَلَة. فقرَّر للأفضل في ديار بكر مَيَّافارِقين* وأعمالها، وجبل جُور*، وحاني*، وجُملين*، والمعاقل والحصون المحسوبة من ميّافارقين، فرضي بها مُكْرهاً، وخَرَجَ إلى الشام متوجِّهاً ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر في الليلة التي دخل العادل في بُكْرتها القاهرة، فاستقرَّ بدار السَّلْطنة، وقدَّم سيف الدين يازكوج وحكَّمه، واستبقىٰ رضا النَّاصرية بإبقاء الخُطْبة لابن العزيز، ولم ينافسهم مع حصول المعنى له في التفضيل والتَّمييز، وأقام وهو كل يوم في ارتفاع وسيادة، وقوته في نموٍّ وزيادة.

قال: ورَدَّ القضاء إلى القاضي صدر الدين عبد الملك بن دِرْباس الكُرْدي[١]، ولم يزل قاضي القضاة بالدِّيار المِصْرية من الأيام النَّاصرية، وكان نائبه القاضي زين الدين علي بن يوسف الدِّمَشْقي[٢]. وتعصَّب الأُمراء المتغلِّبون على الملك العزيز في مراتبه بصرف صَدْر الدين وتولية نائبه.

ولم يزل صدر الدين مصروفاً، تارة بمحيي الدين بن أبي عصرون، وتارةً بزين الدِّين، حتَّىٰ تعصَّبَ العادِلُ له، وبعث العزيز على رَدِّه. فلما انقضت أيام العزيز وجاء الأفضل كان أول ما حُمِلَ عليه أَنَّ صدر الدين يُعْزل، وتولِّي زين الدين القضاء.

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٢٤ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٢٤ من هذا الجزء.

فلما جاءت نوبة العادل(1) في هذه السَّنة رَدَّ صدر الدين إلى منصبه، ورَدَّ التدريس بالمدرسة الشَّافعية في التُّربة المقدَّسة، وبالمشهد الشريف الحُسيني الذي أُجري عليه حكم المدرسة إلى شيخ الشُّيوخ صدر الدين ابن حمُّويه(2). وكتب إليه وهو بدمشق، فاستدعاه، و [قد](3) كان قبل ذلك ولاَّه في ممالكه الجزريَّة أمور المناصب الشَّرعية، والأمور الدِّينية، ومدارس الشَّافعية، ورُبُط* الصُّوفية، وهو قاضي قضاتها، ووالي هُداتها، وهادي ولاتها، وله ٢٣٨/٢
في مناصبه نُوَّاب، وفي مراتبه أصحاب.

قال: ولما دخل العادل(4) القاهرة استشعر أصحابُ الدَّواوين مهابة الوزير صفي الدين بن شُكْر(5) الظاهرة، ونزل في الدار السُّلطانية في الحُجْرة الفاضلية، وتصدَّر في مكان مكانته، وشَهَرَ من قلمه عَضْبَ شهامته، وسيف صرامته، وقمع المتجبِّرين، ووَضَعَ المتكبِّرين، وأخذ قوس الوِزارة باريها، وأجرى الله الأمور [به](6) أحسن مجاريها.

قال: ونَدَبَ العادلُ من الأسدية والصَّلاحية أميرين كبيرين إلى الشَّام، لإصلاح ذات البين بحمص وحماة وحلب وغيرهما، وهما سراسُنْقُر وكرجي.

---

(1) في (ك): السلطان.
(2) انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٩٤ من هذا الجزء.
(3) ما بين حاصرتين من (ك).
(4) في (ك): السلطان.
(5) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٦٢٢ هـ).
(6) ما بين حاصرتين من (ك).

قال: ولما ودَّع الأفضل عمَّه بالبركة سار إلىٰ صَرْخَدْ*، وأقام بها، ونَدَبَ إلى البلاد التي بديار بكر من يتسلَّمُها، ووصل إلى ميَّافارقينَ، ولما انفصل عن مِصْر وَجَدَ المُواصلين له لصحبته مفارقين، وكذا الدُّنيا ما تقبلُ على أحد ولا تُمِدُّه بمدد إلا تواردت على حياضه الجموع، وتزاحم في رياضه الرُّبوع[1]، فإذا صَرَفَتْ عنه وجوهَها صَرَفَ أهلُها عنه الوجوه، وأحلُّوا به فيها مكروه المكروه.

قال: وأما الظَّافر فإنَّ عَمَّه أحسن إليه، ووعده بعطاء جزيل، وودَّعه بثناءٍ جميل، وأقطعه بأعمال دمشق حزرما وضياع السَّواد، وشقَّ عليه أنَّه لا يجد ما يجود به وهو من الأجواد. ووصل إلى دمشق رابع جُمادىٰ الآخرة، وسكن في جوسق* بُسْتانه بالنَّيْرب*. وسَلَكَ طريقة الاحتراز والاحتراس، واختار البُعْد عن مقاربة النَّاس، ولزم السَّكينة، ولم يدخل المدينة، وطلب من القاضي بجامع النَّيْرب خطيباً شافعياً، ليكون بالصَّلاة فيه عن حضور الجامع بالبلد غنيّاً، واحتاط غاية الاحتياط، وطوىٰ بساط النَّشاط.

فصــــل

قال العماد: واستدعىٰ العادِلُ[2] ابنه الكامل إلى مِصْر ليستنيبه فيها وكان بحرَّان*، وهو في تلك البلاد نائب السُّلْطان، فسلَّم تلك الولاية إلى أخيه الفائز، ووصل إلى دمشق سادس عشر شعبان،

---

(١) الربوع جمع، مفردها الرَّبع: المنزل. «اللسان» (ربع).

(٢) هذا الفصل جاء في (ك) عقب خبر وفاة القاضي الفاضل، الآتي ص ٤٧٢ من هذا الجزء.

ونزل بجوسق* أبيه في بُسْتانه، ومعه شمس الدين المعروف بقاضي دارا* وهو وزيره، ومستحِثُّه على المكارم ومشيره.

قال: وخدمته بكلمةٍ، أوَّلُها:

أنتم تحبُّون بالإعراض تعذيبي ... وتَقْصِدُون بِخُلْقِ الصَدِّ تهذيبي

ساروافياصحَّتي من مُهجَتي ارتحلي ... غابوا فيا سِنَتي عن مُقْلَتي غيبي

قد كاد يَهْضِمُني دَهْرِي فأدركني ... محمدُ بنُ أبي بكرِ بن أيوبِ

الكاملُ المالكُ الأملاكِ حيثُ له ... رِقُّ الأعاجِمِ منهم والأعاريبِ

مُعَطَّرٌ عَرْفُه عُرْفاً[1] ومَكْرُمَةً ... مخمَّرٌ طِينُهُ بالطُّهْرِ والطِّيبِ

لا يَدَّعي جُوْدَه البَحْرُ الخِضَمُّ ولا ... يُلْفَىٰ تأبِّيه في الشُّمِّ الشَّناخيب[2]

دَعَتْكَ مِصْرُ إلى سُلْطانها فأجِبْ ... دُعاءها فهو حَقٌّ غيرُ مكذوبِ

قال: وعزمتُ علىٰ صحبته في هذه السَّفرة إلى مصر، فخرج في الثَّالث والعشرين من شعبان إلى الكُسْوة*، وخرج سُلْطان دمشق الملك المُعَظَّم ليودِّع سُلْطان مصر أخاه الكامل، وصَحِبَهُ إلى رأس الماء*، مع عِدَّة من الأمراء، ثم ودَّعه وانصرف، وتشوَّش مِزَاج الكامل بعده وانحرف.

ووصل إلى العَبَّاسة[3] في الحادي والعشرين من رمضان، والتقاه والده العادل، وأنزله بالقصر، ثم ركب إليه بعد يومين، واستصحبه

---

(١) العَرْف ـ بفتح العين: الرائحة الطيبة، وبضمها: المعروف. انظر «معجم متن اللغة» ٤/٧٧.

(٢) الشناخيب جمع، مفردها الشنخوب: رأس الجبل وأعلاه. «معجم متن اللغة» ٣/٢٨٦.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٥٧ من الجزء الثاني.

إلى الدَّار، ورتَّبَ أحواله على الإيثار. وكان قد عَقَدَ له على ابنة عمه[1] الملك النَّاصر ـ رحمه الله ـ فأدخله عليها، ليبني بها[2].

قال: وأصبح العادل[3] يوم الاثنين سابع عشر شَوَّال، وركب بالسَّنْجق* السُّلْطاني، والمركب الخُسْرُواني، والسيوف المسلولة، والعقود المحلولة، وأمر الخطيبين بجامعي مِصْر والقاهرة بالخُطْبة له ولولده الكامل من بعده، وليس بعد دعاء الخليفة إلا الدُّعاءُ لهما، وانقطعت الخُطْبة لابن العزيز.

وكان أحضر جماعةً من الفُقَهاء والقُضَاة [والكبراء][4] والولاة، وقال لهم قَوْلَ المستفتي المُستشير: هل تَصِحُّ ولاية الصَّغير؟ فقالوا: هذا[5] مولًىٰ عليه فلا يلي، وغيابات الحوادث بنظره لا تنجابُ ولا تنجلي.

فقال: فهل يجوزُ للمولّى الكبير أن ينوب عنه إلى أن يكبر، ويرتِّب الأمور بحكم النِّيابة ويدبِّر؟ فقالوا: إذا كانت الولاية غير صحيحة فلا تَصِحُّ النِّيابة، ومن رآه صواباً أخطأ به الإصابة، لا سيِّما في السَّلطنة التي هي خلافة الخليقة، فلا حَقَّ فيه إلا للكبير الذي يُعَيَّنُ على الحقيقة.

---

(١) هي مؤنسة خاتون، انظر ص ٤٧٨ من الجزء الثاني.
(٢) في الأصل: فأدخله إليها ليبني عليها، والمثبت من (ك).
(٣) في (ك): السلطان.
(٤) ما بين حاصرتين من (ك).
(٥) في (ك): هو.

وجرىٰ منهم في هذا المعنىٰ الإمعان، فلما عَرَفَ الشَّرْع، أَحضر الأُمراء، والتمس منهم الطَّاعة والسَّمْع، وخاطبهم في اليمين له والميثاق، وألزمهم [له](١) بالوفاء والوفاق، فأَبَوْا، فخاطبهم بما راعهم، وملأ بالتقريع أسماعهم، ثم قال: قد عَلِمْتم ما هو الواجب من التظافر على حِفْظ ثغور الإسلام، وتدبير الممالك بمصر والشَّام، وما هذا أمرٌ يناط بالصِّبيان، أو يُحاط بغير ذي القُدْرة والسُّلطان. ٢٣٩/٢ فأذعنوا وأطاعوا، وحصل الإئتلاف، ورُفِعَ الخلاف.

قال: ولما أصبحنا يوم السبت شاهدنا الملك الكامل قد ركب مثل والده، معقوداً سَنْجَقُه* بمعاقده، والمناصل مجذوبة، والصَّواهل مجنوبة، والأعين ناظرة، والألسن ذاكرة. ومشىٰ في ركابه من إليه تحبَّبَ، وإلىٰ السُّلْطان تقرَّب.

قال: وركب يوم الخميس السابع والعشرين من شوال إلى بُرْج المَقْسِم، والمَقْسِمُ موضعٌ على شاطىء النِّيل يزار، وهُناك مسجدٌ يتبرَّك به الأبرار، وهو المكان الذي قسمت فيه الغنيمة عند استيلاء الصَّحابة ـ رضي الله عنهم ـ على مِصْر.

ولما أمر صلاح الدين ـ رحمه الله ـ بإدارة السُّور على مِصْر والقاهرة، وتولاه(٢) الأمير قَرَاقُوش جعل نهايته التي تلي القاهرة عند المَقْسِم، وبنىٰ فيه بُرْجاً هو مشرفٌ على النيل ذو شُرَفات، ومعقل ذو طبقات، وثيق البناء، رفيع الفناء، وبنىٰ مسجده جامعاً، واتصلت

---

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) في (ك): وتولاها. وانظر ص ٤٦٦ من الجزء الثاني.

العمارة منه إلى البلد، متتابعة المدد، وهو مُتَنَزَّه، عن الأكدار والأقذار منزَّه، وبالجنَّات مُشَبَّه، وإلى البحر والبر بمناظرة الشبابيك موجَّه، فاختار الكامل أن يجلس فيه يوماً للتفرُّج، فجلس في الطَّبقة العليا، واجتمع الأُمراء والأعيان في الطَّبقة الدُّنيا، ثم مُدَّ السِّماط في الجامع، ثم ذكر العماد أَنَّه مدحه[1] بكلمة، أولها:

مُغْرَمُ القَلْبِ مُدْنَفُ وَجْدُهُ ليس يوصَفُ
وعدونا وأخلفوا ووفينا ولم يفوا

قال: وفي الحادي والعشرين من شَوَّال قَدِمَ فلك الدين أخو العادل من دمشق.

قلت[2]: هو أخوه لأُمِّه، واسمه أبو منصور سليمان بن شروه بن جلدك[3]، وإليه تنسب المدرسة الفَلَكية* بنواحي باب الفراديس* بدمشق، وبها قبره.

قال العماد: وفي هذا اليوم خُطِبَ للعادل ولابنه الكامل، والعادل في مهامِّه يستشيره ويستدعيه، والمرء كثيرٌ بأخيه. ثم عاد إلى دمشق بعد شهور.

قال: وفي العشرين من الشهر خرج حاجُّ مِصْر إلى البِرْكة[4]، وأمَّر عليهم نصير الدين الخَضِر بن بَهْرَام، وكان والي المَحَلَّة، وهو

---

(١) في (ك): ومدحه العماد.
(٢) هذا التعقيب ليس في (ك).
(٣) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٣٠١ من هذا الجزء.
(٤) هي بركة الجب، انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ١٨٥ من الجزء الثاني.

مستمرُّ الولاية من الأيام الصَّلاحية، وحَجَّ معه من معروفي الأجناد وأمرائها عِدَّة. وكذلك حَجَّ في هذه السنة حاجُّ دمشق، وصحبهم الأمير عز الدين سامة. وكانت السنة مباركة، والنِّعَم متداركة، والخير عام، والخِصْب تام.

قال: وانتظرنا زيادةَ بحر النِّيل في أوقاتها، فبلغ إلى إحدىٰ وعشرين أصبعاً من ثلاث عشرة ذراعاً، فعاد بذلك كلُّ قلب مرتاعاً، ثم أخذ في النَّقْص، وهو مرجوُّ الزِّيادة، مأمول الوفاء على العادة، فَقَنَطَ النَّاس، ووقع الياس، واشتدَّ المَحْل، وغلا السِّعْر، ويئس الفلاَّحون من الفَلاح، فأجفلوا من البلاد للانتزاح، وطاروا بأجنحة النَّجَاء في طلب النَّجاح.

وقيل: إنَّ هذا النقص لم يُعهد من عهد الصَّحابة، وشرعنا في الاستغفار والإنابة، وصام النَّاسُ ثلاثة أيام قبل يوم التروية، وكأنَّما أصابتهم مصيبة فهم في التَّعْزية، ثم استسقوا ثلاثة أيام إلى العيد، وأفاض الخطيبُ في ذكر الوعيد، وغَصَّت بالخلائق الأمكنة، وضَجَّت بالأدعية والضَّراعات الألسنة.

قال: وفي السنة(١) التي قبلها وهي سنةُ خمسٍ وتسعين استُدْعيَ القاضي ضياء الدين أبو الفضائل القاسم بن يحيىٰ بن عبد الله الشَّهْرُزُوري(٢) إلى بغداد، وولي قضاء القُضاة، وكان يتولى

---

(١) هذا الخبر جاء في (ك) بعد خبر وفاة الهمام العبدي الآتي ص ٤٧٠ من هذا الجزء.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ٥٠ من الجزء الثالث.

القضاء بالمَوْصل، [فخرج في أواخر][1] شعبان، فلما وصل بغداد بُجِّل وعُظِّم، وكان قد تردَّد إلى بغداد دفعات في الأيام الصَّلاحية بسبب الرِّسالة، فهو كان المُعَيَّن لها كما تقدم ذكره[2].

فصـــل

في وفاة جماعةٍ من الأعيان في هذه السنة أعني سنة ستٍّ وتسعين

قال العماد: وفيها ثالث عشر[3] جُمادىٰ الأُولى توفي في داره بدمشق الأمير صارم الدين قايماز النَّجمي، وكان متولي أسباب صلاح الدين ـ رحمه الله ـ في مخيَّمه وبيوته، يعمل عمل أستاذ الدَّار*، وإذا فَتَحَ بلداً سلَّمه إليه، واستأمنه عليه، فيكون أول من افتضَّ عُذْرَتَه، وشام دِيمَتَه، وحصل له من بلد آمد* عند فَتْحِهِ، ومن ديار مِصْر عند موت عاضدها أموالٌ عظيمة، وتصدَّق في يوم واحد بسبعة آلاف دينار مِصْرية عيناً، وأظهر أنَّه قضىٰ من حقوق الله في ذِمَّته دَيْناً.

وهو بالعُرْف معروف، وبالخير موصوف، يحبُّ اقتناء المفاخر ببناء الرُّبُط* والقناطر، ومن جُمْلتها رباط خِسْفين*، ورباط نوىٰ*، وله مدرسةٌ مجاورةٌ دارَه. ولما كفىٰ الله [دمشق][4] الحَصْر، نهضَ وراء

(١) ما بين حاصرتين من (ك).

(٢) انظر ص ٤٣١ من الجزء الثاني.

(٣) خبر وفاة صارم الدين قايماز جاء في (ك) عقب خبر وصول الظافر إلى دمشق الذي سلف ص ٤٥٨ من هذا الجزء.

(٤) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٢/ ٢٣٩.

العادل إلى مِصر، فردَّه إلى دمشق ليُلازم خدمة الملك المعظَّم ولدِه، ويكون من أقوى عُدَده، وأوفىٰ[1] عَدَده. وكان في خُلُقه زَعَارة، وكأنَّ حصافته مستعارة.

قال: ولما دُفِنَ نُبشت أمواله، وفُتِّشت رحاله، وحَضَرَ أُمناء القاضي، وضمناء الوالي، وأخرجوا خبايا الزَّوايا، وسموط النُّقود وخطوط النُّسايا. وغيروا رسوم المنزل ومعالمه، واستنبطوا دنانيره ودراهمه، وحفروا أماكن في الدَّار، وبِرْكة الحمَّام في الجِوَار، فحملوا أوقاراً من النُّضار، وظهروا على الكنوز المخفيَّة، والدَّفائن الألفية، فقيل: زادت على مئة ألف دينار، وهو قليل في جَنْب ما يحرز به من كذا وكذا قنطار. ٢٤٠/٢

واستقلَّ ما طواه الخَزْنُ، وأخفاه الدَّفْن[2]. وقيل: كان يكنز في صحارىٰ ضِياعه، ومغارات إقطاعه.

قلت[3]: واتهم بعده جماعة بأنَّ له عندهم ودائع، وتأذَّىٰ بذلك المتأبي منهم والطَّائع. وداره بدمشق هي التي بناها الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل داراً للحديث في سنة ثلاثين وستِّ مئة، وأخرب الحَمَّام الذي كان مجاوراً لها، وأدخله في رَبْعها، وذلك في جوار قلعة دمشق، بينهما الخندق والطريق، وثَمَّ مدرسته المعروفة بالقَيْمازية*[3].

---

(١) أوفى، ليست في (ك).
(٢) في (ك): وانتقل ما حواه الخزن وأبداه الدفن.
(٣ ـ ٣) ما بينهما ساقط من (ك).

قال العماد: وفي جُمَادىٰ الآخرة[١] من هذه السَّنة توفي ـ يعني بمصر ـ الحاجب لؤلؤ، وكان في الأيام الصَّلاحية أشجع الشجعان، وأفرس الفُرْسان، وله مقاماتٌ في الغَزَاة، ومواقف مع العُدَاة، وهو الذي نهض وراء مراكب الفرنج النَّاهضة في بحر أَيْلَة* إلى بَرِّ الحجاز، وأتىٰ في كَسْرهم وأَسْرهم بالإعجاب والإعجاز، وكانوا قطعوا الطَّريق في بحر عَيْذاب* على التُّجّار، وحصلت أموالُهم تحت الاستيلاء بعد حصولهم تحت الإسار، فأنقذ واستنقذ، وما نزل حتى أخذ، وساق إلى القاهرة أولئك الكُفَّار مقهورين، واعتقلهم بها مأسورين[٢].

قلتُ: وفيه يقول الرَّضي بن أبي حصينة المِصْري[٣] يخاطب الفرنج:

عَدوُّكم لؤلؤ والبحر مَسْكَنُهُ   والدُّرُّ في البحر لا يَخْشَىٰ من الغِيَرِ
فَأْمُرْ حُسَامك أنْ يحظىٰ بنحرهمُ   فالدُّرُّ مُذْ كان منسوبٌ إلى النُّحُرِ

وقد[٤] قيل فيه أشعار كثيرة تقدَّم بعضها في أخبار سنة ثمانٍ

(١) خبر وفاة الحاجب لؤلؤ جاء في (ك) عقب ترجمة ابن بُنان الآتية ص ٤٧١ من هذا الجزء.
(٢) انظر ص ١٣٣ من الجزء الثالث وص ١٠٣ من هذا الجزء.
(٣) هو يحيى بن سالم القاضي، أورد ابن شاكر الكتبي بعض أشعاره في «فوات الوفيات» ٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٥، وذكر أنَّ وفاته بعد الثمانين والخمس مئة، وانظر حاشيتنا رقم ١ ص ١٠٣ من الجزء الثالث.
(٤) من هنا يبدأ خرم في الأصل ينتهي بنهاية الكتاب وقد استدرك بخط متأخر، اعتمدنا في تحقيقه على (ك)، واستأنسنا بنسخة (ب)، وطبعة وادي النيل، وراعينا في ترتيب أخباره ما جاء في الأصل، إذ جاءت في (ك) مع تقديم وتأخير فيها.

وسبعين[1].

قال العماد: ومن دلائل سماحه ما شاهَدْتُهُ بالقاهرة في سنة إحدىٰ وتسعين من مبرّاته الظّاهرة، أنه لما حطّ القَحْطُ رَحْلَه، ووصل المَحْلُ مَحَلَّه، وتمّ الغلاء، وعمَّ البلاء، ابتكر هذا الحاجب الكبير مَكْرُمةً لم يُسْبق إليها؛ وذلك أنّه كان يَخْبِزُ كلَّ ليلةٍ اثني عشر ألف رغيف، فإذا أصبح جلس على باب الموضع الذي فيه حُشِرَ الفُقَراء، ثم يفتح من الباب مقدار ما يخرج منه واحد بعد واحد، ويعلم أنه غير عائد، فيتناول كلٌّ منهم قُرْصَة، ويرىٰ ذلك من خيراته فُرْصة، فما يزال قاعداً حتى يفرّقَ الألوف على الألوف.

وكان هذا دأبه في هذا الغلاء حتى هَبَّ رخاءُ الرَّخاء، فحينئذٍ تنوَّعت صدقاتُهُ، واستغرقت بالصِّلات أوقاته.

وكان بهيَّ الشَّيْب، نقيَّ الجيب، قد جعل الله البركة في عمره، وخصّه مُدَّة حياته بإمرار أمره، فأنجده في أوان ضعفه بتضعيف بِرّه، ولا شكَّ أنّه من الأولياء الأبدال، والصّالحين الصّالحي الأعمال.

قال: وفي يوم السبت الحادي والعشرين من ذي القَعْدة وأنا بالدِّيار المِصْرية توفي الفقيه الكبير شهاب الدين الطُّوسي[2]، وهو

---

(١) انظر ص ١٣٥ وما بعدها من الجزء الثالث.

(٢) هو محمد بن محمود بن محمد الطوسي، ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٦ هـ)، وانظر ترجمته في «مرآة الزمان» (خ) ٨/ ٣٠٧، و «التكملة» للمنذري ١/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥، و «سير أعلام النبلاء» ٢١/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩، و «العبر» للذهبي ٤/ ٢٩٤، و «الوافي =

أكبر الأئمة الشَّافعية ورئيسها، وإليه فُتْياها وتدريسها، وهو من أصحاب محمد بن يحيىٰ[1]، وكم واجه الملوكَ بالحقِّ المرِّ، وأنكر عليهم ما ينكرونه من العُرْف، ويعرفونه من النُّكْر، ولما وصل إلى مِصْر كان تقيُّ الدين عمر بن شاهِنْشاه بن أيوب متولِّيها، فأعجبه سَمْتُ المذكور، فولاه مدرسته بمصر وهي المعروفة بمنازل العز[2]، فوليها، وأقام فيها مفيداً حتى فاز في جَنَّة النَّعيم بفوزه، وخَلَتْ منازل العِز من منازل عِزِّه، وأصبح النَّاس حول سريره[3] مزدحمين، وعليه متوجعين، فوصلوا به إلى القَرَافة، مكان الرحمة والرَّافة، وهناك الأصاغر والأكابر من الملوك والأمراء مشاة، وجِنازته بما فيه من لباس التَّقوىٰ مُغَشَّاة، ولما نفضوا أيديهم من تُرَابه انفضُّوا من أيادي بركته متربين، وبنار اللهف والتلهُّب عليه مضطرمين مضطربين.

ونمىٰ الخبرُ إلى حماة، وعرف ابن تقي الدين، فولَّىٰ قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي بمصر وقوف أبيه، وسيَّر نائبه لتسلُّم ذلك وتوليه. وكان اتفق حضوره عنده في الرِّسالة، فاهتدىٰ برشده إلى الضَّلالة[4].

= بالوفيات» ٥/ ٩، و «طبقات الشافعية» للسبكي ٦/ ٣٩٦، و «النجوم الزاهرة» ٦/ ١٥٩، و «حسن المحاضرة»: ١/ ٤٠٧، و «شذرات الذهب» ٤/ ٣٢٧.

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ١٧٢ من الجزء الثاني.

(٢) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٨٢ من الجزء الثاني.

(٣) السرير: النعش.

(٤) في (ك): الدلالة، والمثبت من طبعة وادي النيل ٢/ ٢٤٠. =

قال: وفي العشرين من جُمادىٰ الآخرة توفي الفقيه العالم بدر الدين عسكر[1] رئيس الحنفية بدمشق.

قلتُ: وقيل: كانت وفاته في تاسع عشر جُمادىٰ الأولىٰ، ويعرف بابن العقادة.

قال: وفي سابع عشر شعبان توفي بحلب الفقيه الكبير، ظهير الدين عبد السَّلام الفارسي[2]، وكان أبرع فقيهٍ، وأفقه بارعٍ، وَرَدَ إلى أصفهان سنةَ تسعٍ وأربعين، ولقي بها العلماء المبرِّزين، وخالط صدورها بني الخُجَنْدِي. وكان تفقَّه بكرمان، وقرأ على فخر الدين الرَّازي، من أكبر تلامذة محمد بن يحيى، وتنقَّل في بلاد خُراسان والعراق، ولقيته بمصر سنة اثنتين وسبعين في العهد الصَّلاحي، وسامه السُّلطان المقام بها ليفوض إليه التدريس بقبر الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ فَعَبَرَ وما صَبَرَ، وعاد إلى البلاد، ثم وَفَدَ إلى دمشق في جمادىٰ الأولىٰ سنة خمس وتسعين، ثم سار إلى حلب في ثاني شعبان، فكان من وفاته بها ما كان.

= ولعل العماد يشير بذلك إلى المحنة التي تعرض لها القاضي محيي الدين من قبل الملك العادل، فقد غضب عليه لأمر نقم عليه به ـ فلعل له علاقة بالأوقاف التي تولاها ـ فاعتقله بالقلعة، وطالبه أن يزن له عشرة آلاف دينار مصرية، وشدد عليه في ذلك، في قصة ذكرها ابن أبي أصيبعة في «عيون الأنباء» ٧٢٩ ـ ٧٣٠.

(١) في (ك) وطبعة وادي النيل: بدر الدين بن عسكر، بزيادة ابن، وهو وهم، انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري ١/ ٣٥٦، وسيرد ذكره في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٦ هـ)، وانظر «الدارس» ١/ ٥٦٨ ـ ٥٦٩، وص ٢٧٠ من الجزء الثالث.

(٢) هو عبد السلام بن محمود الفارسي، انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري ١/ ٣٥٩ و «طبقات الشافعية» للسبكي ٧/ ١٧٠ وفيه: ابن محمد.

قال: وفي هذه السنة توفي بنيسابور الفقيه الكبير محيي الدين بن محيي الدين محمد بن يحيى.

وفيها توفي أيضاً صاحب آمِد* قُطْب الدين سُكْمان ابن نور الدين [بن][1] قرا أرسلان.

وفيها مات بدمشق في العَشْر الأوسط من شعبان الهُمَام العَبْدي، الشَّاعر البغدادي، وهو أبو الحسن علي بن نصر بن[2] عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس من ربيعة. وقدم دمشقَ سنةَ
٢٤١/٢ خمس وتسعين، وهو أشعر من رأيته في هذا الزَّمان. وسمعته ينشد الملكَ العادل ـ ودمشق محصورة ـ كلمةً شاعرة، وصادَفْتُه ذا سَمْتٍ حَسَنٍ، وفصاحة وحصافة ولَسَنٍ، ومعه ديوان شِعْره، يحوي قلائد دُرِّه، وفرائد سِحْره، وتوفَّر علىٰ مَدْح الأمجد صاحب بَعْلَبَكَّ[3]، ومن شعره:

وما النَّاس إلا كامِلُ الحَظِّ ناقِصٌ　　وآخرُ منهمْ ناقِصُ الحَظِّ كامِلُ
وإني لـمُثْرٍ من حَيَاءٍ وعِفَّةٍ　　وإنْ لم يكن عندي من المالِ طائلُ

---

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) هكذا سماه هنا أبو شامة، وتابعه ابن تغري بردي في «النجوم الزاهرة» ١٥٨/٦ وسماه في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٦ هـ) الحسن بن علي وهو الأرجح، وكذلك سماه المنذري في «تكملته» ١/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠، وابن الدبيثي في «المختصر المحتاج إليه» ١٨/٢ ـ ١٩، وابن شاكر في «فوات الوفيات» ٣٣٦/١، والصفدي في «الوافي بالوفيات» ١٢٩/١٢ ـ ١٣٠.

(٣) انظر حاشيتنا رقم ٤ ص ٣٠٨ من هذا الجزء.

قال: وتوفي[1] في هذه السَّنة قبل الفاضل بثلاثة أيام الأثير بن بُنَان[2]، وكان مشمولاً في الدَّوْلتين بكل قَبُول واحترام [وإحسان][3].

وكان السُّلطان لما تصرَّف في القَصْر[4] ولاه بيع موجودِهِ، وبَذَلَ في تصريفه غاية مجهوده. ولما فرغ من شُغْله أبقاه على رَسْمِ أنعامه كله، واستمرَّ إمراره، واستقرَّ قراره. وجلس في بيته يُسمع عليه رواياتُه العالية حتى أدرك أيام الملك العزيز، ولم يدرك في العِزِّ أملاً، ولم يملك عملاً حتى تغيَّر خُلُقُه، وتقلَّل رِزْقُه، وتبطل حقُّه، وآل أمره إلى اعتقاله بالديوان، واحتباسه في الرهون.

وممن غاظه وزير العزيز[5]، وكان مؤدِّبه في الصِّغَر، واستوزره في الكِبَر، فتجهَّمه، وأسمعه ما كرهه، وقال له: ما أحسن ما أَدَّبْتَ

---

(١) جاءت وفاة ابن بنان في (ك) بعد خبر الاستسقاء السالف ص ٤٦٣ من هذا الجزء.

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد بن بنان، الأنباري الأصل، المصري المولد والدار، ولد بالقاهرة سنة (٥٠٧ هـ)، انظر ترجمته في «التكملة» للمنذري ١/ ٣٥٠ _ ٣٥١، و «إنباه الرواة»: ٣/ ٢٠٩، و «المختصر المحتاج إليه» ١/ ١٢٢، و «سير أعلام النبلاء» ٢٠/ ٢٢٠ _ ٢٢٣، و «العبر» للذهبي ٤/ ٢٩٤، و «الوافي بالوفيات» ١/ ٢٨١ _ ٢٨٢، و «فوات الوفيات» ٣/ ٢٥٩ _ ٢٦٠، و «السلوك» للمقريزي ج ١/ق ١/ ١٨٥، و «النجوم الزاهرة» ٦/ ١٥٩، و «حسن المحاضرة» ١/ ٣٧٥، و «شذرات الذهب» ٤/ ٣٢٧، وانظر «البرق الشامي»: ٣/ ٩٦ _ ٩٧.

(٣) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٢/ ٢٤١.

(٤) أي قصر الخليفة العاضد، انظر ص ٢٠٩ من الجزء الثاني.

(٥) هو الوزير نجم الدين ابن المجاور، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٤٩ من الجزء الثالث.

مخدومك وخَرَّجته، وعلى مراتب أخلاقك درَّجته. وقال للفاضل: أنا خلَّصتك في أيام شاور مرتين، ودافعت عنك دفعتين، وهذه قصائدك في مدحي، ومقاصدك لمنحي، وكان يعرف لتقادم عهده وانتقاله في الحالات، مبادىء أرباب المناصب في الغايات، فكرهه النواب ودحضوه، ولمعارض[1] النَّوائب عرضوه.

وكان بالقاهرة جاري، وباب داره مقابل باب داري، وأنا أعينه في الأيام الصَّلاحية بأصلح إعانة، وأصونه بأرجح صيانة.

[فصل

في وفاة القاضي الفاضل رحمه الله

قال العماد][2]: وتمت[3] في هذه السنة الرَّزِيَّةُ الكبرى، والبلية العُظْمىٰ، وفجيعة أهل الفَضْل بالدِّين والدُّنيا، وذلك بانتقال القاضي الفاضل من دار الفَنَاء إلى دار البقاء في داره بالقاهرة سادس ربيع الآخر يوم الثلاثاء. وكان ـ يعني ذلك اليوم ـ بمصافِّ الأفضل يوم الكسرة، وبمصاب الفاضل يوم الحسرة.

وذكر أنَّه ليلة الثلاثاء في مدرسته صَلَّىٰ العِشاء، وجلس مع

---

(١) المعارض جمع، مفردها معراض، وهو السهم يرمى به بلا ريش ولا نصل، دقيق الطرفين، غليظ الوسط، فيصيب غالباً بعرضه دون حده. «معجم متن اللغة» ٤/ ٧٦.

(٢) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٢/ ٢٤١.

(٣) جاء خبر وفاة القاضي الفاضل في (ك) عقب خبر وفاة صارم الدين قايماز، الذي سلف ص ٤٦٤ من هذا الجزء.

الفقيه ابن سلامة مدرسها، وتحدَّث معه ما شاء وشُوهد من كلِّ ليلةٍ أبش وأبسم وأهش، وقد طابت المحاضرة، وطالت المسامرة.

فانفصل إلى منزله صحيحَ البَدَن، فصيح اللَّسَن، وقال لغلامه: رَتِّب حوائج الحَمَّام، وعرِّفني حين أقضي مُنَىٰ المنام. فوافاه سَحَراً للإعلام، فما اكترث بصوت الغلام، ولم يدر أَنَّ كَلِمَ الحِمام حمىٰ من الكلام، وأنَّ وثوقه بطهارته من الكَوْثر أغناه عن الحَمَّام.

فبادر إليه ولده، فألفاه وهو ساكت باهت، فعرف أَنَّ القَدَر له باغت، فلبث يومه لا يُسمع له إلا أنينٌ خَفِيّ، عُلِمَ منه أنه بعهد الله وفيّ.

ثم قضىٰ سعيداً، ومضىٰ شهيداً حميداً، فوقاه الله تعالىٰ الوصية، فكانت له بسيد الأولين والآخرين أُسوة، وإنْ يُعَرَّىٰ عن رداء العمر فله من حُلَل البقاء في علِّيين كُسْوَة، ولأنه لم يُبْقِ في مُدَّة حياته عملاً صالحاً إلا وقدَّمه، ولا عهداً في الجنة إلا أحكمه، ولا عَقْداً في البِرِّ إلا أبرمه، فإنَّ صنائعه في الرِّقاب، وأوقافه على سبيل الخيرات متجاوزة عن الحساب، لا سيما أوقافه لفكاك أسارىٰ المسلمين إلى يوم الحساب.

وأعان طلبة العلم الشافعية [والمالكية][١] عند داره بالمدرسة والأيتام بالكُتَّاب، والخيراتُ الدَّارَّة على الأيام، فكانت حياةً له ثانية إلى يوم البعث وإعادة حياة الأنام.

---

(١) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٢/ ٢٤١. وكان القاضي الفاضل قد وقف مدرسته على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية. انظر «خطط المقريزي» ٣/ ٣٠٩ (طبعة دار التحرير).

وكان ـ رحمه الله ـ للحقوق قاضياً، وفي الحقائق ماضياً، سُلْطانه مطاع، والسُّلْطان له مطيع، وفَضْلُه جامع، وشمل الفضل به جميع. وهو واحد الزَّمان، وصاحب القرآن، قد خَصَّه الله بالمكانة والإمكان. والسُّلْطان ـ رحمه الله ـ من مفتتحات فتوحه ومختتماتِها، ومبادي أمور دولته وغاياتها، ما افتتح الأقاليم إلا بأقاليد[1] آرابه وآرائه، ومقاليد غِناه وغَنائه.

وكنتُ من حسناته محسوباً، وإلى مناسب آلائه منسوباً، أعرف صناعته ويعرف صناعتي، وأعارض بضاعته الثَّمينة بمزجاة بضاعتي. ولم يزل يجذب بضَبْعي، ويجلب نَفْعي، وما أوسع ذرعه للخطاب في شُغْلي إذا ضاق بالخَطْب الشَّاغل ذَرْعي.

وكانت كتابته كتائب النَّصْر، ويراعته رائعة الدَّهْر، وبراعته باريةً للبِرّ، وعبارتُهُ نافثةً في عُقَد السِّحْر. وكانت بلاغته للدَّولة مُجَمِّلة، وللمملكة مُكَمِّلة، وللعَصْر الصَّلاحي على سائر الأعصار مَفَضِّلة، ومفتتحاته في الفتوحات البديعة بديعة، ومخترعاته في الصَّنائع المخترعة صنيعة. وإنما نسجت على مِنْواله، ومزجتُ من جِرْياله[2]، ورويت بزُلاله.

٢٤٢/٢ وهو الذي نَسَخَ أساليب القدماء بما أقدمه من الأساليب، وأغربه من الإبداع وأبدعه من الغريب، وما ألفيته كرَّر دعاءً ذكره في مكاتبة، ولا رَدَّدَ لفظاً في مخاطبة، بل تأتي فصوله مُبْتكرةً مُبْتَدَعَة مُبْتَدَهَة لا مفتكرة، بالعُرْف والعرفان معرَّفة لا نكرة.

---

(١) أقاليد جمع، مفردها إقليد: المفتاح. «اللسان» (قلد).

(٢) الجريال: الخمر الشديدة الحمرة. انظر «معجم متن اللغة» ١/ ٥١٤.

وكانت الدولة بإدالته تُدَال، والزَّلَّةُ بإزالته تُزَال، والكرام في ظِلِّه يقيلون، ومن عَثَرات النَّوائب بفضله يستقيلون، وبعزِّ حمىٰ حمايته يَعِزُّون، ولهَزِّ عِطْف عَطْفِهِ يَهْتَزُّون، فإلى مَنِ الوفادة بعده؟ وممن الإفادة؟ وفيمن السِّيادة؟ ولمن السعادة؟ والحمد لله الذي له الغيب والشهادة، و ﴿إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون﴾[1]، ولأمره منقادون.

وقد[2] وصفه العماد أيضاً في كتاب «الخريدة» في القسم الرَّابع في ذكر محاسن فُضَلاء مِصْر وأعمالها، فقال: وقبل شروعي في ذكر أعيان مِصْر وأحاسنها، ومزايا فضلائها ومزاينها، أقدِّم ذِكْرَ مَنْ جميعُ أفاضل الدَّهر، وأماثل العَصْر كالقَطْرة في تيار بحره، بل كالذَّرَّة في أنوار فَجْره، وهو المولى القاضي الأَجَلّ الفاضل الأسعد أبو علي عبد الرَّحيم بن القاضي الأشرف أبي المجد علي بن الحسن البَيْساني، صاحب القرآن، العديم الأقران، وواحد الزَّمان، العظيم الشَّان، رَبُّ القَلَم والبيان، واللَّسَن واللِّسان، والقريحة الوقَّادة، والبصيرة النَّقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرَّزة، والفضل الذي ما سُمِعَ في الأوائل ممن لو عاش في زمانه لتعلَّق بغباره، أو جرىٰ في مضماره، فهو كالشَّريعة المحمَّدية التي نسخت الشرائع، ورسخت بها الصَّنائع، يخترع الأفكار، ويفترع الأبكار، ويُطْلِعُ الأنوار، ويبدع الأزهار.

وهو ضابط المُلك بآرائه، ورابط السِّلْك بآلائه، إن شاء أنشأ

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٦.

(٢) من هنا، وحتى ص ٤٨١ ليس في (ك). والمثبت من الأصل وطبعة وادي النيل ٢/ ٢٤٢.

في يوم واحد، بل في ساعة، مالو دُوْنَ لكان لأهل الصِّناعة خيرَ بضاعة، أين قُسٌّ عند فصاحته، وأين قيس في مقام حصافته، ومَنْ حاتمٌ وعمرو في سماحته وحماسته؟

فَضْلُه بالإفضال حالٍ، ونجمُ قَبُولِهِ في أُفُق الإقبال عال، لا مَنَّ في فِعْلِهِ، ولا مَيْنَ في قوله، ولا خُلْفَ في وَعْدِهِ، ولا بُطْءَ في رِفْده.

الصَّادقُ الشِّيَم، السَّابق بالكَرَم، ذو الوفاء والمروَّة، والصَّفاء والفُتُوَّة، والتُّقىٰ والصَّلاح، والنَّدىٰ والسَّماح.

مُنْشِرُ رُفَاتِ العِلْم وناشِرُ راياته، وجالي غَيَاباتِ الفَضْل وتالي آياته. وهو من أولياء الله الذين خُصُّوا بكرامته، وأخلصوا لولايته، وقد وَفَّقه الله للخير كلِّه، وفَضَّل هذا العَصْر على الأعصار السَّالفة بفضله ونُبْلِهِ، فهو مع ما يتولاه من أشغال المملكة الشَّاغلة، ومهماته[1] المستغرقة في العاجلة، لا يغفل عن الآجلة، ولا يفتر عن المواظبة على نوافل صَلاته ونوافل صِلاتِه[2]، وحِفْظِ أوراده ووظائفه، وبثِّ أصفاده[3] وعوارفه، ويختم كل يوم من القرآن المجيد، ويضيف إليه ما شاء الله من المزيد.

وأنا أوثر أن أُفْرِدَ لِنَظْمِهِ ونثره كتاباً، فإنني أغار من ذكره مع الذين هم كالسُّها[4] في فلك شَمْسِهِ وذُكائه، وكالثَّرىٰ عند ثريَّا عِلْمه

---

(١) في «الخريدة»: مهامه.

(٢) ونوافل صلاته، ليست في «الخريدة».

(٣) الأصفاد جمع، مفردها صفد: العطاء. اللسان» (صفد).

(٤) السُّها: كويكب صغير خفي الضوء في بنات نعش الكبرى، والناس يمتحنون به أبصارهم. «اللسان» (سها).

وذَكائه[١]، فإنما تبدو النُّجوم إذا لم تُبرِز[٢] الشمس حاجِبَها[٣]، ويحجبُ نورُ الغَزَالة[٤] عند إشراقها كواكبها، ولأنَّه لا يؤثر أيضاً إثبات ذلك، فأنا ممتثل لأمره المطاع، مُلْتزمٌ له قانون الاتِّباع. واضعٌ أُذُني لإِذْنه، قابضٌ يميني على يُمْنه، راكنٌ بأملي إلى رُكْنه، قاطن برجائي في ظلِّ أَمْنه[٥]. أفترض[٦] رِضاه، ولا أعترض[٧] على ما يحكم به ويراه، ولا أقوم إلا حيثُ يُقيمني، ولا أسومُ إلاّ ما يَسُومني، ولا أعرف يداً ملكتني غيرَ يده، ولا أتَصَدَّىٰ إلا لما جعلني بصَدَدِه، وأسألُ الله التوفيقَ للثَّبات على هذه السَّنَن وانتهاج جَدَده.

وهو أحقُّ ممدوحيَّ بمدحي وأقضاهم لحقِّه، وأسماهم في أُفُقه، وأَوْلاهم بصدقه، وأهداهم إلى طُرُقه. ولي فيه مدائح منظومةٌ ومنثورة، ومقاصدُ معاهدها بفضله معمورة، وقصائدُ قلائدها على مجده موفورة[٨].

---

(١) الذكاء: بضم الذال: اسم الشمس، وبفتحها: سرعة الفطنة. «اللسان» (ذكا).
(٢) في «الخريدة» لم تُبْدِ.
(٣) حاجب الشمس: قرنها، وهو ناحية قرصها حين تبدأ في الطلوع. «اللسان» (حجب).
(٤) الغزالة: الشمس، وقيل: هي الشمس عند طلوعها، يقال: طلعة الغزالة. ولا يقال: غابت الغزالة. «اللسان» (غزل).
(٥) في «الخريدة»: مَنِّه.
(٦) في «الخريدة» اقترض، وإخاله تصحيفاً.
(٧) في «الخريدة»: ولا أحكم.
(٨) «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٣٥ ـ ٣٧.

ثم ذكر منها بعض ما تقدَّم ذكره في مواضع من هذا الكتاب[١]، وله فيه من قصيدةٍ أولها:

بحياتكم ما عندكُمْ بَعْدِي فَسِوَىٰ الأسىٰ ما بعدكم عندي
ما للأَحِبَّة لا عَدِمْتُهُمُ رَغِبُوا عَن الإسعاد[٢] في الزُّهْدِ
إنْ لم يَفُوا فلقد وَفَىٰ كَرماً عبد الرَّحيم بذمَّةِ المَجْدِ
ذو الرُّتْبة الشَّمَّاء والشَّرف الـ عالي السَّنا والسُّؤْدَدِ العِدِّ[٣]
النَّاس كلُّهمُ له تَبَعٌ في فَضْلِهِ والدَّهرُ كالعَبْدِ
كَم غاص بحرَ بَنَانه فغدا دُرُّ البيانِ يُساقُ في العِقْدِ
إنْ سوَّدَ البيضاء بَيَّضَ من ثَوْبِ اللَّيالي كلَّ مُسْوَدِّ
٢٤٣/٢ قَلَمٌ أقاليمُ البلاد به وثغورُها للضَّبْطِ[٤] والسَّدِّ
مَلِكٌ كتيبَتُهُ كتابتُهُ فَرْدٌ بجيش النَّصر في جُنْدِ
الأَسْمَرُ الخَطِّيُّ تابِعُهُ في حُكْمِهِ والأبيضُ الهِنْدي
والنَّائبات بحدِّه أبداً مثلومةٌ مفلولةُ الحَدِّ

وهي طويلة[٥].

ثم قال: ولو أوردتُ من كلامه طَرَفاً لظهر عَجْزُ الأفاضل،

---

(١) انظر ص ٣٨٧ و ٤٤٣ من الجزء الثاني.

(٢) الإسعاد: المشاركة في النياحة: انظر «اللسان» (سعد).

(٣) العِدّ: الكثير، ومنه الماء العد: الدائم الذي له مادة لا انقطاع لها مثل ماء العين، انظر «اللسان» (عدد).

(٤) في «الخريدة» في الضبط.

(٥) انظر مقاطع مطولة منها في «خريدة القصر» قسم شعراء مصر: ١/ ٣٩ ـ ٤٣.

واعترفت بالقصور ذوو الفضائل، فلا يحسن ذكر البحر في الجداول، ولا العرش في المنازل، فأنا أوثر أن أفرده بقسمٍ لا يمتزج بسواه، ولا يتبهرج به مَنْ في جملته أوردناه، ولعله يأذن لي في ذلك، فلا سبيلَ إليه إلا بإذنه، ولا نفاذ للتصرُّف إلا بعد الفكاك من رَهْنه.

قلت: وقد قالت الشُّعراء فيه فأكثروا، وقد تقدَّم لأبي الحسن بن الذَّرَوي[1] فيه أبيات حسنة عامَيْ حَجِّه[2].

وللتَّاج أبي الفَتْح البَلَطي[3] فيه:

لِلّهِ عبدٌ رحيمٌ ... يُدْعَىٰ بعبدِ الرَّحيمِ
علىٰ صراطٍ سويٍّ ... من الهُدَىٰ مستقيمِ
يُنْمَىٰ إلىٰ شَرَفٍ في ... ذُرَىٰ المعالي صميمِ

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٢ ص ١٠١ من الجزء الثالث.

(٢) حج القاضي الفاضل سنتي ٥٧٤ و٥٧٥، انظر ص ٢٢ و ٤٨ من الجزء الثالث.

(٣) هو أبو الفتح عثمان بن عيسى بن منصور البَلَطي ـ نسبة إلى بَلَط: بلدة قرب الموصل، ولد سنة (٥٢٤ هـ)، وكان قد أقام بدمشق مدة يتردد إلى الزبداني للتعليم، ولما تملك صلاح الدين مصر انتقل إليها وحظي بها، ورتب له صلاح الدين على جامع مصر جارياً يقرىء به النحو والقرآن، وكان إماماً نحوياً مؤرخاً شاعراً، توفي سنة (٥٩٩ هـ).
انظر «الخريدة» قسم شعراء الشام ٢/ ٣٨٥ ـ ٣٩١، و «معجم البلدان» ١/ ٤٨٤، و «معجم الأدباء» ١٢/ ١٤١ ـ ١٦٧، و «التكملة» للمنذري ١/ ٤٧٠، و «فوات الوفيات» ٢/ ٤٤٣ ـ ٤٤٧، و «بغية الوعاة» ٢/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

مُـهَـذَّبٌ حـازَ مـا شـئـ ... ت مـن تُـقـىً وعـلـومِ
نُـسْـكُ ابـنِ مـريـم عـيـسىٰ ... وهَـدْيُ مـوسـى الـكـلـيـمِ
يـرى الـتَّـهَـجُّـدَ أُنـسـاً ... فـي جُـنْـح لـيـلٍ بـهـيـمِ
مُـسَـهَّـدُ الـطَّـرْفِ يـتـلـو ... آيَ الـقُـرانِ الـعـظـيـمِ[1]

وللقاضي السعيد هبةُ الله بن سناء الملك[2] فيه من قصيدةٍ:

عبد الرحيم على البَرِيَّةِ رحمةٌ ... أَمِنَتْ بصُحْبَتِهَا حلولَ عقابِها
يـا سـائـلاً عـنـه وعـن أسـبـابـه ... نال السَّماء فَسَلْهُ عن أسبابها
والدَّهر يعلم أنَّ فيصل خَطْبه ... بخطى يراعته وفَصْلِ خِطَابِها
ولقد عَلَتْ رُتَبُ الأَجَلِّ على الورىٰ ... بسُمُوِّ مَنْصِبها وطيب نِصابها
وأتـتـه خـاطـبـةً إلـيـه وزارةٌ ... ولـطـالـما أَعْيَتْ على خُطَّابها
ما لقَّبُوه بها لأَنْ يَغلو بها[3] ... أسـمـاؤه أَغْـنَـتْـهُ عـن ألـقـابـهـا
قـال الـزَّمـانُ لـغـيـره إذ رامـهـا ... تَرِبَتْ يمينُك لستَ من أَتْرابها
اذهبْ طريقك لست من أربابها[4] ... وارجعْ وراءك لستَ من أصحابها[5]
وبـعـزِّ سـيِّـدنـا وسـيِّـد عِـزِّنـا[6] ... ذلَّت من الأيام شَمْسُ صعابها
وأتـتْ سـعـادتُـه إلـى أبـوابـه ... لا كـالَّـذي يـسـعـى إلى أبـوابـهـا
تعنو الملوكُ لوجهه بوجُوهها ... لا بـل تُـسـاق لِـبـابِـه بـرقـابـهـا

---

(١) انظر الأبيات في «خريدة القصر» قسم شعراء الشام: ٢/٣٨٦ ـ ٣٨٧.
(٢) انظر حاشيتنا رقم ٦ ص ١٦٣ من الجزء الثالث.
(٣) في الأصل: بعلمها، والمثبت من «الديوان».
(٤) في الأصل: آرابها، والمثبت من «الديوان».
(٥) في الأصل: أربابها، والمثبت من «الديوان».
(٦) في الأصل: غيرنا، والمثبت من «الديوان».

شَغَلَ الملوكَ بما يقول ونَفْسُهُ مشغولةٌ بالذِّكْرِ في مِحْرابها
في الصَّومِ والصَّلوات أَتْعَبَ نفسه وضمانُ راحته على إتعابها
وتعَجَّلَ الإقلاعَ عن لذّاته[1] ثِقَةً بحُسْنِ مآلها ومآبها
فلتفخرِ الدُّنيا بسائس مُلْكها منه ودارِسِ عِلْمها وكتابها
صوَّامِها قوَّامِها علاَّمِها عمّالها بذّالها وهّابِها[2]

وله فيه أيضاً من أخرى:

وسألْتُ من أيِّ المعادن ثَغْرُها فوَجَدْتُ من عبد الرحيم المَعْدِنا
أَبْصرتُ جَوْهَرَ ثَغْرِها وكلامَهُ فعلمتُ حقاً أَنَّ هذا من هُنَا
ذاك الكَلامُ من الكمال بمنزلٍ لا يُدْرِكُ السَّاعي إليه سوى العَنَا
يدنو من الأفهام إلاّ أنّه يلقاه أبعد ما يكون إذا دنا[3] ٢٤٤/٢

قلت: كان والده تولّى القضاء[4] بعسقلان، وأنفذ ولده الفاضل إلى مِصْر، فاتصل بكُتّاب الدَّولة المِصْرية أبي الفتح ابن قادوس وغيره، وفَتَحَ الله عليه في هذه الصِّناعة، ففاق فيها أهل عَصْره مضافاً إلى ما منحه الله تعالىٰ من علوِّ قدره[4].

وقد سبق من ترسُّلاته ما يشهد لعظيم أمره، وقرأتُ من نظمه:

---

(١) في الديوان: آثامها.

(٢) «الديوان» ٢/ ٢٤ ـ ٢٥.

(٣) «الديوان» ٢/ ٣٢٩.

(٤ ـ ٤) ما بينهما جاء في (ك) عقب الخبر الذي يرويه الشهرزوري عن الفاضل في أنه دعا على نفسه بالموت، وهو الآتي ص ٤٨٢، وانظر حاشيتنا رقم ٢ ص ٤٧٥ من هذا الجزء. وصدر الخبر في (ك): وكان أبوه من أهل بيسان، ثم تولى القضاء...

وسَيْفِ عتيقٍ للعَلاء فإن يُقَلْ رأيتُ أبا بكرٍ فَقُلْ وعتيقُ
فَزُرْ بابَه فهْو الطَّريق إلى النَّدىٰ وَدَعْ كلَّ بابٍ ما إليه طريقُ[١]

وله أيضاً:

سَبَقْتُمْ بإسْداءِ الجميلِ تكرُّماً وما مِثْلُكُمْ فيمن تحدَّث أو حكىٰ
وقد كان ظَنِّي أن أُسابقكم به ولكن بكتْ قَبْلي فهِيَّجَ إلى البكا[٢]

ودفن رحمه الله بمقبرته بالقرافة.

وقرأتُ[٣] في تاريخ أبي علي حسن بن محمد بن إسماعيل القليوبي الذي ذَيَّله على تاريخ أبي القاسم السِّمْناني[٤]، قال: حدَّثني الملك المحسن أحمد ابن السُّلْطان صلاح الدين أَنَّ يوم مات الفاضل اتفق دخول السلطان الملك العادل إلى مِصْر، وأخذها من ابن أخيه الأفضل، قال: دخل العادل من باب، وخرجنا نسرع بالجنازة من بابٍ آخر.

قال: وأكثر أهل مِصْر يذكرون أن كتبه التي جمعها مقدار مئة ألف مجلَّد، وكان يجمعها من سائر البلاد.

قال: وسمعتُ قاضي القضاة ضياء الدِّين القاسم بن يحيىٰ الشَّهْرُزوري ببغداد أيام ولايته يحدِّث أن القاضي الفاضل لما سمع

---

(١) انظر «ديوان الفاضل»: ١/ ٢٥٩.
(٢) انظر «ديوان الفاضل» ١/ ١٣٧.
(٣) من هنا يوصل ما انقطع في (ك)، انظر حاشيتنا رقم ٢ ص٤٧٥ من هذا الجزء. وفيها: قلت: وقرأت...
(٤) لم أهتد إلى ترجمة القليوبي، ولكن السمناني ـ وهو علي بن محمد ـ كان معاصراً لنظام الملك، وتاريخه «الاستظهار في التاريخ» نقل منه ابن العديم في «بغية الطلب»: ٥/ ٢٤٩٨.

أَنَّ العادل أخذ الديار المصرية دعا على نفسه بالموت خشية أن يستدعيه وزيره صفي الدين بن شكر[1] إليه، أو يجري في حَقِّه إهانة، وكان بينهما مقارصة، فأصبح ميتاً، وكانت له معاملة حسنة مع الله تعالىٰ، وصلاة بالليل كما ذكروا عنه ـ رحمه الله[2].

قلت: وأخبرني القاضي الشهيد ضياء الدين ابن أبي الحَجَّاج صاحب ديوان الجيش ـ رحمه الله ـ أنَّ القاضي الفاضل بعد صلاح الدين لم يخدم أحداً من أولاده، وكانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته إلى أن توفي.

قال: ولما قَدِمَ العادلُ مصر وملكها بات ليلة ثم أصبح فزار قبر الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ وجاء إلى قبر الفاضل فزاره. قال ابنُ أبي الحَجَّاج: وأنا حاضر ذلك.

ثمَّ دخلتْ سَنة سَبع وتسعين [وخمس مئة][3]

[قال العماد][4]: وفيها توفي الأمير عز الدين إبراهيم بن

---

(١) انظر حاشيتنا رقم ٥ ص ٤٥٧ من هذا الجزء.

(٢) في (ك) عقب هذا: قلت: ولأبي الحسن بن الذروي فيه من قصيدة تقدم بعضها:

لـك الله إمـا حـجـة أو وفـادة ... فمن مَشْهَدٍ يُرْضي الإله وموسمِ
تُرى تارة بين الصوارم والقنا ... وطوراً ترى بين الحطيم وزمزم
كأنك لم تخلق لغير عبادةٍ ... وإظهار فضل في الورى وتكرم
وكم لك يا عبد الرحيم مآثرٌ ... لها في سماء الفخر إشراق أنجم

وقد قالت الشعراء فيه فأكثروا، ودفن ـ رحمه الله ـ بمقبرته بالقرافة.

قلت: هذه الأبيات سلفت ص ٤٨ من الجزء الثالث من هذا الكتاب.

(٣) ما بين حاصرتين زيادة من عندنا للإيضاح.

(٤) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل: ٢/ ٢٤٤.

شمس الدين محمد بن المقدَّم في حِصْن أفامية*.

وفيها أو في سنة ستٍّ قبلها[1] توفي السلطان خوارَزْم شاه بن تكش بن أيل أرسلان بن أتسز بن محمد، وهو الذي زالت دولة السَّلْجقية بملكه، واجتمع له مع خوارزم خراسان والعراق، ولما مات قام ولدُه علاء الدين محمد مقامه.

قال: وفيها كتب السُّلْطان العادل للأمير فخر الدين أياز سركس بأعمال تِبْنين* وهُونين وبانياس* والحولة، وما يجري معها، وكانت مع الأمير حسام الدين بشارة، فحاصره وأنجده الملك المعظَّم عيسى ابن السلطان من دمشق، فسلَّم البلاد وخرج.

قال: وفيها توفي الأمير بهاء الدين قَرَاقُوش[2]، وهو من القُدَماء الكرماء، وشيوخ الدَّوْلة الكبراء، أمير الأسدية ومقدَّمُها، وكريمها ومُكْرمها، ولم أرَ غيره خَصِيّاً لم تقاومه الفحول، ولم تؤثِّر في محالِّ مَأْثُراته المُحُول[3]، وله في الغَزَوات والفتوحات مواقف معروفة، ومقامات موصوفة، وهو الذي احتاط على القَصْر حين استتبَّت على متوليه أسبابُ النَّصر، وذلك قبل موتِ العاضد بمدَّة.

ولما خُطِبَ لبني العَبَّاس بالدِّيار المِصرية تَسَلَّم القصر بما فيه، واستظهر على أقارب العاضد وبنيه، وتولىٰ عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهرة، وأتىٰ فيها بالعجائب الظَّاهرة.

---

(١) ترجم له أبو شامة في «المذيل على الروضتين» في وفيات سنة (٥٩٦ هـ).
(٢) ذكره أبو شامة في «المذيل» في وفيات سنة (٥٩٧ هـ).
(٣) المحول جمع، مفردها محل: وهو انقطاع المطر في حينه واحتباسه. «معجم متن اللغة» ٥/ ٥٤.

وكان معاذ الالتجاء، وملاذ الارتجاء، غير أنَّه نُسِبَ إلى اللَّجاج لشدَّة ثباته وفَرْط جموده، ولا يكاد يُعْجَم لصلابة عوده، ولما توفي تسلَّم السلطان داره بما حوته من الذخائر، وصارت إقطاعاته للملك الكامل.

قال: وفيها نُقِلَ إلى السلطان عن غلام الأمير أيبك الفطيس أَنَّ جماعةً قد عزموا على الفَتْك بالسلطان حال ركوبه، وأسند أصل ذلك إلى الملكين المعز إسحاق والمُؤَيَّد مسعود ولدَيْ صلاح الدين ـ رحمه الله ـ فأحضر الغلام وعَصَره، فمات ولم يقرَّ، واعتقل المعز والمؤيد، ونزع من اتهمه في ذلك من الأمراء الصَّلاحية، وتكلم النَّاس بأحاديثَ في هذه القضية.

قال: وفي هذه السنة اشتدَّ الغلاء، وامتدَّ البلاء، وتحقَّقت المجاعة، وتفرقت الجماعة، وهلك القوي، فكيف الضَّعيف؟ ونُهِكَ السمين، فكيف العجيف؟ وخرج النَّاس حَذَرَ الموت من الدِّيار، وتفرَّق فَرَقٌ بمصر في الأمصار، ورأيتُ الأرامل على تلك الرِّمال، والجمال باركة تحت الأحمال، ومراكب الفرنج على ساحل البحر على اللَّقم[1]، تَسْتَرِقُّ الجياع باللُّقم، فَقَلَّ مَنْ إلى الشَّام خَلَص، إلا بعد أَنْ قَلَّ عددُ أهله ونقص.

قلت: ثم زالت تلك الشِّدَّة بعد مدَّة.

وتوفي العماد الكاتبُ ـ رحمه الله ـ مصنِّف هذه الكتب «الفتح» و «البرق»، وهذه الرَّسائل الثلاث «العُتْبىٰ» و «النِّحلة» ٢٤٥/٢

---

(١) اللقم: وسط الطريق. «اللسان» (لقم).

و «الخَطْفة» بدمشق في أول شهر رمضان من هذه السنة، وهي سنةُ سبعٍ وتسعين وخمس مئة، [ودفن بمقابر الصُّوفية بالشَّرف القبلي*][1].

وفي هذه السنة توفي الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجَوْزي الواعظ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وغيره.

وتوفي الملك الأفضل بسُمَيْساط في سنة اثنتين وعشرين وستِّ مئة، وحمل إلى حلب فدفن بها.

وتوفي الملك الظاهر بحلب في سنة ثلاث عشرة وست مئة.

وفيها توفي بدمشق الشيخ تاج الدين أبو اليُمْن زيد بن الحسن الكندي وغيره، [ودفن بالجبل][1].

وتوفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب بدمشق في سنة خمس عشرة وست مئة.

وابنه الملك المعَظَّم في أواخر سنة أربع وعشرين وست مئة.

وابناه[2] الأشرف والكامل في سنة خمس وثلاثين وست مئة رحمهم الله تعالىٰ، ووفق من بقي من أهل بيتهم، وأصلح ذات بينهم، آمين[3].

---

(١) ما بين حاصرتين من طبعة وادي النيل ٢/ ٢٤٥.

(٢) في طبعة وادي النيل ٢/ ٢٤٥ وأخواه.

(٣) في هامش (ك): بلغت المقابلة بأصل المصنف بخطه إلى آخره، والحمد لله رب العالمين.

آخـر الـكتـاب والـحمـد لله الـمـلـك الـوهّـاب.

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي،

وعلى آله وأصحابه خيرِ آلٍ وأصحاب.

وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم

الحساب. وحسبنا الله ونعم الوكيل،

ولا حول ولا قوة إلا بالله

العلي العظيم[1].

---

(١) وقد كان الفراغ من تحقيقه في ضحوة يوم الأحد الثاني عشر من جمادىٰ الآخرة من عام ألف وأربع مئة وست عشرة من هجرة المصطفى ﷺ الموافق للخامس من شهر تشرين الثاني من عام ألف وتسع مئة وخمس وتسعين للميلاد، والحمد لله على فضله وتوفيقه.

المحتوى

- حوادث سنة أربع وثمانين وخمس مئة ٥
حصار صلاح الدين كوكب، وتوكيل قايماز النجمي بها ٥
توكيل طغرل الجاندار بحصار صفد ٥
مسير سعد الدين كمشبه إلى الكرك والشوبك ٥
استقبال صلاح الدين رسل ملوك المشرق ٥
وصول القاضي ابن شداد إلى خدمة صلاح الدين ٧
عودة صلاح الدين إلى دمشق بعد غيبة ستة عشر شهراً عنها ٨
إغارة الفرنج على جبيل وخروج صلاح الدين إليها ٨
نزول صلاح الدين على حصن الأكراد ٨
تولية بهاء الدين قراقوش عمارة عكا ١٠
ولاية بدر الدين مودود المعروف بالشحنة ديوان دمشق ١١
عمارة الصفي بن القابض داراً للسلطان في قلعة دمشق، ومبالغته في تحسينها وانزعاج السلطان من ذلك ١١
فصل/ في دخول السلطان الساحل وفتح ما يسره الله من بلاده ١٣
اجتماع صلاح الدين وعماد الدين صاحب سنجار في قَدَس للغزاة ١٣
اجتماع العساكر الإسلامية في قَدَس وإغارة صلاح الدين على نواحي حصن الأكراد وغيره ١٤
فصل/ في فتح انطرطوس ١٥
فصل/ في فتح جبلة وغيرها ١٧
تسلُّم صلاح الدين حصن بكسرائيل ٢٠
ولاية سابق الدين عثمان جبلة ٢٠
فصل/ في فتح اللاذقية ٢٠
ولاية سنقر الخلاطي اللاذقية ٢٢
فصل/ في فتح صهيون وغيرها ٢٥
ولاية الأمير ناصر الدين منكورس بن خمارتكين حصن صهيون ٢٨

فصل/ في فتح بكاس والشغر وسرمانية ٢٩
ولاية غرس الدين قليج بكاس والشغر ٣١
فصل/ في فتح حصن بُرْزَيَه ٣٢
ولاية الأمير عز الدين إبراهيم ابن المقدم حصن برزيه ٣٤
فصل/ في فتح حصن دربساك ٣٨
ولاية علم الدين سليمان بن جندر حصن دربساك ٣٨
فصل/ في فتح بغراس ٤٠
ولاية علم الدين سليمان بن جندر حصن بغراس ٤٢
فصل/ في عقد الهدنة مع صاحب أنطاكية لمدة ثمانية أشهر وعودة السلطان إلى دمشق ٤٣
فصل/ في فتح الكرك وحصونه ٤٦
فصل/ في فتح صفد ٤٨
ولاية شجاع الدين طغرل الجاندار قلعة صفد ٥١
فصل/ في فتح حصن كوكب ٥٢
ولاية قايماز النجمي حصن كوكب ٥٣
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٥٨
مسير الملك العادل والقاضي الفاضل إلى مصر ٥٨
ولاية العادل الكرك ٥٩
عودة العماد الكاتب إلى دمشق لمرض ألمَّ به ٥٩
وفاة الأمير الشاعر أسامة ابن منقذ ٥٩
وفاة الحافظ أبي بكر محمد بن موسى الحازمي ٦٠
خروج اثني عشر رجلاً في مصر يدعون بشعار الفاطميين واعتقالهم ٦٠
ـ حوادث سنة خمس وثمانين وخمس مئة ٦٣
السلطان يقيم في عكا لإحكام أمرها ثم يعود إلى دمشق ٦٣
ولاية فارس الدين كشتغدي شهرزور ٦٤
تجديد ولاية مودود لديوان دمشق ٦٤
رحيل السلطان إلى طبرية وعوده إلى دمشق ٦٤
وصول رسول من دار الخلافة يأمر بالخطبة لولي العهد الإمام الناصر ... ٦٤
فصل/ في فتح شقيف أرنون ٦٦
فصل/ في مدة مقام السلطان على مرج عيون لمحاصرة شقيف أرنون .. ٧٠

إطلاق سراح ملك بيت المقدس وذهابه إلى صور واتفاقه مع المركيس
على محاربة المسلمين ٧١
قتال الفرنج مع اليزك في الأرض الفاصلة بين صور وصيدا ٧١
قتال الرجالة من المسلمين مع الفرنج ٧٢
قتال الفرنج في تبنين ٧٣
فصل/ في نزول الفرنج على عكا ٧٧
وفاة الأمير حسام الدين سنقر الخلاطي ٧٩
وفاة الأمير حسام الدين طمان صاحب الرقة ٨٢
فصل/ في المصاف الأعظم على عكا وهي الوقعة الكبرى ٨٦
استشهاد ظهير الدين أخي الفقيه عيسى الهكاري ٩٠
استشهاد الشاعر الفقيه أبي علي الحسين بن عبد الله بن رواحة ٩٧
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة بمرج عكا وغيره ١٠١
استيلاء المسلمين على مركب للفرنج ١٠١
فصل/ قدوم الملك العادل إلى صلاح الدين ومجيء الأسطول المصري
بقيادة حسام الدين لؤلؤ ١٠٣
نقل جماعة من الأمراء بأجنادهم وعُدَدهم إلى داخل عكا ١٠٣
إرسال صاحب الموصل السلاح إلى صلاح الدين ١٠٤
كتاب إلى الخليفة يصف له أمداد الفرنج التي لا تنقطع إلى عكا ١٠٤
وصول نساء إفرنجيات للترفيه عن الفرنجة ١٠٥
وصول امرأة كبيرة القدر من الفرنج، ونبذة من نساء الفرنج وقتالهن ١٠٦
بعث صلاح الدين الرسل إلى الأقطار والأمصار للاستنفار والاستنصار .. ١٠٧
وفاة الأمير عز الدين موسك الهذباني ابن خال السلطان ١٠٨
وفاة القاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون . ١٠٨
وفاة الأمير الفقيه عيسى الهكاري ١٠٩
ولاية مجاهد الدين أياز شهرزور ١١٠
ولاية جمال الدين بن المحسن نقابة الأشراف بدمشق ١١٠
ولادة ناصر الدين محمد بن الملك العزيز بن صلاح الدين ١١٠
فصل/ في ورود خبر خروج ملك الألمان ١١١
ـ حوادث سنة ست وثمانين وخمس مئة ١١٦
وقعة الرمل مع الفرنج ١١٧

استغلال المسلمين هيجان البحر لتقوية عكا بالغلات ١١٨
إحكام الفرنج حصار عكا واتخاذ المسلمين الحمام والعُوّام للاتصال بها . ١١٨
فصل/ في قدوم الملوك وحريق الأبراج ١١٩
مجيء القوات الإسلامية إلى عكا ١١٩
وصول رسول الخليفة ومعه مساعدة هزيلة إلى صلاح الدين وقبوله لها على مضض ١٢٠
تضييق الفرنج الخناق على عكا ١٢١
إحراق شاب دمشقي الأبراج الثلاثة الضخمة التي صنعها الفرنج لمهاجمة أسوار عكا ١٢٢
وصول الأسطول الإسلامي إلى عكا، ودخوله إليها، ونشوب معركة في البر انتصر بها المسلمون ١٢٧
فصل/ فيما كان من أمر ملك الألمان ١٢٩
هلاك ملك الألمان وقيام ابنه مقامه ١٣٠
كتاب كاغيكوس مقدم الأرمن إلى صلاح الدين في شأن ملك الألمان .. ١٣٠
جمع صلاح الدين أمراء دولته لمشاورتهم فيما يصنع في أمر ملك الألمان ١٣٨
فصل/ في الوقعة العادلية على عكا ١٤٢
هجوم جند عكا على الفرنج وعودتهم منصورين ١٤٥
تواصل الأمداد للفرنج من البحر ١٤٨
وصول الكندهري وتفريقه الأموال واستخدامه الرجال ١٤٨
كتاب من امبراطور بيزنطة يعتذر به للسلطان عن عبور ملك الألمان ١٤٩
إقامة الصلاة والخطبة في جامع القسطنطينية ١٥٠
إرسال المركيس صورة القدس مع كنيسة القيامة إلى الغرب لعرضها في الأسواق والمجامع ١٥١
فصل/ في إدخال البطس إلى عكا ١٥٣
كتاب إلى بغداد يصف حال الفرنج المحاصرين لعكا ١٥٧
مضايقة الفرنج لعكا وضربها بالمنجنيقات ١٥٩
قصة عيسى العوام الذي كان ينقل الكتب والنفقات إلى عكا وغرقه ١٦٠
فصل/ في إحراق ما حوصر به برج الذبان وتحريق الكبش ١٦١
هجوم الفرنج على عكا وتصدي أهل البلد لهم ودحرهم ١٦٤
فصل/ في حوادث أخر متفرقة في هذه السنة ١٦٦

إغارة صاحب أنطاكية على أعمال حلب ١٦٦
استيلاء المسلمين على بطستين للفرنج ١٦٧
رحيل السلطان إلى شفرعم ١٦٧
وفاة زين الدين صاحب إربل وولاية أخيه مظفر الدين ١٦٨
ولاية تقي الدين عمر بلاد ما وراء الفرات إضافة إلى ميافارقين ١٧٠
ضجر العسكر الشرقي من الإقامة في الشتاء على حصار عكا ١٧١
انفصال سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر عن عسكر السلطان دون استئذانه ١٧١
إذن السلطان لعلاء الدين ابن صاحب الموصل بالرجوع إلى بلاده ١٧٣
كتب القاضي الفاضل إلى السلطان مواسياً ومشيراً ١٧٣
فصل/ إرسال صلاح الدين رسالة إلى ملك المغرب يعقوب بن يوسف يستنجد به على الفرنج ١٩٠
فصل/ في نسخة الكتاب إلى ملك المغرب والهدية ١٩٦
فصل/ في عدم استجابة ملك المغرب إلى ما التمس منه من النجدة وسبب ذلك ٢٠٥
فصل/ في كتب أخر من القاضي الفاضل إلى السلطان في شرح بعض ما تقدم ٢١٢
فصل/ في ذكر خروج الفرنج على عزم اللقاء، ووصولهم إلى رأس الماء ٢٢٤
فصل/ في وقعة الكمين وغيرها، ودخول البدل إلى عكا ٢٣٠
دخول الشتاء وعودة العساكر الإسلامية إلى بلادها ٢٣١
إخراج عسكر عكا، وإدخال البدل عنهم إليها ٢٣١
غرق البطس الإسلامية التي كانت تحمل الميرة إلى عكا ٢٣٣
فصل/ في باقي حوادث هذه السنة ٢٣٥
وقوع قطعة من سور عكا ٢٣٥
هلاك ابن ملك الألمان وتفشي الموت في صفوف الفرنج ٢٣٥
استئمان جماعة من الفرنج وإسلام بعضهم ٢٣٦
معركة بحرية، واستشهاد الأمير جمال الدين محمد بن أركز ٢٣٧
مقتل القاضي المرتضى بن قريش الكاتب في خيمته ٢٣٧
ورود كتاب من سيف الإسلام أخي السلطان يذكر فيه استيلاءه على صنعاء ٢٣٧
قدوم القاضي الفاضل من مصر إلى معسكر السلطان في عكا ٢٣٨

وفاة قاضي القضاة في الموصل محيي الدين بن كمال الدين الشهرزوري ٢٣٨
ـ حوادث سنة سبع وثمانين وخمس مئة ٢٤٠
رحيل تقي الدين عمر إلى شرقي الفرات لتسلُّم البلاد التي أضيفت إليه . ٢٤٠
إغارة المجاهد أسد الدين شيركوه على جشار للفرنج ٢٤١
تكسر مركب للفرنج على الزيب ٢٤١
هجوم عسكر عكا على الفرنج ٢٤١
قدوم أسرى أخذوا من بيروت إلى معسكر السلطان ٢٤٢
قدوم العساكر الإسلامية إلى معسكر السلطان ٢٤٢
وصول ملك فرنسا فيليب إلى معسكر الفرنج ٢٤٢
نزول مستأمنين من الفرنج على قبرس، وأخذهم رجالاً ونساءً أسرى
وسيرهم إلى اللاذقية ٢٤٣
وصول ملك الانكلتير ريتشارد إلى قبرس، وأخذها عنوة من صاحبها ... ٢٤٤
استيلاء عز الدين سامة والي بيروت على خمسة من سفن ملك الانكلتير ٢٤٤
قصة الرضيع الذي أخذ من معسكر الفرنج وإعادته إلى أمه ٢٤٥
فصل/ في مضايقة العدو لعكا واستيلائهم عليها ٢٤٦
وصول ملك الانكلتير من قبرس إلى عكا ٢٤٦
استيلاء الفرنج على بطسة إسلامية وإغراقها ٢٤٨
صنع الفرنج دبابة عظيمة وإحراق عسكر عكا لها ٢٤٩
صنع الفرنج تلاً من التراب وتقدمهم به صوب عكا ٢٥١
كتاب من السلطان إلى الخليفة يخبره بحال عكا وحصارها ٢٥١
وصول عسكر سنجار وابن صاحب الموصل وجماعة من أمراء مصر إلى
معسكر السلطان ٢٥٢
تخلف عسكر ديار بكر عن المجيء إلى معسكر السلطان خوفاً من
تقي الدين عمر ٢٥٣
مرض ملك الإنكلتير ٢٥٣
دخول المسلمين إلى خيام الفرنج وأسرهم لرجالهم ٢٥٣
رسائل الفرنج إلى السلطان بطلب الاجتماع به لإضاعة الوقت ٢٥٤
هجوم السلطان على معسكر الفرنج ٢٥٤
ضعف حال أهل عكا، وإخبارهم السلطان أنهم سيطلبون الأمان من
الفرنج ويسلمون البلد ٢٥٥

تمكن الإفرنج من الوصول إلى خنادق عكا، ونقبهم سورها ٢٥٦
خروج سيف الدين المشطوب من عكا إلى ملك الإفرنسيس لطلب الأمان منه ٢٥٦
هروب جماعة من عسكر عكا ٢٥٧
كتاب من السلطان إلى مظفر الدين صاحب إربل يخبره فيه بما جرى في عكا ٢٥٧
وصول رسل الفرنج إلى طلب الصلح ٢٥٨
هجوم العسكر الإسلامي على معسكر الفرنج ٢٥٩
طلب السلطان من أهل عكا أن يخرجوا منها سراً واطلاع الفرنج على ذلك ٢٥٩
قدوم رسل الفرنج وبذل السلطان لهم عكا دون أهلها ورفضهم ذلك ... ٢٦٠
اشتراط الفرنج إعادة جميع البلاد التي فتحها صلاح الدين وإطلاق جميع أسراهم ٢٦٠
مبايعة أهل عكا بعضهم على الموت ٢٦١
وصول صاحب شيزر وبدر الدين دلدرم مع تركمان كثير إلى معسكر السلطان ٢٦١
إبرام أهل عكا الصلح مع الفرنج وانزعاج السلطان من ذلك ودخول الفرنج إليها ٢٦٢
كتاب القاضي الفاضل إلى ابن منقذ بالمغرب يخبره بما وقع في عكا ويستحثه على طلب النجدة ٢٦٥
تردد رسل الفرنج إلى السلطان لتقرير قاعدة الأمان ٢٦٧
نقض الفرنج لما اتفق عليه من إطلاق أهل عكا ٢٦٨
قتل الفرنج أسارى المسلمين قرب عكا ٢٦٨
فصل/ فيما جرى بعد انفصال أمر عكا ٢٧٠
رحيل الفرنج صوب عسقلان ٢٧٠
وداع القاضي الفاضل السلطان ومسيره إلى دمشق ٢٧١
مقتل أياز الطويل وهو من فرسان المسلمين وشجعانهم ٢٧٣
اجتماع ملك الإنكلتير مع العادل أخي صلاح الدين من أجل الصلح ... ٢٧٤
وقعة أرسوف بين الفرنج والمسلمين ومسير الفرنج نحو يافا ٢٧٥
إشارة الأمراء على صلاح الدين بإخراب عسقلان ٢٧٨

شروع المسلمين بإخراب عسقلان ٢٧٩
فصل/ فيما جرى بعد خراب عسقلان ٢٨١
مفارقة السلطان عسقلان ونزوله على الرملة وتخريب حصنها ومجيئه إلى القدس ثم عودته إلى مخيمه ٢٨١
وصول صاحب ملطية إلى صلاح الدين مستصرخاً به على أبيه وإخوته وتزوجه بابنة العادل ٢٨١
خروج كمين على ملك الإنكلتير ٢٨٢
رحيل السلطان إلى النطرون ٢٨٣
عرض ملك الإنكلتير أن يتزوج العادل أخته ٢٨٣
وصول رسول من مركيس صور في معنى الصلح ٢٨٤
موت ملك فرنسا في أنطاكية ٢٨٤
مقتل قزل بن الدكز صاحب ديار العجم ٢٨٤
كتاب من بغداد ينكر فيه على السلطان قصد تقي الدين خلاط ٢٨٤
رسالة من ملك الإفرنج إلى صلاح الدين يدعوه إلى الصلح على شروطه ورفض صلاح الدين ذلك ٢٨٦
هروب شيركوه بن باخل الكردي من عكا وكان أسيراً بها ٢٨٧
مسير السلطان من النطرون إلى الرملة ووقوع قتال مع الفرنج ٢٨٧
استيلاء الأسطول المصري على مراكب للفرنج ٢٨٧
اجتماع العادل وملك الإنكلتير، وطلبه من العادل الاجتماع بالسلطان ورفض السلطان لذلك ٢٨٨
رحيل الفرنج إلى الرملة مظهرين قصد القدس، ودخول السلطان إلى القدس ٢٨٨
تحول الفرنج إلى النطرون ووصول عسكر مصر ٢٨٨
عودة الفرنج إلى الرملة ٢٨٩
شروع السلطان في تحصين بيت المقدس ٢٨٩
فصل/ في بقايا حوادث هذه السنة ٢٩٠
ولاية محيي الدين بن الزكي قضاء دمشق ٢٩٠
وفاة تقي الدين عمر ابن أخي السلطان ٢٩٠
وفاة حسام الدين ابن لاجين ابن أخت السلطان ٢٩١
وفاة الأمير علم الدين سليمان بن جندر ٢٩٢

وفاة الصفي بن القابض نائب السلطان بدمشق ٢٩٢
وفاة جمال الدين إسماعيل بن محمد بن عبد كويه نائب العماد الكاتب
في ديوان الإنشاء ٢٩٢
وفاة الحكيم الموفق أسعد بن المطران ٢٩٣
وفاة الشيخ الفقيه نجم الدين الخبوشاني ٢٩٣
وفاة الوجيه ابن النفيس مستوفي ديوان دمشق ٢٩٤
وفاة القاضي أمين الدين أبي القاسم بحماة ٢٩٤
نقل تربة القاضي محيي الدين أبي حامد محمد بن القاضي كمال الدين
الشهرزوري من الموصل إلى المدينة المنورة ٢٩٤
أخذ أمير مكة داود بن عيسى ما في الكعبة من الأموال وعزله وتولية أخيه
مكثر بن عيسى مكانه ٢٩٥
محاصرة عز الدين صاحب الموصل جزيرة ابن عمر لسوء سيرة حاكمها . ٢٩٦
شروع السلطان في إنشاء سور جديد للقدس ٢٩٦
رحيل الفرنج نحو عسقلان لإعادة إعمارها بعد أن خربها المسلمون ٢٩٧
إغارة عز الدين جرديك على الفرنج في يبنى وعسقلان ٢٩٨
إغارة فارس الدين ميمون القصري على قافلة للفرنج عند يبنى وأخذها .. ٢٩٨
وصول سيف الدين المشطوب إلى السلطان وقد خلص من الأسر ٢٩٨
مقتل المركيس بصور، وجلوس الكندهري مكانه ٢٩٨
استيلاء الفرنج على قلعة الداروم وتخريبها ٣٠٠
إغارة المسلمين على الفرنج في غير ما مكان ٣٠٠
وصول الفرنج إلى قلونية قرب القدس ورجوعهم عنها ناكصين ٣٠٠
رحيل الفرنج نحو العسكر المصري وكبسهم له ٣٠١
تملك الأفضل بلاد ما وراء الفرات ومسيره نحوها ٣٠٢
رحيل ناصر الدين بن تقي الدين إلى العادل لإصلاح حاله مع السلطان . ٣٠٢
رجوع الأفضل إلى الشام وتولية العادل مكانه ٣٠٢
فصل/ في عزم الفرنج على قصد القدس وسببه ٣٠٤
هجوم ملك الإنكلتير على عسكر مصر القادم إلى الشام ٣٠٤
استعداد صلاح الدين لصد هجوم الفرنج على القدس ٣٠٥
اختلاف الفرنج فيما بينهم حول قصد القدس أو الرجوع إلى بلادهم ... ٣١٠
رحيل الفرنج نحو الرملة ٣١١

فصل/ في تردد رسل الإنكلتير في معنى الصلح وما جرى في أثناء ذلك إلى أن تمّ ٣١١
رحيل الفرنج نحو بيروت ٣١٥
استيلاء السلطان على يافا دون قلعتها وإخرابها ٣١٥
مسير السلطان نحو الرملة ٣٢١
رحيل الفرنج نحو يافا، ومنازلة السلطان لهم ٣٢٢
رحيل السلطان إلى القدس ثم عودته إلى النطرون ومجيء العساكر الإسلامية إليه ٣٢٣
مرض ملك الإنكلتير، ورحيل الإفرنسيسية إلى بلادهم ٣٢٤
مسير السلطان إلى جهة الرملة ٣٢٤
عقد الهدنة بين السلطان والفرنجة لمدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر ٣٢٥
فصل/ فيما جرى بعد الهدنة ٣٢٩
عزم السلطان على الحج، وإرسال عسكر لتخريب سور عسقلان ٣٢٩
وصول خلق عظيم من الفرنج إلى القدس للزيارة ٣٣٠
رحيل ملك الإنكلتير من يافا إلى عكا ٣٣١
إذن السلطان للعساكر الإسلامية في العودة إلى بلادها ٣٣١
رحيل السلطان إلى القدس ٣٣١
ولاية عز الدين جرديك القدس وأعمالها ٣٣٢
ولاية علم الدين قيصر الخليل وغزة والداروم وعسقلان ٣٣٢
إشارة القاضي الفاضل على السلطان بإبطال عزمه على الحج ٣٣٣
نبذة عن بيت المقدس بعد صلاح الدين ٣٣٤
فصل/ في مسير السلطان من القدس إلى دمشق ٣٣٨
ولاية القاضي بهاء الدين بن شداد قضاء القدس والنظر في وقوفه ٣٣٨
خلاص بهاء الدين قراقوش من الأسر ٣٤٠
وصول السلطان إلى دمشق بعد غيبة عنها دامت أربع سنوات ٣٤٢
عمل الأفضل دعوة لأخيه الظاهر وقد حضرها السلطان ٣٤٥
فصل/ في ذكر أمور جرت في هذه السنة من وفيات وغيرها ٣٤٧
وفاة القاضي شمس الدين محمد بن محمد بن موسى المعروف بابن الفراش ٣٤٧
وفاة الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب .. ٣٤٨

وفاة عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ٣٤٩
القبض في بغداد على أمير الحاج العراقي طاشتكين ٣٥٤
وفاة الشاعر أبي المرهف نصر بن منصور النميري ٣٥٥
ـ حوادث سنة تسع وثمانين وخمس مئة ٣٥٦
خروج السلطان للصيد في شرقي دمشق ٣٥٧
عودة الحاج الشامي وخروج السلطان لتلقيه ٣٥٧
فصل/ في مرض السلطان ووفاته ٣٥٩
فصل/ في تركة السلطان ووصف أخلاقه رحمه الله ٣٧٥
فصل/ في انقسام ممالكه بين أولاده وإخوته، وبعض ما جرى بعد وفاته ٤٠٥
ولاية الأفضل دمشق، وإرساله رسالة إلى الخليفة في ذلك ٤٠٦
ولاية الملك العزيز عثمان مصر وجميع أعمالها ٤٠٩
ولاية الملك الظاهر غازي حلب وأعمالها ٤١٠
قدوم الملك العادل من الكرك بعد وفاة السلطان بأيام، وخروجه إلى بلاده بالجزيرة ٤١١
مقتل سيف الدين بكتمر صاحب خلاط ٤١٢
خروج المواصلة ومن وافقهم من ولاة الجزيرة على الملك العادل ٤١٢
فصل/ في وفاة صاحب الموصل، وتتمة أخبار هذه الفتنة ببلاد الشرق .. ٤١٤
ولاية نور الدين أرسلان شاه الموصل بعد وفاة أبيه ٤١٤
تسلط الوزير الجزري على الأفضل واختلال أمره ٤١٩
مسير الفاضل إلى مصر ٤٢٠
وقوع النفرة بين الملك الأفضل والملك العزيز ٤٢٠
نفور الأمراء الناصرية من الأفضل وذهابهم إلى العزيز بمصر ٤٢٠
تسلم الفرنج ثغر جبيل، وضعف الأفضل في استخلاصه منهم ٤٢١
قدوم العزيز إلى دمشق وحصارها ٤٢١
قدوم العادل نجدة للأفضل، واجتماعه مع العزيز، ورفعه الحصار عن دمشق ٤٢٢
إبرام الصلح بين العزيز والأفضل، وزواج العزيز من ابنة عمه العادل ... ٤٢٢
عودة الأفضل إلى حاله الأولى من الإساءة إلى كبار الأمراء ٤٢٣
عزم العزيز على قصد دمشق لحصارها، ورحيل الأفضل إلى عمه العادل ـ وكان بصفين ـ يطلب نجدته ٤٢٤

قدوم العزيز لحصار دمشق وتخييمه بالفوار ٤٢٥
إيقاع العادل بين العزيز وأمرائه الأسدية ٤٢٦
انصراف الأسدية عن العزيز ورجوعه إلى مصر ٤٢٦
تحالف العادل والأفضل على انتزاع مصر من العزيز ٤٢٦
لحاق الأفضل والعادل بالعزيز إلى مصر ونزولهما على بلبيس ٤٢٧
ندم الأسدية على تحالفهم مع العادل والأفضل، وإرسال العادل إلى القاضي الفاضل لاستشارته ٤٢٧
سعي الفاضل في الصلح بين العزيز والعادل وإقامة العادل في مصر ٤٢٧
رجوع الأفضل إلى دمشق ٤٢٧
تسلط الجزري وزير الأفضل على الناس وضيق العادل منه ٤٢٨
عزم العادل على تملك دمشق وإزالة يد الوزير الجزري عنها ٤٢٨
مسير العادل والعزيز إلى دمشق لحصارها ٤٢٩
استعداد الأفضل للحصار ٤٢٩
حصار العادل والعزيز دمشق وتملكها ٤٣٠
خروج الأفضل لتلقي أخيه العزيز ٤٣٠
هروب الوزير الجزري من دمشق ٤٣٠
خروج الأفضل من القلعة ٤٣٠
خروج الظافر إلى أخيه الظاهر، وخروج الأفضل إلى قلعة صرخد ٤٣١
دخول العزيز إلى قلعة دمشق وجلوسه في دار العدل ٤٣١
عودة العزيز إلى مصر، وتولي العادل دمشق ٤٣٢
كتاب القاضي الفاضل إلى القاضي محيي الدين ابن الزكي بما ثار من عواصف وبروق في مصر ٤٣٤
وفاة صاحب اليمن سيف الإسلام طغتكين أخي صلاح الدين، وتولي ابنه شمس الملوك إسماعيل ٤٣٩
انقضاء مدة الهدنة مع الفرنج ٤٤٠
خروج الفرنج ولقاء العادل لهم برأس العين وكسرهم، وفتح العادل يافا عنوة ٤٤٠
استيلاء الفرنج على بيروت ٤٤٠
- حوادث سنة أربع وتسعين وخمس مئة
نزول الفرنج على تبنين ورجوعهم عنها ٤٤١

عقد الهدنة مع الفرنج ٤٤١
ولاية المعظم عيسى بن العادل لدمشق ٤٤٢
وفاة الأمير عز الدين جرديك النوري ٤٤٢
استيلاء العادل على قلعة ماردين ٤٤٣
ـ حوادث سنة خمس وتسعين وخمس مئة ....
نيابة الملك الكامل في ديار بكر عن أبيه العادل ٤٤٣
وفاة الملك العزيز بن صلاح الدين ٤٤٣
تولية الملك المنصور ابن الملك العزيز مصر ٤٤٦
الاتفاق بين الأمراء على استقدام الأفضل لتملك مصر لصغر سن الملك المنصور ٤٤٦
خروج الأفضل من صرخد إلى مصر ودخولها ٤٤٦
خروج الأفضل من دمشق لاستعادتها من عمه العادل ٤٤٨
إسراع العادل ـ وكان في ماردين ـ إلى دمشق للدفاع عنها ٤٤٨
محاصرة الأفضل لدمشق ٤٤٨
ـ حوادث سنة ست وتسعين وخمس مئة ....
مسير الكامل إلى أبيه العادل نجدة له ٤٥٣
رحيل الأفضل عن دمشق نحو مصر ٤٥٣
لحاق العادل الملك الأفضل إلى مصر ٤٥٤
دخول العادل القاهرة وتولية الأفضل ميافارقين وأعمالها عوضاً عنها ٤٥٦
نيابة الكامل مصر عن أبيه العادل ٤٥٨
وصول الكامل ابن العادل إلى مصر وبصحبته العماد الكاتب ٤٥٩
زواج الكامل من ابنة عمه صلاح الدين ٤٦٠
عزل العادل الملك المنصور بن العزيز عن مصر ٤٦٠
قدوم فلك الدين أخي العادل لأمه إلى مصر ٤٦٢
خروج الحاج الشامي والمصري إلى الحج ٤٦٢
تخلف نهر النيل عن زيارته المعتادة واشتداد المحل والغلاء بمصر ٤٦٣
تولية ضياء الدين الشهرزوري قضاء القضاة في بغداد سنة (٥٩٥ هـ) ٤٦٣
وفاة الأمير صارم الدين قايماز النجمي ٤٦٤
وفاة الحاجب حسام الدين لؤلؤ ٤٦٦
وفاة الفقيه الشافعي محمد بن محمود الطوسي ٤٦٧

وفاة الفقيه الحنفي بدر الدين عسكر المعروف بابن العقادة ٤٦٩
وفاة الفقيه الشافعي ظهير الدين عبد السلام بن محمود الفارسي ٤٦٩
وفاة الفقيه الشافعي محيي الدين بن محمد بن يحيى النيسابوري ٤٧٠
وفاة الأمير قطب الدين سكمان بن نور الدين بن قرا أرسلان ٤٧٠
وفاة الشاعر الهمام العبدي ٤٧٠
وفاة الأثير محمد بن محمد بن محمد بن بنان الأنباري ٤٧١
فصل/ في وفاة القاضي الفاضل ٤٧٢
ـ حوادث سنة سبع وتسعين وخمس مئة ....
وفاة الأمير عز الدين إبراهيم ابن المقدم ٤٨٤
وفاة السلطان خوارزم شاه بن تكش ٤٨٤
ولاية فخر الدين أياز سركس أعمال تبنين وهونين وبانياس والحولة ٤٨٤
وفاة الأمير بهاء الدين قراقوش ٤٨٤
اشتداد الغلاء وحدوث المجاعة في مصر ٤٨٥
وفاة العماد الكاتب ٤٨٥
وفاة الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي ٤٨٦
وفاة الملك الأفضل ٤٨٦
وفاة الملك الظاهر بحلب ٤٨٦
وفاة الشيخ تاج الدين الكندي ٤٨٦
وفاة الملك العادل ٤٨٦
وفاة الملك المعظم ٤٨٦
وفاة الأشرف والكامل ابني العادل ٤٨٦